

(* إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣))

المفردات :

(السَّبِيلُ) : الطريق .

(الْخَوَالِفِ) : المتخلفين . ويطلق أيضا على النساء والصبيان . وهو جمع خالفة .

(وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) : ختم عليها حتى غفلوا عن وخامة العقوبة .

التفسير

لما رفع الله تعالى الإثم والعقوبة في الآيتين السابقتين ، عمن تخلفوا بأعذار ونصحوا لله ورسوله ، بين - سبحانه - من يستحق المؤاخذة بقوله :

٩٣- (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ) الآية .

أى إنما سبيل المحاسبة والمؤاخذة على الذين يستأذنونك في التخلف عن الجهاد وهم واجدون القدرة على الجهاد بأموالهم وأنفسهم ولا عذر لهم في التخلف . ثم أنكروا عليهم رضاهم بهذا التخلف بقوله :

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) : أى رضوا بالدناءة والضعفة حين رضوا الانتظام في جملة الخوالف من النساء والصبيان ومن لا يقوى على الجهاد إشاراً للسلامة والراحة والدعة .

(وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : أى وأغلق الله قلوبهم عن الحق بسبب نفاقهم فهم لهذا لا يعلمون ما في الجهاد من منافع الدنيا والدين وما في التخلف عنه من وخامة العقوبة وسوء الحساب .

وقد عرفنا من الآية الكريمة ، أن الأعمال تابعة لحالة القلوب ودرجات الإيمان ، فإن كان الإيمان واهنا ، والقلب مريضاً ، كانت الأعمال منحرفة عن سواء السبيل ، وإن كان الإيمان والقلب في عافية وسلامة ، كانت الأعمال في طريق الاستقامة ، وكل إناء ينضح بما فيه .

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾)

التفسير

٩٤ - (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ...) الآية .

أى يعتذر إليكم هؤلاء المنافقون المتخلفون عن الجهاد ، بالأعذار الباطلة إذا رجعت إليهم من غزوة تبوك .

(قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ) :

قل لهم أيها الرسول : لا تعتذروا فليس لكم عذر صحيح حتى نستمع إليه ونتقبله منكم لن نصدق معاذيركم الكاذبة ، لأن الله قد أعلمنا بالوحي بعض أخباركم المنافية للصدق بما باشرتموه من الشر والفساد ، وأضمرتموه في أنفسكم من الأكاذيب ، فلن نخدع بعد ذلك بأعذاركم .

(وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ) :

هذه الجملة يحتمل أن تكون حثاً لهم على التوبة ، والمعنى على هذا : وسيعلم الله ما سيقع منكم في المستقبل من توبة أو إصرار ، ويسجله لكم عند وقوعه ويجزيكم عليه ، والمقصود أن حالهم سينكشف في المستقبل ، وسيعاملون بمقتضاه : إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

ويحتمل أنهم وعدوا بأن ينصروا المؤمنين في المستقبل ، وأن الله ينذرهم بالعقوبة إن هم
 نكثوا وعدهم ، أى وسيعلم الله ما يحدث منكم من الوفاء أو الغدر ، ويجازيكم بمقتضاه .
 (ثُمَّ تَرْدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :
 أى ثم ترجعون إلى الله العالم بكل خفى وظاهر فيخبركم يوم القيامة بما كنتم تعملونه
 في الدنيا ، ويجازيكم عليه .

(سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ
 فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ
 اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾)

الفردات :

- (انْقَلَبْتُمْ) : رجعت .
- (لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ) : لتصفحوا عنهم .
- (فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ) : فاتركوهم .
- (رَجَسٌ) : أى نجس وقذر ، والرجس الخبيث من كل شئ .
- (وَمَا لَهُمْ) : ومقرهم الذى يأوون إليه .
- (الْفَاسِقِينَ) : الخارجين عن الطاعة .

التفسير

٩٥ - (سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ) :
 أى أن هؤلاء المنافقين لا يكتفون بالاعتذار عن تخلفهم ، بل يؤكدونه بالقسم تمويها
 عليكم ، وتأكيذا لصدقهم المزعوم في اعتذارهم .

والمعنى : سيخلفون بالله لكم أيها المؤمنون إذا رجعت إليهم من الغزو بأنهم لم يتخلفوا عنكم إلا لعذر ، وغرضهم من ذلك أن تعرضوا عنهم وتصفحوا عن تخلفهم .

(فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ) الآية

أي فاتركوهم أيها المؤمنون ، واجتنبوا مجالستهم والاطمئنان إليهم ، ودعوهم وما اختاروه لأنفسهم من النفاق وعدم الإخلاص في الإيمان ، لأنهم نجس وقذر ، فبواطنهم خبيثة وأعمالهم قبيحة ، ومرجعهم ومقرهم جهنم جزاء بما استمروا على اكتسابه من النفاق والعصيان .

٩٦ - (يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) :

أفادت هذه الآية أنهم لا يقصدون بخلفهم الإعراض عن لومهم والصفح عنهم فحسب بل يخلفون لكم لترضوا عنهم وتطمئنوا إليهم بعد الصفح عنهم . ولكن الله ينهاكم عن الرضا عنهم ، فإن رضوا عنهم فقد خالفتم ربكم لأن الله تعالى لا يرضى عن القوم الفاسقين فكيف ترضون عنهم .

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (٩٧)

المفردات :

(الْأَعْرَابُ) : سكان البادية ، والعرب : أهل الحضر والبادية فهو أعم .

التفسير

٩٧ - (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا) :

لما تحدثت الآيات السابقة عن المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد ، عقبها الله سبحانه بهذه الآية وما تلاها ، لتضمنها الحديث عن نفاق الأعراب وكفرهم ، وزيادته عما عليه المنافقون بالمدينة .

والمعنى : أن أهل البادية من الأعراب ، أشد كُفراً ونفاقاً من كفار العرب ومنافقيهم المقيمين بالحواضر ، لجفائهم وقسوة قلوبهم ، وهذا هو الشأن الغالب فيهم ، إذ ليس كلهم بهذا الوصف ؛ كما يتبين ذلك مما يأتي :

(وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) :

أى أن هؤلاء الأعراب هم أحق وأولى بأن يجهلوا حدود ما أنزله الله على رسوله من الفرائض والأحكام ، لجفاء طباعهم وقسوة قلوبهم ونفرتهم من كل ما يخالف ما ألفوه من عقائد وعادات .

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) :

والله تعالى عظيم العلم والحكمة ، فلا يخفى عليه منحرف عن طاعته ، ولا يفلت من عقابه من يستهين بشريعته .

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ
الدَّوْآئِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ
عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِيقَ خَلْفَهُمُ اللَّهُ
فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾)

الفردات :

(يَتَّخِذُ) : يعد ويعتبر

(مَغْرَمًا) : غرماً وخسارة .

(وَيَتَرَبَّصُّ) : وينتظر .

(الدَّوَائِرَ) : جمع دائرة والمراد بها هنا تقلب الزمان من حسن إلى سيئ ومعناها في الأصل ما يحيط بالشيء .

(السَّوْءُ) : ما يُسَىءُ ويؤذى .

(قُرْبَاتٍ) : جمع قربة وهي ما يتقرب به العبد إلى ربه تعالى .

(صَلَوَاتِ الرَّسُولِ) : دعواته صَلَّى الله عليه وسلّم .

التفسير

٩٨- (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ) :

بعد أن بين الله سبحانه أن الأعراب في جملتهم أشد كفرًا ونفاقًا ذكر في هاتين الآيتين أنهما فريقان ، فريق يُضْمِرُ الشر للمسلمين ، وفريق آخر مخلص في إيمانه .

والمعنى : وبعض الأعراب يعتقد أن المال الذي ينفقه في سبيل الله غرم لا غنم ، ولهذا لا ينفقه إلا خوفًا من المسلمين أو مُرَاءَةً لَهُمْ ولم يرد به وجه الله تعالى ، وفاته أن الصدقات طهارة ونماء للمال ، وكما يعتبر ما ينفقه مغرمًا ينتظر بكم تقلب الزمان وتغيّره ، فتتبدل حالكم من قوة إلى ضعف ومن نصر إلى هزيمة .

(عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) :

هذا وعيد من الله تعالى لهؤلاء الأعراب بأن تدور عليهم الدائرة وينزل بهم من البلاء ما تمنوه للرسول وأصحابه ، وأنهم لا يرون فيهم إلا ما يسوءهم من نصر ورفعة شأن .

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

أي والله تعالى عظيم السمع واسع العلم فلا تخفى عليه خافية مما أضمره من النفاق وإرادة السوء بالمؤمنين وهو محاسبهم ومجازيهم أشد الجزاء .

٩٩- (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ) :

هذا هو الفريق الثاني وهو الذي يصدق بوجود الله تعالى وبصفاته وباليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب ، ويعتبر أن كل ما ينفقه في سبيل الله هو وسيلة إلى رضا الله

والتقرب منه ، كما أنه سبب في دعاء الرسول واستغفاره لهم حيث كان صلى الله عليه وسلم يدعو للمُصَّدِّقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ، عند أخذه الزكاة الواجبة والصدقات المندوبة ليوزعها على مستحقيها ، ولذلك كان من السنة الدعاء للمتصدق بالخير والبركة ، لكن ليس له أن يدعو بلفظ الصلاة كما فعله عليه الصلاة والسلام مع بعض المتصدقين ، فقد ورد أنه قال : اللهم صلى على آل أبي أوفى فإن ذلك كان مختصاً به ، يتفضل به على من يشاء ، ثم أخبر الله عن قبولها منهم بقوله :

(أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ) :

أى ألا إن إنفاقهم الصادر عن الإخلاص لله قرينة عظيمة لهم عند الله تعالى .

وقد وعدهم الله عليها بإدخالهم الجنة في قوله :

(سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ) :

أى يشملهم ويغفرهم برحمته وفضله جزاء إخلاصهم .

(إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) :

لأنه تعالى عظيم المغفرة واسع الرحمة لا يخلف وعده ، فيثيب هؤلاء على إخلاصهم في عملهم لله تعالى .

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩٠﴾)

التفسير

لما ذكر الله تعالى فضائل بعض الأعراب الذين يتخذون ما ينفقونه قربات عند الله - وصلوات الرسول وما أعد لهم من الثواب ، أتبعه ذكر فضائل خيار المسلمين فقال تعالى :

١٠٠- (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) :

فالسابقون الأولون من المهاجرين هم الذين بادروا بالإسلام في فجر الدعوة ، ثم هاجروا فراراً بدينهم ، أما السابقون الأولون من الأنصار فهم أهل بيعة العقبة الأولى والثانية والذين سارعوا إلى الإسلام عند قدوم مصعب بن عمير ، وكان الرسول قد أرسله بعد البيعة الثانية لينشر الدعوة الإسلامية بين أهل المدينة . وقيل السابقون من المهاجرين والأنصار هم الذين صلُّوا إلى القبلتين أو من حضر بيعة الرضوان .

(وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) :

أى والذين جاءوا بعدهم متصفين بالإخلاص وبكل خصلة حسنة ، أو المراد والذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة من فريق المهاجرين والأنصار وغيرهم إلى يوم القيامة .
وقرى الأنصار بالرفع فعلى هذا فالسابقون الأولون من المهاجرين فقط ، والتابعون عند علماء الحديث هم الذين جاءوا بعد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ثم أخبر الله عن الجميع بقوله :

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) : بقبول طاعتهم ، وارتضاء أعمالهم .

(وَرَضُوا عَنْهُ) : بما أنعم الله به عليهم من النصر والتمكين فى الأرض فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى الآخرة .

(وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) :

أى وهباً لهم فى الآخرة جنات تجرى من تحت قصورها أو من تحت أشجارها الأنهار ، مع الإقامة الدائمة فيها ، كما قال تعالى : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » .

(ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

أى ذلك الجزاء الذى بلغ الغاية فى العظم هو الفوز الذى لا فوز يعدله أو يدانيه ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو سعيد الخدرى : « لَا تُسَبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ » أخرج الشيخان وغيرهما .

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ
ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾)

المفردات :

- (حَوْلَكُمْ) : أى حول المدينة بلدكم .
(مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ) : أى مرنوا عليه واعتادوه .
(لَا تَعْلَمُهُمْ) : لا تعرف حقيقة أمرهم لعراقتهم فى النفاق .
(سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ) : قبل الآخرة بالفضيحة وعذاب القبر .
(ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ) : ثم يردون فى الآخرة إلى عذاب بالنار عظيم .

التفسير

١٠١- (وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ) :

هذا شروع فى ذكر أحوال المنافقين النازلين حول المدينة والمقيمين بها .

والمعنى : ومن الأعراب النازلين حول المدينة أناس منافقون ومن أهل المدينة نفسها منافقون كذلك .

(مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ) :

أى مرن هؤلاء وأولئك على النفاق وبلغوا فيه مبلغاً جعلهم مهرة فيه ، حتى لان لهم أمره وسلس لهم قياده ولا تكاد تستعمل كلمة مَرَدُّوا إلا فى الشر .

(لَا تَعْلَمُهُمْ) :

أى لاتعرفهم أنت أيها الرسول بعنوان نفاقهم لأنهم بلغوا من المهارة فيه ، والبعد عن مواقع التهم مبلغا يخفى حالتهم عنك ، مع كمال فطنتك وصدق فراستك .

(نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) :

أى أن الله تعالى هو الذى يعلم حالهم لأنه لا يخفى عليه من سرائرهم شئ مهمما بالغوا فى إخفاء أمرهم .

(سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ) :

هذا وعيد بأنه تعالى سيعذبهم مرتين قبل يوم القيامة ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : « أن النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيباً يوم الجمعة فقال اخرج يا فلان فإنك منافق ، اخرج يا فلان فإنك منافق فأخرج ناساً وفضحهم » فهذا هو العذاب الأول ، والثانى إما القتل وإما عذاب القبر - وقيل غير ذلك .

(ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ) :

ثم يرجعون فى الآخرة إلى عذاب غليظ هو عذاب النار فى الآخرة ، وبهذا يعلم أنه تعالى يعذبهم ثلاث مرات مرتين قبل يوم القيامة كما تقدم ومرة يوم القيامة كما يفيد - ختام الآية .

(وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (١٠٢)

التفسير

١٠٢- (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ) :

هذا بيان لحال طائفة أخرى من المسلمين ضعيفة الهمة فى أمور الدين .

والمعنى : ومن أهل المدينة قوم آخرون اعترفوا بتخلفهم عن الغزو إيثاراً للدعة مع إيمانهم وتصديقهم بما جاء به الرسول ، ولم يخفوا ما صدر منهم وندموا عليه ، ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة كغيرهم من المنافقين : وهم رهط من المتخلفين ، منهم أبو لبابة وجماعة معه ^(١) أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد عندما بلغهم ما نزل في المتخلفين من القرآن فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين كعادته الكريمة ، وراهم على تلك الحالة فسبأ عن شأنهم فقليل له إنهم أقسموا ألا يحلوا أنفسهم حتى تحلهم أنت فلما أنزل الله هذه الآية أطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعفا عنهم .

(خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا) :

المراد بالعمل الصالح ما سبق أن عملوه من الطاعات ، ومنها خروجهم إلى المغازى السابقة وما لحق ذلك من الاعتراف بذنب التخلف وندمهم على ذلك ، والمعادى السيئة ما صدر منهم من المعاصي ، ومنها التخلف عن تبوك دون عذر .

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) :

أى يرجى أن يقبل الله توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم ، وتقوية لهذا الرجاء قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) :

أى أنه تعالى واسع الغفران والرحمة ، فلهذا يرجى رجاء قوياً أن يتقبل بفضل توبتهم النابعة من إخلاصهم ، وصدق طوبيتهم .

(١) قال ابن عباس نزلت في عشرة تخلفوا عن غزوة تبوك ، فأوثق سبعة منهم أنفسهم في سوارى المسجد ، وقال بنحوه

قتادة وقال : وفيهم نزل « غل من أموالهم صلقة » ذكره المهدي

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

التفسير

سبب النزول : أنه لما أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سراح المعتذرين قالوا يا رسول الله : هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فنصدق بها وطهرنا ، فقال ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً ، فنزلت وأخذ منها الثلث وترك لهم الثلثين .

١٠٣ - (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) :

هذه ليست الزكاة المفروضة وإنما هي كفارة لذنوبهم كما ينطق به قوله تعالى : (تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) : والمعنى أن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ هذا القدر ليكون تطهيراً لهم مما لحق بهم من آثام التخلف ، وتزكية تنمي بها حسناتهم إلى مراتب المخلصين .

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) :

المراد من الصلاة هنا الاستغفار لهم والدعاء بقبول توبتهم .
والمعنى : واستغفر لهم أيها الرسول ، واطلب الرحمة لهم فإن صلاتك ودعائك لإقرار لنفوسهم المضطربة وطمأنينة لقلوبهم الحائرة ، وإيدان بأن الله سيقبل توبتهم .

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

أي والله تعالى عظيم السمع ، محيط العلم فسمع اعتراف هؤلاء بذنوبهم ، وعلم صدقهم في توبتهم ، فتاب عليهم وعفا عنهم .

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ
الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى
اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾)

المفردات :

(أَلَمْ يَعْلَمُوا) : استفهام يرادُ به التقرير أى قد علموا .

(يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) : يقبلها ويثيب عليها .

(وَسَتُرَدُّونَ) : وسترجعون .

(الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) : الخفى والظاهر .

التفسير

١٠٤ - (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ) :

أى ألم يعلم هؤلاء التائبون ، أن الله تعالى هو وحده الذى يقبل التوبة الصحيحة الخالصة
من عباده المخلصين رحمة بهم ورأفة وكرماً ، وأنه يقبل صدقاتهم التى يؤدونها ابتغاء مرضاته ،
يطهرهم بها من آثامهم ، ويزيد من حسناتهم ، وأنه تعالى هو عظيم التوبة على عباده كثير
الرحمة بهم ، فذلك شأنه الدائم وسنته المستمرة .

١٠٥ - (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) :

جاءت هذه الآية لزيادة ترغيبهم فى العمل الصالح ، وتخويفهم من اقتراف السيئات ،
ومع هذا فهى عامة لجميع المكلفين ، فلا يختص حكمها بالمتخلفين عن تبوك .

والمعنى : وقل يا محمد تبليغاً لهؤلاء ولجميع المكلفين ، اعملوا وراقبوا الله تعالى فيما تعملون ، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون في دنياكم ، مهما حاولتم إخفاءها فاجتهدوا في أن تكون أعمالكم في حدود البر والطاعة ، بعيدة عن الإثم والمعصية ، ليحمدها الله ورسوله والمؤمنون ، وستردون في أخراكم إلى عالم كل غائب خفي ، وظاهر جلي ، فيخبركم بما كنتم تعملون في دنياكم ، فيجزىكم عليه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَاءَ لَيَسَّ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوفَةٌ ، لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ كَأَنَّا مَا كَانَ » أخرجه أحمد وأبو يعلى وغيرهما عن أبي سعيد .

(وَأَخْرُوجُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾)

التفسير

١٠٦- (وَأَخْرُوجُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ ...) الآية .

نزلت هذه الآية كما قال ابن عباس في كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فإنهم لم يسرعوا إلى التوبة والاعتذار عن تخلفهم في غزوة تبوك ، كما اعتذر أبو لبابة وأصحابه بعد أن ندموا على تخلفهم ، وحزنوا حزناً شديداً جعلهم يشدون أنفسهم على سوارى المنجد ، وقد وقف النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء الثلاثة ، ونهى الناس عن أن يسلموا عليهم ويكلموهم ، حتى يكون أمرهم عبرة لغيرهم فلا يحاول أحد أن يتخلف عن الجهاد وهو قادر عليه ، وكان هؤلاء الثلاثة من أصحاب بدر فهجرهم الناس وكانوا مختلفين في شأنهم ، فمن قاتل هلكوا ، ومن قاتل عسى الله أن يغفر لهم ، فصاروا عندهم مرجئين لأمر الله تعالى ، وقد صح رأى هؤلاء فيهم ، وبه نزل القرآن الكريم .

والمعنى : ومن المتخلفين عن غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، قوم آخرون غير المعترفين المذكورين ، لم يحاولوا أن يخلقوا أعذاراً ، وأن يكذبوا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فهولاء مرجئون ومؤخرون لأمر الله في شأنهم ، إما أن يعذبهم لتخلفهم عن غزوة تبوك بدون عذر وقد دعوا إليها ، وكانت آخر مغازيه صلى الله عليه وسلم ، وإما أن يقبل توبتهم بعد أن تتمحص نفوسهم وتخلص قلوبهم من الإخلاد إلى الدعة ، وإيثار ذلك على الجهاد ، والله واسع العلم ، فيعلم أحوالهم ويعاملهم بمقتضاها ، حكيم فيما فعل بهم من الإرجاء وما بعده ، حتى يعودوا إلى مثل ذلك ، وليكون أمرهم عبرة لغيرهم .

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧))

المفردات :

(ضِرَارًا) : مضارة للإسلام وأهله .
 (وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ) : أى فصلاً بينهم ، بصرف بعضهم عن مسجد قباء الذى يجمعهم ويوحد كلمتهم .
 (وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) : وانتظاراً للراهب الفاسق الذى حارب الله ورسوله ليصلى فيه .
 (الْحُسْنَى) : أى الخصلة الحسنة .

التفسير

١٠٧ - (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ) الآية .
 نزلت هذه الآية فى جماعة من المتخلفين عن تبوك ، بنوا مسجداً غير مسجد قباء ، بقصد المضارة وتفريق المؤمنين .

وتفصيل ذلك أن بنى عمرو بن عوف ، لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيتهم فيصلى بهم في مسجدهم فلما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ما طلبوه منه ، حسدهم إخوانهم بنو غنم بن عوف ، وقالوا نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه ، ويصلى فيه أبو عامر الراهب أيضاً إذا قدم من الشام ، وهو الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق . وكان قد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فلم يزل يفعل ذلك إلى يوم حنين ، فلما انهزمت هوازن يومئذ ولى هارباً إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر وآت بجنود ، ومُخْرِجُ محمداً وأصحابه من المدينة ، فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء ، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية ، ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إني على جناح سفر وحال شغل ، وإذا قدمنا إن شاء الله تعالى صلينا فيه فلما قفل صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك ، سأله إتيان المسجد فنزلت هذه الآية عليه ، فدعا بمالك بن الخشم ومَعْن بن عدى وعامر بن السكن ووحشيا قاتل حمزة وقال لهم : « انطَلِقُوا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فَاهْدُمُوهُ واحْرِقُوهُ ، ففعلوا » : وأمر أن يتخذ مكانه موضعاً لإلقاء القمامة ، حتى لا تقوم له قائمة ، وهلك أبو عامر الفاسق بِقُنُسْرَيْن .

والمعنى : ومن المتخلفين عن غزوة تبوك ، المنافقون الذين بنوا بجوار مسجد قباء ، مسجداً لمضارة الإسلام والمسلمين ، وللتفريق بين المؤمنين الذين كانوا يصلون في مسجد قباء متجمعين تلبية لنداء ربهم ، يريدون ببناؤه أن يجتذبوا بعضهم إلى مسجدهم ، وإلى صفوف نفاقهم ، كما بنوه أيضاً لغرض خفى خطير ، وهو انتظار وترقب الراهب الفاسق الذى حارب الله ورسوله من قبل ، لكى يصلى فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وَلَيَخْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

وليخلفن بنو غنم الذين بنوا مسجد الضرار ، ما أردنا ببناؤه إلا الخصلة الحسنى وهى الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين ، والله يشهد إنهم لكاذبون فى يمينهم ، فقد بنوه للمضارة وغيرها من الأغراض الفاسدة التى بينتها الآية الكريمة .

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾)

المفردات :

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا) : لا تؤد فيه الصلاة وغيرها من الطاعات في أى وقت دائماً .
 (لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى) : يعنى مسجد قباء .
 (يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا) : أى يرغبون في التطهر الحسى والمعنوى .

التفسير

١٠٨ - (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ) :

لا تقم أيها الرسول للصلاة وغيرها من الطاعات في مسجد الضرار في أى وقت من الأوقات فقد بنى للإضرار بالإسلام وأهله ، والله لمسجد قباء الذى أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقامه على تقوى الله ورضوانه من أول أيام تأسيسه أحق وأولى أن تقوم فيه للصلاة وأداء الطاعات أنت وسائر المؤمنين .

وقيل المراد بالمسجد الذى أسس على التقوى هو المسجد النبوى بالمدينة فعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ، فَأَخَذَ حَصْبَاءً ، فَضَرَبَ بِهَا الْأَرْضَ وَقَالَ : مَسْجِدُكُمْ هَذَا مَسْجِدُ الْمَدِينَةِ » .

(فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ) :

أى في هذا المسجد الذى بنى على تقوى الله رجال صادقون في إيمانهم وتقواهم ، يحبون أن تتطهر نفوسهم وأبدانهم من الذنوب والأوزار طلباً لمرضاة الله ، والله يحب الحريصين على الطهارة ويرضى عنهم ويحسن ثوابهم .

(أَفَمَنْ أَأَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ
 أَأَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ
 لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾)

المفردات :

(شَفَا جُرُفٍ) : الشفا؛ الحرف والحافة والطرف - (والجُرُف) يضمّتين ما جرفه السيل
 أى استأصله وحضر ما تحته ، فبقي واهياً .
 (هَارٍ) : مشرف على السقوط وأصله (هائر) ^(١)
 (فَانْهَارَ بِهِ) : فسقط به .

التفسير

١٠٩ - (أَفَمَنْ أَأَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ...) الآية .
 ضرب الله في الآية مثلاً للذين بنوا مسجدهم على تقوى الله ورضوانه ، بمن بنى بنيانه على أساس
 ثابت متين ، وضرب مثلاً آخر للذين بنوا مسجدهم للإضرار بالإسلام ، بمن أقام بنيانه
 على أساس واه مهلك بين والغرض من المثليين أنهما لا يستويان فالأول معمر والثاني مدمر .
 والمعنى : أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة ، وهى تقوى الله تعالى ، وطلب
 رضوانه خير عند الله تعالى ، أم من أسس بنيانه على قاعدة منهارة ، وهى الباطل
 والنفاق ، فكان ذلك سبباً في سقوطه في النار : وعن ابن عباس رضى الله عنه قال :
 «صَبَّرَهُمْ نِفَاقُهُمْ إِلَى النَّارِ لِأَنَّهُمْ بَنَوْا الْمَسْجِدَ ، قَاصِدِينَ بِهِ الْكُفْرَ وَالنَّفَاقَ وَإِضْرَارَ الْمُؤْمِنِينَ»
 لهذا كان أردأ البناء وأحقره ، وأما الأولون فكان ينشؤونهم أشرف البناء وأرضى الله تعالى .

(١) اسم فاعل من هار يهوى إذا أشرف على السقوط ، فقدست لاسمه على عينه ، وأجرى في الإعراب مجرى غاز ورام

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

أى لا يوفقهم لفعل الخير والطاعة ، لأنهم لا يريدون ولا يميلون إليه ، فالتوفيق للإيمان لا يكون إلا لمن علم الله فيهم إقبالا وإصرارا على السير في طريقه والتزامه « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » .

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾)

المفردات :

(رِيبَةً) : شكاً ونفاقاً . (إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) : أى لا يزال المسجد الذى بنوه شاهدا على تمكن الريبة فى قلوبهم من جهة الإسلام ، حتى كأنه نفس الريبة والشك .

التفسير

١١٠ - (لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ) :

أى لا يزال المسجد الذى بنوه شاهدا على تمكن الريبة فى قلوبهم من جهة الإسلام حتى كأنه نفس الريبة والشك .

أما أنه ريبة حال بنائه : فلكونه بنى لتفريق كلمة المؤمنين وتشتيت وحدتهم وليثبتوا ما فى قلوبهم من كفر وضلال ، وليدبروا فيه المكائد للمسلمين ، وأما أنه ريبة حال هدمه ، فلأنه ثبت ما كان فى قلوبهم من الشر فتضاعفت آثاره ، وظهرت مفسده غيظا وحنقا على المسلمين .

(إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) :

أى إلا أن تتمزق قلوبهم قطعا وأجزاء فحينئذ يذهب الشك والريبة ، والمراد أنهم لا يزالون كذلك ما داموا أحياء ، فإذا ماتوا انتهت تلك الريبة .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أى والله تعالى شامل العلم بجميع أحوال العباد، عظيم الحكمة، يضع الأشياء في مواضعها في كل ما حكم به ودبر، ومن جملتها أمره تعالى الوارد في حقهم. وفي الآية تحذير للمسلمين من خداع المنافقين، وتنبيه على اليقظة من الوقوع في حباتهم.

(* إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

المفردات :

(اشْتَرَى) : استبدل . (وَمَنْ أَوْفَى) : لا أحد أعظم وفاء .

(فَاسْتَبْشِرُوا) : أى فافرحوا غاية الفرح .

١١١ - (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ) :

هذا ترغيب من الله للمؤمنين في الجهاد ببيان فضيلته وثوابه بعد بيان حال المتخلفين عنه .

وسبب النزول كما قال محمد بن كعب القرظي : « أنه لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، قال عبد الله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، واشترط لنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ... ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : الجنة . قالوا ربح البيع لا نُقِيل ولا نَسْتَقِيل » فنزلت .

قال أهل المعاني :- لا يجوز أن يشتري الله شيئاً هو له في الحقيقة ، لأن المشتري إنما يشتري ما لا يملك ، والأشياء كلها ملك لله تعالى . ولهذا قال الحسن : أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا إياها ، لكن جرى ذلك مجرى التلطف في الدعوة إلى الطاعة ، والجهاد وذلك لأن المؤمن إذا قاتل في سبيل الله حتى يقتل ، أو أنفق ماله في سبيل الله عوضه الجنة في الآخرة جزاء لما فعل في الدنيا ، فجعل ذلك استبدالاً واشتراءً - فهذا معنى أنه تعالى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ... الخ .

(يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) :

أى يقاتلون أعداء الإسلام ، في سبيل دين الله ورفع كلمته ، فيقتلون بعضهم تارة ، ويكفون أذاهم عن المسلمين ويقتلون منهم تارة أخرى ، راضين ببذل النفس في سبيل الله ربهم .

(وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ) :

يعنى أن وعد الله للمجاهدين بأن لهم الجنة ، هو وعد حق ثابت في التوراة والإنجيل وفيه دليل على أن الجهاد موجود في جميع الشرائع ، ومكتوب على جميع الملل السماوية

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ) :

أى لا أحد أعظم وفاء بالعهد من الله تعالى . لأن خلف الوعد لا يقدم عليه الكرام من الناس ، فكيف بالله الغنى الذى لا تفتى خزائنه ، وهو أكرم من كل كريم . وهو المتصف بالكمال المطلق ، « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا » والمتأمل لا يرى ترغيباً في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية الكريمة .

(فَاسْتَبَشِرُوا بِنَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

أى فليفرح غاية الفرح ، من قام بمقتضى هذا العقد ، ووفى بهذا العهد - فليفرح -

بالفوز العظيم والنعيم المقيم .

(التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الَّسَّيْحُونَ الرَّكْعُونَ
السَّجِدُونَ الَّامِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (١١٢)

التفسير

١١٢ - (التَّائِبُونَ) : إلى آخر الأوصاف الآتية ، مدح للمؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة :

والمراد من توبتهم تركهم للشرك ، وبعدهم عن النفاق والمعاصي ، ويجوز أن يراد بالآية ، كل من تاب ، فيكون المعنى على هذا كل من تاب واتصف بهذه الصفات يكون من أهل الجنة أيضا : واعلم أن التوبة المقبولة إنما تحصل بأمر أربعة :

أولها : الإقلاع عن الذنب .

ثانيها : الندم على فعل المعاصي فيما مضى .

ثالثها : العزم على تركها في المستقبل .

رابعها : أن يكون الحامل عليها رضا الله تعالى .

فإن كانت من ذنب يتعلق بحقوق الآدميين ، زيد عليها شرط خامس ، وهو رد الحقوق إلى ذويها أو استعفاؤهم ، فإن كان الغرض منها تحصيل مدح الناس ودفع مذمتهم ، أو تحصيل أي غرض دنيوي ، فلا تكون توبة مقبولة .

(الْعَابِدُونَ) : أي الذين يأتون بالعبادة على وجهها الصحيح مخلصين لله تعالى مواظبين على أدائها في أوقاتها .

(الْحَامِلُونَ) : أى الذين يحمدون الله تعالى فى السراء والضراء وفى كل حال .

(السَّائِحُونَ) : قال ابن مسعود هم الصائمون ، لأن الصائم مستمر فى طاعة الله والسائح مستمر فى سياحته قال النبى صلى الله عليه وسلم : « السائحون هم الصائمون » ^(١) .

وقيل : هم المهاجرون ، وقيل : هم طلبة العلم ، وقيل : هم السائحون فى الأرض المتنقلون فيها فإن للسياحة أثرا عظيما فى تهذيب النفوس ، لأنه قد يتعرض السائح للبؤس وللضراء ، فلا بد له من الصبر ، وقد يلقى فى سياحته العلماء والصالحين فيستفيد علما وحسن سلوك ، ويرى عجائب وآثار قدرة الله تعالى ، فيصل من طريق ذلك إلى بذل الجهد فى طاعة الله تعالى ، (الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ) : يعنى المصلين ، وعبر بالركوع والسجود عن الصلاة لأن بهما تتميز الصلاة عن غيرها ، ولأنهما من أهم أركانها .

(الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) :

أى الذين يأمرون الناس بكل خير من إيمان وطاعة ينهون الناس عن الشرك والمعاصى .
والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، بهما صلاح الأمة واستقامتها ، فإن ضاعا التمسس الحلو بالمر ، وضاعت أخلاق الأمة ، وفسدت معايير الاستقامة فيها .

(وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ) :

بالعمل بأحكام الشريعة والوقوف عند أوامر الله ، والبعد عن نواهيهِ وَيَحْمِلُ النَّاسُ عَلَى طاعة الله تعالى وأدائها على الوجه الأكمل .

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى وأخبرهم يا محمد بما يسرهم مما وعد الله به من دخول الجنة فإنه تعالى واف لهم بما وعد . « وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ » .

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرک عن أبى هريرة ورمز له بالصحة

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ١١٤ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ١١٥ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ١١٦ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١١٧ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١١٨)

المفردات :

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا) : أى ما صح وما استقام للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين .

(أَنْ يَسْتَغْفِرُوا) : أن يطلبوا الغفران .

(أُولَىٰ قُرْبَىٰ) : أصحاب قرابة .

(مَوْعِدَةٍ) : وعد .

(تَبَرَّأَ مِنْهُ) : بعد عنه وتنزه عن مصاحبته .

(أَوَّاهٌ) : أصل التأوه قول الرجل آه ، أى أتوجع وأواه للمبالغة والمراد : كثير التأوه

من خوف الله .

(حَلِيمٌ) : صبور على الأذى ، صفوح عن الجناية ، يقابلها بالإحسان والعطف .

(مَا يَتَّقُونَ) : ما يجب اتقاؤه والبعد عنه . (وَلِيٌّ) : وال يلى أموركم ويدبر شئونكم .

(وَلَا نَصِيرٍ) : ينصركم على أعدائكم ويمنعكم من أذاهم .

التفسير

١١٣ - (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) :

هذه الآية نزلت في شأن أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يستغفر له ، فنهاه الله عن ذلك ، فقد روى الزهري قال حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال : أى عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة : أترغب عن ملة عبد المطلب ... فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : أنا على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك ، فأنزل الله تعالى :

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ) :

وأنزل الله في أبي طالب : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ »

هذا لفظ البخارى في تفسير الآية .

والمعنى :

ما صح وما استقام في حكم الله تعالى للنبي والذين آمنوا أن يطلبوا للمشركين المغفرة ، ولو كانوا أصحاب قرابة بعد ما ظهر لهم أنهم أصحاب النار ، بإصرارهم على الكفر وموتهم عليه ، أو بعلم الرسول بالوحي أنهم سيموتون على الكفر .

١١٤ - (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ) :

جاءت هذه الآية لدفع ما يتوهم من التعارض بين الآية السابقة عليها وبين ما جاء في سورة الشعراء من استغفار إبراهيم لأبيه حيث قال : « وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » .
والموعدة التي جاءت في الآية ، صدرت من آزر لإبراهيم عليه السلام ، قال ابن عباس : كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل ، أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد فلما مات علم أنه عدو الله ، فترك الدعاء له .

والمعنى : لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم لأبيه ، فإن ذلك كان عن موعدة من آزر لابنه إبراهيم بالإيمان ، فلما تبين له أنه مستمر على كفره ترك الدعاء له ، فلماذا يجب عليكم أن تعملوا بما صدر لكم من النهي عن الاستغفار للمصرين على الشرك ولو كانوا أولى قرى .

وقيل الواعد إبراهيم عليه السلام ، فقد وعد أباه أن يستغفر له ، فلما مات مشركا تبرأ منه ، ودل على هذا قوله : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي » قال القاضي أبو بكر بن العربي : تعلق النبي صلى الله عليه وسلم في الاستغفار لأبي طالب بقوله تعالى : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي » فأخبره الله تعالى أن استغفار إبراهيم كان وعدا قبل أن يتبين الكفر منه ، فلما تبين له الكفر منه تبرأ منه ، فكيف تستغفر أنت لعلمك وقد شاهدت موته على الكفر .

والمراد : باستغفاره له طلبه من الله أن يوفقه للإيمان ويهديه إليه .

(فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ) :

أي فلما ظهر لإبراهيم بالوحي أن أباه مصر على الكفر غير مؤمن أبداً ، بُعد عنه وتجنبه ونزه نفسه عن مصاحبته ، وترك الاستغفار له .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) :

أي إن إبراهيم عليه السلام كثير التأوه من خوف الله تعالى متضرع إليه ، كثير الدعاء والتوبة ، رحيم بعباد الله ، عظيم الحلم ، كثير الصفح ، والمراد وصفه بركة القلب ، وسعة الصدر وعظيم الرأفة والرحمة ، وأنه يقابل الإساءة بالإحسان واللطف .

١١٥ - (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ) :

والمعنى : ما صح وما استقام في حكم الله تعالى وحكمته أن يقضى ويحكم على قوم بالضللال بعد أن هداهم للإسلام ، ووفقهم للإيمان به وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى يبين لهم ما يجب اتقاؤه والبعد عنه من محظورات الدين ، فلا ينزجروا عما نهوا عنه ، وأما قبل ذلك فلا يحكم عليهم بالضللال ولا يؤاخذون بفعله - وكان هذه الآية تسلياً للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك ، وفيه دليل على أن الغافل الذي لم يبلغه الدليل السمعى غير مكلف بما لا يستقل به العقل^(١) .

١١٦ - (إِنْ اللَّهُ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخِيبِي وَيُمِيتُ) :

المعنى : أنه تعالى وحده هو مالك السموات والأرض وما فيهما ، خلقا وتدبيرا يحكم فيهما بما يشاء ، يحيي من يشاء على الإيمان ويميت عليه ، ويحيي من يشاء على الكفر ويميت عليه ، تبعاً لحكمته وتطبيقاً لسنة تعالى في الهداية والضلال والإضلال .

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) :

والمعنى : وليس لكم أيها المكلفون من غير الله والى أموركم ويدبر شؤونكم ، ولا نصير ينصركم على عدوكم ويعينكم عليه ، فهو وحده نعم المولى ونعم النصير .

(١) انظر الآلوسى في تفسير هذه الآية .

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ
اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ
ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧))

التفسير

١١٧ - (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) :

معنى توبته تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم عدم مؤاخذته بإذنه للمنافقين بالتخلف في غزوة تبوك وهي كقوله تعالى : « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ » ^(١). فإذا نه لهم من باب ترك الأولى لا من باب فعل الذنب . لأنه لم يكن هناك أمرٌ خالفه صلى الله عليه وسلم ، وأما معنى توبته على المهاجرين والأنصار فلأجل ما وقع في قلوبهم من الميل إلى القعود عن غزوة تبوك ، لأنها كانت في وقت شديد ، ثم أعانهم الله على التغلب على ما حدثتهم به نفوسهم من القعود ، فسافروا مع الرسول صلى الله عليه وسلم واتبعوه في ساعة العسرة كما قال تعالى :

(الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ) :

أي الذين خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة تبوك ، وكانت في وقت شديد الحرارة وضيق في الرواحل ، وبعد في المسافة مع كثرة العدو ، مما يدعو إلى إبطاء التخلف فاستعانوا بالله واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع تفسير الآية (٤٣) من سورة التوبة .

(مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ) :

أى من بعد ما قرب أن تميل قلوب بعضهم من أجل الشدة والمشقة إلى التخلف والدعة والراحة ، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم .

وزيغ القلب وانحرافه إن كان فى أصل الدين كان كفرا ، وإن كان فى شريعته كان بحسب الحكم الذى مال عنه ، فإن زاغ عن مجمع عليه كفر ، وإن زاغ عن راجح عصى .

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ) : أى أنه تعالى علم إخلاص نيتهم ، وصدق توبتهم فتقبلها منهم .

(إِنَّهُ بِهِمْ رَعُوفٌ رَّحِيمٌ) : فلهذا من عليهم بالتوبة وقبلها منهم وثبتهم عليها .

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ
إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨))

المفردات :

(خَلَفُوا) : أخر أمر قبول توبتهم .

(بِمَا رَحُبَتْ) : أى مع رحابتها وسعتها ، والرحب سعة المكان .

(لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ) : لا مفر ولا منجى من سخطه وعقابه .

التفسير

١١٨ - (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) الآية .

قصة هؤلاء الثلاثة يروها ابن هشام فيقول : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة عائدا من تبوك ، وكان قد تخلف عنه رهط من المنافقين ، وتخلف أولئك الثلاثة

من المسلمين المخلصين من غير شك ولا نفاق ، وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، لا تكلمن أحدا من هؤلاء الثلاثة - لأنهم لم يقدموا عذرا عن تخلفهم - وأتاه من تخلف من المنافقين ، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، فصيح عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معاملة لهم بظواهرهم ، واعتزل المسلمون أولئك النفر الثلاثة ، ثم نزلت هذه الآية معلنة قبول توبتهم وعفو الله عنهم .

والمعنى : وتاب الله أيضا على هؤلاء الثلاثة الذين آخر قبول توبتهم ، إلى أن ضاقت عليهم الأرض مع سعتها ورحابتها ، من شدة الأمر عليهم ، والحيرة التي حلت بهم ، كأنهم لا يجدون في الأرض مكانا يستقرون فيه ويطمثنون إليه ، لشدة حزنهم وقلقهم ، وكذلك ضاقت عليهم أنفسهم ، بسبب إعراض الناس عنهم ، وتأخر قبول توبتهم ، واعتقدوا أن لا عاصم ولا منجى من سخط الله وعقابه ، إلا الرجوع إليه ، وطلب الغفران منه .

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) :

أي ثم أنزل الله قبول التوبة منهم ، ليصيروا في جملة التوابين ، وليستمروا ويثبتوا على توبتهم ، إن الله تعالى كثير التوبة والعفو عن عباده إن تابوا ولم يصروا على ما فعلوا ، عظيم الرحمة بقبول توبتهم وإن كثرت ذنوبهم مع استحقاقهم لأنواع العقوبات .

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (١١٩)

التفسير

لما تاب الله على هؤلاء الثلاثة ، لصدقهم في القول وإخلاصهم في التوبة ، وبعدهم عن النفاق ، أمر الله المؤمنين أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين ، ويبتعدوا عن النفاق والمنافقين ، وفي جملة من أمروا هؤلاء الثلاثة .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله ، اتقوا الله بامثال ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، ولا تتخلفوا عن رسول الله إذا دعاكم لما يحييكم من الجهاد والبذل في سبيل الله ، وكونوا مع جماعة الصادقين المخلصين في جهادهم إذا جاهدوا ، وفي عهودهم إذا عاهدوا ، وفي أقوالهم ووعودهم إذا حدثوا ووعدوا ، وفي توبتهم إذا أذنبوا أو قصروا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذاباً » أخرجه مسلم .

والحكم المأخوذ من الآية الكريمة يتناول المؤمنين في جميع الأجيال .

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ
يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ
مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ
عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ
نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ
لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾)

المفردات :

(وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ) : أى لا يؤثروا أنفسهم على نفسه .

(وَلَا نَصَبٌ) : ولا تعب .

(وَلَا مَخْمَصَةٌ) : ولا مجاعة .

(وَادِيًا) : الوادى هو الأرض التى تكون بين جبلين .

التفسير

١٢٠- (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ...) الآية .

أى ما صح وما استقام لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب المؤمنين أن يتأخروا عن تلبية دعوة رسول الله إذا دعاهم إلى الجهاد فى سبيل الله ولا أن يوثروا أنفسهم على نفسه ، بأن يطلبوا السلامة بالتخلف عن الجهاد معه فعليهم أن يصحبوه على البأساء ، والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتيباط ، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه الشريفة ، مع العلم بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه ، وذلك يقتضيهم أن يبذلوا أنفسهم دون نفسه ، وأن يدافعوا عنه بأنفة وحمية ، لا أن يتخلفوا عنه بغير عذر كما فعل بعضهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »^(١) .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...) الآية .

ذلك الذى تقدم من وجوب مصاحبة الرسول فى الجهاد وإيثاره على أنفسهم بسبب أنهم لا يصيبهم شئ من العطش والتعب والمجاعة فى طريق الجهاد من أجل دين الله ، ولا يحشون فى مكان يغيظون فيه الكفار ، بأن يحلوا فى أرضهم ، ويتصرفوا فيها تصرفا يضيق صدورهم ، ولا يصيبوا من عدو إصابة بقتله أو أسره أو هزيمته أو الغنيمة منه ، إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح يستحقون به أكرم الثواب

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) :

أى أنه تعالى يجزل ثواب المحسنين الذين يمثلون أمر الله ورسوله ولا يضيع لهم أجرا .

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان - باب حب رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو متفق عليه .

واعلم أن خروج المؤمنين للجهاد إذا دعاهم الإمام فرض كفاية ، مالم يتعين لأسباب تقتضى ذلك ، أما خروجهم إليه إذا دعاهم الرسول فهو فرض عين^(١) .

والذين تخلفوا في بدر لم يدر بخلدهم أنهم سيقاتلون جيشاً قدم لإنقاذ العير ، ولذلك تخلفوا مترخصين بأنهم لم يدعوا للجهاد في سبيل الله ، وبالجمله فإن التخلف عن دعوة الرسول للجهاد كالنكث للبيعة فلذلك اشتد الرسول مع هؤلاء الثلاثة ، حتى لا تتكرر من المؤمنين .

١٢١ - (وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى ولا ينفقون في سبيل الله نفقة قليلة أو كثيرة من مال أو زاد أو غير ذلك ، ولا يجتازون وادياً إلى عدوهم إلا كتب الله لهم ذلك ، وجعل في حسناتهم ، ليجزيهم الله على كل عمل كسبوه وإن قل جزاء أفضل عمل عملوه ، فيعطى على القليل جزاء الكثير ، كرماً منه وفضلاً .

(* وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)) .

(١) ويرى ابن زيد أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) . وأن حكم وجوب الخروج للجهاد بدعوة الإمام المفهوم من قوله تعالى : (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) الآية - إنما كان وقت قلة المسلمين ، فلما كثروا نسخت وأباح الله التخلف لمن شاء ويرى فريق آخر أنها محكمة ، وأنها لأول هذه الأمة وآخرها ، ولكن التفصيل الذي ذكرناه أرجح والله تعالى أعلم .

المفردات :

(لِيَنْفِرُوا كَافَّةً) : ليخرجوا للجهاد ونحوه جميعاً .
 (فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ) : فهلا خرج من كل جماعة كثيرة منهم ،
 جماعة قليلة .
 (وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ) : وليحذروهم من المخاوف والعواقب السيئة لعصيان الله وعدم
 التدبير في الأمور .

التفسير

١٢٢ - (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً . . .) الآية .

كما أوجب الله الخروج للجهاد ووعده بالثواب الجزيل عليه في الآيات السابقة عقبها
 بهذه الآية ليحض المؤمنين فيها على التفقه في الدين فإنه أساس الجهاد، لأن به الدفاع
 عن الدين بالحجة وهو الأساس الأول للبعثة المحمدية ، وباجتماع شعبي الجهاد للمؤمنين
 جهاد السيف وجهاد العلم ، يتم لهم النصر والعزة بين العالمين .

والمعنى : وما صح ولا استقام أن يخرج المؤمنون جميعاً للجهاد ونحوه من المقاصد
 الشريفة كطلب العلم ، ويتركوا عيالهم دون عائل أو راع ، فإن ذلك مضيعة لأسرهم ،
 فهلاً خرج من كل بلد أو قبيلة أو جماعة كثيرة ، طائفة قليلة ليتعلموا الدين ويتفهموه
 ويعرفوا براهين عقائده ، وأصول أحكامه وفروعها ، وليخوفوا قومهم من عصيان الله عند
 رجوعهم إليهم ، ويرشدوهم إلى مناهج الهدى ومسالك العزة لكي يحذروا ما يضرهم
 في دنياهم وأخراهم ويقبلوا على ما ينفعهم ويعلى قدرهم ، ويستتبع العزة والكرامة لهم .

وبعض المفسرين اتجه بمعنى الآية وجهة أخرى حيث جعل حكمها فيما إذا لم
 يخرج النبي صلى الله عليه وسلم للجهاد وبعث بالمجاهدين في بعض المغازي والمعنى
 على هذا وما كان المؤمنون ليخرجوا جميعاً للقتال ، والنبي صلى الله عليه وسلم
 مقيم لم يخرج فيتركوه وحده ، فلولا خرج من كل فرقة منهم طائفة في السرية التي لا تحتاج
 إليهم جميعاً ، ليتفقه الباقون منهم مع النبي صلى الله عليه وسلم في الدين حتى إذا عاد

الذين خرجوا في السرية ، أعلمهم المقيمون ما تعلموا من أحكام الشرع ، وما تجدد نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم من آيات القرآن وعلى أى وجه فقد أفادت الآية إيجاب التفقه في الكتاب والسنة على سبيل الكفاية ، وقد جاء في إيجابه عن أنس بن مالك أنه قال :

« سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » .

وحكم المسلمة حكم المسلم وجاء في فضله من حديث أبي الدرداء قال : « سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ، سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ . وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أجنحتَها رِضًا لَطَالَبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظِّ وَافِرٍ » أخرجه الترمذى ، وجاء في صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » وحسبك في فضله قوله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى

اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

(يَنبَأُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتَلُوا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ

وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٢﴾)

التفسير

بعد ما أوجب الله على المؤمنين أن يتسلحوا بالفقه ويزودوا أنفسهم بالعلم إلى جانب اقتدارهم على الجهاد ليتسنى لهم نشر الإسلام بالأميرين جميعاً ، أمرهم في هذه الآية أن يتدرجوا في قتال الكفار وأن يبدأوا أولاً بقتال الأقرب من العدو ثم الذين يلونهم ولهذا بدأ الرسول بقتال اليهود الذين حول المدينة لنقضهم عهده ، وصعد هجمات المشركين من

العرب حيناً، وبدأهم بالقتال حيناً آخر، لوقاية الإسلام من تربصهم به والتآمر عليه فلما فرغ منهم أوكاد قصد الروم بالشام، ليحيط الإسلام في معقله بحزام أمن واستقرار ولتكون كلمة الله هي العليا .

والمعنى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الْأَقْرَبَ لَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ فَلِأَقْرَبَ ، بعد أن تدعوهم إلى الإسلام فلا يستجيبوا، وأغلظوا في قتالهم واشتدوا فيه حتى يحسوا بذلك فيسلموا لكم ويضعفوا أمامكم، واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والمعونة .

(وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدْمَةٌ
إِيمَانًا فَاذْكُرُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَّادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يُسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾
وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا
وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوْ لَا يَرْوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَوْ
مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ
نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ
اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بَانَهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾)

التفسير

١٢٤ - (وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدْمَةٌ إِيْمَانًا . . .) الآية .

بعد أن بين الله ما يجب على المؤمنين في قتالهم لأعدائهم ، ذكر أحوال المنافقين المنكرة توبيخاً لهم وتحذيراً من شرورهم

والمعنى : وإذا أنزلنا عليك يا محمد آية سورة من سور القرآن فمن المنافقين من يقول لإخوانه تثبتنا لهم على النفاق ، أيكم زادته هذه السورة إيماناً ، ومنحته يقيناً ، يريدون بذلك أنها لم تؤثر فيهم ولم تنتزع الشك والكفر من نفوسهم .

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) :

هذا وما بعده جواب من جهته تعالى يبين به حال أهل اليقين ، وحال أولئك المنافقين .

والمعنى : فأما الذين آمنوا بقلوبهم ، وصدقوا بالله ورسوله مخلصين ، فقد زادتهم السورة يقيناً بتدبيرهم فيها ، ووقوفهم على ما فيها من الحقائق ، وانضمام إيمانهم بما جاء فيها إلى إيمانهم السابق ، وهم يسرون بنزولها وبما فيها من المنافع الدينية والدنيوية .

١٢٥ - (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) :

وأما الذين في قلوبهم مرض من كفر وسوء عقيدة ، فزادتهم السورة التي أنزلناها كفرًا بها مضمومًا إلى كفرهم بغيرها ، وعقائد باطلة وأخلاقًا ذميمة ، وماتوا وهم على هذه الحال المنكرة من الكفر والمفاسد .

١٢٦ - (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ) :

المراد من فتنتهم كشف نفاقهم وفضيحتهم على رموس الأشهاد ، وكان ذلك مرة أو مرتين في كل عام كالذي حدث في غزوة أحد ، حين رجعوا من الطريق وكالذي حدث في غزة الخندق حين قالوا : « إِنَّ بَيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا » .

وغير ذلك مما حدث منهم من المخالفات الخطيرة التي كشفها الله ، وفضح فيها نفاقهم وكشف أستارهم مرة بعد أخرى .

والمعنى : أيغفلون ولا يعلمون أنهم يمتحنون في كل عام مرة أو مرتين ، وذلك بكشف نفاقهم في الأحداث الجسام ، ثم لايتوبون عن هذا النفاق الذى كان سبباً في فضيحتهم ، ولا هم يستغفرون الله مما حدث منهم ، تحقيقاً لتوبتهم وندماً على ما كان منهم ، وعدولا عن تلك الأساليب الذميمة التى توهن من شأن المجاهدين عند لقاء المشركين .

١٢٧ - (وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا) :

بعد أن بين الله مقاتلهم السيئة وهم بعيدون من مكان نزول الوحي ، وهى قولهم لإخوانهم المنافقين : « أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا » .

جاء بهذه الآية لبيان حالهم السيئة ، عندما يكونون في مكان نزوله .

والمعنى : وإذا نزلت سورة من القرآن وهم حاضرون ، نظر بعضهم إلى بعض متغامزين بالعيون سخرية بها أو غيظاً مما جاء فيها كشفاً لمخازيهم ، يقول بعضهم لبعض إشارة أو همساً :

هل يراكم أحد من المسلمين إذا خرجتم من المجلس متسللين ، ثم انصرفوا جميعاً من مجلس الوحي متفرقين مللاً من سماع القرآن أو هرباً من افتضاح أمرهم .

(صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) :

أى صرف الله قلوبهم عن الإيمان وفرائضه بسبب انصرافهم عن القرآن والتدبر فيه وجزاؤهم بعقوبة من جنس عملهم .

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
 حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ
 حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
 الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾)

المفردات :

(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) : شاق عليه ما تكرهون من مشاق الحياة ، والعنت : المشقة

(حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) : لا يفرط فيما يصلحكم .

(رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) : الرأفة شدة الرحمة ، ولا تكون مع الكراهية ، أما الرحمة فقد تكون

مع الكراهية .

التفسير

١٢٨ - (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ . . .) الآية .

أى لقد جاءكم يا معشر العرب رسول منكم عربى مثلكم ومن أكرم بيت فيكم ، وقد
 نشأ بينكم فعرفتموه منشأً وخلُقاً ، وهذا الرسول يشق عليه كثيراً ما يشق عليكم ،
 حريص عليكم ، فلا يفرط فى أمر فيه خيركم ومنفعتكم ، وبالمؤمنين منكم ومن غيركم عظيم
 الرأفة والشفقة ، وافر الرحمة .

قال الحسن بن الفضل : « لَمْ يَجْمَعْ اللَّهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنْ أَمَائِهِ
 إِلَّا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ سَمَاهُ رَءُوفًا رَّحِيمًا » .

وقد جاء في طيب أصله من رواية الإمام مسلم بسنده عن واثلة بن الأسقع قال :

« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ »

ويرى بعض المفسرين أن الخطاب في قوله تعالى :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . .) الآية .

للناس عامة ، لأن بعثته صلى الله عليه وسلم عامة لجميع الناس في جميع العصور ، لقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

والمعنى : لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم أي من جنسكم فهو بشر مثلكم إذ لو كان من الملائكة ، لضعفت قُوَّة البشر عن سماع كلامه والأخذ عنه ، ولا تعارض في هذا الرأي مع الرأي السابق ، فإن رسالته للعرب لاتنافى رسالته للناس أجمعين .

١٢٩ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) :

أي فإن أعرضوا عن الإيمان بك يا محمد فقل لهم : يكفيني الله ويعينني عليكم ، لا معبود بحق سواه ، عليه وحده توكلت واعتمدت ، فلا أرجو سواه ، ولا أخاف إلامنه ، ولا أستعين إلا به ، وهو رب العرش العظيم .

والمراد من العرش إما الفلك الأعظم الذي تنزل منه الأحكام والمقادير ، أو السلطان والمملك العظيم - والله تعالى أعلم .

* * *

سورة يونس

مكية كلها على المشهور وآياتها تسع ومائة

ووجه المناسبة بينها وبين سورة التوبة التي قبلها أن التوبة جاء في آخرها الشناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمزيد شفقتة على المؤمنين ، حيث وصف بأنه يشق عليه ما يلحقهم من المكروه ويحرص عليهم وهو بهم رؤوف رحيم ، وجاء في أول يونس توبيخ الناس على تعجبهم من أن يوحى الله إليه وهو رجل منهم - بأن ينذر الكافرين ويبشر المؤمنين- وجاء في الأولى بيان ما يفعله المنافقون عند نزول سورة من القرآن. «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا الآية

وجاء في الثانية بيان ما يقوله الكفار في القرآن ، فقد جاء فيها قوله تعالى حكاية عنهم .

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتَّبِعُوا سُورَةَ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » الآية (٣٨) . وقوله : « وَإِذَا تَتَلَّاهُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ . . . » الآية (١٥) .

وجاء في الأولى ذم المنافقين بعدم التوبة وعدم التذكر والانتعاض إذا أصابهم البلاء في قوله سبحانه : « أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ » الآية (١٢٦) . وجاء في هذه ذم لمن يصيبه البلاء فيرعوى عن إثمه ثم يعود ثانية إليه وذلك في قوله تعالى : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ . . . » الآية (١٢) .

وقوله : « فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْبُغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ . . . » الآيتين (٢٢، ٢٣) .

وفي الأولى براءة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من المشركين ، في قوله تعالى : « بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » وفي هذه أمره بالإعراض عنهم في

قوله سبحانه : « وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » الآية (٤١) .

وقد اشتركت السورتان في إقامة معالم التوحيد وتجلية آياته إلى غير ذلك من المناسبات .

مقدمة السورة

افتتحت هذه السورة الكريمة بوصف القرآن الكريم ، بأنه الكتاب الحكيم ، وبيان أنه لا عجب في أن ينزل الله الوحي على رجل من البشر لينذرهم بالعقوبة إن ظلوا كافرين ، ويبشرهم بالثوبة إن استجابوا مؤمنين ، ثم تلا ذلك بيان أنه تعالى : أبداع السموات والأرض في ستة أيام ، وأنه لاشفيح إلا بإذنه وأن المرجع إليه بعد الموت فكما بدأ الخلق يعيده ، ثم ذكر الله بعد ذلك بعض آياته الكونية وما اشتملت عليه من المنافع لخلقه ، ثم حذر من الاطمئنان إلى الحياة الدنيا والغفلة عن آياته ، وأنذرهم بقوله : « أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . وبشر المؤمنين بجنت النعيم بقوله : « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

ثم بين أنه تعالى أهلك القرون السابقة لكفرهم وجعل المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم خلفاء في الأرض من بعدهم لينظر كيف يعملون .

ثم ذكر تبجح المشركين بطلبهم أن يأتيهم الرسول بقرآن غير هذا أو يبدله ، فأمر رسوله بأن يقول لهم : إن ذلك ليس من شأنه فإنه يتبع ما يوحى إليه ، وأنه لبث فيهم عمرا وهو معروف بينهم بالصدق والأمانة فكيف لا يعقلون أن مثله لا يفترى على الله .

ثم نعى عليهم عبادة غير الله وزعمهم أن الأصنام شفعاء لهم عنده، في حين أن الله لا يسمح لها بالشفاعة فهو أعلم بحالها، فلماذا ينبئون كذباً بما هو أعلم بحقيقته من عدم صلاحيتها للشفاعة ولا لضرهم ونفعهم بأى وجه من الوجوه .

ثم ذكر فضله عليهم بتسييرهم في البر والبحر وأنهم حين تحيط بهم أسباب الهلاك في البحر يدعونه لينقذهم ، فإذا أنقذهم عادوا إلى بغيهم في الأرض مع أن بغيهم على أنفسهم .

ثم ضرب مثلاً للحياة الدنيا يفيد أنها سريعة الزوال فقد مثلها بالأرض المخضرة ، التى أصاب زرعها اليبس والجفاف فجأة ، فكانت حصيداً كأن لم تغن بالأمن ، وذكر أنه تعالى يدعومهم إلى دار السلام ، ويهdy عباده إلى صراط مستقيم فمن آمن فله الحسنى وزيادة ، والذين كسبوا السيئات ليس لهم من الله من عاصم ، ثم بين أنه هو الذى يرزق عباده من السماء والأرض ، ويمنح السمع والبصر ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويدبر الأمر كله أما شركاؤهم فليس لهم من ذلك ولا من غيره شىء .

ثم بين أنه ليس مستقيماً ولا معقولاً أن يفترى محمد القرآن، وتحداهم أن يأتوا بسورة مثله ويستعينوا على ذلك بمن شاءوا من دون الله، ونعى عليهم أنهم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وهددهم بمصير من تقدمهم من المكذبين .

ثم بين أنهم ينقسمون فى شأن القرآن إيماناً وكفراً ، وأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم- أن يقول لمكذبيه : (لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) .

ثم بين أن مرجعهم إلى الله وأنه شهيد على ما يفعلون ، وأنه سيقضى بين الأمم بالقسط وهم لا يظلمون ، وأن مصير الكافرين الظالمين لأنفسهم عذاب الخلد جزاء بما يكسبون من الكفر والمعاصى ، وبين أنه لا مجال لقبول فدية من عذاب الله فى الآخرة ، ثم قال فى حق القرآن الكريم .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ نَذْرٌ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ». ثم بين أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وأنهم هم . « الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ». ثم أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يتلو على قومه لتذكيرهم نبأ نوح وقومه ، كذبوا بآيات الله ولم ينفعهم تذكيره لهم ، فنجاه الله ومن معه في الفلك من المؤمنين وأغرق جميع المكذبين .

ثم ذكر طائفة من أنبياء المرسلين ، وما أصاب أقوامهم من إهلاك بسبب تكذيبهم لهم ثم قال في أعقاب قصصهم : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » ثم بين أن كل قرية لو أنها آمنت قبل أن ينزل بها العذاب ، لنفعها إيمانها ، ولكشف الله عنها عذاب الخزي كما فعل بقوم يونس ، فإنهم لما آمنوا قبيل مجيء العذاب كشف الله عنهم عذاب الخزي ، ومتعهم إلى حين فكانوا مثلاً حسناً في حسن الرأي ونضج التفكير .

ثم أمر الله نبيه أن يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . ثم أمره في آخر السورة أن يخبر الناس بأن الحق جاءهم من ربهم . « فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » وحضه في ختامها على الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾)

المفردات :

(الر) : قال السلف فيها وفي أمثالها : الله أعلم بمراده : ويأتى تفصيل الحديث عنها في الشرح .

(الْكِتَابُ الْحَكِيمُ) : القرآن المشتمل على الحكمة وهى إصابة الحق .

(قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) : مكانة سابقة محققة فى حسن الجزاء عند ربهم فى الجنة والقدم والقدمة بضم فسكون : السابقة فى الأمر .

(لَسِحْرٌ مُبِينٌ) : أى لساحر بين السحر واضحه : كذا قال الكافرون وهم كاذبون .

التفسير

١ - (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) :

(الر) تقدم الكلام مبسوطا على فواتح السور المماثلة لهذه فى البقرة وآل عمران والأعراف ونجمله هنا فنقول : إن السلف يعدونها من التشابه الذى استأثر الله بعلمه ولذا فهم يفوضون فى مثل ذلك قائلين : الله أعلم بمراده ، وكثير من العلماء جنح إلى التأويل ، فمنهم من قال إنها أسماء للسور التى تصدرتها ، ومنهم من قال : هى فواصل بين

السور التي قبلها والسور التي تليها، ومنهم من قال غير ذلك : وخير ما قالوه : إنها أسماء حروف عربية جعلت في صدر السور لتنبية الأسباع والقلوب إلى ما فيها من أعظم أساليب البلاغة والفصاحة وما اشتملت عليه من التشريعات الحكيمة وأخبار الغيب ونواميس الأخلاق الكريمة ، وغير ذلك من الروائع الناطقة بإعجاز القرآن للبشر وصدوره عن الله تبارك وتعالى كما أن فيها الرمز إلى التحدى ، بالإشارة إلى أن القرآن مؤلف من جنس ما ينظم العرب منه كلامهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، وجب التسليم بأنه من عند الله وأن محمدا لا يستطيع أن يأتي به فهو فوق مستوى البشرية جميعا كما هو فوق مقدرة الإنس والجن مجتمعين « قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) :

هذه الآيات الرفيعة الشأن ، التي اشتملت عليها هذه السورة الكريمة هي آيات القرآن العظيم الذي أحكمت آياته ، واشتمل على ضروب الحكمة وشتى فنونها فهو خاتمة الكتب السماوية والمهيمن عليها .

٢ - (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) الآية .

كان للمشركين في شأن الرسالة مواقف ، فتارة ينكرون أن يكون الرسول بشرا ، كقولهم « أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا » ويرون أنه تعالى لو أراد أن يرسل رسولا فإنه يختاره من الملائكة ، وذلك ما حكاه الله عنهم بقوله « وَلَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً » روى عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية : أن الكفار قالوا لما بعث محمد : إن الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا .

وتارة يزعمون أن الله لو أرسل رسولا من البشر ، فإنه يرسله من عظماء قومه في المال والجاه ، كما حكى الله عنهم ذلك بقوله : « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » ^(١) ومن أقبح ما جهلوا به في هذا الشأن قولهم العجب أن الله تعالى لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب ، وتلك النظرة الجاهلة ناشئة من فرط

قصورهم في التفكير، وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة ، وقد كان أكثر رسل الله خفاف الحال في شئون الدنيا، ثقال الموازين في الشرف وطيب المحتد ، وكان صلى الله عليه وسلم واسطة عقدهم في جلائل الأخلاق وشرف المنبع ، فقد كان من أعز أرومة في الجزيرة العربية والآية تنكر عليهم عجبهم من أن يكون الرسول بشرا .

والمعنى : لا يصح لهؤلاء الناس أن يتعجبوا من أننا أوحينا إلى رجل منهم ، أن ينذر الناس ويخوفهم عقاب الله إن عصوه وكفروا به ، ويبشر الذين آمنوا برسالته ، وعملوا الصالحات بأن لهم سابقة محققة في الفضل وحسن الجزاء عند ربهم ، فالنبوة للبشر لا للملائكة ، كما تشهد به الكتب السماوية والتفاوت بين الناس ليس بالمال ، ولا بالزعامه بل بالعقل والكمال والاستقامة ، ورب رجل في أعلى عليين بعقله وفضله ، وآخر في أسفل سافلين بجهله وحمقه ، فما لهؤلاء المشركين ينكرون نبوة البشر ويطلبون رسلا من الملائكة ، مع أنهم يستسيغون ألوهية الحجر ، « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

وسميت سابقة الفضل قدماً ، لأن السبق غالباً يكون بالقدم ، فهي التي يسعى بها المؤمن إلى الصالحات ، في أكثر الحالات ، كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد غالباً . وأضيفت القدم إلى الصدق للإيذان بأنهم ينالونها بصدق القول والعمل والنية (قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ) :

أى قال الكافرون إن محمداً لساحر ظاهر السحر ، والآية تشير إلى أن الرسول لم تقصر معجزاته على القرآن الذي هو أقوى معجزاته ، بل أظهر لهم خوارق ومعجزات أخرى غير القرآن الكريم ، فوصفوه لهذا كله بأنه ساحر مبين، وقد كذبوا فيما زعموه ، فما هي إلا آيات الحق المبين :

وكيف يترك الله ساحراً متقولاً على الله ولا ينتقم منه ، وصدق الله إذ يقول « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوهُ أَنْ خُلِقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾)

المفردات :

(فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) : أى فى ستة أوقات لا يعلم مداها إلا الله تعالى أما اليوم المعروف فإنه لم يحدث إلا بعد خلق السموات والأرض .
(ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) : ثم استولى عليه ، ومنه قول الشاعر استوى بشر على العراق . من غير سيف ودم مهورق .
أى ثم استولى على العرش ليدبر شئونه وشئون الكون كله ، ولم يغلبه عليه أحد ، فهو وحده الخالق المدبر ، وسيأتى فى المعنى الحديث عن العرش .
(بِالْقِسْطِ) : بالعدل . (شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ) : شراب من ماء شديد الحرارة .

التفسير

٣ - (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) :
جاءت هذه الآية لإظهار بطلان تعجبهم من أن الله أرسل إليهم رجلاً منهم لينذرهم ويبشّرهم ، ولبيان خطيئتهم فى وصفه بأنه ساحر مبين .

والمعنى : إن ربكم ومالك أموركم هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أوقات بعيدة المدى لا يعلمها إلا الله ، اقتضاها تطوير خلقها من دخان إلى نجوم وكواكب وأرضين بابسات ، ثم استوى على العرش وملك سلطان الكون وهيمن عليه ، فكيف تعجبون من أنه أوحى إلى رجل منكم هو فى أعلى درجات الكمال الإنسانى ليلبغكم شريعته ، ويحذركم نقمته إن عصيتموه ، ويبشركم بحسن العاقبة إن أطعتموه ، وكيف تصفونه وهو الصادق المصدوق بأنه ساحر مبين ، مع أنه لم يمارس السحر طول حياته وقد عرفتموه فيما بينكم بالصادق الأمين ، فهل يعقل عاقل أن يؤيد الله رب هذا الملك والكون وخالق هذه الأرض والسموات وصاحب هذا العرش والسلطان ، كيف يعقل أن يؤيد بشراً بالمعجزات وهو غير صادق فى دعوى الرسالة وكيف تصفون من أيده الله بأنه ساحر مبين .

واعلم أيها الأخ المسلم ، أنه لا ينبغي أن تورط نفسك فى فهم المراد من اليوم ، فأيام الله من شأنه وحده ، ولا علم لنا بها ، فتارة يكون يومه تعالى كآلف سنة مما تعدون ، وأخرى يكون كخمسين ألف سنة ، وثالثة يكون أقل أو أكثر من ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، واليوم فى هذه الأيام الستة يمثل طوراً من أطوار التكوين ، وربما جاوز ملايين السنين فدع تقديره لمن هو أعلم به جل وعلا ،

أما اليوم الذى يطلق تارة على النهار الواحد أو على مجموع ليل ونهار فإنه لم ينشأ إلا بعد تكوين الشمس والقمر والأرض ودورانها حولها وهو خاص بأرضنا هذه ، ولكل كوكب نهاره وليله اللاتقان بحجمه وبما خلق من أجله .

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) :

ويطلق العرش فى اللغة حقيقة على سرير الملك ومجازاً على العز والسلطان ، ويطلق الاستواء على الاعتدال وعلى الإقبال وعلى الاستيلاء .

والمعنى اللاتق باستوائه سبحانه على العرش هو استيلاؤه على سلطان الكون وتمكنه منه ومن تدبيره دون شريك ، أما تفسيره بمعنى الاعتدال والجلوس على سرير الملك ، فهو أمر يجب تنزيه المولى عنه ، لأنه ليس جسماً ولا مادة وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

والسلف لايؤولون ويأخذون بظاهر النص ، ولكنهم ينزهون المولى عن أن يكون استواؤه على العرش ، كالذى يحدث من الملوك ، بل هو أمر يليق ينزهه تعالى عن مشابهة الحوادث ويجل عن تصور العقول .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) :

شروع في بيان شئونه المترتبة على ملكه وسلطانه سبحانه وتعالى ، وتدبير الأمر معناه لغة النظر في أدبار الأمور وعواقبها ، لتجىء محمودة العاقبة .

والمعنى : يقدر الله أمور الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به مشيئته ، ومن ذلك أمر الرسالات والرسل كما قال تعالى : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » ^(١) .

(مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) :

في هذا النص الكريم تقرير لعظمته عز وجل واستقلاله في التدبير ، ورد على من زعم منهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله .

والمعنى : مامن شفيع يشفع لأحد في وقت من الأوقات ، إلا من بعد إذن الله المبني على الحكم الباهرة ، وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار ، والشفوع له ممن تليق به الشفاعة من عصاة المؤمنين .

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

ذلكم الموصوف بتلك الأوصاف الجليلة هو الله ربكم المنعم المتفضل عليكم الذى يدعوكم رسوله محمد إلى عبادته ، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ، أتغفلون عن مصلحتكم فلا تتعظون بتلك المواعظ وغيرها مما ينزل به القرآن الكريم .

٤ - (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا) :

إلى الله تعالى وحده رجوعكم جميعاً بالبعث والحشر لا إلى غيره ، وعد الله ذلك وعداً حقاً لا خلف فيه ، فامثلوا أمره واجتنبوا نهيهِ ، لتنالوا ثوابه وتنجوا من عقابه .

ثم بين قدرته على البعث والحكمة فيه فقال :

(إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ . . .) :

إنه يبدأ الخلق لا على مثال سبق ، ثم يعيده في النشأة الأخرى على ما كان عليه ، ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بعدله تعالى على حسب أعمالهم كما وكيفاً ، ويزيدهم من فضله .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) :

والذين كفروا بالله ورسوله ، ولم يهتموا بالآيات والنذر ولم يؤمنوا بيوم الحساب ، لهم شراب من ماء شديد الحرارة يغلي في البطون كغلي الحميم ، ولهم فوق ذلك عذاب شديد الإيلام بسبب إصرارهم على كفرهم واستمرارهم عليه .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ
مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا
بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَتَّقُونَ ﴿٦﴾)

المفردات :

(جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً) : أى جعلها ذات ضياء ، ويصح أن يكون هذا التعبير على المبالغة ، بجعلها نفس الضياء ، ومثل ذلك يقال في جعل القمر نوراً .

(وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ) : أى وقدر كلا من الشمس والقمر ذا منازل ، ينزل فيها وينتقل إليها بنظام دقيق في مداره الفلكي .

(مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) : أى ما خلقه إلا مقروناً بالحكمة والمصلحة .

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : أى فى تعاقبهما وكون كل واحد منهما خلفه للآخر ،
أو فى تخالفهما ظلمة وضياء وطولا وقصرا وغير ذلك .

التفسير

٥ - (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) :

بعد أن نبه الله عباده إلى أنه سيعيدهم فى النشأة الآخرة كما بدأهم فى النشأة الأولى ،
ليجزئهم بما عملوا بالحق والعدل نبيهم إلى آيات قدرته وآثار رحمته ، ومظاهر نعمته بجعل
الشمس ضياءً والقمر نوراً ليشكروه ولا يكفروه ، ويرجوه ويحذروه .

والمعنى : هو الذى جعل الشمس مصدر ضياء ذاتى ساطع تنبعث منه الحرارة ، فتنشأ
الكائنات الحية من نبات وحيوان ، وتعيش وتنشط بما تبثه فيها من أسباب الحياة والخفة
والنشاط ، وتسعى فى سبيل رزقها مستضيئة بأشعتها .

وجعل القمر ذا نور هادئ يهتدى به السارون فى البر ، والمآخرون فى البحر بعد أن غابت
الشمس بضياءها تحت الأفق ، وأرخى الليل سدوله على وجه الأرض .

(وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) :

وقدر الله كل واحد من الشمس والقمر ذا منازل فى مداره الفلكى ينتقل إليها ، لتعلموا
بانتقال كل منهما إليها عدد السنين التى تمر بكم وتضبطوا بها مصالحكم ومواقيتكم فى موافيقكم
ومختلف شئونكم ، ولتعلموا حساب الأوقات من الشهور والأيام ، التى نيظت بها مصالحكم
الدنيوية والأخروية ونسبة الضياء إلى الشمس والنور إلى القمر ، لأن ما كان بالذات يطلق
عليه ضياء ، وما كان بالعرض يطلق عليه نور ، ولما كانت أشعة الشمس ذاتية أطلق عليها
ضياء ، ولما كانت أشعة القمر منعكسة عليه من أشعة الشمس ، أطلق عليه نور وقيل النور
أعم من الضوء ، فالنور يشمل القوى والضعيف بخلاف الضوء فإنه خاص بالقوى فلذا
يقال نور الشمس وضوؤها أما القمر فيضاف إليه النور دون الضوء ، وقيل غير ذلك ، وبانتقال
الشمس فى هذه البروج ذات المنازل توجد الفصول الأربعة فى العام الشمسى وبانتقال القمر
فى هذه البروج ذات المنازل تكون أوائل الشهور وأواخرها والله تعالى أعلم .

(مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) :

ما خلق الله ذلك الذى تقدم من الشمس والقمر وأحوالهما إلا مقرونا بالحق ، مراعى فيه الحكمة والمصلحة ، فلم يخلقه عبثا ولا باطلا .

(يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

يفصل الله تعالى هذه الآيات الكونية وغيرها مما اشتمل عليه القرآن الكريم ، يفصلها لقوم من ذوى العلم والعقل ليتدبروها ويؤمنوا بمبدعها ، ويمتشلوا أمره ويجتنبوا نهيه .
« وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ »

٦ - (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ) :

بعد أن بين آياته ونعمه فى الشمس والقمر ، عقبها بالإشارة إلى آياته فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض .

والمعنى : إن فى تعاقب الليل والنهار ، وكون كل منهما خلقا للآخر ، وفى اختلافهما بالظلام والضياء ، ليكون الليل بظلامه قرارا والنهار بنوره نشورا ، وفى تمايزهما بالزيادة والنقصان بالتداول بينهما - إن فى ذلك كله - وفيما خلق الله فى السموات والأرض من بدائع رائعة ، ومنافع كثيرة ، ونعم شاملة لآيات شاهدات بوجود الصانع ووحدته ، وكمال علمه وقدرته ووافر فضله ورحمته لقوم يتقون المعاطب تنبيههم إلى طريق السلامة .

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا
بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ
النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾)

المفردات :

(لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) : لا يتوقعون الرجوع إلى الله تعالى .

(مَاؤَاهُمُ) : مسكنهم ومقرهم .

التفسير

٧- (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
آيَاتِنَا غَافِلُونَ) :

هذه الآية والتي تليها تبين مصير من كفر بالبعث وغفل عن آيات الله تعالى .

والمعنى : إن الذين لا يتوقعون لقاء الله يوم الحساب ، ورضوا بالحياة الدنيا معتقدين أنها لا حياة
بعدها ، فعملوا لها وغفلوا عن غرورها وخداعها ، وسكنوا فيها سكون من لا يبرحها آمنين
من المزعجات ، والذين هم غافلون عن آيات الله في كونه وعلى ألسنة رسله فلم يتزودوا
ليوم الوعيد .

٨- (أُولَٰئِكَ مَا لَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَقَدَّمَتْ صِفَاتُهُمُ السَّيِّئَةُ ، مرجعهم النار بما واطنوا على كسبه من الكفر
والمعاصي .

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ
 بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٩)
 دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ
 دَعْوَانَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٠)

المفردات :

(تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ) : تجرى من تحت قصورهم في الجنة .
 (دَعَوَاهُمْ فِيهَا) : أى دُعَاؤُهُمْ فِيهَا

التفسير

٩ - (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ
 الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) :

بعد أن بين الله في الآيتين السابقتين أن الكافرين بلقاء الله الغافلين عن آياته مأواهم
 النار ، بسبب ما كانوا يكسبونه من الكفر والمعاصي ، جاء بهذه الآية والتي تليها لبيان أن
 مصير المؤمنين الجنة ، بسبب إيمانهم الممزوج بالعمل الصالح ، وبُضِدُّهَا تمييز الأشياء

والمعنى : إن الذين آمنوا بقلائنا وبكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا ما ينبغى لهذا الإيمان من
 الأعمال الصالحات ، يهديهم ربهم بسبب ذلك إلى مأواهم الذى أعده لهم في الجنة ، حسب
 درجات أعمالهم ، فينزلون فيه مكرمين ، تجرى من تحت قصورهم الأنهار في جنات النعيم
 الخالص من كل شائبة تنغص حياتهم .

١٠ - (دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ) :

الدعوى هنا بمعنى الدعاء ، أى : دعاء المؤمنين الصالحين في الجنة قولهم سبحانك اللهم .

وقد جرى عرف الشرع على إطلاق الدعاء على التهليل والتحميد والتمجيد والتسبيح ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أَكْثَرُ دُعَائِي وَدُعَاءِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي بِعَرَفَاتٍ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وفي تعليل ذلك يقول ابن الأثير :

إنما سمي التهليل والتحميد والتمجيد دعاء ، لأنه بمنزلة في استيجاب ثواب الله تعالى وجزائه .

وفي الحديث : « إِذَا شَغَلَ عَبْدِي ثَنَائُهُ عَلَيَّ عَنْ مَسْأَلَتِي ، أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ » .
(وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) :

وما يُحْيَوْنَ به في الجنة لفظ السلام الدال على الأمن والطمأنينة والسلامة من كل مكروه .

وهذا السلام يقوله الله تعالى لهم ، كما قال تعالى : « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ » ويقوله بعضهم لبعض ، ويقوله الملائكة لهم توكيداً لمعاني الأمن والسلامة والطمأنينة دائماً .

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

أى وآخر دعائهم وذكرهم لربهم أنهم يقولون الحمد لله رب العالمين ، ويرى من الترتيب الذكرى في الآية الكريمة أنه حكاية للترتيب الوقوعى في الجنة ، وذلك أن أهلها من المؤمنين حين يشرعون في الدعاء يسبحون الله تعالى وينزهونه فيقابلون بالسلام ، وهو دعاء بالسلامة من كل مكروه تقوله الملائكة لهم ، ويقوله الله تعالى لا دعاء بل طمأننة وتحية لهم منه جل وعلا ، ثم يختتمون دعاءهم بالحمد لله رب العالمين ، وهكذا يستمر شأنهم بكرة وعشياً كما يشير إليه حديث في وصف أهل الجنة « يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا » أى يسبحونه تعالى من آن لآخر .

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ۚ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝)

المفردات :

(لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ) : لا تنتهى الأجل الذى قدره الله لعذابهم وأميتوا جميعا وما أمهلوا لحظة واحدة .

(لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) : لا يتوقعون الرجوع إلينا لإنكارهم البعث .

(فِي طُغْيَانِهِمْ) : الطغيان ، مجاوزة الحد فى الظلم والمراد هنا إنكارهم البعث وتكذيب الرسل وارتكاب ما يترتب على ذلك من المفساد والموبقات .

(يَعْمَهُونَ) : يترددون ويتحيرون .

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ) : وإذا أصابه أى ضرر .

(دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) : تضرع إلينا وهو مضطجع على جنبه أو دعانا

قاعدا أو قائما ، طالبا لإزالته عنه .

(مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مِّنْهُ) :

أى مضى واستمر على ما كان عليه قبل البلاء من التكذيب ، كأنه لم يلجأ إلينا لإزالة ما أصابه .

(زَيْنَ لِلْمُشْرَفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : حسن للمتجاوزين الحد في ارتكاب القبائح

مأعملوه منها .

التفسير

١١ - (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ) :

بعد أن ذكر القرآن الكريم طائفة من جرائم الذين ينكرون البعث والجزاء ، جاءت هذه الآية تحكى معصية أخرى من أشنع معاصيهم المترتبة على ذلك ، وهى استعجالهم لنزول العذاب الذى توعدهم القرآن به ، مبالغة منهم فى الاستهزاء بمجيئه والتكذيب بوقوعه .

والمعنى : ولو يعجل الله تعالى لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث ، ولا يتوقعون الرجوع إلى الله الواحد القهار ، لو يعجل لهم - سبحانه - العذاب الذى كانوا يستعجلون به ، مثل إسراعه بتحقيق الخير لهم عند استعجالهم به وطلبهم إياه .

(لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) :

أى لأنهى الله إليهم مدتهم التى قدرها الله لعذابهم ، واستؤصلوا بإهلاكهم جميعا عن آخرهم ، وما أمهلوا لحظة واحدة جزاء جرأتهم ، كما قال تعالى : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ . . . » ^(١) ولكنه سبحانه يمهلهم ولا يعجل لهم الشر الذى طلبوه ولا ينهى إليهم أجلهم ، وإنما يتركهم أمهالا لهم واستدارجا ، كما قال تعالى :

(فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) : أى فنترك الذين لا يتوقعون

لقاءنا يوم البعث ولا يصدقون بيوم القيامة ، غارقين فى ظلمهم الذى تجاوزوا فيه

الحدود ، وهو إنكارهم البعث وتهاويهم في التكذيب وارتكابهم كل قبيح من الأقوال والأفعال - ندعهم في هذا الحال السيئ يترددون ويتحيرون ، ولا نترقب بهم بسبب تماديهم في البغي .

١٢ - (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا)

في الآية السابقة إشارة إلى أن الكفار كانوا يستعجلون نزول العذاب الذي توعدهم الله به استهانة بشأنه ، وفي هذه الآية الكريمة بين سبحانه أنه لو نزل بالإنسان أدنى مكروه ، فإنه يدعو الله في كل حال راجيا إنقاذه منه وإزالته عنه لعجزه عن احتمال وحته كان أمرهم كذلك فكيف يستعجلون عذابه .

والمعنى : وإذا أصاب الإنسان أى ضرر من مرض أو فقر أو غير ذلك من الشدائد دعا الله طالبا كشفه عنه وتخليصه منه - دعاه - في حال اضطجاعه على جنبه أو في حال قعوده ، أو في حال قيامه .

والمراد أنه يتضرع إلى الله ليكشف ضرره على أى حال يكون ، وإنما خصت هذه الثلاثة بالذكر لأنها أغلب أحوال الإنسان ، ثم بين القرآن أن هذا الذى تضرع إلى الله لرفع ما نزل به من البلاء رجع بعد تخليصه منه إلى الكفر والضلال ، فقال تعالى :

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسِّهِ) :

أى فلما استجبنا له وأزلنا عنه الضر الذى نزل به ، مضى واستمر على طريقته التى كان عليها من التكذيب والعناد قبل أن يمسه الضر ، ونسى ما كان فيه من الجهد والبلاء كأن لم يدعنا إلى كشف ضرره ، وإزالة مكروه نزل به .

(كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى مثل هذه الحال العجيبة التى تنكروا فيها لله تعالى ورجعوا إلى الضلال الذى كانوا فيه ، زين الشيطان للمُسْرِفِينَ في الكفر والمعاصي ، ما كانوا يعملونه من الانغماس

في الشهوات ، والانهماك في الفجور والعصيان ، والإعراض عن التوحيد والطاعات ، وسموا مسرفين لأن الله أنعم عليهم بنعمة الفكر والعقل وسائر قوى الإدراك ، ليستعملوها في تحصيل الخير وعمل الصالحات وتعلم العلوم النافعة ، فاستحبوا العمى على الهدى واستعملوها في الظلم والتكذيب والفساد ، وذلك هو الإسراف ، ويستفاد من الآية الكريمة ذم الذين يتركون دعاء الله في الرخاء ويتضرعون إليه عند نزول البلاء ، والجدير بالمؤمنين أن يلجأوا إلى الله في السراء أيضا ، فإن ذلك أرجى للإجابة في الضراء ففي حديث البخاري : « تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ » .

وفي حديث الترمذي عن أبي هريرة : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ - تَعَالَى - لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكُرُوبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرِّخَاءِ » .

والآثار في ذلك كثيرة ، والمراد من الإنسان : الجنس المتحقق في الكافر الذي يلجأ إلى الله في الشدة وينساه بعد إنقاذه منها .

ثم أخبر القرآن الكريم المخاطبين بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم - بإهلاك المكذبين من الأمم السابقة ليكون إنذارا لمن جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقال تعالى :

١٣- (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) :

أى ولقد أهلكنا الأمم الماضية من قبل زمانكم يا أهل مكة مثل قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم حين ظلموا بتماديهم في الغى والضلال وتكذيبهم لرسولهم ، وقد جاءوهم بالآيات الواضحة والحجج الظاهرة الدالة على صدقهم ، كذبوهم في هذه الحالة التي لا ينبغي فيها التكذيب والكفران ، لأنها تدعو إلى التصديق وتقتضى الإيمان .

ثم بين القرآن أن هؤلاء لا يستقيم منهم إيمان ، ولا يصح منهم إذعان لفساد فطرتهم بإصرارهم على رد رسالات الله في قوله :

(وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) :

أى وما صح لهؤلاء المُصرِّين على الكفر والفساد أن يؤمنوا لبعدهم عن الإيمان ، إذ أفسدوا فطرتهم بسوء اختيارهم الضلالة على الهدى ، مع وضوح الحجة وسطوع البرهان .

(كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) :

أى مثل ذلك الجزاء الأليم الذى حلّ بالمكذبين من الأمم الماضية ، نجزى كل طائفة أجرمت وطفعت وبغت وكفرت بأنعم الله .

وفى الآية تهديد لكفار مكة بأن يصيبهم ما أصاب المكذبين قبلهم ، فقد اشتركوا مع المهلكين السابقين فيما يقتضى الإهلاك وهو كفرهم برسول الله .

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)) .

المفردات :

(خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ) : خلفاء فى الأرض بعد إهلاك المكذبين السابقين .

التفسير

١٤ - (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) :

بعد أن أوضحت الآية السابقة سبب إهلاك الأمم السابقة وهو أنهم أتتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا ، جاءت هذه الآية توضح لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنهم خلف للأمم السابقة ، وفى محل الاختبار فقال تعالى :

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) :

أى : ثم جعلناكم أيها المخاطبون بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم خلفاء في الأرض تصلحون ولا تفسدون ، من بعد أن أهلكنا المكذابين قبلكم ، الذين تسمعون أخبارهم وتشاهدون آثارهم .

(لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) : أى استخلفناكم من بعدهم . لنعلم واقعاً منكم وموجود أى عمل تعملون خيراً كان أو شراً ، مع ثبوت علمنا أزلاً بما سيكون منكم ، ليكون الجزاء على ما يقع منكم فعلاً .

والمراد : أنه تعالى يعاملكم معاملة من يختبر إنساناً ، ليظهر من أمركم ، ما علم أزلاً أنه سيحدث منكم باختياركم لتقوم به الحجة عليكم ، فيجازيكم على ما صدر منكم .

وأسلوب الآية يشعر باستمالة المخاطبين نحو الإيمان ، إذ الأصل أن يكون الاستخلاف بعد اختيار ، فإذا شعر المخاطب أنه اختير لما استخلف فيه ، لآن قلبه وانجذبت نفسه نحو القيام بعمل الصالحات .

(وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾)

الفردات :

- (لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) : لا يتوقعون مجيء البعث ، والمراد أنهم ينكرونه .
 (وَلَا أَذْرَاكُمْ) : ولا أعلمكم الله بالقرآن عن طريق الوحي به إلى .
 (فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ) : أى فقد أقمت بينكم زمناً طويلاً من قبل نزول القرآن على .
 (لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) : أى لا ينجون مما يحذرون ولا يفوزون بما يطلبون .

التفسير

١٥- (وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا . . .) الآية .

في الآية السابقة خطاب من الله تعالى لأهل مكة يخبرهم فيه باستخلافهم في الأرض ، بعد إهلاك الكذابين من الأمم الماضية ، تلييناً لقلوبهم ، واستمالة لهم إلى الإيمان ، ثم جاءت هذه الآية تعدد بعضاً من جرائمهم الدالة على أنهم لم يستجيبوا لدعوة الإيمان ، ولم يقوموا بما يقضى به استخلافهم ، فقد بينت إصرارهم على الكفر بآيات القرآن البينات ، والتكذيب بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، كدأب من أهلكوا قبلهم بتكذيبهم .

والمعنى : وإذا تلى منك أيها الرسول على هؤلاء المكذبين المعاندين آياتنا العظيمة الصادقة ، التي أنزلناها عليك واضحة في دلالتها على التوحيد وإبطال الشرك ، مرغبة في الإيمان منفرة من العصيان .

(قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ) :

أى وإذا تلوت عليهم أيها الرسول آياتنا العظيمة الصادقة قال الذين لا يتوقعون البعث ولا يؤمنون بيوم القيامة رداً لها وكفراً بها ، أحضر يا محمد قرآناً غير هذا القرآن الذى تتلو منه علينا .

أى جىء بكتاب آخر نقرؤه لا تكون فيه آيات تخبر عن وقوع البعث ويكون خالياً مما نكره، من ذم آلهتنا ووعيد من يعبدها بالعقاب الشديد، وهم هذا الطلب يريدون تغيير القرآن كله، بما فيه مما ينكرونه أما قولهم: (أَوْ بَلَّغُهُ) فهم يريدون به تبديل الآيات التى تسفه عقولهم وعقول آبائهم وتثبت البعث والعقاب على الشرك بآيات خالية عن ذلك مع استبقاء سواها .

ولا شك فى أنهم قصدوا من هذا الطلب الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بناءً على طمعهم فى تحقيق إجابته لهم، ليتوسلوا بذلك إلى الاستهزاء به والسخرية منه، وإلزامه بما جاء به مما يوافق هواهم ورأيهم فى آلهتهم، كما اقترحوه عليه، وحينئذ لا يبقى له ولا لنبوته شأن فيهم . وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يرد عليهم بقوله :

(قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي) :

أى قل أيها الرسول لهؤلاء المعتنتين ، ما يصح وما ينبغي لى أبداً أن أضع آية مكان آية أخرى من جهتي وبرأى دون أمر من الله سبحانه وتعالى .

والمراد بهذا الجواب رد الاقتراحين معاً لأن تبديل آية مكان آية ، أخف من الإتيان بقرآن غير هذا القرآن الذى نزل ، وإذا امتنع السهل واستحال امتنع الصعب واستحال بالطريق الأولى ، ومما أمر به صلى الله عليه وسلم ، بيانا بشأنه وحاله فى تلقى الشريعة وإبلاغها للناس قوله تعالى :

(إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ) : أى ما أتبع أيها الناس فيما أفعل وأترك إلا ما ينزل به الوحي من عند الله دون أن أغَيِّر منه شيئاً ، وكذلك أمر الله أن يقول تعليلاً لاتباعه الوحي وامتناعه من التبديل :

(إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

أى إني أخاف إن عصيت مولاي الذى أرسلنى ، بترك السير فى طريق الوحي المستقيم ، أخاف عذاب يوم عظيم تكثر فيه الأهوال وتشتد الكربات وهو يوم القيامة .

١٦- (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ...) الآية .

بعد أن بين القرآن الكريم فى الآية السابقة أن لا سبيل إلى ما اقترحوه تعنتاً، جاءت هذه الآية الكريمة تثبت أن القرآن حق، وأنه من عند الله العزيز الحكيم .

والمعنى: قل أيها النبي لهؤلاء المنكرين عنادًا واستكبارًا: لو شاء الله تعالى أن لا يجعلني رسولاً إليكم ما تلوته عليكم ولا أدراكم به عن طريق، فإن ذلك مما لا سبيل لي إليه .

(فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

أى فقد أقمت بينكم زمناً طويلاً مقداره أربعون سنة ، عرفتم فيها جميع أحوالى وأحطتم خيراً بكل أقوالى وأفعالى من قبل أن ينزل القرآن على ، فقد كنت لا أتكلم بينكم بما يشبه القرآن فى نظمه المعجز ، ومعناه الموضح لأحكام الشريعة من عبادات ومعاملات وأخلاق ، وأخبار الأمم الماضية مع رسلهم ، وغير ذلك مما جاء به القرآن ، كما كنت معروفاً بينكم بالصدق والأمانة ، أتغفلون عن ملاحظة ذلك فلا تدركون وجوب كونه من عند الله العزيز الحكيم ، ولا تعقلون امتناع صدوره عن مثلى ، وكيف يعقل أن أعرف بينكم فى هذا العمر الطويل ، بأننى لا أكذب على الناس ، ثم أكذب على الله المنتقم الجبار ، إن استحالة صدوره عنى أمر لا يخفى على من كان له أدنى فكر وأقل تدبر .

١٧ - (فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) :
بعد أن أفادت الآية السابقة أن القرآن الكريم نزل بأمر الله تعالى ومشيبته على رسوله صلى الله عليه وسلم جاءت هذه الآية تبين للناس أن من اختلق كلاماً من عند نفسه ونسبه إلى الله تعالى يكون أظلم الظالمين .

والمعنى : إذا كنت التزمت الصدق والأمانة مع الناس لأن الكذب ظلم ، فلهذا يستحيل أن أفتري الكذب على الله فلا أحد أعظم ظلماً من الذين يخلقون على الله ما لم ينزله عليهم ، أو يكذبون بآيات الله سبحانه وتعالى .

والمراد ببيان براءته صلى الله عليه وسلم مما جوزه المشركون فى حقه من الافتراء على الله والتنبيه على أنهم هم أظلم من كل الظالمين ، إذ كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم وكفروا بجميع ما جاء به من عند ربه .

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) :

أى إن الشأن الثابت عنه تعالى فى علمه القديم - أنه لا يفوز أى مجرم بمطلوب يطلبه ولا يسلم من مكروه يخافه فلا ينجوا الذين افتروا على الله وكذبوا آياته بالأولى لأن جرمهم أشد وأشنع .

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩))

المفردات :

(أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) : أى أتخبرون الله بشفعاء لا يعلمهم فى السموات ولا فى الأرض ، والمراد نبي وجودهم إذ لو وجلوا لعلمهم الله سبحانه .

(أُمَّةً وَاحِدَةً) : جماعة متفقة على الحق فى أصل الفطرة .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ) : أى ولولا قضاء الله بتأخير الفصل بين الحق والمبطل إلى يوم القيامة .

التفسير

١٨ - (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ . . .) الآية .

بعد أن ذكرت الآيات السابقة طائفة من جرائم الكفار أهل مكة ، جاءت هذه الآية الكريمة تحكي عنهم جناية أخرى لعلها السبب في تلك الجنايات السابقة .

أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال :

كان النضر بن الحارث يقول إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى فنزلت هذه الآية .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ) :

أى ويعبد هؤلاء المشركون من أهل مكة غير الله أصناماً جعلوها له سبحانه شركاء في العبادة في حين أنها لا تستطيع أن تلحق بهم ضرراً ولا أن تجلب لهم نفعاً ، وشأن المعبود أن يكون قادراً على الضر والنفع .

(وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) :

أى ويقول هؤلاء المشركون تبريراً لعبادتهم لها : هؤلاء الأوثان شُفَعَاؤُنَا في الحياة الدنيا نتوسل بها إلى الله لإصلاح معاشنا وكل ما يهمنا من شئون هذه الحياة ، وشفعاؤنا في الآخرة إن كان هناك بعث أو نشور كما زعمتم ، يشفعون لنا في تخفيف العقاب عنا .

وهذا التأويل ظهر أنه لاتفاف بين ما فهم من هذه الآية وبين الآيات الدالة على إنكارهم البعث كقوله تعالى : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ » وأمثاله .

وحال هؤلاء المشركين إن دل على شيء فإنما يدل على فرط جهالتهم وفضاعة حماقتهم ، إذ تركوا اللجوء إلى الخالق النافع الضار ، وتوسلوا بما يقطع الحس والنظر بأنه لا يضر ولا ينفع .

ثم أمر الله تعالى ، رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم تبيكيتاً وتقريباً :

(قُلْ أَنتَبِّشُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) :

أى قل أيها الرسول لهؤلاء الحمقى إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم ، وسخرية منهم ، أتعبدون الله تعالى بشيء لا وجود له أصلاً في السموات ولا في الأرض ، وهو أن الأصنام شفعاؤكم

عند الله تعالى إذ لو وجد ذلك فيهما وثبت ، لعلمه الواحد الصمد علام الغيوب في جميع الكائنات ، فما لا يعلمه فهو معدوم وليس له وجود ، فالمراد من نفي علمه تعالى به نفي وجوده فما لا يعلمه فهو معدوم وليس له وجود .

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

أى تنزيهاً لله تعالى عن إشراكهم الذى بنوا عليه هذا القول الزائف ، وعن الشركاء الذين يشركونهم فى العبادة معه تعالى .

١٩ - (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

بعد أن أشار القرآن الكريم إلى أن التوحيد هو الدين الحق وأن الشرك والانحراف ظلم عظيم ، وجهالات ابتدعتها أهل النى والضلال ، جاءت هذه الآية تؤكد هذا المعنى وتقرره ، إذ أفادت أن التوحيد ملة قديمة اجتمعت عليها الأمم قاطبة فطرة وتشريعاً .

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا) :

أى وما كان الناس كافة من لدن آدم عليه السلام إلا متفقين على الحق والتوحيد ، وظلوا كذلك حتى أغوى الشيطان فريقاً منهم فكفر ، وثبت الآخرون على التوحيد الذى فطروا عليه فخالف كل من الفريقين الآخر .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ) :

أى : ولولا أن قضى الله فى سابق علمه بتأخير الفصل بين المؤمنين وغيرهم إلى الأجل الذى حدده فى سابق علمه وهو يوم القيامة .

(لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

أى : لحكم بينهم عاجلاً فى الدنيا بإهلاك المبطلين .

(وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) (٢٠)

التفسير

٢٠- (وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ) :

تحكى هذه الآية الكريمة جنابة أخرى من جنابات أهل مكة ، حين بينت أنهم علقوا بإيمانهم على نزول آية سوى ما أنزله الله تعالى من المعجزات وفي مقدمتها القرآن الكريم .

والمعنى: ويقول الكافرون من أهل مكة - تعنتاً وعناداً - هلا أنزل الله على محمد آية من الآيات التي اقترحناها لنؤمن به رسولا من عند الله .

فأنت تراهم لفرط عتوهم وشدة تماديهم في المكابرة والضلال ، لم يعدوا ما جاء به من الآيات البينات والمعجزات الباهرات كافياً لقبولهم الهدى والدخول في دين الله وقد أمر - صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم في قوله :

(فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) : أى فانتظروا نزوله إلى معكم من المنتظرين ، لكننى منتظر مايفعله الله بكم ، لاجترائكم جحود آياته .

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا لَّهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ) (٢١)

المفردات :

(أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً) : أنعمنا عليهم بالرحمة والمراد بها الصحة والسعة .

(مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهُمْ) : أى من بعد ضراء أصابتهم حتى أحسوا بشدتها عليهم .
 (إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا) : المراد بالمكر هنا الطعن في آيات الله وعدم الاهتمام بها
 والاحتتيال في ردها ، والمكر في الأصل تدبير الكيد في خفاء .
 (قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا) : المراد ببيان أن الله أعجل عقوبة وأشد أخذًا .

التفسير

٢١- (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهُمْ) الآية .

روى أن الله جل شأنه سلط على أهل مكة القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان ، فلما دعا لهم واستجاب الله دعاءه ورحمهم بإنزال المطر ، أخذوا يطعنون في آيات الله تعالى ويكيدون لرسوله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية .

والمعنى : وإذا أنعمنا على هؤلاء الكفار وأمثالهم بنعمة الصحة والسعة ، وأفضنا عليهم أنواع الخير ورحمناهم بكشف ما نزل بهم من المصائب الأليمة والمكاره الشديدة التي خالطتهم وأحاطت بهم حتى أحسوا بشدة وطأتها عليهم وسوء أثرها فيهم ، إذا رحمناهم بكشفها سارعوا سرًا وفي خفاء إلى تدبير ضروب الكيد لآياتنا التي أنزلناها على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم واحتالوا في دفعها وبالغوا في تكذيبها .

(قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا) :

أى قل أيها الرسول لهؤلاء الماكرين تهديدًا لهم ووعدًا :

الله جل جلالته وأعجل عقوبة وأشد أخذًا فلن يصل من كيدهم شيء إلى رسول الله ، ولا إلى الحق الذي جاء به من عند الله ، وتسمية عقاب الله مكرًا لذكره مع مكرهم في سياق واحد^(١) ، ثم أكد القرآن الكريم تهديدهم حين قال تعالى :

(١) وهذا نوع من البلاغة يسمى مشاكلة .

(إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَمْكُرُونَ) :

أى : إن ملائكتنا الذين أمرناهم بحفظ أعمالكم وإحصائها عليكم ، مستمررون على كتابة ما دأبتم على تدبيره من الكيد في خفاء ، ولم يخف عنهم ما بالقلم في إخفائه ، وكيف يخفى على منزل الآيات علام الغيوب : وفي إخبار الله بإحصاء الحفظة لكيدهم بهذا الأسلوب المؤكد تحقيق لمقاهم على وجه بليغ .

(هُوَ الَّذِي يُسِّرْكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(الْفُلِكِ) : السفن .

(بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) : بريح لينة الهبوب تسيير بهم إلى المقصد .

(رِيحٌ عَاصِفٌ) : شديدة الهبوب ، وعصفت الريح : اشتدت ، وهو من باب جلس يجلس .

(الْمَوْجُ) : ما علا وارتفع من الماء بسبب اضطراب مياه البحر من أثر اشتداد الريح .

(وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ) : أى حوصروا بالشدة .

(إِذَا هُمْ يَنْبُغُونَ فِي الْأَرْضِ) : أى يسارعون إلى الإفساد في أنحاء الأرض متجاوزين حدود ما أمر الله به ، والبغى التعدى والطفيان .

التفسير

٢٢- (هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ . . .) الآية .

في هذه الآية والتي بعدها حكاية جناية أخرى من جناباتهم مترتبة على ما مر من اختلاف أحوالهم تبعاً لاختلاف ما ينزل بهم من السراء والضراء .

سبب النزول :

عن سعد بن أبي وقاص قال : « لَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ فَرَّ عِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَهُمْ غَاصِفٌ فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ لِرُكَّابِهَا : أَخْلَصُوا فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تَنْجِي عَنْكُمْ شَيْئاً فَقَالَ عِكْرَمَةُ : لَكِنْ لَمْ يَنْجِنِي فِي الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ مَا يَنْجِينِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ ، اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَهْداً إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ ، أَنْ آتِي مُحَمَّدًا حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ ، فَلَأَجِدَنَّهُ عَفْواً كَرِيماً قَالَ : فَجَاءَ فَأَسْلَمَ » أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا .

والمعنى : هو الله الذي يُسِيرُ لكم أيها الناس سبيل السير في البر مشاة وركبانا - وفي البحر -

على ظهور السفن .

ثم حكى القرآن الكريم ما كان من أحوالهم بعد ركوبهم السفن وسيرها بهم في البحر في قوله تعالى :

(حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا) :

أى حتى إذا ركبتم السفن أيها الناس وجرت تلك السفن بمن فيها جرياً هادئاً مريحاً ، بسبب هبوب ريح لطيفة تتجه بسفنهم إلى الجهة التي يقصدونها ، وفرح الراكبون بتلك الريح الطيبة الهادئة التي تسير بسفنهم في أمان واطمئنان إلى ما يريدون .

(جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ) :

أى حتى إذا كان راكبو تلك السفن على هذه الحال من الهدوء والاستقرار ، هبت على تلك السفن ريح شديدة سريعة السير أهاجت مياه البحر ، فارتفعت الأمواج واضطربت ، وأحاطت بالسفن وبمن فيها من كل جانب ، وتقاذفتها من موجة إلى أخرى ، وظن راكبوها أن مسالك النجاة قد سدت أمامهم ، وأن الهلاك قد أحاط بهم من كل جانب ، وأنهم لا محالة هالكون في هذه الشدة .

(دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) :

أى في هذا الوقت الذى أوشكوا فيه على الهلاك ، رجعوا إلى أصل فطرتهم ، فدعوا الله وحده مخلصين له الدين ، غير مشركين معه سبحانه شيئاً من الآلهة التى عبدوها من دون الله ، دعوا الله قائلين فى دعائهم :

(لَيْسَ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ) : أى والله لئن أنقذتنا من هذه الكارثة المحيطة بنا ، لنكونن حتماً بعد نجاتنا مما نزل بنا من أهوال من جملة الشاكرين دائماً لنعمك الوفيرة وأفضالك العظيمة ، فنشكر تفضلك علينا بالخلاص من أهوال البحر استجابة لدعائنا .

٢٣ - (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) :

أى فلما استجاب الله تعالى لهم وأنقذهم مما نزل بهم من الأهوال والكربات ، بعد تضرعهم إليه ، سارعوا إلى الإفساد فى أقطار الأرض بغير حق ، بمعنين فى ذلك ومستمرين هذا الظلم الظاهر القبيح .

ثم خاطب القرآن الكريم هؤلاء الطغاة الباغين بما فيه تهديد لهم ووعد بليغ على ظلمهم فقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) :

أى يا أيها الناس الطغاة المعتدون إنما ضرر هذا الظلم الشديد الذى ترتكبونه فى الأرض ، يعود فى نهاية الأمر عليكم أنتم ، ولا يعود شئ منه على الذين تجاوزتم الحدود فى ظلمهم -

فإنَّ ما أصابهم من آثار ظلمكم لهم في الدنيا ، لا قيمة له ما داموا من أهل النعيم الدائم في الآخرة ، والآخرة خير وأبقى - وأما أنتم يا أيها الطغاة فإنما تتمتعون بشمرة بغيكم على الآمنين تمتعاً قاصراً على الحياة الدنيا ، ومتاع الدنيا قليل لا يعتد به ، فهو سريع الزوال جالب للنكال مستتبع لعقاب العزيز القهار .

ثم زاد القرآن الكريم في تهديدهم ، وأكد وعيدهم حين قال :

(ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى ثم إلينا وحدنا رجوعكم أيها الباغون يوم القيامة لنذيقكم عقاب ما قدمتم في حياتكم الآثمة ، فنخبركم بما كنتم مستمرين عليه في الدنيا من البغى والإفساد في الأرض - نخبركم بذلك - زيادة في إيلاكم والتنكيل بكم .

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤))

المفردات :

(مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : صفة الحياة الدنيا من حيث سرعة انقضائها وزوال متعتها .
(فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ) : أى فاختلط بسببه نبات الأرض ، بأن كثر فتشابهك بعضه ببعض .

(وَازَيَّنَّتْ) : أى وتزينت بأنواع النباتات وأشكالها وألوانها المختلفة .

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا) : ظنوا أنهم متمكنون من تحصيل ثمرات الأرض .
 (أَنَاهَا أَمْرُنَا) : أى نزلت بها الآفات التى اجتاحت النبات والثمار .
 (فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ الْأَنْسِ) : أى فجعلنا نبات الأرض هالكا كأنه
 لم يوجد فى الأرض قبل هلاكه .

التفسير

٢٤ - (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الآية .

بعد أن بين القرآن الكريم فى الآية السابقة أن التمتع بالبنى على الناس قاصرٌ على
 الحياة الدنيا ، جاءت هذه الآية تقرر هذا المعنى ، ببيان قصر أمدها وسرعة زوال نعيمها ،
 فلا ينبغي قصر الهمة عليها وحدها .

والمعنى : إنما مثل الحياة الدنيا وصفتها العجيبة فى سرعة انقضاء زمنها وزوال متعتها
 وزينتها وجاهها ، بعد إقبالها على الناس واغترارهم بها وركونهم إليها - مثل هذه الحالة - كمثل
 الحالة الناشئة من نزول المطر من السماء على الأرض ، وإنبات الله به أنواع النبات مما
 يطعم الناس والأنعام ، واستمرار نموه بالماء حتى كثر وتشابك بعضه ببعض ، وتزينت
 الأرض بأنواع النباتات المتعددة وأشكالها المتفاوتة وألوانها المختلفة وطعومها المتنوعة ،
 وصارت كالعروس التى ازدانت بألوان الثياب وأنواع الزينة الفاتكة ، وظن أصحاب تلك
 الأرض أنهم متمكنون من تحصيل ثمراتها ، جامعون لخيراتها فى هذه الحالة .

(أَنَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا) :

أى أنها الهلاك الذى قضاه الله وأمر به فى وقت الغفلة وفى وقت اليقظة ، فهما سواء
 فى أن أصحاب تلك الأرض التى دنا جنى قطافها لا يستطيعون دفع أمر الله عنها وحين
 أصابتها الآفات صير الله نباتها مستأصلا هالكا كأنه لم يكن موجودا فى الأرض قبل
 نزول الجوائح .

والخلاصة :

أن القرآن صور للناس حال الدنيا في سرعة انقضاء زمانها وزوال نعيمها ، بعد إقبالها على الناس واغترارهم بها واطمئنانهم إليها - صورها - بصورة ما على الأرض من أنواع النباتات التي زالت بهجتها ونضارتها فجأة وصارت حطاما ولم يبق لها على الأرض من أثر ، بعد أن ترعرعت ونمت وقويت سيقانها وتزينت الأرض بألوانها المختلفة ، وأوشك الناس أن يجنوا قطفها وظنوا أنها قد سلمت لهم من المهالك .

(وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥))

التفسير

٢٥ - (وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ) :

بعد أن حذر القرآن الكريم من الاغترار بالحياة الدنيا والعمل لها وحدها رغب في العمل للفوز بدار السلام وهي الجنة .

والمعنى : والله - تعالى - القادر على كل شيء الغنى عن العالمين يدعو الناس إلى دار السلام - وهي الجنة - يدعوتهم إلى الإسلام والعمل بشريعة القرآن .

وسميت الجنة دار السلام لسلامة أهلها من كل آفة ومكروه ، أو لأن الله تعالى يسلم عليهم فيها ، أو لأن الملائكة على أبوابها يقولون للداخلين فيها : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ » . أو لأن أهل الجنة يسلم بعضهم على بعض فيها كما قال تعالى : « تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » .

(وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) : أى ويرشد الله من أراد هدايتهم وهم الذين وفقهم إلى اختيار الهدى على الضلالة - يرشد هؤلاء - إلى طريق معتدل لا عوج فيه وهو الإسلام والعمل بشرائعه .

(* لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(الْحُسْنَىٰ) : أى المثوبة الحسنى فى الجنة ، وهى تتفاوت حسب تفاوت درجات الإحسان .

(يَرْهَقُ) : يغشى ويغطى .

(قَتَرٌ) : أى غبرة فيها سواد كالقطرة ، ومن معانيهما فى اللغة الدخان الكثيف من شواء أو فحم أو حطب أو غيره .

التفسير

٢٦ - (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) :

فى الآية السابقة دعا الله إلى دار السلام ، فمن الناس من أحسن استجابة الدعوة والعمل بها ، ومنهم من انصرف عنها ، وقد جاءت هذه الآية لتبين جزاء من أحسن الاستجابة ، وأول درجات الإحسان بعد الإيمان فعل الواجبات وترك المنهيات ، وأكمل درجاته : « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » كما جاء فى حديث رواه مسلم . وقد وعد الله تعالى فى الآية بمكافأة المحسنين وزيادتهم فوق ما يستحقون ، وفى بيان ذلك روى الشيخان عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِى يَدَيْكَ فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ بى ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ يَا رَبَّنَا وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُونَ : وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أَحَلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا » .

وللمفسرين والمتكلمين في الزيادة المذكورة في الآية آراء : فعن الحسن رضى الله عنه أنها مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فأكثر إلى سبعمائة ضعف أو تزيد : وعن مجاهد رضوان الله عليه . هي مغفرة الله تعالى ورضوانه ، ويرى جمهرة أهل السنة . أنها النظر إلى وجه الله سبحانه بعد حصولهم على ثوابه في الجنة ، كما قال تعالى : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » ^(١) . أى يوم القيامة ، فقد أثبتت هذه الآية لأهل الجنة أمرين أحدهما النظارة وهى حسن الوجوه ، والثانى النظر إلى وجهه الكريم ، وإلى الأول يشير قوله تعالى هنا :

(وَلَا يَرَهُنَّ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

أى أن أولئك المحسنين مكرمون أيضاً بأن تتألق وجوههم بنضرة النعيم ، فلا يلحقها قتر وهو الغبرة فى سواد ، ولا تلحقها ذلة وهى الخجل والانكسار ، والقتر حالة حسية والذلة حالة نفسية ، وقد أخبر الله بعد ذلك بأنهم أصحاب الجنة ، وذلك يشعر بأنها كالمملك لهم (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : لا يخرجون منها أبداً ، كما قال تعالى : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » ^(٢) .

والآية فى أسلوبها تقصر الحسنى بجميع أنواعها على المحسنين وحدهم ثم تفيد أن الله يفيض عليهم زيادة عن الحسنى أنواعاً من الإنعام لا تعد ولا تحصى ، وأعلاها النظر إلى وجهه الكريم ، كما جاء فى الآية السابقة ، وأن يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً ، كما جاء فى حديث الشيخين الذى تقدم ذكره ، وقد أعد الله لخيار المحسنين منازل فى عليين ، وهى أعلى مكان فى الجنة ، وفيهم يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ عَلِّيْنِ لَيُشْرِفُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُضِيءُ الْجَنَّةَ بِوَجْهِهِ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ » أخرجه أبو داود .

(٢) سورة الحجر ، من الآية : ٤٨

(١) سورة القيامة ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

(وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ
 مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ
 أَلِيلٍ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ) : عملوا المعاصي من كفر وغيره .

(مِنْ عَاصِمٍ) : من حافظ ومانع .

(أُغْشِيَتْ) : غطيت .

التفسير

٢٧ - (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ) :
 بينت الآية السابقة جزاء المحسنين ، وجاءت هذه الآية لتبين عقاب المسيئين ، وقد
 أفادت أنهم يجازون بالعدل المطلق ، فلا تضاعف سيئاتهم كما ضوعفت حسنات المحسنين
 بل يجزون بقدرها وهم لا يظلمون ، ونظراً لترقبهم وقوع سوء الجزاء تعلوهم وتحيط بهم
 ذلة وهوان من شدة الخزي وعقاب الله لهم ، فهم بين ألم حسي وألم نفسي وليس لهم من دون
 الله منقذ أو مدافع يحميهم من عذابه الأليم ، ثم بين الله تعالى أثر حيرتهم ويأسهم على
 وجوههم فقال :

(كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا) :

فإن زيادة آلامهم وشعورهم بالمذلة قد جعل وُجُوهُهُمْ كأنها مغطاة بقطع متراكمة من
 الليل المظلم لفرط سوادها وشدة ظلمتها « وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ »^(١) .

(أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : أى أولئك الموصفون بالصفات الذميمة السابقة أصحاب النار المستحقون لها فهي مقصورة عليهم لسوء فعلهم جزاءً وفاقاً :

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(فَزَيَّلْنَا) : فرقنا وفصلنا .

التفسير

٢٨ - (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ) :

تعرض الآية الكريمة وما تلاها مشهداً من أهوال البعث والنشور « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ^(١) إذ ينساق الخلائق إلى موقف الحشر من مشركين وما عبدوه من دون الله ومن غيرهم لا يتخلف منهم أحد ، وفي حشر المشركين وما يعبدون يقول الله تعالى : « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » ^(٢) فإذا تقدموا سمعوا زجراً عنيفاً حين يقال لهم بأمر الله :

(مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ) : أى الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم للسؤال والجزاء قال تعالى : « وَفَفَوْهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ » ^(٣)

(٢) الفرقان ، من الآية : ١٧

(١) المطففين ، الآية : ٦

(٣) الصافات ، الآية : ٢٤

(فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ) :

أى ففرقنا بين المشركين والشركاء ، أى قطعنا الصلة التى كانت بين العبد ومعبوداتها فى الدنيا ، فقد تبين الحال وخابت فيهم الآمال ، ولم يعد لهم أمل فى شفاعتهم فيئسوا منهم ، وابتعدوا عن اللجوء إليهم ، وقيل إن التفريق بينهم فى الموقف حسى ، والأول هو اللائق بالمقام ، وحينئذ تبرأ الشركاء من عابديهم ، قائلين لهم : ما كنتم تخصوننا بالعبادة فى الحقيقة ، بل كنتم تعبدون شهواتكم وشياطينكم التى دعتكم إلى الإشراك ، وهؤلاء الشركاء المتبرئون إما أصحاب عقل وإدراك كالملائكة والبشر ، وإما غيرهم كالآصنام والكواكب ، أما تبرؤ الأولين من عابديهم فلا يحتاج إلى تأويل ، وأما تبرؤ نحو الآصنام ، فيكون بلسان الحال أو المقال ، بأن ينطقها الله الذى أنطق كل شئ « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » ^(١) .

٢٩- (فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ) :

بَعْدَمَا تَبَرَّأَ الشُّرَكَاءُ مِنْ عِبَادَةِ عَابِدِيهِمْ ، اسْتَشْهَدُوا بِاللَّهِ عَلَى بَرَاءَتِهِمْ مِنْهَا ، قَائِلِينَ : فَيَكْفِينَا اللَّهُ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ عَلَى بَرَاءَتِنَا مِنْ إِشْرَاكِكُمْ ، فَإِنَّا لَمْ نَجْبِرْكُمْ عَلَيْهِ ، وَلَا أَشْرْنَا عَلَيْكُمْ بِهِ وَإِنْ شَأْنُنَا مَعَكُمْ أَنَّنَا كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَنَا غَافِلِينَ : والمراد من الغفلة هنا عدم رضاهم عنها .

(هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ
الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(تَبْلُوا) : تعرف يقيناً ما قدمت .

التفسير

٣٠- (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ) :

أى : فى هذا المكان ، وهو موقف الحساب ، تعرف يقيناً كل نفس مؤمنة أو كافرة ، سعيدة أو شقية ، ما عملت فى الدنيا من خير أو شر ، فتراهما فى كتاب « . . . لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » ^(١) .

وفى قراءة أخرى (تَتْلُو) أى تقرأ صحيفة أعمالها قراءة تعطىها صورة واضحة صادقة لكل ما عملته فى الدنيا « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » ^(٢) .
(وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

أى ورجعوا إلى الله فى الآخرة وعرفوا أنه تعالى هو المالك الحق وحده دون ما اتخذوه من الأنداد والشركاء ، وهكذا غاب وذهب عنهم ما كانوا يدعون زوراً وبهتاناً من الشفعاء والشركاء ، وظهر ضلاله وبطلانه ، فلم يجدوا أحداً ينقذهم ولا ينصرهم من دون الله « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » ^(٣) .

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَرَ ۚ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ
وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢١))

المفردات :

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) : يصرف شأن الكائنات بنظام دقيق وحكمة بالغة .

(١) الكهف الآية : ٤٩

(٢) الإسراء الآية : ١٤

(٣) الانفطار الآية : ١٩

التفسير

٣١- (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) : بعد أن صورت الآيات السابقة مشهداً رهيباً من مشاهد القيامة يهيبُ النفوس للتوبة والإنابة إلى الله ، جاءت هذه الآية وما بعدها تناقش المشركين في قضيه الألوهية أهم القضايا الدينية ، وتضعهم أمام البراهين العقلية الواضحة ، وتحذرهم وتندرهم بعد ذلك من الخروج عن دائرة الحق ، واعلم أن المشركين يؤمنون في قرارة نفوسهم بخالق واحد يصرف الأمور وهو الله تعالى ، ولكنهم يتخذون إليه الشفعاء ليقرّبوهم إليه زلفى ، وقد أمر الله رسوله أن يسألهم سؤال إفحام وإلزام ، ليعدلوا عما هم فيه من الإشراك في العبادة ، فقال له :

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) : وهو سؤال يتناول أموراً حسية تتعلق بكيانكم وحياتكم اليومية وهو الرزق المتجدد من السماء بإنزال المطر ، ومن الأرض بإنبات النباتات وخلق الحيوان وتربيته ، والإمداد بأنواع المعادن المختلفة والمياه الجوفية ، وما تستخرجونه من البحر من أسماك وخيرات ، وما يدرج على الأرض أو يحلق في السماء من أنواع الطيور وغير ذلك من سائر الأرزاق ، فلا شك أن هذا الرزق بأنواعه هو من عند الله تكريماً لكم وحفظاً لحياتكم - كما سيجىء بيانه في آخر الآية :

(أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) : هذا هو السؤال الثانى الذى أمر الله رسوله أن يوجهه إلى المشركين ، أى أخبروني من يملك أداة السمع وما أعد فيها من أسباب إدراك المسموعات ؟ ومن يملك أداة البصر ، وما هيئت به لإدراك المبصرات ؟

وقد جاء لفظ السمع مفرداً ولفظ الأبصار جمعاً لأن السمع يتناول نوعاً واحداً هو الأصوات ، أما الأبصار فتتناول الأحجام والأبعاد والألوان والأشكال ، والسمع والأبصار يدركان الغالبية العظمى من المحسّات .

(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) : هذا هو السؤال الثالث ، أى ومن ذا الذى يملك الحياة والموت فى العالم كله فيخرج الأحياء والأموات بعضها من بعض فيما تعرفون من المخلوقات التى تحدث أو تموت ، وذلك كالإنسان خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون وهو ميت ثم سواه ونفخ فيه من روحه فدبت فيه الحياة ، فهذا

مثل لإخراج الله الحي من الميت وهو الصلصال بعد الحمأ المسنون ، أما الميت يخرجهُ الله من الحي ، فكالجنين يخرجهُ الله من أمه ميتاً ، وكالحيوان يميتهُ الله بعد أن كان حياً ، وقيل في معناه : يخرج المؤمن من الكافر . والكافر من المؤمن . وقيل غير ذلك .

(وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) : أى ومن يقوم بتدبير أمور العالم كله بعد إيجاده ، فسيكون جوابهم أن فاعل ذلك كله هو الله رب العالمين وحده بلا تردد في الجواب ولا تأخير ، إذ لا مجال للمكابرة لوضوح غاية الوضوح ، ولأنهم معترفون به ، ثم يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم تبكيتاً وتوبيخاً بقوله : (فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

أى أتقرون بأن الله هو الرزاق ، وهو الذى يهب السمع والأبصار ويملكهما ، والذى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، والذى يدبر أمر الكائنات بحكمته - أتقرون بذلك - فلا تقون أنفسكم من عذابه بترك عبادة الأصنام التى لاتضر ولا تنفع ، ولا تقدر على شيء من هذه الأمور .

أليس الأجدر بمن يقرون بذلك كله أن يؤمنوا بالله وحده ، وينتقوه ويعبدوه مخلصين له الدين .

(فَذَالِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ
فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا
أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) : أى فكيف تتحولون عن الحق .
(فَسَقُوا) : خرجوا عن طاعة الله ، وأصل الفسق الانسلاخ عن الجلد ، ومنه فسقت الرطبة عن قشرها ، أى انسلخت منه ، والفاجر فاسق لانسلاخه عن طاعة الله .

التفسير

٣٢ - (فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ) : أى فذلکم القادر على الحق المتصرف فيه بأعترافكم هو الله المربى لكم على موائد كرمه ، الذى تتوالى عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، الحق الجدير بأن يعبد وحده دون شريك .

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) :

فى هذا تقرير بأن المعبود الحق واحد لا يتعدد وضده الباطل ، ولا وسيط بينهما . فلا يجتمع الإيمان والشرك فى قلب واحد . وهذا استفهام للنفي والتوبيخ .

والمعنى إذا كان الله هو الرب الحق وانصرفتم عن إفراده بالعبادة فليس بعد ترك الحق إلا الضلال ، وهو إشراك الأصنام مع الله فى العبادة ، وهو أمر لا يختاره عاقل .

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) . يعنى إذا عرفتم هذه الأمور الواضحة فكيف تنصرفون عن عبادة الله ، وكيف تتحولون عن الحق إلى الضلال بعد العلم بأنه هو الرازق المحيى المميت المدبر للأمر كله .

٣٣ - (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) : أى وكما ثبت أن الحق ليس بعده إلا الضلال أو كما ثبت أنهم انصرفوا عن الحق بعد معرفته وجب وثبت حكمه تعالى على الذين تمردوا على طاعته أنهم لن يكونوا مؤمنين ما داموا مصهرين على ما هم عليه ، والمقصود من الآية أن الله يتخلى عنهم فلا يعينهم على الإيمان ، فمن بعد عن الله بعد الله عنه ، « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ » ^(١) والمراد من كلمة (الله) حكمه وقضاؤه كما تقدم فى بيان المعنى .

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتِ تُؤْفَكُونَ) (٣٤)

المفردات :

(أَنْتِ) : كيف .

(تُؤْفَكُونَ) : أى تصرفون عن الحق إلى الباطل .

التفسير

٣٤- (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) : بعد أن احتج الله على المشركين بما سبق بيانه ، جاءت هذه الآية تحكى احتجاجاً آخر على ثبوت التوحيد وبطلان الإشراك ، بإظهار كون الشركاء لا يتصفون بصفات الإله الحق .

والمعنى : قل لهم أيها الرسول سائلاً إياهم على سبيل الإنكار والتوبيخ والإلزام ، هل يوجد من بين هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء لله فى العبادة من له القدرة على بدء الخلق ثم إعادته بعد الفناء ؟ ولما كان هذا السؤال مما لا يجيبون عليه لإنكارهم البعث والمعاد : أمر الله رسوله أن يبين لهم من يستطيع ذلك وهو الله تبارك وتعالى فقال :

(قُلِ اللَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) : لأنه هو القادر وحده على البدء باعترافهم ، ومن قدر على البدء ، فهو قادر على الإعادة ، كما قال تعالى : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »^(١) وفى قوله تعالى (ثُمَّ يُعِيدُهُ) تهديد بالعقاب لهم يستدعى التفكير فى التوبة من الشرك .

(فَأَنْتِ تُؤْفَكُونَ) : أى إذا ثبت أن الله هو القادر على البدء والإعادة فكيف تعدلون به غيره فتتقلبون من الحق إلى الباطل ، وتتركون التوحيد إلى الشرك إن فعلكم هذا لعجيب لا يصح أن يكون .

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي
لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا
أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(يَهْدِي) : يهتدي ..

(يُهْدَى) : أى إلا أن يهديه الله تعالى .

التفسير

٣٥- (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ) : هذا احتجاج آخر على حَقِّيَّة التوحيد وبطلان الشرك ، جيء به إلزاماً بعد إلزام ، والمعنى قل لهم أيها الرسول هل من هؤلاء الشركاء من يستطيع أن يرشد عابديه إلى الحق ببيانه أو بإلهامه وتوفيقه ؟ وهو أقل صفات الألوهية ، فإذا قالوا : لا . ولا بد لهم من ذلك : فقل الله وحده يهدي ويرشد إلى الحق بالأدلة والبراهين ، وبالإلهام والتوفيق ، وبإرسال الرسل وإنزال الكتب قال تعالى : « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا » ^(١) .

(أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) : أى إذا كان الله هو الحق وهو الذى يهتدي إلى الحق وحده فهل الذى يهتدي إلى الحق أولى بالاتباع ، أم الآلهة الذين عبدتهم من دونه وهم لا يهتدون إلى مقصد من المقاصد إلا أن يهتديهم الله إليه ، ولا شك أن جواب هذا السؤال يتعين عند العقلاء أن يكون : من يهتدي إلى

الحق - وهو الله - أحق بالاتباع والعبادة من هؤلاء الشركاء العاجزين عن الاهتداء إلى المقاصد إلا بهدأته لو أراد جل وعلا ، وكما أنه لاوجه للموازنة بين القادر والعاجز ، ولابين القوى والضعيف ، فكذلك لاوجه للمقارنة بين الهادى وبين من يحتاج إلى الهداية ، ولذا عقبه بما يفيد التعجب من حالتهم ، وذلك فى قوله تعالى : (فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) : أى فما الذى حملكم على اتخاذكم هؤلاء شركاء لله سبحانه وتعالى وكيف تحكمون هذا الحكم الجائر وأنتم تعرفون بطلانه ؟

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾)

التفسير

٣٦- (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا) : بعد الأسئلة السابقة والأجوبة عليها التى دلت على حقيقة التوحيد وبطلان الشرك : جاءت هذه الآية توضح سبب خطئهم فى اعتقادهم وهو اعتماد أكثرهم على الظن فى أحكامهم .

والمعنى : وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين فى معتقداتهم وأحكامهم إلا أوهاماً يتوارثونها عن آباءهم وأجدادهم ، دون أن يكون لهم عليها من دليل يدعو إلى الاطمئنان واليقين ، والمراد بأكثرهم جميع المشركين ، فكلهم عقائدهم ظنية ، ناشئة عن أوهام وخيالات ، وقيل الضمير فى أكثرهم للناس جميعاً ، وما يتبع أكثر الناس إلا الظن ^(١) ، ثم بين القرآن الكريم أن الظن لايقوم مقام اليقين الناشئ عن البراهين القطعية فى شئون العقائد فقال :

(إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) : أى إن الظن لا تثبت به الحقائق ، ولا يقوم مقام العلم اليقيني فى الاعتقاد الصحيح المطابق للواقع ولا يغنى عنه شيئاً ، فكيف سميت معبوداتكم آلهة زوراً وبهتاناً وعبدتموهم من دون الله بغير برهان ، وصدق الله إذ يقول فى شأنها : « إِنَّ هِيَ إِلَّا

(١) وعلى هذا فالعبر بأكثر على حقيقته .

أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ^(١) . والمراد هنا من الحق ما ثبت بطريق وحى سماوى ، أو دليل عقلى مبنى على الآيات الكونية ، وقد استدل العلماء بهذه الآية وبما ورد فى قوله تعالى : « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » ^(٢) على أن العلم اليقيني واجب على كل مسلم فى أصول العقائد .

(إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) : أى إنه تعالى واسع العلم فيعلم أفعالهم ، من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق .

وفى الآية إنذار مؤكد لأولئك الجاحدين بأنهم سينالون ما يستحقون من عقاب أليم « وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ » ^(٣) .

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(مَا كَانَ) : ماصح ولا استقام .

(يُفْتَرَى) : يختلق .

(وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) : أى ولكن أنزله تصديقاً للكتب السماوية

التي سبقتة فى أصول العقائد والأحكام قبل تحريفها .

(وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ) : تبیین ماكتب وأثبت فى الكتب السماوية .

(١) النجم من الآية : ٢٧

(٢) سورة النجم من الآية : ٢٨

(٣) سورة البروج من الآية : ٢٠

التفسير

٣٧ - (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ) : بعد أن تناولت الآيات السابقة بالأدلة القاطعة لإثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى ، وقدرته وحكمته وتدبيره ، جاءت هذه الآية وما بعدها تبين استحالة أن يكون القرآن مفترى من عند محمد - صلى الله عليه وسلم - نفيًا لما زعم المشركون .

والمعنى : ليس يصح في شأن القرآن وهو على ما هو من العلو أسلوبًا ونهجًا وغاية ، أن يكون مفترى من عند محمد وأعانه عليه قوم آخرون كما افتراه عليه المشركون ، فإن هذا غير ممكن فهو « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ »^(١) فانظر إليه في أسلوبه ومعانيه واتساق آياته ، وفيما جمع من تشريعات وعقائد وأخلاق وآداب ، وحكم وأمثال وكشوف غيبية وحقائق علمية ، جاءت في أقصى درجات الفصاحة والبلاغة والدقة ، وفي أنماط سامية وآفاق عالية ، فإنك تقطع بأنه لا يقدر على الإتيان بمثله أحد من الإنس والجن « وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »^(٢) وتتأكد أنه من عند الله وحده « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »^(٣) .

(وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) : أى ولكن أنزله الله مصدقًا وموافقًا لما تقدم من الكتب السماوية ، في أصول العقائد والأحكام قبل أن يعتريها التحريف ، مصححًا للعقائد التي عبث بها أهواء القسيسين والأخبار والرهبان حيث ردها القرآن إلى التوحيد الخالص .

(وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَأَرِيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) : أى وأنزله أيضًا تفصيلًا لما أجملته الكتب السماوية السابقة من عقائد وتشريع ومواعظ لأمم شتّى الاجتماع وسنن الله في خلقه وزادها تكميلًا ، فلا محل لأى شك في أنه كلام الله رب العالمين ، الذى تعهد النوع الإنسانى بالتربية والتعليم والهداية .

(١) سورة هود من الآية : ١

(٢) سورة الإسراء من الآية : ٨٨

(٣) سورة النساء من الآية : ٨٢

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتَّبِعُوا سُورَةَ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ
 اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾)

التفسير

٣٨- (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتَّبِعُوا سُورَةَ مِثْلِهِ) :

بعد أن بين الله في الآية السابقة أن القرآن يستحيل أن يفترى على الله ، وبين أيضاً أنه أنزل من عند الله مصداقاً ومفصلاً للكتب السابقة ، جاء بهذه الآية حكاية لزعم المعاندين الجاهلين أن محمداً افتراه ، وتعجبوا من قولهم وردا لفريتهم والمعنى : بل يقولون افتراه محمد عليه الصلاة والسلام واختلقه من قبل نفسه ، قل لهم أيها الرسول الكريم موبخا لهم ومبرهنًا على بطلان مقالتهم : هاتوا سورة مثل آية سورة من سوره حتى يصح زعمكم أن محمداً افتراه على الله ، فأنتم أرباب فصاحة وبلاغة ، وأنتم تعرفون أنه أمي كما قال تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ» ^(١) .

ولم يكن هذا أول ادعاء لهم بالافتراء ، فقد تكرر منهم إذ تحدثوا به أول الأمر فتحداهم القرآن أن يأتوا بمثل القرآن كله فلم يستطيعوا ، وبعد فترة شعروا بقوته تتزايد فعاودوا دعوى الافتراء معاندين ، فعاود القرآن التحدى لافي مثله بل في عشر سور منه فلم يتمكنوا ، وتزايد عليهم العجز وظهروا مفحمين لا يجدون جواباً ، ولكنهم عاودوا بعد فترة زعمهم القديم ، فعاود القرآن لتحديهم هذه المرة أن يأتوا بسورة مثله وهو ما جاء في هذه السورة حتى يلجئهم إلى صمت العاجزين ، وهكذا أثبت القرآن عليهم وعلى أمثالهم العجز العام عن محاكاته ، فمن عسى أن يزعم مثل هذا الزعم اليوم ، فعليه أن يجيب على هذا التحدى وإلا فليطبق فمه ، وليمضغ أكاذيبه ، ومن عجب أن ترى من أعداء الإسلام اليوم من يزعم أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو صاحب القرآن وقائله : رغم هذا التحدى

الدائم : وهكذا كان الإلحاد الجديد صورة منسوخة من الأول القديم وماله عليه من دليل ، وقد بقي القرآن العظيم شامخاً شموخ الجبال الرواسي وتحطمت على صخوره كل مفترياتهم .

(وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) : في هذه الجملة من الآية الكريمة توسع القرآن في دائرة التحدى وطلب منهم أن يستعينوا بمن يستطيعون الاستعانة به بشراً أو آلهة ، وأمهلهم ماشاءوا ولا يزال في تحديه للبشر ، ولكنهم - آخرهم كأولهم - أمام إعجاز بما هو متنوع متفرع ، فمنه الإعجاز اللغوي ومنه العلمى والتشريعى والغيبى ، وكل منها لم يعارض ، ولو كان ممكناً لآتوا بمثله ولكن ظهر عجزهم وبطل ما قالوه ولزمهم الإفحام .

وكلمة (إِنْ) في قوله (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) : تفيد التشكيك في صدقهم ، ليشعروا بهوانهم وبُقصورهم عن شرف الصادقين ، وقوله (مِنْ دُونِ اللَّهِ) يشير إلى أنه لا يقدر عليه سوى الله تعالى .

وصدق الله إذ يقول : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »^(١)

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ
كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الظَّالِمِينَ (٣٩))

التفسير

٣٩ - (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) :

لما ظهر عجزهم عن الإتيان بسورة مثله وتبين أن ما قالوه باطل لا وجه له من الصواب بين في هذه الآية ما حملهم على تكذيب القرآن المشتغل على الحق الذى لا غاية وراءه .

والمعنى : أن هؤلاء الكفار لم يحكموا على القرآن بأنه مفترى من دون الله بمقتضى برهان يؤدي إلى ما ذهبوا إليه ، بل كذبوا بكتاب عظيم من غير إحاطة بعلم ما فيه ولا تدبر لمعانيه ، ولا وقوف على ما جاء به من الأدلة الشاهدة بصدقه ، من تشريع حكيم ، وآداب وحكم عالية ، وغير ذلك من أسرار إعجازه ، ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أنه صادق وليس بكاذب ، أو المعنى : ولم يبلغ أذهانهم ما فيه من المعاني الدالة على علو شأنه . والمقصود : أن القرآن آية كبرى على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم سارعوا بالتكذيب قبل أن يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه والتعبير بلفظ (لَمَّا) المفيدة لوقوع تأويله مستقبلاً ، للإيذان بأنهم لو تريثوا ولم يسارعوا بالتكذيب ، لأدركوا تأويله ، وعرفوا فضائله ومعانيه السامية ، ولتحققوا من صدقه .

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) :

أى مثل هذا التكذيب الناشئ عن عدم التدبر كذب الذين من قبلهم رسلهم ، فكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوه ، وكان هذا سبباً في أن حل بهم جزاء ما كانوا به يستهزون ، فكانوا سلفاً ومثلاً للآخرين ، يعتبر به كل عاقل ، فانظر يا محمد أنت وأمتك والناس جميعاً مآل الظلم والظالمين ، وصدق الله إذ يقول : « فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ جَاوِسًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصُّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » ^(١) .

(وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ
بَرِيْعُونَ مِمَّا آعَمَلُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾)

التفسير

٤٠ - (وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِۦ) :

أى ومن أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - من سيؤمن بالقرآن وما جاء به ويتخلى عن عناده بعد الإحاطة بعلمه وظهور حقيقته ، ومنهم من يصبر على الكفر والعناد فلا يصدق به فى نفسه كما لا يصدق به ظاهراً ، لفرط عناده وغباوته واختلال تمييزه ، ويجوز أن يكون المعنى : ومن هؤلاء المشركين من قومك من يصدق به فى نفسه ، ولكنه يكفر به عناداً ، ومنهم من لا يصدق به فى نفسه لفرط جهله فيكفر به اعتقاداً .

(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ) : أى وربك يا محمد أعلم بأولئك المفسدين فى الأرض بعقائدهم الزائفة وأعمالهم الفاسدة ، وسوف يجازيهم بما يستحقون : وهذه الجملة وعيد للمصرين على الكفر مع وضوح البرهان .

٤١ - (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ . . .) الآية .

أى وإن كذبتك هؤلاء الكفار - مع علمهم بأنك الصادق الأمين - فقل لهم يا محمد : لى جزاء عملى ، ولكم جزاء عملكم ، فلا أحد منا يتحمل مسؤولية عمل الآخر ، ثم أمر الله - نبيه أن يؤكد هذا المعنى بأن يقول لهم :

(أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آعَمَلُ) : فلا تتحملون مسؤوليته (وَأَنَا بَرِيْعٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) : فلست مسئولاً عنه ، ولعل هذه السياسة تترك أثراً حسناً فى نفوسهم ، يتصاعد شيئاً فشيئاً حتى يستدنى

القلوب ، ويأخذ بالألباب ويرد العقول الشاردة كما قال الله تعالى : « اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَاحُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ »^(١).

(وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(الصُّمَّ) : فاقدى حاسة السمع .

(لَا يُبْصِرُونَ) : أى لا يدركون ببصيرتهم .

التفسير

٤٢- (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ) :

لما ذكر القرآن الكريم فى الآية السابقة ما أمر الله به رسوله من أن يقول للمكذبين : « لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ » معلنا براءته منهم ، بين له هنا مثل الذين فقدوا الاستعداد للإيمان فقال تعالى :

(وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) : أى ومنهم ناس يستمعون إليك عند قراءتك للقرآن وتعليمك الشرائع للناس ، ولكنهم لا يستمعون حقاً ، إذاً لا يتدبرون القول ، ولا يعقلون ما يراد منه ، ولا يفقهون ما يرمى إليه ، وكان شأنهم فى ساعه كما قال تعالى : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ »^(٢) . فلهذا أنزلهم الله منزلة الصم بقوله :

(أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ) : أى أنهم لم يستمعوه استماع تفهم وإقبال ، حيث أغلقوا نوافذ العقل والعلم ، فلماذا اعتبرهم الله صمًا لا يسمعون ، وأنزل على رسوله هذه الجملة معذرا له في عدم استفادتهم من تبليغه .

والمعنى : أفأنت تسمع من فقدوا حاسة السمع ، ولو كانوا مع صممهم لا يعقلون ، كهؤلاء الذين أعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه ، يعنى أن هؤلاء المشركين جمعوا إلى صممهم عدم العقل « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ »^(١) . « إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ »^(٢) .

٤٣- (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ لِيَلِيكَ) : أى يتأمل في شأنك ويعاين دلائل نبوتك ويشاهد عبادتك وسيرتك في حياتك العملية الكريمة ، ومع هذا لا يزال مقيما على عناده مصرا على كفره وتكذيبه .

(أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ) : المراد بكونهم لا يبصرون ، أنهم لا بصيرة في قلوبهم ، ولا تفكير لديهم ، والمعنى : أفأنت تستطيع أن تهدي من فقد البصر فكيف إذا انضم إلى فقد البصر فقدان البصيرة ، والمقصود من الآيتين : أن هداية الدين كهداية الحس لا تكون إلا للمستعد لها ، ولهذا كان لا بد في هداية الدين من هداية العقل ، وهداية العقل لا تحصل إلا بتوجيه النفس وصحة القصد التماسا لهداية الله ، وليس عليك إلا البلاغ كما قال تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ »^(٣) وفي هذا مواساة كريمة من الله لرسوله عليه الصلاة والسلام .

٤٤- (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : لما بين فيما سبق امتناع اهتدائهم لأنهم عطلوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم ، بين في هذه الآية أنه تعالى لم يظلمهم حيث وهب الناس الأسماع والأبصار والعقول وسائر الحواس ، ليصرفوها فيما خلقت من أجله ، وشدد أزر الحواس بالعقل ، وأزر العقل بالهدى عن طريق إرسال الرسل والكتب ، وسخر لهم مافي السموات ومافي الأرض « لَعَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »^(٤)

(٢) الشورى من الآية : ٤٨

(٤) النساء من الآية : ١٦٥

(١) سورة فاطر من الآية : ٨

(٣) البقرة من الآية : ٢٧٢

فلا عذر لأحد بعد ذلك ، ولكن من الناس من عطل مشاعره وقواه ، وصرفها عن استعمالها فيما يهديه ، فظلم نفسه ومجتمعه والإنسانية كلها ، فاستحق من الله الجزاء العادل .

والمعنى : إن الله لا يظلم الناس شيئاً من الظلم حين يعاقبهم يوم القيامة على معاصيهم فقد منحهم سائر القوى التي تمكنهم من فعل الخير وتمنعهم عن الشر ، فصرفوها في غير ما خلقت له ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم حيث استمروا على السيئات الموجبة للتعذيب فكان عقاب الله لهم جزاءً وفاقاً ، فهو عدل من الله تعالى لا ظلم فيه .

وفي الآية إشارة إلى أن عاقبة ظلمهم مقصورة عليهم ، وأن للعبد كسباً وليس مسلوب الاختيار كما زعمت الجبرية ، وفي ذلك يقول الله تعالى « كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » ^(١) .

(وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ
بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾)

التفسير

٤٥ - (وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) :

هذه الآية للتذكير بمقدار ظلم الظالمين المشركين لأنفسهم وخسارتهم في الآخرة بسبب تكذيبهم بها ، وكفرهم بالحساب والجزاء فيها .

والمعنى : وحذرهم أيها الرسول يوم يحشرهم الله ويجمعهم بعد بعثهم من القبور في موقف الحساب والجزاء ، حينئذ يدركون قصر مدة مكثهم في الدنيا كأنها مقدار ساعة قضاؤها وحين يخرجون من قبورهم يتعارفون بينهم ، فلا ينسى أحد منهم من كان يعرفه من قبل ، ثم تنقطع المعرفة عندما يشاهدون أهوال القيامة « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » ^(٢) .

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ) : في هذه الجملة حكم من الله تعالى بخسران المكذبين وتعجب من حالهم حيث لم يستعدوا ليوم الدين بالإيمان وعمل الصالحات المزرئية للنفوس ، وآثروا عليها الدنيا القصيرة الأمد . المليئة بالأكدار ، والتي يرونها يوم الحشر كأنها ساعة من نهار . وقد بين الله تعالى ضلالهم فيما ذهبوا إليه فقال :

(وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) : أى وما كانوا مهتدين إلى الصواب فيما ذهبوا إليه واختاروه لأنفسهم ، من إيثارهم الفانى على الباقي . وهو الأعمال الصالحة التى هى ثمرات الإيمان الصحيح . والعقل من يستعمل عقله ويأخذ حذره . ويختار الأصلاح والأنفع والأبقى ، والمقصود من لقاء الله : حسابه وجزاؤه فى الآخرة قال تعالى : « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (١) .

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ)

التفسير

٤٦ - (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) : أى أن هؤلاء المشركين لن يفلتوا من عقابنا عاجلاً أو آجلاً ، فإمّا أن ننزله بهم فى الدنيا ونريك بعض ماتوعدناهم به من قبل وفاتك ، وإمّا أن نتوفاك فإلينا رجوعهم للحساب والعقاب على ماكسبوا من جرائم ، فتراه ماثلاً أمام عينيك .

(ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ) : هذه الجملة فيها تأكيد للوعيد السابق ، والمراد منها أن أعمالهم محصاة عليهم وأنها معلومة بدقائقها لله تعالى ، فهو شهيد على مايفعلون

فى دنياهم من الشرك والمعاصى ، وأنه لن يفلت أحد من عقابه . والتعبير بـ (ثُمَّ) للإيدان
بسمو شهادة الله عليهم ، وعلو مرتبة علمه بهم ، فإنه لاتفوته صغيرة ولا كبيرة ، وفى ذلك
مافيه من تأكيد الوعيد .

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾)

التفسير

٤٧ - (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ) : أى ولكل أمة من البشر رسول يبعثه الله إليهم ليهديهم
إلى التوحيد ، ويدعوهم إلى دين الحق بشريعة خاصة بهم ، فيها صلاح معاشهم ومعادهم ،
وذلك لأنه سبحانه يعلم قصور العقل البشرى عن إدراك مافيه صلاح أمورهم الدنيوية
والأخروية ، مع وجود الصوارف النفسية والشهوانية التى جبل عليها الإنسان ، وكثيراً
ما تغريهم بالضلال ، فلذلك اقتضت حكمته تعالى أن لا يعذب عباده ، قبل أن يبعث إليهم
رسولا ليبصرهم بعواقب الأمور ، كما قال تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »^(١)
وقال : « لَعَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »^(٢) .

(فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) : أى فإذا جاء كل أمة
رسولهم مويّداً من الله بالمعجزات المثبتة لرسالته ، وانقسموا بشأنه بين مصدق ومكذب
قضى الله تعالى بينهم بالحق وهم لا يظلمون بفوت ثواب أو زيادة عقاب .

(١) سورة الإسراء من الآية : ١٥

(٢) سورة النساء من الآية : ١٦٥

٤٨- (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) :

أى ويقول المشركون من أمتك وغيرهم استبعاداً لوقوع ما توعدهم به الرسل . واستهزاء بهذا الوعيد ، متى يتحقق ما أنذرتمونا به إن كنتم صادقين فى هذا الوعيد .

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩))

التفسير

٤٩- (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ...) الآية .

لما استبعد الكفار وفوق ما توعدهم به القرآن من العذاب ، وكانوا يستعجلونه استهزاء وتكذيب . أمر الله رسوله أن يقول : (لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا) أدفعه عنها ، أو نفعاً أجلبه إليها . لكن ما شاء الله من ذلك وقع ، فكيف أملك إخباركم بالموعد الذى حدده الله لعقوبتكم . أو استعجال وقوعه .

(لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) : أى لكل أمة وقت مضروب لهلاكهم ، إذا جاء هذا الوقت فلا يتأخرون ساعة عنه . ولا يتقدمون . فلا يصح لهم أن يستعجلوه مستهزئين مستنكرين . ولا يمكن أن يجيء قبل أوانه . قال تعالى : « وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؕ أَلَمْ تَكُنْ مِنْكُمْ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

- (أَرَأَيْتُمْ) : أى أخبرونى . (بَيِّنَاتٍ) : أى ليلا ، وقت نومكم وغفلتكم .
 (مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) : أى شىء يستعجل المجرمون من العذاب .
 (أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ) : أى أبعد ما يقع العذاب حقيقة تؤمنون به ، ودخول همزة الاستفهام على (ثُمَّ) : لإنكار تأخيرهم الإيمان إلى وقت وقوع العذاب وتوبيخهم عليه .

التفسير

٥٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا) : أمر الله - تعالى - رسوله أن يبيّن للمشركين على كفرهم واستعجالهم العذاب بأن يقول لهم ما معناه : أخبرونى ما حالكم وما شأنكم إن أتاكم عذاب الله فى ليالكم وأنتم نائمون ، أو فى نهاركم وأنتم غافلون عنه باشتغالكم فى معاشكم .

والمراد : أخبرونى عن حالكم إذا باغتكم العذاب فى أى حال .

(مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) : يعنى أى شىء من أنواع العذاب يستعجله المشركون ؟ وليس شىء منه يقتضى الاستعجال ، فمن له عقل سليم لا يلقى به أن يستعجله ، فإنه موجب للفرار منه ، لا لاستعجاله .

٥١- (أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آ لَآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) :

أى أتستعجلون العذاب متهمين ساخرين ، ثم إذا دهمكم آمنتُمْ به حين: « لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا » ^(١) فالله تعالى ينكر عليهم تأخير إيمانهم إلى الوقت الذى لا يكون فيه إلا الحسرة والندامة قال تعالى : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » ^(٢) .

٥٢- (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) :
أى ثم قيل لهم فى الآخرة إهانة وإذلالاً وتبكيता ، ذوقوا عذاب الخلد فى النار ، هل تجزون هذا الجزاء إلا بسبب ما كسبتمونه فى دنياكم من الكفر بالحق ، وغشيان المعاصى على اختلاف أنواعها ، والإصرار عليها .

والمراد من قوله : (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) : إثبات عدل الله تعالى ونفى الظلم عنه ، ببيان أن إصرارهم على الباطل هو الذى انتهى بهم إلى هذا المصير .

(* وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ) : أى يطلبون منك النبأ وهو الخبر .

(إِي وَرَبِّي) : نعم وحق ربى .

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) : أى وما أنتم بمفلتين من عذاب الله .
 (وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ) : قال أبو عبيدة : معناه وأظهروا الندامة ، وقال غيره :
 وأخفوا الندامة - فهو من الأضداد .
 (بِالْقِسْطِ) : القسط بكسر القاف بمعنى العدل أما بفتحها فبمعنى الظلم وليس له موضع هنا .

التفسير

٥٣- (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ) : لا يزال الكلام متصلا في نقاش الكافرين ، والنبأ : الخبر الهام والاستنباء : طلب النبأ .

والمعنى : ويطلبون منك أيها الرسول أن تخبرهم عن العذاب أحق وصدق هو . وأنهم ملاقوه لا يفوتهم . وهم بسؤالهم هذا لا يريدون الجواب بل يقولونه مستهزئين ، معتقدين أنه وعد باطل . ثم أمر الله رسوله أن يجيبهم فقال :

(قُلْ إِنِّي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) : أى قل لهم أيها الرسول - غير مكترث باستهزائهم - نعم وحق ربى إن العذاب الذى أوعدتموه وأنذرتهم به لحق ثابت لا شك فى وقوعه ، فهو مقدور لله وما أنتم بمفلتين منه .

٥٤- (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ) : أى ولو أن لكل نفس ارتكبت الظلم بعصيان ربها ، لو أن لها جميع ما فى الأرض لقدمته فدية من هذا العذاب إن كان الافتداء يجديها .

(وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ) : أى وأخفوا الندامة على ما فعلوا من الظلم ، ولم يظهروها لا تصبرا ولا تجلدا ، بل لأنهم بهتوا عند رؤيتهم فظاعة الحال وشدة الأهوال التى لم تخطر لهم على بال ، فلم يقدرُوا على النطق بشيء ، أو أنهم كتموها فى أنفسهم لأنهم رأوا أن لا نفع فى إظهارها وقتئذ ، وقيل : معناه وأظهروا الندامة تالما وتضجرا .

(وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) : أى وحكم بينهم بالعدل التام الذى لا ظلم فيه بوجه من الوجوه « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » ^(١)

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾)

التفسير

٥٥- (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . .) الآية .

افتتح الله تعالى هذه الآية بكلمة (أَلَا) لينبّه الغافلين إلى ما جاء فيها من دلائل ربوبيته ، والمعنى : ألا إن لله وحده ما في السموات والأرض من أجزائهما وما استقر فيهما من الكائنات ، له كل ذلك خلقا وملكا وتصرفا ، فلا يشاركه فيه شريك ، وليس لغيره فيه سلطان ، ثم نبه الله عقب ذلك على أن ما وعد به حق فقال :

(أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) : أى كل ما وعد به الله على لسان رسله حق وواقع لا شك فيه ، وفي جملة ذلك البعث والحساب ، فهو القادر الذى لا يخلف الميعاد .
(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : أى ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، لا عن طريق النظر والاستدلال ، ولا عن طريق الكتب السماوية ، فإن معظمهم كفار بذلك عند نزول القرآن .

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾)

التفسير

٥٦- (هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

أى هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة ، وإليه وحده ترجعون يوم القيامة للحساب والجزاء ، ومن شأنه ذلك يجب أن يحذر عقابه العقلاء ، وأن يسارعوا إلى الإيمان بما أنزله على رسوله لهداية عباده .

(يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾)

التفسير

٥٧ - (يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) : جاءت هذه الآية خطاباً لمشركي مكة ، لا ستمالتهم نحو الحق ، بعد تحذيرهم من عاقبة ما هم عليه من الضلال بما تقدم من الآيات التي تنعى عليهم سوء عاقبتهم ، ومع أن الخطاب فيها لأهل مكة ، ولكن الحكم فيها عام لكل من على شاكلتهم من الناس كما يدل عليه لفظ : (يَأْتِيهَا النَّاسُ) حيث عبر به بدلا من يا أهل مكة ، والمراد من الموعظة التي جاءت من ربهم القرآن الكريم ، وقد وصف في الآية بأربعة أوصاف ، وهي أنه موعظة وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين .

والمعنى : يا أيها الناس الذين أعرضتم عن الإسلام ، قد جاءكم من مالكم ومربيكم الرؤوف بكم ، جاءكم منه كتاب يدعوكم إلى الإسلام ، اجتمعت فيه أربع صفات أولها : أنه موعظة وتذكير منه لكم ، فقد عرفكم بالخصال الكريمة ، وحشكم عليها ، وبين لكم حسن عاقبتها ، وكشف لكم عن الخصال الذميمة ونهاكم عنها ، وبين لكم سوء عاقبتها .

وثانيتهما : أنه شفاء لما في الصدور فقد بين الحق وأقام عليه الدلائل والبراهين المطمئنة للنفوس الحائرة ، وبين الباطل وأقام البراهين على بطلانه ووجوب تركه ، ولم يترك مجالا لأمراض الصدور عند العقلاء المنصفين ، فهو لهذا كله شاف لما في الصدور من الأمراض كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الفاسدة ، فكأنه نفس الشفاء .

وثالثها : أنه هدى ، فهو هادٍ إلى طريق الحق واليقين ، بالإرشاد إلى أدلته ، فكأنه نفس الهدى .

رابعها : أنه رحمة للمؤمنين ، فقد نجوا به من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان وانتقلوا به من استحقاق العذاب أيام كفرهم ، إلى استحقاق النعيم المقيم بسبب إيمانهم .
٥٨ - (قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) :

هذه الآية مرتبطة بكل ما جاء في الآية التي قبلها .

والمعنى : قل يا محمد : أيها الناس قد جاءكم القرآن واعظاً لكم وشافياً لصدوركم وهادياً لقلوبكم ، ورحمة للمؤمنين منكم ، وهذا كله بفضل الله - تعالى - وبرحمته ، فبذلك وحده فليفرح الناس جميعاً ، فإنه خير وأبقى مما يجمعون من متاع الدنيا ، فهو زاد الآخرة الذي ليس له فناء ، أما الدنيا ومتاعها فإلى زوال وإلى هباء .

هذا : وقد قرئ : (فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ) بأسلوب الخطاب وهذه القراءة وافقت الآية أسلوب الخطاب الذي جرى في الآية قبلها^(١) .

(١) يلاحظ أن قراءة حفص التي نقرأ بها (فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) جاءت بأسلوب الغيبة على طريق الالتفات من الخطاب في الآية السابقة إلى الغيبة هنا ، وهو لون من ألوان البلاغة في التعبير ، أما قراءة (فليفرحوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) بأسلوب الخطاب فقد جاءت على نسق الخطاب في الآية التي قبلها ، فلا التفتات فيها .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(رِزْقٍ): الرزق في اللغة : ما ينتفع به ، ومعلوم أنه ليس كله نازلا من السماء ، وإنما الذي أنزل من السماء هو التشريع الذي أحله أو أسبابه التي حدث بها كالمطر والهواء وأشعة الشمس ، وعلى هذا فالمراد من إنزال الرزق من السماء هو إنزال تشريعه أو أسبابه ، وفسر بعض العلماء إنزال الرزق بمعنى خلقه ، وعليه فلا إشكال .

التفسير

٥٩- (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ...) الآية .

لما بين الله تعالى فضله على الناس ورحمته بهم بإنزال القرآن الهادي لهم ، شرع يناقشهم فيما حرموه من رزق الله الذي أحله لهم ، ويوبخهم على هذا التحريم المخالف لما شرعه لعباده ، فقال جل ثناؤه :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ...) الآية .

والمعنى : قل أيها الرسول للمشركين الذين يحرمون بعض ما أحل الله للناس من الرزق أخبروني : ما خلق الله لكم من رزق ، أنزل حله في شريعة إبراهيم وإسماعيل ، فجعلتم بعض هذا الرزق حراما ، وحرمتهم منه أنفسهم ، وبعضه حلالا وتناولتموه ، فقد قلتم :

« هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِثُ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ » ^(١) وحرمت البحيرة والسائبة والوصيلة والهامى وقلتم: « مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا » إلى غير ذلك مما حرمتموه وأحللتموه ، مع أنه كله حلال .

(قُلْ آتَى اللَّهُ أِذْنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) : قل لهؤلاء الذين يحرمون رزق الله الحلال ، هل الله أذن لكم في هذا التحريم ، أم لم يأذن لكم ، بل تفترونه عليه ، ثم توعدهم على هذا الافتراء فقال :

٦٠ - (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...) الآية .

الافتراء هو الكذب ، وجمعهما معا في قوله تعالى : (يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ) لإظهار مزيد قبح ما افتعلوه .

والمعنى : وأى شيء ظن أولئك المفترون فيما سيقع يوم القيامة أيحسبون أنهم لا يسألون عن افتراءهم ، أولا يجازون عليه ، أم أنهم يجازون جزاء يسيرا ، ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون كلا إنهم سيلقون أشد العذاب ، لأن معصيتهم أشد المعاصي ، ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا .

(إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) :

إن الله لذو فضل عظيم على الناس جميعا ، حيث أنعم عليهم بالعقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقيبح ، ورحمهم بإنزال الكتب وإرسال الرسل ، ليبين لهم بذلك الأحكام التي لا تصل إليها عقولهم ، وأرشدهم إلى ما يهتدون من أمر المعاش والمعاد ، وأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث ولكن أكثرهم لا يشكرون تلك النعم ، فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم إلى ما خلقت له ولا يتبعون دليل العقل فيما يستقل به ، ولا يتبعون دليل الشرع فيما لا يدرك إلا به ، مع أنه قد بين لهم ماسيلقونه يوم القيامة إن أعرضوا عن الحق ، ولكنهم لا يلتفتون إليه .

(١) راجع تفسير الآيتين ١٣٨ ، ١٣٩ من سورة الأنعام والآية ١٠٣ من سورة المائدة .

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ
مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ
عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ
مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾)

المفردات :

- (فِي شَأْنٍ) : في أمر تقصده . (كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا) : كنا رقباء مطلعين عليكم .
(تُفِيضُونَ فِيهِ) : تخوضون وتندفعون فيه ، وأصل الإفاضة الاندفاع بكثرة أو بقوة .
(وَمَا يَعْزُبُ) : ولا يغيب . (مِثْقَالِ ذَرَّةٍ) : المِثْقَال ، الوزن ، والذرة : النملة والهباء ^(١) .
(كِتَابٍ مُبِينٍ) : المراد به اللوح المحفوظ أو هو كناية عن علمه تعالى ، ومعنى مبين بين واضح .

التفسير

٦١ - (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ...) الآية .

جاءت هذه الآية إثر بيان دعوة المشركين إلى الإيمان بالقرآن ، والفرح بما جاء فيه من آيات الحق ، ليبين أن الله يعلم حال الرسول مع قومه في تبليغهم أمر ربه ، وحال قومه معه في شأن ما دعاهم إليه وأنه سيجازي كلا حسب حاله .

والمعنى : وما تكون يا محمد في شأن من شئون الإسلام ، وما تتلو من شأنك هذا من قرآن ، ولا تعملون من عمل يا أيها الناس الذين بلغنكم دعوته ، واستمعتم منه قرآن ربه ، إلا كنا عليكم رقباء وحافظين ، حين تخوضون في شأن هذا القرآن وتندفعون في حقه بالباطل ، وما يغيب عن علم ربك من شيء في وزن الهباء الدقيق ، سواء أكان

(١) يطلق الهباء على الغبار وعلى ما يشبه الدخان وعلى دقائق التراب ساطعة ومثورة على وجه الأرض قاموس ، وفُسرَت الذرة في المعجم الوسيط بأسفل جزء في عنصر ما .

ذلك الشيء الدقيق في الأرض أو في السماء ، ولا أصغر من ذلك الهباء ولا أكبر منه إلا في علمه تعالى لا يغيب عنه منه شيء فكيف تخفى عليه تعالى أعمالكم ، وكيف يغيب عنه كفركم .

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾
الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(أَوْلِيَاءَ اللَّهِ) : أولياء : جمع ولي ، ومن معانيه لغة القريب ، وقد أطلق الأولياء في عرف القرآن على المؤمنين الصادقين ، لقربهم الروحي من الله تعالى .
(الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) : البشرى : مصدر أريد به المبشر به ، وبشرى الحياة الدنيا خيراتها العاجلة كالنصر والفلاح والغنيمة وغير ذلك ، وبشرى الحياة الآخرة ما أعد لهم فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

التفسير

٦٢ - (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) :

قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ تَوَعَّدَ اللَّهُ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ بِمَا أَشَارَ إِلَيْهِ مِنْ عَقُوبَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَوْلِهِ : (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) : وَعَقَّبَ ذَلِكَ بَبَيَانِ أَنَّهُ تَعَالَى مُطْلَعٌ عَلَى جَهْدِ نَبِيِّهِ فِي أُمَّتِهِ ، وَعَالِمٌ بِمَا أَفَاضَ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ نَحْوَ دَعْوَتِهِ ، مُشِيرًا بِذَلِكَ إِلَى أَنَّهُمْ سَيَجْزُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى كُفْرِهِمْ سُوءَ الْجَزَاءِ ، وَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَمَا بَعْدَهَا ، لِتَطْمَئِنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَتُبَشِّرَهُمْ بِالْخَيْرِ الْعَمِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقَدْ صَدَرَتْ الْآيَةُ بِحَرْفِ التَّنْبِيهِ وَهُوَ (أَلَا) لِمُسْتَرَعَاءِ انْتِبَاهِهِمْ إِلَى مَا بَعْدَهُ مِنَ الْبَشَائِرِ الْإِلَهِيَةِ الْعَظِيمَةِ ، كَمَا أَكَّدَ مَضْمُونُهَا بِحَرْفِ (إِنَّ) وَبِالْجُمْلَةِ الْإِسْمِيَةِ .

والمعنى : أن أحباء الله المقربين إليه بالإيمان والعمل الصالح لا خوف عليهم في الدنيا من قضاء أعدائهم عليهم ، فقد مكن لهم في الأرض ، وآتاهم فيها العزة كما قال سبحانه : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » ^(١) ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة كما بشر به النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا مجال للخوف عليهم في دنياهم ، ولئن أصاب منهم أعداؤهم في بعض المواقع ، فإن الدائرة بإذن الله ستكون لهم عليهم ، فهم في ظل رعاية الله وحمايته ، ما داموا على طاعته والإعداد لنصرة دينه « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » ^(٢) وبالجمله فإنه لا يعترهم في دنياهم ما يوجب الخوف عليهم ما داموا على ولاية الله والتقرب إليه بالتقوى والاستقامة ، والحذر من الأعداء ، والتأهب لدفع عدوانهم بما استطاعوا من قوة ، وكما أنهم لا خوف عليهم في دنياهم فلا خوف عليهم في أخراهم ، فهم في الدنيا دائمو الخشية من الله ، يؤدون ما كلفهم به من الطاعات ، وينتهون عما نهي عنه من المنهيات ، ويستصغرون ما أدوه نحوه من حقوق العبودية ، ويجتهدون في تجريد أعمالهم من الرياء ، ويرجون منه الفضل بالقبول ، ومن كان هذا شأنهم فإنهم لا خوف عليهم أيضاً في أخراهم . وكما أنهم لا خوف عليهم في الدارين فإنهم لا يحزنون فيهما على فوت رغبة من رغائبهم ، فإنه تعالى منحهم نعمة الطاعة والرضا في دنياهم ، فإن أقيمت عليهم النعمة والصحة والأمن والرخاء حملوا وشكروا ، وإن فاتهم ذلك أو بعضه رضوا وصبروا ، ومن عليهم في أخراهم بجنة عرضها السموات والأرض ينعمون فيها بنعيم مقيم يفوق أعمالهم ، ولا ترقى إلى مثله آمالهم ، فهو فوق ما كانوا يؤملون ويتصورون ثم عقب الله هذا الوعد الكريم لأوليائه ببيان صفتهم التي تحقق ولايتهم فقال :

٦٣ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) :

أي أن أوليائه تعالى هم الذين آمنوا بكل ما جاء من عنده ، وواظبوا على تقواه - فلا يفعلون إلا ما رضى عنه الله ورسوله ، ولا يتركون طاعة من طاعاته ، فأمرهم دائر بين واجب ومسنون ، أما المباحات فهم يمارسونها بقدر ما يعينهم على طاعة الله وكثيراً ما أغفلوها

(١) سورة المنافقون ، من الآية : ٨

(٢) سورة الحج ، من الآية : ٤٠

وإن أحل لهم فعلها ، وإن فعلوها فلا ينقص فعلها من ولايتهم « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ومن هذا النص الكريم ، نعلم أن الولاية ليست بالادعاء ولا بالتزوي بزى الزاهدين مظهرًا ، ولا بالعقل المسلوب ، واللعب السائل ولا بالإسراف في الزهد ، ولكنها بالإيمان الصادق ، والطبع الصافي والاختيار الكامل حتى يتقرب ربه باختيار وكسب وإرادة ، أما أولئك الذي يدعون أنهم مستغرقون في الذات العلية ، وأن التكاليف سقطت عنهم ، لأنهم جذبوا إلى حضرة الله فسقطت عنهم التكاليف ، فلذلك لا يشعرون بما يصنعون من حلال ومن حرام ، فهم شياطين يتخذون من هذا الزعم وسيلة لغشيان المحرمات وفعل المنكرات ، وكذلك ليس من أولياء الله مسلوبو العقول ولا من يلبسون المرقعات ، ويحملون العصي الطويلة ، ويلبسون المسابح لإيهام السذج والمغفلين أنهم من أهل القرب والوصول ، فهؤلاء شياطين سفاحون هاربون من السجون أو دجالون يسلبون الأموال ، فاحذروهم أيها المؤمنون فأولياء الله عقلاء ، أطهار الظاهر والباطن ، عرفوا بالصدق في طاعة الله ، والإقبال عليها في غفلة الغافلين ويقظة المتيقظين ، في غير تصنع ولا نفاق سواء أظهرت على أيديهم الكرامات أم لم تظهر ، فأصحاب رسول الله أولياء الله ، مع أنهم لم تظهر على أيديهم من الكرامات إلا القليل .

وبالجملة فأولياء الله تعالى هم الذين تولى الله هدايتهم فأقبلوا على عبادته والدعوة إليه ، وهم الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم ، فعن سعيد بن جبير أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سئل من أولياء الله ؟ فقال : « هُمُ الَّذِينَ يُذَكِّرُ اللَّهُ بِرُؤْيَتِهِمْ » . أي بمظهرهم الصالح ، ومخبرهم النقي وإخبارهم إلى الله ، وسكينتهم وتواضعهم .

٦٤ - (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ...) الآية .

لما وعد الله تعالى أوليائه بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ووصفهم بقوله : (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) . جاءت هذه الآية لتبشرهم بما يسرهم في الدارين .

والمعنى : أن هؤلاء الأولياء الموصوفين بالإيمان والتقوى ، لهم البشرى في الحياة الدنيا والآخرة ، والمراد بالبشرى في الدنيا ما وعدوا به من الخيرات العاجلة التي ينالونها في دنياهم ، كالنصر والفتح والنعم التي تدفقت عليهم من الفتوحات والغنائم ، والاشتغال

بالتجارة والزراعة ، وغير ذلك من النعم الدنيوية التي أغدقها الله عليهم بولعائهم وتقواهم وجهادهم في سبيل الله ، وسعيهم في جلب أرزاقهم ومن البشرى فيها أن يكونوا مرهوبين من أعدائهم ، ومحبوبين من أوليائهم ، ومنها الرؤيا الصالحة في النوم يراها المؤمن أو ترى له ، والبشرى عند الموت ، حيث تأتيهم الملائكة بالرحمة ، كما قال تعالى : « تَنْزِيلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ^(١) » . وكما أن لهم البشرى في الحياة الدنيا فلهم البشرى في الآخرة بأن تتلقاهم الملائكة مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ، وبياض وجوههم ، وإعطائهم صحائفهم بأيامهم وما يقرؤونه فيها مما أعده الله لهم من نعيم الجنة ، وانتهاء تلك البشارات وأضرابها إلى غاية الغايات وهي الجنة وما فيها من نعيم مقيم .

(لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) : أى لا تبديل لأقواله التي من جملتها بشاراته للمؤمنين المتقين : ذلك الذي بشروا به في الدارين هو الفوز العظيم الذي لا غاية وراءه .

(وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ^(١٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ^(١٦))

المفردات :

(الْعِزَّةُ) : الغلبة والقهر .

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) : ما يتبعون إلا التوهم .

(يَخْرُصُونَ) : يكذبون . وهو في الأصل بمعنى يقدرّون بالاجتهاد الجزافي وكثيراً ما يحدث فيه الخطأ ، فلذا يطلق على الكذب مجازاً وهو المراد هنا .

التفسير

٦٥- (وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) :

الخطاب هنا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتسليته عما يعتريه في بعض الأوقات من حزن ، بسبب ما يجده من قومه من التكذيب والمعارضة والتآمر عليه ، بعد أن طمأنه الله على أوليائه المؤمنين بأنهم لا خوف عليهم من المكاره ، ولا هم يحزنون على فوت بعض الرغائب . والمعنى : ولا تحزن أيها الرسول بسبب ما قالوه فيك من التكذيب والتآمر على إبطال أمرك ، ووصفك بالسحر والشعر وغير ذلك مما لا خير فيه .

(إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

هذا تعليل لنهي عن الحزن ، أي لا تحزن لما قالوه في شأنك ، فإن الغلبة والقهر في الأرض والسماء لله ، إذ لا يملك أحد من أمرهما شيئاً لا هم ولا غيرهم ، فهو يقهرهم ويعصمك منهم ، ويهزمهم وينصرك عليهم ، لأنه تعالى هو السميع لكل مسموع ، العليم بكل معلوم ، فلا يخفى عليه شيء من مؤامراتهم ، فهو بإحباطها كفيلاً ، وقد تحقق ما أشارت إليه الآية الكريمة ، من إحباط مؤامراتهم ، ونصر الرسول عليهم ، وذلك من المبشرات التي عجلها الله لرسوله وللمؤمنين معه في الدنيا ، والحمد لله رب العالمين .

٦٦- (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) :

في هذه الآية تأكيد لما مر من البشارات ، ومن أن العزة لله جميعاً ، والمراد ممن في السموات والأرض ، العقلاء وهم الملائكة والإنس والجن وتخصيصهم بالذكر للإيذان بأن غيرهم أولى بملكية الله تعالى .

والمعنى : أن الله تعالى يملك من في السموات والأرض من الملائكة والجن والإنس مع شرفهم وعلو مكانتهم ، فهم جميعاً مملوكون له ومقهورون بسلطانه ، وعبيد لمشيئته ، وكذلك

جميع كائناته ، فهي أيضاً تحت قهره وسلطانه ، فإنه إذا كان العقلاء مملوكين له ، وخاضعين لإرادته فما سواهم مما خلق لأجلهم ، مملوك له ، وناشئ عن قدرته ومشيئته ، وتابع لتدبيره وإرادته ، ولم يصرح هنا بدخول غير العقلاء في دائرة ملكية الله ، لأنه مفهوم بالأولى وغير محتاج إلى التصريح به ، فضلاً عن أنه مصرح به في كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ . . . »^(١) ويجوز أن تكون (مَنْ) في قوله تعالى : (مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) عامة للعقلاء وغيرهم ، كما في قوله تعالى : «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ»^(٢) .

وبعد أن بين ملكيته تعالى لأهل السموات والأرض ، عقب ذلك ببيان خطإ الكافرين في عبادة غيره فقال :

(وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ) : أى وما يتبع الذين يعبدون غير الله شركاء له على الحقيقة ، فإنها مملوكة له تعالى ولا شركة لها معه في شيء ، فلا تستحق أن يشركوها به في العبادة .

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) : أى ما يتبع هؤلاء المشركون في عبادة غير الله تعالى إلا توهمهم الباطل أنه شريك له ، دون أن يكون لهم على شركته له برهان عقلى أو نقلى ، وما هم في جعلهم شركاء له إلا يكذبون .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٧))

المفردات :

(لَتَسْكُنُوا فِيهِ) : لتطمئنوا وتستقروا فيه بعد حركتكم بالنهار .

(مُبْصِرًا) : مضيئاً لتحركوا فيه وتهتدوا في ضوئه إلى حوائجكم . ونقل القرطبي عن قطرب أنه قال : أظلم الليل أى صار ذا ظلمة ، وأضاء النهار وأبصر ، أى صار ذا ضياء وبصر - يقصد صاحب ضياء وبصر من الناس فيه .

التفسير

٦٧ - (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) :

بعد ما بينت الآية السابقة عقيدة المشركين في إشراكهم بالله ما لا يملك شيئاً من السموات والأرض التي يختص بملكها الله ، وأوضح أنهم ليس لهم على ألوهيتها دليل بل يتبعون الوهم ويكذبون ، جاءت هذه الآية لتؤكد خطأهم في الإشراك بالله وتقرر ما تقدم من اختصاص الله بملكه للسموات والأرض ومن فيهما ، وأهليته لإفراده بالعبادة .

والمعنى : هو الذي أبدع لكم الليل وجعله مظلاً لتسكنوا فيه وتستريحوا من متاعبكم بهاراً ، وأبدع لكم النهار وجعله مضيئاً لتحركوا فيه لمصالحكم .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) :

إن في هذا التدبير الحكيم في شأن الليل والنهار ، لآيات عظيمة على وحدانية الله تعالى واستحقاقه وحده للعبادة ، فوق ما مر من آياته جل وعلا ، وهذه الآيات مسوقة لمن يسمعونها سماع تعقل وتدبر فينتفعون بها ولا يتشبثون بأوهام الشرك الواهنة ، أما أولئك الذين يعرضون عن سماعها أو يسمعونها ولا يتدبرون فيها فلا سبيل لهم إلى الانتفاع بها ، والانتقال من الضلال إلى الهدى .

(قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنْ أَلِدِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمْ
الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا) : ليس عندكم من حجة عليه .

التفسير

٦٨ - (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ) :

الظاهر أن الضمير في : (قَالُوا) يعود على المشركين الذين سبق الحديث عنهم من أول السورة إلى هنا ، ويؤيده أن السورة مكية والنقاش في السورة المكية مع المشركين ، أما مع أهل الكتاب فإنه بدأ في المدينة حيث يوجد اليهود ، ومن المفسرين من جعله شاملا لكل من اعتقد البتة لله ، فيدخل فيهم المشركون واليهود والنصارى ، وغيرهم ممن على شاكلتهم والولد يشمل الذكر والأنثى ، ويطلق على الواحد والجمع ، وقد زعم المشركون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » ^(١) . وفي زعمهم هذا يقول الله منكرًا عليهم : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِتُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » ^(٢) . وزعم اليهود أن عزيزاً ابن الله ، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله ، ولغير هؤلاء مزاعم تشبههم ، فنزلت الآية لإبطال مزاعمهم .

(١) الإسراء آية : ٤٣ .

(٢) الزخرف آية : ١٩ .

والمعنى : قال الكافرون : اتخذ الله ولدا وجعله له ابناً ، سبحانه وتنزيهاً له عن ذلك الزعم الباطل ، هو الغنى على الإطلاق ، فأى حاجة له إلى التنبى ؟ ثم شرع يفند زعمهم بقوله :
(لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) : أى له تعالى كل ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وتصرفاً ، وفي جملة ذلك من زعموه له ولداً ، ومن كان كذلك فلا حاجة له إلى ولد ، ثم بين أنهم لاجحة لهم فيما زعموا ووبخهم عليه فقال :

(إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) : أى ما عندكم من حجة بهذا الزعم ، والعاقل لا يعتقد إلا ما قامت عليه الحجة ، أيليق بكم أن تقولوا على الله الذى له ملك السموات والأرض ما لا تعلمون صدقه ، ولا تقوم به حجة ، ثم أمر الله رسوله أن يهددهم على هذا الافتراء فقال :

٦٩ - (قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) :

قل أيها الرسول للذين زعموا أن الله اتخذ ولداً ، مبيناً لهم سوء عاقبتهم ، ووخامة منقلبهم : إن الذين يخلقون على الله الكذب بمثل مزاعمكم المستحيلة لا يفلحون ، فلاهم ينجون من مكروه ولاهم يفوزون بمطلوب ، فالنار مشواهم ، والجنة حرام عليهم ، وإلى هذا المصير يشير قوله تعالى :

٧٠ - (مَتَاعُ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) :

أى لهؤلاء المفترين على الله تمتع قليل في الدنيا ، فإنهم إليه راجعون مهما طال مكثهم فيها ثم يذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم الذى أصروا عليه في دنياهم .

(* وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧٦﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَتَبَيَّنَتْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(نَبَأُ نُوحٍ) : النبأ ؛ الخبر الذي له شأن وخطر .

(كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي) : شق وعظم عليكم قيامي ووجودي بينكم .

(فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ) : إجماع الأمر ؛ العزم عليه ، تقول أجمعت الأمر وأجمعت عليه أي عزمته وأردته بهمة ومضاء عزيمة ، والصيغة الأولى أفصح من الثانية وقال أبو الهيثم : أجمع أمره جعله مجموعاً بعد ما كان متفرقاً .

(غُمَّةً) : أي مستورا ، من غمه إذا ستره .

(اقْضُوا إِلَيَّ) : أي أدوا إلي الأمر الذي تريدونه بي . (وَلَا تُنْظِرُونِ) : ولا تمهلوني .

(تَوَلَّيْتُمْ) : أعرضتم عن تذكيري . (مِنَ الْمُسْلِمِينَ) : من المنقادين لحكم الله لا أخالف

أمره . (الْفُلِّ) : السفينة .

التفسير

٧١- (وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ) :

أى واتل أيها الرسول على المشركين من قومك ومن على شاكلتهم من سائر الكفار ، اتل عليهم خبر نوح مع قومه الذين هم على شاكله قومك في الكفر والعناد ، فإنه خبر ذو شأن وخطر عظيم فلعلهم بتلاوته عليهم ، يتدبرون مافيه من زوال ما تمتع به قوم نوح من النعم ، وحلول عذاب الفرق بهم الموصول بعذاب الآخرة ، لينزجروا عما هم فيه من الكفر ، فإنه خبر صادق موافق لما ذكرته الكتب السماوية عنه ، شاهد بصحة نبوتك ، فإنهم يعلمون أنه لا سبيل لك إلى علمه إلا بطريق الوحي . والمراد من نبأ نوح مع قومه ، بعض أخباره معهم لا كلها ، فالموجود منها هنا موجز يسير لقصد العبرة .

(إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ ...) الآية .

أى اذكر لقومك نبأ نوح حين قال لقومه مهتدداً ومتوعداً لهم بعد ما عاناه منهم من الإعراض والإصرار على التكذيب ، وبذل الجهد الطويل المديد في الوعظ والتذكير ، اذكر لهم حين قال نوح لقومه بعد ذلك كله : يا قومي إن كان قد عظم وشتق عليكم . قيامي ومكثي بين ظهرائكم وتذكيري لكم بآيات الله الذي كان سبباً في كراحتكم لوجودي بينكم فعلى الله وحده توكلت ، وعلى حمايته وحفظه لى من شركم اعتمدت . فاعزموا أمركم في شأني ، ووجدوا كيدكم لى ، واجعلوا معكم شركاء فيما تريدون لى . واحتشدوا فيه على أى وجه يمكنكم ، ثم لا يكتفون أمركم الذى تدبرونه لى مستورا مقصورا عليكم ، بل اكشفوه وجاهروا به ولا تخشوني ، فإن السر إنما يضران ، لمنع الخلاص من المكروه بالهرب ونحوه وذلك لا مجال لى فيه ، فأنا واحد وأنتم أمة : فكيف أستطيع الخلاص من كيدكم كما تتوهمون ، ثم أوصلوا إلى كيدكم واتجهوا به نحوى ولا تمهلونى . فلن يصل إلى من أذاكم قليل ولا كثير فقد اعتصمت بالله وتوكلت عليه ، «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»^(١) .

ولا ترى أبلغ من ذلك فى الثقة بنصر الله ، والسخرية من أعدائه الغافلين عن عظمة الله وحمايته لأنبيائه وأوليائه .

٧٢- (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ...) الآية :

لايزال كلام نوح مع قومه متصلا .

والمعنى :فإن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري لكم ، بعد ما بينته من أننى لا أخاف من أذاكم ولا أذى آلهتكم المزعومة ، وأننى فى حرز حصين من حماية ربى ، فلا سبيل لكم إلى إهلاكى فإن أعرضتم بعد ذلك كله فما سألتكم على وعظى وتذكيرى لكم من أجر قل أو أكثر ، حتى يودى ذلك إلى توليكم ، أو حتى يضررى توليكم بالحرمان ، فما سألتكم على التبليغ من أجر فما أجرى إلا على الله ، فلا وجه لإعراضكم عن الحق ، وقد أمرت من الله بأن أكون من المسلمين أى المستسلمين الخاضعين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره ، ولا أدعو إلى عبادة سواه ، فدعوا إعراضكم وأسلموا لله وحده كما أسلمت . ولكن قومه لم يستجيبوا له ، وأصرروا كعادتهم على التكذيب فعاقبهم الله وذلك ما حكاه الله بقوله :

٧٣- (فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا

بآيَاتِنَا ...) الآية :

أى فأصروا على التكذيب بعد ما ألزمهم الحجة ، وأوضح لهم الطريق المأمون ، وقضى معهم دهماً طويلاً فى النصيح والإرشاد ، فنجاه الله تعالى من الفرق بالطوفان الذى عوقب به قومه . ونجى من كان معه فى السفينة التى صنعها بأمر الله وإرشاده ، وهم الذين آمنوا ببرهم واستجابوا له وكانوا عدداً قليلاً وجعل الله هؤلاء المؤمنين من قوم نوح خلائف لقومهم المكذبين . وأغرق الذين كذبوا بآياته تعالى ، جزاء لهم على كفرهم وعنادهم ، ثم أمر الله بالتأمل فى عاقبتهم الوخيمة فقال :

(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ) :

والخطاب هنا لكل ذى عقل سديد ، والمعنى : فانظر أيها العاقل وتأمل لتعرف منه أن بطش الله بالكافرين شديد لا قبل لأحد به ، وفيه تحذير لمن كذب رسول الله ، وتسلية له - صلى الله عليه وسلم - .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) (٧٤)

التفسير

٧٤ - (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) :

ثم أرسل الله من بعد نوح رسلاً كراماً كثيرين إلى أقوامهم ، لكل قوم رسولهم الخاص بهم ، فجاءهم بالمعجزات الواضحة الدالة على صدقهم في التبليغ عنه سبحانه ، فما حدث لقوم من أقوامهم أن يؤمنوا في آخر دعوته بما كذبوا به من قبل في أول دعوته ، فلم ينفعهم دوام " تذكيرهم " ولا تواتر البينات الظاهرة والمعجزات الباهرة عليهم .

ويجوز أن يكون معنى (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ) : فما كانت كل أمة منهم لتؤمن برسولها بسبب تعودهم تكذيب الحق قبل بعثة رسولهم الخاص بهم إليهم ، فقد كانوا في فترات الرسل يسمعون من بقايا الأمم قبلهم أن مرسلين أرسلوا بالتوحيد قبلهم ، فلما عصوا أهلكوا ، فكانوا يكذبون ذلك ، ثم كانت حالتهم بعد مجيء الرسل إليهم ، كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث إليهم أحد .

(كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) : والطبع في اللغة معناه الختم ، وقد استعمل في الآية مجازاً عن التخلي والخذلان حتى صارت قلوبهم كأنها مغلقة ومطبوع عليها .

والمعنى : مثل ذلك الخذلان والتخلي عن معونة هؤلاء الكافرين فيستمرون على كفرهم يتخلى الله ويخذل جميع المعتدين المتجاوزين لحلود الله ، فيبقون فيما هم فيه من عدوان ، وذلك لانهماكهم في البغي والضلال ، وإعراضهم عن الهدى والرشاد ، ولو أنهم تدبروا آياته ، وفتحوا قلوبهم للنظر السديد ، لأعانهم الله وبصرهم فكانوا من المهتدين .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
 بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ
 الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى
 اتَّقُوا اللَّهَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾
 قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا
 الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(وَمَلَئِهِ) : الملأ أشرف القوم .

(لِنَلْفِتَنَّا) : لتصرفنا ، واللفت والفتل بمعنى واحد .

التفسير

٧٥- (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا . .) الآية .

أى ثم بعثنا موسى وهارون من بعد أولئك الرسل الذين تقدموهما إلى فرعون وأشراف
 قومه بآياتنا وعلاماتنا الدالة على أنهما مرسلان منا ، والمراد بتلك الآيات ما مر في سورة
 الأعراف ، من انقلاب العصا حيةً وابتلاعها سحر الساحرين ، وخروج يده من جيبه بيضاء
 من غير سوء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، إلى آخر الآيات التسع التي مر بيانها
 في سورة الأعراف .

وتخصيص ملاّ فرعون بالذكر مع أن موسى وهارون أرسلا إلى باقي أمة فرعون ، لأن
 الحديث كان معهم أولا ، رغبة في إيمان من خلفهم بإيمانهم ، ولم يكتف باندرج قصة موسى
 وهارون من قوم فرعون فيما أجمل من أخبار الرسل بعد نوح ، لاختصاصها من بين سائر

القصص بأحداث هائلة مع ملك جبار ومستبد، ولأنها كانت معروفة إجمالاً للعرب، لأن اليهود كانوا يعيشون بينهم، ثم بين الله ما حدث من قوم فرعون بعد ما دعاهم موسى وهرون إلى الحق المؤيد بالمعجزات، فقال سبحانه :

(فاستكبروا وكانوا قوماً مجرّمين) :

أى فتعالوا عليهما وامتنعوا عن قبول دعوتهما، وكانوا معتادين الإجرام فلذا اجتروا على رفض دعوة الله والكفر بها، ثم فصل الله كفرهم بها نوعاً من التفصيل فقال :

٧٦ - (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحرٌ مبينٌ) :

أى فحين جاءهم الحق من عندنا على لسان موسى وهرون - عليهما السلام - مؤيداً بالمعجزات الباهرات، بادروا إلى ردّها فوراً من غير تدبر، وقالوا إن هذا الذى زعمناه معجزات مؤيدة لرسالتكما، ما هو إلا سحر واضح لا يحتاج إلى جهد فى إثبات كونه سحراً، ثم أخبر الله برد موسى عليهم فقال :

٧٧ - (قال موسى أتقولون للحقّ لما جاءكم) :

أى قال موسى منكراً عليهم بعدما اتهموه بأن معجزاته من قبيل السحر الواضح : أتقولون للحق عند مجيئه إليكم من غير تثبت ولا تفكير (إن هذا لسحرٌ مبينٌ) ولم يذكر فى رده عليهم جملة (إن هذا لسحرٌ مبينٌ) اكتفاءً بعلمها من كلامهم السابق، ثم وبخهم على هذا الادعاء ودلل على فسادهم فقال :

(أسحرّ هذا ولا يفلح السّاحرون) :

أى أسحر هذا الذى جئتمكم به، وكيف يكون سحراً وأتحداكم به وأنا أعلم أنه لا يفلح السّاحرون فلا يفوزون بمطلوب، ولا ينجون من مكروه ولا يثبتون أمام تحدى السّاحرين المتمرسين المتفوقين، كالذين ينتشرون فى أطراف مصر وأرجائها، وكيف يفلح السّاحرون وهم يفترون على الله، والله لا ينصر من يفترى عليه .

ثم حكى الله مقالتهم الواهية لما عجزوا عن رد حجته عليهم فقال :

٧٨ - (قالوا أجتئنا لتلفنتنا عمّا وجَدْنَا عَلَيْهِ آباءنا وتكون لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ) :

أى قال قوم فرعون لموسى : هروباً مما أفحهم به، أجتئنا بدعوى الرسالة عن الله، لتصرفنا

عما وجدنا عليه آباءنا من عبادة فرعون وسائر المعبودات التي ورثناها عنهم ، لكي نعبد إلهك الذي طلبت أن نعبد وحده ، ولكي تكون لك ولأخيك الكبرياء والعظمة في الأرض ، بتولى الملك والرياسة علينا ، فما أضعف حاجتهم ، وما أقصر نظرهم ، فلا ينبغي لعقل أن يحتج بما كان عليه الآباء - فما أكثر ما يكونون عليه من ضلال - ولا أن يتهم من يدعو إلى الله وحده بأنه يدعو إلى الرياسة والملك في الناس .

(وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ) : أى وقال فرعون وقومه لموسى وهرون ولسنا لكما بمصدقين فيما جئنا به من الدعوة إلى توحيد الله وترك ما كان عليه آباؤنا .

ولم يخصصوا موسى بالخطاب مع أنه هو الذى خاطبهم بشريعته ودعاهم إليها ، مبالغة في إقناطه من إيمانهم ، ولما كان لفتهم عما وجدوا عليه آباءهم من خصائص صاحب الشريعة أسندوه إلى موسى عليه السلام في قولهم : (أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) . أما هرون فوزيره فيها ، وتأكيده لإصرارهم على الكفر والعناد كان التعبير بالجملة الإسمية والإتيان بالباء وتقديم (لَكُمْ) على (مُؤْمِنِينَ) في قوله (وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ) .

وقد رفض هؤلاء دعوة موسى لسببين :

- ١ - أنه جاء ليصرفهم عما كان عليه آباؤهم وهم لا يحبون التحول عنه ومفارقته .
- ٢ - أنهم زعموا أنه أراد بدعوته أن يكون له ولأخيه الكبرياء في الأرض وهم يحرسون على الانفراد به واستعباد الناس وظلمهم ، ويرد السبب الأول بأنه حقا دعاهم إلى نبذ ما كان عليه آباؤهم ولكن ليخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والعرفان ، وهذا خير مما عليه آباؤهم ، ولا يحتاج رد الثانى إلى فكر ونظر لأن الرسالة لم تكن طريقاً إلى التسلط والكبرياء ، فقد تحمل موسى وهرون في سبيلها متاعب شديدة ، ورحلات شاقة وبذلا في تبليغها للناس جهوداً مضنية ، من أجل الله وإسعاداً للبشر في الدنيا والآخرة ، دون أن يكون لهما مأرب دنيوى .

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُنْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ
السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا الْقُوا
قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(السَّحَرُ) : يطلق على ما لطف ودق ، ويطلق على ما يقع بخداع وتخييلات لا حقيقة لها ، مثل ما يفعله المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده ، ويكون السحر أيضاً بمباشرة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد من التأثير على الشخص المقصود ، بحيث يغير مزاجه ويؤثر في حواسه ووجدانه ، كأن يجد الحلو مرًا ، وينقبض صدره وتضعف قواه ، ويكثر اضطرابه .

(سَيُبْطِلُهُ) : سيمحقه ولا يبقى له أثرًا . (لَا يُصْلِحُ) : لا يثبت ولا يؤيد .
(وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ) : ويثبت الله الحق ويقويه ويؤيده . (بِكَلِمَاتِهِ) : بأوامره ووجهه .

التفسير

٧٩- (وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُنْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) :

بعد أن بين القرآن الكريم أن فرعون وقومه لجأوا إلى التمسك بتقليد آبائهم-حينما لم يجلبوا حجة يردون بها دعوة موسى - بعد ذلك جاءت هذه الآية تبين أن فرعون اتبع أسلوباً آخر في رد رسالة موسى ، وهو إيهام قومه أن ما جاء به موسى من قبيل السحر حتى لا يتأثروا بدعوته الواضحة ، فيبقى له النفوذ والكبرياء والتسلط .

والمعنى : وقال فرعون آمرا قومه : اجتمعوا لى من جميع أنحاء مملكتى كل ساحر واسع العلم بفنون السحر ، عظيم الخبرة به قوى التأثير بارع الحيلة كى يعارض بهم معجزة موسى عليه السلام .

٨٠- (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ) :

أى فحشروا لفرعون كل ماهر فى صناعة السحر ، فلما جاءوا إليه واجتمعوا لديه قال لهم موسى ألقوا ما استقر رأيكم على إلقائه من أنواع السحر ، وقدموا ما عزمتم على فعله وأظهروا كل مافى طاقتكم من سحر ليظهر بطلانه على رموس الأشهاد .

ولم يطلب إليهم موسى عليه السلام . أن يبدأوا بإظهار سحرهم عقب مجيئهم إلى فرعون وإنما كان بعد أن خيروه بين أن يبدأ هو أو يكونوا هم البادئين ، كما حكاه القرآن فى سورة الأعراف « إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ » ^(١) .

ولوثوقهم بتغلبهم عليه خيروه ، كما كان طلب موسى منهم أن يبدأوا ليعطيهم الفرصة كاملة لإظهار مافى طاقتهم من السحر فى هدوء تام واطمئنان كامل ، وحتى يجد الحق بعد الباطل نفوسا تنقبله وعقولا تتدبره .

٨١- (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

أى فلما ألقوا مالداهم من العصى والجال وأظهروا كل مافى طاقتهم من فنون السحر استرهبوا الناس وجاءوا بسحر عظيم . وثقة موسى - عليه السلام - بصدق رسالته ، وإيمانه بنصر الله له ، وتشببت الله لقلبه ، وتكديبا لما رموه من السحر قال لهم : الذى جئتم به وبذلتم فى إظهاره أقصى جهدكم هو السحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ، وتأكيذا لثقتة بتحقيق ماتقدم قال فى حكاية القرآن عنه (إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ) : أى إن الله سيمحق هذا السحر فلا يبقى له من أثر بما يظهره على يدى من المعجزات ، فإن الباطل لا يدوم مهما كثر وانتشر .

ثم أكد القرآن الكريم ذهاب هذا السحر وزواله بقوله تعالى :
 (إِنَّ اللَّهَ لَا يُضْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) : أى إن الله لا يجعل عمل جميع المفسدين صالحاً
 للبقاء ثابتاً ، بل يزيله ويذهب به ، فلا يبقى لباطل هؤلاء السحرة المفسدين أثراً .
 ٨٢- (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) :

أى ويثبت الله الحق الذى يبعث به رسله رحمة للعالمين ، ويؤيده ويقويه بأوامره
 وتأييده ، ولو كره المجرمون الكافرون إحقاقه واستقراره ، ففى إحقاقه قطع أطماعهم وتقويض
 سلطانهم والقضاء على باطلهم ، واستقرار الأمن وعمارة الأرض وذهاب الفساد . ومن
 سنن الله فى خلقه أن البقاء لمبادئ الخير والحق « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ
 كَانَ زَهُوقًا » ^(١) .

(فَمَاءٌ آمِنٌ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن
 فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ
 وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ) ٨٣ وقال موسى يَتَقَوَّمُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ
 بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ٨٤ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ
 تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٨٥ وَنَجِّنَا
 بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) ٨٦)

المفردات :

(ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ) : جماعة من قومه ، شباباً أو كهولاً ، فقد آمن به السحرة وهم
 كهول غالباً كما آمن به غيرهم .
 (أَن يَفْتِنَهُمْ) : أن يعذبهم . (لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ) : لغالب فيها .

التفسير

٨٣- (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ^(١) أَنْ يَفْتَنَهُمْ) :
بعد أن بين القرآن الكريم على لسان موسى أن ماجاء به سحرة فرعون هو السحر الذي لاحقيقة له ،
وأن الله سيبطله ، ويحق الحق بكلماته ، جاءت هذه الآية تخبر بأنّه مع ثبوت الحق بغلبة
المعجزة وزهوق الباطل باندحار السحر ، لم يؤمن بموسى عليه السلام - إلا عدد قليل من قومه .
والمعنى : فما آمن لموسى وصدق برسالته بعد إحقاق الله الحق بقضاء عصا موسى
على سحر الساحرين ، إلا عدد قليل من قوم فرعون شرح الله صدورهم للإيمان ، بعد
ظهور الحق على الباطل ، وكان إيمان هؤلاء مصحوباً بخوف شديد وحذر بالغ من فرعون
ورؤساء قومه أن يعذبهم على أيدي هؤلاء الرؤساء ويوقع بهم صنوف الأذى بمعونتهم .

ولمّا جاء في القرآن (أَنْ يَفْتَنَهُمْ) دون أن يفتنهم حتى يشمل فرعون وملأهم ، لإفادة
أن الخوف من الملائكة كان بسبب أن كل ظالم في دولة فرعون كان يستمد ظلمه من طغيان
فرعون وجبروته ، ثم أكد القرآن الكريم خوف المؤمنين من بطش فرعون بقوله تعالى :
(وإنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ) : أى وإن فرعون لغالب على الناس قاهر لهم في أرض
مصر بالسلطان والملك عليهم وادعاء أنه لا إله لهم سواه كما حكاها الله عنه بقوله : « مَا عَلِمْتُ
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي »^(٢) ثم زاد في تقرير هذا المعنى حين قال :

(وَلَئِنَّ لِمَنْ الْمُسْرِفِينَ) : أى وإن فرعون لمن جملة الذين دأبوا على تجاوز الحد في
الظلم والفساد فقد أسرف في القتل وسفك الدماء ، كما بالغ في الكبر والاستعلاء .

٨٤- (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) :
أى وقال موسى لأولئك الذين أظهروا إيمانهم ، يا قوم إن كنتم صدقتم بالله ، فعليه
وحده توكلوا إن كنتم مستسلمين له خاضعين لشرعه .

٨٥- (فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

بعد أن بينت الآية السابقة أن موسى عليه السلام دعا من آمن به من قومه إلى التوكل
على الله والاعتماد عليه في نصرته وإصلاح شئونهم كدليل على صدق إيمانهم جاءت هذه
الآية الكريمة لبيان أنهم أسرعوا إلى تلبية ندائه .

(١) جمع الضمير في (ملئهم) مع أنه عائد على فرعون ، لأنه جاء على طريقته في تعظيمه . (٢) سورة القصص من الآية : ٣٨

والمعنى وقال الذين آمنوا بموسى مستجيبين له فى صدق إيمان ، وإخلاص يقين ، ومن غير إبطاء ولا تردد - على الله وحده اعتمدنا فى نصره لنا ودفع الأذى عنا ، وإنقاذنا من ظلم الظالمين ، وإعانتنا فى كل ما يهمنى من شئون الدنيا وأمور الآخرة : وفى مبادرتهم إلى إجابة هذا النداء ، دليل واضح على رسوخ إيمانهم وقوة إسلامهم ، ومصدق لإخلاصهم فى التوكل على الله ، وقد فزعوا إليه سبحانه بالدعاء قائلين : (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : أى ربنا لا تجعلنا موضع فتنة لهؤلاء القوم الظالمين فلا تسلطهم علينا تعذيباً ووعيدا ومضايقة فيفتنونا عن ديننا .

٨٦- (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) :

أى وأنقذنا برحمتك وعطفك من هؤلاء القوم الكافرين بك - إن هم أرادونا بسوء - فنحن لا قدرة لنا على دفعهم لضعفنا وقوتهم ، ومن أظلمتهم حمايتك ، فلا سلطان لجبار عليهم .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ
بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ
أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ
سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا) : أى اجعلا لقومكما منازل يقيمون فيها - يقال : تبوأ المكان وتبوأ به نزل فيه وأقام به . (واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً) : أى اجعلوها أماكن الصلاة متجهين فيها إلى القبلة . (اطمس على أموالهم) : الطمس فى اللغة المحو ، أى أهلكها واجعلها غير صالحة للانتفاع بها . (واشدّد على قلوبهم) : أى اختم عليها واجعلها قاسية لا تنشرح للإيمان لا اختيارهم الكفر وإصرارهم عليه .

التفسير

٨٧- (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) .. الآية : أى وأمر الله تعالى موسى وأخاه هرون - عليهما السلام - بوحي أوحاه الله إليهما أن يجعلا لقومهما بمصر بيوتا خاصة بهم ينزلون بها ويسكنون فيها ، وأمرهما وقومهما أن يجعلوا بيوتهم هذه أماكن للصلاة ، وأن يقيموا الصلاة فيها إلى جهة القبلة ، بعيدا عن أعين فرعون وقومه حتى يأمنوا على أنفسهم من البطش والإيذاء وعلى دينهم من الفتنة - وكان فرعون قد خرب معابد بنى إسرائيل ومنعهم من الصلاة .

ولمّا للصلاة من الأثر البالغ فى تهذيب النفس وصفاء القلب ، أمرهم الله جميعا بها فقال : (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) : أى وأدوا الصلاة تامة الأركان والشروط فى خشوع وإخلاص لله تعالى لننشرح صدوركم وتمتلئ نورا وإيمانا ، وتثبت أقدامكم على طريق الحق والهدى إذ الصلاة عماد كل الديانات التى شرعها الله .

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) : أى وبشر المؤمنين ياموسى بالنصر والتأييد فى الدنيا إجابة لدعائهم ، وفى الآخرة بجنت النعيم جزاء ما قدموا من صالح الأعمال .

ومن محاسن النظم الكريم فى هذه الآية أن الله أمر موسى وهرون وحدهما باتخاذ البيوت لقومهما لأن ذلك من شأن الرؤساء والقادة .

وأمرهم جميعاً بإقامة الصلاة وجعل بيوتهم معابد لوجوب الصلاة على جميع المكلفين وأمر موسى وحده بالبشارة لأنها من وظائف صاحب الرسالة المقدم فى قومه ، لتكون أوقع فى نفوس المؤمنين وأعظم فى إدخال السرور عليهم .

٨٨- (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الآية .
بعد أن أطمأن موسى - عليه السلام - إلى استقرار قومه في البيوت التي اتخذها هو وأخوه لسكناهم
جاءت هذه الآية تبين أنه اتجه إلى الله بالدعاء على فرعون وملكه وبعد أن يثس من إيمانهم .

والمعنى : وقال موسى - عليه السلام - مناجيا رب العالمين سبحانه وتعالى
ياربنا إنك أعطيت فرعون والرؤساء من قومه زينة من لباس حسن جميل وحلى وجواهر ،
وأثاث فاخر وقصور عالية ، وغير ذلك مما يتزين به ، ومنحتهم أنواعاً كثيرة من الأموال
فكانت عاقبة هذه النعم أنهم بالغوا في الكفر بربك ، وجعلوها وسيلة قهر وبطش وطغيان ،
وضلوا بها وأضلوا عن سواء السبيل واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأغلقوا قلوبهم
دون قبول الخير ، فاستوجبوا دعائى عليهم (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) : أى ياربنا أهلك هذه الأموال التي استعبدوا الناس
بها ، وأكثروا في الأرض الفساد بسببها ، أهلكها ليزول سلطانهم ويدلوا ، واربط على
قلوبهم بحيث تكون قاسية جامدة لا تنشرح للإيمان ، فإنها ليست له أهلاً ، لنبتذهم شريعتك
وتكذيبهم رسالتك بسوء اختيارهم ، اربط على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم
حيث لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، ليكون انتقامك
منهم شديداً وعبرة لغيرهم ، وهو ما كان من فرعون فيما حكاه القرآن الكريم بقوله :
« حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا
مِنَ الْمُسْلِمِينَ » ^(١) .

وقدم موسى - عليه السلام - بين يدي دعائه على فرعون وقومه ذكر طغيانهم ليكون
أرجى لاستجابة الله له ، وتشهيراً بهؤلاء الذين لم يقدروا نعم الله حق قدرها .
وكرر النداء (ربنا) مبالغة في الضراعة إليه تعالى ، حتى يستجيب له لمبالغتهم
في العناد والطغيان ، والتنكر لأنعم الله ومقابلتهم بالإحسان بالكفران .

٨٩- (قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) : أى قال
الله تعالى - خطاباً لموسى وهرون عليهما السلام - قد أجبتُ دعاءكما ، وحققت رجاءكما

في شأن فرعون وملئه فاهلكتهم وأموالهم لأنهم استمروا على عنادهم ، فلم يؤمنوا إلا عند اليأس من الحياة حين أدركهم الغرق ، فلم يقبل الله إيمانهم .

وقد ذكر الله تعالى أنه أجاب دعاء موسى وأخيه ، مع أن موسى هو الذي دعا على الطغاة لأن هرون كان يقول عند دعاء موسى : آمين كما دلت عليه الآثار . ومعناه : استجب ياربنا فكلاهما طلب الإجابة - طلبها موسى بلفظ الدعاء وطلبها هرون بمضمونه فلا تعارض بين إشارتهما في الإجابة وانفراد موسى بالدعاء .

وبعد أن طمأنهما الله - تعالى - على إجابة دعائهما أمرهما بالثبات على طريق الحق المستقيم ضماناً لنصرهما فقال - تعالى - : (فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) : أي فاستمرا على طريق الحق طريق الطاعة والعبادة والدعوة إلى التوحيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحججة على أعداء الله ، ولا تسيرا في طريق الجهلاء الذين لا يعلمون باستعجال العذاب قبل أوانه ، فإن ما طلبتماه سيتحقق في وقته المقدر له وفقا لقضاء الله المحكم وحكمته البالغة .

(* وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحَرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩٠) ءَالْظَنِّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٩١)
فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ٩٢)

المفردات :

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ) : أى وجعلناهم يجاوزونه ويعبرونه من الغرب إلى الشرق حتى وصلوا إلى شاطئه الشرقى .

(فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ) : أى تبعهم حتى اقترب منهم ، تقول : تبعته حتى أتبعته ، إذا كان قد سبقك فلحقته ، (بَغْيًا وَعَدُوًّا) أى ظلما ، وتجاوزا للحد فيه .

(حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ) : أى حتى إذا لحقه الفرق .

التفسير

٩ - (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ) الآية .

بعد أن أخبر الله - تعالى - موسى وهرون - عليهما السلام - باستجابة دعائهما على فرعون وقومه ، أمرهما أن يخرججا بنى إسرائيل من مصر ، فخرجوا على حين غفلة من فرعون وقومه فلما علم فرعون بخروجهم ، خرج بجنوده في طلبهم بغيا وعدوا ، فلما أدركهم قالوا يا موسى كيف الخلاص ؟ والبحر أمامنا والعلو وراءنا ، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، فسلك موسى بنى إسرائيل طريقا في البحر يبسا ووصل فرعون وجنوده إلى الساحل وكان طريق بنى إسرائيل في البحر لايزال باقيا ، فسار فيه فرعون بجنوده فلما اكتملوا جميعا فيه وهم أولهم بالخروج ، انطبق البحر عليهم وأغرقوا أجمعين .

(حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ) : أى حتى إذا لحقه الفرق واقترب منه الموت ، صحا من غروره ، وندم على فجوره وأعلن إيمانه فيما حكاه القرآن عنه بقوله : (قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) : أى قال فرعون آمنت بأنه لا إله يعبد وحده إلا الإله الذى آمنت به بنو إسرائيل وصدقت بوحدانيته ، وأكد قوله السابق بقوله : (وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) : أى وأنا واحد من جملة الذين أسلموا نفوسهم

لله تعالى - وحده - وبهذا الاعتراف أبطل ما كان يقوله استعلاء وتجبرا : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » .
وقوله : « مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي » .

فأنت تراه في اعترافاته هذه قد بالغ في إعلان إيمانه حيث كرره بثلاث عبارات :

١ - « آمَنت » .

٢ - « أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ » .

٣ - « وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

وقد حدث منه كل ذلك طمعا في النجاة مما نزل به ، وليت شيئا من ذلك كان منه حين ينفعه الإيمان - وذلك قبل اليأس من الحياة ، لأن تأخير الإيمان إلى وقت العقاب لا ينجي صاحبه ، وقد دلت على ذلك الآية التالية :

٩١ - (الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) : أى أتؤمن الآن حين لا ينفع

نفسا إيمانها ، وقد أمضيت عمرك في المعصية ، وكنت من الملازمين للإفساد في الأرض ، أفلا قدمت إيمانك ، وأجبت داعي ربك ، وأنت في فسحة من الأجل حين كان ينفعك إيمانك؟ ولكنك ندمت وآمنت بعد فوات الأوان ، فلم ينفعك الإيمان ، كما قال تعالى : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَا لِكَ الْكَافِرُونَ » ^(١) . روى الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه - رضى الله عنهم - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إِنْ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ » والغرغرة حشرجة الموت وقال تعالى - : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » ^(٢) .

٩٢ - (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً) :

بعد أن أنكرت الآية السابقة على فرعون تأخير الإيمان بلا عذر إلى أن حضره الهلاك ، جاءت هذه الآية لبيان خيبة أمله وقطع رجائه وللسخرية منه .

(١) سورة غافر ، الآية : ٨٥

(٢) سورة النساء ، الآية : ١٨

والمعنى : ففي هذا اليوم الذى نجى الله فيه موسى وهرون وبني إسرائيل من الغرق ، يخرجك الله من البحر ، ويلقى ببطنك على شاطئه خالياً من الروح ، لتكون قصتك آية وعلامة لمن وراءك من أهل عصرك ومن يأتى بعدهم ممن يبلغهم خبرك ، وتصل إلى أسماعهم عاقبتك ، فيعرفون من هذه الآية أن الكفر بالله وخيم العاقبة ، وأنه لا يصح للبشر أن يشاركوه في الألوهية أو يستأثروا بها ، قيل إن فرعون الذى أرسل إليه موسى هو منفتاح أو رمسيس الثانى ، وكلاهما جثة موجودة إلى اليوم فى المتحف المصرى والله أعلم ، ومع ما فى قصة فرعون من العبر فلم يلتفت إلى الإفادة منها كثير من الناس ، كما قال تعالى : (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) :

أى وإن كثيراً من أهل مكة ومن غيرهم لغافلون ، عن التفكير فى آيات الله التى أقامها أو أنزلها للفصل بين الحق والباطل لغافلون أشد الغفلة ، ساهون عن تدبر معانيها ، والانتفاع بدلالاتها ، ولو فعلوا لما ضلوا عن سواء السبيل .

(وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأً صِدْقٍ) : أنزلناهم مكاناً صالحاً آمناً وأسكناهم فيه .

التفسير

بعد أن ذكر القرآن الكريم إنعام الله على بني إسرائيل بإنجائهم وإهلاك عدوهم جاءت هذه الآية لبيان أحوالهم وما أفاض الله عليهم من نعمه الوفيرة وأنهم لم يقوموا بشكرها .

٩٣ - (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) .. الآية .

يؤكد الله - تعالى - أنه أنزل بني إسرائيل بعد أن أنجاهم من طغيان فرعون وجنوده ،

وخلصهم من مطاردتهم - أنزلهم - مكانًا صالحًا مرضيا ، وأرضا يجلدون فيها الأمن والطمأنينة ،
ومع تهيئة المكان الآمن رزقهم أرزاقا طيبة ، فأنزل عليهم المن والسلوى وأتم عليهم نعمته .

(فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ) : أى ظل هولاء يرفلون في نعم الله عليهم فما اختلفوا
في أمر دينهم وما عصوا رسولهم موسى - عليه السلام - إلى أن قرأوا التوراة وعرفوا أحكامها
فاختلفوا في فهمها ، وانقسموا فرقا في تأويلها ، كل فرقة تدعى أنها هي التي على الحق دون
سواها ، ويجوز أن يكون المراد بنبي إسرائيل الذين اختلفوا ، هم اليهود الذين كانوا في زمن
محمد - صلى الله عليه وسلم - وذلك أنهم كانوا قبل مبعثه عالمين بقرب مبعثه مجمعين
على نبوته ، مما عرفوه عنه في كتبهم من البشارة به وبيان أحواله وصفاته ، فلما بعث اختلفوا
فمنهم من آمن به ومنهم من كفر بغيا وحسداً ، كما قال - تعالى - : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ » ^(١) .

ثم حذرت الآية المكذبين وطمأنت المصدقين ببيان أن مصير الكل إلى الله يحاسب كلا
على ما قدمت يداه وذلك في قوله تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) : أى إن ربك أيها
الرسول سيحاسب كلا بما كسبت يداه ، ويحكم بالعدل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ،
فيثيب المحقين ويعاقب أهل الباطل الظالمين .

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُ مِمَّنْ
مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝ وَلَا تَكُ مِمَّنْ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ
فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝)

المفردات :

(من المُمتَرِينَ) : من الشاكِّين .

التفسير

٩٤ - (فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ . .) الآية .

بعد أن تحدثت هذه السورة عن قصص بعض المرسلين مع أممهم ، وأخبرها قصة موسى مع فرعون وقومه ، جاءت هذه الآية تطالب من يشك في صدق هذه القصص التي ساقها الله للعبرة ، وللدلالة على صدق محمد في نبوته ، تطالبه بأن يسأل الذين يقرءون الكتاب من علماء اليهود والنصارى ، ليتأكد من وجودها في كتبهم ، وليحمله ذلك على الإيمان بنبيينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فالخطاب في قوله تعالى : (فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) إلخ موجه إلى من يتعرض للشك من الأمة التي أرسل إليها النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وليس موجهاً للنبي - عليه الصلاة والسلام - لما سنبينه فيما يلي :

اعلم أن القرآن كما أنزل إلى الرسول وحياً وتبليغاً أنزل إلى أمته أفراداً وجماعات عملاً وتكليفاً ، فمن الأول قوله تعالى في سورة النحل : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »^(١) وقوله في سورة النساء : « إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ .. »^(٢) ومن الثاني قوله تعالى خطاباً للأمة : « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »^(٣) . وقوله تعالى : « وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ »^(٤) .

والمعنى : فإن كنت أيها المكلف من أمة الدعوة المحمدية ، في شك من صدق ما أنزلناه من هذه القصص على رسولنا إليك لتعرف به صحة نبوته ورسالته - صلى الله عليه وسلم - ، فاسأل علماء اليهود والنصارى الذين يقرءون كتبهم ويعرفون أن هذه القصص قد وردت بها منقولة من جيل إلى جيل قبل وجودك ، حتى تعلم من وجودها قديماً في كتبهم أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - صادق في نبوته ، وثقة في رسالته ، فإنه أمي لا يقرأ ولا يكتب

(١) سورة النحل ، من الآية : ٤٤

(٢) النساء ، من الآية : ١٠٥

(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠

(٤) سورة النور ، من الآية : ٣٤

ولم يجالس من قرأها وعلم بها ، فقد نشأ بين قريش الوثنية ، فهذا برهان واضح على أن الله تعالى هو الذى أعلمه بها وأوحاها إليه ، وأنه صادق فيما أبلغكم عن الله ، وأن الإيمان بنبوته فيه النجاة ، وأن الكفر بها يستتبع الهلاك .

أفهام خاطئة في معنى الآية

ويرى بعض المفسرين أن الخطاب فيها للرسول - صلى الله عليه وسلم - لغرض تهيجه وإثارته ، ليزداد ثباتاً على دينه ، من غير احتمال وقوع شك منه ، وهذا الرأى لا يوضح قبوله بحال من الأحوال ، فإن فرض الشك فيه لأى غرض من الأغراض وبأى تأويل مما قالوه ، مخالف للنقل مرفوض من جهة العقل ، وخطأ فاحش استغله أعداء الإسلام ، وقالوا إن محمداً لم يكن متيقناً أنه رسول من الله - تعالى - وساقوا هذه الآية وتفسير المفسرين لها على هذا النحو تأييداً لقريتهم ، فكيف يصح عقلاً أن يفرض الشك في الرسول لغرض إثارته وزيادة تثبيته - كما أولوا به موضوع فرض الشك فيه - فهل كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - بحاجة إلى مزيد تثبيته وإثارته ، لكى يزداد استمسাকে بتبليغ دعوة ربه ، كلا وألف مرة كلا ، فقد سجل القرآن الكريم ما يناقض ذلك ، قال تعالى : « فَأُوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أُوْحَىٰ . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ أَفَتِمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِنْدَ سِنْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ^(١) » .

وكيف يحتاج الرسول إلى التثبيت وهو الذى كان يقول : «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الدين ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» . وكيف يحتاج إلى التثبيت وإلى سؤال أهل الكتاب ليزداد طمأنينة ، وهو الذى تحمل من إيذاء قومه ثلاثة عشر عاماً ، مالا تحتمله الشم الرواسى ، وشاركه في ذلك من آمن معه من المؤمنين حتى مات بعضهم من شدة العذاب ، ألم يقاطعهم المشركون لا يواكلونهم ولا يزواجونهم ولا يبيعونهم الطعام ، حتى اضطروهم إلى الإقامة في شعب أبي طالب ثلاث سنين ، ووصل بهم الجوع هناك إلى أن يأكلوا أوراق الشجر وهم صابرون ، وكيف يستطيع أن يحمل عبء هذه الدعوة

الضخمة من هو بحاجة إلى التثبيت ، وكيف يعمل لها بهمة وصدق عزيمة لاتعرف الكلل ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وذاع في عهده وانتشر حتى غطى الجزيرة العربية كلها ، فوالله لولا أنه ثابت الجنان عظيم الاطمئنان ، واثق من دين الرحمن ، لما استطاع أن يفلت من حصار أهل الشرك له بمكة ، بل كان يسلم لهم القياد ، ويجيبهم إلى ما يبتغون فأسمعهم حين يخاطبهم خطاب الواصل من نفسه بأنه يبلغ عن الله - تعالى - : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » ^(١) . . ولقد علم الناس من سيرته الوثيقة ، أنهم عرضوا عليه الرياسة والمال بعد أن يثسوا من استجابته بالإيذاء فأبى وقرأ عليهم سورة فصلت ، وقد جاء فيها : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودٍ ^(٢) » . فهل يكون هذا حال من هو محتاج إلى التثبيت . . ؟

ولقد أحسن البيضاوى إذ حكى في آخر كلامه ، رأياً لبعض المفسرين أن الخطاب في قوله تعالى : (فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍّ) إلخ لكل من يسمع ، وقال في معناه على هذا الرأى : أى إن كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا على نبيينا إليك (فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ) .

ولو أن الإمام البيضاوى وغيره اقتصر على هذا الرأى ، ولم يذكر معه سواء - لا قبله ولا بعده - لكان قد أسدى خيراً للحق الذى بجانب غيره من تلك الآراء الفاسدة ، المخالفة لنص القرآن ولواقع النبى - صلى الله عليه وسلم - من الهمة ومضاء العزيمة ، ومن ثباته على دينه رغم المغريات من الملك والمال ، بعد أن لم يصرفه عن دينه الإيذاء والاستهزاء .

(لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) : لقد جاءك أيها المكلف الحق من ربك فلا تكونن من أصحاب الشكوك والأوهام ، بل كن من ذوى الإيمان الثابت بهذا الحق المبين .

٩٥ - (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ) : هذه الآية خير شاهد لما قلناه من أن الخطاب ليس موجهاً إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ،

(١) سورة يونس ، الآية ١٠٤

(٢) الآية : ١٣

بل إلى كل مكلف من أمة الدعوة المحمدية ، فإن محمداً - صلى الله عليه وسلم - لا يتصور منه أن يكون مكذباً لآيات الله وهو يدعو الناس إلى الإيمان بربه .

والمعنى : وكما نهيناك أيها المكلف عن الشك فيما أنزلناه إليك على لسان محمد ، نهيناك عن التكذيب بآيات الله ، فلا تكون من جملة المكذابين بدين الإسلام ، فتكون بذلك التكذيب في عداد الخاسرين في الدنيا والآخرة .

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾
وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾)

التفسير

في هاتين الآيتين بيان شدة إصرار أهل الكفر على الجحود والعصيان ولو جاءتهم كل آية طلبوها أو لم يطلبوها ، وأن اقتراحهم ما هو إلا نغلة لرفضهم الإسلام ، لعدم تحقيقها وبيان ذلك فيما يلي :

٩٦ - (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ) : أى إن الذين حقت ووجبت عليهم كلمة ربك أى حكمه وقضاؤه بأنهم لا يؤمنون ، بل يموتون على الكفر ويخلدون في النار ، بسبب ما علمه منهم من الإصرار على تكذيب رسوله تكبراً وعناداً ، وتقليداً للآباء والأجداد ، فآثروا الضلالة على الهدى ، مع وضوح الحق ، ودوام التذكير .

٩٧ - (وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) : أى إن هؤلاء الذين حكم الله بعدم إيمانهم وخلودهم في النار بسبب اختيارهم العمى على الهدى لا يستجيبون لدعوة الحق ولو جاءتهم كل آية كونية طلبوها أو لم يطلبوها ، وكل آية نقلية من شأنها أن تجذب

القلوب إلى قبول الهدى والرشاد، كما قال تعالى: « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ »^(١).

(حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) : أى هؤلاء يستمرون على كفرهم وعنادهم فلا يصدقون بالآيات الواضحة والبراهين القاطعة ولا يؤمنون إلى أن يأتيهم العذاب الأليم على كفرهم ، فيؤمنوا حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا - كشأن فرعون وأمثلة ممن آمنوا عندما شاهدوا العذاب الذي أنذروه محيطا بهم من حيث لا يعلمون ، وقد فات الأوان الذي ينفع فيه الإيمان .

(فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)^(٩٨)

المفردات :

(فَلَوْلَا) : لولا كلمة تفيد الحث على الفعل بمعنى هلا . (قَرْيَةٌ) : اسم للمباني المتصلة التي يسكنها جمع من الناس ، وقد جاء في القرآن الكريم أن القرية والمدينة بمعنى واحد قال - تعالى - : « حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ » . ثم قال : « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ » . وقيل القرية بلدة أصغر من المدينة - والمراد من القرية في الآية أهلها .

التفسير

٩٨ - (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا) .. الآية .

بعد أن بينت السورة قبل هذه الآية امتناع الإيمان من حكم الله عليهم بالخسران لاختيارهم طريق العصيان ، مع تمكنهم من إنقاذ أنفسهم بالإيمان قبل فوات الأوان ، جاءت

هذه الآية الكريمة ترتيباً على ما تقدم لتقرير هذا المعنى : إذ بينت أن الله تعالى قد أهلك الذين آخروا لإيمانهم من الأمم السابقة ، حتى إذا عاينوا الهلاك قالوا آمنا .

والمعنى : فهلا كان أهل كل قرية بعث الله إليهم رسولا ، بادروا إلى الإيمان بما جاءهم به قبل أن يحيط العذاب بهم فيقبله منهم وينجيهم من الهلاك : لكن لم يبادروا بالإيمان قبله فهلكوا .

(إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) : أى لكن قوم يونس - عليه السلام - لما آمنوا عندما رأوا أمارات العذاب ، وتابوا إلى الله - تعالى - قبل حلوله بهم ، أزال الله عنهم عذاب الذل والهوان في الحياة الدنيا وكشفه عنهم بعد أن كاد يقع بهم ، ومتعهم بما في الدنيا من زينة ونعيم ومتاع إلى انقضاء آجالهم ، لمسارعتهن إلى التصديق بما جاء به رسولهم عند رؤيتهم أمارات العذاب .

روى عن عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير وعبد الله بن عباس أن يونس - عليه السلام - أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل - وكانوا أهل كفر وشرك - فكذبوه وأصروا على ذلك ، فأوحى الله إليه أن أنذرهم أن العذاب يصبغهم بعد ثلاث ليال ، فأخبرهم بذلك ، فلما قرب موعد الإنذار غامت السماء غيماً أسود هائلاً ، ذا دخان شديد ، فهبط حتى غشى مدينتهم ، فاستولى عليهم الخوف والفرع ، فطلبوا يونس فلم يجدوه ، فأيقنوا صدقه فلبسوا المسوح ، وخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب ، فحنَّ بعضها إلى بعض - فحنَّ الأولاد إلى الأمهات والأمهات إلى الأولاد وعلت الأصوات والضجيج ، وأخلصوا النية وأعلنوا لإيمانهم ، وتضرعوا إلى الله فاستجاب دعاءهم فرحمهم ، وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلمهم ، وليس هذا الذى نقلناه عن عبد الله بن مسعود وغيره حديثاً مرفوعاً بل هو أثر مروي عنهم في تفسير الآية والله تعالى أعلم .

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ
تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (٩٩)

التفسير

٩٩- (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا) .. الآية .

كان - صلى الله عليه وسلم - لفرط شففته على أمته حريصاً أشد الحرص على إيمان الناس جميعاً ، وللوصول إلى تلك الغاية حمل نفسه أعباء ثقيلة ، ومتاعب جسيمة ، فخفض الله عنه ، ببيان أنه ليس مكلفاً بإكراه الناس على الإيمان ، وحملهم جميعاً عليه ، فليس عليه إلا البلاغ وقد فعل ، وحسبه التبليغ الذي لا يرهقه ، فإن الهداية من الله .

والمعنى : ولو شاء ربك أيها الرسول إيمان من في الأرض جميعاً من الجن والإنس لآمّنوا كلهم لا يشذ منهم أحد ، لكن مشيئته - تعالى - الموافقة لحكمته البالغة اقتضت أن يكون الناس فريقين : فريقاً شاء الله إيمانه فيؤمن لا محالة وهم الذين اختاروا الهدى فيوفقهم الله - تعالى - إليه ، وفريقاً شاء الله كفره لسوء نيته فيكفر لا محالة .

(أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) : أى أَفَأَنْتَ مطلوب منك أن تكره الناس على دينك حتى يصيروا مؤمنين به ؟ كلا . فأشفق على نفسك فما عليك إلا البلاغ ، « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ » ^(١) ولا تُحْمِلْ نَفْسَكَ المصاعب والمشاق ، بالمبالغة في دعوة المعاندين المستكبرين « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسُكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » ^(٢) .

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٨

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٦

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾)

المفردات :

(بِإِذْنِ اللَّهِ) : بإرادة الله . (الرَّجْسَ) : يطلق على القدر حسياً كان أو معنوياً ، ومن المعنوى الذنب والكفر ، وكلُّ يصح أن يراد هنا ، وقد يطلق على العذاب والشك وغير ذلك .

التفسير

١٠٠- (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) : أخبرنا الله تعالى في الآية السابقة أنه لو شاء لهدى الناس جميعاً ، وأن رسوله صلى الله عليه وسلم لا يملك إكراه الناس على الإيمان ولم يكلف به ، ثم أخبرنا في هذه الآية أن إيمان أى نفس متوقف على إرادة الله ، فلا تستطيع نفس أن تهتدى إلا إذا أراد الله هدايتها ، فإن الهدى هدى الله وحده ، قال تعالى : « قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ » ^(١) . ومن سنن الله في خلقته أن يهدى من هو أهل للإيمان به من أصحاب الفطر السليمة « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » ^(٢) . ومن الذين أحسنوا استعمال حواسهم وعقولهم في سبيل الوصول إلى الحق ، أما الذين ألغوا حواسهم وأهملوا عقولهم ، واتبعوا أهواءهم واستقبلوا الرسائل السماوية بالعناد واللجاج ، وآثروا الضلال على الهدى ، فهم غير أهل للهداية والإيمان ، فلا يأذن به ولا يعينهم عليه بمبب سوء اختيارهم ، قال تعالى : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ٧٣

(٢) سورة الزمر ، من الآية : ١٨

بِهَا أُولَئِكَ كَلَّا نُنْعَمُ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ^(١)». وقال سبحانه وتعالى: « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ^(٢) » وهذا الصنف هو الذى يشير إليه قوله تعالى فى آخر الآية :
(وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) فالرجس هنا بمعنى الكفر ليقابل الإيمان
فى صدر الآية .

والمعنى : أنه تعالى يجعل الكفر قضاءً منه على الذين عطلوا عقولهم فلم ينتفعوا بآياته ،
ولم يهتدوا برسله ، كما أذن بالإيمان وحكم به وأعان عليه الذين يعقلون ويهتدون بهداه ، ويؤمنون
برسله .

(قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ
وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾)

المفردات :

(انظُرُوا) : تفكروا واعتبروا . (النذر) : جمع نذير . وهو الذى ينبه الناس إلى الخطر .

التفسير

١٠١ - (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

بينت الآية السابقة أن الهدى بإذن الله لمن هو أهل له ، ممن يستعملون عقولهم فى فهم
آياته ، وأن الرجس - أى الكفر - قضى الله به على من لا يعقلون ولا يتدبرون فيها ، وجاءت
هذه الآية أمرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يبحث الناس على التفكير فى آياته حتى
يتيسر لهم الإيمان بالحق تبارك وتعالى .

والمعنى : قل لهم يا محمد تأملوا وتفكروا فى عجائب صنع الله فى السموات وما تضمنه
من مجرات ونجوم وكواكب ، وانظروا ما فى الأرض وما يتعاقب فيها من ليل ونهار

وفصول متوالية ، وما يطرأ عليها من زوايع عاتية وهواء عليل ، وما تضمه من جبال وبحار ، ومحيطات وقارات ، ومن صحارى جدباء ، وحدائق غناء ، ومروج خضراء ، وما يجرى على سطحها من جداول وأنهار ، وما يستقر في جوفها من مناجم وكنوز ، وما يعترها من زلازل وبراكين ، وما تراه فوقها من إنسان وحيوان ونبات ، انظروا في هذا كله وغيره من عجائب خلق الله ، فإنه يهديكم إلى معرفة الله ، ويدعوكم إلى إفراده بالعبادة والتقديس .

(وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) :

« ما » : إما أن تكون نافية أو استفهامية ، فعلى النفي يكون المعنى : أن آيات الله الكونية وآياته المنزلة على الرسل بالتبشير والإنذار ، لا تغني هؤلاء الكفار ولا تنفعهم في الاهتداء إلى الإيمان ، ما داموا مصرين على الكفر والضلال ، وعلى أن (ما) استفهامية يكون المعنى : كيف يمكن أن تنفع الآيات والنذر هؤلاء المعنين في الضلال المصيرين على عدم الإيمان ؟

(فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ
قُلْ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾)

المفردات :

(يَنْتَظِرُونَ) : يترقبون ويتوقعون . (خَلَوْا) : مضوا .

التفسير

١٠٢ - (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ) :

في هذه الآية الكريمة إنذار بعقاب الله لمن ينصرفون عن الله ويحجبون أبصارهم وبصائرهم عن الهداية ، وتذكير لهم بما أصاب الأمم السابقة التي أصرت على الكفر ، وما حل بها من عذاب شديد ، قال تعالى : « فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ

مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»^(١) والمراد من الاستفهام في قوله: (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ) النفي، أى لا ينتظر هؤلاء الكفار أثرا لكفرهم إلا أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة من عذاب ونكال، والمراد أن العقاب الشديد سيحل بهم لا محالة، فهم في حكم المنتظرين لهذا العقاب (قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) : قل لهم يا محمد فانتظروا وترقبوا آثار إصراركم على الكفر، فإنى مترقب معكم ما سيصيبكم من عذاب إن ظلمتم مصرين على الكفر والإنكار .
١٠٣ - (ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا) :

بعد أن أفادت الآية السابقة أن الهلاك يحل بالكفار المعاندين، جاءت هذه الآية تفيد أن الله سبحانه سينجي رسله والذين آمنوا معهم مما أصاب كفار قومهم من عذاب وتنكيل، لأن عدالة الله تقتضى ألا يعذب قوما بذنوب آخرين، قال تعالى في قوم هود: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ»^(٢) وقال سبحانه في قوم صالح: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ»^(٣)

(كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ) : أى كما أنجى الله الأنبياء والمؤمنين مما أصاب أقوامهم، كذلك اقتضت عدالته وصدق وعده، أن ينجي المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم مما يتعرض له الكفار المصرون على الكفر والضلال، قال تعالى: «ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ»^(٤)

(١) سورة النكبات، الآية: ٤٠

(٢) سورة هود، الآية: ٥٨

(٣) سورة هود، الآية: ٦٦، ٦٧

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٩

(قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾)

المفردات :

(يَتَوَفَّكُم) : يستوفي آجالكم ، بقبض أرواحكم . (وَجْهَكَ) : المراد من الوجه : الذات أو القلب أو القصد . (حَنِيفًا) : منصرفاً عن الباطل مقبلاً على الحق .

التفسير

بعد أن بينت الآيات السابقة ، ما ينتظر الكافرين من الهلاك ، وما يتوقعه المؤمنون من الفوز والنجاة - أمر الله رسوله في هذه الآيات أن يعلن الكافرين أنه لن يعبد ما يعبدون ، وأن الله أمره بالإخلاص في عبادته وحده ، وفيما يلي بيانها :

١٠٤ - (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) : أى قل يا محمد للمشركين بالله الشاكين في نبوتك يأيها الناس ، إن كنتم في ريب وشك من ديني ، حتى أدى بكم الشك فيه إلى تكذبي فيما جئتمكم به ، فاعلموا أنني مؤمن بإماناً راسخاً بما أنزله الله تعالى عليّ ، ثابت كل الثبات على عقيدتي ، فلا تتوقعوا مني أن أجنح إلى مشاركتكم في عقيدتكم ، وعبادة آلهتكم التي عبدتموها من دون الله بغير حق . (وَلَٰكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم) :

أى ولكنني أعبد الله - تعالى - الذي يستوفي آجالكم ، بقبض أرواحكم فهو الجدير بالعبادة والتقديس ، فاعرضوا عقيدتي هذه على عقولكم ، وانظروا فيها بعين الإنصاف ، لتعلموا

صحتها وفساد ما أنتم عليه من عبادة آلهة لا شأن لها في إحياء ولا إماتة - وإنما خص التوفى بالذكر لتهديدهم .

(وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى وأمرنى الله تعالى أن أكون من المتمسكين بالإيمان به ، وعدم المبالاة بآلهتكم ، فإنهم « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا »^(١) .

١٥٥ - (وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

المراد من إقامة وجهه - صلى الله عليه وسلم - للدين ، استقامته في الاتجاه إليه ، وقد أكد ذلك بقوله : (حَنِيفًا) : أى مائلا عن الأديان كلها إليه ، أى وكما أمرنى الله تعالى بالإيمان به - أمرنى سبحانه بالإخلاص في الاتجاه إلى دينه بقلبي وجوارحي ، وأقوالى وأفعالى ، بحيث لا يصرفنى عنه صارف ، وأمرنى أيضا أن لا أشرك في عبادته أحدا حتى لا أكون ككهولاء الذين قال الله فيهم : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ »^(٢) . وقد عرفت من هذا العرض أن الآية السابقة دعت إلى الإيمان ، وأن هذه الآية دعت إلى الإخلاص في الإيمان ، والحرص على صفائه ونقاؤه وثباته ، والحذر من أن يتطرق إليه أى شك أو لبس والخطاب وإن كان موجها إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فالؤمنون داخلون في حكمه ، فهم مطالبون بالإخلاص في دينهم ، وقد جاء ذلك صراحة في قوله - عز وجل - : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ »^(٣) :

أى الذين صدقوا بإخلاص ، ولم يخلطوا بإيمانهم بشرك يظلمون به أنفسهم ، ويعتدون به على الحق ، أولئك لهم الأمن من المكارة ، وهم مهتدون إلى الحق وإلى عظيم الثواب ، وقال -

(١) الفرقان من الآية : ٣

(٢) يوسف من الآية : ١٠٦

(٣) الأنعام الآية : ٨٢

صلى الله عليه وسلم - محذرا من الشرك : « أيها الناس اتقوا هذا الشرك ، فإنه أخفى من دبيب النمل » أخرجه الإمام أحمد والطبراني .

١٠٦ - (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ) :

جاءت هذه الآية ، لزيادة تأكيد ما جاء في الآيات السابقة ، فقد نهي الله فيها رسوله - عليه الصلاة والسلام - عن الاتجاه في دعائه وعبادته ، إلا إليه وحده لأنه سبحانه هو الذي يملك جلب المنافع ودفع المضار ، أما الآلهة المزعومة ، فلا تملك أن تنفع ذاتها أو أن تدفع الضر عنها ، فكيف تملك لغيرها نفعاً أو ضرراً ؟ !

(فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ) :

الخطاب - هنا وفيما سبق - موجه للمسلمين عامة في جميع العصور ، وإن بدا في لفظه إلى شخص النبي - صلى الله عليه وسلم - والمعنى : إن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضررك فإنك تكون - حينئذ - من الظالمين لأنفسهم بالشرك . واستعمال أداة الشرط (إن) تفيد استبعاد أن يدعو الرسول والمؤمنون غير الله - تعالى - بعد إيمانهم به سبحانه وتعالى .

والآية تنهى نهياً حاسماً ، عن الاتجاه بالدعاء إلى غير الله ، كائنًا ما كان كما جاء في الحديث الشريف . الذي ذكرت فيه وصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - لابن عمه عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - : « وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك . وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف » . أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾)

المفردات :

(يَمَسُّكَ) : يصبك .

التفسير

نهت الآية السابقة ، عن الاتجاه بالدعاء إلى ما لا ينفع ولا يضر . وقررت أن هذا إشراك بالله - تعالى - وجاءت هذه الآية لتؤكد أن النفع والضرر ، من الله وحده . وفيما يلي بيانها :

١٠٧ - (وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) :

أى : وإن يصبك الله بما يضرك ، من قحط أو فقر أو مرض . أو خوف أو إيذاء أو غيرها ، فإن أحداً لن يستطيع أن يزيل عنك ما أصابك إلا الله وحده « وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ »^(١) .

والناس يتعرضون للضرر ، ابتلاءً من الله - تعالى - واختباراً منه لعباده . ليظهر مدى إيمانهم وصبرهم ، قال تعالى : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ »^(٢) . وقد يتعرض الناس للضرر ، عقاباً لهم على ما اجتروحوا من آثام لكي يعودوا إلى الله بالتوبة والاستغفار ، قال تعالى : « فَأَخَذْنَا هُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ »^(٣) . وقال جل شأنه : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ »^(٤) . وقد يكون هذا التعرض تكفيراً للذنوب . أو رفعة للمنزلة .

(٢) البقرة : ١٥٥

(٤) الشورى : ٣٠

(١) الشورى الآية : ٢٨

(٣) الأنعام من الآية : ٤٢

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ ، وَلَا أَذًى وَلَا غَمٌّ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكِهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » .^(١) وقد جرت سنة الله تعالى ، أن لا يديم الضر على عباده ، بل يكشفه عنهم ، كما يشير إليه قوله تعالى : « سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا »^(٢) .

(وَإِنْ يُرْذَلْ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) :

والمعنى : أنه - تعالى - إن يرد عبده بخير من فضله ، فلن يستطيع أحد منع هذا الخير عنه ، فإن إرادته - جل وعلا - نافذة ، وفضله سبحانه لا يستطيع أن يرده أحد من خلقه .

وكما يكون الضر ابتلاءً من الله لعباده لإظهار مدى إيمانهم وصبرهم ، يكون الخير كذلك لإظهار مدى شكرهم لله وإقبالهم عليه - تعالى - قال سبحانه : « وَتَبَلُّوْا كُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ »^(٣) . وقد يكون الخير تكريماً من الله لعباده الصالحين ، وتعجيلاً بنصيب من الثواب في الدنيا قال تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ »^(٤) . وكما قال سبحانه : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا »^(٥) .

(وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) : أى والله - سبحانه وتعالى - عظيم المغفرة واسع الرحمة . يفسح لعباده مجال التوبة والاستغفار قبل أن ينزل بهم العقاب ، فإنه - سبحانه - : « أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ »^(٦) . ومن فضل الله ورحمته أنه يتجاوز عن كثير من السيئات ، كما قال عز وجل : « وَيَغْفُو عَنْ كَثِيرٍ »^(٧) . ولا يؤاخذهم عاجلاً بما كسبوا ، كما قال سبحانه : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ »^(٨) .

وكما قال تعالى : « وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ »^(٩) .

(١) أخرجه البخارى في كتاب المرض عن أبي سعيد الخدرى (باب ما جاء في كفارة المرض) .

(٢) سورة الطلاق الآية : ٧

(٣) سورة الأنبياء الآية : ٣٥

(٤) سورة النحل من الآية : ٣٠

(٥) سورة الطلاق من الآية : ٤

(٦) ختام المدثر .

(٧) سورة الشورى من الآية : ٣٠

(٨) سورة فاطر من الآية الأخيرة .

(٩) سورة الكهف : آية ٥٨

(قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ
 اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا
 وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾) وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ
 حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾)

المفردات :

(بِوَكِيلٍ) : الوكيل ؛ من يوكل إليه الأمر .

التفسير

١٠٨ - (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ...) الآية .

أثبتت الآيات السابقة ، أن الذي يملك الهداية ، والنفع والضرر والموت والحياة هو الله وحده ، فهو الجدير بالعبادة والتقديس ، وجاءت هذه الآية لتبين أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أدى رسالته للناس على وجهها الحق ، وأنه ليس مستولا عنهم إن أعرضوا عنها .

والمعنى : قل يا محمد لأمتك : يا أيها الناس قد جاءكم من ربكم الدين الحق ، الثابت بالمعجزات والبراهين العقلية والنقلية ، وقد أصبح الحق واضحاً لا شك فيه ، فلا عذر لأحد في التكذيب به ، أو العمل بما يخالفه .

(فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ) : أى فمن اهتدى إلى هذا الدين الحق بالإيمان والمتابعة فإنما يهتدى لمنفعة نفسه دون سواها .

(وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) : ومن ضل عن هديه وانصرف عنه ، فما وبال ضلاله إلا على نفسه دون غيرها ، فلا منفعة لله ولا لرسوله من اهتدائكم ، ولا ضرر على الله ولا على رسوله من ضلالكم ، أخرج مسلم في صحيحه . عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن ربه عز وجل : « يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوْنِي . وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ ، كَانُوا عَلَىٰ أُنْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ،

مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا . . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ مِنْكُمْ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا .^(١) فَاَللَّهُ - سبحانه - غني عن الناس ، والناس جميعًا مفتقرون إلى رحمته ، قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ »^(٢) .

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) :

وقل لهم أيها الرسول : إن الذي كُلِّفْتُ به هو أداء رسالة الله إليكم . وقد أديتها كاملة ولم يوكل إلي إرغامكم على اتباعها ، لأنني لست عليكم بمسيطر . كما قال تعالى :
« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ »^(٣) .

١٠٩ - (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) :

بعد أن أمر الله رسوله بتبليغ قومه لأنه جاءهم بالحق من ربهم ، وأن عاقبة الاهتداء إليه والفضلال عنه لا تلحق سواهم ، وأنه ليس مكلفًا بقهرهم على الاهتداء ، أمره في هذه الآية بالثبات على اتباع وحيه ، والصبر حتى يأتي النصر .

والمعنى : دم على ما أنت عليه من اتباع وحى الله تعالى - ولا تدخل اليأس على نفسك بسبب إصرارهم على كفرهم ، واصبر على ما تتعرض له من إيذاء المشركين وعنتهم وإمعانهم في الضلال ، حتى يقضى الله تعالى فيهم قضاءه ، وينفذ فيهم مشيئته وحكمه ، فإنه أعدل الحاكمين .

وقد نفذ الرسول ما أمره الله به من ملازمة الاتباع ، ومداومة الصبر ، وصبر معه المؤمنون وتحملوا أذى المشركين ، حتى صدق الله وعده . وأعز جنده ، وهزم المشركين وحده ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ، والحمد لله رب العالمين .

(١) رواه أبو ذر الغفاري - رضى الله عنه - والحديث طويل وهذا جزء منه .

(٢) سورة فاطر الآية : ١٥

(٣) الغاشية الآيتين : ٢١ ، ٢٢

« بسم الله الرحمن الرحيم »

سورة هود

هذه السورة مكية :

روى الترمذى والطبرانى - وغيرهما - أن أبا بكر - رضى الله عنه - قال للرسول - صلى الله عليه وسلم - : « ما شَيْبَكَ ؟ قال : شَيْبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا ». وفى رواية أخرى : « شَيْبَتْنِي هُودٌ ، والواقعة ، والمرسلات . وعم يتساءلون » والمراد : ما فيها من ذكر ما أصاب الطغاة من عذاب شديد ، فى الدنيا وما ينتظرهم من أهوال يوم القيامة التى تجعل الولدان شيبا . وأهم مقاصد السورة ما يلى :

- ١- الحديث عن القرآن الكريم وأحكامه من لدن حكيم خبير ، ودعوة الناس للعمل بما فيه من عقائد وأحكام شرعية ، ليمتعهم متاعاً حسناً ويؤتى كل ذى فضل فضله ، وبيان أن المرجع إليه - سبحانه - وأنه على كل شىء قدير .
- ٢- الحديث عن علم الله تعالى وإحاطته - عز وجل - بمكنون الضمائر ، وتكفله برزق كل دابة ومعرفته جميع أحوالها وحرركاتها وسكناتها .
- ٣- الإشارة إلى آيات الله الكونية ، فى خلق السموات والأرض والعرش العظيم ، وأنه اختبرنا بالتكاليف ليلو عباده أيهم أحسن عملاً .
- ٤- الحديث عن إعجاز القرآن الكريم ، وعجز البشر عن محاكاته ، وأن هذا كافٍ فى الدلالة على أنه من عند الله ، وأن الله أيد به رسوله ، وأن ما يدعونه من افتراءه على الله زعم باطل .
- ٥- بيان موقف الناس من الإسلام ، وذكر ثواب المطيعين وعقاب المسيئين - وأن مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، وأنهما لا يستويان مثلاً .
- ٦- الحديث عن قصة نوح - عليه السلام - وقومه ، والطوفان ، ونجاة المؤمنين وهلاك المكذابين الكافرين ليعتبر كفار قريش ويرجعوا عن كفرهم وتكذيبهم .
- ٧- بيان قصة هود - عليه السلام - مع قومه عاد ، ونجاة المؤمنين منهم وهلاك العاصين المتمردين ، ليكون فى نبئهم عبرة لأولى الألباب .

٨- قصة صالح - عليه السلام - مع قومه « ثمود » ونجاة المؤمنين منهم وهلاك الكاذبين بالصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، جزاء كفرهم وتكذيبهم لرسول الله إليهم .

٩- قصة إبراهيم - عليه السلام - وتبشير الملائكة له بإسحق ومن ورائه يعقوب - عليهما السلام - .

١٠- قصة الملائكة وزيارتهم لوطا عليه السلام . وإهلاك الله لقومه بإبادة قراهم ، وإمطارهم بحجارة من سجيل ، جزاء شذوذهم الشهواني ، وكفرهم بآيات ربهم .

١١- قصة شعيب - عليه السلام - وتمرد قومه عليه وإهلاكهم بالصيحة . فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ، كما حدث لقوم صالح - عليه السلام - ونجى الله شعيبا ومن آمن معه .

١٢- قصة موسى وفرعون ، وبيان أن قوم فرعون اتبعوا أمره . فأهلكهم الله وأتبعهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة بسبب كفرهم .

١٣- الإشارة إلى سنة الله في عقاب الكفار في الدنيا ، ونجاة المؤمنين بقوله : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » . وبيان أن في ذلك آية لمن خاف عذاب الآخرة .

١٤- بيان حال الكافرين الأشقياء في الآخرة من الخلود في النار وزفيرهم وشهيقهم فيها ، وبيان حال المؤمنين السعداء فيها ، من الخلود في الجنة والنعيم المقيم فيها .

١٥- بيان أنه - تعالى - قص على رسوله صلى الله عليه وسلم قصص إخوانه الأنبياء مع أممهم ، ليثبت بها فؤاده ، وموعظة وذكرى للمؤمنين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ

خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَّدِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝)

المفردات :

(أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ) : نظمت آياته نظماً محكماً لا خلل فيها ولا تناقض ولا اضطراب .
 (فُصِّلَتْ) : ذكرت فيها الأمور التي يحتاج إليها العباد في عقائدهم وسلوكهم ومعادهم ومعاشهم مفصلة مبينة .

(مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ) : من عند إله مبدع للأمر على خير وجه .
 (خَبِيرٍ) : عليم بما كان وما يكون ، ظاهراً أو خفياً .
 (نَذِيرٌ) : محذر لعباد الله من سوء عاقبة الكفر والعصيان .
 (بَشِيرٌ) : مخبر بما يسر الصالحين من ثواب الله .

التفسير

١- (الر) : تحدثنا في أول سورة البقرة عما بُدئ به بعض السور من مثل هذه الفواتح ، وذكرنا آراء المفسرين فيها ، وأرجح الآراء في تأويلها هو أنها ترمز إلى التحدى بأن يأتوا بمثل هذا القرآن المؤلف من كلمات وجمل ذات حروف مما ينظمون منها كلامهم ، إن كانوا صادقين في زعمهم أن الرسول يَقُولُهُ على الله ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه مع ما يمتازون به من الفصاحة والبلاغة وحسن البيان ، فمحمد مثلهم وشأنه شأنهم فهذا دليل على أن القرآن من عند الله وأنه : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »^(١) وتكرارها في القرآن على هذا الرأي تكرار للتحدى ، وقيل : إن المقصود بها هو تنبيه السامعين إلى ما يأتي بعدها .

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) :

هذا كتاب كريم ، أنزل الله آياته البينات في غاية الإحكام ، فهي فصيحة الكلمات ، بليغة العبارات متناسقة الموضوعات ، رائعة المعاني غزيرة الفوائد ، لا يمكن أن يتطرق إليها أى اضطراب أو اختلال كما قال تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »^(٢) .

وكما هي متقنة في أصولها ، فهي متقنة في تفصيلاتها الفرعية في قوة ، ودقة ، ووضوح لأنها مُنزلة من الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها ، الخبير بما كان وما هو كائن . والعطف بحرف (ثُمَّ) لإفادة علو مرتبة التفصيل ، لوفائه بحاجات البشر .

٢ - (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مُنْذِرٌ وَبَشِيرٌ) :

جاءت هذه الآية مبينة المقصود من إنزال القرآن محكما ومفصلا - وهو الدعوة إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى والتوجه إليه - عز وجل - وحده بالعبادة ، دون شريك ، وهذا هو جوهر الرسائل السماوية .

والمعنى : هذا كتاب أحكمت آياته وفصلت من عند الحكيم الخبير ، لكيلا تعبدوا غير الله تعالى فإنني لكم منذر فلا تعصوه خوفاً من عقابه ، ومبشر فأقبلوا على طاعته طمعا في ثوابه .

(وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾)

المفردات :

(تَوَلَّوْا) : أصلها تتولوا أى تعرضوا . (مَرْجِعُكُمْ) : مصيركم .

التفسير

٣ - (وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) :

هذه الآية مكملة للآية السابقة في المعنى .

والمعنى : هذا كتاب أحكمت وفصلت آياته من عند الله وحده - لكي تعبدوه دون سواه وتستغفروه وتوبوا إليه من ذنوبكم ومعاصيكم ، على أن تكون توبة نصوحا ، وهي المنبئة

عن الندم ، مع العزم على تجنب المعاصي والآثام والإكثار من الطاعات ، فإنها تمحو السيئات ، كما قال تعالى : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » ^(١) .

وقد بيّنت الآية أن من ثمرات الاستغفار والتوبة ، أن الله يمن على صاحبهما بالثواب العاجل في الدنيا ، فيغمره بفضله وإحسانه فيها ، حتى يوافيه أجله المحتوم المقدر عند الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى : « اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا » ^(٢) .

وأدنى المتاع الحسن في الدنيا ، الأمن والدعة وراحة النفس والرضا بما قسم الله - تعالى - والصبر على المحن .

(ويؤْتِ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) . أى ويمنح في الآخرة كل صاحب فضل في دينه جزاء فضله ، بعد أن تمتعه في دنياه ، متاعاً حسناً .

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) :

وإن تنصرفوا عما دعوتكم إليه من طاعة الله والتوبة من المعاصي فإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول ، رهيب الجزاء ؛ « يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » ^(٣) .

٤ - (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ) :

أى إلى الله - وحده - مصيركم وما لكم ، بعد هذه الحياة . فعليكم أن تنزودوا لهذا المصير بما يجزل الله لكم به الثواب ويقيكم العذاب - قال تعالى : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ » ^(٤) .

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

ختم الله الآية بهذه الجملة ، ليعلم العباد أن من كان قادراً على كل شئ فهو - عز وجل - قادر على بعثهم ، ومجازاتهم بما يستحقون من ثواب وعقاب ، وأن عليهم أن يتقوه

(٢) نوح الآيات : ١٠ - ١٢

(١) هود من الآية : ١١٤

(٤) البقرة من الآية : ١٩٧

(٣) الحج الآية : ٢

ويحذروا عقابه ، ويدعوه مستغفرين تائبين طامعين في فضله وإحسانه ، كما قال تعالى :

« وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ » ^(١) .

(أَلَا إِنَّهُمْ يَشْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ أَلَا حِينَ
يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾)

المفردات :

(يَشْنُونَ صُدُورَهُمْ) : يطرون قلوبهم على ما فيها من نوايا .

(لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ) : ليستروا أنفسهم عنه سبحانه .

(يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ) : يوارون أنفسهم بثيابهم .

التفسير

٥ - (أَلَا إِنَّهُمْ يَشْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ) :

تحدثت الآيات السابقة عن وجوب الإيمان بالله واستغفاره ، والتوبة إليه من الذنوب ليمتعهم في الدنيا متاعا حسنا ، ويؤتي في الآخرة كل ذي فضل ثواب فضله حين يرجعون إليه ، وجاءت هذه الآية تبين إصرار المشركين على الكفر ، وتنذرهم بأن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأنه سيجزيهم بما كانوا يعملون .

ورأى بعض المفسرين : أن هذه الآية نزلت في المنافقين ، لأنهم كانوا يخفون الكفر ويظهرون الإيمان ، ولكن هذا الرأي لا يناسب ما تقدم عليها وما تأخر عنها ، من وعظ المشركين وإنذارهم مغبة ما هم عليه ، في حين أن السورة مكية ، فلا ينبغي أن يُقحم أمر

المنافقين بين ما هو مرتبط بمسلك المشركين بمكة ، قال العلامة البيضاوي بعد حكايته القول بأنها نزلت في المنافقين وفيه نظر ؛ إذ الآية مكية ، والنفاق حدث في المدينة ٥١ . ويؤيد ذلك ما روى عن ابن عباس في سبب نزولها ، فقد روى عنه أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو المنطق حسن السياق للحديث ، يظهر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - المحبة ، ويضمر في قلبه ضدها .

والمعنى : ألا إن الكافرين الذين لم يتأثروا بآيات القرآن ، يطوون صدورهم على الكفر وعداوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا ينتفعون بتلك الزواجر التي تقدمت في صدر السورة ، يريدون أن يخفوا أمرهم عن الله ، أو يعتقدون أن أمرهم يخفى عليه ، ثم رد الله عليهم وخطأ مسلكهم فقال :

(أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

ليس المراد من استغشائهم ثيابهم المعنى الحقيقي ، بل المراد : مبالغتهم في إخفاء أمرهم فهو من التعبيرات الكنائية ، ويدل لذلك قوله تعالى في ختام الآية : (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) والمعنى : ألا إنهم حين يبالفون في ستر حالهم وإخفاء كفرهم وعداوتهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - ويستخفون تحت ظواهرهم من المودة والملاطفة ، يعلم الله ما يخفونه من الكفر بالله والعداوة لرسوله ، وجميع ما تنطوى عليه جوانحهم ، ويعلم ما يعلنونه من جميع ظواهرهم ، وصدق الله إذ يقول في سورة سبأ : « لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة
محمد حمدي السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩ / ١٩٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٥٠٠٤-١٩٧٩/١٦٢

(* وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾)

المفردات :

(دَابَّةٌ) : هي اسم لكل حيوان يدب على الأرض زحفاً أو على قوائم ، مأخوذة من الدبيب وهو الانتقال البطيء ، والمقصود منها هنا جنس الحيوان من ماشية وسباع وهوام وحشرات وغيرها ويدخل فيها الإنسان ، فإنه يدب على الأرض ، ومنه قول الشاعر :
إنما الشيخ من يدب ديبياً .

(مُسْتَقَرَّهَا) : موضع استقرارها وإقامتها . (وَمُسْتَوْدَعَهَا) : مكان استيادها ووجودها إلى حين تنقل بعده إلى غيره . (كِتَابٍ مُبِينٍ) : هو كناية عن علم الله تعالى ، أو هو اللوح المحفوظ .

التفسير

٦- (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ...) الآية .

بين الله في الآية السابقة أن الكافرين مهما حاولوا الاستخفاء من الله تعالى بما يظنون أنه يخفيهم عنه ، ومهما تستروا في كفرهم وعداوتهم للرسول فإنهم لا يخفون على الله العليم بما يسرون وما يعلنون ، وجاءت هذه الآية لتقرر ما سبق ، ببيان شمول رزقه تعالى وعلمه لكل دابة في الأرض .

والمعنى : وما من حيوان في أي جزء من أجزاء الأرض ، ذكر كان أو أنثى يمشى على رجلين أو يمشى على أربع ، أو يمشى على غير هذه الصور ، إلا تكفل الله برزقه اللائق به ، وأوجب على نفسه تفضلاً وإحساناً .

وكما تكفل برزقه أينما كان يعلم مستقره وموطنه الذي ولد ونشأ فيه ، ومستودعه الذي يرحل إليه لطلب الرزق وغيره ، كما يعلم مساكنه في أدوار حياته ويعلم ما يودع فيه بعد مماته ، كل ذلك في كتاب بين واضح .

والكتاب المبين هنا: إما كناية عن علم الله تعالى ، وإما حقيقة مراد منها اللوح المحفوظ .

وتذليل الآية بهذه الجملة ، للإيذان بأنه تعالى لا يبتدئ العلم بأحوال الدواب ابتداءً ، بل علمه بها أزلي قديم ، وواضح لديه أمرها قبل خلقها ورزقها وإيوائها في مستقرها ومستودعها ، وأنه دبر أمرها أزلا على النحو الفائق العجيب الذي أراده لها ، وأبرزها عليه وفق تدبيره الأزلي القديم فتبارك الله أحسن الخالقين .

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) (٧)

المفردات :

(سِتَّةِ أَيَّامٍ) : المراد بالأيام؛ أيام الله لا أيامنا نحن ولا يعلمها إلا الله ، وسيأتي الحديث عنها .
(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) : وكان عرشه فوق الماء ، ولا يقتضى هذا أن يكون العرش فوقه مباشرة ، وسيأتي تفصيل الحديث عن هذه الجملة في تفسيرها .

التفسير

٧- (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) :

بعد أن بين الله سبحانه في الآية السابقة تكفله بأرزاق دواب الأرض ، وعلمه بجميع أحوالها ، بين في هذه الآية خلقه للسموات والأرض ، وأيام خلقه لها ، ليعلم الناس عظمته تعالى ، فلا يشركوا به في العبادة ما ليس له دخل في خلق ولا رزق ، بل يتنافسوا في إحسان العمل والتقرب به إليه سبحانه ، ونعى عليهم فيها إنكارهم للبعث بعد الموت للحساب والجزاء ووصفهم للقرآن الذي أخبرهم بذلك بأنه سحر مبين .

واعلم أن أصل السموات والأرض الدخان، قال تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ»^(١). وقال جل وعلا في سورة الأنبياء: «أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا»^(٢).

ويقول أهل العلم الحديث: إن أصل العالم غاز الهيدروجين، وهم بذلك يهتدون إلى ما سبقهم به القرآن العظيم بأكثر من ألف عام، وتحويل هذا الدخان إلى سموات وأرضين، استغرق ستة أيام كما نصت عليه الآية الكريمة، ولا يصح حمل الأيام هنا على أيامنا في أرضنا، فإنها نشأت بعد خلق السموات والأرض، وأيامنا على قدر حجم أرضنا، والأيام في الكواكب الأخرى على قدر حجمها صغيراً أو كبيراً.

أما الأيام التي استغرقها خلق السموات والأرض، فهي بقدر عظمة هذا الكون وما يقتضيه من زمان طويل جداً، حتى يتم تحويل الغاز أو الدخان إلى سموات وأرضين، كما تقتضيه سنة التطوير التي شاءها الله تعالى، مع أنه قادر على أن يقول لها كوني فتكون فوراً. ولقد ضرب الله مثلاً لآيامه بقوله سبحانه: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعْلُونَ»^(٣). ويقول: «تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»^(٤). وذلك يقتضى أن أيام الله ليس لها حد معين وأنها تكون في طولها وامتدادها حسب الأمر الذي تتصل به، وفي موضوع تكوين السموات والأرض قد تكون الأيام أطول من هذين المثلين وربما وصل اليوم فيها إلى ملايين السنين، وليس من الحكمة تحديد مدى أيام الله تعالى فذلك شأنه تعالى، ولا سبيل لنا إلى علمه، وعلى هذا يكون معنى الجملة من الآية ما يلي:

وهو الذي خلق السموات والأرض مادة-وصورة، وهياً لها كل ما خلقت لأجله من العناصر والوظائف والمواضع في هذا الفضاء الرهيب، ووصل بينها بالقوى التي تربط بعضها ببعض من غير عمد ترونها، وكان ذلك كله في ستة أيام من أيامه تعالى، حتى تمت على أجمل صورة وأكمل إبداع، وأقوى بناء، فلا ترى فيها من عيب ولا فطور وشقوق. وصدق الله إذ يقول: «الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ

(٢) سورة الأنبياء، من الآية: ٣٠

(٤) سورة المعارج، من الآية: ٣

(١) سورة فصلت، من الآية: ١١

(٣) سورة الحج، من الآية: ٤٧

فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ^(١) .

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) : دلت هذه الجملة على أن عرشه تعالى كان على الماء قبل خلق السموات والأرض ، فكأنه قيل : وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام فى حال كون عرشه تعالى على الماء ، ويدل صراحة لهذا المعنى ، ما جاء فى كتاب بدء الخلق بصحيح البخارى من حديث عمران بن حصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض » .

فهذا الحديث يدل على أنه تعالى أزل لا أول له ، وأنه لم يكن يشاركه شيء غيره فى الوجود وأنه سبحانه كان عرشه على الماء وأنه كتب كل شيء قبل خلق السموات والأرض ، وأنه خلق السموات والأرض بعد ذلك ، ومن هذا كله يعلم أن الماء مخلوق قبل خلق السموات والأرض ، فهو أصل خلقهما ومادته وأصل كل شيء حى ويدل لذلك صراحة قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » ^(٢) . قال الشيخ رشيد رضا فى شرح قوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) : نفهم منه أن الذى كان دون هذا العرش من مادة هذا الخلق قبل تكوين السموات والأرض أو فى أثناءه هو هذا الماء الذى أخبرنا عز وجل أنه جعله أصلاً لخلق جميع الأحياء ، إذ قال : « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » . والرؤية هنا علمية .

والمعنى : ألم تعلموا ما ينبغى أن يعلموه من أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة لا فتق فيها ولا انفصال - وهى ما يسمى فى عرف علماء الفلك بالسديم ، وبلغه القرآن بالدخان - ففتقناهما بفصل بعضهما من بعض ، فكان منها ما هو سماء ، ومنها ما هو أرض ، وجعلنا من الماء فى المقابلة لحياة الأحياء كل شيء حى . ١ هـ

(١) سورة الملك ، من الآيتين : ٣ ، ٤

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٠

واختلف في المراد من عرش الله الذي كان على الماء ، فمن العلماء من يفهمه على أنه جسم كوني عظيم ، خلقه الله أول ما خلق ، وجعله مصدر أوامره في الكون الذي شاء إنشائه بعده ، والله يعلم مادته وصورته ، ومعنى كون عرشه تعالى على الماء على هذا أنه فوقه ، وهذا لا يلزم منه أنه فوقه مباشرة بحيث يكون مرتكزا عليه ، فأنت تقول : السحاب على الأرض أو فوق الأرض ، مع أنه ليس مباشرة بالعلو والفوقية لها ، بل بينهما فراغ .

قال الشيخ رشيد رضا بعد ما نقلناه عنه سابقا في شرح الآية : فيفهم من هذا وذاك أن الذي كان تحت العرش فينزل إليه منه أمر التدبير والتكوين هو الماء الذي هو الأصل لجميع الأحياء ، ثم قال : والعبارة ليست نصا في أن ذات العرش المخلوق كان على متن الماء ، كالسفن التي نراها راسية فيه الآن كما قيل - اه من ص ١٦ ج ١٢ طبعة الشعب .

ومن العلماء من ذهب إلى أن العرش كناية عن الملك والسلطان ورّمز له ، ومعنى قوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) - على هذا الرأي - وكان سلطانه على الماء ليخلق منه ما يريد خلقه من السموات والأرض ، وقد تقدم الكلام في سورة الأعراف - الآية ٤٥ - على قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » فارجع إليه لتعرف تفصيلا أكثر لما قاله العلماء في معنى العرش والله تعالى أعلم .

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) : أي وهو الذي خلق السموات والأرض ، وكان سلطانه على الماء في خلق ما يريد ، وسخر لكم ما في السموات والأرض ليمتحنكم ، فيظهر أيكم أحسن عملا من سواه ، فيجازيكم على عملكم لا ما علمه أزلا بكم . فإن العمل حجة على صاحبه ، ويفهم من ذلك أن الله تعالى خلق الكون ليعبده العقلاء من خلقه فيه ، فإنه سبحانه ما خلقهم إلا ليعبدوه كما قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » (١) . وإنما جعل الله ذلك غاية لخلق السموات والأرض ، لأنه تعالى زود عباده بالعقل والاستعداد للنظر في الآيات الكونية التي بشها سبحانه في أرجاء السموات والأرض ، وجعلها مصدرا

لخيراتهم ومنافعهم ، وجعل ذلك كله شاهداً لأنه هو الخالق المدبر الحكيم ، الرؤوف الرحيم . المستحق لشكرهم إياه بالإخلاص في عبادته وحده ، وإنما اقتصر في البلاء على أيهم أحسن عملاً ، مع أن منهم من هو حسنُ العمل ومنهم من هو سيئُه ، ليحشهم بذلك على التنافس في إحسان العمل ، وليرشدهم إلى أن الغاية العظمى من خلق ذلك هو أن يكونوا في عملهم على أحسن وجه وأكمله ، بقدر استطاعتهم واجتهادهم وفي حدود طاقتهم .

(وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) :

أى ولئن قلت أيها النبي تبليغا للناس إنكم جميعا مبعوثون من بعد الموت للحساب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب وأقامت الأدلة عليه .

(لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) : أى لانفرد الكافرون بإنكار البعث ، وليقولن تكذيبا لك : ما البعث الذى تخيفنا منه ، أو القرآن المشتغل على الإنذار به ، إلا كالسحر يخدع ويغر ولا ثبات له ولا دوام ، يعنون بذلك أن لا بعث ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب .

(وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾)

المفردات :

(أُمَّةٌ مَعْدُودَةٌ) : مدة قليلة . (مَا يَحْبِسُهُ) : ما يمنعه .
(مَصْرُوفًا عَنْهُمْ) : مدفوعا ومنحولا عنهم . (حَاقَ بِهِمْ) : أى نزل وأحاط بهم .

التفسير

٨- (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ) : بعد ما بينت الآية السابقة ما يقوله المشركون إنكارا للبعث ، بينت هذه الآية ، ما يقولونه إنكارا للعذاب الذى أنذرهم إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : ولئن أخرنا عن هؤلاء المكذبين العذاب الموعود الذى أنذرهم النبي صلى الله عليه وسلم بوقوعه إن استمروا في كفرهم وعنادهم ، لئن أخرناه إلى مدة من الزمن معدودة مقدرة في علمنا ، كما هو شأننا في تحديد الآجال « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » لئن أخرناه هكذا ليقولن منكبين مستهزئين : أى شئ يمنع وقوع هذا العذاب بنا ؟ يقصدون بذلك التكذيب بوقوعه . فيرد الله عليهم بقوله تعالى :

(أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

والمعنى : أن الله تعالى يؤكد بهذه الجملة وقوع العذاب بهم حينما يأتى الوقت المقدر لوقوعه ، ويومئذ لا يصرفه عنهم صارف ولا يحبسهم عنهم حابس وقد أحاط بهم العذاب الذى كانوا به يستعجلون استهزاءً وتكذيباً .

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۖ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعَمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۖ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝)

المفردات :

(أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً) : أعطيناه نعمة ذاقى لذتها . (نَزَعْنَاهَا) : سلبناها وأخذناها . (لَيَكْفُرُ) : لشديد اليأس من عود ما سلب منه .

(كَفُورٌ) : مبالغ في جحد النعمة وعدم شكرها . (نِعْمَاءٌ) : نعمة من صحة وغنى وغيرهما ، ولم يرد في القرآن لفظ النعماء إلا في هذه الآية . (ضَرَاءٌ) : من فقر ومرض وغير ذلك . (مَسْتَهُ) : أصابته ولحقته . (فَرِحَ) : كثير الفرح بطرا . (فَخُورٌ) : مبالغ في الفخر بها والتعالى على عباد الله .

التفسير

٩- (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ) :

جاءت هذه الآية والآيتان بعدها لبيان حال الإنسان وطبيعته عند الابتلاء بالسراء والضراء . وأنه لا يصبر على المحن ولا يشكر النعم إلا الصالحون .

والمعنى : ولئن أعطينا الإنسان منا نعمة من النعم وأذقناه حلاوتها ولذتها ، كالصحة والمال والولد البار ، ثم أخذناها منه فإنه يجمع بين شيئين : المبالغة في اليأس من عودة مثل ما سلب منه ، والمبالغة في جحد النعمة وعدم شكر ما بقى منها ، ونعم الله لا تحصى ، وإغما يفعل ذلك لحرمانه من فضيلتي الصبر والشكر ، فهو لذلك لا يرجو ثواباً ، ولا يخطر بباله أن الله سيردها إليه أو مثلها أو خيراً منها إن هو صبر أو شكر ، مع أنه لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون .

١٠- (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) :

أى وإذا أنعمنا على الإنسان بما تطيب به حياته ويشعر بلكته - أنعمنا عليه بذلك - بعد ضر كان يقاسيه ويعانيه ، ليقولن مطمئناً إلى بقاء هذه النعمة . قد مضى اليأس وانقضى الضر ولن يعود .

(إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ) : أى إنه نسى ما كان فيه من ضراء ، واطمأن إلى بقاء النعمة الطارئة . وفرح بها فرح بطر وغرور وتفاجر بها على عباد الله ، وغاب عن ذهنه شكر الله عليها . وأن الله قد يحرمه منها بعدم قيامه بشكره من أجلها .

١١- (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) : لما بين الله تعالى حال جنس الإنسان الذى يئس من رحمة الله إن أصابته محنة ، والذى يكفر بالنعمة بعد الضر فلا يشكر

الله عليها ، ويظن بقاءها ويتفاخر بها على عباد الله ، جاءت هذه الآية لتبين صنفًا من الناس ليسوا على شاكلة هؤلاء وأولئك ، وهم الذين يصبرون عند نزول المحن والشدائد استسلامًا لقضاء الله ويضبطون أنفسهم عند امتحانها بالغنى فلا يفرحون ولا يغتربون . شكرًا لنعم الله عند السراء ، وامتنالًا لأمر الله تعالى وتقربًا إليه في حال النعماء .

والمعنى : لكن الذين صبروا على الابتلاء ، وعملوا الصالحات في الضراء والسراء . (أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) : أى أولئك الموصوفون بهذه الصفات الحميدة المخالفة لصفات من قبلهم ، لهم مغفرة من الله تعالى يستر بها ذنوبهم ، وأجر كبير في الآخرة لصبرهم في الشدة وشكرهم في الرخاء ، ولأنهم ردوا ما ينالهم من خير إلى فضل الله ، وما يقع عليهم من ضرر إلى قدر الله تعالى الموافق للحكمة والصواب .

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ١٤)

المفردات :

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ) : لعلك راغب في عدم إسماعهم بعض ما يوحى إليك من دلائل نبوتك كراهة معارضتهم لك ، وترويضًا لنفوسهم .

(لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ) : أى هلا أعطى الله محمدًا مالا ينفقه . (وَكِيلٌ) : حفيظ مطلع يحفظ أحوالك وأحوالهم . (افْتَرَاهُ) : اختلقه . (يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ) : يجيبوكم . (مُسْلِمُونَ) : منقادون لله .

التفسير

١٢- (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ كَثِيرٌ) :

هذه الآية واللذان بعدها لتسليية الرسول والتخفيف عن نفسه الشريفة بسبب مايجده من عناد المشركين واقتراحهم الآيات ، مع كفاية ما جاءهم به منها في الإيمان . كما أنها مسوقة لبيان أنه صلى الله عليه وسلم ليس مستثلاً عن كفرهم ، فما هو إلا منذر ، والله وكيل ورقيب عليهم .

والمعنى : فلعلك يا محمد تارك إسماعهم بعض ما يوحى إليك من الآيات الدالة على حقيقة نبوتك ، المناذية بكونها من عند الله تعالى لمن له أذن واعية وقلب رشيد ، ولعلك يضيق صدرك بتلاوته عليهم وتبليغه إياهم أثناء الحاجة والدعوة إلى الإيمان ، بسبب معارضتهم الشديدة لك ، وإصرارهم على رفض ما جئتهم به من التوحيد والوعد والوعيد وبسبب قولهم هلا أعطى مالا كثيراً كما يعطى الملوك والعظماء ، ليكون ذلك أمانة على أن ربه يشد أزره ولا يدعه فقيراً بين الناس ، وهلا جاء معه ملك يؤيده ويشهد له بالنبوة . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ولا تترك تبليغهم شيئاً مما أوحى إليك ، ولا يضيق صدرك بما يقولون ، فإنه لا ينبغي لمثلك أن يتأثر بمثل هذا القول الدال على ضعف تفكيرهم وشدة وطأة الحق الذي جئت به عليهم ، فهم يحاولون التنفيس عن أنفسهم وتخفيف وطأته عليهم .

(إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) : ما أنبت يا محمد إلا منذر لكل مكذب ولست عليهم بمسيطر فدع أمرهم الله فإنه هو الموكل بأمر خلقه والعالم بها ، يحصى عليهم أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزاء ، فتوكل عليه وفوض أمرك إليه . ١٣- (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتَّبِعُوا بَعْشَرَ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ) : أى بل أيقولون إن محمداً اختلق القرآن من عند نفسه ونسبه إلى الله تعالى . قل لهم أيها الرسول إن كان الأمر كما تزعمون فاتتوا بعشر سور مفتريات مثل القرآن في بلاغته وحسن تنسيقه ، فإنكم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة الحريصون على إبطال دعوى .

(وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ) : أى واستعينوا على ذلك بما تشاءون ، وادعوا من استطعتم دعوته في المعارضة ، أو فادعوهم ليشهدوا لكم إن كنتم صادقين في دعواكم : أنى اختلقته وأنه ليس من عند الله تعالى .

١٤ - (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) :
 إن كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كان المعنى : فإن لم يستجب هؤلاء
 المشركون إلى ما دعوتهم إليه من معارضة القرآن وحدهم أو مع من يشد أزركم فائبتوا
 على العلم الذى أنتم عليه ، وازدادوا يقيناً وثباتاً بأنه منزل من عند الله تعالى ، وأنه لا إله
 إلا الله ، لأنه العالم بما لا يعلمه غيره والقادر على ما لم يقدر عليه سواه ، ومن ذلك اختصاصه بالقدرة
 على إنزال هذا القرآن الذى أعجز البشر .

وإن كان الخطاب للمشركين كان المعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونهم للشهادة
 على أن محمداً اختلقه ولم يوافقكم على دعواكم ، فاعلموا أننا أنزل بعلم الله المحيط بحاجات
 البشر فى التشريع والسلوك ، وأنه لا سبيل إلى أن يؤلف مثله بشر ، واعلموا أيضاً أنه لا شريك
 له تعالى حتى يأتى بمثل هذا القرآن . (فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) : أى أسلموا أيها الكفار وأخلصوا
 لله وحده حيث ثبت عجزكم وعجز من استغنم بهم عن معارضة القرآن .

هذا إذا كان الخطاب هنا وفيما قبله للكفار ، فإن كان للمسلمين على ما تقدم بيانه
 فالغرض منه حثهم على الثبات أمام حرب المشركين لهم ، أى فهل أنتم ثابتون على إسلامكم
 أمام أعدائكم بعد أن وضع الحق ، واختفى الباطل ، يريد بذلك الأسلوب إلهاب عزائمهم .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ
 فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ ١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ
 فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ١٦)

المفردات :

(وَزَيَّنَّتْهَا) : الزينة ما يتزين به من اللباس والأثاث والأولاد والأسباب .
 (نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ) : نوصل إليهم جزاء أعمالهم وأفياً كاملاً .

(لَا يُبْخَسُونَ) : لا ينقصون شيئاً من أجورهم . (وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا) : أى بطل وضاع ثواب عملهم فى الآخرة .

(وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى لا قيمة له حيث لم يعمل لوجه الله .

التفسير

١٥- (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا . . .) :

بعد ما ثبت أن القرآن من عند الله تعالى بعجزهم عن الإتيان بمثله ، جاءت هذه الآية والتي بعدها لتبين أن من ينصرف عن العمل به إلى الاهتمام بالدنيا وحدها وترك العمل للآخرة ، عاقبته الخسران المبين .

والمعنى : من كان كل همه ومقصده من وجوده الدنيوى التمتع بلذات الدنيا وما يتزين به فيها فيعمل للتمتع بملذاته فيها ، دون أن يهتم ببقاء الله تعالى والعمل للآخرة بالبر والإحسان وتزكية النفس بالإيمان والتقوى .

(نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ) : أى نعطيهم جزاء أعمالهم وأجراً في الدنيا ، من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد وغير ذلك ، وهم فيها لا ينقصون شيئاً من أجورهم النبوية « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » . ثم بين الله تعالى عاقبة أمر هؤلاء في الآخرة فقال :

١٦- (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى أولئك الذين لا يريلون إلا زينة الحياة الدنيا وبهجتها وإشباع غرائزهم فيها ولم تمتد أبصارهم وأعمالهم وآمالهم إلى ما وراء هذه الحياة - أولئك - ليس لهم فى الآخرة مثوى إلا النار : لأنهم استوفوا فى الدنيا ما تقتضيه صور أعمالهم ، وبقيت لهم أوزار عقائدهم ونياتهم السيئة ، وبطل ثواب ما صنعوه فى الدنيا ، لأنه لم يعمل لوجه الله تعالى ، فلا نفع ولا خير لهم فيه قال تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَنُومًا مَّدْخُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا » ^(١) .

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ
 كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ
 بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
 مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(بَيِّنَةٌ) : حجة واضحة وبرهان ظاهر . (وَيَتْلُوهُ) : أى يتبعه . (شَاهِدٌ مِّنْهُ) : أى من الله تعالى يشهد بصحته . (إِمَامًا وَرَحْمَةً) : كتاباً يؤتم به في الدين ورحمة على المنزل عليهم . (الْأَحْزَابِ) : أهل مكة ومن تحزب معهم . (مِرْيَةٍ مِّنْهُ) : شك من الوعيد بالنار أو من القرآن .

التفسير

١٧- (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً) : هذا بيان لحال المسلمين الذين يريدون بأعمالهم وجه الله تعالى إثر بيان حال من يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وحدها .

والمعنى : أياكون حال من كان على بيينة وبرهان عقلى بما يؤمن به ويدعو الناس إليه ويتبع هذا النور الفطرى والبرهان العقلى شاهد من الله تعالى يشهد على صحة ما اهتدى إليه العقل وهو القرآن الذى ثبت صدقه وأنه من عند الله ، ويؤيده شاهد آخر من قبله . وهو التوراة كتاب موسى الذى جعله الله إماماً يؤتم به في الدين ، ورحمة لمن عمل به من بنى إسرائيل قبل نسخه بالقرآن فقد بشر بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن .

أفمن كان على هذا الحال ؟ يكون كمن يريد الحياة الدنيا وحدها محروماً من الحياة الدينية الموصلة إلى السعادة في الدار الآخرة ؟! لا يستويان .

(أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) : أى أولئك الذين استناروا بالحجج العقلية والنقلية يؤمنون بالقرآن ويعملون به .

(وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَخْرَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) : أى ومن لم يؤمن به من أهل مكة ومن تحزب معهم على محمد صلى الله عليه وسلم ممن يسير على غير هدى ، أو من أهل الكتاب ، فموعدهم ومآلهم النار يعذبون فيها ويردونها لا محالة بمقتضى وعيده تعالى لهم ولأمثالهم ، لقيام الحجة عليهم وعدم ما يثير الشكوك والجحود .

(فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ) : أى فلا تكن أيها العاقل المكلف فى شك من أن موعد أهل الكفر النار أو من أن القرآن من عند الله تعالى .
(إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) : أى إن الوعيد بالنار . أو إن القرآن هو الحق من الله الذى لا شك فيه ، فإنه : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .^(١) ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ، لأنهم لا يمعنون النظر فيه ولا فى الأدلة التى تهدى إليه .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ^(١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ^(١٩))

المفردات :

(وَمَنْ أَظْلَمُ) : لا أحد أشد ظلما . (يُعْرَضُونَ) : أى يعرضون ذاتا وعقلا .
(الْأَشْهَادُ) : جمع شاهد أو شهيد^(٢) وهو من يشهد عليهم . (لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) : إبعاده لهم من رحمته . (يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) : أى يمنعون غيرهم عن دين الله ، أو يعرضونهم عن دينه .
(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) : أى يريدونها معوجة .

(١) سورة فصلت الآية (٤٢)

(٢) ومن الوزن الأول صاحب وأصحاب ، ومن الوزن الثانى شريف وأشراف .

التفسير

١٨ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) :

بعد أن بينت الآيات السابقة إصرار المشركين على الكفر بآيات الله . جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان طائفة أخرى من جرائمهم وجزائهم عليها .

والمعنى : لا أحد أشد ظلماً ممن كذب على الله تعالى فنسب إليه ما لا يليق به كالشريك والولد . أو وصفه بما لا يجوز وصفه به . أو أخبر عنه بما لم يقله . فهؤلاء أعظم الناس ظلماً وأشدّهم جرماً .

(أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ) : أى أولئك الكاذبون يعرضون على ربهم ليحاسبهم على أعمالهم .
(وَيَقُولُ الشَّاهِدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ) : المراد من الشَّاهِد إمام من شهدوا كفرهم ومعاصيهم التي اجتروها في الدنيا . وهم الملائكة والنبيون وصالحو المؤمنين أو أهل الموقف .

والمعنى : ويقول هؤلاء الشَّاهِد مشيرين إليهم عند عرضهم على ربهم ، هؤلاء هم الذين افتروا على الله كذباً . فنسبوا إليه ما لا يليق به .

(أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) :

يحتمل أن تكون هذه موجهة من الله تعالى إليهم . أو من هؤلاء الشَّاهِد .

والمعنى : ألا بعداً وطرذاً من رحمة الله لهؤلاء الظالمين لأنفسهم المعتدين على الحق .

١٩ - (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) :

الصد عن سبيل الله : يستعمل بمعنىين (أحدهما) : منع الناس عن دين الله . (والثاني) : الامتناع عنه . وكلاهما يحصل من الكافرين . فكما يكفرون في أنفسهم . يحسبون غيرهم على الكفر .

والمعنى : هم الذين يمنعون الناس ويصرفونهم عن دين الله الذي هو السبيل إلى معرفته ومرضاته كما صرفوا أنفسهم عنها . ويريدون أن تكون هذه السبيل معوجة حسب أهوائهم .

(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) :

أى : وهم مع صدمهم عن سبيل الله ينكرون البعث وما بعده ، من حساب وثواب وعقاب ويجحدونه ، وتكرار الضمير (هُمْ) : لتأكيد كفرهم بالآخرة ، والإيدان بعمق جذوره .

(أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ ۝)

المفردات :

(مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ) : مفلتين من عقاب الله . (أَوْلِيَاءَ) : نصراء .
(خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) : أضاعوها بكفرهم . (وَضَلَّ عَنْهُمْ) : وغاب عنهم .
(مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : يدعون من ألوهية الأصنام وشفاعتها . (لَا جَرَمَ) : لا بد .

التفسير

٢٠ - (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ) :

أى : هؤلاء الذين يصلون الناس عن سبيل الله ويطلبون لها اعوجاجا وعدم استقامة - هؤلاء - لم يكونوا ناجين من عذاب الله في الدنيا إذا ما أراد الانتقام منهم في أى جزء من أجزاء الأرض ، فهم في قبضته وملكه فلا يقدرّون على الامتناع منه .

(وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ) :

أى وليس لهؤلاء المشركين من أنصار يتولون أمرهم ويمنعونهم من عذاب الله تعالى إذا ما أرادهم .

(يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ) :

أى يزداد لهم العذاب مثلاً أو مثلين أو أكثر بسبب صدم الناس عن دين الله وإنكارهم البعث بعد الموت لأنهم ضلوا فى أنفسهم وأضلوا غيرهم .

(مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) :

أى فقدوا القدرة على السمع المفيد والبصر النافع فإنهم أغلقوا نوافذ المعرفة عندهم فأصموا آذانهم عن سماع الحق بتدبير واعتبار ، فلهذا لم ينتفعوا بما يسمعون ، وهم مع ذلك ما كانوا يبصرون إبصار تأمل وعبرة فيما ينفعهم ويعود عليهم بالخير فى الدنيا والآخرة ويؤهلهم لرضا الله تعالى كما قال سبحانه : «فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ» ^(١) .

٢١ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

أى أولئك الذين أغلقوا آذانهم عن سماع الحق ، وحجبوا أبصارهم عن النظر فى آياته باعتبار وتأمل - أولئك - هم الذين جنوا على أنفسهم فأوقعوها فى الخسران بافترائهم الكذب على الله تعالى ، واشتراهم الضلالة بالهدى فضيعوا على أنفسهم حظوظها من رحمة الله تعالى ، وقد غاب عنهم فى الآخرة الآلهة الذين كانوا يزعمون أنهم شفعاء لهم ومنقذوهم من العذاب ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً .

٢٢ - (لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ) :

أى لا بد أنهم فى الآخرة هم أشد الناس خسراناً ، لأنهم أضاعوا منازلهم فى الجنة واستبدلوا بها النار .

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(أَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ) : خضعوا إلى الله ، واطمأنوا إلى عبادته وحسن جزائه .

التفسير

٢٣ - (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ) :

لما ذكر الله تعالى سوء أحوال الكفار في الدنيا وخسرانهم في الآخرة أتبعه بيان حسن حال المؤمنين فيهما .

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله ورسله وبكل ما يجب الإيمان به . وعملوا الصالحات من الواجبات والمستنونات . وخشعوا لله واطمأن قلوبهم بذكره . فجمعوا بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب لتكون أعمالهم مقبولة عند الله تعالى .

(أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : أى هؤلاء هم أهل الجنة وأصحابها دون من عداهم . هم فيها خالدون لا يبرحونها اختياراً ، ولا يخرجهم منها أحد اضطراراً . كما قال تعالى : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ »^(١) .

(* مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ) : صفة الفريقين ، فريق الكفار وفريق المؤمنين .

(الْأَعْمَى) : فاقد البصر . (الْأَصَمُّ) : فاقد السمع . (الْبَصِيرُ) : حاد البصر . (السَّمِيعُ) : قوى السمع .

(١) سورة الحجر ، من الآية (٤٨)

التفسير

٢٤ - (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ) الآية .

تحدثت الآيات السابقة عن الكفار وإغراقهم في الضلال ومصيرهم الرهيب، كما تحدثت عن المؤمنين وخشوعهم لله وثوابهم الجزيل، وجاءت هذه الآية لتوضح الفرق الشاسع بين الفريقين .

والمعنى : مثل الكفار في عدم الانتفاع بأبصارهم وأسماعهم ، كمثل الأعمى الذى لا يبصر والأصم الذى لا يسمع أى كمثل الذى جمع بين العمى والصمم ^(١) فهو يتخبط في الضلال كما قال تعالى : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » ^(٢)

ومثل المؤمنين في معرفة الله والتصديق بوحدانيته وكمالاته ، ، مثل الرجل الحاد البصر القوى السمع فكما أنه لا يغيب عنه شيء مما يرى ويسمع ، فكذلك المؤمن لا يغيب عن بصيرته وصفاء قلبه ، شيء مما يليق بكمالات الله تعالى فهو ينتفع بمدركاته العقلية ويميز بين الحق والباطل ، والصواب والخطأ ، فيتبع الخير ويتبعد عن الشر بعكس الأول . (هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) : الاستفهام هنا بمعنى النفي . أى لا يستويان حالا وصفة .

(أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) :

أى أتغفلون عن عدم استوائهما وما بينهما من الفرق فلا تعتبرون بالفرق بين هؤلاء - وهؤلاء ، كما قال تعالى : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ » ^(٣) . فما بالكم لا تدركون الفرق الشاسع بين الفريقين .

(١) قوله تعالى (كالأعمى والأصم) صفتان لموصوف واحد وكذلك (البصير والسميع) فهما من عطف الصفة على الصفة ، ومنه قول الشاعر : إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم .

(٢) الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

(٣) سورة الحشر ، الآية : ٢٠ .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِيمِ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(نَذِيرٌ) : محذر من وقوع خطر . (مُبِينٌ) : موضح . (الْإِيمِ) : شديد الإيلام .

التفسير

تحدثت الآيات السابقة عن فريق الكفار ومصيرهم الأليم ، وفريق المؤمنين وثوابهم العظيم . وفي الآيات التالية إلى آخر السورة يقص الله سبحانه وتعالى علينا أمثلة تاريخية واقعية لهذين الفريقين في عصر كل رسول من الرسل بالترتيب الزمني التاريخي ، وابتدأ بقصة نوح عليه السلام فقال :

٢٥ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

استهلت الآية بتأكيد القصة بقوله : (وَلَقَدْ) لأن تاريخ نوح عليه السلام موغل في القدم وفي التأكيد تنبيه على صدق القصة مع جذب انتباه السامعين إليها .

والمعنى : ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه قائلاً لهم : إنني لكم محذر من غضب الله وعقابه إن بقيتم على كفركم ، موضح لكم مافيه خلاصكم ورضا ربكم .

٢٦ - (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) : أى أرسلنا نوحا إلى قومه ليقول لهم : لاتعبدوا إلهاً غير الله فإنه وحده الجدير بالعبادة والتقليص .

واستمال قلوبهم إليه بتأكيد إشفاقه عليهم وحرصه على إنقاذهم ، مما يتعرضون له من عقاب يوم رهيب شديد الإيلام ، إذا أصروا على الشرك والضلال فقال :

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِيمِ) : واليوم الأليم هو يوم القيامة الذى يجعل الولدان شيبا . أو يوم الهلاك والاستئصال فى الدنيا أو هنا معاً ، وقد حل بهم عذاب يوم الطوفان . « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى » .

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا
وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى
لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

- (الْمَلَأُ) : الزعماء والقادة . (الْأَرَادُوا) : جمع أرذل وهو الخسيس الدنيء .
(نَظُنُّكُمْ) : نعتقد ونوقن ، مثل قوله تعالى : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » .
(بَادَى الرَّأْيِ) : ما يبدو من رأى للوهلة الأولى دون إمعان للنظر .

التفسير

٢٧ - (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا) :

أى فتحدث زعماء قوم نوح الذين كذبوا رسالته قائلين له : ما أنت إلا بشر مشابه لنا فى البشرية لا ميزة لك علينا ، فكيف نستجيب لك ونتبعك ؟ وقد فاتهم أن البشر لا يقدرّون على الأخذ من الملائكة ولا يستطيعون لقاءهم ، وأنهم لو جعلوا فى صورة البشر لالتبس الأمر على من أرسلوا إليهم ، كما فاتهم أن البشرية ليست على مستوى واحد ، فهى تعلو حتى تفوق الملائكة ، وتهبط حتى تصل إلى درك الشياطين .

ثم عللوا تكذيبهم بسبب ثان فقالوا :

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ) : أى ولا نعلم أحداً اتبعك من الزعماء والأشراف ، بل اتبعك الضعفاء والفقراء وقد اتبعوك دون روية أو تفكير ، لأنهم لا يحسنون التدبر فى الأمور .

(وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ) : أى وما نعلم لك ولمن اتبعك مزية ولا فضلاً فى أى شأن حتى نترك مكانتنا فى الرياسة والزعامة وننقاد لكم .

ثم ختموا اعتراضهم على رسالته بقولهم له :

(بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) : أى بل نعتقد أنكم مفترون فيما زعمتموه لأنفسكم من فضل : والظن هنا بمعنى الاعتقاد كما جاء في قوله تعالى : « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » (١) .

(قَالَ يَنْقُومُ آرَاءُيُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) (٢٨) وَيَنْقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أُجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَّجْهَلُونَ (٢٩) وَيَنْقُومُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (٣٠)

المفردات :

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبروني عن رأيكم . (بَيِّنَةٍ) : حجة قوية واضحة . (رَحْمَةً) : نعمة ، والمراد بها هنا نعمة النبوة والرسالة . (أَنُلْزِمُكُمْوهَا) : أنكرهكم على اتباعها . (فَعُمِّيَتْ) : أخفيت عليكم فلم تدركوها .

التفسير

٢٨ - (قَالَ يَنْقُومُ آرَاءُيُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) :

في هذه الآية وما يليها يرد نوح عليه السلام على الأسباب التي استند إليها قومه في تبرير كفرهم - ويرد في رفق وأناة - ويجادلهم بالتي هي أحسن ، رجاء أن يفيثوا إلى الصواب .

والمعنى : يا قوم إننى لا أزعم أننى أمتاز عليكم فإننى بشر مثلكم ، ولكن أخبرونى عن رأيكم فيما أعرضه عليكم : إن الله سبحانه قد هدانى إليه فآمنت به إيماناً راسخاً ثابتاً معتمداً على الحجة والبينة الظاهرة ، وتفضل على بنعمة خصنى بها من عنده وهى الرسالة ، وأمرنى بإبلاغها إليكم تفضلاً منه عليكم . وقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة فحقيق أمرها عليكم حين بادرتم إلى تكذيبها دون تدبير أو تأمل . فأخبرونى ماذا أفعل لكم أنا ومن معى من المؤمنين بعد ذلك ؟ أنرغمكم على العمل بشريعة الله التى رحمكم بها وأنتم لها كارهون .

وعاد نوح فذكرهم بأنهم قومه قائلا :

٢٩ - (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) : أى يا قوم إننى لا أريد منكم مالا على أداء هذه الرسالة ، فما أجرى إلا على الله وحده فما بالكم ترفضون مادعوتكم إليه من الحق ، وهذا الذى قاله نوح لقومه من الأسس الهامة التى تقوم عليها دعوات المرسلين ، وينبغى أن تكون قدوة لجميع الدعاة والمصلحين ، فإن الدعوة للإصلاح إذا تجردت عن المطامع الذاتية ، تكون أدعى للاستجابة إليها ، وامتناله القلوب نحوها وفى ذلك يقول الله تعالى : « اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ »^(١) .

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ) : هذا جواب عما طلبوه منه من طرد الفقراء بقولهم : « وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ » . كأنهم يوحون إليه بطردهم والتبرؤ منهم .

والمعنى : لست بطارد المؤمنين لفقرهم كما أردتم ، فإنهم سيلقون الله فينصفهم منى إذا ظلمتهم وأبعدتهم عنى إرضاء لكم ، ولن أغضب الله بازدرائى لهم كما تحبون وليس الأمر فى شرع الله دائما على الصور والأجسام والثياب ، بل مرده إلى طمأنينة القلوب ونظافة الصدور .

وفى هذا المعنى يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « رَبُّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ »^(٢) .

(وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) : أى لا تعرفون أقدار هؤلاء المؤمنين حين حكمتم بأنهم أراذل ، ولن أكون مثلكم فى الخطأ وسوء التقدير .

ويجوز أن يكون المعنى : أراكم قوما بكم جهالة وحق ، دفعكم إلى التعالى على هؤلاء المؤمنين والسخرية بهم ، والازدراء والامتهان لهم .

٣٠ - (وَيَأْقُومُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

ويقول لهم مرة أخرى : ويقوم من يمنى من انتقام الله إن طردت هؤلاء الفقراء الذين جعلتهم أراذلكم ، وهم على ما هم عليه من الإيمان والاستقامة ، أنستمرون على ما أنتم عليه من الجهل والحق ، فلا تتذكرون ولا تتدبرون أن قيمة الناس عند الله ليست فى مظاهرهم وراثتهم ، بل فى صفاء نفوسهم وطواعيتهم للحق ، واستقامتهم على جادة الصديق ، فكيف أطردهم وهم على المنهج المستقيم ؟

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) (٣١)

المفردات :

(خَزَائِنُ) : جمع خزانة بكسر الخاء وهى موضع المال أو المتاع ، والمقصود بخزائن الله ما عنده من خير جليل .

(الْغَيْبَ) : المراد من الغيب ما غاب وخفى عن الإنسان من العوالم المجهولة ، أو أحداث المستقبل . (تَزْدَرِي) تحققر .

التفسير

٣١ - (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ) :

بعد أن جادلهم في ادعاءاتهم وفند مزاعمهم ، أعلن لهم أنه حين يبلغهم رسالة ربه لا يدعى أنه يملك ما عند الله من خير ورزق وفير ، حتى يستدلوا بعدمه عنده على كذبه بقولهم له وَلَيَمَنَ آمَنَ مَعَهُ : « وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » . فإن النبوة لا تنال بالأسباب الدنيوية ، ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه ، ولا تفتقر إليهما .

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) :

أى لا أقول لكم حين أنذركم بقول : « إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » . « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ » : لا أقول لكم إني أعلم الغيب ، حتى تسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد . (وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) : أى لا أزعم أنى ملك حين دعوتكم إلى دين الله ، حتى تردوا دعوتى بقولكم : « مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا » . على حين أن البشرية لا تمنع من النبوة ، بل هى من مقتضياتها .

(وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا) :

أى ولا أقول فى شأن المؤمنين الفقراء الذين تحتقرهم أعينكم ، لا أقول فى حقهم ما قلتموه أنتم من أنه تعالى لن يؤتيهم خيرا لثرائه حالهم ، فإن الله لا ينظر إلى الصور والثياب ، ولكن ينظر إلى القلوب ، فعسى الله أن يمنحهم الخير فى الدنيا والآخرة .

(اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) :

أى أن الله تعالى أعلم بما انطوت عليه نفوسهم ، فكيف أحكم عليهم بأنهم لن ينالوا من الله خيرا ، إني لو قلت هذا لكنت من الظالمين لهم بنقص مرتبتهم وغمط حقوقهم ، أو لكنت من الظالمين لأنفسهم بالحكم فى شئ غيبى لا سبيل لى إلى معرفته فإن أسرار القلوب بين يدي علام الغيوب .

(قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا
 إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ
 وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ
 لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ
 تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(جَادَلْنَا) : الجدل ؛ مقارعة الحجة بالحجة طلبا لتغليب رأى على رأى آخر .
 ويطلق على شدة المخاصمة والقدرة على النقاش .

(بِمُعْجِزِينَ) : بسابقين ، والمراد أنهم لا يفلتون من عذاب الله .

(أَنْ يُغْوِيَكُمْ) : أى يترككم فى غيكم ويتخلى عن هدايتكم . أو يوقعكم فى الغي
 وهو العذاب ، ومنه قوله تعالى : « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » . أى هلاكا وعذابا .

التفسير

أفحم نوح قومه ولم يجدوا مجالا للرد عليه ، فتحلوه بأن ينفذ ما وعدهم به من
 العذاب وذلك ما حكاه الله بقوله :

٣٢- (قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَادَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
 الصَّادِقِينَ) :

المعنى : قالوا يانوح قد بالغت فى مناقشتنا ولسنا مقتنعين برسالتك ، ولا بما
 قدمته عليها من الأدلة والبراهين ، ونحن مصرون على تكذيبك فيما تدعيه من ثواب
 المؤمنين وعقاب الكفار ، فأتنا بما أوعدتنا من العذاب الأليم إن كنت صادقاً فيما تقول .

٣٣- (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) :

قال نوح مجيباً لهم بما يتفق مع بشرته التي أعلنها لهم من قبل . وبما يتفق مع رسالته عن الله : قال لهم : ما يأتيكم بالعذاب الموعود إلا الله تعالى إِنْ شَاءَ . إنزاله بكم . وليس أمره بيدي حتى تطلبوه مني ، ولن تستطيعوا الإفلات منه حين يريد نزوله بكم .

٣٤- (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ) :

أى ولا ينفعكم ما أبذله لكم من نصح أردت بذله لكم ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَبْقِيَكُمْ فِي غِيَّتِكُمُ الَّذِي أَصْرَرْتُمْ عَلَيْهِ . ثم بيّن أن مردّهم إلى ربهم صاحب الأمر فيهم فقال : (سَوْ رُبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) : أى أنه تعالى هو مالك أمرهم وحده . وإليه مرجعهم بعد الموت للحساب والجزاء فأمر هدايتهم جزائهم إليه وحده وليس لى من ذلك شيء .

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا

بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ) (٣٥)

المفردات :

(افْتَرَاهُ) : اخترعه من نفسه ولم ينزله الله عليه .

(إِجْرَامِي) : ارتكابي إثماً كبيراً .

التفسير

٣٥- (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) :

لما عجز قوم نوح عن حاجته زعموا أن كلامه كله كذب وادعاء ، فأمره الله أن يبرى نفسه مما يقولون . ويحملهم عاقبة افتراءهم عليه .

والمعنى : بل أيقول قوم نوح بعد عجزهم عن الرد عليه - إنه اختلق هذا الدين الذى يزعم أنه من عند الله .

(قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ) :

أى قل لهم يانوح إن كنت قد اختلقت ما أبلغتكم إياه من رسالة الله ، فعلى إثم إجرامى بالافتراء على الله ، وما يترتب عليه من عقاب يستحقه كل من افترى عليه الكذب ، فكيف أفترى على الله الكذب وأنا المسئول عنه دون غيرى ، وبما أننى صادق فأنا بَرِيءٌ من إجرامكم وكفركم .

وهذا شبيه بقوله - تعالى - للرسول صلى الله عليه وسلم : « وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ بِمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ » ^(١) . وهنا يتجلى الإنصاف الكامل .

(وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطِبْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(فَلَا تَبْتَئِسْ) : لا تحزن ولا تتألم .

(الْفُلَكَ) : السفينة الواحدة والجمع .

(بِأَعْيُنِنَا) : تحت رعايتنا وتوجيهنا .

التفسير

نصح نوح - عليه السلام - قومه بكل الوسائل ودعاهم إلى الإيمان بمختلف الأساليب العقلية فى رفق ولين ، ولكنهم أصروا على عنادهم وركبوا رهوسهم ، ورموه بالكذب

على الله كما تقدم بيانه ، وفيما يلي من الآيات باقى قصة نوح مع قومه وبيان نهايتهم الأليمة .

٣٦- (وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) :

أى : وأوحى الله إلى نوح أنه لن يستجيب لدعوتك أحد من قومك سوى الذين آمنوا بك من قبل ، فلا مجال لبذل النصيحة والدعوة إلى الهداية مع قوم مصرين على الكفر تلك الدهور الطويلة .

(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) :

أى فلا تحزن عليهم ولا يضر صدرك بكفرهم ومكرهم ، وانغمسهم فى الآثام والذنوب .

٣٧- (وَاصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) :

أى وقم بعمل السفينة طبقاً لوحينا الذى بينا لك فيه كيفية صنعها ، وذلك تحت رعايتنا ، وبتوجيه وسند منا لتؤدى الغرض المقصود منها .

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ) :

ظاهر الآية أن نوحا عليه السلام شفع فى قومه أو كان بصدد أن يشفع فيهم فنهى عن ذلك ، وسيأتى فى سورة نوح أنه - صلى الله عليه وسلم - طلب من ربه أن يهلكهم بقوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا »^(١) . وتوفيقا بين هذه الآية وبين ما جاء هنا نقول : إنه سبحانه يعلم شفقة نوح بقومه وطول إقامته معهم ، وأنه قد يدعو ربه أن يتأنى معهم وأن لا يغرقهم أو كان قد دعاه فعلا ، فلهذا نبهه هنا إلى أن لا يطلب منه ذلك مستقبلا ، ففضاء الله فيهم لا رجعة فيه بشفاعته ، فلا يطلب منه مالا سبيل إلى إجابته .

أما ما سيأتى فى سورة نوح من قوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » . فقد صدر منه بعد بأسه تماما من إيمان قومه .

والمعنى : ولا تخاطبنى فى تأجيل تعذيب هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ونيبهم ، إنهم مغرَقون ولابد ، فلا مجال للرحمة بهم ولا مفر من إهلاكهم .

(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ
 قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(مَلَأَ) : جماعة من الأشراف . (سَخِرُوا مِنْهُ) : اتخلوه هدفًا للاستهزاء ومجالا
 للضحك . (يُخْزِيهِ) : يذله ويفضحه .

التفسير

٣٨- (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ) :

نفذ نوح أمر ربه . وظل يباشر صناعة السفينة وكلما رآه جماعة من أشراف قومه
 أثناء صنعها واجهوه بالاستهزاء والسخرية منه . فقد عهدوه داعيا إلى توحيد الله
 وعبادته . فإذا هو قد انصرف عن الدعوة واشتغل بقطع الأشجار وتهيئة الألواح وضم
 بعضها إلى بعض ولم يدر كوا السر في هذا التغيير .

(قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) : لما رأى نوح قومه يسخرون
 من اشتغاله ببناء السفينة . هددهم بقوله إن تسخروا منا اليوم . فإننا عن قريب نجيب
 على سخريتكم بالفرح بهلاككم . وتخليص الأرض من شروركم وجهلكم في حق ربكم
 وحق أنفسكم .

٣٩- (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) :

أي إنكم تسخرون منا اليوم وسوف تعلمون غداً من هو أهل للسخرية والاستهزاء
 حينما يفجؤكم عقاب من الله يخزيكم في الدنيا . وحينما يحل بكم عذاب خالد يوم القيامة
 وبئس المصير .

(حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) (٤٠)

المفردات :

(فَارَ) : فاض وارتفع بقوة واشتد اضطرابه . (التَّنُّورُ) : الفرن .
(سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) : حق عليه قضاء الله .

التفسير

٤٠ - (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ) : ظل نوح عليه السلام يصنع السفينة ويسمع سخريه الساخرين واستهزاء المستهزئين من قومه ، حتى إذا أتم صنعها وحل قضاء الله وتدفقت ينابيع الماء من مكان غير مألوف وهو جوف الفرن ، وهطل المطر من السماء مدراراً ، كما قال تعالى : «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ» (١) .
حتى إذا حدث هذا كله : (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) : أى قلنا لنوح عليه السلام احمل في سفينتك من كل صنف من الحيوان زوجين اثنين ذكراً وأنثى حتى لا تنقرض الأنواع ، أما الأنواع التي أمره الله بحملها معه فلم نعلم أنه ورد في تحديد لها نص صريح يوثق به .

(وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) : أى واحمل معك في السفينة أهلك جميعاً إلا مَنْ حَقَّ عليه قضاء الله بالهلاك مع الكفار لأنه منهم ، ومن سبق عليه القول من أهله هم : ابنه وزوجته كما ورد في أكثر من موضع في القرآن الكريم .

(وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) : أى واحمل معك الذين استجابوا لدعوتك وآمنوا

برسالتك وهم عدد قليل .

(*) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١)

المفردات :

(ارْكَبُوا فِيهَا) : أى اركبوا مستقرين فيها . (مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا) : أى جريها في الماء ، وإرساؤها أى إثباتها في مرساها ، ويجوز أن يكون المراد منهما مكان أو زمان جريها وإرساها .

التفسير

٤١- (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا) :

بعد أن بينت الآية السابقة أن الله تعالى أمر نوحا عليه السلام أن يحمل في السفينة زوجين اثنين من كل الحيوانات المنتفع بها ، وأن يحمل فيها أهله إلا من سبق عليه قول الله بالفرق بالطوفان ، جاءت هذه الآية لتبين أنه نفذ ما أمره به ، وأوصى أهله أن يذكروا اسمه - تعالى - عند ركوبهم فيها على النحو الذى سنشرحه ، والركوب كما قال العلامة أبو السعود : هو العلو على شئ له حركة ، إما إرادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما ، فإذا استعمل في الأول لم يذكر معه لفظ (فى) كما فى قوله تعالى : « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا » ^(١) .

وإذا استعمل فى الثانى لوحظت الظرفية فذكر معه لفظ (فى) كما هنا ، وكما فى قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا » ^(٢) وقوله : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ » . هذه خلاصة ما أسهب به فى هذا الموضوع ، وقال البيضاوى : (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا) : أى صيروا فيها وجعل ذلك ركوبا ، لأنها فى الماء كالمركوب فى الأرض : ١ هـ .

والمعنى : وقال نوح - عليه السلام - لأهله والمؤمنين الذين أمره الله بحملهم معه : اركبوا فى السفينة قائلين بسم الله جريها فوق الماء المتلاطم الأمواج ، وبين

(٢) سورة الكهف ، من الآية : ٧١

(١) سورة النحل ، من الآية : ٨

الزوابع والعواصف وتحت سُحُبٍ مَفْتُحَةٍ الأبواب بماءٍ منهمر ، وبسم الله إرساؤها وإيقافها عن الجرى عند مرساها الذي شاء الله أن يوقفها ويشبثها عنده .

ويجوز أن يكون نوح بعد أن أمرهم بركوبها ، أخبرهم بأن جريها وإرساءها بإذن الله وحمايته حتى لا يخافوا من ركوبها في هذا الفرع الأكبر ، فكانه قال لهم : اركبوا في السفينة بإذن الله جريها وإيقافها لا بإذني فلا تخافوا من الفرق ؛ ويرشح هذا المعنى ختم الآية بقوله سبحانه :

(إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) : أى إن ربى لعظيم الغفران للذنوب المؤمنين ، واسع الرحمة والرافة بهم ، ومن كان كذلك فهو الكفيل بنجاتهم من كل خطر يُحيط بهم .

(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرَكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوَىٰ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾)

الفردات :

(فِي مَعْزِلٍ) : أى في مكان عزل نفسه فيه عن أهله .

(يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ) : يميننى ويحمينى منه .

التفسير

٤٢ - (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ) :

هذا الكلام مرتبط بمقدر مفهوم من الآية السابقة ، أى فركبوا في السفينة (بِسْمِ اللَّهِ)

الخ ؛ وهى تجرى بهم بعد ركوبهم ، في موج مرتفع كالجبال ، لشدة العواصف والرياح التى يثأثر بها الموج ويشند ارتفاعه .

(وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ...) الآية .

في هذه الآية عدة أسئلة :

(أحدها) : كيف ينادى نوح ابنه ليركب معه في السفينة مع أنه نهى عن ذلك بقوله سبحانه : « وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ » ، ومن سبق عليه قول الله هم الذين قضى بإغراقهم لكفرهم ؟ وقد أجيب عن ذلك : بأنه لم يقطع الأمل في إيمانه إذ لم يكن لديه علم بأنه مصر على الكفر وأنه من المفرقين ، إلا بعد أن أخبره الله بأنه ليس من أهله المؤمنين وبأنه من المفرقين ، ويدل لذلك قوله : « اركب معنا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ » . فكأنه يقول له اركب معنا نحن المؤمنين وكن مؤمنا في جملتنا ، ولا تكن باقيا على الكفر مع الكافرين حتى لا تفرق بسبب كفرك وعزلتك معهم ، وقيل : إنه كان يناقئ أباه فيظهر له الإيمان ويبطن الكفر فلذلك دعاه ليركب مع المؤمنين ظاناً أنه مؤمن ، والرأى الأول أظهر .

(وثاني هذه الأسئلة) :

ما المراد بكونه (وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ) ؟ والجواب : أنه كان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن المؤمنين وقتما كانوا على الشاطئ يستعدون لركوب السفينة ، ولكنه كان بحيث يسمع النداء ، فلذلك ناداه أبوه بترك العزلة مع الكافرين ، والانضمام إليهم في الإيمان وركوب السفينة معهم .

(والسؤال الثالث) :

ظاهر النص الكريم ، أن نوحا نادى ابنه وكانت السفينة تجرى بهم في موج كالجبال والمعقول أنه يناديه قبل أن تبهر بهم ؟ والجواب : أن هذا حكاية لما حدث منه لولده قبل إبحار السفينة ، وليس في النص ما يقتضى تأخره إلى ما بعد جريانها فكأنه قيل : وهي تجرى بهم في موج كالجبال ، وكان نوح قد نادى ولده ليترك مَعْزَلَهُ ، ويؤمن ويركب معهم ، لينتجو من الفرق في طوفان أمواجه كالجبال ، فأبى وقال : سأوى إلى جبل يعصني من الماء الخ .

والمعنى الإجمالى للآية : فركبوا في السفينة بإذن الله جريها وإرساؤها ، وهي تجرى بهم في موج كالجبال ، وكان نوح قبل إبحارها قد نادى ابنه وكان في مَعْزِلٍ عنه وعمن

آمن معه ، قائلا له بحكم الشفقة الدينية والأبوية : يا بني اركب معنا نحن المؤمنين ودع ما أنت عليه من الكفر ، لتنجو من الغرق ، ولا تكن منعزلا عنا مع الكافرين ، فإنهم سيغرقون ويهلكون .

٤٣- (قَالَ سَاوِ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) :

توهم هذا الولد المفتون أنه يستطيع أن ينجو من الغرق باللجوء إلى جبل مرتفع ، كما يحدث في بعض الملمات من اللجوء إلى أسباب النجاة العادية ، فلهذا رفض دعوة أبيه وقال له : سألجأ إلى جبل مرتفع يحميني من الماء ويمنعي تسلقه من الغرق بالطوفان ، فرد عليه أبوه قائلا :

(لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ) : أى ليس هذا الذى نزل بالناس ماء عادية يتقى فيضانه بارتقاء الجبال ، بل هو عذاب الله وعقابه للكافرين فلا يُنَجَّى منه إلا الله الذى رحم عباده المؤمنين بإركابهم سفينة النجاة فدع عنك هذه الغفلة ، وآمن ببربك واركب مع المؤمنين سفينة النجاة ، لتنجو معهم ، ولكنه لم يستمع إلى نصيحة أبيه .

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) .

أى قام الموج حائلا بين نوح وابنه فاجتذبه إليه ، وانقطعت صلة التفاوض بينهما ، وكان هذا الولد من جملة الذين أغرقهم الله بالطوفان من الكفار أمثاله .

(وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلِعِي وَغَبَضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(وَيَسْمَاءُ أَقْلِعِي) : ويساءء أمسكى عن المطر ، والسماء هنا السحاب .

(وَعِصَ الْمَاءِ) : أى نقص . (وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى) : واستقرت السفينة على جبل يُسمى بهذا الاسم ، واختلف في موقعه على ما سنبينه في الشرح .
(بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : أى هلاكاً لهم ، يقال : بُعد بُعداً وبُعْدًا ، إذا بُعد بحيث لا يرجى رجوعه ، ثم استعير للهلاك .

التفسير

٤٤- (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي) .

بعد ما بينت الآية السابقة شدة الطوفان وإغراقه لأهل الأرض ، وأنه لم يعصم منه إلا من رحمه الله وهم أهل السفينة التي صنعها لهم نوح ، جاءت هذه الآية لتبين انتهاء الطوفان بأمر الله ، بعدما أهلك الله به الظالمين .

والمعنى : أنه تعالى - بعد إهلاكه الظالمين بالطوفان ، أمر الأرض أن تكف عن الفوران وأن تبتلع ما على ظهرها من الماء الذي جاء به الطوفان ، دون ما فيها من مياه البحار والمحيطات ، وأمر السماء أن تكف عن المطر ، وتقلع عن إرساله مدراراً ، وظاهر الآية : أن الأرض والسماء نوديا حقيقة ، وأنه تعالى - خلق لهما إدراكاً جعلهما أهلاً لتقبل التكليف ، ولا يبعد ذلك على قدرة الله تعالى ، ويشهد له قوله تعالى : « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ » (١) .

ومن المفسرين من جعل ذلك تمثيلاً لكمال قدرة الله عليهما ، وتمام انقيادهما لما يشاؤه فيهما ، قال الإمام البيضاوى : نوديا بما ينادى به أولو العلم ، وأمرهما يؤمرون به تمثيلاً لكمال قدرته ، وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما ، بالأمر المطاع الذي يأمر المنقاد لحكمه ، المبادر إلى امتثال أمره ، مهابة من عظمته ، وخشية من أليم عقابه ، انتهى .

(وَعِصَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى) :

ونقص الماء حتى غاب في الأرض بعد ما صدر أمر الله للسماء بالإقلاع والأرض بالابتلاع وتنفيذهما مشيئته فيهما ، وأنجز الأمر الذي جاء الطوفان من أجله ، وهو هلاك أولئك

الظالمين من قوم نوح ، وتطهير الأرض منهم ، لينشأ جيل جديد من البشر على توحيد الله وطاعته ، واستقرت السفينة بعد أن جف ظاهر الأرض ، على جبل اسمه الجودي .
وقد اختلف الناس في بيان موقعه ، فمنهم من قال : إنه بالموصل ، ومنهم من قال : بالشام ومنهم من قال بآمل - بمدّ الهمز وضمّ الميم - ومنذ عدة سنين نشر بالصحف ، أنهم وجدوا ألواحاً طويلة على جبل أزارت تشبه ألواح سفينة كبرى ، وقيل : إنها بقايا سفينة نوح ، والله - تعالى - أعلم بالحقيقة .

(وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

إذا قلت : بعداً لفلان ، فأنت تدعو عليه ، فهو خاص بدعاء السوء ، وكثيراً ما يستعار للدعاء بالهلاك كما هنا .

والمعنى : وقيل من جهة الله تعالى : هلاكاً لقوم نوح لكونهم ظالمين أشد الظلم . ويقول العلامة البيضاوى ، في وصف بلاغة الآية وفصاحتها ما يلي :

«والآية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها ، وحسن نظمها ، والدلالة على كنه الحال ، مع الإيجاز الخالي عن الإخلال ، وفي إيراد الإخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل وأنه متعين في نفسه ، مستغن عن ذكره ، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره ، للعلم بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار » . انتهى .

وقال الألوسى : هذه الآية بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها ، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان ، إلى آخر ما قال .

هل شمل الطوفان جميع الأرض

إذا قرأنا قصة الطوفان في سور القرآن التي تحدثت عنه ، نجد فيها أن الله تعالى جعله عقوبة لقوم نوح لغلوهم في الكفر ، وإصرارهم عليه أحقاباً ودهوراً ، وقوم نوح كانوا في إقليم من أقاليم الأرض يعلمه الله ، ولم يكونوا منتشرين في أرجائها كلها ، فهل يبعثنا هذا على القول بأن الطوفان لم يعم الأرض جميعاً ، بل كان قاصراً على المنطقة التي كان يوجد فيها قوم نوح لعقابهم ، وهل يشهد لصحة هذا الاستنتاج أن الله تعالى قال هنا في آخر القصة : (وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) . كما يشهد له أن نوحاً كان قريباً

من جدّه آدم - عليهما السلام - فالبشرية في عهده كانت محصورة في حيز ضيق من الأرض
 أم أن الطوفان مع كونه عقوبة لقوم نوح ، فإنه كان عاما لجميع أنحاء الأرض لحكم
 يختص بعلمها الحكيم الخبير ، ولم نجد لهذا السؤال جوابا حاسما يحمل على اعتقاد
 عمومه أو خصوصه يقينا ، والذي يجب اعتقاده هو عموم الطوفان للكافرين لقوله تعالى :
 « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا » . وقوله : « لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ » .
 أما عمومه لجميع بقاع الأرض ، فليس لدينا ما ينفيه على البت والقطع ، لا احتمال
 النصوص لهذا العموم ، ولأنه قد وجدت بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي
 الجبال ، لأن هذه الأشياء لا تتكون إلا في البحر ، فلا بد أن تكون هذه مخلوقات
 طوفان عم الأرض ، وارتفع إلى أعالي الجبال . .

سؤال

قد يقول قائل : ما ذنب الصغار الذين لم يبلغوا حد التكليف حتى يهلكهم الله بالطوفان ؟
 والجواب : أنه مجود سبب لموتهم ، وليس موتهم به عقوبة لهم ، وأي محذور في إماتة
 من لا ذنب له ؟ وفي كل وقت يميت الله من هؤلاء الصغار بأسباب وبغيرها عددا
 لا يحصى ، فالخلق عباده ، والملك له وحده - يفعل فيه ما يشاء حسب حكمته العالية ،
 فهو الحكيم الخبير .

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ
 الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْفُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ
 أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
 إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) : أي بعض أهل الذين وعدتني بنجاتهم .

(لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) : أى لا يستحق الانتساب إليهم ، لانقطاع الولاية بين المؤمن والكافر . (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) : أى إنه صاحب عمل فاسد ، فلا ينسب إلى أهلك الذين سبق الوعد بإنجائهم . (إِنِّى أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) : إني أحذرك أن تكون من جملة الجاهلين بسؤالك نجاة ولدك الكافر .

التفسير

٤٥ - (وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) الآية .

تقدم فى الآيات السابقة بيان أن نوحا دعا، ولده هذا إلى أن يركب معه السفينة ، ولا يتخلف مع الكافرين حتى لا يهلك بهلاكهم ، وأنه أجابه بأنه سيأوى إلى جبل يعصمه من الماء ، وأن أباه أفهمه أنه لا عاصم من الفرق ، إلا الله الذى رحم المؤمنين ركاب السفينة ، وأن الموج حال بينهما فانقطع الحديث ، وكان هذا الولد من المغرقين . وظاهر هذه الآية أن نوحا أراد بقوله : (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) الخ أن يطلب من الله تعالى نجاته من الفرق بالطوفان ، فكيف يطلب ذلك بعد غرق ولده ، لأنه من الكافرين المغرقين . ويجاب عن ذلك ، بأن نوحا لم يكن رآه يفرق ، وأنه ربما ظن أنه نجا باللجوء إلى جبل ، أو أن كفره لم يكن مؤكدا لديه ، ولذا قال : (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) . ولم يكن يظن أنه ممن سبق عليه القول بالفرق فى قوله - سبحانه - : « إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ » . وأجيب بغير ذلك وحسبنا ما ذكرناه .

والمعنى : ودعا نوح ربه قائلا : يارب إن ابني من أهلى ، وقد وعدت أن تنجيهم فما حاله ؟ أو فما له لم ينج ؟ ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه - كما قال البيضاوى ^(١) .

(وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) :

أى وإن كل وعد يصدر عنك يارب هو الحق فلا يتطرق إليه الخلف ، وقد وعدت أن تنجى أهلى ، وأنت أعدل الحاكمين ، فلعلك ياربى نجيتهم ، و قضيت بنجاته .

(١) وتفصيلا لما أجمله البيضاوى نقول : الواو فى قوله تعالى : (وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ) الخ مجرد السلف لا تنفيذ ترتيها ولا تعقيا ، وإنما أخر إلى تمام قصة السفينة ونجاتها بركابها المؤمنين ، تقدما للأهم حل المهم كما فهم فى قصة البقرة أمر ذبحها واختلافهم فى صفاتها ، حل ذكر السبب فيه وهو اختلافهم فىمن قتل القتل ، فراجعها هناك لتعرف سر تقديم المعجز حل الصدر .

٤٦ - (قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) :

قال الله لنوح في إجابته على سؤاله : يانوح إن ابنك هذا ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم من الطوفان ، لأن عمله لاصلاح فيه ، فهو الفساد بعينه ، فخرج بذلك عن كونه من أهلك ، لانقطاع الولاية بين المؤمن والكافر ، ولأن أساس نجاة أهلك الإيمان دون النسب .

(فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) :

أى إذا كنت قد علمت شأن ولدك الذى ظننت أنه أهل للنجاة ، وتبين لك أنه أهل للهلاك لكفره ، فلا تسألنى فيه ولا فى غيره بعد ذلك مطبأ لا تعلم يقينا أنه صواب وموافق للحكمة .

(إِنِّى أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) :

إننى أحذرك وأنهاك عن أن تكون من جملة الجاهلين ، بسبب سؤالك إيانا ما لا تعلم يقينا أنه صواب وموافق للحكمة لدينا .

(قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ٤٧ قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٨)

المفردات :

(أَعُوذُ بِكَ) : ألتجئ إليك وأحتمى بك . (بِسَلَامٍ) : بسلامة وأمن .

(وَبَرَكَاتٍ) : ونعم ثابتة .

التفسير

٤٧- (قَالَ رَبُّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ) :

تحكى هذه الآية توبة نوح عما سأل في شأن ولده ، ولجوءه إلى الله أن يعصمه من أن يعود إلى مثل ما طلبه بشأته .

والمعنى : قال نوح بعد ما وعظه الله وذكره : يارب إنى ألتجئ إليك لتعصمنى من أن أطلب منك مستقبلا مطلباً لا أعلم يقينا أن حصوله مقتضى الحكمة أو أنه صواب . وهذه الاستعاذة التى صدرت من نوح عليه السلام ، هى توبته مما حدث منه ، وهى أبلغ فى التوبة من أن يقول : أتوبُ إليك أن أسألك ، لما فيها من الدلالة على أن ذلك أمر لا قدرة للعبد عليه إلا بالاستعانة بالله واللجوء إلى حمايته وعصمته .

(وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) :

وإن لم تغفر لى يارب ما طلبته فى شأن ولدى حين قلت : « رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ » فقد سألتك بذلك نجاته ، وظننت أنه داخل فى وعدك الحق ولم أكن عالما بحقيقة أمره ، وأنسانى ذلك شكر إنعامك بالنجاة علينا ، وإهلاك أعدائنا إن لم تغفر لى ذلك ، وترحمنى بقبول توبتى ، أكن من الذين خسروا أعمالهم وأضاعوها لأننى غفلت عن أن ترك ولدى لركوبه معنا فى السفينة التى أمرنى الله بإعدادها لنجاة المؤمنين شاهد على أنه لا يأتى بأمر ربه ، وأنه ليس معه بقلبه ، وأنه لا يستحق أن يكون داخلا فى الوعد بنجاة أهلى ، حتى أستنجز ربهى ما وعدنى . واعلم أن ما فعله نوح فى شأن ولده ناشئ عن اجتهاد منه ، وبدافع الشفقة التى أودعها الله قلب كل والد ، وهذا لا يعتبر مثله موضع لوم وتحذير من الله ، ولا توبة من العبد ، لكنه بالنسبة للأنبياء ليس كذلك ، فما يعتبر مخالفة يسيرة فى حقنا يعتبر ذنبا فى حقهم .

٤٨- (قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ) الآية .

أى قالت الملائكة بأمر الله ، أو قال الله تعالى : يانوح اهبط من السفينة بسلامة وأمن منا إلى الأرض التى ابتلعت ماءها وأصبحت صالحة للنزول بها ، وهذه السلامة مصحوبة ببركات وخيرات دنيوية وأخروية ، عائدة عليك فى نفسك ونسلك ، وعائدة

أيضا على أمم سوف تنشأ من معك، وتتشعب منهم وعلى سنتهم من الإيمان إلى يوم القيامة، وهذه البشارة إعلام بقبول توبة نوح ونجاته من الخسران بفيضان الخيرات عليه في كل ما يأتي ويذر، وعلى أمم مؤمنة تنشأ من ركبوا السفينة معه من المؤمنين .
(وَأُمَمٌ سَنُنتَعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

وأمم من ذريتهم ليسوا على سنتهم من الإيمان والعمل الصالح ، سمنتعهم في الدنيا فيستنفدون فيها طيباتهم ، ثم يصيبهم في الآخرة أو فيهما معا عذاب شديد الإيلام فأنت ترى أن السلام الذي هبط به نوح ومن آمن معه ، دخل فيه كل مؤمن ومؤمنة من ذرياتهم إلى يوم القيامة ، وأن المتاع العاجل والعذاب الآجل دخل فيه كل كافر وكافرة من ذرياتهم إلى يوم القيامة . وعن ابن زيد : هبطوا والله عنهم راض ، ثم أخرج منهم نسلا ، منهم من رحم ومنهم من عذب .

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا
أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾)

التفسير

٤٩- (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ) الآية .

بعد أن بين الله قصة نوح وقومه مفصلة بدقائقها ، جاءت هذه الآية تشير إلى أن إخبار القرآن عن هذا الغيب البعيد يعتبر من آيات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
والمعنى : تلك القصة العجيبة التي فصل فيها ما حدث بين نوح وقومه ، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك بالطوفان ، هي من أنباء الغيب نوحينا إليك لتكون برهانا على نبوتك ، وذلك لأنك :

(مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا) :

فإذا كان قومك يجهلونها وقد عشت بينهم ولم تخالط غيرهم ، فإن الذي أخبرك بها مطابقة لواقعها هو الله الذي أرسلك ، وجعلها وأمثالها آيات تشهد برسالتك ، وإن

أعرض قومك. ولم يصدقوك. (فَاصْبِرْ): كما صبر نوح على معارضة قومه وإيذائهم له ولمن آمن معه. (إِنَّ الْعَاقِبَةَ): بالظفر في الدنيا والفوز في الآخرة. (لِلْمُتَّقِينَ): الذين يصبرون ولا يجزعون ولا يفترون، مهما عارضهم الكافرون، فقلوبهم واثقة من نصر الله، وجوارحهم مشغولة بطاعة الله.

(وَالِإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَّ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ إِنَّكُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْقُومِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۚ إِنَّا أُجْرَىٰ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَنْقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(مُفْتَرُونَ): كاذبون. (فَطَرَنِي): خلقتني ابتداءً من غير مثال سبق، والفترة؛ الخلقة ابتداءً - كما قاله القرطبي. (يُرْسِلِ السَّمَاءَ): يرسل السحاب، فكل ما علاك سماء. (مِدْرَارًا): كثيرة الدُّرُورِ والسيلان.

التفسير

٥٠ - (وَالِإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا):

بعد أن ذكر الله قريشاً بما أصاب قوم نوح لما أصرّوا على كفرهم، زادهم تذكيراً ببيان ما أصاب غيرهم من الأمم التي كفرت بالرسول، وقدم قصة عاد على ما بعدها لأنها أقربها إلى قوم نوح، وعاد هذه هي عاد الأولى، سميت باسم جدّها الأول وهم قوم يسكنون الأحفاف بين الشحر وعُمان وحضرموت، وكانوا قوماً جبارين عظام

الْأَجْسَامَ ؛ قَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِهِمْ : « ... وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ... ^(١) » :

وهم من ذرية سام بن نوح ، وكانوا أهل أوثان وطفيان ، فأرسل الله إليهم رسولا من بينهم فطره على التوحيد ، وأنشأه نشأة الرسل الأطهار وهو هود عليه السلام ، ليدعوهم إلى التوحيد ، وترك ما هم عليه من الشرك والجبروت .

وقد عبرت الآية عن هود عليه السلام بأنه أخو عاد ، للإيذان بأنه منهم نسباً ، وأنه نشأ بينهم ، فهم يعرفونه من منشئه إلى أن دعاهم إلى الحق ، ويعرفون من حسن سلوكه أنه لا يخدعهم ولا يدعوهم إلا إلى ما تدعو إليه الأخوة من الخير والحق ، فإن الرائد لا يكذب أهله .

والمعنى : وأرسلنا إلى عاد رسولا من بينهم هو هود ، ليأمنوا جانبه ويطمئنوا إليه لأنه نشأ فيهم ، وعرفوا صدقه وطيب نشأته .

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ) :

تحكى هذه الآية ما جرى بين هود وقومه على وجه الإجمال ، فالمعقول والمنقول في سياسة الرسل لأممهم أنهم لا يجابهونهم في أول لقائهم معهم بوصفهم بالافتراء ، ففي سورة الأعراف يقول الله تعالى : « وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ » ^(٢) فقد نصحهم بوقاية أنفسهم من عقاب الله ؛ بعبادته وحده ، ولم يصفهم بالافتراء ، فلذا يحمل وصفهم به هنا على أنه حدث بعد أن طال جدالهم ومعارضتهم له .

والمعنى : قال هود لقومه بعد ما نصحهم وذكرهم مدة طويلة ، وأصرروا على شركهم قال لهم : اعبدوا الله ، ودعوا ما أنتم عليه من الإشراك به ، فليس لكم من إله سواه ، ما أنتم إلا كاذبون عليه في اتخاذ الأوثان شركاء وجعلها مستحقة للعبادة معه ، وزعمكم أنها لكم شفعاء .

(١) الأعراف ، من الآية : ٦٩

(٢) الأعراف ، من الآية : ٦٥

٥١- (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي) :

خاطب هود قومه بأن دعوته خالية عن المطامع الدنيوية ، لبيان إخلاصه في النصيحة ودفع الريبة عن دعوته ، وكذلك فعل كل رسول مع قومه إبعادا للتهمة عنه ، وطلبا لنجاح دعوته ، فإن الدعوات المشوبة بالمطامع لا نجاح لها .

والمعنى : يا قومى وأهلى ؛ أنا لا أطلب منكم أجراً ، ولا أبتغى بدعوتى جزاءً دنيوياً من مال أو جاه ، فما أجرى فى إرشادكم وهدايتكم على أحد إلا على الله تعالى ، فلا وجه لمخالفتكم وإمعانكم فى الإعراض عما جئتم به من الله ، مع وضوح الآيات والتجرد عن المطامع الدنيوية ، ثم دعاهم إلى استعمال عقولهم ، وعاب عليهم إغفالها فقال : (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) : أى أنفعلون فلا تستعملون عقولكم ، لتعرفوا الحق من الباطل والصواب من الخطأ .

٥٢- (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) :

ويا قوم اطلبوا المغفرة من ربكم لما قدمتموه من الشرك والمعاصى بالإيمان والطاعة ، ثم توسلوا إليه بعد الإيمان بالتوبة والندم على ما فاتكم من طاعة الله ، وبالعزم على عدم العودة إلى طريق الشيطان الرجيم .

(يُرْسِلِ السَّمَاءُ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) :

أى إن تستغفروا الله وتوبوا إليه من شرككم وجبروتكم ، يرسل السحاب عليكم كثير الدَّرْغِيرِ المطر ، ويعطكم قوة مضافة إلى قوتكم ، بتوفير الأسباب المؤدية إلى ذلك من الزرع والضرع والصناعة ، والحصون والبروج وغير ذلك ، وإنما رغبتهم بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زرع وضرع ومصانع وحصون وقصور ، وكانوا ذوى جبروت وقوة ، كما قال تعالى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَخَلَّوْنَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ »^(١) .

فرغبوا فى الإيمان بتوفير ما يحبون لهم ، وسوف يعلمهم الإيمان وشريعة الرحمن كيف ينتفعون وينفعون بتلك النعم ، وكيف يوجهون قوتهم وجبروتهم فلا تكون إلا

في الخير وإرهاب أهل الشر ، ثم نصحبهم بعدم الإعراض عما دعاهم إليه فقال :
(وَلَا تَقُولُوا مَغْرِبِينَ) : أى ولا تنصرفوا معرضين عن دعوة الحق ، مصرين على إجرامكم

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَيْثَنَا عَنْ
قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ
آلِ هَيْثَنَا سُوءٌ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(بَيِّنَةٌ) : بحجة . (عَنْ قَوْلِكَ) : أى من أجل قولك ، (بِمُؤْمِنِينَ) : بمصدقين .
(لَا تُنْظَرُونَ) : لا تمهلون .

التفسير

٥٣- (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) :

قال شعب عاد لنبيهم هود ، وهم مصرون على رفض دعوته : يا هود أنت ما جئتنا
بحجة تدل على صدق نبوتك ، يقولون ذلك ليجعلوا منه سبيلا إلى عدم الاستجابة
إلى ما دعاهم إليه ، والحق أنهم كاذبون ، فقد جاءهم من المعجزات فوق ما يكفى
لطمأنينة من ألقى السمع ، وأجال البصر ، وفكر بعقل حر ، فما من نبي إلا أيده الله من
الآيات بما يكفى لإيمان أهل الحق . قال - صلى الله عليه وسلم - : « مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ
إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ
إِلَيَّ ، فَارْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

والمقصود من كون الذى أوتيهِ الرسول وحيا ، أنه اختص بالقرآن إلى جانب
معجزاته الأخرى التى يشاركه فى مثلها الأنبياء ، فالقرآن هو أعظم معجزاته التى تحدى

بها البشر ، واعلم أن كل نبي أوتى معجزة لم يؤثنها غيره ، وهى التى تحدى بها قومه وهذا لا ينافى حصول خوارق أخرى على يديه . وبعد أن نفوا مجيء هود عليه السلام بيينة قالوا :

(وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) :

أى وما نحن بتاركى عبادة آلهتنا صادرين فى تركها عن قولك وما نحن لك بمصدقين نبوتك حتى نرفض آلهتنا بسبب قولك لنا : دعوها واتركوها .

٥٤، ٥٥ - (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ...) الآية .

أى ما نقول فى شأن ما أنت عليه وجئتنا به إلا أنك أصابك بعض آلهتنا بشر ساءك فأفقدك عقلك ، وجعلك تهذى وتتكلم بالخرافات عن آلهتنا ، وتدعو إلى إله واحد وتخوفنا بعقابه فى الآخرة ، إلى غير ذلك مما تقول ، ولقد سلك هؤلاء فى عنادهم سبيل التدرج والتسلسل ، فنفوا مجيئه بيينة ثم نفوا تركهم لآلهتهم لمجرد قوله لهم (اتركوها) دون أن يقنعهم بحجة تقتضى تركهم لها ، ثم نفوا تصديقهم له ، لأنه لا حجة لديه تثبت نبوته ، ثم بعد هذا الهذيان كله قالوا فيه ما قالوه من السباب « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ » .

ولقد حكى الله تعالى رده عليهم بعد هذا كله بقوله :

(قَالَ إِنِّى أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّى بَرِئٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ) :

أى أشهد الله على براعتى مما تجعلونه من غير الله شريكا له سبحانه ، واشهدوا أنتم على براعتى من ذلك ، فليس لكم على ما تزعمون برهان ، وما أنزل به سلطان . (فَكَيْدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ) :

أى فدبروا لى المكاييد والمحن أنتم وشركاؤكم جميعاً ، بعد ما نلت منها وجرذتها من وصف الألوهية ومقتضياتها ، وعاقبوني على امتناني لها ، ولا تمهلوني ولا تتراخوا فى عقوبتى إن صح ما زعمتموه من ألوهيتها .

وخطاب النبي هود عليه السلام لقومه بهذا الأسلوب الذي بلغ الغاية في التحدى والتحقير لهم ولآلهتهم ، والإساءة لكبرياتهم وجبروتهم وحميتهم وعصبيتهم ، مع ما عرف عنهم من سفك الدماء ، والعنجهية والكبرياء ، وعجزهم عن تحقيق شيء مما تحداهم به مع كونه وحيداً لا يؤيده سوى قليل من المؤمنين لاحول لهم ولا قوة ، هذا كله فيه برهان واضح على ثقته صلى الله عليه وسلم بتأييد ربه وعنايته به ونصره له ، وعصمته من المكاره ، كما أنه برهان على أنه مرسل من الله ، حيث أعجزهم عن الإضرار به والقضاء على دينه ، فكان المولى يقول لعاد صدق هود فيما يبلغه غنى ، وقد عقب هذا التحدى الدال على ثقته بربه ، ببيان مصدر ثقته فقال :

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ
بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾)

التفسير

٥٦ - (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ) :

أى إنكم لن تضروني بكيدكم لى مهما اجتمعتم عليه ، فإنى توكلت على الله ما لى ومالككم وخالقكم ، واعتمدت عليه فى دفع ضرركم غنى ، وتأمركم على .
« قَالَ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .^(١) ثم أكد ثقته بربه وعدم قدرتهم عليه بقوله :
(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) :

أى ما من دابة من حيوانات الأرض وأناسيها إلا الله مالك لها قادر عليها ، بصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه ، إن ربه على سبيل من الحق والعدل مستقيم ، فلا يضيع من اعتصم به ولا يفوته ظالم لنفسه أو لعباده .

والدابة كل ما يدب على وجه الأرض ، أى يتحرك عليها فيدخل فيها الإنسان والحيوان والناصية مقدم الرأس وتطلق على الشعر النابت عليها ، والأخذ بالناصية كناية عن القدرة والتسلط ، وفي البحر لأبى حيان أن هذا التعبير صار عرفاً في القدرة على الحيوان ، والتعبير بقوله : (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) تمثيل لعدله واستقامة تدبيره لخلقه ، وجزائه لهم بالثواب والعقاب ، وأنه كاف لمن اعتصم به ، وفي الكشف أن فى قوله تعالى : (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ) إلى آخر الآية ، ما يبهرك تأمله من حسن التعليل ، وأن من توكل على الله لا يبالي بهول ما ناله ، ثم التدرج إلى تعكيس التخويف بقوله : (رَبِّي وَرَبُّكُمْ) . فكيف يصاب من لزم سُدَّة العبودية وينجو من تولى عن ربه - إلى آخر ما نقله الآلوسى عنه ، فارجع إليه إن شئت .

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ
وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ٥٧)

المفردات :

(وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ) : يجعلهم خلفاء لكم في دياركم . (حَفِيفٌ) : عليم .

التفسير

٥٧ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا ^(١) فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ) :

أى فإن تتولوا وتعرضوا عما دعوتكم إليه ، فلا عذر لكم ، فقد أبلغتكم رسالة ربي إليكم ، وبذلت لكم النصيح ، وقدمت الحجج والبراهين ، وأدبت حق ربي ، فلا تفريط مني ، ولا حجة لكم .

(١) أصله فإن تتولوا ، فعطف حرف المضارعة وهو التاء الأولى تخفيفاً للثقل تكرار التاء .

(وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ) :

كلام مستأنف مراد به وعيدهم وإنذارهم ، بأنه تعالى سوف يهلكهم إن استمروا على كفرهم ، ويستخلف مكانهم قوما آخرين في ديارهم وأموالهم .
(وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا) :

ولا تضرون ربى شيئا من الضرر ، لا بإعراضكم وتوليكم عن دينه ، ولا بإهلاككم بذنوبكم ، فإن هلاككم لا ينقص ملكه ، ولا يخل بأمره .
(إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ) :

إن إلهي وخالقي على كل شيء رقيب ، وبكل شيء عليم ، فلا يغيب عنه شيء من أعمالكم ولا ما انطوت عليه صدوركم ، وسوف يجازيكم على خطاياكم في دنياكم وأخراكم .

(وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٨) وَتِلْكَ ءَادٌ جَحَدُوا بِمَا بَنَيْتَ رَبَّهُمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ٥٩ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ أَلَا إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ أَلَا بُعْدًا لِّءَادٍ قَوْمِ هُودٍ ٦٠)

المفردات :

(أَمْرُنَا) : عذابنا الذي أمرنا به ، أو المراد به الإذن بالعذاب والأمر به .
(مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) : من عذاب شديد لا يحتمل . (جَبَّارٍ عَنِيدٍ) : الجبار ؛ العاقى المتسلط ، والعنيد هو الذى يرد الحق ويرفضه وهو عارف به .
(وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ) : جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين ، واللعنة ؛ الطرد من الرحمة . (كَفَرُوا رَبَّهُمْ) : جحدوه وأنكروا وحدانيته . (بُعْدًا) : هلاكاً .

التفسير

٥٨ - (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) :

أى : ولما نزل عذابنا بقوم هود الكافرين ، وكان بحيث يمكن أن يصيب المؤمنين نجينا هوداً ومن آمن معه برحمة منا ، حيث حفظناهم من العذاب الذى يمر بهم ولا يؤذيهم ، ويفتك بغيرهم ويكون رحمة لهم .

(وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) : هذه الجملة معطوفة على مثلتها السابقة لبيان ما نجاهم الله منه .

أى وكانت تنجيتنا لهود والمؤمنين من عذاب شديد الغلظة عظيم الفتك بالكافرين ، حيث «... أَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا تُخَلِّجُهُمْ غَاوِيَةٌ . فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ »^(١) . وكان مع هذا رحمة بالمؤمنين ، لا يضرهم ولا يصيبهم بمكروه .

٥٩ - (وَتِلْكَ الْأُمَّةُ (عَادٌ) الَّتِي مَضَى الْحَدِيثُ عَنْهَا - جَحَلُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) : المعروف من ظواهر النصوص أن عاد الأولى لم يرسل إليها سوى هود ، لكن هذه الآية تقول إنهم عصوا رسله ، ويؤكد ذلك بجعل عصيانهم لهود عصيانا لجميع رسل الله السابقين واللاحقين ، لأن ما جاء به من التوحيد وأصول الشريعة لديه : جاء به جميع المرسلين فعصيان أحدهم يعتبر عصيانا لجميع الرسل .

والمعنى : وتلك الأمة (عاد) - التى مضى الحديث عنها - جحدوا بآيات ربهم الكونية الشاهدة بنبوّة هود ، وبالشرعية التى تعبدّم الله بها ، وعصوا جميع رسل الله الذين أرسلهم لهداية البشر ، فقد كذبوا رسولهم مباشرة ، وكذبوا جميع الرسل ضمنا بتكذيبهم له ، واتبعوا أمر كل متمرد طاغ معاند للحق من رؤسائهم وكبرائهم ، فقلبوا بذلك موازين الأمور ، حيث عصوا من دعاهم إلى ما ينجيهم ، وأطاعوا من دعاهم إلى ما يوديهم .

٦٠ - (وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ) :

أى : وألزموا في هذه الدنيا لعنة ، فلازمتهم ملازمة التابع للمتبوع ، حتى أوردتهم موارد الهلاك الغليظ ، وألزموها يوم القيامة ، حتى خلدتهم في النار .

(أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) :

كُفِّرُ عَادٍ بِرَبِّهِمْ أمر مفهوم من قصتهم التي مر بيانها ، وإنما أعيد ذكره هنا بهذا الأسلوب التنبيه للسامع ، للإيذان بأن كفرهم هو سبب هلاكهم ولعنتهم حتى يخشى مصيرهم من كان على شاكلتهم .

والمعنى : ألا إن عاداً كذبوا بوحدانية ربهم وجحدوا أنعمه ، ألا هلاكاً لعاد قوم هود هؤلاء ، بسبب إصرارهم على كفرهم وعتوهم وعنادهم ، ويلاحظ في الآية الكريمة تكرار حرف التنبيه (ألا) وإعادة لفظ (عادٍ) للمبالغة في تفضيع حالتهم ، والحث على الاعتبار بقصتهم .

والتعبير بقوله : (عَادٍ قَوْمِ هُودٍ) للإيذان بأنهم عاد الأولى تمييزاً لهم عن عاد إرم - وتسمى عاداً الثانية وهم بقية من عاد الأولى ، وإرم مدينتهم وقصبتهم ، وكانوا أهل ترف ومال ولكنهم لما كفروا وبغوا في الأرض صب عليهم الله العذاب ، قال تعالى في شأنهم في سورة الفجر : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ » . إلى قوله : « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » .

(* وَإِلَىٰ نُمُودَ أَخَاهُم صَالِحًا قَالَ يَفْقَرُمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾) قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ لَنَا فِي شَيْءٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرِيبٌ ﴿٦٢﴾)

الفردات :

(أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ) : ابتداء خلقكم من الأرض وأوجدكم منها بخلق أبيكم آدم من ترابها. (وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) : جعلكم تعمرونها ، إذ مكنكم من العمل فيها واستثمارها والبناء عليها (مَرْجُوًّا) : موضع رجائنا وأملنا إذ كان فاضلاً خيراً. (مَرِيبٌ) : موقع في الريبة وقلق النفس وعدم الاطمئنان .

التفسير

٦١ - (وَإِلَىٰ نُمُودَ أَخَاهُم صَالِحًا) ... الآية .

وأرسلنا إلى قبيلة ثمود واحداً منهم وأخا لهم في النسب يُسَمَّى صَالِحًا - أرسلناه مُبَلِّغًا رسالة ربه فناداهم في رفق ولين - (قال يا قوم) : يا أهلى ويا عشيرتى ؛ تلييناً لقلوبهم وجذباً لنفوسهم ، كى يقبلوا فى يسر وسهولة على امتثال ما أمرهم به فى قوله : (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ) . أى آمنوا بالله وحده ، وأفردوه بالعبادة ، ليس لكم أى إله يستحق أن يعبد سواه .

ثم علل صالح دعوته إلى توحيد الله بإنعامه - تعالى - عليهم بأعظم النعم فيها حكاه القرآن بقوله : (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) : أى هو الله - سبحانه - لا غيره أوجدكم من الأرض ابتداءً باعتبار خلقه آدم أباً البشر منها ، ويجوز أن

يكون المراد - أنشأكم من الأرض - باعتبار أن النطف التي خلقت منها ذرية آدم تتكون من الأغذية التي نحصل عليها من زروع الأرض وثمارها - أوجدكم من الأرض - فأنتم مدينون له بحياتكم ووجودكم .

(وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) : أى وأقدركم على عمارتها ، ومكنكم من العمل فيها ومن استثمارها وبناء ما تسكنون فيه على ظهرها ، بما وهبكم من عقل وقوة ، وبما سخر لكم فيها من وسائل تنفذون بها ما ألهمكم معرفة كيفيته .

ولما كان إحسانه - تعالى - عليهم بتلك النعم يستدعى الاستغفار والتوبة ، رتب عليه الأمر بهما إذ قال : (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ) : أى فاطلبوا من غمركم بإحسانه العيم أن يستر بآيما نكم وأعمالكم الصالحة ما اقترفتموه من الشرك والخطايا ، ثم ارجعوا إليه بتخليص أنفسكم من الذنوب نادمين على ما فرط منها ، عازمين على عدم العودة إلى معصيته ، مقبلين على طاعته راجين رحمته .

ثم رغبهم في الاستغفار والتوبة بقوله : (إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) : أى إن ربي الذى أدعوكم إلى عبادته قريب بعفوه ممن يحسنون إلى أنفسهم بالاستغفار والتوبة من الشرك والخطايا ، مجيب دعاء من رجع إليه وأتاب . قال تعالى : « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ » . وكانت ثمود تقيم بالحجر بين الحجاز والشام .

٦٢ - (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ لَنَا فِي شِكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ) :

قال قوم صالح يردون على دعوته إياهم إلى التوحيد : يا صالح قد كنت بيننا رجلاً فاضلاً خيراً نؤمك لمهمات أمورنا ، كنت كذلك بيننا قبل هذا الذى أمرتنا به ودعوتنا إليه من التوحيد وترك عبادة الأوثان ، ثم حاب رجأؤنا فيك وانقطع أملنا وساء ظننا بعد أن سمعنا منك ما قلته لنا ، ثم خاطبوه باستفهام ينكرون به عليه مادعاهم إليه إذ قالوا : (أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) : أى أتطلب منا أن نترك عبادة الأوثان التى أقام على عبادتها آبأؤنا طول حياتهم ، إن هذا لشيء نرفضه ولا نقبله ،

(وَإِنَّا لَنَىٰ شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ) : أى أَنتهانا عن فعل ماورثناه عن آبائنا
 وإنا لى شك بالغ من صحة كل ما جئتنا به ، مريب موقع فى قلق شديد دائم لنفوسنا ،
 ومثير لا اضطراب مستمر فى قلوبنا .

(قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ
 رَحْمَةً فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ
 تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
 فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾)
 فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدٌ
 غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾)

الفردات :

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى عما سألتكم عنه . (بَيِّنَةٍ) : حجة واضحة وبرهان ظاهر .
 (وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً) : نبوة ورسالة فهى من رحمة الله . (فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ) :
 فمن ينجينى ويمنعنى من عذابه . (تَخْسِيرٍ) : تضییع وإنقاص بإبطال عملى وتعريضى لغضب الله .
 (آيَةٌ) : معجزة . (فَذَرُوهَا) : فدعوها واتركوها . (فَعَقَرُوهَا) : فنحروها . يقال : عقرت
 البعير إذا نحرته . (تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ) : أقيموا فى بلدكم وانتفعوا بأرزاقكم وبكل
 ما يسركم . (وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) : وعيد صادق .

التفسير

٦٣ - (قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً) ... الآية .
 بعد أن بينت الآية السابقة أن قوم صالح أنكروا دعوته وارتابوا فى صدقها ، ورغبوا فى استدراجهم

إلى موافقتهم ، جاءت هذه الآية تحكى رده عليهم وتبين أنهم لا يستطيعون ولا يستطيع أحد سواهم إنقاذه من عذاب الله إن أطاعهم فيما يرون .

والمعنى : قال صالح - عليه السلام - في رده عليهم - يا قوم - أخبروني إن كنت على طريقة واضحة وبصيرة نافذة من لدن ربي ، وأعطاني من عنده نبوة ورسالة - رحمة لي ولكم - أجيئوني عما أسألكم عنه بقولي :

(فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ) :

أى فمن يمنعني من عذاب الله وينجيني من عقابه إن أطعتم وعصيته - سبحانه - فلم أبلغكم رسالته ، ولم أخطركم من الشرك وعبادة الأصنام ؟ لا أحد مطلقا يستطيع منعي من عقابه - تعالى - إن فعلت ذلك .

ثم رتب على عصيانه إن وقع ، بعد إنعام الله عليه بالنبوة ، إحباط عمله ، كما حكاه الله بقوله : (فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ) : أى فما أستفيد منكم إن جاريتكم فيما تشتهون سوى أن تجعلوني بهذا الاتباع خاسرا ، بإبطال عملي وتعريضى لغضب الله وعقابه ، ولا شك أن صالحا - عليه السلام - كان جازما بأنه على بينة من ربه ، ولكنه عبر بأن التمسك للشك في قوله : (إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ) : مجازاة لقومه فيما يزعمون ، ورعاية لحسن المحاوراة لا استنزالهم عن المكابرة .

هذا ويمكن أن يقال إن استعمال (إن) في الشك غالب ، ولكنها قد تستعمل عند اليقين كما هنا ، انظر إلى لفظ (ما) فإنه يستعمل في غير العاقل غالبا . ولكنه قد يستعمل في العليم الخبير كما في قوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا » .

٦٤ - (وَيَأْقُومُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ) :

أى وقال صالح يخبر قومه بمجىء معجزة عظيمة : يا قوم هذه ناقة عظيمة الشأن . شرفها الله بنسبتها إليه ، وأوجدها على خلاف ما عرفتم وألقت في خلق جنسها ، ومن خصائصها المميزة أنها تشرب الماء وحدها في يوم ، والقوم جميعا وما معهم من حيوانات يشربونه في آخر . قال تعالى : « هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » .^(١) أوجدها كذلك لكم خاصة لتكون معجزة عظيمة تستدلون بها على قدرته - تعالى - وعلى صدق فيما أبلغكم به عن ربي .

(فَلَدُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ) : أى فاتركوها تأكل وترعى. وتشرب فى أرض الله دون أن تكلفوا بتحصيل شى من مؤونتها .

(وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) : أى ولا تصيبوها بأذى سوء ولا بأقل أذى ، فَيَأْخُذْكُمْ وَيَسْتَأْصِلْكُمْ لِأَجْلِ ذَلِكَ عَذَابٌ عَاجِلٌ .

٦٥ - (فَعَقَرُوْهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) : أى فنحروها مخالفين ما أمروا به ، فقال لهم بوحي من الله : استمتعوا فى بلدكم بكل ما يسركم فى اطمئنان ودعة مدة ثلاثة أيام ، والمراد أنهم بعد هذه الأيام الثلاثة يهلكون ، ولذلك قال عقبها : (ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) : أى ذلك العقاب الهائل الذى أنذرتكم وقوعه بعد عقر الناقة بثلاثة أيام وعيد صادق يقع حتما ولا يتخلف لأنه من عند الله .

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝ ٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثَمِينَ ۝ ٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ۝ ٦٨)

المفردات :

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) : فلما نزل عذابنا . (وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ) : ومن ذل وفضيحة هذا اليوم . (الصَّيْحَةُ) : صوت قوى مفزع زلزل الأرض بهم . (جِثَمِينَ) : باركين على الركب هامدين موتى لا يتحركون . (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) : كأنهم لم يقيموا فى ديارهم ولم يحبوا فيها .

التفسير

٦٦- (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) :

أى فلما نزل عذابنا بشمود، بعد مضي المدة التي أنذروا بنزول العذاب بعدها، نجينا صالحا والذين آمنوا معه من الهلاك معهم، بسبب رحمة عظيمة من لدنا وسعتهم وحفظتهم، لإيمان صالح ونبوته وإيمان المصدقين برسائله العاملين بشريعته.

(وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ) :

أى ونجيناهم من ذل وفضيحة يوم العذاب المهين الذي نزل بكفار ثمود.

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) :

خطاب لمحمد - صلى الله عليه وسلم - تخلل الحديث عن قصة صالح تقوية لعزمه، أى إن ربك الذى يرعاك يا محمد، هو وحده القادر على كل شئ الغالب فى كل وقت فلا يعجزه شئ أراد، فلذا أخذ قوم صالح أخذ عزيز مقتدر، وفيه إنذار شديد للمشركين إن أصروا على الكفر والجحود «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ»^(١).

٦٧- (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) : أى وأخذ الذين ظلموا بتكذيب رسالة صالح - أخذهم - العذاب بصيحة قوية مفزعة زلزلت بهم الأرض فصعقوا وانتهت حياتهم فى مساكنهم باركين على ركبهم خامدين لا يتحركون.

٦٨- (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ) :

أى فأصبحوا وقد انتهى أمرهم من ديارهم فلم يبق لهم فيها من أثر يذكر به - إلا الصورة المفزعة لهلاكهم - كأنهم لم يقيموا أصلا فى تلك الديار - فليعتبر بحال هؤلاء كل من يجترئ على تكذيب رسل الله والكفر بهم، فما وقع لثمود كان بسبب كفرهم كما قال تعالى : (أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ) : ألا إن ثمود قوم صالح - عليه السلام - قد أنكروا ربهم فاستحقوا ماوقع عليهم وأن يقال فيهم هلاكا وطردها من رحمة الله وإحسانه لثمود.

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ
فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ
إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا
إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(بِالْبُشْرَى) : بالخبر السار . (حَنِيدٌ) : سمين أو مشوى بالدس في النار كما قال ابن عباس ، وفسره مجاهد بالمطبوخ ، وهو أعم . والعجل ولد البقر . (نَكِرَهُمْ) : جهلهم ووجدهم على غير ما يفتقد . (أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) : استشعر من جهنهم شيئاً يخافه ، أو أخفى وأضمر خوفاً منهم .

التفسير

٦٩ - (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ) الآية .

في هذه الآية وما بعدها ذكر طرف من قصة إبراهيم . كالتمهيد للحديث عن قصة لوط - عليهما السلام - .

والمعنى : ولقد جاءت رسلنا من الملائكة إلى إبراهيم يبشرونه بما يسره ، قائلين له في أول لقائهم له : « سَلَامًا » أي نسلم عليك سلاماً .

وهزت إبراهيم سجية الجود والكرم فأسرع بتقديم الطعام ، وذلك قوله تعالى : (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ) : أي فلم يتأخر إبراهيم - عليه السلام - في مجيئه بعجل سمين مشوى إلى أضيافه ليأكلوا منه ، بل جاء به على عجل كاملاً - وإن كان يكفئهم بعضه - مبالغة في إكرامهم ..

واختلف في هذا العجل : هل كان مهيبًا قبل مجيئهم ، أو أنه هبّ على عجلٍ بعد مجيئهم ، واختار الأول أبو حيان ، واختار الآلوسى الثانى لأنه أبلغ في الإكرام .
 ٧٠- (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ) :

أى فلما رأى إبراهيم - عليه السلام - أيدى الملائكة لا تمتد إلى لحم العجل الذى قدمه لقِراهم ولا تتناول منه شيئاً ليأكلوه ، استنكر ذلك منهم وشعر بالخوف من جهتهم فإنَّ الغريب إذا قدم له الطعام لإكرامه ، يبادر إليه ولا يمتنع عنه إلا إذا كان يريد برب البيت سوءاً .

قالوا حين رأوا أمارات الخوف منهم بادية عليه : لا تخف ضرراً من جهتنا ، إننا أرسلنا من الله إلى قوم لوط لإهلاكهم جزاء إتيانهم فاحشة ما سبقهم إلى فعلها أحد من العالمين .

(وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ رِثَالًا مِثْلَ النِّسَاءِ)
 إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتُوبَلَىٰ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(فَضَحِكَتْ) : سرورا بما رأت وسمعت من زوال الخوف عن زوجها وكلام الملائكة له ومجيئهم لإهلاك المجرمين . (فَلَبَسَ رِثَالًا مِثْلَ النِّسَاءِ) : أى فاتبعنا سرورها سرورا أنتم

وأعظم على ألسنة ملائكتنا. (يَاوَيْلَتَا) : يا عجباً. وأصل الويل الهلاك وهو غير مراد هنا . والنساء يستعملنها كثيراً إذا حدث ما يتعجبين منه . (بَعْلِي) : زوجي ، والبعل في الأصل الذي يقوم على تدبير الأمور ، فأطلق على الزوج لأنه يقوم على شئون المرأة .

(أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) : أتعجبين من قدرة الله وحكمته . (وَبَرَكَاتُهُ) : وخيراته الثمّة المتكاثرة . (حَمِيدٌ) : محمود لذاته وأفعاله . (مَجِيدٌ) : واسع الإحسان كثير الإنعام .

التفسير

٧١- (وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ) :

أى حدث ما حدث من المحاوراة بين الملائكة وإبراهيم ، وزوجته قائمة وحاضرة ترى وتسمع ماجرى بينهم ، فضحكت فرحاً وسروراً بزوال الخوف عن زوجها ، واستبشاراً بقرب هلاك القوم المفسدين ، وقد فهمت ذلك من قولهم لإبراهيم : (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ) ،

(فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ) : أى فأتبعنا سرورها بما سبق سرورها عظيماً وذلك بإلقاء البشرى إليها على ألسنة الملائكة بأنها ستلد «إسحق» وترى من بعد «إسحق» «يعقوب» ولد له وحفيد لها .

وقد وجهت البشارة إليها ؛ لبيان أن الولد المبشر به يكون منها ومن إبراهيم ، فإن البشارة لو وجهت لإبراهيم ، لأدركها الشك بأنه يأتى بإسحق من غيرها لعقمها . وكانت حريصة على أن يكون لها ولد ، وقد تمنته بعد أن ولد لإسماعيل لها جر .

٧٢- (قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا) الآية .

أى قالت سارة امرأة إبراهيم حين بشرت بالولد يا عجباً ، أبولدى وأنا عجوز عقيم قد تقدمت بى السن وذهبت قوتي وضعف بدنى وغاب الطمث عني ، وهذا الذى تشاهدونه زوجى القائم على رعايتي قد صار شيخاً كبير السن لم تجر العادة أن مثلنا ينجب الأولاد .

(إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) : أى إن هذا الذى بشرتم به من حصول الولد من شيخين مثلنا يشير فى النفس التعجب ، فقد جرت سنة الله فى عباده أن يكون إنجاب الأولاد فى زمن الصحة والقوة ووجود الطمث غالبا - والطمث الحيض - ولم يكن تعجب زوجة إبراهيم استبعادا لحدوث ذلك بالنسبة لقدرة الله - تعالى - وإنما كان استعظاما لحصول تلك النعمة فى غير أوانها المألوف .

٧٣- (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) :

أى قالت الملائكة منكرين عليها تعجبها ودهشتها من حصول ذلك ، وكان عليها أن تتريث حتى تتحقق البشارة ، فإنه لا عجب على قدرة الله سبحانه وتعالى ، وكأنهم قالوا لها : لا تعجبي مما قدره الله وأراد على خلاف ما جرت به سنته الغالبة فى خلقه ، فإن خوارق العادات بالنسبة لآل بيت النبوة ومهبط المعجزات وتخصيصهم بمزيد من النعم والكرامات ليس ببدع ولا غريب كما يؤذن به قوله تعالى :

(رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) :

أى رحمة الله التى وسعتكم بكل خيراتها ، وبركاته التامة المتكاثرة تفيض عليكم بأهل بيت النبوة ، ومن تلك الرحمات وهذه البركات هبة الأولاد فى غير أوانهم المعتاد .

(إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) :

أى إنه سبحانه يستحق الحمد لذاته ، يصدر عنه ما يستوجب حمده من عباده ، كثير الخير والإحسان ، رفيع الشأن ، متصف بأعظم صفات المجد .

(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا
 فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتْلُو بَرَاهِيمَ
 أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنِيبٌ أَلِيبٌ
 غَيْرُ مُرْدُوْدٍ ﴿٧٥﴾)

الفردات :

(الرَّوْعُ) : الخوف والفرع ، (لَحَلِيمٌ) : لمتصف بكثرة الحلم لا يعجل بالانتقام من
 المسيء . (أَوَّهٌ) : كثير التأوه والتوجع رحمة بالناس . (مُنِيبٌ) : كثير الرجوع إلى الله
 بالدعاء والاستغفار والعبادة . (غَيْرُ مُرْدُوْدٍ) : غير مدفوع .

التفسير

٧٤ - (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ) الآية .

بعد أن حكى القرآن الكريم بعضاً من أحوال إبراهيم - عليه السلام - وزوجته جاءت
 هذه الآية والآيتان بعدها تذكر بعضاً آخر من أحواله وشئونه ومجادلته عن قوم لوط .

والمعنى : فلما زال عن إبراهيم ما لحقه من الخوف والفرع حينما امتنع ضيوفه من
 تناول طعامه ، واطمأنت نفسه بعد أن عرف أنهم ملائكة الله (وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا
 فِي قَوْمِ لُوطٍ) : أى وحل محل الخوف شعور بالسرور حينما بشره بعد سن اليأس بسلام
 عليم ، فلما حدث ذلك أخذ إبراهيم - عليه السلام - يجادل رسل الله في شأن قوم لوط
 وإهلاكهم وقد حكى القرآن الكريم قصة مجادلة إبراهيم للملائكة بشأنهم في قوله - تعالى - :

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا
 ظَالِمِينَ . قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا » ^(١) الآية ، وقد اعتبر قول إبراهيم : « إِنَّ فِيهَا لُوطًا » جدالاً عنهم

لأن المراد منه : كيف تهلكون أهل هذه القرية وفيهم من هو مؤمن بالله لا يستحق العذاب ، وعلى رأسهم نبي الله لوط - عليه السلام - ولذا أجابته الملائكة بقولهم : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ». وكان إبراهيم - عليه السلام - فهم أن وجود المؤمنين مع الظالمين في قرية واحدة يُبيح له الجدل عن أهل القرية جميعا ، حرصا على سلامة المؤمنين . يضاف إلى ذلك ما فطر عليه من الحلم والرحمة كما بينه القرآن في قوله - تعالى - : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) : أى كان جدال إبراهيم لما تقدم . ولأنه عظيم الحلم يملك نفسه فلا يعاجل بالانتقام من المسيء ، كثير التأوه رقيق القلب عظيم الإشفاق يتأثر كثيرا ويتوجع لما يصيب غيره من مكاره وخطوب ، متصف بالإنابة إلى الله والرجوع إليه يعمل ما يحبه ويرضاه ،

ولعل جداله عن قوم لوط مع علمه بكفرهم رجاء أن يؤمنوا بالله - تعالى - بالإضافة إلى ما سبق بيانه من خوفه على لوط ومن آمن معه .

٧٦- (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ) :

أى قالت الملائكة - بأمر من الله - يا إبراهيم ابتعد عن هذا الذى ترجوه لهؤلاء وتجادل فيه ، ولا تلتمس بجدالك رحمة لهؤلاء القوم ، ولا تخفيا عنهم ، إنه قد قرب وقت هلاكهم الذى قضاه - سبحانه - وقدره فى أزله القديم ، وإن هؤلاء الظلمة من قوم لوط واقع بهم لا محالة عذاب غير مدفوع عنهم بجدال أو دعاء ، ولا تستطيع قوة فى الأرض صده أو رده عنهم .

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوْمٌ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۚ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(سِئًا بِهِمْ) : أصيب بالغم والحزن بسبب مجيئهم وساءه ذلك ، (وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا) : عجزت طاقته وضعف جهده عن احتمال ما يترتب على مجيئهم من شرور قومه ، والمراد أنه لم يجد لهذا المكروه مخرجا . يقال ضاق بالأمر ذرعا إذا لم يطقه ولم يقدر عليه . (عَصِيبٌ) : شديد الإيذاء . والعَصْبُ : الشد بالعصاة .

(يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ) : يسرعون إليه ؛ كأنما يدفع بعضهم بعضا مسارعة إلى الفاحشة .

(وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي) : أى ولا تفضحوني ولا تلحقوا بى الذل والهوان فى شأن ضيوفى النازلين عندى .

التفسير

٧٧ - (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ...) الآية .

بعد أن حكى القرآن الكريم بعضا من أحوال إبراهيم وزوجته كالتمهيد لقصة لوط جاءت هذه الآية والآيات بعدها تحكى بشيء من التفصيل ماجرى بين لوط وقومه ، من التوسل إليهم ليعدلوا عن الفاحشة إلى آخر ما تذكره الآيات .

والمعنى : ولما جاءت رسل الله من الملائكة لوطا من عند إبراهيم حزن بسبب مجيئهم حزنا شديدا ، لأنهم جاءوه في صور شباب من البشر حسان الوجوه ، وخشى أن يقصدهم قومه لارتكاب الفاحشة التي اشتهروا بها فيعجز عن مدافعتهم ، وضاعت طاقته وضعف جهده عن احتمال نزولهم عنده ، لعدم قدرته على تخليصهم من شر توقع حلوله لهم من قومه .
(وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) : أى وقال لوط - عليه السلام - تعبيرا عن شدة المالحقة من الهلع والفرع : هذا اليوم الذى نزل فيه هؤلاء الضيوف يوم شديد الشر لا أستطيع احتمال ما يحدث فيه لضيوفى .

٧٨ - (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ . . .) الآية .

أى ولما علم القوم بوجود هؤلاء الضيوف الحسان عند لوط ، جاءوا إليه يسرعون الخطأ في لهفة طلبا للفاحشة ، وتلهفهم على فعل الفاحشة لم يكن غريبا ، فقد اعتادوا فعل المنكرات من قبل ذلك كما قال تعالى :

(وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) : أى ومن قبل مجئ الملائكة إلى لوط كان قومه مستمرين على ارتكاب الآثام ، دائمين على فعل الموبقات ، فلا عجب إذا طلبوا الفاحشة مع ضيفه علنا جهارا بغير مبالاة .

(قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) : أى وحين أسرع قوم لوط إلى طلب الفاحشة مع ضيوفه ناداهم قائلا : (يَا قَوْمِ) ليستميلهم ويرقق قلوبهم ، واستمر في محاولة تليين قلوبهم وجذب عواطفهم عسى أن يشوبوا إلى الرشاد ، فعرض عليهم عرضا كريما بقوله :

(هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) : أى فتزوجوا بهن ، هن أنظف وأشرف لكم ، وليس فيما دأبتم عليه من إتيان الرجال شهوة من دون النساء شئ من الطهر ، فالنظافة والطهارة في الزواج بالنساء ، والدنس والخبث في إتيان الذكران من العالمين ، قال الآلوسى : وكانوا يطلبون الزواج ببنايته من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم ، لا لعدم مشروعية زواج المؤمنات من الكفار فإنه كان جائزا ، وقد زوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته زينب لأبى العاص بن الربيع وكان مشركا قبل أن ينزل تحريم ذلك إلى آخر ما قال ، وقد ذكرنا هنا تلخيصه .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي) : أى فاحفظوا أنفسكم من عذاب الله بترك ذلك الدنس، ولا تلحقوا بى الخزى والذل والعار بسبب إهانة ضيفي ، فإن إهانتهم إهانة لى .

(أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) : أى ألا يوجد من بينكم رجل سديد الرأى رشيد العقل يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر ويقنعكم بترك الفاحشة أو يمنعكم من ارتكابها وإذا كان لا يوجد بينكم هذا الرجل الرشيد فذلك منكر تستحقون عليه شديد اللوم وبالغ التقريع .

(قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ إِيَّائِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠)

المفردات :

(مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ) : المراد به هنا ؛ ما لنا فيهن من حاجة ولا شهوة فعندنا نساؤنا .
(آوِ) : ألجأ . (رُكْنٌ شَدِيدٌ) : جانب قوى أتقوى به وأستند إليه وأعتمد عليه ، وكل ما يتقوى به من ملك وجند وقوم يسمى ركنا .

التفسير

٧٩- (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) :

أى قال قوم لوط معرضين عن قبول ما عرضه عليهم ونصحهم من التزوج ببَنَاتِهِ : لقد عرفت يا لوط غرضنا وقصدنا ، ليس لنا في بناتك أى حاجة نعتبرها هدفا لنا وغاية لمجيئنا ، وإنك يا لوط بدون شك وبلا ريب لتعرف قصدنا من المجيء وغايتنا من الإسراع ، وتدرى يقينا رغبتنا فيمن عندك .

ولما يئس لوط - عليه السلام - من إقناع قومه بترك ما هم عليه من الفساد . تمنى أن تكون له قوة تردهم عن ضيوفه ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

٨٠- (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) .

أى قال لوط - عليه السلام - لو أن لى طاقة وقدرة تنهض بردعكم ، أو أن لى جانباً قويا أستند إليه . وأستنصر به عليكم لردعتمكم عن غيكم ، وحفظت كرامتى وصنت ضيئى من الاعتداء عليهم وإيذائهم .

وقال لوط ذلك لأنه لم يكن فى منعة من قومه ، وقد أرسل إلى أهل «سدوم» وهى قرية عند حمص .

وقد استغرب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم مقالة لوط ، فقد جاءه فيها رواه البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « رَحِمَ اللهُ أَخِي لُوطًا كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » . يقصد صلى الله عليه وسلم أنه كان يلجأ إلى الله تعالى فإنه لا ركن أشد منه ، ولكنه لهول المفاجأة وشدة الكرب قال ما قال وهو يعلم أنه لا ركن أشد من الله تعالى .

(قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١))

المفردات :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) : فسر بهم ليلاً . (بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ) : فى جزوه منه .

(مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) : أى موعد عقابهم الصبح .

التفسير

٨١- (قَالُوا يَا لُوطُ ...) الآية .

أى لما رأت الملائكة ما استولى على «لوط» من الكرب قالوا له مطمئنن :
 (يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ) : أى إِنَّا رسل من عند ربك جئنا لإهلاك قومك وتطهير الأرض
 من دنسهم . (لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ) : أى لن يصل إليك هؤلاء الآثمون بضرر فى نفسك ولا فى
 ضيفك . (فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ) : أى فاخرج بأهلك فى جزء من الليل .
 (وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ) : أى ولا تنظر أنت ولا تترك
 أحدا من أهلك ينظر إلى الوراء أثناء سيركم ، لكلا يرى هول ما نزل بقومهم .
 فيحصل لهم كرب قد لا يطيقه ، لكن امرأتك لا تخرج بها مع أهلك واتركها
 مع قومك ، فإنها خانتك بممالاتهم عليك ، ونفاقها فى الإيمان بالله ، وإفشائها أسرارك
 إلى قومها ، فدعها معهم ليصيبها ما يصيبهم من عقاب أليم ، ثم علل الأمر بالإسراء بأهله
 والنهى عن الالتفات بقوله سبحانه : (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) : أى فأسرع السير بأهلك
 تحت جنح الظلام كي تباعد عن مواقع العذاب الذى تجدد الصبح وقتا لنزوله .
 (أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) : أى إن موعد هلاكهم الصبح وهو وقت قريب جداً ، وكان الصبح
 ميقاتا لهلاكهم لأنه وقت الدعة والراحة والهدوء ، فيكون نزول العذاب بهم فيه أشد .

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
 حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنْ
 الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾)

المفردات :

(أَمْرُنَا) : أى عذابنا أو الأمر به ، وهو على الأول واحد الأمور ، وعلى الثانى واحداً الأمر .
 (جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) : أى قلبناها فصار أعلاها إلى أسفل وأسفلها إلى أعلى .
 (سِجِّيلٍ) : طين قد تحجر ، (مَنْضُودٍ) : متتابع بعضه إثر بعض .
 (مُسَوَّمَةً) : معلمة بعلامات تميزها عن غيرها .

التفسير

٨٢ - (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ) :

أى فلما جاء الوقت الذى أَمَرْنَا بوقوع العذاب فيه - وهو الصُّبح - أو جاء العذاب الذى فُدرنا نزوله بهم فى الصباح ، جعلنا ما كان عالياً من مهانى القرى والمدن سافلاً . وأنزلنا على أهل تلك القرى مطراً من حجارة من طين تحجر - هذه الحجارة أنزلناها على هذه القرى متتابعة بعضها إثر بعض كمتابع المطر النازل من السماء .

٨٣ - (مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ ...) الآية .

أى هذه الحجارة التى أمطروا بها من السماء كانت مُعَلِّمة ومميّزة عند ربك بما يدل على أنها ليست من حجارة الأرض . وأنه - سبحانه - أعدّها لعذاب هؤلاء .

(وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) : أى وليست تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر ببعيدة عن غيرهم من كل ظالم يَأْتُمُ إِثْمَهُمْ ويظلم ظلمهم . فلا تكون بعيدة عن الكفار من قومك يا محمد فليسيروا إلى تلك القرى وليعتبروا بما وقع فيها لعلمهم يؤمنون .

(* وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَنْقُومَ عَبْدُ اللَّهِ مَا لَكُمْ
 مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ ۚ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ
 بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤ وَيَنْقُومَ أَوْفُوا
 الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْثَلَهُمْ وَلَا
 تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٨٥ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ
 مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۝٨٦)

المفردات :

- (وَإِلَى مَدْيَنَ) : أى وإلى أهل مدين . (بِخَيْرٍ) : بسعة فى الرزق والثروة .
 (عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ) : المقصود من إحاطة اليوم بهم إحاطة عذابه بحيث لا ينجو منه أحد .
 (أَوْفُوا) : أتموا وأكملوا . (وَلَا تَبْخُسُوا) : ولا تنقصوا .
 (وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : ولا تفتنوا فى الإفساد فى الأرض قاصدين إضرار الخلق .
 (بَقِيَّةُ اللَّهِ) : ما ادخر عنده من ثواب الصالحات .
 (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) : وما أنا عليكم بمراقب لأعمالكم فذلك لله وحده أما أنا
 فناصر ومنذر .

التفسير

٨٤ - (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا) الآية .

وأرسلنا إلى أهل مدين واحداً منهم نسباً هو شعيب - عليه السلام - وكانوا أهل كفر
 جشعين يبخسون المكيال والميزان ، ولا يوفون الحقوق ولا يحفظون الأمانات .

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ) :

ناداهم متحبباً إليهم بقوله : (يَا قَوْمِ) : أى يا عشيرتى أنا منكم وأنتم منى والرائد لا يكذب أهله .

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ) :

بعد أن جذبهم إليه بهذا النداء بدأهم بالدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة لأنه هو الإله وحده ، فلا يستحق العبادة سواه ، ولقد جرت سنة الأنبياء في دعوة أقوامهم أن يبدأوا بالدعوة إلى التوحيد لأنه أصل الإيمان ، وبه صلاح الأمر كله ، وهو الأساس الأول ، ثم يتبعون ذلك الدعوة إلى ترك ما هم عليه من النقائص والعيوب الظاهرة ، لذا عقب شعيب - عليه السلام - دعوتهم إلى التوحيد بالنهى عن نقص المكيال والميزان لأنه أعظم عيب نفشى في قومه فقال :

(وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ) :

أى ولا تنقصوهما إذا بعم للناس إذ لا يليق بكم أن تخونوا في معاملتكم بعضهم مع بعض وأن تستحلوا ما تأخذونه من الناس عن طريق النقص في المكيال والميزان ، فالحق أحق أن يتبع .

(إِنِّى أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ) :

إنى أراكم فى سعة من الرزق والمال والولد فيجب أن تقابل هذه النعم بإعطاء الحقوق لا بالإصرار على الشر والفساد وسلب حقوق العباد ؛ فيسلبكم الله نعمة .

(وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ) :

أى وإنى أشفق عليكم وأخشى أن يحل بكم عذاب يوم يهلككم جميعاً فى الدنيا ويحيط بكم فى الآخرة « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » ^(١) .

٨٥ - (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) :

كرر النداء بقوله : (يَا قَوْمِ) حين أمرهم ثانياً بإتمام الكيل والوزن بالعدل من غير زيادة ولا نقصان حرصاً منه على مصلحتهم ونفعهم . فهم قومه وعشيرته .

ثم عقب أمرهم بإيفاء الكيل والميزان بقوله :

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) :

يريد بذلك إما نهيهم عن أن ينقصوا الناس حقوقهم في جميع أمورهم بصفة عامة ،
حسية كانت أو معنوية ، وإما تأكيد أمره لهم بالإيفاء بالمكيال والميزان بالقسط خاصة
بالنهي عن نقصهم الناس حقهم في الإيفاء بهما .

والمعنى على الأول : ولا تنقصوا الناس أمورهم في أموالهم وأعراضهم وعقارهم ومنقولهم ،
وزرعهم وضرعهم ، وبيعهم وشرائهم ، وغير ذلك مما عرَّ وهان .

والمعنى على الثاني : ولا تنقصوا الناس حقوقهم في بيعهم وشرائهم ، بعدم إتمامكم المكيال
والميزان لهم .

ثم عقب نهيهم عن بخص الناس أشياءهم بقوله :

(وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) :

والعتوُّ في الأرض ؛ الإفساد فيها ، وقد يحدث لغرض الإصلاح كحرب البغاة والمرتدين
وقطاع الطريق ، وكقتل صاحب موسى للغلام وخرقه للسفينة ، وهذا وإن كان ظاهرة
الإفساد فهو جائز للضرورة وقد يكون لغرض الإفساد والإضرار بالخلق وهذا هو المذموم
والمنهى عنه .

والعتو المذموم يعم جميع أنواع الإفساد والعدوان كقطع الطريق وتهديد الأمن
وقطع الشجر وقتل الحيوان وغير ذلك ، وقد كانوا يصدون الناس عن اتباع شعيب
- عليه السلام - والإيمان به وينشرون الفساد في الأرض قال تعالى : «وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ
صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا»^(١) .

وقيل : معناه ولا تعتوا في الأرض مفسدين أمر آخرتكم ومصالح دينكم .

ثم زهدهم في تلك الأفعال القبيحة وأرشدتهم إلى ما هو خير وصلاح فقال :

٨٦ - (بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) :

أى ما أبقاه الله لكم من خيرى الدنيا والآخرة بعد إيفاء الكيل والوزن والتنزه عن
المحرمات خير لكم وأنفع من الكسب الحرام وإن كثرة ، إن كنتم مصدقين بما شرعه الله لكم

على لسان شعيب - عليه السلام - لأن الإيمان يستتبع خير الجزاء ، فضلاً عن أنه يظهر النفس من دناءة الطمع وسائر الخباثت ويحطّ بها بالقناعة وسائر الفضائل ، ثم أثار فيهم الوازع النفسى بقوله :

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ) : ولست عليكم بالحفيظ الذى يملك منعكم من الوقوع فى المحرمات ، أو معناه : لست أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها وإنما أنا ناصح لكم ومبلغ « مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ » ^(١) . وقد بذلت الجهد وأعذرت إذ أنذرت .

(قَالُوا يَشْعِيبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

المفردات :

(الْحَلِيمُ) : المتأنى الضابط لنفسه الذى لا يتعجل فى الأمور مع القدرة والقوة .
(الرَّشِيدُ) : المتصف بحسن التدبير ودقة التقدير .

التفسير

٨٧ - (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) :

أى قال قوم شعيب - ساخرين مستهزئين - ردّاً على دعوته إياهم إلى التوحيد والعدل فى المعاملات أصلاتك تأمرُكَ أن نترك ما يعبد آباؤنا من الأوثان التى توارثنا عبادتها عن آبائنا ، إننا ننكر عليك ذلك ولن نترك عبادتها ، وإنما خصّوا الصلاة بالإنكار دون سائر أحكام النبوة التى دعاهم إليها لأنه كان كثير الصلاة معروفاً بذلك ، ولأنهم يغمزونهم فى صلاته بأنّها وسوسة خاطر ، وليست وحياً من السماء ، وينكرون بهذا التهكم كل مادعاهم إليه من عبادة الله وحده وسائر الفضائل .

(أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ) :

هذهاجواب منهم عن أمره - عليه السلام - لهم بإيفاء الكيل والوزن مبنى أيضاً على السخرية بما يأمرهم به .

والمنى : أصلاتك يا شعيب تأمرك أن نترك عبادة أوثاننا أو أن ندع التصرف في أموالنا حسبما نريد من الزيادة والنقصان ، والأخذ والعطاء على النحو الذى تعودناه مع الناس ، أتريدنا أن نسير في تجارتنا وشئون أموالنا على هواك الذى زعمت أنه شرع الله ، وهذا الجواب منهم شأن المتكبرين عن اتباع الحق فى كل أمة فإنهم لا يجدون جواباً سوى التمسك بما ورثوه عن الآباء والأجداد فهو الذى يعميهم عن الحق فلا يبصرونه ، « إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ » ^(١) ، ثم قالوا مبالغين فى السخرية والاستهزاء :

(إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) :

أى إنك لأنت الذى توصف بيننا بالتأني والتريث فى معالجة الأمور ، فأين هذه الأوصاف مما تدعوننا إليه ، يريدون بذلك تجريده من صفى الحلم والرشد ، بدعوى أن مادعاهم إليه لا يصدر عن حليم رشيد .

(قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمُ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

المفردات :

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى . (بَيِّنَةٍ) : حجة واضحة .

(وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) : ومنحنى من لدنه النبوة والحكمة وغمرنى بنعمته الكثيرة .

(أَنْ أَخَالِفَكُمُ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ) : أن أخالفكم إلى فعل ما نهيتكم عنه .

(وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) : وإلى الله أرجع .

التفسير

٨٨ - (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) :

في هذه الآية ردُّ شعيب - عليه السلام - عليهم في رفقٍ ولينٍ بقوله : يا عشيرتي وأهلي أخبروني : إن كنت على حجة واضحة وبينة ظاهرة من لدن ربي وقد رزقني منه رزقًا حسنًا هو النبوة والحكمة ، وهما مناط الحياة الأبدية لي ولكم ، وكذلك المال الوفير ، أفجعلوني في زمرة السفهاء والغواة ، حينما دعوتكم إلى توحيد الله وإيفاء الكيل والميزان . (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ) :

وما أقصد بدعوتي هذه أن أورطكم فيما دعوتكم إليه لكي أخالفكم إلى فعل ما نهيتكم عنه بعد أن تستجيبوا لدعوتي فأنا أسبق منكم إلى ما دعوتكم إليه . (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) : بما أريد بوعظي وتذكيري لكم إلا إصلاح حالكم في دنياكم وأخراكم بقدر جهدي واستطاعتي .

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ) : وما توفيقِي في التمسك بالحق وحملكم عليه إلا بفضل الله ومعونته . (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) : عليه وحده اعتمدت في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة . وإليه تعالى - وحده أرجع في كل ما يهمني من أمور وشئون - فلا حول لي ولا قوة إلا بالله فيما أفعل وأقول ، وإنما الحول والطول لله وحده فهو الذي يرشدني ويسدّد خطاي ، وهو الذي يجازيني على أعمالي فلا أخاف أحدًا سواه .

(وَيَقَوْمٍ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي - أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَّوِطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۝٨٩) وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠)

الفردات :

(لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي - أَنْ يُصِيبَكُمْ) ... الخ : أي لا تكسبنكم مشاقتي ومعاداتي عقوبة مثل عقوبة الأمم السابقة . (رَحِيمٌ) : واسع الرحمة . (وَدُودٌ) : كثير الودّ والمحبة والعطف .

التفسير

٨٩ - (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ
أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ) :

أى وقال شعيب لقومه على طريقته فى التلطف فى خطابهم ، حرصا منه على هدايتهم :
يا قوم لا يكسبنكم شقائى ومعادائى أن يصيبكم بسبب ذلك مثل ما أصاب الأمم التى كذبت
رسلها من قبل كقوم نوح ، فقد أهلكهم الله بالطوفان ، وما أصاب عاداً حين كذبوا هوداً ،
فقد أهلكهم الله ببريحٍ صرصرٍ عاتية ، وما أصاب ثمود حينما كذبوا صالحاً فأهلكهم الله
بالصيحة والرجفة لإصرارهم على الكفر والفساد .

(وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ) :

وإن لم تعتبروا بهؤلاء المذكورين فما قوم لوط ببعيدين منكم ، فقد عوقبوا بقلب
ديارهم ، وأمطر الله عليهم حجارةً من سجيل ، وقد رأيتم ديارهم وما أصابها ، فاعتبروا بحالهم
واحذروا أن يحل بكم من العذاب ما حل بهم وهذه سنة الله فىمن كذب رسله ولن تجدوا
لسنة الله تبديلاً .

ولما أنذرهم سوء عاقبة صنعهم أرشدهم إلى طريق النجاة طمعا فى استجابتهم فقال :

٩٠ - (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) :

أى واتعظوا بما وقع لهؤلاء واطلبوا مغفرة ربكم لما وقعتم فيه من الشرك والمعاصى ، ثم ارجعوا
إليه بالإيمان والطاعة ولا تبتسوا من عفو الله ورحمته ، لأن ربى وربكم واسع الرحمة كثير
الودِّ والمحبة والعطف فيرضى عن يتوب ويرجع إليه ، فسارعوا إلى ما يستوجب رحمته
ومحبته .

(قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا
 ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ
 يَنْقُومِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا
 إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ
 إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ
 كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

- (مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ) : ما نفهم مرادك ، والفقه : الفهم الدقيق المؤثر في النفس .
 (رَهْطُكَ) : الرهط الجماعة من الرجال خاصة من ثلاثة إلى تسعة ، ورهط الرجل قومه وقبيلته .
 (بِعَزِيزٍ) : بصاحب قوة ومنعة .
 (وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا) : تركتموه وراء ظهوركم ، والمراد أعرضتم عنه ونسيتموه .
 (مُحِيطٌ) : أحاط علمه بكل شيء وأحصاه فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم .
 (أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) : اعملوا على غاية تمكنكم واستطاعتكم .
 (وَأَرْتَقِبُوا) : وانتظروا عاقبة ما أقول .

التفسير

٩١ - (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ) :

دعا شعيب قومه متلطفًا في دعوتهم إلى الإيمان والاستغفار والتوبة فأجابوه في جفاء واستعلاء قائلين : يا شعيب ما نفهم كثيرًا من قولك ، ولا نعلم حقيقة ما تقصد إليه

من دعوتنا إلى ترك عبادة الأوثان ومنعنا من التصرف في أموالنا ، وتهديدك إيانا بعذاب يحيط بنا ويبيدنا ، أجابوه بذلك مع وضوح حجته وقوة برهانه وظهور مراده ، واشتغال كلامه على فنون الحكم والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، ولما عجزوا عن محاجته هددوه باستعمال القوة حين قالوا :

(وَأَنَّا لَنَرَكَ فِينَا ضَعِيفًا) :

أى وإنا لنشاهد ضعفك بيننا ، ونعلم أن لا قدرة لك على شيء ، ولا تستطيع أن تمتنع عنا إن أردنا أن نفتك بك .

(وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ) :

ولولا احترامنا لعشيرتك وأهلك الذين ثبتوا على ديننا ، ولم يؤثروك علينا ، ولولا رهطك هؤلاء لقتلناك رجما بالحجارة .

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) :

أى ولست عندنا قويا منيعا تستطيع أن تدفع ما نريده بك أو تحول بيننا وبين قتلك وإهلاكك .

وما بمنعنا عنك إلا أننا نُقدِّر رهطك وعشيرتك ونحترمهم ونعزمهم ، ونسى هؤلاء الغافلون قوته وعزته برب العالمين ، فلهذا وببُخهم شعيب على غفلتهم هذه - كما حكاه الله عنه بقوله :

٩٢ - (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ) :

قال لهم شعيب ردًا على هذا التهديد والاستهزاء : أعشيري وأهلى يا قوم أعزُّ وأكرم عليكم من الله ذى العزة والقدرة ، وقد دعوتكم بأمره إلى ما يصلح شؤونكم في الدنيا والآخرة فأعرضتم عنه .

(وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا) :

أى ونبذتم أمره وتركتموه وانصرفتم عنه كالشيء المهمل وراء الظهر فلا يلتفت إليه لعدم الاعتماد به .

(إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) :

أى إن ربي لا يخفى عليه شيء من أموركم فعله محيط بجميع أعمالكم وأقوالكم ،

وسيجازيكم عليها يوم القيامة حيث لاتغنى قوتكم عنكم شيئا، وهذا تهديد بليغ ووعيد شديد بالعذاب الأليم إن أصرُّوا على الكفر والعناد .

٩٣ - (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ) :

وقال لهم مهّداً أيضاً : يا قوم اعملوا ما شئتم بقدر استطاعتكم وتمكنكم ، وابدلوا جهدكم في مضارتي ، فإن ذلك لا يصدني عن الدعوة إلى الله .

ثم أكد ذلك بقوله : (إِنِّي عَامِلٌ) : أى إني سأعمل بقدر استطاعتي وجهدي في الطريق الذى أمرني الله بالسير فيه دون أن أخشى تهديدكم ووعيدكم .
(سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) :

أى سوف تعلمون علم اليقين من سيحقيق به العذاب المذل المهين جزاء ضلاله ومن هو كاذب منا - أنا أم أنتم - وفيه تعريض بكذبهم في ادعائهم القدرة على رجمه - عليه السلام - وفي نسبته إلى الضعف والهوان وأنهم لولا رهطه لرجموه .

(وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) :

وانتظروا ما أتوعدكم به من العقاب على كفركم وعصيانكم إني معكم منتظر عاقبة أمركم ، مراقب لها ، وفي هذا أبلغ تهديد وأعظم وعيد لهم ، وفيه إظهار ثقة شعيب بنصر ربه وتأييده له .

(وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ إِلَّا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ ۝)

الفردات :

(جَائِمِينَ) : باركين على الركب من الجثوم ، وهو للناس بمنزلة البروك للإبل .
(يَغْنَوْا فِيهَا) : كأن لم يقيموا فيها ، يقال غنى بالمكان يغنى أى أقام به وعاش في نعمة

ورغد ، (بُعْدًا) : هلاكًا ، يقال : بَعِدَ بكسر العين يَبْعُدُ بفتحها من باب طرب يطرب : بمعنى هلك ، وأما بَعُدَ بالضم فمعناه ضد قرب .

التفسير

٩٤- (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ...) الآية .

بعد أن مدد لهم شعيب وأوعدهم جاءت هذه الآية تحقيقاً لوعيده لهم .
والمعنى : ولما جاء أمرنا بعدا بهم نجينا رسولنا شعيباً والذين آمنوا به وصدقوه واتبعوه بسبب رحمة منا عظيمة شاملة إذ وفقناهم للإيمان الصادق والطاعة الخالصة ففازوا بالنجاة من الهلاك .
(وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) :

أى وأخذت الصيحة الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي من قوم شعيب .
(فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ) :

أى فأصبحوا من شدتها ميتين خامدين فى أماكنهم ، وهذه الصيحة هى التى عبر عنها فى سورتي الأعراف والعنكبوت (بالرجفة) أى الزلزلة ولعل الصيحة من روادف الرجفة ، فإن الزلزلة تحدث تموجاً فى الهواء ، يترتب عليه صفير وصياح ، فلذا سميت بالصيحة ، وقيل صاح بهم جبريل فهلكوا .

٩٥- (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) :

أى كأنهم لم يقيموا فى هذه الديار ، ولم ينعموا بها ولم يتقبلوا فى خيراتها وبركاتها ، فقد ذهب ما كانوا يعتزون به ، ولم يبق لهم إلا ما قدموه لأنفسهم مما استحقوا به العذاب والإبعاد من رحمة الله .

(أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتِ ثَمُودُ) :

أى ألا هلاكاً لهم كما هلك سابقوهم وهم ثمود قوم صالح ، وإنما شبه هلاكهم بهلاك ثمود لأن عذاب كليهما كان بالصيحة ، قال ابن عباس : ما أهلك الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب ، غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم هـ .

ويستفاد من قصة أهل مدين قوم شعيب ما يلى :

- أن نقص الكيل والوزن من الكبائر وتخشى منه العقوبة العاجلة وأنه من أكل أموال الناس بالباطل .
- وأن الصلاة مشروعة للأنبياء السابقين لقولهم لشعيب : « أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ » الآية .
- وأن من كمال الداعي المبادرة إلى فعل الخير قبل أن يدعو غيره إليه .
- وأن وظيفة الرسل الإصلاح بقدر الاستطاعة .
- وأن العبد يجب عليه أن يتكل على ربه بعد الأخذ بالأسباب ويسأله التوفيق وأن يرجع إليه في كل أموره على الدوام .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ ٩٨ الْمُرُودُ ٩٩ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ١٠٠)

المفردات :

- (آيَاتِنَا) : هي الآيات التسع التي أعطاه الله لموسى عليه السلام معجزة دالة على صدقه .
- (وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : حجة بالغة لها سلطان بين على العقول السليمة .
- (سَلَايِهِ) : أى رؤساء قومه وزعمائهم ، وسموا ملائكتهم يملئون العيون بوجاهتهم .
- (يَقْدُمُ قَوْمَهُ) : يتقدمهم ويقودهم إلى النار . (فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) : أى تسبب في دخولهم النار .

- (وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمُرُودُ) : أى وبئس المكان الذى يردونه - النار .
- (وَبِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ) : بثست اللعنة المعطاة لهم فى الدارين عطاؤهم .

التفسير

٩٦ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

بعد أن بينت الآيات السابقة سوء عاقبة المكذبين من قوم شعيب جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان ما آل إليه أمر المكذبين لموسى من فرعون وملئه تأكيداً للغرض من سوق هذه القصص وهو العظة والاعتبار .

والمعنى : ولقد أرسلنا موسى بالآيات التسع وهى العصا واليد يخرجها من جيبه بيضاء من غير سوء ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الأنفس والثمرات وأيدناه بالحجج البينة التى أقامها على فرعون وقومه أثناء دعوته إياهم إلى الإيمان حين قال له فرعون : « فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى » . وقوله : « فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى » . ونحو ذلك حيث بين لهم الحقائق الإلهية والشريعة التى بعث بها بياناً لا سبيل إلى رده كقوله له : « رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » . وقوله عن القرون الأولى : « عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » .^(١) إلى غير ذلك مما حاج به موسى فرعون وقومه .

٩٧ - (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ) :

أى أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون ورؤساء قومه فانقادوا لأمر فرعون لهم بالكفر بما جاء به موسى من عند الله ، وأعرضوا عن الآيات الواضحة والأدلة الباهرة .

(وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) :

أى وما أمرهم به فرعون بصائب وسديد حتى يتبعوه ويتركوا الحق المبين « فَاسْتَخَفُّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ »^(٢) . وقد بين الله مصير فرعون وقومه فى الآخرة فقال :

(١) سورة طه الآيات : ٤٩ - ٥٢

(٢) سورة الزمر من الآية : ٥٤

٩٨ - (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ) :

أى إن فرعون كما كان قدوة للكفار من قومه جميعاً فى الضلال فى دار الدنيا ، كذلك يتقدمهم إلى النار يوم القيامة وهم يتبعونه .

وأصل الورد لغة : الماء الذى يرده الناس ليرتووا منه ويطفئوا به ظمأهم ، وقد دلت الآية على فساد رأى فرعون وسوء حاله حيث قادمهم إلى النار وبئس الورد الذى يردونه لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار على ضد ذلك ، ولو أنه قادمهم إلى الحق لنجى نفسه وقومه ، ولكن صدق الله إذ يقول : « وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » .

وإنما عبر بالماضى فى قوله : « فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » بدل التعبير بالمضارع « يُورِدُهُمُ » المفيد لحصول ذلك فى المستقبل للإيذان بتحقيق هذا الوعيد . وحمل بعضهم الآية على ظاهرها وهو أنهم وردوا النار فعلا منذ موتهم استناداً إلى قوله تعالى : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » ^(١) .

٩٩ - (وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُبْئِسُ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ) :

أى واستحق آل فرعون بسبب كفرهم أن يلعنهم الناس فى الدنيا والآخرة ، وأن يطردهم الله من رحمته يوم القيامة - فاللعنة حالة بهم فى الدارين .

(يُبْئِسُ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ) :

أى ببئس الجزاء الذى حل بهم من الهلاك فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة . وسُمى هذا الجزاء الأليم رفداً من باب السخرية بهم - إذ الرفد فى اللغة بمعنى العطاء .

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ) ١٠٠
 وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ
 آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ
 وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ (١٠١)

المفردات :

(قَائِمٌ) : أى باق بعد أن هلك مكانه .

(حَصِيدٌ) : بمعنى محصود ، والمحصود الذى اندثرت معالمه .

(تَتْنِيبٍ) : إهلاك وتخسير .

التفسير

١٠٠ - (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ) :

أى ذلك الذى مر ذكره بعض أخبار أهل القرى التى أرسلنا إليها رسلنا فكذبوهم فأهلكناهم - ذلك المذكور - نقصه عليك ونبيته عبرة وعظة للكافرين ، وتثبيتاً لك ولأمتك المؤمنين ، من هذه القرى ما هو باق وقد خلا من أهله ومنها ما انطمست معالمه كالزرع المحصود الذى لم تبق منه باقية .

١٠١ - (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) :

أى وما أهلكنا هؤلاء بغير ذنب ارتكبهوه لأن هذا ينافى عدلنا الذى قامت به السموات والأرض ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بشركهم بالله وإفسادهم فى الأرض وصددهم عن ديننا الذى شرعناه على ألسنة رسلنا فاستحقوا الهلاك الذى حل بهم .

(فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) :

أى فما نفعتهم معبوداتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ولا دفعت عنهم أى شىء من عذاب الله الذى أنذرهم به الرسل .

(وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) :

أى وما زادتهم معبوداتهم على ما هم عليه من سوء الحال إلا هلاكاً وخسراناً ، حيث لم يشفعوا لهم كما زعموا ، بل وضعوا فى النار مثلهم .

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ
أَخْذَهُ رَءِيسٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾)

الفردات :

(أَخْذُ رَبِّكَ) : أى إهلاك ربك إيّاهم . (الرَّءِيسُ) : شديد الإيلام .

التفسير

١٠٢ - (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ) :

أى ومثل ذلك الأخذ بالعذاب الذى مر بيانه - يهلك الله أهل القرى فى حال ظلمها ، تطهيراً للأرض من أهل الظلم .

(إِنَّ أَخْذَهُ رَءِيسٌ شَدِيدٌ) :

أى إن إهلاك الله للظالمين وجيع شديد الإيلام لا مفر منه ولا مناص ؛ وفى هذا تحذير لكل من ظلم غيره فحرمه حقه ، وصدّه عن سبيل الله ، وظلم نفسه بما اقترفه من آثام ، فعليه أن يبادر بالتوبة قبل فوات الأوان .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ
 مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ
 مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ
 وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾)

المفردات :

(لَآيَةً) : لعبرة وعظة . (مَّشْهُودٌ) : كثير شاهدوه من الملائكة والرسل ومن كل بر وفاجر .

(لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ) : لانقضاء مدة قليلة قضاها الله حسب حكمته .

التفسير

١٠٣ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ) :

أى إن فيما قصه القرآن من إهلاك الأمم السابقة بسبب كفرهم بالله تعالى ، وإصرارهم على تكذيب رسله - إن في ذلك لعظة بالغة وعبرة عظيمة للذين يخافون عقاب الآخرة ، فيحملهم هذا الخوف على سلامة النظر ، وحسن الاعتبار ، وسرعة الاستجابة إلى دعوة الحق ، وقيل المراد بهؤلاء الخائفين : المؤمنون ، فهم المنتفعون بالعظات والعبر ، والباحثون عن سبل السلامة من غضب الله وعقابه ليسلكوها .

(ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) :

أى ذلك اليوم الذى يقع فيه عذاب هؤلاء الكفار المعاندين - هو يوم مجموع له الناس جميعاً ليجزى الله كل امرئ بما قدمت يداه ، وهو يوم مشهود بما يقع فيه من أهوال حيث يحضره أهل السموات والأرضيين ، من ملائكة وإنس وجن .

١٠٤ - (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ) :

أى وما تؤخر هذا اليوم الذى يجمع له الناس إلا لنهاية زمان محسوب بدقة تامة منا ، فلا يتقدم عن هذه الغاية ، ولا يتأخر عنها ، وقد استأثر الله تعالى بعلمه ، وأخفاه عن عباده ، لحكم كثيرة يعلمها قال تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا . إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا . كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »^(١) .

وإنما عبر الله عن الأجل المحسوب بالأجل المعدود ، ليشير بذلك إلى قلته ، فإنه لا يعد فى العادة إلا القليل ، ولا شك أن ما بقى من عمر الدنيا بالنسبة لما مضى منها قليل ، ولذا كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين .

وقد بين الله شدة هذا اليوم وهوله بقوله :

١٠٥ - (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ) :

أى حين يأتى هذا اليوم الذى أجل عقابهم إلى مجيئه ، لا تتكلم أى نفس إلا بإذن الله تعالى ، فلا سلطان فيه لأحد من الملوك والرؤساء ، فقد فنى سلطانهم وزال كبرياؤهم وملكتهم ، وانفرد الله وحده بالملك والعزة والسلطان ، كما قال تعالى فى سورة غافر : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » . وفى سورة الحج : « الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ » . وفى سورة الفرقان : « الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ » .

ويتجلى سلطان الله تعالى وجلاله يومئذ على نحو ما بينه الله بقوله فى سورة النبأ : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » . وبمقتضى هذه الآية وعدالة الله تعالى ، يأذن الله للكفار والمذنبين فى الدفاع عن أنفسهم كما قال تعالى فى سورة النحل : « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا » . فإذا قامت حجة الله عليهم بعد جدالهم عن أنفسهم ، خرست ألسنتهم ، ولم يؤذن لهم بالاعتذار حينئذ ، فقد ظهرت حجة الله عليهم واتضح

(١) آخر سورة النازعات .

أنه لا عذر لهم ، كما قال تعالى في سورة المرسلات : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

(فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) :

أى فينقسم الناس في هذا اليوم إلى قسمين : قسم شقى بكفره ومعصيته ، وقسم سعيد بإيمانه وطاعته . ثم بين الله مصير الأشقياء بقوله :

(فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾
خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ
إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾)

المفردات :

(شَقُوا) : كانوا أشقياء في الدنيا بكفرهم ومعاصيهم . (زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) : الزفير ؛ إخراج النفس من الصدر بمشقة ، والشهيق : إدخاله فيه بمشقة كذلك ، والمراد بهما تلاحق أنفاسهم في النار من شدة العذاب .

التفسير

١٠٦ - (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) :

أى فأما الذين قضى عليهم بالشقاء بسبب كفرهم ومعاصيهم في الدنيا وإطفائهم نور الفطرة التي فطرهم الله عليها ، فهؤلاء مستقرون في النار تتلاحق أنفاسهم فيها زفيراً وشهيقاً من حرج صدورهم وشدة كربهم ، ويأسهم من النجاة منها وهم فيها دائماً كما قال تعالى في سورة النساء : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » ^(١) . ولهذا عقب الله تلك الآية بقوله سبحانه :

(١) من الآية : ٥٦

١٠٧ - (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ...) الآية .

المراد من السموات والأرض سماوات اليوم الذى يجمع له الناس وأرضه ، فإن دوامها باق لانهاية له ، أما سماوات الدنيا وأرضها فهي زائلة ، كما قال تعالى : «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ»^(١) . فلا معنى للتوقيت بدوامها لعدم وجودها يوم عقابهم وهو يوم القيامة ومن المفسرين من فسرهما بسماوات الدنيا وأرضها ، وقال إنه ليس الغرض من النص الكريم ربط خلودهم بدوام سموات الدنيا وأرضها التى تنزل والتي لا تكون موجودة يوم القيامة بل المراد التأييد ونفى الانقطاع ، مخاطبة لهم بالأسلوب الذى اعتادوه فى هذا الصدد ، كقول أحدهم لا أفعل كذا ما لاح كوكب ، فإنه لا يقصد أنه لا يفعله ليلا مدة ظهور الكواكب ولكن يفعله نهاراً ، بل يقصد أنه لا يفعله أبداً ، ثم قال : أما إحالة التأييد على دوام سماوات الآخرة وأرضها ، فهي إحالة لهم على شيء لا يعرفونه بل ينكرونه ، لأنهم لا يعترفون بالآخرة ، كما حكاها الله عنهم بقوله : «إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ»^(٢) والظاهر من الآية هو الوجه الأول ، فإنهم كما ينكرون الآخرة ودوام سماواتها وأرضها ينكرون وعدها ووعيدها ، ولكن هذا الإنكار لا يمنع أن يتوعدهم الله بعذاب الآخرة ، ويصف لهم أهوالها لعلهم يرجعون .

(إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) :

ظاهر هذا الاستثناء أنه تعالى يشاء خروج الأشقياء من النار ، وأن خلودهم فيها ينقطع عند هذه المشيئة ، وقد حمل هذا التوهم بعض المفسرين على أن يقول : إن المراد بالذين شقوا ، الذين ارتكبوا ما يشقيهم ولا يسعدهم سواء أكانوا كفارا أم مؤمنين عصاة ، ويحمل الاستثناء عند صاحب هذا رأى على عصاة المؤمنين ، وكأنه قيل : فأما الذين شقوا بكفرهم أو معاصيهم ، ففى النار خالدون فيها أبداً إلا من شاء ربك عدم خلودهم من عصاة المؤمنين .^(٣)

(إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) :

فلا يمنعه أحد من العفو عنهم لإيمانهم بعد ما عذبوا على ذنوبهم .

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٨

(٢) سورة المؤمنين ، الآية : ٢٧

(٣) والاستثناء على هذا من التفسير المستكن فى خالدون ، وللفظ (ما) بمعنى من ، كما فى قوله تعالى «والسماوات وما بناها»

أى ومن بناها .

ورأى بعض آخر من المفسرين أن المراد بالذين شقوا هم الكفار ، وأن المراد بقوله تعالى : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » إلا الوقت الذى شاء الله فيه أن ينقلوا من عذاب النار إلى عذاب آخر كالزمهير وغيره ، فأمرهم دائر بين التعذيب بالنار والتعذيب بغيرها ولا أمل لهم فى انقطاع العذاب عنهم بأى وجه ، أو إلا الوقت الذى يتوقفون فيه فى الموقف للحساب ، وقيل الاستثناء ليس من خلودهم فى النار ، بل من قوله تعالى : « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ » .

والغنى على هذا : فأما الكافرون الذين شقوا بكفرهم فى النار لهم فيها زفير وشهيق حال خلودهم الأبدى فيها ، لا ينقطع زفيرهم وشهيقهم إلا مدة يشاؤها الله ، يكون تعبيرهم فيها عن كربهم بغير الزفير والشهيق .

ونقل القرطبي فى الوجه الرابع فى تفسيره لها عن ابن مسعود أنه قال : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ولا يخرجون منها « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنئهم ، ثم يجدد خلقهم ليتجدد تعذيبهم . ولعله استمد هذا رأى من قوله تعالى : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » (١) . تلك خلاصة الآراء المشهورة فى تفسيرها ، وفيها آراء ومباحث أخرى . فليرجع إليها فى المطولات من شاء المزيد .

(* وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ (١٠٨))

المفردات :

(سَعِدُوا) : بضم السين قراءة الأعمش وحفص والكسائى ، قال الثعلبي : أى رزقوا السعادة ، يقال سَعِدَ وأُسْعِدَ بمعنى واحد ، وقرأ الباقون بفتح السين على أسلوب شقوا . (عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ) : أى غير مقطوع عنهم .

التفسير

١٠٨ - (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ) :

تتحدث هذه الآية الكريمة عن الفريق الثاني من أهل الموقف في يوم مجموع له الناس ومشهود ، وهو فريق السعداء بعد أن تحدثت الآيتان السابقتان عن فريق الأشقياء والكلام في معنى ما دامت السموات والأرض هنا ، كالكلام في مثله في الفريق الأول .

أما قوله (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) فإنه يوهم أن خلود السعداء في الجنة ينقطع ولا يدوم حينما يشاء الله قطعه ، وهذا يتنافى مع التصريح بعدم قطعه في قوله سبحانه : (عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ) : كما يتنافى مع آيات كثيرة ناطقة بأبدية النعيم في الجنة لهم ، وقد أُجيب عن ذلك بعدة أجوبة ، منها أن اليوم المشهود يبدأ من البعث ، وأن السعداء لا يدخلون الجنة حين بعثهم ، فإنهم كغيرهم يحشرون للموقف ، ويحاسبون ، ثم ينعم الله عليهم بدخول الجنة بعد أن يقضى لهم بذلك عدالة منه وفضلا ورحمة ، فالوقت الذي قضوه في اليوم المشهود قبل دخولهم الجنة ، هو المستثنى بقوله (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) ولا يضر هذا المعنى أن الاستثناء وقع من أول اليوم لا من آخره ، كما تقول جلست في البستان يوما إلا ثلاث ساعات من أوله ، فإنه تعبير صادق وسليم من الناحية اللغوية .

ومنها أن الاستثناء بالنسبة إلى الوقت الذي ينقلون فيه من نعيم الجنة إلى ما هو أعلى منه ، من الفوز برضوان الله الذي هو أكبر من الجنة ، كما قال تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ »^(١) . ولهم أيضا ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه ، قال الزمخشري : والدليل على هذا قوله تعالى : « عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ »^(٢) .

(١) التوبة : من الآية (٧٢) .

(٢) أنظره في الكشف تعليقا للزمخشري على قوله تعالى في حق الكفار : « ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك » فقد تعرض في كلامه فيها إلى ما يماثلها في حق المؤمنين هنا .

ومما قيل في تأويلها: إن الاستثناء بالنسبة إلى عصاة المؤمنين، فإنهم يغيبون عن الجنة في الوقت الذي يعاقبون فيه على معاصيهم، ثم يؤمر بدخولهم الجنة، فلذا قيل في حقهم (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ): أى إلا من شاء ربك من عصاة المؤمنين، فإن دخولهم فيها ينقطع عند أول دخول الصالحين إليها حتى يعاقبوا على معاصيهم، فإنهم سيدخلونها ويلحقون من دخلها قبلهم من الصالحين، وقد وصفوا بالسعادة باعتبار ما آل إليه أمرهم وفيما يلي بيان معنى الآية على ما نرى.

وأما الذين أنعم عليهم بالسعادة من الله بأن وفقوا للإيمان والعمل الصالح لصفاء فطرتهم فهؤلاء في الجنة يستقرون، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض، لا يبرحونها أبداً، إلا الوقت الذى يشاء الله فيه أن ينعموا بثواب أعظم، حيث يتجلى عليهم برضوانه، الذى هو أكبر من الجنة، وأعظم منها شأنًا.

وهناك أيضا ينظرون إليه جل وعلا كما قال في سورة القيامة: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ»^(١) وحيث ينعم الله عليهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولا يعلم كنهه سواه، يعطيهم الله هذه النعم دائما، عطاء غير مجذوذ عنهم ولا هم عنه ينصرفون.

(فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمُ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩))

المفردات :

(فِي مِرْيَةٍ) : فى شك . (نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ) : جزاءهم كاملا .

التفسير

١٠٩- (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ) :

بعد أن بين الله تعالى عقاب الأشقياء وثواب السعداء أنذر أهل مكة بأن عبادتهم قائمة على الضلال وأنهم سيلقون مصير الأشقياء الضالين إذا أصرّوا على شركهم .

والمعنى لا يتطرق إليك - أيها الرسول - شك في ضلال هؤلاء المشركين وإن ادعوا أنهم يتقربون إلى الله بعبادة هذه الأصنام حيث قالوا : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى »^(١)

وهو ادعاء باطل لا يقوم على عقل رشيد أو رأى سديد ، لأن الأصنام لا تملك التقريب والإبعاد من الله تعالى ، فهي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً فكيف تملكهما لغيرها .

(مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ) :

أي أنهم لا يؤدون عبادتهم تطبيقاً لكتاب منزل ، أو إطاعة لنبي مرسل ، أو تأثراً بعقل مفكر ، وإنما يؤدونها تقليداً أعمى لأبائهم وأجدادهم الضالين دون روية أو تفكير « إِنَّهُمْ أَفْوَآبَاءُهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ »^(٢) .

(وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ) :

أي وإننا لمجازوهم على عقيدتهم الباطلة وأعمالهم الفاسدة جزاء كاملاً غير منقوص ، كما جازينا الأمم السابقة بسبب كفرهم وعتوهم « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » . والجملة هنا مؤكدة بأكثر من مؤكد للإنذار والترهيب .

(١) سورة الزمر الآية : ٢

(٢) سورة الصافات الآيتان ٦٩ ، ٧٠

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾
 وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لِيُوقِنَنَّ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
 خَبِيرٌ ﴿١١١﴾)

المفردات :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ) : لولا وعد سبق منه سبحانه بتأجيل العذاب حتى
 حين يعلمه . (شَكٌّ مِنْهُ مُرِيبٌ) : شك مزعج محير مقلق .

التفسير

١١٠ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ...) الآية .

بعد أن ختم الله الآية السابقة بوعيد مشركى قريش بأنهم سينالهم نصيبهم من العقاب
 وافيًا ، جاءت هذه الآية مسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن خلاف قومه عليه لم ينفرد به ،
 بل هذا هو الشأن فى جميع أمم المرسلين ، وضرب له مثلا يقوم موسى حيث اختلفوا عليه ،
 وأكد له أن عقابه سينزل بمن كفر به من قومه ، كما نزل بمن كفروا برسله من قبله ،
 وسيكون نزوله فى الوقت الذى عينه سبحانه لهذا العقاب ، فلا استعجالهم يقدمه ولا إنكارهم
 يؤخره ، كما قال تعالى : « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ » ^(١) وقال سبحانه :
 « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » ^(٢)

والمعنى : ولقد أنزلنا التوراة على موسى عليه السلام فبلغها إلى قومه ولكنهم اختلفوا
 فيها ، فأمن بها بعضهم ، وكفر بها آخرون ، حتى آل أمرهم إلى عبادة العجل ، فلا تبال

(١) سورة الحج ، من الآية : ٤٧

(٢) سورة النكبات الآية : ٥٣

يا محمد باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن، وقولهم: «لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ» وزعمهم أنك افتريته، فالكفر كله ملة واحدة.

وإذا كان الله تعالى لم يعجل عقوبتهم في الدنيا بالاستئصال، فلن يفلتوا من العقاب في الآخرة بأشد العذاب، حيث سبقت كلمته بتأجيل عقابهم إليها لحكم يعلمها، وفي ذلك يقول الله تعالى:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ):

أى ولولا قضاء سبق من ربك يا محمد بتأجيل عقوبة قومك المختلفين عليك إلى يوم القيامة لقضى بينهم بتعجيل عقوبتهم على كفرهم، وإنجاء المؤمنين منه لتمييز المحقون من المبطلين.

وقيل إن الكلام في قوم موسى، والمعنى: لقضى بينهم بعقابهم عاجلاً على اختلافهم في أمر التوراة. ويبعد هذا الرأي أن الآية مسوقة لتسليية الرسول على اختلاف قومه عليه، بما حدث لموسى من اختلاف بنى إسرائيل عليه، وليبان أن عقوبة قريش على كفرهم به مؤجلة في علم الله ليوم الوعيد، ولولا ذلك لعجل بها لهم.

(وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ):

أى وإن قومك يا محمد لفي شك من القرآن موقع في حيرة لهم، ولو أنصفوا لبادروا إلى الإيمان به، فإن مبعث ريبهم هو استمسكهم بدين الآباء وتعصبهم له، وعدم إصغائهم إلى الناصح الأمين^(١).

ويصح أن يكون المعنى: وإنهم لفي شك من تعذيبهم على كفرهم مقلق لنفوسهم وقد

أخطئوا في هذا الشك، كما يشير إليه قوله تعالى:

١١١ - (وَإِنْ كَلَّا لَمَّا^(٢) لِيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ):

(١) فالضمير في لفظ (منه) عائد على القرآن وإن لم يذكر في الكلام، قال أبو السعود في بيان ذلك (فإن ذكر إيتاء كتاب موسى وودع الاختلاف فيه، لاسيما بصدد التسليية ينادى بذلك نداء غير خفى): أى ينادى بعوده إلى القرآن وإن لم يذكر.

(٢) يرى أبو عبيدة أن لفظ (لما) في قوله تعالى: «لما ليوقينهم ربك أعمالهم» بمعنى جميعا، وأصله بالتثنية - وقد قرئ به، ثم بى على فعل، وهو مأخوذ من لمت بمعنى جمعت، وقد اخترنا هذا الرأي لأنه أقرب الآراء وأيسرها وأبعدا عن التكلف برغم ما وجه إليه..

أى وإن كلا من المختلفين فيه مؤمنين وكافرين ، جميعاً والله ليوفينهم ربك يا محمد جزاء أعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

(إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

إنه تعالى بما يعمله المحسنون والمسيئون عليم أدق العلم وأوسع ، فما تخفى عليه منهم خافية ومن كان كذلك ، فإنه سبحانه سيوفيههم جزاء أعمالهم .

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (١١٢) وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣))

المفردات :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) : نفذ ما أمرك به دون ميل عنه بزيادة أو نقص .

(وَلَا تَطْغَوْا) : أى لاتتجاوزوا الحد الذى أمرتم به وذلك بالإفراط أو التفريط .

(وَلَا تَرْكُنُوا) : ولا تميلوا .

التفسير

١١٢ - (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا) :

أى إذا علمت يا محمد أن كلا من المؤمنين والكافرين سيوفيههم ربك جزاء أعمالهم فدم على ما أنت عليه من الاستقامة على شرع الله الذى شرعه لك عقيدة وعملا ، وليستقم عليه من تاب عن الشرك والكفر ليكون معك ويشاركك فى الإيمان ، ولا تتجاوزوا الحد بإفراط ممل أو تفريط مغل .

(إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

فيجازيكم على عملكم وفق ما علمه من أداكم له ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن قصر فعليها .

وقد دلّت الآية على وجوب اتباع المنصوص عليه، من غير انحراف عنه بمجرد الرأى، فإنه طغيان وضلال .

وأما العمل بمقتضى الاجتهاد المترتب على علل المنصوص، فذلك من باب الاستقامة أيضاً، لقوله تعالى: « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ^(١) »، فإنه أمر بالقياس، ومثال ذلك قياس عصير القصب إذا أسكر في الحرمة، على الخمر المنصوص على حرمتها - لعله الإسكار - المشتركة بينهما .

والغرض من توجيه الأمر بالاستقامة على أمر الله إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في مقدمة من آمن وتاب - إلى الله وأصبح في معيته، الغرض من ذلك أن يعلم الناس أن عبادة الله وأوامره واجبة الاتباع حتى بالنسبة للأنبياء، وأنهم في مقدمة المكلفين بذلك، لأنهم قدوة لأقوامهم، فلا يباح لهم الخروج على أمره وعدم الاستقامة عليه بإفراط، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، ولا بتفريط فإنهم مكلفون بكمال العمل، لأنه حق له تعالى، وليكونوا أسوة لغيرهم، ولأنه تعالى طيب فلا يقلل إلا طيباً - كما جاء في الحديث الشريف .

ولقد كانت شدة الالتزام بكمال الامتثال من النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السورة وغيرها، داعية إلى مشيبه صلى الله عليه وسلم، قال صلى الله عليه وسلم: « شيبتنى هود والواقعة وأخواتهما » . أخرجه الترمذى .

ومن هذا وأمثاله يعلم أنه لا طبقية في الإسلام، فالكل عباد الله، وأنه لا فرق بين حاكم ومحكوم، ولا بين نبي وغيره في التزام شريعة الله ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول للزهراء رضى الله عنها: « اَعْمَلِي فَإِنِّى لَا أَغْنِى عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » . وكان يقول أيضاً: « وَاللَّهِ لَوْ سَرَقَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » .

وقد أوجب الله تعالى على عباده ما يسهل عليهم الاستقامة عليه من فعل الواجبات وترك المحرمات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: « إِنْ الدِّينَ يُسْرُ وَلَكِنْ يُشَادِّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدُّوْا وَقَارِبُوْا ، وَاسْتَعِينُوْا بِالْعُدُوِّ وَالرُّوْحَةِ وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ » . أخرجه البخارى عن أبى هريرة في كتاب الحج - ومن تتبع التكاليف الشرعية وجدها سهلة ميسرة على

القوى والضعيف والغنى والفقير، مع ما فيها من الترخيص لأصحاب الأعدار بالرخص الكثيرة، كإسقاط الحج عن فاقد الاستطاعة، والصوم عن الحائض والنفساء والشيخ الفاني، وغير ذلك كثير .

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن بعض الصحابة نذر أن يصوم ولا يفطر ويقوم الليل عابداً ولا ينام ، ولا يتزوج النساء ، خطب في الصحابة ناهياً عن ذلك وقال : « إِنِّي لَا أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » أخرجه الشيخان .

وكانت عبادته صلى الله عليه وسلم وسطاً لا إفراط فيها ولا تفريط ، مراعاة للطاقة البشرية لأتمته ، أخرج مسلم عن جابر بن سمرة قال : « كُنْتُ أَصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَانَتْ صَلَاتُهُ قَصْداً وَخُطْبَتُهُ قَصْداً » .

فعلى المسلمين أن يستقيموا على أمر الله ، فإن الدين يسر لا عسر ، وليعلموا أن الله مطلع على أعمالهم وعبادتهم ومجازيهم عليها حسب أدائهم لها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . ١١٣ - (وَلَا تَرْكُتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) :

بعد أن أمر الله رسوله والمؤمنين بالاستقامة على أمر الله دون إفراط أو تفريط جاءت هذه الآية ناهية عن الميل إلى الظالمين والتعاون معهم .

والمراد بالظالمين الكافرون ، أو كل ظالم ولو كان مسلماً ، والمراد بالركون إليهم محبتهم والاعتماد عليهم ، والأخذ بمشورتهم ، وقد نهى الله في الآية عن ذلك الركون وتوعد عليه بمساس النار ، فإذا كان هذا مآل من يميل إليهم ، فما ظنك بمن يشاركهم في عاداتهم ، ويدبم معاشرتهم ، ويتزنى بزيمهم تقليداً لهم ، ويعاونهم على ظلمهم ، لا شك أن عذابه يكون أشد وأعظم ، ولهذا تعتبر الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والوعيد عليه .

ومما جاء في السنة نبياً عن محبتهم ومعاونتهم قوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا حَشَرَهُ اللَّهُ فِي زُمْرَتِهِمْ » أخرجه الطبراني ، وقوله : « مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا لِيُدْحِضَ بِبَاطِلِهِ حَقًّا فَقَدْ بَرَأَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ » أخرجه الحاكم ، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بِالْبَقَاءِ فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصِيَ اللَّهَ فِي أَرْضِهِ » .

فعلى كل مسلم أن يكون ولاؤه لله ولدينه ووطنه وإخوانه المسلمين ، قال تعالى :
 «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» .^(١) وقال سبحانه : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
 الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا» .^(٢)
 وبالجملة فإن من أحب الظالمين أو أعانهم على ظلمهم عوقب بالنار بقدر حاله معهم ،
 وكذلك من استعانوا بهم على قتال إخوانهم المسلمين أو ظلمهم ، أو بعثوا بطائفة منهم
 للقتال في صف من يريدون استعبادهم أو ظلمهم .

قال تعالى : «لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ
 مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ» .^(٣)

وحكى الزمخشري في الكشاف أن الموفق الخليفة العباسي صلى خلف إمامه فقراً للإمام
 بهذه الآية فخر الموفق مغشياً عليه فلما أفاق قال هذا فيمن ركن إلى الظالم فكيف بالظالم؟
 (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ) :

أي إذا ركنتم إلى الظالمين بأى وجه من الوجوه التى مر بيانها مستكم النار معهم ولن
 يستطيع أحد إنقاذكم أو إنقاذهم من عذاب الله كما قال تعالى : «لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ» .^(٤)

ولا شك أن المسلمين يدركون من هذا التحذير ، أن عليهم أن يعتمدوا على الله وأن
 يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وأن يحذروا موالاة الظالمين ، وأن يدركوا
 خبثهم وسوء طويتهم بالنسبة إليهم ، فقد علموا ما قاسيناه من لؤم المستعمرين ، وصدقاتهم
 الزائفة ، فقد استنزفوا دماءنا وأموالنا ، وأسأوا إلى ديننا وأخلاقنا ، وعلى المسلمين أيضاً
 أن يحولوا بين الظالم وظلمه ، روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن أبى بكر - رضى

(٢) سورة النساء الآية : ١٤٤

(١) سورة التوبة الآية : ٢٣

(٤) سورة الأنعام من الآية : ٥١

(٣) سورة آل عمران من الآية : ٢٨

الله عنه - أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ لَابِضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » ^(١) ألا وإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك الله أن يعمهم بعقابه ، ألا وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه » .

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾) .

المفردات :

(طَرَفَيْ النَّهَارِ) : أوله وآخره ، هما الغداة والعشى . (وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ) : وساعات منه قريبة من النهار . (وَزُلْفًا) : جمع زلفة - من أزلفه إذا قربه .

التفسير

١١٤ - (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ) :

بعد أن أمر الله رسوله والمؤمنين بالاستقامة ، وأن يتركوا الركون إلى الظالمين ، أمرهم بما يعينهم على ذلك من اللجوء إلى الله بأداء الصلاة بضع مرات أثناء الليل والنهار . وقد وجه الأمر في هذه الآية إلى النبي صلى الله عليه وسلم - مع أن المراد به أمته معه - لأنه إمام المؤمنين ورسولهم ، فتكليفه تكليف لهم ، إلا ما نص على تخصيصه به كالتزوج بأكثر من أربع مجتمعات .

والمعنى : وأد الصلاة بآركانها وشروطها في طرفي النهار - الغداة والعشي - فأما صلاة الغداة فهي الصبح ، وأما صلاة العشي ، فهي الظهر والعصر ، وأقم الصلاة أيضا في ساعات من أول الليل ، بأن تؤدى صلاتي المغرب والعشاء وبهذا التأويل تضمنت الآية الكريمة الصلوات الخمس التي كلف الله بها عباده المؤمنين يوميا .

قال القرطبي : لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة وخصها بالذكر لأنها ثمانية الإيمان وإليها يفرع في النوائب - وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . اهـ .

(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) :

هذا التعليل للأمر السابق بأداء الصلاة ، يشير إلى أن الحسنات وعلى رأسها الصلاة تكفر السيئات وتذهب الآثام . فإذا حدث من المؤمن انحراف عن الاستقامة ، أو ميل إلى الطغيان ، أو جنوح إلى الظالمين ، وذكر المؤمن ربه وتاب وأناب ، وفرغ إلى الصلاة ، غفر الله له ما ارتكبه من آثام فإن الصلاة كما تنهى عن الفحشاء والمنكر تطهر النفوس من الأدران والأوشاب .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا ، مَا تَقُولُ : يُبْقَى ذَلِكَ مِنْ دَرَنِهِ ؟ قَالُوا لَا يُبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا ، قَالَ فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا » .

أخرجه البخارى في كتاب مواقيت الصلوات عن أبي هريرة .

وجاء في سبب نزول هذه الآية عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قُبلة حرامًا . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم . فسأله عن كفارتها فنزلت فقال الرجل ألي هذه يا رسول الله ؟ قال لك ولمن عمل بها من أمتي » أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح .

وفي معنى الآية يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » رواه أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى .

وقد يمن الله على عبده إذا أحسن التوبة وأكثر الحسنات فيبدل سيئاته حسنات كما قال سبحانه : « إِنْ آمَنَ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ »^(١)

١١٥ - (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) :

إن التزام الاستقامة والقصد ، واجتناب الظالمين ، وإقامة الصلاة في أوقاتها تامة الأركان والشروط ، كل هذا يستدعي الصبر فلذا أمر الله به في هذه الآية كما أمر به في غيرها كقوله تعالى « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا »^(٢)

وقد أوصى الله سبحانه بالاستعانة بالصبر والصلاة على أداء الطاعات واجتناب الموبقات حيث قال تعالى : « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ »^(٣)

فمن أطاع الله واتقاه وفاه الله أجره كاملاً لأنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »^(٤)

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ
الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾)

المفردات :

(لَوْلَا) : هلا . (الْقُرُونِ) : جمع قرن ، وقدره بعضهم بثمانين سنة ، وبعضهم بسبعين سنة والجمهور على أنه مائة سنة ، والمراد من القرون هنا أهلها من الأمم السابقة .

(٢) سورة طه من الآية : ١٣٤

(٤) سورة الأعراف من الآية : ٥٦

(١) سورة الفرقان من الآية : ٧٠

(٣) سورة البقرة الآية : ١٤٥

(أُولُوا بَقِيَّةً) : أصحاب روية وتفكير ، وأطلق عليهم ذلك لأنهم لا يعجلون بإبداء الرأي ، بل يبقونه حتى يمحضوه ، ويدركوا صوابه فيجهروا به
(مَا أَتَرَفُوا فِيهِ) : ما تنعموا به .

التفسير

١١٦- (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ) :

هذه الآية تشير إلى الأمم المهلكة التي ورد ذكرها في هذه السورة ، لو كان فيهم كثير من العقلاء يقاومون الفساد ويضربون على أيدي الطغاة المستبدين ويحتكمون إلى العقل المؤيد للرسالات السماوية ، لو كان فيهم كثير من هؤلاء العقلاء الذين يكفونهم عن الفساد والإفساد لما حقت عليهم كلمة العذاب ، فإن من سنن الله الكونية أن يأخذ الأمم بعذابه الشديد إذا عمّ فيهم الفساد وانتشر بينهم الضلال ، وأصبح المعروف بينهم نادراً ، والمنكر شائعاً « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »^(١)

والمعنى : فهلا وجد من هؤلاء الأقوام المهلكة الذين تقدم ذكرهم في هذه السورة هلاً وجد منهم جماعة كثيرة أصحاب بقية من العقل والروية ينهونهم عن الفساد والإفساد في الأرض ، لينجوا من الهلاك ، لكن قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن ذلك فسلموا ونجوا منه .

(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) :

أي إن القلة القليلة من العقلاء لم تستطع القضاء على الفساد ، وأما الكثرة الكثيرة الظالمة لنفسها فقد انغمست في الترف والنعم وأمعنت في الفساد والضلال . استجابة لما جبلت عليه من حب الجريمة والإجرام فاستحقت الهلاك والدمار .

١١٧ - (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) :

وما صح ولا استقام عقلا أن يهلك الله أهل هذه القرى بظلم وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ويؤمنون بخالقهم ، فإن إهلاكهم وهم مصلحون ينافي صفة الحكمة التي يتصف بها العليم الحكيم ، وينافي السبيل الذي اختاره سبحانه لمعاملة عباده ، وهو الذي جاء في قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ كَذَبُوا فَاَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»^(١) وقوله سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ»^(٢) .

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۚ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٨)

المفردات :

(أُمَّةً وَاحِدَةً) : جماعة متحدة في الدين لا خلاف فيها بينها .
(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) : ووجب حكمه وقضاؤه الأزلي - (الْجِنَّةِ) : الجن .

التفسير

١١٨ - (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) :

ولو أراد الله ربك سبحانه وتعالى أن يكون الناس جماعة واحدة في دينها وتقواها واتزان عقولها ، بحيث لا يقع من أحد منهم كفر ولا إفساد ، لو أراد ربك ذلك لوقع ، ولكنه لم

(١) سورة الأعراف الآية : ٩٦

(٢) سورة يونس الآية : ٤٤

يرده ، بل خلقهم وأودع فيهم العقل ، وأعطاهم الاختيار ، ووضح لهم الطريق ، وأقام الحجة بإرسال الرسل حتى تكون عقيدتهم وعملهم بكسبهم واختيارهم ، ولكنهم اختلفوا بسوء رأيهم في هذا كله ، وأضاعوا فطرتهم المستقيمة المفطورة على الحق إلا من عصم الله منهم فثبتهم عليه

(وَلَا يَزَالُ لَوْ مُخْتَلِفِينَ) :

ولا يزال الناس مختلفين ، بعضهم على الحق ، وبعضهم على الباطل ، بعضهم يستعمل عقله ، ويسترشد بما رسمه له الرسل فيتهدى ، وبعضهم لا ينتفع بذلك ، بل يتبع هواه فيضل ويغوى .

١١٩ - (إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) :

أى لا يزال الناس مختلفين ، بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل ، إلا من رحمهم الله ربك فهداهم ولطف بهم فإنهم يتفقهون على الدين الحق ، ولا يختلفون فيه ، لأنهم يقبلون عليه سبحانه بقلوبهم وعقولهم فيحسن استقبالهم ويعينهم بفضله ورحمته .

(وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) : اللام في قوله (وَلِذَلِكَ) للعاقبة والإشارة راجعة إلى اختلاف

الناس

والمعنى : وخلقهم على الفطرة السليمة ، لتكون عاقبتهم أن يختلفوا ، وما كان ينبغي لهم أن ينتهوا إلى ذلك ، وقد منحهم الله العقل والتمييز ، وأرسل إليهم الرسل ليهدهم سواء السبيل ، ويشهد لهذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِيَّة ، أَوْ مَجَسَّانِيَّة » وقوله تعالى : « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ »^(١) .

ومن العلماء من جعل الإشارة في قوله : « وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ » إلى الرحمة في قوله : « إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ » .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: معنى (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) : وللمذكور من رحمة الله تعالى خلقهم ، يريد ابن عباس ومن معه ، أنه تعالى خلقهم على استعداد فطري لرحمة الله ، لكنهم أفسدوا فطرة الله بسوء اختيارهم ، وحرموها من رحمته جلّ وعلا .

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) : ووجب قضاء ربك العادل .

(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) : وجب قضاؤه أن من الخلق من يستحق الجنة لأنه زكى نفسه فأفلح وفاز ، ومنهم من يستحق النار لأنه دنس نفسه بالمعاصي فخاب وخسر ، وأن النار لا بد من أنها ستملأ من الأشقياء من الثقلين الجن والإنس ، الذين لا يهتدون بما أنزله الله من كتب ، ولا يؤمنون بمن أرسل من الرسل ، وذلك لعلمه سبحانه وتعالى بكثرة من يختار الباطل على الحق ، ويؤثر الضلال على الهدى ممحض اختياره ، وحرمان أنفسهم من تقبل رحمة الله ومعونته .

(وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ
وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانْتَظِرُوا
إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ
الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾)

المفردات :

(نَقُصُّ) : من قص يقص ، والقص تتبع أثر الشيء للإحاطة والعلم ، ثم أطلق على الإخبار لما فيه من تتبع الأحداث رواية .

(أَنْبَاءُ) : جمع نَبَأٌ وهو الخبر الهام .
 (نُبِّتَ بِهِ فُؤَادُكَ) : المراد من تثبيته زيادة ثباته في أداء الرسالة ، واحتمال أذى الكفار .
 (اَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) : اعملوا على غاية تمكينكم ، وأقصى استطاعتكم ، أو اعملوا على حالكم ومنزلتكم التي أنتم عليها من الكفر والمعاصي ، والأمر للتهديد .

التفسير

١٢٠ - (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) :

بعد أن قصَّ الله سبحانه وتعالى في هذه السورة قصص أشهر الرسل وعاقبتهم مع أمهم من نجاة المؤمنين ، وإهلاك المكذبيين ، ذكر في الآية فائدة ذكر هذه القصص .

والمعنى : وكل نبأ من أنباء هؤلاء الرسل مع أمهم نقص عليك يا محمد ونخبرك بما نثبت به فؤادك ، حيث تدرك منه أنك لست وحدك الرسول الذي كفر به قومه ، فكل الرسل كانوا كذلك فصبروا حتى ظفروا بإعلاء كلمة الله ، وهزيمة الشرك ودك معالمة ، وإهلاك أهله ، فإذا علمت أن الرسل من قبلك قاسوا ما تقاسى ، هان عليك ما تقاسيه ، فإن البلوى إذا عمت هانت ، وإذا هانت عليك قوى قلبك واشتدت عزيمتك على المضي في سبيل ربك ، وقوى احتمالك للإيذاء والصبر على أداء الرسالة .

وفي مثل هذا المعنى يقول الله تعالى « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَاِ الْمُرْسَلِينَ ^(١) »

(وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) :

ولقد جاءك في هذا القصص من أنباء الرسل وأقوامهم بيان جامع للحق وللموعظة وتذكير المؤمنين ، حيث يتعظون بما حل بالأمم السابقة من هلاك ودمار فيبتعدون عن أسبابه وموجباته .

وإنما عبر بقوله : (وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) مع أنه في الحقيقة أنزل لوعظ الناس جميعاً ، لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بما في هذه القصص من الوعظ والتذكير .

١٢١ - (وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ) :

وقل أيها الرسول للمشركين الذين أعرضوا عن دعوتك فلم يؤمنوا بما جئتكم به ، قل لهم مهدياً وموعداً : اعملوا بقدر استطاعتكم وتمكنكم ، وبكل ما أوتيتم من قوة على مقاومة الدعوة والصد عنها ، إنا عاملون في تبليغ الحق ، دائبون عليه لا يثنينا عن عزيمتنا كفركم ولا يردنا عن دعوتنا طغيانكم ، أو عاملون بما أنزله ربنا ، لا يصرفنا عنه صارف ، ولا يمنعنا منه كفار أثيم .

١٢٢ - (وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) :

وترقبوا ما تتمنون لنا من هلاك إنا مترقبون أن يحل بكم مثل ما حل بالأمم السابقة التي كذبت رسل ربها وصدت عن سبيله .

١٢٣ - (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

أي لله وحده علم ما غاب في السموات والأرض ، فلا يخفى عليه شيء من سرهم وجهرهم .
(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ) :

وإليه وحده مرجع الأمر كله في الدنيا والآخرة ، لا إلى أحد غيره ، فيرجع إليه لا محالة أمرك يا محمد وأمرهم ، فيجازى كلا بما عمل

(فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) :

وإذا كان مرجع الكل إلى الله وحده لا إلى غيره فدم على ما أنت عليه من عبادته وحده مخلصاً له العبادة ، وتوكل عليه في جميع أمورك ، فإنه يكفيك كل ما أهمك ويكفلك في جميع أحوالك . .

واعلم أن الأخذ بالأسباب المشروعة لا ينافي التوكل على الله، ولذا أوجه الله بقوله :
 «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ»^(١). وقوله : «فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ»^(٢). وأمر
 به الرسول بقوله لصاحب الناقة : «اغْلِظْهَا وَتَوَكَّلْ» : أى اعقل ناقةك أولاً، ثم قل
 توكلت على الله .

(وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) :

وما ربك بغافل عما تعمله أنت من تبليغ رسالة، ربك وما يعملونه هم من كفر وإعراض ،
 بل هو عالم به ، محيط بتفاصيله ، فيرفع شأنك يا محمد ويعلى قدرك فى الدنيا والآخرة
 ويعاقبهم فيهما بما يستحقون من تعذيب وحرمان .

سورة يوسف عليه السلام

وهي مكية ، وآياتها مائة وإحدى عشرة آية فقط ، وذكرت بعد هود لما يجمع بينهما من تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بقصص الأنبياء السابقين وما لاقوا من أذى الأبعاد كقصص سورة هود وأذى الأقارب كقصص يوسف عليه السلام .

وتمتاز سورة يوسف بأنها تناولت قصته كاملة من أولها إلى نهايتها ، حيث شرحت أمره مع أبيه ومع إخوته في صغره وشبابه وكهولته في فقره وفي غناه ، وبينت كيف تآمر عليه إخوته ، حتى ألقوه في غيابة الجب ، وكيف التقطه بعض المسافرين وباعوه بشمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ، وأنه تربى في بيت عزيز مصر ، ونشأ فيه نشأة عبد مملوك ، وأن جماله في شبابه أغرى به زوجته فراودته عن نفسه فاستعصم ، فكادت له عنده ، ودفع به كيدها إلى السجن وعاش فيه بضع سنين ، وكان معه فتيان ، وفي ليلة رآيا في المنام رؤيا ، وسألاه عن تعبيرها ، فقال في تعبيرها : « أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » ، وتحقق تأويله لرؤياهما فقتل أحد السجينين وصلب ، وعفى عن السجين الثاني ، وأصبح ساقيا للملك مصر ، ولما رأى الملك رؤيا أزعجته وفشل الكهنة في تأويلها ، علم من ساقبه مكانة يوسف في تعبير الرؤيا ، فاستدعاه فعبرها تعبيراً عرف منه الملك منزلته من العلم ، وبرأته زوجة العزيز مما نسبته إليه ظلماً وجعله الملك على خزائن الأرض

ثم بينت القحط الذي أصاب الناس وبينت كيف كان هذا سببا في حضور إخوته ليتزودوا من الطعام الذي خزنه يوسف ليكون قوتا للناس في سبع سنين عجاف ، وكيف خزنه حتى سلم من الآفات هذه المدة ، وكيف عاد إليه أبواه وإخوته ، ثم رفع أبويه على العرش وخرجوا له سجدا ، إلى غير ذلك من غرائب هذه القصة التي تعتبر عبرا وعظات ينبغي أن ينتفع بها كل ذي عقل رشيد .

وقد بدئت السورة بثلاث آيات في بيان أحسن القصص ، ثم جيء عقبها بقصة يوسف كاملة ، وختمت بإحدى عشرة آية توضح أهداف القصة والحكم المستفادة منها ، ودلالاتها الواضحة على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومما يلاحظ في هذه السورة الكريمة أنها تصور الفضائل في أسمى صورها مثل : صبر يعقوب على فراق يوسف ثم فراق أخيه ، وصبر يوسف على ما قاساه من تعرض للهلاك بعد الأمان في حضن أبويه ، وما عاناه من عبودية بعد الحرية ، وما تعرض له من ظلم في غيابة السجن دون ذنب جناه .

ومن الفضائل الكبرى في القصة : العفة في أسمى صورها في يوسف عليه السلام ، مع وفرة عوامل الإغراء والإغواء في شرخ الشباب ، ومن الفضائل الكبرى التي أبرزتها أيضا الثقة بالله وآثارها فإن يعقوب لم يفقد ثقته به ، ولم يقنط من رحمته ، ويوسف لم ييئس - وهو في قرارة السجن - من الفرج ، وظل ثابت الإيمان يدعو إلى الله ويعتصم بتقواه ، حتى بدل الله حالهما إلى أحسن حال

كما أبرزت القصة فضيلة العفو والصفح الجميل الصادر من يوسف لإخوته والاستغفار من يعقوب لأبنائه ، ومقابلة الإساءة بالإحسان .

وكما صورت القصة الفضائل في أسمى صورها صورت أيضا الرذائل في أبشع مظاهرها حيث صورت حقد إخوة يوسف عليه ، وارتكابهم ما آذى أباهم أشد الإيذاء ، وما عرض أخاهم للهلاك ، كما صورت استهتار زوجة العزيز وإصرارها كل الإصرار على الخيانة الزوجية وإنها لم تكثرث بسوء القالة في حقها ، ولما لم يستجيب يوسف لرغبتها، أغرت به زوجها العزيز وحرضته على إلقائه في السجن ظلما وعدوانا

وقد بينت سورة يوسف كما بينت سورة هود أن العاقبة للمتقين ، كما بينت أن مع العسر يسرا وأن لكل شدة نهاية ، وأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا
عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ
الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾)

التفسير

١ - (الر) : أسماء حروف بدأ الله عز وجل بها بعض سور^(١) كتابه الكريم إشارة إلى أنه
مكون من كلمات ذات حروف عربية كذلك التي يتألف منها كلام معارضيه - تحدياً لهم
أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين في دعواهم أن الرسول تقوله ، فإذا عجزوا فمحمد مثلهم
لا يقدر على مثله ، فيجب الإيمان حينئذ بأنه من عند الله أنزله تأييداً لرسوله .

وقيل هي سر بين الله عز وجل وبين رسوله أوحى الله به إليه عليه الصلاة والسلام
ولا يلزم علم جميع الأنام بما يوحى الله عز وجل لأنبيائه ، فهم قد علموا من الأسرار
القدسية ما لا يستطيع وعيه العقول البشرية العادية ، روى عن أبي بكر : لكل كتاب سر ،
وسر القرآن أوائل السور . وقد تحدثنا عن هذه الفواتح في أول سورة البقرة وآل عمران
وغيرهما مما تقدم .

(١) السور المبدوءة بالحروف المفردة تسع وعشرون سورة وهي :

- (١) البقرة (٢) آل عمران (٣) الأعراف (٤) يونس (٥) هود (٦) يوسف (٧) الرعد (٨) إبراهيم
(٩) الحجر (١٠) مريم (١١) طه (١٢) الشعراء (١٣) النمل (١٤) القصص (١٥) العنكبوت (١٦) الروم (١٧) لقمان
(١٨) السجدة (١٩) يس (٢٠) ص (٢١) غافر (٢٢) فصلت (٢٣) الشورى (٢٤) الزخرف (٢٥) الدخان
(٢٦) الحاثية (٢٧) الأحقاف (٢٨) ق (٢٩) القلم .

(تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) : الإشارة إلى آيات هذه السورة ، والمراد بالكتاب القرآن عامة والمبين من أبان اللازم بمعنى بان وظهر؛ أى الظاهر أمره فى كونه حقاً من عند الله ، أو الواضح فى معانيه وأغراضه .

أو هو من أبان غيره أى أظهره ، فهو يظهر حقائق الدين ومصالح الدنيا لمن تلاه وتدبر ما فيه . قال تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » . ولا مانع من أن يكون المعنى عاماً يشمل كل ذلك فيكون ظاهراً فى نفسه مظهراً لغيره من الحقائق .

والمعنى : تلك الآيات الواردة فى هذه السورة آيات من الكتاب الواضح فى كونه من عند الله ، الظاهر فى معانيه وأغراضه ، الموضح لحقائق الدين الحق ، ومصالح الدنيا والآخرة .

ولما وصف الكتاب بما يدل على الشرف الذاتى من بعد منزلته ورفعة بيانه وحسن إبانته عقب ذلك بما يدل على الشرف الإضافى فقال :

٢ - (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) : أى إنا أنزلنا هذا الكتاب على محمد قرآنا عربيا لتستطيعوا قراءته وتعقله وفهمه أيها العرب ، وتكونوا دعاة لشرائعه فى الأمة العربية وغيرها .

٣ - (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) :

آيات القرآن الكريم معجزة فى جميع صورها ، سواء أوردت فى صيغة خطابية أم جدلية أم قصصية ، والقصص التربوى بصفة عامة يعطينا صوراً واضحة للفضائل والردائل ، حتى تترك آثارها العميقة فى أغوار النفوس البشرية فتقبل على الفضائل لحسن عاقبتها ، وتدبر عن الردائل لقبح مصيرها .

وقد ساق الله القصص القرآنية ، لنستفيد من روايتها مكارم الأخلاق ونتعظ بعظاتها وعبرها ، حتى نكون بمأمن من عثرات الحياة ومنجاة من أخطار الدنيا والآخرة ، وسورة يوسف مليئة بالعظات والعبر ، فلهذا تعتبر بحق أحسن القصص كما وصفها الله تعالى .

ومعنى هذه الآية ما يلي : نحن نروى لك يا محمد أحسن القصص الواقعي النافع في شتى نواحي الحياة ، وإن كنت من قبل إيحائه إليك ، لمن الغافلين عن هذه القصة ، فلم تخطر لك ببال ، ولم يسبق لك بها علم .

قال القرطبي في بيان كون سورة يوسف أحسن القصص : مسألة اختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأَقاصيص ، فقليل لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة ، وبيانه قوله في آخرها : «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ» . وقيل سماها أحسن القصص بحسن مجاوزة يوسف عن إخوته وصبره على أذاهم ، وعفوه - بعد التفاتهم - عن ذكر ما تعاطوه ، وكرمه في العفو عنهم حتى قال : «لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» . وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين ، والملائكة والشياطين ، والجن والإنس ، والأنعام والطير ، وسير الملوك والممالك والتجار والعلماء والجهال ، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن . وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وجَمَل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا .

ثم ذكر عن بعض أهل المعاني أنه قال : إنما كانت أحسن القصص ، لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ، انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز - قيل - وللملك أيضا ، فقد أسلم وآمن بيوسف ، وكذا مستعبر الرؤيا الساق ، والشاهد فيما يقال ، فما كان أمر الجميع إلا إلى خير . اهـ .

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ
رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ وَيُنِثِمُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا
عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾)

المفردات :

(يَا أَبَتِ) : بمعنى يا أبى ، والناء عوض عن ياء المتكلم .
(يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ) : يختارك ويصطفيك (تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) : تفسير الأحلام وبيان
ما تؤول إليه .
(أَبَوَيْكَ) : المراد بهما الجدان إبراهيم وإسحق بن إبراهيم عليهما السلام ، وأطلق عليهما
أبوان لأن الجد أب لغة وعرفا وشرعا حيث يرث ميراثه عند فقده .

التفسير

٤- (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) :

هذه الآية الكريمة بداية للحديث عن قصة يوسف التي وصفها الله بأنها أحسن
القصص ووعد بأنه سيقصها على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : واذكر يا محمد لمن يعارضون في نبوتك اذكر لهم قصة يوسف التي
لانتعلمها أنت ولا قومك ، ليعلموا أنها من وحى الله وأنت صادق في دعوى رسالتك ، اذكر

لهم حين قال يوسف لأبيه يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام : يا أبى
إنى رأيت فى منامى أحد عشر كوكبا من الكواكب السماوية ، والشمس والقمر ، رأيتها
جميعا تركت مواقعها وسجدت لى . وكان إخوة يوسف عليه السلام أحد عشر فجاءت
هذه الرؤيا مؤذنة بأنهم سيسجدون ليوسف مع والديه المشار إليهما بالشمس والقمر
فالشمس رمز إلى أبيه ، والقمر رمز إلى أمه أو بالعكس ، وقد تحققت هذه الرؤيا تماما ،
كما بينه قوله تعالى فى آخر السورة : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ
هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ... » ^(١) .

والرؤيا الصادقة فى النوم قد تكون من الله لأنبيائه فتكون وحيا ، وقد تكون إلهاما
للصالحين ، قال صلى الله عليه وسلم : « الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ
وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ » أخرجه البخارى . وقال أيضا : « لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوءَةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ
قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تَرَى
لَهُ » أخرجه البخارى . وليس بلام أن تكون الرؤيا الصادقة خاصة بأهل الدين الحق ،
فقد يراها غيرهم ويغلب على الظن ، أنها حينئذ لا تكون صريحة بل مؤولة ، كذلك التى
رآها ملك مصر الوثنى ، وهى رؤيته سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع
سنبلات خضر وأخر يابسات ، وقد أولها يوسف عليه السلام بسبع سنوات خصبة تأتى
بعدها مثلها جدياء .

وأحيانا يستدل بها على أمراض معينة ، ولهذا كان أطباء اليونان يعتمدون عليها
فى تشخيص المرض عند المريض ، وكان بعض قواد الرومان يعتمدون على رؤاهم فى
وضع خططهم الحربية ، لأن لديهم تجارب صحيحة فى تأويلها : انظر مادة الرؤيا فى
دائرة المعارف للأستاذ محمد فريد وجدى وأحيانا تكون الرؤيا أخلاطا متباينة وهى
المعبر عنها بأضغاث الأحلام وتلك هى التى لا يعرف المعبرون تأويلها لخروجها عن
القواعد التى ألفوها فى تعبير الرؤى - والله تعالى أعلم .

وقد استفيد من هذه الآية وما بعدها ما يأتي :

أولاً : أن إخوة يوسف كانوا يعرفون تأويل الرؤى ، ولذا حذره أبوه من أن يقص رؤياه عليهم حتى لا يكيدوا له بسبب ما يفهمونه من المعانى التى تشير إليها ، وهى السمو والرفعة ، وأن تكون أسرته مرعوسة له وهو رئيسهم ، إلى غير ذلك من ألوان العز المنتظرة له .

ثانياً : أن تعبير الرؤيا أمر يقره الشرع ولا ينهى عنه وأنه حقيقة علمية يمكن الانتفاع بها ، فقد أشار والده إلى مآل رؤياه وتعبيرها ، إشارة غير خفية ، إذ أفهمه أن إخوته إذا سمعوها أولوها برفعة له مستقبلاً وأنهم لذلك سوف يكيدون له ، كما دلت الآية الثانية على أنه تعالى سيعلم يوسف من تأويل الأحاديث أى تعبيرها ، وأن ذلك من تمام النعمة عليه .

وقد جاء فى فضل الرؤيا الصادقة قوله صلى الله عليه وسلم : « لَمْ يَبْقَ بَعْدِي مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ الصَّادِقَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تَرَى لَهُ » .

وقال : « الرُّؤْيَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ » . والحديثان صحيحان وليس بلازم أن تكون الرؤيا الصادقة جزءاً من النبوة دائماً ، فقد وقعت من بعض الكفار ومن لا يرضى دينه ، كرؤيا ملك مصر الوثنى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، ورؤيا السجينين الوثنيين فى السجن ، وسيأتى فى هذه السورة بيان تلك الرؤى وتأويلها ، ورؤيا بختنصر التى فسرها دانيال فى ذهاب ملكه ، ورؤيا كسرى فى ظهور النبی صلى الله عليه وسلم ، وإن كان وقوعها من هؤلاء وأمثالهم على سبيل النادرة والقلّة^(١)

كما أنه ليس بلازم أن يكون الإخبار بالغيب ناشئاً عن نبوة ، فقد يخبر الكاهن بخبر غيبى فيصدق ، بممارسة بعض أنواع الرياضات الروحية . أو استخدام الشياطين الذين يسترقون السمع من الملاء الأعلى ، ويفلتون من الشهب الراصدة التى يقذفون منها من كل جانب .

(١) انظر القرطبي فى المسألة الرابعة من تعليقه على قوله تعالى : « قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك . . . » الآية .

ثالثا : أفاد قوله تعالى : « قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ » أنها لا تنقص على غير شقيق ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها ، قيل لمالك : أيعبر الرؤيا كل أحد ؟ فقال أبا النبوّة يلعب ؟

وقال أيضا : لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها ، فإن رأى خيرا أخبر به ، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت ، قيل فهل يعبرها على الخير وهي على المكروه ، لقول من قال : إنها على ما تأولت عليه فقال : لا . ثم قال : الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة .

رابعا : أفادت أيضا أن للمسلم أن يحذر المسلم ممن يخافه عليه ولومسلما أو ابنا ولا يكون بذلك داخلا في إثم الغيبة ، لأن يعقوب قد حذر ابنه يوسف من أولاده الآخرين من أن يقص رؤياه عليهم حتى لا يكيّدوا له ، كما أنه يستفاد ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا ، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « اسْتَعِينُوا عَلَى إِنجَاحِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكِتْمَانِ فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ » .

هـ - (قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) :

لما سمع يعقوب من يوسف رؤياه ، أدرك أنها إلهام من الله وبشرى بأن يوسف ينتظره مستقبل سعيد يجعله رئيسا كبيرا ، وأن أسرته جميعا ستكون في جملة من يعظمه كما أدرك أن إخوته إن علموا برؤياه هذه يكيّدون له ويدبرون المكاييد حسدا له ، كما حدث من قابيل مع أخيه هابيل ، حيث قتله من أجل امرأة ، وأحدث بذلك أول جريمة بشرية على الأرض ، ولهذا أوصى ابنه يوسف قائلا : يابني لا تخبر إخوتك برؤياك التي تشير إلى رفعتك عليهم ، فيحرضهم الشيطان عليك ، فيكيّدوا لك كيذا شديدا ، إن الشيطان للإنسان عدو بين العداوة ، واضح الكراهية ، حريص على إشعال النار بين أفرادها ، فأقرب كانوا أو أباعد ، تنفيذاً لوعده لآدم :

« لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا »

٦- (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ) :

المراد بالتشبيه في قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ) بيان المماثلة بين الصورة المرئية في عالم المثال - وهي التي حدثت في المنام - وبين الذي سبق في عالم الشهادة والواقع . والمعنى : ومثل هذا الاجتباء والاصطفاء العظيم الذي شاهدته في عالم المثال والنوم ، حيث بدا لك يابوسف أنه تعالى سخر لك تلك النيرات العلوية فخضعت لك ، مثل هذا الاجتباء وعلى سنته يسخر لك الله وجوه الناس ونواصيهم - ومنهم أهلك - مدعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ، ويصطفيك ربك لجنابه على أشرف الخلائق وسراة الناس قاطبة . فيجعلك رسولا وملكا على عرش مصر دون سواك ، ويبرز مصداق تلك الرؤيا في عالم الشهادة والواقع ، حسبما عينته مناما من غير قصور .

(وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) :

المراد من تأويل الأحاديث تعبير الرؤى ، فإن الرؤى أحاديث الملك إن كانت صادقة واضحة ، أو أحاديث النفس أو الشيطان إن كانت غير ذلك .

وكما بشر يعقوب ابنه يوسف عليهما السلام - بأنه تعالى سيصطفيه للرسالة والملك ، بشره أيضا بأنه سبحانه سيعلمه من تأويل الأحلام ، مشيرا بذلك إلى السبيل الذي سيسلكه حتى يصل إلى العز الدنيوي المدخر له ، فإنه وصل إليه عن طريق تعبير الرؤيا لصاحبي السجن ، ثم رؤيا الملك ، وهذا العز الذي سيؤول أمر رؤياه إليه ، هو بعض ما عبر عنه بإتمام النعمة في قوله تعالى :

(وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ) :

فإنه شامل لعز النبوة والملك ، والمراد من آل يعقوب بنوه ، وحفدته ، وإتمام النعمة بهذه الرؤيا على آل يعقوب لأنها مؤذنة بأنهم سيكونون كواكب يهتدى بأنوارهم ، حيث خرج من ذريتهم الأنبياء كما أنهم سوف ينالون من عز يوسف وجاهه وماله حيث سجدوا له وخضعوا لسلطانه ، وكل ذلك سيحدث ويتم به الله نعمته عليك يابوسف وعلى آل يعقوب .

(كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ) :

إسحق جد يوسف الأول وإبراهيم جده الثانى ، وإطلاق لفظ الأب عليهما لغة وعرفا وشرعا لأنَّ الجد أب ، وإتمام النعمة على إبراهيم باتخاذ خليلا وإنجائه من النار ومن ذبح ولده ، وإتمامها على إسحق بنبوته ونبوة ولده يعقوب ، وجعل الأنبياء فى ذرية ولده يعقوب. واعلم أنه لا يجب فى التشبيه أن يطابق المشبه المشبه به من كل وجه فيكفى فيه وجود بعض الصفات مشتركة بينهما .

(إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

هذه الجملة مستأنفة لتحقيق مضمون الجمل المذكورة ، أى يفعل ما ذكر لأنه محيط العلم بكل شئ فيعلم من يستحق الاجتناء وما يتفرع عليه من النعم ، حكيم فيما يقدره ويشاؤه ، فيكون دائماً موافقاً للصواب مجانباً للخطأ .

(* لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّاعِدِينَ ﴿٧﴾
إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا
لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ
وَجْهٌ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(عُصْبَةٌ) : أى جماعة ، وتطلق لغة على الجماعة من الرجال عشرة فصاعداً ، أطلق عليهم ذلك ، لأنَّ الأمور تعصب بهم ^(١) أى تشتد بهم وتقوى .
(ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : خطأ بين واضح ، وأصل الضلال البعد عن الطريق الموصل إلى الغاية .

(١) أنظر البيضاوى .

التفسير

٧- (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلْسَائِلِينَ) :

بينت الآيات السابقة أن يوسف عليه السلام أخبر أباه برؤياه وأن والده أولها برفعة شأنه في مستقبل حياته ، فلهذا أوصاه أن لا يقص رؤياه على إخوته فيكيّدوا له كيّداً ، لأنّ الشيطان للإنسان عدو مبين ، وجاءت هذه الآية وما بعدها إلى آخر السورة لتحذّرنا عن كيّد إخوته له ، لما رأوه من حب أبيه له أكثر من حبه لهم ، ولتذكّر لنا ما آت إليه أمر يوسف من علو الشأن وسمو المنزلة تحقيقاً لرؤياه ، وما تخلل ذلك من أحداث عظام ، وآيات تلك السورة مترابطة ترابطاً مسلسلاً وثيقاً ، انفردت به عما سواها من سائر السور ، لأنّها تضمنت قصة واحدة متتابعة الحلقات .

والمقصود من إخوة يوسف إما جميعهم ، ويدخل فيهم شقيقه بنيامين الذي احتجزه يوسف في مقابل صواع الملك - كما سيأتي الحديث عن قصته وإمّا إخوته لأبيه الذين كادوا له فلم يفلحوا ، ورفع الله مكاناً علياً ، وعلى أى الوجهين فقيهم جميعاً آيات للسائلين .

والمقصود من السائلين إما كل من سأل عن قصتهم وعرفها ، وإما المشركون واليهود خاصة ، فقد سألوا الرسول عنها امتحاناً له ، وإما الطالبون للآيات والعبر ليتعظوا بها ، لصفاء نفوسهم ، دون غيرهم .

وإليك المعاني وفقاً لهذه الاحتمالات كما يلي :

المعنى الأول : لقد كان في قصة يوسف وإخوته جميعاً علامات عظيمة الشأن على قدرة الله تعالى الباهرة لكل من سأل عن قصتهم وعرفها ، فإنها تدل على أنه تعالى لا يصلح عمل المفسدين ، وأنه وحده هو الذى ينجي من أحاطت به أسباب التهلكة ، ويرفع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويحقق الأمل بعد اليأس .

المعنى الثانى : لقد كان في قصة يوسف وإخوته علامات واضحة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لمن سألها منها من المشركين واليهود ، حيث أخبرهم بها على ما هى عليه من غير

سماع من أحد ولا قراءة في كتب، وهذا قاطع بأن الذي نبأه بها هو العليم الحكيم، تأييداً لرسالته ودليلاً على صحتها .

المعنى الثالث : لقد كان في أحداث قصة يوسف وإخوته علامات واضحات لطالبي العبرة الذين يتعظون بآيات الله تعالى، فتخبت لها قلوبهم، وتنصرف بها إلى مرضاة الله نفوسهم، فهي تحرك القلوب الراكدة وتنبيه النفوس النائمة، إلى أن الملك لله، لا يجري فيه حدث إلا بمشيئته، ولا يحقق المكر السيئ إلا بأهله، ولا يستطيع أحد أن يضع من رفعه الله، إلى غير ذلك من العظات .

٨- (إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى آبَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :
اذكر أيها السائل عن قصتهم حين قال بعضهم لبعض : والله ليوسف وأخوه الشقيق (بنيامين) أحب إلى آبينا منا مع أننا جماعة قوية يشند بنا ساعده، فما باله يحبهما أكثر من حبه لنا، ويؤثر القلة على الكثرة ؟ إن آبانا في ترجيحهما في المحبة علينا لفي بعد عن طريق العدل بين واضح، وخطأ في الرأي جلي بعد به عن الصواب، وفاتهم أن الفضل في الرجال ليس بالكثرة بل بسمو الروح، وصفاء النفس وغلبة الخير، وكل ذلك كان في يوسف وشقيقه بنيامين وقد اجتمع إلى ذلك ما دلت عليه رؤيا يوسف عليه السلام من الجاه العظيم والعز الرفيع الذي ينتظره عند الله والناس، فكان ذلك كله باعثاً على أن يؤثرهما يعقوب عليه السلام بمزيد من الحب، أكثر من بقية إخوتهما، فحققوا عليهما وتآمروا على يوسف ليخلوا لهم وجه أبيهم حيث إنهم يرونه السبب الأول في عدم اهتمامهم بهم دون بنيامين، فلذا أفردوا يوسف بالتآمر على قتله، وذلك ما حكاه الله عنهم بقوله :

٩- (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) :

أى وقال بعضهم لبعض أيضاً: اقتلوا يوسف بأى وجه من وجوه القتل أو ألقيوه في أرض مجهولة بعيدة عن بلادنا بحيث لا يستطيع الرجوع، فإن التغريب كالقتل في حصول المقصود مع السلامة من إثمه، فإن فعلتم واحداً منهما .

(بَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ) : ويفرغ لكم فلا ينازعكم فيه أحد .

وخلو وجهه لهم كناية عن إقباله عليهم بوجهه وإيثارهم بحبه حيث لا ينازعهم في ذلك أحد .

(وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) :

المراد من صلاحهم صلاح أمرهم مع أبيهم ، وانتظام شئون دنياهم .

والمعنى : اقتلوا يوسف أو ابعده عن أرضنا بحيث لا يستطيع الرجوع إليها ، يفرغ لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعد التخلص منه قوماً صالحين مع أبيكم ، بأن يكون أكثر حباً لكم وإقبالاً عليكم ، وأن تنتظم معه شئون دنياكم فيكثر من بركم وإغداق الخير عليكم ، بعد يأسه من عودة يوسف ، وخفاء أمره عليه .

وفسر الكلبي صلاحهم بتوبتهم إلى الله تعالى مما فعلوه بيوسف ، ويبعده أن المتأمر على قتل أخيه لاي عقل أنه يفكر حين تأمره في مرضاة الله كما أنه لا يظن أن مثل هؤلاء يفكرون في صلاح أمرهم بالتوبة إلى الله ، وهم يعلمون أن شرائع الله تعالى أجمعت على الحكم الذي جاء في سورة النساء ، بقوله تعالى : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا »^(١) فهو من الأحكام التي لا تختلف فيها الشرائع ، وقد نشأوا في بيت النبوة فلا يخفى هذا الحكم عليهم ، فالصواب أن الصلاح الذي أرادوه هو صلاح دنياهم ، وهو الذي دعاهم إلى التفكير في التخلص من يوسف ، فهم طلاب دنيا وليسوا أهل تقوى .

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةُ فِي غِيَبَتِ الْجُبِّ)

يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(غِيَابَةُ الْجُبِّ) : الجب البئر قبل أن يبنى محيطها ، وأطلقه بعض اللغويين على البئر مطلقاً ، وغيابة الجب : قاعه ، وفسره الهروي بكهف أو طاقٍ فيه فوق الماء ، وأطلق عليه غيابة لأنه يغيب ما فيه عن العيون . (السَّيَّارَةُ) : الجماعة التي تسير .

التفسير

١٠ - (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ) :
لايزال مجلس التآمر منعقدًا ، ولكنه لم يخل من وجود داع من دواعي الخير في قلوب
بعض الإخوة ، إذ أراد صرفهم عن الجريمة البشعة إلى ما يحقق غرضهم من الإبعاد ،
ولكنه يبتى على حياة أخ صغير لاحول له ولا قوة ولا بد أن الجب الذي اقترح إلقاء أخيه
فيه كان معروفًا لهم وكان ضحل الماء حيث يبتى على حياة أخيه يوسف حتى يلتقطه بعض
السيارة ، فلذا قال لهم : ألقوه في غيابة الجب ولم يقل ألقوه في غيابة جب ^(١) .

ويلاحظ أن ما قاله الهروي من أن غيابة الجب كهف فيه لايناسب هنا ، فإن إلقاءه
من أعلى الجب يوصله إلى قاعه لا إلى كهف فيه فوق الماء كما قال ، وخاض بعض المفسرين
في تعيين صاحب هذا الاقتراح ، فالسدي يقول هو (يهوذا) وقتادة وابن إسحاق يقولان
هو رابيل ، ومجاهد يقول هو شمعون ، إلى غير ذلك ولم نجد سندًا لواحد من هؤلاء المفسرين ،
فلذا لانستطيع تعيينه ، وإنما لم يذكر واحد منهم باسمه في الآية سترًا على المسيء ، وكل
واحد منهم لم يخل من الإساءة ، ولكن مراتبها تتفاوت .

والمعنى : قال قائل منهم عز عليه قتل أخيه بلا ذنب جناه ، لا تقتلوا يوسف قتلا مباشرًا -
ولا تطرحوه في أرض يتعرض فيها للموت ، ولكن ألقوه في قاع البئر المعروفة لنا بقلة
مائنها ، فإن فعلتم ذلك يلتقطه حيًّا بعض الجماعات السيارة في الصحراء حين يدلون بدلائهم
فيها ليستقوا منها ، فيتعلق بها فيبعده عن بلادنا إلى حيث يجد رزقه ويبقى حيًّا .
(إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) :

أى إن كنتم مصرين على إبعاده عن أبيه ليخلو لكم وجهه ، فاعملوا بمشورتي ، ليتحقق
لكم مرادكم ، ويبقى أخونا حيًّا فلا نأثم بقتله .

(١) نقل القرطبي عن وهب بن منبه أن هذا الجب كان على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب - عليه السلام -
والله أعلم .

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أُرْسِلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(يَرْتَع) : أصل الرنع أن تأكل وتشرب ما تشاء في خصب وسعة ، وذكر الراغب أنه حقيقة في أكل البهائم . ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير ا هـ .
والمراد به هنا نشاطه في الأكل المستتبع لحسن نموه ، ولذا قرنوه باللعب ، فإنه يساعد على ذلك .

(لَيَحْزُنُنِي) : بفتح الباء وقرئ بضمها . وكلاهما بمعنى يجعلني حزيناً .

التفسير

١١- (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ) :

بعد أن وافق إخوة يوسف على ما عرضه عليهم أحدهم بإلقاء يوسف في غيابة الجب - بعد أن وافقوه على ذلك أخذوا في أسباب تنفيذه ، ومهدوا لذلك بطلبهم من أبيهم أن يوافق على خروجه معهم ، إذ قالوا له استدراراً لعطفه ، واستجلاباً لقبوله ، وبشاً للثقة في قلبه : يا أبانا أي شيء يجعلك لاتأمننا على أخينا يوسف . وأنت أب لنا جميعاً ونحن إخوة شركاء في الانتساب إليك بالبنوة ، وإنا جميعاً له لمخلصون نريد له الخير ونشفق عليه ، يريدون بذلك استنزاله عن رأيه في حفظه منهم وتخوفه عليه

من كيدهم لما بدا له من حسدهم ليوسف. وتعبيرهم بقولهم لأبيهم: (يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ) الآية تؤذن بأنهم طلبوا قبل ذلك من أبيهم أن يخرج يوسف معهم ، فلم يوافق على ما طلبوه ، فقالوا هذه العبارة متعجبين من رفضه لطلبهم ، مع أنه أبوهم جميعاً وهم جميعاً أبنائه ، وأنهم يريدون الخير ليوسف ويشفقون عليه ، ويؤكدون ذلك بما تضمنته جملة: (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) من المؤكدات المختلفة ^(١) ، ولم يتركوا أباهم يفكر فيما عرضه عليه وأشفقوا من أن لا يجيبهم إلى ما طلبوه فلاحقوه بما يسد عليه باب الرفض ، وذلك قولهم له فيما حكاه الله عنهم .

١٢ - (أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) :

يريدون بذلك المقال أن يسدوا عليه باب التفكير في رفض طلبهم ، حيث حددوا له فيه اليوم التالي لذهابه معهم ، وطلبوا ذلك منه طلب الواثق من الإجابة ، وعينوا له الغرض الذي طلبوه من أجله ، وهو أن يرتع ويلعب معهم ، وكلاهما يحبه الأب لأطفاله ، ويحبه الأطفال لأنفسهم وأكدوا أنهم جميعاً له حافظون .

والمعنى أرسل معنا يوسف في رحلة رياضية ، يأكل ما يشتهي فيها ، حيث يطيب الطعام في الرحلة ، ويلعب ما يشاء من ألوان اللعب النافع لبدنه وروحه ، كالاستباق والاصطياد وألعاب القروسية ، (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وما نظن أنك تخيب رجاءنا أو تشك فينا بعد الذي شرحناه لك .

فلما انتهوا من التماسهم أجابهم أبوهم بما حكاه الله بقوله سبحانه :

١٣ - (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) :

طوى يعقوب في نفسه ما يشعر به من كيدهم ليوسف ، وقال معتذراً مشفقاً عليه : إني ليحزنني ويؤلمني أن تذهبوا به ويكون بعيداً عني لشدة شفتي عليه ، وقلة صبري عنه ، وأخاف أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون .

(١) وهي «إن» و«اللام» في قوله : «لناصحون» وتقديم لفظ «له» على «لناصحون» وكون الجملة اسمية .

ولم يصرح لهم بما يراه من سبب غفلتهم حتى لايتهمهم صراحة بالتقصير في شأنه ،
وقلة مبالاهم به ، بل تركهم يحملونه على نحو اشتغالهم عنه بما خرجوا من أجله ، وهو
الرتع واللعب ، فأجابوه بما يفيد أنهم لن يغفلوا عنه ، ولن يشغلهم عن حفظه ما سيكونون
فيه من الرتع واللعب ، لكي يطمئن عليه ويرسله معهم ، وقد حكى الله ذلك بقوله :

١٤ - (قَالُوا لَشْنُ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ) .

أي قالوا لأبيهم ليطمئنوه على يوسف إن خرج معهم : والله لشن أكلة الذنب وهو معنا
في هذه الرحلة ونحن جماعة محيطون به يشد بعضنا بعضا ، لشن أكلة الذنب ونحن كذلك
إنا حينئذ لخاسرون سمعنا وكرامتنا بين قومنا ، ونحن لانقبل على أنفسنا هذا الهوان .

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥))

المفردات :

(أَجْمَعُوا) : أي عزموا - يقال : أجمع الأمر وعليه أي عزم فيه .

التفسير

١٥ - (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ ...) الآية .

تقدم بيان أن إخوة يوسف من أبيه تشاوروا فيما بينهم في الطريقة التي يتخلصون
بها من يوسف عليه السلام ، لأنه يستحوذ على معظم حب أبيه يعقوب ، وهم يريدونه
لهم وحدهم ، وأنهم لذلك طرحوا اقتراحين لاختيار أحدهما ، (أولهما) أن يقتلوه
قتلا مباشرا ، (وثانيهما) أن يلقوه في مكان بعيد يصعب عليه فيه العودة إلى أبيه .

وذكرنا أن أحدهم نهاهم عن قتله ، واقترح عليهم أن يلقوه في غيابة الجب ،
وأنهم وافقوا على اقتراحه هذا وأخذوا في تنفيذه ، فبدأوا يعتبون على أبيهم أنه لا يأمنهم
على يوسف مع أنهم له ناصحون ، وطلبوا منه أن يرسله معهم إلى مراعيهم التي بها مواشيهم ،

حيث يرتع ويلعب - أى يتسع فى الطعام فيأكل ما يشاء ، ويلهو معهم ، وتعهدوا بأنهم له حافظون ، ولما أظهر لهم خوفه من إهمالهم له ، حتى يأكله الذئب وهم عنه غافلون أكدوا له أنهم سيحرسونه فهم عصبه وجماعة قوية ، فلن يستطيع أن يأكله منهم ، وأنه لو أكله منهم وهم كذلك خسروا سمعتهم وكرامتهم بين الناس ، لأنهم لم يستطيعوا أن يحفظوا أخاهم وهم عصبه ، فوافقهم على ذهابه معهم ، بعد كل هذه التوكيدات منهم .

وقد بينت هذه الآية ، أنهم نكثوا عهدهم مع أبيهم وفيما يلى معناها :

فلما ذهب إخوة يوسف به من عند أبيهم بعد ما زعموا له أنهم ليوسف ناصحون حافظون ، وقد أجمعوا فى قرارة نفوسهم أن يلقوه فى الجب الذى يجعله غائبا عن أعين طالبيه - فلما ذهبوا به وهم على هذا الإجماع . نفذوا ما أجمعوا أمرهم عليه ، وألقوه فى غيابة الجب ، وخانوا أباهم ونكثوا معه عهدهم . وأوحى الله إلى يوسف عليه السلام ، وهو فى محنته هذه ، تبشيرا له بما يؤول أمره إليه . وإيناسا له وإزالة لوحشته ، لتتخلصن مما أنت فيه يا يوسف من سوء الحال وضيق المجال ، ولتخبرن إخوتك بما فعلوه بك ، وهم لا يشعرون - وأنت تخبرهم - بأنك أنت يوسف الذى ألقوه فى غيابة الجب ، لأنك تحدثهم وأنت فى حال رفيعة المقدار جليلة الهيبة ، حيث تكون على أريكة الملك وهم فى ذلة الحاجة إليك ، وذلك ما سيحكيه الله مجملا بقوله فى هذه السورة : « قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ »

والمؤرخون يتحدثون عما فعله إخوته معه قبل إلقائه فى الجب من شتم ولطم وضرب حتى أوشكوا أن يقتلوه ، وأن قلوبهم لم ترق لاستغاثته بكل واحد منهم وبكانه من شدة قسوتهم ، بل نزعوا قميصه ، ليلطخوه بالدم بعد عودتهم إلى أبيهم بلدونه ، وجعل يطلبه منهم ليتوارى به فلم يكثرثوا بطلبه ، ثم دلوه فى البئر حتى بلغ نصفها فتركوه ليقع فى البئر ،

وأنهم كانوا يقولون له شامتين ، ادع الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر التي سجدت لك لتؤنسك في قاع هذا البئر ، إلى غير ذلك من التفاصيل البشعة .
وبما أن هذه التفاصيل لم نجد لها سنداً ، فلهذا لا نستطيع الجزم بها وإن كنا لا نستبعدا ، فإن من أرادوا قتله ، لا يبعد عليهم أن يصنعوا ما هو دونه .

(وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(عِشَاءً) : أول الظلام ، وقيل من المغرب إلى ثلث الليل ويسمى العتمة .

(مَتَاعِنَا) : ما نتمتع به من الثياب والطعام ونحوهما .

(بِمُؤْمِنٍ لَّنَا) : بمصدق لنا فيما نقوله .

(سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا) : آتت سهلة لكم حتى ارتكبتموه .

التفسير

١٦، ١٧ - (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ . قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ

عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ) :

وبعد ما اقترفوا جريمتهم بإلقاء يوسف في غيابة البشر ، جاءوا أباهم ليلاً يتصنعون

البكاء ، وشرحوا له سبب بكائهم قائلين :

يا أبانا ذهبنا في مرتعنا الذي كنا نرتع فيه ، ذهبنا نتسابق في العدو والرمي ، وتركنا يوسف عند متاعنا وخصائصنا التي نتمتع بها من الثياب والأزواد وغيرهما حيث المكان أمين في ظننا - فأكله الذئب فور تركنا يوسف ، وقبل أن يمضي زمن يعتاد فيه التعهد والتفقد ، فتحن لم نقصر بعدم وضعه في مكان أمين . ولم نغفل عن مراقبته ، بل تركناه في مأمننا ، ومجتمع أمتعتنا التي نحصر عليها ، وعلى مرأى منا ، وما فارقناه إلا زمناً يسيراً ، وبيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان .

ولما كانوا يعرفون أن إفكهم هذا لا يصدقه أبوهم قالوا عقب ذلك :

(وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) :

أى وما أنت بمصدق لنا فيما قلناه ولو كنا عندك صادقين^(١) لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا ، غير واثق بقولنا ، وقد ذكر المفسرون والمؤرخون كلاماً كثيراً في هذا اللقاء الذى حدث بينهم وبين أبيهم ، ومن ذلك أنه لما سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أجرى في الغم شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فأين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نستبق فأكله الذئب ، فبكى وصاح وقال : أين قميصه ؟ فلما جاءوه به ألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا ، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه ، وقيل إنهم لما قالوا له أكله الذئب خر مغشياً عليه ، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ، وروى أن يهوذا لما رأى ذلك قال : ويل لنا من ديان يوم الدين ضيعنا أختانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السحر ، إلى آخر ما قيل مما لم نجد له سنداً ، فلهذا لانستطيع القطع به .

(١) قال العلامة أبو السعود في تعليقه على حرف (لو) في قوله « ولو كنا صادقين » قال : وكلمة (لو) في أمثال هذه المواقع لبيان تحقق ما يفيد الكلام السابق من الحكم إثباتاً ونقياً في جميع الأحوال ، بإدخالها على أبعادها منه وأشدّها منافاة له ، ليكون سواها أولى بالحكم وقد تقدم الكلام على مثله في قوله تعالى في سورة البقرة : « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » أهـ

ويستفاد من الآية أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ، فما أكثر البكاء المصنوع ،
ويستفاد منها أيضاً أن الاستباق مشروع .

قال ابن العربي : المسابقة شرعة في الشريعة ، وخصلة بديعة ، وعون على الحرب ،
وقد فعلها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه وبخيله ، وسابق عائشة على قدميه فسبقها ،
فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقتها فسبقته ، فقال لها : « هذه بتلك » .

وقد أجمع المسلمون على أن السبق لا يجوز على وجه الرهان إلا في الخف والحافر
والنصل ، قال الشافعي : ما عدا هذه الثلاثة فالسبق فيها قمار هـ .

والأصل في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لَا سَبَقَ إِلَّا فِي نَضْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ » .

وقد زاد أبو البختري القاضي كلمة « أو جناح » في روايته لهذا الحديث ، يريد
بزيادتها إرضاء الرشيد حيث كان يتسابق بالحمام فكشف الرشيد وضعه ، وأقصاه من
مجلسه وامتنع العلماء من كتابة حديثه ، ووصموه بالوضع وتعمد الكذب على رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - .

١٨- (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ..) :

أى وجاءوا بعد إخبارهم أباهم بأكل الذئب ليوسف ، جاءوا بقميصه ملوثاً بدم مزور
مكذوب في شأنه ، حيث زعموا أنه دم يوسف أثناء افتراس الذئب له ، يريدون أن يجعلوه
برهاناً على صدقهم فيما زعموه من أكل الذئب له ، ولكنه لم يقتنع بأن هذا الذى فوق
القميص دم ولده يوسف وقال :

(... بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) :

أى ليس الأمر كما زعمتم من أكل الذئب له ، بل سهلت لكم أنفسكم الكارهة له
* أمراً منكراً فظيماً نحوه لا يعلمه إلا الله فصبر منى جميل ، لاتشوبه منى شكوى لغيره جل وعلا .

ولما كان الصبر الجميل الذي ألزم نفسه به ، لا يقوى عليه وهو رازح تحت خطبه
الجسيم ، فلهذا استعان عليه بربه قائلاً :
(وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) :

أى والله هو المطلوب منه العون لى على احتمال ما تقولونه فى شأن يوسف كذباً .
واعلم أن الوصف فى اللغة ذكر الشيء بنعته ، وهو قد يكون صدقاً ، وقد يكون كذباً ،
والمراد به هنا الثانى ، كما فى قوله تعالى : « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ » ^(١) .

قال الآلوسى : بل قيل إن الصيغة غلبت فى ذلك ونحن نقول : إن من هذا الاستعمال
قوله تعالى : « وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَأَجَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ » ^(٢) .
روى ابن عباس وغيره أن يعقوب عليه السلام لما تأمل القميص فلم يجد فيه خرقاً
ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم وقال لهم : متى كان الذئب حكيماً ، يأكل يوسف ولا يخرق
القميص ؟

وروى عنه أيضاً أنه قال : كان الدم دم سخلة ^(٣) ، وأن يعقوب لما نظر إلى القميص قال :
كذبتُم ، لو كان الذئب أكله لخرق القميص .

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَى
هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَّوهُ
بِثَمَنِ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾)

الفردات :

(سَيَّارَةٌ) : جماعة تسير . (وَارِدُهُمْ) : الوارد ، هو الذى يرد الماء ليستقى منه ، والضمير
فى : (وَارِدُهُمْ) يعود على السيارة بحسب المعنى ، أى وارد القوم الذين يسرون ، ولو رجع
إلى السيارة بحسب اللفظ لقليل : واردها ، وكلاهما جائز لغة .

(٢) النحل من الآية : ٢٢

(١) الصفات الآية : ١٨٠

(٣) السخلة : ولد الشاة .

(فَأَدْلَى دَلْوَهُ) : أى أرسلها إلى الجبِّ ليملاًها ، وأما دلاها فمعناهُ جذبها ليخرجها .

ذكره القاموس ، وحكاه القرطبي عن الأصمعي وغيره .

(وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً) : وأخفوه متاعاً للتجارة ، وسمى مال التجارة بضاعة ، لأنه بضعة من المال

العام - أى قطعة منه .

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) : أى باعوه بثمانٍ مبخوس - أى منقوص من بخسه إذا نقصه .

(دَرَاهِمَ مَعْلُودَةٍ) : أى دراهم قليلة ، ومن هذا المعنى قوله تعالى فى شأن قلة أيام الصيام

« أَيَّامًا مَعْلُودَاتٍ » . (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) : أى من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم .

التفسير

١٩ - (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ) :

أى وبعد إلقاء يوسف فى البئر وعودة إخوته إلى أبيهم جاءت جماعة من المسافرين إلى مصر ، ونزلوا قريباً من هذه البئر التى ألقى فيها يوسف . فأرسلوا الذى يرد الماء لهم عادة ، ليستقى لهم من هذه البئر . فأرسل دلوهُ وأنزلها فى البئر ليملاًها ماءً ، وأمسك بحبلها ليحبسها به ، فتعلق يوسف بالحبل ، فثقلت الدلو على الوارد ، فأعانه على جذبها مساعدوه من الرفقة الذين جاءوا معه ليستقوا لقومهم .

(قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ) :

قال هذا الوارد الذى يستقى للجماعة السيارة مستبشراً فرحاً ، يابشرى هذا غلام كأنه نادى البشرى ، وقال لها أقبلى فهذا أوانك ، حيث فاز بنعمة خرجت له فجأة من حيث لا يحتسب .

وظاهر الآية أنه قال : (يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ) قبل أن يخرج يوسف من البئر وبعد إدلاء

الدلو ، ولعلها لما ثقلت عليه حين انتزاعه إياها ، خاطبه يوسف مستنجداً به لينقذه بإخراجه من غيابة الجب ، ويشبه أن يكون هذا هو المتبادر ، وإن كان يجوز أن يكون هذا القول بعد إخراجه إياه وإطلاعه على حسنه والله تعالى أعلم .

(وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً) :

قلنا إن واردهم الذى ذهب ليستقى لهم كان معه بعض الرفقاء ليعينوه فى استخراج الماء وحمله إلى جماعتهم التى نزلت عن قرب من الجب ، ويدل لذلك قوله تعالى :

(وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً) : بضمير الجماعة ، كما تدل له طبيعة المهمة التى أرسل الوارد من أجلها ، فإنها تقتضى أن يقوم بها عدد منهم .

وبعد هذه المقدمة نقول : إن يوسف كان رائع الجمال ، وقد جاء فى حسنه قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث المعراج بصحيح مسلم ، « فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ » ، فلما رآه وارد الماء ومرافقه فى هذا الجمال عديم المثال (أَسْرُوهُ بِضَاعَةً) : أى أخضوه متاعاً للتجارة ، أى - أخضوه - عن باقى جماعتهم التى أرسلتهم لاستقاء الماء والمراد أنهم أخضوا أمره عنهم ، فلم يقولوا لهم إنهم أخرجوه من الجب حتى لا يشاركهم فى ثمنه إذا باعوه لتجار الرقيق بمصر ، بل قالوا لهم ما يجعل الأمر فيه لهم ، كقولهم : إن أصحاب الماء أعطونا إياه لنبيعه لهم بمصر ونرد لهم الثمن ، ونقل القرطبي عن ابن عباس أنه قال : أسره إخوة يوسف بضاعة لما استخرج من الجب وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بشما صنعتم ، هذا عبد لنا أبى ، وقالوا ليوسف بالعبرانية : إما أن تقرر لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء وإما أن نأخذك فنقتلك فقال : أنا أقرلکم بالعبودية ، فباعوه منهم وقيل غير ذلك - والله أعلم .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) :

هذه الجملة وعيد لإخوة يوسف على ما صنعوه بشأنه من تأمرهم على قتله ، ثم إبداله بالإلقائه فى الجب ، وتعرضه للعبودية .

٢٠ - (وَشَرُّهُ بِشْمَنِ يَخْسِ دَرَاهِمَ مَغْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) :

كلمة (شرى) تستعمل تارة بمعنى اشترى وأخرى بمعنى باع ، فهى تستعمل فى الضدين

وهي هنا بمعنى باع ، أى وباعوه بشمن قليل ناقص عن القيمة التي تؤدي لأمثاله من الرقيق ، وكان البائعون فيه من الزاهدين الذين لا يرغبون في بقاءه معهم ، وسبب ذلك أنهم التقطوه ، والمלתقط للشئ متهاون فيه لكونه لقطة ، ولخوفه أن يظهر له مستحق فينتزعه منه ، فلهذا باعوه بالوكس لأول مساوم ليتخلصوا منه .

قال العلامة أبو السعود : ويجوز أن يكون معنى « شروه » الخ اشتروه من إخوته - على ما حكى - وهم غير راغبين في شرائه خشية ذهاب مالهم لما طن^(١) في آذانهم من الإباق ، أى لما سمعوه من إخوته من أنه عبيدهم هرب منهم ، فهم لهذا تساهلوا في ثمنه ، ليتعجلوا التخلص منه قبل أن يهرب منهم ، كما هرب من بائعيه الذين زعموا أنه عبيدهم وأنهم مالكوه .

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ
عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ
فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(أَكْرِمِي مَثْوَاهُ) : أكرمي موضع ثوابه أى إقامته - من ثوى بالمكان - أى أقام به -
(مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) : أى جعلنا له فيها مكاناً ثابتاً .
(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ) : أى غالب على الأمر الذى يشاؤه ، فلا يستعصى عليه مراده ،
أو معناه غالب على أمر يوسف ، فهو الذى يتولاه ويدبره ولا يكله إلى غيره .

(١) طن بالطاء أى تردد في آذانهم .

التفسير

٢١ - (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ) :

وبعد أن باعه الذين أخرجوه من البشر بثمان زهيد ، قال الذى اشتراه منهم من أهل مصر لامرأته : اجعلى محل ثوانه - أى محل إقامته - كريماً حسناً مرضياً ، يريد من هذه العبارة تكليفها بإكرام يوسف على أبلغ وجه ، لأن إكرام محل إقامته بالعناية بشثونه ، يستلزم إكرامه هو ، فإن من قام بالعناية بمحل الضيف نظافة وفرشا ، فإنما يفعل ذلك لأجل الضيف ، فما ظنك بالعناية به هو شخصياً - فإنها تكون آكد وأعظم .

وهذا الذى اشتراه من أهل مصر هو عزيز مصر لقوله تعالى : « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » .

قال الضحاك : العزيز : هو ملك مصر ، وقال ابن عباس : هو وزيره قطفير .

(عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) :

وقد أوصى العزيز الذى اشترى يوسف امرأته بالعناية به والاهتمام بشأنه كله ، وقال لها عسى أن ينفعنا فى قضاء مصالحنا إذا تدرب وعرف مجارى الأمور ، أو نتخذ له لنا ولداً ، فيكون شأنه منّا شأن ولد الصلب ، وإنما قال العزيز ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة .

أخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه وجماعة عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « أَفْرُسُ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ : الْعَزِيزُ حِينَ تَفْرَسَ فِي يُوسُفَ ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ : (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) وَبِنْتُ شُعَيْبٍ حِينَ قَالَتْ لِأَبِيهَا فِي مُوسَى ، (يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ اسْتَخْلَفَ عُمَرُ » .

قال ابن العربي تعليقاً على هذا الخبر : عجيباً للمفسرين في اتفاقهم على جلب هذا الخبر ، وليس كذلك فيما نقلوه ، لأن الصديق إنما ولى عمر بالتجربة في الأعمال ، والمواظبة على الصحة وطولها والاطلاع على ما شاهده منه من العلم والمنة ، وليس ذلك من طريق الفراسة ، وأما بنت شبيب فكانت معها العلامة البيهقي - على ما يأتي بيانه في (القصص) . وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة ، لأنه لم تكن معه علامة ظاهرة . . .^(١)

وإنما قال العزيز : (أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا) لأنه كان حصوراً لا يولد له كما قال ابن العباس ، وابن إسحاق .

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) :

أي وكما أنقذناه من إخوته ومن الجب ، وجعلنا له مكاناً عظيماً في قلب العزيز الذي اشتراه ، حتى أمر امرأته دون سواها من خاصته بإكرام مثواه ، جعلنا له مكانة رفيعة في أرض مصر ، حيث عرف فيها بأخلاقه الرفيعة - إلى جانب ما أضفاه العزيز عليه من النبوة ، وما أعطاه الله إياه من الواجهة - جعلنا له هذه المكانة في الأرض ليترتب عليها ما جرى بينه وبين امرأة العزيز قبل أن يسجن ولنعلمه بعض تأويل الأحلام ، فتظهر براءته مما نسبته امرأة العزيز إليه ، وليؤدي ذلك إلى المرتبة العليا ، والرياسة العظمى كما سيأتي بيانه في رؤيا السجينين ورؤيا ملك مصر ، وكما يشير إليه قوله تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) :

أي والله غالب على أي أمر يريد ، لا يحول أحد دون تحقيقه ، فإنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون ، ويدخل في أمره تعالى شئون يوسف عليه السلام .

والضمير على هذا التأويل راجع في كلمة (أمره) إلى الله تعالى ، وقيل : إنه عائد إلى يوسف ، أي والله غالب على أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يكله إلى غيره ، حتى لا يصل إليه كيد كائد .

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) : أي الأمر كله لله تعالى . فيزعمون أن لهم من الأمر شيئاً « قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ »

(١) أنظر الآلوسي في خبر ابن مسعود ص ١٨٥ ج ١٢ طبعة منير ، والقرطبي ص ١٦٠ ج ٩ طبعة دار الكتب في تعليق ابن العربي .

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ رَءَاهُ اتَّيَّنَتْهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(بَلَغَ أَشُدَّهُ) ^(١) : استكمل قوته الجسدية والعقلية .

(اتَّيَّنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) : أعطيناه حكمة وفقها في الدين .

التفسير

٢٢ - (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ اتَّيَّنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) :

علم من الآيات السابقة أن يوسف عليه السلام ، كان في بيت عزيز مصر ، يعامل معاملة كريمة ، بوصية من العزيز ، وأنه عومل هذه المعاملة رغبة في أن ينفعهم حينما يكتمل نموه ، أو أن يكون لهم ولداً ، لما كان يبدو عليه من مخايل الرشد والتجابة وأنه تعالى مكّن ليوسف في أرض مصر بسبب ما فطر عليه من هبات الله التي حببته إلى أهلها وما أسبغه عليه العزيز من العناية في التربية ، وقد جاءت هذه الآية لتبين لنا طرفاً آخر من قصته ، وذلك حين جاوز مرحلة الصبا إلى مرحلة الشباب وبلوغ الأشد ، واختلف في المراد بالحكم والعلم في الآية ، فمن قال : إنه أوقى النبوة صبيّاً ، وفُسر الآية بقوله : ولما بلغ أشده زدهما فهما وعلماء ، فوق النبوة ، وقد حمّله على ذلك قوله تعالى في شأن يوسف قبل استخراجه من غيابة الجب : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

(١) يرى سيوبه أن أشد جمع ، واحد شدة ، ويرى الكسائي أن مفردة شد ، وقال أبو عبيد لا واحد له من لفظه .

فالإيحاء هنا على رأيه هو إنزال الملك إليه بالوحي . ومن قال إن الإيحاء حينئذ كان إلهاما أو نحوه ، فسر الحكم بالنبوة ، والعلم بعلم الدين ، وإلى هذا ذهب ابن عباس حيث قال : الحكم النبوة ، والعلم الشريعة .

ومنهم من فسر الحكم بالحكمة ، وهي حبس النفس عن هواها ، وصونها عما لا ينبغي ، وفسر العلم بالعلم النظري ، ومنهم من فسر الحكمة والعلم بالحكم بين الناس وعلم مصالحهم وشئونهم ، فإن الناس كانوا إذا تحاكموا إلى العزيز ، أمره أن يحكم بينهم ، لما رأى من عقله وإصابته في الرأي . ويقتضينا هذا الخلاف ، أن نفسر الآية الكريمة تفسيراً يتفق مع ما سبقها وما يليها ، حيث يناسب المقام والمناخ الذي سبقت له ، ولا يمنع من قبول أى رأى من هذه الآراء فنقول :

ولما بلغ يوسف منتهى قواه الجسدية والعقلية ، وأصبح أهلاً لتحمل أعباء الحياة والحكم بين الناس في قضاياهم المختلفة ، وتوجيههم إلى الخير والبر والهدى ، آتيناها حكمة في القول ، وإصابة في الحكم وعلماً غزيراً ، وبصراً بالأمر . ومثل ذلك الجزاء الجميل ، نجزي كل من يحسن في عمله .

(وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَاهُ بُرْهَنَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(وَرَاودَتْهُ) : المرادة : الرفق في الطلب ، يقال في الرجل راودها عن نفسها ، وفي المرأة ، راودته عن نفسه .

(وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ): أَحَكَمْتَ إِغْلَاقَهَا . (هَيْتَ لَكَ): هَيْتَ اسم فعل أمر بمعنى: أَقْبِلْ وبادر ، واللام في (لَكَ) للبيان - أى لك أقول هذا - كما في هلم لك ، وقرىء : (هَيْتُ لَكَ) بكسر الهاء وباليهمز وضم التاء بمعنى تهيأت لك ، فهو فعل ماض وفاعله .
 (مَعَاذَ اللَّهِ) : أَسْتَجِيرُ بِاللَّهِ وَأَعُوذُ بِهِ مَعَاذًا مِمَّا تَدْعِينِي إِلَيْهِ .
 (إِنَّهُ رَبِّي) : إِنَّهُ سَيِّدِي الَّذِي رَبَّنِي .
 (أَحْسَنَ مَثْوَايَ) : أَحْسَنَ إِكْرَامِي فِي مَثْوَايَ وَمَقَامِي عِنْدَهُ فَلَا أَخُونَهُ
 (هَمَّتْ بِهِ) : عَزَمَتْ وَأَصْرَتْ عَلَى مَخَالَطَتِهِ .
 (وَهَمَّ بِهَا) : شَرَعَ يَدْفَعُهَا عَنْ نَفْسِهِ .
 (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّي) : أَى حُجَّتِهِ الَّتِي مَنَعَتْهُ مِنَ الْإِنْتِقَامِ مِنْهَا .

التفسير

٢٣ - (وَرَاودَتْهُ النِّثْيُ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) :
 تحدثت الآيات السابقة عن شراء عزيز مصر ليوسف ، وأنه أمر زوجته دون سواها أن تكرمه وتعني به لعله ينفعهم أو يتخذونه ولدًا . وأنه بذلك وبما كان عليه من العقل والوجاهة وحسن المعاشرة مع الناس مكن الله له في الأرض ، وأنه لما بلغ أشده آتاه الله الحكمة والعلم ، فأكمل شبابه بالقوة والحكمة والعلم إلى جانب ما هو عليه من الجمال حتى بلغ شطر الحسن كما قال صلى الله عليه وسلم .

وكانت امرأة العزيز ترى هذا كله أمامها ، وتشعر في نفسها أنه جدير بالإعجاب والحب ، فأعجبت به وأحبته وراودته عن نفسه كما جاء في هذه الآية الكريمة ، أى طلبت منه مخالطتها : وأصل المراودة الطلب برفق ولين . ومن هذه المادة يطلق الرائد على طالب الكلا والماء ، وصيغة المفاعلة تقتضى حدوث الفعل من الجانبين كقتال وضارب وصارع وغالب ، ولكنها قد تستعمل من جانب واحد كما في مطالبة الدائن ومماطلة المدين ومداواة الطبيب وغير ذلك ، والمراودة هنا كذلك ، فإنها من زوجة العزيز ليوسف ، أما هو فقد استعصم - كما سيأتى بيانه - وكما يشير إليه قوله تعالى : (عَنْ نَفْسِهِ) فإنه يشير إلى أنها تخادعه وتريد أن تجذب منه مطلبها ، قال الزمخشري : أى فعلت ما يفعله

الخداع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده : يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه - الخ ١ هـ .

والمعنى : واحتالت امرأة العزيز التي هو في بينها حيث موضع التكريم والعناية ، احتالت عليه وطالبته برفق وخديعة ، أن يمكّنها من نفسه فيخالطها مخالطة الرجل للمرأة ، وغلّقت الأبواب التي توصل إليهما وأحكمت إغلاقها ، وقالت هيت لك ^(١) - أي أسرع ^(٢) والطلب موجه لك - فكانها تقول إرادتي كائنة لك .

وقد وقعت هذه المراودة من نفس يوسف موقع الإياء والرفض حيث قال لها :
(... معاذ الله) :

أي أعوذ بالله تعالى معاذاً مما تريد مني فهو أمر منكّر هائل يستعاذ بالله للخلاص منه ومن سوء عاقبته ، وعلل رفضه لمطلبها بما عسى أن يصرفها عنه ، ويدعوها إلى مراجعة نفسها والإقلاع عن خيانتها لزوجها ، بما سمعته منه من أنه لا يصح أن يخونه وقد أحسن إليه وذلك قوله لها .

(إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ) : أي إن الأمر والشأن الخطير الذي يمنّني من إجابتك هو سبدي الذي رباني وأحسن تعهدي ، حيث أملك بإكرام فكيف أسيء إليه بخيانته في حرمه . واختار أبو حيان أن الضمير لله تعالى ، والمعنى على هذا إن الله تعالى خالقي أحسن مَثْوَايَ بعطف قلب من أملك بإكرام : فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة ثم أيد يوسف امتناعه عن تلبية مطلبها وعلله بعلّة أخرى فقال :

(إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ) : أي إن الشأن في سنة الله في خلقه وعدالته هو أنه لا يفوز الظالمون في دنياهم وأخراهم ، أما دنياهم فيعاقبون فيها بالعلل والأسقام ، والذل بعد العز ، والفقر بعد الغنى ، وغير ذلك من الآفات وأما أخراهم فالجحيم والزمهرير ، ومن فاتته عقوبة الدنيا ، أدركته عقوبة الآخرة « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ » ^(٣)

(١) اللام في كلمة (لك) لتبين من له الخطاب كما في (سقيا لك) .

(٢) وقيل إنه اسم فعل ماضٍ معناه تهيأت لك ، وهذا التأويل وافقت قراءة مروية عن ابن عباس (هت لك) بكسر الهاء وبالمهملة الساكنة وضم التاء .

(٣) سورة إبراهيم الآية : ٤٢

- ٢٤ - (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا اَنْ رَّاى بُرْهَانَ رَبِّهٖ) :

حكمت الآية السابقة موقف يوسف الحاسم أمام مراودة امرأة العزيز له وطلبها مخالطته ، وتهيئتها كل الأسباب لاجتذاب ميله ، وأولها تهيئة نفسها له ذاتا وثيرا وتغليقا للأبواب وآخرها دعوة رقيقة له بقولها تهيأت لك ولم أتنبأ لغيرك ، ولابد أن هذه الدعوة التي حكاها القرآن هي إجمال كريم لدعوة مختلفة الأساليب تجيدها المرأة الوالهة ، ويعف القرآن الكريم عن التصريح بها ، وكان رد يوسف الحاسم عليها هو قوله لها :

(مَعَاذَ اللّٰهِ إِنَّهٗ رَبِّىْ أَحْسَنَ مَثْوَاىِٕ إِنَّهٗ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) :

ولقد ظن يوسف أن هذا الذى قاله لها سيجعلها ترجع عن موقفها الشائن نحو زوجها ونفسها ونحو ربيب نعمتهم ذى الأخلاق الفاضلة التى لاتسمح له بالخيانة لرب نعمته ، ولكنها لم ترعو عن غيها وانتهت إلى موقف آخر ينسم بالعزم والإصرار على تنفيذ جريمتها وهو ما حكته هذه الآية من قوله تعالى :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ) : ولكنه عليه السلام أصر على موقفه السلبى منها ، وعزم على وضع حد لتشبهها . فمانعها وهم بإيذائها ، وفيما يلى معنى الآية على هذا التأويل الذى تطمئن له نفوسنا .

المعنى : ولقد همت امرأة العزيز بيوسف عليه السلام تجذبه إلى نفسها . وتوسعه لوما على موقفه منها مع أنها هى التى طلبته وراودته ، وأذلت له نفسها ، وهو فى نظرها عبد لها وهى سيدته ، ولكنه هم بها يدفعها عن نفسه وكاد يضربها لمزيد إصرارها على مخالطته ، لولا أن رأى فى ضميره برهان ربه يصرفه عن ضربها ، لأنها آوته وأكرمه ، ولأنه لو ضربها لادعت أنه راودها ، ولما امتنعت من إجابته ضربها ، لولا ذلك لضربها وانتقم منها لهذه الجريمة التى دبرتها له وهو منها برىء ومعصوم .

(كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهٗ السُّوءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهٗ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) :

أى فعلنا مثل ذلك التثبيت بالبرهان مع يوسف - عليه السلام - لنصرف عنه السوء . وهو ضرب من أكرمه وآوته ، ولنصرف عنه الفحشاء التى دعت إليها - وهى المخالطة - إنه من عبادنا الذين أخلصناهم لنا وهم آباؤه الذين أخلصهم ونقّاهم

من شوائب النقص ، فقد قال الله تعالى فيهم « وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ »^(١)

وفسرها بعض العلماء بقوله : ولقد همت به المرأة ضربا - لأنه أذلها وحطّم كبرياءها ، وهم بها دفاعا عن نفسه . ولكن ماقلناه أولى ، فإن حبها الشديد له وجذبها له من قميصه يمنع من أنها تفكر في ضربه ، ولهذا نرجع ما قلناه قبل ذلك ، وقيل الهم منها عزم وإصرار على المعصية ، ومنه مجرد خطور بالبال بمقتضى الطبيعة البشرية مع الاعتصام بالتقوى . وسمى باسم الأول مشاكلة . ويدل لذلك أن الله تعالى مدحه بأنّه من عباده المخلصين . ولا يكون ذلك إلا مع سلامة الإرادة وقوة الوازع المتمثل في برهان ربه . وهذا ليس قادحا في العصمة . فإنه تعالى هو العاصم وقد عصمه ببرهانه ، وهو الحجة التي أقامها الله في نفسه على التحريم حين المراودة منها له ولجأجئها عليه وقوة البرهان وسلطانه على إرادة الأنبياء ينتهيان دائما إلى العصمة من دواعي البشرية المحرمة ، ولاشك أن الامتناع مع الخطور بالبال يدل على قوة الوازع وقوة الإرادة أكثر من الامتناع مع عدم وجوده - ومع جودة هذا الرأي فما قلناه أولا هو أفضل الآراء . وهو ما وفقنا الله له . والله تعالى أعلم .

وقد ضربنا صفحا عما سطره بعض المفسرين من القصص الهابطة التي ذكرت في تفسير الآية . وينبو قلمنا عن تسطيرها .

(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا
لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ
أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ) أى تسابقا إليه ، كل يريد أن يصل إليه قبل الآخر : هى لتمنعه
من الخروج وهو ليهرب منها .
(وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ) : أى قطعت قميصه من خلفه ، والقُد : القطع .
وأكثر ما يستعمل فى القطع الطولى . أما القط فيستعمل فى القطع العرضى . . .
قاله القرطبي وغيره .
(وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ) : ووجدا زوجها - عزيز مصر - عند الباب الذى تسابقا
إليه ، وهو الباب الأخير الذى يؤدى إلى خارج ما غلقت أبوابه .

التفسير

٢٥ - (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ...) :
حكمت الآيتان السابقتان الحب الشديد الذى أخرج امرأة العزيز عن الوقار ، وأذلها
حتى هبطت إلى أن تراود يوسف ربيب نعمتها عن نفسه ، وتحكم إغلاق جميع الأبواب
حتى تستحكم خلوتها به ، ولا ينغص عليها فى مخالطتها له منغص ، ودعته برفق إلى قضاء
لبانتها من مخالطته إيلها ، وأنه أبى عليها هذه الجريمة التى تختان بها زوجها ، وتحمله على
أن يشاركها فى هذه الخيانة مع أنه أحسن إيواءه وتربيته ، كما حكمت أنه عليه السلام ،

استعاذ بالله ولجأ إليه لكي ينقذه من هذا الإثم والظلم المبين ، وأنها قابلت هذا الامتناع الحازم من يوسف بمزيد من الهمة والإصرار وتحريضه على مخالطتها بمختلف الوسائل ، من جذب ولوم وأسى وغير ذلك ، وأنه لم يجد بداً من أن يهيم بضربها لتكف عن غيها ، ثم تراجع عما هم به من إيذاها حين رأى في قرارة نفسه وبإلهام من ربه ، رأى حجة الله وبرهانه على أن إيذاها وهو يمنعها عن نفسه ، سوف تتخذه دليلاً على أنه هو الذى طلب مضاجعتها ، فلما أثبت عليه ضربها وآذاها ، فلماذا كف عنها .

وجاءت هذه الآية لتبين أن كليهما قد أسرع إلى الباب ، فأما يوسف فقد أسرع إليه ليتخلص من شرك هذه المرأة الوالهة وشرها ، وأما هى فقد أسرعت لتمنعه من الهرب وتحمله على الاستسلام إليها ، ولما سبقها هو إلى الباب جذبت قميصه من خلفه جذبة قوية ترتب عليها قطع القميص من خلفه ، حيث كانت تجذبه منه وعندما وصل الأمر بينهما إلى هذه الحال وجدا سيد المرأة - أى زوجها - عند الباب . الذى أراد يوسف الخروج منه - وكان قد فتح - حتى أصبحها وجها لوجه أمام العزيز لدى الباب ، ولم تصرح الآية بمن فتحه ، فهل فتحه العزيز لما وصل إليه خبر هذه الاحتياطات التى اتخذتها امرأته لمرادة يوسف ، أو فتحه حين وصلت إليه أصوات المشادة التى حصلت بينهما ، أو أن يوسف هو الذى سبق إليه وفتح ، وصادف مجيء العزيز حينئذ ، وهذا هو الظاهر ، لأن المرأة كانت قد غلقت الأبواب من الداخل فلا تفتح إلا من الداخل ، والمراد من الباب هنا الباب الأخير الموصل إلى الخارج ، وهو الذى رأيا سيد المرأة عنده ، أما الأبواب الأخرى التى غلقتها فلا بد من أن يوسف كان قد فتحها مسرعاً قبل أن يصل إلى هذا الباب الأخير الذى أدركته عنده وشقت قميصه وهى تجذبه إليها حتى لا يفلت منها بعد أن وصل إليه ، ولما وجدت نفسها أمام زوجها فى هذه الحالة النكراء ، برأت نفسها وبكرت بيوسف بأخبث أسلوب ، وذلك ما حكاه الله تعالى بقوله :

(... قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى قالت امرأة العزيز لزوجها حين رآهما على هذه الحالة : ما جزاء هذا الذى دخل على مخدعى وأراد سوءاً بزواجك التى هى أهلك وعرضك الذى يهلك أمره ، ما جزاؤه سوى

أن يسجن ليمنع شره عن النساء ، أو عذاب شديد الإيلام ، حتى لا يعاود مثل هذه الإرادة الرعناء .

بهذه الحيلة أرادت أن تبعد التهمة عن نفسها وأن تهدد يوسف بمقدرتها على سجنه وتعذيبه طمعا في أن يستجيب لها اضطرارا بعد أن فقدت الأمل في أن يستجيب لها اختياراً لكن يوسف لم يأبه لتهديدها - كما سيتضح بعد من قوله : « رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » بعد قولها : « وَلَكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيْسَجَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ » وسيأتى بيان ذلك .

٢٦ - (قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي ...) :

أى قال يوسف للعزیز دفاعا عن نفسه بعد أن اتهمته زوجته بأنه أراد اغتصابها : قال يوسف لم يحدث منى شيء مما تقوله ولكن الذى حدث أنها هى التى راودتني على أن أنزل لها عن نفسى ولم أوافقها على ما طلبته منى . وبهذا حصل التعارض بين اتهامها ودفاعه ، واحتاج الفصل فى القضية إلى شاهد ، وذلك هو ما قصه الله تعالى بقوله :

(... وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) :

اختلف المفسرون فى هذا الشاهد ، فقليل : إنه طفل فى المهد شهد بما فصله الله بعد ، وكان من أهل امرأة العزیز - قال السهيلي - وهو الصحيح - للحديث الوارد فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله : « لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ » وذكر منهم شاهد يوسف .

وقال القشيري أبو نصر : قيل كان صبياً فى المهد فى الدار وهو ابن خالتها .

وقيل : هو رجل حكيم ذو عقل كان العزیز يستشيريه فى أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، وكان مع زوجها ، فقال : قد سمعت الاستباق والجلبة وراء الباب وشق القميص ، فلا يُدرى أيكما قدامُ صاحبه ، فإن كان شق القميص من قدامه فأنست صادق ، وإن كان من خلفه فهو صادق ، فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف .

ونسب هذا القول إلى الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد والسدى .

قال السدى : كان ابن عمها ، وزوى عن ابن عباس وهو الصحيح في الباب والله أعلم
 ١٥٠ . ذكره القرطبي .

وقال أبو جعفر النحاس : والأشبه بالمعنى - والله أعلم - أن يكون رجلا عاقلا حكيما
 شاوره فجاء بهذه الدلالة ، ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف - صلى الله عليه وسلم -
 تغنى عن أن يأتي بدليل من العادة ، لأن كلام الطفل آية معجزة فكانت أوضح من الاستدلال
 بالعادة .

ونحن نرى أن الذى قاله أبو جعفر النحاس هو الأجدر بالقبول فكلام الشاهد كلام
 رجل حكيم ذى بصر بالأمور ، وليس فى النص الكريم ما يدل على أنه طفل ، بل يوجد
 فى صحيح السنة ما يفيد حصر المتكلمين فى المهد فى ثلاثة ، وليس فيهم شاهد يوسف ،
 فقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه . أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
 « لَمْ يَتَكَلَّمْ فى المهدِ إِلا ثَلَاثَةٌ : عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، وَصِىٌّ كَانَ يَرْضَعُ
 مِنْ أُمِّهِ ، فَمَرَّ رَاكِبٌ كَانَ حَسَنَ الْهَيْئَةِ ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا ، فَتَرَكَ
 الصَّبِيَّ الثَّدْيَ وَقَالَ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ » .

وقد اعتبر الطيبي هذا الحديث يرد الحديث السابق المروى عن أحمد ، انظر الآلوس
 ج ١٢ والقرطبي ج ٩ والله أعلم .

ويلاحظ أن هذا الكلام من القريب لا يعتبر شهادة ، لأنه لم ير شيئا مما حدث ،
 ولكنه لما كان يرشد إلى دليل الحكم ، أطلق عليه شهادة مجازا ، لأنه يشبهها فى التوصيل
 إلى الحكم الصحيح .

والمعنى : وأرشد مرشد حكيم من أهل امرأة العزيز إلى دليل الحكم ، بعد ما علم باتهامها
 ليوسف ، وبما قاله يوسف دفاعا عن نفسه ، وقد اشتبه الأمر واحتاج إلى مرجح فقال : إن كان
 قميص يوسف شق من قدامه ، فقد صدقت فى دعواها أنه أراد بها سوءا فهو قرينة على
 أنه بادرها بالاعتداء ، فنازعت وأخذت بتلابيبه من قدامه ، وجعلا يتصارعان وهى ممسكة

بتلابيبه فشق قميص في يدها من قدامه وهو يخلصه منها ، وهو حيثثذ من الكاذبين في دعواه أنها راودته عن نفسه فامتنع .

٢٧ - (وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

أى وإن كان قميصه شق من خلفه فقد كذبت في دعواها أنه هو الذى أراد بها سوءا ، وهو من الصادقين في قوله : أنها هى التى راودته عن نفسه ، وأنه أسرع إلى الباب ليهرب منها ، ووجه دلالة شقه من الخلف على صدقه ، أنه يؤذن بأنها تبعته وجذبت ثوبه من الخلف لتمنعه من الهروب مما دعته إليه .

قال القرطبي في المسألة الثالثة : في هذا الموضوع مايفيد أن الحكم بالآمارات عند فقد الشهود يؤخذ به في اللقطة وكثير من المواضع ، حتى قال مالك في اللصوص : إذا وجدت أمتعة معهم فادعاهما قوم وليست لهم بينة فإن الحاكم ينتظر بعض الوقت ، فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم .

وقال محمد في متاع البيت إذا اختلف فيه الرجل والمرأة : إن ماكان للرجال فهو للرجل ، وماكان للنساء فهو للمرأة وماكان للرجل والمرأة فهو للرجل .

وكان شريح وإياس بن معاوية يعملان العلامات في الحكومات أى في القضايا التى لا شهود فيها ، وأصل ذلك هذه الآية : ١ هـ

(فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ۖ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ۝٢٩)

المفردات :

(مِنْ كَيْدِكُنَّ) : من احتيالكن ومكركن أيتها النساء .
 (مِنَ الْخَاطِئِينَ) : من المذنبين المتعمدين : من خطيء المرأة إذا تعمد الذنب ، ومضارعه يخطأ بوزن يائثم بفتح الهمزة ومصدره الخطء بكسر الخاء بوزن الإثم .

التفسير

٢٨ - (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) :

أى فلما رأى سيدها - أى زوجها - قميص يوسف شق من خلفه . قال لأمرأته : إن اتهم يوسف بأنه أراد بك سوءاً ناشئاً من كيدكن أيتها النسوة للرجال ، فأنت التى راودته فلم يفعل ، وفر منك فاجتذبتك إليك وأنت كاذبة فى نسبة لإرادة السوء إليه .

وقد أصاب العزيز فى الحكم بأن كيد النساء عظيم ، لأنه أشد تأثيراً فى النفس ولأنه قد يورث من العار أشد مما يورثه كيد الرجال ، ولتفرغهن لهذا الفن أكثر منهم ، ولهذا كن أعظم وسائل الشيطان فى عصيان الله - تعالى - قال حكيم : « ما أيسر الشيطان من أحد إلا أنه من جهة النساء » .

ولهذا قال بعض العلماء : أنا أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان ، فإنه - تعالى - يقول فى حق الشيطان : « إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا » وقال فى حق النساء : « إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » .

٢٩- (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) :

بعد ما ظهرت براءة يوسف، وكيد المرأة، قال العزيز : يا يوسف أعرض عن هذا الإثم ولا تلتفت إليه، ولا تتحدث عنه، حتى لا تفتضح امرأتى بين الناس، واستغفري أنتِ أيتها المرأة من ذنبك الذى صدر عنك فى حقى وحق يوسف إنك كنت من صنف الخاطئين الآثمين المتعمدين اقتراف الذنب، ولم يحدث منك عفواً .

وبلاحظ أنه أمر امرأته بالاستغفار لذنبها، والاستغفار طلب الغفران، والتجاوز عن الذنب، وهذا يحتمل أنه يريد أن تطلب منه الصفح والمغفرة لما بدا منها، أو أن تطلب الغفران من الله - تعالى - إن كانوا يعتقدون أن لهم إلهاً أكبر من آلهتهم التى يعبدونها، وأنهم يتقربون بعبادتهم إياها إليه كشأن عبدة الأوثان فى كل مكان، ولعله يشير إلى ذلك قول يوسف: « يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » .

(* وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(نِسْوَةٌ) : جماعة من النساء لا واحد له من لفظه .

(امْرَأَةُ الْعَزِيزِ) : زوجته .

(تُرَاوِدُ فَتَاهَا) : تطالب فتاها بمضاجعتها وتخادعه عن نفسه .

(شَغَفَهَا حُبًّا) : شق حبه شغاف قلبها، والشغاف حجاب القلب - والمراد أن حبه تمكن من قلبها .

(ضَلَالٌ مُبِينٌ) : بُعِدَ عن طريق الصواب والعفة بَيِّن واضح .

(مُتَكَنًّا) : ما يتكأ عليه من النارق والوسائد .

(أَكْبَرَنَّهُ) : أعظمته وتبَّينه .

(حَاشَ لِلَّهِ) : تنزيهاً له عن صفات العجز والنقص ، والمراد التعجب من حسن يوسف .

التفسير

٣٠- (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) :

كان لمرادة امرأة العزيز ليوسف - عليه السلام - دوى هائل بين القصور ، فتناولتها الألسنة حتى قال نسوة من عقائل أشرف المدينة - عجباً من هذه المرأة وانتقاصاً لها - كيف تنزل امرأة عزيز مصر - وهي في مكانها الرفيع - إلى هذا الحد الوضيع ، فتراود فتاهها عن نفسه وتطالب غلامها بمخالطتها ، قد تمكن حبه من قلبها فملأه ولم يدع فيه مجالاً لسواه ، حتى كاد ينفطر من شدة الحب .

(إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) :

أى إنا لنعلمها في بُعْد واضح عن الصواب والعفة والكرامة ، حيث سمحت لنفسها بالهبوط إلى هذا الدرك الأسفل ، بمرادتها لملوك لها ، وأمرها نافذ فيه وكيف تجاوز حبها له أقصى الحدود ، حيث مزقت ثيابه حينما حاول الإفلات منها ، وكيف تفعل معه ذلك ولها زوج عظيم ، هو عزيز مصر ، إنها لخائنة ذليلة النفس .

٣١- (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَنًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا) :

أى فحينما بلغ هذه المرأة ما قالته نسوة المدينة في شأن عشقها ليوسف أرسلت إليهن تدعوهم إلى ضيافتها ، وهيات لهن من النارق والوسائد ما يتكنن عليه في أثناء الطعام والشراب والحديث ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً لتقطع به ما يحتاج إلى القطع من

الطعام كاللحم والفاكهة ، وغرضها من ذلك ماسيق من قطعهن لأيديهن من شدة انبهارهن من جماله - كما سيأتى بيانه ، وسمى اغتياهن لها مكرًا لكونه خفية منها كمكر الماكر - وإن كان ظاهرًا لغيرها ، وكان المترفون في الزمان الخالي يجلسون للطعام على الوسائد والمارق ، فإذا انتهوا منه أتموا وقتهم في الحديث وهم على وسائدهم جالسون ، ولا تزال هذه الطريقة متبعة في ولائم العرب ملوكًا ورعايا ، وكذا في بلاد كثيرة .

وفسر بعضهم « المتكأ » بالطعام ، أخذًا من قولهم اتكأنا عند فلان - أى طعمنا عنده - قال جميل :

فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قُللِه

وقال مجاهد : (متكأ) : أى طعامًا يُحزُّ حَزًّا ، كأن المعنى : يعتمد عليه بالسكين عند القطع لأن القاطع يتكىء على المقطوع بالسكين .

(وَقَالَتْ اخْرِجْ عَلَيَّهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) الآية .

كان الطعام بين أيدي هؤلاء النسوة المدعوات ، وكن مشغولات به أكلاً وتقطيعاً بالسكين ، ولم يكن يوسف حاضراً ، فدعته قائلة : اخرج عليهن ، تريد بذلك أن يفاجئهن بجماله وهن ممسكات بالسكاكين ، ولم يكن يدري ماذا تخبئه له هذه المرأة الماكرة ، فخرج عليهن فحينما رأيته في جماله الفتان ، وحسنه الرائق الفائق ، عظمنه وتبيبن حسنه الرائع ، وجرحن أيديهن بما معهن من السكاكين ، لفرط دهشتهن ، وخروج الأمر عن منهاج الإرادة والاختيار ، حتى لم يشعرن بما فعلن ، (وَقُلْنَ) : تنزيهاً لله - تعالى - عن العجز عن خلق هذا الجمال المثالي ، (حَاشَ لِلَّهِ) وغرضهن من ذلك التعجب من قدرته - سبحانه - على خلقه ، وقلن أيضاً : (مَا هَذَا) الذى نراه (بَشَرًا) ، فما مثله في الناس أحد ، (إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) ، يردن بهذه العبارة وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال ، وهكذا جرت العادة في تشبيه كل متناهٍ في الحسن بالملك ، كما جرت في تشبيه كل متناهٍ في القبح بالشیطان .

(قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنِ
نَفْسِهِ ۖ فَاسْتَعَصَمَ ۚ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا
مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ
وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾
فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(لُمْتُنَنِي فِيهِ) : عَيَّرْتُنَنِي فِي الْاِفْتِنَانِ بِهِ . (رَاودَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ) : أَى طَلَبْتَ مَخَالَطَتَهُ
وَخَادَعْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ لِيَحْقُقَ لِي مَا أَرْجُوهُ مِنْ ذَاتِهِ . (فَاسْتَعَصَمَ) : أَى امْتَنَعَ طَالِبًا لِلْعَصْمَةِ
بِمَا دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ ، وَبَالِغٌ فِي ذَلِكَ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ السِّينُ وَالتَّاءُ كَمَا فِي اسْتَمْسَكَ وَاسْتَجْمَعَ الرَّأْيُ .
(مِنَ الصَّغِيرِينَ) : مِنَ الْأَذِلَّةِ . (أَصْبُ إِلَيْهِنَّ) : اسْتَجَبَ إِلَى هَوَاهُنَّ .
(مِنَ الْجَاهِلِينَ) : أَى مِنْ أَهْلِ الْجَهَالَةِ ، وَالْمُرَادُ مِنْهَا هُنَا السَّفَاهَةُ وَفَقْدَانُ الْحِكْمَةِ وَالرُّشْدِ .
(فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) : مَنَعَ أَثَرَهُ عَنْهُ فَلَمْ يَحْقُقْ لَهُنَّ مَا أَرَدْنَ مِنْهُ بِمَا حَصَنَهُ بِهِ
مِنْ قُوَّةِ الثَّبَاتِ عَلَى الْعِفَّةِ .

التفسير

بعد أن تحقق لامرأة العزيز ما أرادت من اطلاع النسوة على جمال « يوسف »
عليه السلام وتأثرهن به أكثر من تأثرها به ، حتى وصل أمر الدهشة بهن إلى أن
فقدن الإرادة والاختيار ، فجرحن أيديهن تجريحاً من غير وعى ، وكأنهن كن يقطن
الطعام الذى بين أيديهن ، بعد أن تحقق هذا كله ، وجهت امرأة العزيز الخطاب إلى أولئك
النسوة ، مبينة لهن أنها لم تكن مختارة فيما طلبته منه من المخالطة ، لشدة سلطان

جماله عليها ، وصرحت لهن بما كانت تنكره أمام زوجها عزيز مصر ، فقالت إنها هي التي راودته عن نفسه فامتنع ، وذلك ما قصه الله - تعالى - بقوله :

٣٢- (قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنْنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) :
وكلمة (فَذَلِكُنَّ) : فيها إشارة (بذا) إلى يوسف ، وخطاب بحرف (كن) إلى النسوة .

والمعنى : قالت امرأة العزيز للنسوة اللاتي دعتن لطعامها بعد أن فتنهن جمال يوسف : فذلك الذي فتنن به وقطعتن أيديكن من أجله وقتلن إنه يشبه في الحسن والجمال الملك الكريم ، هو يوسف الذي وجهتن إلى الملام بسببه وقتلن عني : « امرأة العزيز تَرَاوَدُّ فِتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » : وقد ملأ حبه قلبها ، ونحن نراها من أجل ذلك في ضلال واضح ، فلم يعد لكن بعد ذلك الذي حدث منكن بسبب جماله ما يدعوكن للملامى ، وإني أؤكد لكن بصراحة أنني أنا التي طلبته لمضاجعتي فامتنع وبذل أقصى الجهد في الإباء والتحفظ الشديد - وبعد أن بسطت العذر لهن عما كان منها ، هددته بأسلوب الملوك وأهل القهر في جملة من التأكيدات قائلة :

(وَلَكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيْسَ جَنًّا وَلَكِنْ كُنَّا مِنَ الصَّاغِرِينَ) :

أي ولئن أصرَّ يوسف على إباته ولم يفعل ما أمره به من المضاجعة ، ليوضعن في السجن ، وليكونن فيه من الأذلاء .

وما سبق تعلم أن يوسف - عليه السلام - لم يتجه بشهوته البشرية نحوها ، فقد ظل سنين عديدة تحت رعايتها وإكرامها وبين يديها ، ولم يتجه إليها بنظرة خبيثة ولا بعبارة نابية ، وذلك لكمال نفسه وطيب خلقه ، وإعداد الله إياه للنبوة التي تنتظره وقد تأكدت هذه العصمة الربانية وتجلت بأجلى مظاهرها ، حين دعته إلى مخالطتها وبذلت له من أساليب الإغراء ما بذلت ، لترفع بذلك عن نفسه الخشية منها وتهيب مقامها وتدفعه إلى الرغبة فيها والاجترأ عليها بعد أن أذلت له أنوثتها ، وأنه مع هذا الإغراء والتمكين التام ، امتنع وأبى قائلا : « مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ » فاستعاذ بالله ولجأ إليه ليعصمه منها ، ويحميه من شباكها ، وأكد هذا الامتناع بأنه لا يخون .

سيده الذى اشتراه ورباه وأحسن مثواه ليثير بذلك وازع الأمانة فى نفسها نحو زوجها ، فلعله يستيقظ من سباته فيكفها عنه ، ولكنها أصرت ، فذهب إلى الأبواب ليفتحها ويهرب منها ، فهمت به تمنعه وتجذبه إليها ، وهمَّ بها يدفعها عن نفسه ويحاول أن يضربها لولا أن رأى فى نفسه حُجَّةَ رَبِّهِ والهامة إياه أنه لو ضربها لاستخدمت هذا الضرب حجة لها على أنه هو الذى راودها عن نفسها ، ولما امتنعت ضربها ، فكف عن ضربها ، وتمت عصمة الله له ، وعند الباب الخارجى بوغتا معا بالعزير ففتنهم المرأة بأنه أراد بها سوءاً ، ويكذبها قميصه الذى قد من دُبُرٍ ، ويقتنع العزير ببراءته ويوصيه بأن يعرض عن هذا الأمر فلا يذيعه فى الناس ، ولكن نساء القصور يجدن دائما من يتطوع بإذاعة أخبارهن ، وهكذا كان الأمر بالنسبة لامرأة العزير مع يوسف فلما تسرب أمرها مع يوسف إلى نساء الأمراء وعين عليها ما فعلته مع غلامها الذى ترفع عليها وقاومها ، أرادت أن تقطع ألسنتهن عن غيبتها والتشهير بها ، بإيقاعهن فى شرك هواه والافتتان به مثلها ، فأعدت لهن مأدبة يُستعمل فى طعامها السكاكين ، وبينما هن يأكلن والسكاكين فى أيديهن يقطعن بها الطعام ، أخرجت يوسف عليهن ففوجئن بجماله الفتان فجرحن أيديهن بالسكاكين من شدة الذهول الذى أصابهن من جماله وقلن إعجابا به : « مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » .

وكانهن بهذه العبارة يقلن لها أنت معذورة فيما فعلت معه لروعة جماله وقوة تأثيره على النساء .

فلما ظفرت منهن بهذا الإقرار الذى يحمل معه الاعتراف بأنها معذورة فيما صنعت ، أجترأت على المصارحة بما لم تصرح به من قبل ، فقالت :

(فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) :

وبذلك التصريح كذبت نفسها فيما قالت لزوجها من أنه أراد بها سوءاً ، واعترفت بأنها هى التى راودته وأنه هو الذى امتنع أشد الامتناع وجاهد فى سبيل التخلص منها

وزادت على ذلك أنها مصرة على تحقيق رغبتها فيه من المخالطة لا يصرفها عنها لوم العوازل ، ولا إعراض الجيب فقالت مهددة له :

(وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ) :

ليعلم يوسف أنها ليست في أمرها معه على خفية ولا خيفة من أحد ، فتضيق عليه الحيل ، ولكي ينصحه أولئك النسوة بموافقتها ، وإزاء هذا كله ماذا صنع يوسف عليه السلام - هذا ما يجيب عنه قوله تعالى :

٣٣- (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) :

أي قال يوسف بعد هذا التهديد والوعيد : يارب دخول السجن آثر عندي وأسهل وأهون من المخالطة التي يدعونني إليها ، وإلا تصرف عني كيدهن بتثيبي على ما أنا عليه من العصمة والعفة ، وردعهن عني ، أجهن إلى ما طلبنه مني بمقتضى الطبيعة البشرية ، وأكن بذلك من أهل الجهالة والسفه ، الذين لا يعملون بما يعلمون ، فإن من لم يعنه الله على العفة والحصانة ، مع هذا الإغراء والقهر قد يخونه طبعه البشرى وجبلته ، وتتحكم فيه قوته الشهوية ، واعلم أن السجن في ذاته ليس محبوبا ، كما أن إجابتها إلى ما طلبته كذلك ، فهي والسجن شران غير محبوبين له ، ولكن أهونهما وأقربهما إلى نفسه هو السجن ، ليتخلص به من الفاحشة الكبرى فلذا عبر في جانبه بقوله :

(أَحَبُّ إِلَيَّ) : بمعنى أسهل على - على سبيل المجاز - وقد يقال إن أهون الشرين يحب أحيانا ، لأنه هو الوسيلة الوحيدة لتخليصه من شر أكبر وعلى أي حال فأفعل التفضيل على غير بابيه .

وما ينبغي التنبيه إليه أنه لم يرد في النص الكريم أن النسوة المدعوات للمأدبة ، دعونه إلى الاستجابة لامرأة العزيز ، ولا إلى الفاحشة معهن ، فلهذا يحمل قوله تعالى : (مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) على أنهم لما تأثرن بجماله إلى درجة أنهم قطعن أيديهن دعونه إلى مطاوعتها ، بل ربما طلبن منه مثلما طلبت منه ، وقيل : إن ضمير جمع النسوة في قوله : (مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)

إلخ راجع إلى امرأة العزيز إما للتعظيم لشأنها ، وإما للتعريض بدل التصريح ويرجح الرأي الأول قوله تعالى حكاية عن الملك : « قَالَ مَا خَطْبُكَ ؟ إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ » (١)

٣٤ - (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

أى تفضل عليه ربه الذى يتولى تربيته وحمايته فاستجاب له دعاءه الذى تضمنه قوله : « وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ » ولهذا ثبتته وأياسهن من موافقته لهن فصرف بذلك كيدهن عنه ، إنه - تعالى - عظيم السمع والعلم فلا يخفى عليه حاله ولا حال غيره ، وهكذا يستجيب الله سبحانه لأهل الصدق فى دعائه والاستعاذة به من كل مكروه .

(ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لَيْسَ جُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٣٥)
 وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجَنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا
 وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ
 نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٣٦)

الفردات :

(ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ) : ظهر للعزيز وأهل مشورته .

(آيَاتٍ) : العلامات الدالة على براءته .

(أَعْصِرُ خَمْرًا) : أى أعصر عنباً ، سمي باسم ما يؤول إليه لكونه المقصود .

(نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ) : أخبرنا بمآل ما رأيناه فى المنام .

التفسير

٣٥ - (ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لَيْسَ جُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ) :

أى ثم ظهر للعزيز وأهل مشورته من بعد ما رأوا العلامات الشاهدة ببراءة يوسف وانحراف امرأته والعلامات الدالة على أنها مصرة على مخالطته غير مكترثة بالفضيحة .

بدا لهم من بعد ذلك أن يسجنوا يوسف - عليه السلام - حتى زمن تنقطع فيه الإضاءة ويبدو للناس من سجنه أنه هو الذى أرادها بسوء فلهذا عوقب ، وليكون وجوده فى السجن حائلا بينها وبينه حتى لا تعود إلى مرادته .

تنبيه : لو أكره رجل على الزنى بالسجن فعليه الامتناع ولو سجن ، فإن فعل فهو آثم بالإجماع : انظر القرطبي فى تفسير الآية .

٣٦ - (وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ) :

يطلق الفتى على الشاب ، من الفتاء وهو الشباب ، ويطلق أيضًا على العبد صغيراً كان أو كبيراً كما قاله الماوردى .

وكان الفتيان اللذان دخلا السجن بصحبة يوسف عبيدين للعزيز ، أحدهما ساقيه ، والآخر صاحب طعامه وقيل : خبازه ، وروى بشأنهما روايات لا سند لها فلذا ضربنا صفحا عنها والمعنى : ودخل السجن مع يوسف فتيان من عبيد الملك ورأى كل منهما فى نومه حلمًا أحس بحاجته إلى تأويله لتستريح نفسه ، فإن السجين كثير الخوف من المستقبل محتاج إلى الطمأنينة وقد اعتاد البشر من قديم على الاستعانة بالأحلام للكشف بها عن المجهول ، وإذا لم يستطع الحالم تأويل حلمه لجأ إلى من يحسنه ويشتهر بذلك ، وكان يوسف - عليه السلام - يخبر السجناء ببعض الغيوب - كما سيأتى بيانه - فلهذا أخبراه بحلميهما ، قال أحدهما : إني أرى فى منامى أننى أعصر عنباً ليتحول إلى خمر بعد حين ، وقال الآخر : إني أرى فى منامى أننى أحمل فوق رأسى خبزاً تنقره الطير وتأكل منه ، ثم قال له بعد أن عرضا عليه حلميهما .

(نَبَّأْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) :

أى أخبرك كلاً منا بتأويل حلمه الذى عرضه عليك مفصلاً : إنا نراك من الذين يحسنون تفسير الأحلام ، حيث إنك تعودت أن تفسر للسجناء أحلامهم قبل أن نرى حلمنا .

وتأويل الإحسان بذلك هو الأقرب إلى المقام ، حيث عرضا حلميهما عليه ، لأنهما جريا خبرته مع غيرهم فى تأويلها إلى درجة الإحسان .

ومن المفسرين من حمّله على إحسان العلم ، وبه قال الفراء ، ومنهم من حمّله على الإحسان في المعاملة وذلك لأنه كان يعود المرضى ويدأويهم ، ويساعد المحتاجين ويواسي السجناء ويسرى عنهم ويصبرهم .

وقيل: معناه من المحسنين إلينا إن فسرته لنا وأرحت قلوبنا .

واختلف في رؤياهما ف قيل إنها مصطنعة وليست حقيقية ، فعن ابن مسعود : قال أحد الفتيين لصاحبه : تعال حتى نجرب هذا الفتى العبراني ، فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً ، قاله ابن مسعود .

وقيل: إنها صحيحة وهو الظاهر ، قال ابن عباس ومجاهد : كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها ، ولذلك صدق تأويلها .

(قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ
قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ
آبَائِي ابْرَهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ
مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾)

التفسير

٣٧ - (قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا) :

لما طلب السجينان من يوسف عليه السلام أن يعبر لهما حلميهما وقالوا له : (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) أخبرهما بما يحقق صحة ما اعتقدها فيه من أنه ممن يحسنون تأويل الأحلام

تحدثنا بنعمة الله عليه ، وذلك أنه قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا أخبرتكما قبل حضوره إليكما بنوعه وأوصافه ، فقد كان من عادته - صلى الله عليه وسلم - أنه قبل حضور الطعام إليهما ، يقول لهما : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت ، فيجدانه كذلك بعد حضوره ، وأطلق التأويل على ذلك تشبيهاً له بتأويل الرؤيا ، فإنهما يشتركان في الإخبار بالغيب .

ولما آنس منهما الثقة به وحسن الظن فيه ، حيث قالوا له : « إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أراد أن يفهمهما مصدر هذا الإحسان ، ومنشأ هذا العلم الذي تجلى به واستحق به صفة الإحسان ، فقال مخاطباً إياهما مشيراً إلى ما عنده من العلم .

(ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) :
أى ذلكما الذى عرفته من تأويل الرؤيا والإخبار بالمغيبات ، بعض ما علمنيه ربي بالوحي أو الإلهام من العلم ، فلست أخبركما به تكهنًا فما أنا بكاهن ، وقد علمنى ربي إياهما لأنى تركت ملة قوم مشركين لا يؤمنون بالله على الوجه الذى يليق بجلاله ، بل يشركون معه غيره ، وهم بالآخرة هم كافرون ، فلا يؤمنون بالبعث ولا بالنشور ولا بالثواب ولا بالعقاب ، والمراد من تركه للثمة أنه لم يدخلها أصلاً ، ولهذا قال فى الآية التالية : « مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » .

٣٨- (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) :

أى تركت ملة الوثنيين من قوى ، حيث نشأت متبعاً ملة آبائى الذين أرسلهم الله لهداية الخلق إلى ملة التوحيد ، وهم إبراهيم ومن بعده ولده إسحق ، ثم حفيده يعقوب والد يوسف عليهم السلام .

(مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) :

أى ماصح ولا استقام لنا معاصر الأنبياء ، أن نشرك بالله أى شىء من الكائنات العاقلة وغيرها ، فكلها مخلوقة لله وآيات شهادات بوجود الله ووحدانيته ، فلا يصح أن نعبدها مع الله .

(ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) :

أى ذلك المنهج الذى سلكناه فى عقيدتنا ناشئ من فضل الله علينا ، حيث أيدنا بالنبوة وجعلنا أهلا لتبليغ رسالته إلى الناس ، وقيادتهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم ومن فضله على الناس أيضا ، حيث وفقنا لإرشادهم إلى توحيدهم ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله بتوحيده وإجابة المرسلين إلى العمل بما جاءهم به ، مع أنه تعالى أقام الأدلة والآيات فى الأنفس والآفاق على استحقاقه وحده للعبادة .

(يَنْصَحِي السَّجْنَءَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(يَنْصَحِي السَّجْنَءَ) : المراد بهما الفتيان اللذان دخلا معه السجن ، ورأيا فى مناهما الحليمين وعرضاهما عليه ليعبرهما لهما .

(أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ) : متعددون لا ارتباط ولا اتفاق بينهم .

(الْقَهَّارُ) : الغالب الذى لا يدانى فى قهره ولا يعارض فى مراده ، ولا يستعصى عليه جبار ولا يفوته مطلوب . (مِنْ سُلْطَانٍ) : من حجة .

(أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا) : أسماء اتخذتموها دون أن يكون لها مسميات على الحقيقة .

التفسير

٣٩- (يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) :

بين الله تعالى فيما سبق من الآيات أن يوسف لما دخل السجن صاحبه فتيان وأنهما رأيا حلمين ، وطلبا من يوسف عليه السلام أن يعبرهما ، وأن يوسف قبل أن يعبرهما ذكر للسجينين المذكورين أنه اعتاد معهما أن يخبرهما بالغيب قبل حدوثه ، فكان لا يأتيهما طعام إلا أخبرهما بنوعه وحاله ووصفه قبل مجيئه ، حتى إذا جاءهما كان على وفق ما حدثهما به ، ثم بين لهما أن مصدر العلم بذلك هو الله ربه ، فهو الذي علمه إياه ، ولم يكن من باب الكهانة والتنجيم ، وأنه ترك ملة قومه المشركين ، فلم يشاركهم في شركهم وكفرهم بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وأنه لا يصح له ولا لأحد أن يشرك بالله شيئا ، وأن معرفة البشر بوحدانيته تعالى من فضل الله عليهم .

وجاءت هذه الآية لإقامة الدليل لصاحبي السجن على فساد الشرك ، وبيان أن الحكم في أمر العباد ليس إلا لله تعالى ، وأنه جل وعلا أمر أن لا يعبد أحد سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، لإفسادهم فطرتهم وسوء اختيارهم ، وأنت ترى من عرض هذه المعاني لتلك الآيات ، أن يوسف عليه السلام - لم يتعجل لإجابة صاحبي السجن بتفسير حلميهما كما طلبا ، بل بدأ يمارس معهما ما أعده الله له من النصيح والإرشاد لعباده ، والهداية إلى توحيده وعبادته ، كما هو شأن آبائه المرسلين عليهم السلام . وكان يرجو بذلك أن يهديهما الله تعالى إلى الحق ، فمن اهتدى منهما كان من أهل النجاة والسعادة ، ومن نجا منهما كان داعيا لمن حوله من بطانة العزيز إلى توحيد الله تعالى ، وكأنه يقول لهما : عندي العلم بتأويل رؤياكما فأنتما تعلمان أنه لا يأتيكما طعام إلا أخبرتكما بتأويله قبل أن يحضر إليكما ، ولكن تعالوا فاسمعوا أولا ما يطهر عقيدتكما من الشرك ، ويهديكما إلى معرفة الواحد الديان قبل أن أعبر لكما رؤياكما ، ثم قص عليهما مصدر علمه بالتأويل ، وتحدث عن ملة إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وأنه لا يصح الإشراك بالله ، لأنه لو تعددت الآلهة وتفرقت لفسدت السموات والأرض ، وهذا المعنى الأخير هو الذي أشار إليه قوله تعالى حكاية عنه :

(يَاصَاحِبِي ^(١) السَّجْنِ أَزْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) :

والمراد بصاحبي السجن الفتيان اللذان دخلا السجن معاقبين معه : وناداهما بعنوان الصحبة له في السجن لأن السجن مدار الأشجان ، ودار الأحزان ، التي تصفو فيها مودة نزلائه فلهذا ناداهما بعنوان الصحبة له ، ليقبلا عليه ويقبلا منه ما ينصحهما به .
والمعنى : يارفيقي اللذين رافقاني وصحباني في السجن أخبراني : أأرباب شتى متفرقون لا ارتباط بينهم ولا اتفاق ، خير لهذا الكون ، أم الله المتفرع من الألوهية والخلق والإيجاد .
الغالب لكل ما في السموات والأرض ، فلا يتعاصى عليه مقدور فيهما ، ولا يمنع عليه أن يخلق غيرهما ، فكيف يعبد المشركون سواه ، مع أنه مخلوق لله ، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا

وبعد أن نبه يوسف صاحبي السجن إلى فساد تعدد الأرباب ، بين لهما سقوط منزلتهما وفقدان أهليتهما للربوبية فقال لهما كما يحكيه الله تعالى :

٤٠- (فَاَسْمِعْهُمْ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمِعَتْهُمَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ) :

الخطاب في قوله (فَاسْمِعْهُمْ) لصاحبي السجن وقومهما ، ولذا قال بعد ذلك (سَمِعَتْهُمَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ) بخطاب الجماعة أو المراد بالجمع مافوق الواحد ، ثم عطف عليهم آباءهم .
والمعنى : ما تعبدون يا قوم عزيز مصر إلا أسماء ليس لها مسميات في الحقيقة فكل ما عبدتموه وأطلقتهم اسم الألوهية عليه لا يستحق الألوهية ، وتكون عبادتكم لتلك التي زعمتموها آلهة ، عبادة أسماء ليس لها مسميات في الواقع .

(مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) :

أى ما أنزل الله بألوهيتها من حجة تصحح ألوهيتها وتسوغ عبادتها .
(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) : ما الحكم في الألوهية وغيرها إلا لله سبحانه ، والله لم يحكم بها لأحد سواه ، لأنه لا إله غيره ، ولا يستحق الألوهية سواه فكل ما عداه عبده ومحتاج إليه ، فلهذا (أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) : وعقب هذا بقوله (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) .

(١) أصله يا صاحبي لى في السجن فأضيف الصاحبان إلى السجن الذى هو ظرف لهما وموضع لصحبتهما ، ومن هذا الاستعمال قول العرب : يا سارق الليلة أهل الدار : أى يأسارقا في هذه الليلة أهل الدار .

هكذا يحكى الله تعالى ما دار بين يوسف وصاحبيه في السجن وخلاصته : أنه أعلمهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة لا تصلح للألوهية ، وأنها أسماء بلا مسميات وألوهيتها دعوى بغير دليل ، وأن المستحق للألوهية هو الله وحده ، ولهذا لم يحكم بها لسواه ، بل أمر أن لا يعبدوا غيره ، وأخبر أن ذلك هو الدين المستقيم الذى أجمعت على استقامته وضحته الأدلة العقلية والعقلية ، ثم قال :

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

أى ولكن أكثرهم يجهلون أن ذلك هو الدين المستقيم دون سواه ، لأنهم لم يستعملوا عقولهم في الاستدلال على الحق سبحانه بآياته .

وبعد أن بين يوسف عليه السلام لصاحبي السجن أن عبادة الله تعالى هي الحق ، وأنها خير لهما من عبادة الأرباب المتفرقين الذين ليس لهم من صفة الألوهية أدنى نصيب ، وأن الحكم لله وحده في الكون كله ، فلا ألوهية لأحد سواه ، وأنه تعالى أمر أن لا يعبدوا إلا إياه ، وأن هذا هو الدين القيم - بعد أن بين لصاحبي السجن كل ذلك - شرع يعبر لهما ما رآياه في النوم ويفسره لهما فقال :

(يَلْصَحِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَابُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(فَيَسْقِي رَبَّهُ) : أى فيسقى سيده . (تَسْتَفْتِيَانِ) : تطلبان الفتيا .

(عِنْدَ رَبِّكَ) : عند سيدك . (بِضْعَ سِنِينَ) : البضع ، العدد من الثلاث إلى التسع ،

واشتهر أن يوسف مكث في السجن سبع سنين .

التفسير

٤١- (يَا صَاحِبِي السُّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ) :

كرر يوسف النداء هنا لصاحبي السجن بعد أن أطلال الحديث معهما في دعوتهما إلى الحق، تنبيهاً على أنه سيدخل بهما موضوعاً آخر مغايراً له، وهو تعبير حلميهما الذي طلباه، يقول يوسف: يا صاحبي في السجن، إليكما تعبير رؤيا كليكما، أما أحدكما - وهو الذي رأى في منامه أنه يعصر خمرًا - فإنه يعود إلى خدمة سيده الملك بعد أن يعفو عنه ويخرج من السجن، وسيقوم على شرايه فيسقيه خمرًا، وأما الآخر - وهو الذي رأى في منامه أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل منه الطير - فإنه يصلب فتأكل الطير من رأسه، ثم أغلق الباب دون التساؤل أو التضرر مما أفتاها به فقال :

(قَضَى الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) :

أي أتم الأمر الذي كنتم تستفتيان فيه وأحكم، ولم يعد فيه مجال للافتراض أو العدول عنه، فهو إخبار موافق لما علمه ربه إياه وأرشدته إليه، وليس فيه حدس ولا تخمين، والمراد بالأمر الذي فيه يستفتيان: ما رأياه من الرؤيتين، وليس المراد مآلهما الذي هو نجاة أحدهما وهلاك الآخر - كما قال العلامة أبو السعود - فكأنه قال - عبرت لكما رؤييكما وأنا واثق من صدق تعبيرهما .

٤٢- (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السُّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) :

أي وقال يوسف للسجين الذي ظن نجاته من صاحبي السجن - وهو الذي رأى في منامه أنه يعصر لسيده الملك خمرًا - وأفتاه بأنه سيعود إلى خدمته، قال يوسف لهذا السجين: اذكرني عند سيدك الملك حين تعود إلى خدمته، وحدثه عن تعبيرى لرؤياك ورؤيا صاحبك حتى تحقق أمرهما على ما أخبرتكما، وأخبره أنني مظلوم حبست بلا ذنب، لعله يخرجني من السجن، وبمحو هذا الظلم عني .

وكان يوسف يرجو أن يسارع بإخبار الملك حين يعود إلى خدمته ، وفاءً بعهدده معه ، وإدراكاً منه لما يقاسيه السجين في السجن من العذاب النفسى ، والحرمان من الحرية ، فقد شاركه في ذلك . ولكن الشيطان الذى يكره الوفاء بالعهد أنساه تذكير سيده الملك بأمر يوسف . حيث شغل قلبه بما استجد له من نعمة الحرية والعودة إلى العمل فى قصر الملك . وشواغل الخدمة المتتابعة لسيده . فمكث يوسف فى السجن بعد خروج صاحبه السجين بضع سنين - والبضع من الثلاث إلى التسع كما تقدم - ويقال إنه مكث فى السجن سبع سنين .

وأعاد بعض المفسرين الضمير فى قوله تعالى : (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) إلى يوسف عليه السلام . أى فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه سبحانه . فلجأ إلى صاحبه السجين وقال له : اذكرنى عند ربك - أى سيدك الملك - فعاقبه الله بأن أبقاه فى السجن بضع سنين ، جزاءً له على تركه الاعتماد على الله تعالى . والميل فى طلب النجاة إلى عبد من عبده . وكان عليه أن يشكو إلى الله ويستغيث به .

وأصحاب هذا القول اعتمدوا على أحاديث واهنة لا يصح الأخذ بها . وما يظن أحد من المنصفين وأهل التحقيق أن يوسف ترك الشكوى إلى الله . وهو الذى استعاذ بالله من خيانة العزيز الذى أحسن مثواه . وعف عن الحرام والإثم الذى كانت تدفعه إليه زوجته الخاطئة بشئى المغريات ، وهو الذى دعا السجينين إلى توحيد الإله سبحانه وترك الأرباب المتفرقين ، الذين هم أسماء بلا مسميات . والحق ما قلناه أولاً من أن الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو ساقى الملك ، والدليل الحاسم على ذلك هو قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ » : أى وقال الذى نجا منهما وتذكر يوسف بعد مدة طويلة : الخ ، كما أنه لا مجال لأن يتسلط الشيطان على نبي فينسيه ذكر ربه وهو يقول سبحانه : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »^(١) على أن الأخذ بالأسباب مشروع قال تعالى : « فَاْمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ »^(٢) .

(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ
عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ
أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾) قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ
وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(عِجَافٌ) : جمع عجفاء على غير قياس^(١) والعجفاء الهزيلة . (الْمَلَأُ) : الأشراف والمراد
بهم هنا الكهان والحكماء . (أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ) : فسروها لي وبينوا عاقبتها .
(أَضْغَتْ أَحْلَامٌ) : أخلط أحلام لا تتوول ، والأضغاث جمع ضغث ، يقال لكل
مختلط من بقل أو حشيش أو غيرها ، وقد استعير للرؤيا الغامضة لفظ الأضغاث ،
لأنها أخلط من أحاديث العقل الباطن وخیالاته ومخاوفه وآلامه وآماله .

التفسير

٤٣- (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ
خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ) :

بعد أن عبر يوسف الرؤيين وتحقق تأويله لهما ، حيث قتل الخباز وصلب ،
وأخرج الساق من السجن وأعيد إلى خدمة الملك ، بقي يوسف في السجن ، ونسى الساق
أمره ، فساق الله سبباً يخرج به يوسف من السجن عزيزاً كريماً ، وذلك أن ملك
مصر رأى في منامه رؤيا أزعجته ، فجمع كبار الكهنة والحكماء في مملكته وقال لهم
مستحضراً للصورة التي شاهدها في منامه : إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ، يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ
بَقَرَاتٍ فِي غَايَةِ الْهَزَالِ ، وَأَرَى سَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ قَدْ اِمْتَلَأَتْ بِالْحَبِّ وَلَمْ تَجِفْ بَعْدَ ،

(١) القياس أن تجمع على صيغة كحمراء وحمر .

وسبع سنبلات أخر قد يبست وجف حبها ونضج ، وبعد أن قص هذه الرؤيا على حكمائه ومستشاريه من الكهنة ناداهم قائلاً :

(يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) :

أى يأيها الرؤساء من الكهنة والحكماء ففسروا لى رؤيائى ، وبينوا لى حكمها ومآلها ، إن كنتم لجنس الرؤيا تعرفون تفسيرها ، حتى تستطيعوا أن تنتقلوا من الصور الرمزية المشاهدة فى المنام ، إلى صور وأمثلة لها فى حقائق الحياة ، وعبرُ الرؤيا مأخوذ من العبور وهو المجاوزة ، تقول عبرت النهر أى قطعته وجاوزته ، وكذلك يفعل مفسر الرؤيا ، فإنه يعبر بها من الخيال إلى الحقيقة ، أما تأويلها فمعناه بيان مآلها فى ظاهر الحياة ، وعبر الرؤيا وتعبيرها بمعنى واحد ، غير أن الأول لغة القرآن ، فهو أولى من الثانى ، وبعد أن سألهم إفشاءه فى رؤياه إن كانوا يستطيعون عبر الأحلام أظهروا عجزهم ، وذلك ما يحكيه الله تعالى بقوله :

٤٤ - (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ) :

أى قال الملأ من الكهان والحكماء : هذه الرؤيا أخلط أحلام كأضغاث النبات المختلطة ، فلا تأويل لها عندنا ، يريدون بذلك أن يخرجوا رؤيا الملك من جنس الرؤى الصادقة التى يمكن تأويلها لأهل العلم ، وأن يجعلوها من جنس الأحلام الكاذبة ، التى لا يستطيع تأويلها ، ولهذا قالوا : (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ) ويجوز أن يكون هذا القول منهم اعترافاً بقصور علمهم عن تأويل الأحلام مطلقاً لأنهم ليسوا بنحارير^(١) - كما قال أبو السعود - وإطلاق الأحلام على الكاذب منها والرؤى على الصادق منها عرف غالب ، وإن كان كلاهما عاماً فى الصادق والكاذب ، ولهذا قالوا أخلط أحلام ، يريدون أنها ليست من الأحلام الواضحة التى يمكن تأويلها ويصدق مدلولها وقد سوى صاحب القاموس بينهما بقوله : الحلم بالضم وبضمين الرؤيا .

(١) أى ليسوا علماء متعمقين فى تأويل الأحلام مع أن لها تأويلاً .

(وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ
بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ
بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ
وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ٤٦)

المفردات :

(وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) : قرئ بضم همزة (أُمَّةٍ) وتشديد ميمها مفتوحة ^(١) ، أى وتذكر
بعد جماعة كثيرة من الزمن ، قال الأخفش : هو فى اللفظ واحد . وفى المعنى جمع : أ هـ .
وكل جماعة كثيرة فهى أمة . (الصِّدِّيقُ) : الكثير الصدق .

التفسير

٤٥ - (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) :

أى وبعد أن عرض الملك رؤياه على رهبانه وحكمائه ، وعجزوا عن تأويلها قائلين
« وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ » قال الذى نجا من صاحبي يوسف فى السجن ،
والتحق بخدمة الملك ساقياً له ، وقد تذكر يوسف وقدرته العظيمة على تأويل الرؤيا .
وأنه أوصاه أن يذكره عند سيده لعله يخرج من السجن لأنه مظلوم « وَقَالَ الَّذِي نَجَا
مِنْهُمَا » للملك وأهل مجلسه : أنا أخبركم بتأويل حلم الملك بعد أن أعرفه من عليم بتأويل
الأحلام فأرسلوني إليه لأسأله .

٤٦ - (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ
وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ) :

أى فأرسلوه إليه . فناداه نداءً يشتمل على الثقة بصدقه العظيم فى أمره كله ، وبخاصة
فى تأويل الرؤيا حسبما جربه منه وشاهد أحواله ، إذ قال له فى براعة استهلال : يا يوسف

(١) وقرئ (بعد أمة) بكسر الهمزة وتشديد الميم ، ومن معانيها . النعمة وزغادة العيش ، وقرئ (بعد أمة) بهجرة
مفتوحة . ومعنى مفتوحة مخففة وهاء مهله . أى بعد نسيان . ومنه قول الشاعر :

أهت وكنت لا أنسى حديثاً كذاك الدهر يودى بالمقول

أيها البليغ الصدق : أفنتا في رؤيا سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع بقرات شديدة الهزال
وأفنتا في سبع سنبلات خضر مليئة بالحب وسبع سنبلات أخر يابسات ناضجات الحب ،
وبين لنا مآلها وحكمها في عالم الشهادة .

ولمّا قال ليوسف (أفنتا) بضمير الجمع مع أنه وحده هو المستفتى ، للإشعار بأن
الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له شأن في أمور الناس . وأنه في حكايتها سفير لغيره ،
ولهذا ختم استفتائه بقوله :

(لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) :

أى لكى أرجع إلى من بيدهم الأمر ليعلموا تأويلها ويعملوا بمقتضاه ، وليعلموا فضلك
ومكانك العلمى العظيم مع ما أنت فيه من الحال ، فينتبهوا إليك ويخلصوك مما أنت فيه .
ولم يقل : لأرجع إلى الناس ليعلموا ، بل عبر بأسلوب الرجاء (لَعَلِّي أَرْجِعُ) الخ
جرياً على نهج الأدب مع يوسف ، واحترافاً عن المجازفة بأسلوب اليقين ، لأنه لم يكن على
يقين من رجوعه ، فربما اخترمته المنية قبل أن يعود إلى مجلس الملك ، كما أنه لم يكن
على يقين من بقائهم حتى يعلمهم ، فإن العالم بذلك كله هو الله - تعالى - وحده .

(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ
إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ
يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ ٤٩)

المفردات :

(دَأْبًا) : مصدر دأب في العمل - أى جدّ فيه . (سَبْعٌ شِدَادٌ) : سبع سنين صعب على
الناس . (مِمَّا تَحْصِنُونَ) : مما تدخرون من البذور . (يُغَاثُ النَّاسُ) : من الغيث أى يمطرون في

وقت الحاجة ، يقال غِيِثَتِ البلاد إذا مطرت في وقت الحاجة ، ولذا يسمى المطر في هذه الحالة غيثا ويصح أن يكون من الغوث ، يقال أغاثنا الله أى أمدنا برفع المكاره حين داهمتنا .

التفسير

٤٧- (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ) :

لما انتهى رسول الملك من إخبار يوسف برؤيا الملك التي أزعجته ، أول يوسف البقرات السماء والسنبلات الخضربسنيين مخصبات ذات زروع وثمار كثيرة ، وأول البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بسنيين مجدبة تؤكل فيها حبوب جافة مخزونة في سنبال جافة ، ووصف الطريقة التي يجتازون بها أزمة المجاعة في سبع سنين متتابعة ، فقال لسائله بعد إحساسه وإدراكه أن السائل هو الملك : تزرعون الأرض سبع سنين دائبين جادين غير متوانين ولا كسلين ، حتى تجود الأرض بأقصى خيراتها وأغزر ثمارها وحبها ، فتلك السنوات السبع ذات الزروع والثمار الغزير هي تأويل البقرات السبع السماء والسنبال الخضر البائعات ، فما حصدتموه في كل سنة فاتركوه واخزنوه في سنباله ولا تجردوه لكي ينجو من أكل السوس ، إلا قليلا من حبها تعدونه للأكل كل عام فليس عليكم بأس من تجريده من سنباله .

فأنت تراه قد استدل على زراعة القمح سبع سنين دأبا بالسنبالات السبع الخضر فهي إشارة إلى السنوات السبع الخصيبة ، واستدل على تخزين القمح في سنباله سبع سنين بالسنبالات السبع اليابسات ، واستدل على أن السنوات السبع الأخيرة ستكون جدباء وأنه يجب الاحتياط لها بتخزين الطعام ، استدل على ذلك بالبقرات السبع العجاف التي أكلت البقرات السبع السماء كما سيأتى بيانه ، ويبدو أن تخزين القمح في سنباله لمدة طويلة تصل إلى سبع سنين لم يكن معروفا لدى قدماء المصريين ، فقد كانوا يزرعون لكل عام ولا يحرمون من فيضان النيل سبع سنين متتابعة فلذا أرشدهم يوسف إلى هذه الطريقة المثلى في التخزين لمدة طويلة ، ولا عجب في أن يخبرهم بها

يوسف - عليه السلام - مع أنه لم يألف مثل ذلك ، فقد علمه ربه علوماً كثيرة ، وحسبك دليلاً على ذلك قوله لصاحبي السجن : « ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » .

وقد قال القرطبي تعليقا على هذه الآية ما يلي :

هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال ، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يفوت شيئاً منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة ، ولا خلاف في أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ، ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ومراعاة ذلك فضل من الله - عز وجل - ورحمة رحم بها عباده من غير وجوب عليه الخ .

ثم شرع يوسف يبين بقية التأويل فقال :

٤٨ - (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ) :

أي ثم يأتي من بعد السنين الخضراء التي تجدون وتتعبون في الزرع فيها فتأكلون منه وتدخرون من حبه - يأتي من بعد ذلك - سبع سنين صعبة على الناس يأكلن ما قدمتم لهن من الحب المتروك في سنابله إلا قليلاً مما تدخرونه منها لبذور الزراعة ، وإسناد الأكل اليهن مع أن الآكلين هم الناس ، على سبيل المجاز كما في قولهم : نهاره ضائم ، وفي هذه الآية تأويل أكل البقرات السبع العجاف التي هي رمز للسنوات السبع الجذباء للبقرات السبع السماء التي هي رمز للسنوات السبع الخصبة .

٤٩ - (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) :

أي ثم يأتي من بعد ما ذكر من السنين الخصيبة والجذباء عام فيه يمحط الناس بالغيث الذي كانوا محرومين من تتابعه وغازاته سبع سنين ، وفيه يعصرون ما يقبل العصر من الثمار والحب وغيرهما ، كالعنب والزيتون والسمسم والقصب . وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع .

(وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ
إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بِأَلِ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي
بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ
نَفْسِهِ ۖ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ
الْعَزِيزِ الَّتِي حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

- (مَا بِأَلِ النَّسْوَةِ) : محالهن .
(مَا خَطْبُكُنَّ) : ما شأنكن ، والخطب الأمر الذي يستحق أن يخاطب المرء فيه صاحبه .
(قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ) : تنزيها لله وتعجباً من نزاهة يوسف .
(حَصَّصَ الْحَقُّ) : وضع بعد خفاء ، وأصله بمعنى تبينت حصة الحق من حصة الباطل .
(لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) : أى لا ينفذه ولا يوصله إلى غايته .

التفسير

٥٠- (وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بِأَلِ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) :

بعد أن سمع رسول الملك من يوسف تأويل الرؤيا عاد وأخبره بما سمعه من يوسف ،
ويبدو أنه حدثه بعلمه وفضله وخلقته وأنه قد حبس ظلماً سنين كثيرة ، فعرف فضله
على خاصته وكهانه وأدرك أن حقه في الحرية والكرامة ينبغي أن يرد إليه .

وقال : انتوني بيوسف ، فلما جاءه الرسول يدعوه إلى لقاء الملك لم يشأ أن يجيبه إلى طلبه قبل أن تظهر براءته ، بل قال له : ارجع إلى سيدك فاسأله ما حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ودعونه إلى الفحشاء ، يريد بذلك أن يحقق الملك في شأنهن معه ليعلم نزاهته مما نسبته إليه من مراودته إياهن .

ولمّا لم يتعرض يوسف لامرأة العزيز مع أنها أصل البلاء ، محافظة على حقها ، وتفادياً لمكرها ، وأما النسوة فقد كان يطمع في شهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ، لذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدي . ولم يصرح بمراودتهن له وقولهن أطمع مولاتك ، واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله :

(إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) : مجاملة لهن . واحترازاً من خصومتهم له دفاعاً عن أنفسهن ، إذا سمعن أنه ينسبهن إلى الفساد .

٥١ - (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ) :

قال الملك لما جاء الرسول بطلب يوسف أن يحقق مع النسوة : ما شأنكن حين راودتن يوسف وخادعتنه عن نفسه بترغيبه في إطاعة مولاته هل وجدتن فيه من سوء وريبة .

(قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) .

أي قلن مجيبات للملك : « حَاشَ لِلَّهِ » أي تنزيهاً لله . يردن بذلك تبرئة يوسف والاعتراف بنظافته وعفته . ولذا عقبن هذه العبارة بما أردنه منها وهو قولهن : (مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) : مبالغة منهن في نزاهة يوسف عن جنس السوء . فضلاً عن الفحشاء .

(قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ) : مقرة بالحق في مجلس التحقيق .

(الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ) : أي الآن في هذا المجلس تبين

الحق ووضح بعد خفاء ، أنا راودته عن نفسه

(وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) : في تنزيهه نفسه عن مراودته لى عن نفسه ، وهكذا يحق الله

- تعالى - الحق على رؤوس الأشهاد . إظهاراً لكرامة الصادقين من عباده ، وبذلك تحقق

ليوسف ما أراد من ظهور براءته ونزاهته قبل خروجه من السجن في هذا المجلس الحافل ،

حتى يطمئن الناس إلى طهره بقينا ، ولا سيما العزيز الذى ربه ، ولذلك قال يوسف عقيب ذلك .

٥٢ - (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) :

أى ذلك الذى تقدم من البقاء فى السجن حتى يسأل الملك النسوة ، وتظهر براءتى مما نسبته امرأة العزيز إلى ، ليعلم العزيز قبل خروجى من السجن علماً صادراً عن اعتراف زوجته - ليعلم - أنى لم أخنه بالغيب وراء الأبواب المغلقة والستور المرخاة ، كما زعمت امرأته ، وليعلم أيضاً أن الله تعالى لا يُنْفَذُ كيد الخائنين ، ولا يوصله إلى السداد بل يبطله كما فعل بزوجه ولو كنت خائناً له فيها لفضحنى ولم يهد كيدي كما فعل بها .
ويعلم مما تقدم من التأويل أن هذه الآية حكاية لما قاله يوسف - عليه السلام - تبريراً لإصراره على إظهار براءته قبل خروجه من السجن ، حتى لا يحمل خروجه قبل ذلك على أنه من باب العفو عنه مكافأة له على تأويل رؤياه ، ولعله قال مضمون هذه الآية : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ) الخ بعد أن عاد إليه رسول الملك وأخبره بما جرى فى مجلس التحقيق من ظهور براءته ، وعلى هذا التأويل يكون قوله تعالى : « وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي » .

حكاية لكلام يوسف بعد ما ظهرت براءته بإقرار النسوة أمام الملك وجلسائه .

وقيل إن الآيتين حكاية لكلام امرأة العزيز ، ومعنى هذه الآية على أنها حكاية لكلامها : ذلك الذى قلته عن يوسف وهو غائب عن هذا المجلس وحبيس فى السجن من أننى راودته عن نفسه ، ليعلم أنى لم أخنه ولم أكذب عليه فى حال غيبته عن هذا التحقيق ، بل قلت الحق الذى أنكرته عبر هذه السنين ، وليعلم أن الله لا يهدى كيد الخائنين .
وسبأى بيان قوله تعالى « وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ » على الوجهين المذكورين .

واعلم أن يوسف - عليه السلام - بلغ من النزاهة وكرم النفس مبلغاً عظيماً وحسبك أنه لم يتعجل الخروج قبل أن تظهر براءته علنية على هذا النحو المشرف ، مع أنه

لبث في السجن سنين كثيرة قال ابن عطية تعليقاً على ذلك : كان هذا الفعل من يوسف أناة وصبراً ، وطلباً لبراءة الساحة ، وذلك أنه خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة فيقول الناس : هذا هو الذي راود امرأة مولاه ، وقد صفح عنه الملك ، ويراها الناس أبداً بتلك المنزلة ، فأراد أن يبين براءته ، ويحقق منزلته من العفة والخير ، ويخرج بعد شرف البراءة ليحظى من الملك بالمرتبة السنية على طهر وكرامة ، فلهذا قال للرسول : ارجع إلى ربك لينظر في أمري : هل سجنتم بحق أو بظلم : اهـ ملخصاً ولقد أعظم النبي - صلى الله عليه وسلم - مكانته من الصبر والنزاهة وعزة النفس والكرامة فقال :

« إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنَ الْكَرِيمِ ^(١) يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ - وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثْتُ ثُمَّ جَاءَنِي الرَّسُولُ أَجَبْتُ - ثُمَّ قَرَأَ : « فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » .

الحديث : أخرجه الترمذي في صحيحه - والحديث مروي في الصحاح بعبارات متقاربة .

والنبي - صلى الله عليه وسلم - مع كونه يشير في الحديث إلى مكانة يوسف من الصبر والنزاهة ، لكنه يوصي إلى أنه بالغ في ذلك ، وأنه كان الأحوط أن يخرج حتى لا يعدل الملك عن إخراجه لأنه لم يجب طلبه بالحضور إليه ، ولأن هذه المرأة إن كانت زوجته أو زوجة وزيره فإن سؤال النسوة عنها سينتهي إلى فضيحتها ، فربما عدل عن سؤالهن لذلك ، وآثر إبقائه في السجن ، لا شراطه للخروج شرطاً يؤدي تحقيقه إلى هذه الفضيحة ، فيظل مسجوناً ظلماً .

وقال ابن عطية : فإن قيل : كيف مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج ، ثم يذهب بنفسه عن حالة مدح بها غيره ، فالوجه في ذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - إنما أخذ لنفسه وجهاً آخر له جهة من الجودة

يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج ، ثم حاولت بيان عذري وبرائتي بعد ذلك ، لأن هذه القصص والنوازل معرضة لأن يقتدى بها الناس إلى يوم القيامة ، فأراد الرسول - صلى الله عليه وسلم - حمل الناس على الأحزم من الأمور حتى لاتضيع فرصة الخروج من السجن في مثل ذلك ، وتنصرف نفس مخرجه عنه . وإذا كان يوسف قد آمن ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لا يأمّن ذلك فالحالة التي ذهب النبي - صلى الله عليه وسلم - بنفسه إليها حالة حزم . وما فعله يوسف عليه السلام صبر وجلد : انتهى ملخصاً .

(* وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِيَّ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٥٣)

التفسير

٥٣ - (وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِيَّ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) :
قلنا في آخر الجزء السابق يحتمل أن تكون هذه الآية والتي قبلها من قول يوسف عليه السلام أو من قول امرأة العزيز ، وقد شرحنا الآية السابقة على الوجهين . وفيما يلي شرح هذه الآية عليهما :

إذا كانت هذه الآية من قول يوسف يكون معناها : وما أبرئ نفسي عن السوء والخطيئة بغير معونة من الله سبحانه ولا أسند إليها هذه الفضيلة باعتبار طبعها من غير توفيق من الله تعالى ، فإن النفس البشرية في حد ذاتها لداعية إلى السوء ، مائلة إلى الشهوات ، إلا ما رحم ربِّي من النفوس بعصمتها من الوقوع في الممالك ، وفي جملتها نفسي ، إن ربِّي لعظيم الغفران لما يحدث من النفوس بموجب طبعها ، عظيم الرحمة لها بعصمتها من الخطيئة التي تسوقها إليها بشريتها ، وإنما يقول ذلك يوسف - عليه السلام - هضماً لنفسه الكريمة البريئة عن كل سوء ، وإبعاداً لها عن الإعجاب بما وصلت إليه من كمال النزاهة .

وإذا كانت هذه الآية من كلام امرأة العزيز يكون معناها : وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة ، حيث قلت في حق يوسف ما قلت ، وفعلت به ما فعلت ، إن كل نفس لأماراة بالسوء إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف عليه السلام ، إن ربِّي غفور لمن استغفر لذنبه ° ، رحيم له بقبول استغفاره .

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ
قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ
الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(اَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي) : أجعله خالصاً لى أى خاصاً لى .

(مَكِينٌ أَمِينٌ) : ذو مكانة رفيعة مؤتمن على كل شيء .

(حَفِيظٌ عَلِيمٌ) : قوى الحفظ كثير العلم .

التفسير

٥٤- (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي) :

ولما ثبت للملك براءة يوسف مما نسبته امرأة العزيز إليه ، وتحقق أنه أمين لا يخونه بالغيب ، وأدرك صبره وجلده وإيثاره السجن على ما تدعوه إليه امرأة العزيز وصواحبها وعرف مبالغته فى حماية نفسه من قالة السوء ، بطلبه التحقيق مع أولئك النسوة قبل خروجه من السجن ليتلقاه الملك نظيفاً محكوماً ببرأته ، بدلا من أن يقابله قبل ذلك متهماً عفا عنه الملك لأنه أول رؤياه لا لأنه برىء - ولما ثبت للملك كل ذلك - قال الملك لرجاله : أحضروا لى يوسف أتخذه خالصاً لنفسى فى تدبير أمور مملكتى وليكون صاحب مكانة خاصة عندى .

وإذا نظرت لى أسلوب الملك فى طلب إحضار يوسف إليه فإنك تراه أولاً بعد أن علم بتأويله رؤياه قال : (ائْتُونِي بِهِ) ولم يزد على ذلك ، فلما ظهر إياؤه ووضحت أمانته وعفته فى قصة امرأة العزيز ، عظمت منزلته عنده ، فطلبه ليكون ذا مكانة ممتازة لديه

خاصة به ، بحيث لا يكون لأحد سلطان عليه سواه ، وذلك بقوله :

(ائْتُونِي بِهِ أَنتَخِلُ مِنْهُ لِنَفْسِي) . وهكذا يرفع الله درجات أهل العلم والأمانة والعفة .

(فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) :

أى فاتوا بيوسف فلما كلم يوسف الملك بما يناسب لقاء الملوك الذين يردون الحق لأهله وينصفون المظلوم ، قال له الملك إنك يا يوسف عندنا ابتداءً من هذا اليوم ذو مكانة رفيعة ومنزلة ممتازة ، وإنك أمين على كل شيء لدينا ، بعد ما عرفناه فيك من العلم والشرف والأمانة .

وبعد أن اختار الملك يوسف مستشاراً له فيما هو مقبل عليه من أمره كله ، وأعلمه بأنه عنده ذو مكانة ممتازة ابتداءً من هذا اليوم الذى يحدثه فيه ، وأنه أمين عنده أمانة مطلقة ليست لها حدود ، وبعد أن علم يوسف ما تحتاج إليه أرض مصر وأهلها فى السنين السبع الخصيبة والسنين السبع العجاف من حسن التدبير والحزم والحفظ والعلم والأمانة وأن ذلك كله قد من الله عليه به - بعد أن حدث كل ذلك - عرض يوسف على الملك أن يعهد إليه بإدارة البلاد وذلك ما حكاه الله بقوله :

٥٥ - (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) :

أى اجعلنى واليا على مصادر خيرات أرض مصر ، زراعة وحصادا ، وإيرادا وصرفا ، وبيعا وخزنا ، وتدبيرا ، فأنى حفيظ لها من التبذير والتفتير والإفراط والتفريط ، عليم بوجوه التصرف فيها والحفظ لها ، وقد كان يوسف فى كل ذلك أقدر من غيره .

وفى الآية دليل على جواز طلب الولاية ، إذا كان طالبها قادراً على نفع العباد وإقامة العدل بينهم وإجراء أحكام الشريعة فيهم ، والبعد عن التلوث بمظالم الحكام ومآثمهم .

وأما ما ورد فى الصحيح من النهى عن طلب الولاية فمحمول على ما إذا كان طالبها لا يقدر على القيام بتبعاتها ، والنجاة من مآثمها .

ومن ذلك ما أخرجه مسلم عن أبى بريدة قال : قال أبو موسى : أقبلت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومعى رجلان من الأشعرين أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى ، فكلاهما سأل العمل والنبي صلى الله عليه وسلم يستأك فقال : « ما تقول يا أبا موسى -

أو يا عبد الله بن قيس ؟ قال : قلت والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل - قال - وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت^(١) فقال : لَنْ أَوْ لَا نَسْتَعْمِلُ عَلَى عَمَلِنَا مَنْ أَرَادَهُ » وذكر الحديث . ومن ذلك أيضًا ما رواه مسلم عن عبد الرحمن بن سُمرة قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها » . وقد استفيد من الآية أيضًا بإباحة طلب الرجل القادر الفاضل أن يعمل للرجل الكافر ، بشرط أن لا يكون عمله لديه وفق شهواته وفجوره ، وإلا فلا يجوز .

ويستفاد منها أيضًا أنه لو علم إنسان أنه لا يقوم سواه بمصالح الناس في عدل وكفاية سواء كان ذلك في ولاية أو قضاء أو نحوهما ، وجب عليه أن يطلب ذلك ، ويخبر بصفاته التي تجعله صالحا للقيام بها ، من العلم والحفظ والكفاية كما قال يوسف :

(اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) :

فقد سألها بالحفظ والعلم لا بالنسب وغيره ، فإن كان هناك من يقوم بها ويصلح لها سواء ، وعلم بذلك فالأولى أن لا يطلب لقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمره : « لا تسأل الإمارة » الحديث .

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ
نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا أَجْرُ
الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ
يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾)

المفردات :

(مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) : جعلنا له في أرض مصر مكانة رفيعة أقدرناه بها على ما يريد .

(يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) : ينزل من بلادها ومن أمورها وقلوب أهلها حيث يشاء

(نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا) : نجود بنعمتنا .

التفسير

٥٦ - (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) :

ومثل ذلك التمكين في قلب الملك ، مَكَّنَّا ليوسف في أرض مصر ، حيث ثبتنا فيها مكانته العظيمة ، وأقدرناه فيها على ما يريد في جميع نواحيها ، فقد شملها سلطانه، فكأنها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل في منزله ومكانه، وكان ذلك بعدل وحكمة . روى أن الملك لما فوض أمر مصر إلى يوسف تلطف بالناس، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا ، وأقام فيهم العدل فأحبه الناس ، وكانت له بذلك مكانة رفيعة بينهم .

(نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) :

نصل بنعمتنا مَنْ نَشَاءُ ولا نفوت على المحسنين شيئاً من أجرهم ، بل نوفيه بكماله لهم ، وكذلك فعلنا مع يوسف حين أحسن ، فقد كافأناه بسلطانه العظيم على مصر وأهلها مع كامل المحبة والرضا .

٥٧ - (وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) :

أى وإن أجر المحسنين في الآخرة لأعظم من أجرهم في الدنيا ، وقد عبر عنهم بالذين كانوا يتقون ، للإيدان بأن الإحسان الذى يستحق صاحبه الثواب الأخرى ، هو الذى كان أساسه الإيمان والتقوى .

٥٨ - (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) :

كان للقحط الذى حل بمصر فى السنين العجاف ، أثره على أرض كنعان بالشام فبعث يعقوب عليه السلام أولاده لشراء قمح وطعام من مصر ، بعد أن ذاع أمر يوسف فى الآفاق ، حيث عرفوا أنه اختزن الأقوات للمجاعة وأنه يوزعها بعدل ورحمة ، وكان - كما قيل يعطى الطعام بمقدار معين لكل فرد - كما كان يشرف على التوزيع بنفسه ضماناً للعدالة والدقة . وجاء إخوة يوسف امتثالاً لأمر أبيهم ، فدخلوا عليه ليطلبوا منه الطعام ، فعرفهم يوسف ، ولكنهم لم يعرفوه ، لأنهم ألغوه فى الجب ثم باعوه صبيّاً ^(١) ، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يصير إلى هذا السلطان ، بالإضافة إلى أنه فارقهم منذ مدة طويلة ، قيل : إنها كانت أربعين سنة ، وقد تزياً بزى أهل مصر ، وعليه مظاهر السلطان .

(وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ
أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي
بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ
أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ) : أعدَّ لهم حاجتهم من الطعام الذى حضروا لجلبه من مصر فى السنين العجاف ، والجهاز فى اللغة ما يحتاج إليه المسافر والعروس والميت وتجهيزه إحضاره . وقد أجمع القراء على فتح الجيم فى الآية الكريمة ، ويجوز فيها الكسر لغة وإن كان الفتح أشهر :

(١) على ما جاء بإحدى الروايات ، انظر ما كتبناه شرحاً لقوله تعالى : (وشروه بثمن بخس) الخ . . .

(خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) : أى خير المضيفين - مأخوذ من النَزَلَ وهو الطعام الذى يقدم للضيوف الذين ينزلون . أو خَيْرٌ مَنْ يُنْزِلُونَ الناس فى منازلهم مأخوذ من المنزل بجَهَازِهِمْ وهو الدار . (سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ) : سنطلبه من أبيه ليرسله معنا .

التفسير

٥٩ - (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ) :

بينت الآية السابقة أن إخوة يوسف جاءوه للحصول على الطعام زمن المجاعة ، وأن يوسف عرفهم ولكنهم لم يعرفوه ، لأنهم لم يخطر ببالهم أن من ألقوه فى الجب يؤول أمره إلى حكم مصر والسلطان على أهلها وأرزاقها .

وجاءت هذه الآية لتبين أول الخطوات التى إتخذها يوسف لإحضار أسرته إليه ، وهى طلبه من إخوته هؤلاء أن يحضروا أخاً لهم من أبيهم .

ويظهر أنه جرى من الحديث بينه وبينهم ما جعلهم يصرحون بأن لهم أخاً من أبيهم لم يحضروه معهم ، حتى يكون مجرى الحديث هو الذى حمل يوسف ظاهراً على أن يطلبه بالذات ، حتى لا يثير انتباههم إلى السبب الحقيقى فى طلبه .

والمعنى : ولَمَّا جَهَّزَ يوسف إخوته بالطعام الذى طلبوه من الحَبِّ الذى استبقاه فى سنابله لزمن المجاعة ، قال لهم ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ ليتبين صدقكم فى طلب حمل زائد على أحمالكم من أجله .

(أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوْفِى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) :

أى ألا تنظرون أننى أعطى الكيل وافيًا تاماً لكم ولكل الناس بالعدل ، وأنا أفضل المضيفين ، ومن أجل ذلك لا أحب أن يكذب على أحد بأخذ ما لا يستحقه ، حتى لا يحرم رب أسرة آخر من حقه فى الطعام ، ولهذا طلبت أن أرى أخاكم بنيامين الذى طلبتم له الطعام لكى أتتحقق من صدقكم .

٦٠ - (فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ) :

أى فإن لم تأتوني بأخ لكم من أبيكم ، فلا طعام أكله لكم مستقبلاً ، ولا تقربون منى بنزولكم عندي فى ضيافتي ، يريد بذلك تهديدهم بالحرمان من الطعام وحسن الضيافة بعد هذه المرة ، كلما احتاجوا إليه فى السنين العجاف ما لم يأتوه بأخيهم من أبيهم .

٦١ - (قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) :

أثر فيهم تهديد يوسف لهم بالحرمان من الطعام مستقبلاً فقالوا له : سنحاول مع أبيه يعقوب ونحتال فى أخذه منه ونجتهد فى ذلك - يشيرون بذلك إلى عِزَّة المطلب وصعوبة مناله .

ومع صعوبة وعُدوا يوسف بتحقيقه بقولهم له : « وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » . مرضاة له وتفويتاً لما اعتقدوا أنه تسرب إلى ذهنه من أنهم كاذبون ، فإن قيل إن طلب يوسف لبنيامين ، سوف يدخل الحزن على أبيه فما حكمة ذلك ؟ وقد أجيب عن ذلك بعدة أجوبة ، منها : أن ذلك كان بأمر من الله ابتلاءً ليعقوب ، ليعظم ثوابه ولكي تتضاعف مسرته برجوع ولديه ، إلى آخر ما قيل فى ذلك .

(وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ اجْعَلُوا بَضْعَتَهُمَا فِي رِحَالِهِمَا لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(فِتْيَانِهِ) : غلمانه الكياليين ؛ جمع فتى .

(بِضَاعَتَهُمْ) : ما جاءوا به من المتاع ليشتروا به الطعام .

(فِي رِحَالِهِمْ) : في أوعيتهم ، قال ابن الأنباري : يقال للوعاء رحل

وللببت رحل . (انقلبوا إلى أهلهم) : رجعوا إليهم .

التفسير

٦٢ - (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) :

كان إخوة يوسف يريدون شراء القمح مُبَادَلَةً ببضائع أخرى جاءوا بها معهم من الشام^(١) ، وكان يوسف يريد أن يعطيهم القمح دون مقابل تفضلا عليهم ، وخوفاً من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى ليشتروا به طعاماً آخر غير الذي أخذوه في هذه المرة ، ولكي يكون ذلك التفضل وسيلة لتحقيق مطلبه من حضور بنيامين معهم عند حضورهم للاختيار^(٢) مرة أخرى ولهذا قال يوسف لغلمانه وعماله الموكول إليهم بِنَيْعِ القمح وكيِّله وقَبْضِ الثمن - قال لهم - : اجعلوا بضاعتهم التي جاءوا بها ليجعلوها ثمناً للطعام - اجعلوها - في أوعيتهم سراً ولا تشعروهم أنني نزلت لهم عنها ، وأنتي تفضلت عليهم بالقمح دون ثمن ، لعلهم يعرفون هذه المكرمة ويقدرونها قدرها حين يرجعون إلى أهلهم ويفاجئون بها في متاعهم ، لعلهم يعودون إلى بأخيهم الذي طلبته ، فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين ولا سيما عند ندرة البضاعة من أقوى الدواعي إلى الرجوع .

(١) روى عن ابن عباس أنها كانت نعلا وأدما - أي جلدأ - وقيل إنها كانت دراهم ودنانير .

(٢) الاختيار : طلب الطعام وجلبه .

٦٣ - (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) :

أى فلما عادوا إلى أبيهم من مصر بمناعهم ، قالوا قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع : يا أبانا منع منّا العزيز أن نكتال الطعام من عنده بعد هذه المرة حتى نأتيه بأخ لنا من أبينا ، ولما حكوا لأبيهم القصة التي اقتضت أن يطلب منهم العزيز هذا الطلب قالوا لأبيهم : فأرسل معنا أخانا بنيامين إلى مصر نكتل بسببه الطعام كما قال العزيز . وإنا له لحافظون من أن يصيبه مكروه .

٦٤ - (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ) :

أى لم يحدث منكم ما يقتضى الاطمئنان على وعودكم ، فقد وعدتموني من قبل بالمحافظة على أخيه يوسف وجثتموني بدونه وزعمتم أن الذئب أكله . فهل آمنكم على بنيامين إلا بالصورة التي آمنتم بها على أخيه . دون أن يتغير حالكم ، ويدعوني إلى الاطمئنان لوعودكم .

(فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) :

أى فالله خير منكم ومن سواكم حافظًا ، وهو أرحم الراحمين ، فلذا أكل أمر حفظه إلى فضله ورحمته سبحانه ، ولا أعتمد في ذلك عليكم فقد جربتمكم فما وجدت فيكم وفاءً بوعده ، ولا حفظًا لعهد .

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا
يَا بَنَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ
مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لِنَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ
بِكُمْ فَلَمَّا أَتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ) : المقصود بمتاعهم ؛ الأوعية التي فيها طعامهم وبضاعتهم
وهي المعبر عنها سابقاً برحالهم في قول يوسف : « اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ » .

(مَا نَبْغِي) : أي شيء نبيغيه ونطلبه أكثر من كرم العزيز برده الثمن إلينا
وتوفيقته الكيل لنا ؟ .

(نَمِيرُ أَهْلَنَا) : أي نجلب لهم الميرة وهي الطعام ، من المير وهو جلب الطعام .^(١)

(كَيْلَ بَعِيرٍ) : أي طعاماً مكبلاً مقداره حمل بعير لأخيينا بنيامين .

(كَيْلٌ يَسِيرٌ) : مكيل سهل على عزيز مصر لا يمنعنا إياه لكرمه .

(مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ) : أي عهداً منكم مع الله تعالى يدعوني إلى الثقة بوفائكم له .

(إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) : أي إلا أن تغلبوا عليه .

(وَكَيْلٌ) : موكل إليه تنفيذ هذا الميثاق .

(١) انظر مختار الصحاح .

التفسير

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَنَاعِيَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ) :

بيّنت الآياتان السابقتان أن إخوة يوسف لما رجعوا من مصر بالطعام إلى أبيهم، أخبروه بأن العزيز طلب منهم أخاً لهم من أبيهم جاء ذكره في حديثهم معه ، وأنه منع منهم الطعام في المستقبل إن لم يأتوه به ، وأن أباهم ذكر لهم أنهم لم يحدث منهم ما يوجب الثقة بهم واثمانهم على شقيق يوسف بعد أن فجعوه في يوسف ، وذكر لهم أن الله هو الحافظ الرحيم ، يكنى بهذه العبارة عن مخاوفه منهم على بنيامين ، وأنه يستعين بالله عليهم وجاءت هذه الآية وما بعدها لتبين أنهم أفتعوه بكرم عزيز مصر حيث أعطاهم الطعام ، ورد إليهم الثمن ، وأنهم سيزدادون به كيل بغير وأن أباهم وافقهم على إرساله معهم ، بعد أن أعطوه موثقاً من الله برده إليه .

والمعنى : ولما فتحو أوعية طعامهم وجدوا بضاعتهم التي دفعوها ثمناً للطعام بمصر قد ردت إليهم ، حيث وضعت دون علمهم في رحالهم ففوجئوا بها في أوعية طعامهم ، فماذا قالوا لأبيهم ؟

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا) :

قال إخوة يوسف لأبيهم لكي يوافق على إرسال بنيامين معهم أي شيء نطلبه ليكون شاهداً على أن سفر بنيامين معنا سيكون سبباً في خير يأتينا في هذه المجاعة ، أي شيء نطلبه وراء هذا - أكرمنا ووَفَّى لنا الكيل ، ورد علينا الثمن الذي هو بضاعتنا ، فكيف لا نستجيب لطلبه ونجيئه بأخ لنا من أبينا ؟

(وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ) :

أي هذه بضاعتنا التي كنا نريد دفعها ثمناً للطعام ردها إلينا العزيز نستعين بها ونمير أهلنا أي نجلب الطعام إليهم مرة أخرى ونحفظ أخانا في هذه المرة حتى لا يصيبه مكروه ، لأننا لن نشغل عنه باللهو واللعب ، ونزداد بحضور بنيامين معنا وسق بغير يكال لنا من أجله ، زائداً على أوساق آبائنا وأحمالها ذلك الكيل الزائد الذي نطلبه من أجل بنيامين كيل يسير على عزيز مصر وسهل عليه ، فلا يخيبنا في طلبه فأى شيء نبتغي وراء هذه الأغراض المشتعلة على إطعام أهلنا

مرة أخرى وسلامة أخينا ، وسعة الرزق علينا ، فلماذا لا تبعث به معنا حتى نحقق هذه المطالب .

٦٦ - (قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ) :

قال يعقوب لأولاده وقد ألانه كلامهم ، وهبأه لقبول مطلبهم لن أرسل بنيامين معكم كما طلبتم حتى تغطوني عهدا مع الله على رده وموثقا من جهته على ذلك . ليكون شهيدا عليكم ومنتقما منكم إن لم تكونوا أوفياء .

(لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ) :

مرتبط بالقسم المفهوم مما قبله كأنه قال لهم : لن أرسله معكم حتى تحلفوا بالله لتأتني ببنيامين حين ترجعون من رحلتكم ثانيا إلى مصر ، إلا أن تغلبوا بما لا قبل لكم به فيحول دون وفائكم بقسمكم .

وصورة الميثاق الذي طلبه أبوهم منهم أن يقولوا مثلا : والله لتأتني ببنيامين ونحن عائدون من مصر بالطعام إلا أن تغلب على أمرنا بما لا قبل لنا به .

(فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) :

أى فلما أعطى الأسباط أباهم يعقوب - عليه السلام - يمينهم وعهدهم مع الله ، قال يعقوب مؤكدا التوثيق : (اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ) : أنا وأنتم من طلبة القسم وصدور العهد منكم ، (وَكِيلٌ) : مطلع رقيب ، فإن وفيتم أجرتم وإن خنتم انتقم الله منكم .

(وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾)

التفسير

٦٧ - (وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ) الآية .

كان بنو يعقوب فيهم جمال وكانوا أحد عشر متجانسين تجانس الكواكب ، وقد تجملوا في هذه المرة أكثر من المرة الأولى بعد أن أدركوا كرامتهم على العزيز من إعطائهم الطعام في المرة السابقة دون مقابل ورده بضاعتهم عليهم ، ولهذا كله خاف عليهم أبوهم العين إن دخلوا مصر من باب واحد وهم على هذا النمط الفريد . وبخاصة في زمن المجاعة حيث الناس في شدة ، وكانت المدن في الزمان السابق يحيط بها أسوار لحمايتها من الأعداء ؛ وفي هذه الأسوار أبواب للدخول والخروج منها ، فلهذا أوصاهم أبوهم أن لا يدخلوا مصر من باب واحد بل من أبواب متفرقة .

قال العلامة أبو السعود : وإصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما يُنكر ، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ . » : وقوله : « إِنَّ الْعَيْنَ لَتُدْخِلَ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالْجَمَلَ الْقِدْرَ » وقد كان صلى الله عليه وسلم يُعوذ الحسنين رضي الله عنهما بقوله : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَةٍ » وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « كان أبوكما يُعوذُ بِهَا إِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ » . رواه البخاري في صحيحه ، وقد شهدت بذلك التجارب . اهـ .

والمعنى ؛ وقال يعقوب لبنيه بعد أن حلفوا له : لا تدخلوا مصر من باب واحد ولكن ادخلوها من أبواب متفرقة بحيث لا يبدو لكم اجتماع حتى تسلموا من حسد الحاسدين ولست أغني عنكم بحذري هذا من قضاء الله من شيء وإنما هو نوع من التدبير ، وأما ترتيب المنفعة عليه فهو إلى الله العزيز القدير ، كما أنه استعان بالله وهرب منه إليه ، وقال يعقوب أيضاً ما الحكم في أمر الخلائق جميعاً إلا لله وحده ، عليه دون سواه توكلت واعتمدت ، وعليه فليتوكل المتوكلون ، فإنه مفزع كل خائف ، ومجيب كل سائل ، ومعاذ كل مستعيد .

وفي الآية الكريمة هداية يعقوب لأولاده ، وإرشادهم إلى التوكل على الله فيما هم بصدده غير معتمدين كل الاعتماد على ماوصاهم به من التدبير .

(وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ
مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهُ وَإِنَّهُ لَذُو
عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا
دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا
تَبَتُّسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾)

المفردات :

- (مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ) : من الأبواب المتفرقة التي أمرهم بالدخول منها .
(لِمَا عَلَّمْنَاهُ) : لتعليمنا إياه بالوحي .
(فَلَا تَبَتُّسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : فلا تأسف ولا تحزن بسبب ما صنعوا .

التفسير

٦٨ - (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ . .) الآية .

أى خرج إخوة يوسف من الشام متجهين إلى مصر حتى وصلوا إلى مداخلها ، ولما
دخلوها من أبواب متفرقة حيث أمرهم أبوهم .
(مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا) :
أى ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يدفع عنهم من أمر الله شيئاً مما قضاه عليهم مخالفاً
لما أمله أبوهم بتدبيره ، ولكن قضى حاجة في نفس يعقوب بدخول أبنائه من أبواب متفرقة حسب
إرادته ، لعله يدفع عنهم إصابة العين ، وذلك من باب ربطه المسببات بأسبابها
العادية كما جربه الناس ، ولكن إصابة العين لم تقع لهم لكونها غير مقدرة عليهم ، ولو
كانت مقدرة لم يدفعها دخولهم من أبواب متفرقة .

(وَإِنَّهُ لَدُوْ عَلِمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ) :

وإن يعقوب لصاحب علم جليل لأجل تعليمنا إياه بالوحي ، حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر ، وأن التدبير له حظ من التأثير بتغيير قضاء الله ، ولهذا قال لهم : « وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » أى وما أدفع عنكم بهذا التدبير من شئ قضاء الله ، وإنما يحذر الناس ويدبرون لعل تدبيرهم يرتبط بقضاء الله وقدره . فاتخاذ الأسباب مشروع لهذا (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

أى ولكن أكثر الناس لا يعلمون أسرار القدر ، ويزعمون أن الحذر يغنى عن القدر ٦٩ - (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ) :

أى ولما دخلوا على يوسف ومعهم بنيامين أكرمهم لأنهم وفوا بوعدهم معه ، وآوى إليه أخاه الشقيق بنيامين حيث ضمه إليه سكنا وطعاماً ، بطريقة لا تدخل ريبة في نفوسهم ، ولما خلا به .

(قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى قال يوسف لبنيامين مؤنسا له وكاشفا له عن سره الخطير ، إني يابنيامين أنا يوسف أخوك ، وسرد عليه قصته ثم قال فلا تحزن بسبب ما كانوا يعملونه بنا فيما مضى ، فقد أحسن الله إلينا وجمعنا بخير ، ولا تعلمنهم بما أعلمتك به ، حتى تمضى الأمور إلى غايتها .

(فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْنَاهَا أَلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ) : الجهزة في اللغة ؛ ما يحتاج إليه المسافر والعروس والميت ، وتجهيزهم بجهازهم تنجيز ما يحتاجون إليه من الطعام وإعداده في أوعيتهم .

(السَّقَايَة) : المشربة التي يُشْرَبُ بِهَا ، وهى والصراع شئ واحد ، قال الشاعر :
نشرب الخمر بالصُّواع جهاراً .

(رَحَلَ أَخِيهِ) : المراد به وعاء الطعام الخاص بأخيه بنيامين . (أَدَّنَ مُؤَدَّنٌ) : نادى مناد .
(أَيْتُهَا الْعَيْرُ) : العير هى الأبل التى عليها الأحمال ، والمراد بنداؤها نداء أصحابها ،
وقال أبو عبيد هى الإبل المَرْحُولَةُ المركوبة . (زَعِمَ) : كفيل وضمين .

التفسير

٧٠ - (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ) :

تقدم بيان أن يوسف عليه السلام عقد العزم على استقدام آل يعقوب إلى مصر بعد أن وفد إخوته عليه أول مرة ليحصلوا على الطعام لليوم ، وكانوا قد حدثوه عن أخ لهم من أبيهم هو بنيامين ، ولعلمهم طلبوا له طعاما ، فطلب منهم أن يحضروه معهم فى المرة المقبلة ليأخذ طعامه بنفسه ، ولهذا قالوا لأبيهم حين طلبوه منه بعد عودتهم من مصر : «وَتَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» . أى نزداد كيل بعير من أجل بنيامين فلما حضروا به فى المرة الثانية وأراد يوسف أن يستبقه ، لم يجد سببا لاستبقائه عنده إلا أن يأمر بلس إنائه الذى يشرب به فى رحل بنيامين ، وكان إناء ثميناً يمكن الاتهام بسرقة لارتفاع قيمته ، فلهذا جعل ذلك الإناء المعبّر عنه بالسقاية فى الآية - جعله فى رحل أخيه بنيامين أى وعاء طعامه ، وسبب الكلام عن الحكمة فى اختياره هذا السبب لاستبقائه لديه .

(ثُمَّ أَدَّنَ مُؤَدَّنٌ أَيْتُهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) :

أى ثم بعد أن جعل السقاية فى رحل بنيامين وركب إخوة يوسف دوابهم ، نادى مناد فيهم بأصحاب العير إنكم لسارقون ، ولم يعين لهم ماسرقوه فى نداءه ، ليسترعى كامل انتباههم ، ويظهر - والله أعلم - أن هذا الذى حدث كان بموافقة من بنيامين ليبقى عند أخيه يوسف حتى يأتى والداه وأسرته .

فإن قيل كيف رضى بنيامين بذلك مع ما فيه من زيادة الحزن على أبيه ، وكيف ينسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم برآء منها .

والجواب عن الأول : أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بفقد يوسف فلا يؤثر فيه كثيرا فَقَدْ بنيامين ، ولهذا لَمْ يَعْذُ بنيامين لم يذكر يعقوب سوى يوسف ، إذ قال : « يَا أَسَفًا عَلَى يُوسُفَ » .

والجواب عن الثانى : أنهم قد سرقوا يوسف من أبيه وألقوه فى الجب ، ولذا قيل لهم إنكم لسارقون ولم يعين لهم ماسرقوه .

٧١ - (قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْعَلُونَ) :

أى قال إخوة يوسف وقد أقبلوا على من ينادونهم ويتهمونهم بالسرقة ماذا ضاع منكم حتى اهتممونا بسرقة ؟ .

٧٢ - (قَالُوا نَفَقِدُ صُرُوعَ الْمَلِكِ) :

أى قال هؤلاء المنادون نفقد سقاية الملك الثمينة التى يشرب بها ، ويطلق عليها صواع .
(وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) :

أى وقال من آذنتهم وأعلمهم بأنهم سارقون - تلطفا معهم ومنعا لإخراجهم بتفتيش جهازهم ، وإثبات السرقة عليهم - قال لهم - : سيكون لمن جاء بصواع الملك من تلقاء نفسه قبل التفتيش حمل بعير من الطعام مكافأة له على إظهاره ، فربما وجد فى رحالهم اتفاقا من غير قصد ، فلذا يكافأ من جاء به وعشر عليه ، وأكد المنادى تحقيق هذا الوعد بقوله وأنا بتحقيقه زعيم أى ضمين وكفيل .

(قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ٧٣) قَالُوا فَمَا جزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ٧٤) قَالُوا جزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جزَاؤُهُ ٧٥ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ ٧٦ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ٧٦)

التفسير

٧٣ - (قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) :
 تالله بمعنى والله ، وتختص التاء بالدخول على لفظ الجلالة على الأرجح ، ويُقسم بهذا القسم عند التعجب .

والمعنى : وحق الله لقد عرفتم من استقامتنا في المعاملة ، وما نحن عليه من التدين والتصون ،
 أننا ما جئنا لكي نفسد في الأرض بسرقة أو غيرها ، بل جئنا للحصول على الطعام ، وما كنا
 من قبل سارقين ، فما حدث منا سرقة في حياتنا ولا وصفنا بها فكيف يستقيم وصفكم
 لنا بسرقة صواع الملك ؟

٧٤ - (قَالُوا فَمَا جزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ) :

قال عمال الملك لإخوة يوسف فما جزاء سرقة صواع الملك في شريعتكم ، إن كنتم
 كاذبين في دعوكم أن الصواع ليس في أوعيتكم .

٧٥ - (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ) :

أى قال إخوة يوسف جزاء الصواع المفقود في شريعتنا أخذ من وجد في رحله ، واسترقاقه فكذا يعاقب السارق عندنا وهذا جزؤه ، ثم أكلوا هذا الحكم مرة أخرى بقولهم :
(كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) :

أى مثل هذا الجزاء نجزي الظالمين بالسرقة في شريعتنا ، يقولون ذلك ثقة ببرائتهم منها ، وهم غافلون عما دبر لهم .

٧٦ - (قَبْدًا بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ) :

فبدأ يوسف بتفتيش أوعية إخوته العشرة الذين هم من أبيه ، قبل تفتيش وعاء أخيه الشقيق بنيامين ، لنفي التهمة في أول الأمر عن نفسه إن بدأ به ، فإنهم حينئذ يقولون إنه جعلنا نطلبه من أبيه ليفتعل هذه التهمة لأمر يريده لم ينكشف لنا بعد ، فلهذا أبقاه بعدهم ، ولينسيهم فرحهم ببرائتهم أولا ، ما حدث لأخيه من أبيهم أخيرا ، بل وليدفعهم ذلك إلى حالة السوء فيه وفي يوسف وهو قولهم : « إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » وسيأتي الكلام في بيانه .

(كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) :

أى مثل ذلك الكيد المحكم حيث أرشدنا الإخوة إلى الإفشاء باسترقاق من وجد في رحله ، مثل ذلك الكيد كدنا لأجل يوسف أى دبرنا له المقدمات لكي يحصل بها على غرضه ، وتلك المقدمات هى دس الصواع في رحالهم وما تلاه حتى آل الأمر إلى تحقيق ما أراد من بقاء بنيامين معه .

(مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) :

هذا تعليل لما قبله ، أى كدنا ليوسف بهذه الطريقة ، لأنه ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه فيما يدين به الملك في أمر السارق أى في حكمه وقضائه الذى يدين به هو وشعبه ، فإنه لم يكن جزاء السارق فيه الاسترقاق ، بل عقوبة أخرى كالضرب والتغريم ، فلهذا جعله يحتكم إلى شريعتهم حتى يستبقه لديه .

(إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) :

أى ما كان يوسف ليأخذ أخاه فى دين الملك فى حال من الأحوال إلا فى حالة مشيئة الله هذا الكيد والتدبير ، فإن دين الملك حينئذ يقره مادام السارق يدين به ويعتقده ، لأنه يحقق له من الجزاء أكثر مما عنده فى قوانينه ، ولهذا وافقهم على فتواهم وأبقاه عنده .

(نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ) :

أى نرفع درجات عالية من العلم والحكمة فى التصرف من نشأ من عبادنا كما رفعنا يوسف ، وما كان ليصل إلى ما وصل إليه لولا تدبير الله وتبليغه أسبابه ، فإنه فوق كل صاحب علم من الخلق عليم لا غاية لعلومه وهو الله تعالى ، ولولا إرشاده وتعليمه لما وصل ذو علم إلى علمه .

(* قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا
يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(شَرٌّ مَّكَانًا) : أسوأ مكانة ومنزلة .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) : والله عالم أبلغ العلم بحقيقة ما تزعمون من صدور السرقة عن أخيه .

التفسير

٧٧ - (قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ) :

تقدم الحديث عن وضع صواع الملك الثمين فى رحل بنيامين سراً ، وأن رجال يوسف اتهموا إخوته بسرقة الصواع قائلين لهم : « أَيْتُهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » . فلما نفوا

عن أنفسهم هذه التهمة سألوهم عن حكم سارقه في شريعتهم إن ظهر كذبهم .
« قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ » . فبحث يوسف في أوعيتهم قبل وعاء شقيقه
بنيامين ، ثم استخرجه من وعائه . وبهذه الحيلة استطاع إبقاء أخيه معه وهم لا يشعرون
أن هذه القصة مصنوعة لتحقيق هذا الغرض ، وجاءت هذه الآية وما بعدها لبيان الأحداث
التي تلت ذلك ، والمعنى : قال إخوة يوسف غير الأشقاء إن يسرق بنيامين فقد سرق أخ
شقيق له من قبله ، يقولون ذلك تبرئة لأنفسهم من وصمة السرقة ، مُدَّعين أن خلق السرقة
في بنيامين قد سبقه إليه أخ شقيق أكبر منه - يعنون يوسف عليه السلام - وأنهم
براء من هذا الخلق لأن الأم مختلفة ومأذروا أن يوسف الذي اتهموه زورا يسمع كلامهم
ويعرف أنهم كاذبون .

واختلف فيما نسبوه إلى يوسف ، ومن أظهر ما قيل فيه ما أخرجه ابن مردويه عن ابن
عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الآية : «سرق يوسف عليه السلام صنما لجدّه
أبي أمه من ذهب وفضة ، فكسره وألقاه على الطريق ، فعبّره إخوته بذلك » ويرى الحسن أنهم
كذبوا على يوسف فيما نسبوه إليه ، ولعله لا تنافي بين هذا وما روى عن ابن عباس إن صح
فإن من أخذ الصنم لكي يحطمه لا يعتبر سارقا شرعا ، فيكون وصفهم له بالسرقة كذبا ، لأنه
مخالف للشرائع ، ويكونون بذلك كاذبين على يوسف .

(فَاسْرَهَا يُوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا) :

أي فأخفى يوسف في نفسه هذه الفرية التي افترواها عليه ، ولم يظهرها لهم أنها فرية ،
كتماناً لأمره حتى يفاجئوا في نهاية القصة بما آل إليه أمره في الملك فيندموا على ما فرط منهم
في حقه . ولكن قال في نفسه عنهم : أنتم أسوأ مني منزلة في السرقة ، وأقوى في الانصاف
بهذا الوصف ، حيث سرقتموني من أبي وألقيتموني في الجب ، ولولا رحمة ربي لكنت من
الهالكين ، أما أنا فلم أسرق ولكنني حطمت الصنم وألقيته على الطريق .

المفردات :

(اسْتَيْشُوا مِنْهُ) : يثسوا منه أشد اليأس . (خَلَصُوا نَجِيًّا) : انفردوا عن يوسف وغيره متناجين أي متسارين ، والنَّجِيُّ من تتحدث معه سرًّا واحدًا أو أكثر ، والنجوى السر . (الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) : هي مصر والمراد بها أهلها . (وَالْعِيرَ) : وأصحاب العير الذين كانوا معنا .

التفسير

٨٠ - (فَلَمَّا اسْتَيْشُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا) :

أي فلما يثسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ما طلبوه منه من ترك بنيامين وأخذ أحدهم مكانه ، حيث قال لهم على سبيل الحسم : «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدَهُ» فإن ذلك يدل على غاية الكراهة لما طلبوه حتى تعود بالله من حصوله فلما يثسوا منه أشد اليأس لذلك انفردوا عنه وعن أعين الناس متحدثين سرًّا في طريقة الخلاص من هذه المشكلة ، وكيف يبلغونها لأبيهم؟ وماذا يكون وقعها عليه؟ وهو لم ينس يوسف بعد ، ولم تبرد نار فراقه في فؤاده .

(قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ) :

قال كبيرهم في السن أوفى المنزلة حين رآهم مجمعين على أن يعودوا جميعاً دون بنيامين ، ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهداً وثيقاً من الله ، حيث حلفتم به سبحانه لترجعن ببنيامين إليه ، فكيف تعودون إليه وليس معكم ، أو لم تعلموا من قبل - أي من قبل بنيامين - تفريطكم وتقصيركم في شأن يوسف وأنكم لم تحفظوا في حقه عهدكم مع أبيكم ، إذ قلتم له مرة : «وَأَنَا لَهُ لَنَاصِحُونَ» . وأخرى : «وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ» . فكيف تعود إليه بعد كل هذا ؟

إنا نراك من المحسنين إلينا ، فآتمم إحسانك علينا ، أو نراك ممن عادتهم الإحسان ، فلا تغير عادتك معنا ، فنحن أحق الناس بذلك ، نظرا لحال أبيه والتزامنا أن نرده إليه !

وهم حين عرضوا عليه أن يشتري أحدهم مكانه لا يرون أن ذلك مشروع عندهم ، فإنه لا يؤخذ بالذنب سوى صاحبه ، ولكنهم يقولون ذلك مبالغة في استنزاله عن أخذ بنيامين .

٧٩ - (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَظَالِمُونَ) :

قال يوسف : نعوذ بالله ونبرأ إليه من أن نأخذ إلا من وجدنا صواعنا عنده بموجب فتواكم طبقا لشرعكم ، فلا نحب الإخلال بها ، إنا إذا أخذنا غيره ولو يرضاه لظالمون في مذهبكم وشريعتكم ونحن لا نحب ذلك .

والتعبير بضمير العظم نفسه (إِنَّا إِذَا لَظَالِمُونَ) بدلا من ضمير المفرد - إِنِّي إِذَا لَظَالِمٌ - جرى على سنن الملوك .

(فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ٨٠) أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا إِنَّا بَانَآ إِنَّ أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ٨١) وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا . وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٨٢)

المفردات :

(اسْتَيْسُّوْا مِنْهُ) : يئسوا منه أشد اليأس . (خَلَّصُوا نَجِيًّا) : انفردوا عن يوسف وغيره متناجين أي متسارين ، والنَّجِيُّ من تتحدث معه سراً واحداً أو أكثر ، والنجوى السر . (الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) : هي مصر والمراد بها أهلها . (وَالْعِيرَ) : وأصحاب العير الذين كانوا معنا .

التفسير

٨٠ - (فَلَمَّا اسْتَيْسُّوْا مِنْهُ خَلَّصُوا نَجِيًّا) :

أي فلما يئسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ما طلبوه منه من ترك بنيامين وأخذ أحدهم مكانه ، حيث قال لهم على سبيل الحسم : «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ» فإن ذلك يدل على غاية الكراهة لما طلبوه حتى تعود بالله من حصوله فلما يئسوا منه أشد اليأس لذلك انفردوا عنه وعن أعين الناس متحدثين سراً في طريقة الخلاص من هذه المشكلة ، وكيف يبلغونها لأبيهم؟ وماذا يكون وقعها عليه؟ وهو لم ينس يوسف بعد ، ولم تبرد نار فراقه في فؤاده .

(قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ) :

قال كبيرهم في السن أوفى المنزلة حين رآهم مجتمعين على أن يعودوا جميعاً دون بنيامين ، ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهداً وثيقاً من الله ، حيث حلفتم به سبحانه لترجعن ببنيامين إليه ، فكيف تعودون إليه وليس معكم ، ألم تعلموا من قبل - أي من قبل بنيامين - تفريطكم وتقصيركم في شأن يوسف وأنكم لم تحفظوا في حقه عهدكم مع أبيكم ، إذ قلتم له مرة : «وَأَنَا لَهُ لَنَاصِحُونَ» . وأخرى : «وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ» . فكيف تعود إليه بعد كل هذا ؟

(فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي) :

فبعد كل هذا لن أفارق أرض مصر حتى يأذن لي أبي بالعودة إليه ، أو يحكم الله لي بالخروج منها على وجه لا يؤدي إلى نقض الميثاق ، أو بخلاص أخي بسبب من الأسباب (وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) : لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل .

ثم وصل الكبير كلامه بقوله :

٨١ - (اَرْجِعُوا إِلَى آبَيْكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا) :

أي عودوا إلى والدكم يعقوب فحدثوه بما وقع ، قولوا له يا أبانا إن ابنك بنيامين سرق صواع الملك ووضعه في رحله ، فأخذه وزير العزيز طبقا لشريعتنا وكان قد استفتانا قبل أن نعلم الأمور ويبين لنا الحال ، وما شهدنا عليه بالسرقه إلا بما علمناه من وجود الصواع في رحله ، وما كنا لما غاب من أمره عالمين ، فلذا أعطيناك الموائيق فاعذرنا ، فإن الذنب ليس ذنبنا .

ثم أشار عليهم بما ظن أنه يحمل أباهم على التصديق فقال :

٨٢ - (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا) :

أي وأرسل إلى أهل مصر المتصلين بالملك حيث كنا معهم فيها واسألهم عن ذلك ، واسأل القافلة التي كنا فيها ، فإن القصة شائعة فيهم ومعروفة لديهم ، ثم ختم الكبير كلامه لإخوته بجملة يؤكدون لأبيهم بها أنهم صادقون فقال : (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) : فلانخاف سؤالهم - قيل إن أصحاب العير كانوا من الكنعانيين ، وكانوا جيران يعقوب عليه السلام .

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ
أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ
وَقَالَ يُنَاسِقُ عَلَيَّ يُوسُفُ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ
كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾)

المفردات :

- (سَوَّلَتْ) : زينت وسهلت. (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) : هو الذى لا يكون معه ضجر ولا
شكوى لأحد . (يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ) : الألف فى « أَسْفَى » بدلا من ياء المتكلم للتخفيف
والأصل يا أسفَى بكسر الفاء ، والأسف أشد الحزن على مافات. (فَهُوَ كَظِيمٌ) : فهو مملوء
القلب غيظا، لكنه لا يظهر، وقيل مملوء القلب حزنا ممسك له لا يبديه من كظم السَّاءِ
إذا شده بعد ملئه ، فهو فَعِيل بمعنى مفعول. (وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ) : أصابتها غشاوة بيضاء .

التفسير

٨٣- (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) :

طوى القرآن من القصة ما ليس بحاجة إلى التصريح، وبيان ذلك أن هذا القول من
يعقوب ردَّ به على أولاده بعد عودتهم إلى أرض الشام وإخباره بالقصة على نحو ما أوصاهم
به كبيرهم .

والمعنى : عاد إخوة يوسف من مصر برحالهم ، وأخبروا أباهم بالقصة على نحو
ما وصَّاهم به كبيرهم- قال يعقوب متبهما لهم : ليس الأمر كما زعمتم ، بل زينت لكم
أنفسكم أمرا فى شأنه لتتخلصوا منه ففعلتم ما رينته لكم أنفسكم ، فصبر جميل على ما فعلتم
أحق بى .

واعلم أنهم لم يخبروا أباهم فى شأن بنيامين إلا بما ظهر لهم ، وأنهم لم تسول لهم
نفوسهم فى شأنه أمرا - كما قال أبوهم يعقوب عليه السلام - فكيف قال لهم ما قال ؟ !

أجاب ابن المنير عن هذا السؤال بقوله : إنهم كانوا عند أبيهم متهمين لما أسلفوه في حق يوسف ، وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها وهي أخذ الملك له في السرقة ، ولم يكن ذلك في دين ملك مصر ، ولا في دين غيره ، وإنما كان ذلك في شرع يعقوب الذي يدين به أولاده ، فظن أنهم هم الذين أفتوه بذلك عمدا بعد ظهور السرقة التي ذكروها ، ليتخلف بنيامين دونهم . ٨١ . هذا تلخيص ما حكاه الآلوسی عن ابن المنير في جواب هذا السؤال .

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) :

لم يفقد يعقوب الأمل في رحمة الله ، ولم يقطع الرجاء في عودة يوسف وبنيامين إليه فلذا قال عقب اتهامه لأولاده في شأن بنيامين : عسى الله أن يأتيني بأولادي جميعاً يوسف وبنيامين ، وابني الكبير الذي تخلف في مصر حتى آذنه بالعودة أو يحكم الله له . وأكد رجاءه في الله بقوله : (إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) : إنه هو الواسع العلم الذي يتولى بحكمة ويرفع البلاء بحكمة وهو أرحم الراحمين ، هذا وقد قيل إن مهبط الرجاء عنده تلك الرؤيا التي رآها يوسف في صغره « إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » . فكان ينتظر تحقيقها ، ويحسن ظنه بالله تعالى ، وبخاصة بعد أن اشتد به الكرب ، وقد جرت سنته تعالى أن يجعل بعد الشدة المستحكمة فرجاً ، وبعد العسر يسراً .

٨٤ - (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ) :

وأعرض عن أولاده كراهة لما سمعه منهم ، وقال : يا أشد الحزن والأسف على يوسف تعالى إلى ، فقد تجدد ما يدعوني إلى استدعائك ، قالوا : وإنما تنأسف على يوسف مع أن الحادث الجديد هو مصيبة بنيامين وابنه الكبير الذي تخلف لأجله ، لأن مصيبة يوسف كانت أساس حزنه ، ووجه كان آخذاً بمجامع قلبه ، ولأنه كان واثقاً بحياة ولديه بمصر ، طامعاً في عودتهما إليه ، أما يوسف فلم تكن عنده بارقة أمل إلا في رحمة الله تعالى .

(وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) :

وابيضت عينا يعقوب بسبب الحزن وما كان يسببه له من دوام البكاء ، فهو مملوء من الحزن على أولاده الغائبين ، ومملوء من الغيظ من أولاده الحاضرين ، وكان عماء هذا موقفاً إن صح القول به ، وكان بعد أن بلغ دعوة ربه ، فلا يقال : إنه من الأمراض المانعة من التكليف بالرسالة . ومن العلماء من قال : إن أمره لم يصل إلى حد العمى . فقد كان يرى إلى حد ما .

فإن قيل كيف يكون نبياً وبلغ به الحزن إلى هذا الحد؟ قلنا أجيب عن ذلك بعدة أجوبة ، خيرها : أن الحزن ليس محظوراً ، وإنما المحذور الولولة وشق الثياب والكلام بما لا ينبغي . فقد روى الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم بكى على ولده إبراهيم وقال : « إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَخْشَعُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضَى رَبَّنَا ، وَإِنَّا لِلْفِرَاقِ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ » .

وقد بين الله شدة حزن يعقوب بقوله : (فَهُوَ كَظِيمٌ) : أى مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبيته .

ومما شدد عليه الحزن حتى امتلاً ، ما روى عن ابن عباس أنه كان يعلم أن يوسف حى ولا يدرى أين هو ؟ انظر القرطبي والآلوسى .

(قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنَا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾)

المفردات :

(تَاللَّهِ) : أى والله ، فالتاء حرف يستعمل فى القسم بالله خاصة .

(تَفْتُنَا) : أى ما زلت .

قال الكسائى : فَتَاتُ وَفَتَيْتُ أى ما زلت ، وقال الفراء : إن الكلام هنا بتقدير

(لا) أى : (لَا تَفْتَأْ) . وكثيراً ماتضمراً (لا) فى جواب القسم كما فى قول امرئ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

أى بحق الله لا أبرح ، وهو رأى الخليل وسيبويه ، وعَلَّلُوا جواز ذلك بأنه لا يلتبس بالإثبات إذ لو كان على الإثبات لوجب اقترانه باللام والنون كقولك : تَأَ اللَّهُ لَأَفْعَلَنَّ كذا .

(حَرَضًا) : الحرَضُ لُغَةٌ فساد الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم كما قال أبو عبيد وغيره .

(بَنَى) : البَث المصيبة التى لا قدرة لأحد على كتمانها فيبثها وينشرها .

التفسير

٨٥- (قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) :

أى قال أولاد يعقوب لما سمعوه يردد الأسف على يوسف بعد فجيعة بنيامين دون أن يذكر فى أسفه بنيامين - قالوا له : والله يا أبانا لا تبرح تتذكر يوسف بعد مضى هذه السنين الكثيرة على فقده ، وتبدى أشد الحزن وأغزر البكاء عليه ، حتى تشرف على الهلاك أو تكون من الهالكين حقيقة فخفف على نفسك ولا تتلفها بالهم والأسى !

٨٦- (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) :

قال يعقوب مجيباً أولاده عقب لومهم إياه على حزنه الذى طال أمده بعد فقده يوسف : - قال يعقوب لهم - ما أشكو مصيبتى التى لا أستطيع إخفاءها ، ولا أشكو حزنى لأحد إلا إلى الله فهو القادر على كشف الضر ، وأتبع يعقوب كلامه هذا بما يفيد أمله فى رحمة الله فقال :

(وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) :

وأعلم من شأن الله ورحمته ما لا تعلمون ، فقد كان يحس بوجوده النبوى الصادق وبما قام لديه من الأمارات أن يوسف حى لم يمُت وأنه وصل أو سيصل إلى منزلة عظيمة بين الناس ، وأن شمل الأسرة سوف يجتمع بزعامة يوسف .

وأول الشواهد على ذلك : رؤيا يوسف التي رآها في صباه ؛ لقد رأى أحد عشر كوكباً ، ورأى الشمس والقمر ، رأى هؤلاء جميعاً له ساجدين ، فلما سمع يعقوب من يوسف هذه الرؤيا الصادقة أدرك أنها ستتحقق ، وأوصاه أن يكتمها عن إخوته حتى لا يكيّدوا له .

وثاني هذه الشواهد : هذا القميص الذي جاءوا به ملوثاً بالدم ، زاعمين أن الذئب أكله وأن الذي تلوث به القميص دمه ، وكان القميص بغير تمزق ، فأدرك أن قصة الذئب مخترعة مصنوعة إذ لو أكله لمزق قميصه . ولذا كذبهم فقال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا نَصِفُونَ » .

وثالث هذه الأمارات : ما أخبره به أولاده من سيرة عزيز مصر نحوهم وعطفه عليهم ، وضيافته لهم ، فأحس أنهم يتحدثون عن أمله المنشود ولذلك قال لهم :

(يٰٓبَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(فَتَحَسَّسُوا) : التحسس ؛ طلب معرفة الشيء بالحواس .

(وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ) : ولا تقنطوا من رحمته التي يحيي بها العباد .

التفسير

٨٧- (يٰٓبَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ...) الآية .

أي يا بني ارجعوا إلى مصر حيث ينتظركم أخوكم الكبير فتعرفوا جميعاً من أخبار يوسف وأخيه ، وابعثوا عنهما بكل قواكم جادّين دائبين ، ولا تقنطوا من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، إنه لا يقنط من رحمة الله سبحانه إلا القوم الكافرون ، لجهلهم به وبصفاته ، وأما العالمون به فلا يقنطون بحال .

واستدل بالآية جمع من العلماء على أن اليأس من رحمة الله كفر !

والجمهور على أن اليأس من رحمته تعالى من الكبائر ، اللهم إلا إذا اقترن بما يدل على نسبته سبحانه إلى العجز عن تنفيس الكرب أو مغفرة الذنب ، وأياً ما كان الأمر فاليأس من رحمة الله من صفات الكفار ، ومن أسباب الكفر والعياذ بالله تعالى .

ووصية يعقوب عليه السلام لبنيه في الآية الكريمة درس من دروس النبوة في شحذ الهمم وتربية العزائم .

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَّيْهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ
وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۚ إِنَّ
اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ
وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَءِنتَ أَنتَ يَوسُفُ قَالَ
أَنَا يَوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۚ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ) : المراد من البضاعة هنا : الثمن والمزجاة المدفوعة التي يردها من يراها لرداعتها من أزوجيته إذا دفعته ، والريح تزجي السحاب : تسوقه وتدفعه . وقال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة اهـ . ومن معانيها القليلة كما ذكره صاحب القاموس ، ولعل هذا المعنى هو المراد هنا .

التفسير

٨٨ - (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ . . .) الآية .

أى فلما دخلوا على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر امتثالاً لأمر أبيهم! وإنما لم يذكر هذا المطوى إيداناً بمسارعتهن إلى الامتثال ، وإشعاراً بأن هذا أمر محقق لا يفتقر إلى الذكر والبيان . وهذه هي المرة الثالثة من ذهابهم إلى مصر .

(قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ) : مخاطبوه بذلك تعظيماً على حد خطابهم السابق ، والمراد - كما قال الفخر الرازى وغيره - يأيها الملك القادر المنيع .

(مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ) : أى الهزال من شدة الجوع - والمراد بالأهل ما يشمل الزوجة وغيرها .

(وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ) : قليلة القيمة . لا تصلح أن تكون ثمناً للطعام الذى نريده ، قيل كانت بضاعتهم من متاع الأعراب . صوفاً وسمناً . ونحوهما . وإنما قالوا ذلك ليكون باعثاً على الشفقة والرأفة وتحريك عاطفة الرحمة . وتمهيداً لقولهم :

(فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ) : أى أتممه لنا كمعادتك .

(وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) : برد أخينا إلينا وهو الأنسب بحالهم نظراً إلى أمر أبيهم . وإنما سموه تصدقاً - قصداً إلى استعطافه !

(إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) : بما هم أهله . بل بما هو - تبارك وتعالى - أهله : بإخلاف ما ينفقونه . وإثابتهم بما هو خير منه فى الآخرة والأولى .

٨٩ - (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ . . .) :

أى قال يوسف عليه السلام مُجِيباً لإخوته وقد هزه استعطافهم ، وأخذته الشفقة عليهم : هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون بقبحه فلذا أقدمتم عليه . أو جاهلون عاقبته !! - قال ذلك نُصْحاً لهم وتحريضاً على التوبة وشفقةً عليهم لما رأى عجزهم ،

ومسكنتهم ، لا معاتبة لهم وتثريباً^(١) . . . إشاراً لحق الله تعالى على حق نفسه في ذلك المقام الذى يتنفس فيه المكروب ويتشقى فيه المغيظ المحنق . فله تعالى هذا الخلق النبوى الكريم .

٩٠ - (قَالُوا أَأَتَيْنَكَ لَأَنَّتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي . .) الآية .

هذا استفهام تقريرى ولذا أَكَلُوهُ بِإِنِّ وَاللَّام . قالوه استغراباً وتعجباً وفرحاً بنجاح تحسسهم الذى وصاهم أبوهم به . (قَالَ أَنَا يُوسُفُ) : جواباً عن مسألتهم وقد زاد عليه قوله : (وَهَذَا أَخِي) : - أى أخى من أبوى - مبالغة فى تعريفهم بنفسه ، وتفخيماً لشأن أخيه ؛ وتحدثاً بنعمة الله عليهما قال :

(قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا) : بالخلاص مما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة ، والعزة بعد الذلة والأنس بعد الوحشة ، ثم علل ذلك بقوله : (إِنَّهُ مَن يَتَّقِ) : الله فى جميع أحواله . (وَيَصْرِفْ) : على أداء طاعاته وتجنب معاصيه .

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) : أى فإن الله لا يضيع أجرهم ، وعبر عنهم بالمحسنين ، ليشير بذلك إلى أن أهل التقوى والصبر هم أهل الإحسان ، وهم الأحقاء بجزاء الله العظيم وإحسانه ورحمته فى الدنيا والآخرة . قال تعالى : « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ »^(٢) . وقال تعالى : « إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »^(٣) .

(١) التثريب : اللوم .

(٢) سورة الرحمن ، الآية : ٦٠ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ٥٦ .

(قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾
 قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَالْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ
 بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(تَاللّٰهِ) : أى والله . وتقدم قريباً أن التاء حرف للقسم بالله خاصة .

(آثَرَكَ) : اختارك وفضلك .

(لَخَاطِئِينَ) : لمدنبيين متعمدين .

(لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ) : لا لوم عليكم ولا تأنيب ؛ يقال ثربه يثربه وثرّبه إذا بكّته
 بفعله وعدّد عليه ذنوبه .

التفسير

٩١ - (قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ) :

أى قال إخوة يوسف تصديقاً له عليه السلام واعترافاً بخطيئتهم : والله لقد اختارك الله
 وقدمك علينا بما ذكرت من النعوت الجليلة التى أنعم الله بها عليك . وإن الشأن والأمر الذى
 لاريب فيه أننا كنا مدنبيين متعمدين . إذ فعلنا ما فعلنا . وفرقنا بينك وبين أخيك ! !

ولقد أكدوا قولهم هذا بعدة تأكيدات إشعاراً بالتوبة والندم على ما كان منهم ،
 وانتظاراً للصفح عنهم . . وهو ما حكاه الله بقوله :

٩٢ - (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) :

أى لا لوم عليكم ولا تأنيب فى هذا اليوم الذى هو مظنة للمواخذه والمعاقبة فما ظنكم

بالأيام التي بعده ؟ ! عفا عنهم عليه السلام عفواً لا مؤاخذه معه وهذا هو الصفح الجميل ؛
ثم دعا لهم بمغفرة الله تعالى فقال :

(يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) : لَأَن كُلَّ رَحْمَةٍ مِنْ غَيْرِهِ سَبْحَانَهُ وَإِنْ عَظُمَتْ
فَهِيَ مُسْتَمْدَةٌ مِنْ رَحْمَتِهِ .

وفي ختام دعائه بقوله : (وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) إشارة إلى وثوقه بإجابة دعائه لأنه
عفا عنهم ، فالله تبارك وتعالى أولى منه بالعفو عنهم والرحمة لهم ! والذي أشرنا إليه من
الوقف على « اليوم » وأن الجملة بعده دعائية مستأنفة هو اختيار الطبري وابن إسحق
وغيرهم . قال الآلوسي : وهو الذي يميل إليه النوق .

ويجوز الوقف على قوله : (لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ) : والاستئناف بقوله : (الْيَوْمَ
يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ) : والمعنى في هذا اليوم العظيم يغفر الله لكم ويرحمكم وهو أرحم الراحمين .
وقد استشهد الرسول صلى الله عليه وسلم في عفوه عن قريش بما حدث من يوسف مع إخوته .
إذ قال في خطبته يوم الفتح الأعظم : « يا معشر قريش ما ترون أُنَى فاعل بكم ؟ ! قالوا
خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، قال فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : « لَا تَثْرِبَ
عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ ، اذْهَبُوا فَانْتُمُ الطُّلُقَاءُ » .

٩٣ - (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) :

عَلِمَ يوسف عليه السلام بطريق الوحي أو بسؤال إخوته أن أباه فقد بصره أو كاد -
فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذي كان يلبسه حينئذ فيلقوه على وجه أبيه فتتم البشارة
بعود بصره كما كان أو أحسن مما كان ، وفي قوله : (وَجْهِ أَبِي) دون أبيكم لطيفة يوسفية
لا تخفى على ذى فطنة إنها تشير فيما تشير إلى أن الحنان الأبوى الذي فقدوه في غيبة يوسف
سيعود إليهم جميعاً بسببه في لَمِّ الشمل واكتمال الأهل كما أشرنا إلى ذلك آنفاً في تفسير
قوله تعالى حكايةً عن أبيهم عليه السلام : « وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .
وقوله : (يَأْتِ بَصِيرًا) : جواب الأمر أى يَصِرْ بَصِيرًا .

(وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) : المراد بأهلهم نساؤهم وذرائعهم والعاملون معهم من خدمهم ، دعاهم للإقامة في جواره آمنين .

ولم يذكر الإتيان بأبيه لا لكونه داخلا في الأهل ؛ فإنه يجلب عن التبعية بل ليشفادي أمر الإخوة أن يأتوا بأبيهم لأن فيه نوع إجبار على من يؤتى به فهو عليه السلام موكول إلى اختياره ومحبه وشوقه ، ولا شك أن هذا من أدب النبوة والبُنية معا !

(وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا
أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾)

المفردات :

(فَصَلَتِ الْعِيرُ) : خرجت القافلة ؛ يقال فصل من البلد يفصل فصولا إذا انفصل منه وجاوز حيطانه . (تُفَنِّدُونَ) : تنسبونني إلى القند وهو الخرف وفساد العقل من الهرم والشيخوخة ، وفي معناه ما قاله ابن عباس : لولا أن تُسَفِّهُونَ . (ضَلَالِكَ) : ذهابك عن الصواب وبعذك عنه .

التفسير

٩٤- (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) :

ولما خرجت قافلة بني يعقوب من عريش مصر أو حدودها قاصدة مكان يعقوب عليه السلام ، وكان قريبا من بيت المقدس ، (قَالَ أَبُوهُمْ) : لمن كان يحضره من ذوى قرابته ، (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) : أى إننى لأشم ريح يوسف .

أوجد الله سبحانه ما عَبَقَ بالقميص^(١) من ريح يوسف في نفحة طيبة هبت على يعقوب فعَرَفَ ريحه وبينهما مسافات بعيدة .

(لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) : أى لولا تفنيدكم إِيَّايَ بنسبتي إلى الخرف من الشيخوخة لصدقتموني في أنني أجد ريح يوسف حقيقة غير متوهم ولا مخطيء .

قال مالك رضى الله عنه : إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طَرَفُهُ - انظر القرطبي ، وستأتى بقية الحديث عن ذلك في التفسير .

٩٥- (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) : أى قال الحاضرون عنده وقتئذ والله إنك لا تزال تعيش في خطئك القديم بالإفراط في محبة يوسف والإكثار من ذكره وتوقع لقائه ، وكانوا يظنون أن يوسف قد مات .

(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ④٦)

التفسير

٩٦- (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا) :

أى فلما جاء البشير الذى حمل قميص يوسف من بنى يعقوب ، ألقي القميص على وجهه امتثالاً لأمر يوسف ، فعاد يعقوب بصيراً تام البصر كما كان أو خيراً مما كان ، لمجرد إلقاء القميص على وجهه ، قيل : إن هذا البشير هو الذى حمل القميص الملطخ بالدم الكذب

(١) عَبَقَ بالقميص : أى لصق به .

بعد إلقاء يوسف في البئر ، فقد روى عن ابن عباس أنه قال لإخوته : قد علمت أنى ذهبت إلى أبي بقميص التُّرحة فدعوني أذهب إليه بقميص الفرجة ، أراد أن يمحو السيئة بالحسنة . فتركوه يتقدمهم استعجالا بنعمة البشارة ، وهم على أثره ، وحكى السُّدِّيُّ أنه يهوذا ، وأنه قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب ، وأنا الذى أحمله إليه الآن لأسره وليعود إليه بصره - والله أعلم .

والظاهر أن يوسف عليه السلام علم بالوحي أن إلقاء القميص على وجه أبيه يرد إليه بصره بإذن الله تعالى .

وقيل : إن يوسف لما علم أن أباه عرا بصره ماعراه من كثرة البكاء عليه بعث إليه قميصه ليجد ريحه ، فيزول بكأؤه ويفرح قلبه فرحاً شديداً فعند ذلك يزول الضعف ويقوى البصر ، بل يقوى الروح والبدن كلاهما ، ولاعجب ، فللسرور والفرح بإذن الله آثار حسية ومعنوية لا تنكر .

(قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) : هذا خطاب لبنيه القادمين وفي مقلمتهم البشير ، يذكرهم - وقد عاد بنعمة الله بصيرا - بما قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن ، وهو أنه يعلم من أمر يوسف وحياته ما لا يعلمون ، وكان هذا العلم إلهاما من الله عز وجل وطمأننة منه على أن يوسف لا يزال حيا ، أما بكأؤه عليه فهو بكاء شفقة وحرمان من رؤيته يأسا من حياته ، ولهذا قال لبنيه : « اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ . . . » الآية .

(قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾
 قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾)

التفسير

٩٧- (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) :

طلبوا منه عليه السلام أن يستغفر لهم ، ونادوه بعنوان الأبوة تحريكا للعطف والشفقة ،
 وعللوا ذلك بقولهم :

(إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) : مذنبين متعمدين ، يرجون بذلك الاعتراف أن يصفح عنهم
 وَيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنْ مِنْ اعْتَرَفَ لِأَبِيهِ بِذَنْبِهِ نَادِمًا ، كَانَ أَذْنَى إِلَى عَفْوِهِ وَاسْتَغْفَارِهِ اللَّهُ لَهُ .

قال القرطبي : وإنما سألوه المغفرة لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم
 عنهم إلا بإحلاله . وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما في نفسه ، أو ماله أو غير ذلك
 ظلما له ، فإنه يجب عليه أن يتحلل له ويخبره بالمظلمة وقدرها ، ثم قال : وفي صحيح
 البخاري وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له
 مظلمة لأخيه من عرضة أو شيء فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ ، قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن
 كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ^(١) » وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات
 صاحبه فحُمِلَ عليه . - انظر القرطبي . والمراد بتحلل منه اليوم أن يستبرئ منه ذمته
 في الدنيا .

٩٨- (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي) :

اعترفوا لأبيهم بذنوبهم كما اعترفوا لأخيهم بها ولكن أخاهم بادر بالاستغفار لهم
 وهم لم يطلبوه منه ؛ وأما أبوهم فوعدهم باستغفار ربه لهم في المستقبل ، وختم وعده بهذه
 الجملة المؤكدة بعدة تأكيدات فقال :

(١) مظلمة (بكسر اللام) وحكى فتحها .

(إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) : وبذلك تم الجوابان الحكيمان ؛ جواب الصديق وجواب أبيه - عليهما السلام - على اعترافات إخوة يوسف بالذنب ، وقد عرف من جواب الصديق أنه عفا عنهم فوراً وعرف من جواب أبيه أنه وعد بالاستغفار لهم ، ولم يعجل بالعفو عنهم ، وعن السر في ذلك الاختلاف أجاب السيد محمد رشيد رضا في تفسيره الخاص بسورة يوسف بما خلاصته : أنَّ حال يوسف مع إخوته هي حال الحاكم القادر ، بل الملك القاهر مع المسئء إليه الضعيف لديه ، الذي كبرت إساءته فاستحيا من طلب غفرانها ، فتبرع أخوهم بغفرانها تأميناً لهم من خوف الانتقام وكان قادراً عليه ، وتعجيلاً لهم بسرور الحياة التي جعل الله أزمته في يديه ، فكان المثل الأعلى في حسن الأسوة ، وما ينبغي أن يكون عليه الإخوة ، وأما حال أبيهم معهم فإنها حال المربي المرشد للمذنب الذي لا يخشى منه انتقاماً ، وليس من حسن التربية أن يُرِيَهُمْ أن ذنبهم هينٌ لديه ، فليس بينهم وبين غفرانه لهم إلا كلمة يقولونها بألسنتهم ، على أن ذنبهم كان موجهاً إليه وإلى يوسف وأخيه ، فمن العدل أن يكون استغفاره لهم ، بعد علمه بحالهم مع أخويهم ولم يكن على علم بعفو يوسف عنهم .

ثم إن ذنوبهم من الذنوب العظام التي طال عليها الأمد ، والتي لا تغفر - بحسب شرع الله وسنته - إلا بتوبة نصوح تجدد حياتهم . اهـ ما قاله السيد رشيد مخلصاً هذا ، وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أن يعقوب عليه السلام آخر الاستغفار لهم إلى السحر لأن الدعاء فيه مستجاب ، وروى عنه أيضاً أنه أخره إلى ليلة الجمعة ، وفي رواية عن طاووس سحر ليلة الجمعة ، وجاء ذلك في حديث طويل رواه الترمذي وحسنه عن ابن عباس برفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا
مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾)

المفردات :

(آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ) : ضمهما إليه .

التفسير

٩٩ - (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ . .) الآية .

هنا كلام مطوى دل عليه السياق ومعناه ؛ أَنَّ إخوة يوسف بَلَغُوا آباهم وسائر أهلهم أَن يأتوا إليه جميعاً ليقیموا معه استجابة لطلبه ، وأخبروهم بمكانة يوسف ومنزلته في مصر ، وأنه الحاكم المفوض فيها من قبل الملك . لذلك ارتحلوا من بلاد كنعان قاصدين إلى مصر حتى بلغوا مقرَّ الملك .

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ) : استقبلهم استقبالا كريماً بدأه بأن :

(آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ) : أباه وأمه ، وكانت على قيد الحياة كما هو ظاهر القرآن الكريم - وقيل إنها ماتت وهذه أختها . وكان أبوه قد تزوجها بعد وفاة أمه . والخالة بمنزلة الأم ، كما أن العم بمنزلة الأب ، ولكننا نرجع الظاهر من النص ، لأنه لم يثبت لدينا ما يخالفه ، والمراد من إيوائهما إليه أنه جمعهما معه في قصره الخاص به ، تكريماً لهما ومبالغة في البر بهما ، وقال لهما ولسائر أهله :

(ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) : آمناً عاماً شاملاً ، على أنفسكم ومواشيكم من الجوع والخوف وسائر المكآره . ولعل سنى القحط لم تكن انتهت بعد . ولاغربة في هذه الساحة والكرم من يوسف عليه السلام ، فهو كريم من سلالة رسل كرام ^(١) .

(١) روى البخارى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكرم ابن الكرم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » .

ومعنى قوله عليه السلام : « ادْخُلُوا مِصْرَ » وهم قد دخلوها - معناه : أقيموا فيها كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وكان الأمر بدخولها عبارة عن الإذن باستيطانها .

وقيل إن يوسف عليه السلام لما علم باقتراحهم خرج يتلقاهم فى موكب عظيم ، وضرب مضربا على مقربة من حدود مصر للنزول فيه ، وفى هذا المنزل آوى إليه أبويه . وقال لهما ولبقية الركب : « ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » . وتعلق دخولهم آمنين ، بالمشيئة الإلهية للتيمن والتبرك ، وللتبرؤ من حوله عليه السلام ومشيئته وقوته ، إلى حول الله تبارك وتعالى ومشيئته وقوته وفضله العظيم .

(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

المفردات :

(الْعَرْشُ) : سرير الملك . (الْبَدْوُ) : البادية . وأصل البدو المبسوط من الأرض ، سُمِّيَ بذلك لأن ما فيه يبدو للناظر لعدم ما يواريه .

(نَزَغَ) : أفسد وأغرى . وأصله من نزغ الرائض الدابة ؛ إذا همزها وحملها على الجرى .

التفسير

استقبل يوسف أبويه وأهله بعد غيبة طويلة حدثت فيها تلك الأحداث التي مر بيانها في السورة الكريمة .

١٠٠- (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ) : وَخَصَّ أَبَوَيْهِ بِمَزِيدٍ مِنَ التَّجَلُّةِ وَالْإِكْرَامِ ، فَأَجْلَسَهُمَا عَلَى سَرِيرِهِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ لِتُدْبِيرِ الْمَلِكِ إِذْ هُوَ الْمَلِكُ صَاحِبُ السُّلْطَانِ فِي الْحَقِيقَةِ .

(وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) : أَيْ وَخَرَّ أَبَوَا يُوسُفَ وَإِخْوَتُهُ لَهُ خَاضِعِينَ . وَصُورَةُ الْخُضُوعِ لِمِائَتِنَا بِهَا نَصٌّ شَرْعِي . فَتَحْمَلُ عَلَى مَا كَانَ مَعْرُوفًا يَوْمَئِذٍ فِي تَعْظِيمِ الْمُلُوكِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

أَمَّا الْقَوْلُ بِأَنْ سَجَدَهُمْ هَذَا كَانَ لِلَّهِ ، وَإِلَيْهِ سَبْحَانَهُ يَعُودُ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ :

(وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) فَيَنَافِيهِ مَا جَاءَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ : « وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » .

قال القرطبي : وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة . وعلى أثر سجودهم هذا ذكر يوسف أباه برؤياه في صباه .

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ) : أَيْ أَنَّ هَذَا السَّجُودَ مِنْكُمْ وَمِنْ إِخْوَتِي هُوَ الْمَالَ الَّذِي آتَى إِلَيْهِ رُؤْيَايَ الَّتِي رَأَيْتُهَا فِي صَغُرِي إِذْ « رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » .

(قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) : أَيْ أَمْرًا وَاقِعًا لَا رَيْبَ فِيهِ وَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ الْآنَ رَأَيْ الْعَيْنِ .

فِيَاخُوتِي مِثَالِ الْكَوَاكِبِ الْأَحَدَ عَشَرَ وَأَنْتِ وَأُمِّي مِثَالِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ .

ثم أثنى على ربه شاكرًا لأنعمه فقال :

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي) : رَبِّي إِحْسَانًا عَظِيمًا .

(إِذْ أَخْرَجْنِي مِنَ السِّجْنِ) : معزّزاً مُكْرَماً . إلى عرش الملك والسيادة .

(وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) : حيث كنتم تعيشون في شظف البادية وخشونة العيش ، واضطراب الأمن - إلى الحضر - حيث تعيشون في رغد واستقرار آمين .

قال الزمخشري : كانوا أهل عَمَدٍ ^(١) وأصحاب مواش يتنقلون في الحياة والمناجع : ا هـ

وفي الآية إشارة إلى تفضيل الحضارة على البداوة ولم يذكر عليه السلام خروجه من الجب لئلا يُخجل إخوته بعد أن قال لهم : « لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ » . ثم أتم حديثه لأبيه قائلاً :

(مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي) : أى وقد أحسن بى ربى وأنعم على بهذه النعم من بعد ما أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، حيث أتلّف عاطفة الأخوة وقطع مودة القربنى ، فأنت ترى من حديث يوسف عليه السلام أنه جعل الإغراء بالشر والقطيعة مشتركاً بين الشيطان وبين إخوته فتقع تبعته عليه وعليهم ، ليخفف بذلك شعورهم بالندم على ما اقترفوه فى حقّه ، وهذا من كمال أدبه وتواضعه وكرمه .

ثم أشار إلى لطف الله وتدبيره له حتى بلغه هذه المنزلة فقال :

(إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ) : أى لطيف التدبير لما يشاؤه ، حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب ، فإذا أراد أمراً هياً له أسبابه وقدره ويسره ، وإن كان فى غاية البعد عما يخطر بالبال .

وهل كان يخطر بالبال أن الإلقاء فى الجب يفضى إلى السجن وأن السجن يفضى إلى

العزة والملك ؟ !

(إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ) : بمصالح عباده . (الْحَكِيمُ) : فى أقواله وأفعاله وقضائه وقدره .

(١) أى أصحاب خيام تنصب وتقام على عمد .

(* رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) (١٠١)

المفردات :

(تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) : تفسير ما غمض منها ، والمراد هنا تفسير الأحلام .
(فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) : خالقهما على غير مثال سابق .
(وَلِيِّ) : ناصرى ومعينى .

التفسير

غفر الله سبحانه وتعالى يوسف بنعمه الجزيلة حيث نَجَّاهُ من تآمر إخوته عليه ، وعصمه من السوء والفحشاء ، ورد من كيد امرأة العزيز وصواحبتها . وبرأه مما اتَّهَمَتْهُ به ، وأخرجه من السجن عزيزاً كريماً ، وبوأه من الملك ، وجمع بينه وبين والديه ، وأصلح بينه وبين إخوته ، فاتجه إلى ربه بالحمد والثناء ضارعاً إليه أن يتم نعمته عليه فى الآخرة كما أتمها عليه فى الدنيا قائلًا :

١٠١ - (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) :

يا إلهى يا من رببتنى وكفلتنى ، وأنعمت على فوهبتنى نصيباً وافراً من الحكم والسلطان وعلمتنى ما لم أكن أعلم من تفسير بعض الأمور الغيبية وشرح الأحلام الغامضة .

(فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) :

أى يا خالق السموات والأرض على غير مثال سبق ، فكانت على هذا النحو العجيب ، ورفعت كل كوكب فى السماء فى فلكه المرسوم ومداره المعلوم « وَكُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » . إنك متولى أمري فى الحياة الدنيا وفى دار البقاء ، أضرع إليك خاشعاً - داعياً إليك :

(تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) :

أى أسألك أن تتوفانى مؤمناً بك مخلصاً لك وألحقنى يارب بالصالحين من عبادك .

وفى طلب يوسف من الله سبحانه أن يلحقه بالصالحين إشارة إلى أن مرتبة الصلاح رفيعة القدر وأن طلبها لا يقتصر على المؤمن العادى بل تهفو إليها نفوس الأنبياء .

(ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ
إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾)

المفردات :

(أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ) : أحكموا تدبيرهم .

(يَمْكُرُونَ) : يتآمرون ويختالون .

التفسير

ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أخبار يوسف ولا غيره من الأنبياء السابقين إلا بوحي من الله تعالى ، ولهذا عقب ماسبق من قصة يوسف بقوله جل من قائل :

١٠٢ - (ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) :

أى هذا القصص تناول أحداثاً تاريخية تفصلك عنها آلاف السنين ، فهو من أخبار الغيب ، أوحيناها إليك ليعلم قومك ويعلم أهل الكتاب أنك صادق فيما ترويه عن الله وكلهم يعلمون أنك أئى لاتقرأ الكتاب مطلقا كما قال تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ^(١) » .

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) :

أى وما كنت يأمحمد حاضرا مع إخوة يوسف حينما أجمعوا أمرهم ، وأحكموا تدبيرهم على الكيد له عليه السلام فى خبث واحتيال ، حيث تآمروا على إلقاءه فى الحب ، وادعاء أن

الذنب أكله ، وإحضار قميصه لأبيه ملوثا بدم كذب ، فروايتك لتلك الأحداث شاهدة بأنك تلقيتها من العليم الخبير الذي أنزل عليك القرآن مشتملا عليها وعلى غيرها من أحداث القصة بتفصيل دقيق محكم .

وكما أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن عند إخوة يوسف وهم يمكرون به ، فإنه لم يشاهد سائر أحداث القصة التي جاءت بها السورة ، ولم يكن عند ذويها وقت حدوثها . وإنما اكتفى النص بما كان من إخوة يوسف لأنه مفتاح الأحداث كلها ، فهو رمز إليها ، ألا ترى أنه قد جاء عقب قوله سبحانه : (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) . أى ذلك الذى تقدم فى السورة من أحداثها .

ومع أن المفسرين قد أجمعوا على إرجاع الضمير فى (لَدَيْهِمْ) إلى إخوة يوسف لمكرهم به فإنه يمكن إرجاعه إلى جميع من مكر به ، سواء كانوا إخوته أو امرأة العزيز وصاحباتها أو غيرهم .

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾)

التفسير

١٠٣- (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) :

كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على إيمان قومه ، وكان يرجو هدايتهم بعد سماعهم قصة يوسف الموافقة لما فى التوراة ، فلما لم يؤمنوا نزلت هذه الآية يواسى بها الله رسوله وَيُسْرَى عنه مايقاسيه من أحزان لانصراف معظم أهل مكة عن دعوة الحق التى جاءهم بها ، وإمعانهم فى المكابرة والضلال مع ظهور آياتها وبراهينها ، فيقرر له سبحانه أن هذه الظاهرة هى طبيعة معظم الناس لا أهل مكة وحدهم ، فكأنه تعالى يقول لرسوله : وما أكثر أهل الأرض بمؤمن ولو حرصت على إيمانهم ، وبالغت فى إقامة الحجج والبراهين لهم ، فإن عقولهم تتحكم فيها أهواؤهم وتقليدهم لأبائهم .

فليس غريبا أن ترى معظم قومك « يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » ^(١) . « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ » ^(٢) : « وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ » ^(٣) .

١٠٤ - (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) :

إنك تدعوهم إلى مافيه فلاحهم في الدنيا والآخرة وتهديهم إلى الرشاد ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور ولا تطالبهم بأجر يقدمونه إليك نظير هدايتهم وإرشادهم ، فإنما أجرك على الله وحده وما الكتاب الذي أنزله الله عليك إلا تذكرة لأصحاب العقول الراجعة والبصائر المميزة من أهل الأرض جميعا لعلهم يعتبرون ويتعظون ، وليس خاصا بأهل مكة « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » ^(٤) .

(أَوْ كَآئِنْ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) ^(٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ^(٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ^(٧))

المفردات :

(وَكَآئِنْ مِّنْ آيَةٍ) : وكم من علامة دالة على وجود الصانع ووحدته وقدرته وسائر

صفاته .

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦

(٢) سورة فاطر ، من الآية : ٨

(٣) سورة النمل ، الآية : ٨١

(٤) سورة ص ، الآية : ٨٨

(مُعْرَضُونَ) : منصرفون . (غَاشِيَةٌ) : كارثة كبرى تغمرهم .

(السَّاعَةُ) : القيامة . (بَغْتَةً) : فجأة دون توقع أو انتظار .

التفسير

١٠٥- (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) :

جاءت هذه الآية الكريمة لتبين أن قريشا لم تكتف بالأعراض عن القرآن الكريم ، بل يعرضون أيضا عن آيات الله الكونية الكثيرة التي بثها في آفاق السموات وأرجاء الأرض والتي تدل على وحدانية الله وسائر كمالاته ، وتستلزم إفراده تعالى بالعبادة ، وكلما مروا عليها أغمضوا عيونهم وكفوا بصائرهم ، فلا هم آمنوا بالآيات القرآنية ولا تدبروا الآيات الكونية ، وإنما آثروا العمى على الهدى وفضلوا الضلال على الرشاد في عناد ولجاج .

« أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَلْهَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ »^(١) .

١٠٦- (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) :

وما يؤمن أكثر هؤلاء بالله تعالى وأنه هو الخالق ، إلا وكان إيمانهم به مشوبا بالشرك ، فإذا سألتهم من خلق السموات والأرض قالوا خلقهن الله وهم مع ذلك يشركون به في العبادة .

وفي الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك » .

١٠٧- (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ) : أى أن هؤلاء المعرضين عن آيات

الله المنزلة وآياته الكونية ، يعرضون أنفسهم لغضب الله وعذابه الشديد في الدنيا والآخرة

(١) سورة البقرة ، آية ١٧٥ .

فهل آمنوا أن ينتقم الله منهم في الدنيا فيصيبهم بكارثة تغشاهم وتبيدهم : مثل الزلازل والبراكين والشهب والصواعق والأعاصير والعواصف .

(أَوْ تَأْتِيهِمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

وهل آمنوا أن تنتهى حياتهم فجأة بأن تباغتهم الساعة بأهوالها وشدائدها دون شعور بمقدمها وقبل أن يتوبوا وينيبوا إلى الله ، وفي هذا المعنى يقول الله تعالى :

« بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » ^(١) .

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

المفردات :

(سَبِيلِي) : طريقى وطريقتى .

(عَلَى بَصِيرَةٍ) : على يقين ناشئ من وحى الله وآياته وحججه .

التفسير

١٠٨ - (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) :

قل يا محمد لهؤلاء المعاندين المكابرين هذه هى طريقتى ومنهجى أدعو إلى عبادة الله وحده على يقين ثابت ، ناشئ عن وحى الله تعالى ، وقائم على الحجة البينة والبرهان الواضح أدعو إلى الله كذلك أنا ومن اتبعنى من المؤمنين .

وقد استفيد من الآية الكريمة أن القادرين على الدعوة إلى الله تعالى من علماء المسلمين ينبغي أن يتحملوا نصيبهم فيها ، ويقوموا بها خير قيام ، كما قام بها أسلافهم من قبل .

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٠

(وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى وقل لهم يا محمد أنزه الله وأجله عن أن يكون له شريك أو نظير أو ولد أو صاحبة ولست أنا ولا أصحابي من المشركين لا شركاً خفياً ولا شركاً ظاهراً ، بل نعبد الله . « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ^(١) » .

وهذا هو المنهج القويم ، والصراط المستقيم .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾)

التفسير

١٠٩ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) :

لَسْتُ - يا محمد - بدعاً من الرسل فجميع من أرسلناهم قبلك بشر لا ملائكة أوحينا إليهم شرائعنا وأمرناهم بإبلاغها إلى أقوامهم وهم ليسوا غرباء عنهم بل هم منهم يتحدثون بالسنتهم كما قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ^(٢) » :

فكل قوم يعرفون رسولهم وما اشتهر به بينهم من الصدق والأمانة حتى لا تكون لهم حجة على تكذيبه والإعراض عنه ، وكان الرسل من أهل القرى دون أهل البوادي ، لأن أهل القرى فيهم عقل وحلم ، وأهل البوادي على العكس منهم .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٤

(١) سورة غافر ، من الآية : ١٤

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) :

أَقْعَدَ قَوْمَكَ فَلَمْ يَتَنَقَّلُوا فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ لِيَرَوْا كَيْفَ كَانَ مَصِيرُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ بَعْدَ مَا كَذَبُوا رُسُلَهُمْ وَأَصْرُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ ، كَلَّا . فَإِنَّهُمْ سَارُوا فِي الْأَرْضِ وَعَرَفُوا أَنَّهُ تَعَالَى أَصَابُهُم بِالْهَلَاكِ وَالتَّدمِيرِ وَالْاِسْتِثْصَالِ ، وَهُمْ يَمْرُونَ عَلَيْهِمْ فِي أَسْفَارِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى :

« ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »^(١)

فلماذا لا يتعظون بما شاهدوا .

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

أَيُّ وَلِثَوَابِ الدَّارِ الْآخِرَةِ لِلْمُتَّقِينَ خَيْرٌ وَأَبْقَى مِنْ لَذَاتِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ ، وَشَتَانُ بَيْنِ دَارِ الْفِتْنَةِ وَالْاِبْتِلَاءِ وَالزَّوَالِ ، وَدَارِ الْخُلْدِ وَالْبَقَاءِ وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ »^(٢)

فهذا استعملتم عقولكم فاعتبرتم بأحداث الحياة وعلمتم أن العاقبة للمتقين .

(حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ۚ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾)

المفردات :

(اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ) : أَغْرَقُوا فِي الْيَأْسِ وَالْفَنَوْطِ .

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا) : أَيُّ رَجَعَ عِنْدَهُمْ أَنَّ نَفْسَهُمْ حَدِثَتْهُمْ بِالنَّصْرِ وَكَانَتْ

كَاذِبَةً فِي حَدِيثِهَا . (بَأْسُنَا) : عَذَابُنَا .

(١) الصفات ، الآية ١٣٦-١٣٧

(٢) آل عمران ، الآية ١٥

التفسير

١١٠ - (حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأٍ وَلَا يُؤَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) :

هذه الآية مرتبطة بجمل مقدرة دل عليها السياق ، والتقدير : لا تغتر قريش بما هي فيه من السلام وعدم العقاب على كفرهم حتى الآن ، فإن من قبلهم من الكفار قد أمهلوا ، حتى إذا أيس الأنبياء المرسلون إليهم من إيمانهم لتمادهم في الطغيان والتكذيب من غير وازع وتوهموا أن نفوسهم كذبت عليهم حين توقعت النصر على من كفر بهم وعقابهم في الدنيا - حتى إذا حدث كل ذلك - جاءهم نصر الله فجأةً فأنزل الله بهم العذاب ونجى الله منه من يشاء لإنجاءه وهم المرسلون ومن آمنوا بهم ، ولا يمنع أحد عذاب الله عن القوم الذين أجزموا بكفرهم إذا قدره عليهم ، فاعتبروا يا أهل مكة بسنن الله فيمن كان قبلكم ، واحذروا أن يحل بكم ما حل بهم ، فإن الله ينصر رسله ولو بعد حين .

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

المفردات :

(عِبْرَةٌ) : عظة . (لِأُولِي الْأَلْبَابِ) : لأصحاب العقول .

(يُفْتَرَى) : يخترع وبلفق . (بَيْنَ يَدَيْهِ) : ما تقدم عليه .

التفسير

١١١- (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) :

انتهت قصة يوسف عليه السلام بهذه الآية الكريمة ، التي أبرزت الهدف منها ومن أمثالها ، وهو العظة والاعتبار والإيقان بأن العاقبة للمتقين ، وأن الهلاك والدمار للمجرمين وهي نهاية يدركها أصحاب العقول الراجحة والبصائر المستنيرة الملهمة .

(مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى) :

ما صح ولا استقام عقلا أن يكون هذا القرآن الكريم حديثًا يفتريه بشر على الله فيما جاء به من قصص الأمم الخالية التي بعث الله رسله إليها ، ولا فيما جاء به من تشريعات وعقائد وأخلاق فيها صلاح أمور الدنيا والآخرة ، ولا فيما اشتمل عليه من أعلى درجات البلاغة والفصاحة فإن ذلك كله فوق طاقة الإنس والجن . « قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »^(١) .

فكيف يستقيم قول المشركين فيما يحكيه الله عنهم بقوله : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »^(٢) .

(وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

أى ولكن أنزل الله القرآن على رسوله الصادق الأمين مصدقاً للكتب السماوية التي بين يديه أى التي سبقته ، ومویداً لها فيما كلفت به البشر من عقائد وطاعة للخالق جل وعلا ، وما أمرهم به من تنزيه له عن الشريك والصاحبة والولد ، وعن كل مالا يليق به من النعوت

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٨

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٩

والصفات المنافية للربوبية ، كما أنزله تفصيلاً لكل شيء يحتاج إليه في شئون الدين والدنيا والآخرة ، حيث ضمنه القواعد الكلية لها ، وأحال بيانها على نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله :

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »^(١) . وأنزله هدى للناس من الضلال والحيرة ، وإرشاداً لهم إلى سبيل السعادة ، وأنزله رحمة لقوم يؤمنون به ، ويسلكون سبيله ويهتدون بهديه .

(١) سورة النحل ، من الآية : ٤٤

سورة الرعد

أرجح الآراء أنها كلها مدنية وهي ثلاث وأربعون آية وسميت السورة بسورة الرعد إشارة إلى قوله تعالى فيها : « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ »^(١) .

مقاصد السورة :

١- استهلكت السورة بالإشارة إلى آيات القرآن الكريم المنزلة بالحق على سيد الخلق للهداية والإرشاد .

٢- ثم أشارت إلى ما بثه الله في السموات والأرض من آياته الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته وعظمته ، من سماء مرفوعة وعرش عظيم وأجرام فلكية مسخرة ، وأرض تجري فيها الأنهار وتزدان بالحدائق الغناء والمروج الفيحاء .

٣- ثم تناولت أحوال البشر وتفكر كثير منهم لآيات الله المنزلة وآياته الكونية ، مع أن الله مطلع على نياتهم وأقوالهم وأفعالهم ، وسيجزى كلا منهم بما يستحقه من جزاء .

٤- ثم دعت البشر إلى أن يَفِيثُوا إلى الصواب ، وأن يبادروا بإصلاح ما في نفوسهم من فساد وتغيير ما فيها من انحرافات ، حتى يعينهم الله ويهديهم فإنه سبحانه « لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

٥- ثم عادت السورة لتذكّر البشر بآيات الله الكونية - وأنها كما تكون نِعَمًا تكون نِقَمًا - مثل الرعد والصواعق ، وكلها منقادة لإرادة الله خاضعة لمشيئته ، وبينت أن الذين يدعون من دونه - لا يستجيبون لهم بشيء ، ولا يملكون لهم ضرًا ولا نفعًا ، وأنه لا يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور .

٦- ثم وعدت الذين يستجيبون لدعوة ربهم بالثوبة الحسنی ، وتوعدت من لا يستجيبون لها بأن لهم سوء الحساب والخلود في جهنم وبئس المهاد .

٧- ثم تحدثت عن أنه تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ويضيِّقه على من يشاء ، وأن الحياة الدنيا بجانب الآخرة ونعيمها ما هي إلا متاع قليل .

٨- ثم ذكرت عناد المشركين بطلبهم من الرسول آية من ربه - وبينت أن هذا ضلال منهم وانحراف عن الآية الكبرى وهي القرآن ، وأنه تعالى يضل من يشاء من المنحرفين فلا يعينه ، ويهدى إليه من أناب ويعينه ، وأن القرآن هو ذكر الله وأنه تطمئن به القلوب .

٩- ثم تحدثت عن عظمة القرآن وأن الكفار لم يقدروه قدره حيث اقترحوا غيره ، مع أنه جدير بأن تسير به الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى .

١٠- ثم نبهت الذين آمنوا إلى أنه تعالى لو شاء لهدى الناس جميعا ، وتوعدت الكافرين بقارعة تصيبهم أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله .

١١- ثم تحدثت عن الجنة التي وعدها الله المتقين ، ووصفتها بالصفات الجليلة ، وبينت أن الذين آتاهم الله الكتاب من المخلصين يفرحون بالقرآن الذي أنزله الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن من أحزابهم من ينكر بعضه وهو ما يخالف ضلالاتهم ، أو يغيّر ما كان مشروعا لهم - مع أن لكل أمة رسولها وكتابها « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » . ونهته عن اتباع أهوائهم كالصلاة إلى بيت المقدس بعد تحويل القبلة ، وبينت أن الرسل السابقين جعل الله لهم أزواجا وذرية كما جعل لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلا وجه لاعتراض أهل الكتاب عليك يا محمد .

١٢- ثم توعدت الكافرين ، وذكرت أن على الرسول البلاغ وعلى الله الحساب ، وأنه تعالى يحكم ولا معقب لحكمه ، « وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ » . إلى غير ذلك من المقاصد الشريفة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۚ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾)

المفردات :

(الْكِتَاب) : القرآن . (الْحَقُّ) : الثابت .

التفسير

١ - (الْمَرْ) : تقدم الكلام على أمثلها في أوائل سور : البقرة وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، وأرجح الآراء فيها أنها تشير إلى أن القرآن الكريم مركب من كَلِمَاتٍ ذات حروف كهذه الحروف التي ينظم منها العرب كلامهم ، فإن كانوا صادقين في زعمهم أن محمداً تقوله وافتراه فليأتوا بمثله فهم أئمة الفصاحة والبلاغة فإذا عجزوا فمُحمد مثلهم لا يستطيع أن يأتي بمثله وإذا كان كذلك وجب الإيمان بأنه تنزيل من حكيم حميد .

هذا إلى جانب ما في بدء الكلام بها من الغرابة الداعية إلى الانتباه واستماع ما يليها من فنون الهدى والرشاد ، لعلهم يتلذذون ويكفون عن الإعراض عن سماع القرآن العظيم .
(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) :

هذه آيات الكتاب العظيم الغني عن الوصف من بين سائر الكتب ، الجدير باختصاصه باسم الكتاب .

(وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) :

أي وهذا الكتاب الذي أنزله الله إليك يا محمد هو الحق الثابت المطابق للواقع فلا مجال للشك والارتياب من قومك في صلوره إليك من ربك أيها النبي .

(وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى ولكن أكثر الناس الذين دعوتهم إلى الإيمان بهذا الكتاب الحق لا يؤمنون بأنه أنزل إليك من ربك ، لإخلالهم بواجب النظر والتأمل فيه ، وانقيادهم لأهوائهم وشهواتهم ، وإيثارهم الضلال على الهدى ، والظلمات على النور فاصبر على أذاهم وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ^(١) .

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

المفردات :

- (الْعَمَدُ) : بفتح العين والميم وضمهما هى الأساطين التى تحمل السقف جمع عמוד .
 (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) : أى يقضى فيه ويقدره بحكمته .
 (يُفَصِّلُ الْآيَاتِ) : يأتى بها مفصلة مبينة للاستدلال بها على كمال قدرة الله وحكمته .
 (تُوقِنُونَ) : تصدقون تصديقاً جازماً لاشك فيه .

التفسير

بعد أن ذكر الله أن آيات القرآن أنزلها على رسوله بالحق عقب ذلك بذكر آياته الكونية العظيمة التى تدل على وحدانيته وعظمته وقدرته وهيمنته على كل شيء فقال تعالى :

٢ - (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) :

(١) سورة النحل من الآية : ١٢٧

إن الإنسان لينظر إلى السماء وما فيها من نجوم وكواكب فيأخذه الإعجاب بِسْمُومِهَا وعظمتها وجمالها واتساعها وإبداعها ، والقرآن يذكرنا بأن الله وحده هو الذي رفع هذه السموات في آفاقها السامية الفسيحة بغير ارتكاز على عمد مرئية ، ولكن الله سبحانه وتعالى يمسكها في أفلاكها ، ويدفعها في مداراتها ، طبقاً لسنن كونية ثابتة أبدعتها قدرته سبحانه .

فقال جل شأنه : « إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ » ^(١) وقال تعالى : « وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » ^(٢)

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) :

المراد من الاستواء هنا الاستيلاء والسيطرة ؛ ومنه قول الشاعر :

استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

والعرش هنا كناية عن الملك والسلطان ، والمعنى أنه تعالى هيمن وسيطر على ملك السموات بعد أن رفعها بغير عمد ، فلم يدع فيها لأحد غيره سيطرة عليها ولا تدبيراً لشيء فيها ، فكما كان له الأمر فيها حين تقديرها خلقاً وإبداعاً فله الأمر والسلطان فيها بعد ذلك حفظاً وتدبيراً ، لا يشاركه في ذلك كله شريك « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » ^(٣)

ومن العلماء من فسر العرش بأنه شيء عظيم لا يعلم كنهه غير الله ، مع تنزيهه جل وعلا من الجلوس عليه ، فإنه تعالى يستحيل عليه المكان ، وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك ، فإذا عرفت أنه تعالى لا أول لوجوده ، وأنه سبحانه كان ولا شيء معه ، وأنه أوجد العرش واستحدثه بعد أن لم يكن ، عرفت أنه ليس بحاجة إلى عرش يجلس عليه كما يفعل الملوك ، فالعرش على تسليم أنه جرم عظيم ، خلقه الله لمصلحة ملكوته ، وقد استند أصحاب هذا الرأي إلى أحاديث منها ما ذكره البيهقي وأخرجه الآجري وأبو حاتم البستي عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَآةٍ ،

(١) سورة فاطر ، الآية : ٤١

(٢) سورة الحج ، الآية : ٦٥

(٣) سورة الأعراف ، من الآية : ٥٤

وَفَضَّلَ الْعَرْشَ عَلَى الْكَرْسِيِّ كَفَضَّلَ الْفَلَاةَ عَلَى الْحَلَقَةِ . وتركوا علم ذلك وإدراكه إلى الله علام الغيوب .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) :

أى أن الله سبحانه خلق الشمس وهى نجم كبير وخلق القمر وهو كوكب صغير وسخرهما ليهتفعا البشر بنورهما وحرارة الشمس ذات المنافع الغزيرة ، فانظر إلى رحمة الله ، حيث جعل الشمس إذا غابت بالحجاب وغابت معها أنوارها ، أتبعها القمر حتى لا يحرم عباده من نور السماء ليلاً ونهاراً ، وجعل كلا منهما يجرى فى فلكه المرسوم ومداره المعلوم إلى أمد مقدر وزمن محدود يعلمه سبحانه .

وقال ابن عباس : الأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى ينتهيان إليها ولا يتجاوزانها .

يريد بذلك أن الشمس تقطع مدارها متنقلة فى أبراجها فى سنة شمسية ، والقمر يقطع مداره متنقلاً فى منازلها فى شهر قمرى ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » ^(١) . وذهب معظم المفسرين إلى أن الأجل المسمى هو يوم القيامة يوم أن تكون السموات مطويات بيمينه سبحانه .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) :

والمعنى أن الله سبحانه يقدر الأمور بمقتضى حكمته ويجريها طبقاً لسنة الكونية فى أرضه وسماؤه فهو سبحانه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، وغير ذلك من شئونه تعالى فى سمواته وأرضه ، تلك الشئون التى تحير العقول والألباب ولا تدخل تحت حصر ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » ^(٢) . وكما أنه تعالى يدبر الأمر فإنه يفصل الآيات ويبينها فى كتبه المنزلة على رسله ويوجهنا إلى التأمل فيها ، والاعتبار بدلالاتها ، فإنها تدلُّ على عظيم قدرته ، وجليل حكمته ، ووافر رحمته ونعمته ، وأن الذى بدأ الخلق قادر على

(١) سورة يس ، من الآية : ٤٠

(٢) سورة الرحمن من الآية ٢٩ .

إعادته ، وأن مصيرنا جميعاً إلى الله فنحن جميعاً منه وإليه ، فإذا انتفعنا بما فضله الله لنا من الآيات ، وعرفنا أننا سنلقى الله طال الزمن أم قصر ، فإننا نستعد لهذا اللقاء بالإيمان الثابت والعمل الصالح والاستقامة على طريق الحق ، لننال ثوابه وننجو من عقابه .

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾)

المفردات :

(مَدَّ الْأَرْضَ) : بسطها . (الرَوَاسِيَ) : الجبال . (يُغْشَى) : يغطي .

التفسير

٣ - (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا) :

تابعت هذه الآية سرد آيات الله الكونية ، فذكرت أنه تعالى بسط الأرض أمام البصر ، وسوى معظم سطحها ، ليسهل الانتقال عليه من مكان إلى مكان ، كما قال سبحانه : « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » ^(١) .

وليسهل على عباده زرعها والانتفاع بخيراتها ، ولا يتنافى ذلك مع كروية الأرض التي أشارت إليها الآية الكريمة : « يُكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ » ^(٢) .

وسنعرض لها بالشرح في موضعها إن شاء الله ، وكما سوى الله سطح الأرض جعل منها جبالا راسخة لتثبيتها فلا تموج ولا تضطرب ، حتى لا يهلك من على سطحها من الكائنات أثناء

(١) سورة نوح الآية ١٩

(٢) سورة الزمر من الآية ٥

اضطرابها وزلزالها ، قال تعالى : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا » ^(١) . ومن آيات الله الكونية التي أشارت الآية إليها تكوين الأنهار من الأمطار التي تهطل على سفوح الجبال ، فتشق طريقها فوق سطح الأرض ممتدة مئات أو آلاف الأميال ، ليرتوى منها عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات .

(وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلْنَا فِيهَا رَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) :

أى وجعل الله فى الأرض من كل أنواع الشمرات فردين متزاوجين ، أحدهما ذكر والآخر أنثى ، والذكر قد يكون منفصلا عن الأنثى كالنخل ، وقد يكونان فى شجرة واحدة كشجرة النرة ، وهنا يتجلى الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، فما كان العرب يعلمون أن فى كل نبات أعضاء للتذكير وأخرى للتأنيث ، يتم بينهما التلاقح فتثمر أطيب الشمرات ، ما كانوا يعلمون ذلك إلا فى نبات واحد هو النخل ، ولكن القرآن أنبأنا منذ أربعة عشر قرناً بما اهتدى إليه العلم الحديث فى العصر الحاضر « سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » ^(٢) .

(يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ) :

أى يجعل الليل يغطى ضوء النهار ويكسوه بظلامه ليسترىح الناس من متاعبهم فى النهار ويدركوا رحمة ربهم بهم وقدرته على هذا الكون العجيب ، واكتفى بتغشية الليل النهار مع تحقق عكسه لأنه معلوم ، وتتابع الليل والنهار نعمة من الله بها على خلقه ليتسنى لهم الكسب فى ضوء النهار والراحة تحت أسدال الظلام .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) : إن فى هذه الآيات الكونية العديدة فى السموات والأرض لعلامات وبراهين دالة على وحدانية الله وقدرته وعظمته ، يدركها من استعملوا عقولهم وتركوا تقليد أهل الجهالة فى جهالتهم ، فمن شاء الهداية فأمامه آيات الله المنزلة وآياته الكونية ، وكلتاها تدعو إلى الإيمان العميق « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ » ^(٣) .

(٢) سورة يس ، الآية ٣٦

(١) سورة النبأ الآيات ٦ ، ٧

(٣) سورة الجاثية ، من الآية ٦

(وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ
وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا
عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾)

المفردات :

(صِنَوَانٌ) : جمع صنو ، وهو المثل ، ومنه الحديث الشريف : «عم الرجل صنو أبيه» .
والصَّنَوُ أيضًا نخلتان أو أكثر تنسحب من أصل واحد ، وكما تُطلق كلمة الصنو على مذكر ،
يطلق عليه أيضًا : (صنوان) : روى عن البراء : الصنوان المجتمع ، وغير الصنوان المتفرق ، وقال
النحاس : يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان هـ . راجع القرطبي .

التفسير

٤ - (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ
صِنَوَانٍ) الآية .

واصلت الآية الحديث عن آيات الله الكونية .

والمعنى : أنه يوجد في الأرض قطع متجاورة متماثلة في تربتها وارتفاعها بأشعة الشمس
وفيهما بساتين كثيرة مزروعة في قطع الأرض المتجاورة ، وتشتمل على أشجار الكروم التي
تثمر أنواع العنب والزبيب ، وتشتمل أيضًا على الزرع الذي يثمر أنواع الحبوب والبقول ،
وفيهما النخل الذي يثمر البلح والرطب والتمر .

وبعض النخيل مفرد وبعضه متعدد على أصل واحد ، وهو الذي عبر عنه في الآية بكلمة
(صنوان) ، ونلاحظ في الآية أنها لم تستوعب حاصلات البساتين ، بل ذكرت نموذجاً
لما يتساق ويقوم على عرائش ، وهو الأعناب ، وآخر للشجر الذي يقوم على ساق ، وهو
النخيل الذي له جذوع ضلبة وطويلة ، أما الزرع فإنه شامل لكل أنواع الحبوب والبقول .

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ) :

هذه الجملة مستأنفة للتعجب من قدرة الله تعالى فيما يبدعه في عالم البساتين ، حيث بينت أن هذا النبات والشجر على اختلاف أنواع كل منهما يسقى بماء واحد في أرض متجاورة ومتشابهة في التربة والجو ، ولكن الثمرات متنوعة في الطعم والشكل واللون والرائحة ، وربما كان ذلك في الشجرة الواحدة ولا شك أن هذا ناشئ من أن وراء الطبيعة ربا حكيماً ، هو الذي ينوع النواميس والطبائع ويبدع غير المألوف ، ويخالف المألوف ليعرفه عباده بما يبدعه لهم من هذه المؤتلفات والمختلفات ، ولو كانت الطبيعة هي الفاعلة لما وقع هذا الاختلاف ، بل لما وجد من ذلك شيء فإن الطبيعة لا عقل لها ولا إرادة ، ولهذا عقب الله تلك الجملة بقوله :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) :

إن في هذا التنوع والتعدد - مع وحدة الأصل والبيئة - لعلامات وشواهد يدركها أصحاب العقول الراجحة فيعلمون أن من ورائها قدرة الخلاق العظيم الذي أحسن كل شيء خلقه ، فيؤمنون وينقادون إليه ويعبدونه على الوجه اللائق بما له من عظمة وجلال .

(* وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(وَإِنْ تَعَجَّبَ) : العجب والتعجب كلاهما يستعمل على وجهين :

أحدهما فيما يستحسن ويحمد . والثاني فيما يكره وينكر .

(الْأَغْلَالُ) : جمع غُل بضم الغين . وهو طوق من حديد أو غيره يوضع في العنق

أو في اليد فتشد به إلى العنق .

التفسير

(وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا . . .) الآية .

بينت الآيات السابقة دلائل قدرة الله في السموات والأرض وأنها آيات لأصحاب العقول السليمة . والأفهام المستقيمة على عظمة قدرة الله وحكمته ، وأن من هذا شأنه فهو قادر على كل مقدور ، وجاءت هذه الآية للتعجب من إنكارهم للبعث مع ما يشاهدون من المظاهر الكونية ، ولإنذارهم بالعذاب الدائم الذي لا غاية له جزاء تكذيبهم . والخطاب في الآية للرسول أو لكل من يصلح للخطاب من العقلاء .

والمعنى : وإن تعجب من تكذيب المشركين بأمر المعاد مع ما شهدوه من دلائل قدرة الله فعجب لا يوجد أشد منه قولهم في إنكارهم للبعث

(أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) :

هذا القول مشتمل على استفهامين من المشركين ، يقصدون بهما أقصى درجات الإنكار ، للعودة إلى الحياة مرة أخرى ، حيث يخلقون خلقاً جديداً بعد أن تحللت أجسامهم ، ونخرت عظامهم ، وأصبحوا تراباً تذروه الرياح ، ولو فكر هؤلاء المنكرون بعقولهم لعلموا أن من قدر على إنشاء تلك الكائنات وإبداعها من تراب ، فإنه قادر على إعادتها ، بل الإعادة في نظر القياس أهون . وإن كان كل شيء أمام قدرة الله سواءً . فهو الذي يقول للشيء كن فيكون . وقد عقب الله هذه الجملة التي نعت عليهم تكذيبهم بقوله :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ) : أى هؤلاء المكذبون للبعث هم الذين كفروا بربهم ولم يؤمنوا به . إذ لو آمنوا به وبنائه خالق السموات والأرض - كما يجيبون إذا سئلوا - لعلموا أنه قادر على بعث الأجساد بعد استحالتها إلى تراب تفرقت ذراته . فهم ليسوا أشد خلقاً من السماء التي بناها ورفع سمكها وسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها .

ولما كان هذا الكفر مع وضوح الأدلة أمراً منكراً فظيماً يستحقون عليه أشد العقاب أنذرهم الله سبحانه وتعالى بقوله : (وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ) : أى أن جزاءهم يوم الحساب أن يسحبوا إلى النار بأطواق في أعناقهم تحقيراً لهم وتسفيهاً .

وقال بعض المفسرين هو تمثيل لحالهم الشنيعة في الضلال وتقليد الآباء بحال المقيدين بالأغلال في أعناقهم ، فهم مثلهم في الحرمان من نعمة الحرية وكُتبت الإرادة ، وضيق آفاقها ، والحرمان من الخير ، وسوء العاقبة .

ثم ختمت الآية بقوله تبارك وتعالى :

(وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : أى وأولئك المكذبون بالبعث الكافرون ببرهم المكبلون بالأغلال في أعناقهم - أولئك الموصوفون بهذه الصفات - هم أصحاب النار الملازمون لها - الماكثون فيها فلا ينفكون عنها ولا يخرجون منها أبداً .

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)

المفردات :

(السَّيِّئَةِ) : العقوبة . (الْحَسَنَةِ) : العافية والسلامة .

(الْمَثَلَاتُ) : جمع مثله - بفتح الميم وضم الثاء . وهى العقوبة ؛ سميت بذلك لأنها تماثل الذنب ، والمراد بالمثلثات فى الآية الكريمة عقوبات أمثالهم المكذبين قبلهم .

التفسير

٦ - (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ . . .) الآية .

كان الرسول صلوات الله عليه ينذر المشركين بالعذاب فى الدنيا والآخرة لإصرارهم على الكفر ، فكانوا يستعجلونه فى وقوعه استهزاءً به وطعناً فى خبره فنزلت .

والمعنى : ويطلب منك المشركون يا محمد أن تعجل لهم بالعقوبة التي أنذرتهم بها .
لإصرارهم على الكفر وتكذيب ما جئتهم به من عند الله ، وكان عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم
ويعدلوا عن شركهم . ويطلبوا من الله سبحانه وتعالى السلامة والعافية . وما كان ينبغي
لهم أن يؤثروا العقوبة على السلامة ، وهم يعلمون مما يشاهدونه حولهم من آثار ما أنزله
الله من العقوبات بالكافرين قبلهم . كما حدث لعاد قوم هود ، ولثمود قوم صالح ، ولقوم
لوط وغيرهم وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

(وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ) :

أى أنهم قد مضت من قبلهم عقوبات الأمم السابقة التي استأصلتهم . فما لهؤلاء لم
يعتبروا بتلك الأمم ؟ فيكفوا عن الكفر والتكذيب حتى لا يحل بهم ما حل بمن قبلهم
من المكذبين .

ثم عقب الله سبحانه وتعالى هذه الجملة من الآية الكريمة بما يفتح باب الأمل للتائبين
المستغفرين - ويحذر من شدة العقوبة للعصاة المصريين فيقول :

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) :

أى أنه تعالى . صاحب مغفرة عظيمة وستر شامل لمن ظلموا أنفسهم بالذنوب
والمعاصي . فلا يعجل لهم بالعقوبة ، بل يمهلهم ويؤخرهم لعلهم يتوبون ويستغفرون
فيغفر لهم .

وكما أنه سبحانه صاحب مغفرة للناس وإن كانوا ظالمين . إن تابوا وأنابوا ؛ فإنه
شديد العقاب لمن أصر على كفره وعصيانته كما قال تعالى في سورة الحجر : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي
أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » . وفي سورة الأنعام : « فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ
رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » . إلى غير ذلك من الآيات التي
تجمع بين الرجاء والخوف .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ^ج
 إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ^٧)

المفردات :

(الَّذِينَ كَفَرُوا) : المراد بهم هنا كفار أهل مكة .

(لَوْلَا نُزِّلَ) : لولا بمعنى هلا ، فكلاهما للحض والحث على فعل الشيء .

(آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) : الآية ؛ العلامة ، والمراد بها هنا ما طلبوه من الخوارق مثل تفجير
 الينابيع والأنهار والرقى في السماء .

التفسير

٧- (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) :

بعد أن حكى الله عن أهل مكة كفرهم بالبعث ، واستعجالهم بالعذاب الذي توعدهم
 الله به على لسان رسوله ، جاءت هذه الآية لبيان لون من ألوان كفرهم وعنادهم .

والمعنى : ويقول الذين كفروا بالقرآن من أهل مكة زاعمين أنه لا يكتفى للدلالة على
 نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : هلا أنزل عليه آية من ربه ، على منهاج الآيات الكونية
 التي أيد الله بها رسله السابقين ، كعصا موسى التي أبطلت سحر الساجرين ، وناقطة صالح ،
 وإحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى ، ولما كان هذا المطلب لا يخرج إلا من فم كافر لما فيه
 من التجنى على الحق ، فلذا حكى الله مقالاتهم موصوفين بالكفر بقوله : (وَيَقُولُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا) بدلا من أن يعبر عنهم بأسلوب الإضمار : (وَيَقُولُونَ) والغرض من ذلك ذمهم
 بالكفر بهذا الكتاب المبين الذي تخزلهم صم الجبال ، ولو تفتحت على الحق قلوبهم ، وبرأت
 من الحقد نفوسهم ، لوجدوا السبيل إلى الهدى ميسرة بآياته ، فهي أجدى على الحق من
 تحويل الصفا إلى جبل من ذهب ، وتحويل صحرائهم إلى جنات تجري من تحتها الأنهار

كما طلبوا ، فإن العقل البشرى قد شب عن الطوق ، والذي كان آية للأُمم السابقة ، لا يصلح آية لأمة محمد التي فتحت القرآن لها أبواب العلم ، وكشف لها آفاق المعرفة فلم يعد يفيدها ناقة تخرج من الصخر ، ولا يد تخرج من الجيب بيضاء من غير سوء ، ولا إبراء الأكمه والأبرص وإحياء ميت أو ميتين ، فكل ذلك لا يساوى إحياء القلوب باليقين ، وتنوير العقول بأشعة المعرفة ، ووضع المنارات على الطريق ليهتدى بها الناس إلى الحق سبحانه وتبرئته من الشريك والنظير ، وتنزيهه عن الصاحبة وعن الولد ، وليهتدوا بها إلى أسرار الملك والملكوت ، فيعملوا للدنيا في حدود ما هو حلال لهم ، ولا عليهم من بأس أن يتوسعوا في نعمه وزينته والطيبات من الرزق ما داموا يؤدون حق الله وحق المجتمع فيما رزقهم ربهم ، ويعملوا للآخرة ، حيث لا ينفعهم مال ولا بنون ، إلا من آتى الله بقلب سليم .

وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَخِيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَىٰ فَارِجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . أخرجه البخارى ومسلم والنسائى .

ومن مميزات معجزة القرآن أنها باقية ما بقى الزمان . بخلاف معجزات الأنبياء السابقين ، فقد أصبحت خبراً بعد عين ، وعرضة لإنكار المتكرين . وتكذيب المكذبين .

(إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) :

أى ليس من شأنك يا محمد أن تقترح علينا الآيات ، أو تبلغنا اقتراح قومك لها ، فما أرسلناك إلا لإنذار الكفار سوء عاقبة ما هم عليه من الكفر ، وقد أيدناك بما يكفى الاستدلال به على نبوتك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وهو القرآن العظيم ، فما أنت إلا منذر لهم ولكل قوم كافرين ، بما جاء فيه من القوارع والنوائب التي تحل بهم إن أصروا على كفرهم ، وهاد مرشد إلى طريق السلامة في الدنيا والآخرة بما جاء فيه من الآيات ، فإن سلوكه كانت غايتهم السلامة والسعادة الأبدية ، وإن أعرضوا عنه كانت غايتهم الندامة والشقاوة الأبدية ، فلا تكثر باقتراحهم الآيات عناداً ، فلكل أمة رسولها مؤيداً بالآيات اللائقة بها .

ثم عقب الله هذه الآية بما يدل على كمال قدرته وشمول علمه وقضائه وقدره المبنيين على الحكم والمصالح ، تنبيهاً على أن تخصيص كل قوم بنبي ، وكل نبي بجنس معين من الآيات إنما هو للحكم الداعية إليها ، وذلك بقوله سبحانه :

(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ
وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ
الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ
هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾)

التفسير

٨ - (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ) :

لما تقدم إنكارهم البعث . وكان من أقوى شبههم ما شهدوه من تفرق الأجزاء وزوال صفاتها . نبه سبحانه بهذه الآية على إحاطة علمه جل شأنه . فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء دحضا لشبهتهم . وإزاحة لها .

والمعنى : الله يحيط علمه بما تحمله الحوامل من مبدأ الحمل إلى زمن الولادة فلا يخفى عليه شيء مما يتعلق بذات الجنين أو صفاته من كونه ذكراً أو أنثى ، أو صبيحاً أو قبيحاً أو صالحاً أو طالحاً أو شقيماً أو سعيداً .

(وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ) : أى يعلم ما تنقصه الأرحام في ذات المولود أو مدته نتيجة لما يغيض له في أطواره من أسباب تجعله ينزل سقطاً أو لأقل من مدة الحمل الغالبة أو لأكثر منها أو لما ألف وعهد فيها .

(وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) :

أى وكل شيء في علم الله وتقديره من الأعيان والأعراض له في كل مرتبة من مراتب التكوين قدر معين في ذاته وفي زمنه ، وحاله لا يتخطاه ولا يجاوزه بأى حال من الأحوال .

وذلك عام في الأجنة والآجال والأرزاق وغيرها. وفي الحديث الصحيح: « أن إحدى بنات النبي صلى الله عليه وسلم بعثت إليه أن ابناً لها في الموت وأنها تحب أن تحضره. فبعث إليها: « إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أُعْطِيَ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى فَمُرُّوْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ ». والحديث لمسلم ورواه البخاري في كتاب الجنائز بمخالفة يسيرة. والمقصود بإحدى بنات النبي صلى الله عليه وسلم زينب امرأة أبي العاص بن الربيع .

٩- (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ . . .) الآية .

أى يعلم سبحانه وتعالى الغائب عن الخلق والظاهر لهم. فينفرد بكل باطن خفى - لا يشاركه في علمه به أحد، وأما ما يقوله أهل الطب من استدلالهم في طلبهم على ما خفى بأمارات وعلامات فذلك ظنى لا يقينى^(١). والتعبير عن الغائب والحاضر بالمصدر مبالغة في كون الغائب كأنه نفس الغيب لشدة خفائه. وكون الحاضر لقوة وضوحه كأنه نفس الشهادة والوضوح. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن الغيب السر والشهادة العلانية. (الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ): الذى تعالى قدره وعظم شأنه، واستعلى على سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله .

١٠- (سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) :

بعد ما بين الله تعالى أنه عالم بجميع أحوال الإنسان في مراتب فطرته ومحيط بعالم الغيب والشهادة ، جاءت هذه الآية لبيان أنه لا فرق في علمه بين السر والعلن ، والجلي والخفى ، فيستوى في علمه من أسر القول منهم وأخفاه عن غيره ، ومن جهر به وأذاعه خيراً كان أو شراً، فيعلم سر الأول كعلمه بجهر الثانى من غير تفاوت بينهما في كيفية علمه بهما ودرجته ، كما يستوى في علمه من يبالغ في الاستتار والتخفى في ظلمة الليل ، ومن هو سارِبٌ وبارز بالنهار .

(١) أما الآلات التى اخترعت لكشف ما فى جوف الأرض من معادن وبتروىل فإن العلم بوساطتها لا يعتبر علماً بالغيب، فقد أصبح الغيب فى حكم الظاهر بوساطة هذه الآلات ولذا يستوى فى العلم بوساطتها كل من عرف طريقة استعمالها .

وقال الأخفش وقطرب؛ المستخفى بالليل؛ الظاهر ومنه خَفِيتُ الشيء وأخفيتهُ أى أظهرته والسابر المختفى بالنهار يدخل سرباً يختفى فيه - انتهى بتصرف. وتلك عادة لبعض العابثين يختفون نهاراً ، ويظهرون ليلاً ، ليأخذوا الناس على غرة وهؤلاء وأمثالهم كغيرهم بحيط بهم علمه مهما تذرعوا به من إحكام التخفى بمختلف الوسائل والأساليب .

(لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ^١ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ^٢ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ^٣ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ ^٤ **وَالِ (١١)**)

التفسير

١١ - (لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) :

أى لله ملائكة يعتقبون على حفظ عبده من جميع جهاته يأتى بعضهم إثر بعض بدون إبطاء . كأن كلا منهم يطاءً عقب الآخر لشدة قربيه منه . يتناوبون عليه بالليل والنهار لوقايته من كل ضرر يمسّه . أو سوء يلحق به وذلك الحفظ من أمر الله ، أى بسبب أمر الله لهم به . فإذا جاء قدر الله تخلوا عنه ^(١) . ويجوز أن يكون المعنى : يحفظونه إذا أذنب من بأس الله بالاستمهال والاستغفار له . كما يتعاقب عليه ملائكة آخرون لإحصاء كل عمل له خيراً كان أو شراً . فهو بين أربعة من الملائكة حافظين وكاتبين بالليل ومثلهم بالنهار ، يجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر . وفى الصحيح : « يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ ، فَيُصْعَدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ ، فَيَسْأَلُهُمْ

(١) قال أبو مجلز : جاء رجل من مراد إلى على فقال : احترس فإن ناساً من مراد يريدون قتلك ، فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مالم يقدر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبين قدر الله ، وإن الأجل حصن حصينة » أخرجه الإمام مسلم .

وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ آتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ». أخرجه البخارى فى كتاب مواقيت الصلاة . باب فضل صلاة العصر .

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى إحاطة علمه بالعباد وأن لهم معقيات يحفظونه من أمره ، نبه على أن النجاة فى لزوم الطاعة والوبال فى اختيار المعصية فقال - جل شأنه - :

(إِنْ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) :

أى جرت السنة الإلهية بأنه تعالى لا يبدل ما بقوم من نعمة وعافية وأمن ودعة حتى يتركوا ما تعودوه وانصفوا به من عمل صالح وخلق قويم متجهين إلى أضدادها ، لأنهم بذلك قد أهملوا الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وحينئذ يستحقون الحرمان من النعمة وقد يضم إليه إنزال العذاب بهم إن عظمت ذنوبهم وقد يصاب به الصالحون الذين يعيشون بينهم ، وذلك على سبيل الابتلاء لا على سبيل العقاب . كما قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - ردًا على من سأله . « أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ » قال : نعم . إذا كَثُرَ الْخَبْثُ ^(١) .

وقد يشتركون فى استحقاق العقوبة ، لثراخيهم فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال - صلى الله عليه وسلم - : « إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ يَوشِكُ أَنْ يَعْصِيَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ ^(٢) » . ويصح أن يكون المعنى : إن الله لا يغير ما بقوم من العقاب والبلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعاصي ، ليكون أهلا لعفوه ورحمته .

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا) :

أى وإذا شاء الله بقوم بلاء من مرض أو فقر أو هزيمة أو عذاب أو غير ذلك مما يسوء ويؤلم .

(فَلَا مَرَدَّ لَهُ) :

أى فلا دافع لبلائه على اختلاف أنواعه ، وقيل إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى أبصارهم وبصائرهم فاختراروا ما فيه هلاكهم ، وعملوه بأنفسهم فيستحيل لذلك رده عنهم .

(١) الخبث : الفسق والفجور .

(٢) معنى ذلك أن المصائب قد تنزل بشوْم ذنوب الآخرين .

(وَمَا لَهُمْ مِنْ تُوْنِهِ مِنْ وَآلٍ) :

أى ليس لهم ملجأ غيره يقيهم من أخذ الله لهم ويتولى أمورهم فيمنعهم ويدفع عنهم السوء الذى ينزله بهم ، بسبب تغيير ما بأنفسهم ، وفى هذا دلالة قاطعة على أن تخلف مراد الله محال ، وإيدان بأنهم بسبب إنكارهم البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية ، قد استحقوا العذاب الشديد ، والعقاب الأليم الذى لا يستطيع أحد دفعه عنهم ، إذا أراد الله بهم .

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ۝١٣)

المفردات :

(يُجَادِلُونَ) : مفاعلة من الجدل بالتحريك وهو المناقشة والمخاصمة .

(الْمِحَالِ) : بكسر الميم ؛ الكيد والمكر ، والمماحلة المكايدة ، ويستعمل فى الحيلة والقوة والجدال ، يقال : ماحل عن رأيه جادل ، والمِحَالُ من الله معناه التدبير بالحق كما قاله النحاس .

التفسير

١٢- (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا) :

فى هذه الآية الكريمة بيان لبعض الظواهر الكونية التى تنطق بكمال قدرته تعالى ، وتبرز للحس عظيم صنعه ، فقد جاء فيها أنه تعالى يرينا البرق لإخافتنا من آثاره التى قد

تتمثل في صواعق حارقة ، وبرق قوى يكاد عند إنبعاثه يذهب بالأبصار ، ومطر غزير يشق على المسافر ويؤذيه ، وقد ينفر منه المقيم ولا يبتغيه ، كما يرينا البرق أيضا لإطماع عباده في غيث نافع يغيث الزرع ويُدرُّ الضرع ، وينشر الخصب والرخاء ، قال الحسن : خوفا من صواعق البرق وطمعا في غيثة المزيل للقطط ، وقال قتادة : خوفا للمسافر يخاف مشقته وأذاه ، وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله .

(وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثُّقَالَ) :

أي السحب المثلثة بالمطر . لذلك يعم نفعها ويعظم أثرها ، والثقال جمع ثقيلة لكثرة ما تحمل من ماء المطر .

١٣ - (وَيَسْبِغُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ) :

أي أن الرعد خاضع لله خضوعا تاما شأنه شأن جميع الكائنات فالتسبيح منه مجاز عن الخضوع ، ويجوز أن يكون تسبيحه تسبيحا مقاليا ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد يقول : « سبحان من يسبح الرعد بحمده »^(١) . وإسناد يسبح إلى مضاف محذوف كما يقول بعض المفسرين والتقدير ويسبح ملك الرعد ، مخالف لظاهر النص الذي ينطق بأن الرعد هو الذي يسبح تسبيحا مجازيا أو حقيقيا^(٢) كما تقدم .

وللملائكة كذلك تسبيح وتنزيه إذ هم ملأ سماء لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون بنبي بذلك قوله تعالى :

(وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ) : أي وتسبح الملائكة من هيئته تعالى وإجلاله .

(وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ) :

أي أن الله سبحانه وتعالى ينزل الصواعق^(٣) فيصيب من يشاء هلاكه من عباده فيهلكه ، وقد تكون مظهرا من مظاهر قدرته وجبروته وهي في كلتا الحالتين آية من آيات الله تعالى .

(١) أخرجه : ابن جرير عن أبي هريرة (٢) وليس هذا مستحيلا على الله ، فإن عباده اخترعوا الحاسبات الإلكترونية وغيرها وهو الذي أقدرهم على ذلك ، وهو الذي سخر الجبال مع داود يسبحن بالغيث والإشراق ، وجعل الطير تزوب وتسبح معه .

(٣) مر بيان الصواعق في تفسير الآية ١٩ من البقرة ، فارجع إليه .

ولما نعى الله على المشركين عنادهم في اقتراح الآيات وإنكارهم كون الذى جاء به الرسول من جنس الآيات ، ولم يعتبروا بما شاهدوا من ظواهر هى آيات على قدرة الله ، عقب ذلك ببيان طبيعتهم تسلية لرسوله فقال سبحانه :

(وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ) :

أى لاتحزن لما ترى منهم فى شأنك . فهم مع أمارات القدرة العظيمة ، ودلائل التوحيد الباهرة . يجادلون فى الله بادعاء الشركاء وإثبات الأولاد له تعالى ، وإنكار البعث ، ويلحون فى استعجال العذاب ، ومع سلطانه القاهر يمعنون فى العناد والمكابرة .

(وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) :

أى أنه سبحانه شديد القوة على أعدائه يأخذهم بأخذهم عزيز مقتدر فيصيب منهم من يشاء وفق إرادته . وقال الحسن شديد الإهلاك بالمحل وهو القحط .

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤))

المفردات :

(كَبَسِطَ كَفِّهِ) : كمن مدهما مبسوطتين . (لِيَبْلُغَ فَاهُ) : ليصل إلى فيه .

التفسير

١٤- (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ) الآية .

أى أن دعوة الحق تختص به تعالى ، أما دعوة غيره كالأصنام والكواكب ، فليست دعوة حق ، بل هى دعوة باطل ، ولهذا فإنه تعالى : يجيب دعاء من دعاه ، فهو أهل

للإجابة كما هو أهل للدعاء . أما الذين يدعونهم من دونه من الشركاء ، فإنهم لا يجيبون دعاء من دعاهم بشيء فهم ليسوا أهلاً للإجابة ، كما أنهم ليسوا أهلاً للدعاء .

وكيف يستجيبون لهم وهم صمّ بكم عمى فلا يسمعون ولا ينطقون ولا يبصرون ، وكل من يتوقع من هذه الأصنام الاستجابة وتحقيق أى أمل يرجوه ما هو إلا (كَبَّاسِطِ كَفْيِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ) : فكما أن من بسط كفيه إلى الماء يدعو أن يرتفع إلى فيه فلا يستجيب له فكذلك من بسط كفيه إلى الأصنام يدعوها لتحقيق أمل له لا تستجيب دعاءه .

(وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ) : أى لا يصل الماء إلى فمه أبداً إن دعاه وبسط كفيه إليه ، لأنه جماد لا يشعر بظمئه ، ولا يبسط الكفين إليه وهو يدعو أن يصل إلى فمه ، ولا يستطيع بنفسه سلوك السبيل إليه ، فكذلك الآلهة لأنها لا تملك لنفسها نفعا ولا ضراً ، فإنها عاجزة فكيف تملك الاستجابة للذين يدعونها ، ولذلك كان دعاؤهم لها كما يقول جل شأنه :

(وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) :

أى أن دعاءهم إلى ضياع وخسار لأنها غير أهل للدعاء ولا للإجابة ، فكيف يعبدوا المشركون ، وهى غير أهل للدعاء فضلا عن العبادة ، وقد ضرب الله الماء مثلاً رائعا ليأس الكافرين من استجابة الأصنام إليهم ، ويذكر القرطبي في معناه ثلاثة أوجه :

الأول : أن الذى يدعو إلها غير الله كالظمان الذى يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيديه فلا يأتيه أبداً لأن الماء لا يستجيب وما الماء ببالغ إليه ، قاله مجاهد .

الثانى : أنه كالظمان الذى يرى خياله فى الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه لكذب ظنه وفساد توهمه ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجمد فى كفيه شيء منه اهـ .

والوجه الذى ذكرناه أوضح من هذا كله والله تعالى أعلم .

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
وَضَلَّلُوهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١٥ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ
لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ
أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا
كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ
الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ۝١٦)

المفردات :

(يَسْجُدُ) : يخضع وينقاد . (طَوْعًا) : اختياراً .

(وَكَرْهًا) : بفتح الكاف ؛ إكراهاً . وبضمها ؛ مشقة .

(الْغُدُوِّ) : جمع غداة لمقابلته بالآصال ، وقيل مصدر غدا ، يقال غَدَا غَدَاً بمعنى دخل
في الغدوة . والغدوة والغداة من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس . (وَالْآصَالِ) : جمع أصيل ،
والأصيل ما بين العصر وغروب الشمس .

التفسير

١٥- (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ...) الآية .

أى أن جميع من فيهما من الإنس والجن والملائكة وغيرهم خاضعون لعظمته منقادون
لإرادته شاءوا أو أبوا ، يستوى في ذلك مؤمنهم وكافرهم ، ومن له عقل وإرادة وما لا

عقل له ولا إرادة. والتعبير بِمَنْ وهى للعقلاء لتغليبهم على غيرهم ، وجميع هؤلاء يسجدون لله (طَوْعًا وَكَرْهًا) : فانقياد المؤمن يقع منه اختياراً طائعاً لأنه خاضع لله بظاهره وبباطنه وانقياد الكافر يقع منه اضطراراً ، فإنه خاضع لله فى تربيته ورزقه ، وصحته ومرضه وغير ذلك . فمشيئته تعالى ماضية فيه . (وَظَلَّالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) : أى تنقاد لله كذلك ظلال من له ظل منهم فهى تحت سلطانه ومشيئته فى الامتداد والتقلص والرجوع والزوال . خاضعة له منقاداً لإرادته بالغدو والآصال . لأن ظلال الأشياء تظهر فى هذين الوقتين وتنضح حركتها زيادة ونقصاً وميلاً من ناحية إلى أخرى بتصريف الله . إذ الحركة والسكون بيده تعالى ، والمتحرك والساكن فى قبضته .

١٦ - (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ...) الآية .

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلوات الله عليه أن يبين للمشركين طريق الهداية بمحاورتهم سائلاً ومجيباً ، ليلفت أنظارهم إلى البحث والتأمل فقال له : (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ) : أى قل يا محمد لأولئك الكفار الذين اتخذوا الشركاء لله والأولياء من دونه : مَنْ رَبُّ هذه الأجرام العظيمة التى ترونها فيبهركم ما فيها من دقة وكمال وجمال ؟ ثم أمره أن يذكر لهم الجواب فقال : (قُلِ اللَّهُ) : للإيدان بأنه جواب متعين إذ لا جواب سواه ، ولهذا فالسائل والمجيب فى تقريره سواء . وفى ذلك إشعار لهم بمخالفتهم لما علموه مما لا يصح إخفاؤه بدليل قوله تعالى : « وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ - لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » . ثم أمره أن يبين لهم خطأهم الفاضح فيما سلكوه بجانبه تعالى فقال :

(قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) :

أى قل لهم تكبيراً وتقريعاً أبعد أن علمتم أنه رب السموات والأرض الذى ينقاد لسلطانه وتقديره كل من فيهما ، أبعد أن علمتم هذا عبيت قلوبكم فاتخذتم من دونه تعالى

أولياء عاجزين لا يملكون لأنفسهم نفعا يأتون به أو ضرراً يدفعونه ، فهم عن جلب النفع ودفع الضر عن غيرهم أضعف وأعجز .

ثم ضرب لهم مثلاً يصور آراءهم الفاسدة بصورة المُحَسَّ فقال جل شأنه :
(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) : أى قل لهم مُقَرَّعاً هل يستوى الأعشى وهو مثل
المشرك الجاهل بالعبادة وبمستحقها ، والبصير وهو مثل الموحد العالم بذلك ، والمراد لا يستوى
المؤمن والكافر .

(أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) : ويراد من الظلمات الكفر والضلال ومن النور
الإيمان والتوحيد أى هما لا يستويان .

ثم إنه تعالى أكد ما أشارت إليه الآية فيما سبق من تخطئة المشركين فقال :
(أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ) : أى بل أجعلوا لله شركاء
خلقوا مثل خلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يميزون بين خلق الله وخلق آلهتهم ، فاستحقوا
بذلك العبادة عندهم كما استحقها سبحانه ليكون ذلك منشأ خطيئهم . ولكن الأمر ليس
كذلك لأنهم جعلوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على نفع أنفسهم أو دفع الضر عنها ،
فكيف يقدرون على ما يقدر عليه الخالق من الإيجاد والإبداع ؟

وإجمال المعنى أن الله تعالى نعى عليهم اتخاذهم الشركاء ، ووصفها بأنها عاجزة ذليلة لا تملك
لنفسها نفعا ولا ضرراً ، وأنها ليس لها شئ من الخلق ، وعقب ذلك بأمر نبيه أن يخبرهم
أنه تعالى هو الخالق وحده ، فقال :

(قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) : أى قل يا محمد ؛ الله خالق كل شئ ؛ فلماذا لزم أن تعبّدوه
وحده لأنه لا خالق غيره .

(وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) : وهو سبحانه المختص بالألوهية المنفرد بالربوبية ، القهار لكل متكبر ، الغالب لما سواه ، فكيف يتوهم أن يكون المغلوب شريكاً له ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(أَوْدِيَةٌ) : جمع واد ؛ وهو كل مُنْفَرَجٍ بين جبال أو آكام . ويكون مُنْقَذًا للسيل .

(الزَّبَدُ) : ما يعلو وجه الماء كالرغوة ، (رَابِيًا) : مرتفعاً فوق الماء .

(الْحُلْيَةُ) : ما يتخذ للزينة من الذهب والفضة وغيرهما .

(مَتَاعٍ) : المَتَاع كل ما ينتفع به من الطعام والثياب وأثاث البيت . ويراد بالمتاع هنا أثاث البيت المتخذ من نحو الحديد والنحاس والرصاص .

(جُفَاءً) : مرمياً به ؛ يقال : جفأ الماء بالزبد إذا قذفه ورمى به ، وجَفَّاتِ القِدْرُ : رمت بزبدتها عند الغليان . (اسْتَجَابُوا) : أجابوا بصدق .

(الْحُسْنَى) : مُؤَنَّثُ الْأَحْسَن ، والمراد بها المثوبة الحسنى وهي الجنة وما فيها من نعيم مقبم .

التفسير

١٧- (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ...) الآية .

ضرب الله جل ثناؤه بهذه الآية الكريمة مثلاً للحق في عموم فائدته وعظيم بركته ، بالماء الصافي الذي أنزله الله من السماء فسالت به أودية بين الجبال والآكام بالقدر الذي عينه الله تعالى واقتضته حكمته لنفع الناس ؛ يشيل مندفعاً في مجاريه حتى يصل إلى غايته ، وجعل الباطل في اضمحلاله وزواله كالزبد وهو الرغوة التي تعلو سطح الماء ثم تكون نهايته أن يضمحل ويذهب ، ويشير جل شأنه إلى مثل ثانٍ للحق والباطل بقوله :

(وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه) : ففي هذا المثل جعل الله الحق كالمعادن التي يوقد عليها في النار لصهرها وإذابتها لتصفيتها وتنقيتها من كل الشوائب تبسيراً للانتفاع بها في اتخاذ الحلي من الذهب والفضة ونحوهما ، وفي أثناء صهر هذه المعادن يعلو فوقها زبد كزبد الماء في كونه رابياً فوقه ولا ينتفع به ، وقد جعله الله مثلاً للباطل في الفلزات المذابة ، كما جعله مثلاً له في الماء ، فالزبد في كليهما يشير إلى الباطل .

(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) : أى مثل ذلك يضرب الله للناس مثل الحق ومثل الباطل ، ثم بيّن الله ذهاب الباطل وثبات الحق فقال :

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) :

أى أن الباطل الشبيه بالزبد مهما علا وظهر فإن مآله إلى اضمحلال وفناء حيث يرى به وينبذ كما يذهب الزبد جفاء .

والجفاء ما أجفأه الوادى أى رمى به وما أجفأته القدر إذا غلت أى رمت به وصبته وأما ما ينفع الناس من الماء الخالص الصافى ، وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص وسائر المعادن فيمكث في الأرض ، فالماء يبقى بعضه فوق سطحها لينتفع به ويذهب بعضه الآخر إلى جوف الأرض ، لينتفع به فى العيون والآبار ، وأما المعادن فيصاغ من بعضها أنواع الحلى ويؤخذ من بعضها الأواني وأصناف الآلات والأدوات ، فهذا هو المقصود من مكثها فى الأرض .

(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) :

أى كهذين المثلىن فى الوضوح والجلأ يضرب الله الأمثال للناس دائما لىبصرهم بالخير والشر ، إظهارا لكمال العناية بالتوجيه والإرشاد . ولما بين الله شأن كل من الحق والباطل شرع يبين حال أهل كل منهما فقال سبحانه :

١٨ - (لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى) الآية .

أى للذين استجابوا لله فأطاعوه ، وأطاعوا رسوله ، إذا دعاهم إلى الحق بطرق الدعوة المتنوعة ومن بينها ضرب الأمثال الذى يوصل المعانى إلى القلوب فى يسر وسهولة ، لما له من تأثير هلىغ فى النفوس لتصويره العقول بصورة المحسوس ، لهؤلاء المهتدين المثوبة الحسنى وهى الجنة كما قال قتادة وغيره . وعن مجاهد أنها الحياة الحسنى التى لا يشوبها كدر أصلا ، أو هى النصر فى الدنيا والنعم المقيم غداً .

(وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مِائَةَ الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ) :
 أى الذين عاندوا وأعرضوا عن الحق مع وضوحه وجلاله لو أنهم يملكون مائة الأرض
 جميعاً من أصناف الأموال المتنوعة ، ويملكون مثل ذلك معه ، لقدموا افتداءً لأنفسهم ،
 ليتخلصوا مما هم فيه من عذاب ونكال ، وفيه من تهويل ما ينزل بهم مالا يحيط به بيان .

(أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ) : فلا تقبل منهم حسنة ، ولا يتجاوز لهم عن سيئة ،
 ويحاسب كل منهم على ذنبه كله لا يترك منه شيئاً .

(وَمَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمِهَادُ) : أى أن مقامهم ومسكنهم جهنم يتخذون منها فراشا
 لهم وإنه لبئس الفراش الذى أعدوه لأنفسهم ، يسيل عليه ما ينساب من جلودهم مما يصلونه
 من نارها وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا أشد العذاب وأقساه .

(* أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ
أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ) (١٩)

التفسير

١٩ - (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى . . .) الآية .

قبل هذه الآية ضرب الله مثلا للحق بماء أنزله من السماء ، فسالت به أودية بقدرها وانتفع به الناس ، وضرب مثلا للباطل بالزبد الذي يعلو فوق الماء ولا يلبث أن يضمحل ويذول ، وبين أن الذين استجابوا لربهم لهم الحسنى والذين لم يستجيبوا لربهم لهم سوء الحساب وماوهم جهنم وبئس المهاد .

وجاءت هذه الآية لتقرير استحقاق المستجيب لربه أحسن الجزاء ، واستحقاق المعرض عنه سوء الحساب وشر العقاب .

والمعنى : أيستوى فى الجزاء مؤمن وكافر ؟ - كلا - فمن هو بصير يعلم بنور قلبه وإرشاد عقله وهداية ربه أن القرآن الذى أنزله إليك ربك يا محمد هو الحق الذى لا يشوبه باطل ، مَنْ كان هذا شأنه - لا يتساوى عقلا مع من هو أعمى القلب لا يتبين الرشد من الغى ، والهدى من الضلال ، فلهذا أحسن الله جزاء من استجاب له وآمن بكتابه ، وأساء حساب وجزاء من أعرض عن دعائه ، وكذب برسوله وكتابه .

ثم ختم الله الآية بقوله :

(إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ) : ليبين أن أصحاب العقول النظيفة ، والأفكار المستنيرة ، هم الذين يتذكرون ويتعظون بما يسمعون من آيات الله البينات ، دون سواهم من أصحاب العقول المغطاة بحجب الباطل ، وغياهب التقليد .

روى أن هذه الآية نزلت في حمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنه - وأبى جهل لعنه الله ،
ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۖ) وَالَّذِينَ
يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ
الْحِسَابِ ۖ) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ
أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٠)

المفردات :

(بِعَهْدِ اللَّهِ) : بما عاهدوه عليه من الإيمان به ، والعمل بما أمرهم به في كتبه التي أنزلها إليهم .
(وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ) : المراد بالميثاق ما أخذوه على أنفسهم من العهود نحو ربهم
ونحو عباده وقال القفال : هو ما ركب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات والشرائع ،
ونقض الميثاق : عدم العمل به .

(ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) : الابتغاء معناه الطلب ، والمراد بالوجه : الذات .

(وَيَدْرَءُونَ) : أى يدفعون .

(عُقْبَى الدَّارِ) : عاقبة دار الدنيا التي أعدت للصالحين - وهى الجنة .

التفسير

٢٠- (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ) :

بعد أن بيّنت الآية السابقة أن الذين يتذكرون ويتعظون بالمواعظ هم أصحاب العقول
الصافية من عوامل الهوى ، جاءت هذه الآية والآيتان بعدها لبيان أوصافهم .

والمعنى : وما يتذكر إلا أولو العقول الصافية الذين يوفون بما عاهدوا الله عليه من الاعتراف بربوبيته بقولهم : « بلى » جوابا لسؤاله البشر « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » : وذلك حين أخرج من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم .

ويحتمل أن يكون المراد من عهده تعالى ما خلقه فيهم من القوى العقلية والجسدية التي توجب عليهم عبادة الله ، ويتمكنون بها من أداء ما كلفهم به ، فإن ذلك بمنزلة العهد بينهم وبين ربهم ، ومن العلماء من فسر عهد الله بتكليفه التي عهد إليهم بها في كتبه التي أنزلها إليهم .

ثم ختم الآية بقوله : (وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ) : وهو تعميم بعد تخصيص إن أريد من العهد الاعتراف بالربوبية ، أى ولا ينقضون ما وثقوه على أنفسهم من إيمانهم بربهم وموathقتهم مع خلقه سبحانه مؤمنين أو كافرين ، فإن أريد من كل من العهد والميثاق العموم كانت هذه الجملة مؤكدة للأولى .

٢١ - (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) :

هذه الصفة الثانية لأولى الألباب الذين مدحهم الله بأنهم هم الذين يتذكرون .

والمعنى : وما يتذكر بالمواظظ إلا أولو الألباب الأوفياء والذين يصلون ما أمر الله بوصله من الطاعات كبر الأرحام ، والعطف على الأيتام ، وأداء الحقوق للناس ، والإيمان بجميع الأنبياء دون تفريق بينهم ، والإحسان إلى جميع الحيوانات ، فكل ذلك وأمثاله من الطاعات يعتبر وصلا لما أمر الله به أن يوصل .

(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) : أى ويخافون إلسهم ومالكهم وخالقهم ومربيهم ؛ يخافونه خوف إجلال وإعظام ، ويخافون أيضا سوء حسابه تعالى لهم فيبيعهم هذا الخوف على أن يصلوا ما أمر الله بوصله ، ويتعدوا عما يغضبه عليهم ، وسوء الحساب يكون بالمناقشة والاستيفاء وعدم التجاوز ، ومن نوقش الحساب عذب - نعوذ بالله من ذلك - فلا طوق لأحد بعذابه .

٢٢- (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) :

هذه هي الصفة الثالثة لأولى الأبواب .

والمعنى : وما يتذكر إلا أولو الأبواب الذين صبروا على التكاليف ، وقهروا النفس الأمارة بالسوء حتى أخضعوها لطاعة ربها ، وكان صبرهم هذا طلبا لرضا ذات ربهم ، من غير نظر منهم إلى جانب الخلق رياءً وسمعةً ، ولا إلى جانب النفس زينة وعجباً ، وأقاموا الصلاة المفروضة فأدّوها مستوفية الأركان والشروط ، وأنفقوا بعض ما رزقناهم بحيث لا يقل عما فرضه الله عليهم في الزكاة ، وكان إنفاقهم له سرّاً ، حينما يكون السر أولى في الإنفاق من الجهر ، وجهرًا حينما يكون الجهر أرجح من السر . والإنفاق سرّاً أولى فيما إذا كان المنفق لا يترك الزكاة ، أو كان الآخذ مستور الحال خشية أن يخذش حياؤه بأخذه الزكاة جهراً ، وكما في صدقة التطوع : إلى غير ذلك من المقتضيات . والإنفاق جهراً أولى إذا كان لحمل المياسير على الاقتداء به ، أو خوفاً من أن يتهم بالشح ، أو لغير ذلك من الأغراض الشريفة .

(وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) :

أي ويقابلون السيئة بالحسنة ليمنعوا تكرارها ، فإنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك ، يستحى أن يكرر مساءته بعد أن قابلتها بإحسانك ، ما لم يكن المسيء لثيماً لا يثنيه الإحسان عن المساءة فإن مقابلة شره بمثله تكون أولى ، فإن من لم يتذأب أكلته الذئاب ، وفسرها بعضهم بأنهم يتبعون السيئة الحسنة فتمحوها كما جاء في السنة .

(أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) :

أي أولئك الموصوفون بهذه الصفات الجليلة ، لهم عاقبة دار الدنيا التي ينبغي أن تكون عاقبة لها بالنسبة للمكلفين فيها ، وهي الجنة .

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ
وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(جَنَّاتُ عَدْنٍ) : العدن في اللغة؛ الإقامة، ومنه عدن بالمكان أى أقام به ، وفي عرف الشرع اسم لجنة من جنات الآخرة . والمراد هنا المعنى الأول . أى جنات إقامة ، فهم يقيمون فيها لا يبرحونها .
(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : أمان لكم من المحن والآفات .

التفسير

٢٣ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) : لما بين الله تعالى في الآية السابقة أن الصابرين ابتغاء وجه ربهم المتصفين بما جاء فيها من الصفات الجليلة ، لهم عاقبة حسنة بعد دار الدنيا، جاءت هذه الآية لبيان أن هذه العاقبة هي الجنة ، وبيان من يدخلها معهم وما يقال لهم فيها .

والمعنى : والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واتصفوا بتلك الصفات الجليلة ، لهم عاقبة الدار الدنيوية ، وهذه العاقبة هي جنات إقامة واستقرار يدخلونها ، ويدخلها معهم الصالحون من آبائهم وأزواجهم وأولادهم وإن لم يبلغوا في الصلاح مبلغهم ، إكراما لهم وتعظيما لشأنهم ، وزيادة في أنسهم ، وهذا الفضل يشهد به ما جاء في قوله تعالى في سورة الطور : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » وقد فهم من هذه الآية وتلك ، أن دخول الجنة أولا بالصلاح ، وأساس الصلاح الإيمان ويكملة العمل الصالح ، وأما إلحاقهم بأقاربهم في منازلهم العالية فيكون بالانتساب إليهم أصولا أو فروعا أو أزواجا . ولا يحدث هذا إلحاق إلا بعد استيفاء هؤلاء جزاء أعمالهم ، كما يصرح به قوله تعالى : « وَمَا أَلْفَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ

مِّن شَيْءٍ كُلِّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ . ولا يقتصر أمرهم على ذلك بل تبشروهم الملائكة بالأمن والسلام ، وذلك ماجاء في قوله سبحانه : «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ» أى تلك المنازل فى منازلهم الكريمة بالجنة ، يدخل عليهم الملائكة من كل باب من أبوابها قائلين لهم :

٢٤- (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ) : أى أن الملائكة يبشرونهم بدوام السلامة من المخوف بسبب صبرهم على التكليف واحتمالهم آلام الحياة ومتاعبها ، وكأنهم يقولون لهم لئن تعبتم فى دنياكم فلقد استرحتم ونعمتم وسعدتم فى أخراكم ، ولم يعد للخوف والمشقة سبيل إليكم .
(فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) :

يحتمل أن تكون هذه الجملة مما يقوله الملائكة للصابرين ، ويحتمل أنها ثناء من الله على الجنة التى جعلت عقبة لدنياهم ومدح منه لها ، أى فنعم عاقبة الدار التى كنتم فيها حين التكليف ، هذه الجنة التى آل أمركم إليها حين الجزاء ، وكيف لا تكون كذلك وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ۝٢٦)

المفردات :

(يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ) : المراد بعهد الله ما أوجبه عليهم من طاعته ، وينقضه عصيانه .
(مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) : من بعد توثيقه وتوكيده . (اللَّعْنَةُ) : الطرد من رحمة الله .

(سُوءُ الدَّارِ) : أى سوء عاقبة الدار الدنيا ، أو هو . من إضافة الصفة للموصوف ،
أى الدار السيئة ، وهى جهنم فهى دارهم وماوئهم - وبُئِست الدار والمأوى . (يَبْسُطُ الرِّزْقَ) :
يوسعه . (وَيَقْدِرُ) : يضيق . (مَتَاعُ) : شئ قليل يتمتع به ، كزاد الراكب .

التفسير

٢٥- (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ..) (الآية .

بعد أن بينت الآيات السابقة حال أهل الوفاء بعهد الله وحسن مآلهم ، جاءت هذه
الآية لتبين سوء حال من يتصرفون بنقض صفاتهم ، وسوء مآلهم يوم الجزاء ، وقد تحدثنا
فى الآيات السابقة عن الوفاء بعهد الله بشئ من التفصيل ، وتحدثنا هنا فى المفردات
عن معنى هذا العهد إجمالاً ، ونزّيد عليه ما ذكره الإمام الرازى فنقول : فسر الرازى
عهد الله بما ألزمه عباده عن طريق الأدلة العقلية ، لأن ذلك أوكّد من كل عهد ومن
كلّ أيمان ، إذ الأيمان إنما تفيد التوكيد بواسطة الدلائل الدالة على أنها توجب الوفاء
بمقتضاها ، ثم قال والمراد من نقضها أن لا ينظر المرء فيها فلا يمكنه حينئذ العمل بموجبها أو بأن
ينظر ويعلم صحتها ثم يعانده فلا يعمل بعلمه ، أو بأن ينظر فى الشبه فلا يعتقد
الحق ، والمراد بقوله سبحانه : (مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) من بعد أن أوثق الله تلك الأدلة
وأحكمها بدلائل أخرى عقلية أو سمعية ، لأنه « شئ أقوى مما دلّ على وجوبه فى أنه
ينفع فعله ويضر تركه » : ا هـ باختصار ، ونقل الآكوسى عن بعض العلماء تفسيره للعهد
بما أوصى الله به عباده من التكليف ، وتفسيره للميثاق بالإقرار والقبول - أى من بعد
إقراره وقبوله .

ومعنى الآية إجمالاً : والذين لا يعملون بما كلفهم الله به عن طريق الأدلة العقلية
والنقلية ، من بعد ما أكّد الله تلك التكليف بمختلف الأدلة ، ويقطعون ما أمر الله بوصله من
الإيمان بجميع الأنبياء الذين بعثهم الله بالحق هداةً إلى البشر ، فتراهم يؤمنون ببعضهم
ويكفرون ببعض آخر ، كما يفعله أهل الكتاب حيث يكفر اليهود بيسى ومحمد

عليهما السلام ، ويكفر النصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويقطعون أيضا ما أمر الله بوصله من حقوق الأرحام ومحبة المؤمنين وموالاتهم وغير ذلك مما تقدم بيانه في صفات أهل الوفاء من الصبر والصلاة والإنفاق في وجوه البر ، ودرء السيئة بالحسنة ويضيفون إلى قطعهم ما أمر الله به أن يوصل أنهم يفسدون في الأرض بالظلم وإثارة الفتن ، فهؤلاء الموصوفون بتلك الصفات السيئة لهم بسبب ذلك الطرد من رحمة الله ، ولهم الدار السيئة التي جعلها الله مقراً لهم ، وهى جهنم وبئست داراً ومقراً .

٢٦- (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ . . .) (الآية .

نزلت هذه الآية في أهل مكة كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما - نقول : وكأنها نزلت لتنعى عليهم فرحهم بالحياة الدنيا مع أنها إلى زوال ، وليبين أن سعة الرزق على الكافر ليست لإكرامه ، وتضييقه على المؤمن ليس لإهانته ، فكلا الأمرين صادر من الله تعالى لحكم إلهية يعلمها سبحانه ، فقد يوسع على الكافر إملاءً واستدراجاً ، فلا وجه لفرحه ، وقد يضيق على المؤمن زيادة في أجره ، والآية دستور عام ، وإن نزلت بسبب خاص .

والمعنى : الله سبحانه وتعالى هو وحده الذى يوسع الرزق على من يشاء من عباده ، ويضيق الرزق على من يشاء ، دون أن يجعل الأول برهاناً على الرضا ، ولا أن يجعل الثانى أمانة على المقت والغضب ، فكلاهما يخضع لمشيئته ، وحق لربوبيته لعباده ، وهو أعلم بحكمته ، فلا يسأل عما يفعل ولا يفترى عليه بالأسباب والعلل ، وقد فرح أهل مكة ومن على شاكلتهم بما أوتوا من نعيم الحياة الدنيا وسعة الرزق فيها فركنوا إليها ، ولم يعملوا لما بعدها ، وما نعيم الحياة الدنيا في جانب نعيم الآخرة إلا شيء قليل يتمتع به وليس له بقاء ، كعجالة الراكب وزاد الراعى ، ولهذا لا يهتم بنعيمها أصحاب المقامات العالية إذا غاب عنهم . أخرج الترمذى وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : « نَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَرُ فِي جَنْبِهِ ، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ : لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً ، فَقَالَ : مَالِي وَلِلدُّنْيَا ، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاحِيْبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا » .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ
 إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَعَابٍ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(مَنْ أُنَابَ) : من رجع إلى الحق . (تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ) : تستقر وتستريح وتستأنس .
 (طُوبَى لَهُمْ) : قال الزجاج ؛ طوبى فعلى من الطيب ، وهى الحالة المستطابة لهم . وقال ابن عباس :
 فرح لهم وقرّة عين . وقال قتاده : حسنى لهم ، إلى غير ذلك من المعانى التى ترجع إلى
 ما ذكره الزجاج ، وقيل : هى اسم للجنة ، أو لشجرة فيها . (وَحَسَنُ مَعَابٍ) : وحسن مرجع .

التفسير

٢٧ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ . .) الآية .

لايزال الحديث مُتَّصلاً فى شأن أهل مكة ، وذكرهم بعنوان الكفر لئلا ينمى وتفتيح
 حالهم ، وبيان أنه السبب فى مقاتلتهم الآتية ، والمراد بهم عبد الله بن أبى أمية وأصحابه
 حين طلبوا النبى صلى الله عليه وسلم بالآيات الكونية .

والمعنى : ويقول الذين كفروا من أهل مكة : هلا أنزل على محمد آية من ربه كالتى
 اقترحوها عليه من سقوط السماء كسفاً عليهم ، وتحويل الصحراء إلى بساتين كأرض الشام ،
 وإحياء جدهم قصى ، وغير ذلك مما يتنافى مع الحكمة ولايناسب عصر رسالة القرآن .

وهؤلاء المقترحون لم يشعروا بأن القرآن الذى يتلى عليهم هو آية الآيات ، وأبقى المعجزات
 فما من آية جاء بها رسول قبله إلا أصبحت خبراً ، ولم تترك أثراً ، وهى لذلك مجال

لإنكار المنكرين، وزعم أنها ضرب من الحكايات والأساطير، يقولها أرباب الديانات ولا أساس لها من الصحة ، ولو صحت لكانت سحرا ، أما القرآن فهو باق مابق الزمان، وإعجازه عام للإنس والجان ، وهو الذى أيد معجزات الأنبياء ، وحماها من إنكار المكذبيين .

(قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ) :

قل لهم أيها الرسول : إن الله تعالى يتخلى عن هداية من يشاء من أهل الإصرار على الكفر ، فلا يوفقهم إلى معرفة مافى القرآن من آيات وإعجاز ، ولا إلى الإيمان به وبما أظهر الله على يدي رسوله من سائر الآيات ، ويهdy إليه سبحانه من رجع عن العناد والمكابرة ، وألقى السمع وهو شهيد ، ثم بين حال من أناب إليه فقال :

٢٨- (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) :

المقصود من الذين آمنوا الذين اتجهوا إلى الإيمان لحسن استعدادهم عندما سمعوا آيات الله ، لركة قلوبهم وصفاء نفوسهم ، وانعدام مكابرتهم ، فهؤلاء هم الذين يهديهم الله إليه . والمعنى : ويهdy الله إليه من أناب ورجع إليه بعد الكفر حين سمعوا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ، وهم الذين استعدت للإيمان نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم بذكر الله وآياته ، ألا بذكر الله وقرآنه تطمئن القلوب الصافية ، وتسكن النفوس الحائرة ، واستعمال الإيمان فى الآية بمعنى الاستعداد له والتأهب للوصول إليه يماثل استعمال المتقين فى قوله تعالى : «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ» . بمعنى هدى للصائرين إلى التقوى لحسن استعدادهم .

٢٩- (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَبْرَأَ) :

جاءت هذه الآية لتبشّر الذين اهتدوا إلى الله فآمنوا وعملوا الصالحات ، .

والمعنى : الذين آمنوا بربهم ونبيهم وعملوا الأعمال الصالحة بعد أن هداهم الله إليه لحسن استعدادهم وصفاء قلوبهم ، هؤلاء لهم فرح وكرامة ، وحسن مرجع فى الدار الآخرة ، فإن مرجعهم إلى جنة الله ورضوانه .

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾)

التفسير

٣٠- (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ . . .) الآية .^(١)

أى كما أرسلنا المرسلين قبلك يا محمد أرسلناك في أمة قد مضت من قبلها أُمَمٌ أولئك المرسلين - أرسلناك في هذه الأمة - لكى تقرأ عليها القرآن الذى أوحيناه إليك - وحالهم أنهم يكفرون بالرحمن لعلهم بعد سماع القرآن يشوبون إلى رشدهم ، فيؤمنون بوحدا نيته تعالى ، ويدركون مبلغ نعمته ورحمته ، ومن أعظم مظاهرها إرسالك يا محمد بالهدى ودين الحق إليهم ، قل لهم أيها الرسول : الرحمن الذى كفرتم به وعبدتم سواه هو ربى وحده دون غيره ، فإنه لا يستحق الألوهية أو العبادة إلا هو ، عليه اعتمدت فى الأمر كله ، وإليه مرجعى ومرجعكم ، فكيف تكفرون به وهو محاسبكم ومجازيكم ، والتعبير بقوله تعالى : « كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ » ، إيدان بأنه صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل وليسوا بدعا من الأمم - هذا : وقد جاء فى سبب نزول الآية أقوال . فمقاتل وابن جريج يقولان : نزلت فى صلح الحديبية حين أرادوا كتابة وثيقة ، فقال صلى الله عليه وسلم لعلى : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن عمرو والمشركون : مانعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب اكتب باسمك اللهم - وهكذا كان أهل

(١) الإشارة فى (كذلك) راجعة إلى إرسال الرسل قبله وإن لم يجر لهم ذكر ، لدلالة قوله : (قد خلت من قبلها أُمَمٌ لتتلو عليهم) قاله الحسن ، وقيل الإشارة راجعة إلى إرسال محمد مؤيدا بمعجزة القرآن ، فكانه قيل : مثل هذا الإرسال العظيم المؤيد بالقرآن أرسلناك يا محمد فى أمة... الخ .

الجاهلية يكتبون - فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي : « اكتب هذا ماصالح عليه محمد رسول الله » فقال مشركو قريش : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك ، ولكن اكتب . هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله ، فقال أصحاب النبي : دعنا نقاتلهم ، فقال : « لا ولكن اكتب ما يريدون » فنزلت . وابن عباس يقول : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي : « اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن » (١).

وقيل : سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الحجر قائلاً : « يا الله يارحمن » فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين ، فنزلت هذه الآية ونزل أيضاً قوله تعالى : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » .

(وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ
أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْيِسِ الَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ
كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ حَتَّى
يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١))

المفردات :

(سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) : أزيلت من أماكنها . (يَأْيِسُ) : بمعنى يعلم ، كما حكاه القشيري عن ابن عباس ، وذكره بهذا المعنى الجوهري في الصحاح ويرى هذا الرأي مجاهد والحسن وأبو عبيدة ، وأنشد في ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النضري .

أقول لهم بالشعب إذ ييسرونني . . . ألم تيسسوا أني ابن فارس زهدم وييسرونني من الميسر - ويروى يأسرونني من الأسر (٢) - انظر القرطبي . وقال رباح بن عدى

(١) سورة الإسراء ، من الآية ١١٠ . (٢) وكان الشاعر قد أسر ؛ فضرىوا عليه بالميسر يتقاسمون فداه .

ألم يبيس الأقوام أنى أنا ابنه : وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا .

وهو بهذا المعنى فى لغة النخع - كما حكاه القراء عن الكلبي - انظر القرطبي - وقيل فى لغة هوازن كما قاله القاسم بن مَعْن ، وسيأتى لذلك مزيد بيان فى التفسير . (قارِعَةٌ) : مصيبة تصيبهم - من قرعه إذا أصابته ، والأصل فى القرع - الضرب ، فكأنها إذ تصيبهم تدق قلوبهم وتضربها .

التفسير

٣١ - (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا) :

حكمت الآية (٢٧) من هذه السورة اقتراحهم آيات كونية على الرسول ، إذ قالوا : «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ» ، ثم نَعَتْ تلك الآية المذكورة وما بعدها عليهم ضلالهم ، وبينت أن ذكر الله - وهو القرآن - تطمئن به القلوب ، فهو خير لهم مما اقترحوه من الآيات ، ووعدت المؤمنين الصالحين بالجنة ، وبينت لهم أن الرسول إنما أرسل بمعجزة القرآن ليتلو عليهم الذى أوحاه الله إليهم ، فهو المعجزة الباقية مابقى الزمان دون سائر المعجزات ، فإنها تصبح خبرا بعد عين ، وحكاية تروى بعد الرسول الذى جاء بها : فتكون فى الأجيال التالية عرضة للتصديق والتكذيب ، وما كذلك القرآن .

وجاءت هذه الآية لتبين عظمة القرآن ورجحانه على مايقترحوه من الآيات . يروى أن نفرا من مشركى قريش فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية المخزوميان جلسوا خلف الكعبة ، ثم أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتاهم فقال له عبد الله : إِنْ سَرَّكَ أَنْ نَتَّبِعَكَ فَسَيِّرْ لَنَا جِبَالَ مَكَّةَ بِالْقُرْآنِ ، فَأَذْهِبْهَا عَنَّا حَتَّى تَتَسَّعَ أَرْضُنَا الضَّيِّقَةُ : واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا حتى نغرس ونزرع ، فلست كما زعمت - بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه ، وسخر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضى عليها ميرتنا وحوائجنا ثم نرجع من يومنا ، فقد سخرت لسليمان الريح كما زعمت ، فلست بأهون على ربك من سليمان بن داود ، وأخى لنا قَصَبٌ^(١) جدك أو مَنْ شئت من موتانا نسأله ، أحق

(١) القصب : العظم المستطيل الأجوف .

ما تقول أم باطل ، فإن عيسى كان يحيى الموتى ، ولست بأهون على الله منه ، فأنزل الله هذه الآية والآيات التي قبلها للرد عليهم .

والمعنى : ولو أن أى قرآن تسير به الجبال وتزول عن أماكنها حين يقرأ عليها ، أو تقطع وتشتقق به الأرض أنهاراً وعيوناً تروى بمائها الأرض بعد إزالة جبالها ، أو تكلم به الموتى لتصبح أحياء ، لكان الذى يحدث عنده كل هذا هو القرآن الذى أنزله الله على لأبلغكم إياه ، لانطوائه على بيان عجائب قدرة الله وعظيم جلاله ، ولأنه كلام الحق سبحانه ، الذى يقول للشئ : « كن فيكون » ولكن القرآن لم ينزل ليحقق لكم بذاته هذه المطالب الكونية من ينبيع وتسخير الرياح وغيرهما ، بل نزل ليرشدكم إلى وسائل تحقيقها ، ويعلمكم بذل الجهد العقلى والعمل لكى تحصلوا عليها ، فإن العالم الأكبر ينطوى فى الإنسان بعقله وذكائه وقدرته وقواه التى أودعها الله فيه .

وليعلم العاقل أن الهدف الأول للقرآن هو معرفة الله وأداء واجباته ، والعمل للدنيا والآخرة . فقد مضى الزمن الذى كان يرتزق فيه الكسالى من دعاء أنبيائهم ، حيث كانوا يحصلون به على المن والسلوى ونحوهما ، ويحصلون على الماء بالمعجزات ، وجاء الزمن الذى يبرز فيه المولى سبحانه خيرات الأرض والماء والهواء والطاقة بجهد الإنسان وعرقه ، واستخدام الطاقات التى أودعها الله فيه ، وهذا ما غنى القرآن بتوجيه البشر إليه ، كما فى قوله تعالى : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » . وقوله : « وفى الأرض آياتٌ للمؤمنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون وفى السماء رزقكم وما تؤعدون » . وقوله : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةً ويخلق ما لا تعلمون » وقوله : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » . وقوله : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

وغير ذلك من الآيات التى تحض على النظر والاستنباط ، والانتفاع بخيرات الله ونعمه بالجد والاجتهاد والكدح .

ومن أجل هذا المنهج السديد الذى رسمه القرآن لأمة القرآن ، امتلك المسلمون مفاتيح العلم ، وتمكنوا من ولوج أبوابه إلى معابد العز والرفعة والمجد فى كل ناحية من نواحي الكرامة ، والأُمم من حولهم يغطون فى سبات عميق ، وينتظرون موائد تنزل لهم من السماء ، أو يفسدون فى الأرض بغير الحق .

ذلك هو شأن القرآن الذى لم يحرك قلوب قريش ليؤمنوا به ، ويكتفوا بمعجزته ، مع أنه تعالى يقول فى شأنه : « لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » .

واعلم أن لكل نبي معجزة أئده الله بها تناسب أمته ومدة بقائها على شريعته ، واختار الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم معجزة القرآن ليكون دستوراً لها وآية إلى أن تقوم الساعة ، فإن الله تعالى جعلها الأمة الخاتمة للرسالات ، فكانت معجزة نبيها صلى الله عليه وسلم ، باقية ببقائها ، وهادياً يهديها ما بقى الزمان . ولقد أوتى النبي صلى الله عليه وسلم غير القرآن معجزات كثيرة ، ولكنها لم تكن للتحدى ، بل لتكريمه صلى الله عليه وسلم ، ورحمة بالمؤمنين فى مواقف الشدة ، ومعظمها ظهر فى المدينة كإنزال الغيث ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام القليل .

وقليل منها ظهر بمكة كانشقاق القمر ، ووضفه لبيت المقدس وأحوال غير قريش صباح ليلة الإسراء والمعراج ولكن الله لم يأذن له بالتحدى بشئ من ذلك ، ولم يجعل تلك الخوارق آية رسالته الحاسمة ، بل جعل آيتها دستوراً للباقي بقاء الزمان ، وهو القرآن ، قال صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ أَنْبِيَاءَ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ . وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أخرجه البخارى فى صحيحه .

(بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا) : أى لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلّم به الموتى لكان هذا القرآن ، لكنّ هذا لم يحدث بل حدث سواه ، لأن الأمر لله وحده يفعل ما يريد وفقاً لمشيئته وحكمته ، التى اقتضت أن تكون آية النبوة فى الإسلام هى دستوره ، وهو القرآن لا غيره من الخوارق ، ولهذا لم يأذن الله للرسول بأن يتحدى بما ظهر على يده من الخوارق سواه .

(أَفَلَمْ يَتَّبِعِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا) :

لم ينزل القرآن بلغة قريش وحدها . بل اشتمل عليها وعلى غيرها حتى يعلم العرب أن القرآن بلغتهم جميعاً . وهذا ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن على سبعة أحرف

وكلمة « يئس » هنا بمعنى يعلم في لغة النخع - كما حكاه الفراء^(١) - وفي لغة هوازن - كما حكاه مجاهد والحسن والقاسم بن معين.^(٢)

والمعنى على هذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أنه لو يشاء الله هداية الناس جميعا لفعل . ولكنه جعل سبيل الهداية إلى الحق اختيار العبد وفعله ، بعد أن يسر الله له أسبابها وأزاح موانعها .

ومن العلماء من حملها على معناها المعروف وفسر الآية عليه كما يلي : أفلم يئس الذين آمنوا من إيمان المشركين لأنه لو يشاء الله لهداهم جميعا ، وهم لم يهتدوا بل أصرروا على الكفر ، فكان حق المؤمنين أن يئسوا من إيمانهم ، ، ويدركوا أنه تعالى لم يشأ هدايتهم .

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ) :

أى ولا يزال الكافرون من أهل مكة تنزل بهم بسبب ما فعلوه من الكفر بالله وإيذاء المؤمنين وإخراجهم من ديارهم - تنزل بهم بسبب ذلك - داهية تفرعهم وتقلقهم من آن لآخر ، كالذى كان يحدث لهم حيناً بعد حين من القتل والأسر وأخذ غنائمهم في غزوات المسلمين وسراياهم ، أو تحل تلك الداهية في مكان قريب من دارهم (مكة) فيتطير إليهم شررها ويصابون ببلهيا^(٣) ، حتى يأتي وعد الله بفتح مكة وسقوط معقل الشرك ، فيتم للمؤمنين النصر ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا ، إن الله لا يخلف وعده في الأمر كله .

ويصح أن يراد من الذين كفروا ، كل من كفر بالإسلام ، فتكون الآية وعيدا لمن يؤذى المسلمين بانتقام الله في الدنيا من آن لآخر ، حتى يأتي وعد الله بموتهم أو بالقيامة فيجزئهم شر الجزاء ، وإلى هذا الرأي مال الحسن وابن السائب .

(١) عن الكلبي ، وحكاه الآلوسی عن ابن الكلبي .

(٢) انظر القرطبي والآلوسی .

(٣) ومن ذلك ما كان من صلح الحديبية ، حيث عاد عليهم بالفرار وعلى المسلمين بالخير .

(وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) : أى أمهلتهم وتركتهم ملاوة ^(١) من الزمان دون عقاب .

(قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ) : رقيب ومهيمن عليها .

التفسير

٣٢- (وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) :

فى هذه الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عما لقي من المشركين من الاستهزاء والتكذيب واقتراح الآيات .

والمعنى : ولقد استهزأ الكفار السابقون ، برسل كثيرين بعثناهم من قبلك إليهم لهدايتهم ، وأيدناهم بالمعجزات الشاهدة بصدقهم ، فلم يؤمنوا بهم بل كذبوهم وأهانوهم فلست وحدك

(١) الملاوة : الفترة من الزمان وهى مثلثة الميم .

في استهزاء الكافرين بك فإن ذلك أمر مطرد يلقيه رسلنا من أقوامهم ، فأمهلت أولئك المستهزئين لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ثم أخذتهم بعقابي حين لم ينفعهم الإمهال ، وكان عقابي لهم هائلا ، حيث لم يبق من الكافرين ديارٌ .

والمقصود من الاستفهام في قوله تعالى : « فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ » التّعجيب من شدة العقاب وفضاعته .

٣٣- (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ) :

هذا الاستفهام مترتب على ما سبق بيانه ، من أن الأمر كله لله وأنه يهدي من يشاء ويخذل من يشاء من أهل الضلال ، وأنه يملئ للكافرين ثم يأخذهم بذنوبهم إلى غير ذلك مما تقدم .

والمعنى : أفمن كان شأنه ما تقدم من هيمنته على كل نفس يعلم سرها ونجواها ، ويجزيها بما كسبت من خير أو شر . أفمن كان كذلك يشبه الأصنام التي ليس لها عليهم من سبيل وقد جعلوها له شركاء مع ضعفها وعدم فائدتها ، ثم أمر الله رسوله أن يبكتهم فقال : (قُلْ سَمُّوهُمْ) : أي قل لهم أيها الرسول تائيباً وتقريراً : اذكروا لي أسماءهم وأوصافهم التي جعلتهم في نظرهم يستحقون العبادة مع الله ، ولن يجدوا لهم من الأوصاف ما يستحقون به شيئاً من التكریم فضلاً عن العبادة .

(أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِنْ الْقَوْلِ) :

أي بل أتخبرون الله بشركاء زاعمين استحقاقها للعبادة وهو لا يعلمها في أرضه ، مع أنه سبحانه لا تغيب عن علمه ذرة في الأرض ولا في السماء ، بل أتخبرونه عن ألوهيتها ظاهر من القول من غير أن يكون لها حقيقة ولا دليل ، كنسمة القبيح وسيمًا والزنجى كافورا .

(بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ) : بل زين الشيطان لهؤلاء المشركين باطلهم وصدّهم عن سبيل الحق .

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) : ومن يتخذ الله عن معونته بسبب إصراره على الكفر فليس له من هاد يوصله إلى الحق ، وينجيه من عاقبة ضلاله .

٣٤- (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) :
 أى لأولئك المشركين عذاب فى الحياة الدنيا بالقتل والأسر والمصائب والمحن ، ولعذاب
 الآخرة أكثر من عذاب الدنيا مشقة لشدته ودوامه ، وما لهم من عذاب الله من حافظ
 يعصمهم ويقيهم ، نسأل الله السلامة وحسن العاقبة .

(* مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى
 الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(مَثَلُ الْجَنَّةِ) : المثل هنا بمعنى الصفة العجيبة ، وأصله بمعنى الشبيه والنظير .

(أُكُلُهَا دَائِمٌ) : أى ثمرها باق لا يغيب ولا ينقطع .

(عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا) : أى مآلهم وعاقبتهم .

التفسير

٣٥- (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . .) الآية .

لما ذكر الله سبحانه فى الآية السابقة عقاب الكفار فى الدنيا والآخرة ، عقبها بهذه
 الآية لبيان ثواب المتقين فى الآخرة ، والمقارنة بين عاقبتهم وعاقبة الكافرين .

والمعنى : صفة الجنة التى وعداها الله عباده المتقين وحالتها العجيبة الشأن أنها تجرى من
 تحت أشجارها وقصورها الأنهار بين جوانبها وحيث شاء أهلها ، كما قال تعالى :
 « يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا » .

فهم يصرفونها حيث شاءوا وكيف أرادوا ، وتلك الأنهار كما قال سبحانه في سورة محمد :
 « فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ
 وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى » .

ومن صفتها : (أَكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا) : أى ثمرها باق لا ينقطع فى أى وقت من الأوقات
 وظلالها باقية لا تنحسر ، مع اعتدال مناخها ، وطيب هوائها . كما قال سبحانه :
 « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ، وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا » ^(١)

(تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ) : أى هذه الجنة العظيمة الشأن
 عاقبة الذين اتقوا ربهم فتجنبوا الكفر والمعاصى ، وعاقبة الكافرين به وبنييه النار ، وشتان
 بين العاقبتين ، فما بال الكافرين لا يعقلون .

(وَالَّذِينَ اتَّيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنْ
 الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا
 أَشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابِلُ)

المفردات :

(الْكِتَاب) : المراد به هنا التوراة والإنجيل .

(الْأَحْزَاب) : الجماعات القوية والأقوام المتشابهون فى ميولهم وعقائدهم .

(مَقَابِل) : مرجع ومصير .

(١) الآيتين ١٣، ١٤ من سورة الإنسان .

التفسير

٣٦- (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ...) الآية .

يرى الإمام ابن عباس رضى الله عنه أن المقصود من الذين آتيناهم الكتاب هم مؤمنو أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، كعبد الله بن سلام وكعب ، ومؤمنى نجران والحبشة فهؤلاء كانوا يفرحون بالقرآن حين يسمعونهم إيماناً منهم بأنه كتاب الله الذى أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر - وقيل : إن المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم المسلمون وقد كانوا يفرحون بنور القرآن الكريم وتوالى نزول آياته .

(وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ) : المراد بالأحزاب على رأى ابن عباس : كفرة اليهود والنصارى الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة والبغضاء ، ككعب ابن الأشرف والسيد والعاقب أسقى نجران وأتباعهما ، أما على الرأى الثانى القائل بأن الذى يفرح هم المسلمون فالمراد بالأحزاب كفار اليهود والنصارى ، والمراد من (بعضه) الذى ينكره أهل الكتاب هو الشرائع التى جاءت مخالفة للتوراة والإنجيل تبعاً لتغير الزمان والأجيال ، أو هو مالا يوافق ماغيروه وبدلوه فى كتبهم ، وأما ما يوافق مافى كتبهم فإنهم لا ينكرونه وإن لم يفرحوا به .

(قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ) : أى قل يا محمد صادقاً بالحق غير مكترث بإنكارهم بعض القرآن ، قل لهم : ما أمرنى الله فى القرآن الذى تنكرونه أو تنكرون بعضه إلا بأن أعبد الله وحده ولا أشرك به شيئاً فى عبادته ، وقد أمرنى أن أدعوكم إلى ذلك بقوله سبحانه : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .

(إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَبَآئِجُ) : أى إلى عبادة الله وحده أدعو الناس جميعاً ، وإليه وحده مرجعى ومرجعهم للجزاء ، فلذلك لا أقرب ما أنتم عليه من اتخاذ اليهود عزيزاً ابنأ الله واتخاذ النصارى

المسيح ابنًا له كذلك لاستحالة ذلك على الله تعالى ، وإذا كنت أدعوكم إلى وحدانيته ، ولابرهان لكم على مزاعمكم ، فلماذا لا تستجيبون لما دعوتكم إليه ، وكل الآيات تدل عليه وترشد إليه .

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ
بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧))

المفردات :

(أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) : أى أنزلنا القرآن حاكماً للناس في قضاياهم بلسان العرب
(وَلَا وَاقٍ) : أى ولا حافظ . من وقاه يقيه وقاية ؛ أى حفظه .

التفسير

٣٧- (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ...) . الآية .

أى وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتاب بلغاتهم وألسنتهم ، أرسلناك وأنزلنا عليك القرآن عربياً بلسانك ولسان قومك ، ليسهل عليهم تفهم معناه واستظهاره والرجوع إليه في الأحكام ، وإنما سمي القرآن حكماً لما فيه من الأحكام والشرائع التي يحتاج إليها المكلفون ، وتقتضيها الحكمة ليصلوا بها إلى السعادة في الدنيا والآخرة ، وكان عربياً لأن الأمة التي بعث منها الرسول لغتها العربية ، فجاء القرآن بلغتهم ليفهموه ويبلغوه لغيرهم .

(وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ) : أى ولئن اتبعت يا محمد أهواء الكافرين التي يدعونك إليها مخالفة لما أنزل إليك من الحق كاستقبال بيت المقدس بعد تحويل القبلة ، وكعبادة غير الله ابتغاء مرضاتهم .

(مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) : أى بعد ثبوت العلم عن طريق الوحي والحجج الساطعة والبراهين القاطعة .

(مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ) : أى ليس لك من دون الله ولي ولا ناصر ينصرك فينقذك منه ، ويقيك من عذابه إن أراد عذابك . والخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد الأمة ، وفي هذا وعيد لأهل العلم إن هم حادوا عن الطريق واتبعوا سبل أهل الضلالة .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً
وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِعَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ
كِتَابٌ (٣٨))

المفردات :

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) : الأجل : الوقت والمدة ، والكتاب : الحكم المعين الذي يكتب
على العباد حسب ما تقتضيه الحكمة .

التفسير

٣٨ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ...) الآية .

في هذه الآية جواب عن شبهات أوردها أعداء النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، من ذلك
قولهم : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء ، ولو كان رسولا من عند الله حقاً لما اشتغل عن
رسائله بالنساء ، فأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » . وفي هذا تذكير بما كان عليه سليمان وداود عليهما السلام
حيث كانت لهما أزواج كثيرات وذرية كثيرة ، ولم يقدح ذلك في نبوتهما ، على أن
الرسول صلى الله عليه وسلم قد اقتصرته حياته الأولى على زوجة واحدة إلى سن الثالثة والخمسين
فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حدثت ظروف ودواع اقتضت الإضهار إلى القبائل
لمصلحة الإسلام ، فكان من الخير أن تتعدد زوجاته ، بذلك تظهر الحكمة في هذا التعدد
فلا مجال لإثارة الشبه حول هذا التعدد في أواخر حياته ، لأنه لا يعقل أن يكون ذلك لدواعي
الشهوة في سن الشيخوخة .

والمعنى : ولقد أرسلنا رسلا كثيرين من قبلك أيها الرسول شأنهم كشأنك ، حيث جعلنا لهم أزواجاً كثيرات وذرية كثيرة ، فلست في ذلك بدعاً من الرسل .

وحين قالوا : لو كان رسولا لجاء بالآيات التي طلبناها منه . رد الله عليهم بقوله سبحانه : (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) : أى ليس في وسع رسول من الرسل أن يأتي بمعجزة وفق ما يقترحه قومه إلا متى شاء الله ، فهو وحده يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد . ثم بين الله سبحانه الحكمة في تغيير الشرائع بقوله جل شأنه :

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) : أى لكل وقت من الزمان شرع كتبه الله يناسب حال أهله . وينتهى بانتهاء الحاجة إلى هذا الشرع ، فإن الشرائع كلها لإصلاح أحوال العباد في المبدأ والمعاد ، ويترتب على ذلك أن الشريعة تختلف على حسب اختلاف أحوال الناس التي تتغير بتغير الأوقات وتتابع الأزمان والأجيال . ومثل ذلك كمثّل اختلاف العلاج باختلاف أحوال المرضى وبحسب الأوقات .

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (٣٩)

المفردات :

(يَمْحُو) : المحو الإزالة ، والمراد به هنا نسخ الشرائع والأحكام وتغييرها .
(أُمُّ الْكِتَابِ) : أصل الكتاب ، والمراد به علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ .

التفسير

٣٩- (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ . . .) الآية .

أى يمحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ ، ويبقى ما يشاء منها ثابتاً كما هو فلا ينسخه ولا يبدله ، أو يأتي بشرع جديد مكان شرع سابق ينسخه به ، فإن الحكمة تقتضى أن ينسخ الله ما يشاء أن ينسخه من الأحكام والشرائع بحسب الوقت ويثبت بدله أو يبقيه على حاله من غير نسخ ، لأن الشرائع كلها لإصلاح أحوال العباد في المبدأ والمعاد .

واعلم أنه سبحانه وتعالى جعل الشرائع كلها متفقة في الأصول ، فكلما أتى نبي جاء بشريعة متفقة مع الشرائع السابقة في تلك الأصول التي لا سبيل إلى تغييرها ، ومن ذلك ما تضمنه قوله تبارك وتعالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . . . » الآيات من سورة الأنعام. فهذه الأصول وأمثالها لا تتغير ولا تتبدل بتغير الرسائل والكتب السماوية ، أما الفروع فإنها عرضة للتغيير والتبديل ، كطريقة الصيام وزمنه ، ومقادير الزكاة والأصناف التي تزكى ، وكتحليل بعض المحرمات ، وفي ذلك يقول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : « وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . . . » . وغير ذلك مما يتغير بتغير الأجيال وأحوالهم . هذا ، ويمكن أن تكون الآية الكريمة عامة في كل ما يحوه الله ويثبتته من شئون الكون ، فالأمر كله لله يفعل ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بحكمته .

(وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) : أى وعند الله تعالى أصل الكتاب وقد فصل فيه كل ما يجريه سبحانه في الشرائع من المحو والإثبات ، وفي الكون من التغيير والتبديل ، فكل ذلك لا يثبتته الله ابتداءً ، وإنما هو قضاء عنده قديم يبرزه في وقته وحينه الذي حدده سبحانه وتعالى طبقاً لحكمته ، وقد عرفت في المفردات أن المراد بأُم الكتاب علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ .

(وَإِنْ مَا نُزِرْنَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۝٤١) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٤٢)

المفردات :

(وَإِنَّمَا نُزِرْنَكَ) : ما هنا لتأكيد معنى الشرط ، أى وإن أريناك ، والتعبير بالمضارع لحكاية الحال الماضية أو لإفادة تجدد الوعيد .

(مِنْ أَطْرَافِهَا) : الأطراف ؛ الجوانب .

(لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ) : أى لا راد له . والمعقب هو الذى يكر على الشيء فيبطله . ويقال لصاحب الحق الذى يطالب به معقب ، لأنه يتتبع غريمه بالاعتضاء والطلب .

التفسير

٤٠- (وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) : أى إن أريناك يا محمد مصارع أعدائك المصيرين على الكفر وما وعدناهم من إنزال العذاب بهم ، فذلك انتقام عاجل لك من أعدائك ، وإن توفيناك قبل حلول وعيدنا بهم ، فلا تجزع لذلك ، فما عليك إلا تبليغ الدعوة وتبليغ الوعيد على الكفر بها ، وعلينا وحدثنا حسابهم جزاؤهم على كفرهم ومعاصيهم ، في الوقت الذى تقتضيه الحكمة فإننا نعلم من المصالح الخفية ما لا تعلم ، فدع الأمر لنا وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، وفي التعبير بقوله : « نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ » إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم سبرى بعض الموعود ، ولهذا بشره الله عقب هذه الآية بظهور تبشير النصر بقوله :

٤١- (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) : أى أينكر المشركون تنفيذ وعيدنا ونصرنا لرسولنا ، ولم يروا أننا ننقص أرض الكفر من جوانبها ونواحيها ، بفتحها على المسلمين شيئاً فشيئاً وإلحاقها بأرض الإسلام ، وقتل بعض من يقف في سبيل الدعوة أو أسرهم أو إجلاء البعض الآخر ، أليس هذا بعض الذى نعدهم ؟

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ) : أى والله يحكم في خلقه بما يشاء لا يتعقب حكمه أحد بنقض ولا تغيير ، وقد جرت سنته أن الأرض يستعمرها عباده الصالحون ، بإقامة موازين العدل فيها والسير على نهج الحق - وقد حكم للإسلام وأهله بالغلبة والإقبال ما داموا في طاعة الله ، يجاهدون في سبيله ، واثقين من صدق وعده بالنصر لمن ينصرونه ، وكما حكم للإسلام وأهله بالإقبال والنصر لأنهم أهل الحق ، حكم على الكفر وأهله بالإدبار والانتكاس ، لما سلوكه من الظلم والفساد في الأرض .

(وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) : أى سيحاسبهم ويجازيهم بعد قليل في الآخرة بألوان العذاب ، وكل آت قريب ، وذلك بعد تحقيق الوعيد عليهم في دنياهم بالقتل والأسر والإجلاء .

(وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(مَكَرَ) : المكر ؛ هو تدبير المكروه في خفية .
 (فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) : أى أنه تعالى يعلم المكر كله ، فلا تخفى منه خافية عليه سبحانه .
 (عُقْبَى الدَّارِ) : أى عاقبة دار الدنيا .
 (عِلْمُ الْكِتَابِ) : أى علم القرآن وما هو عليه من البيان المعجز ، والحكمة التى لاتضارع ، أو علم التوراة والإنجيل وما فيها من البشارات برسول الله والإسلام .

التفسير

٤٢- (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : أى مكر الذين كفروا من قبل مشركى مكة برُسُلِهِمْ ، وكادوا لهم . وكفروا بهم ، كما فعل نمروذ وقومه بإبراهيم ، وفرعون وقومه بموسى ، واليهود بعمسى ثم دارت الدائرة على الظالمين المفسدين .
 (فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) : أى فالله تعالى محيط بمكرهم كله ، فلا يغيب عن علمه شئ منه ، وهو قادر على إحباطه والانتقام من مدبريه ، وفى هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتأمين له من مكرهم ، وقد صارحه الله بذلك حيث قال له : « وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » ^(١) .

(يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ) : من خير أو شر ، فيثبت أوليائه ، ويحتميهم من شرور أعدائهم ، ويعاقب الماكرين بما يستحقونه من عقاب ، وفي هذا تهديد ووعيد للكافرين الماكرين أكد به بقوله .

(وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ) : أى وسيعلم الكفار إذا قدموا على ربهم يوم القيامة لمن العاقبة المحمودة ، لهذه الدار الدنيا ، أمى لهم ؟ أم للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومن تبعه من المؤمنين ، ولاشك أنهم سيعلمون يومئذ أن العاقبة الحميدة للمتقين ، كما قال تعالى : « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »^(١) .

٤٣- (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا) : أى ويقول المشركون من العرب ، الجاحلون لنبيوتك : يا محمد لست برَسُول من عند الله ، وإنما أنت متقول على الله تعالى ، يقولون له ذلك بعد أن تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل القرآن فعجزوا ، ليعالجوا بهذا الإنكار قصورهم وضعف حجبتهم ، فهم حينما ينكرون لا مستند لهم فى إنكارهم ، بل قامت الأدلة الواضحة على أنه مرسل من عند ربه ، فما أكثر المعجزات التى أيد به الله بها .

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) : أى حسبي الله شاهدا لى بتأييد رسالتى وصدقى وأنتى قد بلغت ، وشاهدا عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان .

(وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) : مِمَّنْ أسلم من أهل الكتابين التوراة والإنجيل فإنهم ، كانوا يجدون البشارات عنه فى كتبهم ، وحاصل الجواب بذلك : لستم بأهل للحكم فى شأنى ، فاسألوا أهله من أهل الكتاب فإنهم بجواركم ، كما قال تعالى : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »^(٢) .

والله أعلم

سورة ابراهيم

آياتها اثنتان وخمسون ، وهى مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وجابر ، وهو الذى عليه الجمهور ، وقال ابن عباس وقتادة مكية إلا آيتين منها فهما مدينتان ، وهما قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنَسُّ الْقَرَارُ (٢٩) »

فقد نزلتا فى قتلى بدر من المشركين ، أخرجه البخارى عن ابن عباس وأبو الشيخ عن قتادة .

المقاصد التى تناولتها السورة

اشتملت سورة إبراهيم على المقاصد التالية :

١- الحديث عن القرآن الكريم وعن الرسول صلى الله عليه وسلم وأثرهما فى إخراج الناس من الظلمات إلى النور بفضل الله وهداه ، وإنذار الذين ينصرفون عن الهدى بالهلاك إذا أصروا على الكفر والضلال .

٢- تقرير أن الله سبحانه أرسل الرسل بلغات أقوامهم حتى يستطيعوا فهمها وأداء شعائرها ولتقوم عليهم حجة الله .

٣- ذكر نبذة من قصة موسى عليه السلام مع قومه ، وتذكيره إياهم بنعم الله وما يجب عليهم له سبحانه من عبادة وشكر .

٤- ذكر نبذة من أخبار الرسل مع أقوامهم ، وما قابلوا به رسالاتهم من جحود وإنكار وانتقام الله من هؤلاء المعاندين المكابرين .

٥- تقرير ضلال الكفار وحبوط ما قدموه من أعمال طيبة ، لأنها لا تقوم على الإيمان .

٦- ذكر مشهد من مشاهد يوم القيامة حيث يتبرأ أتباع الكفار من رؤسائهم وحيث يتبرأ الشيطان ممن أغواهم ودفعهم إلى الفساد . على حين يَمُنُّ الله على عباده الاتقياء بأحسن الجزاء .

٧- ذكر الآثار الطيبة للكلمة الطيبة، وأن الله يبارك فيها وفيمن دعا إليها ومن استجاب لها ، وذكر الآثار السيئة للكلمة الخبيثة وأن الله يمحقها ويمحق من دعا إليها ومن استجاب لها من المنحرفين .

٨- الدعوة إلى التعجب ممن يقابلون نعم الله بالجحود والكفران ، ويضلون أقوامهم فيقودونهم إلى النار .

٩- دعوة المؤمنين إلى التمسك بآيمانهم وأداء شعائر دينهم ، وإلى شكر نعم الله العديدة عليهم ، وأنها لا يمكن إحصاؤها سواء في أرجاء الأرض أم آفاق السموات .

١٠- تذكير قريش بنعم الله عليهم ، واستجابته لدعاء إبراهيم عليه السلام من أجلهم وأن عليهم أن يعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

١١- إنذار المشركين بما أعدَّه الله لهم من عذاب أليم يوم القيامة ، وتأكيده هذا الإنذار وأنه واقع بهم لا محالة « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » .

١٢- تقرير ما ورد في السورة الكريمة من تبشير للمؤمنين وإنذار للكافرين ، وأن في هذا بلاغاً للجميع ليسرعوا بالعودة إلى توحيد الله وعبادته ، وليعلموا أنما هو إله واحد ، وإيقاظ العقول لتتجه إلى الإيمان قبل فوات الأوان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الر كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾)

المفردات :

(الر) : هذه وأمثالها من فواتح بعض السور ، قيل إنها أسماء لها ، وقيل أسرار محجوبة ،
وقيل إنها رمز للتحدي ، وقيل إشارة لابتداء كلام وانتهاء كلام ، وقيل غير ذلك .
وقد سبق تفصيل الكلام فيها أول سورة البقرة ، فارجع إليه إن شئت .

(الظُّلُمَاتِ) : الضلالات ، فإنها ظلمات معنوية .

(إِلَى النُّورِ) : إلى الهدى ، فإنه نور معنوى يهdy إلى الحق .

(بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) : بتيسيره وتوفيقه .

(إِلَى صِرَاطٍ) : أى إلى طريق .

(الْحَمِيدِ) : أى المحمود ، والمراد أنه تعالى مستحق للحمد لذاته وإن لم يحمده الناس .

(وَوَيْلٌ) : الويل : الشر والهلاك .

(يَسْتَحِبُّونَ) : يختارون .

(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) : يَمْنَعُونَ غَيْرَهُمْ عَنْ دِينِهِ الَّذِي يَوْصِلُ إِلَى مَرْضَاتِهِ وَثَوَابِهِ .
 (وَيَبْتَغُونَهَا عِوَجًا) : أَى وَيَطْلُبُونَهَا . وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى السَّبِيلِ فَإِنَّمَا مُؤَنَّثَةٌ ، أَى وَيَطْلُبُونَ
 لِسَبِيلِ اللَّهِ الْعِوَجَ .

التفسير

١- (آلر) :

أَجْمَلْنَا الْكَلَامَ عَلَى (آلر) فِي الْمَفْرَدَاتِ ، وَأَحْلَنَّا الْقَارِئَ عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ مَفْصَلًا عَنْ
 الْفَوَاتِحِ الْهَجَائِيَّةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فَارْجِعْ إِلَيْهِ إِنْ شِئْتَ .

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ) : أَى هَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ .
 (لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) : أَى بَعَثْنَاكَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ
 لِيُخْرِجَ النَّاسَ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ أَبْيَضَهُمْ وَأَسْوَدَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ وَالْحَيَاةِ الضَّالَّةِ
 إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالْحَيَاةِ الْبَارَةِ الرَّشِيدَةِ-لَمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ الَّتِي تَحْتَ
 عَلَى التَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ ، وَالنَّظَرِ فِي حَقَائِقِ الْكُونِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالْخَلْقِ-
 وَالْإِبْدَاعِ . . . وَلَمَّا حَوَاهُ مِنَ الْمَنْهَجِ السَّيِّدِ الَّذِي تَسْعُدُ بِهِ الْبَشَرِيَّةُ كُلَّمَا سَلَكَتَهُ ، وَتَشَقَّى
 كُلَّمَا ابْتَعَدَتْ عَنْهُ .

(بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) : أَى بِتَوْفِيقِهِ إِيَّاهُمْ وَلَطْفِهِ بِهِمْ ، فَهُوَ الْهَادِي لِمَنْ أَرَادَ لَهُ الْهَدَايَةَ عَلَى
 يَدَيِ نَبِيِّ هَذِهِ الْأُمَّةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَيَاتِهِ ، وَبِمَا تَرَكَهَ لِأُمَّتِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّتِهِ
 بَعْدَ انْتِقَالِهِ إِلَى رَبِّهِ .

(إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) : أَى إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لَخَلْقِهِ وَشَرَعَهُ لَهُمْ ،
 طَرِيقِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يَغَالِبُ وَلَا يَمَانَعُ ، فَهُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ مَا سِوَاهِ الْمُسْتَحَقِّ لِلْحَمْدِ ، وَيَلَاخِظُ
 أَنَّ « صِرَاطَ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » بَيَانٌ لِلنُّورِ فِي قَوْلِهِ : « لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » .
 فَهُوَ النُّورُ الَّذِي أَخْرَجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَيْهِ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَالتَّشْرِيعَاتِ الرَّشِيدَةِ .

٢- (اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) :
 أى هذا الكتاب أنزلناه لتخرج الناس إلى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما فى الكون
 ملكاً وإبداعاً وتصرفاً ، فهو سبحانه يتصرف فيه وحده حسب ما تقتضيه حكمته الأزلية .
 وقرأ نافع وابن عامر : (اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ . . .) برفع لفظ الجلالة ، على
 الاستئناف .

(وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) : هذا وعيد لمن كفر بالقرآن وخالف من أنزله ،
 وكفر بمن أنزل عليه ، أى وهلاك يوم القيامة ناشئ من عذاب شديد لمن كذبك ولم يستجب
 دعوتك بإخلاص التوحيد للفرد الصمد ، القوى المنتقم الجبار . . وقد وصف الله الكافرين
 بصفات ثلاث - الأولى فى قوله :

٣- (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) : أى ويل للكافرين الذين يختارون
 الحياة الدنيا وما فيها من شهوات مهلكات ، ويؤثرونها على الآخرة ، وما فيها من نعيم مقيم .
 - والصفة الثانية فى قوله سبحانه :

(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) : أى ويصرفون الناس عن الإيمان بالله واتباع ما جاء به
 رسوله محمد بن عبد الله ، وذلك لما ران على قلوبهم من الكفر والعصيان ، والبعد عما يقرب
 من الرحيم الرحمن .

- والصفة الثالثة فى قوله تعالى :

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) : أى يطلبون لها الميل والزيغ لتتفق مع أهوائهم وشهواتهم التى هى ،
 أبعد ما تكون عن صراط الله المستقيم ، وبعد أن وصفهم بهذه الصفات ، قضى بضلالتهم
 فقال :

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) : أى أولئك الموصوفون بإيثارهم الدنيا وزهرتها ، وصددهم عن
 الدين ، وابتغائهم له الزيغ والعوج ، أولئك فى ضلال بعيد عن الحق لا يرجى لهم والحالة
 هذه هداية ولا رشاد .

(١) يجر لفظ الجلالة بدلا من العزيز الحميد أو عطف بيان له ، وبه قرأ السبعة عدا نافع وابن عامر فقد قرأ برفع لفظ الجلالة ...
 كما سيأتى فى الشرح .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ
 اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
 وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(بِلِسَانٍ قَوْمِهِ) : أى بلغة قومه .

(بِآيَاتِنَا) : هى الآيات التسع التى أجراها الله على يد موسى عليه السلام وهى :
 الطوفان - والجراد - والقمل - والضفادع - والدم - والعصا - ويده - والسنون - ونقص
 من الأموال والأنفس والثمرات .

(مِنَ الظُّلُمَاتِ) : من الكفر والجهالات المشبهات للظلمات .

(إِلَى النُّورِ) : إلى الإيمان بالله وتوحيده فهو النور الهادى إلى سواء السبيل .

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمِ اللَّهِ) : أى بوقائعه التى وقعت على الأمم السابقة ، يقال فلان عالم
 بأيام العرب أى بحروبها وملاحمها .

(صَبَّارٍ شَكُورٍ) : كثير الصبر ، كثير الشكر .

التفسير

٤- (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . .) الآية .

أى وما أرسلنا قبلك من رسول إلا بلسان القوم الذين أرسله الله إليهم ، ليبين
 لهم شريعة ربهم فى سهولة ويسر ، وليقطع أعدارهم وتقوم به حجة الله عليهم ، ومحمد

صلوات الله وسلامه عليه وإن بعث إلى الناس جميعاً وألسنتهم مختلفة في إرساله بلسان قومه أولى من إرساله بلسان غيرهم ليحملوا معه عبء الدعوة ، ويبينوا الدين لمن كانوا على غير لسانهم ، وترجموه حتى يصير مفهوماً لهم كما فهموه ، وعلى هذا فكل من تُرجم له ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ترجمة دقيقة يفهمها لزمته الحجة . قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « أُرسل كل نبي إلى أمته بلسانها وأرسلني الله إلى كل أحمر وأسود من خلقه » .

وقال : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » . أخرجه مسلم .

وحيث كانت رسالة الإسلام عامة لأهل الأرض ، فيجب على المسلمين أن يكون فيهم من يعرفون اللغات المختلفة ، ليحسنوا تبليغ الدعوة المحمدية التي تركها النبي أمانة في أعناقهم جميعاً ، وعلى من أسلم من غير العرب أن يتعلم اللغة العربية ليحسن فهم الإسلام من منابعه والعمل بشرائعه .

(فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ) : أى فبعد إرسال الله كل رسول بلسان قومه ، لتقوم به حجة الله ، يضل من ران على قلبه الغواية والضلالة بما اجترح من آثام ، ويهدي من اتبع سبيل الرشاد ، وجانب أسلوب العناد ، فانشرح صدره للإسلام ، واستقام على المنهج السديد بتوفيق الله رب العالمين .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) : فلا يغالب في مشيئته . (الْحَكِيمُ) : العظيم الحكمة فيما أوجبه على الناس من شريعته .

٥ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...) الآية . هذا شروع في تفصيل ما أجمل في قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » . أى ولقد أرسلنا موسى بلسان قومه بنى إسرائيل ، وأيدناه بالآيات المعجزة الدالة على

صدقه وأمرناه بأن يدعو قومه إلى الإيمان بالله وحده ليخرجوا من ظلمات ما كانوا عليه من الجهل والضلال إلى نور الهدى والإيمان .

(وَذَكَّرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ) : أى وذكرهم بوقائع الله فى الأمم قبلهم ، قوم نوح وعاد وثمود أو بأيام الله التى أنعم فيه على بنى إسرائيل بمختلف النعم ، من إخراجهم من أسر فرعون وقهره ، وفلقه البحر لهم ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى ، ويجوز أن يراد منها المحن الشديدة والنعم الجميلة ، فكلتاها من أيام الله وآياته البينات .

(إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) : أى إن فى المذكور من أيام الله لدلائل على وحدانية الله وقدرته وفضله ورحمته ، لكل صبار فى المحنة والبلية شكور فى المنحة والعطية ، قال قتاده : « نعم العبد ، إذا ابتلى صبر وإذا أعطى شكر » .

وقال ابن كثير : جاء فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنْ أَمَرَ الْمُؤْمِنُ كُلُّهُ عَجَبٌ لَا يَقْضِي اللَّهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٧) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٨)

المفردات :

(يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) : أى يبتغون لكم سوء العذاب من قولهم : سمت كذا أى ابتغيته وطلبتة .

(وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) : أى ويبقونهن أحياء فلا يقتلونهن .

(بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ) : أى ابتلاء بمعنى اختبار .

(تَأْذَنَ) : أى آذن بمعنى أعلم كتوعده بمعنى أوعده ، غير أنه أبلغ منه .

التفسير

٦- (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) ... الآية .

يقول الله تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم وما أفاض عليهم من النعم ، إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، وما كانوا يكلفونهم به من التكاليف الشاقة مع القهر والإذلال والتعذيب السيئ ، وكيف كانوا يذبحون أبناءهم الذكور ويستبقون إناثهم مستضعفات ذليلات ، وهذا من أسوأ ألوان البليات والرزايا ، ولهذا قال سبحانه :

(وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) : أى وفيما ذكر ابتلاء واختبار عظيم من ربكم ، لما فيه من التعذيب والمحن التى كان يصنعها بهم فرعون وقومه ، ثم لما فيه من نعمة الإنجاء من كل ذلك العسف والتنكيل .

فالابتلاء كما يكون بالضرر يكون بالمنفعة كما قال تعالى : « وَنَبَلُوكُم بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » . فبالخير يبلو عباده أشكرون أم يكفرون ؟ وبالأشر يبلوهم أيصبرون أم يجزعون ؟ وهو فى كلتا الحالتين يُثِيبُ المحسن ويعاقب المسيء .

٧- (وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكُمْ) : أى واذكروا يابنى إسرائيل حين آذنكم ربكم وأعلمكم بوعده ووعيده إعلاماً مؤكداً حيث قال :

(لِّئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) : أى لئن شكرتم إنعمائى لأزيدنكم من فضلى ونعمتى والتوفيق لطاعتى .

والآية نص على أن الشكر سبب المزيد من النعمة ، فإن من شكر الله على رزقه وسع عليه فى الرزق ، ومن شكره على ما أقدره عليه من طاعته زاد ثوابه فى طاعته ، ومن شكره

على ما أنعم به عليه من صحة زاده الله صحة وهكذا ... وقد أثار عن جعفر الصادق أنه قال :
 « إِذَا سَمِعْتَ النِّعْمَةَ نِعْمَةً الشُّكْرِ فَتَاهَبِ لِلزَّيْدِ » . وسئل بعض الصالحاء عن الشكر فقال :
 « أَلَّا تَتَّقُوْا بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ » .

فَحَقِيقَةُ الشُّكْرِ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ اعْتِرَافُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بِالنِّعْمَةِ لِلْمُنْعِمِ ، وَأَلَّا يَصْرِفَهَا فِي غَيْرِ طَاعَتِهِ ، وَأَنْشُدِ الْهَادِيَ وَهُوَ يَأْكُلُ :

أَنَا لَكَ رِزْقُهُ لِيَتَّقُوْا فِيهِ بِطَاعَتِهِ وَتَشْكُرَ بَعْضُ حَقِّهِ

فَلَمْ تَشْكُرْ لِنِعْمَتِهِ وَلَكِنْ قَوَيْتَ عَلَى مَعَاصِيهِ بِرِزْقِهِ

فَقُصَّ بِاللَّقْمَةِ وَخُنِقَتْهُ الْعِبْرَةُ .

(وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) : أَيْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ بِإِنْكَارِ نَسَبِهَا إِلَيْهِ أَوْ التَّقْصِيرِ فِي شُكْرِهَا عَلَيْهَا بِالطَّاعَةِ قَوْلًا وَعَمَلًا ، فَتَرْقُبُوا أَلِيمَ الْعَذَابِ ، إِنْ عَذَابُهُ لَشَدِيدٌ ، وَذَلِكَ بِسَلْبِ النِّعَمِ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنْزَالِ النِّقَمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » .

(وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَنَا
 اللَّهُ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ①) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ
 نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ
 جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا
 إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ
 مُرِيبٌ ②)

المفردات :

(حَمِيدٌ) : مستوجب للحمد لذاته وإن لم يحمده أحد .

(بِالْبَيِّنَاتِ) : أى بالآيات الواضحات .

(فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ) : أى ردوها لكى يعضوها فى أفواههم غيظاً .

(مُرِيبٍ) : الريبة هنا بمعنى اضطراب النفس وعدم اطمئنانها .

التفسير

٨- (وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) :

أى وقال موسى لقومه : إن تَنكروا نعمة الله التى أضفاها عليكم ولا تشكروها ، إن تَفعلوا ذلك يابنى إسرائيل ومعكم من فى الأرض جميعاً ، فما ألحقتم الضرر إلا بأنفسكم إذ حرمتموها من مزيد النعم وعرضتموها لشديد العذاب ، فى الوقت الذى أنتم إلى الله أحوج ، وهو غنى عن شكركم وشكر غيركم ، فإنه لا تنفعه طاعتكم ، كما لا تضره معصيتكم ؛ وأنتم إن لم تحمدوه بآلسنتكم ، فإن جوارحكم تلهج بحمده وأنتم لا تشعرون ، فإنه تعالى يقول : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ . وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »^(١) .

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَى اتَّقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً ، يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً ، يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا دَخَلَ الْبَحْرَ » .

فسبحانه وتعالى هو الغنى الحميد .

٩- (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ . . .) الآية .

أى ألم يأتكم يا أهل مكة خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسول ممن لا يحصى عددهم ولا يعرف نسبهم إلا الله عز وجل .

(جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) :

أى جاء وهم بالحجج الواضحات والدلائل الباهرات ، وقد بين كل رسول لقومه طريق الهداية والأمن ودعاهم إليه ، ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .
(فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ) : أى جعل أولئك القوم أيديهم فى أفواههم ليعضوها غيظا مما جاء به الرسل ، مقرونا بتسفيه أحلامهم ، وشتم أصنامهم ، أو ردوها إلى أفواههم مشيرين بها إلى ألسنتهم وما يصدر عنها من المقالة ، لينبهوا الرسل إلى تلقيها منهم وليقنطوهم .
من التصديق والإيمان من جهتهم ، وذلك ما حكاها الله سبحانه وتعالى عنهم فى قولهم : «وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ . . .» الآية .

وقيل معناه : أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرؤنهم بالسكوت عنهم لما دعوهم إلى الله عز وجل ، قال أبو عبيدة والأخفش : هو ضرب مثل أى لم يؤمنوا ولم يجيبوا ، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قَدَرَدَّ يده فى فيه .

(وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) :

أى أننا لا نصدقكم فيما جئتم به ، وإننا لفي شك قوى موقع فى الريب وعدم الطمأنينة بسبب ما جئتم به من التعاليم والشرائع وما تدعوننا إليه من إيمان وتوحيد .

(*) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^ج
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى^ج
قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ
ءَابَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا
بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ
لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا^ج
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢))

المفردات :

(أَفِى اللَّهِ شَكٌّ) : الاستفهام للإنكار بمعنى النفي وفيه معنى التعجب .

(فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) : خالقهما على غير مثال سبق .

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : ببرهان بين له سلطان واضح على النفوس .

التفسير

١٠ - (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .) الآية .

حكى الله فى الآية السابقة قول الكافرين لرسولهم : « وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ » . وجاءت هذه الآية تحكى رد المرسلين واستنكارهم لما زعموه والتعجب منه .

والمعنى : قالت الرسل لأُممهم مستنكرين شكهم في ربهم : أفي وجود الله شك وارتياب حتى تقولوا لنا : «وإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ» . في حين أنه فاطر السموات والأرض ومبدعهما ، أليس لكل صنعة صانع فلا بد للسموات والأرض من منشئ صانع له القدرة الكاملة ، والإرادة النافذة والعلم المحيط .

وقد جاء هذا الاستنكار والاحتجاج في محاجة الأنبياء جميعاً ، فكل رسول من الرسل جعل نصب عينيه توجيه أُمته إلى التفكير والتدبر في السموات والأرض ، والتبصر في أسرارهما ، ليتعرفوا بذلك وجود الخالق سبحانه وتعالى ووحدانيته ، واتصافه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص .

ويجوز أن يكون المعنى : أفي ألوهية الله وتفرد بوجوب العبادة شك . . ؟ وهو الخالق لجميع الأرض والسموات المدبر لأُمورها ، فلا يستحق العبادة أحد سواه .

وربما كان هذا المعنى أولى ، فإن أغلب الأمم كانت تقر بوجود الخالق المدبر ولكنها ، كانت تعبد معه غيره من الوسائط التي زعموا أنها تقربهم إلى الله زلنى ، ثم قالت لهم رسلهم : (يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) : أى يدعوكم الله إلى الإيمان به وبوحدانيته وسائر صفاته وكمالاته ، على ألسنة رسله وشواهد آياته الكونية وكتبه المنزلة ، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وضياء التوحيد ، ليغفر لكم بعض الذنوب ، ويمحو عنكم بعض ما اقترفتموه من الآثام ، وهى التى تتعلق بحقوق الله وحده . وفى ذلك يقول تعالى : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » .

أما حقوق العباد فإن الله سبحانه وتعالى لا يعفو عنها إلا برضا أصحابها وعفوهم عنها ، ولهذا عبر في الآية بِمَنْ فى قوله : «يَغْفِرُ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ» . فإنها أفادت التبعية وهذا البعض الذى يغفر هو ما يتعلق بحق الله تعالى ، فإن حق الله تعالى مبنى على المسامحة بمقتضى هذا الوعد الكريم . أما حقوق العباد فإنها مبنية على المطالبة والمؤاخذه ، وكما يدعوكم الله إلى الإيمان ليغفر لكم من ذنوبكم ، يدعوكم أيضاً إلى الإيمان لفائدة أخرى ، وهى أن لا يستأصلكم بالعذاب كما استأصل الكافرين قبلكم ، بل يبقاكم تتمتعون فى دنياكم حتى الأجل الذى

سَمَاءُ وقدره لكل فرد من البشر، وهذا هو المعنى الذى عناه ابن عباس رضى الله عنهما بقوله :
يَتَمَتَّعُونَ بِاللذات والطيبات إلى الموت، ويؤيد هذا قوله تعالى : « أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا
إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ » ^(١) ويحكى الله سبحانه
وتعالى رد الأمم الكافرة على دعوة رسلهم إياهم إلى الإيمان فيقول :

(قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) : أى قالوا
عُتُوا وعنادا ومكابرة : ما أنتم إلا بشر مثلنا فى الصورة والهيئة ، فلا فضل لكم علينا يؤهلكم
لِلرسالة التى تدعوننا ، وتريدون بها أن تمنعونا عن آلهتنا التى كان يعبدونها آبائنا فإن كنتم
رسلا من عند الله كما ادعيتم :

(فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : أى فأتونا ببرهان ذى سلطان بَيِّن واضح ، يدل دلالة
قاطعة على استحقاقكم لمرتبة الرسالة وصحة ماتدعوننا إليه ، حتى نترك عبادة آلهتنا التى
وجدنا عليها آبائنا .

لقد جاءهم الرسل بالآيات والمعجزات التى تخر لها صم الجبال ، ولكن القوم زعموا أن
ما جاءهم به الرسل من معجزات ليس من جنس السلطان المبين الذى يقترحونه ، وهكذا كانوا
يجادلون فى الحق بعدما تبين لهم . ثم يحكى الله سبحانه وتعالى جواب الرسل لأقوامهم
فيقول :

١١ - (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ...) الآية .
أى قالت الرسل لأممهم : ما نحن إلا بشر مثلكم كما قلتم ، ولكن الله ينعم على من
يشاء من عباده ، فيصطفئهم لرسالاته ، ويختصهم بها بمحض فضله وامتنانه ، لا بحسب
ولانسب ولا باجتهاد منهم فى العبادة !

والبشرية غير مانعة لمشيئته جل وعلا أن يتفضل بهذا الاختصاص على من يشاء من عباده من أهل الفضل والكمال ، « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ^(١) » . ولم يرسل الله إلى البشر ملكاً ، لَأَنَّهُ لَا طَاقَةَ لِلنَّاسِ بِالْتَّلَاقِ عَنْ الْمَلَائِكَةِ كما قال تعالى : « وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ » .

ثم قالت الرسل جواباً لقول أمهم : « فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » :

(وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) : أى وماصح لنا وما استقام أن نأتيكم ببرهان كما طلبتم غير ما أجراه الله على أيدينا من المعجزات إلا بإذن الله وتيسيره ، فإن لم يأذن فلا سبيل إليه ، ولا قدرة لنا عليه ، مع ما خصنا الله به من النبوة وشرفنا به من الرسالة .

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) : أى قال كل رسول لأُمته بعدما تقدم : وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون وليفوضوا جميع أمورهم إليه ، وليصبروا على معاندة الكافرين ومعاداتهم ، ثم أيدوا وجوب توكلهم على الله بقولهم :

١٢ - (وَمَالَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا . . .) الآية .

وأى عذر لنا فى ترك التوكل على الله وحده والاعتماد عليه فى رفع أذاكم وسلوك سبيله ، وقد أرشدنا إلى سبيله المستقيم ، ومنهاجه الذى شرعه له وأوجب عليه سلوكه .

(وَلَنَضْمِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا) : بالعناد والتكذيب واقتراح الآيات ، وما إلى ذلك من السفه واللجاج ؛ حتى يأتينا نصر الله .

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) : أى وعلى الله فليعتمد المؤمنون المتوكلون دائماً فإنه هو الذى ينصرهم ، وببيده وحده هزيمة أعدائهم . « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ^(٢) » .

(١) الأنعام : من الآية ١٢٤

(٢) سورة الطلاق : من الآية ٣

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ
لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾
وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي
وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(لَتَعُوْدُنَّ) : لَتَنْصِبُرْنَ. (مَقَامِي) : أى الموقف المملوك لله ، الذى يقف به العباد بين
يَدَيْهِ للحساب ، أو قيامه على عبده ومراقبته إياه. (وَعِيدِ) : وعدى بعذاب الكفار
والعصاة يوم القيامة .

التفسير

١٣ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا ...) الآية.
استمر الكفار فى جدالهم للرسل بالباطل ، وضاعت صدورهم بالحق بعد ماتبين ، وكبر
عليهم أن يرجعوا إليه ، فسلكوا مسلك العنف والقوة وقالوا تهديدا للرسل ووعيدا لهم :

(لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا) :

لم يكتفوا بعصيانهم للرسل ومعاندتهم للحق بعد ما رأوا الآيات البينات حتى اجتروا
على مقاتلتهم الشنعاء التى يعجز عنها الوصف ، وأقسموا : ليكوننَّ أحد الأمرين لامحالة :
إما أن نخرجكم من أرضنا ، وإما أن تعودوا إلى ديننا وتتحولوا إلى ملتنا .

(فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) :

أى فأوحى إلى الرسل ربهم ومالك أمرهم تشبيها للمؤمنين ووعيدا للكافرين قائلا :

(لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) : أى لنقتلن الذين ظلموا أنفسهم بشركهم ، وظلموا الرسل والمؤمنين

بتكذيبهم وإيذائهم - لنهلكنهم - ان استمروا على كفرهم وعنادهم ، ثم أكمل الله

وعيده للكافرين ووعده للمؤمنين بصيغة التوكيد فقال سبحانه :

١٤ - (وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ^(١)) الآية.

أى ولنسكننكم أيها المؤمنون أرض هؤلاء الكافرين بعد إهلاكهم ، عقوبة لهم في الدنيا على قولهم لرسولهم : «لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا». وتلك سنة الله في رسله وعباده المؤمنين ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ». وإلى قوله جل سلطانه : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ، سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا^(٢) » .

(ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) : أفادت هذه الجملة أنه تعالى جرت سنته

مع رسله ومن آمن بهم أن ينصرهم على من كفر بهم ، ويسكنهم الأرض من بعد إهلاكهم .

والمعنى : ذلك الذى مرَّ بيانه من إهلاك الظالمين ، وإسكان المؤمنين أرضهم وديارهم

أمر ثابت لكل من خاف موقفى الذى يقف به العباد بين يديّ للحساب يوم القيامة ، أو خاف

قيامى عليه بحفظ أعماله ومراقبتى إياه ، فإننى قائم على كل نفس بما كسبت ، وذلك

أيضا لمن خاف ووعيدى بالعذاب للكفرة والعصاة .

(١) الأعراف : من الآية ١٣٧

(٢) الإسراء : الآيتين ٧٦ - ٧٧

(وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ
وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ ۖ وَيَأْتِيهِ
الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۚ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ
غَلِيظٌ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(وَاسْتَفْتَحُوا) : وطلبوا الفتح ، والمراد به هنا النصر . (وَخَابَ) : وخسر وهلك .
(كُلُّ جَبَّارٍ) : الجبار في اللغة ؛ من يقهر الناس على ما يريد ، والمراد به هنا المتكبر
عن عبادة الله تعالى وطاعته المتعالى على رسله . (عَنِيدٍ) : شديد العناد والمكابرة .
(مِّنْ وَرَائِهِ) : من خلفه - أو من أمامه . وأصل معنى وراء : ماتوا رى عنك
قدأمك أو خلفك .
(مَاءٍ صَدِيدٍ) : هو ما يسيل من أجساد أهل النار . وأصل الصديد : الماء الرقيق الذي
يخرج من الجرح .

(يَتَجَرَّعُهُ) : أى يتكلف بلعه مرة بعد أخرى من الجرّع وهو البلع .
(وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ) : ولا يقارب أن يبتلعه بسهولة .

التفسير

يخبر الله تبارك وتعالى عما انتهى إليه أمر الرسل مع مكذبيهم ، بعد أن صبروا عليهم
وصابروهم حتى يثسوا كل اليأس من إيمانهم فيقول جل من قائل :

١٥- (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) :

أى لجأ الرسل إلى ربهم وسألوه الفتح والنصر على عدوهم ، فاستجاب الله لرسله ونصرهم فظفروا وأفلحوا ، وخسر أعداؤهم وهلكوا ، جزاء تكبرهم وعنادهم .

والتعبير بقوله تعالى : «كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» بدلا من التعبير بقوله : وخابوا لِذَمِّهِمْ وتسجيل التجبر والعناد عليهم ، ووضح على هذا المعنى أن الضمير في قوله تعالى : «وَاسْتَفْتَحُوا» للرسل وحدهم كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة .

وقيل إن الضمير للمكذبين وحدهم ، وكأنهم لما قوى تكذيبهم وأذاهم للرسل ولم يُعَاجِلُوا بالعقوبة ، ظنوا أنهم على الحق ، وأن ما جاءت به الرسل باطل ، فاستفتحوا على الرسل واستنصروا عليهم ، أو استفتحوا على أنفسهم ، على سبيل التهكم والاستهزاء ، كقول قوم نوح : « يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ^(١) » وقول قوم شعيب : «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ^(٢) » وقول المشركين من قريش : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ^(٣) » .

وقيل : إن الضمير للرسل عليهم السلام ومكذبيهم ، أى أنهم جميعا سألوا الله تعالى أن ينصر المحق ويهلك المبطل ، وقد نصر الله رسله والمؤمنين «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ^(٤) » .

١٦- (مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيَسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ) :

بينت الآية السابقة مآل مكنبو الرسل ومعاندهم من الهزيمة والهلاك في هذه الدار ، وتبين هذه الآية وما بعدها مايلقاه كل منهم من أنواع العذاب وألوانه في دار القرار . والمعنى : مَنْ خَلَفَ كُلَّ جَبَّارٍ معاند للرسول جهنم تستقبله عقب انتهاء حياته في الدنيا .

(٢) الشعراء : ١٨٧
(٤) الأنعام : الآية ٤٥

(١) هود : ٣٢
(٣) الأنفال : ٣٢

وقال ابن كثير: «وراء» هنا بمعنى أمام ، كقوله تعالى : «وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مُلْكُ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا»^(١). وكان ابن عباس يفسرها بذلك ؛ وسواء فُسر وراء بهذا أو بذاك فالمقصود أنهم يلقون عقابهم في جهنم يوم القيامة فهي ، أمامهم يستقبلونها وهي خلفهم بعد انقضاء حياتهم . والمعنى : من ورائه جهنم يلقاها ويسقى فيها من ماء يشبه الصديد الذي مر بيانه في المفردات ، ويجوز أن يكون من الصَّدِّ بمعنى الإعراض ، أن يسقى من ماء كربه يعرض عنه ، ويصف الله سبحانه وتعالى هذا الماء الذي لا يستساغ فيقول جل شأنه :

١٧ - (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ . . .) الآية .

أى يتكلف الجبار العنيد جرعه وبلعه مرة بعد أخرى فلا يقرب من استساغته ، ولا يسهل عليه بلعه لحرارته ومرارته . وقيل إن المعنى : لا يقارب أن يدخله في جوفه قبل أن يشربه فيُسقاه على الرغم منه قهراً وقسراً ، أخرج أحمد والترمذى والنسائى والحاكم - وصححه - وغيرهم عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال في الآية : (يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكْرَهُه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دُبُرِهِ) يقول الله تعالى : «وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ»^(٢). وتستمر الآية في وصف عذاب الجبار العنيد وذلك في قوله تعالى :

(وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) : أى ويأتيه أسباب الموت من الشدائد وأنواع العذاب من كل موضع ، والمراد أنه يحيط به من جميع الجهات ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وقيل من كل مكان في جسده حتى أطراف شعره وإبهام رجله «وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ» فيستريح بالموت . بل إنه لا يخفف عنه العذاب في وقتٍ ما ، كى ينفس عن نفسه بعض الكرب كما قال تعالى : «لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ»^(٣) . وكما قال عز وجل : «كُلَّمَا نَضْجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ»^(٤) . فهم مخلدون في جهنم يستقبلون في كل وقت عذاباً أشد وأشق مما كان

(١) - الكهف من الآية ٧٩

(٢) سورة محمد من الآية : ١٥ ، وقال تعالى في سورة الكهف : «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه» من الآية : ٣١

(٣) سورة فاطر من الآية : ٣٦

(٤) سورة النساء من الآية : ٣٦

قبله . ولهذا ختمت الآية بقوله سبحانه وتعالى :

(وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ) : والضَّمِيرُ في (ورائه) يعود إلى كل جبار أو إلى العذاب المفهوم من الكلام السابق. والمعنى : وأمام كل جبار أو : وأمام كل عذاب ذاقه الجبار - عذابٌ آخر شديد الغلظة ، وأهوال العذاب وأنواعه وأشكاله لا يحصيها إلا الله تعالى : «جَزَاءٌ وَفَاقًا»^(١) «وَمَا رُبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»^(٢) . واعلم أن عذاب الكفر يتفاوت في الشدة وأن النار دركات كما أن الجنة درجات ، وأنه لا يستوى كافر عنيد متمرد يسعى في الأرض فساداً ، وكافر مغلوب على أمره ، وفي تفاوت عذاب الكفار يقول الله تعالى : « إِنَّ الْمُتَفَقِّهِينَ فِي الدِّرَةِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا »^(٣) . ويقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما إن « أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لَرَجُلٌ وُضِعَ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ »^(٤) .

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ
الرَّيْحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ
هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨))

المفردات :

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا) . المثل في أصل اللغة : بمعنى الشبيه والنظير ، كالمثل والمثيل . ويطلق على الحال والصفة التي لها شأن وفيها غرابة ، كما في هذه الآية وأمثالها مما تقدم مرارا

(١) سورة النبا : الآية : ٢٦

(٢) سورة فصلت من الآية : ٤٦

(٣) سورة النساء من الآية : ١٤٥

(٤) (الأخص من باطن القدم ما تجافى عن الأرض وهو بوزن (أحمد) والدماغ بوزن كتاب هو مخ الرأس .

ويأتى كثيرا . (فى يَوْمٍ عَاصِفٍ) : العصف : اشتداد الريح ، وُصف به زمان هبوبها تقوية لشدتها وتوكيدها ، كما وصف النهار بالصيام والليل بالقيام فى قولهم : نهاره صائم وليله قائم ؛ لكثير الصيام والقيام .

التفسير

١٨ - (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ...) الآية .

بعد أن بين الله تبارك وتعالى فى الآيات السابقة ، ما يلقاه الكفار من العذاب الشديد يوم القيامة - بيّن فى هذه الآية أن أعمال الخير التى عملوها فى الدنيا ، تصير كلها فى الآخرة ضائعة باطلة ، لا ينتفعون بشيء منها ، وكذلك ما قدموه من القرابين لآلهتهم زاعمين أنها تقربهم إلى الله تعالى .

والغنى : أن أعمال الكافرين التى يتقربون بها إلى آلهتهم ، أو يفعلونها رغبة فى البر - صفتها فى حبوطها وذهابها دون أن ينتفع بها أصحابها يوم القيامة ، وهم فى أشد الحاجة إلى ثوابها - صفتها - كصفة رماد بعثرته الريح الشديدة وفرقته فلم تدغ له أثرا ، لأنها مبنية على أساس باطل وهو الكفر ، وما بنى على باطل فهو مردود ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » ^(١) .

ثم أكد سبحانه حبوط هذه الأعمال وذهابها ، وعجز الكفرة عن الانتفاع بها فقال : (لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ) : أى لا يقدر أولئك الكافرون على نيل ثواب لما عملوه ينفعهم يومئذ ، فقد أضاعه كفرهم ، كما أضاعت الريح الشديدة التراب وبعثرته ولم تبق منه شيئا .

(ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) :

أى ذلك الكفر الذى جعل أعمالهم الصالحة ضائعة لا ينتفعون بها ، هو الضلال البعيد عن الطريق الموصل إلى الخير ، وإلى الغاية الحميدة .

ومما ورد في السنة دليلاً على أن عمل الكافر لا ينفعه يوم القيامة ولو كان صالحاً، مارواه مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : يارسول الله : ابنُ جُدْعَانَ كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » .

وكان عبد الله بن جدعان من وجوه بني تميم ورؤساء قريش ، وكان قريباً لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وله تاريخ حافل بالجدود والمكارم ، فأهمها شأنه ، فسألت عنه من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، فأجابها بأن شيئاً من هذه الصالحات التي عملها لا تنفعه يوم القيامة ، لأنه لم يصدق بالبعث فمات كافراً ، والإيمان هو الشرط الأساسي في قبول الصالحات وحسن جزائها في الآخرة بقوله تعالى في شأن الكافرين : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً » . أما المؤمنون الصالحون ، فإنهم يُثابون أحسن الثواب ولا يظلمون ، قال تعالى : « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا » ^(١) وقال سبحانه : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ » . ^(٢)

ولمَّا حُرِمَ الكفار يوم القيامة ثواب ما عملوه في الدنيا من الصالحات والمكارم ، لأنهم بنوها على غير أساس سليم من معرفة الحق تبارك وتعالى ، والإيمان به والإخلاص لوجهه ، فجعلها الله هباءً منثوراً ، وحسبهم من عدل الله الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة ، أن يكافئهم على هذه الصالحات في الدنيا ، من سعة في الرزق ، ورغد في العيش ، وما إليهما من الطيبات المعجلة لهم في هذه الحياة . وقد بين ذلك مارواه مسلم في صحيحه عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة : يُعطى بها في الدنيا ، ويُجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها

(١) سورة طه : الآية ١١٢

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٩٤

لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها . وفي هذا الحديث الصحيح الصريح فصل الخطاب .

ويرى بعض العلماء أنه يجوز أن يخفف الله تعالى عذاب بعض الكفار في الآخرة بما له من حسنات دنيوية ، أخذنا من قوله عز سلطانه : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »^(١) . فهذه الآية يفيد ظاهرها أن عذاب الكفار فيه شديد وفيه أشد ، وذلك يقتضى أن بعضهم أخف عذابا من بعض ، ويرجع هذا إلى استفادتهم من أعمال الخير التي عملوها . ويؤيد ذلك قوله تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ »^(٢) . وقوله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »^(٣) . كما استدلوا بما رواه البخارى ومسلم عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أغْنَيْتَ عَنْ عَمَلِكَ^(٤) ، فإنه كان يَحْطُوكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قال : (هو في ضَحَضَاحٍ مِنْ نَارٍ ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)^(٥) . وكما أن الجنة درجات ، فالنار دَرَكَاتٌ .

وبالجملة فقد وقع الإجماع على خلود الكفار في النار ، على اختلاف دركاتهم ، كما قال عز وجل : « وَمَأْتِهِمْ بِخَازِجِينَ مِنَ النَّارِ »^(٦) .

(١) سورة غافر : الآية ٤٦ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

(٣) سورة الزلزلة : الآيتين ٧ ، ٨ وفي تفسيرهما - وفي الآلوسى - مزيد بيان لمن شاء .

(٤) يريد به أبا طالب .

(٥) يحوطك : يصونك من المشركين بالدفاع عنك : والضحضاح : مارق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين استمر هنا للنار القليلة جدا بالنسبة إلى غيره من أصحاب النار ، والدرك يسكون الراء وفتحها قراءتان سبعيتان : والدرك في الكفة أقصى قاع الشيء ، والمراد به هنا مقر جهنم والياد بالله تعالى .

(٦) سورة البقرة : من الآية ١٦٧ .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(أَلَمْ تَرَ) : أى ألم تعلم . والاستفهام للتقرير ، أى لقد علمت أيها المخاطب فاشهد بما تعلم . (بِالْحَقِّ) : أى بالأمر الثابت وهو الحكمة المنزهة عن العبث .

(يُذْهِبْكُمْ) : يُفْنِيكُمْ حتى لا يبقى لكم أثر . (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) : أى وليس ذلك بممتنع ، فلا يصعب تحقيقه على الله تعالى .

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا) : أى ظهروا لله جميعا . والمراد أنهم خرجوا من قبورهم لحساب الله تعالى وحكمه .

(مُغْنُونَ عَنَّا) : أى دافعون عنا ، يقال أغنى عنه : إذا دفع عنه الضرر وأغناه : إذا وصل له النفع .

(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا) : أى مستو علينا الجزع والصبر ، والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده .

(مَحِيصٍ) : مَعْدِلٌ ومهرب ، يقال : حاص عنه يحيص : إذا عدل عنه وحاد ، إلى جهة الفرار .

التفسير

١٩- (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ . . .) الآية .

بعد أن قص الله تبارك وتعالى مآلتي رسله في سبيل الدعوة إليه من العناد والإيذاء ، والتكذيب والاستهزاء - توعّد المكذّبين لهم بأنّه قادر على أن يهلكهم ويستبدل بهم خيراً منهم فقال : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » .

الظاهر أن الخطاب في الآية الكريمة لكل أحد من الكفرة ، لقوله : « يُذْهِبُكُمْ » . وهذا أنسب بالوعيد والتهديد . والاستفهام هنا للتقرير ، ولذا يستعمل في الأمر الواضح الذي يكفي فيه مجرد تنبيه المخاطب ، ليعترف ويشهد به .

والمعنى : ألم تعلم أن الله جلّت قدرته خلق السموات والأرض بالحكمة المنزهة عن العبث ، وبالوجه الصحيح الذي يحق أن يُخلق عليه ، ليُسبَدَل بخلقهما - بهذا النظام الدقيق والنمط البديع - ، على قدرته ووحدانيته ومآثر كمالاته .

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) :

أى إن يرد الله سبحانه وتعالى إهلاككم أيها المكذّبون ، يُفْنِكُمْ حتى لا يبقى منكم أحد ، ويأت بخلق جديد يكون أطوع لله منكم ، وأسبق إلى الحق ، وأسرع إلى الهدى أرشد سبحانه بخلق السموات والأرض - وهما أكبر من خلق الناس - إلى طريق الامتدلال . على وحدانيته وقدرته على إهلاكهم وخلق سواهم ، فإن من قدر على خلق هاتيك الأجرام العظيمة التي لا يحيط بعظمتها إلاّ مبدعها ، فهو على تبديلهم بخلق آخر أقدر ، ولهذا قال :

٢٠- (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) :

أى وما إذهابكم والإتيان بخلق جديد مكانكم ، بممتنع على الله تعالى ولا ممتعسر ، فإنه قادر بذاته على جميع الممكنات ، لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، ومن هذا شأنه فهو حقيق بأن يُعبد وحده ، ويُرجى ثوابه ، ويُخاف عقابه . والضمير في قوله تعالى :

٢١- (وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا) :

إما لمكذبي الرسل ، لأن الكلام لَهم كما تقدم بيانه ، وبهذا قال كثير من المفسرين وفي مقدمتهم الإمام الطبري ، وإما للمصدقين والمكذبين جميعا ، فإن الحشر يوم القيامة للعباد جميعا ، مؤمنهم وكافرهم ، وبهذا قال أكثر المفسرين ، ومنهم ابن كثير إذ قال في الآية : (وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا) : أى برزت الخلائق كلها ؛ برّها وفاجرها لله الواحد القهار ، أى اجتمعوا له فى برّاز من الأرض ، وهو المكان الذى ليس فيه شئ يستتر أحداً ومعنى بروزهم لله : ظهورهم من قبورهم لحساب الله تعالى وجزائه .

ولما كان هذا البروز أمراً متحققاً كائناً لامحالة ، عبر عنه بصيغة الماضى ، كأنه وقع فعلاً ودخل فى دائرة الوجود ، وإن كان لا يزال مستقبلاً واقعاً بعد الموت ؛ أو لأنه لامضى ولا استقبال بالنسبة إليه سبحانه ؛ ومن هذا قوله تعالى : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ^(١) » . وقوله : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ^(٢) » .

(فَقَالَ الضُّعَفَاءُ) : جمع ضعيف .. والمراد بهم ضعاف الرأى ، وهم الاتباع ، قالوا !

(لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) : أى لرؤسائهم الذين استنبعوهم واستغفروهم :

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا) : فى تكذيب الرسل عليهم السلام ، والإعراض عن نصائحهم ، وكلما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ، والاستفهام فى قولهم :

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) : للتوبيخ والتقريع ، أى فهل أنتم

اليوم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله ، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فى الدنيا ؟ !

(١) سورة الأعراف : من الآية ٢٤

(٢) أول سورة النحل .

(قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ) :

أى قال المستكبرون جواباً عن تقرير الضعفاء وتوبيخهم واعتذاراً عما فعلوا بهم : لو هداانا الله إلى الإيمان ووقفنا له لهديناكم ، ولكن لم يوقفنا ، فضللنا وأضللناكم ، أى اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، أو لو هداانا الله إلى طريق النجاة من العذاب لهديناكم ودفعنا عنكم ، ولكن سددوننا طريق الخلاص ، وحققت كلمة العذاب على الكافرين . .

والمقصود من قول المستكبرين للمستضعفين : (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا) : مُبالغتهم في النهي عن التوبيخ ، بإعلامهم أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسليته لهم ؛ أى سيان علينا الجزعُ مما نحن فيه من العذاب والصبرُ عليه .

والهمزة في قوله « أجزعنا » للتسوية بين جزعهم وصبرهم ، كما في قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » .^(١)

(مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ) : أى ليس لنا على الحاليين مهربٌ ولا خلاص من عذاب الله . وهذه الجملة لتقرير ما قالوه وتأكيد ، أى أنهم لا مناص لهم البتة مما هم فيه .

ويخوز أن يكون هذا من قول المستكبرين والمستضعفين جميعاً ، يسلى بعضهم بعضاً ، ويتأسى بعضهم ببعض . ولكن الأمر كما قال تعالى : « وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ »^(٢) . والظاهر أن هذه المراجعة تكون في النار بعد دخولهم فيها ، كما قال تعالى : « وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ »^(٣) .

(١) سورة البقرة : الآية ٦

(٢) سورة الزخرف : الآية ٣٩

(٣) سورة غافر : الآيتين ٤٧ ، ٤٨ .

قال الآلوسى : واستظهر أبو حيان أنها فى موضع العرض وقت البروز بين يدي الله تعالى . ١ هـ . وأيا ما كان الأمر فالمواقف فى يوم القيامة متعددة ، ومن الجائز أن تتعدد المراجعة والخصومة تبعاً لتعددتها .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ
وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا
أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ
مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا
أُشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلْ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾)

التفسير

٢٢ - (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ..)
الآية : لما ذكر الله تعالى المحاورة التى تكون بين الرؤساء والأتباع من كفره الإنس والجن ،
أردفها بالمحاورة التى تكون بين الشيطان وأتباعه ، وهى التى تضمنتها هذه الآية الكريمة
وما بعدها .

والمعنى : وقال الشيطان لأتباعه بعد أن قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنة
وأسكن الكافرين النار - قال الشيطان لأتباعه - ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم
(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ) : على السنة رسله أن يبعثكم ويحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم
إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ووعد الله حق ، وخبره صدق ، وقد أنجز الله ما وعد .

(وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ) :

أى ووعدتكم ألا بعث ولا جزاء، ولو صح أنكم تبعثون فلاصنامكم شفاعة عند ربكم وقد أخلفتكم فيما وعدتكم، فحق عليكم وعيد ربكم، وقد كان عليكم ألا تنخدعوا بما زخرفته لكم من القول، وأن تعصوني فيما أمرتكم به .

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي) : أى وما كان لى عليكم من جبروت وسلطان يقهركم على اتباعى، فلا قوة لى ولا حجة معى، حتى تستجيبوا لى مادعوتكم إليه، لكنكم أسرعتم لى إجابتى تلبية لشهواتكم وإشباع نزواتكم .

(فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) : أى فلا تلومنى اليوم على ما انتهى أمركم إليه من عذاب النار، ولوموا أنفسكم، فإن لكم النصيب الأوفى من اختيار السبيل الموصل إليه .

ثم بين لهم الشيطان حقيقة أمره وأمرهم وهوانهم على الله تبارك وتعالى وذلك ما حكاه الله تعالى عنه بقوله :

(مَا أَنَا بِمُضِرِّخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُضِرِّخِي) : أى لست اليوم بمغيثكم مما أنتم فيه من عذاب الضلال ووباله، ولستم بمغيثي مما أنا فيه من عذاب الإضلال ونكاله . ثم زادهم غما على غمهم بإعلان تبرئه من إشراكهم إياه، فقال فى استنكار وإصرار :

(إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ) : أى إني برئت من إشراككم إياى، مع الله فى الدنيا، حيث أطعتمونى فى الشركما يطاع الله فى الخير كأتى معبود معه، ونظير هذا قوله تعالى : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ » ^(١) . ويجوز أن يكون هذا النص حكاية لما كان من إبليس فى الدنيا فى حق الله تعالى، يقول على سبيل الندم وأن مثله لا يستطيع أن يغيثهم مع ذنبه .

والمعنى حينئذ : إني حين أبیت السجود لأبيكم آدم كفرت بالله الذى جعلتمونى له شريكاً، فكيف أستطيع أن أطلب من الله أن يغيثكم مما أنتم فيه وذنبى عظيم بالنسبة إليه سبحانه، ثم ختم الشيطان كلامه بقوله فيما حكاه الله عنه : (إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

وبهذا سجل الشيطان اعترافه على نفسه وعلى أتباعه بأنهم ظالمون فيما أحدثوه من الضلال والإضلال وأنهم مستحقون بسبب ذلك العذاب الأليم .

ويجوز أن يكون هذا القول حكاية لرد الله سبحانه وتعالى على الشيطان وأتباعه جميعاً إقناطاً لهم من رحمة الله - تابعين كانوا أو متبوعين - أى إن الظالمين لهم منّا عذاب أليم فلا ينفعهم في ذلك اليوم الندم ، ولا إلقاء بعضهم التبعة على بعض .

وقد دلت الآية على فساد التقليد في الاعتقاد ، لأن أتباع الشيطان لما صدقوه بمجرد دعواه لم يعلمهم الله سبحانه بل عاقبهم كما عاقبه ، فعلى كل قادر على النظر والاستدلال أن ينهج في عقيدته منهج الاحتجاج بالآيات والاستدلال بالبراهين القطعية .

ولما ذكر سبحانه وتعالى جزاء الأشقياء بما صاروا إليه من الخزي والعذاب الأليم ، أتبع ذلك جزاء السعداء بما أعد لهم من النعيم المقيم فقال جل ثناؤه :

٢٣- (وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)
 الآية . أى أدخل الملائكة الذين آمنوا وعملوا الصالحات - أدخلوهم - جنات أعدت لهم ، تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار . (خَالِدِينَ فِيهَا) : أى ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يُخرجهم منها أحد ، فنعيمهم دائم وسعادتهم لا نهاية لها ، وكل ذلك (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) : وأمره وفضله لابعملهم فحسب ، ومصدق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة » . الحديث أخرجه الصحاح واللفظ للبخارى .
 (تَجِثُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) : أى يحيى بعضهم بعضاً بالسلام ، والسلام هو تحية الله وملائكته اختارها الله لعباده المؤمنين في الدنيا وفي الجنة دار السلام .

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْآمِثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(أَلَمْ تَرَ) : الخطاب هنا لكل ذى عقل يحسن فهم الخطاب ، والاستفهام هنا للتقرير بالعلم ، والمعنى : ألم تعلم .

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا) : المثل الصفة العجيبة ، وضرب المثل تبينه ووضعه في المكان اللائق به .

(كَلِمَةً طَيِّبَةً) : المراد بها هنا كلمة التوحيد .

(تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ) : تعطى ثمرها في كل وقت .

التفسير

٢٤- (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ...) الآية .

لما بين الله تعالى أحوال السعداء وأحوال الأشقياء فيما تقدم ، ضرب لكل من الفريقين مثلاً يتميز به عن صاحبه ، فقال عز من قائل يخاطب كل من يصلح للخطاب من أصحاب العقول الراجعة :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) :

أى ألم تعلم أيها العاقل الفطن كيف بين الله للناس مثلاً يعرفون به منزلة كلمة التوحيد في الإسلام ، حيث شبهها بشجرة طيبة أصلها ضارب بعروقه في الأرض ، وفرعها - أى أعلاها - متجه إلى السماء ، تعطى ثمرها في كل وقت وقته الله لإثمارها بإذن خالقها ومربيها .

فالمراد بالكلمة الطيبة هي شهادة ألا إله إلا الله التي هي الأساس الأول للإسلام وهذا ما أخرجه البيهقي وغيره عن ابن عباس .

وعن الأصم أنها القرآن الكريم ، فإنه أصل يتفرع عليه كل خير في الدنيا والآخرة ، وقد شبهها الله تبارك وتعالى بالشجرة الطيبة ، والمراد بها عند جمهور المفسرين النخلة ، وبه أخذ ابن عباس وابن مسعود ، ويؤيده ما رواه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتني بجُمَارٍ فأكل منه وقال : إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنما مثلُ المسلم ، فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي ،

قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة فأردت أن أقول هي النخلة ، فإذا أنا أصغر القوم - وكنت عاشر عشرة أنا أحدثهم ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم واستحييت : ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله ؟ قال : هي النخلة ، قال عبد الله : فحدثت أبي بما وقع في نفسي فقال : لأن تكون قُلَّتْها أحبُّ إلَيَّ من كذا كذا . وعند ابن حبان في صحيحه : أحسبه قال : من حُمِرَ النِّعم . والإبل الحمراء كانت أحب أموال العرب إليهم وأنفسها .

وقيل : هي كل شجرة مثمرة طيبة الثمار والمنظر والرائحة . وقيل غير ذلك . وأرجح هذه الأقوال أولها وهو كونها النخلة ، ووجه تشبيه الكلمة الطيبة بالنخلة أن أصل تلك الكلمة وهو الإيمان ثابت في قلب المؤمن كنبوت جذور النخلة في الأرض ، وأن ما يتفرع منها وينبئ عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يرفع إلى السماء ، ويصعد إلى الله تعالى ، كما قال جل شأنه : «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» ^(١) . وأن ما يترتب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه دائم دوام ثمرها ، والانتفاع بها في كل وقت ، فإن ثمر النخيل يؤكل أبدا : ليلا ونهارا صيفا وشتاء ، فيؤكل منها الجمار والبلح ، والبسر والرطب والتمر ، وكل نتاجها خير وبركة من بعد أن تغرس إلى أن تجف وتيبس ، بل بعد أن تقطع قطعاً تُستعمل في مصالح الناس ومرافقهم ، ولن ترى شيئا منها مهملأ أبدا ، وكم من الناس يقيمون في بيوت تعتمد على جذوع النخل وجريده ، ويعيشون على التمر كما

نعيش إبلهم على النوى ، وفي الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها : « إن كنا آل محمد لنمكث شهرين ماثوقد ناراً ، إن هما إلا الأسودان : التمر والماء » .

وكذلك المؤمن القوى والمسلم الحق ، كله خير وبركة أينما حل وارتحل : لنفسه وعشيرته وأمته ، في حياته وبعد مماته ، ومن هنا فسرت الكلمة الطيبة بالمؤمن كما قال بعض السلف ، فما أروع هذا التشبيه المقتبس من مشكاة النور الإلهي .

وفي ختام الآية الكريمة يقول الله تعالى : (وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) : تنبيهها على شأن الأمثال وعظيم فائدتها ، في تجلية الحقائق وتنويرها ، عوناً على التبصير والتذكير ، ودوام النظر والتدبر في كتاب الله الحكيم .

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۖ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) (٢٦)

المفردات :

(اجْتُثَّتْ) : قطعت واستوصلت . (مِنْ قَرَارٍ) : من ثبات في الأرض .
(بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ) : بكلمة التوحيد .

التفسير

٢٦- (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ...) الآية .

الكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر وما يدعو إليها ويتصل بها ، ضد الكلمة الطيبة ، ولا يجتمعان في قلب واحد أبداً ، والشجرة الخبيثة هي الحنظلة ، فقد روى أبو يعلى في مسنده

عن أنس رضى الله عنه قال : (أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بَقِنَاعٍ [طبق] عليه رطب فقال : « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربِّها » قال : هى النخلة « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ » : قال هى الحنظلة) .

وقيل : هى كل شجرة لا يطيب لها ثمر ؛ ضد الشجرة الطيبة وهى التى يطيب ثمرها .
قال الآلوسى تبعا لأبى السعود : ولعل تغيير الأسلوب - يعنى فى قوله : « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ » بدلا من قوله : « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا . . . » - للإيذان بأن ذلك غير مقصود بالضرب والبيان : وإنما ذلك أمر ظاهر يعرفه كل أحد . اهـ .

(اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ) :

أى اقتلعت من أصلها واستوصلت جنتها ، إذ حقيقة الاجتثاث أخذ الجنة كلها ، وهى شخص الشئ كما قال الراغب .

وهذا فى مقابلة قوله : « أصلها ثابت » وقال : « من فوق الأرض » لأن عروقها قريبة من فوق فكأنها فوق .

(مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ) :

أى ليس لهذه الشجرة الخبيثة من ثبات فى الأرض ولا استقرار ، إذ ليس لها أصل ثابت ولا فرع صاعد ، وكذلك الكافر لا خير فيه : لا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح ، إذ ليس لهما عنده أساس يبنيان عليه ، فهذا وجه تشبيه الكافر بالشجرة الخبيثة .

٢٧- (يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ...) الآية .

أى أنه تعالى يثبت الذين صدقوا برسالة الأنبياء والمرسلين - يثبتهم على دينهم ويقينهم بسبب اعترافهم الثابت بتوحيد الله وطمانينتهم به ، فلم تهزه الشكوك ولم يزلزله الإيذاء أو التشكيك ، فيظللون على ما هم عليه من اليقين الثابت فى الحياة الدنيا ، لانزعاجهم عنه الشدائد والفتن ، وإن كانت كموج البحر أو كقطع الليل المظلم !!

وإليك أيها القارىء مثلين اثنين مما صنعه الكفرة الفجرة ، فى مؤمنى الأمم السابقة .
وفى المستضعفين من المؤمنين فى هذه الأمة المحمدية ، فشبتهم الله ولم يضعف لهم إيمان .

(١) أخرج البخارى بسنده فى أعلام النبوة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْيِهِ وَعَظْمِهِ ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ » .

(ب) بلغ من تعنت قريش ووقوفهم فى سبيل الدعوة المحمدية أن أذاهم لم يكن مقصوراً على خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم ، بل تعداه إلى المستضعفين والأرقاء الذين لم يكن لهم من يهتمون به أو يعتزون بعصبيته ، فقد عذب أهل مكة الكثير منهم ليفتنوهم عن دينهم ، ويردوهم من بعد إيمانهم كفاراً فلم يفلحوا .
ومن هؤلاء بلال بن رباح الحبشى ، وعمار بن ياسر وأبوه وأمه ، أوقع بهم المشركون من العذاب مالا طاقة لأحد به ! وقصص تعذيب هؤلاء وغيرهم مشهورة فى السيرة النبوية وفى التاريخ ... وكلها نماذج من الطراز الأول فى قوة الإيمان ، والثبات على الحق الذى ثبتهم الله عليه فى هذه الحياة الدنيا .

(وَفِي الْآخِرَةِ) : يشبتهم الله بعد الموت ، فلا يتلعثمون إذا سئلوا فى قبورهم ، أو بين يدى ربهم حينما يُسألون عن معتقدهم ، ولا تدهشهم أهوال القيامة ، والقبر هو أول منزل من منازل الآخرة ، فمن نجا منه فما بعده أيسر منه ، ومن لم ينج منه فما بعده أشد منه ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى عن عثمان رضى الله عنه ؛ كما صح عنه صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان وغيرهما عن البراء بن عازب رضى الله عنهما أنه قال : (الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ) فذلك قوله تعالى : « يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَقْوَالِ الثَّابِتِ » الآية . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْ أَصْحَابِهِ ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ إِذَا انْصَرَفُوا - أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيَقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ (محمد صلى الله عليه وسلم) فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ .

فَيَقَالُ لَهُ : انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبَدَ لَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا ، وَيُفْتَحُ لَهُ مِنْ قَبْرِهِ إِلَيْهِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوْ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ : لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ كَمَا يَقُولُ النَّاسُ . فَيَقَالُ : لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ ^(١) . ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً فَيَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ ^(٢) . « أخرج الشيخان وغيرهما .

(وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ) : أى يتخلى الله سبحانه عن الكافرين الظالمين لأنفسهم فيخذلهم ولا يعينهم ، لإصرارهم على الكفر والضلال ، حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فلم يهتدوا إلى القول الثابت الذى ثبت الله به المؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ويجوز أن يكون المعنى أنه تعالى يصرفهم عن الحجة يوم القيامة ، فلا يستطيعون الدفاع عن كفرهم ومعاصيهم . والمقصود أنه لا حجة لهم على ما اقترفوه من الكفر والمعاصى .

(وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) : أى يفعل الله جلّت حكمته ما يريد من تثبيت أهل الإيمان ومثوبتهم ، وخذلان أهل الكفر وعقابهم ، فله الحجة البالغة . وفى إظهار الاسم الجليل فى الموضعين من الفخامة وتربية المهابة مالا يخفى .

(* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ^(٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْتَسِ الْقَرَارُ ^(٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيَبْضِلُوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ^(٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ ^(٣١))

(١) الأصل : ولا تلوت ، وقلبت الواو ياء لازدواج والمناسبة لما قبلها .

(٢) الإنس والجن ، والحكمة فى عدم سماعها الامتحان والابتلاء ، إذ لو سماعا لكان الإيمان منها ضروريا .

المفردات :

(كفروا نعمة الله) كفر النعمة : جحدها . (ذَارُ الْبَوَارِ) : دار الهلاك ، ويطلق البوار أيضًا على الكساد .

(وَبَشَّ الْقَرَارُ) : وبشس المستقر . (أَنْدَادًا) : جمع ند وهو المثل والنظير .

(مَصِيرُكُمْ) : مرجعكم . (لَا بَيْعُ فِيهِ) : لا فدية فيه .

(وَلَا خِلَالٌ) : الخلال معناه المخاللة وهى المؤادة . أو جمع خليل وهو الصديق ، أو جمع خُلَّة . بضم الخاء وتشديد اللام مفتوحة : وهى الصداقة .

التفسير

٢٨ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا) :

بين الله فى ختام الآيات السابقة حال المؤمنين ، وحال الظالمين وأنه سبحانه يثبت المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، ويضل الظالمين بأن يتخلى عنهم لإصرارهم على الكفر . ويفعل بكلا الفريقين ما يشاء من تثبيت المؤمنين ، والتخلى عن هداية الظالمين ، ومن ثواب الأولين ، وعقاب الآخرين . وجاءت هذه الآية وما بعدها بياناً للأسباب التى أدت إلى ضلال الظالمين واستحقاقهم سوء العاقبة . وقبح المصير .

والخطاب فى قوله : « أَلَمْ تَرَ » موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إلى كل من يصلح للخطاب مقصود به التعجيب مما صنع الكفار من اقتراف الأباطيل الكثيرة ، التى كان من جملتها جحد نعم الله الظاهرة والباطنة . والمراد بهم مشركو قريش فالآية نزلت فيهم ، المعنى : ألم تنظر إلى الذين بدلوا شكر نعمة الله عليهم . فجعلوا مكانه كفرًا عظيمًا فبدلاً من أن يشكروه بتوحيده فى العبادة أشركوا معه غيره . أو بدلوا شكر النعمة كفرًا لها بإهمالها . وعدم رعاية شأنها فسلبيوها وحرموا منها ، وذلك ما حدث لأهل مكة . أسكنهم الله حرمة الأمن الذى يجبى إليه ثمرات كل شئ وجعلهم قوأم بيته . وشرفهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا بذلك ، وأذوا النبى وأصحابه فأصابهم القحط سبع سنين وعوقبوا بالقتل والأسر يوم بدر .

(وَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) : أى أنزلوا أهلهم واللائذين بهم دار الهلاك . بما قادوهم إليه من شرك وضلال . وعن ابن عباس أنهم قادة قريش ، وعن عمر وعلى أنهم أشد قريش فجوراً ، وهم بنو المغيرة وبنو أمية .

والتعبير عن الهلاك بالبوار مع أن أصله كما قال الراغب : فرط الكساد لأنه يفضى إلى الفساد المؤدى إلى الهلاك .

ولم تتعرض الآية للنص على حلولهم أنفسهم دار البوار . لأن إحلال قومهم فيها فرع لحلولهم إذ هم رأس الشرك ودعاة الضلال : كما قال تعالى في شأن فرعون : « يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » .

ثم بين الله دار البوار بعد إيهامها فقال جل شأنه : (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا) : أى أن دار الهلاك هى جهنم التى يدخلونها ويخلدون فيها . ولا ريب أن فى البيان بعد الإيهام من التهويل والتخويف مالا يخفى حيث تذهب النفس فى رسم صورتها المفزعة كل مذهب .

(وَبَشَّ الْقَرَارُ) : أى بشس المقر جهنم الذى جعلوه مكاناً لقومهم تبعاً لهم ، فليس له ما يضارعه فى أهواله ولا فيما يذم به لسوء حاله ، أو بشس القرار قرارهم فيها ، وفى التعبير بالقرار إشعار بأن حلولهم فيها وصليهم إياها على سبيل الدوام والاستمرار .

٣٠ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ . . .) الآية .

هذه الآية تعجيب مما اقترفوه كالتى قبلها . حيث جعلوا لله الواحد الأحد الذى ليس كمثلته شئ أمثالاً فى التسمية أو فى العبادة . وهى الأصنام والأوثان . جعلوها آلهة فى اعتقادهم وحكمهم .

(لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) : أى لإضلال قومهم الذين يدينون بالولاء لهم - لإضلالهم - عن سبيل الله وهو التوحيد ، بما زينوه لهم من شرك وافتراء (قُلْ) : يا محمد لهؤلاء المشركين تهديداً لهم ووعيداً : (تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) :

أى تمتعوا بما أنتم عليه من الشهوات التى تماديت فيها ، ومن جملتها تبديل نعمة الله كفرة . وإضلال الأتباع ، وسمى عملهم هذا تمتعاً تشبيهاً له بالمشتبهات المعروفة ، لتلذذهم به كتلذذهم

بها . ثم بين سبحانه جزاءهم الذى لا مفر منه ، ولا محيص عنه فقال تعالى :
 (فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) : أى إن دمت على ما أنتم عليه . من الاستجابة لداعى الشهوة ،
 ودافع الانحراف . فإن مآلكم إلى نار جهنم فيها مستقركم ومأواكم ، أو هو تعليل لأمرهم
 بالتمتع ، وفيه من التهديد الشديد ، والوعيد القوى مالا يوصف .

والمعنى تمتعوا بما شئتم فلا أمل لكم فى النجاة لأن مردكم ، ومرجعكم إلى النار لا لشيء سواها .

٣١ - (قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ) الآية .

لما هدد الله الكفار وعجب من قبح ما فعلوا حيث بدلوا نعمة الله كفراً ، وأضلوا اتباعهم
 وأشركوا به تعالى ، واقترفوا كل منكر . أنزل هذه الآية تكليفاً لنبيه صلى الله عليه وسلم
 بأن يأمر عباده المؤمنين بأداء العبادة البدنية تامة كاملة ، والإقبال على العبادة المالية بنفوس
 راضية .

والمعنى : قل يا محمد لعبادى الذين استجابوا دعوة ربهم فأمنوا ، قل لهم : أقيموا
 الصلاة وأدوها حق أدائها بأركانها وشروطها فى أوقاتها ، وقل لهم أيضاً أدوا الزكاة وأنفقوا
 مما رزقكم الله على المحتاجين والمعوزين ، فإن المال مال الله فهو معطيه ومسبب أسبابه ، وهو
 الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، وقد أبحنا لهم أن ينفقوا سرّاً كما
 يشاءون ، وعلناً كما يحبون ، بغير من ولا رياء .

والمراد حث المؤمنين على أداء عبادته البدنية والمالية شكراً ، لنعمه التى تفضل بها عليهم .
 واعلم أن الأفضل فى إنفاق التطوع الإخفاء ، وفى إنفاق الواجب الإعلان ، وعلى العباد
 أن يسارعوا إلى امتثال ما أمروا به من إقامة الصلاة والإنفاق .

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ) : فإنه إذا جاء ذلك اليوم لا يتسنى
 لمقصر فى دنياه ، أن يتلافى تقصيره هذا ، أو يفتدى نفسه بما يكسبه من بيع أو شراء
 أو بشفاعة خليل ، فإنه لا بيع فى هذا اليوم ولا شراء ، ولا تنفع فيه شفاعة الأصدقاء
 والأحلاء إذا لى العبد ربه كافراً ، حيث « لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ
 سَلِيمٍ » ^(١) . وإنما ينفعه إيمانه وعمله الصالح ، ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ
 مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى » ^(٢) .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ
لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾
وَعَاثَكُمْ مِنْ كُلِّ مَآسَاءٍ تَنْمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا
إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) : كل ماعلا الإنسان فأظله فهو سماء . والمراد به هنا السحاب .

(رِزْقًا) : مرزوقا مما يطعم أو يشرب أو يلبس أو ينتفع به .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ) : أى يسّر الفلك لإرادتكم . (وَالْفُلْكَ) : يسكون اللام ؛

السفينة . يستعمل فى الواحد فيذكر ، وفى الجمع فيؤنث .

(دَائِبَيْنِ) : فى حركة دائمة لايفتران . يقال دأب فى عمله دأبا ويحرك جدّ فيه .

(لَا تُحْصُوهَا) : لاتقدرون على حصرها وعدّها . والإحصاء فى الأصل : العد بالحصي ،

ثم أطلق على العد مطلقا .

(ظَلُومٌ) : ظالم شديد الظلم يقال : ظلم ، يظلم ، ظلما ، من باب ضرب فهو ظالم وظلوم .

والظلم : وضع الشيء فى غير محله .

(كَفَّارٌ) : جاحد النعمة . يقال كفر النعمة وكفر بالنعمة جحدها .

التفسير

٣٢- (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً . . .) الآية .

لما ذكر الله أحوال الكافرين المعاندين الذين جعلوا نعمه ، بالكفر بوحدايته ، والإشراك في عبادته ، وتكذيب رسوله ، وأتبع ذلك أمر المؤمنين بطاعته البدنية والمالية ، شكرا له على نعمه ، لما ذكر ذلك - جاء بهذه الآية وما بعدها ليوجه عباده إلى أدلة القدرة الماثلة في الآفاق. ويذكرهم بالنعم العظيمة التي يتقبلون في أعطافها . حثا للمؤمنين على المزيد من شكرها ، وتقريعا للكافرين الجاحدين لها ، وقد بدئت هذه الآية بلفظ الجلالة وأخبر عنه بالاسم الموصول بسبع جمل ، تبرز أدلة باهرة على قدرة الله تعالى ووحدايته . فهو وحده الذي خلق السموات ، وأبدع صنعها على غير مثال سبق ، وأوجد فيها الأجرام العلوية من نجوم وكواكب ، وخلق كذلك الأرض وما فيها من أنواع المخلوقات .

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ) : المراد من السماء هنا السحاب ، أى أنزل من السحاب نوعا خاصا من الماء وهو المطر ، فأخرج به أزواجا أى أنواعا من نبات شتى ، أخرج به زروعا وثمارا مختلفة الألوان والأحجام والطعوم والمنافع . وجعلها رزقا لكم تعيشون به . مطعوماً كان أو ملبوسا أو غير ذلك .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) : أى ذلل لكم السفن لتجرى في البحر بمشيئته ، وذلك بأن أقدركم على صنع السفن ويسر لكم استعمالها . فجرت على وجه الماء في البحر مذلة خاضعة لإرادتكم بأمره : أى بمشيئته التي ارتبط بها كل شيء في الوجود ، فتسير الآلات ليس بمعزل من توفيق الله ومدده .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ) : أى ذللها لكم حيث تشربون منها وتسقون زروعكم وجناتكم ودوابكم . وتشقون منها جداول تسيرونها وفق إرادتكم .

٣٣- (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ) : أى أنه تعالى يذللهما ليلا ونهارا لا يفتران عن حركتهما وإصلاحهما لما ارتبط بهما صلاحه من الموجودات وفق تقدير الله . وهما لا يلتقيان إلى قيام الساعة . « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ » .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) : فهما يتتابعان فيكم ويتعاقبان، لتتخذوا من النهار معاشاً فتبتغوا فيه من فضله، ومن الليل سكناً تستعيدون به قوتكم ونشاطكم، وبهما يتم عقد ثماركم وإنضاجها واختلاف الفصول بما يكون فيه صلاح أمركم واستقامة شأنكم، وما به تتنوع أصناف زروعكم وتعدد أجناس ثماركم، إلى غير ذلك من النعم الجليلة كالاكتفاء بها في ظلمات البر والبحر.

٣٤- (وَأَنَّا كُنتُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) : أى تفضل عليكم فأعطاكم من كل مسؤل سألتموه شيئاً اقتضته مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة، كما فى قوله : « مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ » .

أو أعطاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه - فحذف الثانى للدلالة الأول عليه، ونظيره : « سَرَّابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » أى والبرد .

ويجوز أن يكون المعنى أنه تعالى أمدكم بما تحتاجون إليه فى جميع شئونكم، من كل ما هو جدير بسؤالكم، سواء أسألتموه أم لم تسألوه . وفى هذه الحياة أشياء كثيرة لازال يجهلها الإنسان وهى مُعَدَّةٌ له، ومتى حان وقت إبرازها كشف الله له عنها، بما أمد به من عمق فى العلم وقوة فى العقل وتوفّر على البحث، أو عن طريق الصدفة، وقرىء بنونين كل : والمعنى على هذه القراءة وأعطاكم من كل شئ : ما سألتموه - على أن (ما) نافية - أى من كل شئ حال كونكم غير سائلين .

(وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) : أى أن نعم الله عليكم كثيرة متعددة، فإن حاولتم إحصاءها ولو إجمالاً فإنكم لن تطيقوه، لأنها لا يلم بها الحصر ولا يحيط بها العد فهلا استعنتم بها على الطاعة . وشكر النعمة وعدم الإشراف به فى العبادة .

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) : المراد من الإنسان الجنس ومن الكفر كفر النعمة بالتقصير فى شكرها .

والمعنى : أن الإنسان لا يقدر نعم الله عليه وهى لا تحصى، فتراه عظيم الظلم لنفسه، شديد الكفران لنعم ربه، فهو دائم الانتفاع بها، والتقصير فى أداء شكرها، ووضعها فى غير موضعها، ولو أنصف نفسه وعرف حق ربه لاستدام شكره، والوفاء بحقه جل وعلا .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا ضَمَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا نَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾)

الفردات :

(الْبَلَدَ) : مكة المكرمة . (اجْنُبْنِي) : أبعدني . يقال : جَنَّبْتُ الرَّجُلَ الشَّرَّ مِنْ بَابِ نَصْر . أبعدته عنه ، وجَنَّبْتُهُ بِالتَّشْدِيدِ مبالغة . (بِوَادٍ) : الوادي كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسَّيل . والمراد به هنا ما يحيط بالبیت الحرام . (تَهْوِي إِلَيْهِمْ) : تسرع إليهم شوقاً وحُباً . يقال : هوى إليه يَهْوِي هَوِيًّا بضم الهاء إذا أسرع في السَّير - (مَا نُخْفِي) : ما نضمر ونستر . يقال : أَخْفَيْتُ الشَّيْءَ سَتَرْتُهُ . وَخَفَى الشَّيْءُ اسْتَتَرَ أَوْ ظَهَرَ ضِدًّا . (وَمَا نُعْلِنُ) : وما نظهر . يقال : عَلَنَ الْأَمْرُ مِنْ بَابِ قَعْدَ ظَهَرَ ، وَأَعْلَنَتْهُ : أظهرته .

التفسير

٣٥- (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا) :

هذه الآية وما بعدها يذكر الله فيها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بما وقع من مخالفة قريش لوصايا أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، تأكيداً لما سبق من تعجيبه صلوات الله وسلامه عليه من أحوالهم ، وتماديهم في الطغيان والضلال - والمعنى : واذكر أيها النبي وقت قول

إبراهيم لربه ، بعد أن أسكن إسماعيل وأمه وادى مكة « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا » : أى يا إلهى الذى أعبدته اجعل مكة - شرفها الله - بلدًا ذا أمن ، حتى يَأْمَنَ أهله على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .
 (وَاجْتُنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) : أى أبعدنى وذريتى عن عبادة الأصنام ، والمراد ثبتنا على ما نحن عليه من البعد عن عبادتها ، وإنما سأل إبراهيم هذا لنفسه مع أن الأنبياء جميعاً معصومون من الشرك ، للإيذان بأن العصمة بفضل الله ومعونته وتوقيفه ، كما أن فيه هضماً لنفسه واعترافاً بحاجته إلى فضل ربه فى كل أمر ، والمراد من بنيه من اتبعه فى شريعته من ذريته بدليل قوله تعالى : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي » فكأنه لا يعتبر من ذريته من لم يتبعه ، وعلى هذا تكون دعوته مستجابة تماماً حسب نيته ، ويؤكد هذا المعنى ما جاء فى سورة البقرة من قوله تعالى : « قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ »^(١) .

٣٦- (رَبُّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلْنِ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ) :

لما كانت الأصنام سبباً للإضلال أسند إليها الإضلال مجازاً ، لأنهم جماد فلا يعقل منهن ذلك على الحقيقة .

وجملة : « إِنَّهُمْ أَضَلَّلْنِ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ » : تعليل لدعاء إبراهيم السابق ، وهو قوله : « وَاجْتُنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » . وصدر هذا التعليل بقوله (رَبِّ) ، إظهاراً للاعتناء به ، ورغبة فى استجابته - والمعنى : وأبعدنى وذريتى عن أن نعبد الأصنام يارب لأنهم تسببن فى إضلال كثير من الناس ، بنصبها شركاء لله فى العبادة ومشاهدة الأبناء نلاباء فى تقليد يسهم لها ، فكان ذلك مُغْرِباً لهم بعبادتها ، ثم إن إبراهيم عليه السلام أدرك بفطرته أن بنيه سوف ينقسمون بعده إلى موحدلين ومشركين ، فلذلك أظهر لربه أنه لا يستحق الانتساب إليه إلا من اتبعه فى دينه دون من عصاه ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

(فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى فمن تبعنى منهم فى التوحيد والإسلام الذى هو دين الله ، فإنه متصل بى نسباً ودينًا ، ومن عصانى بإعراضه عن التوحيد الذى أدعو إليه ، وإصراره على المعاصى .

(فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) : أى فإنك أهل للغفران الشامل والرحمة الواسعة ، ومن كان كذلك فإنه يغفر لأمثالهم ويرحمهم ، فإن قيل : إن من ذريته من عصاه بالإشراك بالله ، فكيف يدعو له بالمغفرة والرحمة ، فالجواب أنه دعا هذا الدعاء الشامل قبل أن يعرف أن الله لا يغفر أن يشرك به ، أو أنه قيده في نفسه بالتوبة من الشرك ، فكأنه قال : فإنك غفور رحيم لمن تاب منهم قبل موته ، وقال مقاتل وابن حبان المعنى : « ومن عصانى » فيما دون الشرك فإنك غفور رحيم .

٣٧- (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) : المقصود من ذريته في الآية ابنه البكر إسماعيل الذى ولد له في شيخوخته من أمته هاجر التى وهبها ملك مصر لزوجته سارة ، فوهبتها له . وكانت سارة عقيماً زمناً طويلاً ، فلما ولدت هاجر التى كانت جاريتها ، حدث في نفسها ما يحدث للنساء من الغيرة ، فناشدته أن يخرجهما من عندها ، فذهب بهما إلى أرض مكة ، ووضعهما هناك ، حيث لا يوجد زرع ولا ماء ، ولا أحد يقيم بتلك الأرض الموحشة ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفل إبراهيم عليه السلام راجعاً ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى لا أنيس فيه ولا شيء ، ولما لم يجبها قالت له : آله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت .

وانطلق إبراهيم عليه السلام ، حتى إذا كان عند الثانية - حيث لا يرى انته استقبل البيت بوجهه ، وكان إذ ذاك مرتفعاً من الأرض كالرابية ، ثم دعا رافعاً يديه فقال : « رب إني أسكنت من ذريتي » إلى قوله « لعلمهم يشكرون »^(١) . وقد أثر عليه السلام في نداء ربه صيغة الجماعة بقوله . « رَبَّنَا » لتقدم ذكره وذكر بنيهِ ، والتعرض لوصف ربوبيته لهم أدخل في القبول وإجابة المطلوب .

والمعنى : ربنا إني أسكنت بعض ذريتي بوادٍ لا ماء به ولا زرع ، عند المكان الذى أعدته لبيتك المحرم ، مع أن هذا المكان غير صالح للسكنى لفقد الماء والزرع ، وقد أقدمت على ذلك استجابة لأمرك ، وتقرباً إليك ، وثقة بأنك سترعى ذريتي بعد أن لجأت إلى جوارك الكريم .

(١) القصة رواها البخارى مطولة فارجع إليه إن شئت .

وإضافة البيت إلى الله تعالى لأنه لا يملكه غيره ، ولا يُصَلَّى نحوه إلى سواء ، ووصف البيت بالمحرم للإيدان بعزة الملجأ ، وعصمته عن المكاره ، حيث حرم التعرض له والتهاون به .
(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ) : في هذه الجملة تعليل لإسكان بعض ذريته في هذه البقعة الجرداء المجاورة للبيت الحرام .

والمعنى : ياربنا ما أسكنت بعض ذريتي بهذا الوادى البلقع الخالى من كل مرتزق إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ، ويعمروه بالذكر والعبادة ، والتعبير بصيغة الجمع في قوله : « لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » : ، مع أنه لا يوجد من ذريته سوى إسماعيل يؤذن بأن الله تعالى أعلمه أن ولده إسماعيل ، سيعيش وتكون له ذرية كثيرة ، وسيكون رسولا إليهم ليقيموا الصلاة على شريعته .

(فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) :

أى فاجعل قلوبا من قلوب الناس تسرع إليهم شوقاً ووداً ليساكنوهم ويعيشوا معهم ، وأول آثار هذه الدعوة أنه تعالى أنبع ماء زمزم ، ومرت رفقة من جرهم تريد الشام ، فرأوا الطير تحوم على الجبل ، فقالوا إن هذا الطائر لعائف على الماء ، فأشرفوا ، فإذا هم بها جَرَّ ، فقالوا إن شئت كنا معك وآنسناك .

(وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) : فاستجاب الله دعاءه ، ورزق ذريته وكل من انحاز إليهم بما أنبت لهم من أشجار الفاكهة المختلفة بقرى قريبة كالطائف ، أو ما يجلب إليهم من الأمصار والأقطار الشاسعة من مختلف الفواكه والثمار ، حتى أصبحت لديهم كثيرة موفرة ، يجتمع منها عندهم الأنواع المتعددة في اليوم الواحد ، وفي ذلك يقول الله تعالى : « أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِّن لَّدُنَّا » (١) .

وهذا من فضل الله وكرمه ، ليكون عوناً على عبادته والرغبة في البقاء في حراسة حرمة ، وليجعل من موطنهم القفر ومنزلهم الوحش . مطمح الأنظار ومحط الرحال . وهى لذلك تستوجب منهم أداء مراسم العبودية تامة كاملة شكراً له تعالى وثناء عليه .

٣٨ - (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ . . .) الآية .

كرر إبراهيم نداء ربه للمبالغة في الضراعة .

والمعنى : ياربنا إنك تعلم كل أحوالنا ، لا يخفى عليك شئ منها . فتعلم ما نخفيه ونستره وما نعلنه ونظهره ، فكل ذلك عندك في العلم سواء .

وقال ابن عباس ومقاتل في تفسير هذه الجملة : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسماعيل وأمه ، حيث أسكنتهما بواد غير ذى زرع .

ولكن حمل الآية على عموم أحوالهم أولى ، ويدخل فيه ما يتعلق بإسماعيل وأمه ، وقدم نخفى على نعلن في الذكر ، لأن مرتبة الإصرار متقدمة على مرتبة الإعلان ، فما من شئ أظهر إلا كان قبل ذلك في طي الكتمان ، وبعد أن اعترف إبراهيم لربه بأنه سبحانه يعلم ما يخفيه وما يعلنه هو وذريته ، أقر لربه بعلمه بكل ما في الكون حيث قال :

(وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) : أى أنه تعالى لا يخفى عليه في سمواته وأرضه شئ من الذرات والأجزاء والأوصاف والأعراض ، وما يصلح ذلك وما يفسده ، وما يبقيه وما يفتنيه : « وكل شئ عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » .

ويقصد إبراهيم عليه السلام بقوله : « وما يخفى على الله من شئ » إلخ أداء حق ربه عليه ، وتعليم ذريته ما يجب عليهم إدراكه من شئون ربهم ، ليخافوه في سرهم وعلنهم .

ويجوز أن تكون هذه الجملة من قوله تعالى ، إجابة منه لإبراهيم حين قال : « رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ » . تصديقا له وتأيدا لشهادته ، وتوسيعا لدائرة علمه جل وعلا تعلما لعباده .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٢٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ) : رَزَقَنِي مع تقدمي في السن .
 (إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) : أى إِنَّكَ مجيبُ دعاء من دعاكَ .

التفسير

٣٩- (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ . . .) الآية .

أى الثناء منى على الله شكراً له حيث منحني مع كبر سنى ويأسى من الولد - منحني - إسماعيل وإسحاق . وقال ابن عباس : ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحاق وهو ابن مائة واثنى عشرة سنة .

(إِنْ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) : المقصود من سماع الدعاء قبوله وإجابته ، أى إِنْ رَبِّي ومالك أمرى لمستجيب دعاء من دعاه ، وقد استجاب دعائى فيما سألته من الولد .

٤٠- (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي . .) : أى وفقني إلى دوام المحافظة عليها والخشوع فيها ، وإقامة حدودها واجعل من ذريتي من يقيمها ، وقد خص الدعاء ببعض ذريته لعلهم من جهة الله تعالى أن بعضاً منهم لا يكون مقيماً للصلاة ، بأن يكون كافراً أو مؤمناً لا يؤدى الصلاة ، ويجوز أن يكون قد علم من استقرائه عادة الله في الأمم السابقة ، أن يكون في ذريته من لا يقيمها ، وهذا كقوله تعالى : « رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ »

(رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) : أى دعائى بتحقيق ما طلبته من الأدعية السابقة .

٤١- (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ . . .) : بما أن إبراهيم لا يرتكب ذنباً بكشأن جميع الأنبياء فيكون معنى هذه الجملة ، ربنا تجاوز عما فرط مني من ترك الأولى في أعمالى الدينية وغيرها مما لا يسلم منه البشر . واغفر لوالدى . وكان ذلك الاستغفار منه لهما قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله ، وقال القشيري : ولا يبعد أن تكون أمة مسلمة ، لأن الله ذكر عذرة في استغفاره لأبيه دون أمة فقال تعالى : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » ^(١) . وروى عن الحسن أيضاً أن أمة كانت مؤمنة ، وختم إبراهيم عليه السلام دعاءه بقوله :

(وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) : أى واغفر للمؤمنين جميعا من ذريتي وغيرهم حينما يقومون للحساب والجزاء يوم القيامة ، وتلك دعوة وشفاعة منه للمؤمنين المذنبين نرجو أن يتقبلها الله منه .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) : تكون فيه أبصار أهل الموقف مفتوحة لا تَطْرَفُ . يقال شخص البصر إذا ارتفع ، ويتعدى بنفسه ، فيقال شخص الرجل بصره . إذا فتح عينيه لا يطرف . (مُهْطِعِينَ) : مسرعين ، من أهطع فى عدوه إذا أسرع .
(مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ) : رافعيها من إدامة النظر لا يلتفتون إلى شيء ، يقال أقنع رأسه رفعه .
(لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) : الطرف ، العين ولا يجمع لأنه فى الأصل مصدر . والمراد لا ترجع إليهم أجفانهم التى تحتها العيون بل تظل مفتوحة .
(وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) : أى وقلوبهم خالية لا يشغلها منوى الخوف .

التفسير

٤٢- (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) الآية :

الخطاب فى هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم . والمراد منه تشبيته على ما كان عليه من علمه أنه تعالى ليس غافلا عما يعملهم المشركون الظالمون ، كما أن فيه تسليية للرسول عما يفعلونه ، بما يشعر به من الوعيد لهم والوعد له .

والمعنى : ولاتحسبنَّ أيها الرسول أنه تعالى في إمهالهم وتأخير عذابهم غافل عما يعمل الظالمون ، فإنه سبحانه لاتخفى عليه منهم خافية .

أو لاتحسبن الله يترك عقابهم للطفه وكرمه . بل هو معاقبهم على القليل والكثير . وعن ابن عبيّنه أن هذا تسليّة للمظلوم وتهديد للظالم ، وروى نحو هذا عن ميمون بن مهران . والمراد بالظالمين على هذا جنس الظالمين وأهل مكة داخلون في الحكم دخولا أوليا .

(إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) : هذا النص الكريم استئناف وقع تعليلا للنهي السابق وهو : «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ» . وإيقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر عقابهم لتحويل الخطب وتفضيع الحال ، ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب موقوفون عليه رغما عنهم ، وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال فلا يبقى منهم في الوجود عين ولا أثر ، وهذا التأخير ليوم هائل لاتغمض فيه أبصار أهل الموقف لهول ما يروونه في ذلك اليوم من شدائد ، بل تبقى مفتوحة لاتتحرك أجفانها ولاحدقاتها ، قال ابن عباس : تشخص أبصار الخلائق يومئذ لشدة الحيرة ، أى تبقى مفتوحة لانطرف .

٤٣- (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ) : هؤلاء الظالمون يقبلون على الداعى يوم القيامة مسرعين إليه تتعلق به أبصارهم لاتتحول عنه ولايطرفون هيبة وخوفا . (مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ) : أى رافعيها مع إدامة النظر إلى ما بين أيديهم .

(لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) : أى لايرجع إليهم نظرهم لينظروا إلى أنفسهم فضلا عن النظر إلى شئ آخر . بل يبقون مبهورين حائرين .

(وَأَفْثِدْتُهُمْ هَوَاءً) : أى قلوبهم خاوية خالية ليس فيها فهم ولاعقل ، لفرط الحيرة والدهشة ، كقولك في البيت الذى ليس فيه شئ إنما هو هواء . وهذا المعنى قاله ابن عباس وغيره ويجوز أن يكون المراد أن عقولهم خرجت رعبا وهلعا كأنها هواء .

(وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ۖ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ۖ) وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)

المفردات :

- (وَأَنْذِرِ) : وخوف . (يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ) : يوم القيامة .
 (أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) : أعدنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أجل قريب .
 (مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ) : أى مالكم من بعت ونشور .

التفسير

٤٤- (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ . .) : هذا خطاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وأمره بإنذار الناس ، والمراد بهم الكفار المعبر عنهم بالظالمين فى قوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ » . وقال الجبائى وأبو مسلم : المراد بالناس ما يشمل أولئك الظالمين وغيرهم من المكلفين . والإنذار كما يكون للكفار يكون لغيرهم كما فى قوله سبحانه : « إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ » . وإتيان العذاب يعم الفريقين من حيث كونها فى الموقف وإن كان لحوقه بالكفار خاصة - أنذرهم - :

(يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ) . أى خوفهم ذلك اليوم المعهود وهو يوم القيامة الذى وصف بما يذهب الأبواب ، لما يقع فيه من أهوال تجعل الولدان شيبا .

(فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) : أى يصدر عنهم هذا القول في ذلك اليوم ، والعدول عن لفظ - فيقولون - إلى ما في النظم الكريم . لتسجيل الظلم عليهم ، وأنه سبب ما ينالهم من شدة ونكال ، وفى قولهم (رَبَّنَا أَخِّرْنَا) إلخ إشارة إلى ندمهم وعجزهم عن الاحتمال . قال الضحاك ومجاهد : إنهم طلبوا الإمهال والرد إلى الدنيا للرجوع إلى حال التكليف ، وقد طلبوه إلى أمد من الزمن قريب حين ظهر لهم الحق . ليعملوا فيه ما يرضيه جل شأنه ، وسجلوا ذلك على أنفسهم فقالوا : (نَجِبَ دَعْوَتَكَ) : إلى الإسلام بتوحيده ، واتباع تعاليم دينك ، وذلك ما صرَّحوا به فى قولهم : (وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ) : فيما جاءوا به مبشرين ومنذرين ، أى نتدارك ما فرطنا فيه بإعراضنا عن إجابة الدعوة واتباع الرسل ، وجئ بلفظ الرسل لأن الحديث عن يوم القيامة الذى يجمع الرسل وأممهم .

ولما كانت طبيعة الظالمين الكذب والافتراء ، وأن يقولوا ما لا يفعلون أجابهم الله تعالى : (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَالِكُمْ مِّنْ زَوَالِ) : أى فيقال لهم زدا على قولهم توبيخا لهم وتبكيئا ، وبعثا على اليأس والحسرة : أو لم تكونوا فى الدنيا تحلفون بالسننتكم أنكم لاتزولون ولاتتحولون من قبوركم إلى دار أخرى ، وأنه لامعاد ولاجزاء - كما أخبر عنهم الله سبحانه وتعالى بقوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَإِيْبَعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ . بَلَى وَغَدْءًا عَلَيْهِ حَقًّا » .

٤٥- (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . . .) : أى وأقمتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم من الكافرين المهلكين قبلكم ، وكنتم فيها سائرين سيرتهم فى الظلم بالكفر واقتراف المعاصى ، وليس لكم فيهم معتبر ولافيا أوقعناه بهم مزدجر .

(وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ) : أى ظهر لكم بمشاهدة الآثار الباقية من ديارهم التى أبيدت وأصبحت أثرا بعد عين ، وبتواتر أخبارهم - ظهر لكم - ما صنعناه بهم من تدمير وإهلاك بسبب ما اقترفوا من ظلم وإفساد . (وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ) : أى بينا لكم فى التنزيل على السنة

الأنبياء أحوالهم جميعها : ما فعلوه وما فعل بهم من الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة : لتكون لكم فيها عظة وعبرة . بقياس أعمالكم على أعمالهم ، ومآلكم على مآلهم . فترتدعوا عما أنتم فيه من الشرك والضلال طلبا للنجاة ، أوبينا لكم أنكم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب ، وتكون الأمثال على هذا جمع مثل بمعنى الشبيه والنظير .

٤٦- (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ . . .) : أي فعلنا بهم ما فعلنا والحال أنهم مكروا مكروهم البالغ الذي استنفدوا فيه طاقتهم ، وبذلوا في تدبيره كل مجهود لهم ، سعيا في إبطال الحق وتقرير الباطل ، وقد جاوزوا بمكروهم كل حد . وفي هذا إشارة إلى تمام استحقاقهم ما فعل بهم .

(وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ) : أي وعنده علمُ مكروهم الذي يهلكهم به . أو عنده جزاء مكروهم الذي فعلوه ، وتسمية عقابهم مكرًا لكونه في مقابلة مكروهم وجودا وذكرًا ويسمى هذا مشاكلة في اصطلاح علماء البلاغة ، أو لكونه في صورة المكر لوقوعه من حيث لا يشعرون .

(وَلَوْ أَنَّ مَكْرَهُمْ لَنَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) : أي وإن كان مكروهم في غاية القوة ومنتهى الشدة ، بحيث يكون معدا لإزالة الجبال عن مقارها ، وهي التي جعلها الله للأرض أوتادا تحفظ توازنها وتضمن سلامتها . والمراد أن الله مجازيهم على مكروهم ومبطل أثره . وإن كانت نزول منه الجبال . وذلك إشارة إلى مؤاخذتهم على أي حال ، وعدم التفاوت بين كون مكروهم ضعيفا أو قويا .

وعن الحسن وجماعة أن «إن» نافية . واللام لتأكيد ما كما في قوله تعالى : «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ» . والمعنى على هذا : وَمَكَرُوا مَكْرَهُمْ وعند الله جزاء مكروهم والحال أنه ما كان له أثر وخطر عند الله حتى يزول منه ما هو كالجبال في الرسوخ من آيات الله وشرائعه ومعجزاته على أيدي الرسل السابقين عليهم السلام ^(١) .

(١) قالوا ويؤيد هذا المعنى قراءة ابن مسعود «وما كان مكروهم لنزول منه الجبال» . حيث جاءت فيها (ما) النافية مكان (إن) .

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو أَنْتِقَامٍ ٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ
وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٤٩) سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ
النَّارُ ٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا
هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ٥٢)

المفردات :

(بَرَزُوا) : خرجوا من قبورهم . (مُقَرَّنِينَ) : المَقَرَّنُونَ ؛ المجموعون بعضهم مع بعض في قَرَن ، وهو الجبل الذي يربط به . (الْأَصْفَادِ) : القيود والأغلال وهو جمع صَفْدٍ أو صَفْدٌ قيد يوضع في الرجل . والغُلُ : قيد تضم به اليد إلى العنق وقد يقصر على العنق ^(١) ، (سَرَابِلُهُمْ) : جمع سربال ، وهو القميص . (قِطْرَانٍ) : القطران ؛ سائل أسود تطلي به الإبل الجربي . (تَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ) : تعلوها وتحيط بها .

التفسير

٤٧ - (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ . . .) : إن كان الخطاب للرسول فمعناه دُم على ما أنت عليه من الثقة بصدق وعد الله ، وإن كان لكل مكلف فهو للتحذير والإرشاد ، أي فلا تظن أنه سبحانه مخلف وعده لرسله بتعذيب الظالمين في مثل قوله : «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا . . . » إلى آخر الآيات .

واقتران النهي هنا بالفاء يشير إلى تربيته على ماسبق ، وكأنه قيل خطابا للرسول :

(١) ومنه قوله تعالى : « إذ الأغلال في أعناقهم » .

وإذا كان الله قد أمرك أن تنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ويكون من أمر الظالمين فيه ماتقدم بيانه ، فدم على ما أنت عليه من كمال الثقة بالله . واليقين بإنجاز وعده الذي وعده رسله . (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) : أى أنه جل شأنه غالب لا يغالب ، قادر يفعل ما يريد ، فينتقم لأوليائه من أعدائه . والجملة تذييل وتعليل للنهي السابق وهو قوله سبحانه : « فَلَا تَحْسَبَنَّ » . والتعرض لوصف العزة والانتقام يؤكد عدم إخلاف وعده رسله بتعذيب الظالمين جزاء ما اقترفوا من إفك وطغيان ، وفى جملتهم قریش .

٤٨- (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ) : أى أن الله ينتقم من الظالمين بتعذيبهم يوم تبدل الأرض غير الأرض .

واعلم أن التبديل قد يكون فى الذات وقد يكون فى الصفات ، والآية ليست نصافى أحد الوجهين ، والله أعلم كيف يتم هذا التبديل .

(وَبَرِّزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) : أى وخرج الخلائق من قبورهم ، أو الظالمون المدلول عليهم بما سبق ، أو المراد ظهورهم بأعمالهم التى عملوها سرا وزعموا أنها لا تظهر ، وسبر عن البروز بصيغة الماضى لتحقيق الوقوع . لأنه لامناص لهم من لقاء الله الواحد الغالب على أمره ، الفعال لما يريد ، لمحاسبتهم على أعمالهم ، ومجازاتهم عليها ، وفى وصفه سبحانه بالوحدانية والقهر إشعار بأنهم عنده على خطر عظيم ، وإيدان بتحقيق العذاب الموعود . ٤٩- (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ ...) : أى تبصر الكافرين يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات . (مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ) : أى مجموعاً بعضهم مع بعض فى قرن ، وهو الوثاق الذى يربط به ويضم كل امرئ لمشاركه .

٥٠- (سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ) : أى قمصهم من قطران ، وهو سائل حار أسود اللون منتن الرائحة ، يساعد على سرعة اشتعال النار ، تطفى به الإبل الجربى فيحرق الجرب كما تطفى به جلود أهل النار حتى يكون عليهم كالسراويل ، ليدوقوا أشد العذاب وأقساه ، بنار سريعة الاشتعال . شديدة الإيلام تجعل أجسامهم سوداء داكنة ، تفوح منها الروائح التى تزكم الأنوف ، وتقبيض النفوس .

(وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ) : أى تعلوها وتحيط بها كما تحيط بأجسادهم المسربة بالقطران . وتخصيص الوجوه بالذكر مع أن غشيان النار حكم عام لسائر الأعضاء ،

لتنبيههم إلى أن أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها تحيط بها النار ، لكونها مجمع المشاعر والحواس التي خلقت لإدراك الحق ، وقد أجرموا بالإعراض عنه ، ولم يستعملوها في تدبره والوصول إليه . ولعل تركها من الطلاء بالقطران ليتعارفوا عند انحسار اللهب أحيانا ، ويتضاعف عذابهم بالخزي على رموس الأشهاد .

٥١- (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ...) : أى يفعل الله بهم ما ذكر . ليجزى كل نفس مجرمة . جزاءً موافقاً لما اقترفت من كفر وعصيان ، ويجوز أن يراد من النفس ما يعم الطبيعة والعاصية فيكون المعنى : وبرزوا لله الواحد القهار ، ليجزى كل نفس مطيعة أو عاصية ما كسبت من خير أو شر .

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) : فهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يحتاج إلى تأمل وتدبر في إصدار حكمه . بل يتمه في أعجل وأسرع زمن .

٥٢- (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ) : هذا إشارة إلى ما ذكر من قوله تعالى : «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا» إلى قوله : «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» . أى ذلك كفاية في العظة والاعتبار والتذكير ، فما ظنك بما انطوت عليه السورة وما اشتمل عليه القرآن المجيد من فنون العظات والقوارع ، وهذا البلاغ إما للكفار خاصة على اعتبار اختصاص الإنذار بهم في قوله تعالى : «وَأَنْذِرِ النَّاسَ» . وإما للناس عامة على اعتبار شمول الإنذار لجميع الناس . (وَلِيُنْذِرُوا بِهِ) : معطوف على مقدر أى هذا كفاية للناس لينصحوها ولينذروا به ويجوز أن يكون البلاغ بمعنى الإبلاغ ، كما في قوله تعالى : «مَاعَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ» . والمعنى : هذا إبلاغ للناس ليفهموه ولينذروا به . (وَلِيَعْلَمُوا) : بالتفكر والتأمل فيما فيه من البراهين الساطعة ، والدلائل الواضحة التي أنبأت عن إهلاك الأمم السابقة ، وإسكان آخرين مساكنهم إلى غير ذلك مما حكته الآيات التي تقدمت . هذا كله ليعلموا : (أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ) : تنزه عن الشريك والمثيل ، وتقديم الإنذار لأنه الداعي إلى التأمل المؤدى إلى الغاية منه ، وهو العلم بوحداية الله جل وعلا .

(وَلِيَذْكُرُوا أَلْوُ الْأَلْبَابِ) : أى هذا بلاغ للناس لما تقدم وليتذكروا شئون الله مع عباده وما يعملون في حياتهم فيرتدعوا عما يهلكهم ، وذلك باجتنب ما اتصف به الكفار ، والتترع بما يقربهم إلى الله ، من التمسك بالعقائد الحقة والأعمال الطيبة ، وفي تخصيص التذكير بألوي الأبواب إعلاء لشأنهم ، وحض الناس على أن يكونوا منهم لينتفعوا مثلهم بمواعظه - والله تعالى أعلم .

سورة الحجر

مكية وآياتها تسع وتسعون

أما أنها مكية فقد أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضى الله عنهم ، كما روى عن قتادة ومجاهد ، واستثنى الحسن قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ٨٧ » . وقوله سبحانه : « كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ . الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ٩٠-٩١ » . ذكره صاحب مجمع البيان .

وأما أنها تسع وتسعون آية فبالإجماع كما نقله الداني والطبرسي .

وتناسب سورة إبراهيم التي قبلها في أنها مثلها في كونها مكية مفتتحة بأسماء بعض حروف المعجم ، وقد جاء في كليهما النهي عن الكفر والوعيد بالعقاب عليه ، والحث على الإيمان والوعد بالثواب عليه ، وتسليية الرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من قومه ، إلى غير ذلك من المناسبات التي جمعت بينهما .

مقاصدها

وقد اشتملت هذه السورة على مقاصد عظيمة ، أهمها ما يلي :

١- أنها ابتدأت بالإشادة بآيات القرآن المبين ، وبينت أن من كفروا سوف يتمنون أن لو كانوا مسلمين ، وأمرت النبي أن يتركهم يتمتعون ويلهيهام الأمل فسوف يعلمون العاقبة السيئة لانصرافهم عن الحق ، وذلك في وقت معلوم لله ، لا يتأخرون عنه ولا يتقدمون .

٢- أنهم لما سفهوا على الرسول بوصفهم إياه بالجنون ، لأنه لم يأتهم بالملائكة تؤيده وتبلغهم عن الله نَبَهُتَهُمْ هذه السورة إلى أن الملائكة لا تنزل إلا بحكمة ، وليس منها أن تكون رسولا عن الله إليهم ، فإنهم يهلكون بمشاهدتهم لها على صورها الحقيقية ولا يُنظَرُونَ ، أو يهلكون عقابا على كفرهم بعد مجيء الآية التي اقترحوها ، كما جرت عادته تعالى في الأمم قبلهم ، وأرشدتهم إلى أنه تعالى هو الذي نزل على محمد معجزة الذكر وهو القرآن ، وأنه حافظ له من كل ما يقدر فيه ليظل معجزة الإسلام ما بقى الزمان .

٣- تسليية الرسول عن استهزاء قومه ، بأن ذلك عادة أهل الباطل مع المرسلين وذلك في قوله سبحانه :

« وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون - ١١ » .

٤- التنبيه إلى الآيات الكونية الدالة على وحدانيته تعالى وعظيم قدرته ، مثل بروج السماء ، والشهب التي تنساقط منها ، والأرض وإرسائها بالجبال ، وتيسير أسباب المعاش فيها ، وإرسال الرياح لواقع ، وإنزال الماء لسقيانا ، وما نحن له بخازنين ، بل هو عطاء من رب العالمين ، وأنه تعالى هو المحي والمميت وأنه سوف يحشر الناس أجمعين للحساب والجزاء .

٥- التنبيه إلى أن مبدأ خلق الإنسان كان من صلصال من حمإ مسنون ، والجان كان من نار السموم ، وأنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم بعد تمام خلقه ، فسجدوا إلا إبليس فطرده الله من الجنة ، لتكبره وعصيانه ، وأنه انتقم لنفسه ظلماً من آدم ، بإغرائه بالأكل من الشجرة ، فأهبطه الله وزوجه إلى الأرض التي خلقه منها ليكون فيها خليفة ، وأن إبليس توعده بنى آدم بإغوائهم أجمعين إلا عباد الله المخلصين ، فإنه ليس له عليهم سلطان ، وأن جهنم موعد العصاة أجمعين ، وأن المتقين في جنات وعيون إخواناً على سرر متقابلين .

٦- ذكر قصة إبراهيم وأضيافه من الملائكة ، وقد جاء فيها أنهم بشروه- في شيخوخته - بغلام عليم ، فعجب من بشارتهم وقد تخطى سن الأمل إلى شيخوخة اليأس ، فطمأنوه قائلين : « بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِعِينَ . قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ٥٥-٥٦ » : وأنخبروه أن الله أرسلهم إلى قوم لوط لعقابهم على كفرهم وجريمتهم التي اشتهروا بها في العالمين .

٧- ذكر قصة لوط وقومه ، وقد جاء فيها أمر الملائكة إياه بالإسراء بأهله في جزء متأخر من الليل ، ونهيبهم لهم عن الالتفات إلى ما وراءهم ، وأن عليهم أن يعضوا حيث يؤمرون وأقلبوه أن قومه الآثمين هالكون جميعاً في الصباح ، وقد حدث هذا ، فإنه تعالى جعل في الصباح على بلادهم سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ، جزاء كفرهم وجرائمهم

٨- إجمال قصة أصحاب الأيكة والانتقام منهم ، وتفصيل قصة أصحاب الحجر المكفبين وذكر سوء نهايتهم .

٩- بيان أنه تعالى لم يخلق السماء والأرض وما بينهما عبثاً ، وأن الساعة آتية ، وأن على النبي صلى الله عليه وسلم أن يصفح عن قومه ويُسرئ عن نفسه ، حتى يؤمر في شأنهم بما يملكه منهم .

١٠- بيان أنه تعالى آتى نبيه صلى الله عليه وسلم سبعة من المثاني والقرآن العظيم ، وأنه بما اشتمل عليه من الهدى يغنيه عن التطلع إلى الدنيا ، فإن الآخرة خير له من الأولى .

١١- نبيه صلى الله عليه وسلم عن الحزن على المشركين إن لم يؤمنوا ، وأمره بليين الجانب والتواضع لمن معه من المؤمنين ، وأمره أن ينذر المشركين ويخوفهم مما آت إليه أمر المقتسمين الذين اقتسموا طرق مكة ومسالكها ليمسكوا السابلة عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، وينفروهم منه ، فقد أمانهم الله شر مينة ، وسيأتي بيان آراء المفسرين في هؤلاء المقتسمين .

١٢- أمره صلى الله عليه وسلم بأن يصدع بأمر ربه ويبلي دينه ، ولا يكثر بإعراض المشركين ، وأن يجنح للصلاة حين يضيق صدره بما يقولونه عنه وعن دعوة الحق ، وأن يظل على ما هو عليه من عبادة ربه حتى يأتيه اليقين .

• • •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ ① رُبَّمَا يَوَدُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا
وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③)

المفردات :

(وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ)^(١) : أى قرآن مظهر شريعة الله والحق من الباطل ، أو بَيِّن واضح لا يخفى الحق فيه ولا تلتبس معانيه .

(رُبَّمَا)^(٢) : رب حرف يستعمل للتقليل تارة وللتكثير أخرى ، سواء اتصلت به ما أولم تنصل ، وسواء أكان مخففاً أم مشدداً ، ويختص بالدخول على الأسماء إن كان مجرداً من لفظ ما فإن اتصلت به سوغت دخوله على الأفعال كما هنا ، (لَوْ) : حرف يفيد التمني . (وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ) : أى يشغلهم عن طاعة الله .

التفسير

١- (الر) : تقدم الكلام على مثله في أول سورة البقرة وآل عمران ويوسف والرعد وإبراهيم وغيره ، فارجع إليه إن شئت .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ) :

أى تلك السورة العظيمة بعض آيات من هذا الكتاب الجامع لكمالات الكتب السماوية ، الجدير بأن يختص من بين باقى الكتب باسم الكتاب ، وتلك السورة أيضاً بعض آيات

(١) مبين اسم فاعل ، من أبان وهى تستعمل متعدية للمفعول إذا كانت بمعنى أوضح وأظهر ، ولازمة - أى لا تنصب للمفعول - إذا كانت بمعنى اتضح وظهر : وقد بينا ذلك في المفردات .

(٢) وفي رُبُّ لفات أوصلها بعضهم إلى سبع عشرة انظر الألوسى في الآية ، فقد فصل الكلام على تلك اللغات وإعراها .

قرآن عظيم الشأن ، مبين شريعة الله التي ختم بها الشرائع السماوية ، ومُظهرها للناس في أبهى صورها وأوضحها ، وكما يُبينُ شريعة الله فهو واضح في عباراته ومعانيه ، لا يلتبس على قارئ يعرف العربية ، ولا تخفى عليه عجائبه ومزياه .

وبعد أن أشار الله إلى عظمة آيات الله البينات التي منها هذه السورة ، تشويقاً وتوجيهاً إلى حسن تلقيها ، شرع يبين ما اشتملت عليه فقال سبحانه :

٢- (رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) :

أفادت هذه الآية الكريمة ، أن الكفار سوف يحصل منهم بكثرة ، أن يتمنوا في الآخرة لو كانوا مسلمين في دنياهم لكي يتنجوا من استمرار العذاب الذي يقاسونه في الآخرة ؛ كما نجا عصاة المؤمنين بعد أن عذبوا فيها على قدر معاصيهم ، أخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة والبيهقي وغيرهم عن ابن عباس وأنس رضى الله عنهم «أنهما تذاكرا هذه الآية فقالا : هذا حيثُ يجمع الله تعالى بين أهل الخطايا من المسلمين والمشركين في النار ، فيقول المشركون : مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ، فيغضب الله تعالى لهم ، فيخرجهم بفضل رحمته » وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند صحيح عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يُعَذَّبُونَ بِذُنُوبِهِمْ ، فَيَكُونُونَ فِي النَّارِ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونُوا ثُمَّ يُعِيرُهُمْ أَهْلُ الشَّرِكِ فيقولون : مَا نَرَىٰ مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ تَصَدِيقِكُمْ نَفَعَكُمْ ، فَلَا يَبْقَىٰ مُوَحِّدٌ إِلَّا أَخْرَجَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النَّارِ ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْآيَةَ » وذكر ابن الأنباري أن هذه الودادة من الكفار عند كل حالة يعذب فيها الكفار ، ويسلم فيها المسلمون ، ومن العلماء من قال إن هذه الودادة منهم في الدنيا ، فالضحاك يقول : إن ذلك يحدث منهم عند الموت وانكشاف وخامة الكفر لهم حينئذ ، وابن مسعود يقول : إن الآية في كفار قريش ودوا ذلك يوم بدر حين رأوا الغلبة للمسلمين . وحرف (ربما) لم يوجد في القرآن إلا في هذه الآية ، وبأوه مفتوحة مخففة في قراءة نافع وعاصم ، ومشددة في قراءة باقي القراء .

٣- (فَزُهِمُوا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ وَيَتَذَكَّرُوا وَيَتَّقُوا اللَّهَ وَيَتْلُوهُمْ الْآمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) :

بيّن الله في الآية السابقة ، أن الكفار حين يقاسون أشد العذاب يوم القيامة يتمنون أن لو كانوا مسلمين في الدنيا ليتخلصوا من عذابهم الذي كتب عليهم الخلود فيه بسبب كفرهم ، وجاءت هذه الآية تأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتركهم فيما هم فيه من منافع الحياة الدنيا الفانية ، وإعراضهم عن العمل للآخرة ، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وعدم مبالاهم بما دعوتهم إليه من الحق المبين .

والمنعني : اتركهم أيها الرسول في غيهم ، ولا تبال بإصرارهم على الكفر ، فلا سبيل إلى انتفاعهم بنصحك بعد ما بذلت فيه خالص جهدك ، اتركهم يأكلوا ما يشاءون بدون وعي كما تأكل البهائم ، ويتمتعوا بدنياهم بغير حدود كما شاء لهم هواهم ، ويشغلهم عن الآخرة أملهم في طول الأعمار ، ونيلهم الأوطار ، واستقامة الأحوال ، في الدنيا ويوم المال ، فسوف يعلمون وخامة عاقبتهم في أولاهم وأخراهم وأشد مرض تصاب به القلوب طول الأمل ، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه ، وعزّ دواؤه ، وصعب علاجه ، ويشس من برئه حكماؤه . وانتهى أمر صاحبه إلى الشقاء ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعة من الشقاء . جمود العين ، وقساوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ، وبهلك آخرها بالبخل والأمل » . وقال الحسن : ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ
 مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نُزِّلَ
 عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ
 كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا
 إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(مِنْ قَرْيَةٍ) : أى من أهل قرية . (كِتَابٌ مَعْلُومٌ) : أجل مكتوب معلوم لله .
 (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا) : ما تموت أمة قبل الأجل المقدور لها . (وَمَا يَسْتَخِرُونَ) :
 وما يتأخرون عنه . (الذِّكْرُ) : القرآن . (لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ) : أى هلا تأتينا بهم
 ليشهدوا بصدقك يا محمد . (إِذْنٌ) : أى حينئذ .

التفسير

٤ - (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ) :

بعد ما أنذر الله قريشا في الآية السابقة بسوء العقاب بقوله : « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا
 وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » . عقبها بهذه الآية وما بعدها لبيان أن هلاك الأمم الكافرة
 بمشيئة الله وحده وفق أجل معلوم له لا تتجاوز ، فلا يقدمه استعجال ، ولا يؤخره استغاثة
 ودعاء .

والغنى : وما جرت عادتنا أن نهلك قرية عصي أهلها وتمردوا على رسلنا ، إلا ولهذه
 القرية المهلكة أجل مكتوب في اللوح المحفوظ ، معلوم لنا وللملائكة الذين ينقلون فيها .

أمرنا فلا يقدمه استعجال كما فعل قومك حين أنذرهم ، ولا يؤخره استغاثة وتوبة بعد ظهور مقدماته ، ولهذا عقب الله تلك الآية بقوله سبحانه :

٥ - (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) :

أى ما تتقدم أمة من الأمم التى كتب عليها الهلاك - ما تتقدم - على الوقت الذى كتبه الله لهلاكها ، وجعله أجلا وغاية لوجودها ، وما تتأخر عنه لأى سبب من الأسباب ، بل تهلك فى الوقت الذى كتبه الله تماما « وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ » .

٦ - (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) :

هذا شروع فى بيان كفر أهل مكة بمن أنزل عليه الكتاب بعد ما أشير إليه فى صدر السورة من كفرهم بالكتاب نفسه ووعيدهم على ذلك .

والمعنى : وقال مشركو مكة لمحمد صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية - لا على سبيل الاعتراف - قالوا له : يا أيها الذى نزل عليه الذكر من السماء كما تزعم ، إنك لمجنون بسبب هذه الدعوى ، فإنها أكبر من قدره فى تقديرهم الخاطىء ، حيث إنهم زعموا أن النبوة تتبع الرئاسة الدنيوية ، إذ قالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » . والقريتان هما مكة والطائف ، والرجل المقصود فى مكة هو الوليد بن المغيرة المخزومى ، والمقصود فى الطائف حبيب بن عمرو بن عُمَيْرِ الثَّقَفِي كما روى عن ابن عباس . وقيل : عتبة ابن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل فى الطائف - كما روى عن مجاهد ، وقيل غير ذلك -

والذكر فى اللغة له عدة معان منها : الشرف ، وقد أطلق هنا على القرآن كما أطلق عليه فى نحو قوله تعالى فى سورة الزخرف : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ » . وقوله سبحانه فى سورة الحجر : « إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » لعلو شرفه ، وقد عبر المشركون عنه بلفظ الذكر مجازاة للنص القرآنى على سبيل الاستخفاف .

٧ - (لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

لوما ولولا وهلا بحروف ثلاثة يستعمل كل منها للحث على الفعل والحض عليه .

ومعنى الآية : هَلَّا تَأْتِينَا يَا مُحَمَّدُ بِالْمَلَائِكَةِ يَشْهَدُونَ بِصَحَّةِ نَبِيِّكَ ، ويساعدونك في الإنذار كما حكاها الله عنهم بقوله : « لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . » أو يعاقبوننا على تكذيبك إن كنت من الصادقين في دعواك النبوة ، فإن ذلك يكون تأييداً لك من ربك ، ويجوز أن يكون المعنى : إن كنت من جملة الرسل الصادقين الذين عنيت أمهم المكذبة لهم ، وقد رد الله عليهم بقوله :

٨ - (مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ) :

أى ما ننزل الملائكة إلا مرتبطاً بالوجه الذى اقتضته الحكمة ، وليس فيها ما اقترحوه فإن الملائكة إن نزلوا للشهادة بصدقه صلى الله عليه وسلم ، أو لمساعدته في التبليغ ، فيما أن يكونوا على صورتهم الحقيقية أو على صورة بشر ، فإن كانوا على صورتهم فلا يستطيع البشر لقاءهم بل يهلكون ، لأن أعصابهم لا تتحمل القوة الملكية الهائلة التى أودعها الله فيهم ، وفى ذلك يقول الله في سورة الأنعام « . . . وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَفُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ (٨) » وإن كانوا على صورة بشر التبس أمرهم عليهم وظنهم بشراً حقيقيين ، وهذا ما عناه الله بقوله في السورة المذكورة : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (٩) » .

أما إن نزل الملائكة لاستئصالهم على كفرهم كما طلبوه على وجه الاستعجال بقولهم : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » . وقولهم : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِاثِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »^(١) . وقولهم : « رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ »^(٢) - أما إن نزل الملائكة لذلك - فليس من الحكمة أيضاً ، فقد وعد سبحانه أن لا يعذبهم والرسول فيهم بقوله : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »^(٣) . وكانت ثمرة هذا الكرم الإلهى أن دخلوا في دين الله أفواجا قبل أن يلتقى النبي صلى الله عليه وسلم ربه ، وبعد أن بين الله في صدر الآية أنه لا ينزل الملائكة إلا بالحكمة وليس منها ما طلبوه ، ختم الآية ببيان الضرر الذى يحل بهم إن حقق لهم مطلبهم بإنزال الملائكة على أى وجه ، فقال :

(وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ) :

أى وما كان المشركون مهملين حين يُنزل الله الملائكة استجابة لطلبهم ، بل يهلكون لأى سبب مما تقدم بيانه ، أو لأنه تعالى جرت عادته فى الأمم السابقة أنه إذا أتاها بالآيات التى يقترحونها ولم يؤمنوا استأصلهم بالعذاب ، وقد علم الله من أهل مكة أنه لو أنزل ملائكة لم يؤمنوا بسبب نزولهم ، وحينئذ فليس من الحكمة إنزال الملائكة ليكفروا بهم فيهلكوا ، فى حين أنه كتب لهم الإيمان حيث دخلوا فى دين الله أفواجا بعد فتح مكة .

ثم رد الله إنكارهم للقرآن العظيم فقال :

٩ - (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) :

أى إنا نحن - رب السموات والأرض - نزلنا القرآن الذى أنكروا أنه وحى من عندى ، نزلناه عليك ، وإنا نحن بعظم شأننا لحافظون هذا القرآن من التغيير والتبديل والضياع ، ليبقى آية ديننا ودستور شريعتنا مابقى الزمان ، فلن يعتريه تحريف ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان .

ولقد أورث الله قلب كل مؤمن غيرة عليه ، فلا نرى أحداً يتسامح فى لحنه لاحق فيه ، ولو كان شيخاً عظيماً ، بل يسارع إلى رده إلى الصواب ، ولا يخاف فى الله لومة لائم ، ولم يتعهد الله بحفظ كتاب سواه ، أما كتبه السابقة فقد استحفظها الربا نبين والأخبار ، على سبيل الامتحان والاختبار ، فأسأوا الحفظ والرعاية ، وغيروا فيها وبدلوا ، وما لم يبدلوه منها أسأوا تأويله ، وتعمدوا تحويله ، وقد زال أصل التوراة ولم يعد له وجود ، وضاع أصل الإنجيل وانتهى أمره ، ولهذا لا تجد نسخ التوراة أو الإنجيل مماثلة ، فترى بعضها أطول من بعض ، مع الاختلاف فى العبارات والمعانى .

أما القرآن الكريم فإنه نسخة واحدة فى جميع الأمصار والأعصار ، فى عهد رسول الله ، وحين جمعه أبو بكر فى نسخة واحدة ، ثم نسخه عثمان فى أربع نسخ وزعها على الأمصار ، لم يتغير فيه حرف ولا كلمة ، لأنه تعالى تولى حفظه بنفسه منذ أنزله على رسوله بقوله : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . ولم يستحفظ عليه أحداً سواه ، فطبع كل مسلم على الغيرة عليه والمبالغة فى صيانتها بدافع وجدانى ، تنفيذاً لوعده الله الكريم ، ليظل دستور

رسالة الإسلام الخاتمة للرسالات ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح :
« ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة » .

ولا شك أن حفظه من التغيير والتبديل إلى يومنا هذا آية على أنه من عند الله جلّ وعلا .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ
مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ
فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ
الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(شَيْعٍ) : جمع شيعة وهي الفرقة والجماعة على طريقة ومذهب ، مأخوذ من شاع المتعدى
تقول : شاعه بمعنى تبعه ، وتطلق الشيعة على الأعوان والأنصار . (نَسْلُكُهُ) : ندخله ،
ومنه سلكت الخيط في الإبرة . (الْمُجْرِمِينَ) : المذنبين ، يقال أجرم فلان وجرم أى أذنب
كاجترم ، فهو مجرم ، وجريم أى مذنب ، والجريمة الذنب ، وجرم عليهم وإليهم جريمة
جنى عليهم جناية - انظر القاموس . (خَلَتْ) : مضت . (سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) : طريقتهم .

التفسير

١٠- (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ) :

بعد أن بينت الآيات السابقة موقف أهل مكة من دعوة الإسلام وداعيها ، جاءت
هذه الآيات لتسليته صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه له بما حصل للرسول قبله من تكذيب
أقوامهم لرسولهم .

والمعنى : ولقد أرسلنا من قبلك يامحمد رسلا في أمم الأولين ، الذين يشايح بعضهم بعضا في كفره ، ثم بين الله سبحانه كيف تعاملت هذه الأمم مع هؤلاء الرسل فقال :

١١- (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

أى وما يأتى كل أمة من رسول خاص بها إلا كانوا به يسخرون كما فعلت قريش معك يامحمد ، فلا تبتئس أيها الرسول بما فعله جهال قومك معك ، فإن هذه عادة متأصلة في الجاهلين مع سائر المرسلين .

١٢- (كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) :

أى كما أدخل الله كتب المرسلين في قلوب أممهم غير مقبولة لديهم ، مدخل الذكر أى القرآن - في قلوب المجرمين الآثمين من قومك فيكون فيها غير مقبول وسخورا منه ، لفساد عقولهم وظلمة قلوبهم ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ولو شاء لهداهم أجمعين .

١٣- (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) :

أى كذلك نسلك الذكر في قلوب المجرمين من قومك حال كونهم لا يؤمنون به ، وقد مضت سنة الله في الأولين من أمم الأنبياء قبلك على هذا النمط ، فقد كانت كتب الله تدخل قلوبهم مصحوبة بالاستهزاء وعدم الإيمان .

ويصح أن تكون جملة : « وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » مستأنفة لغرض الوعيد والتهديد أى وقد مضت طريقة الله في المكذبين الأولين من الإهلاك والاستئصال بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسولهم ، وأهل مكة إن استمروا على تكذيبهم ، فسوف يحل بهم مثل ما حل بمن سبقهم جريا على سنة الله في المكذبين .

وأعاد بعضهم الضمير في نسله على الاستهزاء وما نشأ عنه من الضلال والكفر ،
ومعنى الآيتين على هذا ما يلي :

أى كما سلكتنا الضلال والكفر والاستهزاء في قلوب الكافرين برسلكهم قبلك ، نسلكه
في قلوب المجرمين من أمثلك يا محمد . لا يؤمنون بسبب ذلك ، وقد مضت سنة الأولين
في الكفر والاستهزاء وهى مماثلة لهم ، وأنت بها عليم فلا تحزن ، أومضت سنتهم في الإهلاك
فليحذر قومك مثل مصيرهم .

ثم بين الله تعالى أن اقتراح قريش نزول الملائكة ليس بغرض الاهتداء بل هو للعناد
والمكابرة فقال :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ
يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ
مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(يَعْرُجُونَ) : يصعدون ، والمعارج . المصاعد . (سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا) : أى حُجِّرَتْ ،
من السُّكْر ضد الصَّحْوِ - كما قال عمرو بن العلاء - أرادوا أنها فسدت ، واعتراها خلل
كما يعتري عقل السكران فيختل إدراكه ، وهذا المعنى قريب من تفسيرها بِخُدْعَةٍ وقيل :
تسكير الأبصار لإغلاقها أو تغطيتها .

التفسير

١٤ - (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ) :

أى ولو فتحننا على كفار مكة باباً من السماء ، ومكانهم من الصعود فيه ، فصاروا يعرجون
ويصعدون فيه بآلة أو بغيرها ، وهم يرون ما في السماء من الملائكة والعجائب في وضوح
واستبانة .

١٥- (لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) :

أى لو فتحنا عليهم باباً من السماء على النحو الذى تقدم بيانه ، لقالوا لفرط عنادهم ومكابرتهم : إنما خُذِصَتْ أَبْصَارُنَا فلم نشاهد شيئاً على الحقيقة ، بل نحن قوم مسحورون مسحنا محمد حتى تخيلنا هذه المراتى ، كما يتخيل المسحور شيئاً لا حقيقة له ولا تراه العيون على حقيقته .

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾
وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ
فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(بُرُوجاً) : جمع برج وهى فى الأصل بمعنى القصور أو الحصون ، ثم أُطلقت على منازل الكواكب والنجوم لأنها تشبهها فى كونها منازل لها ، كما أن القصور منازل لساكنيها . (شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) : أى مطرود من الرحمة ، أو مَرْمِيٌّ بِالرَّجَامِ وهى الحجارة ، فإنهم يُقْلَقُونَ بشظايا النجوم . (أَسْرَقَ السَّمْعَ) : أى اختلس بعض ما يسمع من كلام الملاحكة . (فَاتَّبَعَهُ ^(١)) : أى تبعه . (شِهَابٌ) : شعلة ساطعة تمرق فى الجو بسرعة خاطفة . (مُبِينٌ) : أى واضح من أبان اللازم بمعنى اتضح أو مبين غيره وموضحه ، من أبان الشيء أو ضحه .

التفسير

١٦- (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) :

بعد أن بين الله حال الكافرين بالإسلام والنبوة ومآلهم ، شرع يقيم لهم الأدلة على

(١) يرى الأغفش أن أتبعه بمعنى تبعه ، فليست الهزة لتعدية ، ومثله ردفته وأردفته ، وقبل غير ذلك - انظر الآلوسى .

وحدانية الله وقدرته وكماله ، لعلمهم يتركون الشرك الذي حملهم على تكذيب النبوة المؤسسة على التوحيد .

والمعنى : ولقد خلقنا في جهة السماء منازل تتنقل فيها الكواكب والنجوم على نظام فائق لا يختلف ولا يضطرب ، وجعلناه بحيث تترتب عليه مصالح البشر في معاشهم ، وزينا السماء لمن ينظر إليها ويتأمل في زينتها وجمالها وإحكامها وتماسكها في الفضاء بقدرته مبدعها ، ووظائفها التي أنشأها الله من أجلها ، لينتقل الناظر من رؤيتها إلى التفكير في عظمة مبدعها ووجوب اتصافه بالوحدانية ، وتنزهه عن الشريك والنظير .

١٧ - (وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) :

أي وحفظنا السماء من كل شيطان مطرود من رحمة الله ، فلا سبيل له ولا لذريته إليها بعد أن أهبطه الله عقاباً على امتناعه عن السجود لآدم بعدما أمره الله به ، وقد استثنى الله بعضهم بقوله :

١٨ - (إِلَّا مِنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ) :

أي أنه تعالى حفظ السماء من الشياطين إلا من اتجه نحوها واختلس بعض الكلام المسموع الذي يجري بين أهل الملأ الأعلى من الملائكة ، فإنه لا يمكن من الاستمرار في استماعه واستراقه ، بل يتبعه شهاب بين واضح فيقتله أو يخبله ، وفي ذلك يقول الله في سورة الصافات : « إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ »^(١) والشهاب من الشبهة ، وهي بياض مختلط بسواد وليست بالبياض الصافي ، والشهب أجزاء حجرية انفصلت عن الكواكب وجعلت تدور في الفضاء ، فإذا وصلت إلى جاذبية الأرض جذبتها إليها بسرعة خارقة فتشتعل وتوهج باحتكاكها الشديد بالغلاف الجوي المشتمل على الأوكسجين الذي يساعد على الاحتراق ، وهو من الظواهر الكونية القديمة ، وقد كان الكهان ينتفعون بما ينقله الشياطين إليهم من أخبار الأرض التي تجري في الملأ الأعلى ، فيكتسبون قداسة في نظر أتباعهم إذا حدثوهم عن الغيوب المنتظرة التي عرفوها من الشياطين المسترقين للسمع ، فوقعتم كما أخبروهم بها فلما بعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، اشتدت حراسة السماء

بالملائكة والشهب ، لإبطال عهد الكهان بمنع الغيوب عن أن تصل إليهم ، وإقامة صرح الحق الذي بعث به خاتم المرسلين ، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الجن حكاية عن بعض مؤمنيهـم : « وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً فَخَرْنَا شَدِيدًا وَشُهْبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا (٩) » قيل للزهري : أكان يرى في الجاهلية ؟ قال نعم ، قيل : أفرأيت قوله تعالى : « وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا » . قال الزهري : غلظ وشدد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم .

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝ ١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشٍ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ۝ ٢٠ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝ ٢١)

المفردات :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا) : أى بسطناها ووسعناها . (وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ) : أى وخلقنا فيها جبالاً ثوابت ، فرواسى جمع راس بمعنى ثابت وفعله رسا بمعنى ثبت ، ومثله أرمى إذا كان لازماً ، وقد يتعدى ، تقول : أرسيت السفينة أى ثبتت ووقفت ، وأرسيتهأ أى أوقفتها وثبتها . (مَوْزُونٍ) : مقدر بحكمة . (مَعَايِشَ) : أى أسباباً تعيشون بها .

(وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) : قيل المراد بهم الأولاد ، وقيل اللواب والأنعام ، والأولى . التعميم ليشمل الأولاد والحيوانات التى ينتفع بها . (خَزَائِنُهُ) : أى أسباب تحصيله والاستيلاء عليه (بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) : بمقدار يعلمه الله وتقتضيه حكمته .

التفسير

١٩ - (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ) :

لا يزال الكلام متصلاً في آيات الله ونعمه ، فقد بين الله في هذه الجملة أنه تعالى مد الأرض ، أى بسطها ووسعها بحيث تكون صالحة لكى يعيش عليها الإنسان والحيوان ، ولإنبات ما يعيشون به . وظاهر النص يفيد أن الأرض خلقت أولاً غير ممدودة ، ثم طرأ عليها المد ، حسباً تقتضيه الحكمة في التدرج التكويني ، ويشهد لذلك قوله تعالى في سورة (النازعات) : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » . ولم يقتصر إنعامه على مجرد مدها ، بل جعلها كالفرش المهدود ، كما قال سبحانه : « وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ^(١) » . وكما أنه تعالى خلق الأرض وبسطها ومهداها ، خلق فيها جبلاً شوامخ ثوابت ، لكى تحفظها من الاضطراب بأهلها ، حتى يستريح أهلها عليها ، ولا يتعرضوا للهزات المدمرة الكثيرة ، وكان ذلك منه حكمة في التكوين ، ورحمة بالعباد وآية على عظمته وجلاله ووحدانيته وكبريائه ، وبسط الأرض لا ينافي أنها كروية الشكل ، فإنها لعظمتها ترى كالسطح المستوى في حين أنها كرة تدور حول نفسها تحت شمسها التى ترتبط بها ، والتعبير عن خلق جبالها عليها بإلقائها فيها ، لإبراز كمال سهولته على الله ، كأنها شئ يسير موجود يلقى بسهولة في الموضع الذى أريد له ، فسبحان من يقول للشئ كن فيكون .

(وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ) :

أى أنه تعالى أنبت في الأرض التى بسطها وفرشها لنا - أنبت فيها - من كل نبات مقدر عنده بحكمة ، ومعلوم له أنه لمصلحة عباده قوتاً أو دواءً ، أو وقاية من داء ، ومعلوم له أنه لمصلحة ما سخره لهم من الحيوانات المختلفة .

واستعمال الوزن بمعنى التقدير والعلم معروف في لغة العرب ، قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مرة عندي لكل مخاصم ميزانه

أى عندى لكل خصم تقدير له وعلم به ، وهو معنى مجازى للوزن الذى هو فى الأصل تقدير الشيء بالميزان الحسى المعروف ، فاستعمل هنا فى لازم معناه ، وهو مطلق التقدير والعلم .

وفسر الحسن وابن زيد الإنبيات بالإنشاء ، والوزن بمعناه الحقيقى مع إعادة الضمير على الجبال والمعنى على هذا رأى : وأنشأنا فى الجبال الرواسى من كل شيء يوزن حقيقة ، كالذهب والفضة والنحاس والرصاص إلخ ، والمعنى الأول أظهر .

٢٠ - (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَنْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) :

بين الله سبحانه فى الآية السابقة أنه أنبت لنا فى الأرض أقواتنا وما نتقى به العلل والأمراض من مختلف النباتات ، وبين فى هذه الآية أنه يسر لنا فيها أسباب المعاش المختلفة ، ولم يجعلها قاصرة على الزراعة ، كما أنعم علينا بالأولاد والأنعام وتكفل بأرزاقهم والمعنى : وجعلنا لكم فى الأرض التى بسطناها أسباباً للمعيشة كالصناعة والهندسة والزراعة والطب وغير ذلك من الحرف المختلفة ، وجعلنا لكم أيضاً أولاداً تقر بهم أعينكم ، وأنعاماً تحملون عليها أثقالكم ، وتستكملون بها أرزاقكم ، ولم نكلفكم شيئاً من أرزاق هؤلاء وأولئكم ، بل تكفلنا بأرزاقهم كما تكفلنا بأرزاقكم ، ثم بين أن كل شيء خاضع لتصرفه وحكمته فقال سبحانه :

٢١ - (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ) :

ليس المقصود من الخزائن حقيقتها فإنه تعالى لا تختزن مقدوراته فى خزائن ، كما يختزن الملوك نفائس الأموال فيها ، بل الآية فيها أسلوب بلاغى رفيع . ففيها استعارة مكنية تخيلية ، أو استعارة تمثيلية .

والمعنى : وما من شيء من المقدورات التى ينتفع بها الخلائق إلا وهو مقدور لنا خفى عن أبصار عبادنا ، لا تصل إليه عقولهم وعلومهم قبل أن نبرزه لهم ، ونؤمن به عليهم ، فهو يشبه النفائس الخبيثة فى خزائن الملوك ، فلا تعلمها رعاياهم ، ولا قدرة لهم على

شيء منها ، حتى يبرروا بعضها لهم ، وينعموا بشيء منها عليهم ثم يختم الله الآية بما يفيد أن الإِنعام مضبوط بضوابط الحكمة ، وذلك بقوله تعالى :

(وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) : أى وما ننزل الأمر بالشيء الذى ننعم به على عبادنا إلا مضبوطاً بقدر معلوم يتفق مع الحكمة فى نوعه وزمنه وقدره وأهله استحقاقاً أو ابتلاءً أو إملاءً ، ويجوز أن يكون تنزيل الشيء المنعم به مجازاً عن إبرازه وإيجاده ، والله أعلم - وعبر عنه بالتنزيل لأنه ناشئ عن أسباب سماوية ، فكأنه منزل من أعلى إلى أدنى .

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ
وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ
مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ
إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(الرِّيحَ لَوَافِحَ) : أى حوامل بالماء ، جمع لاقح بمعنى حامل ، فهو من قولهم : ناقة لاقح ونوق لواقح إذا حملت الأجنة فى بطونها ، أو مُلقحات للشجر كما قال أبو عبيدة وسيأتى بسط الكلام على ذلك فى تفسير هذه الآية . (مِنَ السَّمَاءِ) : من السحاب . (فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ) : أى فجعلناه لكم مسقى تسقون به مزارعكم ، قال الأزهري : العرب تقول لما كان من بطون الأنعام أو من السماء أو من نهر جار أسقيته ، أى جعلت له منه مسقى ، فإذا كان للشفة قالوا سقى ولم يقولوا أسقى ، وقال أبو علي : يقال : سقيته حتى

رَوَى وَأَسْقَيْتَهُ نَهْرًا ، أَى جَعَلْتَهُ شَرِبًا لَهُ أَى مَوْزِدًا لَشَرْبِهِ . (وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) :
 أَى وَلَيْسَ لَكُمْ شَأْنٌ فِى إِيجَادِهِ وَحِفْظِهِ لِيَنْزِلَ عَلَيْكُمْ وَقْتُ الْحَاجَةِ ، أَوْ وَلَيْسَ لَكُمْ شَأْنٌ
 فِى حِفْظِهِ فِى مَجَارِيهِ وَأَبَارِهِ لِيَكُونَ تَحْتَ طَلْبِكُمْ ، فَكُلْ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ :
 (الْوَارِثُونَ) : الْبَاقُونَ بَعْدَ فَنَاءِ الْخَلْقِ . (الْمُسْتَقْدِمِينَ) : مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْأُمَمِ فَمَاتَ
 قَبْلَهُمْ (الْمُسْتَأْخِرِينَ) : مَنْ هُوَ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ بَعْدَ . (هُوَ يَخْشُرُهُمْ) : يَجْمَعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 لِقِصَلِ الْقَضَاءِ .

التفسير

٢٢- (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ) :

بين الله تعالى فى الآية السابقة أن كل شىء من أرزاق الخلق ومنافعهم تحت سيطرته
 تعالى ووفق مشيئته ، وأنه فى يسره عليه واختفائه عن خلقه ، كأنما هو مخزون فى خزائن ،
 بحيث يسهل إخراجهم وإبرازهم ومفاجأة عبادهم به فى أى وقت يشاؤه ، ليدخل به القرح
 عليهم ، وأنه حين يبرزه يكون إبرازهم بقدر معلوم يتفق مع الحكمة ومصالح العباد - وجاء
 بهذه الآية والتى تليها ، ليبين بعض الأسباب التى أبدعها سبحانه لتوصيل الرزق والخير
 لعباده بيسر وسهولة .

وقبل الكلام على معنى الآية نقول : إنه تعالى يسلط حرارة الشمس على المحيطات
 والبحار المالحة والأنهار العذبة والمستنقعات وكل رطوبة فوق سطح الأرض ، فتخرج حرارة
 الشمس من تلك المياه بخاراً عذباً لا أثر للملوحة فيه ، ويسلط الله الرياح على هذا البخار
 لترفعه إلى حيث يكون سحاباً فيبسطه الله فى الفضاء كيف يشاء ، ويرزق به من عباده
 ما يشاء ، وبغد هذا التمهيد نقول فى معنى الآية ما يلى :

المعنى : وأرسلنا الرياح حوامل ببخار الماء وذرات التراب وأسباب الخير والنفع حتى إذا وصلت
 إلى مستوى معين تحول ما حملته من البخار إلى سحاب كثيف فتصبح الرياح ثقيلة الحمل ،

كما قال تعالى في سورة الأعراف : « حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مُبِينٍ »^(١)
 أى حملت سحاباً ثقالاً .

وقيل « لَوَاقِحَ » بمعنى مُلْقَحَاتٍ للشجر ، حكى المهدوى عن أبي عبيدة : لواقع
 بمعنى ملاقع جمع مُلْقِحَةٍ أو مُلْقِحٍ بحذف الزوائد .

فإن كان يقصد أنها تلحق إناث الأشجار بطلع ذكورها ، فذلك واقع بالفعل ، ولكن
 حمل الآية على هذا المعنى يبعده قوله تعالى عقبه : « فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ »
 فإن ذلك يؤذن بأنها حوامل بالماء ، أو ملقحات للشجر بالماء الذى ينزله الله من السماء ،
 ولذا عبر بالفاء التى تفيد أن إنزال الماء من السحاب مترتب على كون الرياح لواقع بالماء
 والله تعالى أعلم .

(فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ) :

أى فأنزلنا من السحاب الكثيف الذى أقلتته الرياح - أنزلنا - منه مطراً ، فأعدناه
 وهبائنا لسقياكم وزروعكم ومواسيكم ، حيث حفظناه فى بحيرات وأجريناه فى أنهار وجداول
 واخترنا بعضه فى جوف الأرض ، لكى تنتفعوا به وقت الحاجة بحفر الآبار وتفجير العيون .
 (وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) :

أى أن هذا المطر الذى ننزله من السحاب لم تختزنوه أنتم ، ولا علم لكم به من قبل
 أن يأتيكم ، أو لستم له بحافظين فوق سطح الأرض أو فى جوفها ، لتنتفعوا وقت حاجتكم
 بل الله تعالى هو الذى سخر لكم أمسيابه ، وحفظه لكم فى مجاريه وخزائنه ، وهو قادر على
 إمساكه منكم ، والذهاب به إذا أتاكم ، كما قال تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ
 فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ » .

وبعد أن بين أنه تعالى مصدر أرزاقهم ، عقبه ببيان أنه هو الذى يحييهم ويميتهم
 ويرثهم فقال :

٢٣- (وَأَنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) :

أى وإنا نحن الذين ننشئكم من العدم ، ونجعلكم أحياء ترزقون ، ونحن الذين نميتكم وننزع الروح من أجسادكم ، ونحن الوارثون لكم ولأموالكم ولكل شيء في هذا الوجود وكل ما أعطيناه للخلق فهو عارية مستردة ، والملك لله الواحد القهار .

٢٤- (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْلِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ) :

أى ولقد علمنا من سبقوكم من بنى جنسكم ، فإننا نحن الذين أحييناهم وأمتناهم ، وعلمنا أيضاً المتأخرين ممن هم أحياء أو سيوجدون بعدكم ، فإن الخالق الرازق الوارث لا يغيب عن علمه شيء ، وكيف يغيب أحد من خلقه عن علمه وهو الذى سيحشرهم ليجازيهم كما ينطق به قوله سبحانه :

٢٥- (وَلَا رَيْبَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) :

أى وإن ريبك أيها الرسول هو وحده الذى يحشرهم ويجمعهم للحساب والجزاء على حسب أعمالهم ، لأنه تعالى حكيم يضع الشيء في موضعه ، فلا يسوى محسناً بمسئو ، واسع العلم فلا يغيب عنه عمل عامل - وبعد أن بين الله تعالى أن مصير العباد إليه وجزائهم عليه ، شرع يبين قصة آدم مع إبليس ، ليعرف البشر عداوته لهم فيحذروه ، فقال سبحانه :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝٢٦
وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ۝٢٧)

المفردات :

(صَلْصَالٍ) : هو الطين اليابس الذى إذا نقر يكون له صوت ، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار ، وبهذا قال معظم المفسرين ، وقال مجاهد : الصلصال هو الطين المتين واختاره الكسائي وهو مأخوذ من قول العرب : صَلَّ اللَّحْمُ وَأَصْلٌ إِذَا أَتَتْ .

(مِنْ حَمًا مُسْنُونٍ) : أى من طين أسود مُنْتِن ، وفسره بعضهم بِمَصُور ، ومنه سُنَّةُ الوجهِ أى صُورته ، قال حمزةُ يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :
أغر كان البدر سُنَّةً وجهه ————— جلا الغيم عنه ضوؤه فتبددا

وفسره بعضهم بمصوب ، من سنَّ الماء صبّه . (وَالْجَانُّ) : قيل هو أبو الجن - وروى عن ابن عباس ، وقيل هو اسم لجنس الجن - كما قاله ابن بحر ، وقيل هو إبليس وروى عن الحسن وقتادة - (نَارِ السُّمُومِ) : المراد بها النار التي لادخان لها - كما جاء في إحدى الروايتين عن ابن عباس .

التفسير

٢٦ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمًا مُسْنُونٍ) :

المراد من الإنسان هنا أصله وهو آدم عليه السلام ، أو الجنس كله تبعاً لأصله والمعنى ولقد أوجد الله آدم عليه السلام من طين جاف مُتَحَوِّلٍ من طين أسود منتن وقد كان أساسه الأول تراباً^(١) ، فلما خلط بالماء صار طيناً^(٢) ، فلما اسود وأنتن صار حمًا مسنوناً ، فصور الله منه تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صلصل أى ظهر لنقره صوت بسبب جفافه ، ثم غيره الله طورا بعد طور حتى نفخ فيه الروح بعد أن تمت صلاحيته لنفخها فيه فتبارك الله أحسن الخالقين .

٢٧ - (وَالْجَانُّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ) :

قد علمت في بيان معاني المفردات اللغوية ، أن بعض العلماء فسر الجان بأنه جنس الجن ، وعلى هذا الرأي تكون هذه الآية الكريمة مسوقة لبيان أن الله تعالى خلق الجن كما خلق الإنس وأنهم خلقوا قبل آدم ، وأنهم خلقوا من نار ، بخلاف آدم فقد خلق من طين

(١) وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الروم : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتشرون » .

(٢) وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة المؤمنون : « ولقد خلقنا الإنسان من صلالة من طين » .

كما علمت أن بعضهم فسر الجان بإبليس ، ليناسب ما سيأتى فى قصة آدم من أنه امتنع عن السجود له لأنه خلق من نار ، وخلق آدم من حمى مسنون ، وكل من الرايين أهل للاعتبار والقبول . « السُّمُوم » : الريح الشديدة الحرارة سميت بذلك لأنها تنفذ فى المسام ، وقيل هى نار لادخان لها - رواه الضحاك عن ابن عباس ، وعليه فإضافة النار إلى السموم من إضافة العام إلى الخاص .

والمعنى : وجنس الجن أو إبليس خلقه الله من قبل آدم ، وكان خلقه من نار شديدة الحرارة لاشيء فيها من الدخان .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ
حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي
فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾
إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾)

الفردات :

(مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) : تقدم بيانها .

(سَوَّيْتُهُ) : جعلته سوياً معتدلاً .

(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي) : ونشرت فيه من الروح المنسوب إلى نسبة تشريف وملكو وإيجاد ، فأرواح العباد منسوبة إلى الله نسبة ملك وإيجاد ، وليست جزءاً من روحه تعالى ، فهو منزّه عن التجزئة والتبعض .

(فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) : فخرّوا لآدم خاضعين .

التفسير

٢٨- (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) :

أجمل الله قصة خلق الإنسان في قوله سابقاً: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ». وقصة خلق الشيطان في قوله: «وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ». تمهيداً للحديث المفصل الذى تحكى فيه هذه الآية وما بعدها من الآيات ماجرى بين الله وبين ملائكته في شأن خلق آدم وأمرهم بالسجود له ، وخضوعهم لأمره سبحانه ، وعصيان إبليس تكبراً وغروراً ، ووسوسته لآدم حتى أخرجه من الجنة ، ووعيده بإغواء ذريته إلا عباد الله المخلصين إلى آخر ما سيأتى بيانه في الآيات الواردة في هذا الشأن ، والغرض من سوق هذه القصة تحذير عباد الله من وسوسة الشيطان الذى أغوى أباهم آدم ، وهو لإغوائهم وإضلالهم بالمرصاد ، حتى يحذروه ولا يغتروا بوسوسته ، فالخطاب في الآية وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم ، فالمقصود منه بيان القصة لأئمة عن طريقه ، لأنه إمامهم - صلى الله عليه وسلم - .

والمعنى : واذكر أيها الرسول لأمتك وقت أن قال ربك للملائكة -إنى خالق فى الأرض إنساناً من صلصال من حمإ مسنون ليكون فيها خليفة عنى فى عمارتها وتنفيذ شريعى فيها ، أو خليفة عمن سبقه فى سكناها بعد ما هلكوا ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى فى سورة البقرة :

«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً^(١)» ، وسمى الإنسان بشراً لظهور بشرته ، وهى ظاهر الجلد ، حيث لا يوجد عليها صوف ولا وبر ونحوهما بخلاف سائر الحيوانات .

وبعد أن ذكرنا فى تفسير الآية السابقة : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ» أن المراد من الصلصال الطين الجاف الذى يصلصل ويصوت إذا نُقر ،

وأن المراد من الحمل المسنون الطين الأسود المتين ، بعد أن ذكرنا هذا نقول :

من العلماء من فسر الصلصال بالطين المتين وهو رأى مجاهد واختاره الكسائي ، وهو مأخوذ من قولهم صل اللحم أى أنتن ، ومنهم من فسر المسنون بالمُصَوَّر ، ومنه سُنَّة الوجه أى صورته ، ومنهم من فسره بمصبوب - كما تقدم بيانه ، وعلى هذه الآراء اللغوية ، يكون تفسير الآية ما يلي :

واذكر أيها الرسول حين قال ربك للملائكة إني خالق إنساناً من طين متين مصبوب على صورة بشر . فسبحان من ينقل الشيء بقدرته من النقيض إلى النقيض .

٢٩ - (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) :

التسوية جعل الشيء سويًا معتدلاً ، وتسوية بشر من صلصال من حمإ مسنون جعل الصلصال المذكور في صورة بشر سوى صالح لنفخ الروح فيه ، بأن ينقله الله من طور إلى طور إلى أن يصبح لحماً وعظماً وأعصاباً وشرابين وأوردة تسرى فيها روح الحياة - والنفخ في الشيء هو دفع الريح فيه بالنفث أو غيره ، ونفخ الروح في تمثال آدم المتطور ليس من هذا القبيل ، بل هو تمثيل لنشر الروح في جميع أجزائه ، فلم يكن في بث الروح فيه نفخ ولا نافخ على الحقيقة ، وقد اختلف العلماء في تعريف الروح ، فمنهم من قال إنه جسم شفاف يحل بالجسد ويسرى فيه سريان الماء في العود الأخضر ، ومنهم من قال إنه عرض يحل بالقلب أو الدماغ حلول العلم في العالم ، ومنهم من قال إنه جوهر مجرد ليس داخل البدن ولا خارجه ، ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه . والأسلم عدم الخوض في تعريفه ، فقد قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا^(١)» ، وخبر ما يقال فيه إنه سر من أسرار الله تحيا به الأبدان حينما يتصل بها ، وتموت حينما ينفصل عنها .

والروح مخلوق من مخلوقات الله تعالى ، وقد أضافه الله إلى نفسه تبشيراً وتكريماً ، كقوله في الأرض والسماء أرضى وسماي مثلاً ، وفي البيت الحرام بيتي أو بيت الله . وفي ناقة صالح ناقة الله ، وفي الشهر الحرام شهر الله .

وهذه الآية ترد على النصارى الذين استدلوا من القرآن على أن المسيح ابن الله ، بنحو قوله تعالى : « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا » ^(١) فقد زعموا أن هذا النص وأمثاله يدل على أن المسيح جزء من روح الله وبعض منه ، فيكون بهذه البعضية ابن الله ، لأن الولد بعض أبيه ووجه الرد عليهم بهذه الآية أنه لو كان فهم الآية على نحو ما زعموا لاقتضى ذلك الفهم السقيم أن يكون آدم ابناً لله ، لأنه قد ورد في مثل ما ورد في عيسى وذلك قوله هنا : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي » . وأنتم لا تقولون بذلك فلا وجه للفرقة بينهما في دلالة النص ، فإذا لم يدل النص في آدم على بنوته لله ، بل على أنه مخلوق شريف من مخلوقات الله ، فكذلك النص الوارد في عيسى ، فروحه مضافة إلى الله إضافة المخلوق للخالق تبشيراً وتكريماً ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » ^(٢)

ومعنى الآية إجمالاً : فإذا جعلت هذا البشر من الصلصال سوباً معتدلاً متطوراً بحيث يصلح للحياة نفخت من الروح المنسوبة إلى خلقاً وشرفاً - إذا فعلت ذلك هذا البشر - فخروا له ساجدين ، تحية وتكريماً .

وقيل أمروا بالسجود لله عبادة وتعظيماً عند تسويته آدم ونفخ الروح فيه ، والمعنى الأول أنسب .

٣٠ - (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) :

أي فسجد الملائكة لآدم بعد تمام خلقه ونفخ الروح فيه ، تحقيقاً لما شرطه الله وأوجبه

(١) سورة التحريم الآية ١٢ :

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٩ :

عليهم قبل خلقه ؛ من السجود له بعد تمام خلقه ، ولم يتخلف عن السجود إلا إبليس كما حكاها الله بقوله :

٣١- (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) :

أى فسجد الملائكة جميعاً إلا إبليس ، فإنه امتنع من أن يكون معهم فى سجودهم ، وقد اعتبره الله آثماً بامتناعه عن السجود معهم ، وعاقبه بإخراجه من الجنة ولغنه كما سيأتى بيانه .

فإن قيل : إن الأمر بالسجود موجه إلى الملائكة ، وإبليس ليس منهم بل هو من الجن ، لقوله تعالى فى سورة الكهف : «إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» .ولأنه لو كان من الملائكة لسجد ، لأنهم كما قال الله فيهم : «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ»^(١) ، وإذا لم يكن من الملائكة فكيف اعتبر آثماً مع أن الأمر بالسجود لايتناول ، لأنه خاص بالملائكة ؟

وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة نختار منها اثنين .

أحدهما : أنه وإن لم يكن من الملائكة نوعاً فهو منهم إقامة ، حيث كان يقيم بينهم ، فيسرى عليه ما يسرى عليهم من التكليف ، كالرجل يعيش فى غير قبيلته ، فتسرى عليه أحكام القبيلة التى يعيش فيها .

ثانيهما : أنه كان مأموراً بأمر خاص به ، ولم يصرح به فى التكليف ابتداءً ، اكتفاء بالإشارة إليه فى التوبيخ صراحة على عصيانه ، وذلك بقوله تعالى فى سورة الأعراف : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ »^(٢) .

(١) سورة التحريم من الآية : ٦

(٢) سورة الأعراف من الآية : ١٢

(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ
أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾
قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ
الَّذِينَ ﴿٣٥﴾)

الفردات :

(مَا لَكَ أَنْ لَا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) : أى سبب لك فى عدم سجودك مع الملائكة .
(حَمَلٍ مَسْنُونٍ) : طين أسود منتن . (رَجِيمٌ) : مطرود من كل خير ، وأصل الرجم
الضرب بالرَّجَام وهو الحجارة ، ثم كُنِيَ به عن الطرد . (اللَّعْنَةُ) : أى الإبعاد على
سبيل السخط .

التفسير

٣٢- (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) :

أى قال الله لإبليس توبيخاً له بعد امتناعه عن السجود لآدم : أى سبب لك فى أن
لا تكون مع الملائكة الساجدين له استجابة لأمرى ، وتعظيماً لقدركى .

٣٣- (قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ) :

أى قال إبليس لربه بعد أن وبخه على تركه السجود لآدم : لا يستقيم منى وقد خلقتنى
من نار ، أن أسجد لبشر خلقتة من طين جاف أصله من طين أسود منتن ، ويعنى بذلك
أن مادته التى خلق منها وهى النار ، أشرف من المادة التى خلق منها آدم وهى الطين الأسود
المنتن ، فهو بذلك أعظم منه أصلاً - كما زعم - ، فكيف يسجد من أصله أعظم ، لمن أصله
دونه ، وقد أخطأ اللعين فى هذا القياس ، فإنه لأفضل للنار على التراب ، فالتراب أسلس
لكل حى ، والنار تهلك كل حى ، كما أن الفضل ليس باعتبار المادة وحدها ، فلا بد من أن

بضاف إليها الصورة والفاعل والغاية ، والتحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل ، وآدم قمة في هذا كله ، فقد خلقه الله في أحسن تقويم ، وخلق من غير واسطة وبلا وسائل ، كما يشير إليه قوله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِإِيدِيَّ » . كما أن الغاية من خلق آدم وذريته الخلافة عن الله في الأرض وأنه كان في أعلى مكارم الأخلاق ، فأين من هذا كله خلقه من نار .

٣٤- (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ) :

أى قال الله لإبليس ، بعد أن أعلن استعلاءه وشكبه عن آدم - قال الله لإبليس - اخرج من زمرة الملائكة أو من منزلة الكرامة التى كنت فيها أو الجنة - اخرج منها - فإنك مرجوم ومطرود من كل خير وكرامة .

وقيل : المراد من كونه رجيماً أنه وجميع الشياطين سوف يُرْجَمُونَ بالشهب ، فيكون في هذا المعنى إشارة لطيفة إلى أن اللعين لما افتخر بالنار توعد الله بالتعذيب بها في الدنيا : كعابد النار يهاها وتحرقه .

٣٥- (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ) :

أى وإن عليك الإبعاد من رحمة الله إلى يوم الجزاء ، فلا يوفقك في الدنيا للتوبة من شقوتك ولا يمدك فيها بقبس من هداية ، ولا يعفو عنك في الآخرة ، بل يجعل مقرك النار وبئس القرار .

وقيل إن المراد باللعة هنا لعنة الخلائق له ، بأن يكون موضع سخطهم وطلبهم من الله إلى يوم الجزاء أن لا يرحمه ، والمقصود منه يوم النفخة الأولى التى يموت عندها الخلائق ، فإنه من يوم الدين ، لأنه مقدمة له ، والتفسير الأول أولى .

(قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(فَأَنْظِرْنِي) : فَأَخِّرْنِي ، الإِنظار التَّأخير . (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) : المراد من
اليوم الحين مطلقاً ، أى إلى حين الزمن المعلوم لله دون سواه .

التفسير

٣٦- (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ) :

بعد أن سمع إبليس حكم الله عليه بالطرد من رحمته ودار كرامته ، وبشديد عقوبته ،
سأل ربه سبحانه أن يؤخر موته إلى يوم يبعث فيه آدم وذريته للجزاء ، وقد أراد الخبيث
بذلك أمرين : أحدهما : أن يتسع له المدى لإغوائهم ، حتى يشتركوا معه في سوء
مصيره ، وليأخذ ثأره كاملاً منهم ، فإنهم سبب شقائه ، فإن علم سجوده لأبيهم كان
السبب الأول في نكبته ، ولو كان عنده إنصاف لأدرك أن غروره وكبريائه هما محور
شقائه . والغرض الثاني : من طلبه الإمهال إلى يوم البعث أن ينجو من الموت - إذ لا موت
بعد البعث ، وإلى هذا الغرض ذهب ابن عباس والسدي وقد حكى القرآن ما أجاب به الله
على سؤال إبليس بقوله :

٣٧، ٣٨- (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) :

أى فإنك من المؤخرين إلى حين الزمن المعلوم لله وحده ، وتنتهى عنه حياة الخلائق
وهو وقت النفخة الأولى كما قال سبحانه : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مِنْ شَاءِ اللَّهِ^(١) ، فتموت حينئذ كما يموتون ، مصداقا لقوله تعالى : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ »^(٢) ولن أؤخرك إلى يوم البعث كما طلبت لتفتر من الموت كما أردت . وهنا سؤالان ؛ أحدهما : كيف كلمه الله ؟ وثانيهما : كيف أجابه الله إلى ما سأل مع أن فيه شقاء خلقه ؟

والجواب عن الأول : أنه تعالى كلمه على لسان ملك يبلغه ، أو كلمه وهو يسمع تغليظا عليه ، وتشديدا في الوعيد . وليس على وجه التكريم والتقريب .

والجواب عن الثاني : أنه تعالى منحهم ما من شأنه حمايتهم من شره ، وهو نور العقل ، ودوافع الخير ، وآيات الهدى ، ودعاة المثل العليا من النبيين والمرسلين والصادقين ، فهذه العوامل تمثل في الروح أسباب المناعة الخلقية ، كما تمثل الكرات البيضاء في الدم أسباب المناعة من الأمراض الجسدية ، وصدق الله تعالى إذ يقول في سورة العنكبوت : « أَلَمْ أَحْصِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ » .

ولقد أدرك الشيطان قيمة الحماية التي منحها الله عباده ، فاعترف بها إثر وعيده وذلك ما يحكيه الله بقوله :

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ^(٣) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ^(٤))

الفردات :

(بِمَا أَغْوَيْتَنِي) : بسبب إغوائك إياي ، والمراد من إغواء الله إياه قضاؤه عليه بالغواية بسبب تكبره وعدم خضوعه لأمره تعالى . (الْمُخْلَصِينَ) : الذين أخلصتهم لطاعتك .

(١) سورة الزمر من الآية ١٨

(٢) سورة الرحمن الآية ٢٦

التفسير

٣٩- (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) :

بعد أن سمع إبليس الحكم من الله بإنظاره وإمهاله ؛ قال يارب بسبب حكمك على بالغواية من أجل آدم ، لأحسّن لذريته في الأرض المعاصي وأسباب الضلال حتى يضلوا ويكونوا أجمعين شركائي فيه ، فلا أبقى فيه وحدي ، وكما قدرت على إغواء أبيهم في الجنة حتى عصى ، فإنني سأقدر على إغواء بني في الأرض حتى يعصوا ، ولما أدرك اللعين أنه تعالى قد يمنح عباده الصالحين الحماية منه ، احتاط فاستثناهم من وعيده وذلك ما يحكيه الله بقوله :

٤٠- (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) :

أي لأضلن ذرية آدم أجمعين ، إلا عبادك الذين أخلصتهم لطاعتك ، وحصنت نفوسهم من الخضوع لعوامل الشر والضلال ، والتأثر بمغريات المعاصي ، فهؤلاء لا سبيل لي إليهم ولا سلطان لي عليهم .

(قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ①) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ② وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ③ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ④)

المفردات :

(صِرَاطٌ عَلَيَّ) : طريق ألزم به . (سُلْطَانٌ) : تسلط واستيلاء
(الْغَاوِينَ) : الضالين عن الهدى . (جُزْءٌ مَقْسُومٌ) : فريق مفروز في علمنا مميز .

التفسير

٤١- (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ) :

لما استثنى إبليس المخلصين من التأثير بإغوائه ، لما أدركه فيهم من الحصانة الدينية والطهارة النفسية التي وهبها الله لهم ، قال الله مؤكداً حمايته وحفظه لهم : هذا الذي قلته أنت من أن المخلصين لا سبيل لك عليهم ، طريق ومنهج مستقيم (على) أن ألزم به نحوهم ، فلا أسطك عليهم ، بل أحبيهم من وسوستك وإضلالك إياهم - وقد ألزم الله تعالى نفسه بذلك تفضلاً منه على عباده المخلصين ، حماية لهم من إغوائه - وقال مجاهد والكسائي في تفسير الآية : هذا على الوعيد والتهديد ؛ كقولك لمن تهدده : طريقك على ، ومصيرك إلى ، وكقوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِغُ الرِّصَادِ » . فكأن معنى الكلام : هذا طريق مرجعه إلى فلجأزي كلاً بعمله - يعنى طريق العبودية - .

٤٢- (إِنَّ عِبَادِي لَيَنسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) :

في هذه الآية تأكيد ثانٍ لحماية الله للمخلصين من سلطان الشيطان عليهم ، كما أن فيها الإخبار بخذلانه للمُصِرِّين على الغواية .

والمعنى : إن عبادي الذين خلقتهم لكي يعبدوني ليس لك يا إبليس تسلط عليهم ينتهي بهم إلى الضلال المخرج من رحمة الله ، إلا من اتبعك من الضالين بسوء اختياره ، فإنه يخضع لسلطانك ، ويتأثر بإضلالك ، ويشترك معك في سوء مصيرك .

فإن قيل إن آدم وحواء من عباد الله المخلصين « فَازَلَهُمَا الشَّيْطَانُ » وإن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم « اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْضُ مَا كَسَبُوا » وبذلك يكون له سلطان حتى على المخلصين . فالجواب : أن المقصود - والله أعلم - أنه ليس له سلطان على إيمانهم وقلوبهم بحيث يلقيهم في ذنب يمنعه عفو الله ويضيقه عليهم ، فإيمانهم متين وقلوبهم طاهرة ، فإن هم أذنبوا تابوا - والتوبة تمحو الحوبة - ثم توعدهم الله المصِرِّين على الغواية فقال :

٤٣- (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ) :

أى وإن النار لموعِد إبليس والغاوين أجمعين ، لا يتخلف عنها منهم أحد ، ثم بين الله أنها طبقات ، لكل طبقة فئة منهم فقال :

٤٤- (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ) :

فالمراد من أبواب النار طبقاتها ودركاتها ، فكما أن الجنة درجات فالنار درجات ، وقد جعل الله لكل طبقة من السبع فريقا معلوما ، وقسما معيناً ، فيدخل كل فريق في الطبقة التى تناسب معاصيه وعقائده ، وقيل الأبواب على معناها المعروف ، وإنما تعددت لكثرة من يدخل النار والله تعالى أعلم .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ آدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ ءَامِنِينَ ۖ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقْنَصِينَ ۖ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۖ)

المفردات :

(وَعُيُونٍ) : المراد بها أنهار الجنة ، وقيل غيرها . (بِسَلَامٍ) : بسلامة من الآفات .
(مِنْ غِلٍّ) : من حقد وعداوة . (نَصَبٌ) : تعب وإعياء .

التفسير

٤٥- (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) :

بعد أن أنذر الله من اتبع الشيطان من الغاوين بسوء المصير بقوله : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ . لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ » . جاءت هذه الآية وما بعدها لتبشير

من اتقى ربه وعصى إبليس بحسن التصير ، وبضدها تتميز الأشياء - والمراد بالمتقين الذين يدخلون الجنة من اتقوا الكفر والفواحش ، ولهم ذنوب يكفرها نحو الصلاة^(١) ، وقال الآلوسی : نقل الإمام عن جمهور الصحابة والتابعين - وذكر أنه رأى ابن عباس - أن المراد بهم من اتقوا الشرك والكفر - ثم قال - وهذا هو الصحيح ، ثم أقام الدليل على ذلك حتى قال : فثبت أن الحكم المذكور يتناول جميع القائلين : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كانوا من أهل المعصية . . . الخ .

ونحن نقول : ينبغي أن يقيد دخولهم الجنة إن كانوا من أهل المعاصي ، بأنهم تابوا عنها وقبل الله توبتهم ، أو كانوا ممن غلبت حسناتهم على سيئاتهم ، فإن لم يكونوا من هؤلاء أو أولئك فإنهم يدخلونها بعد عقابهم في النار على سيئاتهم ، تطبيقاً لأدلة الوعيد على المعاصي الواردة في كتاب الله وسنة رسوله إلا أن يعفو الله فإن الأمر كله لله .

وَمَنْ يَمُتْ وَلَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنْبِهِ فَأَمْرُهُ مَفُوضٌ لِرَبِّهِ

والمراد بالعيون الموجودة بالجنة أنهاها المذكورة في قوله تعالى : هَمَلُ الْجَنَّةِ النَّبِيُّ وَهَدَّ الْمُتَّقُونَ . فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ^(٢) . . . الآية ، ويحتمل أن تكون عيوناً ومنابع أخرى لا يعلمها إلا الله .

والمنى : إن الذين يتقون الكفر والفواحش يعيشون في الآخرة في جنات عظيمة الشأن دائية الثمار ، ومن حولهم عيون وينابيع تجري مياهها بين الجنات ، فتضفي عليها الجمال والحسن ، ليكمل بها متاعهم .

٤٦ - (أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ) :

أى يقال لهؤلاء المتقين عند دخولهم الجنة ، ادخلوها سالمين فيها من الآفات في أجسادكم آمين من أن يطرأ عليكم ما يخيفكم - ويجوز أن يراد من دخولهم بسلام أنهم يدخلون مسلماً عليهم مرحباً بهم ، ويراد من أمنهم ما يعم الأمن من الآفات الجسدية والروحية .

(١) كما نقله الزغزغى في (كشافه) عن ابن عباس .

(٢) سورة محمد من الآية ١٥ .

٤٧ - (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُلُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) :

أى وأخرجنا ما فى صلورهم من حقد وعداوة كانت بينهم فى الدنيا ، فدخلوا الجنة إخوانا متحابين ، على أسرة متقابلين ، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض فى صفاء ومودة ولا يتدابرون ، أخرج ابن جرير وغيره عن أبى أمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما فى صلورهم فى الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا تدانوا وتقابلوا على السرر نزع الله ما فى صلورهم فى الدنيا من غل : ويحتمل أن يكون نزع الغل من صلورهم كناية عن نزع أسبابه ، وأنهم يعيشون فى الجنة متحابين لأنهم مغفورون بنعم الله وأسباب الصفاء والمودة ، فلا يجلدون فيها ما يوجب البغضاء كما كانوا يجلدون فى الدنيا .

٤٨ - (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ) :

أى لا يصيبهم فى الجنات أى تعب ، فإن أرزاقهم ميسرة من غير كد ولا سعى « وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا »^(١) . ويقوم بخدمتهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، قال تعالى فى سورة الإنسان : « وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا • قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا • وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا »^(٢) . . الآيات - وكما أنهم لا يمسهم فى الجنة تعب ، فهم ليسوا منها بمخرجين بل هم خاللون فيها أبداً ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، وليجتهد المجتهدون - والله تعالى أعلم .

(١) سورة الإنسان الآية : ١٤

(٢) سورة الإنسان الآيات : ١٥ - ١٩

(* نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(نَبِيٌّ ^١) : أى خبر وبلغ ، من النبأ ، وهو الخبر مطلقاً وقيل هو الخبر الخطير ذو الشأن ، وهو الأنسب هنا ، قال الراغب : النبأ : خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن . . ثم قال : ونبأته أبلغ من أنبأته . (ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) : الضيف من مال إليك نازلاً بك ، والأفصح ألا يُثنى ولا يجمع ، ويأتى بيان المراد بضيف إبراهيم فى التفسير (وَجِلُونَ) : أى خائفون ، وفعله وجل يوجل يفرع يفرع . وفى الراغب : الوجل : استشعار الخوف .

التفسير

٤٩ - (نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

بعد أن ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة ماتوعداً به الغاوين من عذابه ، وما وعد به المتقين من ثوابه ، أكد سبحانه فى هذه الآية وعده ووعيده : بما اتصف به من عظيم مغفرته وواسع رحمته وشديد عقابه ، تقريراً لما ذكر ، وتمكيناً له فى النفوس : فأمر رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ أمتة جميعاً - المتقين منهم وغير المتقين - أن الله تبارك وتعالى هو العظيم الغفران ، الواسع الرحمة .

كما أمره أن يبلغهم أن عذاب الله هو العذاب الأليم ، أى البالغ الغاية فى الشدة والإيلام لا يشبهه عذاب غيره ولا يدانيه ، فقال جلّ وعلا :

٥٠- (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) :

وفى معنى الآيتين قوله سبحانه : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَكُنُوءٌ مَخْفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ »^(١) . وفى هذا المعنى يقول النبى صلى الله عليه وسلم - فيما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ ، فَأَمْسَكَ عَنْهَا تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً ، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً : فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِى عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، لَمْ يَيْتَسِ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِى عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ ، لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ »^(٢) . وقد نبهت الآيتان على مقامى الرجاء والخوف ، ولابد للعبد من الجمع بينهما ؛ وينبغى أن يكونا سواء مادام العبد صحيحا معافا ، فإن المبالغة فى الرجاء تفضى به إلى تسويف الصالحات أو إهمالها ، والمبالغة فى الخوف تفضى به إلى القنوط واليأس ! وخير الأمور أوساطها .

وقيل يُغلب الخوف على الرجاء فى حال صحته ، فأما إذا مرض فليُغلب الرجاء على الخوف حتى إذا دنت أمارات الموت فليكن رجاءه فى ربه وإحسان الظن به محضاً خالصاً ، ولا سيما حال احتضاره ، فإنه حينئذ قادم على رب كريم ذى فضل عظيم سبقت رحمته غضبه وعذابه ، وقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لَا يَمُوتُنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يَحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » وروى مسلم عن جابر أيضاً قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ » . وروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إِنْ رَحِمْتِي سَبَقَتْ غَضَبِي »^(٣) .

(١) سورة الرعد من الآية : ١

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق ، فى باب الرجاء والخوف ، ومسلم فى كتاب التوبة ، باب فى سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه .

(٣) رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى قول الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » ومسلم فى كتاب التوبة ، باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه .

ولعل في تقديمه سبحانه الوعد على الوعيد - مع زيادة في تأكيد الوعد - تنبيهاً على هذا الفضل .

ولما أجمل الله سبحانه وعده ووعيده في الآيتين السابقتين ، فصل بعض ما أجمل في الآيات التالية فذكر طائفة من أنباء رحمته وعذابه مما وقع في هذه الدار ، عبرة وتذكرة لما يكون في الدار الآخرة ، ساقها سبحانه ممثلة في قصة خليله إبراهيم وبشارته ، ونبيه لوط ونجاته ، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر ، وما حل بهم جميعاً من عذاب لا تزال آثاره باقية مرئية . وبدأ بقصة أبي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فقال آمراً نبيه صلى الله عليه وسلم :

٥١- (وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) : أى أخبر أمتك أيها النبي عن ضيف إبراهيم خليله ، ليحسبوا بما جرى له ولابن أخيه لوط عليهما السلام من البشرى في تضاعيف الخوف - على ما يأتى بيانه - والمراد بضيف إبراهيم : رسل من الملائكة أرسلهم الله تعالى في صور بشر إلى قوم لوط ليهلكوهم ، ومروا في طريقهم بإبراهيم ليبشروه بغلام عليم ، وبهلاك القوم المجرمين - وهم - على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما - جبريل وملاك معه ، وقيل أكثر من ملكين ، على خلاف بين المفسرين ، مع اتفاقهم على أن جبريل عليه السلام أولهم . وكانوا في صور شبان حسان الوجوه .

وقد تقدمت قصتهم في سورة هود في قوله تعالى : « وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » الآيات ^(١) . وتأتى في سورة الذاريات في قوله تعالى : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ » الآيات ^(٢) .

(١) ٦٩ - ٨٣

(٢) ٢٤ - ٣٧ .

والقصة في هاتين السورتين أكثر تفصيلاً مما وقع في هذه السورة . والقرآن الكريم يكمل بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ، ويتعين رَجْع بعضه إلى بعض في القصة الواحدة . قال جل ثناؤه :

٥٢ - (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ) :

أى اذكر أيها الرسول حين دخل هؤلاء الأضياف على إبراهيم وحيوه فقالوا سلاماً ، أى قالو هذا اللفظ نحية له . أى نسلّم عليك سلاماً فقال ردّاً لتحيتهم عليكم سلام ، إلا أن الرد لم يذكر في هذه السورة اكتفاءً بذكره في سورتي هود والذاريات ، كما لم يذكر مجيئه بالعجل السمين الحنيد ، أى المشوى ، اكتفاءً بذكره في السورتين كذلك .

وكان عليه السلام كريماً غاية الكرم ، وكان يقال له - فيما يؤثر - أبو الضيفان ، ولا عجب فقد جاد بنفسه لربه الأكرم والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

قال إبراهيم عليه السلام لضيوفه لما امتنعوا عن الأكل ، وقد قدم إليهم العجل : (إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ) : أى خائفون فزعون ، لما جرت به العادة عندهم أنه إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجرى بخير ! لهذا نكّروهم قبل أن يُعلموه أنهم رسل الله ، وأوجس منهم خيفة ثم صرح بخيفته فقال : « إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ » . وفي سورة هود : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ » (١)

٥٣ - (قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ) :

طمأننت الملائكة إبراهيم عليه السلام : إذ قالوا له لا توجل أى لا تخف ولا تفرع ، ولكى يزيلوا خوفه بشروه بغلام عليم ليعلم سر مجيئهم إليه ، والمراد من كونه غلاماً عليماً أنه يكبر ويكون عظيم القدر كثير العلم ، وهو إسحق عليه السلام من امرأته - واشتهر أن اسمها سارة - وقد بشروها أيضاً بيعقوب من ورائه كما جاء في قوله تعالى : « فَبَشِّرْنَاهَا

بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ^(١) وفي هذه البشارة إشارة إلى بقاء الخليل وأهله في سلامة وعافية زماناً طويلاً .

وأما الغلام الحليم في قوله تعالى : « فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » فالمراد به ابنه البكر إسماعيل من جاريته هاجر وهو الذبيح . وتأتي قصة ذبحه في سورة الصافات^(٢) .

(قَالَ أَبَشِّرْهُمُنِي عَلَىٰ أَن مَّسِّنِي الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾)
بَشِّرْكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾)

الفردات :

(مَّسِّنِي الْكِبَرُ) : أى أدركنى وأصابنى كبر السن . (بِالْحَقِّ) : أى بالأمر الثابت المحقق .

(الْقَانِطِينَ) : أى اليائسين ، من القنوط وهو اليأس ، والمراد اليأس من الولد .

(الضَّالُّونَ) : أى المخطئون طريق الصواب والحق .

التفسير

٥٤ - (قَالَ أَبَشِّرْهُمُنِي عَلَىٰ أَن مَّسِّنِي الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ) :

أى قال إبراهيم عليه السلام للملائكة متعجبا من تبشيرهم إياه بالولد مع كبر سنه وشيخوخته - وقد جرت العادة بعدم الولادة فيها - كيف تبشروننى بالغلام وأنا على هذه الشيخوخة ؟ ! ثم أكد عجبه فقال بصيغة الاستفهام التعجبى :

(١) هود : من الآية ٧١

(٢) سورة الصافات الآيات : ٢٠١ - ١٠٧

(فَيَمَّ تَبَشِّرُونَ) : أى فبأى أعجوبة تبشروننى ؟ ! إن البشارة بما لم تجربه العادة !
أمر يدعو إلى العجب .

٥٥ - (قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ) :

أى قالت الملائكة مجيبين إبراهيم عليه السلام : بشرنالك بالأمر المحقق الثابت الذى لا ريب فيه ولا لبس ، فلا تكن من اليائسين من خرق العادة لك ، فإن الله تعالى قادر على أن يخلق بشرا من غير أبوين : فكيف لا يخلقه من شيخ فان وعجوز عاقر ؟ وكان تعجبه عليه السلام مما بشر به لمخالفته للعادة لا لأن الله تعالى لا يقدر على مثله فإنه يعلم من قدرة الله تعالى ما هو أعظم من ذلك ؛ ولهذا قالت الملائكة له : « فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ » : ولم يقولوا له : فلا تكن من المترين أو الشاكين . ولهذا أيضاً :

٥٦ - (قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) :

والاستفهام هنا إنكارى معناه النفى ، أى لا يبيش من رحمة ربه إلا الخاطئون المنصرفون عن طريق الحق والصواب والمعرفة ، فلا يعرفون سعة رحمته تعالى ولا كمال علمه وقدرته .

ومراداه عليه السلام نفى القنوط عن نفسه ، وبرأئته منه على أبلغ وجه وأكملة ، أى ليس بى قنوط من رحمة ربي جل وعلا ، وإنما الذى قلته ، لبيان منافاة حالى وكبر سنى لإنجاب الذرية عادة ، وفى تعرضه عليه السلام لوصف الربوبية والرحمة ما لا يخفى من الجزالة .

ثم لم تكن هذه المحادثة بين الملائكة وإبراهيم خاصة ؛ فقد اشتركت فيها امرأته أيضاً إذ قالت للملائكة ما حكى الله عنها فى سورة هود : « يَا وَيْلَتَا أَلِدْتُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » ^(١) . ولم تذكر محادثتهم مع امرأته هنا اكتفاءً بذكرها فى سورة هود ، كما لم تذكر مع إبراهيم هناك اكتفاءً بذكرها هنا . والكتاب العزيز - كما أسلفنا - يكمل بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ، ويصدق بعضه بعضاً ، دون تناقض أو اختلاف . وصدق الله إذ يقول : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » ^(٢) .

(١) الآيتان ٧٢ : ٧٣

(٢) النساء : من الآية ٨٢

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا
إِلَى قَوْمٍ مَّجْرُمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾
إِلَّا أَمْرًا تَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ
الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا
بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(فَمَا خَطْبُكُمْ) : أى فما شأنكم وأمركم الخطير؟ قال الراغب : والخطب ، الأمر
العظيم الذى يكثُر فيه التخاطب .

(قَدَرْنَا) : قضينا أو حكمنا ، من التقدير بمعنى الحكم . (الْغَابِرِينَ) : الباقين ،
يقال : غبر يغبر غبورا : أى بقى . (يَمْتَرُونَ) : يشكُّون ، من المرية بمعنى الشك ،
يقال : امترى فى الأمر وتمارى فيه ، أى شك .

التفسير

٥٧ - (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) :

لما طمأننت الملائكة إبراهيم بأنهم رسل الله وبشروه بالغلام العليم ، ذهب عنه الروح
واستأنس بهم ، لكنه عليه السلام تفرس فيهم أنهم أرسلوا لأمر آخر خطير غير البشارة ،
إذ كان حديثهم موجزا يشعر بأن فى هذا الإيجاز كلاما مطويا ، ثم إنهم ذوو عدد والبشارة
يكفى فيها واحد ، ولهذا خاطبهم بعنوان الرسالة وصدر خطابه بالفاء بعد أن كان خطابه

السابق مجرداً من ذلك ، كأنه قال : يبطل أن لكم شأناً آخر خطيراً فما هو ؟ وقد كانت إجابتهم مصدقةً لفراسته :

٥٨ - (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ) :

يعنون قوم لوط عليه السلام ، فقد أفحشوا غاية الفحش بإتيانهم الرجال شهوة من دون النساء مع شركهم ، ولهذا وصفوا بالإجرام لأنه دأبهم ، وحجى بهم بطريق التنكير ذماً لهم واستهانةً بهم .

أى قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام جواباً عن سؤاله : إنا أرسلنا الله تبارك وتعالى إلى قوم مجرمين .

وتتمة الجواب في سورة الذاريات : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ . مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ »^(١) .

إلا أنه أوجز هنا اكتفاءً بما ذكر هناك ، كما تقدم مثل هذا وكما يأتي مراراً ، وهذا من دلائل حكمة الكتاب العزيز ، حيث لا يطنب في مقام الإيجاز .

أى قال الرسولون لإبراهيم عليه السلام ، إن الله تعالى أرسلهم لإهلاك المجرمين من قوم لوط بعذاب الاستئصال ، وتنجية غير المجرمين منهم فهم مستثنون من القوم المهلكين . ولذلك قالوا :

٥٩ - (إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنَجُّهُمْ أَجْمَعِينَ) : والمراد من آل لوط من آمن به من قومه ولو كانوا من غير قرابته أو أصهاره ، وقد استثنوهم من أجل إيمانهم . ولما كانت امرأته كافرة ضالة ، استثنوها من آل لوط فقالوا :

٦٠ - (إِلَّا امْرَأَتُهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) :

أى حكمنا وقضينا قضاء لا مرد له : بأنها من الباقيين في العذاب مع الكفرة المهلكين ، من أجل كفرهم وجرمهم وكفرها معهم . وإنما أسند الملائكة التقدير والقضاء إلى أنفسهم

مع أن الله تعالى هو الذى قدر وقضى لأنهم هم المباشرون لإنفاذ ما أمر الله بإنفاذه ، كما تقول خاصة الملك نحن أمرنا وفعلنا وإن كان الأمر هو الملك .

وقوله سبحانه :

٦١- (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ) :

شروع فى بيان إهلاك المجرمين ، وتنجية آل لوط ، مع تفصيل لما أجمل فى الاستثناء السابق ، وذلك أن الملائكة لما بشروا إبراهيم بالغلام ، وعرفوه بما أرسلوا به ، ساروا إلى لوط وقومه فلما دخلوا على لوط وهم فى صور شبان حسان الوجوه :

٦٢- (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) :

أى لا أعرفكم ، فمن أنتم ؟ ولأى أمر جئتم ؟ وإنما قال ذلك لأنهم ليسوا من أهل الحضر ، ولا تبدوا عليهم آثار السفر . ويحكى الله سبحانه إجابتهم للوط لكى يطمئنوه ، ويعرفوه بما جاءوا من أجله ، فيقول جل شأنه :

٦٣- (قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ) :

أى ما جئناك بما يسوؤك ، بل جئناك بما فيه سرورك ونصرك على أعداء الله وأعدائك ، وهو إيقاع العذاب الذى كنت تتوعدهم بنزوله ، فيمترون أى يشكون فيه ويكذبونك . وهذا كما حكى الله عنهم فى شىء من التفصيل الذى تقدم فى سورة هود : « قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ »^(١) ثم أكلوا بشارتهم بجملته من المؤكّدات فقالوا :

٦٤- (وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) :

أى وجئناك بالأمر المحقق المتيقن الذى لا مجال للامتراء والشك فيه وهو عذابهم ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به ، أو فى كل كلام نقوله ، لأنه من عند الله عز وجل فيكون كالدليل على صدقهم فيما أخبروا به .

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَتُولَاءِ ضِيقِي فَلَا تَفَضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعُلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَتُولَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ ﴿٧١﴾)

الفرادات :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) : أى سر واذهب بأهلك ليلا ، من أسرى ، وقرئ « فاسر » بهزة الوصل من سرى ، وهما بمعنى واحد . وقيل : أسرى فى السير أول الليل ، وسرى فى السير آخره . (بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ) : أى جزء منه ، أو من آخره . (أَدْبَارَهُمْ) : آثارهم . (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ) : أى أوحيناه إليه . وأصل القضاء الحكم . ولكنه ضمن معنى الإيحاء فتعدى تعديته بإلى . (دَابِرَ هَتُولَاءِ) : آخرهم . (مُصْبِحِينَ) : داخلين فى الصباح . وتأتى صيغة « أفعل » للدخول فى الشيء نحو أشرق ، وأنجد ، وأتهم^(١) . (وَلَا تُخْزُونِ) : ولا تهينونى ، من الخزى ، وهو الذل والهوان ، أولا تخجلولى ، من الخزاية ، وهى الحياء والخجل .

التفسير

٦٥ - (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ...) الآية .

لما بشرت الملائكة لوطا عليه السلام بما أرسلهم الله به ، من إهلاك المجرمين ، وإنجاءه وإنجاء أهله إلا امرأته - أمره بما أمر الله به وهو أن يسرى بأهله فى جزء من الليل أو فى آخره .

(١) أى دخل فى الشروق والنجد وهو المكان المرتفع ، والتهامة وهى المكان المنخفض .

والنساء لترتيب الأمر بالإسراء على الإخبار برسالتهم . وهذا شروع في ترتيب مبادئ النجاة كي تتم على ما قضى الله ودبر .

والمعنى : اذهب بأهلك في جزء من الليل أو في آخره ، وكن في أثرهم ، لتطلع على أحوالهم ، وتبعث الطمأنينة فيهم .

(وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ) :

أى ولا يلتفت منك ولا منهم أحد ، لتلا يرى ما وراءه من هول العذاب فلا يطيقه .

وقيل نُهوا عن الالتفات ، ليوطنوا أنفسهم على المهاجرة أو المرافقة النهى عن الإبطاء في السير فإن الالتفات قلما يخلو من أدنى وقفة .

ولم يذكر استثناء المرأة من الإسراء بأهلها وعدم الالتفات ، اكتفاء بما ذكر في آيات أخر .

(وَأَمْسُوا حَيْثُ تَمْرُونَ) :

أى وادهبوا إلى المكان الذى أمركم الله بالذهاب إليه ، وهو الشام - على ما روى عن ابن عباس والسدي - وقيل الأزدن ، وقيل مصر . وقيل موضع نجا غير معين . والعلم عند الله تعالى . وأياً كان الأمر فالجملة تأكيد للنهى عن الالتفات مع الإسراع بالسير قلماً امتثالاً لأمره تعالى . وربما كان معهم من يوجههم إلى المكان الذى أمروا أن يذهبوا إليه . أو عرفه الله إياه والطريق الموصل إليه ، والله تعالى أعلم .

٦٦ - (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ) :

أى وأوحينا إلى لوط قضاء ذلك الأمر الذى حكمنا به على قومه حكماً لا مرد له ، وهو عذاب الاستئصال الذى فسره سبحانه بقوله :

وَأَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ، وفى إيهام الأمر أولاً وتفسيره ثانياً بما ذكر أكبر دلالة على فظافته وشدة شناعته . والمعنى أنهم يُستأصلون عن آخرهم وهم داخلون فى وقت الصباح فلا يبقى منهم أحد . وقوله تعالى :

٦٧- (وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ) :

شروع فی بیان ماصدر من القوم عند وقوفهم علی مکان الأضياف. والمراد بالمدينة مدينة قوم لوط - وتسمى سدوم - وبأهلها أولئك القوم المجرمون .

والمعنى : وجاء أهل المدينة منزل لوط عليه السلام مستبشرين فرحين ، وذلك أن الرسل لما نزلوا على لوط ظهر أمرهم في المدينة ، وقيل إن امرأته أخبرتهم بذلك فجاءوا إلى داره طمعا في أولئك الأضياف الغريباء الحسان ، فلما خشي منهم على أضيافه ولم يكن يعلم أنهم رسل الله :

٦٨- (قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ) :

أى إن هؤلاء أضيافى فحق على أن أبذل الوسع في إكرامهم ، وحق عليكم أن تعينوني في رعايتهم وحمايتهم ، فإن لم تفعلوا فلا أقل من أن تتركوهم ولا تتعرضوا لهم بسوء حتى لا يفهموا أنه ليس لى عندكم قدر ولا حرمة وتلك فضيحة لى ، ومعة على ، أو فلا تفضحوني بفضيحة ضيفى ، فإن من أسىء إلى ضيفه فقد أسىء إليه !

ثم أكد طلب الكف عن الإساءة إليهم إذا لم يكونوا أهلا للإحسان فقال ما حكاه الله سبحانه عنه بقوله :

٦٩- (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنِ) :

أى واتقوا الله في تعرضكم لما يسوءنى ، فلا تتركبوا فاحشتكم في ضيفى فتوقعونى فى الذل والخزى أمام الأضياف ، فإن ذلك أجلب للعار والفضيحة على !

غير أن الخبث والانحراف عن الفضيلة كان متأصلا فيهم ، وكلمة العذاب حقّت عليهم ومن أجل ذلك :

٧٠- (قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالِيَيْنِ) :

أى ألم نتقدم إليك بعدم ضيافة الشبان وحمايتهم ولم ننهك عن العالين ، فلماذا خالفنا وآويت هؤلاء الشبان ، وجعلنا نحضر إليك ونطلبهم منك ، يعنون أننا قد نهيناك فعلا عن ذلك . فكأنهم - أخزاهم الله - قالوا ما ذكرته من العار والفضيحة إنما جاء من

قبلك لا من قبلنا ، إذلولا تعرضك لما نتصدي له لما اعتراك مايسوءك ؛ وكانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء ، فكان عليه السلام ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه وكانوا ينهونه جاهلين أن يضيف أحداً أو يُجيره .

ولما رآهم عليه السلام مصرين على مُفكرهم لا يقلعون عنه ، وأن نصحه ذهب هباء :

٧١- (قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) :

يعنى ببناته نساء قومه ، فإن نبي كل أمة بمنزلة أبيهم ؛ أو يعنى بناته حقيقة ، أى فتزوجهن وقد كانوا يطلبونهن فلا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم ، لا لعدم مشروعية الزواج بين المسلمات والكفار ؛ فإنه كان جائزاً كما هو مبين في المطولات .

وقوله : (إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) : أى إن كنتم راغبين في قضاء الشهوة فاقضوها بالطريق المشروع الذى أحله الله وهو الزواج ؛ فإنه أظهر لكم وأكرم ، دون الطريق الخبيث المحرم ، أو إن كنتم فاعلين ما أشرت به عليكم من التزوج ، فهؤلاء بناتي فتزوجوا منهن .

وكان مجيء هؤلاء المجرمين إلى منزل لوط عليه السلام وما دار بينه وبينهم ، من نصحه لهم ومجادلتهم له - كان مجيئهم هذا قبل أن تُعلمه الملائكة بأنهم رسل ربه ، وبأمره بأن يَسْرِىَ بأهله ، على ما تقدم بيانه في سورة هود في قوله تعالى : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا » .^(١) إلى قوله عز سلطانه : « قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » .

ولمّا أُخِّرَ ذكر مجيئهم هنا وما تبعه من المجادلة ، وقُدِّم عليه ذكر ما كان بينه وبين الرسل من المقابلة - على خلاف الترتيب الواقعى - للمساواة إلى ذكر بشاراة لوط عليه السلام بإهلاك قومه وتنجية آله عقب ذكر بشاراة إبراهيم عليه السلام بهما . ولم يراع في النظم الكريم الترتيب الواقعى ، ثقةً بمراعاته في مواقع أخر . والواو للعطف ، ولكنها لاتقتضى الترتيب ، ولا سيما إذا دل الدليل على خلافه .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٦) فَأَخَذَتْهُمْ
الصَّبْحَةُ مُشْرِقِينَ ٧٧ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ٧٨ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُتَوَسِّمِينَ ٧٩
وَأَنَّهَا لِبَسِيبٍ مُقِيمٍ ٨٠ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ٨١ وَإِنْ
كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ٨٢ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا
لِبِأَمَامٍ مُبِينٍ ٨٣)

المفردات :

(لَعَمْرُكَ) : أى لحياتك ، وهى صيغة قسم معناها أقسم بحياتك . والعمر بالفتح هو العمر بالنفس ، ولكنه بالفتح اختص بالقسم للخفة وكثرة دورانه على الألسنة .
(سَكْرَتِهِمْ) : أى غفلتهم الشديدة التى أشبهت السكر فجعلتهم كالسكارى... أو ضلالتهم كذلك .

(يَعْمَهُونَ) : يترددون ويتحيرون ، من العَمَ ، وهو فى البصيرة كالعمى فى البصر نعوذ بالله تعالى منه !

(الصَّبْحَةُ) : الصوت الشديد المزعج . والمراد به العذاب الذى أهلكهم الله به . كما نقله ابن المنذر عن ابن جريج ، وكل شئ أهلك به قوم فهو صبحه وصاحقه !

(مُشْرِقِينَ) : داخلين فى وقت شروق الشمس . (سِجِّيلٍ) : طين متحجر .

(لِلْمُتَوَسِّمِينَ) : للمتفرسين الذين يتشبثون فى نظرم حتى يعرفوا حقيقة الشئ

بِسَمْتِهِ وَعَلَامَتِهِ .

التفسير

(٢) في كتاب : التبيان في أقسام القرآن لابن القيم تأييد لهذا القول ورد لما سوله :

« لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِالَّذِي أَيْمَنْتُمْ بِهِ ^(١) » الآية . قال صاحب الفتح : قال العلماء : السر في النهي عن الحلف بغير الله ، أن الحلف بالشئ يقتضى تعظيمه ، والعظمة في الحقيقة إنما هي لله وحده . . .

ولما أفادت الآيات السابقة أن قوم لوط بلغوا من الإجرام حداً لا ينفع معه نصيح ولا إنذار ذكر سبحانه عاقبة إجرامهم فقال :

٧٣- (فَأَخَذْنَاهُمُ الصُّبْحَةَ مُشْرِقِينَ) : الفاء في قوله تعالى : « فَأَخَذْنَاهُمُ الصُّبْحَةَ مُشْرِقِينَ » للإشارة إلى أن عذابهم بالصبيحة جاء عقب إخبار لوط بأن قومه في سكرتهم يعمهون .

والمعنى : فبعد ما أخبر لوط بغفلة قومه عما أعده الله لهم من العقاب على فاحشتهم ، أخذتهم صاعقة العذاب الهون وهم مشرقون - أى داخلون في وقت شروق الشمس ، ويجمع بين قوله تعالى : « وَقَفَّيْنَا لَهُ لَبَدَةً هَائِلَةً مِّنَ السَّمَاءِ » وبين قوله هنا « مُشْرِقِينَ » بأن ابتداء عذابهم كان عند الصبح ، وانتهاه كان عند الإشراق .

ثم بين سبحانه صفة العذاب الممر الذي أحيطوا به فقال :

٧٤- (فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ) :

أى فجعلنا هالاً مدينتهم ، أو هالاً قراهم سافلها ، بأن دمرناها عليهم وقلبناها فوقهم ، وأرسلنا عليهم طيناً متحجراً كالطر المتتابع : أنزلناه قبل القلب أو في أثناءه ليصيب الشذاذ المتفرقين ، فلا ينجر منهم جميعاً أحد . وفي سورة الذاريات : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ » ^(٢) . ولأريب أنها حجارة صنعت من طين لا يعلم كنهه إلا علام الغيوب والطين إذا تحجر سئى سجيلاً !

(١) سورة المائدة من الآية : ٨٩

(٢) الآية : ٣٣

ثم دعا سبحانه إلى النظر والاعتبار بما أصاب هؤلاء المجرمين فقال :

٧٥- (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّينَ) :

أى إن فى ذلك العذاب الذى أحاط بقوم لوط فدمرهم لعلامات بيّنة على أخذ الله للمجرمين . يعرفها أهل الفطنة الذين يدركون الأمور بسماتها وعلاماتها . فيستدلون بها على حقائق الأشياء ، ويعتبرون بما يحدث فى الكون من عظات وعبر !

وفى الآية تنويه بالفراسة والمتفرسين . وفى تفسير ابن كثير عن أبى سعيد مرفوعاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ، رواه الترمذى وابن جرير . وأصدق الناس فراسة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان . قال ابن القيم : وكان الصديق رضى الله عنه أعظم الأمة فراسة ، وبعده عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ^(١)

ثم بين سبحانه بياناً مؤكداً أن مدينة قوم لوط لامتزال نوحى بالعبرة والعظة فقال :

٧٦- (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ) :

أى وإن هذه المدينة ، أو القرى - يعنى آثارها - لى طريق باقى ثابت يسلكه الناس يومئذ فيرونها رأى العين ليعتبر بها أولو الأبصار والبصائر ، وفى سورة الصافات : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَهْلًا تُغَمَّلُونَ ^(٢) » . والخطاب لأهل مكة .

ثم حث المؤمنين على النظر مؤكداً فقال :

٧٧- (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) :

أى إن فيما ذكر من قصة قوم لوط وما حل بهم لعلامة عظيمة للمؤمنين بالله ورسوله فإنهم الذين يعرفون أن ما حاق بهم من العذاب وجعل ديارهم خاويةً بلاقع ، إنما حل بهم لسوء صنيعهم ، وأما غيرهم فهم غارقون فى غوايتهم فلا يفكرون فى الآيات ولا يعرفون سبيل

(١) انظر كتابه : « مدارج السالكين » ، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين .

(٢) الأعراف : ١٣٧ ، ١٣٨ .

الهدى . وإفراد لفظ (الآية) هنا وجمعها فيما سبق لأن المشار إليه هنا مجمل وهو كونها بسبيل مقيم ، والمشار إليه قبل ذلك مُفَصَّل حيث ذكرت قصة إهلاكهم وتدمير قراهم بسبب فاحشتهم ، ثم ساق سبحانه نبأ أصحاب الأيكة مجملا فقال :

٧٨- (وَإِنْ ^(١) كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ) :

أى وإن الشأن والخبر كان أصحاب الأيكة لظالمين لأنفسهم ، وأصحاب الأيكة قومُ أرسل إليهم شعيب ، والأيكة الشجرة الملتفة المتكاثفة ، وكانت عامة شجرهم المقل الذى عبر عنه بالأيكة . فتسبوا إليها . وكانت قريبة من مدين قرية شعيب . ولما ظلموا أنفسهم بالشرك ومختلف المظالم أرسل الله إليهم شعيبا كما أرسله إلى قومه أهل مدين . ولما قال سبحانه فى كل من السور الثلاث : الأعراف ، وهود ، والعنكبوت . « وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ^(٢) » ، الآيات . وقال فى سورة الشعراء : « كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ » . إلى قوله عز من قائل : « فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ^(٣) » . وجملة القول أن شعيبا عليه السلام ، أرسل إلى أمتين عذبتا بعدائين . كما قال ابن جرير وغيره وهو ظاهر الكتاب العزيز .

ويبدو أنهم فاقوا أهل مدين فى الشرك والطغيان والاستهزاء والبهتان . ولذا كان عذابهم بيوم الظلة أشد من عذاب أهل مدين بالصيحة والرجفة وهى الزلزلة كما يعرب عنه قوله سبحانه : « فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ^(٤) » ، حيث أكد سبحانه أنه كان عذاب يوم عظيم . روى غير واحد عن قتادة قال : ذكر لنا أنه جل شأنه سلب عليهم

(١) أى وإنه « كان أصحاب الأيكة لظالمين » فان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن والأصل وإنه . أى وإن الحال والشأن كان أصحاب الأيكة الخ ، ولذا وقعت اللام الفارقة فى الجملة التى بعدها لكونها فى محل رفع خبر إن هذه ، وسيت هذه اللام (اللام الفارقة) لأنها فرقت بين إن المؤكدة التى تنصب الاسم وترفع الخبر بعد أن خففت نونها بالسكون وبين إن النافية المشبهة لها فى سكون النون .

(٢) الأعراف أول الآية : ٨٥ - وهود أول الآية : ٨٤ - والعنكبوت أول الآية : ٣٦

(٣) الشعراء الآيات من ١٧٦ - ١٨٩

(٤) الشعراء الآية (١٨٩)

الحر سبعة أيام لا يظلمهم منه ظل ولا يمنهم منه شيء. ثم بعث سبحانه عليهم سخابة فجعلوا يلتمسون الروح^(١) منها فبعث عليهم منها نارا فأكلتهم فهو عذاب يوم الظلة. وقوله سبحانه:

٧٩ - (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَلَئِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ) :

مرتب على ظلمهم الذي تجاوز كل ظلم ، وإلزام نوع الانتقام هنا ثم تفسيره في سورة الشعراء بعذاب يوم الظلة دليل على شدة هوله وعظمه . وقد قلنا مراراً إن الكتاب العزيز يفسر بعضه بعضاً ، وضمير التثنية في قوله تعالى : « وَلَئِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ » قيل إنه يعود إلى الأيكة ومدين . لأنه لما كان رسولهما واحداً هو شبيب عليه السلام كان ذكر أحدهما منبهاً على الآخر . والظاهر أنه يعود إلى مسكنى قوم لوط وأصحاب الأيكة - قال الألوسي : وإلى ذلك ذهب الجمهور . أ. هـ . ويؤيده أنهما تقدما في الذكر . وقد أضمر سابقاً إلى قرية قوم لوط بضمير المفرد في قوله : « وَلَئِنَّهَا لَبِإِسْبِيلٍ مُّقِيمٍ » . وأضمر لها وللأيكة هنا بضمير التثنية حيث قال تعالى : « وَلَئِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ » . ولعل هذا لتكرير العبرة والعظة بما يصيب القوم المجرمين . والإمام المبين هو الطريق البين الواضح الذي يأتى به ويهتدى به الغادى والرائح .

(١) الروح : بمعنى الراحة :

(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٥﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ
 ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٦﴾ وَكَانُوا يُنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ
 بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٨﴾ فَمَا أَغْنَىٰ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(الْحِجْرِ) : واد بين المدينة المنورة والشام . (أَصْحَابُ الْحِجْرِ) : هم ثمود قوم صالح عليه السلام ، ويسمّون عادةً الثانية . وأصل الحجر كل ما أحيط بالحجارة ومنه حجر الكعبة .
 (الصَّيْحَةُ) : الصوت الشليد المزعج . والمراد منها الرجفة التي أهلكوا بها كما سيأتي بيانه .

(فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ) : فما دفع عنهم وما منعهم .

التفسير

٨٥ - (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ) :

هذا شروع في قصة أصحاب الحجر ، قوم صالح عليه السلام ، وهي من القصص التي لا تزال آثارها ناطقة بالعبرة والعظة لمن يمر بها . والحجر هو الوادي الذي كانوا يسكنونه . ولا يزال معروفًا بين المدينة النبوية والشام ، وقد كان يمر به ركب الحجاز إلى الشام ، ذاهبين وعائدين . وقصتهم هنا مجملة وفي مواطن أخرى ذكرت مفصلة . وإليك موجزا في بيان قصتهم التي أجملتها هذه الآيات :

أرسل الله إليهم نبيهم صالحا فكلبوه فكانوا بتكذيبه مكذبين للرسل أجمعين ، لاتفاق كلمتهم على التوحيد والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار . ولذلك حكى الله سبحانه تكذيبهم بقوله : « وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ » .

٨١- (وَأَتَيْنَاهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) :

أى وأعلمناهم بحججنا البالغة الدالة على صدق صالح عليه السلام فيها دعاهم إليه من عبادة الله وحده ، والإيمان برسالته . وكانت الناقة إحدى آيات الله البينات : فى شربها وفورها على خلاف غيرها من النياق ، ولذلك أضافها صالح إلى الله تعالى حين قال لقومه : « يَا قَوْمِ اهْبِثُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَمَنْ دَرَسَهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ »^(١) . فكانوا عن هذه الآيات كلها معرضين ، بل مكذبين معاندين .

٨٢- (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ) :

أى ومكنائهم فى الأرض وجعلناهم أولى قوة ومنعة ، وحضارة ومهارة ، وحظى بفنون البناء والعمارة ، حتى كانوا يتخلون من جبالها بيوتاً حصينة ، حيث كانوا يقطعون حجارتها وينحتونها تسوية لها ، ثم يبنون بها قصورهم ليعيشوا فيها آمنين عليها من الهدم ، وعلى أنفسهم من العلوان والسوء ، لقوة بنائها وبليغ إحكامها ، أو آمنين من العذاب لحساباتهم أن الحصون التى بنوها تحميهم منه - وكانوا يتخلون من سهولها قصوراً عظيمة فى جنات وحيون . . . وقد ذكرهم بذلك نبيهم صالح عليه السلام فيها حكى الله عنه فى سورة الأعراف إذ قال : « وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَلَّوْنَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ الَّتِي تَعْتَوْنَ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »^(٢) وفى سورة الشعراء إذ قال : « أَتَنْتَرِكُونَ فِيهَا هَمَّامًا آمِنِينَ . فِي جَنَّاتٍ وَحْيُونَ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ »^(٣) . لكنهم طفوا وبغوا وجعلوا آيات الله ورسالاته : « وَقَالُوا يَا صَالِحُ اقْنِئْنَا بِمَا تَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ »^(٤) .

٨٣- (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْرِحِينَ) :

وفى سورة هود : « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَالِسِينَ »^(٥) .

(٢) الآية ٧١ .

(٣) الأعراف من الآية ٧٧ .

(١) سورة الأعراف من الآية ٧٣ .

(٢) الآيات من ١١٩ - ١٢٩ .

(٥) الآية ٧٨ .

وفي سورة الأعراف : « فَأَخْلَتْنَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ »^(١) .

والرجفة هي الزلزلة ، والصيحة من توابعها ، فإن الزلزلة تحدث تموجاً في الهواء شديداً ينفى إليها . وكانت صيحة هلاكهم في صباح اليوم الرابع بعد تمتعهم ثلاثة أيام كما أوعدهم الله على لسان نبيهم صالح عليه السلام في سورة هود : « فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْثُوبٍ »^(٢) .

والفاء في قوله تعالى :

٨٤- (فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

لترتيب علم الإغناء والنفع ، على ما أصابهم حين نزل بهم قضاء الله الذي لا مرد له . والمعنى : فما دفع عنهم وما منعهم من عذابه تعالى ما كانوا يكسبونه من نحت البيوت الوثيقة وجمع الأموال الوفيرة ، مع كثرة العُدِّ والعُدِّد ، بل خروا في ديارهم هلكى خاملين كأن لم يكونوا بالأمس .

هذا ، وقد روى الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم . وروى عنه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر أرض ثمود في غزوة تبوك ، أمرهم ألا يشربوا من مائها ولا يستقوا منها ، فقالوا : قد عَجَبْنَا منها واستقينا ! فأمرهم أن يطرحوا العجين ويهريقوا ذلك الماء . وفي رواية : فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يهريقوا ما استقوا من بشرها وأن يعلفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البشر التي كانت تردها الناقة . قال العلماء : وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم موضع هذه البشر من طريق الوحي .

(١) من الآية : ٦٥ .

(٢) من الآية : ٦٥ .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ
الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ۖ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾)

المعاني :

(بِالْحَقِّ) : أى بالأمر الثابت الذى يحق لنا أن نخلق السموات والأرض عليه طبقا
لقتضى الحكمة والمصلحة .

(السَّاعَةُ) : أى القيامة ، وسميت بالساعة ، لأنها تفجؤم فى ساعة لا يعلمونها .

(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) : أى فأعرض عنهم الإعراض الجميل ، أو فاعف عنهم
العفو الجميل الذى لا لوم فيه ولا تشريب . (الْمَثَانِي) : جمع مثنى من ثنى الشيء يثنيه
إذا أعاده ، أو جمع مثنبة من الثناء ، بحذف الزوائد ، لما فيها من الثناء على الله تعالى .

(لَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ) : لا تطمح بنظرك طموح واغب . وسيأتى بيان ذلك .

(أَزْوَاجًا) : أى أصنافا ، جمع زوج أى صنف .

(وَخَفِضْ جَنَاحَكَ) : ألين جانبك وتواضع ، والجناحان من الإنسان جانباه .

التفسير

٨٥- (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ . . .) الآية . . .

لما قص الله تبارك وتعالى من أنباء المكذبين لرسولهم ما فيه عبرة وتذكرة - نبه بذكر
هذه الآية الكريمة على حكمته البالغة فى إهلاكهم ، حيث بين أنه ما خلق السموات والأرض

وما بينهما ذلك الخلق البديع المحكم ، إلا بالحق وهو أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً ، فلما جحدوا آياته ، وأشركوا به ، وكنبوا رسله ، وعثوا في الأرض فساداً - قضت عدالته وحكمته بأن يهلكهم ويهلك أمثالهم ، دفعاً لفسادهم ، وتطهيراً للأرض من شرورهم ، وإرشاداً لمن بقى إلى الصلاح والإصلاح . حلماً من أن يصيبهم مثل ما أصابهم .

هذا جزاؤهم في الدنيا ، وقد أشارت إليه الجملة الأولى من الآية الحكيمة ، وأما جزاؤهم في الآخرة فموعدهم فيه الساعة ، وإليه تشير الجملة الثانية من الآية ، وهي قوله :

(وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ) : لا ريب فيها ، فينتقم الله لرسله ، جزاء ما كذبوا وأوذوا .

هذا ، وفي تلك القصص وما ختمت به تسليية كريمة للنبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه ، إذا سمع من ربه أن الأمم السابقة كانوا يعاملون أنبياءهم هذه المعاملة القاسية ، هان عليه تحمل سفاهة قومه وأذاهم ، وسهل عليه أن يحفّو عنهم عفواً كريماً لا لوم فيه ولا تشريب ، وهذا هو الصنف الجميل الذي أمره الله به إذ قال :

(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) : كما روى عن علي وابن عباس رضي الله عنهم في تفسير الصنف الجميل ، وفي أمره صلى الله عليه وسلم بالصنف الجميل إشارة كريمة إلى تركهم لله تعالى ، وأن يتفرع بالصبر الجميل ، حتى يأتي وعد الله وما قضاه في شأنهم في الدنيا والآخرة ، وأن يصفح عنهم فلا يحمل نفسه مالا تطيق من الضيق بكفرهم ، ولا تذهب نفسه عليهم حسرات .

ثم قرر سبحانه هذا المعنى وزاده توكيداً فقال :

٨٦ - (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) :

أي إن الله الذي رباك بنعمه ، وتولاك بفضله وكرمه هو الخلاق لك ولهم ، العليم بأحوالك وأحوالهم ، وبما جرى بينك وبينهم ، فيخلق بك أن تكل الأمور إليه ، فهو الحكم العدل الذي يجازيك على حسناتك ويجازيهم على سيئاتهم ، وقد علمت أن الصنف الجميل

أولى بك إلى أن يحكم الله بينك وبينهم وهو خير الحاكمين . ثم امتن سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم بالمنة العظمى ، وهى إنزال القرآن عليه فقال :

٨٧- (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) :

أى ولقد أنعمنا عليك إذ أنزلنا إليك فاتحة الكتاب ، وهى سبع آيات تُثنى وتكرر فى الصلوات الخمس وغيرها ويُثنى بها على الله عز وجل ، وهى القرآن العظيم .

وتخصيص الفاتحة بالذكر واعتبارها القرآن الكريم ، لمزيد فضلها ورفيع مكانتها ، ولا شتمالها على مقاصد القرآن كله .

وقد روى البخارى^(١) عن أبى سعيد بن المعلّى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له وهما فى المسجد : لأَعْلَمَنَّكَ سورة هى أعظم السور فى القرآن . . . الحمد لله رب العالمين ، هى السبع المثاني والقرآن العظيم الذى أوتيته .

وروى البخارى أيضا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أم القرآن هى السبع المثاني والقرآن العظيم » .

فكل من هذين الحديثين الصحيحين نص صريح فى أن فاتحة الكتاب هى السبع المثاني وأنها القرآن العظيم . والقرآن كما يطلق على الكتاب العزيز كله يطلق على بعضه .

وذكر المفسرون جملة أقوال أخرى فى المراد بالسبع المثاني ، أصحها وأقواها ما روى عن جمع من الصحابة والتابعين ، وفى مقدمتهم ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير رضى الله عنهم ، إذ قالوا ، إنها السبع الطُول^(٢) أطول سور القرآن الكريم كله : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، والسابعة الأنفال وبراءة ، فهما عندهم سورة واحدة ولذا لم يفصل بينهما بالبسملة .

(١) فى أول كتاب التفسير : باب ما جاء فى فاتحة الكتاب . . . ثم فى باب قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » من تفسير سورة الحجر .

(٢) جمع طول مؤنث أطول .

وذكر ابن كثير أن النص الصحيح على أن فاتحة الكتاب هي السبع المثاني، لا يمنع من وصف السبع الطول بما اتصفت به الفاتحة . بل لا يمنع من وصف القرآن كله، بأنه مثاني، وقد قال تعالى : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي »^(١).

ولما كان متاع الدنيا وإن عظم، شيئا ضئيلا حقيرا بالقياس إلى ما أنعم الله به على نبيه من نعمة القرآن الكريم - نهاه أن يطمح ببصره طموح راغب في هذا المتاع فقال :

٨٨ - (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ . . .) الآية .

أى لا ترغب في متاع الدنيا وزخرفها مما متعنا به أصنافا من الكفرة المشركين وأهل الكتاب ؛ واستعن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى »^(٢).

وكان صلى الله عليه وسلم يود أن يؤمن كل من بعثه الله إليهم، ويشق عليه - لمزيد شفقتة - بقاء الكفرة على كفرهم فقال الله له رحمة به :

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) كقوله : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ »^(٣) أى لا تحزن ولا تتحسر إذا لم يؤمنوا فما عليك إلا البلاغ وقد بلغت ، فلا تبال بهم بعد ذلك .

(وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) : أى تواضع لمن اتبعك من المؤمنين وارفق بهم واصبر نفسك معهم . فإنهم أولى بك من أولئك الجاحدين ، وإنك بالمؤمنين رهوف رحيم .

(١) سورة الزمر من الآية : ٢٣

(٢) سورة طه الآية : ١٣١

(٣) سورة فاطر من الآية : ٨

(وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾)

الفردات :

(النَّذِيرُ الْمُبِينُ) : المنذر الموضح لما ينذر الناس به ويهديهم إليه .

(عِضِينَ) : أى أعضاء وأجزاء متفرقة كل فرقة عِضة ، يقال عَضِيَ الشيء تعضية إذا فرقه وجزأه .

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) : أى فاجهر بما تؤمر به وأظهره ، يقال صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا أو افرق بين الحق والباطل ، من الصدع بمعنى الشق .

(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) : أى تولينا إهلاك المستهزئين يقال : كَفَيْتَ فلاناً المؤنة إذا توليتها ولم تحوجه إليها

التفسير

٨٩- (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ) :

امتنن الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في الآيتين السابقتين بأنه آتاه سبعا من المثاني والقرآن العظيم وأوصاه بوصايا ثلاث :

« أولاهما » : أن لا تطمح نفسه إلى مثل ما أوتيته أصناف من الكفار من المال والجاه فإن القرآن أعظم من هذا كله ، فهو عز الدنيا والآخرة « والوصية الثانية » أن لا يحزن عليهم بسبب انصرافهم عن الهدى الذي جاءهم به « والوصية الثالثة » أن يتواضع للمؤمنين ويخفض جناحه لهم ليشترك فيهم له ، واستمسكهم بدعوته والتفافهم حوله ، فهم خير له من هؤلاء المترفين المستكبرين ، وقد مرَّ الكلام على هاتين الآيتين وجاءت هذه الآية مشتملة على وصية رابعة ، وهى أن يقول لجميع الناس إنه هو النذير الموضح لما أنزله الله عليه من أجلهم ، من السبع المثاني والقرآن العظيم ، وفي جملة ما يوضحه لهم ما أنذرهم فيه من العقاب على مخالفتهم أوامر ربهم ، حيث يبين دواعيه وبراهينه ، وإنما اقتصر على الإنذار مع أن الله أرسله بالحق بشيراً ونذيراً ، لأن المؤمنين كانوا يومئذ قلة والكافرين كثرة ، ولأن المقام مقام تحذير وتخويف ، وفي الصحيحين عن أبي موسى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم ، إني رأيت الجيش بعينى وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدَّجُوا وانطلقوا على مهْلِهِمْ فنجوا ، وكذَّبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصباحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعنى واتَّبَعَ ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذَّب ما جئت به من الحق » .

٩٠-٩٣- (كما أنزلنا على الْمُقْسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١))

فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) .

البيان

اختلف العلماء في تفسير المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين على سبعة أقوال نختر منها قولين : (أحدهما) ما قاله مقاتل والفراء ، من أنهم ستة عشر رجلاً ، أرسلهم الوليد ابن المغيرة أيام موسم الحج فاقسموا طرق مكة ومدخلها وفجاجها ، يقولون لمن سلكوها : لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعى النبوة فإنه مجنون ، وربما قالوا : ساحر ، وربما قالوا شاعر ، وربما قالوا كاهن ، وسُموا مقتسمين لأنهم اقتسموا مداخل مكة فأماهم الله شر ميتة ، وكانوا نصبوا المغيرة بن شعبة حكماً على باب المسجد الحرام ، فإذا سألوه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وافق على فرية هؤلاء المقتسمين ، وصدقهم فيما يفترونه - هكذا حكى القرطبي رأى مقاتل والفراء .

(والقول الثاني) لِقَتَادَةَ وخلاصته أنهم قوم من كفار مكة ، اقتسموا كتاب الله فزعموا بعضه شعراً ، وبعضه سحراً ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين فهؤلاء هم المقتسمون جعلوا القرآن عضين ، أى جعلوه أجزاءً مختلفة وفرقاً متباينة ، لكل جزء منه اسم من الأسماء التى مرَّ ببيانها .

ولمَّا اخترنا هذين القولين لأن السورة مكية ، وما جاء فيهما حدث من مشركى مكة . أما ما قيل من أن المقتسمين هم أهل الكتاب ، اقتسموا القرآن فيما بينهم ، فأمنوا ببعضه وهو ما وافق التوراة والإنجيل . وكفروا ببعضه وهو ما خالفهما ، أو اقتسموه استهزاء . فقال بعضهم لبعض : هذه السورة لى وهذه السورة لك ، أو اقتسموا كتبهم ففرقوها وبلَّدوها - أما هذه الأقوال الثلاثة فغير مقبولة لأن السورة مكية . ولم يحدث من النبي صلى الله عليه وسلم فى مكة احتكاك بأهل الكتاب . ولا تبليغ القرآن لهم حتى يقولوا فيه ذلك ، كما أنه لم يسبق لأهل الكتاب فى السورة كلها ذكر مطلقاً حتى يتوهم رد المقتسمين إليهم وتفسيرهم بهم .

وأما ما قيل من أن المراد بهم قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين كما قال سبحانه فى سورة النمل حكاية عنهم : « قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ

لَوْلِيَّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ - ٤٩ - ، أما هذا القول - فهو بعيد أيضًا لأنهم وإن ذكروا في هذه السورة بعنوان أصحاب الحجر في الآية رقم ٨٠ لكنهم لم يجعلوا القرآن حُصَيْنَ فَإِنَّهُمْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ لَتَقْدِمَهُمْ عَلَى نَزُولِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ الْمَقَامَ لَا يَسْمَحُ بِإِرَادَتِهِمْ . وكيف تتصل هذه الآية وما بعدها بقصتهم وبينهما تسع آيات ، وفي أفصح الكلام ، إن هذا لجد بعيد .

ما ترتبط به هذه الآيات ومعناها

قد مرَّ بك أيها القارئ الكريم أننا اخترنا الرايين الأولين في تفسير معنى المقتسمين لاتفاقهما على أنهم من أهل مكة . وهذا يناسب كون السورة مكية وترتبط تلك الآيات الأربع بقوله تعالى قبلها مباشرة : « وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » والمعنى على هذا :

وقل أيها الرسول للناس : إني أنا المنذر لمن خالف ربه وكفر به وعصاه ، المبين لهم ما أنزلوه كالإنذار الذي نُنزلهُ بشأن المقتسمين من أهل مكة الذين جعلوا القرآن أجزاءً وفرقوه أوصافًا . فتارة يسمونه سحرًا وأخرى يزعمونه شعرًا وحينًا يدعون أنه كهانة . وأخرى يفترون أنه أساطير الأولين . وهذا الإنذار الذي ننزله بشأنهم ونبينه لهم هو قولنا لك تسلية . ولهم وعيدًا وتهديدًا : فوحي ربك الذي أحاطك بحمايته ورباك بنعمته وشرفك برسائله لنسألتهم أجمعين عما كانوا في دنياهم يعملون من كفر وتكذيب وإعراض وافتراء « وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ »^(١) فيحاسبهم أدق حساب ويعاقبهم أشد عقاب . فليس الأمر كما يزعمون إذ يقولون : « إِنَّمَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »^(٢) . وعبر بالماضي بقوله : « كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » مع أنه تعالى لم ينزل في الماضي بشأنهم قوله : « قَوْلُكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وإنما أنزله وقتما أمر النبي بقوله له : « وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » الآيات . - وعبر بالماضي في قوله : « أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » - لأن المحقق إنزاله في المستقبل في حكم الذي نزل فعلا . ولأن نزوله سابق في علم الله وقضائه .

ويجوز أن يراد مما أنزله الله على المقتسمين ما سبق نزوله من الإنذار للمعرضين عن القرآن المتقولين عليه كقوله تعالى في حق الوليد بن المغيرة: «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْلُودًا» وقوله: «سَارِقَهُ صَعُودًا» وقوله: «سَاصِلِيهِ سَقَرًا وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرٌ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ لَوْ أَوَّحَى لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ»^(١). وذلك عقاب له على قوله في القرآن: «إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ». وكقوله في سورة فصلت: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ أَتَدْرُتُكُمْ صَاعِقَةٌ مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ»^(٢). وعلى هذا يكون قوله سبحانه: «فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ». وعيدًا آخر غير ماسبق نزوله بشأنهم.

ويجوز أن يكون الضمير في قوله تعالى: «فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» عائدا على الناس جميعًا، وليس خاصًا بهؤلاء المقتسمين، أى وحق ربك يا محمد لنسألن الناس جميعًا - مؤمنهم وكافرهم عما كانوا يعملون في دنياهم «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى»^(٣).

وليس سؤاله سبحانه سؤال استفهام واستعلام وإنما هو سؤال تقرير وتوبيخ أو تقرير، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لا يسألهم الله تعالى: هل علمتم كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم وإنما يقول: لم علمتم كذا وكذا؟ وروى الترمذى بإسناد حسن صحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟»

ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى في سورة الرحمن: «فَبِمَوْمِئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ»^(٤).

وكذا في سورة المراتل: «هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ»^(٥).

(١) فصلت الآية ١٣

(٢) الآية ٣٩

(٣) سورة المائدة الآية من ١١ - ٢٠

(٤) سورة النجم من الآية ٢١

(٥) الآيةين ٣٥ ، ٣٦

لأن يوم القيامة طويل وفيه مواقف فيسألون في بعض المواقف ولا يسألون في بعضها .
وفي التعرض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ، من تسليته واللفظ به ، مالا يحتاج إلى بيان .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله تعالى سراً حتى نزلت هذه الآية :

٩٤ - (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) :

أى اجهر بما يأمرك الله به ، وأعلن رسالته التى أرسلك الله بها إلى الناس كافة ، ولا تنال بالمشركين وأذاهم فالله حافظك وناصرك وعاصمك ، كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »^(١) .

ولما كان المستهزون بالدعوة هم أكبر المعوقين لها والمصادين عن سبيل الله - وعده الله سبحانه أن يهلكهم ويكفيه شرهم فقال :

٩٥ - (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) :

الذين يستهزون بك وبالقرآن !

والمستهزون نفر من رؤساء كفار قريش ، اختلفت في عدتهم وفي أسمائهم ، والمشهور أنهم خمسة ، وكانوا يبالغون في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاستهزاء به . وبالقرآن ، وهم : الوليد بن المغيرة المخزومي وهو رأسهم ، والعاصم بن وائل السهمي ، والأسود بن الطيب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن قيس ، وقيل غير ذلك .

غير أن المعلوم في شأنهم أنهم كانوا طائفة ذات قوة وشوكة ، لأن أمثالهم هم الذين يجترئون على مثل هذه السفاهة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في علو منصبه وعظيم قدره في عشيرته . وقد وصف الله المستهزين ، وأكد وعده لرسوله بأنه سيكفيه شرهم فقال سبحانه :

٩- (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) :

أى أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بك يا محمد بل اجتروا على عظمة العظام وكبيرة الكبائر : ألا وهى الإشراك بالله عز وجل ، ولهذا كله « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » ما يحل بهم فى الدنيا من الإهلاك والإبادة ، وفى الآخرة من العذاب العظيم .

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾)

المفردات :

(يَضِيقُ صَدْرُكَ) : أى ينقبض ويخرج .

(مِنَ السَّاجِدِينَ) : أى من المصلين ، وإطلاق الساجدين عليهم ؛ لأن السجود فى الصلاة أظهر ما فيها من أمارات الخضوع والاستسلام والذلة لله تعالى .
(الْيَقِينُ) : المراد به هنا الموت ؛ وعبر عنه باليقين لتحقيقه .

التفسير

بعد أن جهر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة امتثالاً لأمر ربه ، اشتد إيذاء قريش له ولبن آمن به ، حتى ضاق صدره وعظم همه ، بما كانوا يقولون من كلمات الشرك والسخرية فانزل الله عليه :

٩٧- (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) الآيات .

أى وإنا لنعلم ما يعصبك من انقباض صدرك ، وعظم همك وألمك ، بسبب ما يقول المشركون فيك وفى القرآن من كلمات الشرك والاستهزاء :

٩٨- (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) :

أى فافزع إلى ربك فيما يعصبك من ضيق الصدر وانقباضه ؛ ونزّهة عما يقول المشركون ،

حامداً له سبحانه على أن هداك إلى الحق وشرح صدرك به . وكن من المصلين الخاشعين ،
يكشف همك وغمك ، ويذهب الضيق الذي تجله في صدرك .

ولأن السجود في الصلاة أظهر ما فيها من الخضوع ، وأفضل أجزائها من الخشوع -
عز الله به عنها ، وأمره به بصيغة تدل على اللوام والاهتمام بالصلاة وبالسجود معاً . وكان النبي
صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة^(١) . وقد روى عن مسلم في صحيحه ، عن
أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه
وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » .

وفي ختام السورة الكريمة بقوله تباركت أسأؤه :

٩٩ - (وَاَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) :

أمر إلهي كريم للنبي صلى الله عليه وسلم بدوام العبادة لربه والدعوة إليه حتى يأتيه
اليقين ، أى الأمر الموقن به وهو الموت .

أى دم على ما أنت عليه من الصلاة والعبادة لربك ما دمت حيا .

والآية دليل على وجوب العبادة - وعمادها الصلاة - على كل مكلف ما دام عقله ثابتاً .
ولو كان مريضاً كما ثبت في صحيح البخارى وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنهما
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع
فعل جنبك » .

والآية الكريمة دليل كذلك على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ،
فمن وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم ! وهذا كفر وضلال وجهل ، فإن
الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه
وصفاته وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل
الخيرات ، إلى الممات . وإنما المراد باليقين هنا الموت كما قدمناه . والله الحمد والمنة ، وهو
المستول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها فإنه جواد كريم .

(١) هذا حديث مشهور ذكره ابن جرير وغيره ، وقال ابن الأثير في النهاية : كان إذا حزبه أمر صلى . أى إذا نزل به

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النحل

المقدمة

السورة مكية إلا الآيات الثلاث الأخيرة على أرجح الآراء ، وهي تتناول النعم العديدة المتوالية من الله سبحانه على خلقه ، ولهذا سميت أيضاً سورة « النعم » .

وإن كثيراً من البشر يقابلون هذه النعم بالجحود والكفران كما قال تعالى : « يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ » النحل (٨٣) وأهم مشتملاتها :

١- أنها أشارت إلى أن عذاب الله واقع ماله من دافع ، على من يستحقونه من الطغاة العتاة ، وإن أمهلهم الله حتى حين فليس معنى ذلك إفلاتهم من عقابه الأليم إذا هم أصروا على الكفر والعصيان ، فإن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

ومن لطفه سبحانه بعباده أنه ينذرهم قبل معالجتهم بالعذاب عن طريق تنزيل الملائكة بالوحي السماوى على من يصطفاهم من رسله ليبلغوه إلى أقوامهم : « لَيْسَ لَكَ عَلَى النَّاسِ أَلٌّ إِلَّا حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » (١) .

٢- أنها بينت أن الله سبحانه خلق السموات والأرض من العدم بالحق والحكمة ، وخلق الإنسان من نطفة من ماء مهين ثم سواه إنساناً سوياً ، فإذا هو مجادل مكابر مُقْبِلٌ على الخطأ بعيدٌ عن الصواب ، ومع هذا فالله سبحانه يغمره بإحسانه وكرمه ، فقد خلق له الأنعام وسخرها له ينتفع بأصوافها وأوبارها وأشعارها ويأكل لحومها وما تدره من الألبان ، وهباً له استخدام الدواب بمتطعها ويحمل عليها أثقاله إلى مكان بعيد ، ومع أن الله من عليه بذلك هداه إلى السبيل السوى المستقيم ليعبد الله حق عبادته ، فبعث إليه رسله ؛ وبين له آياته .

٣- وأن من رحمة الله بخلقه أنه أسقط لهم المطر يستغلونه في الشرب وإعداد الطعام وسقى المواشى وزراعة الأرض لتخرج أنواع الثمار والفواكه والبقول وغيرها ، ومن نعم الله أيضاً على عباده أنه مهّد لهم العيش على سطح الأرض ، ونظم دورانها حول محورها بصورة تستتبع تعاقب الليل والنهار وهباً لهم الانتفاع بضوء الشمس ونور القمر ، والاهتداء في ظلمات الليل بالنجوم أثناء الليل والترحال ، كما سخر لهم الانتفاع بالبحار والمحيطات وما تضمه من خيرات ، وما تهيئه لهم من سهولة الانتقال بالسفن بين شتى البلاد والأقطار ، وتظهر آثار حكمته سبحانه في أنه ثبت الأرض في دورانها بالجيال الشامخة حتى لا تميد بما تحمله من العوالم العديدة .

٤- وأن الله سبحانه هو الذي خلق الخلق بحكمته وقدرته وغمرهم بإحسانه وفضله فهو وحده الجدير بالعبادة فكيف يشركون به أحداً من خلقه ، مع أن نعم الله عليهم لا تحصى ولا تعد ، وهو يعلم ما يسرون وما يعلنون ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب كما جازى الأمم السابقة لهم في الدنيا والآخرة ، في حين أن ما يعبدونهم من دونه لا يستحقون شيئاً من العبادة لفقدانهم أهليتها ، فهم لا يملكون لأنفسهم ولا لسواهم نفعا ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

٥- وأن الموت نهاية كل إنسان والناس لإزائه فريقان : فريقٌ تتوفاه ملائكة العذاب ومصيره إلى جهنم وبئس المصير ، وفريق مؤمن تتوفاه ملائكة الرحمة فتبشره بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة ؛ ولقد بعث الله الرسل وأنزل معهم الكتب فاستجاب لهم فريق وكفر بهم فريق ، وسينال كلٌ جزاءه بقدر عمله ، والذين هاجروا في سبيل الله سيثملهم الله برحمته ورضوانه في الدنيا « وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

٦- وبينت السورة أنه تعالى لم يرسل قبل محمد ملائكة حتى يحتجوا بهذا ، وإنما أرسل رجالاً أوحى إليهم برسالاته ، فهل آمن الكفار أن يخسف الله بهم الأرض جزاء كفرهم وعنادهم أو يصيبهم بعذاب مبالغت وهم آمنون ، أفلا ينظرون إلى الكائنات المنقادة لمشيئته الخاضعة لإرادته سواء في الأرض أم في السماء ، فهو إله واحد لا شريك له ، تظهر آثار قدرته وحكمته وإحسانه على خلقه ، وإن كان بعضهم يقابل الإحسان بالإساءة والجحود ، وينزع

أن الملائكة بناتُ الله ، ويضيق بإنجاب البنات ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيبقيهن مع احتمال الذل والهوان أم يلفنهن أحياء في التراب - ولو يؤاخذ الله الناس بذنوبهم لأزال كل ما يدب على سطح الأرض من الكائنات الحية ولكنه يؤخرهم إلى أجل محدود لا يتجاوزونه بأي حال .

٧- وبينت السورة أنه تعالى أرسل الرسل إلى الأمم السابقة فكذبوهم فأصابهم ما يستحقونه من العذاب ، وأنه تعالى أنزل على رسوله الكتاب إرشاداً وتوضيحاً وهدى ورحمة ، وكما أنزل الله الهداية الروحية لإحياء النفوس أنزل سبحانه الماء لإحياء الأرض بعد موتها ، وسخر سبحانه الأنعام لتمنحهم من بطونها اللبن السائغ العذب ، وأنبت لهم من الأرض ثمرات النخيل والأعناب يتخذون من ثمراتها شراباً حلواً وأكلاً شهياً ، وسخر النحل وهداها لتتخذ من الجبال ومن الشجر والعرائش بيوتاً لها ولتتناول من الثمار غذاءً تحيله إلى عسل شهيء فيه غذاء وشفاء .

٨- وبينت أن الله خلقنا ثم قدر علينا الموت ، وقد يجهل بعضنا حتى يبلغ أرذل العمر فلا يعلم شيئاً ، والله اختبرنا بتفضيل بعضنا على بعض في الرزق ، وخلق لنا أزواجاً من جنسنا حتى نأنس بهن ونسكن إليهن ، ومنحنا منهن أبناءً وحفدة ورزقنا من طيبات الحياة فكيف نقابل إحسانه بالكفر ، ونؤمن بالباطل والفضلال ونعبد من دونه من لا يملك أن يرزقنا ولا يستطيع الرزق إن أراد .

٩- وأنه لا يستوى العجزة والقادرون ولا الأغنياء والأذكياء ، وللجميع نهاية يوم القيامة الذي يباغت به الجميع مباغتة تقع كطرفة العين ، ومن آيات الله التي ينبغى مراعاتها وشكرها أنه سبحانه أخرجنا من بطون أمهاتنا . ونحن لانعلم شيئاً ، ثم منحنا نعمة السمع والبصر والعقل المفكر لكي نعبد ونشكره حق شكره ، وأتاح لنا رؤية الطير المحلقة في أجواز الهواء ضد الجاذبية الأرضية ، وما يحفظها في تحليقها إلا الله الحكيم القدير العليم .

١٠- ومن نعم الله العديدة علينا أنه هدانا لاتخاذ البيوت المستقرة ، كما هدانا لأن نتخذ البيوت المتنقلة من الخيام المصنوعة من جلود الأنعام . وهياً لنا أن نتخذ من أصوالها

وأوبارها وأشعارها أثاثاً لبيوتنا وملابس تقينا من لفح الحر ولذع البرد ، وهدانا إلى اتخاذ الدروع التي تحمينا في ساحة القتال ؛ ولكن كثيرين منا يعرفون هذه النعم وهم لها جاحلون .

١١- وأن الله سبحانه أمر عباده بمراعاة العدل والإحسان وصلة الأرحام ، ونهاهم عن ارتكاب الآثام ، كما أمرهم سبحانه بالوفاء بالمهود المبرمة والأيمان المؤكدة ، وألا ينقضوا ما أبرموه وألا يتخذوا أيمانهم وسيلة للخداع والتمويه وألا يستبدلوا ما عاهدوا عليه الله بعرض زائل ولا ثمن قليل ، فإن ما عند الله خير وأبقى وسيجزى الله عباده المتقين أجزل الثواب .

١٢- وأن على المؤمنين حين يتلون كتاب الله أن يستعينوا به من وسوسة الشيطان حتى لا يُفْسِدَ عليهم تلاوتهم أو يصرفهم عن تدبر آيات الله البينات ، فإنه لا سلطان للشيطان على المؤمنين المتوكلين على الله ، وإنما سلطانه على الموالين له المنصرفين عن عبادة الله .

١٣- وأنه إذا أنزل الله آية بدلا من آية كذب المشركون رسولهم ، وكان عليهم أن يعلموا أن الرسول لا يفتري على الله الكذب ، وأنه تلقى وحى الله عن طريق الروح الأمين تثبيتاً لقلوب المؤمنين وهدى وبشرى للمسلمين ، وأن المشركين يزعمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم تعلم القرآن عن طريق غلام أعجمى بمكة ، وفاتهم أن هذا الغلام أعجمى لا يكاد يبين وأن القرآن الكريم عربى مبين ، وافتراء الكذب على الله من شيمة الكذابين الكافرين .

١٤- وأن من كفر بالله بعد الإيمان فجزاؤه العذاب الأليم ، إلا من أكره إكراهاً شديداً على النطق بالكفر وقلبه ممتلئ بالإيمان .

١٥- وأن النعم تزول بجحودها ، وقد ضرب لذلك مثلاً بقرية سعدت بأنعم الله فعاشت آمنة مطمئنة فلما كفرت أذاقها الله لباس الجوع والحاجة والهوان بسبب كفرها وإنكارها لأنعم الله .

١٦- ثم وجه الله عباده إلى أن يطعموا الحلال وأن يبتعدوا عن الحرام ، ونهاهم عن أن يبتدعوا من التحريم والتحليل ما لم يأذن به الله ، ونبههم إلى أن من وقع في الآثام وبادر بالتوبة فإن الله من بعد ذلك لغفور رحيم .

١٧- ثم أمر الله رسوله أن يلتزم في دعوته بالرفق والأناة والموعظة الحسنة وأن يجادل الكفار بالحسنى ، وإذا آذاه المشركون فإن له أن يقابل إيذاهم بمثله وله أن يصبر فإن الصبر خير عاقبة وأجدى مآلاً فإن الله مع الصابرين المحسنين .

سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾)

التفسير

١ - (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) : نزل قضاء الله وحكمه بنصر المؤمنين وهزيمة الكفار إذا أصرروا على الكفر والعصيان ، والمقصود أنه سيأتي قضاء الله في المستقبل ، والتعبير عن المستقبل بالماضي لأن وقوعه حتمي مؤكد في الوقت الذي حدده الله لوقوعه فكأنه وقع فعلا ، وشبهه هذا قوله تعالى : « وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ »^(١) . فإن المناداة لاتقع إلا يوم القيامة ، والمراد بأمر الله هنا - كما قال ابن جريج - ما وعد الله رسوله من النصر على الأعداء . والانتقام منهم بالقتل والسبي والاستيلاء على الديار ٥١ . ومن ذلك قوله تعالى : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ »^(٢) .

وإذا كان قضاء الله نافذا لا محالة في الوقت الذي قدره الله سبحانه فلا داعي لأن تستعجلوا وقوعه أيها المشركون ، وقد كانوا يتحذثون الرسول صلى الله عليه وسلم ويستعجلون وقوع العذاب الذي أنذرهم به .

(١) الأعراف - ٤٤

(٢) الروم - ٤٧

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) : تنزيها لله سبحانه وتساميا عن أن يكون له شريك أو نظير بمثاله في أمره كله : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ^(١) » .

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾)

المفردات :

(بِالرُّوحِ) : المقصود بالروح هنا القرآن الكريم ومنه قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ^(٢) » . أو القرآن والسنة معا لأنهما وحى سماوى وإن اختلفا بأن لفظ القرآن ومعناه أنزلا من عند الله ، أما السنة فمعناها هو الذى أنزل من عنده تعالى ، وأما لفظها فهو من تعبير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . (مِنْ أَمْرِهِ) : أى أن هذا الروح - أى القرآن - ناشئ من أمره وصادر عنه ، ويصح أن تكون (من) سببية أى بسبب أمره . (أَنْذِرُوا) : خوِّفُوا وحذِّروا .

التفسير

٢- (يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) :

أى أنه سبحانه اقتضت حكمته قبل أن يعاقب خلقه أن يرشدهم إلى الصواب ويخوفهم العقاب فينزل ملائكته بالوحى السماوى حال كون هذا الوحى ناشئا ومبتدئا من أمره وحده - ينزله - على من يصطفيه من خلقه ومهمتهم ما بينه الله فى قوله : « أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » أى خوِّفُوا الناس من مخالفة أمرى . وبينوا لهم أنه لا إله إلا الله وأن عليهم أن يعبدوه وحده وأن يحذروا غضبه وعقابه الشديد الذى يحلُّ بهم إذا ظلُّوا كافرين عاصين

(خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ⑤)
 خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ⑥)

المفردات :

(النُّطْفَةُ) : ماء الرجل ففيه الحيوانات المنوية ، وماء المرأة ففيه البويضة التي تلقح
 بحيوان من حيوانات منى الرجل ، فيحصل الحمل وفقا لمشیئة الله تعالى .
 (خَصِيمٌ) : شليد المخاصمة والمجادلة . (مُبِينٌ) : واضح ظاهر .

التفسير

٣ - (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) : بعد أن قرّر الله أنه لا إله إلا هو ساق الدليل
 على وحدانيته ، بأنه ابتدع السموات والأرض على غير مثال سبق ، ونسق بينهما أتم تنسيق ،
 ودفع كلا منهما في فلكه المرسوم ، خلق هذا كله مقرونا بالحق ، مُتَّسِمًا بِالْحِكْمَةِ السَّامِيَةِ
 في الخلق والتدبير كما قال سبحانه : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاجِبِينَ .
 مَا خَلَقْنَا هُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » (١) .

(تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) : تنزه الله وتقدس ونسأى عن أن يكون له شريك في ملكه
 أو نظير في خلقه وتدبيره ، فإن هؤلاء الشركاء عاجزون عن تدبير أنفسهم وجلب النفع لهم ،
 أودفع الضر عنهم ، فكيف يكونون شركاء لله الواحد القهار ، ثم تحدث عن خلق الإنسان
 خاصته لربه فقال جل ثناؤه :

٤ - (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) .

وكما خلق الله السموات والأرض بالحق خلق الإنسان في أبدع تكوين من ماء مهين
 حيث زوده بالسمع والبصر وأيده بالعقل المفكر . ولم يكتف بذلك ، بل أرسل إليه الرسل ،

وأنزل عليه الكتب ، وكان مقتضى هذا أن يقرّ بوحداية الله وقدرته ، وأن يبادر بعبادته ولكنه اتخذ هذه المواقف التي أبده الله بها ليجادل في وحدانية الله ويخاصم الدهاة إليه إذ يقول : « مَنْ يُخَيِّ الْعِظَامَ وَهِيَ رِيمٌ »^(١) مع أنه سبحانه قوى قهار منتقم من عصاه ، وصدق الله إذ يقول : « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ »^(٢) .

ويصح أن يكون المعنى : خلق الإنسان من نقطة فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم بعد أن كان ماء حقيراً لا قيمة له ولا وزن - وهذا المعنى أنسب بمقام الاعتنان بإعطاء القدرة على الاستدلال على الله تعالى .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا
تَأْكُلُونَ ⑥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑦
وَتَحْمِلُ أَوْفَاقَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا يَشِقُّ الْإِنْفُسُ
إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ⑧ وَالْحِمْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا
وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ⑨)

المفردات :

(الْأَنْعَامَ) : الإبل والبقر والضأن والمعز . (تُرِيحُونَ) : تعيدونها من المراعى إلى البيوت من الرواح وهي العودة إلى البيوت آخر النهار .

(تَسْرَحُونَ) : تطلقون سراحها من الحظائر صباحاً إلى المراعى الصالحة .

(يَشِقُّ الْإِنْفُسُ) : ما يشق عليها ويرهقها ويحملها ما يثقلها من الأعباء .

التفسير

٥- (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) : أى وكما خلق الله الإنسان خلق له الأنعام وهى الإبل والبقر والمعز والضأن ، وجعل له فيها دِفْئًا ، حيث يتخذ من أصوافها وأوبارها وأشعارها ملابس وأغطية تمنحه الدفء فى الشتاء كما تمنحه الدفء الداخلى بالطعام حيث تمنحه طاقات حرارية حينما يأكل لحومها ودهونها وألبانها ، فإن لكل طعام نوعا حراريا خاصا به يمنحه الله لآكله ، وللإنسان فيها منافع كثيرة كالحرث والرى وغير ذلك من النعم التى تستنبط منها .

٦- (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تُسْرَحُونَ) : وكما تمنحكم تلك المنافع العظيمة فهى تدخل البهجة والسرور على نفوسكم بجمالها حين تعيدونها من مراعيها مليئة البطون ، حافلة الضروع وحين تخرجونها من حظائرها إلى المراعى متدافقة متموجة تنساب إليها فى مرح وخفة وحيوية ونشاط متناسقة الأعضاء متسقة التكوين .

٧- (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْبِ إِلَّا يَشُقُّ الْأَنْفُسَ) : أى ومن نعم الله سبحانه فى منافع الأنعام ولاسيما الإبل . أنها تحملكم وتحمل أمتعتكم الثقيلة من بلد إلى بلد لاتستطيعون الوصول إليه إلا بمشقة وعناء .

(إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ) : هذا تعليل لما سبق ذكره من نعم الله على عباده ، مؤكد بعلة توكيدات ، وفى إضافة الرب إلى ضمير المخاطبين لإظهار لمزيد عنايته سبحانه بخلقه ، وعظيم رأفته وواسع رحمته بهم ، والرأفة فرع من الرحمة تختص بدفع المكروه وتخفيف ما يشق على عباده ، وأما الرحمة فتشمل هذا وغيره من أنواع التفضل والإنعام .

٨- (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً) : ومن نعم الله عليكم أنه خلق لكم الخيل والبغال والحمير وسخرها لكم لتركبوها وتنتفعوا بها فى السلم والحرب ، كما جعلها زينة لكم وجمالا نلفت الأنظار وتبهج النفوس .

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) : وكما خلق لكم الأنعام والدواب يهديكم إلى اختراع وسائل أخرى للتنقل والحمل لم تكن موجودة فى عصر نزول القرآن وما تلاه إلى زمن قريب ، مثل

السيارات والقطارات والطائرات والسفن الضخمة التي تسير بالبخار وغيره إلى غير ذلك من الوسائل التي لم تعرف حتى الآن ، وفي هذا الإعجاز القرآني مالا يخفى على الباحثين الدارسين ، ولا تزال الكشوف متوالية إلى ما شاء الله مما لم يكن يخطر على بال .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(قَصْدُ السَّبِيلِ) : مستقيم الطريق . (جَائِرٌ) : منحرف .

التفسير

٩ - (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ) : أي وكما أنعم الله علينا بالنعم الحسية الوفيرة تفضل هدايتنا إلى الطريق المستقيم الموصل إليه سبحانه بما أنزله من الكتب ، ومن بعضهم من الرسل ، ولو وكلنا إلى أنفسنا لضللنا هذا الطريق الذي دعا إليه جميع الرسل ، وهو الذي وصانا به سبحانه في القرآن ، وبأبى الطرق معوج ينحرف عن الحق ، وقد نهينا عن سلوكه كما قال تعالى : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »^(١)

(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ) : أي ولو أراد سبحانه وتعالى هداية البشر جميعاً بطريق الجبر لهداهم ولكن حكمته السامية اقتضت أن يختبرنا ، ويتركهم لعقولهم واختيارهم ، بعد أن أرشدهم إلى آياته ودعاهم إلى الحق على السنة رسله « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ »^(٢)

(١) الأنعام - ١٥٣

(٢) الأنفال - ٤٢

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾)

المفردات :

(السَّمَاءُ) : كل ما ارتفع وعلا ، والمقصود هنا السحاب .

(فِيهِ تُسِيمُونَ) : تبعثون أنعامكم إلى المراعى لتسوم في الشجر أى تأكل منه .

التفسير

١٠- (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ) :

استأنفت الآيات تعداد نعم الله على خلقه فإنه سبحانه يسلط أشعة الشمس على البحار والأنهار فيخرج منها بخار يتحول إلى سحاب ، ويسلط عليه الرياح ، فتحمله إلى حيث يشاء الله فينزل منه ماءً عذباً يشرب منه الإنسان والحيوان وينبت به العشب والأشجار كما قال سبحانه :

١١- (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) :

أى ينبت لكم بالماء الذى أنزله من السماء أصنافاً مختلفة من النبات بدأتها الآية الكريمة بالزرع لأنه أصل الغذاء وعمود المعاش وبه قوت أكثر العالم ، ثم أتبعته بذكر الزيتون لأنه غذاء ، ودواء وقدمت النخيل على الأعناب لأن فيها غذاءً كاملاً وفوائد أخرى ، ولأنها ينتفع بها زمناً طويلاً . والمراد بالأعناب ثمار العنب . ومجيئها بلفظ الجمع لتعدد أنواعها ومنافعها ، ثم ختمت الآية الكريمة ما ذكرته من أصناف النبات والشجر بقوله تعالى : «وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ»

للإلهان بأن ما ذكر من قبل إنما هو بعض النعم ؛ وأن خيرات الله وثمرات الشجر تفوت الحصر .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) : إن فيما سبق بيانه من نعم الله العليدة آية واضحة . على عظيم قدرته وتفردته بالوحدانية لقوم يتفكرون في آيات الله فيشكرونها على سوابغ نعمه .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾
وَمَا ذَرَأَّا لَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(ذَرَأَ) : خلق . (يَذْكُرُونَ) : أصلها يتذكرون . أدغمت التاء في الذال بعد قلبها ذالا أى: يتعظون .

التفسير

١٢ - (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) : ومن نعم الله الكثيرة كذلك على الإنسان أنه خلق الأرض وهبها لتلدور حول محورها دورانا نشأ عنه تعاقب الليل والنهار مما أتاح للإنسان السكون والهدوء والراحة في أثناء الليل ، ويسر له العمل والكد والكفاح في أثناء النهار ؛ ومن نعمه سبحانه أن سخر الشمس لتمدنا نهارا بالضوء والحرارة ، وسخر القمر ليمدنا بالنور الهادئ المريح ليلا ، وجعلهما مراصد للتوقيت الزمني ، ولنعلم بهما مواقيت العبادات وعدد السنين والحساب .

(وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) : أى وكما سخر الله الليل والنهار والشمس والقمر ، سَخَّرَ النجوم فهي مسخرات بمشيئته وتمكينه إياها من أداء ما خلقت لأجله ، والنجوم جمع نجم ، وقد أطلقه الفلكيون على كل كوكب تشع منه حرارة ذاتية وضوء ذاتي وحوله مجموعة من الكواكب ترتبط به جاذبيةً واستنارةً وحرارةً كشأن الشمس بين كواكبها المرتبطة بها فكل نجم بين مجموعته هو شمس فيها ، وجميع النجوم وكواكبها منقادة لإرادة الله تعالى ، دائرة في أفلاكها المرسومة وفقاً لحكمته وطبقاً لإرادته .

(إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) : إن في تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، آيات ودلالات بالغة على قدرة الله وحكمته وإبداعه ووحدانيته ، لمن استعملوا عقولهم فاهتموا بها إلى فاطر الأرض والسموات وآمنوا به وأفردوه بالعبادة والتقليد .

١٣- (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) : أى وما خلق لكم في الأرض متعددة أصنافه مسخر بأمره أيضاً ، من حيوان ونبات وجماد ، فكل ذلك متنوع الأشكال مختلف الألوان والأصناف متعدد المنافع مسخر لنا لننتفع به كلما أردنا إن في هذا كله آية عظيمة على قدرة الله وحكمته ورحمته لكل من تذكر وتدبر فاتعظ بما رآه بصره وأدركته حواسه وفقهه عقله .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِنَاكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا
وَنَسَخَّرِجُوا مِنْهُ حَلِيبَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَّكَ مَوَاجِرَ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ
رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾
وَعَلَّمَكُم مَّا تَحْتَ يَدَيْكُمْ وَيَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(سَخَّرَ الْبَحْرَ) : ذَلَّلَهُ وَيَسَّرَ الانْتِفَاعَ بِهِ

(مَوَاجِرَ) : جمع ماخر من مخر الماء شقه . (تَمِيدَ) : تضطرب

التفسير

١٤- (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا قَلْبًا تَلْبَسُونَهَا) : وهو الذى سخر لكم البحر بقدرته وحكمته ، لكى تستطيعوا اصطياد كائناتها البحرية من الأسماك لتأكلوها طرية أى قبل أن يسرع إليها الفساد وسخرها أيضا لكى تتزيتوا بحليتها ، وذلك باستخراج بعض الحلى منها ، مثل اللؤلؤ والمرجان والأصداف لاستعمالها فى الزينة .

(وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ) . أى وترى السفن تشق سطح الماء تستخدمونها فى صيد الأسماك واستخراج الحلى من البحر . (وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) : أى ولتطلبوا بها منافع أخرى من فضل الله غير ما تقدم ، كالتجارة ونقل الحاصلات والبضائع من مرفأ إلى مرفأ ومن قطر إلى قطر ، وغير ذلك كالارتحال بها لطلب العلم حيث يوجد العلم والعلماء .

(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى وأمدكم الله بهذه النعم كلها لكى تشكروه على إحسانه وفضله وتقدروه حق قدره .

١٥- (وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَايَا أَنْ تَحْيِيَهُمْ) : أى ومن نعم الله الكثيرة عليكم أنه جعل فى الأرض جيالاً شامخات ثابتات تحفظ اتزانها فى دورانها حتى لا تضطرب فى حركتها .

(وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) : أى وجعل فى الأرض أنهاراً عذبة تجري مياهها من منابعها إلى مصابها ، لتهيئ الرى للإنسان والحيوان والنبات ؛ وجعل سبحانه فى الأرض طرقاً كثيرة تنتقلون فيها من مكان إلى مكان للتجارة وجلب الرزق وتبادل المنافع ، لكى تهتدوا إلى غاياتكم إذا سلكتموها .

١٦- (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) : أى وجعل فى الأرض علامات لتوضيح الطرق من جبال وأنهار وغير ذلك ، كما جعل النجوم فى الليل علامات واضحة لتحديد الجهات فى البحر والبر والجو ، فقادة السفن والطائرات ورواد الفضاء يهتدون بالنجم القطبي أو سواه لتحديد مساراتهم واتجاهاتهم للوصول إلى أهدافهم .

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِنْ تَعُدُّوا
نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٨ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ
وَمَا تُعْلِنُونَ ۝١٩)

التفسير

١٧ - (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ . . .) الآية .

أى إذا كان الله سبحانه هو الذى خلق السموات والأرض وما فيهن مما يعلم وما لا يعلم وهو الخلاق العظيم فكيف يعبد معه مالا قدرة له على النفع والضرر لنفسه أو لغيره وهو مخلوق لله، وليس له فى الخلق أدنى نصيب ، أهما بعد هذا التباين متساويان فمن يخلق كل شيء كالذى لا يخلق أقل شيء .

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) : أى أتعرضون عن الحق الذى أيلته الآيات فلا تتعظون بما تسمعون من العظات وبما ترون من الآيات، وقد وهب الله لكم عقولاً لتمييزون بها الخير من الشر والنفع من الضر فكيف غفلتم عن هذه الحقائق .

١٨ - (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) : أى وإن حاولوا أن تعدوا نعم الله التى أنعم بها عليكم فلن تستطيعوا عددها ولا تصل إليه قدرتكم فضلاً عن القيام بحق شكرها ، فكلم له من نعم خالقية ونعم ظاهرة ترونها فى أنفسكم ، وفيما سخره الله لكم من نبات وحيوان وجماد وأمطار وبحار وأنهار وعيون وآبار وغير ذلك من نعم الله التى سخرها لمنفعة عباده وصدق الله حيث يقول : « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ » .

وقد ختم الله هذه الآية بنعمة كبرى تفوق كل نعمة حيث قال جل ثناؤه :
 (إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) : فبشرهم بنعمة الغفران والرحمة ليبذلوا ما في وسعهم لشكر
 نعمه ويحرصوا على طاعته قدر طاقتهم ، ولا ييئسوا من رحمته إذا ما قصروا في طاعته
 ما داموا مؤمنين برهم مصدقين برسالة نبيهم تائبين من ذنوبهم .

ثم عقب الله هذه الآية بما يفيد التحذير من الغلو في العصيان طمعاً في غفران الله ، وبما
 يطمئن أهل التقوى على طاعتهم سرّاً وجهرها فقال سبحانه :

١٩ - (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) : أى والله سبحانه يعلم حق العلم ما تخفيه
 السرائر وما تبديه الجوارح ، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء ويغفر للمستغفر ، وصدق الله
 حيث يقول : « وَإِنْ تُبْتَلُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
 وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَلِيلٌ » (١) .

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ
 يُخْلَقُونَ ۖ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۖ) (٢١)

الفردات :

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) : المراد بهم الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله .

التفسير

٢٠ - (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) : الآية .

أى وكل الذين يعبدون المشركون من دون الله من إنسان وأصنام وغيرها عاجزة عن أن تخلق
 أى شيء وإن كان حقيراً ، فإنها مخلوقة وليست بخالقة عاجزة وليست بقادرة ، فكيف
 يعبدونها من دون الخلاق العظيم .

٢١- (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) : أى أن هذه المعبودات أموات فكيف عبدوها ، فهي إما صخورٌ صماء جامدة ليست فيها حياة وإما أحياء ، لكنهم فى حكم الأموات ، وهم لهذا لا يشعرون متى يبعثون ، والله سبحانه سيبعث هذه المعبودات الباطلة وعابديها ويخرجهم يوم القيامة للمحاجة فتتبرأ المعبودات من عابديها ثم يقذف بها ويعابديها فى النار كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ ^(١) . أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم شهداء على أقوامهم الذين عبدوهم بغير حق كما فعل أصحاب عيسى من بعده عليه السلام ، حيث عبدوه واتخذوه إلهاً .

(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۖ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(لَا جَرَمَ) : لا بد ولا محالة - أو حقاً .

التفسير

٢٢- (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) : هذه الجملة تعتبر كالنتيجة للأدلة السابقة ، فكأنه قال : قد ثبت بما تقدم بطلان ألوهية غيره تعالى ، وتحققت الألوهية لله وحده ، فإلهكم إله واحد لا شريك له ، ولكن المشركين لا تنفعهم البراهين ، فهم على باطلهم مقيمون فلماذا قال سبحانه : (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) : فالذين لا يصدقون بالحياة الآخرة وما فيها من عقاب خالدهم على الشرك ، قلوبهم منكرة وحدانية الله تعالى التى

قامت عليها البراهين ، لعدم خوفهم من العقاب على شركهم ، وهم لهذا مستكبرون عن قبول الحق والاستماع إلى رسوله الأمين ، والنظر فيما يقدمه لهم من الآيات والبراهين ، ولهذا كان لابد من وعيد الله لهم بقوله :

٢٣٠ - (لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) :

أى لا محالة أن الله تعالى يعلم ما يخفونه في أنفسهم من الشرك وسوء الطوية وجميع معاصيهم وأسرارهم ، كما يعلم ما يعلنونه من ذلك فلا تخفى عليه منهم خافية ، فلا بد من عقابهم على شركهم ومعاصيهم ، فإن الله تعالى لا يحب المستكبرين عن الحق ، المتعاليين عن أدلته وبراهينه ولا يدخلهم جنته ، أخرج مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » .

(وَلَمَّا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالَُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٤)
لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ
يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥)

الفردات :

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أباطيلهم التي سطروها ؛ جمع أسطورة

(أَوْزَارُهُمْ) : أثقالهم والمراد منها ؛ آثامهم .

التفسير

٢٤ - (وَلَمَّا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالَُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : كان الوافدون على مكة

للحج أو غيره يسألون كفار مكة عن هذا النبي الذي ظهر بينهم ، ورأيهم فيه وفيما أنزل

عليه ، فكان هؤلاء المشركون يسيئون في إجاباتهم لينفروهم منه ، ويعلمونهم عن الاستماع إليه ، وذلك ما حكاه الله في هذه الآية .

والمعنى : وإذا سئل هؤلاء المشركون المتكبرون عما أنزله الله من الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم زعموا أنه حكايات ملفقة سطرها القلماء ، وزعم محمد أنها أنزلت عليه من الله تعالى ، وكما حكى الله هذه الفرية عن المشركين هنا ، حكاهما عنهم في قوله في سورة الفرقان : « وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » .

٢٥- (لِيُخَمِّلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) :

أى أن هؤلاء المستكبرين قالوا لمن يسألهم عما أنزل من الحق على محمد : هذا أساطير الأولين وأباطيلهم ، لتكون عاقبتهم أن يحملوا آثامهم كلها ، ومنها هذا الذى اقترفوه في التنفير عن الحق ، ويحملوا أيضا بعض آثام من أضلّوهم وأبعدهم عن الإسلام بما افتروه على القرآن الكريم ، وهو إثم الإضلال ، فهما شريكان في الإثم ، هذا يضلّه ، وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر .

والمراد من قوله تعالى : (يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) : أنهم يضلّونهم غير عالمين بأن ما يدعونهم إليه هو طريق الضلال ، وفائدة التقييد بقوله : (بِغَيْرِ عِلْمٍ) الإشعار بأن مكرهم لا يروج عند ذى لب وإنما يتبعهم الأغبياء والجهلة ، والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون علما إدا كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المصحح الجدير بالاتباع وبين المبطل ، أخرج مسلم وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِ شَيْءٍ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا - . . » إلخ .

(الْأَنسَاءَ مَا يَحْبُرُونَ) : أى ألا بشس ما يحملونه من آثامهم وآثام من اتبعوهم في الكفر

والضلال .

(قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ
فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ مُرْكَأَى
الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ
الْيَوْمَ وَالسَّوَاءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

- (مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : أى كادوا لِرُسُلِهِمْ يُرِيدُونَ الإيقاع بهم .
(فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ) : أى فَاتَى أَمْرُ اللَّهِ بُنْيَانَهُمْ مِنْ أُسُسِهِ .
(فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ) : أى سقط عليهم سقف بنيانهم .
(يُخْزِيهِمْ) : يُذِلُّهُمْ بعذاب الخزي . (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) : هم الأنبياء والمؤمنون .

التفسير

٢٦ - (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ

فَوْقِهِمْ) :

بعد أن حكى الله تعالى عن قريش قولهم عن القرآن « أساطير الأولين » وبين أنهم
سوف يحملون يوم القيامة ذنوبهم وذنوب من يضلونهم، جاءت هذه الآية وما بعدها لتبين
أنهم قد سبقهم مَنْ قَبْلَهُمْ بالكفر بالله وتكذيب رسلهم ، وكانت عاقبتهم في الدنيا الهلاك
وفى الآخرة الخزي والعذاب ، وأن عليهم أن يحذروا مثل مصيرهم .

والمعنى : قد تأمر الذين من قبل قريش على رسلهم ، فدبروا لهم المكائد ليهلكوهم
أو ليقضوا على الحق الإلهي الذي جاءوا به أمهم ، فأحبط الله كيدهم ، وسقط عليهم
بنيان المؤامرة التي دبروها ، دون أن ينال الرسل منها كربة .

شبهت حال الماكرين برسلهم في تدبير مكابدهم التي أرادوا بها الإيقاع برسل الله وفي إبطال الله تعالى تلك الحيل والمكايد ، وجعلها أسباباً لهلاكهم ، بحال قوم بنوا بنياناً ، وعملوه بالأساطين ، فأتى ذلك البنيان من قبل أساطينه ، بأن تداعت فسقط عليهم السقف من فوقهم فهلكوا .

(وَأَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) :

أى أنهم الهلاك والدمار من جهة بنيانهم الذى أقاموه ضد الرسل، وقد كانوا يظنون أنه محكم بحيث لا يأتهم من جهته ما يؤذيهم ، فخبب الله ظنهم وجعله سبب هلاكهم في دنياهم .

وكذلك أنتم يا أهل مكة ، أحكمتم أمركم ضد القرآن العظيم ، وقتلتم فيه ما قلتم ومن جملته أنه أساطير الأولين ، فسيأتيكم العذاب في الدنيا من حيث لا تحتسبون كما فعل الله بمن قبلكم ، إن ظلمتم على كفركم .

٢٧ - (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ) :

أى ثم يوم قيام الناس من قبورهم لحساب ربهم يذل الله المشركين بعذاب الخزي على رموس الأَشهاد ، ويقول لهم تفضيحاً وتوبيخاً: أين شركائى في الألوهية الذين كنتم تخاصمون الأنبياء والمؤمنين في شأنهم ، فاستحضروهم ليشفعوا لكم أو لينقلوكم إن كنتم صادقين في مزاعمكم نحوم ، وهيهات أن يجلوهم شافعين أو منفذين بل لائمين مكذبيين .
(قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ) :

أى قال الذين أوتوا العلم من أهل الموقف وهم الأنبياء والمؤمنون الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد ويقيمون لهم أدلته - قالوا لهم - شامة بهم وتحقيقاً لما نوعدهم به : إن الفضيحة والذل والهوان اليوم على الكافرين بالله ورسله وآياته .

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ
مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾
فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئِنْ شِئْتُمْ
الْمُنْكَرِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(أَلْقَوْا السَّلَمَ-) : أظهروا المسألة والانقياد والإذعان .

(مَثْوَى) : مستقر ومكان إقامة .

التفسير

٢٨- (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) :

تسوق هذه الآية مشهدا من مشاهد النهاية لحياة الظالمين المصيرين على الكفر ، وهو أن ملائكة العذاب حين يقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم بالكفر والعصيان ، يستسلمون زاعمين أنهم لم يرتكبوا إثما في حياتهم وأنهم ما كانوا يعملون السوء ، فترد عليهم الملائكة قائلة :

(بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) : أى نعم قد علمتم السوء، وإن الله سبحانه واسع العلم ، محيط بكل ما كنتم تعملونه قبل وفاتكم ، فكيف تكذبون على من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، ومن «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّلُوفُ» ^(١) .

٢٩ - (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) : أى فادخلوا جهنم من أبوابها السبعة التى أعدت للكفار والعصاة ، لتبقوا فيها خالدين لا تبرحونها أبداً .

(فَلْيَشْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) : أى فما أشوأ المقر الذى أعده الله للمتكبرين فى جهنم . والمراد من المتكبرين هنا من ترفعوا عن عبادة الله والاستجابة للرسول ، وآثروا الكفر على الإيمان والعصيان على الانقياد والشرك على التوحيد .

(* وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ
وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ
الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(جَنَّاتُ عَدْنٍ) : بستاتين إقامة من عدن بالمكان أقام به . (طَيِّبِينَ) : صالحين .
(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : وأمان لكم .

التفسير

٣٠ - (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا خَيْرًا ...) .

بينت الآيات السابقة حال الأشقياء الذين أشركوا بالله وكذبوا رسله . وقالوا عن القرآن لما سئلوا عنه : «أساطير الأولين» فكان جزاؤهم جهنم خالدين فيها ، ثم تلتها هذه الآيات لبيان حال السعداء الذين أحسنوا القول لسائلهم والعمل لربهم . فأجزل لهم ربهم

خيرى الدنيا والآخرة . وهؤلاء يقول فيهم سبحانه : (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا) : أى وقال القادمون على مكة للسؤال عما أنزله الله على النبي الذى سمعوا بمبعثه - قالوا - للمتقين من المؤمنين : (ماذا أنزل ربكم ؟) : أى ما الذى أنزله ربكم على رسوله : (قَالُوا خَيْرًا) : أى قالوا لهم : أنزل خيرًا كثيرًا وهو القرآن ففيه الخير كله ، فهو رحمة وهدى وبركة لمن اتبعه وآمن به ، وهم فى جوابهم هذا يخالفون الكفار . حيث أنكروا إنزاله بما أجابوا به بقولهم : « أساطير الأولين » .

روى أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام موسم الحج من يأتهم بخبر النبي عليه السلام . فقد نقل عن السدى قال : اجتمعت قريش فقلوا : إن محمدًا صلى الله عليه وسلم رجل حلوا اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله . فانظروا أناسًا من أشرافكم . فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة . فمن جاء يريده ردوه عنه . فكان إذا أقبل الرجل وافدًا لقومه ينظر ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم - فينزل بهم . فيكفونه عنه ، ويأمرونه بالانصراف . قائلين له : إن لم تلقه كان خيرًا لك . لأنه رجل لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم ، أما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقوه ، فإذا كان الوافد ممن أراد الله لهم الرشاد . وقالوا له مثل ما قالوا لغيره أجابهم بقوله : أنا شرُّ وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه . فيلقى أصحاب محمد رضى الله عنهم فيسألهم فيخبرونه بحقيقة الحال : ١ هـ .

وعلى هذا فالسائلون هم الوافدون . والمجيبون هم المؤمنون : ويجوز أن يكون السائلون والمستولون من المؤمنين ، حيث يسأل بعضهم بعضًا . ليقوى إيمانه . وليشعر بلذة الجواب الذى يعلمه . ويرغب فى سماعه . وقد يكون السائل من الكفرة المعاندين وغرضه التلاعب والتهكم .

ثم أخبر سبحانه عما أعدّه الله لعباده المتقين من حسن الجزاء فى الدنيا والآخرة فقال تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) : أى للذين أحسنوا القول والعمل فى الدنيا حسنة جزاء إحسانهم ينالونها فى الدنيا ، والمراد بها النضر والفتح والمدح والثناء وغير ذلك من المكرمات .

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ) : أى مثوبتها خير وأعظم مما أوتوه فى الدنيا من مثوبة لأنها إلى بقاء . وكل ما فى الدنيا إلى فناء ، ولأن نعيمها لا يعدله نعيم آخر . ولهذا ختم الآية بملحها بقوله :

(وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) : أى دار الآخرة . واعلم أن قوله سبحانه : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة .. الآية - إما أنه مستأنف للثناء على من أجابوا السائلين بأنه تعالى أنزل خيراً ، حيث وصفهم بأنهم أحسنوا فى هذه الدنيا إحساناً مطلقاً ، وعدّ جوابهم عما سئلوا عنه من جملة إحسانهم ، ووعدهم عليه الجزاء الأوفى . وإما أن يكون هذا القول الكريم تفسيراً منهم لقولهم : « خيراً » أى قالوا أنزل خيراً . ذلك الخير الذى قالوه هو للذين أحسنوا إلخ . قالوه ترغيباً للسائل وإخباراً عما وعد الله به عباده فيما أنزله على رسله .

٣١- (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا . . .) : أى إن الدار التى وعد بها المتقون هى جنات إقامة واستقرار لا يخرجون منها باختيارهم ولا يخرجهم منها أحد . وهذه الجنات تجرى من تحت أشجارها وبين قصورها الأنهار . إتماماً لبهائشها وجمالها وكمال الابتهاج بها .

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ) : أى لأهل الجنة دون سواهم من أنواع المشتبهات التى تميل إليها نفوسهم وترغب فيها طباعهم فتتمناها .

(كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ) : أى مثل ذلك الجزاء العظيم يجزى الله كل من اتقاه وابتعد عن الشرك وتجنب المعاصى والآثام . فلا يختص به أحد دون آخر . وفى هذا الوعد الكريم إشارة إلى تحسير الكفار . وتحزينهم على ما كان منهم . حينئذ سئلوا عما أنزل ربهم إذ « قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » حيث حرموا هذا الثواب الجزيل الذى حصل عليه المتقون بحسن إيمانهم وصادق جوابهم للسائلين .

٣٢- (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ . . .) : هذا بيان لحال المتقين عند الاحتضار أى هم الذين تتوفاهم الملائكة طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصى ، ومن كل سوء ، ووصفوا بذلك للإيذان بأن التقوى لا تتحقق إلا بالطهارة عما ذكر إلى وقت الوفاة ، حتا لهم على التمسك والاستمرار ، ولغيرهم على التحصيل والعمل ، وقيل : هو كلام مستأنف

معناه : الذين تتوفاهم الملائكة فرحين طيبي النفوس بما يسمعون من بشارتهم لهم بالجنة .
تلك البشارة التي يحكيها قوله سبحانه :

(يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : أى يقول الملائكة لهم مطمئنين : سلام عليكم وأمان لكم
أو تحية لكم من الله .

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ) : أى أبشروا بدخول الجنة التي أعدها الله لكم ووعدكم نعيمها بعد
البعث ، فالمراد بالدخول هنا هو دخول أهل الجنة فيها حقيقة يوم القيامة ، والأمر به قبل
وقته بشارة بتحقيق وقوعه في وقته بعد البعث .

(بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) : أى ادخلوا الجنة بسبب ما وفقكم الله له من ثباتكم على التقوى
وتمسككم بالطاعة والاستقامة على عمل الصالحات . ولا تعارض بين هذه الآية وحديث « لَنْ
يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدُكُمْ بِعَمَلِهِ » لأن المراد في الحديث أن العمل لا يساوى دخول الجنة ، ولا يصلح
بذاته أن يكون مقابلاً للجنة ، فإن الله تعالى هو الذى أقدرنا على العمل الصالح ، فإن كافأنا عليه
فذلك محض فضل من الله تعالى ، وأما الآية فقد أفادت أنه تعالى تفضل فجعل العمل سبباً
شرعياً لدخول الجنة ، ولو لا ذلك لما استحق أحد بعمله هذا الثواب العظيم .

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ
كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾)

الفردات :

(أَمْرُ رَبِّكَ) : المراد به يوم القيامة أو العذاب الدنيوي . (وَحَاقَ بِهِمْ) : وأحاط بهم ، وخص
لاستعمال لفظ حاق بالإحاطة في الشر ، بعد أن كان في أصل معناه للإحاطة مطلقاً .
(يَسْتَهْزِءُونَ) : يسخرون .

التفسير

٣٣ - (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ...) :

أى ما ينتظر هؤلاء الكفار بعنادهم إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون
لأنفسهم بالشرك وعمل الشر ، أو ما ينتظرون إلا أن تنزل الملائكة عليهم للشهادة بصدق
نبوتك .

(أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ) : المراد بأمره تعالى العذاب الدنيوي المستأصل لهم جميعاً كالزلزلة .
والخسف ، والريح الصرصر ونحوها ، وفي التعبير برب مضافاً إلى ضميره
صلى الله عليه وسلم . إظهار لكمال العناية به والرعاية له .

(كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : أى مثل ما فعل هؤلاء من الشرك والتكذيب فعل الذين
سبقوهم مع أنبيائهم . فعاقبهم الله على فعلهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، كما يشير إليه
قوله سبحانه :

(وما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ) : فيما أنزل بهم من العذاب . لأنه سبحانه أعز إلىهم ، وأقام عليهم حججه . بإرسال رسله ، وإنزال كتبه .

(وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : حيث عرضوها للعذاب بمخالفة الرسل ، والتكذيب بما جاءوا به ، أى أن الله لم يظلمهم بتعذيبهم . ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم لمباشرتهم السيئات الموجبة لعقوبتهم . وذلك ظلم بين منهم لأنفسهم .

٣٤ - (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا) : معطوف على قوله سبحانه : « فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا .

والمعنى أن الله جل شأنه أنزل بالأمم السابقة أجزية أعمالهم السيئة التى اقترفوها وعسكوا بها ، وتسمية الأجزية سيئات للمشكلة كما فى قوله : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »^(١) . أو لأنها مسببة عن أعمالهم السيئة ، فسميت باسم سببها إيداناً بفظاعته ، وإشارة إلى بالغ قبحه ، ويجوز أن يكون المعنى : فأصابهم جزاء سيئات ما عملوا .

(وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) : أى وأحاط بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به ويسخرون منه كلما توعدتهم به رسولهم إن استمروا على كفرهم ، وعبر بالحيق الذى خصه الاستعمال اللغوى بإحاطة الشر ، للإيدان بأن العذاب لم يقتصر على مجرد إصابتهم ، بل شملهم وعمهم ، أو المعنى وأحاط بهم جزاء استهزائهم برسولهم أو به وبغيره .

(١) سورة الشورى من الآية - ٤٠ - .

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(مِنْ دُونِهِ) : من غيره . (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ) : أى فما عليهم . (الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :
أى التبليغ الواضح أو الذى يبين الحق من الباطل .

التفسير

٣٥ - (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا) :
شروع فى بيان فن آخر من كفر أهل مكة ، وهو اقتناعهم بما هم فيه من شرك وضلال
 واحتجاجهم لصحته بأنه تعالى شاءه لهم ودفعتهم إليه . ، يريدون من قولهم هذا تبرير عدم
الاستجابة لما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إليه من الإيمان بما جاءهم به ، والتعبير عنهم بالذين
أشركوا ، لتقريبهم على الشرك وبيان أنه سبب الداء ، وقمة البلاء .

والمعنى : وقال مشركو مكة للرسول محتجين لما هم عليه من الشرك : لو شاء الله علم عبادتنا لشيء
غيره لما وقع منا انحراف ومخالفة لمشيئته ، ولأخلصنا العبادة له وحده . فلم نشرك نحن
ولا آباؤنا الذين نهتدى بهم ، ونتسمك بالافتداء بآثارهم فى كل أمورنا .

(وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) : من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما
ابتدعوا تحريره^(١) واخترعوه من تلقاء أنفسهم وغرضهم من قولهم ذلك . تكليب
الرسول والظعن فى الرسالة رأساً بما حاصله أن ما شاء الله تعالى يجب وما لم يشأ يمتنع ،
فلو أنه سبحانه شاء أن نوحده ولا نشرك به شيئاً ، ونحل ما أحله ، ولا نحرم شيئاً

(١) تقدم بيان هذه المهرمات التى حرموها على أنفسهم فى الآيتين ١٣٨ - ١٣٩ من سورة الأنعام .

بما حرمنا كما تقول الرسل وينقلونه من جهته تعالى ، لكان الأمر وفق مشيئته من التوحيد ونفى الإشراف وتحليل ما أحله وعدم تحريم شيء مما حرمنا ، وحيث لم يتحقق هذا . ثبت أنه جل شأنه لم يشأ شيئاً مما ذكر . بل شاء مانحن عليه ، وتحقق أن ماتقوله الرسل هو من تلقاء أنفسهم . فرد عليهم سبحانه بقوله :

(كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : أى مثل هذا التكذيب والاستهزاء الشنيع بالرسل وادعاء أن شركهم رضي الله وشاء لهم - مثل ذلك كله اقترفه الذين سبقوهم من الأمم السابقة . فأشركوا بالله ، وحرّموا ما أحله ، وجادلوا رسلهم بالباطل ، ليدحضوا به الحق ، وأعرضوا عما يدعونهم إليه استخفافاً بهم فأهلكوا .

وقد أنكر الله عليهم مجابتهم للرسل ، وتماديهم في عنادهم ، وبين أن المرسلين ليسوا مسئولين عن كفرهم بعد أن بلغوهم شريعة ربهم بوضوح وإخلاص فقال سبحانه :

(فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : أى ليس من شأنهم إلا تبليغ الرسالة تبليغاً واضحاً . لإظهار طريق الحق وإبانة أحكام الوحي : بما ينبىء أن مشيئته جل شأنه . إنما تتعلق بهداية من صرف قدرته واختياره إلى تحقيق الحق ، وفعل الطاعة لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ جَاهَلُوا فِينَا لَنَهْلِيْنَهُمْ سُبُلَنَا » (١) .

وهى تتعلق كذلك بإشراك الذين اتجهوا إلى اقتراف الشرك والعصيان ، وفق علمه تعالى بطبيعتهم ومباشرتهم الاختيارية لما عملوا . فالله سبحانه إنما شاء شركهم لأنه علم ألا أنهم لا يؤمنون باختيارهم وسوء تصرفهم ، وأما إلجائهم إلى الإيمان . فليس ذلك من وظيفة الرسل التى بعثوا بها إلى أممهم ، ولا من الحكمة التى يدور عليها التكليف . لأن شأنهم تبليغ الأوامر والنواهي لتحقيق مضمونها وإجراء موجبها على الناس قسراً وإلجاءً ، وإنما المسئولية على الكفار أنفسهم ، ولاتنفعهم معاذيرهم الواهنة ، ومنها قولهم إنما أشركوا بمشيئة ربهم ، فإنه تعالى يقول : « وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ » .

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ
الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(الطَّاغُوتَ) : كل ما عبد من دون الله ويستعمل في الواحد والجمع .

التفسير

٣٦- (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) :

في الآية تأكيد للرد السابق على المشركين الذين أنكروا أنهم على باطل ، بدعوى أن
ماهم عليه من الشرك وقع وفق مشيئة الله تبارك وتعالى ، حسب ما جاء في النص الكريم حكاية
عنهم : « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ » .

والمعنى : ولقد بعثنا في كل أمة من الأمم السابقة رسولا خاصا بهم يبلغهم معالم الهدى ،
ويرشدهم إلى قواعد النظر ، ويمددهم بأدلة يدركها السمع والبصر . قائلا لهم : اعبدوا
الله وحده ، واتركوا عبادة سواه كالشيطان والأوثان والكهان وكل داع إلى الضلال ،
ولما بلغوا ما بعثهم الله به من الأمر بعبادته وحده . واجتناب ما عداه . تفرقت أممهم .

(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ) : أى أرشده إلى الحق الذى هو دينه ، وجنبه الطاغوت بعد

أن اتجه العبد إلى ربه ، يبتغى منه التوفيق والهداية إلى انتهاج هذا الطريق القويم .

(وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) : أى لزمته بالقضاء عليه بالكفر إلى موته . لعناده وإصراره على ما اختاره لنفسه من التمسك بالضلال مع وضوح الأدلة الداعية إلى الحق الأبلج . ولم يكن وقوع ذلك عن طريق من طرق القسر والإلجاء كما زعموا .

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ) : أى فسيروا فى أكناف الأرض وأنحاءها . أيها المشركون المكذبون الذين قلتم : « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ » . فانظروا معتبرين بما حدث للمكذبين قبلكم من عاد وشمود ومن سلك طريقهم ، فإنكم ستشاهدون فى ديارهم آثار الهلاك المبيد ، والعذاب المستأصل ، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم ، وترتيب الأمر بالسير على مجرد الإخبار بثبوت الضلال عليهم ، من غير إخبار بحلول العذاب بهم ، لأن فى أمرهم بالرؤية والملاحظة لآثار العذاب لمن قبلهم من المكذبين ما يغنى عن ذكر حلوله بهم .

(إِنْ تَحَرَّضْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(تَحَرَّضَ عَلَى هُدَاهُمْ) : تجتهد فى طلب هدايتهم .

التفسير

٣٧ - (إِنْ تَحَرَّضْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ) : هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لإخباره بأن من سبقت له الضلالة بسوء اختياره ، وإفساده استعداداته . لا يهديه الله مهما بذلت من جهد فى تقويمه ، وقدعت من نصيح لإرشاده بعد أن أضله وفق علمه بسوء اختياره . والمعنى : إن تحرص أيها الرسول على هدى قومك فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن وجبت له الضلالة بسوء اختياره .

(وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) : يدفعون عنهم العذاب يوم القيامة ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ودع أمرهم لربك ، فهو أعلم بحالهم وما ينبغي لهم .

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيَبْيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(الْجَهْدُ) : الوسع والطاقة وهو بفتح الجيم وضمها : من جهد نفسه في الأمر . بذل أقصى جهدها وطاقته فيها ، وبابه نفع . وجهد الأيمان : المبالغة فيها أو في تقويتها .

التفسير

٣٨- (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ) : شروع في بيان فن آخر من أباطيل أهل مكة والتعجيب من صفتهم ، فقد ذكر الله تعالى أنهم أقسموا بالله . وبالفوا في تأكيد أيمانهم وتخليطها . بأنه سبحانه لا يبعث من يموت ، وهذا منهم اضطراب وسوء إدراك فإنهم معترفون بأنه تعالى خالق السموات والأرض وما فيهن ، فكيف ينكرون أن يبعث من في القبور تحقيقاً للعدالة بين عباده ، بأن يجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإسأته ، ولهذا رد عليهم سبحانه رداً بليغاً بقوله تعالى :

(بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا) : أى بلى ببعثهم ، وقد وعد الله بذلك وعداً ثابتاً ، لا بد من إنجازه ، لأنه أخذ على نفسه العهد بوقوعه ، ولن يخلف الله وعده .

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) : أى ولكن أكثر الناس يجهلون أنهم مبعوثون لجهلهم بشئون الله من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه وما لا يجوز ، ولعلم وقوفهم على سر التكوين ، وعلى أن البعث حق لتحقيق العدل حين الجزاء ، فلجهلهم بكل هذا وإعراضهم عن الإدراك والانتفاع بالتوجيه والنصح أنكروه وبالفوا في إنكاره وكتبوا الرسل في إخبارهم به . ويجوز أن يكون قوله : « لَا يَعْلَمُونَ » للإيدان بأن ما عند أكثرهم بمعزل عن العلم المعتد به ، وإنما هو توهم صرف ، وجهل محض ، وعلى هذا يكون لفظ « يعلمون » منزلا منزلة الفعل اللازم لم يراع فيه تعلقه بمفعول أصلا .

٣٨- (لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ) : أى يبيث الله الأموات مؤمنهم وكافرهم يوم القيامة ، ليبين لهم بذلك حقيقة الحال ، بما يحصل لهم من مشاهدة حقائق الأمور كما هي ، ومعاينتها بصورها الحقيقية . فيصل بذلك علم المؤمنين إلى عين اليقين ، ويتضح للمكذبين الجاحدين الحق الشامل لجميع ما خالفوه وأعرضوا عنه . مما جاء به الرسل الذين بُعثوا إليهم ويدخل فيه البعث دخولا أوليا .

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا) : بالبعث وأقسموا على إنكاره وكفروا بالله سبحانه بالإشراك وتكذيب وعده الحق .

(أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ) : في كل أقوالهم عن الله ورسله من أكاذيب ، ومن جملة ذلك قولهم : « لا يبعث الله من يموت » . وجعلت غاية البعث هنا ما ذكر من بيان ما اختلفوا فيه وعلمهم أنهم كانوا كاذبين في إنكاره ، لأن النص الكريم في معرض الرد على المنكرين له ، وإلا فالمقصود الأصلي من البعث باعتبار ذاته إنما هو الجزاء ، وقد تكرر ذكره في مواضع أخر

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٠﴾)

التفسير

٤٠- (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ . . .) الآية .

استئناف لبيان أن بعث العباد يوم القيامة ، ليس بعسير على الله تعالى حتى يستبعده الكفار وذلك لسهولة التكوين عليه بدءاً ، والإعادة عليه غاية :

والمعنى : ما قولنا لشيء إذا تعلق بإيجاده إرادتنا إلا (أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) :

أى أن نقول تبليغاً له : « كُنْ » فإذا قلنا له ذلك فهو يكون . وهو تمثيل لسهولة تأتى المقدرات لله تعالى حسبما تتعلق بها مشيئته ، وتصوير لسرعة إيجاده والمقصود أنه تعالى عند تعلق مشيئته بإيجاد شيء أوجده بقدرته فى أسرع ما يكون ، فلا يمتنع عليه إيجاده عند إرادته له . كما لا يمتنع المأمور الممثل عند أمر الأمر المطاع ، وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون . فإنه تعالى ليس بحاجة إلى ذلك ، كما أن المعلوم الذى يريد الله إيجاده لا يعقل خطابه ، لأن الخطاب يكون للموجود دون المعلوم وإذا كان كل مقدر لله تعالى يتحقق بهذه السهولة والسرعة . فكيف يمتنع عليه البعث كما يدعى المنكرون الضالون مع أنه بعض مقدراته سبحانه . .

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ
فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(الهجرة) : بكسر الهاء وضمها : الخروج من أرض إلى أخرى ، والهجرة إذا أطلقت
انصرفت إلى هجرة المسلمين إلى المدينة قبل الفتح مالم تدل قرينة على خلافه كما سيأتي في بيان
سبب النزول (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ) : لننزلنهم ، يقال بواؤه منزلا وفيه أنزله . كتابأهه .

التفسير

٤١- (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ . . .) : هذه الآية قيل إنها نزلت في المهاجرين إلى
الحبشة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين اشتد بهم أذى المشركين بمكة حتى
اضطروهم إلى الخروج إلى الحبشة فرارا بدينهم ، وقد نقل عن ابن عباس أنها نزلت في
صهيب وبلال وعمار وخباب وأبي جندل وغيرهم . أخذهم المشركون بعد هجرة النبي إلى
المدينة فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام ، فأما صهيب فقال أنا رجل كبير . إن كنت
معكم لم أنفعكم ، وإن كنت عليكم لم أضركم . فافتدى منهم بماله . وهاجر فلما رآه
أبو بكر رضى الله عنه قال : ربح البيع يا صهيب ، وهذا يفيد أنها نزلت بالمدينة ، والصحيح
في سبب النزول هو الأول لأن السورة مكية عدا ثلاث آيات في آخرها ، ومعنى الآية على
هذا : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين هاجروا إلى الحبشة من وطنهم مكة
وتركوا أموالهم ، وأهلهم وكل عزيز عليهم في سبيل الله ، لنصرة دينه والحفاظ عليه
ابتغاء وجهه والتماس رضاه ، وكانت هجرتهم بعد أن حل بهم من الظلم أقساها ، ومن التعذيب
والتنكيل ما يتجاوز الاحتمال . هؤلاء المهاجرون المظلومون .

(لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) : أى لنبؤنهم بمباعدة حسنة . والمراد بها المدينة أو لننزلنهم
في الدنيا منزلة حسنة بما استولوا عليه من فتوح صارت لهم فيها ولايات .

(وَلَا جَرْءُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ) : أى ولأجر دار الآخرة أكبر مما وعدوه من أجر الدنيا، وكان عمر رضى الله عنه إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال له : خذ بارك الله تعالى لك فيه . هذا بعض ما وعدك الله تعالى فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ، ثم تلا الآية .
والضمير فى قوله تعالى : (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) : إن كان لكفار مكة فالمنى ، لو علموا ما ادخره الله لهؤلاء المهاجرين من خيرى الدنيا والآخرة لبادروا إلى الإيمان ولو افقوهم فى الدين ، وإن كان للمهاجرين فالمنى ، لو علموا ذلك لزادوا فى الاجتهاد والصبر على الابتلاء .

٤٢- (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) : أى أصحاب هذى البشرى هم الذين صبروا على ايذاء المشركين لهم ، وفراق أهليهم وأموالهم ووطنهم وبيوتهم ، وعلى ربهم يتوكلون ويعتمدون ولهذا حقق لهم من فضله ما بشرهم به

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ فَسَعَلُوْا اَهْلَ الذِّكْرِ اِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ ٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَأَنْزَلْنَا اِلَيْكَ الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ اِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُوْنَ ٤٤)

المفردات :

(بِالْبَيِّنَاتِ) : بالحجج والبراهين الواضحات ، والمراد بها : المعجزات . (وَالزُّبُرِ) : جمع زبور وهو الكتاب ، تقول العرب . زبرت الكتاب ، أى كتبته . والمراد بالزُّبُر ، الكتب السابقة .

٤٣- (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ...) : نزل النص الكريم للرد على مشركى مكة - حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا . فهلاً بعث إلينا ملكاً فقال سبحانه إبطالا لقولهم :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ) : أى جرت السنة الإلهية حسب اقتضته الحكمة بآلا يبعث الله للدعوة إلى دينه ، إلا رجالاً يوحي إليهم بوساطة الملك الذى يحمل إليهم أوامر الله ونواهيه لتبليغها إلى أممهم ، وتلك الأمم حسب طبيعتها الآدمية لا تستطيع معاينة الملك على صورته الأصلية ، فإنهم يهلكون إن جاءهم بها ، فلا بد من أن يكون بصورة رجل لكى يحتملوا لقاءه ، ولكنه فى هذه الحالة يلتبس عليهم الأمر فيظنون به بشراً كما قال تعالى : «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رِجُلًا^(١)» . ولما كان المقصود من خطاب الله لرسوله هو تنبيه الكفار إلى مضمونه . صرف الخطاب إليهم حيث قال سبحانه :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) : أى فاسألوا أهل الكتاب الذين أسلموا كما قال سفيان ، أو المراد أهل الكتاب مؤمنهم وكافرهم . لأن من لم يؤمن منهم معترف بأن الرسل كانوا بشراً . أو المراد علماء وأخبار الأمم السابقة الذين يجيدون ذكرها وحفظها .

(إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) : أن جميع الأنبياء كانوا رجالاً فاسألوهم ليعلموكم ذلك .

٤٤ - (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ) :

البينات : الحجج ، والزبر : الكتب ؛ جمع زبور وهو الكتاب أى أرسلنا الأنبياء بالحجج الواضحة ، والبراهين الساطعة المؤيدة لهم ، الدالة على صدقهم ، وأرسلناهم بالكتب المنزلة عليهم بيانا للشرائع والتكاليف .

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ) : أى القرآن وهو مأخوذ من التذكير أى الوعظ والإيقاظ من الغفلة .

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) : من ربه فى هذا الكتاب من العقائد والأحكام والأخلاق

بقولك وفعلك . لعلمك بمعنى ما أنزل إليك ، وحرصك عليه . واتباعك له . فتفصل لهم

ما أجمل ، وتبين ما أشكل بياناً شافياً ، وبنحو هذا المعنى قال مجاهد ، فقد نقل عنه أن

المراد بهذا التبيين شرح ما أشكل ، وتفسير ما أجمل إذ هما المحتاجان للتبيين ، وأما

النص فى معناه والظاهر فلا يحتاجان إليه : اه نقلنا عن الألوسى

وبالجملة فالمعنى أنزلنا إليك القرآن لتبين للناس ما خفى عليهم من أسرارهِ وعلمهِ

الذى لا تكاد تحصى .

(وَكَلَّمَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) : أى رغبة فى أن يعاملوا فينتبهوا للحقائق . ليكون ذلك داعياً لهم إلى الاحتراز عما أصاب السابقين من العذاب ، ودافعا إلى الاهتداء ليفوزوا بحبلى الدنيا والآخرة .

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي
تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ
رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ) : أى عملوا السيئات بمكر وخبيث .

(أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ) : أى يشق بهم الأرض فيهلكوا فى جوفها ، يقال : خسف المكان أى ذهب فى الأرض ، وخسفه الله أى شقه وخسفه بفلان أى شق المكان وغيب الشخص بداخله ، ومنه قوله تعالى : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » . وبالجمله فهو لازم ومتعد (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ) : أى يهلكهم فى حركتهم إقبالا وإدبارا ، مقيمين أو مسافرين . (عَلَى تَخَوُّفٍ) : على مخافة وحذر من الهلاك ، أو على تنقص فى أنفسهم وموارد رزقهم إلى أن يهلكوا جميعا . (وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) : أى وما هم بممتنعين علينا بقوتهم - أو بالهرب فرارا من بأسنا .

التفسير

٤٥ - (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ . . .) : هذا وعيد للمشركين من أهل مكة الذين احتالوا بالسيئات فى إبطال الإسلام ، فمكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث دبروا فى خفاء كل أسباب الإيذاء له ولأصحابه الذين آمنوا معه واتبعوه ، وهو وعيد عام لكل ماكر ، والاستفهام للإنكار ، ومعناه : يجب ألا يأمن هؤلاء الماكرون العقوبات السيئة التى تحل بهم

كما حلت بالمكذبين قبلهم : وكيف يحق لهم أن يأمّنوا إنزال أشد العقوبات بهم مع قدرته جل شأنه على :

(أَنْ يُخَسِّفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ) : أى يهلكهم بالخسف وهو تغييبهم فى الأرض بتفويرها بهم - قال ابن عباس : كما خسف بقارون - يشير بذلك إلى قوله سبحانه « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ »^(١).

(أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) : أى يأتيتهم عذاب الله وهم فى غفلتهم ولهوهم ، أو من مأمنهم حيث يبتغون الأمن والسلام ، أو من الجهة التى يرجون منها الخير والبركة . كما فعل بقوم لوط وغيرهم من الأمم المهلكة .

ولقد حدث لهم ذلك يوم بدر ، فقد أهلكوا مع كثرتهم عددًا وعتادًا وهم يأملون النصر والغنيمة .

٤٦ - (أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقْلِيهِمْ) : أى ينزل بهم العذاب فى تنقلهم للتجارة بعيدين عن مساكنهم . قاله قتادة ، وقال الزجاج : المراد ما يعم سائر حركاتهم فى أمورهم ليلاً ونهاراً .
(فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) : أى فلا يستطيعون الإفلات والفرار من عذابه تعالى لأنه لا يعجزه شئ يريد ، فهو القوى العزيز .

٤٧ - (أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ) : أى يأخذهم على مخافة وحذر من العذاب والهلاك . بأن يأخذ طائفة . ويدع أخرى ، فتخاف أن ينزل بها من العذاب مثل ما نزل بصاحبيتها . أو أن تحدث حالات يخاف فيها عادة كالأعاصير والزلازل والصواعق فيتخوفوا منها فيأخذهم العذاب فى حال تخوفهم ، أو يأخذهم على تنقص فى أنفسهم وفى صحتهم وأموالهم وأولادهم وموارد رزقهم إلى أن يهلكوا جميعاً . فهم فى كل لحظة بسبب ما حل بهم فى خوف من العذاب لأنهم يترقبون وقوعه .

ويلاحظ أن التنقص من معانى التخوف لغة كما سبق بيانه فى المفردات . ولما كان المتقلبون فى البلاد ليلاً ونهاراً للتجارة وغيرها . بعيداً عن المسكن والمالجا . مظنة الفرار من العقاب عند ظهور أول بوادره وكذلك المتخوفون من حلول العقاب بهم ، فلهذا عبر سبحانه

عن إصابة العذاب لهم بالأخذ الدال على القهر والشدّة نظراً لحالهما، وسدّاً لِمَنَافِذِ النجاة على كليهما، وعبراً عن إصابة العذاب لهم حال الغفلة بالإتيان لأنّه ليس مظنة الفرار وسلوك أى مسلك للنجاة عادة . فلذلك اختلف التعبير في الإنذار بالعذاب . وليس المراد حصر الإهلاك في هذه الأحوال الثلاثة . وإنما المراد بيان قدرة الله على إهلاكهم بأي وجه كان .

ثم ختمت الآية بما يفيد اقتضاء رحمة الله الواسعة، ورأفته الشاملة ألا يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا ليتسنى لهم التفكير في شأنهم والتدبر في أمرهم . حيث قال سبحانه :

(فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَّكَرِهُوفٌ رَّحِيمٌ) : حيث أمهلكم مع استحقاقكم للعقوبة لما اقترفتُم من

بغى وعدوان .

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يُتَفَيَّؤُا ظِلَّالُهُ عَنِ
الْبَيمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ
مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(يَتَفَيَّؤُا ظِلَّالُهُ) : تفيؤ الظلال : رجوعها بعد انتصاف النهار . من فاء يئؤ . إذا رجع .

(دَاخِرُونَ) : أذلاء منقادون ، من الدُخُور وهو الصغار والذل ، وفعله . كمنع وخرج .

التفسير

٤٨ - (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) : استفهام إنكارى قصد به تقرير الذين مكروا السيئات ، والمعنى أعمى الذين مكروا السيئات ولم ينظروا إلى ما خلق الله من كل جسم قائم له ظل مما تدركه الأبصار ، ليعلموا عظمة الله وكبريائه ، وأنه سبحانه دانت

له الأشياء والمخلوقات جميعا جمادها ونباتها وحيواناتها . وأناميتها . كما دانت له ظلالها . فكل ذى ظل منها . (يَتَفَيَّهًا ظِلَالُهُ) : أى ينتقل ويرجع من جانب إلى آخر بارتفاع الشمس وانحدارها . أو باختلاف مشارقها ومغاربها . فإن لها مشارق ومغارب حسب متاراتها اليومية التى تتحرك فيها كل يوم من أيام السنة وفق تقدير العزيز العليم

(عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ) : المراد بهما جانبا الشيء ، استعارة عن يمين الإنسان وشماله ، والمعنى أن ظلال الأشياء متفيدة عن جانبي كل واحد منها . ترجع من جانب إلى جانب . فتكون أول النهار على حال ، وآخره على حال أخرى وذلك أنها تميل إلى جهة المغرب من وقت الشروق إلى الزوال . وتميل بعده إلى وقت الغروب راجعة إلى جهة الشرق .

(سُجَّدًا لِلَّهِ) : أى حال كون هذه الظلال منقادة لإرادته تعالى فى الامتداد والتقلص . والرجوع من حال إلى حال خاضعة لأحكام تدبيره . غير ممنعة عليه سبحانه فيما سخرها له ، وذلك هو المراد بسجودها .

(وَهُمْ ذَاخِرُونَ) : أى أن أصحاب هذه الظلال التى انقادت لظلالها لما قدر لها من التفيؤ . أذلاء منقادون لحكمه تعالى . يستوى فى ذلك الأجرام الثابتة ، كالجبال والأشجار والأحجار ونحوها ، والأجسام المتحركة من كل ما يدب على الأرض إنساناً وغيره ، وغير بضمير العقلاء وصفتهم مع شمول الحكم لسواهم ، تغليباً للعقلاء على غيرهم .

٤٩- (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ) : شروع فى بيان سجود المخلوقات المتحركة بالارادة بعد بيان سجود الظلال وأصحابها بصفة عامة تأكيداً لبيان قدرة الله جل شأنه ، وأنه سبحانه يخضع لسلطانه وحده كل شيء ، وينقاد له جميع ما فى السموات من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والكواكب والرياح والسحاب ، وما فى الأرض من كل شيء يدب ويتحرك عليها ، وقوله من دابة بيان لما فى الأرض ، وقيل بيان لما فى السموات وما فى الأرض جميعا بناءً على أن الدبيب هو الحركة الجسمانية فى أرض أو فى سماء ، وربما كان ذلك إشارة إلى وجود أجسام عاقلة على بعض الكواكب ، وقد عزى هذا رأى إلى ابن عباس وغيره .

(وَالْمَلَائِكَةُ) : أى وملائكة الأرض والسماء يسجدون لله تعالى ، وإنما أفردوا بالذكر لاختصاصهم بشرف المنزلة ، وسجود المكلفين المؤمنين لله يعم سجود الطاعة والعبادة ، وسجود الخضوع لمراد الله تعالى ، أما سجود غيرهم فهو سجود الخضوع والانقياد لما يريد الله بهم من الأمور الاختيارية والقهرية ، فهم فى كل ذلك ساجدون أى خاضعون لسلطان الله .

(وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) : أى أن الملائكة مع علو شأنهم لا يستكبرون عن عبادته والسجود له . وهم مخلوقات نورانية عاقلة مطيعة لله تعالى .

٥٠ - (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) : أى يرهبون مالك أمرهم ، ويخافونه خوف هيبة وإجلال . وهو فوقهم بالقهر والحكمة والعلم . كما فى قوله تعالى : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ »^(١) .

أو المعنى ؛ يخافون عذاب ربهم على حذف مضاف لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء . وجملة : « يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ » بيان وتقرير لنفى الاستكبار لأن من خاف الله لا يستكبر عن عبادته .

(وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) : أى يؤدون كل ما يوجهون إليه فى سلوكهم . فشأنهم المشاورة على العبادة وتنفيذ ما يكلفون به من التدبيرات فى كون الله تعالى ، وإنما قال سبحانه : « وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » حيث لم يذكر من يٌضدّر لهم الأمر ، لأنه لا يخفى على أحد ، فهو الله تعالى .

(*) وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ
فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ٥١ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ
وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢)

المفردات :

(فَارْهَبُونِ) : أى فخافون واخشوا عقابي إن خالفتم أمري .
(وَلَهُ الدِّينُ) : وله الطاعة والانقياد أو الجزاء ، مِنْ دِنْتُهُ أى جازيته .
(وَاصِبًا) : واجباً لازماً ، وفسره الربيع بن أنس بقوله : « وَاصِبًا » خالصاً .

التفسير

٥١- (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) :

حذر الله في الآيات السابقة أهل مكة من عاقبة كفرهم بما أنزله على رسوله ، من أن يصيبهم مثل ما أصاب المكذبين بالرسول قبلهم ، من الخسف أو إتيان العذاب من حيث لا يشعرون ، أو أن يأخذهم في تقلبهم ونشاطهم بغير مقدمات ، أو يأخذهم على تخوف من الهلاك بأن يرهبهم قبله بمقدمات مخيفة ، وأتبع ذلك توبيخهم على أنهم لم يتفكروا فيما خلقه من الأشياء التي تنتقل ظلالها عن اليمين وعن الشمال ، من الجبال والأشجار وغيرها ، منقاداً لله تعالى في أمرها كله ، وبين أنه سبحانه يسجد له ما في السموات والأرض من دابة ، وكذلك الملائكة مع رفعة شأنهم ، فإنهم يطيعون ربهم فلا يعصونه ، بل يفعلون ما يؤمرون .

وجاءت هذه الآية لتأمر أهل مكة وغيرهم بتوحيده بالعبادة والخوف من التقصير فيما كلفهم به ، فإن من هذا شأنه لا يعبد سواه ، ولا يخاف غيره . وقد كان مشركو قريش وغيرهم يعترفون بالوهمية الله ، ولكنهم كانوا يتخذون معه شركاء لتقريبهم إليه ، وهم مع ذلك يعتقدون أن الله يملكها ، فهذه قبيلة نزار مثلاً كانت تقول في تلييتها في الحج : « لبيك اللهم

لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكٌ هو لك . تملكه وما ملك » فهم يوحلونه بالتلبية ، ويدخلون معه آلهتهم ، ويجعلون ملكها بيده ، وفي مثل ذلك يقول الله تعالى :

« وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » . وكانت لهم أصنام مشتركة ، وأخرى لطائفة دون أخرى ، أو لبيت دون آخر ، ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام يوم فتح مكة ، وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً فجعل يطعن بها بسيفه^(١) في عيونها ووجوهها وهو يقول : « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » ثم أمر بها فكُتِبَتْ على وجوهها . ثم أخرجت من المسجد ودُمِّرَتْ .

ومعنى الآية :

وقال الله الذى عرفتم سلطانه فى هذا الكون : لا تتخذوا يا عبادى لكم إلهين اثنين فضلاً عما فوقهما إنما الإله إله واحد لا شريك له ، إذ « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » .

ثم التفت النص الكريم من الغيبة إلى التكلم . لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ وَالرَّهْبَةِ فَقَالَ :

(فَيَايَا فَارِهِبُونَ) : أى إن كنتم ترهبون شيئاً وتخافون منه . فإياى ارهبوا وخافوا دون سواى ، فليس غيرى أحق بالرهبة ، فارهبونى فإننى أنا الواحد الذى يسجد له ما فى السموات والأرض ويخضع لسلطانه .

ثم بين الله سبب وجوب توحيده بالعبادة والرهبة بقوله :

٥٢ - (وَلَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا) :

أى والله وحده كل ما فى السموات والأرض ، من أجزائهما وما استقرَّ فيهما ، له كل ذلك خلقاً وملكاً وتصرفاً ، وله الطاعة والانقياد واجباً ثابتاً لا يستحقه سواه ، لِمَا تقرر من أنه الإله الواحد الحقيقى بأن يُرهب .

وعلى تفسير الدين بالجزاء يكون المعنى : وله الجزاء دائماً ، فلا ينقطع ثوابه عمّن آمن وعمل صالحاً ، ولا عقابه عمّن كفر وصدّ عن سبيله .

(١) سية القوس : ما عطف من طرفها .

ثم استنكر الله أن لا يتقى المشركون من هذه آيات عظمته فقال سبحانه :
(أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ) :

أى أبعد ما تقدم بيانه من أن كل مافى السموات والأرض يسجد ويخضع لله ، وأن الطاعة واجبة له ، والجزاء حق من حقوقه ، أبعد ما ذكر تحضون غير الله بالتقوى ؟ مع أنه - تعالى - هو المستحق لها دون سواه ، ثم أنكر عليهم شركهم مع توالى نعمه عليهم فقال سبحانه :

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(تَجْأَرُونَ) : تتضرعون ليكشف عنكم الضر . والجوار : رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة ^(١) .
(فَتَمْتَعُوا) : أمر تهديد لهم وليس أمر إباحة . ●

التفسير

٥٣ - (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ) :
المعنى : وما يصاحبكم من نعمة فى أنفسكم وأموالكم وأولادكم فهى صادرة من الله تعالى ، مدبرها وخالقها ورازقها ، ثم إذا أصابكم الضرر لإصابة يسيرة فإليه وحده تتضرعون مستغيثين

(١) قال الأعشى :

يُراوَحُ من صلواتِ المليكِ لكِ طورا سجدًا وطورا جوارًا

ابتغاء كشفه عنكم ، فكيف تشركون معه شركاءكم في العبادة ، وليس لها في نفعكم ودفع الضر عنكم من سبيل ؟ ثم نعى الله عليهم عودتهم إلى الشرك بعد أن كشف الضر عنهم فقال سبحانه :

٥٤ - (ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) :

أى ثم إذا كشف الله الضر عنكم بعد تضرعكم واستغاثتكم ، إذا جماعة منكم يشركون بربهم أصنامهم في العبادة ، مع أنها لا دخل لها في نفعهم ودفع الضر عنهم .

والخطاب في قوله : « وَمَا بِكُمْ مِنْ نُّعْمَةٍ » وقوله : « إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ » الآيتين ، إن كان للمشركين كما هو الظاهر فلفظ « مِنْ » في قوله : « إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ » لبيان أن الفريق الكافر هو كلهم ، فكأنه قيل : إذا فريقٌ كافرٌ هم أنتم ، وأجاز بعض المفسرين أن يكون منهم من اعتبر وازدجر ، فتكون « مِنْ » على هذا الرأى للتبعض ، كما في قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

أما إن جعل الخطاب في الآيتين للناس كافة ، فالكافرون بنعمه وفضله بعضهم لا كلهم فتكون « مِنْ » في قوله : « إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » للتبعض لا للبيان ، ثم بين الله عاقبة إشراكهم فقال :

٥٥ - (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

أى أن فريقاً منهم يشركون بالله في العبادة مع توالى نعيمه عليهم ودفع نعيمه عنهم ، لتكون عاقبة شركهم وأثره أن يكفروا بما آتاهم من النعم ، ويُنكِروا كونها منه دون غيره ، ثم أنذرهم الله وهددّهم بسوء المصير فقال :

(فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

أى فاستمتعوا بما أنتم فيه من نعم كفرتم بها ولم تشكروها ، فسوف تعلمون عاجلاً أو آجلاً عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب جزاء شرككم وكفرانكم .

ثم عقب هذا الوعيد بتعداد جنائياتهم المستوجبة له فقال سبحانه :

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ
لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ
وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ
أُيْمَسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(لِمَا لَا يَعْلَمُونَ) : لآلهتهم التي لا يعلمون حقيقتها وخسّة قدرها .

(تَاللَّهِ) : قسم ؛ أى والله .

(تَفْتَرُونَ) : أى تخلقونه من الأكاذيب .

(مُسْوَدًّا) : المراد من اسوداده ؛ كآبته وغمّاه على سبيل الكناية .

(كَظِيمٌ) : ممتلئ غيظًا .

(أُيْمَسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ) : أيبقيه على هوان وذل .

(أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ) : أم يخفيه ويدفنه فيه . (مَثَلُ السَّوْءِ) : صفة القبح .

التفسير

٥٦ - (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ) :

أى أن المشركين حين يكشف الله الضر عنهم بعد تضرعهم إليه واستغاثتهم به ،
يعودون فجأة إلى الشرك ، ويجعلون لأصنامهم التي لا يعلمون حقيقتها وقدرها الخسيس

يجعلون لها- نصيباً مما أعطاهم الله من الزروع والأنعام وسائر الأرزاق، تقرباً إليها، وما لها عليهم من فضل، ولا لها عليهم من سبيل، ولا هي مدركة ما يُتقربُ به إليها، ثم ختم الله الآية بوعيدهم فقال :

(تَاللّٰهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ) :

أى وحقّ الله المنزه عن الشريك والمثيل ليسألنكم الله سؤال توبيخ وحساب يوم القيامة، عن الذى كنتم تخلقونه فى الدنيا من شركة أوثانكم لله، واستحقاقها للعبادة معه، ثم يجزيكم على افتراءكم.

٥٧- (وَيَجْعَلُونَ لِلّٰهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) :

كانت خزاعة وكنانة يزعمان أن الملائكة بنات الله، وقد انطوى هذا الزعم على فريتين : إحداهما : أن الملائكة إناث، وثانيتهما : أنهم بنات الله، فأما الزعم الأول فقد رده الله بقوله : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » ^(١). وأما الزعم الثانى فقد رده الله بهذه الآية .

والمعنى : ويجعل المشركون البنات لله حيث يزعمون أن الملائكة بنات الله - سبحانه وتنزيهاً له عن هذا الزعم الفاسد - والحال أنهم يجعلون لأنفسهم ما يحبون من البنين، فهم بذلك يختارون لأنفسهم فى التبني، أفضل مما يختارون لربهم، تعالى الله عن التبني بجانبه علواً كبيراً .

ثم يُوبَّخُهُمُ اللهُ على هذه النسبة أكثر مما مضى وأصرح فيقول :

٥٨- (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا) : أى وإذا أُخبر أحد هؤلاء بولادة

أنثى له، صار وجهه قاتم اللون كأنما علاه السواد غيظاً من شدة الغم والحياء من الناس كأنما ارتكب ما يخجله. (وَهُوَ كَظِيمٌ) : أى وهو ممتلىء غيظاً وغضباً، ثم يبلغ به الخجل من البشارة بالأنثى إلى ما حكى الله بقوله :

٥٩ - (يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ) :

أى يستخفى من قومه حتى لا يروه بسبب ما بُشِّرَ به من السوء حينما أخبروه بولادة أنثى له وجعل يحدث نفسه فى شأنه (أَيْمُسِكُهُ) فلا يقتله . ويظل يمسكه (عَلَى هُونٍ) : على ذل وهوان . (أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ) : بأن يخفئ له فيه حفرة فيدفنه فيها حياً . ويهيل التراب عليه كما كانوا يقولون : وأد البنات من المكرمات . وإذا كان هذا حالهم فى كراهة نسبة البنات إلى أنفسهم فكيف ينسبونها إلى الله . إذ يحكمون بأن الملائكة بناته . ولهذا قبَّح الله حكمهم هذا فقال :

(أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) : أى ألا قبَّح حكمهم حيث يجعلون ما هذا شأنه من الحقارة والهوان لديهم - يجعلونه وينسبونه - لله المنزه عن الصاحبة والولد ذكراً كان أو أنثى فى حين أنهم يتحاشون الإناث . ويختارون لأنفسهم البنين .

فمدار الخطأ نسبتهم البنات لله وهم يأتبون ذلك لأنفسهم فى حين أنه منزّه عن الولد مطلقاً ذكراً كان أو أنثى ، ولذا قال - سبحانه - عقب ما تقدم :

٦٠ - (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة والحساب فيها على ما افتروه - لهم - صفة القبح ، من الحاجة إلى الولد ليقوم مقامهم ويرثهم عند موتهم ، وحب البنين دون البنات للاستظهار بهم والانتفاع بكدهم ، ووأد البنات خوفاً من العار وحذراً من الفقر ، والله - تعالى - المثل الأعلى والصفة العظيمة الشأن من الاستغناء المطلق عن الولد ذكراً كان أو أنثى . فهو الغنى المطلق الغنى فى أمره كله ، المنزه عن الحاجة إلى الصاحبة والولد ذكراً كان أو أنثى ، المستوجب لكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، وهو العزيز الغالب القادر على مؤاخذتهم ، الحكيم فى كل شئونه ، فلماذا لم يعاجلهم بالانتقام منهم ، لعلمهم يثوبون إلى رشدهم ، ولهذا قال الله تعالى عقب ذلك :

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ
وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ
لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(مِنْ دَابَّةٍ) : الدابة ما يدب على الأرض ، وقيل المراد بها هنا : الكافر ، وسنفضل الكلام في ذلك في التفسير . (وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) : ولكن يؤخر موتهم إلى وقت سماه الله . لذلك فلا يموتون قبله ، ويجوز أن يكون المراد . ولكن يؤخر عذابهم إلى أجل مسمى ، وهو إما موتهم حيث يعذبون في قبورهم أو يوم القيامة ، فهو الأجل الذي سماه الله في لسان الشرع لجزاء الناس كما في قوله تعالى :

« وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » .

(لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) : أى لا يتأخرون عن الأجل المسمى أقل زمن ، ولا يتقدمون ، والتعبير عنه بالساعة ، لأنها في لغة العرب مثل في القلّة . وليس المراد بها الساعة المعروفة عندنا في عصرنا والمقدرة بستين دقيقة . لأن ذلك اصطلاح مستحدث .

التفسير

٦١- (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ) :

بين الله تعالى فيما تقدم ما كان عليه المشركون من الضلال مثل زعمهم أن الملائكة بنات الله ، مع أنهم يكرهون البنات ويستأثرون من البشارة بهن ويدسونهن أحياء في التراب ، وأتبع ذلك تنزيهه تعالى عن ذلك وعن نسبة الولد إليه سواء أكان ذكراً أم أنثى ، وبين سوء حكمهم

هذا ، وأن له تعالى الصفة العلية الشأن التي هي مثل في العلو والرفعة ، وأن ما وصفوه به لا يليق به جل وعلا ، فهو غير محتاج إلى الولد مطلقاً ، لا ليرثه ولا ليُعينه فهو الحي الذي لا يموت العزيز الحكيم ، فليس بحاجة إلى ولد يعتز به ، أو يدبر معه ملكوته ، وأن أولئك المتجنين على ربهم لهم صفة القبح وهي الحاجة إلى الولد ليقوم مقامهم عند موتهم فهم أهل الفناء ، أما الله تعالى فله صفة الحسن وهي كمال الاستغناء .

وجاءت هذه الآية لتبين رحمة الله بالناس حيث لا يعاجلهم بالعقوبة الشاملة بسبب تماديهم في ظلمهم بل يؤخرهم إلى أجل مُسمى لعلمهم يشوبون إلى رشدهم . قبل أن يحين أجلهم . والآية تحتل معنيين . أحدهما : ولو يؤاخذ الله الكفار بكفرهم ومعاصيهم التي تحدثت الآيات السابقة عن بعضها ، ما ترك على هذه الأرض من دابة كافرة . حيث يهلكهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم . ولكنه لم يفعل رحمة بهم لعلمهم يرجعون إلى رشدهم . ويكفون عن كفرهم ومعاصيهم .

وإطلاق الدابة على الإنسان لغوى . مأخوذ من دب على الأرض أى مشى عليها في هينة وتمهل . فالإنسان نفس دابة على الأرض . قال الشاعر العربي :
زعمتني شيخاً ولست بشيخ إنما الشيخ من يدب ديباً

والمعنى الثاني : يتجه بالإهلاك إلى عموم ما يدب على الأرض ، أى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبه أهل الذنوب منهم ما ترك على الأرض من إنسان طالح أو صالح ولا ترك عليها غيره من دواب الأرض . بسبب شؤم أهل الذنوب . قال ابن مسعود في تفسيرها : ولو أخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العذاب الجعلان^(١) في جحرها . ولأمسك الأمطار من السماء ، والنبات من الأرض فماتت الدواب ولكن الله يأخذ بالفضل والعفو والفضل : كما قال : « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » .

(١) جمع جعل بوزن مرد ؛ دابة سوداء من دواب الأرض .

ولعل مما يساعد على إرادة العموم ما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْقَطَابُ مِنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى نِيَّاتِهِمْ» وقوله تعالى: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الْفَاسِقِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» .

وبعد أن بين الله شؤم المعصية وما تجره على أهل الأرض من الآثار عقب ذلك ببيان رحمته بعباده فقال :

(وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) :

أى ولكن يؤخر إهلاكهم إلى أجل عينه لذلك لعلمهم يطيعون ربهم وينجون من عذابه ، فإنه تعالى خلقهم ليعبدوه وهداهم بالآيات والرسول إلى طريق معرفته وطاعته ، فلا عذر لهم في عصيانه .

ثم بين أن أجلهم آت لا ريب فيه ولا تغيير له بتقديم أو تأخير ، لعلمهم يسارعون في التوبة فقال : (فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) : أى فإذا جاء الوقت المحدد لموتهم لا يتأخرون عنه أقل وقت ولا يتقدمون .

فإن قيل : إن وقت إهلاكهم إذا جاء لا يتصور تقدمهم عنه ، فلماذا قيل : «وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» فالجواب أن ذكره للمبالغة في بيان عدم تأخره بنظمه في سلك ما يمتنع تنبيهاً على أنه مثله في الامتناع ، كما في قوله تعالى : «وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ » فإن من مات كافراً معلوم بالضرورة أنه لا تقبل توبته بعد موته ، وليس بحاجة إلى التصريح به ، ولكنه ذكر من لا تقبل توبته عند الغرغرة ومشاركة الموت للإيدان بأنهما سواء في عدم قبول التوبة ، لأنها حدثت منه بعد يأسه من الحياة ، فكان مثل من مات كافراً في أنه لا توبة له .

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ) : أى ينسبون إليه البنات التى يكرهونها لأنفسهم -
(وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ) : أى تحكى الكذب بادعائها أن لهم العاقبة الحسنى فى الآخرة .
(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ) : لا بُدَّ ولا محالة ^(١) . (مُفْرَطُونَ) : متروكون منسيون فى النار . كما
قاله ابن الأعرابي وأبو عبيدة وغيرهما ^(٢) . وقال الحسن وقتادة : مُعْجَلُونَ إلى النار مقدمون
إليها ، وأصله من أفرطته أى قدمته فى طلب الماء ، والفرط الذى يتقدم إلى الماء . ومنه قوله
صلى الله عليه وسلم : « أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ » أى متقدمكم إليه .
(تَاللَّهِ) : أى وحقُّ الله . (وَلِيَّهُمُ) : أى متولى إغوائهم أو ناصرهم .

(١) نقل القرطبي فى ج ٩ ص ٢٠ دار الكتب فى تفسير قوله تعالى فى سورة هود: « لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأغصرون » الآية ٢٢ أن (لا جرم) عند الخليل وسيبويه كلمة واحدة بمعنى (حق) وأنها فى موضع الرفع على أنها خبر مقدم وأن وما دخلت عليه فى تأويل المصدر مبتدأ مؤخر ، وأن الفراء قال بذلك كما حكاه النحاس ، وحكى المهدى عن الخليل أيضا أن معناها لا بد ولا محالة ، وحكاها الثعلبى عن الفراء أيضا وقد اخترنا هذا المعنى فى تفسيرها هنا ، وفى معناها آراء أخرى وحسب القارئ ما ذكرنا ومن شاء المزيد فليرجع إلى ج ٩ ص ٢٠ من القرطبي فى تفسير مثلها فى سورة هود - كما تقدم - .

(٢) من أفرطت فلانا خلفى إذا خلفته ونسيته .

التفسير

٦٢- (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى) :

أنكر الله عليهم في الآيات السابقة زعمهم أن الملائكة بنات الله ، وبين أنه منزّه عن الولد مطلقاً وأنه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من السيئات لعاقبهم بعقوبات تُعْظِمُ وغيرهم بشوْمِ ظلمهم ، ولكنه - تعالى - عظيم الحلم شامل الرحمة ، فيؤخرهم إلى وقتٍ سمّاه لموتهم لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون ، لعلهم يعودون إلى الرشْد ، ويدركهم الهدى .

وجاءت هذه الآية لتوبيخهم مرة أخرى على ما زعموه في حقه - تعالى - وما ادعوه لأنفسهم من العاقبة الحسنى ، ولإنذارهم بسوء المصير على مزاعمهم وعقائدهم .

والمعنى : وينسبون لله البنات التي يكرهونها لأنفسهم ، ومع هذه الجريمة الشنعاء في حق الله تقول ألسنتهم الكذب وتصفه وتصوره حين تزعم أن لهم العاقبة الحسنى - ثم عقب الله زعمهم هذا بالوعيد عليه فقال :

(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ) : أى لا بد ولا محالة من أن لهم النار مكان ما زعموه لأنفسهم من أن لهم العاقبة الحسنى . ولا بد أنهم منسيون فيها متروكون في سعيها لا يخرجون منها ولا يبرحونها .

ثم عقب الله هذه الآية بتسليية النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من قومه من ألوان الكفر والضلال . بأن ما يحدث له منهم حدث مثله للرسل قبله من أممهم ، وذلك بقوله تعالى :

٦٣- (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَكَيْهَهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى والله لقد بعثنا رسلنا إلى أمم من قبلك أيها الرسول ، فحدث منهم لرسولهم مثل ما حدث من قومك لك ، حيث زين لهم الشيطان ما هم عليه من أعمالهم القبيحة من الكفر والمعاصي ،

فظلُّوا مصرِّين عليها ، فهو متولى إغوائهم اليوم أى فى العصر الذى كانوا يعيشون فيه ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد الإيلام ، ولا يجدون فيها من ينقذهم أو يخفف عنهم ، ويجوز أن يكون المقصود باليوم يوم القيامة ، والولاية بمعنى النصرة على سبيل التهكم .

والمعنى : فالشيطان الذى أغواهم وزين لهم أعمالهم ناصرهم يوم القيامة ، ومن كان الشيطان ناصره يومئذ فهو خالد فى العذاب مثله ، لأنه مذنب ومعاقب وفاقد لأسباب النصرة ، ولهذا ختم الله الآية بقوله : (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

وأعاد بعض المفسرين الضمير إلى مشركى قريش ؛ والمعنى : ولقد أرسلنا رسلنا إلى أمم من قبلك فزين الشيطان لهم أعمالهم فضدهم عن السبيل فهو ولى مشركى قريش اليوم كما كان ولى من قبلهم فى أيامهم ، فإنهم مثلهم فى ضلالهم ولهم فى الآخرة عذاب أليم كما كان لمن قبلهم ، ثم بين أثر القرآن فى تبیین الحق من الباطل فقال :

٦٤ - (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

أى وما أنزلنا عليك القرآن أيها الرسول لسبب من الأسباب إلا لتبين للناس ما اختلفوا فيه من التوحيد واليوم العظيم الذى هم فيه مختلفون . كما تبين لهم النافع والضار من الأخلاق ، والحلال والحرام من الأعمال ، وأنزلناه أيضا للهدى والرحمة لقوم يؤمنون ، فإنهم المنتفعون بعلومه . المهتدون بهداه ، ويصح أن يراد منهم المستعدون للإيمان المهيئون له بما آتاهم الله من حسن النظر فى آياته ، فكأنه قال : وهدى ورحمة لقوم شأنهم أنهم يصدقون الحق ويؤمنون به ، بما جيلوا عليه من البحث عن الحق والاهتداء إليه بآياته ، والبعد عن الجدال بالباطل ، ثم شرع الله فى ذكر طائفة من آياته العظيمة الشأن فقال :

(وَأَلَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^ج
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً^ج
 نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا
 لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ
 سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) : أى من السحاب ، وكل ما علاك يطلق عليه سماء .

(بَعْدَ مَوْتِهَا) : بعد يبسها . (الْأَنْعَامِ) : الإبل خاصة ، وقيل : إذا كان معها بقر وغنم فهي
 أنعام أيضاً ، وقال أحمد بن يحيى : هي كل ما أحله الله من الحيوان ^(١) لقوله تعالى في سورة
 المائدة : « أُحِلَّتْ لَكُمْ بِهِيْمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ » .

(نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ) : أى مما فى بطون جنس الأنعام ^(٢) من اللبن ، والمراد من
 البطون هنا الضروع . (فَرْثٍ) : هو ما فى الكرش من بقايا العلف بعد هضمه .

(١) انظر القرطبي ج ٧ ص ١١١ طبعة دار الكتب - فى تفسير قوله تعالى « ومن الأنعام حمولة وفرشا » من الآية ١٤٢
 من سورة الأنعام .

(٢) قيل : إنها جمع نم ، وأفرد ضميرها ، لأن «أل» الجنسية تبطل الجمعية ، أما من يجعلها من المفردات التى جاءت
 على هذا الوزن كأكياش وأخلاق أو اسم جمع فيكون أفراد الضمير إما لكونه مفردا أو لمراعاة لفظ اسم الجمع : انظر
 أبا السعود وغيره هذا : والأكياش من الثياب ما أعيد غزله مثل الخز والصوف ، أو هو الردى ، والأخلاق من الثياب
 ماعه البلى : يقال ثوب أخلاق أى عه البلى . وثوب أكياش أى أعيد غزله أوردى .

(سَائِغًا) : هنيئًا لا يُغصُّ به شاربُه .

(سَكْرًا) : ما يُشكرُّ وهو الخمر ، قال ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر - وسيأتى لذلك بيان أوسع وتأويل أفضل - إن شاء الله تعالى - .

التفسير

٦٤- (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) :

تضمنت هذه الآية الكريمة شواهد عظيمة الدلالة على أنه تعالى - هو الجدير بالألوهية والعبادة له دون سواه ، فقد أرشدت أصحاب الفكر الرشيد إلى أن هذه السماء التي نشاهدها خالية من الماء ، صافية الأديم يسوق الله برحمته السحاب تحتها ويزجيه بعد أن كونه من أبخرة المياه ، وجعله ركامًا ، ثم يبسطه في جو السماء كيف يشاء ، ويصيب به من يشاء من عباده ، فيحيي به الأرض بعد موتها ، ويبسط فيها الزرع النضير ، وينبت فيها الأشجار ذات الأزهار والثمار ، إن في ذلك لعبرة لأولى الأسماع والأبصار .

ومعنى الآية إجمالاً: والله أنزل من السماء ماءً بقدر معلوم ، على الأرض اليابسة التي تشبه الموتى في عدم جدواها ، وتوقف الانتفاع بها : فلما أنزل الله الماء عليها دبَّت فيها الحياة ، حيث اخضرت وربتْ وأنبتت من كل صنف بهيج ، إن في ذلك لعلامة واضحة الدلالة على ألوهيته ووحدانيته ، يبينها لقوم يسمعون التذكير به سماع تدبير وتفكير ، ثم أتبعها آية أخرى باعثة على توحيده فقال :

٦٥- (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ) :

أى وإن لكم أيها العقلاء الذين تحسنون الاستماع وتفكرون في الشواهد والآيات التي تذكرون بها - إن لكم - في الإبل والبقرة والغنم والمعز لعظة عظيمة الشأن حيث تشاهدون أننا نسقيكم مما في أجوافها لبنًا أبيض خالصا مما يؤثّر في بياضه أو ريحه أو طيب طعمه سائغًا

للشاربين ، مع أننا أخرجناه من بين فرث وهو مافى الكرش من روث كرية الرائحة ، ودم أحمر لا يستسيغه الطبع الإنسانى .

فأنت ترى أن الأنعام تتناول أعلافها جافة ورطبة ، فتمضغها وتزدرددها ، فيحولها القادر الحكيم بما تفرزه كبودها وأجهزتها الهاضمة من العصارات - يحولها - إلى دم أحمر يدفعه القلب بنظام رتيب إلى أجسادها لتغذيتها ، وروث تدفعه كروشها إلى أمعائها الغلاظ ، لتتخلص منه أنا بعد آن .

وهذا الدم القافى يتجه بتدبير الله وحكمته إلى ضروع الإناث منها ، تلك الضروع التى هيأها الله بقدرته وأعدّها لتحويله إلى لبن خالص من كل شائبة من تلك الشوائب التى مرّت بها عملية الهضم والتحويل ، فلا ترى فى بياضه حمرة الدم ، ولا فى طعمه أثراً لطعوم الأعلاف والدماء والفرث ، ولا تحسّ برائحة كرية من هذه الروائح التى احتبست فى أجوافها ، بل تجده لبناً أبيض ناصعاً خالصاً سائغاً للشاربين فتبارك الله أحسن الخالقين .

٦٦ - (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَنًا) :

قال القرطبي : السكر مايسكر فى مشهور اللغة ، ونقل عن بعض السلف أن هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر ، وأن المراد بالسّكر الخمر ، وبالرزق الحسن ما يؤكل ويشرب جلّالاً من هاتين الشجرتين ، وذلك لأنّ السورة مكية ، ولم تحرم الخمر فيها وإنما حرمت فى المدينة ، ولست أدري كيف دُسّ هذا الرأى على أولئك الأعلام من السلف ، وكيف أقحم فى كتب التفسير ليقراه القارئون تفسيراً لآية من كتاب الله منقولاً عنهم ، فلما أن يسلموا به تقديراً لجلال من نسب إليهم وإما أن يقولوا ما لايجل فى كتاب الله ، حيث يقولون إن هذه الآية نزلت يمتن فيها الله على عباده بما أنعم به عليهم فى النخيل والأعناب من السكر والرزق الحسن ، فكيف عدل عن استحسان الخمر والامتنان بها فى مكة إلى استبدالها وتحريمها فى المدينة وهى هى بعينها لم يزد عليها ولم ينقص منها شيئاً ، فلما أن تكون فى

ذاتها قبيحة ضارة فتكون حراماً دائماً وإما أن تكون حسنة نافعة فتكون حلالاً دائماً ، فلا يتغير حكمها بتغير المكان .

والصواب : ما قاله الطبري في معنى الآية وهو أن السكر ما يُطعم من طعام النخيل والأعناب ويحل شربه من ثمارها ، وهو الرزق الحسن ، فاللفظ مختلف والمعنى واحد مثل : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ » فالبتُّ والحزن بمعنى واحد ، وبهذا قال أبو عبيدة ، حيث قال : السكر الطعم . يقال : هذا سكرٌ لك : أى طعمٌ .

وقال آخر - كما نقله القرطبي - السكر العصير الحلو الحلال ، وسمى سكرًا لأنه قد يصير مسكرًا^(١) إذا بقي ، فإذا بلغ الإسكار حُرِّمَ - قلت وقد جمع صاحب القاموس بعض ما تستعمل فيه كلمة السكر من هذه المعاني وغيرها فقال . والسكر - محرّكة - الخمر ونبيذ يتخذ من التمر ونحوه ، وكل ما يسكر وما حرم من ثمرة ، والخل والطعام والامتلاء والغضب والغيط : اه بتصرف .

وبما أن الآية للامتنان فالأنسب بمعنى السكر فيها ما يحل من طعام النخل والعنب وشراهما وإليك فيما يلي المعنى الإجمالى للآية الكريمة :

ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه عصيراً أحلوا حلالاً ، ورزقاً حسناً منحكم الله إياه منهما ، من رطب وتمر وعنب وزبيب ، وغير ذلك من الأطعمة والأشربة ، كالبسّر واللبس^(٢) ، والخل وأصناف الحلوى .. التى تصنع منهما إن فى ذلك لعلامة باهرة على قدرة الله ووحدانيته وكرمه وفضله ، وهذه الآية والعلامة على ما ذكر موجهة لقوام يستعملون عقولهم فيدركون أنه لا إله سواه ، ولا يستحق العبادة غيره .

(١) هكذا قيل ، ولكننا نقول : لماذا لا تكون تسميته سكرًا أخذًا من السكر (بتشديد السين المضمومة وتشديد الكاف المفتوحة) فإن أخذه منه يناسب كونه بمعنى العصير الحلو الحلال ، أما تعليل التسمية بأنه قد يصير مسكرًا ، فإنه لا يناسب المقام .

(٢) الدبس (بكسر الدال المشددة) : عمل التمر - من القاموس .

(وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) : ألهمها وعلمها .

(وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) : أى وما يهبطه الناس من العرائش والسقف والبيوت والخلابا .

(فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ) : فادخلى طرق ربك لطلب الرزق .

(ذُلًّا) : جمع ذلول أى مسخرة منقادة .

التفسير

٦٧- (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

النحل : من الحشرات النافعة للبشرية ، بما تفرزه من العسل الذى جعل الله فيه شفاء للناس وسميت بهذا الاسم ، لأن الله سبحانه نحلها هذا العسل ، كما قال الزجاج والجوهري : أى منحها إياه وقد أخبر الله فى هذه الآية والى تليها عن المنهج الذى تسلكه حتى تخرج لنا العسل من بطونها ليتغذى به الناس ويستشفوا من كثير من الأمراض ، وبين - سبحانه وتعالى - أن سلوكها هذا المنهج بوحى منه جل وعلا .

واللوحى فى اللغة معان مختلفة ، والمراد منه هنا الإلهام ، وهو ما يخلقه الله فى القلب ابتداءً من غير سبب ظاهر .

ولا يقتصر هذا الوحى على النحل ، بل تفضل الله به على كل حيوان فقد ألهمه الله - تعالى - ما فيه منافع فيسعى إليه ، وما فيه مضاره فيجتنبه ، وما فيه معاشه فيدبره ، حتى لتراه يخزن قوته فى الشتاء إذا كان لا يستطيع الظهور فيه والتعرض لبرده ، فلهذا يملأ مخازنه بالطعام

ويعقمه بما يجعله صالحاً ولا يتعرض للفساد ، ولم يقتصر هذا الإلهام على الحيوان بل تعداه إلى النبات والجماد ، فإن البنور والنوى ، يلهمها الله أن تتجه بجذورها إلى أسافل جوف الأرض لتستمسك بها وتتغذى منها ، وتتجه ببراعمها وسيقانها وأوراقها وفروعها إلى أعلى دون أن يضرأ على منهجها هذا أى اختلاف .

وألهم الأرض أن تغذى جذور النبات ، وتيسر لها سبيل التعمق داخلها ولو كانت الأرض صخرية ، فكم من غابات وأشجار وأعشاب تنبت في الأرض الجبلية . هذا إلى جانب ما يتم داخلها من التحولات الخطيرة التي تنشأ عنها المعادن والغازات والعناصر المختلفة وكل ذلك يتم بإلهام الله وتدبيره . ولقد أحسن إبراهيم الحربي في قوله : الله عز وجل في الموات قدرة لم يُدر ما هي ، لم يأتها بها رسول من عند الله ، ولكن الله تعالى عرفها ذلك ^(١) .

ولا غرابة في ذلك ، فقد جاء القرآن الكريم بذلك صراحة عن الأرض في سورة الزلزلة فقد قال تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » : أى ألهمها وأعطاهما من الأسباب ما نشأت عنه تلك المسببات

ولم يحرمنا القرآن العظيم ولا السنة المطهرة من الإشارة إلى تلك العجائب التي لم يستطع الإنسان أن يكشف الكثير من أخبارها وأسرارها : فالله تعالى يقول إنه أمر الجبال والطير أن تُؤَوِّبَ في التسميع وترجعه مع داود ، وذلك في قوله في سورة سبأ : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ » ^(٢) . وفي سورة ص « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ » ^(٣) .

والرسول يقول في جبل أحد : (أَحُدُّ يُجِئُنَا وَنَجِئُهُ) فوصف الجبل الأصم بأنه يحب الرسول . ورجف أحد والنبي فوقه وأبو بكر وعمر وعثمان فخاطبه النبي قائلاً : « اثْبُتْ أَحُدُ فَإِنَّمَا فَوْقَكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ » . أخرجه البخاري وغيره .

ومن عجائب إلهام الله للحيوان ما وقع يوم وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، حيث تجاذب الصحابة ناقته القصواء وهو عليها ، ليكون الرسول ضيفاً كريماً على من يفوز بها

(٣) الآيتان : ١٨ ، ١٩

(٢) من الآية : ١٠

(١) نقله القرطبي عنه في تفسير هذه الآية .

منهم ، فقال لهم : « خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنِهَا مَأْمُورَةٌ » فتركوها وأرخصى النبي زمامها دون أن يوجهها ، فجعلت تنظر يمينا وشمالا أثناء سيرها حتى بَرَكَتْ بفناء بنى عدى بن النجار أمام مريد سهل وسهيل ولدى رافع بن عمرو ، ثم ثارت الناقة والرسول عليها حتى بركت أمام باب أبى أيوب الأنصاري ، ثم ثارت وَبَرَكَتْ في مبركها الأول وَأَزْزَمَتْ (أى صَوَّتَتْ دون أن تفتح فمها) ونزل النبي صلى الله عليه وسلم عنها وقال : « هَذَا الْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، واحتمل أبو أيوب رحله وأدخله بيته ، وقال أبو أيوب المرء مع رحله ، فنزل النبي عنده ، وأخذ سعد ابن زرارة ناقته عنده .

وقصة (الهدهد) العجيبة مع سليمان ، وكذا قصة (النملة) في نوعيتها للنمل من أن يخطئه سليمان وجنوده ، وتعليم الله سليمان منطق الطير كل ذلك واضح في أن لها إدراكات ونطقا وعبارات لا يعلمها إلا من علمه الله ، فلا غرابة في أن يُعبر الله عن إلهامه للنحل في معاشها بالوحي ، لأن لها إدراكات تعي بها هذا الإلهام ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

المعنى الإجمالي للآية

وَأَلْهَمَ رَبُّكَ النُّحْلَ ، قائلا في إلهامه إياها : اتخذى بيوتا لك تأوين إليها في الجبال داخل كهوفها ومغاراتها وكواها ، وفي الشجر داخل أجوافها وبين أغصانها وفيما يعرشه ويهيئه لك بنو آدم من العرايش والخلايا ونحوها .

وعرش ، معناها هنا : هيا ، قال القرطبي : وأكثر ما يستعمل فيما يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها . ومنه العريش الذي صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اه ويقول ابن العربي في هندسة النحل لبيوتها : ومن عجيب ما خلق الله في (النحل) أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدسة ، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطة الواحدة وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينها فرج إلا الشكل المسدس ، فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه قطعة واحدة : اه من القرطبي ٦٩ - (ثُمَّ كُلِّي ^(١) مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) :

أى وكلى أيتها النحل بعضا من كل الثمرات ، وهو رحيق الأزهار التي هي أساس

(١) لفظ (ثم) هنا بمعنى واو العطف وليست للترتيب والتراخي ، إذ لا ترتيب بين الأكل من الثمرات وبين اتخاذها البيوت ولا تراخي لأكلها عنه ، فإنهما قد يكونان متصاحبين ، بل ربما سبق الأكل من الثمرات بناء البيوت ، فإن البطون الجائعة تصصف قواها عن البناء .

لثمار أو من الثمرات نفسها ، ويقولون إنها قد تأكل من الأزهار المرة ، ويعود كل ذلك عسلا خلوا شهيا ، وفي ذلك يقول المعري :

والنحل يجنى المر من زهر الربى فيعود شهداً في طريق رُضابه^(١)

والأمر في قوله تعالى للنحل : «ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» ليس على حقيقته ، بل المقصود منه أنه - تعالى - يسر لها ما تشتهي من الثمرات لتأكل منه ، فتجد نفسها مجبولة على أن تتناول منها ما تريد كأنها مأمورة بذلك ، لتحیی وتؤدي وظيفتها في الحياة ، من إفراز العسل لغذاء الناس وشفائهم ، ثم بين الله أن سبلها إلى ذلك مذلة فقال سبحانه :

(فَاسْأَلِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا) : أى فاذهبي طائفة في طرق ربك التي توصلك إلى الحقائق والبساتين فهي مفتوحة لك في جنبات السماء شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، مسخرة لك ، لا يمنعك عنها مانع فأنت نافعة للزراعة ، وجالبة للأرزاق ، وكما ذللتها الله لك في الغداة وأنت ذاهبة إلى أرزاقك ، ذلتها لك في الأصيل وأنت عائدة إلى بيوتك لاتضلين سبلها ، فسبحان الله « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » .

وقيل في معنى الآية : فاسلكي ما أكلت من الأزهار والرحيق في مسالكه التي يتجول فيها بقدرة الله عسلا .

ثم اتجه الكلام من مخاطبة النحل إلى الكلام مع الناس في عجائب صنع الله على سبيل الاستئناف ، وذلك في قوله تعالى :

(يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) :

يقص الله علينا في هذه الآية أن النحل بعد أن تتناول غذاءها من كل الثمرات ، يخرج من أجوافها عسل ألوانه مختلفة تبعاً للون ما تناولته من الأزهار والثمرات ، فقد يكون أبيض ، وقد يميل لونه إلى الصفرة أو الحمرة أو نحوهما ، كما قد يتأثر برائحتها طيبة أو كريهة ، وقد يكون للجو^(٢) أو ليس النحل أثر في ألوان العسل ، كما يقوله القدامى والله تعالى أعلم ، وقد عبر عنه بشارب لأنه مما يشرب .

(١) الرضاب - بضم الراء مشددة - يطلق على الرقيق في الفم ، والشهد - بضم الشين المشددة وفتحها - هو العسل .

(٢) فان الجو الحار يجعل لون العسل يميل إلى الصفرة والكدمه ، وقوامه ، إلى الكثافة .

والجمهور على أن العسل يخرج من أفواه النحل ، ومن ذلك قول الحسن : لُبَابُ الْبُرِّ
بلعاب النحل بخالص السمن ما عابه مسلم : ١ هـ ونحن نقول : إنما قال الله سبحانه :
(يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا) : لأنها هي التي تحيل الثمرات التي تأكلها النحل إلى عسل ،
ثم تدفعه وتخرجه من هذه البطن عن طريق أفواهها ، وقال الألوسي : وفي الكشف أن
في قوله تعالى : (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) إشارة إلى أن لمعدة النحل في ذلك تأثيراً ،
وهو المختار عند المحققين من الحكماء : ١ هـ يريد بذلك أن يرد على من يزعم أن المراد من
بطونها أفواهها ، وأن الأفواه هي التي تصنع العسل دون دخول للمعدات في تحويل الغذاء
إلى عسل .

وقد بين الله تعالى أن هذا العسل فيه شفاء للناس ، إما مجرداً وإما مخلوطاً بغيره
من المعاجين المختلفة ، كما كان قدامى الأطباء يعالجون ، وقد اعترف الطب الحديث بفوائده
في كثير من الأمراض والقروح وليس بلازم أن يكون فيه شفاء لكل الأمراض أو لكل الناس
فقد يشفى به مرض في إنسان ولكنه لا يشفى به في إنسان آخر ، وقد يشفى به مرض ،
ويزيد العلة في مرض آخر ، ولهذا لم يعمم الله تعالى في لفظ الشفاء ، إذ لم يقل : فيه الشفاء
للناس ، بل قال : (فِيهِ شِفَاءٌ) بتشكيل شفاء للتبويض ، ليكون المعنى : فيه بعض الشفاء
للناس لا كل الشفاء دائماً ^(١) .

وقد ذكر قدامى الأطباء أنه ينقى الجروح ويُدملها ويأكل اللحم الزائد ، ويشفى من دموع
العين وحكمتها وجربها كحلا وبخاصة مع ماء البصل ، وإن أذيب في الماء سكن المغص وقطع
العطش ، إلى غير ذلك مما كتبه كتب الطب القديم فارجع إليها إن شئت فقد كتبت
عنه كثيراً من الفوائد والأضرار ، وهذه الآية دليل على جواز التداوى خلافاً لمن كره ذلك ،
بل هو مطلوب لقوله تعالى : « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » . وفي صحيح مسلم عن جابر
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله »
وأخرج أبو داود والترمذي عن أسامة بن شريك قال : قالت الأعراب ألا نتداوى يا رسول الله
قال : « نعم يا عباد الله تداووا ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء إلا واحداً »
قالوا يا رسول الله وما هو ؟ قال الهرم « لفظ الترمذي وقال : حديث حسن صحيح إلى غير
ذلك من الأحاديث .

(١) و«آل» في الناس للجنس لا للاستفراق ، فيصدق الخبر بحصول الشفاء في بعضهم .

ثم ختم الله الآية بقوله : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) : فإن أهل الفكر حين يرون هندستها البارة في بناء بيوتها ، وتحول طعامها من الثمرات ولو كان مرأ إلى عمل شهى مختلف الألوان ، نافع للأبدان ، يستدلون بذلك على أن لها رباً حكيماً ألهمها وأعطاها من العجب ما يحير الأفكار ، وما لا يستطيعه الإنسان ، ولا يترددون في أن يقولوا : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

(وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَى لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٥﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٦﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(أَرْدَلِ ٱلْعُمُرِ) : أى أخسّه وأحققره . (فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ) : أى متساوون .
 (وَحَفَدَةً) : جمع حفيد وهو ولد الولد كما قال الأزهرى : ويطلق على الختن وهو الصهر كإبى الزوجة وأخيها وسائر أقاربها ، رواه زر عن عبد الله ، وقال ابن عرفة : الحفدة عند العرب الأعوان ، فكل من عمل عملاً أطاع فيه وسارع فهو حافد - قال - ومنه قولهم : « إليك نسعى ونحفد » وقال الخليل بن أحمد : الحفدة عند العرب الخدم .
 (ٱلطَّيِّبَاتِ) : النعم التى طابت وطاب أكلها وطعمها ، أو ما أحله الله من الأرزاق .

التفسير

٧٠ - (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) :

يحكى الله في هذه الآية بعض عجائب قدرته وسلطانه في الإنسان ، بعد أن بين عجائب إبداعه وحكمته في إنزال الماء من السماء ، وإحيائه الأرض بعد موتها ، وعظيم العبرة في الأنعام حيث أخرج لنا من بين غرثها ودمها لبنا خالصا سائغا للشاربين ، وبلغ حكمته ونعمته في (النحل) حيث ألهمها تدبير رزقها ومساكنها العجيبة وأخرج لنا من بطونها شرابا مختلف الألوان كثير المنافع للأبدان ، والحكمة في بيان هذه الآيات توجيه العقول إلى الإيمان بمبدعها ، وأنه قادر على إحياء من في القبور .

والمعنى : والله - تعالى - خلقكم فأحسن خلقكم ، ورباكم فأحسن تربيتكم ، ولم يجعل حياتكم في دنياكم إلى بقاء بل أعدها إلى فناء ، ففي أول نشأتكم على وجه الأرض تنمون ثم تشبون ، ثم يتوقف نموكم عندما يكتمل شبابكم ، ولكنه يحفظ عليكم فتوتكم وقوتكم إلى أن تصلوا إلى سن الكهولة^(١) فتضعف قواكم آنا بعد آن ، ويتدرج ضعفكم حيناً بعد حين ، حتى إذا أطلت الشيخوخة بأعبائها ، حل على أجسادكم الانحطاط الكبير ، وعلى عقولكم الوهن الخطير ، فتصبحون في أَرْدَلِ العمر ، وأخس مراتب الحياة ، فلا تعلمون من بعد علم شيئا ، إذ تنسون ما كنتم تذكرون ولا تحفظون ما تتعلمون ، وفي أثناء هذه الحياة منكم من يتوفاه الله في طفولته ، ومنكم من يمته في شبابه ، وبعضكم يأخذه في كهولة ، وآخر يرحل إلى شيخوخته ، ولا يرتبط ذلك كله إلا بإرادة العليم الخبير ، فلا يستطيع حكيم أن يتحكم في أجله « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »^(٢) .

(١) الكهل : من أصابه الشيب ، وعرفه بعض اللغويين بأنه من جاوز الثلاثين إلى الخمسين والمهرم بوزن الكرم أقصى الكبر ، ومن يوصف به فهو هرم ، وفعله هرم كفرح ، والشيخوخة تبدأ من الحادية والخمسين ، وتنتهي آخر العمر ، والمهرم داخل فيها ، راجع تلك المواد في القاموس وغيره . (٢) بعض الآية الأخيرة من سورة لقمان .

وليس لمراتب العمر سن معينة ، فقد تأتي الكهولة أو الشيخوخة في سن الشباب ، فكم من شبابٍ شابوا وانحطت قواهم وضعفت ذاكراتهم ، ومفتاح هذا كله وعلمه عند الله رب العالمين ، ولهذا ختم الله الآية بقوله جل ثناؤه .

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) : أى إنه تعالى واسع العلم بمقادير أعماركم ، عظيم القدرة على إحيايتكم وإماتتكم ، وهو صاحب المشيئة المطلقة فإن شاء أَمَاتَ الشاب النشيط وأبقى الشيخ الفاني ، وإن شاء أجرى الأمور على ضوابط مطردة ، فالحكم لله العلي الكبير .

واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من عدة أمور منها الهرم حيث يحل أرذل العمر ، ففي صحيح البخارى عن أنس بن مالك قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ فيقول : « اللهم إني أعوذ بك من الكسل وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من البخل » .

٧١- (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) :

بين الله تعالى في الآية السابقة دلائله ونعمه في خلقنا وتفاوتنا في آجالنا وعلومنا ، وجاءت هذه الآية لبيان فضله في رزقنا ، وأنها لا ترضى أن نسوى بيننا وبين مما يليقنا فيه ، فكيف يرضى المشركون أن يسووا بينه - سبحانه - وبين خلقه في الألوهية ، فيشركوهم معه فيها ، ويعبدوهم أكثر مما يعبدونه .

والمعنى : والله جعلكم متفاوتين في الرزق والنعمة ، إذ جعل بعضكم غنيا والآخر فقيراً ، وبعضكم سيّداً والآخر مملوكاً ، وبعضكم مخدوماً والآخر خادماً ، وقد جرت عادتكم أن لا يُعْطَى من فضل الله في النعمة مملوكه أو خادمه ما يجعله مساوياً له فيها ، بل يعطيه شيئاً يسيراً ، فإذا كانوا لا يحبون أن يجعلوا بماليتهم أو خديمهم مثلهم في الرزق ، مع أنهم مساوون لهم في البشرية والمخلوقية لله والاستحقاق في رزقه ، فكيف يرضون أن يجعلوا شريكاً مع الله ملكاً أو بشراً أو كوكباً أو صنماً ، ويسووه به - تعالى - في الألوهية والمعبودية ، في حين أنها مخلوقة له وليس لها من أمر نفسها أو غيرها شيء ، فإن الأمر كله لله - تعالى - وختم الله الآية بتوبيخهم على إنكارهم لنعمه بهذا الإشراك فقال :

(أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) : أي شركون بالله - تعالى - فيجعلون بهذا الإشراف ما أعطاهم من نعمة حيث اقتضت عبادتهم لآلهتهم أن هذه النعم منهم ، أو أنهم شركاء فيها ، مع أنها من فضل الله دون سواه ، ثم يبين فضله عليهم في الأزواج والأولاد والآباء ورزق الطيبات ، وعدم قيامهم بموجب إنعامه فقال :

٧٢ - (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) :

والله تعالى جعل لكم يا بني آدم زوجات من جنسكم لتأنسوا بهن ، ويكون أولادكم أمثالكم ، فتناسلوا وتنجبوا نوعاً واحداً بلا تباين ولا اختلاف ، وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم ، والأول أظهر .

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) :

الحفدة : جمع حافد ، وهو من يسرع في الخدمة والطاعة ، وقد اختلف العلماء في بيان المراد منه هنا ، وقد مر في المفردات بيان بعض ما قالوه في ذلك وأظهره أنهم أولاد الأولاد ، قال القرطبي : ما قاله الأزهرى من أن الحفدة أولاد الأولاد هو ظاهر القرآن بل نصه ، ألا ترى أنه قال : « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً » فجعل الحفدة والبنين منهم « هـ . وهو الذي استظهره ابن العربي .

والطيبات : لذائذ النعم ، أو حلالها .

والمنى : والله جعل لكم من جنسكم زوجات لتستريح نفوسكم إلى معاشرتهن ، وتسكن قلوبكم عند لقاءهن ، وتزول همومكم بأحاديثهن ، ولم يجعلهن من جنس آخر تنفر منه الطباع ، ويختلف بسببه الجنس البشرى ، ورزقكم لذائذ النعم وما أحله منها ، وكان عليكم أن تشكروه ولا تكفروه ، وتوحدوه ولا تعبدوا معه غيره ، ولكنكم أخطأتم بمقتضى نعمته ، ولهذا نعى على الكافرين ذلك فقال :

(أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) :

أفبالباطل من ألومية شركائهم وحرمة البحائر والسوائب ونحوها يصدقون ، وبنيعة الله التي لا حصر لها يكفرون ، حيث يضيفونها لآلهتهم ، وينسون الله الذي أنعم بها عليهم .

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(وَلَا يَسْتَطِيعُونَ) : ولا يقدرُونَ على أى شئ .
(فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ) : أى فلا تجعلوا لله الأشباه والنظائر ، باتخاذكم له شركاء .

التفسير

٧٣- (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا ...) الآية .

أى ويعبد المشركون سوى الله ما لا يملك أن يرزقهم شيئا من السماء كالضوء والمطر
ومن الأرض كالنبات والثمر ، ولا يستطيع أولئك الشركاء أى قَدْر من الاستطاعة فى النفع
فضلا عن الضرر .

٧٤- (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) :

أى فلا تجعلوا لله تعالى الأشباه والنظائر بعبادتكم سواء معه ، ولا ينفعكم ما تزعمون
من أنها تقربكم إلى الله زلتى ، فلا يقربكم إليه سوى توحيده وعبادته وتنزيهه عن الشريك
والنظير ، إن الله تعالى يعلم الحق فيأمركم به ، ويعلم الباطل فينهاكم عنه ، وأنتم تجهلون
ولا تعلمون ، فاجتنبوا نهيهِ وأطيعوا أمره .

(* ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

- (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا) : أورد حجة على سبيل التشبيه والتمثيل .
 (هَلْ يَسْتَوُونَ) : المراد أنهم لا يستوون . (أَبْكَمُ) : لا يقدر على الكلام ولا يسمع .
 (كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ) : عالة وعبء ثقيل على سيده الذى يتولى أمره .
 (يُوَجِّهُهُ) : يبعثه فى مهم من الأمور . (يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) : يدعو إلى الخير والبر .
 (السَّاعَةِ) : المراد بها يوم القيامة .
 (كَلَمْحِ الْبَصَرِ) : رجع الطرف من أعلى إلى أسفل أو هو النظر بسرعة ، يقال لمح له لمحا إذا نظره بسرعة .

التفسير

٧٥ - (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا) :

بعد أن نبى الله سبحانه عن الإشراك به، وقرع المشركين ووبخهم على اتخاذ الأنداد له تعالى ضرب مثلين يوضح بهما عدم التساوى بينه وبين أحد أو شيء من خلقه ليذكر العاقل أنه إذا انتفت المماثلة فيهما وجب التوحيد وامتنع الشرك بالبداهة .

والغنى : صور الله حالكم في إشراككم أوثانكم العاجزة ؛ بالله القدير الكريم الكثير الخير والبر، صور لكم ذلك ومثله بحال من يسوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف شلديد الحاجة إلى غيره وبين حرٍّ رزقه الله رزقا واسعا فهو ينفق منه على غيره ويتفضل به على سواه في السر والعلانية حسب مقتضيات الإنفاق ، ويتصرف فيه بحكمة فكيف يستوى هذا الحر الكامل التصرف مع هذا العبد الشلديد العجز عن التصرف، فضلا عن أنه لا يملك أمر نفسه ، ولهذا سأل الله العقلاء بأسلوب الاستفهام الإنكارى فقال : (هَلْ يَسْتَوُونَ) : أى هل يعقل أن هذا العبد الضعيف العاجز عن التصرف يتساوى مع الحر المتصرف على أحسن الوجوه وإذا كانا لا يستويان بداهة ، فكيف يسوى هؤلاء المشركون أوثانهم العاجزة بالله الخالق الرازق المدبر المحسن في السر والعلن ، ثم ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله : (الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : لبيان أن وضوح هذه الحجة يقتضى الثناء الكامل والحمد التام لله وحده لأنه المستحق له دون سواه ، ولكن أكثر هؤلاء الكفار لا يعلمون أن هذا هو الحق وذلك لجهالتهم وغفلتهم ، ولما كان فريق آخر منهم يعلم ذلك ويعرفه ولكنه لا يعمل بموجبه عنادا واستكبارا فلهذا قيل : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ولم يقل : بل هم لا يعلمون .

وقيل : المراد أنهم جميعا لا يعلمون فعبر بأكثرهم عن جميعهم .

٧٦- (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) :

وهذا مثل آخر مؤكد للمثل الأول في الدلالة على ما دل عليه بأوضح وجه وأظهر بيان . أى وذكر الله مثلا آخر يوضح فساد مساواتهم آلهتهم بالله ، وهو يتجلى في رجلين أحدهما : أخرس أصم لا يفهم ولا يفهم وهو مع ذلك لا يقدر على شيء لنفسه أو لغيره من جلب نفع أو دفع ضرر لجهله وسوء تقديره ، وهو لذلك عبء على غيره حيثما يرسله مولاه في أمر فإنه لا ينال

نَجْمًا وَلَا يَصِيبُ خَيْرًا ، أَمَا ثَانِيَهُمَا : فَرَجُلٌ عَاقِلٌ لَهُ رَأْيٌ ، سَلِيمٌ الْحَوَاسِ يَنْفَعُ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ
يُؤْمَرُ النَّاسُ بِالْإِنْصَافِ وَالْعَدْلِ ، وَهُوَ عَلَى مَنْهَجِ قَوِيمٍ وَسِيرَةٍ صَالِحَةٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ؟ وَإِذَا
كَانَا لَا يَسْتَوِيَانِ وَلَا يَتَشَابَهُانِ فَكَيْفَ يَسُوَّى الْمُشْرِكُونَ الصَّنَمَ الْأَصَمَّ الْأَبْكَمَ الْعَاجِزَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ
بِاللَّهِ الْقَادِرِ الَّذِي يَفِضُ عَلَى عِبَادِهِ الْكَثِيرِ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ وَنِعْمَتِهِ ، وَيَأْمُرُهُمُ بِالْعَدْلِ
فِي تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ وَفِي أَمْرِهِمْ كُلَّهُ ، وَهُوَ فِيمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عَلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ مُوصِلٍ إِلَى
خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

٧٧ - (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

بعد أن بين الله تعالى عن طريق ضرب المثل استحالة أن يستحق العبادة غير الواحد الأحد
جاء بهذه الآية لتدل على كمال علمه وعظيم قدرته وبعيد حكيمته .

والمعنى : والله وحده ما غاب في السموات والأرض وخفى فيهما على خلقه ، له ذلك خلقا
وملكا وعلمًا وتصرفًا ، ولا سبيل لغيره في شيء من ذلك .

(وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) : أى وما الشأن في سرعة مجيء
الساعة التي يقوم فيها الناس لرب العالمين إلا كرجع الطرف بإطباق الجفن ، فإنه تعالى
لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . ونحوه قوله : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ »
أى أن قيام الساعة وبعث الخلق للحساب والجزاء في السرعة كطرف العين ، وقوله :
(أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) : ليس للشك بل لتخيير المُمَثِّلِ في التمثيل به أو بالذى قبله ، وكلاهما
كناية عن بالغ السرعة وقيل : إن المعنى بل هو أقرب عند الله في الحقيقة . وإنما خص
الساعة بالذكر من بين علوم الغيب التي لا تحصى لكثرة الممارسة والمجادلة فيها وتكذيب
الأمم رسلها في إخبارهم بها ، ولذا ختم - سبحانه - الكلام عنها بما يثبت قدرته وأنه
تعالى - لا يمتنع عليه شيء أرادته فقال :

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) : فلا يعجزه أمر الساعة ، وبعث الأجساد بعد موتها ،
كما لا يعجزه شيء سواه .

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرْوَا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾)

المفردات :

- (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : لكي تشكروا . (مُسَخَّرَاتٍ) : مُيَسَّرَاتٍ مُهَيَّاتٍ للطيران .
 (سَكَنًا) : موضعا تسكنون فيه أو تسكنون وتطمثون إليه .
 (الْأَنْعَامِ) : هي الإبل والبقر والغنم والمعز .
 (تَسْتَخِفُّونَهَا) : تجلدونها خفيفة سهلة المأخذ . (ظَعْنِكُمْ) : سفركم وارتحالكم .
 (أَثْنَا) : الأثاث متاع البيت كالبساط والفراش والغطاء والكساء .
 (مَتَاعًا) : ما يتمتع وينتفع به . (إِلَىٰ حِينٍ) : إلى وقت انقضاء حاجتكم وتمتعكم به .

(مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا) : ما يستظل ويتقي به حر الشمس وضوءها من سقف وشجر وغمام وغير ذلك .

(أَكْنَانًا) : جمع كِنٌ وهو ما يستتر به ويسكن فيه كالكهوف .

(سَرَائِيلَ) : هى الثياب مطلقا ، جمع سربال أو سربالة .

(تَقِيكُمْ الْحَرَّ) : تحفظكم منه ، كما تحفظكم من البرد أيضا ، ففيه اكتفاء بأحد الصلدين عن الآخر .

(وَسَرَائِيلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ) : هى لباس الحرب كدروع الحديد وأغطية الرأس منه .

التفسير

٧٨- (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) :

بعد أن ضرب الله المثل للناس على فساد الشرك ، واتخاذ الأوثان شركاء لله فى العبادة ، شرع فى ذكر عدد من دلائل قدرته وبديع حكمته وجليل نعمته على عباده التى يستحق بموجبها أن يُعبد دون سواه ، وأن يشكر ولا يكفر به ، ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يخرجكم من بطون أمهاتكم وليست لديكم القدرة على تحصيل العلم ، فقد كانت ملكاتكم فى طفولتكم عاجزة عن أداء وظيفتها فمن الله عليكم بنمو أجسادكم وحواسكم وملكاتكم ، لكى تُحصّلوا بها العلم والمعرفة ، فبالسمع تسمعون ، وتُدركون المسموعات ، وبالبصر تدركون المرئيات ، وبالعقول والأفئدة تميزون بين الخير والشر والنافع والضار ، وتحصلون العلم ، وقد فعلنا ذلك لكم وأنعمنا به عليكم .

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى لكى تشكروا الله وتعرفوا له فضله فلا تعدلوا به أحداً سواه .

٧٩- (الَّذِينَ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُنْسِكُنَّ إِلَّا اللَّهُ) :

هذه آية أخرى حثنا الله فيها على النظر فى عجائب صنعه .

والمعنى : ألم ينظر المشركون إلى الطير مسخرات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة والأسباب المساعدة عليه ، فإن من تأمل الطيور السابحة في الجو ، لاشيء يجذبها إلى أعلى ، ولا سبب يحفظها من السقوط في أسفل ، أدرك أن الله هو الذى سخرها للطيران وسخر لها الجو وأمسكها فيه ، ولم يمسكها سواه ، وذلك بما أمدها به من أسباب تحفظها وتمسكها أن تسقط إلى الأرض ، وتجعلها تجوب الفضاء وتعلو وتهبط وتسرع وتبطئ ، وتميل يميناً وتتحرف شمالاً ، إنه الله الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : إن في ذلك الذى ذكر من تسخير الطير في الجو وإمسакها من السقوط للدلالات على قدرة الله ووحدانيته ، يسوقها لقوم لهم علم وعقل وإيمان فما بال المشركين يعرضون عن هذه الآيات الجليلة المستوجبة لطرح الشركاء ، والتوحيد الخالص لرب العالمين .

ونخص المؤمنين لأنهم هم المنتفعون بالنظر والتدبر ، وإن كانت الحجة قائمة على كل عاقل .

٨٠- (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا) :

وتلك آية أخرى ساقها الله ، مبيِّناً بعض نعمه المستوجبة لشكره والإيمان به .

والمعنى : أنه هداكم إلى اتخاذ البيوت لى تستريحوا وتسكنوا فيها بين أهليكم وأولادكم ولم يترككم تأوون إلى الغابات أو تعيشون في الكهوف وقت إقامتكم الدائمة ، أما في الترحل والانتقال فقد ألهمكم ما يعينكم على تلك الحياة وهو ما ذكره تعالى بقوله :

(وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا) : أى أرشدكم إلى صنع الخيام وضرب القباب في أسفاركم ، وهداكم إلى اتخاذها من جلود الأنعام حيث :

(تَسَخَّرُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ) : تجدونها خفيفة الحمل قليلة الكلفة ، فيسهل عليكم نقضها وحملها ونقلها إذا ارتحلتم ، فإذا ما أقمتهم سهل عليكم ضربها للإقامة ، فيها ما أقمتهم .

(وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ) : أى وهداكم كذلك إلى أن تتخلفوا من أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاث المنازل من البسط والفرش والكساء والغطاء والخيام، وما قد تحتاجون إليه في إقامتكم وأسفاركم تتنعمون به أنتم ، أو تتجرون به فتتسع أرزاقكم وتنمو بذلك أموالكم وتزداد ثرواتكم وتتمتعون به على أى وجه مما ذكر إلى حين انقضاء آجالكم وانتهاء أعماركم أو حاجاتكم .

٨١- (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا . . .) الآية .

أى أنه تعالى جعل للضاربين فى الأرض مما خلق من الأشجار والجبال والتلال ونحوها ظلالا يستظلون بها من الحر ، كما جعل لهم من الجبال ما يسكنون فيه أو يأوون إليه عند الحاجة ، من المغارات والكهوف .

(وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ) : ومن نعمه سبحانه أن ألهمكم اتخاذ ملابس للسلم تقيكم الحر مثل الجلابيب والأردية والقمص والقلانس ونحوها مما يستر أجسادكم ويقيكم حر الشمس وبرد الشتاء. وقد استغنى بذكر الوقاية من الحر عن ذكر الوقاية من البرد لأن العرب تستغنى فى لغتها كثيراً بذكر أحد المتقابلين عن الآخر اكتفاءً بأحدهما ، لأنه يشعر بالمحذوف ويدل عليه ، وكما أرشدكم إلى صنع لباس السلم ، ألهمكم أن تصنعوا من الحديد ما يدفع عنكم الضربات ويرد الطعنات فى بأس الحرب وشذتها .

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) : أى هكذا تتوالى نعم الله عليكم فى حياتكم حتى تتكامل وتتم ، لعلكم أنتم وكل من يصلح للخطاب والتذكير تتأملون وتندبرون فتدركوا نعم الله عليكم ، وتعرفوا ليواسيها قدره فتتقادوا له ، ولا تتخلفوا معه الأنداد ولا تعبوا رباً سواه ، فأنت ترى من سرد هذه النعم أنه تعالى شمل بنعمته أهل الحضر وأهل المدن ، فالكل بنعمته ينعمون ، وبفضله يتمتعون .

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ
 اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ
 أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾
 وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ
 يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا
 هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ
 الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ
 وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

- (تَوَلَّوْا) : أعرضوا وأبوا . (الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : التبليغ البين الواضح .
 (يُنْكِرُونَهَا) : يجحدونها ولا يعرفون فضل النعم بها . (أُمَّةٌ) : جماعة من الناس .
 (شَهِيدًا) : أى نبيا يشهد بكفرهم أو بإيمانهم .
 (لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) : أى لا يسمح لهم بالاعتذار إذ لا عذر لهم .
 (وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) : ولا يطلب منهم العتبي أى لإرضاء الله يوم القيامة ؛ والعتبي
 تطلق على الرضا - انظر القاموس .
 (يُنظَرُونَ) : يعجلون ويؤجل عذابهم . (نَدْعُوا) : نعبد .
 (يَفْتَرُونَ) : يختلقون ويكذبون .
 (وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ) : أى وأظهروا الاستسلام إلى الله يوم القيامة .

التفسير

٨٢- (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ) :

أى فإن أعرض المشركون يا محمد بعد بيان الآيات الكونية والتنزيلية ولم يؤمنوا بما جئت به من الحق ، فلا تحزن عليهم ولا تأسف على ما يصنعون فلست مسئولاً عن كفرهم .
(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ) : أى فما عليك إلا أن تبلغهم ما أُرسلت به إليهم تبییناً يوضح معالم الدين ويبين الصراط المستقيم وقد فعلت على أتم وجه وأكملة ، وهم مسئولون ومحاسبون على عدم استجابتهم ، أما خلق الإيمان فى قلوبهم فاست بقادر عليه .
قال تعالى : « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » ^(١) .

٨٣- (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) :

أى يعرف المشركون أن هذه النعم المذكورة وغيرها من عند الله فإذا سألتهم من الذى خلقها ؟ قالوا : خلقها الله ، وكان مقتضى هذه المعرفة أن لا يشركوا بالمنعم بها ، وأن لا يعبدوا سواه ، ولكنهم ينكرون نسبتها إلى الله بأفعالهم ، وذلك بعبادة غير واهبها ، وشكر غير مُسديها من صنم أو غيره وعطف بتم التى تفيد التراخي والبعد ، للدلالة على أن إنكارهم أمرٌ ينبغى أن يكون مستبعداً ، وذلك بعد أن عرفوا نعم الله وسعدوا بها ؛ إذ أن من الواجب على من عرف النعمة وعاش فيها أن يعترف بها لمنعمها لا أن يجحدها وينكرها .

(وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) : أى وأكثر أهل مكة هم الكافرون بها ، حيث عبدوا غير الله وأعرضوا عن الحق ، أما القليل منهم فقد آمن بالمنعم بها واستجاب لدعوة نبيهم إلى توحيده .
ويجوز أن يراد من نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم كانوا يعرفونها بعقولهم ثم ينكرونها بالسنتهم عناداً ، وأكثرهم الجاحدون به ، أما القليلون منهم فقد هدام الله ، فآمنوا به صلى الله عليه وسلم ، وثبتوا على إيمانهم مع ما قاسوه من التعذيب والإيذاء .

٨٤- (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) :

لما بين سبحانه حال الكافرين وأنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها ، جاء بهذه الآية وعيداً للمنكرين .

والمعنى : واذكر لهم أيها النبي يوم القيامة ، ونبيهم بما يقع فيه من الأهوال حيث يبعث من كل أمة شهيداً من المرسلين ، يشهد لمن آمن بالإيمان وعلى من كفر بالكفر ، حسب علمه عن أتمته في حياته .

(ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) : أى لا يؤذن لهم فى الاعتذار إذ لا عذر لهم ولا حجة لديهم يدافعون بها عن أنفسهم .

(وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) ^(١) : أى ولا يطلب منهم أحد فى هذا اليوم العتيـى- أى أن يرضوا ربهم بتوبة أو عمل صالح- فقد فات أوان ذلك حيث كانوا فى دنيا التكليف ، وقد أعطوا الفرصة فيها فلم يفعلوا ، فلا سبيل لهم بعدها إلى ذلك ، فإن الآخرة دار جزاء .
« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » ^(٢) .

٨٥- (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) :

وتلك صورة أخرى لما يكون عليه الكافرون من أهل النار، أى وإذا رأى هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر - إذا رأوا العذاب على كفرهم ومعاصيهم وعائنه وشاهدوه ،
(فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) : إذ لا مجال للتخفيف بتوبة أو اعتذار ،
« لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » ^(٣) .

٨٦- (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ...) الآية .

وهذه صورة من الصور التى تكون بين الكافرين وبين من أشركوهم مع الله فى العبادة ، أو عبدوهم من دون الله ، فإذا رأوهم نادوا ربهم أذنلاً صاغرين .
(هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ) : أضلونا وحملونا على عبادتهم .
كأنما يقولون : هم الذين يستحقون العذاب دوننا . وكل شىء يومئذ ينطق بإذن الله
فلهذا تكذبهم معبوداتهم من كل نوع كما حكى الله بقوله :

(١) أصل الاستعاب طلب إزالة العتب والغضب ويكنى به عن سلب الرضا وبهذا فسر قوله تعالى : « ولا هم يستعتبون »

بمعنى ولا هم يطلب منهم أن يرضوا ربهم .

(٢) سورة التحريم ، الآية : ٧

(٣) سورة فصلت ، الآية : ٤٦١

(فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ) : أى إنكم كذبتُمْ فيما زعمتم أننا شركاءُ الله ، كما كذبتُمْ في دعائكم أننا أضللناكم ورضينا بكفركم ، أو فيما تقولتم في دنياكم من استحقاقنا للعبادة ، وما أضللناكم ولكنكم أضللتُمْ أنفسكم وعظمتْ عقولكم ، وما كان لنا عليكم من سلطان .

٨٧- (وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

وهذه خاتمة أحوال الكافرين يوم الدين : إنها خزيهم واستسلامهم .
والمعنى أن المشركين امتسلموا صاغرين بعد أن قامت عليهم الحجة وخاب أملهم في آلهتهم وضل سعيهم ، وحققت عليهم الكلمة وبأءوا بغضب من الله .
(وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : وغاب عنهم كل ما افتروه من شرك آلهتهم لله ، وشفاعتها لهم عند ربهم ، غاب عنهم كل هذا ولقوا ربهم بفضيحة كفرهم وخزي معاصيهم .

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ
الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا
عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى
لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾)

الفردات :

(صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) : منعوا الناس عن الإيمان بدين الله .
(شَهِيدًا) : شهيد كل أمة نبيها ، فهو شاهداها .
(هَؤُلَاءِ) : المشار إليهم الأمم أو الأنبياء ، أو الكفار من أمة سيدنا محمد .
(الْكِتَابَ) : القرآن . (تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) : توضيحًا لأحكام كل شيء .

التفسير

٨٨ - (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ...) الآية .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى اشتغال الكافرين واعترافهم بكفرهم بين يدي أحكم الحاكمين أوضح جزاءهم في تلك الآية الشريفة .

والمعنى : أن الذين كفروا بالله فلم يعترفوا بوحدانيته ، وصرفوا الناس عن دينه الذي هو سبيله الأقوم ،

(زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ) : ضاعفنا عذابهم ضعفين ، عذاباً بكفرهم وغيهم وضلالهم ، وعذاباً بصددهم الناس عن الإيمان وحملهم إياهم على الكفر والفسوق والعصيان فاستحقوا أن يزدادوا عذاباً .

(بِمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ) : بسبب استمرارهم على الإفساد وإصرارهم على الضلال ، وفي الآية دليل على تفاوت العذاب في دركاته كما يتفاوت النعيم في درجاته .

٨٩ - (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) :

واذكر أيها الرسول للناس يوم القيامة حيث نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم ، أي من بينهم وجنسهم وبلغتهم قطعاً لمعذرتهم .

وشهيد كل أمة نبيها ، يشهد لها أو عليها بما كان منها من الاستجابة له ، أو الإعراض عنه والصد عن سبيله كما تقدم بيانه .

(وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ) : وأحضرناك يا محمد يومئذ شهيداً على أمتك هؤلاء ، تشهد عليهم كما يشهد كل نبي على أمته ، ويجوز أن يكون المراد من (هَؤُلَاءِ) : الأنبياء ، فهم يشهدون على أممهم ، وأنت يا محمد تشهد لهم بأنهم بلغوا ما أمروا بتبيلغه كما أخبرك به العليم الخبير في كتابه العزيز ، أو جئنا بك يا محمد شهيداً على الأمم بما لاقوا به رسلهم من إيمان وتصديق أو إنكار وتكذيب على ما أعلمك ربك .

وقد ورد في تفسير تلك الآية عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : إنه قرأ سورة النساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : حُشِبْنَا .

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) : أى وآتيناك القرآن مبيّنًا لأحكام كل شئ من شئون معاش الناس ومعادهم ، والبيان الذى جاء به القرآن للأحكام إما بإيراد نص فيها ، أو بالإحالة على السنة كقوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » ^(١) . أو بالإحالة على الإجماع حيث أوجب الأخذ به وتوعد على مخالفته فى قوله تعالى : « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » ^(٢) . أو بالإحالة على القياس وذلك فى قوله تعالى : « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ » ^(٣) فالاعتبار التَّبَصُّرُ والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس فهذه أربعة طرق لا يخرج عنها شئ من أحكام الشريعة الإسلامية ، وكلها مذكورة فى القرآن ، فكان بحق تبيانًا لكل شئ .

(وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) : أى وكان منشأ الهداية والرشد ، كما أنه رحمة للمسلمين وبشرى لهم بحسن المصير وطيب المنقلب إلى ربهم ، لأنهم أسلموا وجوههم إلى الله ، وأحسنوا أقوالهم وأعمالهم ونياتهم لربهم . « وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى » ^(٤) .

(* إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) : يأمر بالإنصاف وعدم الظلم . (وَالْإِحْسَانِ) : هو إتقان العمل وإكماله .
 (ذِي الْقُرْبَى) : المراد به صاحب القرابة مطلقاً .
 (وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ) : الفحشاء ما عظم قبحه قولاً أو فعلاً ، ويكثر إطلاقه على الزنى .

(٢) سورة النساء ، الآية : ١١٥

(١) سورة الحشر ، من الآية : ٧

(٤) سورة لقمان من ، الآية : ٢٢

(٣) سورة الحشر ، من الآية : ٢

(وَالْمُنْكَرِ) : كل ما أنكره الشرع من الذنوب والمعاصي .

(وَالْبَغْيِ) : وهو التطاول على الناس ظلماً وعدواناً .

التفسير

٩٠- (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ . . .) الآية .

هذه الآية كما يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « أجمع آية في القرآن للخير والشر ولو لم يكن فيه غيرها لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى » . أخرجه البخارى في الأدب والحاكم وصححه ابن جرير واللفظ له .

وقد قرأها الرسول صلى الله عليه وسلم على الوليد بن المغيرة . فقال له : يا ابن أخى أعد على فأعادها عليه . فقال له الوليد والله إن له لحلاوة . وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى ، وما هو بقول بشر ، ولما سمعها أكثم بن صيفى من وفد قومه إلى الرسول قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن مذامها . فكونوا في هذا الأمر رهوساً ولا تكونوا فيه أذناباً ، ذلك لأنها جمعت إجمالاً بين ما يجب عمله من الفضائل وما يتعين تركه من الرذائل ، والعدل الذى يأمر به سبحانه خلق جامع لكل الفضائل من القول والعمل . يغرس فى الإنسان حب الاستقامة والمساواة ، والرغبة فى طاعة الله ، وامتنال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وإنصاف الناس من نفسه ، وإنصاف بعضهم من بعض وهذا الخلق يجعله إذا ما تصرف فى أمر من الأمور أو تخلق بخلق يتوسط فيه بين الإفراط والتفريط ، وقال سفيان بن عيينة العدل استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً وكما يأمر سبحانه بالعدل ويدعو إليه . فإنه يأمر بالإحسان ، وهو إحسان العمل وإتقان العبادة أى الإتيان بها على الوجه المطلوب الذى يليق بها من حيث الإخلاص لله ، وكمال العبودية له ، ويشير إلى ذلك ما رواه البخارى من قوله صلى الله عليه وسلم : « الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » هذا بحسب الكيفية ، وأما بحسب الكمية فبكثرة التطوع بالنوافل الجابرة لما قد يقع فى الواجبات من شائبة التهاون والنقص

أو بالاستزادة من كل ما يحقق للطاعة مراتب الكمال ، ويجوز أن يراد به الإحسان إلى الناس والتفضل عليهم ، وأسمى درجاته على هذا المعنى ، الإحسان إلى المسمى مع التمكن منه والقدرة عليه ، وقد أمر بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومن الحكم المنسوبة إلى عيسى عليه السلام قوله : « إِنَّمَا الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ . لَيْسَ الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ » أخرجه ابن أبي حاتم عن الشعبي .

ثم يأمر سبحانه بصلة الأقارب حفاظاً على روابط الدم والنسب فيقول : (وَإِيتَاءُ ذِي الْقُرْبَىٰ) : أى أنه يأمر بصلة ذوى الأرحام . على أى درجة كانت قرابتهم ، وذلك بإعطائهم ما يحتاجون إليه ، لافرق بين الأقربين منهم والأبعدين ، ويشير إلى ذلك ما جاء في النص الكريم من طلب إعطاء ذى القرابة مطلقاً ، ولو طلبها للأقرباء أو للأقارب أو للأقربين لم يفد التعميم ، لأن هذه الصيغة تقيد الإحسان لأكثرهم قرابة ، فلذا جرى بهذا النص الكريم ليعم ذوى القرابة مطلقاً ، والتصريح بإيتاء ذى القربى مع أنه داخل في الإحسان الذى يأمر به الله سبحانه ، للاهتمام بشأن صلة القرابة وإعطائها حق قدرها ، وبعد أن ذكر سبحانه ثلاثة من المأمورات . أتبعها بذكر ثلاثة من المنهيات فقال تعالى :

(وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) : أى ينهاكم عن الفحشاء قولاً وعملاً ، والفحشاء : كل ما عظم قبحه من الذنوب ويكثر إطلاقها على الزنى ، وكما ينهاكم عن الفحشاء ينهاكم عن جميع ما أنكره الشرع من المعاصي والآثام ، وينهاكم أيضاً عن البغى على الناس ظلماً وعدواناً بانتهاك حرمتهم ، واغتصاب حقوقهم .

(يَعْظُمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) : جملة مستأنفة لبيان الحكمة في تشريعات هذه الآية الكريمة التى تعتبر دستوراً لمكارم الأخلاق .

والمعنى : أنه تعالى ينبهكم بما جاء في هذه الآية الكريمة ، لكى تتعظوا فتسلخوا سبيلها وتعملوا بما جاء بها .

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ) : العهد ما ألزم الإنسان به نفسه أو ألزمه به غيره بموافقته ، وعهد الله يعم كل تكليف من الله ، ويدخل فيه البيعة على الإسلام .
 (وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ) : المراد من نقضها عدم الوفاء بها .
 (كَفِيلًا) : شاهداً أو رقيباً . (نَقَضَتْ غَزْلَهَا) : حلته بعد فتله وإحكامه .
 (أَنْكَا) : جمع نَكَثَ على وزن جَمَلَ وهو الصوف بعد حله .
 (دَخَلًا بَيْنَكُمْ) : أى خديعة ومفسدة . (أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ) : أكثر منها مالا وأعز نفراً .

التفسير

٩١ - (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ) :

لما ذكر سبحانه في الآية السابقة الأمور التي يترتب عليها إصلاح الفرد واستقرار الجماعة على سبيل الإجمال . أتبع ذلك تفصيل بعض ما أجمل ليوضح لعباده معالم الطريق إلى الأمن

والسلامة فقال تعالى : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ) أى التزموا الوفاء بكل عهد وبيعة لله تعالى ، ويدخل فيها البيعة على الإسلام ، والنصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله سبحانه : (إِذَا عَاهَدْتُمْ) بعد قوله : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ) لتأكيد وجوب التزامهم بالوفاء ، وذلك بتذكيرهم بأن هذا العهد قطعوه على أنفسهم برغبة منهم واختيار .

(وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا) : أى لاتحنثوا فى الأيمان التى تحلفون بها عند البيعة وغيرها ، ولا سيا الأيمان التى أكدتموها بتكرارها وتنويعها .

(وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) : أى رقيباً يتكفل بوفائكم ، حينما تعاقدتم ، فلا سبيل لكم إلى نقض العهد والحنث فى الأيمان لأن الكفيل مراعى لحال المكفول مهيمن عليه ، فلا يستطيع الإفلات من قبضته ، فكيف إذا كان هذا الكفيل ، هو الله الذى بيده مقاليد السموات والأرض يعاقب الغادرين ، ويثيب الأوفياء .

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) : من نقض المواثيق والعهود أو الوفاء بها ، وفى هذه الجملة تعليل للنهى عن نقض الأيمان ، مشعر بالوعد على الوفاء والوعيد على الغدر

٩٢ - وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا) :

أى ولا تكونوا فى نقضكم لما تعقدون من عهود كالمرأة الحمقاء التى كانت تغزل غزلها قوياً متماسكاً ثم تنقضه من بعد ما أحكمته ، تنقضه أنكاثاً أى طاقات ، وذلك بفك أجزائه بعضها من بعض ونفشه لتعاود غزله وتلك حماقة لا تعدلها حماقة ، ويراد من هذا التشبيه تقبيح حال النقض للعهد ، بتمثيل الناقض له بحال هذه المرأة المعتوهة فى أحسن أحوالها ، تنفيراً منه وتقبيحاً له . حيث جعل فى عداد حمقى النساء ، والكلام من باب ضرب المثل ، ولم يقصد به امرأة معينة ، كما قاله مجاهد وقتادة .

(تَتَخَلَّوْنَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ) : الدخل فى اللغة ما دخل فى الشيء وليس منه ، والمراد به هنا الغش والخديعة والمعنى : لا تكونوا فى نقضكم للعهود مشابهين للمرأة التى سبق بيان شأنها ، حال كونكم متخذين أيمانكم التى حنثتم فيها خديعة ومفسدة حيث جعلتموها وسيلة للغرر وعدم الوفاء وكان من حقها عليكم أن تكون سبيلاً إلى أن تلتزموا بما عاهدتم الله عليه ، والجملة مستأنفة على سبيل الاستفهام الإنكارى تقديرًا . أى أتتخذون أيمانكم دخلاً بينكم بمعنى لا ينبغي أن يقع ذلك منكم .

(أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ) : أى لا تنقضوا العهد طمعاً فى التحالف مع جماعة هى أكثر مالا وأعز نفراً ، بدل جماعة أخرى أقل منها وأهون ، كما كانت تفعل قريش ، فكانوا ينقضون العهد مع حلفائهم ، ويحالفون أعداءهم إذا ما رأوا فيهم قوة ومنعة ، قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون من هو أكثر منهم وأعز نفراً فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك فنهوا عن ذلك ١ هـ - وعلى هذا تكون الآية تحذيراً للمؤمنين أَنْ يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم ، فينقضوا بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأياً كان السبب فالآية قاعدة عامة تحض على الوفاء بالعهد .

والمعنى الإجمالى للآية : ولا تتخذوا أيمانكم للخديعة والمكر ، بأن تحلفوا للناس على ما عاهدتموهم عليه ليطمئنوا إليكم ، ثم تغدروا بهم رغبة فى إرضاء أمة أقوى من الأمة التى عاهدتموها ، لتكون قوة لكم ومنعة بدلا منهم .
وإذا كان الله سبحانه قد نبى عن الغدر والحالة هذه . فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة الذاتية بطريق الأولى .

(إِنَّمَا يَبَلِّغُكُمْ اللَّهُ إِلَيْهِ) : أى إِنَّمَا يختبركم بكثرة أمة عن أمة ، لينظر أتمسكون بعهد رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ أم تخدعكم كثرة قريش وقوة شكيמתهم وقلة المؤمنين وضعفهم حسبا يدل عليه ظاهر الحال . أو يختبركم أيها المؤمنون جميعاً بهذا التشريع فى عهودكم ومواثيقكم ليظهر ما تضمرونه من غدر أو وفاء .

(وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) : فى الدنيا ، فيجازى كل عامل على عمله خيراً كان أو شراً . وستجد كل نفس ما عملته محضراً ، لاتخفى منه خافية ، وفى ذلك إشارة واضحة إلى الإنذار والتحذير .

٩٣- (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) : أى ولو شاء الله لَجَعَلَكُمْ على الإيمان لجمعكم عليه وجعلكم أمة واحدة .

(وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) : أى ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك حيث أضل فريقاً وهدى آخر ، فأما الفريق الأول . فهو من استحب العمى على الهدى ، وأما الفريق الثانى فهو من آثر الحق على الباطل ، فقد اقتضت عدالته أَنْ يجعل لعباده اختياراً ، فمن اختار شهوات الدنيا على طاعة ربه . تركه وما يريد تبعاً لاختياره وإصراره ، ومن

اختار رضا الله بالعمل الصالح سهل له ما أراد تحصيله بدافع مما عنده من رغبة واختيار، وفي ذلك يقول الله تعالى: « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

(وَلَنُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) : أى وتأكلوا بلا شك أنكم ستسألون جميعاً يوم القيامة سؤال محاسبة عن عملكم في الدنيا ، لينال كل عامل جزاء عمله ثواباً أو عقاباً .

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُوا أَلْسُوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ) ٩٤ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٩٥ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ
وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٦)

المفردات :

(الدَّخَلَ) : الغدر والمكر والخديعة ونحوها .
(فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا) : زلزل القدم حسب اللغة زلقتها في طين ونحوه ، ويكنى به
عن الوقوع في البلاء والمنحة بعد العافية والنعمة كما هنا (السوء) : المكروه .
(بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) : بسبب إعراضكم عن أحكام دينه ، فهي سبيله إلى الوفاء
بالمهود والأيمان وسائر الفضائل . (ثَمَنًا قَلِيلًا) : عرضاً قليلاً ، (يَنْفَدُ) : يذهب ويفنى .

التفسير

٩٤ - (وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ) الآية .

تحذير صريح من الله لعباده من اتخاذ الأيمان دخلاً أى خديعة ، بعد تحذيرهم فيما سبق
تلميحاً واستنكاراً في قوله سبحانه : «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذْ عَاهَدْتُمْ» .. الآية قصداً إلى المبالغة
في قبح الغدر المنهى عنه ، وللتمهيد لقوله سبحانه :

(فَتَنَزَّلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا) :

والمعنى : احذروا هذه الأيمان الكاذبة لثلاث تحيد قدم عن سبيل الإسلام بعد رسوخها فيه ، وإفراد القدم وتنكيرها للإشعار بأن زلل أى قدم ذنب عظيم وإثم كبير ، فكيف بالأقدام الكثيرة . وهو مثل يضرب لكل من كان على الطريق المستقيم فجانبه .

(وَتَذَوُّقُوا السُّوءَ) : أى ما يسوءكم من العذاب الدنيوى ومختلف المكاره .

(بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) : بسبب إعراضكم عن دين الله وعدم الاهتمام بتعاليمه ، أو بما تسببتم فيه من صد غيركم عن هذا الدين ، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهد ثم غدر أو حلف فحنث أو نقض عهد رسول الله وارتد . لم يبق له وثوق بدين الله ، وكان داعيا له إلى شدة الإعراض عن الإسلام .

(وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) : أى ولكم فى الآخرة عذاب لا يعلم مداه ولا يحيط بقدره إلا الله جل شأنه . لقاء ما اقترفت من كبائر وسيئات .

٩٥ - (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ..) :

قيل المراد من عهد الله ؛بيعة رسوله صلى الله عليه وسلم على الإيمان أو هو الآيات الداعية إلى إيجاب المحافظة على العهود والأيمان .

والمعنى : لا تستبدلوا به ولا تعناضوا عنه . (ثَمَنًا قَلِيلًا) : أى لا تأخذوا بمقابل عهده سبحانه عرض الدنيا وزينتها . فإن هذا العرض مهما كثر فى موازينكم فإنه يكون ضئيلا بالنسبة إلى عطاء الله . أو هو عرض يسير فى واقعه وحقيقته فلا يحل لأحد أن يتناوله . ويتخلى عن عهد الله الذى يجب الوفاء به . ويستحق الوفاء به عند الله أجراً عظيماً أما عرض الحياة الدنيا فهو قليل وزائل كما قال تعالى : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى » . ويشار بالثمن القليل إلى ما كانت تعد به قریش ضعفاء المسلمين للارتداد عن الإسلام ، وقال ابن عطية : هذا نهى عن الرشا وأخذ الأموال على ترك ما يجب على الآخذ فعله . أو فعل ما يجب عليه تركه ، وعلى ذلك فالمراد بعهد الله ما يعم ما سبق وغيره .

(إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ) : أى إن الذى عند الله من نصر وتوفيق وثواب أخروى دائم .

(هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) . من هذا الثمن القليل الذى يعدونكم به لإغرائكم بنقض العهود ، أو الذى يصل إليكم عن أى طريق ، فى مُقابل ترك عهد الله والتخلى عنه .

(إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) : أى إن كنتم من أهل العلم والإدراك والفهم . فتدبروا التفاوت البين بين خيرى الدنيا والآخرة . وبين ما عمقته سبحانه وما يرضى عنه .

٩٦- (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ..) :

أى مالدركم من خيرات الدنيا وطيباتها يذهب وينتهى مهما طال به الأمد ، وامتدَّ به الزمن . وكثر منه العدد .

(وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) : فهو يعطيكم من فيض رحمته . وخزائن نعمه التى لانفاد لها ولا فناء لنعيمها فى الدنيا والآخرة . أما حصول ذلك فى الآخرة فظاهر . وأما فى الدنيا فلأن نعيمها موصول بنعيم الآخرة ومستتبع له ، ولهذا الارتباط كان النعيمان من الباقيات الصالحات ، ومن هنا كان التعبير فى الآية بلفظ (باقٍ) أولى من التعبير بلفظ يبقى لإفادة الدوام والاستمرار .

(وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أكد سبحانه النص على منح الصابرين أجرهم الخاص بهم بجملة القسم (وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ) المعبر فيها بنون العظمة ، لحفزهم على قوة الاحتمال والثبات على إيذاء المشركين لهم . والصبر على مشاق التكليف التى تنتظم احتمال الأذى فى سبيل الوفاء بالعهود والبر بالآيمان .

والمعنى : وانجزينَّ الذين صبروا على مشاق التكليف الشرعية ومنها الوفاء بالعهد ، - لنجزينهم - بحسب أحسن أعمالهم . فيكون عطاؤنا لهم جزاء الأدنى من هذه الأعمال كعطاؤنا لهم جزاء الأعلى منها من الأجر الجزيل ، تفضلاً منا وكرماً ، وتلك عِدَّةُ كَرِيمَةٍ بغفران ما قد يعترى صبرهم على مشاق التكليف من تفصير أو قصور ، فإن أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون يقتضى هذا التجاوز والغفران .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾
فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَأَسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطٰنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾)

المفردات :

(حَيَاةً طَيِّبَةً) : يراد بها حياة هنيئة مرضية .
(قَرَأْتَ) : أردت القراءة . (الرَّجِيمِ) : المطرود من رحمة الله .
(سُلْطٰنٌ) : تسلط وقهر . (يَتَوَلَّوْنَهُ) : يتخذونه ولياً يتبعون أمره .

التفسير

٩٧ - (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) :

شروع فی ترغیب المؤمنین جميعاً وحثهم على كل عمل صالح . تدعو إليه شرائع الإسلام وتعاليمه . إثر ترغيب جماعة منهم في الثبات على العهد والاستمساك . بما هم عليه من عمل صالح خالص مهما قدم لهم من المغريات على نكته .

والمعنى : من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى من المكلفين وهو مصدق تمام التصديق بما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . فإن أعمال الكفرة لا اعتداد بها . ولا وزن لها مهما كان فيها من البر . وأوثر الجملة الإسمية في قوله (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) لدالتها على الدوام والاستمرار .
(فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً) : أى فلنعطينه في الدنيا ما تطيب به حياته من كل ما يتطلبه عيشه ، من سعة في المال . وبركة في الصحة والعيال . أو بما وهبنا من قناعة ورضا بما قسم له . وتوقع للأجر العظيم في آخرته . وقيل : هى حياة الآخرة التى تكون في الجنة . لأنها حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر . وصحة بلا سقم . وسعادة بلا شقاوة . أخرج ابن جرير .

وابن المنذر وغيرهما عن الحسن قال : ما تطيب الحياة لِأَحَدٍ إِلَّا فِي الْجَنَّةِ ، وقيل هي حياة البرزخ ففيها يشعر الميت بأنه من أهل السعادة أو من أهل الشقاء ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيز بالله تعالى من عذاب القبر .

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى ولنجزينهم في الآخرة جزاء موافقا لأحسن أعمالهم حسبما نفعل بالصابرين الذين ذكر جزاؤهم في الآية التي سبقت .

وقد ذكر الجزاء هناك خاصا بالصابرين ، وهنا عاما لبيان شموله لكل من يعمل عملا صالحا خالصا لوجه الله . وذلك لا يدع أى مجال لشائبة التكرار بين الآيتين حيث اختلف الغرض المقصود من كل منهما .

٩٨ - (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) :

بعد أن ذكر سبحانه أن أساس الجزاء الموفور هو صلاح العمل واستقامته . جاءت هذه الآية لبيان ما يصان به العمل الصالح ويخلص من شوائب النقص أو الفساد .

والمعنى : فإذا أردت قراءة القرآن فاسأل الله سبحانه أن يعينك ويحفظك من وساوس الشيطان المطرود من رحمة الله ، والأمر بالاستعاذة منه للندب عند جمهور العلماء ، وروى عن الثوري وعطاء أنه للوجوب ، نظراً لظاهر النظم الكريم ، وهو مخالف للمنقول عن جمهور العلماء ، والخطاب عام لكل مسلم يقرأ القرآن الكريم ، وهذا هو الذى يقتضيه السياق ، وقيل إنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتوجيه الخطاب إليه ، على هذا الرأى ، للتنبيه على أنها لغيره صلى الله عليه وسلم أكد ، فإنه صلى الله عليه وسلم مُحَصَّنٌ من الشيطان ، ومع هذا فقد أمر بالاستعاذة منه ، فما ظنك بغيره ، وصيغة الاستعاذة الماثورة هي : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . لتضافر الروايات على أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيز كذلك . وروى عن ابن مسعود أنه قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « يا ابن أم عبد : قُلْ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . هكذا أقرأنيه جبريل عن القلم عن اللوح المحفوظ » روى ذلك الثعالبي والواحدي .

٩٩ - (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) :

أى أنه ليس للشيطان تسلط وتأثير على المؤمنين المتوكلين على الله ربهم ، حيث إن دعوته لهم إلى الشرك والمعاصي غير مستجابة ، ووسوسته لا تؤثر فيهم ، لاعتصامهم بالإيمان المتين ،

وإخلاصهم للعبادة لله رب العالمين ، وتوكلهم عليه وحده في كل ما يعملون وما يتركون ، واستعانتهم به على تحمل مشاق التكاليف ونزغات الشيطان ، أو أنه كما قال الثوري : ليس له عليهم سلطان يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه .

١٠٠ - (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) :

أى ما سلطانه وتأثيره وهيمنته وولايته ؛ إلا على أتباعه الذين يطيعونه ويستجيبون لإغرائه ووسوسته إلى درجة الشرك ، وهم بمعزل في غوايتهم هذه عن القهر والإكراه ، فلو أصرروا على عصيانهم لنجوا من كيده ، حيث يقول جل شأنه حكاية عن إبليس : « وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي » وفي ذلك يقول الله تعالى لإبليس : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ »^(١) .

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾)

المفردات :

(بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ) : جعلناها بدلا منها لإحلال حكم محل آخر .

(مُفْتَرٍ) : مختلق وكاذب . (رُوحُ الْقُدُسِ) : جبريل عليه السلام ، والقدس الظاهر .
(يُلْحِثُونَ إِلَيْهِ) : يميلون إليه من الإلحاد وهو الميل عن القصد . ومنه اللُّحْدُ لميل الشق
فيه إلى الجنب . (أَعْجَبِي) : أى أنه فى نطقه عجمة تتنافى مع الفصاحة القرآنية .

التفسير

١٠١- (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ) :

أى وإذا أنزلنا من القرآن الكريم آية تفيد حكما جديدا ، وجعلناها مكان آية فى
شريعة سابقة تخالفها فى الحكم أو جعلنا معجزة بدل معجزة كانت لنبي سابق .
(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) : على أنبيائه من أحكام أو معجزات ويعلم وجه مناسبتها
لزمانه ، فلكل وقت من الأحكام والآيات مايناسبه ، فما يكون مصلحة فى زمن . قد يكون
مفسدة فى زمن غيره ، وما يكون معجزة لنبي مع قوم بعث إليهم قد لايتناسب مع آخرين
ليحصل به التحدى والإفحام .

وجملة (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) ذكرت اعتراضا بين الشرط والجواب لتوبيخ المشركين
والتنبيه على فساد رأيهم ، لأنهم لو أنصفوا أنفسهم لتركوا أمر ذلك إلى علم الحكيم الخبير .
وحكى سبحانه جرمهم الذى اقترفوه عندما وقع التبديل ، فقال تعالى :

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ) : أى قال الكافرون مخاطبين الصادق الأمين : ما أنت
إلا مُتَقَوِّلٌ على الله مختلق نسبة الأحكام إليه لأنك تنسخ أحكاما جاءت فى الرسالات
السابقة ، مع أنها من عند الله ، ولم يقولوا ذلك عن دراية (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :
شيئا أصلا فهم جهلاء أغبياء أو لا يعلمون أن فى التبديل حكما بالغة .

وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم ، لأن بعضهم كان يعلم يقينا صدق محمد صلى الله عليه
وسلم ، وإنما يصفه بالافتراء مكابرة وعنادا .

١٠٢- (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) :

قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين يصفونك بافتراء القرآن ، قل لهم ليس هذا
القرآن مفتري بل نزله روح القدس جبريل عليك بالحق من ربك الذى يحيطك بآثار
ربوبيته ، نزله عليك ليثبت الذين آمنوا على الإيمان وبعدهم عن ضلال العقيدة ، لما فيه
من الحجج والبراهين المطمئنة للقلوب ، وليثبتهم على التصديق بأن النسخ فيه لمصلحة

البشر . وليهديهم إلى سبيل الرشاد ، ويبشرهم بحسن الجزاء وكريم اللقاء ، وفيه دليل على أن أضداد الصفات المذكورة للمفترزين من الكفار ، فلهم خزي الدنيا وعذاب النار .

وإِطْلَاقَ روح القدس على جبريل عليه السلام ، لأنه ينزل بالقدس أى الطهر من الله ، والمراد به الوحي الذى يظهر النفوس من الجهل والإثم ، وقيل لظهوره من الأدناس البشرية ، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته ، فكأنه قيل : نزل الروح المقدس . . أى المظهر - كما يقال : حاتم الجود . . أى حاتم ذو الجود .

١٠٣ - (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) :

رد من الله سبحانه لفرية خبيثة أثارها كفار مكة حول محمد صلى الله عليه وسلم . حيث قالوا : إنه لا يعلمه هذا القرآن إلا بشر نعرفه ، يريدون به غلاماً أعجمياً كان يقرأ التوراة والإنجيل ورأى فيهما أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وحسن إسلامه بعد أن تحقق من صفات النبوة فيه . ولقد كذبهم الله تعالى في زعمهم هذا بقوله جل شأنه : (لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ) : أى كلام الرجل الذى ينسبون إليه تعليم الرسول ، ويُميلون إليه فريتهم ما هو إلا كلام أعجمى لا يفهمه عربى .

(وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) : أى وهذا القرآن الذى تدعون أن الرسول صلى الله عليه وسلم تعلّمه من أعجمى ، إنما هو كلامٌ عربى بلغ القمة فى البيان والفصاحة والبلاغة ، حتى عجزت العرب عن محاكاته ، وهم على ما هم عليه بلاغة وفصاحة وقوة بيان ، وعذوبة لفظ ، وسلامة قول : بل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لاستبان عجزهم ، وظهر قصورهم ، ولو كان بعضهم لبعض نصيراً ومعيناً ، فكيف تجعلونه من تعليم بشر أعجمى ، وهو لا يمكن أن يصدر إلا عن واهب القوى والقدر جل وعلا .

١٠٤ - (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) :

المراد بالآيات هنا القرآن الكريم ، كما دلت عليه الآيات السابقة .

والمعنى : إن الذين لا يؤمنون بآيات القرآن ولا يصدقون بأنها آيات الله وينسبونها تارة إلى الكذب والافتراء ، وأخرى إلى أنها معلّمة من بشر (لا يهديهم الله) : أى لا يوفقهم إلى طريق النجاة ، لعلمه سبحانه أنهم ليسوا أهلاً لذلك ، لسوء حالهم التابع لسوء اختيارهم .

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : في الآخرة لكفرهم بآيات الله ، وإعراضهم عن هدايه .

١٠٥- (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) :

ردّ لقولهم إنما يعلمه بشر ، ببيان أن الذين ينسبون الافتراء والكذب إلى رسول الله مأمم إلا الذين اعتادوا الكفر بآيات الله وحججه الدالة على وحدانيته ، فلا غرابة في تكذيبهم رسول الله المؤيد بآياته الواضحة في القرآن العظيم الذي أعجز... الجن والإنس ، وظهر لهم عجزهم عن الإتيان بسورة مثله ، وثبت بذلك أنه منزل من عند الله ، فهم بإنكارهم هذه الحقيقة يفترون على الله الكذب ، حيث زعموا أن ما هو كلام الله مفتري عليه ، ولا يجروا على افتراء الكذب وقلب الحقائق إلا الكافرون الذين اعتادوا على تكذيب آيات الله وبراهينه أمثالهم . ويصح أن يكون المعنى : ما يفتري الكذب وينسبه إلى الله إلا الذين لا يصدقون بالبراهين والآيات الدالة عليه سبحانه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس منهم ، فهو أكمل الناس علماً وبره ، وإيماناً بآياته الدالة عليه ، وقد عرفتموه بينكم ودعوتهم بالصادق الأمين ، فكيف يفتري الكذب على الله ، كما نسبتموه إليه زوراً وبهتاناً .

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) : أى أولئك الموصوفون بعدم الإيمان بآيات الله ، هم المتناهون في الكذب ، إذ لا كذب أشنع من تكذيب آيات الله والطعن فيها ، مع وضوح أنها آياته وبراهينه سبحانه وتعالى .

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
 بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ
 وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
 عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ
 الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَتْهُمْ وَأُولَئِكَ
 هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾
 ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا
 إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾)

المفردات :

- (أَكْرَهَ) : أجبر على التلفظ بكلمة الكفر .
 (اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) : آثروها على الآخرة فعملوا لها .
 (طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) : ختم عليها ، والمقصود أنه حال بينها وبين الحق لإصرارها على الكفر .
 (مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) : من طابت به نفسه .
 (لَا جَرَمَ) : لا محالة ، (فُتِنُوا) : امتحنوا وابتلوا .

التفسير

١٠٦ - (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ) :

هذا ابتداء كلام . لبيان حال من كفر بآيات الله بعد إيمانه إثر بيان شأن من جحدتها
 ولم يؤمن بها أصلا .

والمعنى : من جحد وجود الله أو أنكّر دينه الحق من بعد إيمانه ، وسلوكه سبيل المؤمنين فإن الله يغضب عليه ويعذبه عذابا عظيما^(١) . ثم استثنى الله من هذا العقاب من أكره على الكفر بقوله : (إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) : أى إلا من أرغم على الكفر بشئ يخشى منه على نفسه أو على عضو من أعضائه . فكفر . وحاله فى اطمئنان قلبه ، وسلامة عقيدته لم تتغير ، فلم يخالط يقينه أى شك أو تردد فلا يضره هذا الكفر . بل هو فى كنف الله ورعايته . (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) : أى لم يكن مكرها على الكفر . بل أثره واطمأنت إليه نفسه ، وتفتّح له قلبه . وانشرح به صدره (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ) : أى فينزل عليهم ويحل بهم غضب عظيم من الله . لا يدركون كنهه . وقد أشعر إظهار اسمه الجليل فى معرض الوعيد بشدة العذاب لهؤلاء الكافرين المتعمدين للكفر .

وفى سبب نزول هذه الآية روى العوفي عن ابن عباس : أنها نزلت فى عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فوافقهم على ذلك مكرها ، وجاء معتذرا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله هذه الآية . هكذا قال الشعبي وأبو مالك وقتادة ، وفى رواية ابن جرير . فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «كيف تجد قلبك» قال مطمئنا بالإيمان . قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إن عادوا فعد» .

١٠٧ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) :

الإشارة راجعة إلى وعيد من كفر بعد الإيمان . أى ذلك الوعيد السابق . بإنزال الغضب والعذاب العظيم عليهم منه تعالى بسبب إيثارهم الدنيا وزينتها . وتعلقهم بمطامعها ومفاتها وإعراضهم عن الآخرة . إيثاراً للعاجل الفانى . على النعيم الباقى .

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) : أى وذلك الوعيد أيضا بسبب أن الله تعالى لا يهدى القوم الكافرين إلى الإيمان ، على سبيل القهر والإلجاء . لأنه ثبت فى علمه المحيط اختيارهم الكفر على الإيمان وإصرارهم عليه . فلهذا لم يعصمهم من الزيغ . ولا مما يؤدى إليه من إنزال الغضب عليهم . والعذاب العظيم بهم . فمن بعد عن الله بعد الله عنه وأدناه من عقابه . ومن تقرب إلى الله قرب الله منه وأدناه من رحمته .

(١) هذا الجواب الذى قدرناه هنا مستفاد من قوله تعالى فيما سأتى : (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ عَظِيمٌ) ، فحذف من الأول دلالة الثانى عليه .

١٠٨ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ...):

أى أولئك الموصوفون بما ذكرته الآيات السابقة من ألوان الكفر ، وقبائح الأعمال ، ختم الله على قلوبهم فصارت مغلقة لاتقبل الحق . وعلى أسماعهم فلم يعودوا يسمعون سماع فهم وتدبر كأنهم صُم ، وختم على أبصارهم فلا تحسن رؤية ما يحيط بهم من عجائب الكون التى تتحدث بقدرة الخالق ، ووحداية المبدع جل شأنه . (وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) : أى وأولئك هم الغارقون فى الغفلة البالغون غايتها ومنتهىها دون سواهم ، إذ لاغفلة أقوى فى آثارها من الغفلة عن تدبر العواقب الوخيمة ، والتفكير فى المصالح العظيمة .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما . أنه قال : غافلون عما يراد بهم فى الآخرة .

١٠٩ - (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) :

أى لامحالة أنهم هم الخاسرون فى آخرهم ، حيث ضيّعوا أعمارهم فيما لايفيد ، وصرفوها فى اقتراف المعاصى والآثام التى تفضى بهم إلى غضب الله عليهم ، والخلود فى العذاب الأليم ، وكان عليهم أن يتجهوا إلى ماخلقوا له من توحيد الله وعبادته . وإلى كل عمل نافع لهم فى الدنيا والآخرة .

١١٠ - (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا) :

أى ثم إن ربك يا محمد نصير لمن هاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام . من بعد ما فتنهم الكافرون وآذوهم بالعذاب لحملهم على الارتداد ، ثم جاهدوا أنفسهم وصبروا على أذى معذبيهم ، فلم يشكوا ولم يكفروا . بل ظلوا على سلامة عقيدتهم التى يخفونها ويضمرّون التمسك بها .

والآية نزلت فى عمار وخباب ونحوهما ممن أودوا فى سبيل الله .

وقرأ ابن عامر : « مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا » بالبناء للفاعل أى من بعد ما فتنوا غيرهم ، أى من بعد ما عذب المشركون المؤمنين كالحضري أكره مولاه جبراً على الارتداد ثم أسلما وهاجرا . وأصل الفتن إدخال الذهب فى النار لتمييز الجيد من الرديء . ثم أطلق على البلاء وتعذيب الإنسان مجازاً . (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) : إن ربك يا محمد من بعد ما فعلوه من الهجرة والجهاد فى سبيل الله والصبر على المشاق لعظيم المغفرة . يغفر لهم ما أكرهوا عليه من كلمة كفر قالوها ليتقوا بها العذاب . ويغفر لهم غيرها من السيئات - إن ربك من بعد

ذلك - لو اسع المغفرة والرحمة فيفضل بإثابتهم على ما صنعوا من هجرة وجهاد وصبر ، من بعد فنتهم وإيقاع العذاب بهم ، وفي إضافة الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم . إشارة إلى إظهار كمال اللطف به ، والعناية بشأنه ، مع الإشعار بأن إفاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة ببركته عليه الصلاة والسلام لكونهم أتباعاً له صلوات الله عليه وسلامه .

(* يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾)

المفردات :

(تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا) : أى تدافع عن ذاتها بالاعتذار .

التفسير

١١١ - (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ...) الآية .

لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة طرفاً مجملاً من طغيان المشركين ، وقسوتهم في تعذيب الضعفاء من المؤمنين - عقب ذلك بذكر الحساب على الأعمال : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »^(١) ودفاع كل إنسان عن نفسه ، وأن كل مكلف ينال جزاء ما عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر . والمعنى : اذكر أيها المكلف من الناس - اذكر اليوم الذى تجيء فيه كل نفس تدافع عن ذاتها وتعتذر بشتى المعاذير جاهدة في خلاصها ، لا يشغلها إلا شأنها من شدة الكرب الذى يحيط بها ، حتى تفر من أقرب الأقربين إليها ، كما قال الله جل شأنه : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »^(٢) .

ومن هول الكرب فى ذلك اليوم ، يقسم المشركون كاذبين ، يقولون : « وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ »^(٣) ويتبرأ المشبوعون والتابعون بعضهم من بعض ، كما قال جل سلطانه : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ

(٢) سورة عبس : الآيات : ٢٤ - ٢٧

(١) سورة المطففين : الآية : ٦

(٣) سورة الأنعام ، من الآية : ٢٣

اتَّبِعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١﴾

(وَتُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ) :

أى ويعطى الله تعالى فى ذلك اليوم العظيم كل نفس جزاء الذى عملته . وافيًا غير منقوص « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (٢)

وضمير الجمع فى قوله عز من قائل : (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) : عائد على كل نفس . أى وكل النفوس التى يجزيها الله يوم القيامة لا يظلمون بزيادة فى العقاب . ولا ينقص فى الثواب ، ولا تعاقب نفس ما بغير ذنب ، ذلك لأن الذى يتولى الجزاء يومئذ ، هو الحكم العدل اللطيف الخبير ، الذى يقول وقوله الحق : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » (٣)

وبالجملة فقد ختمت الآية بقوله سبحانه : (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) لتأكيد عدالة الله مع المقصرين فى عبادته وغيرهم ، فكل يأخذ جزاءه عادلا ، ويضاعف أجر حسناته حسب كيفية أدائها ، ويجازى على سيئاته بمثلها .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾)

المفردات :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا) : المثل فى هذه الآية ونظائرها ، الحال أو القصة التى لها شأن وفيها

غربة . وضرب المثل ذكره للاعتبار به .

(٢) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

(١) سورة البقرة ، الآيتان : ١٦٦ - ١٦٧

(٣) سورة النساء ، الآية : ٤٠

(قَرْيَةً) : المراد أهل قرية . (رَغَدًا) : واسعاً سهلاً .

التفسير

١١٢- (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ...):

أشار الفخر الرازي في ربط هذه الآية بما قبلها بقوله : اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة هددهم أيضاً ببعض آفات الدنيا ، وهي إصابتهم بالجوع والخوف كما ذكره في هذه الآية : اهـ

ولما كان هذا المثل ينطبق على أهل مكة ، ذهب كثير من المفسرين إلى أن القرية في الآية الكريمة هي مكة ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال ابن كثير : هذا مثلٌ أُريد به أهل مكة فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ، وكان يجبى إليها من ثمرات كل شئ فكفرت بأنعم الله وأعظمها بعثة محمد إليهم ، فعوقبت بالجوع والخوف : اهـ . بتصرف . ويشارك أهل مكة في انطباق المثل عليهم كل من حذا حذوهم وسار سيرتهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكفى بالقرآن حجة بالغة . وعظة ناطقة .

والمعنى : وجعل الله تعالى مثلاً قرية كانت ذات أمن وسلامة من كل مخوف ، لا يزعج أهلها أحدٌ بإغارة أو اعتداء عليها ، وكانت (مُطْمَئِنَّةٌ) : ساكنة قارة . لا يزعج أهلها مزعج ، ولا يرتحل عنها أحد بسبب جوع أو خوف . يسوق الله إليها أقواتها واسعة سهلة من كل بلد ، وتحمل إليها من كل مكان براً وبحراً^(١) .

(فَكَفَّرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) :

أى جحد أهل هذه القرية نعم الله عليهم فقابلوها بالكفر بدل الشكر ، وبالمعصية بدل الطاعة فعاقبهم الله بعقاب من الجوع والخوف تمكن منهم ، وأحاط بهم إحاطة اللباس بلباسه ، بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والمعاصي .

والتعبير عن سيئاتهم بقوله سبحانه : (بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) . للإيذان بأن كفران النعم صار صناعة لهم وخلقاً راسخاً فيهم .

(١) والتعبير عن هذه الصيغة بالفعل المضارع (يأتيها رزقها) لإفادة أن أرزاقها متجددة وأما كونها آمنة مطمئنة ، فهو ثابت مستمر ، فلذا عبر عنه بالاسم المفيد للدوام والاستمرار .

ومن تنمة المثل قوله تعالى :

١١٣ - (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) :

فقد جرى به لبيان أن ما صنعه أهل تلك القرية من الكفر بأنعمه سبحانه ، لم يكن امتهاناً للعقل وتحقيراً له فقط ، بل كان كذلك معارضة لرسولهم ، أي ولقد جاء أهل تلك القرية رسول من أنفسهم ، هم أدري الناس بأصله ونسبه وخلقه ، يخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وينذرهم سوء عاقبتهم إن لم يقلعوا عن الكفر والمعصية ، ففاجأوه بالتكذيب من غير ترو ولا تدبر ، ثم استمروا في كفرهم وعنادهم إلى أن حل بهم عذاب الله بالجوع والخوف وهم متلبسون بالظلم واغلون فيه .

وترتيب أخذ العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى ، وهي أنه لا يعذب من كفر به حتى يبعث إليهم رسولا يحذرهم عاقبة كفرهم ، ويرشدهم إلى آيات ربهم وفي ذلك يقول الله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » ^(١) .

ولقد تم المثل بعذاب القرية الظالمة ، وظهر جلياً أن حال أهل مكة أشبه بحال تلك القرية ، في السوء واستحقاق العذاب ، فقد كانوا في حرم آمن ، ويُتَخَطَّفُ الناس من حولهم ولا يمر ببالهم طيف من الخوف والفرع ، وكانت تجبي إليهم فيه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه سبحانه . استجابة لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام ، إذ قال : « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » ^(٢) .

ولقد جاءهم رسول من أنفسهم هو أعظم الناس خلقاً وأكرمهم معدناً ونبلاً ، نشأ بينهم زكياً نقياً حتى سموه الأمين ، قبل أن يرسله ربه رحمة للعالمين .

دعاهم رسول الله إلى الله ، وأنذرهم . وحذرهم : ولكنهم آذوه وكذبوه ، واستمروا في تكذيبهم عناداً وكبراً ، حتى أخرجوه وأصحابه من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . هنالك انتقم الله منهم واستجاب دعاء نبيه فيهم إذ قال : « اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبِيعِ يَوْسُفَ » : فأصابتهم سنة أكلوا فيها العظام والميتة ، وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع والجهد ^(٣) .

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ١٢٦

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ١٥

(٣) اقتباس من حديث البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، في تفسير سورة الدخان .

(فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ
 اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ
 وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ
 وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾)

المفردات :

(وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) : أى وما ذكر اسم غير الله تعالى عليه ، وُسِّمى الذكر على
 الذبيحة إهلالاً لأنهم كانوا يرفعون به أصواتهم .
 (غَيْرَ بَاغٍ) : أى غير ظالم لغيره .
 (وَلَا عَادٍ) : ولا متجاوز ما يسد زمقه ويدفع جوعه .

التفسير

١١٤ - (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا . . .) الآية .

الظاهر أن الخطاب فى هذه الآية لمن ضرب لهم المثل من كفار مكة وأمثالهم كما قدمنا ،
 لأنه هو الذى يقتضيه النظم الكريم ، فهو مفرع على التمثيل السابق ، وصاد لهم عما يؤدى
 إلى مثل عاقبته .

والمعنى : وإذ تبين لكم حال من كفر بأنعم الله وكذب رسوله ، وما حل بهم - بسبب
 ذلك من العذاب فانتهوا عما أنتم عليه من الكفر والتكذيب ، والتحليل والتحريم بأهوائكم ،
 وكلوا مما رزقكم الله فى أرضه من الأنعام والمحار حال كونه حلالاً لا حرمة فيه ولا إثم ،
 طيباً لا تعافه النفوس الكريمة .

(وَأَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ) : بطاعته وطاعة رسوله .

والفاء فى المعنى داخلة على الأمر بالشكر ، وإنما أدخلت على الأمر بالأكل ، لأن الأكل
 وسيلة إلى الشكر فكانه قيل : فاشكروا نعمة الله عقب أكلها ، واعرفوا لها حقها ، ولا تقابلوها
 بالمعصية والكفران .

(إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) :

أى إن كنتم تعبدون الله كما تزعمون ، فأطيعوه فيما أمركم به ، واجتنبوا ما نهاكم عنه ، ولا تحرموا ما أحل الله لكم ، ولا تفتروا على الله الكذب بتحريم البحائر والسوائب ونحوها .
وقيل إن الخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين ، وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وعليه اقتصر ابن كثير .

ومعنى الآية على أن الخطاب فيها للمؤمنين خاصة :

وإذ تبين لكم أيها المؤمنون حال من ضرب لهم المثل من الكفار وما انتهوا إليه . فاسلكوا أنتم سبيل الشكر ، واكلوا مما رزقكم الله وجعله لكم حلالاً طيباً ، ولا تحرموه على أنفسكم ، واشكروا نعم الله عليكم بطاعته وطاعة رسوله ، إن كنتم تخلصون الله ربكم بالعبادة ، كما هو مقتضى إيمانكم به وحده .

ويجوز أن يكون الخطاب فى الآية الكريمة للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم . فيشمل القولين السابقين ، وهو مناسب لقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » (١) .

ولعل هذا هو مراد شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى إذ قال : يقول تعالى ذكره : (فاكلوا أيها الناس مما رزقكم الله من بهائم الأنعام التى أحلها لكم - كلوه - حلالاً طيباً مذكى بريئاً من الإثم ، واشكروا الله على نعمه التى أنعم بها عليكم ، من ذلك ومن غيره من النعم : إن كنتم تعبدون الله وحده فأطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه) أى بتصرف يسير .

ولما أمرهم الله تبارك وتعالى أن يأكلوا مما أحل لهم من رزقه ، فاسب أن يبين لهم ما حرم عليهم ليعلموا أن ما عداه حلال طيب ، وأن التحليل والتحريم بأمره سبحانه لا بأهوائهم فقال :

١١٥ - (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ...) الآية .
 أى ما حرم الله عليكم من المطعومات إلا هذه الأصناف الأربعة ، التى حرمها لمصلحتكم ديناً ودنيا :

أولها : (الْمَيْتَةُ) على أى نحو كان موتها ، وهى كل ما لم يُذَكَّ ذكاة شرعية .
 ويستثنى من الميتة السمك والجراد فقد أحلت ميتتهما ، لما أخرجه ابن ماجه والحاكم وغيرهما من حديث ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعاً : (أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال) .

وثانيها : (الدَّم) والمراد به الدم المسفوح ، كما جاء صريحاً فى قوله تعالى : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ^(١) » .
 وإنما حرم الدم المسفوح : لأنه يحتوى على جراثيم الأمراض ، ويسرع إليه الفساد ، بخلاف المعقود وهو الكبد والطحال ، ولذا يحل أكله إذا كان من حيوان مذكى .

وثالثها : (لَحْمُ الْخِنْزِيرِ) فإنه قدر ، وأشهى الغذاء إليه القاذورات والنجاسات ، وهو ضار فى جميع الأقاليم ولا سيما الحارة منها . وأكل لحمه من أسباب الدودة الشريطية الفتاكة : ومثل لحمه شحمه وغضاريفه فإن جميع أجزائه قدر نجس ولو ذبح .

ورابع هذه المحرمات : (مَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) أى ما ذكر اسم غير الله تعالى عليه .
 حرمت الثلاثة الأولى لخبث ذاتها ، وحرم ما ذكر اسم غير الله تعالى عليه لخبثه معنى ، فقد ذكر عليه عند ذبحه اسم غير خالقه المنعم به .

والمراد بغير الله تعالى : ما يشمل الأصنام وغيرها من المعبودات .
 وذهب جماعة من التابعين وأهل العلم ، إلى أن المراد بما أهّل لغير الله به : ما ذبح للأصنام ، لا ما ذكر عليه اسم المسيح أو عزيز ، لقوله تعالى فى سورة المائدة - وهى من آخر السور نزولاً - : « وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ » . فالمراد بطعام الذين أوتوا الكتاب : ذبائحهم ، كما روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أما مطلق الطعام كالخبز والفاكهة فإنه يحل من أى كافر كان بالإجماع . قال الآلوسى فى تفسيرها :

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٤٥ . والدم المسفوح هو المصبوب السائل من الحيوان .

واختلف العلماء في حل ذبيحة اليهودى والنصراني إذا ذكر عليها اسم عزيز والمسيح ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما : لا تحل ، وهو قول ربيعة ؛ وذهب أكثر أهل العلم إلى أنها تحل ، وهو قول الشعبي وعطاء ، قالوا : فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو أعلم بما يقولون ؛ وقال الحسن : إذا ذبح اليهودى والنصراني فذكر اسم غير الله تعالى وأنت تسمع فلا تأكل ، فإذا غاب عنك فكل ، فقد أحل الله تعالى لك . ١ هـ .

وإلى هذا الرأى نذهب . فلا نرى أكل ما علمنا أن اسم غير الله ذكر عليه عند ذبحه ، ولو كان الذابح كتابياً . وهذه المحرمات الأربع المحصورة في هذه الآية . هى نفسها المحصورة في آية البقرة وفي آية الأنعام . وأما ما زاد على هذه الأربع في قوله تعالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ . . . » الآية ^(١) فإنه مذكور فيها فالمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية . والنطيحة . وما أكل السبع - داخلة في الميتة ، وما ذبح على النصب داخل فيما أهل لغير الله به .

وبهذا تبين أنه تعالى حصر المحرمات - في الأصناف الأربعة - في هذه السور الأربع : في العهد النبوى الكريم مكينة ومدنية ؛ فإن سورتي الأنعام والنحل مكيّتان ، وسورتي البقرة والمائدة مدنيتان . والمائدة من آخر ما نزل . وفي إعادة البيان قطع للأعذار ، وإزالة للشبهة .

(فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) :

أى فمن دعت الضرورة الملحة إلى تناول شيء من هذه المحرمات ، غير ظالم لمضطر آخر ، ولا متجاوز قدر الضرورة وسد الرمق ^(٢) . فإن الله واسع الغفران ، شامل الرحمة ، فلهذا يرفع عنه الإثم لاضطراره ويرحمه ولا يعاقبه - وقد صرحت آية البقرة برفع الإثم في مثل هذه الحالة . وذلك في قوله تعالى : « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ، وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » ^(٣) .

هذا ، واستدل بالآية الكريمة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، على اعتبار أن الآية خطاب لجميع المكلفين : مسلمين وكافرين .

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٣

(٢) أجاز مالك للمضطر إلى أكل الميتة أن يشبع منها ولا يقتصر على ما يسد به رمقه .

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٧٣

(وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾)

المفردات :

(لَا يُفْلِحُونَ) : أى لا يفوزون بمحبوب ، ولا ينجون من مكروه .

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ) : أى انتفاع قليل لا يدوم .

التفسير

١١٦ - (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ . . .) الآية . لما حصر الله تبارك وتعالى المحرمات فى الأصناف الأربعة التى ذكرت فى الآيات السابقة جاء بهذه الآية لتأكيد ذلك الحصر بالنهى عن التحريم والتحليل بالأهواء .

والمعنى : ولا تقولوا فى شأن الذى تصفه ألسنتكم من البهائم - لا تقولوا الكذب فى شأن حل أكلها وحرمة ، كقولكم - فيها حكاه الله عنكم - : « مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ »^(١) : وغير ذلك من أقاويلكم الباطلة التى لا دليل لكم عليها فى وحى الله وشرعه ، ولكنها ناشئة عن الهوى والكذب على الله عز وجل .

أو المعنى : ولا تقولوا فى شأن البهائم هذا حلال وهذا حرام عند الله ، لكى تصف ألسنتكم الكذب بذلك القول ، فإنه دعوى من غير حجة ولا بينة ، فإذا حكته ألسنتكم فقد صورت الكذب بصورته وأوضحته على حقيقته .

وقوله تعالى : (لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) : معناه أن قولكم : هذا حلال وهذا حرام ، بدون حق ، عاقبته أنكم تفترون على الله الكذب ، وتقولون عليه ما لم يقل . وتلك كبيرة الكبائر .

وخلاصة المعنى : لا تقولوا في شأن الذبائح والأطعمة برأيكم تحلون وتحرمون دون علم أو وحى ، فإن قولكم هذا هو الكذب ؛ إذ لا سند له ولا دليل عليه .

ثم تواعد المفتريين على الله الكذب عامة فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) : أى لا يفوزون بخير في الدنيا ولا في الآخرة ، اللهم إلا بانتفاع قليل زائل في هذه الدنيا الفانية ، كما قال تعالى :

١١٧ - (مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى متاعهم في هذه الدنيا بنعيمها وزخرفها متاع ضئيل زائل لا يعتد به ، ولهم في الآخرة عذاب شديد الإيلام ، كما قال سبحانه : « قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » ^(١) .

ويدخل في هذا الوعيد الشديد كل من أحل ما حرم الله ، أو حرم ما أحل الله ، بمجرد رأيه وهواه . ومن هنا كره كثير من السلف - ومنهم مالك - أن يقول المفتى : هذا حلال وهذا حرام في المسائل الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما نص الله تعالى عليه ، أو رسوله صلى الله عليه وسلم . ويقال في المسائل الاجتهادية : إني أكره كذا وكذا ، أو نحو ذلك ، فهو أبعد من أن يكون فيه توهم الافتراء على الله عز وجل .

قال ابن كثير : ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعى . ا هـ .

وعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌ » رواه الشيخان ، وفي رواية لمسلم : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌ » أى فائضه عليه . وعمله مردود عليه .

ثم يبين الله تعالى ما حرمه على اليهود دون غيرهم فقال سبحانه :

(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ
وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾)

المفردات :

(هَادُوا) : أى اعتنقوا اليهودية ودانوا بها .

التفسير

١١٨ - (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ . . .) الآية .

والمعنى : وعلى أمة اليهود خاصة دون سائر الأمم . حرّمنا ما قصصناه عليك أيها الرسول ، من قبل نزول هذه الآية ؛ وذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ »^(١) . وقوله تعالى فى سورة النساء : « فَيَظْلِمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا »^(٢) .

دلت الآيتان فى سورتي الأنعام والنساء كمالاً نبيّهت إليها هذه الآية من سورة النحل ، على أن هذا التحريم إنما كان بسبب ظلمهم وعصيانهم . وكانوا يقولون : لسنا أول من حرّم عليهم هذه الطيبات ، وإنما كانت محرّمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر إلينا ، فكذبهم الله تعالى .

وقد نفى سبحانه ظلمه إياهم ؛ لأنّه هو الحكم العدل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، وصدق الله إذ يقول :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ) : بذلك التحريم الذى كانوا بهم السبب فيه .

(وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : حيث جنّوا عليها بالكفر والمعاصي ، فعوقبوا دون

سواهم بالحرمان من الطيبات بسبب ظلمهم لأنفسهم .

وفى الآية تنبيه على أن التحريم كما يكون دفعاً للمضرة ، يكون للعقوبة .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (١١٩)

المفردات :

(السُّوء) : لفظ جامع لكل قبيح ؛ من كفر ومعصية وإيذاء ويشمل الافتراء على الله عز وجل .

(بِجَهَالَةٍ) : أى بسوء معرفة بالله تعالى وشديد عقابه ؛ أو بطيش وغفلة وسفه .

التفسير

١١٩ - (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ...) .

لما هدد الله تعالى المشركين بالعقوبة على قبائحهم من ضروب الكفر والمعصية ، بين في هذه الآية أن قبائحهم - وإن عظمت وطال أمدها - لا تحول دون قبول التوبة منهم والفوز بمغفرته ورحمته سبحانه إذا رجعوا إليه وأنابوا وأصلحوا .

والمعنى : ثم إن ربك يا محمد للذين عملوا القبائح بجهالة وسوء معرفة بالله تعالى وشديد عقابه ؛ أو غير متدبرين في العواقب ، لغلبة الشهوة والغفلة عليهم ؛ ثم أقبلوا عن سوء ما عملوه تائبين نادمين ، وأصلحوا أعمالهم واستقاموا على التوبة .

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) :

أى إن ربك يا محمد من بعد التوبة عن عمل السوء مع الإقبال على الصلاح - إن ربك من بعد ذلك لعظيم المغفرة للتائبين المصلحين ، واسع الرحمة بهم ، يثيبهم على الطاعة فعلا وتركا ، فضلا منه وإحسانا .

وتكرير قوله : « إِنَّ رَبَّكَ » لزيادة تأكيد الوعد ، وإظهار كمال العناية بإنجازه ، ولترغيب في التوبة النصوح الصادقة ، فهي التى يتقبلها الله عن عباده ، وفى إضافة لفظ

(رب) إلى ضميره صلى الله عليه وسلم إشارة كريمة إلى كمال اللطف به صلى الله عليه وسلم ،
ثم بالتائبين الصادقين . حيث تشير إلى أنه تعالى أكرمهم بسببه ، لأنهم من أتباعه .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ
الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾)

المفردات :

(كَانَ أُمَّةً) : الأمة ؛ الجماعة الكثيرة ، والمراد أنه كان بمنزلة أمة في الإيمان بالله وعبادته
حيث كان رائد التوحيد في أمة مشركة ولم تكن له قناة .
(قَانِتًا لِلَّهِ) : أى مطيعاً خاضعاً لله سبحانه وتعالى ، من القنوت وهو الطاعة مع
الخضوع ،

(حَنِيفًا) : أى مائلاً عن الباطل إلى الحق ، من الحنيف وهو الميل .

(اجْتَبَاهُ) : أى اختاره واصطفاه .

التفسير

١٢٠ - (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

لما أبطل الله تعالى في هذه السورة مذاهب المشركين : من ادعائهم الأنداد والشركاء له
سبحانه وتعالى ، وطعنهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإفترائهم الكذب على الله في

التحليل والتحريم ، مع قولهم نحن على ملة أبينا إبراهيم ، جاءت هذه الآية للثناء على إبراهيم ووصفه بصفات تدل دلالة قاطعة على أنه عليه السلام ، برىء من الشرك والمشركون وأنهم أعق الأبناء لأكرم الآباء .

والمعنى : إن إبراهيم كان أمة أى بمنزلة جماعة عظيمة فى الإيمان بالله وحده والإخلاص له فى العبادة . قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان عنده من الخير ما كان عند أمة . ١ هـ : وذلك لاستجماعه من الخيرات والفضائل مالا يكاد يوجد إلا متفرقا فى أمة عظيمة .

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

فهو إمام الموحدين . وقدوة أهل اليقين ، نصب أدلة التوحيد ورفع أعلامه ، وخفض رايات الشرك وحطّم أصنامهم ، وبذل نفسه وأسلم وجهه لله رب العالمين . وقال مجاهد : سمى عليه السلام أمة ، لانفراده بالإيمان فى وقته مدة ما . وفى صحيح البخارى ومسلم أنه قال لامرأته : يا سارة ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ...

(قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى مطيعاً لله سبحانه ، مائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق غير زائل عنه . (وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) فى أمر من أمور دينهم ، صرح بذلك مع ظهوره للرد على كفار قريش فى قولهم : نحن على ملة أبينا إبراهيم ؛ وزعمهم أنه عليه السلام كان على ما هم عليه .

١٢١ - (شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ..) :

أى كان إبراهيم عليه السلام شاكراً لنعم ربه كلها عليه ، لم يخل بشكر نعمة منها قولاً أو عملاً . وفى هذا تعريف بالمشركين ، وإيذان بأنهم فى شركهم بالله وإسنادهم النعم لشركائهم ليسوا على منهاج أبيهم إبراهيم عليه السلام .

(اجْتَنِبَاهُ وَهَذَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) :

أى اختاره ربه واصطفاه ، وهده إلى الطريق الموصل إليه سبحانه وهو الإسلام : دين الله الذى أرسل به جميع رسله قال تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » ^(١) . وقال سبحانه : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » ^(٢)

وإجتباء الله للعبد : تخصيصه إياه بفيض إلهى يحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى ولا اجتهاد ، ويكون للأنبياء عليهم الصلاة والسلام خاصة ؛ وقيل يكون لهم ولن على سنتهم من الصديقين .

وهداية الله لإبراهيم عليه السلام ، كان لها أثران عظيمان : أحدهما فى نفسه ، والثانى فى قومه ، حيث دعاهم إلى دين الله وأرشدهم إلى آيات ربه .

١٢٢ - (وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً . .) الآية .

أى أعطيناه فى الدنيا نعمة حسنة إذ جعلناه قدوة لجميع أهل الأديان السملوية ، وأورثناه ثناءهم عليه وحب الانتساب إليه ، تحقيقاً لدعائه عليه السلام إذ قال : « وَاجْعَلْ لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » ^(٣) . وللعلماء أقوال فى تفسير الحسنة التى أعطاها الله خليله إبراهيم فى الدنيا فعن الحسن - أنها النبوة وقيل هى الأولاد الأبرار على الكبر ، والمال الكثير ينفقه فى وجوه الخير والبر ، والعمر الطويل فى السعة والطاعة ؛ وقد من الله عليه بكل ذلك فى الدنيا .

والانتقال إلى ضمير المتكلم فى قوله سبحانه : (وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) . لإظهار الاعتناء بشأنه ، وتفخيم مكانه عليه السلام .

(وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) :

أى داخل فى عداد إخوانه المرسلين ، الكاملين فى الصلاح ، ذوى الدرجات العلا ، تحقيقاً لدعوته إذ قال : « رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » ^(٤) .

(٢) الشورى ، من الآية : ١٣

(٤) الشعراء ، الآية : ٨٣

(١) آل عمران ، مع الآية : ١٩

(٣) الشعراء ، الآية : ٨٤

ولما أثنى الله على خليله هذا الثناء العظيم ، قال لخاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم :
 ١٢٣ - (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

وملة إبراهيم عليه السلام ، هي الإسلام المعبر عنه آنفاً بالصراط المستقيم ، والمقصود بها : العقائد وأصول شريعته ، فمحمد صلى الله عليه وسلم مأمور باتباعها دون فروعها فإنها خاصة بأمة إبراهيم عليه السلام ، وكل رسالة تشترك مع غيرها في العقائد والأصول العامة ، وتختص بفروع من الشريعة تناسب عصرها واستعدادها . وذلك هو المقصود بقوله تعالى :
 « لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » ^(١) .

وقوله تعالى : (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) تكرير لما سبق من قوله : « وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » لزيادة التوكيد والتقرير . ولتنزيهه عليه السلام عما كانوا عليه من عقائد الشرك والضلal المبين .

(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) ^(١٢٤))

المفردات :

(جُعِلَ السَّبْتُ) : المراد ؛ فرض تعظيم يوم السبت وتقديسه .

التفسير

١٢٤ - (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ...) الآية .

كان اليهود يزعمون أن تعظيم يوم السبت والتخلي للعبادة فيه من شعائر ملة إبراهيم عليه السلام ، وأنه كان من المحافظين عليه - فكذبهم الله تعالى ، وبين أنه لم يشرع ذلك

التعظيم إلا لبني إسرائيل في رسالة موسى ، بعد إبراهيم عليهما السلام بمدة طويلة كما -
سيأتي بيانه .

والمعنى : ما فرض الله تعالى تقديس يوم السبت بالتخلي للعبادة فيه ، إلا على الذين
اختلفوا في تقديسه على نبيهم ، حيث أمرهم بتعظيم الجمعة فاختلفوا السبت ، وهم اليهود ،
أخرج الشافعي في الأم ، والشيخان في الصحيحين - واللفظ للبخاري - عن أبي هريرة رضي
الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ،
بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ^(١) ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا
الله له . فالتاس لنا فيه تبع : اليهود غداً والنصارى بعد غد » .

وقيل إن موسى عليه السلام لما جاءهم بتعظيم الجمعة اختلفوا فيما بينهم ، فلبي أكثرهم
إلا السبت . وقالوا إنه اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض ، ورضيت
شرذمة منهم بالجمعة ، فأذن الله تعالى لهم بالسبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه ، وهكذا
شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ..

وقد أطاع فريق منهم فكانوا لا يصيدون يوم السبت ، وعصى أكثرهم فكانوا يصيدون
فيه ، فأبغضهم الله ولعنهم . وجعلهم في حصة القردة . قال تعالى : « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ
اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ^(٢) » . وقال سبحانه : « فَلَمَّا عَتَوْا
عَمَّا نُهَوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ^(٣) »

(١) في إحدى روايات الشيخين زيادة (وأوتينا من بعدهم) والحديث رواه النسائي أيضا .

(٢) البقرة ، الآية : ٦٥ .

(٣) الأعراف ، الآية : ١٦٦ وقد قدمنا في بيان المراد من قوله تعالى « كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » أنه إما على الحقيقة
وإن الله تعالى حولهم قردة وإما أنه مجاز عن مسخ قلوبهم وصرفها عن الخير . راجع الوسيط في تفسير الآية ٦٥ من سورة
البقرة ، ط ثانية .

ثم جاء عيسى عليه السلام بتعظيم الجمعة كذلك ، فاختلف عليه النصارى ، وأبوا إلا الأحد ، ومكأنهم إنما اختاروه لأنه مبدأ الخلق عندهم .

ثم جاء بتعظيم يوم الجمعة خاتم النبيين - صلوات الله وسلامه عليهم - لخير أمة أخرجت للناس ، فهذاهم الله له . ففازوا بفضيلته ، وحمام الله تبارك وتعالى من الاختلاف فيه ، والله سبحانه الحميد والمنة .

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَبْحُكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح للخطاب ؛ أى وإن ربك سيقضى يوم الجزاء الحق بين المختلفين على نبيهم ، أو المختلفين فيما بينهم ، فيجازى كل ما يستحقه من الثواب والعقاب .

(أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (١٢٥)

المفردات :

(سَبِيلِ رَبِّكَ) : أى طريق ربك الموصل إلى مرضاته ، وهو الإسلام .

(بِالْحُكْمَةِ) : أى بالمقالة الحكيمة وهى الحجة الموصلة لليقين .

(الْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ) : أى النصيحة الجميلة المشتملة على الترغيب فى الحق والترهيب من الباطل .

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) : أى وراجعهم بالطريقة التى هى أحسن فى إظهار الحق .

التفسير

١٢٥ - (اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...) :

. بعد أن أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم حنيفاً - بين له في هذه الآية طريق الدعوة إليها .

والمعنى : ادع أيها الرسول جميع المكلفين الذين بعثت إليهم . ادعهم إلى الإسلام . بالحجج الزيلة. للشبهة ، الموصلة إلى اليقين ، وبالنصائح الجميلة المرغبة في الحق والخير ، المنفردة من الباطل والشر ، ومن جادلهم منهم فجادلهم بأحسن طرق المراجعة والمجادلة ، أى باللين والرفق ، كما راجع إبراهيم أباه وقومه ، وكما حاج الطاغية الذي آتاه الله الملك ^(١) .

وإنما لم يقل : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ولموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن لأن الجدال ليس طريقاً أصيلاً في الدعوة إلى الله عز وجل ، وإنما يكون عند المراجعة والمحاورة بقصد إظهار الحق والرجوع إليه والطمأنينة به ، لا لقصد إفحام الخصم وغلبته ، كما يتبع ذلك بين أهل الجدال والخصومة .

ذلك بأن منهج القرآن الحكيم في دعوته وهدايته ، قائم على الحجج القاطعة ، والنصائح الرشيدة الهادية ، في كل مادعا إليه ، وما جاء به .. من وحدانيته تعالى وقدرته ، وبعثه الناس ليوم لا ريب فيه « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » ^(٢) .

سبحته الله تعالى في سببنا له

(١) إشارة إلى الآية الكريمة رقم ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٢) سورة الأنعام الآية رقم ١٢٨ .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) :

هذا إعلام من الله تبارك وتعالى ، بأن ليس على الرسول إلا البلاغ بالطريقة التي بينها له ، فأما ما وراء ذلك من حصول الهدى والضلال ، والجزاء عليهما ، فيألى الله تعالى وحده ، فإنه هو العليم بمن يبقى على الضلال ، وهو العليم بمن يهتدى إلى ربه ، فيجازى كلا بما يستحقه ، طبقاً لما اختاره لنفسه .

وتقديم الضالين في قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) لأن الكلام فيهم . وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث ، لأن الضلال تغيير لفطرة الله التي فطر الناس عليها ، وذلك أمر عارض ، بخلاف الاهتداء فإنه ثابت على الفطرة ، فلذا جرى به على صيغة الاسم المنبئ عن الثبات ، ولا يخفى ما في التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضيره صلى الله عليه وسلم ، من اللطف والعناية .

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۚ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾)

التفسير

١٢٦ - (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ..) الآية .

سبب النزول :

عن أبي بن كعب رضى الله عنه قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة رضى الله عنه ، فمثلوا بهم . فقالت

الأنصار: لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربينَّ عليهم في التمثيل ، فلما كان يوم الفتح نزل: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوْفَيْتُمْ بِهِ) الآية . فقال رجل .. لا قريش بعد اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كفوا عن القوم إلا أربعة .. أخرجه الترمذى .

وفي رواية عن أبي أيضا .. » ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . نصبر ولا نعاقب « والآية - بناءً على هذا السبب نزلت .. في فتح مكة . وتسمى مدينة على الأرجح وهو أن كل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني وإن نزل بمكة وقال القرطبي : وتبعه الألوسي : أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية لما شق على المسلمين مارأوا من تمثيل المشركين بقتلاهم . في غزوة أحد فتوعدوهم بأزيد مما فعلوا ، إذا ظفروا بهم !! وقال النحاس : إنها مكية ، والمعنى متصل بما قبلها من المكي اتصالاً حسناً ، ثم قال القرطبي : ولكن ما قاله الجمهور من أنها مدنية أثبت ، وساق حديثاً رواه الدارقطني عن ابن عباس مؤيداً لما ذهب إليه الجمهور من مدنيتهما .

وسواء أكانت هذه الآية الكريمة مكية أم مدنية . وسواء أصبح نزولها في شأن التمثيل بحمزة أم لم يصح . فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ..

ووجه اتصال هذه الآية بقوله تعالى قبلها : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ » الآية . أن الدعوة إلى الله سبحانه لاتكاد تخلو من مخاصمة الأعداء . . ومقابلتهم لها بالعداوة والإيذاء . لأنها تتضمن رفض عقائدهم الباطلة الموروثة ، ونبذ عاداتهم السيئة الموروثة ، ولما كان هذا شديداً عليهم وباعثاً لهم على الخصومة الشديدة ، فلهذا أمر الله تعالى نبيه وأصحابه أن يقابلوا إساءتهم بمثلها إن أرادوا عقابهم عليها - والمعنى : وإن أردتم أيها المؤمنون عقاب من يصدكم عن دين الله . ويعتدى عليكم وأنتم تدعون إلى سبيل الله ، فعاقبوه بمثل ما فعل بكم . وما ناله منكم ، ولا تجاوزوا هذا المثل بحال ، كما قال سبحانه : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » ^(١) وليس ما فعله العدو أولاً

عقابا ولكن العقاب هو الثاني ، لأنه هو الذى يرد به المسلمون عدوان العدو ، عقاباً له ودفاعاً عن دينهم وأنفسهم ، وإنما سمي اعتداء العدو عقاباً من باب مماثلة الكلام ومشاكلته . .^(١)
كما سمي جزاء الاعتداء اعتداءً في قوله تعالى : « فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ »^(٢) وكما سمي جزاء السيئة سيئة في قوله سبحانه : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »^(٣) .

ولم يقتصر العدل الإلهي على طلب المماثلة في العقوبة ، وعدم التجاوز فيها . بل حث على العفو والصبر ؛ فقال سبحانه :

(وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) :

أي ولئن صبرتم أيها الداعون إلى الله تعالى . لصبركم هذا هو خير لكم في دنياكم وآخرتكم من الانتصار بالمعاقبة ، فإن الصبر والعفو وكظم الغيظ من أمهات الفضائل التي يسمو بها العبد ، ويرفعه الله بها درجات ، ويرد بها عدوه الألد ولياً حميماً وصديقاً مصافياً . . وإنما يحمل العفو عند القدرة ، وحيث تدعو إليه المصلحة في عزة الإسلام وسماحته ، ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر أمراً صريحاً بعدما ندب إليه من قبل تعريضاً فقال جل ثناؤه :

١٢٧ - (وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ . . .) الآية .

لأنه عليه الصلاة والسلام أولى الناس بعزائم الأمور ، لمزيد علمه بشئون ربه ، ووثوقه به أي اصبر أيها الرسول على ما أصابك من قومك ، من إعراضهم عن دعوتك ، وإيذائهم لك . . وما صبرك إلا بمعونته تعالى وتأييده وتوقيفه وتشبيته .

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) : أي ولا تحزن على الكافرين وكفرهم بك وعدم متابعتهم لك ، كما قال تعالى : « فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »^(٤) .

(١) المشاكلة التعبير عن الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبه وهي فن من فنون البديع .

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ١٩٤

(٣) سورة البقرة ، من الآية : ١٩٤

(٤) سورة المائدة ، من الآية : ٦٤

(وَلَا تَكُنْ فِي حَرْجٍ وَضِيقٍ صَدْرٍ مِنْ مَكْرِ الْكُفَّارِ بِكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَحَافِظُكَ مِنْهُمْ ، وَمُظْفِرُكَ بِهِمْ ، وَفِي هَذَا تَأْكِيدٌ لِتَسْلِيَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْأَمْرُ لِلَّهِ لَهُ بِالصَّبْرِ ، ثُمَّ خَتَمَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ هَذِهِ السُّورَةَ الْكَرِيمَةَ بِتِلْكَ الْبَشَارَةِ الْعَظِيمَةِ ؛ بِمَعْنَى الْمُتَّقِينَ الْمُحْسِنِينَ - وَالنَّبِيِّ إِمَامِهِمْ ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

١٢٨- (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) :

والمعنى أَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ أَلَاؤُهُ ، مَعَ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ فَضِيلَتِي التَّقْوَى وَالْإِحْسَانِ ، وَاسْتَمَرُوا عَلَيْهِمَا . . . وَالْمَقْصُودُ مِنْ مَعْنَى تَعَالَى هُنَا أَنَّهُ سَبْحَانَهُ يَعِينُهُمْ وَيَحْفَظُهُمْ مِنْ مَكْرِ الْأَعْدَاءِ بِهِمْ ، وَيَنْصِرُهُمْ عَلَيْهِمْ ، فَهِيَ مَعِيَّةٌ رَعَايَةٌ وَحِفْظٌ . كَالَّتِي يُشِيرُ إِلَيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ وَقَدْ أَرْسَلَهُمَا إِلَى فِرْعَوْنَ : «لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى»^(١) . وَالَّتِي يُشِيرُ إِلَيْهَا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلصَّدِيقِ وَهُمَا فِي الْغَارِ ، كَمَا حَكَى اللَّهُ : «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا»^(٢) . وَلَارِيبَ أَنَّ هَذِهِ الْمَعِيَّةَ الْخَاصَّةَ أَعْلَى وَأَجَلُ مِنَ الْمَعِيَّةِ الْعَامَةِ الَّتِي فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»^(٣) . فَإِنَّهَا مَعِيَّةُ الْعِلْمِ وَالرَّقَابَةِ وَالْمَحَاسِبَةِ ، وَتِلْكَ مَعِيَّةُ الْعَنَايَةِ وَالرَّعَايَةِ وَالْمَحَبَّةِ . وَشَتَانُ مَا بَيْنَهُمَا - ذَلِكَ وَقَدْ اشْتَمَلَتْ خَوَاتِيمُ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى تَعْلِيمِ حَسَنِ الْأَدَبِ فِي الدَّعْوَةِ وَتَرْكِ التَّعَدْيِ ، وَالْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَى الْمَكْرُوهِ . وَعَظِيمُ الْبَشَارَةِ لِلْمُتَّقِينَ الْمُحْسِنِينَ . وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ . . . وَغَيْرُهُ أَنَّ هَرَمَ بْنَ حَبَانَ^(٤) . قِيلَ لَهُ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ أَوْصِ . فَقَالَ : إِنَّمَا الْوَصِيَّةُ مِنَ الْمَالِ وَلَا مَالَ لِي : وَأَوْصِيَكُمْ بِخَوَاتِيمِ سُورَةِ النَّحْلِ .

(١) سورة طه ، الآية : ٤٦

(٢) سورة التوبة ، من الآية : ٤٠

(٣) سورة الحديد ، من الآية : ٤

(٤) قائد فاتح من كبار الزهاد التابعين ول بعض الحروب في أيام عمر وعثمان رضي الله عنهما ومات في إحدى

سورة الإسراء

هذه السورة مكية بتمامها عند الجمهور ، واستثنى بعضهم أربع آيات فإنها مدنية وهي قوله تعالى : « وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ » . وقوله : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ » ، وقوله : « وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ » . وقوله : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ » وقيل غير ذلك ، وسيأتى تحقيقها في مواضعها ، وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة آية .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأها وسورة الزمر كل ليلة ، كما أخرجه الإمام أحمد والترمذى وحسنه والتسائى وغيرهم عن عائشة رضى الله عنها ، وكما تسمى سورة الإسراء تسمى سورة بنى إسرائيل ، لكثرة ما ذكر فيها من الحديث عنهم .

صلتها بما قبلها

قال الجلال السيوطى : لما قال الله سبحانه فى آخر النحل : « إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ » ذكر فى هذه شريعة أهل السبت التى شرعها لهم سبحانه فى التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى إسرائيل ، وذكر تعالى فيها عصيانهم وإفسادهم وتخريب مسجدهم ، واستفزازهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وإرادتهم إخراجهم من المدينة ، وسؤالهم إياه عن الروح ، ثم ختمها جل شأنه بآيات موسى التسع ، وخطابه مع فرعون وأخبر سبحانه أن فرعون أراد أن يستفزهم من الأرض فَأُهْلِكَ . . . الخ .

مقاصد السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على مقاصد كثيرة نذكر منها ما يلى :

١- إسراء الله بالنبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليطلعه على بعض آياته العظيمة .

٢- وإيتاء بنى إسرائيل التوراة ليعبدوا الله وحده ويهتدوا بهداه ، ولكنهم ضلوا . وأفسدوا فى الأرض مرتين إفسادا شنيعاً ، فبعث الله من عباده الأقوياء أهل الشدة والغلبة

من عاقبهم أشد العقاب ، فقد جاسوا خلال ديارهم وقتلوا كثيراً من رجالهم وأسروا نساءهم وذريعتهم ، وحطموا هيكلهم ، وقد أنذرهم الله إن عادوا إلى الإفساد في الأرض أن يعود إلى عقابهم .

٣- وبيان أن القرآن يهدي إلى الشريعة الأقوم ويبشر المؤمنين الصالحين وينذر الكافرين الطالحين .

٤- وأنه تعالى جعل الليل والنهار آيتين ، وجعل من أثرهما أن نبتغي من فضله ، ونعلم عدد السنين والحساب وألزم كل مكلف بعمله ، وسجله في كتاب ليقرأه ، يوم القيامة ويعرف منه مصيره .

٥- وأنه تعالى لا يهلك قرية إلا بعد أن يرسل إليها رسوله ويدعو مترفياً إلى الحق ويأمرهم بترك الفساد ، ويستمدروا على ما هم فيه فيحقق عليهم قضاؤه ، - فيدمرها عليهم وعلى أتباعهم .

٦- وأن من أراد العاجلة أعطاه الله ما قدره له منها ، وليس له في جنة الآخرة من نصيب ، بل يعاقب على كفره بالنار يصلها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وعمل لها وهو مؤمن ، شكر الله نعيه ومتعته بالجنة دار السلام .

٧- ووصيته تعالى لعباده أن لا يشركوا به شيئاً ، وأن يحسنوا إلى والديهم وبخاصة في حالة الشيخوخة ، ونهى الآباء عن قتل الأولاد خشية الفقر فإنه يرزقهم وإياهم ، ونهى الناس عن الزنى وقتل النفس بغير حق ، وإعطاء ولي القتل سلطان المطالبة بقتل غريمه ، فلا يتعداه إلى سواه ، ونهى الأولياء والأوصياء أن يقربوا مال اليتيم بغير حق ، وأمره الناس بالوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والميزان المستقيم ، ونهى عن أن يقول الإنسان ما لا يعلم وأن يمشي في الأرض مرحاً وكبراً ، فإنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً ، فلا وجه لكبريائه على الناس مهما أوتى من النعم ، فإنها إلى زوال .

٨- كما أنكرت على من يزعم أن الملائكة بنات الله ، ووصفت هذا الزعم بأنه عظيم الخطورة على قائله .

٩- وبينت أنه لو كان معه آلهة كما يقولون لطلبوا سبيلا إلى صاحب العرش لينازعوه في ملكه كما يفعل الشركاء ، وبذلك تفسد السموات والأرض ، ولكنها لم تفسد فانتفى بذلك وجود شركاء له تعالى ، وثبت أنه هو الذي تسبح له السموات والأرض دون سواه .

١٠- كما بينت أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن على من يجحدون الآخرة لم يفقهوه ، وولوا على أدبارهم نفورا لكفرهم وإعراضهم ، ووصفوه بأنه رجل مسحور ، وأنكروا أن تبعث العظام والرفات ، مع أنهم لو تحولوا وصاروا حجارة أو حديدا أو غير ذلك ، فإنه تعالى يعيدهم كما فطرهم أول مرة .

١١- وتضمنت أنه تعالى فضل بعض النبيين على بعض ، ومن أمارات هذا التفضيل أن يكون لهم كتب خاصة بهم ، كداود عليه السلام ، حيث آتاه الله زبوراً .

١٢- وبينت أن شركاء المشركين لا يملكون كشف الضر عنهم إذا دعوهم ، وأن المعبودات العاقلة التي يعبدونها لا تقرهم على عبادتهم لها ، لأنها تتبارى في طلب الوسائل أيها أقرب في الوصول إلى رضا الله تعالى ، ويرجون رحمته ويخشون عذابه ، كما هو الشأن في الملائكة التي يعبدونها ومن على نهجهم من البشر .

١٣- وتضمنت أنه تعالى لم يحقق لهم ما طلبوه من الآيات الكونية حتى لا يهلكهم بالكفر بها ، كما أهلك أمثالهم ممن كذبوا رسله قبلهم .

١٤- وأنه تعالى أمر ملائكته بالسجود لآدم ، وأن إبليس تكبر على أن يسجد له وقد خلق من طين ، وأن إبليس توعد ذريته بإغوائهم إلا قليلا منهم ، وهم المؤمنون الصالحون الذين قال الله فيهم : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا » .

١٥- وأنه تعالى كرم بنى آدم ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير من خلقه ، ولذا كلّفهم بعبادته ، وأنه سيدعو كل أمة بإمامها يوم القيامة ، وإمام كل أمة كتابها ، فيقال يا أهل القرآن يا أهل التوراة ماذا فعلتم بكتابتكم ؟ أو إمامهم نبيهم ، ويعطى كل واحد منهم كتابه فيعرف منه مصيره .

١٦- كما اشتملت على تكليف النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه بأن يقيموا الصلاة لدلوك الشمس أى زوالها عن وسط السماء إلى سواد الليل ، ووقت قراءة الفجر ، يشير بذلك إلى إجمال مواقيت الصلوات الخمس ، وتكليفه صلى الله عليه وسلم خاصة بقيام الليل والتهجد على سبيل الوجوب ، رجاء أن يبعثه الله المقام المحمود يوم القيامة ، وهو مقام الشفاعة العظمى .

١٧- وبينت أن الروح من أمر الله ، وأن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلا لا يؤهلهم لمعرفة حقيقتها ، وأن القرآن معجز للإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

١٨- وأنه لم يمنع الناس أن يؤمنوا حين جاءهم الهدى على لسان أنبيائهم إلا زعمهم أن الله لا يبعث من البشر رسولا ، وأن الله رد عليهم بأنه لو كان إرسال الملائكة للبشر يجعل الملائكة يمشون على الأرض مطمئنين ولا يطيطرون ، بل يبقون بينهم كشأن البشر لنزل عليهم من السماء ملكا رسولا ، ولكن الملائكة خلقت لتطير في ملك الله ، ولو حولوا إلى مثل البشر لاشتبه أمرهم عليهم ، فزعموا أنهم بشرٌ وليسوا ملائكة ولو بقوا على خلقتهم لصعق البشر من لقائهم .

١٩- وتضمنت إتياء موسى تسع آيات بينات ، وزعم فرعون أنه مسحور ، وكفره بما جاء به من البينات ، وإغراقه وجنوده جزاء كفرهم وعنادهم .

٢٠- وختمت السورة بأمره صلى الله عليه وسلم وأمر أمته تبعاً له ، بالحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولا ولى من الدن ، وأن يكبره تكبيرا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①)

المفردات :

(سُبْحَانَ) : هو علم للتسبيح عند الزمخشري ، والتسبيح التنزيه ، ولا يجوز استعماله شرعاً إلا في الله تعالى ①.

(أَسْرَى بِعَبْدِهِ) : الإسرائء سير الليل كالأسرى ، تقول : أسريتُ وسريتُ إذا سرتُ ليلاً ، وأسريتُ به سرتُ به ليلاً ، والمراد بالعبد هنا محمد صلى الله عليه وسلم .

(الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) : هو مسجد مكة المشتمل على الكعبة .

(الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) : مسجد بيت المقدس ، ووصف بالأقصى لأنه أقصى أى أبعد مسجد يعظم بالزيارة بالنسبة لأهل المسجد الحرام .

(بَارَكْنَا حَوْلَهُ) : البركة ، الخير والنماء والسعادة ، ومباركة الله حول المسجد الأقصى حسية بجعل الأرض حوله دائمة الثمار والخيرات ، ومعنوية بدفن الأنبياء والصالحين فيها .

البيان

١- كانت رحلة الإسرائء العظيمة في أخريات العهد المكي بعد أن قاسى النبي صلى الله عليه وسلم من قريش ومن حولهم من العنت والإبذاء ، والإعراض والكبرياء ما يهدم الأجساد ، ويحطم القوى ، فلهذا أكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم برحلة الإسرائء من مكة إلى بيت المقدس ، وبرحلة المعراج من بيت المقدس إلى ما وراء سكرة المنتهى ، لينفخ عنه

(١) قال صاحب الكشف انتصاراً للزمخشري : لا تمنع علميته من إضافته كما في حاتم طي ، وعنزة عيس - انظر الألويس .

ما أصابه ، ويسبغ عليه أسمى نعمه ورحمته ، ويكشف له عن بعض آياته ، ترفيها له ومكافأة على ماناله من أذى قومه ، وشحذاً لهمة في المرحلة المقبلة للدعوة ، فقد كان الإسراء والمعراج به صلى الله عليه وسلم بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجه خديجة ، حيث اشتد إيذاء قريش له بعد وفاتهما .

وحكى أبو حيان في البحر أنه أسرى به صلى الله عليه وسلم في سبع عشرة من ربيع الأول ، وعمره إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر ، وثمانية وعشرون يوماً ، وهذا التاريخ يقتضى أن الإسراء كان قبل الهجرة بعام واحد ، وأنه كان في أواخر السنة الثانية عشرة من النبوة تقريباً .

المعنى الإجمالي للآية

تنزيهاً شاملاً لله الكبير المتعال الذى نقل عبده المختص به ، ونبيه الحق به ، نقله وأسرى به ليلاً بكيفية عجيبة من المسجد الحرام بمكة ، إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، الذى أحاطه بالبركة والخير الكثير ، من رياض وغياض وثمار وأنهار ، وزروع وأشجار ، ومن نفحات الأنبياء والصالحين ، وبركات رسل الله الراحلين ، وقد نقله وأسرى به لكى يطلع على بعض آياته العظيمة ، إعظاماً لمقام عبده ورسوله ، وتنقيساً عنه بعد ما أجهدته قومه ، إنه تعالى هو السميع لأقوال عبده ورسوله فى تبليغ دعوة ربه ، العليم بأفعاله الخالصة عن شوائب الهوى ، المقرونة بالصدق والهمة ، الجديرة بالقرب والزلفى ، فتعالى الله الذى له هذه القدرة وهذا العلم ، تعالى عن جميع النقائص ، فلا يكون اصطفاؤه لعبده الخصيص به إلا حكمة وصواباً .

المعنى التفصيلي

كيف كان الاسراء :

جاء حديث قصة الإسراء فى جميع كتب السنة ، وذكر النقاش من رواه عشرين صحابياً فهو لهذا من الأحاديث المتواترة ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان والترمذى والتسائى من حديث أنس بن مالك بن صعبعة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَا أَنَا فِي الْجَبْرِ - وَفِي رِوَايَةٍ فِي الْحَطِيمِ - بَيْنَ النَّائِمِ وَالْبَقَطَانِ ، إِذْ أَتَانِي آتٍ فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ

إلى هذه ، فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي فَعَسَلُهُ ، ثُمَّ أُعِيدَ ، ثُمَّ أُتَيْتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْجِمَارِ أَبْيَضَ ، يُقَالُ لَهُ الْبُرَاقُ ، يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرَفِهِ ، قَالَ فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمُقَدِّسِ - قَالَ - فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي تَرْبِطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ اخْتَرْتِ الْفِطْرَةَ : قَالَ : ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ « إِلَى آخِرِ قِصَّةِ الْمِعْرَاجِ ، وَسَتُعَرِّضُ لَهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّجْمِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » . وَجَاءَ فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ فِي طَرِيقَةِ غَسْلِ قَلْبِهِ الشَّرِيفِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي ، ثُمَّ أُتَيْتُ بِطُغْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٍ إِيمَانًا فَغَسَلَ قَلْبِي ثُمَّ حَشَا ، ثُمَّ أُعِيدَ » . وَكَانَ الْإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ وَالْعُودَةُ فِي بَعْضِ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ هَلْ كَانَا بِالْجَسَدِ وَالرُّوحِ ، أَوْ بِالرُّوحِ فَقَطْ ، أَوْ كَانَا مَنَامًا ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُمَا كَانَا بِالْجَسَدِ وَالرُّوحِ يَقْطَعُ ، وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ : (بِعَبْدِهِ) وَالْعَبْدُ يَشْمَلُ الْجَسَدَ وَالرُّوحَ مَعًا ، كَمَا يَشْهَدُ لَهُ إِعْدَادُ الْبَرَاقِ لَهُ وَرُكُوبُهُ إِيَّاهُ ، وَوَصْفُهُ بِأَنَّهُ كَانَ يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مُنْتَهَى بَصَرِهِ ، وَمَنْ أَقْوَى الْأَدَلَّةُ عَلَى ذَلِكَ مَا حَدَّثَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ شَقِّ صَدْرِهِ وَغَسْلِهِ بِالْإِيمَانِ وَحَشْوِهِ ، فَإِنَّ هَذَا كُنَايَةً عَنْ أَنَّهُ تَعَالَى كَلَّفَ الْمَلَكُ بِإِعْدَادِهِ جَسَدِيًا وَرُوحِيًّا لِتِلْكَ الرَّحَلَةِ الْخَطِيرَةِ ، وَشَحْنَهُ بِالْقُوَى الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُهُ فِي مَنَعَةٍ مِنَ الْأَخْطَارِ الْكُونِيَّةِ أَثْنَاءَ هَذِهِ الرَّحَلَةِ ، وَتَجْعَلُهُ أَيْضًا مُسْتَعِدًّا لِاسْتِقْبَالِ الْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ : إِنْ ذَلِكَ كَانَ مَنَامًا ، وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ ، وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ عَائِشَةَ وَمَعَاوِيَةَ ، وَرَدَّ ذَلِكَ بِأَنَّ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - كَانَتْ حِينَئِذٍ صَغِيرَةً وَلَمْ تَكُنْ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَنَّ مَعَاوِيَةَ كَانَ كَافِرًا فَلَا يَصِحُّ مَا أُسْنَدَ إِلَيْهِمَا ، أَمَا الْاسْتِنَادُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى :

« وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي آرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » فَهِيَ دَلِيلٌ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ دَلِيلًا لَهُمْ ،

فَإِنَّ الرُّؤْيَا هُنَا بِمَعْنَى الرُّؤْيَةِ الْبَصَرِيَّةِ كَمَا فِي قَوْلِ الرَّاعِي يَصِفُ صَائِدًا :

وَكَبِرَ لِلرُّؤْيَا وَهَشَّ فَوَادَهُ وَبَشَرَ قَلْبًا كَانَ جَمًّا بِلَابِلِهِ

ولو كانت رؤيا منامية لما كانت فتنة للناس حين علموا بها ، لأن النائم قد يرى نفسه في السماء وأنه يطير بين المشارق والمغارب ولا يكذبه أحد ، ومثله يحدث عادة لكثير من الناس مناما .

وسبأني بيان فتنة قريش حين أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بحديث الإسراء ، عند شرح قوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ... »^(١)

والعبودية لله عند العارفين من أهل الحق أشرف الأوصاف ، ولقد كان المحبون للبشر يفخرون بها ، ومن ذلك قول قائل في محبوبته :

لَا تَذْعِنِي إِلَّا بِنَا عِبْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِيَا

فكيف بالعبودية لما لك الملك والملكوت ، على أن في وصفه صلى الله عليه وسلم بالعبودية وقد وصل إلى ما هو عليه من الرفعة العلية ، سداً لباب الغلو فيه ، كما وقع للنصارى مع نبيهم عيسى عليه السلام .

قال القشيري : لما رفعه الله إلى حضرته السنية ، ورقاه فوق الكواكب العلوية ، ألزمه اسم العبودية تواضعاً للأمة .

والمسجد الحرام وقت الإسراء كان مليئاً بالأصنام التي كان العرب يعبدونها قبل إيمانهم ، وتسميته بالمسجد الحرام مع هذا ، لأن المسجد في اللغة مكان السجود وهو الخضوع ، وكانوا في عبادتهم لأصنامهم خاضعين لها أشد الخضوع ، وكان حرماً آمناً يحرم فيه القتل والأخذ بالشارع عندهم .

والمسجد الأقصى بيت المقدس ، فكان مسجد النبيين ومصلاتهم^(٢) ، بناه يعقوب بعد بناء إبراهيم الكعبة بأربعين سنة ، ولهذا قال تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ » . ثم شرع في تجديده داود ، وأتمه سليمان ابنه عليهما السلام ،

(١) سورة الإسراء : الآية ٦٠

(٢) فلذا أطلق عليه لفظ المسجد ، ويصح أن يكون إطلاق المسجد على كليهما باعتبار ما آل إليه أمرهما في الإسلام .

وهو أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال لأن ثواب الصلاة فيها يضاعف ، قال صلى الله عليه وسلم : « لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ ، مَسْجِدِي هَذَا وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى » والصلاة في المسجد الحرام أعظمها أجراً ، ثم المسجد النبوي ثم المسجد الأقصى ، والغاية من الإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أن يطلع الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم على بعض آيات قدرته تعالى في رحلة الإسراء والمعراج ، وما وقع فيها من الأعاجيب ، وكان ذلك من قبيل الإعداد للمرحلة التالية للهجرة ، ولا شك أن في شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم وشحنه بالإيمان والعلوم والتقوى الإلهية ، أثراً عظيماً في تحمله لتلك الرحلة الكونية العظيمة ، التي رأى فيها بعض ملكوت السموات والأرض ، وفي تقوية روحه ومضاعفة همته وعزمته ، لكي يستقبل المرحلة التالية للهجرة وهو جُمُ النشاط عظيم الاحتمال .

(وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ
أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ
إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾)

المفردات :

(بَنَى إِسْرَءِيلَ) : أبناء يعقوب عليه السلام ، فقد كان يدعى إسرائيل .
(وَكِيلًا) : ربا تكلون إليه أموركم ، (ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) : ذرية من آمنوا بنوح وحملناهم معه في السفينة ، لننجيهم من الغرق بالظوفان .

التفسير

٢٠ ، ٣ - (وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ لَا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) :

لما بين الله تعالى في الآية السابقة أنه بارك حول المسجد الأقصى ، جاء بهاتين الآيتين ليبين بعض البركات الروحية هناك ، حيث آتى موسى الكتاب لهداية بنى إسرائيل الذين أسكنهم الله الشام حول المسجد الأقصى ، بعد هجرتهم من مصر وخروجهم من التيه ، ثم إن هاتين الآيتين وما بعدهما تعتبر تمهيداً للحديث عن هداية القرآن للتي هي أقوم ، ليعرف بنو إسرائيل أنهم لم ينصفوا أنفسهم حين أعرضوا عن الطريق الأقوم ، والشريعة المثلى ، بعدم إيمانهم بالقرآن ومن أنزل عليه القرآن ، في حين أنه من الله تعالى عليه بهذه المنزلة العلية ، حيث أسرى به في بعض ليلة ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى ماوراء سدرة المنتهى ، حيث أوحى الله تعالى إلى عبده ما أوحى « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » .

معنى الآيتين

وأعطينا موسى الكتاب في ألواح مشتملة على التوراة ، وجعلنا هذا الكتاب هادياً لبني إسرائيل إلى الحق ، بعد أن دانوا في مصر بعبادة العجل الذى كان يعبداه الفراعنة ، وقد أعطينا موسى هذا الكتاب لكيلا تتخلوا سواى رباً تكلون إليه أموركم ياذرية من حملناهم في السفينة مع نوح ، وأنجيناهم من الفرق ، إن نوحاً كان عبداً شكوراً لنا ، فلم يتخذ رباً سوانا ، وكذا من حملناهم في السفينة معه ، فلهذا حفظناهم من الطوفان وأغرقنا سواهم ، فكونوا يابنى إسرائيل على سنة من أنجيناهم من الفرق من أهل التوحيد ، لتكونوا بمنجاة من عقوبة أهل الشرك .

وفي التعبير عن بنى إسرائيل ، بذرية من حملنا مع نوح ، تذكير بفائدة التوحيد وأثره في الدنيا ، وتحذير من الشرك وعقوبته ، كما أن فيه إشارة إلى أن غيره تعالى من الوكلاء والأرباب المزعومة ، لا تستطيع أن تأتى بمثل هذه الآية الكبرى التى تتمثل في الطوفان العالى لإغراق من لم يعبدها ، وفي السفينة لإنجاء من عبدها ، فهى أحقر من أن تهلك أو تنجى ذبابة ، فسبحان الكبير المتعال الذى ينجى المؤمنين ويهلك الكافرين ، بما لا يتصوره البشر ولا تطيق مثله جميع القوى والقدر .

وأجاز بعض العلماء عود الضمير في قوله تعالى : « إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا » إلى موسى عليه السلام ، تعليلاً لإيثاره الكتاب ، فكأنه قيل وآتيناه موسى الكتاب هداية لقومه ، لأنه

كان عبداً شكوراً ، وما اخترناه أظهر وأولى ، لما فيه من رجوع الضمير إلى أقرب مذكور ، وهو نوح عليه السلام .

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَآءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلُنَّ عَلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٠﴾) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿١١﴾)

المفردات :

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَآءِيلَ) : أى أوحينا إليهم^(١) على سبيل الجزم والقطع .
(فِي الْكِتَابِ) : أى فى التوراة ، (فِي الْأَرْضِ) : أى فى جنس الأرض ، أو هى الشام وفيها بيت المقدس . (وَلِتَعْلُنَّ عَلُوًّا كَبِيرًا) : العلو ، الارتفاع ، والمراد به هنا الاستكبار والتغلب على الناس بالظلم . (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ) : سلطنا عليكم . (عِبَادًا لَنَا) : أى ناساً مملوكين لنا كي يؤدبوكم ، ولا يقتضى وصفهم بالعبودية أن يكونوا مؤمنين بالكافر والمؤمن عباد مملوكون لله ، تجرى عليهم أحكامه .

(أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ) : أصحاب قوة وبطش شديد فى الحروب . (فَجَاسُوا^(٢) خِلَالَ الدِّيَارِ) : أى ترددوا بينها لطلبكم وعقابكم . (وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا) : أى وكان ما ذكر من إرسال العباد ليعاقبوكم ، وعداً نافذاً لا مفر من وقوعه ، والوعد يستعمل فى الخير والشر ، ويفرق بينهما بحسب المقام ، وقد يفرق بينهما لفظاً ، فيقال فى الخير وَعْدٌ ، وفى الشر أَوْعَدَ ومنه قول الشاعر :

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمُخْلَفُ إيعادى ومنجز موعدى

وقد يقال فى الخير وَعْدٌ وفى الشر وَعِيدٌ .

(١) تفسير القضاء بالإيجاب لتعديه بحرف (إلى) وفى إحدى الروايتين عن ابن عباس أن المعنى (وقضينا عليهم) فتكون إلى بمعنى على .
(٢) الجوس طلب الشيء باستقصاء .

التفسير

٤ - (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا) الآية .

بين الله تعالى في الآية السابقة أنه أعطى موسى التوراة ليستهدى بها بنو إسرائيل ، جاءت هذه الآية لتبين أنهم انحرفوا عنها وأفسدوا في الأرض مرتين ، مخالفين ما أمرهم الله به في التوراة من الصلاح والاستقامة

والمعنى : وأوحينا إلى بني إسرائيل في كتابهم التوراة ، أوقضينا عليهم بسبب انحرافهم عن هداه ، لتفسدن في الأرض التي تعيشون عليها في الشام ، أو في جنس الأرض - لتفسدن فيها - مرتين ، ولتستكبرن استكباراً كبيراً على الله تعالى ، فلا تلتزمون بهداه ، وعلى الناس فتغلبونهم وتظلمونهم وتسيئون إليهم ، وتحديد هاتين المرتين اللتين أفسدوا فيهما متعذر لأنهم قد أفسدوا مرات كثيرة منذ نزلت التوراة حتى الآن ، ومما جاء في إفسادهم ، أنهم لما مات ملكهم تنافسوا على الملك وقتل بعضهم بعضاً ، ولم يسمعوا النصيح من نبيهم زكريا ، بل عذبوا عليه وقتلوه ، وقد رواه ابن إسحاق ، وفي الكشف أن أولاهما قتل زكريا وحبس أرميا ، وثانيتها قتل يحيى وإرادة قتل عيسى عليهم السلام ومنها أنهم في سنة (٧١) إحدى وسبعين بعد الميلاد حاولوا أن يثيروا المتاعب للرومانيين فبطش بهم القائد الروماني (صيطس - أوتيتوس) وقتل منهم خلقاً كثيرين ، وخرب هيكلهم المقدس الذي كانوا يفاخرون به الأمم ، ويباهون بضخامته وما فيه من آنية الذهب والفضة ، فتفرق كثير منهم في الأرض ، وذهب بعضهم إلى الحجاز ، فتكون منهم يهود بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع حول المدينة ، ويهود خيبر وغيرهم كما فربعضهم إلى الشام ومصر وغيرهما .

ومن هاجر منهم إلى الحجاز اختاروها لأنهم قرءوا في التوراة خبر نبي يبعث من بين إخوتهم ، وهم بنو إسماعيل ، وأن دينه سيذيع وينتشر من يثرب - أي المدينة - فلذا أقاموا حولها ليؤازروه ، حتى يعيد إليهم مجدهم وكانوا إذا تحاربوا مع الأوس والخزرج قبل البعثة وانتصروا عليهم ، قالوا لكليهما : سيبعث نبي من بنى إسماعيل وسنؤمن به ونقتلكم

معه قتل عاد وإرم ، وكانوا أحيانا يخرجون التوراة ويضعون أصابعهم على اسمه صلى الله عليه وسلم ، ويستفتحون به على أعدائهم ، فكانوا يقولون اللهم إنا نسألك بحق نبيك الذى وعدتنا أن تبعثه آخر الزمان ، أن تنصرنا اليوم على عدونا فينصرون ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، قال تعالى : « وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ »^(١) . وفى سنة ١٣٥ ميلادية ثاروا مرة أخرى على الرومان ، فاحتلوا المنطقة اليهودية فى القدس ودمروها وقتلوا أهلها ، وهدموا هيكلها من جديد ، وحرثوا أرضه ، وبنوا مكان المنطقة اليهودية مدينة أخرى حرموها على اليهود^(٢) . إلى غير ذلك من حوادث الإفساد .

وترتيبها زمنياً أو أثراً لتعرف المرتان المقصودتان من الآية الكريمة فيه صعوبة إن لم يكن متعذراً ، ولهذا قال الجبائى : إن الله تعالى ذكر إفسادهم فى الأرض مرتين ، ولم يبين ذلك فلا يقطع بشئ مما ذكر .

• - (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا) :

أى فإذا جاء موعد عقابكم على أولى مرتى إفسادكم فى الأرض ، سلطنا عليكم عباداً لنا أصحاب قوة شديدة وبطش فى الخروب ، فترددوا بين دياركم وتخللوا طلباً لكم ، وكان العقاب الموعود على تلك الإفسادة وعداً نافذاً لا خلف فيه ، قال القرطبى فى هؤلاء العباد : هم أهل بابل ، وكان عليهم بختنصر^(٣) فى المرة الأولى حين كذبوا أرمياء وجرحوه وحبسوه ، قاله ابن عباس وغيره ، وقال قتادة : أرسل عليهم جالوت فقتلهم ، فهو وقومه أولوبأس شديد : انتهى كلام القرطبى .

وقال الآلوسى : الجمهور على أن فى هذه البعثة خرب هؤلاء العباد بيت المقدس ووقع القتل الذريع والجلاء والأسر فى بنى إسرائيل ، وحرقت التوراة : اهـ ولا تغفل عما قلناه من أن تعيين المرة الأولى وعقابها اجتهدى لا قطعى .

(١) سورة البقرة : الآية ٨٩

(٢) وكان ذلك بقيادة الحاكم الرومانى هارديان .

(٣) وهو المعروف عند المؤرخين باسم نبوخذ نصر .

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ
وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ ﴿١﴾ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَنْفُسِكُمْ وَلَئِنْ
أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ
وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا
تَتْبِيرًا ۖ ﴿٢﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم وَلَئِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا
جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۖ ﴿٣﴾)

الفردات :

(رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ) : جعلناكم تغلبونهم بعد أن غلبوكم ، وأصل الكرة الرجعة ،
وإطلاقها على الغلبة هنا لما فيه من الرجوع إليهم بعد هزيمتهم منهم .

(أَكْثَرَ نَفِيرًا) : النفير والنافر من ينفر مع الرجل من عشيرته لمؤازرته والمراد من قوله
« أَكْثَرَ نَفِيرًا » أكثر عددا مما كنتم أو من أعدائكم^(١) . (وَلَئِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) : أى وإن
أَسَأْتُمْ فعليتها ، فاللام هنا بمعنى على . (وَعْدُ الْآخِرَةِ) : وعد المرة الآخرة من مرتين الإفساد .
(لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ) : ليظهروا المساةة عليها بسبب ما نالكم من أذاهم .

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ) : المراد بالمسجد هنا بيت المقدس . (وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا) :
وليهلكوا ما غلبوه واستولوا عليه إهلاكاً شديداً . (وَلَئِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا) : وإن عدتم للإفساد
عدنا للعقوبة .

(وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) : وجعلناها لهم سجناً يحصرهم ويحبسهم^(٢)

ويمنعهم من الإفلات .

(١) قيل النفير مصدر ، وقوله نفر بمعنى خرج ، أى أكثر خروجاً للفرز ، قال الشاعر :

فأكرم بقططان من والد وبالحميرين أكرم نفيرا

(٢) من الحصر وهو الحبس وهو إما اسم جامد لا يلزم تأنيته مع المؤنث ، وإما وصف بمعنى فاعل ، على أنه صيغة

نسب سباعية ، أى ذات حصر ومنسوبة إليه ، كما فى لابن وتامر أى منسوب إلى اللبن والتمر .

التفسير

٦- (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا) :
 أى ثم رددنا لكم الدولة والغلبة ورجعناها لكم على من غلبوكم وتسلطوا عليكم وذلك بعد
 أن صلحت أحوالكم واستقامت أموركم ، واتحدت كلمتكم ، وعملتم بنصائح أنبيائكم ،
 وأمددناكم بأموال كثيرة بعد ما نهبت أموالكم ، وأمددناكم ببنين بعد ما سبيت أولادكم ،
 وجعلناكم أكثر رجالا ينفرون معكم للقتال ، بعد ما قتل رجالكم الدائون عنكم ،
 فاستطعتم بما أمددناكم به من هذه النعم ، أن تستردوا حريتكم وتعود إليكم دولتكم ،
 وينتهى استعباد أعدائكم لكم .

ويفسر أبو حيان في البحر إعادة الكرة عليهم بقوله : إن ملكا غزا أهل بابل ، وكان
 بختنصر قد قتل من بنى إسرائيل أربعين ألفا ، ممن يقرءون التوراة ، وأبقى عنده بقية في
 بابل فلما غزاهم ذلك الملك وغلب عليهم تزوج امرأة من بنى إسرائيل فطلبت منه أن يرد
 بنى إسرائيل إلى ديارهم ففعل ، وبعد مدة قامت فيهم الأنبياء ورجعوا إلى أحسن مما كانوا ،
 انتهى .

ولعل أبا حيان يشير بما يقول إلى غزو الفرس لأهل بابل ، ففي سنة ٥٣٩ قبل الميلاد
 غزا الفرس فلسطين واحتلوها بعد أن احتلوا بابل ، وألحقوها بدولتهم قرنين من الزمان ،
 وفي عهدهم عادت قبيلة يهوذا من بقايا الأسر البابلي إلى القدس ، وأعادت بناء الهيكل من
 جديد .

وقيل رد الكرة : بأن سلط الله تعالى داود على جالوت فقتله ، وعادت الدولة إليهم
 بملك طالوت عليهم ، وتلاه داود عليه السلام ، ثم سليمان ثم انقسموا وتحاربوا ، فسلط الله
 عليهم عباده للمرة الثانية ، وستأتى بقية الحديث عن ذلك بمشيئة الله تعالى .

٧- (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) :

بعد أن بين الله تعالى أنه رد لهم الكرة على أعدائهم ونصرهم ، جاءت هذه الآية ،
 لتبين أن ما نالهم من العقاب أولا والنصر ثانيا إنما يجرى على قاعدة الجزاء العادل فإن هم
 أحسنوا أثيبوا ، وإن هم أساءوا عوقبوا .

والمعنى : إن أحسنتم يا بني إسرائيل يعودتكم إلى طاعة ربكم ، كانت منفعة هذا الإحسان لكم ، حيث يثيبكم عليه في الدنيا النصر والثراء وكثرة الأولاد ، وإن أسأتم بالبغي والطغيان والاستعلاء ، كانت مضرة هذه الإساءة عائدة عليكم ، وقد عرفتم هذا الدستور الإلهي ، فيما تناوب عليكم من الضراء أولاً بسبب إفسادكم الفطيع أول مرة ، والسرائ ثانياً حينما تبتم إلى الله ، وعرفتم طريق الصلاح والاستقامة .

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوتُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا) :

فإذا جاء عقاب المرة الآخرة من الإفساد والاستعلاء الكبير على الناس ، بعثنا عليكم يا بني إسرائيل عباداً لنا أقوياء أشداء لكى يعاقبوكم على المرة الثانية من الإفساد ، وليظهروا بهذا العقاب العنيف آثار المساءة الشديدة على وجوهكم من الحزن والخوف والرعب ، والصفرة والحيرة - فإن الأعراض النفسية تتجلى آثارها واضحة على الوجوه - وبعثناهم أيضاً ليدخلوا المسجد الأقصى - بيت المقدس - بالسيف والقهر والغلبة والإذلال كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا وهلكوا ما علوه وغلبوه واستولوا عليه تتبيرا وإهلاكاً شديداً لا يوصف واختلف في المبعوث لعقاب بني إسرائيل في هذه المرة ، فقيل هو الإسكندر وجنوده ، وقيل هو ملك من ملوك الطوائف اسمه «بيردوس»^(١) ، وهؤلاء الملوك ظهروا بعد أن استولى الإسكندر على الفرس وقتل «دارا» ملكهم ، فقامت من بعده دولة ملوك الطوائف ، وعندهم يربو على سبعين ملكاً ، ومدة ملكهم خمسمائة واثنى عشرة سنة وكانت هذه العقوبة على قتلهم نبيهم يحيى عليه السلام ، وكان بين عقوبة بختنصر لهم وهذه العقوبة نحو سبعمائة وخمسة وثلاثين عاماً ، وبينها وبين قتل الإسكندر لدارا نحو ثلاثمائة سنة ، وقيل غير ذلك ، انظر الآلوسى .

وقال بعض العلماء الأجلاء : إن معرفة الأقوام المبعوثين بأعيانهم وتاريخ بعثهم وتعيين سبب العقوبة مما لا يتعلق به كبير فائدة ، إذ المقصود أنه لما كثرت معاصي بني إسرائيل ، سلط الله عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى : اه
وهذا أسلم والله تعالى أعلم .

(١) وقد رجع هذا رأى صاحب الكشف .

٨ - (عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) :
 أى لعل الله تعالى يرحمكم بعد العقاب بالبعث الثانى ، وإن تبتم عن المعاصى ، ولازمت طاعته ،
 فيكف عنكم عقابه وانتقامه ، ويبدلكم من بعد خوفكم أمنا ، وإن عدتم إلى الإفساد عدنا
 إلى عقابكم فى الدنيا ، على نحو ما حدث فى عقاب المرتين السابقتين أو أشد أو أدنى حسب
 درجة آثامكم ، وجعلنا جهنم لجميع الكافرين منكم ومن غيركم سجنا حاصرا لهم ومحيطا
 بهم ، فلا مهرب لهم منه ، فاحذروا العودة إلى آثامكم ، لكي تنجوا من عقوبة الله فى الدنيا
 والآخرة ، ولقد عاد هؤلاء إلى الإفساد مرة بعد أخرى ، فسلط الله عليهم من دمرهم وشتتهم
 فى بقاع الأرض ، وتراهم دائما يتجمعون فى مكان واحد ، تتجمع فيه بيوتهم ، ويغلقون
 مسالكه حتى لا يعرف أحد أسرارهم ، وليأمنوا الاعتداء عليهم ممن يتآمرون ضدهم وقد
 تآمروا على النبي صلى الله عليه وسلم وقصدوا قتله ، فسلطه الله على بنى قريظة ، فقتل
 رجالهم ، وأجلى بنى النضير وقاتل أهل خيبر ، وضرب الجزية على من بقى منهم حول المدينة .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ
 الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ١) وَأَنَّ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٢ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ
 بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ٣)

المفردات :

(يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) : يرشد للطريقة التى هى أعدل (١)

(١) قيل إن التفضيل هنا غير مراد ، فالمقصود أنه يهdy إلى الطريق المستقيمة دون سواها إذ لا مشاركة بين
 طريق القرآن وسواها فى الاستقامة ، وإلى ذلك ذهب أبو حيان والرازى وخلاصه أن أفعل التفضيل هنا على غير بابه ،
 وفى ذلك يقول تعالى (وذلك دين القيمة) .

(أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) : أعددنا لهم عذاباً شديداً بالإيلام .
 (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ) : أى يطلبه لنفسه ، وَكُتِبَتْ (يَدْعُ) فى المصحف بدون واو
 مراعاة للنطق ، وأصلها يدعو بالواو بعد العين .
 (دُعَاةُ بِالْخَيْرِ) : أى يدعو لنفسه بالشر مثل دعائه لها بالخير فلا يفرق بينهما لجهله .

التفسير

٩ - (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) :

بين الله فيما تقدم أنه تعالى أعطى موسى كتاب التوراة وجعله هدى لبني إسرائيل ،
 وأنهم لم يعملوا به ، بل أفسدوا فى الأرض ، وجاءت هذه الآية والتى بعدها لبيان أن هذا
 القرآن أعطاه محمدا صلى الله عليه وسلم لكى يهدى الناس جميعا إلى ملة الإسلام ، فإنها
 أقوم الملل ، وأن على جميع الخلق أن يؤمنوا به ومنهم أهل الكتاب .

والمعنى : إن هذا القرآن الذى أنزلناه عليك يا محمد يهدى إلى الملة التى هى أقوم الملل
 وأعدلها وهى ملة الإسلام إلى الله ، والتوحيد الخالص من كل شوائب الشرك ، والتنزيه له
 تعالى عن شوائب المماثلة للبشر ، وعن سمات النقص التى لم تتورع عنها الملل والنحل المختلفة
 وكما يهدى إلى الملة التى هى أقوم يبشر المؤمنين بأحكامه وعقيدته ، الذين يعملون الأعمال
 الصالحة التى دعاهم إليها - يبشرهم - بأن لهم فى مقابل إيمانهم وصالح أعمالهم أجراً كبيراً
 فى ذاته وفى أوصافه الكريمة ، ينالونه فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

١٠ - (وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) :

معطوف على ما بَشَّرَ به الذين آمنوا داخل فى حيز البشارة لهم ، فكأنه قيل : يبشر المؤمنين
 الصالحين بأجر كبير لهم ، ويبشرهم أيضاً بأن أعداءهم الذين لا يؤمنون بالآخرة الإيمان
 الصحيح ، أعددنا لهم فيها عذاباً مؤلماً ، فإن الانتقام من العدو سرور يستحق أن يبشر به
 عدوه ، وبخاصة إذا كانت العداوة من أجل الحق تبارك وتعالى^(١) .

(١) ومن أجل ذلك يسخر المؤمنون من الكافرين فى الآخرة ، قال تعالى : «فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون» .
 الآيات ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ من سورة المطففين .

ويصح أن يراد من البشارة مطلق الإخبار الشامل للإخبار بما يَسُرُّ وبما ليس كذلك على سبيل المجاز ، ومن استعمال التبشير في العذاب قوله تعالى في سورة النساء: «بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» (١٣٨) وفي سورة التوبة: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» (٣٤) ١١ - (وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) :

بينت الآيتان السابقتان منزلة القرآن الكريم من الهداية للطريقة التي هي أقوم ، وبشارته للمؤمنين بحسن المثوبة ، وإنذاره للكافرين بشديد العقوبة ، وجاءت هذه الآية لتبين أن الإنسان لم يراع مصلحة نفسه حيث يطلب الشر ويتعجله بدل الخير ، والمراد بالإنسان الجنس ، وقد أسند إليه حال بعض أفراداه وهو الكافر والعاصي ، أو حاله بصفة عامة في بعض أحيانه .

والمعنى على الأول مع ربطه بما سبق : أن هذا القرآن يهدي إلى الملة والشريعة التي هي أقوم ولكن الإنسان الكافر والعاصي يدعو لنفسه بالشر - أي يطلبه لها - بكفره وعصيانه - يدعو لنفسه بهذا الشر مثل دعائه بالخير وطلبه لها ، من غير تفرقة بين ما يؤدي به إلى العقوبة وما ينتهي به إلى المثوبة جهلا منه وسوء تمييز ، وكان الإنسان بطبعه مبالغا في العجلة حيث سارع إلى ما يؤدي به إلى الضرر بغير تريث ولا مبالاة ، وتجاهل ما ينتهي به إلى الخير والمنفعة عاجلها أو آجلها ، ولو تريث وفكر لاختار الإيمان والطاعة لحسن عاقبتها ، ولنبد الكفر والمعصية لسوء منقلبها ، وقد منحه الله العقل ليقوم به غرائزه فلا عذر له في إهداره وعدم الانتفاع بتقويته .

والمعنى على الثاني : إن هذا القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير ، وهو في بعض أحيانه يترك الدعاء بالخير ويدعو الله لنفسه وماله وأهله وولده بالشر لمرض أصابه أو غضب حل به ، أو ضجر من بليّة ومحنة ، وكان الإنسان بحسب غريزته وجبلته شديد العجلة ، لا يميل إلى التأني حتى تزول المحنة أو العارض الذي استتبع دعاءه ، ولو تأني وتذرع بالصبر الذي يدعو إليه العقل والشرع ، لآثر الدعاء بالخير بدل الدعاء بالشر .

وقد جاء النهي عن ذلك صريحا ، فقد أخرج أبو داود والبزار عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ لَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ لَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ ، لِئَلَّا تَوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى سَاعَةً فِيهَا إِجَابَةٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ» .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ
وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا
عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَّا تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾)

المفردات :

(آيَتَيْنِ) : علامتين ودالتين على وجود الله وسائر كمالاته .
(فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ) : أى أزلنا ظلمته بضوء النهار . (مُبْصِرَةً) : أى مبصرة
أهلها في ضوئها ، وإنما أسند الإبصار لفظاً إلى آية النهار على سبيل المجاز ، لأنها سبب
الإبصار .

(لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ) : لتطلبوا رزقا من خالقكم ومربيكم .

التفسير

١٢ - (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ) :

بين الله قبل هذه الآية أن هذا القرآن يهdy للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين ، وينذر
الكافرين ، وجاء هذه الآية ليهدينا بها إلى الطريق العقلى الهادى إلى معرفة الله ، وهو النظر
فى آياته الكونية .

والمعنى : وجعلنا الليل والنهار فى تعاقبهما واختلافهما طولاً وقصراً ، حسب اختلاف
مطالعهما ومغاربهما ، وفى تباينهما ظلمة وضياء حسب ظهور الشمس ومغيبها - جعلنا الليل
والنهار فى ذلك كله علامتين تهديان العقل إلى أن لهما صانعا حكيمًا ، ومدبرا عليًا ، وقادرا
عظيمًا ، ثم فصل حال الليل والنهار وفائدتهما فقال سبحانه : (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ) ^(١) : أى
فجعلنا الليل الذى هو آية وبرهان على خالقه ، جعلناه محو الضوء مطبوسه مظلمًا لا يستبين
فيه شئ كما قال سبحانه : «وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا» ويجوز أن يكون المعنى : فأزلنا

(١) إضافة آية إلى الليل بيانية ، يعنى آية هى الليل ، وكلها يقال فى آية النهار .

ظلمة آية الليل بالضوء الباهر والنور الساطع المنبعث من الشمس المشرقة .
(وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً) الآية .

أى وجعلنا النهار الذى هو آية على بارئته ومدبره - جعلناه مضيئاً ، بحيث تتبين به المسالك والدروب وأسباب الأرزاق ، لكى تبتغوا وتطلبوا فى ضوئه رزقا من فضل ربكم لا يتيسر لكم فى ظلام الليل ، وتعلموا بتفاوت الليل والنهار وتعاقبهما وسائر أحوالهما ، عدد السنين التى مرت بكم ، وحساب الشهور والأيام والليالى ، وغير ذلك مما ترتبط به مصالحكم ومعاشكم وعباداتكم .

(وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا) :

أى وكل شىء يرتبط بمعاشكم ومنافعكم الدنيوية والأخروية ، بيّنه الله سبحانه فى القرآن تبيناً تاماً لا لباس فيه ولا خفاء ، كما جاء فى قوله لرسوله : «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ» وبهذا ظهر كون القرآن هادياً للى هى أقوم ظهوراً بيناً .

واعلم أن القرآن اشتمل على قواعد كلية للعقائد والشرائع ، وأما التفاصيل الجزئية فقد أحالها الله تعالى على نبيه لتبينها ، وذلك فى قوله سبحانه : «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»^(١) .

فالصلاة فى القرآن أوجبها الله بنحو قوله : «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا» ولم يتعرض لكيفية أدائها وبيان أوقاتها ، وقد تكفل الرسول صلى الله عليه وسلم ببيان ذلك بوحي من الله تعالى : «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى»^(٢) .

(١) سورة النحل : الآية ٤٤

(٢) سورة النجم : الآيات ٣ - ٥ .

(وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۚ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۚ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾)

المفردات :

(طَائِرُهُ) : أى عمله من خير أو شر ، وقيل المراد رزقه وأجله وعمله وجميع ما قدره الله له . (فِي عُنُقِهِ) : تمثيل لشدة لزوم عمله له . (يَلْقَاهُ مَنشُورًا) : أى يجده مبسوطاً غير مطوى .

(حَسِيبًا) : أى حاسباً عملك لك أو عليك
(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) : الوزر فى اللغة الحمل مطلقاً، والمراد به هنا الذنب ، أى ولا تتحمل نفس حاملة للوزر ذنب نفس أخرى .

التفسير

١٣ - (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) :

فسر بعض العلماء الطائر هنا بالعمل - خيراً كان أو شراً - وفسره آخرون بجميع ما جرى به القدر وأحاط به العلم من الرزق والأجل والعمل والشقاوة والسعادة وسائر أحوال الإنسان ، وإطلاق لفظ (الطائر) على هذا أو ذاك على سبيل المجاز ، فكأنما يطير إلى العبد من غُش الغيب الذى علمه الله أزلاً فى شأن عبده . وتفسير الطائر بالعمل هو الذى نختاره فى تفسير الآية ، لأنه المناسب لقوله تعالى فى آخرها : « وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا » .

أى ونخرج للإنسان يوم قيام الناس من قبورهم وبعثهم لحساب ربهم - نخرج له كتابا يحوى تفاصيل أعماله خيرا وشرها ، يلقاه منشورا مبسوطا أمامه ليقرأه بنفسه ، ويتعرف على حسناته وسيئاته ، أخرج ابن جرير عن الحسن أنه قال : يَا ابْنَ آدَمَ بَسِطْتَ لَكَ صَحِيفَةً وَوُكِّلَ بِكَ مَلَكَانِ كَرِيمَانِ ، أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِكَ ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِكَ حَتَّى إِذَا مِتَّ طُوِيَتْ صَحِيفَتُكَ فَجُعِلَتْ فِي عُنُقِكَ فِي قَبْرِكَ ، حَتَّى تَجِيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُخْرَجَ لَكَ : ١ هـ والمقصود من جعلها في عنقه ارتباطها بصاحبها معنويا لاحسباً ، لأن الإنسان يقف في قبره ، ولهذا قال الحسن في آخر عبارته ، (حَتَّى تَجِيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُخْرَجَ لَكَ) وبعد أن عرفنا أن أعمالنا تسجل علينا بهذه الآية الكريمة ، وبنحو قوله تعالى : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وأنها تنشر يوم القيامة ، فلهذا ينبغي للعاقل أن لا يمل على الملكين الكاتبين لصحيفته إلا الأعمال الصالحة التى يفرح ويسعد بنشرها وقراءتها يوم القيامة ، ويدعو غيره إلى قراءتها فرحاً بها وبحسن عاقبتها كما حكاه الله تعالى عن السعيد الذى أوتى صحيفته بيمينه بقوله : « هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ »^(١) . وهذا القول يصدر منه بعد أن يقرأ كتابه ، تنفيذا لأمر الله تعالى إياه بقوله لكل مكلف سعيداً كان أو شقياً :

١٤ - (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) : فإذا قرأه وعرف منه حسن عاقبته قال ذلك .

والمعنى : يقال لكل إنسان بعد أن يجد كتابه منشورا مسجلا فيه عمله : اقرأ كتابك كفى بنفسك حاسباً عليك سيئاتك ، وحاسباً لك حسناتك ، فكل ذلك واضح مسطور في الكتاب ، كما قال تعالى : « وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »^(٢) . وكما ترى المجرمين مشفقين مما فيه ترى الصالحين مستبشرين فرحين بما فيه كما تقدم بيانه .

(١) سورة الحاقة : الآيات ١٩ - ٢٣

(٢) سورة الكهف : الآية ٤٩

والآية ظاهرة في أن كل مكلف يستطيع قراءة كتابه وإن لم يكن في دنياه قارئاً ، ولهذا كلف الله كل إنسان بقراءة كتابه ، قال قتادة : يقرأ في ذلك اليوم من لم يكن قارئاً في الدنيا ، ومن العلماء من فسر كتاب الإنسان بنفسه ، فإن ما يصدر عنه من خير أو شر يطبع في نفسه وينقش في روحه ، وهي في دنياها مشغولة بواردات الحواس المتجددة مشغولة عن هذه الآثار المنقوشة فيها والثابتة على صفحاتها ، فإذا انقطعت علاقتها بتلك الحواس قامت قيامة الإنسان ، وأدرك كل ما صدر عنه من خير وشر منقوشاً وثابتاً في نفسه وروحه ، بعد أن انكشف عنها الغطاء بالموت الجسدى ، وكما يظهر ذلك من نفسه عقب موته ، يظهر له منها في ساحة القيامة يوم النشور ، فيقال له حينئذ : اقرأ كتاب نفسك واذكر أعمالك ، كفى بنفسك مُحاسباً لك بما ثبت فيها من عملك ، ومعلوم أن العبد إذا مات قامت قيامته الصغرى وأحس من نفسه بمصيره الذى ينتظره ، فإذا بعث قامت قيامته الكبرى وكان الحساب والجزاء .

ويقرب هذا المعنى للذهن أن الإنسان بدواعي المعاني يتذكر في دنياه أموراً مضى عليها عشرات السنين ، وذلك ناشئ من انطباع صور الحوادث في نفسه .

١٥- (مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) :

بين الله فيما سبق أن هذا القرآن يهdy للى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين المهتدين بالأجر الكبير ، وينذر الكافرين بالعذاب الأليم ، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يطلب لنفسه الشر طلبه للخير ، فإن عمله ملازم له إلى يوم القيامة ، وجاءت هذه الآية لتبين أن المهتدى يهdy القرآن هو الذى ينتفع باهتدائه ، وأن من ضل عنه فهو الذى يضر بضلالة ، أما المولى سبحانه فإنه لا ينتفع بطاعة عباده ، ولا يضر بمعصيتهم ، وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فليس عليه إلا البلاغ .

والمعنى : أن من تأثر بمواعظ القرآن ، وتفتحت بصيرته لمعارفه ، واهتدى بهداه فلا تعود منفعة ذلك إلا عليه وحده ، وأن من انحرف عن سبيله ، وضل عن طريقه فلا يعود وبال ضلاله إلا عليه وحده دون سواء ، وتعالى الله أن تنفعه طاعة المهتدى ، أو

تضره معصية المنحرف ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ، وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة - جزاء الله عن دينه خير الجزاء .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) :

هذه الجملة مؤكدة لمضمون الجملة السابقة ، أى ولا تحمل نفس مثقلة بوزرها وحاملة لذنبها - لا تحمل ذنب نفس أخرى ، فكل امرئ بما كسب رهين ، فلو أمر شخص آخر بمعصية ، ووعد به أن يحمل عنه عقوبته ، فوعده كاذب وكلاهما مشلول ، فالأمر بالمعصية مشلول عن أمره بها ومعاقب عليها ، ومنفذ المعصية مشلول عن تنفيذها ومعاقب عليها ، روى عن ابن عباس أنها نزلت في الوليد بن المغيرة لما قال : اكفروا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى حمل أوزاركم : اه وفي ذلك يقول الله تعالى : « قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » (١) . فإن قيل إنه صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِكُفْرِهِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ » فإن فيه أخذ الإنسان بجرم غيره وقد أجيب عنه بأن الحديث محمول على ما إذا أوصى بذلك قبل أن يموت ، أو أنه يتألم لمعصية أهله ببكائهم عليه وشقهم الجيوب من أجله ، وعدم رضاهم بقضاء ربه ، فهو لهذا يعذب نفسياً ، وأما قوله تعالى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » فكل من المضل والضال حمل ذنب نفسه لا ذنب غيره ، فالمضل حمل ذنب إضلاله لغيره ، وغيره تحمل وزر ضلاله بسببه ، فالجهة منفكة ، وكل ما جاء على هذا النمط يؤول هذا التأويل .

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) :

بعد أن بين الله تعالى أن عاقبة الهدى والضلال لا تعود إلا على صاحبيهما ، جاءت هذه الجملة لتبين عظيم رحمة الله وعدالته وفضله .

والمعنى : وما صح ولا استقام في حكمنا ومستنا أن نعذب أحداً بنوع ما من العذاب دنيوياً كان أو أخروياً - على فعل شيء أو ترك آخر ، حتى نبعث رسولا يهdy إلى

الحق ، وينهى عن الباطل ، ويقيم الحجج ويبين الشرائع ، حتى تم أسباب التكليف وتقوم به حجة الله على خلقه .

واستدل الأشاعرة وفقهاء الشافعية بالآية على أن أهل الفترة ناجون وقد أطلقوا القول في ذلك .

وبما أنه قد صح تعذيب جماعة من أهل الفترة ، فقد أجيب عنهم بأن أحاديثهم آحاد لا تعارض القطع بعدم التعذيب قبل البعثة - كما دلت عليه الآية - وبأنه يجوز أن يكون تعذيب من صح تعذيبه منهم لأمر مختص به يقتضى ذلك ، عليه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، نظير ما قيل في الحكم بكفر الغلام الذى قتله الخضر عليه السلام مع صباه .

وقيل إن تعذيب هؤلاء المذكورين في الأحاديث مقصور على من غير وبدل من أهل الفترة . بما لا يعذر به ، كعبادة الأوثان وتغيير الشرائع ، كما فعل عمرو بن لحي الذى استحدث عبادة الأوثان ولا يخفى أن هذه الإجابات عن هؤلاء لا تتفق مع إطلاقهم القول بأنه لا وجوب إلا بالشرع ولا تكليف قبل البعثة ، قال الآلوسى (١) : ولو ثبت أن من جاءت الأحاديث بتعذيبهم في الفترة بين الرسل كانوا من أتباع رسول سابق بقى شرعه حينذاك كميمنى عليه السلام لم يبق إشكال - انتهى بتصرف يسير .

ويقول المعتزلة : إن الإيمان بالله واجب بالعقل قبل البعثة وبعدها ، ويحتجون بأن معرفة الله لا يمكن الوصول إليها إلا بالعقل حتى بعد البعثة ، ولهذا يقول الله تعالى : « قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » . ويقول : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ » . فالله تعالى يأمرنا بأن نعرفه بالنظر في آياته الكونية ، ولا يمكن إثبات رسالة الرسول إلا بعد معرفة الله الذى أرسله ، فوجب أن تكون معرفة الله أولاً بالعقل ، وثبت أن من كفر به قبل البعثة يستحق العذاب ، ويقولون أيضاً إن الأحكام تعرف بالعقل لأنه يدرك حسن الأفعال وقبحها قبل ورود الشرع (٢) . وقد أثبت الإمام الرازى

(١) الآلوسى ج ١٥ ، ص ٣٨ منير .

(٢) فإذا لم يرد في الشرع كنا مكلفين ومحاسبين على الأخطاء ، والله تعالى أرسل الرسل لتأييد العقل ومساعدته في أحكامه كذا قالوا .

الوجوب العقلي ، وفسر قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » بوجهين (أحدهما) : حمل الرسول على العقل (والثاني) : تخصيص العموم بأن يقال : المراد وما كنا معذبين في الأعمال التي لا سبيل إلى معرفتها بغير الشرع إلا بعد مجيء الشرع ، ثم قال والذي نرتضيه ونذهب إليه أن مجرد العقل مسبب في أن يجب علينا فعل ما ينتفع به ، وترك ما يتضرر به ، ويمتنع أن يحكم العقل على الله تعالى بوجوب فعل أو ترك فعل ، ^(١) .

وحمل الآية أبو منصور الماتريدي وتابعوه على نفي تعذيب أهل الفترة بالاستئصال في الدنيا ، وذهبوا إلى تعذيبهم في الآخرة بترك الإيمان والتوحيد ، وأهل الفترة كل من كان بين رسولين ، ولم يكن الأول مرسلًا إليهم ، ولم يدركوا الثاني ، واعتمد القول بتعذيب أهل الفترة الإمام النووي في شرح مسلم ، فقال : إن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان في النار ، وليس في هذا مؤاخذه قبل بلوغ الدعوة ، فإن هؤلاء كانت بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الرسل عليهم السلام .

قال الآلوسی تعليقاً على رأى النووي : والظاهر أن النووي يكتفي في وجوب الإيمان على كل أحد ، ببلوغه دعوة من قبله من الرسل وإن لم يكن مرسلًا إليه .

وقال الحلیمی ^(٢) في منهاجه : إن العاقل المميز إذا سمع آية دعوة كانت إلى الله تعالى ، فترك الاستدلال بعقله على صحتها وهو من أهل الاستدلال والنظر كان بذلك معرضاً عن الدعوة فيكون كافراً - ويبعد أن يوجد شخص لم يبلغه خبر أحد من الرسل على كثرتهم وتطاول أزمان دعوتهم ، ووفور عدد الذين آمنوا بهم واتبعوهم ، والذين كفروا بهم وخالفوهم فإن الخبر يبلغ على لسان المخالف كما يبلغ على لسان الموافق ، ولو أمكن أنه لم يسمع قط بدين ولا دعوة نبي ، ولا عرف أن في العالم من يثبت إلهاً - ولا نرى أن ذلك يكون فأمره على الاختلاف في أن الإيمان هل يجب بمجرد العقل ، أو لابد من انضمام النقل ؟ ^{هـ ١٩} .

(١) المصدر السابق ص ٣٧

(٢) المصدر السابق آخر ص ٣٧ وأول ص ٣٨

وعلق عليه الآلوسی بقوله : وهذا صريح في ثبوت تكليف كل أحد بالإيمان بعد وجود دعوة أحد من الرسل عليهم السلام وإن لم يكن رسولا إليه ، وبالعقوبة بعضهم في اعتماد ذلك حتى قال : فمن بلغت دعوة أحد من الرسل بوجه من الوجوه ، فقصر في البحث عنها فهو كافر من أهل النار ، فلا تغتر بقول كثير من الناس بنجاة أهل الفترة مع إخباره صلى الله عليه وسلم بأن آباءهم الذين مضوا في الجاهلية في النار .

ثم قال الآلوسی^(١) : والذي يميل إليه القلب أن العقل حجة قبل ورود الشرع في معرفة الصانع تعالى ووحدته وتنزهه عن الولد للأدلة السابقة ، أما إرسال الرسل وإنزال الكتب فمن رحمته تعالى ، أو أن ذلك لبيان ما لا ينال بالعقول من أنواع العبادات والمعاملات والحدود ، فلا يرد أنه لو كان العقل حجة ما أرسل الله تعالى رسولا اكتفاءً بالعقل ، وقيل في جواب هذا الإشكال : لما كان أمر البعث والجزاء مما يشق على العقل وحده إلا بعظيم تأمل فيه حرج يعذر الإنسان بمثله ولا إيمان بدونه فلماذا بعث الله الرسل عليهم السلام لبيان ما به تتممة الدين ، لا لنفس معرفة الخالق فإنها تنال ببداية العقول ، فالبرعة تدل على البعير ، والأثر على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا تدل على اللطيف الخبير : ١٥ . بتصرف .

رأى الإمام الغزالي

ثم حكى الآلوسی رأى الإمام الغزالي في ذلك إذ قال^(٢) : الناس بعد بعثته صلى الله عليه وسلم أصناف ، صنف لم تبلغهم دعوته ولم يسمعوا به أصلا ، فأولئك مقطوع لهم بالجنة ، وصنف بلغتهم دعوته وظهروا المعجزة على يده وما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق والصفات الكريمة ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانينا فأولئك مقطوع لهم بالنار ، وصنف بلغتهم دعوته عليه السلام وسمعوا به بطريقة مشوهة لا تظهره على ما كان عليه من الكمال في أمره كله ، فهؤلاء أرجو لهم الجنة إن لم يؤمنوا به : ١٥ . بتصرف .

وقد علق الآلوسی على هذا الرأي بقوله : ولعل القطع للأولين بالجنة ، ورجاءها للآخرين إذا كان هؤلاء وأولئك مؤمنين بالله تعالى ، أما إذا كانوا غير مؤمنين به فهم على الخلاف في أمرهم : ١٥ . بتصرف يسير .

(١) انظره في ج ١٥ ص ٣٩ طبع منير . (٢) المصدر السابق في آخر ص ٣٩ - ١٢ .

الراى الذى فرتضيه

تبين من هذا البحث أن أحاديث صحيحة وردت بتعذيب بعض المشركين فى الفترة بين رسولين ، وبما أنه تعالى قال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » ، فإننا نرى أن ما ذهب إليه الماتريدية أسلم ، لما فيه من الجمع بين الكتاب والسنة ، فبالسنة يحكم على أهل الفترة بالكفر واستحقاق عذاب النار ، لإشراكهم بالله تعالى ، وهم غير معذورين فى هذا الشرك ، فقد كان البدوى منهم يعرف أن البعرة تدل على البعير ، وآثار السير على المسير ، وأن هذه الأرض ذات الفجاج ، وهذه السماء ذات الأبراج ، براهين على وجود الخالق الكبير العليم ، وأن الشركاء التى عبدوها معه ، ليس لها شئ من الخلق والرزق ، فهم لهذا لا يعذرون وإن لم يبعث فيهم رسول ، لأن معرفة الله لا تتم إلا بالعقل قبل إرسال الرسل ، وبعدهم - كما تقدم بيانه - ويحمل نفى العذاب فى قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » على نفى عذاب الاستئصال فى الدنيا ما لم يبعث إليهم رسول فيكفروا ويصبروا ، فهذا يستحقون الاستئصال ، ومعلوم أن الماتريدية من أهل السنة كالأشاعرة - والله تعالى أعلم .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝١٦ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝١٧)

الفردات :

(أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) : أمرنا الرؤساء والمنعمين فيها بالطاعة ، وقيل جعلناهم أمراء ^(١)
(فَفَسَقُوا فِيهَا) : أى فخرجوا عن الطاعة وتمردوا فيها .

(١) قال القرطبي فى تعليقه : لأن العرب تقول : أمير غير مأمور أى غير مؤمر وبالمعنى الأول قال ابن عباس وعليه الأكثرون .

- (فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ) : أى فوجب عليها القول ، أى فوجب عليها الوعيد بالعذاب .
 (فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) : التدمير : الإهلاك مع طمس الأثر وهدم البناء .
 (وَكَمْ أَهْلَكْنَا) : كم خبرية للتكثير أى وكثيرا أهلكنا .
 (مِنْ الْقُرُونِ) : جمع قرن وهو من الزمان مائة سنة ، والمراد من القرون أهلها .

التفسير

١٦ - (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) :

بينت الآية السابقة أن عاقبة الهدى لا تعود إلا على المهتدى ، وعاقبة الضلال لا تتعدى صاحب الضلال ، فلا تحمل نفس وزر نفس أخرى كما لا تثاب نفس فاسقة بطاعة نفس أخرى وأنه تعالى لا يعذب أمة حتى يبعث إليها رسولا ينصحها ويرشدها فتستمر على ضلالها . وجاءت هذه الآية لتؤكد سابقتها ، ببيان أن الله تعالى جرت سنته أن لا يهلك قرية بعد بعث الرسول إليها ، حتى يأمر رؤساءها بطاعته ليستقيم أمر العامة فيها ، فإذا لم تستجب دمرها تدميرا .

والمعنى : إذا شئنا إهلاك قرية أعرضت عن رسولها ، فإننا لا نكتفى بما علمناه أزلا من انطماس بصيرة أهلها وجحودهم ، ولا بمقابلة رسولهم بالكذيب والكفر ، بل نخص المترفين فيها بتكرار أمرهم بطاعة ربهم ، لأنهم أئمة الضلال وسبب فساد العامة ، ولكي تسقط حجتهم يوم حساب ربهم ، فاستمر فسقهم فيها ومن ورائهم عامتهم ، فحق عليها وعيد ربهم بعذاب الاستئصال الدنيوي ، فدمرها الله تدميرا هائلا ، حيث أهلك أولئك الفاسقين المتمردين واستأصلهم بما شاء الله من أسباب الاستئصال ، فصارت قريتهم بعدهم خراباً ، وانطمست معالمها .

رأى الزمخشري

يزى الزمخشري أن الآية فيها استعارة تمثيلية ، وخلاصة المعنى عليها : وإذا أردنا أن نهلك قرية كفر أهلها وعصوا وأصروا على ذلك ، أمددناهم بالنعم وأترفناهم في الحياة ،

استدراجاً لهم ، فكان هذا الاستدراج بالنعمة كأنه أمر لهم بالفسق ، ففسقوا فيها فحق الوعيد بتعذيبهم فدمرناها تدميراً .

والمعنى الأول ، أوضح وأظهر ، وأساسه ما نقل عن ابن عباس ترجمان القرآن من أن المراد بأمر مترفيها أمرهم بالطاعة ، ولذا قال تعالى في مقابله : « فَفَسَقُوا فِيهَا » أى قابلوا الأمر بالطاعة بالفسق .

١٧ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) : والقرن زمان طويل ، وأشهر الأقوال فيه أنه مائة سنة ، وقد جاء في حديث أنه صلى الله عليه وسلم (دعا لرجل فقال : « عِشْ قَرْنًا » فعاش مائة سنة) ويجمع القرن على قرون والمراد منها أهلها لا قترانهم في زمان واحد .

والمعنى : وكثيرا ما أهلكنا من الأمم المقترنة ، كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ممن جاءوا بعد قوم نوح واستأصلناهم كما استأصلنا قوم نوح ، وقد قصصنا عليك يا محمد أخبار بعضهم ، ولم نقصص أخبار غيرهم وكان إهلاكهم لكفرهم وتكذيبهم لرسولهم ، وكفى بربك بذنوب عباده الخفية والظاهرة خبيراً بصيراً ، أى عالمٌ بقائدها محيطاً بتفاصيلها فيعاقبهم عليها ، فلا تبتئس يا محمد بما صنع قومك معك ، فسوف نعاقبهم كما عاقبنا من قبلهم إن أصروا على كفرهم ، وإنما قال من بعد نوح ولم يقل من بعد آدم ، لأن نوحاً أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم الله بعذاب الطوفان ، ولظهور حال قومه لم يذكرهم ضمن الأمم المهلكة ، على أن ذكره رمز إليهم وإلى ما حدث لهم وقدم « خبيراً » على « بصيراً » لتقدم متعلقه من الاعتقاد والنيات تقدماً وجودياً ورتبياً ، فإنها مبادئ الأعمال الظاهرة قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » الحديث .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝ كَلَّا نُمَدِّهُنَّ مُؤَلًّا وَمَهْلُؤَلًّا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝)

المفردات :

(الْعَاجِلَةُ) : أى الدار العاجلة ، والمراد بها الدنيا. (يَصْلَاهَا) : يدخلها ويقاسى حرها. (مَذْحُورًا) : مطرودا مبعدا من رحمة الله. (كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) : كان عملهم للآخرة مقبولا من الله مجزيا منه بحسن الثواب ، وأصل معنى السعى : المشى السريع - وهو دون العتو - ويستعمل فى الجدة فى الأمر خيرا كان أو شرا ، وأكثر ما يستعمل فى الأفعال المحمودة - كما قال الراغب - (مَحْظُورًا) : ممنوعا .

التفسير

١٨ - (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ) :

بين الله قبل هذه الآية أنه تعالى لا يهلك أمة عاصية إلا بعد أن يبعث إليها رسولا يأمر مترفياها أن يتركوا ما هم عليه من الكفر والمعاصى حتى تستقيم عانتهم ، وأنهم إذا أصروا على فسقهم دمرهم واستأصلهم ، وأنه قد أجرى هذه السنة فى كثير من القرى والأمم من بعد نوح ، وجاءت هذه الآية وما بعدها لتبين سنة أخرى لله تعالى فى جزاء الناس على أعمالهم ، فمن قصد بعمله دنياه وحدها ، أعطاه منها ما تعلق به مشيئته ، ولكنه معاقب فى الآخرة ، ومن قصد بعمله أخراه وكان مؤمنا أثيب أحسن الثواب فى أخراه .

والمنعى : من كان يقصد بعمله منافع هذه الدار العاجلة ، من الاستمتاع بما فيها من المتع واللذائذ والذكر الحسن بين الناس دون أن تخطر الآخرة بباليه ، أو يبتغى بعمله وجه ربه - كما هو شأن الكافر والمنافق - فإن الله تعالى يعجل له في هذه الدار ما شاء تعجيله له من نعيمها ومنافعها ، لا كل ما يريد العامل للدنيا .

وليس بضرورى أن يجيبه فيها إلى شيء من مآربه ، فإنه لا يعطى إلا من أراد إعطاءه فإن أعطاه فعلى سبيل الاستدراج والكيد بسبب إصراره على الكفر ، وليس على سبيل الجدارة والاستحقاق - كما قال تعالى : « وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » . وقد بين الله عاقبة هذا الصنف من الناس بقوله :

(ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَلْمُومًا مَّدْحُورًا) :

أى ثم جعلنا له جزاء على إهداره أخراه وإيثاره دنياه ، جعلنا له جهنم يدخلها ويقاسى حرها ، ولا يقتصر أمره على ذلك ، بل يضاف إليه الذم والإهانة والطرده من رحمة الله تعالى ، فلهذا قال : « يَصْلَاهَا مَلْمُومًا مَّدْحُورًا » فما أسوأه من مصير ، وفى مثل ذلك يقول الله تعالى فى سورة الشورى : « وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ » .

١٩ - (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) :
أى ومن قصد بعمله الدار الآخرة وحسن الجزاء فيها ، وجدَّ فى عملها اللاتى بها وهو مصدق بربه ونبيه تصديقاً وثقاً لا تشوبه شائبة موهنة ، فأولئك المصدقون المريدون الآخرة العاملون من أجلها كان سعيهم المتواصل مقبولا عند الله مثابا عليه أضعافاً مضاعفة ، كما قال تعالى فى سورة الشورى : ^(١) « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ » .

٢٠ - (كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) :

أى كلام من يسعى للعاجلة ومن يسعى للآخرة ثمده ونزيده مرة بعد أخرى ، بحيث يكون اللاحق مدداً للسابق - ثم هؤلاء وهؤلاء - من عطاء ربك ونعمته ، فصاحب العاجلة يمدده الله حسب مشيئته تعالى بالنعم الدنيوية التى سعى إليها وآثرها على الآخرة ، ولم يعطها حقها من

الشكران والطاعة والإيمان ، وصاحب الآخرة يمدّه ربه بما يعينه على طاعته وشكره ، ويستتبع حسن مثوبته ، وما كان عطاء ربك أيها المكلف ممنوعاً عما يريد ، بل هو فائض على ما يشاؤه الله بموجب حكمته ، ولا يمنع بره عن عباده كفر ولا عصبان ، وسيُجزى كلٌّ في آخره على ما قدمت يداه .

(أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ
دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ
مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(فَتَقْعُدَ) : القعود هنا بمعنى الإقامة أو المكث ، سواء أكان في مكثه قاعداً أم قائماً وقيل القعود بمعنى الصبرورة ، من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة ، أي حتى صارت كأنها حربة ، وقيل غير ذلك . (مَّخْذُولًا) : أي عديم النصير .

التفسير

٢١ - (أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) : الخطاب في هذه الآية لكل مكلف ، فالله تعالى يدعوه فيها إلى التأمل في فضله وتمييزه بعض الناس على بعض في الرزق والنعمة في الحياة الدنيا - دون نظر إلى عمل ، ويبين أن التفاوت في الآخرة بين عباده سيكون أعظم ، تبعاً لتفاوتهم في الدنيا في العمل .

والمعنى : انظر أيها المكلف وفكر في تفضيل الله بعض الناس على بعض في الرزق في هذه الحياة الدنيا من غير نظر إلى إيمانهم وكفرهم ، فقد يكون الكافر أوسع نعمة وأعظم

جاءها من المؤمن في الدنيا ، وقد يكون العكس ، لأن العطاء في الدنيا لا ينظر فيه إلى العمل غالباً ، بل هو كرم غير مشروط ، وتذكير وامتحان يستتبع الجزاء .

وهذا التفاوت الذي تراه في الدنيا لا قيمة له بجانب التفاوت الذي سوف يكون في الآخرة ، فإن التفاوت فيها سيكون أعظم ، ودرجات التفضيل ستكون أكبر ، تبعاً لتفاوتهم إيماناً وكفراً ، وطاعة وعصياناً ، فبعضهم في أعلى عليين وبعضهم في أسفل سافلين ، وغيرهم من سائر الخلق متفاوتون في الدرجات أو الدرجات ، وقد جاء في تفاضل أهل الجنة في الدرجات عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاوُنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ ، كَمَا يَتَرَاوُنَ الْكُوكَبُ الدَّرَى الْعَابِرُ مِنَ الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ : تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ ؟ قَالَ : بَلَى . وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، رَجُلٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَقُوا الْمُرْسَلِينَ » أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم .

وقد صح أنه تعالى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وروى ابن عبد البر في (الاستيعاب) عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضي الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو القرشي ، وكان أحد الأشراف في الجاهلية ، وأبوسفيان بن حرب وأولئك المشايخ من قريش ، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر - وكان يحبهم - فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ، ونحن جلوس لا يلتفت إلينا ، فقال سهيل - وكان أعقلهم - : أيها القوم . . . إني والله قد أرى في وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دعي القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتهم ، أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتا من بابكم هذا الذي تنافسون عليه ... انتهى بتصرف يسير . . وفي الكشف أنه قال : إنما أتينا من قبلي أنفسنا ، إنهم دعوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر . . فكيف التفاوت في الآخرة ؟ ولئن حسدتموه على باب عمر ، لما أعد الله لهم في الجنة أكبر .

٢٢- (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا) :

أى لاتجعل أيها المكلف مع الله إلها آخر تشركه معه فى الألوهية- وتنتجه إليه معه بالطاعة والعبودية، فيترتب على هذا الإشراك أنك تمكث فى جهنم جامعا على نفسك الخذلان من الله حيث يدخلك جهنم ، ومن الآلهة الشركاء حيث لاقدرة لها على أن تخلصك من عقاب ربك . ويعترتب عليه أيضاً الدم من الله والملائكة والمؤمنين من عباده لأنك اتخذت إلهاً فقيراً مثل فقرك ، عاجزاً مثل عجزك ، لايملك لنفسه نفعاً ولاضرراً ، كما لايملك لنفسك ، ونسبت إليه ما لا يصلح ، وجعلته شريكاً لمن لا شريك له ، وهو الذى خلقك ورباك ، وبرزقه كفاك ، نعوذ بالله من الشرك خفيه وظاهره ، ونسأله العافية وحسن الختام .

* (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا
أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا
جَنَاحَ الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي
صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ
فَلَا تُهْرِكُمْ كَانِ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(وَقَضَىٰ) : وأمر- أمراً قاطعاً .. (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا) : أى إن وصلا أو أحدهما إلى الشيخوخة والكبر فى كنفك وكفالتك. (أُفٍّ) : اسم صوت يدل على الضجر. (وَلَا تَنْهَرُهُمَا) : أى ولا تنههما عمالا يعجبك بغلظة. (قَوْلًا كَرِيمًا) : أى قولاً لينا جميلاً يقتضيه حسن الأدب. (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الدُّلِّ) : أى ألين جانبك شفقة عليهما

وتواضعاً وتذلاً لهما ، كالتائر يخفض جناحه شفقة على أولاده .
(الأوابين) : الرجاعين التائبين .

التفسير

٢٣ - (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) :

بعد أن نهى الله كل مكلف عن أن يجعل مع الله إلهاً آخر ، لأنه لا رب سواه أتبع ذلك بيان أن الله قضى أمراً قاطعاً ألا يعبدوا إلا الله ، وأن يحسنوا إلى والديهم . .

والمعنى : أمر ربك يا محمد أن يوحد عباده بالطاعة ولا يشركوا به أحداً فهو ربهم وخالقهم ومدير أمرهم ، وصاحب الآلاء والنعم التي ينعمون بها ، يدركون بعضها ويخفى على كثير منهم معظمها ، ويعيهم ويعجزهم عندما وحصرها ، ونواصيهم بيده . « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ » ، فمن غفل الرأي - إذن - وسوء التقدير أن يشركوا معه إلهاً آخر ، لا يضر ولا ينفع ، ولا يملك من أمر نفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

(وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) : وكما حكم وألزم الأولاد أن يحسنوا إلى والديهم بالقول الطيب والرعاية التامة والقيام بشأنهما ، فهما أحق الناس بحسن الصحبة ، ورضا الله في رضاهما وسخطه في سخطهما .

(إِمَّا يَنْتَلِفُنَّ مِنْكَ الْكَبِيرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) : أى إذا تقدمت بهما أو بأحدهما السن وانتهيا إلى ضعف بعد قوة ، ومرض بعد صحة ولم يستطيعا القيام على أمرهما ، وتدبير شأنهما لما أصابهما في الكبر من وهن الجسم وإلحاح العلة وضعف التفكير ، وتلك الحال مظنة أن يصدر منهما ما يغضب أو يشغل على النفوس ، أو يعوق عن سعى في الدنيا أو يكثر النفقة ويرهق الأسرة ويشق عليها - إن حدث ذلك - فلا تقل لوالديك الكبيرين أو لأحدهما ما يدل على ضجرك ، أو يسئ إليهما ، من قول بعيد عن حسن الأدب ، أو فعل لا يليق من الولد لأبيه ، فقد غداه مولوداً ، وعاله يافعاً ، وسهر ليله لسقم أصابه ، أو مرض ألم به ، أ يكون جزاء هذا الأب الحاني غلظة القول وجفاء الخلق ؟ أو يكون جزاء الأم الرؤوم أن تقابل بما يكسر قلبها ، ويشير ألمها وينال من كرامتها ، وهى التي كان بطنها له وعاء ، وثديها

سقاءً ، وحجرها مهاداً ووطاءً ، تؤثره على نفسها ، وتُقْذِيه بروحها ، هذا فضلاً عن أن الجنة تحت أقدامها ، فَبِرُّها خير وبركة ، وغنى وسعادة ، وبالجملة فبر الوالدين ينبغي أن يكون في أجمل وأبهى حلله فإنه بعض الوفاء لفضلهما « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » وإن من سوء الطالع أن يعق الولد أبويه ، فيقابل الحسنة بالسيئة ، والنعم والفضل بالجحود والكفران ، والعناية بالترك والإهمال ، إن في هذا لَبَوَّاراً وخسراناً في الدنيا ، وغضباً من الله وحرماناً من رضوانه في الآخرة .

٢٤ - (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) :

أى إن حق الوالدين لا يقف عند إخفاء الضجر والبعد عن الانتهاز والزجر ، ولا عند الإحسان بالقول الطيب واللفظ اللين كما جاءت به الآية السابقة ، بل إن وراء ذلك ما جاءت به هذه الآية من أن تبسط لهما من نفسك ، وتخفّض جناح الذل منك كما يخفّض ويبسط الطائر جناحه على فراخه رعاية وشفقة وحناناً ، بحيث لا يشوب هذا الخفض تكلف ولا تصنع ولا رياء ، ولا تخالطه رائحة استعلاء أو يشم منه أثر كبر أو من ، بل يكون ذلك عن رحمة لمن أسدى إليك معروفًا وقدم إليك برًّا ورعاية ، وقد أتاح الله لك فرصة فاغتنمها بأداء بعض ما عليك لهما ، والوفاء بما لديك من دينهما ، فهما مفتقران إلى من يأخذ بأيديهما ويعطف عليهما ويقوم على برهما في كبرهما ، وأنت أولى الناس بهما ، ثم لا يقف بك الأمر عند هذا بل توجه إلى الله بقلب ضارِع تَقِيُّ أن يرحمهما برحمته الواسعة في الدنيا والآخرة ، فتكون بذلك نعم الولد الذى يدعو لوالديه فيصلهما بره حتى بعد وفاتهما ولا ينقطع عملهما وأنت تدعو لهما ، وهذا الدعاء جزاء تربيتهما لك ، ورحمتكما بك ، فقل : رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ، فتكون نعم المجازى والمكافئ . . . وفى أمر الله الولد أن يدعو لوالديه بالرحمة مع قيامه ببزهما والإحسان إليهما ، ما يشير إلى أن الولد مهما بذل وأعطى وأحسن إلى والديه فلا يستطيع أن يوفيهما حقهما ، وأنه لا يبنى بذلك الحق سوى الله تعالى ، فلذلك يدعو سبحانه ليَجْبِرَ عنه النقص في برهما . . . هذا وإن برَّ الوالدين لا يتوقف على كونهما مسلمين أو طائعين . . . بل يشملهما ولو كانا فاسقين أو كافرين ولكنه لا يطيعهما في كفر أو فسق ، قال تعالى : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا» وله أن يدعو لأبويه الفاسقين بالغفران والرحمة بعد موتهما ، طمعاً في فضل الله ، ولكن ليس له أن يدعو لهما بذلك إن كانا كافرين ، لقوله تعالى : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » .

وعليه أن ينصح والديه الفاسقين أو الكافرين في رفق ولين ، فإن وفقه الله تعالى فمن فضله عليه وعليهما ، وإلا فقد أعذر لربه كما أعذر له إبراهيم عليه السلام في نصيح أبيه آزر : « يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا » الآيات من سورة مريم . هذا وإن بر الوالدين لا ينقطع بموتهما ، بل جعله الله موصولاً بعد وفاتهما لإكراماً لحقهما وتوكيداً لمكانتهما .

فعن أبي أسيدٍ وهو مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال : « بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ بَقِيَ مِنْ بَرِّ أَبِيٍّ شَيْءٌ أَبْرَهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا ؟ فَقَالَ : نَعَمْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا ، وَالِاسْتِغْفَارُ لهما ، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ، وَصَلَاةُ الرَّحْمِ الَّتِي لَا تُوَصَّلُ إِلَّا بِهِمَا وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا » (١).

٢٥ - (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) :

أى إن الله الذى خلقكم ورباكم بنعمه وفضله أعظم علماً بما انطوت عليه صدوركم وما انعقدت عليه قلوبكم : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » فإن كنتم من الذين من الله عليهم بالتقوى وجعلهم في زمرة الصالحين ورجعتم إليه تائبين ، فإنه سبحانه يتفضل عليكم بالتجاوز عما وقع منكم ، من تقصير بدر منكم بمقتضى الجبلة البشرية التى هى مظنة الجهالة ، فإنه كان ولا يزال غفوراً للتوابين ، وفى هذه الآية وعد صريح وبشارة واضحة للمطيع البار ، وإنذار ضمنى للعاصي المعاند ، فالله سبحانه يحاسب كلًّا على عمله ونيتته « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مِمَّا نَوَىٰ » .

(وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ
تَبَذِيرًا ۖ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ
الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۖ) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْنَاءَ رَحْمَةٍ
مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۖ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ
مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَّحْسُورًا ۖ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ
كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝)

الفردات :

(وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ) : وأعط صاحب القرابة حقه من البر والصدقة .

(وَابْنَ السَّبِيلِ) : المسافر في غير معصية الذي لا مال معه .

(وَلَا تُبَذِّرْ تَبَذِيرًا) : التبذير إلتلاف المال في المعاصي أو الترف .

(إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) : أى أصحابهم المطيعين لهم . (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ) : أى وإن

أعرضت عن إعطاء أصحاب القرابة والمسكين وابن السبيل لعدم وجود ما تعطيه لهم إياه
من البر. (فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا) : فقل لهم قولاً سهلاً ، بوعدهم بالمعطاء عند اليسر
أو الاعتذار لهم. (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ) : أى ولا تبخل بخلاً شديداً ، كأن
يدك مغلولة إلى عنقك. (وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) : بالتبذير المنهى عنه. (مَّحْسُورًا) : مغموماً
نادماً على إسرافك. (يَبْسُطُ الرِّزْقَ) : يوسع .

(وَيَقْدِرُ) : يضيق الرزق حسب مشيئته تعالى وحكمته .

التفسير

٢٦- (وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْدِيرًا) :

بعد أن أمر الله المسلم بأداء حقوق الوالدين أمر - سبحانه - برعاية الأقرباء وذوى الأرحام بالنفقة الواجبة والعتاء والصلة ، فإن ذلك يديم الود ويبقى على التراحم ، كما أمره أن يشمل بره وفضله إخوته في الإسلام والإنسانية ، فيحنو على مسكينهم يخفف عنه شدة الحياة ولأولاً ، يمنحه مما أفاء الله عليه ما يقيم به أوده ويسد خلته ، ويبقى على إنسانيته غير ذليلة ولا مهينة ، كما يمتد عطاؤه إلى ذلك الإنسان الذى انقطعت به سبيل الحياة ، ونأى عن أهله وماله ، وأصبح غير معروف لأحد ينسب أو قرابة سوى أنه ابن للطريق الذى يسير فيه ، يعطى هذا المُنْبَت ما يبلغه أهله ووطنه رحمة به وتوطيداً للأخوة ، وبدلاً للمعروف واستجابة لداعى المروعة ، بهذا قد حدد الله لنا مجال البر وإطار الخير ، فلا خروج عنه إلا إلى مباح في اعتدال ، إذ لو جنح صاحب المال عما أمر الله وأهل ، فإنه يكون مبذراً ، ويصير من إخوان الشياطين ، كما قال الله تعالى :

٢٧- (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) :

يعنى أن المبذرين الذين يصرفون أموالهم في المعاصي ، والترف الواسع ، يشبهون الشياطين وبماثلونهم ويتأسون بهم في كفران النعمة لصرفها فيما حرم الله ، أو يتلقونها في ترفهم وينسون المبرات ، فإذا ساروا على طريقته هذه ولم يرجعوا إلى ما شرعه الله ، حشروا في النار مع قرنائهم وأمثالهم من الشياطين الذين يسيرون وفق إغوائهم ، ويسلكون سبيلهم ، والجزاء من جنس العمل .

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) : أى أن الشيطان دأب على كفران النعم ، حيث إنه يصرف القدرة التى منحها الله له إلى المعاصي والإفساد في الأرض وإضلال الناس ، وكان حقها أن تصرف فيما خلقت له ، في عبادة ربه وطاعة مولاه « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » فاحذروا أن تتشبهوا بالشياطين في الجعود والكفران ، حتى لا تكون عاقبتكم البوار والخسران كما عاقبتهم .

٢٨- (وَلَمَّا تَعْرِضْنَّ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا) :

أى وإن أعرضت وملت عن هؤلاء الأقارب والمساكين وأبناء السبيل فلم تحقق لهم

(١) إما مركبة من إن الشرطية وحرف ما . والفرس من وصل (ما) بيان الشرطية هو تقرير الشرط وتقويته .

ما يطلبون أو لم تمنحهم ما يؤملون ، وذلك لعسر أصابك ، أو فقر نزل بك ، وأنت تتطلع وترجو من ربك أن ييسر لك ويفرج كربك ، واثقاً بفضل طامعاً في رحمته - إن أعرضت عن هؤلاء لذلك - فاعتذر لهم بالقول الطيب والكلام اللين والدعاء ، مع الوعد الجميل ببرهم ، عندما يزول عذرك ، لتسر نفوسهم وتفتح باب الرجاء أمامهم ، وهذا تأديب وتوجيه يبقى المودة ويديم الألفة بين المؤمنين والله در هذا الشاعر حيث يقول :

إِلَّا تَكُنْ وَرِقٌ^(١) أَجُودَ بِهَا لِلسَّائِلِينَ فَإِنِ لِّينَ الْعُودِ

لا يعدم السائلون الخير من خلقٍ إما نوالٍ وإما حسن مردودٍ

٢٩ - (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) : أمرنا الله فيما تقدم بالإنفاق في البر ، وجاءت هذه الآية ليعلمنا الله أدب إنفاق المال ، فنحننا - سبحانه - عن البخل والشح وعن الانطلاق في البذل .

والمعنى : ولا تجعل يدك - كالمغلولة الممنوعة بالغل عن الانبساط في الإنفاق ، بل تعود بسط اليد والسخاء والجود حتى لا يلومك ويعتب عليك أهلك ، ويذمك من يعرفك من أصحابك وعشيرتك ، ويملك أهلك ولداً ويتمنوا هلاكك ، ولا تسرف في الإنفاق وتتجاوز الحد ، فتكون كمن بسط يده ونشرها فضاع ما كان فيها من مال ، بل تدبر أمر مستقبلك أنت ومن تعمل حتى لا تضيعهم فترجع ملوماً من الله تعالى ومن الناس ومن نفسك إذا احتجت كما تصير بهذا الإسراف كليلاً منقطعاً ، كالذي بلغ الغاية في التعب والإعياء ، فلم يستطع مواصلة سيره ، فعليك أن تكون وسطاً بين الإفراط والتفريط ، متصفاً بصفات عباد الرحمن الذين قال الله فيهم : « الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » ويلاحظ أن الإسراف قد يؤدي إلى الإثم إن أضاع العيال ، قال صلى الله عليه وسلم : « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ » .

٣٠ - (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) : أي إن بسط الرزق وتوسعته وقبضه ليس لك ولا هو من شأنك أيها المربوب الضعيف الذي لا تعلم أمر نفسك وما يصلحها ، ولا تقدر على تدبير شأنك من غير معونة ربك ، فهو الذي

يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه ، وأنت مأمور منه سبحانه أن تكون معتدلاً في الإنفاق في حالتى الفقر والغنى ، وأن تسعى في سبيل رزقك ، والله يعينك في سعيك إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ، يعطى عباده حيثما جرت به مشيئته وحكمته فمن حكمته تعالى - أن يفاير بين الناس في الفقر والغنى ، ليستقيم أمر الحياة وينتظم شأنها ، فطائفة تيسر لعمل ، وثانية تسخر في آخر ، وهكذا ييسر الله كلما خلق له فتسير الحياة ويستقيم أمر الخلق ، ولوجعل الله الناس على حال واحدة لاختل النظام وفسد وانتهى أمر الخلق إلى فوضى ، وتعطلت جوانب كثيرة من حياة الناس ، وصدق الله حيث يقول : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » (١١) .

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِيَ تَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥))

الفردات :

(خَشْيَةً إِمْلَاقٍ) : خوف فقر وفاقة . (خِطْئًا كَبِيرًا) : ذنباً عظيماً وخطيئة كبيرة ، والخطيء بكسر الخاء تعمد الذنب ، قال الأزهري : خطيء يخطئ خطئاً - بوزن علم يعلم علماً -

إذا تعدد الخطأ ، مثل أثم يَأْتِمُ لثَمًا ، وأخطأ إذا لم يتعمد ، إخطاء وخطأ .
 (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْنَىٰ) : ولا تدخلوا في شيء من مقدمات الزنى ، فضلا عن مباشرته .
 (فَاحْشَةً) : فعلة سيئة ظاهرة القبح . (لِوَلِيِّهِ) : لوارثه الذى له المطالبة بدمه فإن لم يكن له ولى فالسلطان ولىه ، (سُلْطَانًا) : تسلطا واستعلاء على القاتل وموآخذته بالقصاص أو الدية .
 (فَلَا يُسْرَفُ فِي الْقَتْلِ) : بأن لا يقتل غير القاتل ولا يمثل بالمقتص منه . (يَبْلُغُ أَشَدَّهُ) : يصل إلى حد الرجال ، ويبلغ وقت اشتداد قوته في البدن والعقل وتدبير المال وصلاح الحال .
 (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ) : اجعلوه وافيا كاملا مضبوطا بلا خديعة .
 (بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ) : بالميزان العادل .
 (وَأَحْسَنُ تَلْوِيلًا) : وأحسن مآلا وعاقبة في الدنيا والآخرة .

التفسير

٣١- (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِيْنَا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) :

بعد أن بين الله - سبحانه - في الآية السابقة أن أمر الرزق بيده توسيعا وتضييقا نهى عباده في هذه الآية عن قتل الأولاد مشفقين من فقر ينالهم .

والمعنى : ولا تقتلوا أولادكم خوفا من فقر ينالكم بسبب قيامكم بالإنفاق عليهم ، لأن قتلهم كان في شرع الله منذ القدم إثما عظيما ، لا يقع إلا لمن لا يؤمن بربه ولا يتوكل عليه ، فنفسه خواء وقلبه فارغ ليس به أثر إيمان ولا بقية يقين ، إن هذا العمل الشائن الفاجر ذنب كبير ناشئ عن تزيين الشركاء من الجن أو سدنة الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله ليوقعوا الآباء في مهاوى الضلال والفساد والهلكة قال تعالى : « وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرَدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ »^(١) .
 فلو تركتم - أيها المشركون - عبادة غير الله وآمنتم بربكم حق الإيمان لعلمتم أنه - سبحانه - قد تكفل بأرزاق خلقه جميعا : « وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا »^(٢) .

(١) سورة الأنعام : من الآية رقم ١٢٧ .

(٢) سورة هود ، : من الآية ٦ .

وليس عليكم إلا أن تتخذوا للرزق أسبابه التي يسرها الخالق - سبحانه ، واعلموا أن أولادكم الذين تتوهمون أنهم مُنتَقِصُونَ من أرزاقكم إنما يرزقهم الله معكم لا تبعاً لكم ، فمن الهمة القاصرة والعزيمة الخائرة أن يستبد بكم هذا الوهم ، فتقدموا على فعلتكم الشنعاء هذه .

وفي هذه الآية قدم ضمير الأولاد في منح الرزق على ضمير المخاطبين إذ قال : نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، ليبين للآباء أن رزق الأولاد محل عناية واهتمام من الله تعالى فليس هناك داع - إذا - للإشفاق والخوف من وقوع الفقر ، وقدم ضمير الآباء في سورة الأنعام في قوله تعالى : « نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » للمبادرة بطمأننة الآباء على أرزاقهم وأنها واصلة إليهم لامحالة فلا موجب لقتلهم أولادهم - وفي التعبير بلفظ كان في قوله تعالى : « إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا » إيدان بأن هذا الفعل الأثم كانت تأباه كل الفطر السليمة وترفضه الطبائع الكريمة وجميع شرائع الله تبارك وتعالى التي أنزلها على أنبيائه من قبل ، فهي شريعة موروثة ، فكيف ساغ لهم الإقدام على قتلهم .

٣٢ - (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) :

وبعد أن نهى - سبحانه - فيما سبق عن قتل الآباء أولادهم ، وبين أن قتلهم هو جرم فاحش وذنوب كبير ، حذر في هذه الآية من الدنو من الزنى ، وبين أنه كان في عرف الناس وشريعة الله فعلة ظاهرة الفحش ، وساء طريقاً في الحياة ، والتحذير من القرب من الزنى تحذير من مباشرة دواعيه وأسبابه ، ولهذا أمر كلا من المؤمنين والمؤمنات بغض البصر فالنظرة الآثمة سهم من سهام إبليس وهي بداية كل شر ، كما نهى ومنع خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية ، لأن الشيطان يجيد السفارة فيها ، فيوسوس لكل منهما ، ويزين الشر ويأمر بالفحشاء ، وفي الأثر : « ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » كما نهى سبحانه أن تبدى المرأة زينتها لرجل لا يحل له ذلك منها ، فإن فعل ذلك يحرك الرغبة الآثمة بينهما ويدعو إلى الفجور .

ومما يؤدي إلى الفاحشة أن تلين المرأة وتخضع في كلامها ، فيطمع فيها من في قلبه مرض الفحش وداء الرغبة الآثمة في الفساد، هذا هو تحذير الله عباده من أن يقربوا الزنى فما بالهم إذا قارفوه وفعلوه ووقعوا فيه ، إنه سبب في اختلاط الأنساب وهتك الأعراض وتفكك المجتمع ، وشيوع الرذائل ، وذهاب الإنسانية الفاضلة والنزول بها إلى درك الحيوانية ، فضلا عن أن من يمارس ذلك يذهب بهاؤه وتهون منزلته ، ويفضح في أهله ، فالزنى عمل بالغ الفحش ، سىء المغيبة ، وخيم العاقبة ، وساء طريقا ، فهو يورد صاحبه موارد الهلاك ، وينزل به إلى منازل السفلة ، الذين ينأى عن صحبتهم كل طاهر كريم عفيف .

٣٣- (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . . الخ) الآية .

أى ولا تعتدوا بالقتل على النفس الإنسانية التي حرم الله قتلها وجعلها مصونة لايجوز الاعتداء عليها ، ما لم ترتكب جرما يقتضى قتلها ، كما إذا ارتد مسلم أو قتل مؤمنا عمداً أو ثبت زناه بعد إحصان ، فقد روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

فإذا اعتدى إنسان على آخر بالقتل دون ذنب أو جريرة تحل ذلك القتل ، فقد جعل الله لقريب ذلك المقتول ووليّه حق المطالبة بدمه ، فإن شاء هذا الولي القصاص فهو حقه وإن شاء أخذ الدية فذلك له أيضا ، وإن شاء عفا ، والسلطان ولي من لا ولي له ، وبما أن الله - جل جلاله - قد أعطى الولي الوارث للقتيل هذا الحق فالواجب عليه - عند استيفاء القصاص - ألا يسرف فلا يقتل غير القاتل ولا يندفع إلى الأخذ بالشار على غير بينة .

أو إثبات ، وليس جعل الحقوق المذكورة لولي الدم مقتضيا أن يباشرها بنفسه ، بل عليه أن يرفع الأمر إلى القضاء ليصدر حكمه فيها بما تقتضيه القواعد الشرعية ، فإن قضى بالقصاص أمر من يباشره حتى لا يندفع الناس إلى القتل جزافا ولا وهى الأسباب ، وإنما حرم الله ذلك الإسراف لأن الله قد نصر ذلك الولي وأيده ، حين شرع القصاص وأعطاه حق المطالبة به فما وراء ذلك فهو عدوان وجور .

٣٤ - (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) :

وكما نهاكم الله تعالى عن أن يقتل أحدكم غيره إلا بحق فقد نهاكم أيضا عما يشبه القتل وهو أكل مال اليتيم بغير حق ، فلا تقربوا ماله بسوء فتجمعوا عليه بين فقد الوالد وحنان المربي ، وبين ضياع المال الذي يقوم عليه أمره ويصلح به شأنه ، إن هذا الاعتداء لؤم وخسة وقسوة على إنسان ليس لديه قدرة على الدفاع عن نفسه ، إن الرحمة والروعة تقتضيانكم أن تقربوا ماله بما يحفظ أصله ، وينسى فرعه ، بهذا تكونون قد قمتم على أمر هذا المال بأحسن الطرق ، وأفضل الوسائل التي تعود على صاحبها بالنفع والخير ، وداوموا على إصلاح ذلك المال حتى يبلغ اليتيم أشده ، بوصوله إلى سن الرشد ، ونمو عوده وقوة جسمه ، وزيادة خبرته ومعرفته ، ونمو تجربته وقدرته على التصرف الحسن والسلوك القويم ، فإذا بلغ راشدا فعليكم أن تدفعوا إليه ماله غير منقوص ، ولا تمسوا ماله بسوء بعد ذلك .

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) : وكونوا أوفياء بكل ما عاهدتم الله على القيام به ، من تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ، وفي جملة ذلك رعاية اليتامى وما عاهدتم الناس عليه مما يصح فيه العهد شرعا ، فلا تخيبوا رجاءهم ، ولا تقطعوا آمالهم التي عقدوها عليكم في إصلاح أمرهم ، إن العهد سيسألكم عنه ربكم يوم القيامة ، فأوفوا به ولا تضيعوه .

وأظهر العهد إذ قال : « إِنَّ الْعَهْدَ » ولم يقل إنه - لكمال العناية بشأنه والحث على الوفاء به ، وإنما عبر بقوله : « إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » مع أن السؤال لصاحب العهد على سبيل المجاز ، والمراد أنه مسئول عنه يوم القيامة . فيقال لصاحبه : لِمَ نَكُنْتَ عهدك وضيعته ولم توف به ؟ فيجمع الله عليه التبكيت مع العقوبة على عدم الوفاء به .

٣٥ - (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ) :

واجعلوا الكيل وافيا عادلا ، لانقص فيه إذا كلتم لغيركم ، واكتفى بالأمر بإيفاء الكيل عند البيع عن الأمر بتعديله عند الشراء من الناس ، لَأَنَّهُ يُؤْذَنُ بحرص الشارع على وصول الحق إلى صاحبه ، فكما لا يبخسه حقه عندما يبيع له ، كذلك لا يظلمه عندما يشتري منه ، وقد جاء النهي صريحا عن التطفيف في الجانبين في قوله تعالى : « وَيَلِلُ الْمُطْغَفَيْنِ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » .

(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) : أى وزنوا بالميزان السوى الذى لا خداع فيه ، ولا غش ولا تدليس ، إذا وزنتم فإنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه .

(ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) : أى ذلك المذكور من إيفاء الكيل عند البيع ، والوزن بالميزان السوى المستقيم ، خير لصاحبه ولمن يعامله ، وأحسن مآلا ومرجعا عند الله تبارك وتعالى ، أما الكسب الحرام فهو كالوقود الفاسد لا يُسير الآلة . . بل يثقلها ويفسدها وربما يؤدي إلى احتراقها وقد تهلك صاحبها ، ولكن الكسب الحلال الطيب يبارك الله فيه ، فينمو ويزيد ويكون خيرا وبركة على صاحبه وأهله وولده ، إذ يبعث على الطاعة ويقوى على الخير ، ويقرب من الله ويدنى من الناس ، ويكون لصاحبه لسان صدق بينهم .

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ
وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ
مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ٣٧
كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ٣٨ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى
إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى
فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ٣٩)

الفرات :

(وَلَا تَقْفُ) : ... ولا تتبع ، مأخوذ من قولهم قفرت فلانا إذا تتبعته أثره .

(مَرَحًا) : اختيالا ... واستكبارا ، وفخرا ، والمرح شدة الفرح .

(الْحِكْمَةُ) : الأمور المحكمة والأدب الجامع لكل خير .

(مَدْحُورًا) : مطرودا ومبعدا مقصيا في النار .

التفسير

٣٦ - (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) :

أى لا تتبع ما لا تعلمه ، فلا تقل بغير علم ولا اتهم بغير بينة ، ولا تقل سمعت وأنت لم تسمع ، ولا تشهد بالزور ، ولا تتبع الظن والحدس فى حق الناس ، فإنك بذلك تكون قد قلت ما لا تعلم ، واتبعت ما ليس لك به علم وأخطأت بذلك فى حق الله وحق عباده وحق نفسك .

وهناك أمور يعمل فيها بالظن ، كالحكم على شخص معين بالإيمان تبعاً للظاهر ، وكالافتاء بالأحكام الشرعية عن الأدلة الظنية ، وكالعلاج بالعقاقير التى يظن فيها الشفاء .
(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) : أى أن كل واحد من أعضاء السمع والبصر والقلب كان صاحبه مسئولاً عنه ، فلا يحل له استعمالها فى غير ما أحل الله تعالى ، فلا تتسمع إلى غيرك محاولاً كشف عوراته ، ولا تلق بأذنك إلى ما لا يحل من فحش القول ، أو إلى ما يلهيك عن عبادة ربك ، وكن من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أما البصر فاغضضه عما لا يحل لك ولا تمده إلى ما متع الله به غيرك تحسده عليه ، بل عليك أن تنظر بذلك البصر ما يقربك من ربك ، وما يوصلك إلى رزقك ، أما قلبك فاحفظه من شيطان موسوس أو حسد قاتل مدمر أو عجب أو نفاق أو رياء ، فإن هذه الصفات وما يشبهها من الموبقات المهلكات ، واطرد حظ الشيطان من نفسك حتى لا يكون له عليك سلطان ، فيصبح قلبك سليماً ، وتلقى ربك راضياً مرضياً فتدخل رحمته وتفوز برضوانه .

٣٧ - (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) :

أى لا تسر فى الأرض مختلاً مسرفاً فى فرحك ومرحك ، بل تواضع لله الذى خلقك ورزقك ، وهو قاهر لك قادر عليك ، فإن غلبك البطر والغرور لجأهك ، فاعلم أن الجاه نعمة من الله يمنحها ويسلبها ، وإن طغيت على غيرك لعافية وصحة بدن فتذكر أنها وديعة الله عندك يستردها متى شاء ، وإن دعيت نفسك الأماراة بالسوء إلى التكبر على عباده بمالك فاعلم أن الله يغار عليهم فهو ربهم وخالقهم ، وإن زهوت بالبنين فتذكر أنك ستقدم على ربك بعملك فحسب « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

(إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) : إنك مهما تخايلت بخطواتك واشتددت في إيقاع أقدامك على الأرض ، فإنك لن تخرقها بخطوك ، ومهما تطاولت بهامتك كبرا وفخراً ورفعت رأسك تيتها وعُجبا ، فلن تساوى الجبال الشواقي بطولك أو تطاولك . فدخ عنك الخيلاء والتعالى على الناس ، فأنت مخلوق ضعيف .

٣٨ - (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) :

أي كل ذلك المذكور في الأوامر والنواهي السابقة من الخصال كان السيئ منه مكروها في حكم الله وشرعه ، فدخ ما نهاك عنه واستمسك بما أمرك به حتى لا تكون مبغضا من الله ، وبعيداً عن رضوانه ورحمته .

٣٩ - (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) :

أي ذلك المذكور من الآداب . والأحكام التي جاءت في الآيات المتقدمة ، هو ما أنزله إليك وحيا ، وجعله من الأمور المحكمة التي لا يتطرق إليها النسخ ، فهي موجودة في جميع شرائع الله ، لأنها جامعة لكل أدب وخير ففيها محاسن الأخلاق ومحامد الشيم فلا تنسخ ولا تتغير باختلاف الشرائع .

(وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا) : أي واحذر أيها المكلف أن تتخذ مع الله إلهاً غيره « إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ » فإن فعلت ذلك فقد حق عليك أن ترمى وتطرح في نار جهنم في مهانة وذلة ، وأنت ملوم من نفسك على ما اقترفت وملوم من الملائكة خزنة جهنم حين تعنفك فتقول لك ولأ مثالك : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » فتجيبون بذلة ومهانة وتقولون :

« بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ » (١)

(أَفْأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا
 إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ
 لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِيءَ إِلَهِةٍ
 كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بَتَّغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ
 وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ
 وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ
 لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾)

المفردات :

- (أَفْأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم) : أفضلكم ربكم فآثركم بصفوة الأولاد .
 (عَظِيمًا) : أى كبيراً ، والمراد به هنا الأمر البالغ النكر والقبح .
 (صَرَّفْنَا) : بيننا المعاني بوجوه وصور مختلفة .
 (نُفُورًا) : إعراضاً ... ، (لَا بَتَّغُوا) : لطلبوا مجتهدين في الطلب .

التفسير

٤٠ - (أَفْأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) :

بعد أن بين سبحانه - فساد طريقة من يجعل لله شريكاً ونظيراً ، نبه في هذه الآية على
 شدة جهل من أثبت لله الولد .. وخصه سبحانه بالإناث ..

والمعنى : أفصلكم ربكم على جنبه - سبحانه - فخصكم بأفضل الأولاد ، واختار لذاته أديانهم وأقلهم شأنًا ، فإن دعواكم أن الله قد اختار الملائكة بنات له - سبحانه - تستلزم أنه اختار لكم البنين أفضل النوعين وأحبهما إليكم ، ورضى لنفسه البنات وهن أديانها في نظرهم مع أنه هو الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له ، والجلال الذى لا حد له فكيف تنسبون إليه ما تسوء البشارة به وجوهكم ، ويملاً الغيظ بسببه قلوبكم ، أتجعلون الله ما تكرهون دون حياء . فتأتى قسمتكم جائزة ظالمة ، تدل على جهلكم بالله وسوء تقدير لعظمته ، إنكم بافترائكم على الله تعالى . . وقولكم إن الملائكة بنات الله تقولون قولاً منكراً . . كبيراً فى الإثم تحاسبون عليه وتعذبون به أشد العذاب يوم القيامة ، فإنه تعالى واحد أحد «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» .

٤١ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا . . وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) :

أى ولقد كررنا وأكدنا العبر والعظات والأحكام فى هذا القرآن المجيد بأساليب متنوعة ، ليتعظوا ويعتبروا فيهدوا إلى الحق ، ويرجعوا إلى بارئهم رجاءً فى ثوابه ونحوها من عقابه ، ولكن هؤلاء المجرمين الضالين المكذابين لا يريدون هداية ولا إرشاداً ، بل إنهم مع تكرار التذكير وتأكيده التوجيه إلى الخير ، لا يزدادون إلا تباعدًا عن الحق وإصراراً على الباطل ، وإعراضاً عن التدبر والاعتبار .

٤٢ - (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُتَغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) :

قل يأيها الرسول لهؤلاء المشركين المغترين العابدين للأصنام ، وغيرها من دون الله - قل لهم : لو صح ما تزعمونه وتفترونه - وهو وجود آلهة مع الله - سبحانه وتعالى - لطلب هؤلاء الآلهة بكل جهدهم واجتهادهم أن يسلكوا طريقاً إلى الله ذى السلطان والقهر ليشاركوه الأمر ، أو ينازعوه السلطة ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، لأن ما تزعمونه من آلهة هى فى الحق عاجزة لا تقدر على خير ولا شر ولا تملك من أمر نفسها شيئاً ، فضلاً عن أن تملك أمر غيرها .

٤٣- (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا) :

تنزهه سبحانه ، وتعالى علواً شاملاً عما يقوله هؤلاء من نسبة الشريك والولد لله تعالى ..
فالله جل جلاله هو الواحد الأحد لا شريك له ولا ولد .

٤٤- (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) :

بعد أن بين الله لهؤلاء المشركين فساد زعمهم بنسبة الشريك والولد لله ، ونزهه نفسه
تنزيهاً كاملاً عن ذلك ، جاء بهذه الآية ليبين لهم : أن الخلائق جميعها علوياً وسفليها ،
عظيمها وحقيرها ، ما يدركه الإنسان وما هو فوق إدراكه ، كل ذلك خاضع له معترف بقهره
وسلطانه ونعمه وآلانه .

والمعنى : أن السموات السبع بأجرامها وكواكبها وأفلاكها وسكانها وجميع قواها
وعناصرها . . . وكذلك الأرض بما اشتملت عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد وغيرها ،
كل أولئك يسبح وحامداً الله تعالى بلسان الحال والدلالة كما تدل الصنعة على الصانع .

ولا نرى مانعاً من أن يكون لهذه الكائنات تسبيح قولي غير مسموع منا وغير معروف
الحقيقة والكيفية لنا ، كما يشير إليه قوله تعالى : «يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ»^(١) . أي رجعي
التسبيح مع داود ، وقوله سبحانه : «إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ»^(٢) .
أي سخرناها لتسبح مع داود في وقتي العشي والإشراق ، ولولم يكن تسبيحها قولياً لما
قيد بهذين الوقتين كما يؤكد ذلك ظاهر قوله تعالى هنا : «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ
وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ»^(٣) . لأن لغة الجمادات والحيوانات لا يفقهها من البشر سوى من
أوتى خاصية فهمها كداود وسليمان عليهما السلام ، وفيهما يقول الله تعالى : حكاية عنهما :
«وَعَلَّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ» . ولكنكم أيها الناس لا تفقهون تسبيحهم ولا تدركونه .

ويجوز أن يكون الخطاب للمشركين الذين تقدم الحديث عنهم ، تقريراً لهم ، والمعنى
على هذا : وما من شيء إلا ينزه الله تعالى عن الشريك والولد ، ولكنكم أيها المشركون لا تعقلون

(١) سورة سبأ : من الآية ١٠ . (٢) سورة ص الآية ١٨ . (٣) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

تنزيهم هذا ، لأنكم لاتنظرون في الكائنات نظر المتفكرين في خلق الله ومع غفلتكم هذه وعنادكم فإن الله سبحانه أمهلكم فلم يعجل لكم العقوبة ، وذلك لحلمه عليكم ، لعلكم تثوبون إلى رشدكم وترجعون إلى ربكم ، فإذا تبتُّم وأنبتم كان غفران الله لكم وعفوه عنكم . . فإنه كان ولايزال كثير الحلم واسع المغفرة ، قابل التوب .

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ
يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ٤٦ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ
وَخَدَّهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا ٤٧ تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ
بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ
إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ٤٨ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ
الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ٤٩) وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا
عِظْمًا وَرُفَّتْنَا ءَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ٥٠)

المفردات :

(حِجَابًا مَّسْتُورًا) : أى غير حسي فهو لهذا مستور لا يرونه . (أَكِنَّةً) : جمع كنان والكنان هو الغطاء الذي يُكْنَى فيه الشيء أى يحفظ ويستر . (أَنْ يَفْقَهُوهُ) : أَنْ يفهموه فهم تدبر وتأثر واستجابة . (وَقْرًا) : صَمًّا مانعاً من سماعه ، والوقر الثقل في الأذن .

(وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَارِهِمْ) : انصرفوا على أعقابهم هاربين معرضين . (نُفُورًا) : جمع نافر وهو منصوب على الحال - أى نافرين ، والنافر المتباعد المتجاف ، أو مصلو نافر منصوب على المفعولية المطلقة لَوَلُّوا ، لأنه بمعنىاه .

(وَإِذْ هُمْ نَجْوَى) : أى أصحاب نجوى يتناجون فيما بينهم بالافتراء والإثم ، والنجوى هى حديث السر بين من يَخْلُون بأنفسهم ليتناجوا فى خفية وإسرار. (رُفَاتًا) : والرفات الأجزاء المفتتة من كل شئ ينكسر ، وقيل الرفات والفتات ما تكسر وتفرق من التبن ونحوه ، والمراد هنا - والله أعلم - ما تصير إليه أجسادهم من التفرق بعد الموت .

التفسير

٤٥ - (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا) :

أى فإذا قرأت يا محمد القرآن تدبرا وعبادة لله ، وإرشادا وتعلما لقومك ، جعلنا بينك وبين المشركين الكافرين بالآخرة حجابا ساترا ، يمنعهم أن يذكروا ما أنت عليه من النبوة والرسالة وجلال القدر وعظيم المكانة ، حتى اجترعوا عليك ونسبوا إليك نقائص وعيوبا أنت منها برىء ، ومن ذلك قولهم : « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا » .

٤٦ - (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) :

هذه الآية مفسرة للحجاب المستور الذى جاء فى الآية السابقة ، وكأنه قيل :

وذلك الحجاب المستور هو أنا جعلنا على قلوب هؤلاء المشركين أكينة وأغطية تمنعهم من فقه القرآن ، والوقوف على كنهه ، كما أصبنا آذانهم بالصمم والثقيل العظيم ليجول بينهم وبين سماعهم لكتاب الله سماعا لا نقأ به ، فإنهم كانوا يسمعون سماع استهزاء وسخرية لا سماع تأمل وتدبر ، وهذا المنع كان جزاء لهم على إعراضهم ، فلم ينعموا بتنعمة الاهتداء إلى القرآن ، لإصرارهم على الجحود والإنكار .

(وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخُذَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا) : أى وإذا سمعك هؤلاء المشركون تقرأ من القرآن الكريم ما ينطق بتوحيد الله وتسبيحه ، أدبروا وفروا هروبا وانزعاجا من سماعه ، لأنه ينفرهم من أصنامهم ، وينهاهم عن عبادتها مع الله تعالى .

٤٧- (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ
إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا) :

هذه الآية الكريمة فيها تسليية لرسول الله ، ووعيد لهؤلاء المستهزئين ، فقد أخبر الله
رسوله بأنه - سبحانه - يعلم بحالهم الذى يستمعون به القرآن وقت استماعهم إليه حين
يتلوه ، من الاستخفاف وإثارة اللغو والتصفيق والصفير ، وكما يعلم ذلك يعلم - سبحانه -
أمرهم حين يتناجون فيما بينهم ويتهامون عنه فى خلواتهم ، ويفترون عليه الكذب .

ويقول هؤلاء المشركون الضالون عن صراط الحق يقولون للناس إنكم حين تتبعون
محمدا لا تتبعون إلا رجلاً قد أصابه السحر فاختلط عليه الأمر ، ويعقب الله هذه التهم بقوله :

٤٨- (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) :

انظر يا محمد - عليك الصلاة والسلام - متعجباً من حمقهم وسفاهتهم ، كيف تطاولوا
عليك فزعموا أنك ساحر ، كما زعموا من قبل أنك كاهن وشاعر ومجنون ، فضربوا
لك الأمثال فضلوا وبعثوا عن الحق وتحيروا فى أمرهم معك ، فهم لا يهتدون إلى الحق ولا إلى
طريق ينال منك أو يصرف الناس عنك .

٤٩- (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) :

وقال هؤلاء المشركون - منكرين البعث مستبعدين له - : أئذا متنا وصرنا عظاماً وحطاماً
مفتتاً ، نبعث من قبورنا ، ونخلق خلقاً جديداً كما يقول لنا محمد ، وهذا القول منهم
هو غاية الإنكار لأدلة الإمكان والوقوع ، أما الإمكان فلأن الله الذى خلق الناس ابتداءً
باعترافهم قادر على إعادتهم وبعثهم من قبورهم للحساب لأن الإعادة أيسر من الابتداء
عادة ، وأما الوقوع فلأنه تعالى عادل فلا يعقل أن يترك المحسن دون إثابة ، والمسيء دون
عقاب ، فلا بد من البعث لينال كل جزء ما قدمته يده .

* (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ
فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى
أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ
وَتَقُولُونَ إِن لَّبِثْنَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(فَطَرَكُمْ) : خلقكم على غير مثال سابق .

(فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ) : يحركونها تعجباً وسخرية .

(فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ) : تلبون دعوته حامدين إياه على بعثكم بعد الموت ، وعلى ما يتصف به من عظمة وقادرة وحكمة ظهرت آثارها في البعث بعد الموت .

التفسير

٥٠ ، ٥١ - (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ) :

الآية الكريمة إجابة عن سؤال الكفار السابق : «إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» .

والأمر بالقول موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلُّ داع بدعوته .

والمعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء الجاحدين ، وليقل كل داع إلى الحق لأمثالهم : لماذا تستبعدون وتنكرون بعثكم بعد أن صرتم عظاماً ورفاتاً ، كونوا ما شئتم بعد الموت ولو حجارة أو حديدًا أو خلقاً مما يعظم في نفوسكم ويعلو عن أن تحله الحياة فإنكم عائدون إلى الحياة .

(فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا): فسيقولون في دهشة واستنكار من الذى يستطيع أن يعيد إلينا الحياة بعد هذا التحول العجيب ، من الحياة الدافقة المتحركة إلى الموت ثم إلى العظام والرفات ، فضلا عن التحول إلى الحجارة أو الحديد أو أشباههما ، وقد أمر الله تعالى أن يجابوا عن هذا التساؤل الذى لا مبرر له بقوله :

(قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ): أى قل لهم أيها الرسول : الله الذى خلقكم أول مرة من عناصر التربة الأرضية الجامدة الميتة على غير مثال سابق ، هو الذى يعيد إليكم الحياة وإن تحولت أجسامكم من عظام ورفات إلى حجارة أو حديد أو نحوهما ، والمعروف لنا أن إعادة عند البشر أسهل ، ولكنها تحت قدرة الله لا توصف بالسهولة أو الصعوبة ، فكل الممكنات عنده سواء ، لأنه لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم .

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »^(١).

(فَسَيَنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا) :

أى فحينما يستمعون هذا الجواب سيحركون رؤوسهم منكبين ساخرين قائلين في دهشة وإنكار : متى يتم هذا البعث ؟ فقل لهم : سيكون هذا البعث قريبا ، لأن كل آت وإن طال الزمان قريب .

٥٢- (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ) :

أى يتم بعثكم يوم يدعوكم إليه فتهبون من قبوركم ملبيين دعوته ، كما قال تعالى : « ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذْ أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ »^(٢). والمقصود بالدعوة النفخة الثانية ، المعبر عنها بالصيحة فى قوله سبحانه : « يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ »^(٣).

وعند بعثكم تلهجون بحمده تعالى مدركين عظمته وقدرته ، وأنه أهل للحمد والثناء ويزول عنكم هذا الإنكار والعناد ، بعد أن شاهدتم الحقيقة التى كنتم سمعتموها من رسولكم فى دنياكم :

(٢) سورة الروم : الآية ٢٥

(١) سورة يس : الآية ٨٢

(٣) سورة ق : الآية ٤١ ، ٤٢

(وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) : أى تعتقدون عند البعث أنكم لم تلبثوا فى الدنيا أوفى الحياة البرزخية إلا زمنا يسيرا ، كما قال سبحانه : « كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »^(١).

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾)

الفردات :

(يَنْزَغُ) : يفسد ويغوى بالعداوة والبغضاء ويشير الضغائن والأحقاد .

التفسير

٥٣ - (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) :

بعد أن بين الله جحود الكفار للبعث ومعاداة الحق أمر رسوله فى هذه الآية أن يقول للمؤمنين : عليكم أن تلهجوا بالقول الحسن وأن تتمسكوا به وأن تطبقوه فى حياتكم . . والمعنى : قل يا محمد لعبادى الذين آمنوا بى وشرفوا بالنسبة إلى ، قل لهم يقولوا الكلمة التى هى أحسن الكلام ، وأن يدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يقابلوا الإساءة بالإحسان فإن هذه سنة عباد الرحمن ، كما قال سبحانه فى سورة الفرقان : « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا »^(٢).

وقيل : المقصود بالعباد جميع الناس فإنهم جميعا عبيد الله والنصيحة عامة لهم . والمعنى على هذا : قل أيها الرسول لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم يأمرهم بما أمر الله به وينهون عما نهى الله عنه .

(١) سورة النازعات : الآية ٤٦

(٢) سورة الفرقان : الآية ٦٣

(إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَعُ بَيْنَهُمْ) : إن الشيطان يفسد بين الناس ، ويشير بينهم العداوة والبغضاء ويبيث فيهم الأحقاد والضغائن ، فيمزق شملهم ويفرق كلمتهم ، ويهدم وحدتهم ، أو يغريهم بالكفر والإلحاد وارتكاب الشرور والآثام ، فلهذا ينبغي أن يعالجوا بالكلمة التي هي أحسن .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا) : أي إن الشيطان كان عدوا للإنسان واضح العداوة منذ أغوى أباهم آدم وأخرجه من الجنة ، فعليهم أن يتغلبوا على إغوائه بالتزام الكلمة الطيبة والقول الحسن ، ليردوه عن متابعة وسوسته وإغوائه ، فإنه يزين للقيح للإنسان ويجلوه أمامه في صورة حسنة ، فيدفعه إليه دفعاً ، ويقبح له الحسن فينفره منه تنفيراً .

(رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۝٥٥)

المفردات :

(وَكِيلًا) : كفيلاً .

(زَبُورًا) : الزبور هو الكتاب المنزل على نبي الله داود عليه السلام ، وهو كتاب ليس فيه تشريع ، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد .

التفسير

٥٤ - (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ) :

بعد أن بين الله أحوال الكافرين ، يودع المؤمنين إلى التزام القول الحسن وحذرهم من إغواء الشيطان ، خاطب المكلفين جميعاً بأنه مطلع على أعمالهم وأقوالهم ونياتهم ، فإن يَشَأْ

شملهم برحمته لأنه يعلم أنهم أهل لرحمته ، وإن يشأ عذبهم لأنه يعلم أنهم قصرُوا في جانبه ، ومشيئته مرتبطة بحكمته « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »^(١) .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) : أى وما أرسَلناك أيها الرسول كفيلاً لهم ومُسثولاً عن طاعتهم أو معصيتهم ، فكل امرئ بما كسب رهين .
« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »^(٢)
٥٥ - (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

أى أنه سبحانه يحيط علمه بكل من في السموات والأرض « لَا يَغْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » . فلهذا اختار من يعلم أنهم صفوة البشر أنبياء ، وفضل بعضهم على بعض ، كما قال سبحانه : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » . وكان تفضيلهم بالفضائل النفسانية والعلمية ، لا بكثرة الأموال والأنبـاع وغير ذلك من أمور الدنيا ، وأقربهم إليه خاتم الأنبياء والمرسلين الذى أرسله ربه رحمة للعالمين .

قال صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وببى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائى ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر » رواه أحمد والترمذى وابن ماجه .

(وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا) : خص الله سبحانه داود بالذكر مع دخوله في الأنبياء قبله ، ليبين أنه عليه السلام ممن فضلهم الله على بعض الأنبياء وذلك بإنزال الزبور عليه ، وقد اشتمل على تسابيح الله وإشارات إلى جلاله وعظمته وقدرته وكان يرتله بهتوت عذب شجي ، تردده معه الطيور والجبـال كما قال تعالى في سورة ص : « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ »^(٣) .

(١) الكهف : من الآية ٤٩

(٢) الزلزلة : الآية ٧ ، ٨

(٣) ص : الآية ١٨ ، ١٩

وهذه الجملة « وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا » تشير إلى أن الكتب المنزلة على الأنبياء ،
 هي شهادة من الله بفضلهم ، وبمقدار مسئولياتهم فيها تتفاوت درجاتهم .

(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ
 الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ
 إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ
 عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾)

المفردات :

- (زَعَمْتُمْ) : ادعيتهم كذبا .
- (كَشْفَ الضَّرِّ) : إزالته .
- (تَحْوِيلًا) : صرفًا وإبعادًا .
- (الْوَسِيلَةَ) : الصلة أو السبب .
- (مَحْذُورًا) : أى مخشياً مرهوباً .

التفسير

٥٦ - (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ) :

بينت الآيات السابقة أن علمه تعالى محيط بخلقه ، وأنه يرحم من يشاء ويعذب
 من يشاء طبقاً لعلمه وعدله وحكمته ، وجاءت هذه الآية لتبين للمشركين عجز آلهتهم ،
 والمعنى : تضرعوا أيها المشركون إلى الآلهة الذين عبدتموهم من دون الله ، وانظروا هل
 تسمع إلى ضراعتكم ، أو تجيب دعاءكم أو تدفع عنكم الضر أو تجلب إليكم النفع .

(فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) : أى أن هذه الآلهة المزعومة لا تستطيع ولا تملك أن تزيل عنكم ما يعتريكم من الضر ، ولا تملك أن تحوله عنكم إلى غيركم ، بل إنهم عاجزون لا محالة ، لأنهم كما قال تعالى في سورة الفرقان : « وَلَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا »^(١) . فكيف تعبدونهم من دون الله ؟

٥٧- (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) :

كان بعض العرب يعبدون الملائكة ، وبعضهم يعبدون الحق تبارك وتعالى ، كما كان بعض اليهود والنصارى يتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، فنزلت هذه الآية في شأن من يعبدون غير الله .

والمعنى : أن هؤلاء الشركاء الذين عبدتموهم من دون الله هم خلق من خلق الله ، وعبيد من عباده ، خاضعون لمشيئته ، منقادون لأمره يرجون رحمته ويخشون عذابه ، يسبحون بحمده ويلهجون بذكره ، ويتنافسون في التقرب إليه بكل وسائل الزلى .

(وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) :

أى هم مع ما تقدم من عبادتهم لله وتقربهم إليه يرجون رحمته ويخافون عذابه ، لأن عذابه شديد أليم . فهم لا يعتمدون على طاعتهم ، بل يخشون عقابه حذرا من تقصيرهم .

ويجوز أن يكون المعنى : أولئك المشركون الذين يعبدون الأوثان يبتغون بعبادتها الوسيلة إلى الله ، ويرجون بذلك رحمة الله ويخشون عذابه ، فأيهم أقرب إلى الله ؟ لا شك أن أولئك العابدين أقرب إلى الله تعالى من أوثانهم ، فهو سبحانه أقرب إلى عباده من جبل الوريد ، فلا يصح أن يتقرب هؤلاء المشركون إلى الله بعبادة من هم أبعد منهم عن الله وأحط قدرا وأضعف قوة وشأنا ، إن عذاب ربك يا محمد كان أمرا محذورا ومخوفا ، فلماذا لا يحذره هؤلاء العابدون لأوثانهم ، وقد أشركوا به من هو مثله في الضعف والهوان .

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
 أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾
 وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ
 وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ
 إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾)

الفردات :

(قَرْيَةٍ) : القرية اسم للموضع يجتمع فيه الناس ويتخذون منه سكنا لهم ، وتطلق
 أيضاً على سكانه . (الْكِتَابِ) : اللوح المحفوظ . (مَسْطُورًا) : مكتوباً مسجلاً ،
 (الْآيَاتِ) : المعجزات التي طلبها المشركون . (مُبْصِرَةً) : داعية إلى إِبْصَارِ الحق بدلالاتها
 عليه وإرشادها الناس إليه .

التفسير

٥٨- (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا) :
 حذر الله المشركين في آخر الآية السابقة من عذابه بقوله : « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ
 مَحْذُورًا » ، وجاءت هذه الآية لتأكيد هذا التحذير .

والمعنى : إن من سنة الله تعالى مع الظالمين أنه ما من أهل قرية يقابلون أنعم الله بالجنود
 والكفران ويكذبون الرسل وينكرون المعجزات إلا أهلكهم الله سبحانه وفقاً لوعيده ، كما
 أهلك عاداً وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، وفيهم يقول الله تعالى في سورة (ق) :
 « كُلُّ كَذَّابٍ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ » .

وربما يصيب الله أهل هذه القرية بعذاب شديد دون الإهلاك ليرجعوا إلى الله تائبين
 نادمين ، لأنه سبحانه يعلم أنهم سيفيئون إلى الإيمان قبل نهاية حياتهم ، مثل أهل مكة ،

أو لأنه تعالى يعلم أن من ذريتهم من يعبد الله ، أو لغير ذلك من الحكم ، وقيل إن المراد أن الله سبحانه سيهلك جميع القرى قبل قيام الساعة ويشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة الزمل : «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً» ، وقد ورد في صحيح مسلم من حديث طويل عن الرجال ، رواه بسنده عن النّوأس بن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « فبينما هم كذلك إذ بعث الله تعالى ريحاً طيبة فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة » .

(كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) : كان الإهلاك أو التعذيب قضاءً محتوماً وقدرًا نافذا سجله الله عنده في اللوح المحفوظ لتنفيذه في الأجل المحدود .

٥٩ - (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) :

روى النسائي وأحمد والحاكم وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال أهل مكة للنبي صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك ، قال : وتفعلون ؟ قالوا نعم ، قال : فدعا فتأه جبريل ، فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً فمن كفر بعد ذلك عذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة ، قال : بل باب التوبة والرحمة فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

والمعنى : أن الله لم ينزل المعجزات التي طلبها المشركون لأنه سبحانه يعلم أن قريشاً سوف تجحد هذه المعجزات كما جحدوا السابقون . وحينئذ تستحق الهلاك تطبيقاً لسنته في شأن المكذبين بعد تحقيق ما طلبوه ، والله تعالى يعلم أنها تستجيب لدعوة الإسلام بعد حين ، فلم ينزل هذه المعجزات المطلوبة واكتفى بإعجاز القرآن الكريم ، كما قال سبحانه : « وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ^(١) .

وقد وعد الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ألا يعذب قومه ما دام فيهم قال تعالى :
 «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ» ^(١) .

(وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا) :

أى أن الذى اقتضى عدم إرسال الآيات المقترحة أن قريشاً ستكذب بها ، كما كذب بها الأولون فتتعرض للهلاك مثلهم ، كما تعرضت ثمود لهذه التجربة حيث اقترحوا على نبيهم أن يأتيتهم بناقة ترعى الكلاً وتشرب الماء كله يوماً ، ثم تترك لثمود الكلاً والشراب يوماً آخر وتدر عليهم من ألبانها ما يكفيهم ، فعقروا هذه الناقة ، جاحدين منكبين «فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» ^(٢) .

ومعنى مبصرة : مدركة وعارفة نصيبها في الكلاً والماء ، فلا تتعداهما إلى نصيب ثمود فيهما ، أو موضحة للناس الدلائل الباهرة على صدق نبي الله صالح عليه السلام ^(٣) .
 (وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوْفًا) : وما ننزل المعجزات المقترحة إلا إنذاراً وإرهاباً للأمم الضالة ، لتعود إلى الإيمان . فإذا أصرت على الكفر والعصيان استحققت الهلاك والنكال والدمار .

(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا
 الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ
 وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(أَحَاطَ بِالنَّاسِ) : شملهم بعلمه أو أحاطت بهم قدرته .

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٣

(٢) سورة فصلت : من الآية ١٧

(٣) من أبصر المتعدي بمعنى أنها جعلت ثمود يسمرون الآية والمعجزة في شئونها المختلفة ، فلم يبق لهم عذر في التكذيب .

(الرُّؤْيَا) : ما يراه النائم في منامه ، وقد تطلق على ما يراه الإنسان في يقظته ، كما نال الشاعر الراعي يصف صائدا :

وكبير للرؤيا وهش فؤاده وبشر قلباً كان جمّاً بلابله

وقال بعضهم : هي حقيقة رؤيا المنام ، ورؤيا اليقظة ليلاً ، والمشهور الأول .

(الشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ) : شجرة الزقوم التي وصفها الله سبحانه بأنها «شَجَرَةٌ تَخْرُجُ

فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ»^(١)

(الْمَلْعُونَةُ) : الملعون آكلها ، أو البعيدة عن مواطن الرحمة لأنها في أصل الجحيم

(طُغْيَانًا) : مجاوزة للحد في العنف .

التفسير

٦٠ - (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) :

بعد أن تناولت الآيات السابقة أقوال المكذبين والمعاندين ، أدخل الله السكينة والطمأنينة على نفس رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية .

والمعنى : واذكر يا محمد وعدنا إياك أن الله سبحانه أحاط غلمه وشملت قدرته الناس جميعاً ومنهم المشركون ، فلا يمكنهم من إيدائك أو إيقاع الضرر بك ، كما قال سبحانه : «إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ»^(٢) . وقال : «وَاللَّهُ يَغْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»^(٣) . وهو سبحانه سيجزى كلا منهم بما يستحقه من جزاء . .

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) : أى أن ما أطلعناك عليه عياناً من آياتنا الكبرى ليلة الإسراء ، لم نجعله إلا اختباراً للإيمان المؤمنين وامتحاناً للمشركين ، ولما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم قومه بحديث الإسراء سخر منه المشركون ، وارتد عن الإسلام

(١) سورة الصافات : الآية ٢٤ ، ٦٥

(٢) سورة الحجر : الآية ٩٥ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

قَلَّةٌ من ضعفاء الإيمان ، وثبت على تصديقه والإيمان به الصادقون المخلصون ، وفي مقدمتهم أبو بكر رضى الله عنه ، ومن يومها أطلق عليه لقب الصديق . راجع تفسير السورة .

(وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ) : أى وما جعلنا شجرة الزقوم المذمومة فى القرآن بأنّها طعام الأثيم ، وما جعلناها إلا اختبارا للناس ، مؤمنهم وكافرهم ، فقد وصف الله سبحانه وتعالى هذه الشجرة بأنّها «تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ» ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُعُوسُ الشَّيَاطِينِ ، فَإِنَّهُمْ لَا كِلُونَ مِنْهَا فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ»^(١) . ويجوز أن يكون المراد من لعن الشجرة فى القرآن لعن آكلها أو أنها بعيدة ، من اللعن بمعنى البعد لأنها بعيدة من مواطن الرحمة لأنها «تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ» .

ولما نزلت هذه الآيات ، قال أبو جهل : إن محمدا يتوعدكم بنار وقودها الناس والحجارة ، ثم يقول : إنها ينبت فيها الشجر ، وما يُعرَفُ الزقوم إلا التمر بالزبد ، ثم أمر جاريته فأحضرت تمرا وزيدا وقال لأصحابه ساسخرا : تَزَقَّمُوا ، والمعنى : وما جعلنا ما أريناك ببصرك من الآيات الكبرى فى السماء والأرض إلا فتنة وامتحانا للناس مؤمنهم وكافرهم ، وما جعلنا شجرة الزقوم إلا فتنة لهم أيضا ، فثبت الصادقون ، وارتد بعض الضعفاء من المؤمنين ، وأنكر المشركون ، لأن عقولهم القاصرة المحدودة لا تتصور أن تكون شجرة فى قاع جهنم جهلا منهم بقدرة الله التى لا يعجزها شيء فى الأرض ولا فى السماء .

(وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا) : أى وننذرهم بالآيات المنزلة ونذكرهم بما أصاب الأمم السابقة من هلاك ودمار ، فما يزيدهم الإنذار إلا إمعانا فى الضلال وغلوا فى العناد والكبرياء ، وإيغالا فى الجبروت والطغيان ، والفعل المضارع (نخوفهم) يدل على أنه تعالى يتعهدهم من آن لآخر بالإنذار والتخويف . ولكنهم مع ذلك لا يزدادون إلا طغيانا كبيرا .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
 قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي
 كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ
 إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(أَرَأَيْتَكَ) : أخبرني .

(لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ) : لأستولين عليهم بالإغواء ، يقال ، احتنك فلان فلانا ، إذا استولى
 عليه وتولى قيادته كما يحتنك الإنسان الدابة بأن يضع حول فمها حبلا يقودها به وهو الرسن .

التفسير

٦١- (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) :

واذكر يا محمد للمشركين الذين استجابوا لإغواء إبليس في الضلال والكفر ، قصة
 عداوته للبشرية . اذكر لهم حين قلنا للملائكة آمريين : اسجدوا لآدم الذي أبدعته قدرتنا
 من طين - اسجدوا - تحية له وتعظيما لقدرتنا ، فاستجابت الملائكة فسجدت سجود
 طاعة لربها وتعظيم لآدم الذي خلقه دون وسيط ، ولكن إبليس أعلن التمرد والعصيان في
 تكبر واستعلاء .

(قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) :

أى قال : كيف أسجد وأنا مخلوق من النار لمخلوق خلقته من الطين المهين ...
 وهو بهذا يعلن عصيانه لأوامر الخلاق العظيم ويحدد حكمته التي اقتضت خلق
 الإنسان وجعلته خليفته في أرضه ، وحامل أمانته بين خلقه ، وتعليمه الأسماء

كلها ، غفل إبليس عن هذا كله وأعلن تمرده وعصيانه وخروجه على طاعة خالقه ، وهذا استحق الطرد من رحمة الله^(١) .

٦٢ - (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ) : أى قال إبليس لربه : أخبرني عن هذا المخلوق الذى فضلته على مع أنه غير جدير بهذا التفضيل والتكريم .

(لَئِنْ أَخَّرْتَنِى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) : أى والله لئن مددت فى عمرى إلى يوم القيامة لأستولين على ذريته ، لأقودهم إلى الدمار والخراب وإلى الفساد والعصيان كما يقود الراكب دابته ، إلا طائفة قليلة منهم لأقدر عليهم لأنك عصمتهم يارب من الضلال والاضلال ، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ»^(٢) . ويقول سبحانه حاكيا على لسان إبليس : « قَالَ فَيُعِزِّتُكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ »^(٣) .

(قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا) ٦٣ وَأَسْتَفِرِّزُ مِنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ^ج وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ^ج وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ٦٥)

المفردات :

(أَذْهَبَ) : امض فى طريق غوايتك وإغوائك مطروداً من رحمتى .

(١) راجع القصة بتمامها فى تفسير الربع الثانى من سورة البقرة ، والربع الأول من سورة الأعراف .

(٢) سورة الحجر : الآية ٤٢ .

(٣) سورة ص : الآية ٨٢ ، ٨٣ .

(مَوْفُورًا) : كاملاً غير منقوص . (اسْتَفْزَرُ) : استحف واحفز وخادع .
 (بِصَوْتِكَ) : بدعوتك إلى المعصية . (أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ) : صيح عليهم صياحاً شديداً واستحثهم
 على الشر وادفعهم إليه دفعا .
 (بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ) : أى براكبي خيلك ، وجنودك الماشين على أرجلهم والمراد من
 يساعدك من أعوانك على اختلاف طاقاتهم وقدراتهم .
 (غُرُورًا) : غشاً وخداعاً .

التفسير

٦٣ - (قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا) :

لما توعد الشيطان أبناء آدم بالإغواء والإغواء لصرفهم عن عبادة الله سبحانه زجره الله سبحانه بهذه الآية - والمعنى : امض أيها الشيطان في طريق غوايتك وإغوائك ، مطروداً من رحمتي أنت ومن اتبعك من البشر ، فمصيرك وإياهم جهنم تجزون فيها جزاء موفوراً تاماً وبئس المصير .

٦٤ - (وَاسْتَفْزَرْنَا مِنْ أَصْوَافِهِمْ) : وادفع إلى الشر من استطعت دفعه منهم بصياحك عليهم . (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ) : أى وادفعهم دفعا إلى ارتكاب الشر والموبقات مستعينا عليهم بجنودك من شياطين الإنس والجن من فرسان مسرعين ومشاة مبطئين ، أى بمختلف أساليب الإغواء ، وذكر الخيل والراجلين من باب التمثيل . (وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) : واشترك معهم في مباشرة كسب الأموال الحرام بالباطل ، واشترك معهم في دفعهم إلى تنشئة أولادهم على الكفر والعصيان والضلال .

(وَعِدُّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) : أى واخدعهم بالمواعيد الكاذبة مزيئاً لهم الشر مقبحاً لهم الخير ، وألق الشك في قلوبهم بحقيقة البعث والنشور ، وما ينتظرهم من عذاب أليم ، وما مواعيد الشيطان إلا أباطيل زائفة وأوهام خادعة لأن طبيعته قائمة على التفرير والخداع والنفاق فليفعل ما يشاء ، فليس له على أحد سلطان إلا الغاوين .

٦٥ - (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا) :

بينت الآيات السابقة أن الشيطان توعد ذرية آدم بأنه سَيَحْتَنِكُهُمْ وَيَغْوِيهِمْ إلا قليلا وأن الله هدده وأنذره بالفشل في وسوسته مهما ضللهم بوعوده الزائفة ، وجاءت هذه الآية لتبين أنه تعالى يحفظ عباده الصالحين من نزغات الشيطان وينجيهم من إغوائه وأباطيله كما قال سبحانه فيه : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبُّهُمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ »^(١) . وحسبك أيها النبي أنت والمؤمنون الصالحون حسبكم حماية ربك لك ولهم وكفائته إياكم ، وتخليصكم من مكاييد الشيطان وجنوده ، فتوكلوا عليه واعتصموا به - وقيل إن الخطاب في قوله تعالى : «وكفى بربك وكيلًا» - موجه إلى الشيطان ، كما في الجملة السابقة أي وكفى بربك أيها الشيطان وكيلًا للمؤمنين من عباده ، فليعوذوا بي من شرك فيني أعيذهم منه .

(رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)^(٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ فَلَمَّا تَجَلَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا)^(٦٧)

المفردات :

(يُزْجِي) : يبعث ويرسل . (الْفُلْكَ) : السفن . (ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ) : انصرف عنكم أو غاب عن نصرتكم ومعونتكم من تعبدون . (كُفُورًا) : بجاحدا للنعمة .

التفسير

٦٦ - (رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِنَبْتَنُوا مِنْ فَضْلِهِ .) الآية .
بعد أن تحدثت الآية السابقة عن فضل الله على عباده المخلصين بإنقاذهم من غواية الشيطان إذا لجأوا إليه واعتصموا به ، واستمسكوا بكتابه ، بعد ذلك تحدثت هذه الآية عن فضل الله على خلقه وموقفهم من هذا الفضل .

والمعنى: إن إلهكم صاحب النعمة الجزيلة عليكم هو الذي هباً لكم صناعة السفن وتسخيرها في حملكم من بلد إلى بلد ، وفي نقل حاصلات الشرق إلى الغرب وحاصلات الغرب إلى الشرق ، بأقل نفقة وبأيسر كلفة عبر المحيطات والبحار ، كما ييسر لكم بها الانتفاع بخيرات البحار من لؤلؤ ومرجان وأصداف ولحوم وزيوت الأسماك ، كما سخرها ليمكنكم من منافع أخرى تبتغونها من فضله ، مثل استخراج البترول من قاع البحار .

(إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) : سخر الله لكم سبحانه هذا كله لأنه كان ولا يزال واسع الرحمة بكم ، ييسر لكم سبل الرزق من حيث تحتسبون أولاً تحتسبون .

٦٧ - (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ) :

وإذا تعرضتم لأخطار البحار ، من نحوزوا به وأعاصير وعواصف وأنواء وأسماك مفترسة متوحشة ، وتطلعتم إلى من بعد يده الرحمة لإنقاذكم من الهلاك والدمار ، ذهب عن أذهانكم من تدعونه لتفريج كربتكم سوى الله القوى القدير اللطيف بعباده ، الرحيم بخلقهم ، فإنكم تدعونه وحده ليكشف الضر عنكم وينجيكم مما أصابكم .

(فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً) : فلما أنقذكم الله بفضله ورحمته ، وأوصلكم إلى الشاطئ سالمين قابلتم نعمته عليكم بالجحود ، وأعرضتم عنه منصرفين إلى آلهتكم . ومن المشاهد أن الإنسان بطبيعته وفطرته يلجأ إلى خالقه في شدته ، فإذا جاءه الرخاء أعرض عن ربه إلا من عصم الله كما قال سبحانه : « فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ » (١) .

(أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ
تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا
كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾)

المفردات :

- (يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ) : يغيبكم في جوفه وقد ظننتم الأمن فيه .
(حَاصِبًا) : ريحا ترميكم بالحصباء فتهلكوا .
(وَكِيلًا) : حافظاً يرعاكم . (قَاصِفًا) : عاصفاً محطماً مدمراً .
(تَبِيعًا) : ناصرًا ومعيناً .

التفسير

٦٨ - (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا) :
إذا نجاكم الله من أهوال البحر وعدتم إلى البر قابلتم فضله بالجحود ، فهل أمنتُمْ أن
ينالكم عذابه وأنتم في البر ، بأن تتعرضوا للزلازل مدمر يقرب بكم الأرض ظهراً لبطن
فيدفنكم فيها وأنتم أحياء ، كما خسف بقارون وبداره الأرض ، أو أن يرسل عليكم ريحا
تحمل الحصباء ، كما فعل بقوم لوط .

(ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا) . ثم لا تجدوا حينئذ من تكلون إليه أمرالدفاع عنكم ،
بأن يصرفه عنكم أو يحفظكم من ضرره ، فإنه لا راداً لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

٦٩ - (أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا
كَفَرْتُمْ) :

بل أَمِنْتُمْ أَنْ يَعِيدَكُم إِلَى رُكُوبِ الْبَحْرِ مَرَّةً ثَانِيَةً فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ رِيحًا عَاصِفًا مَظْمُومًا مَدْمُومًا
يَطْوِيكُمْ فِي جُوفِ الْأَمْوَاجِ فَتُغْرَقُونَ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ ، وبِالْجُمْلَةِ يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ كُلُّ امْرِئٍ
أَنَّهُ فِي قَبْضَةِ إِلَهٍ قَوِيٍّ جَبَّارٍ فَعَالٍ لَمَّا يَرِيدُ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَطِيعَهُ وَيَخْشَاهُ ، سِوَاءِ أَمَاكَانٍ فِي بَحْرٍ
أَمْ فِي بَرٍّ ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْمَنَ مَكْرَ اللَّهِ تَعَالَى : « أَفَأَمَّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا
بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ، أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ، أَفَلَمْ نَوَكِّرْ
لِللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » (١)

(ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) : ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ حِينَئِذٍ نَصِيرًا أَوْ مُنْقِذًا يَتَابِعُكُمْ
لِيُدْفَعَ عَنْكُمْ الْأَخْطَارُ ، أَوْ مُتَابِعًا لَنَا مُطَالِبًا الثَّأْرَ لَكُمْ مِنَّا .

(* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا
تَفْضِيلًا (٧٠))

التفسير

٧٠ - (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) :

يخبر الله سبحانه بهذه الآية عن تكريمه بني آدم ، وتفضيله إياهم حيث خلقهم
جميعاً ، برهم وفاجرهم ، على أحسن الصور التي تتمثل في اعتدال القامة وتناسق الخلق وجماله
ونعمة العقل والإدراك ، وفي طعامهم وشرابهم ؛ وَكُلُّ شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِ حَيَاتِهِمْ يَتَمَيِّزُونَ
بِهِ عَنْ غَيْرِهِمْ مِنْ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَإِتِمَامًا لِتَكْرِيمِهِ سَبْحَانَهُ إِيَاهُمْ وَهَبِهِمْ قُدْرَةَ تَمَكُّنِهِمْ

من التسلط على مافي الأرض، من كنوز ومياه ومعادن وبتروول، وغير ذلك مما جعلهم يقيمون الصناعات ، ويستنبتون الزروع ويغرسون الأشجار، ويملكون سبل التقدم والعمران كما مكنهم من الانتفاع بما في السماء ، من هوائها وسحابها . وسائر كواكبها وأجرامها التي أملتهم وتمدهم بطاقات كثيرة لا غنى لكائن حي عنها ، فضلا عن الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر ، وقصارى القول أن الله تعالى سخر كل شيء لتكريم الإنسان . وكان هذا التسخير بقدرته تعالى ، وليس بقدره البشر .

(وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) : أى أنعمنا عليهم فحملناهم في البر على الدواب من الإبل والخيول والبغال وعلى غيرها من وسائل الانتقال . كما حملناهم في البحر على السفن المختلفة الأشكال والأحجام المختلفة الأغراض .

(وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) : التى تجمع فنون المطاعم والمشارب اللذيذة التى منحناهم إياها، مما لا يتسى لهم أن يحصلوا عليها بصنعهم ، وإن صنعوها فبتيسير الله وإقداره ، وإجرائها فى مواد مخلوقة له سبحانه ، أما غيرهم من الحيوانات فأرزاقها مما تعافه أنفسهم .

(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) : أى أن الله جل شأنه فضلهم تفضيلا عظيما على كثير ممن خلقهم سبحانه بأُمور كثيرة ، إذ شرفهم بالعقل الذى هو عمدة التكليف وبه يعرف الله ، وتفهم تعاليمه ، ويحصل بهديه التمييز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ، وذلك مما يوجب عليهم شكر المنعم المتفضل ، ويتحقق شكره بتوحيده وإخلاص العبادة له سبحانه ، ورفض الشرك الذى لا يقبله من له أدنى تمييز . فكيف بمن فضل على ماسوى الملائ الأعلى ، من كل ما يدب على وجه الأرض أو يحلق فى أرجاء السماء ، وكما فضلهم بالعقل فضلهم بأُمور خلقية ذاتية ، مثل النطق والصورة الحسنة، والقامة المديدة المعتدلة ، إلى غير ذلك مما امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان .

واعلم أن الرسل من البشر أفضل من الملائكة مطلقا ، ثم الرسل من الملائكة مفضلون على من سواهم من البشر والملائكة . ثم عموم الملائكة على عموم البشر . وهذا رأى الجمهرة من العلماء .

(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْأَمِهِمْ^{٧١} فَمَنْ أَؤْتِيَ كِتَابَهُ بِإِمِينَةٍ
فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا^{٧٢}) وَمَنْ كَانَ
فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا^{٧٣})

المفردات :

(نَدْعُو) : ننادى . (بِإِمْأَمِهِمْ) : بنبيهم أو بكتاب أعمالهم . (فَتِيلًا) : الفتيل هو الخيط الدقيق الممتد في شق النواة طولاً . والمراد به المقدار البالغ الغاية في القلة من العمل .
(أَعْمَى) : يراد به أعمى البصيرة .

التفسير

٧١- (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْأَمِهِمْ) :

هذا شروع في بيان تفاوت أحوال الناس في الآخرة حسب تفاوت أحوالهم وأعمالهم في الدنيا .

والمعنى : اذكر لقومك أيها النبي يوم ننادى كل جماعة من بني آدم بمن ائتموا به واتبعوه من نبي وكتاب تشريع ، أو كتاب الأعمال التي قدموها ، فيقال لهم يا أتباع محمد أو موسى أو عيسى عليهم السلام ، أو يا أتباع القرآن أو التوراة أو الإنجيل أو يا أصحاب كتاب الخير . أو يا أصحاب كتاب الشر .

والراجع أن يكون المراد هنا بالإمام كتاب الأعمال على ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله : « يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْأَمِهِمْ » أي بكتاب أعمالهم ، وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك ، لقوله تعالى : « وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ^(١) » . ويجوز أن

يكون المراد بإمامهم دينهم الذي دانوا به في الدنيا صحيحاً أو فاسداً، فينادى يا أصحاب دين كذا ليسلموا كتبهم .

(فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) : أى فمن أعطى كتاب أعماله من أولئك المدعويين فلأخذه بيمينه كان ذلك تبشيراً وتشريفاً له .

(فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ) : أى فهؤلاء المختصون بتلك الكرامة يقرأ كل منهم كتابه ، وحين يسر بقراءته ينادى إخوانه مبتهجا تعالوا فاقروا كتابي ، لتروا ما أكرمنى الله به من الثواب العظيم ، كما قال تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ » (١) .

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) : أى ولا ينقصون من ثواب أعمالهم المكتوبة في صحائفهم أى شيء ولو بلغ الغاية في القلة . فكان قدر فتيل وهو الخيط الرفيع في شق النواة ويضرب به المثل في الصغر وفيما لا قدر ولا اعتداد به لدى المخلوقين .

٧٢ - (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى) الآية .

أى ومن كان في الحياة الدنيا أعمى البصيرة عن حجج الله وبياناته ، وعن كل ما أولاه الخالق جل شأنه من نعم ظاهرة وباطنة . فهو في الآخرة أعمى لا يهتدى إلى ما ينجيهِ . ولا يجد ما يجديه ، لأن عماء في الدنيا بإعراضه عن توحيد الله أوجب هذا التخبط في الآخرة والحرمان فيها .

وعن ابن عباس : ومن كان في هذه النعم والآيات التي رأى أعمى ، فهو في الآخرة التي لم يعاين أعمى وأضل سبيلاً . وقيل ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب حشر يوم القيامة أعمى العين كما قال تعالى : « وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى » .

(وَأَضَلُّ سَبِيلًا) : عما كان عليه في الدنيا ، حيث استحالت عليه جميع أسباب النجاة لفقده كل طريق يوصل إليها ، إذ لا توبة في تلك الدار ولا إمهال . ولا عودة لتدارك ما فات .

وهذا الفريق الذى عميت بصيرته فى الدنيا وكان أعمى فى الآخرة ، هو الفريق الذى أوتى كتابه بشماله ، بدلالة ذكره مقابلا للفريق الذى أوتى كتابه بيمينه ، ولم يذكر بعنوان أوتى كتابه بشماله صريحا كما ذكر الفريق الأول بعنوان إيتاء كتابه بيمينه ، اكتفاء بذكر السبب الموجب لذلك وهو كونه أعمى البصيرة فى الدنيا ، وأعمى وأضل سبيلا فى الآخرة .

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِينَا إِلَيْكَ لِيَفْتَرِيَ
عَلَيْنَا غَيْرُهُ ۚ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ
لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَا ذُقْنَكَ ضِعْفَ
الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾)

المفردات :

(وَإِنْ كَادُوا) : وإن قاربوا . (لَيَفْتِنُونَكَ) : ليصرفونك . (لِيَفْتَرِيَ) : لتختلق .
(خَلِيلًا) : صفيًا وصاحبًا من الخلّة ، بضم الخاء وهى الصّحبة .
(تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ) : تميل إليهم .

التفسير

٧٣- (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِينَا إِلَيْكَ) الآية .

قال ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية ؛ إن وفد ثقيف أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه شططا وقالوا متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لها فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا ، وحرم وادينا كما حرمت مكة حتى يعرف العرب فضلنا عليهم ، فهم رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يعطيهم ذلك فنزلت . وقيل سبب نزولها هو قول أكابر قريش

للنبي صلى الله عليه وسلم اطردها هؤلاء السقاط والموالى ، حتى نجلس معك ونسمع منك ، وما زالوا به حتى كاد يقاربهم فيما يقولون فعصمه الله وأنزل الآية .

والمعنى : وإنه كاد هؤلاء المشركون بما اقترحوه عليك أن يوقعوك فى الفتنة بأن تستجيب إلى ما طلبوه منك من أمور تقربك منهم .

(لِيَتَفَتَّرِيَ عَلَيْنَا غَيْرُهُ) : أى يأملون بذلك أن تخلق علينا غير الذى أنزلناه إليك ، وأمرناك باتباعه فتخالفه إلى تنفيذ ما اقترحت عليه ثقيف من تحريم وادهم كتحریم مكة أو طلبته قرينش من إقصاء الفقراء عنهم ، فكادت نفسك تميل قليلا إلى موافقتهم رجاء إيمانهم رحمة بهم .

(وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا) : أى لو استمعت إليهم لقربوك منهم ، صفيا وصاحباً وكنت ولياً لهم .

٧٤- (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) :

أى ولولا تثبيتنا إياك وعصمتنا لك لقاربت أن تميل إليهم ميلا قليلا لشدة احتياهم عليك ، وخداهم لك ومكرهم بك ، ولكنك أدرت عنايتنا ، فحالت بينك وبين القرب من أدنى مراتب الركون ، وهذا صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم ما هم بإجابتهم مع قوة الداعى إليها ، قال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوما ، ولكن هذا تعريف للأمة لثلاث يركن أحد منهم إلى المشركين فى شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه .

٧٥- (إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ) :

أى لو قاربت الركون إليهم لجمعنا عليك عذابا مضاعفاً فى الدنيا والآخرة ، حيث يكون هذا العذاب ضعف ما يعذب به غيرك فى الدارين إذا فعل مثل هذا الفعل ، لأنه كلما كانت الدرجة أعلى والمنزلة أسمى كانت المؤاخذه على الخطيئة أشد وأقوى .

(ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) : يمنع عنك العذاب ويحول بينك وبينه إذا لا سلطان فوق سلطاننا حتى تجد فيه ملجأ أو معينا .

(وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا
وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ
مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(وَإِنْ كَادُوا) : أى وإن قاربوا . (لَيَسْتَفِزُّوكَ) : ليزعجونك ، يقال استفزنى فلان
أزعجنى . (خِلَافَكَ) : بعدك .

التفسير

٧٦- (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا) :

قال مجاهد وقتادة : نزلت هذه الآيات فى هم أهل مكة بإخراجه صلى الله عليه وسلم
من أم القرى ولو أخرجه منها لما أمهلوا ولكن الله أمره بالخروج فخرج .
والمعنى : قارب أهل مكة أن يزعموك بعداوتهم وشدة إيذائهم . ليخرجوك من الأرض
الطيبة أرض مكة قبل أن يأذن الله لك بالهجرة .

(وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا) :

أى ولو حققوا ما هموا به ، بإكراهك على الخروج لم يبقوا بعد إكراهك عليه إلا
زمننا قليلا يستأصلون ويهلكون جميعا بعده .

والواقع أنه صلى الله عليه وسلم لم يخرج من مكة بإكراه قريش له ، وإن كانوا قد هموا
به بل كان خروجه بأمر ربه حين أذن له فى الهجرة ، حفاظا على الدعوة وتمكينها لها من
اللقى فى طريقها لأداء مهمتها السامية فى جو من الأمن والاستقرار . وليسلم منهم ومن
أعقابهم من يشرف بالإسلام ، لذلك لم يقع لهم الاستئصال ، وعن مجاهد قال : أرادت
قريش ذلك ولكنها لم تفعل لأنه سبحانه أراد استبقائها وعدم استئصالها ليسلم منها
ومن أعقابها من يسلم ، فأذن لرسوله بالهجرة ، فخرج بإذنه لا بإخراج قريش وقهرهم .

وَأَسْنَدَ الْإِخْرَاجَ إِلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَكَأَيُّ مِّنْ قَرِيْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرِيْبَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ » ^(١) . وفي قوله صلى الله عليه وسلم : « أَوْ مُخْرَجِيَّ هُمْ » . وفي قول ورقة - ليتنى كنت جذعا إذ يخرجك قومك ، - أسند الإخراج إليهم - لِيَهْمُ بِهِ وَمَزَاوِلَ مَقْدَمَاتِهِ بِاسْتِفْزَازِهِمْ لَهُ وَلَأَصْحَابِهِ .

٧٧- (سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا) :

أَي سِنَنَ سَنَةٍ فِي أُمِّ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ ، وَهِيَ أَنَّ تَعَذُّبَ كُلِّ أُمَّةٍ كَفَرَتْ بِرَسُولِهَا وَأَذَتْهُ وَجَعَلَتْهُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهَا ، وَذَلِكَ بِإِهْلَاكِهَا بِحَيْثُ لَا تَلْبِثُ بَعْدَهُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَحِيقَ بِهَا الدَّمَارُ وَالنَّكَالُ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولُ الرَّحْمَةِ لَجَاءَ قَوْمُهُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » ^(٢) . وَإِسْنَادُ السَّنَةِ إِلَى الرُّسُلِ مَعَ أَنَّهَا لِلَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ لِأَنَّهَا سُنَّتٌ لِأَجْلِهِمْ .

(وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) : أَي لَا خَلْفَ فِي وَعْدِهَا وَلَا تَغْيِيرَ فِي وَقْتِهَا وَنَوْعِهَا .

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ
إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) ٧٨ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ
نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ٧٩ وَقُلْ رَبِّ
أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ
لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ٨٠ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ
الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ٨١)

المفردات :

(لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) : لميلها عن وسط السماء . يقال « دلكت الشمس » أى مالت وانتقلت من وسط السماء إلى ما يليه غروباً . (غَسَقَ اللَّيْلُ) : شدة ظلمته ، يقال غسق الليل غسقاً ويحرك وغسقانا وأغسق اشتدت ظلمته ، ويطلق الغسق على ظلمة أول الليل . (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ) : قراءته والمراد بها صلاته . (فَتَهَجَّدْ) : الهجود النوم ، والتهجد التيقظ منه للصلاة .

(نَافِلَةً) : زائدة على الفريضة . (مُدْخِلِ صَدَقٍ) : إدخال صدق ، فهو مصدر ميمي من الرباعى ، وكذلك (مُخْرَجِ صَدَقٍ) : أى إخراج صدق . (سُلْطَاناً) : حجة لها سلطة على العقل بقوتها .

التفسير

٧٨- (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ) :

لما ذكر سبحانه في الآيات السابقة محاولة المشركين صرفه صلى الله عليه وسلم عن الدعوة وإزعاجه بالفتن والأذى ، أتبعها هذه الآيات بأمره فيها بإقامة الصلاة لما فيها من التثبيت والصبر والقوة الروحية على مجابهة فتن المشركين .

والمعنى : أقم الصلاة أيها الرسول وسائر المؤمنين عند ميل الشمس عن وسط السماء إلى أن تشتد ظلمة الليل بعد غروبها ، وهذا الوقت يشتمل على أربع صلوات هي الظهر . والعصر والمغرب والعشاء .

والأمر بإقامتها بين دلوك الشمس وغسق الليل يراد به إقامة كل صلاة منها في وقتها الذى عين لها بينهما ، ببيان جبريل عليه السلام . كما أن كيفية كل صلاة منها بينها النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه ، بتعليم جبريل عليه السلام ، وإنما فرضت في الأوقات المعينة لها لأن شأن الإنسان فيها أن يكون متيقظاً وقد أفرد الله تعالى صلاة الفجر بأمر خاص تضمنه قوله تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ » اهتماماً بها لأنها تكون بعد نوم يفصلها عن الصلوات الأربع ، وعبر عن صلاة الفجر بالقرآن لأنها يطلب فيها تطويل القراءة أكثر من غيرها ، ولهذا تشهدها الملائكة كما سيأتى ، وبذلك تكون الآية الكريمة قد أشارت إلى الصلوات الخمس .

وقيل المراد بالصلاة في قوله تعالى: « أقم الصلاة » صلاة المغرب ، ويكون معنى دلوك الشمس غروبها وغسق الليل ظلّمته ، باختفاء الشفق فيكون آخر وقت صلاتها أداء .

(إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) : تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار حينما يتعاقبون ، والمراد بهم الكتبة ، وقد روى الترمذى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » قال : « تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار » حديث صحيح ، وأخرج البخارى ومسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر » وقيل تشهده كثرة من المصلين عادة أو من حقه ذلك ، أو تشهده وتحضر فيه شواهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة ، واليقظة بالنوم وهو أخو الموت ، وإظهار لفظ القرآن في مقام الإضمار لمزيد الاهتمام به .

٧٩ - (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ^(١) . . .) الآية .

التهجد التيقظ بعد النوم ، والمقصود بالتهجد هنا الصلاة ليلا بعد النوم ، والضمير في قوله : « فتهجد به » يعود على القرآن ، أى فتهجد بالقرآن وصل مُتَلَبِّسًا بقراءته بعد الفاتحة ، وذلك بعد قيامك من النوم ليلا ، ويستدل بذلك على تطويل القراءة في التهجد ويجوز عود الضمير على الليل . والباء بمعنى في . أى : وبعض الليل فتهجد فيه .

(نَافِلَةٌ لَّكَ) : فريضة زائدة على المفروض على الأمة . خاصة بك فالخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل كانت في الابتداء واجبة عليه وعلى الأمة ثم نسخ الوجوب وصار الأمر فيها للندب ، فهو إذا تطوع بما ليس بواجب عليه ، كان ذلك زيادة له في الدرجات . أما غيره من الأمة فتطوعه لجبر نقص ولتدارك خلل يقع في الفرض أو لتكفير ذنب يلم به أو لزيادة ثواب . قال معناه مجاهد وغيره .

(عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) : أى وبعض الليل فتهجد فيه لتكون على رجاء أن يبلغك ربك إلى كمالك الذى أنت أهل له في الدار الآخرة . فيقيمك في مقام محمود عند نفسك وعند الناس أجمعين . وذلك هو مقام الشفاعة العظمى في فصل

(١) المهجود : النوم ، والتهجد إزالة المهجود بالتيقظ من النوم .

القضاء ، حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : « مقاماً يحمذك فيه الأولون والآخرون ، وتشرف فيه على جميع الخلائق ، تَسْأَلُ فتعطى ، وتشفع فتشفع ، ليس أحد إلا تحت لوائك » . وقيل المقام المحمود هو إعطاؤه عليه السلام مرتبة من العلم لم تعط لغيره من الخلق أصلاً ، وعلى الجملة فالمقام المحمود ينتظم كل مقام يتضمن كرامة له صلى الله عليه وسلم ويشير إلى ذلك التنكير في قوله : « مقاماً » حيث يفيد التعميم والتفخيم .

٨٠- (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ)^(١) :

لما وعد الله رسوله المقام المحمود ، أمره أن يتجه إليه بدعائه لينجزله وعده أى قل منادياً ربك : أَدْخِلْنِيْ فيما أمرت به من الطاعات إدخالاً مرضياً ، وأخرجنى عما نهيت عنه إخراجاً نظيفاً من المعاصى ، وهى على كل أسباب العزم والقوة لجهاد أعداء دينك ، حتى أنتصر عليهم بسلطانك وتأييدك ، حتى أكون أهلاً لما وعدتنى من المقام المحمود ، وقيل علّمه جل شأنه أن يدعو به بأن يخرج من دار المشركين دار الإيذاء والغدر ، وأن يدخله موطناً للطمأنينة والأمن ، فدعا ربه كما أمره فأخرجه من مكة وأدخله المدينة ، وروى هذا المعنى الترمذى عن ابن عباس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت . وقال الضحاك : هو خروجه من مكة مهاجراً ، ودخوله مكة يوم الفتح آمناً . وتقديم الإدخال فى الآية على الإخراج مع أن إخراج من مكة أسبق من إدخاله فيها بعد ذلك ، لأن إدخاله فيها هو الهدف المقصود ، وقيل المعنى : أَدْخِلْنِيْ فى الأمر الذى أكرمتنى به من النبوة مدخل صدق وأخرجنى منه مخرج صدق إذا أمتنى ، قاله مجاهد .

(وَاجْعَلْ لِّىْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيْرًا) :

أى حجة ثابتة وبرهاناً بيناً يكون به النصر على من يخالفنى ، وكون السلطان مراداً به ما ذكر ، موافق لرأى الشعبى وعكرمة . وذهب الحسن إلى أن المراد به إظهار دينه على الدين كله ، بالتسلط على الكافرين بالسيف ، وعلى المنافقين بإقامة الحد ، وبمعصمته من كل أذى يوجه إليه وإلى دين الله ، وقد استجاب الله لدعاء رسوله ، فأظهر دينه على الأديان كلها وعصمه من أذى الناس وكيدهم ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى

(١) مدخل صدق ، أى إدخال صدق ، ومخرج صدق أى إخراج صدق فهو مصدر ميمي فى كليهما .

وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ^(١). وقوله: «وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»^(٢). وقد أشعر وصف «سلطانا» بقوله «نصيراً» وهى من صيغ المبالغة - أشعر بأنه صلى الله عليه وسلم يدعو بنصر حاسم .

٨١- (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ) :

أى وقل جاء الحق الذى لا مرية فيه ولا قبل لهم برده ، وهو الإسلام المؤيد بمعجزة القرآن الكريم ، الداعى إلى الإيمان الصادق والعلم النافع ، وذهب الباطل واضمحل فهلك الكفر والشرك ، وما زينته الشيطان من شرور وآثام .

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) : وعد من الله جل شأنه بنصر الحق على الباطل أى أن الباطل شأنه عند الله أن يكون مضمحلاً ولا بقاء له مهما طال به الأمد ، وامتد به الزمن ، وتعدد المستمسكون به ، وفى بيان ذلك يقول سبحانه : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »^(٣) . ويروى البخارى والترمذى عن ابن مسعود قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نصبا - فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يطعن بها بمخصرة فى يده ، وربما قال : بعود ، ويقول : « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ، هذا لفظ رواية الترمذى ، قال القشيرى : فما بقى منها صنم إلا خر لوجهه ، ثم أمر بها فكسرت .

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)^(٨٢))

الفردات :

(خَسَارًا) : الخسار ؛ الهلاك والضلال .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦٧

(١) سورة التوبة : الآية ٣٣

(٣) سورة الأنبياء : من الآية ١٨

التفسير

٨٢- (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ . .) :

أى شفاء لما فى الصدور من شك ونفاق ، وزيف وشرك ، وذلك بتخليصها من مرض الجهل ، وداء العناد ، وشهوة الإعراض حتى تستبين الأمور الدالة على الله تعالى ، فالقرآن فى تقويم النفوس ، وتنقية القلوب كالدواء الشافى للمرضى ، وهو جميعه كذلك . ويرى بعض العلماء أنه يستثنى به من الأمراض الظاهرة ، استنادا إلى حديث صحيح فى ذلك ، قال القرطبي : روى الأئمة واللفظ للدارقطنى عن أبى سعيد الخدرى قال : (بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية ثلاثين راكبا ، قال فنزلنا على قوم من العرب ، فسألناهم أن يضيّفونا فأبوا - قال : فلدغ سيد الحى ، فاتّونا فقالوا : فيكم أحد يرقى من العقرب ؟ إن الملك يموت . قال : قلت أنا - نعم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا ، فقالوا : فإننا نعطيكم ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه « الحمد لله رب العالمين » سبع مرات فبرأ ، فبعث إلينا بالنزل^(١) ، وبعث إلينا بالشاء^(٢)) إلى آخر الحديث .

(وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) : هو رحمة لهم ، ففيه بواعث الإيمان والحكمة ، والرغبة فى كل فضيلة ومكرمة ، فتعهم بالعمل به الرحمة التى تشمل تفريج الكروب . وتكفير الذنوب ومضاعفة الأجور .

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) : أى ضللا وهلاكا لتكذيبهم المتتابع ، وكفرهم المتكرر بكل آية يوحى بها ، وإسناد الزيادة المذكورة إلى القرآن ، باعتبار كونه سببها حيث تمادوا فى كفرهم به وتكذيبهم له كلما أنزل ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة فصلت : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى^(٣) » .

(١) النزول : بوزن القفل ؛ الطعام الذى يهبأ للضيف الذى ينزل بك .

(٢) الشاء : هى النعم التى جعلوها لهم عطاء وأجرأ على رقياء الملك المملوغ .

(٣) سورة فصلت : الآية ٤٤ .

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾)

المفردات :

نَأَى الشيء بعد ، ونَأَيْتُه ونَأَيْت عنه : بعدت .
(وَنَسَى بِجَانِبِهِ) : تكبر وتباعد . (يَئُوسًا) : شديد اليأس . (عَلَى شَاكِلَتِهِ) : على طريقته ومذهبه .

التفسير

٨٣- (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ) :

يخبر الله بهذه الآية عن نقص الإنسان من حيث طبيعته في حالتي الرخاء والشدة ، فإذا أنعم عليه بمال وصحة ، وفتح ونصر ، ونال كل مآربه أو بعضها ، أعرض عن طاعة خالقه ، وبعد عن عبادته ، وإذا مسه شر ، أو نزلت به كارثة ، بالغ في اليأس من رحمة الله - وتمادى في الجزع ، فالآية نزلت تذكر منهجاً عاماً سلكه جنس الإنسان عند ممارسته لشئون الحياة ، وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة .

والمعنى : وإذا أنعم الله على الإنسان بالصحة وبسط له كل أسباب النعمة والقوة لم يذكر فضل الله عليه كأنه مستغن عنه ، وبدل أن يقوم بشكره ، ويذل لسلطانه ، تكبر وتباعد ، وطوى عن الطاعة عنقه وأعطاه عرض وجهه وبعد بجانبه وولاه ظهره ، وتلك الآية تبرز مبالغته في الإعراض والبعد عن ربه غروراً واستكباراً ، مصورة بصورة الأمور المحسوسة تقبيحاً له وتقريعاً على ما اقترف من إثم عظيم .

(وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا) : أى إذا نزل به شر من مرض أو فقر أو كارثة من الكوارث التي تلم به ، كان شديد اليأس والقنوط من فرج الله الذي وعده عباده المؤمنين ، وذلك لأنه لم يقبل عليه في الرخاء ، حتى يرجوه في الشدة ، ولو أنه صبر لظفر ، فقد جاء في حديث ابن عباس : «وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكُرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» .

٨٤- (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ) :

تهديد للمشركين ووعيد لهم ، وطمأنة للمؤمنين وحفز لهم ، أى أن كل واحد منكم سواء أكان مؤمناً أم كافراً ، مقبلاً أم معرضاً ، راجياً أم قانطاً. يعمل على طريقته ومذهبه وأخلاقه التى ألقاها فى الهدى والضلال . وسيُجزى كلُّ عمله لا تخفى منه خافية .

(فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا) : أى فربكم الذى خلقكم أعلم بمن هو أبين منهاجاً ، وأرشد طريقاً وهو المؤمن المهتدى فيثيبه ويجزل عطائه ، كما هو أعلم بمن يمشى مكباً على وجهه شديد العناد فى سلوكه ، فلا يمنحه توفيقه ، ولا يزيده إلا خساراً ونكالاً .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۚ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ۚ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (٨٥)

المفردات :

(الرُّوح) : يطلق على ما به حياة الأنفس يُذَكَّر ويؤنَّث ، ويطلق أيضاً على القرآن وعلى الوحي وجبريل ، كما يطلق على غير ذلك ، وسيأتى بيان المراد منه فى الآية .
(مِنْ أَمْرِ رَبِّي) : من شأنه الذى اختصَّ به سبحانه وتعالى .

التفسير

٨٥- (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) :

نزلت هذه الآية الكريمة حينما سألت قريش الرسول عن الروح بإيعاز من اليهود فقد أخرج أحمد والنسائي والترمذى وابن حبان وجماعة عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود اعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل ، فقالوا سلوه عن الروح فنزلت . وقيل بعثت النضر ابن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود المدينة فقالوا : سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح ، فإن أجاب عنها أو سكت ، فليس بنبي ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي . فجاءوا وسألوه فبين لهم صلى الله عليه وسلم القصتين وأبهم أمر الروح ، وهو مبهم فى التوراة ، لأنه مما استأثر الله بعلمه ولم يطلع

عليه ملكاً ولا نبياً مرسلًا فكان ذلك سبباً لنزولها ، وكان السؤال عن حقيقة الروح ومسلكه في بدن الإنسان ، وامتزاجه بالجسم واتصال الحياة به وهذا شيء لا يعلمه إلا الله ، وذلك ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن فهم حقيقة نفسه ومصدر حياته مع علمه بوجودها . وفي هذا دلالة ناطقة على أنه وقد عجز عن إدراك حقيقة نفسه فهو عن إدراك كنه خالقه أعجز ، لأنه اللطيف الذي لا يعلم ذاته سواه .

وقيل في معنى الروح أقوال منها : أنها صورة كالبدن تسرى فيه سريان الماء في العود الأخضر ، وقيل غير ذلك ، والصحيح أنها شيء لا يعلمه إلا الله لقوله تعالى أمرا نبيه بإجابتهم : (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) :

وكان المقام للإضمار فيقال قل هو من أمر ربى ، ولكن الإظهار لكمال العناية بالمسؤول عنه . أى قل إن الروح من الأسرار الخفية التى تعجز عن إدراكها عقول البشر وتكل عن معرفتها أفهامهم ، فهى من الأمور التى استأثر الله بعلمها ، والإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم فى (ربى) للتشريف والتعظيم .

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) : اختلف فيمن خوطب بهذا ، فقيل : السائلون فقط ، وقيل : اليهود بجملتهم ، وقيل : العالم كله وهو الصحيح . فقد أخرج ابن اسحق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال نزلت هذه الآية بمكة فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا يا محمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » أفغنيتنا أم قومك ؟ قال كُلاًّ عَنَيْتُ - قالوا فإنك تتلو أنا أوتينا التوراة وفيها بيان كل شيء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله قليل ، وقد آتاكم ما إن عملتم به استقمتم ، وأنزل الله : « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (١) .

ولاشك أن القلة والكثرة من الأمور الإضافية ، فالشيء يكون قليلا بالنسبة إلى ما فوقه وكثيرا بالنسبة إلى ما تحته ، فما فى التوراة قليل بالنسبة إلى ما فى علم الله حيث إن علمه

سبحانه يتعلق بكل شيء في ملكوته من الخلق والتكوين والحياة والموت والسموات والأرض ، والشواب والعقاب .

(وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۖ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧)

المفردات :

(لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) : أى لنُزيلَنَّه ، يقال ذهب به أزاله كأذهب به .

التفسير

٨٦ - (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) :

- أى ولو أردنا أن نذهب بالقرآن الذى أوحيناه إليك وثبتناك عليه حينما حاولوا فتنتك لو أردنا ذلك لذهبنا ، ثم لا تجد لك بالقرآن وكيلا يلتزم باسترداده منا ، كما يلزم الوكيل باسترداد ما ذهب منه ووُكِّلَ فيه ، ولكن الله تفضل بإبقائه في صدرك وصدور المؤمنين ومصاحفهم رحمة بعباده ، وفي ذلك يقول الله :

٨٧ - (إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) :

أى ولكن رحمة من ربك تركه غير مذهب به ، فيكون ذلك امتناناً بإبقائه بعد الامتنان بإنزاله ، وترغيباً في المحافظة على أداء حقوقه ، لأنه أجل النعم وأعظمها (إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) : إذ اصطفاك على سائر الخلق واختصك بالمقام المحمود . وجعلك خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأنزل عليك كتاباً لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتكفل ببقائه وحفظه ، وينصرك على أعدائك بما أمداك به من رعاية وتوفيق .

(قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(ظهيراً) : معينا ونصيرا . (صَرَّفْنَا) : رددنا وكررنا .
(فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) : أى ما قبل أكثرهم إلا الجحود والإعراض .

التفسير

٨٨- (قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) :

نزلت هذه الآية حين قال الكفار : ولو شئنا لقلنا مثل هذا . أى قل للذين لا يعرفون قدر القرآن العظيم . وشأنه الجليل فزعموا أنه من كلام البشر وأن في مقدورهم الإتيان بكلام مماثل له ، قل لهم لو اتفقت كلمة الإنس منهم والجن ، وتضافرت هممهم وأقبلوا بكل عقولهم وأفكارهم على تحقيق رغبتهم في الإتيان بمثله في سمو الأسلوب ، ودقة التنسيق ، وكمال المعنى وقوة التشريع ، والإخبار بالغيبيات وغير ذلك ، لو اجتمعت على ذلك لعجزوا عن الإتيان بمثله ، لا يعنى فيهم فهم أهل لسن وبلاغة ، وإنما الإعجاز فيه في لفظه ومعناه وتشريعه وتأثيره النفسى جعله فوق مستوى الجن والإنس .

(وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) :

أى لا يأتون بمثله على أى حال مفروضة ، بمعنى أنهم سيبوءون بالإخفاق على الانفراد ، أو على الاجتماع متعاونين ، وفى ذلك حسم وقطع لأطماعهم الضالة التى أملت عليهم ، وزينت لهم الإتيان بمثله ، وتأكيدهم لعجزهم عنه على أى حال من الأحوال .

٨٩- (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) :

أى كررنا ورددنا للناس فى هذا التنزيل من كل معنى بديع غاية الحسن يستجلب النفوس ويستميلها كما تستميلها الأمثال السائرة ، أو ذكرنا فى القرآن طرقاً متنوعة توجب زيادة وضوح فى البيان ندعمها بالحجج الواضحة والبراهين القاطعة التى تبعث فى النفوس الثقة والاطمئنان ، أو وجهنا للناس القول فيه من كل مَثَلٍ رائع فى الحكمة الإلهية والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي وقصص الأولين والجنة والنار وشئون القيامة وغير ذلك من العبر .

(فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) : والمراد بأكثر الناس من كان فى عهده على الله عليه وسلم من المشركين وأهل الكتاب . واستظهر فى البحر أنهم أهل مكة بدليل أن الضمائر الآتية لهم ، أى ما رضى أكثرهم إلا الكفر والجحود للحق ، وأنهم بالغوا فى عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الإباء .

وأوثر إظهار لفظ الناس مع أن المقام للإضمار لزيادة التأكيد والتوضيح .

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ) (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ
الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ) (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ
عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتَىٰ بِنَا إِلَٰهٍ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۖ) (٩٢) أَوْ يَكُونَ
لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ
حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ
إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ) (٩٣)

المفردات :

(تَفْجُرُ) : تشق وتفتح . (يَنْبُوعاً) : ينبوع العين الكثيرة الماء . (فَتَفْجُرُ) : بالتشديد للتكثير . (كِسْفًا) : أى قطعاً جمع كسفة كقطعة . (قَبِيلًا) : مقابلة ومعينة ، أو كفيلاً بما تدعيه . شاهدنا بصحته . (مَنْ زُخْرَفَ) : الزخرف الذهب والزينة . (تَرَقَّى فِي السَّمَاءِ) : تصعد في معارجها .

التفسير

٩٠ - (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً) :

بعد أن تبيننت حجج القرآن لقريش وظهر عجزهم عن محاكاته ، وهم أهل اللغة والفصاحة ، اجتمع رؤساؤهم وذوو الشرف فيهم ، ودعوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الاجتماع بهم . فقالوا له : إن كنت تريد مالا جمعنا لك حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد الشرف فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا وإن كان الذى يأتيك رَتِيًّا (أى تابعا من الجن) بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نُعَذِّرَ فيك ، فلم يجيبهم إلى ما طلبوه ، وانصرف إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع فيه من إيمانهم ، ولما رأى من مبادئهم إياه ، وكان ذلك سببا فى نزول آيات التى تحكى تعنتهم بما اقترحوه من الأمور الستة التى طلبوها منه ، متعللين بما لا يمكن وقوعه عادة وما يستبعد عقلا .

وما قصدوا بما اقترحوا إلا العناد واللجاج ، وإلا فقد كانت تكفيهم معجزة القرآن التى تخر لها صَمَّ الجبال .

والمعنى : أنهم قالوا لن نصدق بما جئت به حتى تشق لك بأرض مكة عينا لا ينقطع ماؤها الكثير عن الجريان والاندفاع .

٩١ - (أَوْ تَكُونْ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ) :

أى بستان تستر أشجاره العالية وأغصانه المتشابكة ما تحتها من فضاء ، وإنما خصوا لنخيل والعنب لأنهما النوعان المعروفان بأرض مكة .

(فَتَفْجَرُ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا) : فتجرى الأنهار وسط تلك الجنة جريانا قويا دائما للانتفاع بها في رى تلك الجنة وغيرها .

٩٢ - (أَوْ تُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا) .

أو تسقط السماء علينا قطعا متناثرة كما أوعدتنا في قولك « إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ » ^(١) فَعَجَّلَ لَنَا ذَلِكَ وَأَسْقَطَهَا .
(أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا) : أو تأتي بالله مقابلا وبالملائكة كذلك بحيث نعاينهم ونراهم ، وعلى أن القبيل بمعنى الكفيل يكون المعنى : أو تأتي بالله كفيلا وبالملائكة كفلاء . بما تدعيه ، يشهدون بصحة ما قلته ويضمنونك فيما يترتب عليه .

٩٣ - (أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ) :

من ذهب لأننا لاننقاد لك ولا نؤمن بك مع فقرك الذى نراه .
(أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ) : أى تصعد في معارجها . (وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ) : أى لن يقع إيمان منا بك من أجل رقيك في السماء فحسب ، أو لن نصدق أنك رقيتها حتى تصحب معك كتابا منزلا من الله بلغتنا وفيه تصديقك منه سبحانه ، ويكون موجهها إلى كل رجل منا ، كما هكاه الله بقوله : « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشُرَةً » ^(٢) .
وبلغ من عنادهم الحاقدهم وتعنتهم البالغ أن طلبوا منه شهوداً من الملائكة على صحة ما ينزل عليهم من السماء ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال عبد الله بن أبي أمية لنؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها وتأتى معك بصك منشور معه أربعة ملائكة يشهدون أنك كما تقول .

(قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) : أى قل لهم يا محمد متعجبا من فرط حماقتهم ، وتنزهها لله عز وجل ، سبحان ربى أن يتقدم أحد بين يدي جلاله في أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بما لا يليق من مثل هذه الاقتراحات التى تضمنت أعظم الجراءة على الله رب

(١) سورة سبأ : الآية ٩

(٢) سورة الملئ : الآية ٥٢

العالمين ، فلا يحق لأحد أن يطلبها لأنه الفاعل لما يشاء ، فإن شاء أجابكم إلى ما سألتكم ، وإن شاء لم يجبكم إليه ، أو قل لهم : تنزيها لله ربى أن أطلب منه تحقيق ما طلبتموه فما أنا أيها القوم إلا رسول أتبع ما يوحى إلى ، وأبلغكم رسالات ربى ، ولم تكن الرسل من قبلى يأتون أمهم بما يريدونه من الآيات ، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوتهم ، فسبيلي سبيلهم .

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ
قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ
يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۚ
قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ
خَبِيرًا بَصِيرًا) (٩٤)

المفردات :

(النَّاسَ) : أى الذين حكيت أباطيلهم . (مُطْمَئِنِّينَ) : مقيمين فيها كالبشر .
(خَبِيرًا) : يقال خبرت الشيء أخبره من باب نصر ، خبراً بضم الخاء وسكون الباء .
علمته فأنابه خبير ، والمراد منه وصفه تعالى بأنه محيط ببواطن الأمور ودقائقها .
(بَصِيرًا) : أى عليماً : يقال بصرت بالشيء بضم الصاد والكسر لغة بصراً بفتح الباء
علمت ، فأناب بصير به ، والمراد به أنه تعالى عليم بالأمور علم إحاطة وشمول .

التفسير

٩٤ - (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا
رَّسُولًا) :

أى مامنع أكثر الناس الذين حكيت أباطيلهم فى الآيات السابقة ، أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك وقت مجيء الوحي إلا قولهم على سبيل الإنكار : أيقن أن يكون رسول الله من جنس البشر ؟ وقصدهم نفي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بشر ، والرسالة فى اعتقادهم إنما تكون للملك لا للبشر ؟ وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم بقوله :

٩٥ - (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا) :

أى قل لهم أيها النبي منبها إلى رحمة الله بعباده ، وفضله عليهم : لو وجد فى الأرض ملائكة يسكنونها ويمشون فيها كما تمشى البشر ولا يعرجون فى السماء ليعلموا ما يجب عليهم علمه ، لبعث إليهم ملكا منهم وعلى شاكلتهم ، ليتفقهوا عنه ويعلموا منه مالا تستقل قدرتهم بعلمه ، حيث يتسنى لهم مخاطبته ومكالمته ، لأن الجنس إلى الجنس أميل ، وبه آنس ، أما سكان الأرض من البشر ، فهم بمعزل عن إمكان التلقى من الملائكة ، فبعث الملك إليهم مناف للحكمة المقتضية لوجوب التجانس بين الرسول ومن يرسل إليهم ، أما إرسال الملك بوحي إلى الرسل من البشر كمحمد وعيسى وموسى عليهم السلام . فلأن الله أعطاهم من القوى الروحية العليا ما يجعلهم أهلا لتلقى الوحي عن الملك حيث جعل لهم جهتين ؛ جهة ملكية بها من الملك يستفيضون ، وجهة بشرية : بها على البشر يفيضون ، وجعل كل البشر كذلك مخل بالحكمة .

وكان الملك يظهر للرسول على وجه يسهل معه التلقى عنه ، كما ظهر جبريل عليه السلام للرسول فى صورة دحية الكلبي ، وقد صرح أن أعرابيا جاء وعليه أثر السفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وغيرهما ، فلجابه عليه الصلاة والسلام بما أجابه به ثم انصرف ولم يعرفه أحد من الصحابة رضى الله

عنهم . فقال صلى الله عليه وسلم هذا جبريل جاء يعلمكم أمر دينكم ، والحديث في البخارى والنسائى وغيرهما .

٩٦ - (قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) :

يروى أن كفار قريش حين سمعوا قوله سبحانه : « هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » قالوا : فمن يشهد لك أنك رسول الله ؟ فنزل قوله تعالى : (قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ...) الآية .

والمعنى قل كفى بالله شهيدا على أنى رسول أدبت واجب الرسالة إليكم على أكمل وجه ، وعلى أنكم بالغتم فى التكذيب والعناد ، فهو شاهد لى وعليكم ، عالم بما كان منى ومنكم .
(إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) : هذا تعليل لكفاية شهادة الله مع الإيدان بطمأنة الرسول ، وتهديد الكفار ، أى أنه سبحانه محيط بأحوال وأعمال عباده جميعا : الرسل والمرسل إليهم ، علم بظواهرهم وبواطنهم لا تخفى عليه منهم خافية ، يهدى من أقبل عليه ، ويتخلى عن من تولى عنه ، ولهذا قال سبحانه :

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ
أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ
عُمِيًّا ۚ وَبُكْمًا وَصُمًّا ۚ مَّا وُصُّهُمْ جَهَنَّمَ ۚ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ
سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا
إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتْنَا ۖ أُنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(عُمِيًّا) : جمع أعمى وهو الذى لا يبصر .

(بُكْمًا) : جمع أبكم وهو الذى لا ينطق .

(وَصُمًّا) : جمع أصم وهو الذى لا يسمع .

(كُلَّمَا خَبَتْ) : كلما سكن لهيبها وصار عليها غشاء وطبقة من رماد .

(وَرَفَاتًا) : هو فى الأصل كما قال الراغب ما تفرق من التبن ويطلق على الحطام ، والمراد هنا بالين متناثرين .

التفسير

٩٧ - (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ) :

هذا كلام مبتدأ يفصل به سبحانه ما أشار إليه قوله « إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا » أى ومن يوفقه الله للهداية بحسن استعداده وقبوله للحق ، فهو المهتدى إلى الحق ، وإلى كل ما يؤدى إلى الثواب وحسن الجزاء ، أو المهتدى إلى كل مطلوب يستقيم به دينه ، ويتحقق به هداه ، ومن يضلله : أى يتخلى عنه فلا يوفقه للهداية لسوء اختياره ، وقبح استعداده ، وفساد طبعه ، كهؤلاء المعاندين ، فلن تجد لهم أنصارا من دون الله يهدونهم إلى طريق النجاة من عذاب استحقوه بإمعانهم فى الضلال والعناد ، أو يهدونهم إلى الحق والسعادة فى الدارين . وأوثر لفظ الأفراد فى قوله (فَهُوَ الْمُهْتَدِ) ولفظ الجمع فى قوله (فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ) رعاية للفظ (مَنْ) فى الأول ولمعناها فى الثانى . تلويحا بوحدة طريق الحق وقلة أتباعه ، وتعدد سبل الضلال ، وكثرة الضالين .

(وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا) : أى أنهم بعد الحساب يوم الحشر يساقون إلى جهنم على وجوههم ، مدفوعين إليها دفعا سريعا لا يلوون على شئ ، أخذنا من قول العرب ، قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا أو أنهم يسحبون إليها على وجوههم كما يفعل فى الدنيا مع من يبالغ فى امتنانه وتعذيبه أو أنهم يمشون على وجوههم ليدخلوها ، ويشهد لذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس قال : يارسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال : « الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم » وحين يحشرون يكونون عميا لا يبصرون شيئا تقربه أعينهم ، وبكما لا ينطقون

ما يقبل منهم، وصُمًّا لا يسمعون ما تنظمثن به أسماعهم. قال ابن عباس والحسن: غُمِّي عما يسيرهم بُكْمٌ عن التكلم بحجة، صُمٌّ عما ينفعهم. وعلى هذا فحواسهم باقية على ما هي عليه ويكون ذلك على المجاز، وقيل إنهم يحشرون عميا بكما صما على سبيل الحقيقة تحقيرا لهم وامتهانا، ثم تعاد إليهم تلك الحواس عندما يحشرون إلى النار ليصبروا لظاها ولهيبتها القوى وأهوالها البالغة. كما قال تعالى: «وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا»^(١). وليتكلموا بما يزيدهم ألما وحسرة قال تعالى: «وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا»^(٢). وليسمعوا ما يذيب نفوسهم فزعا وهلعا وقلوبهم خوفا ورهبة قال تعالى: «إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا»^(٣). وقيل يحصل لهم العمى والبكم والصمم بعد دخول النار لشدة سوادها، وقسوة أهوالها.

(مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا): أى أن جهنم مستقرهم ومقامهم، يصلون العذاب فيها الدائم، وحتى يبقى شديدا أليما فإنه كلما خبت زادها الله سعيراً وناراً تَلْظَى.

٩٨ - (ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أِنَّا كُنَّا عِظَمًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا):

أى ذلك العذاب الشديد جزاء كفرهم فى الدنيا بآياتنا القرآنية والكونية الدالة على البعث، دلالة بيّنة لا لبس فيها ولا إبهام، أو الدالة على صحة ما أرسلناك به مطلقا، فيشمل ما ذكر من الدلالة على البعث الذى أنكروه أشد الإنكار، واستبعدوا وقوعه حيث قالوا: أبعد أن أصبحنا ترابا أو أجزاء متفتتة تفرقت وتناثر، أبعد ذلك نبعث خلقا جديدا أى بعثا جديدا، تتلاقى فيه منا الأجزاء وتستقيم القامات. أو المعنى أنبعث مخلوقين على سبيل الإيجاد والتكوين مرة أخرى؟ وقد رد الله على إنكارهم الإعادة بعد الفناء بما يلقى من الآيات، فقال تعالى:

(١) سورة الكهف الآية ٥٣.

(٢) سورة الفرقان الآية ٥٣.

(٣) سورة الفرقان. الآية ١٢.

(* أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى
الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ
رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾)

المفردات :

(أَوَلَمْ يَرَوْا) : الرؤية هنا علمية ، والهمزة لنفي عدم علمهم وتحقيق أنهم يعلمون ،
والواو عاطفة على فعل مقدر ، والتقدير : أغفلوا ولم يعلموا ؟ وحاصل معنى الجملة أنهم
قد علموا . . .

(خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي) : المراد ؛ خزائن رزق ربى ونعمه التى يفيضها على الموجودات
كافة .

(قَتُورًا) : أى مُبالِغاً فى التقنير والبخل ، يقال : قتر يقتِرُ وأقتر وأقتر : إذا ضيق
النفقة وقللها .

التفسير

٩٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ...)
الآية .

دأب المشركون على إنكار البعث مع وضوح أدلته التى لا يُمارى فيها إلا عنيد مكابر ،
ينكر الشمس وهى ساطعة ؛ فنبههم الله تبارك وتعالى فى هذه الآية ، على قدرته العظيمة
التي غفلوا عنها ولم يتفكروا فى آثارها !

والمعنى ؛ قد علموا أن من قدر على خلق السموات والأرض من عدم ، وعلى غير مثال سبق فهو قادر على أن يبعثهم ويعيد خلقهم ، كما بدأهم أول مرة ، بل الإعادة أهون عليه كما قال جل وعلا : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »^(١) .

(وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ) :

أى وجعل سبحانه لبعثهم وإعادتهم ، ميقاتًا محددًا عنده لا يعلمه إلا هو ، وهو ميقات محتم مجيئه ، لا ينبغي لأحد الشك فيه ، فضلا عن إنكاره ، وهو يوم القيامة ، لكن المشركين الذين ظلموا أنفسهم ، وكفروا بآيات ربهم ، وجحدوا قدرته وحكمته - لكن هؤلاء المشركين الظالمين ، أصرروا على إنكار البعث مع قيام الحجة عليهم ، جحدوا وعنادا ، كما قال سبحانه :

(فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا) :

أى : فلم يرض هؤلاء الكفرة الظالمون ، إلا مضيا في كفرهم وجحودهم ، بعد أن دمعهم الحجة فأزهقت باطلهم .

ولما بينت هذه الآية أن المشركين أفرطوا في العناد والكفر ، جاءت الآية التي تليها ، لتبين أن هؤلاء المشركين ، أفرطوا في الشح والبخل كذلك ، فقال عز من قائل :

١٠٠ - (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ..) الآية .

أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين : لو أنكم تملكون التصرف في خزائن رزق الله لأمسكتم عن الإنفاق منها ولَبَخِلْتُمْ بها فلم تُعْطُوا أحدا شيئا مخافة نفادها ، مع أنها لا تنفد ولا تنفد أبداً ؛ ولكن الإمساك والبخل مركوزان في طباع الإنسان إلا من وفقه الله وعصمه ؛ قال تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمُصَلِّينَ »^(٢) .

(١) سورة الروم ، الآية : ٢٧ .

(٢) سورة الماعز ، الآيات : ١٩ - ٢٢ .

ولما كان البخل والشح في طبيعة الإنسان وجبيلته ، قال سبحانه :

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا) : أى شديد البخل والحرص .

وقد بلغت هذه الآية الكريمة من وصف الإنسان بالشح الغاية القصوى حيث أفادت أنه لو استولى على خزائن رحمة ربه التي لا تحدد ولا تنفذ ، وانفرد بملكها دون مزاحم له - لأمسكها لشدة حرصه وبخله على عباد الله .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَعَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ۝ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونُ مَثْبُورًا ۝ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ۝ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝)

المفردات :

(آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) : أى أدلة واضحة ، والمراد بها : المعجزات التسع الآتية .

(مَسْحُورًا) : أى مختل العقل من أثر ما سحرته .

(بَصَائِرَ) : جمع بصيرة ، وهى الحجة التي تُبَصِّرُ بالحق وتهدى إليه .

(مَثْبُورًا) : مهلكًا ، من ثبَر الله الكافر إذا أهلكه ؛ أو مصروفًا عن الخير ، مطبوعًا

على الشر ؛ من قولهم : ماثبرك عن هذا ؟ أى ماصرفك عنه ومنعك ؟ .

(فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ) : أى فأراد أن يزعمهم ليخرجهم من الأرض .

(لَفِيْفًا) : أى جميعا . وأصل اللفيف : الجماعة من قبائل شتى .

التفسير

١٠١ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ...) الآية .

لما حكى الله تبارك وتعالى فى الآيات السابقة ما حكى ، من تعنت المشركين وعنادهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم - سَلَّاهُ سبحانه فى هذه الآية وما بعدها ، بما جرى لكليمه موسى عليه السلام مع فرعون ، وما صنع سبحانه بفرعون وقومه .

والمعنى : ولقد آتينا موسى بتسع آيات من المعجزات الساطعة ، والحجج القاطعة ، على نبوته وصدقته فيما أخبر به عن ربه ، أرسلناه بهذه الآيات التسع إلى فرعون وقومه وهى - فى أرجح الأقوال وأولاها بالقبول - :

(١) عصاه التى كان يلقبها فإذا هى حية تسعى .

(٢) ويده التى يدخلها فى جيبه ، ليخرجها بيضاء من غير سوء . والجيبُ : هو الفتحة التى فى أعلى الثوب ، تحت الذقن .

(٣) والسنون ، والمراد بها : سنوات القحط والجذب ، بسبب انقطاع الأمطار وانخفاض ماء النيل ، يقال مَسَّتْهُمْ سَنَةٌ ، وَأَسْتَتْوْا : إذا قحطوا وأجدبوا .

(٤) ونقص الثمرات ، بسبب كثرة العاهات والآفات .

(٥) والطوفان ، بسبب المطر الغزير الذى غشى منازلهم ومزارعهم .

(٦) والجراد الذى قضى على الزروع والثمار .

(٧) والقمل ، وهو نوع من القُرَادِ ، كان يخالط طعامهم وملابسهم وأجسامهم وقيل هو القمل المعروف .

(٨) والصفادع التى ملأت بيوتهم وطعامهم .

(٩) والدم الذى حل محل الماء ؛ أو هو الرُعاف الذى أصابهم .

وقد تقدمت هذه الآيات كلها في سورة الأعراف مفصلة ^(١) فارجع إلى تفسيرها هناك .

قال الحافظ ابن كثير وغيره من أئمة التفسير : هذه الآيات التسع هي المرادة هنا ، وهي التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر ، فكانت حجة عليهم ، فخالفوها وعاندوها كفرًا وجحودًا كما قال تعالى : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » ^(٢) .

وهي غير الآيات التي أرسل بها - عليه السلام - إلى بني إسرائيل ؛ من تظليلهم بالغمام ، وإنزال المن والسلوى عليهم ؛ إلى غير ذلك مما أرسل به بعد مفارقتهم بلاد مصر ، مما لم يشاهده فرعون وقومه .

والخطاب في قوله تعالى : (فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ) : لمن يريد أن يتحقق من صدق ما جاء به القرآن عن الآيات التي أيد الله بها موسى حين أرسله إلى فرعون وقومه ، أى فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم بها ، فهم يعرفون مطابقتها لما جاء عنها في القرآن فإنه مصدق لما بين يديه من التوراة .

وقيل في معنى الآية : سلهم يامحمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات ، سؤال تقرير ليعرف اليهود صحة ما يقوله محمد هـ . والظاهر الأول .

ويجوز أن يكون خطاباً لموسى عليه السلام على تقدير القول ، أى : آتينا موسى هذه الآيات التسع فقلنا له : اسأل بني إسرائيل ، أى اطلبهم ياموسى من فرعون ، كقوله : « فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ » ^(٣) .

وهناك أوجه أخرى ذكرها الألومى في تفسيره . ثم هنا كلام مطوى يشعر السياق به ، ويدل المقام عليه . أى فذهب موسى إلى فرعون وبلغه رسالة ربه ، مؤيداً بالمعجزات الدالة على صدقه .

(١) في الآيات ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٣٠ ، ١٣٣

(٢) سورة النمل ، الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٣) سورة الأعراف ، من الآية : ١٠٥

(فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ) : فى سخرية وكبرياء (إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا) : أى سُحِرْتَ فاختل عقلك ، ولذا اختل كلامك وادعيت ما ادعيت ، وهذا كقوله : « إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِى أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ »^(١) .

وقيل : (مَسْحُورًا) هنا معناه : ساحرًا .. ويؤيده قوله : « إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ » ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ »^(٢) .

١٠٢ - (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرٌ) الآية .

هذا رد كلم الله على عدوه وعدو الله ، بعد أن بلغ الجهد هو وأخوه فى دعوته ، واستنفدوا كل قول لين فى سبيل تذكيره ، خوفاً من أن يفرط عليهم أو يطفى ، وصبرا عليهما السلام صبر أولى العزم من الرسل ، فلم يزد عدو الله إلا جحوداً وعناداً ، مع أن هذه المعجزات لا يقدر عليها إلا رب السموات والأرض ، رب موسى وهارون .

هنالك قال موسى عليه السلام لفرعون - وقد يشس من إيمانه : لقد علمت يا فرعون أن هذه المعجزات من عند الله تعالى ، أوجدها حججا ساطعة على صدق فيها دعوتك إليه من الإيمان بمالك الملك ربى وربك . . .

(وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) : المراد من الظن هنا العلم ، وقد عبر به موسى عنه بلفظاً مع فرعون ، أى وإنى لأعلم أنك يا فرعون هالك ، أو مصروف عن الخير إلى الشر بسوء فعلك وطغيانك .

وقرىء : (لَقَدْ عَلِمْتُ) بضم التاء . . فعلى هذه القراءة يكون موسى قد رد بها عن نفسه دعوى أنه ساحر أو مسحور كما زعم فرعون عدو الله ، أى قال موسى لفرعون لقد علمت أنا حق العلم أن الذى أنزل هذه الآيات هو خالق السموات والأرض ومدبرهما ، وأننى لست بساحر ولا مسحور كما زعمت ، : وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالآيات التسع : الأصول العامة التى أنزلها الله فى الكتب الإلهية للعقائد والشرائع السماوية كلها ، وجعلها مشتركة بين

(١) سورة الشعراء ، من الآية : ٢٧

(٢) سورة الشعراء ، من الآيتين : ٣٤ ، ٣٥

جميع الرسالات والنبوات ، وإليها يشير قوله تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » . ويؤيد هذا مارواه جمهوره من أئمة الحديث ، عن صفوان بن عسال رضى الله عنه أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبي نسأله ، فأتياه صلى الله عليه وسلم ، فسألاه عن قول الله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » . فقال عليه الصلاة والسلام : لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسحرُوا ، ولا تأكلوا الربوا ، ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان ليقتله ، ولا تغدقوا محصنة ، ولا تغفروا من الزحف - وعليكم يا يهود خاصة ألا تعتدوا في السبت - فقبلا يديه ورجليه وقال : نشهد أنك نبي ، قال : فما بمنعكما أن تسلما ؟ قال : إن داود دعا الله أن لا يزال في ذريته نبي ، وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود ^(١) .

١٠٣ - (فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا) :

أى استبد بعنوا الله مكره ، فأراد أن يزجج موسى وقومه ليخرجهم من أرض مصر التي هم بها ، أو من الأرض جميعاً ، ليستأصلهم فلا يبقى منهم أحداً ، فعكسنا عليه مكره ، فأغرقناه ومن معه ، فلم يبق منهم أحداً . ونجينا به بدنه ليكون لمن خلفه آية ^(٢) . وبهذا أخرجناه من أرضه أفلح إخراج « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » ^(٣) .

١٠٤ - (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ . . .) الآية .

وقلنا من بعد إغراق فرعون - على لسان موسى - لبني إسرائيل ، الذين أراد فرعون استفزازهم - قلنا لهم : اسكنوا الأرض التي أراد فرعون أن يخرجكم منها .

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) : فإذا جاء وعد الدار الآخرة بعد قيام الساعة :

(جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا) :

جئنا بكم أنتم وهم مختلطين ، لنحكم بينكم ، ونميز سعداءكم من أشقيائكم .

(١) انظر تفسير : الطبري ، والقرطبي ، والآلوسي .

(٢) اقتباس من الآية : ٩٢ من سورة يونس .

(٣) سورة فاطر ، من الآية : ٤٣

قال الحافظ ابن كثير : وفى هذا بشارة محمد صلى الله عليه وسلم بفتح مكة ، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع ؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا » ^(١) . ولهذا أورد الله رسوله مكة فدخلها عنوة - على أشهر القولين ، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً ؛ كما أورد الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم كما قال : « كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنَى إِسْرَائِيلَ » ^(٢) .

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

المفردات :

- (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ) : الحق ؛ الأمر الثابت الذى لا يتبدل ولا يزول ، ضد الباطل .
 (فَرَقْنَاهُ) : أنزلناه مفرداً منجماً ، أو أنزلناه مبيناً موضحاً .
 (عَلَى مُكْثٍ) : أى على تَوَدَّةٍ وتأنٍّ . (يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ) : يقعون على أذقانهم .
 (إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا) : أى إن الشأن فى وعد ربنا أنه كائن لا محالة .

(١) سورة الاسراء ، من الآية : ٧٦

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ٥٩

التفسير

١٠٥ - (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ . . .) الآية .

قال الآلوسی : هذا عود إلى شرح حال القرآن الكريم ، فهو مرتبط بقوله تعالى : « قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ » . وهكذا العرب ، تأخذ في شيء وتستطرد منه إلى آخر ، ثم إلى آخر . . ثم تعود إلى ما ذكرته أولاً ، والحديث شجون .

والمعنى : وبالحق أنزلنا هذا القرآن المجيد من اللوح المحفوظ ؛ وبالحق نزل على عبدنا ورسولنا محمد ؛ فهو مؤيد بالحق محفوظ بحفظنا له وحراستنا إياه ، حال إنزاله على رسولنا محمد ، وما بعدها إلى أن تقوم الساعة ، لاتعثره زيادة عليه ولا نقص منه ؛ وصدق منزله إذ يقول : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »^(١) . ويقول : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »^(٢) .

وقيل : المراد بالحق ؛ الحكمة الإلهية المقتضية لإنزاله ونزوله . والمعنيان متلازمان . وأياً كان المعنى المراد ، فلا ريب أن هذا الكتاب الحكيم مشتمل على دلائل التوحيد ، وصفات الجلال والإكرام ؛ وعلى تعظيم الملائكة ، وإقرار النبوات ، وإثبات المعاد ؛ وعلى أصول الإسلام والشرائع الثابتة التي لا تتبدل ولا تُنسخ بحال من الأحوال ، ولا في زمن من الأزمان .

فلهذا استحق أن يصفه الباري سبحانه ، بأنه أنزله بالحق محروساً بعنايته حتى وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي هذا المعنى يقول الله تعالى : « وَمَا نَنْزِلُ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ »^(٣) .

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٤٢

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩

(٣) سورة الشعراء ، الآيتان : ٢١٠ ، ٢١١

ولما بين سبحانه حال القرآن الكريم في إنزاله ونزوله ، بين حال من أنزل القرآن عليه فقال مخاطباً إياه صلى الله عليه وسلم :

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) :

أى : وما أرسلناك - يا محمد - إلى الناس كافة إلا مبشراً للمطيعين منهم بالثواب ، ومنذراً للعاصين منهم بالعقاب ، فما عليك إلا البلاغ بالتبشير والإنذار ، وليس عليك إكراه أحد منهم في الدين ، فقد تبين الرشد من الغي .

١٠٦ - (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ . . .) الآية .

أى وأنزلنا عليك - يا محمد - قرآنًا عظيمًا أوحيناه إليك وأيدناك به - أنزلناه منجماً مفرقاً ، على حسب الأحداث والمناسبات ، لتبلغه الناس على تودة وتأن ، ليكون أيسر للحفظ ، وأعون على الفهم ، وأبين لوجوه الإعجاز به ، في هدايته وبشارته ونذارته ، ولذا أكد هذا المعنى فقال :

(وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) : أى نزلناه بحسب الحوادث والمصالح ، حيث لم ينزل جملة واحدة ، للحكم التي مر بيانها . وقد نزل القرآن الكريم مفرقاً حسب الحوادث المقتضية لنزوله في مدة الرسالة المحمدية ، وهي ثلاثة وعشرون عاماً تقريباً .

وهذا التنزيل المفرق خاص بالقرآن الكريم ، دون سائر الكتب السابقة ، لأنه أنزل على خاتم النبيين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فكان لهذا آخر كتاب أنزل من عند الله ليبقى حتى تقوم الساعة ، وقد تكفل الله بحفظه ، وجعل من أسباب حفظه نزوله مفرقاً حسب الوقائع ، حتى يكون أيسر لحفظه ، وأعون على فهمه ، وأدعى إلى الحرص على نصوصه ، أما غيره من الكتب السماوية فقد نزل كل منها جملة واحدة ، ولم يتكفل الله تعالى بحفظها كما تكفل بحفظ الكتاب العزيز ، لأنها كانت موقوتة بأزمنتها ، ومن هنا وقع فيها التغيير والتبديل بعد أن وضع الحق ، وأسفر الصبح لذي عينين .

ولما أصر أهل مكة على الكفر بالقرآن الكريم ، قال الله تبارك وتعالى تسلياً لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ووعيداً للكافرين وتهديداً لهم :

١٠٧ - (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا . . .) الآية .

أى قل أيها الرسول لهؤلاء الكافرين بهذا القرآن العظيم : سيان إيمانكم بهذا القرآن وعدم إيمانكم به ، فإن إيمانكم به لا يزيدكم كمالات ، وعدم إيمانكم به لا يورثه نقصاً ، فهو حق في نفسه ، أنزله الله تعالى ونوه بذكره في سالف الأزمان ، في كتبه المنزلة على رسله - ولذا قال :

(إِنَّا الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) :

المقصود بالذين أوتوا العلم من قبل القرآن الكريم ، مؤمنو أهل الكتاب من علمائهم ، كعبد الله بن سلام وأضرابه .

والمعنى : إن العلماء الذين قرءوا الكتب السماوية من قبل نزول القرآن وخروج النبي صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة ، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل ، والمحق والمبطل ، ورأوا فيها نعتك ونعت ما أنزل إليك ، هولاء العلماء إذا يُتلى القرآن عليهم يقعون على وجوههم ساجدين لله تعالى ، تعظيماً لأمره ، وشكراً لله سبحانه على إنجاز ما وعد به في تلك الكتب من بعثتك ، ومن الحق الذي جئت به .

والتعبير عن سجودهم على وجوههم بخُروهم للأذقان ، للإيدان بكمال تذللهم وخضوعهم وشكرهم لله على إنزال هذا الكتاب العظيم .

وقيل المراد المبالغة في التحامل على الجبهة والأنف حتى كأنهم يلصقون الأذقان بالأرض . قال الآلوسى : وهو وجه حسن جداً .

١٠٨ - (وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا) :

أى : ويقولون وهم يتضرعون إلى الله تعالى في سجودهم ودعائهم : (سُبْحَانَ رَبِّنَا) أى تنزه ربنا تنزيها عن خلف وعده ، وعن كل مالا يليق به مما يفتريه الكفرة ، إن الشأن في وعد ربنا أنه كائن لامحالة .

ولا يخفى ما في عنوان الربوبية ، وإضافتهم أنفسهم إليه - مكرراً - من اعتزازهم بالعبودية لله تعالى .

وفي الآية دليل على استحباب التسبيح في السجود كما دلت السنة على ذلك ، ففي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في سجوده وركوعه : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي » .

١٠٩ - (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) :

ويقعون على وجوههم ساجدين لله وهم يبكون ، ويزيدهم القرآن تواضعا لله وخضوعا ، كما يزيدهم علما ويقينا بالله تعالى .

وإنما كرر الخور للآذقان لاختلاف السبب ؛ فإن الأول لتعظيم أمر الله تعالى وشكره على إنجاز وعده ؛ والثاني لشدة تأثرهم باستماع القرآن ومواعظه . ودلت الآية على مدح البكاء عند تلاوة القرآن وسماعه . من خشية الله تعالى ، ولو كان التالى للقرآن مصليا . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يلج النار رجل بكى من خشية الله ، حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وعن عبد الله ابن الشخير رضي الله عنه قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء ^(١) » .

(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾)

(١) قال النووي في رياض الصالحين : حديث صحيح ، رواه أبو داود ، والترمذى في الشمائل ، بإسناد صحيح ، والأزيز : صوت البكاء ، والمرجل - كعب - : القدر .

المفردات :

(اذْعُوا اللَّهَ أَوْ اذْعُوا الرَّحْمَنَ) : أى سَمُّوا الإلهَ باسم الله أو باسم الرحمن ، فهو مسمى بهما معاً ، أو نادوه بأى الاسمين شتم ، فالدعاء يطلق على التسمية وعلى النداء .

(وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ) : المراد ولا تجهر بالقراءة فى صلاتك .

(وَلَا تُخَافِتْ بِهَا) : أى ولا تُسِرَّ بها . والمخافتة ضد المجاهرة ، يقال : خفت الرجل بصوته : إذا لم يرفعه ، وخافت بقراءته : إذا لم يرفع صوته بها . وقيل الصلاة هنا : الدعاء .

(وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) : أى واقصد أو اسلك بين الجهر بقراءتك والإسرار بها طريقاً وسطاً .

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ) : أى وليس له سبحانه ناصر يحميه من الذل ؛ لأنه عزيز بنفسه .

(وَكَبُرَتْهُ تَكْبِيرًا) : أى وعظمه تعظيماً يليق به .

التفسير

١١٠ - (قُلْ اذْعُوا اللَّهَ أَوْ اذْعُوا الرَّحْمَنَ أَيَّامًا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ...) الآية .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات يوم ، فدعا الله تعالى فقال فى دعائه : يا الله يارحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابىء : ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين : فنزلت . »

وقيل : إن اليهود قالت : ما لنا لا نسمع فى القرآن اسماً هو فى التوراة كثير ؟ يعنون الرحمن : فنزلت .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين أو اليهود : إن هذين الاسمين الكريمين : الله والرحمن ، اسمان لمسمى واحد هو الإله المعبود بالحق جل جلاله ، فسموه أو نادوه أو اذكروه بكل منهما أو بأيهما .

وليس الدعاء مقصورا على هذين الاسمين ، فقد قال تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا »^(١) وقال صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضى الله عنه : « إن لله تسعة وتسعين اسماً - مائة إلا واحداً - من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر » .

ولم تذكر الأسماء التسعة والتسعون في رواية الشيخين ، ولكنها ذكرت في رواية الترمذى وابن حبان والحاكم وغيرهم . وهذا نصها في جامع الترمذى^(٢) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة غير واحدة »^(٣) من أحصاها دخل الجنة : هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المخصى المبدئ المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواحد الماجد الواحد الصمد القادر المقدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور » .

وليس المقصود من الحديث حصر أسمائه الحسنى - تبارك وتعالى - في هذه التسعة والتسعين ، بدليل حديث ابن مسعود الذى أخرجه أحمد وصححه ابن حبان : « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ... » الحديث^(٤) وإنما المقصود بشارة من حفظ هذه الأسماء ، ودعا الله بها بأنه من أهل الجنة ، والحكمة فى الاختصار على هذه العدة : أنها

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١٨٠ (٢) اختلفت الروايات اختلافا كثيرا فى سرد الأسماء ، ورواية الترمذى هذه هى أقرب الروايات إلى الصحة ، وعليها عول غالبا من شرح الأسماء الحسنى كما قال الحافظ فى كتاب الدعوات من فتح البارى . (٣) أى غير تسمية واحدة .

(٤) تمامه : أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى .

الأسماء الجوامع ، الدالة على ماعداها ، مما لا يحصى إلا الله - تباركت أسماؤه وجلت آلاؤه ؛ وأنها جمعت من معاني الجلال والكمال ما لم يجمعه غيرها .

والحكمة في تخصيص هذين الاسمين بالذكر ، أن لفظ الجلالة عَلم على الذات الأقدس ، واسم الرحمن أنسب بالدعاء . فقد كتب على نفسه الرحمة .

هذا ، وقد اتفق الثقات من العلماء على أن أسماء الله تعالى توقيفية ، فلا تجوز تسميته إلا بما سمي به نفسه : مما جاء في كتابه عز وجل ، وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) :

روى الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم مخفف بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ) أى بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن (وَلَا تُخَافُ بِهَا) : عن أصحابك فلا تسمعهم حتى يأخذوا عنك .

(وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) : بقول بين الجهر والمخافة . ١ هـ .

والمراد بالصلاة القراءة التى هى أحد أركانها . والظاهر أن المراد بالقراءة ما يعم البسمة وغيرها . ويروى أن أبابكر رضى الله عنه كان إذا صلى بالليل خفض صوته جدا ويقول : أناجى ربي وقد علم حاجتى ؛ وكان عمر رضى الله عنه إذا صلى من الليل رفع صوته جدا ويقول : أطرده الشيطان وأوقظ الوسنان . فلما أنزل الله هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : ارفع من صوتك شيئاً ؛ وقال لعمر اخفض من صوتك شيئاً فالقراءة بين المخافة والجهر هى الوسط ؛ وخير الأمور أوسطها ، ومن الأحكام العامة لدى الخاصة والعامة : الجهر فى ركعتى الفجر والجمعة والعيدى ، وفى الركعتين الأوليين من المغرب والعشاء . ولا ريب أن الجهر فى هذه الصلوات من الشعائر المتواترة فى الشريعة الإسلامية .

وقيل : الصلاة هنا بمعنى الدعاء : لما أخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : « إنما نزلت هذه الآية : (وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا) في الدعاء » . ومعروف أن الصلاة في أصل اللغة هي الدعاء .

ولما أثبت سبحانه الأسماء الحسنى لذاته الكريمة نزه ذاته عن النقائص ، فقال : ١١١ - (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . . .) الآية .

وهي رد لمزاعم اليهود والنصارى وبنى مُليح من كفار العرب ؛ إذ قالوا عزيز ابن الله ! والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله ؛ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

ونفى اتخاذ الولد ظاهر في نفي التبني ، ويعلم منه نفي ولد الصلب عنه سبحانه من باب أولى . وقد نفي ذلك صريحا في قوله سبحانه : « لَمْ يَلِدْ » ^(١) وقوله عز وجل : « أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ؟ » ^(٢)

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) : فكيف يتخذ المشركون معه آلهة يعبدونها ، مع اعتقادهم أنه هو الذى خلق هذا الملك العظيم وحده ، ودبره بحكمته ، دون سواه ، كما حكى الله عنهم ، يقول سبحانه : « وَلَكِنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » ^(٣) .

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ) : أى ليس له سبحانه ناصر يحميه من الذل ؛ لأنه سبحانه عزيز بنفسه ؛ فليس بحاجة إلى أن يوالى أحدا أو يخالفه ، من أجل مذلته به ، ليدفعها عنه . وفى حمده تعالى على هذا التنزيه إيذان بأن المستحق للحمد العظيم ، من هذه صفاته دون غيره ، ولذا عطف على الأمر بحمده الأمر بتكبيره فقال :

(وَكَبِّرُهُ تَكْبِيرًا) : أى وعظمه تعظيما بليغا مؤكدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه .

والتكبير ، أبلف كلمة للعرب في معنى التعظيم والإجلال .

(١) سورة الإخلاص ، من الآية : ٣

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ١٠١

(٣) سورة الزمر ، من الآية : ٣٨

وفي الآية تنبيه على أن العبد - وإن بالغ في التنزيه والتمجيد ، واجتهد في الطاعة والتحميد - ينبغي أن يعترف بالقصور في حقه ، والتقصير في حمده وشكره ، سبحانه لا نحصى ثناء عليه ، هو كما أثنى على نفسه .

هذا وَرَوَى عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : « كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَفْصَحَ الْغُلَامُ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، عِلْمَهُ هَذِهِ الْآيَةُ : (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) إِلَى آخِرِهَا ، وَسَمَّاها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آيَةَ الْعِزِّ - كَمَا أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتَّبَرَانِيُّ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

سورة الكهف

تمهيد :

سورة الكهف - ويقال لها سورة أصحاب الكهف - مكية . وهي الثامنة عشرة في ترتيب المصحف وآياتها عشر ومائة . وقد افتتح الله تعالى كتابه بالحمد في سورة الفاتحة ثم افتتح بالحمد كذلك أربع سور مكيات ، اشتملت كل سورة منهن على أصول الإسلام الثلاثة : التوحيد ، والرسالة ، والبعث ، وهي أهم مقاصد القرآن المجيد .

الأولى : الأنعام ، وهي آخر سورة في الربع الأول من هذا الكتاب العزيز ، والثانية سورة الكهف وهي مشتركة بين آخر الربع الثاني ، وأول الربع الثالث ، والثالثة والرابعة سبأ وفاطر ، وهما آخر الربع الثالث . ومما يذكر في مناسبتها لسورة الإسراء : افتتاح تلك بالتسبيح ، وافتتاح هذه بالتحميد . والتسبيح والتحميد أخوان مُتَلَازمان في ميزان الأعمال ، وفي كثير من الأحوال . ومن هذا التآخي سبحانه الله والحمد لله ؛ ومنه قوله تعالى : « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ »^(١) . ومن المناسبات التشابه بين اختتام تلك وافتتاح هذه ؛ فإن في كل منهما حمداً ، وهناك مناسبات أخرى يدركها القارئ .

ابتدأ الله تبارك وتعالى هذه السورة الكريمة بالثناء على ذاته المقدسة ؛ لإنزاله كتابه العزيز على عبده ورسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيف ، يهدي به إلى صراط مستقيم ، نذيراً للكافرين وبشيراً للمؤمنين ، ولما حمل الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه من الحزن على إعراض قومه - مالا يُطيق - قال له ربه : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » (٦) يعاتبه على إجهاد نفسه فوق طاقتها رحمةً به ، فما عليه إلا البلاغ ، وقد بلغ « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » (٢٩) . ثم قصَّ الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم قصصاً من أنبياء الغيب ، في كل قصة منها عبرة وتذكرة ، وتقريرٌ لمقصد من مقاصد القرآن الكريم في الدعوة إلى الهدى والحق :

(١) سورة النصر ، من الآية : ٣

(١) وأولى هذه القصص: قصة أصحاب الكهف الذين سميت باسمهم، واختصت بذكرهم فلم تذكر في سورة سواها . وفيها يتجلى الإيمان وآثاره إذا خالطت بشاشته القلوب ، ولم تخش إلا علام الغيوب . وإذا فلا ترضى بغير الله بديلا، وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة أصحاب الكهف برهانا عمليا حقا على أن البعث حق في يوم لا ريب فيه « وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا » (٢١) .

(٢) وثانية القصص: قصة الرجلين صاحبي الجنيتين: أحدهما غنى كافر يعتز بماله وبنيه ، ويتكبر على أخيه ؛ ويكفر بربه الذي خلقه من تراب ثم سواه رجلا ، ويظن أن جنته لن تبعد أبدا . وصاحبه فقير صابر ، راض بقضاء الله يرى أن رضا الله كنز لا يفتنى ، وعز لا يبلى ، فكانت العاقبة له، والندم والخسران لصاحبه ، الذي اغتر واستكبر « هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا » (٤٤) .

(٣) والثالثة: قصة أبي البشر آدم عليه السلام مع عدو الله وعدو آدم؛ وفيها التحذير منه ومن ذريته وأنصاره وشيعته . ومنها أن إبليس كان من الجن ، ولكنه انضم إلى الملائكة فصار كآنه منهم في عبادته لله وطاعته له ؛ فلما أمره الله تعالى بالسجود لآدم مع ملائكته ، غلب عليه غروره وكبرياؤه ، فأنى واستكبر ، فحذر الله عباده منه ومن فتنته ، وبيّن أنه عدو لأبيهم من قبل ، فمن المحال أن يكون صديقا لأحد من ولده « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » (٥٠) ولا يخفى أن التنبيه على أن إبليس كان من الجن ، خاص بهذه السورة ، لم يذكر في غيرها من السور التي ذكرت قصة سجوده لآدم عليه السلام ؛ وسيلاتي تحقيق المراد من قوله تعالى : « كَانَ مِنَ الْجِنِّ » .

(٤) والرابعة: قصة موسى كليم الله مع العبد الصالح، وهي مما اختصت به هذه السورة أيضا ، فلم تذكر في سورة سواها . وفيها : أن عالم الغيب والشهادة سبحانه ، يظهر من شاء من الصالحين من عباده - على لمحات من غيبه المكنون ، ويأذن لهم أن يبوخوا بها في حدود إلهية لا يتجاوزونها ، ولحكم ربانية قد أحاط بها ؛ لئلا يدعى مدّع أن الله أعلمه شيئا من غيبه ، إلا إذا جاء بسلطان بيّن من لدن عالم الغيب والشهادة، وحسبنا برهانا على

ذلك أن العبد الصالح لم يعرف موسى عليه السلام إلا بعد أن عرفه موسى بنفسه حين التقيا بمجمع البحرين وقال له العبد الصالح : أنت موسى نبي بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، كما في حديث الصحيحين - ولو كان يعلم من الغيب غير اللوحات التي أطلعه الله عليها لعرف موسى قبل أن يسأله مستفهماً .

وفي قصة موسى والعبد الصالح : فضل الرحلة في طلب العلم ، واحتمال مشاق الأسفار في طلبه ؛ وفيها تواضع المتعلم للمعلم ، ولو كان المتعلم أفضل من معلمه ؛ وفيها صبر العالم ورفقه بمن يعلمه ، وتنبيهه إذا غفل ، وتحذيره أن يعود إلى مثل ما غفل عنه ؛ وفيها أن علم الله تعالى لا نهاية له ، وأن العالم إذا سئل : من أعلم الناس ؟ لا يقول : أنا ، بل يرد العلم إلى الله تعالى ، ولو كان نبياً ورسولاً من أولى العزم . . . وسيأتي بيان مأخذ ذلك في هذه القصة .

(٥) والقصة الخامسة : قصة ذى القرنين ، وقد مكن الله له في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً فساح في الأرض ، واستعان بهذه الأسباب على بسط سلطانه بالعدل والإحسان ، حتى بلغ مغرب الشمس ثم مشرقها - في رأى العين - ودعا إلى الله في كل رحلة يرحلها . وكان غياثاً للمظلومين وعونا لهم ، وكان مثلاً صالحاً في كل أقواله وأعماله وهدايته إلى الخير ، حتى فتح الله به مغاليق الأمور ، وأصلح كثيراً من الفساد في الأرض . ثم كان من آيات الله على يديه أن أقام سد يأجوج ومأجوج بين جبلين مرتفعين ارتفاعاً عظيماً ، وهناك وجد « قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا » (٩٣) استغاثوا به من فساد يأجوج ومأجوج وإغاراتهم التي لا تنقطع : فبنى لهم هذا السد الحصين المنيع ، دون أن يأخذ منهم أجراً ، قائلاً : « مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » (٩٥). وهذا مثال من المثل العليا في التعاون على البر والتقوى ، ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولما أتم الله على يدي ذى القرنين بناء هذا السد الحصين المنيع ، الذي عجزت يأجوج ومأجوج أن يعْلوه ، لعظم ارتفاعه وملاسته ، أو ينقبوه ؛ لعظم تخانته وصلابته - لما أتم الله ذلك على يديه - حمد الله وشكره قائلاً : « هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا » (٩٨) .

وقد اشتملت هذه السورة أيضًا على مقاصد أخرى لاتنفرد بها ، بل يشاركها فيها غيرها من السور . ومن هذه المقاصد : التحذير من فتنة الحياة الدنيا وزينتها « وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا » (٥٤) « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » (٤٦) .

ثم اختتمت السورة الكريمة بالحث على إعداد العدة للقاء الله تبارك وتعالى بالعمل الصالح - ونعم اللقاء لقاءؤه - « فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » (١١٠) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ۝٣)

المفردات :

(وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) : العوج - بكسر العين وفتحها - : الميل والانحراف عن القصد حسيا كان أو معنويا . وقيل يختص مكسور العين بالمعاني ، ومفتوحها بالأعيان : فتقول : في رأيه أو قوله عِوَج ، وفي عصاه عِوَج . والمراد نفي العيب والخلل عن القرآن الكريم لفظا ومعنى .

(قَيِّمًا) : أى مستقيما ؛ أو كفيلا ؛ أو مهيمنا .

(لِيُنْذِرَ) : الإنذار ؛ التحذير مع التخويف . ضد التبشير .

(بَأْسًا) : أى عذابا . وأصل البأس : الشدة فى الحرب .
(أَجْرًا حَسَنًا) : أى جزاء كريما ، والمراد الجنة ونعيمها الدائم .

التفسير

١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ . . .) الآية .

أى الثناء الجميل مستحق لله الذى أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم كتابه المعروف بالكمال من بين الكتب السماوية ، وَلَوْ لَمْ يُضَفْ إِلَى مُنْزَلِهِ جِل وَعَلا .

وفى حمده تعالى ذاته المقدسة على إنزال هذا الكتاب العزيز - تنويه بشأن ذلك الكتاب وعلو مكانه . وفى التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد ، مضافا إلى ضمير الجلالة - تشريف له صلى الله عليه وسلم أى تشريف ، وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً لله الذى أرسله ، لا كما زعمت النصارى فى شأن عيسى عليه السلام .

(وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) :

أى ولم يجعل الله سبحانه فى كتابه شيئا من العوج : بنوع اختلال فى نظمه ، أو تناقض أو اضطراب فى معناه ، أو انحراف عن دعوته إلى الهدى والحق ؛ بل جعله تعالى قِيَمًا أى معتدلا مستقيما كما قال :

٢ - (قِيَمًا لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ . . .) الآية .

وفائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة - وربما كان فى أحدهما غنى عن الآخر - فائدة الجمع بينهما التأكيد ؛ فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ، ولكنه لا يخلو من أدنى عوج عند الفحص والبحث . أو جعله تبارك وتعالى مهيمنا على سائر الكتب السماوية ، مبينا للحق فيها قبل تحريفها ، أو جعله - جلّت آلاؤه - كفيلا بمصالح العباد الدينية والدنيوية وبيبانها لهم ، كشأن القيم على الأمور الكفيل بها ؛ لاشتماله على ما ينتظم به المعاش والمعاد بالقسطاس المستقيم ، لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف حتى يشق على العباد ، ولا تفريط فيه حتى يحتاج إلى كتاب آخر يكمله ؛ فكان ذلك وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال .

وصدق منزله إذ يقول : « مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »^(١) . ولا عَجَب إذن أن يكون هذا الكتاب المبين خاتم الكتب ، كما أن من أنزله الله عليه هو خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؛ ولا شك أن سلامته من العوج برهان على أنه من عند الله ، وشاهد على نبوة من أنزل عليه ، وصدق الله إذ يقول : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »^(٢) . أنزل الله تعالى كتابه لينذر الكافرين به ويحذرهم عذاباً شديداً صادراً من عنده ، عاجلاً أو آجلاً جزاء كفرهم بكتابه وتكذيبهم له .

(وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا) :

أى ويبشر المؤمنين بهذا القرآن ، الذين صدقوا لإيمانهم وأيدوه بالأعمال الصالحة المبينة في تضاعيفه ، يبشرهم - بأن لهم أجراً حسناً ، والمراد به الجنة وما فيها من النعيم المقيم والثواب العظيم ، ويؤكد كون المراد بالأجر الحسن الجنة . قوله عز من قائل :

٣- (مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا) :

أى مقيمين في أجرهم وهو الجنة خالدين فيها أبداً ، لا يتحولون عنها ولا يزولون منها ؛ إذ لا انتهاء لمكثهم وخلودهم ، فضلاً من الله ونعمة « وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »^(٣) .

وتقديم الإنذار على التبشير ؛ للعناية بزجر الكفار عما هم عليه من كفر وضلال مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية ، وذلك نوع من بديع الكلام ، بعد صدق المعنى وجزالته . ومصاحبة الأعمال الصالحة للإيمان الحق شرط لنيل الأجر الحسن ؛ فإن الإيمان من غير العمل الصالح الذى شرعه الله تعالى ورضيه ، كالشجر الذى لا ظل له ولا ثمر كما أن العمل الصالح الذى لا يُبنى على الإيمان الحق ، وفق ما جاء به الكتاب المبين ، وبُعث به خاتم النبيين - لا وزن له عند الله تعالى .

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ٣٨

(٢) سورة النساء ، من الآية : ٨٢

(٣) سورة الجمعة ، من الآية : ٤

(وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ
عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنَّ
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۚ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ ۚ إِنَّ
لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۖ)

المفردات :

(كَبُرَتْ كَلِمَةً) : أى عظمت مقالة في الشناعة والقبح مقالتهم هذه : والكلمة
واحدة الكلم ، وكثيرا ما يراد بها الجملة من الكلام أو الجمل منه ، كما في قولهم :
أتى فلان كلمة وربما كانت خطابا طويلا .
(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ) : أى فلعلك قاتلها أو مهلكها . وحرف الترجي (لعل) هنا ،
يراد به النهي عن الحزن على عدم إيمان قومه رحمة به .
(أَسَفًا) : أى حزنا شديدا وغما .

التفسير

٤- (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) :

أى : ويحذر الله سبحانه من بين الكافرين الذين استحقوا عذابه الشديد السابق -
هؤلاء الفرق الثلاث ، الذين نسبوا لله ولدا ، وهم :

(١) كفار العرب المشركون الذين قالوا للملائكة بنات الله !

(٢) واليهود الذين زعموا أن عزيرا ابن الله !

(٣) والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله !

ولما خص الله تبارك وتعالى هؤلاء الفرق بهذا الإنذار مع دخولهم في عموم الإنذار
السابق ؛ لشدة إيمانهم في الكفر ، وقبح اجتراءهم على الله عز وجل . والمنذر والمبشر

في الآيات الثلاث هو الله تبارك وتعالى ؛ أو الكتاب الكريم ، أو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد نزه الله تبارك وتعالى ساحته ، وحمل حماه ، عن مفتريات هذه الفرق الضالة المضلة ، فقال عز من قائل ، مكذبا لهم تكذبا قطعاً :

٥ - (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِإِبْنَائِهِمْ ...) الآية .

أى ليس لهؤلاء الكفرة الفجرة ، باتخاذ سبحانه وتعالى ولداً ، شئ من علم البتة ؛ وليس لأبائهم وأسلافهم الذين قلدوهم أثارة من علم كذلك ، بهذا الاتخاذ المزعوم !

أو ليس لهم علم بما قالوه : أصواب هو أم خطأ ، بل إنما قالوه رميا عن جهالة من غير فكر ولا روية ، كما في قوله تعالى : « وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ »^(١) .

أو ليس لهم علم ، بفضاعة ما قالوا وقبح موقعه من الشناعة ، كما في قوله سبحانه : « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا »^(٢) . وهذا هو الأنسب بقوله جل من قائل :

(كَبُرَتْ كَلِمَةً) : أى عظمت مقالتهم هذه مقالة في الكفر والافتراء ؛ لما فيها من نسبته تبارك وتعالى إلى مالا يليق بجلال كبريائه .

وقوله جل من قائل :

(تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) : صفة لكلمة ، تفيد استعظام اجترائهم على التفوه بها ؛ فإن كثيراً مما يوسوس به الشيطان ، وتحدث به النفس ، لا يمكن أن يُتفوه به ، بل إنه يُطرح ويصرف عنه الفكر ، فكيف بهذا المنكر الذى لا مستند له إلا مجرد افتراء الكذب ؟ ! ولهذا قال وقوله الحق :

(إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) :

أى ما يقولون إلا قولاً هو الكذب بعينه ، فلا يدخل تحت إمكان الصدق بته .

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٠٠

(٢) سورة مريم ، الآيات : ٨٨ - ٩٢

٦ - (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) :

سبب النزول :

قال الآلوسی : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أبا جهل بن هشام والنضربين الحارث وأمية بن خلف . . . في نفر من قريش - اجتمعوا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه ، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة ، فأحزنه ذلك حزنا شديداً ! فأنزل الله تبارك وتعالى : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ) الآية .

وقال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية :

وهذه معاتبة من الله عز ذكره على وجسه صلى الله عليه وسلم بمباعدة قومه إياه فيما دعاهم إليه من الإيمان بالله والبراءة من الآلهة والأنداد ، وكان بهم رحماً . ١ هـ

شُبِّهَتْ حاله صلى الله عليه وسلم ، في شدة حزنه على إعراض قومه وتوكلهم عن الإيمان بالقرآن - شُبِّهَتْ حاله هذه - بحال من يتوقع منه إهلاك نفسه على عدم تحقق أمر أهمه ، فقبل له رحمة به وإشفاقاً عليه : لاتهلك نفسك حسرة عليهم ، بل هون عليك ، وبلغ رسالة ربك ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .

ومثل هذه الآية في تسليية الله له رحمة به ، قوله سبحانه : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » ^(١) .

وأمثال هذه التسليية مَبْنُوتَةٌ في القرآن الكريم ، من رب به رحيم .

والمعنى الإجمالي للآية : فلعلك أيها الرسول مهلك نفسك أسفاً ، عقب انصرافهم عنك ، إن لم يؤمنوا بهذا القرآن الذي هو حديث الله وكلماته ، ووجهه إلى عباده - ليهتدوا به .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾)

المفردات :

(زِينَةٌ لِّهَا) : أى بهجة لها وجمالاً .

(لِنَبْلُوهُمْ) : أى لنعاملهم معاملة المختبر بتكليفهم بشرائعنا .

(لَجَاعِلُونَ) : لمُصِيرُونَ .

(صَعِيدًا جُرُزًا) : تراباً ، لا نبات فيه ، يقال : جُرِزَتِ الْأَرْضُ : إذا ذهب نباتها .
بقحط أو جراد .

التفسير

٧- (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا . . .) الآية .

لما تضمنت الآية السابقة نهى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، عن إجهاد نفسه فوق طاقتها - رحمة به - جاءت هذه الآية والتي تليها تسلياً له صلوات الله وسلامه عليه وتسكيناً لأسفه الشديد وحزنه ، لما جاء فيها من أنهم مجزيون على أعمالهم .

والمعنى : إنا أنشأنا جميع ما على الأرض : حيواناً كان أو نباتاً أو معدناً - أنشأناه زينة لها ولأهلها ، ينتفعون به ويتمتعون إلى حين .

(لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) :

أى لنعاملهم معاملة المختبر ، ثم نجزى كلَّ منهم على حسب عمله وإخلاصه لله فيه ، فكل العباد نبتليهم بالتكاليف ونحاسبهم عليها . فمن خالف ربه وعصاه عوقب على عصيانه ومخالفته ، ومن أحسن أثيب على إحسانه « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ » ^(١) .

وحسنُ العمل في هذه الدنيا صرفُها إلى ما ينبغي ، واتخاذها وسيلة إلى معرفة خالقها ، والتمتعُ بالحلال الطيب منها ، وشكر الله - جلَّتْ آلاؤه - على نعمه فيها ، مع الحذر كلَّ الحذر من فتنها والاعتزاز بها . واتخاذها وسيلة إلى الشهوات والمفاسد ، شأن أرباب الهوى ، ولا ريب أن مراتب الحسن والقبح متفاوتة .

ويجمع كل ما قدمناه - بل يزيد عليه - ما حكاه الله تعالى في قصة قارون إذ قال له قومه وقد خرج عليهم في زينته : « لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » (١) .

٨- (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا) :

أى وإننا لمصيرون - حتماً - ما على الأرض من المخلوقات قاطبة - عند تنلهى عمر الدنيا - تراباً لا نبات فيه ولا بهجة ، من بعد ما كان يتعجب من بهجته النُّظار ، وترنو إليه الأبصار ؛ وفي هذه الآية الكريمة تكميل لسبب نفيه صلى الله عليه وسلم عن إجهاد نفسه الرحيمة فوق طاقتها ؛ كأن الله تعالى يقول له : لا تحزن أيها الرسول بما عانيت من تكذيب قومك لما أنزلنا عليك ؛ فإننا قد جعلنا ما على الأرض من فنون الأشياء زينة لها ، اختباراً لأهلها ؛ وسينتهى العمران فيها إلى خراب ، والحياة فيها إلى موت ، ثم نجزي كل نفس بما أسلفت ، وسنتقم لك منهم .

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ
 ءَايَاتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا
 ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرْبَنَا
 عَلَى أَعْيُنِنَا فَبَدَّلَ الْكَهْفَ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ
 أَيَّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ۝)

المفردات :

(أَمْ) : معناها هنا : بل ، التي للانتقال من حديث إلى حديث ، مع همزة الاستفهام
 المتضمنة معنى النهي .

(حَسِبْتَ) : أى ظننت ؛ أو علمت ، من الحِسبان بمعنى الظن أو العلم ، وقد استعمل
 في كل من المعنيين .

(الْكَهْفِ) : النقب المتسع في الجبل ، فإن لم يكن متسعاً فهو الغار .

(وَالرَّقِيمِ) : هو اللوح الذي رقت فيه أسماء أصحاب الكهف ، أو قصتهم ؛ قيل كان
 من حجارة ، وقيل كان من رصاص .

(الْفِتْيَةُ) : جمع فِتْيٍ بوزن صَبِيٍّ ؛ وهو الشاب الحَدَثُ القَوِيُّ . من الفَتَاءِ ، وهو
 الشباب وزناً وَمَعْنَى ، أو من الفُتُوَّةِ ، وفيها معنى الشهامة والنجدة .

(وَهَيَّ) : أى يَسَّرَ وسهَّلَ .

(رَشَدًا) : أى إصابة لطريق السداد والرشاد واهتداء إليه ، وهو خلاف الْغَىِّ ۞

(فَضَرْبَنَا عَلَى أَعْيُنِنَا) : المفعول ملاحظ ، تقديره حجاباً ، أى ألقيناه على آذانهم .
 والمراد أغمناهم إنامة ثقيلة لانتباههم فيها الأصوات .

التفسير

٩- (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا) :

لما بين الله تعالى في الآيات السابقة أنه جعل ما على الأرض زينة لها؛ ليختبر عباده في هذه الدنيا الفانية ، التي ستنتهي إلى تراب لا نبات فيه ؛ ثم يجزى كلُّ منهم على حسب عمله وإخلاصه - قصّ عليهم قصة أهل الكهف والرقيم^(١) برهاناً عملياً واضحاً ، ينطق بأن يوم البعث والجزاء آتٍ لا ريب فيه ؛ وقد أجمل الله قصتهم في الآيات الثلاث التي حكيناها من قبل ، والخطاب لكل من يصلح للخطاب من البشر المكلفين .

والمعنى : لا تظن - أيها المكلف - أن قصة أصحاب الكهف والرقيم - وإن كانت من خوارق العادات - لا تظن أنها عجيبة دون غيرها من آياتنا ؛ أو لا تظن أنها أعجب آياتنا وأعظمها ! فإن من آياتنا ما هو أعجب منها وأعظم ؛ كخلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر والكواكب ، وإخراج الحي من الميت ، وإخراج الميت من الحي ، وجعل ما على الأرض زينة لها ؛ لحكمة الابتلاء في الدنيا والجزاء في الآخرة ؛ كل هذه الآيات العظيمة وما إليها من آياتنا الدالة على قدرتنا - أعجب وأعظم من قصة أصحاب الكهف والرقيم .

١٠- (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ...) الآية .

أى اذكر حين التجأ هؤلاء الفتية المؤمنون بالله إلى الكهف ، فراراً بإيمانهم من الشرك وأهله ، فقالوا ضارعين إلى ربهم مستغيثين به : يا ربنا هب لنا من عندك رحمة عظيمة ، من خزائن رحمتك الواسعة ، فيها الأمن والطمأنينة والمغفرة والسكينة .

(١) أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم عند الجمهور . وقيل إن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف وهم ثلاثة من كانوا قبلنا أصابهم مطر : فأووا إلى غار ، فانطبقت عليهم صخرة منه وهم فيه ، فأنجاهم الله بعد أن توسلوا إليه بأعمالهم .. انظر تفسير الآلوسى

(وَهَبْنَاهُ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) :

أى ويسر لنا من أمرنا هذا الذى نحن عليه من مهاجرة الكفار ، -يسر لنا- هداية إليك وتشبيها على الإيمان بك والإخلاص لك ، حتى نكون من عبادك المهتدين الراشدين . وقال ابن كثير :
أى وقدر لنا من أمرنا هذا رشداً ، أى اجعل عاقبتنا رشداً ، وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبتنا رشداً ؛ وفى المسند من حديث بئر بن أرطاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو : اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

١١- (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا) :

أى فاستجبنا دعاءهم عقب ندائهم ، وأمناهم فى الكهف آمنين مطمئنين ، نومة ثقيلة طويلة تشبه الموت ، بلغت سنين كثيرة تعدُّ عدداً .

وسألتى التصريح بعدد هذه السنين فى قوله تعالى : « وَلْيَتُوبُوا فِي كَهْفِهِمْ . . . » الآية مع حكمة التأخير ، والتفصيل بعد الإجمال .

وتخصيص الضرب على الآذان بالذكر ، مع مشاركة سائر الحواس والمشاعر لها فى الحجب عن الشعور والإدراك عند النوم - لأن الآذان هى الوسيلة إلى التيقظ غالباً ، ولا سيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق .

ولما كانت نومة أهل الكهف فى عمقها وطولها كأنها الموت ، عبر عن إيقاظهم منها بالبعث فقال سبحانه :

١٢- (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا) :

أى ثم أيقظناهم من تلك النومة الشبيهة بالموت ؛ لنظهر ما علمناه بشأن لبثهم ، بإيضاح الأحداث التى مرت بهم ، حتى يتبين للناس أى الفريقين أدق إحصاء لمدة لبثهم :
ألبثوا يوماً أو بعض يوم ، أم لبثوا أحقاباً ودهوراً ؟ !

واعلم أن الله تبارك وتعالى يعلم أزلاً علماً تفصيلاً بكل ما يقع فى الكون ، طبقاً للأجل المسمى عنده ، ووفقاً لما قدره سبحانه وعلمه ؛ فإذا حدث ما قدره ، علمه واقعاً ، بعد علمه أزلاً بأنه سيقع .

والمراد بالحزبين بعض الفتية : وهم المترددون القائلون : « لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » -
والحزب الآخر أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم ، وكان عندهم تاريخ غيبتهم ،
قال ابن عطية : إن هذا قول جمهور المفسرين : اهوسياقي الحديث مستفيضاً عما قيل في بيان
مكان الكهف ، وزمان رقودهم ، وزمان بعثهم .

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ
وَزِدَّ لَهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا
إِذَا شَطَطًا ۝١٤ هَتُّوْا قَوْمَنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا
يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا ۝١٥ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْهًا إِلَى
الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ
مَرْفَقًا ۝١٦)

المفردات :

- (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ) : النبأ ؛ الخبر الخطير ذو الشأن .
(بِالْحَقِّ) : أى بالصدق الذى لا يحوم حوله شك .
(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ) : المراد قَوْنًا قلوبهم وثبتناها على الحق والصبر على الإيمان وآثاره .
(لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا) : أى لقد قلنا إذا قولاً ذا شطط ، أى ذابُعِدٍ عن الحق والصواب .
والشطط : مجاوزة الحد فى كل شيء .

(لَوْلَا) : حرف تحضيض فيه معنى اللوم على عدم الفعل .

(بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ) : أى ببرهان ظاهر قوى .

(فَمَنْ أَظْلَمُ) : استفهام إنكارى فيه معنى النفي .

(يَنْشُرْ لَكُمْ) : يبسط لكم ويوسع عليكم .

(مَرْفَقًا) : المرفق - كَمَنْبَرٍ وَمَجْلِسٍ - : ما يُرْتَفَقُ وينتفع به .

التفسير

١٣- (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ . . .) الآية .

هذا شروع فى تفصيل ما أجمل آنفا فى قوله تعالى : « إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ . . » .

أى نحن نخبرك الخبر اليقين الصادق عن هؤلاء الفتية وهو ما يلى :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) :

أى إنهم جماعة من الشباب النقى الفطرة الصادق العزيمة ، هُدوا بفطرتهم إلى ربهم فاطر السموات والأرض ، فأيقنوا أن الذى أبدعهما على غير مثال سبق ، هو الحقيق بأن يعبد بحق ، وأن يكون وحده رباً لهذا الكون وإلهاً ، هكذا اهتدوا إلى الله بآياته ، وهكذا آمنوا بربهم على هدى وبصيرة ، فزادهم ربهم بالعمل الصالح والعقل الرشيد يقينا إلى يقينهم ، وإيمانا مع إيمانهم ، ثم أعلن ثناءه عليهم ، فقال فى محكم كتابه :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) : ونحو هذه الآية قوله تعالى : « وَالَّذِينَ

اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » ^(١) . والشباب - كما قال الحافظ ابن كثير - :

أقبل للحق ، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا فى دين الباطل ،

ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم شبابا .

ولعل فى قول الحق تبارك وتعالى : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ » إشارة إلى

أن فى عهده صلى الله عليه وسلم من كان يقص نبأهم لكن بغير الحق ، وفى هذا دليل على

أن قصة أهل الكهف كانت من علوم العرب وإن لم يكونوا عالميها على وجهها . وقد ذكر المفسرون والمؤرخون كثيرا من أخبارهم ، نقلا عن محمد بن إسحق وغيره من أصحاب السير^(١) وحسبنا ما قص علينا العليم الحكيم من نبئهم « وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ »^(٢) ثم بين سبحانه لطفه بهم ، وجميل صنعه لهم ، حينما عزموا على التوجه إليه بعبادته وحده فقال :

١٤- (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا . . .) الآية .

أى قوينا قلوبهم وثبتناهم على الحق حين قاموا فى قومهم فقالوا كلمة الحق ، لا يخافون إلا الله ، ولا يرجون أحدا سواه : قالوا ربنا وخالقنا هو رب السموات والأرض وخالقها وحده ، فهو الحقيق بئلا نعبد إلا إياه ، وألا نتخذ إلها ولا ربا سواه ، هذا اعتقادنا الذى نحيا ونموت عليه ، لن نتحول عنه أبدا ، وقولهم :

(لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا) : تأكيد لقولهم الحق الذى قالوه ؛ واعتقادهم الحق الذى اعتقدوه .

أى والله لو قلنا غير هذا القول ، وعبدنا مع ربنا الذى خلقنا إلها غيره - لكان قولنا هذا حينئذ بعيدا عن الحق والصواب غاية البعد ، وكنا بعبادة غير ربنا وخالقنا مفرطين غاية الإفراط فى الضلال والظلم !

وفى هذا القول الذى قاله الفتية دلالة على أنهم دُعُوا إلى عبادة الأصنام وحُمِلوا عليها وأنذروا على تركها ، وكان ذلك بين يدي الملك الجبار العابد للأوثان . وسيأتى بيان أمره معهم .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم أنهم خرجوا من المدينة فاجتمعوا وراءها على غير ميعاد فقال رجل منهم هو أشجعهم : إني لأجد فى نفسى شيئا ما أظن أحدا يجده ، قالوا ماتجد ؟ قال أجد فى نفسى أن ربي رب السموات والأرض ، فقالوا جميعا نحن كذلك ، فقاموا جميعا فقالوا : « ربنا رب السموات والأرض » .

(١) انظر تفسير ابن جرير ، والآلوسى .

(٢) سورة فاطر ، من الآية : ١٤

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله : (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ . . .) الآية .

وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم لهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة ؛ فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف : أنهم كانوا من أبناء سادة الروم ، وأنهم خرجوا يوما في بعض أعياد قومهم ، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه ، وكان لهم ملك جبار عنيد يأمر الناس بعبادة الأصنام والذبح لها ، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم - عَرَفُوا أَنَّ هَذَا الَّذِي يَصْنَعُهُ قَوْمُهُمْ مِنَ السُّجُودِ لِأَصْنَامِهِمْ وَالذَّبْحِ لَهَا ، لَا يَنْبَغِي إِلَّا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَجَعَلَ كُلَّ مَنْهُمْ يَتَخَلَّصُ مِنْ قَوْمِهِ وَيَنْتَحِي نَاحِيَةً ، حَتَّى جَمَعَهُمُ الَّذِي جَمَعَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : « قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » .

ثم توافقوا ، كلهم على عبادة الله وحده . . فلما انتهى أمرهم إلى ملكهم استحضروهم بين يديه ، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوا بالحق ودَعَوْهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَدْ أَجْمَلَ اللَّهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ . . .) الآية .

ويقال إنهم لما دَعَوْا الْمَلِكَ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ أَبِي عَلَيْهِمْ وَتَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ ، ثُمَّ أَجَّلَ النَّظَرَ فِي أَمْرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنْ دِينِهِمْ . قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ : وَكَانَ هَذَا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِهِمْ فَإِنَّهُمْ فِي تِلْكَ النَّظَرَةِ تَوَصَّلُوا إِلَى الْهَرَبِ مِنْهُ وَالْفِرَارِ بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ ! انْتَهَى مَا قَالَهُ ابْنُ كَثِيرٍ مُلْخَصًا .

ثم قال بعض الفتية لبعض ، إنكارا على أهل بلدهم ، وتمهيدا لاعتزالهم :

١٥- (هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ آلِهَةٍ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ . .) الآية .
أى أشرك أهل بلدنا هؤلاء بعبادة غير الله ، من الأصنام التي اتخذوها آلهة فعيدها معه هلا يأتون على عبادتهم لهذه الأصنام ببرهان ظاهر وحجة واضحة ! !

وهذا تبكيت صارخ ؛ لأن الإتيان بالبرهان على عبادة الأصنام محال . وفي هذا دليل على أن مجرد التقليد في العقائد مردود . وما لا شك فيه أنك لو سألت أحدا من عوام المؤمنين عن دليل وجود الله الذى يعبد ، فإنه لا يتردد فى أن يشير إلى سمواته وأرضه ، ويشير إلى نفسه ، فهو يعلم أنها أمارات شاهدات على الحى القيوم .

ثم بينوا أن قومهم أظلم الظالمين فقالوا :

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) :

أى لا أحد أشد ظلما ممن اختلق على ربه كذبا بنسبة الشريك إليه ؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

١٦ - (وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهْدِيَكُمْ إِلَى مَرْفَقَةٍ) :

كان قوم الفتية يعبدون مع الله آلهة شتى ، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله تعالى ؛ فقال بعضهم لبعض : وإذا فارقتم القوم بقلوبكم وبدينكم ، ففارقومهم أيضاً بأبدانكم ، فالحثوا إلى الكهف لعبادة ربكم مخلصين له الدين ، يبسط عليكم رحمة من عنده يستركم بها فى الدارين ، ويسهل لكم من أمركم ما تنتفعون به فى حياتكم ، قالوا ذلك ثقةً بفضل الله تعالى ، وقوةً فى رجائه ، لتوكلهم عليه سبحانه «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ»^(١) . ثم أتبعوا مقاتلتهم الحكيمة ، تنفيذ عزمهم الصادقة ، فأووا إلى كهفهم ، فى حراسة ربهم وكفالاته ، لم يرهم أحد من قومهم ، وقد جدوا فى طلبهم !

قال الحافظ ابن كثير : وعنى الله خبرهم ، كما فعل بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضى الله عنه ، حين لجأ إلى غار ثور ، وجاء المشركون من قريش فى الطلب فلم يهتدوا إليه ، مع أنهم يملكون عليه ! وعندها قال النبي صلى الله عليه وسلم

لما رأى جَزَع الصديق في قوله يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا ، فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ! وقد قال تعالى : « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » ^(١). قال ابن كثير : فقصة هذا الغار (أى غار ثور) أشرف وأجل ، وأعظم وأعجب ، من قصة أصحاب الكهف !

ذلك ، وقد دلت الآية الكريمة على مشروعية الهجرة . ولا شك أنه إذا اشتدت الفتن في دار الكفرة ، ولم يستطع من بها من المسلمين أن يأمنوا على أنفسهم ودينهم - فعليهم أن يهاجروا حيث يأمنون على دينهم وأنفسهم . وقد هاجر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، بأمره فرارا بدينهم من الفتن ! ثم هاجر صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه ! واحتملوا في هجرتهم أهوالاً ثقالاً ، كان عاقبتها نصر الله والفتح .

(* وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ۝١٧ وَتَحْسَبُهُمْ آيِقًا ظُلُمًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ۝١٨)

المفردات :

(تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ) : تتنحى وتميل عنه . (تَقَرَّضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ) : تتركهم ناحيته ، من قرض بمعنى ترك . (فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ) : فِي مُتَّسِعٍ مِنَ الْكَهْفِ . (أَيْقَاطًا) : جمع يَقِظُ بمعنى منتبه غير نائم . (وَهُمْ رُقُودٌ) : راقدون - أَيْ نائمون . (بِالْوَصِيدِ) : بالفناء أمام الكهف ، ويطلق الوصيد أَيْضًا عَلَى الْعَتَبَةِ ، فلعله كَانَ يجلس بباب الكهف ومدخله عند موضع العتبة لحراستهم . (لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ) : لو رأيتهم وشاهدتهم .
(لَوْلَيْتَ مِنْهُمْ) : لأعرضت بوجهك عنهم .

التفسير

١٧ - (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ) :
أفادت الآية التي قبلها أن بعضهم أشار عليهم بعد اعتزالهم قومهم المشركين ، أن يأووا إلى الكهف رجاء أن يبسط الله لهم من رحمته بعد فرارهم بدينهم ، وأن يسهل لهم من أمرهم ما يرتفقون به ، وقد جاءت هذه الآية لتبين حالهم بعد أن أووا إلى الكهف استجابة لمشورة أحدهم ، وقد حدث بعد لجوئهم إلى الكهف أنهم ناموا ، ولم يذر بخلدهم ماذا يكون من أمرهم بعد نومهم من عجائب الأمور ، فضرب الله على آذانهم حجاباً كثيفاً يمنع سماعهم لما يجرى حولهم ، بأن جعل نومهم عميقاً يشبه رقود الموتى ولم يصرح بذلك هنا اكتفاءً بإجمال حالهم من قبل في قوله تعالى : « إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرْبَنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا »^(١) . والخطاب في قوله تعالى : « وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ » إنما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما لكل أحد ، إيداناً بغاية ظهوره والمعنى : .

وترى أيها الباحث عن حالهم في كهفهم - ترى - الشمس إذا طلعت تتزاور وتنحى^(٢) عن كهفهم جهة يمين الداخل إليه ، وتراها عند غروبها تعدل عنه ولا تدخله جهة الشمال ،

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الكهف .

(٢) من قولهم تزاور عنه . أى عدل وانحرف - انظر القاموس .

مع أنهم في متسع من الكهف ، بحيث يمكن معه أن يصلهم شعاع الشمس ، ولكن الله تعالى حوَّاهم من حرِّها فأبعد شعاعها عنهم حتى لا تؤذيهم بحرارتها طول النهار وكرامة لهم ، في حين أنه سبحانه جعل الهواء يدخل إليهم ، لتبقى حياتهم إلى حين بعثهم من رقودهم .

(ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) : أى ذلك الذى حدث من تحول أشعة الشمس عنهم ، وعدم وصول ضوءها الحار إليهم طَوَالَ النهار - كل يوم مدة رقودهم - مع اتساع مدخل الكهف وصلاحيته لتوصيل أشعة الشمس إليهم - ذلك كله - من آيات الله العظيمة الدالة على كمال قدرته وحكمته في تدبيره ، حيث أبطل حكم العادة ، ليعلم الناس أن الحكم لله لا للأسباب العادية ، كما أنها من آيات الله على كرامة أهل الكهف ومنزلتهم لديه ، وأنه تعالى يحمي أوليائه ، ويكرم أصفياه .

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا) :

أى أن مَنْ يرشده الله سبحانه إرشادا يوصله إلى الحق ، فهو الواصل إليه لا محالة ، لأن نفسه مستسلمة إلى إرشاد الله ، ومستجيبة لآياته ودلائله ، ومن كان كذلك فله الجزاء الكريم في الدنيا والآخرة ، أما من يصرفه الله ويبعده عن الهدى لأنه اتَّجَهَ بسوء اختياره إلى الضلال وأوغل فيه ، فلن تجد له معينا يرشده ويهديه إلى الحق ، ويأخذ بيده إلى سواء السبيل .

وقد أفادت هذه الجملة من الآية الشناء على أهل الكهف والشهادة لهم بإصابة الهدى والرشاد ، وأن ذلك كان بتوفيق الله وهدايته لهم ، لسلامة فطرتهم ، وصفاء قلوبهم وعقولهم وانصرافهم عن تقليد آبائهم ، إلى اتباع آيات الهدى والرشاد ، وأما غيرهم من عبدة الأوثان ، فقد اتبعوا هَوَاهُمْ ، وأعرضوا عن هُدَاهُمْ ، فتخلى الله عنهم ، لأن سنة الله أن من يقبل على الله يهده الله ، ومن ينصرف عن هداه ، فهو متورط في الضلال ، وليس له سبيل إلى الهدى ، ولا معين له على الوصول إليه ، بعد أن تخلى الله عن إيقاظه ، لإصراره على الضلالة .

١٨ - (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ) : وتظنهم أيها الناظر إليهم أيقاظا وهم نيام - تظنهم كذلك - لانفتاح عيونهم ، وقال ابن عطية : تحسبهم أيقاظا لشدة الحفظ الذي كان من الله عليهم وقلة تغيرهم ، لأن الغالب على النيام استرخاء الأعضاء وَهَيْئَاتُ معينة ، فإن لم توجد حَسَبُهُم الرائي أيقاظًا وإن كانت عيونهم مقفلة ، والرأي الأول هو الظاهر .

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ) : ونقلبهم - وهم رُقُودٌ - جهة أيماهم وجهة شمائلهم حِفْظًا لأجسادهم من البلى والضرر ، على نحو ما جرت به العادة في النائمين ، أو لكي يدرك من يراهم وقد طال نومهم أنهم أحياء ، فلا يسد الكهف عليهم ويدفنهم فيه ، أو لغير ذلك من حكم يعلمها خالقهم ،

(وَكَلَبُهُمْ بِأَسْطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ) : أى أن كلب أصحاب الكهف مَادُّ ذراعيه وهو جالس على مُوْخَرَّتِهِ^(١) بفناء الكهف أو بمدخله كأنما هو يحرسهم وهم نيام .

واختلف العلماء في أمره - هل نام كما ناموا ، أم أنه لم يستغرق في نومه كما استغرقوا ، ومثل هذا الخلاف لا يمكن حسمه إلا بدليل ولا دليل ، وقد أضيف الكلب إليهم فقبل كلبهم ، واختلف العلماء في صاحبه ، فمنهم من قال إنه كلب مرؤا به فتبعهم ، وأصر على أن يكون معهم ، ومنهم من قال إنه كلب راع مرؤا به فتبع دينهم وذهب معهم وبصحبتهم كلبه ، ومنهم من قال إنه كلب صيد لأحدهم وهذا الخلاف ليس له أساس ، فالكلب كلبهم كما جاء به النص الكريم ، والله أعلم كيف وصل إليهم .

(لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمْتُ مِنْهُمْ رُعْبًا) : أى لو عاينتهم وشاهدتهم لأعرضت بوجهك عنهم ، وللمت منهم خوفاً بسبب ما ألقى الله عليهم من الهيبة والجلال وقيل : إن سبب الرعب فيمن يراهم ما كانوا عليه من طول الشعور والأظفار وصفرة الوجوه وتغير الثياب ، وهذا القول غير مقبول ، فإنهم لو كانوا كذلك لأنكروا أحوالهم بعد أن تيقظوا ، ولم يقولوا لبئنا يوماً أو بعض يوم ، وكَلِمًا بمعنوا أحدهم إلى المدينة ليشتري لهم منها طعاماً ، وأوصوه بأن يتلطف ولا يشعر أحداً بهم ، لأن منظرهم يوحي إليهم بأنهم من

(١) وتسمى هذه الجلسة الإقواء .

أهل القرون الماضية ، فلا مجال لأن يقولوا لصاحبهم في شأن الطعام ما قالوا ، ولأنه لما ذهب إلى المدينة لم ينكر حال نفسه وإنما أنكر معالم المدينة وأهلها ، فالحق أن الله تعالى لم يغير حالهم بعد مئات السنين ، ليكون ذلك آية بينة لمن يراهم بعد يقظتهم كما سنشرحه إن شاء الله تعالى .

أين الكهف ومن أي البلاد أصحابه

يقول بعض المفسرين إنه في بلاد الروم ، وإن أصحابه منها ، ويضيفون إلى ذلك أنهم باقون على الحالة التي توجب فراراً من يطّلع عليهم ورُعبه منهم ، ويستدلون لذلك بما أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس قال : « غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم ، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن ، فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال ابن عباس : ليس ذلك لك ، قد منع الله تعالى ذلك من هو خير منك فقال : « لَوِ اطلّعتَ عليهمَ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا » فقال معاوية : لا أنتهى حتى أعلمَ علمهم ، فبعث رجلاً وقال اذهبوا فادخلوا الكهف وانظروا ، فذهبوا فلما دخلوه بعث الله تعالى عليهم ريحاً - فأخرجتهم » وأصحابُ هذا الرأي يقولون إن الخطاب في قوله تعالى : « لَوِ اطلّعتَ عليهمَ » للرسول خاصة .

وقد روى عن ابن عباس عكس ما تقدم ، فقد أخرج عبد الرازق وابن أبي خاتم عن عكرمة أن ابن عباس غزا مع حبيب بن مسلمة ، فمروا بالكهف فإذا فيه عظام ، فقال رجل : هذه عظام أهل الكهف ، فقال ابن عباس : لقد ذهبت عظامهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة ، فهذا الأثر ينفي ما دلّ عليه الخبر السابق ، من بقاء أجسادهم سليمة .

ونحن نرى أن الخطاب في قوله تعالى : « لَوِ اطلّعتَ عليهمَ » لكل من يصلح أن يُخاطَبَ ، وأن المراد من الآية الكريمة حكاية حالهم وقت رقودهم وقبل بعثهم ، وأما أمرهم بعد موتهم واتخاذ مسجد عليهم ، فهو من الغيبيات التي لم يكشف النقاب عنها على وجه تطمئن إليه القلوب .

ومن المفسرين من نقل أنهم بالشام ، قال أبو حيان : إن في الشام كهف موقى ، ويزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف ، وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ، ومعهم كلب رمة : ١٥
ولعل أبا حيان يشير بكونهم في الشام إلى أنهم في الأردن ، فإن الأردن من الشام ، فقد كان إقليم الشام يعم سوريا والأردن وفلسطين ولبنان ، وقد صرح بوجودهم في الأردن الهروى ، إذ قال : إن البلقاء بلد به الكهف والرقيم ، عند مدينة يقال لها عَمَّان ، بها آثار قديمة ، ووافقها ياقوت ، وقال القديسى : الرقيم قرية على فرسخ من عمان على تخوم البادية ، فيها مغارة لها بابان صغير وكبير وقد روى عن ابن عباس أن الرقيم واد بين غَضَيَّان وأَيْلَةَ دون فلسطين ، وفيه أصحاب الكهف : ١٥

وَعَضَيَّانُ بالضاد المعجمة واد بالشام ، وهذه الرواية تخالف ما روى عنه سابقاً من أنهم وكهفهم في بلاد الروم ، ولعلها أقرب منها إلى الصواب . وقد دفعت هذه الرواية وغيرها مصلحة الآثار بالملكة الأردنية إلى التنقيب في هذه المنطقة حتى كشفوا كهفاً وآثاراً ، وظنوا أن هذا هو الكهف الذى جاء ذكره في سورة الكهف ، بل لقد أكد الأستاذ رفيق الدجاني المساعد الفنى لمدير الآثار العربية بالأردن أنه هو بعينه ، والله أعلم بصحة هذا أو مخالفته للحقيقة ، فقد علمت ما تقدم نقله من وجودهم ببلاد الروم ، ونقل الآلوسى أن بالأندلس في جهة غرناطة كهف موقى ومعهم كلب رمة ، وأكثرهم قد ذهب لحمه ، وبعضهم متمسك ، وهم بقرب قرية تسمى لوشة ، ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف . قال ابن عطية : دخلت عليهم فرأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة ، وعليهم مسجد ، وقرب منهم بناء روى يسمى الرقيم ، كأنه قصر مخلق قد بقى بعض جدرانها ، وهم في فلاة من الأرض خربة ، وبأعلى حصن غرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة يقال لها مدينة دقيوس وجدنا في آثارها غرائب : ١٥ .

فمن تضارب الروايات في مكان كهفهم ، فإننا لا نستطيع الجزم به ، كما لا نستطيع الجزم بالأمّة التى نشأوا منها ، وكل ما نستطيع القطع به هو قصتهم وواقعيتها ، وأنهم من آيات الله تعالى ، فلندع العلم بما وراء ذلك إلى علام الغيوب .

(وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ
 كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ
 بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ
 فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ
 وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ
 يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ۝٢٠)

المفردات :

(بَعَثْنَاهُمْ) : أيقظناهم . (لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ) : ليسأل بعضهم بعضاً .
 (كَمْ لَبِثْتُمْ) : كم زمنا أقمتم نائمين . (بِوَرِقِكُمْ) : الورق بكسر الراء الفضة المضروبة
 كالدرهم ، وقيل يطلق على الفضة وإن لم تكن مضروبة . (أَزْكَى طَعَامًا) : أطيب طعاما
 أو أطهره . (وَلْيَتَلَطَّفْ) : وليستعمل اللطف في المعاملة حتى لا تقع خصومة تكشف أمرهم .
 (إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) : إن يطلعوا عليكم ويعرفوكم .
 (يَرْجُمُوكُمْ) : يقتلوكم رجما بالحجارة ، أو يقذفوكم بالفاظ السباب .

التفسير

١٩ - (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا
 أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) :

بينت الآيتان السابقتان حالهم في الكهف الذي أَوَّأ إليه ، بعد أن فارقوا أهلهم
 المشركين ، وأن الله تولى حفظ أجسادهم فيه حتى لا يفنيهم تعاقب السنين عليهم ،
 فجعل الشمس لا تضئهم طوال نهارهم مع أنهم في فجوة من الكهف بحيث تتمكن الشمس
 من إصابتهم ، وجعل يقلب أجسادهم ذات اليمين وذات الشمال ، وجعل أجسادهم تعيش

مئات السنين بلا طعام ولا شراب ، وجعل منظرهم يبعث الرعب والفرار منهم ، ليكون ذلك أدعى إلى سلامتهم ، وأدفع للشر عنهم ، وأبعد للوحوش المفترسة عن إizardتهم ، وكل ذلك من آيات الله . وجاءت هذه الآية الكريمة لشرح حالهم بعد يقظتهم من هذا الرقاد الطويل الذى لم يغير شيئاً من ثيابهم ولا من شعورهم وأجسادهم ، فقد بينت أنهم استيقظوا فتساءلوا كم من الزمن لبثتم ؟ ، فأجاب المسئول منهم سائله بأنهم لبثوا نائمين يوماً أو بعض يوم ، ولو طاللت لحاهم أو أظافرهم أو بليت ثيابهم أو ضرب بياض الشيب شعرهم لما كان جواب المسئول لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ولما بعثوا بعضهم ليشتري لهم طعاماً بدراهمهم التى مضى على ضربها مئات السنين ، وقد حدثت هذه الآية على هذا النحو العجيب ، ليُعرف أمرهم ، ويتبين للناس من حالهم أن الله يبعث من فى القبور ، كما سنعرض له فى موضعه إن شاء الله تعالى .

والمعنى : أئمناهم على هذا النحو العجيب الدال على قدرتنا ، ثم أيقظناهم من نومهم على هيئة لا تغير فيها لشيء من أحوالهم ، لكى يسأل بعضهم بعضاً : كم من الوقت لبثنا نائمين بعد أن أوينا إلى هذا الكهف مرهقين من رحلة الهرب من أهلينا المشركين ، قال بعضهم جواباً للسائل : لبثنا يوم أو بعض يوم ، فاستراحت بذلك أجسادنا المكدودة .

والمشهور أن نومهم كان غدوة وانتباههم كان آخر النهار ، وحرف (أو) فى قول المجيب على السائل (أو بعض يوم) يحتمل أن يكون للشك فى مدة لبثهم أى يوم أو بعض يوم ، لأنهم فى جوف الغار ولوثة النوم لم تفارقهم بعد ، وقال أبو حيان إنها للتفصيل على معنى : قال بعضهم : لبثنا يوماً ، وقال آخرون : لبثنا بعض يوم ، وقول كليهما مبنى على غلبة الظن .

(قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) : قال بعض آخر التبس عليه الأمر : ربكم أعلم بالوقت الذى مكثتم فيه نائمين ، فلا سبيل إلى التحقق من أنه

يوم أو بعض يوم ، فدعوا الحديث عنه ، فابعثوا أحدهم بدراهمكم هذه التي أحملها ، ليذهب بها إلى المدينة التي خرجنا منها مهاجرين إلى الله ، فلينظر أى البائعين بالمدينة أطيب طعاما ، وأبعده عن الإثم ، فقد كان أهلها يذبحون للطواغيت ، فليأتكم برزق من أطيب الطعام ، وليتلف في معاملته مع بائع الطعام حتى لا تقع خصومة بينه وبينه وينكشف بها أمركم ، ولا يفعلن ما يؤدى إلى شعور أحد من أهل المدينة بكم ، لننجو من العواقب الوخيمة التي تترتب على معرفتهم بمخبثكم عن طريقه . وفي إقرارهم في النص الشريف على حملهم للدراهم معهم دليل أن التأهب لأسباب المعاش لمن خرج من منزله ، بحمل النفقة ونحوها لا ينافي التوكل على الله ، فإن الحياة بنيت على اتخاذ الأسباب ثم يأتى التوكل على الله بعد ذلك ليساعد من استعان به على نجاح أسبابه ، قال تعالى في سورة الملك : « فَاَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ » . وقال صلى الله عليه وسلم لمن أناخ ناقته ولم يعقلها ، قائلا إني متوكل على الله - قال له الرسول - « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » .

٢٠ - (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَا) :
 إن قومكم الذين هجرتهم وتركتم دينهم إن يطلعوا عليكم ويظفروا بكم يرموكم بالحجارة فيقتلوكم لمخالفتكم إياهم فيما هم عليه من الدين ، واعتزالكم إياهم وما يعبدون ، وشق عصا الطاعة ومخالفة الجماعة في أقدم أمورها يوجب القتل عندها إلا أن تعودوا إلى ملتهم وتستجيبوا إلى فتنتهم مكرهين ، ولن تفلحوا أبدا إن دخلتموها ولو مكرهين ، فإنهم سيستدرجونكم مع الشيطان إلى استحسانها والاستمرار عليها ، وسيحيطونكم بمختلف الفتن والمغريات حتى يطفئوا نور الإيمان في قلوبكم .

ثم إن هؤلاء الفتية بعثوا أحدهم بدراهمهم ليأتهم برزق طيب من المدينة بعد أن سمع من إخوانه نصيحتهم ، واشتهر أن اسمه يملحها ، ولما ذهب إلى المدينة حدث ما أشار إليه بقوله :

(وَكَذَلِكَ أَغَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾)

المفردات :

(أَغَثَرْنَا عَلَيْهِمْ) : أصل العنور السقوط لِجَهَةِ الوجه ، كما قال الراغب ، ثم تجوز به عن الحصول أو الاطلاع على أمر مصادفةً ، وأغثرنا عليهم معناها في الآية أطلعنا عليهم أهل مدينتهم . (لَا رَيْبَ فِيهَا) : لا يصح أن يرتاب فيها أحد . (السَّاعَةُ) : القيامة ، وسميت بذلك لأنها تفجأُ الناس في ساعة يجهلونّها ، ويتخص الله بعلمها .

(يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ) : يتخاصمون في شأن بعثهم ، فينهم مُقِر بدلالته على البعث الأخرى ، ومنهم نافٍ له ، أو يتخاصمون في نومهم ثانياً بعد يقظتهم أم هو موت أم هورقود كما كانوا .

التفسير

٢١- (وَكَذَلِكَ أَغَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ) :

تحكى هذه الآية ما آل إليه أمرهم بعد يقظتهم من رقدة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً ، حيث مكثوا نياماً « ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا » ثم كان من قصتهم ما سذكره إجمالاً ثم فصله ، والمعنى :

وكما أنمناهم هذه النومة الطويلة العجيبة ، وأيقظناهم بعدها بحالة عادية ظنوا معها أنهم لبثوا نائمين يوماً أو بعض يوم - كما فعلنا ذلك - أطلعنا الناس عليهم بعد تلك الأجيال العديدة التي ظلوا فيها نائمين ، ليعلموا بما عرفوه من أحوالهم العجيبة ، أن وعد الله تعالى

بأن يبعث الناس بعد الموت للحساب والجزاء حق ، وأن الساعة التي يقوم فيها الناس لرب العالمين لا ينبغي أن يرتابوا فيها .

(إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا) :

في هذا الكلام تنمة الحديث عن قصتهم بعد الإغثار عليهم ، والمعنى الإجمالي للآية ما يلي :

وكذلك أعرنا الناس على أصحاب الكهف بعد بعثهم وقيامهم من رقودهم ، حيث كشفت الدراهم التي كانت مع مبعوثهم أنها ضربت منذ مئات السنين في عهد ملك وثني جبار كان أصحاب الكهف قد هربوا منه ومن قومهم الوثنيين في عهده ، وظهر للفتى المبعوث أنهم في عهد ملك آخر ، وجيل يختلف كل الاختلاف عن الجيل الذي عاشوا فيه ، وكان ذلك كله ليعلم الناس أن وعد الله بالحياة الآخرة حق ، وأن الساعة التي يقوم الناس فيها لرب العالمين آتية لا ريب فيها ، فلما عاد الفتى إلى أصحابه في الكهف ، وفي صحبته بعض من وقفوا على أمره من زعماء هذا العصر وأهله - لما عاد الفتى إلى أصحابه - توفاهم الله تعالى ، اذكر لأمتك أيها الرسول ، حين يتنازع قومهم في بعثهم ، أشبهه بعث الآخرة أو يخالفه ، أو يتنازعون في أنهم ماتوا أو ناموا كما حدث أول مرة ، ثم فرغوا من التنازع في ذلك ، واهتموا بإجلال قدرهم وتعظيم أمرهم ، بعد أن تبين لهم موتهم ، فقال بعضهم لبعض : ابنوا على باب كهفهم بنيانا ، لئلا يتطرق الناس إليهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن على بابهم مسجدا تكريما لهم ، وحثا للناس على عبادة ربهم ، وبهذا البيان أجبلنا تفسير هذه الآية التي طوت تحت عباراتها القصيرة أحداثا عظيمة نفصل بعضها فيما يلي :

تفصيل بعض أحداث القصة

بعد أن ضرب الله على آذان الفتية في الكهف فلم يسمعوا ولم يدروا بما حولهم أكثر من ثلاثة قرون ، - بعد ذلك - لم يبق أحد من أمتهم التي اعتزلوها ، فجئنا بعثوا من رقودهم الطويل ، كان يوجد غيرهم يحكمهم ملك مؤمن ، فاختلف أهل مملكته في أمر البعث ، أيكون أو لا يكون؟ ، وإذا حدث البعث أيكون للأرواح وحدها أم يكون لها وللأجساد؟ ، فشق ذلك على الملك ، فلبس المسحوق وجلس على الرماد ، ودعا الله أن يبعث لأمرته آية

تبين لهم الحق فيما هم فيه مختلفون ، فبعث أصحاب الكهف من رقودهم الطويل ، فبعثوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً ، فدخل السوق فجعل ينكر الوجوه التي يراها ، وقد اختلفت عليه معالم المدينة كثيراً ، ورأى مظاهر الإيمان بادية على أهل المدينة ، ثم أقبل متلطفاً على رجل ليشتري منه طعاماً ، فلما نظر الدراهم أنكرها ، لأنها مضروبة من عهد بعيد ، حيث كان يوجد ملك وثنيٌ - قيل إنه يدعى دقيانوس - فاتهمه بكنز عثر عليه ، وطلب منه أن يدلّه عليه حتى لا يرفع أمره إلى الملك ، فقال الفتى هي من ضربه ، أليس ملككم فلانا ؟ فقال الرجل : لا . بل هو فلان - وكان اسمه كما قيل (بندوسيس) فاجتمع الناس وذهبوا به إلى الملك - وهو خائف - فسأله عن شأنه ، فقص عليه القصة ، وكان الملك قد سمع أن فتيةً خرجوا ولم يعودوا على عهد دقيانوس ، فدعا مشيخة أهل بلده ، وكان عند رجل منهم أسماؤهم وأنسابهم ، فلما سألهم الملك عن هؤلاء الفتية ، تقدم هذا الرجل ، وذكر له ما عنده من أمرهم ، فقال الفتى صدق ، ثم قال الملك : أيها الناس . هذه آية بعثها الله لكم ، لتؤمنوا بالبعث وأنه على نحو ما رأيتم ، ثم خرج هو وطائفة من أهل المدينة ومعهم الفتى ، فلما رأى الملك الفتية اعتنقهم وفرح بهم ، ورآهم جلوساً مشرقة وجوههم ، لم تَبَلْ ثيابهم ، فأخبروه بما لقوا من دقيانوس ، فبينما هم بين يديه إذ قالوا له : نستودعك الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله ، ودعوا له بخير ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم فتوفاهم الله تعالى ثم كان من أمرهم ما قص الله تعالى .

تلك إحدى الروايات التي تحدثت عن قصتهم ، اكفينا بها في فهم ما أجمله القرآن من أمرهم ، انظر الآلوسي في بيان هذه القصة .

حكم اتخاذ المساجد فوق القبور

استدل بعض الفقهاء بالآية على جواز اتخاذ المساجد فوق قبور الصالحاء والصلاة فيها ، وهو استدلال باطل ، فإننا لو سلمنا أن هؤلاء بنوا عليهم مسجداً للصلاة وفق شرعهم ، فإن شرع من قبلنا إنما يكون شرعاً لنا إذا لم يرد في شرعنا ما يردّه ، وقد جاء في شرعنا ما يحرمه ويرده ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

« لَعَنَ اللَّهُ زَايِرَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَخَذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالشُّرُجَ » أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن ابن عباس ، وقال صلى الله عليه وسلم :

« لَعَنَ اللَّهُ تَعَالَى الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى . اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » أخرجه الشيخان والنسائي عن عائشة ، ومُسلّم عن أبي هريرة ، إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الناهية عن اتخاذ المساجد فوق القبور .

ويرى بعض علماء الحنابلة هدم المساجد التي تبنى على القبور ، والقباب التي تبنى عليها ، على أن الآية ليست نصاً في أنهم بنوها وفق شرعهم ، فليس فيها سوى حكاية قول طائفة من الناس وعزمهم على فعل ذلك ، وليست خارجة مخرج المدح والخص على التأسى بهم ، فحيث لم يثبت أن فيهم معصوما لا يدل فعلهم فضلاً عن عزمهم على مشروعية ما كانوا بصدد ، ولك أن تقول أيضاً : إن اتخاذهم المسجد عليهم ، يراد منه اتخاذهم إياه عند قبرهم في كهفهم ، وقريباً منه ، وقد جاء التصريح بالعندية في رواية السدى للقصة ، ومثل هذا الاتخاذ ليس محظوراً ، ويمكن أن يقال إن (على) في قولهم « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا » يمكن أن تكون بمعنى لام التعليل ، أى لنتخذن لأجلهم مسجداً ، كما تقول لشخص أحسن في صنعه : لأعطيتك عليه جائزة ، أى لأعطيتك لأجله هذه الجائزة ، ومن كل ذلك نفهم أنه لا يوجد في الآية ما يستدل به على جواز بناء المساجد فوق الأضرحة .

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْبُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادُسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ^{٢١} وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ^{٢٢} فَلَا تُمَارِفِهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ^{٢٣} وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ ^{٢٤} إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ^{٢٥} إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ^{٢٦} وَآذُكُرُّ بِكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ^{٢٧})

المفردات :

(رَجَمًا بِالْغَيْبِ) : رميا بالخبر الغائب الخفى عنهم . (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ) : فلا تجادل فيهم ، والمماراة المحاجة والجدال ، قال الراغب : هى المحاجة فيما فيه مرية - أى تردد - مأخوذ من مَرَيْتُ الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب . (إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا) : إلا محاجة وجدالاً بما هو ظاهر ، وذلك بالاختصار على ما نزل به الوحي من غير تجهيل لمن يحاورك فيهم ، فقد يكون مصيبا والقرآن لم يستوعب قصتهم ، بل جاء ببعضها .

(وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) : ولا تستفت في شأن أهل الكهف أحداً من الخائضين ولا ترجع إليهم في قصتهم ، ففيما أخبرناك به كفاية وغنية عن سؤالهم ، فضلا عن أن ما يعرفون عنهم مشوب بالخطأ .

(لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا) : أى لأقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف من براهين نبوتك .

التفسير

٢٢ - (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) :

أجمل الله فيما تقدم قصة أهل الكهف ، وآخرها العثور عليهم وموتهم عقب التعرف عليهم ، واعتزام من غلب على الأمر في أمَّتِهِمْ في ذلك الوقت أن يبني عليهم مسجداً ، وجاءت هذه الآية ، لتبين أن بعض معاصري النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب سيخوضون في قصتهم ، وأنه تعالى نهاه عن أن يخوض معهم في أمرهم ، وأن لا يزيد على ما أنزله الله إليه في شأنهم ، وأن لا يستفتيهم في بيان أمرهم أكثر مما نزل به الوحي ، فليس بحاجة إلى ذلك ، وليسوا هم على مستوى الفتوى في أمر لا يعلمه إلا الله وقليل من عباده .

والمعنى : سيقول الخائضون في شأنهم من أهل الكتاب : أهل الكهف ثلاثة أشخاص من الرجال رابعهم كلبهم ، ويقول آخرون منهم : هم خمسة سادسهم كلبهم ، سيقول هؤلاء وأولئك ما قالوه في عددهم ، رمياً بالخبر الغائب من غير سند لما قالوه ، ويقول جماعة

ثالثة منهم : أهل الكهف سبعة وثامنهم كلبهم ، يقولون ذلك عن ثقة وطمأنينة نفس^(١) ، ولذلك لم يتبع الله عبارتهم بما أتبع به عبارة من سبقهم ، من أنهم يرجعون بالغيب ، بل أشار إلى علمهم بقوله تعالى :

(قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) : فهم من القليل الذين يعلمون عدتهم . قال ابن عباس : « حين وقعت الواو انقطعت العدة » أى لم يبق بعدها عدة لأحد يلتفت إليها ، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والبت . وقد نص عطاء على أن هذا القليل من أهل الكتاب ، وقيل من البشر ، فقد صح عن ابن عباس أنه قال : « أنا من أولئك القليل » .

وقيل إن المختلفين في عددهم هم نصارى نجران ، تناظروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الملكانية : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقال اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وقال النسطورية : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وهذا القول في حكاية المختلفين مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أما أسماؤهم ، فقد خاض بعضهم في ذكرها ، وعزوها إلى ابن عباس تارة ، وإلى الإمام علي تارة أخرى وكل منهما يخالف الآخر .

ونحن نرى أن لا دليل على ما ذكر في الروايتين من أسماؤهم ، فإنها لم تصل إلى - ابن عباس أو علي أو غيرهما عن طريق معصوم ، ولعل هذه الأسماء كانت تذكر على السنة أهل الكتاب ، فتسربت إلى المجتمع الإسلامي عنهم ، فالكف عن التقيدها أولى .

(فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءَ ظَاهِرٍ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) :

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل من يريد أن يتحدث في أمرهم من أهل العلم مع سواه ممن يخوض في شأنهم .

والمعنى : إذا كنت قد عرفت أن من يخوض في عددهم ، منهم المخطئ ومنهم المصيب ، فلاتجادلهم في شأن هؤلاء الفتية إلا جذاً ظاهراً لا عمق فيه ، بأن تقتصر في أمرهم على ما نزل به الروح الأمين ، من غير تجهيل للجاهل منهم ولا تفضيح لحاله ، فإن ذلك يخل بمكارم

(١) ولهذا أكلوا عبارتهم بالواو في قولهم كما حكى الله عنهم « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » قال العلماء : هذه الواو تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل على الجملة الواقعة حالا عن المعرفة في نحو قواك : جاءني رجل ومعه آخر ، ومرت بزيد وفي يده سيف ، ومن الأول قوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم » وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف - انظر الآلوسى في هذه الجملة .

الأخلاق التي جاء الإسلام لينمها ، ولا تستفت فيما لم يتعرض الوحي لبيانها من أحوال أهل الكهف - لا تستفت - أحدا من الخائضين في شأنهم من أهل الكتاب ، فليست بحاجة بعد ما أوحى إليك إلى المزيد من التعريف بأحوالهم ، فإن فيه العبرة للمعتبر ، وليس من يستفتي في شأنهم من أهل الكتاب أهلا للفتوى لجهالتهم أو ضحالة ما عندهم من أمرهم .

٢٣ ، ٢٤ - (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ... الخ) :

لا يزال الكلام متصلاً بشأن أهل الكهف ، فإن هذه الآية نزلت حين سألت قريش النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين ، فقال صلى الله عليه وسلم غداً أخبركم ، فأبطأ عليه الوحي ثم نزل الوحي بعد الموعد ، وقد نبه الله فيه نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الآية أن لا يقول في أى شأن من الشؤون سواء كان في أمر الشريعة أو سواها - أن لا يقول - إني فاعل ذلك غداً إلا مرتبطاً بقوله إن شاء الله فإن أمكنه أن يفعله غداً فعله ، وإلا فقد وقع التخلف وفقاً لمشية الله الذي لا يقع في ملكه إلا ما شاءه سبحانه ، ونحن مكلفون بهذا التوجيه الإلهي لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنه أسوتنا وإمامنا .

والمعنى : ولا تقولن لأجل شيء تعزم على فعله : إني فاعل ذلك غداً أو فيما يستقبل من الزمان إلا مُقْتَرِنًا بمشيئة الله ، وذلك بقولك إن شاء الله ، لتخرج من العهدة بالتخلف عن الفعل في الموعد المضروب ، لعدم تحقق مشيئة الله به فيه ، فإن حصل نسيان للمشيئة وقت الوعد بالفعل فليذكرها الإنسان عندما يتذكر ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

(وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا) :

أي واذكر مشيئة ربك إذا تذكرت أنك نسيته ، تداركاً لما فاتك من ذكرها ، سواء قصر الفصل أم طال ، وهذا ما جنح إليه ابن عباس ، فقد أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ويقرأ الآية ، والمراد من الاستثناء التعليق بالمشيئة ، وهذا هو مذهب أهل البيت ونقل في رواية أنه رأى للإمام أحمد .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جبير في رجل حلف ونسى الاستثناء - أى التعليق على المشيئة - فأتى بأن له الاستثناء إلى شهر ، ومذهب عطاء أن له الاستثناء بعد اليمين إلى مقدار حلب ناقة ، أما طاووس فإنه يرى ذلك ما دام في المجلس وجمهور الفقهاء يشترطون

لصحة الاستثناء في اليمين بالتعليق على مشيئة الله أن يكون متصلاً بالمحلف عليه ، قالوا : ولو صح جواز الفصل وعدم تأثيره في الأحكام ، لما تقرر طلاق ولا عتاق ولا صح إقرار ، ولم يعلم صدق ولا كذب . وكان أبو حنيفة لا يوافق على رأى ابن عباس ، ويرى أن التعليق بالمشيئة يجب اتصاله بما ارتبط به ، فعلم بذلك أبو جعفر المنصور ، فبعث إلى أبي حنيفة ليُلوّمه على مخالفته لرأى ابن عباس ، فقال أبو حنيفة : هذا يرجع إليك أنت ، إنك تأخذ البيعة على الناس بالإيمان ، أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا قائلين : إن شاء الله ، فيخرجوا عليك ؟ فاستحسن كلامه .

والحق في هذه المسألة أن الآية ظاهرة في أمر تفويض العبد في أموره التي عزم عليها إلى مشيئة الله ، فإن نسيها ثم ذكرها فليقلها مهما كان الفاصل من الزمان ، أما الأحكام في نحو الطلاق والعتاق والبيع والشراء ونحوها ، فالآية لا صلة لها بها ، ومن ثمّ فما قاله ابن عباس راجع إلى التفويض لا إلى الأحكام ، وعلى هذا فإن التعليق بالمشيئة في الأحكام إنما يرفعها إذا اتصل بها ، فإن انفصل عنها فلا يرفعها ، فمثلاً ، لو قال لزوجته : أنت طالق ، وعقبه بقوله : إن شاء الله لم تطلق ، فإن تأخر التعليق بالمشيئة على الطلاق وانفصل عنه ، وقع الطلاق - ولا نظن ابن عباس يخفى عليه شيء من ذلك - والله أعلم .

ومعنى هذه الجملة بعد أن اتضح المقام ، واذكر ربك بالتعليق على مشيئته إن تذكرتها بعد أن نسيتهما فيما عزمته عليه من المقاصد ، وقل أرجو أن يوفقني الله لشيء أقرب رشداً وخيراً من هذا الذي نسيت التعليق على مشيئة الله تعالى بشأنه .

وعلى ارتباط هذا الجزء من الآية بسبب النزول يكون المعنى : وقل أيها الرسول عسى أن يوفقني ربي لشيء أقرب من نبي أصحاب الكهف لإرشاداً للناس ودلالة على نبوتى .

وإلى هذا المعنى ذهب الزجاج ، وقد حقق الله لرسوله هذا فقد آتاه الله من الآيات ما هو أعظم من ذلك وأبين ، كقصص الأنبياء في الأعصار والدهور البعيدة ، والحوادث التي سوف تنزل في المستقبل إلى يوم الساعة ، إلى غير ذلك مما يبلى نبي أهل الكهف بالنسبة إليه أمراً هيناً ضئيلاً - مع عظمة ورفعة شأنه .

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ٢٥)
 قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ
 بِهِ وَأَسْمِعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ
 أَحَدًا ٢٦) وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ
 لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ٢٧)

المفردات :

(لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) : له سبحانه ما غاب فيهما خلقا وملكا وتصرفا وعلمًا .
 (أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعَ) : ما أعظم سمعه وبصره . (مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ) : ليس لهم من غيره
 تعالى من يتولى أمورهم . (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) : لا قدرة لأحد على تبديل كلماته سبحانه .
 (مُلْتَحَدًا) : ملجأ تلجأ إليه عند الملمات .

التفسير

٢٥ - (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) :

هذه الآية مبينة لما أجمل من مدة لبثهم في قوله تعالى : « فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ
 سِنِينَ عَدَدًا » وآخر هذا البيان عنها ليتخلل بينهما إجمال قصتهم ، حتى تنتهي إلى أنهم
 تنازعوا واختلفوا في مدة لبثهم ، واختلفوا في عددهم ، فيأتي هذا البيان بعد الشوق إليه ،
 ليعظم عجب الناس من قدرة الله ، ويشند إيمانهم بقدرته على البعث ، والمعنى :

ولبث أصحاب الكهف مضروباً على آذانهم فيه ثلاثمائة سنة وتسع سنين ازدادوا
 بها فوقها ، ولم يقل ثلاثمائة وتسع سنين مع أنه أخصر (من ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً)
 لكي يشير بالثلاثمائة إلى مدة لبثهم بالسنين الشمسية التي عليها أهل الكتاب ، وبزيادة

التسع عليها إلى ما عليه العرب من الحساب القمري الذى يفرق تسع سنين زائدة عليها تقريبا ، لأن السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوما تقريبا ، والقمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما تقريبا ، وهذا الرأى منسوب إلى الإمام على .

وقيل : يجوز أن أهل الكتاب اختلفوا فى مدة لبثهم كما اختلفوا فى عدتهم ، فجاء قوله « ولبثوا فى كهفهم » الخ رافعا للخلاف مبينا للحق ، ويكون « وازدادوا تسعا » تقريراً للعدد ، ودفعاً للاحتمال ، فكأنه قيل : وازدادوا تسعا فوق الثلاثمائة ، نظير الاستثناء فى قوله تعالى : « فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا » وقيل إنهم انتبهوا قليلا بعد الثلاثمائة ، ثم رُدُّوا إلى النوم فبقوا نائمين تسع سنين زائدة على الثلاثمائة والرأى الأول فى تفسير الآية أخرى بالقبول .

٢٦ - (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ...) الآية . أى قل يا محمد للناس : الله أعلم بما لبثوا ، فلذا حكى لكم أنهم لبثوا ثلاثمائة وازدادوا عليها تسع سنين ، وفقاً لما علمه الله من أمرهم . (لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ^(١)) : أى الله تعالى علم جميع ما غاب فى السموات والأرض وخفى من أحوالها وأحوال من فيها ، فضلا عن علمه بما ظهر فيهما ، ما أعظم بصره بالأشياء وسمعه لها وعلمه بها ، فهو إذ ينبئك بمدة لبثهم ، فما ينبئك إلا بالحق « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) : الضمير فى « لهم » يرجع إلى أهل الكهف .

والمعنى : قل للناس أيضاً ليس لأهل الكهف من غيره من ولى تولى أمر إنامتهم تلك المدة ، وحفظهم فيها حتى يجعلهم أماراً على البعث ، ولا يشرك فى قضائه بشأنهم أحدا .

ويصح أن يرجع الضمير لأهل السموات والأرض المدلول عليهم بذكرهما أى ما لأهل السموات والأرض من غير الله ولى يتولى أمورهم ، وفى جملتهم أهل الكهف .

٢٧ - (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) :

(١) هذه الجملة من ضمن ما أمر الرسول أن يقول للناس بشأن أهل الكهف فهى متممة لما أمر به من قوله لهم : « الله أعلم بما لبثوا » .

(واتلُ) : يجوز أن يكون أمراً من التلاوة بمعنى القراءة ، أو من التلوة بمعنى الاتباع ، والمعنى على الأول : ودأبوا أيها الرسول على تلاوة ما أوحى إليك من القرآن بشأن أصحاب الكهف وغيرهم - أو دأبوا على قراءته - لأصحابك وغيرهم ، ليهتدى به الراشدون ، فقد اشتمل على بيان الغيب الذي لا سبيل لك إلى معرفته ، وتضمن من الآيات والمعجزات ما لا سبيل للبشر إلى الإتيان بمثله ، واتضح من أسلوبه الإلهي نداء الحق الذي تستجيب له القلوب والأرواح ، لا يستطيع أحد أن يبدل كلمات الله تعالى التي أنزلها عليك وتولى حفظها بنفسه ، ولم يستحفظها سواه ، ولن تجد من دونه ملجأً تلوذ به عند الملمات ، فاعتمد عليه في تبليغ رسالة ربك ومعونته إياك بالنصر والتأييد .

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ۚ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۚ) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۚ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِرْ
وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ
سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ
بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) : الغداة أول النهار والعشي آخره ، وقد تطلق العشي على الوقت من غروب الشمس إلى العتمة ، والعتمة وقت صلاة العشاء ، وتمتد لفة إلى ثلث الليل كما قال الخليل ، والمراد من عبادتهم ربهم بالغداة والعشي أنهم يعبدونه دائماً .

(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) : أى يقصدون بعبادتهم ذات الله مخلصين دون رياء .
 (وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) : أى لا تجاوزهم عينك إلى غيرهم ولا تفتحمهم ، يقال :
 عدا الأمر وعدا عنه ، إذا جاوزه وتركه . (فُرُطًا) : ضياعاً .
 (سُرَادِقُهَا) : السرادق معروف كالفسطاط وهو ما يحيط بالشيء ، وهو هنا مستعمل
 في لهب جهنم على سبيل المجاز بالاستعارة المصرخة .
 (كَالْمُهْلِ) : المهل ماء غليظ كدردى الزيت - أى عكره - .
 (مُرْتَفَقًا) : متكأً ، والارتفاق فى الأصل الاتكاء على مرفق اليد ، يقال بات فلان
 مرتفقاً ، أى متكئاً على مرفق يده .

التفسير

٢٨- (وَأَضْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) :
 فى الآية السابقة أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلن قرآن ربه ويتلوه على الناس
 مؤمنهم وكافرهم ، وجاءت هذه الآية آمرة له أن يهتم بالفقراء المؤمنين ويحرص عليهم ، ويدع
 حرصه على إيمان وجهاء الكافرين ، ولا يسمع ما اقترحوه فى حق هؤلاء الفقراء ، فإنهم غير جادين
 فيما زعموه من الرغبة فى الإيمان . وسبب نزول هذه الآية : أن زعماء كفلة قريش كأمية بن خلف
 وغيره من صناديدهم : قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أبعدت هؤلاء الفقراء عن نفسك
 لجالسناك ، فإن ربح جبابهم تؤذينا فنزلت هذه الآية ، وكانوا يقصدون إبعاد أهل الصفة من الفقراء
 المنقطعين للعبادة ، والتقى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كعمار وصهيب وابن مسعود وبلال ،
 والآية على هذا مكية ، وهو الذى رجحه أبو حيان ، ويؤيده ما أخرجه ابن مردويه من طريق جبير
 عن الضحاك عن ابن عباس ، كما تؤيده الآيات التى بعده وهو المناسب للسورة فهى مكية . وهذا
 يخالف ما أخرجه ابن مردويه وأبونعيم فى الحلية ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن سلمان قال : جاءت
 المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، فقالوا :
 (يا رسول الله : لو جلست فى صدر المجلس ، وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم - يعنون سلمان وأبا ذر
 وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ، جالسناك - وأخذنا عنك ، فأنزل الله
 تعالى : «وَأَنْتَ لَمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ» إلى قوله سبحانه : «أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا» يتهددهم
 بالنار) وعلى هذا تكون تلك الآيات مدنية فى وسط السورة المكية ، والظاهر الأول لما قدمناه

والمعنى : واصبر نفسك وثبتتها مع أولئك الفقراء المخلصين الذين يعبدون ربهم في كل وقت تتيسر لهم العبادة فيه ، يريدون بتلك العبادة ذاته ورضاه ، دون رياء للناس ورغبة في ثنائهم .

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) :

أى ولا تجاوزهم عينك يا محمد ولا تقتحمهم ، فتبعدهم عن مجلسك استهانة بهم - كما اقترح عليك رؤساء قريش ليجالسوك ويستمعوا إليك - لاتفعل ذلك - تريد بتركهم وإغفالهم زينة الحياة الدنيا ، بأن يكون جلساؤك من الأشراف ، ولا تطع في تنحياتهم عن مجلسك ، من جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا ومعرفتنا ، بسبب انصرافه عن الحق وبعده عن الهدى ، واتباعه لهواه ، وكان أمره ضياعاً وهلاكاً ، حيث ترك الإيمان ، وتعلل بأسباب واهية ، فمثل هذا لا وزن له عندنا ، والوزن كل الوزن لأهل الحق الثابتين عليه وإن كانوا فقراء ، فدع هؤلاء ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

٢٩ - (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) :

وقل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا واتباعوا هواهم وكان أمرهم ضياعاً - قل لهم - هذا القرآن الذى أدعوكم إلى الإيمان به هو الحق من ربكم لا ريب فيه ، ولست عليكم بجبار ، فمن أراد الإيمان به عن اعتقاد راسخ ، دون اشتراط إبعاد الفقراء فليؤمن ، وله ثوابه ، ومن أراد الكفر به عن هوى وحقد وعناد فليكفر وعليه عقابه .

عَنْدَنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) :

هذه الجملة تعليل للأمر السابق ، أى قل لهم أيها الرسول : ما أمرناك به من دعوتهم إلى الإيمان بما أنت عليه من الحق وتخييرهم بين الإيمان والكفر به على سبيل الوعيد ، لأننا هيئنا لهؤلاء الظالمين المعاندين المستكبرين إن استمروا على كفرهم - هيئنا وأعدنا لهم - نارا هائلة أحاط بهم لهبها الذى يشبه السرادق فى إحاطته بهم .

(وَأَن يَسْتَفِثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِشْسِ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) :
 وإن يستغثوا من شدة العطش ولهيب الأجواف يغاثوا بماء كعكر الزيت ، شديد الحرارة
 بحيث إذا قرب من أفواههم يشوي وجوههم وينضجها ، فما ظنك بأجوافهم ؟ بشس
 الشراب هذا الماء الذي يشبه المهل ، وساءت النار منزلا ومقرًا . أخرج الإمام أحمد
 والترمذي وابن حبان والحاكم وصححه وآخرون عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله
 عليه وسلم في قوله تعالى - كالمهل - (كعكر الزيت ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه) .

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ
 مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ
 الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا
 مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَكَئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ نِعَمَ
 الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(جَنَّاتُ عَدْنٍ) : جنات إقامة واستقرار ، من عَدَنَ بالمكان أقام به واستقر فيه .
 (أَسَاوِرَ) : جمع أسورة ، جمع سوار بكسر السين وضمها ، وهو مافى الذراع من الحلى .
 (مِنْ سُندُسٍ) : السندس رقيق الديباج وهو مُعَرَّبٌ بلاخلاف ، قيل أصله بالهندية سندون
 وغيرته الروم إلى سندوس ، ثم عرب بحذف الواو ، وقيل أصله فارسي .
 (وَإِسْتَبْرَقٍ) : هو غليظ الديباج كما قال قتادة وعكرمة ، أو هو ديباج منشوج
 بذهب كما قال ابن بحر .
 (الْأَرَآئِكِ) : السُرُرُ فى الحجال ، فإن لم توجد فى الحجال فهى سُرُرٌ وليست أرائك ،
 أخرجه البيهقي عن ابن عباس .

التفسير

٣٠- (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) :
بين الله في الآية السابقة سوء مصير الكافرين ، وبين في هذه الآية والتي تليها حسن مصير المؤمنين ، وبضدها تمييز الأشياء .

والمعنى : إن الذين صدقوا بما أنزل الله عليك من الحق ، وعملوا بعد إيمانهم الأعمال الصالحات التي دعوتهم إليها حسبما أوجى إليك ربك ، إنا لانضيع أجر من أحسن منهم عملا من تلك الأعمال بل نحسن جزاءه عليه ، فكيف بالذي ترقى في عمل الصالحات ، وشغل نفسه بالطاعات والخيرات ، إن أجره لا شك عظيم ، كما يصوره قوله سبحانه :

٣١- (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ) :

فهذه الجملة مستأنفة لبيان عظمة أجور المؤمنين الصالحين .

والمعنى : أولئك المؤمنون الموابطون على عمل الصالحات ، لهم ثواباً على إيمانهم وصلاتهم جنت إقامة واستقرار ، لا يبرحونها بأنفسهم ولا يخرجهم منها غيرهم ، فهم فيها خالدون تجري من تحت غرفهم وقصورهم الأنهار وهم فيها آمنون ناعمون ، يحلون فيها بأذرعهم من أساور من ذهب لتزداد رفاقتهم ومتاعهم ونعيمهم ، ولبس الأساور في الآخرة للرجال لاغيب فيه ، لأنه بين قوم يعتادونه ، بخلافه في الدنيا فإنه بين قوم لا يعتادونه ، فلهذا يعيبونه ، فالشيء يكون مستحسناً في حال ، ومستهجئاً في حال آخر .

(وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ) :

ويلبس أهل الجنة ثياباً خضراً من رقيق الديباج وغلظه ، فوق تحلיתهم بأساور من ذهب ، زيادة في بهائهم ومتعتهم ، فإن الخضرة تمنح البهاء وتسر النفس أكثر من غيرها من الألوان ، ولهذا قال القائل : ثلاثة يذهبن الحزن . الماء والخضرة والوجه الحسن .

(مُتَكَيِّتِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ نِعْمَ الثُّوَابُ وَحُسْنَتْ مُرْتَفَقًا) :

أى أنهم يستمتعون هذا المتاع في الجنة ، في حال كونهم متكئين فيها على السرر داخل الحجال^(١) نِعَمَ الثواب ذلك الذى وعدوا به ، من الجنة ونعيمها المقيم ، وحسنت الجنة دار إقامة ، بما اشتملت عليه من فنون الجمال ، وألوان النعيم .

(* وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ) : أى أحطناهما بنخل . يقال حَفَّ القومُ بفلان يحفُّون حفًّا طافوا به والحِفاف الجانب . (بِنَخْلٍ) : النخل يؤنث ويذكَّر اسم جمع ، واحدته نخلة وجمعه نخيل .

(أَكْلَهَا) : الأكل يسكون الكاف وبضمها الثمر والرزق والحظ من الدنيا .

(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ) : الثمر محرّكة حمل الشجرة ، وأنواع المال ، الواحدة ثمرة بفتحات وثمرّة كسْمرة ، والجمع ثمار كرجال ، وجمع الجمع ثمرٌ بضمّتين .

(١) الحجال جمع حجلة . وهى بيت يزين بالثياب والستور للغروس - مختار الصحاح .

(وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) : يُرَاجِعُهُ ، يُقَالُ تَحَاوَرُوا أَيْ تَرَاجَعُوا الْكَلَامَ بَيْنَهُمْ .
 (وَأَعَزُّ نَفَرًا) : النَفَرُ مُحَرَّكَةٌ جَمَاعَةُ الرِّجَالِ مِنْ ثَلَاثَةِ إِلَى عَشْرَةٍ ، وَقِيلَ إِلَى سَبْعَةٍ .
 (أَنْ تَبِيدَ) : أَنْ تَهْلِكَ وَتَفْنَى . (خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) : الْمُنْقَلَبُ الْعَاقِبَةُ وَالْمَصِيرُ .

التفسير

٣٢ - (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ...) الآية .

المعنى : واضرب أيها النبي مثلاً للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي مع مكابدتهم ألم الحرمان والفقر ، وللكافرين الذين استنكفوا عن مجالسة الفقراء من المؤمنين . وجحدوا فضل مُعْطِيهِمْ مع تقلبهم في نعميه ، لتبين بهذا المثل للفريقين ولكل من يتعزز بالدنيا ويغتر بها - لتبين - حالاً فيها عبرة للمعتبرين ، وتبصرة للمستبصرين .

قال الكلبي : نزلت هذه الآية في أخوين مخزوميين من أهل مكة أحدهما مؤمن وهو مسلمة عبد الله بن عبد الأسود . والآخر كافر هو الأسود بن عبد الأسد . وعن ابن عباس أنهما ابنا ملك من بنى إسرائيل ، أنفق أحدهما ماله في سبيل الله تعالى وكفر الآخر واشتغل بزينه الدنيا وتنمية ماله . ونظرا لهذا الخلاف نرى عدم التقيد برواية منهما ، فكما يحتمل أن القصة واقعية يعلم الله صاحبها ، يحتمل أيضاً أن تكون مثلاً ضربه الله لهذه الأمة لتزهدها في الدنيا وترغب في الآخرة ، وجعله زجراً وإنذاراً - ذكره الماوردي .

٣٢ - (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا) :
 أي جعل الله لأحد الرجلين - وهو الكافر - بستانين من كروم طابت أصولها ، وتنوعت ثمارها مذاقاً ولوناً ، وكلام الراغب يشير إلى أن العنب مشترك بين الثمر والكرم وهو شجرها وفق إطلاق اللغة ، وقد أفادت الآية الكريمة أن النخل محيط بالجنتين من جميع جهاتهما لتصون الأعناب وتحفظها ، وأن الزرع وسطها ، لتكونا جامعتين للفواكه والأقوات على هذه الصورة الرائعة والوضع الأنيق .

٣٣ - (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا) :
 المعنى أن كل واحدة من الجنتين أعطت ثمرها تاماً كاملاً طيباً ، ولم تنقص منه شيئاً ، فليست كسائر البساتين ، فإنها غالباً يكثر ثمرها في عام ويقل في آخر بسبب ما يحدث لها

فيه من تقلبات جوية ، وآفات أرضية أو سماوية ، وربما لا تثمر أصلاً في بغض الأعوام نتيجة لما ينزل بها من نوازل ، تعوقها عن التفتح وإخراج الزهر المفضى إلى الثمر ، (وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) : وأجرينا بين الجنتين نهراً غزيراً الماء ، تيسيراً لسقيهما ، وزيادة في جمالهما وطيب هوائهما ، وتقديم إيتاء الأكل في قوله تعالى : « كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا » على تفجير النهر في قوله تعالى : « وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا » من باب تقديم الغاية على الوسيلة ، والمنفعة على سببها لأنها هي المقصودة من إنشاء البساتين ، وتفجير الأنهار .

٣٤- (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) :

المعنى : وكان لصاحب الجنتين ثمر من أحمال أشجار أخرى ، وكذا من أنواع المال المثمر من ذهب وفضة وحيوان وغير ذلك كما فسره ابن عباس وقتادة وغيرهما ، وعلى هذا فالثمر لفظ عام ، يطلق على ثمار الأشجار ، وعلى جميع أنواع المال المثمر ،

وهذا الكافر بدل أن يشكر نعم الله عليه . دفعه غروره وتعلقه بمباهج الحياة الدنيا إلى أن يقول لصاحبه المؤمن :

(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) : قال له ذلك وهو يراجع الكلام في إنكاره البعث وفي تعبيره له بالفقر ، وفخره عليه بالقوة والمنعة ، أى أنا أوفر منك مالاً تعددت مصادره ، وتنوعت موارده ، وأعز حشماً وأعواناً .

قال قتادة « تلك والله أمنية الفاجر - كثرة المال وعزة النفس » .

٣٥- (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا) :

أى أنه تابع اعتزازه وغروره ، وتمادى في إعراضه وكفره ، ودخل جنته وهو ضار لنفسه حيث عرضها للهلاك ، وعرض النعمة للزوال . لوضعه الشيء في غير موضعه . فكان اللاتق به أن يعرف للنعمة حقها من شكر المنعم بها ، والتواضع لمجريها جل شأنه . لا ما وقع منه من إنكار وكفر ، حكاها الله عنه بقوله سبحانه :

(قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا) : وهذا استئناف أجيب به عن سؤال مقدر نشأ من ذكر دخول جنته وهو ظالم لنفسه ، كأنه قيل : فماذا قال حينئذ ، فقيل : « قَالَ مَا أَظُنُّ

أن تبديد هذه أبداً : « أى ما أعتقد أن تهلك هذه الجنة مدى الحياة ، فالمراد بالأبدية طول المكث . . لا معناها المتبادر ، وإنما قال ذلك لطول أمله في الحياة ، وغفلته عن نعمة الله . والعدول عن التثنية إلى الأفراد في قوله سبحانه : « وَدَخَلَ جَنَّتُهُ » لاتصال إحداها بالأخرى كأنهما جنة واحدة . أولأن الدخول لا يمكن أن يكون في الجنتين معاً في وقت واحد وإنما يكون في واحدة فواحدة .

٣٦- (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) : أى أنه تمادى في كفره بإنكاره البعث اعتقاداً منه ، وردا على صاحبه لما وعظه وخوفه قيام الساعة ، حيث قال : « وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً » أى لأحسبها كائنة وقائمة فيما سيأتى . (وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) : أى أنه إن رد إلى ربه مبعوثاً - على سبيل الفرض والتقدير - كما زعم صاحبه ليجد في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا مرجعاً ومصيراً تنبأ على الله وادعاءً لكرامته عليه ، ومكانته عنده ، واعتقاداً بأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه . يقول هذا ولم يدر بخلده أنه إمهال واستدراج . حتى إذا أخذه لم يفله ^(١) .

(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۖ ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۚ ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنَّ تَرَنَّا أَقْلَ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا ۚ ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۚ ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤها غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۚ ﴿٤١﴾)

(١) اقتباس من حديث الشيخين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفله » .

المفردات :

(ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا) : أى ثم جعلك سويًا معتدلًا .

(لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي) : أصله لكن أنا هو الله ربى ، فحذفت همزة أنا ، وأدغمت نون

(لكن) فى نون (أنا) بعد حذف همزتها - قاله الكسائى والفراء وغيرهما .

(وَيُرْسِلْ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ) : أى ينزل الله عليها عذابًا مقدراً محسوباً - ينزله -

من السماء ، كالثلج والبرد ونحوهما . (صَعِيدًا زَلَقًا) : أى أرضاً لانيات فيها ولا تثبت

عليها قدم ، لما فيها من الوحل أو من الرمال التى تنزل فيها الأقدام (مَأْوَاهَا غُورًا) : أى

غائراً فيها وذاهباً فى طبقاتها البعيدة . (فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) : أى لا تقدر أن ترد الماء

الغائر بأية حيلة من الحيل .

التفسير

٣٧ - (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ . . .) الآية .

استئناف كما سبق فى قوله سبحانه : « قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ . . . » كأن سائلاً سأل

عما راجعه به صاحبه المؤمن واعظاً له ، وزاجراً لإياه عما هو فيه من الكفر بالله عجباً وغروراً

فأجيب السائل بالآية .

والمعنى : أن صاحبه المؤمن - حال محاورته له توجه إليه منكراً عليه ماوقع فيه من جحود

وكفر ، فقال له : (أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ) : أى كيف تكفر بالذى خلقك

من تراب فى ضمن خلق أصلك آدم عليه السلام ، لما أن خلق كل فرد من أفراد البشر له

حظ من خلق أصله ، فيكون ذلك الكافر مخلوقاً من تراب لأنه مادة أصله الذى تناسل منه ،

وقيل « خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ » لأنه أصل مادتك التى نشأت منها إذ أنها ناشئة عن أغذية نبئت

من التراب (ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ) : وهى مادة خلقك القريبة بعد خلق أصلك . وقد بدأ سبحانه

خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين .

(ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا) : أى جعلك رجلاً فى أحسن تقويم حيث أنشأك . معتدل القامة سوي

الخلق . منذ طفولتك حتى أصبحت رجلاً ، تلى أمورك وتصرف شئونك .

٣٨ - (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) :

المعنى : أنا لا أقول بمقائلك الدالة على الكفر من إنكار البعث وغيره . لكن أنا أقول هو الله ربى . فأننا مؤمن مُوَحَّد ، أعترف له سبحانه بالربوبية والوحدانية .
وبقوله هذا أثبت لصاحبه الشرك تعريضا . للإيذان بأن كفره كان بطريق الشرك . لأنه لما أنكر البعث فقد عجز البارى ومن عجزه فقد سواه بخلقه فى العجز وهو شرك . أو المراد من الشرك مطلق الكفر ، وقد أطلق الشرك عليه كثيرا وجعلوا منه قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » فأريد من الشرك الكفر الشامل لما عليه اليهود والنصارى وما عليه غيرهم ، ويقوى هذا الإطلاق قوله تعالى فيما سبق حكاية عن صاحب الكافر : « وَلَكِنْ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي » فهو مُقَرَّبٌ بعدم الشرك والله سبحانه هو ربه لا سواه . ومع ذلك أطلق عليه الشرك هنا تعريضا نظرا لأنه يراد منه مطلق الكفر .

٣٩- (وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . . .) الآية .

فى هذه الآية حث وتحضيض من المؤمن للكافر على ما تضمنته من النصيحة ، وتوبيخ له على تركها . أى هلا قلت حين دخلت جنتك ونظرت إلى كمال تنسيقها ومختلف ثمارها . « مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » فحمدت الله على ما أنعم به عليك ، حيث أعطاك من المال والولد والرجال ما لم يعط غيرك ، اعترافا منك بقوته ، وإقرارا بعجزك ، وإيمانا بأنه لو شاء لسلبك هذا العطاء الذى جعلته موضع فخرك واعتزازك ، لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . كما قال بعض السلف : من أعجبه شئ من ماله وولده فليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله . . . وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة لا حول ولا قوة إلا بالله) .

(إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا) :

٤٠- (فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ) :

أى إن ترفى أمامك أقل منك مالا وأولادا وأعوانا ، فأمل فى فضل الله يجعلنى أتوقع أن يبدل ما بى وبك من الفقر والغنى فيرزقنى لإيمانى جنة خيرا من جنتك التى كانت سببا فى طغيانك وكفرك بربك .

(وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ) : ويبعث على جنتك من السماء قدرا محسوبيا يكون

سببا فى هلاكها .

(فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا) : أى أرضًا بلقاء لا نبات فيها ملساء لا تثبت عليها قدم حيث تنزلق وتنزول عن مكانها . بمعنى أنها تصبح مسلوقة المنافع حتى منفعة المشى عليها . فتكون بذلك أضرّ أرض بعد أن كانت أنفع أرض .

٤١ - (أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) : أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غائراً أَوْ ذَاهِباً فيها بحيث لا يمكنه استخراجها من جوفها ، ولا تقدر على تفجيرها بمختلف الوسائل والحيل ، والتعبير بغوراً . . بدل غائراً . . للمبالغة في ذهاب ماؤها . . كرجل عدل بدل عادل ، للمبالغة في عدله - وإلى هنا انتهت مناظرة المؤمن لصاحبه الكافر وإنذاره . ويحكى الله عاقبة كفره وغروره فيقول سبحانه :

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا
وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي
أَحَدًا ۚ) (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ
مُنْتَصِرًا ۚ (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ
عُقْبًا (٤٤))

المفردات :

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) : أهلك ماله كله . مأخوذ من الإحاطة والاستدارة حول الشيء من جميع جهاته ، تمكناً منه وغلبة عليه ، ثم استعمل في كل إهلاك . (يُقَلِّبُ كَفِّهِ) : يضرب باطن إحدى يديه على ظاهر الأخرى . ثم يعكس الأمر مراراً ندماً على ما حدث ويجوز في معناها غير ذلك . وسنعرض له في الشرح . (خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) : ساقطة على أعمدتها التي هوت قبلها . (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ) : أى جماعة وليس للفئة واحد من لفظها .
(وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا) : أى ممتنعاً عما ينزله الله به . (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ) : الولاية بفتح الواو وكسرهما : النصر والغلبة .

التفسير

٤٢- (وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا . . .) الآية .

الآية عطف على مقدر. أى وقع بهذا الكافر ما خوَّفه منه صاحبه المؤمن «وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ» بإهلاك جنته وما فيها من نخيل وأعناب وزروع . والظاهر أن ذلك كان ليلاً لقوله سبحانه :

« فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا^(١) » أى فأصبح يضرب باطن إحدى يديه على ظاهر الأخرى ، ثم يعكس صنيعه ويكرره مراراً ندماً وحسرة على ما أنفق فى عمارتها من مال وما بذل فى تنسيقها من جهد ، وما علق على بقائها الدائم من أمل حيث كان يقول : « مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا » ويفسر أبو حيان تقليبه كَفَّيْهِ بأنه يبدى باطن كلتيهما ، ثم يعكس ليبدو ظاهرهما ، ويكرر ذلك من شدة الندم .

فَعَلَ ذلك حين رآها (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) : أى حين رأى أشجار الكروم ساقطة على أعمدتها التى تصنع لحملها حفاظاً عليها وذلك لسقوط تلك الأعمدة لما أصاب الجنة من عذاب الساء الذى جعلها صعيداً زلقاً .

وَذَكَرَ هلاك الكروم مُفْرَن عن ذكر هلاك النخيل والزروع لأنها حيث هلكت وهى على عروش تسندها وتقويها . فهلاك غيرها بالطريق الأولى .

(وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) : أى يا ليتنى عرفت نعم الله على وعرفت أنها كانت بقدرته فلم أشرك به ، وكأنه تذكر موعظة أخيه له . لما أبصر ما نزل بجنته ، وعلم أن هلاكهما من قبل الشرك وبسببه ، لذلك تمنى لو لم يكن مشركاً فلم يصبه ما أصابه . وقيل هذا القول منه توبة عن الشرك . وندم على ما وقع منه . فيكون استحداثاً للإيمان . لأن ندمه على الشرك فيما مضى . يشعر بأنه آمن فى الحال . فكأنه قال آمنت الآن وليت ذلك كان أولاً .

٤٣- (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ . . .) الآية .

المعنى : ولم يكن لهذا الكافر ولد ولا عشيرة ممن افتخر بهم واستعز ، يقدرون على

(١) هذا إذا لم تكن أصبح بمعنى صار ، فإن كانت كذلك فلا تشير الآية إلى زمن الهلاك حينئذ .

نصرته بدفع الإهلاك عن جنته أورد ما هلك ، أو الإتيان بمثله من دون الله . لأنه سبحانه هو الفعال لذلك كله . فهو القادر وحده وبيده مقاليد السموات والأرض .

(وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا) : أى وما كان ممتنعاً عن انتقام الله بما زعم لنفسه من قوة وجاه .

٤٤ - (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ . . .) ^(١) الآية .

هذه الجملة تأكيد وتقرير للآية السابقة والمعنى فى هذا الوطن وتلك الحال التى حلت بجنته . لن يجد مُنقِذاً له يدفع عنه ما نزل به . لأن النصر والغلبة لله الحق . فلا يقدر عليها أحد غيره .

واستظهر أبو حيان كون هنالك إشارة إلى الدار الآخرة . ويكون الكلام تمّ عند قوله : « مُنتَصِرًا » أى تقع المولاة لله الحق يوم القيامة من كل أحد - مؤمن أو كافر - حين يقع العذاب لقوله سبحانه : « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ » ^(٢) . (هو خير ثواباً وخير عقباً) : أى الله خير جزاء فى الدنيا والآخرة لمن آمن به واتبع سبيله ، وخير عاقبة لأوليائه ، بمعنى أن الأعمال التى تكون له سبحانه . ثوابها خير ، وعاقبتها حميدة .

وليس ثمّ غير الله يُرجى مسنه نفع حتى يكون رجاء الله خيراً ، من رجائه ولكنه ورد حسبا يقع فى ظن الجاهل لا بحسب الواقع تقرّيعاً لهم وتوبيخاً ، وقد يقال إن التفضيل هنا على غير بابيه ، فلا ثواب ولا خير يومئذ إلا لله ظاهراً وباطناً .

(وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) ^(٣)

(١) قرأ الأعمش وحمزة والكسافى الولاية . بكسر الواو والياقون بفتحها وهما بمعنى واحد بمعنى النصر والغلبة وقيل الولاية بالفتح من المولاة كقول تعالى (الله ولى الذين آمنوا) من الآية ٢٥٦ البقرة ، وبالكسر بمعنى السلطان والقوة ، وقال أبو عبيدة إنها بفتح الواو للخالق وبكسرهما للمخلوق .

(٢) سورة غافر : آية ٨٤ .

المفردات :

(فَأَصْبَحَ هَشِيمًا) : يابساً متفتتاً من الهشم وهو كسر الشيء اليابس .
 (تَذْرُوهُ الرِّيحُ) : تفرقه وتنسفه . يقال ذَرَتْهُ الرِّيحُ تَذْرُوهُ ذَرًوًا : إذا طارت به
 وفرقته ، ومثله أذرتهُ تُذْريه إِذْراءً .

التفسير

٤٥ - (وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...) الآية : أى اذكر للناس . ولا سيما هؤلاء المتكبرون الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين - اذكر لهم - مثل الحياة الدنيا ، ببيان ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها . وعدم استقرارها . وسرعة زوالها حتى لا يطمئنوا إليها ولا يعكفوا على التعلق بها ، ولا يعرضوا عن الآخرة دار الجزاء والبقاء .
 أو بين لهم صفتها العجيبة التى تشبه المثل فى غرابتها ، هذه الحياة :

(كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ) : أى أنها تشبه حال النبات الذى أنبته الله بماء كثير أنزله من السماء ، فاختلط بهذا الماء نبات الأرض بعد أن روى منه وامتلأت به عروقه ، فثما وكثر أو اختلط بسبب الماء نبات الأرض . فالتف بعضه ببعض بعد أن كثر واستوى على سوقه . هذا النبات الجميل الناضر لم يلبث حتى أسرع إليه الفناء بدون إبطاء .

ويشير إلى ذلك الإتيان بالفاء فى قوله سبحانه :

(فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ) : أى فأصبح متكسرا متفتتا من اليبس ، تفرقه الرياح وتنسفه وتذهب به وتجيء ، فالمشبه فى الآية : الحياة الدنيا فى جمالها وزينتها ثم فنائها ، والمشبه به : الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات يكون أخضر مهتزاثم يصير هشيما تطيره الرياح حتى كأنه لم يكن .

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) : أى أنه سبحانه على كل شيء من الأشياء - ومن جملتها الإيجاد والإفناء - كامل القدرة يفعل ما يشاء جل شأنه .

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) (٤٦)

التفسير

٤٦ - (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . .) الآية .

في هذه الآية بيان لما كانوا يفتخرون به من زينة الحياة الدنيا متمثلة في المال والبنين لأنَّ في المال جمالا ونفعا يصلون به إلى مآربهم وكل ما تقتضيه حياتهم ، وفي الأولاد قوة ودفعا يبلغون بهما إلى ما ينشدونه من عزة ومنعة . كما وقع في محاوراة الصاحب الكافر لصاحبه المؤمن حيث قال له على سبيل التعالى والفخر : « أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » .

والمعنى : إن ما تفتخرون به من المال والبنين شيء يتزين به في الحياة الدنيا وقد عرفتم شأنها في سرعة زوالها . وقرب اضمحلالها ، فكيف زينتها التي هي صفة من صفاتها ، إنها تزول وتفنى قبل زوالها - فلا تجعلوها كل همكم ، وتعرضوا عن الآخرة دار الكرامة والجزاء بل اعملوا لخيري الدنيا والآخرة مصداقا لقوله تعالى : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ^(١) » .

والآية رد على عيينة بن حصن وأمثاله ، الذين افتخروا بالغنى والشرف على الفقراء والمستضعفين من المؤمنين . إذ بينت لهم أن ما كان من زينة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى ، وإنما يبقى ما كان زاداً في القبر ، وعدة في الآخرة ، حيث قال سبحانه :

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) :

قال ابن عباس وابن جبير وأبو ميسرة : الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس وقال ابن عباس في رواية أخرى : هي كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة : ١ هـ

فيدخل فيه كل عمل جادٌ لخدمة الإسلام والذود عنه بالنفس والمال والمقال، وكل عمل ينصر حقاً أو يدفع باطلاً . أو يعاون محتاجاً أو ينشر علماً - وقال الجمهور هي الكلمات الماثور فضلها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . خرج مالك في موطنه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيب أنه سمعه يقول في الباقيات الصالحات : إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأخرج الإمام أحمد والحاكم وصححه ، وغيرهما عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل وما هي يا رسول الله قال : التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

وهناك أقوال أخرى في معنى الباقيات الصالحات ، وحسبنا ما ذكرناه .

ويدخل في عموم معنى الباقيات الصالحات . أعمال فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي دخولا أولياً ، فإن لهم من كل نوع من أنواع الخيرات الحظ الأوفر ، وتلك الأعمال باقية دائمة لبقاء عوائدها عند فناء ما تطمح إليه النفس من حظوظ الدنيا ، وحسبها أنها عند ربك وفي كنفه . وتحقق خيريتها في ثواب جزيل يعود على صاحبها ، وأمل عظيم ينال به في الآخرة ما كان يؤمله في الدنيا ، كما يشير إلى ذلك قوله جل شأنه : « خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » ، أما زينة الدنيا من المال والبنين فليس لها ذلك إذ هي مضمحلة زائلة حيث نسبت إلى الحياة الدنيا وهي بما فيها ومن فيها إلى فناء ، فمن اهتم بزينتها وقصر في عمل الآخرة . باء بالخيبة والخسران .

وتقديم المال في الآية على البنين لأن الزينة به أظهر ، وهو ميسور لكل أحد ، في أي وقت وحين غالباً .

(وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ
 نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا
 كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾
 وَوَضَعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ
 يُبَوِّلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا
 أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(نُسِيرُ الْجِبَالَ) : ننقلها ونزيلها من أماكنها على وجه الأرض. (وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) :
 ظاهرة ليس عليها ما يسترها من جبل وشجر ونبات وبناء (وَحَشَرْنَاهُمْ) : جمعناهم من كل
 صوب. (فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) : فلم نترك منهم أحداً دون حشر .
 (وَوَضَعَ الْكِتَابُ) : «أل» في الكتاب لجنس الكتب ، والمقصود كتب صحائف الأعمال .
 (مُشْفِقِينَ) : خائفين مما في كتبهم. (يُبَوِّلُنَا) : الويلة الهلاك وحلول الشر والحسرة .
 (إِلَّا أَحْصَاهَا) : أى عدها وأحاط بها .

التفسير

٤٧ - (وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ . . .) الآية .

يخبر الله سبحانه بهذه الآية وما بعدها عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور
 العظام ، تحذيراً للمشركين وترهيباً .

والمعنى : واذكر لهم أيها النبي يوم ننقل الجبال . ونزيلها من أماكنها . ونسيرها على
 هيئاتها كما نسير السحاب يشير إلى ذلك قوله تعالى : «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ

تَمْرُ مَرَّ السَّحَابِ^(١) . ثم تتشقق وتتفتت فتكون كحبات الرمل المتناثرة كما قال سبحانه :
 « وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً »^(٢) . ثم تصير غبارا منتشرا تسوقه الرياح حيث
 أراد الله كما قال تعالى : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا »^(٣) وفي نهاية أمرها .
 تصبح كسراب يُرى من بعيد حتى إذا جثته لم تجد شيئا ، وذلك لتفرق أجزائها تفرقا
 تاما كما قال سبحانه : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا »^(٤) . بعد هذا الصنيع من القوى
 القادر ، يظهر سطح الأرض مستويا ، لا عوج فيه ولا أمنا أى لا انخفاض به ولا ارتفاع .
 ويشير إلى ذلك قوله جل شأنه :

(وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) : الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أولكل من تتأني منه الرؤية ،
 أى وترى الأرض من جميع جهاتها بادية ظاهرة ، ليس عليها ما يسترها أو يحجب جزءا منها من
 أودية وكُتبان ، وجبال وأشجار وأبنية وبحار ، وزروع وأعشاب ، حيث اجتثت جبالها
 وهدمت أبنيتها ، واقتلعت أشجارها ، وغاضت بحارها ، وانمحت زروعها وأعشابها وغدت
 قاعا صفصفا^(٥) . أى أرضا مستوية جرداء .

وقيل بارزة أى برز ما فيها من الكنوز والأموات ، كما قال تعالى : « وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا
 وَتَخَلَّتْ »^(٦) . واستغنى بذكر زوال الجبال فى الآية عن ذكر زوال غيرها . لأنه يُعلم من ذكر
 زوالها ، زوال غيرها بطريق الأولى : إذ هى أعظمها وأثبتها وأضخمها .

(وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) : أى وجمعناهم إلى الموقف من كل حذب^(٧)
 وصوب بعد قيامهم من قبورهم ، فلم نترك منهم أحدا ، هان شأنه أو عظم كما قال
 سبحانه : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ »^(٨) . وأثر التعبير بالماضى
 فى قوله : « وَحَشَرْنَاهُمْ » للدلالة على تحقق وقوع الحشر التابع للبعث الذى أنكروه حيث قالوا :
 « وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » تكذيبا لهم وتقريعا ؟ .

(١) سورة النمل من الآية - ٨٨ (٢) سورة المزمل الآية - ١٤ (٣) سورة الواقعة الآيتان - ٥ ، ٦

(٤) سورة النبا الآية - ٢٠ (٥) القاع : المستوى من الأرض ، وزاد ابن حارس الذى لا يثبت .

(٦) سورة الانشقاق الآية ٤ (٧) سورة الواقعة الآيتان ٤٩ ، ٥٠

٤٨- (وَعَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ..) الآية .

أى أنهم يُحَضِّرون يوم الموقف العظيم لا يتخلف منهم أحد فيقفون مجتمعين غير متفرقين ، ليقضى الله بينهم بالحق وفى قوله : « صَفًّا » ما يشير إلى اجتماعهم صفوفًا ، وفى الحديث الصحيح : « يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفًا » . وقال مقاتل يعرضون صفا بعد صف لا أنهم صف واحد .

(لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) : تقرير للمشركين المنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ، وذلك بأن يقال لهم لقد جئتمونا على هيئة تشبه الهيئة التى كنتم عليها عند خلقكم أول مرة ، حفاة عراة غُرُلًا أى غير مختونين ، وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرُلًا . قلت يارسول الله الرجال والنساء ، ينظر بعضهم إلى بعض قال : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » . وفى رواية أخرى « الأمر أشد من أن يهيمهم ذلك » .

أويقال لهم : لقد جئتم وليس معكم شئ مما كنتم تفتخرون به من الأموال والأنصار لقوله تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » ^(١) . أى بعثناكم بعد الموت فرادى كهيئتكم عند خلقكم وإحيائكم أول مرة بلا مال ولا ولد ولا سلطان .

(بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا) : انتقال لمواجهة منكرى البعث بالتوبيخ والتقريع أى ادعيتم فى الدنيا أن لن تبعثوا ، ولن نجعل لكم موعدًا نُنَجِّزُ فيه ما وعدنا من البعث وتوابعه ، وقد خاب ظنكم ، وكذب زعمكم ، وتحقق عيانا ما أنكرتموه ، فقد أحييناكم بعد موتكم وجئتمونا للحساب .

٤٩- (وَوَضَعَ الْكِتَابُ فَنَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ..) الآية .

الآية معطوفة على قوله : « وَعَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا » داخلة تحت الأمور الهائلة العظيمة من أهوال يوم القيامة التى أريد تذكيرهم بها .

والمعنى : أن الله سبحانه وتعالى يضع الكتاب . ويُقصد به صحائف الأعمال وكتبها ، وذلك يجعلها في أيدي أصحابها يأخذ كل منهم كتابه بيمينه أو بشماله ، وحينئذ تُبصر العصاة جميعاً خائفين مما في الكتاب من الجرائم التي اقترفوها . والذنوب التي باءوا بإثمها ، ويدخل فيهم منكرو البعث دخولا أولياً .

(وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) :

أي أنهم عند وقوفهم على كل ما فيه وعلمهم بما في تضاعيفه . ترتفع منهم أصوات الحسرة والحيرة . ويتمنون الموت والهلاك حتى لا يروا العذاب الأليم ، وقد دعاهم إلى ما صنعوا ، ما وجدوه في الكتاب الذي وضع في يد كل منهم مما يدعو إلى العجب والفرع الذي أشار إليه قولهم : « مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ » إلخ حيث إنه ليس له نظير ولا مثيل من الكتب الأخرى . فهو على حال لم يترك معها صغيرة ولا كبيرة إلا عدها وأحاط بها . قال سعيد بن جبير : إن الصغيرة اللثم كالمسيس والقُبْل ، والكبيرة كالمواقعة والزنى .

قال قتادة : اشتكى القوم الإحصاء وما اشتكى أحد ظلماً ، فإياكم ومحقرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه ، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول : يا ويلتاه ضجوا إلى الله تعالى من الصغائر قُبْلَ الكبائر .

(وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) : أي ما عملوه في الدنيا وجدوه مسطوراً في كتاب كل منهم أو وجدوه حاضراً بين أيديهم حالاً غير مؤجل ، أو وجدوا جزاء أعمالهم .
(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) :

أي لا يأخذ أحداً بجرم أحد ، ولا يأخذه بما لم يعمله ، وقد وعد سبحانه بإثابة المطيع والزيادة في ثواب ما عمله مما أمره به ، وارتضاه منه ، كما وعد بتعذيب العاصي بمقدار جرمه من غير زيادة على ما عمل ، وأنه قد يغفر له ما عدا الكفر كما قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ »^(١) . سبحانه جل وعلا يفعل ما يشاء ويختار .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
كَانَ مِنَ الْغَافِلِينَ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(اسْجُدُوا لِآدَمَ) : للِسجود معنيان ؛ معنى لغوى وهو : التواضع والخضوع تحية وتعظيما
بانحناء وغيره لا بوضع الجبهة على الأرض . ومعنى شرعى : بوضع الجبهة على الأرض للعبادة
ولا يكون هذا إلا لله تعالى .

(فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) : أى فخرج عن أمره . لأن معنى الفسق الخروج ، من قولهم فسق
الرُّطْب فسوقاً إذا خرج عن قِشْرِهِ . وفعله فسق كنصر وضرب وكرم فسقا وفسوقا . وقيل
صار فاسقاً بسبب عصيانه أمر ربه فعن السببية .

التفسير

٥٠ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ...) الآية .

أى . واذكر أيها الرسول وقت قولنا لهم « اسْجُدُوا لِآدَمَ » سجود تشريف وتكريم
وفق المعنى اللغوى للسجود ؛ وهو يحصل بانحناء ونحوه دون وضع الجبهة على الأرض ،
وهذه تحية أبطلها الإسلام . وأحل السلام والمصافحة محلها .

أما وفق المعنى الشرعى فلا لأنه لا يتحقق إلا بوضع الجبهة على الأرض قصدا إلى العبادة
وهو مأمور به الله وحده . (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) : أى سجد الملائكة جميعاً امتثالاً وطاعة
ما عدا إبليس ، فإنه لم يكن من الساجدين إباء منه واستكباراً ، وقد حمّله على هذا التمرد
أنه (كَانَ مِنَ الْغَافِلِينَ) : فهو أجنبى عنهم حيث خلق من مارج من نار . وخلقوا من نور .
فقد ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« خُلِقَتِ الملائكة من نور ، وخلق الجن من مارح من نار » وهذا ظاهر في أنه ليس منهم بل كان معهم ومعتبراً في عدادهم لوجوده بينهم ، ولذا قال الحسن فيما أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبي حاتم : « قاتل الله أقواماً زعموا أن إبليس من الملائكة والله يقول : « كَانَ مِنَ الْجِنِّ » وأخرج عنه ابن جرير وابن الأنباري في كتاب الأضواء وأبو الشيخ في كتاب العظمة أنه ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل الإنس .

ولكون إبليس عليه اللعنة من الجن ، وليس من الملائكة استكبر فاستحب العمى على الهدى ، وتنكب الطريق .

(فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) : أى فخرج عن طاعته سبحانه - قاله الفراء ، وأصله مِنْ فسق الرطب إذا خرج عن قشره ، وقيل معناه صار فاسقاً كافراً بسبب أمر ربه . بمعنى أتاه الفسق لما أمر فعصى : فعن السببية ، وقيل فسق عن رد أمر ربه بخروجه عن الطاعة ، ففى الكلام مضاف مقدر والفسق يقع على القليل والكثير من الذنوب ، ولكن تُعُورَف فيما كان كثيراً ، وهو أعم من الكفر .

وذكرت قصة إبليس هنا لتشديد النكير عليه والتنفير منه ، تبعيداً عن المعاصي ، وعن امتثال ما يوسوس به ، وذلك لا يعد تكراراً مع ذكرها قبل ، حيث إن لها فائدة غير الفائدة التي كانت لذكرها قبلاً وهي أنه سبحانه لما ذكر يوم القيامة والحشر ، وذكر خوف المجرمين ورهبتهم مما سُجِّلَ في كتبهم من كل صغيرة أو كبيرة ، ناسب الإتيان بها تذكيراً لهم بأن إبليس اللعين هو الذى حملهم على المعاصي ، واقتراف الآثام ، واتخاذ الشركاء والأنداد ، فهم في ذلك تابعون لتسويله وإغرائه كما ينبيء عنه قوله تعالى :

(أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) : بهذا الاستفهام ويخ الله المشركين وأنكر عليهم بعد علمهم بقبائح الشيطان وأباطيله أن يستجيبيوا له فيتخذوه وذريته أولياء وأعواناً لهم من دونه . مع أنهم لا يجهلون حالهم من العداوة والبغضاء لهم ، والمراد من « ذريته » أعوانه وأشياعه ممن سلك طريقه في الإضلال والإفساد من شياطين الجن والإنس ، وقال ابن عطية في قوله : « وذريته » ظاهر اللفظ يقتضى الموسوسين من

الشياطين الذين يأتون بالمنكر، ويحملون على الباطل ، ونقل الآلوسى في تفسيره ، أن بعضهم قال : لا ولد له والمراد من الذرية الأتباع من الشياطين وعُبر عنهم بذلك مجازاً تشبيهاً بالأولاد . ٥١ .

وأعدل الأقوال وأسلمها في المسألة قول القشيري أبو نصر كما نقله القرطبي : إن الله أخبر أن لإبليس أتباعاً وذرية ، وأنهم يوسوسون إلى بى آدم وهم أعداؤهم . ولا يثبت عندنا كيفية في كيفية التوالد منهم وحدث الذرية عن إبليس . فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح : ٥١ . وهو يتمثل ويتصور ، ويظهر ويختفي ، ويرى من حيث لا يرى . ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : « إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتني فيحدثهم بالكذب . فيتفرقون يقول الرجل منهم سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أعرف ما اسمه يحدث . » وفي التنزيل يقول الله تعالى : « إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ » (١) .

(بئس لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) : أى بئس البدل عن الله تعالى للظالمين : إبليس وذريته ، أو بئس عبادة الشيطان ، بدلا عن عبادة الله .

والالتفات من الخطاب في قوله تعالى : « أَفَتَتَّخِذُونَهُ » إلى الغيبة في قوله تعالى : « بئس لِلظَّالِمِينَ » مع وضع الظاهر موضع ضمير المخاطبين ، ليشير اللفظ الظاهر إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح يؤذن بأنهم أهل لشدة السخط ، وبالعلة الازدراء .

(* مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا (٥١))

المفردات :

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ) : ما أريتهم . (عَصَدًا) : العَصْد مابين المرفق والكتف من الذراع ، والمقصود هنا . المعين أو النصير .

التفسير

٥١ - (مَا أَشْهَلَتْهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ) :

بعد أن أبرزت الآية السابقة موضع العجب من اتخاذ هؤلاء الظالمين إبليس وذريته أولياء لهم من دون الله أَوْضَحَتْ هذه الآية الكريمة عدم صلاحية إبليس وجنوده لأن يكونوا شركاء لله وأعواناً له ، كما بينت ضلال تابعيهم وعباءهم ، حين اتخذوهم أولياء لهم . والمعنى : أن الله سبحانه هو الذى خلق السموات والأرض وما فيهما وحده ولم يهَيِّئْ لإبليس وذريته مشاهدة هذا الخلق ولا المشاركة فيه . حيث خلقت السموات والأرض قبل خلق إبليس وذريته فكيف جعلهم أتباعهم الظالمون أولياء لهم من دون الله ، وهم عاجزون عن الخلق والتدبير ولا يعلمون شيئاً عن كيفية خلقهم وتدبير أمورهم فإنهم : « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً »^(١) . (وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَداً) : ولا ينبغي لى - وأنا القوى العزيز - أن أحتاج إلى معين أو نصير يساعدى فى الخلق والتدبير من هؤلاء الضالين المضلين .

(وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا^(٥٢) وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا^(٥٣))

المفردات :

(مَوْبِقًا) : أى مهلكاً يشتركون فيه وهو النار ، والموبق اسم مكان من وَبَقَ - كوثب - بمعنى هلك . (فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا) : الظن هنا بمعنى التوقع والعلم ، أى توقعوا وأيقنوا أنهم مخالطوها واقعون فيها ، ومثل ذلك قوله تعالى : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »^(٢) . أى يوقنون أنهم ملاقوه . (مَصْرِفًا) : مجالاً للانصراف أو الهرب والفرار .

(٢) سورة البقرة : الآية ٤٦

(١) سورة الفرقان : الآية ٣

التفسير

٥٢ - (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ . فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) :
واذكر لهم يا محمد يوم الجزاء الذى ينتظرهم طال الزمن أو قصر ، يوم يقول لهم العلى
الأعلى مؤنباً لهم على اتخاذهم إبليس وذريته أولياء لهم من دونه - اذكروهم يقول لهم -
اذهبوا شركاءكم الذين عبدتموهم من دوفى لينقذوكم من العذاب المحيط بكم ؛ وفى هول الموقف
ينادى الظالمون شركاءهم فلا يلبون نداءهم ولا يستجيبون لاستغاثتهم ، لأنهم فى مهلكهم
مشركون ، وفى جهنم خالدون ، فكيف يستجيبون ؟ ولهذا قال سبحانه :

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا) : أى وجعلنا بين الداعين من المشركين والمدعويين من الشياطين ،
موبقاً ومهلكاً مشتركاً وهو النار التى يصلونها جميعاً

٥٣ - (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِعُوهَا) : وشاهد المجرمون النار فأيقنوا أنهم
واقعون فيها لا محالة . قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْكَافِرَ ليرى جهنم ويظن أنها واقعة من
مسيرة أربعين سنة » . رواه أحمد وابن جرير .

(وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) : ولم يجدوا مجالا للهرب من هذا المصير الأليم قال تعالى :
« وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » ^(١) .

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ
جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ
أَلَّا وَلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝)

المفردات :

(صَرَفْنَا) : نَوَّغْنَا ووضَّحْنَا . (من كُلِّ مَثَلٍ) : المثلُ الحكمة أو الموعظة .
 (جَدَلًا) : مُمَارَاةً ومُخَاصَمةً . (سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) : أى طريقة الله في المشركين السابقين ،
 والمراد بها العذاب الذى حل بالأُمم السابقة حينما أصروا على الكفر والعناد .
 (قُبُلًا) : بضمين جمع قبيل أى أنواعاً ، وأجاز أبو عبيدة أن يكون معناه مقابلة
 وعبارة كقراءته قُبُلًا بكسر ففتح ، فإن معناه كذلك عند ابن عباس .

التفسير

٥٤ - (وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ . . .) الآية .

ولقد بينا ووضحنا في القرآن الكريم من التوجيهات الرشيدة والمواعظ الحكيمة ، بطرق
 عديدة وأساليب متنوعة ، من القصص والعبر والحكم التى يثبَّتُ بها الحق في الأذهان ، ولاندُعُ
 مجالاً للشك والإنكار . وتملك على القارئ مشاعره ، لأنها في الغرابة والحسن واستمالة النفس
 كالأمثال ليتلقوها بالقبول ، فلم يمتثلوا .

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) : وكان الإنسان منذ نشأته حسب فطرته ، أكثر شئاً
 جدالاً في الدفاع عن رأيه بالباطل متلمساً المعاذير التى يبررها تصرفاته^(١) ، إلا من عصم الله .
 أخرج الإمام أحمد والشيخان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه طرق بيت على وفاطمة
 ليلاً فقال : ألا تصليان ؟ فقال على : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله تعالى ، إن شاء
 أن يبعثنا بعبثنا ، فانصرف حينئذ قلت ذلك ، ولم يرجع إلى ثم سمعته يضرب فخذه ويقول :
 « وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا » .

٥٥ - (وَمَنْعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ
 سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ...) الآية .

سأقت الآية الكريمة مثلاً من أمثلة الإمعان في الضلال واللجاج والجدال بالباطل ، مع
 وضوح الحق وأسباب الهداية .

(١) يذكر علماء النفس أن كل مخطئ يتلمس تبرير خطئه بما يسمونه « نظرية التبرير » وقد ساق القرآن الكريم أمثلة
 عديدة على برر به المشركون عقائدهم وأعمالهم .

والمعنى : وما حمل الناس على ترك الإيمان بعد قيام أدلته ووضوح حجته ، إلا إصرارهم على العناد واللجاج ، وتحديهم للرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزل بهم العقاب الذى توعدهم الله به ، كما أنزله بالأمم السابقة التى أصرت على الكفر والعناد ، وقد حكى الله طلبهم العذاب بقوله : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (١).

(أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قُبُلًا) : أو يحل بهم العذاب الأليم عيانا جزاء إمعانهم فى الكفر والضلال فى صور شتى من النكال والوبال ، ويجوز أن يكون المعنى أن الله حال بينهم وبين الإيمان ، لأنهم غير أهل له بما جبلوا عليه من عناد ولجاج ، فقد انصرفوا عن دواعى الهدى والرشاد كما قال سبحانه : « ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » (٢).

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۚ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا) (٥٧)

المفردات :

(لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) : ليزيلوه ويبطلوه .

(أَكِنَّةٌ) : أغطية - جمع كنان .

(وَقْرًا) : ثقلا فى السمع ، يقال : وَقِرَتْ أذُنُهُ وَقْرًا ، كفهم فهما إذا أصابها ثقل فى السمع

أو صمم ووقرها الله وقرا من باب وعدة وعدا .

التفسير

٥٦- (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) :

ومانبعث الرسل إلى الناس إلا لتبشيرهم بالثوبة الحسنی إن آمنوا بالله وأطاعوه فيما شرعه لهم على ألسنتهم ، وإنذارهم بالعقاب الخالد إن كفروا به وعصوا رسله .
« لِشَلَّا يَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » ^(١) . فلم يبعثهم الله ليقترح أقوامهم الآيات عليهم بعد ظهور المعجزات التي أيدهم الله بها .

(وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) : ولكن الكافرين يستقبلون دعوات الرسل بالإنكار والعناد والمكابرة والمجادلة بالباطل ، للقضاء على الحق بعد وضوحه ، دون استناد إلى دليل أو برهان ، كما قال سبحانه : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ » ^(٢) . ومن أمثلة هذا الجدل الباطل قول مشركي قريش في القرآن الكريم : « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ، إِنَّ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » ^(٣) . وقولهم في الرسول صلى الله عليه وسلم : « لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » ^(٤) . يعنون أن الرسول ليس من عظماء القريتين ، فلا يصح أن يكون رسولا أنزل عليه القرآن . (وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا) : أى قابلوا آيات الله البينات بالسخرية والاستهزاء فقد سخرُوا بحديث القرآن الكريم عن شجرة الزقوم (راجع شرح الآية ٦٠ من سورة الإسراء) كما سخرُوا بالقرآن ، فزعموا أنه سحر وشعر وآساطير الأولين ، كما سخرُوا بوعيده بالبعث والنشور فقالوا : « أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » ^(٥) .
٥٧- (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَبِيٌّ مَّا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) :

ولا أحد أشد ظلما لنفسه وللحق ممن أعرض عن آيات الله البينات وانصرف عن أدلتها الواضحات إلى الباطل ، فأمعن في ارتكاب الذنوب والآثام ناسيا ما جناه على نفسه وعلى الناس من بغى وعدوان .

(إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) : إن الحق واضح ، وأصحاب العقول السليمة يدركون الرشد من الغي ويميزون الحق من الضلال ، والله سبحانه حال بين

(١) سورة النساء ، الآية : ١٦٥ (٢) سورة الحج ، الآية : ٨ (٣) سورة الأنفال ، الآية : ٣١

(٤) سورة الزخرف الآية : ٣١ (٥) سورة الإسراء ، الآية : ٤٩

هؤلاء المشركين وبين الإدراك السليم ، فجعل على عقولهم أغشية كراهة أن يفهموه فهماً يؤدّي بهم إلى السلوك السيئ ، لأنهم طبعوا على الخبث والضلال ، وجعل الله في آذانهم صمماً عن الاستماع إلى الحقائق وإدراكها وذلك لانصرافهم عن الحق ، وتواصيهم بعدم سماعه ، حيث قالوا : « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ^(١) » ولهذا باعد الله بينهم وبين الإصغاء والاستفادة منه جزاء انصرافهم ، ولو علم فيهم خيراً لهداهم وأسمعهم سماع قبول قال تعالى : « وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ^(٢) » والمقصود من جعل الله الأكنة على القلوب ، والوقر في الآذان أن لا يأخذ بقواهم العلمية نحو الحق لإعراضهم عنه .

(وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا) : وإن تدعهم إلى طريق الهدى فلن يستجيبوا لك ، لأنهم الآن ليسوا أهلاً للهداية ، ولأن الهداية ليست بيدك ، وإنما هي بيد الله « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وذلك حينما يحين أو ان الهداية ، وقد هداهم الله إلى الحق في فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة .

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ^(٥٨)) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ^(٥٩))

المفردات :

(الْغُفُورُ) : واسع المغفرة والصفح . (مَوْيلاً) : ملجأً يلجئون إليه . (مَهْلِكِهِمْ) : هلاكهم .

التفسير

٥٨ - (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) : وربك - أيها الرسول - واسع المغفرة صاحب الرحمة ،

حيث كتبها على نفسه فضلاً وكرماً ، فلا يعذب أحداً من عباده المحسنين الطائعين .

« مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا »^(١) . أما هؤلاء المشركون فهم الذين ظلموا أنفسهم بالإصرار على الكفر والعناد فاستحقوا سوء الجزاء ، ولكنه تعالى يتأنى بهم ، ولا يتعجل معهم - كما قال :

(لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابُ) : أى أنه لسعة رحمته لو يؤاخذهم بظلمهم لعجل عقابهم ، ولكنه أمهلهم لعلهم يرجعون إلى الصواب ، ويفيئون إلى الرشاد .

(بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا) : وهذا الإمهال موقوت بأجل معدود « وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ »^(٢) . فإذا حان الأجل وهم مُصِرُّون على كفرهم وعنادهم أخذهم الله بعقابه الأليم حيث لا يجدون ملجأً للنجاة والخلاص . « فَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ » .

٥٩ - (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا) :

المراد بالقرى هنا أهلها ، والمعنى : وأهل تلك القرى المهلكة المعروفة ، من قرى عاد وثمود وقوم لوط عصوا ربهم ، وكذبوا رسله فأمهلهم لعلهم يؤمنون ، فلما أصرّوا على الكفر وأمعنوا في الضلال أخذهم الله بعذاب الهلاك والاستئصال في الموعد الذى حدده لهم « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ »^(٣) .

روى الشيخان والترمذى وابن ماجه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » .

قصة موسى والعبد الصالح

قصَّ الله سبحانه علينا فى الآيات التالية قصة موسى والعبد الصالح وقد رأينا أن نقدم لها ما يعين على إدراك أهدافها السامية :

(١) سورة النساء ١٤٧

(٢) سورة هود ١٠٤

(٣) سورة هود : الآية ١٠٢

(١) جمهور المفسرين على أن العبد الصالح هو الخضر ، وقيل اليسع وقيل إلياس ، قال الآلوسی : والحق الذي تشهد له الأخبار الصحيحة هو الأول .

ولقب بالخضر ، استنادا إلى ما رواه الترمذی بسند صحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فُرْوَةٍ بَيْضَاءَ فَاهْتَزَّتْ تَحْتَهُ خَضِرَاءَ » ومثل ذلك رواه البخاري بسنده .

(٢) قد يعجب بعض الناس من أن يحتاج موسى وهو كلم الله ورسوله إلى مَنْ يتعلم منه العلم ، وليس هذا موضع عجب فإن الله « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »^(١) لحكم يعلمها .

روى الشيخان والترمذی عن سعيد بن جبیر قال : « قلت لابن عباس إن نوفلا لبكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل فقال : كذب عدو الله ، حدثني أبي بن كعب أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن موسى قلم خطيبا في بنى إسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ قال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بجميع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يارب فكيف لي به ؟ قال تأخذ معك حوتا في مِكْتَل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتا في مِكْتَل ثم انطلق معه فتاه يوشع بن نون » وذكر الحديث ، والمكْتَل وعاء مصنوع من الخوص يحفظ فيه المتاع .

(٣) كثير من العلماء يقولون إن الخضر - عليه السلام - حَيٌّ ، وقد أجمع الصوفية على حياته إلى الآن كما نقله النووي عنهم ، وقد استدلوا بأخبار غير مقطوع بها ، ومنها ما أخرجه الدارقطني في الأفراد بسنده عن ابن عباس أنه قال : « الخضر ابن آدم من صلبه ، ونسيء له في أجله حتى يكذب الدجال » ومثله لا يقال من قبل الرأى .

وذهب جميع من العشاء إلى أنه ليس لي حتى اليوم ، مثل البخاري ، وعن إلباس
عليهما السلام - هل هما حيان - فقال ساجد كيف يكون هذا وقد قال النبي صلى الله عليه
وسلم : « لا يبقى على رأس المائة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » وفي صحيح مسلم عن
جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من نفس متفوسية بأني عليها مائة سنة وهي
يومئذ حية » كما استدلوأ بأدلة عقلية وعقلية أخرى ، فارجع إليها في الموسوعات ، والإمساك
عن الخوض في الخلاف بين الرأيين أولى ، مع الجزم بقضته مع موسى عليه السلام - كما
جاءت في هذه السورة .

(٤) اختلف في الخضر ، فقيل هو نبي وليس برسول ، وهو الملقب بالجهنمي ، وقيل هو
رسول من قبيل هو ولي الله ، قال القشيري ، ويستدل القائلون بنبوته بقوله تعالى
: « قَدْ آتَيْنَاهُ نَبَأَهُ آتِينَاهُ حَقِيقٌ مِنْ عِنْدِنَا بِالْوَحْيِ يُطَلَّقُ عَلَى الْوَحْيِ النُّبُوَّةُ فِي عِلْقِهِ مَوَاضِعُ مِنْ
رَأَيْ الْقَبِيلَ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْإِنْسَانِ حِكْمِي عَلَيْهِمْ قَوْلُهُمْ سَجَلَةً « مَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي » أَي أَنَّهُ مَا حَدَّثَهُ مِنْهُ كَانَ
بِوَحْيِي مِنَ اللَّهِ ، وَالْإِنْسَانُ الْمُنِيحُ لَا يَتَعَلَّمُ ظَاهراً مِنْ أَنْبِيَاءٍ وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونُوا الْمُتَعَلِّمُونَ قَوْلُ الْمُعَلِّمِينَ : « الْخُ

دَّاءُ نَبِيٍّ » بَابُ : رَضِيَ بَالَهُ دُشْنَهُ لَهُ أَي بِهِ رَضِيَ بَالَهُ وَسَجَدَ أَلْبَدَ لَهُ نَامُ حَيَاةً اللَّهُ رَحْمَةً
(٥) وفي القصة توجيهات رشيدة : رَضِيَ بَالَهُ أَي بِهِ رَضِيَ بَالَهُ وَسَجَدَ أَلْبَدَ لَهُ نَامُ حَيَاةً اللَّهُ رَحْمَةً
لَنْتَكْرِفَ لَتَكْرِفَ لَتَكْرِفَ دُشْنَهُ لَهُ أَي بِهِ رَضِيَ بَالَهُ وَسَجَدَ أَلْبَدَ لَهُ نَامُ حَيَاةً اللَّهُ رَحْمَةً
(١) أن الله حكما عالية فيما يقضيه من أمور ، وهذه الحكم قد ندرناها وقد تغيب
عن عقولنا ، ولكننا ينبغي أن نؤمن بها كل الإيمان .

(ب) أن الهجرة في طلب العلم مطلوبة ، روي مسلم بسنده عن النبي صلى الله عليه
وسلم : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ » .
نه وآ آ نبا سفضا : دالة هذا رسالته نبا نه مناسب غاية في رخص المدا هجرة له
دأها راية نه بالقول لاهلته « بالجدل بطلان رخص طلبه في ما قرينه د مبله

- (نَصَبًا) : تعباً ومشقة وجهداً .
 (عَجَبًا) : غريباً عن العادة مخالفاً لها يدعو إلى عجب الناس منه .
 (فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا) : فرجعا يقصان أثر سيرهما السابق .
 (آتَيْنَاهُ رَحْمَةً) : أى نعمة كبرى فيها رحمة منا وسيأتى فى الشرح بيانها .

التفسير

٦٠ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) :

أبرزت الآيات السابقة لَجَاج الكفار وعنادهم وإصرارهم على الباطل ومُحَاوَلَتَهُمْ طَمَسَ الحقائق الواضحة التى ساقها الله لهدايتهم ، وفى هذه الآية والآيات التالية يضرب القرآن مَثَلًا ساميًا لنبي من أنبيائه ، أوحى الله إليه وكلمه تكليمًا ورزقه علمًا ومعرفة ، ومع هذا سعى جاهداً ليتعلم ما لم يعلم ، وتحمل في سبيل المعرفة ما تحمّل من مشاق ، وهو موسى عليه السلام .

والمعنى : واذكر لهم يا محمد قصة موسى عليه السلام إذ صَحِب فتاه طالبا لقاء العبد الصالح (الخضر) عليه السلام ليتعلم منه بعض ما لم يكن يعلم . وفتاه هو يوشع بن نون تابعه وتلميذه وخليفته من بعده كما ورد فى صحيح البخارى ومعهما مِكْتَل^(١) فيه حوت أعداه للطعام وأخبر موسى فتاه أنه لايزال مُجِدًّا فى السير حتى يصل إلى مكان العبد الصالح فى مجمع البحرين ، ولعل المراد بمجمع البحرين التقاء خليج العقبة بخليج السويس أو أحد فروع النيل السبعة القديمة بالبحر الأبيض فى دلتا النيل ، وعلى أى حال فتحديد المكان لا يتعلق به كبير غرض .

وانطلق موسى مع فتاه وقد عقد العزم أن يواصل السير وإن طال الزمن حتى يبلغه .

٦١ - (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا) :

أى فلما وصلا إلى موضع يَجْمَعُ بين البحرين نسيا حوتهما فاضطرب فى المِثْل وقفز إلى الماء يشق طريقه فيه كأنما صنع الحوت لنفسه فى الماء نفقا ، فقد صبح من حديث الشيخين وغيرهما . « أن الله أمسك عن الحوت جريئة الماء ، فصار عليه مثل الطاق » قال الآلوسى : والمراد به : البناء المقوس كالقنطرة .

(١) وعاء مصنوع من الخوص يشبه الحقيبه يحمل التمر والطعام وغيرها فيه .

٦٢ - (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) :

فلما جاوزا المكان وأمعنا في السير حتى الصُّباح شعر موسى عليه السلام بالجوع والتعب فقال لغلامه آتنا طعام الغلوة (وهى الصُّباح) لِيَشْبَعَا من جوع ، ويستردَّا عافيتهما وينعما بالراحة بعد التعب .

٦٣ - (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْنَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ) :

قَالَ له الغلام : إني نسيت الحوت عند الصخرة وإن الحوت قفز إلى الماء .
(وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا) : واتخذ في الماء طريقاً عجيباً كالنفق ، ونسبة الإنسَاء إلى الشيطان لأنه ربما شغله بوساوس عن الأهل والوطن ، جعلته يذهل عن هذه الحالة العجيبة بتقدير العزيز العليم ، وإلا فتلك الحالة لا تنسى .

٦٤ - (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ) : قال إن فقدان الحوت إنما يكون عند التقاء البحرين وهو المكان الذى نريده حيث نلقى العبد الصالح .

(فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) : ذكر البخارى فى باب التفسير : « رَجَعَا يَقِصَان » .
أى يَتَتَبَعَان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة .

٦٥ - (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) :
أى فوجدا عند الصخرة التى نسى يوشع ما حدث من الحوت لديها - وجدا - عبدا صالحا من عباد الله آتاه رحمة كثيرة من عنده ، وعلمه علما لا يكتنه كنهه من لدنه سبحانه وتعالى .
. واختلف فى الرحمة التى آتاه الله إياها ، فقليل هى الوحي والنبوة ، وقيل الرزق الحلال ، وقيل العزلة عن الناس وعدم الاحتياج إليهم ، وأما العلم اللدنى فهو علم الغيوب والأسرار الخفية ، كما سيأتى بعضه فى قصته .

٦٦ - (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا) :

تحكى هذه الآية أن موسى حين وجد العبد الصالح أسأله الصلابة والصلابة بشرط أن يعلمه بما علمه الله عليهما إذا رشد .

٦٧- (قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) قَالَ الْخَضِرُ وَفَعَلْتُ لَكَ أَرْبَعًا مِمَّا يَكْرَهُ لَمْ أَسْتَطِعْ ، لَأَنْ مَا يَجْرِيهِ اللَّهُ عَلَى يَدَيَّ مِنَ الْأُمُورِ يَجْعَلُكَ تَسَارِعَ إِلَى الْاعتِرَاضِ عَلَيْهِ ، لِحِفَاظِ حُكْمَتِهِ عَلَيْكَ ، رَوَى الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ بِسَنَدٍ كُلِّ مِنْهُمَا يَحْكِي فِيهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِصَّةَ لِقَائِهِمَا مَعَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ ، وَقَدْ جَاءَ فِيهِمَا ، (أَنْتُمَا إِلَى الصَّخْرَةِ) ، فَإِذَا رَجَلَ مُسْجَى - أَيْ مَغْطَى - بِثُوبٍ ، فَسَلِمَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ الْخَضِرُ (وَأَنْتُمَا بَأَرْضِكَ السَّلَامُ) قَالَ أَنَا مُوسَى ، قَالَ مُوسَى بْنُ إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ نَعَمْ ، أَتَشْتَكِي لِي بِعِلْمِي مَا عَلِمْتَ رَشْدًا ، قَالَ يَا مُوسَى إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، يَا مُوسَى : إِنِّي عَلِمْتُ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عِلْمِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عِلْمُكَ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ . (الْحَدِيثُ قَائِمًا)

٦٨- (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا) أَيُّ الْكَيْفِ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا وَأَنْتَ تَرَى مِنَ الْأُمُورِ الْمَخَالِفَةَ لِشَرِيعَتِكَ ، مَا لَمْ تُحِطْ بِأَسْرَارِهِ عِلْمًا ، يَقُولُ الْخَضِرُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ أُمُورًا خَفِيَّةً الْمُرَادُ مِنْكَ الظَّاهِرُ ، مِمَّا يَجْعَلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَمَالِكُ إِلَّا أَنْ يَنْكَرَ وَقُوعَهَا عِنْدَ مَشَاهِدَتِهَا .

٦٩- (قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي بِدَلِيلٍ عَلَى مَا أَنَا فِيهِ مِنْ غَلَاظِ الْخَطِيئَةِ فَاسْعَوْا بِرَأْسِي قَدْ خَفَعْتُهَا وَلَهُ الْحُكْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَنِيبُ إِلَى رَّبِّي فَأْذَنُ بِمَا آتَى بِهِ رَبِّي إِنَّهُ يَكُونُ عِنْدَ رَبِّي لَشَاقِقًا .

٧٠- (قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي بِدَلِيلٍ عَلَى مَا أَنَا فِيهِ مِنْ غَلَاظِ الْخَطِيئَةِ فَاسْعَوْا بِرَأْسِي قَدْ خَفَعْتُهَا وَلَهُ الْحُكْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَنِيبُ إِلَى رَّبِّي فَأْذَنُ بِمَا آتَى بِهِ رَبِّي إِنَّهُ يَكُونُ عِنْدَ رَبِّي لَشَاقِقًا .

٧١- (قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي بِدَلِيلٍ عَلَى مَا أَنَا فِيهِ مِنْ غَلَاظِ الْخَطِيئَةِ فَاسْعَوْا بِرَأْسِي قَدْ خَفَعْتُهَا وَلَهُ الْحُكْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَنِيبُ إِلَى رَّبِّي فَأْذَنُ بِمَا آتَى بِهِ رَبِّي إِنَّهُ يَكُونُ عِنْدَ رَبِّي لَشَاقِقًا .

وَعَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْخَضِرَ بِأَنَّهُ سَيَجِدُهُ صَابِرًا عَلَى مَا يَرَاهُ ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهِ سَيْبِهِ ،
وَقَرَنَ ذَلِكَ تَمْشِيئَةَ اللَّهِ ، لِأَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ مَرْبُوطَةٌ بِتَمْشِيئَةِ تَعَالَى ، كَمَا وَعَدَهُ أَنْ يُلَازِمَ طَاعَتَهُ
فَلَا يَخَالِفُهُ فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَهَذَا مَا يُنْبِغِي لِلْمُتَعَلِّمِ مَعَ مُعَلِّمِهِ .

٧٠ - (قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُخْبِرَكَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرٌ)

٧٧: (أبْنَةُ رَجُلٍ مَيْمُونَةٍ بِأَعْيُنِهَا) وَأَبْنَاهُ (أَبْنَاهُ) ٧٧-

[illegible]

(وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا) : لَا نُحْمِلْنِي مِنْ اتِّبَاعِي لَكَ مَا لَا أُطِيقُ بِمَا يَشُقُّ عَلَى جَمَلِهِ .

التفسير

٧١- (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا) :

جاء في حديث البخارى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهما « انطلقا يمشيان على الساحل فمرّت بهما سفينة فكلّمواهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول^(١) » إلى أن قال : « فَلَمْ يُفْجَأْ مُوسَى إِلَّا وَقَدْ قَلَعَ لَوْحًا بِالْقَلْبِ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : مَا صَنَعْتَ ؟ قَوْمَ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ، ويحكى الله اعتراض موسى عليه ، بأسلوب موجز مستنكرًا ما فعل ، إذ يقول :

(قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) :

وهنا نرى موسى عليه السلام ينسى ما عاهد عليه الخضر ويوجه إليه لومًا شديدًا ويقرر أن فعله هذا قد يفضى إلى إغراق السفينة بمن فيها ، وأنه قابل لإحسان أصحابها بالإساءة. ويحكم عليه حكمًا قاسيًا حسب ما بدا له - بأنه ارتكب ذنبًا عظيمًا قبل أن يستمع إلى سبب هذا الفعل.

٧٢- (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) :

ذكره الخضر بالعهد الذى ارتبط به معه فقال له : لقد قلت لك ما توقعْتُ حدوثُهُ منك وهو أنك لن تستطيع الصبر على صُحْبَتِي حينما ترى ما أفعله ، بما يخالف ظاهر شريعتك .

٧٣- (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا) :

اعتذر موسى عليه السلام للخضر بأنه نسي ما تعهد له به . والنسيان مَظْنَةُ العفو ، وطلب إليه ألاّ يحملّه فوق طاقته ، فإنه نبي والنبي لا يسكت عن أمر يراه خطيئة ، روى البخارى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كانت الأولى من موسى نسيانًا هوورد في هذا الحديث : « وجاء عصفور فوقع على حَرَفِ السفينة فنقر من البحر نقرَةً^(٢) » فقال له الخضر : « ما علمى وعلمك في علم الله إلا مثلُ ما نقص هذا العصفور من هذا البحر هو قبل الخضر علم موسى وسارا في طريقهما .

(١) أى بغير أجر .

(٢) هذا دليل على أن البحر كان مأواه عذبا .

(فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ۖ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا
 زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ
 لَكَ إِنَّا لَنَنصُطِبُكَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ
 بَعْدَ مَا فَلَا تُصَدِّقُنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾)

المفردات :

(غُلَامًا) : الغلام الصبي الذي لم يبلغ . (زَكِيَّةً) : طاهرة ، وفي قراءة « زَاكِيَّة » .
 أى نامية أو طاهرة . (نُكَرًا) : منكراً لا يقره العقل .

التفسير

٧٤- (فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ) :

روى البخارى بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « . . . ثم خرجا من
 السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غُلَامًا يلعب مع الغلمان فلما
 الخضر رأسه فاقتلعه فقتله . . . »

(قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا) : لم يطلق موسى صبراً
 على ما رأى من قتله الغلام فقال في استفهام إنكارى : أقتلت نفساً طاهرة بريئة دون أن
 ترتكب تلك النفس جريمة تستحق عليها القتل؟ ثم أصدر عليه حكماً حاسماً بأنه ارتكب
 أمراً خطيراً منكراً .

٧٥- (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّا لَنَنصُطِبُكَ مَعِيَ صَبْرًا) :

نبيه الخضر عليه السلام إلى خروجه عما حاصده عليه للمرة الثانية ، وأكد ذلك
 بزيادة الجار والمجرور (لك) أى إن هذا هو ما قلته لك لا لغيرك ، ولكنك لم تلتزم
 بما تعهدت لى به فى قولك : « سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا » .
 روى البخارى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « وهذه أشد من الأولى . . . » .

(۱۰) اَللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلٰى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلٰى اٰلِهِٖ وَسَلِّمْ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَعَثَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ رَحْمَةً لِّدُنْيَا وَإِلْمًا

اَمْسَلْ رَجُلًا لَا يُعْلَمُ بِالْجِدَارِ (الْحَالِ) تَشْجُ نَقًا رَسْمًا يَنْتَهِ قِيَامُ لَمَسًا تَسْلُتًا (100)
 نَا نَدِيْقُ تَقْصِيْرُ) هُوَ الْجَارُ لَمَسًا تَسْلُتًا: رَاحَ لَانِ وَلَهْفَتَا فِي نَالِقَةٍ وَكَلَفَا عِلَّةً رَهْ رَهْلُ لَدِ رَهْ
 مَبْرُكُنْ اَنْتَبَلُكُ اَسْبَابُ الْحَبِيْرُ لَمَسًا هَيْكَلُ مَسَا اَمْسَلْ رَسْمًا لَمَسًا تَسْلُتًا (101)
 (تَأْوِيلُ) : تَفْسِيْرُ .

(اِنَّهُ رَحِيمٌ مُّجِيبٌ) مَا تَعَالَى فَعَلًا بِمَا تَعَالَى (٥٧)

[illegible]

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ) : فرأيا في القرية جداراً يكاد يقع فهدهم الخضر ثم أعاد بناءه ، فعجب موسى عليه السلام من تصرف الخضر ، وما بذله من جهد في هدم الجدار ثم إقامته ، لقوم بخلاء يضمنون عليهم بالطعام ^(١) .

روى البخارى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « فقال موسى : قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ... ؟ » .

(قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) :

أى لو أردت لطلبت من هؤلاء القوم أجراً جزاء عملك .

ونلاحظ هنا أن موسى عليه السلام لم يعترض على الخضر ولم يصدر عليه حكماً بالخطأ كما فعل في المرتين السابقتين ، فقد استفاد من الدرسين الماضيين واكتفى هنا بقوله : لو أردت أن تنال أجراً على عملك لنته ، وعلق الأمر هنا على مشيئة الخضر وإرادته ، وهنا أدرك الخضر عليه السلام أن موسى قد استفاد مما مر بهما من أحداث ، وأثمرت التجربة ثمرتها المرجوة ، فأنهى الخضر لقاءه مع موسى عليهما السلام مبيناً له حكمة ما صنع مما لم يستطع موسى الصبر عليه .

٧٨ - (قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) :

أى قال الخضر لموسى عليهما السلام ، بعد أن اعترض عليه لهدمه الجدار ثم بنائه لقوم بخلاء : حان لى فراقك وفقاً لتعهدك ، ولكنى قبل الفراق سأنبئك بتفسير ما قمت به من أعمال استدعت اعتراضك عليها ، لتدرك بواعث وأهداف هذه التصرفات ولكنك تعجلت فى الحكم عليها دون أن تدرك أسبابها وتقف على بواعثها .

جاء فى حديث البخارى عن هذه القصة بعد قول الخضر لموسى عليه السلام : « هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ... » الآية . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وَدِدْنَا أَنْ مُوسَى كَانَ صَبْرًا فَقَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَيْرِهِمَا » .

(١) والتعبير عن قرب سقوط الجدار بأنه يريد أن ينقض صورة بلاغية ، من باب الاستعارة المكنية التخيلية .

تنبيه وشكر للقراء الكرام

تم تفسير نصف القرآن عند الآية الثامنة والسبعين من سورة الكهف ، وبدأ تفسير النصف الثاني بمشيئة الله من قوله تعالى حكاية عن الخضر : «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر . . . الآية ٧٩ .

وقد جاء هذا التفسير - بتوفيق الله تعالى - بعيداً عن التعقيد خالياً من الإسرائيليات والفننيات الصعبة ، والأحاديث الموضوعة ، مع تحرى الدقة في التعبير عن المعنى الأساسي للنصوص الكريمة بقدر الإمكان ، ولانبرىء نفوسنا من الخطأ أو التقصير - فالكمال لله وحده .

وحسبنا أننا بذلنا الوسع ، ومهدنا السبيل إلى فهم كتاب الله تعالى على الوجه الأمثل .
وتتألف لجنة التنسيق حالياً من السادة الآتية أسماؤهم - حسب ترتيب الحروف الهجائية -
أصحاب الفضيلة :

- (١) الشيخ السيد مصطفى شريف .
- (٢) الشيخ طه الساكت .
- (٣) الشيخ عبد المهيمن الفقى .
- (٤) السيد الأستاذ على عبد العظيم .
- (٥) صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى محمد الحليدى الطير .

ويقوم الشيخ مصطفى محمد الحليدى الطير بمراجعة أعمال اللجنة بعد الفراغ من تنسيق كل حزب وتحقيقها ، تحرياً للدقة والصواب ، وإبراءاً للجنة ، وهو يباشر هذا العمل الدقيق منذ تفسير فاتحة الكتاب حتى الآن ، ولهذا ترى التفسير متقارب الأسلوب بقدر الطاقة .

ولقد أسعدنا قراؤنا الكرام في العالم الإسلامى ، بإقبالهم المنقطع النظير على اقتنائه - فما إن يظهر منه حزب في المكتبات ، حتى تنفذ عشرات الألوف من نسخه ، ولهذا نتقدم إليهم بالشكر الجزيل على هذا الإقبال ، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يمنحنا مزيداً من التوفيق في تفسير النصف الثانى من كتابه ، وأن يجرى القراء هناخير الجزاء ، وأن يوفقنا جميعاً لطاعته ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

رئيس اللجنة

مصطفى محمد الحليدى الطير

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبُ رَحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴿٨٢﴾ وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٣﴾)

المفردات :

(المساكين) : جمع مسكين ، وهو الضعيف العاجز ، أى كانت لضعفاء لا يقدرّون على مدافعة الظلمة ، ويشمل المسكين بهذا المعنى من كان ضعفه راجعاً إلى نفسه أو إلى بدنه . وهو مخالف للمراد منه في باب الزكاة . وسيأتى بعض التفصيل لذلك في التفسير .

(وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ) : وراء هنا بمعنى أمام . فهو من الموارد والغطية ، وهى كما تكون فيما خلفك تكون أيضاً فيما أمامك . ولا خلاف عند أهل اللغة في استعماله في المعنيين (فَخَشِينَا) : الخشية الخوف الشديد . (يُرْهِقَهُمَا) يُغْشِي والديه ويُغْطِيَهُمَا . (طُغْيَانًا وَكُفْرًا) : مجاوزة لحدود الله وكُفْرًا به ، (زَكَاةً) : طهارة من الذنوب وفساد الأخلاق . (رَحْمًا) : رحمة .

قال : رؤية بن العجاج :

يا منزل الرحم على إدريسًا ومنزل اللعن على إبليسًا

(كَنْزٌ لَهُمَا) : مال مدفون لهما . (أَنْ يَبْلُغَا أَشَدَّهُمَا) : أَنْ يَصِلَا إِلَى كَمَالِ قُوَّتِهِمَا الْعَقْلِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ ، وَفِي الصَّحَاحِ : الْأَشَدُّ الْقُوَّةُ . وَبَلُوغُ الْأَشَدِّ يَكُونُ مَابَيْنَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً إِلَى ثَلَاثِينَ . وَهُوَ مُفْرَدٌ جَاءَ عَلَى بِنَاءِ الْجَمْعِ ، مِثْلُ : (أَنْتَ) وَلَانْظِيرَ لَهُمَا ، وَقِيلَ هُوَ جَمْعٌ لِوَاحِدٍ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ . وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ .

(تَسْطَعُ) : مُضَارِعُ اسْطَاعَ بِمَعْنَى اسْتَطَاعَ ، وَهُوَ أَصْلُهُ فَخُفَّفَ بِحَذْفِ التَّاءِ .

التفسير

٧٩- (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) :

أَفَادَتِ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ نَفَذَ صَبْرَهُ مِنْ رُؤْيَا تِلْكَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي حَدَّثَتْ مِنَ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَمْ يَجِدْ لَهَا مَبْرَرًا ظَاهِرًا يَقْتَضِيهَا ، وَأَنَّ الْخَضِرَ اضْطُرَّ لِإِيْدَانِهِ بِمُفَارَقَتِهِ لِنَفَادِ صَبْرِهِ . وَعَدَمِ تَحْمِلِهِ مَا يَرَاهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ رِحْلَتُهُمَا إِلَى غَايَةِ أَبْعَدِ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ ، لَكَيْ يَخْبِرَهُ فِي نَهَائَتِهَا عَنْ كَثِيرٍ مِنْ أَسْرَارِ الْغَدِ الَّتِي يَخْفِيهَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَخْتَصُّ بِإِعْلَامِهَا بَعْضَ أَصْفِيَائِهِ .

وَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَمَابَعْدُهَا لِبَيَانِ مَا انْطَوَى وَرَاءَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي أَجْرَاهَا الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْمَسَاكِينِ هُنَا الَّذِينَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِ الظُّلْمِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، لَضَعْفِهِمْ فِي النَّفْسِ أَوْ فِي الْبَدَنِ وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ ، قِيلَ كَانَتْ لِعَشْرَةٍ ، خَمْسَةٌ مِنْهُمْ زَمَنِي ، وَخَمْسَةٌ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ .

وَهَذَا الْمَعْنَى لِلْمَسَاكِينِ غَيْرُ مَا قَالَهُ الْفُقَهَاءُ بِشَأْنِهِمْ فِي الصَّدَقَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ ، فَإِنْ مِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَ الْمَسْكِينَ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مَا يَقَعُ مَوْقَعًا مِنْ كِفَايَتِهِ وَكَفَايَةِ مَنْ تَلْزِمُهُ نَفَقَتُهُمْ ، كَمَنْ لَا يَكْسِبُ أَصْلًا أَوْ يَكْسِبُ دُونَ النِّصْفِ مِنْ كِفَايَتِهِ ، وَالْفَقِيرُ عِنْدَهُ هَؤُلَاءِ أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمَسْكِينِ فَهُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى مَا يَقَعُ مَوْقَعًا مِنْ كِفَايَتِهِ وَكَفَايَةِ مَنْ تَلْزِمُهُ نَفَقَتُهُمْ . كَمَنْ يَكْسِبُ سَبْعَةً وَلَا يَكْفِيهِ أَقَلُّ مِنْ عَشْرَةٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالْعَكْسِ . فَالْمَسْكِينُ عِنْدَهُ أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْفَقِيرِ ، وَسَوَاءٌ أَكَانَ الْفَقِيرُ بِمَعْنَى الضَّعِيفِ أَمْ بِمَعْنَى الْمَحْتَاجِ . فَهُوَ مَا خُذَ مِنَ السَّكُونِ ، فَكُلَاهُمَا سَاكِنٌ ذِلَّةٌ أَوْ ضَعْفًا ، أَوْ فَقْرًا .

والمعنى : أما السفينة التي خَرَقْتُهَا قبل أن تصل إلى الميناء ، فقد كانت لضعفاء من الناس يعملون في البحر أى يكسبون رزقهم بها عن طريقه ، ولا يقدرّون على مدافعة الظَلَمَةِ عن أنفسهم لضعفهم ، فأردت بخرقها أن أحدث فيها عيباً يمنع الظالم من مصادرتها وأخذها ، لوجود هذا العيب فيها ، ولم أَرِدْ أَنْ أغرق أهلها كما توقعت ياموسى ^(١) . وقد حكى الله عن الخضر - عليه السلام - السبب في خرقه إياها بقوله :

(وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً) :

والوراء : اسم لما يتوارى عن العين ، سواء كان خلفك أو أمامك ، فهو من أسماء الأضداد والمراد به هنا المعنى الثانى ، وبه قرأ ابن عباس : « وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ » .

والمعنى : وكان أمامهم أعوانٌ ملكٍ ظالم يأخذون له كل سفينة صالحة من أصحابها غصباً وقهراً ، وذلك إما على سبيل المصادرة والاستيلاء التام ، وإما على سبيل التسخير والاستغلال دون أجر ، ثم يردونها لذويها ، واستعمال الوراء بمعنى الأمام شائع في اللغة ، ومنه قول الشاعر العربي : أليس ورائى أن أدب على العصا . . . فيأمن أعدائى ويسأمنى أهلى

ولم تتعرض الآية الكريمة لما حدث للسفينة بعد نجاتها من الملك الظالم بسبب خرقها ، أعادَ الخرقُ إلى الانتقام بقدرته الله تعالى كرامة للخضر؟ أم أنه رَتَقَ هذا الخرق بنفسه؟ أم أن أصحابها من أصلحها؟ أم أصلحها سواهم بأجر من الخضر لأنه هو الذى خرقها؟ كل ذلك تركت الآية الحديث عنه لفطنة القارىء ، فإنه يعتقد أن ذلك المصلح لا يمكن أن يترك ما أفسده دون إصلاح بآى طريق ، ولكنها أبرزت الحكمة في خرقه إياها ، ليعلم موسى أن خرقها ليس لغرض الإغراق أو الإفساد ، بل لما أبداه من إنجائِها من الظَلَمَةِ .

(١) وأسد الإرادة إلى نفسه بقوله : « فأردت أن أعيبها » لأن عيبه لها إفساد في الظاهر ، فكان من الأدب أن لا ينسب إلى الله ، فلهذا لم يقل فأراد ربك ومثله ماسياتى في قتل الغلام « فأردنا أن يبدلها » أى فأردت بقتل إياه أن يبدلها الخ ، وكلاهما في الحقيقة بأمر الله وإرادته لقوله تعالى : « وما فعلته عن أمري » .

٨٠- (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا) :

أى وأما الغلام الذى قتلته أنا واعتزضت ياموسى على قتله دون ذنب ظاهر لك فهو غلام شرير بطبيعته ، وكان أبواه مؤمنين صالحين ، فتوقعت أن يغمرهما بمجاوزته الحدود الإلهية ، وكفره بالله تعالى ، فلهذا قتلته .

وفسر بعض العلماء إرهاقه لهما بالطغيان والكفر ، بأن يحملهما حبه - لو بقى حيا - على متابعتة ، وهذا التفسير مأثور عن ابن جبير .

ولكن الخوف من وقوع ذلك فى المستقبل لا يبرر قتله للغلام ، فقد لا يقع ، فلهذا فسر بعض شراح البخارى الخشية هنا بالعلم ، أى فعلنا من الله تعالى أنه لو بلغ لدعا أبويه إلى الكفر فيحييانه ، ويدخلان معه فى دينه لفرط حبهما له ، أو علمنا أنه لو بلغ لأرهبهما طغيانا عليهما وكفرا بنعمتهما ، بسبب عقوقه وسوء صنيعه ، فيلحقهما من ذلك شر وبلاء .

ومن العلماء من قال : إن الغلام كان شابا بالغا وكان شريرا كافرا ، ولا يمنع بلوغه من إطلاق لفظ الغلام عليه ، فإنه يستعمل لغة فيمن ظهر شاربته ، وفى الكهل ، وفى الشخص من حين يولد إلى أن يصير شابا - كما جاء فى القاموس - ويستدل أصحاب هذا الرأى بما جاء فى بعض الآثار من أنه كان يفسد ويقطع الطريق ، ويقسم لأبويه أنه مافعل ، فيقسمان بقسمه ويحميانه . فمن يطلبه ، ولعل هذا الرأى يؤيده ظاهر الآية التالية :

٨١- (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا) :

أى فأردنا بقتله أن يرزقهما الله بدله خيرا منه ، طهرا فى الدين والأخلاق ، وأقرب رحمة منه بهما ، أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنهما أبدلا جارية ولدت نبيا ، وقال الثعلبي : إنها أدركت يونس عليه السلام - فتزوجها نبي من الأنبياء ، فولدت نبيا هدى الله على يديه أمة من الأمم . والله أعلم .

٨٢- (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) :

أى وأما الجدار الذى أقمته بدون أجر ، وكان وشيك الانقضاء ، فكان لغلامين مات أبوهما فأصبحا بعده يتيمين فى القرية التى طلبنا الطعام من أهلها ، فبخلوا به علينا ، وكان

تحت هذا الجدار كنز لهما ، استحقاه عن قبلهما ، كأبيهما أو جد لهما أو غير ذلك ، وكان أبوهما صالحاً ، فرأيت من المروعة أن أُقيم الجدار على الكنز حذراً من انهيار المائل وظهور المكتوز تحته ، فيستولى عليه من لا يستحقه من الناس ، ولم يمنعني من البر باليتيمين بخل أهل هذه القرية علينا ، فإن للإحسان باليتامى أجراً عظيماً .

وكان هذا الكنز من ذهب وفضة ، كما أخرجه البخاري في تاريخه ، والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي الدرداء ، ولم تتعرض الآية السكرية لبيان من هو الذي أخفى الكنز تحت الجدار ، فإن كان أباهما أو جدّهما فهو حق لهما في شرعنا وشرع من قبلنا بلا خلاف ، وإن لم يعرف كائنه فيحمل استحقاقهم له على أنه كان حلالاً في شرعهم ، واحتج لهذا بما أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء . في هذه الآية قال : « أَجِلَّتْ لَهُمُ الْكُنُوزُ وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الْغَنَائِمُ . وَأَجِلَّتْ لَنَا الْغَنَائِمُ وَحُرِّمَتْ عَلَيْنَا الْكُنُوزُ » .

وقيل : إن الكنز لم يكن ذهباً ولا فضة بل كان صُحُفَ عِلْمٍ ، فقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال : ما كان ذهباً ولا فضة ، ولكن كان صحف علم . وروى ذلك عن ابن جبير أيضاً ، وقيل : إنه لوح من ذهب ، فقد أخرج ابن مردويه من حديث علي - كرم الله وجهه - مرفوعاً والبخاري عن أبي ذر كذلك ، والخرائطي عن ابن عباس موقوفاً ، أنه كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه « عَجِبْتُ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ كَيْفَ يَحْزَنُ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالرِّزْقِ كَيْفَ يَتَعَبُ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْحِسَابِ كَيْفَ يَغْفُلُ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ يَعْرِفُ الدُّنْيَا وَتَقْلِبُهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » والله أعلم بصحة ذلك .

ثم بين الخضر عليه السلام أنه كان يتلقى الأمر فيما يفعله من الله تعالى فقال :
(فَأَرَادَ^(١) رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) :

(١) إسناده الإرواء هنا إلى الله لأنه إنعام محض ، فناسب إسناده إليه تعالى بخلاف ما مر في السفينة والغلام فقد كان إسناده في الظاهر ، فلماذا أسنده الخضر إلى نفسه كما مر بيانه بالهامش ، وإن كان الكل بأمر الله .

أى فأراد مولاك ومربيك يا موسى أن يبلغ اليتمان كمال قوتهما فى الرأى والبدن ، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ، فأمرنى بإقامته ، وأولاً أنى أقمته لانقض وبرز الكنز من تحته قبل اقتنارهما على حفظه والانتفاع به ، وليس الذى فعلته من الأمور التى شاهدها يا موسى ناشئاً عن اجتهدى ورأى ، بل بوحى من ربك وربى ، ذلك الذى شرحته لك من أسرار تلك الأحداث هو مآل وعاقبة الأمور التى لم تستطع الصبر عليها ، حتى أبينها لك فى حينها .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٦﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٧﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ نُعْذِيبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٩﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٩٠﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٣﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩٤﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٥﴾)

المفردات :

(وَيَسْأَلُونَكَ) : السائلون قريش بتلقين اليهود ، أو اليهود أنفسهم .
 (عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ) : صفة ملك صالح عم ملكه معظم أنحاء الأرض ، وسيأتى بيان السبب فى وصفه بذى القرنين .

(مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ) : التمكين فيها بمعنى الإقدار عليها ، يقال : مَكَّنَهُ أى جعله قادرًا ،
ومكن له أى جعل له قدرة . (سَبَبًا) : أى وسيلة وطريقة .
(فَاتَّبَعَ) : أى فاتَّبَعَ فهُمَا بمعنى واحد هنا . (فِي عَيْنِ حِمَّةٍ) : أى فى عين ذات حمأة ،
وهى الطين الأسود - وذلك فى رأى العين - وسيأتى شرح ذلك باستفاضة .

التفسير

٨٣- (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا) :

ذكر الله قبل هذه القصة ما حدث بين موسى والخضر ، وعقبها بذكر قصة ذى القرنين ليكونا آية على نبوته صلى الله عليه وسلم ، فإن القصتين لا يعلمهما سوى أهل الكتاب ، فى حين أنه صلى الله عليه وسلم لا سبيل له إلى علمهما إلا بقراءة كتبهم ، أو بتعلمها منهم ، ولا سبيل له إلى قراءتها ، لأنه أُمى ، « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » . كما أنه لا سبيل له إلى تعلمها منهم ، لأنهم لا يوجدون بمكة ، ولم يكل له اتصال بهم ، ولهذا كانوا يَسْأَلُونَهُ عن تلك الغيبيات ، إما بتحريض قريش على سؤاله ، وإما بسؤالهم إياه بأنفسهم ، وأكثر الآثار تدل على أن السؤال حصل منهم قبل نزول هذه الآيات ، والتعبير بالمضارع (وَيَسْأَلُونَكَ) استحضار للصورة الماضية لغرابة سؤالهم إياه على سبيل الامتحان ، مع ما يشاهدونه عليه من الصدق والأمانة ، وما أيده الله به من الآيات البينات .

وذو القرنين ملك صالح مكن الله له فى المشارق والمغارب ، كما سيتضح من تفاصيل قصته إن شاء الله .

وقد اختلف فى شخصه ، فقليل هو الإسكندر المقدونى - وهو رأى معظم المفسرين ، قال النيسابورى : أَصَحُّ الأقوال فيه أنه هو الإسكندر بن فيلقوس الرومى الذى ملك الدنيا بأسرها ، إذ لو كان غيره لا نتشر خبره ولم يخف مكانه .

وقال الفخر الرازى : لما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين ملك الدنيا أو ما يقرب منها وثبت فى التاريخ أن من هذا شأنه لم يكن سوى الإسكندر ، وجب القطع بأن ذا القرنين

هو الإسكندر ، ثم قال وفيه إشكال ، فإنه كان تلميذاً لأرسططاليس الفيلسوف ، وكان على مذهبه ، فتعظيم الله له يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو حق ، وهذا بما لا سبيل إليه ، وأجاب الرازي عن هذا الاعتراض بما خلاصته أنه ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلاً ، فلعله أخذ منه ما حسن ، وترك منه ما لم يحسن .

ويقول الآلوسی في تأييد هذا الفهم : إن الحكماء تشاوروا في أن يسجدوا له لإجلاله وتعظيمه ، فقال لهم : لا يجوز السجود لغير الله - كما نقله الشهرستاني - ويلاحظ أن الإسكندر كان موجوداً قبل مبعث عيسى - عليه السلام - بثلاثمائة سنة كما نقله الآلوسی عن بعض المؤرخين .

وهناك من قال : إنه رجل يمانى ملك الأرض كلها . فقد ذكر أبو الريحان المنجم في كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) : أن ذا القرنين هو أبو كرب ابن عمير بن امرئ القيس ابن أفريقش^(١) وهو الذى افتخر به تبع اليماني في قوله :

قد كان ذو القرنين جسدی مسلماً^(٢) ملكاً علا في الأرض غير مقيد
بلغ المغارب والمشارق يبتغى أسباب ملك من حكيم مرشد
فرأى مآب^(٣) الشمس عند غروبها في عين ذى خُلب^(٤) وثأطة^(٥) حرمد

ثم قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن الملقبين بكلمة (ذى) كانوا من اليمن ، كذى المنار وذى نواس وذى يزن ، واختار هذا القول (كاتب حلب) وذكر أنه كان في عصر إبراهيم عليه السلام ، وأنه اجتمع معه بمكة وتعانقا .

وهناك من يرى أن ذا القرنين هو غورث الفارسي ، ويسميه اليهود (كورث) ويسميه اليونانيون (سائرس) وإطلاق ذى القرنين عليه عند أصحاب هذا الرأي ناشئ من رؤيا رآها النبي دانيال في منامه ، خلاصتها أن كبشاً كان واقفاً على شاطئ

(١) أفريقش جد أبي كرب ، استولى على المغرب ، وسميت أفريقيا باسمه ، ذكره الشيخ الطنطاوى جوهرى في تفسيره .

(٢) يريد من كونه مسلماً أنه مؤمن بربه مستسلم له . (٣) مآب الشمس رجوعها .

(٤) أى عين ماء ذى طين أسود . (٥) الثأطة : الحماة وهى الطين الأسود وكذا الحرمد .

النهر له قرنان ، وهو ينطح بهما شرقاً وغرباً وجنوباً ، ولا قِبَلَ لحيوان بالوقوف أمامه ، وذكر سفر دانيال المذكور أن المَلِكَ ظهر له وشرح رؤياه قائلا : إن الكيش ذا القرنين يمثل اتحاد مملكتي (ميديا - وفارى) ^(١) وأن يحكمها ملك قوى لا تقدر دولة على مواجهته ، وقد ظهر بعد هذه النبوءة بسنوات الملك (غورش) ملك الفرس المذكور ، فوحد (ميديا وفارى) وأنشأ منهما سلطنة عظيمة ، وهاجم بابل واستولى عليها ، وجاء عنه في سفر (أشعياء) ما خلاصته أن الله أخذ بيده اليمنى ليتم مرضاته وليجعل الأمم في حوزته ، وينزع القوة من سواعد الملوك ، ويفتح له الأبواب تلو الأبواب ، ويمنحه الخزائن المدفونة ^(٢) . وتسميته ذا القرنين على أنه الإسكندر المقدوني أو أبو كرب اليمنى ، لأنه بلغ ناصيتي مشرق الشمس ومغربها ، مأخوذ من قَرْنِ الشمس بمعنى ناحيتها وقيل : كانت له ضفيرتان من شعر فنسب إليهما - ذكره الثعلبي وغيره - والصفائر قرون الرأس عند العرب ، والوجه الأول في علة التسمية أولى بالقبول ، فإن وَصَفَ ذى القرنين ذكر على أنه علامة مميزة لهذا الفاتح العظيم ، وكونه ذا ضفيرتين من الشعر لا يصلح أن يكون علامة مميزة ، لأن إرسال الشعر وتصفيره من العادات القديمة للرجال والنساء جميعاً .

وبعد أن حكي لنا أظهر الأقوال في شخصيته نقول : إن شخصيته ليست من العقائد ، وإنما ذكرت قصته للوعظ والإرشاد فليكن هو الإسكندر المقدوني أو رجلاً حميرياً من اليمن ، أو ملكاً فارسياً فالقرآن لم يأتنا ليعلمنا تاريخ اليونان أو تاريخ الحميريين أو الفارسيين فإن القرآن أعظم من ذلك كله ، ولكنهم لما سألوه صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، أجابهم بما يجمع بين إجمال المطلوب لهم ، والدلالة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم والعبرة ، حيث أخبرهم بما لا يعلمه سوى أهل الكتاب ، وبين أن الملك الصالح العالم يؤيده الله تعالى وَيُمَكِّنْ لَهُ فِي أَرْضِهِ .

(١) انظر الإصحاح الثامن من سفر دانيال .

(٢) أشعياء إصحاح - ٤٥ - وقد جاء في هذا الإصحاح أنه يعتد أسارى وسبائين إسرائيل إلى فلسطين ، وكان غورش (كورش) معرقاً عند اليهود بذي القرنين ، تبعاً لرؤيا النبي دانيال المذكورة ، ولأنه كان له في عصره تمثال من الحجر بقدر القامة ، وعلى رأسه قرنان مصداقاً لهذه الرؤيا ، وكانوا يعرفون هذا عن كتبهم وأجدادهم ، وقد عثر على هذا التمثال في إيران في القرن التاسع عشر ، فلعل اليهود حين سألوا الرسول عن ذى القرنين ، كانوا يقصدون (كورش) المذكور ، لأنه هو الذي جاء ذكره بهذا العنوان في كتبهم .

والمعنى الإجمالى : ويسألك السائلون من قريش بتحريض اليهود ، أو اليهود أنفسهم يسألونك عن صاحب القرنين الذى جاب الأرض كلها ، قل أيها الرسول مجيبا لهم : سأقرأ عليكم من قصته نبأ مذكوراً ، أقرؤه على سبيل التلاوة من وحى الله تعالى الذى أوحاه إلى جلا وعلا .

٨٤ ، ٨٥ - (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَاتَّبَعَ سَبَبًا) :

أجمل الله قصته فى الآية الكريمة الأولى ، تمهيداً لتفصيلها فى الآيات المقبلة ، ومعنى الآية : إنما جعلنا له مكنة وقدره على التصرف فى الأرض ، وأعطيناه من أجل كل شئ وأراده فيها سبباً ووسيلة توصله إليها ، فلا يعوقه عن مراده عائق ، ومن هذه الأسباب سعة العلم وحسن التدبير ، والحكمة فى التصرف ، وتدريب الجنود ، واختيار القواد ، والعتاد الحربى ، فأراد التوجه إلى ناحية مغرب الشمس (فَاتَّبَعَ سَبَبًا) : أتبع واتبع بمعنى واحد أى اتبع طريقاً وأسلوباً من شأنه إنجاح غزوه للأقطار الغربية .

وقد أشارت الآية الكريمة « فَاتَّبَعَ سَبَبًا » إلى أن معالى الأمور لا تنال إلا باستعمال الأسباب الموصلة إليها ، وأن المجد لا يناله القاعدون الخاملون .

٨٦ - (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ^(١)) :

أى اتبع الطريق والسبب الموصل إلى مقصده ، حتى إذا بلغ فى فتوحاته منتهى الأرض من جهة مغرب الشمس ، ووقف عند حافة المحيط ، وجد الشمس - كما أدركها بصره - تغرب فى عين ذات حمأة ، والحمأة الطين الأسود .

وقرىء « فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ » وبها قرأ معاوية وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ولا منافاة بين القراءتين ، فإنه لما بلغ حافة اليابسة ، وقف ينظر إلى الشمس عند غروبها ، فرآها فى نظره كأنما تغرب فى عين متقدة نارية ، بسبب قرص الشمس الشديد الحمرة ، الذى يبدو كأنه وقدة من النار جعلت مكان اختفائها فى نظره ، كأنما هو عين حامية - وكما يتصورها الناظر تغرب فى عين حامية ، يتصورها تغرب فى عين ذات طين أسود ، فإنها لما غابت تحت الماء ، أصبح مكان اختفائها فيه مظلماً باهتاً بعد أن كان متقدماً .

(١) صفة مأخوذة من حثت البئر إذا كثرت حماتها - أى طينها الأسود .

ولما كان كلا الأمرين ضرباً من الخيال ، ناشئاً عن خداع النظر ، فلهذا قال تعالى :
« وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ » أو « فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ » على القراءتين ، أى هذا الذى
رآه أمر ناشئ في وجدانه وخياله ، وليس من الحقائق الواقعة ، فما أجمل تعبير القرآن
بقوله « وجدها » وما أحرأه بالإجلال والاعتبار .

وكما يراها الناظر عند غروبها تغرب في عين ماء حمئة أو حامية إذا كان على شاطئ
المحيط فإنه يراها تشرق خارجة من اليابسة ، وتغرب داخلية فيها إذا كان واقفاً على
متسع فسيح من أرضها ، والحقيقة أن الشمس لا تغرب في الماء ولا في اليابسة عند
الغروب ، ولا تشرق منهما عند الشروق فالشمس أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة ،
ولا تختفى عن مدارها ، والأرض تدور تحت أشعتها فتعم الشمس نصفها بضوئها ، لأنها على
شكل كرة ، فيكون النهار في القسم الذى استضاء بنورها والليل في القسم الآخر .

وكلما دارت الأرض اختفت أشعة الشمس عن بعضها ، فحل فيه الليل محل النهار ،
وظهرت أشعتها في بعض آخر تَكشَّفَ للشمس ، فَحَلَّ فِيهِ النهار محلَّ الليل .

والذى يحجب ضوء الشمس عن بعض الأرض هو البروز الكروى للأرض ، فهو الذى
يمنع أشعة الشمس عما انخفض منها بسبب حركتها الدائرية ، ولو كانت مبسطة
وغير دائرة لما غابت الشمس عنها ، ولكان وقتها نهاراً دائماً ، وأما ماورد في القرآن من أن
الأرض مبسطة فمحمول على ما هو في رأى العين ، كما في قوله تعالى في سورة نوح :
« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا » .

(وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) :

أى ووجد ذوالقرنين في طرف الأرض من ناحية المغرب ، وجد قوما عند العين التى
تخيلها وتخيل أن الشمس تغرب فيها ، وكان هؤلاء القوم مشركين ، كما هو شأن الناس
عند غياب المرسلين عنهم ، قال الله له على سبيل التخيير : يَاذَا الْقَرْنَيْنِ ، إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ
هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ بِالْقَتْلِ إِنْ أَبَوْا الْإِيمَانَ وَأَصْرُوا عَلَى الشَّرْكِ ، وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ أَمْرًا ذَا
حُسْنٍ ، بالمصابرة والمطاولة لعلهم يؤمنون وَيَرْشُدُونَ ، وكان تخيير الله لذى القرنين على
النحو السابق إما على لسان نبي كان موجوداً في هذا الزمان ، وإما على سبيل الإلهام .

٨٧- (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا) :

أى قال هذا الرجل الحكيم بعد أن خيره الله في شأن الكفار من أهل المغرب على النحو الذى بيناه فى شرح الآية السابقة - قال - : هؤلاء الناس سوف يكونون بعد دعوتهم إلى الحق قسمين : ظالمين ببقائهم على الكفر وإصرارهم عليه ، ومؤمنين تائبين من كفرهم ، فأما من ظلم نفسه ببقائه على الكفر والعصيان ، فسوف نعذبه بالقتل ، ثم يعيده الله بالبعث فيرده إلى حسابه وجزائه فيعذبه على كفره وعصيانه عذاباً منكراً فظيعاً .

ثم بين مآل المؤمنين التائبين كما حكاه الله عنه بقوله :

٨٨- (وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) :

أى وأما من آمن بالله وعمل صالحاً موافقاً لما شرعه الله على لسان نبي ذلك العصر ، فله المثوبة الحسنى فى الدارين ، جزاء له على إيمانه وصالح عمله ، وسنقول له مما نأمر به موافقاً لشرع الله - سنقول له - قولاً ذا يسر وسهولة فى مختلف التكاليف ، فإن الله لا يكلف نفساً إللاً وسعها .

٨٩- (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) :

ثم اتبع طريقاً موثقاً إلى المشرق ، ليرجع فيه بعد غزوه المغرب .

٩٠- (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجدهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا

سِتْرًا) :

حتى إذا بلغ ذو القرنين الإقليم الذى تطلع الشمس عليه أولاً فى ناحية المشرق على حافة المحيط ، وجدها تطلع على قوم بدائيين فطريين لم يرتقوا صناعياً ، حتى يصنعوا لأنفسهم ثياباً تسترهم وتجميهم من أشعة الشمس ، أو مساكن تؤويهم من حرارتها ، وقد يكون ذلك فى المنطقة التى يمكث فيها النهار أياماً متتالية فى فصل ، ثم يمكث الليل أياماً متتالية كذلك فى فصل آخر ، وأنه وصل إليها وقتما كان الزمن نهراً دون ليل ، والشمس طالعة فوقهم دائماً ، وليس لهم وقتئذ ليل يستترهم منها ، وأن ذلك هو معنى قوله سبحانه : « لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا » وقد أجمل الله كمال استعداد ذى القرنين لهذه الرحلة ، وعظم أمره وفخمه بقوله :

٩١ - (كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) :

أى كان الأمر فى الواقع مثل هذا الذى حكيناه عن ذى القرنين فى اليسر والسهولة ، وقد أحطنا علماً بما عنده من الوسائل التى حقق بها ما يريد من بلوغ أطراف الأرض مغرباً ومشرقاً .

٩٢ - (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلًا) :

ثم اتبنى طريقاً ثالثاً يصل منه إلى حيث يوجد يأجوج ومأجوج وجيرانهم الذين يتعرضون لفسادهم .

(حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۖ) ٩٣ قَالُوا يَبْنَدا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۚ) ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ
أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۚ) ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا
سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ
ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۚ) ٩٦ فَمَا اسْطَبَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا
اسْتَطَعُوا لَهُ نُقْبًا ۚ) ٩٧ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۚ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۚ * وَتَرَكْنَا
بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعَتَهُمْ
جَمْعًا ۚ) ٩٨

المفردات :

(بَيْنَ السَّيِّئِينَ) : بين الجبلين ، والسد الجبل والحاجز ، والمراد هنا الأول كما تقدم .
 (من دُونِهِمَا) : أى قريباً منهما ، والأصل فى استعمال لفظ . (دُون) أن يكون بمعنى تحت
 وبمعنى فوق ، وبمعنى أمام وبمعنى خلف ، أى أنه يستعمل فى الشيء ومقابله ، كما يستعمل
 بمعنى غير ، انظر القاموس . (لَا يَكَادُونَ) : لا يقربون . (يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ) : اسمان لقبيلتين
 وقد منع صرفهما . (أى تنوينهما) للعلمية والعجمة . (مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) : ما هنا بمعنى
 الذى و (مَكَّنِي) أصله مكنى بنونين ، فأدغمت الأولى فى الثانية أى ما جعلنى الله فيه
 مَكِينًا وعليه قادراً خيراً من خَرَجِكُمْ ، (رَدْمًا) : أى حاجزاً حصيناً وسداً منيعاً بعضه فوق بعض
 من قولهم سحاب مُرْدَمٌ . أى متكاثف بعضه فوق بعض . (زُبَرَ الْحَدِيدِ) : قطع الحديد ، جمع
 زبرة وهى القطعة . (الصَّدَفَيْنِ) : جانبي الجبلين ، ومفرده الصدف وهو الجبل ، ونقل فى
 الكشف أنه لا يقال للمنفرد صدف حتى يصادفه الآخر ، فهو من الأسماء المتضايقة ، كالزوج
 وأمثاله . (قَطْرًا) : القطر هو النحاس المذاب وهو قول الأكثرين ، وقيل الرصاص أو الحديد
 المذاب . (أَنْ يَظْهَرُوهُ) : أن يعلوه ويرتقوا فوقه . (نَقَبًا) : النقب الثقب والخرق .
 (دَكَّاءَ) : أى أرضاً مستوية . (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) : أى جعلناهم
 يضطربون ويختلطون .

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) : الصور آلة تشبه القرن ينفخ فيها ، وتسمى البوق أيضاً ،
 وسيأتى فى التفسير بيان آراء العلماء فى ذلك بمشيئة الله .

التفسير

٩٣ - (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّيِّئِينَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) :

لما أتم ذو القرنين رحلته إلى المشرق ، وأخضع أهله لحكمه ، اتخذ طريقاً ثالثاً ليخضع
 لسلطانه قوما آخرين لم يدينوا له بعد ، حتى إذا وصل فى سيره إلى منطقة تقع بين جبلين
 معينين ، وجد قريباً منهما قوما لا يقربون من أن يفهموا ما يقال لهم منه أو من أتباعه لقلة
 فطنتهم ، فإنهم لو كانوا أذكىاء لفهموا بعض ما يقال لهم بالقرائن .

ولعلمهم كانوا يتفاهمون معهم بالإشارة ليعلموا ما يراد منهم أو ما يجابون به على أسئلتهم
وستحدث عن مكان السدين وعن يأجوج ومأجوج حديثا مستفيضا بعد الفراغ من شرح
الآيات الكريمة التي أجملت الحديث عنهما .

٩٤ - (قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ
لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) :

أى قال القوم الذين هم دون السدين ، يشكون حالهم لدى القرنين ، لما علموه
من قوة سلطانه وعظيم همته ، بما سمعوه من أخبار رحلته - قالوا لدى القرنين - يا صاحب
القرنين الذى دان له المشرق والمغرب ، إن قبيلتي يأجوج ومأجوج المقيمتين خلف السدين ،
مفسدون فى الأرض التى نحن فيها ، كما أنهم مفسدون فى غيرها ، ونحن لا نقدر
على دفعهم عن بلادنا ، فهل نجعل لك عطاءً ومالا على أن تجعل بيننا وبين هؤلاء المفسدين
حاجزا بين هذين الجبلين يمنعهم من العودة إلى أرضنا والعيش فيها فسادا ، وقرأ حمزة
والكسائى وغيرهما «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا» بألف بعد الراء وكلاهما بمعنى واحد كالنول
والنوال ، وقال ابن الأعرابي : الخرج على الرؤوس والخراج على الأرض ، ولهذا يقال :
أَدْ خَرَجَ رَأْسُكَ وَأَدْ خَرَجَ أَرْضُكَ ، وقيل : الْخَرْجُ ما تبرعت به والخراج مالزملك .

٩٥ - (قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) :

قال ذو القرنين ردا على ما عرضوه من العطاء فى مقابل إقامة السد بينهم وبين يأجوج
- قال لهم - ما مكنى فيه ربى وجعلنى فيه مكيئا من الملك والمال والعلم وسائر الأسباب خير
مما تريدون بذله لى ، فلا حاجة بى إلى أموالكم ، فأعينونى على بناء السد الذى تريدونه
بما أقوى به على تحقيقه . من العمال وآلات البناء والوقود وقطع الحديد والنحاس ، وغير
ذلك مما يحتاج إليه فى إقامة حتى يساوى الجبلين ، ويكون شديد القوة بحيث لا يقدر
على صعوده ولا على اختراقه ، فإن فعلتم أجعل بينكم وبينهم ردما أى حاجزا حصينا وحجابا
متينا .

واعلم أن الردم في اللغة أقوى من مطلق السد ، مأخوذ من قولهم سحب مُرَدَّمٌ ، أى متكاثف بعضه فوق بعض ، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال عن الردم : (هو كاشد الحجاب) وعلى هذا يكون قد وعدهم بتحقيق مرادهم فوق ما يتخيلون وهذا هو ما يليق بملك عظيم مثله ، ثم فصل لهم بعض مطلوبه من القوة التي يعينونه بها فقال :

٩٦ - (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا) :

أى أعطوني قطع الحديد ، فأتوه بها ، فجعل يضع بعضها على بعض بطريقة تفتقى التماسك والارتفاع بالبناء ، حتى إذا ساءى ذو القرنين ما بين جانبي الجبلين بما بناه من السد قال لعماله : انفخوا بالكيران في الوقود الموضوع بين قطع الحديد بعد إشعال النار فيه ، ليصبح الحديد مثل النار ، فيلتصق بعضه ببعض ، ففعل العمال ما أمرهم به .

(حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا) :

هذه العبارة مترتبة على كلام مقدر مفهوم من المقام ، فكأنه قيل : ففعل العمال ما أمرهم به ذو القرنين من النفخ في الوقود المشتعل بين قطع الحديد ، حتى إذا جعل السد يشبه النار في شكله وفي حرارته قال لعماله الذين يقومون بإذابة القطر وهو النحاس أو الرصاص أو الحديد - قال لهم - أحضروا القطر الذى صهرتموه وأذبتموه لأفرغه على السد ، فأحضروه له فأفرغه عليه فسدت به الشغرات التي كانت بين قطع الحديد بعد أن تم احتراق الوقود الذى بينهما ، والتصق بعضها ببعض أشد التصاق .

٩٧ - (فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) :

أى فجاء بأجوج ومأجوج وقصدوا أن يعلوه أو ينقبوه ، فما استطاعوا أن يعلوا ظهره ويرتقوا فوقه لشدة ارتفاعه وملاسته ، وما استطاعوا له خرقا لصلابته وغلظه ، قيل : كان ارتفاعه مائتى متر ، وكان غلظه خمسين ذراعا ، والله أعلم بصحة ذلك .

وفي هذه الآية تساؤلات نذكرها ونجيب عليها فيما يلى ، ونسأل الله التوفيق :

س ١ : لماذا قال ذو القرنين لأهل ما بين السدين : « فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ » مع أنه امتنع عن أخذ المال منهم ، وقال : « مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ » ؟ .

والجواب : أن امتناعه عن أخذ المال لا يمنع من طلب عمال البناء والأدوات وقطع الحديد ليتقوى بذلك على تحقيق مرادهم على أن يدفع الأجر للعمال ولئن الحديد من ماله ، على أن السد لما كان لمصلحتهم ، فإن تبرعهم بالقوى العاملة ، لا يعتبر عطاءً أو أجراً على بنائه كما أن زبر الحديد قد تكون من منجم قريب من السد ، فإحضارهم إليها ، لا ينافي رفضه أجراً منهم . .

س ٢ : كيف يطلب من عماله أن ينفخوا على السور بعد أن بناه بقطع الحديد ، مع أن هذا النفخ لا يصهر الحديد دون أن يكون بين قطعه وقود مشتعل . ؟ . .

والجواب : أن هذا النوع هو من الاختصار القرآني المتروك فهمه لفطنة القارئ ، وهو من الصور البلاغية للقرآن الكريم ، ولا شك أنه أمرهم بوضع الوقود وإشعاله قبل أمرهم بالنفخ فيه ، وأن الأمر بالنفخ قرينة على ذلك .

س ٣ : لماذا أسند ذو القرنين العمل في السد لنفسه بقوله : « أَجْعَلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » كما حكى الله عنه أنه ساوى بين الصدفين وجعله ناراً ، مع أن كل ذلك تم بمباشرة مهندسيه وعماله . . ؟

والجواب : أنه لما كان ذلك يتم بأمره وإرشاده أسنده إلى نفسه على سبيل المجاز .

س ٤ : كيف يستطيع العمال أن ينفخوا في السور قريباً منه دون أن يحترقوا بناره ، وكيف يفرغون عليه النحاس المذاب مع حرارته الشديدة وناره المتقدة ، وارتفاعه العظيم وثخانتها البالغة خمسين ذراعاً على ما قيل ؟

والجواب : أنه لا بد أن يكون ذو القرنين قد وصل إلى حل لهذه المشكلات ، بحيث يمكنه تحقيق بنائه على النحو الذي تحدث به القرآن العظيم عنه ، دون إضرار بأحد العاملين فيه ، وكما أن العلم في عصرنا حل مشكلات كثيرة ، فالعلم والحضارة والحكمة عند هؤلاء القدماء بلغت الذروة ، فلا بد أنهم استعملوا آلات وطرقاً علمية لم يصل بعد أحد إلى معرفتها ولا تكاد العقول تصدقها ، ما لم تعرف ما كان عليه هؤلاء العظماء ، من العلم والحكمة والإبداع ، وما معجزة بناء الأهرام عنا ببعيدة عن العيون والأبصار ، وكم لله في خلقه من آيات وعظمت .

٩٨ - (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) :

بعد أن فرغ ذو القرنين من بناء السد وإحكامه بحيث يمنع يأجوج ومأجوج من الخروج من ورائه ليفسدوا في الأرض ، قال مشيراً إلى السد : هذا أثر رحمة عظيمة من ربى بعباده ، حيث أقدرنى على بنائه وإحكامه وحمى به الناس من غزوات أولئك المفسدين المخربين ، وما أنا إلا منفذ لمشئته ربى ورحمته بعباده ، ولو لا ذلك لما استطعت بنائه ، فإذا جاء موعد ربى بخروج يأجوج ومأجوج من محبسهم جعل هذا السد أرضاً دكاء أى مستوية ، وكان وعد ربى بخروجهم حقاً ثابتاً لا خلف فيه ، وكذا كل مواعيده جل وعلا ، وقد يقول قائل : من أين علم ذو القرنين أن هذا السد سيُدَكُّ وينهار ، وأن الله وعد بذلك ، وأنهم بعد دكه سيخرجون مع أنه ليس بنبي ؟

والجواب : أنه ربما علم ذلك من نبي كان في وقته ، أو يكون ذلك عن اجتهاد ، أو قراءة في كتاب نبي سبقه ، وفي ذلك يقول الآلوسى : وفي كتاب حزقيال عليه السلام الإخبار بمجيئهم في آخر الزمان ، من آخر الجرياء في أُمم كثيرة لا يحصيهم إلا الله تعالى ، وإفسادهم في الأرض ، وقصدهم بيت المقدس ، وهلاكهم عن آخرهم في بريته بأنواع من العذاب ، قال الآلوسى : وحزقيال عليه السلام قبل الإسكندر ، فإذا كان هو ذا القرنين ، فيمكن أن يكون وقف عليه ، فأفاده علماً بما ذكر . والله تعالى أعلم : انتهى كلام الآلوسى .

وبعد أن انتهى الحديث عن فتوحات ذى القرنين وإصلاحاته آن الأوان لذكر نبذة عن يأجوج ومأجوج ، وعن مكانهم ومكان السد ، وهل هو باق حتى الآن ، أم أن الله دكه دكاً ، وخرجت يأجوج ومأجوج من ورائه ليفسدوا في الأرض ، وإليك البيان فيما يلي :

يأجوج ومأجوج

هما قبيلتان من البشر ، وقد أحيطت قصتهم ببعض الخرافات ، لانرى موضعاً لذكرها في تفسيرنا هذا ، ويقول الناسبون : إنهم من ذرية يافث بن نوح عليه السلام ولعل منشأ قولهم هذا ما جاء في صدر الإصحاح العاشر من سفر التكوين من أن نوحاً عليه السلام ولد له ثلاثة أولاد ، سام وحام ويافث ، وأنه ولد ليافث جوقر ومأجوج وماداي ... الخ .

وفي هذا المعنى ورد حديث مرفوع جاء فيه (ولد لنوح سام وحام ويافث ، فولد لسام العرب وفارس والروم وولد لحام القبط والبربر والسودان ، وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة) وضعفه علماء الحديث ، والله أعلم ، وهما اسمان أعجميان ، أو عربيان مأخوذان من أجّ الظلم إذا أسرع ، أو من أجيج النار ، وهو ضوؤها وشررها ، وهذا المأخذ يشير إلى شرهم وفسادهم ، وأنهم مثل النار ولا جيرة لهم ، كما أن المأخذ الأول يشير إلى سرعتهم في شن الغارات على جيرانهم ، والعودة بغنائمهم إلى حيث يعيشون وراء الجبلين اللذين أقيم السد بينهما ، وهذان الجبلان كما يقول بعض الباحثين : (بين سمرقند والهند) وعلى هذا يكون المراد من يأجوج ومأجوج المغول والتتار .

وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالي ، وتنتهى غرباً إلى ما يلي بلاد التركستان ، وحددت في هضبات آسيا الوسطى شمال الصين ، ما بين الدرجة السابعة والعشرين والدرجة الخمسين من خطوط العرض الشمالية ، وبذلك تبلغ بلادهم في العرض ثلاثاً وعشرين درجة ^(١) .

وهذه الأمم عرفت في التاريخ بإغارتها على الأمم المجاورة من آن لآخر ، كما عرف عنهم تجاوز إفسادهم إلى أطراف الأرض ، فقد انحدروا من مرتفعات آسيا الوسطى إلى أوروبا وخربوها كما خربوا آسيا الغربية التي بعث فيها الأنبياء ، وكانوا يحذرون منهم أقوامهم ، وسنتحدث عن جرائمهم في عهد الإسلام بمشيئة الله .

اسم السد ومكانه

واسم السد الذي بناه ذو القرنين بين الجبلين المذكورين (سد باب الحديد) وراء جيحون في عمالة بلخ ، بقرب مدينة ترمذ .

وقد ذكر هذا السد كما وعد الله تعالى ، وإليه يشير قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا » .

(١) راجع ج ٩ من تفسير الجواهر ص ١٩٩ وقد نقله مؤلفه الشيخ طنطاوى جوهرى عن فاكهة الخلفاء ، وابن مسكويه في تهذيب الأخلاق ، ورسائل إخوان الصفا .

وقد اجتاز هذا السد تيمورلنك بجيشه ، ومربه (شاه روح) وكان في خدمته الألمانى (سيلدبرجر) الذى جاء ذكر السد فى كتابه ، وذلك فى أوائل القرن الخامس عشر ، كما جاء ذكر هذا السد فى رحلة الأسبانى (كلافيجو) سنة ١٤٠٣ م ، وكان رسولا من ملك قشتالة^(١) .

آراء أخرى فى مواطنهم

ويرى بعض المؤرخين أنهم يسكنون قريبا من خط عرض (٩٠) تسعين من جهة الشمال ، وأنه هو المراد بآخر الجربياء فى كتاب النبى حزقيال ، وأن جبليهم هما جبلا (أرمينية وأذربيجان) وأن سدّ ذى القرنين هو سد (باب الأبواب) المشهور ، وهذا يستلزم أن يكون يأجوج ومأجوج من الخزر والترك ، وأن الذى بنى السد هو ملك الفرس غورش الذى تقدم ذكره ، لأنه هو الذى بنى سد (باب الأبواب) - وهذا يخالف ما عليه أكثر المؤرخين من أن الذى بنى سد يأجوج ومأجوج هو الإسكندر المقدونى ، وقد بناه فى آسيا الوسطى شمال الصين ، واسمه « باب الحديد » .

أما سد (باب الأبواب) فقد بناه ملك الفرس بناحية أرمينية ، لأغراض تتعلق بأمن وسلامة أهل هذه المنطقة ممن كانوا يغيرون عليها من الهنغوليين ، فهم الذين حملوا شعب الخزر على الهجرة إلى شرق أوروبا ، بسبب كثرة غاراتهم عليهم ، وهناك اندمجوا فيهم ، والهنغوليون غير يأجوج ومأجوج ، الذين كانوا يسكنون بآسيا الوسطى شمال الصين وعلى أى حال فالسدّ الذى تحدث عنه القرآن وبناءه ذوالقرنين حقيقة واقعة سواء كان (سد باب الحديد) شمال الصين أم كان (سد باب الأبواب) بناحية أرمينية ، وكلاهما مصدق لما جاء به القرآن الكريم ، سواء بناه الإسكندر شمال الصين ، أم بناه الملك الفارسى بناحية أرمينية ، وإطلاق صفة ذى القرنين على هذا أو ذاك ، تقدم بيانه فى تفسير قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا »

(١) راجع ج ٩ ص ١٩٨ من تفسير الجواهر. للشيخ طهطاوى جوهرى .

جرائمهم في عهد الاسلام

قلنا إن سد يأجوج ومأجوج تخرب مصداقا لوعده تعالى : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ » الآية ، وقد خرجوا من محبسهم في غزوات تخريبية ، ومنها ما حدث في أوائل القرن السابع الهجري بقيادة ملكهم (جنكيزخان) حيث أغاروا على بلاد المسلمين فأطاحوا بملكمة (قطب الدين السلجوقي) ملك التركستان والفرس ، وأخضعوا بلاد الهند ، وهلك الطاغية (جنكيزخان) بعد رجوعه من الهند ، وأغار ابن أخيه (هولاكو) بجنوده على مقر الخلافة ببغداد في عهد الخليفة (المستعصم بالله) وذبحوا الخليفة ، وعلقوا جثته بذيل حصان وأباحوا المدينة تسعة أيام سالت فيها الدماء أنهارا ، وطرحوا كتب العلم في نهر دجلة ، ثم أذن الله بالنصر عليهم في عهد الملك (سيف الدين قطز) بعد أن وصلوا في غزواتهم المدمرة إلى الشام ، حيث جرد لهم جيشا عظيما من مصر والشام ، وحاربهم في معركة فاصلة بعين جالوت ، وهزمهم شر هزيمة ، وأجلاهم ولم تقم لهم بعدها قائمة .

وفي شأنهم هذا روى البخاري بسنده عن زينب بنت جحش رضى الله عنها (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوماً فزعاً يقول : لا إله إلا الله . ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها قالت زينب بنت جحش : أنهلك وفيينا الصالحون ؟ فقال نعم إذا كثر الخبث) .

وتعبيره صلى الله عليه وسلم عن الفتحة بالسد وتصويره إياها بتحليقه بإصبعيه الإبهام والتي تليها ، كناية عن بداية صغيرة لشرهم ، ثم اتسع هذا الشر في أوائل القرن السابع الهجري كما ذكرنا - والله تعالى أعلم .

التفسير

٩٩ - (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا) :

بعد أن حكى القرآن الكريم عن ذى القرنين أن هذا السد رحمة من ربه ، ذكر في هذه الآية ما فعله الله تعالى بيأجوج ومأجوج بعد إقامة السد ، وظاهر النظم الكريم أن الضمير في قوله تعالى : « بعضهم » عائد إلى يأجوج ومأجوج ، وعليه اقتصر الفخر الرازي ، واختاره صاحب البحر . والتَّركُ هنا بمعنى الجعل ، وهو من الأضداد .

والمعنى على هذا : وبعد تمام السد جعلنا يأجوج ومأجوج يموج بعضهم في بعض ، أى يضطربون اضطراب موج البحر لما مُنعوا من الخروج والفساد في الأرض بسبب السد ، ولا يزالون مائجين مضطربين ، حتى ينجز الله وعده الحق ، فَيَنْدُكُ السد ويسوى بالأرض ، وحينئذ يخرجون مزدحمين في البلاد ويهلكون الحرث والنسل .

وقيل : إن الضمير عائد إلى الخلائق من الإنس والجن . وعلى هذا الرأى يكون معنى الآية ما يلي :

وجعلنا بعض الخلائق يضطربون اضطراب أمواج البحر ، يختلط إنسهم بجنهم من شدة الفزع والهول عند قيام الساعة ، روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما - قال الآلوسى : ولعل ذلك لعظائم تقع قبل النفخة الأولى .

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) : الصور هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بأمر الله تعالى ، كما ثبت في السنة وهو بوق عظيم جسدا ، جاء في الآثار من وصفه ما يدهش العقول ، ولكننا نوّمن به ، ونكل حقيقته إلى من أحاط بكل شيء علما ، وقد صَحَّحَ عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَيْفَ أَنْعُمُ وَقَدْ التَّقَمَ صَاحِبُ الْقُرْنِ الْقُرْنَ وَحَنَى جَبِينَهُ وَأَصْفَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ فَيَنْفُخَ »^(١) ، وهو ينفخ فيه نفختين : الأولى نفخة الصعق والأخرى نفخة البعث والقيام من القبور ، وهما المذكورتان في قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ »^(٢) .

والمراد هنا النفخة الأخرى بدليل ما بعدها ، والضمير في قوله تعالى : « فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا » للخلائق كلها ومنهم يأجوج ومأجوج - أى عقب النفخة الأخرى في الصور ، والقيام من القبور ، نجمع الخلائق كلها جمعا عظيما هائلا : أولهم وآخرهم ، إنسهم وجنهم ، مؤمنهم وكافرهم بعدما تفرقت أوصالهم ، وتمزقت أجسادهم - نجمعهم في صعيد

(١) وذهب أبو عبيدة إلى أن الصور جمع صورة ، وأيده بقراءة الحسن (الصور) بفتح الواو ، وعلى هذا يكون النفخ في الصور كناية عن إحياء الخلائق ، لجمعهم وحسابهم وجزائهم .

(٢) الزمر - الآية : ٦٨

واحد للحساب والجزاء ، كما قال الله تعالى : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ »^(١) ، وقال سبحانه : « وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا »^(٢) .

(وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ
أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾)

المفردات :

(وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ) : أظهرناها . (أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ) : أعينهم عليها غشاء يمنعها من البصر .
(عَنْ ذِكْرِي) : عن الآيات التي تذكرهم بي .

التفسير

١٠٠ - (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا) :

هذا إخبار منه تبارك وتعالى ، عما يفعله بالكفار يوم يجمع الخلائق للحساب والجزاء .

والمعنى : وأبرزنا جهنم وأظهرناها للكافرين إظهاراً جلياً حيث يرونها ، ويسمعون لها تغيطاً وزفيراً ، ويبصرون ما أعد لهم فيها من العذاب والنكال قبل دخولهم ، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم ، وليعلموا أنهم واقعوها لا يجدون عنها مصرفاً .

١٠١ - (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ...) الآية .

وهذا بيان منه سبحانه لبعض أوصاف الكافرين الذين استحقوا بسببها هذا العذاب والنكال ، أى هؤلاء الكافرون بي كانت أعينهم - وهم في الدنيا - في غشاوة محيطظة بها ، فتغافلوا وتعاموا عن النظر في آياتي المُنْبِئَةِ في الأنفس والآفاق ، المؤدية إلى توحيدى وتمجيدى وذكرى وطاعى ، ويجوز أن يراد ذكره تعالى الذى أنزله على رسله ودعا إليه عباده .. وقوله

تعالى : « وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا » . نفى لسمعهم آياته على أتم وجه وأبلغه ، والمراد أنهم مع تغافلهم وتعاميتهم عن التدبير في آياته تعالى ، كفاقدى السمع أصالة ، فهو تصوير لإعراضهم عن سماع ما يرشدكم إلى ما ينفعهم . بعد تعاميتهم عن آياته المؤدية إلى ذكره وما ينبغى لجلال وجهه - والتعبير عن إعراضهم عن الذكر بأنهم كانوا لا يستطيعون سماعاً ، يؤذن بأن ذلك كان دأبهم الذى اعتساده واستمروا عليه وقد أفادت الآية أنهم سدوا على أنفسهم منافذ العلم من السمع والبصر .

(أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي
أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ
نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِعَايَتِ رَبِّهِمْ وَلِقَايَهُ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا
وَآتَّخَذُوا أَيْتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾)

المفردات :

(أَفَحَسِبَ) : الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ ، والحسبان بمعنى الظن . والفاء عاطفة على مقدر مناسب سيأتى فى التفسير . (أَوْلِيَاءَ) : أى معبودين أو أنصاراً .
(أَعْتَدْنَا) : أى أعددنا وهيأنا . (نُزُلًا) : أى شيئاً يقدم لهم ، كالذى يقدم للنزول أو الضيف . وقيل النزول : موضع النزول ، ولذلك فسره ابن عباس رضى الله عنهما بالمشوى .
(ضَلَّ سَعْيُهُمْ) : أى ضاع عملهم وبطل عند الله عز وجل .

التفسير

١٠٢ - (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ) الآية .

لما بين الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة ضلال الكافرين وتغافلهم عن التدبر في آياته الهادية إلى ذكره وطاعته - أنكر عليهم في هذه الآية اتخاذهم بعض عباده آلهة يعبدونهم من دونه ، أو أنصاراً ينصرونهم ويخلصونهم من عذابه .

والمعنى : أجهل هؤلاء الذين كفروا بي فظنوا أن اتخاذهم بعض عبادي آلهة أو أنصاراً ينجيهم من عذابي ! كلا ، إنهم بظنهم هذا لى ضلال مبين ، ولو كان أوليناؤهم من الملائكة أو العباد المقربين ، ثم أكد سبحانه هذا الإنكار على الكافرين به فقال :

(إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا) : أى إنا هيأنا لهؤلاء جهنم جزاء على عبادتهم لغيرنا واتخاذهم أولياء . وفي هذا ما فيه من التهكم بهم والتخطفة في حسابهم ذلك ، مع الإيماء إلى أن لهم من وراء جهنم ألواناً أخرى من العذاب^(١) ، وليست جهنم إلا مقدمة له . وأما إذا كان النزل بمعنى المنزل أو المشوى ، فالمراد بيان انعكاس مقصودهم من النجاة إلى الهلاك .

١٠٣ - (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) :

قيل إن المراد بهؤلاء الأخسرين : أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، ولكن ظاهر الآية الكريمة أنها عامة في كل من عبد الله على غير شريعته التى شرعها لعباده ، يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول ، ولكنه مخطئ وعمله مردود عليه .

أى قل أيها الرسول للمشركين خاصة وللكافرين عامة : هل أخبركم بأشد الناس خسرانا لأعمالهم وحرماناً من ثوابها ؟ ! ثم فسرهم بقوله :

١٠٤ - (الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) :

أى أن الأخسرين أعمالاً من سائر الملل والنحل هم الذين أتبعوا أنفسهم في أعمال يبيغون بها ثواباً وفضلاً ، فنالوا بها هلاكاً وخسراً ، كالذى اشترى سلعة يرجو بها ربحاً عظيماً ، فخاب

(١) فإن لفظ « النزل » يعبر به عما يقدم للضيف أول ما ينزل من غير كلفة ، ويكون عادة مقدمة لما يقدم له بعد بمثابة ، وقد عبر به هنا عما يقدم للكافرين أول نزولهم للعقاب وهو جهنم ، فاذنك بما يكون بعدها ؟

رجاؤه وخسر بها خسراناً مبيناً . وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً » ^(١) وقوله تعالى : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً » ^(٢) . ثم بين سبحانه ما ترتب على كفر أولئك الأخسرين أعمالاً من الجزاء السيء على ما صنعوا فقال :

١٠٥ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ . .) الآية .

أى أولئك الضالون الخاسرون ، وهم يحسبون أنهم يحسنون ، هم الذين جحدوا آيات ربهم ودلائله الداعية إلى توحيدهم وتمجيده ، وضموها إلى جحودهم آيات ربهم إنكارهم البعث في اليوم الآخر وما يتبعه من الجزاء على الأعمال ، فمن ثم حبطت أعمالهم وبطلت وإذا : (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) : بل نزدري بهم ونحتقرهم ، ولا نجعل لهم مقداراً ، لأنه لا مقدار لأحد إلا بالعمل الصالح ، وأولئك مجردون من صالح الأعمال ، وقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضى الله عنه : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، وَقَالَ : اقْرَأُوا إِنَّ شَتْمَكُمْ : « فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا » أو المعنى لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزاناً لأنها قد حبطت وصارت هباءً منثوراً . وقوله تعالى :

١٠٦ - (ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا) :

بيان لما لك كفرهم وسائر معاصيهم . إثر بيان أعمالهم الْمُحْبَطَةِ بذلك الكفر ، أى ذلك جزاؤهم الذى جزيئناهم به بسبب كفرهم بى ، واتخاذهم رسلى وآياتى التى أَيْدَتْهُمْ بها - هُزُؤًا وسخرية ! فلم يكتفوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل ، بل ارتكبوا عظمة أخرى مثلها ، وهى الاستهزاء بالمعجزات الباهرة التى أيدت بها رسلى عليهم السلام وبالصحف المنزلة عليهم .

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ
الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾)

المفردات :

(الْفِرْدَوْسِ) : أعلى درجات الجنة وأوسطها وأفضلها . وأصله في اللغة : البستان
الجامع لكل مافي البساتين . (حِوَلًا) : أى تحولا وانتقلا .

التفسير .

١٠٧ - (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) :

بعد أن ذكر الله سبحانه ما أعده من العذاب للذين كفروا بآيات ربهم واستهزؤوا
برسله - ذكر جزاء الذين آمنوا به وبلغائه وعملوا الصالحات ، قال الآلوسى تبعاً لأبي السعود :
هذا بيان - بطريق الوعد - لمسأل الذين اتصفوا بأضداد ما اتصف به الكفرة ، إثر بيان
مآل الكفرة بطريق الوعيد ، أى : إن الذين آمنوا بآيات ربهم وبلغائه سبحانه ، وعملوا الأعمال
الصالحات ، كانت لهم فيما سبق من حُكْمِهِ تعالى ووعدِهِ جنات الفردوس أعلى الجنات منزلة
وأرفعها درجة ، أخرج البخارى ومسلم وابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ تَعَالَى فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ : فَإِنَّهُ وَسْطُ الْجَنَّةِ
وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) . وفى التعبير بقوله : « كَانَتْ
لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » . إيماء إلى أن أثر الرحمة ، يصل إليهم بمقتضى الرأفة الأزلية ،
بخلاف مانر من جعل جهنم للكافرين نُزُلًا ، فإنه بموجب ماحدث من سوء اختيارهم .
انظر تفسير أبى السعود . .

١٠٨- (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) :

أى مقيمين ساكنين فيها لا يظنون عنها أبداً . قال ابن كثير : وفى قوله : « لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها ، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم فى المكان دائماً أنه قد يسأله أو يملكه فأخبر أنهم مع هذا اللوام والخلود السرمدي . لا يختارون عن مقامهم ذلك تحولا ولا ظعناً ولا رحلة ولا بدلاً . أ هـ .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۝١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٠)

المفردات :

(مِدَادًا) : المداد فى الأصل : اسم لكل ما يُمدُّ به الشيء ، واختص فى العرف بما تُمدُّ به اللواة من الحبر . (يَرْجُو) : يأمل أو يخاف .

(لِكَلِمَاتِ رَبِّي) : أى لكلماته الإبداعية والتشريعية والخبرية ، فى اللوح المحفوظ وفى القرآن الكريم ، وفى شئون الكون حاضره ومستقبله ودنياه وأخراه .

التفسير

١٠٩- (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي)

... الآية .

سبب النزول :

روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن حُبَيْبَ بن أُخْتَبِ قال : فى كتابكم : « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » ثم تفرعون : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » ومراده الاعتراض بوقوع التناقض فى القرآن الكريم ، بناءً على أن الحكمة هى العلم فكيف يكون العلم فى القرآن شيئاً قليلاً فى آية ، وخيراً كثيراً فى آية أخرى ، وقد غفل هؤلاء اليهود ، عن أن الشيء الواحد قد يكون قليلاً فى حالة ، وكثيراً فى حالة أخرى فالآية جواب عن اعتراضهم بالإشارة إلى أن القلة والكثرة من الأمور الإضافية ، فيجوز أن يكون الشيء كثيراً فى نفسه ، وهو قليل بالنسبة إلى شيء آخر ، ولا شك أن التوراة ليست كل كلام الله تعالى ، بل هى بعض قليل منه ، ويكفى فى كتابتها مداد قليل ، أما كلامه تعالى الشامل للتوراة وغيرها من شئون الكون فكثير لا يكفى فى كتابته مداد البحر .

ومعنى الآية : قل لهم أيها الرسول : لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذى تكتب به كلمات ربى فى التشريع والتكوين وغيرهما ، لَنَفِدَ هذا المداد وفنى قبل أن تنفذ كلمات ربى وتفنى ، ولو جئنا بمثل هذا الماء العظيم مداداً وعوناً ، لَأَن جَمِيع ما فى الوجود على التعاقب والاجتماع - مُتَنَاهٍ ، وعلم الله وكلماته لا تنتهى ، والمتناهى لا ينفى البتة بغير المتناهى .

والمراد أن كلمات الله تعالى لا يعتريها فناء ولا نقص ، وعلمه لا غاية له ولا نهاية ، فما علم العباد جميعاً بجانب علمه تبارك وتعالى إلا كقطرة من ماء البحور كلها . وفى معنى الآية الكريمة قوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »^(١) . ثم ختم سبحانه السورة الكريمة بنحو ما بدأها به من البشارة والندارة فقال :

١١٠ - (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ . . .) الآية .

أى قل أيها الرسول للمشركين وللناس جميعاً : إنما أنا بشر مثلكم من بنى آدم ، لا أدعى الإحاطة بكلماته جل وعلا ، ولا أعلم إلا ما علمنى ربى ، وقد أوحى إلى أنما إلهكم الذى يجب أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً هو إله واحد لا شريك له .

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) : أى فمن كان يأمل تكريم ربه إياه بالثواب وحسن الجزاء عند لقائه ، فليعمل عملاً صالحاً موافقاً

لشريعة الله ، ولا يُرَدُّ بعبادة ربه إلا وجه ربه وحده لا شريك له ، وهذان هما الركنان اللذان لا بد منهما لكل عمل متقبل ، أن يكون خالصاً لله سبحانه ، وأن يكون صواباً وفق شريعة رسوله صلى الله عليه وسلم أو المعنى : فمن كان يخاف سوء لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً خالصاً لوجه ربه ولا يخلط به غيره .

روى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى : (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ . مَنْ عَمَلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي . تَرَكْتُهُ وَشُرَكَهُ)^(١) . وروى الشيخان عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَمِعَ ، سَمِعَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ »^(٢) .

وروى مسلم عن أبي هريرة أيضاً^(٣) قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ ، رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نَعْمَ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نَعْمَ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ : قَارِئٌ . فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نَعْمَ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يَنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لِلَّهِ ، قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ : هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ » .

والله المستعان على الإخلاص في النيات والأقوال والأعمال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(١) هذا كناية عن إحباط ثوابه وحرمانه من أجره ، لما اقترفه من ترك الإخلاص فيه والحديث يعم الشرك الجلي وكذا الشرك الخفي المعبر عنه بالرياء .

(٢) أى من سمع الناس بعمله ، أو رآهم به ليحمدوه ويشنوا عليه ، أظهر الله سريرته لهم وملا ألباعهم من سوء الحديث عنه في الدنيا والآخرة ، فلم يظفر بما أظهره إلا ببداية ما انطوى عليه من خبث السريرة .

(٣) في كتاب الإمامة : باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مريم

تمهيد :

هذه السورة التاسعة عشرة في ترتيب المصحف .

ووجه مناسبتها لسورة الكهف اشتغالها على نحو ما اشتملت عليه من الأعاجيب . كقصة ولادة يحيى ، وقصة ولادة عيسى عليهما السلام . ولذلك ذكرت بعدها ، وهى مكية إلا آية السجدة (٥٨) . وآية الورود على النار (٧١) . وعدد آياتها ثمان وتسعون وقد حوت طائفة كريمة من قصص الرسل وأنبياء الغيب .

افتتحها الله تعالى بقصة زكريا عليه السلام إذ دعا ربه أن يهبَ له ولياً يرثه في الدعوة إليه والحفاظ على شريعته . فاستجاب له ربه وبشره بغلام سماه يحيى ولم يجعل له من قبل سمياً وآتاه الحكم صبياً . ولما تعجب زكريا من خلق الولد من أم عاقر وأب بلغ من الكبر عتياً - أوحى إليه ربه أن هذا الخلق « هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً » ثم ذكر تعالى قصة مريم عليها السلام . . . وهى أعجب من قصة زكريا !! وفيها أن جبريل عليه السلام تمثل لها بشراً سوياً . ففزعت واستعاذت بالرحمن منه . فطمأنها بأنه رسول ربها ليهب لها غلاماً زكياً . فلما تعجبت من أن يكون لها غلام ولم يمسه بشراً ولم تَكُ بَغِيًّا - « قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا » .

وكذلك كان عيسى عليه السلام آية من آيات ربه الكبرى : في حمله وولادته . وقوله في المهد : « إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ .. » ثم قال تعالى : « ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

ثم ذكر تعالى قصة إبراهيم عليه السلام وهو يدعو أباه إلى الصراط السوي ، بأرق ما تكون الدعوة من الرفق والحنان ، فيقول : « يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا . يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا » . فيقابل أبوه هذا الرفق والحنان ، بأشق ما يكون من العنف والقسوة والجحود والعصيان ، فيقول : « أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا » . وهناك لم يجد إبراهيم عليه السلام بداً من أن يعتزل أباه وقومه وما يعبدون من دون الله . قال تعالى : « فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُمُ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا » .

ثم ذكر تعالى كلمته موسى عليه السلام ومناجاته إياه في الطور ، وهبة الله له أخاه هرون نبياً . ثم أثنى سبحانه على إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد ، وأمره أهله بالصلاة والزكاة « وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » . وعلى إدريس عليه السلام بأنه : « رَفَعَهُ مَكَانًا عَلِيًّا » . ثم أثنى تبارك وتعالى على المصطفين الأخيار من عباده فقال : « أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَآئِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا » .

وذم الذين خلفوهم من بعدهم ، فلم يهتدوا بهديهم ، بل أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون جزاءهم « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا » . وما ذكره الله تعالى في هذه السورة الكريمة ، أنه يحشر الكافرين يوم القيامة مع قرنائهم من الشياطين . . وأن جميع الخلق يردون جهنم : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » وبعد ذلك يستنكر سبحانه أشد الاستنكار ، ما زعمه الزاعمون من اتخاذهم ولداً ، إذ يقول : « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا » ثم يعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنه سيجعل بينهم محبة ووفاً ثم يختم سبحانه السورة الكريمة ببيان

تيسيره القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم وقومه ، بإنزاله بلسانه ولسانهم ، حيث أنزله « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » . ليسهل عليه تبليغهم كتاب ربهم . ويبشر به المتقين بحسن المشوبة . وينذر به المجادلين المعاندين بشديد العقوبة . إذ يقول : « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا » .

وأخيرا يضرب الله المثل بأمثالهم الذين أهلكهم في القرون الماضية فلم يُبقِ منهم أحدا . فيقول - وقوله الحق - : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » ذلك . ومما يلاحظ في هذه السورة الكريمة أنه كثر فيها ذكر الرحمة والرحمن ، لما تجلى فيها من رحمة الله على عباده وهم في أشد الحاجة إليها ! !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(كَهَيْعَصَ ١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً ٢ إِذْ نَادَى
رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ
الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ
الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَى وَكَانَتْ أَمْرًا نِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِي يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦)

المفردات :

(نَادَى رَبَّهُ) : أى دعا ربه عز وجل . (وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) : ضعف عظمى ورق لكبر
سنى . (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) : وتغلغل الشيب فى رأسى وفشأ فيه . (الْمَوَالِيَ) : المولى :
هو القريب الذى يلى أمر الرجل من عصبته ، كالأخ والعم وابن العم . (عَاقِرًا) : عقيماً
لاتلد . (وَلِيًّا) : ابناً من صلبى يلى الأمر بعدى . (رَضِيًّا) : مرضياً عندك قولاً وفعلًا .

التفسير

١ - (كَهَيْعَصَ) :

افتتح الله تبارك وتعالى تسعاً وعشرين سورة بأسماء بعض الحروف الهجائية ، وسورة
مريم واحدة منها . وقد قال كثير من المفسرين : إن معانى هذه الحروف من التشابه الذى
استأثر الله تعالى بعلمه ، وهو أعلم بمراده منها . وقال بعضهم : هى أسماء للسور التى افتتحت
بها ، وقال بعضهم : هى رمز للتحدى ، بالإشارة إلى أن القرآن الكريم ، مكون من جنس
ما يَنْظُمُ العرب منه كلامهم ، فإذا عجزوا جميعاً عن الإتيان بسورة من مثله - وهم أئمة

الفصاحة والبلاغة - وجب التسليم بأنه من عند الله عز وجل ، وبأن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يأتي بسورة منه ^(١) .

٢- (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا) :

أى هذا الذى نقصه عليك- أيها الرسول - هو ذكر رحمة ربك لعبده ورسوله زكريا ، وهذا إجمال يأتى تفصيله قريباً . وزكريا عليه السلام نبي ورسول من أنبياء بنى إسرائيل ، من ولد سليمان بن داود عليهما السلام . روى الحافظ ابن كثير وغيره أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده فى النجارة ، وهكذا كان الأنبياء يأكلون من عملهم . وقوله تعالى :

٣- (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا) : مرتبط بقوله سبحانه : « ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ » .

أى أن رحمة ربك أحاطت بعبده زكريا ، حين دعا ربه دعاءً مستوراً عن الناس ، ولم يسمعه أحد منهم وإنما أخفى دعاءه عليه السلام ، وأسر به وهو يتضرع إلى ربه ، لأن الأسرار بالدعاء أدل على الإخلاص ، وأبعد عن الرياء ، وأقرب إلى الخلاص من لائمة الناس على طلب الولد وقت الكبر والشيخوخة .

قال ابن كثير عن بعض السلف : قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه ، فجعل يهتف بربه ، يقول خفية : يارب ، يارب ، يارب ، فقال الله له : لبيك لبيك .

٤- (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي . .) الآية .

هذا تفصيل وتفسير لكيفية ندائه ربه عليه السلام .

أى : إني ضعف عظمى ورق لكبر سنى . والمراد : ضعفت وخارت قواى . وإنما أسند الضعف إلى العظم ، لأن العظام عماد البدن ودعائم الجسد ، فإذا أصابها الضعف والرخاوة تداعى ماوراءها وتساقطت قوته !

(وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) : أى فشا الشيب وتغلغل فى رأسى ، وسرى فيه كما تسرى النار فى الحطب . (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) : أى ولم أكن بدعائى إياك خائباً فى

(١) راجع ما كتبه عن هذه الفواتح : أول سورة البقرة ، وسورة الأعراف ، وسورة يونس .

في وقت من أوقات هذا العمر الطويل ، بل كلما دعوتك استجمت لي ، توسل عليه السلام إلى ربه في استجابة دعائه بما سلف من الاستجابة له عند كل دعوة دعاها - إثر تمهيد ما يستدعي الرحمة به من كبر سنه وضعف قوته ، فإنه تعالى بعد ما عود عبده الإجابة دهرًا طويلاً لا يكاد يخيبه أبداً ، ولا سيما عند اضطرابه وشدة افتقاره ، وفي هذا التوسل من الإشارة إلى عظم كرم الله عز وجل ما فيه . . ويذكر المفسرون هنا ما يروى أن حاتماً الطائي - أو معن ابن زائدة - أتاه سائل فسأله وقال : أنا الذي أحسنت إليه وقت كذا ، فقال : مرحباً بمن توسل بنا إلينا ، وقضى حاجته . . وأين كرم الكرماء أجمعين ، من كرم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم . .

هـ - (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا . .) الآية .

هذا عطف على قوله : « إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي . . » مندرج فيما يستدعي رحمة ربه واستجابة دعائه ، أي وإني خشيت أقاربي الذين يلون الأمر من بعد موتي ، ألا يحسنوا الخلافة ، فيسيثوا إلى الناس ، ولا يقوموا مقامى في الدعوة إليك والحفاظ على شريعتك وإنما خافهم لأنهم كانوا من شرار بني إسرائيل ، وكانت امرأته عاقراً لا تحمل ولا تلد ، من شبها إلى شبيها ، وهذا مما يزيد أقاربه تلهفا على خلافته وإن لم يحسنوها .

قدم عليه السلام في ندائه لربه وضراعه إليه ، ضعف قوته وكبر سنه وشيخوخته ، وخوفه من مواليه مع عقم امرأته - قدم هذا بين يدي سؤاله ربه هبة طيبة من ذريته^(١) وذلك قوله : (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا) :

أي أعطني من فيض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة ، ابنا من صلبى بلى الأمر من بعدى يقوم مقامى ويحسن خلافتي ، وإني وإن كنت متقدماً في السن ، وكانت امرأتى عاقراً - ولا تزال - فإنك قادر على تحقيق مطلبي من غير الأسباب العادية ، وأنت إذا أردت ، قلت للشيء : كن ، فيكون . ثم وصف عليه السلام وليه الذي استوهمه من ربه فقال :

(١) اقتباس من قوله تعالى في سورة آل عمران : « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك

سميع الدعاء » الآية ٣٨ .

٦ - (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ . .) الآية .

أى يكون وارثاً لى فى العلم والنبوة ، ليسوس بنى إسرائيل بمقتضى الشريعة والعدل ، فقد تعدى حدود الله كثير منهم ، وطغوا وبغوا وضلوا عن سواء السبيل ، وقوله : « وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » تأكيد لهذا الميراث النبوى الذى طلبه لوليه ، فإن زكريا من ذرية يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، عليهم صلوات الله وسلامه ، وكانت النبوة فى بيت يعقوب وآله - وآل الرجل هم خاصته الذين يثول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين فمراد زكريا عليه السلام بهذا التوكيد أن يكون ابنه نبياً كما كانت آباؤه أنبياء ، ولم يرد عليه السلام وراثته فى المال ، لأن الأنبياء لم يورثوا آلهم ديناراً ولا درهماً ، فقد كانوا أزهد الناس فى الدنيا ، وإنما ورثوا العلم والنبوة . على أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يأكل من كسب يده - كما قدمنا عن الحافظ ابن كثير وغيره . قال الحافظ ابن كثير : وقد ثبت فى الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَا نُورَثُ ، مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ » وفى رواية عند الترمذى بإسناد صحيح : « نَحْنُ مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ »^(١) . وعلى هذا فتعين حمل قوله : « يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » على ميراث النبوة . انتهى ما قاله الحافظ ابن كثير ملخصاً .

(وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) :

أى واجعله يارب مرضياً عندك وعند خلقك ، تحبه وتحبه إلى خلقك فى دينه وخلقه .

(١) فى مشكاة المصابيح للتبريزى - فى أحاديث هجرته ووفاته صلى الله عليه وسلم : عن أبى بكر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا نُورَثُ ، مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ » متفق عليه .

(يَنْزَغِرِيَا إِنَّا نَبْشِرُكَ بِغُلَامٍ أَسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) ٧ قَالَ رَبِّ أُنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَأَنِّي آمَرَاتِي عَاقِرٌ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) ٨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) ٩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) ١٠ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) ١١

المفردات :

(سَمِيًّا) : أى شريكاً فى اسمه أو شبيهاً له .

(أُنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ) : كيف يكون لى غلام ؟ أو من أين ؟ .

(عَاقِرٌ) : عقيماً لا تلد .

(عِتِيًّا) : العتى - بكسر العين وضمها وفتحها - غاية الكبر والشيخوخة ، يقال : عتأ الشيخ أى كبر وولى . (أُنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ) : كيف يكون لى غلام أو من أين ؟

(سَوِيًّا) : سوى الخلق ، سليم الجوارح ما به شائبة نقص تعيبه .

(الْمِحْرَابِ) : المسجد أو المصلى .

(فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ) : الإيحاء هنا بمعنى الإشارة وهى محتملة لأن تكون بيده أو برأسه أو بالكتابة أو نحو ذلك .

(سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) : نزهوا ربكم دائماً ، أو صلّوا له طرفى النهار .

التفسير

٧ - (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ...) الآية .

هنا كلام مطوى يشير إليه السياق على عادة القرآن الكريم .

والمعنى : استجاب الله تعالى دعاء عبده زكريا وقال له على لسان الملائكة : « يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ ... » كما قال تعالى في سورة آل عمران : « فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ... »^(١) . وقوله تعالى :

(لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) : أى لم نجعل له شريكا في هذا الاسم ، فلم يُسمَّ أحد قبله يحيى ، وفي هذا مزيد تشريف وتفخيم له عليه السلام . وعن مجاهد أن « سميا » معناه شبيها ، أخذه من قوله تعالى : « فَأَعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا »^(٢) . أى شبيها أى لم نجعل له شبيها ، حيث إنه لم يعص ولم يهَمْ بمعصية ، فقد أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا وَقَدْ أَخْطَأَ أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ إِلَّا يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، لَمْ يَهَمْ بِخَطِيئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا » . قال الألوسي : والأخبار في ذلك متضافرة . اهـ .

ويؤيد ذلك قوله تعالى في شأنه : « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ »^(٣) .

٨ - (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) :

أى قال زكريا عليه السلام : يارب كيف يكون لى غلام وكانت امرأتى - ولا تزال - عاقرا لا تحمل ولا تلد ، وقد بلغت سن اليأس من الولد ؟ « وهذا تعجب بحسب العادة » ، لا استبعاد منه لقدرة الله - وحاشاه - فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن سنه كانت إذ ذاك مائة وعشرين سنة ، وكانت سن امرأته ثمانياً وتسعين ، ولا يولد لثلثهما عادة ، ولكن لله تعالى خرق العادة ، وما المعجزات التى أيد الله بها رسله إلا خرق لها . . .

(١) من الآية : ٢٨

(٢) سورة مريم ، من الآية : ٦٥

(٣) سورة آل عمران ، من الآية : ٣٩

٩ - (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ . . .) الآية .

أى قال الله تعالى على لسان الملك مجيباً زكريا عما تعجب منه : الأمر كما بشرت به ، وإيجاد الولد منك ومن زوجك هذه لا من غيرها سهل يسير على .

ثم ذكر له ماهو أعجب منه فقال : « وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً » :

أى وقد خلقتك من قبل خلق يحيى الذى بشرتك به ، ولم تكن شيئاً مذكوراً ، حيث خلقتك من تراب فى ضمن خلق أبيك آدم ، أو وأنت نطفة لم تكن شيئاً مذكوراً بجانب ما أنت عليه الآن ، فمن قدر على خلقك مما يشبه العدم ، فهو قادر على تحقيق ما بشرك به .

١٠ - (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً . . .) الآية .

أى قال زكريا عليه السلام : يارب اجعل لى علامة ودليلاً على حمل امرأتى ، أو على وجود ما وعدتنى به ، لتستقر نفسى ويطمئن قلبى ، كما قال إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي »^(١) .

(قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) :

أى قال الله تعالى : علامتك على تحقيق ما وعدتك أن يحبس لسانك عن كلام الناس وأنت سوى الخلق سليم الجوارح ، ليس بك شائبة خرس ولا بكم . . فكان عليه السلام يقرأ ويسبح ، ولا يستطيع أن يكلم الناس إلا إشارة ورمزا . والمراد ثلاث ليال بآيامها ، وفقاً لآية آل عمران : « قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ »^(٢) .

١١ - (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) :

روى أن قومه كانوا من وراء المسجد ينتظرون أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا ، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم متغيراً لونه ، فأنكروه وقالوا : مالك ؟ فأشار إليهم بيده إشارة خفيفة سريعة : أن نزهوا ربكم دائماً أو صلوا له طرفى النهار .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٦٠

(٢) الآية : ٤١

(يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۚ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢
 وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۚ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ
 يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ
 يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥)

المفردات :

(الْكِتَابَ) : المراد به التوراة . (الْحُكْمَ) : الحكمة ، أو الفهم والفقه في الدين . .
 وقيل النبوة . (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا) : أى رحمة عظيمة فى قلب يحيى من عندنا وشفعة منه
 على الناس ومحبة لهم صادرة منا .
 (وَزَكَاةً) : أى طهارة بريئة من الذنوب والآثام . أو بركة عظيمة .
 (وَكَانَ تَقِيًّا) : وكان فى أعلى درجات التقوى لله عز وجل .
 (وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا) : ولم يكن متكبراً متعالياً على الناس .
 (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ) : السلام هنا : الأمان من الله تعالى فى الأيام الثلاثة ، أو التحية منه سبحانه .

التفسير

١٢- (يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ . . .) الآية .

هنا كلام مطوى حذف مسارعة إلى الإنشاء بإنجاز الوعد الكريم . أى : ولد الغلام المبشر
 به . وبلغ سنًا يؤمر مثله فيها ، فقلنا له على لسان الملك : يا يحيى خذ التوراة بجدة وعزم
 فاستطهرها واعمل بما فيها . (وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) : أى وأعطيناه الحكمة والفقه في الدين
 والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه ، وهو صغير حَدَثٌ . قال الآلوسى :
 أخرج أبو نعيم وغيره عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فى ذلك : أعطى

الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال الغلمان ليحيى بن زكريا عليهما السلام : اذهب بنا نلعب ، فقال أَللَّعِبِ خَلَقْنَا ؟ اذهبوا نصلي ، فهو قوله تعالى : « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » . قال الآلوسی : والظاهر أن الحكم على هذا بمعنى الحكمة ، وقيل هي : بمعنى العقل . . وقيل النبوة ، وعليه كثير ، قالوا أوتيتها وهو ابن سبع سنين ولم ينبأ أكثر الأنبياء عليهم السلام قبل الأربعين . انتهى كلام الآلوسی مختصراً .

١٣ - (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا) :

أى وآتيناه رحمة عظيمة فى قلبه ، وشفقة على الناس ومحببة لهم ، وآتيناه كذلك بركة عظيمة من عندنا ، فجعلناه مباركاً نفعاً ، معلماً للخير وداعياً إليه ، وكان عظيم التقوى لله عز وجل ، وتقدم أنه ما هم بمعصية ، فضلاً عن اكتسابها .

١٤ - (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا) :

أى وكان يحيى عليه السلام كثير البر والإحسان بوالديه ، إذ هما أقرب الناس إليه ، وحققهما فى الطاعة بلى حق الله عز وجل ، ولم يكن متكبراً على عباد الله متعالياً عليهم بل كان لين الجانب متواضعاً كريماً مطيعاً لربه قدوة فى المكارم ، وهذه الصفات التى وصف الله بها يحيى عليه السلام ، هى صفات المؤمنين الكاملين ، الذين بلغهم الله تبارك وتعالى أعلى درجات الصلاح والتقوى . فسبحانه وتعالى أعطى وأثنى .

وبعد أن أثنى الله على يحيى بهذه الصفات الكريمة ، أتبعها السلام عليه فقال عز

من قائل :

١٥ - (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا) :

أى : وأمانٌ منا على يحيى يوم ولد - من أن يناله الشيطان بما ينال به بنى آدم ؛ ويوم يموت - من وحشة فراق الدنيا وهول القبر ؛ ويوم يبعث حياً - من أهوال يوم القيامة .

وفى قوله تعالى : « وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » إشارة إلى أَنَّ البعث جسماني وروحاني معا . لا روحاني فقط كما يزعم بعض الفلاسفة . أو للتنبيه على أنه عليه السلام من الشهداء ^(١) .

وقيل إن المراد بالسلام هنا التحية المتعارفة . قال ابن عطية : إن هذا هو الأظهر ، والتشريف بها لكونها من الله تعالى في المواطن التي يكون فيها العبد في غاية الضعف والحاجة والفقير إلى الله عز وجل .

ذلك . وما يعد من اللطائف النبوية ما رواه الطبري وابن كثير عن الحسن قال : إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيَا - وهما ابنا الخالة - فقال يحيى لعيسى : استغفر لي أنت خير مني . فقال له عيسى : بل أنت خير مني . سلمت على نفسي وسلم الله عليك . . .

(وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ ۖ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۖ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۖ)

المفردات :

(انْتَبَذَتْ) : اعتزلت وانفردت . (رُوحَنَا) : جبريل عليه السلام ، سماه تعالى ررحاً ، لأن الدين يحيا بالوحي الذي ينزل به . (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) : فتصور لها إنساناً مُسْتَوِي الخلق كامل البنية . (أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ) : أتحصن بالرحمن منك وألتجئ إليه .

(١) فقد اشتهر أنه هو وأبوه زكريا عليهما السلام من قتلهم اليهود . قاتلهم الله . وقد ذكر قتلهم للأنبياء في كثير من آي الذكر الحكيم ... بل زعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم « وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم » سورة النساء الآية ١٥٧

(زَكِيًّا) : طاهرا من الذنوب والآثام . من الزكاة بمعنى الطهارة ، أو ناميا على الخير والبركة ، من الزكاة بمعنى النمو .

التفسير

١٦ - (وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا) :

لما ذكر الله تبارك وتعالى قصة زكريا عليه السلام . وأنه تعالى وهب له في حال كبره وعقم زوجته غلاماً زكياً مباركا - عطف على قصته قصة مريم وولدها عيسى عليهما السلام ، لِمَا بين القصتين من مناسبة عظيمة ومشابهة قوية - وقد قرن تعالى بين القصتين في هذه السورة ، وفي سورة آل عمران وفي سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والمخاطب هو سيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم . والمراد بالكتاب القرآن الكريم ، كما هو الظاهر . وقال العلامة أبو السعود : المراد بالكتاب السورة الكريمة ، لا القرآن كله ، إذ هي التي صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الأنبياء المذكورين فيها . ١ هـ .

والمآل واحد . فإن ذكرها في هذه السورة يعتبر ذكراً لها في القرآن .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول - في القرآن قصة مريم حين اعتزلت أهلها وانفردت عنهم ، وأنت مكانا شرقياً بيت المقدس^(١) ، لكي تتفرغ فيه لعبادة ربها ، وكانت مستترة من أهلها ومن الناس بساتر يحجبها ، أو اتخذت مكانا شرقى دارها بعيدا عن أهلها لئلا يشغلها أحد منهم عن عبادة ربها وذلك قوله تعالى :

٧ - (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا) الآية .

أي فاتخذت بينها وبينهم ساترا يحجبها عنهم ، روى أنه كان موضعها في المسجد ، فبينما هي في خلوتها أتاها جبريل عليه السلام في صورة إنسان تام الخلقة . كامل البنية جميل الصورة ، وذلك قوله تعالى :

(فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) : وإنما جاءها عليه السلام في صورة إنسان كامل . لتستأنس بكلامه . وتتلقى منه ما يلقي إليها من كلمات ربها . إذ لو بدا لها

(١) أو أنه كان من المسجد الأقصى بناحية الشرقية .

على حقيقته الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته ، ومن عادة الملك إذا تصور بصورة إنسان أن يكون جميل الصورة ، كما كان جبريل عليه السلام يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية رضى الله عنه ، وكان من أجمل الناس . وقد يكون من الحكمة في مجيئه على الصورة الجميلة ابتلاؤها وسبر عفتها ، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف مبالا غاية ورائه

١٨ - (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) :

أى لما تبدى لها جبريل عليه السلام في صورة إنسان ، وهى في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب - لَمَّا حَدَثَ ذَلِكَ - خافته ، وظنت أنه يريد بها سوءا ، فاستعادت بالله - وهو أرحم الراحمين - أن يحفظها برحمته منه . ولعل هذا هو السر في استعاضتها باسمه الرحمن دون غيره من أسماء الله الحسنى . وقولها « إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا » أى إِنْ كُنْتَ تَتَّقَى الله تعالى وتخشى الاستعاذة به ، فلا تَمَسَّنِي بسوء - فإني عائذة به ولاجئة إليه .

١٩ - (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) :

أى قال جبريل عليه السلام مجيبا إياها ، ومزيلا خوفها : إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ الذى استعذت به منى ، فقد بعثنى إليك لأكون سببا فى هبته لك غلاما طاهرا مباركا بالنفخ فى جيب درعك^(١) .

ومن اللطائف ما ذكره الآلوسى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أنها لما قالت : « إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا » تبسم جبريل عليه السلام وقال : « إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا » .

(١) جيب الدرع : طوق القميص .

(قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾
 قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ
 وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾)

المفردات :

- (وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) : المراد ؛ ولم أنزج .
 (وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) : أى ولم أكن زانية تبغى الرجل أو يبغيها الرجال للفاحشة .
 (وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) : أى وكان حمل مريم أمراً سبق به القضاء أزلاً فلابد منه .

التفسير

٢٠ - (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) :

أى قالت مريم لجبريل - عليهما السلام - وهى دهشة متعجبة : كيف يكون لى غلام
 ولست متزوجة ولا زانية ، ولا يكون الغلام إلا من إحداهما ؟ ..

٢١ - (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ..) الآية .

أى قال جبريل لمريم مجيباً إياها ومزيلاً دهشتها وتعجبها : الأمر كما قال ربك :
 إن خلق هذا الغلام منك بلا نكاح ولا سفاح سهل يسير على . وقوله تعالى :

(وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ) : معطوف على مقدر مناسب مفهوم من السياق ، والاختصار من
 الصور البلاغية فى القرآن ، وتقدير الكلام : لنبين للناس كمال قدرتنا ، ولنجعل خلق هذا الغلام
 من غير أب علامة عظيمة على قدرة بارئهم وخالقهم ، الذى نوع فى خلقهم ، فخلق أباهم آدم
 من غير ذكر وأنثى ، وخلق أمهم حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى
 إلا عيسى ، خلقه من أنثى بلا ذكر ، فتحت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم

سلطانه ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه ، وقوله سبحانه .

(وَرَحْمَةً مِّنَّا) : أى ولنجعل هذا الغلام رحمة منا عظيمة ، لمن يؤمنون به ويهتدون بهديه ، ويسترشدون بإرشاده ، وفى ضمنه .. إيمانهم برسول من بعده اسمه أحمد صلى الله عليه وسلم .
وقوله جل شأنه : (وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) :

أى وكان خلق هذا الغلام بلا أب أمراً قضيناه وقد رناه أزلاً ، فهو مقضى كائن لامحالة ،
كقوله جل سلطانه : « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا » ^(١) .

(فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهٖ مَّكَانًا قَاصِيًا ۖ) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ
إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَنْتَبِئْنِي مِنْ قَبْلِ هٰذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا
مَّنْسِيًّا ۖ فَسَادَ لَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّكِ تَحْتَكِ
سَرِيًّا ۖ وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ جِذْعَ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا
جَنِيًّا ۖ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا
فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) (٢٦)

المفردات :

(فَانْتَبَذَتْ بِهٖ مَّكَانًا قَاصِيًّا) : أى فاعتزلت به مكاناً بعيداً عن أهلها .
(فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ) : فَأَلْجَأَهَا أَلَمُ الْوِلَادَةِ وَشِدَّةُ أَوْجَاعِهَا . (إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ) : الجذع
هو الساق ليس عليها سعف ولا أغصان . (وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا) : النَّسِيُّ ، الشَّيْءُ التَّافَهُ الَّذِي
شأنه أَنْ يَنْسَى لِحَقَارَتِهِ كَالْحَبْلِ وَالْخَرَقِ الْبَالِيَةِ ، وَالْمَنْسِيُّ الْمَتْرُوكُ الْمُهْمَلُ لِتَفَاهُتِهِ ، وَهُوَ تَأْكِيدُ
لَمَّا قَبْلَهُ .

(السَّريُّ) : الجدول الذى يسرى فيه الماء ، أو السيد العظيم الخصال .
 (رُطْبًا جَنِيًّا) : أى صالحا للاجتناء والقطع بعد أن صار طريا ، وقال أبو عمرو بن العلاء
 « رُطْبًا جَنِيًّا » لم يجف ولم ييبس ولم يبعد عن يدي مجتنيه .

التفسير

٢٢ - (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) :

أى فاطمأنت مريم عليها السلام إلى قول جبريل ، فدنا منها فنفخ فيها ، فحملت بالغلام الذى بشرها به عقب النفخ فيها ، فلما قرب وضعها قصدت مكانا بعيداً عن أهلها ، فراراً من تعييرهم لها ، وقد روى أنه قرية على بضعة أميال من بيت المقدس يقال لها بيت لحم . حكى ذلك ابن وهب .

٢٣ - (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ...) الآية .

أى فآلجأها الطلق وشدة الولادة وأوجاعها ، بسبب تحرك الجنين نحو الخروج - ألجأها ذلك - إلى جذع النخلة وهو ساقها ، لتستند إليه وتتعلق به ليكون عوناً لها على قوة الاحتمال ، والتستتر به عن أعين الناس ، وكان جذعا لنخلة يابسة على أكمة فى الصحراء لا سعف له ولا غصن عليه . فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها عليها السلام لما اشتد عليها الطلق نظرت إلى أكمة ، فصعدت مسرعة فإذا عليها جذع نخلة نخرة ليس عليها سعف . ١ هـ ولو كانت ذات سعف أخضر وفيها حياة لقال : فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى النَّخْلَةِ .

ولعل الله أرشدها إليه ليربها آية من آياته ، كإثماره بدون سعف ومن غير لقاح وفى وقت لم يعهد فيه وجود ذلك الثمر ، تسكيناً لروعها ، وتطمينا لنفسها بمثل هذه الخوارق ، ولكنها عندما أحست أنها ستتهم فى الإتيان بهذا المولود بعد أن كانت عندهم عابدة ناسكة ، وأنها سوف تصبح فيما يظنون عاصية فاجرة ، تمت الموت كما حكى الله عنها ذلك بقوله :

(قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا) : ياليتنى مت قبل هذا الكرب الذى أنا فيه والحزن بولادتي المولود بغير بعلٍ ، فهى مدفوعة إلى هذا القول عما شعرت به من ألم النفس استحياء من الناس ، وخوفاً من لائمهم وحذراً من وقوعهم فى المعصية بما يتكلمون فى عفتها ، فقد توقعت فتنة شديدة بين أهلها وذويها ، وقذفاً عنيفاً يمس شرف أصلها ، وطهارة أبيها وأُمها ،

فأثار ذلك أحزانها وجعلها بعد تمنى الموت تتمنى أن تُنسى فلا تذكر أبداً حيث قالت :
 (وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا) : أى وكنت شيئاً تافهاً ، يطرح فلا يتألم لفقده لتفاهته وعدم
 الاهتمام به ، والمنسى الذى لا يخطر ببال أحد من الناس ، فذكره بعد . « نَسِيًّا » لتأكيد
 إهمال هذا الشيء ، وكأنها تريد كما قال أبو زيد : لم أكن شيئاً قط ، أو كما قال قتادة :
 شيئاً لا يعرف ولا يذكر ولا يدري من أنا ..

٢٤ - (فَتَادِيهَا مِنْ تَحْتِهَا . .) الآية .

المنادى إما جبريل ، وإما عيسى عليهما السلام ، فعلى الأول يكون المعنى : فناداهما
 جبريل من مكان أسفل منها فى بقعة تنخفض عن البقعة التى كانت عندها ، حين فاجأها
 المخاض ، وقد ذهب إلى أن النداء كان من جبريل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .
 وأما على أن المنادى عيسى فقد أنطقه الله حين الولادة ، وروى ذلك عن مجاهد
 ووهب وابن جبير ونقله الطبرسى عن الحسن .

وقرىء (مِنْ تَحْتِهَا) بفتح الميم وكسرها . وعلى كلتا القراءتين يحتمل أن يكون المنادى
 جبريل أو عيسى عليهما السلام كما تقدم .

(أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) : هذا تفسير للنداء السابق ، أى أن المنادى
 هتف بها عن قرب منها ، ينهاها عن الحزن خوفاً من مقالة الناس بشأن ولادتها من غير زوج
 قائلاً فى ندائه : لا تحزنى قد جعل ربك تحتك غلاماً شريفاً سيكون له شأن عظيم .

ثم أتبع سبحانه الحديث عن شرف وليدها حديثاً آخر عن طعامها فى نفاسها تذكيراً
 بآلائه ، ورضاه عنها ، وتخفيفاً لكرهها . . .

٢٥ - (وَهَزَىٰ إِلَيْكَ الْجَذْعَ النَّخْلَةَ . .) الآية .

أمرها بهز جذع النخلة لترى آية أخرى من آيات الله فى إحياء موات الجذع ، أى
 حركيه تحريكاً متوالياً بطريق الجذب إلى جهتك .

(تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا) : تكفل الله بإطعامها بما لا يتعبها ولا يشقيها ، بل بما هو
 فى متناول يدها ، حيث أمرها بهز جذع النخلة إلى جهتها هزاً متعاقباً ، تُسَاقِطُ أى تُسْقِطُ

عليها النخلة تمرّاً نضيجاً قد طرى وأصبح صالحاً للاجتناء؛ والرطب - كما قيل - من أطيب الأطعمة للنفساء . فقد ثبت طبيّاً أنه يحتوى على المواد الغذائية الرئيسية بصورة مركزة سهلة الهضم ، محققة الفائدة ، ولو علم الله طعاماً يفضلهُ لأطعمه مريم عليها السلام ، وعلى الرطب وغيره من أنواع التمر يعتمد كثير من القبائل العربية وغيرها إلى أيامنا هذه ، وتجدر في تلك الأنواع كل ما تحتاجه مقومات الحياة .

٢٦ - (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا . .) الآية .

امتَنّ سبحانه على مريم عليها السلام بما تضمنته الآيتان السابقتان من إخراج الرطب لها في غير وقته خرقاً للعادة ، لتسليتها عن حزنها ، ولتنزيه ساحتها عما تختلج به صدور المتقيدين بالأحكام العادية ، وقد جاءت هذه الآية تفريراً على ما ذكر ، لتأمرها بالأكل من الرطب والشرب من الماء حولها ، وبأن تطيب نفسها إيداناً بحسن العاقبة .

والمعنى : فكلي من الرطب الجنى ، واشربي من الماء النقي - وقيل من عصير الرطب - وطيب نفسي بعيسى وأذهب عني ما أحزنك ، بشأن مولده دون أب . وما يترتب عليه من سوء القالة ، فسوف نبرئك مما يشينك ، ونجعل لولدك شأنًا عظيمًا .

هذا : ومما قيل في معنى « وَقَرِّي عَيْنًا » اجعلي عينك تسكن للراحة والنوم ، قال أبو عمرو : أقر الله عينها أى أنامها وأذهب سهرها . وقال الشيباني « وَقَرِّي عَيْنًا » أى نأى . وكل ذلك متقارب المعاني . وقدم الأمر بالأكل في الآية ، ليجاور ما يشاكله وهو الرطب . والأمر يحتمل الوجوب والندب . وذلك حسب حالها التي هي عليها ، وقيل هو للإباحة .

(فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا) : كائناً من كان يريد أن يستنطقك ويتحدث معك ، فيسألك عن وليدك (فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا) : أى قولي هذه الجملة وعبري عن معناها بلفظك تعبيراً لفظياً ، وبه قال الجمهور ، وقال جماعة : القول هنا بالإشارة لا بالكلام ، وكان صومهم إمساكاً عن الطعام والكلام كما تأمرهم به شريعتهم . قال

ابن زيد والسدى : كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام مطلقاً ، وقيل الصوم هنا بمعنى الصمت ، ولذا قالت عقبه : « فَلَنْ أَكَلَّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا » فكان صيامهم الصمت ، وقد نذرته ، وليس هذا في شرعنا وإن كان قربة في شرع من قبلنا ، فإن نذره أحد لا يلزمه الوفاء به لما فيه من المشقة ، وقد دخل أبو بكر رضى الله عنه على امرأة نذرت ألا تتكلم ، فقال لها : إن الإسلام هدم هذا فتكلمي ، وكذلك فعل ابن مسعود^(١) . وقد تمسكت مريم بصمتها الذى نذرته حيث حكى الله عنها قولها :

(فَلَنْ أَكَلَّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) : أى إني أمتنع اليوم امتناعاً قاطعاً عن تكليم أحد من البشر فراراً من مجادلة السفهاء الذين ينكرون وجود ولد بدون أب ، ويلجئون في الجدل وإثارة الشكوك حولي ، وهى بهذه الطريقة المثلى تقطع ألسنة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بالثرثرة والاختلاق والإعراض عن سماع الحجة ، وقالت : « فَلَنْ أَكَلَّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا » لأن صيامها لا يمنعها من مناجاة ربها أو التحدث مع الملائكة إن حدثوها ، وقيل إن قوله : « فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا . . . » الآية من كلام عيسى : لما قال لها لا تحزنى ، قالت له : كيف لا أحزن وأنت معي ، لا ذات زوج ولا مملوكة ، أى شئ عذرى عند الناس ؟ قال لها : أنا أكفيك الكلام ، « فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ » الآية . قال ذلك عبد الرحمن بن زيد ووهب^(٢) .

(١) فقد كان يأمر من نذر الامتناع عن الكلام أن يتكلم ، عملاً بحديث أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : « بينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم ، فسأل عنه فقالوا أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » .

(٢) تفسير الطبرى .

(فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ^ج قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا
فَرِيًّا ٢٧) يَتَأَخَتَ هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءٌ وَمَا كَانَتْ
أُمُّكَ بَغِيًّا ٢٨ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ
فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
نَبِيًّا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ
مَا دُمْتُ حَيًّا ٣١ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٣٢
وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ٣٣)

المفردات :

(جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا) : الفري الأمر المخلق المصنوع . وقال الأخفش : فَرِيًّا : أى عجيباً .
(أَمْرًا سَوْءٌ) : السوء بالفتح والضم ، اسم لكل ما ينزل بالإنسان من كل شيء يسوءه ،
وقيل المضموم : الضرر والمفتوح الفساد (بَغِيًّا) : فاجرة . يقال بَغَتِ المرأةُ تبغى بغاءً
بالكسر فَجَرَتْ فهي بَغِيٌّ . (فِي الْمَهْدِ) : المهد هنا هو الموضع يهيا للصبي ويوطأ في رضاعه
كالإهاد . (بَرًّا بِوَالِدَتِي) : مطيعاً غير عاق . (جَبَّارًا) : أى عاتياً يمتلئ قلبه بالشدة .
(شَقِيًّا) : بعيداً عن الخير .

التفسير

٢٧ - (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌ . . .) الآية .

لما اطمأنت مريم لما رأت من الآيات ، وعلمت أن الله سيدفع عنها ، سلمت أمرها لله ،
واستسلمت لقضائه ، واستمسكت باصطحاب ولدها ، فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ مِنَ الْمَكَانِ

القصى الذى انتبذت به ، فلما رأوها ومعها الصبي ، حزنوا حزناً شديداً ، وأعظموا أمرها ، واستنكروه بقوة ، وعلت أصواتهم محزونين .

(قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً) : أى شيئاً مختلفاً مُفْتَرِئاً ، وفى البحر أن الفَرِئ يستعمل فى العظيم من الأمر شراً أو خيراً ، قولاً أو فعلاً ، ويراد به هنا كونه أمراً خطيراً ، جديراً بكل إنكار . . .

٢٨ - (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امراً سَوْءاً) (الآية .

الآية استئناف قصد به تجديد تعبيرهم لها ، وسخريتهم منها ، وتأکید توبيخهم إياها لِمَا ضيعته من أمجاد أهلها ، وليس المراد هارون أخا موسى بن عمران عليهما السلام لما بينهما من سنين طويلة ، وإنما هو رجل صالح فى بنى إسرائيل وكان هذا الاسم يشيع فيهم لأنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين فيهم ، فكأنهم قالوا لها : يا أخت هذا الرجل فى الصلاح والتقوى فى أول أمرك ، كيف انتهيت إلى فعل هذه الخطيئة ؟ ! وقيل : هو رجل فاسد شبهت به شتماً لها ، وقيل المراد به هارون أخو موسى عليهما السلام ، أخرج ذلك ابن أبى حاتم عن السدى وعلى بن أبى طلحة ، ووصفت بأخوتها له ، لأنها كانت من نسله ، كما يقال يا أخا العرب لمن كان منهم ، والتوجيه الأول أصح ، فى مسلم عن المغيرة بن شعبه قال : لما قَدِمْتُ نجران سألوني فقالوا : « إنكم تقرأون يَا أُخْتَ هَارُونَ » وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، فلما قَدِمْتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال : « إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصلحائهم » .

ومعنى هاتين الآيتين ، كيف تأتين هذا الأمر العظيم ، وقد عُرِفَت بالصلاح والتقوى كما عُرِفَ بها هارون ، وأبوك لم يكن أمراً سوءاً يتصف بِشَرٍّ أو فساد ، وما كانت أملك منحرفة فاجرة ، بل أنت فى ماضيك البعيد والقريب من بيئة لا ينبغى أن تُنَبِّتَ إلا الطيبين الطيبات ، وفى ذلك إشارة إلى أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش من ارتكابه من سواهم وتنبيه على أن الفروع غالباً ما تكون زاكية إذا زكت الأصول ، وتكون خبيثة إذا لم تكن أصولها كذلك .

٢٩ - (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ...) الآية .

أى فأشارت إلى عيسى عليه السلام أن كلموه وسلوه عما تريدون ، تنفيذاً لما أمرت به ، وحينما فهموا إشارتها .

(قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) : أى قالوا منكربين ما فهموه منها حين أشارت إلى عيسى ، متعجبين لهذا الأمر ، حيث إنه لم يعهد فيما سلف أن صبياً يكلمه عاقل ، وهو فى فراشه المهد له وفى سن رضاعه ، فكيف نكلم هذا ؟ قال السدى لما أشارت إليه غضبوا وقالوا : لَسُخِّرَتْهَا بِنَا حِينَ تَأْمُرْنَا أَنْ نَكَلِّمَ هَذَا الصَّبِيَّ أَشَدَّ عَلَيْنَا مِنْ زَنَاهَا ...

٣٠ - (قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِى الْكِتَابَ وَجَعَلْنِى نَبِيًّا ...) الآية .

هذا كلام مستأنف ، كأنه قيل : فماذا كان بعد إشارتها إليه أن يكلمهم بعد أن وقع منهم ما وقع من إنكار وتعجب ، فكان الجواب : قال عيسى إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ، فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى ، وبربوبية الله لعيسى ثم ذكر فضل الله عليه حيث يقول : « آتَانِى الْكِتَابَ وَجَعَلْنِى نَبِيًّا » أى حكم أزلاً بإيتائى الإنجيل ، وإن لم يكن منزلاً إذ ذاك ، وحكم كذلك بإيتائى النبوة بمعنى أعدنى لها ، وجعلنى ذا قدرة على تحمل أعبائها .

وفى كل ما قاله تنبيه على براءة أمه ، لدلالته على اصطفاؤه ، والله سبحانه أجل من أن يصطفى المطعون فى نسبه وذلك من المسلمات عندهم ، ففيه من إجلال أمه بالتلميح ما ليس فى التصريح .

٣١ - (وَجَعَلْنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ...) الآية .

أى وجعلنى ذا بركات ومنافع فى الدين ، فأى مكان وجدت فيه فأنا مبارك بمثل أمر ربى . وعن سفيان : جعلنى معلّم الخير ، آمراً بالمعروف ، وناهياً عن المنكر . (وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) : وأمرنى بأدائهما مدة بقائى حياً فى هذه الدنيا أمراً مؤكداً ، فلا أتوانى عنهما منذ يبدأ تكليفى بهما ، حتى ينتهى أجلى ، وقد اقتصر على الصلاة والزكاة من بين ما سوف يشرعه الله فى دينه لأهميتهما ، ويجوز أن يراد بالزكاة تطهير النفس من الرذائل وقد أوصانى بذلك ...

٣٢- (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي . . .) الآية .

أى وجعلنى بارًّا بها امتثالاً لأمره بهذا البر ، فهى السبب فى وجودى فى هذه الدنيا بعد مشيئة الله تبارك وتعالى .

قال ابن عباس : لما قال : وبرًّا بوالدى ولم يقل وبرًّا بوالدى ، علم أن هذا الصغير شىء من جهة الله تعالى . ١ هـ

وفى ذلك تأكيد لطهارة أمه ، وقرىء وبرًّا بكسر الباء على أنه مصدر وصف به مبالغة كأنه نفس البر .

(وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) : أى ولم يجعلنى فى علمه الأزل مستكبرا عن عبادته وطاعته وبر والذى ، فأكون بذلك شقيًّا عاصيًّا لربى عاقًّا لوالدى ، وقال بعض السلف لاتجد أحدا عاقًّا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًّا .

٣٣- (وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ . .) الآية .

أى وحصى الله بالسلامة والأمن فى الدنيا حين ولدت ، وفى القبر حين أموت ، وفى الآخرة يوم أبعث حيًّا ، فقد سلّم عليه السلام فى أحواله كلها ، من غضب الله تعالى وعقابه ، وفى قوله عليه السلام تعريض بما يصيب مُتَّهِمِي مريم وأعدائها من اليهود ، من فزع واضطراب وما ينزل بهم من سوء العذاب . ونظيره « وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى »^(١) .
يعنى أن العذاب على من كذب وتولى ، حيث كان المقام مقام معارضة وعناد فهو منته إلى نحو هذا من التعريض .

(ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾
 مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ۚ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ
 لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ
 مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

- (يَمْتَرُونَ) : يختلفون ويتخاصمون .
 (سُبْحَانَهُ) : تنزيهاً له جل وعلا عن النقائص .
 (إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا) : أرادته وحكم به .

التفسير

٣٤ - (ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . . .) الآية .

ذلك الذي قصصنا عليك من أمره هو عيسى بن مريم ، فليس أمره كما اعتقده اليهود أو النصارى . نقول ذلك (قَوْلَ الْحَقِّ) : أى القول الثابت الذى لا ريب فيه . وقرئ بالرفع على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف أى هو قول الحق ، يعنى ذلك أن الكلام السابق هو قول الحق فى عيسى (الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ) : أى يختلفون ويتنازعون فى شأنه ، فيقول اليهود إنه ساحر ويتهمون أمه بما هى بريئة منه ، ويقول النصارى إنه إله أو ثالث ثلاثة . وقد كنهم الله بما سبق من الآيات وبقوله :

٣٥ - (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ . . .) الآية .

لما ذكر الله سبحانه أنه خلق عيسى عبداً نبياً ، نزه ذاته المقدسة عن اتخاذ الولد بتكذيب فرية المفتريين ودحض بهتانهم فقال تعالى : « مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ » .

أى ما ينبغى وما يستقيم فى منطق عاقل أن يصف الله باتخاذ أى ولد لأنه سبحانه ليس من صفته اتخاذ الولد حيث إنه منزّه عن الاحتياج إليه ولا إلى أحد من مخلوقاته ، « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » .

(إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) : أى إذا أراد إيجاد أمر من الأمور تعلقت به إرادته أوجده بلا توقف بقوله كن فيكون ، فمن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد ، وهو من أمارات الاحتياج والنقص ، ومع دلالة الآية على تنزيهه تعالى صراحة ، فهى تشير ضمناً إلى تكذيب النصارى وتبكيتهن على قبح عقيدتهن . «وَمِنْ» فى قوله «مِنْ وَلَدٍ» لإفادة التأكيد وقوله : «كُنْ فَيَكُونُ» على ما ذهب إليه كثير من أهل السنة ، تمثيل إيجاد ما تتعلق به الإرادة بلا توقف - تمثيله - بالطاعة الفورية من المأمور لآمره ، وليس المراد أنه إذا أراد إحداث شئ أتى بالكاف والنون ، فى الكلام استعارة تمثيلية ، ويرى آخرون أن الأمر فى «كُنْ» محمول على حقيقته وأنه سبحانه أجرى سنته فى تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة «كُنْ» أزلاً ومن ذلك عيسى عليه السلام خلق بكلمة كن فكان . . .

٣٦- (وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ . .) الآية .

الظاهر أن هذا من تمام كلام عيسى عليه السلام وهو فى مهده ، يخبر به قومه بأن هذا الدين القيم هو دين الله الذى هو ربه وربهم - ويأمرهم بعبادته تعالى وبألا يشركوا به شيئاً . لأنه وحده المستحق للعبادة ، والسبيل إليه لا اعوجاج فيه ولا التواء كما يقول تعالى : (هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) : أى هذا الذى حدثتكم به عن الله من التوحيد طريق قويم ، من سلكه رشد وسعد ومن أعرض عنه ضل وشقى .

وروى أن عيسى بعد تبرئته لأمه بما تقدم ، عاد إلى حالة الأطفال فلم يتكلم إلا فى الوقت المناسب للكلام ولم يصل ولم يصم وهو ابن يوم أو شهر ، ولو دام نطقه وتسبيحه ووعظه وصلاته من وقت الولادة لكان هذا مما يروى ولا يكتم ، وإنما اقتصر حديثه على وقت اتهام أمه لتبرئتها ودفع الحد عنها ^(١) .

(١) انظر القرطبي ج ١١ ص ١٠٣ طبع دار الكتب المسألة الثالثة بعد قوله : (ولم يحملني جباراً شقياً) .

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ^{٣٧} فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
 مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا^{٣٨} لَكِنِ
 الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ
 إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ
 الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ) : الأحزاب جمع، مفردة الحزب وهو الطائفة وجماعة الناس ،
 والمراد بالأحزاب هنا من اختلفوا في شأن عيسى عليه السلام من طوائف أهل الكتاب .
 (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) : الويل الهلاك ، أو هو تفجيع من هول ما ينزل أو هو كلمة
 عذاب .

(فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) : في ضلال ظاهر لا يخفى على أحد .

(إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ) : أى تم الفصل بين أهل الجنة وأهل النار .

التفسير

٣٧- (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ . . .) الآية .

هذه الآية مرتبة على ما قبلها تنبيها على سوء صنيع أهل الكتاب حيث جعلوا ما يوجب
 الاتفاق في شأن عيسى عليه السلام ، بعد أن تكلم في المهد مبينا أنه عبد الله ورسوله ،
 وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه-جعلوا ذلك منشأ للاختلاف فيه فطعن اليهود
 في نسبه ، وغلت فيه النصارى ، فقالت طائفة منهم هو ابن الله ، وقالت أخرى هو ثالث

ثلاثة ، وقالت طائفة ثالثة هو الله ، وفي تهديد هؤلاء جميعا ووعيدهم يقول تعالى :
 (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) : أى فالهول المفزع والعذاب الأليم
 لهؤلاء الكافرين بعيسى عليه السلام يوم يقع الحساب والجزاء العظيم ، حين يتضح لهم
 أنه عبد الله ورسوله ، وأمه طاهرة نظيفة العرض ، وأن الله تعالى لم يلد ولم يولد ولم يكن
 له كفواً أحد ، وأن مصيرهم السعير وبئس المصير ، وإنما آخر عقوبتهم إلى يوم الحساب ،
 لأنه لا يعجل بعقوبة من عصاه ، لعله يشوب إلى رشده ، ويتوب إلى ربه ، ويرجع عن
 غيّه « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
 الْأَبْصَارُ » (١).

٣٨ - (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا . . .) الآية .

أى حين يأتوننا يوم القيامة للحساب والجزاء ، تكون أبصارهم حادة
 وأسماعهم قوية فلا يكون أحد أسمع منهم ولا أبصر ، بعد أن كانوا في دنياهم عمياً
 وصماً ، فحالهم جدير بأن يتعجب منه ، وقيل هو تهديد وتخويف مما سيسمعون وينظرون
 يوم الموقف العظيم ، مما تدخله قلوبهم وتسود برؤيته وجوههم جزاء ما اقترفوا من صلتهم وإعراض .
 (لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) : أى لكن الذين ظلموا أنفسهم في
 الدنيا في ضلال واضح بين ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر ، فاعتقدوا كون عيسى
 إلهاً معبوداً مع أنه بشر مثلهم حملته أمه كما حملتهم أمهاتهم ، وأكل وشرب واحتاج ،
 ولكنهم في الآخرة يزول ضلالهم حين يسمعون الحق ويبصرون آياته ، فيعترفون
 بأنهم ظلموا أنفسهم ظلماً بيناً باعتقادهم الفاسد في بنوة عيسى لله أو ألوهيته ، وهيهات
 أن ينفعهم ذلك الاعتراف بعد فوات الأوان . . .

٣٩ - (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى وأنذر الظالمين أيها النبي وخوفهم من يوم القيامة الذي يتحسرون فيه على ما فرطوا
 في دنياهم ، وذلك حين يقضى الله في أمرهم بسوء المصير وخالد العذاب - أنذرهم في دنياهم

وخوفهم من ذلك وهم غارقون في غفلة عن سوء مصيرهم في هذا اليوم وحالهم أنهم لا يؤمنون .
فلعلهم بهذا الإنذار يفيقون من غفلتهم ، ويشوبون إلى رشدهم ، ويؤمنون بربهم وبمحمد
نبيهم ، فينجون من عذاب يوم الحسرة ، إن عذابه لأليم مقيم .

قال الإمام ابن كثير : قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا الأعمش عن
أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا دخل أهل الجنة الجنة
وأهل النار النار ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال يا أهل
الجنة هل تعرفون هذا ؟ قال : فيشربون ويقولون نعم . هذا الموت . قال : فيقال يا أهل
النار هل تعرفون هذا ؟ قال فيشربون ويقولون نعم هذا الموت . قال : فيؤمر به فيذبح .
قال : ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت ، يا أهل النار خلود ولا موت . ثم قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة » وأشار بيده ، وقد
أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الأعمش به ، ولفظهما قريب من ذلك .
ومجيء الموت في هذه الصورة الحسية التي أبرزت فناءه بعد أن كان يميت الناس ،
تبشير لأهل الجنة ببقائهم الدائم في نعيمهم ، وتحزين لأهل النار وتيئيس لهم من مفارقة
ما هم فيه من شقاء .

وقال أبو حيان : الضمير لجميع الناس - والمعنى : خوفهم قاطبة يوم يتحسرون ،
فالظالمون يتحسرون على ما فرطوا في جنب الله ، والمحسنون يتحسرون على قلة إحسانهم وتوهم
تقصيرهم في طاعتهم . .

٤٠ - (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا . . .) الآية .

يخبر الله تعالى أنه المالك المتصرف ، وأن الخلائق كلها تهلك وتفنى ، ولا يبقى غيره
سبحانه ، فيكون ميراث الأرض ومن عليها له وحده وهو خير الوارثين .

(وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) : أى يردون إلينا يوم القيامة للجزاء والحساب لا إلى غيرنا استقلالاً
عنا أو اشتراكاً معنا . .

(وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۚ ﴿٤١﴾
 إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِ بِتَابِتٍ لِّمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي
 عَنْكَ شَيْئًا ۚ ﴿٤٢﴾ يَأْتِ بِتَابِتٍ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ
 فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۚ ﴿٤٣﴾ يَأْتِ بِتَابِتٍ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۚ إِنَّ
 الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۚ ﴿٤٤﴾ يَأْتِ بِتَابِتٍ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ
 عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۚ ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ
 أَنْتَ عَنْ إِلَهِتِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي
 مَلِيًّا ۚ ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ ۚ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۚ إِنَّهُ كَانَ بِي
 حَفِيًّا ۚ ﴿٤٧﴾ وَأَعِزَّنَا لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ وَأَدْعُوا رَبِّي
 عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۚ ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعِزَّلَهُمْ وَمَا
 يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا
 نَبِيًّا ۚ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ
 عَلِيًّا ۚ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(الْكِتَابِ) : القرآن . (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا) : ملازمًا للصدق .

(صِرَاطًا سَوِيًّا) : أى طريقًا معتدلاً لا عوج فيه ، والمراد الدين القيم الخالى عن الشرك .

(كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا) : أى عاصيا . إذ العصى والعاصى بمعنى واحد . يقال عصاه فهو عاصى وعصى .

(فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) : أى نصيرا وقرينا تصاحبه فى النار .
(وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)^(١) : أى دهرًا طويلًا .

(إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) : بمعنى أحاطنى بكثير من رعايته وإكرامه ، يقال حفى به كرضى ، حفاوة بفتح الحاء . وحفاية بكسرهما فهو حاف وحفى بالغ فى إكرامه وأظهر السرور والفرح

التفسير

٤١ - (وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ . .) الآية .

العطف فى الآية الكريمة على « اذكر » فى قوله تعالى : « وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ » أو على « أنذرهم » فى قوله سبحانه : « وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ » أى اتل أيها النبي على قومك نبأ إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم ، وبلغهم قصته . فقد عرفوا أنهم من ولده وينتمون إليه ، ويدعون أنهم على ملته ، فعساهم يقلعون عما هم فيه من القبائح التى من أشنعها عبادة الأصنام .

(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) : أى جامعاً بين ملازمة الصدق فى كل شئونه ما يأتى منها وما يدع ، وبين النبوة ، فهما وصفان متأصلان فيه وفق إعداد الله له ، وقال الكشف : الصديق من أمثلة المبالغة . والمراد أنه غلب كل من عداه فى فرط صدقه ، وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه وزسله وكل ما وصل إليه عن الله تعالى ، فكان نبياً فى نفسه بخلقه وسيرته ، لأن ملاك أمر النبوة الصدق وقد صدق فى قوله وعمله ، وصدق الأنبياء والمرسلين قبله . كما يقول تعالى « بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ »^(٢) . ومن صدقه الله بآياته ومعجزاته حرى أن يكون كذلك . انتهى باختصار .

(١) من الملاوة - مثلة الميم - وهى مدة العيش ..

(٢) سورة الصافات ، الآية : ٣٧

وجملة « إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا » استئناف مسوق لبيان الحكمة في ذكر قصة إبراهيم عليه السلام في الكتاب والتنويه بشأنه ، فكأنه قيل : واذكر في القرآن إبراهيم لأنه كان صديقاً نبياً ، فهو جدير بأن يذكر فيه تنويهاً بشأنه . . .

٤٢- (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ . . .) الآية .

سلك إبراهيم عليه السلام في دعوة أبيه إلى ترك عبادة الأصنام أقوم منهاج للنصح والإرشاد، حيث التزم معه الأدب الحسن، والتواضع الجم، والحجة الواضحة، لثلايركب متن المكابرة والعناد، فيعرض عن الاستماع إليه بادية ذى بدء، وَيَنْكُبَ عن كل طريق قويم يدعوه إلى سلوكه. فقد تقدم إليه فناداه بقوله: «يَا أَبَتِ» ليحرك فيه بهذا النداء الحافى عاطفة الأبوة، فيستمع إلى استفهامه وهو ينكر عليه عبادة مالا يستحق أن يعبد، حيث قال: «لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ» أى لم تعبد مالا يسمع ثناءك عليه عند عبادتك إياه، وما تلتسمه منه من جلب نفع أو دفع ضرر، ولا يبصر خضوعك له وخشوعك في حضرته وما تقدمه إليه من صلوات وقرايين، أو لا يسمع ولا يبصر شيئاً من المسموعات والمبصرات، فيدخل في ذلك ما ذكر سابقاً دخولا أولياً.

(وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) : أى لا يقدر على أن يجلب لك نفعاً أو يدفع عنك ضراً، فهو بهذا التساؤل يطلب من أبيه الجواب عن علة عبادة هذا الذى يستخف به كل عاقل من عالم أو جاهل ويأبى الركون إليه، فضلاً عن عبادته التى هى الغاية البالغة من الإكبار والتعظيم، وهى لا تحقق إلا لمن له الاستغناء التام، والإنعام العام، والخلق والتكوين، والإحياء والإماتة، وفى هذا تنبيه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل لغرض صحيح وإدراك قويم، فكيف يتخذ غير الله معبوداً وإن علا شأنه، إذ أنه مثله فى الحاجة والانقياد. فما ظنك بجماد مصنوع ليس له أوصاف الأحياء، وليس فيه غناء، إنه إفك وضلال بعيد . . .

وبعد أن بين له فى رفق وحكمة ضلاله الكبير بعبادة الأصنام، دعاه إلى الحق المبين والعلم الإلهى الذى آتاه الله إياه، ملتزماً معه أسلوب الاستمالة والاستعطاف فقال :

٤٣- (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي . .) الآية .

لم يصف أباه بالجهل المفرط ، وإن كان قد بلغ فيه الغاية ، ولا وصف نفسه بالعلم الفائق الذى منحه الله إياه فهو نبي مرسل ، بل جعل نفسه معه فى صورة رفيق يصاحبه ويخلص له ، حتى يستميله إلى ما يدعو إليه ، فيسير إلى جانبه فى طريق الهدى والرشاد ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

(فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) : أى فاتبعنى إلى ما أدعوك إليه ، أرشدك إلى دين قويم يوصلك إلى أسنى المطالب ويبعدك عن الضلال المؤدى إلى أفدح المعاطب . . .
والظاهر أن هذه المحاورة كانت بعد أن نُبئ ، بدليل قوله : « جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ »
أى جاءنى العلم بما يجب فى حقه تعالى وما يمتنع وما يجوز ، على أتم وجه وأكمله . وقيل العلم بأمر الآخرة وثوابها وعقابها ، وقيل بما يعم ذلك . وهو الأنسب وقد واصل إبراهيم نصحه لأبيه فقال :

٤٤- (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ . .) الآية .

وهنا ثبطه عما كان عليه ، بتصوير صنيعه بصورة يستنكرها كل عاقل . وذلك .
ما حكاه الله سبحانه بقوله : « لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ » أى لا تطع الشيطان فى عبادتك هذه الأصنام التى عكفت عليها ، فإنه هو الداعى إلى ذلك يغريك به ، ويدفعك إليه ، ومن أطاعه فى معصية الله فقد عبده .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا) : تعليل للنهى عن عبادة الشيطان وتأكيده ببيان أنه لا يعرف للرحمن حقاً ، فلهذا كان له عصياً ، أى كثير العصيان حين لم يمثل أمر ربه بالسجود لآدم ، ثم حرضه على معصية ربه بالأكل من الشجرة التى حرمها الله عليه ، حتى تسبب فى إخراجه من الجنة ، وكل من هو عاصٍ حقيق بأن ينتقم الله منه .
والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جنائياته ، لأنه أكثر قبحا ، أو لأنه مترتب على معاداته لآدم عليه السلام وذريته ، فتذكير أبيه بذلك داع إلى الاحتراز عن طاعته وموالاته ، والتعبير بلفظ الرحمن مشير إلى الإنعام والرحمة منه تعالى والشناعة البالغة من الشيطان لعصيانه للرحمن سبحانه ، إذ أن رحمته تستوجب طاعته جل وعلا . . .

٤٥ - (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ . .) الآية .

لا يزال الحديث متصلاً بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه ، فإنه في هذه الآية يحذره عاقبة عبادته للشيطان من العذاب الفظيع ، وهو في تحذيره إياه يبرز له ما يشير إلى مزيد من المجاملة له والاعتناء به . حيث بين أنه مدفوع لذلك النصيح بدافع الخوف عليه مما يُبتلى به ، مع مراعاة الأدب معه حيث لم يصرح له بأن العذاب لا صق به ، والعقاب واقع عليه بل قال : إني أخشى أن يمسك عذاب من الرحمن .

(فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) : أى قرينا له ومصاحباً إياه في العذاب الأليم ، واللعن الدائم . ومواجهته بولاية الشيطان التي يترتب عليها مس العذاب الشديد مع أن المقام معه مقام إظهار الشفقة عليه ، لأن القسوة أحياناً تكون من الرحمة والشفقة كما قال الشاعر :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

٤٦ - (قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ . .) الآية .

تمادى أبو إبراهيم في عناده وإصراره على كفره فقال : « أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ » حيث توجه إلى إبراهيم عليه السلام باستفهام يستنكر به رغبته عن آلهته وانصرافه عنها . مع ضرب من التعجب . كأن الرغبة عنها في تقديره مما لا ينبغي أن يصدر عن العاقل ، فكيف بمن يعمل مع ذلك جاهداً على ترغيب غيره عنها ! ثم قال له محذراً ومتوعداً :

(لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ) : أى لئن لم تترك ما أنت عليه من النهي عن عبادتها ، والدعوة إلى ما دعوتنى إليه من التوحيد . لأرجمَنَّك بالحجارة ، على ما روى عن الحسن . وقيل باللسان والمراد لأشتمَنَّك وروى ذلك عن ابن عباس . . .

(وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) : أى وابتعد عني بهجر جواري دهماً طويلاً . حتى لا يقع بك ما حذرتك منه . وقال على بن طلحة وغيره عن ابن عباس : « وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا » - قال : سالما سويا قبل أن تصيبك منى عقوبة ، واختاره ابن جرير الطبرى : انظر ابن كثير . .

٤٧ - (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي . .) الآية .

لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بما يسئ إليه ردعا له ، بل أجابه بما عوده إياه من احتمال له ، وتلطف به ، ومقابلة للسبئية بالحسنة ، فقال له : « سَلَامٌ عَلَيْكَ » أى أمان واطمئنان

فلا أجيبك بمكروه ، ولا أشفهك بما يؤذيك . فهو سلام توديع ومفارقة أو تقريب وملاطفة ، ولذا وعد أباه في الآية بالاستغفار . ومن قال إن سلامه على أبيه كان تحية مفارق ، فهذا على رأى من يجوز تحية الكافر بدءاً أو إجابةً . قيل لابن عيينة هل يجوز السلام على الكافر ؟ قال نعم ، قال الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ »^(١) الآية . « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي » بمعنى أنى سأطلب منه متضرعاً إليه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ، ويهديك إلى الصراط المستقيم فيكون استغفاره له مراداً منه طلب الهداية له ، والاستغفار للكافر بهذا المعنى جائز قبل موته على الكفر أو تحقق أنه لن يؤمن وكان هذا الاستغفار لأبيه على هذا النحو ناشئاً عن مودة وعداها آزر إبراهيم عليه السلام بأن يؤمن بما جاءه به فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى : « فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »^(٢) . وقد استغفر له مدة طويلة قبل انقطاع رجائه في إيمانه ، كما تشير إلى ذلك هذه الآية وغيرها من الآيات التي تشتمل على قصته كقوله تعالى : « رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ »^(٣) .

(إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) : أى بليغا في البرى والإكرام لى ، فلهذا أرجو أن يجيبنى إذا دعوته ..

٤٨ - (وَأَعِزِّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ...) الآية .

أى وأجتنبك وأنبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله حفاظاً على دينى ، حيث لم ينفعكم ما قدمته لكم من نصيح وإرشاد (وَأَدْعُوا رَبِّي) : وأتجه إليه وحده بعبادتى ، كما يفهم من اجتناب غيره من المعبودات ، والمراد من الدعاء العبادة . وجوز أن يراد به الدعاء مطلقاً ، فتدخل فيه العبادة لما فيها من الدعاء ، ولا يبعد أن يريد بدعائه ربه أن يطلب منه الولد ، كما فى قوله تعالى : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » .

(عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا) : خائبا ضائع السعى عديم الأثر ، وفيه تعريض بشقائهم فى عبادة آلهتهم ولفظ عسى يستعمل للترجى ، ولكنها هنا تفيد القطع بعدم

(٢) سورة التوبة ، من الآية : ١١٤

(١) سورة الممتحنة ، من الآية : ٨

(٣) سورة ابراهيم ، الآية : ٤١

شِقَايَهُ بِدَعَائِهِ رَبَّهُ ، لِأَنَّ مَنْ يَدْعُو اللَّهَ لَا يَكُونُ شَقِيًّا ، وَلِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَيْفَ يَكُونُ شَقِيًّا بِدَعَاؤِهِ رَبَّهُ ، وَيَحْمِلُ التَّعْبِيرَ بِهَا عَلَى التَّوَاضُعِ وَحُسْنِ الْأَدَبِ ، وَالتَّوْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْإِثَابَةَ وَالْإِجَابَةَ بِطَرِيقِ التَّفَضُّلِ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا بِطَرِيقِ الْوُجُوبِ ، وَأَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْخَاتِمَةِ ، وَذَلِكَ مِنَ الْغُيُوبِ الْمُخْتَصَّةِ بِالْعَلِيمِ الْخَبِيرِ . أَفَادَ هَذَا رُوحُ الْمَعَانِي ...

٤٩ - (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...) الْآيَةُ .

أَيُّ فَلَمَّا تَرَكَ دِيَارَ أَبِيهِ وَقَوْمَهُ مُهَاجِرًا إِلَى الشَّامِ ، أَبَدَ لَهُ اللَّهُ مِنْ هُوَ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : (وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ : أَنْسَنَا وَحَشَنَاهُ بَوْلَدِ هـ . وَنَصَّ هُنَا عَلَى أَنَّ الْمَوْهُوبَ لَهُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ هُوَ إِسْحَاقُ وَابْنُهُ يَعْقُوبُ ، لِأَنَّهُمَا هُمَا اللَّذَانِ وَلَدَا بِالشَّامِ الَّتِي اعْتَزَلَهُمْ إِلَيْهَا ، وَكَانَا مِنْ ذُرِّيَةِ «سَارَةَ» وَهَذَا لَا يَمْنَعُ مِنْ أَنَّهُ وَهَبَ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ إِسْمَاعِيلَ ، فَهُوَ ابْنُهُ الْبَكْرُ مِنْ جَارِيَتِهِ «هَاجِرَ» ، وَيَدُلُّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ » ^(١) . كَمَا يَدُلُّ لَهُ التَّبَشِيرُ بِإِسْحَاقَ عَقِبَ قِصَّةِ الذَّبِيحِ مَكْفَأَةً لَهُ عَلَى شُرُوعِهِ فِي ذَبْحِهِ بَعْدَ أَنْ أُمِرَ بِهِ فِي مَنَامِهِ ، قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ » ^(٢) .

وَلَعَلَّ تَرْتِيبَ هَبَةِ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فَحَسَبَ عَلَى اعْتِزَالِهِ لِقَوْمِهِ لِإِبْرَازِ كَمَالِ النِّعْمَةِ الَّتِي أَعْطَاهَا اللَّهُ إِيَّاهُ ، لِمَا خَصَّهْمَا بِهِ مِنْ أَوْلَادٍ وَحَفْدَةٍ أُولَى شَأْنٍ خَطِيرٍ وَذَوَى عَدَدٍ وَفِيرٍ ، وَهُمَا شَجَرَتَا الْأَنْبِيَاءِ الْكَثِيرِينَ ، مَنْ عَرَفَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ (وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) : أَيُّ وَكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَهَبَهُ اللَّهُ النُّبُوَّةَ فِي حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَقْرَأَ اللَّهُ عَيْنَهُ بِنُبُوَّةِ ابْنِهِ وَحَفِيدِهِ قَبْلَ وَفَاتِهِ ، بَعْدَ أَنْ حَقَّقَ لَهُ بِشَارَةَ مَلَائِكَتِهِ بِمِيلَادِ إِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ فِي حَيَاتِهِ مَعَ كِبَرِ سِنِهِ وَعَقْمِ زَوْجَتِهِ .

(وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَّحْمَتِنَا) : وَالْمَقْصُودُ بِالرَّحْمَةِ الَّتِي وَهَبَ لَهُمْ كُلَّ خَيْرٍ دِينِيٍّ وَدُنْيَوِيٍّ أَوْتَوْهُ . وَقَالَ الْحَسَنُ : الرَّحْمَةُ النُّبُوَّةُ . وَذَكَرَتْ بَعْدَ جَعْلِهِمْ أَنْبِيَاءَ لِلْإِيذَانِ بِأَنَّ النُّبُوَّةَ

من الرحمة التي يختص بها من يشاء. وقال الكلبي : الرحمة المال والولد، والرأي الأول أشمل وأعم .
 (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) : أى أثينا عليهم ثناء حسنًا ، وجعلنا جميع الأمم والملل
 تطريهم مهما تباعدت الأعصار ، وتعاقبت الأزمنة . وإضافة لسان إلى صدق ووصفه بقوله :
 « عَلِيًّا » للدلالة على أنهم حقيقون بالثناء عليهم ، وأن محامدهم لا تخفى على أحد ، صلوات
 الله وسلامه عليهم جميعًا .

(وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا
 نَبِيًّا ٥١) وَتَدَيَّنَتْهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ٥٢
 وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣)

المفردات :

- (الْكِتَابِ) : المراد به هنا القرآن كما تقدم .
 (مُخْلَصًا) : مختارًا ، أى أخلصه الله واختاره .
 (رَسُولًا نَبِيًّا) : رفيع القدر من النبوة بمعنى العلو والرفعة أو من النبؤ وهو الخبر .
 (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) : مناجيًا من المناجاة وهى المسارة بالكلام .

التفسير

٥١ - (وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا . . .) الآية .

لما أمر الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يذكر لقومه قصة إبراهيم عليه السلام فى القرآن تعظيمًا لشأنه وبيانًا لجهاده فى توحيد ربه ، عطف عليها أمره إياه بذكر نبي الكليم عليه السلام بيانًا لقدره وثناء عليه .

والمعنى : واذكر أيها الرسول فى القرآن موسى تعظيمًا لشأنه فإنه كان مُخْلَصًا من كل ما يشينه ، وقرىء بكسر اللام بمعنى أنه أخلص لله عبادته - حتى كانت منزهة عن الشرك والرياء .

(وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا) : مرسلًا إلى الخلق لتبليغ رسالة ربه وأحكام دينه ، كما كان رفيع القدر عظيم المنزلة عند ربه ، حيث اصطفاه على الناس برسالاته وبكلامه ، وجعله نبياً لقومه ، يخبرهم برسالاته وما اشتملت عليه من التوحيد والشرائع .

وقد جمع له بين الوصفين : الرسالة والنبوة ، وهو تشریف له عظيم .

٥٢ - (وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا . . .) :

أى كان النداء مقبلاً من جانب الطور الأيمن لموسى عليه السلام ، والطور الذى حصل النداء من جانبه ، جبل فى سيناء التابعة للقطر المصرى ، ويجوز أن يكون الأيمن من اليمن والبركة ، فيكون وصفاً لجانب ، أى من جانبه الميمون المبارك ، وكان موسى عائداً من مدين إلى مصر ومعه زوجته بنت شعيب ، ومن تلك الجهة التى على يمينه أو الميمونة ظهر له كلام الله تعالى الذى ناداه به ، وقربه بسببه تقريب تكريم وتشریف ، حيث اختاره لمناجاته ومسارته . مثل حاله عليه السلام ، بحال من قرّبه الملك لمناجاته ، ورفع الوسائط بينه وبينه ثقة به وإعلاء لقدره ، فالتقريب معنوى لا حسى ، تعالى الله عن الحلول بمكان وعن الجسدية والقرب المكافئ « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »^(١) .

٥٣ - (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا . . .) :

المعنى : من أجل رأفتنا بموسى عليه السلام ، ورعايتنا لشأنه ، وهبنا له مساعدة أخيه هارون ومؤازرته ، استجابة لدعوته التى طلبها بقوله : « وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي »^(٢) . ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحد فى أحد شفاعة فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هارون أن يكون نبياً . ذكره ابن كثير .

(١) سورة الشورى ، الآية : ١١

(٢) سورة طه ، الآيتان : ٢٩ ، ٣٠

(وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ
وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۖ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ
وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۝)

التفسير

٥٤ - (وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ...) الآية .

الذى ذهب إليه الجمهور ، أنه إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وهو الحق ، وفصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه ، بذكر موسى عليهم السلام ، لإبراز كمال العناية بأمره ثناء عليه بأشرف الخلال التي أشار إليها قوله سبحانه : (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) .

وهذه الجملة تعليل لإيجاب الأمر بذكره في الكتاب ، ووصف عليه السلام بأنه كان صادق الوعد لكمال شهرته به ببلوغه درجة من الوفاء لم تعهد من غيره ، ولا أدل على ذلك من أنه وَعَدَ بالصبر على الذبح بقوله : « سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ »^(١) . فوفى وصدق ، وقيل لم يعد ربه موعداً إلا أنجزه وإنما خصه الله بالوعد الصادق ، وإن كان ذلك موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً له وإشارة إلى أنه بلغ فيه الغاية العظمى .

(وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا) : أى كان رسولاً إلى قبيلة جرهم على شريعة أبيه إبراهيم عليهما السلام ، فإن أولاد إبراهيم جميعاً كانوا على شريعته . وكان « نَبِيًّا » يخبرهم بتلك الشريعة مع تبشير الطائعين وإنذار المفرطين ، والجمع لإسماعيل بين وصفي الرسالة والنبوة إشارة إلى عظيم مكانته عند الله ، وقد دلت الآية على أنه لا يشترط في الرسول أن يكون صاحب رسالة خاصة وشريعة مستقلة ، فقد بعث لإسماعيل بشريعة أبيه إبراهيم إلى جرهم ، ولعل ذلك بسبب معاصرته لأبيه إبراهيم ، وأن إبراهيم لم يكن رسولاً مباشراً لجرهم والله أعلم .

٥٥ - (وَكَانَ يُأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ . . .) الآية .

هذا أيضاً من الثناء الجميل على إسماعيل عليه الصلاة والسلام لأنه كان يأمر عشيرته وذوى قرباه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والمثابرة وبذل الجهد اشتغالا منه بالأهم ، وهو أن يبدأ بتكميلهم بعد تكميل نفسه ، ويشير إلى هذا قوله سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ^(١) وقوله : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا » ^(٢) ولا شك أن الأنبياء وأهلهم قدوة لأمتهم ، فلهذا كان معنياً بتكميل نفسه وأسرته ، والمراد بالصلاة والزكاة معناهما المعروف، فالصلاة إشارة إلى العبادة اليومية والزكاة إشارة إلى العبادة المالية . وقيل : المراد بالزكاة مطلق الصدقة ، وقيل تزكية النفس وتطهيرها .

(وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) : لاتصافه بأكمل النعوت وأشرفها ، حيث استقامت أقواله وأفعاله ، فكان عند ربه موضع الرضا والتكريم .

(وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝٥٦)
 وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝٥٨)

المفردات :

(وَاجْتَبَيْنَا) : واصطفينا . (خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) : خر الشيء سقط وهو من باب ضرب والمراد بخروورهم سجدا : وضع جباههم على الأرض . وسجدا ، جمع ساجد ؛ وَبُكِيًّا ، جمع باك .

التفسير

٥٦- (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ . . .) الآية .

إدريس عليه السلام اسمه أعجمي وليس مشتقا من الدرس لأن الاشتقاق من غير العربى لم يقل به أحد ، وهو أول من نظر فى النجوم والحساب وجعل الله ذلك من معجزاته كما فى البحر ، كما قيل إنه أول من خط بالقلم ، وخاط الثياب ، ولبس المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من اتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة ، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ، فكان أول مرسل من بنى آدم .

ولكن هذه التفاصيل لم ترد فى السنة النبوية ، والله أعلم بصحتها ، وحسبنا فى أمره قوله تعالى : (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) : أى ملازما للصدق فى كل أمر من أموره متصفاً بالنبوة تتويجا لصدقه الكامل .

٥٧- (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) : هو النبوة والزلى عند الله تعالى لأنه كان صوَّاما قوَّاما ، يعبد الله ويكثر عبادته ، وقيل المكان العلى الجنة كما روى عن الحسن ، ولا شيء أعلى من الجنة ، . وقد صح فى حديث المعراج أنه صلى الله عليه وسلم رآه فى السماء الرابعة وأنه رجب به ودعا له بخير ، وعلى هذا يكون المراد من المكان العلى السماء الرابعة ، وقيل الذكر الجميل فى الدنيا وعلو المرتبة .

٥٨- (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ . .) الآية .

إشارة إلى الأنبياء المذكورين فى السورة الكريمة ، والإتيان بإشارة البعيد (أولئك) للتنبيه إلى علو مراتبهم . وبعد منازلهم فى الفضل والشرف بما أنعم عليهم سبحانه من عظيم النعم الدينية والدنيوية .

(وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا) :

أى ومن هديناهم إلى الحق ، وشرفناهم بالنبوة والكرامة .

قال السدى وابن جرير رحمه الله : فالذى عني به من ذرية آدم إدريس ، والذي عني به من حملنا مع نوح إبراهيم ، والذي عني به من ذرية إبراهيم ، إسحق ويعقوب وإسماعيل والذي من ذرية إسرائيل^(١) ، موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم .
قال ابن جرير ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم ، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس ، فإنه كما قيل كان جد نوح عليه السلام ، وقال القرطبي هذا خطأ .

(إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) : أى إذا سمعوا كلام الله المشتمل على حججه وبراهينه أسرعوا ساجدين لربهم خضوعاً وخشوعاً واستكانة - تلهج ألسنتهم بشكره وحمده على ما وهبهم من نعم سابقة . وآلاء عظيمة ، تذرف أعينهم دموع المهابة منه . فلا ترى أحدا منهم إلا باكياً شعوراً منه بالعجز عن تقدير حقه عليه كما ينبغي له ، مهما قدم من عمل وبذل من جهد ، تلك صفوة مختارة تعلقت نفوسهم بجلاله وامتلأت قلوبهم بهيبته والإذعان له . « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » . . .

(﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿ ٦٠ ﴾)

المفردات :

(خَلَفَ) : الخلف ، بسكون اللام : الولد الطالح الشرير ، والخلف ؛ بفتح اللام وسكونها الولد الصالح أو من يأتي بعد مطلقاً ، أو البديل . (غِيًّا) : الغي ؛ الضلال والهلاك أو السوء .

(١) إسرائيل هو يعقوب .

٥٩ - (فَخَلَفَ مِنْ بَغْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ . . .) الآية .

أى فجاء من بعد هؤلاء الأنبياء وهم المثل العليا فى التقوى والصلاح والمحافظة على أداء الصلاة فى أوقاتها تامة الأركان حافلة بالخشوع والخضوع - جاء من بعدهم طائفة مفطورة على الشر مستمسكة به بعيدة عن التقوى والصلاح ، متهاونة فى أداء الصلاة فى أوقاتها أو تاركة لها أو لبعض أركانها ، أو مغيرة لصورتها المشروعة ، واتبعوا فى دينهم وسلوكهم شهواتهم . (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا) : فسوف يجدون فى الآخرة ، ضللاً عن طريق الجنة ، وعذاباً سيئاً فى جهنم « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » ثم فتح باب الأمل للتائبين فقال سبحانه :

٦٠ - (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) .

أى أن الذين خلفوا الأنبياء بما يناقض عقائدهم وأعمالهم سيلقون جزاء انحرافهم غيًّا أى ضللاً وسوء عاقبة ، لكن من رجع إلى الله وتاب عن غوايته وأناب إلى ربه وآمن به إيماناً صادقاً وعمل عملاً صالحاً فأولئك التائبون المؤمنون الصالحون يدخلهم الله الجنة ولا يعاقبهم بما أسرفوا على أنفسهم فإن الإيمان الصادق يَجِبُ ما قبله من السيئات ، والتوبة تمحو الحوبة ، ورحمة ربى وسعت كل شيء ، قال تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ »^(١) .

(جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ
وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ
رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشَاءٌ ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ
عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾)

المفردات :

- (جَنَّاتٍ عَدْنٍ) : جنات إقامة وثبات واستقرار .
(بِالْغَيْبِ) : الغيب ما غاب عن المشاعر .
(مَأْتِيًّا) : يأتيه من وعد به لامحالة ، وقيل : (مَأْتِيًّا) مفعول بمعنى فاعل أى آتيا .
(لَغْوًا) : اللغو العبث أو الضلال أو ما لا فائدة فيه من القول والعمل .
(بُكْرَةٌ وَعِشَاءٌ) : البكرة أول النهار إلى طلوع الشمس ، والعشى من الزوال إلى غروب الشمس ، والمراد : أن رزقهم دائم ، لأنه لا بكرة ولا عشى في الجنة .

التفسير

٦١ - (جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا) :

انتقلت الآيات إلى وصف الجنة التي وعد الله بها التائبين ، وقد جاء في وصفها هنا أنها جنات عدن ، أى جنات إقامة واستقرار وثبات ، والله لا يخلف وعده ، فإن وعده آت لا محالة ، «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا» (١).

٦٢ - (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) :

ومن صفات هذه الجنات أنها خالية من العبث والفحش والضلال وما لافائدة فيه فلا يسمعون فيها ما يعكر عليهم صفاءهم وإنما يسمعون فيها التحية وأحاديث السلام ، ويتمتعون فيها بالرزق الطيب المتاح لهم دائما ، جزاء لما قدفوا من توبة وإيمان وأعمال صالحات في دنياهم .

٦٣ - (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا) :

هذا شروع في تعظيم الجنة وبيان من يستحقونها ، والمعنى أن هذه الجنة أعدها الله لمن كان تقياً يخشى الله ويبادر بالتوبة إذا أذنب ويستمسك بالإيمان والعمل الصالح ، والتعبير عن استحقاق الجنة بميراثها للإيذان بكمال استحقاقها ، بما يشبه الميراث في القوة والثبوت .

(وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(نُنَزِّلُ) : نهيض . (مَا بَيْنَ أَيْدِينَا) : ما نستقبله من الشئون المختلفة .
(وَمَا خَلْفَنَا) : ما تركناه خلفنا منها . (نَسِيًّا) : كثير النسيان . (سَمِيًّا) : شبيهاً ومثيلاً .

التفسير

٦٤ - (وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ

رَبُّكَ نَسِيًّا) :

هذا القول إما أن يكون من الأتقياء الذين ورثوا الجنة ، فيكون المعنى أنهم ما يتنزلون إلى وراثة الجنة إلا بفضل الله الذى له ما بين أيديهم من شئون الآخرة ، وما تركوه وراءهم من أمور الدنيا وما بين ذلك من شئون البرزخ ، فهو المهيمن عليهم فى الدنيا والآخرة ، وإما أن يكون من كلام جبريل عليه السلام بأمر ربه ، يحكيه عنه القرآن الكريم ، فقد أخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وجماعة عن ابن عباس فى سببه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه الصلاة والسلام : (ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت : « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ »). والمعنى على هذا - وما ننزل إليك أو إلى شأن من شئون الملكوت برغبتنا ، وإنما ننزل بأمر ربك تنفيذاً لمشيئته ، فإن زمام جميع الأمور بيد الله وحده فهو المالك لما بين أيدينا من أمر المستقبل وهو المسيطر على ما خلفنا من شئون الماضى وما هو كائن بين الماضى والمستقبل من الحاضر ، وهو الذى يصرفنا بما يشاء كيف شاء مما تقتضيه حكمته الإلهية ، وهو سبحانه منزّه عن السهو والنسيان فلن يغفل عنك فإنه ربك المنعم المتفضل الذى منّ عليك برسائله .

٦٥ - (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) :

أى أنه سبحانه رب الكائنات جميعها من سموات وأرضين وما بينهما من القوى والعوالم الكونية ، فهو سبحانه الخالق المدبر فكيف ينساك أو ينسى سواك « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » ^(١) . (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) : وبما أنه هو الخالق المدبر المسيطر على الزمان والمكان ، فتوجه أنت وأمتك إليه وحده بالعبادة واصبر على ما تقتضيه العبادة من جهود وتكاليف كما قال سبحانه : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » ^(٢) .

(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) : أى أنك يا محمد لا تعلم له سبحانه مشاركاً فى اسم الربوبية للسموات والأرض وما بينهما ، لأنه سبحانه لا شريك له فى ذلك مطلقاً ، ومن كان كذلك وجب إفراده بالعبادة والصبر عليها .

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ٦٦)
 أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ٦٧
 فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ
 جِثِيًّا ٦٨ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ
 عِتِيًّا ٦٩ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلِيًّا ٧٠)

المفردات :

- (جِثِيًّا) : جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه .
 (شِيعَةً) : جماعة متقاربة مشتركة في الميول .
 (عِتِيًّا) : طغيانًا وعصيانًا .
 (صِلِيًّا) : احتراقًا .

التفسير

٦٦ - (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) :
 القائل هنا أبي بن خلف وقيل الوليد بن المغيرة ، وسواء صح هذا أو ذاك سببًا لنزول
 الآية ، فهي عامة في كل منكر للبعث والنشور ، أو شاك في أن يعود حيًّا بعد أن تبلى عظامه
 فيقول هذا منكرًا أو متعجبًا - فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٦٧ - (أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) :
 كرر ذكر الإنسان في التذكير بالبعث ، لأنه يتميز بالعقل وكان عليه أن يتذكر أن الله
 سبحانه خلقه من العدم وأنه برز إلى الحياة بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا ، كما قال سبحانه

لعبده ورسوله زكريا : « وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا »^(١) . فالذى خلق الإنسان ولم يكن شيئاً يذكر قادر على إعادته بعد الموت وقد أصبح شيئاً « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »^(٢) .

والمعروف لدى الإنسان أن الإعادة أهون من البدء كما قال سبحانه : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »^(٣) .

واعلم أن البدء والإعادة سواء عند الله في اليسر والسهولة ، فإنه سبحانه يقول للشيء كن فيكون ، ولكن الله يخاطب عباده بما اعتادوا من أن الإعادة أهون عليهم من البدء ، فكيف يستبعدون البعث على الله ، وهو إعادة بعد بداية .

٦٨ - (فَورَبِّكَ لَنُخْشِرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ) :

أقسم الله سبحانه بربوبيته مؤكداً بعثهم بعد الموت وحشرهم إلى موقف الحساب وكل منهم مقرون بشيطانه الذى صرفه عن عبادة الله ، وجذبه إلى اتباع أهوائه وشهوته فينال كل منهما جزاءه العادل .

(ثُمَّ لَنُخْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا) : ثم لنحضرهم بعد الحشر والحساب إلى جهنم ليشهدوا مصيرهم المحتوم وليرى المؤمنون عاقبة الكفار وجزاءهم الرهيب وهم باركون على ربهم ، كما قال تعالى : « وَتَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »^(٤) .

٦٩ - (ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا) :

ثم لنخرجن للعذاب أشدهم عتواً وطغياناً وتمرداً على الرحمن الرحيم ، المنعم على الجميع بالخير والفضل العظيم ، ويستمر نزع أعتاهم فأعتاهم ، إلى أن يحاط بهم ، فإذا اجتمعوا

(١) سورة مريم ، الآية : ٩

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٩

(٣) سورة الروم ، الآية : ٢٧

(٤) سورة الجاثية ، الآية : ٢٨

طرحناهم في النار على الترتيب ، فنقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم ، قال ابن مسعود في تفسير الآية : يحبس الأول على الآخر ، حتى إذا تكاملت العدة أتاها جميعاً ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً : ١ هـ

وذلك قوله تعالى :

٧٠- (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلِيًّا) :

ثم لنحن نعلم أكمل العلم ، ونعرف أوسع المعرفة من هو أشد استحقاقاً للاحتراق بنار جهنم منهم ، ولقد سجلنا عليهم جميع أعمالهم في كتاب : « لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا »^(١) لتكون حجة عليهم .

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۖ^{٦١}
ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۖ^{٦٢} وَإِذَا
تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِإِذْنِكَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۖ^{٦٣})

المفردات :

(وَارِدُهَا) : داخلها أو مار عليها .

(حَتْمًا مَّقْضِيًّا) : قضاء نافذاً مبرماً .

(جِثِيًّا) : جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه .

(مَقَامًا) : المراد بالمقام الإقامة أو موضعها

(وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) : الندى موضع اجتماع القوم ومكان حديثهم ، فإن تفرقوا فليس بندقى قاله الجوهرى : وهم يريدون بكونهم أحسن نديًّا ، أنهم فى الآخرة فى أحسن مكان حيث يجتمعون فى الآخرة فى نديهم على فرض البعث والنشور .

التفسير

٧١- (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا) .

روى الحاكم وأحمد وابن ماجه بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم : (الورود الدخول ، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم بردا وسلاما حتى أن للنار ضجيجا من بردهم) « ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » . وفى هذا المعنى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : فيما رواه الشيخان : (لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم) والمراد تقليل زمان المس ، والمقصود من القسم ما يفيد قوله سبحانه : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا... » الآية . فهو فى حكم القسم فى التأكيد ، وقد أفادت الآية أن كل إنسان يرد على النار فينجز المؤمن منها ، ويبقى الكفار فيعرف المؤمن منة الله عليه بنجاته من هذا المصير الرهيب .

٧٢- (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) :

ثم نكتب النجاة للمتقين ونندع الظالمين جائنين فى نار جهنم .
ويذهب بعض المفسرين إلى أن الجميع يمرون على الصراط فيجوزه المؤمنون ويتساقط الظالمون فى جهنم ، معتمدين على ما رواه مسلم فى صحيحه : ثم يضرب الجسر على جهنم وهو دحض^(١) مزلّة^(٢) ، فيه خطاطيف وكلايب وحسك... فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ، ومخدوش مؤسل^(٣) ، ومكدوس فى نار جهنم .

(١) الدحض: الزلق .

(٢) والمزلة: موضع الزل وهو السقوط .

(٣) أى ملق فى جهنم مجتمع فيها مع من سبقه .

ويذهب بعض آخر من المفسرين إلى أن المؤمن يرد على النار في الدنيا ، بأن تصيبه الحمى لأنها من فيح جهنم ، كما ورد في الحديث الشريف ، روى أحمد والحاكم وابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم زار مريضاً بالحمى فقال له : « أَبْشِرْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : هِيَ نَارِي أَسْلَطْتُهَا عَلَى عَبْدِي الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا لِتَكُونَ حِظَّهُ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وروى البزار عنه صلى الله عليه وسلم : « الْحُمَّى حِظٌّ أُمْتِي مِنْ جَهَنَّمَ » .

٧٣- (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) :

أى أن من أسباب بقاء الظالمين في جهنم جشياً ، أنهم اغتروا بالدنيا وفضلوا أنفسهم على المؤمنين بما نالوه من حظوظها ، وانصرفوا عن سماع آيات الله الواضحة البينة القوية المعجزة قائلين : ما بالناس إن كنا على باطل - أكثر أموالاً وأعز نفراً « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ » (١) . قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى . . . » (٢) .

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيعًا) (٧٤)
 قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا
 مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ
 مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى
 وَالْبَاقِيَتُ الصَّلَاحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦))

(١) وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين ، وإيهامهم أن من كثر ماله فهو المحق في دينه .

(٢) سورة سبا ، الآيات : ٣٥ - ٣٧

المفردات :

- (مِنْ قَرْنٍ) : القرن ؛ مائة سنة وقد يطلق على أهله .
 (أَثَاثًا) : الأثاث ؛ المتاع الذى تؤثث به المساكن للانتفاع أو الزينة .
 (وَرَثِيًّا) : الرثى : المنظر الحسن والمظهر الجميل .
 (فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ) : فليمهله وليطل عمره ، وليزد فى رزقه ، استدراجاً له من الله سبحانه إلى حين .
 (مَرَدًّا) : عاقبة .

التفسير

٧٤- (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِثِيًّا) :

أى وكثير من أهل القرون السابقة أهلكناهم ، وكانوا أحسن أثاثاً ومنظراً من أهل مكة ، فليست بسطة الرزق وعلو المنزلة ووفرة القوة فى الدنيا بالدليل على رضا الله والفوز بمحبته ، فقد تكون هذه النعم استدراجاً من الله لهؤلاء المكذبين الضالين قال تعالى : « وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ »^(١) . فكونهم أحسن متاعاً ومنزلةً وأجمل مظهرًا ، ليس بدليل على أنهم أفضل من المسلمين مكاناً عند الله فَرُبَّ جماعة ضعيفة القوة قليلة الرزق أقرب إلى الله وأفضل عنده منزلة من سواها من الجماعات الفتية القوية ، روى مسلم وأحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم : « رب أشعث مدفوعٌ بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » .

٧٥- (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا) :

أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المدعين أنهم على الحق بما هم عليه من قوة ومال ، وأنكم على الباطل بما أنتم عليه من ضعف وفقر ، من كان منكم فى الضلالة ، فأمهله الله فيما هو فيه حتى يلتق ربه ، فسيعلمون حين يروون العذاب أو الساعة من هو شر مكاناً عند الله وأضعف جنداً من سواه ، أهم هؤلاء المؤمنون الضعفاء الفقراء أم أولئك المشركون الأقوياء الأغنياء ؟ .

٧٦- (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى . . .) الآية .

لما أخبر الله سبحانه أنه سيمد للظالمين فى ضلالهم استدراجاً لهم حتى يبتغتهم بالعذاب أو بقيام الساعة ، أخبر فى مقابل هذا أنه يزيد المهتدين فى هدايتهم ويوفقهم ويعينهم على أداء الأعمال الصالحة الباقية ، فهى أفضل من بسطة الرزق وسعة الجاه والقوة والبأس الذى استدرج الله به الضالين ، ليزدادوا إثمًا حتى إذا أخذهم لم يفلتهم . «حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ» (١)

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا) : وإذا كان المال والجاه والقوة فتنة لهؤلاء الضالين ، فإن الأعمال الطيبة أفضل عند الله منزلة وأكرم مكاناً وأعظم أجراً ، وأبقى أثراً ، فهى الباقيات الصالحات ، وقد فسرها ابن عباس بالصلوات الخمس ، وقيل الباقيات الصالحات : الإكثار من ذكر الله والثناء عليه بما ألهمنا إيَّاه ، روى أحمد فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم : (... أَلَا إِنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ هُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ) وبالجمله فالإكثار من الأعمال الصالحات وترطيب اللسان بذكر الله أفضل عند الله وأدعى إلى قربه وأكرم لديه مما ينغمس فيه الضالون من ترف ونعيم وأحسن عاقبة عنده .

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۖ
 أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَاهُ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ كَلَّا سَنَكْتُبُ
 مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ
 وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۖ)

المفردات :

(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ) : أشاهد أمور الآخرة الغائبة عنه .
 (عَهْدًا) : ميثاقًا .

التفسير

٧٧- (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا) :

ذكر الشيخان أن هذه الآية وما بعدها نزلت في العاص بن وائل ، روى مسلم في صحيحه
 بسنده عن خباب بن الأرت الصحابي الجليل قال : كان لي على العاص بن وائل دين فأتيته
 أتقاضاه ، فقال لي لن أقضيك حتى تكفر بمحمد ، قال : فقلت : لن أكفر به حتى تموت
 ثم تبعث : قال : وإني لمبعوث بعد الموت ؟ فإذا مت ثم بُعثتُ جئتُني ولي ثم مالٌ ولي ولد
 فأعطيك . فأنزل الله : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا » . إلى قوله :
 « وَيَأْتِينَا فَرْدًا » .

فالعاص يتهم بعقيدة البعث والنشور ويرجع سداد دينه إلى هذا الموعد .

والاستفهام في الآية للتعجب والإنكار على العاص الذي يؤكد أنه سيكون صاحب مال
 وولد في الآخرة وفي الدنيا .

٧٨- (أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْرًا اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) :

أى هل انكشف الغيب أمامه فاطلع على حالته فى الآخرة ، أم أخذ على الله موثقاً أن يغفره بفضلله فى الآخرة كما غمره فى الدنيا .

٧٩- (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا) :

هذا رد على العاص بأسلوب الردع والتكذيب له فإنه لم يطلع على الغيب ولم يتخذ على الله عهداً ، والمعنى أننا سنسجل عليه هذا الضلال فى سيئاته لنحاسبه عليه حساباً عسيراً أو نزيده عذاباً فوق عذاب .

٨٠- (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا) :

أى أنه سيموت ويغادر الدنيا ونرث أمواله وأولاده ، ولن ينال فى الآخرة إلا العذاب الأليم فإنه سيبعث يوم القيامة فرداً مجرداً من الأموال والأولاد «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»^(١) .

(وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(ضِدًّا) : أعداء متعاونين عليهم فى خصومتهم وتكذيبهم .

التفسير

٨١- (وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) :

اصطنع هؤلاء الكفار لهم آلهة غير الله طائنين أن هذه الأصنام ستكون مصدر عزة وقوة لهم ، وقد رد الله عليهم بقوله :

٨٢ - (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) :

كلا : كلمة زجر وردع لهم عما توهموه من كونها عزا لهم ، وقد أتبعه ببيان أن هذه المعبودات مصدر عداً وتكذيب لهم فيما ادعوه من ألوهيتهم ، وسبب عذاب ونقمة عليهم ، كما قال تعالى : « وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » ^(١) . ويجوز أن يكون الضمير المرفوع في قوله تعالى : « وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » عائداً على المشركين ، أى أن المشركين بعد البعث سيدركون أنهم كانوا على ضلال فيكفرون بعبادة آلهتهم حيث لا يجديهم ذلك نفعاً .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ^(٨٣)
فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعْدُهُمْ عَذًّا ^(٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ
إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ ^(٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ^(٨٦)
لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ^(٨٧))

المفردات :

(تَؤْزُهُمْ أَزًّا) : تدفعهم دفعا . (وَقَدْ) : جماعة .

(وَرْدًا) : قوما عطاشا واردين على جهنم ، كالبهائم تساق إلى موارد الماء .

التفسير

٨٣ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا) :

ألم تعلم يا محمد أنا سخرنا الشياطين على الكفار تدفعهم إلى الكفر دفعا شديدا ابتلاء منا لهم ، فلم يقاوموا هؤلاء الشياطين بل استجابوا لإغرائهم وتحريضهم وانساقوا معهم

في الضلال انسياقا، وشبيه بهذا قوله تعالى : « وَمَنْ يَغْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ »^(١)

٨٤ - (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) :

أى فلا تتعجل عليهم وقوع العذاب جزاء عتوهم وجبروتهم فإننا نعد لهم أعمالهم ونحسبها عليهم قبل موتهم لنعذبهم بها يوم القيامة قال تعالى : « وَمَا نُوَخِّرُهُمْ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ »^(٢).

٨٥ - (يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا) :

أى أنه تعالى سيجازى الكافرين على كفرهم حينما يحشر الأتقياء إلى أرحم الراحمين لينعموا بثواب تقواهم ، قال ابن عباس وفدا يعنى ركبانا منعمين غير مجاهدين .

٨٦ - (وَتَسْوِقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا) :

وفى هذا اليوم الرهيب نسوق الكفار إلى جهنم حيث يذوقون ألوان العذاب والنكال جزاء كفرهم وطغيانهم فيردون عطاشا مسوقين لا إلى الماء ليشربوا منه ويطفئوا عطشهم ، بل إلى جهنم لتكون مشوى لهم .

٨٧ - (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) :

لا يستحقون الشفاعة فلا يشفع لهم أحد، ولهذا سوف يقولون ما حكاه الله عنهم بقوله : « فَمَالْنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »^(٣) . لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا ، فإنه يستحق الشفاعة ، فيؤذن له بشفاعة الشافعين ، وفسر ابن عباس العهد بقوله : العهد شهادة ألا إله إلا الله ، والتبرؤ من الحول والقوة ، وعدم رجاء أحد إلا الله تعالى . وفسره ابن كثير بقوله : شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها .

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٣٦

(٢) سورة هود ، الآية : ١٠٤

(٣) سورة الشراء ، الآيتان : ١٠١، ١٠٠

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٨
تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ
هَدًّا ۝٨٩ أُن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩٠ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ
أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩١ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي
الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٩٢ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٣ وَكُلُّهُمْ
عِندَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝٩٤)

المفردات :

(إِدًّا) : الإد ؛ المنكر العظيم .

(يَتَفَطَّرْنَ) : يتصدعن .

(وَلَدًا) : الولد كل ما يولد ، ذكرًا كان أو أنثى ، واحدا أو اثنين أو جماعة .

(أَحْصَاهُمْ) : علم عددهم .

التفسير

٨٨ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) :

زعموا أن الله اتخذ ولدا ، فقال المشركون إن الملائكة بنات الله ، وزعم اليهود أن
عزير ابن الله ، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله ، وقد رد الله عليهم بقوله :

٨٩ - (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) : أى لقد جئتم بقولكم هذا شيئا منكرا باطلا عظيم الفرية
على الله - سبحانه - .

٩٠ - (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا) :

أى توشك السموات - على تماسكها - أن تتصدع من افترائه على الله ، وأن تنشق الأرض ، وأن تتحطم الجبال وتسقط أجزاؤها ، فإن الله تعالى مقدس عن نسبة الولد إليه ، وكيف يكون لله ولد ، وهو بغير حاجة إليه ليعينه أو ليرثه كما هو شأن البشر ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، فهو حي لا يموت ، قادر لا يعجزه شيء .

٩١ - (أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) :

أى تكاد السموات والأرض أن يحدث لها ما ذكر بسبب ادعائهم ولداً للرحمن ، فإنها فرية على الله لا تتقبلها بل تكذبها بما فيها من الإبداع ، فإنه شاهد بوحدانيته وتعالى قدرته وعدم حاجته إلى اتخاذ ولد يعينه « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » .

٩٢ - (وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) :

ولا يليق بكمال الله وعظمته أن يكون له ولد ، فإن الوالد يتخذ الولد ليكون عوناً له في شيخوخته وضعفه أو ليكون امتداداً لحياته حين تنتهى حياته والله سبحانه غنى عن هذا كله « مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »^(١)

٩٣ - (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا) :

أى ليس في السموات والأرض إلا عبيداً لله سبحانه ، ومسيئون بوصف العبودية يوم القيامة مهما كان شأنهم ، وسيحاسبتهم على ما قدموه من خير وشر ، فكيف يزعم الزاعمون أن له ولداً « تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » .

٩٤ - (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) :

لقد حصرهم وأحاط بهم علماً ، وعدهم عدداً ، وأحصى عليهم أعمالهم وأفكارهم وأنفاسهم ، فلا حاجة به إلى ولد يعينه .

٩٥ - (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) :

وكل منهم سيموت ويبلى ثم يبعثه الله ويحشره إليه منفردا وحيدا ، دون معين أو نصير سواء منهم من كان عابدا أو معبودا ، أو من زعموه لله ولدا .

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ
وَدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا
لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ
أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(وَدًّا) : محبة .

(لُدًّا) : اللد ؛ جمع الألد وهو الخصم الشديد الخصومة المُلِحُّ في عداوته المجادل بالباطل أو الظالم أو الفاجر

(رِكْزًا) : الرکز ؛ الصوت الخفى .

التفسير

٩٦ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وَدًّا) :

بعد أن ذكر الله سبحانه أحوال الطغاة العتاة ومصيرهم الأليم ذكر في مقابلهم هنا المؤمنين وما أعد لهم من الحب وآثاره في الدنيا والآخرة . والمعنى أن المؤمنين الذين يحملهم إيمانهم على أداء الأعمال الصالحة سيجعل لهم الرحمن الرحيم مودة في قلوب الناس وعند الملائكة ،

ومن أجل نعم الله على عبده أن يمنحه حبه وحب عبادته في السموات والأرض . روى الشيخان عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريلُ إنَّ الله يُحبُّ فلاناً فأحبُّهُ فيُحبُّهُ جبريلُ ، فينادى جبريلُ في أهل السماء إنَّ الله يحبُّ فلاناً فأحبُّوه فيُحبُّوه أهلُ السماء ثم يوضِّعُ له القبولُ في الأرض » . ويجوز أن يكون المقصود من حب الله المؤمن الذي يعمل الصالحات أن يكافئه على هذا بما يستحقه من الثواب .

٩٧ - (فَإِنَّمَا يَسْرُنَاهُ لِبَاسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنَذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا) :

والمعنى : يا محمد إنا أنزلنا عليك كتابنا بلغتك العربية وجعلناه ميسراً للسامعين والقارئ لتبشر به المتقين بما ينالون من ثواب جزيل على إيمانهم ، ولتنذر به قوما يعادونك أشد العدا ، ويجادلونك بالباطل - لتنذرهم بعقاب أليم على هذه الخصومة والمجادلة في الحق بالباطل . « وَلَا تَحْزَبِنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ » .

٩٨ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ) :

أى وأهلكنا كثيراً من أهل القرون الماضية قبل أهل مكة ، لما كذبوا رسلهم .

(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا) :

أى فهل تدرك بإحساسك منهم أحداً أو تسمع لهم صوتاً ، فبعد أن كانت هذه الأمم تملأ الأرض ، وتتعالى على أنبيائهم وتعاديهم وتجادلهم بالباطل ، أصبحت قراهم خامدة خاوية على عروشها ، بعد أن دمرها الله على أهلها ، عقاباً لهم على كفرهم ومخاصمتهم لأنبيائهم ، فليحذر أهل مكة هذا المصير وليعتبروا به وصدق الله إذ يقول : « فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُثِّرُ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ » ^(١) .

سورة طه

تمهيد :

هذه السورة هي العشرون في ترتيب المصحف ، وسميت سورة طه باسم فاتحتها ، وتسمى أيضاً سورة الكليم ، لأن معظم آياتها في قصة الكليم موسى عليه السلام ، وهي مكية ، إلا الآيتين (١٣٠ ، ١٣١) من قوله تعالى : « فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ » إلى قوله سبحانه : « وَرَزَقْ رَبُّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » فإنهما مدينتان ، وعدة آياتها خمس وثلاثون ومائة .

ومن وجوه مناسبتها لسابقتها . . . أنهما مكيتان ، ومبدوءتان بأسماء الحروف المتقطعة ، وأن أول هذه متصل بآخر تلك في المعنى ، فقد ذكر في تلك إنزال القرآن الكريم بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، تبشيراً للمتقين وإنذاراً للمعاندين ، وفي هذه أكد ذلك المعنى . ومما تضمنته هذه السورة ما يلي :

١- بيان أن إنزال القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ما هو إلا للتذكرة والعظة وسعادة البشر في الدنيا والآخرة .

٢- تكليم الله لموسى عليه السلام بالوادي المقدس طوى ، واختياره لرسالته التي أساسها « إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » وبهذه الرسالة أرسل الله رسله جميعاً إلى أممهم .

٣- أمر الله تعالى لموسى عليه السلام أن يلتقى عصاه « فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى » وأن يخرج يده من جيبه ، فتخرج بيضاء من غير سوء ، آية أخرى ليرى موسى بعض آيات الله الكبرى .

٤- أمره لكليمه بعد ذلك أن يذهب إلى فرعون رسولا مؤيداً بهاتين الآيتين . . .

٥- سؤال موسى ربه عز وجل أن يشرح له صدره ، وييسر له أمره ويحل عقدة لسانه ، ليفقهوا قوله ، وأن يجعل له أخاه هارون وزيراً يشاركه في الرسالة ويعينه على أعبائها ، فقال الله مجيباً إياه في كل ماسأل : « قَدْ أَوْتَيْتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ، وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى » يذكره تعالى بنصره له منذ ولادته ، حيث نجاه من القتل والفرق ، ورباه مكرماً مع أمه في بيت عدوه ! وقد كان يقتل من يولد في بني إسرائيل من الذكور . . ثم كيف نجاه من قوم فرعون الذين ائتمروا به ليقتلوه ، لما قتل أحدهم خطأ ، ثم ذهب إلى مدين ، وصاهر الشيخ الكبير ، ولبث فيها

أكثر من عشر سنين ، ثم سار بأهله إلى مصر مخفوقاً بعناية الله وحفظه ، حتى أمره الله وهو في سيناء أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون ليبلغاه معاً رسالة الله تعالى ، فلما بلغ موسى أخاه ما أمرهما الله به من تبليغ فرعون دعوته سبحانه « قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِئَ . قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى » . .

٦- وفي هذه السورة بيان مدار بين موسى وفرعون من المقابلة ، ثم ما دار بين موسى والسحرة ، وخيفته عليه السلام حين ألقوا حبالهم وعصيهم فخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فثبته الله تعالى وأوحى إليه أن يلقى عصاه ، فألقاها فإذا هي حية عظيمة مخيفة تبتلع كل ما ألقاه السحرة ، وهنا لك آمن السحرة جميعاً برب هرون وموسى ، ولم يبالوا بوعيد الطاغية وتهديده إذ قالوا له : « فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » .

٧- وفيها انفلاق البحر ونجاة موسى وبني إسرائيل ، وغرق فرعون لما تبعهم .

٨- وفيها فتنة السامري ، وإضلاله بني إسرائيل ، باتخاذهم عجلاً جسداً له خوار ، حين كان موسى عليه السلام يناجي ربه في الطور ، ولما رجع أفزعهم ما رأى من إضلال السامري لقومه ، حتى عبدوا العجل الذي صنعه ، فأخذ برأس أخيه يجره إليه ، فاعتذر أخوه عليه السلام بمخالفة بني إسرائيل تحذيره إياهم ، ونصحه لهم ، واستمرارهم في ضلالهم ، حتى رجع موسى عليه السلام ، وهنا أغلظ موسى قوله للسامري ، وتوعده بأن يعيش في الدنيا طريداً ، وفي الآخرة معذباً ، ثم حرق العجل ونسفه في اليمّ نسفاً ، ليريهم ضلالتهم في عبادته ، وجهلهم بالمعبود الحق وما ينبغي له من عظام الصفات . قائلًا لهم : « إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا » .

٩- وفي السورة التذكير بالذكر الحكيم الذي آتاه الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم . وفيه الخير كل الخير لمن أقبل عليه وعمل به ، وأما من أعرض عنه « فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا » .

١٠- وعقبه بالتذكير بأحوال يوم القيامة : « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا . يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا . وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا .. » الآيات .

١١- وفي السورة يصف سبحانه القرآن الكريم بأنه أنزله قرآناً عربياً ، وصرف فيه من الوعيد ، وينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن العجلة بقراءته من قبل أن يقضى إليه وحيه ، وهو يتلقاه من أمين الوحي جبريل عليه السلام .

١٢- ثم يذكر سبحانه قصة آدم عليه السلام بتفصيل غير قليل ، من أمر الملائكة بالسجود له ، وامتناع إبليس وإبائه وتحذيره هو وزوجته من أن يُخدعَا به ، إذ قال سبحانه في خطابه : « يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » . ولكن الشيطان وسوس لهما وخدعهما حتى نسيا العهد والنهى عن الأكل من الشجرة ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما . وانتهى أمرهما بإخراجهما من الجنة ، بعد أن من الله عليهما بالعفو والتوبة .

١٣- وفي السورة التذكير بأن من اتبع هدى الله فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكره فإن له معيشة ضنكاً ويحشره الله يوم القيامة أعمى .

١٤- وفيها التذكير كذلك بإهلاكه القرون الماضية ، ومشيههم في مساكنهم ، وما في ذلك من عبر وعظات لأولى البصائر والنهى .

١٥- وفيها يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله المشركون من تكذيب واستهزاء ، فسيلقون جزاءهم ، ولولا كلمة سبقت منه تعالى بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لعجله لهم .

١٦- وفي خواتيم السورة يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، بتسبيحه وتنزيهه ، وبأن يأمر أهله بالصلاة . . . وأن يصطبر عليها ، لأنها أساس الخير كله . . . « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(طه) ١ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَنْ يَخْشَى ٣ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ٤ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٥ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ٦ وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ٧ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ٨)

المفردات :

(طه) : اسمان لحرفي الطاء والهاء . . ، هما فاتحة السورة ، ويأتى الكلام عليهما في التفسير ، (لِتَشْقَى) : لتتعب تعباً شديداً فوق طاقتك . (تَذَكُّرَةً) : تذكيراً وعظة . . ، (الْعُلَى) : جمع العليا ، تأنيث الأعلى ، مقابل الدنيا تأنيث الأدنى . (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) : العرش في اللغة : سرير الملك ويكنى به عن السلطان والعز ، (اسْتَوَى) استولى . . ويأتى في التفسير معنى استوائه تعالى على العرش . . (وَمَا تَحْتَ الثَّرَى) الثرى . . التراب الندى - يقال ثَرِيَتْ الْأَرْضُ - كُنْدِيَتْ وزنا ومعنى - فهي ثَرِيَّةٌ . كُنْدِيَّةٌ ؛ إِذَا نَدِيَتْ ولانت بعد الجدوبة واليبس - والذي تحت الثرى طباق الأرض المختلفة إلى نهايتها .

التفسير

١- (طه) :

افتتح الله تبارك وتعالى تسعاً وعشرين سورة ببعض أسماء الحروف الهجائية ، وسورة طه . . واحدة منها . . وقوله قال كثير من أئمة التفسير إنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ؛ فلا يعلم المراد منها إلا هو ، وقال بعضهم إنها اسم للسورة ، وقيل إنها لتنبية السامعين ،

إلى ما يأتي بعدها من الآيات والعبر ، وقيل غير ذلك ، وأرجح الآراء في تأويلها أنها ترمز إلى التحدى ، بأن يأتيوا بمثل هذا القرآن المكون من كلمات وجمل ، ذوات حروف مما ينظمون منه كلامهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه مع ما يمتازون به من الفصاحة والبلاغة ، . . فمحمّد مثلهم . . وذلك دليل على أن القرآن من عند الله تعالى ، وليس لمحمد صلى الله عليه وسلم فيه إلا مجرد تبليغه عن ربه . لا يزيد فيه حرفاً . ولا ينقص منه حرفاً . ولا يزال إعجازه قائماً ، والتحدى به باقياً ، ولا يزال حفظه بحفظ منزله خالداً أبداً ، كما تكفل به جل وعلا - إذ يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ^(١) .

٢ - (مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) :

سبب النزول :

* كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من المشركين تعباً مرهقاً . ويأسف أسفاً شديداً بسبب إعراضهم عن القرآن الكريم ، وعدم إيمانهم به . فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية تسلياً له . . وتخفيفاً عليه . . والمعنى - ما أنزلنا عليك القرآن أيها الرسول - ليكون سبباً في شقائك وعنائك ، وفرط أسفك على كفر هؤلاء المشركين . كقوله عز وجل : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » ^(٢) . والشقاء شائع في معنى التعب والعناء ، ومنه قولهم ، سيد القوم أشقاهم ، وقولهم : أشقى من رائض مهُرٍ .

وهذا الوجه في سبب نزول الآية هو المختار ، لمناسبته للسياق ، وقوله تعالى :

٣ - (إِلَّا تَذَكُّرَ لِّمَن يَخْشَى) .

أى ما أنزلنا القرآن عليك إلا تذكيراً لمن شأنه أن يخشى الله ويخافه ، لأن الذين يخشون ربهم هم المنتفعون بالقرآن ومواعظه ، وأما غيرهم فكالعلم ، ولا ريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغ وذكر وحذر وأنذر ، فليس مستولاً بعد ذلك عن كفرهم ، فقد قال تعالى : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ؛ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » ^(٣) . وقال عز من قائل : « وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ » ^(٤) .

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٦

(٤) سورة الكهف ، من الآية : ٢٩

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩

(٣) سورة الفاشية ، الآيتان : ٢١ ، ٢٢

ولما ذكر الله تعالى أنه أنزل القرآن تذكرة لمن يخشى .. أكد ذلك المعنى وقرره بقوله :

٤ - (تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى) :

ووجه التوكيد أنه سبحانه نسب التنزيل إلى ذاته المقدسة مرتين ، مرة بضمير المتكلم في قوله : « ما أنزلنا عليك القرآن لِتَشْقَى » . ومرة بضمير الغيبة في قوله : « تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ... » وإنما نسب التنزيل إلى ذاته المقدسة مرتين ، تعظيماً لشأن المنزل - جل جلاله - وتفخيماً لشأن القرآن الذي أنزله ، وقطعاً لريبة المرتابين في كونه منزلاً من عند الله .

والاقتصار هنا على خلق السموات والأرض ، لأنه سيُصرَّح بخلق ما فيهما وما بينهما وما تحت الثرى في الآية السادسة . وتقديم خلق الأرض هنا ، لأن الأرض أقرب إلى الحس ، والإنعام بها على الناس أظهر ، ووصف السموات بالعلى - جمع للعليا - لتوكيد الفخامة ، مع ما فيه من رعاية الفواصل . ثم وصف عظمته تعالى وعظمة ملكه فقال سبحانه :

٥ - (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) :

وعرش الرحمن جل جلاله أعظم مخلوقاته ، ولا يحيط بوصف عظمته إلا ربه ، ومن العرش تَنَزَّلُ أوامر الله في شؤون الكون كله ، دون أن يكون الله فيه ، لا استحالة ذلك عقلاً . واستواؤه تعالى على العرش من قبيل التشابهات التي يجب الإيمان بها وتفويض علم المراد منها إلى الله جل وعلا ، وترك تأويلها مع تنزيهه تعالى عن مشابهة الحوادث وهذا مذهب جمهور أهل السنة ، وفي ذلك يقول الإمام مالك : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والجحود كفر ، والسؤال عنه بدعة .

ومن العلماء من فسر الاستواء على العرش بأنه كناية عن انتهاء تدبير المكون إلى الله سبحانه وتعالى ، بعد إتمام خلقه إياه ، دون أن يشركه في هذا التدبير شريك ، كما لم يشركه من قبل في إبداعه شريك .

ولأنما أضيف لله تعالى الاستواء على العرش وحده مع أنه سبحانه مستور على الكون كله ، لأن العرش أعظم مخلوقاته ، فإذا استوى عليه وهو أعظمها فقد استوى على كل ماسواه ،

وأما تفسير الاستواء على العرش بالاستقرار فيه كما تقول المشبهة ، فهو باطل وكفر
 « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »^(١) . ثم بين سبحانه سعة سلطانه وشمول
 قدرته لجميع الكائنات فقال :

٦ - (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى) :

أى له وحده عز وجل دون غيره ، جميع ما في السموات وما في الأرض ، سواء كان ذلك
 جزءاً منهما أو حالاً فيهما ، وله ما بينهما من كل كائن في الجو كالسحاب والهواء وما لا يعلمه
 سواه جل وعلا ، وله ما وراء التراب من طباق الأرض ومعادنها ومياهاها الجوفية ، إلى غير
 ذلك مما لا يحيط بعلمه إلا الله تعالى ، له كل ذلك خلقاً وملكاً وتصرفاً ، وذكر ماتحت
 الثرى مع دخوله تحت قوله (وما في الأرض) لزيادة التقرير .

٧ - (وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) :

والخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد أمته ، أو لكل مخاطب ، والمراد
 بالقول عمومه ، فيشمل الذكر والدعاء وغيرهما ، وقيل المراد به ذكر الله تعالى ودعاؤه خاصة ؛
 وجواب الشرط مقدر ، أى وإن تجهر بالقول فاعلم أن الله غنى عن جهرك ؛ فإنه يعلم السر وأخفى ،
 وفيه إرشاد العباد إلى أن الجهر بالنسبة إلى الله تعالى لا داعى إليه ؛ لأنه يعلم السر وأخفى ؛
 ما لم يكن للعبد فيه غرض شرعى كما سيأتى .

والسر ما تحدث به غيرك فى خفاء ، والأخفى منه ما تحدث به نفسك ولا تتفوه به
 أسلاً . والمعنى : وإن ترفع صوتك أيها الإنسان بذكر الله تعالى أو بدعائه أو بغيرهما فإنه تعالى
 يعلمه ، لأنه يعلم السر الذى تسره ، ويعلم ما هو أخفى منه مما تضره وما توسوس به نفسك .
 وعلى أن المراد بالقول ذكر الله تعالى ودعاؤه خاصة ، فالمعنى : وإن تجهر بذكر الله تعالى ،
 وبدعائه كقوله جل ذكره « وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ
 بِالْغُقُوِّ وَالْأَصَالِ »^(٢) . وإنما ينهى عن الجهر بذكره تعالى ، ما لم تدع إليه حاجة ، كالتهليل والإرشاد
 وتشبيث الذكر فى النفس ، ومنع الوسوسة فيجوز فى حدود الرفق والاعتدال ، قال الألوسى :
 فقد صح ما يزيد على عشرين حديثاً فى أنه صلى الله عليه وسلم كثيراً ما كان يجهر بالذكر ،

وصح عن أبي الزبير أنه سمع عبد الله بن الزبير يقول : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من صلاته يقول بصوته الأعلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لاحول ولا قوة إلا بالله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) وهو محمول على اقتضاء حاجة التعليم ونحوه رفع الصوت ، ومن الأغراض الشرعية رفع الصوت في تكبيرات العيد ، فرحاً به وابتهاجاً وتمجيداً لله ، واعتذاراً بصدق الله لوعده ونصر عبده ، وهزماً لأعدائه المشركين ، انظر الآلوسي^(١) .

٨- (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) :

هذه الآية الكريمة مستأنفة لبيان أنه سبحانه وإن كانت ذاته المقدسة واحدة ، فأسماؤه وصفاته متعددة ، فقد كان المشركون يقولون : ما بال محمد يدعونا إلى إله واحد وهو يدعو إلهين ، الله والرحمن ، فقال الله تعالى : « قُلْ اذْعُوا اللَّهَ أَوْ اذْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى »^(٢) وقال تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا »^(٣) . وقد جاء الاسم بمعنى الصفة ومنه قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ »^(٤) أي صفوهم .

والمعنى : ذلك الذي سبقت نعوته العظيمة ، وصفاته الجليلة ، هو الله الذي لا إله إلا هو له الصفات العليا في الحسن والكمال ، وإن كانت ذاته جل وعلا واحدة .

(١) فقد توسع في الكلام على هذه الآية .

(٢) الإسراء ، من الآية : ١١٠

(٣) الأعراف ، من الآية : ١٨٠

(٤) الرعد ، من الآية : ٣٣

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ٩ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا
 إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ١٠)
 فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَّى ١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ
 بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٢ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ١٣
 إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ١٤
 إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ١٥
 فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ١٦)

المفردات :

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى) : الاستفهام للتقرير ، ويأتى بيانه فى التفسير ، وحديث موسى : خبره وقصته ، ويطلق الحديث على كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي فى اليقظة أو المنام . (آنَسْتُ نَارًا) : أى أبصرت نارا إبصارا بيّنا لا شبهة فيه .
 (بِقَبَسٍ) : أى بشعلة مقتبسة على رأس عود أو نحوه .
 (إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) : المقدس : المطهر ، أو المبارك ، طُوًى : اسم الوادى وهو الجانب الغربى من الطور .

التفسير

٩، ١٠ (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا . . .) الآية . . .
 هذا استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد ، الذى انتهى إليه مساق الحديث ، والخطاب فيه للرسول صلى الله عليه وسلم ، للإيدان بأن حديث موسى وقصته جدية بأن تنتقل مع الأجيال ، ولب هذه القصة أمر التوحيد ، حيث قال الله لموسى : « إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا » .

وبه ختم عليه السلام مقالة إذ قال : « إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » .

والاستفهام هنا للتقرير ، وفيه معنى التنبيه والتشويق ، كما تقول لصاحبك : هل بلغك الخبر الفسلائي ؟ فيتنبه ويشتاق لسماع الخبر ، فإذا سمعه تقرر في نفسه ، لأنه آتاه على شوق .

ويقرب من هذا المعنى ما قيل : إن حرف الاستفهام هنا بمعنى قد ، أي قد جاءك خبر موسى وقصته ، حين رأى نارا في ابتداء الوحي إليه ، وتكليم ربه إياه ، وذلك بعد ما قضى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم ، وسار بأهله قاصداً مصر بعدما طالت غيبته عنها ، فضلَّ الطريق المسلوك في ليلة شتائية باردة مظلمة ، وجعل يقدح بزنادٍ معه ؛ ليورى نارا فلم يُخرجُ شررا .

فبينما هو كذلك ، إذ ظهرت له نارٌ من جانب الجبل عن يمينه ، فاستبشر وبشّر أهله بما رأى ، وذلك قوله تعالى :

(فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) :

أمر أهله أن يقيموا مكانهم ، راجياً أن يجيئهم بشعلة يقتبسها من النار التي رآها ليوقدوا منها ويستدفئوا ، أو أن يجد حول النار هادياً يرشده إلى الطريق ، وقد تاه عنه في ظلام الليل ، والخطاب بصيغة الجمع للزوجة والولد^(١) . أو الخطاب للزوجة وحدها ، والجمع للتفخيم ، كما في قول الشاعر يخاطب امرأة واحدة .

وإن شئتُ حرمت النساء سواكمو^(٢) .

وكانت النار في شجرة عَنَابٍ خضراء يانعة ، كما روى عن ابن عباس رضي الله عنه .

١١ - (فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى) :

أي فلما بلغ مكان النار التي أبصرها ناداه ربه قائلاً : يا موسى .

(١) الاثنان جمع لغوى ، حيث جمع أحدهما بالآخر وضم إليه ، وقد نقل عنه صلى الله عليه وسلم : الاثنان فافوقهما جمع .
(٢) أشبعت ضمة الميم فتولدت عنها واو لضرورة الشعر .

١٢ - (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) :

أى إِنِّي أَنَا الله ربك الذى أكلمك ، أى من غير واسطة الروح الأمين جبريل عليه السلام كما قلنا فى تفسير قوله تعالى : « وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا »^(١) .

وتكرير ضمير المتكلم لتأكيد الدلالة وتحقيق المراد وإمطة الشبهة ، وفى سورة النمل : « يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »^(٢) .

وفى سورة القصص : « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »^(٣) .

ولاتعارض بين الآيات الكريمة ، فقد ناداه ربه بها كلها ، إلا أنه سبحانه حكى فى كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء الكريم ، أى أنه سبحانه خاطب موسى بما يفيد هذه المعانى والصفات التى اشتملت عليها هذه النصوص المتفرقة ، فلما تكررت القصة فى سور متعددة أعطى كل سورة جانباً منها ، لمنع التكرار فى العبارة والله أعلم .

وأمر سبحانه كلمه بخلع نعليه ليباشر بقدميه الأرض المقدسة ، فتصيبه بركة تكليم الله إياه فى الوادى المقدس ، ولأن الحفاء أوصل فى التواضع وحسن الأدب ، ولذلك كان السلف الصالح يطوفون حفاة .

وقوله تعالى : (إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) : بيان لحكمة الخلع المأمور به مع الإشارة إلى شرف البقعة وقدها ، وقد نفذ الكلام أمر ربه فخلعهما .

١٣ - (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى) :

أى وأنا الله الذى اصطفيتك من الناس ، أو من قومك للنبوة والرسالة ، فاستمع لما أوحى إليك ، وتقبله وتأهب للعمل بما يقتضيه ، وفى معنى الآية قوله تعالى : « إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي »^(٤) . ثم بين الله ما أوحاه إليه فى هذه المكاملة القدسية فقال سبحانه :

(٢) سورة النمل ، الآية : ٩

(١) سورة النساء ، من الآية : ١٦٤

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٤

(٣) سورة القصص ، الآية : ٣٠

١٤- (إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا . . .) الآية .

أى إننى أنا الإله الواحد المعبود بالحق لا شريك لى ، والفاء فى قوله تعالى : (فَأَعْبُدْنِى) لترتيب المأمور به على ما قبلها ، فإن اختصاص الألوهية به سبحانه من موجبات تخصيص العبادة به عز وجل ، والمراد بالعبادة غاية التذلل والانقياد له فى كل ما يكلف به وخصت الصلاة بالذكر ، وأفردت بالأمر فى قوله تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى) مع اندراجها فى الأمر بالعبادة ، لمزيد فضلها على سائر العبادات ، بما نيظت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره ، وقد سماها الله إيماناً فى قوله سبحانه : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ »^(١) . واختلف العلماء فى كفر تاركها كسلاً ، وأما تاركها جهلاً فلا خلاف فى كفره .

وقوله تعالى : (لِذِكْرِى) : أى لتذكرنى ، فإن ذكرى كما ينبغى لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة والصلاة ، أو لتذكرنى فيها ؛ لاشتمالها على الأذكار ، أو لِذِكْرِى خاصة ، فلا تشبه بذكر غيرى ، أو المراد بالذكر هنا ، التذكُّر ، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد . عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها » فإن الله تعالى قال : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى) . وفى الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ » .

ثم بين السبب فى وجوب العبادة وإقامة الصلاة فقال :

١٥- (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا . . .) الآية .

أى إن الساعة قادمة لا محالة ، لتحاسب كل نفس بما عملت : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »^(٢) .

(أَكَادُ أُخْفِيهَا) : أريد إخفاءها بعدم تحديد وقتها ، ولولا ما فى الإخبار بمجيئها من اللطف وقطع الأعذار ، لما أخبرت بآياتها ، ومع أنه تعالى أخفى وقتها فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أماراتها ، تذكيراً للناس بها ليحذروها .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٤٣

(٢) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

١٦ - (فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى) :

أي فلا يصرفنك يا موسى عن ذكر الساعة ومراقبتها والاستعداد لها بالعمل الصالح لا يصرفنك عن ذلك الكافرون الذين لا يصدقون بها ، ويتبعون هواهم بتكذيبها ، فتهلك معهم إن اتبعت هواهم ، وهذا النهى وإن كان ظاهراً لموسى فالمراد به أمته كما قال كثير من المفسرين ، فإنه صلى الله عليه وسلم لا يصرفه عن الساعة والعمل لها صارف بموجب عصمته .

(وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَالْقَنَاقِطُ إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يٰمُوسَىٰ) : الاستفهام للتقرير ، ويأتي توضيحه في التفسير .

(أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا) : أعتمد عليها .

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي) : وأضرب بها ورق الشجر ليسقط على غنمي فتأكله .

والهش كالهز بمعنى التحريك .

(مَآرِبُ) : منافع ومصالح جمع مأربة مثلثة الراء .

(سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ) : هيئتها الأولى التي كانت عليها .

التفسير

١٧ - (وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يٰمُوسَىٰ . .) :

الاستفهام هنا للتقرير ، كما تقدم آنفاً في قوله تعالى : « وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى »

والحكمة فيه تنبيهه وتوقيفه على أنها عصا عادية ، حتى إذا قلبها الله تعالى حية تسعى ، علم أنها معجزة عظيمة أعدها الله لموسى ، فازداد يقيناً وطمأنينة وثباتاً وأنساً .

١٨ - (قَالَ هِيَ عَصَايَ اتَوَكَّأَ عَلَيْهَا . . .) الآية .

أجاب موسى ربه فقال : هي عصاى . وبهذا تم الجواب ولـسكنه عليه السلام أحب المزيد من مكآلة ربه ، استثنآسآ به ، وفرحآ بمناجاته ، فآغنم الفرصة لذلك فى مقام البسط ، وذكر من منافعها أنه يعتمد عليها عند الإعياء أو الوقوف على رأس القطيع .

(وَأَمْشُ بِهَا) : أى أضرب بها ورق الشجر فيسقط على غنى فتأكله ، ثم إنه عليه السلام أجمل بقية منافع عصاه فقال :

(وَلِيَّ فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى) : أى حاجات ومصالح أخرى ، وذلك مثل ما قيل : إنه عليه السلام كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس ، والكنانة والمخلآة والثوب ونحوها ، وإذا كان فى البرية ركزها وألقى عليها الكساء واستظل به ، وإذا قصر الرشآء عن الاستقاء وصله بها ، وإذا تعرضت غنمه للسباع قاتل بها ، هذا بعض ما قيل فى تلك المآرب ، والله أعلم بها .

قال ابن كثير : وقد تكلف بعضهم ليدكر شيئآ من تلك المآرب التى أبهمت ، فـقيل : كانت تضىء له بالليل وتحرس له الغنم إذا نام ، ويغرسها فتصير شجرة تظله ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة ، والظاهر أنها لم تكن كذلك ، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعبانآ ، فما كان يغرم منها ، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية ، وكذا قول بعضهم : إنها كانت لآدم عليه الصلاة والسلام ، وقول الآخر : إنها هى الدابة التى تخرج قبل يوم القيامة !!

١٩ - (قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى . . .) :

أمره تعالى بإلقاء العصا على الأرض ليريه من شأنها ما لم يخطر له على بال ، وليكون إلقاؤها قبل لقاء السحرة تمهيدآ لما يظهره الله تعالى على يد موسى وأخيه من المعجزات ، مع الطمأنينة ورباطة الجأش .

٢٠ - (فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى . . .) :

فلما ألقاها موسى فوجىء بأنـها حية عظيمة تمشى مسرعة على بطنها ، والحية اسم علم

يطلق على الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، وقد انقلبت حين ألقاها موسى عليه السلام ثعبانا عظيماً ، كما يفصح عنه قوله تعالى : « فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ » (١) .

وجاء تشبيهها بالجان من حيث الجلادة وسرعة الحركة في قوله تعالى في سورة النمل : « فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » .

ولا منافاة بينهما ، فإن الجان ضرب قوى من الحيات .

٢١ - (قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ . .) الآية .

لما انقلبت العصا ، بقدره الله تعالى ثعباناً يمشى مسرعاً مضطرباً ، خاف عليه السلام ونفر وملكه ما يملك البشر عند مشاهدة الأهوال والمخاوف ، فثبته ربه وقال له : « خُذْهَا وَلَا تَخَفْ » ثم زاده طمأنينة فقال له : (سَنُعِيدُهَا) : أى نرجعها إلى حالها الأولى ، التى كانت عليها . وفى الآية عِدَّةٌ كريمة بإظهار معجزة أخرى على يده عليه السلام هى إعادة العصا إلى هيئتها الأولى ، وإيدان بأنها مسخرة له ، لثلاث تعتريه شائبة زلزلة عند مجابهة السحرة .

(وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةً أُخْرَى ۚ لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ۝٢٢) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝٢٣) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٤) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝٢٥) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ۝٢٦) يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٧) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٨) هَٰرُونَ أَخِي ۝٢٩) أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ۝٣٠) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ۝٣١) كَىٰ تُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٢) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٣) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٤)

المفردات :

(إِلَى جَنَاحِكَ) : أى إلى جنبك ، وأصل الجناح للطائر ، ثم أطلق على اليد والعضد والجنب ، وهو المراد هنا . (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) : أى من غير قبح ولا عيب ، وهو هنا كناية عن البرص .

(إِنَّهُ طَفَى) : أى تجاوز الحد في عتوه وجبروته . (أَشْرَحَ لِي صَدْرِي) : وسَّع لي صدرى . (وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي) : أى سهل لي ما أمرتني به ، (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي) : أى فك حبة من لسانى .

(وَزِيرًا) : معاونًا من الوزر بمعنى الحمل الثقيل ، أو ملجأً اعتصم برأيه من الوزر ، وأصله الجبل يتحصن به ، ثم استعمل بمعنى الملجأ مطلقاً . (أَزْرَى) : أى قُوْنَى ، يقال آزره . . أى قواه وأعانه ، أو ظهرى .

التفسير

٢٢- (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى) :

بعد أن ذكر الله العصا آية موسى الأولى وبرهانه على نبوته ، قفى عليها بذكر الآية الثانية وهى خروج يده بيضاء من غير سوء من تحت إبطه .

والمعنى : وأدخل يدك في طوق قميصك ، واجعلها إلى جنبك تحت إبطك ، ثم أخرجها تخرج بيضاء من غير قبح ولا عيب ، نجعلها لك آية أخرى على نبوتك ، وكان موسى عليه السلام أسمر اللون ، فإذا وضع يده تحت إبطه خرجت بيضاء مخالفة للونه الأسمر ، وكانت في بياضها تشع نوراً مضيئاً كما روى عن ابن عباس .

٢٣- (لَنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى) :

أى افعل ما أمرك به من إلقاء العصا ، وضم اليد إلى الجناح ، لنجعلك مبصراً بعض آياتنا العظمى التى لا عهد لك ولا لغيرك بمثلها ، والتى هى شاهدة على عظيم سلطاننا ، وكامل قدرتنا ، وأنت مرسل منا .

٢٤- (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ) :

انتقل النسق القرآني بهذه الآية الكريمة من المقدمات السابقة ، إلى المقصود منها .
والمعنى : اذهب إلى ملك مصر وادعه إلى الاستقامة على طريق الحق والعدل ، فإنه
جلوز الحد في التجبر والطغيان ، حيث ادعى الألوهية ، وبغى على الرعية .
وحينما كلف الله موسى بهذا الأمر الخطير ، تضرع إلى الله عز وجل مستعيناً به كما حكاه
الله بقوله :

٢٥، ٢٦- (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي) :

قال موسى متضرعاً إلى الله : رب وسع لي صدري ، فلا يضيق بكبرياء فرعون وجبروته ،
ومشقة دعوته ودعوة قومه الذين يعبدونه ، واجعله في سعتة مقبلاً على هذا الأمر الجلل ،
مستريحاً لأدائه ، وسهل لي أمري الذي كلفتني به بقوة العزيمة ، والصبر والاحتمال ، وهوفيقي
إلى أحسن الأداء ، ومعرفة شئون الحق وأحوال الخلق ، لأصل بدعوتك إلى قلوبهم .

٢٧- (وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) :

واجعل لساني حين تبليغ الرسالة إلى فرعون طليقاً غير معقّد ولا حبيس ، حتى ينطلق
في تبليغه ما تأمرني به ، وتكون عباراتي واضحة لكي يفهموا قولي ، ويتأثروا بحسن أدائي .
وهذه العقدة التي في لسانه لم نجد في السنة النبوية بياناً أو سبباً لها ، وقد تكلم فيها
المفسرون ، فنقل ابن كثير عن ابن عباس أنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من
الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هرون ، ليتكلم عنه بكثير مما لا يفصح عنه لسانه ،
ولم يرد في هذا الخبر بيان سبب هذه العقدة .

وذكر الآلوسي : أنه كان في لسانه رُتَّةٌ^(١) من جيرة أدخلها فيه وهو صغير ، وذكر كذلك
قصة طويلة مشهورة على ألسنة الناس ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم بصحة ما ذكروه ، ويبدو لنا
من سكوت السنة النبوية عن بيان هذه العقدة وأسبابها ، أنها عقدة يخشى أن تحدث له
عند لقائه فرعون لتبليغه أنه ليس بإله ، وأن لا إله إلا الله رب السموات والأرض ، في

حين أنه قتل منهم قتيلاً ، وأنهم كانوا يأترون به ليقتلوه ، فلهذا سأل ربه أن يشرح له صدره وييسر له أمره ، ويطلق لسانه فلا يتلعثم ولا ينعقد عن تبليغ أمر ربه ، وأن يشد أزره بأخيه هرون ليصدقه ويعاونه . ولا يقتضى وصفه له بأنه أفصح منه لساناً ، أن يكون لدى موسى رتبة ولثغة فى لسانه كما قيل ، فربما كان مقصوده من ذلك أنه لا توجد لدى هرون أسباب يخشى أن تحبس لسانه ، كالأَسباب التى لديه ، على أنه لو فرضت زيادة هرون عليه فى الفصاحة ، فإن ذلك لا يقتضى وجود عيب فى لسانه ، فهو فصيح وأخوه هرون أفصح منه ، والله تعالى أعلم .

٢٩ ، ٣٠ - (وَاجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ . هَرُونَ أَخِي) :

أى واجعل لى موازراً ومعيناً من أهلى أقرب الناس إلىّ ، وهو هرون أخى ، ليحمل معى أعباء الرسالة ، من الوزر بكسر الواو وسكون الزاى ، بمعنى الحمل ، ويجوز أن يكون المعنى : واجعل لى هرون أخى ملجأً أَلجأً إليه وأعتصم به عند الشدائد ، والمكاره ، من الوزر بفتح الواو والزاى ، بمعنى الملجأ .

٣١ ، ٣٢ - (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِيْ أَمْرِي) :

يطلق الأزر فى اللغة على القوة وعلى الظهر ، فعلى الأول يكون المعنى : أحكم يارب بأخى هرون قوتى ، وأشركه يا مولائى فى تبليغ رسالتى ، وعلى الثانى يكون المعنى : اشدّد به ظهري وأشركه فيما ذكر من أمرى .

والمقصود من هذا الدعاء ، أن يجعلهما الله تعالى متعاونين فى تبليغ الرسالة إلى فرعون وقومه ، وإلى بنى إسرائيل ، أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى قوله تعالى : (وَأَشْرِكْهُ فِيْ أَمْرِي) : - نُبِّئْ هَرُونَ سَاعَتِيْذ - حين نُبِّئْ موسى عليه السلام .

أى أنه نُبِّئْ هَرُونَ بدعوة أخيه موسى فى وقت مكالمة الله الذى امتد حتى بشره ربه بإجابة دعائه كله كما سيأتى ، فلهذا قال ابن عباس - نُبِّئْ هَرُونَ حين نُبِّئْ موسى ، أى أنه نُبِّئْ فى وقت المكالمة الذى كان موسى فيه قد نبّئ ، ثم ختم موسى عليه السلام دعاءه بما حكاها الله بقوله :

٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ - (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا) :

أى اجعل هرون أخى وزيرا لى ، ونبيا ورسولا معى ، لكى ننزهك كثيرا يارب عما لا يليق بك من الصفات ، كالشريك والنظير ، والوالد والولد ، ونرد ما يزعمه فرعون من ألوهيته ، وغير ذلك مما تتنزه عنه ساحة ألوهيتك ، يا إله العالمين ولكى نذكرك ونثنى عليك بما أنت أهله ذكراً وثناءً كثيراً ، إنك كنت ياربنا ولا تزال بصيرا بنا ، فى سائر أحوالنا ، علما خبيراً بنياتنا وأمورنا منذ خلقتنا ، ومن ذلك إيماننا بك وحدك وعبادتك دون سواك بين قوم مشركين ، فاعل ذلك يجعلنا أهلاً لاستجابة دعائى يا إلهى .

قال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ، ومضطجعاً .

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ۖ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۖ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ۖ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۚ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۚ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ ۖ وَأَصْطَنَعْنَاكَ لِنَفْسِي ۖ)

المفردات :

(سُؤْلَكَ) : أى سؤالك ؛ والمقصود منه مطلوبه الذى سأل ربه .

(مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) : أنعمنا عليك في وقت آخر بنعم غير هذه النعمة وسيأتى بعض تفصيلها : (أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ) : ألهمناها كما في قوله تعالى : «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ» ، (وَلَتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي) : ولتربى تربية حسنة بعنايتى وعلمى ، تقول : صنعت الفرس وأصنعتة : أحسنت رعايته والقيام بشئونه .
(يَكْفُلُهُ) : يرعاه ويعنى بتربيته . (فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ) : فأنقذناك من الكرب بسبب قتلك القبطى من شيعة فرعون . (مَدِينَةٍ) : بلدة شعيب صهر موسى .
(ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى) : جئت على موعدٍ مقدرٍ لإرسالك إلى فرعون .
(وَاصْطَلَعْتَكَ لِنَفْسِي) : اخترتك لرسالتي . من الاصطناع بمعنى الاستخلاص ، أو خلقتك لها . من الصنعة .

التفسير

٣٦- (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى) :

أى قال الله لموسى بعد أن دعاه ، قد حققنا لك ما سألت ، وأجبناك لما التمتست ، فسندشرح لك صدرك ، ونيسر لك أمرك ، ونطلق لك لسانك ، فلاتتهيب المواقف فيحتبس عن قول الحق ، وستؤزرك بنبوة أخيك هرون ورسالته ، فأقبل على ما كلفناك به في حفظنا ورعايتنا وكفالتنا ، ثم زاده الله اطمئنانا على رعايته له في مهمته فقال :

٣٧- (وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) :

أى وبالله لقد أنعمنا عليك من غير دعاء منك ، أنعمنا عليك مرة أخرى في وقت سابق . لم تكن فيه نبياً ولا رسولا ، فكيف لاننعم عليك بما طلبته منا وقد اتخذناك نبياً ورسولاً ، ولقد بدأ الله هذا الامتنان بالقسم اعتناء به ، وبالمقصود منه ، ثم عقب الله هذا الامتنان المجمل بتفصيله فقال :

٣٨- (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى . .) :

الإيحاء هنا . . . بمعنى الإلهام . كما في قوله تعالى : «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ» ، أى ألهمها - أما الإيحاء عن طريق الملك . . فخاص بالأنبياء . . ولانبوة للنساء . فضلا عن

النحل - وهل كان هذا الإلهام في اليقظة أم كان في المنام ؟ والذي يظهر لنا أنه في اليقظة ، لأن الذي يكون في النوم يعبر عنه في عرف القرآن بالرؤيا ، كما في قوله تعالى - : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » وقد كان هذا الإلهام قويا مقنعا ، فلهذا لم تتردد في تنفيذه ، ولهذا شبهه الله بما يوحى للأنبياء ، في قوة الاقتناع به ، والطمأنينة له .

والمعنى على هذا - ولقد ألهمنا أمك في شأنك تدبيراً اقتنعت به تماماً ، لأنه كان مؤكداً في نفسها تأكيد ما يوحى إلى الأنبياء ، فإن الأرواح قد تصل من الصفاء والشفافية إلى ما يجعلها تتحقق من صدق إلهامها كأنها تشاهده على الحقيقة ، ومن ذلك أن سارية كان قائدا في إحدى المعارك النائية ، فأحس عمر بن الخطاب بأنه في مأزق حرج ، فناداه وهو على منبره بالمدينة - ياسارية الجبل ، فسمعه سارية فلجأ برماته إلى الجبل ، فانتصر على عدوه ، ولما رجع من المعركة حدث الناس بذلك وفي مثل هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنْ مِنْ أُمَّتٍ مُّحَدِّثِينَ » .

٣٩ - (أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ . .) الآية .

هذه الآية مفسرة لما أوحاه الله إلى أم موسى ، وكان قد ولد في السنة التي كان فرعون يقتل فيها مواليد بني إسرائيل من الذكور ، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة البقرة مخاطبا بني إسرائيل : « يَسْأَلُونَكَ سُوَّةَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ » (١) . . .

وقيل في سبب ذلك : إن فرعون خاف أن يذهب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل ، يولد في هذا العام كما رآه في منامه ، فأمر بقتل كل ذكر يولد منهم فيه - « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا » ولهذا لم يُقدِّر فرعون تدبيره في دفع ما قدره الله عليه ، إذ لا يُغْنِي حَذْرٌ مِنْ قَدَرٍ .

والمعنى : إذ أوحينا إلى أمك يا موسى أن ضعيه في صندوق محكم الصنع بحيث لا يدخله ماء ، فاطرحيه في البحر - وهو النيل - يلقيه البحر بساحل فرعون .
ولما كان إلقاء البحر للتأبوت بالساحل أمرا واجب الوقوع ، لتعلق إرادة الله به ، فجعل البحر في النص الكريم كأنه مأثور بذلك (٢) .

(يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ) : المراد بهذا العدو فرعون ، وقد نفذت أم موسى ما ألهمت به فاتخذت تابوتا محكما . ووضعت فيه موسى وألقته في النيل ، وكان يذهب منه فرع إلى بستان فرعون - كما قيل - فرأى آل فرعون التابوت فالتقطوه وفتحوه فوجدوا فيه صبيا أَصْبَحَ الوجه ، فأحبه عدوُّ الله حبًّا شديداً بحيث لا يئامك أن يصبر عنه ، وذلك قوله تعالى :
(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) :

والمعنى :

أَيَّ وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ، إِذْ أَحْبَبْتِكَ وَجَعَلْتُ مِنْ يَرُونَكَ يَحْبُونَكَ ، فَأَحْبَبَكَ فرعون وأنزلك منه منزلة الولد ، وأحبك أهله وحاشيته ، وفعلت ذلك لكي تربى وتنشأ لديه ، وفي منزله في رعايتي وحفظي ، تلاحظك عين عنايتي ، قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى : «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي» أحبه الله وحبه إلى خلقه ، وقال في تفسير قوله سبحانه «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» : يريد أن تدبير أمرك بعيني ، أَي بعلمي ومشيتي ، حيث جُعِلَتْ في التابوت ، وحيث أُلْقِيَ التابوت في البحر ، وحيث التقطتك جوارى امرأة فرعون ، فذهبن بالتابوت إليها مغلقاً ، فلما فتحته رأت صبياً لم يَر مثله قط ، وألقى عليها محبته ، فدخلت به على فرعون ، وقالت له : «قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» انتهى باختصار وتصرف^(١) .

وقال ابن عطية : جُعِلَتْ عليه مَسْحَةٌ جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه ، وقال النحاس في تفسير «ولتصنع على عيني» ولكي يفعل بك الصنعة - أَي الإحسان - بحيث تربى بِالْحَنُوِّ وَالشَّفَقَةِ ، وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشيء بعينه ، إِذَا اعْتَنَى بِهِ - يريد أن في الكلام استعارة بالكناية - فليس لله عين كعيوننا ، فهو منزله عن مشابهة الحوادث ، ولكنها عين العناية والرعاية الصمدانية .

٤٠ - (إِذْ تَمْشِيْ أَخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ . .) الآية :

لما قذفت أم موسى وليدها في اليم ، صار قوادها فارغا من الصبر لفراقه ، فقالت لأخته : قُصِّيه وتعرفي خبره ، وكانت امرأة فرعون قد طلبت له المراضع ، فكلما عرض على مريض

(١) انظره مطولا في القرطبي .

أَبَى أَنْ يَرْضِعَ مِنْهَا ، حَيْثُ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْمَرْضَاعَ ، وَكَانَتْ أُخْتُهُ تَمْشِي بِجَوَارِ النَّبِيلِ تَرْقُبُ مَصِيرَهُ ، فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ بَعْدِهِمْ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهَا تَرْقُبُهُ ، فَلَمَّا عَلِمَتْ مَصِيرَهُ وَرَأَتْهُمْ يَطْلُبُونَ لَهُ الْمَرْضَاعَ ، اسْتَأْذَنْتْ مِنْ أَجَلِهِ فَأَذْنَوْا لَهَا ، فَأَخَذَتْهُ وَوَضَعَتْهُ فِي حَجْرِهَا ، وَنَاولَتْهُ ثَدْيَهَا فَمَصَّهُ وَفَرَحَ بِهِ ، كَمَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، فَعَرَضُوا عَلَيْهَا أَنْ تَقِيمَ عِنْدَهُمْ ، فَقَالَتْ إِنَّهُ لَيْسَ لِي لَبَنٌ ، وَلَكِنْ هَلْ أَدْلَكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفِلُهُ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ، قَالُوا وَمَنْ هِيَ ؟ قَالَتْ : أُمِّي ، فَقَالُوا : أَلَهَا لَبَنٌ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ . مِنْ أَخِي هَارُونَ - وَكَانَ قَدْ وَلَدَ قَبْلَ مُوسَى - وَلَمْ يَكُنْ قَدْ بَدَأَ الْقَتْلُ فِي مَوْلَايِدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الذَّكَورَ فَوَافَقُوا عَلَى إِرْضَاعِهَا إِيَّاهُ ، فَعَادَتْ فَأَخْبَرَتْهَا ، فَلَمَّا جَاءَتْهُ تَقْبِلُ ثَدْيَهَا وَارْتَضَعَ مِنْهَا ، تِلْكَ خِلَاصَةُ مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قِصَّةِ عَوْدَتِهِ إِلَى أُمِّهِ .

وَالْمَعْنَى : وَاذْكُرْ يَا مُوسَى حِينَ كَانَتْ أُخْتُكَ تَمْشِي عَلَى السَّاحِلِ لِتَعْرِفَ مَصِيرَكَ ، فَعَرَفْتَ أَنَّكَ انْتَهَيْتَ إِلَى دَارِ فِرْعَوْنَ ، وَأَنْتُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى مَرْضِعٍ ، فَقَالَتْ لَهُمْ : هَلْ أَدْلَكُمْ عَلَى مَرْضِعٍ تَتَكَفَّلُ بِرِضَاعِهِ ؟ فَوَافَقُوا .

(فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ) :

أَيُّ فَرَدَدْنَاكَ إِلَيْهَا لِتَرْضِعَكَ ، وَأَنْتَ مُكْرَمٌ فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ لَكِي تَسْتَقِرَّ عَيْنُهَا ، فَلَا تَكُونَ زَائِغَةً أَوْ مُتَحَرِّكَةً تَنْظُرُ هُنَا وَهُنَا ، بَاحِثَةً عَنْ مَصِيرِكَ ، أَوْ مُشْفِقَةً مِنْ شِدَّةِ الْحَيَاةِ عَلَى فَقْدِكَ .

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ قِرَّةَ عَيْنِهَا كُنَايَةً عَنْ فَرَحِهَا ، يَقُولُونَ : قَرَّتِ الْعَيْنُ إِذَا بَرَدَتْ عِنْدَ السَّرُورِ ، وَلِلْسُرُورِ دَمْعَةٌ بَارِدَةٌ ، وَلِلْحُزَنِ دَمْعَةٌ سَاخِنَةٌ^(١)

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا) :

لَا يَزَالُ الْكَلَامُ مَفْصَلًا فِي بَيَانِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى مُوسَى قَبْلَ أَنْ يَشْرَفَهُ بِالنَّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ ، وَالنَّفْسَ الَّتِي قَتَلَهَا مُوسَى نَفْسَ قَبْطِيٍّ كَانَ يَقْتَتِلُ مَعَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَاسْتَعَانَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ

(١) وَعَلَى هَذَا يَكُونُ تَقْدِيمُ عِبَارَةِ الْفَرَحِ عَلَى مَعْنَى الْحُزَنِ مِنْ بَابِ تَقْدِيمِ التَّخْلِيَةِ عَلَى التَّخْلِيفِ كَمَا يَقُولُ عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ وَإِنْ كَانَ الْمَكْسُ هُوَ الْغَالِبُ .

الذى هو من شيعته على القبطى الذى هو عدوه ، وكان القبطى باغياً على الإسرائيلى متشبثاً به ، فلما لم يرضخ لوساطة موسى بينهما ، وكزه بيده ، أى ضربه أو دفعه ، ففضى عليه ، ولم يكن موسى يقصد قتله ، بل تأديبه ، ولعله كان به مرض قلبى لم يحتمل معه تلك الوكزة ، فمات منها أو عندها ، وقد جاء فى الصحيحين أن قتله كان خطأ ولم يكن عمداً .

والمعنى : وقتلت رجلاً من أقباط مصر على سبيل الخطأ ، حيث كان باغياً على رجل من بنى إسرائيل ، فضربته فمات ، فأصابك الغم والحزن بسبب قتله ، لما يترتب عليه من غضب فرعون عليك ، أو اقتصاصه منك ، وخشية أن نغضب نحن عليك من أجل قتله ، فنجيناك من هذا الغم بغفران ما حدث منك بعد ما قلت : « رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي » ونجيناك من نقمة فرعون بالهجرة إلى مدين ، وابتليناك بالشدائد ابتلاءً شديداً وأنت فى طريقك إلى مدين ، فرارا من نقمة عدوك لتعتاد الشدائد والصبر عليها تمهيداً لتحمل أعباء الرسالة . ٤٠ ، ٤١ - (ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) : أى ثم جئت من مدين على الموعد الذى قدرت إرسالك فيه ، واخترتك لوحى رسالتى .

(أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِمَا يَتَّبِعِي وَلَا تَنْبِيَا فِي ذِكْرِي ۖ أَذْهَبَا إِلَى
فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسَ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ۖ
قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ۖ قَالَ لَا تَخَافَا
إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ۖ)

المفردات :

(وَلَا تَنْبِيَا فِي ذِكْرِي) : ولا تنفرا فى تبليغ رسالتى ، تقول وَنَبِيتُ فى الأمر أى فيه ونى وونياً ، أى تباطأت وفترت فيه ، ويطلق الونى أيضاً على الضعف ، والكلال ، والإعياء .
(إِنَّهُ طَغَى) : إنه تجاوز الحد فى الظلم والجبروت والغرور .

(يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) : يتعظ أو يخاف . (يَفْرُطُ عَلَيْنَا) : يعجل ويقابلنا بالقول الغليظ علينا يقال : فرط مني أمر ، أى بدر ، ومنه الفارط فى الماء ، الذى يتقدم القوم إلى الماء ، (أَسْمَعُ وَأَرَى) : لا تخفى على خافية من أمركما .

التفسير

٤٢ - (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَّاءَ فِي ذِكْرِي) :

هذه الآية مستأنفة ، لبيان المقصود من اصطناع الله لموسى ، والمراد بالآيات هنا العصا واليد ، لأنهما الآيتان اللتان ذهب بهما موسى وهرون أولاً إلى فرعون ، بدليل أن موسى لما كلمه الله فى طور سيناء ، أمره سبحانه أن يلقى عصاه فألقاها ، فصارت حية ، وأن ينزع يده من جيبيه فنزعها فصارت بيضاء - لما حدث ذلك - قال الله لموسى : « فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ^(١) » والتعبير عن هاتين الآيتين بصيغة الجمع فى قوله سبحانه : « اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي » إما لأن المراد من الجمع ما فوق الواحد ، وإما لأن كل آية منهما تشتمل على آيات . فانقلاب العصا حيواناً آية ، وكونها شعباناً عظيماً لا يقادر قدره آية أخرى ، وكونه مسخراً لموسى بحيث لا يضره آية ثالثة ، وعودته بعد ذلك عصا آية رابعة ، وكذلك اليد ، فإن تحولها من السمرة إلى البياض آية ، وكون بياضها مؤقَّتاً آية ثانية ، وعودتها إلى حالتها الأولى برغبته آية ثالثة .

وأما القول بأن المراد بها الآيات التسع فلا يناسب المقام .

ومعنى الآية : اذهب أنت يا موسى وليذهب معك أخوك هرون بآياتى ومعجزاتى الدالة على أنكما مرسلان منى ، ولا تتباطئا أو تفترا فى تبليغ رسالتى والدعاء إلى عبادتى ، وقيل : معناه تذكراى ولا تنسيانى واستمداً العون والتأييد منى ، فإنه لا يتم أمركما بغير تأييدى ، وعقب الله هذا الأمر المجمل ببيان من يذهبان إليه والمقصود من إرساله وطريقة أدائهما الرسالة فقال سبحانه :

٤٣ ، ٤٤ - (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) :

لم يكن هرون مع موسى وقت مكالمته ربه ، فقد كان موسى عائداً من (مَدْيَنَ) بعد هجرته إليها عشر سنين عقب قتله القبطي ، وكان هرون مقيماً بمصر ، حيث لم يحدث منه ما يقتضى تركه لها ، كما حدث لموسى ، والأمر موجه إليهما مع أن هرون غير موجود في مساحة الخطاب ، على سبيل تغليب الحاضر على الغائب ، ولأن هرون سوف يصدق أخاه حين يبلغه أمر ربه بإشراكه معه في الرسالة إلى فرعون ، فلماذا جعل في حكم الحاضر المخاطب . وروى أن هرون أوحى إليه بمصر ، أن يتلقى أخاه ، وقيل : بل ألهم ذلك ، وقيل : سمع بإقباله فتلقاه ، وعلى أى حال فقد التقى موسى بأخيه هرون ، وعرف أن الله أرسله وأشركه مع موسى في تبليغ رسالة ربه .

والمعنى : اذهب يا موسى أنت وهرون أخوك مصحوبين بآياتي ، إلى فرعون ملك مصر ، فإنه جاوز الحد في ظلم الخلق ، وفي الغرور حيث ادعى الألوهية ، فادعوا إلى الإيمان بي وترك الطغيان على عبادي ، واستعملوا أسلوب اللين في دعوتكما إياه إلى الهدى وترك الطغيان لعله بهذا الأسلوب اللين البعيد عن الخشونة يتذكر عظمة الله وآياته ، ويمتنع في التأمل فيها ، أو يخاف سوء المصير الذي ينتهي إليه أهل الطغيان ، فيؤمن بربه ، وينتهى عن غروره وطغيانه .

ولفظ : (لَعَلَّ) يستعمل للرجاء وللتعليل ، فإن أريد منها الرجاء هنا ، فالرجاء يكون من موسى وهرون .

والمعنى على هذا : فقولا لفرعون قولاً لئناً لئنا ترجوان بهذا اللين أن يتعظ أو يخاف سوء المصير فيؤمن ، ولا يصح أن يكون الرجاء من الله ، لأنه تعالى يعلم قديماً من غرور فرعون إصراره على الكفر والطغيان ، وأنه بعيد عن التذكرة والخشية ، ولكنه أرسلهما إليه ليقيما الحجة عليه ، وإن أريد من لعل التعليل . فالمعنى : لكي يتعظ أو يخاف .

وقد استنبط من الآية أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ينبغي أن يكون بأسلوب لين لا خشونة فيه ، لكي يتأثر باللين من تدعوه إلى الخير ، فإن الخشونة في الدعوة تأتي بعكس المقصود ، قال تعالى لرسوله : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » .

وإذا كان اللين مطلوباً من صاحب الرسالة المؤيد من الله تعالى ، فإنه يكون مطلوباً من غيره بطريق الأولى .

٤٥ - (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى) :

هذا استئناف مبين لما أجابا به ربهما بعد أن كلفهما بدعوة فرعون باللين إلى ترك ما هو عليه ، وهذا القول كان وقت مناجاة موسى لربه ، فهو من موسى وحده ، وإسناده إليهما حينئذ على سبيل التغليب ، لأن هرون سوف يخاف من طغيان فرعون إذا بلغه من أمر الرماله ما لا يحبه ، فكأنه مشارك موسى في هذا المقال ، فأسند إليه مع أخيه ، ويجوز أن يكون هذا القول قد حدث منهما معا بعد أن التقى موسى بهرون في مصر وأخبره بما كلفا به من قبل الله تعالى .

والمعنى : قال موسى وهرون : ربنا ومالك أمرنا إننا نخاف إن بلغنا رسالتك إلى فرعون أن يبادرنا بقول غليظ ، ويجابهنا قبل أن نقيم له الحجة ونظهر له المعجزة ، أو أن يطغى ، ويجاوز الحد فيعاقبنا أو يقتلنا .

٤٦ - (قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) :

أى قال الله مطمئناً لهما ، بعد أن أظهرهما له خوفهما من فرعون - لا تخافا منه ولا من قومه إننى معكما بالحفظ والنصرة والحماية ، أسمع وأرى ما يدور حولكما ، فلن أمكنه منكما ، ثم حضهما على التوجه برسالته سبحانه إلى فرعون فقال :

(فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا
تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِغَايَةِ مَن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾
إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ) : المقصود بإرسالهم إطلاقهم من الأسر كما سنشرحه إن شاء الله تعالى . (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى) : أى والأمان من عقاب الله لمن اتبع الهدى الذى أرسلنا به .

التفسير

٤٧ - (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ) :

نرى فى هذا النص الكريم أن الله تعالى كلف موسى وهرون أن يطلبوا من فرعون فى أول لقاء بينهما أن يرسل بنى إسرائيل معهما ، ولم يكلفهما بمطالبتة بالإيمان بربه سبحانه ، فى حين أن سورة النازعات تدل على أنهما كلفا بأن يهدياه أولاً إلى معرفة ربه ، فقد جاء فيها قوله تعالى : « اذهبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » وجمعاً بين النصين نقول : إن الله كلفهما بالأمرين جميعاً . وإنهما تدرجا معه ، فطلباً منه إرسال بنى إسرائيل وإطلاقهم من الأسر ، ورفع التعذيب والقتل عنهم ، قبل أن يطلبوا منه تبديل اعتقاده ، فإن الأول أسهل عليه من الثانى .

والمراد من إرسال بنى إسرائيل معهما تخليص الأسارى منهم ، وإخراجهم من تحت جبروته ، وليس المقصود التصريح لهم بالتوجه معهما إلى الشام ، ويدل على ذلك قوله تعالى عقب هذه الجملة : « وَلَا تُعَذِّبْهُمْ » أى لا تعذبهم بإبقائهم فى السجون والتسخير ، فقد كان هو وقومه يستخدمونهم فى الأعمال الشاقة كالحفر والبناء ونقل الأحجار ، ومن عصاهم عذبوه وسجنوه .

والمعنى : فاذهب يا موسى أنت وأخوك هرون إلى فرعون ، فقلوا له : إننا مرسلون من الخالق الذى أنشأك ورباك ، فأطلق سراح بنى إسرائيل من السجن ومن السخرة ، ولا تعذبهم بأى نوع من أنواع التعذيب الذى تمارسه أنت والقبط فى إذلالهم .

(قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى) :

أى وقد جئناك بحجة من ربك ، على أننا مرسلون من قبله ، ولسنا مفترين على الله ، بدعوى إرساله إيانا إليك ، والسلامة من العذاب فى الدارين لمن اتبع الهدى الذى أرسلنا الله به ، وليس السلام هنا بمعنى التحية ، لأنه ليس فى ابتداء كلامهم كما هى العادة فى التحية ، بل هو بمعنى الأمان لترغيبه فى حسن العاقبة .

ولو جاء هذا السلام أول الكلام لتحيته منهما ، لما كان مناسباً لما أوصاهما الله به ، من أن يقولوا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، فإن مفاجأته بأنه لا تحية له ، لأنها لأهل الهدى وهو ليس منهم ، تعتبر مفاجأة خشنة منفرة يقولانها بين يديه غير عابئين بمنصبه فى قومه ، وتَمَنُّعُهُ من أن يتذكر أو يخشى ، وتخالف اللين المطلوب منهما فى محادثته ، ولأنه يعتبرهما من رعيته ، وقد نشأ فى نعمته وتحت سلطانه ، وقال أبو حيان : الظاهر أن قوله تعالى : « وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى » فصل للكلام . والسلام فيه بمعنى التحية ، وجاء ذلك على ما هو العادة من التسليم عند الفراغ من القول ؛ إلا أنهما عليهما السلام رغبا بذلك عن فرعون ، وخصاً به متبعى الهدى ، ترغيباً له بالانتظام فى سلوكهم : ١ هـ .

والصواب ما قلناه أولاً ، من أن السلام هنا بمعنى الأمان ، وقد جاء فى وسط كلامهما مع فرعون وليس فى آخره ، فقد قالوا له عقب ذلك : « إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى » فكأنما قالوا له : والأمان على من اتبع الهدى الذى جئناك به ، لأن العذاب على من كفر به وتولى عنه .

فإن قيل إن النبى صلى الله عليه وسلم بدأ خطابه لعظيم الروم بتحيته على هذا النحو حيث قال له - كما جاء فى الصحيحين : « من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى » فلماذا لم يؤمر موسى وهرون بمثل ذلك ؟ فالجواب : أن النبى صلى الله عليه وسلم

إنما يفعل ذلك مع هرقل في منزلة من العزة والمنعة ، لم يكن فيها موسى وهرون كما تقدم بيانه ، فلذا أوصاهما الله تعالى بملاينته على النحو الذي جاء في النص الكريم .

٤٨ - (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) .

أى وقولا لفرعون أيضاً : إنا قد أوحى الله إلينا أن العذاب في الدنيا والآخرة على من كذبنا ، وأعرض عما جئنا به من وحي ربنا .

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ٥١ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ٥٢)

الفردات :

(خَلَقَهُ) : ما خلقه عليه من المادة والصورة والوظائف المختلفة . (ثُمَّ هَدَى) : ثم أرشد ما خلقه لما يصلحه . (فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى) : أى فما شأن أهل القرون السابقة وما حالهم . (عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ)^(١) : المراد بالكتاب هنا علم الله تعالى ، وقيل اللوح المحفوظ ، وقيل صحف الأعمال . (لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى) : أى لا يغيب سبحانه عن شيء يحدث فيفوته علمه ، ولا ينسى شيئاً علمه جل وعلا ، والجملة مستأنفة لتأكيد علم الله بأحوال القرون الماضية ، أو لتعليل علمه بها .

التفسير

٤٩ - (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى) :

جاء في الآيات السابقة أنه تعالى أمر موسى وهارون بالتوجه إلى فرعون وإخباره أنهما رسولان من ربه ، وأن يطلبوا منه رفع العذاب عن بني إسرائيل ، ويخبراه أن السلام على من اتبع الهدى ، والعذاب على من كذب وتولى .

(١) (عند ربى) خبر أول لقوله (علمها) و (فى كتاب) خبر ثان له . وقيل هما خبر واحد مثل : الرمان حلو حامض ، وقيل (فى كتاب) هو الخبر ، و (عند ربى) حال من الضمير المستكن فى الجار والمجرور .

وقد جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان ما حدث من فرعون بعد لقائهما إياه وتبليغه ما أمرا بتبليغه إليه . ولم تتحدث الآيات عن أنهما توجهتا إليه وأبلغاه ، اكتفاءً ببيان موقفه من رسالتهما ، فإن ذلك يؤذن بأنهما توجهتا إليه وأبلغاه فبدأ يناقشهما فيما جاءاه به .

وأول ما بدأ به مناقشته أن قال : « فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى » فأضاف الربوبية إليهما ولم يضيفها إلى نفسه مع أنهما أفهماه أنهما رسولان من ربه الذى هو ربهما ، لأنه لا يريد الاعتراف بربوبية غيره ، ولعل فرعون اختص موسى بهذا السؤال مع أن هارون كان معه ، لأن موسى هو الذى قام بتبليغه ، وإلى جانبه هارون يؤيده ، ويحتمل أن يكون للتعريض بأنه ربه ، كما قال : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا » فكأنه يقول له : فمن ربكما يا مَنْ كُنْتُ لك مُرَبِّيًا ، وجئت تنزع الربوبية مني .

وعلى أى حال فالمعنى إذا : إذا كنتم رسول ربكما الذى أرسلكما فأخبراني من ربكما الذى تدعونني إلى الإيمان به يا موسى .

٥٠ - (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) :

أى قال موسى جواباً لفرعون : ربنا يُعرَفُ بصفاته ، ولا يدرك بذاته ، فهو الذى أعطى كل شئ ما خلقه عليه من المادة والصورة والوظيفة ، وأعطاه ما يحقق به ما خلق له ، وهداه إلى تحقيقه ، فقد أعطى العين الصورة التى تطابق الإبصار ، وأمدّها بالقوة التى تبصر بها ، وأعطى الأذن الشكل الذى يوافق السمع ، وأمدّها بالقوة التى تستمع بها ، وكذلك الأنف واليد والرجل وغيرها ، أعطاه الله خلقها اللائق بها والمناسب لوظيفتها ، وأمدّها بالقوة التى تحقق ما خلقت لأجله ، وهداها لتحقيقها ، ومثل ذلك يقال فى الحيوان والنبات ، بل وفى الجماد أيضاً ، فالعلم من آن لآخر يكشف لنا عن عجائب الكون وإنك لترى فى الذرة وتكوينها وخصائصها ما يحير العقول ، فكيف بغيرها من ملكوت الله . !!

٥١ - (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى) :

لما وضح الحق فى جانب موسى ، خاف فرعون أن يتأثر الناس بما قاله موسى ، فيكفوا عن القول باللوهيته ، والاندماج فى عبوديته ، فلهذا وجه إليه سؤالاً يريد أن يحرجه به ،

ويظهر ضعفه أمام سامعيه ، فقال له : إن كنت رسولاً يا موسى فأخبرني : ما حال أهل القرون الماضية ، وماذا جرى عليهم من الحوادث مفصلة ؟ ولما كان موسى عليه السلام خالي الذهن عنها حين سؤاله ، أجابه بما حكاه الله بقوله :

٥٢- (قَالَ عَلِمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى) :

أى قال موسى :- رداً على فرعون - ، علم أحوال القرون الماضية يختص به ربى الذى أرسلنى وما أنا إلا عبد له تعالى ، فلا علم لى إلا بما أخبرنى من شئون الرسالة ، وقد بلغ من علم الله أنه تعالى لا يضل ولا يغيب عنه شىء فى الوجود ، فلا يفوته علم شىء منه ابتداءً ، ولا ينسى معلوماً دخل دائرة علمه ، فقد أحصى وأحاط بكل شىء علماً أزلاً وأبداً .

والمراد بالكتاب على هذا الوجه ، علم الله تعالى ، تمثيلاً لثبوت معلوماته سبحانه ، وتقرّرها وتمكنه منها ، بما استحفظه العالم وقيدته فى كتابه ، تقريباً للأذهان ، لأن علم الله بها أقوى وأثبت مما حوته كتب الكاتبين ، ولكون المراد ما ذكر ، عقبه بقوله : « لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » وقيل : المراد به اللوح المحفوظ ، والصواب ما قلناه لأنه هو المناسب للمقام - والله أعلم .

وقيل : إنما سأله عن إحصاء أعمال القرون الأولى وجزائها ، فأخبره بأنها محفوظة عند الله فى كتاب ، وسيجازيهم عليها فى الآخرة ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ولعل المراد بالكتاب على هذا الوجه ، هو السجل الذى يكتب فيه الملك أعمال المكلف ، ويحصيها عليه ، كما جاء فى قوله تعالى : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »^(١) . وقوله : « وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً »^(٢) .

(١) سورة ق ، الآية : ١٨

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٣

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا
وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي النُّهَى ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(مَهْدًا) : أى مبسوطة مذللة . وهو فى الأصل مصدر مهّد الأرض أو الفراش أى بسطه
ويسّره . وفعله من باب فتح يفتح ثم أطلق المهد على كل ما يبسط ويمهد ، وغلب على
فراش الصبي . (سُبُلًا) : جمع سبيل وهو الطريق . (أَزْوَاجًا) : أى أصنافاً ونظائر متشابهة
وأطلق عليها ذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض ، أو لأن بعضها ذكر والآخر أنثى
(نَبَاتٍ شَتَّى) : أى متفرق ؛ جمع شتيت ، من شت الأمر أى تفرق ، وألفه للتأنيث .
(وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ) : أى سرحوها وأطعموها من المرعى وهو مكان الكلاء والعشب . والأنعام
الماشية التى ترعى ، وهى تذكر وتؤنث ، وأكثر ما تطلق على الإبل ، ومفردها نَعَم بفتححتين
وهو مذكر دائماً ، كما قال الفراء يقولون هذا نَعَم - انظر المختار . (أُولِي النُّهَى) : أصحاب
العقول السديدة ، وقيل لهم ذلك لأنهم يُنتهى إلى رأيهم ، أو يَنْهَوْنَ أنفسهم ، ومفرده
نُهْيَةٌ . بضم فسكون .

التفسير

٥٣ - (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ..) الآية .

هذا الكلام إما أن يكون بقية ما أبلغه موسى لفرعون عن الله تعالى^(١) ، وإما أن يكون
كلام موسى قد تم ، عند قوله : « لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » وابتدأ الكلام منه سبحانه
لتعداد نعمه على عباده .

(١) وعلى هذا يكون لفظ (الذى) وصفاً لرَبِّى . أو خبراً لمبتدأ مخوف ، أما على الوجه الآتى فيكون خبراً لمبتدأ
مخوف فحسب .

وعلى الأول يكون المعنى : لا يفضل ربى عن أحوال القرون الماضية ولا ينساها ، ربى الذى الذى جعل لكم الأرض مُمهدة كمهد الصبي ، مبسوطة بحيث تستطيعون التقلب فيها ، والاستقرار عليها ، والانتفاع بها ، وفتح لكم فيما بين واديها وجبالها وواديانها سبلا وطرقا ، تسلكونها من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، لتستكملوا منافعكم ، وتحققوا مآربكم ، مما يكون متيسراً لدى غيركم ، ومفقوداً أو قليلاً عندكم .

وعلى الثانى يكون المعنى : هو الله الذى أنعم عليكم بنعمه العظيمة ، حيث جعل لكم الأرض مبسوطة كمهد الصبي ، وفتح لكم فيما بينها طرقاً . الخ .

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى) :

إما أن يراد من السماء السحاب ، وإما أن يراد ما فوقها ، فعلى الأول يكون قد عبر بالسماء عن السحاب ، لأن كل ما علاك سماء ، ونزول الماء من السحاب أمر واضح لا ريب فيه ، وعلى الثانى يكون إنزاله من السماء بمعنى إنزاله بسببها ، فإن السحاب يتكون من بخار الماء الناشئ عن حرارة الشمس المسلطة على المحيطات والبحيرات ، والأرض المروية ، وفيما يلى معنى الآية على الوجهين معاً :

المعنى : وهو الذى أنزل من السحاب أو بسبب الشمس التى هى فى السماء ، أنزل ماءً بقدر معلوم ، بحيث لا يضر مصلحة البشر ، فيغرقهم ، فأخرجنا به أشباهاً ونظائر من النبات ، متفرقة فى خصائصها ، حيث ترونها مختلفة الطعم والشكل واللون والرائحة ، مختلفة النفع للإنسان فى بناء جسده وعلاجه من أمراضه ، وللحيوان كذلك ، وهى مع اختلافها متزاوجة ، ومتشابهة فى عموم النفع والجمال والنضرة والبهجة ، كما أنها متزاوجة حيث توجد بين أصنافها الذكورة والأنوثة « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » ^(١) .

قالوا : ومن نعمته تعالى ، أن أرزاق العباد تقوم على الأنعام ، وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتهم ، ولا يستسيغون أكله ، وبعد أن بين نعمه على خلقه بإنبات أصناف النبات ، أبا حها لهم ولأنعامهم بقوله :

٥٤ - (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى) :

أى كلوا ما يصلح منها لأكلكم ، وأطعموا أنعامكم فى المسارح والمراعى مالا يصلح منها لكم ، إن فيما ذكر من النعم لبراهين عظيمة ، لأصحاب العقول السديدة ، التى ينهون بها النفس عن الغواية ، ويبعدونها عن القبائح ، منها يستدلون على وجود الخالق العظيم ، والمدبر الحكيم . والبر الرحيم .

* (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَّى ٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ ٥٨ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ٥٩ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُخْشَرَ النَّاسُ ضَحَى ٦٠ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ٦١ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ٦٢)

المفردات :

(وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) : أى ومن الأرض نخرجكم مرة ثانية حين البعث والحساب ، والتارة كل فعللة متجددة . (أَبَى) : امتنع عن الإيمان وكرهه ، يقال أباه إباءً وإباءة بكسر همزتها الأولى كرهه . (مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ) : أى وعداً أو زماناً موعوداً نلتزم به . (مَكَانًا سُوًى) : بضم السين وكسرها أى مكاناً منتصفاً تستوى مسافته بيننا وبينك ، أو مستوياً ليس به ارتفاع أو انخفاض . (يَوْمَ الزَّيْنَةِ) : هو يوم عيد لهم يجتمعون فيه مع البهجة والزينة . (وَأَن يُخْشَرَ النَّاسُ ضَحَى) : الضحى يؤنث ويذكر ، ووقته حين ارتفاع الشمس بدون إبعاد فى الارتفاع .

(فَجَمَعَ كَيْدَهُ) : أى مكره وحيل سحره . (وَيَلْكُمُ) : دعاءٌ عليهم بالويل وهو الهلاك .
 (فَيُسْحِكُكُمْ بِعَذَابٍ) : أى فيستأصلكم به ، يقال : أسحته وسحته بفتح الحاء . بمعنى أهلكه .
 (وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى) : أى خسر وهلك من اختلق الكذب .

التفسير

٥٥ - (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) :

المعنى : من الأرض بدأنا خلقكم - فإن خلق أبيكم آدم عليه السلام من ترابها وخلقه أصل لخلق كل فرد من أفراد البشر ، حيث إن لكل منهم حظاً من خلقه عليه السلام ، انطوت عليه فطرته ، وقيل المعنى : خلقنا أبدانكم من الأرض ، فإن النطف التي هي أصلكم تولدت عن الأغذية التي نبتت ونمت في تراب الأرض الممتزج بالماء . وبهذا يظهر في وضوح أنه سبحانه خلقنا من الأرض ، (وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ) : أى وفي الأرض نرجعكم إذا متم وتفرقت أجزاءكم وبليت أجسادكم ، وإيثار التعبير بقوله : « وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ » على « وإليها نعيدكم .. » للإشارة إلى الاستقرار الطويل بعد العودة إليها .

(وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) : أى ونخرجكم من الأرض ونحييكم مرة أخرى للبعث والحساب والجزاء ، وكون هذا الإخراج حصل مرة أخرى ، باعتبار أن خلق أبينا آدم من الأرض إخراج لنا منها أولاً ، وإن لم يكن إخراج البدن وإخراج الإعادة متساويين من كل وجه ، وهذه الآية كقوله تعالى : « قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ »^(١) .

٥٦ - (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى) :

حكاية لما جرى بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعنة الله ، وقد صدرت الآية بالقسم إظهاراً لكمال العناية بما تضمنته من الآيات الدالة على نبوة موسى عليه السلام ، وأنها عرضت على فرعون فعاينها كلها وأبصر إعجازها .

والمراد بالآيات التي شاهدها فرعون ، جميع المعجزات ما يتصل منها بالتوحيد ، وما يتصل منها بنبوة الكليم ، قصداً إلى إلزامه الحجة ، حتى يستجيب إلى دعوة الحق ، ويتخلى عن

الكفر والعناد ، ولكنه عكس الآية ، وجعل أسباب الهدى والطاعة ، دوافع إلى الزيف والتمادى في الضلال وهذا ما يحكيه الله تعالى بقوله : (فَكَذَّبَ وَآبَى) أى فكذب بالآيات ، أو كذب موسى عليه السلام من غير تردد أو تأخر ، وكره الإيمان وأعرض عنه جحودا واستكباراً .

٥٧ - (قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى) :

الآية بيان لكيفية تكذيب فرعون وإبائه ، أى قال : نحن ننكر عليك مجيئك إلينا ، لإنجاء بنى إسرائيل من بيننا ، بل لإخراجنا من أرض مصر بما أظهرته من السحر ، حتى تكون خالصة لك ولقومك ، فكيف تخرجنا منها بسحرك ! وهى أرضنا وأرض أجدادنا ، وإنما قال ذلك ، لحمل قومه على بغضه ومقته ، وإثارتهم للانتقام منه ، حيث أوضح لهم أن مراده ليس إنجاء بنى إسرائيل وتخليصهم ، بل إخراج المصريين من أرضهم ، والاستيلاء على أموالهم ، واسترقاق ذرارهم ، حتى يبتعدوا عنه ، ويبالغوا فى عداوته ومدافعتة .

وتسمية المعجزة سحراً ، لأنه لم يدرك حقيقتها بعد ، ولهذا توعد موسى بأنه سيأتيه بسحر مثلها على أيدي سحرته فقال :

٥٨ - (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ...) الآية .

أى مادام الذى جئت به سحراً فلنعارضك بسحر مثل الذى أتيتنا به ، ليتبين للناس أنه من صنعك ، وليس هو من عند ربك ، ثم قال لموسى عليه السلام :

(فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ) : أى فاجعل لأجتماعنا بك وعداً أو زماناً موعوداً ، لا يقع إخلافه منا ولا منك ، وإنما نلتزم جميعاً الوفاء به ، واجعل موعداً معك (مكاناً سَوًى) : أى اجعله فى مكان نَصِفٍ وَعَدْلٍ ، تستوى مسافته بيننا وبينك ، وبهذا قال كثير من أهل التفسير. وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى زيد أنه قال : «مكاناً سَوًى» أى مكاناً مستوياً من الأرض ، بحيث يرى فيه بعضنا بعضاً ، ويرى كل المشاهدين ما يصدر منك ومن السحرة ، وفيه إظهار الجلالة وقوة الوثوق بالغلبة ما فيه .

واختار الآلوسى ذلك فى تفسيره ، وقال إنه حسن جداً ، وقد فوض فرعون إلى موسى عليه السلام أمر الوعد الذى طلبه منه ، مع إعلانه الوفاء به ، ليثبت لنفسه أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة ، وإعداد وسائل المغالبة طال الأمر أو قصر ، قاصداً إلى إرهاب موسى عليه السلام منه ومن سحرته ، ولكنه عليه السلام قوت عليه ما قصد إليه ، فأسرع إلى الاستجابة إلى طلبه بما حكاه الله عنه بقوله سبحانه :

٥٩- (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحَى) :

أى وقت وعدكم يوم الزينة ، وهو يوم عيد لهم يجتمعون فيه ويمرحون ، ويفخرون ويزدانون فيه بأنواع الزينة ، أو هو يوم سوق لهم يزينونه ويتزينون له ، وقيل غير ذلك . وأياما كان المقصود به ، فهو يوم معروف عندهم بأنه يوم اجتماع لهم وزينة ، وبسبب ذلك اختاره موسى عليه السلام للاجتماع الذى طلبه فرعون ، حتى يشهد العدد الكثير بطلان معارضة السحر لخوارق الآيات النبوية ، ليكون انتصار الحق ، وخذلان الباطل فى يوم مشهود ، ويشيع أمره بين القاصى والدانى .

ولم يكتف موسى عليه السلام بتحديد ذلك ، بل جعل لإبراز المعجزة فى وقت يكثر فيه اجتماع الناس فى ذلك اليوم حيث قال :

(وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحَى) : أى موعدكم يوم الزينة وقت الزينة وقت أن يجتمع الناس فيه وهو وقت الضحى ، حين يبدأ ارتفاع الشمس فى الأفق ليكون الوقت متسعاً لأن يأتوا بكل ما عندهم من سحر وإفك ، قطعاً لعذرهم وإظهاراً لعجزهم ، وإبرازاً لخسرانهم ، وبعد أن استمع فرعون إلى قول موسى عليه السلام ، وقع منه ما حكاه الله جل شأنه بقوله سبحانه :

٦٠- (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى) :

أى فأنصرف عن المجلس بدون إبطاء ، فأخذ فى جمع السحرة من أرجاء مملكته ، للاستعانة بما لديهم من حيل ومكر تائلاً : « ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ »^(١) فجمع السحرة ، وأخذ يرغبهم ويعددهم بالغلبة ، وعظيم المكافأة ، وذلك ما يحكيه الله بقوله :

« قَالُوا أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ »^(٢) .

٦١- (قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . . .) الآية .

لم تذكر هذه الآية إتيان موسى عليه السلام الموعد للإيدان بأنه محقق لا شك فيه ،
أى أنه أتى ، وعند لقائهم تحدث إليهم بما حكاه الله عنه بقوله سبحانه : « قَالَ لَهُمْ مُوسَى
وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » : أى قال لهم موسى : عذاباً لكم وقبحاً لصنيعكم الذى
تخيّلون به للناس أشياء لا حقائق لها ، لا تخلقوا الكذب على الله بزعمكم أن ما أنبتكم به
من المعجزة سحر يمكنكم أن تنقضوا عليه بسحركم .

(فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى) : أى فيستأصلكم الله بعذاب شديد
بسبب افتراءكم الكذب عليه ، وقد استحق الخيبة والحرمان من رحمة الله وثوابه من
اختلق عليه الكذب ، ونسب إليه ما لا يصح نسبته إليه ، كدعواكم فضل السحر على المعجزة
المؤيدة لرسوله ، فلا تكونوا أيها السحرة من المفترين .

(فَتَنَّا زُجَرَ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿١٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا
لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا
بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿١٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ
الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿١٤﴾)

المفردات :

- (فَتَنَّا زُجَرَ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ) : أى تخاصموا بينهم فى أمر معارضته وكيفيتها .
- (وَأَسْرُوا النَّجْوَى) . النجوى ، : المسارة فى الحديث ، وإسرار النجوى : المبالغة فى إخفائها .
- (بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى) : بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب .
- (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ) : أى ائتوا بكل حيلة لكم ومكر .
- (مَنْ اسْتَعْلَى) : من طلب العلا وسعى سعيه .

التفسير

٦٢ - (فَتَنَّا عَمَّا أَمَرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى) :

لما سمعوا كلامه عليه السلام حين أنذرهم وحذرهم عاقبة أمرهم ، فكروا فيما طرق أسماهم فتناولوا أمرهم الذى طلب منهم أن يفعلوه ، وهو مغالبة موسى والانتصار عليه . وتشاوروا بينهم فى رسم الطريقة الناجحة فى معارضته والانتصار عليه ، وأسروا الحديث الذى دار بينهم مبالغة فى إخفائه عن موسى وهرون عليهما السلام . وكانت نتيجة نجواهم - على ما قاله جماعة منهم الجبائى وأبو مسلم - ما حكاه قوله تعالى :

٦٣ - (قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ . . .) الآية .

أى صدر عنهم بعد المناقشة والمناظرة قولهم الذى اتفقوا عليه وأكدوه . وهو اتهام موسى وهرون عليهما السلام بالسحر . وأنها خبيران بصناعته ، يريدان أن تكون لهما الغلبة عليكم ، وأن يستتبعا الناس لهما . ويقاقلاكم فينتصرا عليكم ويخرجاكم من أرضكم مصر بسحرهما الذى أظهرناه .

(وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى) : أى يبطلا مذهبكم الذى هو أمثل المذاهب وأفضلها وهو ما كان عليه فرعون ، وإنما يفعلان ذلك رغبة منهما فى إظهار مذهبهما وإعلاء دينهما ، وقيل : ويذهبا بأهل طريقتهما المثلى ، وهم أشرافكم وذوو الرأى فيكم ، ولقد جاء هذا الرأى من السحرة فى حق موسى وهرون ، متابعاً منهم لفرعون وموافقةً على ما قاله للملأ حوله ، وذلك ما حكاه فى سورة الشعراء : « قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٢٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٢٥) » ^(١) .

٦٤ - (فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا . . .) الآية .

كان بعضهم قال لبعض : ما دام أمر موسى وهرون كما ذكر من كونهما ساحرين ، يبتغيان الاستيلاء على أرض مصر ، وإخراجكم منها ، فاجمعوا كل كيد لكم ، وكونوا صفًّا واحداً ورأياً مجتمعاً ، بحيث ترمون به عن قوس واحدة ، فإن ذلك أدعى إلى هيبتكم ، وإبراز كثرتكم ، ولذلك أثره فى أن تكون لكم الغلبة عليهما .

(١) ولقد جابه موسى بذلك فى قوله : « أجبثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى » من الآية ٥٧ من السورة .

ونقل خلاف كثير في تعيين عدد السحرة ، ولكن مما لاشك فيه أنه كان عدداً كثيراً ، ليواجه به فرعون ذلك الموقف الرهيب الذي أحس برهبته حين قال : « أَتُتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ » .

(وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى) : هو الذي ختمت به الآية ، محكياً عن السحرة ، يؤكدون به فوزهم بالمطلوب لهم ، من المكافأة التي وعدهم بها فرعون ، إن كانوا من الغالبين .
 أي . . . وقد فاز بالنصر والجائزة من استعلى ، أي من علا وغلب موسى وعصاه بسحره ، وقيل : إن السين والتاء هنا للطلب ، أي وقد أفلح من استحق الموعد به من طلب العلا فبذل جهده ، وسعى سعيه بتقديم كل ما يستنصر به من تخييل وخداع ، وحيلة وخفة يد حتى تتم لهم الغلبة يوم اللقاء .

(قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ٦٥)
 قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ٦٨ وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ٦٩ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ٧٠)

المفردات :

(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً) : الإيجاس : الإخفاء والإضمار والخوف ، أي أضمر في نفسه الخوف مما فوجيء به . (تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا) : لَقِفَهُ - من باب عَلِمَ - يلقفه لقفاً بالقف الساكنة ، ولقفاً بالتحريك تناوله بسرعة ، والمراد أنها ابتلعت ما ألقوه بسرعة .
 (فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا) : أي خرّوا خاضعين لله تعالى ، وسجدوا جمع ساجد .

التفسير

٦٥ - (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى) :

لما أتم السحرة استعدادهم ، أقبلوا على موسى عليه السلام بجمعهم الحاشد قائلين :
إما أن تلقى ما عندك قبلنا ، وإما أن نكون أول من يُلقى ما عنده ، وكان تخييرهم له
عليه السلام ، إظهاراً لقوتهم وكمال ثقتهم بالانتصار عليه تقدم أو تأخر .

٦٦ - (قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) :

حينما سمع موسى عليه السلام ماخيروه به ، أجابهم باختياره أن يلقوا أولاً ، ليظهر لهم
عدم اكترائه بسحرم ، وليبرزوا أقصى ما معهم من وسائل التميويه ، والخداع ، ويستفرغوا
جهودهم في معارضته ، لثقتهم بأن الله سيظهره عليهم . فآلقوا ما أعدوه لمنافسته ومغالبته من
الحبال والعصى .

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) : أى فآلقى كل ساحر
ما معه ، ففاجأ موسى عليه السلام فى هذا الوقت . . أن حبالهم وعصيتهم بسبب سحرم
تتحرك وتسير ، قال الكلبي : خيل لموسى أن الأرض حياتٌ ، وأنها تسعى على بطنها .
وما وقع من موسى عليه السلام ليس أمراً غريباً أن يصدر من بشر رأى قومًا اشتبهوا
بالسحر ، وأجادوا طرقه وأحكموا وسائل التميويه ، وصرف الأعين عن رؤية الواقع .

٦٧ - (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى) :

المعنى : فأضمر موسى عليه السلام فى نفسه شيئاً من الخوف من مفاجأة ما رأى بمقتضى
الطبيعة البشرية عند رؤية الأمر المخيف ، إذ هى مجبولة على النفرة من الحيات ، وضررها
الذى اشتهرت به ، وقيل خاف أن يفتتن الناس بالسحرة ، ويغترُّوا بهم قبل أن يلقى العصا ،
ويستمرروا فى اغترارهم إلى ما بعد إلقاتها وفتكها بسحرم ، تعصباً منهم لبني قومهم .

٦٨ - (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) :

أى قلنا له : لا تستمر على خوفك الذى أضمرته فى نفسك ، لأنك أنت الغالب لهم ،
المنتصر عليهم عند لقائك بهم - وغلبتك محققة لا شك فيها ، كما يؤذن بذلك النظم الكريم
المشتمل على جملة من التأكيدات لاتخفى على فطنة القارئ .

٦٩- (وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا . . .) الآية .

المعنى : وألقى يا موسى عصاك ، وعبر عنها هنا بقوله سبحانه : (مَا فِي يَمِينِكَ) ، إما تصغيراً لها ، فكأنه قيل له : لا تبال بكثرة حبالهم وعصيتهم ، وألقى العود الصغير الجرم الذى فى يمينك ، وإما تهويلاً لأمرها وتفخيماً لشأنها ، وإشعاراً بأنها ليست من جنس العصي المعهودة ، لما لها من آثار عظيمة ، وأفعال غريبة ، فكأنه قيل له : لا تحفل بهذه الأجرام الكثيرة الكبيرة ، فإن ما فى يمينك أعظم منها ، وهذه على كثرتها أضعف منها ، فألقها يا موسى : (تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ) : أى إن تلقها تلقف الذى صنعه من حبالهم وعصيتهم التى تسعى ، لأن الله يحولها إلى تنين عظيم ، أى حية هائلة ، تبتلع ما ألقوه بسرعة فائقة ، والتعبير عما ألقوه بقوله : (إِنَّمَا صَنَعُوا) للإشارة إلى أن ما شوهده من سعيها ، إنما هو من تمويههم وصنعهم الذى هو كيد ساحر قصد به فتنة الناس وإضلالهم ، والتمكين لفرعون وحكمه ، وليست له حقيقة : (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) : أى ولا يقدر ولا ينجو حيث جاء ، وأين أقبل ، وحيث احتال .

٧٠- (فَالْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى) :

حينما عاين السحرة ما حدث بعد إلقاء موسى عصاه ، وشاهدوه مشاهدة إمعان وتأمل ، علموا علم اليقين أن ذلك معجز وليس من قبيل السحر والتمويه ، وإنما هو حق لا شك فيه ، ولا يقدر عليه إلا الذى يقول للشيء كن فيكون ، لأنه بمعزل عن السحر الذى استغروا جهدهم للإحاطة بفنونه ، وطرقه وكل وجوهه ، وأدركوا أنه فوق قدرة البشر ، حيث تأكد لهم أن الله سبحانه هو الذى غير مادة الغصا إلى ثعبان عظيم أباد حبا لهم وعصيتهم أصلاً وصورة ، ولو كان ما صنعه موسى سحراً لبقيت الجبال حبالاً والعصى عصياً بعد أن أبطلت العصا سحرهم فيها ، ولما وقر هذا فى قلوبهم اتجهوا إلى موسى فوقع كل منهم على وجهه ساجداً لله إعلاناً لتوبته وإيمانه بالله وبرسالة رسوله موسى عليه السلام ، حيث : « قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى » وكفرنا بفرعون وبما يدعونا إليه ، قال ابن عباس وعبيد بن عمير : « كانوا أول النهار سحرة ، وفى آخر النهار شهداء بررة » : فقد قتلهم فرعون بعد إيمانهم بموسى كما سيبنىء بيانه ، وعن عكرمة : لما خروا سُجَّدًا أَرَاهُم الله فى سجودهم منازلهم فى الجنة ، وقد اختلف العلماء فى عددهم . فمنهم من أنهم إلى ثمانين ألفاً ، كمحمد بن كعب ، ومنهم من قال : إنهم سبعون ألفاً كالقاسم

ابن أبي بزة ، وقال السدي : كانوا بضعة وثلاثين ألفاً .. إلى غير ذلك من الأقوال - والله أعلم بعددهم ، فليس أماننا ما يدل على صحة هذه الأقوال المتباينة . والتعبير في الآية بقوله سبحانه : « فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا » دون فسجدوا إشارة إلى أنهم رأوا ما ألجأهم فلم يتمالكوا حتى وقعوا على وجوههم ساجدين .

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧٦﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٧﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أُكْرِهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٨﴾ إِنَّهُ رَمَى بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّهِ مُجْرِمًا فإِنْ لَهُ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٩﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٨٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٨١﴾)

المفردات :

(قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ) : أى وقع إيمانكم من غير أن أبيحه لكم ، وأصل آذن ؛ أأذن مضارع آذن . قلبت الهمزة الثانية الساكنة ألفاً تخفيفاً . (وَالَّذِي فَطَرَنَا) : أوجدنا .^(١)

(١) وهو من باب خلق .

(لَنْ نُؤْثِرَكَ) : ^(١) لن نفضلك . (لِيُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا) : مفرد خطايا : خطيئة وهى الذنب المتعمد كالخطء بكسر الخاء ، أما الخطأ بفتح الخاء فهو مالم يُتعمد ، ويريدون بخطاياهم ، الكفر والمعاصي . (جَنَّتْ عَذْنٌ) : أى جنات إقامة يقال : عدن بالمكان عذناً وعُدُونَا من بابى ضرب وقعد : أى أقام . (مَنْ تَزَكَّى) : صلح واهتدى .

التفسير

٧١- (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ...) الآية .
 يخبر الله سبحانه عن فرعون أنه تمادى فى عناده ومكابرتة حين رأى ما أذهله من المعجزة الباهرة والآية العظيمة ، ومن إيمان من استنصر بهم من السحرة أمام جموع الناس وحشودهم ، حين رأى ذلك تواعد كل من آمن بأقصى وسائل التنكيل والتعذيب ، بسبب إيمانهم الذى أنكره عليهم أشد الأنكار ، وعدّه جريرة تستوجب كل ما ينزل بهم من عقاب وعلى أى وجه كان ، وقد بين جرمهم وفق فهمه السقيم بقوله : (آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ) : أى أن إيمانكم بموسى عليه السلام وقع افتياناً منكم على سلطاني ، لأنه من غير أن آذن لكم به ، قال ذلك ليرى قومه أن إيمانهم غير معتد به حيث كان من غير إذنه ، ثم قال قولاً يعلم هو والسحرة والناس كلهم أنه افتراء وبهتان ، وهو نسبته إيمانهم بموسى بعد أن غلبهم إلى أنهم تعلموا السحر من موسى ، فهو كبيرهم ومعلمهم ، فلهذا تواطؤوا معه على كل ما حدث ، وقد حكى الله ذلك بقوله : (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ) : أى إنه رئيسكم ومعلمكم السحر . فتواطؤتم على ما فعلتم ، واتفقتم على وعلى رعيى لتظهروه ، كما فى قوله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا » . ^(٢) وقد أراد فرعون بقوله هذا أن يشيع بين قومه الشك والريبة ، توجيهاً لهم إلى عدم الاكتراث بما أظهره موسى عليه السلام من المعجزة الباهرة ، وبما أعلنه السحرة من الإيمان ، حتى لا يتبعوهم ، فيؤمنوا كإيمانهم ، ولأن فقد علم فرعون أن موسى لم يعلمهم السحر ، فقد علموه قبل قلوبهم عليهم بل قبل ولادته ، ثم تواعد الذين آمنوا وعيداً قاسياً بقوله : (فَلَا تُقَطِّعْ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا صَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ) : أى فأقسم : لأقطعن أيديكم وأرجلكم مختلفات ،

(١) مضارع آثره : أى فضله .

(٢) سورة الأعراف ، من الآية : ١٢٣

اليدين اليمنى والرجل اليسرى ، واختار التقطيع على هذه الكيفية دون التقطيع من وفاق تنكيلاً كما أقسم : لأُصلبكنم أيضاً في جذوع النخل ، وقد نفذ وعيده فقطع وصلب حتى ماتوا - رحمهم الله - قال ابن عباس : (فكان أول من فعل ذلك) رواه ابن أبي حاتم . وإشارة كلمة (في) في قوله : (في جذوع النخل) للدلالة على بقائهم على الجذوع زمناً طويلاً كأنها محبس لهم ، وظرف احتواهم .

(وَكَتَلَعُمُنَّ أَيْنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى) : أى وأقسم إنكم لتعلمن علماً لاشك فيه من منا أشد عذاباً للناس وأدوم ، أهو موسى ، أم أنا الذى خذلتمنى بتواطئكم معه ؟ وقصده من وعيده هذا إظهار صلفه وكبريائه ، واقتداره على التعذيب الشديد ، واستضعاف موسى والهزء به ، لأن موسى عليه السلام لم ينل أحداً بشيء من التعذيب . وقيل : معناه أى الإلهين أشد عذاباً وأدوم ، أنا أم إله موسى .

٧٢- (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا . . .) الآية .

المعنى : أنهم أجابوه على وعيده وتهديده قائلين له فى غير اكتراث به وبصنيعه لن نفضلك على ما جاءنا من الله سبحانه وتعالى من المعجزات الظاهرة على يد موسى عليه السلام ، وقيل : لن نفضلك على ما علمناه من الحق واليقين ، ولن نركن إليك بتفضيلك على الله الذى خلقنا وسائر الناس ، ولم نكن شيئاً مذكوراً ، وقيل : إن لفظ (وَالَّذِي فَطَرَنَا) قسم جوابه محذوف دل عليه ما قبله ، وهو قوله : (لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ) : أى وحق الذى خلقنا لن نُؤْثِرَكَ على الذى جاءنا من الله على يد موسى عليه السلام من الآيات الباهرة . (فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ) : أى فافعل ما شئت واحكم بما أنت حاكم به ، لأنك (إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) : يعنون أنه إنما ينفذ أمره وقت هذه الحياة . ولا يقضى فيها إلا بمتاع أو عقاب ، وما لهم من رغبة فى خيرها وزينتها ، ولا رهبة من عسرها وعقابها ، وهذه الجملة التى ختمت بها الآية وما بعدها تعليل لعدم المبالاة المستفاد من قوله : (فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ) . ٧٣- (إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السُّحْرِ . . .) الآية .

أى صدقنا بالله وحده لا شريك له ، رجاء أن يغفر لنا ربنا ما اقترفناه من الكفر والمعاصى ولا يؤاخذنا بها فى الدار الأخرى ، أما الدار الفانية فليس لنا مآرب فيها حتى نتأثر بما ينزل بنا من نكال ، كما نضرع إليه أن يغفر لنا السحر الذى أكرهتنا على المعارضة به ،

قال أبو عبيد : إذا أمر السلطان أحداً بفعل شيء فقد أكرهه على فعله ، وإن لم يتوعده ، لما في مخالفة أمره من توقع العقوبة . ولا سيما إذا كان السلطان طاغية جباراً . وإلى هذا الرأي ذهب الحنفية في أحكامهم الفقهية . انتهى ملخصاً . ولا ينافي هذا قولهم في آية أخرى : « بَعِزَّةٌ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ » فإنهم قالوه مرضاة لفرعون الذي أجبرهم ، وقد أفردوا الإكراه على السحر بطلب المغفرة إظهاراً لشدة نفرتهم منه وقوة رغبتهم في مغفرة الله (وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) : أى والله خير لنا إن أطعناه . وأبقى عذاباً منك إن عصيناه ، أو والله خير في ذاته وصفاته ، لأنه الخالق الرازق وله الأمر كله ، وأبقى جزاءً ، ثواباً كان أو عذاباً .

٧٤ - (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) :

قيل : هذه الآية والآيتان بعدها من قول السحرة لما آمنوا . وقيل : بل هى من كلام الله لبيان قاعدتين عامتين في الإسلام ، وهما عقاب المجرمين ، وثواب الصالحين . والمعنى أن من يلقي الله يوم القيامة على الكفر والمعاصي ، فهو مستحق لأن يكون له جهنم دار إقامة دائمة لا يموت فيها لينهى عذابه . ولا يحيى حياة ناعمة وذلك كقوله : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ »^(١)

٧٥ - (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى) :

أى ومن يوافه مؤمناً به تعالى ، وبما أيد به رسله من المعجزات العظيمة التى من جملتها ما شاهدناه ، وقد عمل الطاعات اتباعاً لما أمر به سبحانه ونهى عنه . فأولئك ينزلهم ربهم أعلى الدرجات وأعظمها التى تقصر دونها الصفات .

٧٦ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) :

الآية بيان للدرجات التى استحقها أولئك المؤمنون ، أى أن لهم الجنات دار إقامة وهى على أكمل صورة وأجمل إعداد ، حيث تجرى من تحت غرفها وأشجارها الأنهار التى تملأ النفوس متعة وبهجة ، ماكثين فيها أبد الأبدين وذلك جزاء من تطهر من الكفر والمعاصي وعبد الله وحده ، لا شريك له .

وعلى ما قيل : من أن الآيات الثلاث التي بُدِئَتْ بِآيَةِ : « إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرَماً » إلى آخر هذه الآية ، من قول السحرة . . . يحتمل أنهم سمعوا ما قالوه من موسى أو من بنى إسرائيل الذين كانوا بمصر أو ممن آمن من آل فرعون ، وكان فيهم المؤمن الذي يكتم إيمانه ويحتمل أن يكون ذلك إلهاماً أنطقهم الله به لما آمنوا .

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي
الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ
فَغَشَّيَهُمْ مِنْ آلِيمٍ مَا غَشَّيَهُمْ ۖ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩))

المفردات :

(أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي) : أى سِر بهم ليلاً : تقول سريت الليل وسريت به إذا قطعته بالسير ، وأسرى لغة حجازية . (يَبَسًا) : اليَبَس بالتحريك المكان الذى كان فيه ماء فذهب ماؤه وفعله يَبَس من باب عِلِمَ وفي لغة يَبَس يَبِيس بكسر الباء فيهما . . .
(دَرَكًا) الدَّرَكُ : اللحاق أى لا تخاف أن يلحقك فرعون وجنوده .
(فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ) : أى سار خلفهم حتى اقترب منهم ؛ يقال أَتْبَعَهُ وتَبَعَهُ بمعنى واحد .
(فَغَشَّيَهُمْ) : أى أصابهم . (مِنْ آلِيمٍ) : من البحر .

التفسير

٧٧ - (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي . . .) الآية .

كان فرعون قد وعد موسى عليه السلام أن يرسل بنى إسرائيل معه ، ويطلقهم من أسرهم وقهره بعد أن ظهر موسى بآياته عليه ، ولكنه كان يماطل في الوفاء فينزل به الله وبقومه آيات العذاب ، وكان كلما نزلت به آية . وعد عند انكشافها أن يبنى بوعده ، حتى إذا انكشف العذاب خاس بعهده ، فلما كملت الآيات البينات التي تتابعت عليه لنحو عشرين سنة ، بعد ما غلبت السحرة^(١) أوحى الله إلى موسى أن يرحل عن مصر ببني إسرائيل لإنقاذهم من

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد وغيره عن نوف الشامي كما ذكره الآلوسى أثناء شرحه لقوله تعالى « آيات مفصلات » في سورة الأعراف .

ظلم فرعون وطغيانه ، وأن يكون رحيله عنها ليلاً حيث يقول سبحانه : « وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي » وقد أتت الجملة مصدرة بالقسم إبرازاً لكمال العناية بمضمونها .

والمعنى : والله لقد أوحينا إليه آمرين إياه أن يسير ببني إسرائيل في الليل حفاظاً عليهم حتى لا يتعرضوا لمنع فرعون . ويقعوا في قبضته . فيذيبهم أشد العذاب . ولما خرج بنو إسرائيل بصحبة موسى وتم لهم ذلك أصبحوا وليس لهم بمصر داع ولا مجيب . فغضب فرعون أشد الغضب ودفعته شهوة الانتقام إلى الإسراع في جمع جنده وقواده قائلاً لهم : « إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ »^(١) ولما أعد للأمر عدته ، سار بمن معه يتبع موسى وقومه ، وقد بكرُوا « فَاتَّبَعُوهُمْ مُتَشْرِقِينَ » : أى عند مطلع الشمس ، ولما تراءى الجمعان نظر بعضهم إلى بعض . فقال أصحاب موسى عليه السلام « إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ »^(٢) . تشبهاً للأقدام . وتطميناً للقلوب . وكان البحر أمامهم والعدو خلفهم . عند ذلك أمر موسى عليه السلام أن يفعل ما أشار إليه قوله تعالى : (فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً)^(٣) : أى فاضرب لهم البحر بعصاك لتتخذلهم من المكان الذي ضربته فيه طريقاً يبساً لأماء فيه ولاطين . فهو مصدر وصف به مبالغة : بمعنى أنه يابس جاف يتسنى السير فيه بيسر وسهولة . (لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى) : أى تفعل هذا وأنت في حال لا تخاف أن يلحقكم فرعون وقومه من ورائكم ؛ لأنك ومن معك في رعايتي ولا تخشى أن يغرقكم البحر من حولكم . إذ لا يحدث شيء في الكون إلا بإرادتي .

٧٨ - (فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ . .) الآية .

الفاء في قوله « فَاتَّبَعَهُمْ » تشير إلى مضمحل طوى ذكره . ثقة بغاية ظهوره . وتنوياً بكمال مسارعة موسى إلى الامتثال .

والمعنى : ففعل موسى عليه السلام ما أمرناه به من السير ليلاً ، فاضرب لهم طريقاً في البحر بعصاه ، وسلكة بمن معه . فاتبعهم فرعون بجنوده بحرراً كما أتبعهم بهم برأ ، أى

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : ٥٤ ، ٥٥ (٢) سورة الشعراء ، من الآيتين : ٦١ ، ٦٢

(٣) وقرئ ييساً بإسكان الباء ، وهو إما مخفف من المحرك أو صفة مشبهة كصعب أو جمع يابس كصحب جمع صاحب ، ووصف به الطريق الواحد للمبالغة بجعل الطريق لفرط ييسه كاشياء يابسة أو يراد به الجنس ، وكان متعدداً لتعدد الأسباط . .

تبعهم وسار في أثرهم ؛ حتى إذا استكملوا دخولا ، خرج موسى بمن معه إلى الشاطئ الشرقي من البحر سالمين . ولم يخرج أحد من فرعون وجنوده ، حيث حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ويراد بالبحر : بحر القلزم وهو المعروف الآن بالبحر الأحمر (فغشيهم من اليم ما غشيهم) : أى فعلاهم وغمرهم ماغمرهم ، من الأمر الهائل المروع الذى يعجز البيان عن وصفه ، حيث انطبق عليهم الماء فأغرقهم فهلكوا جميعاً ، ونجى الله فرعون وأبقاه ببدنه خالياً من الروح في اليوم الذى نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من الغرق . ليراه بنو إسرائيل بعيونهم ، فيطمئنوا ويؤمنوا بهلاكه . وكانوا من ذلك في شك مريب ، ولتكون قصته آية وعلامة لمن وراءه من أهل عصره ومن يأتى بعده . تبين لهم العاقبة المحتومة لكل جبار عنيد ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً »^(١) .

٧٩ - (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى) :

أى وأضلهم عن الرشd ، وما هداهم إلى الخير بل سلك بهم مسلكاً أوصلهم إلى الهلاك في الدنيا والآخرة . حيث أغرقوا فأدخلوا ناراً خالدين فيها ، والجملة تأكيد لإضلاله إياهم .

(يٰبَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ
الْطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى^(٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ
مَارَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ
غَضَبِي فَقَدْ هَوَى^(٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
ثُمَّ آهَتَدَى^(٨٢))

المفردات :

(الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى) : المَنَّاءُ مادة حلوة لزجة تشبه العسل ، وكانت تنزل عليهم من الفجر

إلى طلوع الشمس كما قيل . والسلوى : السَّمَانَى أو طائر يشبهه . (وَلَا تَطْفُوا فِيهِ) : الطغيان مجاوزة الحد ، ويراد منه في الرزق تجاوز المأمور به في أكله .

(قَبِجِلْ عَلَيْكُمْ غَضَبِي) : أى يجب ويلزم . (وَمَنْ يَخْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي) : أى ينزل به ، وفى الصباح حلّ العذاب يحل بضم الحاء فى المضارع وكسرهما ، أى نزل . انتهى بتصريف .

التفسير

٨٠- (يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ . .) الآية .

حكاية لما خاطب الله سبحانه به بنى إسرائيل بعد إغراق عدوهم . لئذ كبيرهم ببعض نعمه العظيمة . وَمِنْهُ الكبيرة التى توالى عليهم ، حيث يقول جل شأنه : « قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ » أى قد خلصناكم من أسره وتعذيبه فيسرنا لكم الهجرة إلى سيناء برا وبحرا وحفظناكم من الفرق . وأغرقنا فرعون وقومه جميعاً وأنتم تنظرون كما يقول تعالى : « وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » ^(١) . ثم بعد نزولكم سيناء قربناكم « وَوَعَدْنَكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ » : أى وعدناكم أن تأتوا جانب الطور الأيمن على لسان نبيكم موسى عليه السلام للمناجاة ، حيث أمرناه أن يأمركم بالخروج معه ، ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام ، وقيل : إن الوعد كان لموسى ، وخوطبوا به لأنه كان لأجلهم (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى) ^(٢) : أى وقد أنعمنا عليكم نعمة عظيمة أخرى ، فأطعمناكم طعاماً طيباً مباركاً يسرناه لكم ، وجعلناه فى متناول يديكم حيث كان ينزل عليكم المن والسلوى ، فيأخذ كل منكم حاجته منهما بدون عناء رعية لكم فى التيه . ورحمة بكم ، وإحساناً إليكم ، ثم أمرهم أمر إنعام بها وإباحة لتناولها فقال سبحانه :

٨١- (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْفُوا فِيهِ . . .) الآية .

المراد من الطيبات لذيذ الرزق الذى تستطيبه النفوس وتستحسنه الطباع السليمة ، وقيل : طيبات الرزق ما أحله الله منه نوعاً وكسباً ، ولقد عقب الله هذه المنة بنهيهم عن

الطغيان بقوله « وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ » : أى ولا تطغوا بسبب الرزق بأن تحملكم السعة والعافية على العصيان لأن الطغيان تجاوز الحد إلى ما لا يجوز (فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي) : أى فيجب ويقع عليكم مقى . (وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى) : أى ومن ينزل عليه غضبي بسبب ارتكابه مانهيته عنه ، فقد هلك . وقيل : فقد سقط وتردى في الهاوية وهى قعر جهنم .

٨٢- (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) :

وإني لكثير المغفرة لمن تاب من شركه ومعاصيه وآمن بي وعمل صالحاً ، ثم استمر مهتدياً . وقيل : المراد بقوله « ثُمَّ اهْتَدَى » ثم طهر قلبه من الأخلاق الذميمة ، كالعجب والحسد والكبر وغيرهما ، بعد ما آمن وعمل صالحاً ، وقال ابن عطية : الذى يَقْوَى ويظهر فى تفسير «ثُمَّ اهْتَدَى» أن يكون المعنى ثم حفظ معتقداته من أن تخالف الحق فى شيء من الأشياء ، فإن الاهتداء على هذا الوجه غير الإيمان وغير العمل ، ١٥١ .

والتوبة التى أشارت الآية إلى تكفيرها الذنوب والخطايا ، هى التوبة النصوح ؛ التى يقطع بها التائب عما كان فيه ، ويعزم على ألا يعود إليه أبداً ، ويندم على ما فعل ، فإن كانت المعصية فى حق آدمى يزداد على ذلك أن يبرأ منها ؛ برد الحق إلى صاحبه إن كان ما لا ونحوه ويتمكنه من نفسه أو طلب عفوه إن كان حداً .

* (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى) ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ
أَثْرَى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾

المفردات :

(مَا أَعْجَلَكَ) : ما حملك على العجلة والسرعة

(هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثْرَى) : هم قادمون بعدى يسировن على أثنى ..

التفسير

ذهب موسى لمناجاة ربه مع من اختارهم من قومه لصحبته في هذه المناجاة^(١) ، وغلبه الشوق إلى مناجاة ربه فأسرع إلى مكان المناجاة وخلف قومه وراءه فسأله الله تعالى - وهو العليم - عن سبب العجلة منكراً عليه تركه للنقباء السبعين الذين اختارهم من قومه لصحبته قائلاً :
 ٨٣ - (وَمَا أَغْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى) :

أى شئ حملك على العجلة ؟ وكان الجواب المتوقع أن يذكر سبب العجلة وهو شدة الشوق إلى الله . ولكن موسى فهم أنه تعالى ينكر عليه تركه لقومه خلفه فقال :
 ٨٤ - (قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلَى أَثَرِي) : أى هم قادمون خلفي يتبعون أثرى وسيلحقون بى سريعاً .
 (وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) : وأسرعت إلى مناجاتك طلباً لرضاك ياربى وتلبية لأمرك ، ذكر القاسمى : « أنه سبحانه إنما أراد بسؤاله عن سبب العجلة - وهو أعلم - أن يعلم موسى أدب السفر ، وهو أنه ينبغي تأخر رئيس القوم عنهم في السفر ليكون نظره محيطاً بطائفته وناظراً فيهم ومهيئاً عليهم . وهذا المعنى لا يحصل في تقديمه عليهم ، ألا ترى أن الله عز وجل علم هذا الأدب لوطاً فقال : « وَاتَّبِعْ أَذْبَارَهُمْ »^(٢) على أن موسى غفل عن هذا الأمر مبادرة منه إلى رضا الله عز وجل . ومسارة إلى الميعاد مع الرحمن وذلك شأن الموعود بما يسره ، يود لو ركب إليه أجنحة الطير . ولا أسر من مواعدة الله تعالى له صلى الله عليه وسلم .. »

(قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)^(٣)

المفردات :

(فَتَنَّا) : اختبرنا وابتلينا . (السَّامِرِيُّ) : نسبة إلى سامراء ، وينسب بعض الباحثين السامرى إلى طائفة معروفة من اليهود باسم السامريين . وهم الآن طائفة صغيرة من اليهود تقيم في نابلس وتخالف سائر اليهود في عاداتها وتقاليدها^(٣) .

(١) راجع تفسير الآية ١٤٢ من سورة الأعراف من التفسير الوسيط .

(٢) راجعه في قصص الأنبياء للشيخ النجار .

(٣) الحجر ، من الآية ٦٥

٨٥- (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ) : الآية .

أى قال الله تعالى لموسى : فإننا قد أوقعنا قومك فى الابتلاء والاختبار ليظهر فى واقع الأمر مدى صدقهم فى الإيمان وضعفهم فيه (وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) : أى حملهم على الضلال وفتنهم حتى عبدوا العجل ، وسيأتى بيان ذلك تفصيلاً . . .

(فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْ يَٰعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهٗ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(أَسِفًا) : شديد الحزن . (طَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ) : أى طال عليكم عهد خروجي لإحضار الألواح بما تحمله من أوامر ونواه . (بِمَلِكِنَا) : باختيارنا وإرادتنا - يعنون أنهم مكرهون مضطرون . (أَوْزَارًا) : أثقالاً أو ذنوباً . (عِجْلًا جَسَدًا) : صورة عجل مجسم فى هيئة تمثال . (لَهُ خُورٌ) : الخوار صوت البقرة .

التفسير

٨٦- (فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا . . .) الآية .

فعاد موسى إلى قومه وهو فى أشد الغضب والحزن لكفرهم بعد الإيمان وضلالهم بعد الهداية (قَالَ يَا قَوْمِ اللَّهُ يَبْعَثُكُمْ رَّبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا) : أى قال موسى موبخاً لهم : يا قوم

ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً بأن يعطيكم التوراة فيها هدى ونور ، فكيف تعودون إلى الشرك بعد أن أنقذكم الله منه ؟ (أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ) : أى أفتال عليكم زمان مفارقة موسى لكم ؟ أو عهد إنجائكم من فرعون مصر وإغراقه لمن ظلمكم (أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي) : أى أنكم بفعالكم هذا كأنكم أردتم أن يحل عليكم غضب ربكم ، حيث أخلفتم وعدكم إياي بالثبات على الإيمان بالله وتنفيذ ما أمرتم به .

٨٧- (قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا . . .) الآية .

قالوا : ما فعلنا ذلك باختيارنا (وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ) : ولكننا كنا نحمل أعباءً وأحمالاً من ذهب المصريين فظنناها موضعاً للمواخذه لأنها ليست ملكاً لنا وإنما استعرتها من المصريين في عيدنا لنردها إليهم بعد حين : (فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ) : فآلقيناها في النار تخلصاً منها كما فعل السامري وكما أمرنا .

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ) : وكان السامري ماهراً في الصياغة فصنع تمثالاً ذهبياً للعجل أبيسر معبود المصريين قبل هجرة بني إسرائيل من مصر ، وجعله بحيث إذا حُرِّك صدر منه صوت كخوار الثيران أو جعل فيه ثقباً إذا هبت فيها الريح أصدر هذه الأصوات ، والماهرون في صناعة الدمي الآن يجعلونها تصدر بعض الأصوات أو تحرك بعض الأعضاء . وأجاز بعضهم أن يكون السامري قذف الحلي في النار بدعوى أنها محرمة عليهم لسرقتهم إياها من المصريين ، واشترى لهم عجلاً جسداً حياً ، وسرق الذهب لنفسه .

(فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُم وَإِلَهُ مُوسَى) : أى قال السامري ومن افتتن به وتابعه : يا قوم هاهو ذا إلهكم وإله موسى قد نسيه هنا وذهب يطلبه في الطور ويناجيه هناك ، أو نسي موسى ألوهيته . وضل الطريق إلى ربه فخرج يبحث عنه ، في حين أن هذا العجل هو ربه ، وهكذا أضلهم السامري وفتنهم حتى عبدوا العجل .

٨٩- (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) :

الاستفهام هنا للتوبيخ ، أى أعموا فلم يروا أن هذا العجل لا يتحدث إليهم ولا يرد على أسئلتهم وأنه لا يملك أن يضرهم أو ينفعهم ، فكيف يكون إلهاً مستحقاً للعبادة والتقديس ؟ !

(وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ
الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ
حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾)

الفرات :

(فُتِنْتُمْ) : ابتليتم واختبرتم . (لَنْ نَبْرَحَ) : سنبقى .
(عَاكِفِينَ) : مقيمين على عبادته .

التفسير

٩٠ - (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي
وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ) :

زعم اليهود - كما ورد في سفر الخروج (الإصحاح) ٣٢ - أن هرون عليه السلام هو
الذى صنع العجل الذهبي لبني إسرائيل ودعاهم إلى عبادته ، وذلك دأبهم في تلويث الأنبياء
بل وقتلهم بغير حق إذا لم يوافقوا هواهم - مع أنه نبي مرسل معصوم من الأخطاء ، وبخاصة
الشرك بالله أو الرضا عنه - وقد برأه الله في هذه الآية مما ألصقوه به .

والمعنى : ولقد قال هارون لبني إسرائيل حين رآهم مقبلين على عبادة العجل - بتزيين
السامري - قال لهم قبل أن يستغرقوا في عبادته : إن هذا العجل فتنة واختبار من الله لكم ،
أتعبدونه وهو لا يملك من أمركم شيئاً ، أم ترفضونه وتعبدون الله ، فإنه إلهكم الحق
الجدير بالعبادة ، لأنه المتصف بالرحمة البالغة حيث أنجاكم من عدوكم ، فاتبعوني في عبادته
وتوحيده وأطيعوا أَمْرِي بالكف عن عبادة العجل .

٩١ - (قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى) :

أصروا على باطلهم ولجوا في عنادهم وقالوا : سنظل عاكفين على عبادة العجل حتى
يرجع إلينا موسى ويخبرنا بالحقيقة .

(قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَأَلَّا تَتَّبِعَنِ ۚ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۚ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۚ)

المفردات :

(مَا مَنَعَكَ) : قال عيسى بن موسى معناد : ما حملك على عدم اتباعي ، فإن المنع عن الشيء مستلزم للحمل على سواه ، وقيل : المنع على ظاهره ، وحرف (لا) صلة للتأكيد وليس للنفي ، كما في قوله : « لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ » : فهي بمعنى ليعلم ، وكما في قوله تعالى في حق إبليس في سورة الأعراف : « مَا مَنَعَكَ أَأَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » : فهو بمعنى ما منعك أن تسجد ، ليتفق مع قوله في سورة (ص) : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ » .

التفسير

٩٢، ٩٣ - (قَالَ يَا هَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَنْ لَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) :

كان موسى عليه السلام قد اشتد به الغضب ، فجذب أخاه هرون من لحيته وشعر رأسه وقال له : يا هرون ما حملك حين رأيت بني إسرائيل ضلوا عن الهدى فعبدوا العجل ، ما حملك على عدم اتباعي إلى جبل الطور لتتلقى تعليماتي ، أو ما حملك على عدم اتباعي في تشديد التنكير عليهم ، لتحول بينهم وبين ما فعلوه (أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) بقولي لك : « اخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ » ^(١) ، فكيف تركتهم حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه ؟

٩٤ - (قَالَ يَبْنَومٌ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي) :

قال له هارون : يا أخى وابن أُمى التى طبعتنا على الحنان والشفقة لا تجذبني بعنف من شعر رأسى وشعر لحيتى .

(إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) :

إلى خفت أن أقسو على بنى إسرائيل فينقسموا إلى فريقين : فريق معى . وفريق يتمسك بعبادة العجل ؛ فتقع بينهم حرب . وأكون أنا سبباً فى تمزيق وحدتهم وتشتيت أمرهم وتفريق كلمتهم ، فكنت أحاول أن أردمهم إلى الصواب بالنصح والإرشاد .

(قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ۖ) ٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۖ)

المفردات :

(مَا خَطْبُكَ) : أى ما حالك وما شأنك ، والخطب الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب .

(بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) : أدركت وعلمت ما لم يعلموه وأيقنته .

(الرُّسُولِ) : قيل المقصود به جبريل عليه السلام ، وقيل موسى .

(فَنَبَذْتُهَا) : طرحتها .

(سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) : زينت وحسنت .

التفسير

٩٥ - (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ) :

فى هذه الآية يتجه موسى عليه السلام إلى السامرى ، ليحاسبه ويوبخه على صرفه قومه إلى عبادة العجل بعد أن فرغ من عتاب أخيه هرون على تركهم يعبدونه ، واعتذر هرون عليه السلام بأنه نصحهم فلم ينتصحو وأنه خشى أن يقول له موسى : فرقت بين بنى إسرائيل ،

ولم ترقب قولي في المحافظة على وحدتهم ، والحكمة في التصرف معهم ، وكان للسامري نفوذ في بني إسرائيل ، وكان قوى التأثير عليهم . قال قتادة : كان السامري عظيماً في بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة . ولكن عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى ، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم ، « قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » ^(١) . فاغتنمها السامري وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاتخذ العجل ^(٢) .

٩٦ - (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) :

قال الفخر الرازي : عامة المفسرين على أن المراد بالرسول : جبريل ، والمراد بأثره : التراب الذي أخذه من موضع حافر دابته . والأكثر منهم على أنه رآه يوم فلق البحر ، وعن علي أن ذلك كان حين نزل ليذهب بموسى إلى الطور ، ثم اختلفوا في كيفية رؤيته جبريل دون سائر الناس ، وحكى الرازي عن هؤلاء المختلفين حكايات لا أصل لها ، وذكر القرطبي وغيره : أن السامري لما زيننت له نفسه أن يأخذ قبضة من التراب الذي تحت حافر فرس جبريل . جعل يلتقي منه على الجماد . فيتحول إلى حيوان له روح ولحم ودم ، فلما سألوا موسى أن يعيدهم إلى عبادة العجل زجرهم . فصنع لهم السامري في غيبته عجلاً من الحلي . وألقى من هذا التراب عليه ، فتحول إلى جسد من لحم ودم له خوار كسائر العجول ، ويقول القرطبي في موضع آخر نقلاً عن مجاهد : خواره وصوته كان بالريح لأنه أحدث فيه خروفاً ، فإذا دخلت الريح في جوفه خار ولم تكن فيه حياة .

وبهذا نقول فإن تحويل الجماد إلى حيوان حقيقي لا يكون معجزة إلا لنبى ، كما حدث لموسى ، حين حول الله عصاه الخشبية إلى حية تسعى ، ولا يصح أن يعجز الله مثل ذلك على يد من يعارض النبوة ويثير الشبه حولها ، ولو أنهم قالوا إنه كان ساحراً وإنه خيل لهم بسحره أنه عجل حقيقى لكان ذلك خيراً مما قالوه ، وقد أحسن الإمام الرازي فيما نقله عن أبي مسلم الأصفهاني ، إذ قال نقلاً عنه ما خلاصته : ليس في القرآن تصريح بهذا الذي

(١) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف ، وقد رد عليهم موسى قائلاً : (إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) الآيات من سورة الأعراف .

(٢) القرطبي ج ١١ ص ٢٣٩

ذكره المفسرون ، ونرى في الآية وجهاً آخر ، وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام ، وبآثره سنته وشريعته ، وبيان الآية على هذا أن موسى لما أقبل على السامري باللوم والسؤال عما دعاه إلى صنع العجل وإضلال قومه بعبادته ، قال بصرت بما لم يبصروا به أى عرفت ما لم يعرفوه في دينك يا موسى ، فقد تبين لى أنه ليس بحق ، فقبضت قبضة من أذكرك أيها الرسول أى أخذت شيئاً من سنتك ودينك فطرحته عن قلبي ، وحملت القوم على ترك دينك بصناعة العجل وتحويلهم إلى عبادته ، فعندئذ أدرك موسى كفره ، فتوعده بالعقاب في الدنيا والآخرة ، وإنما وصف موسى بالرسول وهو لا يؤمن به على سبيل التهكم . كما قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : « يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » .

وقد عقب الرازى على هذا الرأى بقوله : واعلم أن هذا القول ليس فيه إلا مخالفة المفسرين ولكنه أقرب إلى التحقيق .

والغنى على هذا : قال السامري لموسى ردّاً على لومه وتوبيخه : علمت من أمر دينك ما لم يعلمه قومك ، فكرهت البقاء فيه ، فقبضت قبضة من دينك المأثور عنك ، فطرحتها عنى وحملت قومي على مخالفتك فصنعت لهم عجلاً جسداً له خوار بسبب دخول الريح فيه أو بالسحر ، ودعوتهم إلى عبادته ، حيث قلت لهم : هذا إلهكم وإله موسى ، فاستجابوا لى وعبدوه وكذلك سولت لى نفسى .

(قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿١٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٨﴾)

المفردات :

(لَا مِسَاسَ) : لا يمسنى أحد .

(مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ) : أى وعدا بالعذاب يوم القيامة لا خلف فيه .

(ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا) : دمت على عبادته ملازما ومقيما ، وأصله ظللت ، فحذف بحذف اللام الأولى . (لَنَنْسِفَنَّ فِي الْيَمِّ) : أى لَنَذُرُوهُ وَنُطِيرَنهُ فِي الْبَحْرِ ، والنسف نقض الشيء أو تعريضه للريح ليعثره أو ينفذه مما يشوبه ، والمراد منه هنا التذرية والذُّرُو وهو المعنى الثانى للنسف ، والمنسف ما ينسف به الطعام .
(وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) : أحاط علمه بكل شيء .

التفسير

٩٧ - (قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ...) الآية .

أى قال موسى للسامرى بعد اعترافه بصناعة العجل وحمله قومه على عبادته - قال له : اذهب عنا منفيا من بيننا . بحيث لا يمسك أحد ولا تمس أحدا ، حتى تلجئك هذه المقاطعة إلى أن يختل عقلك فتقول : لامساس ، ترديدا لما يقوله الناس بعضهم لبعض فى النهى عن ملاسته . تأكيد الفصله عن المجتمع الذى أضله ، وتنفيذا لما أوصاهم به موسى عليه السلام من مقاطعته وترك معاملته والاتصال به ، وهذا هو الذى نراه مناسبا فى تفسير الآية .

ومن المفسرين من قال : إن الله عاقبه بمرض جلدى ، وكان يصاب بالحمى إن مسه الناس ، فكان يسترحمهم قائلا : لا مساس ، فابتعد عنه الناس لا يؤاكلونه ولا يعاملونه لذلك . وأنكر الجبائى هذا رأى ، وقال : إنه خاف وهرب إلى البرية ، وجعل يهيم فيها فلا يجد أحدا من الناس يمسّه ، حتى صار لبعده عن الناس كالقائل : لا مساس . اهـ
وبما أننا لانجد دليلا على هروبه إلى البرية ولا على إصابته بمرض جلدى ، فلهذا نرى أن ما ذكرناه أولا فى تفسير الآية هو المناسب للنص الكريم .

وتعتبر هذه الآية من الأصول التى يعمل بها مع الذين يحدثون حدثا كبيرا فى الدين ، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فى الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، حيث أوجب على المسلمين مقاطعتهم حتى عفا الله عنهم .

(وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ) : وإن لك ياسامرى وعدا بالعقاب فى الآخرة لن يحدث فيه خلف ، فإنه تعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

(وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا) :

قد عرفت مما تقدم أن العجل الذى صنعه السامرى من حليهم فيه ثلاثة آراء (أحدها) : أنه عجل تحول من خلى إلى حيوان ، حينما وضع عليه السامرى ترابا من تحت حافر الفرس التى كان يركبها جبريل - كما قيل - (وثانيها) : أنه عجل من ذهب لم تحل فيه الحياة ، وأن خواره صناعى أو بسبب السحر ، فعلى أنه عجل حيوانى ، يكون حرقه بعد ذبحه ، حتى إذا صار رمادا نفسه فى اليم ، أى ذراه فى الهواء فى اتجاه البحر ، أما على أنه عجل صناعى لم تحل به الحياة ، وأن خواره صناعى أو بطريق السحر ، فيكون حرقه وتصويره رمادا من آيات موسى عليه السلام ، لأن الذهب إذا صهر بالنار يصبح سائلا ولا يمكن نفسه ، (وثالثها) أنه عجل حيوانى اشتراه موسى السامرى بعد أن صهر الذهب وسرقه ، وأمر حرقه بعد ذبحه واضح ، وأن كنا نستبعد أن يحرقه موسى وهو لحم حيوان أحل الله أكله ، وكان يكفى - لو صح أنه حيوان حقيقى - أن يذبحه ليظهر بذبحة عدم صلاحيته للألوهية ، ثم يبيح لهم أكله .

والذى يظهر لنا والله أعلم أنه عجل صناعى^(١) وأن خواره صناعى أو عن طريق السحر ، وأن الحياة لم تحل فيه ، فإن ذلك معجزة فلا يجريها الله على يد منافق لا يعترف بوحدانيته تعالى ، بل هى من آيات الرسل كما حدث لعصا موسى عليه السلام ، وأن إحراق موسى له يعتبر آية و معجزة من معجزاته عليه السلام .

والمعنى : وانظر ياسامرى إلى العجل الذى صنعه وجعلته لك إلها ، وأقمت على عبادته ملازما أنت ومن استجاب لك من قومك ، والله لنحرقه حتى يصير رمادا ، ثم لننسفنه ونذرينه ليلقيه الريح فى البحر حتى تعلم أنت ومن تبعك عجزه عن حماية نفسه من النار ، وفساد رأيكم فى عبادته .

٩٨- (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) :

هذه الآية جاءت لإحقاق الحق بعد إبطال الباطل ، والخطاب فيها لعموم بنى إسرائيل .

(١) والآية شبه صريحة فى ذلك ، إذ يقول الله فى الآية (٧٧) حكاية عن عبده « قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقلناها فكذلك أتى السامرى فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار . . » الآية

والمعنى : ما إلهكم يا بنى إسرائيل سوى الله الذى لا إله سواه أحاط علمه بكل شئ ، فكيف تشركون به العجل الذى لا يعلم مايراد به ، ولا يستطيع حماية نفسه ، وبهذا تم حديث موسى بشأن العجل الذى عبدوه .

(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۝١٠١ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۝١٠٢ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٣ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٤ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝١٠٥)

المفردات :

(ذِكْرًا) : المراد به القرآن الكريم ، وأطلق الذكر عليه لأنه يذكر الناس بما ينفعهم ، أو لأنه شرف للرسول ولقومه صلى الله عليه وسلم كما فى قوله : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » .
(وَزْرًا) : أى ذنبا ثقيلا . (الْمُجْرِمِينَ) : المشركين . (زُرْقًا) : أى زرق الأبدان أو العيون . (يَتَخَفَتُونَ) : يخفضون أصواتهم من شدة مايجدون .
(إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا) : ما مكثتم فى القبور أو الدنيا إلا عشر ليال .
(أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً) : أعدلهم رأيا .
(إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) : ما لبثتم فى القبور أو فى الدنيا إلا يوما .

التفسير

٩٩ - (كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا) :
أى مثل ذلك القصص الصادق من خبر موسى وقومه نقص عليك يا محمد أمثاله من قصص الأولين تسلية لك مما حل بك من قومك ، وتأييدا لنبوتك ، وتبصيرا للمستبصرين من

أولى الأبواب الباحثين عن الحق ، وقد أعطيناك من عندنا قرآنا مذكراً بما في تلك الأنبياء
والقصص من العبر وهو كتاب شريف جامع لكل الكمالات .

١٠٠ ، ١٠١ - (مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا . خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا) :

أى من أعرض عن هذا الذكر العظيم الذى أعطيناك أيها الرسول ، ولم يؤمن بما جاء فيه من
العقائد والأحكام الدنيوية والأخروية فإنه يحمل يوم القيامة إثماً عظيماً لا قدرة له على احتماله
مقياً في جزائه جهنم إقامة دائمة ، وبئس للمعرضين عنه - وبئس لهم - يوم القيامة هذا الحمل
الذى حملوه بالإعراض عن الذكر الذى بعثك الله به إليهم ^(١) .

١٠٢ - (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمِئِذٍ زُرْقًا) :

أى اذكر لهم يا محمد يوم ينفخ إسرافيل في البوق نفخة البعث من القبور ، حيث
يقوم الناس لرب العالمين ، ونسوق المجرمين يومئذ بعد البعث زرق الأجساد أو زرق العيون
من أجل ما يحملونه من الأوزار ، وخوفهم من محاسبة العليم القهار ، وسئل ابن عباس عن
وصفهم هنا بقوله « زُرْقًا » وفي آية أخرى بقوله « عُمِيًا » فكيف يجمع بينهما ؟ فقال :
ليوم القيامة حالات ، فحالة يكونون فيها عمياً وأخرى يكونون فيها زرق العيون .

وقال الفراء : المراد من « زُرْقًا » عمياً لأن العين إذا ذهب نورها أزرَقَ ناظرها .

١٠٣ - (يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا) :

أى يخفزون أصواتهم ، ويتهايمسون فيما بينهم قائلين ، ما لبثتم في القبور إلا عشر ليال ،
أو عشرة أيام ^(٢) ، ومرادهم من قولهم ذلك استقصار مدة لبثهم في القبور وسرعة انقضاءها ،
بعد أن تحقق لديهم البعث الذى أنكروه من قبل ، يقولون ذلك على سبيل التنديد ، كأنهم
قالوا : قد بعثتم وما لبثتم في القبر إلا مدة يسيرة ، وقد كنتم تزعمون أنكم لن تبعثوا منه

(١) وافراد الضمير في قوله « فإنه يحمل » مراعاة للفظ (من) ، والجمع في قوله « خالدين » وقوله « وساء لهم »
مراعاة لمعناه .

(٢) قيل : إن تقديرها بعشرة أيام أولى من تقديرها بعشر ليال ، ليناسب قول أمثلهم في الآية التالية (إن لبثتم
إلا يوماً) فإن قيل : إن تقديرها بالأيام يقتضى تأنيث العشرة ، على قاعدة تأنيث العدد إذا كان المعدود مذكراً ، والعكس
بالعكس ، وأجابوا بأنه إذا حذف المعدود وأبقى عدده فقد لا يؤق بالتاء ، حكى الكسائى : سمنا من الشهر خساً ، ومنه
ما جاء في الحديث « ثم أتبعه بست من شوال » فإن المراد ستة أيام وحسن الحذف مراعاة الفواصل .

أبدا ، وعن قتادة أنهم قصدوا بهذه العشر مدة لبثهم في الدنيا ، استقصارا لها لزوالها وتأسفهم عليها بعد أن عاينوا الشدائد التي لا غاية لها ، وأيقنوا أنهم استحقوها بسبب إضاعتهن دنياهن القصيرة في قضاء الأوطار واتباع الشهوات : انتهى بتصرف . وفي مجمع البيان عن ابن عباس و قتادة أنهم قصدوا مدة لبثهم بين النفختين ، حيث يمكثون أربعين يوما مرفوعا عنهم العذاب .

١٠٤ - (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) :

نحن أعلم بما يقوله هؤلاء المتحسرون على ضياع رقادهم أو إقامتهم في دنياهن حين يقول أحسنهم طريقة في القياس بين ما كانوا فيه وما هم مقبلون عليه . ما لبثتم إلا يوما واحدا ، يريد بذلك حملهم على الندم أكثر فكأنه يقول لهم : إن تقدير إقامتنا في القبور أو في الدنيا بعشرة أيام يعتبر شيئا كثيرا بالنسبة إلى مانحن مقبلون عليه من الشدائد فما لبثنا أكثر من يوم واحد ، ووصف القرآن قائل هذا بأنه أَمْثَلُهُمْ طريقة لكون مقاله أعظم في التنذيم ، وأقوى في التحسير ، وأدل على شدة ما هم مقبلون عليه ، ولكل مقام مقال يحسن فيه أكثر من غيره .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۚ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۚ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۖ عِلْمًا ۚ)

المفردات :

(يَنْسِفُهَا) : يذريها ويطيحها . (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا) : فيتركها سهلا مستويا .
(لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا) : لا تجد فيها انخفاضا ولا شيئا مرتفعا .

(يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ) : يتبعون إسرائفيل الذى دعاهم بالنفخ فى الصور إلى الحساب .
(لَا عِوَجَ لَهُ) : أى لا عوج للداعى على معنى لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه .

التفسير

١٠٥ - (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا) .

هذه الآية مستأنفة لبيان حال الجبال عند قيام الساعة بعد ما سأل السائلون رسول الله عنها ، وهؤلاء السائلون ممن ينكر البعث من قريش . فقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنهم قالوا على سبيل الاستهزاء كيف يفعل ربك بالجبال يوم القيامة ، وقيل هم أناس من المؤمنين سألوا عنها على سبيل التعلم وطلب المعرفة .

والمعنى : ويسألك السائلون يا محمد عن حال الجبال يوم القيامة ، أتظل باقية على ما هى عليه . فقل مجيبا لهم ، يجعلها الله كالرمل أو التراب ثم يرسل عليها الريح فتذروها وتبعثرها . ولا تستعصى على من يقول للشيء كن فيكون .

ولا يوجد فى القرآن أمر من الله للرسول مقرون بالفاء . يجيب به السائلين سوى ما هنا .

أما ما عدها فبدون الفاء كقوله تعالى : «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ» وقوله سبحانه : «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ :» وقوله : «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» الخ .

والسبب فى هذا أن الفاء للترتيب والتعقيب ، وقد جرى بها هنا للمسارعة إلى إزالة ما فى ذهن السائل المشرك من بقاء الجبال تبعا لظنه عدم الحشر ، أو للمسارعة إلى تعليم السائل المؤمن حفظا لعقيدته مما يقوله المنكرون ، وهذه خلاصة ما نقله الآلوسى عن الإمام الرازى ^(١) .

(١) ويرى القرطبى أن الفاء هنا فى جواب شرط مقدر ، أى فإن سألوكم عن الجبال فقل ، وقد علم الله أنهم سوف يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال ، أما سائر ما فى القرآن من أسئلتهم ، فكان قد وجه إلى الرسول فعلا ، فتميز جوابها بعدم ذكر الفاء .

١٠٦ ، ١٠٧ - (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا) :

أى أنه تعالى بعد أن يزيل الجبال ويبعثرها ، يترك أصولها أرضاً مستوية ، كأنها مع غيرها صف واحد على سمت مستو متماثل ، بحيث لا ترى فى أصول تلك الجبال المنسوفة انخفاضاً ولا نتوءاً بارزاً والعوج بكسر العين يستعمل فى غير المستقيم حسياً ومعنوياً أما مفتوح العين فقاصر على الحسى غير المستقيم.^(١)

١٠٨ - (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ) الآية .

أى يومئذ ينسف ربى الجبال ، يتبع الناس داعى الله عز وجل إلى المحشر ، وهذا الداعى هو إسرافيل ، وظاهر ما جاء فى القرآن أن هذه الدعوة هى النفخة الثانية فى الصور قال تعالى فى سورة الزمر : «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ» (٦٨) وهى المعنية بقوله فى سورة يس : «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» (٥١) والله أعلم بحقيقة هذه الدعوة وكيفيتها . ومن المفسرين من جعلها دعوة كلامية ، حيث قال . إن إسرافيل يضع الصور فى فمه ويقول : أيتها العظام البالية ، والجلود المتمزقة ، واللحوم المتفرقة ، هلموا إلى العرض على الرحمن فيقبلون من كل صوب إلى صوته . .

وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : يحشر الله تعالى الناس يوم القيامة فى ظلمة ، تطوى السماء وتنثار النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادى مناد فيتبع الناس صوته يؤمنونه ، فذلك قوله تعالى : «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ» .

وقال على بن عيسى : الداعى هو الرسول الذى كان يدعوهم إلى الله عز وجل : انتهى . وأظهر الأقوال ما قلناه أولاً ، من تفويض العلم بحقيقة هذه الدعوة وكيفيتها إلى العلم الخبير سبحانه وتعالى ، ومعنى «لَا عِوَجَ» لا يعوج للداعى مدعو ولا عدول له عنه ، وذلك مثل قولهم : لا عصيان له أى لا يعصى ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون المعنى : لا شك فيه .

(١) واختار المازوق أنه لا فرق بينهما - انظر الآلوسى .

(وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا) :

أى وخفتت أصوات الخلائق هيبة للرحمن ، ورهبة من الموقف الرهيب ، فلا تسمع من أحد من أهل الموقف إلا صوتاً خفيفاً خافتاً يصدر من فمه .

وفى إحدى الروايات عن ابن عباس أن المراد من الهمس هنا خفق الأقدام ، وبمثله قال عكرمة وابن جبير والحسن ، واختاره الزجاج والفراء ، ومنه قول الشاعر : وهنّ يمشين بنا همسا .

والمعنى على هذا : سكنت أصواتهم وانقطعت كلماتهم ، فلا تسمع منهم إلا خفق أقدامهم وهم يمشون إلى المحشر ، والخطاب فى قوله « فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » لكل من له سمع يستمع به .

١٠٩ - (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) :

أى يومئذ يدعوه داعى الرحمن إلى المحشر للحساب ، فيستجيبون له خاشعين ، لا تنفع الشفاعة أحدا من أفراد الأمم ، إلا من أذن الرحمن بالشفاعة لأجله من بينهم ، ورضى له قول الشافع وأذن له به .

ويصح أن يكون المعنى : ورضى للمشفوع له ما كان يقوله ، والمراد منه كما قاله ابن عباس : قوله (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) وخلاصة المعنى على هذا : لا تنفع الشفاعة أحدا ، إلا من أذن الرحمن فى أن يُشفع له وكان مؤمناً . والمراد على كل تقدير : أنه لا تنفع الشفاعة أحدا إلا من ذكر ، وأما من عداه فلا تنفعه وإن فرض صدورها عن الشفعاء المتصدّين للشفاعة عن الناس ، كما قال تعالى : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » .

١١٠ - (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) :

أى يعلم الرحمن ما يستقبله المحشورون من المقادير التى كتبها لهم أو عليهم وما تركوه خافهم من أعمالهم وأحوالهم الدنيوية ، ولا يحيطون علما بالمذكور من مجموع الأمرين ، فإنهم كما قال الجبائى : لا يعلمون جميع ما ذكر ، ولا تفصيل ما علموه منه . ويجوز أن يكون المعنى ولا يحيطون به تعالى علما ، من حيث صفاته وكمالاته التى لا تنهاى ولا يعرف أحدكنها ومداه ، فنحن لا نعلم من أمره سبحانه إلا ما جاءت به الرسل وما تنسع له عقولنا .

* (وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾
وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾)

المفردات :

(وَعَنْتِ) : وخضعت. وذلت خضوع العانى وهو الأسير ، و فرق بعض اللغويين بين الخضوع وبين الذل : فجعل الخضوع بمعنى الخشوع والتذلل لدى طاعة ، وجعل الذل وصفا لمن كان ذليل النفس في ذاته .
(الْقَيُّومِ) : الدائم القيام بتدبير أمر خلقه وحفظهم . (هَضْمًا) : نقصا من الحق .

التفسير

١١١- (وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) الآية .

المراد بالوجوه جميع الناس أو المجرمون الذين سبق الحديث عنهم ، وإطلاق الوجوه عليهم مجاز ، ويصح أن يراد بها حقيقتها ، وتخصيصها بالذكر لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة ، وأول ما تبدو عليه آثار الخضوع والذل .

والمعنى : وذلت الوجوه وخضعت واستسلمت في هذا اليوم العصيب الذى تقدم الحديث عن بعض أهواله - استسلمت استسلام الأسرى لجبار السموات والأرض ، الحى الذى لا يموت ، القائم على أمور عباده ، بتدبيرها وحفظها ، والقيام بما يصلحها .

(وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) : المراد بمن حمل ظلما ، كل كافر ، أو ما يعمه وغيره من سائر العصاة ، وخيبة كل عاص بقدر ما حمل من الظلم .

والمعنى : وخضعت النفوس للحى المسيطر على كل شئ وقد خسر كل من كسب ظلما في دنياه ، حين يعرض يوم القيامة على مولاه فيأمر بعقابه على ما كسبت يده .

وبعدما حكّت هذه الآية خيبة الظالمين الآثمين ، عقبها الله ببيان حسن حال المؤمنين الصالحين ، فقال سبحانه :

١١٢- (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) :

أى ومن يعمل شيئاً من الصّالحاتِ فى دنياه وهو مؤمن به ويجعل دنياه مزرعة لآخرته ، فإنه يُقبل يوم القيامة على الملك الحق العادل فى خلقه ، وهو مطمئن النفس ، لا يخاف « ظُلْمًا » بأن يحمل أوزاراً لم يرتكبها « وَلَا هَضْمًا » بأن ينقص حق من حقوقه ، أو يضيع ثوابٌ لعمل من أعماله مهما قلَّ أو خفى بل يُوفى أجره كاملاً ، كما قال تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ^(١) »

ولا يقتصر جزاؤه على الوفاء ، بل يضاعف ثوابه على قدر نيته وعمله ، وفقاً لمشية الله تعالى « وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ^(٢) » .

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ
بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۚ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٣)

المفردات :

(صَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ) : كررنا وفصلنا فيه من الإنذار والتخويف .

(ذِكْرًا) : اعتباراً واتعظاً .

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) : فتنزه الله الملك الكامل التصرف فى ملكه ، الثابت فى ذاته

وصفاته .

(يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ) : يتم جبريل تبليغ القرآن الموحى به إليك .

التفسير

١١٣- (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) :

أى مثلما تقدم من التنزيل المشتمل على القصص النافع والوعد بالثواب على العمل الصالح، والوعيد بالعقاب على العمل السيئ والكفر، ومثل هذا الإنزال أنزلنا القرآن كله ، بأسلوب عربي واضح ليفهموه ، وليكون آية على نُبُوتِكَ ، يعجزهم عن معارضته ، وكررنا فيه من التخويف والإنذار على الكفر والمعاصي ، لكي يتقوها ، أو يحدث لهم اعتبارا واتعاظا يؤدي بهم إلى التقوى .

وفسر قتادة التقوى هنا بالحدز والورع ، وفسر بعضهم الذكر بالشرف .

١١٤- (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) الآية .

أفاد هذا النص الكريم استعظام شئونه تعالى في ملكه ، وما صرف في القرآن من الوعد والوعيد والأوامر والنواهي المقتضية لوجوب العمل به ، كما أفاد التعجب من عظمة القرآن ووجوب الإقبال عليه والعمل به ، وتعظيم من أنزله .

والمعنى : تقدس الله وتنزه عن النقائص فهو المتصرف بالأمر والنهي ، الحقيق بأن يعمل بكتابه ، لكي يرجى ثوابه ، ويخشى عقابه ، وهو الدائم الذي لا يزول ولا يتغير .

(وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) : ولا تعجل يا محمد بقراءة القرآن الذي يوحى به إليك ، ترديدا لما تسمعه من قبل أن يتم جبريل تبليغه إليك ، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا التقى به جبريل وألقى عليه القرآن يتبعه عند تلفظه بكل كلمة خوفا من أن يصعد جبريل عليه السلام ولم يحفظه ، حرصا على حفظ الوحي ، فطمأنه الله على ذلك ، وبشره بجمعه إياه ، ونهاه عن التعجل بقراءته عند نزوله كما قال تعالى في سورة القيامة : «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ»^(١) .

ثم أرشده الله سبحانه وتعالى إلى الدعاء بالاستزادة من العلم مطلقا بقوله :
(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) : وكان صلى الله عليه وسلم يسأل الله دائما الاستزادة من العلم ،

أخرج الترمذی وابن ماجه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني وزدني علما ، والحمد لله على كل حال » .

وهذا دليل على فضل العلم ، وحث على التزود منه ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلا .

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٥
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلْنَا
يَعَادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۝١١٧
إِنَّ لَكَ إِلَّا التَّجْوَعُ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ۝١١٩
فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَعَادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةٍ آخُلْدٍ وَمُلْكٍ
لَّا يَبَلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ
عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا
يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣)

المفردات :

(عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ) : أى وصيناه لا يقرب الشجرة . (عَزْمًا) : ثباتا وتصميما .
(فَتَشْقَى) : فتتعب بمناعب الدنيا . (وَلَا تَعْرَى) : يقال عَرَى يَعْرَى إذا تجرد من اللباس
(وَلَا تَصْحَى) : ولا يصيبك حر الشمس ، يقال : ضَحَا ، كَسَلَا ضَحْوًا ، وَضَحَى كَرَضَى
ضَحْبًا ، أصابته الشمس . (فَوَسْوَسَ) : الوسوسة ، الخطرة الرديئة ، وتطلق على الهمس الخفى ،
وعلى حديث النفس . (شَجَرَةٍ آخُلْدٍ) : الشجرة التى إذا أكل منها الإنسان خلد ولم يمت

كما زعم الشيطان . (طَفِيقًا يَخْصِفَانِ) : شَرَعًا وأخذًا يلزقان على عورتيهما ورقة فوق أخرى من ورق الجنة . (فَقَوَى) : فضلٌ عن مطلوبه . (اجْتَبَاهُ) : اصطفاه .

التفسير

١١٥ - (وَأَقْبَضَ عَهْدَنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) :

تمهيد :

كرر الله سبحانه وتعالى قصة آدم في كثير من السور القرآنية بأساليب متعددة، ليعرف أبنائنا من البشر عداوة الشيطان لهم ولأبيهم من قبلهم ، حتى يحذروا أفانيه في تزيين الباطل ، وينجوا من سوء المصير الذي يدبره لهم ، وقد حكى الله سبحانه في هذه السور كيف أغوى الشيطان آدم وأغراه بعصيان ربه ، فانخدع بأفانيه الشريرة فوقع فيما أراده من المعصية ، ليخرج من الجنة كما خرج ، وليتسلط على ذريته كما هدد وتوعد ، ولا شك في أن هذا التفصيل مثل لبيان ما أجمله الله سبحانه في قوله في الآية السابقة « وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا » والمراد من العهد إلى آدم وصيته وأمره ، تقول : عهد الملك إلى فلان إذا أوصاه وأمره .

والمعنى : ولقد وصينا آدم وأمرناه أن لا يقرب الشجرة فغفل عما وصيناه به ولم يشتغل بحفظه ولم نجد له ثبات قدم في تنفيذه ، حيث خدعه الشيطان بأساليبه ، فنسى تحذير الله له منه بقوله : « إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » . وفسر ابن زيد وغيره قوله : (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) بمعنى لم نجد له عزمًا على مخالفة عهد الله ، بل كان عن طريق نسيان تحذير الله له من عداوة الشيطان دون تعمد للإثم والمخالفة .

١١٦ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى) :

هذه الآية شروع في بيان ماعهد به لآدم ، وكيفية نسيانه وفقدان عزمه ، والمعنى واذكر يا محمد وقت أمرنا للملائكة بالسجود لآدم تشريفًا وتكريماً وبياناً لفضله ، فامتثل الملائكة جميعاً وسجدوا إلا إبليس فإنه تمنع عن السجود له حقداً وحسداً، لظنه أنه أفضل منه ، حيث خلق من نار وخلق آدم من طين ، والنار في زعمه أفضل من الطين .

١١٧ - (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) :

أى فقلنا عقب امتناع إبليس عن السجود لآدم - قلنا له - تحذيرا وإرشادا : إن هذا عدو لك وعدو لزوجك فاحترسا منه ، فلا يكونن سببا لإخراجكما من الجنة فتتعب أنت وزوجك بمتاعب الدنيا التى لا تكاد تحصى ، وتشقى بكثرة التعب والنصب فيها .

١١٨ ، ١١٩ - (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى) :

إنك فى الجنة فى عيش رغيد هنىء فلا تعب ولا مشقة ، فأنت فى داركرامة لا يصيبك فيها شئ من الجوع أو العرى ، فالغذاء فيها يأتىك بمجرد الرغبة لا عن جوع ، والكساء الفاخر فيها يأتىك كذلك لاعن احتياج ، لا يصيبك فيها الظمأ أو حر الشمس ، لأن شربها تابع للإرادة لا عن عطش ، ولأن ظلها دائم « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ^(١) » .

فاجتمعت لك فيها الأسباب التى توفر الراحة للإنسان ، وتجلب له السعادة ، فاحرص عايتها ، وحافظ على البقاء فيها ، وابتعد عن كل ما يؤدى بك إلى الخروج منها .

١٢٠ - (فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى) :

ولكن الشيطان وهو عدوه المتربص به ، الواقف له بالمرصاد ، لم يتركه يعيش فى هذا النعيم حسدا له عليه ، فأخذ يخطر له فى نفسه خطرات من الأمانى الكاذبة ، ويهمس له بها همسا خفيا قائلا : إني سأدلك على شجرة إن أكلت منها خلدت ولم تمت ، وملكك ملكا لا يفنى .

١٢١ - (فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا) : فتناول آدم نهى الله عن الأكل من

الشجرة ، بأنه نهى عن شجرة بعينها ، وهى التى أشير إليها فى قوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ^(٢) » . ولم يحملها على الجنس ، فأكل من جنسها هو وزوجه ولم يأكل منها نفسها ، فأنكشفت لهما عوراتهما - وكانت مستورة عن أعينهما - عقابا لهما على الأكل منها ، فقد كان الأجدر به أن يفهم من النهى عمومه لجنس الشجرة لاختصاصه بها .

(١) سورة الإنسان ، من الآية : ١٣

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ٣٥

ومن المفسرين . من جعل انكشاف عورتيهما مرتبا على الأكل من الشجرة ، لمصاحبة أخرى وليس عقاباً^(١) .

(وَطَفِقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) : وشرعا يلصقان على عورتيهما من ورق الجنة لسترها . حياة وخجلا ..

(وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) : وخالف آدم بذلك أمر ربه فضلاً عن مطلوبه وهو الخلود في الجنة . أو عن المطلوب منه وهو ترك الأكل من الشجرة ، أو عن الرشد باغتراره بوسوسة عدوه . وقد عرفت أن أكله من الشجرة كان بنوع من التأويل كما تقدم بيانه . وسمى ذلك عصيانا لعلو منصبه عليه السلام الذي يقتضى مزيد الانتباه لكيد عدوه . وعدم تصديقه في مزاعمه .

ومن العلماء من فسر ظهور سواتهما ومحاولة سترها بأنهما لما ذاقا الشجرة وقد نهيا عن الأكل منها ظهر لهما أنهما قد زلّا وخلعا ثوب الطاعة . وبدت منهما سوءة المعصية . فاستولى عليهما الخوف والحياء من ربهما . وأخذا يفعلان ما يفعل الخائف الخجل عادة من الاستتار والاستخفاء حتى لا يرى . وذلك بخصف أوراق الجنة عليهما ليستترا بها .

١٢٢ - (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) :

ثم ألهم الله آدم التوبة . فتاب إلى ربه فاختره الله وتاب عليه واصطفاه وقربه إليه ..

١٢٣ - (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) الآية .

قال الله لآدم بعد أن أكل من الشجرة : اهبط أنت وزجك من الجنة إلى الأرض ، وقد أمر بذلك تنفيذا لحكمة الله من خلق آدم وحواء . وهى استخلافه وذريته في الأرض كما قال تعالى : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » سورة البقرة .

(بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) : هذا إخبار من الله لآدم بعداوة إبليس له ولذريته إلى يوم القيامة . ويجوز أن يكون المعنى : بعض أولادكما لبعض عدو ، وأسندت العداوة إلى آدم وحواء لأنهما منشأ أولادهما المتعادين .

(١) راجع ما كتبتاه بسعة عن ذلك في تفسير مثله في سورتي البقرة والأعراف ، وهناك تعرف آراء العلماء في الجنة التي كانا فيها وغير ذلك من الأمور الهامة .

(فَلَمَّا بَأْتَيْنَكُمْ مِّنْهُ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) : وأخبره الله سبحانه وتعالى بأنه سيتعهد ذريته بإرسال الرسل وبيان الطريق المستقيم في كتب ينزلها عليهم ، هادية لهم ، فمن اتبع الهدى الذى أنزله وسار فى الطريق الذى رسمه ، وعمل بما شرعه ، فلا يضل طريقه فى الدنيا ، ولا يشقى بالعذاب يوم القيامة ، لأنه اختار لنفسه طريق السعادة فسعد فى دنياه وأخراه .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىْ أَعْمًى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ۝ وَكَذَلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۝)

المفردات :

- (عَنْ ذِكْرِى) : عن الهدى المذكور بعبادى .
- (مَعِيشَةً ضَنْكًا) : ضيقة شديدة ، والضنك : الضيق .
- (آيَاتُنَا) : الأدلة والبراهين الدالة علينا .
- (فَتَنَسِيَتْهَا) : فتركتها وأعرضت عنها .
- (أَسْرَفَ) : جاوز الحد فانهمك فى الشهوات واسترسل فيها .

التفسير

١٢٤- (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) الآية .

بعد أن بين الله حسن مصير من اتبع هدى الله الذى أنزله على أنبيائه ، جاءت هذه الآية لتبين مصير من أعرض عنه .

والمعنى : ومن انصرف عن الهدى الذى يذكره بعبادته فإن له معيشة ضيقة فى حياته مهما كان فى سعة من العيش ، فإنه يكون شديد الحرص على الدنيا متهاككا على الازدياد منها ، خائفا من انتقاصها ، وقيل الضنك مجاز عما لاخير فيه ، ووصف معيشة الكافر بذلك لأنها وبال عليه ، وزيادة فى عذابه يوم القيامة ، كما دلت عليه الآيات ، وبهذا المعنى فسر ابن عباس ، فقد أخرج ابن أبى حاتم بسنده عنه أنه قال فى الآية : كل ما أعطيته عبدا من عبادى قل أو كثر لا يتقبنى فيه فلا خير فيه وهو الضنك فى المعيشة : اهـ . وفسره عكرمة بالكسب الحرام .

(وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) : أى ونسوقه يوم القيامة فاقد البصر على الحقيقة ، حتى يقول : « رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيْ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا » وكان كذلك لأنه لم ينتفع بما أعطاه الله من بصر ينظر به فى آيات الله . وقيل : عماء كناية عن عدم اهتدائه إلى حجة تنفعه ، أو إلى حيلة يدفع بها العذاب عن نفسه .

١٢٥ - (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيْ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا) :

أى قال هذا الذى حشره الله أعمى يوم القيامة - قال - فى حيرة وحسرة : يارب لأى سبب حشرتني أعمى وقد كنت فى الدنيا بصيرا أرى كل شئ ، فيأتني الجواب حينئذ من قبل الله فيما يحكيه بقوله :

١٢٦ - (قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى) :

أى مثل ذلك العمى الذى جئت به فى الآخرة كنت أعمى فى الدنيا ، فقد جاءتك آياتنا فعصيت عنها ، وتركتها كالشئ المنسى الذى لا يخطر بالبال ، فالיום نجازيك مثل عملك ، فنجعلك أعمى عن الاهتداء إلى حجة تنفعك ، ونتركك فى حيرتك وعمالك ترك المنسى ، وندفع بك إلى النار لتصلى عذابها وتتلظى بنارها ، ولهذا قال سبحانه عقب هذه الآية :

١٢٧ - (وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) :

أى وبمثل ذلك الجزاء العادل نجازى كل من أسرف على نفسه فى ارتكاب المعاصى وترك الإيمان بربه ، ولم ينظر فى الآيات التى نصبها فى الأنفس والآفاق ، ولم يعمل بشعره الذى

أرسل به رسله ، حيث نجعله أعمى في الآخرة ، لا يهتدى إلى سبيل النجاة من عذابها ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى من عذاب الدنيا .

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾)

المفردات :

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ) : أفلم يتبين لهم ما يدلهم على الهدى .

(لِأُولِي النُّهَى) : لأصحاب العقول الراجعة .

(لَكَانَ لِزَامًا) : أى لكان عقابهم لازماً لا يتأخر عنهم .

التفسير

١٢٨ - (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ) الآية .
أى أغفل هؤلاء المعرضون من أهل مكة عن ذكر الله ، فلم يتبين لهم خبر من أهلكنا قبلهم من أهل القرون الماضية الذين ضلوا وأعرضوا عن ذكر ربهم ، وهم يمشون في مساكنهم حين أسفارهم كعاد وثمود الذين يشاهدون آثارهم الدالة على ما كانوا عليه من عظمة وسعة في العيش فلقد أخذهم الله بذنوبهم ، ولم يُغْنِ عنهم ما كانوا فيه من القوة والمنعة - لم يغن عنهم - من عذاب الله شيئاً ، وحق بهم ما كانوا يكسبون ، فلو كان هؤلاء أصحاب عقول سليمة لا اعتبروا بهؤلاء السابقين ، كما قال سبحانه : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى » إن في إهلاك أهل هذه القرون الماضية على كفرهم ، لعظات بالغات لأصحاب العقول الراجعة ، التى تنهاهم عن الكفر والمعاصي .

١٢٩ - (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) :

ولولا كلمة سبقت من الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أنه لا يعذب أمته في الدنيا بعذاب الاستئصال كما عذبت الأمم السابقة ، ولولا موعد سماه الله لعذابهم وهو يوم القيامة - لولا ذلك - لكان عذابهم العاجل المستأصل لهم لازماً محتتماً ، لأنهم سلكوا طريق السابقين في التكذيب والإنكار ، فاستحقوا بذلك العذاب مثلهم ، وفي ذلك يقول الله سبحانه : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَالَهُمْ إِلَّا يَعْذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ^(١) .

(فَأَصْبَحَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) ^(١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَابْقِ ^(١٣١) وَأَمْرًا هَلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) ^(١٣٢)

المفردات :

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) : نَزَّهَ اللَّهُ وَعَظَّمَهُ حَامِداً لَهُ .

(آنَاءَ اللَّيْلِ) : ساعاته جمع إني كإلى ^(٢) .

(١) سورة الأنفال : ٣٣ ، ٣٤ فارجع إلى تفسيرهما هناك في كتابنا (التفسير الوسيط) .

(٢) وأنى كمصا وإنى كعلم .

(وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) : أى وأجزاء منه ، جمع طَرَف ، وهو الطائفة من الشيء - ذكره القاموس والصحاح .

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) : لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل .

(أَزْوَاجًا مِنْهُمْ) : أصنافاً من الكفرة .

(زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : زينتها وبهجتها .

(لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) : لنختبرهم به .

(وَرَزَقُ رَبِّكَ) : ما ادخره الله من الثواب والنعيم فى الآخرة .

التفسير

١٣٠ - (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) :

بعد ما أخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن المكذبين له مستحقون للعذاب الذى حل بمن سبقهم ، وأنه لولا ما سبق من وعد الله له بأنه لا يعذب أمته وهو فيهم - بعد هذا كله - أمره الله بالصبر على أذاهم ، وتحمل كل ما يقولونه ، فإن عذاب الآخرة نازل بهم لامحالة .

والمعنى : فاصبر أيها الرسول على ما يقوله مشركو مكة الذين أسرفوا فى الكفر بآيات ربك وتكذيبك ، فقد توعدناهم بأجل مسمى ينالون فيه عذاباً أشد وأبقى ، واشتغل بتسبيح ربك وتنزيهه عن النقائص ، واحمده ، على ما أنعم به عليك من مختلف النعم ، وأعلاها النبوة والمعونة فى تبليغ الرسالة مع معارضة هؤلاء المعاندين ، وليكن هذا التسبيح والحمد قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وفى أوقات مختلفة من الليل وأطراف النهار ، رجاء أن يمنحك الله من مزيد التوفيق وعظيم النصر وجزيل الثواب ، ما ترضى به نفسك الصابرة على أذاهم ، الصامدة فى تبليغ الدعوة إليهم ، وفى معنى هذا الوعد الكريم يقول سبحانه فى سورة الضحى : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » وتأول بعض المفسرين الآية بأنها إشارة إلى مواقيت الصلوات الخمس ، وجعل التسبيح فيها مجازاً عن الصلاة ، فكأنه سبحانه يقول : وصل لربك صلاة الصبح قبل طلوع الشمس ، وصلاة العصر قبل غروبها ، وصلاة العشاء فى

بعض آناء الليل وأوقاته ، وصلاتى الظهر والمغرب فى أطراف النهار ، فصلاة الظهر فى آخر طرف النصف الأول وأول الطرف الثانى ، وذلك وقت زوال الشمس عن كبد السماء وصلاة المغرب فى آخر طرف النصف الثانى منه ، ولهذا قال سبحانه (أطراف) بصيغة الجمع ، ويصح أن يراد من الجمع مافوق الواحد ، أى وطرفى النهار ، وقت الزوال ووقت الغروب ..

١٣١ - (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) :

بعد ما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم فى الآية السابقة بالصبر على ما يقوله المشركون فى حق آيات ربه ، والاشتغال عن سفهمم بتسبيح ربه وحمده ، نهاه فى هذه الآية عن التطلع إلى ما هم عليه من زينة الحياة الدنيا ، فإنها فتنة لهم .

والمقصود من هيه عن ذلك دوام التنزيه بما هو عليه من عدم التطلع إلى زينة الحياة الدنيا التى يتحلى بها المشركون ، وتبصير المؤمنين بأن ما عليه المشركون من غنى ويسار إلى زوال ، وما هو إلا فتنة لهم ، فلا يتطلعون إليه ، ولا يهتمون به ، وأن رزق الله ومثوبته على الإيمان والإيذاء خير مما هم عليه ..

والمعنى : قد أغنيتك بطاعتي وآياتى ، فاصبر على ما يقولون فى شأنها وشأنك ، ودُم على ما أنت عليه من عدم النظر إلى ما متعنا به أمثالا من المشركين متزواجين - أى مماثلين فى الغنى والجاه ، حيث أعطيناهم زهرة الحياة الدنيا وزينتها ، لنفتنهم فى هذا المتاع ، فهو إلى زوال ، وما يرزقك الله فى الدنيا من النصر والفتح والغنائم ، وفى الآخرة من الثواب على الصبر وقلة المبالاة بدنياهم ، أبقي مما هم عليه من الثراء والجاه الفانى ، وعلى المؤمنين أن يقتلدوا برسولهم فيما هو عليه من الزهد فى دنياهم وعدم التطلع إليها ، فسيرزقهم الله فى دنياهم وأخراهم ما هو أجدى عليهم وأبقى مما يتمتع به المشركون : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ »^(١)

١٣٢ - (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) :

يرشد الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية إلى أن يأمر أهله بالمداومة على أداء الصلاة والمحافظة عليها في أوقاتها المحددة لها . ليكون في ذلك إرشاد لأئمة فتعلم أنها مأمورة بذلك بطريق الأولى .

والمعنى : وأمر أهلك أيها الرسول بالصلاة ، واصطبر أنت على أدائها وملازمتها . ونحن حين نكلفك بالصلاة لا نسألك أن ترزق نفسك ، نحن نكفل رزقك فنحققه لك وأنت تقوم بها ، وذلك بتهيئة أسبابه ، وإعانتك على تحصيله ، فأنت وسعيك ورزقك من صنع ربك ، فمن تعوقك الصلاة المفروضة عن تحصيله في وقت الفراغ ، والعاقبة المحمودة لأهل التقوى الذين يصلون ، وعلى ربهم يتوكلون وهم يعملون .

وقد اشتهر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بما أمر الله رسوله وأهله ، فكانوا يصلون كما يصلي ، ويفزعون إليها في ضيقهم ، كما يفزع ، أخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن عبد الله بن سلام قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وتلا : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ . . . » الآية .

وأخرج مالك والبيهقي عن أسلم قال : (كان عمر بن الخطاب يصلي من الليل ماشاء الله تعالى أن يصلي حتى إذا كان آخر الليل أبقي أهله للصلاة ، ويقول لهم : الصلاة الصلاة ، وينلو هذه الآية « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ » .

ويصح أن يراد من أهل الرسول من آمن به من المؤمنين ، كما في قوله تعالى للوط : « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَمِعْ مِنْكُمْ أَحَدٌ » ^(١) .

(وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي
الْصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا
لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤)
قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا ۚ فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ
وَمَنِ أَهْتَدَىٰ (١٣٥))

المفردات :

(لَوْلَا يَأْتِينَا) : لولا حرف يفيد الحث على تحقيق ما بعده مثل هلا .

(بآية) : بمعجزة تدل على صحة ما يدعو إليه .

(بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى) : المراد بالصحف الأولى : الكتب السماوية السابقة ،
وفي جملتها التوراة والإنجيل ، والمراد بما فيها ما اشتملت عليه من قصص الأنبياء والأحكام
المشتركة بين الرسالات . والمراد ببينة ما في الصحف الأولى : القرآن ، فكونه مشتملا على
ما جاء فيها يجعله آية واضحة على نبوته صلى الله عليه وسلم ، لأنه أُمِّي لا علم له بما جاء فيها .

(نَذِلَّ) : نُهان . (وَنَخْزَى) : ونفتضح . (مُتَرَبِّصٌ) : منتظر .

(الصِّرَاطِ السَّوِيِّ) : الطريق المستقيم .

التفسير

١٣٣ - (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ . .) الآية .

أى وقال الكافرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنكارا . لما جاءهم به من البينات : هلا
يأتينا بمعجزة تدل على صدقه في دعوى الرسالة ، مثل ما جاء به غيره من الرسل لأقوامهم من
المعجزات الحسية التي شاهدوها ، وهم بهذا القول قد بلغوا الغاية في العناد والمكابرة ، حيث
أنكروا آية الآيات ومعجزة المعجزات ، وهو القرآن الكريم فلماذا رد الله عليهم بقوله :

(أَوَّلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى) . أى أقالوا ذلك ولم تأتهم بينة مافي الكتب السماوية الأولى ، مثله في القرآن الكريم ، فإن اشتماله على ما جاء فيها من قصص وعبر وعقائد وأحكام يعتبر آية بينة على أنه رسول من عند الله ، فإنه أى لا يقرأ ولا يكتب ، ولا صلة له بأهل الكتاب ، فضلاً عما اشتمل عليه من أعلى درجات الفصاحة التي لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثلاً ، وقد تحداهم أن يأتوا بسورة منه فعمزوا ، أو لم يمنعهم ذلك في كونه معجزة حتى يطلبوا معجزة أخرى سواه وقد فات أوان المعجزات المادية ، وجاء أوان المعجزة العلمية الباقية بقاء الزمان ولهذا قال صلى الله عليه وسلم :

« مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(١) وقد كانت للنبي معجزات غير القرآن كانشقاق القمر وغيره ، ولكن التحدى لم يقع إلا به ، ولهذا تكفل الله بحفظه ليبقى آية للرسالة المحمدية الباقية إلى يوم القيامة ، أما المعجزات المادية فلا بقاء لها . ١٣٤ - (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْذَلَ وَنُخْزَى) :

أى : إنا بعثنا محمداً إليهم ، وأيدناه ببينة مافي الصحف الأولى وهو القرآن ، ولو أنَّا أهلكناهم بشركهم ومنكراتهم من قبل محمد أو من قبل إتيان البينة ، لقالوا محتجين : ربنا هلاً أرسلت إلينا رسولا يدعونا إلى الهدى والرشاد فنتبعه من قبل أن نذل في الدنيا بالهوان والإهلاك ، ونفتضح بظهور جرائمنا في الآخرة على رؤوس الأشهاد في المحشر . وبالعذاب المهين في نار جهنم .

١٣٥ - (قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى) :

قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المتمردين على الحق - قل لهم - : كل منا ومنكم منتظر ما يؤول إليه أمره في الآخرة ، فانتظروا فستعلمون عن قريب من هم أصحاب الطريق السوى الذى لا عوج فيه ، ومن اهتدى من الضلالة ، هل هم المؤمنون بالقرآن العاملون بآياته ، أم هم الذين كفروا به وصدوا عن سبيله ، وسيتبين لكم ذلك قريباً بنصر من اهتدى إلى طريق رحمة ربه ، على من ضلَّ عنه إلى طريق عذابه ، أو يتبين لكم ذلك عند الموت أو يوم القيامة وكل آت قريب - والله أعلم .

(١) أخرجه البخارى في صحيحه من كتاب فضائل القرآن .

« سورة الأنبياء »

من السور المكية ، وعدد آياتها اثنتا عشرة ومائة ، وسميت بذلك لاشتمالها على كثير من قصص الأنبياء ، وبيان أحوالهم مع أممهم ، وما لاقوا منهم من عنت وتكذيب ، جاءت في إطار المنهج المكي العام من الدعوة إلى عقيدة التوحيد ، ودم عقيدة الشرك ، وتوبيخ المشركين على إعراضهم عن الذكر ، وعلى دعواهم تنافي النبوة والبشرية ، والإخبار بأن الله أهلك كثيراً من الأمم المكذبة لرسالتها عقاباً لهم .

وقد اشتملت على آيات الله في السموات والأرض ، وبيان أنه : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » . وأن المشركين ليس لديهم برهان على مشروعية شركهم ولا على صحته ، وأن التوحيد عقيدة جميع المرسلين ، وأن من اتخنوهم أولاداً لله ليسوا كذلك ، بل هم عباد مكرمون ، كما بينت أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً ففصل الله بينهما ، وسيأتي بيان ذلك في موضعه ، كما بينت أنه تعالى حفظ الأرض من الاضطراب بالجبال ، وأنه جعل السماء فوقنا كالسقف ، وحفظها من السقوط ومن العيوب ، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر ، فكيف يعبدون غيره ، وأن الخلائق جميعاً سوف يموتون ، وإلى الله يرجعون ، وعابت على المشركين استهزاءهم بالرسول لِنَهْيِهِمْ إِيَابَهُمْ عَنْ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ ، وتوعدتهم على تكذيبهم بيوم القيامة الذي سيأتي الناس بغتة ، ثم بينت أنه تعالى سيضع الموازين يوم القيامة ، فيقضى بين الناس بالحق ، ولا يظلمهم مثقال حبة من خردل ، ثم تحدثت عن أنه تعالى آتى موسى وهرون التوراة ضياءً وذكرًا للمتقين ، وآتى محمداً ذكراً مباركاً فكيف ينكرونه ، ثم حكى قصة إبراهيم مع قومه وأنه حطم أصنامهم ، وسفّه أعلامهم فرجعوا إلى الحق ، ثم لم يلبثوا أن عادوا إلى وثنياتهم ونصرة آلهم ، وأنهم حكموا بقتله إحراقاً بالنار ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، فهاجر مع لوط إلى الأرض المباركة ، ووهب الله له حال حياته إسحق ويعقوب بن إسحق عليهم السلام ، ثم عقببت قصته بقصة لوط . فنوح فداود وسليمان ، فأيوب فإسماعيل فذى النون فزكريا ويحيى فمریم وعيسى عليهم السلام ، لعل المشركين يعتبرون بما جاء فيها من عظات ، ويرجعون عن شركهم وعنادهم ،

وبعد أن حكّت السورة قصص الأنبياء وبينت أنهم جميعاً على ملة واحدة ، وهى ملة التوحيد ، وأنه تعالى ربهم جميعاً ، فلا يحلّ لهم أن يعبدوا سواه ، ونعت على الأمم تفرقهم فى الدين ، ما بين موحد ومشرك ، وبينت أنهم راجعون إليه للجزاء ثم وصفت أهوال القيامة ، وسوء جزاء الكافرين ، وحسن جزاء المؤمنين ، وبينت أنه تعالى كتب فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون ، وأنه أرسل محمداً رحمة للعالمين ، وتوعدتهم على الكفر به ، وانتهت بقوله تعالى حكاية عن رسوله : « قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » .

وفى شأنها أخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال : « بَنُو إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفُ وَمَرْيَمُ وَطِه ، وَالْأَنْبِيَاءُ هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُولَى ، وَمِنْ ثَلَاثِ بَرِيدٍ مِنْ قَدِيمٍ مَا كُتِبَ وَحُفِظَ مِنَ الْقُرْآنِ ، كَالْمَالِ الثَّلَاثِ - أَيْ الْقَدِيمِ ، يَعْنِي أَنَّهَا مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ، حَيْثُ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ
 مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَا هِيَ
 قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
 أَفْتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ
 فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ
 أَحْلَامٌ بَلْ أِفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
 الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا أَمْنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ
 يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾)

المفردات :

- | | |
|--------------------------|--------------------------------------|
| (حِسَابُهُمْ) | : أى زمن حسابهم وهو يوم القيامة . |
| (مُّعْرِضُونَ) | : منصرفون عن التفكير في عاقبتهم . |
| (ذِكْرٍ) | : ما يذكرهم من القرآن بواجبات ربهم . |
| (مُحَدَّثٍ) | : جديد حديث النزول . |
| (يَلْعَبُونَ) | : يسخرون ويستهزئون . |
| (لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ) | : متغافلة بما يليها . |
| (النَّجْوَى) | : المسارة في الحديث وإخفاؤه . |
| (أَضْغَتْ أَحْلَامٌ) | : تخاليط في رؤى المنام . |

(اَفْتَرَاهُ) : اختلقه من عند نفسه .
(من قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) : المراد من القرية المهلكة أهلها .

التفسير

١ - (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) :

المراد من الناس هنا : المشركون ، فهم الموصوفون بأنهم في غفلة وإعراض عن يوم الحساب وبأنهم يستمعون الذكر وهم معرضون لاهية قلوبهم ، ويقولهم عن الرسول والقرآن : « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ » .

والمعنى : قُرْبَ ودنا للمشركين يوم حسابهم - وهو يوم القيامة - وحالهم أنهم في غفلة عنه ، معرضون عن القرآن الذى يذكرهم به ، فهم بدنياهم مغرورون ، وبأخراهم مكذبون ، ولسوف يندمون حين يرون أنهم في العذاب محضرون .

والتعبير عن وقت حساب الناس في الآخرة بأنه قريب لهم ، لأن ما بقى من عمر الدنيا بالنسبة إلى ما مضى منها قليل ، ولهذا كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة الرسالات ونُبُوَّتُهُ خاتمة النبوات ، ومن أجل ذلك قال صلى الله عليه وسلم : « بعثت أنا والساعة كهاتين »^(١) وأشار إلى أصبعيه الوسطى والإبهام التى تليها ، أى أن بعثته قريبة من الساعة قرب نهاية الإبهام من نهاية الإصبع الوسطى ، وقد ظهر من أمارات قربها أنك : (تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبَنِيَانِ) كما جاء فى الحديث النبوى الصحيح ، وأن الأرض تزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، كما قال تعالى : « حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ »^(٢) على أن الموت هو القيامة الصغرى ، وهو منهم قريب ، وحينئذ يعرفون حالهم ومآلهم .

٢ - (مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)^(٣) :

هذه الآية مبينة لمدى إعراضهم عن يوم الحساب الذى هو قريب منهم ، وعن الحق الذى قامت به الحجة عليهم .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه بسنده عن سهل - كتاب التفسير - باب (إيان مرساها)

(٢) سورة يونس ، من الآية : ٢٤ (٣) جملة « وهم يلعبون » حال من ألواو فى قوله : « إلا استمعوه »

والمعنى : ما يأتي هؤلاء المشركين شيء من القرآن مُذَكَّرٌ لهم من ربهم ، حديث النزول مع جبريل ، إلّا في حال لهوهم ولعبهم بعباراته ، حيث يقدحون فيه ويعترضون عليه ، وينكرون ما جاء به ، جهلاً منهم بمكانته من الحق ، ومنزلته من الصدق ، ولو أن هؤلاء تذكروا بمواعظ القرآن ، لتحققوا من الآخرة وقربها ، ولطابت نفوسهم بالتوبة والعمل لأخراهم ، ولم يركنوا إلى زخارف دنياهم ، ولكنهم كما قال الحسن : كلما جُدد لهم الذكر ، استمروا على الجهل .

٣ - (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ^(١) وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) :

أى أن مشركى مكة كلما أنزل إليهم شيء من القرآن حديث النزول ، يذكرهم بما يجب لله من صفات الكمال ، وبأنهم سوف يحاسبون على أعمالهم ، لا يستمعون إلّا وهم عابثون مستهزون ، ساهية قلوبهم معرضة عن ذكر الله متشاغلة عن التأمل والتعقل فيما تنتهى إليه دنياهم ، وما هم منتهون إليه من عذاب السعير ، وفي معنى ذلك قوله تعالى : « وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ »^(٢) . ثم أطلع الله نبيه على مؤامرتهم فقال : (وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)^(٣) : أى وبعد أن غمرتهم الغفلة وأعرضوا مستكبرين لاهين مكذبين بالبعث والحساب ، أخفى هؤلاء الطاغوت تناجيهم ومسارعتهم حين يشبطون المؤمنين ويصلّبون الناس عن الإسلام ، بتنقيص الرسول وتكذيبه ، وإثارة النفوس عليه ، حتى ينفروا منه ، ويعرضوا عن دعوته ، يقولون لهم :

(هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) : الاستفهام للنفي المشوب بالتعجب ، أى ما هذا إلّا بشرٌ مثلكم ، فهو واحد منكم ، وليس من الملائكة ، فكيف تسمعون له وتطيعونه ، إنه يريد أن يتميز عليكم ويتزعمكم ، فليس بنبي ولا رسول كما يقول لكم ، ومثلهم في هذا مثل قوم نوح ، حين قال بعضهم لبعض : « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً »^(٤) .

(١) لاهية حال ثانية من الواو في قوله « استمعوه » مؤكدة للعبم ، وقلوبهم فاعل لاهية ، لأن الوصف يعمل عمل الفعل .
(٢) سورة الصافات الآيةان : ١٤ ، ١٣ (٣) (الذين ظلموا) بدل من الواو في قوله (وأسروا) أو أن الواو في (أسروا) حرف للدلالة على الجمعية ، و (الذين ظلموا) فاعل ، وهذه لفظة أشد شناعة ، قال شاعرهم : يلومونى في اشتراء النخيل أهل وكلهم أوم . قال أبو حيان : وهى لفظة حسنة وليست شاذة كما قال بعضهم ، وبه قال أبو حنيفة والأخفش وغيرهما ، حيث قالوا : إن الواو في (أسروا) مثلها في (قائمون) ومثل التاء في قامت حرف للدلالة على جمع المذكورين الأولى وعلى المؤنثة في الثانية .

(٤) سورة المؤمنون : من الآية : ٢٤

ثم زادت قريش في غلوها ، فزعمت أن القرآن سحر ، وأن محمداً يسحر به عقول الناس فقالوا منكربين على المؤمنين اتباعه :
(أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) : والاستفهام في الآية لاستنكار مجيء الناس لسماعه ،
وتشفية المؤمنين وتوبيخهم على إيمانهم به .

والمعنى : ما لكم تتوجهون إلى السحر وتطيعون صاحبه ؟ وأنتم ترون بأعينكم أنه بشر وتدركون بعقولكم ما يؤثر بسحره على الضعفاء من قريش ، فيفرق به بين الوالد وولده ، وبين الرجل وأهله ، وغاب عنهم أن الحق أقوى من السحر ، وأنه هو الذي فرق بين أهل الهدى وأهل الضلال خوفاً من عدوهم أو من ظلمهم وعدوانهم ، وما محمد بساحر ولا عرف السحر ، وما القرآن إلا رحمة للعالمين .

٤ - (قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

قرئ (قَالَ) بصيغة الماضي و (قُلْ) بصيغة الأمر ، وقد أفاد مجموع القراءتين ، أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره ربه أن يقول هذا القول ردّاً على مزاعمهم في نجواهم ، وأنه امثل فقال له .

والمعنى : قال محمد لمن تناجوا واستخفوا بأحاديثهم طعناً في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال محمد لهم : ربي يعلم قول كل قائل في السموات والأرض ، وهو عظيم السمع محيط العلم ، فكيف لا يعلم سركم ونجواكم ؟ ويعاقبكم على صدكم عن سبيله ، وكفركم بكتابه ورسوله ، وما أنتم في ملكه وملكوته وفي دائرة علمه وانتقامه إلا شيء قليل .

ولم يكتف هؤلاء الظالمون بما زعموه في حق القرآن من كونه سحراً ، بل تخطوا في وصفه ووصف رسوله ، كما حكاها الله بقوله سبحانه :

هـ - (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) :

الأضغاث في الأصل : الحشائش والأعشاب اختلط يابسها برطبها ، أي : أن رسالة محمد في نظرهم أحلام مختلطة رآها في نومه ، حملته على أن يتوهم ما توهم ، ويقول ما قال ولا حقيقة في الواقع لما ادّجاه ، ولا تأويل له كما لا تؤول الأحلام المختلطة ، ومن كان كذلك فلا ينبغي أن يصدق أو يتبع ، ثم أضربوا عن هذه الفرية ، حين رأوا هزيمة

أمام عظمة القرآن وبلاغته ، فزعموا أنه افتراه بفصاحته ، ونسبه وحياً إلى الله ، ثم اشتد تخبطهم فعدلوا إلى وصفه بأنه شاعر يجيد صوغ الشعر ، ويحسن سبكه ويسحر ببلاغته من يسمعه ، حتى يحمله على اتباعه ، متجاهلين أن محمداً الذي نشأ بين أظهرهم لا يعرف الشعر ولم يزاوله في حياته : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذَكَرُ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ »^(١) .

وفي الطبرى أن هذه الدعاوى المفتراة ، والزاعم المختلقة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانت لطوائف من المشركين لكل طائفة فريتها التي كفرت بها . يقول رحمه الله في تفسير الآية : « ما صدقوا بحكمة القرآن ولا أنه من عند الله ، ولا أقرؤا بأنه وحى أوحاه الله إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - بل قال بعضهم : هو أهويل رؤيا رآها في النوم ، وقال بعضهم : هو فرية واختلاق افتراه على الله ، واختلقه من قبل نفسه ، وقال بعضهم : بل محمد شاعر وهذا الذي جاء به شعر » اهـ .

وهذا التنقل في أباطيلهم ومفترياتهم مع علمهم أنه على الحق ، ناشئ عن استكبارهم وعنادهم ، حتى قالوا : « لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »^(٢) . وصدق الله العظيم إذ يقول : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ »^(٣) .

(فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) : أى إن كان محمد صادقاً فيما ادعاه من أن الله بعثه للناس رسولاً ، وأنزل معه كتاباً ، وأن الذى يتلوه وحى يوحى إليه من الله ، ويريدنا على تصديقه فليزيد قوله بمعجزة كونية تدعم دعواه ، كمن سبقه من المرسلين ، مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على يد عيسى ، وكعصا موسى ، وناقة صالح وغيرها ، فإن فعل ذلك آمنّا به وصدقناه ، ودعونا الناس لدعوته ، وأعناه على تبليغ رسالته .

٦ - (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) :

لما اقترحوا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يأتي بآية تثبت لهم نبوته كمعجزة صالح وموسى وعيسى وغيرهم من المرسلين نزل قوله تعالى : (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) : أى أن أى قرية أهلكتها كانت غير مؤمنة فاقترح أهلها آيات كالتى تريدها

(٢) الزخرف ، الآية : ٢١

(١) سورة يس ، آية : ٦٩

(٣) الأنعام ، من الآية : ٢٣

قريش فلما جاءتهم لم يؤمنوا ، وسنة الله أنه إذا أجاب أمة إلى ما اقترحت من آيات ثم لم تؤمن أخذها أخذ عزيز مقتدر .

(أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) : الاستفهام فيه للإنكار والاستبعاد ، بمعنى : (أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) أن قريشاً لا يؤمنون إن جئناهم بالآيات التي أرادوها ، وحينئذ يحق عليهم من العذاب والهلاك ما حق على الأولين ، فلماذا لم نجبهم إلى ما طلبوا ، لأنهم سيؤمنون بدونها ، وينتشر بهم الإسلام وفقاً لمشيئتنا .

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ
وَمِنْ نَشَاءٍ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا
فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ
ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ
مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَدْوِلْنَاهُ إِنََّّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا
خَالِدِينَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(رِجَالًا) : أى بشراً لا ملائكة . (أَهْلَ الذِّكْرِ) : المراد بهم هنا : أهل الكتاب .

(جَسَدًا) الجسد : جسمُ الإنسان خاصة كما قاله الخليل ، وعممه صاحب القاموس في الإنس والجن والملك ، وهو المناسب للآية . (صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ) : بنصرهم على أعدائهم . (الْمُسْرِفِينَ) : الكافرين . (ذِكْرُكُمْ) : وعظكم أو شرفكم . (تَغْفُلُونَ) : تتدبرون وتنعظون . (وَكَمْ) : كم خبرية تفيد الكثرة . (قَصَصْنَا) : القصص الكسر مع تفريق الأجزاء أى : أهلكنا . (أَحْسَوْا بِأَسْنَا) : أدركوه بالحاسة أى : عاينوا العذاب الشديد الذى يوشك أن ننزله بهم . (يَرْكُضُونَ) : يفرون هاربين ، وأصل الركض : استحثاث الفرس برجلي الراكب ليسرع في جريه . (مَا أَتْرَفْتُمْ فِيهِ) : ما وسع الله عليكم فيه من مختلف النعم . (دَعَاؤُهُمْ) : دعوتهم . (جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا) : أهلكناهم جميعاً فكانوا كالزرع المحصود . (خَامِدِينَ) : ميتين ، والخمود أصلاً للنار ، يقلل : خمدت النار أى : همدت وطفئت ، شبه ذهاب أرواحهم بخمود النار .

التفسير

٧- (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْٓ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) : هذه الآية رد على ما زعموه من أنه لا يصح أن يكون الرسول بشراً ؛ حسبما يقتضيه قولهم السابق : « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ » .

المعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد إلى الأمم التي سبقت أمتك ، إِلَّا رجالاً من البشر مثلك ، نوحى إليهم على لسان الملك مانوحيه من العقائد الحقّة والشرائع اللاتقة بحالهم وزمنهم وبقصص الأنبياء الذين سبقوهم مع أممهم ، كما نوحى إليك ، فما بالهم ينكرون عليك الرسالة لأنك بشر ، ولست في ذلك بدعاً من الرسل ، فكلهم من البشر .

والواقع أنهم يجادلون بالباطل ، فهم على علم بأن الرسول لا يكون إِلَّا بشراً ، إذ أنهم يقرون برسالة إبراهيم وإسماعيل ، ولهذا يحجون البيت الحرام الذى بنياه ، ويزعمون أنهم على شريعتهما ، ولقد عاملهم الله بجهالتهم ومغالطتهم ، فقال لهم :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) : أى فاسألوا أيها الجاهلون المفترون على رسالة محمد ، اسألوا أهل الكتاب عن الرسل : أبشراً كانوا أم ملائكة ، إن كنتم لا تعلمون

حال الرسل السابقين ؟ فالمراد بأهل الذكر : أهل الكتاب ، فإنهم مع عداوتهم للرسول لا يستطيعون إنكار بشرية الرسل ، فإن موسى صاحب التوراة من البشر ، وهذا شيء لا يستطيع اليهود المجاورون للمشركين إنكاره ، وقيل : أهل الذكر : هم أهل القرآن ، ورد ابن عطية هذا الرأي بأنهم كانوا خصومهم فكيف يسألونهم .

٨ - (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) :

بعد أن بين القرآن أن سنة الله في الرسل أن يكونوا بشرًا ، بين ما فيهم من بقية صفات البشر فقال : (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) : أى وما جعلنا الرسل الذين أرسلناهم إلى الأمم الماضية جسدًا لا يأكلون الطعام كما هو شأن الملائكة الذين تريدون رسولكم منهم ، ولكن جعلناهم بشرًا مثله ، يأكلون الطعام كما يأكل ، وما كانوا باقين أبدًا في الحياة الدنيا ، بل هم إلينا راجعون كسائر البشر .

ومع كون الآية مقررة لما قبلها فهي رد على قولهم : « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ » ويقول الآلوسى في تفسيرها : (والظاهر أنهم يعتقدون في الملائكة الحياة الأبدية كاعتقاد الفلاسفة فيهم ، وحاصل المعنى على هذا جعلناهم أجسادًا متغذية صائرة إلى الموت حسب آجالهم ، ولم نجعلهم ملائكة لا يتغذون ولا يموتون حسبًا تزعمون) انتهى بتصرف يسير .

٩ - (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ) :

ثم وفينا بوعدنا لرسلنا السابقين بالنصر على عدوهم ، وحقت كلمتنا لهم ، فأخذنا الأمم الذين عصوهم وعتوا عن أمر ربهم بالعذاب بعد أن أجبناهم إلى الآيات التي طلبوها فكفروا بها ، فأنجينا رسلنا ومن أردنا نجاته من المؤمنين - أنجيناهم مما أخذنا به أممهم الكافرة ، وفي ذلك يقول الله تعالى : « ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ »^(١) . وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بالكفر والتأدى في الضلال ، هذه أنباء من قبلكم وتلك عاقبتهم فما لكم تعرضون أنفسكم لمثل ما نزل بهم بانتهاجكم نهجهم ، وسيركم في طريقهم .

١٠ - (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ . . .) الآية .

التنوين في (كِتَابًا) للتعظيم ، والمعنى : لقد أنزلنا على رسولنا كتاباً عظيماً ، فيه تذكير وموعظة لكم ، كما أن فيه عزكم وشرفكم ، إن آمنتم به ، وصدقتم من بلغه ، كما قال سبحانه : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ »^(١) : أى شرف لمن اتبعه ، وعمل بما جاء به .

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) : الاستفهام للإنكار والتوبيخ ، أى ألا تتفكرون فلا تعقلون ، وفيه معنى الأمر ، أى تفكروا لكى تدركوا فيم يكون خيركم ؟ وفيه الإشارة إلى أن من أعرض عما جاء به الرسول فلم يُعْمِلْ عقله فيه ، ولم يتدبر أمره ، موسوم بعدم التعقل وقلة التبصر ، وهو ما لا يليق بعقل ، ومثله في المعنى قوله تعالى : « بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ »^(٢) . وهل يعرض عن داعية الشرف والانتعاض عاقل ؟

١١ - (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ) :

هذه الآية وما بعدها لتفصيل ما أجمل في قوله تعالى : « وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ » وبيان كيفية إهلاكهم .

والمعنى : إن سنتنا التي لا تتغير هي أن نأخذ الجاحدين بالآيات إذا ما لجؤا في ضلالهم وكثيراً من الأمم قصمنا أى : أهلكناها إهلاكاً تاماً ، ودمرناها تدميراً كاملاً . فالمراد بالقرية أهلها على حد : « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ » وتلك القرى التي أهلكناها كانت ظالمة لنفسها بكفرها ومعاصيها ، ظالمة للرسول والمؤمنين بالتكذيب والاضطهاد ، وملاحقتهم بالكيد والإيذاء ، وأنشأنا بعد إهلاك هذه القرى الظالمة قوماً آخرين ليسوا منهم ، حلوا في أماكنهم ، وسكنوا قراهم ، والظاهر أن هذه القرى المهلكة لا يراد بها قرى معينة ، وقيل : إن المراد بها قرية باليمن تسمى « حضور » قتل أهلها نبيهم ، فانتقم الله منهم أبلغ انتقام لبلوغهم في الكفر أبشع ما يكون وهو قتل الأنبياء ، والرأى الأول هو الظاهر ، فإن لفظ : (كَمْ) يدل على كثرة القرى المهلكة فكيف يُرادُ به قرية واحدة بعينها ؟ .

(١) الزخرف ، من الآية : ٤٤ والذكر بمعنى النوع أو الشرف والعز .

(٢) المؤمنون ، من الآية : ٧١

١٢ - (فَلَمَّا أَحْسَوْا بُأْسَنَا إِذَاهُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ) :

وهذا بيان لحالهم حين حلول العذاب بهم . أى : فلما أدركوا عذابنا الشديد وشعروا بوقوعه بهم ، وأحسوه بحواسهم (إِذَاهُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ) : وأصل الركض ؛ ضرب الراكب دابته برجله لتسرع ، أى : أنهم ركبوا دوابهم وركضوها - ظناً منهم أنها تنجيهم من أخذ الله وعذابه ^(١) ، أو هو على تشبيههم في فرارهم بالراكض يسرع طلباً للنجاة ، فجعلوا كأنهم يستنهضون أنفسهم حثاً لها على السرعة والثبات للنجاة من عذاب لا مفر منه أبداً ^(٢) .

١٣ - (لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرْتُمْ فِيهِ وَصَاحِبِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ) :

أى : قيل لهم هذا ، والقائل إما من الملائكة ، وإما من المؤمنين ، أو أن من يراهم يقول بلسان الحال هذا المقال : لا تسرعوا في عذوبكم ، وعودوا إلى مقر نعمتكم ومواطن ترفنكم الذى أبطركم حتى جحدتم وكفرتم ، وأقيموا في مساكنكم ووطئوا مجالسكم ، كما اعتدتم ، لعل أتباعكم يمثّلون بين أيديكم ، ويسألونكم عما تأمروهم به لينفذوه ، أو لعلكم تُسألون عن باعث هذا العذاب عليكم ، وسبب نزوله بكم ، أو لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون قبل نزول البأس بكم ، فتسارعون إلى الإيمان طلباً للنجاة ، وكل ذلك على سبيل التهكم والسخرية بهم ، وفي الآية آراء أخرى ، وحسب القارئ ما تقدم .

وهذا الفرار منهم أبلغ في الجهل وأبعد عن السداد؛ إذ أنهم يقيسون أخذ الله القادر القاهر بأخذ الناس للناس فظنوا الهرب منجياً ، فهربوا فلاحقهم عذاب الله .

١٤ - (قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) :

أى أن أهل هذه القرى الظالمة لما أحسوا بأسنا وعذابنا ، ركضوا وأسرعوا طلباً للنجاة وقالوا - نادمين - يندبون نهايتهم : يا هلاكنا إنا كنا ظالمين لرسلنا ولآيات ربنا ولأنفسنا ، فحق علينا قول ربنا ، وهكذا يندم الظالمون بعد فوات الأوان ، ويتحسرون ويعترفون بخطاياهم حين وقوع العقاب ، وسوف ينتهون بعده إلى عذاب دائم : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » ^(٣) .

(١) وهو على هذا فعل متعد للمفعول . (٢) وهو على هذا استعارة مكنية ، وقال أبو زيد : ركض تستعمل لازمة بمعنى

جرى وعلى هذا لا يكون في الكلام تجوز .

(٣) سورة غافر ، آية : ٥٢ .

١٥ - (فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ) :

الدعوى هنا بمعنى الدعاء والنداء ، والمقصود بها قولهم : « يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » :
 أى أنهم ظلوا يولولون مرددين هذه الدعوة ، قائلين : يا هلاكنا قد جاء أوانك ، فقد
 كنا ظالمين لأنفسنا بما أشركنا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وما زالوا يرددون دعوتهم هذه
 حتى أتم الله إهلاكهم وإفناءهم وكانوا كالزرع المحصود الذى انقطعت صلته بالحياة ،
 وأصل الخمود : انطفاء النار بعد اشتعالها ، فشبه موتهم بعقاب الله بعد حياتهم ونشاطهم
 - شبه - بخمود النار بعد اشتعالها فتصبح لاضوء لها ولا دخان ولا حرارة بعد أن تحولت إلى رماد .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ^(١٦)
 لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوَ لَا تَتَّخِذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ^(١٧)
 بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ
 الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ^(١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ
 عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ^(١٩) يُسَبِّحُونَ
 اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ^(٢٠) أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ
 يُنْشِرُونَ ^(٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ
 رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ^(٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ
 يُسْأَلُونَ ^(٢٣))

المفردات :

(لَاعِبِينَ) : أى عابثين بدون حكمة . (لَهُوَ) : اللهو كل ما يتلهى ويتسلى به .

(نَقَذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ) : نرى به عليه . (فَيَكْذِبُهُ) : فيصيبه ويقهره .
 (زَاهِقٌ) : هالك فان . (الْوَيْلُ) : الهلاك والعذاب . (مِمَّا تَصِفُونَ) : بسبب وصفكم لربكم .
 (وَلَا يَسْتَخْسِرُونَ) : وَلَا يَمْلِكُونَ وَلَا يَتَعَبُونَ .. (يَفْتُرُونَ) : يَغْيُونَ ويضعفون .
 (أَمْ اتَّخَذُوا) : بل اتَّخَذُوا ؟ . (يُنْشِرُونَ) : يُخَيِّون الموتى .
 (لَفَسَدَتَا) : لخربتا واختل نظامهما .

التفسير

١٦- (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا لَا عِيبَ) :

عَقَّبَ اللهُ - سبحانه - إخماد الظالمين و إهلاكهم ، واستخلاف قوم آخرين مكانهم بهذه الآية ليشير بها إلى أن أفعاله تعالى لا تخلو عن الحكمة ، وأن إهلاك الظالمين عين الحكمة ، لكفرهم وظلمهم ، وقد أفادت الآية الكريمة أن ما بين السموات والأرض شيء عظيم يقتضى الإشارة إليه ، وإن لم يصل العلماء بعد إلى تفصيله ، وإن عرفوا بعضه كالأشعة الكونية والجاذبية والهواء .

والمعنى : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما وما بينهما من الكائنات والعناصر والعوالم التي لا يعرفها بحقائقها وأوصافها إلا نحن - ما خلقنا ذلك عابثين لمجرد التلهي بل خلقناها مشحونة بالآيات والعجائب ، ليتعرف علينا عبادنا بآياتنا ، ولمصالح دنيوية وأخروية ، وحكم علوية ظاهرة وخفية ، وسيستجلي ذلك يوم يقوم الناس لرب العالمين .

١٧- (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَا نَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ) :

هذه الآية مقررّة لما قبلها من انتفاء اللهو واللعب في خلق السموات والأرض وما بينهما ، كما أنها منزّهة له تعالى عما زعمه المشركون من أن الأصنام بنات الله ، وما زعمه النصارى من أن الله زوجة وولداً هما مريم وعيسى عليه السلام ، وما زعمه اليهود من أن عزيراً ابن الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

يقول الإمام الواحدى : اللهو : طلب الترويح عن النفس . ثم المرأة تسمى لهوا وكذا الولد ، لأنه يُسْتَرَوَحُ بكل منهما ، ولهذا يقال لامرأة الرجل وولده : رَيْحَانَتَاهُ .
والمعنى : لو أردنا أن نتخذ لهوا من النساء أو الأولاد ، لاتخذناه من عندنا مما نصطفيه ونختاره ^(١) ، لا كالذين زعمتموهم ، لأن ولد الوالد وزوجته يكونان عنده لا عند غيره . انتهى بتصرف .

وتفسير اللهو بالولد مَرُوى عن ابن عباس والسدى ، وتفسيره بالمرأة مروى عن قتادة ، وفسر الجبائى الآية بقوله : لو أردنا اتخاذ اللهو لاتخذناه من عندنا ، بحيث لا يطلع عليه أحد ؛ لأنه نقص فَسْرُهُ أولى ، انتهى .

وقد أفادت هذه الجملة أنه تعالى يستحيل عليه اتخاذ زوجة أو ولد بآى صورة فى السماء أو فى الأرض ، لأنه تعالى يستحيل عليه أن يشتغل باللهو ، فكل أفعاله تنسم بالجد والحكمة ، ولذا ختم الآية بقوله سبحانه : « إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ » أى أننا لا نفعل ذلك لكونه مستحيلا فى حقنا .

١٨ - (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ . . .) الآية .

ليس من شأننا التلهى والعبث بل شأننا الحق والجد ، ولهذا نقذف الباطل بالحق فيدمغه ، ويذهب به ، ويقضى عليه ويدمره .

(فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) : هالك زائل ، وفى التعبير بالقذف الذى لا يكون إلا فى الأجسام الصلبة - عادة - من حجر ونحوه ، وبالدمغ الذى أصله إصابة الدماغ وهو مقتل ، وبالزهوق الذى هو خروج الروح من الجسد إبراز للمعنوى فى صورة المُحَسَّسِ المشاهد ، وفى ذلك أبلغ تصوير لغلبة الحق على الباطل حتى يحرقه ويمحوه .

قال الزمخشري فى كشفه : « بل » للإضراب عن اتخاذ اللهو واللعب ، وتنزيه منه تعالى لذاته كأنه قال : تنزيهاً لنا أن نتخذ اللهو واللعب من عادتنا ، فموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللهو بالجد ، وندحض الباطل بالحق . اهـ .

(١) كما فى قوله تعالى فى سورة الزمر : « لو أراد الله أن يتخذ ولدا لا سطى مما يخلق ما يشاء » وحرف « لو » فى كلتا الآيتين يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط .

(وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) : المخاطبون بذلك ابتداءً هم الكفار من أهل مكة ، ولأمثالهم في كل حين ما لهم من الويل الشديد ، و « مِنْ » في قوله (مما تصفون) تعليلية ، و « ما » مصدرية أى بسبب وصفكم الله تعالى بما لا يليق بهجلاه سبحانه ، ويجوز أن تكون « ما » اسماً موصولاً ، والمعنى : ولكم الويل من الذى تصفون الله به مما يجب تنزيهه عنه من اتخاذ الصاحبة والولد كما قال سبحانه : « وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا »^(١) .

١٩ - (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) : بينت الآيات السابقة فساد الأديان التى تزعم أن الله ولدا ، كما توعدت أولئك الزاعمين بإبطال مزاعمهم ، ونصّر الحق على باطلهم حتى يزهد ، وأن الله تعالى سوف يعاقبهم على افتراءهم ، وجاءت هذه الآية لبيان كمال استغناؤه عن الولد الزعوم وعن طاعتهم ، فإنه سبحانه يملك من فى السموات والأرض ، وكل من عنده خاضعون لربوبيته .

والمعنى : والله من فى السموات والأرض من سكانهما ، وما فيهما من مائر المخلوقات ، له تعالى كل ذلك خلقاً وملكاً وتصرفاً وتدبيراً ، وإحياء وإماتة وتعذيباً وإثابة ، دون شريك له فيه ، ومن عنده فى مكانة الشرف والكرامة من الملائكة ، لا يستكبرون عن عبادته وطاعته فى كل ما يأمرهم به ، ولا يملكون ولا يتعبون ، فأى حاجة لله تعالى فى أن يتخذ ولداً وهو تام الاستغناء عن الولدية ، وأى ضرر أصابه بعبادتكم لغيره ؟ والتعبير عن الملائكة بأنهم عنده سبحانه ، على سبيل التمثيل بجعل منزلتهم فى الشرف ورفعة الجاه كمنزلة المقربين مكاناً من الملوك ، ونفى استكبارهم عن العبادة ، مشعراً بالتعريض بمن كفر من الناس واستكبر على عبادته .

ولما بين الله فى هذه الآية أن الملائكة لا يستكبرون عن عبادته الشاملة لكل أنواع الخضوع لأوامره وتعظيمه وتنزيهه ، عقبها بالتنويه بحال من أحوال عبادتهم فقال سبحانه :
٢٠ - (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) :

فقد بين سبحانه فى هذه الآية حالاً من أحوال خضوع الملائكة لله ، وأنهم لا تشغلهم عبادته والخضوع له فيما يأمرهم به من شئون الكون عن دوام تسبيحه .

(١) سورة الجن ، آية : ٣ ومعنى (تعال جد ربنا . . . الخ) تنزهه استغناؤه ومجده عن اتخاذ زوجة أو ولد .

والمعنى : وَمَنْ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَالْخُضُوعَ لِأَوَامِرِهِ ، فهم يسبحونه ليلاً ونهاراً لا ينقطعون ، والمقصود من ذكر الليل والنهار اللوام ، سواء كان عندهم ليل ونهار أولم يكن ، ولا يمنعه هذا التسبيح الدائم من قيامهم بما يكلفهم الله به ، قال تعالى : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » . فالتسبيح لهم بمنزلة التنفس لا يشغلهم عنه شاغل .

٢١ - (أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ) :

بهذه الآية بدأ التقرير والتوبيخ لمن اتخذوا آلهة لهم غير الله تعالى ، وحرف (أَمْ) هنا إما بمعنى (هل) الاستفهامية الإنكارية - كما جنح إليه بعض المفسرين - والإِنْشَار بمعنى الإحياء .

والمعنى على هذا : هل اتخذ المشركون آلهة من الأرض هُمْ يُنشِرُونَ الموتى ، ويعيدونهم أحياء ، كلا فإنهم لا يقدرُونَ أَنْ يَدْفَعُوا الْفَنَاءَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، فكيف يُنشِرُونَ غيرهم ويحيونهم ، فلماذا عبدوهم ؟

وإما أَنْ تَكُونَ (أَمْ) بمعنى بل والهمزة ، فكأنه قيل : بل اتَّخَذُوا ، وتكون (بل) للإضراب الانتقالي عن النقاش السابق ، إلى تقرير الكفار وتوبيخهم على اتخاذ آلهة عاجزين .

والمعنى على هذا : بل اتَّخَذَ المشركون آلهة من هذه الأرض هُمْ يَعِيدُونَ الموتى إلى الحياة ، كلاً فهم أعجز ما يكونون عن ذلك .

وعلى أى التقديرين فى تفسير حرف (أَمْ) فمآل المعنى واحد كما هو واضح مما قدرنا ووصف آلهتهم التى اتخذوها بكونها من الأرض لتحقيرها ، وتوبيخ عابديها على تركهم رب السموات والأرض الذى هو يحيى ويميت إلى آلهة حقيرة لا قدرة لها على إحياء الموتى .

٢٢ - (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) :

بعد أن بين الله فيما تقدم هوان آلهتهم وعجزها ، ووبخهم على عبادتها معه سبحانه جاءت هذه الآية الكريمة ، لكى تقيم الدليل العقلى على وحدانيته تعالى .

والمعنى : لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله تدبر شئونهما وتصرف أمرهما لفسدتا؛ وذلك لأن شأن التعدد الاختلاف والتغالب ، وأن يفسد كل من الآلهة عمل الآخر ، وبما أن المشاهد هو صلاح السموات والأرض وبقاؤهما منذ بدء الخليقة على هذا النظام البديع والتدبير المحكم ، فإن ذلك يدل أوضح دلالة على أن خالقهما ومدبرهما هو إله واحد .

والآية الكريمة تشير إلى برهان عقلي يسمى برهان التمانع والتعارض بين إرادات الآلهة المتعددين ، وشاهد صحة هذا البرهان في الحياة ، أن الأمة لا يصلح أمرها إلا بملك واحد ، فإن تعددت ملوكها فسد الأمر فيها ، والجسد الواحد لا يصلح أمره إلا بقلب واحد ، فإن تعددت القلوب فسد الجسم ، ولهذا قال تعالى : « مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ » كما أن الأسرة لا يصلح أمرها إلا برئيس واحد ، فإن تعدد الرؤساء فيها فسد ، والمصنع لا يديره إلا رئيس واحد ، فإن تعدد رؤسائه تعارضوا وفسد الأمر فيه ، وهكذا كل أمر في الحياة لا يصلح إلا بإرادة واحدة رشيدة فعالة مسيطرة ، ليس لها معارض يفسد عليها تدبيرها ، ولهذا نزه الله تعالى نفسه عما يقوله المشركون عن شركائهم بقوله في نهاية الآية :

(قُسْبِحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَوْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) : أى فيترتب على هذا البرهان الواضح تنزه الله صاحب العرش والسلطان المطلق عن وصف هؤلاء المشركين إياه بأن له شركاء تستحق العبادة معه ، إذ أنهم جميعا في ظل سلطانه وتحت عرشه وفي قبضة ملكه ، وكرم ربوبيته .

وهذه الجملة مع إفادتها تنزيه الله تعالى عما يدعيه المشركون ، فقد أفادت التعجب من عبادتهم هذه المعبودات الخسيسة ، وفي عدها شريكة لرب العرش العظيم .

ولعلماء العقيدة براهين أخرى ، وحسب القارئ ما قدمناه .

٢٣- (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) :

استثناف مبين لما يقتضيه تفرد سبحانه بالألوهية وعظمة الربوبية ، وهو أن يكون سائلا لعباده عما يفعلون لامستولا منهم عما يفعله فيهم ، يقول العلامة الزمخشري في

تفسير هذه الآية : « وإذا كانت عادة الملوك ألا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم ، وعما يؤرّدون و يُصدّرون من تدبير ملكهم تبيها وإجلالا مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بالألّا يُسأل عن أفعاله ، مع ما علم واستقر في العقول من أن ما يفعله كله معقول ، ومرتببط بدواعي الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبيح » انتهى يتصرف يسير .

أما العباد فإنهم يُسألون بمقتضى عبوديتهم وتكليفهم بطاعته سبحانه ، والعمل بشرائعه التي شرعها لهم على ألسنة رسله ، ومقتضى ما منحتهم من عقول صالحة لتمييز الحق من الباطل ، والخير من الشر والنفع من الضر ، وفي جملة من يسألهم الله من عباده من أشركوهم معه كالملسيح والملائكة ، فكيف تصلح معبوداتهم للعبادة وهم مسئولون للإله الواحد سبحانه وتعالى .

(أَمْ آتَّخِذُوا مِنْ دُونِيهِ إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ تَضَيُّهُ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(أَمْ اتَّخَذُوا) : بل اتَّخَذُوا . (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) : أحضروا دليلكم .

(هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ) : أى ما فى القرآن من التوحيد ونفى الشريك ذكر من اتبعنى . (وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي) : ممن تقدمنى من أهل الأديان السماوية .
 (وَلَكِنَّا) أى : من الملائكة على ما يزعمون .
 (لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ) : لا يتكلمون إلا بأمره .
 (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) : يعلم ما عملوا وما سيعملون .
 (لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى) : لا يشفعون إلا لمن يأذن الله لهم فيه .
 (مُشْفِقُونَ) : خائفون على أنفسهم مراقبون لربهم .

التفسير

٢٤- (أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ...) الآية .

« أَمْ » هى المنقطعة المفيدة معنى « بل والهمزة » جاءت للانتقال من إظهار بطلان ما اتخذوه آلهة فى قوله تعالى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . . » الآيتين ، إلى تأكيد بطلان ذلك الاتخاذ ، والهمزة التى تضمنتها أَمْ لإنكار الاتخاذ المذكور واستقبحه ، وتكرار هذا مع ما سبق ، لتأكيد استقبح حالهم ، واستنكار كفرهم باتخاذ الشريك لله سبحانه ، ومزيد توبيخهم على ذلك ، فكأنه قال : ما أشد قبح ما فعلتموه من اتخاذ آلهة لا حول لها ولا قوة ، بل هى فى حكم العدم .

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) :

أى قل لهم - يا محمد - ردًا عليهم وتفنيدها لمزاعمهم : أحضروا برهانكم ودليل صدقكم على مدعائكم ، عقليا كان أو نقليا .

والمقصود من طلب البرهان على صحة شركهم تعجيزهم وتحديثهم والسخرية بمزاعمهم ، إذ لا يوجد برهان عليه عقلا ، كما أشار إليه قوله تعالى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » ولوضوح عجز هؤلاء الشركاء عن حماية أنفسهم مما يضرهم أو أن يجلبوا لأنفسهم ما ينفعهم ، فكلهم تحت سلطانه تعالى .

كما أنه لا يوجد دليل نقلي على جواز شركهم ، وإليه يشير قوله تعالى :
(هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعَىٰ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي) : أى هذا التوحيد الذى دعوتكم إليه ، هو ذكر
مَن مَّعَى مَن أُمْتى ، وذكر من قبلى من الرسل وأممهم ، فهو شريعة الله فى جميع
الرسالات ، ولم يختص به الأمة المحمدية .

ويصح أن يكون المعنى : هذا القرآن تضامن وَعَظَ اللَّهُ لِأُمْتى ، ووعظه سبحانه لأُمَمِ
الأنبياء والمرسلين قبلى ، فافقروا الكتب السماوية كلها ، وانظروا هل تجدون فى أحدها
ما يخالف الآخر فى عدم مشروعية الشرك ؟ ثم انتقل الأسلوب القرآنى من الخطاب
إلى الغيبة بطريق الإضراب الانتقالي ، فى ختم الآية بقوله تعالى : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ » أى : أن هؤلاء المشركين لا يجدى تبكيتهم على عقيدة الشرك التى
لا يوجد لأحد عليها دليل عقلى ولا نقلى ، فدَعُ مطالبتهم بالبرهان ، فإنهم لا يعقلون
أن الشرك لا برهان له ، ، فلماذا لا يفرقون بين الحق والباطل ولا يميزون بينهما ،
فتراهم يعرضون عن الحق دون تأمل .

والتعبير بأكثرهم لأن فيهم من اهتدى إلى معرفة الحق ، ثم آمن به مقبلا عليه
متفانياً فى سبيل الدفاع عنه .

٢٥ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْهِ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) :
بين الله فى الآيات السابقة بطلان عقيدة الشرك عقلا ونقلا ، وجاءت هذه الآية لتؤكد
ذلك ولتبين أن عقيدة التوحيد ، كانت عقيدة الرسل التى أوحاها الله إليهم ، قال قتادة : لم
يرسل الله نبيا إلا بالتوحيد ، وإن اختلفت الشرائع . انتهى بتصريف يسير .

والمعنى : وما بعثنا قبلك يا محمد رسولا إلى أمتي بشريعة من شرائعنا إلا أوحينا
إليه فيها أنه لا إله لهم سواى ، فاعبدونى أنتم وجميع أمتكم ولا تعبدوا أحداً غيرى .

٢٦ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ) :

تحكى هذه الآية جنابة فريق من المشركين لإظهار بطلانها ، بعد بيان تنزهه
عن الشريك مطلقا ، وسبب نزول هذه الآية أن حيا من خزاعة قالوا : الملائكة بنات الله ،

ونقل الواحدى : أن هذه العقيدة ليست قاصرة عليهم ، بل قالها معهم قريش وجهينة وبنو سلامة وبنو مليح ، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : قالت اليهود إن الله تعالى صاهر الجن فكانت بينهم الملائكة ، فنزلت . وأيا كان سبب النزول فالآية الكريمة تظهر شناعة هذا القول وقائله من هؤلاء وغيرهم كالنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، واليهود الذين قالوا : عزيز ابن الله ، وجميع من قالوا : الملائكة بنات الله ، وكما تشنع هذه الآية على عقائدهم فيهم ، تبين صفة هؤلاء عند الله وهى العبودية دون النبوة .

والمعنى : وقال فريق من الناس : اتخذ الرحمن له ولداً يشاركه فى الألوهية ، وليس الأمر كما زعم هؤلاء الزاعمون ، بل هؤلاء الذين زعموهم له أولادا ما هم إلا عباد مقربون عند الله ، مكرمون منه ، لصفاء عبادتهم لربهم ، وإخلاصهم لربهم ، ولفظ الولد يطلق على الواحد وكذا المتعدد كما هنا ، ولهذا جاءت بعده صيغة الجمع فى قوله : « بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ » أى : بل الولد الذين زعموهم لله هم عباد مكرمون عنده .

٢٧ - (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ) :

أى أن من زعموهم أولاداً لله لا يسبق قولهم قوله تعالى ، ولا يعملون إلا بأمره كما هو شأن العبيد المطيعين لسيدهم المنقادين له ، فهم تابعون لمولاهم فى أقوالهم وأفعالهم دائماً ، ثم بين السر فى أدبهم هذا بقوله :

٢٨ - (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) :

أى أن هؤلاء الذين زعموهم أولادا ، فى غاية الطاعة له ، لأنه سبحانه يعلم جميع أحوالهم المستقبلية والماضية ، فلهذا يراقبونه تعالى ويخشونه ، ويطيعونه فى أمرهم كله ولا يتقدمون للشفاعة لأحد إلا لمن ارتضى أن يشفع له من المؤمنين العصاة دون الكافرين لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

أخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى البعث ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى بيان من يرتضى الله الشفاعة لهم : « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » فهو يرى أن الشفاعة تكون

لعصاة المؤمنين ولو كانوا من أهل الكبائر ، وشفاعتهم تكون بطلب الغفران لهم من ربهم في الدنيا أو في الآخرة .

ومعنى قوله تعالى : (وَهُمْ مِنْ خَشِيَتِهِ مُشْفِقُونَ) : أنهم مع كرامتهم على الله خائفون من وقوع أى نقصير منهم فى طاعته ، مشفقون من تبعاته ، وما ذلك الإشفاق والخوف إلا من شدة خوفهم منه وإجلالهم لمقام الله تعالى

* (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) : أى مرتوقتين ومتصلتين ليس بينهما انفصال ، والرتق فى الأصل : الضم والسد ، يقال : رتق الفتق من باب نصر ، رتقاً ورتوقاً إذا سده .

(فَفَتَقْنَاهُمَا) : الفتق ، الشق ، وهو ضد الرّق ، يقال : فتّق الشيء^(١) أى : شقّه وفصل بعضه عن بعض .

(فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي) : أى فيها جبال ثوابت :

(أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ) : لثلاثا تضطرب اضطراباً يختل به توازنها .

(وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا) : الفَجْجُ ؛ الطريق الواسع ، والجمع فجاج ، مثل : سَهْم وسهام ، وَسُبُلٌ : جمع سبيل وهو الطريق ، يذكر ويؤنث .

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ) : المراد بها هنا المظلة للأرض . قال ابن الأنباري : تذكر وتؤنث ، وقال الفراء : التذكير قليل .

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ) : الفلكُ حركةٌ : مدار النجوم والكواكب .

والجمع : أَفلاكٌ وفُلُكٌ بضمين .

(يَسْبَحُونَ) : أى يسرع كل منهما في مداره كالسباح في الماء ، وجمع الضمير مع أنه راجع إلى الشمس والقمر ، لأن الجمع قد يستعمل فيما فوق الواحد^(٢) .

التفسير

٢٩ - (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) الآية .

أى ومن يقل من الملائكة على نفسه إني إله أعبد من دون الله تعالى (فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) : أى فذلك القائل الذى يُفَرَضُ صدور هذا القول منه ، نجزيه أشد العذاب ، وننزل به أقصى النكال لاتغنى عنه صفاته السنية ، ولا أعماله المرضية ، وهذا فرض غير واقع لعصمة الملائكة .

(كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) : أى مثل هذا الجزاء الفظيع نجزي الظالمين الواضعين للآلوهية والعبادة في غير موضعهما ، أو نجزي الذين يشجاوزون الحد ، فيضعون الأشياء في غير مواضعها ، ويتعدون أطوارهم في شئونهم الدينية .

(١) وهو من باب «فعل» .

(٢) واستعمال ضمير جماعة العقلاء تنزيلاً لهما منزلة لدقة سيرهما وانتظامه كما يفعل العقلاء .

٣٠ - (أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) الآية .

تشير الآية إلى تجهيل الكفار بتقصيرهم في التفكير والتدبر في الآيات الكونية الدالة على قدرة الله الباهرة ، واستقلاله بالألوهية ، وقهره لجميع المخلوقات ، وأنها جميعاً تحت سلطانه العظيم .

والمعنى : أعميت بصائر الذين كفروا ولم يعلموا من الشواهد والآيات أو من الكتب السماوية أن السموات والأرض كانتا قبل فصلهما كيئناً واحداً لا انفصال فيه بينهما ، حيث كانتا دخاناً في بدء خلق الله لهما فشقهما وفصل بينهما .

روى عكرمة والحسن وقتادة وابن جبير عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية : إن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ، ففصل الله تعالى بينهما ، ورفع السماء إلى حيث هي ، وأقر الأرض^(١) .

ويقول ابن كثير في تفسيرها : أى كان الجميع متصلاً ببعضه ببعض في ابتداء الأمر ، ففتق هذه من هذه ، وجعل السموات سبعاً والأرض سبعاً . انتهى بتصرف يسير واختصار .

وتقول لجنة الخبراء في تعليقها على هذه الآية بالتفسير المنتخب ، ما خلاصته : إن هذه الآية تقرر معاني علمية ، أيدها النظريات الحديثة في تكوين الكواكب والأرض ، وهى أن السموات والأرض كانتا في الأصل متصلاً ببعضها ببعض على شكل كتلة متصلة متماسكة ثم انفصلتا ، واستدل على ذلك بأدلة علمية عديدة . ١٥ .

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) : تلك آية أخرى من آيات القدرة العظيمة ، أى : وخلقنا من الماء الميت كل ما فيه حياة ، كما أنه محتاج إلى الماء في استمرار حياته وبقائها ، إذ هو عنصر هام في إبداع وغذاء وتنمية كل شيء حى - إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً - أى : أن كل ما فى الكون مما يتصف بالنمو لا يستغنى عن الماء ، وإلا لحقه الفناء والدمار ، ولذلك كان جديراً أن يَمُنَّ به سبحانه على خلقه ؛ لأنه من أفضل النعم على الخلق وأولها بالتقدير والاعتبار .

(١) نقله الآلوسى في تفسير الآية .

(أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) : إنكار عليهم لعدم التصديق بما يشاهدون من الآيات التي تتصل بالآفاق والأنفس ، مع دلالتها على تفردة - جل شأنه - بالألوهية .

بمعنى : أَيْرَوْنَ ذلك مشاهدة ومتكررا في كل شيء حتى فلا يؤمنون بمبدعه ، وكان عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان به ، وقد شاهدوا آياته « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » .

٣١ - (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ . . .) الآية .

أى : وجعلنا بقدرتنا في الأرض جبالا ثوابت تحفظ توازنها لئلا تضطرب بهم اضطرابا لابعقبه ثبات ، فلا يكون للناس عليها قرار بسبب ذلك ، أما الميْدُ بسبب الزلازل ونحوها فإن الآية لاتأني وقوعه ؛ لأنه ميْدُ يعقبه ثبات واستقرار .

(وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) : أى وجعلنا في الأرض جميعها ، سهولها وجبالها وهضابها طرقا واسعة ؛ لكي يهتدوا بها إلى مصالحهم ومهماتهم ، وذكرت الآية (سُبُلًا) بعد أن ذكرت قبلها فِجَاجًا ، بيانا للفجاج ودفعا للإبهام عنها ؛ لأن الفج قد يكون مسلوكا وقد لا يكون ، ولتدل ضمنا على أن الله خلق الفجاج ووسّعها رعاية للسابلة الذين يسلكونها ورحمة بهم .

وقيل : إن المعنى وجعلنا في الجبال طرقا واسعة ليسلك الناس فيها ويعبروا من قطر إلى قطر ، ومن إقليم إلى إقليم ، فقد يكون الجبل حائلا بين هذه البلاد وتلك البلاد ، فيجعل الله فيه فجوة واسعة ليسلك الناس فيها من هنا إلى هناك .

ويصح أن يكون المراد من قوله (لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) أن يهتدوا بذلك إلى الاستدلال على التوحيد وكمال القدرة والرحمة ، أو ما يعم الاهتداء إلى ذلك والاهتداء إلى البَصَرِ بفضل الله عليهم ، وبما يسره لهم من تبادل المنافع التي فيها صلاح أمرهم ، وتقويم شأنهم .

٣٢ - (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) :

هذه آية أخرى من آيات الألوهية الدالة على وجود الصانع ، وكمال قدرته ، أى : وجعلنا السماء المظلة للأرض كأنها قبة عليها ، جعلناها سقفا محفوظا بقدرتنا من أن يقع على

الأرض ، مرفوعا عنها بدون عمَد ظاهرة يرتكز عليها ، ودعائم يستند إليها ، وذلك كقوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا. »^(١) . فقد أمسكها الله تعالى بقوانين تقتضى حفظها مرفوعة في الفضاء بقدرته ، إلى أن يشاء الله انقطارها ، وانتشار كواكبها « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ »^(٢) .

وقيل : وجعلنا السماء سقفا محفوظا بالملائكة أو بالنجوم من أن يسترق الشياطين السمع ، ودليله : « وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ »^(٣)

وقيل : سقفا محفوظا من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم الذى تطوى فيه السماء كطَيُّ السَّجَلِ للكتب ، وقد روى ذلك عن قتادة .

(وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) : أى وهم عن آيات السماء الدالة على الوحدانية وكمال القدرة ذاهلون لا يتدبرون في ليالها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، ونجومها وكواكبها ، ورياحها ومسحابها وغيرها ، ولو تأملوها أدنى تأمل لهداهم التأمل إلى الإيمان واليقين ، ولكنهم أثروا الإعراض عنها والبقاء على ما هم عليه من كفر وضلال .

٣٣- (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ...) الآية .

هذا بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون ، جاء على طريق الالتفات من التكلم فيما سبق إلى الغيبة هنا ، لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام الذى يُذَكِّرهم الله فيه بأنه جل شأنه هو الذى خلقهن وحده ، لخيرهم ومنفعتهم ، فخلق الليل ليسكنوا فيه ، حتى يستريحوا من مشاق العمل ومتاعبه ، وخلق النهار لينصرفوا مع إشراقته إلى الدأب والسعى لتحصيل أرزاقهم التى يسرها الله لهم ، وجعل الشمس آية النهار ليستضيئوا بها وينعموا بدفئها ، وجعل القمر آية الليل ليهتدوا بنوره المستمد من ضوء الشمس ، ولهما أثرهما النافع في حياة النبات ونموه وخضرته وإنباء أكُلِهِ ، وبهما يعلم عدد السنين والحساب .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٨

(١) سورة الرعد ، من الآية : رقم ٢

(٣) سورة الحجر ، الآية : ١٧

(كُلُّ فِي فَلَكٍ يَنْبَحُونَ) : أى كل واحد من الشمس والقمر يدور في مداره في الفضاء لا يرتكز على شيء ، ولا يهوى في الفضاء ، كالسابع الماهر ، يشق الماء ، ولا يسقط في قاعه وكذلك شأن سائر النجوم والكواكب « صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ » .

وأسند دورانهما إلى ضمير جماعة العقلاء ، تنزيلا لهما منزلتهم ، في انتظامهما فيما سخرهما الله من أجله ، والمراد بالجمع ما فوق الواحد ، وأستحسن ليناسب فواصل الآيات ، والتعبير عن دورانهما بالسباحة لشبهه بها ، من حيث إن دورانهما في الفضاء دون أن يسقطا ، يشبه سباحة السابح الماهر في الماء دون أن يسقط في القاع .

(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ
الْخُلْدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ
فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾)

الفردات :

(الْخُلْدَ) : البقاء الدائم . (وَنَبْلُوكُمْ) : ونعاملكم معاملة المختبر .
(فِتْنَةً) : محنة وابتلاء .

التفسير

٣٤ - (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ...) الآية .

نزلت الآية حين قال المشركون : نحن نثرىص بمحمد ريب المنون ضيقا بدعوته ، وكانوا يدفعون نبوته وينكرونها ، ويقولون : إنه شاعر ، وسيموت كما مات شاعر بني فلان .

وكان نزولها تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وبيان أن ما تمنوه له لَأَحِقَّ بِهِمْ .
والمعنى : وما كان من سئتنا أن يخلد أحد من قبلك ، لا من الأنبياء ولا من المرسلين ،
ولا من سائر البشر . لكون ذلك مخالفا للحكمة التكوينية التي قدر الله فيها أن يكون
لكل حَيٍّ أَجَلٌ ينتهى عنده ، ثم يبعث الله الموتى ليحاسبهم على ما كانوا يعملون ،
فلا شماتة في الموت فهو ضريبة القهار على جميع عباده ، ولهذا قال سبحانه :

(أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ) : أى أفإن مت أنت بمقتضى حكمتنا فَهُمْ الْخَالِدُونَ حتى
يشمتوا بعدك في موتك ، كلا ، فليسوا بمنجاة من الموت ، فإن الموت واقع بهم لا محالة .
وفى معنى ذلك قال الإمام الشافعى رحمه الله :

نَمْنَى رَجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أُمْتُ فَتُكْ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحِدٍ
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى تَزُودُ لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكَأَنَّ قَدْ

٣٥ - (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ...) الآية .

هذه الآية تؤكد المقصود من الآية السابقة « وَمَا جَعَلْنَا لِشَيْءٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ » .

والمعنى : كل نفس يحدث لها الموت ، وتلوق مرارة مفارقة الروح للجسد ، وهى
تختلف شدة وضعفاً حسب تفاوت الناس إيماناً ووجوداً ، ولعل في التعبير بالتلوق إشارة
إلى ذلك .

(وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) : أى نعاملكم معاملة المختبر لإظهار ما في نفوسكم
من خير أو شر وذلك بما نختبركم به من الشدة والرخاء ، والصحة والمرض وغيرها ، مما تحبون
أو تكرهون ، فننظر هل تصبرون عند البلاء ، وتشكرون عند النعماء ، أو تقنطون وتكفرون ؟

(وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) : للحساب والجزاء لا إلى غيرنا ، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ،
فنجازيكم حسبما يظهر منكم من عمل « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » (١) .

(وَإِذَا رَأَوْاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا
 الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾
 خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ
 وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
 رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا) : أى ما يتخذونك إلا مهزوءاً بك ومسخوراً منك ، يقال :
 هُزَأَ منه وبه كَمَنَعَ وَسَمِعَ ، هُزْءًا وَهُزْءًا بِإِسْكَانِ الزَّاي وَضَمِّهَا أَيْ : سَخِرَ .
 (يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) : يذمها ويعيبها بقريضة المقام . (مِنْ عَجَلٍ) : العجل والعجلة ؛
 طلب الشيء وتحريه قبل أوانه وقد يكون ضاراً ، وفعله من باب عَلِمَ .
 (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) : المراد بالوعد مجيء الساعة . (لَا يَكُفُّونَ) : لا يمتنعون .
 (بَغْتَةً) : فجأة . (فَتَبْهَتُهُمْ) : تدهشهم وتحيرهم .
 (وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) : يُؤَخَّرُونَ ، يقال : نظره : أى تأنى عليه ، وأنظره : أخره .

التفسير

٣٦- (وَإِذَا رَأَوْاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ...) الآية .

المعنى : وإذا لقيك الذين كفروا من مشركي مكة كآبي جهل والنضر بن الحارث
 وأضرابهما ما يتخذونك إلا مهزوءاً بك ، مسخوراً منك ، مع علمهم بشرف أصلك

وعلو قدرك ، وكرم خلُقك ، وصدق قولك ، ويقولون مستنكرين محقرين :
 (أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) : بالسوء والغيب . (وَهُمْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ) :
 أى يعيبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذِكْرَ آلِهَتِهِمْ بالسوء من ضعف وعجز ،
 وحالهم أنهم يكفرون بذكر الرحمن المنعم بجلال النعم وسوايغ الرحمة على عباده ، فهم
 لا يعترفون باسمه ولا يذكرونه ، فأى الفريقين أحق بالاستنكار والتحقير ؟ إنهم بما اقترفوه
 من كفر وطمع وبغى وسفه هم الأحق بذلك ، وبأن يذكروا صنيعهم بالتسفيه والتقبيح .
 ٣٧ - (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ...) الآية .

في هذه الآية صورة بلاغية ، حيث جعل الإنسان الذي خلقه الله من الطين - جعل -
 كأنه مخلوق من عَجَلٍ ، وذلك لفرط عجلته وقلة صبره ، ولهذا تراه قد يبادر إلى الكفر
 دون نظر إلى عواقبه ، ويندفع في طلب أمور دون النظر في مآلها ، وقد يكون فيها ضرره
 وهلاكه ، ومن ذلك ما صنعه النضر بن الحرث حين استعجل العذاب بما حكاه الله سبحانه وتعالى
 عنه بقوله جل شأنه : «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً
 مِنْ السَّمَاءِ أَوْ اثْنِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» ^(١) . وكان في ذلك يعبر عن قومه لأنه كان من زعمائهم ،
 ولهذا أسند القول إليهم وإن كان هو قائله ، والعجلة وإن كانت من طبع الإنسان ،
 لكن الله جعل لكل غريزة ضوابط من العقل والحكمة ، توجهها نحو الخير ومكارم
 الأخلاق ، وتهديها سواء السبيل .

(سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) : خطاب للكفار المستعجلين لنزول العذاب
 والمعنى : سأريكم آياتي في عذابي الذي أنزله بكم في حينه ، فلا تستعجلون بإنزاله قبل
 الأجل الذي ضربته له ، فإن لكل شيء أجلا مضروباً . وقد حدث ذلك في غزوة
 بدر الكبرى ، وماتلها من الانتصارات الساحقة ، التي أتمها الله بالقضاء على عبادة
 الأوثان وعابديها بالجزيرة العربية .

وقيل : المعنى سأجعلكم تدركون آياتي التي تدل على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -
 من المعجزات الباهرة ، وما له من العاقبة المحمودة ، وستحقق وعدى لامحالة ، فاتركوا
 العجلة ؛ لعل الله يشرح صدوركم فتهتدوا .

٣٨- (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) :

المعنى : ويقول الذين كفروا : متى وعد الله؟ قصداً إلى استبطاء مجيء الساعة ، واستعجال إتيانها بطريق الإنكار والاستهزاء ، لا قصداً إلى تعيين وقت المجيء ، بدليل قولهم للنبي والمؤمنين : « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » في الإخبار عن مجيء الساعة مع ما فيها من هول وعذاب .

وقيل : المراد بالوعد العذاب الذى طلبوه ، واستعجلوا وقوعه ، والرأى الأول أولى لأنه هو المناسب للآية التالية ، وهى قوله تعالى :

٣٩- (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) :

أى : لو يعلم الذين كفروا ما ينتظرهم يوم القيامة من الشدائد بسبب كفرهم ، كما استعجلوه مستهزئين ، فإن نار جهنم تحيط بهم من جميع جهاتهم ، فلا يستطيعون دفعها عن وجوههم ولا عن ظهورهم ، فضلاً عن أطرافهم ، وسائر بدنهم ، ولا يجدون ناصرًا ينصرهم ، فإن حالهم فى الآخرة كما قال الله تعالى : « لَهُمْ مِنْ قَوْعِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ »^(١) . وكقوله سبحانه : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوْعِهِمْ غَوَاشٍ »^(٢) .

وقيل : لو يعلمون ذلك لما أقاموا على الكفر ، ولآمنوا بالله ورسوله ، ثم بين الله تعالى أن وقت الساعة مما لا سبيل إلى علمه فقال :

٤٠- (بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ . . .) الآية .

أى : لا يعلم أحد وقت مجيئها غير الله تعالى ، بل تَفْجَأُهُمْ وتَبْهَتُهُمْ من غير شعور بوقت مجيئها ، فتحيرهم وتدهشهم ، بما يكون معها من شدائد وأحوال تغلبهم على أمرهم (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا) : فلا يقدرّون على رد الساعة عن وقتها الموعود مهما بذلوا من جهد . (وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) : أى ولا هم يُمهّلون ولا يُؤخّرون طَرْفَةَ عَيْنٍ ، لتوبة أو اعتذار ، بل يُؤخذون بالنواصي والأقدام .

(وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) : سخر منهم أقوامهم - يقال : هزأ منه وبه ، كَمَنَعَ
وَسَمِعَ ، وَتَهَزَّأَ واستهزأ أى : سَخَرَ .
(حَاقَ بِهِمْ) : أحاط بهم ولزمهم ، وفعله حَاقَ يحيق كباع ، حَيْقًا وَحَيْوَقًا .

التفسير

٤١- (وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ) :

نزلت الآية تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتغزية له ببيان أن ما حدث له من سخرية
المشركين ، حتى قالوا له : «مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» - ما حدث له من ذلك -
قد حدث مثله لإخوانه المرسلين من قبله ، وهى مع ذلك وعد ضمنى من الله بأنه سيصيب
المستهزئين به مثل ما أصاب من سبقوهم من الساخرين برسولهم ، لِمَا بَيَّنَّ جُرْمَهُمَا مِنْ
تشابه وتقارب .

وتصدير الآية بالقَسَمِ للإيذان بالاهتمام بتحقيق مضمونها ، أى : وبالله لقد استهزئ فى
زمان قبل زمانك برسول ذوى شأن خطير ، وعدد كثير ، فأحاط بهم الذى كانوا به
يستهزئون ؛ حيث أهلكوا من أجله ، فإذا كان هذا حال إخوانك الرسل مع أممهم ، فليس
يُدْعَا ما تراه من هؤلاء المعاصرين من كفار قريش ومن والآلهم من سخرية واستهزاء ، فاصبر
كما صبروا ، ولسوف ينصرك الله على قومك يا محمد ، كما نصر المرسلين من قبلك على
أقوامهم ، والعاقبة للصابرين .

(قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ
 عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا
 لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا
 هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
 الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا
 أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾
 وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَأْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا
 ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(يَكْلُؤُكُمْ) : يرعاكم ويحفظكم ، وفعله كَلَأَ ، كَمَنَعَ . (مِنَ الرَّحْمَنِ) أى : من
 سخطه وغضبه . (مُعْرِضُونَ) : لاهون غافلون . (وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) : يُجَارُونَ
 ويُمنعون ، تقول العرب : أنا لك صاحب من فلان ، بمعنى : مجيرك ومانعك منه ،
 وأصحاب فلان فلاناً أجاره ومنعه . (إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ) : أى أحذركم وأخوفكم
 بالقرآن . (وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ) : أصابهم قدر ضئيل من العذاب .
 (لَيَقُولُنَّ يَأْوِيلُنَا) : يا هلاكنا ودمارنا .

التفسير

٤٢- (قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ . . .) الآية .

أمر الله سبحانه رسوله - صلى الله عليه وسلم - في هذه الآية أن يسأل أولئك المشركين

المستهزئين بما جاءهم به من الحق - أن يسألهم - سؤال تقريع وتنبيه إلى نعمه التي أسبغها وتفضل بها عليهم ، حتى لا يغتروا بما يتقلبون فيه من أمن واستقرار ، وإمهال ومطاوله ، فقال - جل شأنه - :

(قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ) : أى قل أيها النبي لهؤلاء الكافرين : من يحفظكم بالليل إذا نتم ، وبالنهار إذا تصرفتم - من يحفظكم - من عذاب الله الذي رحمكم بإمهالكم ؟ لا أحد يستطيع أن يحميكم من نقمته بكم .

ويجوز أن يكون المعنى : من هذا الذى يحفظكم ويحرسكم من نوازل الليل والنهار بدل الرحمن ؟ فمن هم الذين تركزون إليهم ، وتتوهمون حفظهم وحراستهم لكم فيهما ؟ . وقدم الليل على النهار فى الآية ، لأن كوارثه أشد من كوارث النهار ، والحفظ منها أهم ، وفى لفظ (الرحمن) تنبيه على أنه لا يحميهم من عذابه إلا رحمة العامة ، ولولاها لكانوا أحقاء بتركهم للكوارث تحصدهم حصداً ، وكان عليهم أن يعرفوا ذلك ويشكروه لله ويذكروه ، ولكنهم أعرضوا عن آياته ، واستهانوا بآلائه ، وتمسكوا بما هم عليه من الإشراف به ، كما يقول - جل شأنه - :

(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) : أى لا يُحْطِرُونَهُ بِبَالِهِمْ فهو بعيد عن مجال تفكيرهم ولهذا لا يخافون بأسه ولا يعتبرون ما هم عليه من الأمن والدعة حفظاً وكلاءة لهم منه .

وإيراد اسم الرب المضاف إلى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته للإيدان بأنهم بلغوا الغاية القصوى فى الغنى والضلال حين أعرضوا عن شكره وذكره سبحانه وتعالى .

فإن قيل : إنما اتخذوا الآلهة وعبدوها لتقربهم إليه زلفى ، فهم يعرفون أنه ربهم ، فالجواب : أن من عرف الله لا يصح أن يعبد سواه ، ولا أن يلجأ إلى ذكر غيره ويعرض عن ذكره ، كما فعل هؤلاء ، فكانوا بإشراكهم وإعراضهم عنه جاهلين بجنابه - سبحانه .

٤٣ - (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ...) الآية .

انتقال من بيان جهلهم بكلاءة الله وحفظه إياهم ، وإعراضهم عن ذكره - جل شأنه - إعراضاً تاماً - انتقال من ذلك - إلى توبيخهم لاعتمادهم على آلهتهم وإسنادهم الحفظ إليها .

والمعنى : بل للمشركين آلهة تحفظهم وتحميهم من عذاب يأتيهم من جهننا ، فهم مُعَوَّلُونَ عليها واثقون بها ، كلاً فهم كما قال الله :

(لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ) : وهو استثناء مؤكد لما قبله من الإنكار ، وموضح لبطلان اعتقادهم في أن تستطيع تلك الآلهة أن تدفع عنهم ما ينزل بهم من شدائد وويلات ، حيث إن آلهتهم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ، ولا يجدون من يجيرهم ويدفع عنهم قضاء من جهننا ، بل هم في غاية العجز ، فكيف يتوهم أن ينصروا عابديهم ، ويستجيبيوا لمن يدعونهم من دوننا .

وقيل : (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ) : أريد به الكفرة ، وروى ذلك عن قتادة وابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - على معنى لا يستطيع الكفار نصر أنفسهم بآلهتهم ، ولا يصحبهم نصر من جهننا .

٤٤- (بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ . . .) الآية .

إضراب انتقالي عما تدل عليه الآية السابقة من بطلان توهم نصر آلهتهم - إلى الإخبار بأنهم إنما وقعوا في هذا التوهم الباطل بسبب أننا متعناهم وآباءهم بما يشتهون من النعمة وطال عليهم العمر فيها ، حتى ظنوا أنها لا تزول عنهم ، فافتروا وأعرضوا عن التدبر والتفكير في آيات ربهم ، وبعلوا عن الحق واتبعوا ما سولته لهم أنفسهم .

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) : يذكر الله قريشاً في هذه الآية الكريمة بعاقبة الكفرة من حولهم ، وأنهم لما بطروا نعمة الله عليهم وكفروا بها أهلكتهم وأزال دولهم ، وانتقص الأرض من حولهم ، بتخريبها بعد عمرانها ، وكذلك يجزى الله الكافرين . والمعنى : أعمى هؤلاء المشركون بمكة فلم يروا أننا نأتي أرض الكفرة من حولهم ، فننقصها من جوانبها ، بتخريب مدنها ، والقضاء على عمرانها ، وإهلاك أهلها عقاباً لهم على كفرهم بنعم ربهم وآياته ، كما حدث لقرى عاد وثمود وقوم لوط وسبأ وغيرهم .

(أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ) : أى أبعد خراب مدنها ، وإهلاك أهلها لكفرهم يعتبرون الغالبين ؟ كلاً ، بل هم المغلوبون ، وبصيركم يا معشر قريش سوف يكون كمصيرهم : « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » ^(١) .

٤٥ - (قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ . . .) الآية .

بعد أن بينت الآيات السابقة غاية الهول لأولئك الذين يستعجلون إتيان الساعة ، وما يصاحبها من عذاب ، ونعت عليهم جهلهم وإعراضهم عن ذكر ربهم الذى يحفظهم من نوازل الليل وكوارث النهار - بعد ذلك - جاءت هذه الآية لتعلمهم أن الرسول ليس عليه إلا البلاغ .

والمعنى : ما أنا إلا مبلغ عن الله ما أنذركم به من مجيء الساعة وعذابها بما أوحاه الله إلى فى هذا القرآن المنزل على من لدن حكيم عليم ، وليس من شأنى أن آتيكم بما تطلبونه مما ينافى الحكمة التكوينية والتشريعية ، وما على الرسول إلا البلاغ .

(وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ) : من تنمة الكلام الذى أمر - عليه الصلاة والسلام - أن يقوله لهم ، توبيخاً وتقريعاً ، أى أنهم لطول إعراضهم عن سبيل الحق ، صاروا كالصم الذين أفقدهم الصمم حاسة السمع ، فجعلهم بمعزل عن سماع صوت الداعي إذا أنذرهم وحذرهم ، وتقبيد نقي السماع بإنذارهم مع أن الصم لا يسمعون الكلام إنذاراً أو تبشيراً ، للإشارة إلى شدة الصمم فيهم ؛ لأن الإنذار عادة يكون بأصوات مرتفعة مكررة مقارنة لهيئات دالة عليه ، فإذا لم يسمعوها يكون صممهم فى درجة لا غاية بعدها .

ويجوز أن يكون قوله سبحانه : « وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ » كلاماً مستأنفاً من جهته تعالى تسلياً لنبيه عما ينتظر من إعراضهم ، كأنه قيل له : قل لهم أيها الرسول : إنما أنذركم بالوحى ، واعلم أنهم دائبون على إعراضهم ، فهم بمعزل عن السماع حينما ينذرون ، لطول إعراضهم ، فلا يَكُنْ فى صدرك حرج منه ، فما عليك إلا البلاغ .

٤٦ - (وَلَيْتَ مَسْتَنَّهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) :

تبين هذه الآية فداحة العذاب الذى أنذروه فأعرضوا عن الاستماع إلى نذيره .

والمعنى : وبالله لئن أصاب هؤلاء المكذبين أدنى إصابة من عذابه تعالى الذى يسخرون منه كيداً عن أنفسهم بالويل والثبور والهلاك ، وليعترفن بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدنيا ، فيعترفون حين لا ينفعهم الاعتراف ، ويندمون حين لا يجديهم الندم .

وإذا كان هذا حالهم عندما تمسهم نفحة من عذاب الله ، فكيف يكون حالهم حينما
يتشاهم « مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » .

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا
وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾
الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾
وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾)

الفردات :

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ) : أى نقيم لكل مكلف ميزاناً لوزن أعماله ، ثقلاً وخفة ، وسيأتى
بيان المراد من ذلك .

(الْقِسْطَ) : العدل ، وهو من المصادر التى يوصف بها الواحد والثنى والجمع كلفظ (العدل) .

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ) : مثقال الشئ ميزانه .

(خَرْدَلٍ) : شجر معروف ، حبه من أصغر الحبوب وأدقها . ويضرب مثلاً للصغر .

(مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) : أى محاذرون وجلون من أهوالها .

التفسير

٤٧ - (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . . .) الآية .

هذه الآية مستأنفة لبيان عدل الله بين عباده عند مجئ الساعة التى أنذرهم بها . وأن
أعمالهم معلومة لديه ، فلا تخفى منهم خافية ، ولا تظلم نفس شيئاً .

ويرى جماعة من السلف أن هذه الموازين حسبة وأن الله تعالى يحول أعمال عباده إلى أجسام ، لتكون صالحة للميزان الحسى ، حتى يرى كل عامل عمله ماثلاً أمامه ، إظهاراً للمعدلة وقطعاً للمعذرة : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا »^(١) . ويستشهدون على رأيهم هذا ببعض الآثار .

وقال مجاهد وقتادة والضحاك : الميزان تمثيل لعدل الله وليس ثمة ميزان حسى ، إذ أنه سبحانه ليس بحاجة إليه ، فهو يعلم السر وأخفى ، فى حين أن أعمال العباد يجدونها مسطرة فى كتبهم كما حدثت فى دنياهم . وحكّم الله مقروناً بها ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ . فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الْآيَامِ الْخَالِيَةِ . وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنى لَمْ أُوْتِ كِتَابِيَةَ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ . يَا لَيْتَنىهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنى مَالِيهِ . هَلْكَ عَنى سُلْطَانِيَةُ »^(٢) .

وهذا الرأى أخذ المعتزلة ، وينبغى عدم الجدل فى حقيقة الميزان وترك أمرها إلى الله تعالى . واللام فى قوله تعالى : (لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) بمعنى فى ، أو للتعليل - أى لأجل يوم القيامة . (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) : أى فلا يقع على أى نفس مؤمنة أو كافرة ظلم فى جزائها الذى تستحقه على أعمالها ، فلا ينقص ثوابها ولا يزداد عقابها : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » ولهذا قال سبحانه :

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا) : حبة الخردل تضرب مثلاً فى القلة والحقارة ، أى : وإن كان العمل الذى أتى به المكلف فى غاية الدقة والصغر جثثابه فى صحيفته فيتعرف عليه ويجزى به ، وعاد الضمير بالتأنيث على مثقال ، لاكتسابه التأنيث من الحبة التى أضيف إليها ، وهى مؤنثة .

وقرأ مجاهد وعكرمة : « آتَيْنَا بِهَا » أى : جازينا بها ، من الإيتاء بمعنى المجازاة والمكافأة .

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ٣٠

(٢) سورة الحاقة ، الآيات : ١٩ - ٢٩

(وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ) : أى لا أحد أسرع وأدق حساباً منا ، فنحن نحصى على كل عامل ما قدمه من خير وشر ، أسرَّ به أو جهر ، صَغُرَ أو عَظُمَ ، ثم نجزيه بالعدل والقسطاس المستقيم ، كما قال سبحانه : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ^(١) » . قال أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها : إن رجلاً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جلس بين يديه فقال : يا رسول الله إن لى مملوكين يَكْذِبُونِنِي وَيَخُونُونِنِي وَيَعْصُونِنِي ، وَأَشْتَمُهُمْ وَأَضْرِبُهُمْ ، فكيف أنا منهم ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك ، وعقابك إياهم ، إن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك عليهم ، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذى يبقى قِبَلَكَ) فجعل الرجل يبكى بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويهتف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَا لَهُ ؟ أما يقرأ كتاب الله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ » ؟ فقال الرجل : ما أجد خيراً لى من مفارقة هؤلاء ، إني أشهدك أنهم أحرار كلهم . أخرجه الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها .

٤٨ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ) :

لما أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لقومه : ما أنذركم إلا بالوحي الذى يوحى إليه ، أردف ذلك ببيان أن تلك سنة الله فى الأنبياء والمرسلين ، فكلهم تأتاهم شرائعهم بوحي من ربهم لتبليغ أممهم بما أوحى إليهم .

والغنى : ولقد أوحينا إلى موسى وهرون - كما أوحينا إليك يا محمد - كتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل وكونه ضياءً يستضاء به فى ظلمات الجهل ، ودياجير الغواية وغياهب الضلال ، وتذكيراً للمتقين ووعظاً لهم ، وتخصيص المتقين بذلك الشرف ؛ لأنهم المنتفعون به المستضيئون بأنواره .

وفسر ابن زيد الفرقان الذى أوتيهِ موسى وهرون بالنصر على الأعداء كما فى قوله تعالى :
 « وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »^(١)
 قال الثعلبى : هذا القول أشبه بظاهر الآية ، فيكون المعنى : ولقد آتينا موسى وهرون
 النصر والتوراة التى هى الضياء والذكر . انتهى بتصرف يسير .

٤٩ - (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) :

الآية تصف المتقين الذين ينتفعون بالتوراة ويستضيئون بنورها ، ويتعظون بذكر
 آياتها البينات قبل نسخها ، فتذكر أخص صفاتهم وهى أنهم يخشون ربهم ، ويخافون
 عذابه غائبين عن أعين الناس ، وذلك بما وقروا فى سرائرهم لعق الإيمان ، وقوة اليقين ،
 وهم خائفون من مجئ الساعة ، وما وراء ذلك من حساب وجزاء ، فلهذا تعظم خشيتهم
 من ربهم فى سرائرهم غائبين عن أعين الناس .

أو المراد يخشون ربهم وهو غير مرئى لهم ، فقد عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم رباً
 قادراً على أن يجازى على الأعمال فهم يخشونه - جل شأنه - ، ويخافون عذابه وهو غير مشاهد
 لهم ، ووصف المتقين بالإيمان بالغيب ، شهادة بصدق إيمانهم ، ومدح لهم ، كما فى قوله
 تعالى : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ »^(٢) . وقوله : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم
 بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ »^(٣) . وقوله : « مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ
 مُّنِيبٍ »^(٤) . إلى غير ذلك من الآيات ، وإنما وصف المتقون بالخشية من الساعة بعد أن
 وُصفوا بعموم خشيتهم من الله ، لتحويل أمرها ، ووصفهم بضد ما اتصف به المستعجلون
 الذين لجؤا فى عتوهم ، وأعرضوا عن ذكر ربهم ، والثناء على المتقين من أهل التوراة قبل
 أن ينسخها بالإنجيل ثم بالقرآن العظيم ، الذى أوجب الله الإيمان به على اليهود والنصارى
 وسائر البشر ، ولهذا قال سبحانه :

٥٠ - (وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) :

أى : وهذا القرآن ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ؟

(٢) سورة البقرة ، الآية ٣

(٤) سورة ق ، الآية : ٢٣

(١) سورة الأنفال ، من الآية : ٤١

(٣) سورة الملك ، الآية : ١٢

تأييداً لرسولنا محمد وآية على نبوته ، أفأنتم له منكرون وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، أفليس ذلك آية على أنه منزل من عند الله كالنوراة التي آمن بها غيركم ، لقد ضللتكم عن الهدى ، وتجاوزتم الحد يامعشر قريش ، وكنتم بإنكاركم له من الخاسرين .

* (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾
قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبِيدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ
اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي
فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَالِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(رُشْدُهُ) : الرشد الاهتداء ، إلى وجوه البر والصلاح . (التَّمَاثِيلُ) : جمع تمثال وهو الصورة المصنوعة على شبه ما خلق الله ، والمراد : الأصنام . (عَاكِفُونَ) : ملازمون ومقيمون على عبادتها . (ضَلَالٍ مُبِينٍ) : انحراف وبعُد واضح عن النهج القويم . (اللَّاعِبِينَ) : اللاهين العابثين . (فَطَرَهُنَّ) : خلقهن وأوجدهن من عدم على غير مثال سبق . (الشَّاهِدِينَ) : المصدقين له المؤمنين به .

التفسير

٥١ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ...) الآية .

ذكر - سبحانه - فيما سبق من الآيات رسالة موسى وكتابه ، والقرآن وما حوى من ذكر وبركة ، وجاءت هذه الآية وما بعدها من الآيات ؛ لنعرف منها قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه .

والرشد هو : الاهتداء لوجوه البر والخير والصلاح ، قال الفراء : أعطيناه هداة من قبل النبوة والبلوغ اه .

فأله سبحانه يخبر عن خليله إبراهيم أنه آتاه الهداية إلى الحق في صغره ، وألهمه الحجة على قومه قبل النبوة ، كما قال سبحانه : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ^(١) »

(وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) : أى وكنا به وبما يتحلى به من الصفات الجميلة ، والسجيا الحميدة التى تجعله من أهل الاجتباء والاصطفاء ، كنا بذلك كله عالين .

ومعنى الآية إجمالاً : ولقد أعطينا إبراهيم رشده وهديناه إلى وجوه الصلاح والخير فيما يفعل وما يدع ، وكنا بجدارته وأهليته لذلك عالين ، فقد صنعناه على أعيننا ، وأعددناه ليحمل رسالتنا ، فزودناه بالشمائل الطيبة ، والسجيا الكريمة ؛ ليكون ذلك عوناً له على أدائها ، وعصمة له من أن يناله أحد ، أو يحط من قدره حسود أو حاقد .

وهذا هو شأن الله - جل جلاله - فى اختيار رسله يحيطهم بكريم عنايته ويطهرهم من كل نقص أو عيب .

٥٢ - (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) :

هذا هو الرشد الذى أوتيه إبراهيم فى صغره ؛ حيث أنكر على قومه عبادة الأصنام قبل أن تأتبه النبوة ، وكلمة (إِذْ) ظرف لقوله : (آتَيْنَا) فى الآية السابقة .

والمعنى على هذا : ولقد منحنا إبراهيم هداة وأرشدناه إلى الطريق المستقيم وقت أن قال لقومه - ساخرًا منهم ومن آلهتهم - : ما هذه التماثيل التى أنتم عليها عاكفون ، وعلى عبادتها مقيمون ، وهى لا تستحق شيئاً مما تصنعون ، فليس لها من الصفات ما يقتضى تعظيمها فضلاً على عبادتها ، فكيف عكفتم على عبادتها ؟

ويجوز أن يكون لفظ (إِذْ) مفعولاً به لفعل محذوف تقديره (اذكر) .

والمعنى على هذا : اذكر أيها الرسول لقومك ما كان من أمر إبراهيم مع قومه .

والمراد من ذكر هذه القصة: بيان مخالفتهم لجدهم إبراهيم في عقيدته ، فقد كان عدواً للأصنام الى يعبدونها ، كما أن فيها حث النبي على أن يحتذى مع عبدة الأصنام من قومه حنئ أبيه إبراهيم عليه السلام مع قومه ، فيبين لهم فساد عبادة غير الله ، ويصبر على أذاهم .
٥٣ - (قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) :

أى قال قوم إبراهيم - لما لم يجدوا حجة مقنعة ولا برهاناً يعتمدون عليه - قالوا - :
إننا وجدنا آبائنا مقيمين على عبادة هذه الأصنام فاقتفينا أثرهم ، وسرنا على نهجهم ،
وفى هذا الرد غاية الامتهان لعقولهم ، ونهاية الاستخفاف بعقيدتهم ؛ لأن الاحتجاج بالتقليد
مُستندٌ العاجز المضحك ، وكأنهم قالوا : لا دليل لنا على ما نفعل ولا حجة لدينا فى عبادتنا
تلك إلا تقليد الآباء والنسج على منوالهم .

والتعلل بتقليد الآباء فى عبادة غير الله داء استشرى فى أمم كثيرة ، قال تعالى : « وَكَذَلِكَ
مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ
آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » (١) .

٥٤ - (قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) :

وهكذا جاء رد إبراهيم - عليه السلام - مسفهاً لعقولهم وعقول آبائهم من قبلهم ؛
إذ أقسم لهم أنهم وآبائهم فى ضلالٍ وغىٍّ واضح ، بُعدوا به عن طريق الحق ، وانحرفوا عن
النهج القويم .

٥٥ - (قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ) :

أى أن إبراهيم عليه السلام ، لما سفه أحلامهم ، وضلل آباءهم ، واحتقر آلهتهم ، قالوا له :
أهذا الكلام الذى صدر منك تعيب فيه آلهتنا ، وتحط من قدرها ، تقوله هازلاً ولاعباً
أو تقوله جاداً ومحققاً فيه ؟ فإننا لم نسمع به قبلك ، فأجابهم بما حكاه الله بقوله :

٥٦ - (قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) :

أى : قال إبراهيم - ردّاً على قومه - : لقد جئتمكم بالحق ، ولست هازلاً ولاعباً ، فليست هذه
التمائيل أرباباً لكم ولا لغيركم ، بل ربكم المستحق لمكوفكم على عبادته ، هو رب السموات

والأرض الذى خلقهن وما فيهن دون شريك أو مغين ، وأنا على ربوبيته من الشاهدين ،
 بما قام عندى من الأدلة والبراهين ، فلست مثلكم أعبد ما لا تقوم على ربوبيته حجة ولا برهان
 واعتذر بتقليد الآباء والأجداد .

ويجوز أن يكون الضمير فى (فَطَرَهُنَّ) راجعاً إلى السمائل ، فالله - تعالى - هو الذى
 خلق المادة التى صنعت منها ، وهذا أدخل فى تضليلهم وأثبت فى الاحتجاج عليهم ؛ حيث
 قد عبدوا مخلوقات لله الذى يعبد ، تجرى عليها أحكامه ، فهى لا تملك شيئاً من أمر نفسها .
 فضلاً عن غيرها .

ثم توعدهم بأنه سيفعل بتلك الأصنام فعلاً له خطره وشأنه ، ليثبت لهم بالطريقة
 الفعلية أنها لا تملك من أمر نفسها شيئاً فقال :

(وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
 فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾
 مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾
 قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدْعُهُمْ يُقَالُ لَهُ رَبُّ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٠﴾
 قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ
 النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾
 قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهِتِنَا
 يٰإِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا
 يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾
 فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ
 الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ
 يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾)

الكلمات :

(لَاكِيدَنَّ) : الكيد ؛ الاحتيال لإلحاق الأذى بغيرك . (تَوَلَّوْا مُذْبِرِينَ) : تنصرفوا عنها وتركوا حراستها . (جُدَّادًا) : قطعاً ، من الجدُّ وهو القطع . (يَذْكُرُهُمْ) : يتحدث عنهم بما يعيبهم . (كَبِيرًا) : أى كبيراً فى تعظيمهم له ، أو فى حجمه .

(يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) : يسمى بهذا الاسم . (عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ) : على شهود منهم ، جمع عَيْن بمعنى شاهد . (يَشْهَدُونَ) : يحضرون مساءً لته وعقوبتنا له على فعله .

(فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ) : فعادوا إلى أنفسهم يتلاومون . (الظَّالِمُونَ) : الذين ظلموا أنفسهم بعبادة ما لا يعقل .

(نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ) : انقلبوا عليها ، والجملة كناية عن أنهم رجعوا عن رأيهم وذلك بالشروع فى الجدل .

التفسير

٥٧ - (وَمَا لَكُمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تَوَلَّوْا مُذْبِرِينَ) :

أكد إبراهيم - عليه السلام - ما اعتزم من الكيد للأصنام بلام القسم ونون التوكيد فى قوله : (لَأَكِيدَنَّ) .

والظاهر أنه - عليه السلام - لم يواجههم بالوعيد والتهديد المفهوم من الآية ؛ لأن المواجهة لا تتفق مع الكيد والاحتيال للإيقاع بالأصنام وتكسيها .

روى أن (آزر) خرج هو وقومه فى يوم عيد لهم ، فبدأوا ببيت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها ووضعوا بينها طعاماً ، وقالوا : إلى أن نرجع تكون الآلهة قد بركت عليه فنأكل منه ، فذهبوا وبقى إبراهيم معتزلاً بأنه سقيم ، ثم نظر إليها وكانت سبعين صنماً مصطفة ، وثمة صنم عظيم ، ونظر إبراهيم إلى ما بين أيديها من الطعام فقال لها - مستهزئاً - : ألا تأكلون ؟ فلما لم يجيبوه قال : ما لكم لا تنطقون ؟ فراغ عليها ضرباً باليمين وجعل يكسرها بفأس فى يده حتى إذا لم يبق إلا الصنم الكبير ، علق الفأس فى عنقه ثم خرج . ١٥

ويشير إلى ذلك قوله تعالى :

٥٨ - (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) :

أى : فعمد إبراهيم إليها تكسيراً وتقطيعاً حتى صارت قطعاً صغيرة . وإنما استثنى كبير الأصنام دون جُذٍّ وكسر ؛ لكي يرجعوا إليه ويستخبروه الخبر ، فلا يجدوا عنده جواباً ، فهو الجمد الذى لا ينطق ، ولعلمهم حينئذ يستيقظون من سباتهم ، ويتنبهون من غفلتهم ، ويكون ذلك سبباً فى إقلاعهم عن عبادة الأصنام ، والرجوع إلى دين إبراهيم ، والإيمان بالله رب السموات والأرض دون سواه ، فلما عادوا إلى أصنامهم عجبوا لما أصابها ، ولم يستدلوا بذلك على حقارتها ، بل حدث منهم ما حكاه الله بقوله :

٥٩ - (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) :

أى : قالوا - سائلين على سبيل التعجب والتأثيم والوعيد - قالوا : مَنْ أحدث هذه الفعلة الشنعاء بآلهتنا ومعبوداتنا فنالها بالتحطيم والتكسير؟ ثم وصفوا المحطّم لها بقولهم : (إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) : مؤكدين ظلمه وتعديه بيانً ولام القسم - يعنون : أنه بما فعل قد ظلم الآلهة بالاعتداء عليها ، وظلم نفسه بتعرضه لسخطها - كما يزعمون ويتوهمون - كما أنه ظلم عشيرته وقومه بإهانتهم فى تكسير آلهتهم .

٦٠ - (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) :

أى : قال الذين سمعوا إبراهيم يعيب الأصنام وعبادتها ، ويدعو إلى إله غيرها : إنا سمعنا فتى يذكر آلهتنا بسوء ، واسم هذا الفتى إبراهيم ؛ فلم يذكر أحد آلهتنا بسوء غيره ، ولم يستهزئ بها وينكر ألوهيتها سواه ، فيغلب على ظننا أن يكون هو الذى فعل بها ما نرى . وفى تعبيرهم عن إبراهيم بقولهم : (يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) استهزاء به وسخرية منه وإغراء به ، وتشغيب عليه للنيل منه .

وضمير الجماعة فى قولهم : (يَذْكُرُهُمْ) : يشير إلى أنهم كانوا يصفون على هذه الأصنام صفات العقلاء وأنها تضر وتنفع .

٦١ - (قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَىٰ أَغْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) :

أى : أنهم لما شاهدوا كسر الأصنام ، وقيل لهم : إن فاعل هذا يُظَنُّ أنه إبراهيم ؛ لأنه كان يذكرها بسوء ، قالوا : فاتوا به فى مكان ظاهر بحيث تراه كل عين وتشاهده ؛ ليشهدوا

مسألته والعقوبة التي تحل به ، فيشفي ذلك صدورهم ويذهب غيظ قلوبهم ، وليكون ما ينزل به رادعاً لمن تحدثه نفسه أن ينال من الآلهة ، أو يحاول الميل إلى دين إبراهيم الذي يدعو إليه ، فلما أحضروه بمشهد من قومه سألوه سؤال تقرير حتى يعترف بما فعل ليقدموا على عقابه .

٦٢ - (قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ) :

أى : أنت الذى حطمت آلهتنا وكسرت معبوداتنا التى هى عندنا بمكان التقديس والتعظيم ؟ وكيف تجرأت على ذلك ولم تخف غضبها عليك ، ولا غضبتنا لها ، وانتقامنا منك ؟ وكان جواب إبراهيم - عليه السلام - غريباً عجيباً مخالفاً لما كانوا ينتظرون ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

٦٣ - (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) :

لم يكن إبراهيم يقصد أن صنمهم الكبير هو الذى حطم الأصنام الصغيرة على الحقيقة ، بل كان يريد بهذا الأسلوب المجازى إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، والاستهزاء بهم ، وتنبيههم إلى قصر فهمهم ، وسوء تقديرهم ، مع إرشادهم إلى الصراط السوى والسبيل المستقيم ؛ لأن هذا الصنم وإن كان كبيراً فإنه لا إرادة له ولا حياة فيه ، فلا يستقيم أن ينسب إليه تحطيم غيره من الأصنام وتفتيتها غيره منها وكراهة لها ، والذى يرشح ويقوى هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك : (فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) وكأنه قال لهم : لا يعقل أبداً ولا يستقيم لدى من عندهم مسكة من عقل أن يكون هذا الصنم قد قام بتحطيم غيره من الأصنام ، فجميعها جماد لا حياة فيها ، وقد صنعت بأيديكم ، ولا يتميز واحد منها على سواه بكبر أو زينة ، فإن صورها وأشكالها قد جاءت حسب أهوائكم ومشيتكم فكيف تعبدونها ؟ وإذا كانت لا تستطيع حماية نفسها ممن حطمها فكيف تخرون سجداً لها ، أولى بكم أن تندبروا أمركم ، وتشوبوا إلى رشدكم ، فتتركوا عبادتها ، وتفردوا الله وحده بالعبادة والطاعة . (فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) : وهذا غاية السخرية ، ونهاية الإلزام بالحجة الدامغة ؛ فهم لا ينطقون ، ومن لا ينطق فلا يستطيع الإخبار عن اعتدى عليه ، ومن كان كذلك فليس أهلاً للعبادة ، وإذا عبده الحمقى والسفهاء فجدير به أن يُحطَّم .

٦٤ - (فَرجِعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ) :

أى فتنبهاوا واقتنعوا بأن إبراهيم محق فيما قال ، ورجعوا إلى أنفسهم يتلاومون ، فوصف بعضهم بعضاً بالظلم : (فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ) : لأنهم كذبوا إبراهيم وعبدوا أصناما لا تنفع ولا تضر ، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها ، ولا الإخبار عن حطمها ، وهذه البقطة العقلية تحدث أحيانا حين تسطع الحجة ويبهز الدليل ، ولكنها لا تلبث طويلا عند الجهلاء المقيمين على الضلال ، ولذا لم يثبت قوم إبراهيم على هذا الاقتناع ، فعادوا إلى جهالتهم ورُدُّوا إلى سفاهتهم ، ولذلك يقول الله تعالى :

٦٥ - (ثُمَّ نُكِيسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ) :

أصل النكس : قلب الشيء ، بحيث يكون أعلاه أسفله ، وأريد به - هنا - أنهم عادوا إلى المجادلة بالباطل بعد ما استقاموا بمراجعة إبراهيم لهم ، ولم يستندوا في انتكاسهم هذا إلى برهان ساطع أو دليل قاطع ، ولكنه العناد الذى تركهم في ريبهم يترددون مع أن الحجة لا تزال قائمة عليهم بقولهم في الدفاع عن أنفسهم :

(لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ) : وكان مقتضى هذا أن يستمروا على يقظتهم

وأن يخضعوا لحجة إبراهيم ومنطقه ، ولكنهم لغلبة الجهل والصلف عليهم تنكروا للحق ، وانساقوا وراء الباطل جهلا واستكبارا .

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ٦٦) أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ٦٨) قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ٧٣)

المفردات :

- (أَفُ) : لفظ يدل على التوجع والتألم مما يجد . (حَرِّقُوهُ) : أحرقوه بالغ الإحراق .
 (انصُرُوا آلِهَتَكُمْ) : انتقموا لها . (بَرْدًا وَسَلَامًا) : برِّد آمن لا برد هلاك .
 (كَيْدًا) : إهلاك ناشئ عن الكيد ، وهو تدبير الشر للعدو .
 (الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) : هي بلاد الشام .
 (نَافِلَةً) : هبة خالصة وزيادة على ما سأل إبراهيم :

التفسير

٦٦ - (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ) :

بعد أن ظهرت الحجة لإبراهيم عليهم ، قال مبكنا وموبخا لهم : أتعبدون إلى الجهالة

فتعبدون مالا يجلب لكم نفعاً إن أنتم عبدتموها ، كما أنها لا تضركم شيئاً من الضرر إن أنتم تركتموها .

٦٧- (أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

فَبَحّاً لَكُمْ ولما تعبدون من دون الله ، ألاّ تتفكرون فيما صرتم إليه فلا تعقلون سوء عملكم وقبيح صنعكم ؟ الأجدر والأولى بكم أن تتدبروا وترجعوا إلى الفطرة السليمة التي تهدي إلى الخالق - جل وعلا - فهو الذي فطركم وربّاكم . وخلق معبوداتكم ، فتعالى الله عن الشريك والمثيل ، وعن قبول عبادتكم لسواه .

٦٨- (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) : أى قال بعضهم لبعض :

حرقوا إبراهيم وانصروا بذلك آلهتكم ؛ فقد سخر منها ونالها بالتحطيم ولم يرع قدسيتها وتعظيمها عندكم . (إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) : أى إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرنا مبينا فهذا سبيله ، وإلاّ تفعلوا كنتم مفرطين في حقها ، وهذا الذى قالوه هو سبيل المُفْحَم المحجوج الذى بهتته الحجة وعجز عن البرهان ، فقد قالوا ذلك بعد أن استيقنت أنفسهم أن آلهتهم لا تستطيع أن تنصرهم عليه ، بعد أن عجزت عن دفع التحطيم عن أجسادها .

٦٩- (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) :

أى قلنا للنار حين ألقوا فيها إبراهيم : كوني بردا وسلاما عليه ، والمقصود من هذا الأمر الكريم أنه سبحانه سلب منها طبيعتها وهى الإحراق ، وجعلها باردة غير ضارة ببرودتها بحيث تكون سلاما عليه ، فلا يصيبه منها أذى في جسده ولا في نفسه ، فجمع له الله في تلك النار بين السلامة الحسية والسلامة النفسية ، فكان مشروح الصدر مطمئن القلب ، سليم البدن .

ذكر أصحاب الأخبار قصة تحريق إبراهيم - عليه السلام - مرة مطولة ، وأخرى موجزة ، ونحن نسوقها باختصار فيما يلي :

لما اجتمع عمروذ وقومه لإحراق إبراهيم بنوا له بنيانا كالحظيرة ، يشير إلى ذلك

قوله تعالى : « قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ » ^(١) . ثم جمعوا له الكثير من صلاب الحطب ، وأوقدوا نارا عظيمة ثم اتخذوا منجنيقا ووضعوا فيه إبراهيم مقيدا مغلولا ، وقذفوه في النار ، فاتاه جبرائيل - عليه السلام - وقال : يا إبراهيم هل لك حاجة ؟ قال له : أما إليك فلا . قال جبرائيل : فاسأل الله ربك ، قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي ، فقال الله تعالى : « يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ » وبهذا رد الله كيدهم إلى نحورهم .

قال أبو حيان في (البحر) : قد أكثر الناس في حكاية ما جرى لإبراهيم عليه السلام ، والذي صح هو ما ذكره الله تعالى من أنه عليه السلام أُلقي في النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما ، ويقول أبي حيان نقول ، والله أعلم .

٧٠ - (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) :

أي : أرادوا بإبراهيم عليه السلام مكرًا عظيمًا في الإضرار به ؛ عقابا له على دعوة التوحيد التي جاء بها ، وظنوا أنهم سينالون ما يريدون ، وأخذوا لذلك أسباب إهلاكه ، من إشعال النار وطرحه فيها ، ولكن ضل سعيهم ، وباء عملهم بالفشل الذريع ، فقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما ، وكان ما فعلوه هو البرهان القاطع على أنه - عليه السلام - على الجادة والصراط المستقيم ، وهم على الباطل ، فجعلهم الله بذلك أخسر الخاسرين ، وأنعم الماكرين المبطلين .

٧١ - (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) :

أي : وأثمننا على إبراهيم النعم بأن نجيناه من هؤلاء القوم فرحل من بلادهم بالعراق وقال : « إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي » ^(٢) . وهاجرت معه زوجته سارة وابن أخيه لوط بعد أن آمن به ، ورحلوا معا إلى الأرض المباركة ، أرض الشام التي باركها الله ؛ بأن جعلها مهبط كثير من الأنبياء ، ومهد معظم الرسالات ، كما أكرمها بكثرة خيراتها وزيادة ثمارها وتدفق المياه

(١) سورة الصافات ، الآية : ٩٧

(٢) سورة النكبات ، من الآية : ٢٦

في أرجائها ، وامتلاء أرضها بالأشجار ، ووفرة الأرزاق فيها . ثم هاجر لوط إلى الموثفكة حيث أرسله الله إلى قومها المشهورين بفعل الخبائث وستأني قصته معهم قريبا في هذه السورة .

وفي تعميم البركة للعالمين ما يفيد أن الذي بها من خيرات ليس مقصوراً على أهلها ، ولعل ذلك أكثر وضوحاً في جانب الهداية ؛ لأن نور الرسالات والنبوات انتشر من هذه البقاع إلى العالمين ، ولم يكن حبساً على المقيمين فيها ولا مختصاً بهم .

وقد انتشرت في أرض الشام دعوة إبراهيم - عليه السلام - ، كما أنها عمت أرض الحجاز حيث بنى البيت الحرام ، ودعا الناس من حوله إلى عبادة الله وحج بيته الحرام ، إلى غير ذلك من جهات الأرض التي زارها .

٧٢ - (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ...) الآية .

يعدد الله نعمه على إبراهيم عليه السلام ، فإنه - تعالى - قد نجّاه من النار ثم هباً له ولابن أخيه لوط الذهاب إلى الأرض المباركة ، وبعد أن استقر به المقام من الله عليه بنعمة الذرية ليكونوا امتداداً له في أداء رسالة الله في الأرض ، فوهب له من زوجته (سارة) إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .

والتعبير عن رزقه بإسحق وابنه يعقوب بأنه هبة ونافلة ؛ لأنه رزقهما في أعلى سن اليأس ، والنافلة في اللغة قد تطلق على : العطية ، وعلى هذا تكون (نافلة) حالاً من إسحاق ويعقوب ، ويجوز أن تكون حالاً من يعقوب وحده ، فقد قيل : إن هبة إسحاق كانت إجابة لدعوة إبراهيم : «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ» ^(١) وهبة يعقوب كانت زيادة وعطية له من غير سؤال منه لربه سبحانه وتعالى .

(وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ) : أى وكلا من إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب جعلناهم طائعين لنا عاملين بأوامرنا مجتنبين محارمنا .

٧٣ - (وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) الآية .

أى : وأعددناهم ليكونوا أنبياء هداة وأئمة يقتدى بهم الناس ويتبعون سبيلهم ؛ فهم الأسوة الحسنة والقُدوة الطيبة ، إذ الدعوة بالعمل مع القول آكد وأقوى وأكثر نفعا من الدعوة بالقول وحده ، ومع كونهم قدوة لغيرهم في عقائدهم وسلوكهم ، فهم يهدون بأمرنا أى : يدعون الناس إلى دين الله بإرشاد ووحى منا ، وقد بين الله ما أوحاه الله إليهم ليعملوا به ويبلغوه فقال :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ) : أى وشرعنا لهم فعل الطاعات والمبرات التى يسعد بها البشر فى دنياهم وأخراهم ، ومن أعظم هذه الخيرات التى شرعناها لهم : إقام الصلاة ، أى : أدائها تامة كاملة على خير الوجوه فى أوقاتها ، وإيتاء الزكاة لمستحقيها مما يحبون ومن خيرا ما يملكون ، لا يدفعهم إلى بذلها رغبة أو رهبة من أحد إنما يقدمونها ابتغاء مرضاة ربهم .

فأنت ترى أن الله خص الصلاة والزكاة بالذكر مع دخولهما فى الخيرات التى أوحاها وشرعها ؛ لأن الصلاة أشرف العبادات البدنية ، والزكاة أفضل القربات المالية ، ومجموع العبادتين تعظيم للخالق ، ورحمة بالمخلوق .

وقد جمع الله لهؤلاء الصفوة من خلقه فضائل الصفات ، وكرائم الشوائب ، فوصفهم بالصلاح لأنه أول مراتب السائرين إلى الله تعالى ، ثم زادهم فضلا فوصفهم بالإمامة والقُدوة ، ثم وصفهم بالنبوة والوحى .

وبعد أن بين أصناف نعمه عليهم بيّن اشتغالهم بعبوديته فقال :

(وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) : أى : خاشعين لا يستكبرون عن عبادتنا ، ولا يتجهون بها إلى أحد سوانا فقد قابلوا إحسان الله عليهم بإخلاص العبودية له وحده .

(وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي
كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾
وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى
مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَنَصْرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ
سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(حُكْمًا) : حكمة ونبوة . (الْقَرْيَةِ) قيل : هي سدوم . (الْخَبَائِثَ) : هي كل
منكر من الأعمال ، ومن أفحشها إتيان الذكران . (فَاسِقِينَ) : خارجين عن أمر الله
وطاعته . (الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) : الطوفان والغرق .

التفسير

٧٤- (وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) الآية .

لما ذكر الله قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه ، وبين أنه أنجاه ولوطا إلى الأرض
المباركة ، أتبعها قصة ابن أخيه لوط مع قومه .

ومعنى الآية : وأعطينا لوطا حكمة في سلوكه مع قومه الذين يمارسون أفحش رذيلة
في العالمين ، فكان يأخذهم إلى الفضيلة بالأسلوب الرشيد والمنطق السديد ، كما آتيناه
علما دينيا وشرعا كرمما يتبعه ويأمر به قومه .

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ) : وأنعمنا عليه بأن نجيناه وحفظناه من كيد أهل قريته ، وخيانتهم له ، ومن الهلاك معهم عندما قلبها بهم ودمرها عليهم ، جزاء ما ارتكبوا من المنكرات ، وكان أشدها فحشا إتيانهم الذكران ، والاستغناء بهم عن الحلال الطيب من نسائهم .

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ) : إنهم قد طبعوا وجبلوا ونشأوا خارجين عن طاعة ربهم ، مرتكسين في الرذيلة ، فكان إتيانهم الفواحش متفقاً مع خسيس طبائعهم ومردول جبلتهم .

٧٥- (وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) :

أى : وأدخلنا لوطاً في رحمتنا ، وأحطنا بفضلنا وجزيل عطائنا ، فمحنناه النبوة وهى قمة المنح ، فأى رحمة أفضل وأتم وأكمل من اصطفاء الله لعبده واختياره ليكون مبلّغاً عنه تعالى وهادياً لقومه ، ويجوز أن يراد من الرحمة الجنة ، أى : أدخلناه في جنتنا ؛ لأنه من الصالحين .

٧٦، ٧٧- (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ .

وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) :

المعنى : واذكر - يا محمد - نبأ نوح وقت أن اشتد به الكرب ؛ من أذى قومه تارة بالكذب والتسفيه ، وأخرى بالكيد والسخرية ، فالتجأ إلينا مستعيناً بنا ، ودعانا بقوله : « أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ » ^(١) وطلب منا أن نهلك جميع الكافرين من قومه بقوله : « رَبِّ لَا تَذَرْنِى عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا » ^(٢) وذلك بعد أن أعلمناه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، فاستجبنا له وحققنا ما طلب فنجيناه وخلصناه من العُزْن والضيق العظيم ونصرناه من قومه الذين كذبوا بآياتنا ، حيث حميناه من شرهم ، فإنهم كانوا أهل سوء وقبح وفساد ، وجعلنا عاقبتهم جميعاً الإغراق بالطوفان بعد أن أنجينا نوحاً ومن آمن من قومه .

(وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ
 غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ
 وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ يُسَبِّحْنَ
 وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتَحْصِنَكُمْ
 مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً
 تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ
 ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(الْحَرْثُ) : الزرع . (نَفَشَتْ) : رعته ليلا بلا راع وأفسدته ، يقال : نفشت
 بالليل ، وهملت بالنهار . (حُكْمًا) : حكمة وفقها^(١) (لَبُوسٍ) : اللبوس عند العرب :
 السلاح كله ، درعا كان أو سيفاً أو رمحا أو غيرها ، والمراد به هنا : الدرع .
 (لَتَحْصِنَكُمْ) لتحفظكم وتمنعكم . (بَأْسِكُمْ) : البأس ؛ الشدة والحرب .
 (يَغُوصُونَ) : ينزلون إلى أعماق البحار .
 (عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ) : عملا غير ذلك كبناء القصور ، والصناعات البديعة .

التفسير

٧٨ - (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ...) الآية.

(١) انظر القرطبي .

أى : اذكر أيها الرسول - لقومك قصة داود وسليمان وشأنهما في قضية غنم لقوم انتشرت في زرع لآخرين ، فأكلت ما أكلت وأتلفت ما أتلفت ، وخلاصة ما ذكره المفسرون في هذه القصة : أن رجلين دخلا على داود - عليه السلام - أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم ، فقال الأول : إن غنم هذا دخلت حرثي ورعته وما أبقت فيه شيئا ، فقال داود - عليه السلام - لصاحب الحرث : اذهب فإن الغنم لك ، فخرجا فمرا على سليمان ، فقال لهما : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه . فقال : لو كنت أنا القاضى لقضيت بأن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له نفعها ، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه ، حتى إذا كان العام القابل ، وكان الحرث على هيئته يوم أُكِلَ رُدَّت الغنم إلى صاحبها ، وقبض صاحب الحرث حرثه ، فوافق داود على حكم سليمان ، وقال له : القضاء ما قضيت ، وبمعناه قال ابن مسعود ومجاهد وغيرهما .

(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ) : أى وكنا شاهدين عالمين بما حكم به كل واحد منهما لا يغيب عنا منه شيء .

٧٩ - (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعَلِمَّا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) :

أى : فأرشدنا وألهمنا سليمان إلى أصوب الرأيين وأرشد الحكمين ، فقد اجتهد داود - عليه السلام - في الأمر فرأى أن ما أكلته الغنم وأتلفت يقدر ويقوم بثمنها جميعاً فحكم بها لصاحب الحرث ، ورأى سليمان - عليه السلام - أن غير هذا أرفق بالفريقين ، وقضى بأن تسلم الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بها لبنا وسمنا وصوفنا ونسلا ، ويقوم صاحب الغنم على الحرث حتى يعود إلى ما كان ، ثم يرد إلى كل منهما ما يملك من حرث أو غنم كما تقدم بيانه

وهذا الحكم قد بنى على اجتهد من داود وسليمان عليهما السلام - فالنبي - له أن يجتهد فيما لم يرد فيه نص ، والوحي قد يقره أو يعدله أو لا ينزل في شأنه بشيء فيكون تقريراً للحكم ، وكلاهما - عليهما السلام - آتاه الله الحكمة والعلم فلم يخرج حكم أحدهما على ماتقتضيه الحكمة حسب اجتهاده ؛ فكلاهما كانت له المعرفة بوجوه الاجتهاد وطرق الأحكام والبصر بالأمور ، وفضل سليمان راجع إلى فضل أبيه ، والوالد تسره زيادة ولده عليه .

(وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ) : أى وجعلنا كُلاً من الجبال والطير تسبح الله تعالى حين يسبحه داود ، وكان ذلك تسبيح مقال ليكون وجه الامتنان على داود بتسبيحها معه ظاهراً واضحاً . وقال بعض المفسرين : إن التسبيح كان بلسان حالها ، فهي لاتنطق ، ولكن بديع صنعتها ، ودقة تركيبها ، وعظيم المهام المتعلقة بها تدل على أنه - تعالى - هو الخالق البديع .

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

والرأى الأول أوضح وأرجح لما بأتى :

١ - أن حمل التسبيح على أنه كان بلسان الحال لا يجعل لداود مزية على غيره ، فكل الأشياء - ومنها الجبال والطير - تسبح بلسان حالها .

٢ - أن تخصيص الجبال والطير دون غيرها بالتسبيح وكونها مسخرة مع داود يقتضى أن يكون التسبيح قولياً .

٣ - أن الشأن فى اللفظ أن يحمل على ظاهره ما لم تكن - ثمة - ضرورة صارفة عن هذا الظاهر ولا ضرورة ههنا .

٤ - أن قوله تعالى : « وَكُنَّا فَاعِلِينَ » يشير إلى ذلك ، أى : وكنا قادرين على أن نفعل العجائب ، أن تسبح الجبال والطير بلسان المقال .

٨٠ - (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) :

أى : وأرشدناه إلى صنع لباس الحرب ودروعها لئلا نمنعكم وتحميكم من بأس حربيكم مع عدوكم وشدته ، وقد اتخذ داود - عليه السلام - من الحديد دروعاً واقية بعد أن ألانه الله له ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ . أَنْ اِعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ » ^(١) .
وقدم تسخير الجبال على الطير ؛ لأن تسخير الجبال وتسبيحها أعجب وأدل على قدرة الله وأدخل فى الإعجاز لأنها جماد ، أما الطير فهي حيوان يصيح ويعبر عما فى نفسه بمنطقه الذى علمه الله إياه .

٨١- (وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ) :

وهذا هو الإنعام الأول الذي خص الله به سليمان عليه السلام .
ومعنى النظم الكريم : وسخرنا لسليمان الريح شديدة الهبوب ، فلا يعوقها عائق ولا يقف شيء دون سيرها ، فهي تتخطى كل ما يعترضها وتتغلب عليه .
(تَجْرِي بِأَمْرِهِ) : أى تطيعه وتنقاد له - عليه السلام - فإن أرادها سريعة شديدة أسرع وأشدت ، وإن أراد منها غير ذلك كانت على حسب ما يريد ويحكم ، تتجه وفق مشيئته به وبرجاله في ليل أو نهار .

(إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) : إلى أرض الشام التى باركنا فيها ، حيث جعلناها مكان الخصب العميم ، والخير الكثير ، والماء الوفير ، والشجر النضير ، وهى فوق ذلك مهبط كثير من الرسالات ومهد معظم الأنبياء ، فالبركة تشملها حساً ومعنى .
(وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ) أى : وكنا بكل شيء سخرناه فى الكون عالمين بطريقة تسخيرها ، وتدبير أسبابه وآثاره ، فلهذا سخرنا لسليمان هذه المخلوقات التى تعجز قدرته عن أن تسيطر عليها ، وكل ذلك إنما يجرى حسبما تقتضيه حكمتنا ويحيط به علمنا .

٨٢- (وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغْوُصُونَ لَهُ) الآية .

وهذه هى النعمة الثانية التى اختص الله بها سليمان - عليه السلام - .
والمعنى : وسخرنا لسليمان بعض الشياطين من الجن ينزلون فى أعماق البحار يستخرجون له من الجواهر والنفائس ما يحتاج إليه ملكه .

(وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ) : من بناء المدن والقصور والحصون ويصنعون الصنائع العجيبة كما قال الله تعالى : « يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ »^(١) .

(وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ) : أى وكنا للشياطين حافظين من أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا ما عملوه أو يضرروا رعيته ، وكان أمرهم معه كما قال تعالى : « وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ »^(٢) .

ويقول الفخر الرازي تعليقا على تسبيح الحجارة وإلانة الحديد لداود ، وعلى تسخير الريح والشياطين لسلیمان عليهما السلام :

« اعلم أن أجسام هذا العالم إما كثيفة أو لطيفة ، أما الكثيف : فأكثف الأجسام الحجارة والحديد ، وقد جعلهما الله معجزة لداود - عليه السلام - فأنطق الحجر ولتين الحديد ، وكل واحد منهما كما يدل على التوحيد والنبوة يدل على صحة الحشر ؛ لأنه كما قدر على إحياء الحجارة فأى بُعد فى إحياء العظام الرميمة ؟ وإذا قدر على أن يجعل فى أصبع داود - عليه السلام - قوة النار مع كون الأصبع فى نهاية اللطافة ، فأى بُعد فى أن يجعل التراب اليابس جسما حيوانيا ؟ والطف الأشياء فى هذا العالم : الهواء والنار ، وقد جعلهما الله معجزة لسلیمان - عليه السلام - أما الهواء فقوله تعالى : « فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ » وأما النار فلأن الشياطين مخلوقة منها ، وقد سخرهم الله تعالى له فكان يأمرهم بالغوص فى المياه وهم ما كان يضرهم ذلك ، وذلك يدل على قدرته تعالى على إظهار الضد من الضد » ا هـ .

* (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضِرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ
أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾
وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۚ إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ
ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا
لَهُ ۖ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(مَسْنَى) : أصابنى . (الضَّرُّ) : سوء الحال بسبب المرض .

التفسير

٨٣- (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنَى الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) :

واذكر فيمن تذكره من الأنبياء والصالحين أيوب - عليه السلام - وما أصابه من البلاء وما قابله به من الصبر والضراعة والدعاء ، وإثقا أن كل شدة إلى انتهاء وأن البلاء لم ينج منه أحد حتى الأنبياء ، قال تعالى : « وَنَبَلُّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَلِئِنَّا تُرْجَعُونَ »^(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ؛ يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلواً اشتد بلاءه ، وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى وما عليه خطيئة » . رواه الشيخان والنسائي وابن ماجه .

ويذكر الرواة : أن أيوب - عليه السلام - كان واسع الثراء ، ذا مالٍ وافر وأولاد ، فأصابه البلاء في ماله ، وفي ولده ، ثم في صحته ، واشتد به البلاء وحل به الإعياء ، فشكا إلى ربه متضرعاً قائلاً : « أَنِّي مَسْنَى الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

ويقول الرازى في المسألة الرابعة - تعليقاً على هذه الآية - : إن أيوب عليه السلام ألطف في السؤال ، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ، ولم يصرح بالمطلوب ، وعقب الرازى ذلك بقوله : فإن قيل : إن الشكوى تقدح في كونه صابراً ، فالجواب ما قاله سفيان بن عيينة حيث قال : من شكأ إلى الله تعالى فإنه لا يعد منه ذلك جزعاً ، إذا كان في شكواه راضياً بقضاء الله ، إذ ليس من شرط الصبر استحلااء البلاء ، ألم تسمع قول يعقوب : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ » انتهى بتصرف يسير .

وقد ورد في بلاء أيوب وفي مدته روايات واهنة لا يقبل العقل تصديقها ؛ حيث إنها تصف مرضه بأنه نفر عنه الناس وأبعدهم منه ، وأنه مكث به عدة سنين ، وأن

زوجته كانت تقوم بالخدمة في البيوت لتحصل على رزقه ، وكل ذلك باطل من جهة الرواية ، ومن جهة ما يجب للأنبياء ، من الصفات الكريمة التي تجمع الناس حولهم ، ولا تبعدهم عنهم ، ليستطيعوا أداء رسالة مولاهم ؛ وكل ما جاء في الآية أنه تعالى امتحنه بضر ، فشكا إلى ربه راجيا رحمته تعالى لأنه أرحم الراحمين ، ولا بد أن يكون هذا الضر مما يصاب بنحوه الأنبياء ، ولا يبعد عنهم الأوفياء والأولياء ولا يمنعهم من أداء رسالتهم .

ويقول النسابون : إنه ابن أنوص ، وكان من ولد عيصو بن إسحاق ، وأمه من ولد لوط ، وزوجته بنت ميثا بن يوسف ، أو رحمة بنت إفرام بن يوسف عليه السلام ، والله أعلم بصحة هذا النسب : انظر الرازي والبيضاوي في النسب المذكور .

٨٤- (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ) الآية .

فَلَبَّيْنَا دَعَاءَهُ وَأَجَبْنَاهُ إِلَىٰ مَطَالِبِهِ وَوَهَبْنَاهُ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فَأَعَدْنَا لَهُ صَحْنَهُ وَأَزَلْنَا مَا أَصَابَهُ مِنْ مَرَضٍ فِي جَسَدِهِ .

(وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ) :

وكما أزلنا ما به من الضر ، عوضناه من أولاده الذين ماتوا أولاداً بعددهم ومثلهم معهم ، تفضلاً منا وعطفاً عليه جزاء صبره ورضاه بما قضيناه عليه ، ولتكون قصته عبرة وذكرى لكل من يعبد الله ويرضى بقضائه ويصبر على بلائه ويشكره على نعمائه .

وليعلم الناس أن البلاء ليس عقاباً على ذنب ارتكبه صاحبه ؛ لأن الدنيا ليست دار جزاء ، وليدركوا أن من أسباب الفرج دعاء الله تعالى والابتهال إليه ، وأن العاقبة للمتقين ، « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

٨٥- (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ) :

ذكر هؤلاء الأنبياء بعد ذكر قصة أيوب ووصفهم بالصبر ، يدل على أن كلا منهم قاسى من شدائد الحياة ما اقتضى منه الصبر ، أما إسماعيل فصبر على الانقياد للذبح ، وصبر على المقام بأرض غير ذى زرع ، وصبر على ما عانى في بناء البيت ومشاق التكليف .

وأما إدريس فقد قيل : إنه مصرى بعث إلى قومه ، وإنه أول من خاط الثياب ووصفه بأنه من الصابرين يدل على أنه عانى من مشاق التبليغ ومحن الحياة ما اقتضى وصفه بذلك .

وأما ذو الكفل فقد قيل : إنه ابن أيوب . وقيل : بل هو إلياس ، واختلف في نبوته ، وأكثر العلماء على أنه نبي من أنبياء الله ؛ ولذا ذكره الله في سورة الأنبياء ، ووصفه مع قرينه بقوله تعالى : « كُلُّ مِّنَ الصَّابِرِينَ » للدلالة على أن الصبر كان من أبرز صفاتهم ، وأنهم امتحنوا بمشاق تقتضى التنويه بصبرهم عليها وإن كنا لم نعثر على المحنة التى صبر عليها ذو الكفل .

٨٦- (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا . . .) الآية .

المراد بالرحمة هنا : النبوة ، أو الجنة ونعيم الآخرة ، أو ما هو أعم من ذلك .

(إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ) : هذه جملة مستأنفة في موضع التعليل ، وصلاحهم هو الصلاح الكامل ؛ لأنهم الأنبياء المعصومون فاستحقوا بذلك إدخالهم في رحمة الله ، أو المراد بالرحمة : النبوة ، والمعنى : أنعمنا عليهم بالنبوة التى هى رحمة منا لأنهم من الصالحين لها .

٨٧- (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا . . .) الآية .

النون : الحوت ، وذا النون : يونس - عليه السلام - ونسب إليه ، لأنه التقمه وهو لم يمل ، كما سيأتى بيانه فى قصته ، والمعنى : واذكر يا محمد لقومك قصة ذى النون حين تولى عنهم مغاضبا لهم ، فقد بعثه الله لأهل نينوى من بلاد الموصل فبلغهم رسالة ربه ، وخوفهم عذابه ، ولكنهم لم يؤمنوا وأصروا على كفرهم فهاجر عنهم مغاضبا لهم ، وهذا معنى قوله تعالى : « إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا » أى : غضبان على قومه ولم يؤمر بذلك ولا أُذن له فيه .

(فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نُّقَدِرَ عَلَيْهِ) : أى فظن أن لن نصيق عليه ولا نؤاخذه فى متاركة قومه

وخروجه من بينهم دون إذن منا .

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) :

في النص الكريم أمور ملحوظة دلت عليها قصة يونس في سورة الصافات ، حيث بينت أنه « أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ » .

والمعنى : أنه - عليه السلام - لما ترك قومه دون إذن من الله غضباً عليهم لكفرهم وإصرارهم عليه مع طول دعوته إليهم ، التجأ إلى سفينة مشحونة ، فلما لججت بمن فيها توقفت عن السير فقال قائلهم : إن الريح مواتية ، فلماذا تتوقف ؟ لا بد أن يكون بها رجل عاص ، فأجروا القرعة بينهم ، فخرجت على يونس ، وكان بذلك من المغلوبين ، فالتقوه في البحر فالتقمه الحوت وهو ملیم . أى : آت بما يلام عليه ، وأصبح بذلك داخل ظلمة كثيفة كأنها ظلمات ، حيث احتواه بطن الحوت داخل ظلمة البحر فنادى في هذه الظلمات : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ، إذ تركت قومي دون استئذان منك .

٨٨ - (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ . .) الآية .

« فَاسْتَجَبْنَا لَهُ » دعاءه الذي تضمنه نداؤه أن « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » ففي هذه الجملة طلب يونس - عليه السلام - من ربه بأسلوب التلويح أن يكشف عنه غمه ويزيل عنه كربيه ، بعد أن وصفه بكمال الربوبية ، ونزعه عن كل النقائص واعترف على نفسه ، وهو من أطف أساليب الأدب في الدعاء إذ يُعَرِّضُ بطلبه ولا يصرح به « وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ » الذي نزل به بسبب إلقائه في بطن الحوت .

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) : أى وكما نجى الله يونس من غمه ينجى كل مؤمن يعترف بذنبه ويقر بتقصيره فيه نادماً عليه ، - ينجيه - إن هو استعان بربه وسأله العفو والمغفرة .

(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ
 الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يُحْيِي وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ
 إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا
 لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَخْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا
 وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً
 وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ
 إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(لَا تَذَرْنِي) : لاتتركني . (فَرْدًا) : وحيداً لأعقب لي . (أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) : جعلناها
 صالحة للإنجاب . (يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) : أي يبادرون إليها ويجتهدون فيها .
 (رَغَبًا وَرَهَبًا) : طمعاً وخوفاً . (خَاشِعِينَ) : خاضعين مذعنين .
 (أَخْصَنَتْ فَرْجَهَا) : صانته . (آيَةً) : علامة .
 (تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ) : أي اختلفوا في دينهم .

التفسير

٨٩ - (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا) الآية .

أي : واذكر يا محمد نبياً زكرياً حين نادى ربه ، أي دعاه قائلاً :

(رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا) : لاتدعني وحيداً لا ولد لي كما جاء في قوله تعالى :

« فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » ^(١) .

(وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) : لِأَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا تُصِيرُ إِلَيْهِ حَتَّى .

٩٠ - (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) الْآيَةُ .

أى : أجبناه إلى ما طلب ، من أن يرزقه الولد ، وهو فى سن اليأس ، تفضلاً منا ورحمة ، وأصلحنا له زوجه بإزالة موانع الحمل فقد كانت عقيماً عاقراً ، كما جاء فى قوله تعالى حكاية عنه : « قَالَ رَبِّ ائْنِى بِكَوْنِ لِىْ غُلَامٌ وَكَأَنْتَ اِمْرَأْتُى عَاقِرًا » .

(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ) : هو بمثابة التعليل لما تقدم من قبول الدعاء وهبة الولد وإصلاح الزوج ، أى : استجبنا له ، ورزقناه يحيى فى أقصى سن اليأس ، وأصلحنا له زوجه العقيم ، لِأَنَّ أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَلَا يَتَبَاطِأُونَ عَنْهَا إِذَا مَا حَانَتِ الْفُرْصَةُ لِفَعْلِهَا . فالضمير فى « إِنَّهُمْ » لذكرى وأهله .

(وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) : أى ويعبدوننا مخلصين العبادة راغبين طامعين فى ثوابنا ، خائفين مشفقين من عذابنا .

(وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) : خاضعين مذعنين لا يستكبرون عن عبادتنا ودعائنا .

٩١ - (وَالَّتِىْ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) الْآيَةُ .

هى مريم - عليها السلام - أثنى الله عليها بالعفة وعدم مساس البشر قبل أن تحمل بهيسى - عليه السلام - ، فإحصانها فرجها : كناية عن أنها لم يمسسها بشر .

وقد أراد الله تعالى أن يجعلها آية للناس بقدرته على خلق بشر فى أرحام النساء بغير أب على خلاف السنة المعهودة ؛ ليعلموا أنه كما قدر على خلق بشر بلا أب ولا أم كما صنع مع آدم - عليه السلام - وبغير أم كما صنع بحواء - عليها السلام - فهو قادر على أن يخلقه دون أب كما صنع بهيسى - عليه السلام - .

ويصور الله خلقه فى جوفها بقوله :

(فَتَقَعَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا) : أى نفخنا فى جوفها من الروح الأمين جبريل عليه

السلام ، فهو الذى نَفَذَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى .

ومعلوم من الدين بالضرورة ، أن جبريل يطلق عليه (الروح) ، كما قال تعالى :

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ » .

ولذا قال سبحانه: (وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) : أى وجعلنا ولادتها إياه على هذه الحال آية على قدرتنا ومظهر الربوبيتنا .

٩٢ - (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ...) الآية .

والأمة كما تطلق على الجماعة من الناس تطلق أيضا على الدين والملة، وهو المراد هنا .
أى : إن الدين الذى جاء به سائر الأنبياء الذين تقدم ذكر أنبيائهم دين واحد، يدعو إلى عبادة الله وحده ، وإن اختلفت شريعة كل نبي فى بعض التفاصيل الفرعية التى تقتضيهما طبائع العصور المختلفة ، أما العقائد وأصول الأحكام فواحدة من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة .

(وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) : أى وأنا الرب الذى اخترت الدين ، وأرسلت كل رسول إلى أمتة بشريعته جملة وتفصيلا ، على وفق إرادتى ، وطبقا لمشيئتي ، وأنا أعلم كيف أبعث الرسل إلى الأمم برسالاتي وأنا المستحق للعبادة دون سواى ، فاعبدونى ولا تعبدوا غيرى ، وحيث كان دين الله واحداً فى أصوله ، فيجب الإيمان بجميع رسل الله الذين يبلغون عنه دينه .

فلا يحل لأحد أن يؤمن ببعض الأنبياء دون بعض ، ولا ببعض الكتب دون بعض ، ما لم تغيرها الأهواء والشهوات ، وتدخل عليها ما لم يأمر به الله .

٩٣ - (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ...) الآية .

كان الخطاب فى قوله تعالى فى الآية السابقة « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ » كان هذا الخطاب يقتضى أن يقول هنا : وتقطعتم أمركم بينكم ، ولكنه عدل إلى أسلوب الحديث عن قوم فى حكم الغائبين فقال : « وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ » إنزالاً لهم عن شرف الخطاب ، بسبب ما أحدثوه من التفرق فى الدين وجعله قطعاً موزعة ، ولكى يحكى أخبارهم لغيرهم ذمّاً لهم ، كأنه قيل : ألا ترون إلى عظم ما ارتكب هؤلاء من الاختلاف فى دين الله الذى أجمعت عليه كافة الأنبياء ، وفى ذلك ذم للاختلاف فى الدين ، وإسقاط للمختلفين فيه عن رتبة الخطاب لإعراضا عنهم .

وبما اختلف الناس فيه من دين الله : أمر توحيد الخالق سبحانه .

فقد قال قوم : عزيز ابن الله ، وقال آخرون : المسيح ابن الله . وغيرهم : الملائكة بنات الله ، وعبد آخرون الأوثان ، ومنهم من عبدوا الكواكب وغيرها .

وخلاصة ذلك أنهم أغفلوا ما أمروا به ، من وجوب الاعتصام بوحدة الدين ونبذ الفرقة فيه .

(كُلُّ إِلَهِنَا رَاجِعُونَ) : أى كل الأمم التى فرقت الدين ، واختلفت فيه ، عائدون إلينا بعد الموت للجزاء والحساب «فَمَنْ أَحْسَنَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٥﴾ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٧﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقِّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٨﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ إِلَهًا مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٠﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠١﴾)

المفردات :

(فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) : أى لا يضيع الله أجر عمله .

(وَحَرَامٌ) : الحرام الممنوع منه بقهر الله أو بشرعه أو بالعقل أو بأمر من يطاع أمره ،

والمراد منه هنا الأول كما في قوله تعالى : « وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ » : أى منعنا موسى بقدرتنا من أن يرضع من المراضع سوى أمه - انظر المادة في مفردات الراغب .

(عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) : أى قدرنا إهلاكها ، والمراد من القرية : أهلها .

(لَا يَرْجِعُونَ) : لا يبعثون . (فَتَحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) : أى فتح سدهم الذى كف أذاهم عن البشر . (وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) : وهم من كل مرتفع من الأرض يسرعون . (الْوَعْدُ الْحَقُّ) : الموعد الثابت ، والمراد به : ما يحدث بعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء .

(شَاحِصَةً أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) : أى مفتوحة لا تطرف .

(يَاوَيْلَنَا) : الويل العذاب ، والغرض من ندائهم إياه : التحسر .

(كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا) : أى أغفلناه وأهملناه فلم نعمل له .

(حَصْبُ جَهَنَّمَ) : هو الوقود الذى تشتعل به النار . (زَفِيرٌ) : الزفير نفَسٌ ؛ الغموم يخرج من أقصى جوفه .

التفسير

٩٤ - (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) الآية .

بعد أن بين الله تعالى تفرق الناس في أمر الدين ؛ فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان مصير كل منهم .

والمعنى : فمن يعمل من الصالحات التى بينها الله في رسالاته إلى رسله ، وهو مؤمن بما يعملها منها ، وبأن التكليف بها صادر عن الله تعالى ، فلا حرمان له من أجر عمله .

وعبر هنا عن الحرمان من الثواب بكفران السعى ؛ لبيان كمال نزاهة الله تعالى عنه ، بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من القبائح وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة منه سبحانه وتعالى ، مع أنها من فضله وكرمه .

(وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) : الضمير فيه عائد على السعى ، أى : إننا نثبت هذا العمل فى صحيفة صاحبه ؛ ليعلم أننا لا نضيع عليه نقيرا ولا قطميرا من طيبات أعماله ، كما قال سبحانه : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا » .

٩٥ - (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) :

بين الله فى الآيات السابقة أن الناس تقطعوا أمر الدين فيما بينهم واختلفوا فيه ، وأنهم إلى الله راجعون للحساب والجزاء ، وأن المؤمنين الصالحين سيجزون خير الجزاء . وجاءت هذه الآية وما بعدها لتؤكد للكفار رجوعهم إلى الله وسوء حالهم يوم القيامة .

والمعنى : وممنوع على كل قرية قضينا أزلا بإهلاك أهلها لشدة طغيانهم وفسادهم ، حرام عليهم ، وممنوع تخلفهم عن الرجوع إلينا للحساب والجزاء ، فلا بد من رجوعهم إلينا مقهورين بقدرتنا ، مسخرين ببعثنا إياهم وإعادة الحياة إلى أجسادهم ، ليلقوا عقابهم الأخرى ، بعد ما ذاقوا عذابهم الدنيوى .

ومن العلماء من اعتبر حرف « لا » صلة ، وليس نافيا ، وأن المعنى : وممنوع على قرية أهلكتها أن يرجعوا إلى الدنيا بعد إهلاكهم ، أو يرجعوا إلى التوبة .

والمعنى الأول هو المناسب لما تقدم من قوله سبحانه : « كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ » ولما سيأتى عقبه من الجزاء الأخرى للمنكرين للبعث ، وشخص أبصارهم وتحسرهم على كفرهم يوم الجزاء .

٩٦ - (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) :

(حتى) هذه هى التى يبتدأ بعدها الجمل ، ولا تفارقها معنى الغاية ؛ فهى غاية لمقدر يقتضيه المقام .

والمعنى : تستمر هذه القرى على ما هى عليه من الهلاك إلى وقت فتح أبواب الشر من يأجوج ومأجوج وخروجهم من كل مكان مرتفع من الجبال والهضاب ، يسرعون إلى البنى والعدوان على خلق الله ، والآية واضحة الدلالة على أن خروج يأجوج ومأجوج من علامات

الساحة ، كما يدل عليه قوله تعالى عقبها : « وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ... » الآية . فإن جملة « اقترَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » معطوفة بالواو على جملة « فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » داخلة معها في حيز الشرط ، وجوابها هو قوله تعالى : « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » فكأنه قيل : فإذا فتحت يأجوج ومأجوج ، واقترب بذلك الوعد الحق ، فاجتأهم القيامة بأهوالها ، كما يدل على ذلك أيضاً حديث مسلم وأبي داود وغيرهما ، فقد جاء فيه : « أن الله تعالى يبعث يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله تعالى : « مِنْ كُلِّ خَلْبٍ يَنْسِلُونَ » فيرغب عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله - عز وجل - فيرسل عليهم نغفاً^(١) في رقابهم فيصبحون موتى كموثى واحدة ... » الحديث .

ومن العلماء من قال : إن يأجوج ومأجوج هم التتار ، وأنهم فتحوا السد الذي بناه دونهم ذو القرنين ، وعاثوا في الأرض فساداً ، ويعرف هذا السد بسد باب الحديد - وراء جيحون - بين سمرقند والهند ، كما يشتهر أيضاً بسد الصين ، وقد اجتازه تيمورلنك بجيوشه المخربة ومر به « شاه روح » وكان في خلعتة رجل ألماني يدعى « سيلد برجر » وجاء ذكر هذا السد في كتابه ، كما تحدث فيه عن مرور « الشاه » به وكان ذلك في أوائل القرن الخامس عشر^(٢) .

ولعله يشهد لصحة هذا الرأي ما أخرجه مسلم بسنده عن أم حبيبة بنت أبي سفيان أن زينب بنت جحش زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - قالت : خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرعاً محمراً وجهه يقول : « لا إله إلا الله . ويل للعرب من شرٍ قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه - وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها - قالت : يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم - إذا كثر الخبث^(٣) » .

فهذا يؤذن بأن بداية فتح السد حدثت في عهده - صلى الله عليه وسلم - وقد توقع النبي من ذلك شراً كثيراً على العرب ، وقد وقع ذلك في غزوات التتار على البلاد

(١) النغف: دود أبيض يكون في النوى إذا أنقع ، قاله أبو عبيد .

(٢) راجع ج ٩ ص ١٩٨ من تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى .

(٣) الحديث الثانى من « كتاب الفتن » في صحيح مسلم .

الإسلامية ، وقتلهم الخليفة في بغداد ، وإلقائهم كتب العلم في نهر دجلة ، وقتلهم أعداداً هائلة من المسلمين ، واستيلائهم على البلاد الإسلامية حتى الشام ، حيث هزمهم جيش مصر في معركة (مرج دابق) .

سؤال هام وجوابه

إذا كان سد يأجوج ومأجوج قد فتح كما يشير إليه حديث مسلم المذكور ، وكما دلت عليه أحداث التتار بعد تحطيم سد الصين الذي اشتهر بأنه سد يأجوج ومأجوج ، فكيف يكون تخريبه من علامات الساعة القريبة ، في حين أن الدنيا لا تزال كما هي دون أن تحدث أشراط الساعة الكبرى ، ومنها نزول عيسى عليه السلام ؟ ولا يحتمل أن يكون «يأجوج ومأجوج» لا يزالون وراء سدّهم في مكان آخر من الأرض وأنه لم يفتح بعد ؛ فإن الأقمار الصناعية صوّرت كل أنحاء الأرض ، والطائرات طارت فوق أقطارها وبحارها فلم يبق في أرض الله مكان خفي عن عدسات التصوير أو عن العيون ، فكيف تكون أمتان بهذا الخطر ، وبالكثرة التي تحدثت الأخبار عنها ولا يعثرلهم على مكان ؟ فضلاً عن أن بلاد الله كلها مفتوح بعضها على بعض ، ومتصلة بشتى وسائل الاتصال فأين يوجدون ؟

لهذا نرى أن يأجوج ومأجوج اسمان مأخوذان - كما قالوا - من أجّ الظلم : إذا أسرع أو من أجيج النار : وهو اتقادها ، فيمكن إطلاقهما على ذوى الغلبة والقهر من أهل الفساد .

وقد أطلقهما الله في سورة الكهف على صنف حجزهم ذو القرنين بسده ثم فتحوه ، وأطلقهما هنا على صنف خطير آخر يخرج في آخر الزمان في عهد عيسى - عليه السلام - قرب قيام الساعة ، ويكون من علاماتها ، وقد عبر الله عن خروجهم حينئذ بالفتح في قوله : « حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » على سبيل الكناية ، للإيدان بأن أبواب شرهم تفتح على مصاريعها بعد أن كانت مغلقة ، كما تقول : فتح العدو شره على الآمنين ، هذا ما نراه في فهم النص الكريم ، والله تعالى أعلم .

٩٧ - (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) الآية .

المراد باقتراب الوعد الحق ؛ القرب الشديد للبعث الذي وعده الله عباده في كتابه

وعداً ثابتاً لا يتخلف ، ليحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم ، ويكون بعد النفخة الثانية في الصور .

وجملة « اقْتَرَبَ الْوَعْدَ الْحَقُّ » معطوفة بالواو على جملة « فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » وكتاتهما فعل الشرط . أما جوابه فهو قوله : « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » كما تقدم بيانه . أى : فإذا حال الذين كفروا وشأنهم شخوص أبصارهم ، وفتحها على أهوال القيامة بحيث لا تطرف ولا تغمض .

(يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) : أى يقولون من شدة الكرب في حسرة وندامة : ياهلاكنا قد كنا في دنيانا في غفلة عن هذا اليوم ، وما فيه من الأهوال الجسام ، ولم ندر أنه مصيرنا ، ثم أضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة ، فقالوا : « بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ » لأنفسنا حيث نبهتنا الآيات والنذُر فلم نتنبه للخطر المنتظر ، وبقينا كافرين بالبعث والحساب فحق علينا قول ربنا بالخلود في العذاب المهيئ .

المعنى الإجمالي للآيات السابقة

ولكى يتضح معنى هذه الآيات الثلاث مجتمعة نجملها فيما يلي :

٩٥- ومنوع على أهل أية قرية أهلكتها لكفر أهلها وطغيانهم ، ممنوع عليهم أن يتخلفوا عن الرجوع إلينا للحساب والجزاء . فلا بد من رجوعهم إلينا لذلك .

٩٦- وتستمر هذه القرى المهلكة على ما هي عليه من الهلاك إلى وقت فتح أبواب الشر من (يأجوج ومأجوج)^(١) وخروجهم من كل مكان مرتفع يسرعون إلى العدوان في آخر الزمان

٩٧- واقتررب بخروجهم تحقيق الوعد الحق بالبعث ، إذ يهلك الله الخلائق ثم يبعثهم ويحشرهم إلى ساحة الحساب حيث الأهوال الجسام ، فإذا أبصار الكافرين الذين أنكروا البعث شاخصة لا تطرف هلعاً ، يقولون من شدة الكرب : يا عذابنا الشديد الذي

(١) هذا اسم كنانى لأمة شديدة الجبروت تظهر آخر الزمان ، غير التار الذين احتجزهم ذو القرنين بسده ، واجتاحوا أسد في القرن الخامس عشر كما تقدم بيانه ، وقد دل حديث مسلم على فتحه ، راجع ما كتبناه في ص ١١٥٧ تحت عنوان : (سؤال هام وجوابه)

ينتظرننا ، قد كنا في دنيانا في غفلة عن هذا اليوم بل كنا ظالمين لأنفسنا بالإصرار على الكفر .

٩٨- (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) :

الخطاب في الآية لأهل مكة ، ومعلوم أنهم كانوا مقيمين على عبادة الأصنام والأوثان ، فالله سبحانه وتعالى يخبرهم بأن مصيرهم ومعبوداتهم النار ، وهذا الحكم عام فيهم وفي كل من عبد غير الله على شاكلتهم ، كالذين يعبدون الكواكب أو الأشجار أو نحوها .

أما المعبودات العاقلة المؤمنة فلا تدخل في هذا العموم ؛ لأن (ما) في قوله : « وَمَا تَعْبُدُونَ » لما لا يعقل .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلا هذه الآية قال له ابن الزبيري : خَصَمْتُكَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ : أليست اليهود عبدوا عزيزا والنصارى المسيح ، وبنومليح الملائكة ؟ فرد عليه بقوله - صلى الله عليه وسلم - : « ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لِمَا لَا يَعْقِلُ ؟ » .

ولو جعل الخطاب عاما لم يدخل هؤلاء كما تقضى به أدلة السمع والعقل ، لبراءتهم من الذنوب والمعاصي التي ارتكبوها عابدهم بتسويل شياطينهم ، وسيأتى النص على براءتهم في الآية رقم (١٠١) .

وَالْحَصَبُ : ما تُرْمَى به النار لتتقد به - من حَصَبِهِ بكذا أى : رماه به .

والمعنى : إنكم يا أهل مكة ومن على شاكلتكم ممن يعبدون غير الله يُرْمَى بكم وبمعبوداتكم في نار جهنم ، أنتم عليها واردون وفيها داخلون ، فلا تعصمكم منها آلهتكم كما لا تعصم نفسها منها ، فكيف تعبدونها ؟

٩٩- (لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ آلِهَةً مَا وَرَدُّوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ) :

أى : لو كان ما تعبدونه - يا أهل مكة - من أوثانكم آلهة ، لما دخلوا النار واحترقوا بها ؛ فإن الإله يحمى نفسه من العذاب ، وكل من العابدين ومعبوداتهم في نار جهنم خالدين ، لا فكاك لهم فيها ، « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

ويلاحظ أن إحراق آلهتهم معهم لا يرجع إلى مسئولية الآلهة عن عبادة البشر لهم ؛
لأنها لا تسمع ولا تعقل ولا تحس ، بل المراد منه تسفيه عقول هؤلاء الذين عبدوها وإهانتهم
بإهانة آلهتهم

١٠٠ - (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ) :

(لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ) الزفير : خروج النفس من الحيوان .

والمعنى : لأهل مكة وسواهم من المشركين - لهم في جهنم - أنفاس متتابعة تخرج
من صدورهم ، يحاولون بها تنفيس ما بهم من وقود النار وسوء الحال ، وهم في النار لا يسمع
بعضهم زفير بعض ولا صراخهم ؛ لشدة ما يعانونه جسدياً ونفسياً ، نعوذ بالله من شرها .

(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾
لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾
لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ۖ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ
الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ
لِلْكُتُبِ ۖ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۖ وَعَدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا
فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ
عَالِينَ ﴿١٠٦﴾)

المفردات :

(الْحُسْنَى) : الجنة ، أو التوفيق للطاعة . (حَسِبْسَهَا) : أى الصوت الذى يحس من توهجها (الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) : الخوف الأعظم بسبب صرف أهل النار إلى النار .
 (كَطَى السُّجُلَ لِلْكِتَابِ) : كطى الديوان لصحائفه المكتوبة .
 (الزُّبُورِ) : المراد به هنا كل كتاب أنزله الله ، مأخوذ من الزَّيْر وهو الكتابة ، وقد غلب لفظ الزبور على كتاب داود - عليه السلام -

(الذِّكْرِ) : المراد به هنا اللوح المحفوظ .
 (لِبَلَاغًا) : لكفاية تُبْلَغُ الإنسان إلى بغيته .

التفسير

١٠١ - (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) :

بعد أن ذكر الله سوء مصير من يتخذون آلهة من دون الله ، وأنهم وما يعبدون وقود جهنم وأنهم فيها مخلصون ، جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان حُسْنِ جزاء المؤمنين . والحسنى : تأنيث الأحسن والمراد بها هنا : الجنة ، أو التوفيق للطاعة ، فهو الخصلة الحسنى ، ومعنى سبق الحسنى لهم : تقديرها فى الأزل من الله تعالى ، لما علمه فيهم من إشارهم طاعته على هوى أنفسهم .

(أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) : أى أولئك الذين سبقت لهم منا الحسنى مبعدون عن جهنم أى لا يدخلونها .

وأما قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا »^(١)

فقليل : الخطاب للكفار خاصة ، وقيل : إن ورود قد يطلق على القرب ، ولا مانع من أن يحضر المؤمنون من الإنس والجن حول جهنم حيث لا يحسون بصوتها ولا يشعرون بحرارتها . ويؤيد هذا قوله تعالى :

١٠٢ - (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ) :

أى : لا يسمعون صوتها الصادر عن اتقادها ، فضلا عن أنهم لا تدرّكهم حرارتها ، تكريما لهم - « وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ » : أى دائمون فيما أحبته نفوسهم من ألوان النعيم حسية كانت أو معنوية ، فبكل يتنعمون ، وهذه ثلاث صفات لمن سبقت لهم الحسنى ، وهى : البعد عن النار ، وعدم الإحساس بما فيها من الشدائد ، وخلودهم فى الجنة ينعمون بملذتيها الحسية والمعنوية .

١٠٣ - (لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) :

وهذه صفة أخرى لهم تضمنت الوعد بنجاتهم من بعض أهوال الآخرة

و (الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) : الخوف الأعظم ، والمراد به : النفخ الثانى فى الصور ، وقيل : الموت ، وقيل : انصراف أهل النار إلى النار .

(وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) : أى يستقبلونهم مبشرين ، قائلين لهم : (هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) : به فى الدنيا ، وتبشرون بمجيئه وبالنعيم فيه ، ويكون هذا الاستقبال عند القيام من القبور ، وهذا يؤيد تفسير « الفزع الأكبر » بالنفخ الثانى فى الصور . وتبشير الملائكة لهم حين تلقاهم يكون بالأمان والسلام وتحقيق الوعد الذى وعدوا به فى الدنيا ، ويعتبر ذلك أسمى نعم الله عليهم ، ومنتهى آمالهم وأمانيتهم .

١٠٤ - (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ...) الآية .

المراد من طى السماء : إخفاؤها بالمحو لتحل محلها سماء أخرى ، وفاقا لقوله تعالى : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » والسجل : الديوان الذى يشتمل على الصحائف المكتوبة ، ويطلق أيضا على كل صك به كتابة مسجلة فيه ، والمراد

بالكتب : ما يكتب فيه من الأمور المختلفة ، وقرئ « كَطَى السَّجْلُ لِلْكِتَابِ » أى : لجنس الكتاب ، والمعنى لا يختلف فى القراءتين ، ومعنى الآية : واذكر لأمتك أيها الرسول - اذكر لهم - يوم نخفي السماء كما يخفى السجل ما كتب فيه حين يطوى عليه ، وذلك « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » حيث يبعث الله الخلائق ويحشرها على أرض جديدة ، وتحت سماء جديدة ليحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم .

(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) : أى أنه تعالى يُعيد السماء كما بدأها بعد أن أفناها بقدرته سبحانه ، فإنه يقول للشيء : (كُنْ فَيَكُونُ) .

وأجاز بعض المفسرين أن يكون المعنى : كما بدأنا أول خلق الناس حفاة عراة نعيدهم كذلك ، واستندوا إلى حديث أخرجه مسلم عن ابن عباس جاء فيه : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم - بموعظة فقال : يا أيها الناس : إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً » كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ « ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ... » الحديث . كما استندوا إلى قوله تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » وقوله عز وجل : « وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

(وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) : أى وعدنا بإعادة الخلائق وبعثهم وعدا علينا لإنجازه ، إنا كُنَّا فاعلين ما وعدناهم ، قادرين على تحقيقه .

١٠٥ - (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) :

المراد من الزبور هنا : كل الكتب السماوية ، التى أنزلها الله على أنبيائه ورسله . مأخوذ من زَبَرَ الكتاب^(١) - أى كتبه - والمراد من الذكر : اللوح المحفوظ الذى هو أم الكتاب - كما قاله مجاهد وابن زيد ، والمراد بالأرض التى يرثها عباد الله الصالحون : أرض الجنة ، كما قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية ، ودليل هذا التأويل قول أهل الجنة : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ

(١) وهو من باب ضرب ونصر .

الْعَامِلِينَ . « وَتَأْوِيلُ الْأَرْضِ بِالْجَنَّةِ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِمَا تَقْدِمُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » بعد قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » الآيات .

والمعنى على هذا : ولقد كتبنا في جنس الكتب السماوية من بعد الكتابة في اللوح المحفوظ : أن أرض الجنة يرثها عبادى الصالحون أهل التَّقْوَى ، ولأمة محمد خير نصيب فيها بمشيئة الله تعالى .

ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد بالأرض : أرض الدنيا ، والوارثون لها : أمة محمد - صلى الله عليه وسلم ، يستولون عليها من الكافرين بالفتوحات ، سلمية كانت أو حربية ، مصداقا لقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ »^(١) وهذا رأى هو إحدى الروايات عن ابن عباس .

وعلى أن المراد بالأرض أرض الدنيا ، والوارثين لها أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - يصبح أن يراد من الزبور كتاب داود - عليه السلام - ومن الذكر التوراة فإنه يطلق عليها الذكر ، كما في قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » فتكون البشارة بميراث أمة محمد للدنيا جاءت في الزبور بعد التوراة .

١٠٦ - (إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ) :

البلاغ يطلق على الكفاية ، وعلى ما يتوصل به إلى الغاية . والمعنى : أن ما تقدم مما احتوته السورة من عقائد وشرائع وآداب فيه الكفاية للوصول إلى الغاية المطلوبة لقوم شأنهم العبادة ، فإذا أخذوا أنفسهم به واحتكموا إلى شرائعه ، والتزموا بآدابه بلغوا ما يرجون من عظيم الثواب ، والنجاة من العقاب . . .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ
 أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ
 ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ وَإِنْ أَدْرِىَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾
 إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِىَ
 لَعَلَّهٗ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۚ
 وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾)

المفردات :

- (فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ) : المراد من الاستفهام هنا : الأمر . (تَوَلَّوْا) : أعرضوا ولم يُسلموا .
 (آذَنْتُكُمْ) : أعلمتكم . (مَا تُوعَدُونَ) : أى من غلبة المسلمين للكافرين .
 (الْجَهْرُ) : ما تظهرونه وتجهرون به . (مَا تَكْتُمُونَ) : ما تسرون وتخفون .
 (إِنْ أَدْرِىَ) : لست أدرى . (فِتْنَةٌ) : ابتلاء واختبار .
 (احْكُم بِالْحَقِّ) : افض بالعدل . (مَا تَصِفُونَ) : ما تقولونه من الكفر والتكذيب .

التفسير

١٠٧- (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ » : أى وما بعثناك يا محمد بما بعثناك به من الهدى ودين الحق ؛
 إلا رحمة للناس أجمعين ؛ فإنك توضح لهم به صحيح العقيدة ، وتعلمهم الأحكام
 التى بها يحكمون ، وإليها يحتكمون ، وفيها مناط السعادة فى الدارين ، فما أَرْسَلْنَاكَ
 بما يُغْنِيهِمْ أو يشق عليهم أو بما هو فوق طاقتهم ، وهو ما يوضحه قوله تعالى :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ^(١) »

وفيه تعريض بما فوت الكافر على نفسه من هذه الرحمة ، حين أعرض ونأى بجانبه ، فخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

١٠٨ - (قُلْ إِنَّمَا يُوحِيَّ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ) الآية .

بعد أن بين الله سبحانه أنه سيطوى السماء ، ويبعث الخلائق كما بدأهم ، وأن أرض الجنة يرثها الصالحون ، وأنه أرسل نبيه محمداً رحمة للعالمين عقب ذلك بأمره - صلى الله عليه وسلم - أن يدعو المشركين إلى التوحيد والإسلام ؛ رحمة بهم لعلهم يسلمون ، فينجوا من سوء المصير .

والمعنى : قل أيها المبعوث رحمة للعالمين - لهؤلاء المشركين من قومك ولغيرهم : ما أوحى الله إليّ إلا أنه إله واحد ، فما لكم تتخذون معه آلهة تعبدونها من الحجر والشجر والبشر وغيرها ، ولا تصلح العبادة لسواه .

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ) : أى فأسلموا لله وانقادوا لأمره ، والتمسوا رضاه بطاعته ؛ حتى تفوزوا بالنجاة وتكونوا من المفلحين . ثم عقب ذلك بإنذارهم على الإعراض فقال :

١٠٩ - (فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ أَذْنُتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ..) الآية .

أى : فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه ، فقل لهم : « أَذْنُتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ » : أى بلغنكم ما أوحى الله إليّ أن أبلغه من توحيده في العبادة ، مستويين في الإعلام بذلك ، فلم أخص به جماعة دون آخرين .

ويجوز أن يكون المعنى : أعلمتكم ذلك مستويًا معكم ^(٢) في العلم بما أعلمتكم به من وحدانية الله لظهور الأدلة عليها ، كما يجوز غير ذلك من المعاني ، وحسب القارئ ما ذكرنا .

(١) سورة التوبة ، آية : ١٢٨

(٢) فعل الأول تكون كلمة « على سواء » حالا من كاف المفعول في « أَذْنُتُكُمْ » وعلى الثاني تكون حالا من التاء والكاف أى من الفاعل والمفعول .

وقد نقل الآلوسی عن الزمخشري أن في قوله تعالى لهم : « آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ » الخ استعارة تمثيلية ؛ حيث شبه حال الرسول معهم بحال من بينه وبين أعدائه هدنة ، فأحس بغدرهم فنبذ إليهم العهد ، وشَهَرَ النَّبْذَ وأشاعه ، وآذَنَهُمْ جميعاً بذلك - وعقب عليه الآلوسی بقوله : وهو من الحسن بمكان . ا هـ

(وَإِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ) : إن ، هي النافية ، والمراد بقوله : « مَا تُوعَدُونَ » هو غلبة المسلمين عليهم ، أو هو ما يلقونه من عذاب يوم القيامة ، أى أنا لم أعلم ذلك لأن الله استأثر بعلمه ، ولم يطلعني عليه ، إنما علم ذلك كله عند ربي .

١١٠- (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) :

إنه سبحانه يعلم ما تطعنون به على وعلى شريعتي مجاهرين بذلك ، ويعلم ما تخفون في صدوركم من الأحقاد على المسلمين ، وإذا كان الله يعلم الجهر وما يخفى ، وهو مُجَاز عليهما لا محالة ، كان على العاقل البصير أن يخلص النية لله تعالى ، وأن يصون لسانه وقلبه عن الوقوع فيما يوبقه من القول والنية وسوء الظن .

١١١- (وَإِنْ أَذْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ) الآية .

الضمير في « لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ » عائد على مفهوم من المقام ، وهو تأخير مجازاتهم ، والمعنى : لست أدرى ؛ لعل تأخير مجازاتكم مع إصراركم على ما أنتم عليه زيادة لكم في الفتنة وإبعاد في الاختبار والإملاء .

(وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) : وتمتيع من الله لكم بلذات الدنيا إلى وقت مقدر تقتضيه الحكمة الإلهية ، ويعظم فيه قيام الحجة عليكم ، فيكون أشد في الإيقاع بكم ؛ لأن المعرض مع تتابع الآيات وتوالى النذر يكون أشد عقاباً وأبعد نكالا .

١١٢- (قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ...) الآية .

ختم الله السورة بحكاية دعاء نبيه - صلى الله عليه وسلم - وتفويضه الأمر إلى ربه وتوقعه الفرج منه .

والمعنى : قال الرسول : يارب اقض بيني وبين قومي بحكمك الحق وذلك بنصرتي عليهم . وقد قرئ : قُلْ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ ، أى : قل يا محمد داعياً ربك أن يفصل بينك وبين قومك بالحق والعدل . قال قتادة : كان الأنبياء يقولون : « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ » فأمر رسول الله أن يقول ذلك ، فكان إذا لقي العدو يقول - وهو يعلم أنه على الحق ، وعدوه على الباطل - : « رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ » اهـ .

ولا فرق في المعنى على القراءتين إلا أن قراءة « قال » لحكاية ما قاله - صلى الله عليه وسلم - وقراءة « قل » أمر من الله لنبيه بما يدعو به .

(وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) :

كانوا يقولون : إنهم على حق في عبادة أوثانهم ، وإن العاقبة سوف تكون لهم وإن ما توعدهم به القرآن من العذاب على شركهم لو كان حقاً لنزل بهم ، فلهذا حكى القرآن عن نبيه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال لهم في مقابل ما قالوه : « وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » .

أى : والله الذى ملكنا وربانا ، المنعوت بالرحمة الشاملة هو الذى أطلب معونته على تنفيذ ما تزعمون من تلك الأوصاف ، بإظهار حقى على باطلكم ونصرى عليكم ، وقد كذب الله سبحانه ظنونهم ، وخيب آمالهم وخذلهم ، ونصر الرسول والمؤمنين عليهم وصدق الله العظيم إذ يقول : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ »^(١) .

« سورة الحج »

اختلف في كونها مدنية أو مكية ، والجمهور على أنها مختلطة ، فمنها مكى ومنها مدنى ، قال القرطبي : وهذا هو الأصح لأن الآيات تقتضى ذلك ، ثم نقل عن الغزنوى قوله في هذه السورة : « وهى من أعاجيب السور ، نزلت ليلاً ونهاراً ، سفرًا وحضرًا ، مكيا ومدنيًا ، سلميًا وحربيًا ، ناسخا ، ومنسوخا ، محكما ومتشابهًا » .

مقاصدها :

بدأت هذه السورة بأمر الناس بتقوى الله ، والتحذير من أهوال يوم القيامة حيث يحاسبون على أعمالهم ، وأتبعته التحذير من الجدل في الله بغير علم ، وبيّنت أطوار خلق الإنسان ودلالاتها على البعث ، كما بينت دلالة إخراج النبات من الأرض عليه .

ثم حذرت من عبادة الله على حرف - أى على ضعف وشك - فإنه . وخيم العاقبة وأتبعته ذلك بيان حسن مآل المؤمنين الصادقين ، وأنه تعالى سينصر رسوله على من كفر به ، . وسيفصل بين المؤمنين وأعدائهم يوم القيامة ، وأنه تعالى يخضع لسلطانه من في السموات والأرض ، وجميع الكائنات العلوية والسفلية ، وأن كثيرا من الناس يسجد له سجود طاعة عملا بشرائعه ، وكثيرا منهم حق عليهم العذاب بسبب عدم سجودهم وخضوعهم لشرائعه ، ثم بينت مصير المختصمين في ربهم ، فذكرت أن الكافرين تقطع لهم ثياب من نار ، ويعذبون بمختلف ألوان التعذيب فيها ، وأن المؤمنين يدخلون الجنة ويحلون فيها بالذهب واللؤلؤ ويلبسون ثياب الحرير ، ويهتدون فيها إلى الطيب من القول مثل : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ » ، ويهتدون إلى طريق الله الحميد في سلوكهم فليس فيها لغو ولا كذب ولا شغب ، فأقوالهم دائما طيبة ، وأعمالهم حسنة ، وعشرتهم مرضية ثم بينت أنه تعالى عرف إبراهيم مكان البيت ليبنيه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وأمره أن يدعو الناس إلى حجه مشاة وركبانا ، يأتون من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، وأن يطوفوا بالبيت العتيق ، وحذرت من الشرك بالله في أداء المناسك ، وأوجبت تعظيم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ،

ثم ذكرت أن البدن المهداة من شعائر الله ، وأنها تذبح قائمة على قوائمها ، وبينت أن الله تعالى لن يصل إليه شيء من لحومها بل تصل إليه التقوى ممن أهدوا فينبغي لهم أن يشكروه على تسخيرها لهم ، ويكبروه على ما هداهم ، وأن هؤلاء الحجاج الشاكرين المكبرين لهم البشرى على إحسانهم ، ثم عقيب ذلك ببيان أنه تعالى تكفل بالدفاع عن المؤمنين ، لأنه لا يحب كل مختال فخور .

وبينت أنه تعالى أذن للمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق أن يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم ، وأنه تعالى قد شرع لعباده شرعة الدفاع ، فلولا : « لَهْدَمْتُ صَوَامِعُ وَيَبِيعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا » .

ثم ذكرت أن الرسول ليس وحده في تكذيب قومه إياه ، فقد كُذِّبَ نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى من أقوامهم ، وأنه تعالى أهلكهم ، وأنه - سبحانه - أمهل كثيراً من القرى وهي ظالمة ، ثم أخذها وإليه المصير ليعاقبها في الآخرة بعد إهلاكها في الدنيا ، والمقصود مما ذكر نسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه ، ووعد قومه بأنهم إن لم يؤمنوا أصابهم ما أصاب الأمم التي قبلهم وأن عليهم أن لا يغترون بإمهالهم .

ثم بينت أن الشيطان كما يوسوس للمشركين من أمته - صلى الله عليه وسلم - فيلقى في نفوسهم الشبه والتخييلات أثناء قراءته ليجادلوه بالباطل ، فإنه فعل مثل ذلك مع أمم الأنبياء والمرسلين السابقين وأنه تعالى ينسخ ما يلقي الشيطان من الشبه - أي يبطله - بتوفيق النبي - صلى الله عليه وسلم - لرده ، أو بإنزال ما يرده ثم يأتي الله بآياته محكمة لا تنال منها شبهة من الشياطين وأوليائهم .

ثم بينت أنه لا يزال الذين كفروا في مرية منه لعماهم عن الحق حتى يأتيهم عذاب يوم عقيم ، والملك يومئذ يتفرد به الله ، فيحكم بينهم ويجزى كل امرئ بما قدمت يداه . وذكرت أن من أدركه الموت بعد الهجرة - سواء أ مات حنف أنفه أو قتل في سبيل الله - فإن الله يرزقه في الجنة رزقاً حسناً بسبب هجرته ، وأن من عاقب المعتدى بمثل ما بدأه به من

الاعتداء، ثم تمادى المعتدى فإن الله ينصر من يُغَيِّ عليه ، ذلك بأن الله هو الحق ، وما يعبده
المشركون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير .

ثم تحدثت عن آيات الله في إنباته من الأرض نباتاً بهيجاً ، وفي تسخير ما في
السموات والأرض ، وإمساكه السماء أن تقع على الأرض إلا بأذنه ، وفي الإحياء والإماتة ،
وذكرت أنه تعالى جعل لكل أمة منسكا وشريعة ، فلا يصح أن ينازعك أحداً يا محمد فيما
شرعه الله لأمتك من الشريعة العامة الخاتمة ، فإن حاد بك ففرض الأمر إلينا ، فسوف نحكم
بينك وبينهم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون .

وتحدثت عن أن معبودات المشركين لا تصلح للعبادة لأنها ضعيفة وقد بلغ من ضعفها
أنها لا تستطيع أن تخلق ذباباً ولو اجتمعت لخلقته - وإن سلبها الذباب شيئاً لا تستطيع
استعادته منه « ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » وأن المشركين « مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ
إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

وأنه تعالى : « يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا » للأنبياء « وَمِنَ النَّاسِ » رسلاً للبشر
فلا وجه لاعتراض مشركى مكة على اختيار محمد - صلى الله عليه وسلم - للرسالة ، وطالبت
المؤمنين في ختامها بأن يركعوا ويسجدوا ويعبدوا ربهم ويفعلوا الخير ليفلحوا ، وأن
يجاهدوا في سبيل الله حق جهاده لأنه اجتباهم ، وأنه سبحانه ما جعل عليهم في الدين
من حرج ملة أبيهم إبراهيم ، وأنه ساهم المسلمين من قبل وفي هذا القرآن ليكون
الرسول شهيدا عليهم ويكونوا شهداء على الناس ، ولهذا يجب عليهم أن يقيموا الصلاة
ويؤتوا الزكاة ويعتصموا بالله الذى هو مولاهم « فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتَقُومُوا رَبَّكُمْ إِنَّا زَلَزَلْنَا السَّاعَةَ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ②)

المفردات :

(زَلَزَلْنَا السَّاعَةَ) الزلزلة : التحريك الشديد المتكرر الذى يزيل الأشياء عن مقارها^(١) والساعة : القيامة ، وسميت بذلك لأنها تفجأ الناس فى ساعة لا يعلمها إلا الله تعالى ، والزلزلة التى تحدث عند الساعة من صنع الله تعالى ككل الزلازل ، وإضافتها إلى الساعة من إضافة المصدر إلى فاعله مجازا كما فى نحو إنبات الربيع للبقول ، والمنبت فى الحقيقة هو الله ، أو هى من إضافة الحدث إلى زمن حدوثه ، فإن الساعة زمن حدوث تلك الزلزلة الكبرى ، كما أضيف المكر إلى الليل والنهار فى قوله تعالى : « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ »^(٢) .

(تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ) الذهول : النسيان ، والمرضعة : التى تباشر الإرضاع فعلا ، أما المُرْضِع - بلا هاء - فهى مَنْ شَانَهَا الإرضاع وإن لم تباشر الإرضاع حال وصفها به .

(١) وأصل الكلمة من زل عن الموضع أى زال عنه وتحرك ، وزلزل قلعه أى حركها - قاله القرطبي .

(٢) سورة سبأ ، من الآية : ٣٣

التفسير

١- (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) .

الخطاب في الآية يعم حكمه المكلفين من وقت نزولها إلى أن تقوم الساعة ، والأصل في الخطاب أن يكون لمن حضر المشافهة به ، ولكن الخطاب الشرعى يعم حكمه كل من يصل إلى سن التكليف في عهد الرسول أو بعده إلى أن تقوم الساعة وذلك بطريق التغليب عند بعض الفقهاء ، وبطريق الحقيقة عند غيرهم ، وعموم الحكم في ذلك أمر معلوم من الدين بالضرورة ، سواء أكان بالتغليب أم بالحقيقة ، والزلزلة : التحريك الشديد المتكرر كما تقدم بيانها في المفردات ، وقد تستعمل في تهويل الأمر وتعظيم الخطب على سبيل المجاز ، والمقصود بها في الآية : إما المعنى الحقيقى المصاحب لقيام الساعة بعد النفخة الثانية وفيه يقول الله سبحانه : «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ، وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَالَهَا ، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ، يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^(١) » . ويقول أيضا : «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ . وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ . عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ^(٢) » .

وإما أن يقصد بها المعنى المجازى ، وهو ما يحدث يوم القيامة من أهوال جسام تجعل الولدان شيبا ، ويكون الناس بسببها سُكَّارَى ومَاهَم بِسُكَّارَى ولكن عذاب الله شديد . والزلزلة على كلا المعنيين تكون يوم القيامة ، وبه أخذ ابن عباس ، فقد روى عنه أن زلزلة الساعة : قيامها ، ومن قال بهذا رأى الحسن .

وقيل : المراد بها زلزلة تحدث قبل قيام الساعة وقبل طلوع الشمس من مغربها ، فقد وردت آثار كثيرة بحلوث زلزلة عظيمة قبل قيامها ، وتكون من أشراتها ، ويقول أصحاب هذا رأى : إنها تكون قبل طلوع الشمس من مغربها .

والرأى الأول هو الظاهر من الآية - كما يؤذن به صدرها وختامها - فإنه سبحانه دعاهم فيها إلى التقوى خوفا من العذاب الشديد يوم زلزلة الساعة ، فهذا شاهد على أن

المراد بالزلزلة : ما يحدث يوم القيامة بعد النفخة الثانية من تغييرات كونية ، يشير إليها قوله تعالى : «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ^(١)» والمعنى الإجمالى للآية : يأيها المكلفون من الناس ذكركم وإنائكم ، معاصرين لنزول الوحي أو بعده إلى يوم القيامة : اجعلوا لأنفسكم وقاية وحماية من عذاب ربكم وذلك بطاعته فيما أمركم به أو نهاكم عنه ، فإن زلزلة الساعة وأحوال يوم القيامة ، شئ عظيم الخطر منبئ عن مجيء الوعد الحق ، حيث تحاسبون على أعمالكم وتجزون عليها .

«فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٢)» فالعاقل من أخذ من يومه لغده ، وعمل لما بعد الموت .

وبعد أن نبه الله على خطورة الساعة بتعظيم زلزلتها وتهويلها ، عقب ذلك ببيان بعض آثارها على الناس فقال :

٢ - (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) :

تضمنت هذه الآية ثلاثة آثار لزلزلة الساعة ، وما أحدثته من هول ورعب «أولها» أن الأم التي ترضع وليدها في حنان وإقبال عليه ، تراها حين تحدث زلزلة الساعة الرهيبة ، تنسى وليدها الذي تضعه في حجرها ، وتنحنى عليه وقد ألقيته ثديها ، تنساه من الرعب الذي هز كيانه ، وعطل أمومتها وأذهل عقلها وجمد حنانها ، وما كانت لتنساه لولا أن الخطب شديد «وثانيها» : أنك ترى الحوامل من شدة الهول والفرع تتعطل أجهزة الإمساك في أرحامهن فتتحدر الأجنة دون إرادة منهن ، ولا يمر الأسى بقلوبهن على أجنتهن ، فالرعب من الحاضر والخوف من المستقبل يستولى على مشاعرهن «وثالثها» : أنك ترى الناس فقلوا الوعي والرشاد ، حتى تحسبهم سكارى من الفرع والاضطراب والهذيان .

والكلام على طريق التمثيل ، وأنه لو كان هناك مرضعة ورضيع لذهلت عنه حال إرضاعها إياه لشدة الهول ، وكذا ما بعده ، لأنه لا حمل ولا رضاعة ولا سكر يوم القيامة أما إذا أريد من الزلزلة ماورد حدوثه منها قبيل قيام الساعة وقبيل طلوع الشمس من مغربها ، فيجوز حمل الكلام على حقيقته .

والمعنى الإجمالى للآية : يوم ترون آثار هذه الزلزلة العظمى تنسى كل أم ترضع ولدها أنه فى حجرها ، وأن ثديها فى فمه ، وتغفل عنه غفلة تامة ، لشدة ما أصابها من الرعب والفرع والذهول من أهوالها ، وتتحلل عضلات الإمساك فى أرحام الأمهات فلا تستطيع الحفاظ على أجنتها ، فتنحدر تلك الأجنة دون إرادة من أمهاتها . وترى الناس من قوّة الهول والفرع كأنهم سكارى من شدة الدهول والهديان ، وليسوا سكارى على الحقيقة ، ولكن عذاب الله يومئذ شديد عنيف . نسأل الله الأمان واللفظ بعباده .

قال الزمخشري فى كشافه : روى أن هاتين الآيتين نزلتا فى غزوة بنى المصطلق . فقرأهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة ، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدرا ، وكانوا من بين حزين وباك ومفكر .

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۖ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ)

المفردات :

(يُجَادِلُ) : يخاصم ويحاور ، والجدل : شدة الخصومة والمدافعة (مَرِيدٍ) : متجرد للفساد ، من قولهم : شجرة مرداء لا ورق لها ، وغلّام أمرؤ لمن لم ينبت شعر لحيته . (تَوَلَّاهُ) : اتخذه ولياً ومتبوعاً .

التفسير

٣ - (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ) :

تحدثت الآيتان السابقتان عن زلزلة الساعة وأهوالها ومظاهر الرعب التى تحدث فيها وعن وجوب تقوى الله والعمل ليوم الوعيد ، تفاديا للعذاب الشديد . وجاءت هذه الآية

والتي تليها عقبهما ، لتجهيل من يجادل في الله وقدرته على بعث الناس وحسابهم ، وتحذير الناس من سوء عاقبة الذين يتبعونه ويقتدون به ، وقد نزلت الآيتان في النضر بن الحارث فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك رضى الله عنه (أنه كان جَدِلاً يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، والله لا يقدر على إحياء من بلى وصار تراباً) .

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالنص الكريم في هذه الآية والتي تليها يتناول كل من يتبع أئمة الضلال ، فيجادل في شئون الله بغير علم .

والمعنى : ومن الناس من يخاصم ويدافع في شئون الله تعالى بجهالة ، فلا يرجع في مزاعمه إلى برهان عقلي أو دليل نقلي ، كهذا الذى ينكر البعث والنشور ويستبعده على الله الذى خلقنا أول مرة ، وخلق الأرض والسموات العلى ، وكالذى ينسب إلى الله البنين والبنات في حين أنه تعالى ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ، وكالذى ينكر معجزة القرآن دون حجة أو برهان ، وهو في ذلك وأمثاله يتبع كل شيطان مريد متجرد للفساد عَرَى عن الخير والحق ، من شياطين الجن أو من شياطين الإنس وقد عَقَّبَ الله هذه الآية ببيان مصير أولئك المتبعين لأئمة الضلال فقال :

٤ - (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) :

أى قضى الله على الشيطان المريد من أئمة الضلال أنه من اتبعه وسلك سبيله ، فشأنه أنه : يضلّه عن سواء السبيل في دنياه ، بتحسين البدع والمنكرات ، وتزيين المحرمات وفساد المعتقدات ويسوقه باتباعه في ذلك إلى عذاب السعير في أخره ، فعلى العاقل أن ينظر في العواقب ، فلا يجعل نفسه تابعا لذى رأى فاسد ، ومذهب ملحد لينجو من سوء المصير .

(يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ
 مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ
 مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
 ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ
 مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى
 الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ
 مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾)

المفردات :

(فِي رَيْبٍ) : في شك . (مِن نُطْفَةٍ) : من مَنِيٍّ ، وهي مأخوذة من نطف الماء إذا صَبَّه ،
 وكذلك المني يخرج مصبوبا . (مِنْ عَلَقَةٍ) العلقه : قطعة دم جامدة ، وسميت بذلك لعلوقها
 بجدار الرحم وستأني لها عدة معان . (مِن مُّضْغَةٍ) المضغة : قطعة لحم صغيرة قدر ما يمتضغ .
 (مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) أى : مُسَوِّاة سليمة من العيوب والنقصان وغير مسواة لوجود بعض
 النقصان فيها ، فيتبع هذا التفاوت في تكوين المضغة ، تفاوت الناس في خلقهم وصورهم
 وطولهم وقصرهم ، وتماهم ونقصانهم ^(١) ، وسيأتى بيان ما قيل في تفسير ذلك .

(إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) : إلى وقت سميناه وعيناه للولادة . (ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ) : ثم
 تصلوا إلى كمال قوتكم جسدا وعقلا وتمييزا ، والأشد : واحد جاء على وزن الجمع ،
 أو جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل إنه جمع شدة بكسر الشين ، كنعمة وأنعم .
 (أَرْدَلِ الْعُمُرِ) أى : أَخْسَهُ وأدناه وهو زمن الهرم والخرف .

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً) أى : ميتة يابسة ، يقال : همدت الأرض إذا يبست لاعشب فيها ، وهدم الثوب : إذا بلى .

(اهْتَزَّتْ) أى : تحرك نباتها ، والإسناد إليها مجازى ، أو تخلخلت وانفصل بعض أجزائها عن بعض لخروج النبات . (وَرَبَّتْ) : ازدادت بالماء وجذور النبات .
(وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) : وأنبتت من كل صنف حسن يبعث البهجة والسرور في نفس من يراه .

التفسير

هـ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ...) الآية .

هذه الآية مستأنفة لإقامة الدليل على إمكان البعث ، وإلزام المجادلين فيه الحجة ، بعد أن حكى الآيتان السابقتان جدالهم في شئون الله ومنها البعث ، وأنهم في جدالهم يتبعون كل شيطان مريد ، يضلُّهم ويسوقهم إلى عذاب السعير .

فالمراد من الناس في الآية : المجادلون في البعث المنكرون له ، والتعبير عن اعتقادهم فيه بالريب والشك مع أنهم جازمون بعدم إمكانه فضلا عن عدم وقوعه ، للإيدان بأن أقصى ما يحتمل صدوره ممن لم يشاهد البعث هو الشك في أمره ، وهذا يزيله البرهان التالي ، أما : ما هم عليه من الإنكار الجازم المصحوب بالمكابرة والعناد ، فخارج عن دائرة الاحتمال .

وخلقهم من تراب إما في ضمن خلق أبيهم آدم ، وإما لأنهم مخلوقون من النطف وأصلها التراب ، فإنها ناشئة عن الغذاء الذى تغذى به الوالدان ، والغذاء أصله التراب .

والمراد من النطفة هنا : ماء الرجل والمرأة مجتمعين ، ففي ماء الرجل الحيوانات المنوية ، وفي ماء المرأة البويضة ^(١) فإن الجنين يتولد من المائتين ، ولذا يشبه الولد أبويه ، فإذا حصل اللقاء بين الرجل والمرأة ، التقى المائتان في القناة التى بين الرحم والمبيضين ، فيحصل

(١) وهى تخرج منها مرة كل حيض شهري .

فيها تلقيح البويضة بأقوى الحيوانات المنوية^(١) إن أراد الله خلق جنين من لقائهما - وبعد التلقيح تتكون الخلية الأولى ، وتنقسم بسرعة إلى خليتين ، ثم إلى أربع ثم إلى ثمان - وهكذا - وفي اليوم الرابع للتلقيح تكون قد وصلت في انقساماتها إلى مجموعة كثيرة من الخلايا متماسكة ، فتنزلق إلى الرحم ، وبعد سبعة أيام ونصف من التلقيح تقريبا تلتصق بجدار الرحم في قرار مكين وحولها غشاء يقيها ، ويكون الجنين حينئذ طبقة من الخلايا لاتمييز بينها .

وتظل الخلايا في نموها وتكاثرها وتطورها ، وفي خلال الأسبوع الثالث يبدأ التمييز لما تخلق منها .

فإذا مضى أربعون يوما من التلقيح ، انتهى طور التحولات الأولية للنطفة ، وذلك هو المعنى بالفقرة الأولى من قوله : صلى الله عليه وسلم - : (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا ويؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح . . .) الحديث أخرجه البخاري بسنده عن ابن مسعود^(٢)

والعلقة في اللغة : واحدة العلق ، وتطلق على الدم الغليظ والجامد ، وعلى دودة في المياه الراكدة تعلق بالجسد فتمتص دمه ، وعلى كل ما يعلق بغيره أو يعلق عليه ، ويبدأ طور العلق بعد أربعين يوما من بدء الحمل ، كما جاء في الحديث الشريف .
واللائق بحال التطور الذي حدث للنطفة ، أن يكون إطلاق لفظ العلق على الجنين حينئذ ، لأنه يشبه الدودة العالقة فقد حدث له بعض التصوير الأولى في مبدأ طور العلق ، وهو عالق بجدار الرحم ، وليس مجرد دم جامد كما يقولون .

فإذا مضى على هذا الطور أربعون يوما اتضح تصويره أكثر من ذي قبل ، ووصل وزنه إلى خمسة وعشرين درهما ، وامتد طوله إلى ثمانية سنتيمترات ، وبهذا ينتهي طور العلق

(١) ليكون نسل الإنسان قويا ، كما تفعل اليسوب (ملكة النحل) فإنها تختار أقوى الذكور لتلقيحها ، وحم البويضة أكثر من ضعف حجم الحيوان المنوي ، وكلاهما في غاية الصغر ، فالحيوان المنوي يساوي ١/١٠٠٠ « ستة على ألف » من المليمتر ، ولا يرى إلا بمنظار مكبر - تعاليت يا الله -

(٢) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة - كما أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

وبليه طور المضغة الذى يستمر أربعين يوما أخرى كما جاء فى الحديث « ثم يكون مضغة مثل ذلك » .

والمضغة فى اللغة : ما يمزج من لحم وغيره وهى فى أصل الإنسان : قطعة لحم فيها بعض التصوير ، وسميت بذلك لأنها فى مجمل مظهرها تشبه فى أول طورها قطعة لحم قدر ما يمزج ، إذ أنها حينئذ تزن خمسة وعشرين درهما تقريبا ، وطولها ثمانية سنتيمترات كما تقدم ، ويظل الجنين فى طور المضغة ينمو وينتقل فى التصوير إلى ما هو أكمل حتى يتم خلقه فى نهايته ، فيكون وزنه نحو سبعين درهما ، وطوله نحو ثمانية عشر سنتيمترا ، وحينئذ تبدأ حركته فى بطن أمه حيث قد نفخت فيه الروح ، وهذا هو الذى يشير إليه قوله تعالى : « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »^(١) .

ويشير إليه قوله - صلى الله عليه وسلم - بعد دور المضغة : « ثم ينفخ فيه الروح » وبهذه الحركة تطمئن الأم على حياة جنينها .

والمقصود من نفخ الروح فيه حينئذ إعطاؤه دفعة قوية من الحياة تمكنه من الحركة فى بطن أمه بعد أن تم خلقه ، أما أصل الحياة فموجود فى الحيوان المنوى والبويضة قبل التلقيح ، ثم فى الخلية الأولى التى نشأت من تلقيحه لها ، ولولا الحياة فيهما لما تكونت تلك الخلية ، ولولا استمرار الحياة لما تكاثرت وتطورت حتى أصبحت شيئا آخر مخالفا لأصلها .

ويستمر الجنين فى النمو وهو محاط بثلاثة أغشية ، وفى نهاية الشهر التاسع يكون قد اكتمل نموه ، وأصبح صالحا لأن يعيش خارج بطن أمه ، فيولد غالبا إن لم يكتب الله له البقاء فى بطن أمه أكثر من تسعة أشهر^(٢) .

والمراد من قوله فى المضغة (مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) : أنها صالحة لكمال التخليق والتصوير ، لخلوها من العيوب ، وغير صالحة لهذا الكمال ، لوجود بعض العيوب فيها ، فينشأ عن

(١) سورة المؤمنون من الآية : ١٤

(٢) إذا ولد الجنين لقسمه أشهر يكون طوله من خمسة وأربعين إلى خمسين سنتيمترا ، ووزنه من ثلاثة إلى ثلاثة ونصف كيلو جرام فتبارك الله أحسن الخالقين .

ذلك التفاوت في خلق الإنسان فبعضه يحون حامل الحق سداً من العيوب ، وبعضه الآخر يكون به بعض النقصان والعيب في صورته وفي طوله وقصره وأعضائه ووظائف تلك الأعضاء^(١) وغير ذلك .

وفسر بعضهم المخلقة بالمصورة ، وغير المخلقة بغير المصورة ، والمراد تفصيل حال المضغة ، وبيان كونها أولاً قطعة لحم لم يظهر فيها شيء من الأعضاء ، ثم ظهرت شيئاً فشيئاً ، ولكن هذا المعنى يقتضى تقديم غير المخلقة على المخلقة ، مراعاة للتدرج في الخلقة .

وروى عن مجاهد وغيره : أن المخلقة التي تواردت عليها أطوار التخليق حتى تمت مدة الحمل ، وغير المخلقة التي لم يتم لها ذلك وسقطت ، وأوردوا على هذا الرأي : أن الآية في خلق الإنسان من نطفة فعلة ، فمضغة ، فكيف يخلق الإنسان من نطفة ساقطة في أي طور من أطوارها ، والرأي الأول هو المناسب للمعنى ولتفاوت حال الخلائق كمالاً ونقصاناً والمعنى الإجمالي لهذا الجزء من الآية مايلي :

يأيها الناس المنكرون للبعث المجادلون فيه بغير علم : إن كنتم في شك في إمكانه وحصوله ، فلا مجال لإنكاركم ولا ليشككم ، فإننا خلقناكم أصلاً من تراب في ضمن خلقنا لأبيكم آدم ، ثم قدرنا في خلقكم منهاجاً آخر حيث خلقناكم من نطفة الوالدين ، وذلك أنه حين تلتقي النطفتان تنشأ عن لقائهما عشيئتنا الخلية الأولى لتكوين الإنسان ثم تتكاثر تلك الخلية بانقسامها السريع إلى خلايا متماسكة ، ثم تستقر في الرحم في قرار مكين بأمرنا ، ثم طورنا هذه النطفة في الرحم حتى وصلت إلى طور العلقه ، حيث يصبح الجنين فيها كاللدودة العالقة بالرحم ، بعد أن أفضنا عليه شيئاً من التخليق والتكوين ثم كبرنا هذه العلقه حتى جعلناها في حجم المضغة ، وجعلنا هذه المضغة كاملة التخليق ، بحيث ينشأ عنها إنسان كامل التكوين ، أو ناقصه لينشأ عنها إنسان ناقص في تكوينه ، بأن يكون دون الأول في الحسن وجمال التصوير ، أو في تمام الأعضاء وقيام الأجهزة الجسمية بأداء وظائفها ونحو ذلك - خلقناكم على هذا النمط البديع المتفاوت - لكي

(١) وهذا المعنى مأخوذ من قولهم : خلق السواك والعود أي : سواء وجمله صالحاً للاستعمال ، فالمضغة المخلقة على هذا بمعنى المسواة السالمة من العيوب ، وغير المخلقة ما فيها بعض العيوب وإلى هذا المعنى ذهب الزمخشري وغيره .

نبين مالا يمكن حصره من عظمة الخالق وحكمته وكامل تدبيره وعظيم قدرته وغير ذلك من عظام الأمور التي من جملتها البعث والنشور فإن من تأمل مآل مآل من الخلق التدريجي جزم بأن من قدر على خلق البشر من تراب لم يذق طعم الحياة ، وأنشأه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد أخرى ، بتصريفه في أطوار الخلقة وتحويله من حال إلى حال ، مع ما بين تلك الأطوار من المخالفة والتباين فهو قادر على إعادته بعد موته ، بل هو أهون في القياس .

ثم بين الله حال الجنين بعد تلك الأطوار فقال سبحانه :

(وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) :

فهذه الجملة مستأنفة لبيان مستقبلهم بعد تلك الأطوار .

والمعنى : ونثبت في الأرحام بعد تلك الأطوار ما نشاء بقاءه فيها إلى أجل سميناه لوضع كل جنين منكم بعد تمام خلقه وكمال نموه وصلاحيته لأن يعيش خارج بطن أمه ، وغالبه تسعة أشهر ، ويقول الفقهاء : أدناه ستة أشهر ولحظتان للوطء والوضع ، وأقصاه عند الحنفية سنتان ، وعند الشافعية أربع سنين وهذا نادر جداً .

(ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ) : المراد بالطفل هنا : الأطفال ، فإنه يطلق على الواحد والجمع ، أى : ثم نخرجكم بعد مدة الحمل التي أردناها - نخرجكم أطفالاً بعد أن كنتم أجنة ، ثم نُنمِّي أجسادكم وقواكم لتبلغوا أشدكم وكمالكم في الجسم والعقل . أما الذي لانشاء إقراره في الأرحام ، فإننا نسقطه منها في أول زمن الحمل أو في آخره أو فيما بينهما ، تبعاً لحكمتنا .

ثم بين الله أحداثاً أخرى تحدث بعد الولادة فقال على سبيل الاستئناف :

(وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً) أى : ومنكم من يموت قبل بلوغ الأشد أو في أثنائه ومنكم من يبقى بعد بلوغ الأشد ويرتد إلى أخس العمر وأحقره ، حيث يمعن في الشيخوخة والهزم ، فتضعف قواه الجسدية والعقلية ، وينتهي أمره إلى أن ينسى ما علمه من قبل ، ولا يقبل علماً جديداً بعد ، وذلك زمن

الخرف والخيالات التي لا أصل لها ، حيث يعود إلى ضحالة الطفولة وسذاجتها وسوء التصرف فيها .

وقد أوصى الله الأولاد بالإيمان في الإحسان إلى الوالدين في هذه المرحلة الخطيرة ، والتجاوز عما عسى أن يحدث فيها منهم ، وألا يقابلوهم بالتأفف والانتهاز ، إذ قال : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبُّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا »^(١)

وقد أجمل الله أطوار حياة الإنسان بصورة أخرى غاية في الاختصار والبلاغة ، حيث قال في سورة الروم :

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ »^(٢)

وهذه الأطوار التي نشاهدها في خلق الإنسان ، نشاهد مثلها في الحيوان والنبات ، وينتهي الكل إلى ممات ، ولا يبقى سوى الديان « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »^(٣)

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) :

هذا دليل آخر يسوقه الله تعالى حجة على أن البعث حق لا شك فيه ، والخطاب فيه لكل ذى عينين ممن يجادلون في البعث وغيرهم ، والمعنى : وترى أيها الإنسان بعينيك - ترى الأرض - يابسة لا نبات فيها فإذا اشتملت على البذور وأنزلنا عليها الماء ، دبّت الحياة إلى البذور ، فأخرجت جلورها لتعلق بجوف الأرض وتثبت بها - كما علقّت النطفة برحم الأم وتثبتت منه بقرار مكين - وأخرجت براعمها وأشطاءها فوق سطح

الأرض ، وقد اهتزت بذلك وعلت قشرتها ، وأنبتت من كل صنف حسن المنظر للنبات الطعم طيب الريح ، من مختلف أنواع النبات والطعوم والأشجار المورقة المثمرة ، وشجيرات الزينة ذات المنظر المونق ، والعبير الذى يشرح الصدور .

ولا شك أن البعث يتجلى فى النبات واقعياً من آن لآخر، فإنه كلما يبس ومات بعثه الله من جديد ، بإفاضة الماء على بذوره فى جوف الأرض ، فتدب الحياة فيها ، فتخرج جنورها لتستقر بها ، وتنبت براعمها وأشطاءها محيطة بسيقانها بقدره الله الحكيم الخبير ، ونرى فيها من كل زوج بهيج مرة بعد أخرى ، فهل بعث الإنسان بعد موته يختلف عن هذا فى كثير أو قليل ؟ وصدق الله إذ يقول : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ^(١) » .

(ذَالِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝)

المفردات :

(الْحَقُّ) : الثابت الذى لا شك فى وجوده .
(لَارَيْبَ فِيهَا) الريب : الشك ، والمراد من نفي الشك فى الساعة : أنها لا ينبغي أن يحدث فيها شيء من الشك لوضوح أدلتها ، وإن شك فيها الجاهلون .

التفسير

٦- (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

هذا كلام مستأنف لبيان السر في تطورات خلق الإنسان والنبات ، والسبب الحقيقي فيها وما تدل عليه من تحقيق البعث .

والمعنى : ذلك الذى تقدم بيانه من خلق الإنسان في أطوار مختلفة ، ابتداءً بخلقه من التراب وانتهاءً بجعله في أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، ومن خلق النبات بمثل تلك الأطوار - ذلك كله شاهد بأن الله هو الحق الموجود الذى بيده الأمر كله ، وأنه تعالى من شأنه إحياء الموتى بدءاً وإعادة ، وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة مرة بعد أخرى وأنه سبحانه قادر تمام القدرة على كل شيء . « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (١) .

٧- (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) : معطوف على أن الله

هو الحق ، داخل معه في حيز السببية والشهادة أى : ذلك التطور في خلق الإنسان والنبات حاصل وشاهد بأن الله هو الحق ، وأن من شأنه إحياء الموتى كما ترون في تطويره الإنسان والنبات وأنه على كل شيء قدير ، ولهذا قَدَرَ على إبداع هذا الكون ، وأن الساعة التى يُنْهَى فيها الحياة الدنيا ستأتى من غير شك في مجيئها ، وأن الله سوف يبعث من في القبور ليحاسبهم في أخراهم على ما قدموه في دنياهم ، « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (٢) . فلهذا يريكم الآيات لعلكم تتفكرون .

والتعبير بلفظ « آتية » بدلا من لفظ « ستأتى » للدلالة على تحقق إتيانها ولا بد ، لاقتضاء الحكمة مجيئها حتى يأخذ المحسن جزاء إحسانه والمسيء جزاء إساءته ، وإلا لضاع على كل ذى حق حقه ، ولتساوى المحسن بالمسيء في مصيره ، وذلك مناف لعدالة الله وحكمته .

(١) سورة يس ، الآيتان : ٨١ ، ٨٢

(٢) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

وإنما قال سبحانه : « لَا رَيْبَ فِيهَا » مع أن الملحدين يرتابون فيها للإيدان بأنها في ظهور دلائلها ووضوح أمرها بحيث لا يصح أن تكون مجالا للارتياب فيها ، ولا تصلح مظنة للشك على الإطلاق .

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي آلِهَةٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ٨) ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ٩ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ١٠)

المفردات :

(يُجَادِلُ) : يخاصم ويناول . (فِي اللَّهِ) : في ذاته أو صفاته . (بِغَيْرِ عِلْمٍ) : بغير يقين ضروري (وَلَا هُدًى) : ولا نظر سديد يهديه إلى الحق . (وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) : ولا كتاب سماوي يضيء له سبيل الحق . (ثَانِي عَطْفِهِ) العطف : الجانب ، وَثْنِيَّةٌ لجانبه : كناية عن الإعراض تكبرا . (خِزْيٌ) : ذل وهوان

التفسير

٨ - (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) .

هذه الآية مستأنفة لبيان حال الذين يكابرون في الحق بلا دليل ، ويؤمنون غيرهم في الضلال ، أما الآية السابقة « وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ » الخ ففي بيان حال من يقللونهم ويتبعونهم ، ويجوز أن تكون هذه معطوفة على تلك للغرض المذكور^(١) وأئمة الضلال في مكة أشهرهم أبو جهل والنضر بن الحارث

(١) وهو ابن عطية أن هذه الآية تكرر للآية السابقة لغرض التوبيخ فكانه قيل : هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ، ومن الناس من يجادل في شئون الله الخ ، والواو للحال على هذا الوجه .

والأخنس بن شريق ، فقد كانوا يجادلون في شئون الله بغير حق ليصرفوا الناس عن الهدى الذى بعث به محمد - صلى الله عليه وسلم - .

والمعنى : وبعض الناس يجادل في شئون الله فينكر البعث والنشور ، والحساب والجزاء ، ويجعل الملائكة بنات الله ، وينكر اصطفاؤه أنبياء من البشر ، وغير ذلك بما أكثروا فيه الجدل ، دون أن يكون لديهم علم يقينى ضرورى بما يقولون ، أو استنباط نظرى يهديهم إلى الحق ، أو كتاب سماوى ينير لهم سبيله ، وكل جدل لا يقوم على شيء من تلك القواعد ، فهو منهار وضلال مبين .

٩ - (ثَانِي عَظْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ) :
أى : ومن الناس من يجادل في الله بجهالة ، لاويا جانبه ، معرضا عن الحق مستكبرا عليه ، يفعل ذلك لكى يضل الناس عن سبيل الله ، ويصرفهم عن اتباع الحق ، له بسبب ذلك خزيٌ وذلٌ وهوان في الدنيا حين يصرعه الحق ويرتفع لواؤه ، ويبطل باطله ويزول أثره ، ونذيقه يوم القيامة عذاب النار الشديد الإحراق .

١٠ - (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) :

ذلك الذى تقدم من خزي الذى يضل عن سبيل الله وعذابه ، بسبب ما حدث منه من الكفر والمعاصي ، وأنه تعالى لا يحدث منه ظلم لعبيده .

والتعبير عن نفى مطلق الظلم عنه تعالى بصيغة المبالغة « لَيْسَ بِظَلَّامٍ » لتأكيد نزاهته عنه بتصوير التعذيب بغير ذنب في صورة المبالغة في الظلم .

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ
 اطمأن به ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وجهه ۚ خسر الدنيا
 وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
 مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا
 لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(عَلَى حَرْفٍ) : على طرف من الدين . (فِتْنَةٌ) : شرٌ وبلاءٌ .
 (انقلبَ على وجهه) : ارتد إلى الكفر (الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) : الخسران البين الواضح
 من أبان بمعنى : اتضح وظهر (الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) : الانحراف البعيد عن الحق .
 (يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ) : يقول الكافر لصنمه يوم القيامة بصوت مرتفع
 حين اتضح له أن ضره أقرب إليه من نفعه . (لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) : لبئس
 الناصر ولبئس المصاحب أنت أيها الإله الذي كنت أعبد .

التفسير

١١- (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن به ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ
 فِتْنَةٌ انقلبَ على وجهه ۚ خسر الدنيا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) :

لقد صورت الآيات السابقة صنفين من أهل الضلال ، أولهما ، من يجادل في الله
 بغير علم متبعا في جداله أئمة الكفر من كل شيطان مريد . وثانيهما : من يجادل

في الله بجهالة ، ولكنه يغطي جهالته بِشْنِي عطفه وخيلائه سَتْرًا لجهالته وادعاء للزعامة والإمامة على من دونه من الكافرين ، لكي يتبعوه في سفهه وجداله بالباطل ، وجاءت هذه الآية لتصوير صنفاً ثالثاً منهم ، وهم أولئك المذبذبون في عقائدهم ، الذين لا يستقرون فيها على حال ، بل يتقلبون فيها وفق المنافع والمضار .

أخرج البخاري وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : « كان الرجل يقدم المدينة ، فإذا ولدت امرأته غلاماً وَنُجِبَتْ خيله قال هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء » وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده ، فتشأَم من الإسلام ، فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : أَقْلِنِي . فقال : « إن الإسلام لا يُقَال » ، فقال : لم أصب من ديني هذا خيراً . ذهب بصرى ومالى ومات ولدى ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « يا يهودى : الإسلام يَسْبِكُ الرجال كما تسبك النارُ خَبَثَ الحديد والذهب والفضة » فنزلت الآية .

وعن الحسن أنها نزلت في المنافقين ، ونحن نقول : سواء كان سبب نزولها هذا أو ذاك ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالآية فيمن يتجر بالدين ، ولا يؤمن عن يقين .

والمعنى الإجمالى للآية : ومن الناس من يعبد الله على طرف من الدين لا تعمق له فيه ، فإن أصابه خير دنيوى كالرخاء والصحة والولد ، ثبت على هذا الطرف ثبات المستفيد لا ثبات المؤمن المتيقن ، وإن أصابته فتنة ومكروه في نفسه أو أهله أو ماله ، انقلب على وجهه الذى كان متجهاً إليه ، فارتد ورجع عن دينه ، ومثله في ذلك كمثّل الجندي الخائر الغزيمة ، جبان القلب ، يكون في طرف الجيش ، فإن أحسّ بظفر وغنيمة بقى ليحرزها ، وإن أحس بهزيمة لاذ بالفرار ملطخاً بالعار .

وقد بين الله عاقبة كفره وارتداده فقال :
(خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) فأمّا خسارته في دنياه فعدم حصوله منها على ما يريد ، وتعرضه للقتل إن عُرِفَتْ رِدَّتُهُ ، وأمّا خسارته في الآخرة فالعذاب الأليم والسعير الدائم ، وذلك هو الخسران الواضح الذى لا يخفى على ذوى الأبواب .

١٢- (يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالًا يَضُرُّهُ وَمَالًا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) :

هذه الآية مستأنفة لبيان حاله في دنياه بعد رده عن الإسلام ونكوصه على عقبيه بعد الإقدام .

والمعنى : أن هذا الذى انقلب على وجهه وارتد عن الإسلام ، لفوات المنافع الدنيوية التى كان يرجوها منه ، يعبد من دون الله أو يدعو لحاجته مالا يضره إن كفر به وما لا ينفعه إن آمن به وعبدته أو دعاه ، فهو مخلوق لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، فكيف يملكها لسواه ذلك الانصراف عن الحق إلى الباطل هو الضلال البعيد عن سبيل النجاة .

١٣- (يَدْعُوا لِمَنْ^(١) ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْئَسَ الْمَوْلَى وَلِبِئْسَ الْعَشِيرُ) :

وهذه الآية مستأنفة أيضاً لبيان مآل دعائه وعبادته غير الله تعالى .

والمعنى : أن من انقلب عن الإسلام وعبد غير الله أو دعاه . يقول يوم القيامة حين يعذب بسبب معبوده الذى ارتد إليه ، وكان يأمل شفاعته أو حمايته يقول نادماً بصوت مرتفع : المولى الذى ضرره أقرب تحقّقاً من نفعه والله لبئس المولى الذى يتخذه الإنسان لنفسه ناصراً ، ولبئس العشير الذى يصطفيه عشيراً ، فكيف بما هو ضرر محض لا نفع فيه ؟ .

وقد استفيد من هذه الآيات الثلاث أن الله تعالى لا يقبل النفاق في الدين ، والتجارة بالعقيدة ، فليس لله من الدين إلا الدين الخالص ، والعقيدة الثابتة ، وأن الصبر على البلاء واجب كل مؤمن ، وميزة كل تقى . ولهذا قال - صلى الله عليه وسلم - : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبْتَلَى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه ضلماً أشد بلاءه ، وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » أخرجه البخارى وغيره .

(١) يدعو بمعنى ينادى بصوت مرتفع ، واللام في قوله (لمن) موطئة للقسم ، و (من) اسم موصول مبتدأ ، و (ضره) مبتدأ ثان مضاف إلى الهاء ، و (أقرب من نفعه) خبر المبتدأ الثانى ، والجملة من المبتدأ الثانى وخبره صلة الموصول وهو لفظ (من) وجملة لبئس المولى ولبئس العشير جواب قسم مقدر أى والله لبئس المولى ولبئس العشير ، وجملة القسم وجوابه خبر المبتدأ الأول وهو لفظ (من) أى : ينادى المشرك قائلا يوم القيامة للمعبود الذى ضره أكثر من نفعه : والله لبئس المولى ولبئس العشير .

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ
يُظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى
السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾
وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) : تجري من تحت قصورها وأشجارها .
(فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ) : فليمدد بحبل . (إِلَى السَّمَاءِ) : إلى سقف بيته ، وكل ما علاك سماء .
(ثُمَّ لْيَقْطَعْ) : ثم ليختنق ، من قطع بمعنى اختنق - كذا فسرہ ابن عباس
ولعلمهم أطلقوا القطع عليه لما فيه من قطع النفس ، وقيل المعنى : ثم ليقطع الجبل بعد الاختناق ،
على أن المراد به فرض القطع وتقديره تهكما .

التفسير

١٤ - (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
. إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) :

بعد أن حكى الآيات السابقة حال أصناف ثلاثة من الكفرة ، وسوء مآلهم ، جاءت
هذه الآية للإخبار عن حسن مآل المؤمنين الصادقين ، وجميل ثوابهم في جنات النعيم .
والمعنى : إن الله يثيب المؤمنين الصادقين الثابتين على دينهم ، الذين يعملون الصالحات
وفق شريعتهم ، فيدخلهم في الآخرة جنات وبساتين تجري بينها الأنهار ، تحت القصور

والأشجار ، إن الله يفعل ما يريد ، فيثيب المحسن جزاء إحسانه ويعاقب المسيء جزاء إساءته « وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ » .

١٥- (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ) :

تضمنت الآيات السابقة سوء حال طوائف من الكفار وسوء عاقبتهم ، وحسن حال المؤمنين بالله ورسوله وجزيل ثوابهم ، ولما كان ما يصيب هؤلاء وأولئك يعتبر نصراً من الله لرسوله ، جاءت هذه الآية لتؤكدده وتحققه ، وتتحدى من يقف في سبيله - صلى الله عليه وسلم - . وتعهده بالنصر الحاسم في الدارين .

والمعنى : أنه تعالى ناصر رسوله - صلى الله عليه وسلم - في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه ، وفي الآخرة بإعلاء درجته ، وإدخال من صدقه جنات تجري من تحتها الأنهار ، والانتقام ممن كذبه بعذاب الحريق ، لا يصرفه عن ذلك صارف ، ولا يمنعه مانع ، فمن كان يغيظه ذلك من أعاديته ، ويظن أنه تعالى لا يحققه ، بسبب مدافعتهم ومكايده ، فليبالغ في استفراغ الجهد فغاية أمره خيبة مساعيه ، وعقم مقدماته وفساد مؤامراته ، وبقاء ما يغيظه من نصر الله لرسوله ، وقد وضع مقام هذا الجزاء قوله تعالى : « فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ » لغرض التحدى والتهكم ، ومعناه : فليمدد بحبل إلى سقف بيته ثم ليختنق بهذا الحبل الذي وضعه غلاً في عنقه ، فلينظر وليتأمل هل يشفيه من الغيظ قتله نفسه حسرة على نصر الله لرسوله ؟ وتفسير القطع بالاختناق مروى عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وغيرهم ، مأخوذ من قطع إذا اختنق ، لأن الغلَّ يقطع النفس إذا ضاق على العنق .

وخلاصة معنى الآية : من ظن أن الله لا ينصر نبيه محمداً وكتابه ودينه وأمة المؤمنين ، وكان هذا النصر يغيظه ، فليذهب فليقتل نفسه فإن الله ناصره لا محالة ، قال تعالى : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » ^(١) .

١٦ - (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ) :

أى : وكما أنزلنا الآيات السابقة واضحة الدلالة على خذلان الباطل وأهله ، ونصر الحق وذويه ، أنزلنا القرآن كله آيات واضحة الدلالة على معانيها الصافية الجليلة ، ولأن الله تعالى يهدي من يريد هدايته ، ممن أقبل عليه وشرح الحق صدره - أنزل القرآن على هذا النحو البديع ليكون داعيهم إلى الهدى ، وقائدهم إلى سواء السبيل .

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى
وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ
وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ
وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨))

الفردات :

(وَالَّذِينَ هَادُوا) : هم اليهود ، ولعل التعبير عنهم بالذين هادوا لرجوعهم إلى الله وتوبتهم من عبادة العجل بعد عودة موسى من مناجاة ربه . (وَالصَّابِئِينَ) : أصحاب دين أقاموه على الروحانيات ، وسنعرض لتفصيل أمرهم في تفسير الآية ، والصابئون من : صَبَأً ، وله عدة معان ، منها : خرج من دين إلى دين وهو من باب منع وكرم ويستعمل بمعنى : صار ، وبمعنى : طلع كما في قولهم : صَبَأَ النَّجْمُ كَأَصْبَأَ .
(وَالْمَجُوسَ) : قوم يعبدون الشمس والقمر والنار على ما روى عن قتادة .

(يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ) : يتحكم بينهم ، ويجزى كلا على حسب عقيدته وعمله .

(شَهِيدٌ) : أى مراقب وعليم .

(أَلَمْ تَرَ) : أَلَمْ تَعْلَمْ . (يَسْجُدُ) : يخضع ويذل .

التفسير

١٧- (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) :

حكى الله فى الآيات السابقة سوء أحوال الكفار - تابعيهم ومتبوعيهم والمذبذبين منهم - وبين سوء مصيرهم ومنقلبهم ، وبين حسن حال المؤمنين الصالحين وجميل ثوبتهم ، وختم ذلك ببيان أنه تعالى مؤيدٌ رسوله بالنصر والغلبة فى الدنيا والآخرة ، وجاءت هذه الآية الكريمة لتؤكد نصره فى الآخرة على جميع الفرق الكافرة .

وقد ذكر الله فى هذه الآية ست فرق يفصل الله بينها يوم القيامة ، وأولها : المؤمنون ، والمقصود بهم فى هذا المقام : من آمن بالله ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وثانيها : الذين هادوا وهم المعروفون باليهود ، ولما ذهب موسى لميقات ربه ، صنع لهم السامرى عجلا جسدا له خوار ، وقال : هذا إلهكم وإله موسى فعبدوه ، فأخبره الله بما صنع قومه فرجع إليهم غضبان أسفا ، ووبخهم على ما فعلوا ، وطلب إليهم التوبة ، وقد حكى الله ذلك فى عدد من السور ، ومنها قوله تعالى فى سورة البقرة : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »^(١)

فمعنى كونهم هادوا : أنهم رجعوا إلى الله وتابوا عن عبادة العجل فتاب عليهم ، أى : قبل توبتهم ، فلهذا أطلق عليهم القرآن : (الذين هادوا) مراعاة لما كان من أجسادهم ، وأما المعاصرون للنبي - صلى الله عليه وسلم - فهم مكلفون بالإيمان بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ومن لم يؤمن به فهو كافر ، كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ »^(٢)

وثالثها : الصابئون ، وقد جاء عنهم في كتاب - الملل والنحل - للشهرستاني : أنهم كانوا على عهد إبراهيم - عليه السلام - ويقال لمقابلهم : الحنفاء ، وكانوا يقولون : إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأحكامه - جل شأنه - إلى متوسط روحاني لا جسماني - ومدار مذهبهم على التعصب للروحانيات ، وكانوا يعظمونها غاية التعظيم ويتقربون إليها ، ولما لم يتيسر لهم التقرب إليها والتلقي منها بذواتها ، فزعت جماعة منهم إلى هياكلها ، وهي السبع السيارات وبعض الثوابت ، فصايثة الروم مفزعها السيارات ، وصايثة الهند مفزعها الثوابت ، وربما نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئاً وهي الأصنام .

والفرقة الأولى هم عبدة الكواكب ، والثانية هم عبدة الأصنام . وقد أفهم إبراهيم كلتا الفرقتين وألزمهم الحججة - وذكر الشهرستاني في موضع آخر من كتابه : أن ظهورهم كان في أول سنة من ملك طهمورث من ملوك الفرس اه^(١) وذكر صاحب كتاب « الصابئة » أنه توجد في سهل الموصل جماعة منهم يؤمنون بأن الخالق واحد أزلي لا أول لوجوده ولا نهاية له ، منزّه عن عالم المادة والطبيعة ، وهو الذي أوجدها ، ولكنهم مع هذا يتقربون إليه بعبادة الأفلاك والكواكب ، زاعمين أنها أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى ، وأنها حية خالدة ناطقة ، وأن كل ما يحدث في العالم يكون على حسب ما تجري به الكواكب حسب أمر الله لها - كما زعموا - فعظموها ثم جعلوا لها تماثيل وأصناماً ترمز إليها فعبدوها^(٢)

ونحن نقول : إنهم بجميع فرقهم كفار ، ولا يغنيهم اعترافهم بوجود الله على النحو الذي مرّ بيانه ، لأنهم كالمشركين الذين أشركوا الأصنام مع الله في العبادة ، مع اعترافهم بأنّه - تعالى - هو الخالق . وقد جاء الإسلام لمحاربة الشرك في جميع صورته ، قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

(١) انظر الآلوسي في الآية ، فعنه نقلنا ما تقدم عن الصابئة .

(٢) ومن العلماء من أباح ذبائحهم ونكاح نسائهم وممن من منع ذلك ، انظر القرطبي في تفسيره : « الصابئين »

في آية البقرة ج ١ ص ٣٤

ورابعها : النصارى وعقائدهم في المسيح معروفة ، وهم كافرون بنبيينا محمد صلى الله عليه وسلم - .

وخامسها : المجوس وهم كما قال الآلوسى -نقلا عن الشهر ستافى- :طوائف كانت قبل اليهود والنصارى ، يؤمنون بالشرائع على خلاف الصابئة ، ولهم شبهة كتاب ، وهم يعظمون النار . وروى عن قتادة : أنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر والنيران ، وقال القرطبي : هم عبدة النيران القائلون بأن للعالم أصلين : نوراً وظلمة .

وسادسها : الذين أشركوا ، وهو وصف شامل لكل من عبد غير الله فيدخل فيه عبدة الحيوان والأنهار والأمهات والآباء ونحوهم ، ممن لا يزالون على تلك المناهج في الهند والتبت وأفريقيا وغيرها ، وكل هذه الفرق كافرة عدا الفرقة الأولى التي آمنت بالله ورسوله .

والمعنى الإجمالى للآية : إن الذين آمنوا بالله ورسوله وكتابه ، واليهود الذين يعاصرون الإسلام ، والصابئين على اختلاف فرقهم التي مر بيانها ، والنصارى المعاصرين للإسلام على اختلاف مذاهبهم ، والمجوس ، والذين أشركوا بالله رب العالمين -أشركوا به - غيره من خلقه في العبادة ، إن هؤلاء جميعاً يقضى الله بينهم يوم القيامة فيظهر المحق منهم وهم المؤمنون ، والمبطل منهم وهم سائر الفرق ، ويجزى كلا على حسب حاله ، فيثيب المؤمنين ويعذب سواهم ، وما ربك بظلام للعبيد ، إن الله مراقب لعباده شهيد على أعمالهم محيط بعقائدهم وما كسبته جوارحهم فهو على كل شيء شهيد وبكل خلقه عليم .

١٨ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَعَالَهُ مِن مِّكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) :

هذه الآية جاءت لتأكيد قدرة الله على الفصل بين هذه الفرق التي ذكرت في الآية السابقة وهي التي اختلفت إيماناً وكفراً ، ببيان خضوع كل شيء في هذا الكون له تعالى ، ومن كان كذلك فإنه لا يصعب عليه الفصل بين من أطاعه ومن عصاه ، والرؤية في قوله

(أَلَمْ تَرَ) : رؤية القلب والعقل ، فهي بمنزلة أَلَمْ تعلم ، والمراد بالسجود هنا : الخضوع ، وهو عام في الإنسان والحيوان والنبات والجماد فكل ما في الكون خاضع لتدبير الله وأحكامه ، والمراد بمن في السموات والأرض : ما فيهما بطريق القرار فيهما أو الجزئية منهما « فَمَنْ » مستعملة هنا للعاقل وغيره ، كما تستعمل (ما) في مثل ذلك أحياناً .

وإفراد الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب بالذكر مع دخولها في عموم من يسجد له تعالى في السموات والأرض ؛ لأن الناس عبدوها مع الله مع أنها مخلوقة له وخاضعة لأحكامه .

فذكرت هنا لتنبيه الناس إلى خطئهم في عبادتها ، فالشمس عبدتها حمير ، والقمر عبدته كنانة ، ونجم الدبران عبدته تميم ، والشَّعْرَى عبدتها لخم وقريش ، والثريا عبدتها طيء ، وعطارد عبدته أسد ، وعبد أكثر العرب الأصنام المنحوتة من الجبال ، والعزى عبدتها غطفان ، وهي شجرة من السمر المعروف .

ومن الناس من عبد البقر في الهند وغيرها ، وقد مرت عقيدة الصابئة في عبادة الكواكب ، فلهذا نبه الله إلى خطأ هؤلاء العابدين وكفرهم بمن خلقها وسخرها .

وقد انتقل الكلام في آخر الآية من سجود التسخير إلى سجود الطاعة الاختيارية ، وذلك في قوله تعالى : (وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ) فهو على تقدير : ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ، وهم صنف المؤمنين من الفرق الست التي مرت في الآية السابقة (وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ) : وهم باقي الفرق الست لأنهم لا يخصصونه بالسجود - كما مرَّ بيان حالهم - ولا يصح أن يقصد بسجود كثير من الناس سجود التسخير ، فيعطف على من في السموات والأرض ، لأن سجود التسخير عام في الناس جميعاً - مؤمنهم وكافرهم - فلا يصح قصره على المؤمنين دون سواهم ، ومن العلماء من جعل « كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ » مبتدأً وقدَّر خبره (حق له الثواب) بدليل ما بعده ، وهو قوله سبحانه :

(وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ) : أى وكثير منهم وجب عليه العذاب بكفره وإبائه السجود الذي كلفه الله بأن يكون له خالصاً .

ومن العلماء من جعل « كثير » مبتدأ وقوله « من الناس » خبره على معنى : وكثير من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون المتقون المستحقون للثواب ، أما غيرهم فقد خرجوا عن حقيقة جنسهم بانحرافهم في عقائدهم .

والمعنى الإجمالي للآية : ألم تعلم أيها المفكر العاقل أن الله تعالى يخضع لتدبيره وحكمته وسلطانه كل ما في السموات والأرض ، ما استقر فيهما أو كان جزءاً منهما ، وأنه تخضع له الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، فهي مخلوقة له وخاضعة لتدبيره وسلطانه ، فكيف يتخذها الناس آلهة معه ؟ .

ويسجد لله تعالى سجود طاعة واختيار كثير من الناس وهم المؤمنون المتقون ، فحق لهم الثواب .

وكثير من الناس لا يخلصونه تعالى بالسجود فحق عليهم العذاب ، ومن يُهِنُّ الله تعالى بتعذيبه على معاصيه وسوء عقيدته ، فليس له من يكرمه بإنقاذه من الإهانة والتعذيب ، فإنه تعالى يفعل ما يشاء ، مما تقتضيه حكمته وعدله ، فلا معقب لحكمه ولا معارض ، لمشيئته .

* (هَذَا خِصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۚ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ يُصْهِرُ فِيهِمَا فِئَابُ النَّارِ ۖ يُصْهِرُ فِيهِمَا فِئَابُ النَّارِ ۖ يُصْهِرُ فِيهِمَا فِئَابُ النَّارِ ۖ يُصْهِرُ فِيهِمَا فِئَابُ النَّارِ ۖ)
 قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ١١٩
 يُصْهِرُ فِيهِمَا فِئَابُ النَّارِ ۖ يُصْهِرُ فِيهِمَا فِئَابُ النَّارِ ۖ يُصْهِرُ فِيهِمَا فِئَابُ النَّارِ ۖ يُصْهِرُ فِيهِمَا فِئَابُ النَّارِ ۖ
 حديد ٢١ كَلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا
 وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٢٢)

المفردات :

- (هَذَانِ خَصْمَانِ) : الخصمُ المخاصم مذكراً أو مؤنثاً ، مفرداً أو مثني أو جمعا .
 (اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) : وقع الجدل بينهم في شأن ربهم . (الْحَمِيمُ) : الماء الحار .
 (وَلَهُمْ مَقْعٌ مِنْ حَدِيدٍ) : المقامع جمع مقمعة كميكنسة وهي : الأعمدة من الحديد يضرب بها .
 (عَذَابَ الْحَرِيقِ) : أى عذاب الاحتراق ويكون بالغليظ من النار .

التفسير

١٩ - (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) الآية .

المراد بهذين الخصمين اللذين اختصموا في ربهم : فريق المؤمنين ، وفريق الكافرين المتقسم إلى الفرق الخمس التي ذكرت عطفاً على المؤمنين في قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا » وقد أريد بهما ذلك تعييناً لطرفي الخصام وتحريراً لمحلله ، وإزاحة لما عسى أن يتبادر إلى الذهن من كون الخصام بين كل واحدة من الفرق الست وبين البواقي ، وروى عن مجاهد والحسن وعطاء بن زباج وعاصم بن أبي النجود والكلبي ما يؤيد ذلك من أنهما فريقا المؤمنين والكافرين ، وهذا يتفق مع ما روى عن ابن عباس من أن الآية رجع إلى الأدیان الستة المذكورة في الآية التي أشير إليها سابقاً . وبه يتبين كون الفصل السابق بين المؤمنين ومجموع من عطف عليهم من الفرق الخمس الكافرة .

ومعنى اختصامهم في ربهم : اختصامهم في شأنه - عز وجل - فيما يتعلق بذاته وصفاته ، وفيما يليق به وما لا يليق ، فأمن به على ما ينبغى فريق وكفر فريق ، ولما كان كل خصم يجمع طائفة جاء (اختصموا) بصيغة الجمع ، واعتقاد كل من الفريقين حقية ما هو عليه ، وبطلان ما عليه الفريق الآخر ، وبناء كل منهما أقواله وأفعاله على اعتقاده ، يكفى في تحقيق خصومته للفريق المقابل له ، وإن لم يجر بينهما الجدل والخصام على سبيل المواجهة .

وحمل الآية على العموم المذكور لا ينافي ما قيل من أنها نزلت في الذين برزوا يوم بدر : حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث - رضى الله عنهم - ، وعقبة وشيبة ابنا ربيعة

والوليد بن عتبة ، أو أنها نزلت في المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ثم فصلت الآية ما أجمل سابقا في قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ » ببيان ما أعد لكل فريق من جزاء فضلا لهذه الخصومة فقال سبحانه :

(فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ) : أى تُقَطَّع لهم في الآخرة من النار الهائلة قِطْع تشبه الثياب في كونها على مقادير جثثهم ، وإحاطتها بهم كما تحيط الثياب بلباسها ، وذكر التقطيع بصيغة الماضي (قُطِّعَتْ) مع أنه سيقع في المستقبل ، لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعود به كالواقع المحقق .

« وأخرج جماعة عن سعيد بن جبير أن هذه الثياب من نحاس مذاب ، وليس شيء حمى في النار أشد منه ، فليست الثياب من نفس النار بل من شيء يشبهها وتكون هذه الثياب كسوة لهم وما أقبحها كسوة !! ولذا قال وهب : « يَكْسَى أَهْلُ النَّارِ ، وَالْعُرَى خَيْرٌ لَهُمْ » اهـ من تفسير الآلوسى والله أعلم بصحة ما نقل عن سعيد بن جبير ، فإنه من الغيب الذى لا يعرف إلا بالوحي .

(يُصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ) : أى يصب على رؤوسهم الماء الحار الذى انتهت حرارته إلى غايتها .

٢٠- (يُضْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ) :

أى : يذاب بالحميم إذا صب على رؤوسهم - يذاب به - ما في بطونهم من الشحم والأمعاء . قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ، وكذلك تذوب به جلودهم بمعنى : تتساقط . وقيل التقدير : يذاب به ما في بطونهم وتتحرق الجلود ، كقوله تعالى : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » .

٢١- (وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ) :

أى : وجعل الله لتعذيبهم أعمدة من حديد يضربون بها ويدفعون . وقيل المقامع : المطارق وهى المرازب أيضا ، وقيل : هى سياط من نار ، وسميت بذلك لأنها تنقع المضروب أى : تُذْلَقُ .

٢٢ - (كَلَّمَآ أَرَادُوآ أَن يَخْرُجُوآ مِنَهَا مِن غَمٍّ أُعِيدُوا) الآية .

أى : كلما أرادوا الخروج من النار ليغمّ عظيم من عذابها رغبة في الخلاص منه ، وأشرفوا على الخروج ، وذلك حين تجيش بهم النار وتثور ، فترفعهم إلى أعلى نحو أبوابها - كلما حدث منهم ذلك - ضربوا بالمقاطع فأعيدوا إلى معظم النار ، لأنهم ينفصلون عنها بالكلية ثم يعادون إليها .

قال الفضيل بن عياض : والله ما طمعوا في الخروج ، إن الأرجل لمقيّدة وإن الأيدي لموثقة ، ولكن يرفعهم ليهبها ، وتردهم مقامعها ، وقال الحسن : معنى الخروج : أن النار تضربهم بلهبها ، فتلقبهم إلى أعلاها ، فضرَبوا بالمقاطع فهَوَّوا فيها سبعين خريفاً . وكلا الرأيين يدور على أن إرادة الخروج من النار ليست على حقيقتها ، بل هي مجاز عن مشارفتهم الخروج منها ، برفعهم إلى أعلاها .

وقال : بعضهم إن المعنى : كلما أراد أحدهم أن يخرج من مكانه المعد له في النار إلى مكان آخر ، فخرج أعيد فيه بضرب الزبانية إياهم بالمقامع .

(وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) أى : وقيل لهم إذلالاً وإهانة : ذوقوا عذاب الحريق ، وهو عذاب الغليظ من النار العظيم الإحراق ، جمعا لهم بين التعذيب البدني والنفسى .

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) (٢٣) وَهَدُّوْا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوْا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ (٢٤))

المفردات :

(مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ) : الأساور جمع أسورة كاسلحة ، وواحد أسورة سوار - بكسر السين وضمها - كسلاح وغراب ، وهو ما يلبس في اليد (وَلَوْثُؤًا) : وهو ما يستخرج من البحر من جوف الصدف . (إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ) : إلى طريق الله المحمود وهو الدين الحق .

التفسير

٢٤ - (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . .) الآية .

لما أخبر - سبحانه - عن حال الفريق الأول فريق الكفار وما هم فيه من العذاب والنكال ، عقبه بذكر حال الفريق المقابل وهو فريق المؤمنين ببيان ما هم فيه من نعيم مقيم .

والمعنى : أن الله تعالى يكافئ المؤمنين على إيمانهم مكافأة كريمة ، فيدخلهم جنات تجري الأنهار في أرجائها وتنساب في جوانبها ، وتحت أشجارها ، وبين قصورها . ليصفو جوها ويرق هواؤها ، وتطيب الإقامة فيها ، واستكمالاً لنعيمهم (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ) : أى تلبسهم الملائكة في الجنة بأمر ربهم أساور متخذة ومصنوعة من ذهب ، ويمنحون لؤلؤاً يحلون به ، وقال القشيري : المراد : ترصيع السوار باللؤلؤ .

ولا يبعد أن يكون في الجنة سوار من لؤلؤ مضمّت بمعنى أنه لا يخالطه شيء ، ثم يضعون كل ذلك في أيديهم^(١) ، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال : سمعت حبيب الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : «تبلغ الحلية من المسلم حيث يبلغ الضوء» (وَلِيَأْسُوهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) : أى : أن جميع ما يلبسونه يكون من حرير سُنْدِسٍ وإستبرقه . كما قال تعالى : «عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ»^(٢) . وذلك في مقابلة ثياب الكافرين التي قطعت لهم من نار

(١) تطلق اليد على المصم ، كما تطلق على الكف وعلى الذراع كلها .

(٢) سورة الإنسان ، من الآية : ٢١

قال النص الكريم : « وَلِبَاسُهُمْ » ولم يقل : ويلبسون ، كما قال : يُحَلُّون . للإشعار بأن اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنه ، وإنما يحتاج إلى بيان نوعه . بخلاف التحلية ، فإنها ليست من لوازمهم الدائمة ؛ فلذا جعل بيانها بصيغة (الفعل) المضارع ليفيد التجدد من آن لآخر ، وفي تصدير الآية الكريمة عن المؤمنين بالتوكيد (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ ...) إظهار لمزيد العناية بهم وإشارة إلى تحقق ما وعدوا به ، والتحلية بلبس الحرير قيل : هو حكم عام في أهل الجنة ، وقيل : هو باعتبار الأغلب ، لما أخرج النسائي وابن حبان وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو) (١) .

قال القرطبي في تفسيره : وذلك لاستعجال ما حرم الله عليه في الدنيا . ثم قال هذا نص صريح ، وإسناده صحيح .

٢٤ - (وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) : أى وهدى الله - سبحانه - المؤمنين في الدنيا ، ووفقهم إلى الطيب من القول ، وهو كلمة التوحيد واتباع الأوامر ، واجتناب النواهي ، وحكى الماوردي : هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقيل : ما يعم ذلك وسائر الأذكار (وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) : أى إلى طريق الله المستحق غاية الحمد لذاته ، وصراطه : هو الإسلام فهو سبيل الله إلى الجنة .

وقيل : إن ذلك يكون في الآخرة ، بأن يقولوا عند دخول الجنة : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » ^(١) . « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ » ^(٢) . وما يقع في محاورتهم من طيب القول : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » ^(٣) . كما هدوا فيها إلى طريق الجنة فهي المكان المحمود الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم ، وتفضل به عليهم . كما جاء في مسلم .

(إِنَّهُمْ يُنْفَعُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُنْفَعُونَ النَّفْسَ) .

(١) سورة الزمر ، الآية : ٧٤

(٢) سورة فاطر ، الآية : ٣٤

(٣) سورة الواقعة ، الآيتان : ٢٥ ، ٢٦

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ
بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ الْعَذَابِ) (٢٥)

المفردات :

(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) : أى يمنعون الناس عن طريق الإسلام ؛ لأن الصد : المنع .
والسبيل : الطريق . (وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) : يراد به المسجد نفسه ، وقيل : الحرم كله ومنه مكة .
(الْعَاكِفُ فِيهِ) : أى المقيم فيه الملازم له ، وفعله من باب : قعد وضرب . (وَالْبَادِ) : الطارىء
عليه من سكان البادية وغيرها . (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) : الإلحاد فى اللغة ؛ الميل عن
القصد ، أى : ومن يرد فيه مراداً مائلاً عن القصد والاستقامة ، بسبب ظلمه .

التفسير

٢٥ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) الآية .
نزلت هذه الآية - على ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما - فى أبى سفيان بن حرب
وأصحابه حين صدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من المسلمين عام الحديبية عن
المسجد الحرام ، فكره - عليه الصلاة والسلام - أن يحاربهم وكان محرماً بعمرة ، ثم صالحوه
على أن يعود فى العام القابل .

وكان نزول الآية وعيداً لهؤلاء المشركين من قريش ومن والاهم ، حيث بالغوا فى الظلم
والطغيان بسبب كفرهم وما صاحبه من الصد عن الاسلام وعن المسجد الحرام ذاته أو عن
الحرم كله ومنه مكة ، وقد صد عنه النبي وأصحابه وكانوا بالحديبية وعبر عن الحرم
بالمسجد الحرام لأنه المهم المقصود .

والتعبير في النص الكريم بقوله : (وَيَصُدُّونَ) مع أنها بمعنى وصدوا لا استحضر الصورة الماضية تهويلا وتقبيحا لأمر الصد الذي واجهوا به النبي وأصحابه مع علمهم بأنهم حضروا مسالمين قصدا إلى النُّسك ، ومن حقهم أن يدخلوه . كما قال تعالى :

(الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) : أى جعلنا دخوله حقا لجميع الناس لقضاء النُّسك فيه ، يستوى في ذلك المقيم فيه أو في حرمة ، مع الحاضر إليه من أهل البادية وغيرهم ممن يقدون عليه . فأهل مكة ليسوا أحق بتقديسه وتعظيمه من النازحين إليه . (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِغُلْمٍ) : أى من يرد فيه مراداً ما بالحاد . أى : ميل عن الاستقامة إلى الإثم بسبب ظلمه الذي حمله على الإقدام عليه عامداً غير متأول .

من يفعل ذلك (نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) : أى ننزل به في الآخرة ألوانا من أشد العذاب وأقساه ، لأن الله عظم فيه الذنب - صغيره وكبيره - ، وضاعف عليه العقاب ، مما جعل أولى النهى يبالغون في المحافظة على حرمة ، ويبتعدون عن كل ما يمس قدسيته ، وكانوا يعدون شتم الخادم فيه إلحاداً بظلم ، واليمين اللغو كذلك ، كقولهم : لا والله ، وبلى والله ، مع أنها غير مؤثمة في غير الحرم ، أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : (كان لعبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - فسطان ، أحدهما في الحل ، والآخر في الحرم . فإذا أراد أن يصلى صلى في الذى في الحرم ، وإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الذى في الحل ، فقل له . فقال : نُحَدِّثُ أَنْ مِنَ الْإِلْحَادِ فِيهِ : لا والله ، وبلى والله) ويروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - إن من الإلحاد في الحرم أن نقول : كلاً والله ، وبلى والله . وكان مجاهد يرى (أن المعاصى تُضَاعَفُ بِمَكَّةَ كما تضاعف الحسنات) فتكون المعصية معصيتين : لإحداهما : بنفس المخالفة ، والثانية : بإسقاط حرمة البلد الحرام - وقال الخفاجي : الوعيد على الإرادة المقارنة للفعل ، لا على مجرد الإرادة ، وبه قال ابن مسعود وعكرمة . اهـ من تفسير روح المعاني .

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا
وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾)

القرائن :

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) : أى جعلنا مكانه مباءة ومرجعا يعود إليه إبراهيم للعبادة والعمارة ، ويقال : بوائته الدار ، وبوائت له الدار بمعنى : أمكنته إياها .
(أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا) : أى لا تشرك بى فى العبادة شيئا ، بل اجعلها لى وحدى .
(وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) : أى واجعل ساحته نقيّة طاهرة من الأصنام والأوثان ، ليكون خالصا للطائفين والمصلين لرب العالمين .

التفسير

٢٦ - (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ . . .) الآية .

أى : واذكر - أيها النبي - وقت جعلنا مكان البيت مباءة لإبراهيم يرجع إليه للعمارة والعبادة ، وأذنّا له ببناؤه بمعاونة ولده إسماعيل . وقال الزجاج : المعنى : بيّنا له مكان البيت لبنيته ، ويكون مباءة له ولعقبه ، يرجعون إليه ويحجونه .

ويقال : إنه كان مبنيا قبل أن يؤمرا إبراهيم ببناؤه ، ولكنه كان قد دُرسَ وفقى من عوادي الزمن ، فكشف الله لإبراهيم عن أسامه بما أرسله يومئذ من ريح عاتية : أزالته عنه ما كان يطمس معالمه ، ويخفى حلوده ، ويشتتُ رسومه .

وتوجيه الأمر للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر الوقت الذى وقعت فيه تلك الحوادث ولم يوجه إليه ليذكر الحوادث نفسها مع أنها هى المقصودة لذاتها - للمبالغة فى إيجاب

ذكرها ؛ لأن الوقت مشتمل عليها ، فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها ، كأنها مشاهدة عيانا ، والسياق يشير ظاهره إلى أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم - عليه السلام - وأنه تعالى هداه إليها .

روى عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ »^(١) أنه قال : هي القواعد التي كان عليها البيت قبل ذلك . ا هـ وبعد هذا بنته قريش في الجاهلية ، وحضر بناءه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان شاباً ، ثم بناه عبد الله بن الزبير ، ثم الحجاج بن يوسف الثقفي وهو البناء الموجود اليوم - كما قاله الآلوسی .
(أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا) أى : قائلين له : لا تشرك بي في العبادة شيئاً بل اجعلها خالصة لى وحدى . والخطاب - لإبراهيم عليه السلام - ونهيه عن الشرك نهى لأبنائه ، وأتباعه وكل من تناسل منهم وإشارة إلى خطيئة كل من أشرك بالله من قُطان البيت وسكانه .
(وَطَهَّرْ بَيْنِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) أى : وطهره من الشرك والأرجاس والأصنام ، ليكون خالصاً للموحدين الطائفين حوله ، والمصلين فيه أو حوله ، أو متجهين إليه إذا صلوا بعيداً عنه . والتعبير عن الصلاة بالقيام والركوع والسجود ؛ لأنها من أعظم أركانها ، وقد دلت الآية على أن الطواف لا يشرع إلا حول البيت ، وأن الاتجاه في الصلاة لا يكون إلا إليه ، ما لم يمنع من ذلك مانع ، وقد فصلت كتب الفقه ذلك .

(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ

مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ) أى : ناد فيهم وادعهم إلى الحج .

(يَأْتُوكَ رِجَالًا) أى : مشاة . ومفرد (رِجَالًا) : راجل - أى ماش على رجله - ، والفعل : رَجَلَ ،

كفرح .

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) : أى ركبانا على كل بعير مهزول من طول السفر وبعد المشقة ،
وفعله من بابي : قَعَدَ وَقَرَّبَ . (مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) : الفج الطريق الواسع بين جبلين .
ويراد به هنا : مطلق طريق ، والعميق : هو البعيد . وفعله ككرم وَسَمِعَ أى : من كل طريق بعيد .

التفسير

٢٧- (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا . . .) الآية .

لما فرغ إبراهيم - عليه السلام - من بناء البيت أمر بأن ينادى فى الناس داعياً إياهم
أن يحجوا هذا ، البيت أى : يقصدوه للنسك ، فلبى أمر ربه ، قيل : إنه صعد أبا قبيس من
جبال مكة ، فقال : يأيها الناس حجوا بيت ربكم ، فأسمعه الله تعالى من فى أصلاب
الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق فى علمه تعالى أن يحج ، قائلاً :
لبيك . والذى نراه : أن المقصود من الأمر الكريم أن يبلغ إبراهيم - عليه السلام - أن الله تعالى
قد شرع لعباده حج بيته ، وأوجبه على القادرين منهم مشاة وركبانا ، وقوله جل شأنه
(يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) : جواب لأمره - عليه السلام - بالأذان ، ووعد منه - سبحانه -
بأن يستجيب الناس إلى نداءه وتبليغه ، فيأتوه رجالاً أى : مشاة ، جمع راجل بمعنى ماش ،
وركبانا على كل بعير مهزول ، أضناه السفر ، وأتعبه بعد الشقة ، فلحقه المهزال أو جعله
يزيد فيه (يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) : الجملة صفة لضمير محمولة على المعنى ، فكأنه
قال : وركبانا على ضوامر يأتين من كل طريق بعيد ، وفى هذا إشارة إلى أن من رغب فى أداء
فريضة الحج لا يقف فى طريقه ضعف الراحلة ولا بعد الشقة ولا زيادة المشقة ولا ضيق
العيش ما دام ذلك فى دائرة احتماله ، وإنما قال يأتوك ، وإن كانوا يأتون الكعبة - لأن
المنادى إبراهيم - عليه السلام - فمن أتى الكعبة حاجاً فكأنما أتى إبراهيم لأنه أجاب نداءه .

ولما قال سبحانه : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا . . . » الآية . عقبه ببيان

فوائد الاستجابة . فقال تعالى :

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَائِسَ
الْفَقِيرِ ٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا
بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ٢٩)

المفردات :

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) : ليحضرُوا منافع لهم ، وفعله : شهد ، كسمع .
(مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) : المراد من بهيمة الأنعام ؛ الإبل والبقر والغنم ، والبهيمة في الأصل :
كل ذات أربع قوائم ولو في الماء ، أو كل حي لا يميز ، والجمع بهائم ، والأنعام مفردة نعم
بالتحريك ، وقد تسكن عينه . (الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) البائس : من نزل به الضر وفعله : بئس ، كعلم ،
والفقير : من قلَّ ماله ، وفعله كَتَبَ . (ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) : ثم ليزيلوا بعد التحلل من
الإحرام أو ساخهم ، وفعله : تَفَثَ ، كفرح ، فهو تَفِثَ إذا ترك الاستحمام فعلاه الوسخ .
(وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ) : أى وليؤدوا ما أوجبوه على أنفسهم ، وفعله من باي : ضرب وقعد
(بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) : أى القديم ؛ لأنه أول بيت وضع للناس في الأرض .

التفسير

٢٨ - (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ
الْأَنْعَامِ) الآية .

والمعنى : أن حجاج بيت الله الحرام يأتونك يا إبراهيم من مختلف البقاع تلبية لندائك
ليحضرُوا منافع لهم كثيرة العدد والخطر : دينية ودنيوية ، أما الدينية ففيما ينالونه

من مثوبة ومغفرة لأدائهم المناسك على وجهها المشروع ، وتعظيمهم الحرمات وتقديرها حق قدرها . وأما الدنيوية ففيها يصيبونه من ربح في التجارة ، وبما يحصلون عليه من لحوم الهدايا وما يذبحه الحجاج جزاء مخالفتهم لما وجب عليهم من المناسك ، إلى غير ذلك من التعارف والتآلف ، وإحكام الصلات بين الأفراد والجماعات والأمم الإسلامية ، وحل مشكلاتهم السياسية والمالية والاجتماعية (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ) : عند الذبح والنحر للهدايا والضحايا ودماء الحج ، مثل قولهم : باسم الله والله أكبر اللهم هذا منك وإليك . وبذلك أوجب الله ذكر اسمه عند الذبح ليحل أكل المذبح كما قال تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ »^(١) . وكان الكفار يذبحون على أسماء آلهتهم . فبين جل ثناؤه أن الواجب أن يكون الذبح على اسم الله .

(فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ) : هي أيام النحر ، وهي ثلاثة أيام : يوم العيد ويومان بعده . وبذلك قال جماعة من العلماء منهم الثوري ، وسعيد بن جبير ، وقيل أربعة : أيام : يوم العيد وثلاثة بعده . وبذلك قال الحسن وعطاء والشافعي وقيل غير ذلك^(٢) ويُنْبِئُ عَنْ أَنَّهَا أَيَّامُ النَّحْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) : فإنه يشير إلى أن المراد بالذكر هنا : ما يقع من ذكر الله عند الذبح في تلك الأيام ، وفي التعبير عن الذبائح بأنّها من رزق الله ، إيذان بأنّها من نعمه تعالى عليهم ، فلا يليق بهم أن يبخلوا بها ، فهي منه وإليه .

(فَكُلُوا مِنْهَا) : الأمر فيها لإباحة الأكل منها لصاحب الهدى والأضحية ولأهله عند قوم ، وللاستحباب والندب عند آخرين ، مواساة للفقراء ومساواة لهم ويتصدق بالأكثر وذهب أكثر العلماء إلى أنها تقسم أثلاثا فيتصدقون بالثلث ويهدي الثلث ويأكل هو وأهله الثلث ، ومن ذهب إلى أن الأكل مباح وليس مندوبا أبو حنيفة وسفيان الثوري ، فقد قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين ، فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل .

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١١٨

(٢) انظر كتب الفقه .

وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك بناءً على أن الأكل كان منهيًا عنه شَرَعًا لقوله - صلى الله عليه وسلم - : « كنت نهيتكم عن أكل لحوم الأصاحي فكلوا منها وأدخروا » . والأمر بعد المنع يفيد الإباحة لا الندب .

(وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) : الأمر للوجوب - كما نقله الألويسي عن بعض الشافعية ، أى وَأَطْعِمُوا منها البائس الذى نزل به الضر ، فأصابته الشدة ، وبدت عليه الحاجة ، وعن مجاهد وعكرمة : تفسيره بالذى يمد يده إلى الناس يَسْأَلُ ، والفقير بمعنى المحتاج صفة للبائس مؤكدة لمعناه ^(١) .

وتخصيص البائس الفقير بالإطعام لا ينافى جواز إطعام الغنى على سبيل الهدية كما تقدم بيانه .

٢٩ - (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) :

أى : ثم ليزيلوا بعد التحلل من الإحرام أوساخهم ، وذلك بالاستحمام وتقليم الأظافر ، وترجيل الشعر ، وقص الشارب ، وغير ذلك من أمور تستلزمها النظافة (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) : بتأدية ما أمروا به من مناسك حجهم ، والعرب تقول لكل من خرج عما وجب عليه وأدأه : وفى نذرُهُ .

والمعنى . وليوفوا بما ينذرونه من أعمال البر في حجهم ، والوفاء بالنذر واجب مطلقا ، وليس مختصا بالحج ، مادام النذر في غير معصية ، ولكن الوفاء به في الحج أحق وأكثر .

(وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) : هو طواف الإفاضة ، وهو الركن الأهم بعد الوقوف بعرفة . وقيل : هو طواف الوداع . ووصف البيت بالعتيق للإشارة إلى أنه قديم لكونه أول بيت وضع للناس كما قال تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا » ^(٢) أو للإشارة إلى أن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار إلى انقضاء الزمان ، وكم من جبار سار إليه ليهلكه فقصمه الله ورده عنه مخذولا .

(١) وقد يستعمل البائس فيمن نزلت به نازلة . وإن لم يكن فقيرا ؛ وعلى هذا تكون (الفقير) صفة مقيدة للموصوف ببيان صفة الفقر فيه .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٩٦

وفي الترمذى عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (إنما سئى البيت بالعتيق لأنه لم يظهر عليه جبار) ..

(ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۚ
وَأَحَلَّتْ لَكُمْ إِلَّا نَعَمٌ إِلَّا مَا يُنَالَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ
الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ
وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي
بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(حُرْمَتِ اللَّهِ) : هى كل مالا يحل انتهاكه والتهاون فى تعظيمه .
(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) : الرجس كل شئ يستقذر ويراد به الأوثان كما هنا
وهى من حجر أو خشب أو غيرها . (أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ) : أى تسقط به إلى أسفل . وفعله من
باب : ضرب ، يقال : هوى يهوى هويًا ، وهويًا . (فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ) : أى بعيد ، فعله . مثل
بَعُدَ وَزَنَا ومعنى .

التفسير

٣٠ - (ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ) الآية .

أى : ذلك التشريع الذى سبق بيانه يجب اتباعه والالتزام به لكل حاج ، أو امتثلوا
ذلك التشريع الذى تقدم بيانه ^(١) .

(١) كلمة (ذلك) أو (هذا) تذكر للفصل بين كلامين ؛ أو بين جهتي كلام واحد ، وقد جرى المفسرون على أن يقدروها
ضمن جملة مقيدة ترتبط بالمقام على نحو ما بيناه .

(وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ) : استئناف لتقرير حكم ما قبله ببيان أن الحرمات المقصودة بالتعظيم هنا هي أعمال الحج المشار إليها في الآيات السابقة وأماكنها كعرفة والكعبة ومنى ونحوها ؛ قاله ابن زيد وغيره . وعن ابن عباس : هي جميع المناهي في الحج ، وتعظيمها ألا يحرم حولها ؛ أى : لا يقربها .

وقيل : حرمت الله هي كل ما لا يحل انتهاكه ، ولا يجوز الاستهانة به ، وجميع التكاليف الشرعية تتصف بهذه الصفة فتشمل مناسك الحج وغيرها وعلى هذا يكون المراد من تعظيمها هو العلم بوجوب مراعاتها ، والعمل بمقتضى هذا العلم ، فلا خير في علم بغير عمل بمقتضاه ، وبهذا التأويل تكون هذه الآية عامة في الحج وغيره ، وهو الظاهر .

والغنى الإجمالى للآية : ذلك التشريع يجب تعظيمه ، ومن يعظم تكاليف الله وشرائعه بعلمه بقداستها ، وعمله بمقتضى هذا العلم ، فهذا التعظيم خير له عند ربه ، حيث يشبه عليه ثواباً عظيماً في أخراه ولا يحرمه من فضله في دنياه .

(وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) : أى وأحل لكم ذبح الأنعام ، والأكل منها في الحج وغيره ، إلا ما تلى عليكم تحريمه من قبل ، والأنعام حلال بأنواعها ، وتشمل الإبل والبقر والغنم إلا ما حرمه الله لعارض ، كاللوت ، وذكر اسم الأوثان عند ذبحها ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة المائدة : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ . . . »^(١) الآية ، وقد نزلت آية المائدة قبل آية الحج ، وإنما عبر عنها بصيغة الحاضر والمستقبل (إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) بدلا من صيغة الماضى - إلا ما تلى عليكم - للإيدان بأن تلاوة هذه الآيات تتردد على أسماعكم منذ نزولها إلى الآن وبعد الآن .

ولما حث الله على تعظيم حرمانه ، أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور فقال سبحانه : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) : أى فابتعدوا عن الرجس الذى هو الأوثان ، وكانت العرب تتخذها من الأحجار أو الأخشاب أو الذهب أو الفضة أو نحوها ، ويعبدونها إشرাকা وكفرا ، وطلب اجتناب ذواتها للمبالغة فى البعد عنها لأنها نجس وقدر لا ينبغي القرب منه

فضلا عن عبادتها التي لا يليق وقوعها من إنسان عاقل. (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) : تعميم بعد تخصيص ؛ فإن عبادة الأوثان هي رأس الزور لما فيها من ادعائهم أنها مستحقة للعبادة .

أى : واجتنبوا في كل ما تنطقون به قول الزور في عبادة أو غيرها ، حيث كانوا يقولون : « هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ »^(١) والزور : هو الكذب لأن فيه انحرافا وميلا عن الحق . وقد قرن النهي عن قول الزور بالنهي عن الشرك لما له من أسوأ الأثر في إثارة العداوات ، وغرس الأحقاد وتفتيت الجماعات بل قد يتمادى الكاذب فيكذب على ربه وخالقه في غير استعجاب ورهبة ، ومن قول الزور : الشهادة بغير الواقع ، فهي زور ينكر حقا ويثبت باطلا .

وفي الصحيحين عن أبي بكرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور . ألا وشهادة الزور . فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت) .

٣١- (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ...) الآية .

أى : فاجتنبوا في إسلامكم ما نهيتكم عنه من عبادة الأوثان ، وقول الزور في حال كونكم مائلين عن كل دين زائغ وغير مشركين به - سبحانه - شيئا من الأشياء ، فكل ما سواه - سبحانه - فهو مخلوق له ، فلا يصح أن يعبد معه . (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ) جملة مبتدأة لإظهار قبح الإشراف وسوء عاقبته .

والمعنى : ومن يشرك بالله فهو بمنزلة من سقط من السماء ، وعرض نفسه لأبشع صورة من صور الهلاك حيث يتمزق قطعاً ، ويتناثر أشلاء (فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ) : وتتناول أجزائه ، فلا تبقى له أثرا (أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) : أو تشبه حاله حال من عصفت به الريح في مكان بعيد ، فكان فيه من الهالكين ، وفي كلا التشبيهين تيشيس للكافر من النجاة ؛ حيث لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الهلاك الذي ينزله الله به في الآخرة ، حيث يصلى فيها « نَارًا تَلْظَى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى » .

(ذَٰلِكَ ۚ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾
لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(شَعَائِرَ) : الشعائر جمع شعيرة وهى العلامة ، والبدن من شعائر الحج أى : علاماته المميزة . (إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) : إلى وقت ذبحها أو إلى وقت إيجابها وتسميتها هدياً . (ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) : أى مكان وجوب ذبحها أو زمانه إلى جوار البيت العتيق . حيث تذبح بمنى أو بأى مكان بالحرم .

التفسير

٣٢ - (ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) :

أى : الأمر الذى يجب الالتزام به ذلك المذكور من أعمال الحج فى الآيات السابقة ، أو اتبعوا ذلك (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ) استئناف لتقرير ما قبله ، أى : ومن يعظم أو أمره وهى كل شئ لله تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم .

والمقصود بشعائر الله هنا : الهدايا التى تساق إلى فقراء الحرم فإنها من معالم الحج وشعائره ، كما ينبىء عنه قوله سبحانه : « وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ » ولدلالة الآية التالية على ذلك ، وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجل القربات وأفضلها ، ويراعى فى اختيارها أن تجمع بين السلامة من العيوب ، والسمن كما روى عن ابن عباس : تعظيمها استسمانها واستحسانها (فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) أى : فإن تعظيمها أثر من آثار تقوى القلوب التى امتلأت بتقوى الله وخشيته . وفى تقييد التقوى بالقلوب - كما قال الألوسى فى تفسيره : إشارة إلى أن التقوى قسمان : تقوى القلوب ، والمراد بها

التقوى الحقيقية الصادقة التي يتصف بها المؤمن الصادق . أما تقوى الأعضاء ، فالمراد بها التقوى الصورية الكاذبة التي يتصف بها المنافق الذي كثيراً ما تخضع أعضاؤه ، وقلبه لاه .

٣٣ - (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) :

أى : لكم في الهدايا منافع دنيوية في ألبانها ، وأصوافها ، وأوبارها ، وأشعارها ، ونسلها وركوبها إلى وقت إيجابها وبعثها هدياً ، وحينئذ ليس لكم شيء من منافعها ، قاله ابن عباس . وقال عطاء : منافع الهدايا بعد إيجابها وتسميتها هدياً أن تُركب ويشرب لبنها عند الحاجة إلى أجل مسمى وهو وقت النحر . وقال مجاهد : فإذا سُميت بدنة أو هدياً ذهب ذلك كله . وقال آخرون : بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك ، كما ثبت في الصحيحين . (عن أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأى رجلاً يسوق بدنة قال : اركبها . قال إنها بدنة ، قال : اركبها ويحك) ويؤخذ من ذلك : أن للمُهدين أن ينتفعوا بهداياهم ما داموا في حاجة إلى الانتفاع بها ، وذلك بركوبها ، وشرب لبنها - بعد رى فصيلها - إلى وقت ذبحها .

(ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) :

(مَحِلُّهَا) : أى وجوبها ، فهي مصدر ميمي مأخوذ من حلّ الدين إذا وجب أدائه ، والمراد أن وجوب نحرها ينتهي في الحرم إلى جوار البيت العتيق ، لإكرام لزواره ، وتعظيم مكانه ، وقد ورد في الحديث : « كل فجاج مكة منحر ، وكل فجاج منى منحر » قال القفال : وهذا في الهدايا التي تبلغ منى ، وأما الهدى المتطوع به إذا عطب قبل بلوغ مكة ، فمنحره موضعه .

وقيل : الشعائر : المناسك كلها . وتعظيمها : إتمامها . والمعنى لكم فيها منافع من الأجر والثواب في قضاء المناسك إلى انقضاء أيام الحج ، ثم تحلل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق أى : منته عنده بأن يطوفوا طواف الإفاضة يوم النحر .

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ
 بَهِيمَةٍ ۖ أَلَّا نَعْلَمَ فَاِلهَهُمْ ۚ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَلَهُ ۥ أَسْلِمُوا ۚ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾
 الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ
 وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ) الأمة : هي الجماعة على مذهب واحد . (جَعَلْنَا مَنْسَكًا) المنسك : بفتح
 السين وكسرها . موضع الذبح أو الذبح وإراقة الدم ، والنسيكة : الذبيحة ، وجمعها نُسُكٌ
 بضمين والفعل من باب نصر . (فَلَهُ ۥ أَسْلِمُوا) : أى استسلموا وانقادوا . (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) :
 وهم الذين خضعوا لله وخشعت قلوبهم ، يقال : أخبت الرجل إخباتا فهو مخبت أى : هو
 خاضع خاشع . (وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) : خافت وخشيت . (وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ) : هم
 الذين يجلسون الجزع إذا نزلت بهم نازلة ، وفعله من باب : ضرب .

التفسير

٣٤ - (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ
 الْأَنْعَامِ . . .) الآية .

أى : ولكل أهل دين من الأديان السماوية السابقة ، أو ولكل جماعة مؤمنة ، جعلنا لهم مكانا
 للذبح وإراقة الدماء ، تيسيراً لهم ، وتمكيناً لمن يريد التقرب إليه تعالى بإطعام عباده
 في مناسكهم ، وفسر مجاهد المنسك : بالذبح على أنه مصدر ميمي ، يريد أنه تعالى شرع
 لكل أهل دين أن يذبحوا تقرباً إلى الله تعالى ، لا لبعضهم دون بعض ، واختاره الزمخشري .

وقال الفراء: المنسك في كلام العرب: الموضع المعتاد في خير وبر، وفسره هنا: بالعيد، وقال ابن عرفة في قوله: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا» أي: مذهبا من طاعة الله تعالى، يقال: نَسَكْتُ نُسْكَ قَوْمِهِ، إذا سلك مذهبهم.

(لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) : أي ليدذكروا اسم الله وحده دون غيره عند ذبحها تعظيماً له وشكراً على ما أنعم عليهم من بهائم الأنعام: الإبل، والبقر، والغنم. وفي ذلك إشارة إلى أن القرايين لا تكون إلا منها (فَالْهَكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ) : أي: فاللهكم أيها المخاطبون إله واحد لأن شريعتكم وشرائع الأنبياء السابقين وإن تنوعت ونسخ بعضها بعضاً، كلها قائمة على التوحيد والدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له (فَلَهُ أَسْلِمُوا) : أي فإذا كان إلهكم واحداً منزهاً عن الشريك، فاستسلموا له وانقادوا لأمره. وأخلصوا له القول والعمل، واجعلوهما لوجهه ولا تشوبوهما بشرك (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) : أي وبشر أيها النبي أولئك المخلصين المتواضعين - بشرهم - بالجنة والثواب العظيم، قال عمرو بن أوس: (المخبتون الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا) أي، لم ينتقموا: من الانتصار بمعنى الانتقام أي: عفا عن ظالمهم.

٣٥ - (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ . . .) الآية.

تعدد الآية أوصاف المخبتين المبشرين بالجنة فتذكر أن من أجل صفاتهم أنهم إذا ذكر الله اضطربت قلوبهم خشية منه ورهبة، وذلك لقوة إيمانهم وعمق يقينهم.

(وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ) : من كوارث الزمن بتحمل المتاعب وحبس الجزع بنفس راضية، وإيمان بقضاء الله وقدره.

(وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ) : في أوقاتها وعلى أكمل صورها حسبما شرعها الله.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) : أي ومن بعض ما آتيناهم من طيب الرزق ينفقون في أوجه البر والخير التي تعود على دينهم ومجتمعهم بالنفع والصلاح.

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا
 اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۚ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا
 الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ
 يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ
 كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ وَيُشِيرَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ) : البدن جمع بدنة بالتحريك وأصل الجمع : (بُدْن) :
 بضمين ثم خفف بتسكين وسطه وهى : الإبل وكذا البقر كما قيل : وستأتى مناقشته .
 (مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) : جمع شعيرة ، أى علامة ، فالبدن من علامات دين الله فى الحج
 (عَلَيْهَا صَوَافَّ) : أى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن استعداداً لنحرها
 (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا) : أى سقطت على الأرض بعد ذبحها . يقال : وجب الحائط
 يجب وجبة إذا سقط .

(الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) : القانع الذى لا يسأل الناس ويقنع بما عنده ، وفعله من باب فرح
 يفرح ، ومصدره القناعة ، والمعتر : هو المتعرض للسؤال ، من اعتره إذا تعرض له ، وتفسيرهما
 بذلك مروى عن ابن عباس . (كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ) : أى ذللناها ومكناكم منها .

التفسير

٣٦- (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ . . .) الآية .

هذه الآية امتنان من الله جل ثناؤه على عباده حيث خلق لهم البدن ، وجعل ذبحها من
 أعلام الدين ومظاهره ، ويسر لهم إهداءها إلى البيت الحرام تقرباً إليه سبحانه ، وهى

حين تهدي إلى بيته تكون من أفضل ما يهدي إليه . والمراد منها هنا : الإبل والبقر وفق ما قاله جمهور العلماء من أن البدنة تجزى عن سبعة والبقرة تجزى عن سبعة كما جاء في حديث مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال : أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن نشترك في الأضاحي . البدنة عن سبعة . والبقرة عن سبعة لذلك جعلنا في الشريعة جنساً واحداً أريد به نوعان لتساويهما في الأجزاء عن عدد متحد فضلاً عن تساويهما تقريباً في البدانة وضخامة الجسم .

وقيل : إن البدن خاص بالإبل بدليل الحديث الصحيح في يوم الجمعة : (من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ...) الحديث .

فتفريقه - عليه السلام - بين البدنة والبقرة يدل على أن البقرة لا يقال عليها بدنة . وإن كانت تكنى مثلها عن سبعة وأيضاً قوله تعالى « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » يدل على ذلك فإن الوصف خاص بالإبل أما البقر فتضجع وتذبح كالغنم اهـ بتصرف من تفسير القرطبي .

(لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ) : أى لكم في البدن المهداة إلى الحرم نفع في الدنيا بركوبها وشرب لبنها والانتفاع بصوفها ووبرها متى كنتم في حاجة إلى ذلك . ولكم فيها أجر عظيم في الآخرة لتقريبكم بها إلى رضا ربكم . والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها .

(فَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهَا صَوَافٍ) : أى فابدأوا بالتسمية عند نحرها قائلين : بسم الله والله أكبر اللهم هذا منك وإليك . وقد أخرج ذلك جماعة عن ابن عباس .

ويكون النحر لها قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ، وقرىء : صوافن ، جمع صافنة أى قائمات على ثلاث وتُعقل إحدى يديها . وعُقل إحدى يديها سنة . فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه رأى رجلاً قد أناخ بدنته وهو ينحرها فقال : ابعثها قياماً مقيدة ، سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا) : أى فإذا سقطت على الأرض بعد نحرها قائمة ، وذلك كناية عن سكون حركتها وموتها ، وهذا يؤيد أن البدن المهداة تكون من الإبل دون البقر ، لأنه لم تجر العادة بينهم أن تذبح البقرة قائمة . وإنما تذبح مضطجعة ، وقلما شوهد بينهم نحر البدنة وهي مضطجعة ، وكون البقرة تكنى

عن سبعة في الأضحية ، لا يقتضى إطلاق اسم البدنة عليها ، ولا كفايتها عنها في الهدى (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) : الأمر بالأكل للإباحة مخالفة للمشركين ؛ لأنهم كانوا لا يأكلون من هديهم ويقولون بحرمة ، والأمر الثاقب للنذب ، أى : فيباح للمهدي أن يأكل من هديه ولو لم يأكل منه جاز ، وأوجب بعض الفقهاء أكله منه ، ويندب له أن يطعم منه القانع والمعتز ، ولو صرفه جميعه لنفسه جاز ولم يضمن شيئاً ، ولكن الأولى أن يقسم أثلاثا ثلثا لصاحبه ، وثلثا للقانع ، وثلثا للمعتز . وروى ذلك عن ابن مسعود والآية تشير إليه ، وقال بعضهم : لا تحديد فيما يؤكل أو يطعم لإطلاق الآية . وهو الظاهر .

ويراد بالقانع : من رضى بما عنده ولم يتعرض للسؤال ، وفعله قنع من باب فرح يقنع قناعة .

ويراد بالمعتز : الذى يطيف بك ويُلِمُّ راغباً فى عطائك ساكتاً أو سائلاً ، من اعتره إذا تعرض له للسؤال كما تقدم بيانه فى المفردات ، وتخصيص الإطعام فى الآية بالقانع والمعتز ، لاينفى جواز إطعام الموسرين قياساً على جواز أكل المهدين وإن كانوا أغنياء .

وما ذكر من إباحة الأكل ، ونذب الإطعام إنما هو فى هدى التطوع أما ذبائح الكفارات فعلى صاحبها التصدق بجميعها ، فما أكله منها أو أهدها لغنى ضمنه ، وفى هذا الموضوع خلافات مذهبية فارجع إليها فى موسوعات التفسير أو كتب الفقه .

(كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ) : أى مثل هذا التسخير البديع المفهوم من قوله تعالى : « صَوَافٌ » سخرناها لكم فلا تستعصى عليكم مع قوتها وعظم أجرامها حتى أنكم تأخذونها وتحبسونها صواف ثم تطعنونها فى لبائنها ، ولولا تسخير الله لم تخضع ، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التى هى أقل منها حجماً وأضعف قوة (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى لكى تشكروا آلاء الله المتتابعة عليكم ، بالتقرب إليه بما يجب عليكم من امتثال لأمره وإخلاص فى عبادته .

٣٧ - (لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاءُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ . . .) الآية .
قال ابن عباس : « كان أهل الجاهلية يضرّجون البيت بدماء البدن فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فنزلت الآية » (لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا . .) : أى أنه تعالى ليس له حاجة إلى لحومها ودمائها ، حتى تضرجوا بها بيته ، ولكن يناله التقوى منكم فى كل

أعمالكم ، ومنها إطعام المساكين من لحومها ، وقد حث النبي - صلى الله عليه وسلم - على الإخلاص في الأعمال والقربات ، كما جاء في حديث مسلم « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

(كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ) : أى مثل هذا التسخير العجيب سخرها لكم ، وجعلها منقادة خاضعة . فلا تستعصى عليكم مع ضخامتها .

وكرر - سبحانه - الامتنان على عباده بتذليلها لهم وتمكينهم منها تذكيرا لهم بتلك النعمة العظيمة التي تفضل بها عليهم .

(لِيُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَا كُمْ) : أى لتعرفوا عظمته باقتداره على ملا يقدر عليه أحد من هدايتكم إلى طريقة تسخيرها ، وإرشادكم إلى الانتفاع والتقرب بها فتفردوه بالعبادة ؛ شكرا له على هدايتكم لذلك .

وقيل : لتكبروا الله عند الذبح ، وقد أمروا بالتسمية في قوله تعالى : « فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ » وكان ابن عمر يجمع بينهما إذا نحر هديه فيقول : باسم الله والله أكبر . وهذا من فقهه - رضى الله عنه - .

(وَيَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) : أى وبشر - أيها النبي - المحسنين في أعمالهم ، بالإخلاص فيها ، والقيام بها كما شرعه الله تعالى من غير من ولا أذى ؛ وعن ابن عباس : هم الموحدون .

* (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨) أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَبِيَاعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ۝٤١)

المفردات :

(خَوَّانٍ كَفُورٍ) : الخَوَّانُ ؛ الكثير الخيانة ، والكُفُور : الشديد الكفر .
 (بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا) : بسبب كونهم مظلومين . (صَوَامِعُ) : جمع صومعة ، وهي متعبد خاص برهبان النصارى . (وَبِيَاعٌ) : جمع بيعة بوزن حرفة ، وهي متعبد النصارى عامة .
 (وَصَلَوَاتٌ) : جمع صلاة وهي كنيسة اليهود ، وأطلق عليها صلاة لأنهم يصلون فيها ، وذلك من إطلاق اسم الحال على المحل ، أو المظروف على الظرف .
 (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ) : أى له تعالى مرجعها تدبيراً وحكماً .

التفسير

٣٨- (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) :
 هذه من الآيات التي نزلت بعد الهجرة إلى المدينة ، وقد تقدمتها آيات تتعلق بالحج

وأحكامه ومناسكه ومنافعه ، وكل ذلك يؤدّى بمكة وحرمها ، وأتّى للمهاجرين المضطهدين أن يصلوا إليها حاجّين أو معتمرين ، تلبية لنداء جدّهم إبراهيم الذى حكاه الله من قبل بقوله : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » الآيات (٣٧ - ٣٩) أتى لهم أن يحجوا ويعتصموا وقريش لهم بالمرصاد ؟ تصدهم عن حماه ، وتحرمهم من أداء فريضة الله ، وتمنع معهم من انضمام إليهم وأسلم من أنصار المدينة ، وهم بعد لم يؤذن لهم بحرب ولا قتال .

فلهذا كله أنزل الله تلك الآية لبعث الأمل في نفوس المؤمنين وطمأنة قلوبهم ببيان أنه - تعالى - ناصرهم على أعدائهم ، وممكنهم من الوصول إلى بيته . تحقيقاً لقوله من قبل : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ^(١) » .

والمعنى الإجمالى للآية : إن الله يدفع عن الذين آمنوا به وبرسوله غائلة أعدائهم المشركين إن أرادوهم بسوء أو صدوهم عن المسجد الحرام - يدفع عنهم شرورهم دفعاً بليغاً - لأنه تعالى لا يحب كل خوان لأمانة الله ، كفور بنعمة الله ، وهؤلاء المشركون خانوا الله ورسوله وأوليائه ، وخانوا أماناتهم ، وكفروا بربههم ، وعصّوا رسوله وكفروا به وآذوه ومن آمن معه من المؤمنين ، وأخرجوهم من ديارهم وبالغوا في كفرهم وخيانتهم ، فلهذا استحقوا أن ينتقم الله منهم ، ويدفع أذاهم عن عباده المؤمنين الذين يحبهم ويرضى عنهم .

٣٩- (أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ يَآنِهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) :

وعَدَّ الله في الآية السابقة بالدفاع عن المؤمنين ومساندتهم تمهيداً لهذه الآية التى أذن لهم فيها بقتال المعتدين عليهم المخرجين لهم من ديارهم ، وأكد فيها وعده السابق .

روى الواحدى وغيره : أن المشركين كانوا يؤذون أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وهم بمكة ، وكانوا يأتونه ما بين مضروب ومشجوج ، يتظلمون له ، فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أؤمر بالقتال ، حتى هاجر فأنزلت هذه الآية .

وهى أول آية أنزلت فى القتال بعد ما نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عنه فى نيف وسبعين آية ، على ما رواه الحاكم فى المستدرک عن ابن عباس - رضى الله عنهما - .

ومن نص الآية نعلم أنه تعالى إنما أذن لهم بالقتال بسبب أنهم ظلموا من المشركين ، حيث آذوهم وأخرجوهم من ديارهم وذوهم وأموالهم ، فهو قتال يراد به الانتقام ممن آذوهم ، وإثبات أنهم أصبحوا قوة يحسب حسابها عندما يريدون العدوان عليهم ، وكل ذلك تفره الأعراف الدولية ، فمن لم يتدأب أكلته الذئاب ، وتعتبر هذه الآية قاعدة عامة لمشروعية القتال الدفاعى ، وإن نزلت بسبب خاص .

ومعنى الآية : أذن الله للمؤمنين الذين يقاتلهم غيرهم ، بأن يعتدوا عليهم أو على دورهم أو وطنهم أو أموالهم أو يؤكّبوا عليهم سواهم ، أذن الله لهم فى قتالهم ، بسبب ظلمهم إياهم ، وإن الله على دفع هؤلاء الظالمين عن المؤمنين ونصرهم عليهم لعظيم القدرة ، فليثقوا بوعدده وليطمئنوا إلى تأييده ، وليأخذوا بالأسباب .

٤٠ - (الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) :

هذا وصف مؤيد للإذن بقتال المهاجرين للمشركين حقق الله به وقوع الظلم منهم عليهم ، وأن من حقهم أن يدفعوا الظلم عن أنفسهم .

وقد أجرى هذا الوصف مجرى المدح لهم ، على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، وكأنه قيل : هم الذين أخرجوا من ديارهم بغير ذنب يستحقون به هذا الإخراج إلا أنهم يخالفون من أخرجوهم فى شركهم ، فيقولون : ربنا الله لا نعبد سواه ، فهل يعتبر قول الحق وعقيدة الصدق ذنبا يستحقون التهجير والإخراج من الوطن الغالى بسببه ؟ إنه لظلم مبين ، وعدوان أثم .

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا) :

في هذا الجزء من الآية يبحث الله المؤمنين على القتال لأعدائهم بعد أن أذن لهم فيه ، فقد بين لهم أنه تعالى أجرى العادة في الأمم السابقة أنه لا يُدْفَعُ الشر إلا بمثله والبادئ أظلم ، وذلك لكي ينتظم أمر الناس ويسود الأمن بينهم ، وتقوم الشرائع وتضام المعابد .

فكانه قيل : قد أذننا للمؤمنين بقتال من ظلمهم وأخرجهم من ديارهم بغير حق ، فليقاتلهم ليدفعوا شرهم ، ويصونوا مساجدهم ، فلولا القتال وتسليط المؤمنين على المشركين في كل عصر وزمان ، لهدمت معابدهم ، واستبيحت حرمتهم .

والصوامع : جمع صومعة . وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وعُباد الصابئة ، والمراد بها : هنا مُتَعَبِّدُ الرهبان ، والبيع : جمع بيعة بوزن كسرة . وهي مُطْلَى النصارى جميعاً ولا تختص برهبانهم كالصومعة ، والصلوات : جمع صلاة ، وهي كنيسة اليهود ، وأطلق عليها ذلك على سبيل المجاز المرسل ، علاقته الحالية والمحلية . أو المظروفية والظرفية .

وقيل : صلوات : معربٌ « صَلُّوْثَا » بالثاء المثناة والقصر ، وهي كلمة عبرانية معناها : المصلّى ، وروى عن أبي رجاء والجحدري وأبي العالية ومجاهد أنهم قرأوا بذلك .

والمساجد : جمع مسجد ، وأكثر ما يطلق على مصلى المسلمين ، ويقول ابن عطية : الأسماء المذكورة تشترك الأمم في مسمياتها إلا البيعة ، فإنها مختصة بالنصارى في كل لغة ، ومعظم المفسرين على ما مرّ بيانه ، من أن الصوامع للرهبان ، والبيع للنصارى ، والصلوات لليهود ، والمساجد للمسلمين ، أما قوله تعالى : « يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا » فهو في موضع الصفة لمساجد ، وقال بعض المفسرين : إنه صفة للمواضع الأربعة المذكورة ، فإن كلا منها يُذْكَرُ فيه اسم الله في عصره الذي كانت شريعته فيه قائمة لم تنسخ ، واستظهر هذا الرأي أبو حيان .

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) :

في هذا الجزء من الآية وعد الله تعالى من يقاتل في سبيله بالنصر والتأييد ، أما من يقاتل عدوانا وظلما فهو بمعزل عن تأييد الله ، ولئن فاز في بعض جولاته على أهل الحق فالعاقبة للمتقين الثابتين المترابطين .

ومع أنه - تعالى - أذن في هذه الآية للمسلمين بقتال أعدائهم دفاعا عن أنفسهم ألزمهم في حربهم بآداب وردت في كتاب الله وعلى لسان رسوله ، ففي كتاب الله يقول سبحانه : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » وللعُدوان صور ، منها : قتل من لا شأن له في القتال ، كالنساء والصبيان والرهبان ، والشيوخ المسنين والمرضى ، فالمسلمون ممنوعون من كل ذلك ، جاء في السنن أنه - صلى الله عليه وسلم - « مرَّ على امرأة مقتولة في بعض مغازيه قد وقف عليها الناس ، فقال : ما كانت هذه لتقاتل » وقال لبعض أصحابه : أدرك خالدًا فقل له : « لا تقتلوا ذرية ولا عسيفا » والعسيف : الأجير ، ومن وصاياه - صلى الله عليه وسلم - « لا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا صغيرا ولا امرأة » وفي صحيح مسلم : عن بريدة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول : « اغزوا في سبيل الله ، وقاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع » أما الحرب عند غيرنا فلا تعرف للرحمة سبيلا .

٤١- (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) :

ما جاء في هذه الآية إما وصف للمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق وأذن لهم في القتال دفاعا وردا للعدوان . وهو الظاهر ^(١) - وإما لصدر الأمة المحمدية الشاملة للمهاجرين والأنصار وتابعيهم كما روى عن ابن عباس ، وإما للأمة المحمدية في مختلف عصورها - كما قاله الحسن وأبو العالية - وعلى أي حال فالآية مرتبطة بما قبلها .

(١) وعلى هذا تكون الآية دليلا على صحة أمر الخلفاء الراشدين ، فالممكونون في الأرض من المهاجرين هم الخلفاء الراشدون دون غيرهم ، ولو لم يمكن المهاجرون وكانت الخلافة في غيرهم لزم الخلف فيما يشبه الوعد منه تعالى بأنه يمكنهم في الأرض ، وقد وقع انشطر وهو : التمكين وثبت الجواب وهو : إقامة الصلاة وما عطف عليها ، وهذا يقتضى أحقية الخلافة في المهاجرين .

والمعنى : ولينصرون الله من ينصره ، وهم أولئك الذين إن مكناهم في الأرض وجعلنا لهم سلطانا عليها أقاموا الصلاة في مواقيتها ، وأعطوا زكاة أموالهم لمستحقها ، وأمروا بما عرف حسنه في شرع الله وأعراف الناس ، ونهوا عن المنكر في دين الله ومنهاج الحق والله تعالى دون غيره عاقبة الأمور ومآلها ، وفقا لتدبيره وحكمته - جل وعلا - .

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾
 وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى
 فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ
 مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ
 مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ) : أى أهلها وهم قوم شعيب . (فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ) : فأمهلتهم .
 (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) : فكيف كان إنكارى عليهم^(١) وعقابي لهم ، والاستفهام بكيف
 للتعجب مما عاقبهم به الله . (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) : فكثير من القرى أهلكنا
 أهلها ، وإيقاع الإهلاك على القرى على سبيل المجاز . (خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) : أى
 ساقطة على سقوفها ؛ من خوى النجم : إذا سقط ، أو خالية مع بقاء عروشها وسلامة بنيانها بعد
 ما هلكوا ، من خَوَتْ الدار ، تَخَوَى ، خَوَاءً ، إذا خلت من أهلها ، وخَوَى البطنُ من الطعام
 يَخَوَى ، خَوَى ، وخَوَاءً . (وَيَبْرِ مُعَطَّلَةٍ) : أى لا يُسْتَقَى منها لهلاك أهلها .
 (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) : أى مرفوع البنيان ، أو مبنى بالشيد ، وهو الجص .

(١) مأخوذ من قولهم : نكرت عليه كذا ، إذا فعلت فعلا يردعه ، فهو بمعنى : الإنكار ، كالنذير ، بمعنى : الإنذار .

التفسير

٤٢، ٤٣ - (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ) :

هاتان الآيتان وما بعدهما سيقنت لتسليية الرسول صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من إغراض أهل مكة وتكذيبهم إياه ، وحزنه وتألم قلبه لجفائهم وهم يعلمون أنه الصادق الأمين ، والتعبير عن تكذيبهم بصيغة المضارع الصالحة للحال والاستقبال حيث قيل : (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ) مع أنهم كذبوه من قبل ، للإيدان بأن تكذيبهم سيتجدد ، فَلْيَتَسَلَّ عنه ولا ينزعج ، فمثل ذلك قد حدث للمرسلين قبله من أقوامهم .

والمعنى : وإن يكذبك قومك - يا محمد - فلا تحزن ، فإنك لست بأوحدى في ذلك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط - كذبوا رسلهم - .

وإلحاق التاء بكذب في قوله : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) مع أن القوم مذكر ، لأنه اسم جمع يصح تأنيث الفعل المسند إليه وتذكيره ، أو لتأويل القوم بالأمة أو الجماعة .

٤٤ - (وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) :

أى ، وكذب أهل مدين رسولهم شعيبا ، وكذب فرعون وقومه موسى ، فأمهلت كل فريق من هؤلاء المكذبين لعلمهم يرفعون ويشوبون إلى رشدهم ، ثم أخذته وأهلكته بعد انتهاء مدة إملائه وإمهاله ، عقابا لهم وإنكارا عليهم ، فكيف كان إنكارى عليهم ؟ لقد حولت عمارهم خرابا ، وأهلكتهم عن آخرهم « فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّبْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »^(١)

٤٥ - (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَثِرُ مَغَطَّةٌ وَقَصِيرٌ مَشِيدٌ) :

(كَايِّنٌ) : اسم يراد به التكثير مثل (كَمْ) الخبرية و (خَاوِيَةٌ) بمعنى : ساقطة أو خالية ، وهذه الآية مفرّعة على الآية التي قبلها مبينة لما جاء فيها من عقاب الله العنيف للمصريين على الكفر ، وآثاره التي ترتبت عليه .

ومعنى الآية : فكثير من القرى دمرناها وأهلكناها وأهلها ظالمون ، فهي بسبب ذلك ساقطة حيطانها على سقوفها ، وكم من بئر عامرة مليئة بالماء معطلة لا تجد من يستقى منها لهلاك أهلها ، وكم قصر مرفوع البنيان ، أو مبنى بالشيد ، وهو الجص ، أهلكنا أهله فخلا من ساكنيه .

وإذا كانت (خاوية) بمعنى خالية ، يكون معنى الآية : فكثير من القرى أهلكنا أهلها وهم ظالمون ، فهي خالية منهم بعد إهلاكهم مع بقاء عروشها وسلامتها ، وكم من بئر معطلة لا تجد من يستقى منها ، وقصر مشيد لا يجد من يغمّره .

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا
أَوْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى
الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۖ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ
اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۖ ﴿٤٧﴾
وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أُمْلِيتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى
الْمَصِيرِ ۖ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ) : وكثير من القرى .

(أُمْلِيتُ لَهَا) : أمهلت أهلها ولم أعجل عقوبتهم على كفرهم .

٤٦- (أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) :

حكمت الآيات السابقة : أنه تعالى انتقم من كذب المرسلين قبل محمد صلى الله عليه وسلم فأهلكهم وخرَّب ديارهم ، وجاءت هذه الآية لحث مشركي قريش على السير في أرض المهلكين لكي يعتبروا بما حدث لهم ، فيتوبوا من شركهم وكفرهم .

وهؤلاء لا يخلو حالهم من أن يكونوا قد مروا على القرى التي أهلك أهلها حولهم كقرى قوم لوط وأصحاب الأيكة ، ولكنهم لم يعتبروا بما حدث لهم ، فالآية حينئذ تنعى عليهم عدم اتعاظهم بالمرور عليها ، وتطالبهم بالاعتاظ بها ، والهمزة على هذا للاستفهام الإنكارى المشوب بتوبيخهم على عدم اعتبارهم بما يرونه من آثار المهلكين قبلهم ، أو أن يكونوا لم يمروا بها ، فالآية تطالبهم بالمرور بها والاعتبار بما حدث لأهلها وعلى هذا فالاستفهام : إما للإنكار والتوبيخ على عدم مرورهم واعتبارهم ، أو لتقريرهم بارتكاب هذه الخطيئة ، وخلاصة معنى الآية على الوجه الأخير كما يلي :

أَفَعَدَّتْ قَرِيشٌ فِي عَقْرِ دَارِهَا وَقَدْ عَلِمُوا بِالْقُرَى الْمَهْلِكَةِ حَوْلَهُمْ ، فلم يسيروا في الأرض متجهين نحوها ليتعرفوا ما حدث لها ولأهلها ، فتكون لهم عندما يرون آثارها - تكون لهم - قلوب يعقلون بها أن الكفر بالله وخيم العاقبة ، وأن الرسل صادقون فيما يبلغون أمهم عن الله رب العالمين ، أو تكون لهم عندما يسمعون ممن حولها أخبارها - تكون لهم - آذان يسمعون بها ، فلا يخلقونها عند الاستماع إليها ، فإنه لا يُعْتَدُ بعمى الأبصار ، فإن من عمى بها قد يدرك الحق بقلبه أو يسمعه ، فكأنه ليس بأعمى ، ولكن العمى في الحقيقة هو عمى القلوب التي في الصدور ، فإن عماها يحجب الحق عنها ، فتبقى في ظلام الكفر وغيوبة الضلال المبين ، فسيروا - يا أهل مكة - في الأرض ، لتنظروا ما حدث للمكذبين قبلكم ، وأزِيلُوا الْغِشَاوَةَ عَنْ قُلُوبِكُمْ وَعَنْ أَسْمَاعِكُمْ ، واعتبروا بما حدث لمن قبلكم .

وهذه الآية قررت أن القلوب التي في الصدور مركز للتنقل والإدراك ، وأن بها يعرف الخير من الشر ، وقد تكرر هذا المعنى في آيات كثيرة من القرآن ، ففي سورة الأعراف :

قال الله عز وجل « لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا » - ١٧٩ -

وفي سورة محمد قال تعالى « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » - ٢٤ -

إلى غير ذلك من الآيات .

ومن الأمور المعروفة طبياً : أن الأجهزة العقلية كلها في الدماغ ، ولا تعارض بين ذلك وبين ما جاء في القرآن ، فإن العقول لا غذاء لها إلا من القلوب ، ولا تعمل إلا بمدد منها ؛ فإذا انقطع عنها هذا المدد شلَّتْ وفسدت ، وتعرض صاحبها للموت ، بل إن القلوب هي مصدر الحياة للأجساد ، فلا غرابة في أن يُسندَ إليها ما يسند إلى رعيتهما من مختلف الأجهزة الجسمية ، ألا ترى أنهم يقولون : فتح الملك المدينة ، مع أنه لم يفتحها سوى جنوده وقواده ، وإنما صحَّ إسنادُ الفتح إليه لأنه السبب الأول فيه ، على أن قلوبنا تحس تماماً بضياء الحق فتستريح إليه وتنشرح صدورنا به ، ولا شك أن هذا الانشراح والراحة القلبية يدلان على أن في القلوب هدى وبصيرة ، وأن الأمر ليس قاصراً على مراكز العقول في الدماغ .

٤٧ - (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) :

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يحذر قريشا من نزول العذاب بهم ، كما نزل بمن قبلهم ، إن استمروا على كفرهم ، فكانوا لا يحذرون ، وعمدوا إلى التحدى فطالبوه بإنزال العذاب الذي يحذرهم منه - طالبوه استهزاء وتعجيزاً - فأنزل الله هذه الآية ينكر عليهم استعجالهم فإن الأمر ليس لهم ، والزمن الطويل عندهم قصير عند ربهم ، والآية في ظاهرها خبر ، ولكنها تتضمن الاستفهام الإنكارى لاستعجالهم ، فكأنه قيل : ويستعجلونك - أيها الرسول - بالعذاب الذي أوعدتهم به على لسانك . فأنكروه وكفروا به ، فكيف ينكرون مجيئه ؟ ولن يخلف الله وعده ، والأمر في مجيئه ليس إليهم حتى يسارع به تلبية لرغبتهم ، فلا يستبطلوا نزوله ، فإن الأمر فيه لله تعالى والله لا يعجل ، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده ، فهو قادر على الانتقام منهم في الوقت الذي شاء لعذابهم ، فلا يفوته ذلك وإن أجَّله وأملى لهم فيه ، ولكون المعنى على ذلك ، عقب الله هذه الآية بقوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ » وسيأتي شرحها .

ولقد حقق الله وعيده فسلط عليهم القحط والجوع حتى أكلوا الكلاب والعُلَهِز^(١) ،
كما أنزل بهم في غزوة بدر هزيمة نكراء هزت كيانهم ، فقتل فيها سبعون من صناديدهم ،
وأُسِر سبعون ، ومن المفسرين من حمل اليوم المذكور على يوم الآخرة ، والعذاب على عذابها
ولكن المقام لا يساعد على ما ذهبوا إليه ، والله الموفق .

٤٨ - (وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ) :

هذه الآية الكريمة مؤكدة لما جاء في الآية التي قبلها من أنه تعالى لا يخلف وعيده لمن أصر
على كفره ، وأنه إن أمهلهم ليتوبوا فلن يهملهم إن أصرّوا ، والمراد بالقرية فيها : أهلها ،
ونسبة الظلم لها مع أنه لأهلها على سبيل المجاز .

والمعنى : وكثير من أهل القرى أمهلتهم وهم ظالمون لأنفسهم بالشرك والمعاصي ، لعلهم
يستجيبون لربلهم ، ويرجعون عن غيهم ، فغرم هذا الإمهال ولم يفكروا في عاقبته ، ثم
أخذتهم بالعذاب والنكال بعد طول الإملاء والإمهال ، وإلى حكمي مرجعهم ومصيرهم لا إلى
غيري ، فأفعل بهم ما يستحقونه من النكال على جرائمهم ، فلا يفوتني من أمرهم شيء .
لا في الدنيا ولا في الآخرة ، أخرج الإمام البخاري في كتاب التفسير^(٢) ، بسنده عن
أبي موسى الأشعري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه
لم يُفلته ، ثم قرأ : وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

(١) بعد أن دعا الرسول عليهم بقوله : « اللهم اشد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسئ يوسف »
والعُلَهِز : طعام من الوبر والدم كان يؤكل في الحاجة ، ويطلق أيضا على القراد الضخم : قاموس .

(٢) (باب : وكذلك أخذ ربك) والحديث أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه ، واللفظ هنا للبخاري .

(قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَأَلَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ
سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(نَذِيرٌ مُبِينٌ) : منذر واضح ، من أبان بمعنى وضح واستبان ، أو منذر موضح لكم
ما أنذرتكم به ، من أبان الأمر ، أى : أوضحه .

(وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) : ورزق حسن فى الجنة لوقوعه بعد المغفرة .

(سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ) : أى بذلوا جهدهم فى إبطال آياتنا محاولين تعويق
المؤمنين فى تأييدها . وتعجزهم عن إبلاغها مداها ، فالمعجزة : مسابقة فى التعجيز ، يراد بها
أن يغلب أحد المتسابقين الآخر ، فيعجز عن المضى ، وكذلك فعل المشركون فخسروا السباق
وهزموا .

التفسير

٤٩ - (قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ) :

تضمنت الآيات السابقة : أن الله تعالى طلب من أهل مكة أن يسيروا فى الأرض حولهم ،
فينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين قبلهم . حيث أهلكوا عن آخرهم . فخربت ديارهم
وعطلت آبارهم ، لعلهم يعتبرون بما أصابهم . ويرجعون عن غيهم . ولكنهم استعجلوه
بالعذاب . فبين لهم أنه - تعالى - لن يخلف وعده إن أصروا على كفرهم ، وأنهم إن أمهلوا
ليتوبوا فلن يهملوا إن أصروا .

وجاءت هذه الآية أمرة للنبي - صلى الله عليه وسلم - أن يواصل إنذارهم ، وأن لا يبالي بتكذيبهم واستعجالهم العذاب .

ومعنى الآية : قل أيها النبي لأهل مكة : يأيها الناس ما أنا إلا منذر لكم واضح الإنذار ، فيما أخبرتكم به من أنباء الأمم التي أهلكها الله بتكذيبها رسلها ، لكي تحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فكيف تستعجلوني بالعذاب ولن يخلف الله وعده ؟ فالأمر بيده ، إن شاء عَجَلَ وإن شاء أَجَلَ .

٥٠ - (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) :

أى : أنذري يا محمد - هؤلاء الكفرة المستعجلين للعذاب وبالغ في إنذارهم ، فالذين آمنوا بعد كفرهم ، وعملوا الصالحات بعد إيمانهم ، لهم مغفرة لما كان منهم من الكفر والمعاصي ، ولهم رزق حسن فائق في الجنة ، فإن الإيمان يَجِبُ ما قبله ، كما قال تعالى : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » ^(١) .

٥١ - (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) :

والذين سعوا في آياتنا وبذلوا الجهد في إبطالها ، فسموها تارة سحرا ، وتارة شعرا ، وتارة أخرى أساطير الأولين ، مسابقين المؤمنين ، كلٌ يريد تعجيز الآخر ، فالْمُؤْمِنُونَ يريدون إبطال كيد الكافرين ، والوصول بآيات الله إلى قلوب الناس أجمعين ، والمُشْرِكُونَ يريدون تعويقهم وتعجيزهم عن تحقيق غايتهم ، فهؤلاء الساعون المعوقون المعاجزون هم أصحاب الجحيم ، الملازمون للنار الشديدة التأجج والإحراق « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » ^(٢) .

هذا ، وبعض المفسرين حمل (الناس) في قوله تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » على عموم الناس مؤمنهم وكافرهم ، وفسر الآيات الثلاث على النحو الآتي :

قل يا أيها الناس - مؤمنكم وكافركم - إني لكم منذر واضح الإنذار ، بأنكم ستأتاكم الساعة ثم تبعثون وتحاسبون ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في دنياهم ، لهم مغفرة ورزق كريم

(١) سورة الأنفال ، صدر الآية : ٣٨

(٢) سورة يوسف ، من الآية : ٢١

في أخراهم ، والذين كفروا وسعوا في إبطال آياتنا وتعجيز دعائنا ، أولئك أصحاب النار
الملازمون لها .

هذه خلاصة ما قيل في هذا المقام ، ولكن فيه خروجاً عن السياق ، في حين أن المؤمنين
لا يُنذَرُونَ ، وإنما ينذر أهل الكفر - فما قلناه أولاً هو اللائق بالسياق .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى
الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ
ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً
لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ
لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) الرسول : من بعثه الله بشرع جديد أنزله عليه ، وأيده بمعجزة
تحقق رسالته . والنبي : صاحب معجزة تؤيد نبوته ، وقد أمره الله أن يدعو الناس إلى شريعة
من قبله ، ولم ينزل الله عليه كتاباً بشرع جديد ، فالرسول : صاحب شرع ، والنبي : حافظ
شرع - وسيأتي لذلك مزيد بيان .

(تَمَنَّى) : لها عدة معان ، منها : أراد ، وقرأ ، وكلاهما تصح إرادته هنا في تفسير
الآية كما سيأتي بيانه .

(فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ) : يزيل من النفوس وساوسه التي يوسوس بها .

(ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ) : يحفظها من التأثير بوساوس الشيطان .

(فِتْنَةً) : اختباراً وامتحاناً . (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) : قلق أو شك ونفاق .

(وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) : المراد بهم : المشركون المجاهرون .

(لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) : لفي خلاف بعيد عن الحق . (فَتُخَيِّتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ) : فتطمئن .

التفسير

٥٢ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

بيّن الله في الآيات السابقة أن أهل مكة كذبوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأنه تعالى توعدهم بأن يصيبهم من العقاب ما أصاب المكذبين للرسل قبلهم ، ودعاهم إلى أن ينظروا ما أصاب ديارهم حولهم من الخراب والدمار ، فاستعجلوا الرسول بالعذاب الموعود ، بدلا من الانتعاض والاعتبار بهم ، فبيّن الله أن أمر تعذيبهم بيده ، وأنه لا يخلف وعده ، وأنهم إن أمهلوا فلن يُهمَلوا ، فازدادوا ضراوة في العدوان على كتاب الله ، فسعوا في آياته معاجزين معوقين المؤمنين عن الوصول بها إلى قلوب الناس ، فزعموا أنها شعر وسحر وأساطير الأولين ، واشتدوا في إيذاء النبي - صلى الله عليه وسلم - وإيذاء أصحابه تعويقا وتعجيزا لدعوة الحق ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وما بعدها تسليّة للنبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، فقد بيّن فيها أن كل الأنبياء والمرسلين قبله أصابهم من تعويق دعوتهم ومحاولة تعجيزهم في رسالتهم مثل ما أصابه ، ثم انتصر حقهم على باطل خصومهم وزالت فتنة هؤلاء الشياطين الذين حاولوا إبطال دعوتهم ، وأحكم الله آياته في نفوس أهل الحق ، فازدادوا إيمانا فوق إيمانهم ، وإليك فيما يلي تفصيل ما أجملناه :

يقول الله تعالى في هذه الآية : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) وهذا النص يقتضي أن النبي غير الرسول ، وأن الله أرسلهما لهداية البشر ، وأن لكل منهما

منهاجا في تبليغه رسالته للناس ، وأنهما بسبب ذلك يختلفان في تعريفهما ، والمشهور أن الرسول : من أوحى إليه بشرع وأنزل عليه كتاب يبلغه للناس ، والنبي : من لم ينزل عليه كتاب ، وإنما أمر بتبليغ شريعة من قبله ، فالرسول صاحب شرع جديد ، والنبي حافظ لشرع قديم ، وكلاهما أيده الله بمعجزة تؤيد أنه مرسل من عند الله ، ومن العلماء من قال : إن النبي يعم الرسول صاحب الشرع الجديد ، والنبي حافظ الشرع القديم ، فكلاهما نبي ، ولذلك خطب الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - بلفظ النبوة في القرآن في نحو قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » وهذا خبر ما يقال في الفرق بينهما .

وقد جاء في الآية لفظ (التَّمنَّى) وله في اللغة عدة معان ، منها : القراءة ، ومنها الإرادة والرغبة ، وبديل على استعمال التمني بمعنى القراءة قول حسان في عثمان بن عفان بعد قتله :

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ تَمَنَّى دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رِسْلِ^(١)

وكلا المعنيين تصح إرادته في تفسير الآية الكريمة ، فإذا فسرنا التمني بمعنى القراءة كان معنى صدر الآية كما يلي :

وما أرسلنا قبلك - يا محمد - رسولا ولا نبيا إلا وحا له أنه إذا قرأ شيئا من الآيات التي أمرناه بتبليغها ، ألقى الشيطان فيما يقرؤه الشبه والتخيلات على أوليائه ليجادلوه بالباطل ويردوا ما جاء به ، - تعجيزا لمسيرة دعوته ، وفي هذا المعنى يقول سبحانه وتعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا^(٢) » ؛ ويقول أيضا : « وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ^(٣) » ؛ وهذا كقولهم عند سماع قراءة الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » - ما باله يُحِلُّ ما يذبحه لنفسه ، ويحرم ما يذبحه الله ؟ فقد كانوا يحلون الميتة زاعمين أنها ذبيحة الله لهم ، وحينما قرأ : « إِنَّكُمْ وَمَاتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » قالوا : إن عيسى عبيد من

(١) أى : على مهل .

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ١٢١

(٣) سورة الأنعام ، من الآية : ١١٢

دون الله ، والملائكة كذلك ، وهذه مغالطة مكشوفة ، فإن الآية لهم ولأصنامهم ، ولذلك قال سبحانه : « وَمَا تَعْبُدُونَ » ولم يقل : « ومن تعبدون » لأن « ما » لما لا يعقل ، أما « مَنْ » فهي لمن يعقل ، وكيف يدخل عيسى في المعبودات المعذبة وقد قال الله فيه : « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ »^(١) وحكى عنه أنه قال لقومه وهو رضيع :

« إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ . . . »^(٢)

وقال عن الملائكة : « بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ يُعْمَلُونَ »^(٣)

فالواقع أنهم يزيفون الأباطيل ويزعمونها حججا لهم وهي أوهى من بيت العنكبوت .

وإذا فسرنا التمني بالرغبة والإرادة ، فيكون معنى الآية ما يلي :

وما أرسلنا قبلك - يا محمد - من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى وأراد هداية قومه إلى الحق ، ألقى الشيطان فيما تمناه الشبهة في نفوس قومه ليصدهم عن سبيله ، وقد بين الله مال سعى الشيطان في آيات الله بقوله : فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى : فيبطل الله ما يلقيه الشيطان من الشبهة في نفوس الناس ، بتوفيق الرسول أو النبي لرده ، أو بإزالة ما يرده ، ثم يظهر الله حكمة آياته لمن أشكل عليهم الأمر بتبليس الشياطين ، أو بمنعها ويحميها من أباطيل الشياطين^(٤) ، بما ينزله من الآيات الماحقة لأباطيلهم كما جاء بقوله سبحانه :

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » وختم الله الآية بقوله : (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) : أى واسع العلم ، فلا يخفى عليه ما يصدر من الشيطان وأوليائه ، بليغ الحكمة في رد شبهاتهم ونصر رسله وأنبيائه .

وخلاصة معنى الآية : أن الصراع بين الحق والباطل أمر قديم ، عرفه الأنبياء والمرسلون قبلك يا محمد ، وأن الأمر ينتهى بنصر الحق على الباطل بتدبير الله وحكمته ، فلا تجزع

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٧٥ (٢) سورة مريم : من الآيتين ٣٠ ، ٣١ (٣) سورة الأنبياء : من الآية

٢٦ ، من الآية ٢٧ (٤) ومنه قولهم : أحكم أمره ، أى : جملة مستحكما منيعا لا يتطرق إليه الفساد .

يا محمد مما يأتي به شياطين قومك من السعى بالباطل في آيات الله معاجزين بتسويل الشيطان الرجيم ، أولئك أصحاب الجحيم ، وأباطيلهم إلى زوال .

٥٣ - (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) :

هذه الآية مرتبطة بفحوى الآية التي قبلها ، وكأنه قيل : وما أرسلنا قبلك يا محمد من نبي ولا رسول إلا عاداه الشيطان وحاربه في أمنيته ورسالته لقومه ، فجعل يلقي الشبهة فيما يقرؤه ويريده لقومه من الهدى فينسخه الله ويرده ، ليجعل الله ما يلقيه الشيطان فتنة وامتحاناً للذين أظهروا الإيمان برسولهم أو نبيهم وفي قلوبهم مرض من شك ونفاق ، وللقاسية قلوبهم من الكفار المجاهرين بكفرهم ، فيحذرهم الأنبياء ويحذروا في كفاحهم ، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ، وعداء للحق شديد ، فلا تجزع لما يحدث من قومك يا محمد ، فشأنهم معك كشأن سائر الأمم مع الأنبياء والمرسلين قبلك ، والعاقبة للصابرين المجاهدين .

٥٤ - (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) :

(وَلِيَعْلَمَ) معطوفة على قوله : (لِيَجْعَلَ) في الآية السابقة ، داخلة معها في حيز التعليل .

والمعنى : أن الشيطان كان يلقي الشبهة فيما يقرؤه الأنبياء والمرسلون قبلك على أئمتهم ، وما يريدونه من الهدى لهم ، فينسخها الله ويبطلها ، ليجعل ما يلقيه الشيطان امتحاناً للمنافقين والكافرين القاسية قلوبهم ، فيظهر أمرهم لأنبيائهم فيحذروهم ويجاهدوهم ، وليعلم الذين أوتوا العلم في كل النبوات والرسالات ، بما أوتوا من الهدى ونور القلوب ، وبما أنزله الله من رد شبه الشياطين ونسخها - أي إبطالها - فيثبتوا على إيمانهم ، ويزدادوا إيماناً فوق إيمانهم ، وإن الله لهادي الذين آمنوا في كل الرسالات إلى طريق مستقيم من

النظر الصحيح الموصل إلى الحق المبين ، وكذلك أمر المؤمنين من قومك ، فلهم من هداية الله إلى صراطه المستقيم أوفر نصيب ، ومن الثبات على الحق شأن عجيب .

وفي معنى تلك الآيات يقول الله تعالى : « أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ »^(١) .

(قصة الغرائق وهذه الآيات)

يذكر المفسرون أثناء تفسيرهم قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَّتْ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ . . . » الآيات - يذكرون - قصة تسمى قصة الغرائق ، وقد اتبعوا أنفسهم في نقل رواياتها وتأويلها أو تنفيدها ، أثناء تفسيرهم تلك الآيات .

ولكننا رأينا أن نفسرها على النحو الذي مر بيانه ، بمعزل عن تلك القصة المفتراة ، مراعين في تفسيرها نصوصها ومناسبة ما قبلها وما بعدها ، وربطها بالجو الذي سبقت فيه ، فإن القرآن مترابط المباني ، ومتناسب المعاني ، وما أكثر الضعف في أسباب النزول . وما أفطع الوضع في بعضها ، ومنه قصة الغرائق التي قيل : إنها سبب لنزول هذه الآيات .

وقد رأينا أن نذكر خلاصتها بمعزل عن تلك الآيات وشرحها ، وأن نفندھا ونبين زيفها وفسادها ، وإليك البيان فيما يلي :

زعموا أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ سورة النجم بمحضر من قريش ، فلما بلغ : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ » ألقى الشيطان عندها كلمات فقال : (وإِنَّهُنَّ الْغَرَائِقُ الْعَلَا ، وَإِنْ شَفَاعَتُهُنَّ لَتَرْجَى) وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الجملتان موقع الرضا والاستحسان من المشركين ، وتناقضتا ألسنتهم ، وتباشروا بها وقالوا : إن محمداً راجع إلى دين قومه ، فلما وصل الرسول إلى قوله تعالى في آخر سورة النجم : « فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا » سجد وسجد كل من حضر من مسلم أو مشرك ، وفشت هذه الدسيسة في الناس حتى بلغت مهاجرى الحبشة فعادوا ، وأظهرها الشيطان ،

فحزن النبي - صلى الله عليه وسلم - لذلك ، فأنزل الله تعالى لتسليته : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَنْبِئُ إِلَّا إِذَا نَمْنَى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . . . » الآيات .

ويؤولون إلقاء الشيطان في أمنيته ، بأنه حاكى صوت النبي - صلى الله عليه وسلم - ونغمته في أثناء سكوته بين الآيات حين تلاوتها ، ففسد جملي الغرائق السابقتين ، وقالوا : إن الشيطان كان يظهر للناس في العهد النبوي في صورة أحدهم ، وكان يكلمهم ، ومن ذلك أنه نادى بعد هزيمة المسلمين في غزوة (أحد) : ألا إن محمدا قد قتل ، وقال يوم بدر : « لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ » .

ويفسر آخرون الشيطان بواحد من كفار قريش ، حاكى صوت النبي ، وحشدها بين قراءته كأنه يقرؤها ، وقال غيرهم : إن الشيطان أجراها على لسان النبي - صلى الله عليه وسلم - أثناء قراءته .

وقد عجبنا كيف أتعب المفسرون أنفسهم في نقل رواياتها المتناقضة المفتراة وأطالوا في تأويلها أو تفنيدها ، وهي ظاهرة البطلان .

وأول ما نلاحظه على فرية الغرائق ، أنهم زعموها مدسوسة من الشيطان في سورة النجم ، في حين أن تسلية الرسول عما فعله الشيطان فيها جاءت في سورة الحج ، مع أنه يفصل بينهما ثلاثون سورة ، فلو كان لها ظل من الواقع لكانت التسليية عما فعله الشيطان في نفس السورة التي دُست فيها أكذوبة الغرائق ، لافي سورة سواها تبعد عنها هذا البعد السحيق ، في حين أن سورة النجم مكية ، وسورة الحج مدنية على ما قاله الضحاك ، فكيف يعقل أن يسكت القرآن على هذه الفرية تذيع في مكة وتنتشر حتى تبلغ المهاجرين في الحبشة ، فيحضروا بسببها كما زعم المفترون ، ولا يردوها إلا بعد الهجرة إلى المدينة ؟ .

وقد أنكر المحققون هذه الفرية ، فقال البيهقي : هذه القصة لم تثبت من جهة النقل وقال القاضي عياض في الشفاء : يكفيك في توهين حديث الغرائق أنه لم يُخرجه أحد من أهل الصُّحة ، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلففون من الصحف كل صحيح وسقيم .

وفي البحر لأبي حيان : أن هذه القصة سئل عنها الإمام محمد بن إسحاق جامع السيرة النبوية فقال : إنها من وضع الزنادقة ، وصنف في ذلك كتابا .

أما القول بأن الشيطان أجراها على لسان النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فهو أفحش ما يقوله زنديق ، وأوهم من بيت العنكبوت ، فلا يصح أن يجبره الشيطان عليها ، لأنه ليس له سلطان على عباد الله الصالحين ، فكيف يكون له سلطان على رسوله ، ولا يصح أن يكون أجراها على لسانه سهوا وغفلة ، لأنه لا تجوز على الرسول الغفلة والسهو في تبليغ الوحي ، ولو جاز عليه مثل ذلك لبطل الاعتماد على قوله ، وكل ذلك مستحيل عقلا ، كما أنه مستحيل شرعاً ، لقوله تعالى :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ولقوله : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

وبعد أن عرفت أن قصة الغرائبي مفتراة ، اخترعها الزنادقة لمحاربة الإسلام ، فعليك أن تتمسك بتفسيرنا السابق للآيات الثلاث ، والله تعالى ولي التوفيق .

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخِلَنَّهُمْ مَدْخَلًا يُرْضَوْنَ بِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ) : في شك من القرآن ، أو من الصراط المستقيم . (بَغْتَةً) : فجأة .
 (عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) : عذاب يوم لا مثيل له ، فلا راحة فيه ولا رحمة .
 (مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ) : المراد به الجنة .

التفسير

٥٥- (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) :

بينت الآيات السابقة أن أهل مكة سَعَوْا في آيات الله معاجزين . وأن الله تعالى سَلَّى نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، عن عدائهم للقرآن بأنه ليس أَوْحِيدًا في عدا الكفار لما جاء به . فما أَرسل الله قبله رسولاً ولا نبياً ، إلا إذا تَمَيَّ إيمان قومه ، سعى شياطينهم في إفساد أُمْنِيَّتِهِ ، بإلقاء الشُّبُهَةِ فيما جاءهم به ، وأنه تعالى كان يبطل ما يلقيه أولئك الشياطين من الشُّبُهَةِ ، بما ينزله محكما في رد شبهاتهم ، وأن وقوف الشياطين في سبيل الحق ابتلاء من الله لأُمة الأنبياء ، فبه يظهر المنافقون وصرحاء الكافرين على حقيقتهم لأنبيائهم ورسولهم فيحذرونهم ويكافحونهم ، وبه يعرف المؤمنون المطمئنون للحق - بينت الآيات السابقة ذلك - وجاءت هذه الآية لتسجل على شياطين الكافرين من أهل مكة عنادهم في كفرهم ، وأنهم لا يزالون في غمرة من الشك بسبب القرآن ، لا يخرجهم منها إلا مجيء الساعة فجأة . أو عذاب يوم لا مثيل له في شدته فيفريقون من شكهم .

والمعنى : ولا يزال شياطين قريش في شك من القرآن أو من الرسول ، يجعلهم يقفون في سبيله ويُحَرِّضُونَ أتباعهم على الكفر به ، حتى تأتيهم ساعة الفناء فجأة ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم لا يستعقب خيرا ، أو لا مثيل له في شدته ، فهو في ذلك يشبه المرأة العقيم التي لا تلد ولا تترك عقباً خلفها ، أو كالريح العقيم : « مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ »^(١) ولا تترك خلفها زرعاً ولا ضرعاً .

والمراد باليوم العقيم : يوم بدر ، فقد كان كارثة حلت بصناديد قريش وشياطينهم ، في أول لقاء لهم مع من أخرجوهم من ديارهم ، فقد قتل منهم سبعون ، وأسر سبعون ، وناحت نساء قريش على قتلاهم شهرا .

وفسره بعض العلماء بيوم القيامة ، حيث يُجزى الكافرون بما كانوا يقتربون ، وفسره آخرون بيوم موت كل واحد منهم ، ولعل أنسب الآراء بالآية التالية هو يوم القيامة ، ففيه يتفرد الله بالملك مظهرها ، كما هو متفرد به حقيقة .

٥٦ - (الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) : الملك يوم تأتيهم الساعة أو عذابها ، الله وحده بلا شريك فيه حقيقة أو صورة ، فليس لأحد فيه تصرف في أمر من الأمور ، لا حقيقة ولا مجازاً ، ولا صورة ولا واقعا ، فكل شيء فيه إلى الله ، حتى الشفاعة لا تكون لأحد : «لَا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا»^(١) ، فالله تعالى هو الذي يحكم فيه بين عباده ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في دنياهم ، مقرهم في جنات النعيم .

٥٧ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) : والذين كفروا في دنياهم وكذبوا بآيات الله الكونية أو التنزيلية ، فأولئك لهم عذاب دائم الإهانة والإذلال «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» ثم خص الله بعض الفريق الأول بمزية ، وهم المجاهدون في سبيل الله فقال :
٥٨ - (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) :

أي : والذين هجروا أوطانهم في سبيل الله تعالى ، ثم قتلوا أثناء جهادهم ، أو ماتوا حتف أنوفهم^(٢) في هجرتهم بنحو مرض أو سكتة قلبية ، ليرزقنهم الله الذي هجروا أوطانهم

(١) سورة طه ، من الآية : ١٠٩

(٢) الذي مات حتف أنفه هو الذي مات بغير أن يقتل في المعركة ، كوته على فراشه أو نحوه ، والحتف : الموت ، ويضيفه العرب للأنف إذا كان بنحو مرض ، لاعتقادهم أن روحه تخرج في مثل هذه الحالة من أنفه ، أما الذي يموت جريحاً ، فيقولون فيه : مات حتف جراحته ، لظنهم أن روحه تخرج من جراحته .

في سبيله - ليرزقنهم - في الجنة رزقاً فائق الحسن على ما يعطيه سواهم من المؤمنين غير المهاجرين في سبيله ، وإن الله الذي اتجهوا بهجرتهم إليه لهو خير الرازقين ، حيث يعطيهم ما يفوق الخيال ، ولا يخطر لهم على بال ، ويمتنحهم بغير حساب ، فهو الذي لا تغنى خزائنه ، ولا تنضب موارد نعمه ، ولا غاية لفضله وكرمه .

وهذه الآية نزلت في عثمان بن مظعون وأبي سلمة بن عبد الأسد ، ماتا بالمدينة مهاجرين ، ولم يقتل في سبيل الله ، فقال بعض المؤمنين : من قتل في سبيل الله أفضل ممن مات حتف أنفه ، فنزلت هذه الآية مسوية بينهما ، لأن كليهما عاهد الله على الموت في سبيله بهجرتهم لنصرة دينه .

وقد استدل بالآية فضالة بن عبيد - وكان أميراً بجزيرة رودس - استدل بها على المساواة بينهما في الأجر ، فقد أخرج ابن أبي حاتم بسنده ، عن أبي قبيل وربيعه ابن سيف المصافري قالاً : (كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فمر بجناتين إحداهما قتيل والأخرى متوفى ، فمال الناس على القتيل ، فقال فضالة : مالي أرى الناس مألوا مع هذا وتركوا هذا؟ فقالوا : هذا قتيل في سبيل الله تعالى ، فقال : والله ما أبالي من أي حضرتيهما بُعثت ، اسمعوا كتاب الله «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا . . » الآية ، وكان هذا القتيل قد أصيب بقذيفة منجنيق كما جاء في رواية أخرى له .

والذي نراه أن الآية وإن سوت بينهما في عموم الرزق الحسن والأجر الجزيل ، لكن ذلك لا يمنع من التفاضل بينهما ، ويؤيد هذا التفاضل أنه - صلى الله عليه وسلم - سئل : أي الجهاد أفضل ؟ فقال : « مَنْ أَهْرَيْقَ دَمَهُ وَعُقِرَ جَوَادُهُ » ومنه يعلم أن من كان من المهاجرين ولم يجاهد ، أو كان من المجاهدين ولكنه لم يكن بهذه الصفة فهو دون من اتصف بها ، والله تعالى أعلم ، ثم بين الله الرزق الحسن الذي أعده لهم فقال :

٥٩- (لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ) :

أي : أنه تعالى وعد هؤلاء المهاجرين بصفتيهم وعداً مؤكداً لا خلف فيه ، أنه يدخلهم في الجنة منزلاً فخماً ومقاماً كريماً يدخلونه وهم يرضونه ويسعدون به ، حيث يجدون

فيه ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين على أعلى مستوى ، وإن الله سبحانه لعليم بأحوال من قضى نحبه . وسال دمه في سبيله : ومن مات معاهداً ربه على الاستشهاد في نصر دينه ، ولكنه في هجرته وجهاده مات حتف أنفه ، دون أن يحقق أمنيته في الاستشهاد في سبيل ربه ، وكما أنه تعالى عليم بأحوالهما ، فهو حلیم بإمهال من قاتلها حتى يأخذه أَخَذَ عزيز مقتدر ، ويذيقه في الآخرة عذاب السعير ، أو يتوب فيتوب الله عليه .

* (ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ نَلِ مَا عُوِّبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ٦٢)

المفردات :

(بُغِيَ عَلَيْهِ) : اعتدى عليه .

(عَفُوٌّ) : كثير العفو والمسامحة .

(غَفُورٌ) : واسع المغفرة .

(يُوَلِّجُ) : يدخل .

التفسير

٦٠ - (ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ نِمِثْلِ مَا عُوِّبَ بِهِ) الآية .

بين الله تعالى في الآيتين السابقتين أن من هاجر في سبيل الله ثم قتل أو مات فإن الله سيحسن جزاءه بإدخاله مدخلا يرضاه في الجنة ، وأن يرزقه فيها رزقا حسنا ، وجاءت هذه الآية لتقرير هذا الوعد ، ولإباحة ردِّ الاعتداء على المعتدى .

والمعنى : الأمر ذلك الذى تقدم بيانه من حسن جزاء المهاجرين الذين قتلوا فى سبيل الله أو ماتوا ، ثم استأنف الله فبين حق المسلمين فى الأخذ بثأر الذين قتلوا فى سبيل الله فقال ما معناه : ومن انتقم من المعتدين عليه بمثل ما فعلوا به ، ثم بغى عليه بالاعتداء مرة ثانية ، لينصره الله على من بغى عليه .

وسبب نزول هذه الآية كما قال مقاتل : أن قوما من المشركين لقوا قوما من المسلمين الليلتين بقيتا من المحرم ، فقال بعضهم لبعض : إن أصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فاحملوا عليهم ، فتأشدهم المسلمون أن يكفوا عن قتالهم لحرمه الشهر ، فأبوا وقاتلوهم فذلك بغيتهم عليهم ، وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم ، فوقع فى أنفس المسلمين من القتال فى الشهر الحرام ما وقع ، فأنزل الله هذه الآية .

وقد عرفنا منها أن من حق الإنسان أن يقابل المعتدى بمثل عدوانه ؛ فالدفاع عن النفس أمر مقرر فى شريعة الله تعالى ، كما أنه أمر معترف به فى جميع الشرائع الوضعية ، وسمى الدفاع عقابا على سبيل المشاكلة والمزاوجة ، مثل قوله تعالى : « فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ . بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ^(١) » .

ومثل قوله تعالى : « وَمَكْرُوهٌ وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ ^(٢) » وقد أمرنا الله تعالى أن يكون عقابنا للمعتدى مماثلا لعدوانه ، فلا يحل لأحد أن يتجاوز المماثلة فى رد العدوان ، فإذا شتم إنسان آخر فلا يكون رد المشتم قتل الشاتم ، فإن عاذ الخصم إلى العدوان ، فبالغ فى بغيه وعدوانه فإن الله سينصر المظلوم على من بغى عليه لا محالة إذا انتقم منه لنفسه ، وعلل الله نصرته بقوله :

(إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) : لمن أخذ بحقه ، ولم يأخذ بقوله تعالى : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » أى : أنه تعالى مع حبه للعفو والغفران واتصافه بهما ، ينصر المظلوم الذى ينتقم من ظالمه ، إن فعل خلاف الأولى ، وهو الانتقام بدل العفو ، لأنه أخذ بحقه وليس معتديا أولا وآخرا ، وإن كان العفو أقرب إلى التقوى .

قال تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ^(١) » .

ومن رحمته تعالى أنه يمهّل العاصي والظالم لعله يشوب إلى رشده ويتوب إلى الله ويصلح ما أفسده فإنه سبحانه - كما وصف نفسه - كثير العفو واسع الغفران .

٦١- (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) أى : ذلك النصر الذى وعده الله لمن يُغنى عليه واقع بسبب أن الله يدخل الليل فى النهار ويدخل النهار فى الليل فيزيد أحدهما بنقص الآخر ، طبقاً للنظام الذى وضعه الله للدوران الأرض حول الشمس ماثلة على محورها بزاوية معينة مما ينشأ عنه تعاقب الفصول ، ومع كونه سبحانه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل فهو عظيم السمع لأنه يسمع كل صوت وإن كان خفياً ، عظيم البصر لأنه يبصر كل مشهد وإن كان نائياً . فإذا وقع ظلم على واحد من عباده فإنه ينصر المظلوم ويردع الظالم ويعحق الحق ويبطل الباطل و « لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ^(٢) » .

٦٢- (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) أى : ذلك الانتصاف بما ذكر من كمال القدرة والعلم ، ثابت لله تعالى بسبب أنه - سبحانه - هو الإله الحق الذى لا شك فيه ، وهو وحده الجدير بالعبادة والتقديس .

(وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) : وأن ما يعبدون من آلهة أخرى هو الباطل لأنهم « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً ^(٣) » .

(وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) : وأن الله سبحانه هو العلى على جميع الموجودات ، الكبير عن أن يكون له شريك أو مثيل لأنه الخالق المهيمن المدبّر « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ^(٤) » .

(٢) سورة آل عمران ، من الآية : ٥

(١) سورة الشورى ، الآية : ٤٠

(٤) سورة الأعراف ، من الآية : ٥٤

(٣) سورة الفرقان ، من الآية : ٣

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(مُخْضَرَّةٌ) : مكسوة بالنبات الأخضر. (لَطِيفٌ) : بر بعباده محسن إليهم رفيق بهم يشملهم برحمته وفضله. (خَبِيرٌ) : عليم مطلع على ما يحتاجون إليه وما يصلحون له وما يصلح لهم. (الْغَنِيُّ) : المستغنى بقدرته عن غيره فلا يحتاج إلى أحد ويحتاج إليه جميع الخلائق (الْحَمِيدُ) : المستحق للحمد والثناء على فضله العظيم .

التفسير

٦٣ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) :

بعد أن بين الله لعباده قدرته على إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وأنه الحق وما يعبدون من دونه هو الباطل، جاءت هذه الآية شاهدة على تمام قدرته تعالى وبلغ رحمته بعباده .

والمعنى : ألم تر أيها الإنسان أن الله أنزل من السحاب ماءً بقدر وحساب دقيق ، أنزله فوق أديم الأرض فتتحول من أرض يابسة جرداء ، إلى أرض مكسوة بالنبات الأخضر الذي تتوقف حياتك عليه ، فبه ترزق ، وعليه يعيش الحيوان الذي تنتفع به .

(إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) : إن الله رحيم بعباده عالم بما يحتاجون إليه وبما يقيم حياتهم ويكفل معيشتهم في أمن وسلام .

٦٤- (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) :

أى : الله - سبحانه - ما فى السموات وما فى الأرض ومن فىهما خلقا وملكا وتصرفا ، لا يخرج شئ عن سلطانه ولا يعجزه شئ من الأشياء « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا » (١).

(وإن الله لهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) : وإن الله لهو المستغنى عن مخلوقاته جميعا لا يحتاج إلى أحد منهم ، وهم جميعا يحتاجون إليه .

وهو وحده المستحق للحمد والثناء من خلقه ، لأنه هو الذى خلقهم ورزقهم وشملهم بلطفه ورحمته .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ٦٥) وَمُوَّالِدَىٰ أَهْبَأْتُمْ ثُمَّ يُبْسِتُكُمْ ثُمَّ يُجْبِبُكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ٦٦)

الفردات :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ) : يسر لكم الانتفاع بما فى الأرض من حيوان أو نبات أو معادن . (الْفُلْكَ) : السفن . (رَءُوفٌ) : مشفق . (لَكَفُورٌ) : لجاحد للنعمة منكر لها .

التفسير

٦٥- (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ) : من نعمه العديدة حيث يسر لكم الانتفاع

بما فيها من حيوان ونبات ومعادن .

(وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) : وسخر لكم السفن بعد أن علمكم كيف تصنعونها وكيف تستخدمونها في حملكم وحمل السلع التجارية من بلد إلى بلد ، ومن إقليم إلى إقليم ، طبقا لسنة في الأجسام الطافية حيث أجراها بالرياح الجارية ، أو بالمحركات الدائرة التي ألهمكم صنعها .

(وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) : ومن رحمته سبحانه بخلقه أنه خلق الأجرام والكواكب ، ودفع كلا منها في مداره المرسوم وربطها برباط الجاذبية طبقا لسنة الكونية .

وهذه الجاذبية من شأنها أن تجعل الأرض تجذب إليها بعض كواكب السماء القريبة منها لتسقط عليها ولكنه سبحانه جعل في مقابل الجاذبية ما يسميه علماء الفلك بقوة الطرد المركزي ، وهي مساوية لقوة الجاذبية ، فيقع الجرم الفلكي بين قوتين متعادلتين مما يتيح له البقاء متوازيا في فلكه المرسوم ، ولكن حينما يأذن الله بنهاية الخلق تضعف إحدى القوتين عن نظيرتها فيصطدم بعض الكواكب ببعضها الآخر ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ»^(١) .

(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) : إن الله تعالى رحيم بعباده ، مشفق عليهم ، وإذ هيأ لهم العيش المناسب فوق سطح الأرض وتحت كواكب السماء ، وهم آمنون مطمئنون .

٦٦- (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) :

أى : أنه - تعالى - هو الذي وهب عباده الحياة ، وهو الذي يسلبهم إياها عند الموت ، ثم يعينهم بعد للحساب والجزاء ، فمن حقه عليهم أن يعبدوه ولا يكفروه ، ولكنهم أشركوا به وكفروه ، ولذا ختم الله الآية بقوله :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ) : أى : شديد الجحود للنعم العديدة التي يراها في نفسه وفيما يحيط به في البر والبحر والأرض والسماء ، إلا من عصم الله من عباده الصالحين .

(لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ
وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ
اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا
كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾)

المفردات :

(مَنْسَكًا) أى : شريعة .
(فَلَا يُنَازِعَنَّكَ) أى : فلا يخاصمَنَّك ولا يجادلنك فى أمر الإسلام وتكليفهم به .
(جَادَلُوكَ) : ناقشوك وخاصموك .

التفسير

٦٧ - (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ) :
لكل قوم جعلنا شريعة يلتزمون بها ويؤدونها فى الوقت الذى أَراده الله لها .
وشريعة الإسلام هى شريعة هذه الأمة التى بعث بها محمد . فى مشارق الأرض ومغاربها
إلى يوم القيامة ، فهى ناسخة لما قبلها فلا ينازعَنَّك أهل الكتاب فى شأنها . فهم مكلفون
بها .

(وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ) :

وادع أهل الكتاب وغيرهم إلى عبادة ربك على الشريعة التى جئتكم بها ، فإنك من
دين ربك على طريق مستقيم ، ولا عليك إن استجابوا لك أو أعرضوا عنك .
«لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»^(١) .

٦٨- (وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

إذا بلغت رسالتك-أيها النبي- فلا يضيرنك جدال المجادلين ولا نزاع المخاصمين ، فإن جادلوك فقل لهم : الأمر بيني وبينكم مفوض إلى العليم الحكيم ؛ فإنه يعلم سركم وجهركم ، ويعرف ما تبدون وما تكتمون .

وقد توعدهم الله على جدالهم بقوله :

٦٩- (اللَّهُ يَخُكُّمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) :

أى : أمركم جميعاً إلى الله يقضى بينكم بحكمه وحكمته يوم يقوم الناس لرب العالمين « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^(١) » .

وفى هذه الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، والخطاب فيها عام للمؤمنين والكافرين ، وليس محكياً بالقول كالذى قبله .

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(يَسِيرٌ) : سهل . (سُلْطَانًا) : دليلا له سلطان . (يَسْطُون) : يبطشون .

التفسير

٧٠- (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) :

ألم تعرف أن الله يعلم جميع ما في السموات والأرض من أجزائهما وما استقرَّ فيهما، وما يُجهرُ فيهما أو يُسرُّ من القول أو العمل؟ وماتكنه القلوب وما تضمه النفوس وكل هذا مسجل عنده في كتاب قديم كما قال تعالى: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» ^(١).

والمراد به :علم الله تعالى-فهو يحكم بين الناس عن علم ويقين روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو عن النبي -صلى الله عليه وسلم- : «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض » الحديث .

وقد دَوَّنَ سبحانه هذه الأحداث في اللوح المحفوظ طبقا لعلمه ، وأنزلها بحسب مشيئته في الوقت الذي قدره سبحانه .

وإن هذه المعرفة يسيرة على خالق الكائنات ومالكها والمدبر لها بما يملكه من قوة وسلطان وتبدير وإحكام .

٧١- (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَالِيسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ) :

أى :أن هؤلاء المشركين يتجهون بالعبادة والتفديس إلى غير الله الذى خلق السماء والأرض ،وعلم كل شئ فيهما ، يفعلون ذلك دون اعتماد على برهان عقلى أو كتاب سماوى .

(وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) : وما لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم من معين يؤيدهم في هذا الانحراف ويعاونهم فيما لجؤوا فيه من ضلال وكفر، أو ينقذهم مما ينتظرهم من عقاب .
٧٢ - (وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ) :

وإذا تلا عليهم قارئ آيات الله البينات الواضحات ضاقوا بها ذرعاً وظهر الضيق والضرر على وجوههم؛ لأنهم بطبيعتهم المنحرفة، وتفكيرهم السقيم، يؤثرون الضلال على الهدى (يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) : يهمون أن يبطلوا بمن يقرأ عليهم آيات الله البينات ضيقاً به وغيظاً منه .

(قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَُم النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : قل لهم : أعظمكم وأخبركم بما هو أسوأ من ضيقكم بالدعوة إلى الله وتفكيركم في البطش بالداعين إليه ، أسوأ من ذلكم نار جهنم التي أعدها الله وتوعد بها من انصرفوا عن الهدى إلى الضلال وعن الإيمان إلى الكفران ، وساء المرجع والمصير الذي اخترتموه لأنفسكم بما فطرتكم عليه من جهلٍ وعناد .

(يَنَاءِيهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ
الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾)

الفردات :

(ضَرْبٌ مَثَلٌ) : بَيَّنَّتْ لَكُمْ حَالٌ مُسْتَعْرَبَةٌ .

(تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) : تعبدونهم غير الله .

(اجْتَمَعُوا لَهُ) : احتشدوا وتعاونوا .

(ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) : الطالب ؛ الآلهة ، والمطلوب ؛ الذباب ، وقيل العكس ، وقيل

الطالب العابد والمطلوب المعبود .

التفسير

٧٣- (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ) :

يا أيها الناس إن الله سبحانه ييصركم بحقائق الأمور عن طريق ضرب الأمثلة الحسية الواقعية فَأَصْغُوا إليها واستمعوا لها .

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ) : إن الذين تعبدهم من دون الله عاجزون عن خلق الذباب ، وهو حشرة ضعيفة مهينة ، فكيف تعبدهم دون من خلق الأرض والسموات ومن فيهن وتكفل برزقهم وتدبير أمورهم ؟ وهذه الآلهة المدعاة لاتستطيع خلق الذباب ولا عضوا واحدا من أعضاء الذباب ، ولو تساندوا جميعا وتعاونوا وحشدوا كل طاقاتهم . ووصل أمرها من الضعف إلى ماصوره الله بقوله :

(وَأِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّيَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ) : أى : وهذا الذباب إن يأخذ من هذه الأوثان شيئا من نحو الطعام الذى يوضع أمامها قربانا لاتستطيع استرداده منه ، وقد ختم الله الآية بما يفيد سوء حال الأصنام وعابديها فقال :

(ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) : أى : ضعف الإله والذباب ، أو الذباب والآلهة ، فكيف استساغت عقولهم أن يعبدوا تلك الأوثان ، ويقدسوها ، ويسندوا إليها النصر والرزق والمطر والصحة والمرض ، وهى بهذا الضعف الذى صوره الله بما يقتضى الرثاء لعابديها ؟ .

(مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤)
يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝٧٥
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٧٦)

الفردات :

- (قَدَرُوا اللَّهَ) : تبينوا عظمته وقدرته وسلطانه .
 (قَوِيٌّ) : قاهر لا يغلب . (عَزِيزٌ) : منيع لا يضام .
 (يَضْطَفِي) : يختار . (مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) : ما يستقبلونه .
 (وَمَا خَلْفَهُمْ) : وما يستدبرونه .

التفسير

٧٤- (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) :

أى : ما عرفوا عظمة الله وجلاله وقدرته وسلطانه حَقَّ المعرفة ، فانصرفوا عن عبادته وتقديسه إلى عبادة الآلهة الضعيفة المهينة العاجزة .

(إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) : إن الله سبحانه قوى عظيم القوة والسلطان ، وكل ما سواه ضعيف عاجز ، والله سبحانه عزيز لا يُنال وغالب على أمره ، وسواه مهين ضعيف ذليل مغلوب .

٧٥- (اللَّهُ يَضْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) :

أى : أن الله سبحانه يحيط علمه بكل شئ ، فلهذا يعلم مَنْ هو أَهْلٌ للرسالة من الملائكة ومن البشر ، فينزل شرائعه عن طريق الروح الأمين ، على مَنْ يختاره مِنَ البشر لتبليغ شرائعه إلى الناس . وفى ذلك يقول سبحانه : «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ»^(١) ويقول أيضا : «وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ»^(٢) يقال : إن الوليد بن المغيرة استكثرت الرسالة على محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال : «أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا»^(٣) فنزل قوله تعالى :

(اللَّهُ يَضْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) : رداً عليه وتحقيقاً للحق (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) : إن الله سبحانه عظيم السمع يسمع كل صوت وإن كان خفياً ، شامل البصر يرى كل مشهد وإن كان دقيقاً أو قصياً ، فهو سبحانه محيط بكل شئ ، علماً .

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٢٤ (٢) سورة الدخان ، الآية : ٣٢

(٣) سورة ص ، من الآية : ٨

٧٦- (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) :

أى : أنه تعالى يعلم ما يستقبلونه من أحداث ويعلم ما يخلفونه من آثار ، قال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ^(١) » .
وإليه وحده المرجع والمآب ، فالكل منه وإليه وجميع الكائنات مردها إلى الله ، وهو بها جميعا بصير عليم .

يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ
وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ
هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ
إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ
شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى
وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

المفردات :

- (اجْتَبَاكُمْ) : اختاركم واصطفاكم .
- (حَرَجٍ) : ضيق أو شدة .
- (مِلَّةٌ) : شريعة .
- (مَوْلَاكُمْ) : ربكم ومالك أمركم ومدبر شئونكم .
- (النَّصِيرُ) : المعين .

التفسير

٧٧- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا) :

بعد أن فرغت الآيات الكريمة من مجادلة المشركين وتسفيه آرائهم ، اتجهت إلى مخاطبة المؤمنين بندائهم بما امتازوا به من تكريم ، وتنبيههم إلى أن العمل الصالح هو ثمرة الإيمان ونتيجته ، وفي مقدمة الأعمال الصالحة الصلاة لأنها علامة الإيمان وعماد الدين وقد عبر عنها بالركوع والسجود لأنهما سمة الخشوع والخضوع اللذين هما قوام الصلاة ، فالمقصود بالأمر بهما : الأمر بإقامة الصلاة بكل ما تشتمل عليه منهما ومن غيرهما ثم أمرهم باستكمال موجبات الإيمان فقال :

(وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) : أى ؛ اعبدوا خالقكم ومالككم ومربيكم باتباع أوامره واجتناب نواهيه والاتجاه إليه وحده بالعبادة والتقديس ، فهو الرب النعم المتفضل ، وافعلوا ما قدرتم عليه من الخير ، لتنالوا الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة .

وبما أن الإسلام له أعداء يتربصون به ، فلذا أمرهم الله بالجهاد في سبيله فقال :

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ) : والجهاد في الإسلام ؛ يشمل مقاومة أعدائه الواقفين في سبيل نشره المعادين له ، كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »^(١) . كما يشمل مقاومة نزغات النفس وشهواتها وأهوائها ، روى البيهقي والخطيب عن جابر : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قفل من إحدى الغزوات فقال لأصحابه : « قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ ، وَقَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » .

وفسر الجهاد : الأكبر بأنه مجاهدة العبد هواه ؛ وأفضل الجهاد : مقاومة الظلم ، قال - صلى الله عليه وسلم - : (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) أخرج ابن ماجه ، والخطيب ، وأحمد والطبراني ، والبيهقي .

(هُوَ اجْتَبَاكُمْ) : هو اصطفاكم لحمل خاتم الأديان ونشر رسالته ، فأرسل إليكم أفضل الأنبياء ، وأنزل إليكم أكرم الكتب السماوية ؛ وأنتم عليكم نعمته بالتأييد والنصر .
(وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) : ولم يكلفكم ما يشق عليكم ويسبب لكم الضيق والحرَج ، فإنه سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها . وهو تبارك وتعالى ييسر الأمور :
« يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ^(١) » .

ومن لطفه وتيسيره : أنه أباح لنا قصر الصلاة والإفطار في السفر الطويل ، وأباح لنا التيمم عند فقد الماء أو تعذر استعماله . والقعود في الصلاة عند تعذر القيام فيها .

(مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) : فالزموا الإسلام الذي هو ملة أبيكم إبراهيم ، فهو الذي بنى لكم البيت ودعاكم إلى حجه والصلاة إليه . بتكليف من الله - سبحانه وتعالى - ودعا الله أن يمكنه وذريته من إقامة الصلاة بقوله : « رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ^(٢) » .

(هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا) :

هو الله - سبحانه - الذي سماكم بهذا الاسم وارتضى لكم الإسلام ديناً من قديم ، وأمركم به في هذا القرآن الكريم حيث قال فيه : « فَالِهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ^(٣) »
(لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) :

ولما كان القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية ، وقد أبلغه الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الله إلى أمته بما يحويه من أوامر ونواه ، وبما فيه من قصص الرسل والأنبياء السابقين فلهذا يشهد الرسول بأنه بلغ رسالة الإسلام إلى أمته ، ويشهد المسلمون منهم على الأمم السابقة بما قصه عليهم القرآن من تبليغ رسلهم شرائع الله إلى أممهم .

(فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) : أي ؛ وإذا كان الله تعالى منحكم هذا الشرف العظيم ، حيث جعلكم شهداء على الناس ، فتقربوا إليه - سبحانه - بأنواع الطاعات ، وأخصها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

(٢) سورة إبراهيم ، من الآية : ٤٠

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٨٥

(٣) سورة الحج ، من الآية : ٣٤

(وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) :

والتجئوا إلى الله، وتحصنوا به لحمايتكم من الأعداء ومن نزغات الأهواء، فإنه ربكم وخالقكم والمدير لأموالكم، والمهيمن عليكم الحافظ لكم « وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »^(١) فما أعظم وأكرم الرب المنعم المتفضل الحفيظ . وما أعظم النصير المعين الذي يحفظ من يلوذ به ومن يحنى بحماه وينصره على من عاداه .

« فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »^(٢) .

تصحیح

ورد في الصفحة (رقم ١١٥٧) من الحزب الثالث والثلاثين ، أن جيش مصر هزم
القتار في معركة (مرج دابق) والصواب أنه هزمهم في معركة (عين جالوت) فنرجو
من القارئ أن يصحح نسخته ، ونعتذر له عن هذا السهو وشكرا .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون مكية

وآياتها ثمانى عشرة ومائة

مقاصدها :

بدأت هذه السورة ببشارة المؤمنين بالفلاح والخلود فى الفردوس ، إذا خشعوا فى صلاتهم وحافظوا عليها ، وأعرضوا عن اللغو وأدوا الزكاة ، وحفظوا فروجهم من الفاحشة ، وراعوا الأمانة والعهد .

وعقبت هذه البشرى ببيان منشأ الإنسان ومآله ، وأنه سبحانه خلق من فوقنا سبع سموات طباقا ، وأنه لا يغفل عن خلقه طرفة عين ، ولهذا أنزل من السحاب ماء أجراه فى مجارى فوق سطح الأرض ، وأسكن بعضه فى جوفها ، ليستخرجه الناس وقت الحاجة إليه ، وأنه أنشأ لنا بهذا الماء الزروع والثمار لنأكل ونتعيش منها ، وخلق لنا الأنعام وجعلها عبرة لنا ، فمن بطونها نشرب اللبن ، ومن لحومها نأكل ، وبمنافعها الكثيرة ننتفع ، وعلى الإبل منها نحمل ثقال الأحمال ، كما نحمل على السفن .

وبينت قصص الأنبياء مع أممهم ، وقد جاء فيها أن هذه الأمم لم تشكر نعم ربها بتوحيده وعبادته ، بل أشركت معه غيره من مخلوقاته ، فبعث إليها رسلا ليهدوهم سواء السبيل ، فكذبوهم فعاقبهم الله بعذاب الاستئصال ، ونجى منه عباده المؤمنين .

وذكرت من أنبياء المهلكين : قوم نوح أغرقهم الله بالطوفان ، وقوم صالح أهلكتهم الله بالصيحة ، وفرعون وجنوده ، كفروا بموسى وهرون فأغرقهم فى اليم .

وعقبت قصة فرعون معهما ببيان أن الله تعالى جعل ابن مريم وأمه آية ، لأنه ولد منها دون أب ، وأنه تعالى آواهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وسيأتى بيان ذلك فى الشرح ، وأنه شرع للرسل وأمهم أن يأكلوا من الطيبات ، ويتركوا ما حرمه الله عليهم ، وأن جميع الأمم أمة وديانة واحدة هى توحيد الله ، وأصول الشرائع والأحكام - وإن اختلفت فى الفروع -

وأنه يجب على الناس جميعاً أن يتقوه دون سواه ، ولكن الناس تقطعوا دينهم وابتدعوا في دين الله ما ليس منه ، وقد توعدهم الله بالعقاب على هذا التفرق في الدين الحق .

ثم مدحت المؤمنين الذين يخشون ربهم ولا يشركون به ، ويسبقون إلى الخيرات ، وذكرت أنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وأن هؤلاء المترفين الكافرين سيؤخذون بالعذاب فيجأرون مستغيثين ولا مغيث لهم ولا ناصر ، لأن آياته تعالى كانت تنجلي عليهم فكانوا يستكبرون ولا يؤمنون .

وبينت أنه لو اتبع الحق أهواء الناس لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، وأنه تعالى بعث محمداً بالقرآن إلى قريش ، ومع أنه شرف لهم أعرضوا عنه ، في حين أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجراً ، إن يريد إلا الإصلاح ، وبينت أنه تعالى عاقبهم عقاباً غير شديد في الدنيا على كفرهم ، ولكنهم لم يستكينوا لربهم وما يتضرعون ، وأنه إذا فتح عليهم باباً ذا عذاب شديد فسيبلسون ويتحيرون .

وقد ذكرتهم بنعم السمع والبصر والفؤاد ، وأنهم سوف يحشرون إليه بعد الموت ، وبدلاً من الإيمان كفروا بالبعث وقالوا : « إِنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » .

ثم ذكرت أن الله أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يُجرى معهم حواراً : لمن الأرض ومن فيها ؟ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ؟ وبينت أنهم سيقولون في كل ذلك : الله ، ولكنهم لا يتذكرون ولا يتعظون ، بل يُصِرُّون على الإشراك ، وذكرت أن الموت إذا جاءهم فسيندمون على تقصيرهم ، فيطلبون الرجوع إلى الحياة الدنيا ليعملوا صالحاً ، وأنه لا سبيل إلى إجابة ملتسهم ، ثم بينت أحوال الناس يوم القيامة ، فمن ثقلت موازينه بالعمل الصالح فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه بسبب العمل السيئ والكفر ، فهم « فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ » وبينت أنهم يعترفون ويقولون :

«رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ» وأنه تعالى يجيبهم بقوله : « اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا فِيهِ إِلَهُكُمْ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ . رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخَرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ » ثم خُتِمت السورة ببيان أنه تعالى لم يخلق عباده عبثاً ، وأنهم سيرجعون إليه للحساب والعزاء ، وبينت أنه من يدعو مع الله إليها آخر فحسابه عنيف عند ربه ، وأنه تعالى هو الذي يُطَلَّب منه الغفران والرحمة لمن هم أهل لهما « وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ
ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾)

المفردات :

(أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) : الفلاح؛ الفوز بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب ، والإفلاح
الدخول في الفلاح ، كالإبشار بالدخول في البشارة. (خَاشِعُونَ) : خاضعون متذللون. (اللَّغْوِ) :
ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال (وَرَاءَ ذَلِكَ) : سوى ذلك . (الْعَادُونَ) : المبالغون
في العدوان (رَاعُونَ) : حافظون ، وأصل الرعى : حفظ الحيوان بتغذيته ودفع العدو عنه ،
ثم استعمل في الحفاظ مطلقاً . (الْفِرْدَوْسَ) : المراد به هنا ، أعلى درجات الجنان في الآخرة .

التفسير

١ ، ٢ - (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) :

جاء في خواتيم سورة الحج قبلها تكليف المؤمنين بالصلاة وعبادة ربهم لكي يفلحوا
 ويفوزوا بفضله ورحمته ، وذلك في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا

وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » فكان من المناسب أن تبدأ هذه السورة بما يؤكد فلاح المؤمنين المصالحين العابدين ، الخاشعين المتقين ، ولفظ (قَدْ) يفيد تحقيق التوقع وتثبيته ، وكان المؤمنون يتوقعون البشارة بفلاحهم ، لإيمانهم وتوحيد ربهم فأخبروا بتحقيق ما توقعوا وثباته ، إذا قرنوا بإيمانهم بالعمل الصالح ، والمؤمنون في اللغة : المصدقون مطلقاً ، وفي الشرع : المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - من وحدانية الله تعالى وصفاته وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وبجزاء المحسنين والمسيئين فيه ، وأن يخلو تصديقهم هذا عن الرياء والنفاق والشك .

والخشوع في الصلاة : سكون الجوارح والتذلل وحضور القلب ، وجمع الهمة لها والإعراض عما سواها ، وأن لا يجاوز البَصْرُ الْمُصَلَّى ، فلا يلتفت المصلى يَمَنَةً ولا يسرة ، ولا يعيث ببلحيته ولا بثيابه ونحو ذلك .

وقال أبو الدرداء يصف الخشوع : هو إخلاص المقال ، وإعظام المقام ، واليقين التام ، وجمع الاهتمام .

والخشوع محله القلب ، وله السلطان على الجوارح ، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح لخشوعه ، قال القرطبي : كان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة وقام إليها ، يهاب الرحمن أن يحدَّ بصره إلى شيء ، وأن يحدث نفسه بشيء من الدنيا - وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول بسنده إلى أبي هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه رأى رجلاً يعيث ببلحيته في صلاته فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » كما أخرج بسنده عن أم رومان والدة عائشة - رضى الله عنها - قالت : (رآني أبوبكر - رضى الله عنه - أتميل في صلاتي ، فزجرني زجرة كدت أنصرف عن صلاتي) ثم قال : واختلف الناس في الخشوع : أهو من فرائض الصلاة أم من فضائلها ، ورجح بعضهم الأول ، وأضيفت الصلاة إلى المصلين في قوله تعالى : « الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » ولم تضاف إلى الله الذي يصلون له ؛ لأنهم المنتفعون بثوابها ، فهي عُذَّتْهم وذخيرتهم ، وأما المولى - سبحانه - فهو غني عنهم وعن عبادتهم .

وَلْيَعْلَمِ الْمُؤْمِنُ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ ثَمَرَةُ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ ، فَمَنْ لَا عَمَلَ لَهُ فَيُؤْمِنُ بِهِ وَهُوَ ضَعِيفٌ بَلْ هُوَ مَيِّتٌ لَا أَثَرَ لِلْحَيَاةِ فِيهِ ، فَهُوَ كَالشَّجَرَةِ الْجَافَةِ ، لَا وَرْقَ لَهَا وَلَا ثَمَرَ ، وَلِهَذَا مَثَلُ اللَّهِ تَعَالَى كَلِمَةُ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ بِقَوْلِهِ : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضَلُّهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْثَرَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » (١)

.. وقد جاء في فضل هذه الآيات التي صدرت بها سورة (المؤمنون) وثواب من يعمل بها - جاء في ذلك حديث أخرجه الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب قال : « كان إذا نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوحي ، يُسْمِعُ عند وجهه دوى كدوى النحل ، فمكثنا ساعة فسرى عنه ، فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا » ثم قال : « لقد أنزلت على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » حتى ختم العشر ، وسئلت عائشة - رضى الله عنها - : كيف كان خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ فقُرأت : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » حتى انتهت إلى : « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » قالت : هكذا كان خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أخرجه النسائي في تفسيره » (٢) وقد وعد الله المؤمنين في هذه الآيات مميزات الفردوس والخلود فيه إذا اتصفوا بصفات ست (أولها) الخشوع في الصلاة ، وقد سبق الحديث عنه ، وفيما يلي : الحديث عن باقي الصفات :

٣ ، ٤ - (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) :

تضمنت هاتان الآيتان صفتين أخريين للمؤمنين المفلحين بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة ، الصفة الأولى منهما : إعراضهم عن اللغو وبعدهم عنه ، وفسره ابن عباس بالباطل ، وقال الآلوسي : وقد يُسمى كل كلام قبيح : لغواً ، وعمم بعضهم اللغو فجعله يشمل كل ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال ، وشاع في كل كلام يقوله صاحبه لا عن روية وفكر ، فهو

(١) سورة إبراهيم ، الآيتان : ٢٤ ، ٢٥

(٢) انظره والحديث الذي قبله في تفسير ابن كثير لأول (المؤمنون) .

يجرى مجزى اللغاء ، وهو صوت العصافير ونحوها من الطير ، والصفة الثانية منهما أداؤهم الزكاة ، والمراد من الزكاة هنا : زكاة أموالهم ، ولا ينافي هذا كون السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ، لأن التي فرضت بالمدينة هي ذات النُصْب والمقادير الخاصة ، وهذه غير التي فرضها الله بمكة ، فقد كانت غير مشروطة بمقدار ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام - وهي مكية - : « وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ »^(١) ومن العلماء من فسر الزكاة هنا بزكاة النفس مراعاة لمكية الآية ، كقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » .

والمعنى : والذين هم لأجل زكاة نفوسهم يفعلون ما يفعلون من الطاعات .
٥ ، ٦ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) :

تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان صفة رابعة للمؤمنين الذين يفوزون بجنة الفردوس ، وهي حفظهم لفروجهم من الزنى ، والفرج يشمل سوءة الرجل والمرأة ، فالمراد به عضو التناسل من كل منهما ، ولفظ (عَلَى) في قوله : (إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ) بمعنى : (مِنْ) كما قاله الفراء وغيره ، أى : حافظون لفروجهم إلا من أزواجهن أو ما ملكت أيماهن ، والأزواج جمع زوج ، وهو يطلق على كل من الرجل والمرأة المتزوجين ، فكلاهما زَوْج الآخر أى ثنائه ، بأن جعله مع نفسه اثنين ، والمراد مما ملكت أيماهن السُّرِّيَّاتُ^(٢) وهُنَّ (الإماء) المأخوذات في غنائم الحرب ، دون المختطفات من أهلن ، فلا يحل بيعهن ولا شراؤهن ، ولا الاستمتاع بهن عن طريق ملك اليمين ، فهن حرائر مغتصبات فلا سبيل إلى تملكهن ، ومن اشتراهن وهو يعلم بحالهن فشراؤه غير صحيح ، والاستمتاع بهن زنى .

وقد أفادت الآية الكريمة أنه لا لوم ولا إثم على المؤمنين في غشيان زوجاتهم وإمائهم ، ولا على المؤمنات في مباشرة أزواجهن لهن ، أما عبيدهن فلا حقَّ لهن في الاستمتاع بهن بالإجماع^(٣) ، لأنه مملوك لها وليس مالكا فهي قوامة عليه ، بخلاف استمتاع السيد بأمنته فإنه مالك لها وقوام عليها .

(١) الآية : ١٤١

(٢) جمع سرية - بضم السين - منسوبة إلى السر بكسرها على غير قياس ، كما قالوا في النسبة إلى الدهر دهرى ، وإلى الأرض السهلة : سهل - بضم الألف في كليهما - انظر المادة في القاموس . (٣) وإن كان ظاهر الآية يخالفه .

روى معمر عن قتادة قال : تسرّرت امرأة غلامها^(١) ، فذكر ذلك لعمر فسأها : ما حملك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحل لي بملك يميني ، كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين ، فاستشار عمر في رجمها أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : تأولت كتاب الله على غير تأويله فلا رجم عليها ، فقال عمر : لا جرم . والله لا أحلّك لحراً بعده أبداً ، عاقبها بذلك ودرأ الحد عنها ، وأمر العبد أن لا يقربها .

وعن أبي بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : أنا حضرت عمر بن عبد العزيز ، حين جاءت امرأة بغلام لها وضئ ، فقالت : إني استسرّرتُه فمنعني بنو عمي من ذلك ، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطوؤها ، فأنه عنى بنو عمي ، فقال عمر : أتزوجت قبله ؟ قالت : نعم ، فقال : أما والله لو لا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة ، ولكن اذهبوا به فبيعه إلى من يخرج به إلى غير بلدها^(٢) .

٧ - (فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) :

أي : فمن طلب سوى الزوجات والإماء لقضاء شهوته ، فأُولَئِكَ هم المجاوزون الحد في الإثم والعدوان .

وبهذه الآية حرم إتيان الذكور والبهائم ، كما حرم نكاح المتعة ، وهو نكاح المرأة إلى أجل بمقابل ، وكان مباحاً في الجاهلية ، فلما نزلت هذه الآية حرّمته ، وهذا يقتضي أن تحريمها كان قبل الهجرة لأنّ السورة مكية ، لكن ورد تحريمها بعد الهجرة ثلاث مرات ، (إحداها) يوم خيبر^(٣) . (وثانيتهما) يوم فتح مكة وهو يوم أوطاس لاتصالهما ، وكان قد أحلها يومئذ ثلاثة أيام ثم حرّمها^(٤) . (وثالثتها) كانت في حجة الوداع وكان التحريم فيها أبدياً أخرجه أبو داود^(٥) .

(١) أي جعلته بجامعها ويستمتع بها ، من السر بمعنى : الجماع .

(٢) انظر القرطبي فيها وفي التي قبلها ج ١٢ ص ١٠٧ طبع دار الكتب .

(٣) وقد اتفقت عليه روايتا البخاري ومسلم .

(٤) رواه الإمام مسلم .

(٥) انظره في شرح النووي لمسلم .

ويرجع تحليلها في بعض الغزوات ، إلى الترخيص لهم بما ألفوه قبل الإسلام في سفرهم وحروبهم ، تأليفاً لهم وتدرجاً معهم في التشريع ، فلما تشبعت نفوسهم بدينهم ، حرمه الله إلى الأبد .

وقد علق الإمام النووي على الحديث الأول من أحاديث المتعة عند مسلم - علق عليه - بكلام نفيس ، ثم قال : قال القاضي ^(١) : واتفق العلماء على أن هذه المتعة كانت نكاحاً إلى أجل لا ميراث فيها ، وفراقها يحصل بانقضاء الأجل من غير طلاق ، ووقع الإجماع بعد ذلك على تحريمها من جميع العلماء إلا الروافض ، وكان ابن عباس - رضى الله عنه - يقول بإباحتها ، وروى عنه : أنه رجع عنه .

قال ^(٢) : وأجمعوا على أنه متى وقع نكاح المتعة الآن ، حكم ببطلانه ، سواء كان قبل الدخول أو بعده إلى آخر ما قال . فارجع إن شئت إلى باب نكاح المتعة في كتاب أحكام النكاح تعليق الإمام النووي على الإمام مسلم ، وقد أسهب الآلوسی في الكتابة على هذه الآية ، فمن شاء المزيد فليرجع إليه .

وما ذكره فيها : أن الأئمة اختلفوا في استمناء - الرجل بيده ، وأن جمهور الأئمة على تحريمه ، لدخوله تحت عموم قوله تعالى : « فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » وذكر أن الإمام أحمد يجيزه ، لأن المنى فضلة في البدن فجاز إخراجها عند الحاجة ، كالقصص والحجامة . وعزز بعض العلماء رأي الجمهور بحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ناكح اليد ملعون » ، كما عززه بقوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ » وهذا الاستمناء يقرب صاحبه من الزنى ، فلهذا يكون منهياً عنه ومحرمًا .

٨ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) :

هذه هي الصفة الخامسة للمؤمنين بالقرآن وميراث الفردوس ، وهي رعايتهم لأماناتهم وعهدهم ، والمراد بأماناتهم : ما ائتمنوا عليه من جهة الله وهي التكاليف الشرعية التي كلف الله عباده بها ، كالصلاة والصوم والزكاة وترك الخمر والميسر ، أو من جهة الناس وهي ودائعهم من الأموال والأسرار .

(١) يعنى القاضي عياض .

(٢) أى : قال القاضي عياض .

والمراد بعهدهم : ما عاهدوا الله عليه بالآيمان والنذور ، وما عاهدوا الناس عليه بالعقود والوعود ، وجمعت الأمانة في الآية دون العهد ، لكثرة الأمانات من جهة الله ومن جهة الناس ، وقد أثنى الله عليهم ، بأنهم مراعون للأمانات والعهود بأنواعها ، حافظون لها قائمون بحقوقها .

٩ - (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) :

هذه هي الصفة السادسة للمؤمنين المفلحين ، والمراد من الصلوات : الصلوات المفروضة ، كما أخرج ابن المنذر وغيره عن عكرمة ، والمراد من المحافظة عليها : أدائها في أوقاتها بآركانها وشروطها ، والتعبير بقوله : (يُحَافِظُونَ) بدل (محافظون) لما في الصلاة من التجدد والتكرار الذي توافقه صيغة الفعل المضارع .

وقد ذكرت الصلاة في أوصاف المؤمنين مرتين ولا تكرار فيها ، فإن ذكرها أولاً للحث على الخشوع فيها لأهميته ، وذكرها أخيراً للمحافظة عليها في جميع مطالبها . وكلاهما يدل على فضل الصلاة وعظيم منزلتها عند الله تعالى ، ولهذا فرضها الله في السماء ليلة الإسراء والمعراج ، وفرض سواها وحياً على محمد - صلى الله عليه وسلم - في الأرض .

١٠ - (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) :

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة هم الجديرون بأن يسموا ورثاً دون من عداهم ممن يرثون نفائس الأموال والحلى وغيرها من متاع الدنيا ، فإنه عرض زائل ، وما عند الله خير وأبقى ، ثم شرح ميراثهم فقال :

١١ - (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

والفردوس في اللغة - كما قال صاحب القاموس - : هو البستان يجمع كل ما يكون في البساتين ، وقد يؤنث .

وهو في الآخرة أعلى درجات الجنان ، ففي الحديث : « إذا سألكم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » أخرج البخاري ومسلم .

وعبر عن استحقاقهم الفردوس بالميراث لما روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان ، منزل في الجنة ومنزل في النار ، فإن مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : (أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) » أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة ، وابن جرير عن أبي معاوية بإسناده إليه .

وقيل : الإرث مستعار للاستحقاق ، لأنه أقوى أسباب الملك .

المعنى الإجمالي للآيات السابقة :

- ١- قد فاز المؤمنون بما أملوه في مولايم ، فقد قضى بنيلهم ما يطلبون ، ونجاتهم مما يرهبون ويخافون ، جزاء إيمانهم واتصافهم بالصفات الكريمة التالية :
- ٢- الذين هم في صلاتهم متذللون خاضعون ، جوارحهم ساكنة ، وقلوبهم حاضرة ، وعقولهم مجتمعة غير مشتتة ، يخلصون المقال ، ويعظمون المقام ، فهم ماثلون أمام مالك الملوكوت ، ورب العزة والجبروت .
- ٣- والذين هم في سلوكهم مع الناس ، بعيدون عن ساقط الكلام وباطله ، وردئ الفعل وعابثه ، فإذا نطقوا فبخير ، وإذا فعلوا فبروية وفكر .
- ٤- والذين هم لزكاة أموالهم مؤدون ، ومن أجل طهارة نفوسهم يفعلون من الطاعات ما يفعلون .
- ٥ ، ٦- والذين هم لسوءاتهم ومواضع العفة منهم حافظون إلا من زوجاتهم أو جوارحهم فإنهم غير ملومين على مباشرتهن ، فهن حلال لهم .
- ٧- فمن طلب غير الزوجات والسراري لقضاء شهوته سفاحاً ، فأولئك هم المعتدون ولحدود الله مجاوزون ، ولعقابه في الدنيا والآخرة مستحقون .
- ٨- والذين هم لما ائتمنوا عليه من التكاليف الشرعية وودائع الناس وأسرارهم حافظون لها ، مؤدون حقوقها ، قائمون بواجباتها .
- ٩- والذين هم على صلواتهم يحافظون ، ففي أوقاتها يؤدون ، وبأركانها وشروطها يلتزمون .

١٠ ، ١١ - أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة ، هم الجديرون بأن يوصفوا بالوارثين ، فإنهم يرثون في الآخرة جنة الفردوس أعلى الجنان ، ومن فوقها عرش الرحمن هم فيها خالدون ، لَا يُخْرَجُونَ وَلَا يُخْرَجُونَ ، أما الوارثون في الدنيا للأموال والنفائس ، والرباع والقصور ، فهم وما ورثوه زائلون وعنه مسئولون .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ۝١٣ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝١٤ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ۝١٥ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ۝١٦ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا ۝١٧ آخَرَ ۝١٨ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٩) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝٢٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ۝٢١)

المفردات :

(مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) السلالة : ما سُئِلَ من الشيء واستخرج منه ، أى : مِنْ مُسْتَخْرَج ومستخلص من الطين . (جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً) : صيرناه نطفة ، أى : منياً ، وهى مأخوذة من النطف : وهو التقاطر ، وقال الراغب : النطفة : الماء الصافى ، ويعبر به عن ماء الرجل . ا هـ . وكان عليه أن يقول : عن ماء الرجل والمرأة ، لأن الجنين يتخلق من ماءيهما .
(مَكِينٍ) : متمكن ثابت . (عَلَقَةً) : هى ما يعلق بغيره ، وسيأتى بيان المراد منها فى الشرح . (مُضْغَةً) أى : قطعة لحم بقدر ما يمضغ .

التفسير

١٢ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) :

بين الله فى الآيات السابقة صفات السعداء التى استحقوا بها الجنة ، وجاءت هذه الآية والآيات التالية لها لبيان ما خلقوا منه هم وغيرهم ، وما ينتهون إليه ، حثاً لهم على استدامة

ما هم فيه من الصفات الكريمة ، وتذكيراً لغيرهم بمبدئهم ومنتهاهم ، ليعملوا لآخرتهم ، ويتقوا سوء المصير .

والمراد من الإنسان في الآية : الجنس ، فكل أفراد هذا الجنس خلقهم الله من خلاصة مستخرجة من الطين ، كما جاء في النص الكريم ، وذلك باعتبار أصلهم الأول آدم - عليه السلام - فهم مخلوقون من الطين تبعاً لخلقه منه ، أو باعتبار أن النطفة التي خلقوا منها خلاصة مستتلة ومأخوذة من أغذية ناشئة ونابتة من الطين .

١٣ - (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ) :

ثم حولنا الإنسان وصيرناه نطفة ومنياً في قرار مكين بعد استلاله من طين ، ولفظ (ثُمَّ) هنا إما : للترتيب في الخلق والتراخي في الزمن ، أو للترتيب والبعد في المنزلة والرتبة ، فإن تحويله من خلاصة من طين ، إلى منى مشتمل على حيوانات منوية لا حصر لها في ماء الرجل وعلى بويضة وحيدة في ماء المرأة ، فيه انتقال من مرتبة أدنى إلى مرتبة أعلى ومنزلة أبعد وأسمى ، وهذا المعنى هو المناسب لما ختمت به الآيات ، وهو قوله تعالى : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » ومثل ذلك يقال في الآية التالية .

والمراد من القرار المكين : الرحم ، فهو مقر متمكن في موضعه ، وحرز حريز للنطفة وما يطرأ عليها من التطورات ، فلا يخاف عليها فيه من حركة الأم وتنقلاتها وعملها حتى تضع حملها بسلام .

١٤ - (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) :

تقدم الكلام مستوفى على مثل ما جاء في هذه الآية في صدر سورة الحج ، حيث بينا هناك كيف تتحول النطفة إلى علقة ثم إلى مضغة ، وأطوار تكوين الجنين في أشهر الحمل وأوزانه ، وأن الحياة موجودة فيه منذ تكوين الخلية الأولى بعد تلقيح البويضة بالحيوان المنوي ، وأن المقصود من نفخ الروح فيه في نهاية طور المضغة هو إعطاء الجنين دفعة قوية من الحياة تمكنه من الحركة في بطن أمه بعد أن تم تصويره-المبدئي ، ولهذا لا نرى داعياً

لإعادة الكلام هنا تفصيلاً فيها ، فمن شاء فليرجع إلى ما قلناه في تفسير قوله تعالى :
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ . . . » ^(١) .

والمعنى : ثم صيرنا النطفة البيضاء خلايا عالقة بجدار الرحم أجرينا عليها التحويل من حال إلى حال فصيرناها بهذا التحويل والتصوير مضغة - أى : قطعة لحم صغيرة قدرها بمضغ ، فيها معالم الانسان الأولية ، فصيرنا بعض هذه المضغة عظاماً متطورة ممتدة في ثناياها أثناء تخليقها وتصويرها ، فكسونا تلك العظام لحماً وأحطاناها به ، ليتم للجنيح تلك الصورة البديعة ، ثم حولناه بعد تمام التكوين والتصوير وأنشأناه مخلوقاً آخر مبايناً لخلقه الأول ، فقد أصبح إنساناً سوياً جميلاً وسيماً ، بعد أن كان منياً ثم علقه ثم مضغة .

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) :

أى : فتعالى الله أحسن الخالقين خلقاً ، وتقدير أعظم المقدرين المبدعين تقديراً وإبداعاً حيث أنشأ هذا الجمال الإنساني من تراب ثم من نطفة ثم من علقه فمضغة ، وعُدِلَ عن أسلوب التكلم في نحو قوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا » فأسند الفعل هنا إلى لفظ الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة ، وللإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة ، إنما هو من أحكام الألوهية وآثارها ، وللايذان بأن حق من سمع ما فصل من آثار قدرته تعالى أو تدبره أن يقول : « تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » إجلالاً وإعظاماً لشئونه تعالى .

وَالْخَلْقُ معناه في اللغة : التقدير ، وهو لهذا يصح أن يطلق على غيره تعالى ، كما في قوله سبحانه : « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ » أى : تقدر من الطين تمثالاً وتصوره كهيئة الطير ، ولهذا عبر هنا بصيغة أفعل التفضيل (أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) .

١٥ ، ١٦ - (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) :

ثم إنكم يا بني الإنسان بعد ذلك الخلق العجيب المنتهون إلى الموت لا محالة . ثم إنكم يوم القيامة تقومون من قبوركم وتبعثون منها إلى ساحة الحساب على أعمالكم : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » : ومن كان مصيره إلى الحساب والجزاء ولا بد ، فعليه أن يتقَيَّ سوء الحساب .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلِينَ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(سَبْعَ طَرَائِقَ) : سبع سماوات طباقاً بعضها فوق بعض ، وهي جمع طريقة ، والعرب تسمى كل شيء فوق شيء طريقة - انظر القرطبي . (مَاءً بِقَدَرٍ) أى : بتقدير لائق يجلب المصالح ويدفع المضار . (جَنَّاتٍ) : بساتين . (تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ) : تنبت ملتبسة بالدهن ومصاحبة له في تكوينها . (وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلِينَ) : وما يصنع به الخبز للأكلين أى : يغمس فيه .

التفسير

١٧- (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ) :

بين الله في الآيات السابقة خلق الإنسان ومصيره الذى ينتهى إليه ، وبين في هذه الآية وما بعدها خلق ما هو بحاجة إليه في حياته الأولى ، استكمالاً لنعمته عليه .

وفي تقديم بيان خلق الإنسان على خلق هذه الكونيات العظيمة ، إيدان بعظم خلقه مع صغر حجمه ، ففيه انطوى العالم الأكبر ، كما قال الشاعر :

أَنْزَعُمْ أَنْكَ جِزْمٍ صَغِيرٍ وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ

وفي تلك الآيات دلالة على إمكان بعثهم الموعود به قبلها في قوله سبحانه : « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ » فإن من قدر على خلق السماوات ، وإخراج الشجر والنبات من التراب ،

فهو على بعثهم قدير ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ »
والطرائق : جمع طريقة ، وتطلق على الطبقة فوق الأخرى ، يقال : طارقت الشيء : جعلت
بعضه فوق بعض ، كما تطلق على الطريق المعروف ، وعلى الأسلوب والهيئة .

وأطلقت الطرائق على السموات السبع إما لكون بعضها فوق بعض ، أو لأنها طرق
الملائكة في هبوطهم وعروجهم ، أو لأن لكل سماء طريقة وأسلوباً في خلقها ونظامها
وهيئتها .

ومعنى الآية : ولقد أنشأنا فوقكم يا بني الإنسان سبع سماوات طباقاً ، يسلكها الملائكة
في أعمالهم التي كلفهم الله بها ، ولكل سماء هيئة ونظام يتفق مع ما خلقت لأجله ، وما كنا
عن جميع مخلوقاتنا ساهين مهملين ، فكل شيء خلقناه فيها بقدر ، ودبرناه بحكمة ،
وهو مشمول برعايتنا وحفظنا ، ومحوط بعلمنا « يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا
وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »^(١)
لا تحجب سماء عن علمه سماء أخرى ، ولا أرض أرضاً غيرها ، ولا جبل إلا هو يعلم سهوله
ووديانه وهضابه وكتبانته ، ولأرياف إلا هو يعلم نباته وأشجاره ، وإنسانه وحيوانه « وَلَا حِجَّةَ
فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »^(٢) ولا بحر إلا هو يعلم مياهه
وركبانه ، وأسماكه وحيثانه ، فهو « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ
وَلَا نَوْمٌ »^(٣) .

١٨ - (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ) :
كل ما علاك يطلق عليه في اللغة : سماء ، والمراد بالسماء هنا إما السحاب ، فمنه ينزل المطر ،
وإما السماء المعروفة ، والمقصود من إنزال المطر منها إنزاله بسببها ، فإن المطر أصله أبخرة
صاعدة من البحار ، بسبب تسلط حرارة الشمس عليها ، والشمس من السماء .

(١) سورة الحديد ، من الآية : ٤

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٥٩

(٣) سورة البقرة ، من الآية : ٢٥٥

ومعنى الآية : وأنزلنا من السحاب ماء بمقدار ما يكفي مخلوقاتنا في مصالحهم وحاجاتهم ، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلاً فلا يفي بالإنسان والحيوان والزرع والثمار ، فأسكناه في الأرض وأقررناه فيها ، حيث أجريناه في الأنهار ، وجعلنا الأرض تشرب بعضه ، ليستقر في جوفها ، ويخزن تحت طبقاتها ، لينتفع به الناس عند الحاجة إليه بحفر الآبار فيها ونبع العيون منها ، وإنا على ذهاب بالماء الذي أنزلناه لقادرون ، بأن نجعل الأرض تبتلع فيغور فيها إلى أماكن بعيدة لا تقدر على استنباطه منها ، كما قال سبحانه في آخر سورة الملك : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مُّعِينٍ » .

ويصح أن يكون المعنى : وإنا على عدم انتفاعكم بالماء لقادرون ، بأن نجبس المطر عنكم أو نحول عذبه الفرات إلى ملح أجاج ، أو نجفف أنها ركم وآباركم ، ولكننا بلطفنا ورحمتنا ندكم بالماء العذب من آن لآخر ، ونحفظه لكم لنتفعلوا به عند حاجتكم .

١٩- (فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) :

فأوجدنا لكم بسبب هذا الماء الذي أسكناه في الأرض - أوجدنا لكم - بساتين ذات بهجة من نخيل وأعنان ، لكم في تلك البساتين فواكه كثيرة غير النخيل والأعنان ، تتفكهون بها وتتنعمون بحلاوتها وجمالها ولذيذ مذاقها ، ومن هذه البساتين تأكلون وتتغذون بزروعها وثمارها التي تجمع بين التفكه والتغذى .

ويصح أن يكون المراد من الأكل من تلك الجنات التعيش والارتزاق منها ، ببيع ما زاد على طعامهم وفاكهتهم ، ومنه قولهم : فلان يأكل من حرفته ، أى : يتعيش منها . وأجاز بعض العلماء عود الضمير في قوله : « لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » على النخيل والأعنان ، فثمراتها جامعة بين الفاكهة والغذاء .

٢٠- (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبِتُ بِالدَّهْنِ وَصِغَ لِّلْأَكْلِيلِ) :

الطور في اللغة : اسم لكل جبل ، وطور سيناء : هو الجبل الذي كلم الله موسى - عليه السلام - عنده ، وهو واقع في إقليم سيناء التابع لمصر .

وجمهور العرب والقراء على فتح السين مع مد الهمزة ، وقرئ بكسرها مع المد أيضاً - وهو لغة بني كنانة ، وفيه لغات وقراءات أخرى : كَطُورٍ سِينِينَ ، ونكتفى بما ذكرنا ، والمراد بالشجرة التي تنبت منه الدهن : شجرة الزيتون ، وتخصيصها بالذكر من بين سائر الأشجار التي تنبت هناك لما فيها من المنافع الجليلة ، ولشهرة طور سيناء بإنباتها أكثر من اشتهارها بإنبات سواها عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، وتخصيصها بالوصف بالخروج من الطور مع خروجها من سواه لتعظيمها ، وقيل : لأنه هو المنشأ الأصلي لها بعد الطوفان ، والله أعلم بذلك القول .

والمراد من نباتها بالدهن ، نباتها ملتبسة به ، حيث خلقها الله صالحة لإخراج ثمرها مشتملا على نسبة عالية من الزيت ، والمراد من كونه صبغا للأكليين ، أنه يغمس فيه الخبز ويصبغ به عند تناوله ، كما كانوا يفعلون عندما نزل القرآن عليهم .

ومعنى الآية : وأنشأنا لكم شجرة طيبة عما أنزلناه من السماء من ماء ، وهذه الشجرة تخرج من أرض مباركة قريبة منكم يجلب لكم ثمارها ، هي سفح طور سيناء الذي كلم الله تعالى موسى عنده ، وتلك الشجرة تنبت وفيها خاصية لإخراج ثمر يجمع بين نعمتين : (إحداهما) نعمة الدهن ، وهو الزيت الذي تستعملونه في سراجكم وسائر أموركم التي تحتاج إليه . (وثانيتهما) أنه أذم تصبغون به الخبز عندما يتناوله الآكلون منكم .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(الْأَنْعَامِ) : تطلق على الإبل والبقر والغنم ، أو كما قال صاحب المختار : هي المال الراعية ، وأكثر ما يطلق على الإبل . ١ هـ ، وسيأتي في التفسير مزيد بيان عنها .

(الْفُلْكِ) : الْفُلُكُ السَّفُنُ ، وقد يطلق على الواحدة ، وقد يُدَكَّرُ حينئذٍ ، كما قال تعالى : « فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ » وقد يؤنث كما في قوله تعالى : « وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » قال صاحب المختار : كأنه يذهب بها إذا كانت واحدة إلى المركب فتذكر ، وإلى السفينة فتؤنث . اهـ وهي تحتل الأفراد والجمع ، ومن إطلاقها على الجمع قوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ »^(١) . ومن إطلاقها على المفرد قوله تعالى : « فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ »^(٢) .

التفسير

٢١ - (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) :

بين الله في الآيات السابقة نعمة وآياته في خلق الإنسان، وإنزال الماء من السحاب ، وإنبات الجذائق والبساتين وأنواع النبات بما أنزله لهم من الماء ، وخرنه لهم منه في جوف الأرض ، وجاءت هذه الآية لتبين آياته ونعمه في الأنعام .

والأنعام المذكورة هنا ، إما أن يراد بها أصنافها وهي الإبل والبقر والغنم ، وإما أن يراد بها الإبل خاصة لقوله تعالى في الآية التالية : « وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » وإرادة العموم هنا أولى ؛ لأن العبرة والمنافع فيها ليست قاصرة على الإبل .

والمعنى : وإن لكم - أيها الناس - لعظة عظيمة في أصناف الأنعام ، نسقيكم مما في بطون إنائها من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، ولكم فيها منافع كثيرة في أوبارها وأصوافها وأشعارها وفي عظامها حيث تطحن وتكون ضمن طعام الداجنة ، وفي غرائها الذي يلصق به ، ومن لحومها تأكلون ، ومنها تتعيشون وترتزون ، حيث تتجرون في أنواعها وأجزائها وفضلاتها ، وقد تقدم الكلام وافيّاً على مثل تلك الآية في سورة النحل^(٣) ، فارجع إليها إن شئت .

(١) سورة يونس ، من الآية : ٢٢

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١١٩

(٣) الآية رقم ٦٦ منها .

٢٢- (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) :

الضمير في (عَلَيْهَا) يرجع إلى الأنعام ، ونسبة الحمل فيها إلى جميعها - مع أن التي تحمل هي الإبل - بنسبة ما لبعضها إلى كلها مجازاً^(١) وقرن الإبل بالفلك في الحمل عليها لأنها سفن البر كما أن الفلك سفن البحر ، وفي ذلك مافيه من المبالغة في تحملها ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر ذو الرمة في وصف ناقته :

* سفينة بر تحت خلدى زمامها *

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوِّمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ٢٥) قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦)

الفردات :

(يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ) : يريد أن يتعالى عليكم ويفضلكم بادعاء الرسالة .
(بِهِ جَنَّةٌ) : به جنون ، أو جن يخيّلون له فيقول ما يقول . (فْتَرَبَّصُوا) : فانتظروا .

التفسير

٢٣- (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) .

(١) ويصح أن يكون في الكلام استخدام ، وهو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر ، كما يقول علماء البلاغة ، وعليه يكون الضمير عائداً إلى الأنعام بمعنى الإبل خاصة ، بعد إرادة العموم منها فيما تقدم .

شروع في بيان ما جناه الناس على أنفسهم من ترك التبصر والاعتبار والأذكار بنعم الله عليهم ، أو بعقاب الله لهم على كفرهم برسلة الذين يذكرونهم ويوجهونهم إلى معرفة ربهم بآياته ونعمه .

وقدم الله قصة نوح مع قومه ، لأنه الأب الثاني للبشرية بعد آدم ، ولأنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم ، فلما لم يؤمنوا قطع الله دابرهم بالطوفان ، فلهذا كانت قصته جديرة بتقديمها ، وإيرادها عقب قوله تعالى : « وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » للصلة القوية بين نوح والسفن فهو أول من صنعها من البشر .

والمعنى : ولقد بعثنا نوحاً رسلاً منا إلى قومه ، ومعه آيات ومعجزات تؤيد رسالته فقال مستميلاً لهم إلى الحق : يا قومي اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به أحداً فإنه ليس لكم إله سواه ، أتشاهدون ذلك في آياته فلا تتقون عقابه وأنتم به كافرون .

٢٤ - (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) :

يطلق لفظ الملا على السادة لأنهم يملئون العين ، كما يطلق على الجماعة مطلقاً^(١) ، والمراد هنا المعنى الأول ، ووضفهم بالذين كفروا من قومه ليس لتمييزهم عن فريق آخر منهم بل لدمهم بالكفر مع أنهم من قومه ، إذ لم يؤمن أحد من أشrafهم ، حسبما يفصح عنه قولهم له : « مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُنْفِرُوا مِنْكَ » .

والمعنى : فقال سادتهم الكافرون ليعوامهم تنفيراً لهم من اتباعه : ما هذا الذي يدعى الرسالة عن الله إلا بشر مماثل لكم في البشرية والأوصاف المختلفة ، يريد بدعواه الرسالة أن يسودكم ويتقدم عليكم-، ولو شاء الله أن يرسل إلينا رسلاً لأرسله وأنزله من الملائكة ما سمعنا بهذا الذي يدعوننا إليه من عبادة إله واحد - ما سمعنا بهذا - في آبائنا الذين مضوا قبلنا حتى نصدقهم .

وهم هذا الذى قالوه ، يرفضون رسالة البشر ، ويرضون بربوبية الحجر ، فلا عجب أن يعضوا فى التنفير منه قائلين :

٢٥ - (إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ) :

أى : ما نوح إلا رجل به جنون ، أو يغشاه جن يلبسون الأمر عليه ، ويخيلون له فيقول ما يقول ، فانتظروا به واصبروا لعله يفتق مما أصابه فلا يعود لما يقوله ، وهم بهذا ينقضون ما وصفوه به أولاً من أنه رجل يريد الرياسة والفضل عليهم بدعواه الرسالة فيهم ، وهذا يقتضى اعترافهم ضمناً بأنه رجل عاقل وسياسى ماهر ، فاتهامهم له بالجنون بعد ذلك يعتبر تخطيطاً منهم فى المقال عنه ، وإيغالاً فى التنفير منه بدون وجه حق .

٢٦ - (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ) :

قال نوح لربه بعد أن يش من إيمانهم ، حينما أخبره بقوله : « إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » قال نوح بعد يأسه : رب انصرنى على قومى وأهلكهم بسبب تكذيبهم لى ، انتقاماً منهم على تماديهم فى الضلال ، وإصرارهم على الكفر بعد تلك الدهور الطوال .

(فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَوَحَيْنَا ۖ فَلَمَّا جَاءَ
أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ ۖ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ۖ أَثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ
إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ
فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ
أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾)

الغفرات :

(الْفُلْكَ) : السفينة . (بِأَعْيُنِنَا) : المراد من أعينه تعالى ؛ مزيد حفظه ورعايته فإنه منزّه عن مشابهة الحوادث . (وَفَارَ التَّنُّورُ) : التنور الكانون يخبز فيه ، ويطلق عليه الْفَرْنُ أيضًا ، والمراد من فورانه : نبع الماء منه ، ويطلق التنور أيضًا على كل مَفْجَرٍ ماءً ^(١) . (فَاسْلُكْ فِيهَا) : فادخل فيها . (مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) : أى من كل صنف فردين متزاوجين ليكونا بذلك التزاوج اثنين . (فَلَإِذَا اسْتَوَيْتَ) : صعدت . (مُنْزَلًا مُبَارَكًا) : مكانًا كثير الخير . (وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) ^(٢) : وإن كنا لمصيبين قوم نوح ببلاء عظيم .

التفسير

٢٧ - (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا . . .) الآية .

أى : أجبنا دعاء نوح على قومه ، فأوحينا إليه على لسان جبريل ، قائلين له : اصنع السفينة التى سوف نُنَجِّيك مع المؤمنين بركوبها ، اصنعها تحت رعايتنا وحفظنا وإرشادنا لك بالوحى عن طريقة صنعها حتى تسلم من الخطأ ومن عدوان قومك عليك وأنت تصنعها . (فَلَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ) :

فلإذا جاء موعد أمرنا بشأنهم ، وحن وقت عقابهم على كفرهم ، بعد تمام صنع السفينة ، وفار الماء من الفرن ، أمانة لك على مجيء أمرنا وعقابنا لقومك ، فادخل فى السفينة من كل نوع يتوالد زوجين اثنين ذكرًا وأنثى ، وأدخل فيها نساءك وأولادك فهم أهلك ، إلا من سبق عليه قولنا وقضاؤنا ألا بإهلاكه منهم ، وهم ابنك وزوجتك الكافران ، ولا تسألنى نجاة أحد من أولئك الكافرين ، ولا تشفع فى هؤلاء الظالمين ، فإنهم مُفْرَقُونَ بالطوفان جميعاً جزاء كفرهم وظلمهم .

ويصح أن يكون المراد من أهله : المؤمنون من أمته ، واستثناء من سبق عليه القول منهم يُعْبَرُ عنه فنيًا بالاستثناء المنقطع ، لأن من سبق عليه القول بالإهلاك ليس من المؤمنين .

(١) انظر المادة فى القاموس .

(٢) (إن) هنا مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، واللام بعدها للفرق بينها وبين النافية .

والأول هو الظاهر ، وأما حمله من آمن معه في السفينة من غير أهله فإنه وإن لم يذكر في هذه الآية ، فقد صُرح به في سورة هود في قوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا اخْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ »^(١) والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، فما ترك ذكره في آية يعرف أنه مراد فيها من آية أخرى ذكر فيها .

وتأخير الأمر بحمل أهله في السفينة عن الأمر بحمل الأزواج وإدخالهم السفينة ، لأن إدخال هذه الأزواج يحتاج إلى معاونة أهله قبل أن يصعدوا إلى السفينة ، ولأن موضوع إدخال الأهل يتصل به استثناء من استثنى منهم وغيره ، فتقديم الأمر بإدخالهم على إدخال الأزواج يخل بتجاوب النظم الكريم .

٢٨ - (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

فإذا ركبت السفينة وعلوتها أنت ومن معك من المؤمنين ونجوتهم بذلك من ظلم قومكم الظالمين ، ومن عقابهم بالطوفان على ظلمهم وكفرهم - إذا حدث ذلك - فقل : الحمد لله الذي نجانا بفضله من ظلم الظالمين وعاقبته .

وتوجيه الأمر إلى نوح بالحمد على النجاة من الظالمين ، دون إشراك من نجا معه من المؤمنين في ذلك ، لأنه إمامهم ، فأمره بحمد الله أمر لهم بمثله ، ولأنه هو الذي دعا ربه أن ينصره على قومه بسبب تكذيبهم إياه ، فاستجاب له ربه فأنجاه ومن معه من المؤمنين ، وأغرق مكذبيه بالطوفان ، فلهذا طلب منه ربه أن يحمده على إجابة دعائه في قومه المكذبين ، وتكريمه والمؤمنين بالنجاة من ظلمهم .

٢٩ - (وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) :

أي : قل يارب أنزلني من السفينة مكاناً ومنزلاً كثيراً للخيرات ولن معي من المؤمنين بعد انتهاء الطوفان ، وخراب الدنيا ، لكي نستطيع العيش فيه نحن وذرياتنا ، وأنت يارب خير من ينزل الضيفان ، ويكرم المحتاجين واللاجئين .

٣٠- (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) :

إن في ما فعله الله بنوح وقومه لعلامات واضحات على نجاة المتقين ، وسوء مصير الظالمين ، ولو بعد حين ، يهتدي بها أصحاب البصائر المستنيرة ويعتبر بها أولو العقول الوضيئة ، وإن الحال والشأن في قصتهم ، هو أننا كنا مبتلين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شنيع .

(ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ٣٢ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣٣
وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ
وَأُتِرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ
مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا شَرَبُونَ ٣٤ وَلَئِن أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ
إِنَّكُمْ إِذَا الْخُسُوفُونَ ٣٥ أَيْعِدُكُمْ أَنُكُم إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا
وَعِظْمًا أَنُكُم تُخْرَجُونَ ٣٥)

المفردات :

(قَرْنًا آخَرِينَ) : أى ذوى قرن آخرين ، وهم عاد ، وقيل : هم ثمود ، والأول أصح .
(الْمَلَأُ) : الأشراف . (وَأُتِرَفْنَاهُمْ) : أى نعمناهم ووسعنا عليهم .

التفسير

٣١- (ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) :

بعد أن حكى الله قصة قوم نوح وعاقبتهم لما كفروا بربهم وعصوا رسوله ، جاءت هذه الآية وما بعدها لحكاية قصة قوم آخرين جاءوا بعدهم ، ففعلوا فعلهم ، فأهلكوا جميعاً عقاباً لهم .

وهؤلاء القوم هم عاد قوم هود ، فإنهم هم الذين خلفوا قوم نوح وجاءوا بعدهم ، كما عرف من الترتيب القرآني لقصص الأمم وأنبيائهم ، فقد جاءت قصتهم بعد قوم نوح في سورة الأعراف وهود وغيرهما ، ولهذا قال لهم رسولهم هود : « وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ » واختار هذا الرأي ابن عباس ، وإليه ذهب أكثر المفسرين .

وقيل : هم ثمود قوم صالح ، لأنهم هم الذين جاء ذكرهم في القرآن بأنهم أهلكوا بالصيحة ، وهؤلاء الذين جاءوا هنا بعد نوح أهلكوا بالصيحة ، كما سيأتي ، بآخر قصتهم في قوله تعالى : « فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »^(١) .

وقد يكونون أمة أخرى غيرهما ، ولهذا لم يصرح باسمها ولا باسم رسولها .
والمعنى : ثم أنشأنا من بعد إهلاك قوم نوح بالطوفان لكفرهم - أنشأنا - قوما آخرين في زمان غير زمانهم .

٣٢ - (فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ^(٢) اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) :
فأرسلنا في أهل هذا القرن رسولاً من بينهم ، قائلين لهم على لسانه : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به أحداً في العبادة ، فإنه ليس لكم من إله سواه حتى تشركوه معه في العبادة ، أتعبدون معه غيره ، فلا تتقون عقابه ، ولا تخشون عذابه .

٣٣ - (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا^(٣) وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) :
وقال أشراف قومه الذين بالغوا في كفرهم وتكذيبهم بلقاء الآخرة ونعمناهم ووسعنا عليهم في الحياة الدنيا - قالوا لمن دونهم من قومهم منفرين من اتباعه - : ما هذا الذي يدعى الرسالة فيكم إلا بشر مماثل لكم ، فهو يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون فليست له ميزة فيكم ، حتى يدعى أنه رسول الله إليكم ، ثم بالغوا في التنفير من اتباعه فقالوا :
فقالوا :

(١) واختار هذا الرأي أبو سليمان الدمشقي والطبري .

(٢) (أن) هنا بمعنى أي ، لوقوعها بعد الإرسال الذي يتضمن معنى القول .

(٣) من قومه يمان الملأ ، والذين كفروا صفة للملأ ، نجى بها ذما لهم ، وتنبها على غلوهم في الكفر .

٣٤- (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِّثْلَكُمْ لَأَنَّكُمْ إِذَا لُخِيسِرُونَ)^(١) :

ونقسم لئن أطعتم بشراً مماثلاً لكم في بشريتكم ، واتبعتموه فيما يدعوكم إليه ، إنكم حينئذ لخاسرون باتباعه ، ثم استأنفوا مقررين ما زعموه فقالوا مستنكرين مستبعدين :

٣٥- (أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ^(٢) مُخْرَجُونَ) :

أيعدكم هذا الذى يدعى الرسالة وهو من البشر - أيعدكم - أنكم إذا هلكتم ، وتحولت أجسادكم إلى تراب وعظام نخرة ، أنكم مخرجون من قبوركم أحياء كما كنتم في دنياكم .

(* هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ^(٣) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
الْدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ^(٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ^(٥))

المفردات :

(هَيَّاتَ هَيَّاتَ) : هيهات ؛ اسم فعل ماضٍ بمعنى بَعْدَ ، واقع موقعه ، والتكرار للتأكيد ، ولاتقع غالباً إلا مكررة ، وفاعلها ضمير ، أى : بَعْدَ التصديق ، أو الوقوع .

(لِمَا تُوعَدُونَ) : اللام لبيان ما استبعدوه وهو البعث الذى وعدهم به رسولهم .

(إِنْ هِيَ) : أى ما هي ، ف (إِنْ) هنا للنفي .

(نَمُوتُ وَنَحْيَا) : أى يموت بعضنا ، ويولد بعض آخر .

(افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) : اختلق على الله كذباً بادعائه النبوة .

(١) جملة « إنكم إذا لخاسرون » جواب القسم ، استغنى به عن جواب الشرط ، يقول ابن مالك :

واحذف لى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

والمأخر هنا هو الشرط

(٢) تأكيد لأنكم الأول لطول الفصل بينه وبين خبره ، هو قوله « مخرجون » .

التفسير

٣٦- (هَيَّاهَاتَ هَيَّاهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ) :

هذه الآية وما بعدها تكملة لحكاية ماتحدث به كبراء الكافرين من القوم الآخرين^(١) مع عامتهم ، من إنكارهم البعث ؛ لصددهم عن تصديق رسولهم فيما وعدهم به ، مستبشرين أن تكون لهم حياة بعد أن يموتوا ، وتتحلل أجسادهم ، فيصبح المتقدم منهم موتاً تراباً اختلط بتراب الأرض ، وامتزج بثرائها ، وصار جزءاً من أجزائها ، لا يتميز عنها ، ويصبح المتأخر منهم في الموت عظماً نخرةً مجردة من اللحم والأعصاب ؛ كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ »^(٢) .
وقوله سبحانه : (لِمَا تُوعَدُونَ) بيان للمستبعد ، كأنه قيل : لأى شئ ؟ هذا الاستبعاد الذى يستبعدونه ؟ فقليل : إنه لما يوعدون من وقوع البعث .

والمقصود من الآية أن هؤلاء القوم يستبعدون البعث بعد الموت استبعاداً مؤكداً لا يترددون فيه ، ولهذا أتبعوه بما حكاها الله بقوله :

٣٧- (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) :

أى : لاهياة لنا إلا حياتنا الدنيا التى نحيها ، وليس بعدها حياة أخرى بالبعث بعد الموت ، كما يعدنا من يدعى أنه رسولنا - فنحن فى حياتنا هذه (نَمُوتُ وَنَحْيَا) فيموت بعضنا ، ويولد بعض آخر ، وينقرض قرن فيأتى قرن . . . إلى آخر الزمان ، فالحياة التى عَنُوهَا بعد الموت هى حياة جيل جديد بعد موت الذى قبله ، ولذا عقبوه بقولهم : (وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) : أى وما نحن بمبعوثين من قبورنا أحياء بعد الموت ، فكيف نصدقه فى دعواه ؟ ثم أوعلوا فى تكذيبه والتشنيع عليه ، فقالوا :

٣٨- (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) :

أى : ما هو إلا رجل اختلق على الله كذباً فيما جاءكم به عنه سبحانه ، من الرسالة والإنذار بالمعاد والبعث بعد الموت (وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) : أى لا يقع قوله منا موقع القبول والتصديق بما يدعيه ويعد به .

(قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ
نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا
لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ) : الصيحة ؛ العقوبة الهائلة ، أو الصوت المفزع الذى أهلكهم الله به .
(بِالْحَقِّ) : بالعدل . (فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً) : أى هلكى هامدين يشبهون غشاء السيل ،
وهو الرمم الذى يحمله من كل يابس بال مخالطاً لزبدته .
(فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : أى هلاكاً لهم ، وفعله : كقرب ، وفرح .

التفسير

٣٩- (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ) :

أى : قال رسول أهل هذا القرن الآخرين - عند يأسه من إيمانهم بعد أن أفرغ الجهد
في تبليغهم رسالة ربه ، وسلك معهم إلى ذلك كل مسلك ، قال متضرعاً إلى الله متوجهاً
إليه : ياربى انصرنى على قومى ، فأنزل سخطك بهم ، وانتقامك منهم بسبب تكذيبهم إياى ،
وإصرارهم عليه فى عتو وكبرياء ، فاستجاب الله دعاءه ؛ كما حكاه الله بقوله سبحانه :

٤٠- (قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ) :

أى : قال الله تعالى لرسولهم : بعد زمان قليل تالله ليصيرن نادمين حين ننزل بهم
العذاب الذى يأخذهم ويستأصلهم عن آخرهم .

٤١- (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

أى : صاح بهم جبريل - عليه السلام - صيحة مقترنة بالعدل الإلهى ، تنفيذاً لوعده
الصادق الذى وعده الله رسولهم - عليه السلام - مطوياً فى قوله سبحانه : (لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ) .

وقد عرفت مما تقدم أن أصحاب القرن الآخرين إما عاد قوم هود ، فهؤلاء أهلكوا بصيحة الريح العقيم ، وإما ثمود قوم صالح فهؤلاء أهلكوا بصيحة جبريل أو الصاعقة وإما قوم آخرون لهؤلاء أهلكوا بصيحة أخرى يعلمها الله تعالى .

(فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً) : أى هلكى هامدين لانفع فيهم ولا غناء ، يشبهون غشاء السيل ، وهو ما يحمله مما بلى واسود من ورق الشجر وغيره مخالطاً زبده . (فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : لفظ : (بُعْدًا) قد يراد به الدعاء ، أى : فهلاكاً لهم ، بمعنى : أهلكهم يا الله إهلاكاً ، وقد يراد به : الإخبار ، بمعنى : فبعُدوا بُعْدًا من رحمة الله القريبة من المحسنين - بعُدوا بهلاكهم - من كل خير ، أو من النجاة . واللام فى قوله : (لِلظَّالِمِينَ) لبيان من قيل له : بُعْدًا ، والتعبير بقوله : (فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) بدلاً من أن يقال : فبعُدًا لهم إيدان بأن إبعادهم علته وسببه ظلمهم لأنفسهم ؛ بتكذيب رسولهم وعدم الاستجابة لدعوته .

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ۖ مَا نَسِيقَ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ ۚ) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَتَرَاءُ كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

الفردات :

(قُرُونًا آخَرِينَ) : أى أُمماً خلفت الأُمم السابقة . (رُسُلَنَا تَتَرَاءُ) : أى متواترين وترا بعد وتر ، والوترُ : الفرد . (وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) : أى أخباراً يتحدث بها الناس تلهياً وتعجباً ، وهو جمع أحداث .

التفسير

٤٢- (ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ) :

أى : أوجدنا بعد هلاك أمة القرن السابق أمماً وخلائق أخرى ، ويراد بها عند أكثر المفسرين : أقوام صالح ولوط وشعيب وغيرهم .

٤٣- (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) :

أى : ماتسبِقُ أمة من الأمم الكافرة التي أهلكها الله - ماتسبِقُ - الوقت المقدر لها لهلاكها أزلاً ، وما تتأخر عنه ، فهلاكها مرهون بوقته لا يسبقه ولا يتأخر عنه ، وذلك مثل قوله تعالى : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)^(١) . وضمير الجمع فى قوله سبحانه : (يَسْتَأْخِرُونَ) عائد على (أمة) باعتبار المعنى ، إذ المراد بها : الأفراد المجتمعون .

٤٤- (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ . . .) الآية .

أى : ثم أرسلنا رسلنا متتابعين ، يتبع بعضهم بعضاً إلى الأمم التي جاءت بعد هلاك من سبقوهم ، فقد أرسلنا إلى كل أمة رسولاً منهم خاصاً بهم .

(كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ) : استئناف مبين لما قابلت به كل أمة منهم رسولها من تكذيبهم إياه حين لقائه ، مع أنه واحد منهم ، عرفوه بالصدق ، وصدقه الله بالمعجزة التي أظهرها الله على يديه .

(فَاتَّبَعَنَا بِعَفْصِهِمْ بَعْضًا) : أى جعلنا الأمم في الهلاك يتبع بعضهم بعضاً ، بمباشرتهم الأسباب الداعية إليه من الكفر والتكذيب ، واقتراف المعاصي .

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) : بعد أن أهلكوا حيث لم يبق بعدهم إلا أخبار وأحاديث ، يتحدث بها الناس ، تلهياً بها ، وتعجباً مما نزل بهم من تدمير وإبادة ، وهذه الجملة إنما تقال فى الشر ، ولاتقال فى الخير ، كما يقال : صار فلان خديثاً ، أى : عبرة ، كما قال تعالى : « فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلٌّ مُمَزَّقٍ »^(٢) .

(فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) أى : فهلاكاً لهم لإعراضهم عن الإيمان برسولهم ، وظلمهم أنفسهم بكفرهم .

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٤٥)
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ٤٦ فَقَالُوا
أَنْتُمْ مِنْ لِبَشَرِينَ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا
فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ٤٨ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ٤٩)

المفردات :

(وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : وبرهان واضح له سلطان على القلوب . (قَوْمًا عَالِينَ) : متجبرين متكبرين ، يقال : عَلَا ، يعلو ، غُلُوًّا : تَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ . (أَنْتُمْ مِنْ لِبَشَرِينَ) : يطلق على الواحد مثل : « بَشَرًا سَوِيًّا » وعلى الجمع مثل : « فَأَمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا » .
(لَنَا عَابِدُونَ) : منقادون خاضعون ، وكل من دان للملك فهو عند العرب عابد له أى : خاضع ذليل . (فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ) أى : المغرقين ، من أهلكته فهو مهلك .
(الْكِتَابَ) : التوراة .

التفسير

٤٥ - (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :
يخبر الله تعالى أنه بعث رسوله موسى وأخاه هرون - عليهما السلام - بآياته وهى تسع :
اليد ، والعصا ، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ،
والدم ، نقل ذلك ابن كثير ، وقال : وهذا القول ظاهر جلي ، حسن قوى . اهـ

وقيل : هي العصا ، واليد ، والسنون ، والطمس^(١) ، والطوفان ، والجراد ، والقملُ والضفادع ، والدم ، أما فلق البحر الذي عدّه بعضهم منها ، فلا مساغ لعدّه ؛ لأنّه عليه السلام لم يبعث به إلى فرعون وقومه ، وإنما كان بعثه بالآيات التي كذبوها ، واستكبروا عنها ، وهم لم يستطيعوا تكذيبه ؛ حيث أهلكوا فيه .

وعن الحسن : المراد من الآيات التكاليف الدينية التي أمروا بها ، ومن السلطان : كل معجز أتيا به . اهـ ويمكن أن يراد بالسلطان : تسلط موسى في المحاورة ، ووضوح الدلالة على الصانع - جل وعلا - والقوة والإقدام .

٤٦ - (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) :

أى : أرسلناهما إلى فرعون وأشراف قومه لغايتين : إحداهما : دعوتهم إلى الإيمان ، والثانية : إطلاق سراح بنى إسرائيل من الأسر ، فلم يكن إطلاقهم من الأسر هو المقصود وحده من إرسالهما بدليل ما صُرح به في سورة النازعات ، في قوله سبحانه : « أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ . وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ » .

وخَصَّ الملائكة - أى الأشراف - بالذكر ؛ لأن إطلاق سراح بنى إسرائيل ، وكف الأذى عنهم ، مما أُرسل لأجله ، وذلك منوط بآراء الأشراف من قوم فرعون ، وبموافقتهم ، فضلا عن أنهم قادة لغيرهم يقتدون بهم في الامتثال والاستجابة لما دعوا إليه .

ويجوز أن يراد بالملائكة : قومه جميعا ؛ فقد ورد استعماله لغة بمعنى : الجماعة مطلقا . (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) أى : فتمردوا مستكبرين ، وأعرضوا عما دعوا إليه ، وكان فرعون وشيعته قوما متكبرين قاهرين لغيرهم بالظلم والطغيان ، والمراد : أن تلك عاداتهم ، وما فُطروا عليه .

٤٧ - (فَقَالُوا أَنْزِلْ لَنَا آيَاتٍ) :

الهمزة للإنكار ، أى : أن فرعون وقومه أنكروا على موسى وهرون دعوتهما إلى الإيمان لكونهما بشرين ، شأنهم في ذلك شأن الأمم السابقة التي أنكرت بعثة الرسل من البشر ،

(١) وهو إذهاب الشيء عن صورته ، وقد صير الله أموالهم ودراهمهم حجارة .

وقد دعاهم إلى هذا الإنكار ، قياس حال الأنبياء - عليهم السلام - على أحوالهم ، بناءً على جهلهم بتفاضل شئون الحقيقة البشرية ، وتباين طبقات أفرادها بحيث يكون بعضهم في أعلى عليين ، وبعضهم في أسفل سافلين ، ومن العجيب أنهم لم يرضوا بالنبوة للبشر ، وقد رضى أكثرهم بالالوهية للحجر ، فقاتلهم الله ، ما أجهلهم !

(وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَدِيُونَ)^(١) أى : خاضعون منقادون ، يعملون في خدمتنا ، ويطيعون أوامرنا كالعبيد ، أرادوا بذلك الحط من قدرهما ، والاستهانة بهما ، وقصور رتبتهما عن الأهلية للرسالة من وجه آخر غير البشرية ، بناءً على زعمهم الفاسد في قياس الرياسة الدينية على الرياسات الدنيوية المؤسسة على حظوظ الحياة الفانية من المال والجاه ، وجهلهم بأن مناط الاصطفاء للرسالة هو السبق في حيازة النعوت العلية ، والملكات السنية ، جيلة ، لا اكتساباً .

٤٨ - (فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ) :

أى : فاستمروا على تكذيبهما ، وأصروا عليه ، فأهلكهم الله بإغراقهم جميعاً في بحر القلزم (البحر الأحمر) أهلكهم جزاء تكذيبهم .

٤٩ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) .

يخبر سبحانه إخباراً مؤكداً بأنه آتى موسى - عليه السلام - التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيها ، وقد كان ذلك بعد إهلاك فرعون وقومه ، وإنجاء بنى إسرائيل .

والمعنى : ولقد آتينا موسى التوراة ؛ لعل من أرسل إليهم من قوم فرعون وبنى إسرائيل - لعلهم - يهتدون بها إلى الحق المبين ، وخص موسى بالذكر هنا دون هرون ؛ لأن التوراة أنزلت على موسى في الطور ، أما هرون فهو وزيره ومُعينه في دعوته ، أو روى الاختصار على موسى لأنه الأصل في الأنبياء ، وذلك لا يمنع من إرادة هرون معه ، فقد ذكر في قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ »^(٢) .

(١) هذه الجملة حال من فاعل تؤمن في قولهم (أنؤمن) مؤكدة لإنكارهم الإيمان بهما .

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية رقم : ٤٨

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ۖ وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ
قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(آيَةً) : دلالة بيّنة على كمال قدرته تعالى . (وَأَوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ) أى : أنزلناهما إلى مكان مرتفع منبسط ، يقال : آوَيْته إلى منزلى : أنزلته فيه ، وأوَيْت إلى منزلى : نزلت فيه ، والرَبْوَة - بضم الراء ، والفتح - : لغة بنى تميم ، والجمع : رُبَى .

(ذَاتِ قَرَارٍ) أى : يستقر فيها المقيم . (وَمَعِينٍ) أى : ماء جارٍ ظاهر للعيون ، من غَائِهِ ، إذا أدركه بعينه ، وأصله : مَعْيُون ، فدخله الإعلال ، أو من مَعَنَ الماءُ : إذا جرى . فوزنه . فَعِيلٌ .

التفسير

٥٠- (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ۖ وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ) الآية .

أى : جعلنا عيسى بن مريم وأمه دلالة قاطعة على كمال قدرتنا البالغة ، حيث حملت به من غير أن يمسه بشر .

والتعبير عن عيسى - عليه السلام - بأنه ابن مريم ، وعنهما بأنها أمه ؛ للإيذان من أول الأمر بحيثية كونهما آية ، فإن نسبته - عليه السلام - إليها ، مع أن النسب إلى الآباء ، تؤذن بأنه لا أب له ، وذلك هو آية القدرة العظيمة في إيجاد عيسى - عليه السلام - وتقديمه عليها في الذكر ؛ لأصالته فيها ذكر من كونهما آية .

(وَأَوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ) أى : وأنزلناهما في ربوة ، وهى المكان المرتفع المنبسط ، قيل : هى إيلياء من أرض بيت المقدس ، وقيل : هى الرملة من فلسطين ، وقيل : دمشق ، وقيل : مصر .

(ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) : أى يستقر المقيم فيها لطيب هوائها ، ونقاء تربتها ، وقيل : لأنها ذات زروع وثمار ، تُيسر الاستقرار لساكنها ، وترغبهم فيه .

ولما كان الماء أصل الحياة وسبيل بقائها ، شاء الله أن يكرمهما بالإيواء إلى ربوة ذات ماء ظاهر جار تراه العيون وتبينه واضحاً ، حتى يكون جامعاً لفنون المنافع : من الشرب منه ، وسقى ما يسقى من الحيوان والنبات من غير مشقة ، مع ما فى ذلك من الاستمتاع بمنظره المونق ، والاستقرار فى الربوة التى هو فيها .

(يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) (٥١)

الفردات :

(كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ) : وهى ما لذ وطاب من الطعام ، وما حلّ منه ، يقال : طاب الشيء ، يطيب طيباً وطيبة ، فهو طيب .

التفسير

٥١ - (يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ...) الآية .

المراد بندايمهم وخطابهم جميعاً : الإعلام بأن كل رسول نودى بذلك فى زمنه ، ووُصِّىَ به ، ليعلم السامعون أن أمراً أُعْلِمَ به جميع الرسل ، وطلب منهم ، وهو الأكل من الطيبات ليعلموا أن أمراً كذلك - حقيق أن يتلقوه بالقبول والامتثال .

والمراد بالطيبات ، إما ما تستلذه النفس وتطيب به من مباحات المأكّل ، حسبما ينبئ عنه سياق النظم الكريم ، وحينئذ يكون الأمر للإباحة ، وفيه ما لا يخفى من الدلالة على بطلان ما عليه الرهبانة من رفض الطيبات ، وإما أن يراد بها ما حلّ منها ، فيكون الأمر للوجوب .

وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى سوى بين النبيين وأتباعهم في تناول الطيبات بمعنيها ، ثم عقب ذلك بقوله : (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) مبالغة في وجوب امتثال ما أمروا به من أكل الحلال الذي دُعي إليه الرسل والأنبياء ، وحذروا من تركه ، وكذلك جميع أممهم تبعاً لهم . (وَأَعْمَلُوا صَالِحًا) : موافقا لما شرع لكم . وقيل : حكاية لما ذكر لعيسى وأمه عند إيوائتهما إلى الربوة ليقنن لهما بالرسول في تناول ما رزقا من كل طيب ، فكأنه قيل : وآويناهما ، وقلنا لهما : هذا - أي : أعلمناهما أن الرسول كلهم خوطبوا بهذا ، فكلا مما رزقناكما ، واعملا صالحا اقتداء بالرسول ، وعلى هذا فالمراد من الجمع في قوله : « وَأَعْمَلُوا صَالِحًا » ما فوق الواحد .

(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) : لا تخفى على خافية مما تعملون من الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة فأجازيكم عليه .

(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾
فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۚ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾
فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَاتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(أُمَّةً وَاحِدَةً) : الأمة هنا هي : الدين . (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا) : أي فقطعوا أمر دينهم بينهم قطعاً ، فاتخذوا أدياناً مختلفة ، زُبُرٌ : جمع زبور ، مثل رُسُل : جمع رسول ، وجمع زُبُرَة أيضاً - بضم فسكون - والأول بمعنى كتاب ، من زبر بمعنى كتب ، أما الزُبُرَة فبمعنى القطعة .

(كُلُّ حِزْبٍ) : الحِزْبُ : جند الرجل وأصحابه الذين على رأيه ، والطائفة وجماعة

الناس .

(فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ) : الغمرة الانهماك في الباطل ، والجمع : غَمَرَات ، مثل : سجدة وسجدة .

(حَتَّى حِين) : إلى الوقت المعين لعذابهم .

التفسير

٥٢ - (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) :

الإشارة في قوله : (وَإِنَّ هَذِهِ) إلى ماتقدم في السورة من العقائد والأحكام ، ومنها الأكل من الطيبات وعمل الصالحات ، والأمة بمعنى الجماعة ، أى : وإن هذه العقائد وأصول الأحكام ملئكم أيها الرسل ملة واحدة ، لا تتغير ولا تتبدل ، بتبدل الأزمنة والأعصار ، أما الفروع فإنها تختلف ؛ لقوله تعالى : « لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » (١) .

(وَأَنَا رَبُّكُمْ) : بدون شريك لى في الربوبية . (فَاتَّقُونِ) أى : فخافوا عذابى على مخالفة أمرى ، وإخلالكم بواجب طاعتي ، مع علمكم باختصاص الربوبية بى للرسول وللأمم جميعاً . والفاء في قوله تعالى : (فَاتَّقُونِ) لترتيب وجوب تقوى الله على ما قبله من الاتحاد في الدين ، واختصاص الربوبية به تعالى ؛ فإن كلا الأمرين موجب لاتقائه حتماً .

٥٣ - (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) :

حكاية لما وقع من أمم الرسل ، أى : أنهم قطعوا أمر دينهم فجعلوه زُبُرًا ، أى : قطعاً متعددة ، وفرقوه فرقاً مختلفة ، كل جماعة تنتحل نحلة مخالفة للحق ، بعد ما أمروا بالاجتماع والاتحاد على ملة واحدة تجمع العقائد وأصول الأحكام .

وزُبُرًا - على هذا - جمع زُبُرَة ، وهى : القطعة ، ويؤيد هذا قراءة (زُبُرًا) بفتح الباء جمع زُبُرَة ، ككفره ، وهى القطعة ، فتلخص من هذا أن زُبُرَة تجمع على زبر بضم الباء وفتحها .

ويجوز أن يكون المعنى : أن أتباع الأنبياء فرقوا دينهم بعد أنبيائهم ، فأمنوا ببعض ما أنزل عليهم ، وكفروا بما سواه ، اتباعاً لأهوائهم ، أو أنهم وضعوا كتباً وألفوها ونسبوا تلك الضلالات إلى الله - كما قاله ابن زيد - وعلى هذا يكون زُبُرًا جمع زبور بمعنى كتاب .

وقيل : إنهم فرقوا بين الكتب المنزلة ، فأخذ كل منهم كتاباً آمن به ، وكفر بما سواه .
 (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) : والمعنى كل فريق من هؤلاء المتحيزين الذين قطعوا دينهم فرحون بما عندهم من الدين الذي اختاروه وركنوا إليه ؛ لا اعتقادهم أنهم على الحق .
 وبعد أن عرض القرآن الكريم على أسماع قريش أن جميع الديانات السماوية مجمعة على عقيدة واحدة هي التوحيد ، وأن الله تعالى هو رب الجميع وأن أصول الشرائع واحدة - بعد هذا - أمر سبحانه رسوله أن يتجاوز إلى أمدٍ عن غفلتهم وإهمالهم لهذه الحقائق ، فقال تعالى :

٥٤ - (فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ) :

والمعنى : فاترك - أيها النبي - هؤلاء على حالهم من الغفلة والضلال الذي لاضلال بعده ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ؛ فقد بلغت الرسالة التي أمرت بتبليغها حق الأداء « وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ » ^(١) .

والفاء في قوله سبحانه : (فَذَرَهُمْ) لترتيب الأمر بالترك على ما قبله من كونهم فرحين بما لديهم من الدين الذي اختاروه ، أي : اتركهم (حَتَّىٰ حِينٍ) وهو حين قتلهم في يوم بدر ، على ما روى عن مقاتل ، أو حين موتهم على الكفر ، وعذابهم في الآخرة ، فالآية وعيد بعقابهم في الدارين ، وتسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وإرشاد له بترك الاستعجال بعذابهم ، والجزع من تأخيرهم ، وذلك نظير قوله تعالى : « فَذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » ^(٢) .

ويجوز أن تكون بشارة النبي - صلى الله عليه وسلم - بما تم له من فتح مكة ، وهم في غفلتهم عن أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

(١) سورة النكبات ، من الآية : ١٨

(٢) سورة الحجر ، الآية : ٣

(اَيْحَسِبُونَ اَنْهُمْ نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ
فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(اَيْحَسِبُونَ) : أَيْظَنُونَ ، وفعله من باب فَرَحَ عند جميع العرب إلا بنى كنانة
فإنهم يكسرون عين المضارع مع الماضي أيضاً على غير قياس ، والمصدر : حِسْبَانًا ،
بكسر الحاء .

(نُمِدُّهُمْ) : نزيدهم ونعطيهم ، وفعله : أَمَدَّ ، ويكون في الخير غالباً .
(بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) : أى بل لا يعلمون ، والفعل من بابِي (قَعَدَ ، وَكَرَّمَ) .

التفسير

٥٥ - (اَيْحَسِبُونَ اَنْهُمْ نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ) :
أى : أَيْظَن هَؤُلَاءِ العصاة المغرورون أننا إذا تركناهم يتمتعون وينعمون بما أعطيناهم إياه ،
وأمددناهم به من مال وبنيين ، أَيْظَنُونَ أننا بهذا الإمداد :
٥٦ - (نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) :

أى : ليس الأمر كما زعموا أنه مسارعة لهم في الخيرات ، ومعالجة في الثواب لإكرامهم
وخيرهم ، وإنما هو إملاء واستدراج إلى المعاصي لزيادة دنوبهم بسبب إصرارهم عليها ، كما
يقول سبحانه : « إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » ^(١) .

والهمزة في (اَيْحَسِبُونَ) لانكار ما ظنوه وحسبوه ، واستقبحا له ، وقوله تعالى :
(بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) تجهيل لهم وتخطئة ، أى : بل هم لا يعلمون شيئاً أصلاً ، ولا فطنة بهم
حتى يتأملوا ويعرفوا أن ما حسبوه خيراً لهم ، إنما هو شر يؤدي بهم حتماً إلى أسوأ العواقب .

(إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) : أى من هيبتة وحذر عقابه خائفون .
(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا) : أى يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات .
(وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ) : خائفة ، وفعله من باب : (فَرَحَ) .

التفسير

٥٧ - (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) :

استئناف مسوق لبيان من هم المؤمنون المسارعون في الخيرات وما وعدوا به من جزيل الثواب ، أتى بذلك عقب ذكر الكفار وتوعدهم بما يُقنطهم من رحمته ، ويبطل حسابهم الكاذب ، وأملهم الخادع ، ذكرهم سبحانه بأخص صفاتهم وأكملها ، فبين أنهم من أجل خوفهم من ربهم خائفون من التقصير فيما كلفهم به ، مع صدق إيمانهم وصالح عملهم ، كما قال الحسن البصرى : (إن المؤمن جمع إحساناً وإشفاقاً ، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً) .

٥٨ - (وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) :

أى : من أجل أوصافهم الإيمان بآيات ربهم المنزلة على رسله ، فهم يؤمنون بها جميعاً ، لا يفرقون بينها ، وليسوا كأهل الكتاب الذين تقطعوا أمرهم بينهم ، فآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه ، وكذلك يؤمنون بآياته الكونية التى نصبها سبحانه للدلالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه .

٥٩- (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ) :

أى : لا يشركون بربهم غيره ، شركاً جلياً ، ولا شركاً خفياً ، بل يعبدونه وحده موقنين بأنه لا إله إلا هو ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

والتعبير بكلمة (بِرَبِّهِمْ) هنا وفيما سبق للدلالة على أن اعترافهم بربوبية الله لهم جعلهم يشفقون ويؤمنون به تعالى ، ويفردونه بالعبادة ، فلا يشركون معه أحداً ، مع ما فيها من إشارة إلى ما لربوبيته تعالى لعباده من دخل كبير في وجوب توحيده وعبادته .

٦٠- (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) :

أى : يعطون العطاء : زكاة أو صدقة ، وهم خائفون ألا يقبل منهم ، أو لا يقع على الوجه اللائق ، لتقصير في الوفاء بحق الإعطاء قد يكون بدر منهم .

وقرى بالقصر ، بمعنى أنهم يفعلون ما فعلوا من العبادات ، وقلوبهم خائفة من الله جل شأنه ألا تكون على وجهها الكامل لشائبة من التهاون قد يبعدها عن أن تقبل منهم .

وروى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يشير إلى هذا المعنى ، فقد أخرج أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه ، وابن المنذر وابن جرير وجماعة : عن عائشة - رضى الله تعالى عنها - قالت : قلت : يارسول الله ، قول الله : (وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر ، وهو مع ذلك يخاف الله تعالى ؟ قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلى ، وهو مع ذلك يخاف الله تعالى ألا يتقبل منه » .

والتعبير بالمضارع في (يُؤْتُونَ) للدلالة على الاستمرار في العطاء ، وبالماضى في : (مَا آتَوْا) للدلالة على تحققه . (أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) أى : وجلت قلوبهم خوفاً من أن تُردَّ عليهم أعمالهم لعدم الإحسان فيها لأنهم إلى ربهم عائدون ومبعوثون يوم القيامة ، فتكشف لهم الحقائق ، وتظهر حاجة العبد إلى عمل تام مقبول ينجيه يوم لا ينفع المرء إلا ما قدمت يده : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » ^(١) .

٦١- (أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) :

أى : أولئك الموصوفون بما سبق تفصيله من الأوصاف الجليلة يبادرون بنيل الخيرات الدنيوية والأخروية ، الموعودة على الأعمال الصالحة ، كما فى قوله تعالى : « فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ » ^(١) . وهم لأجلها سابقون إلى الطاعات .

عن ابن عباس قال : (وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) سبقت لهم من الله السعادة ؛ فسارعوا فى الخيرات ا هـ .

وقيل : يسارعون فى الخيرات ولم يقل : يُسَارِعُ لَهُمْ فى الخيرات ، إشارة إلى أن ثقتهم بوعد الله بنيلهم الخيرات بمحاسن أعمالهم ، جعلتهم يسارعون إليها ، وإيثار كلمة (فى) فى قوله تعالى : (يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) على كلمة (إلى) للإيذان بأنهم ملازمون لها ، متقبلون فى فنونها ، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها على سبيل المسارعة .

ويجوز أن يكون المعنى : يسارعون إلى الطاعات ويبادرون إليها ، وهم لأجلها فاعلون السبق إليها ، أو لأجلها سابقون الناس إلى الثواب ، أو إلى الجنات ، أو أنهم يسبقون إلى أول أوقاتها طلباً لفضل أدائها .

ويجوز أن يكون المعنى : وهم أهل للسبق إليها بما منحهم الله من التوفيق ، كقولك لمن تطلب منه حاجة لاترجى من غيره : أنت لها ، وهو من أبلغ الكلام وأدقه .

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ^{٦٢} وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ^{٦٣} بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَابِدُونَ ^{٦٤} حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ^{٦٥} لَا تَجْعَرُوا آلَیَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ ^{٦٥})

المفردات :

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) :الوسع - مثلثة الواو - : الطاقة والقدرة ، أى : لا يحمّلها الله ما يشق عليها . (وَلَدَيْنَا كِتَابٌ) : المراد به صحائف أعمالهم ، أو اللوح المحفوظ . (إِذَا آ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ) : المترف ؛ هو الجبار الذى أطقته النعمة ، وفعله : أترف . (إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ) : يضجون ويرفعون أصواتهم دعاءً واستغاثة ، يقال : جَارَ ، يَجَارُ ، جَارًا ، وجَّارًا ، أى : صاح أو تضرع .

التفسير

٦٢ - (وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :

استئناف قصد به التحريض على ما وصف به السابقون الصالحون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ، ببيان سهولته وأنه غير خارج عن حد الوسع والطاقة ، بمعنى أن الله سبحانه اقتضت حكمته ألا يكلف نفساً من النفوس بأمر من الأمور الشاقة التى تُعبيه وتُجهده ، وإنما يكون التكليف بما يتسنى - أداؤه لكل مكلف فى سهولة ويسر وفق طاقته ، فإن لم يبلغ المكلفون بعملهم مراتب السابقين فلا حرج عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ، ويستفروغوا وسعهم . (وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ) : تنمة لما قبله ببيان أنهم محاسبون على كل ما يصدر منهم ثواباً أو عقاباً ؛ حيث إن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة وقعت

منهم إِلَّا أَحْصَاهَا ، والمراد بالكتاب : صحائف أعمالهم التي ترفعها الملائكة ، وَيُكَلِّفُ أصحابها بقراءتها عند الحساب والجزاء . وقيل : المراد بالكتاب صحائف يقرأونها ، فيها ما ثبت في اللوح المحفوظ ، وهو يُظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ذاتا ووصفا وجزاء ويبينه للناظر واضحا كما يبينه النطق به . (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) : ذكرت هذه الجملة لبيان أن عدله سبحانه يكون على أتم وجه وأكمله في الجزاء ، وذلك إثر بيان رحمته ، ولطفه في التكليف ، وأن كتب أعمالهم تعرض عليه سبحانه وفق واقعهم .

والمعنى : أنهم يوم القيامة لا يقرأون في كتبهم إِلَّا ما هو صدق وعدل ، فلا زيادة فيها ولا نقصان ، ولا يُظلم منهم أحد بزيادة عقاب ، أو نقص ثواب .

٦٣ - (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) :

في هذه الآية انتقال من بيان حال المؤمنين إلى بيان حال الكفار .

والمعنى : بل قلوبهم في غفلة غامرة أعمتهم عن الذي بُين في القرآن من أن لديه تعالى كتابا ينطق بأعمالهم السيئة على رؤوس الأشهاد ، فيجزون بها ، ويعاقبون عليها ، أو أعمتهم عما عليه المؤمنون الموصوفون بما سبق من الصفات الكريمة :

وقيل : الإشارة إلى القرآن وإلى ما بُين فيه مطلقا ، روى ذلك عن مجاهد .

(وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ) : أي ولهم أعمال سيئة كثيرة سوى غفلة قلوبهم عن

أن عند الله كتابا ينطق بالحق .

(هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) : وعليها مقيمون ، وبها مستمسكون ، لا ينفكون عنها بغيا وطغيانا .

٦٤ - (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ) :

أي : لا يزالون يعملون أعمالهم الفاسدة إلى حين أخذ مترفيهم بالعذاب ، فيضجون ويرفعون أصواتهم فزعين ، قال ابن عباس وغيره ، : كان ذلك في يوم بدر ؛ فقد قتل منهم في ذلك اليوم عدد كثير من صناديد قريش ورؤسائهم الذين أفاء الله عليهم بكثرة المال والبنين .

وقال الضحاك : يراد بالعذاب : الجوع الذي نزل بهم حين دعا عليهم النبي - صلى

الله عليه وسلم - فقال : « اللهم اشدد وطأتك على مُضَر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف » فابتلاهم الله بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والجيف ، وهلك الأموال والأولاد .

والحق أنه العذاب الأخرى ؛ إذ هو الذى يفاجئون عنده بالجوار ، فيجابون بالرد والإقناط من النصر والنجدة ، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جوار حسبا ينبىء عنه قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ » ^(١) فإن المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر .

وأما عذاب الجوع ، فإن أبا سفيان وإن تضرع فيه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لكن لم يرد عليه بالإقناط ، حيث روى : « أنه - عليه الصلاة والسلام - قد دعا بكشفه ، فكشف عنهم ذلك » ٥١ .

(إِذَا هُمْ يَجْشَرُونَ) : أى يصرخون ويضجون مستغيثين بربهم من مفاجأة العذاب لهم ، وتخصيص مترفيهم بالأخذ بالعذاب مع عموم عذاب الآخرة لهم ولغيرهم ، للإشارة إلى أن ما كانوا فيه من المنعة بحماية الأتباع والحشم لهم فى الدنيا ، لم ينفعهم يوم القيامة حيث لقوا ما لقوا من الأهوال والشدائد ، فلأن يلقاها سواهم من تابعيهم وحشمهم أحق وأولى .

٦٥ - (لَا تَجْشَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِّنَّا لَا تَنْصَرُونَ) :

أى : يقال لهم ذلك لتبكيتههم وإقناطهم من أن يستجاب لصراخهم وضجيجهم من جهته تعالى ، وتخصيص اليوم بالذكر لتحويله ، والإيذان بتفويتهم وقت الجوار .

(إِنَّكُمْ مِّنَّا لَا تَنْصَرُونَ) : تعليل للنهى عن الجوار ببيان أنه لا ينفع ولا يفيد ، فلا نصر لهم ولا معونة منه تعالى تنجيهم مما حلَّ بهم من هول وعذاب . وقال الحسن : لا تنصرون بقبول التوبة .

(قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ
تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ) : يقال نكص على عقبه نكوصًا ، من باب (قَعَدَ) أى :
رجع ، والعقبُ : مؤخر القدم ، وهى مؤنثة ، وقال ابن فارس : النكوص عن الشئ :
الإعراض عنه .

(سَامِرًا) أى : سَمَارًا ؛ لأن (سَامِرًا) اسم جمع كالحاج ، أو مصدر فيقع على القليل
والكثير بلفظ واحد ، والمراد منه هنا : الجماعة من الكفار يسمرّون بالليل حول الكعبة ؛
لسبب النبي - صلى الله عليه وسلم - وذم القرآن ، وأصل السمر : سواد الليل ، ثم أُطلق على
الحديث فيه ، كما قال الراغب .

(تَهْجُرُونَ) أى : تنطقون بالهجر وهو الفحش ، أو تهذون بما لا يفيد كما يهذى المريض
يقال : هجر يهجر هَجْرًا وَهَجْرًا - بفتح الهاء وضمها مع سكون الجيم - فهو هاجر .

التفسير

٦٦ - (قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ) :

أى : قد كانت آيات القرآن تقرأ عليكم فى الدنيا ، فلم تقبلوا على سماعها للانتفاع
بهذا الذى يدعوكم إلى طريق الخير والنجاة ، بل أعرضتم عما دعيتم إليه ، شأنكم شأن
من يترك الطريق الواضح أمامه ، ويرجع القهقري ناكصًا ناحية عقبه ، والنكوص أقبح
المشى ؛ لأن الناكص لا يرى ما وراءه .

٦٧ - (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ) :

الضمير في قوله : (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ) يعود على البيت الحرام الذي كانوا يسمرُون حوله^(١) ، أى : مستكبرين على المسلمين في البيت الحرام ؛ حيث منعتموهم من أداء شعائريهم حوله ، وكنتم مع ذلك تجتمعون للسمر والتآمر ضدهم ، والطعن في القرآن الكريم ، ودم النبي - صلى الله عليه وسلم - مع أن الله جعل البيت حرماً آمناً لجميع خلقه ، يُذكر فيه اسمه ، ويُعظم كتابه ، ويُوقر رسوله ، ولا يؤذى فيه المؤمنون من عباده . وقيل : الضمير عائد على (آيَاتِي) في قوله تعالى : « قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُثَلِّىٰ عَلَيْكُمْ » لأنها في معنى كتابي الذي هو القرآن الكريم ، واستكبارهم به : تكذيبهم بآياته ، بتضمين (مُسْتَكْبِرِينَ) معنى مكذبين ، فعُدِّي تَعْدِيَّتُهُ .

وحاصل المعنى : أنهم كانوا يجتمعون بالليل حول البيت ، ويتحدثون في غالب سمرهم عن القرآن بتسميته سحراً أو شعراً أو أساطير الأولين ، مع اتصافهم بأنهم مع هذا يهجرون ، أى : ينطقون بالفحش من كل قول ، أو يهزون بالسفه البذي ، والجهل المقوت في سب القرآن أو النبي أو الحق مطلقاً .

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ
الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾
أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَآكَرَهُمُ لِلْحَقِّ
كِرْهُونَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) أى : القرآن . (فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) أى : غير عارفين للنبي حقه بعدم تدبرهم القول الذي جاء به ، من أنكرته إنكاراً ، ضد : عرفته .
(بِهِ جِنَّةٌ) الجنّة : الجنون ، كما تطلق على الجن ، وسيأتى بيان ذلك .

(١) والباء بمعنى : (في) .

التفسير

٦٨ - (أَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ) :

أى : أفعلوا ما فعلوا من الإعراض والاستكبار والهجر ، فلم يتدبروا القرآن ليعلموا أنه معجز وأنه دليل على صدق الرسالة ، فيؤمنوا به ؟ والهمزة لإنكار الواقع واستقبحه .

(أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ) : إضراب وانتقال من التوبيخ بما سبق إلى توبيخ آخر ، أى : بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت أسلافهم حتى استبعدوه ، وخاضوا فيه بما خاضوا من الكفر والعناد والإمعان في الضلال ؟ فالهمزة هنا لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع ؛ بمعنى أن مجيء الرسل بالكتب من جهته تعالى لينذروا بها الناس سنة قديمة له سبحانه لا مساغ ليجودها ، ومجىء القرآن وفق هذه السنة ، فلاى سبب ينكرونه ويتركون تدبره ؟ إنه لا سبب لذلك إلا التماهى في الظلم والعدوان .

وقيل : المعنى : أغفلوا فلم يتدبروا القرآن ليخافوا عند تدبر آياته وقصصه أن ينزل بهم مثل ما نزل عن قبلهم من المكذبين ؟ أم جاءهم من أسباب الأمن ما لم يأت آباءهم الأولين الذين خافوا الله وآمنوا بكتبه ورسوله ، فأطاعوه حق طاعته ، والهمزة على هذا للإنكار أو للتقرير نهكماً .

٦٩ - (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) :

إضراب انتقال لتوبيخ الكافرين من قريش بوجه آخر ، أى : بل ألم يعرفوا محمداً - صلى الله عليه وسلم - متصفاً بالأمانة والصدق ، وحسن الأخلاق ، ورجاحة العقل ، وصحة النسب ، وبكل الكمالات اللائقة بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ؟ بل لقد جاءهم من عرفوه بكل ذلك ، فقد كانت كلمتهم قبل مبعثه متفقة على تسميته بالصادق الأمين ، وغير ذلك من كرام السجايا ، ولذلك قال أبو سفيان بن حرب للملك الروم (هرقل) حين سأله وأصحابه عن صفات النبي - صلى الله عليه وسلم - صدقه وأمانته ، - قال أبو سفيان : ما جربنا عليه كذبا ، وكانوا حينئذ كفاراً لم يسلموا ، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدق ، فاعترفوا بذلك ، وقال جعفر بن أبي طالب - رضى الله عنه - للنجاشي ملك الحبشة : أيها الملك ، إن الله بعث إلينا رسولا نعرف نسبه وصدق وأمانته .

فإذا كان محمد كذلك فكيف ينكرون نبوته ، ويجحدون صفاته بعد أن اعترفوا بها ؟
إن ما وقع منهم كان حسداً وبغياً ، قال سفيان الثوري : بل قد عرفوه ولكنهم حسدوه .

٧٠- (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) :

انتقال إلى توبيخ آخر ، أى : بل أيعتجون في ترك الإيمان به بأنه مجنون ؟ وهذا باطل ينكره الواقع الذى يعرفونه حق المعرفة ؛ حيث إنه - عليه الصلاة والسلام - أرجح الناس عقلاً ، وأضوئهم ذهنًا ، وأصحهم رأياً ، وأوفرهم رزانة . (بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ) : أى : بل جاءهم محمد - صلى الله عليه وسلم - بالحق البين ، وهو القرآن والتوحيد والدين القيم الذى لا محيد عنه ، فلا صحة لما يقولون .

(وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) : المراد بالحق الذى كرهه أكثرهم ، إما كل حق ، ويدخل فيه دين الإسلام ، وإما دين الإسلام خاصة ؛ فقد كرهه أكثرهم حسداً وبغياً ، وكان فيهم من لا يكرهه ، ولكنه يتابع قومه في الاعتراض عنه والكفر به أنفةً واستكباراً ، وحذراً من تعيير قومه ، أو من وقوع أذى به أو نحو ذلك من عدم فطنته وقلة تفكيره ، لا كراهةً للحق من حيث هو حق .

وإيثار الإظهار في مقام الإضمار حيث لم يُقَلْ : (وأكثرهم له) لوضوح الإظهار في ذمهم والتشنيع عليهم ، ولدفع ما قد يتوهم من عود الضمير على الرسول - صلى الله عليه وسلم - - بخاصة .

(وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ^{٦٦} بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ^{٦٧} أَمْ نَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ^{٦٨} وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^{٦٩} وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ^{٧٠})

المفردات :

(وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ) : المراد بالحق ؛ الله سبحانه وتعالى ، وقد يراد به الحق المطابق للواقع ، أو النبي ، والمراد بأهوائهم : ما يهواه الناس ويشتهونه .
(بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ) : الذكر هنا بمعنى الشرف ، أى : أتيناهم بالكتاب الذى فيه عزهم وشرفهم . (أَمْ نَسْأَلُهُمْ خَرْجًا) : أى أجراً عن التبليغ . (عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ) : مائلون منحرفون عن طريق الجنة ، وهو الصراط المستقيم ، وفعله من باب (قَعَدَ) يقال : نكب عن الطريق ، نكوباً ، ونكباً : إذا عدل عنه ومال إلى غيره^(١) .

التفسير

٧١- (وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ...) الآية .
أى : ولو اتبع الحق سبحانه أهواءهم الزائفة ، فوافقها بتشريع ما يشتهون ، لكانت الطامة الكبرى ؛ حيث تفسد السموات والأرض ومن فيهن ، وتخرج عن الصلاح والانظام بالكلية ؛ لأن رغبات الناس قاصرة ، وشهواتهم تختلف وتتضاد بما ينجم عنه أشد الفساد ، وأقوى التنايد والخلاف ، ولكن الكون تام الصلاحية ؛ لأنه جاء وفق مراد الحق تبارك وتعالى دون شريك ؛ إذ «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا»^(٢) .

(١) ويأتى (نكب) أيضاً من باب : (فرج) فيقال : نكب ، ينكب ، نكبا .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢

وُخِصَّ العقلاء بالذكر في قوله تعالى : (وََمَنْ فِيهِنَّ) لَأَن غيرهم تبع لهم في الصلاح والفساد . (بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ) : انتقال من التشنيع عليهم بما سبق إلى التشنيع عليهم لإعراضهم عما جبلت عليه النفس من الإقبال والرغبة فيما فيه خيرها ونفعها ، أى : بل أتيناهم بالقرآن الذى فيه عزهم وشرفهم ، حسبما ينطق به قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ »^(١) فكان يجب عليهم لهذا أن يسرعوا إليه ، ويقبلوا ما فيه أكمل قبول ، ولكنهم عكسوا الآية (فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ) أى : فَهُمْ بما فعلوا من نكوص وإعراض معرضون عما فيه شرفهم وفخرهم ، وبيان ثوابهم وعقابهم ، مسرعون إلى نقيضه مما لا يطلب منهم الإقبال عليه والاهتمام به .

وفى وضع الظاهر موضع المضمرة حيث لم يُقَل : (فَهُمْ عَنْهُ) إشارة إلى مزيد من التشنيع عليهم والتعقيب لهم .

وقيل : المراد بذكرهم : ما تمنوه بقولهم : « لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ »^(٢) والحق أنه قد جاءهم ذكر خير من ذكر الأولين ، أى : كتاب خير من كتبهم ، فأعرضوا عنه جهلاً وعناداً .

٧٢- (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) :

انتقال لتوبيخ آخر يوبخ به سبحانه الكافرين على عدم إيمانهم بما جاءهم به الرسول من الحق دون أن يسألهم عليه أجرًا ، والمعنى : بل أَسْأَلُهُمْ يا محمد أجرًا على الرسالة ، فبسبب ذلك لا يؤمنون بك ، ولأجله يعرضون عن رسالتك ؟ (فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ) : الجملة تعليل لنفى السؤال الذى استفيد من الإنكار ، أى : لم تسألهم ذلك ، ولا يتأتى منك ؛ فإن ما رزقك الله إياه فى الدنيا ، وما أعده لإثابتك فى الآخرة خير من رزقهم ؛ لدوام رزق المخلوق واستمراره وعدم تحمُّل المنة فى رزقهم .

والتعريض لعنوان الربوبية مع الإضافة لضميره - عليه الصلاة والسلام - إيذاناً بأعظم التشريف وأكمل التعظيم له - صلى الله عليه وسلم - والخَرْجُ أقل من الخَرَجِ ، فهو بمعنى :

(٢) سورة الصافات ، الآيتان : ١٦٨ ، ١٦٩

(١) سورة الزخرف ، من الآية : ٤٤

العطاء القليل ، أما الخراج فهو العطاء الكثير ، لأن كثرة المبنى تدل على كثرة المعنى ؛ ولذا عُبِّرَ بالأول في جانب الخلق ، وبالثاني في جانب الخالق ، وقيل : إنهما سواء في المعنى . (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) : تأكيد لخيرية عطائه ورزقه ؛ فإن مَنْ كان خير الرازقين يكون رزقه خيراً وأوفى من رزق غيره ، بمعنى أنه لا يقدر أحد أن يرزق مثل رزقه ، ولن يستطيع أن يُنعم قدر إنعامه .

٧٣ - (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) :

أى : إلى دين الإسلام الذى تشهد الفطرُ السليمة باستقامته وتنزله عن أى شائبة تلحقه ، أو اعوجاج يعيب منهجه ، والصراط : الطريق ، وسمى الدين طريقاً لأنه يؤدي إلى الجنة ؛ فهو طريق إليها .

٧٤ - (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ) :

هم كفار قريش المحدث عنهم فيما سبق ، وقيل : المراد ما يعمهم ويعم غيرهم من الكفار المنكرين للبعث ، وتدخل قريش في ذلك دخولاً أولياً ، وقد وصفوا بعدم الإيمان بالآخرة ، تشبيهاً عليهم بما يفعلونه من إقبال على الدنيا ، واستمساك بها ، زاعمين : أنه لا حياة لهم بعد هذه الحياة ، ولو كانوا يؤمنون بها لخافوا سوء المصير فيها بكفرهم بالحق الذى جاءهم على لسان رسوله .

المعنى : وإن الذين لا يصدقون بالآخرة وأهوالها معرضون عن الصراط السوى ، ومتحرفون عنه ، ولو آمنوا بها لفكروا قبل أن يكفروا بما جئتهم به ، ولهداهم التفكير إلى الصراط السوى الذى يوصلهم إلى رحمة الله .

* (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(مِنْ ضُرٍّ) : من شدة وسوء حال . (لَلَجُّوا) : لتأدوا . (فِي طُغْيَانِهِمْ) : في إفراطهم في الكفر بالحق . (يَعْمَهُونَ) : يتحيرون ويترددون بين أساليب رد الحق ، وهو مضارع (عَمِه) بوزن فرح ومنع ، ومصدره : العَمَةُ والعُمُوه . (فَمَا اسْتَكَانُوا) : فما خضعوا . (وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) : وما يتذللون إلى الله ويدعونه مخلصين أَنْ يرحمهم . (مُبْلِسُونَ) : متحирون يائسون من كل خير .

التفسير

٧٥- (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) :

أى : ولو رحمتنا أهل مكة ، وأزلنا ما لحقهم من ضر وشدة ، بسبب القحط الذى حل بهم عقاباً لهم ، لتأدوا في الكفر بالحق يترددون بين أساليب رده ، ولم يرتدعوا عن طغيانهم بعد ما رفع الله الضر عنهم .

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد دعا عليهم ، فقال : اللهم اشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف - كما رواه ابن عباس ، وقد حقق الله دعاءه ، فقد بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - محمد بن مسلمة في سرية إلى بنى بكر بن كلاب ، فجاء بثمامة بن أثال الحنفي إلى المدينة ، فامتنع عن الإسلام ثلاثة أيام ، ثم أسلم وخرج معتمراً ، فلما قدم بطن مكة لبي ، وهو أول من دخلها ملبياً من المسلمين ، ومن هنا قال أحد بنى حنيفة ومنا الذى لبي بمكة مُعَلِّناً برغم أبي سفيان في الأشهر الحرم

فأخذته قريش فقالوا : لقد اجترأت علينا وصَبَوْتَ يا ثُمَامَة ، قال : أسلمت واتبعت خير دين ، دين محمد - صلى الله عليه وسلم - والله لا يصل إليكم حبة من البيامة - وكانت ريفاً لأهل مكة - حتى يأذن فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم خرج ثُمَامَة إلى البيامة فمنعهم أن يحملوا لمكة شيئاً حتى أضربهم الجوع ، وأكلت قريش العِلْهَز^(١) ، فكتبت قريش إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أأست تزعّم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، إنك تأمر بصلة الرحم ، وأنت قد قطعت أرحامنا ، فكتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى ثُمَامَة - رضى الله عنه - : « خَلْ بَيْنَ بَنِي قَوْمِي وَبَيْنَ مِيرَّهِمْ » ففعل .

وفي رواية أن أبا سفيان جاءه - صلى الله عليه وسلم - ، فقال : أأست تزعّم ... إلخ وكان هذا قبل الفتح بقليل^(٢) .

وقد نزلت الآية الكريمة لتبين أن كشف الضر عنهم يسعى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكتابته إلى ثُمَامَة لن يؤثر في قلوبهم المريضة ، بل سيظلون في طغيانهم يترددون .

٧٦ - (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) :

هذه الآية تسجل على قريش عنادهم في كفرهم ، وأن الآيات والنذر لا تنفعهم ، فإذا كانوا لم ينزعوا إلى الإيمان بامتحانهم بآية العذاب والضر ، فكيف يؤمنون برحمتهم وكشف الضر عنهم ؟ .

والمعنى : ولقد أخذنا قريشاً بعذاب الجوع والقحط ، فما خضعوا به إلى الحق ، وما يتذللون لربهم ويدعونه بإيمان وصدق لكي يكشف الضر عنهم ، فقلوبهم مع أوثانهم وليست مع خالقهم ، ومن كان أمرهم ذلك ، فلن يخضعوا برحمته تعالى وكشف ضره عنهم ، ولو كانوا يعقلون لعرفوا أن الأمر كما قاله العليم الخبير : « وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ »^(٣) .

(١) العِلْهَز : طعام يؤكل في المجاعة من الدم والوبر ، ويطلق أيضا على القراد الضخم .

(٢) انظر الألوسي .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٣٥ .

٧٧- (حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) :

لفظ : (حَتَّى) يدل على أن الكلام بعدها غاية لما قبلها ، والمراد بالعذاب الشديد الذى يفتح عليهم بابه : إما ما يكون بفتح مكة ، وإما ما يحدث يوم القيامة .

والمعنى : أنهم مستمرون فى عنادهم وكفرهم لا تفيدهم الآيات والنذر ، حتى إذا فتحنا عليهم باباً موصلاً إلى عذاب شديد لا طاقة لهم به ، كما حدث لهم يوم فتح مكة ، أو كما سوف يحدث لهم يوم القيامة ، إذا هم فيه مُتَحِيرُونَ آيسون من كل خير .

أما عذابهم يوم فتح مكة ، فهو عذاب اليأس والقنوط من الانتصار على محمد والقضاء على دينه ، واستسلامهم له أذلة صاغرين ، وأما عذابهم يوم القيامة فيكون لمن مات منهم على كفره قبل الفتح ، أو كتم كفره ووافق بالإيمان بعد الفتح .

وفى المعنى الثانى يقول الله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ » ^(١) ، ويقول : « لَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ » ^(٢).

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝ ٧٨ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ ٧٩ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ ٨٠)

المفردات :

(الْأَفْئِدَةُ) : القلوب ، مفردها فؤاد . (ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ) : خلقكم وبثكم فيها ^(٣) .
(تُحْشَرُونَ) : تجمعون . (وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : ولأمر الله وتدبيره يرجع تعاقب

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٧٥

(١) سورة الروم ، الآية : ١٢

(٣) قال صاحب القاموس : ذراً كجمل : خلق ، وذراً الشيء : كثره ، ومنه : الذرية - مثلثة - لنسل الثقلين .

الليل والنهار ، من قولهم : فلان يختلف إلى فلان أى : يتردد عليه ، أو المراد باختلافهما تفاوتهما زيادة ونقصاناً ، وظلاماً وضياءً .

التفسير

٧٨ - (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) :

بعد أن بين الله إصرار أهل مكة على الكفر بعد ما تعاقبت عليهم الضراء والسراء ، وأنذرهم بسوء العقابة حينما يفتح عليهم باباً ذا عذاب شديد - بعد أن بين الله ذلك - جاءت هذه الآية وما بعدها ، لتذكرهم بآيات الله ونعمه فيهم ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويتجنبون بالإيمان سوء مصيرهم .

والمعنى : والله هو الذى خلق لكم حينما أنشأكم - خلق لكم - حاسة السمع لتدركوا بها المسموعات من خير أو شر ، ضر أو نفع ، كما تدركون بها مختلف العلوم والمعارف في أمور دنياكم وأخراكم ، وخلق لكم الأبصار ، لتسلوكوا السبل على هداها ، وتنظروا بها الصديق والعدو والحسن والقبيح ، وتدركوا آيات الجبال والكمال في كون الله ، وتعرفوا ما يصلح من الأرزاق وما لا يصلح ، وتميزوا بها شتى الألوان والأحجام وغير ذلك من سائر المدركات عن طريقها ، مما لا يحيط به العادون ، ولا يستقصيه الحاسبون ، وخلق لكم العقول ، لتحكموا بها على ما يصل إليكم عن طريق الأسماع والأبصار وسائر الحواس ، وتوازنوا بها بين المدركات وتسوسوا بها نفوسكم ناحية الخير ، وتبعنوها عن موارد الهلكة ، وتبسطوا بها سلطانكم على الأرض التى جعلكم الله خلائفاء عليها وعلى ما فيها وما فوقها : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

والله تعالى يخرج الناس من بطون أمهاتهم بحواسهم خالية من الإدراك ، ولكنها صالحة له ، حتى إذا ما تواردت عليها المدركات انتبهت إليها وتدرجت في النمو شيئاً فشيئاً حتى تصل كل نفس إلى مستواها من الإدراك الذى شاءه الله لها ، وفي ذلك يقول الله تعالى : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ »

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»^(١) ، لما كان السمع يسبق الأبصار في الإدراك ، والأفئدة تتأخر فيه عنهما ، فلذلك جاءت مرتبة هكذا في آيات القرآن العظيم^(٢) .

ولقد ختم الله الآية هنا بقوله : « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » والخطاب هنا للكافرين . والقلّة إما بمعنى العدم ، أى : لا تشكرون الله أصلاً ، أو بمعناها الحقيقي ، فهم إن شكروا الله فشكرهم نه قليل بالنسبة لشكرهم لآلهتهم ، فهم في معظم أحوالهم ينسبون إليها النصر والمطر والرزق والشفاء من الأمراض ، ولا يذكرون الله إلا قليلاً ، والمقصود من الشكر هنا : صرف تلك الحواس لما خلقت له ، وأهم ما خلقت له : العبادة الخالصة لله ، قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

وقيل : إن الخطاب في الآية من أولها لآخرها موجه إلى الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، والحكم بقلّة شكرهم ، لأن الذين يشكرونه تعالى هم المؤمنون ، وهم في الناس قليلون ، وما قلناه أولاً أظهر وأوفق بالسياق .

٧٩- (وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

والله هو الذى خلقكم من نفس واحدة خلق منها زوجها ، وكثركم ونشركم في الأرض بتناسلها وذرياتهما لتعمروها وتكونوا في عمارتها خلفاء عنه تعالى ، ولستم بمخلدين فيها ، بل تموتون حين تحين آجالكم ، وإليه لا إلى غيره تحشرون وتجمعون بعد أن يبعثكم أحياء من قبوركم ، ليحاسبكم ويجزيكم على أعمالكم : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

٨٠- (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

والله هو الذى يهب الحياة لكل كائن حي ، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، ويسلبها منه حين يميته ، وتراه في سلطانه على خلائقه « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ »

(١) سورة النحل ، الآية : ٧٨

(٢) علق المختصون من الأطباء بالجلس الأعلى للشئون الإسلامية على آية (النحل) في كتاب (المنتخب في تفسير القرآن الكريم) بقولهم : أثبت الطب الحديث أن حاسة السمع تبدأ مبكرة جداً في حياة الطفل في الأسابيع القليلة الأولى ، وأما البصر فيبدأ في الشهر الثالث ، ولا يتم تركيز الأبصار إلا بعد الشهر السادس : أما الإدراك بالفؤاد فلا يكون إلا بعد ذلك : انتهى بتصريف يسير .

وهذا شاهد على أنه تعالى كما بدأ الخلق يعيده ، مصداقاً لقوله تعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » ^(١) .

وكما أنه يختص بالإحياء والإماتة ، فإنه تعالى يرجع إليه وحده التدبير في اختلاف الليل والنهار .

والمراد باختلافهما : أن يجيء كلاهما خلف الآخر ، أو أن يتفاوتا طولاً وقصرًا ، نوراً وظلاماً ، وفي ضوء النهار تتحرك الكائنات الحية إلى معاشها وأرزاقها ، وفي الظلام تسكن وتستريح من سعيها ومتاعبها : « سُنَّةَ اللَّهِ وَلَكِنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » وختم الله الآية بقوله : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى : أترون هذه الآيات فلا تعقلون دلالتها على الخالق سبحانه وجوب عبادته وحده لا شريك له ، وتصديق رسله والاهتداء بهديه ، والعمل ليوم البعث والنشور ؟ : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ » ^(٢) .

(بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ^(٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أُنَّا لَمَسْبُوءُونَ ^(٨٢) لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ^(٨٣))

المفردات :

(أساطيرُ الأولين) : أباطيلهم التي سطروها للتلهي بها ، جمع : أسطورة ، كأحدثة وأحاديث ، وأعجوبة وأعاجيب ، وقيل : جمع أسطار جمع سطر ، فهي جمع جمع ، واختيار الزمخشري الأول ، لأن جمع المفرد أولى من جمع الجمع وأقيس ، ولأن وزن أفعولة يأتي لما فيه التلهي ، فيكون القرآن - في نظرهم الفاسد - مكتوبات لا طائل تحتها ، وإلى هذا الرأي ذهب المبرد وجماعة من أهل اللغة .

(٢) سورة آل عمران ، من الآية : ١٣

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٤

التفسير

٨١، ٨٢- (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ « قَالُوا أَيُّذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) :

بين الله في الآيات السابقة أنه تعالى هو الذى أنشأ للكافرين الحواس والأفئدة ، وهو الذى خلقهم وأنهم إليه راجعون للحساب والجزاء ، وأن الإحياء والإماتة من شأنه جل وعلا ، كما له اختلاف الليل والنهار ، وطلب إليهم عقب هذه الآيات أن يتدبروا ويتعقلوا بقوله : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » وجاءت هاتان الآيتان ومابعدهما لتفيد أنهم لم يعقلوا ولم يتدبروا بل كفروا بالبعث مع وجود هذه البراهين .

والمعنى : لم يعقل هؤلاء المشركون تلك الآيات على إمكان البعث وقدره الله عليه ، بل قالوا منكرين له مثل ما قاله الكفرة السابقون لرسولهم . قالوا : أئذا متنا وتحولت أجسادنا إلى تراب وعظام بالية نبعث إلى الحياة مرة أخرى ، ثم أعادوا الاستبعاد والاستنكار مرة أخرى فقالوا : أئنا لمبعوثون بعد هذا الفناء ، ثم أكدوا استبعادهم بما حكاه الله عنهم بقوله :

٨٣- (لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

لقد وعدنا منك يا محمد بالبعث بعد الموت ، ووعد آباؤنا من رسولهم بمثلته قبلك ، وما هذا البعث الموعود إلا أسطورة من أكاذيب الأولين نقلتها إلينا عنهم يا محمد ، ونحن نستبعد مصوله ونستنكره بعد أن يتحول المرقى إلى عظام نخرة ، وقد كانت عقيدتهم في الحياة تتمثل في قولهم : إن هـى إلا أرحام تدفع وقبور تبلغ وما يهلكنا إلا الدهر ، والواقع أنهم في عقائدهم مضطربون ، فبينما هم يقولون ذلك يحكى الله عنهم إيمانهم بعظيم قدرة الله بقوله : « وَلَكِنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » ^(١) فإذا كانت عقيدتهم كذلك في قدرة الله ، فكيف يستبعدون البعث وهو مشاهد لهم كل يوم في إحياء النبات بعد ييبسه ، وفي اليقظة بعد النوم .

(قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) : أصله تتذكرون فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، والتذكر : الاعتبار . (مَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) : صيغة الملكوت للمبالغة في الملك ، فالمراد به الملك العظيم الشامل . (وَهُوَ يُجِيرُ) : وهو يمنع ويحفظ من يشاء ممن يشاء . (وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ) : ولا يستطيع أحد أن يمنع سواه من بطش الله . (فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) : فكيف تصرفون عن الهدى .

التفسير

٨٤- (قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) :

قل- أيها الرسول- لهؤلاء المتكبرين للبعث : من هو خالق الأرض ومالكها والمتصرف فيها وفيمن عليها ؟ إن كان لديكم شيء من العلم والعقل ، فأجيبوني عن هذا السؤال .

وأسلوب الآية ينم عن فرط الاستهانة بعقول هؤلاء المشركين ، حيث شكك الله في وجودها لديهم ، بسبب أنهم لم يحسنوا استخدامها ، فجعلها في حكم المشكوك في وجودها بقوله « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

٨٥- (سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

أى : أنهم مع فرط جهالتهم ، وفقدان القدرة على القياس لديهم ، فإنهم سيجيبونك أيها الرسول بأن الأرض ومن فيها لله ، لأنهم لا يجحدون ذلك ، قل لهم حين يجيبونك بذلك : أتقولون هذا ، فلا تعتبرون بأن من فطرها وفطر من عليها ابتداء فهو قادر على إعادتها ثانيا ؟ فإن الإعادة أسهل من الابتداء في قياس العقول .

٨٦ ، ٨٧- (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) :

قل - أيها الرسول - لهؤلاء الجاهلين : من هو مالك السموات السبع بجزئياتها وبمن عليها من كائنات لا يعلمها غيره ، ومن هو مالك العرش العظيم ؟ سيقولون في إجابتهم : هي لله ، قل لهم : أتقولون ذلك فلا تتقون الله وأنتم تشركون وتنكرون البعث والنشور ، وهما أهون عليه من خلق السموات السبع وخلق العرش العظيم ^(١) ؟

٨٨- (قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) :

اليد هنا كناية عن القدرة والمعنى : قل لهم أيضا مبالغا في التقرير والإنكار : من بقدرته ملك كل شيء وتدبيره ، وهو يمنع من يلوذه ويحميه من المكاره ، ولا يستطيع أحد أن يجير ويحمى من أراحه بسوء ؟ إن كنتم تعلمون الجواب عن هذا السؤال فأجيبوني ، ثم تولى الله الجواب عنهم ، لأنهم مقرون به ولا معدل لهم عنه فقال سبحانه :

٨٩- (سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) :

سيقول هؤلاء المشركون : الملك والملكوت لله ، والإجارة والحماية للمستجير لا تكون إلا لله دون سواه ، وإذا كان هذا ماسيقولونه جوابا عن سؤالك ، فكيف يُضرفون عن الرشد والهدى كالذين سُحِرُوا ففقدوا عقولهم ؟

(١) العرش في اللغة : سرير الملك ، ويكنى به من العز والسلطان ، وهل الأول فهو كائن عظيم يحيط بالكون .

وبلاحظ أن السؤال الثاني : « مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ ... » ، والثالث : من بيده ملكوت كل شيء ، جوابهما (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ) بلام الجر ، وكان الظاهر أن يكون الجواب (سيقولون الله) بغير لام مراعاة للسؤال^(١) . فما وجه العدول عنه ؟

والجواب : أن كلا الأمرين جائز لغة ، فلو قيل : مَنْ صَاحِبُ هَذِهِ الدَّارِ فَلَكَ أن تجيب بقولك : (خالد) مثلا ، مراعاة للفظ السؤال المجرد عن اللام ، ولك أن تقول : (لخالد) باللام مراعاة للمعنى ، ومنه قول الشاعر :

إذا قيل من رب المزالف^(٢) والقرى ورب الجياد الجرد^(٣) قيل لخالد

٩٠ - (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

في هذه الآية إضراب لإبطال إنكارهم البعث والتوحيد .

والمعنى : بل جئنا قريشا بالحق في وحدانية المعبود والبعث من القبور ، وإنهم لكاذبون في شركهم وإنكارهم لهما « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ »^(٤)

(مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ^(١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٢))

الفرادات :

(لَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) أى : لغلّب بعضهم بعضا .

(١) فإن السؤال مجرد عن اللام فهما حيث لم يقل فيه : لمن السموات السبع ، ولا (لمن ملكوت كل شيء) .

(٢) جمع مزلفة ، وهى القرية تكون بين البر والريف .

(٣) الجرد : جمع أجرد ، وهو الجواد الذى يسبق غيره ..

(٤) سورة الشعراء ، الآية : ٢٢٧

(سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ) : تنزيها له تعالى عما يلحقونه به من الولد والشريك .
(الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) : المراد بهما : ما غاب عن خلقه وما أبصروه . (فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) :
فتنزه عن إشراكهم .

التفسير

٩١- (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ) .

والمعنى : ما اتخذ الله لنفسه من ولد ، لتنزهه عن الاحتياج إليه ليعينه أو يرثه من بعده كما هو الشأن في الولد ، فهو القادر الذي يقول للشيء : كن ، فيكون ، وهو الباقي الذي لا يفنى ولا يبسد « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »^(١) .
وكما أنه تعالى لم يتخذ ولدا فإنه لم يكن معه من إله حين أبدع ملكوته ، ولا يصح عقلا أن يكون له فيه شريك كما زعم الزاعمون ، فلو اشترك معه في الخلق غيره ، لا مستقل كل إله بما خلقه ، إن فرض استقلاله بخلقه ، ولغالب بعضهم بعضا حتى يغلب قوتهم ضعيفهم ويستقل بالكون وحده ، إن فرض اشتراكهم في الكون تعاونيا ، أو كان لكل منهم ناحية خلقها ، وبما أننا نرى الكون وحدة متكاملة محكمة الصنع ، فلا بد أن يكون مبدعه إلها عظيماً واحداً في ذاته وصفاته وأفعاله ، فإن التعدد في الإله يؤدي إلى التنافس والتغالب وينتهي إلى الفساد ، كما قال سبحانه : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا »^(٢) ولهذا ختم الله الآية بقوله : « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ » أى : تنزيها كاملا لله عما يزعمونه له من الولد والشريك .

٩٢- (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

أى : أنه تعالى كما تنزه عن الولد وعن الشريك في خلق هذا الكون وتدبيره ، فهو عالم بكل ما خفي وغاب عن العيون والعقول ، وعالم بكل ما هو مشاهد ومرئى لأولى الأبصار « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »^(٣) وإذا كان

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢

(١) سورة الرحمن ، الآيتان . ٢٦ ، ٢٧

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٥٩

أمر الإله عظيمًا هكذا فتعالى الله وتنزه عما يشركون معه من آلهة لا حول لها ولا قوة ، ولا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرا ، ولا تعلم عن نفسها أو غيرها حاضرًا ولا غائبًا .

(قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾
أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾
وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ
أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ) : إن كان لابد من أن تريني ما يوعدونه من العذاب ، والأصل إن تُرِيْنِي ، فزيدت ما وأدغمت في (إن) فصارت : إِمَّا ، وأكد الفعل (تُرِيْنِي) بنون التوكيد بعد إِمَّا ، فأصبح الفعل مؤكدًا بلفظ (ما) المدغمة في (إن) وبنون التوكيد ، وبهذا يعلم أن (ما) في لفظ (إِمَّا) ليست للنفي بل للتوكيد . (أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ) أى : ادفع أثر السيئة بالخصلة التي هي أحسن ، وسيأتى شرح ذلك .

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) : نحن أعلم بالذى يصفونك به ، أو بوصفهم إياك بما ليس فيك ^(١) . (أَعُوذُ بِكَ) : ألوذ وأعتمص بك .

(مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ) : جمع همزة ، والهمز : النخس والدفع بيد أو غيرها ، ومنه الهماز في رجل من يركب الدابة ، ينخسها به لتسرع ، والمراد بهمزات الشياطين وساوسهم ؛ فإنها تدفع إلى المعاصي .

(١) وبهذا التفسير علم أن لفظ (ما) في قوله تعالى (بما يصفون) إما موصولة أو مصدرية .

التفسير

٩٣، ٩٤ - (قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

ظاهر الآيتين يدل على أن الله تعالى كان قد أخبر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بعذاب يصيب قومه إن أصرروا على كفرهم ، ولم يخبره بوقت نزوله ، فلماذا طلب نجاته منه إن حصل لهم في حياته ، وهكذا فهم الحسن ، فقد روى أنه قال : أخبر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن له في أمته نعمة ، ولم يطلعه على وقتها ، أهو في حياته أم بعدها ، فأمره بهذا الدعاء :

والمعنى : وقل - أيها النبي - : يارب إن كان لابد أن تريني ما أوعدت قومي به من العذاب المستأصل إن بقوا على كفرهم ، يارب فلا تجعلني بين هؤلاء الظالمين حين ينزل بهم عقابك .
ونداء النبي لله بوصف الربوبية ، للإيدان بأنه تعالى هو المالك الناظر في مصالح العباد ، الذي يلجأ إليه في دفع الملمات ، وتكليفه - صلى الله عليه وسلم - بأن يدعو ربه بذلك ، مع أنه - صلى الله عليه وسلم - بمنجاة من مثل ذلك العذاب العظيم إن نزل ، للإيدان بفضاعة العذاب الموعود ، وكونه بحيث يستعيز منه من لا يكاد يمكن أن ينزل به ، وهو متضمن تأكيد وقوع العذاب الموعود الذي أنكروه وسخروا منه واستعجلوه . وهذا الوعد مشروط ببقائهم على كفرهم .

وقيل : إنه - صلى الله عليه وسلم - أمر بذلك هضماً لنفسه وإظهاراً لكمال العبودية ، أو لأن شؤم الكفرة قد يحق بغيرهم ، كما قال تعالى : « وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » والتعبير بقوله : « فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » بدلاً من أن يقول : فلا تجعلني فيهم ، للإيدان بأن ظلمهم هو السبب في وعيدهم بالعذاب ، وتكرار لفظ (رب) لمزيد الضراعة والاستنجاد بمن بيده الأمر كله .

٩٥ - (وَأَنَا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ) :

أي : وأنا على تمكينك من رؤية عذابهم الموعود لقادرون ، كما قدرنا على مثله فيمن سبقهم من المعاندين لرسولهم .

وهذه الآية تشير إلى أن التعجيل بالعذاب ليس من الحكمة التي تقترب بها أفعال الله تعالى فلقد علم سبحانه ألا أن معظمهم سوف يؤمن ، فلماذا تأني بهم ولم يتعجل بعقوبتهم .

والظاهر أن هذه الآية واللتين قبلها نزلتا قبل أن يخبر الله تعالى نبيه بقوله : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » (١).

٩٦ - (اذْفَعْ بِالنِّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) :

أي : قابل السيئة التي تأتيك من قومك وامنع أثرها عن نفسك بالخصلة التي هي أحسن من مقابلة السيئة بمثلها ، والدفع بالنبي هي أحسن على ثلاث درجات ، أدناها أن تصفح عن سيئته ، وفوقها أن تحسن إليه إحساناً ما ، وأعلاها أن تجزل الإحسان إليه .

وأمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بذلك توكيداً لما هو ملتزم به من هذا الخلق الكريم مع المؤمنين فقد كان يقابل السيئة بالحسنة ، وكان يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

والخطاب في الآية وإن كان موجهاً إلى الرسول حسبما يؤذن به السياق ، فإن الحكم فيه يعم كل مسلم ، فينبغي أن لا يقابل السيئة بمثلها ، حتى لا يتأدى المسئ في إساءته ، فيعظم البلاء وتحدث الفتن ، فإن معظم النار من أعظم الشرر ، وفي عموم معناها أخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن أنس أنه قال : (يقول الرجل لأخيه ما ليس فيه فيقول : إن كنت كاذباً فأنا أسأل الله أن يغفر لك ، وإن كنت صادقاً فأنا أسأل الله أن يغفر لي) والدفع المذكور مطلوب ما لم يؤدي إلى ثلم الدين أو خدش المروعة .

وفي ختام الآية يقول سبحانه : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ » أي : نحن أكثر علماً منك بما يصفونك به في السر والعلانية ، من الأوصاف التي يُكذِّبُها ما أنت عليه من الكمال الخلق والصدق في تبليغهم أحكام ربهم ، وفي هذه الجملة وعيد لهؤلاء المتقولين على الرسول بالعقوبة ، وتسليية له - صلى الله عليه وسلم - وإرشاد له إلى تفويض الأمر له عز وجل ، والآية من قبيل المواعدة والمهادنة ، حتى يشتد جانب النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فيقاتلهم حتى يهتدوا إلى سواء السبيل .

٩٧، ٩٨ - (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) :

بعد أن أمر الله نبيه بدفع السيئة بالحسنة ، أمره أن يعوذ به من وساوس الشياطين ، ليكون ذلك معيناً له على دفع السيئة بالحسنة ، ونحن في كلا الأمرين مكلفون بالعمل بما أمر الله به رسوله فيهما .

والاستعاذة بالله والاعتصام به من الشياطين أمر ينبغى الحرص عليه عند الشروع في كل عمل صالح للفرد أو للمجتمع ، فإن الشياطين من الجن والإنس أعداء للخير ، فهم لذلك يحرصون على الصد عنه بوساوسهم وإغراءاتهم المضللة للنفس البشرية ، فهم يزينون لها الباطل ، وينفرونها من الحق بأساليب مزوقة وملفقة قد تخفى على التقى الورع ، ولا عاصم من خداعهم إلا الله رب العالمين ، فلهذا أمرنا سبحانه بالاستعاذة به من وساوسهم .

والمعنى : وقل - أيها المسلم - عند الشروع في أمر نافع لك أو لمجتمعك : يارب أعوذ بك وأعتصم بربوبيتك من وساوس الشياطين الصارفة عن البر والخير ، وأعوذ بك وأعتصم بحمايتك من حضورهم حولي في أي حال من أحوالي الدنيوية أو الأخروية ، لأسلم من ضرورهم ومغرياتهم الكاذبة : « فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » ^(١) .

ومن أجدد الأحوال بالاستعاذة بالله من الشياطين حال الصلاة وقراءة القرآن وحلول الأجل ، وعند النوم ، لأنهم ينشطون فيها أكثر من سواها .

وفي الاستعاذة عند النوم : أخرج الإمام أحمد بسنده عن جَدِّ عَمْرُو بن شعيب قال : « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم - من الفزع - : بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » ورواه كذلك أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه .

وفي الأمر بالتعوذ من حضور الشياطين بعد الأمر بالتعوذ من همزاتهم مبالغة في التحذير من ملابتهم .

(حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾
لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا
وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾)

المفردات :

(فِيمَا تَرَكْتُ) : فى دنياى التى تركتها أو فى مالى أو فى إيمانى . (كَلَّا) : كلمة تستعمل للردع والزجر . (وَمِنْ وَرَائِهِمْ) أى : أمامهم ، ومثله قوله تعالى : « وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ » أى : أمامهم ، وقد يستعمل بمعنى الخلف ، فهو كما قال صاحب المختار : من الأضداد ، ويبنى على الضم إذا لم تضافه ، كقولك : جئتك من وراء ، كقولك : من قبل ومن بعد^(١) (بَرْزَخٌ) : حاجز .

التفسير

٩٩، ١٠٠ - (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) :

(حَتَّى) هنا ابتدائية ، وما بعدها غاية لما قبلها ، ولهذا يقول النحاة عنها : إنها لا ابتداء الغاية ، وقد مضى أن المشركين أنكروا البعث وتوحيد الله حتى قالوا فيهما : أساطير الأولين ، ثم احتج الله عليهم وذكرهم قدرته على كل شيء ، وأنه : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » وأمر نبيه أن يستعيز به من عذابهم الموعود على كفرهم ، وطلب إليه أن يدفع سيئاتهم بالحسنة ، وجاءت هذه الآية لتبين أن من أصر منهم على الكفر حتى يحضره الموت ، طلب الرجوع إلى الحياة ليصلح ما أفسده .

(١) انظر المختار .

والغنى : أن المشركين لا يزدادون بالوعظ والتذكير إلا إصراراً على الكفر حتى إذا جاء أحدهم الموت تيقن ضلاله حين يرى الملائكة تقبض روحه بعنف وشدة وأدرك حينئذ سوء عاقبته ، فيقول فيما بينه وبين الله تعالى : « رَبِّ ارْجِعُونِ » ثانية إلى الحياة الدنيا لكي أعمل صالحاً في دنياي التي تركتها وليس لي فيها عمل صالح ينفعني في أخراي ، فيقال له : كلاً لا سبيل لك إلى الرجوع إليها بعد أن حانت منيتك ، ثم يقول الله مؤكداً تمنيه الرجوع إلى الدنيا ، واستحالة رجوعه بقوله : « إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أى : إن قوله : « رَبِّ ارْجِعُونِ » كلمة هو قائلها لامحالة حين يعاين الموت وسوء المنقلب ، لاستيلاء الحسرة والندم عليه ، وأمامهم حاجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا حيث يبقون في قبورهم إلى يوم القيامة ، حين يبعثون منها للحساب والجزاء ، والمقصود من حضور الموت حضور أماراته ، ومنها حضور الملائكة لقبض روحه بشدة كما قال تعالى في وصف هذه الحالة : « وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ »^(١) . وكلامهم مع الله بصيغة الجمع في قولهم : (رَبِّ ارْجِعُونِ) للتعظيم ، وهو أسلوب المسترحمين كما قال الشاعر :

فقلت ارحموني يا إله محمد فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهل

ولفظ (لعل) يستعمل للتعليل والرجاء ، وكلاهما تصح إرادته في قول الكافر المحتضر (لَعَلِّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ) أى : لكي أعمل صالحاً ، أو رجاء أن أعمل صالحاً ، والمراد من البرزخ هنا : الحاجز ، وهو إرادة الله أن لا عودة للحياة إلا يوم القيامة ، ثم بين الله أحوال القيامة فقال :

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فُكِنْتُ بِهِمْ نَكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾)

المفردات :

- (الصُّورِ) : يطلق على البوق فيكون مفرداً ، ويطلق على الصُّور - بفتح الواو - فيكون جمعاً لصورة ، مثل بُشْر وبُشْرَة ، وسيأتي مزيد بيان لذلك في التفسير .
- (فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ) : أى فلا تنفعهم الأنساب وهى القرابات .
- (وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) : ولا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله .
- (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) : أى فمن رجحت موزوناته من الأعمال الصالحة .
- (تَلْفَحُ) : تحرق . (كَالِحُونَ) : شفاههم متقلصة عن أسنانهم .

التفسير

١٠١ - (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) :

المراد من النفخ فى الصور هنا النفخة الثانية التى يبعث عندها الخلائق للحساب والجزاء ، والصور : إما البوق ، والنافخ فيه إسرافيل عليه السلام ، وإما الأجساد جمع صورة كبشر جمع بسرة ، والنفخ فيها كناية عن إطلاق الأرواح لتلحق بأجسادها ، ويؤيد المعنى الثانى قراءة ابن عباس وغيره (فى الصُّور) بواو مفتوحة ، وهى بلاشك جمع صُورَة ، والتوفيق

بين القراءتين بهذا المعنى أولى من حمله على البوق ، قال الآلوسی : ولا تنافي بين النفخ في الصور بمعنى القرن الذي جاء به الخبر ودلت عليه آيات أخر ، وبين النفخ في الصور جمع صورة ، فقد جاء أن هذا النفخ عند ذاك : ١٥

ومعنى الآية : فإذا نفخ في صور الخلائق ، بأن ألحقت كل روح بجسدها عند قيام الساعة ، فبعث الخلائق وحشروا من قبورهم إلى ساحة القضاء الإلهي ، ليقضى لهم أو عليهم تبعاً لعقائدهم وأعمالهم ، فلا تنفعهم قرباتهم حينئذ كما كانت تنفعهم في دنياهم ، ففي ذلك اليوم : « يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »^(١)

وحكى عن الجبائي : أن المراد من الآية أنه لا يفتخر يومئذ بالأنساب كما يفتخر بها في الدنيا ، وإنما يفتخر هناك بالأعمال والنجاة من الأهوال^(٢) ، وكما أنهم لا تنفعهم أنسابهم ولا يفتخرون بها ، فكذلك هم لا يتساءلون عن أحوالهم ، فلا ترى أحداً منهم يهتم بغيره فيسأله عن حاله ، لأن حال كل منهم واضح لغيره ، ولأن الخطب جسم يشغل كل امرئ عن سواه ، وقد صور الله هول ذلك اليوم أوضح تصوير بقوله في صدر سورة الحج : « يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » .

فإن قيل : إنه جاء في القرآن أن الكفار يتساءلون يوم القيامة ، كما جاء عنهم في سورة الصافات في قوله سبحانه وتعالى : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »^(٣) والجواب : أنهم لا يتساءلون في بعض المواطن ، ويتساءلون في بعض آخر ولعله عند جهنم ، وقد يقال : إن المنفى هنا هو سؤال التعارف ونحوه ، مما عليه دفع مضرة أو جلب منفعة ، أما المثبت فهو تساؤلهم

(١) سورة عبس ، الآيات : ٢٤ - ٢٧

(٢) نقله الآلوسی عنه ، وأصله لابن عباس : انظر القرطبي .

(٣) الآيات : ٢٢ - ٢٧

مع خصمائهم الذين دفعوهم إلى الكفر ، وقد بينه الله تعالى بقوله : « قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ . قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ . . . » الآيات ^(١) .

ثم بين الله دستوره في القضاء بين عباده يوم القيامة فقال :

١٠٢ - (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ^(٢) فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

أى : فمن رجحت أعماله القلبية والظاهرة ، وكان لها وزن وقدر عند الله تعالى ، بأن كانت عقيدته صالحة ، وأعماله مستقيمة ، فأولئك هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مرهوب .

١٠٣ - (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) :

ومن لم يكن لعقائده وأعماله وزن من الكفار ، فهؤلاء هم الذين خسروا أنفسهم وضيعوها بكفرهم ، فهم بسبب ذلك خالدون في جهنم لا يبرحونها أبداً ، وفي مثل معنى الآية يقول سبحانه : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا » ^(٣) .

١٠٤ - (تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ) :

تحرق النار وجوههم ، وهم فيها متقلصو الشفاه عن الأسنان ، من أثر احتراق الوجوه ، وتخصيص الوجوه بالذكر مع أن العذاب بالنار عام لأجسادهم ، لأنها أشرف الأعضاء ، فبيان سوء حالها أدل على بيان سوء سواها ، وأزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار .

١٠٥ - (أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) :

يقال لهم حينما يعذبون بالنار - يقال لهم - على سبيل التوبيخ والتحسير : ألم تكن آياتي يتلوها عليكم رسول في دنياكم ، فكنتم بها تكذبون فور تبليغها إليكم ، من غير تدبر في عاقبة تكذيبكم ؟ .

(١) سورة الصافات ، الآيات من : ٢٨ - ٣٠

(٢) موازين : جمع موزون ، والمراد بها أعمال العبد .

(٣) سورة الكهف ، الآية : ١٠٥

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾
 رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَعُوا فِيهَا
 وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا
 فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ
 سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾
 إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَاطِرُونَ ﴿١١١﴾)

الفرقات :

(شِقْوَتُنَا) : الشقوة والشقاوة ؛ ضد السعادة ، والمراد أسبابها من الأهواء وسوء الاختيار .
 (اخْسَعُوا فِيهَا) : أى انزجروا واسكتوا عن هذا المطلب سكوت ذلة وهوان وقنوط
 (سَخِرِيًّا) : السُّخْرَى والسُّخْرِيَّة ؛ الاستهزاء .

التفسير

١٠٦ - (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ) :

في الآية السابقة يوبخ الله أهل النار على تكذيبهم بآياته ، ويلومهم على تسبيهم بذلك
 فيما هم فيه تحسيراً لهم ، وفي هذه الآية يحكى الله جوابهم الذى سوف يجيبون به ربهم ،
 وعُبر عنه بصيغة الماضى لتحقيق وقوعه .

والمعنى : قال الكفار مجيبين الله تعالى : يا ربنا غلبت علينا أهواؤنا ونزعانا وسوء
 اختيارنا ، وسوء الظن برسلنا فكذبنا بآياتك في دنيانا ، فشقينا بذلك في أخرانا ، وكنا
 بما فعلناه قوماً ضالين عن سبيل السعادة التى حصل عليها المؤمنون ، ثم تمنوا العودة إلى الدنيا
 لإصلاح ما أفسدوا فقالوا :

١٠٧- (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ) :

ربنا أخرجنا من النار وارجعنا إلى الدنيا ، فإن عُدنا إلى تكذيب آياتك والكفر برسلك وارتكاب المعاصي فإننا متجاوزون الحد في الظلم .

١٠٨- (قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا) :

قال الله إقنأطاً لهم وإذلاً : انزجروا في النار مطرودين من رحمتنا طرد الكلاب ، ولا تكلمون بعد في شأن خروجكم منها ، فأنتم فيها خالدون .

وقد جاء في الأثر أنهم بعد أن يقول الله لهم ذلك لا ينبسون بكلمة ، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم ، ثم عقب الله زجرهم عن الكلام ببيان سببه بقوله :

١٠٩- (إِنَّهُ كَانَ قَرِيْقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) :

هذه الآية مستأنفة لتعليل نهيهم عن التماس الرجعة إلى الدنيا .

والمعنى : اسكتوا عن دعائى ملتجئين الرجعة إلى الدنيا ، لأنه كان جماعة من عبادى المؤمنين يقولون : ربنا آمنا بما أنزلته على رسلك ، فاغفر لنا سيئاتنا ، وارحمنا بغفرانك وحسن ثوابك ، فأنتم أرحم الراحمين وخيرهم أجمعين ، فلم يرضكم ذلك منهم .

١١٠- (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ) :

أى : أنكم لم تكتفوا بكفركم ، فاتخذتم هؤلاء المؤمنين المستغفرين المسترحمين هدفاً لسخريتكم ، تشفياً منهم واستهزاء بهم ، وواظبتم على ذلك حتى أنسواكم تذكري والخوف من عقابي ، فاشتغلت بإهانتهم عن النظر في عاقبتها وسوء جزائها عندي ، وكنتم منهم تضحكون مبالغة في السخرية بهم .

١١١- (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ) :

في هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى أجر المؤمنين الصابرين ، وانتقامهم بإيذاء الكافرين لهم .

والمعنى : إلى جزيت المؤمنين اليوم في الآخرة ، بسبب صبرهم على إيذاء الكافرين وسخريتهم - جزيتهم - بأنهم هم الفائزون بنعيم الجنة دون المستهزئين ، الذين أذلتهم في نار الجحيم ، ولنعم عقبي الصابرين .

وقد بين الله في سورة المطففين ، أن المؤمنين يثأرون لأنفسهم في الجنة ، فقال سبحانه : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » ^(١) :

أى : هل جوزى الكفار على استهزائهم بالمؤمنين في الدنيا ، بضحك المؤمنين استهزاء بهم وهم على الأرائك في الجنة ينظرونهم يتقبلون في نار جهنم .

(قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾)

المفردات :

(إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) : ما لبثتم في الأرض إلا زمناً قليلاً .

(عَبَثًا) العبث : مالا فائدة فيه أصلاً ، أو له فائدة لا يعتد بها .

التفسير

١١٢ - (قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ) :

هذه الآية تحكى أن الله تعالى يسأل أهل النار عما لبثوه في الدنيا ، بعد أن طلبوا منه العودة إليها ليصلحوا ما أفسدوه ، وأنه زجرهم عن هذا الطلب ونهاهم عن الكلام فيه ، فقد فات أوان العمل وحان وقت الجزاء ، والسؤال موجه من الله إلى أهل النار ، إما مباشرة ، وإما على لسان ملك كلفه الله به .

والمقصود منه : توبيخهم على طول أملهم في الدنيا ، واغترارهم بنعيمها وهم فيها ، مع أنها إلى زوال ، واللبث فيها قليل ، وتحسيرهم وتنديمهم على كفرهم بالآخرة ، مع أنها - دار الخلود .

والمعنى : قال الله للكافرين : كم عدد السنين التي لبثتموها في الأرض ، واغتررتم بنعيمها وتوهمتم البقاء فيها وعدم العودة إلينا لحسابكم جزائكم على ما كان منكم ؟ ولما كانت مواعيد الرسل لهم بالآخرة وبقائها قد تحققت لهم معاينة بعد البعث ، فقد عرفوا أن لبثهم في الدنيا كان قليلاً بالنسبة إليه في الآخرة ، فلهذا أجابوا ربهم قائلين :

١١٣ - (لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ) :

أى : لبثنا زمناً قليلاً نتخيله يوماً واحداً أو بعض يوم ، فاسأل القادرين على العد من الملائكة الحاسبين لأعمال العباد وأعمارهم ، فهم أعلم منا بذلك ، وأقدر منا على الإجابة ، فلقد دهتنا الدواهي التي نراها في الآخرة ، فأنستنا الزمن الذي مكثناه في نعيم الدنيا ، وأصبحنا لا نراه أكثر من يوم أو بعض يوم ، بالنسبة لما نحن مقبلون عليه من خلود في شقاء وعذاب ، ولقد صدقهم الله فيما أجابوا به عن قلة مكثهم في الدنيا فيما حكاه بقوله :

١١٤ - (قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)^(١) :

قال الله رداً على أهل النار : ما لبثتم في الدنيا ونعيمها إلا زمناً قليلاً كما قلتم اليوم ، لو أنكم في دنياكم كنتم من أهل العلم والتدبر ، لأدركنم فيها ما أدركنموه اليوم ، من أن زمن الدنيا قصير ونهايته قريبة ، وزمن الآخرة طويل بغير نهاية ، ولعلمتم بمقتضى هذا العلم ، ولم يصدر منكم ما أوجب خلودكم في النار .

أخرج ابن أبي حاتم بسنده إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال : يا أهل الجنة ، كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قال : لنعلم ما أنجزتم في يوم أو بعض يوم ،

(١) في مثل معنى هذه الآية في استقلالهم لمدة لبثهم في الدنيا ، قوله تعالى في آخر سورة النازعات : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .

رحمتي ورضواني وجنتي امكثوا فيها خالدين مخلصين ، ثم يقول : يا أهل النار ، كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، فيقول : بئس ما أنجزتم في يوم أو بعض يوم ، ناري وسخطي ، امكثوا فيها خالدين مخلصين . »

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾
فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾
وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ
عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ
وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾)

المفردات :

(فَتَعَالَى اللَّهُ) : تَرَفَّعَ الله بذاته وتنزه . (الْمَلِكُ الْحَقُّ) : المالك الثابت الملك دون سواه . (الْعَرْشُ) العرش في اللغة : سرير الملك ، ويكنى به عن العز والسلطان ، وعلى الأول فهو كائن عظيم يحيط بالكون ، وتصدر من جهته أوامر الله تعالى إلى ملائكته ، دون أن يكون الله فيه لاستحالة أن يكون لله مكان ، انظر تفسيرنا لقوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » في سورة الأعراف . (الْكَرِيمُ) : الشريف .

التفسير

١١٥ - (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) :

هذه الآية من تمام ردِّ الله على أهل النار ، والمعنى : أجهلتم فظننتم أننا خلقناكم عبثاً دون حكمة في خلقكم ، فلم تفكروا في خالقكم ، ولا في حكمة خلقكم ، ولا فيما يكون بعد موتكم ، فلهذا أشركتم بنا وكذبتكم برسلسنا ، واعتقدتم أنكم لا تبعثون بعد الموت لترجعوا إلى حسابنا وجزائنا ، كلا ليس الأمر كما زعمتم ، فإن خلقكم عبثاً لا يليق بربوبيتنا .

١١٦- (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) .

أى : فتنزه الله بذاته عن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح الحميدة ، فهو الملك الحق الثابت له الملك عن جدارة واستحقاق ، الواحد الذى لا معبود بحق إلا هو مالك العرش العظيم فى مكانته وشرفه ، ومن كان كذلك فلا يصح عقلا أن يخلقكم عبثا ، ولا أنكم إليه لا ترجعون للحساب والجزاء كما زعمتم .

والمراد من وصف العرش بالكريم أنه عظيم الشرف ، وكل ما شرف وعظم فى بابه يوصف بالكريم ، ومنه قوله تعالى : « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ »^(١) وقوله : « وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا »^(٢)

١١٧- (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) :

بين الله تعالى فى الآية السابقة أنه سبحانه هو الملك الحق دون سواه فكل الملوك عبيده المسخرين منه لخدمة شعوبهم ، ولا مُلكَ لهم فى الحقيقة فيما مكنهم الله منه ، كما بين أنه لا معبود بحق سواه ، وأنه رب العرش العظيم ، ومن هذا شأنه فلا يصح أن يعبد سواه وجاءت هذه الآية لتؤكد ما أفادته التى قبلها ضمنا من فساد عبادة سواه ، ولتبين سوء عاقبة من يعبد غيره تعالى .

والمعنى : من يعبد مخلوقا من مخلوقات الله يزعمه إلها آخر ، لا يمكن أن يكون له أى دليل على ربوبيته وصحة عبادته - من يعبد مع الله أو يفرد بالعبادة - فما حسابه وعقابه الشديد إلا عند الله ربه وخالقه ومالكة ، إنه لا يفوز ولا ينجو من عقابه الكافرون العابدون لسواه ، أو المشركون له مع الله .

نقل الإمام ابن كثير عن قتادة قال : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لِرَجُلٍ : مَا تَعْبُدُ ؟ قَالَ : أَعْبُدُ اللَّهَ وَكَذَا وَكَذَا - حَتَّى عَدَّ أَصْنَامًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

(١) سورة الدخان ، الآيات : ٢٥ ، ٢٦

(٢) سورة الإسراء ، من الآية : ٢٣

فأيّهم إذا أصابك ضرٌّ فدعوته كشفه عنك ، قال : الله عز وجل ، قال : فأأيّهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها ؟ قال : الله عز وجل ، قال : فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه ؟ قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (تعلمون ولا يعلمون) قال الرجل بعد ما أسلم : (لقيت رجلاً خَصَمَنِي)^(١) أى : غلبنى فى الخصومة والمقصود من قوله - صلى الله عليه وسلم - (تعلمون ولا يعلمون) أن هذه المعبودات لا عقل لها ولا علم وأنتم أيها العابدون أفضل منها بالعقل والعلم ، فكيف تعبدون من دونكم .

١١٨ - (وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) :

الأمر هنا موجه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وإلى أمته تبعاً له ، فهو إمامهم ، وطَلَبُ النبي - صلى الله عليه وسلم - الغفران من ربه لنفسه ، إنما هو من باب هضم النفس ، واهتمامها بالتقصير فى الطاعة مع الله ، وليس المقصود أن يغفر له ذنباً حدث منه ، فإنه - صلى الله عليه وسلم - معصوم من الذنوب .

والمعنى : وقل - أيها النبي أنت وأمتك - : يارب اغفر لنا تقصيرنا فى طاعتك ، واشملنا برحمتك الدنيوية والأخروية ، وأنت خير الراحمين ، لأن رحمتك وسعت كل شيء .

وقد علّم النبي - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - أن يقول نحوه فى صلاته ، فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبي بكر - رضى الله عنه - أنه قال : يا رسول الله علمنى دعاءً أدعوه به فى صلاتى ؟ قال : « قل : اللهم إني ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » .

سورة النور

هذه السورة مدنية ، وحكى أبو حيان الإجماع على ذلك ، وآياتها أربع وستون ، وجاءت تالية لسورة (المؤمنون) لتشرح ما ينبغى أن يكونوا عليه من الآداب الإسلامية الفاضلة ، ولأنه لما ذكر في سورة (المؤمنون) أن حفظ الفروج من مميزاتهم وصفاتهم الأساسية ، وأنها من أسباب فلاحهم في الدارين ، ناسب أن تكون السورة التي تليها متضمنة أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزاني ، وما يتصل بذلك من أحكام القذف للأعراض البريئة ، ووجوب غض البصر الذي هو داعية الزنى ، ووجوب الاستئذان صيانة لكرامة البيوت وأعراض أهلها ، والأمر بالنكاح حفظاً للفروج ، والنهي عن إكراه الفتيات على الزنى ، إلى غير ذلك من الآداب ، وبما أن سورة النور تضمنتها ، فكانت لذلك جديرة بأن تكون تالية لها .

ما جاء في فصلها :

رَوَى عن مجاهد أنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » وعن حارثة بن مضرب قال : (كتب إلينا عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور) .

مقاصدها :

تضمنت هذه السورة وجوب جلد الزانية والزاني وأن لا تأخذناهما رافة ؛ حماية لأعراض المسلمين ، وأن رمى المحصنات بالزنى يقتضى الجلد ثمانين جلدة ، وأن لا تقبل لمن يرميهن شهادة أبداً وأن يظلوا متصفين بالفسق ، ما لم يأتوا على دعواهم بأربعة شهداء عدول على واقعة الزنى التي ادعوها ، كما تضمنت أن الذى يرمى زوجته بالزنى ، ولا يجد شهوداً أربعة ، يتخلص باللعان من حد قذفها ، فإذا لاعن عُوقبت^(١) زوجته على زناها ، ويَدْرَأُ عنها العقاب أن تلاعن بعد لعانه .

(١) سياتى الكلام على عقابها في موضعه .

وتحدثت عن قصة الإفك التي زعمها المنافقون في حق أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وبينت أنها بريئة مما زعمه الآفكون في حقها ، وأنهم عند الله هم الكاذبون ، وأن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، وأن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، وجاء فيها : (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ) ونهت عن دخول الإنسان بيتاً غير بيته حتى يستأذن ويسلم على أهله ، فإن لم يجد فيه أحداً يستأذنه فلا يدخله ، وأن عليه أن يرجع إن لم يؤذن له بالدخول .

وأمرت المؤمنين والمؤمنات أن يغضوا أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، وحثت المؤمنات على إخفاء زينتهن إلا ما ظهر منها ، وأجازت إظهارها للأزواج ولأَصْنافِ تَوْمنُ مَعْبَتُهُم كالأبَاء والإخوة وآباء الأزواج ، والأطفال غير المميزين ، ونهت عن ضربهن الأرض بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن كالخلخال ، وحثت على إنكاح الأيامى والصالحين من العبيد والإماء ، حماية لأخلاقهم ، وأمرت من لا يستطيع نفقات الزواج بالاستعفاف حتى يغنيه الله من فضله ، وحثت على مكاتبة الأرقاء ، ومساعدتهم بالمال ليتحرروا من الرق ، كما نهت عن إكراه الفتيات على البغاء ، وبينت أنه تعالى نور السموات والأرض ، فهو الذى خلقهما وخلق النور فيهما ، ومثلت نور آياته وبراهين هدايته في قلوب المؤمنين بمشكاة وُضع فيها مصباح ، أى : سراج منير ، وهذا السراج في قنديل من الزجاج الصافى الأزهر ، كأنه كوكب مضيئ متألئ ، ثم قال الله سبحانه : « يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ » من عباده ، فيوفقه إلى إصابة الحق : « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ » تقريباً لأفهامهم : « وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

وبينت أن الله تعالى بيوتاً ومعابد : « أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ » وأنه سيجزيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، وأن أعمال البر من الكفار لا تنجيهم من النار بسبب كفرهم ، فهي « كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » ، « أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ »

سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَذْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ .

وتحدثت عن تسبيح كل من في السموات والأرض لله ، وأنه تعالى يعلم صلاتهم وتسبيحهم ، وعن قدرته سبحانه وتعالى على أن ينشئ السحاب ويزجيه ثم يجعله ركاماً بعضه فوق بعض ، وأن المطر يخرج من خلاله ، وأن السحاب على هيئة جبال ، قاعدتها إلى أسفل وقمتها إلى أعلى ، وأنه تعالى ينزل منه بَرْدًا - أي ثُلْجًا - كما يُنْزَلُ منه المطرُ وأن ضوء برق السحاب يكاد يخطف الأبصار بسرعه ، وأنه تعالى خلق كل دابة تدب على الأرض - خلقها - من ماءٍ خاص بتلك الدابة ، وجعل هذه الدواب أنواعاً تبعاً لاختلاف مائها وأصلها : « فَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ » وأنه تعالى يخلق ما يشاء وهو على كل شيء قدير ، ثم ذكرت أحوال المنافقين ورياءهم ، وميلهم إلى تحكيم رؤساء اليهود في خلافهم مع بعض اليهود ، بغير حق ليجاملوهم بالقضاء لصالحهم ضد مواطنيهم ، لتركهم تحكيم رسولهم ، وإذا كان لهم الحق جاءوا إلى الرسول مدعين ، فهم ليسوا طلاب حق ، بل هم ظالمون .

ووصفت صورة أخرى من ريائهم ، وهي أنهم كانوا يُقْسِمُونَ أن الرسول لو دعاهم إلى الجهاد معه لخرجوا ، فكذبهم الله وقال : « إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » وأمرهم أن يطيعوا الله ورسوله بإخلاص حتى يهتدوا ، وبين لهم أنه ما على الرسول إلا البلاغ ، وقد فعل .

ثم تحدثت عن وعد كريم من الله للمؤمنين الصالحين ، وهو أنه سيستخلفهم في الأرض ، ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، ما داموا قائمين بطاعته .

ثم ذكرت الأوقات التي يتحتم فيها الاستئذان من العبيد والإماء والمميزين الذين لم يبلغوا الحلم من الأحرار ، وأول هذه الأوقات : ما قبل الفجر ، وثانيها : نصف النهار حيث القيلولة والراحة بعد صلاة الظهر ، وثالثها : بعد صلاة العشاء ، أما ما عداها من الأوقات فيباح لهم عدم الاستئذان فيها للحاجة إليهم في قضاء المصالح ، وعدم وجود عورات يخشى منها في غير هذه الأوقات .

فإذا بلغ الأطفال الأحرار الحُلُم فقد أصبحوا رجالاً ، فعليهم الاستئذان في كل الأوقات
كما استأذن الذين ذكروا قبلهم في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا
غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » .

ثم ذكرت أن القواعد من النساء المتقدمات في السن اللاتي لا يطمعن في نكاح ، يباح
لهن وضع الملابس الظاهرة كالملحفة^(١) ، غير قاصدات إظهار الزينة التي تحتها ، وبينت
أن الاستعفاف بعدم التخلي عن الثياب الظاهرة خير لهن ، وبينت أنه ليس على الأعمى
والأعرج والمريض حرج في ترك الجهاد وما يطلب من الأصحاء ، كما ذكرت البيوت التي
يباح الأكل فيها دون استئذان ، وهي بيوت الأقارب والأصدقاء ، وذلك بعد إلقاء
السلام عليهم وتحيتهم ، فكأن السلام على هؤلاء الأجباب بمنزلة الاستئذان منهم ، ثم
نهت عن ترك المسلم مجلس رسول الله المعقود لأمر جامع ، كالجهاد والتدبير للحرب والجمعة
والعيدين ، إلا أن يستأذنه لبعض شأنهم فيأذن لهم ، وحذرت المتسللين المخالفين
عن أمره أن تصيبهم فتنة أو عذاب أليم ، إلى غير ذلك من المقاصد التي سنفصلها في شرح
الآيات بمشيئة الله تعالى .

(١) أى : ترك لبسها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾)

المفردات :

(سُورَةٌ) : من معانيها في اللغة ؛ : المنزلة الشريفة ^(١) . وقد أطلقت على سور القرآن ؛ لعظيم شرفها . (فَرَضْنَاهَا) : أى أوجبنا العمل بأحكامها ، وأصل الفرض : القطع ، أى جعلناها مقطوعاً بها ، لا سبيل إلى الفكاك من الالتزام بها ، ومنه فرائض الميراث والنفقة . (لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) : لكى تعتبروا . (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي) : وصفان من الزنى ، وهو وطء الرجل امرأة في فرجها من غير عقد أو ملك يجيز له وطأها . (فَاجْلِدُوا) : الجلد ، إصابة الجلد بما يؤله ، وسيأتى بيانه في التفسير . (لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ) : لا تمنعكم عن إقامة أحد الجلد عليهما شفقة في شرع الله وحكمه . (طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) : جماعة تحف بهم ليعتبروا ، ووصفهم بطائفة لا يقصد منه أن يطوفوا ويحلقوا بالمجلود عند جلده ،

(١) وفي هذا المعنى يقول النابغة الذبياني في قصيدة يمدح بها النعمان ويعتذر إليه :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
أى : أعطاك منزلة شريفة رفيعة بين الملوك .

بل مجرد اجتماعهم حينئذ كاف ، والوصف بالطائفة لبيان الشأن فيهم .
 (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) أى : شأن الزانى أنه لا يرضى بالإثم معه إلا خبيثة مثله من الزواني والمشركات ، دون العفاف المحصنات ، وكذا الأمر فى الزانية لا يرضى بالإثم معها إلا خبيث مثلها من الزناة والمشركين ، دون الأتقياء الصالحين ، وسيأتى للآية معنى آخر فى موضعها .

التفسير

١ - (سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) :

أى : سورة عظيمة أنزلناها إليكم أيها المسلمون ، وفرضنا ما فيها من الأحكام عليكم لتنفيذوها وتعملوها ، وأنزلنا فيها آيات واضحة الدلالة على ما فيها من الأحكام والآداب ، فليس فيها مشكلات أو مشتبهات تحتاج إلى التأويل ، لعلمكم تتذكرون وتتعتظون بما جاء فيها من الأحكام الشرعية والأخلاق الاجتماعية ، لتكونوا جديرين بكونكم خير أمة أخرجت للناس ، وعبر بقوله : « وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » مع كونه غير محتاج إليه فى أصل المعنى لشمول إنزال السورة لكل آياتها - عبر به - لإبراز كمال العناية بشأن إنزال تلك الآيات الدالة على المثل العليا من الأحكام والآداب ، فلهذا تكرر لفظ (أنزلنا) .

وللإمام الرازى رأى لطيف فى حكمة هذا التكرار ، فقد قال : إن الله تعالى ذكر فى أول السورة أنواعاً من الأحكام والحدود ، وفى آخرها دلائل التوحيد ، فقوله تعالى : « وَفَرَضْنَاهَا » إشارة إلى الأحكام المبينة أولاً ، وقوله سبحانه : « وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » إشارة إلى ما بين من آيات التوحيد ، ولهذا ختم الآية بقوله : « لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » فإن الأحكام لم تكن معلومة حتى يتذكروها : اهـ

يقصد أن التذكر هنا بمعنى : الاعتبار بآيات التوحيد ، لا تذکر آيات الأحكام لأنها لم تكن معلومة حين نزول هذه الآية حتى يتذكروها .

٢ - (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) :

كان الزنى معروفاً فى الجاهلية بما عرف به فى الإسلام ، فهو فى لغة العرب وطء الرجل امرأة لا يحل له وطؤها ، والذى استحدثت فى الإسلام هو بيان فحشه ، وفرض الحد على

من يمارسه من الرجال والنساء وقد ذكرت أحكامه في سورتي النساء والنور ، وفي السنة النبوية الصحيحة ، ولشيوع الزنى في الجاهلية في الحرائر والإماء ، تدرج الإسلام في عقوبة الزناة ، فبدأً بالحبس ، وثُمَّ بالأيذاء بغير تحديد ، ثم بجلد غير المحصن مائة جلدة ، ورجم المحصن .

فأما الحبس فكان للنساء خاصة متزوجات أو أبكاراً ، وذلك بعد ثبوت الزنى عليهن بشهادة أربعة شهود ، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة النساء : « وَاللَّائِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَاَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا »^(١) وكان حبس المرأة في البيوت قبل أن تستحدث السجون ، فلما استحدثت كُنَّ يُحْبَسْنَ فيها ، روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن جبير أنه قال : (كانت المرأة أول الإسلام إذا شهد عليها أربعة من المسلمين عدول بالزنى حبست في السجن ، فإن كان لها زوج أخذ المهر منها ، ولكن ينفق عليها من غير طلاق وليس عليها حد ولا يجامعها) : ١ هـ

وأما الإيذاء فكان للزناة من الرجال جميعاً ، وأشار إلى محصنيهم وغير محصنيهم بالثنية ، فيكون الإيذاء لهم دون النساء ، ويشهد لذلك قوله في الآية : « وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ » أي منكم أيها الرجال وبه قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

وقيل إن الإيذاء كان للزناة من الرجال والنساء محصنين أو غير محصنين ، قال قتادة : كانت المرأة تحبس ويؤذيان جميعاً ، وهذا لأن الرجل يحتاج إلى السعى والاكتساب ليصرف على أهله ولا يوجد نص يدل على أن الحكم بإيذاهما كان معاصراً للحكم بحبس المرأة ، أو أنه تأخر عنه فكان مرحلة ثانية لعقاب الزناة - وهو الظاهر - ، ولم يُحدّد الإيذاء في الآية ، إذ يقول سبحانه : « وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَاَذُوهُمَا » ولهذا قال بعض العلماء : إنه كان بالتوبيخ والتعيير^(٢) ، ومنهم من قال : هو النيل باللسان والإيذاء بنحو اليد والنعل .

والمرحلة الثالثة : هي الحد ، وهو نوعان (أحدهما) أن يجلد كل من الزاني والزانية

(١) ويدل على تخصيص الحبس بالنساء قوله « من نسائكم » وعن قال بتخصيصه بهن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

(٢) فيقال لهما : فجزتما وفسقتما وخالفتما أمر الله عز وجل .

مائة جلدة ، وهو ما جاء في سورة النور ، وهو خاص بمن لم يسبق له زواج منهما . (وثانيهما) أن يرجما إن سبق لهما الزواج ، ويطلق على النوع الأول من الزناة (غير محصن) وعلى الثاني (محصن) وسنبين أدلة الرجم حين الكلام عليه إن شاء الله تعالى .

والجلد في اللغة : ضرب الجلد ، وفيه إشارة إلى أن من يقوم بعقاب الزاني لا يبالغ فيتجاوز الجلد إلى الإضرار باللحم ، ويقول الآلوسي ما خلاصته : إن الزانية والزاني يجلدان بسوط لا عقدة فيه ولا فرع له كما دلت عليه الأخبار ، والجلد بالسوط كان في عهد عمر رضى الله عنه ، وبإجماع الصحابة ، وأما قبله فكان تارة باليد ، وتارة بالنعل ، وتارة بالجريدة الرطبة وتارة بالعصا . . هكذا قال الآلوسي ، وسمى نحو الضرب باليد أو النعل جلداً ، لما فيه من إصابة الجلد بما يؤلّه .

ومن العلماء من قال بنزع ثياب المجلود سوى إزاره ، وإليه ذهب الحنفية والمالكية ، ومنهم من قال : يبقى عليه قميص أو اثنان كالشافعي وأحمد ، ومنهم من قال : تبقى عليه ثيابه إلا الفرو والمحشو^(١) ، وعن ابن مسعود : لا يحل في هذه الأمة تجريد من الثياب ولا مد : هكذا نقل الآلوسي عن أولئك الأئمة^(٢) .

ثم قال : وينبغي أن لا يكون الضرب مبرحاً ، لأن الإهلاك غير مطلوب ، ولهذا قالوا : إذا كان من وجب عليه الحد ضعيفاً فخير عليه الهلاك يجلد جلداً ضعيفاً يحتمله ، كما قالوا : يُفَرَّقُ الضرب على أعضاء المَحْدُودِ ، لأن جمعه في عضو قد يفسده ، وربما يفرضى إلى الهلاك ، وينبغي أن يُتَّقَى الوجه والمذاكير والرأس والبطن والصدر : انتهى ملخصاً مما نقله الآلوسي عن الأئمة .

وقد أوجب الله تعالى أن يجلد كل من الزانية والزاني مائة جلدة ، وهذا الحكم خاص بالبالغ العاقل الحر غير المُحْصَن ، وهو الذى لم يتزوج منهما ، أما العبيد والإماء البالغون الذين لم يسبق لهم زواج فحد الزاني أو الزانية منهما خمسون جلدة فقط ، لقوله تعالى في الإماء : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ »^(٣) والعبيد مثلهن ، إذ لا فرق بينهم وبينهن في الفاحشة ، فليكن العقاب لهن كذلك .

(١) لأن المقصود إيصال الألم إلى الجلد وإن لم يكن بطريق مباشر . (٢) ونقل القرطبي عن الجمهور

(٣) سورة النساء ، من الآية : ٢٥

وجوب أن لا يخرج الضارب يده من تحت إبطه .

وذكر الزانية مع الزاني ليكون أصرح في توقيع الجلد عليها من أن يقال : (والزاني فاجلدوه) وقدمت على الزاني لأن الزنى في النساء كان فاشياً حين نزول الآية ، وكان لإماء العرب وبغاياهم رايات ، وكُنَّ مجاهرات بذلك ، ولأن الزنى في النساء أكبر مَعْرَةً منه في الرجال ، ولما يترتب عليه من الحمل ، ولأن الباعث غالباً. منهن ، وظاهر الآية يقتضى عموم الجلد للزناة ولو كانوا محصنين - ولكن السنة الصحيحة والإجماع خصّاه بغير المحصن ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

والخطاب في قوله تعالى : « فَاجْلِدُوا » موجه إلى المسلمين ، ولكن الإمام أو نائبه ينوب عنهم ، لأن اجتماعهم على إقامة الحد متعذر .

المحصن حده الرجم

المراد بالمحصن هنا : البالغ العاقل الحر الذي سبق له الوطء في نكاح صحيح ، فإن زنى فحده الرجم حتى يموت ، وهذا الحكم أجمع عليه الصحابة وعلماء الأمة وأئمتها ، ولم ينكره سوى الخوارج ، وهم بإنكارهم هذا يخالفون إجماع الصحابة ، وجميع علماء أئمة المسلمين ، والله تعالى يقول في وجوب العمل بالإجماع : « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا »^(١) .

ويستند إجماع الصحابة والأئمة بعدهم إلى ما صح من أمره - صلى الله عليه وسلم - برجم المحصن ، فقد تضافرت الطرق على أنه - صلى الله عليه وسلم - جاءه ماعز معترفاً بزناه ، فأعرض عنه مراراً ، ثم عَرَّضَ له بالرجوع عن إقراره ، فلما أصر وكان متزوجاً أمر برجمه ، أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : « لَمَّا أَتَى مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لَهُ : لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ أَوْ غَمَزْتَ أَوْ نَظَرْتَ . قَالَ : لَا - وَصَرَحَ بِحَقِيقَةِ زَنَاهُ - قَالَ : فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ بِرَجْمِهِ ، وَقَدْ شَرَحَ الْبُخَارِيُّ قِصَّتَهُ فِي رِوَايَةٍ لَهُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : « أَتَى رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ ، فَنَادَاهُ : إِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ زَنَيْتُ - يَرِيدُ نَفْسَهُ -

فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَتَنَحَّى لِشِقِّ وَجْهِهِ ^(١) الَّذِي أَعْرَضَ قِبَلَهُ ^(٢) ،
فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي زَنَيْتُ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، فَجَاءَ لِشِقِّ وَجْهِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
الَّذِي أَعْرَضَ عَنْهُ ، فَلَمَّا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ ، دَعَاهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
فَقَالَ : أَبَيْكَ جُنُونٌ ؟ قَالَ : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : أَحْصَنْتَ ^(٣) ؟ قَالَ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
قَالَ : « اذْهَبُوا فَارْجُمُوهُ ... » الْحَدِيثُ ، وَقَدْ رُوِيَ قِصَّةُ مَا عَزَّ هَذَا فِي جَمِيعِ كُتُبِ السَّنَةِ
وَفِيهَا تَفْصِيلَاتٌ عَدِيدَةٌ ، وَجَاءَ فِي بَعْضِهَا أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ فِي شَأْنِهِ :
« لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِّمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسَّعَتْهُمْ » ، كَمَا يَسْتَنْدُ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ عَلَى رَجْمِ
الْمُحْصَنِ إِلَى قِصَّةِ الْغَامِدِيَّةِ ، فَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، أَثْنَاءَ حَدِيثٍ طَوِيلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ بَرِيدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : « فَجَاءَتِ الْغَامِدِيَّةُ ^(٤) فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ
فَطَهَّرْنِي ، وَإِنَّهُ رَدَّهَا ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَرُدُّنِي ؟ أَلَمْ يَكُنْ أَنْ تَرُدُّنِي كَمَا
رَدَدْتَ مَا عَزَّ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لِحُبْلَى ، قَالَ : « إِمَّا لَا ^(٥) ، فَاذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطَمِيهِ ، فَلَمَّا
فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كَسْرَةٌ خَبِزَ ، فَقَالَتْ : هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ وَقَدْ أَكَلَ
الطَّعَامَ ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحَفَرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا وَأَمَرَ النَّاسَ
بِرَجْمِهَا » وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ كَانَ مِمَّنْ رَجَمَهَا وَأَنَّهُ سَبَّهَا ، فَعَلِمَ النَّبِيُّ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمَقَالَةِ خَالِدٍ فِيهَا فَقَالَ : « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا
صَاحِبُ مَكْسٍ ^(٦) لَغُفِرَ لَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصُلِّيَ عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ » وَقَدْ رَوَى هَذِهِ الْقِصَّةَ جَمِيعُ
كُتُبِ السَّنَةِ أَيْضًا .

وقد حدث مثل ذلك في امرأة من جهينة جاءت النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهي حُبْلَى
واعترفت بزناها ، فتركها حتى وضعت ، فأمر بـرجمها ثم صلى عليها ، فقال له عمر :

(١) أى : ذهب ما عزر إلى الجهة التي اتجه الرسول إليها بعد أن أعرض عنه ليواجهه مرة أخرى باعتارافه بالزنى .

(٢) أى : الذى أعرض وجهه وناحيته .

(٣) أى : هل تزوجت .

(٤) نسبة إلى غامد وهي فصيلة من قبيلة الأزد ، انظره في ج ٤ ص ٢٧٧ رقم ٢١ في أحاديث حد الزنى في شرح مسلم للإمام النووي .

(٥) أى : إن كنت لا تريدني الرجوع عن إقرارك ، وقد صرحت بحقيقة أمرك .

(٦) المكس : ما يفرضه أعوان الظلمة على الناس في البيع والشراء ، والحديث يدل على خطورة جريمة المكس عند

(تصلى عليها يا نبي الله وقد زنت ؟) فقال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبةً أفضل من أن جاءت بنفسها لله تعالى » : ١ هـ من حديث أخرجه مسلم بسنده في كتاب الحدود (باب حد الزنى) ج ٤ شرح النووي ص ٢٨ رقم ٢٢

كما استند الإجماع إلى ما قضى به - صلى الله عليه وسلم - في قصة العسيف وزوجة الأعرابي ، فقد روى مسلم بسنده عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أنهما قالوا : إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله ، فقال الخصم الآخر وهو أفضقه منه : نعم فاقض بيننا بكتاب الله واثذن لي ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قل » قال : إن ابني كان عسيماً على هذا^(١) فزني بامرأته ، وإني أخبرت أن على ابني الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة^(٢) فسألت أهل العلم فأخبروني أن ما على ابني جلدٌ مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « والذي نفسي بيده ، لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم رد^(٣) » ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها » قال : فغدا عليها فاعترفت ، فأمر بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرجمت^(٤).

والمراد من قضاء الرسول بينهما بكتاب الله أنه يقضى بينهما بحكمه تعالى المكتوب عنده على الزناة المحصنين وعلمه رسوله ، وليس المراد منه القرآن .

وكما استند الإجماع إلى أفعال الرسول استند أيضاً إلى أقواله التي روتها كتب الصحاح .

(١) أى : أجيرا عنده .

(٢) أى : جارية .

(٣) أى : يردان عليك ويعودان إليك .

(٤) شرح النووي ج ٤ ص ٢٨١ رقم ٢٣ .

اعتراض الخوارج على عمر بن عبد العزيز في الرجم والفحامة اياهم

كان عمر بن عبد العزيز يقول بالرجم وينفذه كسائر أمراء المؤمنين ، فعاب عليه الخوارج ذلك ، قائلين : إنه ليس في كتاب الله ، فآلزمهم بأعداد الركعات ومقادير الزكوات ونحو ذلك مما فصلته السنة ولا يوجد في كتاب الله ، فقالوا : ذلك من فعله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين ، فقال لهم : وهذا أيضاً كذلك .

وقد تنبأ بذلك عمر بن الخطاب ، فقد روى البخارى بسنده عن ابن عباس قال : قال عمر : (لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل : لانجد الرجم في كتاب الله عز وجل ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله عز وجل ، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أَحْصَنَ - أى : تزوج - إذا قامت البينة أو كان الحمل أو الاعتراف)^(١) .

لماذا لم يذكر الرجم في القرآن

قد يقول قائل : قد ذكر الله من أحكام الزناة الحبس والإيذاء والجلد في القرآن ، فلماذا لم يذكر فيه الرجم ، ولعله أولى منها بالذكر لشدة ؟

فالجواب : أنه تعالى قد أنزل في سورة النساء : « وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نُسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » ولم يعين في الآية السبيل الذى سوف يجعله لهن عوضاً عن الحبس في البيوت ، أيكون نصاً قرآنياً ، أم يكون حكماً ينزل به جبريل على رسول الله ليبين به الرسول السبيل الذى ينسخ الحبس في البيوت حتى الموت ، ثم أنزل الله السبيل الناسخ لحبس الزانية في البيوت ، فجعله في القرآن مائة جلدة لكل من الزانية والزاني ، وجعله في السنة الرجم للمحصن من كل منهما .

(١) وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال :

(خطب عمر بن الخطاب فذكر الرجم فقال : لا تخف من حد من حدود الله ، ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قد رجم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون : زاد عمر في كتاب الله ما ليس فيه لكتبت في ناحية من المصحف : وشهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وفلان وفلان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قد رجم بعده ، ألا وإنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم وبالرجال وبالشفاعة وبمذاب القبر ، ويقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا) ابن كثير . والامتحاش : الاحتراق .

وقد اعتبر بعض الفقهاء ما جاء في السنة مخصصاً لعموم الجلد وقاصراً له على غير المحصن ، واعتبره بعض آخر منهم عقوبة للمحصن زائدة على جلده ، فيجلد مائة ثم يرحم ، والرأي الأول أرجح ، لأن النبي لم يجمعهما على محصن في عهده ، ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن الله تعالى أعطى نبيه حق بيان القرآن بقوله : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » وهذا البيان ملزم للمسلمين أن يعملوا به لقوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » فالنبي حين بين أن حكم الزاني المحصن من الإناث والذكور الرجم يكون قد بين السبيل الثاني الذي جعله الله بدلاً من حبس الزناة وإيذابهم الواردين في سورة النساء ، تنفيذاً لوعده الله إذ يقول : « أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » كما بين عملياً أن السبيل الأول الوارد بآية الجلد خاص بمن لم يتزوج ، وكلاهما حق منحه الله لنبيه ، ومعظم ما جاء في القرآن قواعد عامة ، فلم يتعرض القرآن لتفصيل الأحكام إلا قليلاً ، والحكمة في ذلك أن يتيسر حفظه ويتضح إعجازه ، ولهذا أُحيل تفصيل معظم الأحكام ولو كانت خطيرة على الرسول بوحى من الله تعالى ، كتفصيل أحكام الصلاة والزكاة ، فإنهما لم يرد عنهما في القرآن سوى الأمر بهما دون تفصيل لأركانهما وشروطهما وأوقاتها ، وَغَيْرُهُمَا كثير على هذا النمط .

ولعل الحكمة في إسناد بيان حكم الرجم إلى الرسول أن يَعْلَمَ المؤمنون أن السنة يجب الأخذ بها حتى في أخطر الأحكام . والله الموفق .

الحكمة في تشديد الحد على الزناة

قد يقول قائل : لماذا شدد الإسلام في حد الزناة ، فجعله في غير المحصن من الذكور والإناث إلى مائة جلدة ، وفي المحصن منهما إلى الرجم ؟

والجواب : أن العقاب ينبغي أن يكون بقدر حجم الجريمة ، ولما كان الزنى تترتب عليه آثار سيئة في المجتمع الإسلامي ، حيث تفضح به الأعراض ، وتختلط به الأنساب ،

وَيُخْتَنُّ بِهِ الْأَزْوَاجُ وَالْأَهْلُونَ الْمَخْدُوعُونَ فِي شَرَفِ ذَوِيهِمْ ، وَتَقْتُلُ بَعْدَهُ الْأَجْنَةُ أَوْ الْأَطْفَالُ
الناجمون عنه ، تخلصاً من عارهم ، وتنتشر به الفتن والمفاسد والتحلل الخلقي - لَمَّا كَانَتْ
تترتب عليه تلك الآثار - جعل الله الحد فيه شديداً دَرَجَةً لمفاسده ، ووقاية للمجتمع من شروره
وويلاته ، فإذا علمه من تميل نفسه الخسيسة إلى الزنى ، تجنبه خوفاً من عقوبته في الدنيا
والآخرة .

ولاشك أن تنفيذ الحد على الزناة ، بالصورة التي أرادتها الشريعة ، يحدث أثراً
طبيعياً في المجتمع الإسلامي ، حيث يكف الفجرة عن الزنى خوفاً من عقوبته ، فتسلم الأعراض
وتصان الحرمات وتصحح الأنساب ، وينتهى وأد الأجنة ، وتمتنع الفتن ، بل يتلاشى
تنفيذ هذا الحد ، لعدم وقوع الزنى ، أو يندر تنفيذه لندرة وقوع الزنى أو تعذر إثباته .

شروط اقامة الحد وما ينبغى للقاضي

لا يقيم حد الزنى على من اقترفه ، إِلَّا إِذَا ثَبِتَ الزنى عليه باعترافه - ذكرنا كان أو أنثى -
وإصراره على هذا الاعتراف - أو بآن يشهد عليه أربعة شهود عدول رأوا الواقعة وحكوها
على طبيعتها تماماً ، أو بِحَمْلِ الْبُكَرِ أو الشيب التي لا زوج لها ، فَمَّا اعترف الزاني بزناه
فإنه إذا كان قد حدث في العصر النبوي ، طلباً للبراءة من إثمه قبل لقاء الله تعالى . ، فإنه
يندر حلوثه في هذا العصر الذي كثرت فيه المآثم ، بل ربما ينعدم ، لأن الشرع لا يلزمه
بالاعتراف سترًا لإثمه وفتحاً لمجال التوبة له فيما بينه وبين ربه - كما سنبينه ..

وأما اجتماع الشهود الأربعة في وقت واحد ، ورؤيتهم واقعة الزنى بتفاصيلها ، فما لم
يكن عن طريق الصدفة ، فإنه يتعذر حصوله عن طريق الاستدعاء ، وبما أن الصدفة في ذلك
أمر بعيد الاحتمال ، وحضور الشهود بطريق الاستدعاء يتم بعد حصول الجريمة ، فلهذا يكون
إثباته عن طريق شهود الرؤية أمراً متعذراً .

وأما إثباته بحمل البكر أو الثيب التي لا زوج لها ، فهو نادر ، بل ربما كان بعيد الاحتمال في عصر ابتكرت فيه وسائل منع الحمل .

وقد بلغت سماحة الإسلام في تجنيب الزاني حد الزنى ، وتركه لربه لعله يتوب فيما بينه وبينه ، أنه ينبغي للقاضي أن لا يتعقب اعترافه ، فقد روى البخارى في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : (كنت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فجاء رجل فقال : إني أصبت حدا فأقم في كتاب الله ، قال : « أليس قد صليت معنا ؟ قال : نعم ، قال : فإن الله قد غفر لك ذنبك - أو قال - : حدك » .

وإذا أصر الزاني على اعترافه بأنه زنى ، رغبة في إقامة الحد ، ينبغي للقاضي أن يصرفه عن اعترافه هذا بالتعريض له بتركه ؛ فقد روى البخارى في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال : (لما أتى ماعز النبي - صلى الله عليه وسلم - قال له : « لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت » قال لا يا رسول الله) أى : أنه - صلى الله عليه وسلم - يريد أن يقول له : لعلك اعتبرت واحداً من هذه الثلاثة زنى ، فقلت إنك زنيت ، وليس في مثل ذلك حد فانصرفت ، ولكنه أصر على أنه زنى حقيقة ، ولقد مضى أن النبي كان يعرض بوجهه عنه لينصرف ، فيعود فيواجهه النبي باعترافه أربع مرات ، فأمر برجمه .

ويروى البخارى في هذا حديثاً في صحيحه بسنده عن جابر (أن رجلاً من أسلم جاء النبي - صلى الله عليه وسلم - فاعترف بالزنى فأعرض عنه النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى شهد على نفسه أربع مرات ، فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : « أباك جنون ؟ » قال : لا ، قال : آخضنت^(١) ؟ قال : نعم ، فرجم بالمصلى ...) الحديث ، فمن هذا التفصيل نعلم أن إقامة الحد على الزاني محوطة بحصانة وضمانات تجعلها شبه متعذرة لحرص الشارع على الستر على الأعراض ، وترك الباب مفتوحاً للمذنب ليتوب إلى ربه فيما بينه وبينه .

لا يشترط في الرجم أن يكون بالحجارة

أخرج الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي سعيد (أن رجلاً من أسلم يقال له ما عز ابن مالك أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال : إني أصبت فاحشة فأقمه على ، فردّه

(١) أى : هل تزوجت .

النبي - صلى الله عليه وسلم - مراراً ، قال : ثم سأل قومه ، فقالوا : ما نعلم به بأساً ، إلا أنه أصاب شيئاً يرى أنه لا يخرج منه إلا أن يقام فيه الحد ، قال : فرجع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأمرنا أن نرجمه ، قال : فانطلقنا به إلى بقيع الغرقد - قال - فما أوثقناه ولا حفرنا له ، قال : فرميناه بالعظم والمدر والخزف ، قال : فاشتد واشتدنا خلفه حتى أتى عرض الحرة فانتصب لنا ، فرميناه بجلاميد الحرة . . . الحديث^(١) .

فأنت ترى أن أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - رجموا الزاني المحصن في عهده - صلى الله عليه وسلم - بالعظم وبالمدر ، وهو قطع الطين اليابس - كما في القاموس ، جمع مدرة بفتحات - ورجموه بالخزف - وهو قطع الفخار المكسور - كما رموه بجلاميد الحجارة حتى مات ، فهذا يدل على أن المقصود برجمه قتله بشيء جامد يفضي إلى موته ، فهل لنا أن نرجمه في عصرنا هذا بالرصاص ، قياساً على ما فعله أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - في عهده ، حيث لم يقتصروا في قتلهم ما عزا على جلاميد الحجارة ، بل استعملوا العظم وسواه من كل جامد يفضي إلى القتل ، والرصاص كذلك ؟

وإذا كان الرجم بالحجارة والعظم والخزف ونحوها أمراً اقتضته الضرورة في عهده - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يخترع الرصاص ، فهو اليوم ليس ضرورياً بعد اختراعه ، وقد يسمى إلينا استعماله في العصر الذي نعيش فيه ، حيث يحمل أعداء الإسلام على التشهير بنا بسببه ، هذه مسألة جدية بالنظر ومحتاجة إلى رأى المجتهدين للبت فيها والله الموفق . فإن قيل : إن الرمي بالحجارة يعطى المرجوم فرصة للهرب ، لأنه يرمى واقفاً من غير توثيق كما فعل بما عز ، والهرب من الحد مرغوب فيه ، أما الرمي بالرصاص فإنه يستلزم توثيقه وربطه ليصيبه ، فالجواب أن ما عزا لم يكن بحاجة إلى توثيقه وإمساكه فهو الذي أصر على إقامة الحد عليه^(٢) ، على أن تركه بلا إمساك ليس بواجب ، فقد جاء في حديث الغامدية الذي مرت روايته عن مسلم ، أن النبي لما أمر برجمها بعد فطمها صبيها ، حفر لها حفرة إلى صدرها فرجمت ، مع أنها جاءتته معترفة طالبة إقامة الحد عليها ، وأمهلهما النبي حتى

(١) انظره في ج ٤ شرح النووي على مسلم ص ٢٧٣ حديث رقم : ١٨ من باب حد الزنى .

(٢) بل لقد جاء عند مسلم في إحدى رواياته ، أن ما عزا لما أقر أربع مرات حفر له حفرة ثم أمر به فرجم .

ومعنى الآية على هذا: الزانى لا يليق به أن يتزوج إلا زانية أو مشركة لقبحه مثلها ، والزانية لا يليق أن يتزوج بها إلا زان أو مشرك كذلك ، فالخبثات للخبثين والخبثون للخبثات ، فالآية تُزهد في نكاح البغايا والزناة ، وليس الغرض منها إباحة زواجهن أو زواج المشركات للزناة من المؤمنين ، كما أنها تحث المؤمنين والمؤمنات على التصون من نكاح هذا النمط من الفساق ، وأن يكون الطيبات منهم للطيبين ، والطيبون للطيبات .

وعلى هذا التأويل يفسر قوله تعالى : « وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » بمعنى : حُرِّمَ نكاح البغايا والزناة على المؤمنين ^(١) ، لما فيه من التسبب في سوء القالة ، والتعرض للإقدام على مثل فعلهم ، فإن مجالسة الفساق والخطائين تحمل على مثل فعلهم ؛ فكيف بمزاوجة الزواني والزناة ، وبخاصة إذا كان بقصد التكسب بالفاحشة ، وفي الآية آراء مختلفة ، وما ذكرنا أفضلها ، ولو تزوج المؤمن بزانية فمع حرمة الزواج بها للأسباب المذكورة يصح العقد عليها فقد سُئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن رجل زنى بامرأة وأراد أن يتزوجها فقال : « الحرام لا يحرم الحلال » أخرجه الطبراني وغيره عن عائشة وبه أخذ أبو بكر وابن عباس وابن عمر وجابر وغيرهم .

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾)

المفردات :

(يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ) : يقدفون العفيفات بتهمة الزنى .

(الْفَاسِقُونَ) : الخارجون عن طاعة الله .

(١) فاسم الإشارة على هذا راجع إلى نكاح البغايا ، وعلى الوجه السابق راجع إلى الزنى المعبر عنه بالنكاح . انظر

ما قاله النسفي وغيره في مرجع الإشارة .

٣- (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) :

بيَّن الله في الآية السابقة أن مرتكب جريمة الزنى إذا كان حُرّاً يعجلده مائة جلدة ، سواء أكان من الرجال أم من النساء ، وأنه لا يحل للمسلمين أن يتساهلوا في تنفيذ هذا الحد رأفة بالزناة ، وأن يُشهرَ بهم عند تنفيذه بأن يشهد إقامة الحد عليهم طائفة من المؤمنين .

وجاء بهذه الآية عقبها ، لبيان حقارة الزانى والزانية ، وأن كليهما لا يرضى بالاستجابة إلى فاحشته إلا مثله أو أخس منه ، والنكاح في هذه الآية بمعنى الجماع كما صح عن ابن عباس ^(١) .

والمعنى على هذا : الزانى لِحِسَّتِهِ وقبحه ، لا يبطأ سفاحاً إلا زانية تماثله في فحشه وخبثه ، أو امرأة مشركة لا ترى فيه ما يشينها ، فكلتاها تطاوعه لفقد الوازع الدينى والحقا ليهما ، أما العفيفة المؤمنة فلا سبيل له إلى الفسق بها ، لحصانتها بعفتها ودينها المتين ، والزانية لخبثتها وفحشها لا يطؤها سفاحاً إلا زانٍ يماثلها في فحشها أو مشرك يحاكبها في خبثها ، وحرّم ذلك على المؤمنين ، لأنه لا يليق بإيمانهم التلوث بمثله ، ولو كان لدى الزناة إيمان لبعدوا عنه ، قال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » وأجاز بعض الأئمة تفسير النكاح هنا بالتزوج ، على ما هو معروف في نصوص القرآن الكريم ، ويؤيده ما أخرجه ابن أبى حاتم في سبب نزول الآية عن مقاتل أنه قال : (لما قدم المهاجرون المدينة قدموها وهم بجَهْدٍ لِّأَقْلِيَالٍ مِنْهُمْ ، والمدينة غالية السعر ، شديدة الجَهْدِ ^(٢) ، وفي السوق زوانٍ مُتَعَالِمَاتٌ من أهل الكتاب ، وإماءٌ لبعض الأنصار ، قد رفعت كل امرأة منهن على بابها علامة لتعرف أنها زانية ، وكنَّ من أخصب أهل المدينة وأكثرهم خيراً ، فرغب أناس من مهاجري المسلمين فيما يكتسبون للذى فيهم من الجَهْدِ ، فأشار بعضهم على بعض : لو تزوجنا بعض هؤلاء الزوانى ، فنصيب من فضول ما يكتسبن ، فإذا وجدنا عنهن غنى تركناهن ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

(١) أخرج أبو داود في ناسخه، والبيهقي في سننه، والضياء في المختارة، وجماعة من طريق ابن جبير عن ابن عباس أن النكاح هنا بمعنى الوطء

(٢) الجهد هنا : بمعنى الطاقة ، أى : أن المدينة شديدة الطاقة عليهم لغلأ أسعارها ، والجهد فيما تقدم : بمعنى الشدة ، يكفى بها عن الفقر بسبب الهجرة .

ناطقاً غير مكره ، عالماً بالحرمة ولو حكماً ، بأن نشأ في دار الإسلام ، ويشترط في الاتهام المقذوف به ، أن يكون بوطء يلزمه فيه الحد ، وهو الزنى أو اللواط أو بنى ولد عن أبيه ، فلا يكفي أن يقول للمقذوف : يا فاسق أو يا فاجر فإن في ذلك التعزير لا الحد إذا ثبت بإقرار أو بشهادة رجلين ، ويشترط في المقذوف : الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والعفة عن الفاحشة التي رى بها .

قال القرطبي في المسألة الرابعة : وإنما شرطنا في المقذوف العقل والبلوغ كما شرطناهما في القاذف وإن لم يكونا من معاني الإحصان ، لأجل أن الحد إنما وضع للزجر عن الإذابة بالمضرة الداخلة على المقذوف ، ولا مضرة على من عدم العقل والبلوغ - كذا قال .

فإذا قذف المسلم رجلاً أو امرأة من أهل الكتاب فلا حد على المسلم القاذف ولكنه يعزر ما لم تكن المقذوفة كتابية متزوجة بمسلم ، فقد قيل بجلد من يقذفها ، كما نقله القرطبي في المسألة السادسة ، ومن رى صبية بالزنى قبل البلوغ ، وكان يمكن وطؤها ، فإن ذلك يعتبر قذفاً يستوجب الحد عند الإمام مالك .

وقال الإمام أحمد في الجارية بنت تسع : يجلد قاذفها ، وكذا الصبي إذا بلغ عشرًا ، وقال الإمام مالك : إذا رى صبية يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى كان قذفاً يُحدُّ عليه ، وقال أبو حنيفة والشافعي وأبو ثور : ليس بقذف يُحدُّ عليه ، لأنها لو فعلته هي فلا يعتبر زنى في حقها ، لأنها لم تبلغ حتى تدخل دائرة التكليف ، ولهذا لا يقام عليها الحد ، ولكن يعزر من سبها ، ويقول ابن العربي تعقيباً على هذا الخلاف : المسألة محتملة مشكلة ، لكن مالكا راعى حماية عرض المقذوف^(١) وغيره راعى حماية ظهر القاذف ، وحماية عرض المقذوف أولى ، لأن القاذف كشف ستره ، فلزمه الحد^(٢) .

وقد بينت الآية أن الحد إنما يقام على القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء على واقعة الزنى ، فإن جاء بهم فلا يقام عليه حد ، ومثله ما إذا اعترف المقذوف بالزنى أو اللواط ، فإنه يسقط الحد عن القاذف ، ولا بد في شهادتهم أن تكون رواية مفصلة لواقعة عاينوها بحقائقها ، فإن امتنع أحدهم عن الشهادة ، وشهد غيره ، جلد هؤلاء الثلاثة كما يجلد القاذف تماماً ،

(١) وكذلك فعل الإمام أحمد .

(٢) انظر القرطبي في المسألة الحادية عشرة .

التفسير

٤ - (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) :

هذه الآية مبينة حكم من نسب الزنى إلى غيره ، بعد بيان حكم من فعله ، والآية كما في صحيح البخارى نزلت في عويمر بن أمية بعد ما قذف زوجته خولة بنت عاصم بشريك ابن سمحاء ، وقيل : نزلت بسبب قصة الإفك .

والرمى في أصل اللغة : يستعمل في قذف الشيء باليد ونحوها ، تقول : رمى الحجر أو السهم ، أى : قذفه ، ثم استعمل مجازاً في السب والشم ، والمراد منه هنا السب بالزنى بقرينة اشتراط شهود أربعة ، وذلك خاص بالزنى ، والمراد بالمحصنات هنا النساء العفيفات ، وقد قرئت بفتح الصاد وبكسرها ، فقراءة الفتح على معنى اللاتى أحصنهن أهلن ، وقراءة الكسر على معنى اللاتى نشأن في حصانة وغفة ، يقال : أحصنت المرأة أى : عفت ، وأحصنها أهلها أى : ربوها على العفة ، فالفعل لازم ومتعد ، واقتصار الآية على النساء العفيفات لا يمنع من إيجاب حد القذف على من يقذف الرجال الأعفاء باللواط فيما بينهم أو بالزنى وهذا أمر داخل في الآية بالمعنى ، وحكم مجمع عليه ، فإنه لا وجه لتخصيص النساء بهذا الحكم دون الرجال ، فالإسلام حريص على كرامة الإنسان بنوعيه ، والحكمة في التصريح بالنساء في الآية أن رميهن بالفاحشة أكثر وأشنع^(١) ، وأن النفوس تسرع إلى تصديق القذف فيهن أكثر ، فلهذا خصهن بالذكر في الآية مبالغة في حماية أعراضهن ، ومثل ذلك أن الله تعالى نص على حرمة لحم الخنزير ، وقد دخل في حكمه الشحم والغضاريف ، لأنه لا وجه لتخصيص لحمه بالحرمة دون شحمه وغضاريفه .

ويقول ابن كثير : إذا كان المقدوف رجلاً فكذلك يجلد قاذفه ، وليس في هذا نزاع بين العلماء .

ويثبت الإحصان ، أى : العفة في المقدوف ، بإقرار القاذف بها ، أو بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين ، ويشترط فيمن قذفه لكى يقام عليه حد القذف أن يكون بالغاً عاقلاً

(١) ولخصوص الواقعة .

بأنه زنى أو فُعلَ به اللواط ، حماية للمسلمين من سوء القالة ، وكفا لَلْسنة الناس عن الخوض في الباطل .

٥ - (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) :

اختلف العلماء في هذا الاستثناء ، فقال بعضهم : إنه يعود إلى الجملة الأخيرة : « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » دون ما قبلها ، فإذا تاب القاذف وأصلح ارتفع عنه وصف الفسق ويبقى مردود الشهادة طول حياته بعد جلده ، فردُّ الشهادة عند هؤلاء العلماء من الحد فلا يسقط بالتوبة ، ومن قال بذلك : القاضي شريح وسعيد بن جبير ومكحول وأبو حنيفة ، ومنهم من قال : يرجع إلى الجملتين الثانية والثالثة : « وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » وهذا يقتضى أن من تاب وأصلح تقبل شهادته ويزول فسقه ، فالحد عندهم قاصر على العجل ، ومن قال بذلك : سعيد بن المسيب سيد التابعين ، والأئمة مالك والشافعي وأحمد وجماعة من السلف .

وقال الشعبي والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه بأنه كان مُفْتَرِيًّا ، فحينئذ تقبل شهادته ^(١) .

ولما بين الله حكم قذف الأجنبية عقبه بحكم قذف الزوجات فقال سبحانه :

(١) راجع ابن كثير في الآية .

وقد فعل ذلك عمر بن الخطاب بثلاثة شهدوا بالزنى على المغيرة بن شعبة ، وتوقف الرابع عن الشهادة عليه^(١) فإن تمت الشهادة ولم تثبت عدالة الشهود ، فلاحد على الشهود ولا على المشهود عند بعضهم ، وعلى الشهود الحد عند آخرين^(٢) .

وحد القذف كما بينته الآية ثمانون جلدة ، على نحو ما تقدم بيانه في جلد الزانية والزاني في كيفية الجلد ، فإن كان القاذف عبداً والقذف للحر ، جلد العبد أربعين ، لأنه في الحدود على النصف من الحر ، وهذا هو رأى الجمهور ، وروى ابن مسعود وعمر ابن عبد العزيز وغيرهما : أنه يجلد ثمانين جلدة ، واحتج الجمهور بقوله تعالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ » ولا يقتصر عقاب القاذفين على إقامة الحد عليهم ، بل ترد شهادتهم دائماً في أى أمر شهدوا عليه ، ويحكم بأنهم فاسقون عند الله وعند الناس ، وإنما شدد الله العقاب على القاذفين لغيرهم بالزنى ، وأوجب عليهم أن يأتوا بأربعة شهداء عدول إن أرادوا الإفلات من عقابهم حماية لأعراض العباد ، وستراً على الخطأين لعلمهم يتوبون .

وترد شهادة القاذف عند الشافعية إذا ثبت عليه القذف - وإن لم يقم عليه الحد بعد . وأما عند الحنفية فلا ترد شهادته إلا بعد تمام جلده ، أو بعد البدء فيه ولو بسوط واحد - كما قال بعض آخر منهم ، أو بعد إقامة أكثره عند فريق ثالث منهم ، أما قبل ذلك فتقبل شهادته .

والمعنى الإجمالى للآية : والذين يقذفون النساء العفاف من المسلمات الحرائر ، ثم لم يأتوا بأربعة من الرجال العدول ، يشهدون تفصيلاً على واقعة الزنى وقد رأوها بأعينهم ، فعاقبوا هؤلاء القاذفين ثلاث عقوبات ، أولاً : أن تجلدوهم ثمانين جلدة ، وثانيها : أن تردوا شهادتهم ماداموا أحياء ، وثالثها : أن تصفوهم بالفسق والخروج عن طاعة الله ، وذلك حماية لأعراض المسلمات والمسلمين من ألسنة الكاذبين ، وستراً للخطأين منهم لعلمهم يتوبون ويرجعون إلى ربهم فيما بينهم وبينه ، ومثل ذلك في العقوبة من يقذف مسلماً حراً عفيفاً

(١) انظر المسألة التاسعة عشرة من القرطبي .

(٢) قال بنو الحد عنهم : الحسن البصري والشعبي وأحمد ، وقال مالك بوجوب الحد على الشهود والقاذف في هذه الحالة .

انظر المسألة الخامسة عشرة من القرطبي .

التفسير

٦، ٧- (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) :

كان المسلمون قبل نزول هذه الآية وما بعدها ، يفهمون من عموم الآيات السابقة ، أن مَنْ يرمى المحصنة - أى : العفيفة - بالزنى وإن كانت زوجته ، ولم يستطع الإتيان بأربعة شهود ، يعاقب بالجلد ثمانين جلدة ولا تقبل له شهادة أبداً ، ويكون من الفاسقين ، لأن ظاهر أمرها على الإحصان ، أى : العفة ، فنزلت هذه الآية لتخصيص عمومها بغير الأزواج ، إذ بينت أن للأزواج مخرجاً من الحد عند فقد الشهود الأربعة .

روى الإمام البخارى فى سبب نزول آيات اللعان بسنده عن سهل بن سعد أخى بنى ساعدة أن رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال : يا رسول الله أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقنته أم كيف يفعل ؟ فأنزل الله فى شأنه ما ذكر فى القرآن من أمر المتلاعنين ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « قد قضى الله فىك وفى امرأتك » قال : فتلاعنا فى المسجد وأنا شاهد ، فلما فرغاً قال : كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها^(١) ، فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين فرغاً من التلاعن ، ففارقها عند النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : ذاك تفريق بين كل متلاعنين ، قال ابن جرير : قال ابن شهاب : فكانت السنة بعدهما أن يفرق بين المتلاعنين ، وكانت حاملاً ، وكان ابنها يدعى لأمه ، قال : ثم جرت السنة فى ميراثها أنها ترثه ويرث منها ما فرض الله له ، قال ابن جرير عن ابن شهاب عن سهل بن سعد الساعدى فى هذا الحديث : إن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن جاءت به أحمر قصيراً كأنه وحرّة^(٢) فلا أراها إلا قد صدقت وكذب عليها ، وإن جاءت به أسود العينين ذا ألتين فلا أراه إلا قد صدق » فجاءت به على المكروه من ذلك .

(١) يعنى أنه إن لم يطلقها يعتبره الناس كاذباً عليها ، فلماذا طلقها .

(٢) الوحرة بفتح الحاء المهملة : القصير من الإبل .

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ⑥ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ⑦ وَيَذَرُوهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ⑧ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑨ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ⑩)

الفردات :

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ) : أى يقذفون زوجاتهم بالزنى . (وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ) : ولم يكن لهم شهود على الزنى سوى أنفسهم . (فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعٌ ⑥) : أى شهادة أى واحد منهم على زنى زوجته أربع شهادات بالله . (إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) : جواب القسم المفهوم من الشهادة ، فهم بمعناه كما قال الراغب . (الْخَامِسَةُ) : أى والشهادة الخامسة للشهادات الأربع ، أى : الجاعلة لها خمسا بانضمامها إليهن . (أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) : اللعنة واللعن ، الطرد من الرحمة والإبعاد من الخير . (وَيَذَرُوهَا الْعَذَابَ) : ويدفع عنها عقاب الزنى ، وسيأتى بيانه فى شرح الآيات . (وَالْخَامِسَةَ ⑨) : أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا) : الغضب ؛ أشد من اللعن ، ولذا خص بلعان المرأة تغليظا عليها ، بعد أن لاعنها زوجها وشهد عليها .

(١) قرئ لفظ : أربع هنا بالرفع على أنها خبر لشهادة ، وقرئ بالنصب على أنه مفعول مطلق للشهادة ، وعلى هذه القراءة تكون كلمة (شهادة) خبر مبتدأ محذوف ، أى : فالواجب شهادة أحدهم أربع شهادات .
(٢) الخامسة هنا منصوبة عطفا على أربع الثانية .

وطريقة التقاضى فى هذه المُلِمة : أن يتهم الزوج زوجته بالزنى ، فيقول له القاضى بعد أن تبرئ المرأة نفسها : البينة أو حدٌ فى ظهرك ، فيقول الزوج : لا بينة عندى وقد رأيتهما بعينى مثلاً ، فيدعوه القاضى إلى اللعان ، وهو كما فهم من الآية أن يقول : أشهد بالله إننى لمن الصادقين فيما رميت به زوجتى فلانة من الزنى ويرفع نسبها بما يميزها إن كانت غائبة ويشير إليها إن كانت حاضرة ، وينفى الولد إن كانت حاملاً به أو ولدته فيقول : وإن هذا الحمل أو الولد من الزنى وليس منى ، ويكرر هذه الشهادة أربع مرات ، وكل ذلك بتلقين القاضى كما هو شأن اليمين^(١) فى سائر الخصومات ، ثم يقول فى المرة الخامسة بعد أن يعظه القاضى ويلقنه : وعلى لعنة الله إن كنت من الكاذبين ، وتشترط المولاة بين الكلمات الخمس ، ويترتب على لعانه عدة أحكام : منها سقوط الحد عنه ، ووجوب الحد عليها ولو كانت ذمية تحت مسلم ، أو تحت ذمى احتكم إلينا ، وزوال الفراش - أى النكاح - إلى الأبد ، وانتفاء الولد إن نفاه فى لعانه ، لخبر الصحيحين أن النبى - صلى الله عليه وسلم - : « فرق بينهما وألحق الولد بالمرأة » وقوله - صلى الله عليه وسلم - : « المتلاعنان لا يجتمعان أبداً » أخرجه الدارقطنى والبيهقى وغيرهما من حديث ابن عمر ، كما يترتب عليه سقوط حد القذف بالنسبة للزانى إن سماه الزوج فى قذفه لزوجته ، وتشطير الصداق قبل الدخول كالطلاق قبله ، واستباحة نكاح أختها وأربع سواها وإن لم تنقض عدتها ، كما فى الطلاق البائن ، وعدم نفقتها وإن كانت حاملاً بمن نفاه - وهذه الأحكام منقولة عن الشافعية ومن يرى رأيهم ، وللموضوع صور وتفصيلات ومذاهب للفقهاء ، تطلب من مطولات كتب الفقه والتفسير .

وقد شرع الله للمرأة حق الدفاع عن نفسها لتذراً عنها الحد وسوء القالة ، فربما كان الزوج كاذباً يبغي تشويه سمعتها لخلاف بينهما ، حيث قال سبحانه منصفاً لها :

٨، ٩ - (وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

(١) فشهادات اللعان أيمان مؤكدة عند الشافعية والمالكية والحنابلة، أما عند الحنفية فهى شهادات مؤكدة بالإيمان ، ولذا يشترطون فيها العدالة كمائر الشهادات .

والزوج المذكور في هذا الحديث هو عويمر العجلاني ، ففي رواية أخرى للبخاري عن ابن شهاب أن سهل بن سعد الساعدي - الذي روى الحديث السابق - أخبره أن عويمر العجلاني جاء إلى عاصم بن عدى الأنصاري فقال له : يا عاصم أرايت رجلاً وجد على امرأته رجلاً أيقنته فتقتلونه ، أم كيف يفعل ؟ سئل لي يا عاصم عن ذلك ، فسأل عاصم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك ، فكره رسول الله المَسَائِلَ وعابها حتى كَبُرَ على عاصم ما سمع من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

فقال عاصم لعويمر : لَمْ تَأْتِنِي بخير ، قد كره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المسألة التي سألتُ عنها ، فأقبل عويمر حتى جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسط الناس فقال : يا رسول الله أرايت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقنته فتقتلونه أم كيف يفعل ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قد أنزل الله فيك وفي صاحبتك ، فاذهب فائت بها » قال سهل : فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما فرغا من تلاعهما قال عويمر : كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتُها ، فطلَّقَها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال ابن شهاب : فكانت سنة المتلاعنين .

وقد حدثت هذه النازلة مع امرأة هلال بن أمية - روى أبو داود وغيره عن ابن عباس ما يفيد أن هلالاً قذفها ولم يكن له شهود على زناها . فكان ذلك سبباً في نزول آيات اللعان ، وجمعا بين الروايات نقول : لعلهما حدثا متقاربين فنزلت الآيات بشأنهما ، وليس مهما أن يعرف السابق منهما .

ويستوى في حكم اللعان الزوجات المدخول بهن وغيرهن ، وكذلك المعتدات عن طلاق رجعي ، وقد عرّفوا اللعان شرعاً : بأنه كلمات معلومة ، جعلت حجة للمضطر إلى قذف من لَطَخَتْ فراشه وألحقت به العار ، أو إلى نفي الولد عن نفسه ، وُسِّى لعاناً لاشتماله على كلمة اللعن ولأن كلاً من الزوجين يبعد به عن الآخر بعداً أبدياً فلا يتناكحان أبداً .

وقد شرع اللعان لتخليص الزوج من حد القذف إذا قذف زوجته بالزنى ولم يجد له شهوداً أربعة عدولاً على قذفها ، وهي مصرة على تبرئة نفسها مما اتهمها به .

وضعت حملها وفطمت صبيها ، لهذا نرى أن المسألة جديرة بالنظر من رجال الفقه المعاصرين والله - تعالى - يهدي إلى سواء السبيل .

حاشية : الرقيق والأمة اللذان سبق لهما الزواج ، لا يرجمان إذا زنيا ، بل يجلد كلاهما خمسين جلدة ، لأنهما على النصف من الحر في الحد ، والرجم لا يقبل التجزئة ، فعدل به إلى الجلد فيهما .

المعنى الإجمالى للآية واحكامها

أما وقد فرغنا من البحوث الهامة في الآية ، فلنلق القارىء فيما يلي معناها الإجمالى : الزانية التى وطئها باختيارها رجل لا يحل له وطؤها ولم يسبق له الزواج ، والزانى الذى وطئ امرأة باختياره يحرم عليه وطؤها ولم يسبق له الزواج ، يجلد كل منهما مائة جلدة إذا كان حراً بالغاً عاقلاً ، أما من فيه رق فإنه يجلد خمسين جلدة ، لقوله تعالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ » والعبيد كالإماء في ذلك ، ولا يقام هذا الحد إلا على من ثبت زناه بإقراره ، أو بشهادة أربعة شهود عدول رأوه بأعينهم ، أو بحل المرأة وهى غير متزوجة ، ولفظاعة الزنى وقبح آثاره أوجب الله أن لا تأخذنا بالزانيين رأفة في تنفيذ دينه وشريعته ، فلا يحل جلدهما أقل مما أوجبه فيهما ، ولا ضربهما من غير إيلام ، ولا العفو عنهما بشفاعة أو رأفة وشفقة بعد ثبوت الزنى عليهما ، ردعاً لهما ولغيرهما ، وحماية لأعراض المسلمين وأنسابهم من مثل جرهما .

وقد أثار الله ما فينا من إيمان بقوله : « إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » إلهاباً لِحِمِيَّتِنَا الدينية في تنفيذ حكمه عليهما ، أى : إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فلا تأخذكم بالزانيين رأفة في تنفيذ دينه وشرعه فيهما وقد أمر الله أن يحضر عذابهما حين إقامة الحد عليهما طائفة - أى جماعة - من المؤمنين ، زيادة في التنكيل والتشهير ، وللعبرة والاتعاظ والأمر بحضورهم للنذب وليس للوجوب على ما قاله الفقهاء ، والمراد بهم : جماعة يحصل بهم التشهير والنزج ، وأقلهم ثلاثة ، وقيل : أربعة بعدد شهود الزنى .

أما الزانى المحصن أى الذى سبق له الدخول في نكاح صحيح فحده الرجم حتى يموت ، كما سبق بيانه في البحوث التى سبقت هذا المعنى الإجمالى للآية ، فارجع إليها لتكون على علم بها .

ففي هاتين الآيتين يبين الله سبحانه ، أن للزوجة أن تدفع عن نفسها العذاب المترتب على لعان الزوج وشهاداته ضدها ، فتكذبه فيما قذفها به .

وطريقة تكذيبها إياه كما يفهم من نص هاتين الآيتين : أن تقول أربع مرات بتلقيين القاضى وأمره : أشهد بالله إن فلاناً لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنى ، وتميزه بالاسم والنسب إن كان غائباً ، وتشير إليه إن كان حاضراً ، وتقول فى الخامسة بأمر القاضى وتلقيينه : وعلى غضب الله إن كان من الصادقين ، فإذا قالت ذلك فلا حدَّ عليها ، ولكنها لا تعود إلى زوجها أبداً كما تبقى الآثار الأخرى التى ترتبت على لعانه - كما قال الشافعية ^(١) .

والغضب أعظم من اللعنة ؛ لأنه يتضمنها وزيادة ، ولذلك خصت به المرأة ، لأن جريمة الزنى منها أقبح من جريمة القذف منه ، ولهذا تفاوت الحدان .

وقبل أن يلاعن الزوج يذكره القاضى بأن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا إذا لاعن كاذباً فإن أصر على اتهامه وملاعنته لزوجته ، قال له القاضى قبل الخامسة : اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه هى الموجبة التى توجب عليك العذاب فإن أبى شهد الشهادة الخامسة ، وكذلك يفعل مع المرأة ، ويقرأ عليهما قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ... » الآية ^(٢) .

١٠ - (وَكَوَلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) :

فى هذه الآية انتقال إلى أسلوب الخطاب للرايين والمرييات ، بعد الحديث عن أحكامهما بأسلوب الغيبة ، وذلك منه تعالى لتوفية مقام الامتنان عليهم ، وجواب لولا مقدر ، ولم يذكر

(١) جاء فى القرطبى فى المسألة السادسة والعشرين فى تفسير هذه الآية : قال مالك وأصحابه : وبإثم اللعان تقع الفقرة بين المتلاعنين فلا يجتمعان أبدا ولا يتوارثان ، ولا يحل له مراجعتها أبدا لا قبل زوج ولا بعده - ثم قال القرطبى قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن : لا تقع الفقرة بعد فراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما - ثم قال : وقال الشافعى : إذا أكل الزوج الشهادة والالتعان فقد زال فراش امرأته - التمتن أو لم تلتعن - قال الشافعى : وأما اللعان المرأة فهو لدرء الحد عنها لا غير ، وليس لالتعانها فى زوال الفراش معنى ، ثم ذكر فى المسألة التاسعة والعشرين أنهما لا يتوارثان بعد تمام لعان الزوج عند الشافعية ، أما عند الحنفية ومن يرى رأيهم فيتوارثان قبل أن يفرق القاضى بينهما وإن تلاعنا .

تهويلاً لأمره ، فإنه يشير إلى أن مثله تضيق العبارة عن بيانه ، فكأنه قيل : لولا تفضل الله ورحمته عليكم ، وأنه تعالى من شأنه قبول توبة التائبين ، ولولا الحكمة في أقواله وأفعاله وأحكامه - لولا ذلك كله - لكان ما يقصر عنه البيان ، ومن ذلك أنه لو لم يشرع اللعان للقاذف والمقذوف من الزوجين ، لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه ، لأنه أعرف بحال زوجته ، وأنه لا يفترى عليها لاشتراكهما في الافتضاح ولوجب عليها حد الزنى بلعانه لو لم يُشرع لها اللعان كما يقوله الشافعية ومن يرى رأيهم ، فجعل لعان كل منهما سبباً لدرء العذاب عنه - مع الجزم بأن أحدهما كاذب ، ولأن في قذف الزوج لزوجته الزانية وشهادته عليها في مجتمع التقاضى شفاءً لما في نفسه من جرح عميق بسبب جريمة زوجته وخيانتها ، ولأن لعان الزوجة ضده فيه ستر في الدنيا ، ولولاه لكان لأهلها وأولادها سمعة شنيعة بين الناس ، فهو يشبه رد الشرف الذي سلبه لعانه منها ، وأمر كليهما مفوض لخالقه ، فهو أعلم بالصادق والكاذب منهما ومُجازٍ له على صدقه أو كذبه ، ولقد شرع الله ما هو أستر للزوجين وذريتهما وأهليهما ، وهو أن يطلق الزوج زوجته إذا عرف زناها ، دون أن يعلم الناس بما حصل منها ، ففي ذلك درءٌ للشناعة والفضيحة التي تحدث من تلاعنهما في المسجد على المنبر أمام الناس ، كما يقول به الفقهاء - تغليظاً عليهما - والله تعالى أعلم .

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(جَاءُوا بِالْإِفْكِ) : الإفك أشد الكذب ، وقيل : هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك - وقد يستعمل في الكذب مطلقاً . (عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ) : جماعة من بينكم ، وتطلق العُصبة لغة على الجماعة من عشرة إلى أربعين - كما قال صاحب المختار - وقد تطلق على أقل منهم . (تَوَلَّى كِبْرَهُ) : أى تولى معظمه وقام به ، قرئ بكسر الكاف وضمها ، ومعناها واحد . (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ) : لولا منل هَلَّا للتحضيض على فعل أمر وترك ضده ، وسيأتى شرحه . (شُهَدَاءَ) : الشهاداء جمع شهيد ، أى : شاهد .

التفسير

١١ - (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...) .
الآية .

المراد بالإفك هنا : ما افتراه المنافقون على أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - وقد نزلت في شأنه عشر آيات هذه أولها ، وقد برأ الله فيها عرضها وعرض أهلها ، وصان كرامة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد قام بمعظم الإفك رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول - عليه

لعنة الله - ، فهو الذي اختلقه ونشره ، حتى دخل في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به ، وجوزه آخرون منهم ، وبقي الأمر كذلك قريبا من شهر حتى نزل القرآن مبرثا لها على أكمل وجه ، وروته الأحاديث الصحيحة مبرئة ساحتها ، ونشأت هذه الفرية النكراء عن أمر برىء حدث في غزوة بنى المصطلق^(١) ، فاستغله المنافقون أعداء الإسلام أسوأ استغلال .

وخلاصة القصة مستنبطة من صحاح الأحاديث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان كلما خرج في غزوة أقرع بين نسائه ، وحينما خرج في غزوة بنى المصطلق سنة ست^١ أقرع بينهن فخرج سهم عائشة - رضى الله عنها - فخرجت معه ، وكان ذلك بعد ما قرض الحجاب ، ولهذا كانت تُحْمَلُ في هودج وتنزل فيه ، ولما انتهت الغزوة وعاد الرسول ، نزلوا قريبا من المدينة ، وأثناء الليل ، أمر الرسول بالرحيل فنزلت لتقضى حاجتها بعيداً عن مكان نزول الجيش ، ثم عادت إلى رَحْلِهَا وفوجئت بأن عقدها قد انقطع - وكان من جَزَع ظَفَار^(٢) فعادت لتبحث عنه فتأخرت بعض الوقت ، وجاء الذين يحملون هودجها فرفعوه على بغيرها ظانين أنها فيه ، لأن النساء كُنَّ يخافن الجسم لقلة الغذاء في صدر الإسلام ، كما أنها كانت حديثه السن ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ، ولما عادت بعقدها وجدت الجيش قد رحل فبقيت حيث كانت تنزل ونامت ، لعلهم يتفقدونها فلا يجدونها فيرجعون إليها لترجيلها ، وكان صفوان بن المعطل السلمى وراء الجيش ، ليجمع ما نسيه المجاهدون ، فرأى سواد إنسان نائم فلما رآها عرفها لأنه كان يراها قبل الحجاب ، فاسترجع^(٣) ففطت وجهها عنه ، وقالت : والله ما سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، فأناخ راحلته ، وداس على يدى الناقة حتى رَكَبَتْهَا ، وانطلق يقود الراحلة حتى أدرك الجيش ، فكان ذلك مثاراً لإفك عنهما افتراء وتولى إذاعته عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين .

(١) ويقال لها أيضا غزوة المريسيع : قاله القرطبي .

(٢) ظفار كقطام : بلد باليمن قرب صنعاء ، ينسب إليه الجزع بفتح الجيم وكسرهما ، وهو خرز فيه سواد وبياض تشبه

به الأعين .

(٣) أى قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد أدرك المرض السيدة عائشة ، فلزمت الفراش شهرا ، وهى لا تدرى بما يتردد بين الناس من أصداء ما افتراه عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يسأل عن حالها سؤالا مجملا بقوله : (كيف تبيكم؟) وينصرف دون أن ترى منه اللطف الذى كانت تعتاده فى مرضها ، وحين خرجت من مرضها إلى طور النقاهة منه ، عادت أم مسطح بنت خالة أبي بكر ، ثم قالت : تَعَسَ مِسْطَح ، فقالت لها السيدة عائشة : بثس ما قُلْتِ ، أتسيين رجلا شهد بدرًا ؟ قالت : أو لم تسمعى ما قال : فقالت عائشة : وما قال ؟ فأخبرتها بما أذاعه أهل الإفك عنها ، فازدادت مرضا ، فلما دخل عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - استأذنته فى أن تذهب إلى بيت أبيها - وكانت تريد أن تعرف القصة من والديها - فأذن لها الرسول ، فلما ذهبت إليه سألت أمها عما حدثتها به أم مسطح ، فقالت : يا بنية هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، قالت عائشة : سبحان الله ؛ أوقد تحدث الناس بهذا ، فبككت ليلتها وفارقها النوم حتى أصبحت وهى لا يرقأ لها دمع ، وقد استدعى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسامة بن زيد وعليها - رضى الله عنهما - ليستشيرهما ، وبريرة جاريتها لسمع شهادتها بشأنها ، وخرج من حديثهم معه بما أراح نفسه وطمأنه على أهله ، فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى المسجد على المنبر وقال : يا معشر المسلمين من يعذرني ^(١) من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتي ؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى فقام سعد بن معاذ الأنصارى سيد الأوس فقال : أنا أعذرک منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک ، فشار نقاش بين الخزرج والأوس ، بسبب تدخل سعد بن معاذ فى أمرهم ، وحسمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانت السيدة عائشة قد عادت إلى بيتها بأمر أبيها ، فظلت يومها هذا تبكى وكان معها أبواها ، وكانا يظنان أن البكاء سيغلق كبدها - كما روت عنهما - ثم دخل عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجلس معهم ، ولم يسبق له أن جلس عندها منذ قيل ماقيل ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنها بشئ ، فسألها عما يذيعه المفترون عليها ، ثم أجابت

(١) أى : من يقوم بعذرى إذا أردت مكافأته على سوء فريته .

بعد أن بَحَثَتْ عن آية من القرآن تجيبه بها ، وكانت يومئذ لا تحفظ منه كثيراً - أجابت بقولها : والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » ثم اضطجعت على فراشها ، وهى تعلم أنها بريئة وأن الله سيظهر براءتها ولكنها - كما قالت - ما كانت تظن أن يُنْزَلَ فى شأنها وحياً يتلى وأن يصل أمر تبرئتها عند الله إلى مثل ذلك ، وكل ما كانت تأمله أن يرى الله رسوله فى منامه رؤيا يبرئها الله فيها ، وببما كانوا جميعاً فى مجلسهم هذا إذ أوحى الله إلى نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من الشدة عند نزول الوحي حتى كان ينزل العرق منه مثل الجُمان - أى اللؤلؤ - فى اليوم الشاق من ثقل القول الذى أنزل عليه ، فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك ، قال لعائشة : أبشرى يا عائشة ، أما الله فقد برأك ، فقالت لى أمى : قولى إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله - عز وجل - هو الذى أنزل براءتى ، وأنزل سبحانه « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ » عشر آيات فى براءتها .

وهذا الافتراء الذى حدث فى حق عائشة - رضوان الله عليها - حدث مثله للسيدة مريم ، وكان من أقرب الناس إليها وهم أهلها ، وكما برأ الله مريم على لسان عيسى ، برأ السيدة عائشة بوحي يقرؤه الناس نزل به الروح الأمين على خاتم المرسلين ، والحمد لله رب العالمين والعصبة : الجماعة من الناس من العشرة إلى الأربعين ، وقد تطلق على مادون ذلك كما تقدم فى المفردات ، وقد ذكرت السيدة عائشة منهم : عبدالله بن أبي بن سلول ، وحمنة بنت جحش ، ومسطح بن إثانة ، وحسان بن ثابت ، وكان عبد الله بن أبي رأس الحية ومثير الفتنة ومخترعها - عليه لعنة الله - وقد اعتذر حسان عما نسب إليه فى شأنها بقصيدة جاء فيها :

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بَرِيَّةٌ	وتصبح غرثى من لحوم الغوافل ^(١)
حليمة خير الناس ديناً ومنصباً	نبي الهدى ذى المكرمات الفواضل
عقيلة حى من لوى بن غالب	كرام المساعى مجذهم غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها	وطهرها من كل سوء وباطل

(١) الحصان: الغنيفة ، والرزان: الوقورة ، ومعنى ما تزَنُّ بَرِيَّةٌ : أنها لا يصح أن تظن بها ريبة أو توصف بها ، ومعنى الشطر الثانى : أنها تصبح نخيلة اللحم من غيبة من يأكلون لحوم المحصنات النافلات .

والمعنى الإجمالى : إن الذين اختلقوا البهتان فى حق عائشة أم المؤمنين وأذاعوه هم جماعة وشرذمة ينتسبون إليكم بأخوة الإسلام فكيف رضوا بإذاعته ؟ لا تظنوا هذا الافتراء شراً لكم بل هو خير عظيم لكم ، لنيلكم الثواب الجزيل بالصبر عليه ، وظهور كرامتكم وكرامة زوجكم المصون على ربكم ، بإنزال ما فيه تعظيم شأنكم ، وتشديد الوعيد لمن تكلم بما أحرزكم ، كما قال سبحانه :

(لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

أى : لكل امرئ من الذين جاءوا بالإفك جزاء ما اكتسب من الإثم بقدر ما خاض فيه سواء أكان ذلك اختلاقاً ورضاً أم ترديداً وإذاعة ، والذي تحمل معظمه فقام بأكبر حظ من إعلانه ، له عذاب عظيم فى الدنيا والآخرة .

وكان أول من اختلقه وأذاعه عبد الله بن أبيّ بن سلول ، فكان يجمع الناس ويذكر لهم ما يذكر من الإفك ، لإمعانه فى عداوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد كافأه الله فى الدنيا بتكذيبه وإعلان نفاقه وإقامة حد القذف عليه كما أخرجه الطبرانى وابن مردويه عن ابن عمر ، وأخرجه الطبرانى أيضاً عن ابن عباس ، كما أقام حد القذف على مسطح وحسان وحمنة ، أخرجه البزار وابن مردويه بسند حسن عن أبي هريرة .

ولما بلغ صفوان اشتراك حسان فى الإفك عنه وعن أم المؤمنين ، جاء فضربه بالسيف ضربة على رأسه وقال :

تَلَقَّ ذِبَابَ السَّيْفِ غِنَى فَإِنِّى غَلَامٌ إِذَا هُوَ جِيتَ لَيْسَ بِشَاعِرٍ
وَلَكِنِّى أَحْمَى حِمَاى وَأَتَقَى مِنْ الْبَاهِتِ الرَّأى الْبَرى الظَّوَاهِرِ

وقد حال دون قتل صفوان لحسان ثابت بن قيس بن شماس ، فقد وثب على صفوان ومنعه من الإجهاز عليه ، وكان صفوان بن المعطل المذكور ، صاحب ناقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى غزواته لشجاعته ، وكان من خيار الصحابة ، وروى عنه أنه قال : والله ما كشفت كنف أنثى قط ، يريد : ما كشفها بزنى ، وقُتِلَ شهيداً - رضى الله عنه - فى غزوة

أرمينية سنة تسع عشرة في زمان عمر، وقيل : ببلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمان معاوية^(١)

١٢- (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ) :

والمعنى : هلاً حين سمعتم أيها المؤمنون والمؤمنات هذا الإفك ممن أذاعوه ، ظننتم بأهل ملتكم : عائشة وصفوان خيراً وطهراً ، وقلتم بلا تردد : هذا افتراء واضح مكشوف لا نرضاه لمن هم كأنفسنا ، ولا نوافق على نسبته إليهم ، وقلتم أيضاً في شأن المفتريين الخائضين على سبيل التوبيخ :

١٣- (لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكََاذِبُونَ) :

أي : هلاً جاء أصحاب الإفك بأربعة شهداء عدول يشهدون على ما زعموه في شأن عائشة ، فحيث لم يأتوا بالشهداء ، فهم عند الله وفي حكمه كاذبون ، فكيف تصدقونهم وهم مخالفون لشريعة الله ومنافقون .

ويجوز أن تكون الآية ابتداء كلام من الله تقريراً لكون ذلك إفكاً ، وليس حكاية لما ينبغي أن يقوله السامعون .

(١) انظره في المسألة الثالثة في تفسير القرطبي لهذه الآية .

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ
بِالْسِّنِّتِمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ
هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ
لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمْ
اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) : تفضله بالمصابرة والعفو عن التائبين . (لَمَسَّكُمْ) : لأصابكم .
(فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ) : بسبب ما خضتم فيه . (تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّتِمْ) : أى تطلبون بالسنتكم
مِمَّنْ يحكى هذا الإفك أن يلقى إليكم ويعرفكم ما قيل فيه . (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا) : وتظنونه
أمرًا خفيفًا لا عقوبة عليه . (وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) : كبير الإثم .
(مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا) : ما يصح وما يليق بنا ونحن مؤمنون أن نتكلم بهذا .
(سُبْحَانَكَ) : هذا تنزيه مشوب بالتعجب ، وسيأتى بيانه . (بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) : افتراء عظيم
يُحِيرُ سامعه . (يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا) : ينصحكم لئلا ترجعوا إلى مثله
مدة الحياة .

التفسير

١٤- (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ

عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

أى : ولولا تفضل الله عليكم أيها الخائضون ، ورحمته بكم ، لأصابكم عذاب عظيم فيما خضتم فيه من الإفك في شأن عائشة ، أما رحمته في الدنيا فقد تمثلت في إمهالككم حتى تشوبوا إلى رشدكم ، وتوبوا إلى ربكم من ذنبكم ، وتعرفوا حرمة بيت نبيكم ، وأما رحمته في الآخرة فبالعفو عمن تاب منكم ، وغفران ما اقترفته ألسنتهم ، وكل ذلك من فضل الله عليكم .

ولا ينال هذا الفضل والرحمة من الخائضين سوى التائبين من المؤمنين كمسطح بن إثانة وحمزة بنت جحش ، وحسان بن ثابت ، أما من بقى مغموراً في نفاقه كعبد الله بن أبي ابن سلول وأضرابه ، فلا نصيب لهم منهما ، ولا قيمة لتوبتهم الظاهرية إن تابوا .

١٥ - (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَخْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) :

أى : ولولا فضل الله ورحمته لمسكم عذاب عظيم حين تتلقون هذا الإفك من ناقله ، بعد طلبكم بألسنتكم مماعه وتروون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وإنما جاءكم عن طريق السماع عن الآفكين ، وتحسبون ترويح الكذب على عرض ابنة الصديق وزوج الرسول أمراً خفيفاً سهل العاقبة ، والحال أنه عند الله أمر عظيم في إثمه وسوء عاقبته ، فالقدح في الأعراض شين عظيم ، وإثم كبير ، فكيف به في عرض أم المؤمنين ، وزوج خاتم المرسلين .

جاء في الصحيحين أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبلغ ، يَهْوَى بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض » وفي رواية : « لَا يُلْقَى لَهَا بَالًا » .

ويصح أن يكون المعنى : إذ يتلقاه بعضكم بألسنة بعض آخر منكم ، وتروون بأفواهكم عنهم ما ليس لكم بصحته علم ، وكلا المعنيين جيد ، وفسره مجاهد وابن جرير - كما نقله ابن كثير - بأن يرويه بعضهم عن بعض ، يقول هذا : سمعت كذا من فلان ، ويقول آخر : قال فلان كذا ، ويقول ثالث : ذكر بعضهم كذا - انتهى بتصرف ، والمعاني متقاربة وإن كان ما قلناه أولاً وثانياً أقرب إلى النص الكريم مما نقله ابن كثير عن ابن جبير ومجاهد .

١٦ - (وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) :
بعد أن أدب الله الخائضين قبل هذه الآية بأن يظنوا خيراً بمن تجمعهم بهم أخوة الإيمان
حين يسمعون عنهم قالة السوء ، جاءت هذه الآية بلون آخر من التأديب .

والمعنى : هلاً حين سمعتم ما لا يليق في شأن الخيرة قلم - مع الظن بهم خيراً - : لا ينبغي
لنا ولا يصح أن نتكلم بهذا عن الأطهار البررة ، بدلاً من ترديدكم له بالرواية عن مخترعيه ،
هلاً قلم متعجبين ومستكبرين لما يقولون : « سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » وكذب مُحِيرٌ
خطيرٌ لا يصح أن يقال في عرض كرام المؤمنين .

وقد كان على هذا الخلق العالی الذي دعا إليه القرآن - كان عليه - أصحاب القلوب الصافية ،
والعقول الوضيئة ، والحس المرهف ، فعن سعيد بن جبیر أن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل في أمر
عائشة - رضى الله عنها - قال : « سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » وعن سعيد بن المسيب أنه قال :
كان رجلان من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا سمعا شيئاً من ذلك قالوا ما ذكر ،
وهما أسامة بن زيد بن حارثة ، وأبو أيوب الأنصاري - رضى الله عنهما - ، وأخرج ابن مردويه
عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : إن امرأة أبي أيوب الأنصاري قالت له : يا أبا أيوب
ألا تسمع ما تحدث به الناس ؟ فقال : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ،
ومثل ذلك قال غيرهم وحق لهم أن يقولوا ذلك ، فإنه لا يجوز عقلاً أن يختار الله لرسوله
امرأة فاجرة ، فإن ذلك ينفر عن اتباعه ، ويخل بحكمة البعثة - هكذا قال الإمام الرازي
عليه رحمة الله

١٧ - (يَعْظِيكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) :

يذكركم الله ويحذرکم من أن تعودوا طول حياتكم لمثل هذا الإفك في عائشة أو سائر
أزواجه - صلى الله عليه وسلم - لسوء عاقبته ، وعظيم عقوبته ، إن كنتم مؤمنين بالله فامثلوا
تحذيره واعملوا بنصيحته ، لتأمنوا عذابه وسوء حسابه ، ويفهم من الآية الكريمة أن مَنْ
سَبَّ عائشة بعد هذا التحذير لا يكون من المؤمنين ، وهذا ما ذهب إليه الإمام مالك ، فقد
نقل القرطبي عنه أنه يقول بكفره ووجوب قتله ، ويعلل ابن العربي ذلك بأن الله برأها
فكل من سبها بما برأها الله منه فهو مكذب لله ، ومن كذب الله فهو كافر يُقْتَلُ لِرِدَّتِهِ ، تلك
هى خلاصة ما ذكره القرطبي في ذلك .

١٨ - (وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

وينزل الله لكم آياته مُبَيَّنَةً واضحة الدلالة على الأحكام الشرعية ، والأخلاق الكريمة والآداب الجليلة بخير أمة أخرجت للناس ، والله مُحِيطُ علمه بأحوال مخلوقاته وما ينبغي لهم من شرائع ، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه ، فالتزموا ما بينه لكم من شرائعه وآدابه .

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)^(١٩)
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ^(٢٠))

المفردات :

(أَنْ تَشِيعَ^(١) الْفَاحِشَةُ) : أَنْ تَنْتَشِرَ المقالة المفردة في القبح .
(رَءُوفٌ) الرأفة : شدة الرحمة .

التفسير

١٩ - (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) :

في هذه الآية تأديب من الله تعالى لمن يحبون القبح في أعراض الأعفاء من المؤمنين والمؤمنات .

ومعنى الآية : إن الذين يريدون ويختارون أن تنتشر تهمة الزنى في عرض المحصنين والمحصنات^(٢) من الذين آمنوا ويقومون بنشرها لهم عذاب أليم على إذاعتها في الدنيا والآخرة ، لشدة قبح هذه الفرية في حق من افتريت عليه ، أما عذابهم في الدنيا فبحد القذف ، وأما عذابهم في الآخرة فبنار جهنم - إن لم يقيم الحد عليهم في الدنيا ، أو أقيم عليهم وكانوا

(١) يقال : شاع الشيء شيوعاً وشيعاً وشيوعاً ، أى : ظهر وانتشر .

(٢) المراد بالإحصان هنا: المفة عن الزنى ، فقذف صاحبه هو الذي يوجب الحد سواء كان المقذوف رجلاً أو امرأة .

منافقين أو كافرين - فإن الحدود لا تكون جوارب ولا تحمي من النار إلا عصاة المؤمنين ، قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .
وهذه الآية قاعدة عامة يراد بها صيانة الأعراس عموماً ، وإن نزلت بشأن قصة عائشة وصفوان التي افترأها رأس المنافقين ابن سلول .

وقد جاء في حرمة ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تؤذوا عباد الله ولا تُغيروهم ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم ، طلب الله عورته حتى يفضحه » أخرجه الإمام أحمد بسنده عن ثوبان ، وجاء في حديث لأبي الدرداء أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « أَيُّمَا رَجُلٍ شَدَّ عَضْدَ امْرِئٍ مِنَ النَّاسِ فِي خُصُومَةٍ لَا عِلْمَ لَهُ بِهَا ، فَهُوَ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ عَنْهَا ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ بِشَفَاعَتِهِ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ أَنْ يُقَامَ ، فَقَدْ عَانَدَ اللَّهَ حَقًّا وَأَقْدَمَ عَلَى سُخْطِهِ ، وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ أَشَاعَ عَلَى مُسْلِمٍ كَلِمَةً وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ يَرَى أَنْ يَشِينَهُ فِي الدُّنْيَا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَرْمِيَهُ بِهَا فِي النَّارِ ، ثُمَّ تَلَا مُصَدِّقًا لَذَلِكَ : « إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا . . . » الآية وقد عرفت من تفسيرنا للآية أن المراد من حُبِّ إشاعة الفاحشة ، أن يكون هذا الحب مقروناً بإذاعتها فعلاً ، حتى يكون بذلك قاذفاً فيستوجب حد القذف الذي جعله الله عذابه في الدنيا ، أما إن أحب إذاعتها ولم يشترك في نشرها فلا حد عليه ، ولكن الله يعاقبه في الدنيا بمقتضى وعيده ، كأن يصيبه بنوع من البلاء ، أو يبتليه بما تمناه لغيره - انتقاماً منه لفساد قلبه ورغبته في الفتنة ، وكما يحرم التشنيع على المؤمنين والمؤمنات ، يحرم قذف غيرهم وإشاعة الفاحشة عنهم فإن لهم ما لنا وعليهم ما علينا^(١) .

٢٠ - (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ) :

أي : ولولا تفضل الله ورحمته عليكم أيها الآفكون وأنه تعالى دائم الرأفة والرحمة لعباده ، لمسكم فيما أذعنتموه من الإفك على زوج رسول الله المحصنة البريئة - لمسكم في ذلك عذاب عظيم لا يقادر قدره ، ولكنه تعالى أمهلكم بموجب رأفته ورحمته ليميز الخبيث من الطيب ، ثم أنزل براعتها مما نسب إليها ، فتأب من استيقظ ضميره ، وعرف حق الله ورسوله ، فتأب الله عليه ، وأقام الحد على من ثبت عليه التشهير بذلك فطهر منهم من كان من المؤمنين ، وبقي في رجسه وسوء عاقبته من كان من المنافقين .

(١) ولكن لا حد على قاذفه من المسلمين كما قاله الجمهور بل يعزر ، انظر تفسير الآية الرابعة من هذه السورة في القرطبي - ص ١٧٤ - المسألة السادسة .

* (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) : أى وساوسه ، وهى فى الأصل جمع خُطوة - بضم الخاء - وهى ما بين القدمين للماشى ، واستعملت هنا فى وساوس الشيطان على سبيل المجاز ، والخطوة - بالفتح - اسم للمرة من الخطو ، وجمعها خطوات - بفتح الخاء والطاء ، تقول : خطا ، يخطو ، خطوة وخطوات . (يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) : الفحشاء ؛ ما أفرط قبحه كالفاحشة ، والمنكر : ما ينكره الشرع ، والشيطان يأمر بهما ، أى : يحث عليهما . (مَا زَكَا) : ما طهر . (وَلَا يَأْتِلِ) : أى ولا يحلف ، من الأليّة ، وهى : اليمين ، ومنه قوله تعالى فى سورة البقرة : « لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ » : أى يحلفون . (أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ) : أصحاب الزيادة فى الدين والسعة فى المال .

التفسير

٢١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ...) :

يأيا الذين تاملوا بحلية الإيمان ، لا تسلكوا مسالك الشيطان فيما يسعى إليه من الشر فيما بينكم ، ولا تعملوا بوساوسه ؛ فإنه لا يسعى إلى خير ، ولا يوسوس إلا بفتنة ، ومن يتبع خطوات الشيطان ، فيسلك سبيله ويعمل بوسوسته ، ارتكب الفحشاء والمنكر ، فإن الشيطان لا يأمر إلا بهما ، ولا يحض إلا عليهما ، ومن كان كذلك لا يجوز اتباعه وطاعته في وسوسته ، فكيف اتبعتموه في نشر الإفك ، وما هو إلا كاذب أثيم ؟

(وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

ولولا تفضل الله عليكم ورحمته بكم ، إذ أمهلهم حتى تثوبوا إلى رشدكم وتنبهوا من ذنبكم بعد ما أنزله إليكم من الآيات البينات الناطقة بطهر ابنة الصديق الكريم زوج النبي الأمين ، وأم المؤمنين - لولا هذا الفضل والرحمة - ما طهر أحد منكم أبداً من ذنب هذا الإفك المبين ، ولكن الله يزكي ويظهر من يشاء ممن حسنت توبته ، وصفت سريرته ، والله عظيم السمع لما يقال من الذنوب والتوبة منها ، محيط العلم بالمدنبيين والتائبين - مخلصين أو غير مخلصين - فيجازي كلا على حسب حاله « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (١) .

وهذه الآية وإن نزلت بسبب خاص ، فهي قاعدة عامة تقتضي وجوب الابتعاد عن المنكرات ، فإنها ترضى الشيطان وتغضب الرحمن الذي يعلم السر وأخفى ، وتقتضي العقاب لمن لم يتدارك ذنبه ويستغفر ربه .

٢٣ - (وَلَا يَتَلَّأُولُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) :

قال الألوسي في سبب نزول الآية : صح عن عائشة وغيرها « أن أبا بكر - رضى الله عنه - حلف - لما رأى براءة ابنته - ألا ينفق على مسطح شيئاً أبداً ، وكان من فقراء المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرًا ، وكان ابن خالته - وقيل : ابن أخته - فنزلت الآية .

وقال القرطبي : روى في الصحيح : (أن الله تبارك وتعالى لما أنزل : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ » الآيات العشر ، قال أبو بكر - وكان ينفق على مسطح لقربائه وفقره - : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا يَتَلَّأُولُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ » إلى قوله : « أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فقال أبو بكر : والله إننى لأحب أن يغفر الله لى ، فلرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبداً .

ويروى عن ابن عباس والضحاك : أن جماعة من المؤمنين منهم أبو بكر - رضى الله عنه - قطعوا ما فمهم عن قال فى الإفك ، وقالوا : والله ما نصل من تكلم فيه ، فنزلت الآية .

ومعنى الآية : ولا يحلف أصحاب الفضل فى الدين والسعة فى المال ، كراهة أن يعطوا أصحاب القرابة والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله الذين اشتركوا فى نشر الإفك ، وليصفحوا عما فرط منهم ، ألا تحبون أيها الحالفون الكرام أن يغفر الله لكم بسبب عفوكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم^(١) ؟ ، والله واسع المغفرة والرحمة ، مع كمال قدرته على المؤاخذه ، وكثرة ذنوب العباد الداعية إليها .

وإذا كان سبب النزول حلف أبى بكر بالنسبة لمسطح فالجمع فى قوله : « أُولُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ » وقوله : « أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ » لقصد تعميم الحكم فى كل من يعفو عن أساء إليه ويعطيه بعد أن حلف على حرمانه ، أما إن كان سبب النزول عاماً كما سبق عن

(١) ويصح أن يكون قوله تعالى : « أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ » لتمثيل وإقامة الحجة ، أى : كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم ، فكذلك اغفروا لمن دونكم : ذكره القرطبي .

ابن عباس فالجمع ظاهر ، والآية تدل على فضل الصديق سواء نزلت فيه وحده أو مع غيره ، كما تدل على أن القذف وإن كان من الكبائر ، فإنه لا يحبط العمل ، لأن الله وصف مسطحاً بعد أن قال في عائشة ما قال - وصفه بأنه من المهاجرين - أى : من الذين حصلوا على شرف الهجرة وعظيم ثوابها ، إذ لا يحبط العمل إلا الكفر ، كما قال تعالى : « لَشَيْنٍ أَشْرَكَتَ لِيَحْبُطَنَّ عَمَلُكَ »

كما يستنبط منها أن من حلف على عدم فعل شيء ، ثم رأى أن فعله أولى فليفعل الذى هو خير ، ولكن عليه أن يكفر عن يمينه ؛ لقوله تعالى فى سورة المائدة : « لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ ... » الآية (٨٩) .

(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ) : العفيفات الغافلات عما يقال فى شأن أعراضهن زوراً ولا علم لهن به . (دِينَهُمُ الْحَقَّ) : من معانى الدين فى اللغة الجزاء : أى : جزاءهم الثابت الموافق لذنبهم . (هُوَ الْحَقُّ) : هو الثابت الذى لا يعتريه شك : (الْمُبِينُ) : البين الظاهر بآياته - من أبان : بمعنى ظهر واتضح - أو المظهر للناس تمام قدرته على ثوابهم وعقابهم فى هذا اليوم ، من أبان الشيء ، أى : أظهره وأوضحه .

التفسير

٢٣ - (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

تضمنت هذه الآية وعيد القاذفين للمحصنات الغافلات المؤمنات باللعن في الدنيا والآخرة ، وبالعذاب العظيم .

واختلف في المراد بهذا الوعيد ، فقليل : هم القاذفون لعائشة - رضي الله عنها - ، مراعاة للسياق وبهذا أخذ ابن عباس وابن جبير ، والجمع في قوله : « الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ » باعتبار أن رميها رمي لسائر أمهات المؤمنين ، لاشتراكهن في الطهر والنقاء والقرب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونظيره جمع المرسلين في قوله تعالى : « كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ » . مع أنهم كذبوا هوداً وحده .

وقال المحققون : هم الذين يقذفون أمهات المؤمنين ، فلا يختص بهذا الحكم من رمى عائشة وحدها ، بل يعمه ومن رمى غيرها من زوجات النبي - صلى الله عليه وسلم - حفاظاً على كرامة البيت النبوي الشريف . وبهذا الرأي قال ابن عباس في رواية أخرى ، فقد أخرج ابن جرير والطبراني بسندهما عنه أنه قرأ سورة النور ففسرها ، فلما أتى على هذه الآية قال : هذه عائشة وأمهات المؤمنين ، وهذا هو الراجح وبه نقول : ولم يجعل ابن عباس لمن فعل ذلك توبة ، وجعل لمن رمى غيرهن من المحصنات التوبة ، وقرأ « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا » إلى قوله : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » الآية . والذي يظهر - والله أعلم - أن الله تعالى يقبل توبة من تاب منهم لقوله تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » وقوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » ولأنه قد تاب مسطح وحملة وحسان واعتذروا وقبل الرسول اعتذارهم ولم يعاملهم معاملة المرتدين ، بل أقام عليهم حد القذف ، تطبيقاً لحكم الله في القاذفين ، ودعا القرآن الصديق أن يعيد النفقة لمسطح وأطلق عليه لقب المهاجر ، وهو تشريف لا يناله إلا مؤمن قبل الله توبته .

فإن قيل : إن وعيد القاذفين بأنهم ملعونون في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يؤذن بكفر القاذفين ، فإن مثل هذا الوعيد لا يكون إلا للكافرين ، فالجواب عليه من وجوه :

(أحدها) أن هذا الوعيد محمول على من يقذفهن بعد نزول آيات البراءة لأزواجه - صلى الله عليه وسلم - لأنه حينئذ يكون مكذباً لله ، ومن كذب الله فهو كافر ملعون وله عذاب عظيم .

(ثانيها) أنه مقصود به من ظل مستبيحاً للطعن كابن أبي وشركائه من المنافقين الذين تظاهروا بالتوبة ، وقد روى عن ابن عباس تخصيص وعيد الآية بابن أبي رأس النفاق ومبتدع الإفك .

(ثالثها) أن هذا الوعيد مشروط بعدم التوبة ، ولم يذكر هذا الشرط ، لأنه معلوم بالضرورة أن من تاب ، تاب الله عليه ، وهو الراجح لما تقدم بيانه .

وقيل : إن الآية نزلت في مشركى مكة ، فقد كانت المرأة المسلمة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها ، وقالوا عنها : خرجت لتفجر - حكاه صاحب البحر عن أبي حمزة اليماني وأيد بقوله تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فإن شهادة الأعضاء تكون على الكفار لقوله تعالى : « وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ . . . » ^(١) الآيات الثلاثة .

وإذا كان القاذفون من المسلمين ، فالمقصود من لعنهم في الدنيا - كما قال القرطبي - : إبعادهم وضربهم الحد ، واستيحاش المؤمنين منهم ، وهجرهم وإنزالهم عن رتبة العدالة ، والإمساك عن حسن الشئاء عليهم .

وأما على قول من قال : إن الآية نزلت في مشركى مكة ، فالمراد من لعنهم : طردهم عن رحمة الله ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، ما لم يُسَلِّمُوا فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ ، قال تعالى : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » .

والمعنى الإجمالى للآية على الوجه الراجح ، إن الذين يرمون بالفاحشة أزواج النبی المؤمنات العفيفات عما يفترى عليهن ، الغافلات عما ينشره الآفكون حولهن من قالة السوء ، ولا علم لهن بما يفترون - إن هؤلاء القاذفين - يلعنون في الدنيا حيث يقاطعون المجتمع ويبعدون عن حظيرته ، ويقيم القاضي عليهم حد القذف ، وترد شهادتهم ويوصمون بوصمة الفسق ،

كما يطردون في الآخرة من رحمة الله ، ولهم فيها عذاب عظيم لا يقادر قدره ، إلا من تاب وعمل صالحاً فإنه يرد إليه اعتباره فتقبل شهادته بعد إقامة الحد عليه ، ويغفر الله له عثرات لسانه ، أما على أن الآية نزلت في مشركي مكة فمعناها واضح .

٢٤ - (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

المقصود من شهادة هذه الجوارح عليهم : أن الله تعالى ينطق كل جارية بما صدر عنها ، لكبح إنكارهم وقطع أعذارهم ، وهذه الآية مرتبطة بالآية التي قبلها .

والمعنى : والذين يرمون المحصنات لهم عذاب عظيم ، في يوم تشهد عليهم ألسنتهم بما افترته من الأكاذيب ، ورددته من الفحش ، وتشهد عليهم أيديهم بما جنته من التشهير بالإشارات وتشهد عليهم أرجلهم بما سعت إليه من نقل المفتريات ، فينطقها الله الذي أنطق كل شيء ، وتعلق دونهم منافذ الإنكار ، ومفتريات الأعذار في يوم تشخص فيه الأبصار : «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ»^(١) .

والآية وإن نزلت بخصوص واقعة القذف ، فالحكم فيها عام يتناول جميع ما يكتسب بهذه الجوارح من المعاصي .

٢٥ - (يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ)^(٢) :

أي : يومئذ تشهد عليهم جوارحهم ، يوفيههم الله جزاءهم الحق المناسب لما كسبوه من السيئات ، ويعلمون مما يشاهدونه من عدالة الله وقدرته وعظمته التي تتجلى في أحوال القيامة وأحوالها - يعلمون أن الله هو الإله الحق الذي لا ريب فيه ، الظاهر الذي لا خفاء في ألوهيته وعدالته وقدرته ، أو المظهر لأهل الحق حقوقهم ، ولأهل الباطل أباطيلهم ، المجازي لكليهما بما كسبه في دنياه .

(١) سورة غافر الآية : ٥٢

(٢) اسم فاعل من أبان ، ويكون لازماً بمعنى ظهر ، ومتعدياً بمعنى أظهر ، كما يتضح من تفسيرنا للآية .

(اَلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ
لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦))

المفردات :

(اَلْخَبِيثَاتُ) : ضد الطيبات . (اَلْخَبِيثُونَ) : ضد الطيبين . والخبث : الرداءة .
(وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) : وثواب سخى ، وهو الجنة ، كما قاله أكثر المفسرين .

التفسير

٢٦ - (اَلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ
لِلطَّيِّبَاتِ ...) الآية .

هذا كلام مستأنف مبنى على سنة الله الجارية بين الخلق ، من أن شبيه الشيء منجذب
إليه ، وفي هذا المعنى يقول القائل : إن الطيور على أشباهها تقع . والآية مرتبطة بما قاله
الآفكون في شأن عائشة - رضى الله عنها - .

والمعنى : ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا لأنها طيبة
فإنه أطيب من كل طيب من البشر ، فلا يليق به سوى الطيبات ، ولو كانت خبيثة لما
صلحت له لا شرعاً ولا قدراً ، ولا حسب سنة الله في خلقه ، فإنه جعل الطيبات للطيبين ،
والطيبين للطيبات ، والخبيثات للخبيثين والخبيثين للخبيثات .

وقال ابن عباس في تفسيرها ما معناه : الخبيثات من الأقاويل للخبيثين من الرجال ،
فلا توجه إلى غيرهم ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الأقاويل ، فهم جديرون بها ،
والطيبات من الأحاديث للطيبين من الرجال ، فهم جق لهم ، والطيبون من الرجال للطيبات

من الأحاديث فلا يعدل بها عنهم - واختاره ابن جرير ، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين منهم ، فما نسبته أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به ، وهى أولى بالبراءة والنزاهة منهم ، ولهذا قال : « أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ » ^(١) ولهذا ختم الله الآية بما هو نتيجة لهذه المقدمة فقال :

(أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) : أى أن أهل هذا البيت الكريم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان لهم ، بسبب ما قيل فيهم من الإفك مغفرة عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الهفوات أو لما يعد بالنسبة إليهم هفوات ، وإن كان بالنسبة لغيرهم مكرمات ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولهم بسبب ذلك رزق عظيم فى جنة الرحمن الرحيم .

وبعد ، فإن نزول هذه الآيات العظيمة فى تبرئة أم المؤمنين عائشة ، فيه مزيد اعتناء بشرف الرسول وكرامته على الله ، وجبر لقلب صاحبه أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وكذا قلب زوجته أم رومان ، فقد اعتراها من حديث الإفك همٌ جسيم ، كما أن فيه تكريماً لعائشة - رضى الله عنها - لمزيد انقطاعها إلى الله - عز وجل - ولجوها إليه فى محنتها .

(يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ
 حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ
 تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ
 لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ
 مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾)

الفردات :

(تَسْتَأْذِنُوا) : تطلبوا أنس أهل البيت باستئذانكم إياهم في دخوله ، حتى لا تحدث
 لهم وحشة ورعب بدخولكم عليهم دون استئذان .

(هُوَ أَزْكَى لَكُمْ) : هو أطهر لكم - من الزكاة ، بمعنى : الطهارة - أو أنفع لدينكم
 ودنياكم - من الزكاة بمعنى النمو - (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) : ليس عليكم حرج .

(فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ) : أى فيها حق استمتاع بها لكم ، وسيأتى شرحه .

(مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) : ما تظهرون وما تخفون .

التفسير

٢٧ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا
 عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) :

لا يزال الحديث ممتداً في تأديب الله لعباده نحو حرمتهم ، فقد أنزل هذه الآية وما بعدها
 ليعلمهم أن للبيوت حرمت لا يحل انتهاكها بدخولها دون استئذان ، ومبني نزولها : ما رواه

الطبراني وغيره عن عدى بن ثابت : أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله ، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتني الأب فيدخل عليّ وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ فنزلت الآية ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن ؟ فأنزل الله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ . . . »^(١) الآية .

وقال مقاتل بن حيان : كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ، ويقول : حييت صباحا ، وحييت مساء ، وكان ذلك تحية القوم بينهم ، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول : قد دخلت ، فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله ، فغير الله ذلك كله في سترٍ وعفة ، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والدرن ، فأنزل الله هذه الآية^(٢) : ١٥ هـ .

فأنت ترى أنه تعالى نهى فيها عباده عن دخول بيوت غيرهم حتى يستأنسوا ويسلموا على أهلها ، والمراد من الاستئناس هنا : الاستئذان ، وبه قرأ عبد الله بن عباس وسعيد ابن جبير ، وقد فسر به الجمهور ، وأصل الاستئناس : طلب الأئس الذي هو ضد الوحشة ولما كان المستأذن يريد باستئذانه أن يأئس به أهل البيت ولا يستوحشوا منه فيأذنوا له ، عبر عن استئذانه بالاستئناس على سبيل المجاز .

وفسره بعضهم بالاستعلام ، كما في قوله تعالى : « فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا » أي : فإن علمتم ، والواقع أن التفسيرين متقاربان ، فإن الاستئذان مع ما فيه من طلب الإذن فيه طلب العلم بوجود أهل البيت وبرضاهم عن دخوله .

وقد تضمنت الآية أن يقرن المستأذن السلام باستئذانه ، وظاهر النص تقديم الاستئذان على السلام ، ولكن الأولى العكس حسبما ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - والواو لمطلق الجمع ، فلا تقتضي الترتيب ، وصورتها : أن يقول المستأذن : السلام عليكم ،

(١) انظره في تفسير القرطبي لهذه الآية .

(٢) انظر ابن كثير ج ٦ ص ٤٢ ط الشعب .

أأدخل؟ فقد أخرج أبو داود عن ربيعي قال: (حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو في بيت فقال: أليج؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لخادمه: «أخرج فعلمه الاستئذان فقل له: قل: السلام عليكم أأدخل؟» فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبي - صلى الله عليه وسلم - فدخل.)

ومن العلماء من قال بتقديم الاستئذان، فإذا أذن له فدخل سلم، وهذا الرأي يوافق ظاهر الآية ويخالف ما رواه أبو داود عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقد تقدم قبل هذا، وهو أحق بالاتباع.

ويسن الاستئذان إلى ثلاث مرات إن لم يؤذن له بعد الأولى والثانية، فإن لم يؤذن له بعد الثالثة انصرف، فقد جاء في الصحيح أن أبا موسى الأشعري حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ - يعني أبا موسى - ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعتك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف...» الحديث.

وقد كانت البيوت من غير أبواب ولم يتخذ لها الستور، فكانت السنة أن يقف المستأذن بجانب المدخل يمينا أو يساراً ولا يستقبله، روى أبو داود عن عبد الله بن بشر قال: (كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: «السلام عليكم» وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور^(١)).

فإن قيل: ما الحكم بعد أن استحدث الناس الأبواب، وسكنوا في الطوابق، واستحدثوا أجراساً على أبوابهم؟ فالجواب: أن الاستئذان يكون في هذه الحالة إما بدق الباب أو بقرع الأجراس، فقد صح عن أبي موسى الأشعري (أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان في حائط بالمدينة على قف بشر، فمد رجله في البئر فدق الباب أبو بكر، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ائذن له وبشره بالجنة» والحائط: البستان، وقف البشر: الدكة المرتفعة التي تجعل حولها.

وينبغي أن يكون الدق خفيفاً غير مزعج ، فقد روى أنس بن مالك -رضى الله عنه- قال :
(كانت أبواب النبي -صلى الله عليه وسلم- تفرع بالأظافر) رواه الخطيب في جامعه ^(١) .

وكما يشرع الاستئذان للرجال بشرع للنساء ، فقد يكون أهل البيت على حال لا يحسن أن يطلع هؤلاء النساء عليها ، فالخطاب في الآية للذكور على وجه التغليب لا التخصيص ، فإن النساء شقائق الرجال في الأحكام إلا ما خص كلا منهم كأحكام الحيض والنفاس للنساء ، ومضاعفة الميراث للرجال ، ويؤيد العموم ما أخرجه الطبراني عن أبي أمامة -رضى الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : « من كان يشهد أني رسول الله فلا يدخل على أهل بيت حتى يستأذن ويسلم ، فإذا نظر في قعر البيت فقد دخل » ^(٢) أي : فإذا نظر في داخل البيت قبل أن يؤذن له ، فكأنما دخل قبل الاستئذان ، وذلك لا يحل له ، فأنت ترى أن الحديث جاء بصيغة العموم التي تعم الرجال والنساء .

فإذا استأذنت فقليل لك : من الطارق مثلاً ؟ فيكره أن تجيبه بقولك : أنا ، فقد روى الصحيحان وغيرهما عن جابر بن عبد الله -رضى الله عنهما- قال : (استأذنت على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال : « من هذا ؟ » فقلت : أنا ، فقال : « أنا ، أنا » كأنه كره ذلك) وربما ترجع كراهة النبي لذلك ، إلى أن في ذكر الاسم إسقاط لكلفة السؤال والجواب ، فإن لفظ (أنا) لا تحصل به المعرفة ، وربما أوهم غرور المجيب بنفسه ، فكأنه يرى أنه الشخص الذي لا يجهله أحد ، فيكفي أن يقول عن نفسه : (أنا) ليعرف .

وثبت أن عمر بن الخطاب أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في مشربة له ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم أي دخل عمر ؟ ، وفي صحيح مسلم ، أن أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : (السلام عليكم ، هذا أبو موسى ، السلام عليكم هذا الأشعري ...) الحديث .

وهذه الأحكام إنما هي في بيت ليس لك ، فأما بيتك فلا تستأذن فيه على أهلك ، ولكن تسلم عليها إذا دخلت فإن كان معها أمك أو أختك فاستأذن ، فقد تكونان على حالة

(٢) الآلوسی ج ١٨ ص ١٢٢ طبعة منير .

(١) انظر المسألة التاسعة من القربى .

لا تحب أن تراهما فيها ، روى عطاء بن يسار أن رجلاً قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : أستاذن على أمي ؟ قال : « نعم » قال : إني أخدمها ، قال : « أستاذن عليها » فعاودها ثلاثاً ، فقال : « أتحب أن تراها عريانة ؟ » قال : لا . قال : « فاستأذن عليها » ذكره الطبري ^(١) .

والمعنى الإجمالى للآية : يا أيها الذين آمنوا ذكروا وإناثا - لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ، حتى تستأذنوا من له حق الإذن من أهلها في الدخول عليهم وتسلموا عليهم تحية لهم ، ذلكم الاستئذان والسلام خير لكم من الدخول بغتة ، لما فيه من الاطلاع على عورات إخوانكم وإزعاجهم ، وخير لكم من تحية الجاهلية إذ كانوا يقولون : حينئذ صباحا وحينئذ مساء ، وقد أريدتم إلى ذلك لعلكم تتذكرون وتتعمدون فتعملوا بما شرع لكم .

٢٨ - (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) :

أثبتت الآية السابقة حكم البيوت المسكونة ، فنهت عن دخولها من غير إذن أهلها ، وجاءت هذه الآية لتبين حكم دخول البيوت الخالية التي يملكها سواكم .

والمعنى : فإن لم تجدوا في البيوت التي يملكها سواكم أحداً من أهلها فلا تدخلوها ، سواء أكان الباب مغلقاً أم مفتوحاً ، لأن الله أغلقه بالتحريم ^(٢) ، حتى يأتي من أهلها من له حق الإذن ، فتستأذنه فيأذن لكم ، ولا عبرة بإذن خادم ولا صبي كما يقول به بعض الأئمة ، لأن مثلها لا إذن له ^(٣) ، وإن قيل لكم من جهة أهل البيت : ارجعوا ولو بعد الإذن لكم بالدخول ^(٤) ، فارجعوا ولا تدخلوها ولا تلحوا سواء أكان الأمر بالرجوع يملك الإذن بالدخول أم لا ^(٥) ومثله في حكم وجوب الرجوع الإمساك عن الإجابة ، أو الاعتذار بعدم

(١) انظره في القرطبي - المسألة السادسة عشرة : فقد نقله عن الطبري .

(٢) انظر القرطبي في المسألة الثانية في تفسير هذه الآية .

(٣) ذكره الآلوسى ، وذكر القرطبي أن الإذن يصح من الصغير والكبير من أهل البيت ، انظره في المسألة الثالثة من تفسير الآية السابقة ، ونحن نرجح ما نقله الآلوسى ، وبخاصة في هذا الزمان الذي كثر فيه الفساد وسوء النية فلا يصلح للإذن فيه سوى الرجال من أهل البيت .

(٤) انظره في ابن كثير .

(٥) انظره في الآلوسى .

وجود من يلقاه أو يجالسه من الرجال أو نحو ذلك ، والرجوع عن الدخول في هذه الأحوال وأمثالها واجب ، سواء أكان في البيت أهله أم لا ، كما أنه أدعى إلى الطهر والنزاهة ولهذا قال سبحانه : (وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ) : أي أظهر لكم لما فيه من السلامة من القيل والقال والتصرف في ملك غيركم إن دخلتموه دون رضاه ، والدناءة والخسة إن بقيتم بالباب تلجئون وتلحون ، وإنما يتوقف الدخول على الإذن ما لم يكن هناك داع شرعى كإزالة منكر توقفت إزالته على الدخول بغير إذن ، وإطفاء حريق فيجوز رعاية لشرعية الله^(١) ، ثم ختم الله الآية بقوله : (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) : ليوعد من امتثل أمره ووعيد من عصاه ، أي : أنه تعالى يعلم ما تفعلون وما تتركون مما كلفكم به ، ويعلم ما انطوت عليه قلوبكم من الأغراض الشريفة أو الخسيسة حين استئذانكم ، فيحاسبكم ويجزيكم على أعمالكم ونياتكم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

٢٩ - (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) :

يبيح الله في هذه الآية دخول بيوت غير مسكونة بغير استئذان ، إذا كانت لها صفة العموم ، وتعتبر هذه الآية مخصصة لعموم ما قبلها .

والمراد من هذه البيوت : ما لم يجعل لسكنى طائفة خاصة ، بل جعل ليتمتع بها من كان بحاجة إليه كالحانات والحمامات العامة ، ومنازل المسافرين العامة ، وحوانيت التجار ونحوها ، والمراد بالمتاع : المنفعة . فعن محمد بن الحنفية وقتادة ومجاهد : هي الفنادق التي في طرق السابلة ، قال مجاهد : لا يسكنها أحد ، بل هي موقوفة لياوى إليها كل ابن سبيل وفيها متاع لهم ، أي : استمتاع بمنفعتها ، وقال ابن زيد والشعبي : هي حوانيت القيساريات ، قال الشعبي : لأنهم جاءوا ببيوعهم فجعلوها فيها وقالوا للناس : هلموا ، وقال جابر بن زيد : ليس يعنى بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة ، أما منزل ينزله قوم من ليل أو نهار ، أو خربة يدخلها لقضاء الحاجة ، فهذا متاع وكل منافع الدنيا متاع ، واستحسنه أبو جعفر

(١) انظره في الآلوسى في شرحه لقوله تعالى : « فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » .

النحاس ، وقال : المتاع في كلام العرب : المنفعة ، ومنه : أمتع الله بك ، ومنه :
« فَمَتَّعُوهُمْ »^(١) .

ويدل على صحة هذه الآراء ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل أنه لما نزل قوله تعالى :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ... » الآية .

قال أبو بكر -رضي الله عنه- يارسول الله ، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون من مكة
والمدينة والشام وبيت المقدس ، ولهم بيوت معلومة على الطريق ، فكيف يستأذنون ويسلمون
وليس فيها سكان ؟ فرخص سبحانه في ذلك ، فأنزل قوله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ ... » الآية^(٢) .

فالمراد بتلك البيوت غير المسكونة : مافيهما انتفاع عام ، ويدخل فيها دور العلم المباحة ،
أما إذا كانت لها قيود أو بآجر ، فلا بد من الاستئذان عليها والتزام شروطها ، وكذلك
الفنادق التي يسكنها المسافرون بآجر فلا يدخلها أحد بغير استئذان والتزام بحدودها ،
ومثلها الحمامات الخاصة ونحوها .

وخلاصة معنى الآية : ليس عليكم -أيها المؤمنون- حرج ولا إثم ، في أن تدخلوا بغير
استئذان بيوتاً غير مسكونة فيها متاع - أي : منفعة - لكم بدخولكم فيها ، كاللور الموقوفة
على أبناء السبيل ، ومنازل المسافرين العامة المقامة على الطريق ليستريح فيها المسافرون ،
ودور العلم العامة التي لم يجعل لها شروط تمنع أحداً من حضورها ، والبيت المعد لنزول أي
ضيف ، وحوانيت التجار ، والمراحيض العامة والخربات لقضاء الحاجة - ليس عليكم
جناح - أن تدخلوا هذه وأمثالها دون استئذان ، لأن لكم حق التمتع - أي الانتفاع -
بها ، والله يعلم ما تظهرون وما تخفون من أعمال ونيات ، فيحاسب كل من دخل هذه
البيوت المأذون بدخولها بلا استئذان - يحاسبه ويجازيه - على عمله ونيته ، فإذا كان
دخوله إياها لراحة نفسه أو قضاء مصلحة شرعية له أو لغيره فله ثوابه وإن كان للفساد
والإفساد ، فعليه عقابه .

(١) انظر القرطبي في المسألة الثانية في تفسير الآية . (٢) انظر الحديث في تفسير الآلوسي للآية .

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ^{٣٤} ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ^{٣٥}) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^{٣٦})

المفردات :

(يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) : يخفضوها كفاً لها عن النظر إلى من يحرم النظر إليهن ، وكل شيء غرضته فقد كففته ، وفعله من باب رد يرد . (وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) : يمتنعونها عن الزنى واللواط . (أَزْكَىٰ لَهُمْ) : أطهر لهم . (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) : ولا يظهر من الزينة إلا ما ظهر منها عادة كالخاتم ، وللکلام بقية في التفسير .

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ) : الخُمُرُ : جمع خمار وهو ما تلقى المرأة على رأسها من الثياب لسترها ، وهو من الخمر ، بمعنى الستر ، والجيوب ، جمع الجيب ، وهو فتحة في أعلى القميص يبدو منها بعض الجسم ، وأصله : من الجيب أو الجوب ، بمعنى القطع ، وفي الصحاح تقول :

جبت القميص أجبيه وأجوبه إذا قَوَّرت جيبه ، وضربهن بالخمر على الجيوب إلقاؤهن إياها على الصدور لسترها مع الأعناق . (بُعُولَتِهِنَّ) : أزواجهن .

(أَوْ نِسَائِهِنَّ) : أى النساء الحرائر المؤمنات المختصات بهن كصاحبة وخادمة .
(أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) : من الإماء دون العبيد . (أَوْ التَّائِبِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ) : أى الذين يتبعون البيوت ليصيبوا من فضل الطعام ، ممن ليس لهم حاجة إلى النساء من الشيوخ الطاعنين فى السن . (أَوْ الطُّفْلَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ) : أَوْ الأطفال الذين لم يميزوا بين عورات النساء وغيرها ، ولا يدرون ماهى العورة ، وللکلام بقية فى التفسير .

(وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) : ولا يضرب المؤمنات الأرض بأرجلهن لإعلام الرجال ما يخفين من زينتهن حين يسمعون صوت الخلاخيل بسبب ضربهن الأرض .

التفسير

٣٠ - (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا^(١) مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) :

شرح الله فى الآيات السابقة وجوب الاستئذان على البيوت توفيراً لحرمت أهلها ، وسترًا لعوراتهم عمن يدخلونها فجأة ، وجاء بهذه الآية والتى بعدها تنميما لما قبلها من الآداب التى تحمى الأعراض ، وتحفظ فى المؤمنين والمؤمنات مكارم الأخلاق ، فقد أمر الله فيهما بغض البصر عن المحرمات ، وعدم إبداء الزينة لغير من يحل إبدائها له ، إلى غير ذلك من الآداب والأحكام التى سنبينها .

والبصر : هو الباب الموصل إلى القلب ، وأشد الحواس تنبيها له ، وعن طريقه غالباً يكثر السقوط والانغماس فى أحوال الفتنة ، فهو بريد الزنى ورائد الفجور ، قال الشاعر :

كل الحوادث مبدأها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها فعلى السهام بلا قوس ولا وكر

(١) يغضوا : مجزوم فى جواب الأمر : وهو لفظ (قل) لتضمنه معنى الشرط ، كأنه قيل : إن تقل لم تغضوا يغضوا .

فلهذا عُنِيَ الشرع بإيجاب غض البصر وكفّه عن المحرمات ، والتحذير من الفتنة عن طريقه ، كما جاء في هاتين الآيتين ، وكما في قوله -صلى الله عليه وسلم- : « إياكم والجلوس على الطرقات ، فقالوا : ما لنا بدٌ إنما هي مجالسنا نتحدث فيها ، قال : فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غَضُّ البصر وكفُّ الأذى وردُّ السلام ، وأمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر » أخرجه البخارى ومسلم في صحيحيهما عن أبى سعيد الخدرى ، واللفظ للبخارى ^(١)

والأمر فيها موجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- لإيذانه بمتابعته لهم في هذا الشأن . وهيمنته عليهم فيه حتى يكفوا عما اعتادوه في الجاهلية من نظر الرجال إلى النساء والنساء إلى الرجال .

هذا ، وقد قيل : إن سبب نزول الآية : ما أخرجه ابن مردويه بسنده عن على بن أبى طالب قال : مر رجل على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في طريق من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأة ، ونظرت إليه ، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابا به ، فبينما الرجل يمشى إلى جنب حائط وهو ينظر إليها ، إذ استقبله الحائط فشق أنفه ، فقال : والله لا أغسل الدم حتى آتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبره أمرى ، فأتاه فقص عليه قصته ، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- : « هذا عقوبة ذنبك » وأنزل الله تعالى : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » انظر الآلوسى .

وغض البصر : خفضه كفاً له عن النظر ، ولفظ (مِنْ) في قوله تعالى : (مِنْ أَبْصَارِهِمْ) إما لا بتداء الغاية - كما قال ابن عطية - وإما أن تكون للتبعية ، فالمراد : غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل ^(٢) كالنظر إلى الزوجة والمحرم ، ويجب أن يتجرد نظره إلى المحرم عن الشهوة ، بل لقد كره الشعبي أن يديم الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته ،

(١) كتاب المظالم ، باب : أفنية الدور والجلوس على الصعدات .

(٢) فجعل الغض عن بعض المبصرات غصاً لبعض البصر ، على سبيل الكناية ، وهى كناية حسنة كما في الكشف .

وزمانه خير من زماننا^(١) ، فإذا نظر إليها بشهوة فلأثمه شديد وعقابه عنيف ، نسأل الله العصمة لعباده المؤمنين .

ونقل كثير عن السلف أنهم كانوا ينهون أن يحسد الرجل النظر إلى الأُمرد ، وشدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك ، وحرمة طائفة من أهل العلم ، لما فيه من الافتتان .

أما نظرة الفجاءة إلى الأجنبية فلا إثم فيها ، فقد أخرج أبو داود وغيره عن بريدة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة » .

والمراد بحفظ الفروج أمران ، أحدهما : حمايتها من الزنى واللواط ، وثانيهما : سترها عن لا يحل له النظر إليها من الأجانب والأقارب ، إلا في حالات جراحاتها أو علاجها أو الكشف عن مرضها ، فإنه يجوز كشفها للطبيب الأمين^(٢) عند الضرورة .

أما الزوجة والأمة فلا يدخلان في الأمر بحفظ فرج الرجل عنهما ، روى بهز بن حكيم ابن معاوية القشيري عن أبيه عن جده قال : (قلت يا رسول الله : عوراتنا ؛ ما نأق منها وما نذر ؟ قال : « احفظ عورتك إلا من زوجتك وما ملكت يمينك » ثم سأله عن الرجل يكون خالياً ، فقال -صلى الله عليه وسلم- : « الله أحق أن يستحيا منه من الناس ») نقله القرطبي ثم قال في المسألة الخامسة ما خلاصته : أن العلماء حرموا دخول الحمام على الرجال بغير مئزر ، أخذاً من نص الآية ، فإن دخلوها بمئزر جاز ، وقد دخل ابن عباس الحمام بإزاره وهو مُحَرَّمٌ بالجحفة ، أما دخول النساء فأجازاه بعض العلماء لضرورة العلاج ونحوه ، مع الاستتار بنحو مئزر ، أما لغير ذلك فلا ، فقد أخرج ابن منيع بسنده عن سهل بن معاذ عن أبيه عن أم الدرداء أنه سمعها تقول : (لقيني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد خرجت من الحمام ، فقال : « من أين يا أم الدرداء ؟ » فقالت : من الحمام ، فقال : « والذي نفسى بيده ما من امرأة تضع ثيابها في غير بيت أحد من أمهاتها ، إلا وهى هاتكة كل

(١) انظر القرطبي .

(٢) ويشترط حضور من يمنع حضوره الخلوة إذا كان المريض امرأة ، كالزوج والآب .

ستر بينها وبين الرحمن عز وجل » وأخرج البزار عن طاووس عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « احذروا بيتاً يقال له الحمام » قالوا يا رسول الله يَنْفَى الوسخَ ، قال : « فاستتروا » وهذا أصح حديث في الباب ، فإن دخله مستترا فعليه أن يحقق عشرة شروط ، منها : أن يكون بنية التداوى أو النظافة ، وأن يستتر بإزار صفيق ، وأن يغير ما يراه من منكر برفق - إلى آخر ما ذكره القرطبي فارجع إليه إن شئت .

والمعنى الإجمالى للآية : قل -أيها الرسول- للمؤمنين : يخفضوا من أبصارهم كفا لها عن رؤية ما لا تحل رؤيته من النساء والرجال ، ويحفظوا فروجهم بمنعها عن الزنى ، وسترها عن غير زوجانهم وإمائهم ، ذلك الغض للبصر وحفظ الفرج أظهر لهم في الدين ، وأبعد عن دنس الإثم ، إن الله عليم بما يصنعون من امتثال أمره أو عصيانه ، فيجازى كلا على ما كسب ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

٣١ - (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) الآية .

أمر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- في هذه الآية أن يبلغ النساء المؤمنات ، أنهن مكلفات بغض أبصارهن وحفظ فروجهن ، مع أنهن داخلات في حكم الآية السابقة للتأكيد ، فإن قوله : « قل للمؤمنين » يعم حكمه الذكور والإناث حسب كل خطاب في القرآن ، فإن النساء شقائق الرجال في الأحكام إلا ما خص كلا منهم بدليل أو قرينة .

وقد فهم من الآيتين أنه كما يحرم نظر الرجال إلى النساء غير المحارم ، يحرم نظرهن إليهم كذلك ، أخرج أبو داود والترمذي بسندهما عن أم سلمة (أنها كانت عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وميمونة ؛ قالت : فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه ، وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « احتجبا منه » فقلت : يا رسول الله ، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « أو عميان أنما ؟ ألسما تبصرانه ؟ » ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح^(١) . ومنه عرف

أن نظر المرأة ولو لرجل أعمى حرام ، وكما يحرم على الرجل أن ينظر من المرأة الأجنبية سوى وجهها وكفيها^(١) ، يحرم على المرأة أن ترى منه سوى وجهه وكفيه ، وكما يجب على الولي منع الفتى المراهق من نظر المرأة الأجنبية سوى وجهها وكفيها ، يجب على ولي الفتاة المراهقة أن يمنعها من نظر ما عداهما من الرجل الأجنبي ولو مراهقاً^(٢)

وفهم من الآية أيضاً أنه يجب على المرأة حفظ فرجها من الزنى والسحاق ، وستره عن غير زوجها وسيدها إن كانت أمة ، ما لم تكن محرمة عليه لنحو زواج ، فلا يحل لها أن تبديه لسيدها ، وكما يحرم عليها إظهاره للعين مباشرة يحرم إظهاره بالثوب الشفاف أو الضيق ، أو بالحديث عنه ، فكل ذلك حرام ، لما يترتب عليه من إثارة الشهوة والفتنة .

وفهم من الآية أيضاً أنه يحرم على المرأة أن تبدي من زينتها إلا ما ظهر منها^(٣) ، والمراد منه : الوجه والكفان ، ودليل ذلك ما أخرجه أبو داود عن عائشة -رضي الله عنها- (أن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهما- دخلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعابها ثياب رفاق ، فأعرض عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال لها : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه) وبهذا النص أخذ محققو الشافعية^(٤) قال القرطبي : وهذا أقوى في جانب الاحتياط ، ولمراعاة فساد الناس ، فلا تبدي المرأة من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفيها ، ونقل عن ابن خويز مَنَدَاد من علماء المالكية : أن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من رؤية وجهها وكفيها الفتنة ، فعليها سترهما ، وإن كانت عجوزاً أو مقبحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها

وقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب ، وقال سعيد بن جبير وعطاء والأوزاعي : الوجه والكفان والثياب^(٥)

(١) وهو رأى المحققين من الشافعية ، وسيأتى تفصيل آراء المذاهب فيما يحل إظهاره من المرأة ، والله الموفق

(٢) المراهق : من قارب بلوغ الحلم من الذكور والإناث

(٣) وذلك على الأجانب كما سيأتى بيانه .

(٤) وهو الذى نقل فى الروضة عن الأكثرين ، وصوبه فى المهمات ، ومن الشافعية من قال : يحرم النظر إلى الوجه والكفين أيضاً ، ذكره صاحب المتهاج ، ولكن رأى الأول أحق وأيسر كما أنه متفق مع ما جاء فى حديث عائشة المذكور

(٥) فالزينة قسمان : خلقية ومكتسبة ، فالوجه والكفان ما ظهر من زينتها الخلقية ، والثياب ما ظهر من زينتها المكتسبة .

وروى عن ابن عباس وقتادة والمِسُور بن مخزومة : ظاهر الزينة : هو الكحل والسوار والخضاب إلى نصف الذراع والْقِرْطَةُ والْفَتْخُ^(١) فمباح أن تبديه المرأة على الناس . هكذا نقل القرطبي عنهم ، ولكنه على هذا التفصيل - لوصح - يوقع في الفتنة . ولهذا فنحن نرجح الرأي القائل بقصره على الوجه والكفين ، لحديث عائشة السابق^(٢) . مضموما إليهما ما ظهر من الثياب على أن يكون فضفاضا غير شفاف ، فإنه لا بد من رؤيته عند إظهار الوجه والكفين بحكم الضرورة .

وقال ابن عطية : ويظهر بحكم ألفاظ الآية ، أن المرأة مأمورة أن لا تبدى ، وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء لما يظهر بحكم الضرورة في إصلاح شأن ونحوه فمعفو عنه^(٣)

واعلم أن ما ظهر من الزينة على ما سبق بيانه مباح لإظهاره للأجانب والمحارم . وأن ما بطن منها لا يحل إبدائه إلا لمن ذكرهم الله في هذه الآية ، على ما سيأتى بيانه . واعلم أن السوار من الزينة الباطنة - كما قال مجاهد ، لأنها في الذراع لافى الكفين . وهو بذلك يخالف ما نقل سابقا عن ابن عباس من كونها من ظاهر الزينة ، ومن الزينة الباطنة : الخلخال والدمالج والقلادة والقرط^(٤) .

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) :

الخمر : جمع الخمار ، وهو ما تغطي به المرأة رأسها ، والجيوب : جمع الجيب ، وهو كما قال الآلوسی : فتح في أعلى القميص يبدو منه بعض الجسد^(٥)

والمراد من الآية - كما روى عن أبي حاتم عن ابن جبير - : أمرهن بستر نحورهن وصدورهن بخمرهن ، لئلا يرى منها شيء

(١) القرطة - بوزن عنبه - جمع : قرط ، وهو حلية الأذن ، والفتحة بالسكون وبفتحتين : الحاتم ، وجمعها : فتخ بفتحتين

(٢) ولظهورهما في الصلاة والحج .

(٣) انظر المسألة الثالثة في تفسير القرطبي للآية .

(٤) انظر الآلوسی .

(٥) وفي الصحاح : تقول : جبت القميص أجوبه وأجيبه إذا قورت جيبه .

وكان النساء يغطين رؤوسهن بالخمر، ويسدّنها^(١) كعادة الجاهلية من وراء الظهر فتبدو. نحورهن وبعض صدورهن .

وصح أنه لما نزلت هذه الآية ، سارع نساء المهاجرين إلى امتثال ما فيها ، فشققن مروطهن^(٢) فاختمرن بها تصديقا وإيمانا بما أنزل الله - تعالى - من كتابه .

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ) :

بعد أن أجاز الله للمرأة في صدر الآية أن تبدى للأجانب من زينتها ما يظهر منها عادة ، عقبه بإجازة أكثر منه لأنواع عيّن فيها

وأول هذه الأنواع: (البعولة) جمع بعل، ويطلق على الزوج، وكذا على السيد، كما قاله ابن العربي، ومنه ماجاء في حديث جبريل عن أشراط الساعة في إحدى الروايات: «إذا ولدت الأمة بعلها» يعني سيدها، لأنها إذا استولدها سيدها، فولدها يكون سببا في عتقها بعد موت أبيه، فكأنه سيدها الذي من عليها بالعتق^(٣)، فكل من الزوج والسيد يرى زينة المرأة كلها، وله الحق في أكثر من رؤية زينتها وهو تمام الاستمتاع بها نظرا أو فراشا في مكان الحل منها، قال تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُنَّ غَيْرُ مَلُومِينَ»^(٤).

أما النظر إلى الفرج فقد أجازته قوم بالقياس الأولوى على الجماع، فللرجل أن ينظر إلى فرج زوجته وأمته، ولهما أن ينظرا إلى فرجه، ومنعه بعضهم لحديث عائشة: «مارأيت منه ولا رأى مني» وحمله أصحاب القول الأول على الأدب لاعلى التحريم، ومن الفقهاء من أجازته مع الكراهة، وبه قال أكثر الشافعية^(٥)، ومن الفقهاء من قال إنه خلاف الأولى، وهو مذهب الحنفية كما حكاه الخفاجي .

(١) أى يرخين شعورهن، وفعله: سد، من باي: ضرب ونصر .

(٢) جمع: مرط، وهو كساء من صوف أو حرير كان يؤتزر به .

(٣) والحديث يشير إلى كثرة السراى بكثرة الفتوحات، فيأتى الأولاد من الإماء، فتمتق كل أم بولدها - انظر القرطبي .

(٥) وقليل منهم يقول بالتحريم

(٤) سورة المؤمنون؛ الآيتان: ٥، ٦ .

ولما بدأ الله بذكر البعولة؛ ثنى بذوى المحارم ، وهم آباء المرأة وإن علوا وآباء الأزواج كذلك ، وأبناء المرأة وإن سفلوا ، وأبناء الزوج كذلك ، وإخوان المرأة وبنو إخوانها ، وبنو أخواتها والمراد بإخوانها: إخوانها الذكور أشقاء أو لأب أو لأم ، ومثل ذلك بنو إخوانها وبنو أخواتها وإن سفلوا ، فهؤلاء جميعا يجوز للمرأة أن تبدى من زينتها لهم أكثر مما تبديه للأجانب لكثرة المخالطة الضرورية ، وقلة توقع الفتنة ، فلمهم أن ينظروا من المرأة ما يظهر منها عند المهنة - أى الخدمة - كما ذكره الآلوسى .

وقال القرطبي في المسألة الحادية عشرة : سوى الله بينهم في إبداء الزينة ، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما في نفوس البشر ، فلا مرية أن تكشف الأب والأخ على المرأة أحوط من كشف ولد زوجها ، وتختلف مراتب ما يبدى لهم ، فيبدى للأب مالا يجوز إبداءه لولد الزوج .

ونحن نرى ، أن الاحتياط والتصون في هذا الزمان أمر ضرورى ، لفساد المعايير والأخلاق ، فلا تبدى المرأة من جسدها لغير زوجها وسيدها إلا ما يظهر عند خدمتها منزلها في ثياب مرسلة ، وحشمة واتزان ، وبخاصة مع أبناء زوجها ، فينبغى أن يكون تحفظها معهم أكثر^(١) .

ولم يرد في الآية العم ، ولا الخال - مع أنهما من المحارم - والجمهور على أنهما كسائر المحارم في جواز النظر إلى ما يبدو من المرأة عند المهنة على نحو ما قلناه ، ولم يذكر في الآية اكتفاء بذكر الآباء ، فإنهما عند الناس بمنزلتهم ، ولا سيما الأعمام ، وقيل : لم يذكر لأن الأحوط أن تستتر المرأة عنهما ، حذرا من أن يصفها لأولادهم ، فيبعثهم ذلك على رؤيتها والاختلاط بها ، وليس في الآية ذكر الرضاع ؛ وهو مثل النسب فيما تقدم^(٢) .

أما قوله تعالى : « أَوْ نِسَائِهِنَّ » فالمراد منه : المسلمات المختصات بهن بالصحبة والخدمة من حرائرهن ، أما الكوافر فلا يظهرن لهن إلا ما يظهرنه للرجال الأجانب ، وقال عبادة

(١) وعند الشافعية كما ذكره ولى الدين البصير في كتابه (النهاية) الذى شرح به متن أبى شجاع : أن لهم أن يروا ما عدا ما بين السرة والركبة قياسا على ما يراه السيد من أمته المزوجة ، فقد روى أبو داود وغيره : (أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا زوج أحدكم عبده جاريته ، أو أجيره فلا ينظر إلى ما بين السرة والركبة ») ونحن لا نوافقهم على هذا القياس غير المتكافئ ، فإن الأمة لا تماثل الحرة ، وغير السيد لا يماثل السيد ، فالحق والأحوط ما قلناه وهو نظر ما يبدو عند المهنة - أى : الخدمة - دون سواء . (٢) انظر القرطبي والآلوسى .

ابن نُسَيٍّ: كتب عمر رضي الله عنه - إلى أبي عبيدة بن الجراح: أنه بلغني أن نساء أهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساء المؤمنين ، فامنع من ذلك وحلّ دونه فإنه لا يحل أن ترى الذمية عريّة^(١) المسلمة ، فعند ذلك قام أبو عبيدة وابتهل وقال : أيّما امرأة تدخل الحمام من غير عذر ، لا تريد إلا أن تبيض وجهها ، فسودّ الله وجهها يوم تبيض الوجه .

ونقل الآلوسی عن ابن حجر الشافعي: أن الأصحّ تحریم نظر الذمية إلى غير ما يبدو من المسلمة في المهنة - أي . الخدمة - غير سيدها ومحرمها ، ودخول الذميات على أمهات المؤمنين الوارد في الأحاديث الصحيحة دليل لحل نظرها منها ما يبدو عند المهنة .

وأما قوله سبحانه: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ» فالمراد منه : الإماء ولو كافرات ، وأما العبيد فهم كالأجانب لا يرون من زينة سيدهن إلا ما ظهر منها ، وهذا مذهب أبي حنيفة ، وأحد قولين في مذهب الشافعي ، قال ابن عباس : لا بأس أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته ، وقال سعيد ابن المسيب : لا تغرنكم هذه الآية : «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» إنما غنى بها الإماء ولم يعن بها العبيد ، وعلل ذلك بأنهم فحول ليسوا أزواجا ولا محارم ، والشهوة متحققة فيهم - انظر الآلوسی .

وأما قوله تعالى: «أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ^(٢) مِنَ الرِّجَالِ» فالمراد بهم : الذين يتبعون البيوت ليصيبوا من طعام أهلها ، وليست لهم حاجة إلى النساء ، لكونهم شيوخا طاعنين في السن ، وقد فنيت شهواتهم ، والمسوحون الذين قطعت ذكورهم وخصاهم ، فهؤلاء ينظرون من المرأة ما يبدو منها عند المهنة ، أما المجبوب : وهو من قطع ذكره ، والخصي وهو من قطعت خصيتاه ، ففيهما خلاف ، فبعضهم أباح له أن ينظر من المرأة ما يبدو عند المهنة كابن الزوج ومن في حكمه ، ومنهم من جعله في حكم الأجانب ، فلا يرى منها غير الوجه والكفين ، وظاهر الثياب - وهذا هو الراجح - انظر الآلوسی .

(١) أي : ما يتعري منها وينكشف .

(٢) الإربة ، والإرب ، والماربة ، والأرب : الحاجة .

وفسره بعضهم : بالأبْلَه ، وفسره آخرون : بالصبي الذي لم يدرك ، قال القرطبي : وهذا الاختلاف كله متقارب ، ويجتمع فيمن لا فهم له ، ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء .

وأما قوله تعالى : « أَوِ الطُّفْلِ ^(١) الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ » فالمراد به : الأطفال الذين لم يعرفوا ماهى عورات النساء ، وما شأنها بالنسبة إلى الرجال ، وفسره الآلوسى بقوله : أى : الأطفال الذين لم يعرفوا ماهى العورة ولم يميزوا بينها وبين غيرها .

وهذا القول قريب مما قلناه ، وعلى هذا وذاك يكون قوله : « لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ » مأخوذاً من الظهور ، بمعنى الاطلاع ، وقد جعل كناية عما ذكر .

وفسره ابن كثير بأنهم لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن ، من كلامهن الرحيم ، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك ، فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما إن كان مراهقاً أو قريباً منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يمكن من الدخول ، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : (« إياكم والدخول على النساء ») قالوا : يا رسول الله أفرأيت الحمى ^(٢) ؟ قال : « الحمى : الموت » .

ومنهم من فسر (الطُّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ) بالذين لم يبلغوا حد الشهوة والقدرة على الجماع ، وإن كان قادراً على التمييز بين العورات ، من قولهم : ظهر على فلان إذا قوى عليه ، ومنه قوله تعالى : « فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ » فيشمل الطفل المذكور على هذا الرأى المراهق ، الذى لم يظهر منه تشوق للنساء ، والأصح عند بعض الشافعية : أنه يلزم الاحتجاب منه كالمراهق الذى ظهر منه ذلك ، وذكروا فى الطفل غير المراهق أنه إن كان قادراً على حكاية العورات وتمييزها فله حكم المحرم فى النظر ، وإلا فهو كالعدم ، فيباح فى حضوره ما يباح فى الخلوة ^(٣)

(١) الطفل : اسم مقترن بالحنسية ، وقد يراد به الجمع كما هنا ، فهو بمعنى الأطفال ، ولهذا وصف بالجمع .

(٢) الحمى ، والحم : أقارب الزوج ، وإذا كان رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - ما ذكر فى أبى الزوج وهو من المحارم فكيف يسمح بدخول غيره البيت ورؤيته نساء ؟ .

(٣) انظر الآلوسى فى تفسير هذه الجزئية من الآية .

وأما قوله تعالى : «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ» ، فمعناه أنه لا يحل للنساء أن يضربن الأرض بأرجلهن لتسمع غيرها صوت خلخالها وتعلمه ماتخفيه من زينتها ، فإسماع صوت الزينة كإبدائها في الحرمة بل أشد ، لأنه يغري الرجال بهن ، لما فيه من إيهام أن لهن ميلا إليهم ، واستدعاء لهم ، أخرج ابن جرير الطبري بسنده عن حضرمي (أن امرأة اتخذت خلخالاً من فضة ، واتخذت جَزْعاً في ساقها ، فمرت بقوم فضربت برجلها ، فوقع الخلخال على الجزع فصوت ، فأنزل الله «وَلَا يَضْرِبْنَ...» الآية ، والجزع : خرز فيه بياض وسواد تُشَبَّه به العيون ، ويفهم من سبب النزول أن الجزع كان منظوماً في خيط حول الساق ، وأن الخلخال كان في أعلاه فلما ضربت الأرض برجلها وقع الخلخال عليه فصوت .

قال الآلوسی فی تعليقه على هذا الأثر : والنساء اليوم على جعل الجزع ونحوه في جوف الخلخال ، فإذا مشين ولو هونا صوت ... الخ .

وكان النساء في عصرنا هذا يتخذن خلاخيل من ذهب أو فضة لها جلال مرتبطة بها ، تجلجل وتصوت عند مشيهن ، ثم تلاشت هذه الحلية أو كادت .

وكما يحرم على المرأة تنبيه الرجال إليها بضرب الأرض برجلها ، يحرم عليها تنبيههم بنحو التطيب عند خروجها ، قال - صلى الله عليه وسلم - : «كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا يعني زانية^(١)» والحديث حسن صحيح .

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) : أى وقل أيها النبي للمؤمنين في ضمن ما كلفوا به في هذه الآية - قل لهم - : توبوا إلى الله تعالى مما عسى أن تكونوا قد ارتكبتموه مما نهى عنه فيها ، ولا تتخلوا عن التائب من آن لآخر ، فإنكم لا تخلون من التقصير في حقوق الله - تعالى - لعلكم بالتوبة تفلحون ، وتفوزون بما تأملونه من السعادة في الدارين .

(١) انظر ابن كثير ، والحديث في تحفة الأحوذى - أبواب الاستئذان - باب : ما جاء في خروج المرأة متعطرة .

والمعنى الإجمالى للآية : وقل أيها الرسول للمؤمنات : اخفضن أبصاركن وامنعنهن من النظر إلى الرجال إلا ما يبدو منهم عادة ، من غير إمعان ولا اشتها ، وقل لهن أيضا : يحفظن فروجهن بمنعها عن الزنى ، وسترها عن العيون بشياب لا تحكيها ، ولا يظهرن زينتهن للرجال الأجانب إلا ما ظهر منها ، وهو الوجه والكفان والثياب الخارجية الفضفاضة ، وعليهن أن يسترن أعناقهن وما تظهره فتحات صدورهن من أجسادهن ، بسترها بخُمُرهن أى : بأغطية رؤوسهن ، ولا يظهرن زينتهن الداخلية إلا لأزواجهن أو آباء أزواجهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء أزواجهن ، أو إخوتهن ، أو أبناء إخوتهن ، أو أبناء أخواتهن ، وهؤلاء غير متساوين فى النظر ، فالأزواج ينظرون ماشاءوا من أجسادهن وما عليها ، أما غيرهم ؛ فلا ينظرون منهن إلا ما يبدو عند المهنة .

ويباح لهن إبداء مثل ذلك للنساء المؤمنات ، أما الكوافر فهن مثل الرجال الأجانب فى نظر الوجه والكفين وظاهر الثياب دون سواها ، وقيل : مثل المحارم فى نظر ما يبدو عند المهنة ، كما يباح للنساء المؤمنات إبداء ما يظهر عند المهنة للرجال الذين يتبعون البيوت ، ليصيبوا من طعام أهلها وبرهم ، ولا يشتبهون النساء ، كالرجال الواغليين فى الشيخوخة ، الذين فقدوا الحاجة إلى فراش النساء ، وكالمسوح والأبله ، أما التابعون من ذوى الإربة والحاجة إلى النساء ، فلا ينظرون من المرأة أكثر من وجهها وكفيها ، وظاهر ثيابها الفضفاض كسائر الأجانب .

ويباح للنساء المؤمنات أيضا إبداء زينتهن للأطفال الذين لا يفهمون عورات النساء ووظيفتها ولا يدركون الفوارق بين العورات ، ولا يفهمون الغرض مما تبديه المرأة من مظاهر أنوثتها .

ويحرم عليهن أن يضربن الأرض بأرجلهن ، ليسمع الناس جلجلة خلاخيلهن ، ويعرفوا ماتخفينه من زينتهن فإن ذلك يومهم رغبة المرأة فى الصلة بهم ، ويطعمهم فى غشيان بيتها . وتوبوا إلى الله أيها المؤمنون جميعا ؛ من مختلف الذنوب والمعاصي ، لعلكم بالتوبة تظفرون برضوان رب العالمين .

(وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ
وَأِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي
ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَبِيتَكُمْ عَلَىٰ السِّغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحْصِنَا
لَنَبْتِغُوا عَرَضَ الْخَيْرَةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ
إِكْرَاهِهِنَّ غُفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ
وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ) : الأيما جمع أيم ، وهو من لا زوج له ذكر أو أنثى ، سبق له الزواج أو لم يسبق ، وإنكاحهم تزويجهم .

(وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَأِمَائِكُمْ) : المراد بهم من يصلحون للقيام بحقوق النكاح من عبيدكم وجواريكم .

(وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) : كثير الرزق والإِنعام .

(وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا) : وليجتهد في العفة من لا يجدون أسباب النكاح .

(وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ) : والمماليك الذين يريدون

مكاتبتكم على العتق في مقابل عوض يؤدونه لكم ، فكاتبوهم وتعاقبوا معهم .

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ) : ولا تكرهوا إماءكم على الزنى .
 (إِنْ أَرَدْتُمْ تَحَصُّنًا) : أى إن أردتُمْ تَعَفُّفًا .
 (فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ) : أى فإن الله من بعد إكراهكم لهم غفور
 لهم رحيم بهم ، حيث يعفو عنهم لأنهم مكرهات على البغاء .

التفسير

٣٢- (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) :

لما نهى الله عما يفضى إلى السفاح المخل بالنسب ، عقبه بالحث على النكاح منعا
 من الانحراف إلى الإثم ، وحفظا لطهارة النسب ، والخطاب فى الآية موجه إلى الأولياء
 والسادة ، فالأولياء مطالبون بتزويج الحرائر والأحرار بعد استئذانهم أو التماسهم ، ولا بد فى
 إذن الثيب الحرة أن يكون صريحا ، أما البكر فيكفى صمتها مع الرضا ، ويباشر الحر
 البالغ عقده بنفسه ، ويباشر الولي العقد عن موليته عند الأكثرين ، لقوله - صلى الله عليه
 وسلم - : «لأنكاح إلا بولي» .

والسادة مكلفون بتزويج عبيدهم وإمائهم الصالحين إن طلبوا ذلك ووجد السادة فيهم
 خيرا ، وأمر السادة بإنكاح أرقائهم الصالحين على التجويز والإباحة عند الأكثرين
 كما ذكره القرطبي فى المسألة الرابعة .

والنكاح مباح عند الشافعية ، فإنه قضاء لذة كالأكل والشرب ، ما لم توجه الضرورة
 كخوف العنت ، أى : الزنى ، ومستحب عند الحنفية والمالكية ، لقوله - صلى الله عليه وسلم -
 فى الحديث الصحيح : «فمن رغب عن سنتي فليس مني» ما لم توجه الضرورة كما تقدم ،
 وفى المسألة تفصيلات مفيدة عند الفقهاء فليرجع إليها من شاء .

والمراد من صلاح العبيد والإماء معناه اللغوى ، وهو : صلاحهم للقيام بحقوق النكاح ،
 وقيل : المراد صلاحهم الدينى ، ليكونوا جديرين بعناية مواليتهم وإشفاقهم عليهم .

ثم بين سبحانه أن الفقر في الخاطب أو المخطوبة لا يمنع من المناكحة ، فإن المال غاد ورائح ، ولا حرج على فضل الله في أن يغني الفقير ، ولهذا زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - امرأة بـرجل فقير لا يملك ولا خاتما من حديد ، على أن يعلمها ما يحفظ من القرآن .

وجنح بعض المفسرين إلى أن الآية وعد من الله بالإغناء ، لكن ذلك مشروط بمشيئة الله تعالى كقوله سبحانه وتعالى : «وَلَاِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (١) .

ثم ختم الله الآية بقوله : (وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) : للإيذان بأنه لا ينبغي عدم اليأس من فضل الله فإنه سبحانه ذو سعة في الغنى والقدرة فلا حرج على فضل الله - عليم بأحوال عباده ، يمنحهم من رفقته ما علم أنه يصلح من أمرهم .

والمعنى الإجمالى للآية : وزوجوا أيها الأولياء من تتولون أمرهم من الحرائر والأحرار غير المتزوجين إن طلبوا ذلك ، ولا تمنعوا حقهم في سنة الله وفي إعفافهم ، وزوجوا الصالحين للنكاح من عبيدكم وإمائكم ، والفقر ليس بمنع من زواج الأحرار ، إن يكونوا فقراء فالله قادر على أن يغنيهم من فضله إن شاء ، والله واسع الغنى والقدرة ، عليم بأحوال عباده فلا يخفى عليه محتاج ، ولا تضيق موارد رزقه على الفقراء ، فهو كافل الأرزاق لجميع مخلوقاته .

٣٣ - (وَلَيْسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ . .) الآية .

تتضمن هذه الآية ثلاثة آداب للمؤمنين ، أولها : فيمن لا يجد أهبة النكاح ، وثانيها في حث السادة على مكاتبة أرقائهم ومساعدتهم إن علموا فيهم خيرا ، وثالثها في منعهم من إكراه إمائهم على البغاء ، وفيما يلي الكلام على الجزء الأول من الآية .

المراد من كونهم لا يجدون نكاحا : أنهم لا يجدون أسبابه من مهر ونفقة (٢) ، وقد

(١) سورة التوبة ، الآية : ٢٨

(٢) وهو إما من إطلاق النكاح على ما تنكح به المرأة من مهر ونفقة ، كإطلاق اللباس على ما يلبس ، واللحاف

على ما يلتحف به ، أو بتقدير مضاف .

طلبت الآية ممن لا يجدون أسباب النكاح مع توقعهم إليه ، أن يجتهدوا في العفة والبعد عن الزنى ، وذلك بالاستعانة بالصيام كما قال - صلى الله عليه وسلم - : « ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »^(١)

أو بالاستعانة بالصبر حتى يغنيهم الله من فضله فيتزوجوا ، وذلك خير لهم من الإقدام على الزواج مع الفقر ، انتظاراً لفضل الله حسب وعد الله في الآية السابقة ، فإنه وعد مشروط بمشيئة الله تعالى ، فإن شاء حققه وإن لم يشأ لم يحققه ، حسباً تقتضيه حكمته تعالى ، وقد أمر الله بالسعى في قوله تعالى : « فامشوا في مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ »^(٢)

(وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) :

هذا هو الجزء الثاني من الآية ، وهو تأديب وإرشاد منه تعالى للسادة في حق أرقائهم أن يكتبوهم ذكورا كانوا أو إناثا على العتق في مقابل جعل يؤدونه لسادتهم مُنَجَّمًا ، أو مرة واحدة في آخر مدة الكتابة أو نحو ذلك .

وصورة المكاتبه أن يقول السيد لمملوكه : كاتبك على أن تؤدى مائة دينار مثلاً ، فإذا أدبته عتقت ، فيقبل العبد ، وهذا القول يسمى مكاتبه وإن لم يكتب في سجل لأنها بمعنى المعاقدة والعهد ، كما في قوله تعالى : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » أى : عقد على نفسه عهداً بذلك ، وقيل : سمي بذلك لأنه مما يكتب .

والمكاتبه إسلامية الأصل ، فلم تكن في الجاهلية كما نقله الخفاجي عن الدميري وكذا قال ابن حجر ، وأول من كاتبه المسلمون ؛ عَبْدُ لُعْمَرِ يَسْمَى أَبَا أُمِيَّةٍ^(٣) ، وقيل : نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له : صَبِيح ، طلب من مولاه أن يكتبه فأبى ،

(١) من حديث أخرجه البخارى ومسلم عن ابن مسعود .

(٢) سورة الملك من الآية : ١٥

(٣) انظر الألوسى .

فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فكتبه حريطب على مائة دينار ، ووهب له منها عشرين ديناراً فأداها ، وقتل بحنين في الحرب ، ذكره القشيري ، وقال مكى : هو صبيح القبطي غلام حاطب بن أبي بلتعة^(١)

وسواء أكان للآية سبب نزول أم لم يكن ، فإن الله تعالى أمر فيها المؤمنين أن يكتبوا أرقاءهم إن طلبوا منهم ذلك ، وعلم سيد كل عبد منه خيراً ، فإن طلبها الرقيق وأباها سيده ، فله ذلك ؛ لأن إجابته ليست بواجبة بل مندوبة عند أكثر العلماء - كما حكاه البيضاوي - وعلله ؛ بأن الكتابة معاوضة تتضمن الإرفاق فلا تنجب كغيرها من المعاوضات إلا عن تراض^(٢) ، وقال جماعة : بوجوبها عملاً بظاهر النص ، ومنهم عكرمة وعطاء وعمرو بن دينار ، وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وابن عباس ، واختاره الطبري ، واحتج داود أيضاً بأن سيرين والد محمد بن سيرين ، سأل أنس بن مالك المكاتب وهو موله فأبى أنس ، فرفع عمر عليه الدرة فكتبه أنس ، قال داود : وما كان عمر ليرفع عليه الدرة فيما لا يباح له . أن يفعل .

والمراد بعلم السادة الخير في أرقائهم : أن يعرفوا فيهم الدين والقدرة على الاكتساب والوفاء بما تعاقدوا عليه مع ساداتهم ، وكان ابن عمر يكره أن يكتب عبده إذا لم تكن له حرفة ، ويقول : أتأمرني أن آكل أوساخ الناس - يعنى صدقاتهم - وبعث عمر بن الخطاب إلى عامله عُمَيْر بن سعد أن ينهى المسلمين أن يكتبوا أرقاءهم على مسألة الناس ، وكرهه الأوزاعي ، وأحمد ، وإسحاق ، ورخص فيه مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وعليٌّ - رضي الله عنه - وفي رواية أخرى عن مالك : أنه كره مكاتبه الأمة التي لا حرفة لها لما تؤدي إليه من فسادها .

وقد رد من قال بجواز مكاتبه من لا حرفة له على المانعين بحديث روته الصحاح عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : (دخلت على بريرة فقالت : إن أهلي كاتبوني على تسع أواق في

(١) انظر القرطبي .

(٢) وقال القرطبي : إن تعليق الأمر بالكتابة على شرط أن يعلم السيد أن في العبد خيراً يصرفه عن الإيجاب لأن الخير أمر باطن لا سبيل إلى علمه يقيناً فللسيد أن يقول : لم أعلم فيك خيراً فيرجع إلى قوله . انظر المسألة الثالثة في القرطبي .

تسع سنين ، كل سنة أوقية ، فأعينيني...) الحديث ، ففيه دليل على مكاتبه الأمة وهي لا حرفة لها ، ولم يسأل النبي - صلى الله عليه وسلم - هل لها حرفة أم لا ؟ ولو كان هذا واجبا لسأل عنه ، لأنه بعث مبينا معلما^(١) .

وظاهر الآية صحة المكاتبه على تنجيم المال - أى : تقسيطه - وعلى دفعه كله حالا أو مؤجلا ، وبهذا أخذ الحنفية ، أما الشافعية فقد أوجبوا تنجيمه بنجمين فأكثر ، فلا تجوز عندهم بدون أجل ، أما الكتابة على مال حال فلا تجوز عندهم ، لأن الرقيق لا مال له ، فكيف يكاتب على ما يتعذر عليه دفعه ، فيكون ذلك سببا لعودته إلى الرق .

وقد طلب الله إلى المولى أن يبذلوا لأرقائهم الذين كاتبوهم شيئا من أموالهم ، وفي معناه حطُّ شيء من مال الكتابة ، وهو للوجوب عند الأكثرين ، ويكتفى فيه أقل متمول ، وعن على - رضى الله عنه - : يحط الربع ، وقيل : يحط الثلث ، وقيل : هذا أمر لكافة المسلمين بإعانة المكاتبين ، وإعطائهم سهمهم من الزكاة ، ويحل للمولى وإن كان غنيا ، لأنه لا يأخذه صدقة - كالدائن والمشتري^(٢) .

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ) :

المراد من الفتيات هنا : الإماء ، وسبب نزول هذا النهي ؛ ما أخرجه مسلم وأبو داود عن جابر - رضى الله عنه - أن جارية لعبد الله بن أبى بن سلول يقال لها : مُسَيِّكَة ، وأخرى يقال لها : أُمَيْمَة كان يكرههما على الزنى ، فشكنا ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : كان لعبد الله بن أبى جارية تدعى مُعَاذَة ، فكان إذا نزل ضيف أرسلها له ليوافقها لإرادة الثواب منه والكرامة له ، فأقبلت الجارية إلى أبى بكر - رضى الله عنه - فشكت ذلك إليه ، فذكره أبو بكر للنبي - صلى الله عليه وسلم - فأمره بقبضها ، فصاح عبد الله بن أبى من يعذرنى من محمد يغلبنا على ممالكنا ؟ فنزلت ،

(١) انظر المسألة الخامسة فى القرطبي .

(٢) انظر البيضاوى .

وروى: كانت له ست جوار: معاذة ، ومسيكة ، وأميمة ، وعمرة ، وأزوى ، وقتيلة ، يكرههن على البغاء ، وضرب عليهن ضرائب ، وروى عن علي وابن عباس أنهم كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنى ، ويأخذون أجورهن فنهوا عن ذلك في الإسلام ، إلى غير ذلك من الروايات والآية عامة الحكم وإن نزلت بسبب خاص .

وليس قوله تعالى : « **إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا** » شرطاً لتحريم الإكراه في الحقيقة ، فإن الإكراه على الزنى حرام في كل حال ، بل المراد منه تهويل جريمة سادتهن ، حيث أكرهوهن على الزنى مع رغبتهن في العفة - كما جاء في سبب النزول ^(١) .

والمعنى الإجمالى للآية : وليجتهد في العفة وكبح النفس عن شهواتها ، من لا يجدون أسباب النكاح من صداق أو نفقة أو زوجة مناسبة لحالهم ، أو مسكن يؤويهم وذلك بالاشتغال بتقوى الله ، وليصبروا حتى يغنيهم الله من فضله ، وعليهم أن يأخذوا في أسباب الغنى ليغنيهم الله تعالى فيتزوجوا عن غنى ، والأرقاء الذين يرغبون في أن يكتبهم سادتهم على العتق في مقابل جعل يبدلونه لسادتهم ، فعلى هؤلاء السادة أن يكتبوهم إن عرفوا فيهم خيراً في الدين وقدرة على السداد ، ووفاء بالعقد ، وأن يعطوهم من مال الله الذى آتاهم ، ولو بالنزول عن بعض العوض الذى كاتبوهم عليه ، وليساعدهم المؤمنون ببعض زكاة أموالهم أو بالتصدق عليهم .

ولا تكرهوا - أيها المسلمون- جواريكم على الزنى إن أردن تعففاً - كما فعله بعضكم - يبتغون بذلك متاعاً فليسدأ من متاع الحياة الدنيا ، ومن يكرههن على الزنى ، فإن الله من بعد إكراههن غفور لهن رحيم بهن ، لأنهن مكرهات عليه ، أو غفور رحيم للتائبين من السادة الذين أكرهوهن .

٣٤ - (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) :

هذا كلام مستأنف جاء به لبيان وضوح الآيات السابقة وجلالة قدرها ، وصدر بلام القسم وقد ، لإبراز كمال العناية بشأنه ، أى : وبالله لقد أنزلنا إليكم في هذه السورة

(١) وما قيل في الجواب عن قوله تعالى : « **إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا** » : أنه شرط لا مفهوم له ؛ حيث أبطله الإجماع على تحريم الإكراه على البغاء مطلقاً

الكريمة آيات موضحات لما تحتاجون إلى إيضاحه من الحدود وسائر الأحكام والآداب ، وأنزلنا إليكم مثلاً من قبيل أمثال الذين مضوا قبلكم ، كقصة عائشة التي تماثل قصة مريم ، وقصة يوسف - عليهما السلام - حيث أسند إليهما ما أسند إلى عائشة - رضى الله عنها - ، وأنزلنا إليكم فيها ما يتعظ به المتقون ، ويبتعدون عن المحرمات والمكروهات ، فهم المنتفعون بأنوارها وعظاتها .

وقيل : المراد بالآيات المبينات ، والمثل ، والموعظة : جميع ما في القرآن منها ، والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب .

* (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٥))

الفردات :

(اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) : الله هادى أهل السموات والأرض ، وللکلام بقية في الشرح . (كَمِشْكَاةٍ) : المشكاة ؛ موضع الفتيلة من القنديل ، وهذا هو المعنى المشهور ، ولهذا قال بعده : (فِيهَا مِصْبَاحٌ) : وهو الفتيلة التي تضيء ، وسيأتى في الشرح مزيد بيان . (كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ) : كوكب مضى متلألئ كالزهره^(١) في صفائه ولعانه . . .

(١) الزهرة - بضم الزاى المشددة وفتح الهاء - : نجم قوى النور عظيم التألق واللمعان .

(مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) : من شجرة كثيرة الخير . (لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ) : أى أنها مكشوفة للشمس شرقاً وغرباً ، فليست شرقية فحسب ، ولا غربية كذلك فتحرم من ضوء الشمس في أيهما - وسيأتى بسط الحديث فيها .

(وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ) : ويبين الله الأشباه والنظائر لهم .

التفسير

٣٥ - (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) الآية .

منذ بدأت هذه السورة ، ونحن نرى فيها نور الهدى والرشاد ، فقد رأينا فيها آيات بينات تحمى الأعراض ، وتصون الأنساب ، وتزجر المعتدين عليها بما فرضته من عقوبات ، كما رأينا آيات كريمة تحت على صيانة اللسان عن قالة السوء في المؤمنين والمؤمنات ، وعقوبة القاذفين لهم ، وقرأنا فيها آيات الاستئذان على البيوت ، وتحريم دخولها دون استئذان ، ووجوب غض الأبصار عما يحرم النظر إليه من النساء والرجال ، إلى غير ذلك من الأحكام والآداب ومكارم الأخلاق .

وقد جاءت هذه الآية لتقرر أن هذه الأحكام وأمثالها : هى من نور الله وهدايته لعباده المؤمنين ، فإنها كمشكاة فيها مصباح عظيم الضياء ، فهى تضيء قلوب المتقين ، وتكشف الظلام عنها ، كما يكشف الكوكب الدرى الظلام بنوره .

كما جاءت لتبين أنه - تعالى - يهدى لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس تقريراً لأحكامه وتنويراً لهم ، لعلهم يتذكرون .

والنور فى الأصل : كيفية يدركها البصر ، ويدرك بسببها المبصرات ، مثل الكيفية التى تنبعث من الشمس والقمر على الأجرام الكثيفة المقابلة لهما ، أو من المصباح على ماحوله ، والنور بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى ؛ لأن النور مدرك بالأبصار ، والله تعالى يقول : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » وبالجمله فالله تعالى منزّه عن الجسمية والكيفية ولوازمهما ، ولعدم صحة إطلاق النور بمعناه اللغوى المذكور على الله تعالى ، اختلف العلماء

في تفسيره في الآية ، فمنهم من فسر به بالهداية ، مراعاة لسياق الآية مع ما قبلها ، وقد ذهب إلى ذلك ابن عباس - رضى الله عنهما - فقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات : عن ابن عباس أنه قال : « الله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : هادى أهلها . قال الآلوسى : وهذا وجه حسن : انتهى . ونرى أن هذا الرأى مناسب لما سبق وما لحق من الآيات ، ويكون إطلاق النور على الله - تعالى - في هذا الرأى على سبيل المجاز .

وقال آخرون : « الله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » معناه : منورهما ، فإطلاق النور على الله تعاد بهذا المعنى على سبيل التجوز أيضاً ، كما تقول : زيد عدلٌ ، بمعنى : عادل ، على سبيل المجاز ، ويرشح هذا المعنى أنه قرأ بعض القراء : (الله مُنَوَّرُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) . وقد نورهما الله - تعالى - بالكواكب والنجوم ، حيث جعلها تلقى أشعتها على الأجرام المقابلة لها ، كما نور الأرض بالمصابيح التى هدى عباده إلى اختراعها على اختلافها قوة وضعفاً ، وكَبَرًا وَصِغَرًا ، وطولاً وقِصَرًا .

ويتناول النور على الوجه الأول وحيه - تعالى - إلى ملائكته وأنبيائه ، وهداية كل شئ لما خلق له ، كما قال - تعالى - حكاية لما قاله موسى لفرعون : « رَبَّنَا الَّذِي آعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى »^(١) وفي هذا الجزء من الآية آراء أخرى ، وحسب القارئ ما تقدم .

(مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ) : المقصود من النور هنا : الهدى القلبي الناشئ عن النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق ، وعن التأثير بمواعظ القرآن العظيم ، وسنة النبي الكريم ، فإن الهدى الناجم عن ذلك يذهب بظلمات الحيرة والشك والوسوسة التى تغشى القلوب ، ويحل محلها الإيمان الذى لا تهزه العواصف ، ولا تقصفه الرياح القواصف ، ومثله في ذلك مثل النور الحقيقي الذى تنجذب

به الظلمات ، وتبينُ به المراتب على حقائقها ، والضمير في « نُورِهِ » عائد إلى الله - تعالى -^(١)
فإن الهدى هداه « وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ » .

والنور بهذا المعنى هو المشبه بالمشكاة ، وهو الذى جنح إليه ابن عباس - رضى الله
عنهما - ؛ فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم والبيهقى عن ابن عباس
أنه قال : « مثل نوره : مثل هداه في قلب المؤمن » وبه قال أنس ، أخرج
ابن جرير عنه أنه قال : (إلهي يقول : نُورِي هُدَايَ) ونقل الآلوسى أن تفسيره بالهدى
هو اختيار الأكثرين ، والمشكاة : هى موضع الفتيلة من القنديل ، وقد نقله ابن كثير
عن ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وغيرهما ، وقال : إنه هو المشهور ، ولهذا قال بعده :
(فِيهَا مِصْبَاحٌ) وهو الدُّبَالَةُ^(٢) التى تضيئ ، وقيل : هى الكوة فى الحائط غير نافذة ،
وعزاه القرطبي إلى الجمهور ، وقال : إنها بهذا المعنى أجمع للضوء ، ونقل القرطبي عن مجاهد
أنها هى القنديل ، وقد اشتهرت بهذا المعنى فى عصرنا ، وتفسير المتقدمين للمصباح بالزبالة ،
أى : فتيلة القنديل ، ملاحظ فيه أن المصباح فى هذا الزمان كانت كذلك ، ولهذا جاء
فى النص الكريم أن هذا المصباح « يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ » .

وقد بين الله - تعالى - أن هذا المصباح فى زجاجة ، وهى القنديل ، وقد وصف الله
زجاج القنديل بالصفاء والزهرة الفائقة ، حيث قال : « الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ »
ومن هذا القنديل الشفاف ينفذ ضوء المصباح إلى ما حوله .

والمراد بالكوكب الدرى : أحد الكواكب التى يطلق عليها العرب الدرارى ، مثل :
المشتري ، والزهرة ، وهى منسوبة إلى الدرّة ، لبياضها وزهرتها وحسنها .
وتشبيه الزجاج بالزجاج بالزجاج الدرى يحتمل معنيين : أحدهما : أنها بما فيها من المصباح
تشبهه ، وثانيهما : أنها لصفاتها وجودة جوهرها تشبهه ، قال القرطبي : وهذا التأويل أبغ
فى التعاون على النور .

(١) أجاز بعض العلماء رجوع الضمير إلى المؤمن ، وروى ذلك عن ابن عباس فى إحدى الروايات عنه كما روى
عن أبي بن كعب ، وكان يقرأ : (مثل نور المؤمن) وهناك أقوال أخرى فى مرجع الضمير ، فقيل : هو محمد
- صلى الله عليه وسلم - وقيل : هو القرآن ، وما ذكرناه من رجوعه إلى الله هو الموافق لظاهر النص القرآنى .
(٢) أى : الفتيلة .

وقد بين الله أن هذا المصباح (يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ) : أى يوقد من زيتها ، والمقصود بها : الجنس من شجرة الزيتون ، وبركتها إما كثرة منافعها ، وإما لأنها تنبت فى الأرض التى بورك فيها للعالمين ، وعلى أى حال فهى كثيرة المنافع ، روى عن ابن عباس أنه قال : فى الزيتون منافع : يسرج بالزيت ، وهو إدام ودهان ودباغ ، ووقود - يوقد بحطبه وتُفْلِه - وليس فيه شئ إلا وفيه منفعة ، حتى الرماد يُغْسَلُ به الإبريسم . . . إلخ . والإبريسم : الحرير .

وقد جاء فى زيتها حديث أخرجه عبد بن حميد فى مسنده ، والترمذى وابن ماجه ، عن عمر - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - قال : « اتتدموا بالزيت ، وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة » .

وقد وصف الله تعالى الزيتون بقوله : (لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) : فأما كونها غير شرقية وغير غربية ، فالمقصود : أنها مكشوفة للشمس ، لا يحجبها عنها جبل ولا شجر ، من حين تطلع حتى تغرب ، وذلك أحسن لزيتها ، فهى ليست خالصة للشرق حتى يقال فيها : شرقية ، ولا خالصة للغرب حتى يقال فيها : غربية ، بل هى شرقية غربية .

وقال ابن زيد : إنها من شجر الشام ، فإن شجر الشام لشرقى ولا غربى ، وشجر الشام هو أفضل الشجر ، وهو الأرض المباركة . وهذا رأى حسن .

وقد وصف الله زيتها بقوله : « يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ » تأكيداً لصفائه وجودة النور المنبعث عنه ، وبهذا الوصف اكتملت الأنوار للمشكاة ، فكان أمرها كما قال تعالى : (نُورٌ عَلَى نُورٍ) : فقد اجتمع فيها ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة إلى ضوء الزيت ، فكانت كأنور ما يكون ، فكذلك براهين الله - تعالى - واضحة تستضيء بها القلوب وتهتدى ، وهى برهان بعد برهان ، وتنبيه بعد تنبيه ، بإرساله الرسل ، وإنزاله الكتب ، والوعظ المتكرر ، وآيات الله فى الأنفس والآفاق .

ولما كان الناس مختلفين في معرفة الهدى والرشاد ، متباينين في إدراك الحق والضلال ، عقب ذلك بقوله : (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ) : أى يوفق الله لإصابة الحق ومعرفته والاستجابة إليه - يوفق - من يشاء من عباده ، ممن حسنت نيته ، وطابت طويته ، وذلك بإلهامه الاقتناع به ، وشرح صدره إليه ، بعد أن وفقه إلى حسن النظر في آياته التي نور الله بها السموات والأرض ، وفيما أنزل على رسوله من نور القرآن كما قال - تعالى - : «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا» حتى اطمأن بها فؤاده ، واهتدى إلى الحق والرشاد . وفي ربط الهداية بمشيئة الله - تعالى - إيذان بأن مناطها هو مشيئته ، وليست الأسباب وحدها ، فهو أعلم بمن يستحقها ، قال الشاعر :

إذا لم يَكُ التوفيق عوناً لطالب طريق الهدى أعيت عليه مطالبه

أخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ ، فمن أصابه يومئذ من نوره اهتدى ، ومن أخطاه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله - عز وجل - » .

وقد ختم الله الآية بما يدل على أن إطلاق لفظ : (النور) على الآيات والبراهين من قبيل ضرب الأمثال ، فقال - سبحانه - : (وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) : أى يبين الله الأشباه والنظائر من الحسيات ، تمثيلاً للمعاني عند إرادته - تعالى - هداية الناس وإرشادهم إلى الحق - كالذى جاء في الآية من تشبيه ما تحدثه الآيات من نور الهدى في القلوب ، بنور المشكاة ، لما لها من الأثر العظيم في إرشاد الخلق إلى الحق .

وختم الآية بقوله - سبحانه - : (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أى : أنه - تعالى - يعلم الأشياء جميعها حقائقها ومجازاتها ، وما ينبغى التعبير عنه بأسلوب المجاز ، وما ينبغى التعبير عنه بأسلوب الحقيقة ، كما يعلم من يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال .

أخرج الإمام أحمد بسنده ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « القلوب أربعة : قلب أجرد ، فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف ، مربوط على

غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مضمَح ، فأما القلب الأجرد^(١) ، فقلب المؤمن ، سراجُه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف ، فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس ، فقلب المنافق - عرف ثم أنكر - وأما القلب المضمَح^(٢) ، فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم ، فأى الملتئتين غلبت على الأخرى غلبت عليه « قال ابن كثير : إسناده جيد .

اللعنى الإجمالى للآية :

الله هادى أهل السموات إلى معرفته ومعرفته ماتستقيم به مصالحهم ، وما يحققون به ماؤكل إلهيم ، مثل هدايته خلقه إلى ذلك ، كمثل نور مشكاة فيها مصباح مضيء . وهذا المصباح داخل زجاجة تشبه في صفائها وقوة شعاعها الكوكب الدرى ، وهو يوقد من زيت شجرة مباركة كثيرة المنافع ، هى شجرة الزيتون ، تلك الزيتوننة تتمتع بضوء الشمس وحرارتها في مشرقها ومغربها فيجود بذلك زيتها ، وقد بلغ من شدة صفاء هذا الزيت أنه يكاد يضيء ولو لم تمسه نار وقد أصبح نور المشكاة بذلك مضاعفاً ؛ فهو نور فوق نور ، يهدى الله للانتفاع بهداه من يشاء ممن رق حسه ، وحسن استعداده ، وطابت سريرته ، دون من عداه ممن لم يكثرث بهداه ، ويضرب الله الأمثال الحسنية للناس حين يهديهم إلى الحق والخير ، لعلهم يهتدون إلى ما أرشدهم إليه مما ينفعهم في أخراهم ودنياهم ، فتستنير قلوبهم وتصفو أرواحهم

(١) المراد من كونه أجرد : أنه على أصل الفطرة ، فتور الإيمان يزهر فيه .

(٢) المضمح : الذى له وجهان ، يلقى أهل الإيمان بوجه ، وأهل الكفر بوجه ، وصفح كل شئ : وجهه

وناحيته .

(فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ^{٣٦} يُسَبِّحُ لَهُ^{٣٧} فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ^{٣٨} رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ^{٣٩} لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ^{٤٠} وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ^{٤١})

المفردات :

(فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ) : المراد بها المساجد ، والإذن برفعها : الأمر برفع شأنها وتعظيمها . (بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) : الغدوة أول النهار ، والغدو : الإقبال في الغدوة ، والآصال : جمع الأصيل ، وهو آخر النهار . (تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) : تضطرب فيه من شدة الهول . (أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا) : أحسن جزاء ما عملوه .

التفسير

٣٦ - (فِي بُيُوتٍ^(١) أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ^(٢) فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) :

لما بين الله تعالى في الآية السابقة أن هدايته لعباده إلى معرفته تشبه مصباحاً في زجاجة جاء بهذه الآية ليبين أثر هدايته لهم ، وهو تسبيحهم إياه في بيوت أذن برفعها ، ونقاء سيرتهم وسريرتهم ؛ فهي استئناف مبين لأثر الهداية فيهم .

(١) (في بيوت) متعلق بـ (يسبح) ولغظ : (فيها) تكرير لقوله : (في بيوت) جاء به التأكيد والتذكير مما تقدمها ، والإيذان بأن التقديم للامتياز لا الحصر .

والمراد بالبيوت : المساجد مطلقاً ، وقيل : هي المساجد الأربعة التي لم يَبْنِها إلا نبي ^(١) ، وهي : الكعبة ، ومسجد المدينة ، ومسجد قباء ، وبيت أريحا ^(٢) ، حكاه القرطبي في آخر المسألة الأولى عن ابن بريدة ، وعقبه بقوله : الأظهر الأول ؛ لما رواه أنس بن مالك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من أحب الله - عز وجل - فليحبني ، ومن أحبني فليحب أصحابي ، ومن أحب أصحابي فليحب القرآن ، ومن أحب القرآن فليحب المساجد ، فإنها أفنية الله ، أبنيته أذن الله في رفعها ، وبارك الله فيها ، ميمونة ميمون أهلها ، محفوظة محفوظ أهلها ، هم في صلاتهم ، والله - عز وجل - في حوائجهم ، هم في مساجدهم ، والله من ورائهم » .

والمراد من إذن الله برفعها : أمره بتعظيمها ، وذلك بتطهيرها من الأقدار والنجاسات ، ومنع الجنب والحائض والنفساء من دخولها ، ومنع البيع والشراء ورفع الصوت فيها ، والامتناع عن أكل ذى ربح كربه قبيل دخولها ، وفي المسألة كلام طويل يطلب من الموسوعات من كتب الفقه والتفسير .

وحمل بعض المفسرين رفعها على رفع بنيانها ، كما في قوله تعالى : « وَلَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ » وبه قال مجاهد وعكرمة ، وفي بناء المسجد يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة » أخرجه البخاري في صحيحه بسنده عن عثمان بن عفان .

وهل يجوز تزيين المساجد ونقشها ؟ قال القرطبي في المسألة الثالثة : اختلف في ذلك ، فكرهه قوم ، وأباحه آخرون ، واستند من كرهه إلى قوله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تقوم الساعة حتى تتباهى الناس في المساجد » أخرجه أبو داود بسنده عن أنس . وفي البخاري : وقال أنس : « يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلاً » .

واستند من قال بإباحتها إلى أن فيها تعظيم المساجد ، والله أمر بتعظيمها بقوله : « فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرَفَّعَ » وروى عن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - (أنه بنى مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالساج وحسنه) .

(١) وهذا هو رأى ابن زيد ، أخرجه ابن أبي حاتم عنه - انظره في الآلوسى ولله تصحيحه لابن بريدة لينفق مع ما ذكره القرطبي عنه كما سبق .

(٢) المراد به : بيت المقدس ، بناء داود وسليمان - عليهما السلام -

والساج : شجر ينبت ببلاد الهند ، وخشبه أسود رزين لا تكاد تبليه الأرض .

وقال أبو حنيفة : لا بأس بنقش المساجد بماء الذهب ، وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه نقش مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم - وبالع في عمارته وتزيينه ، وذلك في زمن ولايته المدينة قبل الخلافة ، ولم ينكر عليه أحد .

ومن تعظيم المساجد : الدعاء عند الدخول والخروج ، أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي أسيد قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل : اللهم إني أسألك من فضلك » .

ومن تعظيمها : صلاة ركعتين لله تعالى قبل الجلوس ، روى مسلم عن أبي قتادة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس » .

والمراد بالتسبيح فيها بالغدو والآصال : الصلوات فيها بالغدوات ، أي : أوائل النهار ، وبالغدوات : أواخره ، وقيل : المراد به : تنزيه الله ومراقبته والاشتغال بطاعته .

والغدو في الأصل : مصدر ، أطلق مجازاً على وقته ، ولذا حسن اقترانه بالآصال ، جمع : الأصيل ، وهو : العشى ، وسيأتي المعنى الإجمالي لهذه الآية مع الآيتين بعدها ، لشدة اتصالهما .

٣٧ - (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ...)

الآية .

رجالٌ : فاعل لقوله : (يُسَبِّحُ) في الآية السابقة ، وخص الرجال بالذكر ؛ لأن النساء لا حظَّ لهن في المساجد ؛ إذ لا جمعة عليهن ولا جماعة ، وصلاتهن في بيوتهن أفضل ، أخرج الإمام أحمد ، والبيهقي : عن أم سلمة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « خير مساجد النساء قعر بيوتهن » فإن صلين في المساجد ابتعدن عن أسباب الفتنة ، فقد ثبت في صحيح مسلم عن زينب امرأة ابن مسعود قالت : قال لنا رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمسّ طيباً » وفي الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : « كانت نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - ثم يرجعن متلفعات بمروطهن » وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت : « لو أدرك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أحدث النساء لمنعهن المساجد ، كما منعت نساء بنى إسرائيل » انظر ابن كثير .

وذكر البيع بعد التجارة مع شمولها له ؛ لأنه أقوى نوعيها في الإلهاء عن الصلاة لحرص التاجر عليه طلباً لربح عاجل ، أو دفعاً لخسارة منتظرة ، أو سداداً لدين ، أو جلباً لرزق ناجز ، بخلاف الشراء فإن الأناة فيه أكثر ؛ إذ الربح فيه متوقع وليس بناجز ، وقيل : المراد بالتجارة : الشراء ، فإنه أصلها ومبدؤها ، وقيل : الجلب صفراً ، ومنه يقال : تجرّ في كذا ، إذا جلبه ، ويؤيده ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال في هؤلاء الموصوفين بما ذكر : « هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله » .

والمقصود من أنهم لا تلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله : أنهم يلبّون نداء الصلاة جماعة ويتركون البيع والشراء ، روى عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودى بالصلاة تركوا بيعاتهم ونهضوا إلى الصلاة ، فقال عبد الله : هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » رواه ابن جرير الطبري .

وروى عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ، ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلت : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وقد جاء في مثل ذلك أخبار كثيرة^(١) .

(١) انظر ابن كثير وغيره .

والمراد من تقلب القلوب والأبصار في يوم القيامة : اضطرابها من الهول ، أو تقلب أحوالها فتفقده ما لم تكن تفقه ، فتؤمن بعد الكفر حيث لا ينفعها الإيمان ، وفي هذا المعنى يقول المولى سبحانه : « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » .

٣٨ - (لِيَجْزِيَهمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) :

« لِيَجْزِيَهمُ » : متعلق بفعل يتضمن طاعتهم السابقة ، أى : يفعلون كل ما تقدم من تسبيحهم لله في المساجد ، وصلاتهم فيها كلما سمعوا النداء إليها ، وإيتائهم الزكاة لمستحقها ، وخوفهم من يوم الحساب ، يفعلون كل ذلك ليجزيهم الله أحسن ما عملوا إلخ .

المعنى الإجمالى للآيات الثلاث : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ما يلي :

يسبح الله تعالى في مساجد أمر الله أن تعظم بالصيانة والنظافة ، ويذكر فيها اسمه - يسبح له فيها - رجال استنارت قلوبهم بمشكاة الهدى ، فأصبحوا لاتلهيهم ولا تشغلهم دنياهم عن ذكر الله ، وإقام الصلاة في أوقاتها جماعة كلما سمعوا النداء إليها ، كما لاتشغلهم عن إعطاء الزكاة لمستحقها في مواقيتها ، يخشون يوماً رهيباً تضطرب فيه القلوب والأبصار كما قال الله تعالى : « وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا » ، وذلك من هول ما رأوا من الشدائد والتغيرات الكونية حيث « تُبَدِّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » .

يسبح الله هؤلاء الرجال في المساجد خائفين من يوم الوعيد ؛ لكى يجزيهم الله في الجنة أحسن جزاء لما عملوه في دنياهم ، حسبما وعدهم الله تعالى على لسان رسوله ، ويزيدهم من الثواب فوق ما وعدهم مما لم يخطر لهم ببال ، والله يثيب من يشاء من عباده المتقين رزقاً واسعاً ، دون أن يحاسبه أحد على ما أعطى ؛ فهو الرزاق ذو القوة المتين .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ
مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ
حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ
يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلُمْتُ بَعْضُهَا
فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرِنَهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ
لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) : السراب - كما عرّفه المتقدمون - : ما يُرى في الفلاة من لمعان
الشمس عليها وقت الظهيرة ، فيُظنُّ أنه ماءٌ يسرب ، أى : يجرى . والقِيعَة : هى القاع
وهو الأرض المستوية الخالية من النبات ^(١) ، وسيأتى لذلك مزيد بيان .

(وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ) : وجد الظمآن قضاء الله عند السراب .

(فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ) : أى عميق ، كثير الماء ، منسوب إلى اللجِّ واللُّجَّة ، وكلاهما معناه :
الماء الكثير البعيد القاع . (يَغْشَاهُ مَوْجٌ) : يغطى البحر موج ، مأخوذ من الغشاء ، وهو الغطاء .

التفسير

٣٩ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ
لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) الآية .

(١) انظر تفسير البيضاوى .

لما ضرب الله مثل المؤمنين فيما تقدم ، عقبه بضرب مثل الكافرين هنا وفي الآية التالية وهذه الآية معطوفة على ما قبلها ، من عطف المثل على المثل ، والقصة على القصة ، كأنه قيل : مثل المؤمنين في حالهم ومآلهم كما وُصف ، ومثل الذين كفروا أعمالهم كسراب . . . إلخ .

ويقول مقاتل : إن هذه الآية نزلت في شيبه بن ربيعة ، كان يترهب متلمسا الدين فلما خرج - صلى الله عليه وسلم - كفر شيبه ، ذكره القرطبي ، وسواء أكان هذا هو السبب أم غيره ، فالعبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

والسراب - كما عرفه المتقدمون - : بخار رقيق يرتفع من قاع القيعان تحت تأثير الشمس ، فإذا اتصل به ضوءها أشبه عند من يراه من بعيد الماء السارب ، أى : الجارى ، وقيل : هو ما تفرق من الهواء في الهجير بفيافي الأرض المنبسطة ، ويشبه في لمعانه الماء ، وليس بماء .

وفي خداع السراب يقول الشاعر في تشبيه العهود الخادعة :

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم كَلَمْعِ سراب في الفلأ متألّق

ويفسره العلماء المعاصرون : بأنه ظاهرة ضوئية ، سببها انعكاس الشعاع المنبعث من الأجسام المضيئة ، وارتداده من سطح أرض فسيحة جرداء ، عندما ترتفع درجة حرارتها أثناء النهار ، فيتجه الشعاع المنعكس على التدريج بحذاء سطح الأرض ، متباعدة عنها قليلا قليلا ، حتى يصل إلى عين الراصد ، وعندها تُرى صور الأجسام المضيئة مقلوبة ، كما لو كانت مرآة كبيرة ممتدة^(١) .

والقيعة : هى الأرض المستوية المنبسطة ، وهى مفرد ، كالقاع ، وقيل : هى جمع قاع ، كجيرة : جمع جار .

(١) انظر تعليق الخبراء على كلمة : (سراب) بالتفسير المنتخب الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر .

والمعنى الإجمالى للآية : والذين كفروا أعمالهم التى يحسبونها صالحة مرضية لله تعالى كصلة الأرحام ، والعطف على الأيتام ، وسقاية الحاج ، وعمارة البيت الحرام ، وقرى الأضياف ، وغير ذلك من المبرات - أعمالهم هذه - شبيهة فى ضياعها فى الآخرة بسراب لامع تحت ضوء الشمس فى أرض فسيحة جرداء ، يحسبه الظمآن حين يراه من بعيد يتفرق ويلمع - يحسبه - ماء يروى ظمأه ، ويطفى لهيب عطشه ، حتى إذا جاءه حيث كان يبلو له ، لم يجده شيئاً مطلقاً؛ لزوال الصورة التى خدعه بها السراب ، فكذلك جنس الكافر ، يحسب أنه قد عمل فى دنياه عملاً نافعاً ، واعتقد اعتقاداً سديداً ، فإذا بعث يوم القيامة ، ورأى أهوال القيامة ، اشتدت حاجته إلى عمله لينفعه وينجيه ، فلم يجده أثراً ، وخاب ظنه فيه ، بل وجد حساب الله وافيّاً فى مواجهته ، ونقاشه إياه مستوعباً لعقائده الزائفة ، وأعماله الفاسدة ، وأنه تعالى لم يتقبل منه ما قدمه من أعمال البر ، لأنها قامت على أساس الكفر ، إلى جانب ما داخلها من الرياء والفخر والعجب ، فكان أمر الله معه فى تلك المبرات كما قال - سبحانه - : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا »^(١) .

وقد ختم الله الآية بقوله : « وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ » : للإيذان بأنه لا يشغله حساب عن حساب ، فلهذا كان سريع الحساب لجميع عباده .

ويلاحظ أن تشبيه عمل الكافر بالسراب انتهى عند قوله تعالى : « لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » أما قوله تعالى : « وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ » فهو لبيان بقية أحواله بطريق التكملة ، حتى لا يتصور أن نهاية أمره هو الخيبة والقنوط فقط - كما هو شأن الظمآن بعد أن عرف حال السراب - بل يعترهم من سوء الحال والمآل ، ما يفوق خيبة الظمآن حين يثس من الماء^(٢) .

ومن المفسرين من جعل هذا السراب فى الآخرة ، قال جار الله الزمخشري : شبه الله سبحانه ما يعمل غير المؤمن بسراب سوف يراه بالساهرة - يوم القيامة - وقد غلبه العطش ، فيحسبه ماء ، فيأثبه فلا يجده ، ويجد زبانية الله عنده ، يأخذونه فيسقونه الحميم

والفساق . قال الآلوسی - تعليقاً على هذا الرأي - : وكأنه مأخوذ مما أخرجه عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، من طريق السدي في غرائبهم عن الصحابة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الكفار يبعثون يوم القيامة وِرْدًا^(١) عطاشاً ، فيقولون : أين الماء ؟ فيمثل لهم السراب فيحسبونه ماءً ، فينطلقون إليه ، فيجدون الله تعالى عنده فيوفيههم حسابهم ، والله سريع الحساب » واستحسن ذلك الطيبي . . . إلى آخر ما كتبه الآلوسی في هذا المقام .

وقد نقل ابن كثير في هذا المعنى عن الصحيحين : « أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعملون في الدنيا ؟ فيقولون : كنا نعبد عزيراً ابن الله ، فيقال : كذبتُمْ ، ما اتخذ الله من ولد ، ماذا تبغون ؟ فيقولون : أى ربنا ، عطشنا فاسقنا ، فيقال : ألا تَرَوْنَ ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً ، فينطلقون فيتهافتون فيها »^(٢)

٤٠ - (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) :

(كَظُلُمَاتٍ) معطوفة بأَوْ على (كَسْرَابٍ) وحرف (أَوْ) هنا : إما للتخيير ، فإن أعمالهم لكونها لاغية لا ثواب عليها ، تشبه السراب ، ولكونها خالية عن نور الحق ، وضوء الإيمان ، تشبه الظلمات المتراكمة من عمق البحر ، والأمواج المتتابعة فوقه ، وظلمة السحاب فأنت مخير في تشبيهها بأيهما ، قال الزجاج : إن شئت مثلاً بالسراب ، وإن شئت مثلاً بالظلمات^(٣) .

ويصح أن تكون (أَوْ) للتنويع ، فإن أعمالهم إن كانت حسنة فهي كالسراب في عدم جدواها ، وإن كانت قبيحة فهي كالظلمات ، وفيها غير ما ذكرنا من الوجوه^(٤) ، وحسب القارىء ما تقدم .

(١) الورد - بكسر الواو وسكون الراء - : القوم الذين يردون الماء كالواردة ، ومنه : الموردة ، وهي :

مئات الماء : (قاموس) .

(٢) البخاري : تفسير سورة النساء ، ومسلم : كتاب الإيمان .

(٣) انظر القرطبي .

(٤) انظر البيضاوي .

ومعنى الآية موصولة بما قبلها ما يلي :

والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، أو كظلمات في بحر عميق بعيد القاع ، يغطي هذا البحر موجٌ من فوقه موجٌ ، وهكذا تتتابع أمواجه ، ويتراكم بعضها فوق بعض ، من فوق هذا الموج المتتابع سحب كثيف يحجب أضواء النجوم ، فهي ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، إذا أخرج من ابتلى بهذه الظلمات يده ، وجعلها قريبة من عينيه لينظر إليها ، لم يقرب من رؤيتها ، فضلا عن أن يراها ، مع أنها أقرب شيء إليه .

وكذلك كل كافر يعيش في أعماق ظلمات كثيفة داكنة من عقيدته ، وسيئات أعماله ، لا يرى في أثنائها بصيصاً^(١) من نور الهدى ، يهديه إلى سواء السبيل ، بسبب تقليده ، وخضوعه لسيطرة أئمة الكفر ، وجنوحه عن يدعوهم إلى الهدى ، قائلا له : إئتنا لتستنير بنورنا .

ويختم الله الآية بقوله : (وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ) : أى ومن لم يُقدِّر الله له نورا قلبياً يهديه إلى الحق بسبب إعراضه عنه ، فليس له نور من سواء ، فيبقى في ظلام دامس من الضلال ، كما قال تعالى : « مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ » .

أما من يقبل الهدى فإن الله تعالى يهديه بنور على نور ، حتى يثبت الحق في بصيرته ، ويستعصى على من يضلّه ، كما قال تعالى : « وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ » نسأل الله الرؤوف الرحيم أن يملأ قلوبنا نورا ، ويجعل النور عن أيماننا وشمائلنا ، وأن يعظم لنا النور بفضله ورحمته .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى
اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ) : الطير جمع طائر ، كَصَخَبٍ : جمع صاحب ، وجمع الجمع :
طيور وأطيوار ، كفرخ وفروخ وأفراخ ، وقد يقع لفظ الطير على الواحد ، كقوله تعالى :
« فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ » . ومعنى : (صَافَّاتٍ) : باسطات أجنحتهن .
(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) : أى كل من فى السموات والأرض والطير قد علم دعاءه
وتنزيهه لله تعالى . (الْمَصِيرُ) : المرجع .

التفسير

٤١ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ
صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) الآية .

بَيَّنَّ اللَّهُ - سبحانه وتعالى - فى الآيات السابقة أنه هدى عباده ومخلوقاته بنور هداة
إلى ما خلقوا لأجله ، وأن من لم يجعل الله له نورا يهتدى به فما له من نور .

وجاء بهذه الآية عقبها ليبين أن آثار هداة فى السموات والأرض والطير واضحة
لمن يراها ويتأملها .

والهزمة في قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ » للتقرير بالرؤية ، والمراد بالرؤية هنا : العلم والمعرفة ، والخطاب إما أن يكون للنبي - صلى الله عليه وسلم - وإما أن يكون لكل عاقل ، فإن كان للنبي - صلى الله عليه وسلم - فهو يشير إلى أنه تعالى قد أفاض عليه من مراتب النور أعلاها وأجلاها ، حتى عرف من أسرار الملك والملكوت أدقها وأخفها .

وإن كان لكل عاقل : فهو يشير إلى وضوح هدى الله في السموات والأرض ومن فيهن لكل من يتأمل فيها ، فلولا هداه وقوانينه الكونية الدقيقة في كل ذرة من هذا الكون لاختل نظامه ، فهو الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، ولولا إبداعه المحكم لهذا الكون ، وما أودعه فيه من أسباب الهدى إلى ما خلق لأجله ، لما رأينا هذا الكمال الناطق بنزاهته تعالى عن الشريك والنظير ، وسوء التدبير « فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ » .

فالمراد من التسبيح في الآية : التنزيه عن كل ما لا يليق بالله تعالى من نقص أو خلل تنزيها معنويًا تفهمه العقول السليمة ، فإن كل موجود في السموات والأرض ، من أجزائها وما استقر فيهما ، أو كان سابحا وطائرا بينهما ، يدل على صانع مبدع واجب الوجود ، متصف بكل صفات الكمال ، منزّه عن كل ما لا يليق بشأنه وعظمته ، وإطلاق لفظ : (مَنْ) على العقلاء وغيرهم ، على سبيل التغليب ، كما هو معهود في عرف اللغة .

وقد نبه الله - سبحانه - على قوة الدلالة وغاية وضوحها بالتعبير عنها بالتسبيح الذى يختص به العقلاء ، وهو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها ، تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال .

وتخصيص التسبيح - أى : التنزيه - بالذكر مع دلالة ما في السموات والأرض على اتصافه - تعالى - بنعوت الكمال كلها ، لأن هذه الآية مسوقة لتقبيح حال الكفرة . في إخلالهم بالتنزيه ، بجعلهم الجمادات شريكة له - تعالى - في الألوهية ، ونسبتهم الولد إليه - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - ولهذا جعل الله أعمالهم « كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَخَسِبُهُ الظُّلُمَانُ مَا هُمْ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » أو « كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا » .

ولإنما ذُكر لفظ : (الطير) مع أنه مندرج في جملة من في السموات والأرض ، لعدم استقرار الطير فوق الأرض ، ولا استقلالها بآية واضحة على تنزيه الله - تعالى - عن الشريك وكل صفات النقص ، وعلى كمال قدرته ولطف تدبيره ، حيث أعطاها أجنحة وذيوها تصفُّها وتطير بها ، وحماها بذلك من وقوعها على الأرض استجابة لجاذبيتها ، ومكنتها بذلك من الحركة في الجو والرحلة كما تشاء .

وأما قوله - تعالى - : « كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ » فهو جملة مستأنفة ، اشتملت على صورة بلاغية رفيعة ، فقد شُبِّهَ فيها حال كل من في السموات والأرض والطير في أداء وظائفها التي خلقت لها ، استجابة لتسخير الله - تعالى - شُبِّهَتْ حالها بحال إنسان عرف خالقه وكيفية عبادته وتسبيحه ، فصلى له وسبحه .

وعلى هذا الوجه فالضمير في (عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) راجع إلى كل واحد مما ذكر ، وإليه ذهب الزجاج .

وأجاز بعضهم أن يكون ضمير (عَلِمَ) راجعاً إلى الله - تعالى - وضميراً (صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) عائدتين إلى كل واحد مما في السموات والأرض والطير ، والمعنى على هذا : كل واحد مما ذكر قد علم الله صلاته وتسبيحه لربه ، والأول أولى ؛ لما في الثاني من تشنيت الضمائر .

وقال غير واحد : يجوز ألا يكون في الكلام استعارة ، والعلم على حقيقته ، ويراد به : مطلق الإدراك ، والمراد من قوله : (كُلُّ) جميع أنواع الطير وأفرادها ، ويراد بالصلاة والتسبيح : ما ألهمه الله إياه من الدعاء والتسبيح المخصوصين به ، قال الآلوسی : ولا بُعْدَ في هذا الإلهام ؛ فقد ألهم الله كل نوع من أنواع الحيوانات علوماً دقيقة ، لا يكاد يهتدى إليها جهابذة العقلاء^(١) إلى آخر ما قال .

(١) فهذه ملكة التحل تدبر أموراً أثبت بحكمة عجيبة ، وقد ألهمها الله - تعالى - بناء بيوت هندسية من الشمع متساوية الأضلاع ، كما ألهمها تغذية الملكات المقبلة بغذاء خاص يختلف عن غذاء الذكور والخناث ، وهذه الكلاب تنبح قبل حدوث الزلازل منذرة بها ، والقنفذ يحس برمي الشمال والجنوب قبل هبوبهما فيغير المدخل ، وهذا أمثاله يدل على أن لها إدراكاً حالياً تدبر به شئونها ، فلا يبعد أن يكون لها تسبيح وصلاة . والله أعلم .

وقد ختم الله الآية بقوله : (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) لتقرير ما تقدم في الآية .

والمعنى الإجمالي للآية : ألم تعلم -أيها العاقل - علماً يشبه الرؤية في اليقين ، أن الله تعالى ينزهه عن الشريك والنظير ، وعن كل ما لا يليق بجنابه في ذاته وصفاته وأفعاله - ينزهه - كل شيء في السموات والأرض ، وبخاصة الطير وهي باسطة أجنحتها وأذيالها في السماء ؛ لتستطيع أن تتجه بها إلى المشرق والمغرب ، وهي محلقة في جو السماء ما يمكنهم إلا الله تعالى فلإنها جميعاً بما أنشئت وأبدعت عليه من دقة الصنع ، وأدائها لوظائفها التي خلقت لها ، في نظام رتيب بلا فتور ولا قصور ، تنطق بلسان الحال ، أن من أبدعها منزّه عن الشريك والنظير ، وعن كل نقص في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، وكل منها في مجموعه وفي أجزائه قد استجاب لتسخير الله إياه استجابة تشبه استجابة العقلاء لما كلفهم الله به من الصلاة والتسبيح ، والله عليم بأدائها لوظائفها وفق تدبيره الحكيم لها ، لا يغفل عنها طرفة عين ، فهي لذلك لا يعتريها نقص ولا اختلال ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ .

وأجاز بعض المفسرين حمل التسبيح والصلاة على حقيقته ، كما تقدم بيانه ، قال سفيان : للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود ، وعمم بعضهم التسبيح بمعناه الحقيقي في جميع الكائنات من جماد ونبات وحيوان ، أخذاً من ظاهر قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا »^(١) وليس هذا ببعيد على بديع السموات والأرض ، ولقد سجل بعض علماء الغرب بآلة شديدة الحساسية - سجل - أنين الشجرة إذا قطع منها غصن ، أو نقلت شجرة مجاورة لها ، وهذا يدل على أن في الكون أسراراً عجيبة لم يصل العقل البشري إلى كشفها بعد .

٤٢ - (وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) :

أي والله ملك السموات والأرض خلقاً وملكا وتصرفاً ، فلا يصح أن يعبد سواه ، وإليه وحده المرجع يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء ، ولا معقب لحكمه « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »^(٢)

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(يُزْجِي سَحَابًا) : يسوقه ويدفعه ، يقال : زجَاه ، وزجَاه ، وأزجَاه ، أى : دفعه

وساقه .

(رُكَّامًا) : الركام ؛ السحاب المتراكم بعضه فوق بعض ، ويطلق أيضاً في غير هذه الآية على كل ما جمع بعضه فوق بعض ، كركام الرمل ، مأخوذ من : رَكَمَ الأشياء ، أى : جمع بعضها فوق بعض . (الْوَدْقَ) : يطلق على المطر وعلى البرق ، وسيأتى شرح ذلك .

(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا) : المراد من السماء هنا : السحاب أو الجو أو الفضاء ، والجبال في السماء : هى السحب المتراكمة بعضها فوق بعض على هيئة الجبال (مِنْ بَرَدٍ) : البرد ؛ حب ينزل من السحب ، فيه بياض كبياض الثلج ، وبرودة كبرودته .

(سَنَا بَرْقِهِ) : السنا ؛ الضوء أما السناء - بالمد - فهو بمعنى العلو والرفعة . والبرق : التلألؤ واللمعان ، يقال : برق السيف وغيره ، أى : لمع . (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) : أى ؛ يصرفهما . وسيأتى بيانه في التفسير .

التفسير

٤٣ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ . . .) الآية .

بين الله في الآية السابقة أنه تعالى له ملك السموات والأرض ، وعقبها هذه الآية ليبين نوعاً من سلطانه وملكه وتصرفه فيهما ، تأكيداً للملكه لهما .

والمقصود من الاستفهام في قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ) التنبيه إلى آيات الله التالية للاستفهام المذكور ، والحث على رؤيتها ، أو التقرير بها .

والخطاب فيه : إما لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخطابه خطاب لأُمته ؛ لأنه إمامها ، وإما لكل من هو أهل للخطاب من المكلفين ، والرؤية هنا إما بصرية ، لأن تحريك السحب وما يتلوه من آثار أمر مرئي لكل ذى عينين ، وإما علمية لذوى البصيرة والتأمل ولو على سبيل الإجمال .

والسحاب : واحده سحابة ، ويتكون من بخار الماء الصاعد إلى طبقات الجو العليا ، وينشأ هذا البخار من تسلط حرارة الشمس على المياه في نواحي الأرض المختلفة ، فإن بقي هذا البخار بيننا ولم يرتفع إلى الطبقات العليا ، فهو الضباب ، فكلاهما ناشئ من بخار الماء^(١)

والله - تعالى - يزجي السحاب المتفرق ، أى : يسوقه من مواطنه المختلفة شيئاً فشيئاً ، ثم يؤلف بين جزئياته ويضمها ، ثم يجعله متراكماً بعضه فوق بعض .

ولِلْوَدْقِ في اللغة معنيان : أحدهما المطر ، وبه قال الجمهور في تفسيرهم إياه في الآية ، وشاهده قول الشاعر :

فلا مُزَنَةٌ وَدَقَّتْ وَدَقَّهَ — ولا أرض أبقل إبقاله —

وقال امرؤ القيس : فدَمَعَهُمَا وَدَقَّ وَسَحَّ وَدِيمَةً^(٢) .

(١) ومن ثم قال العلماء : الضباب : سحاب أنت فيه ، والسحاب : ضباب لست فيه .

(٢) السح : السائل . والديمة : الدائم .

والمعنى الثانى : أنه البرق ، حكى القرطبي عن أبى الأشهب قوله فى هذا المعنى :
 أَثَرُنَ عَجَاجَةً وَخَرَجْنَ مِنْهَا خُرُوجَ الْوَدْقِ مِنْ خَلَلِ السَّحَابِ
 (وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ^(١) فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ
 يَشَاءُ) :

السماء فى اللغة : ما علًا وارتفع ، ومنه يقال للسحاب : سماء ، وللفضاء والسقف :
 سماء ، وللرفعة المعنوية : سماء ، ومنه قول الشاعر فى الفخر :

إِذَا بَلَغَ السَّمَاءَ لَنَا وَلِيْدٌ تَخِرُّ لَهُ أَعَادِينَا سَجُودًا

ولفظ السماء يُذَكَّرُ ويؤنث ، والمراد به فى الآية : إما السحاب ؛ وإما الفضاء فكلاهما
 يشتمل على جبال الركام التى ينزل منها البرد ، كما هو صريح النص الشريف .

وإطلاق لفظ الجبال على الركام من باب التشبيه البليغ ؛ فإن السحب الركامية تشبه
 الجبال فى ضخامتها وارتفاعها .

قال الإمام الرازى فى تفسير الآية : أراد بقوله : (مِنْ جِبَالٍ) السحاب العظام ؛
 لأنها إذا عظمت أشبهت الجبال ، كما يقال : فلان يملك جبلا من مال : انتهى كلام الفخر
 الرازى .

ويقول علماء الطبيعة الجوية فى عصرنا : إن السحب الركامية ترتفع أميالا على شكل
 هرمى ، قاعدتها إلى أسفل وقمتها إلى أعلى ، وهم بذلك يؤكدون ما نقلناه عن الإمام الرازى .
 وفى الآية إعجاز علمى فوق إعجازها البلاغى ؛ فقد تحدثت عن تكاثف السحب ،
 ووصولها فى هذا التكاثف إلى درجة عالية تشبه فى ضخامتها وشكلها الجبال ، كما تحدثت
 عن إنزال البرد من تلك السحب الركامية المعبر عنها بالجبال ، وعن البروق الخاطفة المتلألئة

(١) لفظ (من) فى قوله : (من السماء) ابتدائية ، وقوله : (من جبال) بدل اشتغال من قوله : (من السماء)
 فإن السماء هنا بمعنى السحاب أو الجو ، وكلاهما يشتمل على ركام السحب الشبيهة بالجبال ، ولفظ : (من) فى قوله :
 (من برد) للتبويض أو البيان ، فى موضع المفعول به لقوله : (ينزل)

القوية الضوء إلى درجة تكاد تخطف الأبصار ، وكل ذلك وغيره تنبئ عنه هذه الآية العظيمة ، ويجرى على لسان أمي لا علم له ولا لغيره من أهل الأرض جميعاً في زمنه بمثل تلك العلوم الكونية ، حيث كانت الجهالة والبدائية تنتشر بين الناس في المشرق والمغرب ، الوثنيين منهم وأهل الكتاب ، ولا شك أن هذا لا يمكن أن ينطق به إلا رسول آتاه الله العلم بوحي أيده به ، وآذن بصدقه في نبوته ورسالته ، فتبارك الله رب العالمين^(١)

والبرّد الذي ينزل من تلك السحب الركامية : حبات في بياض الثلج وبرودته ، ويقول الله في شأن هذا البرّد : « فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ » : أى فيصيب الله بهذا البرّد من يشاء من عباده فيتضرر به في نفسه ، أو ماله ، أو زراعته ، أو ماشيته ، ويصرفه ويمنعه عن من يشاء ، فيسلم من غائلته ، حسبما جرت به حكمة الله وقدره .

ويعقب الله ذلك بقوله : (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) : أى يقرب ضوء برق السحاب المتراكم المعبر عنه بالسماء ، ثم بالجبال ، يقرب ضوءه أن يخطف الأبصار ، من فرط الإضاءة والسرعة ، وفي ذلك دليل عظيم على قدرة الله تعالى ، حيث ولد النور من الظلمة الركامية ، وخلق الشيء من ضده ، بالإضافة إلى ما تضمنته الآية من عجائب إبداعه وقدرته ، ويعقب الله ذلك بقوله :

(١) وقد علق الخبراء على هذه الآية في التفسير المنتخب الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فقالوا مايل : تسبق هذه الآية الكريمة ركب العلم ؛ فإنها تتناول مراحل تكوين السحب الركامية وخصائصها وما عرف عنها في العهد الأخير ، من أن السحب الممطرة تبدأ على هيئة وحدات ، يتألف عدد منها في مجموعات هي السحب الركامية ، أى : السحب التى تنمو في الاتجاه الرأسى ، وترتفع قممها إلى علو ١٥ أو ٢٠ كيلو مترا فتبدو كالجبال الشامخة . والمعروف علميا أن السحابة الركامية الممطرة تمر بمراحل ثلاث ، هي :

١ - مرحلة الالتحام والنمو .

٢ - ثم مرحلة المطول .

٣ - وأخيرا مرحلة الانتهاء .

كما أن هذه السحب هي وحدها التى تجود بالبرد ، وتشحن بالكهرباء ، وقد يتلاحق حدوث البرق في سلسلة تكاد تكون متصلة (أربعين تفريفا في الدقيقة الواحدة) فيذهب ببصر الراصد من شدة الضياء ، وهذا هو عين ما يحدث للملاحين والطيارين الذين يخترقون عواصف الرعد - في المناطق الحارة - وينجم عن فقد البصر هذا أضرار بالغة تشكل خطرا حقيقيا على أعمال الطيران وسط العواصف الرعدية . وتعليقا على هذا نقول : إن ذهاب البصر في هذه الحالة وقتى ، ولهذا قال - سبحانه - : (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) .

٤٤ - (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) : أى يُصَرِّفُهُمَا بالمعاقبة بينهما ، أو ينقص أحدهما ، وزيادة الآخر ، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد ، والظلمة والنور ، أو بما يعم ذلك كله .

ويختم الله الآية بقوله : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ) : والمراد بالأبصار هنا : البصائر والعقول ، فهي التى تعتبر وتتعظ ، أى إن فيها تقدم من إزجاء السحاب ، وإنزال الودق والبرد ، وتقليب الليل والنهار ، لِعِظَةً بليغة لذوى العقول المستنيرة ، وذكرى لمن كان له قلب منيب ، وإدراك وضاء ، حيث يدرك من هذا الإبداع فى الخلق ، والإحكام فى التدبير ، أن ذلك كله من صنع إله قدير ، حكيم خبير .

المعنى الإجمالى للآية :

ألم تشاهد - أيها الإنسان - من دلائل الألوهية والربوبية ، أن الله تعالى يكون سحابا فى الجو ويسوقه من جهات مختلفة ، ثم يولف بين وحداته فيضم بعضها إلى بعض ، ثم يجعله متراكما طبقة فوق أخرى ، فترى المطر أو البرق يخرج من بين هذا السحاب المتألف المتراكم ، وينزل من السماء من سحابها المتراكم الشبيه بالجبال فى عظمتها وارتفاعها - ينزل منها حبا يشبه الثلج فى برده ولونه ، يسمى : البرد ، فيصيب به من يشاء من عباده من ضرر فى نفسه ، أو ما شئته ، أو زراعته ، أو ماله ، ويصرفه عن يشاء فينجو من أضراره ، ويخرج منها برقاً مضيئاً سريع التتابع ، يقرب هذا الضوء من أن يخطف أبصار الناظرين إليه من فرط إضاءته وسرعته .

يُصَرِّفُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ بِأَن يجعلهما يتعاقبان ، أو يزيد فى أحدهما وينقص من الآخر ، أو يغير أحوالهما برودة وحرارة ، أو يجمع ذلك كله ، إن فيها تقدم من عظام القدرة ، ودقة التدبير وإحكامه لعِظَةً لأصحاب البصائر النيرة ، لِدِلَالَتِهِ عَلَى وجود صانع حكيم قدير عليم ، لا شريك له فى ملكه ، ولا معارض له فى حكمه .

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(كُلُّ دَابَّةٍ) : الدابة اسم لكل ما يدب ويتحرك من الحيوان ، من : دَبَّ ، يَدِبُّ دَبًّا ودببياً - أى تحرك - ، فهو دابٌّ ، والتاء للمبالغة ؛ ويقال : أكذب من دب ودرج ، أى : أكذب الأحياء والأموات ، قاله صاحب المختار .
(آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ) : آيات موضحات للحقائق .
(إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) : إلى طريق لا اعوجاج فيه .

التفسير

٤٥ - (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ) الآية .

بين الله - تعالى - فيما تقدم أنه - سبحانه - نور السموات والأرض ، فلا تخفى ربوبيته على من له عينان ، وأن السموات والأرض والطير تسبح بحمده ، وتشهد بتنزيهه عن جميع النقائص ، وباستحقاقه جميع الكمالات ، وأن السماء والمطر والبرد ، والبرق الخاطف وضياءه الباهر من إبداعه ، وتحت إرادته وحكمه ، وأنه يقلب الليل والنهار بحكمة وتدبير رتيب ، وجاء هذه الآية ليشير بها إلى برهان من براهين ربوبيته ، وهو خلقه كل دابة من ماء .

والمراد بالدابة هنا : ما يدب ويتمحرك بنفسه على الأرض ، أو في جوفها ، أو في ماؤها من الحيوانات والحشرات والأسماك ، والله تعالى يقول : إنه خلقها كلها من ماء ، والمراد منه : النطفة ، فالله - تعالى - جعل لكل ذكر من الحيوانات والحشرات والأسماك نطفة تشتمل على خصائص نوعه ، يودعها أحشاء أنثاه فتحمل ثم تضع ذريتها لا متبقية نوعها ، ولا نعلم شيئاً من الكائنات الحية يخالف هذه القاعدة سوى آدم وعيسى ، فأدم خلق من تراب ، وعيسى خلق بالنفخ ، ولا يمنع هذا عموم خلق الكل من الماء ، فالتأثير لا حكم له ، فإن وجدت كائنات حية خلقت بغير النطفة سواهما ، فالتعبير حينئذ بلفظ : (كل) مراعاة للغالب^(١).

وقد يراد من الماء : ما دخل في تكوين كل دابة من الماء ، وخصّة بالذكر دون سائر عناصر تكوينها لأهميته العظمى في بناء أجسامها ، ويفصل الله - تعالى - أنواع الدواب المخلوقة من الماء فيقول :

(فَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ) :

أى : فمن الدواب التي خلقت من ماء من يمشى على بطنه كعثابين البرّ وزواحفه المختلفة ، وعثابين الماء وسائر أسماكها ، وسميت حركة هذه وتلك مشياً مع أن الأولى زحفٌ ، والثانية سباحة ، للمبالغة في إظهار قدرتها على الحركة كالدواب التي تمشى ، ويزيدها حسناً ما فيها من المشاكلة لِمَشْيٍ ما بعدها ، والمشاكلة نوع من أنواع البلاغة .

ومن هذه الدواب من يمشى على رجلين : كالإنسان والطير ، ومنها من يمشى على أربع : كالأنعام والوحوش وبعض حيوانات البحر .

(١) يقول الخبراء - تعليقا على هذه الآية - في منتخب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : الماء في الآية هو ماء التناسل ، أى : المشتغل على الحيوانات المنوية ، والآية الكريمة لم تسبق ركب العلم في بيان نشوء الإنسان من نطفة ؟ كما جاء في قوله - تعالى - : « فليُنظر الإنسان مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ » لم تسبقه فيها فحسب ، بل سبقت كذلك في بيان أن كل دابة تدب على الأرض خلقت كذلك بطريقة التناسل من الحيوانات المنوية ، وإن اختلفت أشكال هذه الحيوانات المنوية وخصائصها في كل نوع من أنواع هذه الدواب .

وبما تحتمله الآية من معان علمية : أن الماء قوام تكوين كل كائن حي ، فثلا يحتوى جسم الإنسان على نحو ٧٠٪ (سبعين في المائة) من وزنه ماء ، أى أن الشخص الذي يزن ٧٠ كيلو جراما فجسمه يحوى ٥٠ كجم ماء ، ولم يكن تكوين الجسم واحتوائه هذه الكمية الكبيرة من الماء معروفا مطلقا قبل نزول القرآن إلخ ما ذكره الخبراء .

وترتيب الأصناف حسبما جاء في الآية ، على سبيل التدرج ، ولأن قدرة الزواحف على الحركة مع فقدانها الأرجل أدل على قدرة الله ، وتمكينه إياها من الحركة بغير الأسباب المعهودة في سعى الحيوان على رزقه ، ولم يذكر من يمشى على أكثر من أربع - كالعناكب ونحوها - إما لأن المراد بكل دابة : ما تقع عليه العين غالباً ، أو أن ما ذكر من باب التمثيل و أنه أشير إلى ما يمشى على أكثر من أربع بقوله تعالى : (يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) أى : مما ذكر وما لم يذكر .

والتعبير بضمير العقلاء في قوله : (وَمِنْهُمْ) مع أن من يمشى على بطنه وعلى أربع ليس منهم ، لتغليب جانب العقلاء ، وهم من يمشون على رجلين كالإنسان ، واستعمال : (مَنْ) في غير العقلاء للمشكلة ، أو لأنها تستعمل في غير العقلاء بقلّة^(١)

ويختم الله الآية بقوله : (يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) : أى يخلق الله ما يريد خلقه مما ذكر وما لم يذكر ، بسيطاً كان أو مُركباً ، على ما يشاء من الصور والحركات والطباع والقوى ، إن الله على كل شيء أَرَادَ خلقه عظيم القدرة ، إذ يقول للشيء : كن ، فيكون .

المعنى الإجمالى للآية :

والله خلق كل حيوان يدب ويسعى فوق سطح الأرض أو في جوفها أو في مائها - خلقه - من ماء ، هو سائل النطفة الذى هو أصل الكائنات الحية المتوالدة ، أو هو الماء الذى خلق منه معظم جسمه ، فمن هذه الدواب من يمشى على بطنه ، كالزواحف والأسماك ، ومنهم من يمشى على رجلين : كالإنسان والطير ، ومنهم من يمشى على أربع : كالأنعام والوحوش وبعض الحيوانات البحرية ، يخلق الله ما يشاء خلقه من هذه الدواب وغيرها ، على ما يشاء من صورها وحركاتها وقواها ومنافعها وأضرارها ، والله على كل شيء أَرَادَ خلقه قدير ، إذ يقول له : كن ، فيكون .

(١) الحق أن استعمال : (من) في العقلاء أغلبي ، وأن استعمال : (ما) في غير العقلاء كذلك ، وقد يتقارضان ، فتستعمل كلتاها في غالب ما تستعمل فيه الأخرى - كما هنا في (من) وكما في قوله تعالى : (والسما وما بناها) بالنسبة لما ، فإنها هنا مراد منها المولى - سبحانه وتعالى - أى : ومن بناها .

٤٦ - (لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) : هذه الآية جاءت مقدمة لما بعدها ، ولهذا لم تعطف على ما قبلها كما عطفت مثلتها السابقة : « وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ . . . » الآية .

والمعنى : لقد أنزلنا آيات قرآنية موضحات لكل عاقل ما ينبغي توضيحه من الأحكام الدينية ، والأسرار التكوينية ، والله يهدي من يشاء هدايته إلى طريق مستقيم يوصله إلى الحق والفوز في دار الثواب ، وذلك بتوفيق من وعاه بسمعه وقلبه إلى التدبر في معانيها ، والنظر الصحيح فيما ترشده إليه من دلائل الحق .

(وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ يَبِينُهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمْ آرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

- (يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ) : يعرض جماعة منهم عن طاعة الله ورسوله .
 (مُّعْرِضُونَ) : منصرفون . (مُذْعِنِينَ) : منقادين .
 (أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) : المراد بالمرض هنا ، النفاق . (أَن يَحِيفَ) : أن يجور ويظلم .

التفسير

٤٧ - (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرُّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوذِيَكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) :

بيّن الله - سبحانه - في الآية السابقة أنه تعالى يهdy إلى آياته البينات من يشاء ، وهم أولو البصائر النيرة ، فيهتدون بهديه إلى الصراط المستقيم ، وبين في هذه الآية وما بعدها من لم يشأ الله هدايتهم من ذوى البصائر المظلمة ، والأفكار الضالة من المنافقين .

ويقول الطبرى وغيره في سبب نزول هذه الآية وما بعدها : إن رجلا من المنافقين اسمه : (بشر) كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض ، فدعاه اليهودى إلى التحاكم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان اليهودى محققا والمنافق مبطلا ، فأتى المنافق وقال : إن محمدا يحيف علينا ، فلنحككم (كعب بن الأشرف) فنزلت فيه ^(١) .

وقال الضحاك : نزلت في (المغيرة بن وائل) كان بينه وبين على - كرم الله وجهه - خصومة في أرض ، فدعاه على أن يتحاكما إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أما محمد فلست آتية ؛ فإنه يبغضنى وأنا أخاف أن يحيف على ، فنزلت ^(٢) .

وهذه الآية وإن نزلت في قصة واحد من المنافقين ^(٣) ، لكنهم لما كانوا جميعا على مذهب واحد من النفاق ، حيث كانوا يظهرون الإيمان والطاعة ، ويبطنون الكفر والمخالفة - لما كانوا جميعا كذلك - حكى الله نفاقهم بصيغة الجمع بقوله : « وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرُّسُولِ وَأَطَعْنَا » وختم الآية بقوله : « وَمَا أُوذِيَكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » .

والمعنى الإجمالى للآية ، ويقول المنافقون بألسنتهم : صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا ، مظهرين بذلك ولاءهم لله ولرسوله ، ثم ينصرف فريق منهم من بعد قولهم هذا معرضين عما يقتضيه الإيمان من الالتزام بشريعة الله والتخلق بأخلاق المؤمنين ، وما هؤلاء المنافقون بالمصدقين المخلصين ، فقلوبهم مخالفة لألسنتهم ، وما قالوه كان رياء ونفاقا لجر المنافع ودفع المضار .

(١) نقله القرطبى عن الطبرى . (٢) مختصر من الألوسى . (٣) حل اختلاف الروايتين .

٤٨ - (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ) :

وإذا دعا المنافقين خصومهم إلى شرع الله ورسوله ، ليحكم به الرسول بينهم ، فاجأ بعضهم بالإعراض عن التحاكم إلى رسول الله إذا كان الباطل في جانبهم والحق في جانب غيرهم ، خشية أن يحكم عليهم بشريعة الله التي تنصف المظلوم ولو كان من الكافرين ، وتدين الظالم ولو لبس ثياب المؤمنين .

٤٩ - (وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ) :

وإن يكن للمنافقين الحق جهة خصومهم يأتوا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - منقادين له ، مسرعين إليه ؛ لعلمهم بأنه سيحكم لهم ؛ لأنه يحكم بالحق حينما كان .
ثم بين الله ما يدور عليه إعراض المنافقين عن التحاكم إلى رسول الله وهم مبطلون ، فقال - سبحانه - :

٥٠ - (أَفَبَى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

تفيد هذه الآية أن امتناع المنافقين عن التحاكم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حينما يكون الحق ضدهم ، لا يخرج عن أن يكون ناشئاً عن مرض في قلوبهم ، يميل بهم إلى الظلم وكراهة الحق ، أو ناشئاً - في زعمهم - عن وجود ما يريبهم ويشككهم في نبوته - صلى الله عليه وسلم - أو عن خوف من أن يجور الله عليهم ورسوله .

وبما أنه لا سبيل إلى الريب في نبوته ؛ لأنه النبي الحق المؤيد من عند الله بالآيات البينات ، ولا مجال للخوف من جوره في الحكم ؛ لأنه عرف بالعدل التام بين الناس جميعاً فلا يبقى إلا السبب الأول ، وهو مرض قلوبهم الشامل لكفرهم ونفاقهم ، فهو الذي صرفهم عن التحاكم إليه - صلى الله عليه وسلم - ولهذا ختمت الآية بالحكم بظلمهم لنفوسهم وذلك بنفاقهم الذي أصبح مرضاً في قلوبهم .

وقد اتبعت الآية معهم أسلوب المحاوراة لكشف حالهم ، والاستفهام فيه للتوبيخ والذم وتشديد النكير عليهم .

والمعنى الإجمالى للآية : أفى قلوب هؤلاء المنافقين مرض منعهم من التحاكم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أم ارتابوا فى نبوته لوجود ما يريبهم فيها ، أم يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله إن تحاكموا إليه ؟ والحق أنه لا يوجد سبب من جهته - صلى الله عليه وسلم - يمنعهم من التحاكم إليه ؛ فهو النبی العادل دون ريب ، بل السبب هو ظلمهم لأنفسهم بمرض قلوبهم ونفاقهم ، وظلمهم لخصومهم بمحاولة الاستيلاء على حقوقهم .

(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾)

انفرادات :

(الْمُفْلِحُونَ) : الفائزون . (وَيَتَّقْهُ) : قرأها حفص بإسكان القاف وكسر الهاء غير مشبعة ، حكى ابن الأنبارى أنها لغة لبعض العرب ، إذ يُسَكِّنُونَ ما قبل الحرف المعتل بعد حذفهم المعتل للجازم ، ومنه قول الشاعر :

ومن يتَّقِ فإن الله معه ——— ورزق الله مؤتَابٌ وغيــــــــــــــادى

وقرأها الباقر بكسر القاف ، اكتفاءً بحذف حرف العلة للجازم ، وخفَّفَ كسرة الهاء بعضهم ، وأشبعها بعض آخر ، وهذا عند القراءة ، أما عند الوقف فقد أجمع القراء على تسكين الهاء .

التفسير

٥١ - (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

تحكى هذه الآية الكريمة حال المؤمنين الصادقين إذا دعوا إلى التحاكم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إثر حكاية حال المنافقين ؛ ليتبين الفرق بين الخبيث والطيب .

ومعنى الآية : ما كان قول المؤمنين الصادقين إذا دعاهم أحد إلى شرع الله ورسوله ليحكم به الرسول بينهم - ما كان قولهم حينئذ - إلا أن يقولوا لداعيهم : سمعنا قولك ، وأطعنا أمرك بالنزول على حكم الله ورسوله ، وأولئك المؤمنون الصادقون هم الفائزون برضوان الله وجزيل ثوابه ، دون من عداهم من المنافقين الذين يتحاكمون إلى غيره ؛ فرارا من عدل الله ورسوله .

قال قتادة - تعليقا على هذه الآية - : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عِبَادَةَ بَنِ الصَّامِتِ - وَكَانَ عَقِيْبًا^(١) ، بَذْرِيًّا^(٢) ، أَحَدَ نَقَبَاءِ الْأَنْصَارِ - أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لَآ بَنِ أَخِيهِ جَنَادَةَ بَنِ أَبِي أُمِيَّةٍ : أَلَا أَنْبِئُكَ بِمَاذَا عَلَيْكَ وَمَاذَالِكَ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عَسْكَرِكَ وَيَسْرِكَ ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ^(٣) ، وَأَثَرَةَ عَلَيْكَ^(٤) ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَقِيْمَ لِسَانَكَ بِالْعَدْلِ ، وَأَلَّا تَنْزَاعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ ، إِلَّا أَنْ يَأْمُرَكَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ بَوَاحًا^(٥) ، فَمَا أَمَرْتُ بِهِ مِنْ شَيْءٍ يَخَالِفُ كِتَابَ اللَّهِ فَاتَّبِعْ كِتَابَ اللَّهِ .

وقال قتادة أيضاً ، وذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا في جماعة ، والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة .

(١) أى : كان من بايع النبي - صلى الله عليه وسلم - في العقبة بمضى ، وقد شهد المعبتين - الأول والثانية - .

(٢) أى : كان من المقاتلين في غزوة بدر .

(٣) المنشط : ما تنشط إليه نفسك وتشرئب لعمله ، والمكره : ضده .

(٤) الأثرة : حبك الشيء لنفسك ، والإيثار : ضده ، والمراد من السمع والطاعة في الأثرة عليه ألا يمانع في

مفضيل غيره عليه .

(٥) ظاهرا مكشوفاً .

وقال أيضاً : وذكر لنا أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان يقول : عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاء الله أمر المسلمين . رواه ابن أبي حاتم ، انظر ابن كثير .

٥٢ - (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) :

هذه الآية مستأنفة لتقرير ما قبلها من حسن حال المؤمنين ، وترغيب سواهم في أن يكونوا منهم .

والمعنى ، ومن يطع الله فيما فرضه على عباده ، ويطع رسوله فيما بينه من الفرائض والسنن ، ويخشى الله على ما مضى من ذنوبه ، ويتقاه فيما يستقبل من عمره ، فأولئك هم الفائزون بالنعيم المقيم في جنة الرحمن الرحيم ، دون من عداهم من المنافقين والكافرين .

* (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ
قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾
قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ
مَاحِمِلٌ وَعَلَيْكُمْ مَاحِمِلُكُمْ وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى
الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ) : أى طاقة أيمانهم ^(١) ، والمراد : أنهم بلغوا أقصى المراتب في الإقسام بالله ، و (جَهْدٌ) مصدر في موضع الحال بشأويله بجاهدين (طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ) أى : طاعتكم طاعة معروفة باللسان ، فلا تقسموا ، فالجملة علة للنهى عن القسم الكاذب

(١) وفي إضافة الجهد للإيمان مجاز بالاستمارة ، لأن الجهد الحالف ، وليس لليمين .

(فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَحْمِلٌ) : أى ما على الرسول سوى تبليغ ماحملة الله من الرسالة وقد فعل .
(وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ) : من الطاعة القلبية والظاهرية .

التفسير

٥٣ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ . . .) الآية .

بيّن الله في الآيات السابقة أن المنافقين « يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولوا فريق منهم » عن قبول التحاكم إلى الرسول ﷺ صلى الله عليه وسلم - ووصفهم بقوله : « وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » إلى آخر ما جاء فيهم من ذم أحوالهم ، وجاءت هذه الآية لتبين أنهم لما علموا بنزول هذه الآيات فيهم جاءوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليبرثوا أنفسهم من النفاق والكذب في أيمانهم ويعلنوا طاعتهم ، وأقسموا على أنه - صلى الله عليه وسلم - لو أمرهم أن يخرجوا من أموالهم وديارهم لفعلوا^(١)

والمعنى : وأقسم المنافقون مبالغين في إقسامهم جهد طاقتهم ، ليبرثوا أنفسهم من النفاق وعدم الطاعة والانقياد لحكم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، قائلين : والله لئن أمرتنا يارسول الله بالخروج من ديارنا وأموالنا لنفذن أمرك ، وخرجنا منها طاعة لأمرك ، فرد الله عليهم قائلا لرسوله :

(قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى : قل لهم أيها الرسول : لا تقسموا على طاعة الله ورسوله ، فطاعتكم طاعة معروفة للناس ، فهي طاعة باللسان ، وليست نابعة من قلوبكم ، إن الله خبير بما يصدر عنكم من أعمال النفاق المضارة بالإسلام وبالمسلمين ، فمجازيكم عليها أشد الجزاء .

٥٤ - (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ) :

قل لهم أيها الرسول : أطيعوا الله ورسوله مخلصين غير منافقين ، فإن تولوا وتعرضوا عما كلفتم به من الطاعة فما على الرسول سوى تبليغ الرسالة التي حملة الله تعالى أمر تبليغها ،

(١) وفسر بعضهم الخروج في الآية بالخروج للجهاد ، ولكنه غير مناسب لسياق الآيات قبلها .

وما عليكم إلا الطاعة الخالصة من النفاق ، فهي التكليف الذى حملكم الله إياه لتنفيذوه ،
ونخم الله الآية بنصيحتهم بقوله :

(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : أى وإن تطيعوا رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - فيما يأمركم به وينهاكم عنه ويحكم به تهتدوا إلى الحق وإلى
صراط مستقيم ، وليس على الرسول إلا تبليغ أمته تبليغا مبيناً للحق والباطل وقد فعل ،
وليس عليه أن يقهركم على الطاعة ، فهي مسئلة منكم وتكليف واجب عليكم .

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ
خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا
الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ
الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾)

المفردات :

- (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) : ليجعلنهم خلفاء متصرفين في الأرض .
(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ) : أى وليجعلنه مكينا ثابتاً .
(وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) : ومآلهم ومسكنهم جهنم .

التفسير

٥٥ - (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) الآية .

قال أبو العالية في سبب نزول هذه الآية الكريمة : مكث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة عشر سنين^(١) بعد ما أوحى الله إليه خائفاً هو وأصحابه يدعون إلى الله سرّاً وجهاً ، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح ، فقال رجل : يا رسول الله أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا تلبثون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملا العظيم مُحْتَبِئاً ليس عليه حديدة » ونزلت الآية ، وأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا . ٥١

وقال الضحاك ما خلاصته : أن هذه الآية تتضمن صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلى فهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقد استخلفهم الله على الأرض التي ولأهم الله عليها ، وإلى هذا الرأي ذهب ابن العربي ، وحكى في أحكامه أن علماء المالكية يرون أن هذه الآية دليل على صحة خلافتهم ، فهم الذين استخلفهم الله ورضى أمانتهم ، ولم يتقدمهم أحد في الفضيلة إلى يومنا هذا ، فاستقر الأمر لهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، وذبوا عن حوزة الدين فنفذ الوعد فيهم .

وحكى القشيري هذا القول عن ابن عباس ، واحتجوا بما رواه سفيانة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول :

(١) التقييد بعشر سنين راجع إلى مدة إيذائهم للنبي وأصحابه بعد الجهر بالدعوة ، أما مدة الدعوة إلى الإسلام بمكة فقد كانت ثلاث عشرة سنة ، وكانت الدعوة في السنوات الثلاث الأولى في طي الخفاء ، فلما جهر بها النبي - صلى الله عليه وسلم - وعاب آتتهم التي عبدها آبائهم ، أخذتهم حمية الجاهلية ، فأذوه وأصحابه عشر سنين تبعاء ، وحملوهم على الهجرة :

« الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا » .

وقالت طائفة من العلماء : هذا وعد لجميع المسلمين بأن تكون الأرض كلها تحت لواء الإسلام ، وهم مستخلفون عليها ، كما قال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله زوى لى الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » من حديث رواه الإمام أحمد بسنده عن شداد بن أوس .

واختار ابن عطية هذا القول ، وقال : الصحيح فى الآية أنها فى استخلاف الجمهور ، واستخلافهم هو أن يملكهم البلاد ويجعلهم أهلها كالذى جرى فى الشام والعراق وخراسان والمغرب^(١) .

ونحن نقول : سواء أكان المراد من الآية الخلفاء الأربعة ، أو جماعة الأمة الإسلامية فقد حقق الله وعده هذا وذاك ، وقد ارتفع لواء الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها ؛ ولا توجد اليوم أمة فى الأرض إلا والإسلام إما غالب فيها ، أو له كيان بين أرجائها ، أو مكان ممتاز بين أديانها ، بفضل سلامة مبادئه ، ووضوح آياته ، وجهاد قادته وثقافة دعائه . وما زلنا ننتظر المزيد من فضل الله رب العالمين .

وكما حقق الله بذلك وعده ، حقق به وعد رسوله - صلى الله عليه وسلم - إذ قال : « والله ليؤمنن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه » . أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ، وكلاهما من أعلام نبوته - صلى الله عليه وسلم - لأنه إخبار عما سيكون فكان ، مع أنه فوق مستوى الظنون ، ودون تحقيقه ما هو إلى المستحيل أقرب ، ولكن الله على كل شئ قدير .

وقد وعدهم الله أن يستخلفهم (كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : .

والمراد من الذين قبلهم : بنو إسرائيل ، فقد استخلفهم على أرض الجبارين فى بلاد الشام ، وهى الأرض المقدسة التى دعاهم موسى - عليه السلام - إلى دخولها بقوله لهم :

« يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » ^(١) فَأَجَابُوهُ بِمَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : « قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا » .

ولما نصّحهم بعض المخلصين منهم بالهجوم عليهم متوكلين على الله فإنهم سيغلبونهم « قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » ^(٢) فشكاهم إلى الله تعالى فحرّمها عليهم « أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ » ^(٣)

ولما فَنِيَ هذا الجيل الفاسد ، وانتهت عقوبة الحرمان ، فتحها بذرياتهم نبي الله يوشع عليه السلام - فهذه هي الأرض التي استخلفهم الله عليها بعد أن ظلوا عبيدا للمصريين بعد يوسف - عليه السلام - حتى أنقذهم الله تعالى من العبودية على يد موسى وهرون - عليهما السلام - .

وقد أشار الله تعالى إلى ماضيهم المستضعف وإلى الأرض التي استخلفوا عليها بقوله : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » ^(٤) .

فالأرض التي أورثوا مشارقها ومغاربها ، هي الأرض المباركة وهي أرض فلسطين لقوله تعالى : « وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ » ^(٥) .

وقوله : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ » ^(٦) .

ولما أفسد بنو إسرائيل فيها عدة مرات أخرجوا منها ، وحرّموا ميراثها ، ثم اغتصبوها عدواناً من المسلمين الذين خلصوا أهلها من ظلمهم ، وكانوا أحق بها منهم ، والعاقبة للمؤمنين الصابرين .

(١) سورة المائدة ، الآية : ٢١

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٢٤

(٣) سورة المائدة ، من الآية : ٢٦

(٤) سورة الأعراف ، من الآية : ١٣٧

(٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٧١

(٦) أول سورة الإسراء .

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) أى : أنه تعالى كما وعد المؤمنين الصالحين باستخلافهم في الأرض وعدمهم أيضاً بأن يمكن ويثبت لهم دينهم الإسلام الذي ارتضاه لهم ، وأن يمنحهم الأمن والطمأنينة ، بدلا من الخوف الذي كان يقض مضاجعهم من أعدائهم ^(١) .

وعقب الله هذا الوعد ببيان مقتضيه فقال : (يَغْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) : أى أنه تعالى إنما يستخلفهم ويمكن لهم دينهم ، لأنهم يعبدونه وحده لا يشركون به في العبادة سواه ، وأتبع هذا بتحذيرهم من الكفر فقال سبحانه :

(وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) :

والمراد من الكفر هنا إما الردة ، وإما كفران نعمة الاستخلاف والتمكين ، فإن أريد منه الردة فالمراد بالفسق بلوغ الغاية فيه ، حيث ارتدوا بعد إيمان ، وإن أريد منه كفران نعمة ، فالمراد منه مطلق الخروج عن الطاعة مع بقاء الإيمان .

والمعنى الإجمالي للآية : وعد الله الذين آمنوا بالله ورسوله ، وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه - مع قتلهم وكثرة أعدائهم - وعدمهم - ، أن يجعلهم خلفاء على أرضه في مشارقها ومغاربها ، يَلُون أمرها وتدين لطاعتهم ، وينشرون في أرجائها دينه ، ويبينون للناس آياته وبراهينه .

وهذا الاستخلاف لهم قد سبقه مثله لبنى إسرائيل قبلهم في أرض فلسطين ، بعد أن استقامت أمورهم ، وعادوا إلى ربهم ، وقبل أن يفسدوا في الأرض .

كما وعدمهم أن يثبت لهم دينهم الإسلام بين سائر الملل والنحل فيحميه من أهلها ، وأن يعوضهم بدلا من الخوف الذي يعيشون فيه أَمْنًا من الأعداء ، بما يمنحهم من القوة

(١) وفي هذا يقول - صلى الله عليه وسلم - لعدي بن حاتم حين وفد عليه : « أتعرف الحيرة ؟ » قال : لم أعرفها ولكن قد سمعت بها ، قال : « فوالذي نفسي بيده ليشق الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم . كسرى بن هرمز .. » من حديث أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام .

والكثرة والفتوحات ، لأنهم يعبدونه تعالى لا يشركون به سواه ، ومن ارتد بعد هذا الوعد أو تحقيقه أو كفر بنعمته التي أنعم بها عليه فأولئك هم الخارجون عن الإيمان ، أو عن فضيلة الشكران^(١) .

٥٦ - (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) : وأدوا الصلاة بأركانها وشروطها في مواقيتها ، وأعطوا زكاة أموالكم وأبدانكم إلى من يستحقها ، وأطيعوا الرسول في كل ما أمركم به أو نهاكم عنه ، لعلكم ترحمون في الدنيا بتحقيق مواعيد الله لكم ، وتحقيق آمالكم ، وفي الآخرة بالنجاة من النار ، والثواب الجزيل في جنات النعيم .

٥٧ - (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : في هذه الآية تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - ووعد له بالنصر ، أى : لا تظن يا محمد أن هؤلاء الذين كذبوك وكفروا بما جئتكم به من الله - لا تظنهم - معجزين الله في الأرض عن الانتقام منهم ونصرك عليهم ، فإن الله قادر على ذلك ، وسوف يعذبهم على كفرهم ، ومآلهم النار يأوون إليها خالدين ولبئس مصير الظالمين .

(١) أطال ابن كثير في التعليق على هذه الآية الكريمة ، فارجع إلى ما كتبه فيها إن شئت ، فإنه كلام نفيس ، تناول فيه التطورات التي مرت بالدولة الإسلامية نحو خلافتها في الأرض تحقيقاً لوحدة الله الكريم ، وحسب القارىء ما كتبناه ، ففيه الكفاية والله تعالى هو الموفق .

(يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذْنَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوةِ
الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ
الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ
بَعْدُهَا طَوْفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ
الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُوا كَمَا أَسْتَعِذْنَ الَّذِينَ مِّن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ
الَّتِي لَا يَرَجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ
غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(لِيَسْتَعِذْنَكُم) : ليطلب الإذن منكم . (الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) : عبيدكم
وإماؤكم ، والتعبير عنهم بما ملكت الأيمان لأنهم يؤسرون في الحرب بالأيمان لا بالشماثل غالباً
فنسب الملك إليها لذلك .

(الْحُلُم) بضم اللام : أوان البلوغ . (تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ) : تخلعونها .

(ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ) : العورة ؛ الخل ، يقال : أعورُ المكان ، أى : مختلُه^(١) ، ورجل أعور
أى : مختل العين ، أى : هى ثلاث أوقات يختل فيها تستركم . (جُنَاحٌ) أى : حرج
(طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ) : أى ؛ هم يطوفون عليكم فى غير هذه الأوقات لقضاء مصالحكم ،
فلاداعى لاستئذانهم منكم .

(وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ) : العجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل أو عن التصرف
لكبر السن ، ومفرده : قاعد ، بدون هاو ، ليدل حذفها على أنه يعود الكبر وهو من الصفات
الخاصة بالنساء كالطالق والحائض . (أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ) : أى ؛ يتخلين عن الثياب الظاهرة .
(غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ) : أى ؛ غير مظهرات زينتهن (وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ) : يطلبن
العفة بالستر (خَيْرٌ لَّهُنَّ) : من التجرد من الثياب الخارجية الظاهرة لأنه أبعد عن التهمة .

التفسير

٥٨ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا
الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ
صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ) :

هذه الآية وما بعدها اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض ، وماتقدم فى أول
السورة كان بياناً لاستئذان الأجانب بعضهم على بعض ، وقد أمر الله المؤمنين والمؤمنات^(٢)
فى هذه الآية ، أن يستأذنهم مما ملكت أيمانهم من العبيد والإماء وأطفالهم الذين
لم يبلغوا الحلم . وكانوا مميزين فى ثلاثة أحوال :

الأولى : من قبل صلاة الصبح ، لأن الناس حينئذ إما نيام فى فرشهم ، وإما قيام
من مضاجعهم ليطرحوا ثياب النوم ويلبسوا ثياب اليقظة .

والحالة الثانية : حين يخلعون ثيابهم وقت الظهيرة للنوم .

والحالة الثالثة : بعد صلاة العشاء إلى الفجر ، لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة
ولبس ثياب النوم ، والتساهل فى كشف بعض أجزاء الجسد ، وقد يكون الرجل مع أهله

(١) انظر البيضاوى .

(٢) فالخطاب فى الآية وإن كان للرجال ، إلا أن الحكم فيها عام لهم وللنساء ، لأنهن شقائق الرجال فى الأحكام ،

إلا ما علم خصوصه بأحدهما .

في آية حالة من هذه الحالات ، فيؤمر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت فيها ، بل يستأذنون تأديباً وتصوناً ، وحفاظاً على عورات الناس أن تكشف ، ولقد أطلق الله على هذه الأوقات عورات لذلك روى ابن أبي حاتم بسنده (عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رجلين سألاه عن الاستئذان في الثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن ، فقال ابن عباس :

إن الله ستر يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حِجَالٌ^(١) في بيوتهم ، فربما فاجأ الرجلَ خادمه أو ولده أو يتيمه في حجره أي في كفالته وهو على أهله ، فأمرهم أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمي الله ثم جاء الله بعد بالستور ، فبسط عليهم الرزق ، فاتخذوا الستور واتخذوا الحِجَال . فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به) قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس .

وحكى المهدوي عن ابن عباس أن الاستئذان كان واجباً إذ كانوا لا غلق لهم ولا أبواب . ولو عاد الحال لعاد الوجوب - ذكره القرطبي في المسألة الثانية وعقبه برأى آخر يفيد أن الآية محكمة واجبة ثابتة على الرجال والنساء ، وذكر أنه قول أكثر أهل العلم : اهـ .

وبه نقول ، فإن الآية الكريمة أطلقت الأمر بالاستئذان ، سواء وجدت الأبواب والستور أو لم توجد ، فلا يحل اقتحام الأبواب والستور دون استئذان في تلك الأوقات ، لوجود مقتضى المنع وهو احتمال انكشاف العورات فيها ، روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث غلاماً من الأنصار يقال له مُدْلِجٌ إلى عمر بن الخطاب ظهيرةً ليدعوه ، فوجده نائماً قد أغلق عليه الباب ، فدق عليه الغلام الباب فناداه ودخل ، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيء ، فقال عمر : وددت أن الله نهي أبنائنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعات إلا بإذن ، ثم انطلق إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوجد هذه الآية قد أنزلت ، فخر ساجداً شاكراً لله .

فأنت ترى أن الغلام دق الباب ونادى عمر ودخل قبل أن يستيقظ عمر ويأذن له ، فانكشف منه للغلام ما لا يحب أن ينكشف لأحد ، فلهذا نرى أن الحكم ثابت مع وجود

(١) الحِجَال : جمع حجلة ، وهي بيت كالقبة يستر بالثياب وله أزرار كبار .

الأبواب والستور ، كما أطلقته الآية الكريمة ، ويشير إلى ذلك ختم الآية بقوله سبحانه :
 « كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

وقال السدى في سبب نزول الآية : كان أناس من الصحابة - رضى الله عنهم - يحبون أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم الله أن يأمرؤا المملوكين والغلمان ألا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن .

وقال مقاتل بن حيان : بلغنا - والله أعلم - أن رجلا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد ، صنعا للنبي - صلى الله عليه وسلم - طعاماً ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن ، فقالت أسماء : يا رسول الله ، ما أقبح هذا ، إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد غلامهما بغير إذن ، فأنزل في ذلك : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ . . . » الآية .

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْضُهُنَّ) : أى ليس عليكم أيها المؤمنون والمؤمنات حرج في أن يدخل عليكم عبيدكم وإماءكم وأطفالكم الذين لم يبلغوا الحلم في غير هذه الأوقات ؛ لأنكم تكونون حينئذ مستترين محتاطين ، مستعدين لدخولهم عليكم ، لكى يقضوا حاجاتكم ، ولذا علل نفي الجناح بقوله :

(طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ) : أى : هم طوافون عليكم بحوائج البيت ، بعضهم طائف على بعض .

ولا يخفى ما في هذا التعبير القرآنى الجليل من جبر خواطر الممالك ، بجعلهم بعضاً من ساداتهم المخاطبين ، وبذلك يقوى أمر العلية ، ثم ختم الله الآية بقوله :

(كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) : أى مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر آيات الأحكام ، والله عليم بمصالح عباده ، حكيم في تشريعه .

المعنى الإجمالى للآية : يا أيها المؤمنون والمؤمنات يجب عليكم أن تأمرؤا عبيدكم وإماءكم وأولادكم المميزين الذين لم يصلوا إلى سن البلوغ بالاحتلام ، أن يستأذنوا في الدخول

ثلاث مرات^(١) : (إحداها) من قبل صلاة الفجر ، لأنه وقت القيام من النوم ، والاستعداد للصلاة بالطهر من الجنابة ، أو خلع ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة .

(وثانيها) حين تخلعون ثيابكم وقت الظهيرة ، وتلبسون ثياب نومكم للقبولة .

(وثالثها) من بعد صلاة العشاء ؛ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة ، ولبس ثياب النوم ، فهذه ثلاثة أوقات يختل فيها تستركم ، وتبدو بعض عوراتكم ، وقد يكون فيها الرجل مع أهله ، فعلموا عبيدكم وإماءكم ومن لم يبلغ الحلم من أطفالكم أدب الاستئذان فيها صيانة لعوراتكم ، وتأديباً لأتباعكم وأطفالكم ، ليس عليكم ولا عليهم حرج بعد هذه الأوقات في ترك الاستئذان ، فهم طوافون عليكم لقضاء مصالحكم ، وهم بعض منكم طائف على بعض ، فكلفة استئذانهم عليكم مرفوعة حينئذ ، لأنكم في غير خلوة ، ومحتاطون بالتستر في غير هذه الأوقات ، ومستعدون للقائهم لقضاء حاجاتكم ، مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر آياته التشريعية ، والله عليم بمصالحكم ، حكيم فيما يشرعه لكم .

٥٩ - (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

لما بين الله في الآية السابقة حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم : وهو أنهم لا يلزمون بالاستئذان إلا في الأوقات الثلاثة المبينة فيها ، عقبها الله بهذه الآية لبيان حكم الأطفال الذين بلغوا ، سواء أكانوا أقارب أم أجنب - كما قاله أبو حيان في البحر^(٢) وقد بين الله - تعالى - في الآية أنهم يستأذنون كما استأذن الذين من قبلهم في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا . . . » الآية ، وذلك بأن يستأذنوا في جميع الأوقات قبل الدخول ، ويرجعوا إن قيل لهم : ارجعوا .

(١) يرى الجمهور أن قوله تعالى : « ثلاث مرات » بمعنى ثلاثة أوقات ، وإطلاق اسم المرات على تلك الأوقات لمجرد الاستئذان فيها ، وعلى هذا يكون لفظ : (ثلاث) منصوباً على الظرفية مجازاً ، واختار أبو حيان في (البحر) أن المعنى : ثلاث استئذانات ، كما هو الظاهر ، فإنك إذا قلت : ضربت ثلاث مرات ، لا يفهم منه إلا ثلاث ضربات ، ويؤيده قوله - صلى الله عليه وسلم - : « الاستئذان ثلاث » وعليه يكون لفظ (ثلاث) مفعولاً مطلقاً للاستئذان مبيناً لعدده . انتهى بتصرف يسير نقلاً عن الآلوسی .

(٢) وأخرج ابن أبي حاتم نحو هذا التفسير عن سعيد بن جبير .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب أنه قال : يستأذن الرجل على أمه ، وأخرج البخارى فى الأدب ، وابن أبي حاتم وغيرهما عن عطاء أنه سأل ابن عباس - رضى الله عنهما - أأستأذن على أختي ؟ قال : نعم ، قلت : إنها فى حجرى - أى : فى كفالتى - وأنا أنفق عليها ، وإنها معى فى البيت ، أأستأذن عليها ؟ قال : نعم - ثم قال : فلا إذن واجب على خلق الله أجمعين ^(١) .

وروى عنه أنه قال : إني لآمر جارئى - يعنى زوجته - أن تستأذن على ، وحمل بعضهم الآية على أطفال المؤمنين الأجانب إذا بلغوا ، وقال بعض الأجلة : المراد بهم : ما يعم البالغين من الأحرار والمماليك ، فهؤلاء وأولئك هم الذين يستأذنون فى جميع الأحوال ^(٢) .

والمعنى الإجمالى للآية : وإذا بلغ الأطفال الحلم منكم أيها المؤمنون فليستأذنوا فى جميع الأحوال كما استأذن الذين ذكروا من قبلهم فى قوله - تعالى - : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » وعليكم أن ترجعوا إذا قيل لكم : ارجعوا ، مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم آيات أحكامه ، والله عليم بمصالحكم ، حكيم فيما يشرعه لكم .

٦٠ - (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

أى : والنساء العجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل ، ولا يطمعن فى الزواج لكبرهن فليس عليهن حرج فى أن يخلعن ثيابهن الظاهرة التى لا يفضى خلعهما إلى كشف العورة ، كالرداء والقناع الذى يكون فوق الخمار ^(٣) ، وعليهن ألا يظهرن زينة أمر الله بإخفائها فى قوله - تعالى - : « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ » وأن يستغفرن بالستر أفضل لهن ؛ لأنه أبعد عن التهمة ، وأدعى إلى الخير ، والله سميع لمقاتلتهن للرجال ، عليم بمقاصدهن فيحاسبهن عليها .

(١) ولعل استئذان المحارم البالغين إنما يطلب فى غير الأوقات ، التى وردت فى الآية التى قبلها إذا كان الباب مغلقا ، فإن كان مفتوحا فإنه لا حاجة لاستئذانهم على محارمهم ، لأن فتح الباب فيه إذن ضمنى .

(٢) انظر الآلوسى . (٣) الخمار - بكسر الخاء - : غطاء الرأس ، ويقال له : النصيف .

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(حَرَجٌ) : ضيق وموآخذة . (إِخْوَانِكُمْ) : أى إخوانكم المذكور .
 (مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ) : أى المكان الذى بأيديكم مفاتيحه أمانة لإخوانكم ، والمفاتيح : جمع مفتاح ، وهو المفتاح . (أَشْتَاتًا) : متفرقين ، جمع شَتَّ ، أى متفرق .
 (مُبَارَكَةٌ) : مرجوة الخير والثواب . (طَيِّبَةٌ) : تطيب بها نفس من يستمع إليها .

التفسير

٦١ - (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ) الآية .

تحدثت الآيات الثلاث السابقة عن أدب الاستئذان من الممالك وصغار الأطفال والبالغين على ذويهم ، وجواز ترك العجائز لبس الشياى الخارجية كالأردية ، مع ستر

ما يجب ستره من المرأة وعدم التزين ، وأن لبس الثياب الخارجية خير لهن وأبعد عن التهمة من خلْعها .

وجاءت هذه الآية الكريمة لتحدثنا عن أنواع أخرى من الآداب الإسلامية الرفيعة ، فقد اشتملت على ثلاثة منها (أولها) يرتبط بأصحاب العاهات (وثانيها) يرتبط بالأصحاء (وثالثها) تحية الإسلام عند الدخول ، فأما ما يرتبط بأصحاب العاهات ففي قوله تعالى : (لَبَسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) .

وفي هذا الجزء من الآية نقل الآلوسی من كتاب (الزهراوين) عن ابن عباس أن هؤلاء الطوائف كانوا يتخرجون من مؤاكلة الأصحاء ، حذرا من استقذارهم إياهم وخوفاً من تأذيتهم بأفعالهم ، فنزلت .

ونقل القرطبي عن ابن العربي أنه قال : المختار أن يقال : إن الله رفع الحرج عن الأعْمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط في التكليف به المشي ، وما يتعذر من الأفعال مع وجود العرج ، وعن المريض فيما يؤثر المرض في إسقاطه ، كالصوم وشروط الصلاة وأركانها ، والجهد ونحو ذلك ، ثم قال بعد ذلك مبيناً : وليس عليكم حرج في أن تأكلوا من بيوتكم ، فهذا معنى صحيح ، وتفسير بين مفيد يعضده الشرع والعقل ، ولا يحتاج في تفسير الآية إلى نقل . ٥١ .

قال القرطبي - تعقيباً على كلام ابن العربي - : وإلى هذا أشار ابن عطية فقال : فظاهر الآية وأمر الشريعة يدل على أن الحرج مرفوع في كل ما يضطرهم إليه العذر ، وتقتضي نيتهم فيه الإتيان بالأكمل ، ويقتضي العذر أن يقع منهم الأنقص ، فالحرج مرفوع عنهم في هذا . ٥١ .

ونرى أن كلام ابن عطية شامل لما قاله ابن العربي ، ولما روى عن ابن عباس ، وهو خير ما يقال في تفسير هذا الجزء من الآية ، وبه نقول .

(والنوع الثاني من الأدب) يشتمل عليه قوله - سبحانه - :

(وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ)

أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا
جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا :

وقد بيّن الله - سبحانه - في هذا الجزء من الآية أنه لا حرج على المؤمنين جميعاً ،
ومنهم أصحاب العاهات المذكورة ، أن يأكلوا من بيوتهم ، والمقصود منها : البيوت التي
فيها أولادهم وزوجاتهم فهي كبيوتهم ، فلا حرج عليهم في أن يأكلوا من طعام مملوك لهم ؛
لأن ولد الرجل بعضه ، وحكمه حكم نفسه ، ولذا لم يذكر الله تعالى الأولاد في الآية ،
قال - صلى الله عليه وسلم - : « أنت ومالك لأبيك » ولأن الزوجين صاروا كنفس واحدة ،
فصار بيت المرأة كبيت الزوج ، فكأنه تعالى يقول : ولا على أنفسكم حرج في أن تأكلوا
من مساكنكم التي فيها أهلوكم وأولادكم .

كما بيّن - سبحانه - أنه لا حرج على المؤمنين في أن يأكلوا من بيوت آبائهم أو بيوت
أمهاتهم ، أو بيوت إخوانهم الذكور ، أو بيوت أخواتهم الإناث ، أو أعمامهم أو عماتهم
أو أخوالهم أو خالاتهم ، سواء أذنوا لهم في الأكل أو لم يأذنوا ؛ لأن في القرابة التي بينهم
إذننا عرفياً لهم بالأكل ، ويقول ابن العربي : أباح الله الأكل من جهة النسب من غير
استئذان ، إذا كان الطعام مبلولاً ، فإذا كان الطعام مُحَرَّزاً لم يكن لهم أخذه ، ولا يجوز
أن يجاوزوا إلى الادخار ، ولا إلى ما ليس بمأكول وإن كان غير محرز إلا بإذن .

وقال بعض العلماء : لا يباح الأكل من بيوت هؤلاء الأقارب إلا بإذن منهم ؛ لأنه
لا يعلم رضاهم إلا به ، أما القرابة فليست من أسباب الرضا دائماً ، فمن الأقارب من لديه
سماحة ، ومنهم أشحة ، ولا يعلم ما في القلوب إلا الله ، فلا يحل الأكل من بيوتهم بغير
إذنه ومعرفة رضاهم ، وهذا الكلام قريب مما قاله ابن العربي ؛ فإن الطعام إذا كان مبلولاً
لا كلبه ، فتلك أمانة على رضا أصحابه .

والمقصود الأول من الآية : هو غرس غريزة الكرم والبر بالأقارب في نفوس المؤمنين ،
ماداموا قادرين على ذلك ، وإعداد النفوس المسلمة إلى هذا اللون من التعاون والتقارب
والأخوة في الإسلام ، عملاً بقوله - تعالى - : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى » ، ويقول

- صلى الله عليه وسلم - : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » فإن شحت نفوسهم عن الخير مع قدرتهم عليه ، فهذا مخالف للخلق الذي اختاره الله لعباده المؤمنين .

ولقد تأدب المؤمنون بهذا الأدب العالى فى عهده - صلى الله عليه وسلم - ولم يقصروه على الأقارب ، فقد كانوا يؤثرون إخوانهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة واحتياج .

ثم قال الله - سبحانه - : « أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِيحَهُ » يعنى أنه يباح لمن كانت لديه مفاتيح مكان مستأمن عليه أن يأكل منه ، والمقصود من ملكه لمفاتيحه أن يكون أمانة تحت يده ، قال ابن عباس - رضى الله عنه - : هو وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وما شئته . وروى عن عكرمة أنه قال : إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن ، فلا بأس أن يَظْعَمَ الشيء اليسير^(١) .

وروى عن ابن عباس أنه قال : نزلت هذه الآية فى الحارث بن عمرو ، خرج مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غازياً ، وخلف مالك بن زيد على أهله^(٢) ، فلما رجع وجده مجهوداً ، فسأله عن حاله ، فقال : تَحَرَّجْتُ أَنْ أَكُلَ مِنْ طَعَامِكَ بِغَيْرِ إِذْنِكَ ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية ، وقد أباح الله للصديق أن يأكل من صديقه بقوله : « أَوْ صَدِيقِكُمْ »^(٣) والصديق : من يصدق فى مودتك ، وتصدق فى مودته .

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يدخل بستان أبى طلحة المسمى (بَيْرَحَاءَ) ويشرب من ماء فيها طيب بغير إذنه ، والماء مُتَمَلِّكٌ لأهله .

وإذا جاز الشرب من ماء الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثماره وطعامه ، إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به لتفاهته ويسير مؤنته ، أو لما بينهما من المودة ، مادام محافظاً على المحارم ، أما الآن فقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل إلا بإذن .

ويقول الله - تعالى - : (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) : وهذه الجملة مستأنفة لبيان حكم جديد : هو إباحة الاجتماع على الطعام المشترك ، وأن يتفرقوا إن لم

(٢) أى : وكيلاً له فى قضاء مصالح أهله .

(١) أى : يأكل الشيء القليل .

(٣) لفظ الصديق والعدو يطلق على الواحد والجمع .

يرغبوا في الاجتماع عليه ، واختلف فيمن نزلت ، فقيل : نزلت في بنى ليث بن عمرو ، وكانوا يتخرجون أن يأكل الرجل وحده ، فربما قعد منتظرا نهاره إلى الليل ، فإن لم يجد من يؤاكله أكل - ضرورة - وحده ، ونفى الجناح عن أكلهم دون ضيف لبيان أن لا إثم فيه ، ولا يُذمُّ صاحبه شرعا ، كما ذمَّت به الجاهلية ، فإنهم غير مقصرين إذا لم يحضر الضيف .

وقيل : نزلت في قوم تخرجوا عن الاجتماع على الطعام ، لاختلاف في الأكل ، وزيادة بعضهم على بعض ، فأذن لهم فيما تخرجوا منه .

(والأدب الثالث في الآية) تضمنه قوله تعالى : (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ) أى : فإذا دخلتم بيوتا من هذه البيوت التي أذن لكم في الأكل منها ، فابدأوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم قرابة ودينا ، تحية من عند الله تعالى ، ثابتة بأمره ، مشروعة من عنده ، مباركة طيبة ، لأن السلام دعوة مؤمن لمؤمن ، يرجى بها من الله السلامة وزيادة الخير وطيب الرزق ، ثم ختم الله الآية بقوله :

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) : أى مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم مآثر آياته لكي تتفعلوها وتفهموها ، وتحرصوا على العمل بها .

المعنى الإجمالي للآية : ليس على الأعمى إثم ولا ضيق بتركه ما يقدر عليه البصير ، ولا على الأعرج إثم ولا ضيق بتركه ما يقدر عليه الماشي ، ولا على المريض إثم ولا ضيق بتركه ما يقدر عليه الصحيح ، فلا يكلف أصحاب هذه الأعذار بما يكلف به سواهم ممن لا عذر لهم ، فهؤلاء جميعاً لا يكلفون بالجهاد بالسيف ونحوه ، والمرضى منهم لا يكلفون بالصيام ونحوه مما ليس في وسعهم ، حتى يزول عذرهم ، قال - تعالى - : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ^(١) » كما أنه ليس على هؤلاء ضيق في أن يأكلوا مع الأصحاء ، وأن يأكل الأصحاء معهم ، حذرا من استقذارهم إياهم ، وتأذيبهم بوجودهم أو بتصرفهم أثناء تناول

(١) سورة البقرة ، من آخر آية فيها .

الطعام بسبب أعذارهم^(١) ، ما لم يكن بالمرضى أمراض معدية ، فعليهم أن يتركوا مخالطة الأصحاء في الطعام ، لقوله - صلى الله عليه وسلم - : « لا يوردن ممرض على مصحح » .

وينبغي لمن يؤاكلهم أن يبسر لهم تناول الطعام دون حرج ولا مشقة ولا شح ، وينبغي لهم أن يلتزموا الحكمة في تناولهم الطعام مع سواهم .

وليس عليكم - أيها المؤمنون - ضيق ولا إثم في أن تأكلوا من المساكن التي فيها أولادكم وأهلوكم ؛ فأولادكم منكم ، ونساؤكم سكن لكم ، ومودة ورحمة بينكم ، فلا عليكم أن تأكلوا من طعام مملوك لهؤلاء وأولئكم .

وليس عليكم ضيق ولا إثم في أن تأكلوا من بيوت آبائكم ، أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم ، أو أخواتكم ، أو أعمامكم ، أو عماتكم ، أو أخوالكم ، أو خالاتكم - ولو بدون إذن - إن كان الطعام مبدولا ، فإن كان داخل حرز ، فلا يحل لكم الأكل منه إلا بإذن منهم ، أو قيام أمانة على رضاهم .

وليس عليكم إثم ولا ضيق في أن تأكلوا مما وليتم مفاتحه ورعايته وكنتم وكلاء فيه ، كالضياع ومرابض الماشية ، فلكم أن تأكلوا من ثمر الضياع ، وتشربوا من لبن الماشية على ألا تتوسعوا في ذلك ، وليس لكم حق الادخار منه .

وليس عليكم إثم ولا ضيق في أن تأكلوا في بيت صديقكم من طعامه المبدول ، أو المحرز ولو بغير إذن ، إذا علمتم أن نفسه تطيب به لتفاهته ويسر مؤنته ، ما دتم محافظين على المحارم ، والآن وقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل من بيوتهم بغير إذن منهم .

وقد أباح الله لكم الاجتماع على الأكل في سفر أو حضر ، فليس عليكم إثم في أن تجتمعوا على طعام اشركتم في ثمنه ، ولكم ألا تشركوا وتأكلوا أشتاتا متفرقين .

وإذا دخلتم بيتا من هذه البيوت التي أبيح لكم الأكل منها ، فاستأذنوا على من فيها ، وسلموا عليهم ، فهم كأنفسكم لقربتهم ، ولأخوتهم لكم في الدين ، وقد شرع الله هذا

(١) روى أن العرب وأهل المدينة كانوا قبل البعث يتجنبون الأكل معهم ، لأن الأعمى يجول يده في الصحفة ، ولسوء جلطة الأخرج ، وعدم علم المريض من رائحة قوفى .

السلام تحية من عنده ، ثابتة بأمره ، مباركة طيبة ؛ لأنها دعوة طيبة من المؤمن لأخيه المؤمن ، مباركة كثيرة الخير ، لما فيها من المودة والألفة وربط القلوب بعضها ببعض .

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا
مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا
أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ
اللّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (٦٢)

المفردات :

(عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ) : على أمر من شأنه أن يجتمع له المسلمون ، كالإعداد للحرب ونحوه ، ووصف الأمر بأنه جامع على سبيل المجاز .

التفسير

٦٢ - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ) الآية .

هذه الآية مستأنفة لبيان نوع من أرق أنواع الأدب في الإسلام ، وهو ألا ينصرف للمؤمن من مجلس الرسول المعقود لأمر جامع ، إلا باستئذانه - صلى الله عليه وسلم - إذا كانت لديه حاجة ملحة إلى الانصراف من هذا الأمر الجامع .

وقد نزلت الآية في شوال سنة خمس من الهجرة ، حين كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه يحفرون خندقاً حول المدينة لوقايتها من هجوم قريش ، وقائدها أبو سفيان

وغطفان ، وقائدها عيينة بن حصن ، وبنى مرة ، وقائدهم الحارث بن عوف المُرِّي ، وبنى أشجع وبنى سليم ، وبنى أسد ، وعدد هؤلاء جميعاً عشرة آلاف مقاتل ، وكان سلمان الفارسي هو الذى أشار على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحضره ، ولم تكن العرب تعرفه من قبل . وقد حفر فى شمال المدينة ؛ لأن هذه الجهة كانت مظنة هجوم الأعداء ، أما باقى الجهات فمشمغولة بالبيوت والنخيل فلا يتمكن العدو من الحركة فيها .

وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة فى حضره ؛ لأنهم كانوا فى غير سعة من العيش وقد عمل معهم النبي - صلى الله عليه وسلم - فكان يحمل التراب معهم ، وكان المنافقون يتسللون لوإذا^(١) من العمل ، أو يعتذرون بأعذار كاذبة ، فنزلت هذه الآية تنعى عليهم تسللهم ، وتشير إلى أن الإيمان لم يتمكن من قلوبهم ، لتسللهم عن الجماعة دون استئذان من الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وهذا الحكم ثابت لحكام المسلمين فى الأمور الجماعية الخطيرة ، فإذا كان إمام المسلمين معهم أو مع أهل شورا أو مع غيرهم لأمرهم المسلمين ، فلا يحل لأحد أن يتسلل من الاجتماع دون إذن منه .

والغنى الإجمالى للآية : إنما المؤمنون الصادقون هم الذين اجتمع فيهم أمران ، أحدهما : أن يؤمنوا بالله ورسوله ، وثانيهما : أنهم إذا كانوا معه على أمر يقتضى اجتماعهم ، لم يذهبوا من مكان الاجتماع حتى يطلبوا الإذن من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بذهابهم ، فمن خرج دون إذن منه ، فهو ناقص الإيمان ، إن الذين يستأذنونك لبعض شأنهم صادقين ، أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله حقاً ، دون المنافقين المتسللين دون استئذان ، أو المستأذنين منهم بعذر كاذب ، كقولهم : « إِنَّ بَيْتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا »^(٢) فإذا استأذنتك المؤمنون الذين تعلم صدقهم فى إيمانهم - إذا استأذنتوك - لبعض شأنهم فائذن لمن شئت الإذن له منهم ، فإنك أعلم بمن تكون المصلحة فى بقاءه معك منهم ، ومن لا ضرر فى التيسير له بالذهاب ، واستغفر لهم الله فى استئذانهم ، فإنه وإن كان لمصلحة ، لا يخلو

(١) أى : يلوذ بعضهم ببعض ويلجأ إليه فى التسلل .

(٢) سورة الأحزاب ، من الآية : ١٢

عن شائبة تقديم أمر الدنيا على الآخرة ، إن الله عظيم الغفران لفرطات عباده ، واسع الرحمة في قبول أعذارهم .

(لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣) الْآ
إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٦٤)

المفردات :

(لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ) : أى لاتجعلوا نداءه . (يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا) التسلل : الخروج على سبيل التدرج والاستخفاء ، واللواذ : التبعية واللجوء ، وقد يطلق على الفرار ، ومنه قول حسان بن ثابت :

وقريش تجول منا لواذا لم تحافظ وخف منها الحلوم

(يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) : أى يعرضون عن أمره . (فِتْنَةٌ) : محنة في الدنيا .

التفسير

٦٣ - (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا . . .) الآية .

هذه الآية الكريمة مستأنفة لبيان عظيم شأنه - صلى الله عليه وسلم - وكريم قدره ، مقررة لما قبلها من وجوب استئذانه قبل الانصراف من مكان الاجتماع : أى لا تجعلوا نداءه - صلى الله عليه وسلم - كنداء بعضكم بعضاً باسمه ، ورفع الصوت به ، وندائه من

وراء الحجرات ، ولكن نادوه بلقبه العظيم ، مثل : يا نبي الله ، أو يا رسول الله ، مع التوقير والتواضع وخفض الصوت .

أو : لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض ، فلا تبالوا بسخطه ، فإن دعاءه مستجاب .

(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا) : لفظ (قد) مع الفعل المضارع يفيد التقليل غالباً ، وقد يفيد التحقيق بمعونة المقام - كما هنا - وهو مع الماضي يفيد التحقيق دائماً .

والمعنى : قد يعلم الله بالتحقيق من يخرجون منكم - أي المنافقون - من مكان يجتمع فيه رسول الله بالمؤمنين دون استئذان منه - صلى الله عليه وسلم - يخرجون - متدرجين متلاوذين بأن يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج ، أو يلوذ بمن يؤذن له ، فينطلق معه كأنه تابعه ، أو يهرب في خفية .

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : أي فليحذر الذين يخالفون معرضين عما أمر به الله من الاستئذان من الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين الخروج من مجلسه - فليحذروا أن تصيبهم محنة في الدنيا ، أو يصيبهم عذاب شديد الإيلام في الآخرة .

٦٤ - (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) :

ألا : أداة تنبيه إلى الاهتمام بما يجيء بعدها ، والمعنى : ألا إن الله وحده جميع ما في السموات والأرض من أجزائها وما استقر فيهما ، خلقاً وملكاً وتدبيراً وعلماً ، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين وإن اجتهدوا في إخفائها وسترها ، إنه يعلم ما أنتم عليه - أي المكلفون جميعاً - من الأحوال التي من جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق ، ويوم يرجع هؤلاء المنافقون إليه - سبحانه - للحساب والجزاء في دار الجزاء ، فينبئهم بما عملوه ، فيرتب عليه ما يستحقه من الجزاء ، والله محيط علمه بكل شيء ، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

« سورة الفرقان »

مكية وآياتها سبع وسبعون

مقاصد السورة :

بدأت هذه السورة بتنزيه الله الذي أنزل القرآن على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - وخلق السموات والأرض وكل شيء فيهما ، ثم نعت على المشركين أنهم أشركوا به من لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، كما نعت عليهم وصفهم للقرآن بأنه أساطير الأولين ، مع أن الله الذي يعلم السر في السموات والأرض هو الذي أنزله ، كما نعت عليهم إنكارهم لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وليس معه ملك يشاركه الإنذار ، ولأنه فقير وليس له جنة يأكل منها ، مع أن ذلك ليس قادحاً في نبوته .

كما نعت عليهم تكذيبهم بالساعة ، وحكت أهوال النار التي سوف يصلونها ، وقارنت بينها وبين الجنة التي وعد بها المتقون ، ثم بينت أن المرسلين قبله كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، فلا وجه لاعتراضهم على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بأكله الطعام ومشيه في الأسواق .

ثم تحدثت عن أهوال يوم القيامة ، وأن الحكم يومئذ لله وحده ، وأن الظالم حينئذ يعرض على يديه لعدم اتباعه الرسول ، وإيثاره أهل الضلال عليه .

ثم ذكرت أن المشركين قالوا : لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ، وأجابت بأنه أنزل على فترات لكي يثبت الله في قلوبهم - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب .

ثم تحدثت عن إرسال موسى وهرون إلى فرعون وقومه ، فلما كذبوهما دمرهم الله تدميراً ، وتحدثت عن تكذيب قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم لأنبيائهم ، وأن الله أهلكتهم بسبب تماديهم في تكذيب رسلهم .

وراء الحجرات ، ولكن نادوه بلقبه العظيم ، مثل : يا نبي الله ، أو يا رسول الله ، مع التوقير والتواضع وخفض الصوت .

أو : لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض ، فلا تبالوا بسخطه ، فإن دعاءه مستجاب .

(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا) : لفظ (قد) مع الفعل المضارع يفيد التقليل غالباً ، وقد يفيد التحقيق بمعونة المقام - كما هنا - وهو مع الماضي يفيد التحقيق دائماً .

والمعنى : قد يعلم الله بالتحقيق من يخرجون منكم - أي المنافقون - من مكان يجتمع فيه رسول الله بالمؤمنين دون استئذان منه - صلى الله عليه وسلم - يخرجون - متدرجين متلاوذين بأن يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج ، أو يلوذ بمن يؤذن له ، فينطلق معه كأنه تابعه ، أو يهرب في خفية .

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : أي فليحذر الذين يخالفون معرضين عما أمر به الله من الاستئذان من الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين الخروج من مجلسه - فليحذروا أن تصيبهم محنة في الدنيا ، أو يصيبهم عذاب شديد الإيلام في الآخرة .

٦٤ - (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) :

ألا : أداة تنبيه إلى الاهتمام بما يجيء بعدها ، والمعنى : ألا إن الله وحده جميع ما في السموات والأرض من أجزائهما وما استقر فيهما ، خلقاً وملكاً وتديراً وعلماً ، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين وإن اجتهدوا في إخفائها وسترها ، إنه يعلم ما أنتم عليه - أي المكلفون جميعاً - من الأحوال التي من جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق ، ويوم يرجع هؤلاء المنافقون إليه - سبحانه - للحساب والجزاء في دار الجزاء ، فينبئهم بما عملوه ، فيرتب عليه ما يستحقه من الجزاء ، والله محيط علمه بكل شيء ، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

وبينت أن قريشاً تنكر وصف الله بالرحمن « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا » .

ثم بينت أن عباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض متواضعين ، وأنهم يسألون من يجهل عليهم ويشاركونه ولا يجارونه في سفهه ، ووصفتهم بأنهم يتعوذون بالله من جهنم ، وأنهم في إنفاقهم يتوسطون بين التبذير والتقتير وأنهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون نفساً بغير حق ولا يزنون ، وأن من تاب منهم من ذنبه توبة نصوحاً فإن الله تعالى يقبل توبته وأنهم إذا ذكروا بآيات ربهم تأثروا بها ولم يخروا عليها صماً وعمياناً ، وأنهم يطلبون من الله أن يجعل لهم من أزواجهم وذرياتهم قررة أعين ، ويجعلهم للمتقين إماماً ، وأنهم يجزون الغرف العالية في الجنة بصبرهم على طاعة الله ، وَيُحْيَوْنَ فِيهَا بِالْإِسْلَامِ وَالْأَمَانِ « خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » ، وأنه تعالى لا يعبد بعباده لولا عبادتهم ودعاؤهم إياه فإن كذبوا رسله فسوف يكون عذابه ملازماً لهم . وسيأتي بيان ما أجملناه في تفسير آياتها تباعاً ، والله تعالى هو الموفق .

ونعت على قريش أنهم أتوا على قرية قوم لوط ، وعلموا بإهلاكهم ، لتكذيبهم رسولهم ورفضهم نصائحه ، حيث أهلكهم الله بحجارة من سجيل أنزلها عليهم من السماء ، وذكرت أن قريشاً استمروا في تكذيبهم واستهزأهم برسولهم قائلين : « أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا » وبينت أنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ، لأنهم لم يعتبروا بما حصل لمن قبلهم .

وتحدثت عن الآيات الكونية الدالة على قدرة الله واستحقاقه العبادة وحده ، فذكرت أن ظل الأجسام في النهار لا يبقى على حالة واحدة ، فإنه تعالى يده ثم يقبضه شيئاً فشيئاً ، بإحلال ضوء الشمس محله ، ولو شاء الله لجعله ساكناً لا يتقبض ، بجعل الشمس ثابتة على وضع مائل دائماً ، وأنه جعل الليل كاللباس في ستره الأجسام وجعل النوم راحة للأبدان تشبه الموت ، وجعل النهار نشاطاً لها يشبه البعث والنشور بعد الموت ، وأرسل الرياح ناشرات للسحاب بين يدي رحمته سبحانه ، حيث جعلها مبشرات بالمطر الذي هو من آثار رحمة الله ، إذ به يحيا الإنسان والنبات والحيوان ، وبينت السورة أن الله صرف الحديث عن آياته في كتبه السماوية « فَأَبْنَىٰ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » .

ثم بينت أنه تعالى أرسل البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما حاجزا ، بحيث يؤدي كلاهما وظيفته في مصالح الإنسان والحيوان والنبات .

وذكرت أنه تعالى خلق من ماء الزوجين بشراً ، فجعل هذا البشر إما نسبياً وقريباً ، وإما صهراً ، وكل ذلك دليل على قدرة الله ووحدانيته ، ومع هذه الآيات يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً .

ثم بينت أنه تعالى ما أرسل محمداً - صلى الله عليه وسلم - إلا مبشراً ونذيراً ، وليس عليه إلا البلاغ وقد فعل ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - ما يسألهم على التبليغ من أجر إلا أن يملكوا سبيل العبادة لله وحده ، وذلك شاهد على صدقه ونزاهته في دعوته .

وحدث النبي - صلى الله عليه وسلم - على أن يتوكل على الحي الذي لا يموت ، ويترك حساب الناس لربهم ، فإنه خير بلذوبهم ، وأنه لا يضيق صدره بكفرهم وعنادهم .

وترتيب وصفه تعالى بقوله (تبارك) على إنزاله القرآن ، لما فيه من الخير الكثير لعباده في الدنيا والآخرة ، ولأنه ناطق بعلوم شأنه في ذاته وصفاته وأفعاله ، وتسمية القرآن بالفرقان ، لأنه فرق بين الحق الذي جاء به نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وبين ما عليه الناس قبله من العقائد الزائفة ، والشرائع الفاسدة ، وشرع لهم من الأحكام ما يناسب مصلحة البشر في دنياهم وأخراهم ، وقد جاء في وصف عظمة القرآن قوله - صلى الله عليه وسلم - : « إن هذا القرآن مَادِبَةُ اللَّهِ ^(١) » ، فتعلموا من مَادِبَتِهِ ما استطعتم ، إن هذا القرآن هو حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يَعُوجُّ فيُقوم ولا يَزِيغُ فيُسْتَعْتَبُ ^(٢) ، ولا تنقض عجايبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد ^(٣) ، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول : (ألم) حرف ، ولكن ألف ولام وميم ، ولا أَلْفَيْنِ أحدكم واضعاً إحدى رجله يدعُ أن يقرأ سورة البقرة ، فإن الشيطان يفرُّ من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة ، وإن أَصْفَرَ البيوت ^(٤) لَجَوْفٌ صَفِيرٌ ^(٥) من كتاب الله » أخرجه الحاكم وصححه بسنده عن ابن مسعود ، وكذا محمد بن نصر وابن الأنباري والطبراني وغيرهم .

والمراد بعبده : نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، والتعبير عنه بذلك للإيذان بأن رسالته إلى الناس كافة لا تخرجه عن العبودية لله الذي أرسله ، وأن من يدعى الولدية لله في رسول أرسله الله إليه ، فهو كافر ، فإنه سبحانه « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . والمراد بالعالمين : الإنس والجن ، منذ عصره - صلى الله عليه وسلم - إلى أن تقوم الساعة ، ومن أنكبر لإرساله - صلى الله عليه وسلم - إلى الجن فقد كفر ، فإنه معلوم من الدين بالضرورة ، لشمول العالمين لهم ، ولما تدل عليه سورة الجن من أنه تعالى أرسله إلى الجن ، فآمن به بعضهم وكفر آخرون ، قال تعالى حكاية عن الجن الذين استمعوه : « وَأَنَا لَكُمَا سَمِيعًا أَهْدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ

(١) أى : مصدر لأدبه تعالى لعباده .

(٢) أى : ولا يميل عن الحق فيلام على ميله .

(٣) أى : لا يبلى على تردد أقرائه .

(٤) أى : أشدها خلوا من الخير .

(٥) أى : خلا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ①) الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ②) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ نَنْفُسَهُمْ ضُرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ③)

المفردات :

(تَبَارَكَ) : أى تعالى وتعظيم ، ولا يستعمل مع غير الله تعالى غالباً ولا يُتَصَرَّفُ فيه (الْفُرْقَان) : المراد به القرآن ، وهو فى الأصل مصدر فرق بين الشيثيين ، إذا فصل بينهما ، سمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل . (نَذِيرًا) : أى منذراً أو إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار . (فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) : أى فهَيَّأَهُ لما أَرَادَهُ له من الخصائص والأفعال تهيئة دقيقة . (نُشُورًا) : بعثاً .

التفسير

١ - (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) :

افتتح الله هذه السورة بكلمة (تَبَارَكَ) وهى مأخوذة فى الأصل من البركة بمعنى كثرة الخير ، وقد فسرهما الحسن وغيره بقوله : تزايد خيره وعطاؤه وتكاثره ، وفسرها آخرون بقولهم : تزايد وتعالى شأنه على كل شيء فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فإن البركة تستلزم الزيادة والعلو ، وفسرها الخليل بمعنى تمجد ، وهو قريب من سابقه .

ومعنى الآية : واتخذ المشركون آلهة غير الله تعالى ، عبدوهم وهم لا يستحقون العبادة ، فهم لا يخلقون شيئاً صغيراً كان أو كبيراً ، ولكنهم مخلوقون لله رب العالمين ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، والذي يضرهم وينفعهم هو الله القدير العليم ، ولا يملكون لأحد موتاً حتى يموتوه ، ولا حياة في الدنيا حتى يحيوه ، ولا يملكون له نشوراً وبعثاً في الآخرة حتى يبعثوه وينشروه ، وإنما الذي يملك ذلك كله هو الله تعالى ، فكيف استساغوا عبادتها ، وهي مجردة من صفات الألوهية واستحقاق الربوبية .

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝١٤ وَقَالُوا اسْطِيرُ الْأُولِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝١٥ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٦)

المفردات :

(إِفْكُ افْتَرَاهُ) : كذب اخترعه . (اسْطِيرُ الْأُولِينَ) : أبا طيلهم التي سطورها ، وهي جمع أسطورة - كآحاديث جمع ، أحداثثة أو جمع أسطار ، كأقاول جمع أقوال . (اكْتَتَبَهَا) : طلب كتابتها . (فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ) : تلقى إليه ممن كتبها ليحفظها . (بُكْرَةً) أي : أول النهار قبل انتشار الناس . (وَأَصِيلًا) : آخر النهار بعد أن يأووا إلى مساكنهم ، والبكرة : أول النهار ، والأصيل : ضدها ، يعنون أنها تملى عليه خفية ، وقد كذبوا في ذلك كله - قاتلهم الله - . (السِّرُّ) : الأمر الخفي المكتوم عن الناس .

أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ، وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِيَجْهَنَّمَ حَطَبًا ،^(١) إلى غير ذلك مما جاء في سورة الجن وفي السنة الصحيحة .

والمعنى الإجمالي للآية : تعالى الله الذي أنزل على عبده ورسوله محمد القرآن ، فارقاً بين الحق والباطل ، ليكون به منبراً للعالمين من الإنس والجن ، ومخوفاً لهم من العقاب إن كفروا بآياته ، وعبدوا غيره .

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقَلَرُهُ تَقْدِيرًا) :

المراد بخلقه كل شيء إيجاده ، وبتقديره تهيئته لما خلق له من الخصائص .
ومعنى الآية : هو الله الذي له السلطان القاهر ، والاستيلاء التام على السموات والأرض وما فيهما خلقاً وملكاً وتصرفاً ، إيجاداً وإعداماً ، وإحياء وإماتة ، وأمرًا ونهيًا ، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ، وليس لغيره في ذلك شريك أو معين ، وأوجد كل شيء فيهما إما من العدم أو من مواد لا ثقة بخلقه ، فقلره وهيأه وهداه لما أراد منه من الخصائص والأعمال ، كتهيئته الإنسان وهدايته للإدراك والفهم والتدبير ، واستنباط الصنائع المتنوعة ، واختراع الفنون العجيبة ، ومزاولة الأعمال المختلفة ، وتسخير الحيوانات واستزراع المزروعات ، والانتفاع بالجمادات وغير ذلك من عجائب الله في تقدير الإنسان .
وكتهيئته النحل لاتخاذ مأوى لها في الجبال والشجر والعرائش ، والتعرف بحواس داخلية على أماكن الزهور والثمار ، فتطير إليها ، وتمتص رحيقها وتأكل من ثمراتها فيتحول غذاؤها إلى عسل شهي مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، فتلقيه في بيوت هندسية مسلسلة الأضلاع ، صنعتها من شمع تفرزه لبنائها « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

٣ - (وَاتَّخَلُّوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) :

تحكى هذه الآية أباطيل المشركين في عقائدهم وتبين وجه بطلانها ، بعد بيان عقيدة أهل الحق فيما قبلها .

وقد عرفوه بالصدق والأمانة ، وعدم اشتغاله بالأدب المنشور ، والشعر الموزون ، ولم يعرفوا عنه حب الرياسة والجاه ، ولا عن أهل الكتاب أنهم يعينون غيرهم على هدم دينهم ، ولا عن أولئك العبيد والموالى أنهم يحسنون فهم الكتب السماوية أو نقل ما فيها إن صح أنهم يحفظونها «لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» وقد لبث الرسول فيهم عمرا طويلاً من قبله يعمل بالتجارة ، دون أن يتجه إلى تلك الدعوة التي فوجيء بتكليفه بها ، وهو لا يسألهم عليها أجراً ، ولا يطلب بها جاهاً ، ولا ثراءً فما بالهم لا يعقلون .

٥ - (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) :

بعد ما جعلوا القرآن الحق إفكاً من محمد بإعانة البشر له ، بينوا كيفية الإعانة التي زعموها ؛ أى وقال الكافرون : هذا القرآن أباطيل الأولين طلب محمد كتابتها من أهل الكتاب ، فكتبوها له ، فهي بعد تحريرها تملى عليه بكرة أول النهار ، وأصيلاً آخر النهار ، حتى لا يراه أحد وهي تملى عليه حيث يكون الناس في بيوتهم ، لكي يحفظها ممن يملئها عليه . وقيل : المراد من قولهم : « بُكْرَةً وَأَصِيلًا » : أى دائماً ، وقد كذبوا في كل ذلك ، ولهذا رد الله عليهم بقوله :

٦ - (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) :

أى قل لهم أيها النبي ردا عليهم : أنزل هذا القرآن الله الذي يعلم الخفى من الأمور في السموات والأرض مثلما يعلم الظاهر منها ، وقد أودعه من فنون الأسرار والمصالح الخفية ما لا علم لأحد به ، فى أسلوب بديع ونظم فريد أعجزكم وأعجز جميع الفصحاء والبلغاء عن الإتيان بمثله ، وأخبركم بمغيبات مستقبلية مكنونة ، لا سبيل لأحد أن يعلمها إلا بوحي من ربه ، إن الله الذى أنزل هذا القرآن ، كان ولا يزال موصوفاً بعظيم الغفران والرحمة ، ولهذا أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة على هذه الفرية النكراء ، لعلكم تتوبون فيغفر لكم ويرحمكم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَآقَدَ سَلَفٍ »

التفسير

٤ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا) :

بين الله في الآية السابقة سوء رأى المشركين باتخاذهم آلهة لا تنضر ولا تنفع ، وجاءت هذه الآية لتبين سوء مقالهم فيما جاءهم به نبيهم من الهدى .

والقائلون هم مشركو العرب ، كما أخرجه جماعة عن قتادة ، وقد سمي منهم - في بعض الروايات - النضر بن الحرث ، وعبد الله بن أمية ، ونوفل بن خويلد ، وإسناد القول إلى جميع المشركين ، لرضاهم بما قاله هؤلاء الغلاة المفترون .

وقد ضموا إلى هذه الفرية فرية أخرى ، إذ قالوا إن محمداً قد أعانه على ما جاء به من القصص القرآني قوم آخرون ، يعنون بهم اليهود ، حيث زعموا أنهم أخبروه بهذا القصص ، فعبّر عنه بعبارة من عنده ، ومنهم من زعم أن الذين أعانوه هم : عداس ، وعائش مولى حُوَيْطِب بن عبد العزى ، ويسار : مولى العلاء بن الحضرمي ، وجبر مولى عامر ، وكانوا كتابيين يقرءون التوراة ، أسلموا وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتعهدهم بالبر والنصح والهدى ، فافترت قريش هذه الفرية النكراء ، وقد كذبهم الله فيما زعموا .

ومعنى الآية : وقال المشركون الكافرون بالهدى : ما هذا القرآن الذي يدعونا محمد إلى الإيمان به ؛ إلا كذب اختلقه محمد من عند نفسه ولم يأت من عند ربه ، وأعانه على افترائه على الله قوم آخرون يعرفون قصص الأنبياء مع أممهم ، حيث سردوا عليه تلك القصص ، فصاغها بعبارة من عنده ، وأسند الإعلام بها إلى ربه ، وقد جاء هؤلاء الكافرون بما قالوه ظلماً للحق وكذباً شنيعاً على محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن هذا القرآن لا يستطيع أن يأتي بمثله الإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، ولا يقدر على الإتيان بمثله سوى من أنزله على رسوله ، بما اشتمل عليه من الإعجاز البياني ، والأحكام التشريعية ، والأخلاق السنية ، والحكم الربانية ، والأخبار الغيبية ، والآيات الكونية ، وامتناكه نواصي القلوب بأسلوبه ، فأتى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - أن يأتي بمثله ، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ،

فبعثوا إليه ؛ أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم - عليه الصلاة والسلام - فقالوا : يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب الشرف فنحن نسوّدك ، وإن كنت تريد الملك ملكناك ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما بي مما تقولون ، ماجئكم بما جئكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله تعالى بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى ، حتى يحكم الله عز وجل بيني وبينكم ، قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل شيئا مما عرضنا عليك فسل لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة تغنيك عما تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ، ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم ، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله تعالى بعثنى بشيرا ونذيرا ، فأنزل الله تعالى في قولهم ذلك « وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ » الآيات ^(١) .

والمعنى : أنهم بعد ما افتروا على القرآن ما افتروه قالوا : أى سبب لهذا الذى يزعم أنه رسول جعله يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشى فى الأسواق ساعيا على رزقه كما نسعى ، فلو كان رسولا من عند ربه لخالفنا فى أسلوب معاشنا ، فهلا ميزه الله علينا فأنزل معه ملكا يكون معه نذيرا لنا ، ليجعلنا مطمئنين إلى إرساله إلينا .

٨ - (أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا) :

أى : فإن لم ينزل الله عليه ملكا يظاهاه فى الرسالة ، فهلا يلقي إليه ربه من السماء مالا يكتنزه ، ليستظهر به ويرتفع احتياجه إلى اكتساب قوته من السعى فى الأسواق مثلنا ، فإن لم يوجد هذا ولا ذاك فلا أقل من أن يكون له بستان يتعيش بريعه كمياسير الناس ،

(وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ
لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ، نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ
أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ
إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ
خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ
قُصُورًا ﴿١٠﴾)

المفردات :

(جَنَّةٌ) : أى بستان . (رَجُلًا مَّسْحُورًا) : أى رجلاً سُحِرَ فغلب السحر على عقله .
(ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ) : ذكروا فى حقك تلك الأمثايل الغريبة ، التى لانت إلى الحق بصلة
(فَضَلُّوا) : فبعثوا عن طريق الحق .

التفسير

٧ - (وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ . . .) الآية .

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية :
أن عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، والنضر بن الحرث ، وأبا البحتري والأسود
ابن عبد المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية ،
وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيها ومنبها ابني الحجاج ؛ اجتمعوا ، فقال بعضهم
لبعض : ابعثوا إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وكلموه وخاصموه ^(١) حتى تغلزوا منه ،

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١)
 إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَا
 أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَا تَدْعُوا
 الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَاَدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤)

المفردات :

(السَّاعَةِ) : المراد بها زمن قيام الناس لرب العالمين ، وسبب التسمية ؛ أنه تعالى يفجأ بها الناس في ساعة لا يعلمها إلا هو . (سَعِيرًا) : نارا شديدة الاستعار : أى الانتقاد .
 (سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا) : أى سمعوا لغليناها صوتاً يشبه صوت المتغيظ والزافر . والتغيظ : هو إظهار الغيظ . والغيط : أشد الغضب ، والزفير : إخراج النفس ، وضده : الشهيق ، واستعمال الزفير في صوت النار مجاز . (أَلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا) : أى ألقوا من النار في مكان ضيق لزيادة تعذيبهم .

(دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) : أى نادوا في ذلك المكان هلاكاً لينقذهم من عذابه .
 (لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا) : لاتنادوا في هذا اليوم هلاكاً واحداً ليخلصكم مما أنتم فيه .
 (وَاَدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) : أى ونادوا هلاكاً كثيراً ، ليخلصكم كل منها من نوع من أنواع العذاب ، فإن أنواعه كثيرة ، وسيأتى بسط الكلام في معنى الآية عند تفسيرها .

التفسير

١١ - (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا) :

في هذه الآية انتقال إلى حكاية نوع آخر من أباطيلهم يتعلق بأمر المعاد ، بعد حكاية إشرأكلهم وطعنهم في النبوة .

ويمتاز به على عامتهم وقال هؤلاء الظالمون للمؤمنين : ما تتبعون إلا رجلا مسحورا مغلوبا على عقله وليس بنبي ، فرد الله عليهم مستعظما لإفكهم ، داعياً للتعجب منه بقوله :

٩ - (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) :

أى : انظر أيها الرسول كيف قالوا فى حقك هذا الكلام المخالف للواقع ، المنافى للصدق ، حيث ضربوا لك الأمثال ، واخترعوا لك تلك الصفات ، فضلوا بها عن الحق والهدى ، متحيرين فيما يصفونك به ، فلا يستقرون فى القدح فى نبوتك على حال ، ولا يستطيعون أن يجدوا طريقا للنيل منها بحال ، فإن الحق يَفْهَرُ ولا يُفْهَرُ ويعلو ولا يُعلى .

١٠ - (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ^(١) لَكَ قُصُورًا) :

أى : تعالى الله الذى إن شاء التوسعة عليك فى الدنيا ، جعل لك خيراً من ذلك الذى اقترحوه بساتين تجرى من تحتها الأنهار لا بستانا واحدا ، ويجعل لك قصورا عديدة تتمتع بها ، ولكنه ادخر لك الخير كله بجميع صورته فى الآخرة بعد قيام الساعة التى كذبوا بها . وقد حكى الله تكذيبهم وتوعدهم عليه فى الآيات التالية :

(١) « يجعل » مضارع مجزوم معطوف بالواو على محل « جعل » فإنه فى محل جزم جواب الشرط وإن كان مبنيا على الفتح لكونه فعلا ماضيا ، وقرئ بالرفع ، لأن الشرط إذا كان ماضيا جاز فى جوابه الجزم والرفع ، كقول الشاعر : وإن أتاه خليل يوم مضربة . . يقول لا غائب مالى ولا حرم - ويجوز أن يكون استئنافا .

١٤ - (لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) :

ما جاء في هذه الآية إما مقول لهم بلسان الملائكة ، وإما مقول بلسان الحال .
والمعنى : يقال لهم : لا تنادوا الثبور اليوم نداءً واحداً ، لكن ينقذكم من عذابكم ولكن ادعوه ونادوه نداءً كثيراً ، فإن ما أنتم فيه لغاية شدته واستمراره ؛ يستوجب منكم تكرار الدعاء في كل آن ، وعلى هذا الرأي يكون الثبور ، أى الهلاك المطلوب واحداً ولكن الدعاء به كثير .
وقيل معناه : وادعوا هلاكاً كثيراً ، لا هلاكاً واحداً ، لتعدد العذاب بتعدد أنواعه أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ، فهم بحاجة في كل عذاب إلى هلاك وموت جديد يخلصهم منه . وأنى لهم الموت ، وهيهات أن ينفعهم هذا الدعاء ، فإنهم خالدون في النار أبداً ، فالمقصود من الآية : إقناعتهم من النجاة ، وأن دعاءهم يرفع العذاب لا ينتهى .

(قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَاصِيراً ۝ ١٥ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ۝ ١٦)

المفردات :

(الْخُلْدِ) : المكث الطويل .

(مَصِيراً) : مُنْتَهَى وَمَآلَا .

(وَعْدًا مَسْئُولًا) : أى موعودا يسأل الناس ربهم أن يتفضل بإنجازه - وللکلام بقية

في تفسير الآية .

والمعنى : ليس أمر قريش قاصراً على شركهم ؛ وتكذيبك يا محمد فيما دعوتهم إليه من التوحيد وسائر أنواع الهدى ، بل كذبوا بالساعة وهى : الموعد الذى ضربه الله لبعث الخلائق وحسابها ، وقالوا (إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)^(١) فاهتموا بدنياهم وأعرضوا عن أخراهم ، فلا تعجب من تكذيبهم إياك فيما جئتهم به من الحق وقد أعدنا لكل من كذب بالساعة والحساب والجزاء فيها - أعدنا لهم - نارا شديدة الانتقاد ، عظيمة الإحراق « لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ . لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ » . « فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ »^(٢) .

١٢ - (إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا) :

تحكى هذه الآية وصف السعير الذى توعدهم الله به فى الآية السابقة ، والتأنيث فى « رأتهم » لمراعاة المراد من السعير وهو النار ، وقيل : لأنه علم لها . وإسناد الرؤية والتغيظ والزفير إليها على المجاز ، وقيل : إنه على الحقيقة ، كما يؤذن به ظاهر اللفظ ، لأن الله قادر على أن يجعل لها بصرا وإدراكاً ، بحيث ترى وتتغيظ وتزفر ، على نحو ما قالوه فى نحو قوله تعالى : « وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

ومعنى الآية : إذا كان الكافرون بمكان بعيد مكشوف أمام النار ، سمعوا لاتقادها صوتاً مزعجاً كالذى يحدث من المغناط ، وسمعوا لها صوتاً يشبه الزفير الذى يحدث من الموتور الذى يتنفس الصعداء^(٣) حين يظفر بخصمه .

١٣ - (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) :

أى : وإذا أُلقي الكفار بالساعة فى مكان ضيق من النار وهم مقرنون ، بأن جمعت أيديهم إلى أعناقهم بما يجمعها - إذا أُلقيوا فيها كذلك - دعوا فى هذا المحبس النارى هلاكاً يخلصهم من عذاب النار المحيطة بهم ، كأن يقولوا : يا ثبوراه - على معنى . هلم إلينا لتنقذنا مما نحن فيه ، وجعل بعض الأجلة دعاء الثبور ونداءه ، كناية عن تمنى الهلاك ، ليسلموا مما هو أشد منه - كما قيل : أشد من الموت ما يتمنى معه الموت .

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٣٧ (٢) سورة فاطر ، من الآية : ٨ (٣) يوزن البرحاء : تنفس طويل .

وعده ، لقوله سبحانه : « كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا » ووعد الله لا يتخلف ، وليس لأحد عنده تعالى حق ذاتي على عمله ، فالله تعالى هو الذى خلقه وأقدره على العمل ، وإنما ذلك بمحض فضل الله ووعد الكريم .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٧٧﴾) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿٧٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿٧٩﴾)

المفردات :

- (ضَلُّوا السَّبِيلَ) : بعدوا عن الطريق الموصل إلى الله تعالى .
- (مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا) : ما كان يصح لنا . (أَوْلِيَاءَ) : آلهة يلون أمرنا .
- (نَسُوا الذِّكْرَ) : غفلوا عن ذكرك لغفلتهم عن آياتك .
- (قَوْمًا بُورًا) : قوماً هالكين ، وبورا مصدر وصف به القوم ، ويستوى فيه الواحد والجمع ، وقيل : هو جمع بائر ، كعائذ وعود ، والعائد : الحديثة النجاج من الظباء والإبل والخيول .
- (صَرْفًا) : دفعاً للعذاب ، أو : حيلة من قولهم : إنه ليتصرف أى : يحتال .

التفسير

١٥ - (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا) :
 قل أيها الرسول لمن كذبوك في رسالتك ، وكفروا بالساعة التي يبعث فيها الناس لرب
 العالمين - قل لهم - : أذلك الذي تقدم من السعير وأهوالها وخلود الكافرين فيها ، وتمنيهم
 الهلاك والموت ليستريحوا منها - أذلك خير - أم جنة النعيم الخالد التي وعدها الله المتقين
 الذين صابروا أنفسهم وجعلوها في وقاية من عذابها الأليم الدائم ، بإيمانهم وصلاحهم ،
 كانت لهم هذه الجنة في علم الله تعالى وفي وعده على ألسنة رسله - كانت لهم - جزاء
 على إيمانهم ، ومنتهى يصيرون إليه بصلاحهم .

١٦ - (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا) :
 هذه الآية مستأنفة لبيان منهج انتفاع المتقين بنعيم الجنة ، وكأنها جواب سائل يقول :
 ما لهم إذا صاروا إليها وسكنوها ؟

والمعنى : لهؤلاء المتقين في هذه الجنة التي يصيرون إليها ، ما يشاءون من ألوان النعيم
 المناسبة لهم ، على قدر أعمالهم ودرجتها ، حتى لا يتساوى المقصرون بالكاملين ، فكل
 طبقة تقتصر مشيئتها على ما هو حق لها بمقتضى وعد الله الكريم ، فلا تمتد رغباتهم إلى ما هو
 حق لغيرهم ، يظنون في جنتهم خالدين لا يُخْرَجُونَ منها ولا يُخْرَجُونَ ، كان ذلك النعيم
 المقيم موعودا حقيقاً أن يُسْأَلَ ويطلب ، لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون .

ويجوز أن يكون الموعود مسئولاً حقيقة على معنى أن الناس يسألونه في دعائهم بقولهم :
 « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ » وقال سعيد بن هلال : سمعت أبا حازم - رضي الله عنه -
 يقول : إذا كان يوم القيامة يقول المؤمنون : عملنا لك بما أمرتنا فأَنْجِزْ لنا ما وعدتنا ،
 فذلك قوله تعالى : « وَعْدًا مَسْئُولًا » وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق أبي سعيد هذا ، عن
 محمد بن كعب القرظي أنه قال في الآية : إن الملائكة لتسأل ذلك في قولهم : « رَبَّنَا
 وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ... » .

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره - صلى الله عليه وسلم - ، لتشريفه والإشارة
 إلى أنه هو الفائز بهذا الوعد لأُمَّته ، والآية تدل على وجوب تحقق وعده الكريم بمقتضى

أى : يقول هؤلاء المعبودون يوم يحشرهم وعابديهم جواباً لسؤال المولى لهم : « أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ » يقولون : متعجبين مستنكرين : تنزيها لك يا الله عن الشريك والنظير ؛ ما كان يصح لنا ولا يستقيم أن نتخذ أولياء نعبدهم متجاوزين إياك . فكيف يصح منا أن نحمل غيرنا على أن يتخذ ولياً غيرك ، فضلاً عن أن يتخذنا له أولياء .
ويصح أن يكون المعنى : ما كان يصح لنا أن نتخذ من دونك أتباعاً ، فإن الولي كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع ، ومنه أولياء الشيطان ، أى : أتباعه .

وبعد أن برأوا أنفسهم من تبعة إضلال عابديهم عن الهدى ، استدركوا مبينين .
مسئوليتهم وحدهم عن ضلال أنفسهم قائلين :

(وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا) :

أى : ما أضللناهم ، ولكن متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها ، فاستغرقوا في الشهوات وانغمسوا فيها ، حتى غفلوا عن ذكرك ، وشكرك ، والإيمان بتفردك بالربوبية ، وعبدوا غيرك ، وكانوا في علم الله قوماً هالكين ، بسبب سوء اختيارهم ، وانشغالهم عن الحق بالباطل .

١٩ - (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا) :

في هذه الآية صرف الله الخطاب عن المعبودات ، ووجهه للعابدين ، فالآية حكاية لاحتجاج الله عليهم يوم القيامة ، مبالغة في توبيخهم وتوبيخهم .

أى : فقال الله تعالى للعابدين : قد كذبكم المعبودون فيما تقولونه من زعمكم ألوهيتهم ، وأنهم حملوكم على عبادتهم ، فما تملكون صرفاً للعذاب عن أنفسكم ، ولا عوناً يخلصكم منه إذا نزل بكم ، ومن يظلم نفسه منكم أيها المكلفون بعبادة غير الله ، أو بأى لون من ألوان الكفر ، نذقه في الآخرة بالنار والمهزير عذاباً كبيراً لا يقادر قدره .

التفسير

١٧ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) :

هذه الآية وما بعدها مسوقة لتذكير المشركين بمسئوليتهم يوم القيامة عن ضلالهم دون من عبدوهم ، وأن معبوداتهم تنبرأ من شركهم ، والمراد مما يعبدون من دون الله : جميع معبوداتهم من الأصنام ، والكواكب ، والملائكة ، وعزير ، والمسيح ، وغيرهم .

واستعمال لفظ (ما) في العقلاء تغليباً لجانب غيرهم لأنهم أكثر معبوداتهم ، أو لأنها قد تستعمل مع أهل العلم ، كقوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا » أي : ومن بناها وهو الله تعالى ، وسؤاله تعالى للمعبودات ليس على حقيقته ، فإنه أعلم بما كان منهم ، بل لتوبيخ عابديهم وإفحامهم .

والمنى : واذكر أيها الرسول للمشركين يوم يجمعهم الله ومن أشركوهم في العباداة مع الله ، فيقول سبحانه للمعبودين إفحاماً لعابديهم ، وإلزاماً لهم بمسئوليتهم وحدهم عن ضلال أنفسهم : أنتم أيها المعبودون أضللتهم عبادي هؤلاء عن الحق بدعوتهم إلى عبادتكم معي ؟ أم هم انحرفوا عن السبيل إلى مرضاتي بمحض إرادتهم ؟ حيث كذبوا رسلي ، وأهملوا النظر في آياتي .

وتوجيه السؤال إلى الجمادات لا مانع منه عقلاً ولا شرعاً ، فالله قادر على أن يخلق فيها إدراكاً تعرف به السؤال ، ويجعل لها صوتاً تجيب به على هذا السؤال ، قال تعالى : « يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ » أي : رجعي التسبيح مع داود والطير ، وقال : « حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ » .

١٨ - (قَالُوا) ^(١) سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ^(٢)) :

(١) عبر بقالوا مع أنهم سيقولون ذلك يوم القيامة ، للإيدان بتحقيق جوابهم هذا يوم الدين ، فكانه وقع فعلاً فغير عنه بصيغة الماضي .

(٢) لفظ (من) في قوله (من أولياء) صلة لتأكيد النفي ، وكثيراً ما يؤق بها بعد النفي لتأكيد ، وأولياء مفعول نتخذ .

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً
أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(فِتْنَةً) : امتحانا وابتلاء . (أَتَصْبِرُونَ) : علة لجعلنا - أى : جعلنا بعضكم فِتْنَةً
لبعض لنعلم أيكم يصبر ، ونظيره ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، ويجوز أن يكون حثاً على
الصبر على الفتن .

التفسير

٢٠ - (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)^(١) :
هذا جواب آخر عن قولهم « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ » وقد
سبق الجواب عنه بقوله سبحانه : « انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا » وبقوله : « بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا » .

ومن فوائد هذا الجواب تسليية النبي - صلى الله عليه وسلم - روى عن ابن عباس أنه قال :
لما غير المشركون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالفاقة وقالوا : « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ
وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ . . . » الآية ، حزن النبي - صلى الله عليه وسلم - لذلك ، فنزلت هذه الآية
تسليية له .

والمعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد أحدا من المرسلين ، إلا وحالهم أنهم مثلك يأكلون
الطعام ليغذوا به أجسامهم ، ويمشون في الأسواق للتجارة وكسب الرزق ، وليس ذلك منافياً

(١) جملة « إنهم لياكلون الطعام » وما عطف عليها في محل النصب على الحال ، وهى مستثناة من أعم الأحوال ،
أى : وما أرسلنا قبلك رسلاً من المرسلين في حال من الأحوال ، إلا وإنهم لياكلون .. إلخ : نقله الآلوسى عن ابن الأنبارى ،
واستحسنه أبو حيان ، وتقدير الواو قيل لأن الفصحى عدم الاكتفاء بالضمير ، ومنهم من قال إنه ما فى الآية هو
الفصحى بعد إلا فيكتفى بالضمير بدون الواو ، وفى إعرابها كلام كثير وما قلناه أفضله .

وأما أصحاب الصِّفَّة الذين كانوا يقيمون في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا يسعون في الأرض مسترزقين ، فقد كانوا ضيقاً على الإسلام عند ضيق الحال ، فكان - صلى الله عليه وسلم - ، إذا أتته صدقة خصهم بها ، وإذا أتته هدية أكلها معهم ، وكانوا مع هذا يحتطبون ويسوقون الماء إلى بيوت الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما وصفهم البخاري وغيره - ثم لما افتتح الله على المسلمين البلاد ، أخذوا بالأسباب ، فأصبحوا أمراء ، وهناك ناس يميلون إلى البطالة وترك الأسباب ، استناداً إلى قوله تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » وهذا من سوء التأويل احتجاجاً لبطالتهم ، فالمراد بالرزق هنا المطر^(١) وقد تفضل الله سبحانه بضمائه للناس ، لأنهم لا قدرة لهم عليه ، وقد أجمع أهل التأويل على أن المراد منه ما ذكره بدليل قوله تعالى : « وَمَا يُنْزَلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً » ، ولم يشاهد أحد أن الله تعالى ينزل على الناس من السماء أطباق الخبز ، ولا جفان اللحم ، بل الأسباب أصل في كل ذلك ، وقد أمر الله بالأخذ بها في قوله جل وعلا : « فَاْمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ » وقال - صلى الله عليه وسلم - : « اطلبوا الرزق في خبايا الأرض » أي : بالحرث والحفر والغرس ، وقال أيضاً : « لَأَن يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَن يَسْأَلَ أَحَدًا أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ » .

أما حديث « لو أنكم كنتم تَوَكَّلُونَ على الله حق التوكل لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا » فلا يصح الاستدلال به على البطالة مع التوكل على الله ، فإن غدوها ورواحها سبب لحصولها على رزقها ، فالتوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب .

أخرج البخاري عن ابن عباس قال : « كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ، ويقولون نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : « وَتَزَوَّدُوا » ولم ينقل عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضوان الله عليهم - أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد وكانوا المتوكلين على الله حقاً ، والتوكل : اعتماد القلب على الرب مع الأخذ بالأسباب في تحصيل الأرزاق ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

وفي ختام الحديث عن هذه الآية نقول : سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل ، فقال : إني أريد أن أحج على قدم التوكل ، فقال : اخرج وحده ، فقال : لا ، إلا مع الناس ، فقال له : أنت إذن متكل على أجرتهم ، والله تعالى أعلم .

(١) ويقول بعض العلماء إن تسميته رزقاً على سبيل المجاز لأنه سببه أو يؤول إليه ، فالمطر سبب للرزق من النبات والثمار واللحوم ، أو يؤول إليها .

* (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِيْٓ أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۝٢١ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرٰٓى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٢٢ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ۝٢٣ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝٢٤)

المفردات :

(لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) : أى لا يتوقعون لقاء حسابنا ولا يبالون بالإنذار به .

(لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِيْٓ أَنْفُسِهِمْ) : أى أضمرُوا الاستكبار فى قلوبهم عنادا للحق وكفرا به .

(وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) : هى كلمة استعاذة ، وكانت معروفة عند العرب فى الجاهلية ، فكان الرجل إذا لَقِيَ من يخافه قال : حجرا محجورا ، أى : حَرَامًا مُحَرَّمًا ومحجورا ، وصف لحجراً للتأكيد كقولهم : موتٌ مائت ، وهو من الحَجَر ، بمعنى : المنع ، وسيأتى تفصيل ما قيل فى ذلك .

(وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ) : أى وعمدنا إلى ما عمله الكفار من أعمال البر .

(فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا) : أى تافها لا سبيل إلى الانتفاع به ، فهو شبيه بالهباء الذى يرى فى الكوة مع ضوء الشمس مُفَرَّقًا هنا وهناك .

(وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) : أى وأحسن منزلاً ، ومأوى ؛ للاسترواح ، والاستقرار .

التفسير

٢١ - (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ...) الآية .

هذه الآيات تحكى بعضا آخر من أقاويل الكفار الكاذبة ، وتبين ردها وبطلانها -تحكيها - عَقِبَ حكاية أباطيلهم في أمر التوحيد والنبوة والقرآن التي ذكرتها الآيات السابقة ، وأتبعتها ما ينقضها ، ويظهر فسادها .

ولما كان ما حكى عنهم قد بلغ الغاية في الشناعة والقبح ؛نبه سبحانه على أن ما قالوه لا يصدر إلاّ عن لايتوقعون الرجوع إليه سبحانه بالبعث والحشر ، فالمراد من عدم رجائهم لقاء ربهم :أنهم لايتوقعونه أصلاً لانكارهم البعث والجزاء بالكلية ، لاأنهم لايتوقعون حسن اللقاء ، ولا يخافون سوء العذاب ، فإنهم ينكرون البعث والجزاء إنكاراً تاماً .

أى : وقال الذين ينكرون لقاءنا يوم الجزاء : هلاً أنزل علينا من السماء الملائكة ، فتخبرنا بصدق محمد - صلى الله عليه وسلم - أو تبليغنا أمر الله ونهيه بدل محمد - عليه الصلاة والسلام - ، أو نرى ربنا أمامنا ، ليخبرنا بما يريد منا ، بغير وسيط بيننا وبينه أو يخبرنا بصدق محمد في رسالته . وفيما نطقوا به إمعان بالغ في التكذيب ، والعناد ، يعرب عنه قوله سبحانه :

(لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا) :

أى : اعتقدوا في أنفسهم أنها كبيرة القدر ، رفيعة الدرجة زهواً وغروراً ، وقد دفعهم ذلك إلى أن يسألوا الشيطان ؛ لأن الملائكة لا ترى إلاّ عند الموت ، أو عند نزول العذاب . والله سبحانه : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »^(١) .

وتعقيب حكاية باطلهم بالجملة القسمية ؛مشرع مع التأكيد بأن ما هم عليه من استكبار وعتو ؛ غاية في القبح والغرابة ، بحيث يحتاج إلى توكيده .

والمعنى : والله لقد بالغوا في كبرياء أنفسهم ، وفي الظلم والطغيان مبالغة تجاوزوا فيها الحد تجاوزاً كبيراً بلغ أقصى غيابه ، حتى اجتروا على التفوه بمثل هذه العبارة الشنعاء

حيث طلبوا إنزال الملائكة لتشهد بصدق محمد - صلى الله عليه وسلم - أو لتبليغ أمر الله ونبيه بدلاً منه ، أو أن يروا الله عياناً ليخبرهم بما يريد منهم أو ليشهد بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - قالوا كل ذلك وطلبوه ؛ مستكبرين أن ينقادوا لبشر مثلهم أيده الله بما يوجب إيمانهم بما جاءهم به من الحق المبين ، ولو أنزل الله إليهم الملائكة لما آمنوا ، كما قال تعالى : « وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ »^(١).

٢٢- (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا) :

استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند موتهم بسبب كفرهم : أى : اذكر حال هؤلاء المجرمين يوم يرون الملائكة عند الموت ، لا بشرى لهم بخير يومئذ منهم ، بل تبشرهم بالنار وغضب الجبار فتقول للكافر عند خروج روحه : أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث اخرجى إلى سموم ، وحميم ، وظل من يحموم ؛ كما يقول تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ »^(٢).

وهذا بخلاف حال المؤمنين وقت احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ »^(٣).

وقيل : (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ) : يعنى يوم القيامة قاله مجاهد والضحاك وغيرهما وما تقدم أولى ، وهذا لا يمنع من أنهم لا يبشرون بخير يوم المعاد ، فإن الملائكة فى هذين اليومين : يوم الممات ويوم المعاد ، تتجلى للمؤمنين وللکافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ،

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٩٣

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١١١

(٣) سورة فصلت ، الآية : ٣٠

وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، وكان يمكن أن يقال : لا بشرى يومئذ لهم ، بالإضمار ، ولكن إظهارهم بمعنوا المجرمين ، لتعليل سلب البشرى عنهم بإجرامهم .

(وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) أى : وتقول الملائكة للمجرمين إقناطاً لهم : جعل الله تبشيركم بالغفران ، والرحمة ، أو بالجنة ، حراماً محرماً ، وقال بعضهم : إن المجرمين يطلبون البشرى من الملائكة فيقولون لهم ذلك .

وقيل : إن الضمير للكفار ، أى : ويقول أولئك الكافرون للملائكة : (حِجْرًا مَّحْجُورًا) وهى : كلمة تقولها العرب عند لقاء عدوٍّ متور ، أو هجوم نازلة هائلة ، يضعونها موضع الاستعاذة ، والمقصود من الآية على هذا : بيان أن الملائكة الذين يطلبونهم لتبليغهم أن ينزلوا إلا لتعذيبهم ، حتى إذا رأوهم عند الموت كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعاً شديداً ، وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول أمر فظيع ، وحلول بأس شديد : حجراً محجوراً ، ومنعاً ممنوعاً ، مما نراه من العذاب .

وقوله : (مَّحْجُورًا) صفة لحجراً واردة للتأكيد .

٢٣ - (وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) :

أى : وعمدنا إلى ما عمله الكفار من خير كانوا يعملونه فى الدنيا كصلة رحم وإغاثة ملهوف ، وقرى ضيف ، وعفو عن أسير ، وغير ذلك من محاسنهم .

(فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) : حيث أبطلنا ثوابها بسبب كفرهم ، فلا ينتفع به فى الآخرة وصار فى عدم الجدوى منه شبيهاً بالهباء المنثور ، وهو : ما يرى فى شعاع الشمس يخرج من الكوة منشوراً ، بحيث لا يمكن الانتفاع به ، وقيل : هو ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر ، قاله قتادة وابن عباس ، وقال ابن عرفة : الهبوة والهباء : التراب الدقيق .

وكل هذه المعانى للهباء المنثور تشير إلى أن الله تعالى أحبط أعمالهم الطيبة إحباطاً تاماً ، وجعلها لا وزن لها ولا تقدير ، كالهباء المنثور ، كما قال سبحانه : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا »^(١) .

ولو صدرت عنهم فواضل الأعمال وهم مؤمنون ، لأُثْبِتُوا عليها أجزل الثواب .

٢٤ - (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) :

أى : أن أهل الجنة وهم المؤمنون الصادقون ؛ يكونون يوم الجزاء أفضل من هؤلاء الكاذبين مستقرًا ومقيلاً ، والمستقر : هو المكان الذى يستقرون فيه أكثر الأوقات للتجالس ، والتحدث والمقيل : هو مكان الاسترواح ، والتمتع ينعمون فى هذين المكانين بما أتيح لهم من خير ونعيم وسُمى المكان الثانى مقيلاً ؛ لما أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالباً ، وهو ما تعرفه العرب من مقيل نصف النهار ، قال ابن مسعود : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء فى الجنة ، وهؤلاء فى النار وتفضيل أصحاب الجنة على أصحاب النار فى المستقر والمقيل ، إما بالإضافة إلى ما للكفرة المنعمين فى الدنيا ؛ على معنى : أن نعيم المؤمنين فى الآخرة خير من نعيم الكفرة فى الدنيا ، وإما بالإضافة إلى حالهم فى الآخرة على سبيل التهكم والتقريع ، ويجوز أن يكون أفعال التفضيل على غير بابيه ، فيكون المراد : أن أصحاب الجنة سعداء فى كل حال ، على عكس ما عليه أهل النار من الكفار ، فهم فى أسوأ حال .

(وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ۝٢٥)
الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ
عَسِيرًا ۝٢٦)

المفردات :

(وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ) : الباء فى قوله : (بِالْغَمَامِ) بمعنى عن ، فهما يتعاقبان ، كما تقول : رميت بالسهم ، وعن السهم أى : واذكر يوم تفتتح السماء عن الغمام ، وهو سحب أبيض رقيق مثل الضباب .

(وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا) : من السماء إلى الأرض بصحائف الثقلين .

(وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) : أى أن يوم القيامة صعب شديد على الكافرين .

وفعله من بابي قَرُبَ وفَرَحَ . تقول : عُسِرَ الأمرُ - بضم السين - عُسْراً وعَسَّارة فهو عَسِيرٌ وعِسرٌ - بكسر السين - عَسَّراً فهو عِسرٌ .

التفسير

٢٥- (وَيَوْمَ تَشْهَقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا) :

يوجه الله النظر إلى هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، أى : واذكر أيها النبي يوم تشهق السماء المظلة للخلق ؛ حيث تنفتح عن الغمام ، وهو سحب أبيض رقيق مثل الضباب ، وهو المذكور في قوله تعالى : " هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ " ^(١) والمراد بالسماء في الآية : ما يعم السموات كلها ، قال مقاتل : إن المراد بالسماء ما يعم السموات كلها ، وتشهق سماء سماء وروى ذلك عن ابن عباس .

فإذا انشقت السماء وانتفضت تركيبها ، وطويت ، ونزلت الملائكة تنزيلاً عجيباً ، بصحائف الأعمال - نزلت من خلال ذلك الغمام إلى حيث يجتمعون في صعيد واحد حول الإنس والجن ، وجميع الخلائق ، فيحيطون بهم في مقام الحشر ، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

٢٦- (الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) :

أى : أن الملك الحقيقى الثابت دائماً بصورة ومعنى ، ظاهراً وباطناً يكون للرحمن وحده ، يومئذ تشهق السماء بالغمام وتنزل الملائكة ؛ لأنه سبحانه له السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلى التام في الآخرة ، وأما الملك في الدنيا للمالكين من الناس فليس ملكاً حقاً ، فإن الله هو الملك الحق في الدنيا والآخرة ، ولكنه تعالى ملكهم ظاهراً ؛ ملك تصرف وإدارة ، يبقى ببقائهم ، ويزول بزوالهم .

ووضفه تعالى بالرحمة للإيذان بأن اتصافه تعالى بالرحمة الشاملة لعباده جميعاً في دنياه ؛ لا ينبغي أن يطبقهم فيها في أخراهم ، لعدم استحقاقهم لها بما اقترفوه من أسوأ الأعمال ، ولذا عقبها بقوله : (وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) : أى : وكان ذلك اليوم صعباً شديداً على الكافرين لطوله ، ولما ينالهم فيه من الأهوال ، ويلحقهم من الخزي والهوان ، كما قال تعالى : « فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » ^(٢) . وفى ذلك

إشارة إلى أنه يكون على المؤمنين سهلاً يسيراً ، يقبلون عليه بنفوس مطمئنة ، ووجوه مستبشرة ، كما قال تعالى : « لَا يَخْزُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » (١) .

كما أنه لتيسيره عليهم يخفف الله عنهم مشقة طوله ، يدل على ذلك ما نقله الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما قيل له : ما أطول هذا اليوم ، فقال : « والذي نفسى بيده ، ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا » .

(وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ
الرَّسُولِ سَبِيلًا) (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ
أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ
خَدُولًا (٢٩)

المفردات :

(وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ) : عض اليدين والأقدام كناية عن شدة الغيظ ، لأن عض اليدين يحدث غالباً عندها . (٢)

(اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) : أي سببا وصلة تصلني به ، أو طريقا إلى الجنة .
(يَا وَيْلَتَى) : كلمة جزع وتحسر ، تستعمل عند وقوع الداهية العظيمة والخطب الجسيم .
(لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا) : فلانا وفلانة بغير (ال) كناية عن الإنسان ، والفلان والفلانة بالالف واللام كناية عن الحيوانات كما قال الراغب . وخليلا : صديقاً ، والجمع : أخلاء .

(٢) ولفظ (يعض) من باب فرح يفرح .

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٣

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا^(١)) : أى أن الشيطان مبالغ في ترك نصرة الإنسان وإعاقته .

التفسير

٢٧ - (وَبِیَوْمٍ یَّعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ یَقُولُ یَا لَیْتَنِی اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) :
 قيل : إن (ال) في الظالم للعهد ، ويراد به هنا : عقبة بن أبی معیط ، ويراد بفلان المذكور في الآية التالية : أبی بن خلف ..

قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : كان عقبة بن أبی معیط قد هم بالدخول في الإسلام فمنعه منه أبی بن خلف وكانا صديقين ، وقد قتلها النبي - صلى الله عليه وسلم - قتل عقبة يوم بدر صبرا ، وطعن أبی بن خلف في المبالزة يوم أحد فرجع إلى مكة ومات وقد ذكر ذلك القشيري والثعلبي سببا في نزول الآيتين .

والظاهر : أن ال في الظالم للجنس ، فيعم كل ظالم ، ويدخل فيه عقبة بن أبی معیط دخولا أوليا ، وأن فلانا : كناية عن كل خليل ظالم من شياطين الإنس والجن ، وعموم اللفظ لا ينافيه خصوص السبب^(٢) .

والمعنى : أن كل ظالم فارق الصراط المستقيم ، وأعرض عما جاء به الرسول من الحق البين الذي لامرية فيه فإنه يندم يوم القيامة حيث لا ينفعه الندم ، ويعص على يديه ، ويطبق أسنانه على أنامله حزناً وألماً شأن المغیظ المُنْحَق .

(یَقُولُ یَا لَیْتَنِی اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) : في الدنيا باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وبذل كل جهد في نصرة الدين دفاعاً عنه ، وحفاظاً على أهله ، حتى يكون ذلك العمل طريقاً إلى الجنة ، وجملة (یَقُولُ یَا لَیْتَنِی ..) إلخ في موضع الحال من الظالم ، أو مستأنفة بيانا لما قبلها .

(١) وفعله من باب قتل ، يقتل ، يقال : خذله وخذل عنه : ترك نصرته ، فهو خاذل وخذلة كهمة ، وخذول المبالغة .

(٢) وقال القرطبي : هو أمية بن خلف .

و(ال) في الرسول للجنس فيعم كل رسول ،أو المعهود :فيكون المراد به رسول هذه الأمة محمدا - صلوات الله عليه وسلامه - .

٢٨ - (يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) :

ينادى الظالم في موقفه اليائس الحزين : وَيْلَتَهُ - أى - : هلاكه ، تعبيرا عن حزنه وحسرتة ، وهى كلمة تقال عند وقوع الداهية العظيمة ،والخطب الجسيم ، فكأنه يقول : احضرى يا هلكتى فهذا أوانك ،ثم يقول : (لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) : ليبرز بهذا التمنى ندمه ، مع نوع من التعلل والاعتذار بالمصاق جنايته على نفسه بغيره ، الذى عبّر عنه بفلان مريداً به الشيطان ، أو كل من أضله في الدنيا ، أى : ليتنى لم أتخذ في الدنيا كائنا من كان صديقاً أتبعه وأثق به ، وأسلك سبيله ، سبيل الكفر والطغيان التى قادتني إلى مهوى الهلاك والخسران .

٢٩ - (لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) :

تعليل لتمنيه السابق ، وتوضيح لتعلله ، وتصديره بلام القسم ، للمبالغة في بيان خطئه ، وإظهار حسرتة وندمه ، لأنه استمع إليه في إضلاله عن الحق الذى جاءه به رسوله .

أى : والله لقد أضلنى من اتخذه في الدنيا خليلا ، عن القرآن والإيمان به ، بعد إذ جاءني به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) : أى أنه مبالغ في خذلان الإنسان ، حيث يؤايله

حتى يؤدي به إلى الهلاك ، بما يزين له من سوء وقبح ، ثم يترك نصرته ومعاونته ودفع الضرر عنه وقت الحاجة إليه . ، وقد كان هذا الإنسان يظن فيه الظهير والنصير .

وجملة « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا » مقررة لمضمون ما قبلها ، إما من جهته تعالى ،

وتمام الكلام على هذا عند قوله : « بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي » وإما من تمام كلام الظالم ، على أنه

سمى خليفه شيطانا بعد وصفه بالاضلال الذى هو أخص أوصاف الشيطانية ، فيشمل كل مضل صد عن سبيل الله وكان مُطاعا في المعصية أو أراد به إبليس بخاصة ، ووصفه بالخذلان يشعر بأنه كان يعدّه في الدنيا ، ويُمنّيه بأن ينصره في الآخرة ، ويؤازره ، ثم تبرأ منه ، وتخلّى عنه عند نزول العذاب ، وحلول البلاء ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (١) .

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۖ ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ۚ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۚ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) : أى متروكا فلم يؤمنوا به ، من الهجر - بفتح الهاء - أو : مهجورا فيه ، من الهجر - بضم الهاء - وهو : الهذيان ، وفحش القول ، كقولهم : إنه أساطير الأولين اكتتبها ، أو : بالسخرية واللغو حين يقرأ حق لا يسمع ، والفعل من باب قتل . (عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) : أى عدوا واحدا أو متعددا . فهو يقع على الواحد والجمع مذكرا ومؤنثا .

التفسير

٣٠- (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) :

هذا القول معطوف على قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه ، وبيان ما يحيق بهم في الآخرة من أهوال شداد ، ويجوز أن يكون استثنافاً يحكى شكوى النبي لربه من قومه ، أى : وقال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم - : يبيت شكواه من قومه لربه - عز وجل - إثر ما شاهده منهم من الترك ، والإهمال ، حيث اتخذوا هذا القرآن متروكاً ، ومن جملته الآيات الناطقة بتحذيرهم ، مما يضلّونه على صنيعهم من فنون العقاب ، والنكال في الآخرة .

أو اتخذوه مهجوراً فيه ، بمعنى : أنهم قالوا عنه غير الحق ، فوصفوه بأنه سحر ، أو شعر أو أساطير الأولين اكتتبها ، أو مضوا في الهذيان واللغو فيه إذا قرئ حتى لا يسمع ، كما قال تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » (١) . وقد تسبب هذا في أنهم لم يؤمنوا به ، ولم يرفعوا له رأساً ، ولم يتأثروا بوعيده .

وفي الآية تلويح بأن من واجب المؤمن أن يكون كثير الرعاية للقرآن الكريم والاهتمام بتعده ، والدود عنه ، كما أن فيها من التحذير والوعيد ما لا يخفى ، فإن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إذا شكوا إلى ربهم ظلم قومهم عاقبهم على ظلمهم .

٣١- (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) :

تسليّة للنبي - صلى الله عليه وسلم - بما وقع للأنبياء والمرسلين قبله حتى يهون عليه ما يلقاه منهم من عداوة وإجرام .

أى : وكما جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون ، ويفعلون ما يفعلون كآبى جهل وأحزابه ، جعلنا لكل نبي من الأنبياء أصحاب الشرائع الداعين إليها أعداء من مرتكبي الآثام ، ومقتري الجرائم ، كما قال تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا

شَیَاطِینَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿١٦﴾ فاصبر أيها النبي على أباطيلهم ، كما صبر الأنبياء قبلك على ضلال المجرمين من أقوامهم .

(وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) : وعد كريم لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بهدأيته إلى بلوغ كافة مطالبه التي تُيسِّر له النصر على أعدائه ، أي : وحسبك أن تلقى تأييد ربك الذي هو مالك أمرك ، وأن تظفر بهدأيته إياك إلى ما يصلح شأنك ، ويحقق نصرك على أعدائك ، لتبلغ غاية الكمال ، وتصل إلى أسمى الغايات التي من جملتها تبليغ ما أنزل إليك ، وإجراؤه أحكامه في ربوع الدنيا ، وبين جنباتها إلى أن يبلغ الكتاب أجله .

وقيل : المعنى وحسبك أن يكون ربك هاديًا لمن آمن بك ، واتبع الكتاب الذي أنزل عليك ، ونصيرًا لك على غير هؤلاء المؤمنين .

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) : أي لنجعل له الثبات والاستقرار بسببه .
(وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) : أي فرقناه آية بعد آية ، يقال : رتل القارئ : تمهل في قراءته ولم يعجل به .

(وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) : أي بيانًا ، تقول : فسرْتُ الشيء - بفتح السين مخففة - فسراً من باب ضرب ، بمعنى بينته وأوضحته ، كفسرته - بشد السين - .

(أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا) : أى ذوو سوء وظلم وفساد أكثر من غيرهم ، وأصله : أشدُّ ، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وفعله : من باب تَعَب ، وفى لغة من باب قَرُب .

التفسير

٣٢ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ...) الآية .

يخبر الله بذلك عن تعنت الكافرين ، وتمسكهم بما لا يعينهم ، سواءً أكان ذلك المعترض كفار قريش ؛ كما قال ابن عباس ، أم طائفة من اليهود قالوا حين نزل القرآن مفرقاً : هَلَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً ؛ كما أُنْزِلَتِ التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، والزبور على داود ؟ فأجاب الله تعالى أولئك القائلين بقوله تعالى : (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) ؛ فهو استئناف لردِّ مقالتهم الباطلة ، وبيان الحكمة فى تنزيله التدريجى ، أى : مثل ذلك التanzil المفرق الذى قدحوا فيه ؛ واقترحوا خلافه ؛ نزلناه عليك ، لا تنزيلاً كما أرادوه ، ليقوى بذلك التanzil المفرق فؤادك ، فتعيه ويتيسر لك حفظ لفظه ، وفهم معانيه ، وضبط أحكامه ، والوقوف على تفاصيل ما روى فيه ، مما يحتاج إلى توضيح وبيان ، كالتشريعات والمصالح ، وأولى دحض مطاعن الكافرين وإبطالها بعد حكايتها وعرضها ، فى حين أنك رجل أُمى ، وتفريقه هو المناسب لحالك .

فكلما جدَّ جديد نزل منه ما يناسبه ، وبُيِّنَ فيه من الحكم ما يوافق ، مطابقاً لمقتضى الحال . لكل هذا ، أنزل الله القرآن منجماً على النبي الأُمى - صلى الله عليه وسلم - رعاية له وعناية به ، وإشفاقاً عليه حتى لا يلحقه مشقة فى حفظه وتدبره وتبليغه ، وليستمر الإيناس له برسول ربه جبريل - عليه السلام - (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) : أى فرَّقناه آية بعد آية ، قاله النخعي والحسن وقتادة ، وقيل : بيَّناه بياناً تاماً ؛ فيه ترسُّلٌ وتثبُّت . كما قال ابن عباس : يعنى بيَّناه شيئاً بعد شيء ، وقيل : قرأناه عليك بلسان جبريل - عليه السلام - شيئاً فشيئاً على تَوَدَّة كما قال تعالى : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » ^(١) .

٣٣- (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) :

المراد بالمثل : أقوالهم التي يلتزمون بها معارضة القرآن والقدح في نبوته - صلى الله عليه وسلم - ومن جملة هذه الأقوال ما حكى عنهم من اقتراحات خارجة عن حد المعقول ، جارية لغرابيتها مجرى الأمثال كقولهم : « لَنْ نُوْثِرَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ »^(١)

والمعنى : ولا يأتونك بكلام عجيب هو مثل في البطلان (إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ) : أى بالجواب الثابت الذى لا محيد عنه في مقابلة ما يصدر عنهم ، محوًا لأباطيلهم ، وقضاء على أكاذيبهم التى أرادوا بها الطعن فى رسالتك وحسبها لمادة القيل والقال التى دارت على ألسنتهم ، قال النحاس : وكان ذلك من علامات النبوة لأنهم لا يسألون عن شيء إلا أجيبوا عنه . ١ هـ

(وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) : أى جئناك بالحق ، وبما هو أحسن بياناً ، وتفصيلاً لما بعثناك به من الهدى ، حتى لا يكون للباطل الذى جاءوا به حقيقة ولا ظل ، كما قال تعالى : « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »^(٢) .

٣٤- (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ) :

إخبار من الله تعالى عن حال الكفار فى معادهم يوم القيامة ، وحشرهم إلى جهنم فى أسوأ حال .

والمعنى : أن هؤلاء المكذبين تسحبهم الملائكة وتجرحهم على وجوههم إلى جهنم ، وقيل : الحشر على الوجوه مجاز عن الذلة والمهانة والخزى ، وعقب ذلك بقوله تعالى : (أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا) أولئك الذين يزعمون أنك كاذب فيما دعوتهم إليه ، واقترحوا فى تحديقك ما اقترحوا ، أولئك أسوأ مكاناً فى الكذب وسوء الحال ، وأضل سبيلاً ، من كل ضلال . وهذا الأسلوب على سبيل مجاراتهم فيما زعموا فإنه - صلى الله عليه وسلم - منزّه عن كل شر وضلال .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ
 وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَدَمْزَلُهُمْ
 تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ
 لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا
 وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ
 الْأَمْثَلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْنِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ اتَّوَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي
 أُمِيطَتْ مَطَرُ السَّوَاءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلِّ كَانُوا لَا يَرْجُونَ
 نُشُورًا ﴿٤٠﴾)

المفردات :

- (هَارُونَ وَزِيرًا) : أى معاوننا ومساعدنا له فى حمل أعباء الدعوة .
 (فَدَمْزَلْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) : أى أهلكناهم إهلاكاً مدمراً .
 (لِلنَّاسِ آيَةً) : علامة ظاهرة على قدرتنا يعتبر بها .
 (وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ) : أى أعددنا وهيأنا لهم .
 (وَأَصْحَابَ الرَّسِّ) : الرأس ؛ بشر غير مبنية كانت لبقية من ثمود .
 (وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ) : القرن ؛ الجيل من الناس ، قيل : ثمانون سنة ، وقيل :
 غير ذلك .

(وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ) : هي سدوم أعظم قرى قوم لوط

(مَطَرُ السَّوءِ) : فقد أمطرت القرية بالحجارة من السماء فهلكت ، والسوء - بالفتح - مصدر (سَاءَ) وبالضم : اسم منه .

التفسير

٣٥ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا) :

شروع في بيان قصص بعض الأنبياء مع أممهم ، وانتقام الله ممن كذبهم ، تهديداً لمن كذب رسوله - صلى الله عليه وسلم - من مشركى قريش وكل من خالفه وأعرض عن دعوته ؛ وتحذيراً لهم مما أحله بالأُمم السابقة التي كذبت رُسُلها ، وتأكيذاً لما مرَّ من التسليّة له - صلى الله عليه وسلم - والوعد بالهداية والنصر ، في قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا » . وقد بدأ سبحانه بحكاية ما جرى لموسى - عليه السلام - فبين أنه ابتعثه مؤيداً بالنوراة التي أنزلها عليه ، وجعل معه (أخاه هَارُونَ وَزِيرًا) : أى بعثه معه يؤيده ويشد أزره ، وهو تابع له ، كما يتبع الوزير سلطانه .

وبداً الحديث معه باللام وقد ؛ لإفادة التأكيد ، أى : ولقد أنزلنا التوراة على موسى - عليه السلام - وأيدناه بأخيه هارون .

٣٦ - (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْرنَاهُمْ تَذْمِيرًا) :

المراد بالقوم هنا : قوم فرعون ، أى : فقلنا لهما : اذهبا إلى قوم فرعون ؛ الذين كذبوا بدلائل التوحيد المودعة في الأنفس والآفاق ، أو كذبوا بالآيات التي جاءهم بها يوسف عليه السلام ، أما حَمَلُ التكذيب على أنه بالآيات التسع ؛ التي ذكرت في قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ »^(١) فإنه لا يناسب المقام ؛ لأنها لم تظهر إلا بعد

(١) سورة الإسراء ، من الآية ١٠١

ذهابهما إليهم ، وفي الكلام طيُّ لكلام يقتضيه المقام ، تقديره : فقلنا اذهبا إلى القوم فذهبا إليهم ، ودعواهم إلى الإيمان فكذبوهما .

واستمروا على تكذيبهما بعد أن أيدهما الله بآياته (فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) : عجيباً هائلاً إثر ذلك التكذيب المستمر - دمرناهم - بعذاب ماحق ، لا يدع ولا ينذر شيئاً إلا أتى عليه وجعله أثراً بعد عين .

٣٧- (وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً .) الآية .
 أى : أن قوم نوح كذبوا جميع الرسل بتكذيبهم رسولهم إذ لا فرق بين رسول ورسول ، لاتفاقهم جميعاً على التوحيد وأصول الشرائع ، إذ لم يرسل إليهم إلا نوح - عليه السلام - وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى الله ، ويحذرهم عذابه ، فما آمن معه إلا قليل ، وقد عاقبهم الله عقوبة لم يسبق لها مثيل ، حكاهما الله بقوله : (أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً) أى : أغرقناهم بالطوفان ، الذى تفجرت مياهه ، وتلاحقت أمواجه عالية شامخة كالجبال العظيمة ، وجعلنا إغراقهم أوقصتهم علامة ناطقة ببالغ قدرتنا ، لتكون عبرة لكل من شاهد آثارها ، أو سمعها (وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا) : المراد بالظالمين الذين أعد الله لهم العذاب هم أولئك القوم الموصوفون بالتكذيب من قومه ، أو جميع الظالمين من الكافرين الذين لم يعتبروا بما نزل بهؤلاء من العذاب فبدخل فيهم قريش دخولاً أولاً
 أى : وأعدنا للظالمين وهبناً لهم فى الآخرة عذاباً بلغ أقصى غاية فى هوله وتأثيره .

٣٨- (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرُّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا) :

أى : ودمرنا عاداً قوم هود - عليه السلام - وثمود قوم صالح - عليه السلام - وأصحاب الرِّسِّ ، وهم قوم شعيب - عليه السلام - ويقال لهم أيضاً : أصحاب الأيكة ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فكذبوا شعيباً وآذوه ، فبينما هم حول الرِّسِّ خُسِفَ بهم وبديارهم فهلكوا جميعاً ، وكانت بإنطاكية الشام كما نقله القرطبي .

وقال وهب والكلبي وقتادة : أصحابُ الرِّسِّ ، وأصحابُ الأيكة ^(١) : قومان أرسل إليهما

(١) وهى غيضة تلت الشجر .

شعيب - عليه السلام - وكان أصحاب الرُّس قوماً من عبدة الأصنام ، وأصحاب آبار ومواش ، فدعاهم إلى التوحيد ، فتمادوا في طغيانهم ، وفي إيذائه ، فبينما هم حول الرُّس - كما روى عن أبي عبيدة - انهارت بهم وبديارهم ، فهلكوا ، وقيل : هم قوم قتلوا نبيهم ورُسوه في بثرهم أى : دسوه فيها ، وقيل غير ذلك .

(وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا) : أى ودمرنا كذلك أهل قرون جاؤوا بين قوم نوح وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرُّس ، وكان عددهم كثيراً لا يعلم مقداره إلاّ العليم الخبير ، أرسل إليهم رُسلاً فكذبوهم فأهلكوا .

والقرون : جمع قرن ومقداره سبعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل : مائة ، ويطلق مجازاً على القوم المتعاصرين ، وقال الزجاج : الذى عندى - والله أعلم - أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبي ، أو طبقة من أهل العلم قلَّت السنين أو كثُرَت .

٢٩ - (وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا) :

أى وكل قوم من المكذبين ذكرنا وحذرنا ، حيث بينّا لهم القصص العجيبة الزاجرة لما هم عليه من الكفر والمعاصي ، ووضحنا لهم الأدلة الصحيحة الهادية ، ولكنهم كذبوا وأعرضوا فاستحقوا الدمار ، والهلاك ، كما قال تعالى : (وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا) : أى وكل قوم منهم أهلكناه هلاكاً ماحقاً ؛ لتأديبه فيما هو عليه من إفك و طغيان .

٤٠ - (وَلَقَدْ آتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ النَّبِيَّ أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ...) الآية .

استئناف مسوق لبيان مشاهدة المشركين من أهل مكة لآثار الأمم المهلكة وعدم اتعاضهم بها وصدّر بالقسم لتأكيد تقرير مضمونه ، والمراد بالقرية الجنس الشامل لجميع قرى قوم لوط ، يعنى أن قريشاً مروا بها كثيراً في أسفارهم بمتاجرهم إلى الشام ، وكانت هذه القرى قد أمطرها الله بالحجارة من السماء ، فأهلكت كما قال تعالى : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ »^(١) . وكانت قراهم خمسمائة ، وروى عن ابن عباس أن واحدة منها نجت لكون أهلها لا يعملون العمل الخبيث . والله أعلم بصحة هذا الخبر .

(أَقْلَمُ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا) : توبيخ لهم على ترك التذكر ، والتأمل عند رؤية ما يوجبهما ، ويدعو إليهما .

أى : أعموا عنها فلم يكونوا يرونها في مرورهم المتكرر عليها ، ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب ، ودلائل النكال ؛ الذى حلّ بأهلها فأهلكهم ، ودمرها تدميراً ؟ فالمنكر عدم الرؤية الداعية إلى التفكير والعبرة ، مع وقوع النظر الموجب لذلك (بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا) : إضراب انتقالي من التوبيخ على ما هو أعظم وأقبح ، وهو إنكارهم البعث المستتبع للجزاء الأخرى ، إنكاراً مبالغاً فيه بحيث لا يتوقعونه أصلاً ، فمعنى «لا يرجون» على ذلك : لا يتوقعون .

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۖ) (٤١) **إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا**
وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا (٤٢) **أَرَأَيْتَ**
مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) **أَمْ تَحْسَبُ**
أَنَّا أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ **إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ**
أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤))

المفردات :

(إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا) : أى ، ما يتخذونك إلا موضع هزاء وسخرية ، يقال : هزأ منه ، وبه ، كسمع ومنع هزأ - بضم الهاء مع سكون الزاى أو ضمها - سَخِر واستهزأ .
(إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا) : أى إنه قرب أن يصرفنا عن عبادة آلِهتنا .
(لَوْلَا أَن صَبَرْنَا) : حبسنا أنفسنا على عبادتها .

(مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) : أى صير ميله المذموم كأنه إلهه الذى يتبعه ، والهوى : ميل النفس إلى الشيء ، ثم استعمل في الميل المذموم ، وهو مصدر هوى ، كفرح .

(وَكَيْلًا) : أى حفيظًا ، يقال : وكلت الأمر إليه وكلًا ؛ ووُكُولًا : فوضته إليه ، وفعله من باب وعد يعد .

التفسير

٤١- (وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) :

روى أن الآية نزلت في أبي جهل ومن معه من زعماء مشركى قريش ؛ : أى أن هؤلاء إذا رأوك ما يتخذونك إلا مهزوءًا بك^(١) أو موضع سخرية واستهزاء ، بمعنى : أنهم يقصرون فعلهم معه - عليه الصلاة والسلام - على ذلك ، قائلين على سبيل التنقص ، والازدراء : (أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) : أى أهذا الذى بعثه الله مرسلًا إلينا ؟ .

والتعبير باسم الإشارة بعد الاستفهام ، يريدون به الاستخفاف بدعواه أنه رسول بعثه الله إليهم ؛ والتعجب منه ، والآية في معنى قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ »^(٢) .

٤٢- (إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا . . . الآية .

أى : قال هؤلاء المشركون : إنه - صلى الله عليه وسلم - قارب أن يثنىهم عن عبادة أصنامهم ويبعدهم عنها ، لا عن عبادتها فقط ؛ لولا أنهم تجلدوا ، وحبسوا أنفسهم على عبادتها ، وهذا اعتراف منهم بأنه - عليه الصلاة والسلام - قد بلغ غاية الاجتهاد في الدعوة إلى التوحيد ، وإقامة الحجج البينات التى تنير سبيل الهدى والرشاد ، حتى شاربوا أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام ؛ لولا فرط إصرارهم ، وغاية عنادهم ، ولهذا لجثوا إلى سلاح الاستهزاء ، حتى يحولوا دون تأثر نفوسهم على رغم منهم بدعوته .

(١) تنفرد (إذا) بوقوع جوابها المنى بأن أوما أولا - تنفرد بوقوع جوابها هذا غير مقترن بالفاء بخلاف غيرها من أدوات الشرط ، نقله أبو حيان وغيره .
(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٦

(وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا) : جواب من جهته تعالى عن قولهم :
« إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا » ورد لما ينبي عنه ، ويشير إليه من نسبته - عليه الصلاة والسلام - .
إلى الضلال في ضمن إضلاله إياهم .

أى : وسوف يعلمون البتة ؛ حين يرون العذاب يوم القيامة على كفرهم ، وعنادهم ،
من هو الضال ، ومن هو المهتدى ، وأنهم قد باعوا أخراهم بدنياهم .
وفى الآية تنبيه ؛ على أنه تعالى إن أمهلهم فإنه لا يهملهم .

٤٣ - (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) :

تعجب لرسوله - صلى الله عليه وسلم - من شناعة تمسك أولئك المشركين بشركهم ،
وإصرارهم عليه ؛ بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال ، التي باءوا بآثمها ، وبيان ماينتظرهم
من سوء المصير ، وتنبيه على أن ذلك من الغرابة ؛ بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه ^(١)

أى : أرايت من جعل هواه إلها لنفسه ، بأن أطاعه فيما يأتى وينذر ، وبني عليه أمر
دينه ، معرضا عن البرهان الساطع ، والحجة القاطعة ، فهو لا يرى معبودا إلا هواه ؟ والمعنى :
انظر إليه وتعجب منه .

(أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) : استبعاد لكونه - صلى الله عليه وسلم - حفيظا على
من اتبع هواه ، يحفظه من متابعة هواه ، ويرده عن عبادة ما يهواه ، أى : ليست ضلالتة
وهواه موكولتين إلى مشيئتك لترده إلى الإيمان ، وتحفظه من الفساد ، وإنما الذى وكل
إليك هو الإنذار ، والتبليغ وقد فعلت .

٤٤ - (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ...) الآية .

انتقال من إنكار الله عليهم أنهم اتخذوا الهوى إلههم ، إلى بيان أنه لا سبيل إلى
ظنه - صلى الله عليه وسلم - أنهم يسمعون ، أو يعقلون ما يقول .

(١) وقدم المفعول الثانى وهو إله على الأول وهو هواه للاعتناء به من حيث إنه هو الذى يدور عليه أمر التعجب .

والمعنى : بل أنظن - أيها الرسول - أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات ؟ أو يعقلون ما تشير إليه تلك الآيات من الزجر عن القبائح ، والدعوة إلى المحاسن ، فتهتم بشأنهم ، وتطمع في إيمانهم ؟

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ) : جملة مستأنفة لتأكيد انصرافهم عن الحق ، وبعدهم عن الاستماع والتعقل فهم في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات وزواجرها ، وانصرافهم إلى الأكل والشرب - هم في ذلك - كالبهائم التي هي مثل في الغفلة والضلالة (بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) : أي بل هم أشد ضلالة من الأنعام لما أنها تطيع من يطعمها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يقسو عليها وتطلب ما ينفعها ، وتجتنب ما يضرها ، وتهتدي لما كلفها ومشربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم الذي خلقهم ورزقهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذي هو شر المضار ، ولا يهتدون للحق الذي هو المورد العذب ، فهم لذلك كله معطون لقواهم العقلية ، مضيعون للفطرة الأصلية التي فطر الله الناس عليها ، بالغفون بما صنعوا درجة جعلت الأنعام خيراً منهم حيث لا تقصير منها في طلب ما يصلحها ، وإنما ذكر الأكثر لأن منهم من لم يصد عنه الإسلام إلا حب الرياسة ، ومنهم من أسلم .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا
تَحْتِ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا
يَسِيرًا ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ) : أي كيف جعله ممتداً مبسوطاً .

(لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) : أي لصيرره ظلاً ثابتاً دائماً على حاله .

(ثُمَّ قَبَضْنَاهُ) : أَي أزلنا ومحونا ما أنشأناه ممتداً .
(قَبْضًا يَسِيرًا) : سهلاً .

التفسير

٤٥ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَى دَلِيلًا) :

شروع في بيان الأدلة الناطقة بوجوده تعالى ، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة إثر بيان جهالة المعرضين عنها وقبح ضلالهم ، والخطاب لكل متأمل في عجائب الكون ، والهمزة للتقرير ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره - صلى الله عليه وسلم - لتشريفه ، وللايدان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته تعالى ورحمته .

ويقول الزمخشري في تفسير هذه الآية :

ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ؟ ومعنى (مَدَّ الظِّلَّ) : جعله يمتد وينبسط ، فينتفع به الناس ، (وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) : أى لاصقاً بأصل كل مُظِل من جبل وبناء وشجر غير منبسط ، فلم ينتفع به أحد ، سمي انبساط الظل وامتداده تحركاً منه ، وعدم ذلك سكوناً . ٥١ .

والمقصود : تنبيه الناس إلى عظيم قدرته ، وبالع حُكمته فيما يشاهدونه من مَدَّ الظل وقبضه ، وقال ابن عباس ، وابن عمر ، والحسن ومجاهد وغيرهم : المراد بالظل : ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، قالوا : ويدل على ذلك كون هذا الوقت لا يوجد أطيب منه ، فإن فيه يجد المريض والمسافر وكل ذى حاجة راحته واستقراره ، وأن الظلمة الخالصة تنفر منها الطباع ، وشعاع الشمس يجعل الجو مائناً ، والبصر كليلاً ، ولهذا كان ظل الجنة ممدوداً ، كما في قوله تعالى : (وَظِلٌّ مُمْدُودٌ)^(١) .

وجملة (وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) : اعتراضية للدلالة من أول الأمر على أنه لا مدخل للأسباب العادية فيه ، أى : ولو شاء - سبحانه - لجعله ظلاً دائماً لا يزول ، بدلاً يدع للشمس

سبيلاً إليه (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا)^(١) : أى جعلناها علامة يستدل بها وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل من كونه يحدث في مكان ، ويزول من آخر ، ويتسع ويتقلص كذلك ، فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغنائهم عنه على حسب ذلك .

وقبضه إياه : أنه ينسخه بضح الشمس^(٢) انظر الزمخشري .

وقال قتادة والسدى : المعنى ؛ جعلنا الشمس دليلاً عليه ، تتلوه وتتبعه حتى تأتى عليه كله .

٤٦ - (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا) :

أى : ثم أخذنا ذلك الظل المملود إلى حيث أردنا ، ومحوناه بمحض قدرتنا عند إيقاع شعاع الشمس على موقعه ، لا يشاركنا أحد في إزالته ، كما لم يشاركنا أحد في إنشائه ، فهو منا وإلينا ، وكان قبضه إلينا يسيراً علينا غير عسير ؛ حيث قبضناه جزءاً جزءاً وفق موضع الأرض من الشمس التى تأتى عليه ، وقال الضحاك : قبضاً سريعاً .

ويحتمل أن يكون قبضه عند قيام الساعة بقرينة إلينا ، وذلك بقبض أسبابه وهى الأجرام التى تلقى الظل ، كما أن إنشائه كان بإنشاء أسبابه ، والتعبير بالماضى لتحقيقه ، والإتيان بـ ثم فى هذه الآية والتى سبقتها للتراخى الزمنى بين المعطوف والمعطوف عليه .

(١) هذه الآية تظهر عناية الخالق وقدرته ؛ فد الظل يدل على دوران الأرض وعلى ميل محور دورانها ، ولو أن الأرض سكنت بحيث إنها ظلت غير متحركة حول الشمس . وانعدم دورانها حول محورها لسكن الظل ، ولظلت أشعة الشمس مسلطة على نصف الأرض ، بينما يظل النصف الآخر ليلاً ؛ مما يحدث اختلاف التوازن الحرارى ، ويؤدى إلى انعدام الحياة على الأرض وكذلك لو أن الله خلق الأشياء كلها شفافاً لما وجد الظل ولانعدمت فرص الحياة أمام الكائنات التى تحتاج إليه . ا . هـ . من هاشم المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، الطبعة السابعة للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) الضح - بالكسر - : الشمس وضوءها : القاموس .

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ
النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ
وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْشِيَ بِهِ بَلَدَةً مَّيْمَنًا
وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِي كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ
بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾)

المفردات :

- (اللَّيْلَ لِبَاسًا) : اللباس ؛ ما يلبس ، وفعله : من باب فرح .
(وَالنَّوْمَ سُبَاتًا) : السبات ؛ الثقيل لتكمل به الراحة ، من السبت : بمعنى القطع ، وقد يطلق
السبات على الموت ، وفعله : من باب نَصَرَ يَنْصُرُ .
(النَّهَارَ نُشُورًا) : أى حياة تزاوُلون فيها أعمالكم ، يقال : نَشَرْتُ الْأَرْضَ نُشُورًا
بمعنى حَيَّتُ وَأَنْبَتْتُ ، وفعله كَقَعَدَ ، وضرب .
(بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) : أى مبشرات ، جمع بُشُور كرسول ، وأصله : بُشْر - بضم
الشين - ثم خفف بالإسكان .
(مَاءً طَهُورًا) : صالحًا للتطهر به ، كطاهر مع المبالغة في طهارته ، ويقول الفقهاء :
هو الطاهر في نفسه المطهر لغيره ، وهو الماء المطلق والذي لم يختلط بِنَحْوِ خَلٍّ وَعِطْرٍ ،
فإن خالطه مثل ذلك فليس بطهور وإنما هو طاهر. ولو كان معناه واحدًا لقليل : ثوب طهور
وخشب طهور وهو ممتنع .
(وَأَنْآسِي كَثِيرًا) : جمع أنسى ، ككُرسى ، أو جمع إنسان ، فقلبت النون في الجمع ياء
وأدغمت الياء في الياء .
(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ) : أى صرفنا المطر بين الناس في البلدان والأوقات المختلفة
ليعلموا آيات قدرتنا ، أو بينا آيات القرآن ببيان ما فيه من عقائد وحلال وحرام .

التفسير

٤٧- (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) :

بيان لبعض ما أسبغه الله - عز وجل - على خلقه من آثار قدرته العظيمة ، ورحمته الواسعة التي أفاضها عليهم .

أى : جعل الله لكم - أيها المخاطبون - الليل ساتراً يستركم بظلامه ، كما يستركم اللباس الذى تلبسونه ، وجعل لكم النوم العميق الذى يقع فى الليل غالباً - جعله - قطعاً لأعمالكم التى تُثقلكم وتُضنيكم لتستريح من متاعبها أبدانكم وأرواحكم ، (وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) أى : تنتشرون فيه لمعيشكم ومكاسبكم ولأداء سائر أعمال الحياة ، كما قال تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ^(١) فهو زمان بعث باليقظة من ذلك السبات كبعث الموتى بالنشور ، وجوز أن يراد بالسبات الموت ، لما فيه من قطع الإحساس بالحياة ، وعُبر به عن النوم لما بينهما من المشابهة فى انقطاع أحكام الحياة كما فى قوله تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا » كما عبر عن اليقظة بالنشور والبعث .

٤٨- (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) :

وهذا أيضاً من آثار قدرته التامة وسلطانه العظيم ، أى : أنه سبحانه يرسل الرياح مبشرات بمجيء السحاب المؤذن بإنزال المطر ، لأنه ريح فسحاب فمطر ، وورد المطر بعنوان الرحمة لحاجة كل مخلوق إلى مائه ، لأن فيه رزقاً للعباد ، وبه تحيا الكائنات الحية ، (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) .

والالتفات إلى نون العظمة فى قوله سبحانه : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) ، لإبراز كمال العناية بإنزال الماء بمعنى : أنزلنا به عظمتنا ورحمتنا ماء طاهراً فى نفسه مطهراً لغيره ، فالياه المنزلة من السماء والمودعة فى الأرض طاهرة مطهرة ، ووصفه بطهور إعظام للمنة وأنه أهناً وأنفع مما خالطه ما يزيل هذا الوصف ، كالخل والسكر والمِسْك .

٤٩ - (لِنُخَيِّبَ بِهِ بَلَدَةً مِّمَّنَّا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا) :

أى لنخيب بالمطر بلدة أماتها الجذب والمخل حتى أصبحت أرضها هامة لانبات فيها ولازرع ، وهو روحها يحييها الله به كما قال كعب : المطر روح الأرض يحييها الله به . ١٠ .
ولحياتها بانبات النبات فيها ، كما يشير إلى هذا قوله تعالى : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » ^(١) .

ووصف البلدة - وهى مؤنثة ، (ميمتا) وهو مذكر - على إرادة البلد أو المكان (ونسقيه مِمَّا خَلَقْنَا) ^(٢) أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا) : أى نسقى ذلك الماء الطهور الذى يجرى فى الأنهار وفى العيون والآبار ، نسقيه أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا من خلقنا .

وقدّم إحياء الأرض على سقى الأنعام والأناسى لأن حياتها سبب لحياتهم ، وتخصيص الأنعام من بين الحيوان الشارب لأن عامة منافع الأناس ومعاشهم منوطة بها .

وقال : (كَثِيرًا) : ولم يقل كثيرين ، لأن ما كان على وزن (فعيل) قد يراد به الكثرة نحو قوله تعالى : « وَحَسِّنْ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا » ^(٣) .

٥٠ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) :

أى ولقد بينا وكررنا هذا القول للناس فى هذا القرآن ، وفى سائر الكتب المنزلة ، وهو إرسال الرياح وإنشاء السحاب ، وإنزال المطر ، وهو مفهوم من السياق ، وذلك ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا كمال قدرته تعالى ، وواسع رحمته ، فيشكروه عز وجل ، ويعلموا أَنَّ مَنْ أَنْعَمَ بِهِذِهِ الْمُنَّ وَالْآلَاءُ لَا يَجُوزُ الْإِشْرَافُ بِهِ .

وقيل : الضمير للمطر ، وهذا القول مروى عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد ، وعكرمة ، بمعنى : ولقد صرفنا الماء المنزل من السماء بين الناس المتقدمين والمتأخرين فى البلدان المختلفة والأوقات المتغيرة ، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل ورذاذ وغيرها

(١) سورة الحج ، آية : ٥

(٢) و (من) فى قوله : « مما خلقنا » إما بيانية - أى : ونسقيه مخلوقا لنا أو : تبعية ، أى : نسقيه بعض مخلوقاتنا .

(٣) سورة النساء ، من الآية : ٦٩

ينزله بأرض ، ويمسكه عن أخرى حسبما يريد وبشاء ، وتلك من دلائل القدرة الباهرة التي تدعو إلى الإيمان بالله ، ومجافاة الكفر به ، ولكنهم لم يفقهوا (فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) : أى : أبى أكثرهم ممن سلف وخلف إلا كفر النعمة وجحدها وعدم الاكتراث بها ، بأن يقولوا : مطرنا بنوء كذا ؛ معرضين عن ذكر صنع الله ، ورحمته ، اعتقاداً منهم أن النجوم لها الفاعلية والتأثير ، وهذا - والعياذ بالله - كفر ، كما صح في الحديث المخرج في صحيح مسلم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال لأصحابه يوماً على إثر سماء أصابتهم من الليل : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أصبح من عبادى مؤمن وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب » .

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥٦﴾ فَلَا تُطِيعُ
الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٧﴾)

المفردات :

- (نَذِيرًا) : أى رسولا ينذر أهلها .
(فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ) : فى دعوتهم إياك إلى اتباع آلهتهم .
(جِهَادًا كَبِيرًا) : أى دائماً مستمراً لا يخالطه فتور .

التفسير

٥٦ - (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا) :

أى رسولا يدعوهم إلى عبادة الله - عز وجل - لنخف عليك أعباء الرسالة ، ولكننا لم نفعل ، بل جعلناك نذيراً إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ، كما

قال تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا »^(١) تكريماً لك ورفعاً لمنزلكك
لتنال بجهدك المبتول أوفى الجزاء ، وأكرم المثوبة ، فقابل هذه النعمة الجليلة بالشكر
والصبر على جهاد المعاندين التكبرين بكل ما أوتيت من قوة ، مع المبالغة في إنكار ما يدعونك
إليه كما قال تعالى :

٥٢ - (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) :

أى فلا تطعمهم فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم وهو دَفْعُ له - صلى الله عليه وسلم -
وللمؤمنين على التشدد معهم والمبالغة في الإنكار عليهم (وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) :
أى وجاهدكم بعون الله وتوفيقه ، أو بالقرآن ، كما قال ابن عباس ، وذلك بتلاوة ما فيه
من الحجج والبراهين ، والقوارع والزواجر ، والمواظب اللافئة إلى عاقبة الأمم التى كذبت
رُسُلَهَا لإظهار عجزهم ، وتبصيرهم بسوء مصيرهم ، وكأنه نُهِى بهذه الآية عن الملاينة ،
وقد كان المشركون يدعون الرسول إلى مهادنتهم وملاينتهم والكف عن تسفيه أحلامهم
وآلهتهم ، فجاءت هذه الآية لقطع أطماعهم ، وحثه - صلى الله عليه وسلم - على مجاهدتهم
وملاحقتهم بالإنذار والوعيد دون فتور ، كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ
وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ »^(٢) .

وكان جهاده - صلى الله عليه وسلم - كبيراً ؛ كما أمره الله - عز وجل - فلم تلن له
معهم قناة ، مع ما بذلوه معه من الأمانى الفسيحة إن أطاعهم ، ولا مع قسوتهم الشديدة
عليه وعلى أصحابه حينما رفض عروضهم السخية .

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١٥٨

(٢) سورة التوبة ، من الآية : ٧٣

* (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ٥٤ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ٥٥)

المفردات :

- (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) : أجراهما وخلأهما ، من ؛ مرجت الدابة ، إذا خلطتها ترعى .
 (الْبَحْرَيْنِ) : المائين : العذب والمِلْح ، من غير تخصيص ببحرين معينين .
 (مِلْحٌ أُجَاجٌ) : شديد الملوحة والحرافة ، من أجيج النار ، كما قال الراغب .
 (بَرْزَخًا) : حاجزا يمنع أن يغلب أحدهما على الآخر كما في قوله تعالى : « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ » .
 (حِجْرًا مَّحْجُورًا) : أى تنافرا مفرطا ، كأن كل واحد منهما ينفر من الآخر ، ويتعود منه بتلك المقالة على عادة العربى الذى كان إذا رأى شيئا يكرهه يقول : (حِجْرًا مَّحْجُورًا) والمراد : لزوم كل منهما لصفته من العنوبة والملوحة .
 (جَعَلَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا) : المراد بالماء ؛ نطفة الرجل ونطفة المرأة .
 (فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا) : أى قسم الماء قسمين ذوى نسب - أى : ذكورا - وذوات صهر أى : إناثا ، فبالذكور يكون النسب ، وبالإناث تكون المصاهرة .

التفسير

٥٣ ، ٥٤ - (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا) :

هاتان الآيتان من جملة الآيات التى بدأت بقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى

رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » والتي نتحدث عن بعض آيات الله الكونية التي تتعاضد فيها الآؤه، وتترأى آثار نعمه على خلقه ، ودلائل قدرته في تسخير هذه المخلوقات لتذليل السبل في حياة الإنسان ، وتيسير حاجاته مصداقا لقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً »^(١) وقوله جل شأنه : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ »^(٢). ومعنى « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » : أجرى المائمين العذب والملح ، مع استقلال كل واحد منهما بخصائصه وأوصافه ، هذا عذب فرات مستساغ الطعم وقامع للعطش ، ومنبت للزرع ، وهذا ملح أجاج شديد الملوحة كربه الطعم تجرى فيه السفن ويأكل منه الناس لحما طريا ويستخرجون حلية يلبسونها وجعل بين المائمين « بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً » أى : وجعل الله تعالى بقدرته بين الملح والعذب حاجزا ومانعا لا سبيل إلى رفعه ودفعه ، حتى لا يطغى أحدهما على الآخر أو يغلب عليه ، فلا يعذب الملح بالعذب لقلة ما يتسرب منه إلى الماء الملح ، ولا يملح الماء العذب بمجاورته للماء الملح في مصبه ، لأن الله تعالى بقدرته العظيمة ، جعل البحار الملحة في أغوار منخفضة عن سطح الأرض وعن مجارى المياه العذبة ، بحيث لا يمتد في مجارى الأنهار إلا جزء قليل مجاور لها في مستواها ، وهو مصبها ، فبانخفاض البحار وعلو مستوى الأنهار ، حفظ الله طبيعة كليهما ، حتى ينتفع بالملح والعذب فيما خلقهما الله لأجله .

ويجوز أن يراد من الحجر المحجور : اليابس الذي جعله الله بين المائمين ، وحال به بينهما ، لينتفع بكليهما في موضعه من الأرض .

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا) :

أى : ومن جملة قدرته - تعالى - أن خلق من نطفة الرجل والمرأة إنسانا بعد أن طوره في مراحل المختلفة ، وأداره في أدوار التكوين فجعله قسمين : ذكرا يُنْتَسَبُ إليه فيقال : فلان بن فلان ، وفلانة بنت فلان ، وأنثى يُصَاهَرُ أهلها بزواجها فيتحقق بذلك الترابط ، وتم الصلات الطاهرة بين بنى الإنسان حتى يصيروا شعوبا وقبائل .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٩

(٢) سورة الحاثية ، من الآية : ١٣

وشأن من يقدر على هذه الآيات ، ويبدع هذه المخلوقات المتعددة الأنواع والصفات أن يكون عظيم القدرة لا يعجزه إبداع شيء من حيوان أو نبات أو جماد ، فهو الذى يقول للشيء : « كُنْ فَيَكُونُ » .

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ
الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا)

المفردات :

(ظَهِيرًا) : مظاهرا ومعاوننا للشيطان على عصيان الله ، والكفر به ، مثل قوله تعالى :
« وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ » ، والمراد بالكافر ؛ الجنس : ، أى كل كافر .

التفسير

٥٥- (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا) :
لما عدت الآيات السابقة آلاء الله ونعمه ، وأبرزت آثارها على الإنسان في تيسير حياته ، جاءت هذه الآية تنعى على الكفار بعمامة ، وعلى مشركى مكة بخاصة خفة أحلامهم وسفه عقولهم في إعراضهم عن توحيد الله ، وإنكار ألوهيته مع عظيم آياته ، وروائع آثاره ، وتندد باتخاذهم آلهة من دون الله يصنعونها بأيديهم ، ويشترونها من أسواقهم كما تشتري البهائم والسلع ، ويشاهدون حدوثها واختلاف أحوالها ، ثم يعظمونها بعد ذلك ، ويقدمون لها المقربين من نعم الله وما أفاءه عليهم ، وهى من الضعف والهوان بحيث لا تستطيع أن تجلب لهم نفعاً ، ولا أن تدفع عنهم ضرراً ، بل هى من المهانة بحيث لا تستطيع أن تجلب لنفسها نفعاً ولا تدفع عنها شراً ، وكان الكافر بعبادته لهذه الآلهة الواهنة ظهيراً للشيطان ومعيناً له على ربه ، ولن يغلب الله غالباً .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾)

المفردات :

- (مُبَشِّرًا) : تبشر الذين اتبعوك بالخير في الدنيا والآخرة .
 (نَذِيرًا) : تنذر المكذبين المعارضين لدعوتك وتخوفهم بعذاب بالغ في الشدة .
 (سَبِيلًا) : طريقاً يسلكه إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة .

التفسير

٥٦- (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) :

هذه الآية جاءت بعد الآية السابقة عليها، ليتسلى بها رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فلا تذهب نفسه حشرات على عناد قومه وإشراكهم .

والمعنى : ما عهدنا إليك بهذه الرسالة التي بعثناك بها إلى قومك ومن وراءهم لتحملهم عليها قسراً ، وإنما أرسلناك مبشراً بالسعادة والنعم المقيم في الجنة لمن أطاعوك ، وصدقوك واتبعوا سبيلك ، ونذيراً بعذاب شديد متناهي الإيلاام لمن خالفوك وعارضوك ، وكذبوا دعوتك ، فلا يحزنك هؤلاء الذين يسارعون في الكفر بغير روية ، ويستمرون عليه بعد ما قمت به من أمر التبليغ على خير وجه ، وأوضح بيان .

٥٧- (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) :

أي : قل أيها الرسول واعظاً لهؤلاء المشركين ، ودافعاً عن نفسك مظنة الانتفاع : ما أسألكم على ما أدعوكم إليه من توحيدهِ وعبادته أجراً ، ولا أطلب منكم في سبيل القيام بتبليغه جزاءً ، إلا اهتداءً من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ، فهذا أعظم أجر يناله الداعية إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ
بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ
فَسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾)

المفردات :

- (تَوَكَّلْ) : اعتمد بقلبك على ربك في الأمور .
(وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) : نزه ربك عن صفات النقصان حامدا له على نعمائه ، مشنيا
على كمالاته .
(خَبِيرًا) : عالما بدقائق الأمور وخوافيها فضلا عن ظواهرها .
(الْعَرْشِ) : عرش الله تعالى وهو لا يحد ، ويطلق لغة على سرير الملك ، وعلى العز
وقوام الأمر .
(اسْتَوَى) : الاستواء ؛ الاستيلاء

التفسير

٥٨- (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا) :

أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - في الآية السابقة أن يقول للمشركين :
إنه لا يطلب بدعوته إياهم أجرا ولا يطمع منهم في نفع ، وعقبها هذه الآية ليدعوه بها
أن يجعل اعتماده على الله وحده لا يبالي بأحد غيره ولا يابيه بعناد المشركين ، ولا يطمع
منهم في عون .

والمعنى : اعتمد - يا رسول الله - على ربك بقلبك في اتقاء شرورهم ، والاستغناء عن أجورهم

فإنه - سبحانه - جدير بالتوكل عليه ، والاستغناء به ، فهو الحي الباقي الذي لا يدركه فناء ، ولا ينقطع منه رجاء .

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا) :

أى : نزهه عن صفات النقصان ، مثنياً عليه بصفات الكمال التي تليق بذاته طلباً لرحمته ، وطمعاً في استزادة نعمه بمزيد الاعتراف بها والشكر عليها ، وكفى بالله ، ويعلمه التام خبيراً بذنوب عباده مطلقاً على ماخفى منها وما ظهر لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ليجازى عليها جزاءً وفاقاً .

٥٩- (الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا) الآية .

تضمنت هذه الآية وصفه - تعالى - بصفته الفعلية ، بعد وصفه بصفاته الذاتية ، إبرازاً لكمال قدرته على استجابة من توكل عليه ولجأ إليه ، فإن من يقدر على إنشاء هذه الأجرام العظام على هذا النمط الرائق ، والنسق الفائق في تدبير متين ، وترتيب رصين أحق أن يتوكل عليه ، ويفوض الأمر إليه .

والمراد بالعرش في قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » : الملك والسلطان ، وبالاستواء عليه : تدبيره لما خلقه دون شريك .

والمعنى : ثم أحكم سلطانه وتدبيره لما خلقه من السموات والأرض وما بينهما ، دون شريك ولا معين وبهذا أول الخَلْفُ الآية الكريمة ، لأنه تعالى لا يحل بمكان ولأنه موجود قبل أن يخلق العرش ، وعن الصادق والحسن وبأبي حنيفة ومالك - رضى الله عنهم - : أن الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والجحود له كفر ، والسؤال عنه بدعة ^(١) .

والمراد بالأيام في قوله تعالى : « فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » غير الأيام المعروفة لنا ، فإن الليل والنهار لم يكونا قبل خلق السموات والأرض ، فهي من أيام الله ، يعلم الله قدرها ، ولا مجال للحديث عنها ، فقد يكون اليوم أكثر من خمسين ألف سنة مما يعدلون .

(١) تقدم الكلام مستوفى على معنى قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » في سورة الأعراف .

ومهما يكن فإن قدرة الله لا يعجزها خلق السموات والأرض في أى زمان كان طويلا أو قصيرا ، وهو الذى يقول للشيء : كن فيكون ، وإنما جاء هذا التحديد لحكم جليلة ، وغايات جميلة ، ولتكون الرؤية والأناة منهج القادرين ، وأسلوب العاملين ، وسبحان من لا تحيط العقول بحكمته ، ولا تدرك أسرار صنعته .

وقوله تعالى : « الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا » جملة مستأنفة ، تقديرها : هو الرحمن ، سبقت مساق المدح لتقرير رحمته التى وسعت كل شيء بعد ما ثبت له من الصفات السابقة تأكيدا لوجوب التوكل عليه .

« فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا » الأمر موجه إلى كل مكلف أى : فاسأل بالرحمن خبيرا - والمراد بالسؤال به تعالى : السؤال عن تفصيل رحمته وشئونه فى خلقه ، والخبير : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم - .

والمعنى الإجمالى للآية : الذى خلق السموات والأرض بأجزائهما وما استقر فيهما ، وخلق الكواكب التى زين بها سماواته ، وخلق ما بين السماء والأرض من الهواء والأشعة الكونية وما يعلمه الناس وما لا يعلمونه فاسأل عن الرحمن الذى أبدع هذا الكون العظيم ، وشمل من فيه برحمته - اسأل عنه أيها المكلف رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - فهو وحده الخبير الذى يعلم شئون ربه فى خلقه ، وهو وحده الذى يجيبك بحق ، وصدق ، فإنه « لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ » فما يقوله عنه فهو حق ، وما يخالفه فهو مردود على قائله .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾) ﴿٦١﴾

المفردات :

(نُفُورًا) : تباعدا عن الإيمان ، وإصرارا على الكفر .

التفسير

٦٠ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) :

ذكرت الآية السابقة إطلاق وصف الرحمن على الله تعالى ، وجاءت هذه الآية بعدها تنعى على المشركين جحودهم لهذا الاسم ، وإصرارهم على الكفر به ، ونفورهم من أمرهم بالسجود له .

والمعنى : وإذا قال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - : اسجدوا للرحمن تبليغا عن ربه قالوا على سبيل التعجب ، أو السخرية والتجاهل أو الإنكار : وما الرحمن ؟ قالوا ذلك لما أنهم كانوا لا يطلقون هذا الاسم على الله تعالى . ومعنى قولهم وما الرحمن ؟ : وما هذا الاسم الذى تسمى به الله ولا نعرفه ؟ .

(أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا) : أى لا نسجد للذى تأمرنا بالسجود له وتسميه الرحمن فنحن لا نعرفه ، ولا نُقِرُّ به ، ولا نطيع لك فيه أمرا ، وزادهم الأمر بالسجود نفورا عن الإيمان وإصرارا على الكفر .

وكان سفيان الثوري يقول فى هذه الآية : « إلهى : زادنى لك خضوعا ، مازاد أعداءك نفورا » .

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا
 وَقَمَرًا مُنِيرًا ٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ
 أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ٦٢)

المفردات :

(بُرُوجًا) : منازل للشمس والقمر ، وهي المنازل الاثنا عشر ^(١) ، مفردها
 برج ، والبرج : كل مرتفع ، سميت بذلك تشبيهاً لها بالقصور العالية .
 (سِرَاجًا) : المراد به الشمس لقوله تعالى : « وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا » وقرئ سُرْجًا
 بصيغة الجمع ، فيكون المراد بالشمس : الجنس الشامل لكل ما مائل شمسنا في المجرة
 التي تتبعها .
 (مُنِيرًا) : مضيئاً ليلاً ، ووصفه بمنيراً . دون مضيئ يشعربأن نوره مستمد من
 الشمس (خِلْفَةً) : أى يخلف كل منهما الآخر (يَذَّكَّرَ) : يتعظ ، وأصله :
 يتذكر ، أدغمت تاء الافتعال في الذال بعد قلبها ذالا .
 (شُكُورًا) : شكراً كثيراً لله تعالى على نعمه .

التفسير

٦١ - (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا) :
 هذه الآية والتي بعدها تُؤَكِّدَانِ تنزيه الله ، وتعظيمه ، وتعددان آيات قدرته
 وبدائع صنعه واستحقاقه السجود له .

(١) وهي منازل الكواكب السبعة السيارة : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأمد ، والسنبلة ، والميزان ،
 والمقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت .

والمعنى : تنزه الله وتعالى واستحق كل تعظيم وتمجيد ، وكل إذعان وطاعة لما أحكم من صنعه إذ جعل في السماء منازل اثني عشر لنزول الشمس والكواكب ، وجعلها على أربعة أقسام : ثلاثة ربيعية ، وثلاثة صيفية ، وثلاثة خريفية ، وثلاثة شتوية ، وبهذا يختلف الزمان حرارة وبرودة ، ويختلف الليل والنهار طولاً وقصراً ولا يخفى أثر ذلك في إنبات النبات ، وإنضاج الثمار والزروع وملاءمة أحوال الناس في أعمالهم ومهنهم ، كما جعل في السماء شمساً تضيء الأرض كما يضيء السراج المكان الذي يسرج فيه ، وجعل فيها قمراً ينسخ ظلام الليل ، ويخفف من عظمته ، فيهتدى بذلك السارى ، وتقل به الوحشة ؛ قال تعالى : « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » .

والضمير في قوله تعالى : « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » يعود على البروج لقربها ، ويجوز أن يكون عائداً على السماء ؛ لأنها الأصل .

٦٢ - (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) :

أى : وهو الله الذى توافرت نعمه ، وتعاضم فضله ، فجعل تعاقب الليل والنهار وفاءً بمتطلبات الحياة واحتياجات خلقه في إنبات النبات ، وإنضاج الثمار والزروع وتقليبهم في أعمالهم وأسفارهم وإخلادهم إلى الراحة ، وفي هذا غاية العبرة لمن أراد أن يعتبر بشأمله في محكم آياته ، وجلائل تدبيره ، فيعلم أن لا بد لهذا الكون من إله قادر وصانع حكيم ، كما أن فيه أوسع مجال لمن أراد أن يتعاضم حمده لربه ، ويتزايد شكره لخالقه على توافر نعمه ، وتزايد آلائه ، وقال ابن كثير : جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادته ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ، وقد جاء في الحديث الصحيح : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » .

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) ٦٣ وَالَّذِينَ يَبِينُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ٦٤ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ٦٦)

المفردات :

(يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) : أى مشياً لنا بسكينة ووقار وتواضع .

(الْجَاهِلُونَ) : المراد بهم السفهاء .

(قَالُوا سَلَامًا) : أى قالوا للسفهاء تسليماً منكم ، ومتاركة لكم وبُعداً عنكم .

(غَرَامًا) : هلاكاً لازماً ، وشرّاً دائماً ، من قولهم : هو مُغرَم بكذا ، أى : يلزمه

ملازمة الغريم .

(مُسْتَقَرًّا) : مكان استقرار وسكن .

(مُقَامًا) : دار إقامة ، من أقام بالمكان ؛ إذا سكنه ولزمه .

التفسير

٦٣ - (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) :

هذا كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف المؤمنين الصادقين بعد بيان أحوال المشركين الجاحدين لوحداية الله ، النافرين من عبادته والسجود له ، وبضدها تتميز الأشياء .

وعباد الرحمن : من العبودية التى هى إظهار التذلل والخضوع ، مع القيام بمقتضياتها من حسن الطاعة وجميل الانقياد والامتثال ، والتعبير عن المؤمنين الصادقين بلفظ :

(عباد) وإضافتهم إلى الرحمن فيه تقدير لإيمانهم ، وحسن أعمالهم وتشريف لهم ، وتبكييت للمشركين الذين أنكروا اسم الرحمن ، وأعرضوا عن السجود له ، وقوله تعالى : « يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » : معناه يسبرون في تقلبهم لتحصيل معاشهم ، والسعى في حاجاتهم سيرا هيناً لنا لا بغى فيه ولا استعلاء ، فكلمة : (هونا) مصدر وقع وصفا لموصوف محذوف ، وقيل : المشى الهون يقابل السريع وهو مذموم ؛ لقوله - صلى الله عليه وسلم - فيما أخرجه أبو نعيم ، وابن النجار عن ابن عباس : « سرعة المشى تذهب بهاء الرجل » .

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ) : معناه إذا تكلم معهم السفهاء بالسوء أو بكلام يؤذيهم ويكرهون سماعه أعرضوا عنهم تحلماً وساحة ، وقالوا ردّاً عليهم : تسلماً منكم ومتاركة لكم ، فليس معنى : (سَلَامًا) السلام المعروف لأن الآية في مشركى مكة فلا سلام عليهم ، والذي يظهر من الأسلوب أن المفهوم من قولهم سلاماً هو سداد الرد مع البعد عن التفحش ومجاراة السفهاء .

وقيل معناه : إذا سفه عليهم الجاهلون بالسوء ، لم يقابلوهم بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان - صلى الله عليه وسلم - لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً ، وقوله تعالى :

٦٤ - (وَ الَّذِينَ يَبْتَثُونَ سُجْدًا وَقِيَامًا) :

معطوف على قوله تعالى : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ... » الآية داخل معه في حيز الخبر لقوله تعالى : « وَ عِبَادُ الرَّحْمَنِ » وفيه بيان لحالتهم مع ربهم ، بعد بيان سلوكهم مع السفهاء خفاف الأحلام من مداراتهم وعدم مجاراتهم ، وكان الحسن يقول : إذا قرأ الآية الأولى : هذا وصف نهارهم ، وإذا قرأ هذه الآية قال : « هذا وصف ليلهم » ويبعثون من البيثوتة - وهى الدخول فى الليل وإدراكه بنوم أو بدون نوم .

والمعنى : وعباد الرحمن الذين يحيون ليلهم بالصلاة قائمين ساجدين لربهم ، وتقديم السجود على القيام مع تأخره عنه فى الأداء إيماء إلى شرف السجود لما فيه من غاية الخضوع وفضل التذلل ، وقد ورد : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » وقد حرم منه إبليس ، وأباه المشركون ، ونفروا من أدائه . هذا فضلاً عن مراعاة رؤوس الآى .

٦٥ - (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ) :

معناه : والذين يتجهون إلى الله في أعقاب صلاتهم ، وفي أوقات تهجدهم وفي جميع أحوالهم - يتجهون إلى الله بالدعاء - قائلين : يا ربنا وإلهنا الذي نلجأ إليه في سرائنا وضرائنا أبعد عنا عذاب جهنم وقتنا إياه .

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) : هذه الجملة مقولة على لسان الداعين فيما يظهر، لتعليل دعائهم السابق بأن يقيهم الله عذاب جهنم ، أى : اصرف عنا عذابها ؛ لأنه هلاك لازم وشر دائم .

٦٦ - (إِنَّهَا سَاعَتٌ مُّسْتَقَرَّةٌ وَمُقَامًا) :

تعليل ثان لدعائهم بأن يقيهم الله عذاب جهنم ، أى : إن جهنم قُبِحت وبُستت دار استقرار وإقامة لمن هو فيها ، يكتوى بلظاها ، ويحترق بسعيرها ، قال الحسن : كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم .

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) (٦٧)

المفردات :

(يُسْرِفُوا) : يُفْرِطُوا في الإنفاق حتى يضرروا باحتياجات معيشتهم ، ومصدره : الإسراف ، وهو التبذير في النفقة ، والاسم منه : السَّرْفُ - بفتح السين - وهو ضد القَصْد .

(يَقْتُرُوا) : يُضَيِّقُوا في النفقة على أنفسهم وعيالهم تضيق الشحيح ، وماضيه : قَتَر ، من باب : ضرب ودخل ، ويقال : قَتَر وأَقْتَر .
(قَوَامًا) : وسطًا وعدلًا .

التفسير

٦٧ - (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا) الآية .

تناولت الآيات السابقة في وصف عباد الرحمن أنهم مع السفهاء والجاهلين يُتَارَكُونَهُمْ ولا يجاهلونهم ، ومع الله تعالى يتواضعون ويشغلون بعبادته ويشفقون من عذاب جهنم ويتعففون منها ، ثم جاءت هذه الآية تمدحهم بالاعتدال والقصد في شئون معاملاتهم والإنفاقهم واختلف المفسرون في تحديد معنى الإسراف والتقتير ، فذهب جماعة إلى أن الإسراف هو الإفراط ومجاوزة الحد في الإنفاق دُنْيَا وَدِينًا ، فصفا عباد الرحمن : القصد والتوسط فإذا أنفقوا من أموالهم على أنفسهم وعيالهم ، أو تصدقوا منها على الفقراء والمساكين ، أو بذلوا في وجوه الخير ، والمصالح العامة التي تعود بالنفع على المسلمين ، التزموا الاعتدال والوسط ، فلم يجاوزوا الحد ، ولم يُفْرِطُوا في الإنفاق إلى حد الإسراف لكيلا يفتقروا ويضيعوا أنفسهم وعيالهم ، ولم يبالغوا في التقتير والتضييق ، ولم يبلغوا درجة البخل والشح

بين تبذير وبخل رتبة وكلا الحالين إن عام قتل

وذلك هو القوام ، وهو ما يفهم من قوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا » والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول فيما رواه حذيفة : « ما أحسن القصد في الغنى ، وما أحسن القصد في الفقر ، وما أحسن القصد في العبادات » وقد قيل : « إِنْ الْمُنْبَتُّ لَا أَرْضًا قَطَعَ ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى » .

وذهب جماعة إلى أن الإنفاق في طاعة الله ليس سرفاً مهما بلغ ، ولهذا ترك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سيدنا أبا بكر يتصدق بماله كله ، وأقره عليه ، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : « من أنفق مائة ألف دينار في حق فليس بسرف ، ومن أنفق درهماً في غير حقه فهو سرف » ومن منع في حق عليه فقد قتر ، قال النحاس : ومن أحسن ما قيل في معناه : « أَنْ مَنْ أَنْفَقَ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ فَهُوَ الْإِسْرَافُ ، وَمَنْ أَمْسَكَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ - عز وجل - فهو الإقتار ، ومن أنفق في طاعة الله تعالى فهو القوام » وسمع رجل رجلاً يقول : لا خير في الإسراف فرد عليه بقوله : « ولا إسراف في الخير » .

والرأى الفقهى فى هذا أن يترك المؤمن لذويه ما يقيهم العوز ، لقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » وهو الظاهر من معنى الآية .

(وَقَوَامًا) : - بالفتح - وسطاً وعدلاً ، وسمى قواماً ، لاستقامة الطرفين وتعادلتهما ، وقرئ : قواما - بكسر القاف - فقيل : هما لغتان بمعنى واحد ، وقيل : القوام - بالكسر - : ما يقام به الشيء ، ومعناه هنا ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص .

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضْعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) (٧١)

المفردات :

(أَثَامًا) : عقاباً شديداً لا يقادر قدره على إثمه ، والكلام على حذف مضاف ، أى : يلقى جزاء أثام .

(يَخْلُدْ) : يقيم فيه أبداً ، وأصل الخلود فى اللغة : المكث الطويل .

(مُهَانًا) : حقيراً ذليلاً النفس .

(مَتَابًا) : رجوعاً عظيم الشأن مرضياً عنه .

التفسير

٦٨ - (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . . .) الآية .

هذه الآية تنمة لملاح عباده الرحمن ، وقد امتدحهم الله في الآيات السابقة بما تحلوا به من أصول الطاعات ، والاجتهاد في تحصيل الفضائل وامتدحهم في هذه الآية بالبعد عن فعل الكبائر ، ومجافاتها ، والتنصيص على تركهم هذه الكبائر بخصوصها لتحويل أمرها ، وتفضيع جرمها ، وللتعريض بمشركى مكة الذين دأبوا على ارتكابها وأمعنوا في اقترافها .

والمعنى : أن هؤلاء المؤمنين الذين شرفهم القرآن فأضافهم إلى الرحمن بالعبودية مخلصون في عبادته ، فلا يشركون معه إلها آخر على عادة المشركين الذين كانوا يشركون آلهتهم في العبادة مع الله ، كما أنهم لا يقدمون على قتل النفس الإنسانية؛ التي حرم الله قتلها لأى سبب من الأسباب إلا بحق يقتضيه كحد أو قصاص يقيمه السلطان عليها ، وكذلك من فضائل صفاتهم أنهم لا يقربون الزنى فإنه يهتك الأعراض ، ويخلط الأنساب ، ويشيع الفاحشة والفساد ، وقد صح عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » ، فأنزل الله تصديق ذلك : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ . . . » الآية .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ » أى : ومن يفعل ذلك المذكور من الإشراك ، وقتل النفس ، والزنى - كما هو دأب الكفرة - يلقى فى الآخرة عذاباً شديداً لا يقادر قدره على إثمه ، فالكلام على تقدير مضاف محذوف ، أى : يلقى جزاء أثامه .

٦٩ - (يُضَاعَفُ^(١) لَهُ الْعَذَابُ . . .) الآية .

أى : أنه تعالى يعذبه على ارتكاب أى ذنب من هذه الذنوب عذاباً مضاعفاً إذا كان معه الكفر ، أما إذا فعله غير الكافر فلا يضاعف عذابه ، لقوله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » ، ومعنى : (وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا) : يقيم فى هذا العذاب مهيناً ذليلاً ، بجمع إلى

(١) يضاعف : بدل من (يلقى) .

عذاب البدن عذاب الروح ، وتلوم إقامته في هذا العذاب أبداً إن ضم إلى فعل هذه المعاصي الكفر كما يشعر به قوله تعالى : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ . . . » الآية .

٧٠- (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا . . .) الآية .

أى : أن من رجع عن كفره وأقلع عن إشراكه وآمن إيماناً صادقاً لا غش فيه ولا نفاق - من تاب وآمن - من هؤلاء وأولئك وأتبع إيمانه بالعمل الصالح ، وداوم على فعل المأمورات ، وترك المنهيات ، والاستزادة من عمل الخيرات ، واستباق المحامد والفضائل ، فأولئك يتجلى الله عليهم بفيض رحمته ، فيبدل سيئاتهم حسنات ، بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ، ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم ، أو يبدل سبحانه ملكة السيئات ودواعيها في النفس بملكة الحسنات .

(فَأُولَئِكَ ^(١) يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) :

أى : فأولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله عظيم المغفرة كريم العفو ، واسع الرحمة بعباده يتفضل بإثابة الطائعين وقبول توبة التائبين .

٧١- (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا . فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) :

ترتبط هذه الآية بالآية التي قبلها ارتباط العموم والخصوص ، فالآية الأولى في خصوص التوبة عن الكفر والكبائر والمعاصي المذكورة فيها ، وهذه الآية في عموم التوبة الشاملة لتوبة عصاة المؤمنين .

والمعنى : كل من تاب إلى الله ، وأخلص في الرجوع إليه وأقلع عن فعل المعاصي كلها وندم على ما فرط في جنب الله ، وعلى تقصيره في تحصيل طاعة الله ، ثم شمر عن ساعد الجد في إخلاص العبادة والإخلاص في الطاعة ، فإنه بذلك يكون قد رجع إلى الله تعالى رجوعاً عظيم الشأن مرضياً عند الله ^(٢) ، ماحياً للعقاب محصلاً للثواب .

(١) قوله تعالى : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » إشارة إلى الموصول المتقدم في قوله : « إلا من تاب . . . » إلخ باعتبار معناه ، كأن الأفراد في الأفعال الثلاثة : تاب وآمن وعمل باعتبار لفظه ؛ لأن الموصولات المشتركة لفظها دائماً مفرد ، ومعناها يكون مفرداً ومثنى وجمعاً ومذكراً ومؤنثاً بحسب ما تقع عليه .

(٢) وبتقريب المتاب بالمصاب المرضي عنه عند الله يتدفع ما يظهر من اتحاد الشرط والجواب في قوله تعالى : « ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً »

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ) : أى ، لا يؤدون الشهادة الكاذبة الباطلة ، و (الزُّورَ) : الباطل .

التفسير

٧٢- (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) :

أى : ومن صفات عباد الرحمن التى امتدحوا بها أنهم لا يؤدون شهادة الزور ، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ، ليحصلوا على ما ليس لهم ، أو يضيعوه على من يستحقه ، وقيل : لا يشهدون مجالس الزور ، ولا يقفون عليها ، وإذا اتفق لهم أن مروا على مجالس الأقوال الماجنة التى لا تليق بكرام الناس مروا مروراً عابراً مكرمين أنفسهم عن سماعها ، والوقوف عندها والخوض فيها - عن ابن عساكر عن إبراهيم بن ميسرة قال : « بلغنى أن ابن مسعود - رضى الله عنه - مرّ ببلهو معرضاً ، ولم يقف ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » ثم تلا إبراهيم : (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) .

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِعَايَةِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُقَمَانًا ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(يَخِرُّوا) : من الخرور ، وهو السقوط على غير نظام .

التفسير

٧٣- (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) :

أى : والذين إذا ذكرهم أحد بآيات ربهم المنطوية على المواعظ ، الموجهة إلى الاهتداء ، لما فيه سعادة الدنيا والآخرة أكبوا عليها سامعين لها بآذان واعية مجتلين لها بعيون راعية ولم يسقطوا عليها صُمًّا لا يسمعون ، وعُميَانًا لا يبصرون .

والتعبير عن إقبالهم على آيات الله والانتفاع بها بقوله : (لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) تعريض بما يفعله الكفار إزاء سماعهم إياها ، من الإعراض عن الاستفادة بها ، كأنهم صم وعميان .

وقيل : الضمير في (عليها) للمعاصي ، المنوه عنها باللغو ، على معنى : أنهم إذا وعظوا بآيات ربهم المتضمنة للنهي عن المعاصي ، والتخويف من ممارستها ، لم يستجيبوا لتلك المعاصي ، وكانوا كالصم الذين لا يسمعون لها داعيا ، والعمى الذين لا يبصرون لها مرتكبا .

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۖ) (٧٤)

المفردات :

(قُرَّةَ أَعْيُنٍ) : من القرّ - بالضم - وهو : البرد ، كناية عن السرور ، لأنهم يقولون : دمة السرور باردة ، ودمة الحزن ساخنة ، وقيل : من القرار ، لأن السرور تقر به العين وتسكن ، والحزن يضطرب له النظر ويزيغ ، ولفظ : (الأعين) استعمل في القرآن كله في العين الباصرة ، ولفظ : (عيون) استعمل في العين الجارية . (إِمَامًا) : قدوة يقتدون بنا في إقامة مراسم الدين ، ولفظ : (إمام) يستعمل في المفرد والجمع ، وهو في هذا المقام يراد به الجمع ، وروى عن مجاهد أن : (إِمَامًا) : جمع آم ، بمعنى قاصد ، كصيام جمع صائم ، وكذلك ذكر القاموس .

التفسير

٧٤- (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ . . .) الآية .

هذه الآية انتقال من أوصاف عباد الرحمن في أنفسهم إلى أمانيتهم فيمن يحبونهم ، ويرتبطون بهم .

والمعنى : أن من صفات عباد الرحمن ألا ينسوا وهم في شغلهم من عبادة الله ، والانهماك في طاعته ، لا ينسون أهلهم ، وأولادهم ، يتوجهون إلى الله بالدعاء لهم ، وطلب هدايتهم - وهذا شأن الصالحين من الآباء ، بل إن من الآباء من يقدم ولده على نفسه ، ويؤثره بالخير له ، وخير الآخرة عند الصالحين أفضل ما يرجي للأهل ، والأولاد ؛ لأنه الأبقى ، وإن المؤمن إذا ساعده أهله وولده في طاعة الله ؛ اشتد سرور قلبه ، وقرت عينه ، لما يشاهده منهم من مشاركتهم في مناهج الدين ، وتوقع لحوقهم به في نعيم الآخرة ، طمعا في عِدَّةِ الله تعالى بقوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » وقد ذكروا أنه كان في أول الإسلام يهتدى الأب والابن كافر ، ويهتدى الزوج والزوجة كافرة ، فلا يطيب عيش ذلك المهتدى ، فكانوا يدعون هذا الدعاء .

ولهذا كان من الصفات التي امتدح الله بها عباده أنهم يتجهون إليه بالدعاء لصلاح أزواجهم وذرياتهم ، يقولون : ربنا ارزقنا وهب لنا من أزواجنا وذرياتنا ما يسرنا وتقر به أعيننا من توفيقهم للطاعات ، واحتيازهم للفضائل التي هي غاية ما نرجوه لصلاح ديننا ودنيانا ، أما زهرة الدنيا وزينتها فلا تغلبنا على آخرانا .

ثم يعودون إلى أنفسهم بالدعاء لها بقولهم : (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) : أى اجعلنا بحيث يقتدى بنا المتقون ؛ في إقامة مراسم الدين بتعلم العلم ، والتوفيق في العمل .

وعن مجاهد : اجعلنا قاصدين للمتقين ، مقتدين بهم ، وهذا المعنى : مبنى على أن (إِمَامًا) : جمع آئمة ، بمعنى : قاصد ، والمعنى الأول أوفق ، وفيه - على المعنى الأول - أن الرياسة في الدين ؛ ينبغي أن تطلب لمن يأنس في نفسه حسن القيام بها ، وتحقيق مقتضاها بعدل وأمانة .

(أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) (٧٦)

المفردات :

(أُولَئِكَ) : إشارة إلى الموصوفين بجميع الصفات السابقة ، وهو مبتدأ خبره الجملة التي بعده وما عطف عليها ، وجملة أولئك يجزون أولئك يجزون . . . إلخ خبر عن (عباد الرحمن) .

(الْغُرْفَةُ) : الدرجة العالية من المنازل ، وكل بناء مرتفع ، وقيل : أعلى منازل الجنة ، و «ال» فيها للجنس ، والمراد بالغرفة الجمع ، فَأَلْ فِيهِ للاستغراق ليوافق قوله تعالى : «وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ» .

(تَحِيَّةٌ) : دعاء بإطالة الحياة .

(وَسَلَامًا) : دعاء بالسلامة من كل ما ينغص عليهم طيب إقامتهم .

التفسير

٧٥- (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . . .) الآية .

أى : أولئك الموصوفون بما سبق من الصفات الجميلة يجزون الغرف العالية في الجنة ينعمون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر - أولئك يجزونها - بسبب صبرهم على مداومة الطاعات ، واجتهادهم في أعمال الصالحات ، ومجاهدتهم في مقاومة الشهوات ، وتلقاهم الملائكة ، أو يتلقى بعضهم بعضا بالتحية المتضمنة دوام إقامتهم ، والسلام المتضمن معافاتهم ؛ من كل ما يكدر صفو نعيمهم أو ينغص نعيم إقامتهم تكرماً لهم وابتهاجا بحلولهم ، وزيادة في أنسهم ، وإدخال السرور عليهم .

٧٦- (خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) :

هذه الآية تأكيد لما تقرر في الآية السابقة ، وزيادة في طمأننتهم ، ومعنى : « خَالِدِينَ فِيهَا » مقيمين في الجنة أو في الغرفة إقامة دائمة لاتنقطع فلا يموتون ولا يخرجون ، وقوله تعالى في شأن الجنة مقر المؤمنين : « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » في مقابلة قوله تعالى في شأن جهنم مقر المشركين : « سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » ، ومعنى « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا » : طابت دار سكن واستقرار ، ومقام راحة ونعيم ؛ لمن اكتملت لهم الصفات الكريمة ، التي اشتملت عليها الآيات السابقة ، وهي كما يلي :

١- معاملتهم الخلق بالتواضع ولين الجانب في قوله تعالى : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » .

٢- التسامح ، والصفح ؛ في معاملة السفهاء ، والجاهلين ، في قوله تعالى : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » .

٣- التهجد ليلاً والاجتهاد في العبادة في قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا » .

٤- الخوف من الله ، والإشفاق من عذاب جهنم في قوله تعالى : « رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ... » الآية .

٥- الاعتدال ، والقصد في الإنفاق ؛ في قوله تعالى : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ... » الآية .

٦- الإيمان الجازم بوحداية الله ، واحترام حرمة النفس البشرية والعفة في قوله تعالى : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ... » الآية .

٧- اتباع الحق ، وتجنب شهادة الزور ، ومجامع اللهو في قوله تعالى : « وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ... » الآية .

٨- الانتعاض بآيات الله تعالى وحسن تلقئها ، والانتفاع بها في قوله تعالى : « وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ... » الآية .

٩- التماس صلاح الأهل والنرية بالدعاء لهم في قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا ... » الآية .

(قُلْ مَا يَعْبَهُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۖ) (٧٧)

المفردات :

(مَا يَعْْبَهُ بِكُمْ رَبِّي) : ما استفهامية ، والمعنى : أى عبء يعبأ بكم ربى ، وأى اعتداد يعتد بكم ؟ تقول : ما عبأت به ، أى : ما اكرثت .
(لِزَامًا) : لازماً ثابتاً لا ينفك .

التفسير

٧٧- (قُلْ مَا يَعْْبَهُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ...) الآية .

في هذه الآية أمر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التى يتنافس فيها إنما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلاً .

والمعنى : قل يا رسول الله لعامة الخلق - مشركين ومؤمنين - مشافهاً لهم : (مَا يَعْْبَهُ بِكُمْ رَبِّي) أى عبء ، ولا يكرث بكم أى اكرث ، وأنتم العبيد الضعفاء ، والمخلوقون الفقراء ، لولا دعاؤكم وعبادتكم ربكم ، فإنكم ما خلقتم إلا لعبادته مصداقاً لقوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » .

وقوله : « فَقَدْ كَذَّبْتُمْ » معناه : فقد كذب الكافرون منكم ، وإذا كان التكذيب حالهم مع قيام الحجة عليهم فسوف يكون العذاب لازماً ثابتاً لهم .

واختار غير واحد أن الآية كلها خطاب لكفار قريش ، والمعنى على هذا قل لهؤلاء المشركين : ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤه إياكم إلى التوحيد تقويماً لوجودكم ، وتنظيماً لسلوككم ، وارتفاعاً بأعمالكم عن العيب ، حتى لا تكونوا هملاً كالبهائم تسبرون لغير غاية ، وتعملون لغير هدف ، وتنتهون إلى النار ، فقد كذبتكم مع قيام الحجة عليكم فكان العذاب لازماً لكم مابقيتم على كفركم .

وهكذا : تنتهى سورة الفرقان ، وقد تضمنت آياتها تصنيف الخلق إلى صنفين : صنف كذب وأغرق في الكفر ، والعناد ، ومعارضة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقال : القرآن أساطير الأولين ، وعاب أن يكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - بشراً يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ، واقترح نزول الملائكة أو رؤية الله تعالى وعارض نزول القرآن مُنْجِماً ، وعَمِيَ بصره وطمست بصيرته عن تدبر آيات الله في كونه ؛ فاستحق عذاب جهنم خالداً فيها ساءت مستقراً ومقاماً .

وختمت بصنف آخر استجاب للدعوة ، وصدق الرسالة والرسول - صلى الله عليه وسلم - وأخلص في العبادة والتوحيد ، وجد في الطاعة فروضها ونوافلها ، وجانب المحرمات ، وخالف الشهوات ، وتحلّى بكريم الصفات ، فاستحق الجزاء الكريم ، في نعيم الجنة خالداً فيها حسنت مستقراً ومقاماً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« سورة الشعراء »

هذه السورة مكية ، وآياتها سبع وعشرون ومائتان ، وسميت بهذا الاسم لأن الله ذكر فيها طرفاً من أحوال الشعراء في قوله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . . . » إلخ .

وهذه السورة لها اتصال وثيق بالسورة التي قبلها : (سورة الفرقان) فكلتاها بدأهما الله بالإشادة بالقرآن العظيم ، وفيهما أيضاً تسليية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عما يبدر من قومه من ألوان الإيذاء والإعراض ، فضلاً عن أن في هذه السورة بسطاً وتفصيلاً لبعض ما مر في سورة الفرقان من أخبار الرسل - عليهم السلام - مع من أرسلوا إليهم .

محتويات هذه السورة

- ١ - أنها نوهت بفضل القرآن ووصفته بالكتاب المبين ، وأشارت إلى إعراض قريش عن الإيمان به ، وتألله - صلى الله عليه وسلم - لذلك : (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) .
- ٢ - أنها غُنِيَتْ بِأخبار وقصص بعض رسل الله - عليهم السلام - مع أقوامهم ، وبسطت بعضها كقصّة سيدنا موسى مع فرعون وقومه ، وقصّة سيدنا إبراهيم مع أبيه وقومه ، وما جرى بينه وبينهم من مجادلات ومحاورات أيد الله فيها خليله بالبراهين الساطعة فبهت الذي كفر ، ثم جاء فيها ذكر لقصص بعض الأنبياء : كنوح ، وهود ، وصالح ، وغيرهم وأن الله أيدهم وكتب لهم الغلبة والفوز على أقوامهم الذين تمادوا في غيهم وكيدهم ، وكيف كانت الدائرة عليهم ، حيث أيد الله رسله - عليهم السلام - ونصرهم على أعدائهم ومكّن لهم .
- ٣ - أنها أشادت في آخرها بالقرآن الكريم .

قال تعالى : « وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » وأفحمت المشركين وأبطلت زعمهم من أن القرآن من وحى الشياطين ، وكانت نهاية السورة متلاقية مع بدئها بياناً لمنزلة القرآن العالية ومكانته السامية ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(طَسَمَ ١) تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ
نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ
ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٤ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ
مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥ فَقَدْ كَذَّبُوا
فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٦ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى
الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٧ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٩)

المفردات :

(الْكِتَابِ الْمُبِينِ) : القرآن الواضح الدلالة .

(بَاخِيعٌ نَفْسَكَ) : مهلكها .

(ءَايَةً) : معجزة .

(ذِكْرٍ) : موعظة تذكروهم .

(مُحَدَّثٍ) : مجدّد لم يسبق نزوله .

(زَوْجٍ كَرِيمٍ) : صنف طيب لليد .

التفسير

١ - (طَسَمَ) : يقول سلف هذه الأمة الإسلامية في هذه الكلمة وفي أمثالها : إنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ، وقيل : إنها للإيقاظ والتنبيه إلى سماع القرآن ، فإنها لفظ لاتألف إلا بابتداء الكلام به فيلفتها إلى الإصغاء ، وقال قوم : إن المقصود : هو التحدى للعرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، فهو يشير إلى أن القرآن مكون من هذه الحروف التي تتركب منها كلماتهم ومع ذلك لم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله ، وقد سبق الكلام مستوفى على مثله في أول سورة البقرة ، وآل عمران وغيرهما ، فارجع إليه إن شئت .

٢ - (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) :

(تِلْكَ) : إشارة إلى أن آيات القرآن الكريم قد سمت منزلتها ، وعلا قدرها ، وعظم شأنها ، وجلت عن أن يدانيها كلام البشر ، فهي آيات الكتاب المنزل من عند الله الذي أبان فيه الحق وأظهر الأحكام وتحدث عن أخبار الأمم السابقة ، وعن آيات الله الكونية بأسلوب أعجز الجن والإنس : « قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »^(١) .

٣ - (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) :

كلمة (لَعَلَّ) تستعمل لغة في إشفاق المتكلم ، ولما استحال في حقه سبحانه ، وجهوه إلى المخاطب ، ولما كان غير واقع من النبي - صلى الله عليه وسلم - أيضًا ، قالوا : المراد الأمر به ، لدلالة الإنكار المستفاد من سوق الكلام عليه ، فكأنه قيل له : أشفق على نفسك أن تقتلها وتهلكها حسرة وكمداً لاستمرار قومك على الكفر^(٢) ، وتمسكهم بما ورثوه عن آبائهم من الضلال والزيف والبعد عن الحق ، فأمر هدايتهم ليس لك وإنما مرده إلى الله

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٨

(٢) وقال العسكري : هي في مثل ذلك موضوعة موضع النهي ، والمعنى : لا تبغ نفسك ، وقيل : وضعت موضع الاستفهام ، والتقدير : هل أنت باخع نفسك . . إلخ - انظر الآلوسي .

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ »^(١) ، « إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَّنَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ »^(٢) .

٤- (إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) :

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة السر في أمره لرسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يترفق بنفسه ويشفق عليها فلا يقتلها فيقول له : إن أردنا أن نأتي بآية ننزلها عليهم من لدنا تقهرهم وتلجئهم إلى الإيمان وتكرههم عليه فتذل له رقابهم وتخضع له نواصيهم وينقادون إليه دون إرادة منهم فلا يستطيعون فكاكاً ولا هرباً ، وتفسرهم على الطاعة فلا يلتفتون إلى معصية أبداً ، لو أردنا ذلك لفعلنا ، ولكن حكمتنا اقتضت أن نبين طريق الخير ونهدي إليه ، ونوضح سبيل الشر ونحذر منه ، ونختبر العباد بذلك لنعلم الذين صدقوا ونعلم الكاذبين ونحاسب كلًّا بما يتفق مع عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فكل نفس بما كسبت رهينة ، وحسبهم ما أنزله الله تعالى على رسوله من معجزة القرآن الكريم ، فهي أقوى المعجزات في عصر العلم .

٥- (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُخَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) :

هذا بيان لشدة عنادهم وتماديهم في باطلهم وإصرارهم على ما كانوا عليه من الكفر ، والتكذيب ، فقد لجوا في الطغيان وتجاوزوا الحد في الضلال ، وعموا وصموا عما يأتيهم من الآيات والمواعظ التي يجدد الرحمن إنزالها لهم من مكنون غيبه وقديم كلامه^(٣) حسبما تقتضيه حكمته البالغة ورحمته الواسعة ، وذلك ليردهم إلى الحق ويهديهم سواء السبيل ، ولكنهم لا يقابلون ذلك إلا بالتوَلَّى والإعراض ، وفي ذلك ما فيه من حماقة ورداءة التفكير وسوء التقدير ، فرحمة الله ينبغي أن تقابل بالشكر والطاعة لا بالعصيان والإعراض .

(١) سورة القصص ، من الآية : ٥٦

(٢) سورة الفاشية ، من الآية : ٢١ ، والآية : ٢٢

(٣) يقول الإمام البوصيري - رضى الله عنه - :

٦- (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَاءَ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

أى : لم يقتصر أمر هؤلاء الذين لم يؤمنوا بك من قومك على الإعراض والانصراف عما يأتيهم من الذكر والموعظة ، بل تجاوزوا ذلك إلى التكذيب الصريح فجعلوا القرآن الكريم تارة سحرًا ، وأخرى أساطير الأولين ، ومرة شعرًا ، وقد هددهم وأنذرهم عذابًا منكرًا ينزل بهم ، وقارعة تحل بساحتهم ينتشر خبرها ، ويذاع أمرها ، فيجمع الله عليهم بين العذاب الأليم ، وكشف أمرهم بين الناس حتى يتحدثوا بما نزل بهم من نكال وخزي جزاءً وفاقًا لاستهزائهم وسخريتهم ، وقد رتب الله - سبحانه - نزول العذاب على استهزائهم في قوله : « فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَاءَ . . . » الآية ، مما يؤذن ويدل على أن العذاب واقع لا محالة ، فقد أصابتهم في بدر هزيمة منكرة قتل فيها وأسر صناديدهم ، ويجوز أن يراد من الأنباء : أخبار انتشار الإسلام وعلو شأن القرآن الذى كانوا به يستهزئون .

ومن أغراض هذا الوعيد أن يترفق النبي - صلى الله عليه وسلم - بنفسه فلا يشق عليها ويعرضها للهلاك أسفًا وحزنًا على قوم قد أوغلوا في الكفر ، وختم الله على قلوبهم فلا تنفذ إليها الهداية ولا يرجى منهم خير .

٧- (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) :

ينكر الله - تعالى - عليهم ما هم فيه من إعراض وتكذيب واستهزاء بآيات الله الكونية بعد أن أعرضوا وسخروا من آيات الله التنزيلية ، أى : أفعلوا ما فعلوا ، وأصروا على الكفر والتكذيب ولم ينظروا إلى الأرض وما فيها من عجائب تدعوهم إلى الإقبال على الله إيمانًا وتصديقًا ، وتمنعهم وتزجرهم عما اقترفوه من السخرية والإعراض عن آيات القرآن الكريم - أفلم ينظروا إليها - وهى تنبت ما يفيد الناس وينفعهم من نبات يختلف صورة ومنافع

فلو أن الأمر لطبيعة الأرض ، لما أنبتت نباتًا ، فإنها لا عقل لها ولا تدبير ولا قدرة ولا إرادة وقوله : (كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) : استئناف لبيان مافى الأرض من أمور تشير العجب وتدعو إلى الإيمان بالواحد الديان ، أى : أنبتنا فى الأرض من كل صنف جليل النفع عظيم الفائدة ، يدرك ذلك كله من أنعم الله عليه بِنِعْمَةِ الفهم الدقيق والإدراك السليم ، وأمدّه ببصيرة نافذة نيرة ، ويغفل عنه الغافلون فلا يعقلون .

وفي الأرض أصناف وأنواع لم يعرف نفعها البشر ، وتتجلى لهم منافعها على الأيام عندما يحتاجون إليها في أمور معاشهم وصلاح حالهم ، كما أن هناك أشياء يظنها الناس ضارة لانفع فيها ولكن الحاجة قد تلح في طلبها ، وتدفع إليها ، ولا يغنى عنها ههواها في إصلاح أمر أو علاج علة أو إبراء مريض « ومن السموم النافعات دواء » .

٨ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) :

أى : إن فيما سبق من إنبات الأرض لكل الأصناف والأنواع التي تعين الإنسان وتقيم حياته ، وتكون متاعاً له ولأنعامه مع عجزه عن تدبير ذلك ، إن في ذلك لدلالة واضحة وبرهاناً ساطعاً ، على قدرة الله ، وأنه - سبحانه - هو الجدير وحده بأن يؤمن به الناس كافة : « في كل شيء » له آية : تدل على أنه الواحد « ولكن أكثر هؤلاء استمر على الكفر والتكذيب مع عظم الآيات وسطوع البرهان ، وانبلاج الحجة التي توجب أن يكونوا مؤمنين منقادين مذعنين .

٩ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : وإن الله الذي يرعاك ويكلوك هو صاحب العز الغالب والسلطان القاهر ، وصاحب الرحمة الشاملة والنعمة السابغة ، ومن رحمته أنه قد أمهلهم فلم يأخذهم بسبب كفرهم وإعراضهم واستهزائهم بما جئت به مع قدرته الكاملة وعزه الذي لا يقهر ولا يغالب ، وإنما أكرمهم الله برحمته ، وفاءً بوعده لرسوله - صلى الله عليه وسلم - « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ »^(١) .

والآيتان : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ » ، « وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » كررهما سبحانه في هذه السورة ثمانى مرات ، أولاها هذه ، والسبع الباقيات عقب قصص موسى ، وإبراهيم ، وقوم نوح ، وعاد مع هود ، وثمود مع صالح ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة مع شعيب .

والحكمة في تكرارها : تنبيه كفار مكة وغيرهم إلى أن في كل قصة من هذه القصص عبرة وعظة توجب الإيمان ، وتزجر عن التكذيب والعصيان .

(وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠) قَوْمٌ
 فِرْعَوْنُ ١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ١٢)
 وَيَضْحِكُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ١٣) وَلَهُمْ
 عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٤) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِمَا يَنْتِنَا
 إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ١٥) فَاتَّبَعَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ١٦) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ١٧)

التفسير

١٠- (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

في هذه الآية وما يليها من الآيات يحكى الله قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وقومه ، تسليية لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ليشفق على نفسه فلا يهلكها غماً وحزناً لعدم إيمان قومه ، فهو يأمره أن يذكر لقومه وقت نداء المولى - تبارك وتعالى - موسى - عليه السلام - ليبلغ فرعون وقومه رسالة ربه ، وما ناله بعد ذلك من مكروه ، وما حقق له ربه من انتصارٍ لحقّه على باطل أعدائه ، وفي ذلك ما فيه من تسليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ببيان أن تكذيب قريش له ليس بأول تكذيب لرسول ، فليست يا محمد أنت وقومك بدعاً من الرسل والأمم قبلك .

والمعنى : واذكر - يا محمد - لقومك أن الله أمر نبيه موسى أن يأتى القوم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ، وظلموا بنى إسرائيل بالإذلال والاستعباد وقتل الأبناء ، واستحياء النساء .

١١ - (قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ) :

بين الله سبحانه القوم الظالمين الذين أمر نبيه موسى أن يأتيهم بينهم في هذه الآية أنهم فرعون وقومه ؛ لأنهم تناهوا في الظلم وأوغلوا في الطغيان حتى صاروا علماً عليه وعنواناً له ، وقد دعا الله إلى العجب من ظلمهم وعدم تقواهم فقال : « أَلَا يَتَّقُونَ » الله عز وجل - فلا يصدر منهم معصية ولا استعلاء ، وهذا يتحقق بهجرهم كل المعاصي والمظالم ، وكان سائلاً سأل : هذا ما نادى الله به موسى ، فماذا قال موسى جواباً لهذا النداء ؟ فكان الجواب هو قوله تعالى حكاية عنه :

١٢، ١٣، ١٤ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) :

أى : قال موسى - عليه السلام - وهو في مقام الضراعة إلى بارئ رب العالمين : يارب إني أخاف أن يكذبني هؤلاء حين آتيهم ، ولا يؤمنوا برسائلي ، ولا يصدقوا بنبوتي ، إني يارب يضيق صدري ولا ينطلق لساني لما ينالني من العي والحصر وحبس اللسان بسبب ما يلحقني من الحزن .

وهذا الذي صنعه موسى - عليه السلام - ليس تشبهاً بالعلل ، ولا للاستعفاء من امتثال أمر ربه - عز وجل - وتلقيه بالسمع والطاعة ، بل هو موقف ضراعة وابتهاال ، وتمهيد عذر بين يدي رجاءه أن يعينه على الامتثال وإقامة الدعوة على أتم وجه ، ولهذا التمس من ربه أن يبعث جبريل أمين الوحي إلى هارون ويجعله نبياً ووزيراً له من أهله يشركه في أمره ليشد أزره ويقوى عضده .

ويجأ موسى إلى ربه فيبدي له أن هناك أمراً آخر يخشاه ويخافه إذ يقول : إن هؤلاء القوم - فرعون وملأه - يرون أن لهم على تبعة ذنب ، وجريرة جرم ، ذاك أنني قتلت واحداً منهم ، حين وكزته غير قاصد قتله لما استغاث بي أحد شيعتي ، فهم يُحْمَلُونَنِي وزر ذنب لم أقصده ، فأخاف إذا ذهبت إليهم وحدي ليس معي عضد ولا سند أن يفتكوا بي بسبب تحميلي دم القبطي ، وأريد أن أودى الرسالة ، فادفع عني يارب أذاهم المرتقب وكيدهم المتوقع ، باختيار أخى هارون نبياً لك ووزيراً مساعداً لي ، وأعنا على تبليغ دعوتك .

وقد استجاب الله لموسى فحقق رغبته ، وأناله طَلِبَتُهُ بما حكاه القرآن بقوله :

١٥ - (قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ) :

قال الله لموسى : كَلَّا ، لا تخف ، لن يقتلوك ولن يصيبك مكروه ، فالعناية معك والله يعصمك من الناس فلا يتردد في صدرك هذا خاطر ولا يَجُلُّ في نفسك هذا الظن ، فاذهب أنت وأخوك بآياتي الباهرة ومعجزاتي الخارقة فإن فيها أمناً لك من خوفك وتثبيتاً لقلبك وتأييداً لدعوتك وأنا معكم جميعاً بسمعى وعلمى أحيطكما بالرعاية والتأييد والنصر ، وأمدكما بالعون وأما فرعون فسأكون ضده بالتخذيل والتخويف فلا يصل إليكما ولا ينال منكما .

١٦ - (فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

فاذهبا يا موسى أنت وأخوك هارون إلى فرعون ذلك الذى يدعى الألوهية ويقول : « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى »^(١) فقولا له قولاً ليناً لا غلظة فيه ولا قسوة ، لعله يتذكر ما قد أنساه سلطانه وجبروته من أنه مريبوب لله رب العالمين ، ليقل كل منكما له : إنه رسول رب العالمين^(٢) ، وفى ذلك رد لدعوى فرعون أنه إله ، وإشعار له بأن للعالمين رباً واحداً هو الذى بعثهما إليه ، وفى هذا الأسلوب حمل لطيف لفرعون على أن يمثّل أمر ربه رب العالمين .

١٧ - (أَنْ أَرْسِلَ مَعَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) :

أى : أطلق سراح بنى إسرائيل وفك أسارهم ودعهم يذهبوا معنا حيث نذهب ، وهو يقصد بذلك توجههم إلى فلسطين .

(١) سورة النازعات ، من الآية : ٢٤

(٢) ويجوز أنه أفرد مع أنهما رسولان ؛ لأنه مصدر وصف به ؛ ولهذا أفرد تارة وثنى أخرى ؛ ومن استعماله مصدراً

قول الشاعر :

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول

أى : برسالة .

(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨
 وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَا
 إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ
 لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
 عَلَى أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝٢٢)

المفردات :

(تَمُنُّهَا عَلَى) : تعدها نعمة وفضلاً .

(عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ) : اتخذتهم عبيدا .

التفسير

١٨ - (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) :

قال فرعون موجهها كلامه إلى موسى بعد أن نفذ موسى وأخوه هارون أمر الله وأبلغا فرعون الرسالة ، وطلبا إليه أن يرسل معهما بنى إسرائيل - قال فرعون ردا عليه - :

ألم نقم على رعايتك والعناية بك في منزلنا طفلا مولودا ، وذلك بعد أن تم التقاطك على يد أهلنا وخدمنا ، وبقيت يا موسى تقيم بيننا كواحد منا السنين من عمرك ، وكان الأولى بك والأجدر - تقديرا لنعمتنا عليك - أن تكون معنا وأن تؤمن بنا ، لا أن تكون داعيا لنا وموجهها ، وكلام فرعون هذا يوحى بالتقريع والتوبيخ لموسى - عليه السلام - ، ولذا عقبه بقوله :

١٩ - (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) :

وصنعت يا موسى تلك الفعلة التي أنكرناها عليك ، حيث قتلت القبطى انتصارا لشيعتك ، واستهانة بنا ، وأنت بذلك كافر بنعمتنا عليك متنكر لما أسديناه لك جاحدا

لما أسلفناه من تربية ورعاية ، أو : وأنت من الذين كفروا بدينى ، أو بألوهيتى بعد عودتك من الجهة التى فررت إليها ، فعظم بذلك ذنبك عندنا .

والواقع أنه - عليه السلام - لم يكن على دينهم قبل فراره ، ولكن سكوته عنهم من باب التقية ، فكفروه بدين فرعون قديم قبل الهجرة ، والمستحدث إنما هو الإعلان عنه بعد العودة ، والرأى الأول هو الظاهر ، وهو ما قاله ابن زيد .

٢٠ - (قَالَ فَعَلْتُهُمَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) :

قال موسى - عليه السلام - فى مقام الرد على ما أثاره فرعون - : فعلت تلك الفعلة ووكزت القبطى تلك الوكزة التى قضت عليه ، والحال أنى من الجاهلين بما تفضى إليه تلك الضربة إذ ماكنت أعتقد أنها تفضى على القبطى وتقتله ، وكان هدفى هو الانتصار لمظلوم وتأديب باغ ومعتد ، ولو كان الأمر كما تظن وأنى قاتل مفسد - كما تدعى - لاستجبت لمن استصرخ بى وكررت تلك الفعلة وانتصرت له ، ولكنى بعدت ونأيت عنه وقلت له : « إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ » .

٢١ - (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) :

ومع أن فعلتى - التى عدتها عظيمة وأثيمة - لا تقتضى المؤاخذه ولا تستدعى التقرير والتوبيخ والرمى بالكفر والجحود ، فإنكم تأمرتم على قتلى ودبرتم اغتيال وإزهاق روحى ، ففررت منكم بعد أن أخبرنى ناصح أمين بما انتويتم وما دبرتموه بليل ، هربت منكم إلى ربى .

خرج موسى وهرب فراراً بنفسه وخوفاً من حيف يلم به ، أو ظلم ينتظره ، أو قتل يُعد له ، وأسلم نفسه لربه فملاً قلبه حكمة وعقله رشداً ، وجعله من خاصة خلقه فاصطفاه الله له كليماً ، ولعباده رسولاً ، وكان - عليه السلام - من أولى الغزم من الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - .

٢٢ - (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَآئِيلَ) :

تلك : إشارة إلى تربية موسى فى منزل فرعون المستفادة من قوله لموسى : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا

وَلَيْدًا ، أَيْ : أَنْ تِلْكَ الرِّعَايَةُ الَّتِي ظَفَرْتُ بِهَا فِي كُنْفِكَ هِيَ نِعْمَةٌ ظَاهِرَةٌ لَدَيْكَ وَوَاضِحَةٌ عِنْدَكَ وَلَكِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَتْ نِعْمَةً ، فَالسَّبِيلُ إِلَيْهَا تَعْبِيدُكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَقَصْدُكَ لِيَاهِهِمْ بِذَبْحِ أَيْدَائِهِمْ ، فَإِنَّهُ السَّبَبُ فِي وَقُوعِي عِنْدَكَ وَوُجُودِي فِي تَرْبِيَّتِكَ .

وقيل : إنه مقدر بهمة الإنكار ، أَيْ : أَوْ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمْنَاهَا عَلَيَّ ، وَهِيَ أَنْ عَبَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَعَلَى كِلَا الْوَجْهَيْنِ فَالْمَقْصُودُ : أَنْ عُنَايَةَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - أَلْقَتْ بِهِ إِلَيْهِ وَأَنَّهُ الْمَتَسَبِّبُ فِي وَصُولِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَأَنَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - سَخَّرَهُ لِلْعُنَايَةِ بِهِ وَالْقِيَامِ عَلَى شَأْنِهِ وَمَنْعِهِ مِنْ قَتْلِهِ حَتَّى قَالَتْ أَمْرَأَتُهُ : « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » .^(١) فَالْمُنَّةُ وَالْفَضْلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ
أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ
إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾)

التفسير

٢٣ - (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) :

بعد أن دعا موسى - عليه السلام - فرعون إلى الإيمان برب العالمين تحقيقاً لأمره تعالى بدعوته : « فَاتِّبِأْ فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » بعد أن دعاه موسى

(١) سورة القصص ، من الآية : ٩

(٢) ما : استفهامية وغالباً ما تستعمل في غير أولي العلم ، وهي هنا في الاستفهام عن رب العالمين ، على تأويل : ما شأن رب العالمين ، أو أنها بمعنى من ، كما في قوله تعالى : « وَالسَّاءُ وَمَا بَنَاهَا » : أَيْ وَمِنْ بَنَاهَا .

قال فرعون مستنكرا ما قاله موسى ومستهزئا به : ما هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ؟
وقد كان فرعون يدعى أنه ليس هناك إله غيره .

« مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي »^(١) ولكن نبي الله موسى رد عليه بما حكاه الله بقوله :

٢٤- (قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) :

قال موسى لفرعون رداً على استفهامه : رب العالمين هو رب السموات وما فيهن من الكواكب الثابتة ، والسيارات النيرات ، ومن الأرض وما فيها من بحار وقفار وجبال وأشجار ، وحيوان ونبات وثمار ، وما بينهما من الهواء والطير وما سوى ذلك مما لا نشاهده ولا ندركه ، كل ذلك مربوب لله خاضع لسلطانه - سبحانه - « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ »^(٢)

(إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) : أى إن كانت لكم قلوب صالحة لليقين ، وبصائر نيرة تهدى إلى الصراط المستقيم ، أو إن كنتم موقنين بشيء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره ووضوح دليله ؛ لأن الله - سبحانه - له فى كل شيء آية تدل عليه وترشد إليه :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

فما يدعيه فرعون من الألوهية محض كذب وافتراء ؛ فليس فى قدرته أن يخلق شيئاً .

٢٥- (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ) :

قال فرعون لمن حوله من وجوه القوم وأشرافهم وأعيانهم وعليتهم الذين حضروا وشهدوا هذا الحجاج : (أَلَا تَسْمِعُونَ) إلى قول موسى الذى يدعو إلى العجب ويبعث على السخرية والاستهزاء ؛ وذلك بادعائه أن هناك إلها غيرى وربما سواى ؟ .

وإيراد فرعون كلامه على هذا النحو ليهوّن من شأن موسى ، وينال منه ، وذلك منعا لقومه أن يميلوا إلى موسى وينعطفوا نحوه ويعاضدوه .

(١) سورة القصص ، من الآية : ٢٨

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ١٨

٢٦- (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

قال موسى على سبيل التوضيح والتصريح لما اشتملت عليه إجابته السابقة ، وليضع فرعون بكل جيروته وصلفه في موضعه الصحيح ، وينزله من مرتبة الألوهية التي ادعاها لنفسه إلى مرتبته الحقيقية ، مرتبة العبودية التي يتساوى فيها مع الناس جميعاً : الله ربكم يا فرعون ومن معك ، ورب آبائكم الأقدمين ، فلا سبيل لك إلى ادعاء الربوبية لأحد من خلق الله : فما أنتم إلا عباد له سبحانه كسائر عياده .

٢٧- (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) :

اتسم هذا الأسلوب بالسخرية والاستهزاء إمعاناً في صد القوم عن موسى - عليه السلام - فقد أضاف رسالة موسى إلى المخاطبين فقال : « إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ » . وترفع أن يكون رسولا إليه ، كما ترفع وتكبر أن يذكر موسى - عليه السلام - باسمه فقال : (الَّذِي) ثم كان منه أن رماه بالجنون ، ليكون أبلغ في صد الناس وصرفهم عن اتباعه ، فكأنه يقول لهم : كيف يليق بكم - وأنتم العقلاء - أن تصدقوا معتوها ، وتتبعوا مجنوناً ؛ إن فرعون يريد من وراء هذا إثارة غضبهم على موسى واحتقارهم له .

٢٨- (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) :

لم يكثرث موسى بما وجهه له فرعون من نقائص ، بل جابهه بالحق إذ قال : رب العالمين هو رب المشرق والمغرب وما بينهما ، فهو رب السماء بما حوت من الثوابت والسيارات الذي دبرها تدبيراً محكماً ، وقدرها تقديراً متقناً في نظام مستمر دائم على وجه عجيب دقيق ، وهذا لا يكون إلا من مدبر حكيم قدير عليم ، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً .

(إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) : أى إن كنتم تعقلون شيئاً ، أو إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلت وبينت لكم وأرشدتكم ، فأمنتم بى رسولا لله رب العالمين .

وفي الكلام تلميح إلى أنهم لا عقل لهم فكان موسى قال لهم : أنتم أولى بما وصفتهموني به من جنون ، ومارميتهموني به من عته .

(قَالَ لِّئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ٢٩)
 قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ٣٠ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
 الصَّادِقِينَ ٣١ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُ
 فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ٣٣ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا السَّاحِرُ
 عَلِيمٌ ٣٤ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
 تَأْمُرُونَ ٣٥ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ٣٦
 يَا تُوتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ٣٧ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ
 مَّعْلُومٍ ٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ
 السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ٤٠)

المفردات :

- (بِشَيْءٍ مُّبِينٍ) : معجزة واضحة .
 (ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) : أى ثعبان لا شك .
 (الْمَلَأِ) : أشراف القوم وساداتهم .

التفسير

٢٩- (قَالَ لِّئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) :

أحسن فرعون صلابة موسى وقرأ في عينيه أنه لا يحيد عن دعوته ولا يتخلى عن رسالته ، وأفحمه موسى وأعجزه ، فلم يستطع جواباً ، فلجأ إلى التهديد بالتعذيب ، وهذه

آية العجز وأمرة الضعف عند مقابلة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ، فالتسلط الجبار عندما يعوزه الدليل وتتأبى عليه الحجة يجنح إلى البطش والتنكيل حفاظاً على هيئته وإبقاء على مكانته ، فقال له : لئن جعلت لك إلهاً سوى ، وتماديت في دعواك أنك رسول رب العالمين ، لأجعلنك من المسجونين الذين تعرفهم ، وتعرف ألوان العذاب التي أنزلها بهم . ولكن موسى - عليه السلام - لم ينقطع أمله في إيمان فرعون فتلطف به وقال ما حكاها الله بقوله :

٣٠- (قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ) :

أى : أتجعلنى من المسجونين الذين تعذبهم وتعاملنى معاملتهم ولو جئتكم بشيء هائل عظيم موضح لصدق دعوى ، مؤيد لرسالتى ؟ فتحدها فرعون بما حكاها الله بقوله :

٣١- (قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

قال فرعون : فأت بهذا الشيء . إن كنت صادقاً في دعواك أنك رسول رب العالمين ، وما أظنك إلا كاذباً فيما تدعيه .

طابت نفس موسى واطمأن إلى نصر الله الذى أعلمه أن عصاه ستصير ثعباناً عظيماً .

٣٢- (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) :

فألقي موسى عصاه ورى بها إلى الأرض ، فإذا هى بقدره الله ثعبان واضح الحيوانية الثعبانية ، لا تمويه فيه ولا تخييل ، فليس مما يفعله السحرة .

٣٣- (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ) :

أخرج موسى يده من جيبه فإذا هى بيضاء لها شعاع قوى يبهر الناظرين ، فماذا قال فرعون وقد بهرته آية موسى ؟ ماذا قال وقد فقد الأمل في الانتصار عليه بحججه ومناقشته ؟ .

٣٤- (قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) :

قال فرعون لزعماء قومه وكبرائهم حين وجودهم حوله مهونا من أمر موسى ومن الآيات البينات المصدقة له في دعواه الرسالة من رب العالمين - قال - : إن هذا المدعى لساحر بارع في علم السحر ، فائق فيه ، حاذق له ، متقن لقواعده وأصوله ، فما جاء به اليوم أمامكم ليس معجزة إلهية كما يدعى ، وإنما هو أمر يأتي به الساحر العليم فليس هذا دليلا على صحة ما يدعيه من رسالته ، ومن وجود إله غيرى ، ثم هيجهم وحرضهم على الخروج عليه ومخالفته والوقوف في وجهه والكفر به ، فقال :

٣٥ - (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) :

(يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ) :

أى : يريد موسى أن يستولى على قلوب الناس ويميلها معه بسحره هذا حتى يكثر أعوانه وأنصاره ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم ، ويستعبدكم فتذهب عزتكم ويزول سلطانكم وتكونوا أتباعاً وخداماً بعد أن كنتم سادة أعزة .
(فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)^(١) :

بهر سلطان المعجزة فرعون وحيره حتى نزل به عن ذروة ادعاء الربوبية بقوله : « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى »^(٢) فاستأمر الملاء من قومه وأظهر حاجته إلى رأيهم بعد أن كان مستقلا بالرأى مستبدا بالتدبير ، وذلك لأنه استشعر الخوف من استيلاء موسى على ملكه ، قال لهم : أشيروا على فى أمره : ماذا أصنع به حتى أجنبكم شر إخراجكم من دياركم ، وتفريق جمعكم ، والقضاء على عزكم وجاهكم ؟ فإن من أصعب الأشياء على النفوس أن يذل المرء بعد العز ، فكان أن أشار عليه أصحاب الرأى فى قومه بما يحكيه قوله تعالى :

٣٦ ، ٣٧ - (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ خَاشِعِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ) :

أى : أجل أمر موسى وأخيه ، وأخر البت فى شأنهما فليس الأمر هينا سهلا ، إنه فى حاجة إلى أن تجمع من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك ، كل ضالع فى السحر عليم بضروبه

(١) (تأمرون) إنا من الأمر ، فيكون قد طلب من زعمهم عبيده أن يأمره ، وإما من المؤامرة والمشاورة وسيأتى مزيد إيضاح لذلك .

(٢) سورة النازعات ، من الآية : ٢٤

وأنواعه ، بصير بفنونه ، كى يقابلوا موسى ويأتوا بنظير ما جاء به ، أو بأشد منه تأثيراً فتغلب أنت ، وتكون لك النصر والتأييد .

وكان هذا من تسخير الله - تعالى - لهم أن نطقوا بما نطقوا ، وأتوا بمشورتهم هذه ليجتمع السحرة مع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله ومعجزاته قاهرة لجميع السحرة أمام الناس في وضع النهار .

٣٨ - (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) :

جمع رجال فرعون وأعوانه السحرة من جميع مدائن مملكته لوقت معين هو الضحى ، من يوم معلوم هو يوم الزينة ، وهو الوقت الذى حدده موسى - عليه السلام - « قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى »^(١) ولعله كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ، ويجمعون له ، وقد اقترحه موسى - عليه السلام - لإظهار كمال قوته ، وكونه على ثقة من أمره ، وعدم مبالاته بهم ، ليكون ظهور الحق وزهوق الباطل في يوم مشهود . تكامل عقد السحرة ، واجتمع شملهم ، فيما حدد من زمان ومكان .

٣٩ - (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ) :

قيل للناس استبطاء لهم ، وحثاً ودفعاً على المبادرة والإسراع إلى الاجتماع الذى جمع له السحرة البارعون الممتازون - قيل لهم - : (هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ) فهذا الاستفهام مجاز عن الحث والدفع ، فكأنه قيل لهم : أسرعوا بمشاهدة هذا اللقاء بين سحرتنا وموسى^(٢) وهذا الحث يشعر بأن فرعون مطمئن إلى نجاح سحرتة الذين جلبهم وجمعهم من مدائنه . ٤٠ - (لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ) :

لعلنا بعد أن نشهد هذا التحدى الكبير نتبع السحرة إن غلبوا موسى ، وكان قد قوى أملهم واشتد رجاؤهم أن لا يتحولوا عن دينهم خوفاً مما زعمه فرعون من قضاء موسى على سلطانهم بإخراجهم من ديارهم ، فليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة ؛ فهم متبعوه ، وإنما مرادهم أن لا يتبعوا موسى - عليه السلام - لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية ، حملاً لهم على الاهتمام والجد في مغالبة موسى والانتصار عليه .

(١) سورة طه ، الآية : ٥٩

(٢) ويشبه ما جاء في قول الشاعر تأبطشراً :

هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبد رب أعاون بن غرق

فإنه يريد : ابث لنا أحدهما سريعاً ولا تبطىء ، ودينار : اسم رجل .

(فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَمَنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾)

التفسير

٤١ ، ٤٢ - (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا^(١) لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) :

لما عرض موسى معجزتي العصا واليد أمام فرعون ارتاع فرعون ونسى ربوبيته ، وقال لأتباعه على الفور مستغيثاً بهم ، وهابطاً عن كبريائه : « مَاذَا تَأْمُرُونَ » ، يعنى أى أمر تأمروننى فأنفذه ، حتى لا يضيع ملكى .^(٢)

فأشاروا عليه أن يجمع السحرة من أطراف ملكه - هذا ما حكته الآيات السابقة - وجاءت هاتان الآيتان لتحديثنا عن حضور السحرة وما تلاه .

(١) (إِذَا) هنا حرف اقترن به الجواب والجزاء وليس ظرفاً ، قيل : هو ظرف للزمان الماضى ، وتنوينه عوض عن جملة ، أى : إذا غلبتم . راجع الآلوسى .

(٢) ويصح أن يكون الأمر هنا من المؤامرة بمعنى المشاورة ، فكأنه قال : ماذا تشيرون به على ، والوجه السابق أنسب بمقام الانبهار الذى جملة ينحط إلى أن يطلب الأمر من كان يأمره فيطيع .

ولعل رسله إلى السحرة وعدوهم بحصولهم على أجر جزيل من فرعون إن هم غلبوا موسى - عليه السلام - فأرادوا أن يستوثقوا من ذلك بما حكاه الله عنهم بقوله : « أَتَيْنَا لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ » .

والمعنى الإجمالى لهاتين الآيتين : فلما جاء السحرة من أطراف المملكة ، تلبية لدعوة فرعون لينصروه . على موسى وأخيه بسحرهم - لما جاءوا لذلك - قالوا لفرعون سائلين مستيقنين : أحق مؤكد أنك جعلت لنا مكافأة وأجرا ، إن كنا نحن الغالبين لموسى لظهور سحرنا وغلبتهم لعصاه في يوم الزينة على رؤوس الأشهاد ؟ فأجابهم قائلا : نعم لكم أجر جزيل على ذلك ، وإنكم مع حصولكم على الأجر لمن المقربين عندي ، لأنكم نصرتموني على عدوى الذى أحشاه على ملكى .

٤٣ - (قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ) :

جاء في سورة الأعراف أن السحرة قالوا لموسى : « يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ » . قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ^(١) ومن هذا النص نفهم أن موسى - عليه السلام - لم يقل لهم : « أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ » ، إلا بعد أن خيره السحرة بين أن يبدأ بإلقاء عصاه ، وبين أن يبدأ بإلقاء سحرهم ، وقد خلت سورة الشعراء من هذا التخيير ، كما أن صورة الإذن بالإلقاء في سورة الأعراف « أَلْقُوا » وفي سورة الشعراء « أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ » وقد عرفنا من سورة الأعراف أن السحرة لما ألقوا ما معهم « سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » في يوم الزينة الذى احتشد له الناس ليشهدوا المعركة بين الحق والباطل وآثارها ، ولم يأت ذلك هنا ، وبالجمله فقد اشتملت سورة الأعراف على مفارقات عديدة في قصة موسى مع فرعون ، وكلما وجدت قصة موسى وفرعون في سورة ، وجدت فيها مفارقات بالنسبة لسورة أخرى ، ومثل ذلك يحدث في قصص غيره من المرسلين مع أممهم .

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١١٥ والآية : ١١٦ .

وبالجملة فإن القصص القرآنى جاء فى بعض السور مختصرا ، وفى بعضها مبسوطا ، وأن العبارات فى الموقف الواحد قد تختلف فى سورة عنها فى سورة أخرى .

ويرجع ذلك إلى أن لغة الرسل وأقوامهم لم تكن عربية ، وأن ما جاء فى القرآن عن قصصهم إنما هو ترجمة عربية لما جرى بين الأنبياء وأممهم بلغتهم ، وأن هذه الترجمة تعود إلى أصل المعنى الذى دار عليه الحوار ، أما الحوار نفسه فقد يكون واسع الأطراف كثير الجدل ، متعدد اللقاءات ، متطاوّل السنين ، فلا غرابة فى أن تجد القرآن الكريم فى سورة يقتصر فى حكاية الحوار وما حوله على المبدأ الأساسى الذى دار عليه الحوار ، وترتبط به العظة المقصودة من سوقِ القصة ، وأن نراه فى سورة أخرى يحكى الحوار بصورة أخرى فيها بعض البسط ، ليجد القارئ فى إعادة القصة جديداً لم يره فى سورة أخرى ، فيضيفه إلى معلوماته السابقة فى القصة .

وبالجملة فالقرآن الكريم يكمل بعضه بعضا ، وهذا أسلوب بديع تفرد به القرآن بين الكتب السماوية ، لما فيه من إعادة التذكير والوعظ ، مع التشويق إلى تتبع القصة فى مظانها من القرآن ، للاستزادة من المعرفة ، حتى لا يمل من إعادة القصة إذا كانت بأسلوب واحد

وليعلم القارئ أن القصص القرآنى ليس الغرض منه بيان تاريخ الأمم ، بل العظة بما حدث لهم عندما أعرضوا عن رسله ، ولذا احتاج الأمر إلى تكرار قصصه مع التلوين فى حكايتها وسردها .

ومعنى الآية : قال موسى للسحرة لما اجتمعوا فى يوم الزينة : ألقوا ما أنتم ملقونه من أنواع سحركم فلست أبالى بكمه ولا بكيفه .

٤٤ - (فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ) :

أى : فألقى السحرة حبالهم وعصيتهم ، وسلطوا عليها سحرهم ورُقاهم ، فانقلبوا أفاعى مخيفة ، وشعابين مزعجة وجاءوا بسحر عظيم سحروا به أعين الناس واسترهبوهم وما هو إلا حبال وعصى فى الحقيقة ، فلو لم تسحر عيون الناس لرأوها كذلك ، وقال

السحرة حين رأوا ضخامة سحرهم وأثره في عيون ووجوه مشاهديهم - قالوا حينئذ - : نقسم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون لموسى ، ولا سبيل لغلبته إيانا .

قال ابن عطية - بعد أن ذكر أن ما قاله السحرة قَسَمَ بفرعون - قال ابن عطية : والأحرى أن يكون على جهة التعظيم والتبرك باسمه إذ كانوا يعبدونه . . الخ .

ومما يؤسف له أن هذه العلوى تسربت إلى المسلمين ، فتركوا الحلف بالله إلى الحلف بآبائهم وأوليائهم وبغير ذلك مما لا يجوز الحلف به ، فلا حلف إلا بالله أو باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته .

٤٥ - (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) :

فألقي موسى عصاه الخشبية الوحيدة ، عقب ثقتهم بسحرهم ، وقسمهم بعزة فرعون إنهم لَهُمُ الغالبون ، ففوجئوا بالأمر الخطير الذى لم يتوقعوه ، وهو أنها انقلبت ثعباناً كبيراً سريع الحركة كأنها جان ، وجعلت تبتلع حبالهم وعصيتهم التى أفكوها ، وزعموا أنها أفاعى وثعابين حقيقية ، وما هى إلا حبال وعصى سحروا بها العيون ، فتخيلتها كما يزعمون .

٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ - (فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ • قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ • رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ) :

أى : فخر السحرة ساجدين لعظمة الله ، كأنهم من فرط تأثرهم بالحق واستجابتهم له ، لم يتمالكوا أنفسهم ، فكأن حالهم كحال من أخلوا فطرحوا على وجوههم ، أو أنه تعالى ألقامهم بما وفقهم إليه من التأثير ببرهان الحق ، فقد عرفوا أن مثله لا يأتى بطريق السحر ، وعلى هذا فالإلقاء مجاز عن التوفيق لسبب السجود وهو معرفة الحق .

قال الآلوسى : وذكر بعض الأجلة أنهم إنما عرفوا حقيقة ذلك ، بعد أن أخذ موسى عليه السلام - العصا فعادت كما كانت ولم يروا لحبالهم وعصيتهم أثراً ، وقالوا : لو كان سحراً لبقيت حبالنا وعصينا ، ولعلها على هذا صارت أجزاءً هوائية ، وتفرقت أو عدمت لانقطاع تعلق الإرادة بوجودها . انتهى .

والمعنى الإجمالى : فخر السحرة على وجوههم ساجدين لرب العالمين ، إذ عرفوا أن العصا آية لموسى من ديان يوم الدين ، وليست من قبيل سحر الساحرين ، قالوا حين سجودهم : آمنا برب العالمين رب موسى وهرون ، وبذلك الإيمان سقطت ربوبية فرعون من نفوسهم ، واهتزت بين المشاهدين لهم .

(قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ^{٤٩} لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا صَلِيبَ لَكُمْ أَجْمَعِينَ ^{٥٠}) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ^{٥١} إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ^{٥٢})

المفردات :

(لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خِلَافٍ) : وذلك بقطعه اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو العكس . (لَا ضَيْرَ) : لا ضرر . (مُنْقَلِبُونَ) : راجعون . (أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) : لكوننا أول من آمن من أتباع فرعون .

التفسير

٤٩ - (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ ^(١) تَعْلَمُونَ . . .) الآية .

أى : قال الجبار فرعون للسحرة بعد هزيمتهم ، وقد رآهم يستجيبون لموسى ويخرون لله سجداً - قال لهم حينئذ - : صدقتم بدين موسى لأجله ، دون أن يصدر لكم بذلك إذن

(١) اللام في قوله : « فلسوف تعلمون » لام الابتداء دخلت على الخبر ، وأصل الكلام من جهة المعنى : فلأنتم سوف تعلمون ، وليست لام القسم : لأنها لا تدخل على المضارع المثبت إلا مع نون التوكيد ، وقيل : إنها للقسم ، ولم يؤكد الفعل بالنون لفصل بينها وبينه بلفظ (سوف) وقيل غير ذلك : انظر الآلوسى .

منى ، إن موسى لكبيركم الذى علمكم السحر ، فتواطأتم معه على أن تغلبوا أمامه ، فهو مكر مكرتموه معا فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ، فلسوف تعلمون ما يحل بكم من النكال والوبال .

(لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَبُكُمْ أَجْمَعِينَ) :

فى هذه الجملة بيان للعقاب الذى توعدهم به فرعون إجمالاً فى قوله : « فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى : لأقطعن اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو العكس ، ولا أقتصر على ذلك ، لأصلبكم على جذوع النخل وأربطكم بالجبال عليها ، كما قال تعالى فى سورة (طه) حكاية عنه : (وَلَا أَصْلَبُكُمْ فِي جُلُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ^(١))

٥٠ - (قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) :

قال السحرة بعد سماع وعيد فرعون الخطير غير مبالين به : لا ضرر علينا فى قطع أيدينا وأرجلنا وتصلبينا ، فالموت فى سبيل الله أسمى أمانينا ، لأننا إلى ربنا الذى آمنا به راجعون حين تقتلنا ، فنرى لديه من الكرامة والعز ، لصبرنا على تعذيبك إيانا ، واستشهادنا فى سبيله ، فلا يزعجنا وعيدك وتهديدك فما أحل الموت فى سبيل الحق . ويرحم الله خبيب بن عدى حين قال لآهريه الذين أرادوا قتله وصلبه ، لثأر لهم عند المسلمين :

ولست أبال حين أقتلُ مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوي مُمزع
وإنما أصر فرعون على صلب السحرة بعد تقطيع أطرافهم ، زيادة فى التنكيل بهم .
وأن يكونوا عبرة لغيرهم .

٥١ - (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) :

هذا تعليل آخر لانتفاء الضرر على السحرة بقتل فرعون وصلبه إياهم ، أى : لا ضرر علينا حين تنفذ وعيدك فينا ، فإننا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا التى حدثت منا أيام الكفر ، لكوننا أول المؤمنين من أتباع فرعون .
وهكذا نهون الأرواح ويُسْتَلَذُّ العذاب فى سبيل مرضاة الله رب العالمين .

* (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيْ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾
فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ
قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَا يَظُنُّونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(لَشِرْذِمَةٌ) الشِرْذِمَةُ : الجماعة القليلة من الناس ، والجمع : شراذم .
(لَغَا يَظُنُّونَ) : لفاعلون ما يغیظنا ويغضبنا . (حَاذِرُونَ) : متأهبون متيقظون .

التفسير

٥٢ - (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيْ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ) :

لما ظهر أمر موسى وانتصر على السحرة وأسرعوا إلى الإيمان به نكل بهم فرعون وأعد العدة للقضاء على موسى ومن معه قبل أن يستفحل أمرهم ويتفاقم خطرهم ، ولكن موسى ظل يكافح طغيانه ، ويمده الله من آن لآخر بآياته ، كالطوفان والجراد والقمل وغيرها ، فلا يزداد فرعون إلا كُفْرًا وإمعانًا في البغي والأذى ، فلهذا أمر الله نبيه موسى أن يخرج بعباده بنى إسرائيل من مصر إنقاذًا لهم من الاستعباد والأذى ، وأرشده إلى الخروج بهم ليلا حتى يسلموا من بطش جنوده ومتابعتهم إياهم .

والمعنى : وأمرنا موسى بوحي منا إليه أن يخرج بعبادي بنى إسرائيل ليلا لأنهم مُتَّبِعُونَ من فرعون وجنوده ، فليسبقوهم إلى النجاة قبل أن يدركوهم ، وليجعلوا الليل ساترا لهم حتى لا ينكشف أمرهم .

٥٣ - (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) :

أي : فأسرى موسى بالمؤمنين ، أي : خرج بهم ليلا امتثالًا لأمر ربه ، ولما أصبحوا وليس في الديار أحد منهم ، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل فأرسل سريعا في

مدائن مملكته وقراها من يحشر الجند ويجمعهم كالنقباء والحجاب ليتبعوهم ، وبذلك يحول بين موسى وقومه وبين ما يقصدون من الهجرة والخروج من البلاد .

٥٤ - (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) :

لفظ (هؤلاء) إشارة تحقير لبني إسرائيل ، أى : قال فرعون لمن حضر مجلسه : إن بني إسرائيل الذين فروا مع موسى لطائفة قليلة من الناس تشتمل على أسباطهم ، وهم بالنسبة لأعداد قومنا وجنودنا قليلون ، وليس هناك ما يمنعنا من اقتفاء أثرهم والانقضاض عليهم والحيولة دون هجرتهم ، وعقابهم على فرارهم .

٥٥ - (وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ) :

وإن موسى ومن معه - مع قلتهم وذلتهم - لصانعون بنا ما يغيظنا ويثير الحقد والغضب في نفوسنا ، لأنهم خالفوا أمرنا وخرجوا دون إذننا ، وحملوا معهم فى مكر وحيلة ودهاء حُلِينَا وأموالنا وحُلَلْنَا .

٥٦ - (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ) :

وإننا لجمع طبيعته أن يحذر ويحترس ويتيقظ لكل ما يتوقع من جانب العدو ، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى تأديبه وإلزامه الطاعة لأمرنا ، فلنا القوة ، وفينا الكثرة .

(فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ
كَرِيمٍ ۖ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ فَاتَّبَعُوهُمْ
مُشْرِقِينَ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا
لَمُدْرِكُونَ ۖ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۖ)

المفردات :

(وَكُنُوزٍ) : وأموال حفظوها . (وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) : ومساكن حسان يقيمون بها .

(كَذَلِكَ)^(١) : الإشارة إلى مصدر الفعل ، أى : أخرجناهم إخراجاً مثل هذا الإخراج العجيب ، أو إلى مقام كريم مثل ذلك المقام الكريم .
 (مُسْرِقِينَ) : داخلين في وقت شروق الشمس .
 (تَرَآءَ الْجَمْعَانِ) : تقاربا بحيث يرى كل واحد منهما الآخر .
 (لَمُذْرَكُونَ) : للمحقون . (كَلَّا) : كلمة ردع لهم .

التفسير

٥٧- (فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) :
 أى : فأخرجنا فرعون ومن معه من بساتين غناء ورياض فيحاء فيها عيون الماء الجارية .
 ٥٨- (وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) :
 أى : وأخرجناهم أيضا من كنوز خزنوها وادخروها ، ومن مساكن طيبة وأماكن شريفة كانوا يقيمون بها منعمين بجمالها وحسن رونقها وبهاؤها وجميل مرافقها - أخرجناهم من هذه النعم - لأنهم لم يشكروها بالإيمان واتباع الرسول بل كفروا وحاربوا الحق ، وناصبوا الرسل ومن معهم من المؤمنين العداة ، وحاولوا إهلاكهم والقضاء على دعوتهم فحرمهم الله من نعمه وسلبها منهم ؛ لأن المعاصي تزيل النعم .
 ٥٩- (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ) :
 (كَذَلِكَ) : أى أخرجناهم مثل هذا الإخراج العجيب الذى وصفناه (وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ) قال صاحب المنار عند تفسيره لقوله سبحانه وتعالى : «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ»^(٢) :

تعدد في القرآن التعبير عن استخلاف الله قوما في أرض قوم بالإيراث على سبيل المجاز .

(١) (كذلك) قال الزمخشري : يحتمل ثلاثة : (أ) النصب على : أخرجناهم إخراجاً مثل ذلك الإخراج الذى وصفناه .

(ب) الجر على أنه وصف لمقام - أى : مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم .

(ج) الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر كذلك .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٣٧

أى : وأَعْطَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ فِي مِصْرَ - أَعْطَيْنَاهُمْ - مِشَارِقَ وَمَغَارِبَ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا بِالْخَصْبِ وَالْخَيْرِ الْكَثِيرِ ، وَهِيَ : فِلَسْطِينَ تَحْقِيقًا لَوَعْدِنَا « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ^(١) » روى عن الحسن البصري وقتادة أنهما قالوا في تفسير مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها هي : أرض الشام ، وعن زيد بن أسلم قال : هي قرى الشام ، وعن عبد الله بن شاذب : فلسطين ، ويؤيد هذه الروايات قوله تعالى في إبراهيم - عليه السلام - : « وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ^(٢) » وقوله سبحانه : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ^(٣) » وربما يتراءى أن إرادة أرض مصر هي الظاهر المتبادر من قوله تعالى في سورة الشعراء : « فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ^(٤) » .

وقوله في سورة الدخان : « كَمْ تَرَكَوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانْكَبِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ^(٥) » ولكن الأمر ليس كذلك ، بل المراد أنهم أَوْرَثُوا بعض أملاك فرعون ، فلقد كانت بلاد فلسطين والشام تابعة لمصر وفراعنة مصر ، ولقد أعطى الله بنى إسرائيل بدلا عن مصر التي أمرهم بتركها فلسطين التي في الشام .^١ هـ عن تفسير المنار ص ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ الجزء التاسع ، بتصرف .

ويؤيده : أنه لم يثبت تاريخيا وأثرى أن بنى إسرائيل ملكوا مصر واستولوا على أرضها ، بل الثابت الذى يحدثنا به التاريخ أنهم بعد أن كانوا مستضعفين في مصر وخرجوا منها مع موسى لم يرجعوا إليها ولن يرجعوا - بإذن الله - ومكثوا يتيهون في الأرض أربعين سنة لمخالفتهم لله ورسوله وتقاعسهم عن قتال الجبارين كما يخبرنا بذلك القرآن الكريم

(٢) سورة الأنبياء، الآية : ٧١

(٤) سورة الشعراء ، الآيات : ٥٧ - ٥٩

(١) سورة القصص ، الآيتان : ٥ ، ٦

(٣) سورة الإسراء ، من الآية : ١

(٥) سورة الدخان ، الآيات : ٢٥ - ٢٨

٦٠ - (فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ) : تبع وأتبع بمعنى واحد .

أى : فتبع فرعون وقومه بنى إسرائيل قاصدين إهلاكهم حين أشرقت الشمس .

٦١ - (فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ) :

(فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْجَمْعَانِ) : أى فلما تقابل الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه (قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ) : أى للمحقون فهالكون على أيدي هؤلاء الذين جدّوا في السير وراءنا يريدون إعادتنا للاستعباد أو إهلاكنا ، وقد أكدوا مخاوفهم هذه بالجملة الإسمية المؤكدة بلإن واللام .

٦٢ - (قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ) :

أى : لن يدركوكم (إِنَّ مَعِيَ رَبِّى) بالنصرة على العدو والحفظ والعون .

(سَيَهْدِينِ) قريباً إلى ما فيه نجاتكم منهم ونصركم عليهم؛ لأن الله دبر الأمر وسيحقق النصر فهو الذى أوحى إلى بالإسراء ووجهكم للخروج وسيقضى عليهم ، وعبر بقوله : « إِنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ » دون أن يقول : « إِنَّ مَعَنَا رَبَّنَا سَيَهْدِينَا » للإيذان بأن بنى إسرائيل مكرمون بالهداية إلى النجاة من الغرق تبعاً لرسولهم موسى وكرامته على ربه ، أما هم فليسوا جديرين بالحفظ من الغرق والنصر على العدو ، فإنهم عقب نجاتهم طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً كآلهة الشعوب حولهم ، وعبدوا العجل الذى قدمه السامري لهم ، وقالوا لموسى : « اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » وهم الذين أفسدوا في الأرض وعلوا علواً كبيراً ، ولأجل هذا المقصد حكى الله عن نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - أنه قال لأبى بكر وهما فى الغار ، والمشركون على بابيه ، والخطر محدق بهما والحزن يملأ قلب أبى بكر خوفاً على الرسول : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » فإنه تعالى كان مع رسوله وصديقه لوفائه لربه ونبيه .

(فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ
فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾
وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(فَأَنْفَلَقَ) : فانشق . (فِرْقٍ) : في المختار الفرق ؛ الفلق من الشيء إذا انفلق ، ومنه
قوله تعالى : « فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ » وفي القاموس (الفرق) : القسم
من كل شيء . (الطَّوْدِ) : الجبل العظيم . (أَزْلَفْنَا) : قربنا . (ثُمَّ) : - بفتح الثاء - هناك ،
ويشار به إلى المكان البعيد . (الْآخِرِينَ) : المراد بهم فرعون ؛ وجنوده .

التفسير

٦٣ - (فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ
الْعَظِيمِ) : لما عظم البلاء على بنى إسرائيل ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها أمر الله
- سبحانه وتعالى - موسى أن يضرب البحر بعصاه ، وذلك أنه - عز وجل - أراد أن تكون الآية متصلة بموسى
ومتعلقة بفعل يفعله تثبيتاً لإيمان من آمن من قومه ، وقضاء على الشك عند من شك
منهم ، وإلا فضرب العصا ليس بفائق للبحر ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به
من قدرة الله - عز وجل - ولما انفلق عقب الضرب مباشرة صار فيه اثنا عشر طريقاً على
عدد أسباط بنى إسرائيل ، ووقف الماء بينهما كالجبل العظيم ، فلما خرج أصحاب موسى ،

وتكامل آخر أصحاب فرعون داخله انصب عليهم الماء وغرق فرعون ، فقال بعض أصحاب موسى : ما غرق فرعون ، فنبد على ساحل البحر حتى نظروا إليه ، والمراد بالبحر : القلزم على الصحيح ، والظاهر أن هذا الإيماء بضرب البحر بعصاه كان بعد القول المذكور ولم يكن مأمورا بالضرب يوم الأمر بالإسراء بقومه ، وجاء إنجازا لتدبير الله وتحقيقاً لوعده بنصر المؤمنين وإغراق الطغاة .

٦٤ - (وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ) :

أى : وقربنا فرعون وجنوده من قوم موسى - عليه السلام - حتى دخلوا البحر على أثرهم ويجوز أن يراد : قربنا بعض قوم فرعون من بعض ، وجمعناهم لثلاثينجو منهم أحد ، وفى التعبير عنهم بالآخرين ترفع عن ذكر اسم فرعون الذى ظن نفسه شيئاً ، وليس بشيء أمام قدرة الله .

٦٥ - (وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ) :

أى : وأنجيناهم من الهلاك والوقوع فى أيدي أعدائهم ، ومن الغرق بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا إلى البر .

وقوله : سبحانه (وَمَنْ مَّعَهُ) إشارة إلى أن إنجاءهم كان ببركة هذه المعية ومصاحبة موسى - عليه السلام - لهم ، وقيل : ليشمل من آمن به - عليه السلام - من القبط إذ لو قيل : وقومه لتبادر إلى الذهن بنو إسرائيل دون سواهم .

٦٦ - (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ) :

أى : ثم أغرقنا فرعون وجنوده المحقرين بإطباق البحر عليهم بعد خروج موسى - عليه السلام - ومن معه ، وثم للتراخي الزمنى فى أصل وضعها ، ولكن الظاهر أنهم أغرقوا فور خروج بنى إسرائيل ، فلماذا تحمل هنا على التراخي المعنوى لما بين المعطوفين من المبالغة المعنوية ، فما أبعد الفرق بين الإنجاء والإغراق .

٦٧ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) :

أى : إن فيما ذكر من معجزة البحر وما كان قبله من معجزات العصا واليد وغيرهما

وسجود السحرة لرب العالمين-إن في ذلك كله-آية عظيمة على قدرة الله ونصره لرسله ، وخذلانه لأعدائهم ، وتحذيرا من عاقبة الكفر بالله ورسوله .

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ) :

أى : وما كان أكثر قوم فرعون الذين أمر موسى - عليه السلام - أن يأتيهم وهم القبط على ما استظهره أبو حيان حيث لم يؤمن منهم إلا القليل ، ومنهم آسية امرأة فرعون ، فلهذا استحق جنودهم الإغراق مع فرعون .

وقيل : ضمير (أكثرهم) للموجودين بعد الإغراق والإنجاء من قوم فرعون الذين لم يخرجوا ومن بنى إسرائيل ، والمراد بالإيمان المنفى عنهم : التصديق اليقيني الجازم الذى لا يقبل الزوال أصلا ، أى : وما كان أكثر الموجودين بعد تحقق هذه الآية العظيمة وظهورها مُصَدِّقاً ، فإن الباقين بمصر من القبط لم يؤمن أحد منهم ، وأكثر بنى إسرائيل كانوا غير متيقنين ولهذا عبدوا العجل وسألوا موسى بقرة يعبدونها وطلبوا رؤية الله جهرة الخ

وقيل : المراد بالضمير فى قوله تعالى : (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ) قوم نبينا- صلى الله عليه وسلم-أى : وما كان أكثر من دعاهم النبى محمد-صلى الله عليه وسلم-إلى الإيمان-ما كان أكثرهم مؤمنين برسالته ، بعد أن ساق لهم تلك القصص العجيبة التى لا سبيل له إلى العلم بها إلا عن طريق الوحى ، وكان عليهم أن يعتبروا بها ويؤمنوا برسولهم الذى أخبرهم بها ، وقد عرفوه بالصدق والأمانة ، وأنه أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب ، واختار هذا الرأى الآلوسى لأن أول السورة وآخرها فى الحديث عنه وتسليته-صلى الله عليه وسلم-عما قالوه فى القرآن العظيم ، ونهيه صريحا وإشارة عن أن يذهب بنفسه الشريفة عليهم حسرات ، كل ذلك يقتضى رجوع الضمير إلى قومه-عليه السلام-دون الرجوع إلى الأقرب لفظاً ، ليكون الارتباط على هذا بين الآيات أقوى .

٦٨ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : وإن خالقك ومربيك وحده دون غيره هو الغالب على كل ما يريده من الأمور التى من جملتها الانتقام من الكفرة : (الرَّحِيمُ) المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يعجل

بعقوبتهم مع عدم إيمانهم ، أو العزيز في انتقامه ممن كفر ، الرحيم لمن تاب وآمن ، والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره - صلى الله عليه وسلم - لتشريفه - عليه السلام - وتقدير العزيز ، لأنه أظهر في بيان القدرة ، وهكذا شاءت إرادة الله ولاراد لمشيئته أن ينصر الحق وأهله وأن يذل الباطل وحزبه ، وأن يخلص بنى إسرائيل من براثن فرعون .

(وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَكْفِينَ ﴿٨١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٨٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٨٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٨٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٨٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي - إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ) ؛ النبأ الخبر ذو الفائدة العظيمة الذى يحصل به علم أو غلبة ظن كما قال الراغب .

(عَاكِفِينَ) : مقبلين عليه مع المواظبة .

(الْأَقْدَمُونَ) : السابقون الواغلون فى القدم .

التفسير

٦٩ - (وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ) :

أمر الله تعالى نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يتلو على أمته نبأ إبراهيم الذى يدينون له بالولاء والنبوة ، ليقتدوا به فى الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لا شريك له والتبرؤ

من الشرك وأهله ، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل ، أى : من صغره إلى كبره فإنه منذ شب أنكر على قومه عبادة الأصنام ، وقد حكى الله قصص الأنبياء فى هذه السورة بطريقة الإخبار ، أما قصة إبراهيم فقد تغير الأسلوب فيها من الإخبار إلى أمر الرسول بتلاوتها على قومه ، لزعمهم أنهم على شريعة إبراهيم الذى ينتسبون إليه ويفتخرون به ، مع أنهم بعيدون عن منهجه فى العقيدة كل البعد ، فهو إمام الموحدين ، وهم أئمة الوثنيين .

٧٠- (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ) :

تضمنت هذه الآية أن إبراهيم - عليه السلام - ، سأل قومه عما يعبدون ، لا لجهله بمعبوداتهم ، بل ليبنى على جوابهم أنها بمعزل عن استحقاق العبادة .

والمعنى : واتل - يا محمد - على قومك من قریش خبر إبراهيم العظيم - خبره - حين قال لقومه سائلا عن معبوداتهم : أى شئ تعبدونه ؟

٧١- (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) :

قالوا بطريق المبالاة : نعبد أصناما فنقيم على عبادتها تعظيما لها وتمجيذا ، ولم يقتصرُوا على جوابهم على بيان أنهم يعبدون أصناما فحسب ، بل أطنبوا فى وصفها حيث بينوا تمسكهم بها ، ودوام عكوفهم على عبادتها مع أنه لم يسألهم عن هذه التفصيلات ، فعلوا ذلك قصدا إلى إظهار ما فى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك .

والمراد بالظلول : اللوام ، كما فى قولهم : لو ظل الظلم هلك الناس ، وقيل : فعل الشئ نهارا ؛ فقد كانوا يعبدونها بالنهار والكواكب بالليل ، واختار بعضهم الأول لتبادره وكونه أكثر مناسبة للمقام ، واختار الزمخشري الثانى ؛ لأنه أصل المعنى وهو مناسب للمقام أيضا ؛ لأنه يدل على إعلانهم عبادتها ، وجاء النظم الحكيم على هذا النسق فقال : « فَنَنْظِلُّ لَهَا » دون (فنظل عليها) لإفادة معنى زائد ، كأنهم قالوا : فنظل لأجلها مقبلين على عبادتها .

٧٢- (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ) :

أى : قال إبراهيم مقبلا على إيمانهم مبكتا لهم : هل تسمعكم هذه الآلهة المزعومة حين تدعونهم فى قضاء حاجاتكم ، أو حين تعبدونهم ؟

وهذا الأسلوب أبلغ في التبكيث، والقصد منه : التنبيه على فساد عقلهم وسوء حالهم وأمرهم ، وأن عبادتهم الأصنام وافتخارهم بذلك سفه وسوء رأى .

٧٣- (أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) :

أى: هل ينفعونكم بسبب عبادتكم لهم أو يضرونكم بترككم لعبادتهم ؟ إذ لابد للعبادة من مقصد من هذه المقاصد ، حيث كانت على ما وصفتم من المبالغة فيها والحفاوة بها والإقامة عليها ، فهل لأصنامكم التي آثرونها بالعبادة صفة النفع أو الضر ؟ .

وتفرع كلمات إبراهيم آذانهم ملجمة لهم ، وتظهر حجته على فساد مسلكهم ، مفحمة إياهم حيث لا تجيب الأصنام دعاء ولا تسمع نداء ولا تأتى بخير ولا تدفع بلاء ، فيجيبون بما حكاه الله بقوله :

٧٤- (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) :

أى : ليس لألهتنا شئ من ذلك ، وإنما وجدنا آبائنا يفعلون مثل فعلنا ويعبدونهم مثل عبادتنا فاقنديناهم بقلدناهم فيما يفعلون .

٧٥ ، ٧٦- (قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ) :

قال إبراهيم مبكتا لهم : أى : أنتم لم تعلمتم حق العلم أى شئ كنتم تقيمون على عبادته أنتم ومن سبقكم من آبائكم القدامى ، فهل تقليد الآباء يصلح الاحتجاج به على صحة العبادة والوهية المعبود ؟ .

٧٧- (فَإِنَّهُمْ عَلَوْا عَلَىٰ إِلَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

في هذه الآية بيان لحال ما يعبدونه من دون الله ، من الضرر العائد من جهتهم على عابديهم بعد بيان غفلة العابدين عن ذلك ، فهو يريد بعداوتها له عداوتها لعابديها ، فإنهم يتضررون بعبادتها ، أى : فاعلموا أيها العابدون أنهم أعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى ، لتضررهم من جهتهم فوق ما يتضرر المرء من جهة عدوه ، وصور إبراهيم عليه

(١) قال الزجاج في إعراب : « إلا رب العالمين » استثناء من الضمير العائد على (ما تعبدون) باعتباره شاملا لله عز وجل .

السلام-الأمر في نفسه تعريضا بهم ، كما في قوله تعالى : « وَ مَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »^(١) ليكون أبلغ في النصيح وأدعى للقبول ، وأبعث على الاستماع لينظروا فيقولوا : ما نصحنإبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، ولو قال : فإنهم عدو لكم لم يكن بهذه المثابة ، وقد يبلغ التعريض للمنصوح مالا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل فيه ، فربما قاده التأمل إلى التقبل .

وكلمة (عدو) تستعمل في الواحد والجمع ، ولذا أخبر بها عن ضمير الجمع .
(إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ) : استثناء منقطع من ضمير (فَإِنَّهُمْ) واختاره الزمخشري ، أي : لكن رب العالمين ليس عدواً لي فإنه - سبحانه - ولي من عبده في الدنيا والآخرة .
والمعنى : فإن الذين تعبدونهم من دون الله عدو لي ولكم ، فلا أعبدكم لكن أعبد خالق العالمين ومربيهم .

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝^{٧٨} وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝^{٧٩} وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝^{٨٠} وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝^{٨١} وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۝^{٨٢})

الفردات :

(أَطْمَعُ) : أرغب .

(يَوْمَ الدِّينِ) : يوم الجزاء ، مأخوذ من دانه بمعنى جزاه .

التفسير

٧٨- (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) :

(الَّذِي خَلَقَنِي) : صفة لرب العالمين ، ووصفه تعالى بذلك وبما عطف عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته تعالى - زيادة في الإيضاح في مقام الإرشاد ، وتصريحاً بالنعم ،

وتفصيلا لها لكونها أدخل في اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى ، وقصر الالتجاء في جلب المنافع ، ودفع المضار العاجلة والآجلة على الله سبحانه .

(فَهُوَ يَهْدِينِ) : عطف على الصلة ، أى : فهو يهديني وحده - جل شأنه - إلى كل ما يهمني ويصلحني من أمور الحياة الدنيا وشئون المعاد هداية متجددة مع الاستمرار من مبدأ الحياة كما ينبت عنه الفاء وصيغة المضارع ؛ فإنه تعالى يهدي كل ما خلقه لما خلق له هداية يتمكن بها من جلب منفعه ودفع مضاره ، إما طبعاً وإما اختياراً ، مبدؤها بالنسبة للإنسان هداية الجنين لامتناع دم الطمث ، ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعيم بنعيمها المقيم .

٧٩- (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ) :

الموصول عطف على الموصول الأول ، وإنما كرر الموصول في المواضع الثلاثة مع كفاية عطف ما في حيز الصلة من الجمل على صلة الموصول الأول ، للإيدان بأن كل واحدة من هذه الصلات نعت جليل له تعالى مستقل في استيجاب الحكم ، تحقيقاً بأن يتصف بها - سبحانه - ويشكر عليها ، ويعبد من أجلها .

أى : فهو خالق ورازق بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن وأنزل الماء عذبا زلالا وأحيا به الأرض ، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد .

وجيء بلفظ (هو) في صدر الصلة دون ذكره مع الخلق لشيوع إسناد الإطعام والسقى إلى غيره - عز وجل - فلهذا أعاد الحق في الإطعام والسقى إلى مصدره والمنعم به سبحانه ، بخلاف الخلق فإنه لا يستعمل في غيره ، فلهذا لم يحتج إلى ضمير ، فالله سبحانه هو الذى ينبت لعباده طعامهم وغذاءهم وينزل لهم من السماء ماء ليسقيهم ، ولا دخل لهذه الآلهة في شئ من ذلك ، فكيف أعبد سواه ؟

٨٠- (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) :

عطف على (يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ) نظم معها في سلك الصلة لموصول واحد ، لأن الصحة والمرض ينجمان عن الأكل والشرب غالبا ، ونسب المرض الذى هو نقمة إلى نفس العبد ، والشفاء الذى هو نعمة إلى الله - عز وجل - لمراعاة حسن الأدب ، كما حكاها

القرآن الكريم عن الخضر-عليه السلام- بقوله : «فَارَدْتُ أَنْ أُعِيبَهَا»^(١) وقال : «فَارَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا»^(٢) ولا يرد إسناده الإمامة - وهي أشد من المرض إليه - عز وجل - في قوله تعالى : (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي) لإمكان الفرق بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله-عز وجل- على سائر البشر ، وحكم عام فالتأسي بعموم الموت يسقط أثر كونه نعمة ، فيسوغ الأدب نسبته إليه تعالى ، وليس المرض كذلك فقد يتفق وقد لا يتفق .

والمعنى : وإذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر عليه من الأسباب الموصلة إليه .

٨١- (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي) :

المعنى : والذي يميتني إذا جاء أجلي ، والذي يحييني مرة أخرى للحساب والجزاء ، وقيل : إن الموت لأهل الكمال وسيلة إلى نيل ما أعده الله لهم من نعم دائم تحتقر معه الحياة الدنيوية وفيه تخلص للعاصي من اكتساب السيئات ، فلهذا يعتبر نعمة فلذا أسند إليه سبحانه .

٨٢- (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) :

لم يكن لإبراهيم-عليه السلام- خطايا ، لأنه أبوالأنبياء وخليل الرحمن ، وإنما أضاف الخطيئة إلى نفسه بالنسبة إلى ربه أمام قومه ، هضما لنفسه وتنبيها لأبيه وقومه أن يتأملوا في أمرهم ليعلموا أنهم من سوء الحال في درجة شديدة ، وهم مع ذلك بعيدون عن الرجوع إلى الله بالتوبة من الشرك والمعاصي ، وليعلم المسلم أن الأنبياء دائما يطلبون المثل الأعلى في عبادة الله وطاعته ، وكلما ارتقوا إلى درجة أعلى استصغروا ما كانوا فيه وعدوه قليلا واعتبروه من الخطايا مع أنهم لم تحدث منهم معصية على الإطلاق .

ومغفرة الخطايا سابقة في علم الله ، وإنما علق إبراهيم-عليه السلام- المغفرة بيوم الدين ؛ لأن أثرها يظهر ويحدث يومئذ ، ولأن في ذلك تهويلا وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تغفر .

(١) الكهف ، من الآية : ٧٩

(٢) الكهف ، من الآية : ٨٢

(رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي
 لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْ لِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾
 وَاعْفُ عَنِّي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾
 يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(حُكْمًا) : حكمة وكمالا في العلم والعمل . (وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) : المراد بالصالحين ؛
 الأنبياء ، والمراد من إلحاقه بهم : أن يجمع بينه وبينهم في الجنة .

(لِسَانَ صِدْقٍ) : ذكرا حسنا وثناء جميلا .

(الْآخِرِينَ) : القرون التي تأتي بعدى .

(وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) : لا تنهني على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ، من الخزي بمعنى

الهبوط .

(بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) : خالص من الشرك والشك .

التفسير

٨٣ - (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) :

لما ذكر لهم من صفاته - عز وجل - ما يدل على كمال لطفه تعالى به ، حملة ذلك على
 مناجاته سبحانه ودعائه .

ومعنى الحكم : الحكمة التي هي كمال القوة العلمية بأن يكون عالما بالخير لأجل
 العمل به ، وقيل: يجوز أن يكون المراد بها كمال العلم المتعلق بذات الله وصفاته وسائر
 شئونه وأحكامه التي يتعبد بها ، والمراد بإلحاقه بالصالحين: أن يوفقه لأعمال تجعله ينتظم

في سلك الكاملين الراسخين في الصلاح ، المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها ، حتى يكون أهلاً لخلافة الحق ورياسة الخلق .

وقدم الدعاء الأول على الدعاء الثاني لأن القوة العلمية مقدمة على القوة العملية ، ولأن العلم صفة للروح ، والعمل صفة البدن ، ولقد دعا إبراهيم - عليه السلام - بدعائه هذا وهو نبي هضماً لنفسه ، وطلباً للمزيد من الكمالات ، وكان من دعاء رسولنا - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين » .

٨٤ - (وَاجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) :

أى : اجعل لي ذكراً صادقاً في جميع الأمم إلى يوم القيامة .

أى : خلّد ذكرى الجميل في الدنيا وذلك بتوقيفه للأعمال الصالحة وهدايته إلى السنن المرضية التي يقتدى بها الآخرون ويذكرونه بالخير بسببها وهم صادقون - قال عكرمة : كل أمة تحبه وتتولاه ، ولا بأس بأن يطلب تخليد ذكره ومدحه لأن الثناء الحسن مما يدل على محبة الله تعالى للعبد ورضاه عنه ، قال تعالى : « وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي » ^(١) وقال : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » ^(٢)) أى : حباً في قلوب عباده وثناءً حسناً .

ويجوز أن يراد بالآخرين : أمة يبعث فيها نبي ، وأنه - عليه السلام - طلب الصيت الحسن والذكر الجميل فيهم بأن يبعث منهم نبي يجدد أصل دينه ، ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم إليه من التوحيد ، معلناً أن ذلك ملة إبراهيم - عليه السلام - فكأنه طلب بعثة نبي في آخر الزمان لا تنسخ شريعته إلى يوم القيامة ، وليس ذلك إلا بعثة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد طلب بعثته - عليه السلام - بما هو أصرح من ذلك وهو قوله تعالى : « رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ » ^(٣) ولذا قال - صلى الله عليه وسلم - : « أنا دعوة إبراهيم عليه السلام » .

ويكون المعنى حينئذ : واجعل لي صاحب لسان صادق في الآخرين ، أو اجعل لي داعياً إلى الحق صادقاً في الآخرين ، واستدل الإمام مالك بهذه الآية على أنه لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه ، والأمور بمقاصدها .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٢٩

(٢) سورة مريم ، الآية : ٩٦

(٣) سورة طه ، من الآية : ٢٩

٨٥ - (وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ^(١)) :

قال ابن كثير: بعد أن طلب أن ينعم الله عليه في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعده طلب أن ينعم عليه في الآخرة بأن يجعله من ورثة جنة النعيم ، وذلك لأن المؤمنين يرثون منازل الكفار في الجنة ، لأنهم قاموا بما وجب عليهم الله من عبادته وحسن طاعته وعدم الإشراك به دونهم ، فأحرزوا نصيبهم في الجنة ، عن أبي هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما منكم أحد إلا وله منزلان : منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قول الله - عز وجل - : « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » ويجوز أن يسمى الحصول على الجنة وراثته لحصولهم عليها دون غيرهم ، ولأنهم يتصرفون فيها كما يتصرف الوارث في ميراثه .

واستدل بدعائه - عليه السلام - بهذا مع ما تقدم من الأدعية على أن العمل الصالح لا يوجب دخول الجنة ، وكذلك كون العبد ذا منزلة عند الله - عز وجل - وإلا لا ستغنى - عليه السلام - عن طلب الكمال في العلم والعمل والإلحاق بالصالحين ذوى الزلقى ، وأنت تعلم أنه يحسن الإطالة في مقام الابتهاال .

والمعنى : واجعلني من عبادك الذين منحتهم نعيم الجنة ثوابا على إيمانهم بك وعبادتهم لك .

٨٦ - (وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) :

والمعنى : وفقه للإيمان ؛ كما يلوح به تعليله بقوله : (إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) : أى المشركين أى : اجعل أبى أهلا للمغفرة ، بتوقيفه للإسلام ، قال ابن عباس في تفسيرها : امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك ، وكان أبوه آزر قد وعده بالإيمان ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وكف عن الدعاء .

(١) قال الراغب: الورثة والإرث: انتقال قنية إليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجرى مجرى العقد، وسمى بذلك المنتقل عن الميت فيقال للقنية الموروثة: ميراث وإرث ويقال: أورثني الميت كذا وأورثني الله كذا قال تعالى: «وأورثنا القوم» ويقال لكل من حصل له شيء من غير تعب: قد ورث كذا، وقال صاحب القاموس: أورثه أبوه وورثه جعله من ورثته، والوارث: الباقي بعد فناء الخلق، وفي الدعاء: أمتنى بسمى وبصرى واجعله الوارث منى ، أى : أبقه معى .

٨٧ - (وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) :

أى : أجرنى من الخزى والهوان يوم القيامة ، حين يبعث الخلائق أولهم وآخرهم
فلاتؤاخذن على ما فرط منى من التقصير عن رتبة الكمال ، ويجوز أن يكون ذلك تعليما
لغيره .

٨٨ - (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ) :

بدل من يوم يبعثون ، جىء به تأكيدا للتحويل وتمهيدا لما يعقبه من الاستثناء ، أى :
لا تخزننى يوم لا ينفع مال يفتدى به المرء نفسه من عذاب الله ولو كان ملء الأرض ذهباً ،
ولا ينفعه بنون مهما كان عددهم ، فكل امرئ بما كسب رهين .

٨٩ - (إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) :

أى : أنه لا ينفع أحدا يوم القيامة ماله ولا بنوه إلا من جاء ربه حينئذ بقلب برىء
من مرض الكفر والنفاق وغيرهما من سائر أمراض القلب ، وفيه تأكيد لكون استغفار
إبراهيم لأبيه ، كان المراد منه أن يغفر له بعد توبته من كفره ، لامتناع طلب المغفرة له وهو كافر مصر على
كفره ، والقلب السليم كما قال سعيد بن المسيب : هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن
لأن الكافر والمنافق مريض ، قال الله تعالى : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »^(١) وخص القلب بالذكر ، لأنه
إذا سلم سلمت الجوارح ، وإذا فسد فسدت ، وهذه أولى صفات يوم القيامة يوم لا ينفع
فيه مال ولا بنون ، فالناس فيه جردوا من مالهم وحولهم وطولهم ونجاتهم هناك وعزهم
بقلب خلى من الزيغ وفساد الاعتقاد ، نقى من الشرك والران .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٠

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾
 وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ
 أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ
 إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا
 لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا
 إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾
 فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾)

المفردات :

- (أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ) : قُرُبَتْ وَأُدْنِيَتْ . (بُرُزَتِ) : أَظْهَرَتْ . (الْجَحِيمُ) : جَهَنَّمُ .
- (لِلْغَاوِينَ) : لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ ضَلُّوا ، وَالْغَوَايَا - بَفَتْحٍ - الْغَيْنِ - : الضَّلَالِ .
- (فَكُذِّبُوا فِيهَا) : فَرُمَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْجَحِيمِ مُنْكَبِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ .
- (ضَلَالٍ مُبِينٍ) : زَيْغٌ عَنِ الْحَقِّ وَاضِحٌ . (كَرَّةً) : عَوْدَةٌ وَرَجْعَةٌ إِلَى الدُّنْيَا .
- (صَدِيقٍ حَمِيمٍ) : حَبِيبٌ قَرِيبٌ يَتَمُّ بِهِمْ ، مِنْ الْإِحْتِمَامِ ، بِمَعْنَى : الْإِهْتِمَامِ .

التفسير

٩٠- (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) :

أَي : قُرُبَتْ الْجَنَّةُ مِنَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْا الْكُفْرَ وَسَائِرَ الْمَعَاصِي بِحَيْثُ يَشَاهِدُونَهَا مِنَ الْمَوْقِفِ ، وَيَقِفُونَ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ فَنُونِ الْمَحَاسِنِ فَيَبْتَهِجُونَ بِأَتْنَمِ الذَّاهِبُونَ إِلَيْهَا ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الْعَصَاةُ

الذين غلبت معاصيهم على طاعاتهم ، فإنها لا تقرب منهم إلا بعد عقابهم على معاصيهم ، ما لم يعف الله عنهم .

٩١- (وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ) :

أى : أظهرت وكشف عنها للذين ضلوا عن طريق الحق والإيمان بحيث يرونها ويبصرون أهوالها ويتحسرون على أنهم المسوقون إليها ، المحشورون فيها ، ويوقنون بأنهم واقعوها ولا يجدون عنها مصرفا .

والتعبير في جانب الجنة بالإزلاف الذى هو غاية التقريب للإيذان بقرب دخول المتقين إليها ، أما في جانب النار فقد عبر بالإبراز للإيذان بأنها تبدو للغاوين ولو من بعيد ، تعجيلا بمساءتهم .

٩٢ ، ٩٣- (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُوكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ) :

أى : يقال لهم على سبيل التوبيخ : أين آلهتكم التى كنتم تعبدونها من دون الله وتزعمون أنهم شفعاؤكم فى هذا الوقت ؟ .

(هَلْ يَنْصُرُوكُمْ) : بدفع ما تشاهدون من الجحيم وما فيها من العذاب الشديد وعظيم الأهوال (أَوْ يَنْتَصِرُونَ) : بدفع ذلك عن أنفسهم .

أى : ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغنى عنكم اليوم شيئا ولا تدفع عن أنفسها فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون .

٩٤- (فَكُتِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ) :

أى : أُلقي الأصنام فى الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى (فالكىكة) تكرير لكى جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا أُلقي فى جهنم يكب مرة بعد أخرى حتى يستقر فى قعرها ، وضمير الجمع فى قوله : « ككبوا » لما يعبدون من دون الله وهم الأصنام ، وأكد بالضمير المنفصل أعني (هم) ، وكلا الضميرين للعقلاء ، واستعملا فى الأصنام نهكما ، والغاؤون هم الذين عبدوها ، والتعبير عنهم بهذا العنوان دون (العابدون) تسجيل لوصف الغواية عليهم ، وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز إلى أنهم يؤخرون

في الكبيكة عنها ليشاهدوا سوء حالها وضعفها وهوانها وضعتها ، فيقطع رجاؤهم في النجاة قبل دخول الجحيم ، وقيل : ضمير (فككبوا) للمشركين مطلقا، والغاوون هم القادة المتبعون .

٩٥- (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) :

المراد من جنود إبليس : من يساعدونه على إغواء البشر من شياطين الجن والإنس أى : ألقى فيها الأصنام والغاوون الذين عبدوها ، وجنود إبليس ألقى فيها هؤلاء أجمعون ليعذب كل منهم على جريرته ، أما الأصنام ، فإنها تشاركهم النار لاعتقابها لها ، بل لبيان أنهم لا قدرة لهم على نفعهم ، كما لا قدرة لهم على إنقاذ أنفسهم .

٩٦- (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ) :

استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عما قبله ، كأنه قيل : ككبب الآلهة والغاوون - عبدتها - والشياطين الداعون لها فما الذى حدث بعد ذلك ؟

أى : قال الغاوون من العبداء يخاصمون آلهتهم ، ويلومون أنفسهم على عبادتها ، ويتحسرون على تقديسها حيث يجعلها الله أهلا للخطاب يومئذ ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يجرى ذلك التخاصم بين العصاة والشياطين .

٩٧ ، ٩٨- (تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

(إن) في قوله : « إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن :

والمعنى : والله إن شأننا أننا كنا في دنيانا في ضلال عن الحق واضح ، حين سوينناكم أيها الأصنام برب العالمين في استحقاق العبادة ، مع أنكم أدنى مخلوقاته وأذلها ، يقولون ذلك تحسرا على ما فاتهم من أسباب النجاة ، وبياننا لخطئهم في رأيهم مع وضوح الحق ، وقد أكدوا ذلك بالقسم ، واستعملوا فيه حرف التاء المفيدة للتعجب كما قاله بعض النحاة .

٩٩- (وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ) :

بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم .

أى : وما أضلنا عن الحق إلا المجرمون من شياطين الجن والإنس الذين زينوا لنا عبادة الأصنام ، فأنت تراهم في هذا الاعتراف ينفون عن الأصنام إضلالهم ، ويحيلونه على المجرمين من الشياطين ، وذلك بعد أن اتضح لهم الحال فإن الأصنام لا تبشر إضلال عابديها .

١٠٠ ، ١٠١ - (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) :

أى : فما لنا شفعاء يشفعون لنا كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبیین والمؤمنين ، ولا صديق قريب مشفق يهتم لأمرنا كما نرى لهم أصدقاء لأنه لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون ، وأما أهل النار فبينهم التعادى والتباغض والمراد : تأسفهم على فقد شفيع يشفع لهم مما هم فيه أو صديق شفيق يهتم بهم ذلك ، وقد تدرجوا في التأسف لمزيد انحطاط حالهم حيث نفوا أولاً أن يكون لهم من ينفعهم في تخليصهم من العذاب بشفاعته ، ونفوا ثانياً أن يكون لهم من يهتم أمرهم ويشفق عليهم ويتوجع لهم وإن لم يخلصهم .

قال صاحب الكشف : جمع (الشافع) لكثرة الشفعاء . ووحد (الصديق) لقلته . اهـ
ويجوز أن يراد بالصديق الجمع فإنه يطلق عليه لأنه على زنة المصدر أو لأنه نكرة في سياق النفي فتعم .

١٠٢ - (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

لو مستعملة في التمنى بدليل نصب قوله تعالى : (فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) في جوابها .
والمعنى : فليت لنا رجعة إلى الدنيا فنكون من المؤمنين فلا ينالنا إذا متنا فبعثنا مثل ما نحن فيه من العذاب الذى لا ينفع فيه أحد - ليت لنا عودة إلى الدنيا مرة أخرى فنصحح خطائنا ونحطم أصنامنا ونعبد ربنا ونكون من المؤمنين به وحده ، فإذا كان البعث قربت لنا الجنة وشفع لنا الملائكة والأنبياء وكان إلى جوارنا الأصدقاء والأخلاء .

قال الزمخشري : وما أحسن ما رتب إبراهيم - عليه السلام - كلامه مع المشركين حيث سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها

بأنها لاتنضر ولا تبصر ولا تسمع ، وعلى تقليد هم آباءهم الأقدمين فأبطله وأخرجه من أن يكون شبهة ، فضلا عن أن يكون حجة ، ثم صور المسألة في نفسه دونهم ، حتى تخلص منها إلى ذكر الله - عز وجل - فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين وابتهل إليه ابتهاال الأوابين - ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه ، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال ، وتمنى الكفرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

١٠٣ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ) أى : فيما ذكر من نبأ إبراهيم - عليه السلام - ومحااجة لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد (لآية) عظيمة ودلالة واضحة على خطأ عبادة الأصنام ، وبخاصة أهل مكة الذين يدعون أنهم على ملة إبراهيم - عليه السلام - فعليهم أن يجتنبوا كل الاجتناب ما هم عليه من عبادتها خوف أن يحقق بهم هذا العذاب بحكم الاشتراك فيما يوجبه .

ويجوز أن يكون المعنى : إن فيما ذكر من نبأ إبراهيم - عليه السلام - على حقيقته من غير أن تسمعه يا محمد من أحد لآية عظيمة دالة على أن ما تتلوه عليهم - وهو صادق - نازل من عند الله تعالى موجب للإيمان .

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) :

أى : وما كان أكثر هؤلاء الذين تتلو عليهم نبأ إبراهيم مؤمنين ، بل هم مصرون على ما هم عليه من الكفر والضلال ، وقيل : ضمير (أكثرهم) لقوم إبراهيم ، وليس بشئ .

١٠٤ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : لهو القادر على تعجيل العقوبة لقومك ولكن يمهلهم رحمة بهم ليؤمن منهم أو من ذرياتهم من شاء الله إيمانه .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ
 أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا
 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٠٩﴾)

قص الله - سبحانه وتعالى - فيما تقدم قصة موسى، وقصة إبراهيم - عليهما السلام - وفي هذه الآيات إخبار من الله - عز وجل - عن قصة عبده ورسوله نوح - عليه السلام - إلى أهل الأرض بعد أن عبدوا الأصنام ، وتكذيبهم لرسالته وعقابهم بالطوفان على هذا التكذيب .
 والحكمة في ذكر هذه القصص :

(١) تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي كانت شفقتة على قومه سببا في جهده وألمه بسبب كفرهم .

(٢) تخويف قومه بما وقع على الأمم السابقة من عذاب بسبب كفرهم وعصيانهم لأنبيائهم .

التفسير

١٠٥ - (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) :

قال صاحب المختار : القوم : الرجال دون النساء .

وقال زهير :

وما أدرى ولست إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

وقال تعالى : « لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ » ^(١) ثم قال : « وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ » وربما دخل فيه النساء على سبيل التبع كما هنا ، لأن قوم كل نبي رجال ونساء ، والقوم يذكر ويؤنث لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت للآدميين تذكر وتؤنث مثل الرهط والنفر والقوم ، قال تعالى : « وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ » ^(٢) وقال هنا : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ) ١ هـ :
 من مختار الصحاح .

وتكذيب قوم نوح المرسلين باعتبار إجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار ، فمن كذب رسولاً فقد كذب الرسل ، ويجوز أن يراد بالمرسلين: نوح-عليه السلام-بجعل اللام للجنس، كما يقال: فلان يركب الدواب ويلبس البرود ، وماله إلا دابة وبردة .

١٠٦- (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ) :

(إِذْ قَالَ لَهُمْ) : ظرف للتكذيب ، والمراد بأخوته لقومه أنه ابن أبيهم ، فهو شريكهم في أخوة النسب ، وقيل : من قول العرب : يا أخا تميم يريدون واحدا منهم .
(أَلَا تَتَّقُونَ) : أى ألا تخافون الله - عز وجل - حيث تعبدون غيره .

١٠٧- (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) :

أى : إني رسول من الله إليكم ، صادق فيما أبلغكم عن الله من شريعة ، لا أزيد فيها ولا أنقص منها ، وقيل : أمين فيما بينكم لأنهم عرفوا أمانته كما عرفت قريش أمانة محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل البعثة وكانت تلقبه بالصادق الأمين .

١٠٨- (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) :

أى : اجعلوا أنفسكم في وقاية من عذاب الله بطاعته ، وأطيعوني فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله ، وقدم الأمر بتقوى الله على الطاعة لأن التقوى سبب الطاعة .

١٠٩- (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

وما أسألكم على ما أنا مُتَّصِدٌ له من الدعاء والنصح أجرا من مال أو سواه ، وما أجرى في دعوتي لكم إلى الحق (إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) فهو سبحانه الذى يؤجرنى على ذلك تفضلا منه ، لا غيره .

١١٠- (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) :

أى : وإذا كنت لا أسألكم على دعوتكم أجرا ، فذلك برهان على صدق ، فاتقوا الله وخافوه وامثلوا أوامره ، وأطيعوني فيما بلغتكم عنه .

* (قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾
وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾)

الفردات :

- (الْأَرْذُلُونَ) : جمع الأرذل : وهو الدون الخسيس ، وقد يطلق على الردى من كل شيء .
(لَو تَشْعُرُونَ) : لو تحسون . (نَذِيرٌ مُبِينٌ) : منذر مبين للحق .

التفسير

١١١ - (قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ) :

قال قوم نوح يردون دعوته : لا نؤمن لأجلك ولا نصدق بك وقد اتبعك هؤلاء السفلة
الآخساء من الناس ، يقصلون أن الذين اتبعوه أدنى منهم جاهاً ونسباً ومالاً ، كأهل الحرف
الدنيئة والصناعات الوضيعة ومن لا شأن له من الناس ، فلا يكونون أهلاً لاجتماعهم بهم في
شأن سبقهم إليه ، ولا أسوة يقتلدون بهم .

وهذا العذر الذي انتحلوه لكفرهم ، برهان على جهلهم وقلة عقلهم ، فإنه ليس بعار
على الحق ضالة من اتبعه ، فإن الحق في نفسه صحيح ، سواء اتبعه الأشراف أم الأرذل .
على أن سبق الأسافل إليه برهان على أنهم هم الشرفاء العاقلون ، والذين يابونه هم الأرذل
الجاهلون . فمن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه .

وواقع الحياة والتاريخ شاهد على أن الضعفاء يسبقون إلى الحق لفقدان ما يشغلهم
عنه ، وأن يتقاعس عنه الأغنياء وذوو الجاه لكبريائهم . وفي ذلك يقول الله تعالى :

«وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ» ^(١) والحق أن الفقر ليس من الرذالة في شيء ؛ قال الشاعر :

قد يدرك المجدّ الفتي ورداؤه خلقٌ وجيبٌ قميصه مرقوعٌ

وخسة الصناعة مع تقوى الله ، لا تلحق بصاحبها نقصاً ، قال أبو العتاهية :

وليس على عبد تقىً نقيصة إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم ^(٢)

ومثلها ضعة النسب فقد قيل :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ولما سأل هرقل أبا سفيان بن حرب قائلاً : أأشراف الناس اتبعوا محمداً أم ضعفائهم ؟ قال أبو سفيان : بل ضعفائهم ، فقال هرقل : هؤلاء هم أتباع الرسل ، ولما كان وصفهم لمن اتبعوا نوحاً بأنهم أزدلون ، فيه تعريض بأنهم لم يتبعوه إخلاصاً له أو لدينه ، بل ليرفعوا خستهم ، أو ليصيبوا بإيمانهم بعض المنافع ، فلهذا رد عليهم نوح بما حكاه الله بقوله :

١١٢ - (قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : ليس لي علم بما كانوا يعملون بإيمانهم ، وهل عملود إخلاصاً أو طمعاً في غرض دنيوى ، وأى شيء يلزمنى بالبحث عن نية هؤلاء بإيمانهم ، فليست وظيفتى إلا اعتبار الظواهر ، وبناء الأحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم ، والشق عن قلوبهم ، أما معرفة القلوب والحساب على ما انطوت عليه فهي لله تعالى ، كما قال سبحانه :

١١٣ - (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ) :

ما محاسبته على إيمانهم وأعمالهم ، وجزاؤهم عليها إلا على ربى ، فهو سبحانه المطلع على البواطن ، العليم بما تخفى الصدور ، المحاسب والمؤاخذ عليها ، لو كنتم من أهل الشعور والإدراك لعلمتم ذلك ، لكنكم لستم كذلك فقلتم ما قلتم .

(١) سورة الزخرف : ٢٣

(٢) حاك : معناه نسج ، ومصدره الحياكة ، وحجم أى : امتص الدم من العضو بعد حجه بالمحجم لدفع الألم عنه ،

والهجمة : حرفة الحجام .

١١٤ - (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ) :

ولست بطارد المؤمنين عني لضعفهم تطيباً لنفوسكم ، وطمعاً في إيمانكم ، وهو جواب عما أشعر به كلامهم من رغبتهم في طردهم ، كشرط لإيمانهم به . وقيل : إنهم طلبوا منه طردهم فأجابهم بذلك ، ويشير إلى هذا ما جاء في سورة هود على لسان نوح : « وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » (٢٩ - ٣٠) . وقد فعل مثل ذلك رؤساء قريش مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله له : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ » (١) .

فهذا وذاك يدلان على أن شريعة السماء تحرص على المؤمنين ، ولو ضعف شأنهم بين قومهم .

١١٥ - (إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

في هذه الآية الكريمة تحديد لوظيفة الرسول ، وهي كالتعليل لما قبلها ، أي : وما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين وزجرهم عن الكفر والمعاصي ، سواء أكانوا من الأغنياء أم من الأذلاء ، فكيف يتسنى لي طرد الفقراء لإرضاء الأغنياء ؟

(قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَه يَنْتُوح لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّا قَوْمِي كَذَبُونَ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾)

المفردات :

(مِنَ الْمَرْجُومِينَ) : من المقتولين رجماً بالحجارة . (فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا) : أى فاحكم بينى وبينهم حكماً . (الْفُلِّ) : بوزن القفل ، ويطلق على السفينة الواحدة ، وعلى السفن المتعددة بلفظ واحد ، ويعرف المقصود بالقرائن ، قال تعالى فى الجمع : « وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ » أما هنا فهو للواحد ، ولذا وُصِفَ بالمشحون ، أى : المملوء ، من شَحَن السفينة - كمنع - : ملاًها ، كاشحنها . (الْعَزِيزُ) : الغالب الذى يَقهر ولا يُقهر .

التفسير

١١٦ - (قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَه يَنْتُوح لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) :

طال مقام نوح - عليه السلام - بين قومه ، يدعوهم إلى الله تعالى - ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً ، وكلما كرر الدعوة لم يزدادوا إلا عناداً وإصراراً ، ثم لجثوا إلى التهديد ، وذلك ما حكاه الله فى هذه الآية .

ومعناها : قال قوم نوح : لئن لم ترجع يا نوح عن دعوتك إيانا إلى دينك لنرجمنك ، يقصدون تهديده بالقتل رجماً بالحجارة ، ولما استحکم اليأس عند نوح من إيمانهم ، بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم ، دعا عليهم دعوة استجاب الله لها ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

١١٧، ١١٨ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ فَاقْتَحِبْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

لم يقصد نوح - عليه السلام - إخبار ربه - تعالى - بتكذيب قومه له ، لأنه يعلم أن ربه بهم عليم ، ولكنه يقصد الاعتذار عن دعائه على قومه ببيان سببه .

والمعنى : قال نوح بعد أن صبر على قومه دُهوراً وهم يجادلون ولا يؤمنون - قال - : يارب إن قومي استمروا على تكذبي في دعوتي إياهم إلى الحق وأصروا على ذلك دهوراً ، فاحكم بيني وبينهم حكماً يهلك به من جحد توحيدك وكذب رسولك ، ونجني ومن آمن معي من العذاب الذي تنزله بهم ، وهذه حكاية إجمالية لدعائه المفصل في سورة نوح.

١١٩، ١٢٠ - (فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ) :
أى : فَأَنْجَيْنَا نوحاً ومن آمن معه في السفينة المملوءة بهم ، وبما لا بد منه من الطعام والشراب والحيوان ، وقد حمل فيها من كل زوجين اثنين ، ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين على الكفر ، أو الباقين خارج السفينة لكفرهم .

١٢١ - (إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) :

إن فيما ذكره القرآن من نبأ نوح وقومه لبرهاناً وحجة على قدرة الله وغضبه لمحارمه ، وعلى صدق الرسول في نبوته ، حيث حكى عن نوح ما لا سبيل له إلى علمه سوى الوحي ، وما كان أكثر أمة نوح مؤمنين ، فلذلك أهلكهم وأنجى المؤمنين ، فلماذا لا يعتبر مشركو مكة بقصتهم ، ويرجعوا عن غيهم ، حذراً من أن يبطش الرب الجبار بهم ، كما بَطَشَ هؤلاء المشركين قبلهم .

١٢٢ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك - أيها الرسول - لهو الغالب على ما يريده ، القادر على استئصال أعداء دينه ، فكل شيء دونه مقهور مغلوب لقدرته ، وهو الرحيم المنعم بدقائق النعم ، الكثير الرحمة ، فلذا أخرج العقوبة عنهم أحقاباً ودهوراً ، ولم يقطع الرزق عنهم مع قبح فعلهم .

(كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ
 أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٢٦﴾
 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾
 أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
 تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا آلَ إِيَازَ أَمْ دَكُّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ دَكُّكُمْ
 بِأَنعَمَ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
 يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ
 الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾
 فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾)

المفردات :

(رِيعٍ) : الرِّيع - بالفتح والكسر - : مسيل الوادى ، وكلُّ مرتفع من الأرض ، والجبلُ .
 (تَعْبَثُونَ) : العبث ؛ ما لا فائدة له (مَصَانِعَ) : مأخذ المياه ونحوها ، وخشب يحبس
 الماء ويمسكه حيناً ، أو المباني العظيمة من القصور والحصون ، أو القرى ، قال الأصمى :
 العرب تسمى القرى مصانع ، (تَخْلُدُونَ) : تبقون وتدومون ، وكل ما يتباطأ عنه التغيير
 والفساد فهو خالد . (بَطَشْتُمْ) : البطش ؛ الأخذ بشدة وعنف ، وفعله : بطش يبطش
 كضرب ونصر ، (جَبَّارِينَ) : عتاة قاهرين قساة القلوب . (أَنْعَمَ) : جمع نعم -

- بفتح العين ، وقد تسكن - : الإبل والبقر والغنم ، ويكثر استعمالها في الإبل خاصة ، (أَوْعَظْتَ) : الوعظ ؛ التذكير بما يلين القلوب . (خُلِقُوا الْأَوَّلِينَ) أى : سجنيتهم وطبيعتهم .

التفسير

١٢٣ - (كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ) :

لما قصَّ الله - سبحانه - على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - خبر نوح - عليه السلام - تسلياً له عما يلقاه من قومه ، قصَّ عليه أيضاً نبأ هود - عليه السلام - مع قومه ، وزمانهم بعد قوم نوح - عليه السلام - كما جاء في سورة الأعراف : (وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ^(١) . وقد كانوا أقوياء الأجساد شديدي البطش ، في سعة من الأولاد والأموال والبساتين والأنهار والزرورع والثمار والخيرات التي لا تحصى ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله - تعالى - وكان أمرهم مع هود - عليه السلام - ما قص الله في هذه الآية وما بعدها .

والغنى : كذبت قبيلة عاد جميع المرسلين ، فإن تكذيبهم لرسولهم هود - عليه السلام - يعتبر تكذيباً لجميع الرسل ، لاتحاد دعوتهم في أصولها وغاياتها ، وتأنيث الفعل هنا باعتبار أن المراد بعاد (القبيلة) وهو في الأصل اسم لأبيهم الأقصى ، فأطلق عليهم .

١٢٤-١٢٧ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

يرى القارئ في قصص نوح ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب - يرى القارئ - في هذه القصص الخمس أنها قد بدئت جميعاً بالأمر بالتقوى والطاعة ، وقول الرسول لقومه : إنه لا يسألهم أجراً على تبليغه الرسالة إليهم ، وتصديرها بذلك للتنبيه على أن الرسائل السبئية قائمة على الدعاء إلى تقوى الله ومعرفة الحق ، وطاعة الرسل فيما أمروا به أو نهوا عنه جلباً للثواب ودفعاً للعقاب ، والتنبيه إلى أن الرسل لا يبتغون من وراء تبليغ رسالاتهم أجراً وجاهاً ، وليعلم القارئ أن الرسل وإن اتفقوا على العقائد وأصول الشرائع ،

فهذا لا يمنع من حدوث الاختلاف في بعض فروعها كما أو كيفاً تبعاً لاختلاف العصور وأهلها .

١٢٨ - (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ) :

أتشيدون بكل مكان عال من أرضكم بناءً شامخاً تتفاخرون به وتعبثون بإقامته دون أن تكونوا في حاجة إليه ، أفلا فكرتم في أخراكم فآمنتم بربكم وعلمتم لمرضاته ، لأنكم إليه صائرون ، وعلى عقائدكم محاسبون .

١٢٩ - (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) :

المصانع : جمع مصنعة - بفتح النون وضمها - وهى كالحوض يجتمع فيها ماء المطر ، وهذا يؤذن بأنها فوق الأرض ، ولعلمهم كانوا يتخذون السدود لحبس مياه المطر ، كما فعلت سبأ بإنشائها سد مأرب ، وتطلق المصانع أيضاً على مآجل الماء تحت الأرض^(١) ، ولعله يشير إلى المعنى الأول للمصانع قول لبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بَعْدَنَا والمصانع

وفسرها بعض اللغويين بالقصور الشاهقة والحصون المنيعة ، ومنه قول الشاعر :

تركنا دورهم منهم قفاراً وهدمنا المصانع والبروجا

والمعنى على الوجهين : وتتخذون سدوداً لحبس المياه أو حصوناً منيعة وقصوراً مشيدة مؤملين الخلود في الدنيا ، كأنكم لا تعرفون الموت ولا تحسبون بسكان القبور ، والمقصود من ذمهم وتوبيخهم على الوجهين : اهتمامهم بدنياهم ، دون العمل لأخراهم ، فلو عملوا لهما جميعاً لما عيب عليهم ما صنعوه لدنياهم في غير سرف ولا مخيلة .

١٣٠ - (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) :

وإذا عاقبتم سواكم : أسرفتم في البغى عليهم جبارين غاشمين ، تقتلون وتخربون بلارأفة ولا قصد تأديب ولا نظر في العواقب ، وعن الحسن : تبادرون تعجيل العذاب لا تتثبتون متفكرين في العواقب ، وقال ابن كثير : يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت .

(١) وبه قال قتادة .

١٣١- (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) :

فخافوا الله واتركوا هذه الأفعال ، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه ؛ فإنه أنفع لكم .

١٣٢-١٣٤- (وَاتَّقُوا الَّذِي آمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . آمَدَّكُمْ بِإِنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) .

أي : واحذروا غضب الله الذى بسط لكم يد إنعامه ، بالذى تعلمونه من أنواع النعماء وأصناف الآلاء ، أمدكم بالآيل والبقر والغنم ، وأمدكم بالبنين لتكثروابهم ، وليعاونوكم فى حفظ أنعامكم وتنميتها ، وليحملوا عنكم بعض أعبائكم ، وأمدكم ببساتين مشمرات ، وعيون بالماء جاريات .

قال الزمخشري : بالغ فى تنبيههم على نعم الله ، حيث أجمالها ثم فصلها مستشهدا بعلمهم ، وبذلك أيقظهم من سنة غفلتهم عنها ، ونبههم إلى أنه تعالى كما قدر أن يتفضل عليهم بهذه النعم ، فهو قادر على الثواب والعقاب ، فعليهم أن يتقوه . انتهى بتصرف .

١٣٥- (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

إنى أخاف عليكم إن لم تقوموا بشكر هذه النعم عذاب يوم عظيم فى الدنيا والآخرة ، فإن كفران النعم موجب للعقاب بإزالتها أو تقليلها ، كما أن شكرها سبب فى زيادتها ، قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد »^(١) .

وهكذا دعاهم نبينهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، وبين لهم أنه كما قدر على أن يعطيهم هذه النعم متفضلا ، فهو قادر على سلبها عادلا ، وأنه بذلك تعرف قدرته على ثوابهم إن أحسنوا وعقابهم إن أساءوا ، ولم ينفعهم وعظه وتذكيره كما حكاه بقوله :

١٣٦- (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ) :

قالوا استخفافا وعدم مبالاة بما يقول : سواء علينا أباغتنا فى وعظنا وتذكيرنا أم لم تكن من الواعظين ، فإننا لن نرعى عما نحن عليه .

ولم يقولوا : أوعظت أم لم تعظ - مع أنه أخصر - للمبالغة في بيان قلة اعتدادهم بوعظه ؛ لأن المراد : سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن من أهله ومباشره أصلاً .

١٣٧، ١٣٨ - (إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلِقُ الْأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ) :

أى : ما هذا الذى جئتنا به إلا خلق الأولين وعادتهم ، إذ كانوا يلفقون مثله ويسطرونه كما قال مشركو مكة للنبي - صلى الله عليه وسلم - : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » .

أو ما هذا الذى نحن عليه إلا خلق الأولين - أى : دينهم وعادتهم - ونحن بهم مقتدون ، كما قال مثله غيرهم : « إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ » ^(١) فنحن تابعون لهم سالكون سبيلهم ، نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ، وما نحن بمعذبين فلا بعث ولا جزاء .

١٣٩ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ) :

أى : فاستمروا على تكذيبهم وعنادهم ، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية شديدة البرد ، فكان سبب إهلاكهم من جنس جيروتهم ، إن فى ذلك الذى أنزله الله بعاد جزاء تكذيبهم لبرهاناً على قدرة الله ، وما كان أكثر الذين تتلو عليهم ، يامحمد - نبأ عاد مؤمنين برسالتك مع قيام الحجة عليهم .

١٤٠ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك - أيها الرسول - لهو القاهر للجبارين ، الرحيم بالمؤمنين .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ
 أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٤٤﴾
 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾
 أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَلُمْنَا إِيَّاكُمْ مِنَ الْأَمْنِ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ
 وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ
 يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ
 الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ
 الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبُ يَوْمٍ
 مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾
 فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾)

المفردات :

(ثَمُودُ) : اسم عربي عند الأكثرين ، وعدم صرفه لأنه اسم قبيلة ، وهو فعول من
 التَّمَد وهو الماء القليل . (طَلْعُهَا هَضِيمٌ) : الطلع ؛ أول ما يبدو من ثمرة النخل ، كَنَضْل
 السيف ، في جوفه شاربخ القنو ، والهَضِيم : اللطيف اللين ، أو المنضم بعضه إلى بعض ،

سأل نافع بن الأزرق ابن عباس -رضي الله عنهما- عن معنى (هضم) فقال: هو المنضم بعضه إلى بعض، فقال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول امرئ القيس:

داراً لبيضاء العوارض طفلة مهضومة الكشحين رباً المعصم

وقيل: المراد من الطلع الهضم: الطيب اللين النضيج من الرطب. (تَنَحُّونَ): النحت؛ البرئ،: أى يبيرون الأحجار، والنُّحاتُ: البراية. (فَارِهَيْنَ): ماهرين حاذقين وفعله: فَرَهَ ككُرُم، فراهة وفراهية، أما فَرَهَ بوزن فرح، فمعناه: أشرب وبطر. (المُسْحَرَيْنَ): السحر - بسكون الحاء ويحرك -: الرثة، والسحر - بكسر السين -: كل ما لطف مأخذه ودق، وفعله كمنع. (شَرَبٌ): الشرب - بالكسر -: الماء، والنصيب منه، والمورد، ووقت الشرب. (فَعَقَرُوهَا): فذبحوها، والعقر: الذبح والجرح، وعَقَر النخلة: قطع رأسها.

التفسير

١٤١-١٤٥ - (كَذَبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

هذا إخبار من الله عن ثمود قوم صالح - عليه السلام - بأنهم كذبوا المرسلين بتكذيب نبيهم وأخيهم صالح حين دعاهم إلى تقوى الله فإن المرسلين جميعاً جاؤوا برسالة موحدة، هي الدعوة إلى التوحيد والإيمان بيوم النشر، وتقوى الله، فمن كذب أحدهم فقد كذب سواء ضمناً.

ومساكن ثمود بالحِجْر، بين وادي القرى وبلاد الشام، وقد مر النبي - صلى الله عليه وسلم - بها في طريقه إلى غزوة تبوك.

والمعنى: كذبت قبيلة ثمود المرسلين بتكذيبهم نبيهم صالحاً، مع أنه أخوهم، ومن بينهم فهم يعرفون صدقه - كذبوه - حين قال لهم: ألا تتقون عقاب الله فتؤمنوا به إلهاً واحداً لا رب سواه، إني لكم رسول من الله أمين على رسالته، وأمين في أمره كله،

فاتقوا الله وأطيعوني في دعوتكم إلى الحق ، وما أطلب منكم على ذلك أجراً وثواباً ، فما أجرى إلا على رب العالمين ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال :

١٤٦-١٤٩ - (أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمَنِينَ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْحِفُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ) :

إنكار ونفي لأن يتركوا مخلصين في نعيمهم لا يزالون عنه ، أو تذكير بالنقمة إذا تخلى الله عنهم ، ففضى على ما يتنعمون به من الجنات وما هم فيه من الأمن والدعة .

والمعنى : أتظنون أن تتركوا في دياركم هذه آمنين في حدائق مشمرات ، وعيون جاريات بالماء الفرات ، وزروع يانعات ، ونخل ثمرها لين نضيج ، وتتخذون من الجبال بيوتاً حاذقين في نحتها منها ، متفاخرين بها ، أتركون في ذلك آمنين من نقم الله ، وأنتم مقيمون على الكفر والمعاصي ؟ !

١٥٠ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) :

أى : فاقبلوا على تقوى الله وطاعته فيما أمركم به عن الله ؛ فإن ذلك هو الذى يعود نفعه عليكم في دنياكم وأخراكم ، فبه تبقى النعم ، وتبعد النقم ، وتحسن العاقبة يوم يقوم الناس لرب العالمين .

١٥١، ١٥٢ - (وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ . الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) :
ولا تطيعوا أمرزعمائكم الذين أسرفوا على أنفسهم بالترف واتباع الشهوات والإغراق في الكفر والضلال ، الذين يعيشون في الأرض فساداً ، ولا يصلحون في شئون البلاد والعباد .

١٥٣ - (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) :

قال قوم صالح رداً على وعظه ونصائحه : ما أنت إلا من الذين سُحروا كثيراً حتى غلب السحر على عقولهم- وبه قال مجاهد وقتادة . أو من المخلوقين الذين لهم سحر ، أى : رثة ، يَغْتُونُ أنه من بنى آدم مثلهم ولا فضل له عليهم ، وبه قال ابن عباس ، واستشهد بعضهم على هذا بقول الشاعر :

فإن تسألينا مم نحن ؟ فإننا عصفير من هذا الأنام المُسحَر

١٥٤ - (مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

ما أنت إلا إنسان تماثلنا في البشرية ، فكيف أوحى إليك دوننا ، فَأْتِ بحجة على صدقك فيما تدعيه من الرسالة عن الله ، إن كنت فيما تدعيه من جملة الصادقين فيما يقولون .

١٥٥ - (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) :

قال صالح لقومه حينما أعطاه الله الناقة معجزة له : هذه ناقة الله أخرجها لكم آية ، لها ماء يوم معلوم ، ولكم ماء يوم معلوم ، فإذا كان يوم مائها فلا تشركوها فيه ، وإذا كان يوم مائكم فلا تشرككم فيه .

وقد كانت تشرب الماء كله في يومها أول النهار ، وتسقيهم من لبنها آخر النهار ، أما في يومهم فكانت تترك الماء كله لأنفسهم ومواشيهم .

١٥٦ - (وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

ولا تلحقوا بها أذى ، فيهلككم عذاب يوم عظيم ، ووصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه وهو أبلغ من وصف العذاب به .

وبعد هذا التحذير مكثت الناقة حيناً ترد الماء وتأكل من أوراق الشجر والعشب في يومها ، وتمنعهم من لبنها ما يكفيهم شرباً ورباً ، دون أن تغدو عليهم ، ومكثوا هم مقتصرين على شربهم في يومهم ، فلما طال عليهم الأمد ، ضاقوا بمنعهم عن الماء في يومها ، فمالأوا على عقرها .

١٥٧ - (فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ) :

فذبحوا الناقة مخالفين بذلك ما اتفقوا عليه مع صالح - عليه السلام - فأصبحوا على ما فعلوا نادمين خوفاً من حلول العذاب بهم ، لا توبة من ذنبهم ، أو توبة منه عند معابنتهم لمبادئ العذاب ، حيث لا ينفع المتاب .

١٥٨ - (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) :

فأهلكهم العذاب الذي كان نبيهم صالح قد توعدهم به إذا مسوها بسوء ، إن في قصتهم لدلالة على قدرة الله على إهلاك الكافرين المعاندين لرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وما كان أكثر ثمود مؤمنين .

قال البيضاوي : وفي ذلك إيماء إلى أنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب : اهـ .

١٥٩- (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك - أيها الرسول - لهو الغالب فلا يستطيع الفكاك من عقابه الجبارون ، الرحيم

فلا يبيس من رحمته الثائبون .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطُ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٦٣﴾
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ الذَّكَرَ إِنْ أَلَمْتُمْ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ
مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَنْ نَمْنَعَكَ مِنَ الْفَالِينَ ﴿١٦٧﴾
رَبِّ تَجَنَّبْ وَاهِلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٨﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٩﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧٠﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧١﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٤﴾)

المفردات :

(عَادُونَ) : جمع عادٍ ، وهو المتعدى في ظلمه بتجاوز الحد فيه .

(الْفَالِينَ) : جمع فالٍ ، من قلاه ، كرماءه ، أو من قليته ، كرضيته ، قلى وقلاه :

أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه ، أو قلاه في الهجر ، وقليته في البغض .
(الغَابِرِينَ) : الباقين ، من غير بالمكان ، غبوراً : أقام به ، وقد يستعمل الغبور بمعنى
المضى والذهاب ، فهي في الشيء وضده . (دَمَرْنَا) : الدمر والدمار والتدمير : الإهلاك .

التفسير

١٦٠-١٦٤- (كَذَّبَ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى
رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

لما قص الله تعالى على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - خبر موسى وإبراهيم ونوح
وهود وصالح - عليهم السلام - تسلياً له عما يلقاه من عنت قومه ، قص عليه نبأ لوط
مع قومه وتكذيبهم له وإيذاءهم إياه ، ولقد كان قوم لوط من الشر بمكان خطير ، كانوا
يأتون الرجال شهوة من دون النساء ، ولا يستحون أن يأتوا في ناديتهم هذا المنكر القبيح ،
وقد نصحهم لوط فأمرهم بتقوى الله وطاعته ، وبين لهم قولاً وعملاً أنه لا يسألهم على تلك
النصائح أجراً ، وإنما يبتغي الأجر من رب العالمين ، وقد سبق الكلام على مثل هذه الآيات
في القصص السابقة .

١٦٥- (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ) :

قال لوط لقومه على سبيل التوبيخ والإنكار : أتأتون الفاحشة مع الذكران من بني آدم ،
فلا حياء عندكم يمنعكم عن قريب أو غريب ، كأن النساء أعوزتكم ؟ !

١٦٦- (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ) :

وتتركون ما خلق الله لاستمتاعكم من أزواجكم الحلال ، قال الزمخشري :
(مِنْ أَزْوَاجِكُمْ) : تبين لما خلق الله ، أو للتبويض ، ويراد بما خلق : العضو المباح منهن ،
فكانهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم .

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) : بل أنتم قوم معتدون مجاوزون الحد في جميع المعاصي ، وهذا
من أفحشها ، أو متجاوزون حد الشهوة ، فزدتم فيها على سائر الناس وعلى الحيوان .

١٦٧- (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) :

قالوا : لئن لم تنته يا لوط عن توبيخنا وتقبيح أمرنا ، أو عما أنت عليه من دعوى الرسالة ودعوتنا إلى الإيمان بها ، وتترك ما أنكرته من أمرنا ، لتكونن من جملة من أخرجناهم من بين أظهرنا وطردهناهم من بلدنا ونفيناهم ، ولعلمهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال ، من تعنيف واحتباس مال ، وغير ذلك مما يفعله الظالمون إذا نفوا بعض من يغضبون عليهم ، كما كان أهل مكة يفعلون بمن يريد الهجرة إلى المدينة .

١٦٨- (قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ) :

قال لوط - عليه السلام - مخاطباً قومه : إني لعملكم هذا من المبغضين غاية البغض ، ولم يقل : إني لعملكم قال بالافراد ، للإيدان بأنه كان يوجد من كرام الناس من يبغض حالهم ، ثم أعرض عنهم بعد أن بالغ في نهيهم ولجأ إلى الله تعالى قائلا :

١٦٩- (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ) :

دعا لوط ربه أن ينقذه وأهله مما يعمل هؤلاء الجاهلون - : أى من عقوبة أعمالهم - وشؤمها .

١٧٠ ، ١٧١- (فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ) :

فاستجاب الله دعاءه ونجاه وأهله الذين اتبعوا دعوته بإخراجهم من بيوتهم ليلا قبل حلول العذاب بالمكذابين ، إِلَّا عَجُوزًا هي امرأة لوط كانت في الغابرين ، أى : مقدراً كونها في الباقيين في العذاب ، لأنها كانت كافرة بربها ، منافقة لزوجها ، والتعبير عنها بالعجوز ، للإشارة إلى أنها بقيت في الكفر إلى أن صارت عجوزاً .

١٧٢- (ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ) : أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه .

١٧٣- (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ) :

أى وأنزل الله على شرار قوم لوط مطراً من الحجارة فأهلكتهم ، وفى ذلك يقول الله

في سورة هود: « فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مُّنْضُودٍ مُّسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ . . . » (١).

« فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ » مَطَرُهُمْ ، إذ نزل بأشد أنواع الهلاك والدمار ، ولا شك أنهم جديرون بذلك ، فقد ابتدعوا عادة مستهجنة تهيئ بالرجولة إلى الحضيض وتصيب ذويها بأمراض جسمية ونفسية وخلقية ، من تعنت وميوعة ، وتخالف ناموس الحياة الذي شرعه الله للتوالد والتكاثر .

وعقاب اللياط في الشريعة الإسلامية القتل ، والخلاف إنما هو في طريقته ، ومن عجب أن بعض الأمم التي تدعى الحضارة في البلاد الأوروبية اعترفت بالشذوذ الجنسي (اللياط) رسمياً ، ولا يستحون من إتيانه سرا وعلانية .

١٧٤ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ) :

إن في ذلك العقاب الذي نزل بقوم لوط لدليلا على تمام قدرة الله ، وما كان أكثر هذه الأمة مؤمنين ، فلذلك لحق بهم مالحق .

١٧٥ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك - أيها الرسول - لهو الغالب على كل شيء المتصف بالرحمة ، فيعاقب المجرمين المصيرين ، ويثيب التائبين المصلحين .

(كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ) (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ

أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩)

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠)

التفسير

١٧٦ - (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ) :

الأيكة : الغيضة التي تنبت ناعم الشجر ، وهي غيضة بقرب مدين ، يسكنها طائفة من المشركين ، بعث الله لهم شعيباً - عليه السلام - وكان أجنبياً منهم ، ولذا قيل : « إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ » ولم يقل : أخوهم . وقد أهلكوا بعذاب يوم الظلة ، وأهلك أهل مدين بالصيحة والرجفة .

وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين ، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل هنا : (أخوهم شعيب) ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة - وكانت شجراً ملتفاً -^(١)

وقيل : شجرة معينة منها - فقطع نسب الأخوة بينهم وبينه للمعنى الذي نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسباً . وهذا هو الصحيح ، فقد وصفوا بتطفييف الكيل والميزان الذي وصف به أهل مدين ، ونهوا عن ذلك ، مما يدل على أنهم جميعاً أمة واحدة . وذلك كقوله تعالى في سورة هود : « يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » الآية ٨٥

١٧٧ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ) : ألا تخافون عاقبة ما تفعلون من كفر . وتطفييف ، وعلل أمرهم بالتقوى بقوله :

١٧٨ - (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) :

إني مرسل لهدايتكم وإرشادكم ، أمين على رسالة ربي إليكم .

١٧٩ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) : فاحذروا عقوبة الله وأطيعوني باتباع أوامر الله والبعد عما يغضبه .

١٨٠ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

وما أطلب على تبليغ الرسالة لكم أجراً ، فما أجرى إلا على رب العالمين .

(١) من الصدر والأراك ونحوهما .

* (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا
بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ
وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ ﴿١٨٤﴾)

المفردات :

(وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) : أى من الذين ينقصون الكيل والوزن . يقال : أخسر
الميزان إحصاراً : نقص الوزن ، وخسره خسرًا من باب ضرب لفة فيه .

(بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ) : أى الميزان السوى ، والقسطاس - بضم القاف وكسرها - :
الميزان . قيل : هو عربى مأخوذ من القسط وهو العدل ، وقيل : هو رومى معرب .

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) : أى ولا تنقصوها ، أو : ولا تعيبوها . يقال : بخسه
بخسًا من باب نفع : نقصه أو عابه .

(وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : أى وَلَا تفسدوا فيها مبالغين في الإفساد ، والعتو :
الإفساد أو أشده ، ويقال : عثا يعثو - من باب قال يقول - وَعَثَى يَعْثَى - من باب تعب
يَتَعَبُ - أى : أفسد ، فهو عاثٍ .

(خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ) : أى أوجدكم وأوجد الخليفة من الناس السابقين لهم .

التفسير

١٨١، ١٨٢ - (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) :

نزلت هذه الآية وما بعدها حكاية لما وجهه نبي الله شعيب إلى قومه أصحاب الأيكة وهم أهل مدين على الصحيح - من الأمر بإيفاء المكيال والميزان والنهي عن التطفيف فيهما - كما مر ببيانه كان قد شاع فيهم وانتشر بينهم سوء المعاملة في الأخذ والإعطاء ، فكانوا إذا اكْتالوا من الناس للشراء ونحوه يأخذون مكيلهم وافياً وافراً، وإذا اكْتالوا لهم للبيع ونحوه ينقصون مكيلهم ، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة : « أَوْفُوا الْكَيْلَ . . . » : أى إذا دفعتم إلى الناس الكيل فأتوا الكيل لهم ولا تعطوه ناقصاً لأنكم ملزمون أن تعطوه كما تأخذون كاملاً وافياً بلا تفرقة بين الأخذ والإعطاء إحقاقاً لشرعية العدل التي شرعها الله في المعاملة بين عباده .

والكيل للناس إما واف وهو مأمور به ، وطفيف وهو منهي عنه ، وزائد وهو مسكوت عنه ، وتركه دليل على أنه إن فعله فقد أحسن .

(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) : أى يجب عليكم التزام العدل في الموزونات أخذاً وإعطاءً ، وذلك بأن تزنوا بالميزان السوى حيث لا حيف فيه ولا ظلم .

والأمر بوفاء الوزن وإتمامه يشير ضمناً إلى النهي عن النقص فيه دون النهي عن الزيادة ، ولم يذكر النهي هنا اكتفاء بذكره صريحاً في الآية السابقة ، لاتحاد الغرض في المأمور به هنا والمنهي عنه في الآية السابقة ، وهو الأمانة في الكيل والميزان ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - : أن معنى « وَزِنُوا . . . » الآية وعدلوا أموركم كلها بميزان العدل الذي جعله الله تعالى لعباده ، ويدخل فيه، طلب العدل في الميزان المعروف دخولاً أولياً حتى يستقيم أمرهم .

١٨٣ - (وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) :

أى ولا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم ، أى حق كان ، كبير أو صغير ، هان أو عظيم ،

وهذا تعميم بعد تخصيص لبعض المراد بالذكر في الآيتين السابقتين لغاية انهماكهم فيه واقترافهم لمساوئه بيعا وشراء ليكمل لهم بهذا التعميم في النهي البعد عن شريعة الله التي شرعها لهم في كل شأن من شئونهم .

(وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : أى ولا تبالغوا في الإفساد فيها بقطع الطريق والقتل والسلب ، وإهلاك الزرع ، وكانوا يفعلون ذلك ، فنهوا عنه بالتنصيص رذعا لهم ، وتقبيحا لصنيعهم السيئ الذى ينفر منه كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

١٨٤ - (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ) :

يخوفهم شعيب - عليه السلام - بأس الله - تعالى - الذى أوجدكم ، أوجد الجبل : أى الخليقة الأولين ، ويراد بها العدد الكثير من الأمم الماضية في الأزمان المتعاقبة كما يشير إلى ذلك قوله - سبحانه وتعالى - : « وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا »^(١) .

والمعنى : اتقوا الله - سبحانه - فهو بعظيم قدرته وواسع سلطانه أوجدكم من عدم ، وأوجد أممات تقدمت عليكم كثيرة العدد ، ومع ما هم عليه من كثرة وُحُوٍّ لم يعجزوه جل شأنه بل أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وفى ذلك الدليل الساطع على تفرد الألوهية والدافع القوى على عبادته وتقواه ، وهو سبحانه عزيز ذو انتقام ممن استحب العمى على الهدى ، واستمرأ الضلال ، واستهواه الإغراض والتكذيب لدعوة الأنبياء والمرسلين .

(١) من الآية ٦٢ من سورة يس .

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَعْذَهُمْ عَذَابُ یَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ یَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِی ذَٰلِكَ لَآیَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾)

المفردات :

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) : الذين سحرُوا كثيراً حتى غلب السحر عليهم ،
أو من البشر الذين لهم سحرٌ ، والسَّحَرُ : الخرطوم والرثة ، وسحر بهذا المعنى على وزن فليس
وسبب ، وقُفِّل .

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ) : أى قطعاً من السحاب ، وقرئ : « كِسْفًا »
- بسكون السين - ومع فتح السين وسكونها فهى جمع كِسْفَةٍ ، كَقِطْعَةٍ ، وقال الأخفش :
من قرأ كِسْفًا - بسكون السين - جعله واحداً ، ومن قرأ كِسْفًا - بفتحها - جعله جمعا .
(عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) : الظلة سحابة بدت لهم أرادوا أن يستظلوا بها ، فكانت عذاباً
لهم ، وسيجيء شرح ذلك .

التفسير

١٨٥، ١٨٦ - (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ
لَمِنَ الْكَاذِبِينَ) :

أجابوا بذلك شعيباً - عليه السلام - مبالغين في تكذيبه ، حيث جمعوا له بين غلبة

السحر على عقله حتى اضطرب ، وهو مناف للرسالة ، وبين البشرية التي يرونها منافية لها كذلك ، للإيدان بأن اجتماعهما يناقض الرسالة أشد المنافاة . (وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِينَ الْكَاذِبِينَ) أى : وإن شأنك يجعلنا نظنك من الكاذبين فيما تدعيه ، ومرادهم أنه - عليه السلام - وحاشاه - من الراسخين في الكذب المعتادين له ، فلا يصدقونه في دعوى الرسالة ، أو فيها وفي دعوى نزول العذاب بهم الذى يشعر به الأمر بالتقوى في قوله - سبحانه - فيما سبق : « وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ . . . » الآية . فإنه يأمرهم بأن يقوا أنفسهم من عذابه .

وظاهر حالهم أنهم أرادوا من ظنهم كذبه في قولهم : « وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِينَ الْكَاذِبِينَ » الجزم بوقوعه منه ؛ لأنه أصبح له عادة وطبيعة في زعمهم ، ولهذا أكدوا الظن بلام التأكيد في قولهم : « لَمِينَ الْكَاذِبِينَ » . واستعمال الظن بمعنى اليقين والعلم لغوى وقد جاء به القرآن في مواطن ، كقوله تعالى : « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »^(١) .

١٨٧- (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

حكى الله في الآية السابقة اتهامهم لشعيب - عليه السلام - بالكذب حسبما تخيلته نفوسهم المريضة ، وجاءت هذه الآية تحكى ما بنوه على هذا الاتهام الكاذب .

والمعنى : إن كنت صادقاً في أنك نبي ، فادع الله أن ينزل علينا قطعاً من السحاب وأجزاء منه عقاباً لنا على تكذيبك . قال السدى : « فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ » أى : عذاباً واقعاً عليهم من جهة السماء ، وهذا شبيه بما قالت قريش للنبي - صلى الله عليه وسلم - : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » إلى أن قالوا : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا »^(٢) ، وقولهم : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »^(٣) .

ومن هذا يتضح أن جواب المكذبين لرسولهم متقارب في المعنى .

(١) سورة البقرة من الآية ٢٤٩

(٢) ٩٠ ، ٩١ من سورة الإسراء .

(٣) الآية : ٣٢ من سورة الأنفال .

١٨٨- (قَالَ رَبِّيَ أَغْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

تهديد لهم بتفويضه أمرهم إلى الله ، أى قال لهم : ربى أعلم بكم ، وبما تقتشفون من الكفر والمعاصى ، وبما تسرون وتعلنون من قول وعمل ، وبما تستحقون من العذاب فسينزله عليكم فى وقته المقدر له لامحالة ، أما أنا فرسول ، وليس لى أمر العذاب الذى طلبتم أن ينزل بكم .

١٨٩- (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

أى فلما أقاموا على تكذيب نبيهم شعيب - عليه السلام - وأصرروا على هذا التكذيب مرة بعد مرة جعل الله عقابهم من جنس ما اقترحوه بإسقاط الكسف من السماء عليهم .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما عن ابن عباس أن الله - تعالى - بعث عليهم حرا شديدا فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم فخرجوا منها هربا إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فأظلمت من الشمس - وهى الظلة - فوجدوا لها بردا ولذة ، فنادى بعضهم بعضا ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم نارا فأكلتهم جميعا .

وكان هذا اليوم من أشد أيام الدنيا عذابا لما وقع فيه من الهول المذهل ، والداهية التامة التى لا يقادر قدرها ، وفى إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفس الظلة إيذان بأن لهم عذابا آخر غير عذاب الظلة ، ترك بيانه تهويلا لشأنه .

١٩٠- (إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) :

أى إن فى هذه القصة وما سبقها من قصص الأنبياء السابقين لعظة وعبرة لمن له قلب واع ، وفكر مستنير ، وما كان أكثر قريش مؤمنين .

وقصة شعيب - عليه السلام - مع قومه هى آخر القصص السبع التى أوحيت للرسول - صلى الله عليه وسلم - لصرفه عن الحرص البالغ على إسلام قريش ، وقطع رجائه بشأنه لإعراضهم عن الحق واستمسكهم بالباطل ، وإلى ذلك يشير مضمون ما مر فى مطلع السورة الكريمة : « وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » . فلان كل واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد أتاهم من جهته - تعالى - بموجب رحمته الواسعة يدعوهم إلى ترك العناد

بعدما سمعوها على التفصيل قصة بعد قصة ، وفيها من الدواعى إلى الإيمان ، والزواج عن الكفر والطغيان ما يصرفهم عما هم عليه ، ولكنهم أعرضوا عن التأمل فيها واستمروا على تكذيبهم : « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ » كأنهم لم يسمعوها شيئاً منها يردعهم عن ذلك أصلاً ويجب إليهم الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ويزينه في قلوبهم ، ومن كان أمرهم على ذلك فلا تبالغ في الحرص على إيمانهم .

وقيل : المراد بالضمير في قوله تعالى : « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ » قوم شعيب - عليه السلام - نقل أنه لم يؤمن به سوى تسعمائة نفر ، ذكر ذلك القرطبي في تفسيره ، والله أعلم بصحة ذلك .

١٩١ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

فهو - سبحانه - العزيز في انتقامه من الكفار ، الرحيم في ثوابه بعباده المؤمنين .

(وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾)

الفردات :

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) : هو جبريل - عليه السلام - فإنه أمين وحيه - تعالى - إلى أنبيائه . (عَلَى قَلْبِكَ) : لتخفظه . (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) : أى بلغة عربية واضحة المعنى ظاهرة المدلول . (لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) : والزُّبُرُ جمع زُبُور ، كرسول ، وهو الكتاب ، والمعنى : أن ذكره ثابت في جميع الكتب السماوية .

التفسير

١٩٢ - ١٩٥ - (وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) :

في هذه الآيات تنويه بالقرآن العظيم الذي تقدم ذكره أول السورة ، وَرَدَّ لِمَا قَالَهُ المشركون فيه .

أى : وإن هذا القرآن الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه منزل من رب العالمين ، نزل به الروح الأمين جبريل - عليه السلام - .

نزل به (عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) : أى يتلوه الروح الأمين على سمعك فيعيه قلبك حفظاً ، وفهماً ، وثباتاً ، لتكون به من جملة الرسل الذين يندرون قومهم ، فهو حجتك وآيتك ، وقد نزل به بلسان عربى واضح ، ليقطع أعذار قومك ويلزمهم الحجة ، ويحملهم على المحجة^(١) .

ولو نزل بلسان أعجمى لتجافوا عنه ، ولقالوا : ما نصنع بما لم نفهمه ، ولم ندرك كنهه ، ولتعذر عليك الإنذار ، حيث يكون بذلك نازلاً على سمعك لا على قلبك ، فتسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ، ولا تعى مراميها .

وفى حكاية القرآن الكريم لهذه القصص التى لا سبيل لنبي أسمى لم يقرأ ولم يكتب أن يعلمها ، دليل واضح على صدق نبوته - صلى الله عليه وسلم - فلا سبيل له إلى علمها إلا الوحي الذى نزل به الروح الأمين .

وقد سجل الله هذا المعنى فى قوله - تعالى - : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ »^(٢) .

١٩٦ - (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) :

أى : وإن القرآن الكريم المذكور فى كتب الأنبياء السابقين ، وقيل معناه : إنه لفى الكتب المتقدمة باعتبار العقائد والأحكام ، فإن التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات والصفات ، وكثيراً من المواعظ والقصص والأحكام والأخلاق مسطور فى الكتب السابقة .

(١) أى : الطريق .

(٢) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت .

أو : وإن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لم تخل من ذكره كتب الأولين كما قال - تعالى - : « الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » ^(١) ، وفي قوله - تعالى - : « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » ^(٢) .

(أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُؤَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ^(١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ^(١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ^(١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ^(٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ^(٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ^(٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ^(٢٠٣))

المفردات :

(أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ) : الآية؛ العلامة الواضحة .
 (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ) : جمع أعجم أى : على رجل لا يفصح ولا يبين ، وإن كان عربياً ، وقرأ الحسن (على بعض الأعجميين) : جمع أعجمى بياء النسب ، والأعجم والأعجمى : غير الفصيح وإن كان عربياً ، والعجمى ما كان من جنس العجم وإن كان فصيحاً ، وأجاز الفراء أن يقال : رجل عجمى بمعنى أعجمى ^(٣) .
 (كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) : أدخلنا القرآن في قلوب مشركي مكة

(١) من الآية ١٥٧ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ٦ من سورة الصف .

(٣) انظر القرطبي .

إدخالاً مثل ذلك في التكذيب عنادا ومكابرة ، والفعل من باب نصر ، والسَّلَكُ : إدخال الشيء في الشيء .

(هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ) : أى مؤخرون وممهلون ؟ يطلبون الرجعة هناك فلا يجابون .

التفسير

١٩٧- (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) :

الهمزة للإنكار والنفي ، كأنه قيل : أغفلوا ولم يكن لهم علامة على صدق القرآن أن يعرفه علماء بنى إسرائيل بنعوته في كتبهم المذكورة فذلك آية واضحة على أنه تنزيل رب العالمين ، وإلى علم علماء بنى إسرائيل به يشير قوله - تعالى - : « وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ » ^(١) والمراد من علماء بنى إسرائيل : العدول منهم ، وهم من أسلموا ، قال مجاهد : يعنى عبد الله بن سلام وسلمان وغيرهما ممن ، ذكره القرطبي ، وذلك أن جماعة منهم أسلموا ، ونصوا على مواضع من التوراة والإنجيل فيها ذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - . وهذا يقتضى أن الآية مدنية ، وعن قتادة أن الضمير في (أَنْ يَعْلَمَهُ) للنبي - صلى الله عليه وسلم - وذكر الثعالبي عن ابن عباس أن أحبار يثرب ، بعث إليهم أهل مكة يسألونهم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : هذا زمانه ، وذكروا المواضع التي ذكر فيها النبي - صلى الله عليه وسلم - في التوراة ، وهذا ما يقتضيه كون السورة كلها مكية .

١٩٨ ، ١٩٩- (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ) :

أخبر الله عن شدة كفر قريش ، وقوة شكيمتهم في المكابرة ، وعنادهم للقرآن العظيم . فقال تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ . . . » الآية .

أى : نحن نزلنا القرآن على رجل عربى مبين ، ففهموه وعرفوا فصاحته ، وأنه معجز ، وانضم إلى هذا شهادة علماء بنى إسرائيل على أن كتبهم ذكرت صفته وقصصه ، وصح

بذلك أن قصص الأنبياء في القرآن من عند الله ، وليست بأساطير كما زعموا ، ومع هذا لم يؤمنوا به ، وقالوا : إنه سحر أو شعر ومن افتراء محمد - صلى الله عليه وسلم - .

ولو نزلناه عربيا على أعجمي لا يعرف العربية ، ونطق به نصيحًا ، ما آمنوا بأن هذا القرآن من عند الله مع أن هذا الأعجمي لا يتوهم أحد أنه يستطيع الإتيان بمثله ، ولا قراءته بفصاحته ؛ لأنهم قوم معاندون يتمسكون بدين آبائهم ، ويقتفون أثرهم كما قال تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ »^(١) .

وقد وصف الله عنادهم بقوله : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا : إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ »^(٢) .

٢٠٠-٢٠٣- (كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ) :

المراد من المجرمين : مشركو مكة ، وقد يراد من المجرمين : جنس المجرمين . فيدخل فيه مشركو مكة دخولًا أوليًا .

والمعنى : مثل هذه الحال من الإصرار على التكذيب والكفر بالقرآن سلكناه في قلوب المجرمين ، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من جحود ومكابرة كما قال تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ كِتَابٍ فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ »^(٣) ، وقوله سبحانه وتعالى : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أي : لا يزالون على الكفر حتى يبصروا العذاب الشديد الملجئ إلى الإيمان به .

أو المراد : أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين ، ففهموا معانيه ، وعرفوا فصاحته ، وأنه خارج عن قدرة البشر من حيث النظم المعجز ، والإخبار عن الغيب ، واتفاق علماء بني إسرائيل على أن كتبهم المنزلة قبله تضمنت البشارة بإنزاله ، ورسالة من أنزل عليه بذكر أوصافه .

(٢) سورة الحجر : ١٤-١٥

(١) من الآية ٢٣ سورة الزخرف .

(٣) الآية ٧ سورة الأنعام .

أدخلنا القرآن مثل ذلك الإدخال ، لكنهم لم يؤمنوا به ، فقله تعالى : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » على هذا الرأى استئناف مسوق لبيان حالهم من أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان به ، بل يستمرون على ما هم عليه حتى يعاينوا العذاب المكروه لهم على الإيمان فجأة من غير توقع وانتظار وهم لا يشعرون بإتيانه .

وقرى : فتأتيهم بالناء ، والمراد : فتأتيهم الساعة ، وأضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها عليهم ، ولكثرة ما في القرآن من ذكرها .

وقال رجل للحسن وقد قرأ (فتأتيهم) : يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب فانتهره وقال : إنما الساعة تأتيهم بغتة . ١ هـ من تفسير القرطبي وغيره .

(فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ) : أى فيتمنون حين يرون العذاب ، التأخير والإمهال ليعملوا بطاعة الله تداركاً لما فاتهم تفريطاً وإهمالاً فلا يجابون إلى ما أملوه مما يملأ نفوسهم حسرة وحزناً ، كما قال الله تعالى : « وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » ^(١) .

وهذه الآيات تصوير وتمثيل لحال مشركى مكة الذين ماتوا على الكفر قبل فتح مكة سنة ثمان من الهجرة .

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝٢٠٤ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ۝٢٠٧ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكْرَىٰ ۝٢٠٩ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٢١٠)

المفردات :

(إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ) : أى إن أخرناهم سنين وجعلناهم ينتفعون بالمتاع ، ويطلق على كل ما ينتفع به من مأكّل ومشرب وأثاث ونحوها . (مَا كَانُوا يُوعَدُونَ) : من العذاب ، والوعد: مع المفعول يستعمل فى الخير وفى الشر ، فإذا أسقطوا المفعول وهو الخير والشر قالوا فى الخير: الوعد والعدة ، وفى الشر: الإيعاد والوعيد ، فإذا جاءوا بالبلاء فى الشر جاءوا بالهمز فقالوا : أوعده بالسجن . ٥١ : مختار الصحاح بتصرف .

(إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ) : أى مخوفون من العقاب .

(وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) : أى واضعين الشيء فى غير موضعه حينما أنزلنا بهم العذاب .

التفسير

٢٠٤-٢٠٧ - (أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ . أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) :

الآيات توبيخ للمشركين وإنكار عليهم فى قولهم للرسول تكذيباً واستبعاداً : « فَأَمَّا ظُرُّ عَلَيْنَا حِجَارَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »^(١) ، وقولهم : « أَوْ تُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا »^(٢) .

قال مقاتل : قال المشركون للنبي - صلى الله عليه وسلم - : يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب فنزلت هذه الآيات .

ومعناها : كيف يستعجلون عذابنا تكذيباً به ، واستبعاداً لوقوعه ، وهو لاحق بهم لا محالة لكفرهم مهما طال عليهم الأمد ، أخبرنى - أيها العاقل - عن هؤلاء المكذبين إن متعناهم سنين متطاولة بمختلف أنواع المتع الدنيوية التى أملوها ، فطالت أعمارهم ، وصحت أبدانهم ، وكثرت أموالهم وأولادهم ، وتحققت كل رغباتهم ، ثم أتاهم الذى كانوا يوعدونه من العذاب ، فأى شيء أغنى عنهم ما كانوا فيه من متاع الدنيا؟ إنه لا يغنى عنهم شيئاً فى دفع العذاب أو تخفيفه ، وإنما هم فى العذاب خالدون . وفى هذه الآية : « مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ » موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

(٢) من الآية ٩٢ من سورة الإسراء .

(١) من الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

روى عن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن - رضى الله عنه - فى الطواف ، وكان يتمنى لقائه ، فقال له : عظمى ، فلم يزد على تلاوة هذه الآيات ، فقال ميمون : لقد وعظمت فأبلفت .

٢٠٨، ٢٠٩ - (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ . ذُكِّرُوا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) :

أى : وما أنزلنا الهلاك بقرية من القرى إلا بعد أن بعثنا إليها رسلاً منذرِينَ أنذروا أهلها بالعقاب إن خالفوا أوامر الله ونواهيه ، حتى لا تكون لهم على الله حجة (وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) : ولسنا مجاوزين الحق فى الجزاء ، فنهلك غير الظالمين ، لأنه ليس من شأننا أن يصدر عنا بمقتضى الحكمة ما هو ظلم بأن نعاقب من لم يظلم أو بأن نعذب أحداً قبل إنذاره ، كما قال تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » ^(١) .

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) ^(٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ^(٢١١)
إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ^(٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ^(٢١٣))

المفردات :

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) : أى لم تنزل الشياطين بالقرآن الكريم ، والشياطين : جمع شيطان ، من : شاط بمعنى احترق أو من : شَطَنَ بمعنى بعد .
(وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ) : أى أن التنزل بالقرآن لا يصح أن يكون من شأنهم .
(لَمَعْزُولُونَ) : أى لمنوعون عن السمع .

التفسير

٢١٠ - ٢١٣ - (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ . فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ) :

(١) من الآية ١٥ من سورة الإسراء .

رد لما زعمه كفار قريش أن لمحمد - عليه الصلاة والسلام - تابعاً من الجن يخبره كما تخبر الكهنة ، وأن القرآن مما ألقاه إليه التابع ، أى : لم يحدث ما زعمتموه من نزول الشياطين بالقرآن ، لما أشار إليه قوله سبحانه : (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) : أى ما يصح ولا يليق أن يحملوه وينزلوا به ؛ لأن من سجاياهم الإفساد ، وإضلال العباد ، والقرآن فيه الإصلاح وهداية العباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو نور وهدى للعالمين ، فبينه وبين الشياطين منافاة بينة ، ولهذا حيل بينهم وبين السماء حال نزول القرآن على الرسول ، فقد ملئت حرصاً شديداً وشهياً ، فكيف يستطيع أحد أن يخلص إلى استماع حرف منه ؟ إنهم منعوا من ذلك ؛ رحمة بعباده ، وحفظاً لشرعه ، وصيانة لقرآنه من تخليط الشياطين وإضلالهم ، ويشير إلى هذا قوله سبحانه : (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ) فى هذه الآية تعليل لنفى تنزلهم بالقرآن ، أى : أن الشياطين عن السمع لما يتكلم به الملائكة فى السماء لمنوعون بالشهب بعد أن كانوا مُمَكِّنِينَ منه ، كما قال تعالى مخبراً عن الجن : « وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا . وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا » (١) .

أو : إنهم عن السمع لمعزولون لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة ، حيث إن ذوات الملائكة نورانية ، وصفاتهم خيرة ، ونفوس الشياطين خبيثة ظلمانية ، وصفاتهم شريرة ، غير مستعدة إلا لقبول ما لا خير فيه ، فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن المنطوى على الخير والهدى والرشاد ؟ فلماذا صان الله كتابه ، فأنزله بالروح الأمين على قلب رسوله الأمين ، ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين ، وحرسه من الشياطين .

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ) : خطب النبى - صلى الله عليه وسلم - ليعلم الناس أن الله تعالى لا يقبل الإشراك من أحد ، فهو فى الحقيقة خطاب لجميع المكلفين ببيان أن للإشراك من القبح والسوء ما يجعله حقيقة بأن ينهى عنه من لا يمكن صدوره منه ؛ فكيف بمن عداه ؟ أو خطب به والمراد أمته ، فهو فى الحقيقة خطاب للأمم فى شخص إمامها ونبيها .

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئَاسَةٍ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾
 وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرْنِكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾
 وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾)

المفردات :

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) : العشيرة ؛ القبيلة ، والجمع : عشيرات وعشائر ، والمراد بها قريش ، وقيل : عبد مناف . (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ) : الجناح ؛ اليد والعضد والإبط والجانب وهو المراد هنا ، : أى أَلن جانبك ، وجمع الجناح : أجنحة وأجْنَح .
 (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) : إلى الصلاة ، أو حيثما كنت .
 (وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ) : المراد بالساجدين ؛ المصلون ، : أى ويرى تصرفك وتغيرك من حال كالجلوس إلى حال كالقيام بين المصلين إذا أتمتهم .

التفسير

٢١٤ - ٢١٦ - (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئَاسَةٍ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) :

أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن ينذر عشيرته الأقربين ويخوفهم من العذاب الذي يستتبعه الشرك والمعاصي ؛ فإن الاهتمام بشأنهم أهم ، وليكونوا اللبنة الأولى للأمة الإسلامية ، أو ليعلموا أنك لاتغنى عنهم من الله شيئاً وأن النجاة في اتباع شرعه دون قرابته .

روى مسلم من حديث أبي هريرة : لما نزلت هذه الآية : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قريشاً فاجتمعوا ، فعمّ ، وخصّ ، فقال : « يا بني كعب ابن لؤى : أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني مرة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار .

يا بني عبد شمس: أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد المطلب: أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة: أنقذى نفسك من النار، فيأني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سَابِلُهَا بَبَلَالُهَا^(١).

ويؤخذ من الحديث أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب، وأنه لا مانع من أن يصل المؤمن الكافر وأن يقدم له النصيحة والإرشاد، وفي ذلك يقول الله تعالى: «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»^(٢).

ثم أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالتواضع ولين الجانب، وإحسان المعاملة مع من اتبعه وصدق به وذلك في قوله تعالى: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أي: وألن جانبك للذين آمنوا بك إيماناً حقيقياً من عشيرتك الأقربين ومن غيرهم، ومن للبيان.

٢١٦ - (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) :

أي: فإن أعرضت عنك عشيرتك الأقربون ولم يتبعوك بعد إنذارهم، فقل لهم: إِنِّي بَرِيءٌ من عملكم الشامل لاتخاذكم مع الله إلهاً آخر، والمراد بهم: من تمسك بالشرك من عشيرته الأقربين مع إنذارهم، والمراد من براءته - صلى الله عليه وسلم - من عملهم: أنه ليس مشلولاً عنه، وإنما يسأل عنه صاحبه، وذلك قبل أن يؤمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بجهاد المشركين كافة.

٢١٧ - (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) :

أي: وفوض أمرك إليه - سبحانه وتعالى - فإنه القادر بعزه وسلطانه على قهر أعدائه، ونصر أوليائه.

قال الجنيد رحمه الله: التوكل؛ أن تقبل بالكلية على ربك، وتعرض بالكلية عما دونه فإن حاجتك إليه عز وتعال في الدارين.

(١) البلال: الندى، والمراد به هنا الخير، والمعنى: سأصلكم بالخير الملائم لها.

(٢) الآية ٨ من سورة المتحنة.

وتقديم وصف العزة المنبئ بقهر أعدائه - صلى الله عليه وسلم - وإهلاكهم أوفق بمقام التسلي والصبر على المشاق اللاحقة به من هؤلاء المشركين .

٢١٨، ٢١٩ - (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ) :

المراد من الساجدين هنا : المصلون ، أى : الذى يراك حين تقوم للصلاة ، وتتصرف فيما بين المصلين بقيامك وركوعك وسجودك وقعودك إذا أَمَمْتَهُمْ . هكذا قال ابن عباس .

وقيل : يراك حين تقوم للتهجد ، ويرى تقلبك بين المتهجدين بذهابك ومجيئك فيما بينهم ؛ لتصلح أحوالهم ، ولتطلع عليهم من حيث لا يشعرون ؛ لتعلم كيف يعملون لآخرتهم ^(١) .

وقال مجاهد : يراك حيثما كنت .

٢٢٠ - (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) : أى السميع لأقوال عباده ، ولكل ما يتعلق به السمع ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، وبكل ما يتعلق به العلم ، ويندرج فيه ما تنويه وتعمله ، كما قال تعالى : « وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ . . . الآية » ^(٢) .

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾)

المفردات :

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ) : أى هل أخبركم ، وفعله نَبَأٌ . يقال : نبأه الخبر ، وبه .
(عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) : أى على كل من اتصف بكثرة الإفك وهو الكذب ،

(١) روى أنه - عليه السلام - لما نسخ فرض قيام الليل طاف - عليه السلام - تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم ، فوجدوا كبيوت الزناير ، لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن .

(٢) سورة يونس ، من الآية : ٦١

وبكثرة الإثم وهو أن يعمل ما لا يحل ، ويطلق عليه : الذنب ، وفعله أَفَكَ كضرب وعلم ، إفكا - بكسر الهمزة وفتحها ، وَأَفَكَ بالتحرّك - وَأَفُوْكَ كَأَفَكَ ، أى : كذب ، وأثيم : فعيل من أثم كعلم إثمًا ومأثمًا فهو آثم وأثيم وأثام .

التفسير

٢٢١-٢٢٣ - (هَلْ أَنْبَأْتُكُمْ عَلَى مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ . تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ) :

الآيات استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد بيان امتناع نزولهم بالقرآن فيما سبق ، وللدرد على قول المشركين الذين قالوا : إن ما جاء به محمد ليس حقًا ، وإنه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو أتاه به رثي ، أى : تابع من الجن . تنزيهاً من الله سبحانه وتعالى لجناح رسوله عما قالوه كذباً وافتراءً ، وتنبيهاً على أن الذى جاء به هو من عند الله نزل به ملك كريم ولم تأت به الشياطين ، فإنهم لا رغبة لهم فى مثله ، ولا ينزلون إلّا على من يشابههم ويشاكلهم ، كما قال تعالى : « هَلْ أَنْبَأْتُكُمْ عَلَى مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ . تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ » : أى هل أخبركم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل من اتصف بالكذب الكثير والذنب العظيم من الكهنة والمنتهبة وما جرى مجراهم من الفسقة والفجرة أمثال : سطيح ، وطيحة ، ومسيلمة ، فلا تنزل الشياطين إلّا على مثلهم فلا يتجاوزهم ، ولا ينفك عنهم إلى غيرهم من الصالحين وبخاصة الأنبياء ، وحيث تنزهت ساحته - صلى الله عليه وسلم - عن نزولهم اتضح أن الذى نزل بالقرآن عليه ملائكة الله المقربون .

(يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ) : أى يلقي الأفّاكون سمعهم إلى الشياطين ، ويتلقون وحيهم إليهم ، وإلقاء السمع مجاز عن شدة الاهتمام والمبالغة فى الإصغاء إلى ما يلقي إليهم... إلخ . أو المراد : يلقي الأفّاكون ما سمعوه من الشياطين إلى أتباعهم وأوليائهم .

وأكثر الأفّاكين مفترون كاذبون ، يفترون على الشياطين ما لم يخبروهم به ، على معنى أنهم قلّمًا يصدقون فيما يحكونه عن الجنّ ، وإنما هم فى أكثره كاذبون ، فقد جاء فى الحديث

أن الكلمة يخطفها الجنى فيقرأها في أذن وليه ، فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة ، ولا كذلك محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد أخبر عن مغيبات كثيرة وصدق في جميعها ، والمراد من أكثرهم في قوله تعالى : (وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) : جميعهم ، أو غالبهم ، وهذا كاف في عدم الاطمئنان إلى أقاويلهم .

وقيل : المراد من قوله تعالى : (يُلْقُونَ السَّمْعَ) : هم الشياطين ، وكانوا قبل أن يحجبوا بالرحم يتسمعون إلى الملا الأعلى ، فيخطفون بعض ما يتكلمون به ثم اطلع عليه الملائكة من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أوليائهم من الإنس ويزيدون على ما يسمعون أكثر من مائة كذبة فيصدقهم الناس في كل ما يقولون .

روى البخارى من حديث الزهري قال : أخبرني يحيى بن عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة - رضى الله عنها - : سأل الناس النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الكهان ؟ فقال : « إنهم ليسوا بشيء » فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثون بالشئ يكون حقاً ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرأها (أى : يرددتها) كقرقرة الدجاجة ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة . وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم ؛ لأنهم يُسمعون ما لم يسمعوا من الملائكة لشرارتهم ، أو لقصور فهمهم ، أو لأنهم لا يسمعون حقاً وإنما هو كذب واختلاق » .

(وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۚ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾)

المفردات :

(وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) : أى شعراء الكفار ومن ماثلهم من أهل الضلال .
 (فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) : أى هم متحIRON ، فلا يهتدون إلى الجادة ، يقال : رجل هائم وهيوم بمعنى متحير . (انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا) : أى عالجوا أسباب النصر بوسائل الحق حتى تحقق لهم . (أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) : أى أى تحوّل وتغير يصيبهم بين يدي الله . فالظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر الثواب ، والفعل : قلبه من باب : ضرب ونصر : حوّلّه ظهراً لبطن ، والمنقلب : اسم زمان أو مكان ما يحيق بهم .

التفسير

٢٢٤-٢٢٧ - (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۚ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) :

الآيات استئناف مسوق لإبطال ما قاله المشركون في حق القرآن العظيم من أنه من قبيل الشعر ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الشعراء ، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - تنزيهاً عن الانصاف بما وصفوه به حيث قال سبحانه : (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) : أى أن من يحق وصفهم بالشعر هم شعراء الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله ويقولون فيه كل كذب وباطل ، والذين يشيعون بشعرهم الفحش والخنا

فيمزقون الأعراض ، وينشرون المثالب ، ويقدحون في الأنساب ، ويفرطون في الثناء والهجاء ابتغاء عرض زائل ، ومنزلة حائلة ، ومع كل واحد غواة قومه - وهم السفهاء - يجارونهم ويسلكون مسلكهم ، وعن ابن أبي طلحة : هم ضلال الجن والإنس ، وشعر هؤلاء - كما يقول القرطبي في تفسيره - : ضلال وباطل لا يبيحه خلق ولا دين فلا يحل سماعه ولا إنشاده في مسجد وغيره كمنثور الكلام القبيح ونحوه .

أما شعر غيرهم من أهل الرشاد والنهي المهتدين إلى طريق الحق المنافحين عن دين الله فلا بأس به قولاً أو سماعاً ، فمثل شعرهم كان يقبل على سماعه الرسول والتابعون ، ولا ينكر الشعر الحسن في مبناه ومعناه أحد من أهل العلم ، وكثير منهم قاله وتمثل به ، أو سمعه . فأنصت إليه وأنتى عليه ، حيث كان حكمة وعظة ، ولم يكن هجراً ولا أذى لمسلم . روى عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المنبر يقول : « أصدق كلمة قالتها العرب قول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » أخرجه مسلم ، وزاد : « وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم »^(١) ذكر ذلك القرطبي . وقال - صلى الله عليه وسلم - في الشعر الذي يرد به حسان على المشركين : « إنه لأسرع فيهم من رشق النبل » أخرجه مسلم .

وما أحسن قول الماوردي : الشعر كلام العرب ، مستحب ، ومباح ، ومحظور ، فالمستحب : ما حذر من الدنيا ورغب في الآخرة ، وحث على مكارم الأخلاق ، والمباح : ما سلم من فحش وكذب ، والمحظور : ما كان كذباً وفحشاً ، وجعل الروياني منه ما فيه الهجو لمسلم سواء كان بصدق أو كذب .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) : الاستفهام للتقرير ، والخطاب لكل من تتأني منه الرؤية للإيذان بأن حالهم من الظهور والوضوح بحيث لا يختص برؤيته راء ، أي : ألم تر أن الشعراء يهيمون على وجوههم في كل واد من أودية الغي والضلال ، وفي كل مسلك من مسالك الزور والبهتان وفي كل شعب من شعاب الوهم والخيال ، لا يهتمون إلى الحق الذي

(١) كان أمية كثير العجائب يذكر في شعره خلق السموات والأرض ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء ، وكان قريباً من أهل الكتاب وهو من شعراء الطوائف . ا هـ : من فحول الشعراء لابن سلام الجسعي .

يدعو من اتبعه إلى الثبوت والتروى والصدق ويحول بينه وبين شهوة الشهرة التي تطمس على قلبه وبصيرته ، فلا يكثرث بما فعل ، ولا يبالي بما قال ، ولا يستبين طريق الحق التي تدعوه إلى الإقلاع عما تعودته من كل خلق قبيح ، وأسلوب ذميم ، وإفراط وتفريط (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) من الأفاعيل التي ذكروها في شعرهم ، ورددوها في قصيدهم غير مكترئين بما يستتبعه صنيعهم من لوم وتقريع كما كانوا يحثون في قولهم على الكرم والجود والمواساة وإغاثة الملهوف مع أنهم من كل ذلك براء ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم .

فكيف يتوهم أن ينتظم الرسول في سلوكهم وقد تنزهت ساحته عن أن تحوم حوله شائبة الاتصاف بشيء من الأمور المذكورة ، فقد كان معروفاً بمحاسن الصفات ، وكريم الخلال ، وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجميع الملكات الإنسية ، ولم يكن أتباعه كأتباعهم سفهاء ضالين ، وإنما هم هداة مرشدون ، لهم في رسول الله أسوة حسنة .

روى ابن عباس أن الآيات نزلت في شعراء المشركين : عبد الله بن الزبغرى ، وهبيرة ابن أبي وهب المخزومي ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبي عزة الجمحي ، وأميرة بن أبي الصلت . قالوا : نحن نقول مثل قول محمد ، وكانوا يهجون ، ويجمع لهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم ، وهم الغاوون .

والظاهر من السياق أنها نزلت عامة شاملة لجميع شعراء الكفار ، ويدخل فيهم هؤلاء الشعراء دخولاً أولياً .

ثم استثنى - سبحانه - بقوله : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا . . . الآية) شعراء المؤمنين الذين كانوا يدعون إلى التوحيد ويشنون على الله - تعالى - ويحثون على امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وقد ابتغوا فيما آتاهم الدار الآخرة ، ولم يُغفلوا نصيبهم من الدنيا ، وذكروا الله كثيراً ، ولو وقع منهم في بعض الأوقات هجو ، وقع منهم بطريق الانتصار إلى الحق ، وبما حده الله عز وجل من غير ظلم أو زيادة على ما قيل فيهم افتراء وعدواناً .

وقيل : المراد بالذين استثناهم الله - سبحانه - وتعالى - شعراء المؤمنين الذين كانوا ينافحون عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وَيُقَبِّحُونَ بِهِجَاةَ قُرَيْشٍ ، واستدل لذلك

بما أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة : أن هذه الآية نزلت في رهط من الأنصار هاجوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم : كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، كما استدل عليه بما أخرجه جماعة عن أبي سالم حسن بن البراء أنه قال : لما نزلت « وَالشُّعْرَاءُ ... » الآية ، جاء عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وهم يبيكون ، فقالوا : يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية ، وهو يعلم أنا شعراء فأنزل الله (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ...) الآية . فدعاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتلاها عليهم .

وقد سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الشعر ، وأجاز عليه ، وكان يقول لحسان ابن ثابت : « اهجهم - يعنى المشركين - وإن روح القدس سيعينك » ، وفي رواية : « اهجهم وجبريل معك » ، وعن كعب بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « اهجهم فوالذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من النبل » ذكر ذلك أبو السعود ، والآلوسى فى تفسيريهما .

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) : تهديد شديد لكل من انتصر بظلم يشير إليه الإيهام والتهويل فى قوله تعالى : (أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) . وقرأ ابن عباس : أى منفلت ينفلتون ، من الانفلات وهو النجاة .

والمعنى على القراءتين لا يختلف فى غايته ، فهو على القراءة الأولى : وسيعلم الذين ظلموا من الشعراء وغيرهم أى مصير يصيرون ، وأى مرجع يرجعون ؛ لأن مصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع ، ويومئذ لا تنفعهم معذرتهم عما فرطوا فى جنب الله . كما قال تعالى : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » ^(١) .

وعلى القراءة الثانية : أن الظالمين يطعمون أن ينفلتوا من عذاب الله تعالى ، وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات ينفلتوا إليه من عذاب الله طمعاً في النجاة حيث توصل في وجوههم كل الطرق والمسالك ، ويساقون إلى النار فهي مصيرهم وإلى العذاب مرجعهم .

وكون الآية عامة في كل ظالم هو الصحيح كما قال ابن أبي حاتم ، وقيل : المراد بالظالمين أهل مكة فهو عام أريد به خاص .

« سورة النمل »

مكية وآياتها ثلاث وتسعون

مقاصدها :

بينت هذه السورة أن القرآن هدى وبشرى للمؤمنين ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة معذبون أسوأ العذاب وهم الأخسرون يوم الدين .

وتحدثت عن قصة موسى وأهله عند رجوعه من مدين إلى مصر بعد هجرته إليها ، فذكرت أنه رأى نارا وأنه ذهب إليها ليأتيهم بقبس منها يستدفئون به ، فلما وصل إلى مكان النار سمع نداً يقول : « بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بِعَدُوٍّ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » .

ثم تحدثت عما جرى بينه وبين فرعون وقومه على سبيل الإجمال ، حيث ذكرت أنهم جحدوا بآياته وزعموها سحراً ، فسألت عاقبتهم بسبب كفرهم .

وتحدثت عن داود وسليمان بأن الله آتاهما علماً فضلهما به على كثير من عباده المؤمنين ، وأن سليمان خلف أباه داود في النبوة والملك ، وأن الله - تعالى - علمه وأباه منطق الطير وأعطاهما طرفاً من كل شيء .

وذكرت أنه - تعالى - جمع لسليمان جنوداً من الجن والإنس والطير ، فلما أتوا على وادى النمل قالت نملة لجماعتها آمرة ومحذرة : « ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » فضحك سليمان لقولها هذا ، ودعا ربه أن يعينه على شكر نعمته التي أنعمها عليه وعلى والديه ، ويوفقه لصالح العمل الذي يرضيه وأن يدخله برحمته في عباده الصالحين .

وذكرت أنه تفقد الطير التي جعلها الله من جنوده ، فلم يجد الهدد ، فعجب لتخلفه عن موقعه ، وتوعده بالتأديب الشديد ، ما لم يأت به بسبب مقبول يقتضى تخلفه ، فلم يطل غيابه ، بل حضر إليه وأخبره بخبر عجيب ، إذ قال : « أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . . . » الآيات .

فلما فرغ من حديثه العجيب قال له سليمان : « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » وبعث معه رسالة إلى ملكة سبأ ، وأمره بمراقبتها بعد وصول خطابه إليها ، ليعلم منه كيف تتصرف عندما يحرق بها الخطر ، فحمل كتابه وألقاه إليها ، فجمعت أشراف قومها قائلة : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَى وَآتُونِي مُسْلِمِينَ » وطلبت منهم الإفتاء وبذل المشورة في هذا الأمر الخطير ، إذ قالت : « أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ » ، فردوا قائلين : « نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » فلما أحست منهم الميل إلى القتال دفاعاً عن البلاد قالت : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً . . . » ورأت المصالحة بإرسال هدية إلى سليمان - عليه السلام - لترى أثرها عنده ، فلما وصل الرسول بهديتها ردها سليمان إليها ، وأخبرها بأن الله أعطاه خيراً مما أعطاه ، ولم يقبل منها سوى الاستسلام ، حتى لا يأتيتهم بجنود لا قبل لهم بها ، فيخرجوا من بلادهم أذلة صاغرين .

ثم طلب من جلسائه أن يحضروا لها عرشها قبل أن تأتيه مسلمة ، فكان أسرعهم من عنده علم من الكتاب ، حيث جاء به قبل أن يرتد إليه طرفه فشكر الله - تعالى - على تلك النعمة ، وطلب من أتباعه أن يُنَكِّروه لها لتغيير هيئته ليعرف مقدار فطنتها « فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ » ، ثم قيل لها : ادخلي القصر ، فلما دخلته رأت صحنه كأنه ماء ، فكشفت عن ساقبها ، فقال : إن ما تظنينه ماء هو صرخ أملس من

زجاج ، وحينئذ قالت معترفة بخطئها في عبادة الشمس : « إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

ثم حكى السورة قصة هود مع نبيه صالِح وكفرهم . . . وتآمروا على قتله وأن الله عاقبهم على مكرهم بإهلاكهم أجمعين وأنجى صالحاً ومن معه من المؤمنين .

وذكرت قصة قوم لوط ، وقد جاء فيها لومه لإياهم على إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء : « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ تَطَهَّرُونَ » : أى يتنزهون عن أفعالنا ولا يرضونها لأنفسهم ، فأنجاه الله وأهله المؤمنين ، وأهلك سواهم من الكافرين وفيهم امرأته .

ثم ناقشت المشركين وقارنت بين معبوداتهم الضعيفة وبين الله الواحد القهار ، وبدأت المناقشة بقوله تعالى : « اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ » وبينت آثار قدرة الله ونعمه : فذكرت أنه خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأنبت به حدائق ذات بهجة ، وأنه جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً دون أن يكون مع الله إله في خلق هذه الكائنات والنعم العظيمة .

ثم عقببت ذلك ببيان كثير من النعم الجليلة التي لم ينعم بها سوى الله ، وساءلتهم في كل ذلك منكرة عليهم شركهم : « أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ » .

ثم عابت عليهم شكهم في الآخرة وقولهم : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ » وزعمهم أن أمر الآخرة من أساطير الأولين ، وردت عليهم بقوله تعالى : « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » ودعت نبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى عدم الاهتمام بإعراضهم ، فذكرت قول الله - تعالى - : « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » وتوعدتهم بقوله تعالى : « قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ » وبقوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ » .

ثم بينت أن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه مختلفون ، وأمرت النبي بالتوكل على الله بقوله - تعالى - : « فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ » وبينت

أَن خصومه يشبهون الصم العمى ، فما هو بمسمعهم ولا هاديهم : « إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ » .

وذكرت أنه إذا قرب وقوع القول عليهم - وهو ما وعدوه من البعث والعذاب - أخرج الله دابة من الأرض تكلمهم ، وتكون حجة عليهم ، لأن الناس صاروا بآيات الله لا يوقنون ، وسيأتي بسط الحديث في شأنها في موضعها من السورة .

ثم بينت أنه يوم ينفخ في الصور يفرع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، ممن يثبتهم الله يومئذ ، وأن الجبال في هذا اليوم تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، وأن أصحاب الحسنات يجازون يومئذ بخير منها ، وأصحاب السيئات من الكفار يكبون على وجوههم في النار .

ثم ختمت السورة ببيان أن الله - تعالى - أمر نبيه أن يعبد رب هذه البلدة التي حرمها وهي مكة ، وله كل شيء ، وأمره أن يكون من المسلمين وأن يتلو القرآن ، وأن يقول لقومه : « الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرَ يَكُم آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَإِنْ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ① هُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَهُمْ
أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ④ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ
وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ ⑤)

المفردات :

(تِلْكَ) : إشارة إلى السورة . (آيَاتُ الْقُرْآنِ) : أى آيات من القرآن ، فالإضافة على معنى مِنْ . (مُبِينٍ) : موضح للأحكام والأخلاق والعظات ، من : أبان غيره ، : أى أوضحه ، أو الواضح بإعجازه ومعانيه ، من : أبان اللازم بمعنى اتضح . (يَعْمَهُونَ) : يتحيرون ويترددون .

التفسير

١ - (طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ) :

« طس » اسمان لحرفين من حروف المعجم ، هما الطاء والسين ، وقد مضى الكلام بشأن مثلهما في أوائل سور : البقرة وآل عمران ويونس وهود وغيرها ، فارجع إليها إن شئت ، ونزيد على ذلك أن بعض المعنيين بإعجاز القرآن الكريم أثبتوا بالآلات الحاسبة : (الكمبيوتر) أن كل سورة بدئت بمثل هذه الفواتح ، تغلب فيها الحروف التي بدئت بها على سائر الحروف التي تكونت منها كلمات السورة ، وبما أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أمي لا يقرأ ولا يكتب فذلك شاهد على أن القرآن ليس من تأليفه - كما زعم أعداء الحق - بل هو من عند الله العزيز الحكيم .

والمراد بقوله : « وَكِتَابٌ مُبِينٌ » القرآن نفسه ، وتنكيره للتعظيم والتفخيم ، وقد وصف به على سبيل العطف للإيذان بأنه جامع بين صفتين : إحداهما ، أنه معجزة مقروءة على اللوام ، وثانيتهما : أنه كتاب مبين لما اشتمل عليه من الحكم والأحكام ، وأحوال القرون الأولى والمعجزات الكونية ، وأحوال الآخرة ، والعقائد النظيفة التي لا تناقض فيها ولا استحالة ، وكما أنه موضح لما ذكر فهو واضح لكل قارئ ولكل سامع ، فلا يصعب فهمه على أحد ، أميا كان أو قارئا .

وقد فاقت معجزة القرآن سائر المعجزات السابقة ، لأنها لا وجود لها الآن ، فأين عصا موسى ، وناقطة صالح ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى من عيسى بإذن الله ؟ لقد ذهبت كلها وأصبحت خبراً بعد عين ، ولولا أن القرآن أيدها لكانت موضعاً للشك والريبة . أما معجزة القرآن فهي باقية ما بقى الزمان ، واضحة الإعجاز والبيان ، لأن شريعته التي جاء بها هي الشريعة العامة للبشرية ، الخاتمة لجميع الشرائع ، فلذلك جعله الله آية باقية مقروءة مكتوبة ، بيينة مبينة محفوظة من التغيير والتبديل ، بكفالة العزيز الحكيم : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .^(١)

ومعنى الآية : طس : تلك السورة آيات وعلامات من القرآن وكتاب مبين للعقائد الصحيحة ، والأحكام السديدة ، والأخلاق الرشيدة ، والغيبيات على ما هي عليه ، والكونيات وما ترشد إليه .

٢ ، ٣ - (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) :

أى هذا القرآن عظيم الهداية والبشارة للمصدقين ، الذين يضمنون إلى تصديقهم به إقامتهم الصلاة في مواقيتها ، وإيتاءهم الزكاة لمن يستحقها ، وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب مصدقون ، لا يشكون ولا يمارون ولا يجادلون بل يعملون لها مخلصين ، فإن إيمانهم بها يحملهم على صدق النية وإخلاص العمل ، خوفاً من العقاب ، ورغبة في جميل الثواب .

والمراد من الزكاة هنا : مطلق الصدقة ؛ فإن الزكاة بمعناها المعروف فرضت بعد الهجرة في حين أن هذه السورة مكية .

٤- (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَّهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ) :

في هذه الآية والتي بعدها بيان لحال الكفرة ومآلهم بعد بيان أحوال المؤمنين وعاقبتهم .

ومعلوم أن الشيطان هو الذي يزين القبائح والمعاصي لأصحابها فيقبلون عليها كما قال - تعالى - في سورة النحل : « تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَلِيَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » الآية ٦٣

وإسناد التزيين هنا إلى الله تعالى مجاز عن تخليه عن معونتهم وتركهم لشیاطينهم وغرائزهم الشريرة ، التي تزين الكفر والمعاصي إلى نفوسهم ، بسبب إصرارهم على الكفر بالآخرة .

والمعنى : إن الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء ، وظنوا أن الحياة هي الحياة الدنيا فانصرفوا إليها ، ولم ينفعهم نصيح أنبيائهم ، فهؤلاء تخلينا عن معونتهم على الهدى ، وتركناهم لشهواتهم وشیاطينهم ، لتزين لهم ما هم فيه ، فهم في غيهم يتحجرون ويترددون ، والعمى صفة البصر ، والعمه صفة البصيرة ، فبصيرتهم في ظلام الضلال ، لاتدرك ما ينفعها ولا ما يضرها .

٥- (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ) :

أى ؛ أولئك الذين كفروا بالآخرة وتركناهم في ضلالهم ، قضينا عليهم بالعذاب السيئ في الدنيا بالقتل والأسر وغير ذلك من محن الحياة الدنيا ، وهم في الآخرة هم الأشد خسراناً منهم في الدنيا ، حيث يخلدون في النار وبئس القرار ، ولا توجد خسارة أفدح من هذه الخسارة .

ويصح أن تكون كلها في عذاب الآخرة ، على معنى أن لهم العذاب السيئ فيها ، وهم أشد الناس خسارة حينئذ ، لحرامتهم من الثواب ، واستمرارهم في العقاب ، بخلاف عصاة المؤمنين .

(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى
لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَافَتِيبُكُمْ مِنْهَا يَخْبِرُ أَوْءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ
قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي
النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّى إِنَّهُ
أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾)

المفردات :

(مِنْ لَدُنْ) : من عند . (حَكِيمٍ) : عظيم الحكمة ، والحكمة : إتقان الأمور .
(آنَسْتُ) : أبصرت . (بِشِهَابٍ قَبَسٍ) : بشعلة نار مقبوسة ومأخوذة من النار التي
أبصرها . (تَصْطَلُونَ) : تستدفئون . (بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) : جعلت البركة
لمن في البقعة التي فيها النار ، ولمن في الأماكن التي حولها .
(الْعَزِيزُ) : القوى الذي يقهر ولا يقهر .

التفسير

٦- (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) :

بينت الآيات السابقة بعض شئون القرآن ، وجاءت هذه الآية تمهيداً لما يليها من
القصص التي اشتملت عليها ، وهي مستأنفة لهذا الغرض ، وليست معطوفة على ما قبلها ،
والذي يُلَقَّى القرآن على الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند الحكيم العليم هو الروح الأمين
جبريل - عليه السلام - قال تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ
بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »^(١) .

وقد تضمنت الآية تحقيقاً لنزوله من عند الله وتأكيدها لذلك وتفخيماً لشأنه ، فالآية واضحة الإشارة إلى أن هذا القرآن مشتمل على حِكَمٍ عظيمة ، وعلم غزير ، لا يمكن أن يصدر عن البشر ، وإنما يصدران عن إله حكيم عليم ، ولذلك صُدِّرَتْ بَيِّنٌ واللام في قوله : « وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ » وهما للتأكيد ، وجمع بين الحكمة والعلم ، لأن فيه ما هو من قبيل الحكمة كالعقائد الصحيحة والأحكام الشرعية الصالحة لكل زمان ومكان ، وما هو من قبيل العلم المطلق مثل القصص والأخبار الغيبية .

والواقع أن العلم يعم الحكمة وسواها ، ولكنه جمع بينهما للإيدان باشتغال القرآن عليهما جميعاً على أكمل وجه .

ومعنى الآية : وإنك - أيها الرسول - ليلقى إليك القرآن من عند حكيم عظيم الحكمة وإصابة الحق ، عليم واسع الإحاطة بالأمر ما وجد منها وما سوف يوجد ، لأنه فوق مستوى قدرة البشر : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »^(١) .

٧- (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) :

كان موسى - عليه السلام - قد خرج من مصر حين علم أن الملائكة من قومها يأتون به ليقتلوه قصاصاً منه لقتله القبطي الذي اعتدى على رجل من بني إسرائيل ، فخرج إلى سيناء وانتهى في رحلته إلى مدين ، حيث عمل أجيراً عند شعيب في مقابل تزويجه إحدى ابنتيه ، فلما قضى المدة المتفق عليها ، حنَّ للرجوع إلى مصر ومعه أهله ، فسار بأهله فأدركها المخاض عند الطور ، فوضعت في ليلة شاتية باردة ، وكان قد حاد عن الطريق لأمر شاءه الله - تعالى - وقد أصبح بحاجة إلى أمرين : أحدهما : أن يوقد ناراً ليستدفئ بها أهله ، وثانيهما : أن يهتدى إلى الطريق الموصل إلى مصر بعد أن حاد عنه ، وقد أدركته عناية الله وهو في حيرته هذه ، حيث أظهر له ناراً على بعد قليل من الطور كما قال - تعالى - في سورة القصص : « فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا »^(٢) .

وحينئذ قال لأهله : إني أبصرت ناراً سأتىكم منها بخبر عن الطريق الذى نصل منه إلى مصر بسؤال من أوقدوا هذه النار ، أو آتاكم بشعلة مقتبسة ومأخوذة من هذه النار التى أراها ، لعلكم^(١) بهذه الشعلة المقبوسة تستدفئون إذا جعلتها داخل حطب وأوقدته بها .

وإدخال السين على الفعل فى قوله : « سأتىكم » لتأكيد الوعد وتحقيقه - كما قال الزمخشري - وإفادة مجيئه عن قرب حتى لا يستوحش أهله لتركه إياهم فى هذا المكان .

٨ - (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) : فى الكلام مضاف مقدر ، أى : فلما جاءها بورك من فى مكان النار ومن حول مكانها ، والمراد من مكان النار : البقعة المباركة المذكورة فى قوله تعالى : « نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ »^(٢) والمراد من فى بقعة النار ومن حولها : كل من فى هذا الوادى وحواليه من أرض الشام التى باركها الله بمبعث الأنبياء ودفنهم بها ، ولا سيما تلك البقعة التى كلم الله فيها موسى - عليه السلام - وقيل : من فى بقعة النار : موسى - عليه السلام - ومن حولها : الملائكة ، وقيل : العكس .

وقد نبه الله على جلال المقام ، وتنزهه - تعالى - عن الحلول وعن صفات البشر ، بأن ختم الآية بقوله - سبحانه وتعالى - : « وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

والنار التى رآها موسى - عليه السلام - لم تكن ناراً حقيقية ، فقد كانت نوراً كما روى عن ابن عباس : (لم تكن ناراً ، إنما كانت نوراً يتوهج) ، وهذا النور من نور الله تعالى - كما روى عنه .

ونقل القرطبي عن ابن عباس والحسن أن المعنى : قدس من فى النار وهو الله - سبحانه وتعالى - عني به نفسه^(٣) تقدس وتعالى ، ثم عقبه بقوله : قال ابن عباس ومحمد بن كعب :

(١) تستعمل « لعل » للرجاء ، وللتعليل ، وهى هنا صالحة لكليهما .

(٢) سورة القصص ، من الآية : ٣٠

(٣) أنكر الإمام هذه الرواية وقال إنها موضوعة ، وقال أبوحيان : إذا ثبتت هذه الرواية عن ابن عباس وغيره ، كان معناها بورك من قدرته وسلطانه فى النار ومن حولها . وقد شرحها القرطبي على هذا النحو حذراً من فكرة الحلول التى يأبها الإسلام ، وينزه عنها ابن عباس وأعلام الصحابة والتابعين ، وقد نقلنا ما قاله القرطبي فى ذلك ، وستراه بعد قليل .

النار : نور الله - عز وجل - نادى الله موسى ، وهو في النور - قال القرطبي - وتأويل ذلك : أن موسى - عليه السلام - رأى نوراً عظيماً فظنه ناراً ، وهذا لأن الله - تعالى - ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار ، لا أنه يتحيز في جهة ، ومثله كمثل قوله - تعالى - : « وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ » ^(١) فإنه - سبحانه وتعالى - لا يتحيز فيهما ، ولكن يظهر في كل فعل فيعلم به الفاعل ، وعلى هذا يكون « بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ » بمعنى قُدِّسَ مَنْ فِي النَّارِ سلطانه وقدرته وكلامه : انتهى بتصرف يسير .

ثم نقل القرطبي عن سعيد بن جبير كلاماً يشبه كلام ابن عباس وابن كعب ، إذ قال : كانت النار بعينها فأسمعه الله كلامه من ناحيتها ، وأظهر له ربوبيته من جهتها ، قال القرطبي : وهو كما روى أنه مكتوب في التوراة : (جاء الله من سيناء وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبال فاران) ^(٢) فمجيئه من سيناء بعثه موسى ، وإشرافه من ساعير بعثه المسيح منها ، واستعلاؤه من فاران بعثه محمداً - صلى الله عليه وسلم - وفاران (مكة) وسيأتي في القصص زيادة بيان لإسحاق الله كلامه موسى : انتهى بتصرف يسير .

وإليكم تفسير الآية على أن من في النار ومن حولها هو موسى والملائكة فيما يلي : فلما وصل موسى إلى النار التي رآها وهو بجانب الطور ، نودى نداءً إلهياً منبعثاً من الشجرة بأنه بورك موسى الذي في بقعة النار ، وبورك من حولها من الملائكة ، وقيل لموسى : سبحانه الله رب العالمين ، تنزيهاً له - تعالى - عن أن يشبهه شيء من مخلوقاته ، أو يحيط به شيء من مصنوعاته فلا تكتنفه أرض ولا سماء ، ولما وقف موسى مبهوراً متعجباً من صدور الكلام عن النار ، أعلمه الله أنه - سبحانه - هو المتكلم فقال :

٩- (يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

الضمير في « إِنَّهُ » للشأن ، والعزیز الحكيم وصفان للفظ الجلالة ، ممدان لما أريد إظهاره على يد موسى - عليه السلام - من المعجزة .

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ٣

(٢) جاء في كتاب (محمد نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن) للمستشار محمد عزت الطهطاوى منقولاً عن الإصحاح ٢٣ عدد ٢ من سفر التثنية على لسان موسى - عليه السلام - بلفظ : (جاء الرب من سيناء ، وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار ، في يمينه ستة من نار ، أحب الشعوب ، جميع الأطهار بيده) انظره وشرحه في ص ٩ من هذا الكتاب ، والمقصود من عبارة (بيده ستة من نار) شريعة الجهاد . التي جاء بها رسوله المبعوث من جبال فاران ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : يا موسى إن الأمر والشأن أنا الله القوى القادر على ما لا يقدر عليه غيرى من الأمور العظام التى من جملتها ما سوف أؤيدك به من المعجزات ، الحكيم الذى تصدر أحكامه وأفعاله بغاية الإحكام والسداد .

(وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَّى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(تَهْتَزُّ) : تتحرك باضطراب . (كَأَنَّهَا جَانٌّ) : الحية الخفيفة السريعة .
 (وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ) : انصرف راجعاً إلى الخلف ولم يعُد ، من : عَقَّبَ المقاتل ، إذا كَرَّ بعد الفرار . (جَيْبِكَ) : الجيب ، فتحة القميص من أعلاه إلى الصدر ، ليدخل منه الرأس ، واستعماله فى الفتحة التى يوضع فيها كيس الدراهم ونحوه مؤلِّدٌ .
 (فِى تِسْعِ آيَاتٍ) : أى ؛ آية معدودة من جملة تسع آيات . (مُبْصِرَةً) : بينة واضحة ، من أبصر ، بمعنى وضع مجازاً ، أو مُعِينَةً عَلَى البصر ، أى : على التَبَصُّر ، من أبصر غيره ، أى : جعله يبصر بقلبه ويهتدى .

التفسير

١٠- (وَالْقِيَاسُ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ...) الآية .

هذه الآية من جملة ما كلم الله به موسى من الشجرة ، وقد تضمنت أنه - تعالى - أمره أن يلتقي عصاه من يده ، ليريه آية على أن الذى يكلمه هو الفاعل المختار القادر على كل شئ ، وقد شبهت العصا بعد تحولها بالجان ، وهى ضرب من الحيات أكثرها حركة وأسرعها اضطراباً ، مع صغر فى الحجم ، وقد جاء تشبيهها بشعبان مبين فى قوله تعالى : « فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ »^(١) والثعبان أكبر حجماً من الجان ، فهى فى حجم الثعبان جسماً ، وفى صورة الجان حركة واضطراباً سريعاً ، فلذا عبر عنها بالكلمتين فى موضعين مختلفين من السور .

والمعنى : ونادى الله موسى : ألق عصاك الخشبية من يدك ، فألقاها فانقلبت حية ، فلما رآها تتحرك بشدة واضطراب كأنها جان فى سرعتها وخفتها ، انصرف عنها مدبراً خوفاً منها ، ولم يرجع إلى المكان الذى كان فيه حين ألقى عصاه فناداه ربه مطمئناً بقوله :

(يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ) : يا موسى لا تخف من هذه الحية التى آلت إليها العصا ، ولا من غيرها فإنه لا يخاف فى حضرتى المرسلون ؛ لأننى أحميهم وأحفظهم من كل شئ .

وفى هذه الآية بشارة له بأنه سيكون من رسل الله - سبحانه وتعالى - وتعليم له بأنه لا ينبغي لمن يرسلهم الله إلى خلقه لهدايتهم ، أن يخافوا أو يخطر الخوف ببالهم عند الوحي إليهم وإن وُجد ما يخاف منه ، لاستغراقهم فى تلقى أوامر الله ، وانجذاب أرواحهم إلى عالم الملكوت ، والتقييد بكلمة « لَدَى » لأن المرسلين يغلب الخوف عليهم فى غير هذه الحالة ، فهم فى سائر أحيائهم أخوف الناس من الله - عز وجل - فقد قال تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »^(٢) ولا أعلم منهم بالله - تعالى - .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٠٧

(٢) سورة فاطر ، من الآية : ٢٨

هذا في الدنيا ، أما في الآخرة وهم في حضرته - تعالى - فإنهم لا يخافونه خوف عقاب وإن خافوه خوف إجلال ، لأنهم صفوة عباده وأحرصهم على تقواه .

وبعد أن بين الله أن المرسلين لا يخافون في حضرته - تعالى - عقب ببشارة عامة لكل من أحسن بعد الإساءة من عباد الله - تعالى - فقال - سبحانه - :

١١ - (إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) :

ولفظ : « إِلَّا » هنا بمعنى (لكن) وهو ما يسمى في عرف النحاة بالاستثناء المنقطع ، والمعنى : لكن من ظلم نفسه بارتكاب عمل سيئ ، ثم بدل فأتى بعمل حسن بعد عمله السيئ ، تائباً إلى ربه ، فلا يخاف ، فإن عظيم الغفران واسع الرحمة .

وهذه الرحمة بالتائبين مقررة في آيات كثيرة من القرآن كقوله تعالى : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » ^(١) ، وقوله : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا » ^(٢) ، وقوله : « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا » ^(٣) .

١٢ - (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) :

بينت الآية السابقة أن الله - تعالى - أرى موسى كيف يحول العصا الخشبية إلى حية تسعى ، وجاءت هذه الآية لتبين معجزة أخرى ودليلاً باهراً على قدرة الله - تعالى - وأنها مع سابقتها يؤيده الله بهما في رسالته إلى فرعون وقومه في ضمن تسع آيات تشهد برسالته ، وتقوم بها حجة الله عليهم إن لم يستجيبوا له ، إذ يعاقبهم على كفرهم أشد العقاب .

والآيات التسع التي أشارت إليها الآية هي : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجذب .

(١) سورة طه ، الآية : ٨٢

(٢) سورة النساء ، الآية : ١١٠

(٣) سورة طه ، الآية : ١١٢

والطمسة : جعل أبواب رزقهم حجارة ، والجيب : فتحة القميص من جهة الصدر وهي مدخل الرأس فيه ، كما تقدم في بيان المفردات .

ومعنى الآية : وأدخل يدك في فتحة قميصك من جهة الصدر ، وأخرجها تخرج بيضاء ساطعة تتلألأ كأنها قطعة من القمر من غير سوء حل بها ، وهاتان الآيتان في جملة تسع آيات واضحات أُؤيدك بهن وأجعلهن براهين على صدقك في دعواك الرسالة عنا إلى فرعون وقومه ، فإنهم كانوا قومًا فاسقين خارجين عن طاعتنا والإيمان بنا ، مع أن يوسف قد دعاهم إلى الحق من قبلك ، ولهم عقول لو فكروا بها في آياتنا لهدتهم سواء السبيل .

١٣ - (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) :

أى : فلما جاءهم موسى مؤيدًا بآياتنا المعينة على التبصر والهدى ، قالوا - معرضين عن التأمل والانتفاع بها - : هذا الذى جئتنا به سحر واضح .

ولما كان الذى قالوه مخالفًا لما وقر في نفوسهم ، عقب الله مقالتهم هذه بقوله :

١٤ - (وَجَعَلُوا بِهَا أَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) :

أى وكذب قوم موسى بالآيات التى أئده الله بها مع تمام وضوحها ، وقد استيقنتها أنفسهم وآمنت بها قلوبهم ، وكان إنكارها بآلسنتهم ظلمًا منهم للحق ولأنفسهم ، وتعالياً عليه وعلى من جاءهم به من عند ربه ، فانظر - أيها المتأمل - كيف انتهت إليه عاقبة المفسدين حيث أغراه الله بالدخول فى الطرق التى شقها لبنى إسرائيل فى البحر ، وأغرقهم جميعاً فيه بغد انتهاء عبور بنى إسرائيل ، فبئس مصير المتجبرين .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ
دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾)

المفردات :

- (عِلْمًا) : إدراكًا لعلوم الدين وأصول الحكم وغيرها .
(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) : ورثه في النبوة والملك .
(عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ) : منطق الطير ؛ ما تعبر به عن حاجاتها وشئونها من أصوات أو حركات .
(وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) : مما يحتاج إليه الملك .

التفسير

١٥ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ
الْمُؤْمِنِينَ) :

شروع فی بیان قصه داود و سلیمان - علیهما السلام - بعد إجمال الحديث بشأن موسى
مع فرعون وقومه ، لتقرير ما تقدم ذكره، من أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - تلقى القرآن
من لدن حكيم عليم .

والمراد بالعلم الذي أعطاهما الله إياه : هو علم شريعة الله وسياسة الملك وما يختص به
كل منهما من العلوم .

وكان الظاهر أن يقال : (فقالا الحمد لله) بالفاء دون الواو ، كما تقول : أعطيته
فشكر ، ولكن التعبير بالواو هنا أبلغ ، لما فيه من الإشعار بأن ما قاله داود و سلیمان بعض
آثار إيتائهما العلم ، فأضمرت تلك الآثار وعطف عليها الحمد ، فكأنه قيل : ولقد آتيناها

علماً فعملًا به وعرفا حق النعمة فيه ، وقالوا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين^(١) .

وفى الآية دليل على أن العلم من أجل النعم ، حيث شكرا الله على إيتائهما إياه ، ولم يذكر معه سواه من سائر النعم التى أنعم الله بها عليهما من الملك وغيره ، فإن العلم هو أساس جميع النعم ، وفيها حث للعالم على شكر الله ، وأن لا يتكبر بما أوتيته من العلم وآثاره على الناس ، فيقول ما قاله قارون : « إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي »^(٢) ، كما فيها حث له على أن يعلم أنه وإن أعطى من العلم ما يفضل به كثيرا من الناس ، فقد فضل الله به غيره عليه ، فإن العلم لا غاية له .

ومعنى الآية : ولقد أعطينا داود وابنه سليمان علماً بشئون الدين والدنيا يناسب ما أعطينا كليهما من النبوة والملك ، وقال كل منهما : الحمد لله الذى فضلنا بهذا العلم على كثير من عباده المؤمنين الذين لم يعطوا منه مثل ما أعطينا .

١٦ - (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) :

المراد من ميراث سليمان داود : أنه صار نبياً وملكاً بعده ، فوراثة إياه مجاز عن ذلك ، ولم يرث عنه المال ، قال - صلى الله عليه وسلم - : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » . رواه أبو بكر وعمر أمام جمع من الصحابة ولم ينكر عليهما أحد ، وهم الذين لا يخافون فى الله لومة لائم ، وأخرج أبو داود والترمذى عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

والمراد من الناس : أهل مملكته ، ومن منطق الطير : لغته التى يتخاطب بها بصوت أو بإشارة ، وكان يعرف لغة الحيوانات والحشرات ، ومن ذلك ما روته هذه السورة من قصة الهدهد والنملة .

(١) هذه خلاصة ما قاله الزغزغى فى التعبير بالواو دون الفاء .

(٢) سورة القصص : من الآية : ٧٨

وقد عرض بعض المفسرين لذكر قصص عن طيور مختلفة فهم لغتها وأصواتها ، ولا تعدو هذه القصص أن تكون مجرد حكايات لم ترد عن الصادق المصدوق ، فلماذا لم نذكرها هنا ، التزاماً بما التزمنا به من الاختصار في التفسير على المعنى اللغوي أو المسأثور عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو ما قاله السلف مما يتفق مع القواعد الشرعية والمعنى اللغوي ، وحسبنا أن الله - تعالى - أطلق تعليم سليمان منطق الطير ، وهذا يتناول فهمه للغته ومراداته منها على أوسع نطاق ، هذا أمر خص الله به نبيه سليمان ، وليس من باب الفراسة ولا مجرد الذكاء ، وإنما هو بتعليم الله إياه ذلك ، كما هو صريح الآية الكريمة ليكون ذلك من المعجزات التي أيد الله بها رسالته .

ومعنى الآية : وقام سليمان بعد أبيه بمقامه في النبوة بوحى من الله ، وفى الملك برضا أمته ، وقال تَحَدَّثْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ، وإعظاما لقدرها ، ودعوة للناس أن يصدقوه في نبوته بذكر المعجزة التي أيده الله بها - قال - : يا أيها الناس علمنا الله - تعالى - لغة الطير التي يتخاطب بها ، وأوتينا من كل شيء يحتاج إليه الملك وتؤيد به النبوة ، كتسخير الشياطين والريح ، وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة ، إن إيتاء العلم والإعطاء من كل شيء لهو الإحسان الواضح من الله رب العالمين ، المقتضى لجزيل الشكر ممن أنعم به عليه .

واعلم أن قوله - تعالى - : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » إما أن يكون من كلام الله - تعالى - تعظيماً للفضل الذي أنعم به على داود وسليمان - عليهما السلام - وإما أن يكون حكاية لكلامهما على سبيل الشكر والاعتراف منهما بعظيم فضل الله عليهما ، لا على سبيل الفخر والمباهاة ، ومثل ذلك كمثل قوله - صلى الله عليه وسلم - : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(وَحُشِرَ) : الحشر ؛ الجمع . (يُوزَعُونَ) أى : يجبسون ويمنعون من المضي حتى يتلاحقوا ويجتمعوا ، والإيزاع : الحث على الوزع ، وهو الكف والمنع ^(١) .
(لَا يَحْطِمَنَّكُمْ) : لا يهلكنكم ، وأصل الحطم : التكسير . (أَوْزِعْنِي) : ألهمني ، وأصله : من الإيزاع ، وهو الحث على الكف والمنع كما تقدم ، فكأنه قال : حُشِنِي وَأَعِنِّي عَلَى كَفِ نَفْسِي عَنِ التَّقْصِيرِ فِي شُكْرِ نِعْمَتِكَ .

التفسير

١٧ - (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) :

بين الله في هذه الآية أن سليمان - عليه السلام - كان له جنود من أصناف ثلاثة : الجن ، والإنس ، والطير ، وهذا شيء خصه الله - سبحانه - به ، استجابة لدعائه الذي حكاه الله بقوله في سورة (ص) : « قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ اللَّهُ بَقُولِهِ فِي سُوْرَةِ (ص) :

(١) ومنه قول عثمان - رضي الله عنه - : (ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن) ، وقول الشاعر :

وَمَنْ لَمْ يَزَعْهُ لُبُهُ وَحَيَاؤُهُ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ شَيْبٍ قُوْدِيهِ وَازِعُ

أَنْتَ الْوَهَّابُ . فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ
وَعَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ^(١) .

وقد أضافت هذه الآيات من سورة (ص) الريح إلى جنوده المسخرين له في هذه
السورة ، وبهذا اكتمل له عزُّ وجه ليس لأحد من العالمين ، لِحِكْمٍ سنعرض لها - إن
شاء الله - عند الكلام على تفسيرها في سورة (ص) .

وقد بينت الآية هنا أنه حشر له جنود من الأصناف الثلاثة ، ولم تبين الغرض الذي
جمعت له ، ولهذا اختلف العلماء في بيانه ، فقال قائل : إنهم جمعوا ليقاتل بهم من لم يدخلوا
في طاعته ، وقال آخر : بل جمعوا ليذهب بهم إلى مكة ، ليشكر الله - تعالى - على ما وفقه له
من بناء بيت المقدس ، والأول هو الظاهر من المقام ، أما الثاني فلا دليل عليه .

وجمع هذه الأصناف مع كفاية الإنس أو الجن ، لإظهار نعمة الله وأبهة الملك وبيت
الرعب في قلوب الأعداء .

والظاهر أن المراد من جمعها جمع طائفة من كل نوع ، لا جمعها كلها ، لأن الذين
يخرجون للقتال عادة وسياسة هم بعض الجنود لا كلهم ، ويترك الباقي لحفظ البلاد من
الأعداء المتربصين .

والظاهر أن الحاشر لكل نوع من الثلاثة أفراد منهم معدون لمثل ذلك ، ولا غرابة في أن
يكون للطير لغة تتخاطب بها ، وإدراك يعي هذا الخطاب ، فالآية صريحة في أن للطير منطقاً
علمه الله سليمان - عليه السلام - .

بل لقد أثبت القرآن ذلك بما لا يدع مجالاً للشك في جميع الحيوانات ، وذلك في
قوله تعالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالُكُمْ » ^(٢) فقد
أثبتت الآية أن كل الدواب على الأرض والطيور في جو السماء ، أم لها خصائص تماثلنا ،
وإن اختلفت في كيفية هذه الخصائص ومستواها ، والقرآن الكريم لم يقتصر على بيان

(١) الآيات : ٣٥ - ٣٨

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٣٨

كونها أمماً أمثالنا ، بل بين أن فيها قادة ينذرونها ويرشدونها ، فقد قال تعالى : « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ »^(١) وقد ضرب الله مثلاً لهذا النذير ووظيفته بقوله : « قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ »^(٢) .

وقد سبق القرآن الكريم بذلك جميع الكشوف العلمية ، وأيدته المشاهدة ، فالنحل له ملكة تدبر أمره ، وتسوسه ، وبلغ من دقة إدراكه أنه يصنع بيوتاً مسدسة الأضلاع لتجميع عسله فيها ، بمقاييس في غاية الدقة ، واختيار المسدس دون غيره ، لأنه هو الشكل الوحيد الذي لا توجد فرج بين وحداته داخل الإطار .

وبالجملة فدراسة مملكة النحل وأمنه تحير الأفكار ، ومثلها النمل وجميع الكائنات الحية . ومن أغرب ما نشاهده في موسم الشتاء بمصر ، تلك الطيور التي تفد علينا من المناطق الشديدة البرودة ، طلباً للدفء والرزق في بلادنا ، وفي مقدمة كل طائفة نذيرها ومرشدها وهي تطير على هدى إدراك داخل أقوى من (الرادار) في حين أنها لم يسبق لها الحضور إلى بلادنا .

وكثير من الحيوانات يدرك مجيء الزلازل قبل حضورها ، وتكون له حركات تشنجية منذرة بها ، في حين أن الإنسان لا يستطيع أن يدركها بحسه قبل أن تفاجئه .

وقد أيدت الكشوف والدراسات العلمية ما صرح به القرآن العظيم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، فما أعظم القرآن ، وصدق الله إذ يقول فيه : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »^(٣) .

ومن أغرب الكشوف العلمية ، أن للنبات إحساساً وإدراكاً لما يحدث فيه أو حوله ، فقد صنعت آلة تسجيل على أعلى مستوى من الدقة ، وسجلت أنين الشجرة إذا قطع منها غصن ، أو نقلت شجرة مجاورة لها إلى جهة أخرى .

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٢٤

(٢) سورة النمل ، من الآية : ١٨

(٣) سورة فصلت ، من الآية : ٤١ ، والآية : ٤٢

ولا نذهب بعيداً في هذا الشأن ، فإن النبات المعروف في مصر باسم (عباد الشمس) تدور زهرته مع الشمس أينما دارت ، وهناك من النبات ما لو لمست ورقة منه أو نفخت فيها انكمشت ، حتى أطلق البستانيون عليها اسم : المُسْتَحِيَّة ، كأنها تستحي عند لمسها أو نفخها فتجمع أوراقها وتضم بعضها إلى بعض : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »^(١) .

ومعنى الآية : وجميع لسليان جيشه وعساكره من أماكنها المختلفة ، وكان جيشه مؤلفاً من الجن والإنس والطير ، تعظيماً لمقامه وإرهاباً لعدوه ، فهم يؤمرون بالكف عن السير حتى يجتمعوا ، فتنتظم صفوفهم وألويتهم طبقاً للنظم العسكرية ثم يؤمرون بالسير .

١٨ - (حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)^(٢) :

(حَتَّى) : ابتدائية ، وفيها معنى الغاية لما يفهم من الكلام قبلها ، كأنه قيل : فلما اجتمعوا ونُظِّمُوا وأمروا بالمسير ، فساروا حتى أتوا على وادى النمل . . . إلخ .

ووادى النمل : واد بأرض الشام تكثر فيه النمل - كما روى عن قتادة ومقاتل - وقيل : واد باليمن معروف عند العرب ومذكور في أشعارهم . ولفظ (أَتَى) في قوله تعالى : « أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ » يتعدى بنفسه ، فيقال : أتى وادى النمل ، أو بإلى ، كقولك : أتى إلى وادى النمل - وإنما عبّر (بعلى) في الآية الكريمة ، إما لأن إتيانهم إليه كان من مكان عال ، أو لأن المراد من إتيانهم عليه قطعه كله وبلوغ آخره ، والإتيان بهذا المعنى مجاز عن القرب ، من : قطعه ، ولما يقطعه بعد ، ولهذا حذرت النملة أمتها قبل مجيء سليمان إلى مكانها من الوادى ونهتهم بقولها : « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ » ، فقولها هذا : نهى مؤكدة بالنون لجماعتها من النمل عن التعرض لتحطيمها من سليمان وجنوده إن لم تدخل مساكنها في وادى النمل قبل مجيئهم ، وقد أدركت بإلهام الله لها أنهم لو حطموها وهى في طريقهم فإنما يفعلون ذلك لا عن شعور بها ، كأنها أدركت عصمة الأنبياء عن الظلم بإبادتها ، وذلك منها أدب

(١) سورة المؤمنون ، من الآية : ١٤

(٢) يرى القارىء الكريم أن الآية استعملت مع النمل ضمائر العقلاء ، تنزيلاً لها منزلة لفظتها .

كريم في حق سليمان وجنوده ، فلعل الناس يتعلمون حسن الظن بأهل التقوى والأدب معهم كما فعلت هذه النملة .

ومعنى الآية : فسار سليمان وجنوده حتى إذا أتوا على وادٍ يكثر فيه النمل ويعرف به ، قالت رائدته لفصيلتها : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم في جحوركم ، لا تتعرضنَّ بالبقاء فوق ظهر الأرض لأنَّ يهلككم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بإهلاكهم إياكم .

هذا وننقل فيما يلي (المسألة السادسة) من تعليق القرطبي على هذه الآية الكريمة ؛ لأهميته فيما ذهبنا إليه من أن للحيوانات إدراكات عالية .

قال القرطبي : السادسة - لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول ، وقد قال الشافعي : الحمام أعقل الطير ، وقال ابن عطية : والنمل حيوان فطنٌ شام جداً يدخر ويتخذ القرى ، ويشقُّ الحبَّ قطعتين حتى لا تنبت ، ويشقُّ الكزبرة أربع قطع ، لأنها تنبت إذا قسمت شقين ، ويأكل في عامه نصف ما جمع ، ويستبقى سائره ^(١) عُدَّةً ، وقال ابن العربي : وهذه خواص العلوم عندنا ، وقد أدركتها النمل بخلق الله لها ، قال الأستاذ أبو المظفر شاه نور الإسفراييني : ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدث المخلوقات ووحدانية الإله ، ولكننا لانفهم عنها ولا تفهم عنا . . . إلخ .

ولعل الأستاذ الإسفراييني ذهب إلى ذلك استنباطاً من قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » ^(٢) . ونحو ذلك مما جاء في القرآن في هذا المعنى .

١٩ - (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى الْوَلَدِ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) :

نقل الآلوسی فی تفسیره لهذه الآية عن ابن حجر أنه قال : التبسم : مبدأ الضحك من غير صوت ، والضحك : انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور مع صوت خفي ، فإن كان فيه صوت يسمع من بعيد فهو القهقهة .

وعلى هذا يكون المعنى : فتبسم بادئاً في الضحك ، ومن اللغويين من قال : التبسم : ابتداء الضحك ، والضحك يشمل الابتداء والانتها ، ومنهم من قال : هما سواء ، وعلى الرأيين الأخيرين يكون لفظ (ضاحكاً) حالاً مؤكدة ، والراجع الفرق بين التبسم ، والضحك : والمبسم : الثغر ، وهو مقدم الأسنان^(١) والتبسم : ضحك الأنبياء في غالب أمرهم ، وفي الصحيح عن جابر بن سمرة - وقيل له - : أكنت تجالس النبي - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال : نعم كثيراً ، كان لا يقوم من مُصَلَّاهُ الذي يصلي فيه الصبح - أو قال : الغداة - حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم .

وقد وردت أحاديث تفيد أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يضحك أحياناً ، والذي يؤخذ من مجموع الأحاديث أن تبسمه كان أكثر من ضحكه ، وأنه ربما ضحك حتى تبدو نواجذه ، لكن من غير فقهه ، وفي كون التبسم غالب أحواله عند السرور يقول البوصيري مادحاً :

سَيِّدُ ضِحْكِهِ التَّبَسُّمُ وَالْمَشَى الْهُوَيْنَى وَنَوْمُهُ الْإِغْفَاءُ

ومعنى الآية : فتبسم سليمان - عليه السلام - من أجل قولها ، سروراً بما أَلْهِمَهَا اللهُ إِيَّاهُ من حسن حاله وحال جنوده ، وابتهاجاً بما خصه الله به من سماع قولها وإدراك مقصدها منه ، وتعجباً من حذرها وتحذيرها جماعتها وإدراكها مصالحها ، وقال : ياربِّي أَلْهِمْنِي أَنْ أَشْكُرَ مَا أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ مِنْ جَلَالِ النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ ، وَاكْفُفْنِي عَنِ التَّقْصِيرِ فِي شُكْرِهَا ، وَوَفَّقْنِي إِلَى أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ مِنْ مِثْلِي ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي جَمَلَةِ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ لِرِضْوَانِكَ وَالْفَوْزِ بِجَنَاتِكَ ، يَقُولُ ذَلِكَ هُضْماً لِنَفْسِهِ وَوَالِدِيهِ وَاعْتِبَارِهِمْ مَقْصَرِينَ عَنْ دَرَجَةِ الصَّالِحِينَ مَعَ أَنَّهُ وَأَبَاهُ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - مِنْ خَيْرَةِ الْمُرْسَلِينَ ، وَأُمُّهُ زَوْجَةُ نَبِيٍّ وَأُمُّ نَبِيٍّ ، فَكَيْفَ لَا يَكُونُونَ فِي قِمَّةِ الصَّالِحِينَ ، وَلَكِنَّهُ تَوَاضَعُ الْكَامِلِينَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - .

(١) وفعله بسم يبسم كجلس يجلس ، وأطلق التبسم على أول الضحك ؛ لأنه يبدو فيه ما تقدم من الأسنان .

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَلَمٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ) : تعرف موجوده من مفقوده .

(الْهُدْهَدَ) : طائر معروف ، ويكنى بأبي الأخبار .

(بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) : بحجة واضحة تبين عذره .

(فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ) : فلبث زماناً غير مديد .

(بِنَبَأٍ يَقِينٍ) : بخبر حقيقى .

التفسير

٢٠ - (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ) :

أصل التفقد : التعرف على المفقود ، والمراد منه هنا : استعراضه الطير والنظر إليها ليعرف موجودها من مفقودها ، والطير : اسم جمع يطلق على الواحد والمتعدد ، والمراد هنا : جنس الطير وأنواعه ، وكانت تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها ، ولذا استعرضها ونظر إليها ، ليتعرف أحوالها .

ونقل ابن كثير عن ابن إسحاق : أن سليمان - عليه السلام - كان إذا غدا إلى مجلسه الذى كان يجلس فيه تفقد الطير ، وكان - فيما يزعمون - يأتيه من كل صنف من الطير طائر كل يوم ، فنظر فرأى من أصناف الطير ما حضر ، إلا الهدد ، فقال : « مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ » أخطأه بصرى بين الطير ، أم غاب فلم يحضر ؟ : ١٠٥

ونقل الآلوسی عن عبد الله بن سلام أن سليمان - عليه السلام - نزل بمفازة لأماء فيها ، وكان الهدهد يرى الماء في باطن الأرض فيخبر سليمان بذلك ، فيأمر الجن فتكشف الأرض عن الماء ، فاحتاجوا إلى الماء فتفقد الطير لذلك فلم ير الهدهد فسأل عنه .

ونقل القرطبي عن أبي مجلز أن ابن عباس قال لعبد الله بن سلام : أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل ، قال : أتسألني وأنت تقرأ القرآن ؟ قال : نعم - ثلاث مرات - فقال : لم تفقد سليمان الهدهد دون سائر الطير ؟ قال : احتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه ، وكان الهدهد يعرف ذلك دون سائر الطير . وقد أخذ ابن عباس بما قال ابن سلام . قال مجاهد : قيل لابن عباس : كيف تفقد الهدهد من الطير ؟ فقال : نزل منزلاً ولم يدر ما بُعد الماء ، وكان الهدهد مهتدياً إليه ، فأراد أن يسأله . قال مجاهد : فقلت : كيف يهتدى والصبي يضع له الحباله فيصيده ؟ فقال : إذا جاء القدر عمى البصر . قال ابن العربي : ولا يقدر على هذا الجواب إلا عالم القرآن .

ونحن نقول : إن صَحَّت هذه الفراسة عن الهدهد ، فذاك شأن آخر يختلف عن وقوعه حبساً في الفخ ، فإن فراسته بحسب تكوين الله لا تمتد لإدراك الغيب الذي كتبه الله عليه ، فإنه مستقبل ، أما الماء فهو موجود تحت الأرض وإن كان خفياً ، والموجود يدرك بالإحساس الداخلي لبعض الحيوانات ، كالكلاب تدرك الزلازل بأسباب تحسها داخلياً ، ولكنها لا تدرك أن الطعام الذي قدمه الصياد لها مسموم ليقتلها به ، وبالجمله فمناهج التكوين الإلهي لخليقته عجيبة ، فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

ومعنى الآية : ونظر سليمان - عليه السلام - إلى جنوده من الطير ، ليتعرف ما حضر منها وما غاب دون استئذان منه ، فلم ير الهدهد في جملة الطير التي تظله وتعلوه ، فقال : ما الذي جعلني لا أراه ؟ أهو موجود بين أنواع الطير ولكني لا أراه ؟ ثم لاح له أنه غائب فقال متسائلاً : بل أكان من الغائبين ، ولما تحقق له غيابه توعدده قائلاً :

٢١ - (لَأُعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

أي : لأعذبه على غيابه دون استئذان مني عذاباً شديداً ، بنحو نتف ريشه وتجويعه ، أو لأذبحه أو ليأتيني بحجة قوية مبينة لعذره في تغيبه عن مكانه بين سائر أنواع الطير .

وإتيانه بسلطان مبين ليس من جملة المحلوف عليه ، فقد حلف على عقابه بالتعذيب أو الذبح ، أما قوله : أو ليأتيني بسلطان مبين ، فهو في قوة الاستثناء ، فكأنه قال : إلا أن يأتيني بسلطان مبين فلا أعذبه ولا أذبحه ، لأن سليمان لا يقسم على فعل الهدهد ، قال الآلوسی : إن هذا الشق ليس مقسمًا عليه في الحقيقة ، وإنما المقسم عليه الأولان ، وأدخل هذا في سلكتهما للتقابل ، وهذا - كما في الكشف - نوع من التغليب لطيف المسلك ، ومآل كلامه - عليه السلام - : ليكونن أحد الأمور الثلاثة ، على معنى : إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح ، وإن لم يكن كان أحدهما ، فأو في الموضعين للتريد : انتهى كلام الآلوسی .

٢٢- (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ) : (سَبَإٍ) قرأه الجمهور مصروفًا - أي : منونًا - على أنه اسم لحي من للناس سموا باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (مِنْ سَبَإٍ) - بفتح الهمزة غير مصروف - على أنه اسم للقبيلة ، ثم أطلق على الإقليم أو البقعة التي يعيشون فيها بأرض اليمن .

ومعنى الآية : فمكث الهدهد زمانًا غير بعيد خوفًا من سليمان - عليه السلام - ثم عاد وقال لسليمان - عليه السلام - مبينًا سبب تخلفه عن مكانه بين الطير : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ، وجئتكم من سبأ بخبر حقيق لا ريب فيه .

واختار الهدهد هذا الأسلوب في ابتداء كلامه ، لترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره ، واستمالة قلبه نحو قبوله ، فإن النفس يشتد إقبالها على تلقى ما لم تعلم ، وتميل إلى قبول عذر من أتاها به بعد غياب دون إذن .

وقال الإمام البيضاوي : وفي مخاطبته إياه بذلك تنبيه على أن في خلق الله - تعالى - من أحاط علمًا بما لم يحط به ، لتحققر إليه نفسه ، ويتصاغر لديه علمه .

ويقول البيضاوي في سبب غياب الهدهد : روى أنه - عليه السلام - لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج ، فوافى الحرم ، وأقام به ما شاء ، ثم توجه إلى اليمن ، فخرج من

مكة صباحاً فوافى صنعاء ظهيرة ، فأعجبتة نزاهة أرضها ، فنزل بها فلم يجد الماء ، وكان الهدهد رائده ؛ لأنه يحسن طلب الماء ، فتفقدته لذلك فلم يجده ، إذ حَلَّقَ حين نزل سليمان ، فرأى هدهداً واقفاً فانحط إليه ، فتواصفا وطار معه لينظر ما وُصِفَ له ، ثم رجع بعد العصر ، وحكى ما حكى . ٥١ .

ونحن نقول : الله أعلم بحال تلك الرواية ، ألها أصل أم هي من الحكايات التي ليس لها دليل ؟

(إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ٢٤) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ٢٦)

المفردات :

(عَرْشٌ عَظِيمٌ) : العرش ؛ سرير الملك . (أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ) : أى فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا لله . (يُخْرِجُ الْخَبْءَ) : الخبء ؛ ما خفي في غيره ، وإخراجه : إظهاره .

التفسير

٢٣ - (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) :

بعد أن شوق الهدهد سليمان إلى معرفة السر الذي غاب عن مجلسه من أجله بقوله : « أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ » بعد أن شوقه إلى ذلك عقبه ببيان هذا السر الذي حكته هذه الآية .

والمرأة التي كانت تملك سبأ اسمها (بلقيس بنت شراحيل) كما يقول المؤرخون والمفسرون ، فقد كانت ملكة عليهم وحاكمة لهم في إقليم مأرب ، وقد كانت المسافة بين معسكر سليمان في صنعاء ، وبين مأرب مسيرة ثلاث ليال - كما ذكره القرطبي - فكيف أخفى أمرها على سليمان وجنوده من الإنس والجن ؟ والجواب : أن الله أخفى أمرها لمصلحة ستعرف من قصتها ، كما أخفى أمر يوسف على يعقوب ليجده في النهاية حاكم مصر وسيدها المطاع .

والمراد من إيتائها من كل شيء : أن الله - تعالى - أعطاها من أسباب قوة الملك ما جعل لها سلطاناً قوياً على قومها وبين جيرانها .

وقد ذكر المفسرون في وصف طول عرشها وعرضه وارتفاعه وجواهره أموراً عجيبة لم نجد لها أصلاً فتركنا ما قالوه اكتفاء بوصفه في الآية بأنه عظيم ، والله أعلم بعظمته كيف كانت .

ومعنى الآية : إنني وجدت امرأة عظيمة العقل والجاه تملك قومها سبأ وقد أعطاها الله من كل شيء يحقق لها السيطرة على قومها ، والعزة والجاه فيها حولها ، ولها سرير عظيم تجلس عليه في أبهة الملك ، حيناً يلقاها عظماء قومها أو سواهم .

وقد أثار المفسرون لهذه الآية مسألة حكم المرأة وقضائها في كتب التفسير الموسعة ، وبخاصة التي تعنى بالأحكام الفقهية ، وانتهوا إلى أنها لا تلي شيئاً من ذلك ، مستندين إلى ما رواه البخاري من حديث ابن عباس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال : « لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » .

٢٤، ٢٥ - (وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) :

تحكي الآية السابقة بأسلوب الاستثنا ، وهاتان الآيتان بعدها بقية ما رواه الهدهد لسليمان - عليه السلام - عن ملكة سبأ .

والمعنى : وجدت هذه الملكة وقومها يسجدون للشمس عابدين لها ، متجاوزين عبادة الله معرضين عنه ، وقد زين لهم الشيطان أعمالهم المجافية للحق في العقائد والسلوك ، فصرفهم عن السبيل الموصلة إليه ، فهم لأجل ذلك لا يهتمون إلى الصواب - صرفهم - لئلا يسجدوا لله الذى يظهر الخفى فى السموات ، فيجعل الكواكب التى أخفاها النهار تبدو فى الليل ، والشمس التى أخفاها الليل تبدو بالنهار ، والأمطار المخبوسة فى الفضاء تبدو بهطولها ، وغير ذلك مما يكشفه الله من أسرارها ، ويظهر ما اختبأ فى الأرض من الكنوز التى لا تحصى أنواعها ، والنبات الذى لا تعد أجناسه وخصائصه وغير ذلك مما يكشفه لنا من خباياها ، ويعلم ما يخفيه هؤلاء الذين يعبدون الشمس وما يظهره ، وليس للشمس شئ من ذلك ، فهى مسخرة لله تعالى ، فكيف ينصرفون عن عبادته إلى عبادتها ؟

٢٦- (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) :

هذه الآية تحكى آخر ما ذكره الهدد لسليمان بشأن غيابه عنه دون إذن ، وهى - كالتعليق لوصفه الله - عز وجل - بالقدرة على إخراجه الخبء فى السموات والأرض ، وعلمه بأحوال من يعبدون الشمس من دونه .

والمعنى : الله لا معبود بحق إلا هو ، رب العرش العظيم الذى لا حد لعظمته ، فكيف تركوا عبادته لعبادة الشمس التى هى من مقدوراته ومخلوقاته ؟

والعظيم - بالجر - وصف للعرش ، ويكفى فى الدلالة على عظمته ، أن الكرسي الذى وسع السموات والأرض بالنسبة للعرش كحلقة فى فلاة ، كما ورد فى السنة - فأين عظمة عرش ملكة سبأ من عظمة عرش الرحمن - سبحانه وتعالى - ؟

وبعد ، فإن الإنسان ليقف مبهوراً أمام قصة هذا الهدد ، كيف استطاع أن يتعرف على أحوال مملكة سبأ وعقائدها بهذه الدقة ، وأن يلومهم على تركهم عبادة الله إلى عبادة الشمس ، مع أنها وعابديها تحت سلطانه وعلمه - جل وعلا - .

وإن المرء ليعجب من وصول الطير فى العلم بالله إلى هذه الدرجة ، فى حين أن بعض البشر لم يصلوا إلى مثلها ، ولا نجد شيئاً نقوله أمام هذه العجائب خيراً من قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا »^(١) .

* (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾
 أَذْهَبَ بِكُنُوتِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا
 يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(سَنَنْظُرُ) : من النظر ؛ بمعنى التأمل ، أى : سنتحرى ونتحقق .
 (أَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ) : ادفعه إليهم وأوصله لهم . (تَوَلَّى عَنْهُمْ) : تَوَارَى وَتَنَحَّى إلى مكان
 تغيب فيه عن أبصارهم . (فَانْظُرْ) : فانظر أو تعرف .
 (مَاذَا يَرْجِعُونَ) : أى ؛ بماذا يجيبون ، ويرد بعضهم على بعض فى شأن الكتاب .

التفسير

٢٧- (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ . . .) الآية .

كلام مستأنف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية كلام الهدد .
 كأنه قيل : فماذا فعل سليمان - عليه السلام - بعد اعتذار الهدد ؟
 فقيل : قال : سننظر .

والمعنى : قال سليمان - عليه السلام - رداً على الهدد فيما اعتذر به عن غيابه عن
 مكانه بين الطير بغير إذنه - قال - : سَتَحْرِى ونعرف أصدقت فيما قلت ؟ أم أنك كنت
 من جملة أهل الكذب المعنين فيه ؟ والعدول عن التعبير بقوله : أصدقت أم كذبت
 إلى قوله : (أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) للإيدان بأن كذبه بهذا الأسلوب المنسق ، ومع نبي الله
 سليمان يقتضى إيغاله فى الكذب ، وانتظامه فى سلك المتعمقين فيه إن لم يكن له ما يصدقه .
 وفى هذا الأسلوب دليل على أن الإمام يجب عليه أن يتحرى عند الاعتذار قبل أن
 ينزل العقوبة بمن ظاهره الخطأ ، فربما كان صادقاً فى اعتذاره ، وفى الصحيح : « لا أحد
 أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أنزل الكتاب ، وأرسل الرسل » .

٢٨ - (اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا . . .) الآية .

الأمر بالذهاب للهدد ، واختصه به لأنه صاحب العذر . وقوله : « كِتَابِي هَذَا » يدل على أن سليمان - عليه السلام - أعد الكتاب بعد أن أخبره الهدد بقصة أهل سبأ . والمعنى : توجه بكتابي هذا الحاضر بين يدي إلى الملكة بلقيس ومن هم على دينها من قومها فألقه إليهم ، وادفعه لهم ، ثم تَنَحَّ عنهم إلى مكان تختفى فيه عن أبصارهم وتسمع كلامهم ، ثم انظر وتعرف ما يجيبون ، وما يرد بعضهم به على بعض ، وما يجرى بينهم من مراجعة وحوار حول مضمون هذا الكتاب .

وقد جرى الأسلوب بضمير الجمع لأن مضمون الكتاب دعوتهم جميعاً إلى الإسلام وفى قوله : « ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ » توجيه إلى الأدب الذى ينبغى أن يكون عليه الرسل فى معاملة الملوك ، مع تنبيههم إلى اليقظة ، وحدة الانتباه .

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىٰ كِتَابٍ كَرِيمٍ ۖ إِنَّهُۥ مِنْ سُلَيْمٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ ۖ۝٢٠ أَلَّا تَعْلَمُوْا عَلَىٰ وَآتُونِىْ مُسْلِمِينَ ۖ۝٢١)

المفردات :

(الْمَلَأُوْا) : أشرف القوم وأصحاب الرأى فيهم .
(كَرِيمٌ) : لكرم مضمونه ، أو لشرف مرسله . (تَعْلَمُوْا عَلَىٰ) : تتكبروا وتتجبروا .
(مُسْلِمِينَ) : مؤمنين ، أو منقادين طائعين .

التفسير

٢٩ - (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىٰ كِتَابٍ كَرِيمٍ) :

روى أن سليمان - عليه السلام - كتب كتاباً ، وختمه بخاتمه ، ودفعه إلى الهدد ليحمله إلى بلقيس ، فطار به إليها ، وألقاه من كوة فى بيتها ، فقرأته ولم تذكر

هذه التفاصيل ، جرياً على عادة القرآن من الاختصار على الضرورى للعبارة ، وترك ما هو بدهى ، وللإيدان بكمال مسارعة الهدهد إلى تحقيق ما أمر به .

والمعنى الإجمالى : قالت الملكة لأشرف قومها ، بعد أن أخذت الكتاب وقرأته ، ورأت ما رأت من أمر الهدهد فى دخوله وإلقائه الكتاب إليها وتنحيه ، وغير ذلك مما يعرب عن عظمة مرسله ، قالت : يا أيها الأشرف من قومى إئنى ألقى إلى كتاب كريم فى شرفه وشرف مرسله وعلو مكانه .

وفسر ابن عباس وغيره الكريم هنا بالمختوم ، وهو معنى لغوى ، فكرم الكتاب ختمه . وفى شرح أدب الكاتب لابن المقفع يقال : أكرمت الكتاب فهو كريم ، إذا ختمه وقال ابن المقفع : « من كتب إلى أخيه كتاباً ، ولم يختمه فقد استخف به » .

٣٠، ٣١ - (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَىِّ وَائْتُونِي

مُسْلِمِينَ) :

أى : إن هذا الكتاب من سليمان نبي الله ، وإن مفتتحه « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ولم يسبق بها كتاب قبله ، وإن مضمونه ألا تعلوا على وائتوني خاضعين ولا تتكبروا وتتجبروا وتأخذكم العزة بالإثم فتجنحوا إلى العصيان والتمرد ، أو ائتوني مسلمين ، مؤمنين بدعوى طائعين منقادين لرسالتى ، فى هذا أمنكم ، وأمانكم ، وسلامة دنياكم وسعادة آخرتكم .

وجاء الكلام فى هذه الآية مؤكداً (بيان) كما جاء مؤكداً قبل ذلك بها فى قوله : « إئنى ألقى إلى » - اعتناء بشأن الكتاب ، واهتماماً بسمو مضمونه .

(قَالَتْ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدِ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(أَفْتُونِي) : أشيروا على بما عندكم من الرأي . (قَاطِعَةً) : قاضية وفاصلة .

(تَشْهَدُونَ) : تحضروني وتدلون بآرائكم . (أَوْلُوا قُوَّةً) : وفرة في العدد .

(وَأَوْلُوا بِأَسْ) : نجدة مفرطة ، وبلاء في الحرب .

(وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ) : والرأي في بت الأمور إليك موكول .

التفسير

٣٢- (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ) :

قالت بلقيس للملأ من قومها وأشرافهم وهم شهود في مجلسها : يا أيها الملأ أفْتُونِي وأشيروا على بما عندكم من الرأي في هذا الأمر الخطير الذي جاء برسالة سليمان ، وقد اعتدت أن أسمع رأيكم ، وأنتفع بمشورتكم في كل ما يحدث لي ، ويجد في ملكي ، ما كنت أقطع في أمر ولا أقضي فيه حتى تحضروا وتشيروا فيه برأيكم ، وتكرر نداؤها للملأ من قومها مع وحدة الموضوع ، اهتماماً بالأمر ، وجذباً لانتباههم وإثارة لأفكارهم .

٣٣- (قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدِ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ) :

أي : قال الملأ من قومها ، وقد فهموا أنها تهدف من كلامها إلى الاستيثاق من تأييدهم والاطمئنان على مدى استعدادهم لنصرتها ، والوقوف إلى جانبها إذا رأت عصيان الدعوة ومقاومتها .

قالوا : نحن أصحاب قوة فائقة ، في العَدَدِ والعُدَد ، وأصحاب شدة وبلاء في الحروب

لا ترهبنا قوة ، ولا ينهتنا وعيد ، وهذا دورنا وهذه مهنتنا ، وأما البت

في الأمور فهو موكول إليك تقضين فيه بما تشائين سلماً وحرباً، ولك علينا الطاعة في كل ما تريدن، وما تأمرين، فانظري أى شيء تريينه وتأمرين به نكن في طاعتك .

(قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا
أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ
بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً) : أى دخلوها محاربين . (أَفْسَدُوهَا) : خربوها وقلبوا أوضاعها
وأتلفوا عمرانها . (أَذِلَّةً) : مُهَانِينَ بالقتل، والأسر، والإجلاء عنها، جمع ذليل .
(هَدِيَّةٌ) : عطية عظيمة، والهدية : اسم لما يهدى، كالعطية : اسم لما يعطى .

التفسير

٣٤ - (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا . . .) الآية .

قالت بلقيس - تعليقاً على ما قاله الملأ من قومها وقد أحست من لحن قولهم وفحواه
الميل إلى الحرب، والعدول عن سَنَنِ الصواب، فأرادت ردهم إلى الرشاد - قالت : إن
شأن الملوك وسلوكهم إذا فتحوا قرية - أية قرية - وغلبوا أهلها خربوها، وأتلفوا ما فيها
من أموال، ونكسوا أحوالها، وجعلوا أعزة أهلها وسادتها أَذِلَّةً مُهَانِينَ بالقتل، والأسر والإجلاء
وغير ذلك من صنوف الإهانة والإذلال .

وقوله تعالى : (وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) يحتمل أن يكون من كلام بلقيس تدعيماً لرأيها ،
وتأكيداً لما وصفته من حال الملوك الفاتحين ، وتقريراً بأن ذلك من سياستهم المستمرة
وسلوكلهم الدائم . ويحتمل أن يكون من جهته - عز وجل - تصديقاً لقولها على ما أخرجه
ابن أبي حاتم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - .

٣٥- (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ...) الآية .

هذه الآية تتمم لكلامها مع الملائكة من قومها الذي أرادت به أن تنبئهم بما استقر في ذهنها من أمر سليمان - عليه السلام - الذي سخر الله له الجن ، والطير يرسلها إلى ما يشاء ، وأنه من القوة بحيث يغلبهم على أمرهم إذا قاتلوه ، فيفسد القرى ، ويذل الأعزة وختمت رأيها بقولها : « وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ » عظمة حافلة تليق بالملوك ، تشبع نهمهم وتطفى نار حقدهم ، وتطمعهم في الصداقة ، وتغريهم بالمودة ، روى أنها قالت لقومها : إن كان ملكاً دنيوياً أرضاه المال ، وعملنا له بحسب ذلك ، وإن كان نبياً لم يرضه المال وينبغي أن نتبعه على دينه . اهـ وجاء في ابن كثير عن ابن عباس وغير واحد أنها قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

وقوله تعالى حكاية عنها : (فَتَاطَرَتْ بِهِمْ مَّرْجُوعُ الْمُرْسَلُونَ) معناه : فمنتظرة بعد وصول الهدية إليهم ، واطلاعهم عليها - بأي شيء يرجع إلى المرسلون بالهدية فأعمل بما يقتضيه الأمر ، نقل ابن كثير عن قتادة أنه قال : ما كان أعقلها في إسلامها وشرها .

(فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَاءَ اثْنَيْنِ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا أَتُكُم ۚ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ۚ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(أَتُمِدُّونَ) : تساعدوني . (لَا قِبَلَ لَهُمْ) : لا طاقة لهم ببلقائها ، وأصل القبل : المقابلة ، ثم جعل في الطاقة . (صَاغِرُونَ) : مهانون أذلة .

التفسير

٣٦ - (فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِِدُّونَنِي^(١) بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ) :

أى : فلما جاء الرسول سليمان - عليه السلام - بالهدية قال - موجهًا الكلام إليه وإلى من معه وإلى المرسل إنكارًا عليهم ، وتوبيخًا لهم - : أتعطوننى مالاً وعندى منه ومن غيره كثير ، فما أعطانى الله من الملك والمال والنبوة خير مما أعطاكم ، فلا أطمع فى مال ولا أفرح به ، بل أنتم الذين تفرحون بالمال الذى يهدى إليكم وتحرصون عليه ، وتطيب نفوسكم به لقصر همتكم على الدنيا ، وجبكم الزيادة فيها ، والمكاثرة والمفاخرة بها .

٣٧ - (اَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ) :

من جملة كلام سليمان - عليه السلام - لرسول بلقيس ، وأفرده بالذكر لاختصاصه بالرجوع .
دون من كان معه من المرسلين .

والمعنى : ارجع - أيها الرسول - إلى بلقيس ، وقومها بالهدية ، وبلغهم مقاتلى بشأنها ، ووجوب استسلامهم إلينا ، فإن لم يأتوا مسلمين فوالله لنأتينهم ، ولندفعن إليهم بجنود لا طاقة لهم بلقائنها ولا قوة لهم على قتالها ، وليكونن لنا الغلب عليهم ، ولنخرجنهم من مملكتهم سبأً أذلة مهزومين وهم صاغرون أسارى مستعبدون .

(١) قرأ هكذا حفص بجذف ياء المتكلم تخفيفاً .

المفردات :

التفسير

هذا القول يقتضي قولاً آخر يرشد إليه سياق القصة ؛ أى : فرجع الرسول بالهدية إلى بلقيس ، وأخبرها بما أقسم عليه سليمان فعرفت أنه نبي لا طاقة لها بقتاله ، وتجهزت للمسير إليه ، وعلم سليمان بخروجها إليه فقال : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا » أى : يحضره عندي على حاله التي هو عليها قبل أن تأتيني هي وقومها منقادين طائعين ؟

وإنما طلب سليمان - عليه السلام - إحضار العرش قبل أن يأتوه مسلمين ليربها القدرة التي مكن الله - تعالى - له فيها ، والآيات التي أيده بها ، فأراد أن يُغرب عليها ، ويربها بذلك بعض ما خصه الله به من إجراء العجائب على يده .

وقيل : أراد - عليه السلام - من إحضار العرش أن يختبر عقلها ، ودقة إدراكها للأمور فيعرضه عليها بعد أن يغير من معالنه ، ويُبَدِّل في أوضاعه ، فيرى أتعرفه أم تنكره ؟ وما قيل من أنه - عليه السلام - أراد أن يتملكه قبل أن يعصم الإسلام أنفسهم ، وأموالهم ، لا يناسب مقام النبوة ، ولا يتواءم مع موقفه من الهدية ، والتحدث بنعمة الله - تعالى - عليه .

٣٩ - (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) : أى : قال خبيث مارد من الجن مجيباً سليمان - عليه السلام - : أنا أحضره لك قبل أن ينفض مجلسك الذى تجلس فيه للقضاء من أول النهار إلى الظهر ، كما قيل ، أو قبل أن تنهض من جلستك هذه التى تجلسها ، وإنى على إحضاره لك لقوى متمكن لا يثقلنى حمله ، أمين لا أختلس منه ولا أغير فيه .

٤٠ - (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ..) الآية . أى : قال الذى عنده علم من الكتاب ، بعد أن سمع مقالة العفريت ، وكأنه رأى أن التوقيت الذى وقته بعيد بالنسبة لما يُحْسَنُ فى نفس سليمان - عليه السلام - قال : أنا آتيك به قبل أن يرجع إليك بصرك الذى تمده فى القضاء لتنظر شيئاً بعيداً أمامك .

والذى عنده علم من الكتاب قيل : هو آصف بن برخيا وزير سليمان ، وقيل : الخضر - عليه السلام - وقيل : جبريل - عليه السلام - أو ملك أيده الله به .

وقال الجبائى : الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه ، وكان التعبير بهذا الأسلوب للدلالة على شرف العلم ، وأن هذه الكرامة كانت بسببه ، ويكون الخطاب فى قوله : « أَنَا آتِيكَ بِهِ » للعفريت لأنه تصدى لدعوى القدرة على الإتيان به من بين الحاضرين ، وإنما لم يأت سليمان بالعرش ابتداءً ، بل استفهم ، ثم قال ما قال وأتى به ليربهم أنه يتأتى له ما لا يتهيا لعفريت الجن ، فضلاً عن غيرهم ، وقد استظهر هذا القول لوجوه :

أولاً: أن الموصول موضوع في اللغة لشخص معين بمضمون الصلة المعلومة عند المخاطب ، وهذا هو سليمان - عليه السلام - .

ثانياً: إحضار العرش في تلك اللحظة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لأحد من أمته دونه لاقتضى تفضيله على سليمان ، وهذا غير جائز .

ثالثاً: لو افتقر سليمان في إحضاره إلى أحد من أمته لاقتضى قصور حاله في أعين الناس .

رابعاً: وأخيراً أن قوله - عليه السلام - : « هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي » يقتضى أن ذلك الخارق قد أظهره الله بدعائه - عليه السلام - .

وسواء أكان الذى عنده علم من الكتاب سليمان أم غيره ، فإحضار العرش على هذه الصورة مثل عال لقدرة الله - تعالى - أظهره إما معجزة لنبي ، أو كرامة لولى وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقوله تعالى : (فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي) : معناه ؛ فلما رأى سليمان - عليه السلام - العرش حاضراً أمامه ، قارأ في موضعه حيث أراد ، قال : هذا النصر والتمكين مما تفضل به على ربى ليتعبدنى ويختبرنى أشكر نعمته على أم أكفرها ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ؛ لأن نفع ذلك يعود عليه حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد منها ؛ لقوله تعالى : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » والشكر قيد النعمة الموجودة ، وصيد للنعمة المفقودة ، ومن كفر فلم يشكر النعمة ، وأبطرته ، فإن الله غنى عن شكره ، كريم فى تفضله على خلقه ، يرزق البار والفاجر والشاكر والكافر ، وحسابهم يوم تبلى السرائر .

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا) : غيروا هيئته ، وبدلوا أوضاعه . (صَدَّهَا) : منعها وردّها .
(نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي) : نعرف من أمرها وحالها أتهدى إليه ؟

التفسير

٤١- (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ) :

قال سليمان - عليه السلام - بعد أن رأى العرش مستقراً ثابتاً أمامه - قال - لمن حوله من الجنود والأتباع : غيروا بلقيس معالم عرشها ، وبدلوا أوضاعه بحيث تختلف فيه الرؤية ، ويختلط النظر لنعرف ونعلم من حالها ، أتهدى إلى أنه عرشها ، ولم يضللها التنكير والتبديل ؟ « أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ » : أى أم تكون من ضعف الملاحظة ، ودقة الإدراك بحيث لا تعرفه ، فتكون من جملة الذين لا يهتدون إلى الجواب الصواب ، وإدراك دقائق الأمور ، روى عن ابن عباس وغيره أن تنكيره كان بالزيادة والنقص فيه ، وقيل : بغير ذلك .

٤٢- (فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ) :

أى : فلما جاءت بلقيس سليمان - عليه السلام - ومثلت عنده ، والعرش مستقر بين يديه قد جرى فيه من التنكير والتغيير ما أمر به ، قيل لها على سبيل الاختبار : « أَهَكَذَا عَرْشُكِ » ؟ أى : انتبهى ودقق النظر ، أمثل هذا عرشك الذى تركته ببلادك ، وتحفظت عليه بكل أساليب التحفظ ؟

ولم يكن السؤال : أهذا عرشك بغير كاف التشبيه ، زيادة في إبهام أمره عليها ، ولم يصرح بالقاتل لها لأنه لا يتعلق بذكره غرض ، ولأن السؤال سؤال تعمية وتلبيس لا يجمل معه ذكر السائل ، وكان جوابها : « كَأَنَّهُ هُوَ » غاية في دقة الفكر ، وكمال رجاحة العقل ، حيث لم تقطع بأنه هو ، أو ليس هو ، فضلاً عما فيه من مواعمة مافي السؤال من الإبهام والإعجام .

وقوله تعالى : (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) : يحتمل أن يكون من كلام بلقيس على ما اختاره جمع من المفسرين ، كأنها استشعرت من سؤالها اختبارهم لها فأجابت بما يفيد أنها أوتيت قبل هذه المعجزة أو هذه الحالة العلم بكمال قدرة الله تعالى ، وصدق نبوة سليمان بما شاهدت من أمر الهدد ، وما سمعت من أخبار رسلها ، وكانت مؤمنة بهذه الرسالة منذ ذلك الوقت ، وقيل : إن الكلام من قوله : « وَأُوتِينَا الْعِلْمَ » إلى قوله : « مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ » مقول على لسان سليمان وقومه ، كأنهم لما سمعوا جوابها : « كَأَنَّهُ هُوَ » استحسَنوه ، وقالوا : أصابت ، وعلمت قدرة الله ، وصحة نبوة سليمان وقد أوتينا العلم بذلك من قبلها وكُنَّا به مسلمين ، كما قالوا ما تضمنته الآية التالية ، والأول هو الظاهر .

٤٣- (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ) :

أى : وصد بلقيس عن تعجيل إظهار إسلامها وتصديقها برسالة سليمان ما كانت تدين به من عبادة في الكفر ، متأصلة في الوثنية ، فلما حضرت إلى سليمان ، وأمنت بطش قومها أعلنت إسلامها ، وأظهرت ما كانت تضره منذ ظهرت لها المعجزات .

(قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ
عَنْ سَاقِيهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ ۖ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(الصَّرْحَ) : القصر ، وكل بناء عال ، ومنه : ابن لي صَرْحًا ، وقيل : صحن الدار .
(لُجَّةً) : ماء كثيرًا غامرًا . (مُّمَرَّدٌ) : مُمْلَسٌ . (قَوَارِيرَ) : زجاج ، جمع قارورة .

التفسير

٤٤- (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا) :

كلام مستأنف بعد الفراغ من امتحانها السابق . كأنه قيل : فماذا كان بعد امتحانها ؟
وطوى ذكر القائل على حد طيه في قوله : « قِيلَ أَهْكَذَا عَرْشُكَ » .

والمعنى : قيل لبلقيس بعد أن أدت الامتحان الذي أريد لها ، وظهرت رجاحة عقلها ودقة
إدراكها للأمور - قيل لها - : ادخلي القصر .

وقد قيل : إن سليمان - عليه السلام - كان قد أمر الجن قبل قدومها فبنوا لها قصرًا على طريقها
من زجاج أبيض أملس ، وأجرى من تحته الماء ، وألقى في الماء ما يكون فيه عادة من حيتان
وأصداف ، ووضع سريره في صدره ، فجلس عليه ، ليزيدها استعظامًا لأمره ، وتحققًا من نبوته ،
وثباتًا على الدين ، وما قيل من أنه ذكرت عنده بأنها شعراء^(١) فأراد بذلك تعرف حالها ، يجافي
مقام النبوة وقداصة الأنبياء ؛ وقوله تعالى : « فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً » معناه : فلما رأت
القصر ، وعايينت هيئته وأحواله ظننته ماء غمرًا فكشفت عن ساقها ، فعل من يريد خوض

(١) أى : في ساقها شعر .

الماء حذرًا من أن يبتل طرف ثوبها ، ورأى سليمان منها ذلك ، وأحس دهشتها وحذرها وقال لها : إنه صرح مملس من زجاج أبيض صاف ، فلا تحذرى ولا تخافى بللاً . قالت بلقيس وقد رأت هذه القدرة الفائقة ، والنعمة السابغة على سليمان - قالت - : « رَبُّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي » : بقيامى على عبادة الشمس ، وتأخير إسلامى ، وأسلمت لله رب العالمين مع سليمان تابعة له .

وفى التعبير بقوله : « لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » دون : (وأسلمت مع سليمان لك) حسب ما يقتضيه سياق الأسلوب ، التفات إلى الاسم الجليل ، ووصفه ببروبيته العالمين لإظهار ما تم لها من كمال معرفتها الألوهية ، واعتزازها ببروبيته ، وتأكيدها لاستحقاقه التوحيد والعبادة .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
فَإِذَا هُم فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَلْقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾
قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ
قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

- (السَّيِّئَةُ) : المراد بها : التكذيب ، أو العقوبة التى تسمى .
(الْحَسَنَةُ) : التصديق ، أو التوبة .
(أَطِيرْنَا) : نشاءمنا ، وأصله : تطيرنا ، قلبت الناء طاءً وأدغمت فى الطاء ، ثم اجتلبت همزة الوصل للتوصل بها للنطق بالساكن .
(طَائِرُكُمْ) : سبب شؤمكم . (تُفْتَنُونَ) : تختبرون .

التفسير

٤٥- (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ) :

شروع فی قصه صالح - عليه السلام - بعد الفراغ من قصه سليمان ، وقوله : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ » معطوف على قوله : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا » في صدر قصه سليمان ، وكلتا القصتين وغيرهما برهان على صحة ما جاء في أول السورة من قوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » لأن الحديث عن أحوال الأولين وأخبار الأنبياء السابقين ليس مما يعرفه سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا عهد له به .

ومعنى الآية : والله لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا يدعوهم إلى توحيد الله ، وعبادته ونبذ عبادة ما عداه .

وبدأت بالقسم اعتناءً بشأن ما اشتملت عليه من أخبار ، وما احتوته من أحوال .

وقوله تعالى : (فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ) معناه : فتعجلوا العصيان وجنحوا إلى الخلاف والفرقة وفاجئوا بالانقسام إلى فريقين يختصمون : فريق مؤمن مصدق وفريق كافر عاص مما جاء تفصيله في آيات كثيرة في سور أخرى ، منها ما جاء في سورة الأعراف من قوله تعالى :

« قَالَ أَلَمْ لَا الَّذِينَ اسْتَكَبَرُوا مِنْ قَوْمِي لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّي قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكَبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَاْفِرُونَ (٧٦) » إلى آخر ما جاء من الآيات .

والضمير في « يَخْتَصِمُونَ » للفريقين : المؤمن والكافر ، لأنهما شريكان في الاختصام ، والاختصام وقع بعد الدعوة ، وظهور الآيات وإيمان فريق منهم .

والفاء للترتيب والتعقيب ، وهو في كل شيء بحسبه حتى تنأى المفاجأة بالتفرق والاختصام .

٤٦- (قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) :

قال صالح - عليه السلام - متلطفًا مع قومه ، مستميلًا لقلوبهم : يا قوم لِمَ تباكرون وتستعجلون بالمعصية والتكذيب ، أو طلب العقوبة السيئة لكم قبل التصديق والطاعة ،

أو قبل التوبة التي تعصمكم من العذاب والعقوبة ؟ هلا تبادرون بالاستغفار رجاء أن تنالكم رحمة الله بقبوله توبتكم ، فإن سنته - تعالى - عدم قبول التوبة عند نزول العذاب : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ » ثم قال : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ » وكانوا لجهلهم ، وفرط غوايتهم يقولون : إن وقع وعيده تُبنا ، وإلا فنحن على ما كنا عليه .

٤٧ - (قَالُوا أَطِیرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالُوا طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ) :

قال الفريق الكافر رداً على دعوة صالح لهم : تشاءمنا بك وبالذين اتبعوك ، و كانوا معك ، فمذقت بدعوتك أصابنا القحط ، وشاعت فينا الفرقة ، واستشرى الخلاف ، قال صالح لهم : سبب شؤمكم ومصائبكم عند الله وبقدره ، أو كفركم وعنادكم وسوء أعمالكم المكتوبة عنده .

وأصل التطير : أنه كان من عادتهم إذا خرجوا مسافرين فمروا بطائر زجروه . فإن طار إلى اليمين تيمنوا ومضوا ، وإن مرَّ بارحاً إلى اليسار تشاءموا ورجعوا .

وقوله تعالى : (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ) : تعقيب بالحكم عليهم بالعذاب الذي ابتلاههم الله به ، بسبب كفرهم ومعاصيهم ، أي : بل أنتم محكوم عليكم بالفتنة ، أي : العذاب .

(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(رَهْطٌ) : أي ؛ رجال ، ولهذا وقع تمييزاً لتسعة فإنها تميز بالجمع المجرور ، وأصل

الرهط من الثلاثة إلى العشرة ، أما النفر : فمن الثلاثة إلى التسعة ^(١) .

(تَقَاسَمُوا) : فعل أمر بمعنى احلفوا ، أو فعل ماض بمعنى : تحالفوا .

(لَنُبَيِّتَنَّهُ) : لنهلكه ليلاً . (مَهْلِكٌ أَهْلُهُ) : أى ، هلاك أهله ، أو موضع هلاكهم .

التفسير

٤٨ - : (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) :

استمرار في عرض القصة ، والمعنى : وكان في مدينة ثمود وهى فى الحجر - كان فيها - تسعة رجال من أشرف قومها وسادتها ، وقيل : كانوا رؤساء وراء كل واحد منهم جنوده وأتباعه ، منهم قدار بن سالف عاقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح ، وقادة الشر فيهم ، يفسدون فى الأرض ، ويأمرون بالافساد فيها ، ويتتبعون عورات الناس ومعائبهم ، يظلمون الناس ، ولا يمنعون الظالم عن ظلمه ، ولا يعملون صالحا ، ولا يدعون إليه ، ولا يعرفون طريقه - فعادتهم الدائمة المستمرة الإفساد البحت الذى لا يخالطه شيء من الصلاح فى عمل أو قول .

٤٩ - (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا

لَصَادِقُونَ) :

استئناف مبين بعض ما فعلوا من الفساد ، والمعنى : ومن جملة شرهم : أنهم قال بعضهم لبعض فى أثناء المشاورة فى أمر صالح - عليه السلام - : احلفوا وأقسموا وأكدوا قسمكم لنبيتن صالحا وأهله ، أى : لنهلكه وأهله ببياتا وليلا حتى نتخلص من متاعبه ، أو قالوا - حالفين متقاسمين - هذا القول ، ثم لنقولن لوليّه الذى يتولى طلب دمه إذا سألنا - نقول له - : ما شهدنا هلاكه وأهله فضلا عن عدم مباشرتنا إهلاكهم ، ونحلف وإنا لصادقون فى حلفنا حيث لم نباشر إهلاكهم بأنفسنا ولم نشاهده ، أو أنهم باشروه وشاهدوه ، ولكنهم حلفوا أنهم صادقون فى تبرئة أنفسهم ، غير مكترئين بحلفهم وهم فى الحقيقة كاذبون ، والشيء من معدنه لا يستغرب .

(١) انظر تفسير أبى السعود .

(وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرَنًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾
فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأُنَجِّبْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(مَكْرُؤًا مَكْرًا) : دبروا أمرا في احتيال وخديعة خفاء ، وهو إهلاك صالح وقومه .
(وَمَكْرَنًا مَكْرًا) : جازيناهم بمكرهم من حيث لا يتوقعون .
(دَمَّرْنَاهُمْ) : أهلكناهم . (خَاوِيَةٌ) : خالية من السكان والأهل ، أو متداعية مهدمة .

التفسير

٥٠- (وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرَنًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

مكرهم : ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله ، ومكر الله : مجازاتهم وإهلاكهم ،
وسميت المجازاة مكرًا للمشاكلة ، كما في قوله تعالى : « يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » وكما
في قوله : « وَمَكْرُؤًا مَكْرًا اللَّهُ » وكان صالح - عليه السلام - قد توعدهم بالهلاك خلال
ثلاث ليالٍ أهلكهم الله فيها بالصيحة فأصبحوا جاثمين ، ونجى الله صالحا ومن آمن معه .
والمعنى : ومكر قوم صالح فدبروا في خفاء إهلاكه وأهله ليلا ، وعلم الله مكرهم فقدر
إهلاكهم من حيث لا يشعرون أن الله عالم بتدبيرهم ، ومجازيهم ، ولا يحتسبون وقوع
الهلاك بهم .

٥١- (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ) :

أي : فتعرف وتأمل أحوالهم ، وكيف كانت عاقبة ظلمهم وفسادهم وإفسادهم ، لقد

كانت عاقبة ذلك أنا أهلكناهم جميعا تابعين ومتبوعين ، لم يشذ عن إهلاكهم أحد ، ولم ينج فيهم تابع ولا متبوع .

والأمر في قوله تعالى : « فَانظُرْ » لرسول الله ، أو لكل من يتأتى منه النظر ليعتبر بالحال العجيب التي انتهت إليها عاقبة مكرهم وفسادهم وإفسادهم .

٥٢ - (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

والمعنى : إذا أردت مزيدا من التصديق والاستيقان فتلك بيوتهم ومساكنهم أمامك خالية من الأهل والسكان ، متداعية متهاكة بسبب ظلمهم وإفسادهم ، وسوء تدبيرهم « إِنَّ فِي ذَلِكَ » الذى حل بهم ، وجرى عليهم من سخط وعذاب لعظة وعبرة لقوم أهل علم وفهم ، أو يعلمون عاقبة الظلم والعصيان .

روى عن ابن عباس أنه قال : أجد في كتاب الله - تعالى - أن الظلم يخرّب البيوت . وتلا هذه الآية ، وفي التوراة : « ابن آدم لا تظلم يخرّب بيتك » وهذا مشاهد كثيرا في كل عصر ، وحجة الله على الظالمين في كل جيل .

٥٣ - (وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) : أى وأنجينا صالحا والذين صدقوه وكانوا يتقون المعاصي ويقيمون على الطاعات . - أنجيناهم - من العذاب الذى حل بالكافرين منهم . روى أن الذين آمنوا بصالح كانوا أربعة آلاف ، خرج بهم إلى « حضر موت » وحين دخلها ماتت فسميت بهذا الاسم ، وبنى المؤمنون بها مدينة يقال لها : (حاضورا) والله أعلم بصحة ذلك .

(وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾
أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(الْفَاحِشَةُ) : الفعلة الشنيعة المتناهية فى القبح .

(تُبْصِرُونَ) : تعلمون عاقبة فعلها ، أو يبصر بعضكم بعضا علانية أثناء الفاحشة .

التفسير

٥٤- (وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) :

انتقال من قصة قوم صالح إلى أخبار قوم لوط - عليه السلام - (لولطا) منصوب بمضمر معطوف على (أرسلنا) في صدر قصة صالح - عليه السلام - داخل معه في حيز القسم أى : وأرسلنا لوطا ، وقيل : إن (لوطا) منصوب بـ (اذكر) محذوفا .

وقوله : « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » ظرف للإرسال ، على أن المراد به أمر ممتد وقع فيه الإرسال وما جرى بينه وبين قومه من الأحوال والأقوال .

والمعنى : وأرسلنا لوطا إلى قومه لأنما موبخا حين قال لهم : أتأتون هذه الفعلة النكراء المتناهية في القبح والشناعة ، وأنتم تعلمون مبلغ قبحها وشناعة جرمها وارتكابها ؟ أو وأنتم تعلمون عاقبة العصاة ، ونهاية أمرهم ؟ وقيل : تبصرون . من الإبصار ، بمعنى النظر بالعيون ، والمعنى : تفعلونها جهارا علانية وأنتم ينظر بعضكم إلى بعض ، والمراد بالاستفهام في قوله : « أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ » استبعاد فعلها ، واستنكار ارتكابها .

٥٥- (أَتَيْنَكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ) : تكرار للكلام عن فاحشتهم لمزيد الإنكار ، وبيان حقيقتها بطريق التصريح بعد الإيهام ، وتصدير الجملة بحرفي التأكيد للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد ؛ لكمال شناعته وفضاعة مجانته ، فلهذا احتاج إلى تأكيد وقوعه ، وإعادة همزة الاستفهام الإنكارى معه .

والتعبير بالرجال دون الذكور لمزيد التقييح ، والإشعار بقلب الحقيقة ، وتنكيس الطبيعة ، وتعليل الإتيان بالشهوة تقييح على تقييح ، وتقريع على تحكم الشهوة ، وبهيمية الطبع ، وقوله تعالى : « مِنْ دُونِ النِّسَاءِ » تنبيه إلى مجاوزة الجنس المخصص للشهوة ، المخلوق للاستمتاع ، انقيادا للنزعات الفاسدة ، وقوله تعالى : (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) : معناه ؛ بل أنتم قوم تفعلون فعل الجهلاء الذين لا يقدرון العاقبة ، والسفهاء المعنئين في الفحش والمجانة ، وفيه مزيد من التوبيخ بالإضراب الذى يدل على أنهم أهل جهل يعيشون فيه أيامهم ويتجدد معهم حياتهم .

* (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ آلَ لُوطٍ
مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا
أَمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا لَهَا مِنَ الْغَيْرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ
مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾)

المفردات :

(أَخْرِجُوهُمْ آلَ لُوطٍ) : المراد بهم لوط وأهله ؛ كما يراد من بنى آدم ؛ آدم وبنوه .
(مِنْ قَرْيَتِكُمْ) : هى سدوم وما حولها ، ويطلق عليها القرى الموثفكات .
(أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) : أى جماعة يتنزهون من صنيعهم .
(قَدَّرْنَا لَهَا مِنَ الْغَيْرِينَ) : أى قدر الله بقاءها فى العذاب مع الباقيين فيه ، والغاير : الباقي .
يقال : غَبِرَ الشيء ، يَغْبُرُ ، غُبُورًا : بقى .

التفسير

لما أنذر لوط - عليه السلام - قومه نقمة ربهم وعذابه على أفعالهم الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين سخروا وهزئوا به ، وأجمعوا أمرهم على إيذائه ، وإيذاء من معه بإخراجهم من وطنهم كما قال - تعالى - حكاية لما وقع من هؤلاء السفهاء :

٥٦ - (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ...) الآية .

أى : فما كان لهم جواب عن تحذيرهم مما هم فيه من القبائح إلا قولهم : أخرجوا لوطاً
ومن انتسبوا إليه ولاذوا به من المؤمنين - أخرجوهم (مِنْ قَرْيَتِكُمْ) وهى سدوم وما حولها
من القرى ^(١) وهى قرية من أرض العرب ، فكانوا يمرون عليها ، ويرون آثار العذاب الذى
نزل بها .

(١) هاجر لوط وعمره إبراهيم - عليها السلام - من أرض بابل فتزل إبراهيم فلسطين ، ونزل لوط الأردن . ١٠١ .
البحر المحيط لأبى حيان ، وذكر صاحب القاموس أن الصواب سدوم - بالذال المبعجمة - وذكر شارحه أنه مضبوط
بالوجهين وأن المشهور فيه إهمال الدال ، وصوبه شيخه فى شرح الدر .

ولم يَجِدْ هؤلاء المجرمون ما يتذرعون به لإخراج آل لوط من ديارهم إِلَّا قولهم : (إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) فهو تعليل لجريمة إخراجهم على وجه يتضمن الاستهزاء بهم كما قال ابن عباس ، أى : إنهم قوم يتنزهون ويتبرأون مما نأثيه ، ويعدون سفهاً وقذراً لا ينبغي اقترافه ، قال قتادة : عابوهم - والله - بغير عيب ، بأنهم يتطهرون ، وقيل : يتطهرون بمعنى يتكلفون الطهر من أفعالنا رياءً وتظاهراً فحسب .

ولتهوين أمر إخراجهم من القرية وما حولها أضافوها إليهم على طريق الخطاب للإشعار بأن لهم السلطان فيها والتصرف فى شأنها ، والتحكم فى أهلها من غير معارض يحول بينهم وبين ما يبتغون .

والظاهر أن هذا الجواب صدر عن قوم لوط بعد المرة الأخيرة من مرات مواعظ لوط - عليه السلام - التى أمرهم فيها بالطاعة ونهاهم بها عن المعصية ، لأنه لم يصدر عنه وعنهم كلام آخر غيره .

٥٧ - (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ) :

أى : فأنجينا لوطاً وأهله ، وهم ابنتاه ومن تبعه من المؤمنين ، وقيل : لم يكن معه إِلَّا ابنتاه ، كما قال تعالى : « فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » ^(١) . أما امرأته فكانت من الهالكين كما قال تعالى - : (إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ) أى : الباقين فى العذاب لكفرها ومولاتها لمن ضل وغوى ، كما قال - تعالى - : « فَانجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ » ^(٢) .

٥٨ - (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ) :

أى : وأمطر الله - سبحانه - على هؤلاء الفاسقين مطر عذاب ونقمة فكان سيئاً لم يعملوا له مثيلاً ، فهو من حجارة قوية صلبة متتابعة النزول معلمة بسيما تتميز بها عن حجارة الأرض ، كما قال - تعالى - : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ » ^(٣) .

(١) الآية ٣٦ من سورة الذاريات .

(٢) الآيتان : ١٧٠ ، ١٧١ من سورة الشعراء .

(٣) من الآيتين : ٨٢ ، ٨٣ من سورة هود .

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَيْرٌ
 أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ
 تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ
 الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ
 بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(الَّذِينَ اصْطَفَىٰ) : أى اختار لرسالته وهم الأنبياء - عليهم السلام -
 (حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) : أى بساتين ذات حُسن ، كل بستان عليه حائط ، مِنْ : أحاط
 بالشئ ، إذا أحاط به ، ثم توسع فيها فاستعملت في كل بستان وإن لم يكن محوطًا بحائط .
 (بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) : عن التوحيد إلى الشرك ، أو يساؤون بالله غيره من آلهتهم ،
 مِنْ : العِدْل بمعنى المثل والنظير . (وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا) : جبالًا ثوابت .
 (وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا) : أى مانعًا بين العذب والملح حتى لا يبغي أحدهما على الآخر .

التفسير

٥٩- (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) :

بعد ما قص - سبحانه - على نبيه ﷺ القصص الدالة على كمال قدرته ، وعظيم شأنه ، وما خص به رسله من الآيات الكبرى ، والمعجزات الباهرة ، أمره ﷺ بحمده - تعالى - على ما أفاض عليه من نعم عظيمة لا مطمح وراءها لطامح ؛ حيث علمه ما لم يعلم من أخبار أنبيائه السابقين مع أممهم واجتهادهم في الدين ، وقد بين على ألسنتهم صحة التوحيد

وبطلان الكفر والإشراك ، كما أمره أن يسلم على المختارين من عباده ، ويراد بهم كافة الأنبياء والمرسلين لدلالة المقام ولقوله - تعالى - في آية أخرى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » ^(١) ومن جملتهم الذين قص القرآن أخبارهم ، عرفاناً بفضلهم وأداءً لحق تقدمهم ، وقيل : هذا أمر له ﷺ بحمده - تعالى - على هلاك من هلك من كفره الأمم ، والسلام على الأنبياء وأتباعهم الذين اتقوا ربهم اقتداءً برسولهم فكانوا من الناجين . .

ويرى ابن عباس أن المراد من عباده المصطفين أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم لنبيه - رضى الله عنهم - أخرجه عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ والبزار وابن جرير وغيرهم .
والسلام على غير الأنبياء مما لا خلاف في جوازه إن كان تابعاً للأنبياء ، وقال الحنابلة وغيرهم بجوازه استقلالاً ، وهذا ظاهر قول ابن عباس .

وقال الزمخشري : أمر رسول الله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين الدالة على وحدانيته - تعالى - وكمال قدرته ، وأن يستفتح بحمده والتسليم على أنبيائه والمصطفين من عباده ، وفيه تعليم حسن لكل متكلم في أمر ذي بال أن يتبرك بهما وأن يستظهر بمكانهما على قبول ما يلقي إلى السامعين ، وتوقيف على أدب جميل يحمل على التواضع والإخلاص ، ولقد توارث العلماء والخطباء كابراً عن كابر ، هذه السنة الحميدة اقتداءً برسول الله ﷺ انتهى باختصار .

(٤٢) آله خيرٌ (٢) : إنكار على المشركين وتوبيخ لهم أن يعبدوا غير الله .
أى : أيهما خير ؟ الله الذى ذكرت شئونه العظيمة أم الذى يشركونه به من الأصنام ؟
ومرجع ترديد السؤال بينهما فى الخيرية إلى التعريض بتبكييت الكفرة من جهته تعالى ، وتسفيه آرائهم والتهكم بهم ، وذلك لأنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله ، ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لداع يدعو إلى إثاره من زيادة خير ومنفعة .

(١) الآية ١٨١ من سورة الصافات .

(٢) قال أبو حيان : « كثير ما يحى هذا النوع من أفل التفضيل (خير) حيث يعلم ويتحقق أنه لا شريك هناك وإنما يذكر على سبيل إلزام الخصم وتنبيه على الخطأ ، ويقصد بالاستفهام فى مثل ذلك إلزامه الإقرار بمصر التفضيل فى جانب واحد وانتفائه عن الآخر » انتهى : من تفسير الألوسى .

ومن البين أنه ليس فيما أشركوه به - تعالى - شائبة خير حتى يوازن بينه وبين من لا خير إلا خيره، ومع علمهم بذلك فقد دفعهم الجهل المفرط إلى إثارة هوى وعبثاً وإمعاناً في الخطأ والضلال .

٦٠ - (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ...) الآية .

عدد الله - سبحانه - هذه الآية والآيات الأربع التالية الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله ، وأشار بها إلى أدلة انفراده - سبحانه - بالخلق والرزق والتصرف والتدبير وبكل خواص الألوهية إبرازاً لكمال قدرته ، حيث قال - سبحانه - : (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) إضراب انتقالاً عن سؤالهم سؤال تقرير عن هو خير ، أهو الله القادر أم آلهتهم المزعومة ، إلى إثبات الخيرية لله وحده ، أى : بل من قدر على خلق السموات والأرض خير من جماد لا يقدر على شيء ، ولا خير فيه أصلاً يرجع إلى إرادته .

(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) : خطاب للكفرة لتشديد التبكيت لهم والإلزام ، أى : أنزل - سبحانه - لأجلكم من السماء نوعاً من الماء وهو المطر ، جعل فيه حياتكم وحياة أرضكم وزروعكم ودوابكم ، كما جعل مما ينبت به ما يكون متاعاً لأنفسكم ، وراحة لقلوبكم ، وزينة لأبصاركم فأنبت به - بعظيم قدرته وعجيب صنعه - بساتين ذات حسن ورونق جميل يبتهج بها الناظر إليها ، ويسر بمختلف ألوانها وأشكالها وروائحها ، وطعومها ، مع أنها تسقى بماء واحد ، مما لا يقدر عليه إلا من تفرد بالخلق والإبداع جل وعلا ، ويشير إلى ذلك قوله - تعالى - : (مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا) أى : ما أمكنكم ، وما استطعتم - مهما بذلتم من جهد وأوتيتم من فكر - إنبات شجرها ، فضلاً عن ثمرها ، وسائر صفاتها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بالملك المتفرد به دون سواه ، والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله : (فَأَنْبَتْنَا) لتأكيد اختصاص الفضل بذاته - تعالى - وعجز قوى البشر عن مثله .

(أَلَيْهَ مَعِ اللَّهِ) : أى إليه آخر مع الله في خواص الألوهية التي لا يقدر غيره عليها حتى يتوهم جعله شريكاً له في العبادة ، وهذا تبكيت لهم على اتخاذهم آلهة عاجزة مع الله صاحب القوى والقدر التي لا تتناهى .

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) : انتقال من تبيكيتهم بطريق الخطاب إلى تبيكيتهم بطريق الغيبة لبيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم ؛ ليعرف أنهم قوم عادتهم الانحراف عن الحق ، والعدول عن الاستقامة في كل أمر من الأمور ، حتى كان من شأنهم ترك التوحيد وهو الحق الواضح ، والعكوف على الباطل الظاهر وهو الإشراك بالله سبحانه .

٦١ - (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَابِي) الآية .

انتقال من تبيكيت المشركين بآية من آيات قدرته إلى تبيكيتهم بآية أخرى من آياتها العظيمة حيث بسط الأرض وسواها ؛ ليتسنى للإنسان والحيوان الاستقرار عليها ، وارتداد أماكنها ، وجعل خلالها وفي أوساطها أنهاراً جارية ينتفع بها كل قاطن فيها في شئون حياتهم ، وأقام عليها جبالاً ثوابت تمنعها من أن تضطرب بأهلها ، فيختل توازنها ويكون سبباً في فناء من عليها ، كما أن لتلك الجبال فوائدها العديدة ومنافعها الكثيرة .

وجعل - سبحانه - بقدرته مانعاً بين الماء العذب والملح حتى لا يبغي أحدهما على الآخر . قال ابن عباس : جعل بينهما سلطاناً من قدرته ، فلا هذا يغير ذاك ، ولا ذاك يغير هذا ^(١) .

(إِنْ لَّهُ مَعَ اللَّهِ) : أى ليس هناك إله مع الله فهو المختص وحده بالإيجاد والإتيان لهذه البدائع التى أوجدها وهى من لوازم الألوهية التى لا يقدر عليها سواه .

وإذ ثبت أن ذلك ليس فى مقدور آلهتهم ، فلماذا يشركونها به فى العبادة ؟ وهى عاجزة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ؟ إن صنيعهم هذا عناد وحقاقة ؛ لأن أكثرهم يجهلون الحق مع وضوح آياته ، ولو علموه لتبين لهم بما لا يدع مجالا للشك بطلان ما هم عليه من الشرك ، أو أن أكثرهم لا يعلمون شيئا من الأشياء معتدًا به فهم لذلك لا يعلمون ما يتحتم عليهم معرفته من العلم الحق الذى يوجب عليهم إخلاص عبوديتهم له - سبحانه - وحده .

(١) راجع ما كتبناه تفصيلا على ذلك فى قوله - تعالى - فى سورة الفرقان : « وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » ٥٣

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدُوَا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ) : المضطر ؛ هو ذو الحاجة المجهود .
 (وَيَكْشِفُ السُّوءَ) : أى يرفع عنه الظلم والضرر . (خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) : هم الذين يرثون
 سكنائها والتصرف فيها . (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) : أى يرشدكم بالنجوم
 ونحوها من العلامات . (بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) : أى مبشرات قدام المطر بنزوله .
 (تَعَالَى اللَّهُ) : أى تنزهه عن شركائهم .
 (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) : أى حججتكم على أن له شريكاً .

التفسير

٦٢ - (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ...) الآية .
 يقرر الله المشركين بذلك على أنه هو المدعو منهم عند الشدائد المرجو عند النوازل ،
 وأنه يجيب دعوة المضطر ؛ لما عرفوه من أنه - سبحانه - يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف
 عنه السوء ، ويوبخهم به على أنهم فى حالة رخائهم وزوال الضرورة عنهم يعودون إلى شركهم .
 وكما يجيب - سبحانه - وتعالى - دعاء المضطر إذا دعاه ، فإنه وحده يدفع عنهم ما يعترهم
 من مكاره وما يتنزل بهم من خطوب ، ويجعلهم خلفاء الأرض لمن سبقهم يتوارثون سكنائها

وينعمون بخيراتها ، والتصرف فيها قومًا بعد قوم ، وجيلًا بعد جيل ، ولو أبقى الله الناس جميعًا ولم يجعل بعضهم خلفاء بعض فإن الأرض تضيق بالخلائق ويحصل لهم فيها من المشقة والعتى ما لا قبل لهم باحتماله .

ثم وبخهم على شركهم بقوله - سبحانه - : (أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) فإذا لم يكن معه إله في تلك النعم فلماذا أعرضتم عنه - تعالى - بعد كل ذلك وعبدتم غيره وأنتم تعلمون أنه ليس هناك إله غير الله الخالق المنعم ، قلما تتعظون لقلة تذكركم هذه النعم المذكورة في الرخاء ، قلة تصل إلى العدم وتجري مجراه في عدم الجدوى ، فلو ذكرتموها في الرخاء لاهتديتم لأنهم من الوضوح والظهور بحيث لا يتوقف تذكروها إلا على التوجه إليها ليعلم أنها من خصائص الألوهية التي لا يقدر على الانصاف بها سواه .

٦٣ - (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) :

أى : إن الله وحده هو الذى يرشدكم إلى الطريق فى ظلمات البر والبحر إذا سافرتم ليلاً حيث جعل لكم النجوم وعلامات الأرض لتتهدوا بها ليلاً ، وهذاكم إلى علامات بالأرض إذا اشتبه عليكم الطريق ، كما قال تعالى : « وَعَلَّمَتْ وَيَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » ^(١) .

ويجوز أن يراد من ظلمات البر والبحر ما يحدث فيها من التباس السبيل على المسافرين ليلاً أو نهاراً ، بأن تجعل مفاوز الأرض التي لا أعلام لها ، ولجج البحار كأنها ظلمات الليل ، لأنها تشبهها في إيجاد الحيرة والتردد لعدم وجود ما يهتدى به فى أرجائها .

(وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :
أى : أنه - سبحانه - هو الذى يبعث لكم الرياح أمام السحب الممطرة مبشرات بنزول المطر رحمة منه بعباده ليغيثهم به من الجفاف والجذب ، وذلك بإروائهم ، وإحياء الأرض بعد موتها بمائها لتنبت من كل زوج بهيج ، كما قال - سبحانه - : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » ^(٢) .

(٢) من الآية ٥ من سورة الحج .

(١) الآية ١٦ من سورة النحل .

وليس مع الله إله يصنع ذلك ، فقد تنزه عن الشريك والنظير بذاته المتفردة بكل خواص الألوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال والجلال ، المقتضية لكون المخلوقات جميعها مقهورة تحت سلطانه ، وفي ذلك ما فيه من التحقيق والتقرير وقوة الاستدلال على نفي أن يكون معه - سبحانه - إله آخر .

٦٤ - (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ . . .) الآية .

كان هؤلاء المشركون يقولون أنه - سبحانه - يبدأ الخلق ويتكفل بالرزق ، وينكرون مع ذلك البعث بعد الموت ، فالأزمهم - تعالت أسماؤه - الإقرار بالبعث الذي ينكرونه ؛ لأنه من قدر على الفعل بدءًا كانت الإعادة عليه أهون ، أي : لا أحد سواه يقدر على أن يبدأ الخلق من عدم ثم يعيده بالبعث ، وخطب به المشركون مع إنكارهم للبعث ؛ لأنه لما وضحت براهينه وتمكنوا من إدراكها جعلوا كأنهم معترفون بوقوعه فلم يبق لهم عذر في الإنكار .

(وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلُوبٌ بُرْهَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) : وهو - سبحانه - القادر وحده على أن يرزقكم من السماء والأرض بأسباب سماوية وأرضية رتبها وفق ما اقتضته حكمته مما يدل على أنه ليس هناك - كما يزعمون - إله آخر موجود مع الله يقدر على فعل شيء يذكر .

فإن تمسك أولئك المشركون بعد هذا بدعواهم فقل لهم - أيها النبي موبخًا لهم ومنكرًا عليهم - : أقيموا لنا برهانًا عقليًا أو نقليًا على صحة ما تدعون إن كنتم صادقين ، ولن يتأتى لهم الإتيان به مهما حاولوا ، كما قال تعالى : « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ » (١) .

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلْ أَدَارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(الْغَيْبَ) : كل ما غاب عنك ، وجمعه : غيوب .
 (وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) : أى لا يعلمون الوقت الذى فيه يبعثون ، يقال : شعر بالشيء من بابي : نصّر وكرّم ، شعراً مثله ، وشعوراً : علم به وفطن له .
 (أَدَارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ) : أى تتابع علمهم بها عن طريق الأدلة ، وقيل : معناه اضطلع علمهم بالآخرة ، من التدارك وهو التتابع فى الفناء . (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا) : أى فى تردد من تحقق الآخرة نفسها . (بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ) : أى لا يدركون دلائلها مع وضوحها ، كأنهم فقدوا أبصارهم ، ومفرده : عم .

التفسير

٦٥ - (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) :
 بعد أن أثبت الله تفرد - سبحانه - بالألوهية ، وبين الأدلة الواضحة التى تفيد اختصاصه بالقدرة الكاملة ، والحكمة التامة فى الخلق والتكوين ، وإسداء النعم الجزيلة منه وتفضلاً على عباده عقبه بذكر ما لا ينفك عن أن يكون من شأنه وحده ، وهو اختصاصه بعلم الغيب تكميلاً لما قبله مما انفرد به ، وتمهيداً لما بعده من أمر البعث .
 وقيل : إن هذه الآية نزلت لما سأل الكفار الرسول ﷺ عن وقت الساعة التى وعدوها وألحوا عليه - كما فى البحر - .

(١) لفظ : (إلا) فى قوله : (إلا الله) بمعنى (لكن) أى : لكن الله يعلم الغيب دون من فى السموات والأرض .

والمعنى : قل لهم - أيها النبي - : لا يعلم أحد ممن في السموات والأرض الغيب إلا الله فهو وحده الذي ثبت له علم الغيب على جهة اللزوم والاختصاص ، وانتفى عن سواه حتى الأنبياء .

ويؤيد ذلك ما أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي وأحمد وجماعة من المحدثين من حديث مسروق عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : من زعم أن محمداً ﷺ يخبر الناس بما يكون في غد ، وفي بعض الروايات : يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول : (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ . . .) الآية .

وعلم الغيب المنفى عن غيره - جل وعلا - هو ما كان للشخص لذاته في ثبوته له ، وهذا مما لا يعقل كونه لأحد من أهل السموات والأرض ، وما وقع لبعض الخواص من الإخبار ببعض الغيب فلا يقال : إنهم علموه بقدراتهم الذاتية ، ومن قال ذلك كفر قطعاً ، وإنما يقال : أظهروا على الغيب وأطلعوا عليه ، ويؤيده أن نسبة علم الغيب إلى غيره - تعالى - لم تجيء في القرآن الكريم ، وإنما جاء الإظهار على الغيب لمن ارتضى - سبحانه - من رسول كما قال تعالى : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ » (١) .

أما ظن الغيب بآمارات فهو ممكن لعباده فلا يُكْفَرُ وَلَا يُفْسَقُ مدعيه ، كما يحصل من علماء الفلك من الراصدين لحركات الرياح والشمس والقمر والكواكب ، حين يخبرون بهبوب الرياح شديدة أو معتدلة ، وبكسوف الشمس ، وخسوف القمر ، وبنزول المطر وارتفاع درجة الحرارة أو اعتدالها أو نحو ذلك ، فيقع الأمر كما قالوا ، فليس ذلك من علم الغيب المنفى ؛ لكونه بأسباب وآمارات ، فهو في واقعه ليس علماً حقيقياً بما سيحدث وإنما هو ظن وتخمين بآمارات اقتضته ، وقد تتخلف .

أما العراف الذي يتحدث عن المستقبل ادعاءً بأنه على علم بالغيب كقوله لمن يستخبره عن مستقبله : ستكسب مبلغ كذا ، أو ستتزوج فلانة ، أو تفقد كذا في سفر ، أو نحو ذلك فهو كافر - كما قال القرطبي - .

(١) الآية : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن .

والمؤمنون منهيون عن إتيان العرافين ، فقد جاء في صحيح مسلم : « من أتى عَرَّافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » .

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) : أى وما يعلم كل من في السموات والأرض أى وقت يبعثون فيه بعد موتهم ؛ لأن وقت البعث والنشور من جملة الغيب الذى اختص الله - سبحانه - بعلمه ، فلا يحق لهؤلاء المشركين أن يطالبوا نبيهم ﷺ من آن لآخر ببيان وقته بمثل قولهم : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » ^(١) كما لا يحق لهم أن يستنكروه بمثل قولهم : « أَلِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » ^(٢) .

٦٦- (بَلْ أَدَارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ) :

بين الله في الآية السابقة أن الغيب مما استأثر الله - تعالى - بعلمه ، وفي جملته وقت البعث بعد الموت ، فإنه من الغيوب التى اختص بعلمها العليم الخبير .

وجاءت هذه الآية لتبين أن المشركين وإن لم يؤمنوا بالبعث للحساب والجزاء ، فقد تدارك علمهم بأن لهم آخرة ينتهون إليها ، وتتابع وعيهم بأنهم يبعثون على لسان الصادق المصدوق المؤيد بالمعجزات ﷺ ودلت الأمارات على إمكانه ، فإنه من قدر على البدء فهو قادر على الإعادة من باب أولى ، كما شهد العقل بمجيئه ولا بد ، فإنه لا يعقل أن تزول الحياة الدنيا ولا تعقبها آخرة يجزى فيها المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته ، فإن عدالة الله تأنى ذلك .

فهؤلاء المشركون تدارك علمهم وتتابع على هذا النحو ، وكان عليهم أن يؤمنوا بها ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل هم في شك من مجيئها ، مترددون في أمرها ، بل هم من ناحيتها عُمى عن أدلتها ، وكان عليهم أن يطمئنوا إلى مجيئها بقيام الأدلة عليها ، وأن يعملوا لها .

ومن المفسرين من فسر تَدَارَكَ عَلَيْهِم بِالْآخِرَةِ بفناء علمهم بها ، كما يقال : تدارك بنو فلان : إذا تتابعوا في الهلاك ، وعلى هذا يكون معنى الآية : بل فى علمهم بشئون الآخرة ، مع توافر أسبابه ودواعيه بقيام الأدلة الواضحة على مجيئها ، قال صاحب القاموس : بل ادرك علمهم فى الآخرة : جهلوا علمها ولا علم لهم بشيء من أمرها . ١ هـ

ولهذا ختم الله الآية بقوله : « بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ » حيث قصروا تقصيراً فاحشاً بتركهم النظر في أماراتها وتعاميهم عن أدلتها ، مع أنها لاتخفى على ذوى البصائر وأولى الأبواب .
وحاصل معنى الآية : أن علمهم بشئون الآخرة ومنها البعث انقطع وانتهى في الدنيا ، حتى لم يبق لهم علم بشيء من شئونها ، مع توافر الأسباب الواضحة للدلالة عليها .

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا أَنِنَّا
لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَّءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا
إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ
مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(أَنِنَّا لَمُخْرَجُونَ) : إنكار لإخراجهم من قبورهم أحياء .
(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أى أباطيل الذين سبقوهم ، وهى جمع إسطار - بكسر الهمزة -
وأسطورة - بضمها .
(وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) : أى لا يكن صدرك ضيقاً بمكرهم .

التفسير

٦٧ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا أَنِنَّا لَمُخْرَجُونَ) :
بيان لجهل الكافرين بالآخرة وعمّاهم عنها بحكاية إنكارهم للبعث ، والمراد بهم : مشركو
قريش فقد أنكروا إخراجهم من قبورهم أحياء إنكاراً شديداً متكرراً مبالغاً فيه .
وتقبيد الإخراج بوقت كونهم تراباً ليس لتخصيص الإنكار الواقع منهم بالإخراج فى
هذا الوقت فقط ، فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت مطلقاً ، وإن كان الجسد على حاله ،

وإنما ذكر لتقوية الإنكار بتوجيهه إلى الإخراج في حالة منافية له في زعمهم ، وهى كونهم تراباً ، وكما أنكروا إخراجهم فقد أنكروا كذلك إخراج آبائهم .

٦٨ - (لَقَدْ وَعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

استثناف مسوق لتقرير الإنكار ، وصُدِّرَ بالقسم لزيادة التأكيد ، أى : والله لقد وعدنا هذا الإخراج نحن وآباؤنا من قبل أن يعدنا به محمد ولم نر له حقيقة ولم نعلم له وقوعاً فيما مضى ، ذلك لأن هذا الوعد ما هو إلا أباطيل الأولين حكاهما محمد عنهم ، وليس له حقيقة ، وقد رد الله عليهم بقوله :

٦٩ - (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) :

أى : قل - يا محمد - لهؤلاء المكذبين : سيروا في الأرض فانظروا بِإِمْعَانٍ وتفكروا كيف كان عاقبة المكذبين للرسول - عليهم السلام - فيما جاءوا به من الإيمان بالله وحده ، وبالمعاد الذى تنكرونه ، فإن مشاهدة عاقبتهم ، وآثار ما حل بهم من العذاب والتكال للذين لم يَنْجِ منهما سوى الرسل - عليهم السلام - ومن اتبعهم من المؤمنين يكفى أن يكون عظة وعبرة للنوى البصائر وأولى الألباب ، ودلالة واضحة على صدق ما جاءت به الرسل وصحته ، وفيه تهديد لهم على التكذيب ، وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم .

٧٠ - (وَلَا تَخْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) :

تسلية للرسول ﷺ أى : ولا تأسف على المكذبين لإصرارهم على الكفر ، وتذهب نفسك عليهم حسرات ، ويكون صدرك حرجاً من كيدهم وإنكارهم ما جئت به فإن الله مؤيدك وناصرك عليهم ، ومظهر دينك في المشارق والمغارب على من خالفه وعانده : « وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ »^(١) .

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنْ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾)

المفردات :

(رَدِفَ لَكُمْ) : أى لحق بكم ، ويتعدى بنفسه وباللام .
 (مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ) : أى ما تخفيه من الأسرار ، تقول : أكننت الشيء إذا أخفيته في نفسك .
 (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ) : الغائبة ؛ جميع ما أخفاه الله وغيبه عن خلقه . وتاؤه للمبالغة في الغيبوبة ، كراوية .
 (إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) : المراد به ؛ اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد ، وهو بَيِّنٌ واضح ، أو مُبَيِّنٌ ما فيه لمن يشاء من ملائكته :

التفسير

٧١- (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) :

يسأل الكفار عن وقت العذاب العاجل الموعود به ، سخرية به ، وإنكاراً له قائلين : متى يحين وقت العذاب الذى وعدتم بأن ينزل بنا إن كنتم صادقين فى إخباركم بأنه آت إلينا ، وواقع علينا ؟ فهموا الوعد بالعذاب من أمرهم بالسير والنظر فى عاقبة أمثالهم المكذابين والجمع فى قوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) باعتبار شركة المؤمنين للرسول فى الإخبار بذلك .

٧٢- (قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ) :

أى : قل لهم- أيها النبي - : عسى أن يكون قد اقترب منكم بعض الذى تستعجلون حلوله ، وتطلبون وقوعه من العذاب ، وكان ذلك عذاب بدر ، أو عذاب القبر ، وهذا المعنى قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك .

وعسى هنا لتحقيق الوقوع لما وعدوا به .

قال الزمخشري : إن عسى ولعل وسوف فى وعد الملوك ووعيدهم تدل على صدق الأمر وجده وأنه لا مجال للشك فيه ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ، وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم بأن عدوهم لا يفوتهم ، فعلى ذلك جرى وعد الله تعالى ووعيده .

وقيل : إن عسى على معناها ، والترجى المقهوم منها قيل : راجع للعباد .

٧٣- (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) :

أى : وإن ربك - جل شأنه - لذو إنعام كثير فاضل على كافة الناس مع ظلمهم لأنفسهم ، ومن جملة ذلك ترك المعالجة بالعذاب لهؤلاء المكذبين مع ما يقترفونه من ذنوب وآثام ، وكان على المنعم عليهم أن يقوموا جميعاً بشكر ربهم على تفضله عليهم ، ولكن أكثرهم أعرضوا عما يطلب منهم من شكر وعرفان جحداً لفضل خالقهم الذى أسداه إليهم ، ومنهم أولئك المستعجلون للعذاب .

٧٤- (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) :

أى : وإن ربك - جل شأنه - ليعلم ما تخفى صدورهم من الأسرار ومنها عداوتك ، ويعلم ما يظهرون من القول بلا تفرقة بينهما فى إحاطة علمه بهما كما قال تعالى : « سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » (١) .

فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم عليه تعالى ، وإنما لأن له وقتاً محدداً لا يتعداه بتقديره - جل شأنه - وعلم الله بما تخفيه صدورهم ، وبما تظهره أقوالهم ، فيه إيدان بأن لهم قبائح غير ما حكى عنهم .

٧٥- (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) :

أى : وما من خصلة شديدة الغيبوبة في السماء والأرض إلا علمها الله ، وأحاط بها ، وأثبتها عنده في أم الكتاب ، ذلك الكتاب الواضح البين في نفسه المبين ما فيه لكل من يطالعه وينظر فيه من الملائكة - عليهم السلام - وهو اللوح المحفوظ ، وقيل : المراد به علم الله تعالى - فهو المبين لكل معلوم ، وقيل : المراد به القرآن الكريم ، فقد أشار إلى كل غائبة في السموات والأرض ، وبين دلالتها على خالقها - سبحانه وتعالى - .

(إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۖ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۖ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۚ وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعَعْمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)

المفردات :

(عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ) : المراد بهم ، اليهود والنصارى ، وإسرائيل : يعقوب - عليه السلام - .

(عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) : الواضح البين ، أو الفاصل بين الحق والباطل .

(وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ) : أى ولا تسمع من بطل سمعه وذهب لسبب من الأسباب ، وفعله من

باب علم . فالذكر أصم ، والأنثى صماء ، والجمع صُمٌ ، مثل أحمر وحمراء وخُمُر ، ويتعدى بالهمزة فيقال : أصمه الله .

(يَهْدِي الْعُمَى عَنْ ضَلَلَتِهِمْ) : أى عن كفرهم ، يقال : ضل يضل ضلالاً وضلالة : مال عن الطريق فلم يهتد .

التفسير

٧٦- (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

لما ذكر - سبحانه - ما يتعلق ببده الخلق ، وإعادة المخلوقات بعد الموت بالبعث ، ذكر ما يتعلق بالنبوة ، ولكون القرآن الكريم أعظم ما ثبت به نبوة نبينا محمد ﷺ أنزل فيه - سبحانه - ما يقص به على بنى إسرائيل - اليهود والنصارى - أكثر ما اختلفوا فيه ، بإظهار حقيقة أمره فى وضوح وجلال ، مما يدعوهم إلى الإسلام لو تأملوا وأنصفوا ، وأعلنوا به ، ولكنهم أعرضوا وكابروا مثلكم أيها المشركون . وتحزبوا أحزاباً كثيرة ، ولعن بعضهم بعضاً ، ووقع بينهم الجدل والتناكر .

ومن جملة ما اختلفوا فيه اختلافاً كثيراً أمر عيسى - عليه السلام - فاليهود افتروا ونسبوا إلى مريم ما هى منزهة عنه ، وكذبوا عيسى - عليه السلام - والنصارى تغالوا ، فمن قائل : بأنه إله ، ومن قائل : بأنه ابن الله ، ومن قائل : بأنه ثالث ثلاثة إلى غير ذلك . كما اختلفوا فى أمر النبي المبعث به ، فمن قائل : هو يوشع ، ومن قائل : هو عيسى ، ومن قائل : إنه لم يأت إلى الآن ، وسيأتى آخر الزمان ، كما اختلفوا فى شأن الخنزير ، فقال اليهود بحرمة أكله ، وقالت النصارى بحله ، إلى غير ذلك من أمور .

فجاء القرآن بالقول الوسط ، قول الحق والعدل ، حيث بين أن عيسى عبد من عباد الله وأنبيائه ، ورسله الكرام كما قال تعالى حكاية عنه : « قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا »^(١) . وبين أن النبي المبعث به هو محمد ﷺ وأن أكل لحم الخنزير حرام .

وبين كذلك أكثر الأمور التى وقع بينهم الخلاف فيها بياناً شافياً يقطع كل ريبه وخلاف ، فكان هدى ورحمة لمن أقبل عليه كما قال تعالى :

٧٧- (وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) :

أى : وإن هذا القرآن لهدى ورحمة لمن أنصف من اليهود والنصارى ، فآمن به ، واهتدى بهديه ، واتبع سبيله ، أو هو هدى ورحمة لكل من آمن به على الإطلاق ، ويدخل فيهم من آمن من اليهود والنصارى دخولاً أولاً .

وخص - سبحانه - المؤمنين بالذكر ، مع أنه هدى ورحمة للعالمين ؛ لأنهم المنتفعون به ، أو المراد بهم المستعدون للإيمان بفطرتهم النظيفة .

٧٨- (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) :

أى : إن ربك - سبحانه - يقضى فى الآخرة بين اليهود والنصارى ، فيجازى بحكمه المحق الذى آمن بالقرآن ، والمبطل الذى كفر به ، ويراد بالحكم ما يحكم به ، وهو الحق والعدل ، ولا يقضى - سبحانه - إلا به فسمى المحكوم به حكماً .

أو يحكم بينهم بحكمته بوضع الأمور فى نصابها ، وإعطائها ما تستحق من جزاء ، ويدل على هذا الوجه قراءة من قرأ « بِحُكْمِهِ » جمع حِكْمَةٍ ، كنعم جمع نعمة .

وقيل : يقضى بينهم فى الدنيا بإظهار ما حرفوه ، وبيان الحق فيما اختلفوا فيه وهو سبحانه « الْعَزِيزُ » أى : الغالب الذى لا يُرد أمره ، ولا يُعارض قضاؤه « الْعَلِيمُ » بكل شئ من الأشياء لا تخفى عليه خافية ، أو هو العزيز فى انتقامه من المبطلين : العلم بما بينهم وبين المحققين .

٧٩- (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) :

أمر الرسول ﷺ بالتوكل عليه - جل شأنه - مرتباً على ما ذكر من شئونه - تعالى - فإنها موجبة للتوكل عليه وداعية إلى الإنابة إليه ، أى : فتوكل على الله الذى عصمك من كيد الكائدين ، وأمدك بتأييده ونصرته على أعدائك ، وإن خالفك من خالفك من كبت عليهم الشقاوة ، وحققت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ؛ لأنك على الحق البين ، وهو الدين القيم الذى تنزه عن كل شك أو شبهة . وفى ذلك بيان بأن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله وبنصرته لا محالة .

٨٠- (إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) :

أى : إنك - أيها النبي - لا تستطيع هداية هؤلاء الكافرين إلى شيء ينفعهم لأنهم كالموتى ، حيث إنهم فقدوا الحس والعقل والإدراك فلا يعنون شيئاً مما يسمعون ، ولا ينتفعون بما يتلى عليهم من القوارع والزواجر ، شأنهم في ذلك وهم أحياء شأن الموتى في القبور الذين يستحيل عليك إسماعهم^(١) أى شيء ينفعهم ، وذلك موجب لقطع الطمع في هدايتهم ، وداع إلى تفويض الأمر إلى الله والتوكل عليه .

وهم كالصم الذين فقدوا أداة السمع يصيح بهم الداعي إلى الحق فلا يسمعون النداء مع أنهم صحاح الحواس ، ذلك لأن شأن الأصم عدم السماع ولو كان الداعي أمامه وبمقابلة صماخه فكيف يكون حال هؤلاء الصم إذا ابتعدوا عن الداعي وتولوا عنه مدبرين ؟ لا شك أن عدم سماعهم للنداء يكون أشد وأقوى ، فإنهم مع صممهم معرضون عن الداعي ، وفي ذلك من التأكيد والمبالغة في عدم السماع لدعوة الحق ما فيه مما لا يخفى ، وإطلاق الإسماع بعدم ذكر المسموع لبيان عدم سماعهم لشيء من المسموعات .

٨١- (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ) :

أى : ليس في وسعك خلق الإيمان في قلوبهم ، وصرفهم عما هم فيه ، وهدايتهم هداية موصلة إلى المطلوب ؛ لأنهم كالعمى يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ويجعلهم مهديين بصراء إلا الله تعالى .

(إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) أى : ما يجدى إسماعك إلا من علم الله أنهم يؤمنون بآياته ويصدقون بها ، وهم الذين ليسوا موتى ولا صمًا ولا عميًا .

(١) قد احتجت عائشة - رضى الله عنها - بهذه الآية في إنكارها أن النبي ﷺ أسمع موتى بدر ، فنظرت إلى الأمر بقياس عقل ووقفت مع هذه الآية .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : ما أنتم بأسمع منهم . قال ابن عطية : فيشبه أن قصة بدر خرقه عادة لمحمد ﷺ في أن الله رد إليهم إدراكا سمعوا به مقالته ، ولولا إخبار الرسول ﷺ بسماعهم لحملنا نداه إياهم على معنى التوبيخ لمن بق من الكفرة وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين . اهـ من تفسير القرطبي . ومن أراد الاستزادة فليرجع إليه وإلى غيره في تفسير هذه الآية ، والآية ٥٢ من سورة الروم .

وجوز أن يراد بالآيات المعجزات التي أظهرها الله - تعالى - على يديه ﷺ الشاملة للآيات التنزيلية والتكوينية، وأن يراد بها الآيات التكوينية فقط، والإيمان بها: التصديق بكونها آيات الله - تعالى - وليست من السحر وغيره .

(فَهُمْ مُّسْلِمُونَ): تعليل لإيمانهم بالآيات، أى: فإنهم مطيعون منقادون إلى الحق بسلوك طريقه السوى وفق إرشاد آياته .

وقيل: فهم مخلصون لله - تعالى - من: الإسلام بمعنى الإخلاص، كقوله تعالى: «بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ» ^(١) أى: أخلص .

* (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَخَشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ وَقَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسِكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾)

المفردات :

(وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ): قرب وقوع ما وعدوا به من العذاب بعد البعث .
(دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ): هى دابة كبيرة يخرجها الله قرب قيام الساعة تكلم الناس

- من الكلام - وقرأ الكوفيون : « تَكَلِّمُهُمْ » - بفتح التاء وسكون الكاف وكسر اللام - من : الكلم وهو الجرح ، وسيأتى بيان ذلك فى الشرح . (فَوْجًا) أى : جماعة .
(مِمَّنْ يُكَذِّبُ بَيِّنَاتِنَا) المراد بالآيات : إما القرآن ، أو ما يعنه وسائر الآيات ، مما أقامه الله فى الأنفس والآفاق .

(فَهُمْ يُوزَعُونَ) أى : فهم يحبس أولهم على آخرهم ويكفون ، لينتلاقوا ، يقال : وزعه ، أى : كفه ، وهو من باب وَضَعَ يَضَعُ ، وفسره ابن عباس بقوله : فهم يدفعون ، وفسره ابن زيد بقوله : فهم يساقون ، وهى معان متقاربة .
(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا) أى : حل بهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم .

التفسير

٨٢- (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) :

بين الله فى الآيات السابقة إنكار قريش للبعث بقولهم : « مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » ^(١) وذكر أنه - تعالى - سوف يقضى بينهم بحكمه ، وسلى نبيه عن تكذيبهم إياه ، بأنه ~~لَا يُسْمَعُ~~ لا يسمع الموتى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وأنه لا يهدى هؤلاء العمى عن ضلالتهم ، وجاءت هذه الآية والآيات التى بعدها لتأكيد مجىء الساعة وقضاء الله عليهم بما يستحقون من العذاب الهون .

والمزاد بوقوع القول عليهم : قرب نزول العذاب الموعود بهم فى نحو قوله تعالى : « وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » ^(٢) وذلك عندما يصير الناس إلى حد لا تقبل توبتهم ، ولا يولد لهم ولد مؤمن ، فحينئذ تقوم الساعة - كما ذكره الإمام القشيري - وفى معناه ما روى عن حفصة بنت سيرين أنها قالت : سألت أبا العالية عن قول الله تعالى : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ . . . الآية ، فقال : أوحى الله إلى نوح أنه : « لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » قالت حفصة : وكأنا كان على وجهى غطاء فكشف ،

(١) من الآية ٧١

(٢) سورة السجدة : ١٣

قال النحاس : وهذا من حسن الجواب ، لأن الناس ممتحنون ومؤخرون ، لأن فيهم مؤمنين وصالحين ومن قد علم الله أنه سيؤمن ويتوب ، فلهذا أمهلوا . . ثم قال : فإذا زال هذا وجب القول عليهم فصاروا كقوم نوح ، حين قال الله تعالى : « وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ »^(١) انتهى كلامه .

والدليل على أن ذلك يكون قرب قيام الساعة : أن الآية ختمت بقوله تعالى : « أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » وتلاها قوله تعالى : « وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا . فَهُمْ يُوزَعُونَ » كما يدل عليه ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض »^(٢) .

والدابة : اسم للحيوان الذي يدب ويتحرك . . والكلام : ما يحصل به التخاطب والتفاهم ، فماذا عسى أن تكون هذه الدابة التي تكلم الناس بما يفهمونه منها ، ويكون ظهورها من علامات الساعة الكبرى ؟ لابد أن تكون دابة عظيمة في جسمها وفي تكوينها وفيما يصدر عنها ؛ لتكون آية مقارنة لطلوع الشمس من مغربها ، كما جاء في صحيح مسلم^(٣) بسنده عن عبد الله بن عمر أنه قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً » .

ويقول السدي في كلام الدابة : إنها تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام ، وقيل : تكلمهم بما يسوءهم .

وقال عطاء الخراساني : تكلمهم فتقول : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون .

قال القرطبي - شارحاً لهذا القول - : تكلمهم بلسان ذلق فتقول بصوت يسمعه من قرب ومن بعد : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، أي : بخروجي ، لأن خروجها من الآيات .

(١) سورة هود : ٢٦

(٢) ذكره القرطبي في تفسير الآية .

(٣) كتاب الفتن فيه .

أما على قراءة تَكَلِّمُهُمْ فهي من : الكَلَمُ بمعنى الجَرْح ، ولا منافاة بينها وبين قراءة جمهور القراء ، فإنها تَكَلِّمُهُمْ بما يسوؤهم ويجرحهم ، لانغماس معظم الناس في الضلال في آخر الزمان .

وقد جاء في وصف هذه الدابة آثار متباينة ، فلهذا أمسكنا عن ذكرها ، وحسب القارئ أن يعلم أنها من علامات الساعة ، فلا بد أنها شيء هائل يفوق الوصف ، وأنها تخرج لإقامة الحجة على الكافرين ، وتثبيت المؤمنين ، وإغلاق باب التوبة أمام الملحدّين .
ومعنى الآية :

وإذا قرب وقوع ما قلناه على الكافرين من قيام الساعة وعقابهم على كفرهم ، أخرجنا لهم من الأرض دابة عظيمة هائلة ، تكلمهم بما يفهمونه عنها ، فتوبخهم على كفرهم وتنعي عليهم أنهم قبل خروجها كانوا بآيات الله وبراهينه لا يصدقون ولا يستيقنون ، وأنه قد حان ميقات فنائهم وقيامهم لرب العالمين ، لحسابهم وعقابهم على ما كانوا يعملون .

٨٣ ، ٨٤ - (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّنْ^(١) يُكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) :

هاتان الآيتان للتذكير بما يحدث للكافرين بعد حشرهم من التوبيخ على كفرهم بآيات الله ، قبل الحكم عليهم بالعذاب المقيم ، والمراد من الحشر هنا : هو الحشر يوم القيامة .
والمعنى : واذكروا يوم نجمع من كل أمة نبي جماعة كثيرة هم الذين يكذبون بآياتنا ، فهم يدفعون ويساقون إلى المحشر الذي يجتمع فيه الخلائق ، وينحبس أول الكافرين على آخرهم ، حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ والمساءلة من المحشر ، حتى إذا جاءوه قال الله تعالى - موبخاً لهم - : أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي التَّشْرِيعِيَّةِ ، والتكوينية بادئ الرأي ، غير ناظرين فيها نظراً يجعلكم تحيطون بها علماً ويدفعكم إلى الإيمان بربوبيتي ووحدانيتي ، أم ماذا كنتم تعملون بعقولكم في هذه الآيات البينات ، حتى وصل بكم التفكير فيها إلى هذا التكذيب الذي أبعدكم عن الحق المبين ؟

(١) مِنْ فِي قَوْلِهِ : « مِنْ » بَيَانِيَّةٌ ، أَيْ : هُمْ مَنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا .

ولما كان كلا الأمرين لا يستوجب تكذيبهم لوضوح تفصيرهم فيهما ، فلهذا لم يستطيعوا أن يجيبوا ربهم بما يخفف عنهم مسئوليتهم فيها فقال الله - تعالى - عقب هذه المسألة :

٨٥- (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ) :

أى : ووجب عليهم العذاب الذى قلناه لهم على ألسنة رسلنا إن استمروا على تكذيبهم بآياتنا فهم لا يستطيعون النطق بما يدفع حجتنا عليهم .

واعلم أن الحشر يوم القيامة لجميع الخلائق مؤمنهم وكافرهم ، ولكن هذه الآيات اختصت ببيان حشر المكذبين بآيات الله ومساءلتهم ومصيرهم ، لأن السياق واللاحق يقتضى ذلك الاختصاص .

ويرى الشيعة الإمامية أن لفظ (مِنْ) فى قوله تعالى : « مِّنْ يَّكْذِبُ بآيَاتِنَا » للتبعيض وليس للبيان ، وأن الآية أفادت أن بعض المكذبين بآيات الله يحشرون ، وليس ذلك صفة الحشر يوم القيامة ؛ إذ يقول الله فى شأنه : « وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا » وهذا يدل على أن هذا الحشر الجزئى يكون فى الدنيا لبعض أعداء الله من الكافرين ، لينتقم منهم على أيدى أوليائه وشيعته عند ظهور المهدي آخر الزمان إذ يرجع معه جماعة من أئمة أهل البيت ، ليعاقبهم بالإذلال والتوبيخ والقتل ، ليفوزوا بثواب نصره الله ، ويفرحوا بظهور دولته ، وبالجمله فهذه الآية من أشهر ما استدل به الشيعة الإمامية على رجعة أئمتهم ، كما استدلوا بأحاديث رووها بهذا الصدد .

والحق أن ما ذهب إليه الشيعة من رجعة أئمتهم أمر خيالى محض ، والاستدلال عليه بالآية رأى فاسد ؛ فإن الآية ليس فيها عنهم قليل ولا كثير لا فى الرجعة ولا فى غيرها ، والحشر فى لسان الشرع ، هو حشر يوم القيامة ، وهو فى الآية للكافرين جميعاً ، ولفظ (مِنْ) فى قوله تعالى : « مِّنْ يَّكْذِبُ بآيَاتِنَا » كما يحتمل أن يكون للتبعيض ، يحتمل أيضاً أن يكون لبيان الفوج الذين يناقشهم الله ويوبخهم ويعاقبهم بعد الحشر ، والحق أن هذه الآيات الثلاث^(١) مسوقة لبيان حال المكذبين لرسل الله يوم القيامة ، كما يقتضيه السياق ،

(١) وهى قوله تعالى : « ويوم نحشر ... » إلى قوله تعالى : « ووقع القول عليهم » وأرقامها : ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥

ولا أدل على ذلك من أن الذي يوبخهم ويعاقبهم هو الله تعالى- وليسوا أئمة الشيعة كما يزعمون، إذ يقول -سبحانه-: « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْتَقُونَ » والرجعة التي قال بها الشيعة الإمامية لا يقول بها الشيعة الزيدية بل ينكرونها إنكاراً شديداً ، وقد ردوها في كتبهم على وجه مستوفى بروايات عن أئمة أهل البيت أيضاً تعارض روايات الإمامية^(١) ، فليرجع إلى كتبهم من أراد المزيد من العلم بفساد رأى هؤلاء الإمامية ، والله ولى التوفيق .

٨٦- (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُّوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مَبِصْرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

هذه الآية جاءت لتوجيه نظر المشركين وعقولهم إلى بعض آيات الله الكونية الشاهدة بوحدانيته ، وقدرته على البعث والحشر والحساب التي أنكروها ، والمراد من الرؤية هنا : الرؤية القلبية فإنها هي التي توصلهم إلى الإيمان .

والمعنى : ألم يعلم هؤلاء المشركون أننا جعلنا الليل مظلماً ليسكنوا فيه بالقرار والنوم بعد الحركة التي أجهدوا فيها أجسادهم وأرواحهم وعقولهم نهاراً ، وجعلنا النهار مضيئاً ليبصروا في ضوئه طرق القلب في أمور معاشهم ، إن في ذلك التدبير المحكم لآمارات لقوم يريدون الإيمان ، فإنه يشهد بأن الذى دبر هذا التدبير العجيب هو إله واحد قادر على بعث العباد وحشرهم وحسابهم ، فإن من قدر على إبدال الظلمة بالنور ، فإنه يقدر على إبدال الموت بالحياة . وَوَصِفُ النَّهَارِ بِالْإِبْصَارِ بَدَلُ الْإِضَاءَةِ ، لِلْمِبَالغةِ فِي إِضْآئَتِهِ وَبِلَوْغِهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى دَرَجَةِ جَعْلِ الْإِبْصَارِ مِنْ صِفَاتِهِ ، وَذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ .

(١) راجع ما كتبه الآلوسى في شأن هذه الرجعة إن شئت ، فقد أسهب فيها وأفاض .

(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرُ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(الصُّورِ) : البوق ، أو جمع صُورة . (فَفَزِعَ) أى : خاف ، وعبر عنه بالماضى لتحققه .
(أَتَوُهُ) أى : جاثموه ، وعبر عنه بالماضى لتحققه . (تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) : تظنها ثابتة
في أماكنها .

(دَاخِرِينَ) : صاغرين .

(وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) : تسرع سرعته .

التفسير

٨٧- (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ) :

هذه الآية والتي بعدها مسوقتان لإلذار المكذبين بالبعث وتخويفهم من لقاء رب العالمين ، وللعلماء في تفسير الصور والنفخ فيه ثلاثة أقوال :

(أحدها) : أنه قرُنٌ يشبه البوق ، والنفخ فيه على الحقيقة ، وسندهم في ذلك ما أخرجه الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : ما الصور ؟ قال : « قرُنٌ ينفخ فيه » والمشهور عند أصحاب هذا القول أن صاحب الصور الذى ينفخ فيه هو إسرافيل - عليه السلام - .

(وثانيها) : أن الصور - بإسكان الواو - : جمع صورة كالصُور - بفتحها - والمراد بها : صور الخلائق ، والنفخ في هذا القول كالذى قبله على حقيقته .

(وثالثها) : أن النفخ في الصور ليس على حقيقته ، وإنما هو صورة بلاغية بطريق الاستعارة التمثيلية ، شبه فيها حال انبعاث الموتى وقيامهم من قبورهم وسيرهم إلى المحشر تلبية لنداء الله لهم - شبه حالهم ذلك - بحال قيام جيش نفخ لهم في البوق المعهود ، وسيرهم إلى موضع عُيِّنَ لهم ، وتعقبيا على هذا الخلاف يقول الآلوسى ما خلاصته : أن الأول هو قول الأكثرين وعليه المعول ؛ لأن قوله - تعالى - في آية أخرى : « ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ أُخْرَى » ظاهر في أن الصور مفرد مذكر وليس جمع صورة وإلا لقال - سبحانه - : ثم نفخ فيها أخرى بتأنيث الضمير الراجع إليها ، وجعلُ الكلام من باب الاستعارة التمثيلية ، فيه إنكار لوجود صور حقيقى ينفخ فيه ، وذلك مخالف لما نطقت به الأحاديث الصحاح . . هذه هى خلاصة تعقيب الآلوسى على الخلاف فى حقيقة النفخ فى الصور .

والذى نراه : أن الذى يجب اعتقاده هو أن النفخ فى الصور سوف يكون قطعاً ، أما شكل الصور وحقيقته وكيفية النفخ فيه فذلك من الغيبات التى يوكل علمها إلى علام الغيوب - سبحانه - .

والراجع أن النفخ فى الصور سوف يكون مرتين ، إحداهما يموت عندها الخلائق ، والثانية نفخة البعث التى يقوم الناس عندها لرب العالمين للحساب والجزاء ، كما فى قوله - تعالى - : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ^(١) » .

واختلف فيما جاء بهذه الآية ، أهى النفخة الثانية ، أم هى النفخة الأولى ؟ ومن ذهب إلى ترجيح أنها النفخة الثانية الإمام أبو السعود ، وقال فى ترجيحه : إنه هو الذى يستدعيه سباق النظم الكريم وسياقه ، وأن المراد بالفرع فى قوله - سبحانه - : « فَفَرَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » ما يعترى الكل عند البعث والنشور من الرعب والتهيب الضروريين الجبليين بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات فى الأنفس والآفاق . ثم قال : وقيل : المراد بالنفخ هنا : هو النفخة الأولى ، وبالفزع : الخوف الذى ينتهى إلى الموت لغاية شدة الهول كما فى قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي

الْأَرْضِ » فيختص أثرها بمن كان حيا عند وقوعها ، دون من مات قبل ذلك من الأمم .
إلى آخر مقال .

ورجح العلامة الطيبي أنها النفخة الأولى ، وقوله تعالى الآتي : «وَكُلُّ أُنُوفٍ ذَاخِرِينَ»
إشارة إلى النفخة الثانية .

ونحن نختار ما رجحه العلامة أبو السعود من أن المراد بنفخة الفزع هنا نفخة البعث
مراعاة للمقام ، وفيما يلي تفسيرها على هذا الوجه :

المعنى الإجمالي للآية السابقة :

واذكروا - أيها المنكرون للبعث - يوم ينفخ في الصور ، ليقوم الناس من قبورهم مُتَّجِهِينَ
إلى المحشر ، ليحاسبهم الديان على ما كانوا يعملون - اذكروا ما يحدث من الهول والكرب
يومئذ فيفزع له أهل السموات وأهل الأرض ، ويشند خوفهم واضطرابهم إلا من شاء
الله أن يطمئن ، وهم الشهداء كما جاء في حديث صحيح ، ولأنهم عند ربهم يرزقون ،
وضم بعض المفسرين إليهم حملة العرش ورؤساء الملائكة : جبريل وميكائيل وإسرافيل
وعزرائيل والحدود العيون وخزنة الجنة ^(١) وكل هؤلاء المبعوثين الفزعين عند هذه النفخة
- كل هؤلاء - يحضرون الموقف بين يدي رب العالمين صاغرين .

٨٨ - (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ
شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) :

نقل القرطبي عن الإمام القشيري أنه قال : وهذا يوم القيامة ، ثم قال : أي : تمر مرّ
السحاب ، حتى لا يبقى منها شيء . «وُسَيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا» ^(٢) إ هـ .

ونحن نوافقه على ذلك مراعاة للسياق .

وإلى هذا الرأي مال صاحب إرشاد العقل السليم فقد قال : إنه مما يقع بعد النفخة
الثانية كالْفَزَعِ المذكور عند حشر الخلق ، يبدل الله - تعالى شأنه - الأرض بغير الأرض

(١) ولكننا لم نجد في هؤلاء خبرا صحيحا .

(٢) سورة النبا ، الآية : ٢٠ .

ويغير هيئتها ، ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئة الهائلة يشاهدها أهل المحشر .
وهي وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى ، لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكون
بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي
نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَأَعِوَجَ لَهُ ^(١) »

وقوله سبحانه : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ
الْقَهَّارِ ^(٢) » فإن اتباع الداعي الذي هو إسرافيل ، وبروز الخلق لله - تعالى - لا يكون
إلا عند النفخة الثانية .

ونقل الآلوسی عن بعض المفسرين أن ذلك مما يقع عند النفخة الأولى ، وعقب عليه
بما يرجح كونه بعد النفخة الثانية ، والله - تعالى - أعلم .

وَيُعَقَّبُ اللَّهُ ذَلِكَ التَّغْيِيرَ الكوفي الخطير بقوله - سبحانه - : « صُنِعَ ^(٣) اللَّهُ الَّذِي
أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ » أي : ما تقدم من النفخ في الصور وما ترتب عليه
من فزع أهل السموات والأرض إلا من شاء ، ومجيء الخلائق جميعا تلبية لنداء البعث
والحشر ، وتحويل الجبال إلى ما يشبه العهن المنفوش ^(٤) ، ومرورها مر السحاب في
طريقها إلى الزوال ، كل ذلك صنعه الله الذي أتقن كل شيء ، وبناء على الحكم المستتبعة
لغايات الجلية ، وليس ذلك من باب الإخلال والإفساد دون حكمة .

وقد ختمت الآية بقوله - تعالى - : « إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ » وهو تعليل لما تقدم
من النفخ في الصور وفزع أهل السموات والأرض ومجيئهم إليه صاغرين للحساب ، وقد
اعترض بينهما بذكر تحويل الجبال إلى عهن منفوش يمسير سير السحاب في طريقه إلى
الزوال بعد أن كانت جامدة ، توفية لمقام الحديث عن الأحوال التي تحيط بيوم الحساب
والجزاء .

(١) سورة طه ١٠٥ - ١٠٨

(٢) سورة إبراهيم : ٤٨

(٣) قال الآلوسی : (صنع الله) مصدر مؤكد لما قبله ، وعقبه بكلام جيد خلاصته ما كتبناه في تفسير هذه الجملة
والله الموفق . (٤) أي : الصوف المنفوش .

وقال العلامة الطيبي ^(١) : قوله : « إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ . . » إلخ .

استئناف وقع جوابا لقول من يسأل فماذا يكون بعد هذه القوارع ؟ ف قيل : إن الله خبير بعمل العاملين ، فيجازيهم على أعمالهم ، وفصل ذلك بقوله - سبحانه - : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا . . » إلخ .

وهذا الذى قاله الطيبي قريب مما اخترناه فى موقع الجملة مما قبلها ، وربما كان الذى قلناه أقرب وأولى ، والله أعلم .

المعنى الإجمالى للآية : وترى الجبال - أيها الإنسان وأنت فى الموقف بعيد عنها - تظنها جامدة ثابتة فى مكانها ، ولكنها قد سُحِقَتْ وأصبحت كالعين المنفوش ، وقد سيرها الله - سبحانه - فوق سطح الأرض وجعلها تمر فوقها فى طريقها إلى الزوال ، لتبرز التى كانت توارىها ، وهى فى سرعتها تمر كما يمر السحاب فى طريقها إلى الزوال ، لتبرز السماء التى كانت تحجبها ، صنع ذلك الصنع العجيب الله الذى أتقن كل شئ بناء وإزالة لحكم يعلمها ، ومنها : أن يرى الظالمون عظيم جبروته الذى لم يكثرثوا به فى دنياهم ، وأن يحاسبهم على أرض جديدة تحقيقا لوعيده : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سُرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ تَعْشَى وَجُوهُهُمْ النَّارُ ، لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » ^(٢) ولن يصعب عليه حساب عباده ، فإنه خبير بما كانوا يفعلونه فى دنياهم .

(١) نقله الآلوسى فى تفسيره لقوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله خير منها) .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٨ - ٥١ .

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مَنْ فَزَعَ يَوْمَئِذٍ
ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ
تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ) : بالفعل المستحسنة شرعا . (مَنْ فَزَعَ) : الفزع : الخوف .
(وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ) : المراد بها هنا : الشرك ، كما سيأتي بيانه .
(فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ) : الوجوه معروفة ، أو هي كناية عن الأنفس ،
وكُتِبَها : إلقاؤها ، وسيأتي مزيد بيان لذلك .

التفسير

٨٩- (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مَنْ فَزَعَ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ) :

لما ذكر الله - سبحانه - في الآية السابقة أنه عليم بما يفعله عباده جاء هذه الآية والتي
تليها لبيان ما يترتب على علمه بها من جزائهم عليها . . وفسر ابن عباس وابن مسعود وغيرهما
من السلف - فسروا - الحسنة بشهادة التوحيد ، بناء على ما روى عن النبي - صلى الله عليه
وسلم - من تفسيره إياها بذلك ، والظاهر أنه ﷺ فسرها بأكملها ، وهذا لا ينافي أن كل
حسنة من الأفعال لها جزاء في الآخرة خير منها ، والمراد من الفزع الذي يأمنه أصحاب
الحسنات : الخوف من العقاب بالنار ، وهو ما جاء في قوله تعالى : «لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ»
وحكى عن الحسن أن ذلك حين يؤمر بالعبد إلى النار ، وهذا لا ينافي ما يحدث لجميع المكلفين
عند البعث بعد النفخة الثانية ، فإنه عام لجميع من في السموات والأرض كما جاء في
قوله تعالى : «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ» فلا فرق بين
أهل الحسنات وأهل السيئات في الشعور بالفزع والتهيب والرعب عندما يرون أهوال
يوم القيامة عقب البعث ، فإن ذلك أمر جبلي لا يكاد يخلو منه أحد .

ومعنى الآية : من جاء بالفعللة الحسنة من توحيد وصلاة وصيام وزكاة وغيرها ، فله جزاء أعظم منها ، حيث يجرى على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله ، جزاء دائما في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وهؤلاء المتقون المحسنون آمنون من خوف العذاب يومئذ مطمئنون ، ووثوقا بوعده الله الذي لا سبيل إلى الخلف فيه «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا» .

٩٠- (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) :

المراد بالسبيئة هنا : الشرك ، وغلبة السيئات على الحسنات ، ويبقى كل منهما في النار على حسب حاله ، فالكافر خالد فيها أبدا كما جاء في وعيده في القرآن والسنة ، والمؤمن الفاسق يخرج منها بعد أن ينال نصيبه من العقاب فيها ، فإنه لا يبقى في النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ، كما جاء في صحاح السنة ، ولهذا ختمت الآية بقوله - سبحانه - : (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : لا يجزون إلا على حسب أعمالهم . ومعنى الآية : ومن جاء بسبيئة الشرك أو طغت سيئاته على حسناته ، فألقوا في النار على وجوههم ^(١) قيل لهم : هل تجزون إلا بعقاب مماثل لما كنتم تعملونه من السيئات ؟ «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا» . «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا» .

(إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أُعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ^(٩١)) وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ . وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ^(٩٢)) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرُّكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ^(٩٣))

(١) ويجوز أن يكون المعنى : فألقيت نفوسهم في النار بإطلاق الوجه على النفس مجازا ، كما أطلقت الأيدي عليها مجازا في قوله - تعالى - : «... فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» وقوله : «وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» .

المفردات :

(هَذِهِ الْبَلَدَةُ) المراد بها : مكة . (مِنَ الْمُسْلِمِينَ) : من المنقادين لملة التوحيد .
(سَيَرِيكُمْ آيَاتِهِ) : سيجعلكم تشاهدون أمارات سلطانه في الدنيا والآخرة .

التفسير

٩١- (إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) :

بيّنت الآيات السابقة أحداث الساعة وأحوالها وفزع أهل السموات والأرض عندما يفاجأون بها إلا من شاء الله ، ومجيئهم جميعا لحساب ربهم صاغرين ، وأن من جاء بالحسنة فله ثواب خير منها ، ومن جاء بالسيئة عوقب بها جزاء ما كانوا يعملون في الدنيا ..

وجاءت هذه الآية وما بعدها في ختام السورة لتقرر أمر التوحيد والبعث اللذين دار عليهما الحوار بين النبيين وأممهم في ثنائياها .

ومعنى هذه الآية : إن الله - تعالى - ما أمر نبيه محمدا ﷺ فيما جاء به من عنده ، إلا بأن يعبد الله رب هذه البلدة - مكة - التي جعلها الله حرما آمنا منذ عهد إبراهيم - عليه السلام - وله وحده كل شيء ، فلا يصح أن يعبد معه سواه ، وما أمره الله - سبحانه - إلا بأن يكون من المسلمين المنقادين لشريعة الإسلام ، فلا سبيل له ولا لغيره أن يحيدوا عن توحيد الله ، ولا أن ينصرفوا عن دين الإسلام .

٩٢- (وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ) :

وكما أمر الله نبيه بذلك أمره بتلاوة القرآن وتكرار الإرشاد به ، لتكشف للناس الحقائق المخزونة في آياته ، فإن المواظبة على قراءته والوعظ به ، من أسباب انكشاف الفيوضات الإلهية والأسرار القدسية ، فمن اهتدى بما يسمعه من عظات القرآن ونصائحه ، وبتلاوته من آن لآخر - كما يفعله الرسول - فمن اهتدى بذلك فما تعود منفعة اهتدائه

إلا على نفسه ، ومن ضل عن الحق بمخالفته في هذه النصيحة ، فوبال ضلاله مختص به ، ثم أمره أن يقول لهم : ما أمرت في شأنكم وفي شأن غيركم إلا بالإنذار والتخويف من عقوبة الخلاف ، أما استجابتكم لدعوتي فليست من شأني بل هي من شأنكم وشأن الله معكم ، فما على إلا البلاغ وقد فعلت .

٩٣ - (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) :

وقل - أيها الرسول - لقومك : الحمد لله على نعمائه ، حيث أعانني على تبليغ رسالته إليكم ، وتلاوة القرآن دائما عليكم ، ومتابعة الإنذار لكم ، وإقامة الحجة عليكم ، مع شدة معارضتكم ومخاصمتكم ، سيريكُم الله آياته في دنياكم وأخراكم ، فتعرفون أنها برهان الحق ودليل الصدق ، وما ربك - يامحمد - بغافل عما تعملون - أيها المشركون - فسوف تكون آيات عذابه جزاءً وفاقاً لأعمالكم .

وقد حقق الله وعيده لمشركي قريش في دنياهم ، بما حدث لهم في غزوة بدر الكبرى ، وسائر انتصارات رسوله عليهم ، وحصول القحط لهم بدعائه ﷺ حيث قال : اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، فأصابهم جوع عنيف اضطرهم إلى أكل الكلاب والجيف والعلهز^(١) وسوف يرى أشد منه في أخراه من مات منهم على كفره « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

(١) يطلق العلهز على القراد الضخم ، وعلى طعام من الدم والوبر يؤكل في المجاعة ، وعلى نبات ينبت ببلاد بني سليم .

« سورة القصص »

من السور المكية ، وآياتها ثمان وثمانون ، ووجه مناسبتها لما قبلها أنها تشتمل على شرح بعض ما أُجمل في قصة موسى في سورتي الشعراء والنمل ، وقد روى عن ابن عباس وجابر بن زيد أن الشعراء نزلت ثم النمل ثم القصص .

وقد ذكر الله في السورة السابقة سؤال الكفار يوم القيامة على جهة التوبيخ ، وفي هذه السورة سؤالهم وتوبيخهم بما هو أوسع مما جاء في سورة النمل ، كما ذكر هنا في أمر الليل والنهار أكثر مما ذكر هناك ، إلى غير ذلك من المناسبات .

مقاصدها :

اشتملت هذه السورة المباركة على التنويه بآيات القرآن المبين ، وحكاية ما حدث لقوم موسى من جبروت فرعون ، حيث كان يذبح أبناءهم ويستبقي بناتهم ، وأنه تعالى شاء إنقاذهم من هذه المحنة فنجى موسى من القتل ، حيث ألهم أمه أن تصنع له تابوتاً وتلقيه في النيل ففعلت ، فدفعته المياه إلى قصر فرعون ، فالتقطه آله ليكون لهم عدواً وحزناً ، وليخلص بنى إسرائيل من ظلم فرعون وأعوانه ويجعل هلاكه وجنوده على يد من رباه في كنفه ، وقد ربط الله على قلب أمه فصبرت ، وفرحت به امرأة فرعون وأوصت بعدم قتله قائلة : « لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَّا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » وأوصت أمه أخيراً أن تتبع أثره ففعلت ، وحرّم الله عليه المراضع فقالت أخته لأهل فرعون : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » فقبلوا نصيحتها ، فردّه الله بذلك إلى أمه : « كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ » .

ولما بلغ أشده آتاه الله حكماً وعِلْماً ، وجعل من همه إنصاف بنى إسرائيل : « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ » واستغفر ربه من ذلك فغفر له : « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِي مُّبِينٌ » .

ثم أراد أن يبطش بعدوه فقال له : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ . وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ » فخرج منها متجهًا إلى مدين : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي إِلَّا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا » وانتهى أمره مع أبيها إلى الزواج من إحدى ابنتيه على أن يكون أجيرًا عنده ثمانى سنين فإن أتم عشرًا فمن عنده ، فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله رأى نارا بجانب الطور وكانت امرأته بحاجة إلى الاستدفاء بالنار لشدة البرد ، وحينئذ : « قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » وهنا شرفه الله بالرسالة إلى فرعون وملكه فرد قائلًا : « إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ » وطلب من الله أن يشرك معه أخاه في رسالته ليكون عونًا له فإنه أفصح منه لسانًا ، فاستجاب له ربه قائلًا : « سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ » .

فلما جاءهم موسى بآياته وصفوه بالسحر ، وقالوا : « مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ » وطلب فرعون من وزيره هامان أن يبنى له صرحًا ليبلغ به إلى حيث يطلع إلى إله موسى ، وقال : إنه يظنه من الكاذبين . وظل أمرهما في صراع فترة طويلة ، فلما لم تغنه النذر انتقم الله منه ومن جنوده بما حكاه في قوله - سبحانه - : « فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ » ، ثم بين الله - تعالى - ما لهذه القصة من الدلالة على نبوة محمد ﷺ فقال : « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ » ثم قال : « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » .

ثم عَابَتْ هذه السورة عليهم أَنهم لما جاءهم القرآن الحق من عند الله معجزة لنبيهم محمد ، سألوه أَن يَأْتِيَهُمْ بكتاب من السماء جملة واحدة ، كما جاء موسى قومه بالتوراة جملة واحدة ، فَأَفْحَمَهُمُ اللهُ بِأَنهم كفروا بما أوتى موسى من قبل قائلين : « سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ » فَلَهِمْ لَهُمْ إِلَّا الْمَكَابِرَةُ وَالْعِنَادُ ، ثم بينت أَن بعض أهل الكتاب لما تَلَّى عليهم آمنوا به قائلين : « إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا » وَأَنهم إِذَا سَمِعُوا لَغَوْهم فيه أَعْرَضُوا عنه ، ثم نعت عليهم شركهم ، وذكرت أَن الله تعالى أمر نبيه أَن يستخبرهم عن يَأْتِيَهُمْ بضياء يبصرون فيه إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ اللَّيْلَ مُسْتَمِرًّا وَسَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، أَوْ يَأْتِيَهُمْ بليلى يسكنون فيه إِنْ جَعَلَ عَلَيْهِمُ النَّهَارَ كَذَلِكَ ؟ وَأَنه - تعالى - هو الذى تفضل عليهم برحمته فجعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليبتغوا فيه من فضله ولعلمهم يشكرون وَأَنه سوف يناديهم يوم القيامة فيسألهم : « أَأَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » وَأَن الحق سوف يظهر لله عليهم ، بشهادتهم على أنفسهم .

ثم حكى قصة قارون ، فبينت أَنه من قوم موسى ، فلما أغناه الله بغى عليهم وطنى وأعرض عن الآخرة ، وزعم أَن ما أوتيته على علم عنده ، فلم يسند الفضل فيه لرب العالمين ، فخسف الله به وبداره الأرض ، وما نفعه ماله ولا كبرياؤه ولا أتباعه ، ثم ذكرت أَن الدار الآخرة يجعلها الله للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين .

ثم تحدثت عن فضل الله وعدله فى قضائه يوم القيامة ، وذكرت أَن : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . ثم خُتِمَتِ السورة بدعاء كل مكلف إلى توحيد الله : « وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(طَسَمَ ١) تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ
مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا
فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ٤) يُذَبِّحُ
أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ٥) إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٦)

المفردات :

(الْكِتَابِ الْمُبِينِ) : القرآن الواضح ، من : أبان بمعنى انضح ، والمبين للأحكام ، من : أبان
غيره أى : أوضحه ، وأطلق الكتاب على القرآن لأنه مكتوب فى اللوح المحفوظ ، أو لأنه
يكتب فى الصحف . (مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ) : بعض خبرهما .

(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : يصدقون حالاً واستقبالاً . (عَلَا فِي الْأَرْضِ) : استكبر فى أرض مصر .
(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا) أى : جعلهم أصنافاً يَسْتَضِعُّ كل صنف منهم فيما يريد ،
أو أحزاباً يعادى بعضهم بعضاً ، وللکلام بقية فى التفسير .

(يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ) : هم بنو إسرائيل .

(وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ) : يبقى إناثهم دون قتل .

التفسير

٢٠١ - (طَسَمَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) :

تقدم الكلام على أسماء الحروف التى بدئت بها بعض السور فارجع إلى مثله فى أوائل
سورتي البقرة وآل عمران وغيرهما ، كما تقدم الكلام على (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)
فى سورتي يوسف والشعراء فارجع إليها إن شئت .

والمعنى الإجمالى : طسم : هذه الآيات التى جاءت بسورة القصص آيات القرآن المكتوب فى اللوح المحفوظ الواضح الدلالة على الحق ، المبين للحلال والحرام وقصص الأنبياء ، ونبوة محمد ﷺ وأحوال البعث والحشر والنشور والحساب والجزاء .

٣ - (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

نقص عليك - أيها الرسول - بعض أخبار موسى وفرعون وقوميهما قصصاً متصفاً بالحق لقوم يصدقون به حالاً واستقبالاً ، لينتفعوا بما جاء فيها ويتعظوا بمواعظها .

ففى قصة موسى مع قومه يعلمون أن قرابة موسى مع قارون لم تنفعه مع كفره ، وفى قصته مع فرعون يعرفون أن كبرياء فرعون وعلوه وبطشه لم تعصمه من نقمة الله القوى الجبار المتكبر .

٤ - (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) :

فرعون : لقب قديم لكل ملك كان يحكم مصر من أهلها . علوه فى الأرض : تجبره على أهلها ، كما قاله ابن عباس ، وقال قتادة : علا فى نفسه عن عبادة ربه بكفره ، وادعى الربوبية والمراد من الأرض : أرض مصر ، والشَّيْعُ : جمع شِيعَةٍ ، وتطلق على كل قوم أمرهم واحد ، يتبع بعضهم رأى بعض ، وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره ، والمراد من جعل فرعون أهل مصر شيعاً : أنه جعلهم أصنافاً يتبعونه فى تحقيق غاياته ومآربه من الشر والفساد ، أو من مختلف الأغراض والغايات من بناء وحرث وحفر وغير ذلك ، أو أنه فرق بينهم وجعل بعضهم عدواً لبعض حتى يشتغلوا بأنفسهم ، ويتم له بذلك السيادة عليهم ، وفقاً للقول المعروف عن الجبارين : فَارَّقَ تَسُد .

والمراد بالطائفة المستضعفة : بنو إسرائيل ، فهم الذين كان يذبح أبنائهم ويستحي نساءهم ، والمراد من نسائهم : إناثهم - صغاراً كُنَّ أم كباراً - وسبب ذلك على ما قيل ، أنه كان يعتمد فى أمور المستقبل على رأى الكهنة والمنجمين ، فقال له قائل منهم : إن هلاكه سيكون على يد ذكر من بنى إسرائيل ، أو أنه رأى رؤيا فغُبرَّتْ له بذلك . قال الزجاج : العجب من حمقه : لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع ، وإن كذب فلا موجب للقتل

والمعنى الإجمالى للآية : إن فرعون علا بجبروته فى أرض مصر وجعل أهلها فرقاً ، فأما من كان من أهل مصر ، فقد استظهر بهم واستعان على ظلمه وجبروته ، ولم يمس ذكورهم ولا إناثهم بسوء ، وأما بنو إسرائيل فإنه كان يذبح صغار الذكور من مواليدهم خوفاً منهم ، ويستبقى إناثهم لخدمة أهل مصر ، ولأنه كان لا يتوقع الشر من جهتهن ، إنه كان من المفسدين الراسخين فى الإفساد ، لاجترائه على قتل من لا جريرة له بناءً على رأى فاسد ، فإن قتلهم لا يغير من قضاء الله إن جعل هلاكه على يد أحدهم ، فإنه لا ينفعه حذره من قدره .

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾)

المفردات :

- (نَمُنَّ) : نُعِمْ . « أَئِمَّةٌ » : مقدمين فى أمر الدين .
 (وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) : ليعض ما كان يملكه فرعون .
 (مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) : ما كانوا يخافون .

التفسير

٥ - (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) :
 بين الله فى الآية السابقة أن فرعون تجبر فى الأرض ، ولم يكن عادلاً فى حكم مملكته ، إذ أنه جعل بعض أهلها سادة وهم أهل مصر الأصليون ، وجعل بعضاً آخر من ساكنيها عبيداً مسخرين هم بنو إسرائيل ، وكان يذبح المواليد من أبنائهم الذكور خوفاً على نفسه منهم ، ويستبقى إناثهم أحياء لخدمتهم وجاء بهاتين الآيتين لبيان الحكمة فى إرسال موسى - عليه السلام -

لفرعون وبني إسرائيل ، وقد ثبت تاريخياً أنه لم يكن لبني إسرائيل ميراث لأرض مصر الأصلية ولا حكم فيها ، بل الذي ثبت هو خروجهم منها إلى أرض فلسطين ، فلذلك يكون المراد من ميراثهم الأرض إسكانهم أرض فلسطين ، وجعلهم أصحاب ملك فيها كأنها ميراث لهم ، أو أنها كانت تابعة لحكم فرعون فأورثهم الله إياها منه بتسليطهم عليها وقتلهم ، وقد عاقبهم الله بنزع سلطانهم عليها حين أفسدوا في الأرض ، كما أشارت إليه سورة الإسراء وكما ثبت عندهم في سفر الخروج .

ومعنى الآيتين : ونريد بإرسال موسى - عليه السلام - أن ننعم على بني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون وقومه في أرض مصر ، وأن ننقلهم من الشرك إلى عبادة الله - تعالى - ونجعلهم بذلك أئمة في الدين يقتدى بهم المشركون من حولهم ، ونجعلهم مستقرين في أرض فلسطين استقراراً يشبه الميراث ، وأن نمكن لهم في الأرض التي أسكناهم فيها ونسلطهم عليها فتكون تحت سلطانهم وحكمهم ماداموا عاملين بشرعنا ، وأن نرى فرعون ووزيره هامان وجنودهما ما كانوا يخافونه من الهلاك على يد رجل من بني إسرائيل ، حيث أغرقناهم في اليم أجمعين ، وسبأني تفصيل ذلك قرآنًا وتفسيرًا إن شاء الله تعالى .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فِإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ
فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَىٰكَ وَجَاعِلُوهُ
مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا
وَحَزَنًا ۚ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾
وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ۚ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ
يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(وَأَوْحَيْنَا) : وألهمنا . (فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ) اليم : البحر . والمقصود به هنا : النيل ، وكل نهر عظيم يطلق عليه بحر لاستبحاره . (آلُ فِرْعَوْنَ) المراد بآله : من ينسبون إليه ولو بالخدمة . (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) أى : فتكون عاقبة أمره أن يكون لهم معادياً ، ومصدر حزن لهم . (خَاطِئِينَ) : اسم فاعل من خطيء بمعنى تعمد الذنب ، وللکلام بقية في التفسير . (قُرَّةُ عَيْنٍ) أى : سكون وطمأنينة ، يقال : قرَّت عينه ، تقرر - بفتح القاف وضمها - قررة وقررة : إذا سكنت بعد حيرة ، أو بردت وانقطع بكاؤها .

التفسير

٧- (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) :

بين الله في الآية السابقة أنه - تعالى - يريد أن ينعم على بنى إسرائيل بالحرية بعد استعبادهم ويمكن لهم في الأرض ، ويهلك فرعون وهامان وجنودهما على أيديهم دون أن ينفعهم حذرهم ، وجاءت هذه الآية وما بعدها تحكى قصة الإنعام على الأولين وإهلاك الآخرين .

واختلف العلماء في تفسير المراد من الوحي إلى أم موسى ، فقال قتادة : إنه بمعنى الإلهام ، وقال جماعة : إنه كان خطاباً منامياً كسائر الرؤى الصادقة ، وقال آخرون : إنه كان بملك ، ولا يثبت لها بهذا نبوة ، فإن النبوة لا تكون في النساء بالإجماع ، وقد جاء تكليم الملائكة لغير الأنبياء في قصة الأبرص والأقرع والأعمى من بنى إسرائيل حيث أنزل إليهم ملكاً يسألهم أمانياتهم ، فسألوه أن يكشف الله ما بهم ويحسن إليهم ، فأجابهم الله إلى ما سألوه ، فيخل الأولان ، وكان الأخير سخيماً فيما أعطاه الله فرضى الله عنه ، وقد روى حديثهم البخارى ومسلم وغيرهما^(١) .

(١) ارجع إليه في الجزء الثامن من القرطبي ص ١٨٨ طبع دار الكتب في تفسير قوله تعالى : « إنما الصلوات » المسألة الرابعة والمثرون .

وأخرج البخارى فى صحيحه ^(١) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لقد كان فيما كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يَكَلِّمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر » . وقد سلمت الملائكة على عمران بن حصين ولم يكن نبياً - نقله القرطبي .
ويقول مجاهد : كان الإيحاء بالرضاعة والإلقاء فى اليم عند الخوف عليه - كان ذلك - قبل الولادة ، وقال السدى : لما ولدت أم موسى أُمِرَتْ أن ترضعه وتصنع به ما فى الآية ، وهذا وذاك من باب الاجتهاد .

ويروى أنها صنعت له تابوتاً من نبات البردى ، وَقَيَّرَتْهُ بالقار ، فلما خافت عليه ألقته فى النيل ، وكان فرعون قد استشار جلساءه فيما يصنعه ببنى إسرائيل ، فأشاروا عليه بقتل مواليدهم من الذكور ففعل ، روى عن ابن عباس أنه لما استحرَّ القتل فيهم قالوا : إن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون ، فتحرمون من خدمتهم ، وتقومون بما كانوا يقومون به ، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر ، ودعوهم عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشب الصغار مكان من ماتوا من الكبار ، فإنهم لن يكثرُوا بمن تستحيون فتخافوا مكائرتهم إياكم ، وكانوا قد كثروا بمصر واستطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى ، فسلط الله القبط عليهم ، فأجمعوا أمرهم على قتل ذريتهم الذكور عاماً وتركهم عاماً ، فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة ، فلما كان من قابل حملت بموسى - عليه السلام - فكان من أمره ما قصَّ الله - تعالى - .

وقد اشتملت هذه الآية على أعلى صور البلاغة ، يروى أن امرأة أنشدت شعراً فمدح الأصمى فصاحتها وبلاغتها ، فقالت : أبعد قوله - تعالى - : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ...) وقد جمعت بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

وتفصيل ذلك : أن (أَوْحَيْنَا) و (خِفْتَ) خبران ، و (أَرْضِعِيهِ) و (أَلْقِيهِ) أمران ، (وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي) نهيان ، و (إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) بشارتان ، فما أعظم وأبلغ القرآن ، إذ يجمع كل ذلك فى هذه الآية القصيرة .

(١) فى كتاب الأنبياء ، باب : مناقب عمر .

والمعنى الإجمالى للآية : وأعلمنا أم موسى أن ترضعه وقتما تكون آمنة عليه ، فإذا خافت عليه من الجواسيس ألقته في تابوت في النيل ، كما أعلمناها أنه موضع رعايتنا ، فلا تخاف عليه ضيعةً ولا خطراً من عدم رضاعه ، ولا تحزن على مفارقتة إياها إنا سنرده إليها عن قرب ونجعله من المرسلين حينما يبلغ سن الرسالة .

وهذا ما نراه في معنى الآية الكريمة حسب نصها ، وللمفسرين كلام كثير حول قصة وضعه وإخفائه وخوفها عليه من جواسيس فرعون ، وننقل فيما يلي ما قاله ابن كثير في ذلك فإنه احتاط فيه أكثر من غيره - وإن لم نجد له سنداً - ونراه تصويراً للحال حسب الخيال أقرب من أن يكون حكاية للمقال .

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية : ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل ، خافت القبط أن يفنى بنو إسرائيل ، فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة ، فقالوا لفرعون : إنه يوشك - إذا استمر هذا الحال - أن يموت شيوخهم ، وغلمانهم لا يعيشون ، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما يقوم به رجالهم من الأعمال ، فيخلص إلينا ذلك ، فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً ، فولد هرون في السنة التي يتركون فيها الولدان ، وولد موسى - عليه السلام - في السنة التي يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك ، وقوابل يدرن على النساء ، فمن رأيتها قد حملت أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها ، لا يقبلها^(١) إلا نساء القبط فإن ولدت جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرفهة ، فقتلوه ومضوا - قبحهم الله - فلما حملت أم موسى - عليه السلام - لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ، ولم تفتن لها الدايات ، ولكن لما وضعت ذكرًا ضاقت به ذرعاً ، وخافت عليه خوفاً شديداً ، وأحبته حباً زائداً ، وكان موسى - عليه السلام - لا يراه أحدٌ إلا أحبه ، قال تعالى : « وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي » ، فلما ضاقت ذرعاً به ألهمت في سرها ، ونفث في روعها كما قال تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ . . .) الآية . وذلك أن دارها كانت على حافة النيل ، فاتخذت تابوتاً

(١) يقال : قبلت القابلة المرأة : إذا تلقت ولدها حين ولادته .

ومهدت له فيه مهذاً، وجعلت ترضع ولدها فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه جعلته في ذلك التابوت وسيرته في البحر وربطته بحبل عندها، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعتة في ذلك التابوت وأرسلته في البحر، وذهلت عن ربطه، فذهب مع الماء حتى مرَّ به على دار فرعون^(١)، فكان من أمره ما قصَّ الله - تعالى - بقوله :

٨- (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) :

الفاء في قوله : (فَالْتَقَطَهُ) أفصحت عن جمل مقدرة تعرف من السياق ، أى : فنفذت ما أمرت به من إرضاعه ثم إلقائه في اليم عندما خافت عليه . والمراد من آل فرعون : أتباعه وجواريه ، ومن التقاطه : أخذه ، والتعبير عنه بالالتقاط للإيذان بأنهم أخذوه بإعزاز واهتمام كما يهتم باللقطة ، قال ابن كثير في تصوير ذلك : فالتقطه الجوارى فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ، ولا يدرين ما فيه ، وخشين أن يفتحنه قبل أن تفتحنه هي ، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأباه ، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها وما أراده الله من كرامتها ، وشقاوة زوجها^(٢) .

واللام في قوله : (لِيَكُونَ) لام العاقبة ، وليست لام التعليل ؛ فإنهم التقطوه ليكون لهم قرة عين ، لا ليكون لهم عدواً وحزناً ، أى : فكانت عاقبة التقاطه أنه كان عدواً لهم ومصدر حزن ، لا قرة عين ومصدر فرح وغبطة ، حيث كان من أمره معهم ما قص الله .

ومن المفسرين من جعل اللام هنا للتعليل ، على معنى أن الله قيضهم لالتقاطه ، ليجعله لهم عدواً وحزناً ، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم وخوفهم ولهذا قال عقبه : (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) .

ولفظ : (خَاطِئِينَ) إما من الخطيئة ، وهى الإثم^(٣) ، وإما من الخطأ ضد الصواب^(٤) ، ويكون عن غير عمد .

(١) انتهى كلام ابن كثير مع تصرف يسير .

(٢) (٢) ابن كثير مع تصرف قليل .

(٣) ويطلق عليه الخطأ أيضا - بكسر الخاء وسكون الطاء - وفعله : تخطىء - بفتح فكسر - إذا تعدد الذنب .

(٤) وفعله : خطىء أيضا في بمض لغات العرب ، أو : هو اسم فاعل من أخطأ على غير قياس .

والمعنى الإجمالى للآية : ففعلت ما أوحاه الله إليها من إرضاعه ثم إلقائه في اليم عندما خافت عليه ، فجرى به الماء إلى قصر فرعون ، فأخذته أتباعه بعناية وحرص وفرح كما تؤخذ اللقطة - أخذوه - لتكون عاقبته أن يصير لهم عدواً مخاصماً في الحق ، ومصدر حزن دائم لهم ، حيث كان سبباً في غرقهم في اليم وحزن أهليهم عليهم ، عقاباً لهم على كفرهم بربهم وعصيانهم لرسولهم ، إن فرعون وهامان وزيره وأعوانه كانوا آثمين باستعباد بنى إسرائيل وظلمهم وقتلهم ذكرانهم ، وكفرهم بآيات ربهم ، كما كانوا مخطئين في تقديرهم نجاتهم بقتل ذكور بنى إسرائيل فقد جحدوا أن الله شديد العقاب .

٩ - (وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ^(١) لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ^(٢)) :

لم يأت في القرآن ولا السنة اسم امرأة فرعون ، وجاء اسمها (آسية بنت مزاحم) عند عدد من المفسرين ، ويبدو أنه اسم عربي ، فهل هي من ذرية العمالق الذين حكموا مصر وكانوا عرباً ، أم كانت من قبيلة من قبائل العرب ؟ ويبدو لي أنه لا سند له ؛ فلذا لا نجزم بصحة هذه التسمية وندها لعلام الغيوب .

قال القرطبي : يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في البحر فأمرت بسوقه إليها وفتحه ، فرأت صبياً صغيراً فرحمته وأحبته فقالت لفرعون : « قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ » أى : هو قرة عين لي ولك .

وقال ابن كثير : يعنى أن فرعون لما رآه همّ بقتله ؛ خوفاً من أن يكون من بنى إسرائيل ، فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تُحاج عنه وتُحَبِّبه إلى فرعون ، فقالت : (قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ) فقال : أمّا لك فنعم ، وأمّا لي فلا ، فكان كذلك ، وهداها به ، وأهلكه الله على يديه . ١ هـ .

وقد نقل ابن كثير عن النسائي أن رسول الله ﷺ قال : « والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها » .

(١) وقدمت فنسبها عليه لما تعلمه من حبه إياها ، وإشار مصلحتها على مصلحته . (٢) جملة (وهم لا يشعرون) حال من آل فرعون ، والتقدير : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً وقالت امرأته كيت وكيت وهم لا يشعرون وجوز كونه حالاً من القائلة والمقول له ، والمراد بالجمع اثنان ، وقيل غير ذلك .

والخطاب في (لَا تَقْتُلُوهُ) إِمَّا موجه منها إلى فرعون على طريقة التعظيم ، حيث خوطب خطاب الجمع ، كما قال الشاعر : فقلت ارحموني يا إله محمد .
 وإِمَّا موجه إلى المأمورين بقتل الصبيان ، كأنها بعد أن خاطبت فرعون وأخبرته بما يستعطفه على موسى ، آمنت منه بادرة أمن جديد ، فالتفتت إلى خطاب المأمورين بقتل الصبيان فنهتهم عن قتله ، معللة ذلك بقوله - تعالى - حكاية عنها : « عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » ، أما نفعه لهم فلما رأته فيه من مخايل النجاة ، وأما اتخاذه ولداً فلما رأته فيه من مخايل الشرف اللائق بتبني الملوك ، ولم يكن لها منه ولد .
 والمعنى الإجمالي للآية : وقالت امرأة فرعون حين بهرها حسن موسى - قالت لفرعون أو لأعوانه - : لا تقتلوه وذروه حياً لعله ينفعنا نفعاً جزيلاً ننتوقه منه ، أو نتخذه ولداً ونتبناه حيث لا ولد لنا ، وهم لا يدرون ما يُخبئه لهم القدر ، من هلاك فرعون وجنوده وإنقاذ بني إسرائيل من عبوديتهم على يديه .

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا
 أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ
 قُصِّيه ۚ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١)

المفردات :

('فَارِغًا') أى : خالياً من كل شيء إلا من شأن موسى ، أو خالياً من التعقل وحسن التصرف . (إِن كَادَتْ لَتُبْدِيَ ") : إنها كادت لتعلن أمره للناس .
 (لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا) الربط على القلب : مجاز عن التثبيت بالصبر .
 (لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) : لتكون راسخة الإيمان بصدق وعدنا برده .

(١) (إِنَّ) مخففة من العقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، واللام فارقة بينها وبين (إِنَّ) النافية ، أى : أنها قربت أن تصرح بموسى وحاله معها .

(قُصِّيه) : تَتَّبِعِي أَثَرَهُ وَتَعْرِفِي خَبْرَهُ .

(فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ) : أَبْصَرَتْهُ عَنْ بَعْدٍ .

التفسير

١٠ - (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

اختلف العلماء في تفسير فراغ قلب أم موسى ، فمنهم من فسره بخلوه من كل شيء إلا من أمر موسى ، وصح ذلك عن ابن عباس - رضى الله عنهما - كما روى ذلك التفسير عن ابن مسعود والحسن ومجاهد وعكرمة .

ومنهم من فسره بالخلو من الصبر ، ومنهم من فسره بنسيانها وعد الله برده إليها من اليم ، وقال أبو عبيدة : فارغاً من الهم حيث عرفت أنه لم يفرق ، وأن فرعون عطف عليه وتبناه - كما يقال : فلان فارغ البال ، وقال آخرون : فارغاً من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد عدوه فرعون كما في قوله - تعالى - : « وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ » أى : لا عقول فيها .

فعلى رأى ابن عباس يكون معنى الآية : وصار قلب أم موسى فارغاً من كل شيء إلا من أمر موسى حيث ألقته في البحر ، ولاتدرى أين ذهب الماء به ، إنها كادت لشدة وجدها وحزنها على فراقه ، لتُظْهِرَ أنها ذهب ولدها في البحر ، وتخبر بحالها معه ، لولا أن ثبتها الله وصبرها لتكون من الملتزمين بتصديق الله في وعده ، وعلى رأى أبي عبيدة : وصار فؤاد أم موسى فارغاً من الهم حيث عرفت أنه لم يفرق ، وأن فرعون وامرأته تبنياه . إنها أوشكت أن تبوح بأمره وتكشف سره إلى آخر المعنى السابق .

١١ - (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

كان لموسى - عليه السلام - أخت كبرى تحسن تنفيذ ما تكلف به ، وكان اسمها مريم - كما قيل - فلما ألقته أمه في البحر قالت لأختها هذه : تتبعى أثره واعرفى خبره لتعرف مصيره ، فأبصرته عن بعد وأهل فرعون لا يشعرون أنها أخته ، وأنها تتعرف حاله ومصيره .

* (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِیحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(حَرَّمْنَا) : منعنا ، فالتحريم مجاز عن المنع ؛ لأن من حُرِّم عليه شيء فقد مُنِعَ .
 (الْمَرَاضِعُ) : جمع مُرْضِعٍ ؛ وهى المرأة لها ولد ترضعه فإن وصفتها بإرضاع الولد قلت : مرضعة .
 (يَكْفُلُونَهُ) : يتولَّونه ويقومون على تربيته ورضاعته .
 (أَشُدَّهُ) : قُوَّتَهُ ، وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة كما ذكره صاحب القاموس ، وقال البيضاوى : هو من ثلاثين إلى أربعين سنة ، وهو واحد جاء على بناء الجمع ، كأنك^(١) ، ولا نظير لهما ، أو جمع لا واحد له .
 (وَاسْتَوَى) : واعتدل وتمَّ وبلغ المبلغ الذى لايزاد عليه ، واستوى الرجل : بلغ أشده أو أربعين سنة .
 (حُكْمًا) : أى : حكمة .
 (وَعِلْمًا) : ومعرفة وفهما ، وعِلْمُهُ - بكسر اللام - علما : عَرَفَهُ .

التفسير

١٢ - (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِیحُونَ) :

(١) الآنك : الرصاص .

لما أصبح موسى بدار فرعون وأحبته زوجته وطلبت منه الإبقاء على حياته قائلة :
 «قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» عرضوا عليه المراضع التي
 كانت لديهم ، فلم يقبل منهم ثديا ، فذلك قوله - تعالى - : (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ . . .)
 الخ .

والمعنى : منع الله موسى أن يُرَضَّع ثدي امرأة قط - قال ابن عباس : لا يُؤْتَى له بمريض
 فيقبلها ، وهذا تحريم منع لانهريم شرع ، قال امرؤ القيس :

جالت لتصرعني فقلت لها اقصرى إني امرؤ صرعى عليك حرام

أى : ممنوع .

وقد منعه الله - سبحانه - أن يرتضع ثدي امرأة غريبة ، حتى يحدث ما أراده
 - سبحانه - من قبل حضور أخته التي كانت تتبعه .

قال ابن كثير : وذلك لكرامته عند الله وصيانيته له أن يرتضع غير أمه ، ولأن الله
 - سبحانه وتعالى - جعل ذلك سببا لرجوعه إليها .

فاغتم آل فرعون لامتناعه عن الرضاعة وأهمهم ذلك وخافوا عليه التلف والهلاك .
 وتلمسوا له المراضع ؛ فلما رأتهم أخته حائرين فيمن يرضعه قالت : ألا أرشدكم إلى أسرة
 كريمة تكفله وتتعهده بالرضاع والتربية وتقوم برعايته ، ولا تنقص في خدمته ، وهم له حافظون
 ومخلصون في رعايتهم له ، فلما قالت لهم ذلك طلبوا هذه المراضع ، فلما حضرت دخلوا
 بها عليه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا ، واستدعت زوجة الملك أم
 موسى وأحسنّت إليها وأعطتها عطاء جزيلا - وهي لاتعرف أنها أمه الحقيقية - وحين طلبت
 أم موسى أن تأخذ معها موسى لترضعه في بيتها أجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجرت
 عليها النفقة والإحسان الجزيل ، وهكذا رجعت أم موسى بولدها إلى بيتها راضية مرضية
 قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا في عز وجاه ورزق واسع ، ولهذا جاء في الحديث : «مثل
 الذي يعمل ويحتسب في صنعه الخير كمثل أم موسى تُرَضَّع ولدها وتأخذ أجرها» .

ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل ، فسبحان من بيده الأمر ، ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، فهو الذى جعل لمن اتقاه عند كل هم فرجا ، ومع كل ضيق مخرجا ، والله در القائل :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

١٣ - (فَرَدَّدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :

أرجع الله موسى إلى أمه كي تطيب نفسها وتسرّ بعودته إليها ، ولاتحزن بفراقه ، ولتزداد علما بأن جميع ما وعد الله حق لاخلف فيه من رده إليها وجعله من المرسلين ، بمشاهدة بعضه ، وقياس بعضه عليه ، ولكن أكثر الناس لايعلمون أنه حق فيرتابون ، ويشبه أن تكون جملة « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » تعريضا بما فرط من أمه حين سمعت بخبر موسى ووقوعه في يد عدو الله فرعون ، فنسيت وعد الله فجزعت وأصبح فؤادها فارغا بعد أن أضحى وليدها الرضيع كالحمل الوديع في عرين الأسد .

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : حكم الله في أفعاله وعواقبها المحموده ، فربما يقع الأمر كبرها إلى النفوس وعاقبته محموده ، كما قال تعالى : « وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ » .

وقال القرطبي : (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) يعنى أكثر آل فرعون لايعلمون ، أى : كانوا فى غفلة عن التقدير وسر القضاء .

١٤ - (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) :

لما ذكر الله - تعالى - مبدأ أمر موسى - عليه السلام - ذكر أنه لما بلغ أشده وكمل وتم نصبحه أعطاه الله الحكمة والعلم والمعرفة والحلم ، ومثل ذلك الجزاء الذى جزينا به موسى وأمه نكافئ المحسنين على إحسانهم .

واختلف فى زمان بلوغ الأشد والاستواء ، أخرج ابن أبى الدنيا من طريق الكلبي عن ابن عباس أنه قال : الأشد ما بين الثمان عشرة إلى الثلاثين ، والاستواء ما بين الثلاثين

إلى الأربعين ، وأخرج ابن حميد عن مجاهد أنه قال : الأشدُّ ثلاث وثلاثون سنة ، والاستواء أربعون سنة ، وهي رواية عن ابن عباس .

ونقل عن الزجاج : أن الأشد مابين الثلاثين إلى الأربعين ، واختاره بعضهم لموافقته لقوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً » لأنه يشعر بأنه مُنْتَهَى إلى الأربعين ، والحق أن بلوغ الأشد في الأصل هو الانتهاء إلى حد القوة وذلك وقت تمام النمو وغايته ، والاستواء : تمام العقل وكماله ونضجه ، وذلك يختلف باختلاف الأقاليم والأخصار والأحوال ولذا وقع له تفاسير كثيرة في كتب اللغة والتفسير .

كما اختلف في المراد من الحُكْم والعِلْم ، قال الزمخشري : العلم : التوراة ، والحُكْم : السنة ، وحكمة الأنبياء - عليهم السلام - : سنتهم ، قال تعالى في سورة الأحزاب : «وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ » الآية : ٣٤

وقيل : آتيناه سيرة الحكماء والعلماء وأخلاقهم وسنتهم قبل البعثة ، لأن استنباهه - عليه السلام - كان بعد وَكْرَ القبطى ، والهجرة إلى مدين ورجوعه منها .

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿٥٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۚ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(فَاسْتَغَاثَهُ) : فطلب غوثه ونصره ومساعدته . (شِيعَتِهِ) شِيعَةُ الرجل - بكسر الشين - : أتباعه وأنصاره ، ويقع على الواحد وغيره مذكرا ومؤنثا ، وقد غلب على كل من يتولى عليا وآل بيته حتى صار اسما خاصا بهم .

(فَوَكَّزَهُ مُوسَى) : فضربه بِجُمُع كفه ^(١) ، وقد يطلق الوكز على معنى الطعن والدفع . (فَقَضَى عَلَيْهِ) قال الألوسي : أنهى حياته ، أى : جعلها مُنتهية مُتَقَضِيَةً .
 (ظَهيراً) : مُعِيناً ومساعداً . (يَتَرَقَّبُ) : ينتظر ويترصد المكروه .
 (اسْتَنْصَرَهُ) : طلب نصره ومعاونته . (يَسْتَصْرِخُهُ) : يستغيث به .
 (يَبْطِشُ) : يأخذه بالعنف والشدة والبأس . (جَبَّاراً) الجبار : اسم من أسمائه تعالى ، والجبار : العظيم القوى ، وكل عات ، ومن يقاثل في غير حق .

التفسير

١٥ - (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَايَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ) :

ذكر - سبحانه وتعالى - قصة قتل موسى ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين ، ثم ماقدّر له بعد ذلك من الإكرام والنبوة والتكليم فقال :
 (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا . . .) إلخ .

قال ابن عباس : دخل موسى مدينة - منف - من أرض مصر فى وقت لا يعتاد دخولها أو لا يتوقعونه فيه ، وكان - كما روى عن الحبر - وقت القائلة ، وفى رواية عنه : بين العشاء والعمة .

وإزاء هذا الخلاف فى الرواية عن ابن عباس ، نرى أن التعيين لامبرر له ، فيكفى أنه وقت غفلة ، والله يعلم أكان ليلاً أم نهاراً ؟

وقال ابن إسحاق : هى مصر ، وكان موسى - عليه السلام - قد بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون ، فاختنى وغاب ثم دخلها متنكراً ، فوجد فيها رجلين يتنازعان ويتحاربان أحدهما من شايعة وتابعه ، وهم بنو إسرائيل ، والآخر من مخالفه وهم القبط ،

(١) فى القاموس : جُمُع الكف - بالضم - وهو حين تقبضها .

فاستعان الإسرائيلي بموسى وطلب منه نصره ومساعدته على خصمه القبطى ، واستجاب له موسى وأعانه وضرب القبطى فقتله من غير قصد ، ثم أسف موسى وقال : إن إقدامى على هذا من تزيين الشيطان وإغوائه ، إن الشيطان للإنسان لعدو ظاهر العداوة واضح الضلال والإضلال .

واختلف فى سبب تقاتل هذين الرجلين ، ف قيل : كان أمراً دينياً ، وقيل : كان أمراً دُنيوياً ، روى أن القبطى كلف الإسرائيلي حمل الحطب إلى مطبخ فرعون فأبى ، فاقنتلا لذلك ، وكان القبطى - كما روى عن سعيد بن جبير - خبازاً لفرعون ، والله أعلم بصحة ذلك .

١٦- (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

قال موسى - مُتَضَرِّعاً داعياً ربه - : يارب إني أسأت إلى نفسى ، بما فعلت من ضرب ترتب عليه القتل ، وكان فيه ذهاب النفس ، فاغفر لى ذنبى ، وهكذا ندم على عمله فَحَمَلَهُ نَدْمُهُ عَلَى الرَّجُوعِ لِرَبِّهِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْ ذَنْبِهِ فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ .

ولايشكل ذلك على القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر قبل الرسالة وبعدها ، لأن الوكر من الصغائر ، وما وقع من القتل كان خطأً كما قاله كعب وغيره - بل قيل : لايشكل أيضاً على القول بعصمتهم عن الصغائر والكبائر مطلقاً لجواز أن يكون - عليه السلام - قد رأى أن فى الوكر دَفْعَ ظالم عن مظلوم وتخليص ضعيف من قوى ، ومنع معتد من اعتدائه ، ففعله غير قاصد به القتل ، وكأنه - عليه السلام - بعد أن وقع منه ماوقع تأمل ، فظهر له إمكان الدفع بغير الوكر . وأنه لم يتثبت فى أمره لما اعتراه من الغضب ، فعلم أنه فعل خلاف الأولى بالنسبة إلى أمثاله ، فقال ما قال من أنه من عمل الشيطان على عادة المقربين فى استعظام خلاف الأولى :

١٧- (قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ) :

قال موسى - خاضعاً سائلاً ربه متوجهاً إليه - : يارب بحق إنعامك على بالمعرفة والحكمة والتوحيد ، وحفظى من شر فرعون وقومه وفقنى للخير والصواب ، فإن وفقنى إلى ذلك

فلن أكون عوناً ومساعداً للكافرين والمخالفين لأوامرك ، وعن ابن عباس : لم يستثن ، فابتلى به مرة أخرى ، يعنى : لم يقل : فلن أكون إن شاء الله .

وقيل معناه : بسبب ما أنعمت على من قوة الجسم ومتانة التركيب وغير ذلك من النعم أشكرك ، فلن أستعمل نعمك في مظاهرة من تؤدى معاونته إلى الوقوع في جرم وإثم .

النهي عن معاونة الظلمة :

احتج أهل العلم بهذه الآية على منع معاونة الظلمة وخدمتهم ، أخرج عبد الله بن الوليد الرصافي : قلت لعطاء بن رباح : إن أخى ليس له من أمور السلطان شيء إلا أنه يكتب له بقلم ما يدخل وما يخرج ، وله عيال ، ولو ترك ذلك لاحتاج واستدان ، فقال : من الرأس ؟ قال : خالد بن عبد الله القسرى . قال : أما تقرأ ما قاله العبد الصالح : « رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ » فلا يُعينُهُم أخوك ، فإن الله يعينه . ذكره القرطبي والآلوسى والزمخشري .

قال عطاء : فلا يحل لأحد أن يعين ظالماً ، ولا يكتب له ، ولا يصحبه ، وإن فعل شيئاً من ذلك كان معيناً للظالمين ، قال تعالى : « وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ » فإذا كان الرُّكُونُ إلى الظلمة أو العمل معهم موجبا لغضب الله وسخطه ، مُعْرِضاً لعقابه وناره ، فماذا يكون حال من انغمسوا منهم في شرورهم وآثامهم ، وشاركوهم في ظلمهم وأعانوهم على القتل والتشريد للأحرار الصالحين ؟ بل من كانوا أداة تعذيب وقهر وظلم للأبرياء ؟ لاشك أن عقابهم أشد وعذابهم أعظم .

١٨- (فَأَصْبَحَ إِلَى الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ) :

فأصبح موسى في مصر بعد قتله القبطى فرعاً يتوقع أن يصيبه الأذى من القوم بسبب قتله المصرى ، وقيل : خائفاً وقوع المكروه من فرعون ، يترقب نصرة الله عليه ، فإذا صاحبه الإسرائيلي الذى نصره بالأمس وساعده وقتل القبطى بسببه يستغيث به مرة ثانية على

مصرى آخر، فنهزه موسى وزجره قائلاً له : إنك لظاهر الغواية كثير الشر ؛ لأنك تسببت في قتل رجل ، وتقاتل آخر ، ودعوتنى مرة ثانية لنصرتك ومساعدتك .

١٩ - (فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ) :

أى : فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطى الذى هو عدوُّ لهما توهم الإسرائيلى المستصرخ لضعفه وذلته أن موسى يريد البطش به ، فقال له - يريد أن يدفع عن نفسه - : (أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ . . .) الآية - ولم يكن أحد يعلم بقتل موسى للقبطى أمس سوى هذا الإسرائيلى ، لأن ذلك كان والناس فى غفلة ، فلما سمع القبطى ذلك تلقفه من فمه ، ثم ذهب به إلى بيت فرعون ، فألقاها عنده ، فاشتد حنقه ، وعزم على قتل موسى . . هكذا قال ابن كثير ، وكون الخطاب من الإسرائيلى لموسى هو رأى ابن عباس ، وهو الذى قال به ابن كثير كما تقدم .

وقال الحسن : قاله القبطى الذى هو عدوُّ لهما ، كأنه عرف من قول موسى للإسرائيلى : (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ) أنه الذى قتل القبطى بالأمس من أجله ، ولما انتشر الحديث ووصل - بآية صورة - إلى فرعون ومَلَيْهِ هموا بقتل موسى - عليه السلام - فخرج مؤمن من آل فرعون - قيل : هو ابن عم فرعون - ليخبره بذلك وينصحه ، كما قال عز وجل :

(وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ
 الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾
 فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن
 يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(الْمَلَأَ) كجبل : الأشراف ، والقوم ذوو الشارة والتجمع .

(يَأْتَمِرُونَ بِكَ) : يتشاورون بسببك ، وسمى التشاور ائتماراً لَّأنَّ كلاً من المتشاورين
 يأمر- الآخر ويأتمر بأمره ، والائتمار والمؤامرة : المشاورة والهم بالشر .

(سَوَاءَ السَّبِيلِ) : الطريق السوى .

التفسير

٢٠- (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ
 فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) :

المعنى : وجاء رجل مؤمن من آل فرعون من أقصى المدينة يسرع في مشيه لمزيد اهتمامه
 بإخبار موسى ونصحه قال : يا موسى إن وجوه قوم فرعون والأشراف منهم يتشاورون في
 أمرك ويشير بعضهم على بعض بقتلك قصاصاً للقبطى الذى قتله بالأمس ، فخرج من مصر
 قبل أن يظفروا بك ، إني لك من الناصحين المخلصين ، ولما أخبره ذلك الرجل بما تملاً عليه
 فرعون وكبار دولته في أمره كان ما قص الله بقوله :

٢١- (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

فخرج موسى - عليه السلام - من مصر ممثلاً نصيح ذلك المؤمن خائفاً يتوقع أن يتعرض له أعداؤه بالأذى في الطريق ، يتلفت خشية أن يُدْرَكَ ، يقول ضارِعاً إلى الله ربه أن يحفظه وينجيه من اعتداء المعتدين ، من فرعون وقومه .

٢٢- (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ) :

ولما خرج موسى - عليه السلام - فاراً بنفسه منفرداً خائفاً ، وصرف وجهه ناحية مدين - قرية شعيب - ورأى حاله من خلوه من زاد وغيره ، وعدم معرفته بالطريق فَوَضَّ أمره إلى الله - تعالى - راجياً أن يهديه الطريق الأقوم السوى - طريق الخير والنجاة - قال ابن عباس : خرج وليس له علم بالطريق إلَّا بحسن ظنه بربه ، وقال ابن كثير : حقق الله له ما طلبه ، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة فجعله هادياً مهدياً .

(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ
 وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا
 لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ
 تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾
 فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ
 لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ
 قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا
 يَبْنَوبُ اسْتَفْجَرَهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ
 إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نُنَادِي بِكُمْ مِنْ رَبِّنَا أَوْ أَتُوبَ أَمْ يُنَادِي بِكُفْرَانٍ
 فَإِنْ أُنْمِمتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ
 سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
 أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ
 وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ) : وصل إليه ، والورد - بالكسر - : الإشراف على الماء وغيره دخله
 أو لم يدخله ، والنصيب من الماء ، والقوم يردون الماء . (تَذُودَانِ) : تدفعان وتمنعان عنهما
 عن الماء ، ومنه قول الرسول ﷺ : « فَلْيَدَّادَنَّ رَجُلٌ عَنْ حَوْضِي » أى : لِيُطْرَدَنَّ

ويعنعن . (مَا خَطْبُكُمَا) : ما شأنكما ؟ وفي القاموس : الخطب : الشأن والأمر صغر أو عظم ، والجمع : خطوب . (يُصْدِرَ) : قرأ ابن عامر وأبو عمرو : (يَصْدُرُ) - بفتح الياء - من صدر ، ضد ورد ، أى : يرجع الرعاة بأغنامهم ، وقرأ الباقون : (يُصْدِرَ) من أصدر بمعنى أرجع ، أى : حتى يرجعوا مواشيهم . (الرَّعَاءُ) : جمع الراعى ، وهو كل من ولى أمر الحيوان وغيره ولاحظه محسناً إليه ، وقام على حفظه ومراقبته . (تَأْجُرْنِي ثَمَانِي حِجَجٍ) قال أبو البقاء : تأجرني من أجرته إذا كنت له أجيراً ، كقولك : أبوته إذا كنت له أباً ، أو من تأجرني بمعنى تشيبي ، ومنه تعزية الرسول ﷺ : « أَجْرَكُمْ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ » ، وفي القاموس : أَجْرُهُ ، بِأَجْرِهِ ، وَيَأْجُرُهُ : جزاه كآجره ، والأجر : الجزاء على العمل .

(حِجَجٍ) : جمع حِجَّة - بالكسر - وهى السنة . (أَشَقَّ عَلَيْكَ) : أوقعك فى المشقة والصعاب . (فَلَا عُذْوَانَ عَلَى) أى : لَا يُعْتَدَى عَلَى فى طلب الزيادة .

التفسير

٢٣ - (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي لَأَنَّا لَا نَمْلِكُ حَتَّى يَصْدِرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) :

ولما بلغ موسى ماء مدين ووصل إلى بئرها وأشرف عليه وجد فوق شفيرها وعلى جوانبها جماعة كثيرة من الناس مختلفى الأصناف يسقون مواشى مختلفة ، منهم من كان يسقى إبلاً ومنهم من كان يسقى غنماً وهكذا ، ووجد فى مكان أسفل من مكانهم أو ثَمًا بلى جهته إذا قدم عليهم امرأتين تمنعان غنهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء كما قال ابن عباس ، أو : لثلا تختلط بغيرها كما قاله الزجاج ، فلما رآهما موسى - عليه السلام - رق قلبه لهما وعطف عليهما وقال : ما شأنكما وما خبركما ؟ لماذا لا تردان الماء مع هؤلاء ؟ قالتا : عادتنا ألا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء بعد ريها ؛ لأننا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مدافعة الرجال ومزاحمتهم ، وما لنا رجل يقوم بذلك ، وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر ، فلا بد لنا من تأخير السقى إلى أن يقضى الناس أوطارهم من الماء ، يقصدان إبداء العذر عن توليها السقى بأنفسهما .

وفى سؤاله - عليه السلام - إياهما دليل على جواز مكالمة الأجنبية مع التصون والعفاف .

قال الزمخشري : فإن قيل : كيف ساغ لنبي الله أن يرضى لبنتيه بسقى الغنم ؟
فالجواب : أن الأمر في نفسه ليس بمحذور فالدين لا يبأه ، وأما المروءة فالناس مختلفون
في ذلك ، والعادات متباينة فيه ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو
فيه غير مذهب أهل الحضرة ، خصوصاً إذا كانت الحال حال ضرورة .

قال ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٤ : وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو على أقوال :
أحدها : أنه شعيب - عليه السلام - الذي أرسل إلى أهل مدين وهذا هو المشهور عند
كثير من العلماء ، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد ، ورواه ابن أبي حاتم ، قال : حدثنا
أبى ، حدثنا عبد العزيز الأزدي ، حدثنا مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيباً هو الذي قص عليه
موسى القصص .

وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب ، وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب ، وكان
شعيب قبل زمن موسى بمدة طويلة ، لأنه قال لقومه : « وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » ولقد
كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل - عليه السلام - كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم ،
وكان بين الخليل وموسى مدة طويلة ، وما قيل : إن شعيباً عاش مدة طويلة إنما هو - والله أعلم
احتراز من هذا الإشكال ، ومما يقوى كونه ليس بشعيب النبي أنه لو كان إياه لكان جديراً
أن ينص على اسمه في القرآن ههنا ، وماءء من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده ،
ثم الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه شيرون - والله أعلم -

ويقول الآلوسى - بعد أن ساق مثل ما تقدم - : والأخبار التي وقفنا عليها في هذا
المطلب مختلفة ولم يتميز عندنا ما هو الأرجح فيها .

٢٤ - (فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) :

اهتز وجدان موسى ، وتحركت عوامل الرحمة في قلبه ، فتطوع لمساعدتهما وسقى غنهما
لأجلهما ، ثم ركن إلى مكان ظليل ليستريح من الجهد الذي بذله ، وهو يقول في تضرع وتذلل
لربه : يارب إني فقيرٌ إلى ما تسوقه إلي من خير ، محتاجٌ إلى شيء تنزله من خزائن كرمك ،
ويبدو من عبارته شدة الحاجة إلى نجدة من رحمة الله بعد ما قاسى من سفر طويل وحرمان
شديد ، فعرض بالدعاء ولم يصرح بالسؤال .

قال الزمخشري : وإنما فعل ذلك رغبة في المعروف ، وإغاثة للملهوف ، لأنه بعد أن وصل إلى ماء مدين وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة متكاثفة العدد ، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيتهما مترقبتيْن لفراغهم فما أبطأت همته في انتهاز تلك الفرصة احتساباً على ما كان به من النصيب والجوع ، فرحمهما وأغاثهما وكفاهما أمر السقى في تلك الرحمة بقوة قلبه وشدة ساعده وما آتاه الله من الفضل في متانة الخلقة ، وفيه انتهاز فرصة الاحتساب وترغيب في الخير ، وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين ، والأخذ بسيرهم ومذاهبهم .

ولما رجعت الفتاتان بالغنم إلى أبييهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما مسرعتين ، فسألهما عن خبرهما ، فقصتا عليه ما فعل موسى - عليه السلام - فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها .

٢٥ - (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : فجاءت إحدى الفتاتين مؤفدة من قبل أبيها تسير نحو موسى سير الحرائر ، في حياء وخفر ، قالت : إن أبي يدعوك ليشبك ويكافئك على سقيك غنمنا ، فلما ذهب موسى إلى والد الفتاتين وحده حديثه ، وقص عليه قصصه ، وما جرى له ، وسبب خروجه من مصر ، وتتبع القوم له واقتفاءهم أثره ، وشدة حرصهم على ملاقاته والفتك به ، قال له : طُبِّ نَفْسًا وَقَرَّ عَيْنًا ؛ فقد خرجت من مملكتهم ، ولا سلطان لهم في بلادنا وسلمت من القوم المعتدين : يُرِيدُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ .

وفي قول الفتاة السابق ما فيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ، وقد لبى موسى دعوة شعيب لا على سبيل أخذ الأجر على معروف بذله لبنتيه ، ولكن على سبيل التقبل لمعروف قُدِّم له ، وقد قص على شعيب قصصه وعرفه أنه من بيت النبوة ، ومثله حقيق بأن يُضَيَّفَ وَيُكْرَمَ ، على أنه ليس بمنكر أن يقبل الأجر على خير فعله لاضطرار الفقر والفاقة .

رَوَى أَنهَا لما قالت له : « لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا » كره ذلك ، ولما قُدِّمَ إليه الطعام امتنع مع شدة حاجته إليه وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بِطَّلَاعٍ^(١) الأرض ذهباً ولا نأخذ على المعروف ثمنًا ؛ فقال شعيب : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا^(٢) .

هذا وإن كل من فعل معروفًا فأهدى بشيء لم يحرم أخذه .

٢٦ - (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) :

قالت إحدى ابنتي هذا الرجل (ولعلها هي التي استدعت موسى إلى أبيها والتي زوجها من موسى عليه السلام) : يا أبت اتخذه أجيرًا لرعى الغنم والقيام على شئوننا وحفظها ، ورعايتها ، إنه خير من تستأجره للقيام بهذه المهمة ، وأداء هذا العمل لقوته وأمانته ، وكلامها هذا كلام حكيم جامع لا يزداد عليه ؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان - أعنى القوة والأمانة - في القائم بالعمل فقد فرغ بال صاحبه وتم مراده ، وقد ساقته مساق المثل حيث قالت : (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) بدلًا من أن تقول استأجره لقوته وأمانته .

وعن ابن عباس : أن شعيبًا أحفظته الغيرة : أغضبته ، فقال : وما علمك بقوته وأمانته ؟ فذكرت له حمله حجرالبشر ونزعه الدلو ، وأنه صوّب رأسه^(٣) حين بلغته رسالته ، وأمرها بالمشي خلفه . إ. هـ : بتصرف .

روى ابن كثير والزمخشري عن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب حين قالت : « إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ » ، وصاحب يوسف في قوله : « أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا » ، وأبو بكر في عمر ، أي : في اختياره عمر وترشيحه ليكون خليفة بعده .

وقدمت وصفه بالقوة مع أن أمانة الأجير لحفظ المال أهم في نظر المستأجر ، لِتَقْدَمَ عليها بقوته على علمها بأمانته ، أو ليكون وصفه بالأمانة بعده من باب الترقى من المهم إلى الأهم ،

(١) مَطْلَاعُ الشَّيْءِ - ككِتَاب - : ملوّه . إ. هـ : قاموس .

(٢) الكشاف بتصرف .

(٣) صَوَّبَ رَأْسَهُ : خَفَضَهَا . إ. هـ : قاموس ص ٩٤ ج ١

واستدلّ بقولها : (استأجره) على مشروعية الإجارة عندهم ، وكذلك كانت في كل ملة وهي من ضروريات الحياة وفيها قضاء لمصالح الناس .

٢٧- (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) : استئناف بياني وقع جواباً لسؤال مقدر ، كأنه قيل : فما قال أبوها بعد أن سمع كلامها ؟

أى : قال شعيب - عليه السلام - لموسى : إني أريد أن أزوجه واحدة من ابنتي هاتين على أن يكون مهرها أن تعمل عندي أجيراً لرعى الغنم ثمان سنوات فإن أتممت عشراً في الخدمة والعمل فالإتمام من عندك لا ألزمتك به ، ولكن إذا فعلته فهو منك تفضل وتبرع ، وما أريد أن أصعب الأمر عليك وأوقعك في مشقة بإلزام أطول الأجلين ، ستجدني إن شاء الله من الصالحين المحسنين للمعاملة الموفين بالعهد .

وعلى النحو المتقدم وعد شعيب موسى المساهلة والمسامحة من نفسه ، وأنه لا يشق عليه فيما استأجره له من رعى غنمه ولا يفعل نحوه ما يفعله المعاسرون مع من يعمل لهم من المناقشة في مراعاة الأوقات ، والمضايقة في استيفاء الأعمال ، وتكليف الرعاة أشغالاً خارجة عن حد الشرط ، وهكذا كان الأنبياء - عليهم السلام - آخذين بالأسمح في معاملات الناس ، وفي الآية الكريمة السابقة جواز عرض الولي ابنته على الرجل الصالح ، وهذه سنة حسنة ، عرض صالح بن مدين على صالح بنى إسرائيل بنته ، وعرض عمر بن الخطاب بنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، فلا بأس بعرض الرجل وليته ، والمرأة نفسها على الرجل الصالح اقتداءً بالسلف الصالح .

كما تدل على أن للأب أن يزوجه ابنته البكر البالغ من غير استثمار ، وبه قال الشافعي ومالك واحتجوا بهذه الآية ، وقال أبو حنيفة : إذا بلغت الصغيرة فلا يزوجه إلا برضاها ، أما الصغيرة البكر فيزوجها وليها بغير رضاها بلا خلاف ، واستدل الشافعي بقوله : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ » على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح ، وخالفه غيره .

قال القرطبي في المسألة العاشرة : قوله تعالى : (إِخْدَى ابْتِئَتْ) يدل على أنه عرض لا عقد لأنه لو كان عقداً لَعَيَّنَ المعقود عليها له ، لأن العلماء اتفقوا على أنه لا يجوز الإبهام في النكاح ، فلا بد من تعيين المعقود عليها .

ثم قال في المسألة الحادية عشرة : أمَّا تعيين الفتاة فقد حدث عند العقد .

ثم قال : وأما ذكر أول المدة في الإجارة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه بل هو مسكوت عنه ، فإمَّا عَيْنَاهُ وإلَّا فهو من أول العقد .

وقد دلت الآية الكريمة على أنه قد أصدقها منفعة هي الإجارة ، وهو أمر قد قرره شرعنا ، وجرى في حديث الرجل الذي لم يكن عنده إلا شيء من القرآن ، وقد قال الرسول ﷺ للرجل سائلاً : « ما تحفظ من القرآن ؟ » فقال : سورة البقرة والتي تليها . قال : « فَعَلَّهَا عِشْرِينَ آيَةً وهي امرأتك » إ هـ : ملخصاً من القرطبي .

وتسمية المهر أجراً اصطلاح قرآني وقد قال : « فَانكِحُوهُمْ بِأَذْنِ أَهْلِهِمْ وَآتُوهُمْ أَجُورَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ » .

فإن قيل : إن إجارته كانت منفعة لأبيها كما هو ظاهر النص ، فالجواب : أن الغنم إما أن تكون لها فمففعة إجارته عائدة عليها ، وإن كانت الغنم لأبيها فربما كان ذلك شرع من قبلنا يجعل المهر من حق الأب .

٢٨- (قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) :

قال موسى لصهره : ذلك الذي قُلْتَهُ وعاهدتني فيه ، وشارطتني عليه قائم بيننا ، لا يخرج كلانا عنه ، لا أنا عما شرطت على ، ولا أنت عما شرطت على نفسك ، أي أجل من الأجلين - أطولهما الذي هو العشر أو أقصرهما الذي هو الثاني - وفيتك بأداء الخدمة فيه فلا يُعْتَدَى على بطلب الزيادة عليه .

قال الزمخشري : أراد بذلك تقرير أمر الخيار وأنه ثابت مستقر ، وأن الأجلين على السواء ، إمَّا هذا وإمَّا هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء ، وأما التتمة فموكولة إلى رأي

إن شئتُ أثبتُ بها وإلا لم أُجبر عليها ، وقيل معناه : فلا أكون معتدياً ، وهو نفي للعدوان عن نفسه ، كقولك : لا إثم على ولا تبعة على ، والله على ما نقول من الشروط الجارية بيننا وكيل وشاهد وحفيظ ، والمراد : توثيق العقد وأنه لا سبيل لأحد منهما إلى الخروج عنه أصلاً ، وبما سبق في الآيتين استدلل العلماء على أن اليسار لا يعتبر في الكفاءة ؛ فإن موسى لم يكن حينئذ موسراً ، وأن في قوله تعالى : (وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) اكتفاءً بشهادة الله - عز وجل - إذ لم يُشهد أحداً من الخلق ، فبدل ذلك على عدم اشتراط الإشهاد في النكاح عندهم ، وقد اختلف في ذلك على قولين : أحدهما : أنه لا ينعقد إلا بشاهدين ، وبه قال أبو حنيفة ، والشافعي ، الثاني : أنه ينعقد دون شهود ، وبه قال مالك ؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد ، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح ، وفرق ما بين النكاح والسفاح اللدف^(١) .

قال ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٥ : وقد دل الدليل على أن موسى - عليه السلام - إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما .

قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شجاع ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير قال : سألت يهودى من أهل الحيرة : أى الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت على ابن عباس - رضى الله عنه - فسألته ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ؛ إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل ، والله - تعالى - أعلم^(١) .

(١) انظر القرطبي : المسألة الثالثة والعشرين .

* (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ۚ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ) : أتم المدة المضروبة بينه وبين شعيب .
 (ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ) : أبصر من الجهة التي تلى الطور ، وأصل الإيناس : إبصار ما يؤنس .
 (بِخَبَرٍ) : بنيل يعلم منه الطريق ، وكانوا قد أخطأوا الطريق وضلوا عنه .
 (جَذْوَةٍ) - مثلثة الجيم - : عود غليظ مشتعل . (تَصْطَلُونَ) : تستدفئون .

التفسير

٢٤ - (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ . . .) الآية .

هذه الآية تتضمن كلاماً قبلها يقتضيه سياق القصة، وتتابع أحداثها، فإن قوله - تعالى - على لسان شعيب : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ . . . » الآية ^(١) لم يزد على أنه مجرد عرض ، وإبداء رغبة لم يبرم فيه عقد ، ولم تتكامل معه أركان الزواج ، ومن عادة القرآن أن يستغنى عن ذكر ما يستدعيه المقام ويفهم من التتابع ؛ فإن الإيجاز من مقاصد البلاغة ، وتام النسج على هذا أن يقال : فلما توافقا ، وتم عقد النكاح أخذ في إمضاء ما التزمه (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ) أى : فلما أتم موسى المدة التي تركها شعيب لخيار موسى - عليه السلام - والمراد به : الأجل الآخر كما أخرجه ابن مردويه عن مقسم ، عن الحسن ابن علي بن أبي طالب - رضى الله عنهما - وأخرج البخارى ، وجماعة عن ابن عباس : أنه سئل : أى الأجلين قضى موسى - عليه السلام - ؟ فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ؛ إن رسول الله إذا قال فعل .

وقوله تعالى : (وَسَارَ بِأَهْلِهِ) أى : مضى إلى مصر بأهله ، وما كان معه من الزاد بإذن من شعيب - عليه السلام - قالوا : كان موسى - عليه السلام - قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم خفية من فرعون وقومه ، قال ابن عطاء : لما أتم موسى أجل المجنة ، ودنت أيام الزلفة ، وظهرت أنوار النبوة سار بأهله ليشتروا معه في لطائف صنع ربه .

ومعنى (ءَانَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا) : أبصر من الجهة التى تلى الطور ، لا من بعضه كما هو المتبادر ، وأصل الإيناس - على ما قيل - : الإحساس من الأنس فيكون أعم من الإبصار .

وقال الزمخشري : هو الإبصار البين الذى لا شبهة فيه ، واستظهر بعضهم أن المبصر كان نوراً حقيقة إلا أنه عبر عنه بالنار اعتباراً لاعتقاد موسى ، ولأن النار هى طلبته .

وقوله تعالى : (قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا) معناه : قال موسى لأهله حين آنس النار : أقيموا مكانكم ، واثبتوا ، وفى البحر : أنه خرج بأهله وماله فى فصل الشتاء ، وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام ، وامراته حامل لا يدرى أليلاً تضع أم نهراً ، فسار فى البرية لا يعرف طريقها ، فالتجأ السير إلى جانب الطور الغربى فى ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد ، فأضل الطريق يوماً حتى أدركه الليل ، فأخذ امرأته الطلق ، فقدح زنده فأصلد^(١) ، فنظر فإذا نار تلوح من بعد ، فقال لأهله : امكثوا وأقيموا مكانكم إني أبصرت ناراً سأقصدوها (لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) أى : رجاء أن أجد عندها من يرشدنى إلى الطريق فاتيكم بخبر عنه ، أو آتيكم بعود غليظ ملتهب بالنار تلتمسون به الدفء من شدة ما تعانون من البرد .

(١) أى : لم يخرج ناراً .

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ
 الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسْوَ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾
 وَأَنْ أَتِيَ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ
 يُعَقِّبْ يَمْوِسْوَ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْلُكَ
 يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ
 جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ
 وَمَلَائِكَتِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

- (شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ) : الجانب الأيمن بالنسبة لموسى ، وقيل : الأيمن من اليمن .
 (الْبُقْعَةِ) - بضم الباء - : القطعة من الأرض على غير هيئة التي بجانبها ، وتفتح بأؤها
 أيضًا كما في القاموس . (جَانٌّ) : حية كحلاء العين بيضاء وتكثر في الدور ولا تؤذى .
 (مُدْبِرًا) : منهزمًا خلفه من الخوف . (يُعَقِّبْ) : يرجع . (أَسْلُكَ) : أدخل .
 (جَيْبِكَ) الجيب : فتحة القميص من حيث يدخل الرأس . (جَنَاحَكَ) الجناح :
 العضد والذراع ؛ لأن الذراع للإنسان كالجناح للطائر . (سُوءٌ) : عيب ومرض .
 (الرَّهْبِ) - بفتح الراء والهاء - : الخوف ، وفيه - إسكان الهاء مع فتح الراء وضمها - وبه قرئ .
 (بُرْهَانَانِ) : حجتان واضحتان ، تثنية برهان ، وهو الحجة النيرة القاطعة يقال :
 أبهره الرجل ، إذا جاء بالبرهان .

التفسير

٣٠- (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ . . .) الآية .

أى : فلما أتى النار التى آتسها موسى - عليه السلام - جاءه النداء من الجانب الأيمن

بالنسبة إلى موسى في مسيره ، فالمقصود بالجانب الأيمن : الجهة اليمنى ، وجوزوا أن يكون الأيمن بمعنى المنتصف باليمن والبركة ، وعلى هذا يجوز أن يكون وصفاً للشاطئ أو الوادى ، وقوله : (فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ) معناه : نودى من شاطئ الوادى الأيمن في هذه القطعة التي باركها الله بما خصها به من آياته وأنواره المشتملة على الشجرة النابتة فيها .

وقوله : (أَنْ يَمُوسَى) تفسير للنداء ، أو بيان لشأنه وحقيقته حسماً لكل شك وقطعاً لكل تأويل ، قال جعفر : أبصر ناراً دلته على الأنوار ؛ لأنه رأى النور في هيئة النار ، فلما دنا منها شملته أنوار القدس ، وأحاطت به أجواء الأنس فخطب بألطف خطاب ، واستدعى منه أحسن جواب فصار بذلك مكلماً شريفاً أعطى ما سأل ، وأمن مما خاف . ومعنى : (إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) : إني أنا الله ربك الذى يخاطبك ويكلمك ، ورب العالمين الفعال لما يشاء ، لا إله سواه ، ولارب غيره - تنزه وتعالى - عن المماثلة في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله فاسمع منى ، ولا تك فى شك مما يلقى إليك ، وقد سمع موسى - عليه السلام - على ما تدل عليه الآثار كلاماً لفظياً خلقه الله فى الشجرة - وقيل : خلقه فى الهواء كذلك ، وسمعه موسى من جهة الجانب الأيمن أو من جميع الجهات ، وذهب الشيخ الأشعرى والإمام الغزالى إلى أن موسى - عليه السلام - سمع كلامه النفسى القديم بلا صوت ولا حرف ، كما ترى ذاته - عز وجل - يوم القيامة بلا كيف ولا كم .

وقال الحسن : إنه - سبحانه - نادى موسى - عليه السلام - نداء الوحي لا نداء الكلام ، ولم يرتض ذلك العلماء لما فيه من مخالفة الظاهر ، وأنه لا يظهر عليه وجه اختصاصه باسم الكليم من بين الأنبياء .

ولفظ : (أَنَا) وإن كان كل واحد يشير به إلى نفسه فليس المعنى به محل لفظه . هذا : وجاء فى سورة طه فى التعبير عن هذه القصة (نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) ، وفى سورة النمل : (نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ) وما هنا غير ذلك ، بل ما فى كل غير ما فى الآخر ، فاستشكل ذلك ، وأجيب بأن المغايرة إنما هى فى اللفظ ، وأما فى المعنى المراد فلا مغايرة والواقع أن ما فى القرآن ترجمة عربية لما سمعه موسى ، فتوَدَّى بأى عبارة تُفْهَمُ أصل المعنى ، وذهب الإمام إلى أنه - تعالى - حكى فى كل من هذه السور بعض ما اشتمل عليه النداء لما أن المطابقة بين ما فى المواضع الثلاثة تحتاج إلى تكلف ما .

ومثل هذا يقال فيما تكرر ذكره من القصص في القرآن الكريم مع اختلاف التعبير فيه ؛ لأن كل سورة تعنى عند ذكر القصة بالجانب الذى تسوقها من أجله ، والتعبير الذى يناسبه .

٣١- (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ . . .) الآية .

هذه الآية معطوفة على قوله : (أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ) فهى من جملة ما نودى به ، فقد ناداه أولاً بما يؤكد ألوهية الله وربوبيته - سبحانه - لموسى وللعالمين جميعاً ليستيقظ انتباهه وتنقشع غفلته ، وناداه ثانياً بما يؤدى الغرض ويحقق المقصود من اصطفاؤه للرسالة بقوله : وألقى العصا التى تحملها فى يديك على الأرض تنقلب حية فى سرعة حركتها ، ثعباناً عظيماً فى ضخامة جثتها وضخامة فمها ، آية لك .

وعن الحسن : ما كانت إلا عصا من الشجرة التى اعترضها اعتراضاً ، وعن الكلبي : كانت عصا من شجرة العوسج التى نودى منها موسى .

وقوله تعالى : (فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ) يفصح عن كلام محذوف تقديره : فألقى موسى العصا طاعة لأمر ربه فانقلبت حية فى خفتها وسرعة حركتها ، وثعباناً فى ضخامة جثتها . وعظم حجمها ، فلما أبصرها تهتز وتتحرك بهذه الخفة تملكه الخوف واستبد به الرعب ففر منهزماً . ولم يعقب على شيء ولم يرجع ورائه أو يلتفت خلفه من شدة خوفه ، وعند ذلك نودى من قبل الله تعالى : (إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) من المخاوف لأنك رسول الله ، وإنه لا يخاف لدى المرسلون .

٣٢- (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ . . .) الآية .

هذه الآية من جملة ما نودى به موسى . والمعنى : أدخل يدك فى فتحة ثوبك حيث يخرج الرأس ، فإن فعلت تخرج بيضاء من غير مرض ولا عيب .

(وَأَضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ) فى الكشف : فيه معنيان :

(أحدهما) : أن موسى - عليه السلام - لما قلب الله - تعالى - العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده ، كما يفعل الخائف من الشيء ، فقبل له : إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء ، فإذا ألقىت العصا فانقلبت حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقاك بها ، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتئاب ما هو غضاضة عليك ، وإظهار معجزة أخرى ، والمراد

بالجناح : اليد لأن يد الإنسان بمنزلة جناحي الطائر ، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضم جناحه إليه .

(الثاني) : يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه لنفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يهرب ، استعارة من فعل الطائر ، لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما ومعنى : (مِنْ الرُّهْبِ) من أجل الرهب ، أى : إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك . انتهى بتصرف يسير .

وقوله تعالى : (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ . . .) معناه : فهذان الأمران العجيبان - وهما قلب العصا ، وخروج اليد بيضاء - برهانان واضحا ، وحجتان نيرتان ، مُرسلان من ربك ، واصلان إلى فرعون وقومه ليرتدعوا عما هم فيه ، إنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله ، أحقاء بأن نرسل إليهم هاتين المعجزتين لجزعهم وردمهم عن فسقهم وكفرهم ، والبرهان معناه : الحجة النيرة من قولهم : أبره الرجل ، إذا جاء بالبرهان مأخوذ من : بره ، إذا ابيض وتسمى الحجة سلطاناً أيضاً من السليط ، وهو الزيت الذى يتلأأ عند الاتقاد .

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۝٣٣)
وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي
إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۝٣٤)

الفردات :

(رِدْءًا) : معيناً يشدد به أمرى .

(يُصَدِّقُنِي) : بإيضاح الحق بلسانه ، وبسط القول فيه ، ونفى الشبهة عنه .

التفسير

٣٣- (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) :

أى : قال موسى - عليه السلام - تعقيباً على تكليفه بالرسالة ، وطلباً لما يعينه عليها ، ويقويه على أدائها كما يفهم من قوله - تعالى - : (فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي) ولم يقله استغناء

من الرسالة ورفضاً - كما زعم اليهود - قال : يارب إني قتلت من هؤلاء القوم نفساً حين استنصرني الرجل الذي من شيعتي ، فإذا تعرضت لهم ورأوني فإني أخاف أن يقتلوني بقتيلهم ، ولا معين لي يمنعني منهم ، أو يدفع عني شرهم .

٣٤- (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) :

أى : وأخى هارون هو أقدر منى على توضيح الحجة ورد الشبهة ، وقوة المعارضة - وإنما قال ذلك لأنه - عليه السلام - كانت به عقدة فى لسانه تضعف تعبيره وتعوق بيانه - فأحتاج إلى من يعيننى ويبلغ حجتي ، فأرسل معى أخى هارون رداءً وعوناً يساعداًنى على توضيح الدعوة وإبراز الحجة ، ويصدقنى ، ويخلص بلسانه الحق ، ويبسط القول فيه ، ويجادل الكفار ويظهر صدق بتقرير الحجج وتزيف الشبه : (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) فلا يسعنى لسانى على محاجتهم ولا يطاوعنى على مقاومتهم ، ومعارضة باطلهم .

(قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصُلُونَ إِلَيْكُمَا بِمَا يَتَنَاهَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(سَنَشُدُّ عَضُدَكَ) : سنقويك ونعينك .

(سُلْطَانًا) : تسلطاً وغلبة بالحجة والبرهان .

التفسير

٣٥- (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا . . .) الآية .

استئناف وقع جواباً من الله لسؤال موسى - عليه السلام - بقوله : (أَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا) أى : قال الله - سبحانه - لموسى : سنعينك ونقويك بإجابة مطلوبك ، حيث نشد عضدك بإرسال أخيك هارون معك .

وشدة عضده كناية عن تقويته لأن الجسد يشتد بشدة العضد - وهو ما بين المرفق إلى الكتف وقوله تعالى : (وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا) معناه : ونجعل لك ولأخيك تسلطاً وغلبة عليهم فلا يقوون على تكذيبكم ، وتمنعون عليهم فلا يصلون إليكما باستيلاء أو محاجة . وقوله تعالى : (بَيِّنَاتٍ) يجوز أن يكون متعلقاً بـ (نجعل) ، أو بـ (لا يصلون) ، والمعنى : أنت يا موسى وأخوك هرون ومن اتبعكما - أنتم - الغالبون بآياتنا ، الممتنعون بقوتنا فلا سبيل لفرعون وقومه إلى الوصول إليكما بأذى .

وبهذه العدة من الله اشتد عضد موسى - عليه السلام - وقوى عزمه ، وتسامت همته إلى مواجهة طغيان فرعون وملئه ، وتحطيم لإلهيته ، كما تمت نعمة الله على هرون بإرساله ، بفضل طلب موسى لذلك من ربه ، ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هرون - عليهما السلام - فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه .

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

المفردات :

(بَيِّنَاتٍ) : واضحات الدلالة على رسالة موسى . (مُفْتَرًى) : مختلق لم يحدث قبل هذا مثله ، أو سحر تفعله أنت ثم تكذب به على الله . (الْأَوَّلِينَ) : السابقين .

التفسير

٣٦ - (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ . . .) الآية .

أى : فلما جاء موسى بآيات الله ومعجزاته الواضحات أنكرها فرعون وملؤه ، وكذبوها ، وقالوا : ما هذا الذى جئت به إلا سحر مختلق لم يفعل مثله قبله ، أو سحر تفعله أنت من عند نفسك ثم تفتريه على الله وتكذب ، وزادوا فى العناد والكفر والإنكار فقالوا : وما سمعنا بهذه النبوة التى تدعيها فى آبائنا السابقين علينا ، ولا وقع فيهم مثل هذا القول .

(وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ ۖ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(عَاقِبَةُ الدَّارِ) : هى العاقبة والنهاية المحمودة لقوله تعالى : « لَهُمْ عُقُبَى الدَّارِ »
و (الدَّارِ) هى : الدنيا .

التفسير

٣٧- (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ . . .) الآية .

تتعلق بهذه الآية مباحث :

أولاً : أن موسى - عليه السلام - يعنى نفسه بقوله : (مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ) .
ثانياً : أن السياق يقتضى عدم العطف بالواو لأن الموقع موقع سؤال وجواب ، ولكنه جاء عطفًا بالواو على قولهم : ما هذا إلا سحر مفترى ليوافق الناظر بين القولين ، ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر .

ثالثاً : أن الآية جرت على أسلوب التشكيك والتعمية استجهالاً لهم على حد قوله :
« وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّاهُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » .

والمعنى : قال موسى - عليه السلام - ردًا على قولهم : « مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَىٰ » ربى أعلم منكم بحال من أهله للدعوة إلى الهدى والفلاح الأعظم حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى ، ووعدته العاقبة المحمودة فى الدنيا ، وعاقبتها أن يختم للإنسان فيها بما يفضى به إلى الجنة بفضل الله وكرمه .

ووجه اختصاص العاقبة بالعاقبة المحمودة دون مطلق العاقبة : أنها هى التى دعا الله إليها عباده ، وحضهم عليها ، وهباً فيهم العقول التى ترشدكم إليها ، وقال عنها : « وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

وقوله تعالى : (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) : تنزيهه لله - تعالى - أن يرسل الكاذبين ، أو يُنبئ الساحرين ، أو يفلح عنده الظالمون فيفوزون بمطلوب ، أو ينجون من محذور .

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي
فَأَوْقَذَ لِي يَتْلُمَنُّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى
إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَا أَظُنُّهُ مِنْ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(الْمَلَأُ) : الأشراف وذوو الرأى . (أَوْقَذَ) : أشعل النار .
(صَرْحًا) : قصرًا عاليًا وبناءً شامخًا .

التفسير

٣٨- (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي . . .) الآية .

بعد أن جمع فرعون السحرة وتصدى للمعارضة ، وكذب موسى وسمع لإجماع قومه على التكذيب قال في تيه وشموخ مخاطبًا أشراف قومه : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي مما يدعيه موسى ويدعو إليه ، نبي علمه بآله غيره دون أن ينفي وجود الإله ، حيث لم يقل : ليس لكم إله غيري ، يريد بذلك : أنه لو كان لهم إله غيره لعلمه ، وهو بذلك يحاول أن يخلع على نفسه خلق الإنصاف في الحكم ، ولهذا رتب عليه قوله : « فَأَوْقَذَ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ » والواقع أنه كاذب ؛ فإن ألوهية الله - تعالى - لعباده لا يمكن أن تخفى على مثله ، وهذا ما يشهد به قوله تعالى حكاية عن موسى - عليه السلام - : « لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ » .

ومعنى : « فَأَوْقَذَ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ » : أشعل النار على الطين شديدة قوية ليتحول إلى آجر ، فيكون أقوى في البناء ، فإذا استحال الطين آجرًا فابنٍ قصرًا عاليًا ، وبناءً شامخًا

لأصعد عليه فأطلع إلى إله موسى الذى يدعيه ، ويدعو له ، وكأنه يومه قومه أنه لو كان كما يقول موسى لكان جسمًا فى السماء يمكن الصعود إليه ، والاطلاع عليه ، وإنى لأظنه من الكاذبين فيما يذكر من أمر الإله وما يدعى من شأن النبوة ، ولكن أحب أن أحقق الأمر من طريقه المختلفة حتى لا يكون لدى ولا لديكم شك فى أنه ليس لكم إله غيرى ، وهذا منه مبالغة فى التمجيد ، وإغراق فى التلبيس واللعب بعقولهم : « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » .

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهم
إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً
يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ
فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(بِغَيْرِ الْحَقِّ) : بالباطل ؛ لأن الاستكبار بالحق لله وحده . (لَا يَرْجِعُونَ) : - بضم
الياء - من الرجوع المتعدى إلى المفعول بنفسه ، و - بفتحها - من الرجوع الذى لا يتعدى إلى
المفعول بنفسه . (فَنَبَذْنَاهُمْ) : طرحناهم ورمىناهم . (الْيَمِّ) : البحر .
(أَيْمَةً) : قادة ودعاة . (لَعْنَةً) : طردًا وإبعادًا عن الرحمة .
(الْمَقْبُوحِينَ) : المشوهين الموسومين بعلامات منكرة قبيحة .

التفسير

٣٩ - (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ . . .) الآية .

المعنى : واستكبر فرعون اللعين وجنوده فى أرض مصر ، واستعلوا وتعاضموا على الإيمان بالله ، والتصديق برسالة موسى استكبارًا باطلاً بغير أهلية ولا استحقاق ، لأن رؤية العظمة

للنفس على الخصوص دون غيرها لا تكون حقاً إلا من الله - عز وجل - قال الزمخشري :
الاستكبار بالحق إنما هو لله وحده ، وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير حق ، وفي الحديث
القدسي : « الكبرياءُ ردائي والعظمةُ إزاري فمن نازعني في واحدٍ منهما ألقيتهُ في النارِ » .

وأكثر المفسرين على أن الأرض هي مصر ، وقيل : مطلق الجرم المقابل للسماء ، وفي
التقييد بها زيادة تشنيع عليهم ، وتسفيه لعملهم ، حيث استكبروا في أسفل الأجرام بغير
استحقاق ولا تأهيل ، ومعنى قوله تعالى : (وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ) : توهموا أن لا معاد
ولا بعث ، وأنهم لا يعودون إلينا ، ولا يرجعون لنا للملاقاة الجزاء ، ومواجهة العذاب .

والتعبير عن اعتقادهم بالظن إما على ظاهره ، وإما تحقير لهم ، وسخرية باعتقادهم ؛
حيث بنوه على الأوهام .

٤٠ - (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) :

أى : فباغتتنا فرعون وجنوده فأخذناهم فنبذناهم وطرحناهم في البحر ، ورميناهم فيه رمى
البقايا الثالفة والمخلفات النافهة ، وفيه فخامة وتعظيم لشأن الآخذ ، واستحقار شديد للمأخوذين
وكأنه أخذهم مع كثرتهم وطرحهم في اليم كما يأخذ الإنسان شيئاً عديم القيمة فيرميه .
(فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) أى : فتأمل يا رسول الله وانظر كيف انتهت عاقبة
هؤلاء الطغاة وكيف استحال تجبرهم وكفرهم ، وبين هذا لقومك وللناس ليعتبروا ويتدبروا .

٤١ ، ٤٢ - (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ . وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ) :

المعنى : خلقناهم وصيرناهم في عهدهم قدوة للضلال يدعون إلى موجبات النار في الدنيا
من الكفر والمعاصي ، ويوم القيامة لا ينصرون من أحد بدفع العذاب أو تخفيف ويلاته
عنهم بوجه من الوجوه .

وأتبعناهم في هذه الدنيا التي فتنتهم وصرفتهم عن اتباع الهدى - أتبعناهم - لعنة
وطرداً وإبعاداً عن الرحمة ، أو أتبعناهم لعناً من اللاعنين الذين يجرى ذكرهم على ألسنتهم ،
حيث لا تزال الملائكة تلعنهم والمؤمنون خلفاً عن سلف .

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ) أى : وهم فوق لعنتهم فى الدنيا ، يوم القيامة من المطرودين المبعدين ، أو من المهلكين المشوهين ، فيجمع لهم بذلك خزي الدنيا وذل الآخرة ، روى ابن عدى والطبرانى عن ابن مسعود أنه عليه السلام قال : « خَلَقَ اللَّهُ يُحْيِي بَنَ زَكَرِيَّا فِي بَطْنٍ أُمَّهُ مُؤْمِنًا وَخَلَقَ فِرْعَوْنَ فِي بَطْنٍ أُمَّهُ كَافِرًا » .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ
الْأُولَىٰ بِصَآئِرٍ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (٤٣)

المفردات :

(الْكِتَابَ) : التوراة . (الْقُرُونَ الْأُولَى) : هم أقوام نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط - عليهم السلام - (بِصَآئِرٍ لِّلنَّاسِ) : أنواراً لقلوبهم .

التفسير

٤٣- (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ . . .) الآية .

هذه الآية والآيات بعدها تشعر - بتصدرها بالقسم والتوكيد - بأنها بداية حديث عن موسى - عليه السلام - مع أن السورة من أولها تحكى قصته ، والذي يفهم من هذا الأسلوب - والله أعلم - أنه إثارة للانتباه بعد أن طال الكلام عن القصة ، وتجديد للتشويق ، ومدخل إلى التصديق برسالة سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - بما يخبر به من غيبيات فى قصة موسى لم يكن شاهدها ولا علم له بها من قبل .

والمعنى : ولقد آتينا موسى التوراة ، وأنزلناه مفصل الأحكام ، من بعد ما أهلكنا القرون السابقة عليه من أقوام نوح وهود وصالح ولوط - عليهم السلام .

والتعرض لبيان كون إيتاء التوراة بعد إهلاك الأمم السابقة للإشعار بأنها نزلت بعد مساس الحاجة إليها ، وضرورة نزولها لهداية الناس ، وردهم إلى الجادة ، وذلك تمهيد لما يعقبه من بيان الحاجة الملحة إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله عليه السلام فإن إهلاك

القرون الأولى من موجبات اندراس معالم الشرائع المؤدى إلى اختلال نظام العالم وفساد أحواله ، وذلك يستدعى تشريعاً جديداً يرد الناس إلى جادة الصواب ، ويرشدهم إلى السلوك القيم ، ولهذا قال : (بَصَائِرَ لِلنَّاسِ) أى : أنواراً لقلوبهم ، تبصر بها الحقائق ، وتميز بين الحق والباطل ، حيث كانت من طول ما تغشاها من الجهل عمياء عن الفهم والإدراك ؛ فإن البصيرة نور القلب ، كما أن البصر نور العين .

والمراد بالناس أمة موسى - عليه السلام - ومن أنزل إليهم التوراة لترشدهم إلى الاستقامة وحسن السلوك ، وما تتضمنه من تأييد بعثة محمد ﷺ وحقية رسالته .

وقوله تعالى : (وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

معناه : هدى إلى شريعة الله التى هى الطريق الموصلة إلى الله - عز وجل - ورحمة ينال من عمل بها ثوابه وحسن جزائه ليكونوا على حال يرجى منه التذكر والاعتبار ، فمعنى : لعل هنا ؛ التعليل ، حكى الواقدى عن البغوى أنه قال : جميع ما فى القرآن من لعل للتعليل إلا « لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » فإنها للتشبيه ، والمشهور أنها للترجى .

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ
وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ
عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ
ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ
نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ
مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(الْغَرْبِيُّ) : الجبل الغربى ، أو المكان الغربى الذى وقع فيه الميقات .

- (إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ) : إذ عهدنا إليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحي .
 (الشَّاهِدِينَ) : الحاضرين للوحي من جملة السبعين المختارين للميقات .
 (أَنْشَأْنَا قُرُونًا) : خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا كثيرة .
 (فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) : تمدى وتباعد عليهم الزمن .
 (ثَاوِيًا) : مقيمًا . (الطُّورِ) : الجبل . (لِيُنْذِرَ) : تخوف وتحذر .

التفسير

٤٤- (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ) :
 هذه الآية وما بعدها شروع في التنبيه إلى نبوة محمد ﷺ وفي بيان أن إنزال القرآن واقع في زمان مساس الحاجة إليه ، واقتضاء الحكمة له البتة . وقد صدر بتحقيق كونه وحياً صادقاً من الله - عز وجل - ببيان أن الوقوف على ما تناول من أخبار ، وما فصل من أحوال لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو بالتعلم ممن شاهدها على أسلوب قوله تعالى : « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » .

والغنى : وما كنت بجانب الجبل الغربي ، أو المكان الغربي الذي وقع فيه الميقات « إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ » وعهدنا إليه ، وأحكمنا أمر نبوته بالوحي وإنزال التوراة ، وما كنت من جملة الشاهدين الحاضرين الوحي ، وهم السبعون المختارون للميقات ، المنوه عنهم بقوله تعالى : « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا » ما كنت من الشاهدين ذلك حتى تشاهد ما جرى من أمر موسى ونزول ألواح التوراة عليه فتخبر بذلك .

ويصح أن يكون المعنى : وما كنت من الشاهدين بجميع ما أعلمناك من شأن موسى ، وأخبرت به فهو نبي لشهادته - عليه الصلاة والسلام - جميع ما جرى لموسى فكان عمومًا بعد خصوص .

٤٥- (وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) :

هذه الآية استدراك لتأكيد المعنى السابق في الآية قبلها .

والمعنى : ولكننا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قروناً وأماً كثيرة تهادى وتباعد عليها الزمن ، فتغيرت الشرائع ، وتبدلت الأحكام ، وعميت عليهم الأنبياء ، لاسيما ما كان منهم في آخر هذه الأزمان من الذين أنت فيهم ، فافتضت حكمته - تعالى - التشريع الجديد وقص الأنبياء على ما كانت عليه ، فأوحينا إليك ، وقصصنا عليك ما لم تكن شاهده ولا قريباً من زمانه ، تصديقاً لنبوتك وتحقيقاً لرسالتك .

(وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ) أى : ما كنت مقيماً في أهل مدين وقوم شعيب حتى يكون علمك بما نقصه وما تتلوه من آياتنا الناطقة بما كان لموسى - عليه السلام - معهم ، وبما كان لهم معه عن طريق إقامتك فيهم تتسمع منهم ، وتتعلم هذه الأخبار عنهم ، ثم تتلوا عليهم (وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) : ولكن ذلك بإرسالنا لك ووحينا إليك .

٤٦- (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

المعنى : كما لم تكن بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ، ولم تكن ثاوياً في أهل مدين ، لم تكن كذلك ولم تحضر بجانب الطور وقت ندائنا موسى : إني أنا الله رب العالمين ، واستنبأنا إياه ، وإرسالنا إياه إلى فرعون . (وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) أى : ولكن أرسلناك بالقرآن الكريم الناطق بما ذكر وغيره رحمة من ربك لقومك ، وهداية لهم بما تدعوهم إليه من نبذ عبادة الأصنام إلى عبادة الله وحده ، وتهذيب سلوكهم ، وتقويم عوجهم حتى تطهر الأرض من فسادهم ، وتنجلي عن بصائرهم غشاوات الجهل ، وأدران الكدر والضلال ، كما أرسلناك لتنذر قوماً عرباً وغير عرب طال عليهم أمد الجهل ، وامتد بهم زمان الضلال ، ما أتاهم من نذير من قبلك ينذرهم ، ويخوفهم عواقب أمورهم .

قال العلامة ابن حجر في المنح المكية : من المقرر أن العرب لم يرسل إليهم رسول بعد إسماعيل - عليه السلام - وأن إسماعيل انتهت رسالته بموته .

ونزيد على ذلك : أن إسماعيل أرسل إلى العرب العاربة ، أما العرب المستعربة التي نشأت بعد إسماعيل من ذريته ، فلم يرسل إليهم سوى محمد ﷺ ولذا قال الله - تعالى - في سورة يس : « لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ » .

وقوله - تعالى - : (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

معناه : فعلنا هذه الأمور كلها ليكون لهم منها تذكرو وعظة واعتبار فيرجعوا عن كفرهم ،
ويقلعوا عن إصرارهم وعنادهم .

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (٤٧)

المفردات :

(مُصِيبَةٌ) : عقوبة ونقمة . (لَوْلَا أَرْسَلْتَ) : هلا أرسلت .

التفسير

٤٧- (وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ . . .) الآية .

الكلام عن الرسائل السماوية وعن إرسال الرسل خليف أن يثير في نفس السامع تساؤلا عن الدوافع والأسباب المقتضية لذلك ، وجاءت هذه الآية إجابة عن هذا التساؤل ، توضح أن الحكمة السامية في إرسال الرسل قطع أعذار المشركين والعصاة ، وإلزامهم الحجة حتى لا يكون لهم اعتذار إذا واجهوا مصيرهم ولاقوا جزاءهم ، والآية وإن كانت تشير إلى الحكمة في إرسال محمد ﷺ إليهم ، لكنها تشير إلى مثلها في جميع الرسائل .

والمعنى : ولولا أن تصيب المشركين من قريش وغيرهم من الكفار عقوبة ، أو تحل بهم نقمة بسبب ما يقتربون من الكفر ، وما يرتكبون من المعاصي ، فيقولوا معتذرين عن إتيانها : فعلنا ذلك جهلا ، يا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا يرشدنا إلى خير ما نفعل ، ويوجهنا إلى السلوك السوي فنتبع آياتك الظاهرة على يديه ، ونسير في أفعالنا على هديه ، ونكون من المؤمنين بما جاء به فلا نفعل ما فعلناه .

لولا أن هذا يمكن أن يقولوه عند عقوبتهم على جنائياتهم التي قدموها ما أرسلناك ، لكن لما كان قولهم ذلك محققاً لا محيد عنه أرسلناك قطعاً لأعدائهم .

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ
تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾)

الفردات :

(الْحَقُّ) : القرآن المنزل على سيدنا محمد ﷺ أو الرسول المصدق بالقرآن .

(تَظَاهَرَا) : تعاونوا بتصديق كل منهما الآخر .

التفسير

٤٨- (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ) :

أى : فلما جاء هؤلاء القوم من أهل مكة الموجودين عند بعثة سيدنا محمد ﷺ للمجاهدين
القرآن الحق وهو المنزل على محمد ﷺ قالوا تعنتاً واقتراحاً : هلا أُوتِيَ محمد مثل
ما أُوتِيَ موسى من التوراة المنزلة جملة ، ومن المعجزات الأخرى كقلب العصا حية وفتح البحر ،
وغير ذلك ، قالوا هذا كما قالوا : « لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْجَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » ^(١) .

وقوله - تعالى - : (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ) رد عليهم وإظهار لتعنتهم ،

وبعدهم عما يرشدهم إلى الحق .

والمعنى : أولم يكفر أمثالهم ، ومن مذهبهم كمذهبهم في الكفر والعناد بما أوتى موسى ؟
وعن الحسن - رحمه الله - كان للعرب أصل في أيام موسى ، فيكون المعنى على هذا :
أولم يكفر آباؤهم المعاصرون لموسى ، وقوله : (مِنْ قَبْلُ) متعلق بـ (يكفروا) أى : أولم
يكفروا من قبل هذا القول ؟ أو من قبل هؤلاء الكفار ؟ قالوا : سحران تظاهرا وتعاوننا :
سحر موسى وسحر هرون .

ونحن نرجح أن الذين كفروا بما أوتى موسى من قبل وقالوا : سحران تظاهرا ، هم أهل
مكة ، روى أن أهل مكة بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود في عيد لهم فسألوهم عن شأن
محمد - عليه الصلاة والسلام - فقالوا : إنا نجده في التوراة بنعته وصفته ، فلما رجع الرهط
وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك ، وقالوا : إنا بكل من الكتابين - القرآن والتوراة -
كافرون ، قالوا ذلك تأكيداً لكفرهم لغاية عتوهم وتماديهم في العناد والطغيان ، وقرئ :
(سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا) يعنون موسى ومحمداً ﷺ .

(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ
إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا
يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(أَهْدَىٰ) : أقوى في الهداية .

(مِنْهُمَا) : من القرآن والتوراة .

التفسير

٤٩- (قُلْ فَاتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ) :

أى: قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين: إذا كان القرآن والتوراة سحرين متظاهرين فاتوا بكتاب من عند الله أقوى منهما في الهداية، فإن تأتوا به أتبعه وأصدقه، وأمضى على هديه، وهذا الشرط مما يأتى به من يشير إلى وضوح حجته وسنوح محجته، لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بين الاستحالة، فيوسع دائرة الكلام للتبكيك والإفحام.

وقوله تعالى: (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) معناه: إن كنتم صادقين في أنها سحران مختلفان تظاهرا، وإيراد الجملة بأسلوب التشكيك مع استحالة صدقهم مزيد تهكم بهم.

٥٠- (فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ . . .) الآية.

أى: فإن لم يستطيعوا أن يفعلوا ما كلمتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من القرآن والتوراة - ولن يستطيعوا ذلك ولن يقابلوه - فاعلم أنهم إنما يتبعون أهواءهم الزائغة، ويصرون على موقفهم عنادا وكفرا من غير أن يكون لهم مُتَمَسِّكٌ مَّا أَصْلًا، إذ لو كان لهم لآتوا به. وإنما عبر عن عجزهم عن الإتيان بعدم الاستجابة إيدانا منه ﷺ بأنه على كمال أمن من أمره - كأن أمره ﷺ لهم بالإتيان بما ذكر دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه.

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ) :

أى: لا أحد أضل ممن اتبع هواه، واستبد برأيه بغير هدى من الله، فهو أضل من كل ضال. وتقييد اتباع الهوى بغير الهدى من الله - تعالى - لزيادة التقريع، والإشباع في التشنيع والضلال.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) : الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى،

والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩ / ١٩٨٥

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٤٢ ص ٨٦/٨٥ - ٤٠٠٠ ٢٥

* (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ
 أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى
 عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ
 مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا
 وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا
 سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ
 سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ) : من التوصيل ؛ وهو تكثير الوصل وتكريره ، أى : والينا وأتبعنا
 تبليغهم القرآن ، وقرأ الحسن « وصلنا » قال الراغب ^(١) : أى : أكثرنا لهم القول موصولاً
 بعضه ببعض .

(يَتَذَكَّرُونَ) : يتعظون ويتدبرون .

(وَيَذَرُونَ) : أى يتركون ويدفعون ، وفي الحديث : « اذَرُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ »
 أى : ادفعوها .

(بِالْحَسَنَةِ) : بالطاعة . (السَّيِّئَةِ) : المعصية .

(اللَّغْوُ) : كل ما ليس بحق ، وقال مجاهد : الأذى والسب ، وفي اللغة : اللغو واللغا

(١) قال الآلوسی : وأصل التوصيل : ضم قطع الحبل ووصل بعضها ببعض .

بوزن الفتى : السَّقَطُ وما لا يعتدُّ به من كلام وغيره^(١) .
 (أَعْرَضُوا عَنْهُ) : انصرفوا عنه ولم يشتغلوا به .
 (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : قال القرطبي : أَمِنٌ مِنَّا لَكُمْ ، وعند الزمخشري : كلمة توديع ومتاركة
 لانتحية .
 (لَا تَنْتَفِي بِالْجَاهِلِينَ) : لا نطلب صحبة الجاهلين ولا نريد مخالطتهم ولا جدالهم .

التفسير

٥١ - (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

قال القرطبي : الآية الكريمة ردُّ على من قال : هلاً أوتى محمد القرآن جملة واحدة مثل
 ما أوتى موسى التوراة كذلك ؟

والمعنى : ولقد نزلنا القرآن - وعداً ووعداً وقصصاً وعبراً ونصائح - أنزلناه كذلك
 متواصلًا متتابعًا وفق ما تقتضيه الحكمة لعلهم يتذكرون ما يجب على كل عاقل من الخضوع
 للحق متى تبين ، والقرآن حق واضح يعرفه كل من نظر فيه وفتح قلبه وعقله ، فلو فعلوا
 لتذكروا وآمنوا .

ولقد ظل القرآن ينزل على الرسول ثلاثة عشر عاماً بمكة يشرح العقيدة ويُعمِّق الإيمان
 في نفس المؤمنين ، ويردُّ على شبهات المشركين ، وعشر سنوات بالمدينة بعد أن انتقل الرسول
 إليها وكون هناك الدولة الإسلامية الفاضلة التي لم يسمع الزمان بمثلاً ، وفي المدينة نزلت
 آيات الأحكام مبينة الدستور الإسلامي للدولة الإسلامية الأولى شارحاً أحوال الأمة في السلم
 والحرب موضعاً الآداب الاجتماعية والسلوك السوي الذي يجب أن ينهجه المسلمون ، ولقد
 كان القرآن ينزل أحياناً ردًّا على سؤال أو على شبه أهل الكتاب ، أو تشريعاً في حادثة
 فكان ينزل مناسباً لمقتضى الحال ، كما أن النبي ﷺ أرسله الله أمياً ، لا يقرأ
 ولا يكتب ، فلكى ييسر الله له حفظه أنزله عليه مفرقاً ولم ينزله جملة واحدة ، وفي ذلك
 يقول الله تعالى : «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ
 بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا»^(٢) .

(١) القاموس ج ٤ ص ٣٨٦

(٢) سورة الفرقان ، الآيتان : ٣٢ ، ٣٣

وفي فضل القرآن وبيان قيمته ومنزلته يقول تعالى :

٥٢ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ) :

أخبر الله - سبحانه وتعالى - أن بعض الذين أوتوا الكتاب من بنى إسرائيل قبل نزول القرآن ومجيء الرسول يؤمنون به وبما نزل عليه من قرآن كعبد الله بن سلام وغيره^(١) . قال القرطبي : ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى وهم أربعون رجلاً ، قدموا المدينة ، منهم اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة مع جعفر بن أبي طالب ، وثمانية من الشام وكانوا أئمة النصارى ، وأنزل الله فيهم هذه الآية وما بعدها .

٥٣ - (وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) : هذه الآية استئناف لبيان ما أوجب لإيمانهم .

والمعنى : وإذا يُقرأ القرآن على أهل الكتاب من اليهود والنصارى قالوا : صدقنا بما فيه إنه الحق من ربنا لأن مثله لا يقوله بشر ، إنا كنا قبل نزوله أو قبل بعث محمد - عليه الصلاة والسلام - مؤمنين بأنه سُبُّعُثُ وينزل عليه القرآن ، فإيمانهم به متقدم العهد لما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدمة ، فالمراد بالإسلام : الانقياد الظاهري ، أى : إنا كنا - قبل نزول القرآن - مُنقادين لأحكام الله - تعالى - الناطق بها كتابه المنزل إلينا ، ومنها وجوب الإيمان به ، فنحن مؤمنون به قبل نزوله على الرسول ، ونحن عرفنا محمداً وكتاباه قبل نزوله ، فإسلامنا سابق على تلاوته .

٥٤ - (أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) :

أولئك الموصوفون بما سبق من النُّعُوت يُمنَحون جزاءهم مرتين : مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن ، وذلك بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمان بكتابهم ، ثم بالقرآن بعد نزوله ، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده ، أو على أذى من هجرهم وعاداهم من أهل دينهم ومن المشركين^(٢) .

(١) الآلوسى .

(٢) الآلوسى .

قال القرطبي : ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَةٌ فغذاها فأحسن غذاها ، ثم أدبها فأحسن أدبها ، ثم أعتقها وتزوجها فلها أَجْرَانِ » أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، والبخارى بلفظ مختلف .

قال العلماء : وكما أنهم يؤجرون على صبرهم ، فإنهم يؤجرون على دفعهم المعصية بالطاعة قال ﷺ لمعاذ : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » أو يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى ، فهو وصف لهم بمكارم الأخلاق ، أى : من قال لهم سوءاً لا يتنوه وقابلوه من الخلق الحسن بما يدفعه ، كالإعراض ولين الحديث .

وأثنى عليهم ربهم بأنهم ينفقون من أموالهم التي كسبوها من الحلال في الطاعات وفي سبيل الخير ، ويبذلون مما رزقهم الله من كسب طيب في سبيل الله ، ولتخفيف آلام المرضى والمحتاجين .

٥٥ - (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) :

أى : يؤتيهم الله أجرهم مرتين على ما تقدم بيانه من الصفات الكريمة ، وعلى إعراضهم عن اللغو ، وإذا سمعوا ما قاله المشركون من سَقَطِ القول وبذيئه أعرضوا عنه ولم يشغلوا به ، كما قال - تعالى - : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » ^(١) . (وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : أى قالوا متاركين لهم على سبيل التوديع لا على سبيل التحية : سلام عليكم وأمنٌ منا لكم ، فإننا لا نحاوركم ولا نُسَابِكُكُمْ (لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) : أى لا نطلب الجاهلين والسفهاء للجدال والمراجعة والمشاتمة ولا نريد صحبتهم ومخالطتهم ، وهذا تعليل لتاركتهم .

قال ابن إسحاق في السيرة : قدم على رسول الله - وهو بمكة - عشرون ^(٢) رجلاً أو قريب

(١) سورة الفرقان الآية : ٧٢

(٢) هذه الرواية تخالف ما حكاه القرطبي من أنهم كانوا أربعين من أئمة النصارى ، وتقدمت هذه الرواية .

من ذلك من النصارى حينما بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه بالمسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه - ورجال من قريش في أندبتهم حول الكعبة - فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا دعاهم إلى الله - تعالى - وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان بوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطعن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركبا أحق منكم ، أو كما قالوا - فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا مانحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا - ويقال : إنهم النفر النصارى من أهل نجران ، فالله أعلم أى ذلك كان ، قال : وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت ؟ قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنها نزلت في النجاشي وأصحابه ، وكذلك الآيات التي في سورة المائدة : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَىٰ سِنِينَ وَرُهْبَانًا » إلى قوله : « فَاصْبِرْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » اه : ابن كثير ج ٣ ص ٣٩٤

٥٦ - (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) :

المعنى : إنك - أيها الرسول - لا تقدر على هداية قلوب من أحببتهم إلى الحق ، بأن تدخلهم في الإسلام وإن بذلت في ذلك غاية المجهود ، وجاوزت في السعى إليه كل حد معهود ، ولكن الله يهدي من يشاء هدايته فيدخله في الإسلام ، وهو - سبحانه - أعلم بالمستعدين لذلك وهم الذين يشاء - سبحانه - هدايتهم ، ومنهم من ذكرت أوصافهم من أهل الكتاب ^(١) .

وقال الزمخشري : المعنى : إنك لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم ، لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره ، ولكن الله - تعالى - يقدر على أن يدخل من يشاء إدخاله ، وهو الذي علم - سبحانه - أنه غير مطبوع على قلبه .

وقال الآلوسی : هذه الآية سبقت لتسليته ﷺ حيث لم ينجع في قومه الذين يحبهم إنذاره - عليه الصلاة والسلام - إياهم وما جاء به من الحق ، بل أصرروا على ما هم

عليه وقالوا: «لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى» ثم كفروا به وبموسى، فكانوا على عكس قوم أجانِب من أهل الكتاب، حيث آمنوا بما جاءه من الحق، وقالوا: إنه الحق من ربنا، ثم صرحوا بتقادم إيمانهم به، وأشاروا بذلك إلى إيمانهم بنبيهم وبما جاء به أيضًا، وذلك فيما حكاه الله بقوله: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ» إلى قوله: «إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ»^(١).

وقال ابن كثير: قد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم النبي ﷺ .

قال الزهري: حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه - رضى الله عنه - قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية ابن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: «يا عم، قل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعُودان له بتلك المقالة، حتى كان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب، وأبي أن يقول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فقال رسول الله ﷺ: «لأستغفرنَّ لك ما لم أُنَّه عن ذلك»، فأنزل الله - تعالى -: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ»^(٢). وأنزل في أبي طالب: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» وخالف في ذلك الشيعة، وقالوا بإيمانه، وادعوا لإجماع أئمة أهل البيت على ذلك.

(١) سورة القصص، الآيتان: ٥٢، ٥٣

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٣

(وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَزَقْنَا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ بَطَرْتَ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَلْقَبِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا) : أى نُخرج من أرضنا ومقرنا ، أويبطش بنا أعداؤنا . قال الآلوسى : وأصل الخطف ؛ الاختلاس بسرعة ، فاستعير لما ذكر .

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا) : أى أو لم نبه لهم فى الأرض حرماً مكيناً ونمنعهم فيه من العدوان. (يُجَبَّىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ) : يحمل إليه ويجمع فيه من كل جانب وجهة ؛ عن ابن عباس وغيره .

(بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا) : اغتر أصحابها ولم يقوموا بحق النعمة ، من البطر ، وهو : جحود النعمة وكفران الفضل . وفي القاموس : البطر : الأشرُّ وقلة احتمال النعمة ، أو الطغيان بها ، وفعله : كَفَّرَحَ ^(١) . ٥١ .

(أُمَّهَا) : في القاموس ؛ أُمُّ كل شيء : أصله وعماده وأُمُّ القرى : مكة ؛ لأنها توسّطت الأرض ، أو لأنها قبلة الناس يؤمنونها .
(لَا قِيَه) : مدرك له ، ظافر به .

(الْمُخَضَّرِينَ) : الذين يُخَضَّرُونَ مرغمين للعذاب ، وفي القاموس : حضر - كنصر وعلم - حضوراً ، ضد غاب (كاحتضر وتحضر) .

التفسير

٥٧ - (وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطَفُ مِنْ أَرْضِنَا ...) الآية .

هذا قول بعض مشركي مكة ^(٢) ، قال ابن عباس : قائل ذلك من قريش : الحارث ابن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي ، قال للنبي ﷺ : إنا لنعلم أن قولك حق ، ولكن بمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا - يعني مكة - لاجتماعهم على خلافنا ولاطاقة لنا بهم ، وهذا من تعلّلاتهم الكاذبة ، وأعدائهم الباطلة ، وحججهم الواهية . وفيه ما فيه من اعترافهم بأن ما مع محمد - عليه السلام - هو الهدى ، وتسجيلهم على أنفسهم أنه ما صدّهم عن الإيمان به إلا خوفهم على مصالحهم وفزعهم من ثورة العرب عليهم إذا أسلموا ، وقد أجاب الله عن تعللهم هذا بقوله : (أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا) : أى أو لم نعصمهم ونثبت أقدامهم ونجعل مقرهم حرماً آميناً لحُرمة البيت الحرام الذى تتناحر العرب حوله ، ولا تجترئ على القتال فيه ، وكانت العرب فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض لأوهى الأسباب ، وأهل مكة آمنون فى حرهم لا يخافون ، ومع أنهم قارون بواد غير ذى زرع فإن الثمرات والأرزاق تجمع لهم من كل صوب ويحملها الناس إليهم من كل حذب ،

(١) قاموس ج ٤ ص ٣٧٤

(٢) انظر القرطبي والكشاف .

وكان هذا كله رزقاً من عند الله لا فضل فيه إلا الله وحده ، فإذا ما خولهم الله الأمن والأمان والاستقرار والاطمئنان والرزق الواسع بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام ، فكيف يستقيم أن يُعرضهم للخوف والتخطف ، ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام ؟ .

قال يحيى بن سلام : يقول : كنتم آمنين في حرمي تأكلون رزقي ، وتعبدون غيري أفتخافون إذا عبدتموني ، وآمنتم بي ؟

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : جهلة لا يتفطنون ولا يتفكرون فهم غافلون عن الاستدلال بآن من رزقهم وآمنهم فيما مضى حال كفرهم برزقهم لو أسلموا وبمنع الكفار عنهم .

٥٨ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) :

بين الله في الآية السابقة فساد دعواهم الخوف من الناس إن آمنوا ، وبين في هذه الآية أنهم أحق بالخوف من بأس الله الذي يشاهدونه بأعينهم كلما ساروا بقوافلهم على آثار من هلك قبلهم ، وبقايا وخرائب المدن والقرى التي جحدت آلاء ربها وكفرت بأنبيائها كما يكفرون بنبيهم ، فعذبهم الله بكفرهم وذكرهم فيها بآن ما حدث في الماضي لغيرهم يمكن أن يقع لهم في الحاضر والمستقبل وحينئذ يتبين أن الخوف في الكفر لافي الإيمان .

أى : وكثير من أهل القرى كانت حالهم كحال هؤلاء في الأمن وخفض العيش والدعة والاطمئنان حتى بطروا واغترؤوا ولم يقوموا بحق النعمة من الشكر عليها بالإيمان ، فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم ، وتلك مساكنهم التي تمرؤن عليها في أسفاركم كحجر ثمود خاوية بما ظلموا ، لم تسكن من بعد تدميرهم إلا زماناً قليلاً ؛ إذ لا يسكنها إلا المارة أثناء سفرهم يوماً أو بعض يوم .

٥٩ - (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ اٰيَاتِنَا) :

قال الآلوسى : هذه الآية الكريمة فيها بيان للعناية الربانية إثر بيان إهلاك القرى المذكورة .

والمعنى : ما صحَّ وما استقام ، أو ما كان في حكمه الماضي وقضائه السابق أن يُهلك القرى قبل الإنذار ، بل كانت سنته - عز وجل - التي لا تتخلف ودستوره الذي لا يتغير ألا يهلكها حتى يبعث في أصلها وحاضرتها التي ترجع تلك القرى إليها رسولا يتلو عليهم آياتنا الناطقة بالحق ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ويوضح لهم المنهج ، وإنما أهلكهم بعد إلزامهم الحجّة بإرسال الرسول كيلا يقولوا : « لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَنْبِئَ آيَاتِكَ »^(١) وتحقيقاً لوعده الذي لا يتخلف : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »^(٢) .

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) : أى وما كنا مهلكى أهل القرى بعد ما بعثنا في أمها رسولا يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إليه في حال من الأحوال إلا في حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا ، فاعتبروا - يا كفار مكة - بما حدث لمن كان قبلكم ، وما يمكن أن ينزل بكم .

وإنما كان البعث في أم القرى لأن في أهل البلدة الكبيرة فطنة وكَيْسًا ، فهم أقبل للدعوة وأشرف ، وفي إيمانهم عون على إيمان غيرهم .

٦٠ - (وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

بيّن الله في الآيات السابقة فساد رأى المشركين في رفضهم الإسلام خوفاً على أنفسهم بقولهم : (إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفْ مِنْ أَرْضِنَا) وجاءت هذه الآية لتبين حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم .

(١) سورة القصص من الآية : ٤٧

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٥

والمعنى : أى شئ أصبتموه من أمور الدنيا وزينتها فشأنه أن يتمتع به أياماً قلائل ثم يزول عنكم أو تزولون عنه ، وما عند الله فى الجنة من الثواب خير فى نفسه من ذلك ؛ لأنه لذّة خالصة عن شوائب الألم ، وبهجة كاملة عارية عن سمات الهم ، وأبقى ؛ لأنه أبديّ ، أغفلتم فلا تعقلون هذا الأمر الواضح وتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير وتخافون على ذهاب ما أحببتموه من متاع الحياة الدنيا ، وتمتنعون من اتباع الهدى المفضى إلى ما عند الله من سعادة أبدية ؟

٦١- (أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُخْضَرِينَ) :

هذه الآية الكريمة تقرير وتوضيح لما قبلها ، ومعناها - كما قال ابن كثير - : أفمن هو مؤمن مصدّق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذى هو صائر إليه لامحالة ؛ لأن وعده - تعالى - لا يتخلف ، كمن هو كافر مكذّب بقاء الله ووعدده ووعدده فهو مُمتنع فى الحياة الدنيا أياماً قلائل ثم هو يوم القيامة من المُخْضَرِينَ ، أى : من المعذبين - كما قال مجاهد وقتادة .

وفى سبب نزولها قال ابن عباس : نزلت فى حمزة بن عبدالمطلب وأبى جهل بن هشام .

وقال مجاهد : نزلت فى النبي ﷺ وأبى جهل ، وعمّ الثعلبي فقال : نزلت فى كل كافر مُتّع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار ، وفى كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة .

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
 تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
 أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا
 يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا
 لَهُمْ وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
 فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعِمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ
 يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
 صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
 وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾
 وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
 تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) : تحقق مؤدى القول على الشياطين والدعاة إلى الكفر ، والمراد
 بالقول : آيات الوعيد ، كقوله تعالى : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (١) .
 (أَغْوَيْنَا) : أضللنا بأن دعوناهم إلى الفی وهو الضلال ، وغوى بغوى غياً : ضل .

(تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ) : تَبَرَّأَ بعضنا من البعض ، فالشياطين يتبرعون ممن أطاعهم ، والرؤساء يتبرعون ممن تبعهم .

(فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ) : خفيت عليهم الحجج خفاء المرئى على الأعمى (لَا يَسْأَلُونَ) : لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحجج .

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) : قال الآكوسى : الخيرة ، التخيير ، كالطيرة بمعنى التطيير ، والخيرة والتخيير : الاختيار .

(مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ) : ما يخفون في صدورهم من الاعتقادات الباطلة وعداوتهم للرسول .

(وَمَا يُعْلِنُونَ) : ما يظهرونه من الأفعال الخبيثة والظعن في الإسلام .

(لَهُ الْحُكْمُ) : لله وحده القضاء النافذ في كل شيء من غير مشاركة فيه لغيره .

التفسير

٦٢ - (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) :

لا يزال الحديث متصلاً عن أحداث يوم القيامة ، ففي هذه الآية إشارة إلى ما يوبخ الله به الكفار المشركين في هذا اليوم حيث يناديهم ويسألهم فيقول : (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) : أى أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدار الدنيا من الأصنام أو غيرها ليدافعوا عنكم وليشفعوا فيكم ؟ والتعبير بشركائى ، تقريع لهم على زعمهم ، وفيه تهكم بهم . والتعبير بلفظ : (تَزْعُمُونَ) للإشارة إلى كذبهم ، فقد قيل : « زعموا » مطية الكذب .

٦٣ - (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ) :

الآية الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا صدر عنهم من قول حينئذ ؟ فقيل : قال الذين حق عليهم القول وهم شركاؤهم من الشياطين ، أو رؤساؤهم الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله ، بأن أطاعوهم فى كل ما أمروهم به ونهواهم عنه :

(رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا) :

أى : ما أكرهناهم على الغي ، وإنما أغويناهم بطريق الوسوسة والتشويل لا بالقسر والإلجاء ، فغفوا باختيارهم غياً مثل غيِّنا باختيارنا ، تبرأنا إليك منهم وما اختاروه من الكفر والمعاصي هوى منهم للباطل ومقتناً للحق ، ما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم ، ومسارعة الذين حق عليهم القول إلى الجواب مع كون السؤال للعبدة ، إما لتفطنهم أن السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالإضلال وجزمهم بأن العبدة سيقولون : هؤلاء أضلونا ، وإما لأن العبدة قد قالوا : إنهم أضلونا ، فاعتذر هؤلاء المعبودون بما قالوه رداً لقولهم ، إلا أن القرآن لم يحك قول العبدة لإجازاً لظهوره .

ومرادهم بالإشارة في قوله « رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا » : بيان أنهم يقولون ما يقولون بمحض منهم ، وأنهم غير قادرين على إنكاره ورده .

٦٤ - (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) :

وقيل للكفار تقريباً لهم ، وتهكماً وتشهيراً بهم على رؤوس الأشهاد بدعاء من لا نفع فيه لنفسه - قيل للكفار - : استعينوا بآلهتكم التي عبدتموها في الدنيا لتنصركم ، وتدفع عنكم كما كنتم ترجون منهم ذلك في الدار الدنيا ، فاستغاثوا بهم ، فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم ، ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ولأنهم في شغل شاغل عنهم ، وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة ، ولو أنهم كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب لدفعوا به العذاب ، أو : لو أنهم كانوا مهتدين مؤمنين لما رأوه .

قال الزمخشري : حكى - سبحانه وتعالى - أولاً ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ، ثم ما يقوله الشياطين أو أئمتهم عند توبيخهم ؛ لأنهم إذا وُبحوا بعبادة الآلهة اعتذروا أن الشياطين هم الذين استفزروهم وزينوا لهم عبادتها ، ثم ما يشبه الشائنة بهم من استغاثتهم آلهتهم ، وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ، ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وقطع الحجة ، وإبطال المعاذير في قوله تعالى :

٦٥ - (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) :

أى : واذكر - أيها الرسول - كذلك يوم يُنَادَى المشركون من جانب الله تعالى - نداء توبيخ ، فيقال لهم : بلى شئء أجبتكم رسل الذين بعثتهم لإرشادكم ودعوتكم للإيمان والتوحيد فبلغوا الرسالة وأدوا الأمانة وكيف كان حالكم معهم ؟

٦٦ - (فَجَبَّيْتُمْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءَ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ) :

أى : فخفيت عليهم الحجج وغابت ، قال مجاهد : لأن الله قد أدحض حججهم ، وقال الزمخشري : لايسأل بعضهم بعضاً كما يتساءل الناس في المشكلات لأنهم يتساهلون جميعاً في عَمَى الأنبياء عليهم والعجز عن الجواب ، وإذا كان الأنبياء - لهول ذلك اليوم - يترددون في الجواب عن مثل هذا السؤال لعجزهم ويفوضون الأمر إلى علم الله ، وذلك قوله تعالى : « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوَا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »^(١) فما ظنك بالضلال من أميهم ؟

٦٧ - (فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ) :

لما ذكر الله - سبحانه وتعالى - من حق عليهم القول من التابع والمتبوع قال - سبحانه وتعالى ، حثا لهم على التوبة والإقلاع عن الشرك - : فَأَمَّا مَنْ تَابَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الشَّرِكِ وَجَمَعَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْفَائِزِينَ بِالْمَطْلُوبِ عِنْدَهُ - عز وجل - الناجين من الهلاك ، فلا جدوى لتوبة بغير إيمان ولا حجة لإيمان بغير عمل صالح ، وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم ، قال تعالى : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ »^(٢) .

و (عسى) للتحقيق على عادة الكرام ، فهي من الله واقعة بفضله وكرمه ومنه ووعدته الذى لا يتخلف ، والتعبير بعسى ليعلم أن الإنسان مهما عمل صالحاً فليس له إلا الرجاء والأمل في رحمة الله ، وفي الحديث الصحيح : « لن يدخل أحداً عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت

(١) المائدة الآية : ١٠٩ .

(٢) سورة طه الآية : ٨٢ .

يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة ^(١) » وقيل : (عسى)
للترجى من قبل التائب المذكور ، بمعنى : فيتوقع أن يفلح ويفوز .

٦٨ - (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

بين الله في الآيات السابقة أن الشركاء لا ينفعون المشركين في أخراهم ، وجاءت هذه الآية لتبين أن الأمر كله لله ، ولهذا اختار لعباده من يرشدهم إلى سواء السبيل ، فليس لهم الخيرة في عقائدهم ولا في اختيار رسلهم ، كما نزلت لكي ترد على أولئك الذين يقترحون على الله الرسل ، كالوليد بن المغيرة حيث قال : « لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ » يعني بذلك نفسه من مكة ، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف .

والمعنى : وربك يخلق ما يشاء من خلقه بقدرته ويختار منهم من يشاء بحكمته لطاعته وحمل رسالته ، على مقتضى علمه باستعدادهم لذلك ، فليس في مقدور الخلق ولا من حقهم أن يختاروا على الله ما يشاءون من أديان باطلة وآلهة زائفة ، تنزه الله تعالى بذاته تنزهًا خاصًا به من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره ، وتقصد وتمجد عن إشراكهم .

قال الزمخشري : إن الاختيار إلى الله - تعالى - في أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ، ولا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم .
وجعل بعضهم (سبحان الله) تعجيبًا من إشراكهم من يضرهم ولا ينفعهم بمن يريد لهم الخير ويسوق لهم النعم .

٦٩ - (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) :

وربك - أيها الرسول - يعلم ما يخفون في صدورهم من الاعتقادات الباطلة ومن عداوتهم لك ، ويعلم ما يظهرونه من الأفعال الخبيثة والظعن فيك ، وقولهم : هلاً اختير غيرك للنبوّة ، فهو - سبحانه - يعلم ما تكين الضمائر وما تنطوي عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من جميع الخلائق : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » ^(٢) . والآية الكريمة تهديد وتحذير شديد لأعداء الله ، لأنه - سبحانه - يعلم كل

(١) صحيح البخاري (كتاب الطب) باب تمني المريض الموت .

(٢) سورة الرعد الآية : ١٠ .

ما تجيش به صلورهم من الشر ، وما يجول بعقولهم من الإثم ، ويعلم بكل ما يعلنونه على ملأ من الناس من ضلال .

٧٠- (وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

وهو - سبحانه - المستأثر بالألوهية المتفرد بها ، لا ربَّ غيره ولا معبود سواه ، له وحده كل الحمد ، وجميع الثناء والشكر لا إلى غيره ، لأنه المولى للنعم كلها - عاجلها وآجلها - على الخلق كافة ، يحمدّه المؤمنون في الدنيا على إنعامه وهدايته ، وفي الآخرة على عدله ومشوبته ، وله القضاء النافذ في كل شيء من غير مشاركة فيه لغيره . عن ابن عباس : له الحكم بين عباده فيحكم لأهل طاعته بالمغفرة والفضل ، ولأهل معصيته بالشقاء والويل ، لا مُعقب له ، لقهره وغلبته وحكمته ، وإليه ترجعون لا إلى غيره فيجزى كلَّ عامل بعمله من خير وشر ولا يخفى عليه منكم خافية .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾)

المفردات :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ) : أخبروني .

(سَرْمَدًا) : دائماً متصلاً موبداً ، وهو عند البعض من السرد : وهو المتابعة ، ومنه قولهم :

الأشهر الحرم ثلاثة سَرْدٌ ، وواحد فرد ، والميم زائدة لدلالة الاشتقاق عليه .

(تَسْكُنُونَ فِيهِ) : تستقرون فيه ، مأخوذ من (السَّكَن) وهو الهدوء والطمأنينة .

(وَنَزَعْنَا) : أخرجنا بشدة وأبرزنا بسرعة ، وجاء في اللغة : نَزَعَهُ مِنْ مَكَانِهِ يَنْزِعُهُ :

قَلَعَهُ ، كَانْتَزَعَهُ .

(شَهِيدًا) : أى شاهداً . (بَرِّهَانَكُمْ) : حججكم .

(وَضَلَّ عَنْهُمْ) : ذهب وغاب عنهم غيبة الشيء الضال ، أى : الضائع ،

(مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : أى ما كانوا يخلقونه في الدنيا من الباطل والكذب على الله

- تعالى - من أن معه آلهة تُعْبَد .

التفسير

٧١- (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ) :

انتهت الآيات السابقة بإثبات الوحدانية لله - تعالى - وانفراده بالخلق والاختيار ، وعلمه السرائر والظواهر ، واستحقاقه وحده الحمد من عباده ، في الدنيا على إنعامه وهدايته وفي الآخرة على عدله ومثوبته ، وتفردة بالحكم والفصل بين العباد ، وإليه المرجع والمصير .

وتواصل هذه الآية وما بعدها تأكيد هذه المعاني وتوضيحها بأمثلة مُحَسَّنة تشهد له - سبحانه - بكل ما سبق وبأنه صاحب النعم وواهب المنن ، فالآيات القرآنية الثلاث الآتية تنبه الناس إلى حقيقة يجب أن يفهموها ، وهى أنه - تعالى - لو خلق الأرض بحيث يكون ليلاً دائماً ، أو بحيث يكون نهاراً كذلك فليس هناك إلهٌ غيره ينعم عليهم بالليل والنهار

المتعاقبين ، وبفضل الله ورحمته كان النظام الكوني يكفل تعاقب الليل والنهار فيكون السكون والهدوء في الليل ، والسعي والكدح في النهار وبهذا يتهيأ التوقيت الصالح لحياة الإنسان والحيوان والنبات ، وهذا فضل من الله على عباده ، يستدعي الإقرار بقدرته ودوام شكره .

ومعنى الآية : أخبروني من يقدر على هذا ؟ إن جعل الله عليكم الليل دائماً متصلاً متتابعاً إلى يوم القيامة فأصبح الكون ملفوفاً في ليل دامس لا يعقبه نهار ، وظلام طامس لا يأتي بعده نور ، أخبروني من إله غير الله يأتيكم بنور تبصرون فيه معاشكم وتنطلقون في أرجاء الأرض وأنحائها تعمرونها ، فتزرعون وتناجرون وتنتقلون من مكان إلى مكان ، أفلا تسمعون هذا الكلام الحق سماع تدبر واستبصار وقبول للدلائل الباهرة ، لتعرفوا أن غير الله - تعالى - لا يقدر على ذلك فتقوموا بشكره ، وتعترفوا بفضله ، وتقرُّوا بوحدانيته .

٧٢- (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) :

ثم أخبر - سبحانه وتعالى - أنه لو جعل النهار دائماً مستمراً إلى يوم القيامة بحيث تعملون دائماً دون انقطاع من إله غير الله يأتيكم بليل تستريحون فيه من التعب ومشاق الحياة وتفرغون فيه من النصب ؟ أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ في عبادة غيره ؟

وقال الآلوسی : أفلا تبصرون الشواهد المنصوبة الدالة على القدرة الكاملة ، لتقفوا على أن غير الله لا قدرة له على ذلك ؟ فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على الإتيان بالليل والنهار غيره فلم تشركون ؟

وقال البيضاوي : لعله لم يصف الضياء بما يقابله لأن الضوء نعمة في ذاته مقصود بنفسه ولا كذلك الليل ، ولأن منافع الضوء أكثر مما يقابله ، ولذا قرن به أفلا تسمعون ، وبالليل أفلا تبصرون لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر . اهـ : بيضاوي .

ولذا ما اجتمع السمع والبصر في موضع من كتاب الله إلا وقُدِّم السمع على البصر .

قال - تعالى - : « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا »^(١) ، « وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ »^(٢) .

ولقد ذكر العلماء والمحدثون في تعليل ذلك أن السمع أول الحواس يؤدي وظيفته في الدنيا ، وهو أداة الاستدعاء في الآخرة ، ولأن الأذن لا تنام فالسمع أسبق وأنفع وأدوم ، وللعلامة الآلوسی تعليق مطول على الآيتين في الجزء السابع ص ١٠٧ وما بعدها فليرجع إليه من أراد التوسع .

٧٣- (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) :

أى : وبسبب رحمته بكم خلق لكم الليل والنهار لتسكنوا في الليل وتستريحوا من عناء الأعمال وأعباء الحياة وأثقال المعيشة ، ولتطلبوا الرزق الحلال بالنهار بالأسفار والترحال والضرب في الأرض ، ولتدركوا فضل الله عليكم فتشكروه بأنواع العبادات في الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل كما قال - تعالى - : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنَ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا »^(٣) .

٧٤- (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) :

المعنى : واذكر كذلك - أيها الرسول - يوم يُنادى المشركون من جانب الله فيقال لهم : أين الشركاء الذين زعمتموهم آلهة ينصرونكم أو شفعاء يشفعون لكم ؟ وهو تقريع إثر تقريع ، للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله - تعالى - من الإشراك ، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده - عز وجل .

يقول القرطبي : ينادى الله المشركين مرة فيقول لهم : « أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » فيدعون الأصنام فلا تستجيب فتظهر حيرتهم وخزيهم ، ثم ينادون مرة أخرى على رؤوس الأشهاد فيسكتون ، وهو توبيخ وزيادة خزي .

(١) سورة الإسراء الآية : ٣٦

(٢) المؤمنون ، الآية : ٧٨

(٣) سورة الفرقان ، الآية : ٦٢

٧٥- (وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

الآية الكريمة إنذار بما ينتظر هؤلاء المشركين يوم القيامة لجدالهم في وحدانية الله ،
وتعاميهم عن نعمه عليهم ورحمته بهم .

والمعنى : وأخرجنا يوم القيامة من كل أمة شاهداً يشهد عليهم بما كانوا عليه ، وهو نبي
تلك الأمة كما روى عن مجاهد وقتادة ، ويؤيده قوله - تعالى - : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ
أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » ^(١) . فقلنا لكل أمة من الأمم : هاتوا حججتكم
وأحضروا دليلكم على صحة ما تدعون به ، وعلى صدق ما ادعيتموه من أن الله شركاء ، فعملوا يومئذ
أن الحق لله في الألوهية لا يشاركه - سبحانه - فيها أحد ولا إله غيره ولم يجدوا جواباً ،
وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ما كانوا يختلقونه من الكذب على الله - تعالى - من أن
معه آلهة تعبد .

ويقول ابن كثير : (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أى : ذهبت معبوداتهم فلم ينفعوهم .
ويقول الآلوسی : وصيغة الماضي في « وَنَزَعْنَا » للدلالة على التحقق والثبوت ، والالتفات
إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بشأن النزع وتهويله ، لصدوره من المولى - عز وجل -
فهو نزع يليق بعزیز قوی . والله أعلم .

* (إِنْ قُلُّوا كَانَ مِنَ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ
مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِيَ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ
لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ^(٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا
ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا
وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ^(٧٧))

المفردات :

(فَبَنَىٰ عَلَيْهِمْ) : أى ظلمهم ، أو تكبر عليهم .

(الْكُنُوزِ) : الأموال المدخرة المحبوسة ، من : كنزه ، بمعنى : أذخره وحبسه عن الناس ، ومنه قوله تعالى : « الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » .

(مَفَاتِحُهُ) : جمع مفتاح - بكسر الميم - وهو المفتاح الذى تفتح به الأغلاق ، أو جمع : مفتاح - بفتح الميم والتاء - وهو الوعاء الذى يكتنز فيه كالصندوق .

(لَتَنْوُوا بِالْعُصْبَةِ) : العصابة ، الجماعة يتعصب بعضها لبعض ويشد أزره ، ومعنى « تَنْوُوا بِالْعُصْبَةِ » : تثقلها ، يقال : ناء به ، وأناءه ، أى : أثقله ، كما يقال : ذهب به وأذهب به ، فالباء للتعدي ، وبه قال الخليل وسيبويه والفراء ، واختاره النحاس ، وسيأتى بسط الكلام فى تفسيره .

(لَا تَفْرَحْ) : أى لا تفرح بدنياك فرحاً يذهلك عن أخراك .

(الْفَرَحِينَ) : قال الزجاج ، الفرحين والفارحين سواء ، ونزید على ما قاله : أن الفرح صيغة مبالغة تفيد زيادة الفرح .

(وَابْتَغِ) : واطلب . (وَلَا تَبْتَغِ الْفَسَادَ) : ولا تطلبه .

التفسير

٧٦- (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَنَىٰ عَلَيْهِمْ ...) الآية .

اختلف فى قارون من جهة قرابته لموسى - عليه السلام - فمن قائل : إنه ابن عمه ، وهو ماروى عن ابن عباس وابن جريج وغيرهما - ومن قائل : إنه عمه ، وحكاه محمد ابن إسحق ، ومنهم من قال : إنه ابن خالته ، ولم نجد لهذه الروايات سنداً ، وحسبنا ما قاله الله - تعالى - فى نسبه من أنه من قوم موسى ، أى : من بنى إسرائيل ، ويصفه الله بأنه بنى عليهم ، والبنى - فى اللغة - : التطاول ومجاوزة الحد ، وقد فسره المفسرون هنا بتفسيرات

مختلفة ، فمنهم من فسره بالتكبر ، فإنه كان جميل الصورة واسع الثراء ، وكان أحفظ بنى إسرائيل للتوراة ، فتكبر عليهم لذلك ، ومنهم من فسره بالظلم ؛ لأن فرعون ملكه عليهم فظلمهم وبغى عليهم ، والذي نراه أن لكنوزه دخلاً في ظلمه ، لأن من نصحوه من قومه قالوا له : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ » فهذا واضح في أن ماله أغراه بالإفساد والظلم ، ولذا عقبه الله بقوله : « وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ... الآية » .

(وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ) :

أى : وأعطيناه من كنوز الأموال ما دفعه إلى التكبر والتعالى على قومه وظلمهم ، فالمراد من الكنوز ؛ الأموال المدخرة ، ويصف الله عظمة هذه الكنوز بأن مفاتيحها تنوء بالعصبة أولى القوة ، والمراد من المفاتيح الخزائن . قال الضحاك : مفاتيحه : ظروفه وأوعيته ، وروى نحو ذلك عن ابن عباس والحسن ، وعلى هذا الرأى تكون مفاتيح جمع مفتاح - بفتح الميم وسكون الفاء - أى : مكان الفتح ، وهو الوعاء .

ومنهم من قال : إنه جمع مفتاح - بكسر الميم وسكون الفاء - وهو المفتاح الذى تفتح به الخزانة ، والأول أقرب إلى التعقل ؛ فإن العصبة أولى القوة تقدر على حمل المفاتيح ، ولا تنوء بها ، وإنما تنوء بحمل الخزائن ، والله أعلم .

والعصبة : الجماعة الكثيرة من غير تعيين بعدد خاص كما قاله الراغب ، ومنهم من عين لمعناها عدداً خاصاً من عشرة إلى خمسة عشر وهو مروي عن مجاهد ، ومنهم من زاد إلى سبعين .

وقال الخفاجى : إن أصل معناها : الجماعة مطلقاً - كما هو مقتضى الاشتقاق ^(١) ، والعرف هو الذى يخص العدد ، ومعنى (تنوء به العصبة أولو القوة) : تنهض به متناقلة كما قال ابن عباس وأبو صالح والسدى وبه قال الخليل والفراء والنحاس .

(١) فإن أصلها الجماعة يتمصب بعضهم لبعض .

وبعض المفسرين جعل هذه العصابة من الرجال ، وحددوها بأربعين رجلاً أقوياء ، ونسبوا هذا إلى ابن عباس ، حيث رووا عنه أن المفاتيح هي الخزائن ، وكانت خزائنه يحملها أربعون رجلاً أقوياء .

وبعضهم جعلها من الحيوانات كالبنغال والخيول ، وإطلاق العصابة عليها لغوى ؛ قال صاحب القاموس : العصابة - بالضم - من الرجال والخيول والطير : ما بين العشرة إلى الأربعين ، كالعصابة - بالكسر - ونقول : إنهم أخذوا هذا المعنى من العَصَب ، بمعنى الشد ، فإنها يشد بعضها أزر بعض ، وبعضهم جعل المفاتيح كناية عن العلم والحفظ ، كما قسروها في قوله تعالى : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ » فالمراد من الآية : وآتيناها من الكنوز ما إن حفظها والإحاطة بها ليثقل على الجماعة القوية من الرجال ، لاختلاف أصنافها وكثرتها التي تتعب القائمين على حفظها وحسابها والإحاطة بها ، وهذا هو تفسير أبي مسلم للآية ، وهو - وإن استبعدوه - له سنده من قوله تعالى : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ » كما أنه تجنب فيه المبالغات التي ذكرها كثير من المفسرين في تفسيرها : « إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » . قال ابن عطية : (إِذْ قَالَ) متعلق ببغى عليهم ، أى : بغى على قومه إذ قالوا له : لا تفرح ورجح بعض المفسرين تعلقه بمحذوف يقتضيه المقام ، أى : فأظهر قارون الفرح بكنوزه إذ قال له الأتقياء من قومه : لا تفرح بها إن الله لا يحب الفرحين ، وقد نهوه عن فرحه الذي أورثه البغى ، ومنعه حق الله تعالى ، فهذا هو الذي يُنهى عنه ، أما الفرح سرورا بنعمة الله ورضا عنها مع أداء حقها المشروع فلا ينهى عنه ، لأنه نوع من الشكر على النعم الذي حضن عليه الشرع ، كما قال - تعالى - : « وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .^(١) والمراد من عدم محبة الله للفرحين البطرين : بغضه لهم ، وإبعادهم عن حضرته وعن كرمه .

والمعنى العام للآية : إن قارون كان من بنى إسرائيل قوم موسى ، فظلمهم وتكبر عليهم بما أوتيته من علم وجاه ومال ، وأعطيناه من الأموال التي كنزها وحبسها عن مبررات الآخرة - أعطيناه - ما إن خزائنه لثقل الجماعة القوية من الدواب التي تحملها ، أو من الرجال القائمين على حفظها وحسابها وتدبير أمرها ، فأظهر قارون الفرح والتفاخر بكنوزه ، إذ قال له أتقياء قومه : لا تفرح بها فرح البطر والكفران ، إن الله لا يحب الفرحين البطرين الذين يكفرون ولا يشكرون ، بل يبغضهم وينتقم منهم .

٧٧- (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) :

واطلب فيما أعطاك الله من الكنوز والأموال ثوابا في الدار الآخرة بصرفها في مصارف البر والتقوى ، ولا تترك حفظك من الدنيا ترك المنسى ، فخذ من زينتها وطيباتها ورزقها ما تتجمل به ويعينك على تقوى الله - تعالى - وقيقك شر الحاجة ، وأحسن إلى عباد الله - تعالى - كما أحسن الله إليك تأسيب بصنيعه معك ، أو : أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن الله إليك بالنعم^(١) ، ولا تطلب هذه الكنوز الفساد في الأرض والبغى على العباد إن الله لا يحب المفسدين ، بل يبغضهم وينتقم منهم .

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) (٧٨)

المفردات :

(أُوتِيتُهُ) : أعطيته .

(الْقُرُونِ) : جمع قرن ، واختلف في زمنه ، وأصح ما قيل فيه : إنه مائة سنة ؛ لقوله

عليه السلام لغلامه : « عِشْ قَرْنًا » فعاش مائة سنة ، ويطلق على كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد ، قاله صاحب القاموس وهو المراد هنا ، ويطلق أيضًا على أهل زمان واحد ، ومنه قول الشاعر :

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخُلِفْتَ في قرن فانت غريب

(١) ويجوز أن تكون الكاف في كلا المعنيين للتعليل ، أى : أحسن لأجل إحسان الله إليك .

ذكره صاحب المختار .

(الْمُجْرِمُونَ) : المذنبون ، والجرم والجريمة : الذنب .

التفسير

٧٨- (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي . . .) الآية .

لما نصح أنقياء بنى إسرائيل قارون بأن يحسن الإنفاق من ماله كما أحسن الله به إليه ، ظن أنهم يصفونه بأنه أوتي به إحساناً عليه بغير سبب يقتضيه ، فرد عليهم بقوله : « إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي » واختلف في تفسير هذا العلم ، ف قيل : إنه علم التوراة فإنه كان أعلم بنى إسرائيل بها ، وقال أبو سليمان الداراني : علم التجارة ووجوه المكاسب ، وقيل : علم استخراج الكنوز والدفائن ، وقيل : علم الكيمياء ، فكان يحول الرصاص والنحاس ذهباً ، ورده العلماء بأن فيه دعوى قلب الحقائق ، وذلك لا يكون إلا لله - تعالى - ولم يثبت حدوثه منه بطريق صحيح ، وما يشاع بين العامة من إمكان ذلك ، إنما هو من باب الأراجيف التي لم تثبت في الواقع ، بل هي من باب الصبغ والتزييف^(١) .

وقال الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسيرها : إنما أوتيته على علم من الله باستحقاق إياه ، فلولا رضاه عني وعلمه بفضلي ما أعطانيه ، وكلمة (عِنْدِي) على هذا الرأي معناها : في ظني واعتقادي^(٢) وقد رد الله عليه بقوله : (أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) :

أى : أجهل قارون فبغى على قومه وأفسد في الأرض ، ولم يعلم أن الله - تعالى - قد أهلك من قبله من الأمم الخوالي من هو أشد منه قوة في الآلات ، وجمعاً للأعوان والأنصار والأموال ، ولا يسأل عن ذنوبهم المذنبون سؤال استعلام أو معاتبة واسترضاء ، وإنما يسألون سؤال تقرير وتوبيخ ، لقوله تعالى : « قَوْمُكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فكيف جهل قارون ذلك فافسد وبغى وزعم أنه أوتي كنوز المال استحقاقاً ؟

(١) راجع ابن كثير .

(٢) و (عِنْدِي) - على هذا - غير مبتدأ محذوف ، أى : هذا عندى وى اعتقادي ، أما على ما تقدم فهو صفة لعلم .

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾
وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾)

المفردات :

(فِي زِينَتِهِ) : فيما تزين به من متاع الحياة الدنيا .

(وَيَلَكُمْ) : هو في الأصل دعاء بالويل ، وهو الهلاك ، ثم شاع استعماله في الزجر
عما لا ينبغي ، وهو المراد هنا .

(وَلَا يُلْقِيهَا) : أى ولا يلقى هذه النصيحة ، أى : لا يتقبلها ويعمل بها .

(إِلَّا الصَّابِرُونَ) : على الطاعات ، وعن المعاصي .

التفسير

٧٩ - (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ
مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) :

اختلف في المراد من الذين يريدون الحياة الدنيا ، ف قيل : هم جماعة من مؤمنى بنى إسرائيل
تَمَنُّوا أن تكون لهم دنيا كدنيا قارون جرياً على سنة البشر من حب التوسع فيها ، وكان
ذلك على سبيل الغبطة ، لا على سبيل الحسد ، وقيل : هم جماعة من الكفار أو المنافقين الذين
لا هم لهم إلا دنياهم ، والظاهر مع الرأى الأول ، وتمنى مثل ما للغير لا يقدح فى الإيمان ، ولكن
طلب الآخرة أفضل ، كما يشير إليه رد أهل العلم عليهم فى الآية التالية .

ومعنى الآية : فخرج قارون ذات يوم على قومه بنى إسرائيل فى زينة عظيمة وتجمل باهر : من ملابس ناضرة ، ومراكب فارحة فاخرة ، وخدم وحشم ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخرفها وزينتها ، تمنوا مثل الذى أعطيه قارون ليتمتعوا به مثل متاعه ، قائلين : يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه ل ذو حظ وافر من دنياه ، فلما سمع مقاتلهم أهل العلم ردوا عليهم بما حكاه الله بقوله :

٨٠- (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) :

أى : وقال الذين أوتوا العلم ينصحون طلاب الدنيا وزخرفها ، ويزجرونهم عن طلب التوسع فيها حتى لا تفسدهم كما أفسدت قارون - قالوا لهم - : ويلكم لا تطلبوا مثل ما أوتى قارون ولا تتمنوا مثل زينته ومتاعه الدنيوى ، ثواب الله فى الآخرة خير من زينته ومتاعه وأعظم مما أوتيه - من ماله ورجاله - لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل عملاً صالحاً يرضاه ، ولا يتلقى هذه النصيحة بحسن قبولها والعمل بمقتضاها إلا الصابرون على الطاعات ، وعن السيئات .

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَانُ وَيَكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ) : أى أدخله الله وداره فى جوف الأرض ، يقال : خسف المكان يخسف خسوفاً : ذهب فى الأرض ، وخسف الله به الأرض : ذهب به فيها وأدخله فى جوفها ، وخسف هو فى الأرض وخسف به ^(١) (فِتَّة) أى : جماعة (وَيَكَّانَ) هى كلمتان (وى) و (كَّانَ) . قال الخليل وسيبويه : (وى) : اسم فعل بمعنى أعجب ، وتكون للتحسر والتندم أيضاً ، قال الجوهري : وقد تدخل (وى) على (كَّانَ) المخففة والمشددة ، تقول : (وَيَكَّانَ اللَّهُ) قال الخليل : هى مفصلة ، تقول : وى - ثم تبدئ فتقول : (كَّانَ) (وَيَكَّانَ) : أن الوقف على (وى) كما فى البحر ، و (كَّانَ) فيه عارية عن معنى التشبيه جىء بها للتحقيق ، كما فى قول الشاعر :

وأصبح بطن مكة مقشعرا كَّانَ الأرض ليس بها هشام

ويروى الثعلبي عن الفراء أن (وَيَكَّانَ) كلمة تقرير ، كقولك : أما ترى صنع الله وإحسانه ؟ وذكر أن أعرابية قالت لزوجها : أين ابنك ويلك ؟ فقال : ويكأنه وراء البيت أى : أما تريته ؟ وبهذا قال ابن زيد وجماعة ، وهو بمعنى ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - (وَيَكَّانَ) : حرف واحد بجملة ، وهو بمعنى ألم تر ^(٢) .

التفسير

٨١ - (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ) :

لما ذكر الله - تعالى - خروج قارون فى زينته ، وفخره على الناس وخيلاءه بدنياه ، وبغيه على عباد الله ، عقب ذلك ببيان ما حل به من الجزاء على البغى والخيلاء ، ويضم إليهما الكفر ، كما سيصرح به فى الآية التالية : « وَيَكَّانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » .

ويرى ابن كثير أنه هو المعنى بحديث البخارى فى صحيحه ، من حديث الزهري عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو

(١) انظر القرطبي .

(٢) هذه خلاصة بحث طويلة ، فارجع إلى القرطبي والآلوسى وغيرهما من الموسوعات إن شئت المزيد .

يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة ، وللتجلجل معان ، منها : الذهاب في الأرض ، والتضعف ، وشدة الصوت ، والوعيد ، والأخير هو أنسبها ، فهو في وعيده وعقابه إلى يوم القيامة ، وهناك يعذب عذاب الكافرين حيث يخلد في النار .

ولم نجد أحداً من المفسرين تحدث عن الأرض التي خسف به وبداره فيها ، ويوجد في محافظة الفيوم بحيرة صغيرة تسمى (بركة قارون) فلعله وقومه كانوا يسكنون هذه المنطقة ، وأنه خرج على قومه في زينته بأرضها فغيبه الله وداره في جوفها ، ونشأت بركة قارون بسبب هبوط الأرض هبوطاً شديداً تحت مستوى المياه الجوفية ، فسارعت المياه الجوفية فملأت مكان الخسف ، ونشأت بذلك بركة نسبت إليه ، لتكون آية على مكانه وشاهد على عاقبة بغيه وكفره ، ومعلوم أن بنى إسرائيل قد كثروا بمصر حتى أصبحوا بها أمة ، وقد أذلهم المصريون ، واستخدموهم في بيوتهم وحقولهم ، فلما جاء موسى برسالة إلى فرعون ، وأظهره الله عليه استطاع أن يخفف عنهم ذل الأسر والاستعباد فطلب إليهم أن ينفردوا ببيوت لهم يسكنونها مستقلين عن سادتهم من المصريين ، وأن يكونوا متجاورين ، وفي ذلك يقول الله - تعالى - : « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

ولو صح استنباطنا من أنهم يسكنون بمنطقة الفيوم حيث بركة قارون ، فإن ذلك لا يمنع من أن بيوتهم في مصر ، فإن الفيوم إقليم مصرى ، ولعله كان له شأن في ذلك الزمان .

السبب المباشر للخسف بقارون وداره

يروى أنه كان كثير الإيذاء لموسى فصبر عليه ، لأنه كان ابن عمه حتى اتهمه بالزنى في محضر من قومه فبرأه الله وحكمه فيه ، وفي ذلك روى ابن أبى شيبة في المصنف ، وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس « أن قارون كان ابن عم موسى - عليه السلام - وكان يتتبع العلم حتى جمع علماً ، فلم يزل في ذلك حتى بغي على موسى - عليه السلام - وحسده ، فقال موسى : إن الله - تعالى - أمرني أن آخذ الزكاة ، فإني ؛ فقال : إن موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة ، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها ، أفتحملون أن تعطوه أموالكم ؟ قلوا : لا نحمل فما ترى ؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلى

بغى من بغايا بنى إسرائيل ، ففرسلها إليه ففتهمه بأنه أرادها على نفسها ، فأرسلوا إليها فقالوا لها : نعطيك حُكْمَكَ^(١) على أن تشهدى على موسى أنه فجر بك ، فقالت : نعم ، فجاء قارون إلى موسى - عليه السلام - قال : اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك ، قال : نعم ، فجمعهم فقالوا : بِمِ أَمْرِكَ ربك ؟ قال : أمرنى أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تصلوا الرحم ، وكذا وكذا ، وقد أمرنى فى الزانى إذا زنى وقد أحصن أن يرجم ، قالوا : وإن كنت أنت ، قال : نعم ، قالوا : فإنك زנית ، قال : أنا ؟ فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا : ماتشهادين على موسى ؟ فقال لها موسى - عليه السلام - : أنشدك بالله إلا ما صدقتِ فقالت : أما إذ نشدتنى^(٢) بالله - تعالى - فإنهم دعونى وجعلوا لى جُعلاً^(٣) على أن أقذفك بنفسى ، وأنا أشهد أنك برئ وأنت رسول الله . فخر موسى ساجداً يبكى ، فأوحى الله إليه : ما يبكيك ؟ قد سلطناك على الأرض فمرها تطعك ، فرفع رأسه فقال : يا أرض خذهم ، فأخذتهم . . . الحديث .

وفى تبرئة الله لموسى مما اتهموه به يقول الله - تعالى - فى سورة الأحزاب : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا »^(٤) . وهناك روايات أخرى فى سبب خسفه ، وحسب القارئ ما تقدم .

المعنى الإجمالى للآية

فخرقنا بقارون وبيداره الأرض وغيبناهما فى جوفها ، فما كان له من جماعة غير الله يدفعون عنه نعمة الله ونكاله ، وما أغنى عنه ماله وخزائنه ولا حماه خدمه وحشمه وأنصاره ، وما صح ولا استقام أن يكون من الممتنعين من بطش الله بأى سبب من أسباب الامتناع ، فإنه لا بد واقع ، ليس له من دافع .

٨٢- (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) :

(١) أى : ما تحكين به من المال أجراً على اتهامه بالزنى .

(٢) أى : سألتنى .

(٣) أى : أجراً .

(٤) الآية : ٦٩

(وَأَصْبَحَ) هنا بمعنى : وصار ، و (بِالْأَمْسِ) بمعنى : منذ زمان قريب ، واستعماله بهذا المعنى مجاز مشهور ، ومن المفسرين من حملهما على معناهما الحقيقي ، ونحن نؤثر المعنى الأول في تأويل الآية ؛ لما فيه من الاحتياط في تأويلها ، ولشموله للمعنى الثاني أيضاً .

ومعنى الآية : وصار الذى تمنوا منذ زمان قريب مثل ما أوتى قارون من السعة والغنى يقولون : نَعَجِبُ مِمَّا حَدَثَ لِقَارُونَ ، ونندم على تمنينا مثل ما أوتى حقاً إن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده لا لِكِرَامَةٍ تَقْتَضِي البسط ، ويضيقه على من يشاء ، لا لهوان يقتضى التضييق ، فهو الحكيم فى قضائه وقدره ، لولا أن من الله علينا فلم يعطنا ما تمنينا لخسف بنا ققارون ؛ لأن المال يغويننا كما أغواه ، ويدمرنا كما دمره ، نعجب مرة أخرى من هذا العقاب ، ونندم على تمنينا مثل يساره الذى فتنه ، إنه لا يفلح الكافرون بنعم الله ، المؤثرون لدنيامهم على دينهم ، المكذبون برسولهم ووعدهم ووعيدهم ، فهم الخاسرون النادمون .

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾)

المفردات :

(عُلُوًّا) : استكباراً . (وَالْعَاقِبَةُ) : الخاتمة الطيبة .

التفسير

٨٣- (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) :

هذه الجنة العظيمة الموجودة فى الآخرة بنعيمها الدائم ، وجمالها الباسم نجعلها ثواباً للمؤمنين الصالحين الذين لا يريدون علواً فى الأرض ، وجمالها الباسم نجعلها ثواباً للمؤمنين الصالحين الذين لا يريدون بنعم الله عليهم تعالياً على الناس ، وسلطاناً فوقهم ،

ولا يريدون بها عدواناً وظلما يفسد عليهم حياتهم ، والعاقبة المحمودة في شرع الله وحكمه للذين يتقون غضبه فيطيعون أمره ، ويجتنبون نهيه ، ويسالمون عباده .

جاء في حديث صحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي أُوحَى إِلَى أَنْ تَوَاضَعُوا ، أَلَا فَتَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْنِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً » أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه ، ومن أحب أن يتجمل بين الناس بنعم الله عليه فلا يعد هذا تعالياً ولا كبراً ، فقد صح أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « لا ، إِنْ اللَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ » أخرجه الإمام مسلم والإمام أحمد .

٨٤ - (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

من جاء يوم الحساب والجزاء بالخصلة الحسنة عقيدة أو عملاً ، فله جزاء خير منها ، حيث يضاعف الله ثوابها بحسب ما فيها من حسن النية والأداء ، ومن جاء بالخصلة السيئة عقيدة أو عملاً فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا بما مثل ما كانوا يعملونه من السيئات دون زيادة عليها ، كما قال تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ »^(١)

وإنما قال : من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة ، ولم يقل : من عمل الحسنة ومن عمل السيئة للدلالة على أن استحقاق الثواب أو العقاب مستفاد من الخاتمة التي يحجى بها الإنسان لربه ، لا من أول العمل ، فمن أمضى عمره في الكفر ثم أسلم وحسن عمله فقد جاء ربه بالحسنة وله ثوابه ، ومن أمضى عمره في الإيمان والعمل الصالح ثم كفر ، فقد جاء ربه بالسيئة وله عقابه . نعوذ بالله من سوء الخاتمة .

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّيَ
 أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ
 تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ
 ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ
 أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾
 وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ
 إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) : أوجب عليك تبليغه ، والعمل به .

(لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) أى : لراجعك إلى مكان عظيم تعودته - وهو مكة - : من العادة ،
 أو إلى مكان تعود إليه بعد الخروج منه : من العود ، وهو مكة أيضاً ، وذلك في يوم فتحها
 سنة ثمان من الهجرة ، وفيه معان أخرى ، وما ذكرناه أولاً .

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : بعد عن الحق واضح ، من (أَبَانَ) : اللّازم ، بمعنى اتضح .

(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ) : وما كنت تتوقع أن ينزل عليك القرآن .

(فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ) : أى معيناً لهم بإجابتهم إلى طلبهم .

(وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ) : ولا يمنعك الكافرون عن العمل
 بآيات الله بعد وقت إنزالها إليك .

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) : أى كل شيء فانٍ إلا ذاته - تعالى - فالوجه مجاز عن الذات ، وللکلام بقية فى التفسير .

التفسير

٨٥ - (إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّىَّ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

ذكر الله - تعالى - فى الآيات السابقة قصة موسى وقومه مع قارون وبغيه واستطالته عليهم ، وهلاكه ، ونصره أهل الحق عليه ، وجاء هذه الآية مشيرة إلى قصة سيدنا محمد وأصحابه مع قومهم ، واستطالتهم عليهم ، وإخراجهم إياهم من بلدهم ، ومبشرة بإعزازه ﷺ ورده والمؤمنين المهاجرين إلى مكة وفتحهم إياها غالبين منصورين ، ووسط بين القصتين ما هو مرتبط بهما من شئون الآخرة ، للانتقال من قصة إلى أخرى ، قال مقاتل : خرج النبي ﷺ من الغار ليلاً مهاجراً إلى المدينة فى غير الطريق مخافة الطلب ، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة عرف الطريق إلى مكة واشتاق إليها ، فقال له جبريل : إن الله يقول : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ » : أى مكة ظاهراً عليها ، قال ابن عباس : نزلت بالجحفة فليست مكية ولا مدنية .

وتفسير المعاد بمكة قول الأكثرين ، وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد وغيرهم ، وقال الضببى : معاد الرجل بلده ؛ لأنه ينصرف منه ثم يعود إليه .

وفى المعاد أقوال أخرى ، وما ذكرناه أولى منها بالقبول ، لما ذكرناه من الربط بين القصتين .

ومعنى الآية : إن الله الذى فرض عليك - أيها الرسول - تبليغ القرآن والعمل به ، لراجعك ظاهراً إلى مكة بلدتك التى تعودتها وقد أخرجوك منها فلن يكون خروجك منها أبدياً ، قل لقومك : ربى أعلم بمحمد الذى جاء بالهدى من عنده فينصره ويرده إلى بلده وينشر هداه ، وأعلم بمن هو فى ضلال واضح من قومه فيخذله ، ويذله .

٨٦ - (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِّلْكَافِرِينَ) :

هذه الآية مقررة لما جاء في الآية السابقة ، من الوعد بإعادته إلى مكة التي أخرجوه منها ومؤيدة لموقفه السلبي من دعوتهم إياه إلى العودة إلى ملة الشرك التي نشأوا عليها ، وتثبيت له عليه ، قال مقاتل : دعا كفار مكة رسول الله ﷺ إلى دين آبائه فذكره الله - تعالى - نعمه ، ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه .

والواقع أن الرسول الأمين لا يتصور منه أن يكون ظهيرا للكافرين في دينهم ، فهو بعيد عنه منذ صباه ، وكان يعبد الله على ما بقي من دين إبراهيم ، فالغرض من نهى الرسول عن أن يكون ظهيرا لهم ، إنما هو إقناعتهم من استجابته إليهم مهما اشتدت قسوتهم ، ببيان أن الأمر صدر له بمخالفتهم ممن أنزل عليه الكتاب رحمة به وبهم ، فلا تطمعوا في مخالفته ما كلفه به ربه .

ومعنى الآية : وما كنت تتوقع أن يختارك الله رسولا ، وأن يُنزل عليك كتابا تبليه قومك ومن وراءهم ، ولكن رحمة من ربك بعباده وبك ، اختارك وأنزل عليك الكتاب فلا تكونن في يوم من الأيام معينا للكافرين - وأنت من الله بهذه المكانة والمنزلة المقتضية لنصرك عليهم - بل دم على ما أنت عليه من مخالفتهم والاستمرار في دعوتهم إلى الحق مهما لقيت في سبيله فلسوف يعيدك ربك إلى بلدك مظفرا منصورا .

٨٧ - (وَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

ولا يمنعك قومك بإعراضهم وعدائهم عن تبليغ آيات الله بعد إذ أنزلها الله إليك ، فلا تتأثر لمخالفتهم وصددهم الناس عنك ، وإيذائهم لك ولأتباعك ، فإن الله سيعلي كلمتك ، ويؤيد دينك ، ويظهر ما أرسلت به على سائر الأديان ، ودم على ما أنت عليه من الدعوة إلى ربك وحده لا شريك له ، ولا تكونن من زمرة المشركين بعد أن دعوك إليهم ، فهم أهل الضلال ، وأنت رسول الهدى ، وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور .

والفرض من الآية : إقناظ الكافرين من استجابة الرسول إليهم ، كما تقدم في الآية السابقة ، فإنه لا يتصور منه أن يكون من المشركين ، وقد اختاره رب العالمين ، وكيف يتصور منه ذلك وهو الذي كان يقول : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الدين ما تركته أو أهلك دونه » .

٨٨ - (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

هذه الآية كالأيتين قبلها لمزيد تثبيت النبي ﷺ فيما هو مقيم عليه من الدعوة إلى توحيد الله ، وقطع أطماع المشركين في استجابته إلى ما أرادوه منذ فجر الدعوة من تركه دعوة التوحيد وعودته إلى الوثنية دين الآباء والأجداد مهما بالغوا في إيذائه فاقراً ما كتبناه عليهما قبلها ، لتدرك مبلغ ترابطها .

ومعنى هذه الآية : والزم توحيد ربك الذي أنت مقيم على عبادته ولا تعبد مع الله إلهاً آخر . فإنه لا معبود بحق سواه ، كل شيء مصيره إلى الهلاك إلا ذاته - سبحانه - له القضاء النافذ في خلقه عابدين ومعبودين وسواهم ، وإليه ترجعون للحساب والجزاء ، فكيف يُعبد سواه وقضاؤه نافذ في خلقه بالهلاك والفناء ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ملئنا الله باطل » .

واعلم أن المراد من الشيء : الموجود ، ولهذا استدل بالآية على إطلاق لفظ شيء على الله - تعالى - وكأنه قيل : كل موجود في أي وقت هالك إلا ذاته فلا يلحقه هلاك - سبحانه - وتعالى . وقال مجاهد والثوري في قوله تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » أي : إلا ما أريد به وجهه ، وحكاه البخاري في صحيحه ، والمقصود من هذا الرأي أن الأعمال الصالحة التي يراد بها وجه الله - تعالى - تبقى ببقاء ثوابها ، حيث يجدها صاحبها نعيماً مقيماً في جنة الرحمن الرحيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العنكبوت

سورة العنكبوت مكية - قيل : هي آخر ما نزل بمكة - فيكون ذكر شيء عن المنافقين فيها من باب الإخبار بالمغيبات عن مجتمع المدينة ، وذكر الجلال في وجه اتصالها بما قبلها : أن الله - تعالى - أخبر في سورة القصص التي قبلها بما كان من فرعون واستعلائه على قومه ، وجعلهم شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، ويسومهم سوء العذاب فافتتحت سورة العنكبوت بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار ، وعذبوهم بعذاب دون ما عذب به فرعون بنى إسرائيل تسلياً لهم بذكر ما وقع بمن قبلهم ، وحثاً لهم على الصبر وتحمل الأذى ، كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - : « وَلَقَدْ فْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » .

كما أن من المناسبة أيضاً ما أشارت إليه الآيات في خاتمة سورة القصص . من هجرة النبي ﷺ في قوله - تعالى - : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ » على بعض الأقوال ، وما أشارت إليه سورة العنكبوت من هجرة المؤمنين في قوله - تعالى - : « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ » هذا ، وقد ختمت سورة القصص بما يفيد هلاك جميع المخلوقات ، ورجوعهم إلى الله ، فكان من جميل النسق أن تبدأ سورة العنكبوت بعدها بتوجيه المؤمنين إلى الصبر على ما يتعرضون له من الأذى ، وما يُفتنون به من بلاء المشركين ، ليكون لهم جزاء الصابرين ، وعقبي المتقين .

خلاصة هذه السورة

بدأت السورة بذكر ما يتعرض له المؤمنون من الفتن ، وما يواجههم من عنت وإرهاق وتعرض لفتن كثيرة جرت عليها سنة من قبلهم من المؤمنين حيث أودوا من الكافرين برسولهم ليتبين الذين صدقوا ، ويُعلم الكاذبون ، ثم حثت الآيات على التمسك بالعقيدة ، والعمل الصالح استعداداً للقاء الله ، ونهت إلى جميل الجزاء ، وحسن الثواب لمن أقام على عمل الصالحات التي من جملتها الإحسان إلى الوالدين ، واصطناع المعروف معهما مهما كان شأنهما ، وحذرت من ضعف الإيمان ضعفاً تهزه الحوادث ، ويذهب به التعرض للأذى والفتن .

ثم انتقلت الآيات إلى طرف من قصص نوح وإبراهيم ولوط مع قومهم في بيان يطول ويقصر ، حتى انتهت إلى قصة شعيب - عليه السلام - مع أهل مدين .

ثم انتقلت من هذا إلى تهوين أمر المشركين والكافرين مهما بلغت قواهم ، وظهر أمرهم ، فإن هذا كله لا يلبث أن يزول ، وينتهى بهم إلى أشد العقاب ، ولا تنفعهم معبوداتهم ؛ فهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً « وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

ثم دعت الآيات إلى حسن المجادلة مع أهل الكتاب بالحكمة والموعظة الحسنة حسبما يرشد إلى ذلك الكتاب الكريم الذي أنزل على النبي الأُمى الذى لم تسبق له قراءة ولم يجلس إلى معلم : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ » : وتأكدت هذه المعاني كلها بآيات بعد ذلك ترد شبههم ، وتنعى عليهم استعجالهم العذاب الذى لن يفوتهم إن كان مقدراً عليهم ، وسيغشاهم من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم إذا حان حينه ، وجاء أوانه .

ثم اتجهت الآيات فى ختام السورة إلى دعوة المؤمنين إلى التماس عزتهم وقوتهم فى أرض الله الواسعة : فستكون لهم العاقبة الحسنى فى الدار الآخرة التى هى الحيوان لو كانوا يعقلون .

وبمقدار ما عابت الآيات أحوال الكافرين ، وأنكرت عليهم تكذيبهم للحق حين جاءهم ، بشرت المجاهدين فى الله بالهداية إلى سبل الرشاد فى الدارين : « وَالَّذِينَ جَاهَلُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

وسميت السورة سورة العنكبوت لذكره فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(اَلَمْ)

بدئت هذه السورة بسرد حروف من حروف المعجم كغيرها من كثير من السور ، والكلام فى ذلك مثل الكلام فى نظائره من هذه الفواتح الكريمة السابقة ، فارجع إلى مثله فى أوائل القرآن إن شئت .

وما تجدر الإشارة إليه أن السور التى بدئت بسرد حروف من المعجم أتبعته هذا الابتداء بالحديث عن القرآن الكريم بصور مختلفة ، وأساليب متعددة ، إلا ثلاث سور هذه إحداها

وسورة الروم ، وسورة مريم ، وهذا يدلنا على أن في هذا الكتاب العزيز أسراراً لا يزال العقل البشري في عجز عن إدراكها ، ومعرفة الحكمة فيها ومنها ، مهما تكلف في توجيه ذلك المتكلفون .

على أن ذكر هذه الحروف في مفتتح هذه السور وغيرها أسلوب من أساليب إثارة الانتباه واليقظ لما يذكر بعدها من أغراض وأهداف .

(أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾)

المفردات :

(أَحْسِبَ) : أظن ، والحسبان كالظن : ترجيح أحد النقيضين على الآخر .
(لَا يُفْتَنُونَ) : لا يختبرون ولا يمتحنون ، من قولهم : فتن الذهب ، إذا أدخله النار ليختبر جودته .

(صَدَقُوا) : آمنوا عن عقيدة وإخلاص .

(الْكَاذِبِينَ) : المنافقين في إيمانهم .

(أَنْ يَسْبِقُونَا) : أن يفوتونا ويعجزونا فلا يلاقوا جزاء أعمالهم .

التفسير

٢ - (أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) :

(الْحُسْبَانُ) : ترجيح أحد النقيضين على الآخر كالظن . بخلاف الشك ، فهو : التردد بينهما ، وبخلاف العلم ، فهو : القطع بأحدهما ، ولا يتعلق الحسبان بمعاني المفردات ، ولكن بمضامين الجمل ، ولذلك يقتضى مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر ، أو ما يسد مسددهما كما هنا .

والمعنى : أظنَّ الناس تركهم غير مفتونين لمجرد إيمانهم أو نطقهم بالشهادتين دون أن يتعرضوا للفتن في دينهم ، والامتحان بمشاق التكليف من المهاجرة والمجاهدة ، والصبر على فعل الطاعات ، واحتمال أنواع المصائب في الأموال والأنفس والثمرات ؛ ليميز المخلص في إيمانه من المنافق ، والراسخ في الدين من المتزلزل فيه ، فيلاقى كل واحد جزاءه بما يقتضيه عمله كما في قوله - تعالى - : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ »^(١)

رؤى أنها نزلت في أناس من المسلمين الأوائل كان المشركون من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام ، وعياش بن ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وعمار ابن ياسر ، وأبيه ياسر ، وأمه سمية ، وغيرهم . فكانت صدورهم تضيق لذلك ، فنزلت هذه الآيات تسلية لهم وإعلاماً بأن هذه هي سنة الله في خلقه اختباراً لهم وتمحيصاً .

وهذه الآيات وإن نزلت في هؤلاء فهي باقية في أمة محمد ﷺ أبداً الدهر .

وقيل : نزلت في « مهجع » مولى عمر بن الخطاب أول من قُتل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله فجزع عليه أبواه ، وامراته ، فقال النبي ﷺ : « سيد الشهداء مهجع ، وأول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة » .

٣ - (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) :

هذه الآية تتصل بالآية قبلها ، توضح أن ابتلاء الأمم سنة قديمة مبنية على الحكم البالغة ، جارية بين الأمم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافها .

والمعنى : ولقد اختبرنا الأمم قبلكم ، وابتليناهم بأنواع من البلاء ، وضروب من الفتن والمحن أشد مما أصابكم ، فمنهم من صبروا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ومنهم من ارتدَّ عن دينه ، وهؤلاء وأولئك معلومون لله مجزيون على أعمالهم ، كما قال سبحانه : « فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ... » أى : فوالله ليعلمن الله الصادقين الذين

صبروا لهذا الامتحان يعلمهم علماً تنجزياً ، بعد أن علمهم قبل أن يكونوا . ولعلمين الكاذبين في إيمانهم كذلك ، فيجزى كلاً جزاءه الذي يناسب حاله ^(١) .

٤- (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) :

هذه الآية انتقال من إنكار حساب الناس أن يتركوا لمجرد الإيمان دون أن يفتنوا ، إلى إنكار حساب الذين يعملون السيئات أن لا تجازيهم على سيئاتهم وهو أبطل من الحساب الأول ، وقد عمم بعضهم فحمل السيئات على الكفر والمعاصي . وتكون الآية على هذا في المشركين وعصاة المؤمنين ، وهم وإن لم يحسبوا أن يفوتوه - تعالى - ولم تطمع نفوسهم في ذلك لكن نزل جريهم على غير موجب العلم بالجزاء من الغفلة وإصرارهم على المعاصي منزلة من لم يتيقن الجزاء .

والمفهوم من السياق ، ومن سبب النزول : أن الحساب الأول كان من المؤمنين ، وهذا الحساب من الكافرين ، وهذا أخذ ابن عباس - رضى الله عنهما - . فقد روى أنه قال : يريد - سبحانه - بالذين يعملون السيئات الوليد بن المغيرة ، وأبا جهل ، والأسود ، والعاص ابن هشام ، وشيبة وعتبة ابني ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وعقبة بن أبي معيط . وحنظلة ابن وائل ، وأنظارهم من صناديد قريش .

وهذا لا يمنع أن الآية تعم جميع من يعمل السيئات ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

والمعنى الإجمالي للآية : أظن الذين يرتكبون السيئات من الكفر والمعاصي أن يفوتونا ، ويهربوا من حسابنا فلا نقدر على مجازاتهم بمساوى أعمالهم ، لقد ظنوا كذباً ، وحسبوا باطلاً ، وحكموا فاسداً (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) : أى بثس الحكم الذى يحكمونه هذا الحكم .

(١) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « قد كان من كان قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظم من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه . »

(مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿١٠﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ
الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾)

المفردات :

(يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ) : يتوقع ملاقة جزائه ، أو يخاف .

(أَجَلَ اللَّهِ) : الوقت الذي حدده وعينه . (جَاهَدَ) : غالب نفسه وقهرها على الطاعة .

التفسير

هـ - (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

المعنى : من كان يتوقع ملاقة جزائه ثواباً أو عقاباً ، فليبادر إلى ما يحقق رجاءه .
ويؤمن خوفه ، وليختر من الأعمال ما يؤدي إلى حسن الثواب ، وجميل العاقبة ، وليختر
ما يسوقه إلى سوء العاقبة كقوله - تعالى - : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا
وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » ^(١) .

وقوله - تعالى - : (فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ) معناه : فإن الوقت الذي حدده وعينه لذلك
لآت وواقع لا محالة من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يشنيه ، فليستعد لذلك ويقدم له .
وقيل : المقصود بـرجائه لقاء الله : أمله بـلقائه في الجنة .

ومعنى : (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) : هو السميع لأقوال عباده في جهرهم وسرهم ، وخلواتهم
وجلواتهم ، العليم بجميع أحوالهم وشئونهم لا يغيب عنه من ذلك شيء ، ولا يخفى عليه أمر .

ويجازى كلا بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر تصديقاً لقوله - تعالى - : « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » (١)

٦ - (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) :

ذكرت الآيات السابقة ابتلاء الله عباده واختبارهم ليمحص الذين آمنوا فيجزل لهم الثواب ، ويعظم الأجر ، ثم جاءت هذه الآية تحفزهم إلى الاستزادة من عمل الصالحات ، وكثرة الطاعات ، فقال - تعالى - ما معناه : ومن جاهد نفسه بالصبر على طاعة الله ، أو دفع وساوس الشيطان فإنما يجاهد لنفسه لعود منفعة إليها ، إن الله لغني عن العالمين فلا حاجة له إلى طاعتهم ، وإنما أمرهم - سبحانه - بها ليشابوا عليها بموجب رحمته وحكمته .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ٧)

المفردات :

(لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) : لنسقطن عنهم عقاب سيئاتهم .

(أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى أحسن جزاء أعمالهم ، بأن تجازى الحسنة الواحدة بعشر أمثالها فأكثر ، أما الجزاء الحسن فإنه يكون بمجازاة الحسنة بحسنة مثلها فقط .

التفسير

٧ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

قررت الآية السابقة أن من جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، وهذه الآية تؤكد هذا المعنى وتزيد

عليه أن فضل الله - تعالى - لا يقف عند الجزاء بالمثل ، بل فضله أعظم ، ورحمته أوسع وأشمل ، فهي تشير إلى أن الله - تعالى - يسقط عذاب الكافرين بإسلامهم ، ويتجاوز عن عقاب العصاة لفعل الطاعات ، ثم تتجلى رحمة الله وواسع فضله بقوله - تعالى :
(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : لنثيبنهم أحسن ثواب أعمالهم ، فنجازى على الحسنة بعشر أمثالها وأكثر .
ولا نقف على الجزاء الحسن فنثيب على الحسنة حسنة فقط .

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَاَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾)

المفردات :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ) : أمرناه ، و (وَصَّى) يجرى مجرى الأمر معنى ، فكأنه قيل :
وأمرنا الإنسان ، ويستعمل فيما كان فى المأمور به نفع عائد على المأمور وغيره .

(جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي) : بآلغاً فى حملك على الشرك .

(مَرْجِعُكُمْ) : عودتكم بالموت .

(أَنْبِئُكُمْ) : أخبركم .

التفسير

٨- (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَاَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) :

جاءت هذه الآية فى معرض الحديث عن الإيمان وعمل الصالحات توجه إلى منهل من

أثرى مناهل الرحمة وهو بر الوالدين والإحسان إليهما، وقد نزلت هذه الآية في سعد ابن أبي وقاص - رضي الله عنه - بعد إسلامه حيث حلفت أمه «حمنة»^(١) بنت أبي سفيان ألا تنتقل من الضح^(٢) إلى الظل، ولا تطعم ولا تشرب حتى يترد، فلبثت ثلاثة أيام، فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه فنزلت هذه الآية، فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها بالإحسان.

وقيل: نزلت في عباس بن أبي ربيعة وقد فعلت أمه مثل هذا الفعل، وسواء أكان نزولها في هذا أم ذاك، فهي لجميع الأمة؛ لأن الإحسان إلى الوالدين مطلوب من كل مسلم.

ومعنى الآية: أمرنا الإنسان بإيتاء والديه، وإيلائهما كل فعل ذى حسن يرضيهما ويوفر راحتهما، ويحقق البر بهما مادام في كل هذا طاعة الله، فإن ذلك يحقق له الثواب وعظيم الأجر، ويعود على الوالدين بالخير والراحة والإحسان، فإن ابتغى الوالدان أو أحدهما من الولد شيئاً فيه معصية، أو جاهدها وحملها حملاً على أن يشرك بالله ما ليس له علم بألوهيته وإنما يعلم بطلانه، فلا يطعهما؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولكن مع التلطف في معاملتهما، والصبر على ابتلائه بهما؛ فإنه لا يصبر على بلاء الله إلا صديق.

وقوله - تعالى -: (إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) : معناه؛ إلى وحدي نهايتكم جميعاً من آمن منكم ومن أشرك، ومن برّ والديه ومن عقوقهما، فأكشف لكم عن هذا كله، وأجازى كلّاً بعمله، الخير بالخير، والشر بالشر.

(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ٩)

(١) جاء في الإصابة ج ٤ ص ١٦٠ رقم ٣١٨٧ في ترجمة سعد بن أبي وقاص أن اسم أمه: حمنة بنت سفيان بن أمية بنت عم أبي سفيان بن حرب.

(٢) الضح: نور الشمس

المفردات :

(فِي الصَّالِحِينَ) : الصلاح ؛ ضد الفساد ، وهو أبلغ صفات المؤمنين .

التفسير

٩- (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) :

الدخول في الصالحين مطلب من أجل المطالب التي تستشرف إليها نفوس خاصة المؤمنين بالله الأنبياء والمرسلين ، وهذا سليمان - عليه السلام - مع ما أعطاه الله من الرسالة والملك ، وتسخير كثير من الأكوان يقول : « وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » ^(١) .

والمعنى : والذين آمنوا بالله ، وصدقوا بوحدانيته ، وأخلصوا في عبادته بعمل الصالحات ، والإكثار من الطاعات ، لندخلهم ونحشرهم يوم القيامة في زمرة الراسخين في الصلاح الذي هو منتهى درجات المؤمنين ، وغاية ما أمتدح الله به الأنبياء والمرسلين ، قال - تعالى - في شأن إبراهيم - عليه السلام - : « وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » ^(٢) . وقيل : المراد لندخلهم مدخل الصالحين وهو الجنة ، والمؤدى واحد في كلا المعنيين .

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللّٰهِ وَلَٰئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾)

(١) جزء الآية ١٩ من سورة النمل .

(٢) جزء الآية ١٢٢ من سورة النمل .

المفردات :

- (أُوذِيَ فِي اللَّهِ) : عُدِّبَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِسَبَبِ إِسْلَامِهِ .
 (فِتْنَةُ النَّاسِ) : مَا يُلْحَقُهُ مِنْ أَذَاهُمْ .
 (كَعَذَابِ اللَّهِ) : مِثْلُ عَذَابِ اللَّهِ الَّذِي يَنْتَظِرُ الْعَصَاةَ فِي الْآخِرَةِ .
 (نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ) : فَتْحٌ وَغَنِيْمَةٌ
 (إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ) : كُنَّا مُشَايِعِينَ وَمُنَاصِرِينَ لَكُمْ فِي الدِّينِ .
 (الْمُنَافِقِينَ) : الَّذِينَ يَظْهَرُونَ الْإِسْلَامَ وَيَخْفَوْنَ الشِّرْكَ .

التفسير

١٠- (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ...) الآية .

نزلت هذه الآية في ناس من ضعفة المسلمين كانوا إذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم ، وكانوا يكتُمون ذلك على المسلمين ، وقيل : إنها نزلت في المنافقين .

والمعنى : ومن بين المسلمين ناس ضعاف الإيمان يقولون : آمنا بالسنتهم ، ولم يتغلغل الإيمان في قلوبهم ، ولم يتعمق في ضمائرهم ، فإذا مسهم أذى من الكفار والمشركين بسبب إيمانهم خافوا هذا الأذى ولم يصبروا عليه ، ووافقوهم على شركهم وأظهروا لهم ولائهم معادلين هذا العذاب لعذاب الله - تعالى - في الآخرة ، ومُنْزِلِيهِ مَنْزِلَتَهُ فِي الشَّدَةِ وَالْهَوْلِ .

(وَلَكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ) : وَحَصَلَ لِلْمُؤْمِنِينَ فَتْحٌ أَوْ غَنِيْمَةٌ رَجَعُوا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَكْدُوا لَهُمْ إِيمَانَهُمْ بِقَوْلِهِمْ : إِنَّا كُنَّا مُشَايِعِينَ لَكُمْ فِي الدِّينِ ، مُنَاصِرِينَ لَكُمْ فِي بَلَائِكُمْ ، فَأَشْرَكُونَا مَعَكُمْ فِي الْغَنِيْمَةِ ، وَيردُّ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْإِدْعَاءَ الْكَاذِبَ بِقَوْلِهِ :

(أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ) : أَيْ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَعْلَمُ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ بِهِ ، فَلَا يَخْفَى ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ ، بَلْ لَا يَخْفَى عَلَى الْمُتَفَرِّسِينَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ بِنُورِ اللَّهِ - تَعَالَى - أَحْوَالَهُمْ مِنْ رَقَةِ الْإِيمَانِ أَوْ مِنَ النِّفَاقِ .

١١- (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) :

تؤكد هذه الآية ختام الآية السابقة ، فتقرر على سبيل التأكيد أن الله - تعالى - يعلم

الذين آمنوا عن صدق وإخلاص ويعلم المنافقين أو الضعفاء الإيمان الذين يعبدون الله على حرف فيهبز إيمانهم الأذى ، وتزلزله فتن الكفار ، وليختبرن إيمانهم بالأمن والخوف والسراء والضراء فيجازي كل واحد بعمله .

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ
خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا) : اسلكوا طريقنا التي نسلوها في الدين .

(خَطَايَاكُمْ) : أوزاركم وسيئاتكم .

(أَثْقَالَهُمْ) : خطاياهم وذنوبهم الفادحة .

(يَفْتَرُونَ) : يختلقون في الدنيا من الأكاذيب والأباطيل .

التفسير

١٢- (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ
بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

نزلت هذه الآية في كفار قريش على ما أخرجه جماعة عن مجاهد ، قالوا لمن آمن منهم :
لا نبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا ، فإن كان عليكم شيء التزمنا حمله ، وهو بيان لأسلوب آخر
من أساليب الكفار في استمالة المسلمين ، وإغرائهم بالكفر ، وحملهم بهذا الأسلوب على الإشراف
بعد حملهم عليه بالإيذاء والوعيد والتهديد .

والمعنى : وقال الكفار من مشركى مكة للمسلمين الذين اتبعوا دعوة الرسول ﷺ : اتبعوا سبيلنا ، واسلكوا طريقتنا التى نسلكها فى ديننا ، ولنحمل عنكم ذنوبكم وآثامكم إن صح أن هناك بعثاً وجزاءً ، أو إن كان فى اتباعكم لنا خطيئة يؤاخذ عليها عند البعث - كما تقولون - وقد ردّ الله عليهم بقوله - تعالى - : (وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ) : أى : وما أولئك المشركون بحاملين من شىء من خطاياهم التى التزموا أن يحملوها لهم إن واقفهم ، وإن هؤلاء المشركين لكاذبون فى دعواهم القدرة على حمل خطايا المسلمين ؛ لأنهم يقولون ما لا يقدرُونَ عليه ، ولا يملكون أدائه .

١٣ - (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ . وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

هذه الآية استمرار فى نسفيه المشركين ، ودرء أباطيلهم ببيان ما يستتبعه قولهم ذلك فى الآخرة من المضرة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعتهم لمخاطبيهم أصلاً .

والمعنى : وليحملن هؤلاء المشركون فى الآخرة آثامهم الفادحة ، وأوزارهم الثقيلة (وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ) أى : وأوزاراً وآثاماً أخر مع أثقال أنفسهم وهى أثقال من تسببوا فى إضلالهم وحملهم على الكفر والمعاصى من غير أن ينقص ذلك من أثقال من أضلّوهم شيئاً أصلاً .

والتعبير بالأثقال عن الخطايا والذنوب ، للإيدان بخطورتها كأنها عبء ثقيل تنوء به الكواهل ، وهذا كما فى قوله - تعالى - : « لَيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ »^(١) - وكما أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن أن النبى ﷺ قال : « أَيْمًا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى فَاتَّبَعَ عَلَيْهِ وَعُمِلَ بِهِ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ، وَلَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْئًا ، وَأَيْمًا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتَّبَعَ عَلَيْهِا وَعُمِلَ بِهَا ، فَعَلَيْهِ مِثْلُ أَوْزَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ، وَلَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا » .

(وَلَيْسَ النَّبِيُّ لَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : المقصود من سؤالهم : تبكيتمهم وتوبيخهم ، لا الاستعلام عن افتراءهم ، فالله به عليم .

والمعنى : وليسألن الله - تعالى - هؤلاء المشركين يوم القيامة سؤال تفرع وتبكيث عما كانوا يفترونه ، ويختلقونه في الدنيا من الأكاذيب والأباطيل التي من جملتها أكاذيبهم هذه .

وقد اتضح مما تقدم أن هذه السورة الكريمة قد صنفت الناس إلى مؤمنين خلّص صدقوا في إيمانهم ، وأخلصوا في أعمالهم ، وإلى مؤمنين ضعاف الإيمان يعبدون الله على حرف فيهتز إيمانهم أمام الفتن ، ويتزلزل لما يلحقهم من إيداء ، وإلى مشركين معنيين في الكفر والضلال والإضلال .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(فَلَبِثَ فِيهِمْ) : مكث في دعوتهم إلى التوحيد .

(الطُّوفَانُ) : الماء الكثير الغالب الذي يغشى كل شيء ، وقد يطلق على كل ما يحيط ويطوف بالشيء على كثرة وشدة من السيل والمطر والظلام .

(وَجَعَلْنَاهَا) : أي السفينة ، أو الحادثة والقصة .

(آيَةً) : عظة وعبرة .

التفسير

١٤- (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) :

هذا شروع في عرض شيء من قصص الأنبياء تسلية للرسول - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه ببيان ما عاناه الأنبياء - عليهم السلام - قبله مع أممهم ، إثر بيان افتتان بعض المؤمنين بأذية الكفار والمشركين ، وتأكيدهم للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا لمجرد أن يقولوا : آمنا . وثببتنا للرسول ﷺ على ما كان عليه من الصبر على أذى الكفار والمشركين .

ومعنى الآية : ولقد أرسلنا رسولنا نوحا - عليه السلام - إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله ، وعبادته والتزام طاعته ، فلبث فيهم ومكث يدعوهم إلى التوحيد ألف سنة إلا خمسين عاما ، فلم يجد منهم إلا إصرارا على الكفر ، وإمعانا في العناد ، ومعارضة لدعوته حتى استحقوا العقاب ، وعرضوا أنفسهم لانتقام الله منهم ، فأخذهم الطوفان ، وغمرهم الماء من كل ناحية وجانب عقب تمام المدة التي مكث يدعوهم فيها (وَهُمْ ظَالِمُونَ) أى : مستمرين على الظلم ، لم يتأثروا بما سمعوا من نوح - عليه السلام - والتعبير بقوله : (إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) بدلا من أن يقال : إلا خمسين سنة للبعد عن التكرار .

١٥- (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ) :

أى : فَأَنْجَيْنَا نوحا من الفرق ، وَأَنْجَيْنَا معه جماعة المؤمنين الذين صحبوه في السفينة التي صنعها بوحي من الله وتحت حفظه ورعايته ، وكان الذين معه من أولاده وأتباعه ثمانين ، وقيل : ثمان وسبعون ، نصفهم ذكور ، ونصفهم إناث ، منهم أولاد نوح سام ، وحام ، ويافث ، ونساؤهم ، وقيل في عددهم غير ذلك ، والله أعلم بحقيقة عددهم ، ويكنى في قلتهم أنهم ركاب سفينة واحدة مع ما حمله فيها من كل حيوان زوجين اثنين .

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ،
والحاكم - وصححه - عن ابن عباس قال : بعث الله - تعالى - نوحا - عليه السلام -
وهو ابن أربعين سنة ، ولبت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله - تعالى -
وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا . وذكروا أن مدة الطوفان ستة
أشهر آخرها يوم عاشوراء ، وجاء في بعض الآثار أنه - عليه السلام - أطول الأنبياء
عمرا ، أخرج ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك قال : جاء ملك الموت إلى نوح - عليهما
السلام - فقال : يا أطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال : كرجل
دخل بيتا له بابان ، فقال وسط الباب هنيهة ثم خرج من الباب الآخر ^(١) .

ومعنى قوله - تعالى - : (وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) : جعلنا السفينة عظة وعبرة حيث
بقيت على الجودي زمنا طويلا ، قيل : إلى بعثة الرسول ﷺ وقيل : جعلنا الحادثة
والقصة المفهومة من السياق عظة وعبرة للعالمين ، لاشتهارها فيما بينهم .

(وَابْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا
وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(اتَّقُوهُ) : اتقوا أن تشركوا به شيئا .

(١) قال : بمعنى نام نصف النهار ، ومصدره : القيل والقائلة والقيلولة .

(أَوْثَانًا) : أصناما مصنوعة ، جمع وثن ، قال أبو عبيدة : الصنم : ما يتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس ، والوثن : ما يتخذ من جص أو حجارة .
(إِفْكَأَ) : كذبا . (فَابْتَغُوا) : فاطلبوا .

التفسير

١٦ - (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) : أى : واذكر إبراهيم حين قال لقومه : اعبدوا الله وحده واتقوه فلا تشركوا به أحداً ذلكم الذى آمركم به وأدعوكم إليه من العبادة والتوحيد ، وما يتبع ذلك من عمل الطاعات خير لكم من كل خير ، وما أنتم عليه من الوثنية التى لا خير فيها (إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) : الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر ، أو كنتم من أهل العلم بوجه من الوجوه تبين لكم أن الخير كله فى عبادة الله وحده لا شريك له .

١٧ - (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكَأً إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

هذه الآية استمرار فى تسفيههم وبيان بطلان دينهم ، وكونه شرا فى نفسه بعد بيان أنه شر بالنسبة للدين الحق .

والمعنى : إنكم بعبادتكم هذه ماتعبدون من دون الله إلا أصناما هى فى نفسها تماثيل مصنوعة ليس لها وصف غير ذلك ، وماتخلقون إلا كذبا حين تسمونها آلهة ، وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله ، أو معنى : (تَخْلُقُونَ إِفْكَأً) : أى تعملون هذه الأصنام ، وتنحتونها بأيديكم لتكون العاقبة من خلقها الإفك والكذب . إن هذه الأصنام التى تتخذونها وتعبدونها من دون الله لاتقدر على نفعكم ، ولا تملك لكم رزقا أى رزقاً قليلاً أو كثيراً ، فابتغوا عند الله واطلبوا الرزق الكامل كله فإن الله وحده هو الرزاق ذو القوة المتين ، واعبدوه وحده واشكروا له على نعمائه متوسلين إلى مطالبكم بعبادته وشكره تستكثروا من خيره وفضله .

وقوله - تعالى - : (إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) . معناه : إلى الله - وحده لا إلى غيره - تعودون وترجعون بالموت والبعث ، فافعلوا ماتؤمرون به واستعدوا للقاءه .

(وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(الْمُبِينُ) : الواضح البين في نفسه ، أو المبين لغيره الموضح له .

التفسير

١٨ - (وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

هذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله - تعالى - : (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ) يحتمل أن تكون من كلام سيدنا إبراهيم لقومه منتظمة في سياق القصة ، وأن تكون وقعت معترضة في شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش . بين أول قصة إبراهيم وآخرها قصد بها التنفيس عنه ﷺ ومسلاة له بأن أباه إبراهيم - عليه السلام - كان مبتلى من قومه بمثل ما ابتلى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان ، وسواء أكان هذا أم ذاك فإن المعنى : وإن تكذبوني في دعوتي فلن تضروني بتكذيبكم ؛ فما على الرسول إلا البلاغ والتبعية في التكذيب على المكذبين لأعلى رسلهم ، وقد كذبت الأمم قبلكم أنبياءهم مثل : شيث وإدريس وإبراهيم ونوح وغيرهم فما ضرهم ، وإنما ضرروا أنفسهم حيث حل بهم العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم ، وأما الرسل فقد تم أمرهم ، واستكملوا واجبهم في التبليغ الواضح الذي لا يبق معه شك .

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(أَوَلَمْ يَرَوْا) : المراد من الرؤية هنا : العلم ، أى : أو لم يعلموا علماً يشبه المشاهدة

بالبصر .

(يُبْدِئُ الْخَلْقَ) : يوجده ابتداءً من مادة ومن غير مادة على غير مثال .

(يُعِيدُهُ) : يحييه بعد موته وتحلل أجزائه ، بل وتلاشيها .

التفسير

١٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) :

كلام مستأنف مسوق للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دلائله . والمعنى :
أغفلوا وجهلوا ، ولم يعلموا - علماً تؤكده الرؤية وتؤيده المشاهدة - كيفية خلق الله
- تعالى - الخلق ابتداءً من مادة ومن غير مادة على غير مثال سابق . وكل ما فى هذا الكون
يوحى بذلك ، ويفرض العلم به . ولا ينكره إلا مكابر معاند : ثم الله - سبحانه وتعالى -
يعيد خلقه بالبعث بعد فناءه ؛ لأن القادر على خلقه ابتداءً لا يعجزه إعادة خلقه كما تقرر
هذا فى قوله : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » (١) .

(إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) : أى ؛ إن أمر إعادة الخلق بعد الفناء يسير على الله سهل لا يفتقر إلى شيء أصلاً ، وإنما يقول الله - تعالى - له : (كُنْ فَيَكُونُ) .

ويجوز أن يكون المشار إليه ما ذكر من البدء والإعادة.

٢٠- (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

أنكرت الآيات السابقة على الخلق غفلتهم وتعطيلهم العقل بعدم تدبرهم فى قدرة الله - تعالى - الواضحة فى بدء الخلق تدبراً يصل بهم إلى اليقين بقدرته على البعث وإعادة الخلق ، وهذه الآية تأمرهم بالسير فى الأرض لينظروا فيها كيفية بدء الخلق الدالة على قدرته - تعالى - على النشأة الآخرة .

والأمر فى قوله - تعالى - : (قُلْ سِيرُوا) يحتمل أن يكون لسيدنا محمد إذا كانت هذه الآيات معترضة فى قصة إبراهيم - عليه السلام - لتسليّة الرسول ، وأن يكون لسيدنا إبراهيم - عليه السلام - إذا كانت هذه الآية والتى قبلها وبعدها متصلة بقصته .

والمعنى : قل - يا أيها الرسول - لقومك سيروا فى الأرض ، وتقلبوا فى جوانبها ومناكبها ، فانظروا كيف بدأ الله الخلق على أطوار مختلفة ، وطبائع متغيرة .

(ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) : أى ؛ ثم الله الذى أنشأ النشأة الأولى قادر أن يعيد خلقهم فى الآخرة مثل النشأة الأولى التى شاهدوها ، وعاینوا آثارها وأطوارها .

والتعبير عن الإعادة بالنشأة الآخرة يشعر بأن النشأتين شأن واحد من شئون الله - تعالى - من حيث إن كلا منهما إخراج من العدم إلى الوجود ، لافرق بينهما إلا بالأولية والآخرة .

وإظهار اسم الله فى قوله - تعالى - : (ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) مع إضماره فى قوله - سبحانه - : (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) لإبراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الإعادة ، كما أن ترتيب النظر على السير فى الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق فى أقطارها

ومما ينبغي الالتفات إليه في هذه القضية ما يتعاقب من النبات والثمار فيكون في كل سنة على مثل ما كان عليه في السنة السابقة ، فهذا مما يستدل به على صحة البعث كما أشار إليه العلامة أبو السعود ، ونزيد عليه : أن الأمر كذلك في مختلف أنواع الحيوانات والطيور والأسماك .

وقوله - تعالى - : (إِنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) : تذييل لتحقيق ما قبله ، لأن من علم قدرة الله - تعالى - على جميع الأشياء لا يتصور أن يعجز عن إعادة الخلائق بعد فنائهم .

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾
وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(تُقْلَبُونَ) : تردون وترجعون .

(بِمُعْجِزِينَ) : بفائتين ولا هاربين من عذاب الله .

(وَلِيٍّ) : معين وناصر يمنعكم من العذاب .

التفسير

٢١- (يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ) .

جملة مستأنفة لبيان ما بعد النشأة الآخرة .

والمعنى : يعذب بعد النشأة الأخرى من يشاء بعذله ، وهم المنكرون المصرون على الكفر . (وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ) بفضلته ، وهم المؤمنون المصدقون ، وتقديم التعذيب على الرحمة لأن المقام مقام ترهيب وتخويف .

وقوله - تعالى - : (وَالْيَهُ تَقْلَبُونَ) : معناه ؛ إلى الله وحده تردون وترجعون ، فتلاقون جزاءكم من التعذيب والرحمة .

٢٢- (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) :

هذه الآية من تمام الوعيد في الآية السابقة .

والمعنى : وما أنتم - أيها الخلق - على كثرتكم ، واختلاف أحوالكم بفائتين من حساب ربكم ، ولا هاربين من جزائه بالتواري في الأرض الفسيحة ، أو الهبوط في مهاوئها . أو التخفي في مناكبها ، ولا بالتحصن بالسما الذي هو أمانع من الأرض إذا استطعتم الصمود إليها .

وقيل : وما أنتم بمعجزين من في الأرض ولا من في السماء .

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) : أي ؛ ليس لكم من الله من أحد يحركم مما يصيبكم من بلاء أرضي أو سماوي ، ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم عذابه وبلاءه إذا شاء .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٢٣)

المفردات :

(يَكُونُونَ) : انقطع رجاؤهم وقنطوا . (رَحْمَتِي) : جنى

التفسير

٢٣- (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى والذين كفروا بآيات الله التكوينية والتنزيلية وكفروا بقاء الله الذى تنطق به آياته ، أولئك يائسون من رحمته ، قانطون من دخول جنته يوم القيامة ، وأولئك لهم عذاب موجه مؤلم فى الآخرة .

وفى تكرار الإشارة والإسناد وتنكير العذاب ، ووصفه بالإيلام ، وفى وصفهم باليأس من رحمته - تعالى - مع شدة حاجتهم إليها يؤمئذ - فى ذلك كله - ما يؤذن بسوء حالهم ونفطاعته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾)

التفسير

٢٤- (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

يتشوف السامع إلى السؤال عن حال قوم إبراهيم - عليه السلام- بعد أن دعاهم إلى توحيد الله وعبادته وأمرهم بالسير فى الأرض والتدبر فى أحوالها وتقلياتها ليعلموا كيفية قدرة الله - تعالى - على بدء خلقه فيعلموا من هذه المشاهدات والأحوال كيفية قدرته على إعادة الخلق بالبعث بعد الفناء ، فتكون هذه الآية هى الإجابة على هذا السؤال ، ويتسق بذلك السياق فى أحكم نظام وأدقه .

والمعنى : فما كان جواب قوم إبراهيم على دعوته إياهم إلا أن قالوا : اقتلوه بأداة قتل أو حرقوه بنار لتستريحوا منه ، وتستأصلوا شره ، ثم انتهوا من هذا الترديد إلى إحراقه ، فجمعوا أخطابا كثيرة ، ثم أضرموا فيها النار حتى ارتفع لهيبها ، وحييت جذوتها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم - عليه السلام - فأوثقوه وقذفوا به فيها ، فأمرها الله أن تكون بردا وسلاماً على إبراهيم ففقدت خاصيتها ، ثم خرج منها سالماً مُعافى بفضل الله بعدما مكث فيها

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : إن في ذلك الإنجاء من النار بعد أن بذلوا فيها جهودهم وماتبع ذلك من بردها على إبراهيم ، وخيبة أملهم فيها - إن في ذلك - لمعجزات عجيبة ، وآيات واضحة الدلالة لقوم مستعدين لتقبل الهداية ، واستجابة الدعوة ، فأما غيرهم فهم غافلون عن اجتلائها ، محرومون من الفوز بمغانمها ، وقد جاء في مواضع أخرى من القرآن أمر الإحراق فقط دون القتل كما في هذه الآية ، ولعل الآيات الأخرى اكتفت بما انتهوا إليه ، وقد جاءت قصته - عليه السلام - في أكثر من سورة من القرآن مع تفاصيل أخرى

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥))

المفردات :

(أَوْثَانًا) : أصناماً تعبدونها من دون الله .

(مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ) : سبباً في تواصلكم واجتماعكم على عبادتها

(مَاوَاكُمْ) : منزلكم الذي تأوون إليه خالدين فيه أبداً .

التفسير

٢٥ - (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ) :
 لم يخرج إبراهيم من النار خائر العزم ، واهن القوة وإنما خرج في مثل حاله الأولى من القوة والتصميم ماضياً في تسفيه قومه ، وتسخيف عقولهم حيث قال لهم : إنما اتخذتم من دون الله آلهة زائفة ، وأصناماً من صنعكم لانفع لها ، ولا غناء فيها جمعتمكم على عبادتها ، وأوجدت بينكم المودة والتآلف لنصرتها ولن يكون لكم ذلك إلا في الدنيا ، ثم يوم القيامة تنقلب الأمور ، ويتبدل التواد تباغضاً ، والتلاطف تلاعناً حيث يكفر بكم أتباعكم ، ويلعن كل فريق منكم الفريق الآخر .

كما في قوله - تعالى - : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ »^(١)

ومأواكم ومسكنكم الذي تأوون إليه ولا ترجعون منه النار ، وما لكم من دون الله من ناصرين يخلصونكم من عذابها كما خلاص الله إبراهيم من ناركم ، وعصمه ونصره من سوء صنيعكم

* (فَعَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

- (فَامَنَ لَهُ لُوطٌ) : أى آمن بإبراهيم وأسلم له قياده .
- (وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) : أى وقال ذلك إبراهيم - عليه السلام - والهجرة : مفارقة بلد إلى بلد آخر ، فإن كانت قرابة إلى الله فهي الهجرة الشرعية ، وهي اسم من : هاجر مهاجرةً كما في القاموس .
- (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) : أى من الله - سبحانه - على إبراهيم بالذرية ، فوهب له إسحاق ابناً ويعقوب ابن ابن .
- (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) : فلم يبعث الله نبياً بعده إلا من صلبه ، ولم تنزل الكتب السماوية إلا عليهم .

التفسير

٢٦ - (فَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى : إن لوطاً صدق إبراهيم - عليه السلام - في جميع مقالاته ، أو صدق بنبوته حين ادّعاها . لا أنه صدقه فيما دعا إليه من التوحيد ؛ فإن لوطاً - عليه السلام - كان مومنًا بالله .

ولوط : ابن أخى إبراهيم - عليه السلام - وهو المشهور عند جمهور المفسرين ، وذكر بعضهم أنه ابن أخته ، نقل ذلك الآكوسى في تفسيره .

وهو أول من آمن بإبراهيم ، وأجاب دعوته إلى الحق ، وكان إبراهيم يسكن كوثى - بالضم - قرية بالعراق^(١) وهي من سواد الكوفة ، هاجر منها إلى حرّان ثم إلى الشام ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارح ، وامراته سارة ، ثم أرسل لوط في حياة إبراهيم - عليه السلام - إلى أهل سدوم وإقليمها ، وكان من أمرهم ما تقدم في الأعراف وهود والنمل .

(١) انظر القاموس .

وإبراهيم - عليه السلام - أول من هاجر من أرض الكفر كما قال الكلبي ، وقال مقاتل : هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ، وقال حين ترك قومه مهاجراً : (إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) أى : إلى الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة إليها ، أو من أجل ربى ، حيث لا أُمْنَعُ عبادته وإظهار دينه ، وقيل المعنى : إِنِّي مهاجر من خالفنى من قوى متقرباً إلى ربى (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) : أى : الغالب على أمره الذى يمنعنى من أعدائى ، ولا يأمر - لعظيم حكمته - إلا بما فيه الخير والمصلحة .

٢٧ - (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) :

أى : لما فارق قومه أقر الله عينه بولد صالح نبى وهو إسحاق ، وبولد ولد وهو يعقوب ولد إسحاق ، وذلك فى حياة جده ، وكانت هذه الهبة العظيمة التى لا يُقَادَرُ قدرها حين أيس من اللرية من امرأته سارة وهى عجوز عقيم .

ولم يذكر هنا إسماعيل - عليه السلام - لأنه ولد له قبل ذلك من أم شابة ولم تكن عجوزاً عقيماً ، وهى هاجر ، أما إسحاق فولد بعده من سارة العجوز العقيم ، ومن ورائه يعقوب ابن إسحاق .

وقال الزمخشري : إن إسماعيل ذكر ضمناً وتلويحاً بقوله : (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) ولم يصرح به لشهرة أمره ، وعلو قدره ، هذا مع أن المخاطب به نبينا ﷺ وهو من أولاده وأعلم به : ١٨ .

وقد خص الله - سبحانه - إبراهيم - عليه السلام - بقوله : (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) تكريماً له ، حيث إنه لم يبعث بعده نبى قط إلا من صلبه وقد أوثوا الكتب المنزلة ، وهى التوراة والإنجيل والزيور والقرآن ، وآتاه - سبحانه - أجره فى الدنيا بانتماء أهل الملل إليه ، والثناء عليه ، وإعطاء الولد والذرية الطيبة ، واستمرار النبوة فيهم ، والصلاة عليه إلى آخر الدهر ، وسعة الرزق (وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) : أى جمع الله له

بين سعادة الدنيا الموصولة ، وسعادة الآخرة ، فوفقه إلى القيام بجميع ما أمر به من عمل
دائب لمحاربة الشرك ، وإعلاء التوحيد ، والطاعة له وحده ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ
الَّذِي وَفَّى ^(١) 》 .

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَآتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُمْ لَنَآتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ
السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ
إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(لَنَآتُونَ الْفَاحِشَةَ) : أى ؛ الفعلة الشنيعة ، وهى إتيان الرجال .

(وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ) : أى الطريق ، وكلتاها تذكر وتؤنث .

(وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ) : أى تقتربون فى نادىكم الأمر القبيح الذى ينكره
الدين والخلق .

التفسير

٢٨ - (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَآتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)
أى ؛ واذكر - أيها الرسول - لوطاً إذ قال لقومه أهل سدوم موبحاً ومخذراً لهم من
الأعمال القبيحة التى أقبلوا عليها وتمسكوا بها ، قال لهم : إنكم لتأتون الفعلة البالغة الغاية

في الفحش، وهى إتيان الرجال شهوة من دون النساء . وقرأ الجمهور : أننكم على الاستفهام الإنكارى .

وقوله - تعالى - : (مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) حكاية لقول لوط - عليه السلام - مسوق لتقرير كمال قبحها، ببيان إجماع جميع العالمين قبلهم على التحاشى عنها لكونها مما تسمئز منه النفوس، وتنفر من شناعته الطباع، وأنها جريمة نكراء، ابتدعوها ولم يسبقوا إليها من أحد من بنى الإنسان .

٢٩ - (أَتُنْكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ...) الآية .

أى : إنكم لتنكحون الرجال انتهاكاً لحرمات الله، وتقطعون الطريق بسبب حمل الغرباء والمارة على تلك الفعل الشنعاء، وإتيانهم كرهاً، أو : وتقطعون طريق النسل بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث، أو : وتقفون في طريق الناس تقتلونهم، وتأخذون أموالهم وقد بلغ بهم التماذى في اقتراف كل قبيح أنهم كانوا يأتون في مجتمعهم كل أنواع المنكر، من اللواط وغيره .

أخرج أحمد والترمذى وحسنه، والحاكم وصححه، والطبرانى والبيهقى في الشعب وغيرهم عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله - تعالى - : (وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ) فقال : « كانوا يجلسون في الطريق فيقذفون أبناء السبيل . ويسخرون منهم » وعن مجاهد ومنصور والقاسم بن محمد وقتادة وابن زيد : هو إتيان الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً .

ولما وقفهم لوط - عليه السلام - على قبائحهم أجابوه بما حكاه الله عنهم بقوله : (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) : أى فيما تعدنا به من نزول العذاب، تكذيباً له وسخرية به فيما نهاهم عنه وأوعدهم بنزوله .

وهذا الجواب صدر عنهم في المرة الأولى من مراتب تبليغ لوط - عليه السلام - وما فى سورة الأعراف المذكور فى قوله - تعالى - : « وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ » ^(١) ، وما فى سورة النمل المذكور فى قوله - تعالى - : « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ... » ^(٢) ، فقد صدر بعد هذه المرة ، وذلك لأن

قولهم : (ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) من باب التكذيب والسخرية ، وهو أوفق بأوائل المواظ والتوبيخات ، أما قولهم : (أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ) ، وقولهم : (أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ) فمن باب العقاب والانتقام ، وهو أنسب بأن يكون بعد تكرار الوعظ والتوبيخ الموجب لضجرهم ومزيد تألمهم مع قدرتهم على التشنى منهم بما يؤذيهم ، ويُبْعِدُهم عن ديارهم . اهـ : بتصرف من الآلوسی .

وقيل : إن ما هنا جواب قومه - عليه السلام - له إذ نصحهم ، وما هناك جواب بعضهم لبعض إذ تشاوروا في أمره .

٣٠- (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ) :

لجأ نبي الله لوط إلى ربه متضرعاً ، ملتمساً أن ينزل العذاب الموعود على هؤلاء المفسدين الذين فعلوا الفاحشة وتمسكوا بها وأصروا عليها ، واستعجلوا العذاب الذي أوعدهم به سخرية منه حينما دعاهم إلى ما فيه صلاح حالهم ، واستقامة أمرهم .

ووصفهم بالمفسدين مبالغة في استحقاقهم استنزال العذاب بهم لأنهم فسدوا وأفسدوا .

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

- (بِالْبُشْرَى) : بالبشارة بالولد ونصرة لوط .
 (هَذِهِ الْقَرْيَةُ) : هى سدوم كما سبق .
 (كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) : الباقيين فى العذاب .
 (سَيِّئَ بِهِمْ) : اعترته المساءة خوفاً عليهم من قومه .
 (رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ) : أى عذاباً من السماء يزعجهم ، من : ارتجز ، أى : ارتجس ، واضطرب .
 (آيَةً بَيِّنَةً) : هى آثار القرية الخربة التى تدل على قصتها العجيبة .
 (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) : يستعملون عقولهم فى الاعتبار والاستبصار .

التفسير

٣١- (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ) :

لما استنصر لوط - عليه السلام - ربه على قومه بعث الله لنصرته ملائكة فمروا بإبراهيم - عليه السلام - فى هيئة أضياف كما تقدم فى سورة هود ، والحجر ، ولما أوجس منهم خيفة شرعوا يؤثسونه ، ويبشرونه بأنهم أرسلوا له بالبشارة بالولد والناقلة^(١) من امرأته سارة ، وأخبروه بأنهم أرسلوا كذلك لإهلاك قوم لوط كما حكاه قوله - سبحانه - : (إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ) وهم أهل قرية سدوم لإصرارهم على الفاحشة ، وتماديهم فى فنون الفساد وأنواع المعاصى .

٣٢- (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) :

(١) أى : ولد الولد ، والمراد بهما لإحقاق وابنه بمقرب - عليهما السلام .

أى : قال لهم - على سبيل التفجع والتحزن - : أتهلكونها وفيها من هو برئ من الظلم ؟
فكان ردهم عليه بأنهم غير غافلين عن مكان لوط فيها وأتباعه من المؤمنين .
وقيل : يجوز أن يكون إبراهيم - عليه السلام - اعتقد عدم تناول إهلاك أهل القرية
للوط - عليه السلام - لكنه أراد التنصيص على حاله ليطمئن قلبه لكمال شفقتة عليه .
وحبه له .

وقوله - سبحانه - حكاية عنهم : (لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ) يشعر بأنهم معنيون بلوط وأهله
أتم عناية ؛ لتأكيد وعدهم بالتنجية بالقسم ، أما امرأته فلأنها كانت تمالئ قومها على كفرهم
وبغيهم ، فكانت من الباقين في العذاب وقد مر الكلام عن ذلك في سورة النمل .
٣٣- (وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيَّاهُمُ وَضَاقَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ
وَلَا تَحْزَنْ) الآية .

بعد مفارقة الرسل لإبراهيم - عليه السلام - ساروا إلى لوط - عليه السلام - في صورة
شبان حسان ، فلما رآهم كذلك اعترته المساءة والحيرة ، وعجزت طاقته عن تدبير أمرهم .
وعن الحيلة لإنجائهم ، وكان لا يعلم أمرهم في الساعة الراهنة التي رآهم فيها .
ولما شاهدوا فيه مخايل الضجر من جهتهم ، وعابنوا ما يشير إلى أنه عاجز عن مدافعة
قومه ، طمأنوه .

(وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) .
أى لا تخف من قومك علينا وعليك ولا تحزن بما نفعه بقومك ، ولن يصيبك وأهلك أذى
إلا امرأتك فهي من الهالكين الباقين في العذاب .

٣٤- (إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) :
بيان لما أشار إليه قوله - سبحانه - : (لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ) من نزول العذاب على أهل
قرية سدوم ، أكبر قرى قوم لوط ، وفيها بدأت الفاحشة كما قيل ، ولذا خصت بالذكر
وقد استأصل العذاب أهلها وقطع دابرهم .

قال ابن كثير : إن جبريل - عليه السلام - اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى
عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً إلى
يوم المعاد . ١٨٥

(بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) : أى بسبب فسقهم المعهود المستمر حل بهم عذاب الإبادة والاستئصال .

٣٥- (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) :

أى : ولقد أهلك الله هذه القرية وترك منها آية واضحة تدل على ما فعله الله بهم لتكون عبرة وعظة لقوم يحكمون عقولهم ، ويستعملونها فى الاستبصار والانتفاع بما شاهدوه من كمال قدرة الله ، وقوة سلطانه .

وفى الآيات من الدلالة على ذم اللياطة وقبحها مالا يخفى ؛ فهى كبيرة بالإجماع ، وأشد حرمة من الزنى .

(وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : أى لا تحدثوا فيها الفساد بكفركم ، فإنه أصل كل فساد ، والعثو ، والعثى : أشد الفساد .

(الرَّجْفَةُ) : الزلزلة الشديدة ، أو صيحة جبريل - عليه السلام - .

(فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ) : أى باركين على الركب ميتين .

التفسير

٣٦- (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ...) :

يخبر - سبحانه - عن عبده ونبيه شبيب أنه خاطب أهل مدين ، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخافوا يوم القيامة ، حيث قال لهم : (يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ) : أى خافوا ما ينزل بكم فيه من فنون الأهوال والشدائد ، واعملوا اليوم الأعمال التى تؤمنكم غائلته وقسوته ، قال يونس النحوى وأبو عبيدة : الرجاء هنا بمعنى الخوف والخشية ، أى : اخشوا الآخرة التى فيها الجزاء على الأعمال .

ثم نهاهم - سبحانه - عن العُتُوِّ فى الأرض قاصدين الفساد ظلماً وبغياً على أهلها ، وكانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، مع كفرهم بالله ورسوله ، وذلك أشد الفساد وأبشعه ، فقال لهم : (وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) ولما لم يعد لتهديده أثر حيث استمروا مندفعين فى اقتراف آثامهم ، نزل بهم من العذاب ما حكاه الله بقوله :

٣٧ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) :

أى : أصابتهم زلزلة شديدة دمرت عليهم ديارهم وأرضهم ، وقيل : صاح بهم جبريل - عليه السلام - صيحة أحدثت الرجفة بسبب تحريكها للهواء ، فأصبحوا بسبب ذلك باركين على ركبهم ميتين ^(١)

(وَعَادَا وَثُمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ^ج وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلُهُمْ فَصَدَّهُمْ^ج عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ^{٣٨})
وَقَتْرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ^ج وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِينَ^{٣٩} فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ^ج فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا^ج وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ^ج وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ^ج وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا^ج وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ^{٤٠})

(١) وقد نقت قصتهم مبسطة فى سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء .

المفردات :

(مِنْ مَّسَاكِينِهِمْ) : بالأحقاف .

(فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) : أى الطريق الحق .

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) : أى عقلاء ذوى بصائر ولكنها لم تنفعهم .

(وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ) : أى فائتين ، بل أدركهم أمر الله ، أو : وما كانوا سابقين في الكفر ، بل سبقتهم أمم كثيرة .

(حَاصِبًا) : سحاباً أو ريحاً يحصبهم بالحجارة .

(الصَّيْحَةُ) : تَمَوْجٌ شديد في الهواء يحدث هزة عنيفة مهلكة .

(خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ) : أى غيبناه في جوفها ، يقال : خسف المكان خسفاً ، من باب ضرب ، وخسوفاً : ذهب في الأرض ، وخسف الله به الأرض ، أى : أدخله فيها وخرقها به .

التفسير

٣٨ - (وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ...) الآية :

أى : واذكر عاداً إذ أرسلنا إليهم هوداً فكذبوه فأهلكناهم ، وثمود إذ أرسلنا إليهم صالحاً فكذبوه فأهلكناهم ، وقد ظهر لكم يا أهل مكة أتم ظهور ما نزل بهم فيما حدث بمساكنهم عند مروركم عليها في أسفاركم ، وكانت العرب وبخاصة أهل مكة تعرف مساكنهم جيداً ، وتمر عليها كثيراً في أسفارهم فيبصرونها ، ويشاهدون في غدوهم ورواحهم آثار ما حل بها من دمار وهلاك ، وكانت عاد تسكن الأحقاف وهي قريبة من حضرموت باليمن ، وثمود تسكن الحجر قريباً من وادى القرى .

وقد زين الشيطان لعاد وثمود الكفر والعصيان بوسوسته وإغوائه ، فصرفهم بذلك عن الطريق السوى الموصل إلى الحق . (وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) بواسطة الرسل ، فقد أوضحوا لهم السبيل ، فلا عذر لهم في ضلالهم عنه ، ولا حجة لهم في اختيار الغي والضلال ،

أو : كانوا عقلاء ذوى بصائر يمكنهم التمييز بين الحق والباطل بالنظر والاستدلال لوضوح الأدلة وظهور البراهين ولكنهم أعرضوا ولم يعتبروا ، قال الفراء : كانوا عقلاء ذوى بصائر يعرفون الحق ، ولكنهم أهملوه كفرةً وعناداً وجحوداً ، وقال مجاهد : وكانوا مستبصرين فى الضلال .

٣٩ - (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ..) الآية :

أى : واذكر - أيها الرسول - لهؤلاء المغترين بأموالهم وسلطانهم مصرع قارون ، وفرعون ، وهامان .

وقارون^(١) كان من قوم موسى - عليه السلام - وقُدِّم ذكره على فرعون وهامان ؛ لأنَّ المقصود تسلية النبي ﷺ عما لقي من قومه لحسدٍ له ، فقارون مع أنه كان من قوم موسى قد لقي منه موسى مآلئاً ، روى أنه كان يؤذيه فى كل وقت ويحسده وهو يداريه لقربته .

أو قُدِّمَ لأنَّه أشرف من فرعون وهامان لإيمانه فى الظاهر وعلمه بالتوراة ، وكونه ذا قرابة من موسى - عليه السلام - أو : قدم لأنَّ هلاكه قبل هلاكهما ، فتقديمه يكون على وفق الواقع ، وفرعون ملك مصر ، وهامان وزيره ، وكانا رأس الكفر بالله ورسوله تزعما قومهما فى الكفر بموسى ، وأنزلا بنى إسرائيل أشدَّ العذاب وأقساه .

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ) :

أى : لما جاءهم موسى بالحجج الواضحة على نبوته ، ودعاهم إلى الإذعان واتباع الحق استكبروا فى الأرض عن الإيمان بالله والطاعة له ، وهذا يشعر بقلّة عقولهم وضعف إدراكهم لأنَّ مَنْ فى الأرض محياهم ومماتهم لا ينبغي لهم أن يستكبروا على القوى القاهرة الذى يملك السموات والأرض وما فيهما كما أنهم لا يفوتون أمر الله - تعالى - بل يدرّكهم وينزل بهم الدمار والهلاك ، فلا يفلت منهم أحد .

(١) تقدم الحديث عنه فى سورة القصص .

وقال أبو حيان : المعنى : وما كانوا سابقين الأمم إلى الكفر بل قد سبقهم إلى الكفر قرون كثيرة ، فأهلكناهم ، أى : تلك عادة الأمم مع رسلهم - عليهم السلام - .

٤٠- (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ . وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) :

أى : فكل واحد من المذكورين الذين كذبوا رسلهم ، عاقبناه بما اقترف من ظلم وفساد ، وكان أخذ كل منهم وفق ما أراد الله ، فمنهم من أهلكناه بالريح العاصفة التى تحمل الحصباء - وهى صغار الحصى - وهم قوم لوط .

وقال ابن عطية : يشبه أن يدخل عاد فى ذلك ؛ لأن ما أهلكوا به من الريح كانت شديدة وهى لا تخلو من الحصب بأمر مؤذية .

ومنهم من أخذته الصيحة المدوية المهلكة ، كمدين وثمود ومنهم من خسفنا به الأرض فغارت به ، وغيبته فى جوفها كقارون .

ومنهم من أغرقناه فى اليم كفرعون ، وهامان وجنوده أجمعين (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ) : بأن يعاقبهم من غير جرم ؛ فإن ذلك محال من جهته - تعالى - وليس من سنته - عز وجل - (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : أى إنما فعل بهم ذلك جزاءً وفاقاً بما كسبت أيديهم حيث استمروا على ما يوجب عقابهم من الكفر والمعاصى باختيارهم .

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ
 اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ لَوْ كَانُوا
 يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا
 إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(الْعَنْكَبُوتِ) : دويبة تنسج نسجاً رقيقاً واهياً ، والمراد : النوع الذى يبني بيته فى الهواء ، وتطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، ، والغالب فى استعمالها التانيث ، وجمعها : عناكب وعناكيب .

(أَوْهَنَ الْبُيُوتِ) : أشدها ضعفاً وعجزاً عن دفع أى أذى .

التفسير

٤١ - (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ..) الآية :

هذا مثل ضربه الله - سبحانه - للمشركين الذين اتخذوا آلهة من دون الله يرجون نصرها ورزقها ويتمسكون فى الشدائد بها مع ما هى عليه من عجز وعدم غناء ، ضربه - جل وعلا - ليبين به أن شأنهم فى الضعف والوهن ، والاعتماد على غير معتمد كشأن العنكبوت اتخذت مما نسجته بيتاً تحتوى به من البرد والحر وغيرهما ، وبيتها من أوهى البيوت وأبعدها عن الصلاحية للاحتواء .

فهم وهى مشتركان فى اتخاذ ماهو فى غاية الضعف فى بابه ، بل إن آلهتهم أوهن من بيت العنكبوت إذ له حقيقة وانتفاع فى الجملة ، أماهى فلا .

وقيل : المعنى ؛ مثل المشرك الذى عبد الوثن بالقياس إلى الموحد الذى عبد الله - تعالى - كمثل عنكبوت اتخذت بيتاً بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً من آجر وحجر أو نحته من صخر ، وكما أن أضعف البيوت إذا استوعبناها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان إذا استقرأنها ديناً ديناً عبادة الأوثان ، وهو وجه حسن ذكره الزمخشري فى الآية ونقله الآلوسى . وقوله - تعالى - : (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ) وقع تذييلاً لتقرير الغرض من التشبيه وهو أن أمر دينهم بلغ الغاية التى لا غاية بعدها فى الضعف والوهن ، حيث لا يرى شئ يدانى بيت العنكبوت فى ذلك ، ثم أكد ذلك بتجهيلهم بقوله - سبحانه - : (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أى : لو كانوا يعلمون شيئاً من العلم لما اتخذوا هذه الآلهة أولياء من دون الله ، ولعلموا أن هذا مثلهم ، وأن أمر دينهم لا وزن له ، ولا بقاء ،

وقيل : لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت لما عبدوها ، وقد جهلهم - سبحانه - في الاتخاذ ، ثم زادهم - جل وعلا - تجهيلاً بأنهم لا يعلمون هذا الجهل الذي لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل .

٤٢ - (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى : قل لهم - أيها الرسول - : إن الله لا تخفى عليه خافية ، فهو يعلم أى شىء يدعون إليها من دونه فقد بلغ من الحقارة حداً لا غاية له ، وإنهم لى جهل بين حيث تركوا عبادة الله - تعالى - وعبدوا غيره مع أنه شىء لا يعبأ به .

ويجوز أن يكون المعنى أن الله يعلم أنكم لستم^(١) تدعون من دون الله شيئاً ، لأن ما تدعونه لمزيد حقارته لا يصلح أن يسمى شيئاً .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) : أى الغالب الذى لا شريك له (الْحَكِيمُ) فى ترك المعالجة بالعقوبة ، وهو تجهيل لهم وتقريع حيث عبدوا - من فرط الغباوة - جماداً لا علم له ولا قدرة وهو بالإضافة إلى العزيز القاهر القادر على كل شىء الحكيم البالغ فى العلم ، وإتقان العمل مالا غاية وراءه - فهو بالنسبة إلى العزيز الحكيم - كالمعدوم البحث ، وإن من هذا شأنه - جل وعلا - من الغلبة والحكمة قادر على مجازاتهم .

٤٣ - (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) :

هذا المثل والأمثال الكثيرة التى ذكرها القرآن فى سورة يضربها - سبحانه - للناس تقريباً لفهم ما ضربت له ، وإدراك معناه ، وإظهاراً للمعاني المستورة وتوضيحاً ، وكان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون : إن ربَّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، ويضحكون من ذلك ، فلهذا قال - سبحانه - : (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) : أى لا يعقل صحتها وحسنها ولا يفهم فائدتها إلا الراسخون فى العلم المتدبرون للأشياء على ما ينبغى ، روى محيى السنة فى مسنده عن جابر أن النبي ﷺ تلا هذه الآية (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ) ... الآية ، فقال : « العالم : من عقل عن الله - تعالى - فعمل بطاعته واجتنب سخطه »

(١) على أن (ما) نافية ؛ أى : ما يدعون من دونه شيئاً ؛ لأن الآلهة لحقارتها ليست شيئاً موجوداً .

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتُلُّ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ
إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(بِالْحَقِّ) : أى بالعدل والقسط ، أو بحكمته وقدرته المنزهة عن العيب :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) : أى علامة ودلالة .

(أَتُلُّ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ) : أمر للرسول بتلاوة القرآن وبرواية قراءته وإبلاغه

للناس .

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ) : أدّها في أوقاتها وباركاتها وشروطها .

(تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) : أى تنهى عن القبيح السيئ الذى ينكره الشرع والعقل .

التفسير

٤٤ - (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) :

أى : خلقها محققاً بخلقها مراعيّاً للحكم والمنافع المنزهة عن العيب حيث تتعلق بهما
شئون عباده ، ويستدل بما فيهما من آيات بينات ، ودلائل واضحات على كمال قدرته
- تعالى - وبديع صنعته ، ويشير إلى ذلك قوله - سبحانه - : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)
أى : لآية دالة على أنه - تعالى - المنفرد بالخلق والتدبير والألوهية ، وتخصيص المؤمنين
بالذكر مع أن الهداية والإرشاد لجميع المخلوقين ، لأنهم المنتفعون بذلك .

ويصح أن يكون المراد من المؤمنين : الذين يريدون الإيمان .

٤٥ - (أَتْلُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ) :

أمرُ للرسول ﷺ بقراءة القرآن والمداومة عليها تقرباً إلى الله - تعالى - بتلاوته وتذكُّراً لما في تضاعيفه من المعاني، وتذكيراً للناس وحملاتهم على قراءته والعمل بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب، ومكارم الأخلاق . (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ) الخطاب للنبي ﷺ وأُمته، وإقامة الصلاة : أداؤها في وقتها بأركانها وجميع شروطها، ويراد بها الصلاة المكتوبة المؤداة بالجماعة، وهي الصلوات الخمس التي تكفر ما بينها من الذنوب كما قال - عليه الصلاة والسلام - : (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بَبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرْنِهِ شَيْءٌ ؟) قالوا : لا يبقى من درنه شيءٌ ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا) خرَّجه الترمذی من حديث أبي هريرة ، وقال فيه : حديث حسن صحيح .

ولما كان أمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالصلاة منتظماً لأمر الأمة بها علل بقوله : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) : كأنه قيل : وصلُّ بهم لأن الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، أي : أنها سبب للانتهاء عنهما ، وذلك لتضمنها صنوف العبادة . والوقوف بين يدي الله في غاية الخضوع والتعظيم . كأنها تقول لمن يأتي بها : لا تفعل الفحشاء والمنكر ولا تعص رباً هو أهل لما أتيت به من مناجاة له ، وإقبال عليه . وكيف يليق بك أن تفعل ذلك وتعصيه - عز وجل - بما تكون به كالمتناقض في أفعاله . ١ هـ : بتصرف من الآلوسی .

ولا شك أن المصلي الصادق في مناجاته ينتهي بصلاته عن المعاصي صغيرها وكبيرها ، وينعم برعاية الله ويفوز برضاه حيث خشع لها قلبه . ورغبت فيها نفسه ، وظهرت على جوارحه هيبتها ، حتى إذا قاربه الفتور أظلمته صلاة أخرى يترجع فيها إلى أفضل حاله .

وإذا كنا نرى كثيراً من المرتكبين للفحشاء والمنكر يصلون ولا ينتهون عن ذلك فهذا ليس ناشئاً عن الصلاة ، بل عن غفلة المصلي عن حقوق الصلاة ، فمن كانت صلاته دائرة حول الأجزاء لا خشوع فيها ولا تفكُّر ولا فضائل ، فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان . فإن كان في طريقه معاص تبعده من الله - تعالى - تركته يتماهى في بعده ، بمعنى أنها لا تقربه

إلى الله ، حيث لم تنهه عنها ، وعلى هذا يخرج الحديث المروى عن ابن مسعود وابن عباس وهو : « في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله - تعالى - فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ، ولم تنهه عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً » .

وقيل لابن مسعود : إن فلاناً كثير الصلاة ، فقال : (إنها لا تنفع إلا من أطاعها ، وطاعة الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وكأنه أراد بالصلاة التي تطاع وتنهى عن ذلك الصلاة الخاشعة المقبولة ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عمران بن حصين قال : سئل النبي ﷺ عن قول الله - تعالى - : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) قال : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » بمعنى : أنها لم تؤت ثمرتها ، كما في الصلاة التي تؤدى مع الغفلة التامة ، والإخلال بما يليق بها ، وهذه الصلاة تُلَفُّ كما يُلَفُّ الثوب الخلق ويُرَى بها وجه صاحبها فتقول له : ضيعك الله كما ضيعتني ، كما جاء في السنة .

وبالجملة ، فإن الصلاة تنهى من واظب عليها ، وأقبل بقلبه فيها على ربه ، فإنها تنتهى بصاحبها إلى صلاح الحال وحسن المال ، ويشير إلى هذا ما أخرج أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلاناً يصلى بالليل ، فإذا أصبح سرق ، قال : « سينهاه ما تقول » .

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) : أى والصلاة أكبر من سائر الطاعات في أثرها وثمرتها ، لأن ما فيها من ذكر الله هو العمدة في الأمر بالحسنات والنهي عن السيئات ، ويشير إلى ذلك قوله - تعالى - : « فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » بمعنى : امشوا إلى الخطبة والصلاة .

وقيل : ولذكر العبد الله - تعالى - أكبر من سائر أعماله ، فهو تعميم بعد تخصيص .

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي الدرداء قال : ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها

إلى مليكتكم ، وأسماها في درجاتكم ، وخير من أن تغزوا عدوكم فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم ، وخير من إعطاء الدنانير والدراهم ؟ قالوا : وما هو يا أبا الدرداء ؟ قال : ذكره - تعالى - وروى عن جماعة من السلف ما يقتضيه ، أخرجه أحمد في الزهد ، وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال : ما عمل ابن آدم عملاً أنجى له من عذاب الله - تعالى - من ذكره - تعالى - قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا أن يضرب بسيفه حتى يتقطع ، لأن الله - تعالى - يقول : (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) ، وقال أبو حيان : (يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) من الخير والشر ، فيجازيكم بحسبه ، ففيه وعد ووعيد ، وحث على مراقبة الله - جل وعلا - .